عدد ممتاز

جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨

العربي

قطر.. والصناعة الواعدة

- مالطة.. لسان عربي وقلب أوروبي
- «الكمبيوتر» وعصر جديد للغة العربية

البيريليوم معدن العصر

- هدية العدد:

أهم الإنجازات العلمية في القرن العشرين

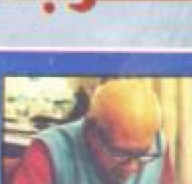

«العربي» في متحف بيكاسو بباريس

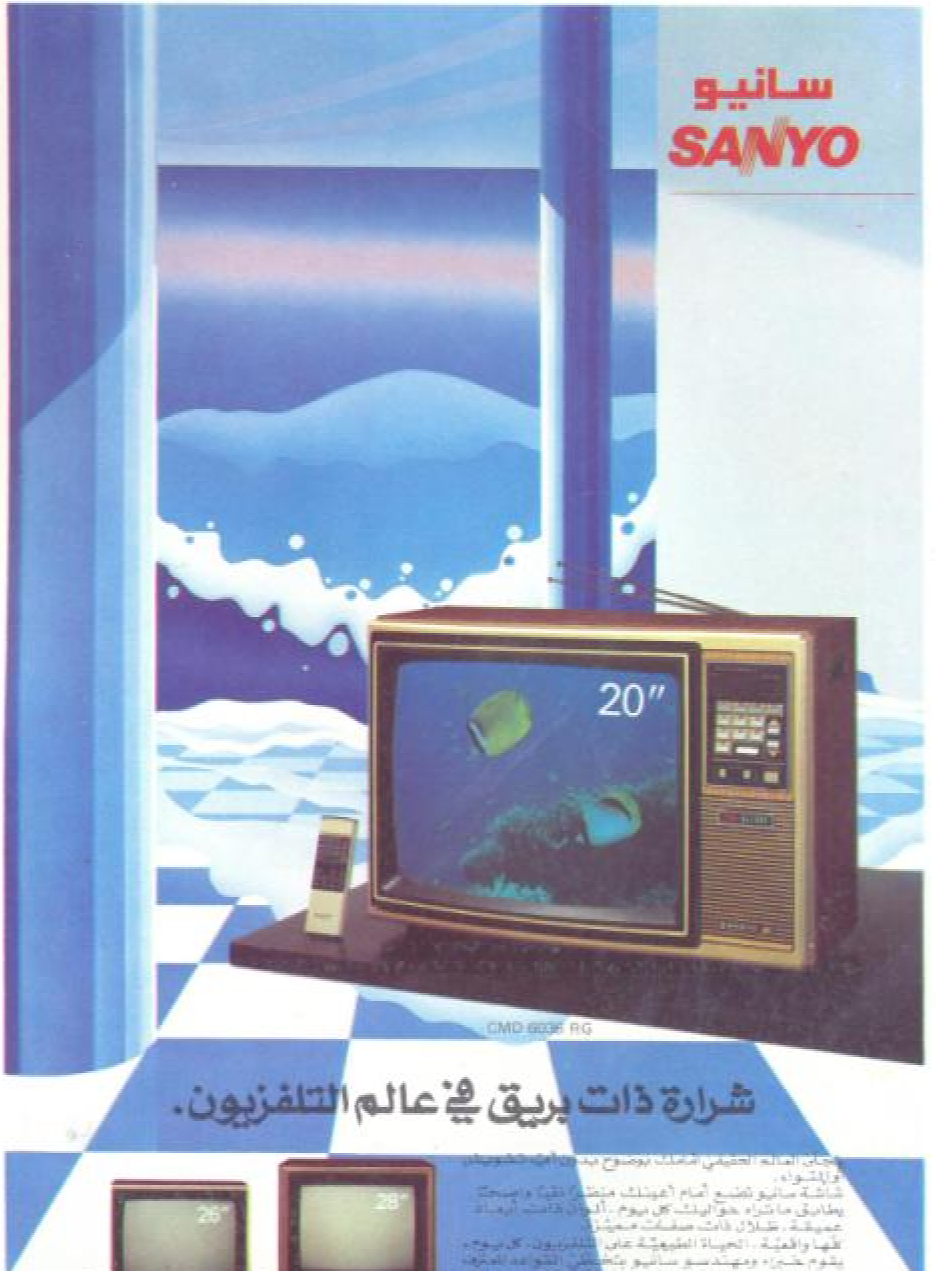
سانيو
SANYO
20"
شرارة ذات بريق في عالم التلفزيون.
26"
28"
SANYO Electric Trading Co., Ltd.

العـدد ٣٥٠ السنة الحادية والثلاثون يناير ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً "العربي" الكويت - تلكس MITR.4404IKT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL. - ARABI
Issue No. 350-Jan. 1988 - P. O. Box : 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الادارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الاعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : سنوات اعادة النظر
- د . محمد الرميحي ٨
■ مستقبل الاقتصاد العالمي .. هل يعود الكساد الكبير مرة أخرى ؟
- د . رمزي زكي ٢٣
■ أرقام : رسائل القرن الواحد والعشرين
- محمود المراغي ٧٨

عروبة وإسلام :

■ المسلمون وعبور الفجوة
- د . أحمد كمال أبو المجد ١٨
■ البيان في أسباب نزول القرآن
- حسين أحمد أمين ٢٨
■ للمناقشة : التمذهب والتعصب والتخلف !
- فهمي هويدي ٩٠

استطلاعات مصورة :

■ مالطة : لسان عربي وقلب أوروبي !
- صلاح حزين ٣٦
■ أم سعيد مدينة الصناعة الواعدة في قطر
- صادق بلي ١٠٠
■ عصر جديد للغة العربية . القرآن الكريم على شاشة كمبيوتر
- محمود عبد الوهاب ١٢٠

طب وعلوم :

■ « الكمبيوتر » والحاجة الماسة إلى نحو عربي جديد !
- د . نبيل علي ٣٠
■ البيريليوم معدن العصر
- د . محمد أبو بكر ٥٨
■ اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي
- د . أنس فهمي ١٣٨
■ الجديد في العلم والطب
- إعداد : يوسف زعبلاوي ١٥٩
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٦٢

أدب وفنون :

■ مدينة عربية (قصيدة)
- د . عبده بدوي ١٧
■ الطواسين (قصيدة)
- خالد سعود الزيد ٦٤
■ قراءة نقدية في كتاب « قليل من الحب وكثير من العنف » ..
- أبو المعاطي أبو النجا ٧٢
■ طرائف في السرقات الشعرية
- د . وديعة طه النجم ٨٠
■ خصومة أدبية فريدة !
- عبدالرزاق البصير ٩٥
■ ربيع بارد (قصة مترجمة)
- د . محمد برادة ١١٥

زيارة لمتحف بيكاسو ١٦٤

■ تشيكوف والمسرح : أربعون عاما من الفشل والنجاح
ـ عز الدين وهدان ١٤٢

■ زيارة لمتحف بيكاسو في باريس
ـ أحمد داود ١٦٤

■ في الظل والظلام (قصة)
ـ ابراهيم قنديل ١٨٢

■ تجليات المصادفة (قصيدة)
ـ شوقي بغدادي ٢٠٨

جمال العربية :

■ صفحة لغة : التنازع في العمل باب في النحو ينبغي حذفه
ـ محمد خليفة التونسي ٢١٠

■ صفحة شعر : هكذا غنى الآباء : حبل التمني لميخائيل نعيمة ٢١٢

منتدى العربي :

■ قضية : من الاستشراق الغربي الى الاستغراب الشرقي
ـ د . طيب تيزيني ١٤٧

■ تعقيب على مقال : هل كان الرجل المريض مريضا ؟
ـ قسطنطين خمار ١٥٢

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ وجها لوجه : د . يس عبدالغفار
ـ نجاح عمر ٦٥

■ الحروب الصليبية ضد المغرب العربي
ـ عبدالكريم غلاب ١٣٢

وجها لوجه
د . يس عبدالغفار ٦٥

تشيكوف والمسرح ١٤٢

المراسلات باسم رئيس التحرير والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر . والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء

■ العلاقة بين البيئة والإنسان في كتب التراث
ـ د . محمد علي الفرا ١٧٧
■ ماذا وراء صرعة « هاري كريشنا » ؟
ـ رجاء أبو غزالة ١٨٦

تربية وعلم نفس :

■ رحلة استكشافية : التنويم المغناطيسي في الطب النفسي
ـ د . محمد المخزنجي ٨٤

اجتمـــاع :

■ الجوانب الاجتماعية للمعرفة العلمية
ـ د . إدريس سالم الحسن ١٥٤

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : « الكساد الكبير عام ١٩٩٠م »
ـ د . عبدالإله أبو عياش ٢١٥
■ من المكتبة العربية : ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي
ـ جمال وردة ٢٢٠
■ مكتبة (مختارات) ٢٢٦

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ أقـــوال ١٦
■ الكلمات المتقاطعة ٢١٤
■ مسابقة العربي الثقافية ٢٢٨
■ حل مسابقة العدد (٣٤٧) ٢٣٠
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٣٢
■ حـوار القـراء ٢٣٤

صـورة الغـلاف

العربي تأخذك هذه المرة إلى مالطة ، تلك البلاد التي أخذت لسان العرب ، لكنها بقيت أوروبية القلب

(طالع ص ٣٦)

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

■ التعبير عن الغضب بين الزوجين
ـ راجي عنايت ١٩٤
■ الحياة في الخريف ١٩٩
■ هو . هي ٢٠٢
■ طبيب الأسرة : قضايا منزلية : صيدلية المنزل أم خزانة إسعاف ؟
ـ د . حسن فريد أبو غزالة ٢٠٤
■ مساحة ود : وهم ٢٠٧

عزيزي القارئ

هذا عدد جديد نفتتح به سنة جديدة لمجلة « العربي » في مسيرتها الطويلة المثمرة مع الثقافة . وتتزاحم الموضوعات التي يمكن أن نتحدث فيها معك عزيزي القاريء ، وعلى رأسها رسالة كريمة من أخ عربي كريم ، هو بجانب موقعه العسكري والسياسي رجل مثقف . هذه الرسالة من العماد مصطفى طلاس الذي يحمل على كاهله مجموعة من المسئوليات الكبيرة في القطر العربي السوري ، لكنه خاطبنا هذه المرة بصفته إنسانا عربيا مثقفا متابعاً . فقال في رسالة وصلتنا أخيرا : « بعد الاطلاع على العدد ٣٤٨ نوفمبر ١٩٨٧ يرجى إبلاغ الباحث العربي ضرورة قدومه إلى دمشق ، لمراجعة مركز الأبحاث العلمية من أجل تبني اختراعه وإخراجه إلى حيز التنفيذ ، متمنيا لمجلتكم الرائدة (العربي) التقدم والازدهار ، لتبقى منارا يشع بجوهر الحقيقة والمعرفة . وكنا قد تعرضنا في العدد المشار إليه لقضية علمية هي اختراع عربي ، طاف به صاحبه فلم يجد الباب المفتوح لتبني اختراعه .

وهكذا على صفحات «العربي» يلتقي العالم العربي بمصر مع رجل السياسة والسيف والثقافة بسوريا ، مع القارىء في اليمن ، والأديب في المغرب ، وبكل مهتم بالثقافة على هذه الأرض العربية الطيبة المعطاء ، وحسب «العربي» أن تلعب هذا الدور .

وفي سنتنا الجديدة نقدم للقاريء مجموعة من المبادرات الثقافية ، فقد بدأنا اعتباراً من هذا العدد باباً للنقد الموضوعي ، من أجل الاسهام والبناء في تطوير الحياة الثقافية والفكرية في وطننا العربي ، والباب مفتوح كي يساهم فيه من يرغب من القادرين على المساهمة . وفاتحة هذا الباب نقد كتبه زميلنا أبو المعاطي أبو النجا .

ولقد أثمر التفكير والتخطيط والاعداد كي تبدأ بهذا العدد مسيرة تطوير « العربي » على أسس راسخة ، ولن نحدثك طويلا في هذا الموضوع ، لأن العدد الذي بين يديك يتحدث عن نفسه ، وإلى اللقاء .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

سنوات إعادة النظر

عندما نرحب بمقدم عام جديد هو ١٩٨٨ الذي أطل علينا ، فمثلنا مثل ملايين البشر الذين يستوقفهم الانتقال الزماني كي يقفوا لحظة ويطمحوا أن تحقق الأيام والشهور القادمة وضعا أفضل للإنسانية . ولكن شيمة التفكير العلمي الصحيح تختلف عن التكهن والتوقع غير المحسوب ، التفكير العلمي يدعونا ـ إن أردنا استشراف المستقبل ـ أن ننظر إلى الماضي فنعي دروسه ونفسر نتائجه . ومن أبرز الأحداث العالمية في السنة المنصرمة ـ والتي من المحتمل أن تؤثر تأثيرا كبيرا على أحداث السنة الجديدة وما يليها ـ هو الانهيار في سوق البورصات العالمية الذي وصل إلى إحدى قممه يوم الاثنين التاسع عشر من اكتوبر

الماضي ، والذي سمي (بيوم الاثنين الأسود) ، فعندما جلس مالكو الأسهم الأمريكيون ذلك المساء للعشاء كانوا أفقر بمقدار (٥٠٠) خمسمائة مليون دولار ، عما كانوا عليه عندما تناولوا إفطارهم ، لكن الأسهم الأمريكية كانت قد خسرت بمرور عام من ذلك التاريخ ما يقدره الخبراء بـ (ترليون) دولار !

وقد سمع صدى هذه الخسارة بسرعة في البورصات العالمية ، من لندن إلى هونج كونج ، وأثرت في قطاعات واسعة من الناس ، بأشكال وسحن ومذاهب مختلفة في أقطار شتى من العالم .

وتذكر العالم ما حدث قبل حوالي ستين عاما ، عندما بدأ الانهيار الكبير في عام ١٩٢٩ حيث كانت بدايته في (وول ستريت) شارع المال في نيويورك ، وما لبث أن انسحب أيضا على العالم في شكل انكماش ضخم ، ولم تكد تمضي عشر سنوات بعد ذلك حتى دخلت البشرية في حرب طاحنة .

لذلك فإن انهيار أسعار الأسهم الذي تفاقم في الربع الأخير من العام الماضي ، بالنسبة للكثيرين يعتبر مؤشرا أهم من خسارة بضعة بليارات من الدولارات . إنه ليس خسارة مالية فقط ، بل إنه انذار بأن النظام الرأسمالي ـ كما عرفناه ـ يكاد ينهار برمته . وفي ظروف العالم

■ اكتشف الصينيون أن النظام الرأسمالي متقلب سريع الزوال ، فدفنوه وأهالوا عليه التراب !

السياسية والعسكرية المحيطة بنا ، ربما لن يلجأ العالم إلى حرب عالمية كما سبق أن فعل . حيث ستكون تلك الحرب ـ إن وقعت ـ باهظة التكاليف إنسانيا ، إلا أن الحلول والمخارج الأخرى المطروحة قد تعنينا مباشرة ، في العالم الثالث ، حيث مناطق الانفجار والتفجير متعددة ، كما قد تعنينا نحن في الوطن العربي ، حيث الثروة المعدنية والموقع الجغرافي . فأسباب التأزم هناك في النظام الرأسمالي والمجتمعات التي تأخذ به ، لكن نتائج هذا التأزم قد تؤثر علينا .

النظام الرأسمالي هل سيبقى ؟

□ قد يكون السؤال السابق في صيغته المطروحة استفزازيا لبعضهم ، لكن هذا السؤال بصياغات مختلفة ، قد بدأ يطرح في الغرب ، ربما ليس من أجل البحث عن بديل ، بل من أجل الإصلاح والتطوير ، لكنه كسؤال قد بدأ طرحه .

هناك وجهات نظر قوية ، يدافع عنها مفكرون لهم مكانتهم في مجتمعاتهم تقول بقرب نهاية النظام الرأسمالي . فها هو مثلا (لويس لافام) رئيس تحرير المجلة الأمريكية واسعة الانتشار (هاربر Harper) ، يقول : (إن النظام الرأسمالي لن يبقى مخلدا ، إنه في نظري مجرد نظام له ميكانيكيته الخاصة به ، لقد اكتشفه الصينيون في القرن الحادي عشر ، وقرروا أنه نظام خطر ، متقلب ، سريع الزوال ، لذا عمدوا إلى دفنه في باطن الأرض وأهالوا عليه التراب . . .) .

وبعضهم يرى أن هذا النظام (الرأسمالي) بصياغاته المتعددة ، قد فشل الآن في تحقيق أهم أهدافه المعلنة ، وهي الاستقرار ، أما تفاصيل أشكال الفشل فهي كثيرة . كما أن آخرين يعتقدون أن فشل النظام الرأسمالي ، هو مكون رئيسي في داخل هذا النظام نفسه ، فالجري اللاأخلاقي وراء الأرباح سيعمل في النهاية على إفساد المجتمع وتخريبه ، فكسب الربح فقط يؤدي إلى إنتاج سلع ضارة ، وتسويقها على المستوى المجتمعي الضيق ، أو على المستوى الدولي ، كما انه يؤدي أيضا إلى ممارسات لا إنسانية .

وقائع الأحداث في السنوات القليلة الأخيرة تشير إلى أنه حتى النظام الرأسمالي المقنن ، الذي ظهر وتطور فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، قد بدأ الابتعاد عنه منذ السبعينيات ، وكان هذا الابتعاد تحت تصور مفاده أن ذاك النظام المقنن من حيث تنظيم العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، وتحديد مستويات عادلة للأجور وضمانات صحية واجتماعية كثيرة ، إن كل ذلك من أسباب الأزمة التي ظهرت في

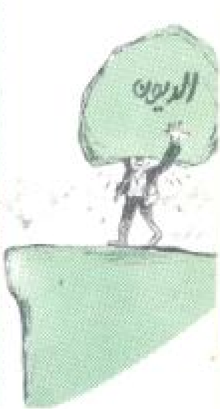

هنالك انفصام في النظام الرأسمالي بين النظرية وبين التطبيق

السبعينات ، لذلك لابد من العودة - في نظرهم - إلى مثالية النظام الرأسمالي في سنواته الأولى ، أي إطلاق قوى السوق كي تنظم المجتمع ، وهي من ضمن أمور أخرى حرية العمل ، وعدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، أو كما قال ملتون فردمان ، أحد المنظرين الرئيسيين لهذا التوجه (إن العمل الوحيد للرأسمالي الكفء ، هو زيادة الأرباح إلى حدها الأقصى ضمن حدود القانون الذي سنته السلطات التشريعية) .

بين التاتشرية والريجانية

□ المشكلة أن هذا التوجه النظري وجد من السياسيين - في بحثهم عن حلول سريعة - من يأخذ به حرفيا ، فكانت ظاهرة (التاتشرية) نسبة إلى السيدة مارجريت تاتشر في بريطانيا ، والريجانية ، أو ما سميت في وقت لاحق (بالريجونومي Regonomy) أي السياسة الاقتصادية الخاصة بالرئيس رونالد ريجان في الولايات المتحدة .

هذه السياسة وفرت القوانين الشرعية التي يطالب بها « ملتون فردمان » ومؤيدوه ، وفي إطار من المحافظة الشديدة توجه الاقتصاد الرأسمالي في أوروبا والولايات المتحدة إلى تلك الأهداف ، وهي إطلاق

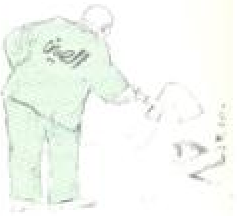

قوى السوق العمياء ، فكان محركها الرئيسي هو الجشع ، الذي أنتج الانهيار .

« جون كنيث جالبرت » أحد المعلقين المشهورين كتب في جريدة (صنداي تايمز) اللندنية يعلق هازئا على ما سماه « مبدأ ريجان - تاتشر » الاقتصادي ، يقول إن هذا المبدأ يمكن تلخيصه في الآتي : (أن الأغنياء لم يعملوا لقلة ما لديهم من مال ، وأن الفقراء لم يعملوا لأن لديهم مالا كثيرا !)

مفارقة عجيبة لكنها تلخيص قد يكون حقيقيا للتطورات التي حدثت بعد ذلك .

وحتى تتحقق الأفكار الاقتصادية الجديدة قلصت الحكومات الرأسمالية في أوروبا والولايات المتحدة تدخلها في الشؤون الاقتصادية ، تاركة كل ذلك للقطاع الخاص وقوى السوق . وبيعت - خاصة في بريطانيا - المشروعات الحكومية الناجحة ، وكل ذلك قد نشط الاقتصاد بعض الوقت ، إلا أن هذا التنشيط كان مؤقتا ، فقد وصفه أحد الاقتصاديين البريطانيين - بالنسبة للسيدة تاتشر على الأقل - بأن مثلها مثل من باع فضيات العائلة - إشارة إلى بيعها لأكبر الشركات

■ مبدأ ريجان - تاتشر الاقتصادي يقول إن الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا

الحكومية نجاحا - والمعنى واضح ، وهو أن الأموال التي دخلت من (فضيات العائلة) هي أموال مؤقتة غير دائمة .

إن التطبيق الكاسح لما عرف (بالنظرية النقدية) - مدرسة « ملتون فردمان » ، ومدرسة شيكاغو الاقتصادية ، في محاولة لإصلاح عيوب النظام الرأسمالي - قد أدى إلى ظهور عيوب جديدة وعميقة ، فقد أصبح العالم - كل العالم - يعاني من مشكلة العجز الهائل في ميزانية الولايات المتحدة ، وأصبح واضحا أن هناك انفصاما بين النظرية وبين الواقع ، مهما حاول السياسيون أن يطوعوا ذاك الواقع كي يتلاءم مع معتقداتهم أو رغباتهم السياسية .

لقد تفاقم العجز المالي في الميزانية الأمريكية بسرعة في سنوات رونالد ريجان ، فكما وصفه أحد المعلقين الاقتصاديين بعد الانهيار في أكتوبر الماضي بقوله : (لقد أخذ **٣٩** رئيسا للولايات المتحدة و **٩٦** مجلس نواب مائتي سنة لإكمال أول ترليون دولار من الدين الاتحادي ، ولقد أخذ الرئيس الأربعون (رونالد ريجان) أربع سنوات فقط ليضاعف هذا الدين !)

وفي اقتصاد أصبح عالميا أكثر بكثير مما كان في العشرينيات ، فإن الاضطراب في أي جزء فيه يسبب اضطرابا في أجزاء أخرى ، فالاقتصاد بمعنى الكلمة اليوم (عالمي) ، ونتائج هذا الاضطراب يمكن أن تكون عالمية بشكل أخطر مما كان عليه في سنة **١٩٢٩** .

العودة الى الأصول

□ الفكر الرأسمالي الذي ساد منذ فترة حاول أثناء التطبيق تعديل مساره نتيجة للأزمات التي مر بها ، إلا أن القضية في نظري أبعد من ذلك قليلا ، فهي ليست مقصورة على المدخل الاقتصادي البحت ، وإن نظرنا إليها كذلك فإن تلك النظرة ـ على الأقل ـ قاصرة !

بعض الغلاة يذهب حتى إلى القول بأنه لا يوجد « علم » اقتصاد أو « علم » سياسة ، بعيدا عن واقع المجتمع وتفاعلاته ، وأحسب أن الخبرة السابقة في السنوات القليلة الماضية قد أثبتت جزئيا هذه المقولة ، فهناك (نظام اقتصادي اجتماعي سياسي) متكامل يجب النظر إليه وتحليله ، لا اقتصاد فقط أو سياسة فقط . . . الخ . وفي العزل القسري لمكونات المجتمع التي هي واحدة في الواقع ، إضرار بالفهم الصحيح للمشكلة الهيكلية .

وفي الماضي غير البعيد كان (النظام الاقتصادي ، الاجتماعي ، السياسي) الذي يعيش الناس في ظله يؤخذ على أنه أمر واقع لا خيار للناس فيه ولا سبيل إلى مناقشته ، وكان بين الناس الذين يعيشون ذاك الزمان والذين كان مصدر دخلهم في الغالب هو استغلال الأرض ، أناس فقراء وآخرون مرضى أو مضطهدون ، وبالتالي كانت هناك فئات من الناس الذين لم يكونوا يشعرون بالسعادة ، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يرجعون السبب في شقائهم ، إما لأشياء ملموسة أو لأمور حدثت بالصدفة ، لسوء الحظ أو سوء الصحة أو صدفة المولد ، أو مكائد الأعداء ، وقد يردونها إلى أسباب بعيدة عن الإدراك الحسي كأن يرجعوا السبب إلى الطبيعة البشرية أو القدر ، أما فكرة وجود خلل في النظام الاجتماعي ، وكون هذا الخلل هو أحد الأسباب المهمة لهذا الشقاء والتعاسة البشرية ، فلم تظهر إلى الوجود إلا في العصور المتأخرة . من هنا بدأ البحث لتحديد طرق وإمكانيات رفع الظلم والاستغلال وعلاج الفقر والفاقة ، وظهرت نظريات عديدة لشرح مسيرة البشرية وتفسيرها وتوقع ما سيحدث فيها . هذه النظريات اعتمدت على فكرة رئيسية هي أن الفقر والظلم والفاقة من صنع الإنسان ، وان الخلل الاجتماعي

المشاهد ما هو إلا نتاج لقرارات وتصرفات بعض البشر ، والأنظمة التي يختارونها لتسيير حياتهم .

لذلك جاءت الكتابات الكثيرة في شرح عيوب النظام الرأسمالي الذي يحل (الأرباح) محل كل القيم الإنسانية ، ويعتبر أن (الثروة) هي أحسن ما في الوجود ، لأن الإنسان يمكن أن يحصل على كل شيء بواسطتها ، ويتجه الناس في هذا النظام للبحث عما يغنيهم لا ما يرضيهم .

في إطار هذه الفلسفة تصاعدت الأزمات في المجتمعات الرأسمالية وفي مجتمعات العالم الثالث التي سقطت تحت وطأة الديون ، وبيع إنتاجها بأبخس الأثمان .

الأعــوام القــادمــة

□ في عالم كهذا لا يوجد مع الأسف أي أمل للتفاؤ ل ، وفي واقعنا العربي ننظر إلى العام الجديد بخيفة ووجل ، فهناك حرب ضارية في الخليج تمول آلاتها الحربية (٢٧) سبع وعشرون دولة ، منها (١٩) دولة تمول الطرفين المتحاربين بآلات الدمار ، وهناك انخفاض في الأسعار الحقيقية للصادرات ، سواء أكانت نفطا أم غيره ، وهناك مشكلات اقتصادية وديون خارجية يئن تحت وطأتها كثير من العرب ، كل ذلك إلى جانب فشل كبير في الكثير من خطط التنمية . وفي الوقت نفسه تتأرجح كثير من الأقطار العربية بين (انفتاح) اقتصادي على أسوأ أشكال الرأسمالية تطبيقا أو (انغلاق) غير مصاحب بتنمية مصادر حقيقية للثروة .

هذا الواقع يشكل حالة ذهنية خطيرة تعمل على تقويض الأمن العالمي وإثارة الفوضى في أرجاء المعمورة .

هل كنت متشائما أكثر من اللازم في الترحيب بالسنة الجديدة ؟

أرجو الا أكون كذلك ، ولكن كل ما حولنا لا يدعو إلى أي تفاؤ ل . □

محمد الرميحي

ماذا يحدث في المجتمع عندما يتجه الناس إلى البحث عما يغنيهم لا ما يُرضيهم

أقوال

■ لقد مضى على نكبة فلسطين أربعون سنة دون حل عادل ودائم ، ومازالت تتعثر وتتأرجح وتستصرخ الضمير العالمي والمجتمع الدولي ، ممثلا في هيئة الأمم المتحدة ولجنة إعلان حقوق الانسان ، بيد أنها رغم عدالتها لم تلق إلى اليوم ما تستحقه من اهتمام ، وكل ما هنالك قرارات بدون تنفيذ لاتسمن ولاتغني من جوع .

جابر الأحمد

أمير دولة الكويت

■ لا يهم أن يكون القط أسود أو أبيض ، فالمهم أن يصطاد الفئران .

الزعيم الصيني دينغ هسياو بينغ

■ كانت الأمور تساس من قبل حسب مقولة : « كل شيء محرم ماعدا المرخص به بصورة مباشرة » .

أما اليوم فلابد أن يطبق مبدأ مغاير تماما هو : « كل شيء مرخص به ماعدا المحرم بصورة مباشرة » .

غيورغي افاناسييف

صحافي في وكالة نوفوستي السوفيتية

■ وظيفة الأديب هي المشاغبة حتى تبقى الذاكرة يقظة .

الطاهر بن جلون

أديب مغربي

■ إذا مات الممثل على خشبة المسرح ، فعلينا ايجاد البديل عنه في الحال ، كي لا يسدل الستار !

مثل انكليزي

■ إن مسرحا مضيئا خير من آخر مظلم .

ألفريد فرج

■ إن المسرح المضيء خير من المسرح المظلم ، شرط أن يكون هذا الموقف مجرد مرحلة مؤقتة ، يتم بعدها إضاءة الخشبة كي تضيء روح الانسان وعقله معا .

د . علي الراعي

مدينة عربية

شعر : الدكتور عبده بدوي

أحببتها .. وعشقتُ منها ليلها   وجربتُ أتبعُ بالصبابةِ ظلها
لا بسمةً في الرَّوضِ الا جنتُها   وأخذتُ منها للجميلة دلّها
لا نجمةً عربانةً مزهوة   إلا أخذتُ بلهفتي صورا لها
لا درةً في الكون إلا جنتها   لأشدَّ للعُنق الجميل أجلَّها
ولقد رووا أني عشقت زهورها   والخالَ يُظهر للشفاه تَولّها
وصباحَها الشادي على أمسيةٍ   والوردَ يرقب في انبهار نخلها
وقبابَها الخضراء .. يا لقبابها   وقفتْ تدير السحب .. تسحب ذيلها

• • •

أنا في حياتي مولعٌ بمدينة   سأظل أعشق في الظهيرة ظُلّها
بل نرجساً متوحشا ، بل طائراً   متماوجا رسم الرشاقة كلها
وشقيقةَ النعمان .. يسمُ ثغرُها   بعد الحكايات الحسان ، وقبلها
واذا رووا عنها يُرفرف خافقي   ويظلُّ يضربُ بالمودة حولها

• • •

لكنني في الصبح حين ضممتُها   عبست قليلا ، ثم أبدت جهلها
قالت : ترى من أنت ؟ ـ وهي حبيبي وأنا أمارس بعد صعب سهلها
لما شكوت لصاحبي في حيرة   ما كان أكثرها لنا وأقلها
أهوى وقال : لعلها معذورة   من أجل رقبتها فقلت لعلّها !

المسلمون..

وعبور الفجوة..

بقلم : الدكتور احمد كمال ابو المجد

مهما تحدث المتحدثون عن عظمة الاسلام وخلود رسالته وكمال شريعته ،
ومهما شهد المنصفون من المؤرخين
بما كان لنا - نحن المسلمين - من فضل على الدنيا في عصور ماضية ..
فإن غبار الجدل الساخن الذي يثور حول تلك القضايا كلها
لا يلبث أن ينجلي عن واقع مرير لا سبيل الى انكاره
فما هو حال المسلمين حسب وجهة نظر الكاتب ؟

ان المسلمين - وبينهم العرب - يقفون اليوم في مأزق تاريخي ، يتمثل في المفارقة الهائلة بين شعاراتهم المرفوعة ، ومبادئهم المعلنة ، وتاريخهم الحافل بصور العطاء الحضاري .. وبين حاضرهم الذي ينطق بتراجعهم عن مواقع الريادة ، وتوقفهم عن مواصلة العطاء في أخطر ميادين العلم والثقافة ، واعتمادهم على غيرهم في أكثر ما يحتاجون إليه في معاشهم وأبنية مجتمعهم .. ودخولهم تبعا لذلك مجتمعين ومتفرقين في دوائر النفوذ السياسي والاقتصادي لدول كبرى تحرص على استدامة تبعيتهم لها ، كما تحرص على اتساع الفجوة التي تفصل بينهم وبينها .. هذه الفجوة هي التي تباعد في حسابات أهل هذا الزمان ومؤرخيه وباحثيه بين عالم متقدم يملك أدوات النمو الاقتصادي والاجتماعي ويستخدمها لتحقيق المزيد ، ويعيش الناس فيه في ظلال وارفة من ثمرات هذا النمو .. وعالم نام أو متخلف ، قعد به أهله أو قعدت بهم ظروفهم عن حيازة تلك الأدوات ، فأحاطت به المشاكل وتوقفت أو تثاقلت خطاه في استخدام ما يملكه من أدوات النمو .. وتخلفت صورة الحياة على أرضه عن ملاحقة القفزات التي حققتها شعوب العالم المتقدم .

ومع اتساع الفجوة بين العالمين ، انتقل زمام القدرة على التأثير والتحكم في مصائر العلاقة بين الشعوب لتستقر في أيدي الدول الكبرى المتقدمة .. وأحاط العجز والضعف بالشعوب اللاهثة وراء اللحاق ، وصار بعض الباحثين عن صورة مستقبل الحياة على هذا الكوكب يتحدثون عن تقسيم جديد ، تتراجع فيه الشعوب النامية إلى حيث ينحصر دورها في خدمة الشعوب المتقدمة ، دون أن يكون لها إسهام في بناء الحضارة الجديدة أو حق في المطالبة بمكان .. أي

مكان !! على خريطة القوى الفعالة التي تتقاسم بينها ثمرات التقدم وتحتكر التنعم بآثار الجهد المبذول في بناء تلك الحضارة .

صورة المستقبل

والسؤال الكبير المعلق اليوم فوق رؤوس كل المسلمين وكل العرب هو سؤال واحد ؟

هل الى عبور هذه الفجوة من سبيل ؟؟

وهل لنا ـ نحن المسلمين والعرب ـ مكان على خريطة المستقبل يصنع نسيجها من خيوط الحاضر الذي نعيش فيه ؟؟

إن الحديث عن المستقبل لا يمكن أن يعتمد على الخيال وحده ، وإلا كان ضربا من ضروب الأحلام والأوهام .. ولكنه ـ مع ذلك ـ يحتاج ، مع التخطيط العلمي القائم على الرصد والتحليل والاحصاء ، إلى شيء من هذا الخيال .. إذ هو ـ في جوهره ـ استشراف لصور بديلة متعددة يتجه إليها الحاضر في ضوء حركة عناصر الحياة فيه ، وتفاعلها مع مئات المؤثرات التي تلتقي بها عناصر الواقع ، وهي تنتقل في الزمان من اليوم الى الغد ، أو من « الآن » الى ما بعد « الآن » . والاستشراف ـ في حقيقته ـ تخيل لصور لم تتحقق بعد ولكنها يمكن ان تولد وان تتحقق اذا توفرت لميلادها اركان وشروط .

فما هي صورة مستقبل المسلمين والعرب التي يمكن استخراج عناصرها من واقع العرب والمسلمين ؟ .

إن هذا الواقع يضم ـ وسط عناصره المتشابكة والمتداخلة ـ عددا من عناصر القوة التي تحتاج الى الاستخدام الصحيح لتصنع « البديل » المستقبلي المأمول .. وحسبي أن أصوغ بعض هذه العناصر في صورة أسئلة تكشف عما وقع من إهدار رهيب لفرص التقدم والنمو واللحاق بالآخرين .. وما هو مختزن ومتاح من فرص تصحيح المسار عن طريق التوجيه السليم لعناصر القوة المختزنة في واقع العرب والمسلمين .

أ ـ ترى كيف كان يمكن أن يكون الوضع الاقتصادي للوطن العربي والعالم الاسلامي لو أن الأقطار العربية والاسلامية انتبهت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ إلى أن استقلال إرادتها وتقدم شعوبها مرهونان باستقلالها الاقتصادي ، واعتمادها على نفسها ، بدلا من الدخول في المدارات الاقتصادية للدول الكبرى ، والاعتماد الهائل على إنتاج تلك الدول في الغذاء والكساء والدواء والسلاح ؟ .

الوحدة الاقتصادية

لقد ترددت منذ أواسط الاربعينات احاديث « الوحدة الاقتصادية العربية » ، وانشىء لها مجلس مخصوص تحت لواء الجامعة العربية ، ولكن الذين انشأوه بيمينهم سلبوه الحياة بشمالهم .. فتساقطت مشروعات التكامل الاقتصادي ، وتحولت السوق العربية المشتركة الى حلم يبتعد مع الايام ..

وتجددت في الثمانينات احاديث السوق الاسلامية المشتركة ، وما يزال حديثها أماني بعيدة يحلم بها ذوو النيات الحسنة دون ان يوفروا لها ادنى شروط الميلاد .. وبقي الوطن العربي والعالم الاسلامي شظايا سياسية واقتصادية لا تقوى واحدة منها على بناء قاعدة صلبة للتقدم ، او توفير الضمان الاقتصادي لاستقلالها السياسي ..

وحتى حين أطلت الفرصة التاريخية الهابطة من السماء ، والمتفجرة من باطن أرض العرب والمسلمين في صورة بحار النفط المستخرج والمخزون ..

تبددت تلك الفرصة أو كادت ، وتحول النفط الى طوفان من السلع الاستهلاكية الجاهزة التي تُشترى من الغرب ، وأكوام هائلة من السلاح المكدس المُشترى من الغرب والشرق معا ، والذي لا يكاد يستخدم ـ حين يستخدم ـ إلا في حروب أهلية وصراعات داخلية .. وأوشك عصر النفط أن ينقضي دون أن يبني العرب والمسلمون لأنفسهم في ظله حضارة متوطنة مستقرة ، أو بنية أساسية يمكن أن يقوم عليها هيكل اقتصادي قوي قادر على حماية الاستقلال السياسي والثقافي للأمة ..

الصحوة واستقلال الارادة

ب ـ ترى كيف كان يمكن أن تكون صورة العالم الاسلامي اليوم لو أن الطاقة الهائلة التي فجرتها موجة « الصحوة الاسلامية » توجهت وجهة سليمة وصالحة ؟ .. ماذا لو أن الدفعة الروحية الهائلة التي انطوت عليها بعض الحركات الاسلامية قد توجهت الى حيث كان ينبغي لها أن تتوجه .. ؟

لو ان ذلك كله توجه الى بناء مجتمع جديد شعاره « استقلال إرادة المسلمين .. وتعمير أرضهم ، والوقوف سدا منيعا في وجه محاولات المستكبرين الحقيقيين لتحويل الكيان الصهيوني إلى قوة ردع عظمى وسط أمة المسلمين والعرب ، تؤدب الذين يتجاسرون على الوقوف في وجه مصالح أولئك « المستكبرين » أو يحاولون وضع لبنة جديدة في بناء النهضة الاسلامية والعربية ؟

ج ـ ترى كم كان يختلف الحال ، وتكون صورة « الحاضر الاسلامي » لو أن جماعات الغضب الاسلامي ، كما نؤثر أن نسميها ، والتي تنتشر من أقصى المغرب الى أدنى المشرق ، قد وجهت رغبتها الهائلة في التغيير ، وغضبتها العارمة على أوضاع المسلمين ، وتمردها على التبعية الحضارية والنفسية لغير « منهج الله وشريعته » إلى وجهتهما الصحيحة ؟ .. فاشتغلت بالبناء والتعمير في صمت وهدوء ، بدلا من الاشتغال بالهدم والتكفير وسط ضجة هائلة وكلام كثير .. ماذا لو أخذت بأيدي المجهدين المكدودين من ملايين العرب والمسلمين .. بدلا من الأخذ بناصيتهم وإفراغ الجهد كله في اتهامهم وإدانتهم وإصدار الأحكام عليهم ؟ .. ماذا لو اقتربت من الناس .. ولم تعتزلهم وتبتعد عنهم ؟ .. ماذا لو قدمت الفعل على الكلمة .. والبحث عن حلول المشاكل القائمة بدلا من البحث عن عورات الناس وسقطاتهم والبحث عن مشاكل وهموم جديدة تضاف إلى همومهم ومشاكلهم ؟ .. ماذا لو استقام لها الحد الأدنى من إدراك أولويات الأمور وترتيب مهام الاصلاح والتغيير .. فأدركت أن منع الظلم ورفع المعاناة .. وتحريك عملية الانتاج .. والذود عن أرض العرب المسلمين ... أمور مقدمة كثيرا على قضايا النقاب والحجاب .. وإرسال اللحى وضبط أطوال الثياب ؟ .. ماذا لو خرج دعاة هذه الجماعات من إسار الواقع المحلي الضيق الذي يحبسون أنفسهم فيه .. إلى رحاب العالم الواسع الذي أتاح لهم العلم أن يجوسوا خلاله وأن يعرفوا ما يدور فيه وهم جلوس في أماكنهم .. وقبل أن يقوموا من مقامهم هذا ؟ .. ولو فعلوا ذلك لرأوا بعيونهم كيف يعمل الناس هناك ـ في غير بلاد المسلمين ـ وكيف تدور نحن حول أنفسنا متشاغلين بأفكار قديمة ، وصراعات قديمة ، وقضايا لم يعد لها في ميزان العقل أو الشرع مكانة ولا مكان .. ولرأوا كذلك عالما جديدا مليئا بالصراعات الهائلة بين قوى عملاقة ليس لنا بينها وليّ ولا صديق .. ولأدركوا هول الفجوة التي تفصل اليوم بين أمتنا الحائرة المتعثرة وبين شعوب أخرى حولنا تقفز على طريق النمو والتقدم قفزا ، ونحن شهود تتملكنا الدهشة ولا تزداد بها إلا حيرة وعجزا ..

الكبائر الأربع

هذه الفجوة سوف تتسع ولا تضيق ما دام جيلنا الحاضر مستسلما للكبائر الأربع التي مازال تأخذ بتلابيب العرب والمسلمين .

الكبيرة الأولى : تغييب العقل ، وتحجيم الفكر ، والفرار من الجهاد ، بالاجتهاد واصطناع عالم غريب يتقاذف فيه الناس بالنصوص ، ويحتمون بالسوابق ويفرون من مواجهة الواقع طلبا للسلامة من الفتنة ، وإيثارا للعافية في ظلال العزلة والانغلاق ..

ولقد أثمر تغييب العقل على هذا النحو ثمرتين خبيثتين :

أولاهما : نقص المعرفة ، وفساد منهج التفكير ، والعجز عن حيازة لغة العصر وآلة التقدم

والبحث ..

وثانيتها: انتشار الخرافة وسيطرتها على عقل ووجدان كثير من العرب والمسلمين .. ورفضهم - لذلك - التعامل مع نواميس الكون وقوانينه، واعتقاد كثير منهم أنهم يستطيعون أن يصلوا بغير جهد .. وأن يحققوا انتصاراتهم بغير عمل .. ما داموا يعلنون شعار الايمان، أو يرفعون المصاحف على أسنة الرماح، أو ينتظرون في شوق منقذ الأمة أو صاحب الزمان.

الكبيرة الثانية: قلة الاحتفاء بحرية الانسان، في أن يقول ما يعتقد، وأن يعتقد ما ارتآه واطمأن إليه، وأن يصان دمه وماله وعرضه على كل حال .. إن كثيرا من الناس والعلماء لا يزالون عاجزين عن إدراك حقيقة الصلة بين الحرية وبين العطاء الحضاري .. ويتصورون أن المقهور الذي تسلب إرادته وتنتقص حريته، ولا يصان عرضه ولا كرامته .. يمكن أن يبني ويعطي ويقيم حضارة شامخة سابقة .. إن استرداد المسلم المعاصر «لحريته» هو - فيما نرى - مفتاح السر الذي يفجر الطاقة، ويحرك الهمة، ويدفع الى الحركة والعمل ويفتح آفاق الابداع والاجادة في كل أمر .. أما الظلم والقهر فلا يولدان إلا مهانة وذلا .. وإحساسا بالعجز، وأداء سيئا منقوصا في صغائر الأمور وكبائرها.

الكبيرة الثالثة: إسقاط قيمة العمل والانتاج ..

فكم من ملايين العرب والمسلمين، بضاعتهم الكلام، وصناعتهم زخرف القول، تنقضي أيامهم ولياليهم وسنوات أعمارهم دون أن يعرفوا أن العمل عبادة حقيقية كتبها الله على عبادة وهتف بها الوحي على المؤمنين في قوله تعالى: «وقل اعملوا» ..

وينسى العرب والمسلمون أن للعمل أخلاقا وآدابا تدعو الى تكثيفه في حجمه، وتجويده في نوعه، وممارسة أقصى درجات الابداع والتجديد في أدائه .. ومن حق العرب والمسلمين أن تدمى قلوبهم إذا وجهوا أبصارهم نحو شعوب كشعب اليابان أو كوريا وغيرهما من الشعوب الآسيوية، إذن لرأوا خلايا كخلايا النحل .. لها طنين لا ينقطع بالليل ولا بالنهار .. ولرأوا ملايين البشر يتعبدون بالعمل كما يتعبد بعضنا بالكسل والبطالة .. ولآمنوا - حينئذ - بأن عدل الله هو الذي يقضي بين خلقه حين يرفع أقواما ويخفض آخرين .. لأنه يرفع الذين يتعاملون مع سنته ويعمرون الأرض التي استخلفهم فيها ويخفض الذين آتاهم آياته فانسلخوا منها، وقعدوا وعجزوا وغرتهم الأماني ..

الكبيرة الرابعة: فساد ذات البين ..

والحديث هنا عن ذات بين العرب جميعا،

والمسلمين جميعا .. والحديث فيه لا يحتاج الى إطالة .. فقد انكفأ العرب والمسلمون جميعا يتقاتلون ويتخاصمون ، ويستجيبون لكل صيحة تؤجج نار العداوة بينهم وتسخرهم عشرات من السنين لخدمة مصالح خصومهم ، وتغرقهم جميعا في طوفان الاحتراق الداخلي الذي لا يبقى بعده أمل في عمل مشترك .. او دفاع عن عدو مشترك .. إن فساد البين - في أيامنا هذه - قد تمثل في أمور محددة لعل من أهمها انحسار المد القومي داخل الأمة العربية ، وتعاظم تيار القطرية الضيقة التي حبس فيها أكثر العرب أنفسهم خلال العقدين الأخرين .. ومن أهمها كذلك هذا التنابز السخيف العقيم بين دعاة القومية ودعاة الجامعة الاسلامية .. كأنما هما نقيضان لا يجتمعان . ومنه تلك الفتن الطائفية والمذهبية التي تطل برأسها بين الحين والحين ، تغذيها الغفلة وضيق الأفق كما يغذيها تحريك المحركين وتحريض المحرضين ممن يمسكون بكثير من الخيوط التي تحرك العرب والمسلمين من خارج ديارهم ، وهم يظنون أنهم أصحاب الرأي والقرار في أمورهم .

الحشد للاصلاح

ونعود في نهاية هذه السطور .. فنقول ان المدخل لعبور الفجوة التي تفصل العرب المسلمين ... عن أصحاب التقدم المالكين للقوة ، والممسكين بزمام الحل والعقد في هذا الزمان .. يتمثل في تحول جماعات من صفوة المثقفين الى « فدائيين » مدنيين .. يحشدون للاصلاح طاقة روحية هائلة ثم لا يبددونها في قضايا مغلوطة .. وإصلاحات مختلة الأولويات . ولا يوجهون حرارتها إلى صدور إخوانهم من العرب والمسلمين ..

إن عناصر القوة وأدوات النهضة قائمة بيننا ، موزعة على أجزاء أمتنا من أبناء هذا الجيل ..

وكأنما هناك قوى شيطانية ذكية تقف لها بالمرصاد .. فكلما لاح أمامنا أفق الرشد والصلاح .. استدرجتنا تلك القوى الى حيث تتبدد طاقتنا ، وتطيش سهامنا .. وترد كلها إلى صدورنا .

فهل يرتفع بعض أولي الأمر وأولي الرأي فينا الى حيث يستطيعون التذكير بهذه الحقائق الكبرى .. وتجميع عناصر القوة فينا بعضها إلى بعض .. وصيانتها من الانحراف والانعطاف .. وتوجيهها الى ما ينفع الناس .. ويؤمن خطانا على طريق المستقبل ؟ .. إن ذلك وحده سبيل العبور .. وإلا فإنه الطوفان ..

« ولا يظلم ربك أحدا » . □

● أشد الناس عذابا يوم القيامة ، من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه .

(حديث شريف)

● روي عن النبي محمد ﷺ أنه قبل يدا ورمت من كثرة العمل ، فلما سئل قال : تلك يد يحبها الله ورسوله .

● ازرى بنفسه من استشعر الطمع، ورضي بالذل من كشف عن ضره ، وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه .

(الامام علي)

● إن أولى الناس بالعفو ، أقدرهم على العقوبة .

(معاوية)

● الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك .

(ابن عمر)

مستقبل الاقتصاد العالمي : هل يعود الكساد الكبير مرة أخرى ؟

بقلم : الدكتور رمزي زكي

« ليست صدفة ولا أمرا طارئا هذه الأزمات التي تجتاح النظام الرأسمالي العالمي ، ولأن الأزمة الأخيرة قد امتد تأثيرها وتشعب ،وبلغ حد التأثير على اقتصاديات كل دول العالم ، لذلك فانه جدير بنا أن نقف عند جذور الأزمة وأسبابها وآلياتها » .

تراكمت في سماء الاقتصاد الرأسمالي العالمي منذ النصف الأول من شهر أكتوبر الماضي غيوم كثيفة متدافعة ، راحت تلقي رذاذا شديدا من الذعر والفزع وعدم الثقة في عالم المال ، وبخاصة حينما انهارت الأسعار في الأسواق العالمية للأوراق المالية . فقد انهارت فجأة أسعار كثير من أسهم الشركات العالمية الكبرى ، الصناعية والمالية ، مسببة في ذلك أحجاما كبيرة من الخسائر التي قدرت بالمليارات في غضون أيام قليلة . وازداد الأمر تعقيدا حينما بدأ سعر الصرف للدولار الأمريكي يتجه نحو التدهور ، وهو العملة التي تلعب دور النقد العالمي ووسيلة الاحتياط الدولية . وقد أعادت هذه الأحداث للاذهان بقوة ذكريات أزمة الكساد الكبير (١٩٢٩-١٩٣٢) ، وهو الكساد الذي عم مختلف دول العالم ، وهز بعنف شديد أركان الاقتصاد الرأسمالي العالمي ودعائمه . وقد بدأ عدد كبير من المفكرين والاقتصاديين يتساءلون مؤخرا : هل من الممكن أن يعيد التاريخ نفسه ، وتتكرر أزمة الكساد الكبير في عالم اليوم ؟ وهل ثمة تشابه بين ماحدث في خريف عام ١٩٢٩ وخريف عام ١٩٨٧ ؟

محور الأزمة :

قبل أن نبدأ تحليلنا يجب أن ترسخ في الذهن حقيقة جوهرية ، تعبر عن مأزق النظام الرأسمالي ، وتعرضه من حين لآخر لأزمات اقتصادية دورية

تتفاوت في عمقها وحدتها بحسب السياق التاريخي الذي تتحقق فيه .

هذه الحقيقة تقول إن هناك تناقضا رئيسيا بين القدرة اللامحدودة لهذا النظام على الانتاج وقدرته المحدودة على الاستهلاك أو التصريف ، بسبب علاقات توزيع الدخل والثروة في هذا النظام . وحينما يصل هذا التناقض إلى مستوى حرج سرعان ما تظهر الأزمة ، حيث تتراكم السلع ولا تجد تصريفا ، وتهبط الأسعار بسرعة ، وتتزايد الطاقات العاطلة والبطالة وينخفض معدل الربح ، ويتعرض تراكم رأس المال للحصار . فليست المشكلة في الأزمة هي نقص الانتاج أو ضآلته ، بل على العكس من ذلك ، لأن المشكلة تتمثل في زيادة الانتاج مع ضآلة التصريف ، أي نقص حجم الطلب الكلي عن حجم العرض الكلي في الاقتصاد القومي . على أن فائض الانتاج أو العرض الذي يظهر في فترة الأزمة لايعني أن المجتمع قد أفرط في إنتاجه أكثر مما يحتاج فعلا . فالفائض هنا نسبي وليس مطلقا ، أي أنه فائض بالنسبة للطلب الفاعل في السوق عند مستوى معدل الربح السائد .

إن نمو الانتاج في مثل هذه الظروف يدفع بالاسعار نحو مزيد من الانخفاض ، وبالتالي يضغط على معدل الربح نحو مزيد من التدهور ، ومن هنا يتعرض تراكم رأس المال والنمو الاقتصادي للتدهور الشديد . بيد أن الأزمة حينما تحدث فإنها تأخذ مجراها الزمني ، وتحمل في أذيالها وسائل علاجها ، حيث ينجم عنها توقف جزء من جهاز الانتاج القومي عن العمل ، ويتم تدمير رأس المال الثابت الموازي في طاقته لفائض العرض السلعي ، ويخرج عدد من المنتجين من دائرة الانتاج بسبب الخسائر والافلاسات التي يحققونها ، ولايبقى في الساحة إلا من كان قادرا على تحمل نتائج الأزمة ويستطيع استئناف الانتاج من جديد بعد أن يكون فائض العرض النسبي قد اختفى ، وتكون الاسعار والأرباح قد بدأت تميل للارتفاع ، ويستعيد تراكم رأس المال حيويته .

ومع أن الأزمات الدورية هي الطابع المميز للحركة التاريخية لمسار النظام الرأسمالي منذ نشأته ، إلا أن الرأسمالية استطاعت أن تشق طريقها بقوة ، وأن تتغلب على تلك الأزمات،وأن تحقق تقدما هائلا في وسائل الانتاج وفنونه من خلال توسيع نطاق الرأسمالية جغرافيا (في دول غرب أوروبا والولايات المتحدة واليابان) ، ومن خلال غزوها لبلاد آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية ، وسيطرتها على هذه البلاد ، وتحويلها الى مستعمرات وأشباه مستعمرات ، وهو الأمر الذي يمكنها من الحصول على المواد الخام والمود الغذائية بأسعار منخفضة ، وتوسيع نطاق تصريف فائض الانتاج ، وفائض رءوس الأموال في هذه البلاد ، وأخيرا من خلال تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، وتأمينها لأرباح الاحتكارات الكبرى ، ومساندتها عن طريق تأميم بعض القطاعات غير المربحة اقتصاديا ، ودخولها مشترية ومستهلكة لكثير من المنتجات الزراعية والصناعية والخدمية ، وتشجيع أبحاث التطوير والتجديدات الفنية وتمويلها ، وزيادة حجم الخدمات العامة والانفاق على التسليح ، إلى آخره .

الخميس الأسود :

نعود الآن لما حدث في يوم الخميس الأسود (٢٤ اكتوبر ١٩٢٩) ، وهو بداية انفجار أزمة الكساد الكبير ، فقد بيعت في هذا اليوم ببورصة الأوراق المالية بنيويورك كميات هائلة من الاسهم والاوراق المالية التي تمثل رأسمال كبرى الشركات الصناعية ، فهبطت أسعارها إلى الحضيض ، وخسر الأفراد ثرواتهم ومدخراتهم في غضون ساعات قليلة ، واستمرت الأسعار بعد ذلك في تدهور مستمر ، وبرزت حركة طاغية من الذعر وعدم الثقة ، فاندفع الأفراد يطلبون سحب ودائعهم من البنوك ، ويطالبون بصرف أوراق النقد بالذهب (حيث كانت قاعدة الذهب سائدة آنذاك) .

ولأن كميات كبيرة من البنكنوت (حوالي ٦٠٪) لايقابلها غطاء ذهبي ، تكالب الأفراد على الصرف بالذهب ، مما عرض البنوك لحالة عجز حقيقي ، أدى إلى تعريضها للافلاس . وقد وصل عدد البنوك التي

أغلقت أبوابها في عام ١٩٣٠ إلى ١٣٢٥ بنكا ، وارتفع الرقم إلى ٢٢٩٤ بنكا

وإزاء هذا الموقف المتدهور الذي عرض النظام النقدي للانهيار لم تجد الحكومة الأمريكية مناصا من أن تعلن في ٢٦ مارس ١٩٣٢ إيقاف الصرف بالذهب وإغلاق البورصة ، وبالاضافة إلى ذلك حدث هبوط شديد في حجم الطلب والأسعار والناتج القومي ، فتراكمت السلع في المحال والمخازن ولم تجد تصريفا ، وكان طبيعيا والحال هذه أن تتفاقم مشكلة البطالة ، بل إنه ما إن حل عام ١٩٣١ حتى كان عدد العاطلين في الولايات المتحدة قد بلغ اثني عشر مليونا. وانخفضت الأجور في عام ١٩٢٩ بمقدار ٦٠٪ ، واكتظت المدن بالعمال العاطلين ، وبالمفلسين والجياع الذين راحوا يبحثون عن الخبز في أكوام القمامة . يصف دافيد أ . شانون في كتابه « الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الاقتصادية » حالة التردي للمجتمع الأمريكي فيقول : « كنت ترى بائعي السندات السابقين على أرصفة الشوارع ، يحاولون بيع التفاح ، على حين أصبح الكتبة السابقون يطوفون أحياء أصحاب المال لكي يعيشوا على تلميع الأحذية ومسحها ، وأخذ المتعطلون والمشردون يرحبون بالقبض عليهم بتهمة التشرد ، بغية الحصول على الدفء والطعام في السجن . . . »

وبالاضافة إلى ذلك حدثت بالريف مآس كثيرة ، حيث عم البؤس والخراب أحوال المزارعين والفلاحين ، وتركوا محاصيلهم يأكلها العطب بسبب تدني أسعارها ، وزادت عمليات نزع الملكية للأراضي المرهونة ، وبيعت بأبخس الأثمان.. الخ.

ولم تختلف صورة الانهيار الكبير الذي حدث في دول غرب أوروبا عما حدث في المجتمع الأمريكي ، حيث تراجعت الأسعار للأوراق المالية ، وعم الافلاس كثيرا من المؤسسات ، وتردت الأسعار ، وتعطلت الطاقات الانتاجية ، وأقفلت البورصات والبنوك أبوابها أمام تدافع الناس ، وزادت البطالة ، واكتظت الشوارع بالعاطلين والمشردين والجياع . كما تأثرت البلاد المتخلفة والتابعة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بهذا الانهيار العالمي ، حيث انخفضت أحجام صادراتها وأسعارها ودخولها القومية وقدرتها على الاستيراد ، وهبط حجم رءوس الأموال الأجنبية المنسابة إليها ، وخيم عليها الفقر والبطالة والجوع .

صك غفران :

ولم تتخلص الدول الرأسمالية من آثار هذه الأزمة وما تولد عنها من مشكلات إلا بانفجار الحرب العالمية الثانية . ويهمنا الاشارة هنا إلى أنه حتى تلك اللحظة كان الفكر الاقتصادي الرأسمالي منفصلا تماما عن هذا الواقع الأليم ، وكان الاقتصاديون المدرسيون لايزالون يؤمنون بقدرة النظام الرأسمالي على تحقيق التوازن التلقائي ، وتصحيح نفسه بنفسه ، وأن ما يحدث في النظام من أزمات يعود إلى إعاقة عمل قوى السوق والمبادرات الفردية ، لكن لورد كينز قلب الوضع رأسا على عقب في عام ١٩٣٦ حينما ظهر كتابه « النظرية العامة للنقود والفائدة والتوظف » ، وأثبت أن الرأسمالية فقدت قدرتها على الاستمرار والنمو التلقائي ، لأنها تنطوي في داخلها على آليات تعرضها لأزمات إفراط الانتاج العامة ، ومن ثم لابد للدولة أن تقوم بدور رئيسي في مواجهة هذه الآليات من خلال سياسة الانفاق العام والسياسات النقدية ، وبذلك قدم كينز « صك الغفران » لخطيئة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية ، وهو التدخل الذي كان ينظر إليه سابقا على أنه شر محض ومعاد للحريات الفردية ونظام السوق .

وأكد كينز على أن تزايد تدخل الدولة « هو الوسيلة الوحيدة لتجنب هدم المؤسسات الاقتصادية القائمة هدما تاماً ، كشرط ضروري لاستمرار نجاح المبادرات الفردية » . والواقع أن كينز في هذه النظرية كان يؤصل بشكل نظري لتجربة تدخل الدولة الألمانية ، وتدخل حكومة الرئيس الأمريكي روزفلت لمواجهة أمر الكساد الكبير (٢٩-١٩٣٢) ، وكانت هذه النظرية في عمومها تعبر عن مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية التي تقوم على التداخل

والمزج بين رأس المال وجهاز الدولة .

وعموما فإنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعيد تشكيل خريطة العالم اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا ، ودخل النظام الرأسمالي العالمي في حقبة جديدة (١٩٤٥ - ١٩٧١) ، وهي حقبة النمو المزدهر الذي اتسم بدرجة عالية من الاستقرار النقدي والتوازن الداخلي ، وأصبح الطابع المميز للسياسات الاقتصادية في دول الغرب الصناعي هو تطبيق الفلسفة الكينزية حيث ارتفعت معدلات تراكم رءوس الأموال ، وارتفع معدل نمو الانتاجية ، وزادت معدلات النمو الاقتصادي .

وكل ذلك قد اقترن بتحقيق درجة عالية من استقرار الأسعار وضآلة معدل البطالة ، وكانت تلك « الأعجوبة الاقتصادية » راجعة الى عوامل محددة هي : امتصاص الانكماش الاقتصادي الذي نجم عن دمار الحرب ، وأثر عمليات إعادة البناء والتعمير ، واستمرار حصول البلاد الرأسمالية الصناعية على مواد الطاقة (النفط) والمواد الخام من البلاد المتخلفة بأسعار بخسة ، وأثر التقدم العلمي والتقني الذي حدث في فنون الانتاج ، واستمرار نمط تقسيم العمل الدولي لصالح البلاد الصناعية ، فضلا عن التطبيق الناجح للسياسات الكينزية التي أدت إلى زيادة الانفاق العام في مجالات الضمان الاجتماعي والانفاق العسكري .

ما بعد الحرب :

وعلى الصعيد الدولي قام النظام الرأسمالي العالمي غداة الحرب العالمية الثانية على آليتين رئيسيتين ، يسرتا له هذا النمو المزدهر ، وهما نظام النقد الدولي (بريتون وودز) الذي قام على قابلية الدولارات للصرف ذهبا ، ومن ثم تثبيت أسعار الصرف بين العملات المختلفة ، والآلية الثانية هي حرية التجارة ، وتخفيف القيود المفروضة عليها (منظمة الجات) . وقد وفرت هاتان الآليتان الظروف الدولية المناسبة التي ضمنت تشغيل النظام على النطاق العالمي عند درجات مستقرة . ومن هنا تزايدت التجارة الدولية في حركة السلع ورءوس الأموال ، العامة والخاصة ، وفي ضوء هذا المناخ تعمقت ظاهرة التدويل وتطورت وتعاظم دور الشركات العملاقة متعددة الجنسية .

ومع بداية عصر السبعينيات تبدلت الأحوال كثيرا وبدأ عصر جديد ، فنظام النقد الدولي سرعان ما انهار في عام ١٩٧١ بعد إعلان الولايات المتحدة وقف قابلية تحويل الدولار إلى ذهب ، وتم تعويم أسعار الصرف ، واشتدت المضاربات على الذهب والعملات الأجنبية ، وانتهى عصر الرخص الشديد للطاقة بعد نجاح دول الأوبك في زيادة سعر هذه المادة الحيوية ، وتزايدت علاقات الصراع والتنافس بين مراكز المنظومة الرأسمالية العالمية (الولايات المتحدة ، وغرب أوروبا ، واليابان) ، واهتزت مكانة الاقتصاد الأمريكي في الاقتصاد العالمي من جراء تزايد العجز في ميزانه التجاري وموازنته الفيدرالية ، وضعف موقع الصادرات الأمريكية في السوق العالمي . وكل هذه التغيرات التي حدثت في دول الغرب الصناعي قد انعكست في تدهور معدل الربح في قطاعات الانتاج المادي مع وجود ميل شديد لتعاصر البطالة مع التضخم ، وتزايدت أحوال البلاد المتخلفة سوءا ، حيث تضخم العجز في موازين مدفوعاتها ، وضعفت قدرتها على الاستيراد بمواردها الذاتية . وأثناء ذلك كله أصبحت ظاهرة التدويل في مجال الانتاج والتمويل والتسويق والتقنية هي الطابع المميز للنظام الرأسمالي ، وتحولت الرأسمالية إلى ما يمكن أن يسمى برأسمالية الاحتكارات الدولية .

الانقلابات على الكينزية :

في خضم هذه التطورات كان هناك تيار فكري يتصاعد بشدة في الأوساط الأكاديمية ، وهو تيار النقديين ، أو مدرسة شيكاغو ، يحاول أن يفسر الأزمة ويقترح سبل العلاج لها . وقد فتح النقديون نيران هجومهم على الكينزية ، وانتهى بهم الأمر إلى الاختلاف مع الكينزية في مجمل ما وصلت إليه من سياسات وتوصيات ، ونادوا بأن سر الأزمة يعود الى التطبيق المستمر للكينزية ، والى ما تمخض عنها من

نمو في حجم القطاع العام ، وتدخلات متزايدة من جانب الدولة في الحياة الاقتصادية ، وأن علاج الأمور يكون بعودة الرأسمالية إلى أصولها الأولى ، أي إلى آليات السوق الحرة ، وعدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، وتخفيض الضرائب على الأرباح والدخول المرتفعة ، وتقليص الانفاق الحكومي الموجه للرعاية الاجتماعية . وكل ما هو مطلوب من الدولة هو أن تتحكم في عرض النقود ، حتى يمكن علاج مشكلة التضخم وتحقيق الاستقرار النقدي .

ومنذ أواخر السبعينيات حتى الآن دخلت هذه السياسات مجال التطبيق العملي لها في الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا ، وكان من نتائجها التغلب ـ مؤقتا ـ على مشكلة التضخم ، ولكن على حساب إيقاف النمو أو إبطائه وتفاقم مشكلة البطالة . أما على النطاق العالمي فقد نجم عن ذلك إغراق العالم في أمواج هائلة من الديون التي راحت تغذيها حركات رءوس الأموال الساخنة التي تخلقها شبكة البنوك دولية النشاط وتتحكم فيها . كما اشتدت حدة التنافس والصراع بين الاقتصاد الأمريكي من ناحية ، ودول غرب أوروبا واليابان من ناحية أخرى ، ناهيك عن تردي الأحوال في دول العالم الثالث .

ومنذ مجيء الادارة الريجانية للحكم في عام ١٩٨٠ لم تبال هذه الادارة في علاج مشكلة الاختلالات الحقيقية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي (العجز المستمر في الميزان التجاري في الموازنة الفيدرالية) ، بل عمدت إلى رفع أسعار الفائدة ، وتخفيض الضرائب ، وزيادة الانفاق على التسليح ، واستطاعت بذلك أن تمول جانبا كبيرا من عجزها الخارجي والداخلي من خلال الاقتراض الأجنبي ، وأن ترفع بذلك ـ بشكل مصطنع ـ من قيمة الدولار على الصعيد الدولي ، وانهمرت على الولايات المتحدة أمواج هائلة من رءوس الأموال الاجنبية الباحثة عن الربح السريع . وفي عام ١٩٨٥ تحولت الولايات المتحدة الى دولة مدينة لأول مرة منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ، حيث زادت قيمة استثمارات الاجانب فيها عن استثمارات أمريكا في الخارج بنحو ٤٨ بليون دولار . وفي عام ١٩٨٦ تزايدت هذه المديونية إلى ٢٦٣,٦ بليون دولار (انظر الشكل) ، أي ما يزيد عن جملة ديون أكبر ثلاث دول مدينة في العالم الثالث ، وهي المكسيك والبرازيل والأرجنتين ، ودلالة هذا كله هو أن الأمريكيين قد أصبحوا يعيشون فوق مستوى مواردهم وقدراتهم الحقيقية ، ومن المتوقع أن تزيد هذه المديونية بشكل مستمر لتصل إلى ترليون دولار في أوائل العقد القادم ، وهو وضع لايمكن تصور استمراره ، لأن دول الفائض ليس من المتوقع أن يكون لديها هذا القدر المستمر من الأموال الفائضة (حوالي ١٥٠ بليون دولار سنويا) ، لتقديمه للاقتصاد الامريكي ، كما أن استمرار الاستدانة الأمريكية كفيل بأن يزعزع الثقة بالدولار الامريكي وفي قيمة الأوراق المالية الدولارية المستثمرة فيها هذه الفوائض . وكانت تلك الحقيقة هي بداية انفجار الأزمة يوم الاثنين الأسود ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ ، حينما بدأت أسعار بورصة نيويورك تنهار بشكل مفاجىء وحاد ، وتتجاوب لهذا الانهيار مختلف البورصات المالية الأخرى في هونج كونج ولندن وغيرها ، ويتجه الدولار بعد ذلك للتدهور المستمر .

تنافس عشوائي :

إن الأزمة التي انفجرت في أكتوبر الماضي، واستمرت معالمها حتى الآن ، كانت نتاجا طبيعيا لمجمل الممارسات الاقتصادية التنافسية والعشوائية التي سارت عليها رأسمالية الاحتكارات العالمية ، وهي في التحليل الأخير تعكس أزمة هيمنة الاقتصاد الأمريكي على منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

ومن المتوقع أن يستمر الانهيار ويأخذ مداه إلى أن يتم التوصل إلى وضع تاريخي جديد ، ملائم لاستئناف التوسع السريع في الانتاج والتراكم الرأسمالي ، وهذا الوضع لن يتحقق مالم يتم التوصل إلى أساليب جديدة للتحكم في إدارة الرأسمالية على النطاق العالمي وتوجيهها . □

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

جاء في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

« الأحزاب ٩ »

قام أبو سفيان يخطب في الأحزاب المجتمعة لحصار المسلمين في المدينة فقال : « أيها الناس ، انكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخفّ ، وأخلَفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل » .

ثم وثب على جمله ومضى فتبعه الناس .

وأصبح النبي (ﷺ) بالخندق ، وليس قباله أحد من عساكر الأحزاب ، ثم جاءه من أنبأه بأنهم انقشعوا الى بلادهم .

وقد كان في انسحاب الأحزاب دلالة صادقة على فشل مكة الذريع في تصديها للنبي (ﷺ) وأصحابه ، لقد بذلوا في هذه الحملة أقصى وسعهم ، وألقت قريش وغطفان بكامل ثقلها من أجل إخراجه من المدينة ، فاذا بالمسلمين يصمدون لهم بنجاح دون خسائر تقريبا ودون أن يقتل منهم غير ستة نفر من الأنصار ، واذا بنفوذ الرسول (ﷺ) في المدينة قد تدعم نتيجة لانسحابهم ، واذا بالمستقبل أمامهم يغدو مظلما ، فقد ضاع الكثير من سمعتهم بين العرب ، وضاع الأمل في استمرار تجارتهم مع الشام ، وفي احتفاظهم بمركزهم وثروتهم ، حتى وإن لم يفكر المسلمون في الهجوم على مكة ، غير أن مثل هذا الهجوم قد بات الآن محتملا على سبيل الانتقام من حملتهم هذه .

لقد أثبتت الوقعة تفوّق استراتيجية المسلمين ،

وحنكة عيونهم ومهارتهم في رصد تحركات العدو والايقاع بين جماعاته ، وكان الخندق أنسب وسائل الدفاع في مثل هذه الظروف ، فقد كان أمل الأحزاب في النصر قائما بصفة أساسية على تفوق خيلهم ، بعد أن أثبتت المعارك السابقة أن مشاة المسلمين أقوى من مشاة أعدائهم ، مالم يكن عدد أعدائهم بالغ التفوق ، وقد أمكن للخندق أن يبدد خطر الخيل ، فلم تستفد الأحزاب كثيرا من أفراسهم السمانة ، كذلك فقد بدا واضحا مدى وحدة المسلمين ، وانتظام صفوفهم ، متى قارناها بتفكك الرابطة بين الأحزاب ، وضعف ثقة بعضها ببعض ، فغطفان مثلا لم تخرج الى القتال الا حين عرضت الرشوة عليها ، وكانت على استعداد لأن ترجع عن المدينة وتتخلى عن حلفائها ، مقابل رشوة أخرى من عدوهم ، ومع أن مفاوضاتها مع النبي (ﷺ) لم تسفر عن نتيجة ، فإن مجرد دخولها فيها قد أفسدها على قريش ، وأوهن من عزمها على متابعة الحصار .

وهناك سبب آخر لاسراع الأحزاب بالانسحاب ، وهو أنها كانت قد وصلت الى المدينة بعد أن حصد المسلمون زروعهم خارجها ، وقد فعل المسلمون ذلك قبل أن يحين وقت الحصاد ، ربما بناء على نصيحة من النبي (ﷺ) وقد توقع الغزو ، وكانت قريش من عامين قد جاءت تلّ أُحُد قبل الحصاد ، فأمكنها ان تسرح خيلها وإبلها فيها ، مما أثار حفيظة الأنصار ، ودفعهم الى الخروج من المدينة ، رغم أن الحكمة والظروف كانت تقضي عليهم بغير ذلك ، أما اليوم فلم يكن هناك من سبب يجبر الانصار على الخروج ، ولم تجد الأحزاب علفا لركائبها غير ما حملته منه ، حتى هلك الكثير منها من الهزال والجوع ، أضف الى ذلك أن المؤن التي أتوا بها لأنفسهم ـ وهم الذين لم يتوقعوا أن يصادفوا الخندق ولا المقام طويلا عليه ـ كانت تتناقص يوما بعد يوم ، حتى أصابهم الملل والتعب وأنهكهم البرد والمطر ، وهبت الرياح تطفيء من نيرانهم وتطيح بأوانيهم وخيامهم حتى ارتأوا الرحيل .

وبانقشاعهم عن المدينة وقد خاب مسعاهم ، بدأ بعض سادة قريش والعرب بعيد التفكير جادا في الوضع واحتمالاته ، وينظر فيما اذا كان من المصلحة الآن قبول دين الاسلام والانضواء الى لواء الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، ومن هؤلاء الذين بهرهم نجاح النبي (ﷺ) في صد الغزو عباس بن مرداس من قبيلة سليم ، وهو ابن الشاعرة الخنساء ، وكان ذا شأن في قومه كبير ، بحيث نجح ـ بعد فترة من المعارضة له ـ في اقناعهم بالتحول الى الاسلام ، كما كان من بينهم عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد .

أما عن النبي (ﷺ) فإنه لم يفكر في مطاردة الأحزاب أثناء انسحابها ، اذ كان من شأن هذه المطاردة أن تهيء الفرصة التي كانت تريدها الأحزاب ، وهي قتال المسلمين في العراء خارج المدينة ، ومع ذلك فقد ساءه ـ وقد أذن للمسلمين في الانصراف الى منازلهم ـ أن يراهم يعدون على الفور الى أهليهم مسرعين في فرح وسرور ظاهرين ، فقد خشي أن يكون لقريش عيون ، أو أن تعلم بنو قريظة رغبتهم في العودة الى منازلهم ، فيفطنوا الى ما كان المسلمون يعانونه من ضائقة ، فبعث من ينادي في أثرهم يأمرهم بالعودة ، قال عبد الله بن عمر : « فجعلت أصيح في أثرهم في كل ناحية أن رسول الله (ﷺ) أمركم أن ترجعوا ، فما رجع رجل واحد منهم من البرد والجوع » .

□

"الكمبيوتر" والحاجة الماسة إلى نحو عربي جديد!

بقلم : الدكتور نبيل علي *

يشهد العالم منذ أواخر الخمسينيات ثورة لغوية عارمة ، فبعد إرساء « فرديناند دي سوسير » لأسس علم اللغة الحديث ، وبلورة اللغويين البنيويين لاطاره النظري ، قام « نعوم تشومسكي » بوضع النموذج الرياضي للنحو ، ليبدأ علم اللسانيات بذلك رحلته المثيرة للتخلص من عموميات الوصفية منتقلا إلى حدة الانضباط النظري وسفور التفسير العلمي .

هكذا تبوأ علم اللغة مكانه الطبيعي كركيزة لاغنى عنها ، للعلوم الانسانية ، فهو القاسم المشترك الذي يربط بينها ، وبدون إخضاعه للسيطرة العلمية تصبح معظم جهود التطوير في المجالات المختلفة للانسانيات محاولة مستحيلة لاقامة البناء على المتميع .

من التوصيف إلى التفسير

لقد تجاوز علم النحو مرحلة التشريع اللغوي ، أو عصر ديكتاتورية النحاة ، منتقلا من توصيف الظواهر النحوية وتحليل التركيبات اللغوية إلى محاولة تفسيرها ، والسعي إلى تعميمها ، ورد تجلياتها إلى عدد محدود من المبادىء الأساسية التي تحكم الأداء

* باحث من القطر المصري في مجال تعريب الكمبيوتر

اللغوي بصفة عامة . وكما حدث في المجال البيولوجي (أصل الأنواع) ، ومن خلال الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية ، ينتقل الأمر من دراسة لغة معينة إلى دراسة شاملة للفصائل اللغوية المتعددة ، وتحاول النظرية النحوية الحديثة من خلال ذلك الوصول إلى «نحو عام» تندرج في ظله جميع اللغات ، « نحو عام » قادر على استخلاص العموميات اللغوية المشتركة بين اللغات المختلفة ، وكذلك تفسير مظاهر التباين اللغوي بينها ، لقد تحولت الدراسة اللغوية إلى دراسة لنظام النحو نفسه ، وانتقل النحو من طابعه التحليلي ، المبني على تحليل بعض الأمثلة الحاكمة للتعبيرات اللغوية ، إلى الطابع التوليدي ، ساعيا للوصول إلى قائمة القواعد التي يمكن من خلالها توليد العدد اللانهائي من التعبيرات اللغوية التي لا يمكن حصرها بأي صورة .

لقد اكتمل لعلم اللسانيات مقوماته العلمية ، ووسائل اختباره المعملية ، ومجالات تطبيقاته العملية ، من رياضيات « برتراند راسل » ، وفروع علم المنطق الحديث ، وعلم النفس التربوي ، ونظرية المعرفة ، إلى هندسة المنظومات وبناء النماذج ، ومعامل الاحصاء اللغوي ، والدراسات الميدانية ، وأساليب الذكاء الاصطناعي ، الخ .

استخدامات الحاسب الآلي

صاحب ظهور « الكمبيوتر » - الحاسب الآلي - في أواخر الأربعينات محاولات متسرعة لاستخدام « الكمبيوتر » في التحليل اللغوي والترجمة الآلية ، ورغم سلبية نتائجها فقد أبرزت هذه المحاولات أهمية إعادة النظر للمنظومة اللغوية ككل ، وضرورة تحليل العلاقة الدقيقة لتداخل اللغة مع الحاسب ، وظهر علم اللغويات الحواسبية لتوفير الأسس النظرية لدراسة الظواهر الشائكة لتلاقي اللغويات مع التقنيات ، وظهرت إلى الوجود عدة مراكز بحوث متخصصة أبرزها معهد الترجمة الآلية بموسكو ، ومعهد (CLSI) الملحق بجامعة « ستانفورد » الذي تم تأسيسه في بداية الثمانينات لدراسة علاقة اللغة الانجليزية بالمعلومات والحاسبات . إن علم اللغة يتعرض حاليا لزخم كثيف من الجهود البحثية والتطبيقات العملية التي تحاول إماطة اللثام عن البواطن الخفية للمنظومة اللغوية ، وتكشف عن شبكة العلاقات الداخلية التي تربط بين فروعها المختلفة : الصوتيات ، والصرف ، والنحو ، والدلالة « أو المعنى » .

لقد أصبحت الحاجة ماسة إلى (التقعيد) النحوي الدقيق المكتمل كأحد المطالب الأساسية لتطويع اللغة لمطالب النظم الآلية ، فالحاسب لا يقبل في تعامله الغموض أو عدم التحديد ، أو النقصان ، وهو ما يفرض بالتالي ضرورة وضع النحو في صياغة رياضية دقيقة تقبلها المعالجة الآلية . فجرت النظرية النحوية الأساسية « لتشومسكي » ، عند ظهورها ١٩٥٧ ، مناقشات حادة مثيرة خاصة من قبل الدلاليين والتربويين السلوكيين ، وأدى هذا إلى إدخال تعديلات جوهرية في النظرية النحوية وظهور عدد كبير من المناهج النحوية الأخرى التي تختلف من حيث منطلقاتها الأساسية ، وإطارها الفكري العام .

أكتفي هنا بسرد قائمة النظريات النحوية كدلالة على مدى الثراء العلمي الذي يشهده النحو ، ومحاولة اللغويين لمحاصرة المسألة النحوية من عدة زوايا حتى تدين لسطوة التحليل العلمي الدقيق :

- نحو تحليلي
- نحو توليدي
- نحو وظيفي
- نحو معجمي
- نحو وظيفي معجمي
- نحو علاقي
- نحو طبقي
- نحو تعميم البنية الجملية
- نحو البنية الجملية المبنى على رأس الجملة
- نحو المقولات

ينطلق علماء اللغة في المشرق والمغرب محاولين تطبيق النظريات النحوية المختلفة على لغتهم الأصلية ، ليحددوا مدى ملاءمتها لتوصيف الظواهر اللغوية المختلفة للغتهم وتفسيرها وتمثيلها .

أين نحن ؟

أين نحن من هذا كله ؟ وما موقف نحاتنا المحدثين من هذه الاتجاهات المتعددة للنظريات النحوية ؟ لا يمكن للباحث إلا أن يقرّ بالحقيقة المؤلمة ، وهي أن التنظير للنحو العربي ما زال في سباته العميق ، الذي دام قرونا يشكو من الجمود والترهل الفكري وقصور التقعيد وتخلفه ، وبات الأمر في حاجة ماسة لطرح النحو العربي في أطر جديدة في ظل النظريات النحوية الحديثة . سنتناول هنا باختصار شديد بعض مظاهر أزمتنا النحوية ، نستعرض بعدها المحاولات السابقة والراهنة لتحديث التنظير النحوي ، لنخلص منها إلى عدة منطلقات للاصلاح النحوي بصفة عامة .

وتحاشيا لخلط محتمل ، فإننا نؤكد أننا لسنا بصدد اقتراح تعديلات في نحو العربية ، بل المقصود هنا تحديث التنظير النحوي للعربية ، أي تنظير ما هو قائم بالفعل دون أي اقتراح لتعديل القواعد أو اختزالها أو تبسيطها ، ولا ينطلق ذلك من رغبة التحديد فقط ، بل يرجع أيضا إلى قناعة الكاتب باستحالة اقتراح التغييرات النحوية التي لا تأتي إلا من خلال عمليات التطور اللغوي التدريجي التي يحكمها مدى قبول الجماعة اللغوية لها .

مظاهر أزمتنا النحوية

لاشك أننا نعيش أزمة لغوية طاحنة ، تمتد جذورها إلى طبقات عميقة ، ومناطق حساسة في كيان مجتمعنا العربي ، وتمس قضايا يقيد التصدي لها مسلمات ومحظورات ، وأمورا تتجاوز نطاق اللغة ، وتتشابك مع أمور عديدة أخرى من مظاهر التخلف المجتمعي . ومن أهم مظاهر القصور في تنظير النحو العربي ما يلي :

- صورية النحو من حيث تركيزه على التجليات السطحية للتركيبات اللغوية (كضبط أواخر الكلمات ، والتقديم والتأخير ، وتصنيف الجملة إلى فعلية واسمية على أساس موقع الفعل بالنسبة لفاعله . وطغيان الكتابة على « الفونولوجي » ، وهلم

عقل الانسان والعقل الصناعي معا .

جرا) ، وعدم نفاذه لتمثيل العلاقات الوظيفية والدلالية الأعمق التي تربط بين مكونات الجملة .

- قصور أدوات التنظير وتخلفها ، وعدم تناسق - بل وفوضى - « لغة وصف اللغة » التي يتم من خلالها توصيف الظواهر النحوية المختلفة وتمثيل قواعدها ، وما زالت كتب النحو تقسم بنفس الأسلوب الذي أورده ابن مالك ، وما زال تقسيم الكلام في العربية يتبع ثلاثية أرسطو (الاسم ، والفعل ، والحرف) . إن مرجع ذلك هو غياب النموذج النحوي الشامل الذي يضمن التناسق والتوافق .

- التركيز على الكلمة دون الجملة ، وإهمال عنصر الدلالة (أو المعنى بصورة تقريبية) ، ويتركز معظم جهود المجامع اللغوية العربية على القضايا الصرفية دون النحوية .

- غياب التحليل الدقيق لعلاقة التداخل العنيف بين النحو والصرف ، مما يصعب معه تطبيق مبدأ ذاتية النحو ، الذي نادى به « تشومسكي » ، المبني -

في بعض جوانبه ـ على أساس فك الاشتباك بين النحو والمعجم .

وما يتعلق بالأخير من قواعد حرفية لتكوين الكلمات المشتقة .

ـ قصور الدراسات المعجمية ، وخلو المعجم العربي من المعطيات اللازمة للتحليل والتركيب النحوي (وهو ما يعرّفه اللغويون بالملامح النحوية) ، وربما يرجع ذلك إلى تنظيم المعجم العربي على أساس الجذور ، وهو التنظيم الذي ينحاز نحو الصرف على حساب النحو .

ـ إغفال اللغويين العرب للغويات الحواسبية التي وفرت كثيرا من الوسائل وَالأساليب المختلفة لاختبار صحة نظم التقعيد وتطويرها .

ـ الخلط بين التنظير اللغوي ، وتعليم اللغة العربية . فتعليمنا لغويات ، ولغوياتنا تربويات ، ويخلط كثيرون بين ضرورة تبسيط تعليم اللغة العربية ، ومطالب التنظير لها .

الاصلاح اللغوي السابق والراهن

شهدت نهاية القرن التاسع عشر عدة محاولات للاصلاح اللغوي في إطار دعوة شاملة للتطوير الثقافي والاجتماعي .

افتقدت هذه المحاولات قاعدة نظرية تنطلق منها ، لتحوم حول أمور يقع معظمها في نطاق تسهيل تعلم العربية دون التنظير لها . وبرزت عدة محاولات أخرى لتطوير نحو العربية نفسه من خلال تغييرات جزافية لتبسيط القواعد واختزالها ، كإسقاط الضبط الاعرابي ، والاعراب التقديري ، وإعراب المحل ، واشتطّ بعضهم مطالباً بإحلال العامية مكان الفصحى ، بل وإحلال الحروف اللاتينية مكان العربية تحاشيا للبس الناجم عن غياب التشكيل .

وقد التزم معظم اللغويين المحدثين الصمت تجاه الثورة اللغوية القائمة ، ومرجع ذلك في رأيي هو عدم إلمام معظم اللغويين العرب ، من خريجي الأزهر ودار العلوم وأقسام اللغة العربية ، بالرياضيات الحديثة ، وفروع المنطق الحديث ، واللغة الانجليزية . وإغفالهم شبه المطلق للغويات الحواسبية ، ودور « الكمبيوتر » في عمليات التحليل والتركيب اللغوي . لقد أصبح تحديث التنظير لنحو العربية رهنا بمبادرات فردية لبعض خريجي اللغات الأجنبية الذين يكملون دراساتهم العليا في جامعات أمريكا وأوروبا ، أو علماء اللغة ، العرب والأجانب ، في أقسام اللغات الشرقية بالجامعات الأجنبية . ويمكن القول ان معظم هذه الجهود يتم في إطار إخضاع العربية للنموذج النحوي الذي أقيم للغة الانجليزية .

لقد توقفنا مدة طويلة عن إيفاد خريجي الأزهر ، ودار العلوم ، لبعثات خارجية لنتفي بذلك فرص نادرة لتطورنا اللغوي . إن الجمود الذي نعانيه ، ليوحي بمقارنة تفرض نفسها بما حدث في إحياء العبرية في المائة سنة الأخيرة ، وذلك بعد تمام اندثارها عدة قرون . لقد نجح اللغويون اليهود من خلال إعادة تحليل التراث ، وجهود التحديث والتطوير ، إلى إكساب العبرية الحديثة الحيوية والمرونة مما سهل عملية الانصهار اللغوي للجنسيات المتعددة التي تشكل المجتمع الاسرائيلي . إن جمودنا اللغوي الراهن يتعارض بشدة مع الحصاد الهائل الذي خلفه نحاتنا القدامى ، وقد تسرع بعض المحدثين في نظرتهم المتجنية على هذا السلف العظيم خالطين بين أسس التنظير للنحو العربي ومطالب تعليمه . وفي رأيي أن علم النحو العربي قد نشأ في ظل مبادىء وأسس يجيء معظمها متفقا مع تلك النظرية النحوية الحديثة ، ونكتفي هنا ببعض جوانب هذا التوافق :

ـ التزم النحاة القدامى (سيبويه والزجاجي ، . .) بمبدأ تفسير الظواهر النحوية دون الاكتفاء بتوصيفها ، وهو ما يتفق مع مبدأ الدقة التفسيرية الذي نادى « تشومسكي » كمعيار لتقويم قدرة النظرية اللغوية ووجهاتها .

ـ لجوء النحاة القدامى إلى التجريد (الاعراب التقديري ، الضمير المستتر ، تنميط الحالات الاعرابية ، . .) والنظريات النحوية الحديثة مليئة

بكثير من التجريدات .

- ارتكاز كثير من الظواهر النحوية والصرفية على مفهوم ثنائية « الأصل والفرع » ، ويتفق ذلك مع مبدأ ازدواج البنية وهو المبدأ الذي أخذت به معظم النظريات النحوية الحديثة (البنية السطحية ، والبنية العميقة في النحو التوليدي ، والبنية التركيبية ، والبنية الوظيفية في النحو الوظيفي المعجمي ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر) .

- الصلة الوثيقة بين النحو العربي ، والمنطق ، ويتفق ذلك - في بعض جوانبه - مع ما ينادي به الدلاليون المحدثون حاليا (مونتاجيو مثلا) من أن لكل قاعدة نحوية مقابلا منطقيا .

- قيام النحو في العربية على نظرية العامل ، ويتفق ذلك مع التطور الأخير الذي تشهده النظرية النحوية الحديثة ، والذي تمثله نظرية الربط والعامل .

- تعدد المدارس النحوية (الكوفة ، البصرة ، بغداد ، الأندلس) والحوار - بل الصراع - القائم بين المدرسة الشرقية في الولايات المتحدة (ممثلة في MIT) والمدرسة الغربية (ممثلة بجامعة ستانفورد) يذكرنا بالخلاف المثري بين الكوفيين والبصريين .

اقتراحات لتحديث التنظير النحوي :

- الانطلاق من مبدأ النحو العام ، أو العموميات اللغوية ، والاهتمام بالدراسات النحوية المقارنة والتقابلية .

- دراسة اللغة العربية كمنظومة متكاملة ، والتركيز على تحليل العلاقات التي تربط بين فروعها المختلفة .

- الابتداء بدراسة العربية الحديثة الفصحى مع عدم إغفال دراسة اللهجات العامية حيث يمكن أن تكون مصدرا مفيدا لتفسير كثير من ظواهر اللغة الفصحى نفسها .

- استخدام « الكمبيوتر » في إقامة النماذج اللغوية للاسراع في جهود التنظير النحوي .

- الانطلاق من مدخل الدلالة ، أي المعنى ، حيث يساعد هذا المدخل على إضافة العمق النظري إلى كثير من الظواهر النحوية .

- ضرورة تنوع مناهج التنظير النحوي للغة العربية ، وعدم الانحياز المسبق لبعض المدارس النحوية الحديثة ، فإن تعريض نحو العربية لاتجاهات تنظيرية متعددة ، بل ومتعارضة أيضا ، هو الكفيل الوحيد بكشف جوانبه المتعددة ، والاسراع بحركة الاصلاح النحوي .

- استغلال الحصاد النظري الهائل الذي يتم في اللغات الأخرى ، خاصة في الانجليزية والاسبانية والروسية واليابانية والعبرية .

- إعادة تنظيم المعجم العربي بما يتفق ومطالب مشروع اللغة المختلفة (صوتا وصرفا ونحوا ودلالة) .

إن تحديث التنظير للنحو العربي أصبح أحد المقومات الرئيسية لاخضاع اللغة العربية لمطالب المعالجة الآلية في نظم المعلومات والحاسبات ، وبدونه سيكون من المتعذر أن نلحق بحركة التطور الهائل التي تجري حاليا لاكساب النظم الآلية خاصية الذكاء الاصطناعي ، التي على رأسها - بلا شك - قدرة الآلة على محاكاة بعض وظائف البشر اللغوية □

■ قال جورج واشنطن مخاطبا الانجليز : إن تاج ملككم وثروة الامبراطورية البريطانية لا يكفيان ثمنا لاستقلال بلادي . حاربوا تفنونا أو نفنيكم .

■ الأيدي ثلاثة : يد بيضاء ، ويد خضراء ، ويد سوداء ، فاليد البيضاء هي الابتداء بالمعروف ، واليد الخضراء هي المكافأة على المعروف ، واليد السوداء هي المن بالمعروف .

(يونس النحوي)

اقرأ في العدد القادم من

العربي

عدد خاص - فبراير ١٩٨٨

استطلاعات

التجربة الكورية وهم أم معجزة ؟
سليمان مظهر

أضواء على معهد العالم العربي في باريس
صلاح حزين

الواجهة البحرية خضرة تطل على مياه الخليج
ريم الكيلاني

- التنمية وقانون الجهد الأقل / د. مطانيوس حبيب
- الانفتاح العربي على الحضارات الأخرى / د. محمد عمارة
- الصراع الديموغرافي بين الشمال والجنوب / د. عبدالإله أبو عياش
- إنهم يزرعون خلايا المخ / د. محمد نبهان سويلم
- اللغة الراقصة ! / د. حسين العروسي
- غموض الشعر الجديد / سالم عباس خداده
- عبد الرحمن الشرقاوي .. فارس الكلمة / فاروق خورشيد
- كتاب : الديون والتنمية / عرض رافع عبدالرحمن
- وجهاً لوجه : فتحي رضوان وأمينة النقاش

□□□

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. فؤاد زكريا - د. سمير رضوان
د. هشام بوقمرة - د. محمد عبدالله المشاري - د. غانم سلطان
محمد ابراهيم أبو سنة - برهان الخطيب

العربي
عيونك
على العالم

مالطة لسان عربي وقلب أوروبي!

استطلاع :
صلاح حزين
تصوير :
سليمان حيدر

فاليتا العاصمة كما تبدو من سليمة .
والى اليمين فتاة مالطية
تعرض صناعتها اليدوية .

في الزمان القديم كانت مالطة جزءا من جزيرة صقلية الايطالية ، وعلى الرغم من انفصالها عن أوروبا في نهاية العصر الجليدي الأخير إلا أنها بقيت بعيدة عن الشمال الافريقي ، فظلت معلقة في الوسط من البحر الأبيض . وحين احتل العرب مالطة ، أعطوها لغتهم ، لكنها احتفظت بقلبها الذي أخذته من أوروبا . فماذا عن هذه البلاد التي جمعت بين لسان العرب وقلب أوروبا ؟

انتهينا من الاجراءات الاعتيادية في مطار سانت لوقا الصغير ، وقادنا مرافقنا في السيارة عبر طرق المدينة المتعرجة الى شارع على البحر تنبض فيه الحياة،وأمام بناية عالية تطل على مشهد بحري رائع ، قال مرافقنا للسائق : « وأف هينا » ، ثم التفت الينا وقال بلغة انجليزية تشوبها لكنه أهل البحر الأبيض المتوسط : « هذا هو فندقكم ، يمكنكم تمييزه بسهولة ، فهو أعلى بناية في سليمة » ، ومضى ، على أن يعود إلينا في اليوم التالي . وبقينا أنا وزميلي المصور نتساءل عما إذا كانت تلك الكلمات التي سمعناها ، والتي بدت عربية الوقع ، عربية حقا ، وعما إذا كنا لم نضلّ الطريق،لقد أتينا الى مالطة التي نعرف أن عاصمتها فاليتا ، فما هي سليمة هذه ؟ وما هذه اللغة العربية التي هي ليست بعربية في نفس الوقت ؟

في الطريق الى الفندق كان المشهد فريدا حقا ، جو حار مغبر ، ضارب إلى الصفرة ، يتناقض مع صفاء البحر الأزرق الهادىء ، وبالتفاتها الذي تشاهده عند كل انعطاف للسيارة يضفيان على المشاهد إحساسا بقدرة هذا المكان على جمع التناقض ببساطة مدهشة .

الأرخبيل :

في الفندق وخارجه توالت المفارقات والتناقض ، فأتاحت لنا نحن القادمين من الشرق الذي يقال انه شرق ، وانه لن يلتقي بالغرب أبدا ، فرصة للدهشة ، بعد أن ظننا أنه لم يعد للدهشة مكان في حياتنا المشرقية ، فها هو الشرق يلتقي بالغرب ، ليكوّن مزيجا غريبا اسمه مالطة ، فالوجوه الأوروبية في التقاطيع والسمات ترطن بلغة تجمع بين حدة التعبير المميز في لهجات سكان المغرب العربي وخليط من اللهجات واللغات الأخرى . وها هي المنازل المتراصة ذات الأسطح العارية المنبسطة الخالية من أي تزيينات ، والتي تذكرك بالمدن والعواصم العربية القديمة ، مثل دمشق والقدس والقاهرة وغيرها ، تقوم داخل قلعة حصينة مسورة بالحجر المالطي الشهير ، بطراز أوروبي واضح المعالم ، أخيرا ها نحن في أوروبا ، لا نبعد عن جزيرة صقلية الايطالية أكثر من ٩٣ كيلو مترا ، ومع ذلك فإن جو الجزيرة الرطب المغبر ، وطقسها المائل للحرارة ، وطراز أبنيتها الفريد ينبئك أنك في بلاد شرقية خالصة . فكيف اجتمعت كل هذه التناقض في تلك الجزيرة الصغيرة الوادعة ؟

حين جاءنا المرافق في اليوم التالي صحح لنا المعلومة الأخيرة ، فمالطة ليست جزيرة صغيرة ، بل أرخبيلا ، فهي تتكون من جزيرتين مأهولتين ، هما مالطة وجوزو ، وجزيرة أخرى استأجرتها شركة سويسرية ، وحولتها الى منتجع سياحي خاصّ بها ، واسمها جزيرة كومينو ، وجزيرتين صخريتين أخريين غير مأهولتين هما فلفلة وكوميتنو ، وعلى الرغم من شعوري بأن كلمة أرخبيل كبيرة على هذه المجموعة الصغيرة من الجزر الصغيرة ، إلا أن عقلي قد بدا جاهزا لاستيعاب المدهشات التي تحفل بها هذه الجزيرة ، أو هذا الأرخبيل كما يريد المالطيون !

ولأن ..لطة هي كبرى جزر الأرخبيل فلقد أخذت

البلاد اسمها ، أما العاصمة فاليتا فليست سوى إحدى المدن العديدة التي تضمها الجزيرة ، والتي يحمل معظمها أسماء لقديسين ، مثل سان جوان ، سان جوليان ، سان لوتشيا ، وسان لوقا . وبعضها يحمل أسماء عربية تماما ، مثل سليمة ، مسيدة (مسعدة) ، مليحة ، مدينة ، مغار ، وعين تفيحة (عين التفاحة) ، وزيتون ، ومرفأ ، ورباط ، وغيرها .

في صبيحة يومنا الأول في سليمة ـ حيث كنا ننزل ـ غادرنا الفندق متجهين نحو العاصمة فاليتا ، وفي طريق متعرج مزدحم بالسيارات والناس والسابحين والمصطافين والجالسين على المقاهي والمتنزهين سيرا على الأقدام والصيادين والمتأملين بالبحر على شاطئه القريب الصغير سرنا الى عاصمة الأرخبيل ، ومن شاطيء سليمة برزت فاليتا خلف شريط ضيق من الماء انتهى بمرفأ صغير فبدت متعالية على الماء وعلى المرفأ وعلى سليمة والناس ، لقد بدت كمشهد عظيم ، بأبنية مائلة نحو الصفرة ، قريبة من الماء عند الطرفين ، ثم أخذت بالارتفاع تدريجيا حتى بلغت ذروة علوها في وسط المشهد الذي ارتفعت فيه قبة كاتدرائية ضخمة هائلة الحجم . ومن نقطة التقاء البحر باليابسة ارتفع سور المدينة المنيع ليحمل المدينة بعيدا عن البحر ، ويحميها من الغزوات التي لم تنقطع عن الجزيرة منذ فجر التاريخ .

ولأن الأسوار المنيعة بقيت محتفظة بقوتها ونضارة حجارتها التي اشتهرت بها مالطة ، فقد أعطت تلك الأسوار لشواطيء الجزيرة شكلا مميزا ، هو مزيج من عبق التاريخ القديم ، ورائحة البحر والأسماك التي يمضي في أثرها الصيادون ، ووهج الشمس التي تعطي المشهد حرارة زائدة . وبعد يوم متعب يجلس الصيادون ليبيعوا غلتهم ، أو ليصلحوا شباكهم تحت تلك الأسوار ، وقرب الرافعات والسفن الكبيرة ، أو سفن الصيد الصغيرة التي ملأت المشهد البحري .

بالقرب من هذه الأسوار تجري الاحتفالات ، وتعقد الأسواق الموسمية . وفي الساحات وباحات

الجزائر المالطية في موقع وسط بين أوروبا وشمال أفريقيا

الكنائس تجري الاحتفالات ذات الطابع الديني في الغالب ، وفي المنازل القديمة بالمدن الداخلية يعيش الميسورون الباحثون عن الهدوء ، بعيدا عن هدير البحر ، وأصوات السفن و « الطرادات » ، ونداءات البائعين . والى جانب الأسوار هناك الكنائس والكاتدرائيات الضخمة التي تتوسط المدن جميعها ، سواء كانت ساحلية أو داخلية . ويفاجئك بها أمران ، ضخامة تلك الكنائس التي تبدو بنايات عملاقة ، قامت وسط البيوت والمنازل العادية ، والعدد الأكبر لتلك الكنائس . وعندما سألنا مرافقنا عمن بنى هذه التحصينات ، ومن بنى الكنائس قال لنا انهم الفرسان . إن شعب مالطة ما زال ـ إلى حد كبير ـ يعيش في التاريخ ، ويتعامل معه تعاملا يوميا ، إن لم يكن من خلال تلك الاحتفالات ، وذلك القرب من رموزه التاريخية ، كالأسوار والكنائس والقلاع ، فمن خلال اللغة التي امتزجت فيها العربية بالانكليزية والايطالية امتزاجا فريدا . فما علاقة كل ذلك بالعرب ، ومن هم الفرسان ؟ وما علاقتهم بمالطة ؟

(أقصى اليمين في الأعلى) نصف تمثال للسيدة السمينة ، إلهة الخصب المالطية .
و (إلى اليسار) صخور ومياه صافية وسواح .
(إلى اليمين في الأسفل) سواح في معبد يعود للألف الثالث قبل الميلاد .
و (إلى اليسار) مشهد جميل في جوزو ، صنعته المياه والصخور .

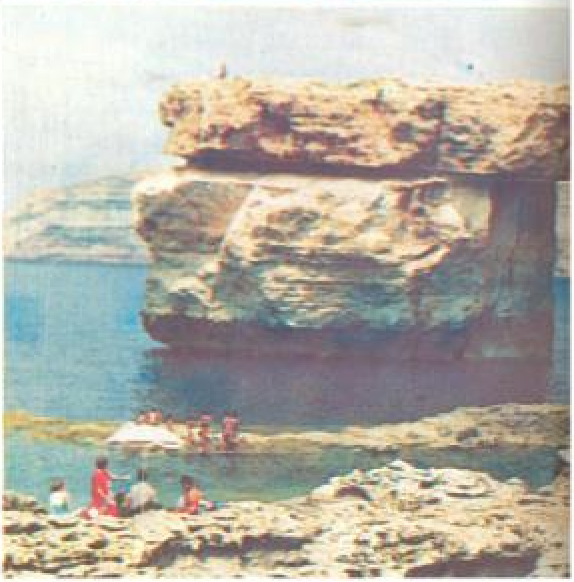

ثأر قرطاجة :

يعود تاريخ العلاقات بين مالطة والعرب إلى ما قبل عروبة شمال إفريقيا بكثير ، إذ يرجع ذلك الى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ، عندما استوطنت جزر مالطة قبائل فينيقية ، قادمة من شرق المتوسط ، وعندما كانت قرطاجة حاضرة الفينيقيين إحدى مراكز الحضارة في ذلك الزمن القديم . وحين شن القائد القرطاجي العظيم هنيبال حملته الشهيرة على الامبراطورية الرومانية لغزو روما كان المالطيون طليعة جيشه ، وعندما انتهت الحروب البونية ، وهو الاسم الذي تعرف به سلسلة الحروب بين قرطاجة وروما القديمة بهزيمة الأولى سقطت مالطة في أيدي الرومان ، ومن بعدهم البيزنطيين ، وبقيت في الأيدي الأوروبية منذ ذلك التاريخ ، أي منذ عام ٢١٧ قبل الميلاد ، حتى جاءها العرب فاتحين عام ٨٧٠ ميلادية . ومن الطريف أن نذكر هنا أن العرب جاءوا مالطة من تونس ، من أرض قرطاجة المهزومة ، فكأنما عادت قرطاجة هذه المرة لتثأر لنفسها من منافستها القديمة التي هزمتها قبل أربعة قرون .

وانتهى فصل من فصول التاريخ المالطي ، وبدأت فصول جديدة ، اختلفت فيها الأسماء ، واختلفت الأيدي التي تسلمتها ، لكن مالطة بقيت بؤرة للصراع بين قوى عديدة ، نظرا لموقعها الذي لم يتح لها أن تكون أمة وسطا ، لكن الصراع الأعنف كان بين العرب والأوروبيين ، أو بدقة أكبر بين مسلمي الشرق ومسيحي الغرب ، ذلك الصراع الذي ما زالت آثاره موجودة في مالطة حتى يومنا هذا على الرغم من مرور كل تلك السنين .

مالطة العربية

مع دخول العرب إلى مالطة بدأ فصل جديد من تاريخ البلاد ، وهو من أكثر فصول التاريخ غموضا بالنسبة للعرب ، وكذلك بالنسبة للمالطيين .

يبدأ الغموض مع لحظة دخول العرب إلى مالطة ، فغريب مثلا أن يكون هناك أكثر من تاريخ ، يقدم على أنه تاريخ فتح مالطة الحقيقي ، والأغرب من ذلك أن تواريخ فتح مالطة تتراوح بين عام ٦٥٢ - كما ذكر المؤرخ محمد مصطفى بوزامة - وبين عام ٨٧١ ميلادية - كما ذهب النويري - وبين هذين التاريخين تمر على سنوات ٨٣٣ و ٨٣٦ و ٨٦٩ و ٨٧٠ و ٨٧١ باعتبار كل منها تاريخا للفتح العربي لمالطة ، والروايات المتعددة عن فتح مالطة غير دقيقة ، كما أنها في كثير من الأحيان متعارضة ، وإن شاء الباحث أن يستنجد بالسجلات التاريخية المالطية أو الصقلية فإنها لن تسعفه كثيرا ، فالتواريخ المتعددة المعطاة تخلط بين المعارك والمناوشات والحصارات ، وبين تاريخ الاحتلال الفعلي للجزيرة الذي يرجح معظم المؤرخين أنه تم عام ٨٧٠ م . لكن الأمر يصبح أكثر غرابة حين يحدد بعض المؤرخين يوم الفتح بالتاسع والعشرين من أغسطس في ذلك العام ، متنقلين بذلك من الضياع بين التواريخ إلى التحديد القاطع لليوم الذي تم فيه الفتح .

وبعد ذلك يصبح الخلاف حول اسم القائد الذي فتح مالطة ، وهل هو حبشي بن عمر بن الأغلب ، أم عمر بن الأغلب مسألة بسيطة ، فحبشي هو لقب لعمر بن الأغلب فاتح مالطة العربي .

الا أننا لا نلبث أن ندخل في متاهة جديدة ، أعقبت فتح مالطة ، واستمرت نحو أربعة قرون ، هي زمن الوجود العربي في مالطة ، وتلك واحدة من أكثر الفترات غموضا في تاريخنا العربي ، وتاريخهم المالطي أيضا .

بين عام الفتح ٨٧٠ وعام ١٢٥٠ وهو عام إخراج العرب والمسلمين من مالطة أخذت الجزيرة لغتها العربية ، وأطلقت أسماء عربية على بعض أهم الآثار العربية التي ما زالت باقية حتى الآن ، مثل مدينة والرباط . بل إن جزيرة كيمونو ما هي الا تحريف لكلمة كمونة العربية ، أما فلفلة ، تلك الجزيرة الصخرية الصغيرة التي تشاهدها من منطقة تدعى زريق بحجم لا يزيد عن حجم « الفلفلة » ، فمن الواضح أنها لم تستجب لأي محاولة للتحريف .

ومع ذلك فإن الآثار العربية في مالطة ضئيلة

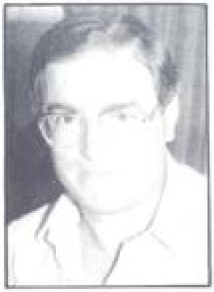
بول مفسود

موريس كروانة

إمام مسجد مالطة

ف . سموط

الحجم والعدد ، ولا تتناسب بأي حال مع القرون الأربعة التي قضاها العرب هناك ، كما لا تتناسب مع الأثر الكبير الذي تركته اللغة العربية في اللغة المالطية ، كما أن العدد الكبير للكنائس هائلة الحجم مقارنة مع عدم وجود أي مسجد عدا عن المسجد الذي أقيم عام ١٩٨٢ على الجزيرة ملفت للنظر أيضا ، وأخيرا وليس آخرا فإن عدم وجود وثيقة عربية واحدة ، أو أي أثر كتابي عربي يتناقض تناقضا صارخا مع وجود عدد كبير من الشعراء العرب المالطيين ، أمثال عبدالرحمن بن عمر المالطي ، وأبي القاسم بن رمضان المالطي ، وعبدالله بن السمطي المالطي ، وعثمان بن عبدالرحمن بن السوسي وغيرهم .

ومن الأمور الغامضة أيضا أن أحدا لا يعرف متى اختفت الكتابة بالأحرف العربية ، لكن المؤرخين يرجعون أول قصيدة كتبت بالمالطية - أي بالعربية المحكية - إلى القرن الخامس عشر الميلادي فهل أسعفنا ذلك في معرفة الكثير عن وجود العرب في مالطة ؟

قبورنا تدل علينا

من المضحك المبكي أن تكون شواهد القبور ، وبعض الجثث التي وجدت في مقابر المسلمين قرب الرباط ، ومدينة ، هي أكثر الشواهد دلالة على وجود العرب في مالطة ، وذلك الى جانب بعض النقود المسكوكة ، وبعض المصوغات الذهبية ، مثل الخواتم والحلي وليس أكثر من ذلك . ومعظم هذه الآثار تعود الى عصر النورمان ، وليس الى عصر مالطة العربي ، أي عندما احتل النورمان مالطة وقبل أن يطرد العرب منها .

ومن أشهر شواهد القبور التي عثر عليها ، والتي لا تزيد على الثلاثين في أحسن الأحوال الشاهد الذي عرف باسم ميمونة ، وهو عبارة عن لوح من الرخام ، كتب عليه بالخط الكوفي الجميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبي محمد ، وعلى آله وسلم تسليما . لله العزة ، والبقاء ، وعلى خلقه كتب الفناء . ولكم في رسول الله أسوة حسنة . هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي ، عرف بابن السوسي ، توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وهي تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » ، ثم كتبت هذه الأبيات من الشعر :

انظرْ بعينكَ هلْ في الأرضِ من باقي
أوْ دافعٍ للموتِ منْ راقي ؟
الموتُ أخرجني قسراً فيا أسفي
لم ينجني منه أبوابي وأغلاقي
وصرتُ رهْناً بما قدمت من عملي
محصى عليَّ وما خلفْتُهُ باقي
يا منْ رأى القبرَ إني قدْ بليتُ به
والتربُ غيرَ أجفاني وآماقي

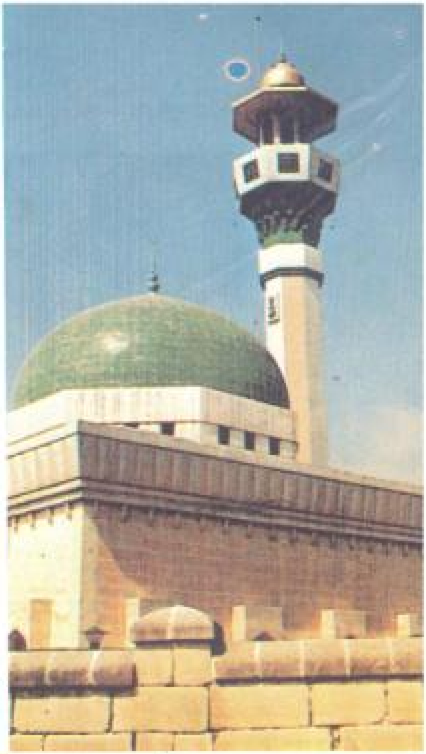

(في الأعلى من اليمين لليسار) الأذان يرتفع في مالطة بعد ۸۰۰ عام من الانقطاع .
مشربيات عربية وسفينة كويتية يجري إصلاحها في حوض جاف « بمرسى شلوك » .
و (في الأسفل) فلكلور مالطي ومعبد الهيبوغيوم وصياد مالطي في جزيرة جوزو .

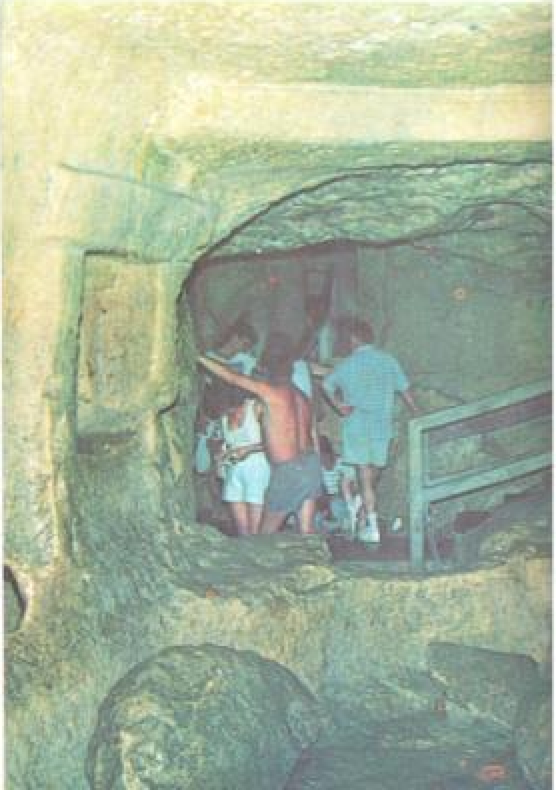

في مضجعي ومقامي في البلى عبرٌ
وفي نشوري إذا ما جئت خلاقي
« أخي فجد وتُبْ »

وهكذا خرج العرب من مالطة ، ولم يبق من آثارهم سوى شواهد القبور ، وسوى بعض آثار الهندسة المعمارية العربية ، مثل الطرق والأزقة الضيقة التي رأيناها في مدينة « مدينة » القديمة ، ولم يبق من مالطة العربية مسجدا واحدا يشهد على وجودهم هناك ، مقابل العدد الهائل من الكنائس ، وربما كان هذا هو أصل المثل القائل بعدم جدوى الأذان في مالطة ، أو عدم جدوى إقامة الدين في مالطة ، كما يقال في بلادنا العربية بصيغ مختلفة ، تعني جميعها وضع الدين في ذلك الأرخبيل .

بل ان هناك من يحاول الايحاء بأن اللغة المالطية ليست وليدة الحقبة العربية في مالطة ، بل هي لغة الفينيقيين الذين استقروا في الجزيرة عام ٧٥٠ ق . م ، وهي لغة تلتقي مع العربية في أصلها السامي .

الا أن هناك ما ينقض هذا الزعم ، فعندما تحطمت سفينة القديس بولس قرب شواطىء مالطة عام ٦٩ م ، وكان برفقته القديس لوقا ، قال القديس بولس إن أهل بلاد مالطة برابرة ، مما يعني أنهم لم يكونوا يتكلمون اللاتينية أو الرومانية ، لأنهم لو كانوا يتكلمون الفينيقية لعرف القديس بولس ذلك ، لأنه كان يتكلم اللغة الآرامية التي تشترك مع الفينيقية في الأصل السامي ، ولميز بعض الكلمات على الأقل ، كما فعلت بعثة العربي بعد نحو ألفي عام من ذلك التاريخ ، عندما وقفنا دهشين ونحن نستمع إلى حوار نفهم معظم كلماته ، ونتنقل بين أماكن مألوفة الأسماء .

وعلى أي حال فقد كان ذلك أول ذكر لمالطة في التاريخ . ومن العجيب أن يأتي هذا الذكر على لسان شخص جاء من موطن الفينيقيين الأصلي ، وفي الكتاب المقدس الذي كتب بالآرامية ، وهي لغة تشترك مع لغة مالطة في الأصل السامي ! فنقاط اللقاء بين مالطة والعرب تبرز في كل عصر من عصور التاريخ .

وقد يقودنا هذا إلى الحديث عن الطبيب المالطي الذي عمل مترجما بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد أثناء لقائهما الشهير ، خلال فترة الحروب الصليبية . ربما ليثبت أنه حيثما كان هناك لقاء بين العرب وأوروبا كان هناك مالطيون .

وعلى أي حال فلأننا لم نخرج إلا بشواهد القبور دليلا على وجود العرب بمالطة فلنكمل قصة الخروج العربي من هناك ، وكيف أسدل الستار .

روجر وروجر

في عام ١٠٩٠ غزا الكونت روجر الصقلي مالطة ويقول المؤرخ الايطالي مالاتيرا : إن سكان مالطة عرضوا استسلامهم على روجر ، فوافق الأخير ، وكانت شروط الاستسلام هي الاعتراف بسلطة الكونت روجر عليهم ، ودفع الجزية له ، وإطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين لديهم . ويقول المؤرخ غودفري وتنغر إن المؤرخ مالاتيرا لم يذكر شيئا عن مالطي مسيحي واحد ممن عرض عليهم روجر البقاء في صقلية ، وأن جميع المالطيين فضلوا العودة الى بلدهم ، وأن المسيحيين الذين ذكروا كانوا جميعا أسرى من غير المالطيين ، ويضيف وتنغر أنه على الرغم من ذلك فإن المؤرخين المالطيين يستندون الى كلمات مالاتيرا ليثبتوا أن المسيحية لم تنقطع من الجزيرة . وعموما فلم يتغير الكثير بعد غزو روجر لمالطة ، وبقي الحال على ما هو عليه ، حتى جاء الملك روجر ، وهو ابن الكونت روجر ، ليعيد غزو مالطة عام ١١٢٧ ، ويبقى فيها هذه المرة حرسا مسيحيا ، ومؤسسة مسيحية ، مهمتها اعادة المسيحية للجزيرة . وبين هذه الأحداث الدرامية نتوقف ، لنلتقط حادثا طريفا ، فقد كان علم الملك روجر عبارة عن مربعات حمراء وبيضاء ، وعندما فتح مالطة جاد روجر عليها بمربعين من مربعات علمه الكثيرة ، وهكذا جاء علم مالطة ذو المربعين الأبيض والأحمر الذي ما زال على حاله حتى يومنا هذا ، مع إضافة صليب الملك جورج السادس الذي أضيف بعد الحرب العالمية الثانية .

وهنا أيضا كان للموقع الاستراتيجي لمالطة الاثر الكبير في عذاب هذه الجزيرة التي لم تستمتع باستقلال حقيقي الا في فترات قليلة من التاريخ ، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية تبين لكل من الحلفاء ودول المحور الاهمية الاستراتيجية للارخبيل .

مع الثلاثينات كانت بريطانيا تسيطر على مالطه وكانت عين موسوليني ، الجار القوي لمالطة مسلطة على الارخبيل ، ولم يكن ديكتاتور ايطاليا بحاجة الى ذرائع ومبررات تاريخية لاحتلال مالطة ومنعها من أن تتحول الى شوكة في خصر « امبراطوريته » ، لذلك كان يقول أن مالطة هي الجزء الايطالي الذي لم ينضم لايطاليا بعد ، ولان مالطة تحولت الى شوكة حقيقية في خصر دول المحور اثناء الحرب فقد كان لها نصيب هائل من التدمير ، فحوصرت الجزر من البحر وقصفت من الجو كما لم تقصف مدينة أخرى في المنطقة ، لكنها لم تسقط فمنح الملك جورج مالطة صليبه الذي اضيف الى المربعين الابيض والاحمر اللذين يشكلان العلم المالطي .

ـ كل ذلك بفضل هذه الجدران الحجرية .

قال مرافقنا ، فظننت أنه يتحدث عن الاسوار المنيعة التي استعصت حتى على قنابل دول المحور ، لكنه أشار الى جدران حجرية منخفضة بنيت من حجارة صغيرة صفت فوق بعضها دون أن يكون بينها اسمنت أو طين ، وهي من النوع الذي تراه العين بكثرة في لبنان وفلسطين وسوريا .

ولما أعدت استفساري حول هذه الجدران التي تسمى في بلادنا « السلاسل » وتستخدم للزراعة في الاراضي الجبلية ، أجاب المرافق :

ـ نعم هذه الجدران أو السلاسل « سمها ما شئت » ، وقد تلاحظ أنها تنتشر بكثرة في مالطة ، وأضاف لقد فكر هتلر فعلا بغزو مالطه لكنه تراجع بسبب وجودها فهي عوائق طبيعية تجعل مهمة المظليين أو جنود الاعداء في غاية الصعوبة فوق ارض مالطه .

وقبل أن أعلق بقولنا العربي المأثور « يضع سره في أضعف خلقه » أضاف المرافق .

ـ على أي حال ما أقوله ليس موثوقا تماما ، لكنها أحاديث تقال ، وفي اعتقادي أن بها نصيبا كبيراً من الصحة ، فوعدت أن أعود الى المراجع لاتأكد من هذه الرواية قبل أن أذكرها ، وعندما لم أجد ذكرا لها في المراجع القليلة التي عدت اليها ، قررت ذكر ماقاله المرافق ونسبته اليه .

وعودة إلى خروج العرب من مالطة فإن المؤرخ غودفري وتنغر يقول : إن إعادة المسيحية للجزيرة قد تم ببطء شديد ، ويورد إحصائية قام بها جليراتو اباتي عام ١٢٤٠ ، جاء فيها أن عدد العائلات المسيحية كان ٢٥٠ عائلة ، مقابل ٨٣٦ عائلة مسلمة ، و ٣٣ عائلة يهودية . ويذكر ابن خلدون بعد ذلك أن الملك فردريك الثاني نفى المسلمين المالطين ومسلمي صقلية في أعقاب تمرد قاموا به عام ١٢٤٢ ، وبعد ذلك الحين بدأ الحديث عن مصادرة أملاك المسلمين ، وعن عمليات دخولهم في الدين المسيحي . وفي عام ١٣٠٠ قبل ريكاردوس المالطي التعمد واعتناق المسيحية ، وهذا يعني أن عملية إعادة المسيحية إلى الجزيرة قد تم بشكل سلمي حتى عام ١٢٥٠ تقريبا ، لكنه تحول الى عملية قسرية عنيفة بعد ذلك ، وأنه منذ عام ١٢٤٩ بدأت عملية منهجية لازالة كل أثر للمسلمين في مالطة ، بعد طردهم أو بقاء من قبل اعتناق المسيحية ، حتى آلت أوضاع مالطة إلى ما هي عليه ، ولم يعد هناك من يؤذن في مالطة ، فأصبحت بحاجة الى من يقيم الدين فيها .

وهذه على أي حال ليست مدخلا نحو إيقاظ فتنة طائفية بقيت نائمة كل تلك المئات من السنين ، بل هي مدخل للحديث عن مجموعة المتناقضات التي نراها اليوم في مالطة .

الفرسان والصقر المالطي

في عام ١٥٣٠ منح الامبراطور كالورس الخامس جزر مالطة لفرسان القديس يوحنا ، وكان هؤلاء قد غادروا جزيرة رودس هربا من الأتراك العثمانيين ، وكان الفرسان في الأصل فريقا من الفرسان الصليبيين ، من جنسيات أوروبية مختلفة ، وقد طردوا من فلسطين لسوء تصرفاتهم ، فذهبوا ليستقروا في جزيرة رودس ، وعندما طردهم الأتراك

(فوق) فتاة مالطية تصنع الخزف . (فوق الى اليسار) مهرجان الألوان في زريق .
(في الأسفل) شاطىء وسابحون .
(إلى أقصى اليسار) غار الظلام وعناقيد حجرية تمثل تاريخاً تمتد لآلاف السنين

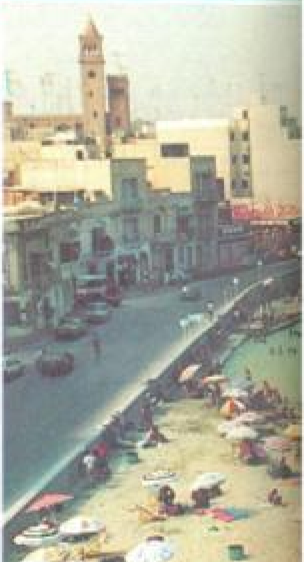

من هناك لجأوا الى مالطة ، وتحت رمز الصليب حكم الفرسان مالطة ، وبنوا الكنائس العظيمة الهائلة التي ما تزال شاهدا على عصرهم وتحت راية الحقد الصليبية التي حاربوا بها في فلسطين بدأوا بطمس ما تبقى من آثار العرب والمسلمين ، وعاشوا حياة قرصنة في البحر المتوسط .

لكن لجوءهم الى مالطة لم يبعد الأتراك عنهم ، فلم يكف هؤلاء عن تعقبهم ، ومحاصرة مدن مالطة ، واحتلال بعضها أحيانا ، وهذا ما يفسر وجود تلك القلاع المنيعة ، والأسوار الحصينة ، وأبراج المراقبة التي تحيط بالجزيرتين تماما ، فقد كان شبح الخوف من هجمات الأتراك العثمانيين الذين كانوا قوة بحرية يحسب حسابها مخيما على الفرسان . ولم يتردد هؤلاء في استخدام المالطيين في بناء أسوارهم وقلاعهم وكنائسهم . وكان البابا يرسل المال والعبيد للمساعدة في بناء الأسوار مقابل صقر يبعث به المالطيون للبابا كل عام ، ومن وحي هذه الحادثة انتجت هوليود فلماً شهيراً في بداية الأربعينات بعنوان الصقر المالطي .

ولا أدري هل هي مصادفة أيضا أن تكون المقبرة التركية بقبورها وشواهدها هي أبرز ما تبقى من عهود الاحتلال التركي للجزيرة ، فماتزال هذه المقبرة هي المقبرة الاسلامية في مالطة . وعندما زرناها شاهدنا قبورا قديمة وحديثة لعرب ومسلمين ، دفنوا فيها ، وكانت باقات الورد فوق بعض هذه القبور تشي بالحال ، بينما كان باستطاعتنا ملاحظة التراب الرطب لأحد هذه القبور . وعندما اقتربنا من شاهد القبر قرأنا اسما لعربي من مصر مات في مالطة منذ مدة وجيزة فدفن بها .

لكن الفرسان لم يقضوا على اللغة العربية التي كانت لغة أهل البلاد لسببين ، الأول أن الفرسان أنفسهم كانوا ينتمون الى قوميات مختلفة ، وبالتالي كانوا يستعملون لغات مختلفة ، والثاني أن هؤلاء لم يكونوا يختلطون بالمالطيين ، بل كانت العلاقة بين الطرفين علاقة حكام بمحكومين . لذلك بقيت العربية لغة أهل مالطة ، وبقي اللسان المالطي ينطق بالعربية التي أصبحت تكتب بالأحرف اللاتينية .

مالطة يوك

قبل وصولنا الى مالطة كنا قد عرفنا أن الحكومة المالطية ألغت قرارا ينص على أن تكون اللغة العربية إحدى اللغات التي تدرس في المرحلة الثانوية إجباريا ، وأن يكون النجاح فيها شرطا لانتقال الطالب الى السنة التالية ، وبالتالي فهي شرط لدخول الجامعة . وكان لابد لنا أن نسأل بهذا الشأن ، فتوجهنا الى البروفيسور بيتر سيراتشينو انغلوت أستاذ الفلسفة بجامعة مالطة ، وعندما بادرناه بالسؤال قال : « إن مستوى اللغة العربية عند دخول الجامعة كان ضعيفا جدا ، وكان على الآباء الذين يعرف أولادهم اللغات المالطية والانكليزية والايطالية أن يتعلموا اللغة العربية أيضا ، وهي لغة صعبة جدا ، خاصة عندما تضاف إلى اللغات المذكورة ، مما يجعل دخول الطالب للجامعة صعبا بالفعل . لكن في نفس الوقت أصبحت اللغة العربية اختيارية ، كما خصص كرسي للغة العربية في الجامعة . والنجاح في اللغة العربية إجباري لكل متخصص في دراسة اللغة المالطية ، وبذلك تكون المشكلة قد حلت حلا سلميا إن جاز التعبير .

وعندما سألنا البروفيسور انغلوت إن كان يعرف أصل المثل القائل بعبثية « الأذان في مالطة » أو عبثية « إقامة الدين في مالطة » أجاب بأنه لا يعرف ، لكنه يعرف مثلا شبيها بذلك في اللغة التركية ، هو : « مالطة يوك » ، وقد قيل هذا المثل عندما طلب السلطان التركي من أحد قادته الابحار لاحتلال مالطة ، وبعد أشهر عاد القائد للسلطان ، وقال له : « مالطة يوك » ، أي أنه لم يعثر على مالطة . فأدركنا في بعثة العربي كم كنا محظوظين ، فقد عثرنا على مالطة ، وإن لم نعثر من آثار أجدادنا هناك إلا على شواهد القبور ، فشواهد القبور تكفي .

بعد أن عرفنا قصتنا مع مالطة ، أو قصة مالطة معنا . لنترك الأمر جانبا الآن ، ونحاول الدخول من مدخل آخر الى الأرخبيل .

ركلة الحذاء الأيطالي

إذا نظرت الى خارطة للعالم فقد لا ترى مالطة ، أما اذا نظرت الى خارطة للبحر الأبيض المتوسط فترى نقطتين صغيرتين أسفل جزيرة صقلية التي بدت وكأنها كرة يركلها « الحذاء الايطالي » الذي تدل من موقع متوسط بأوروبا عبر البحر الأبيض ، فبدت هاتان النقطتان وهما جزيرتا مالطة وجوزو ، وكأنهما حبتا رمل صغيرتان ، انتثرتا مع الكرة الصقلية . وفي الواقع أن هذا التشبيه ليس بعيدا عن الحقيقة تماما ، إذ تقول الجغرافيا أن الجزر المالطية كانت في يوم من الأيام جزءا من جزيرة صقلية الايطالية ، وأنها انفصلت عن الجزيرة الأم في عصر موغل في القدم ، هو نهاية العصر الجليدي ، ومنذ ذلك التاريخ السحيق وحتى اليوم ابتعدت الجزر المالطية عن الجزيرة الأم مسافة ٩٣ كم ، وانفصلت عن أوروبا ، لكنها لم تصبح جزءا من الوطن العربي في الشاطيء المقابل وتبلغ مساحة مالطة وجوزو ٣١٥ كم² تقريبا ، ويسكنها نحو ٣٣٥ ألف نسمة فقط .

لقد وضعنا أيدينا إذن على أصل مالطة الأوروبي ، وأصل لغتها العربية ، فماذا عن تاريخها القديم ؟

لا يقل تاريخ مالطة إيغالا في الزمن عن جغرافيتها ، وحتى نستطيع أن نتصور هذا المدى في الايغال ، فإن علينا الذهاب الى « غار الظلام » ، وهذا الاسم ليس ترجمة عربية لاسم غير عربي . بل هو الاسم الحقيقي لذلك الغار الذي يعود الى ما قبل العصر الجليدي الأخير . وعلى باب الغار علقت قطعة معدنية مربعة كتب عليها (غار ظلام) .

وعندما وصلنا الى هناك كانت الدهشة من اكتشاف المزيد من الألفاظ والأسماء والتعبيرات العربية قد انتهت ، وبدأنا بعد ذلك في لعبة أخرى هي لعبة الشرح والمواءمة ، واكتشاف الأصول العربية للكلمات المالطية ، وهي أصول لا يعرفها سكان الجزيرة على الرغم من نطقهم لها بل إن عددا كبيرا من الأمثال الشعبية المالطية عربية نصا وروحا كما يقال .

والأمر نفسه ينطبق على الأسماء في هذه الجزيرة وخاصة أسماء العائلات مثل كتكوت وكروانه ومفسود . والأخير هو اسم الرئيس المالطي السابق واسم مدير مكتب المعلومات في الجزيرة الذي بدا وجهه مألوفا لنا،وعندما استرجعت صورته في الذاكرة ، عادت الى ذهني تلك الأحداث المأساوية التي تحول فيها مطار سان لوقا الصغير إلى بؤرة اهتمام العالم عام ١٩٨٥ عندما خطفت طائرة تابعة للخطوط الجوية المصرية وانتهى الأمر بأكبر كارثة خطف طائرة في التاريخ . عندها كان بول مفسود هو المصدر الرسمي الأساسي لتلك المعلومات المأساوية .

وعلى أي حال فلم يكن (غار الظلام) غير واحد من الأسماء العربية . إنما الدهشة الكبرى كانت للمفارقة الكبيرة الناجمة عن غموض التاريخ العربي والاسلامي في الجزر ، على الرغم من اقترابها الزمني نسبيا والمعلومات الكثيرة ـ نسبيا أيضا ـ حول مالطة في العصر الجليدي والحجري والبرونزي والنحاسي .

في (غار الظلام) الذي يمتد عدة عشرات من الأمتار بعرض واد عظيم اسمه (ويد ظلام) ، أي وادي الظلام ، تقع عيناك على أعداد كبيرة من الهياكل العظمية لحيوانات غريبة الهيئة ، مثل الدببة البنية والفيلة القزمة ، وفرس البحر والبجع العملاقة ، إلى جانب الثعالب والذئاب والغزلان ، وبجانبها مئات من الأسنان والفكوك والأيدي والأرجل لتلك الحيوانات . ويقول مكتشفو هذا الغار أن هذه الحيوانات المنقرضة كانت هاربة من زحف الجليد في العصر الجليدي الأخير ، قبل نحو ٢٠ ألف سنة ، وأن هذا الغار الذي كان تحت الأرض قد احتوى على هذه العظام التي بقيت شاهدا على عصر الجليد المالطي .

ومما يدعم النظرية أن هذه الحيوانات لم يعرف أنها قد عاشت في مالطة في يوم من الأيام .

أما الغار الذي امتد عدة عشرات من الأمتار للداخل فقد تدلت من سقفه عناقيد حجرية ، هي عبارة عن تكثيف للزمن ، حيث أن كل قطرة من الماء

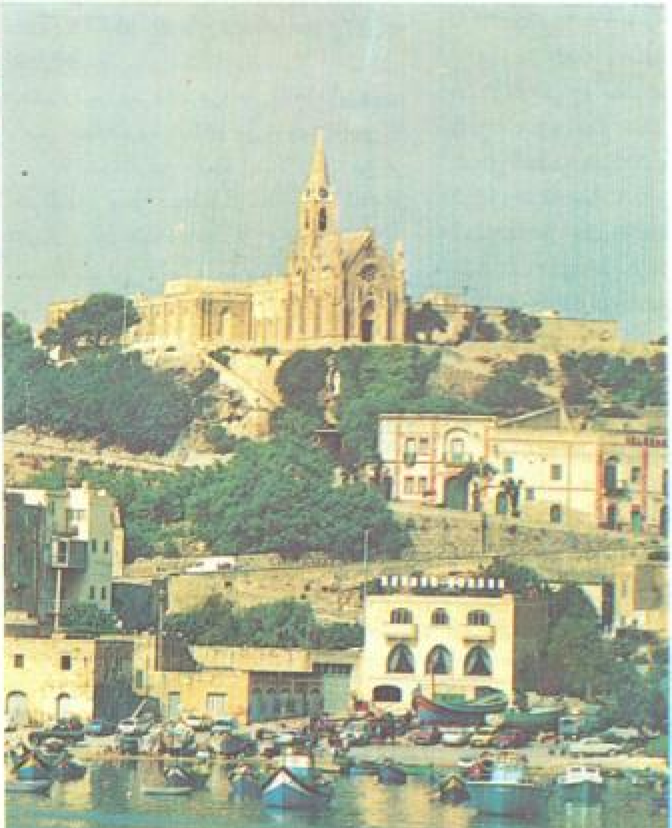

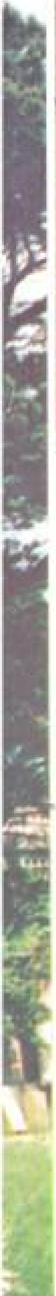

(فوق) مدخل مدينة (مدينة) . وإلى اليسار كنيسة في جوزو .

(في الأسفل) جزيرة جوزو كما تبدو للقادمين من مالطة .

(وإلى أقصى اليسار) معمار إسلامي ونخيل في المقبرة التركية بمالطة .

المتحجر الذي كوّن هذه العناقيد يمثل مئة عام من الزمن .

عصر التحشيش المالطي

ومن (غار الظلام) إلى غار آخر يدعى (الهيبوغيوم) ، وهذا الأخير معبد قديم ، يعود الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد حفره سكان مالطة في العصر الحجري تحت الأرض ، وجعلوه على هيئة غرف كبيرة وصغيرة ، خصص بعضها للجلوس وبعضها لتقديم القرابين ، وبعضها لاقامة الصلوات البدائية ، وبينها غرفة مستطيلة ، زينت جدرانها ببعض الرسومات والتخطيطات البدائية الملونة ، كما نقش عليها ما يشبه التزيينات التي حفرت في الصخر بعرض الجدار وطوله ، وإلى جانب هذه الخطوط حفرت بعض التجويفات التي يتسع الواحد منها لرأس إنسان . وتقدم مرافقنا ذو الاسم والشكل الايرلنديين ، وأدخل رأسه في إحدى هذه التجويفات ، وبدأ بإخراج أصوات متصلة ومنغمة تنغيما عجيبا ، وكانت التجاويف الأخرى والمبنى كله يردد صدى هذه الأصوات ، ويطول ترديد الصدى بفضل هذه التزيينات المحفورة في جدار الكهف وغرفه المختلفة .

توقف جون ماهوني مرافقنا المالطي عن إخراج الأصوات ، وبدأ بالشرح : لقد حفرت هذه التزيينات الجدارية حتى تنقل الصوت الى أرجاء غرف المعبد المجاورة ، وكان ذلك يمثل نوعا من التسلية والترفيه بالنسبة للمالطيين في العصر الحجري بعد يوم مرهق من العمل ، فقد كان هؤلاء يتجمعون في هذه الغرفة ، ويبدأون بالتحشيش الذي كان معروفا لديهم ، وعندما يأخذ مفعول الحشيش بالسريان في أجساد رجال العصر الحجري كان أحدهم ينهض ويدخل رأسه في أحد هذه التجاويف على جانبي الجدار ويبدأ بالتفنن في إخراج الأصوات ذات الأنغام المختلفة على النحو الذي سمعناه قبل قليل من مرافقنا . وقد يرد على هذه الأصوات شخص حجري آخر من تجويف آخر ، فيبدأ باخراج أصوات مقابلة تفوقها تنغيما ، ويأخذ الحاضرين الطرب ، وتعلو ضحكاتهم ، ويستمر تحشيشهم ، ويواصل هؤلاء إخراج الأصوات المنغمة بين ضحك الحاضرين واستحسانهم ، ويعود حشاشو العصر الحجري بعد ذلك الى كهوفهم فرحين مسرورين ، بعد أن قضوا سهرة لطيفة في زمن لم يكن فيه تلفاز أو فيديو أو مسرح يفرج همومهم الحجرية .

وقد اتخذ سكان مالطة الحجريون من امرأة هائلة السمنة إلهة للخصب والعطاء والنماء ، وكانوا بذلك صادقين مع تصوراتهم البدائية عن الخصب ، بقدر ما كانوا صادقين مع إعزازهم للحشيش وهلوساته ، إنهم يقدرون الجمال ورشاقة الجسم دون شك ، لكنهم يريدون الخصب من الهة بهذا الحجم لا يمكن لعطائها أن ينضب .

ومن معبد « الهيبوغيوم » تحت الأرض الى معبد « طرشين » فوق الأرض الذي أقامه سكان جزيرة مالطة من حجارة هائلة الحجم ، أحضروها من أماكن بعيدة دحرجة على حجارة أخرى مكورة وأصغر حجما . ويتكون المعبد من ساحتين مستديرتين ، اتصلتا عبر بوابة حجرية ، وقد توسط الساحة الأولى تمثال للالهة البدينة ، بينما توسط الساحة الثانية حوض تقدم فيه القرابين . وهذا المعبد نموذج لمعابد أخرى كثيرة تقع في أماكن متفرقة من الجزيرتين . ويعود تاريخ هذه المعابد الى فترة تقع بين الألفين الخامس والثالث الميلاديين .

وأشار لي المرافق بأن أصعد الى مكان مرتفع لألقي نظرة على سطح المعبد وحين صعدت رأيت بالفعل أن المعبد بساحتيه والبوابة التي تربط بينهما هي أشبه برسم لجسم المرأة البدينة . فالساحتان هما ردفا المرأة وصدرها ، والبوابة التي تفصل بين الساحتين هي خصر المرأة غير النحيل . وعلى أي حال فإن هذا لم يكن اكتشافي الشخصي بل نظرية يقول بها بعض المؤرخين والباحثين ، وحين صعدت الى مكاني العلوي كنت أول المؤمنين بهذه النظرية من بين العرب على الأقل .

البحر والشمس والعقل المالطي

ومن مالطة الحجرية الى مالطة الحديثة ذات البحر

شارع مستقيم وبنايات متوازية في فاليتا

والشمس والآثار التاريخية . وأهم من ذلك كله الموقع الاستراتيجي الذي جعلها عرضة لكل تلك الصراعات التاريخية التي تحدثنا عنها .

أثناء رحلته للشرق مرّ نابليون بجزيرة مالطة ، وقد سهل له الفرسان احتلالها عام ١٧٩٨ . لكن الانكليز ـ خصوم نابليون الألداء ـ لم يتركوا له تلك النقطة الاستراتيجية المهمة ، فطردوا الفرنسيين وحلوا محلهم عام ١٨١٥ ، ليبدأ فصل جديد في تاريخ الجزر المعذبة ، استمر حتى عام ١٩٦٤ عندما نالت مالطة استقلالها . لكن البريطانيين أبقوا على قواعد لهم فيها .

في عام ١٩٧٢ بدأ الخلاف يدب بين حزب العمال المالطي الحاكم وبين بريطانيا ، بشأن شروط تأجير القواعد . وفي عام ١٩٧٩ قررت مالطة الاستغناء عن القواعد العسكرية البريطانية التي كانت تدر عليها دخلا جيدا . ففقدت مالطة أهميتها الاستراتيجية ، ولم يبق لديها غير البحر والشمس والتاريخ ، وشيء واحد أهم من كل هذا ـ حسب قول موريس كروانه سكرتير شركة بناء السفن المالطية في ميناء « مرسى » بمالطة ـ هو « العقل » .

بعد خروج القواعد البريطانية من مالطة ، وجد المالطيون أنفسهم محرومين من مورد مالي مهم ، وعمل العقل المالطي على تدعيم صناعة السفن واصلاحها . تلك المهنة القديمة التي عرفت بها مالطة منذ القرن السادس عشر . وبدأت بمد جسور الاتصال مع الدول العربية ، ومنها الكويت والسعودية وليبيا والجزائر . وقد ساهمت الدولتان الأخيرتان بدعم المشروع الذي ضمن عملا لمدة عشر سنوات الى الأمام ، في عالم يعاني من التضخم حينا والركود أحيانا ، ومن التضخم والركود معا أحايين أخرى كما قال كروانه .

الى جانب هذا الميناء المهم هناك حوض جاف لاصلاح السفن في ميناء « مرسى شلوك » . أخبرنا نائب المدير ف . سموط ، أنه تعامل في صيف عام ٨٦ مع الكويت ، حيث أصلحوا سفينة كويتية ، ووجه سموط « عبر العربي » دعوة للتعامل في مجال اصلاح السفن ، مشيرا الى أوجه الشبه بين الكويت ومالطة ، باعتبارهما دولتين صغيرتين تحتلان موقعين استراتيجيين مهمين .

ومن هناك الى صوامع الحبوب التي تأتي من أماكن بعيدة مثل الأرجنتين واستراليا ، فتخزنها مالطة في صوامعها قبل توزيعها على بلدان الشرق الأوسط .

من الطريف أن نذكر أن هذه الصوامع قد كانت في الأصل مخازن للذخيرة ، يستخدمها حلف الناتو ، وعندما خرجت القواعد ، بقيت المخازن التي اختير لها مكان بين الصخور الشاهقة ، فتحولت مخازن الذخيرة الى مخازن للحبوب ، وأثبت العقل المالطي انه لا يستطيع الاستفادة من الشمس والبحر والتاريخ فقط ، بل ومن عقليته العملية أيضا .

بخروج القواعد البريطانية بدأت مالطة عهدا جديدا ، بنت خلاله علاقات جيدة مع العرب ، أشقائها في اللسان ، بينما بقي قلبها الأوروبي يشاغل جيرانها في القارة القريبة .

قالت العرب .. بالمالطية !

من أهم الكتب التي تصور العلاقة المالطية المعقدة مع كل من العرب والاوربيين ، رواية لكاتب أمريكي إسمه توماس بينشور ، وتدور أحداث هذه الرواية في الاساس حول قضايا المثقفين في مالطة خلال الحرب العالمية الثانية ، ففي هذه الاجواء تنشأ قصة حب بين بطل القصة الامريكي وفتاة مالطية ، وعندما يحاول بطل الرواية شرح مشاعره لحبيبته المالطية يجد صعوبة كبيرة ، فهو لايعرف المالطية وهي غير متمكنة من الانكليزية ، مما يحول دون اكتمال هذه العلاقة .

ويعلق البروفيسور بيتر سيراتشينو انغلوت على هذه الروايةفيقول إنها تلخص مشكلة المالطيين الاساسية ، وتتركز هذه المشكلة في اللغة نفسها ، فلغتهم سامية الاصل والتركيب وتحتوي على عدد لايحصى من المفردات العربية ، لكن مالطه بحكم موقعها الاوربي مضطرة للتعامل مع الاوربيين ، الا أن اللغة تقف حائلا دون ذلك .

رغم محاولات بعض المؤرخين القول أن اللغة المالطية هي اللغة الفينيقية القديمة ، وقول آخرين أنها كنعانية ، الا أن كل تلك تخمينات تفتقد الدليل المادي الذي يثبتها ، أما التحليل الاقرب إلى المنطق بهذا الشأن ، فهو أن اللغة المالطية لغة عربية ، دخلت مالطة مع الفتح العربي للبلاد ، لذا فان اللهجة الغالبة على هذه اللغة هي لهجة أهل المغرب العربي ومثل غالبية لهجات المغرب العربي فإن الفعل لديهم يبدأ بحرف النون وينتهي بحرف الواو كما هو الحال في معظم دول شمال أفريقيا مثل « نـاكلو » و « نكتبو » وغيرها .

وبالطبع فإن تغيرات عديدة طرأت على نطق بعض الأحرف فحرف الدال يقلب إلى تاء في كلمة « الدرج » لتصبح « الترج » ، والصاد قد تقلب إلى سين ، والقاف إلى همزة وهكذا ، كما هو الحال في كثير من اللهجات العامية العربية .

وبينما كنا في الطريق إلى أحد المصانع هناك وجدنا البوابة مغلقة ، فقال مرافقنا للسائق « هيا من الـدرب الاخرى » أي لنـذهب من الطريق الأخرى .

وكما قال البروفيسور انغلوت فتأثير اللغة العربية في اللغة المالطية لم يقتصر على المفردات فحسب ، بل هو موجود في التركيب الداخلي للغة .

وقد أخذ هذا التأثير مداه عبر طريق معقدة إلا أنها استقرت في الوجدان الاجتماعي للشعب المالطي ، وذلك من خلال الأمثال التي يرددها المالطيون . ولا يحصى عدد الأمثال المالطية التي لاتعكس تأثيرا لغويا فحسب بل تعكس حياة إجتماعية عربية الخصائص أيضا .

ومن كتاب يدرس في مناهج المدارس الثانوية بمالطة إسمه « قويل مالطين » أي الأقوال المالطية ، اخترت مجموعة من الأمثال ، حاولت أن أفهمها دون الرجوع إلى ترجمة عربية أو انكليزية ، ومن هذه الأمثال ، « كلب راقد

وجه مالطي بجانب معبد قديم

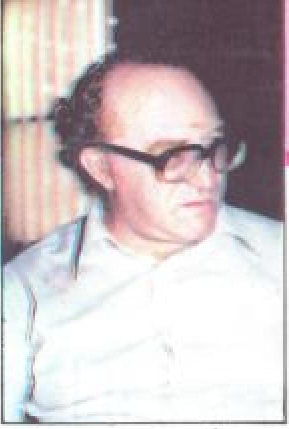

البروفيسور بيترسيرانتشينو انغلوت

لاتقيموش » ، « عقل وفلوس مين عنده » ، « رقد بالجوع حلم بالفطاير » ، « خنزير تقطعلو دنبو خنزير يبقى » ، « الطيب الله » ، و « بعد الضحك ييجي البكي » ، « البحر يكشف كلش » ، « وبعيت من العين يعيت من القلب » ، « وعين ما ترى قلب ماتوجع » ، وكلها امثال لا تحتاج الى أي ترجمة .

أما الأسماء فمشكلتها أبسط من ذلك بكثير ، فقد دلني مرافقنا على مكتبة أجد فيها كتاب « قويل مالطين » السالف الذكر ، فقال أنني قد أجده لدى مكتبة « عجوز وعجوز » ، ومن هنا بدأت رحلة لاتنتهي مع الأسماء المالطية ذات الأصول العربية .

ويكفي أن نشير إلى أن إسم رئيس وزراء مالطة الأسبق دوم « منتوف » ، وإسم رئيس الوزراء السابق كارلوبونيتشي « مفسود » وإسم رئيس الجمهورية الأسبق الراحل « بودجيج » ولمن قد لايفهمون المعنى فإنه « بودجاج » . وقد كان هذا الرئيس مثقفا وشاعرا أطلق على أحد دواوينه الشعرية اسم « قصبة مالريه » أي « قصبة مع الريح » .

والطريف بالنسبة للاسماء أن تعاقب الحكام على مالطة أوجد حالة غريبة . فبعض الاسماء تغيرت حسب اللغات الاوربية ، ولفظ كل من هذه اللغات لهذا الاسم مثل « كارل » الذي تحول الى « تشارلز » و « جوزيبي » الذي تحول الى « ازيف » ليتواءم مع انتقال مالطة من الحكم الروماني الى الحكم الانجليزي .

وفي حالات أكثر طرافة وشذوذا ترجمت بعض الأسماء ترجمة حرفية من لغة الى لغة ، وهكذا فإن لقب « كتكوتي » هو « بولتشينو » الاول عربي والثاني ايطالي .

غير أن اللغة المالطية المحكية منذ زمن طويل نسبيا لم توضع لها القواعد إلا في الثلاثينات من هذا القرن ، وقبل ذلك لم تكن تستخدم كتابة ، ولكن مع بداية هذا القرن كان هناك اتجاهان رئيسيان بشأن لغة البلاد ، الاول يدعو إلى جعل الانكليزية هي اللغة الرسمية والثاني ينادي بجعل اللغة الإيطالية هي لغة البلاد ، ولم يكن من مدافع عن اللغة المالطية سوى أقلية ضئيلة . إلا أن تطورا هاما نشأ في الثلاثينات ، عندما وضعت قواعد خاصة باللغة المالطية .

ولكن حقيقة مهمة برزت بعد ذلك ، وهي أن اللغة المالطية ليس لديها تراث مكتوب يغني اللغة ويثريها بالمفردات والمصطلحات والتعابير التي تعبر عن شتى نواحي الحياة العصرية . لذا فقد توجد رواية وقد يوجد ديوان شعر ولكن لايوجد كتاب في الفلسفة ، أو في فلسفة التاريخ مثلا ، فمثل هذه الكتب متوفرة باللغة الانكليزية أو الايطالية حتى لو كان كتابها مالطيون .

وفي القرن الماضي ذهب اللغوى اللبناني أحمد فارس الشدياق الى مالطة ومكث هناك فترة درس خلالها اللغة العربية في مدارس مالطة ، وعاب على أهل البلاد أن لغتهم هي عامية عربية ، ودعا الى أن يعود المالطيون إلى أصل لغتهم الحالية ، أي إلى اللغة العربية الأم حتى يصلحوا ما أسماه لغتهم « الفاسدة » . واليوم ، بعد نحو قرن من الزمن على كلام الشدياق يجد المالطيون أنفسهم أمام مفترق طرق لغوي ، بل أن هناك من يتوقع أن تموت اللغة المالطية ، إذا لم يجر تطويرها وإثراؤها .

أما الخيار الآخر فهو أن تكتب المؤلفات الأساسية بالإنكليزية والإيطالية وتبقى لغة مالطة لغة محكية أو لغة عربية « فاسدة » كما قال الشدياق . □

البيريليوم

معدن العصر

بقلم : الدكتور محمد أبوبكر *

البيريليوم معدن قديم جديد ، عرفه الانسان منذ فجر التاريخ ، واستخدمه ، لكنه في القرون الثلاثة الأخيرة اكتشف خصائصه ومكوناته النادرة ، فتزايد استخدامه في المجالات الدقيقة والمهمة .

فما هي قصة هذا المعدن الثمين ؟

إن معدن البيريليوم قد اكتشف في عام ١٨٢٨م من قبل « ڤيولر » (ومن قبل « بيوسي » مستقلا عنه) بارجاع كلور البيريليوم بالبوتاسيوم ، وحصلا عليه حرا . ومع هذا فقد تمكن الفرنسي « لبو » بعد سبعين عاما من الحصول على معدن البيريليوم النقي وذلك بالتحليل الكهربائي لأملاحه المصهورة .

وقد عرف الانسان البيريليوم في فلزاته منذ ما قبل التاريخ ، إذ أن الزمرد واحد من الفلزات الكثيرة للبيريليوم : كالاكوامارين ذي اللون الأخضر المزرق كزرقة ماء البحر والبيريل الأخضر المصفر ، والفناكيت ($Be(SIO_4)$) الأكثر صفاء من الماء ويشكل Beo فيه نسبة ٤٥,٥٪ . والأكلاز ذي اللون الأزرق اللطيف ، والكريزوبيريل الأخضر الشفاف وفيه

* أستاذ بكلية العلوم ـ جامعة حلب .

Beo بنسبة ١٩٪ والالكسندريت ذي اللون الأخضر الكثيف نهارا والقرمزي ليلا تحت ضوء المصباح الكهربائي .

اكتشاف البيريليوم

تبدأ قصة الانسان مع البيريليوم إذاً منذ أن تعرف على الزمرد ، وقد عرفت مناجم الزمرد منذ أكثر من ألفي عام في صحراء النوبة القاحلة ، حيث كان يستخرج بلورات مدهشة من حجر الزمرد الأخضر ، ثم ينقل إلى شواطيء البحر الأحمر ، ومن ثم إلى قصور حكام اوروبا والشرقين الأوسط والأقصى ، إلى أباطرة بيزنطة وملوك فارس وراجات الهند .

وبعد وصول الأوروبيين إلى أمريكا وجد الاسبان في المقابر والمعابد في المكسيك والبيرو وكولومبيا كميات هائلة من أحجار الزمرد الأخضر المعتم ، فأخذوا ينهبون ما استطاعوا منها ، ولم يعثروا على مناجم الزمرد في كولومبيا إلا في منتصف القرن السادس عشر ، إذ أن الهنود الحمر كانوا يتكتمون على سر وجودها .

في القرن التاسع عشر اكتشف الزمرد في الأورال ، وفي عام ١٨٣٤ تم العثور في أحد المناجم في الأورال على زمرد ضخم جميل ، بلغ وزنه كيلوغرامين و ٢٢٦ غراما ، فنقل إلى العاصمة بطرسبورغ ، ومنها هُرّب إلى فيينا ، مما اضطر الحكومة الروسية إلى إعادة شرائه من النمسا ، وأصبح الآن في متحف أكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو .

يستخدم البيريل من بين جميع فلزات البيريليوم في الصناعة ، وقد أمكن الحصول في الطبيعة على بلورات ضخمة منه ، تزن عشرات ومئات بل وألوف الكيلوغرامات ، وقد بلغ طول أضخم بلورة منها حوالي تسعة أمتار ، ويوجد حاليا في المتحف الجيولوجي في لينتغراد بلورة من البيريل طولها متر ونصف متر .

لم يسحر الزمرد بجماله هواة جمع الأحجار الكريمة فقط ، وإنما استأثر باهتمام الكيميائيين أيضا ، وبسبب كونه كثير الشبه بالالمنيوم ومتباينا معه في نفس الوقت فقد شوّش أمر الوصول إليه العالم مندليف لدى ترتيبه الجدول الدوري ، إذ كان يظن أنه ثلاثي التكافؤ ووزنه يعادل ١٥,٣ وبالتالي يجب أن يكون موقعه بين الكربون والنتروجين ، وهذا يتعارض مع ظاهرة التغير القانوني لخواص العناصر ، ويشكك في صحة الجدول الدوري للعناصر . وبما أن مندليف كان شديد الثقة بصحة الجدول الدوري والقانون الدوري فقد وجد أن تعيين الوزن الذري للبيريليوم كان خاطئا ، وأن تكافؤه يجب أن يكون ثنائيا وليس ثلاثيا ، وبخاصة أنه شبيه بالمغنزيوم . لهذا فقد صحح مندليف وضع البيريليوم في الجدول الدوري ، وجعله في الفصيلة الثانية ، وجعل وزنه الذري مساويا(٩). وبالفعل فقد وجد الكيميائيان السويديان « نيلسون » و « بيترسون » فيما بعد أن الوزن الذري للبيريليوم هو ٩,١ ، وهكذا بعد أن كان البيريليوم مشككا في الجدول الدوري أصبح مؤكدا له . ومما تجدر الاشارة إليه أنه في ١٧٩٨/٢/١٥ كان قد أعلن فوكلين في اجتماع اكاديمية العلوم الفرنسية أن البيريل والزمرد يحتويان على « تراب » جديد ، يختلف في خواصه عن الألومينا ، (اوكسيد الالمنيوم) ، واقترح تسمية العنصر الجديد المكتشف بالجليسينيوم بسبب طعم أملاحه الحلوة ، وهذه التسمية هي الشائعة حتى الآن في فرنسا .

الطفل الذكي

في الحقيقة قصة البيريليوم كقصة الطفل الذكي ، ما أن تنعته « بالشقاوة » بسبب أعراض الطفولة ، حتى يأتيك بما يثبت أنه ذكي ويجعل نفسه محبباً . بالفعل نجد مثلا أن المراجع الكيميائية ظلت حتى بداية القرن الحالي تنعته بأنه عنصر خامل وكسول ، لكن ما أن تمكن العلم من الوصول إليه نقيا ودراسة خاصياته ، حتى تبين مقام البيريليوم المرموق ، من ذلك مثلا أن متانة البيريليوم تفوق متانة الفولاذ

خام البيريليوم .. قبل أن يتحول إلى سبيكة

متانة تفوق متانة الفولاذ

المستعمل في الانشاءات ، وبنفس الوقت هو واحد من المعادن الخفيفة ، ودرجة انصهاره أعلى من درجة انصهار كل من الالمنيوم والماغنزيوم ، ليس عجباً إذاً أن يصبح البيريليوم اليوم إحدى المواد الأساسية لصنع الطائرات ، فأجزاء الطائرة المصنوعة من البيريليوم أخف بمرة ونصف من الأجزاء المصنوعة من الألمنيوم .

من ناحية أخرى نجد أن الناقلية الحرارية للبيريليوم ممتازة ، وأن سعته الحرارية عالية ، ومقاومته للحرارة جيدة جدا ، أعجباً إذاً أن يدخل البيريليوم في صناعة الصواريخ ، وأن يدخل في صناعة قمرة سفينة الفضاء « فرندشيب - ٧ » التي حلق فيها جون غلين ؟ أضف إلى ذلك أنه يدخل في صناعة جيروسكوبات الصواريخ ، أي الأجهزة الداخلة في مجموعة توجيه وحفظ توازن الصواريخ وسفن الفضاء والأقمار الصناعية ، وذلك لأن الأجزاء المصنوعة من البيريليوم تبقى محافظة على أبعادها بدقة متناهية . وأكثر من هذا أن الحرارة المنتشرة من احتراق البيريليوم عالية جدا فمقدارها ١٥٠٠٠ كيلوكالورى للكيلوغرام الواحد ، وهذا ما جعله مكونا من مكونات وقود الصواريخ المتوجهة نحو القمر والكواكب الأخرى .

ليست هذه المآثر هي كل ما في جعبة البيريليوم ولنا في سبائكه ما يوضح ذلك : فدخوله مع النحاس

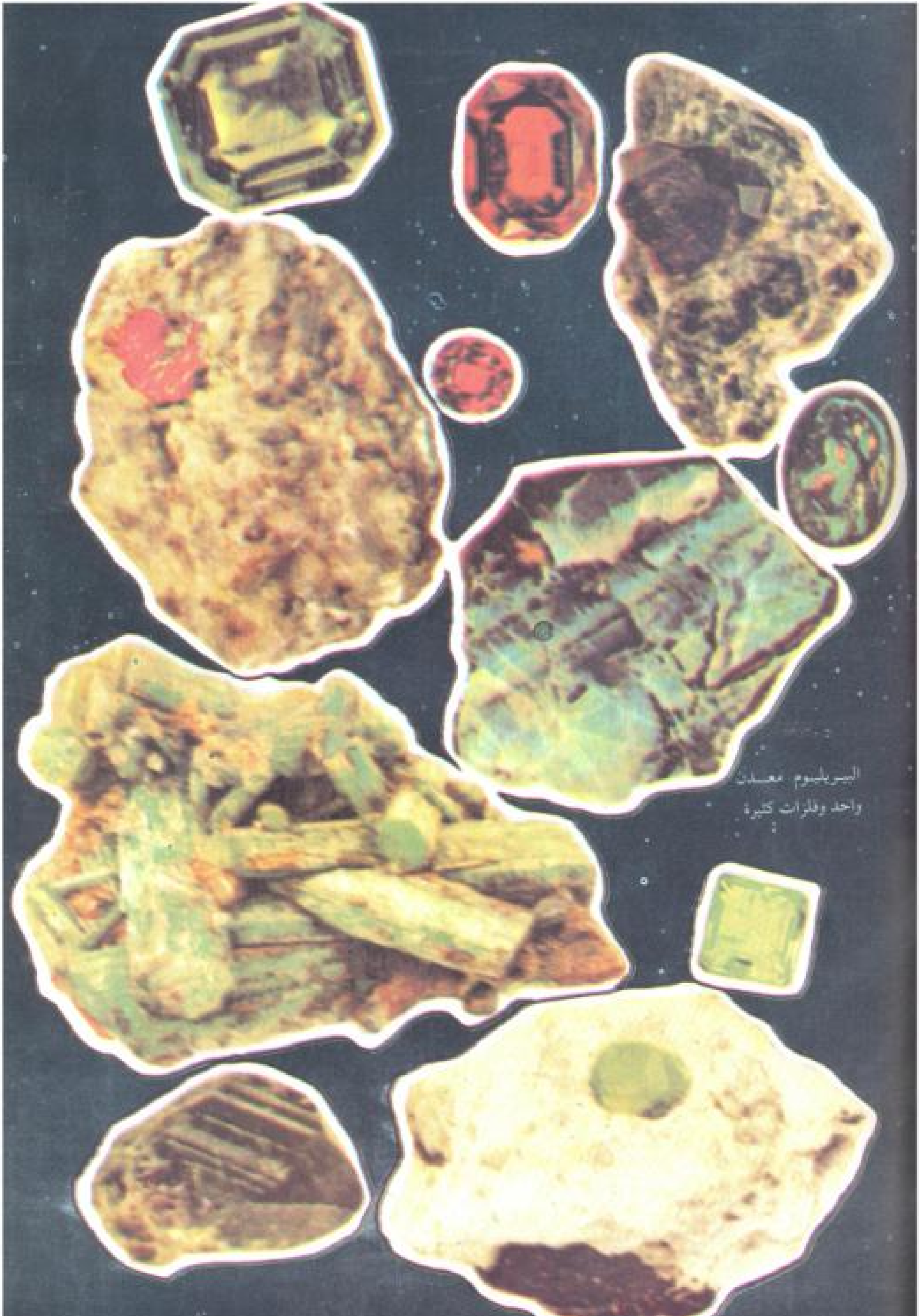

البيريليوم معدن واحد وفلزات كثيرة

بسبيكة تحتويه بنسبة ٢,٥٪ مع إضافات من النيكل والكوبالت بنسب ٠,٥ - ٢,٠٪ يشكل ما يسمى برونز البيريليوم الذي يتمتع بصلابة ومتانة عاليتين ، وبناقلية جيدة للحرارة والكهرباء ، وبثبات عال تجاه التآكل . لهذا فقد دخلت هذه السبيكة أيضا في صناعة الطيران ، ووجدت تطبيقات واسعة لصنع السلع التي يجب أن تكون متينة جدا ومقاومة للكلال والتآكل ، وذات ناقلية عالية للحرارة والكهرباء ، وتحافظ على مرونتها في مجال واسع من درجات الحرارة . يكفي أن نشير هنا إلى أن عدد الأجزاء المصنوعة من هذه السبائك والمستخدمة في الطيران الحديث يقدر بأكثر من ألف جزء وأنه من هذه السبائك المرنة تصنع نوابض رائعة لا تعرف الكلال عمليا ، وقادرة على تحمل ٣٢٠ مليون شوط من الحمولات متغيرة الاتجاه .

على سيرة النوابض المصنوعة من برونز البيريليوم نذكر هذه الطرفة التاريخية .

الخديعة الحربية

كانت ألمانيا الهتلرية تستقدم برونز البيريليوم من الولايات الأمريكية التي كانت تستأثر عمليا بمجمل الانتاج العالمي من هذا الفلز الاستراتيجي ، ثم فقدت الصلة بمصادره ، فقررت استخدام البلد المحايد سويسرا لتمرير خديعة مناسبة ، فأوعزت لبعض الشركات السويسرية أن تستورد برونز البيريليوم ، بحجة استخدامه لصنع نوابض الساعات . إلا أنه تبين أن الكمية المطلوبة كافية لسد حاجة العالم كله على مدى ٥٠٠ عام ، فافتضحت الخديعة وأوقفت عملية البيع . ومع ذلك لوحظ وجود نوابض من برونز البيريليوم في المدافع الرشاشة المركبة على الطائرات الألمانية في الجيش النازي .

استخدامات متعددة

يدخل البيريليوم أيضا مع الفولاذ بسبيكة لا تعرف الكلال . فنابض السيارة المصنوع من الفولاذ الكربوني العادي يتكسر بعد ٨٠٠ - ٨٥٠ ألف

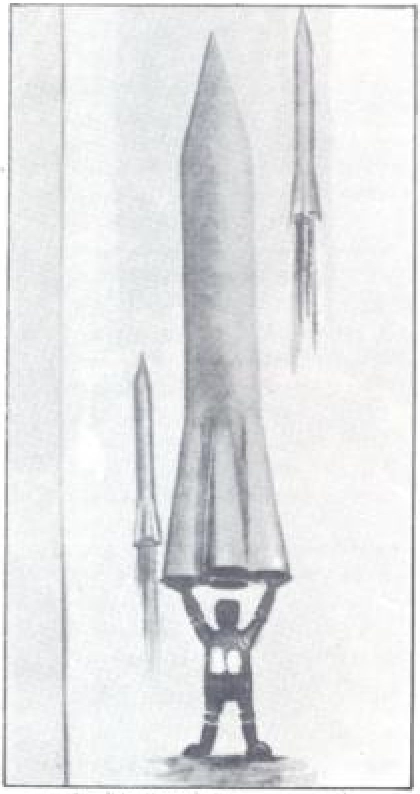

الصواريخ .. يدخل في صناعتها البيريليوم

صدمة ، أما الفولاذ المعالج « بفيتامين Be » فيعطي نوابض تتحمل ١٤ مليون صدمة دون أن تظهر عليه آثار الكلال .

من المهم أن نشير إلى أن برونز البيريليوم لا يعطي شررا عند اصطدامه بحجر أو فلز ، وهذا هو عيب الفولاذ . لهذا فهو يدخل على نطاق واسع في صنع الآلات المعرضة لخطر الانفجار كالمناجم ومصانع البارود ومستودعات النفط .

مع المغنزيوم يدخل البيريليوم بكميات قليلة جدا لا تتعدى ٠,٠١٪ بسبيكة لا تشتعل أثناء الصهر في درجة ٧٠٠ كما ينخفض بشدة ميلها إلى التأكسد في الدرجة المذكورة ، وترتفع مقاومة التآكل لديه أيضا .

وفي الطب الاشعاعي وجد أن البيريليوم خير من جميع المعادن الأخرى الثابتة في الهواء . من حيث تمرير الأشعة السينية (أشعة رنتجن أو أشعة X) . لهذا نجد الآن أن « المنافذ » الخاصة بتمرير الأشعة السينية إنما تصنع من البيريليوم ، وذلك لقدرتها على تمرير أشعة « X » بقدرة تفوق قدرة « المنافذ » المصنوعة من الالمنيوم بسبع عشرة مرة .

يدخل البيريليوم أيضا في الصناعة النووية ، فهو أول من قدم الجسيمات المحايدة من الذرة . كان ذلك منذ الثلاثينيات من هذا القرن ، عندما قذف العالمان الألمانيان « بوته » و « وبيكر » البيريليوم بالجسيمات فنفذ منه إشعاع ضعيف لكنه شديد الاختراق أسمياه « الاشعاع البيريلي » ، تبين أنه يستطيع المرور من خلال طبقة من الرصاص سمكها عدة سنتمترات . لقد درس العالم الانكليزي « شدفيك » طبيعة هذا الاشعاع ، وبين أنه ليس إلا الجسيمات المحايدة كهربائيا التي تساوي كتلة الواحدة منها كتلة البروتون ، وقد سميت النوترونات .

لما كانت النترونات غير مشحونة كهربائيا فهي قابلة للدخول بسهولة في نوى ذرات العناصر الأخرى . لهذا نجد أن النوترونات أصبحت أكثر « القذائف المدفعية » فعالية ، وأكثرها استعمالا في الصناعة النووية .

أضف إلى ذلك أن البيريليوم ، من حيث موقعه في الجدول الدوري ، قد تبين أنه ضعف الالتقاط للنوترونات ، لذا فهو يشتتها ، ويغير اتجاه حركتها ، كما يُبطيء سرعتها ، يجعل التفاعلات السلسلية أكثر فعالية ، وهو بالفعل أفضل المواد الصلبة إبطاء للنوترونات ، فهو يصدها ، ويعيدها إلى المنطقة الفعالة من المفاعل ، ويحول دون تسربها من هناك . ولما كان البيريليوم بالاضافة إلى كل الخاصيات المذكورة ذا ثبات إشعاعي كبير في الدرجات العالية من الحرارة ، لذا فقد أصبح واحداً من العناصر الضرورية جدا في التقنية الذرية .

في مجال نقل الصوت تبين أن البيريليوم ذو باع طويل ، فإن كانت سرعة الصوت في الهواء ٣٣٠ م/ ثا ، وفي الماء ١٤٥٠م/ ثا وتبلغ سرعة البيريليوم ٢٥٠٠م / ثا .

من بين مركبات البيريليوم المهمة نذكر اوكسيد البيريليوم الذي يتمتع بخاصيات فريدة متعددة : فهو ذو درجة انصهار عالية ٢٥٧٠° ، وثبات كيميائي عال ، وناقلية للحرارة عالية . لهذا فهو يستعمل لتبطين الأفران التي تعمل بالتحريض ، وفي صناعة البوتقات المستعملة لصهر الفلزات والسبائك المختلفة ، كصهر البيريليوم على الأخص ، كما يدخل في أغلفة المواد الناشرة للحرارة في المفاعلات الذرية

أخيرا من المرتقب ، بسبب شدة عزل اوكسيد البيريليوم أن يستعمل لدى دراسة الطبقات العميقة من الكرة الأرضية ، وهناك مشروع لاستئصال عينات من القشرة الأرضية تقع على عمق ٣٢ كيلومترا ، وذلك بواسطة ما يسمى الابرة الذرية ، وهي عبارة عن مفاعل ذري صغير جدا ، يغلف بغلاف عازل للحرارة مصنوع من اوكسيد البيريليوم .

ليس عجبا بعد كل هذه المآثر أن يصبح البيريليوم في القرن العشرين واحداً من أهم فلزات العصر . ومن المهم أن نشير إلى أن أهم مكامنه تقع في الولايات المتحدة الأمريكية وكولومبيا وجنوب امريكا ، وأن نسبته في القشرة الأرضية هي ٦ ، ٤ . ١٠٪ وأن مركباته الطيارة والغبار الذي يحويها مواد سامة جدا . □

■ التمسوا الرزق في خبايا الأرض . (حديث شريف)

الطواسين

شعر : خالد سعود الزيد

قلتُ لمعلمي ماذا يعني الحلاجُ بكلمةِ (الطواسِين) ؟ قال : (ألْ) بمعنى الذي . و (طوى) فعل ماض بمعنى أخفى . و (س) تعني ذلك المخفي .

عُدْ بي إلى حرفِ الوجو دِ المشرئبُّ لمنتهاها
منْ سدرة الحقِّ القديـم المستجدُّ على مداها
ما بين غادٍ أو مقيم لم يكنْ فيها سواها
يا (سينُ) إنْ لم يعرفوا مَنْ كنتَ . إنَّ الله باهى
صلَّ عليك اللهُ . والـ اسمُ المترجِمُ عنك طاها
ما كنتَ إلا المنتهى فيها،وإنك مُبْتَداها
جئنا إليك اليوم نَفْـخرُ والفخارُ لمن أتاها
يا كعبةَ العافينَ يا وجهَ الحقيقةِ يا سناها
جئنا إلى الأرضِ المقدَّ سةِ الحمى ، إنّا فداها
يا قبلةً صلَّ لها الـوِجْدانُ ما أحلى شذاها
ما كان غيرك في قديـماتِ العصورِ وما تلاها
يا واحداً في القبلتيـنِ لأنت أولُ مَنْ بناها
لا يَحْزُنْنك من يُسَا رعُ في الهوى أو مَنْ قلاها
فلسوفَ يشهدُها الجميـعُ ، وعند ربك منتهاها

وجهاً لوجه

د. يس عبد الغفار و نجاح عمر

- "الكبد" مشكلة عربية عامة
- إنسان العالم الثالث هل تحول إلى حقل تجارب؟
- لم يكن "للكبد" علاقة باختياري الطب، كان السبب دينيا
- شباب هذا الجيل، ظالم أم مظلوم؟

منحت الجائزة التقديرية في مصر ـ هذا العام ـ لنفر من كبار العلماء والمفكرين الذين تميز عطاؤهم لوطنهم مصر وأمتهم العربية بالخصوبة ، والتميز ، وكان من بينهم الدكتور يس عبد الغفار الذي يعتبر رائد أمراض الكبد في مصر والوطن العربي .

وفي الحوار الذي أجرته معه الزميلة نجاح عمر يتعرض الدكتور يس لواحد من أخطر التحديات التي تواجه إنساننا العربي مبشراً بقدرتنا في السيطرة عليه .

كنت أتصور أني سأقتحم هموم إنسان العالم الثالث من باب « الكبد » ، فمحدثي هو الدكتور يس عبد الغفار ، أو الباحث الطبيب الذي تبدأ الحياة عنده وتنتهي عند ذلك « العضو » الفرد الذي لا يشاركه وظيفته أي عضو آخر .

كنت أتصور أن العلاقة بين الطبيب ورسالته لها تاريخ ما ، فالدكتور يس ابن القرية المصرية التي يحمل ٩٠٪ من أبنائها البلهارسيا أينما ذهبوا . وعندما ذهبت إليه كانت المفاجأة . لقد قادني الطبيب الكبير إلى الطب من باب الأدب !

ـ قال : نعم ، هناك علاقة بين طفولتي ودراسة الطب . لقد درست الطب عن اختيار كامل من جانبي ، لقد نشأت في « تلا » إحدى قرى محافظة المنوفية ،وحتمت عليّ ظروف حياتي أن أنشأ في جو ديني ، هذا الجو مكنني من التمكن اللغوي ، فقد فرضت عليّ القراءة نفسها إلى الحد الذي استطعت به أن أكتب الشعر وأنا في الرابعة عشرة من عمري .

جدي معلمي الأول :

علقت : هذه البداية كانت مقدمات لكي تغدو شاعراً لا عالماً ولا طبيباً .

ـ بالفعل ، كان المفروض أن أنضم للقسم الأدبي ، إلا أنه حدث شيء جعلني أختار القسم العلمي ، وبخاصة الطب . كانت الكتب الدينية جزءاً من قراءاتي ، وعندما كنت أقرأ لحجة الاسلام الإمام الغزالي ...

* كنت تقرأ للغزالي وأنت ابن الرابعة عشرة ؟

نعم ، كنت أقرأ له كثيراً ، بعض مؤلفاته ضمت أربع مجلدات ومع ذلك قرأتها . ففي تلك الفترة لم يكن هناك ما يلهي الشباب ، كما هو الحال الآن ، حيث السينما والتلفاز والفيديو ، إلى آخره . المهم قرأت للإمام الغزالي : « أن تعلم الطب في الإسلام فرض كفاية » ، بمعنى أن أي مجموعة من المسلمين تشكل مجتمعاً ما ، يجب أن يتعلم الطب فيها واحد منها ، أي واحد ، وإلا فقد أثم الجميع . وأنا أقرأ هذا اتضح لي أن الإسلام يخص مهنة الطب بهذه الميزة العظيمة التي لم يخلعها على أي مهنة أخرى .

اكتشفت هذه الحقيقة وأنا في فترة الاختيار بين العلمي والأدبي ، وكان عمري ١٤ عاماً . وأعترف في ذلك لجدي بالفضل ، فقد كان جدي من كبار المشايخ ، وكان رجل دين متفتحاً يتحدث الانجليزية ، لكنه نزح إلى القرية ، وأقام فيها ، وسلك المسلك الديني المستنير . كانت له مكتبة كبيرة . ثم وقع ما صدمني ، فقد توفي جدي وأنا ابن اثني عشر عاما ، وسبب ذلك صدمة كبيرة لي ، فلم يكن أمامي إلا أن أعتكف على الحياة الأخرى .

توقفت عن الرياضة والحياة الاجتماعية وعكفت على القراءة الدينية ، قرأت كتب محي الدين بن عربي «الفتوحات المكية» و «الفتوحات المدنية» . التي كان الكثيرون يعجزون عن فهمها ، كانت ألغازاً مغلقة لا يفهمها إلا الواصلون . تصوفت لا قراءة فقط ، ولكن تطبيقاً وعملاً .

● كيف يجمع الإنسان بين العلم والتصوف ؟

ـ التصوف تعذيب للنفس كي تنقى ، فالروح سجينة الجسد ، وكلما أتحنا الفرص للروح كي تسمو على نزعات الجسد اقتربنا من الوصول . ومن عادة المتصوفين أخذ النفس بالشدة . وهذه الشدة مارستها وأنا صغير . هذه الفترة أثرت على حياتي حتى اليوم ، لقد تعودت القفز فوق المصاعب حتى أصبحت الآن لا أرى أي موانع في الطريق ، لم تعد في حياتي صعوبات غير قابلة للتغلب عليها .

وهكذا أصبحت طبيباً . لم يكن « للكبد » علاقة باختياري ، كان السبب دينياً محضاً ، لكن عندما مارست المهنة تبين لي أن أمراض الكبد تشكل مشكلة مادية وصحية ، على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، فكان من الطبيعي أن أتجه بدراساتي وأبحاثي لمواجهة هذه المشكلة .

ـ الدكتور يس عبد الغفار .
ـ رائد أمراض الكبد في مصر والوطن العربي .
ـ أشرف على إنشاء مراكز أبحاث ووحدات علاج الكبد في الرياض ، وجدة ، وتعز ، وصنعاء ، والحديدة .
ـ أما في مصر فقد ولد على يديه المعهد الوحيد لأمراض الكبد في المنطقة العربية وأفريقيا والشرق الأوسط .
ـ له تسعون بحثاً علمياً .
ـ أشرف على نحو ٣٤ رسالة دكتوراة .
ـ حصل على العديد من الأوسمة والنياشين وأنواط الشرف والجدارة ، وجوائز الدولة ، وآخرها جائزة الدولة التقديرية ، بعد أن رشحته لها خمس جهات علمية متخصصة .

المواجهة عربيــاً

عندما أعلن الدكتور يس عبد الغفار المواجهة مع أمراض الكبد لم تكن معركته إقليمية ، إنما كان ميدانه الوطن العربي بطوله وعرضه .

في السعودية كان يأمل في إنشاء معهد للكبد ، وبالفعل سعى إلى ذلك ، وكلل سعيه ببعض النجاح . كان يتصور أن إمكانيات السعودية الضخمة سوف تمكنه من إنشاء أول معهد من نوعه في العالم ، وكانت بداية المشروع تبشر بذلك ، فقد تبنى الحرس الوطني السعودي كل الخطوات اللازمة ، من تخطيط ودراسات وتوفير الأرض وإجراء المناقصات ، ولكن حالت ظروف الوطن العربي دون إتمام « الرحلة » ، فقد نشبت حرب الخليج ، وانخفض سعر النفط ، ولم تتم المسيرة ، فانكمش الحلم إلى مركز لأبحاث الكبد في الرياض مهمته فحص المرضى وعلاجهم ، فضلاً عن بعض المهام الأخرى .

فالمركز يتولى عقد دورات تدريبية ودراسية لتدريب الأطباء العرب على مستوى الوطن العربي ، وفي أعقاب كل دورة يعقد مؤتمر عربي في أمراض الكبد ، حتى الآن عقد المركز في القاهرة أربع دورات تدريبية ، مدة كل منها أسبوعان ، يقضيها الدارس بين المحاضرات النظرية والتدريب العملي . شارك فيها الأطباء العرب ، ثم امتدت هذه الدورات لتشمل أطباء أفارقة أيضاً ، قدموا أبحاثهم وأوراقهم العلمية في هذا المجال .

في السودان أنشأ وحدة لأمراض الكبد ، وكذلك في اليمن .

ثم تكرر العمل في عدد كبير من الأقطار العربية ، حيث التقى الدكتور يس عبد الغفار بعدد من الأطباء المهتمين بأمراض الكبد الذين اقتنعوا بأهمية وجود عمل عربي موحد .

لكن على الرغم من هذا الإنجاز الضخم ، فالفخر الحقيقي لرائد علاج الكبد في مصر والوطن العربي ، وهو معهد الكبد في المنوفية . قال الدكتور يس : إن كان لي أن أفخر بشيء فهو « بمعهد الكبد » ، وهذه هي الأسباب : فالمعهد يستطيع أن يقوم بمهام علمية كبيرة ، وسوف يحقق عدة مطالب على مستوى مصر والأقطار العربية الأخرى ، بل والمنطقة كلها ، أفريقيا والشرق الأوسط ، بعد أن أصبح هو المعهد الوحيد في المنطقة .

* ما هو الفرق بين هذا المعهد وأي وحدة علاجية أخرى ؟

- إن مهمة المعهد ليست فقط تحقيق الرعاية الطبية لمرضى الكبد . وليست أهمية المعهد في كونه متخصصاً في مرض من الأمراض الأوسع انتشاراً في المنطقة ، لكن بالإضافة إلى ذلك فيه يتم إجراء الأبحاث العلمية على المستوى الرفيع ، وبأحدث الوسائل التي تسمح بها إمكانيات التقنية المعاصرة . هذا فضلاً عن توفير وسائل التدريب للأطباء العرب والأفارقة .

بتفاصيل أكثر يشرح الدكتور يس المشكلة : « عندما نتصور أن مشكلة مصر والأقطار العربية الأخرى الأساسية هي أمراض الكبد نتبين قيمة هذه الرعاية الطبية .

أمراض الكبد

* المعروف أن الكحوليات واحدة من أهم الأسباب الرئيسية لأمراض الكبد ، فأينا الضحية الكبرى لهذا المرض ، نحن أم الغرب ؟

- في مصر والأقطار العربية الأخرى أمراض الكبد أكثر انتشاراً ، أما في الغرب فأمراض القلب في المقدمة ، ثم السرطان في المرتبة الثانية ، ثم الكبد في المرتبة الرابعة على قائمة الأمراض .

وبالتالي فأسباب الوفاة في المجتمع الغربي على أساس كثرتها وشيوعها نجد أن أمراض القلب هي السبب الأول ، ثم السرطان ، ثم حوادث الطائرات ، ثم الكبد .

أما نحن فعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة تجعلنا نتحدث بثقة كالحديث عن المجتمع الغربي نستطيع أن نقول إن سبب الوفيات الأول هو أمراض الكبد .

* إذا قلنا ان العلاقة كبيرة بين أمراض الكبد والبلهارسيا فهل تنتشر البلهارسيا في الأقطار العربية على الرغم من عدم وجود أسلوب ري الأرض الزراعية الذي يسمح بتفريخ قواقع البلهارسيا ؟

- البلهارسيا منتشرة أيضاً في الأقطار العربية الأخرى وليس في مصر وحدها ، ففي كل مناطق السعودية الخمس توجد آبار وبرك تسمح بالإصابة بالبلهارسيا . ويوجد الفيروس (ب) المتسبب بأمراض الكبد كذلك في اليمن ، وفي ليبيا ، ومصر ، وفي شمال أفريقيا توجد نسب إصابة متقاربة ، تتراوح بين ٥ إلى ١٠٪ بين المواطنين الذين يحملون فيروس (ب) الذي يسبب التهابات الكبد وأمراضها المزمنة والسرطان . هذا بينما في بلد كانجلترا مثلاً نجد نسبة المصابين بهذا الفيروس لا تتعدى ٠,٥٪ ، وفي أمريكا لا تزيد عن ٠,١٪ .

* إذن تستطيع أن تقول إن سرطان الكبد منتشر أيضاً ؟

- لا ، السرطان غير منتشر ، لكن المشكلة في

تليف الكبد ، إذ لا علاج له ، وهذا ما نحاول مواجهته في معهد الكبد . ومن هنا تأتي أهمية المعهد ، فعبد الحليم حافظ الذي كان مصاباً بتليف في الكبد كان يذهب إلى لندن للعلاج ، والآن يوجد الآلاف من أمثال « عبد الحليم حافظ » من مصر والأقطار العربية والأخرى لكنهم يعالجون في معهد الكبد بدلاً من السفر إلى الخارج ، أيضاً بالإضافة إلى هؤلاء يوجد آخرون مرضى بالكبد . فأين هؤلاء ؟ إن أوضاعهم المادية تمنعهم من السفر إلى الخارج ، وبالتالي فمكانهم الحقيقي هو « معهد الكبد » .

أبحاث جديدة :

* إذا كان المرض بهذه الخطورة ، والمعهد بهذه الأهمية ، فماذا قدم المعهد من جديد لأمراض الكبد ؟

ـ إن ما يقدمه المعهد من أبحاث في هذا المجال على جانب كبير من الخطورة والأهمية ، لسبب واحد بسيط هو أن أبحاث الغرب لا تفيدنا ، لأنها أجريت على نوعيات معينة من الأمراض ، ونحن في حاجة إلى أبحاث على أمراضنا نحن ، مثلاً أمراض الكبد في المنطقة العربية تختلف عنها في الغرب ، حيث لا توجد بلهارسيا ، وهناك فارق هائل بين الفصائل ونوعية المرض ، لذلك فان ما أنجز في الغرب من أبحاث لا يمكن تطبيقه تطبيقاً أعمى على مرضى الكبد عندنا ، لكن بحوث الغرب مجرد مؤشرات استرشادية لنا .

والمعهد يتبع الجامعة ، وبالتالي يمكن من الدرجات العلمية ، ويتيح الفرصة لقيام الأبحاث على أساس قومي واقعي ، والأعداد الهائلة من مرضى الكبد تشكل عادة مادة للبحث . وبالفعل بدأنا البحوث في جوانب مهمة من أمراض الكبد التي تنتشر في بلدنا ، وليس لها مثيل في بلاد الغرب ، وقد توصلنا إلى نتائج مبدئية في بعض الأبحاث ، وانتهينا في بعضها الآخر .

* أريد نموذجـــــاً ؟

ـ أجرينا بحثاً لمعرفة وسيلة انتقال الفيروس (ب) من الأم الحامل إلى طفلها ، فكان يهمنا أن نعرف كيفية انتقال الفيروس حتى نجيب على سؤال : لمن نعطي التطعيم ؟ وبالفعل استطعنا أن نعرف الآن لمن نعطي التطعيم ، وكيف ، ذلك أن أبحاثنا قد توصلت إلى أن الفيروس ينتقل إلى الطفل الرضيع من الأم بعد الولادة مباشرة ، وبناء عليه حددنا الفئة التي يجب تطعيمها ، وهي الأطفال حديثو الولادة .

وبحث آخر عن تأثير الطعم أظهر أنه يقي بنسبة تفوق ٩٠٪ ، وقد أجرينا العديد من الأبحاث بالمعهد ، حتى نخرج بأسلوب علاج يتلاءم مع أمراضنا الخاصة ، فنحن نختلف عن المجتمع الغربي في نمط الحياة ، ونوعية الغذاء ، والعوامل الوراثية والبيئية . كل هذه أشياء تختلف ، وبالتالي لا نستطيع أن نطبق ما توصلوا إليه تطبيقاً حرفياً .

إنسان العالم الثالث :

* التمايز والاختلاف بيننا وبين المجتمع الغربي لا بد أن يجرنا إلى الحديث عن إنسان العالم الثالث ، ذلك الإنسان ذو الحياة الصعبة ، والأمراض الخاصة التي حولته إلى حقل تجارب للتقدم الغربي في مجال الصحة والمرض .

ـ قال الدكتور يس عبد الغفار : إن الكلام عن إنسان العالم الثالث ، وكيف أصبح حقلاً للتجارب الغربية فيه جانب من الصدق ، وفيه جانب من المبالغة أيضاً ، فالحقيقة أن هناك مراحل لا بد أن يمر بها أي عقار جديد قبل أن يقر استعماله :

ـ المرحلة الأولى تبدأ بتجربته على ما يسمى بالأنسجة ، وزراعة الأنسجة ، وهي خلايا نزرعها ونربيها ثم تجرب عليها الدواء . بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية وهي التجارب على الحيوان ، ثم تحدد ما يسمى بسمية الدواء . والمرحلة الأخيرة لا بد أن تجرى على الإنسان في ضوء ما أدت إليه المرحلتان السابقتان .

بالنسبة لعقار علاج البلهارسيا هو الآن في المرحلة الثالثة ، ونريد تجربته على الانسان . في الغرب لا توجد بلهارسيا ، ولا بد من تجربتها على إنسان مصاب بالبلهارسيا ، وهكذا بالنسبة لعقار الملاريا وأمراض أخرى كثيرة . فإنسان العالم الثالث مريض بأمراض لا وجود لها في الغرب ، إذن فلمصلحة التقدم العلمي ، ولمصلحة إنسان العالم الثالث نفسه لا بد من إجراء هذا النوع من التجارب .

* لكن هذه ليست كل التجارب ، هناك الشركات التجارية التي تستغل الموقف لتحقيق مكاسب مادية ؟

ـ كل شيء يوجد في البشر الخير والشر ، وبالتالي يوجد من لا يتمثلون بصفات الفضيلة التي يوجبها العلم الحق ، نعم ، توجد بعض الشركات التي تتجاوز الدساتير العلمية ، فتلجأ لأساليب غير مشروعة لترويج تجارتها ، أو لإجراء تجارب على أدوية لم تستقر علمياً بعد . هنا يجب أن ننتبه ، فأنا لا أبريء هؤلاء . لكن أبريء المجتمع العلمي من المدعين .

* على الرغم من أننا نعرف بدقة أمراض العالم الثالث ، إلا أنه قد اختلط علينا الأمر ، فبتنا لا نفرق بين المرضى والأصحاء في هذا العالم المتخلف . فكيف تراهم أنت ؟

ـ إذا قلنا من هم المرضى ، ومن هم الأصحاء ، فأمراض العالم الثالث التقليدية معروفة ، وهي الملاريا ، والكبد ، ومثل هذه الأمراض معروفة ، ويمكن تشخيصها ، ولكن هناك أمراضاً أخرى ناتجة عن أزمات المجتمع ، وكل مجتمع له أمراضه ، فمثلاً أمراض المجتمع الغربي معروفة ، وهي ضغط الدم ، والقلب ، وأمراض السكر ، والقرح ، وكلها أمراض مرتبطة بالتوتر النفسي .

أما في مجتمع العالم الثالث فالتوتر النفسي أقل ، لكن للبيئة توازناتها ، فهناك سهولة ويسر في الحياة ، ومجتمع معتمد على نفسه ، وهنا مجتمع معتمد على الله . هناك أمراض ، وعوامل تؤدي إلى أمراض معينة ، وهنا أمراض أخرى وعوامل أخرى . العالم الثالث يعاني من الأمراض المتسببة عن مستوى الصحة الهابط ، وسوء التغذية ، والميكروبات الطفيلية . فالعالم الثالث له مشاكله الذاتية ، وهي حقيقية ، لكن هناك حقيقة أخرى نشاهدها الآن وهي المشاكل التي « نستقبلها » نتيجة السير في الاتجاه الغربي ، كما يحدث في السياسة ، والفكر والثقافة والحياة الاجتماعية ، فنحن « نتغرب » ـ أي نتجه غرباً ـ في قطاع الأمراض أيضاً ، فقد بدأنا نسمع عن « الإيدز » ، وهو مرض غربي ، والمطلوب أن ننتبه ، ونأخذ العبرة من الصورة كما هي الآن في الغرب قبل أن نصبح جزءاً منها .

صحيح أن للغرب جانبه المشرق المضيء ، وهو الجانب العلمي والبحث المستنير ، والفكر المتفتح ، لكن بشرط ألا يكون ثمن ذلك الأوضاع الاجتماعية التي أدت إلى المساويء الموجودة هناك ، وعلينا أن نأخذ الجانب المضيء ، ونحترس من الجانب المظلم .

عود على بدء :

وما أن وصل الحوار بنا الى الغرب والعالم الثالث ، حتى وجدت نفسي أعود من حيث بدأنا ،

قال الدكتور يس عبد الغفار : إن تخلف القرية ساعده على القراءة والإطلاع ، فشرب من نبع التراث وثقافته ، كنت أستمع إليه وعيني على شباب هذا الجيل ، جيل الفيديو ، والقمر الصناعي ، والاتصالات السريعة .

* ترى هل انقضى عصر الهدوء العلمي ، والتفرغ الذهني ، والنبوغ ؟

ـ قال الحكيم العالم : بمقدار ما استفدت من عدم وجود التلفاز بقدر ما خسرته ، فالتلفاز أداة كسب وخسارة معاً ، فغيابه أعطاني وقتاً للقراءة ، لكنه في نفس الوقت أضاع مني أشياء كثيرة ، فكثيراً ما كنت أقارن نفسي وأنا صغير في المرحلة الأولى من العمر بزملائي من أهل المدينة ، حيث السينما والإذاعة . كان ذلك يحدث عندما نجتمع أنا وبعض شباب المدينة ، فأجد بيننا فارقاً ليس بالهين ، فمعلوماتهم العامة أوسع ، بينما ثقافتي مركزة في ناحية واحدة . والحقيقة أن الأجهزة الحديثة سلاح ذو حدين فيه مكسب وخسارة معاً .

* على ضوء هذه الحقيقة ما رأيك في شباب هذا الجيل ، جيل المكسب والخسارة في أداة واحدة ؟

مقارنة بالماضي أجد أن الشباب هذه الأيام له عيوب وله ميزات ، وعلينا أن نحلل الأمور تحليلاً علمياً موضوعياً بالنسبة للنقائص فهي واضحة ، حياته سطحية ولا عمق فيها ، أما الجلد ، والصبر فلا وجود لها ، لكن في نفس الوقت أجده أكثر تفتحاً من الجيل الماضي ، وأكثر تمتعاً بالفكر الحر ، وهذا في حد ذاته سلاح له عيوبه ومزاياه .

في الغرب يتمتع الشباب بحرية فكر واسعة ، لكنها قادت إلى عواقب وخيمة إذ وصلت إلى الحرية الجنسية . شباب هذا الجيل لديه سلاح لو أحسن استعماله لاستطاع أن يحقق ما عجز عنه شباب الجيل الماضي ، فقد حرم شباب الجيل الماضي من الحرية التي يتمتع بها شباب هذا الجيل . وعلى أي حال كل إنسان صنيع ظروفه ووليد أوضاع معينة ، تتضافر ، وتجعله إنساناً معيناً . شباب الحاضر وليد ظروفه وكذلك شباب الجيل الماضي .

الجائزة لمــــن ؟

على الرغم من تواضعه الشديد وإنصافه لشباب هذا الجيل ، إلا أنه رمز للتفوق العلمي ، وقد استحق جائزة الدولة التقديرية التي تعطى لمن كان عطاؤهم لمصر وأمتهم العربية متميزاً ، وسُمّيت الجائزة التقديرية لأنها كما قال لي الدكتور يس عبد الغفار في نهاية اللقاء عبارة عن ميدالية وخمسة آلاف جنيه » .

لكن أياً كانت قيمة الجائزة التي حصل عليها عالمنا ضمن ثلاثين عالماً من شيوخ العلماء إلا أن القيمة أو الجائزة الحقيقية هي أن يستمر عالمنا يعطي ويعطي ، كي يقدم لنا جيلاً جديداً من العلماء ، يستطيع أن يفخر لأنه تتلمذ يوماً على يد يس عبد الغفار . □

■ واجه النجاح كفتى كريم ، واجه الكارثة كرجل رجل .

(لورد كتهيد)

■ أنا لا أستخدم نفوذ أي اسم كان ، للحصول على أية غاية كانت .

(سعد زغلول)

قـــراءة نقديـة في كتاب

قليل من الحب وكثير من العنف

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

إن القاريء لا يذهب بعيدا حين يلاحظ أن أعمال فتحي غانم الى جوار قيمتها الفنية يمكن النظر اليها كنوع من الوثائق الفكرية والاجتماعية للمراحل التي تناولتها من تاريخ مصر .

يقوم بناء هذه الرواية على عدة تقابلات ، ففي نصفها الأول نلتقي بمشروع زواج « سارة وطلعت » اللذين ينتمي كل واحد منهما لطبقة مختلفة ، فطبقة سارة لها تاريخ عريق ، لكنها الآن تبدو في طريق انحدارها وسط متغيرات اجتماعية حادة ، تسمح لفئات من طبقة « طلعت » بالصعود لتحل مكانها . مشروع الزواج يبدو كأنه محاولة من سارة وأسرتها للعودة الى مكانها عند القمة ، مع القوة الصاعدة ، ومحاولة من القوة الصاعدة لتأخذ معها دليلا الى القمة التي تذهب إليها لأول مرة !

لكن المشروع الذي يريدانه يفشل ، فعن أي شيء يعبر هذا الفشل ؟ لقد تناثر من صدمة هذا الفشل ضحايا وشظايا ، بعض هذه الضحايا المتناثرة من الجانبين تلتقي في النصف الثاني من الرواية ، لتصنع علاقة سرعان ما تصبح زواجا يبدو ناجحا على الرغم من قوانين الصعود والهبوط ، فكيف كان ذلك ، وهل تنتهي منظومة المتقابلات عند هذا الحد ، أم أن قوانين الصعود والهبوط سوف تسحق كل شيء ، في مجتمع به « قليل من الحب وكثير من العنف » ؟ لماذا لا نقترب أكثر من عالم هذه الرواية وناسها وأحداثها ؟؟

محاولة للاقتراب :

في الفصل الأول من الرواية يقدم لنا الكاتب ثلاث شخصيات ، تجمعهم سيارة « جيب » ، تقطع الطريق من معسكر عمل شركة (أماركو) في العلمين ، الى الاسكندرية ، وهم المهندس طلعت ابن الأسطى مرسي فرج المليونير ، والمهندس يونس عبد الحميد صفوت ابن النائب العام ، و « سيد العتر » سائق السيارة المسئول عن صيانة السيارات بالشركة . يقول الكاتب عنهم : « ثلاثة عوالم مختلفة ، ومتباعدة تجمعهم هذه السيارة . ولأن الصمت كان يلفهم ، ربما تجسيدا لهذا التباعد ، فقد قام الكاتب بمهمة تعريفنا بهم ، فالمهندس طلعت عاش طفولته مع « سيد العتر » الذي كان يعمل صبيا في ورشة الأسطى مرسي فرج ، أما الأسطى مرسي نفسه فقد كان قبل ذلك بزمن بعيد صبيا في ورشة السنيور « ماركو » الايطالي ، الذي ترك الورشة لمرسي عندما اعتقل أثناء الحرب العالمية الثانية ، لكن الورشة لم تصبح ملكا خالصا للأسطى مرسي إلا في أيام عبد الناصر بعد موجه التمصير والتأميم . وفي فترة السبعينيات عاد « ماركو » الى الاسكندرية مستثمرا في النفط (بداية التحول الاجتماعي) فزار ورشته

القديمة ، والتقى بالمعلم مرسي صبيه القديم ، الذي حصل في الحال على كل عمليات النقل والصيانة لشركة (أماركو) ، ليصبح الحاج مرسي في سنوات قليلة « مليونيرا » ، تربطه أوثق الصلات برئيس الدولة وكبار المسئولين فيها ، وليصبح ابنه طلعت أول مهندس مصري يعمل في الشركة . لقد كان النائب العام عبد الحميد صفوت يعتقد أن ابنه المهندس يونس هو أول مصري يعين في هذه الشركة ، التي كان يهمها أن تكون لها يد عند النائب العام ، لكن يونس أخبر أباه بعد ذلك أن طلعت قد سبقه الى هذه الشركة .

وهكذا يقدم لنا الكاتب ممثلين للطبقة الجديدة والقديمة ، طلعت الذي تربى في « حواري الاسكندرية » مع « سيد العتر » ، الذى كان قادما على نحو ما من قاع المجتمع ، وعلى الرغم من كل ماوصل اليه فقد كان جهازه العصبي يحتفظ بأثمن خبرات الحارة المصرية ، فلم يكن غريبا أن يرى فيه يونس صورة للسوقية والفظاظة والانحطاط ، وأن يدهش كل الدهشة ـ ولو لم يفصح عن ذلك ـ لأن طلعت طلب منه أن ينقل الى أبيه بأنه يريد أن يتقدم لطلب يد شقيقته سارة ، لقد رآها مرة واحدة في فندق « سيسيل » ، فقرر أن يتزوجها ـ هكذا ـ وربما لو سمع ما قالته عنه شقيقته حين رأت شكله ، لما فكر مجرد تفكير في الزواج منها . أما طلعت فقد كانت فكرة زواجه من سارة ، التي نبعت فجأة في رأسه حين رآها،هي وحدها التي تمنعه من أن يفتك بيونس الذي لم يحبه قط منذ أن رآه ، وكيف يحب هذا الوجه الذي يشبه وجه البنت ، وجه ابن الأتراك الأهبل ، منذ رآه لأول مرة وهو « كمن يريد أن ينتقم منه كأن بينهما ثأرا قديما » ، والد طلعت هو الذي كشف لابنه عن طبيعة هذا الثأر وهو يقول له :

« أولاد البشوات لا يساوون الآن في مصر بصلة ، كلهم متسولون . فماذا يكون مرتب وزير أو نائب عام ، خمسمائة جنيه ، ألف في الشهر ؟ أبوك يعتبر يومه أغبر لو كانت غلته أضعاف هذا المبلغ » !

علاقة معقدة :

إن فكرة الزواج التي بزغت في رأس طلعت كنزوة ، ودارت في رأس يونس حين تلقاها من طلعت كمشكلة ، لا يدري كيف ينقلها الى أبيه ، هذه الفكرة نفسها تلقاها النائب العام من ابنه كطوق نجاة ، وحين كان يونس يشرح لأبيه تحفظاته على شخصية طلعت ، حول ما أسماه (فجاجته) ، وعدم خجله من التباهي بملايين أبيه ، بدا النائب العام وكأنه لا يسمع جيدا ما يقوله ابنه ، وربما آنذاك قد خطر ببال الأب أن ابنه ما يزال قليل التجربة ، وفي الواقع أن النائب العام كان يفكر بالشهور القليلة المتبقية له في عمله قبل إحالته الى المعاش ، وفقدان نفوذه ، وأن مثل هذه المصاهرة تكون دعما أكيدا لمد خدمته سنوات أخرى ، أو ترشيحه لمنصب مستشار لرئيس الجمهورية ، فضلا عما تعنيه من ضمان مستقبل ابنته سارة ، ربما لا يعرف يونس أن أباه يبيع كل عام فدانا من الأرض التي بقيت لهم من أيام عبد الناصر ، ولم ينتظر طلعت أن يرد عليه يونس بموافقة أبيه على تحديد موعد للقائه ، فاتصل بنفسه بالأب ، وجاء الى البيت بسيارته « الجاكوار » ، وقبل أن يفيق يونس من دهشته أعتقد أن مقابلة الأسرة لطلعت ربما توضح لهم ما عجز عن توضيحه حول شخصية طلعت ، وحين ظن يونس أن والدته قد قامت فزعة مما سمعته من حديث طلعت ومن طريقته في شرب الشاي والتهام « الجاتوه » ، وجدها تعود ومعها « فوطة » ، لتمسح بقايا

الحلوى المتساقطة على سترته . أما شقيقته سارة فقد وقفت تتأمل السيارة « الجاكوار » التي جاء بها طلعت هذه المرة ، ليطلب يدها بعين جديدة تماما ، وقالت لأمها انها يمكن أن تجعل منه بعد وقت قصير « جون ترافولتا » ، أو « آلان ديلون » ، وقالت لأخيها يونس وقد شعرت بعمق إحباطه : إنني أقبل الزواج منه كما قبلت أنت العمل الشاق في مشروع « أماركو » في الصحراء ، فلماذا ترفض أن أعمل في مشروع اسمه طلعت ؟

أما الأسطى « مرسي فرج » والد طلعت ، فلم يبذل أقل جهد لاخفاء ارتياحه ، حين سمع بالموضوع كله لأول مرة من محافظ الاسكندرية ، الذي كلفه النائب العام (كصديق) بأن يتحرى حقيقة موقف الأب من تقدم طلعت المبدئي لخطبة سارة . فقط استدرك الحاج مرسي : لكن هناك مسألة صغيرة جدا لابد من حلها ، أولا هذه المسألة الصغيرة جدا هي أن طلعت متزوج ، وأن له بنتاً اسمها محاسن ، عمرها عامان ، وهذه الزوجة يمكن أن تطلق الآن ، ويضمها الى كفالته ، وبذلك تصبح مسألة زواج طلعت السابق مسألة قديمة ومنتهية ، بعد ذلك يمكن للحاج مرسي أن يتقدم بنفسه للنائب العام ، ويطلب سارة لابنه ، إنه يدرك أن هؤلاء الناس لم يعد لديهم ما يتمسكون به سوى المظاهر ، فلماذا لا يحافظ لهم عليها ؟ !

أما طلعت فيقول لأبيه : إن زوجة مثل سارة سليلة « الارستقراطية » ، يمكن أن تعلمه أساليب التعامل مع الأجانب وبخاصة المستثمرين منهم ، الذين يتطلع الى التعامل معهم حين يترك العمل في شركة « أماركو » ، وفي أعماقه كان في حاجة الى أن يرى تلك النظرة المتعالية ، التي رمقته بها حين رأته لأول مرة ، وقد تحولت الى نظرة هيام به وبملايينه ، إنه يدرك ما ينقصه ، ولا يخجل منه ، ولا يخفيه .

الصعود والهبوط :

لعل هذا القدر من الاقتراب الشديد من القسم الأول من الرواية ، وهو « فكرة زواج طلعت وسارة » ، يكشف لنا الكثير عن أسلوب الكاتب في تقديم شخصياته ، وتشريح جوانب القوة والضعف فيها ، فالشخصيات تسفر عن جوانب منها في كل موقف من خلال سلوكها ، ودائما هناك جوانب خفية نتوقعها ، دون أن نكون قادرين على التنبؤ بها بدقة ، مما يكسب الشخصية حيوية ، ويفسح أمامها طريق النمو أو الانحدار وفق قوانينها وظروفها . ويتسم أسلوب الكاتب في هذه الرواية بقدرة أكبر على تكثيف المواقف ، فمع أن المواقف في هذا الجزء من الرواية تبدو وكأنها تتحدث عن عوامل النجاح والفشل في مشروع زواج طلعت وسارة ، إلا أن هذه المواقف نفسها تقول لنا الكثير بطريق غير مباشر ، عن عوامل صعود القوة التي يمثلها ، وهبوط طبقة سارة ، فالادارة القاطعة وروح المغامرة والاقتحام ، وشهوة الحياة المستعرة التي أضرمها حرمان طويل ، وتغير قوانين المجتمع تحت شعار الانفتاح كان كل ذلك وراء ذلك الصعود الذي يبدو أنه لا يملك هدفا أو رؤية ، بينما نرى طبقة سارة قد تجمدت رؤيتها القديمة لمنظومة قيمها في مجموعة تقاليد ، لا يهمها سوى المحافظة على شكلها .

وحين نجد أن مشروع زواج طلعت وسارة قد فشل في النهاية لصدفة سخيفة ، وهي أن خبر زواج طلعت القديم قد وصل الى النائب العام بغير الطريقة التي خطط لها بدهاء « الحاج مرسي فرج » ، نكون قد عرفنا من قبل أشياء كثيرة مثل أن هذا الزواج كان يحمل عمل بذور فشله ، حتى ولو لم تقع تلك المصادفة السخيفة ، تلك لمحة عن منهج الكاتب في تكثيف الأداء في روايته .

نهاية أم بداية

إن مشروع الزواج الفاشل قد تناثر منه على الجانبين ضحايا وشظايا ، فعلى جانب النائب العام الذي يحال على المعاش ، وزوجته وابنته اللتان تلهثان وراء بديل لطلعت ، وعلى الجانب الآخر فاطمة زوجة طلعت الأولى ، التي طلقت قبل فشل المشروع ، ودون أن يجديها فشله فيما بعد ، أما طلعت فقد قرر أن يتقدم على طريقته ، فتزوج في زمن قصير من حفيدة أحد أفراد الأسرة المالكة

السابقة ، ووجه بطاقة دعوة الى أسرة النائب العام ، وأسهم أيضا هذا الفشل الذي صنعته صدفة سخيفة في صياغة مصير يونس وفاطمة وسيد العتر ، هذا المثلث الذي يشكل محور القسم الثاني من هذه الرواية ، فمن هو سيد العتر ؟ ومن فاطمة ؟ ومن يونس عبد الحميد صفوت ؟ .

سيد العتر :

هو الذي كان يقود السيارة في الفصل الأول من الرواية ، وهو هنا يكاد يقود الأحداث في نصف الرواية الأخير ، وهو أيضا الوجه الآخر لطلعت ، الوجه الذي بقي في القاع حين ارتفع طلعت بلعبة الذكاء والحظ والجرأة مع والده الى قمة المجتمع . في الماضي كان يشارك طلعت في كل شيء ، في العمل واللعب في الحارة ، حتى فاطمة أحباها معا ، لكن طلعت هو الذي تزوجها ، وفي ليلة زواج طلعت من فاطمة سرق سيد أول سيارة في حياته ، وفكها ، وباع أجزاءها . كانت تلك طريقته في الانتقام ، وفي الوصول الى الثراء ، فلا مانع لديه من الاستفادة من أي شيء ، حتى من كونه سائق سيارة ابن النائب ، فبهذه الطريقة لن يشك رجال الشرطة في أنه هو من يركب السيارات المسروقة ، وحين كان محافظ الاسكندرية يتحرى عن أخبار طلعت كان رجال المحافظ العظام يستمدون معلوماتهم عن طلعت ـ دون أن يدروا ـ من أعدى أعدائه سيد العتر ، وكان هذا هو السبب في أن فاطمة زوجة طلعت هي أول من عرف بأن طلعت ينوي الزواج من بنت النائب العام ، فذهبت ليونس في الفندق لتطلب منه بشجاعة بنت البلد أن يتركوا زوجها ، ومنذ هذا اللقاء الأول بينها وضعت بذور المأساة في الجزء الأخير من هذه الرواية .

فاطمة بنت زكريا ؟

قادمة من نفس القاع الذي بدأ منه طلعت وعاش فيه سيد العتر . نشأت في أسرة مسحوقة ، لا تتذكر سوى ذل أبيها وضعفه ، وأسماء أشقائها الذين تفرقوا ، وشحبت صورتهم في ذاكرتها . تمتلك جمال ابنة البلد الفطري ، تتلمس طريقها بغرائز مدربة ماهرة ، هي كل ما يملكه أبناء هذا القاع في معركة الحياة الساحقة ، بحثها عن الأمان هو كل طموحها ، وقد وجدت في قوة طلعت شيئا من هذا الأمان ، وها هي تكتشف أنها مثل أية قوة لا أمان لها .

حين قدم لها سيد العتر أخبار طلعت انفجر خوفها القديم ليس فقط من فقد طلعت ، بل من الفقر القديم ، وشماتة سيد العتر ومطامعه فيها ، وحين قابلت يونس لأول مرة في الفندق لم تدرك ذلك الأثر الذي فجرته في نفسه بجرأتها وصدقها وخوفها ، وربما أدركت على نحو غامض أن يونس يختلف عن الناس الذين عرفتهم ، لكن هل كان بمقدورها أن تدرك أنها قد حددت مصيره معها في هذا اللقاء ؟

يونس عبدالحميد صفوت

لماذا كان يونس وحده من بين كل أفراد أسرته هو الذي يملك تلك الحساسية التي تنفر من سوقية طلعت ، بقدر ماتنفر من تهالك أسرته عليه ؟

أهو السن وعدم النضج كما يتصور أبوه ؟ أم الخيبة كما تشعر أمه ؟ لماذا يبدو كأنه الجزء النظيف الصامد الباقي من هذه الطبقة ، والمتمثل لقيمها ، والناجي من ضعفها وتهافتها ؟

لعل القارىء سوف يرى في يونس ملامح من تلك الشخصية الأثيرة التي تتردد كثيرا في أعمال فتحي غانم . شخصية يوسف منصور ، المثقف الصامت الهادىء الخجول البريء الذكي المستقيم ، ابن الذوات الذي لم يعان الخوف أو الحرمان الساحق ، ولم يجد نفسه يوما مضطراً للدفاع عن نفسه ضد شيء أو أحد ، ولم تتفجر في داخله نقمة أو كراهية !

سمع لأول مرة كلاما عن فاطمة زوجة طلعت من سيد العتر سائق سيارته ، وأدرك من كلامه روح الشر والشماتة ، فمنعه من الاسترسال في الكلام أمامه عمن كانت زوجة زميل . وحين زارته فاطمة في الفندق رأى فيها ضحية لحماقة طلعت ، ومطامع أسرته ، ولم يخفف فشل زواج شقيقته من إحساسه بأنها ضحيتهم جميعا .

صراع طبقات وأفراد ورؤى

هل كان طلعت يشعر بطريقة ما بتلك القوة الروحية الغامضة التي ينطوي عليها يونس ، وتكمن وراء ما يسميه ضعفه وخيبته ؟

أية دوافع قادت طلعت لزيارة يونس بالفندق قبيل سفره إلى اليابان مع عروسه الجديدة ؟؟

يقول طلعت :

« لا أريد يا يونس أن يكون ما حدث سببا في انقطاع الصلة بيننا ، أريد أن تعرف أني لست غاضبا منك ، وأني عندما تقدمت إليك كنت جادا لا أعبث »

هناك رغبة حارقة لدى طلعت بأن يظفر بالاعتبار عند يونس ، وهي رغبة قد تعكس انكسار فرد من طبقة أمام فرد من طبقة أعلى ، لكن ذلك ليس سوى وجه من وجوه داخله . فهو يقول في لحظة أخرى :

« ليتك تفهمني يايونس ، لا أريد أن أعيش كما لو كان ما أملكه قد جاءني بضربة حظ ، ويمكن أن يضيع بضربة حظ مضادة . »

هنا يقترب طلعت من داخله ، ومن يونس ، ويعبر عن ارتياب القوة الجديدة في ذاتها ، وبحثها عن معنى لهذه الذات .

لكن ذلك ليس سوى وجه من وجوه داخله ، ففي لحظة اخرى مجنونة يقول طلعت :

أنا في نظركم ابن كلب ، لكنني سأثبت لكم أنكم أنتم الكلاب (هنا شجار واضح حاد بين طبقتين) .

في لحظة أخرى يفضي يونس بمخاوفه على فاطمة من سيد العتر ، فيوقظ مخاوف طلعت الكامنة ،

فيتحرك في داخله شيء لايدري ماذا يفعل حياله ،

وبعد أن يغادر الفندق ، وقبيل سفره ، يبعث برسالة إلى يونس يقول له فيها : إنه لايجد أحدا غيره يمكنه أن يحمي فاطمة من سيد العتر في غيابه »

« هنا إنسان يقترب من إنسان آخر يطمئن إليه في لحظة ضعف هائلة » .

وهكذا يكون طلعت هو الذي قدم يونس لفاطمة بيده .

صعود وهبوط من نوع آخر

في صفحات رائعة يجسد الكاتب كيف تم الاقتراب بين يونس وفاطمة ، فقد نجح يونس في أن يوقف تهديد سيد العتر لها ، وانتزع بذلك هواجسها من حولها . ظل يونس مدفوعا نحوها من عمق شعوره بالذنب ، لأنها ضحية أسرته ، أما هي فقد اندفعت نحوه من عمق شعورها بالامتنان لما قدمه لها من أمن ، وهدأت مخاوفها القديمة الغائرة ، لكن إلى متى ، لم تكن بينهما لغة مشتركة ، لكن فاطمة بنت البلد كانت تعرف لغة الجسد منذ زمن بعيد ، لغة النظرة واللمسه والنبرة ، ورعشة العين ورجفه اليد ، ولكن جسد هذا الرجل (يونس) كان مقيداً في أغلال ثقيلة ، لم يكن الطريق سهلا ، لكن العزلة المفروضة والحاجة المتبادلة بدأت تعبد الطريق ، وأيقظت هذه اللغة طاقة الحياة المحبوسة في داخل يونس ، واكتشف معها نبض الحياة ، واكتشفت معه معنى القيمة . وبفضل سيد العتر الذي يحرقه الغيظ شاع أمر هذه العلاقة ، فلم يتردد يونس في أن يتزوج فاطمة ، وكان رد الفعل مختلفا على الجانبين . وقد تفهمه الحاج مرسي فرج ، ورأى فيه حلا سعيدا لمشكلة وجود حفيدته في بيت يونس ، بينما عجزت أسرة النائب العام السابق عن استيعاب الموقف ، فأمعنوا في مقاطعة ابنهم .

وبينما كان هذا الزواج المحاصر يتخطى عقباته الخاصة ، وينمي لغة مشتركة جديدة ، كانت سارة وأمها زهيرة هانم يواصلان سعيهما المحموم وراء عريس مناسب ، لكنه وضع شرطا مناسبا له أيضا ، وهو أن يجد النائب العام وظيفة له . وفجأة تتذكر زهيرة هانم أن صلة قرابة من نوع ما تربط ابنها يونس بأسرة الحاج مرسي فرج ، ألا تعيش حفيدة الحاج في كنف ابنها ؟ ألا يمكن أن يدبر وظيفة مناسبة لعريس سارة في إحدى شركاته ؟

(لاحظ التقابل بين الصعود الواثق المادي للأسرة الجديدة ، وعمق المهانة التي تصل إليها أسرة

النائب العام السابق) ويقبل الحاج مرسي طلب النائب العام ، لكنه يرجيء البت في الأمر حتى عودة طلعت من اليابان ، لأنه هو الذي سيفتح شركات جديدة .

ولا تستطيع سارة أن تمنع نفسها من التفكير في ماذا سيكون عليه الموقف حين يعود طلعت ، هل يكون قبوله لتوظيف خطيبها فرصة للانتقام أم للمساومة ؟ وحين تفصح لخطيبها عن هواجسها تكتشف من ردود فعله اللامبالية أن حرصه على الوظيفة يفوق حرصه على أي شيء آخر ، فتشعر بالغثيان والعبث ، ويتساوى عندها كل شيء .

وبينما زواج يونس وفاطمة يخترق حصاره .

ويواجه تحدياته الخاصة ، ويصنع مسراته الصغيرة ، فإن الحاج مرسي فرج الذي تعود أن يأخذ ثمنا مقابل حتى مجرد الوعد بخدمة ، يفكر في أنه من المفيد له أن يضم النائب العام السابق إلى مكتب مستشاره القانوني فلا يسع عبدالحميد إلا أن يقبل ممتنا .

وبينما فاطمة تتعلم كيف تصنع القهوة الفرنسية ليونس ، وتحلم بأنه قد حان الوقت لتنجب طفلا ليونس يعود طلعت من اليابان ، ويعرف بأمر زواج يونس من فاطمة ، فيضع هذا الواقع الجديد أمامه سؤالا محيرا عن مغزى مافعله يونس ، وكأن يونس يريد أن يذكره بأن كلامه القديم معه عن القيمة والمبدأ لم يكن مجرد كلام ، أيكون الصواب هو مابراهن عليه يونس ؟

إن طلعت قد يكتشف الأسئلة الكبيرة ، ولكنه لايطيق التفكير فيها ، إن الفكرة التي تستولي عليه هي كيف يسترد ابنته من أمها على الرغم من أن القانون في صف الأم ، وآنذاك يفكر في سيد العتر ، ذلك الوجه الأشد قبحا لطلعت ، فهو وحده الذي يمكنه أن يسترد ابنته ولو خطفا .

أما الحاج مرسي فرج فيفكر بطريقة تليق به ، يفكر أن يوكل القضية إلى مستشاره القانوني عبدالحميد صفوت ، فهو بلا شك قادر على كسبها رغم أنف القانون . أهناك سخرية أشد مرارة ؟

الزواج المستحيل

إن الرواية التي بدأت بسيد العتر ينقل أبطالها في سيارة إلى الاسكندرية تنتهي به وهو يقودهم إلى مصائرهم ، لقد ذهب ليخطف محاسن ، فوجد في طريقه يونس ، فأغمد خنجره في صدره لأسباب كثيرة قد لايعيها فيما يتبقى له من أيام في الحياة . وهكذا يبقى الزواج بين الطبقتين مستحيلا ، ومهما تكن الأسباب ! ومن أين تجيء ؟

نظرة شاملة

كعادة فتحي غانم فإنه لا يعني بإصدار أحكام أخلاقية على شخصياته ، وربما أيضا لايشجع قارئه على ذلك ، بل يشجعه على هذه الشخصيات بعمق أكثر ، وبتعاطف إنساني أشمل .

ربما يشعر القاريء بأنه في كل فصول الرواية تتردد نغمتان أساسيتان ، نغمة رثاء حزينة لطبقة سارة ، ونغمة هجاء قاسية لما يمثله طلعت وطبقته ، لكن القاريء سوف يشعر أيضا ، بأن نغمة الرثاء التي تمثل اللحن المصاحب للطبقة المنهارة تتحول أحيانا إلى هجاء قاس مرير لأبطال هذه الطبقة حين يصلون في ترديهم وفقدانهم للكرامة إلى عمق الهوان ، في القسم الأخير من الرواية ، كما أن نغمة الهجاء تتحول أحيانا إلى نوع من التقدير والاعتراف بالمواقف الأكثر نضجا للأسطى مرسي فرج ، وبمواقف طلعت التي تنبيء عن محاولاته للبحث عن ذات جديدة ودور جديد ، ومن تغير هاتين النغمتين وتداخلهما أحيانا يكتسب البناء الدرامي في هذه الرواية أبعادا جديدة ورائعة في قوة التكثيف وتعدد الدلالات .

وإذا كنا نتابع عبر فصول الرواية الجهاد اليائس لنبضات الحب الواهنة ، التي تصل إلى ذروة قوتها في علاقة يونس بفاطمة ، فإننا نتابع أيضا دوائر الكراهية والعنف ، وهي تحدق بهذه النبضات تترصدها وتخنقها ، عنف الحاج مرسي ، وعنف طلعت ، وأخيرا عنف سيد العتر ، ودائما كان الكاتب يشعرنا بالدوائر الأوسع لعنف الجماعات المتطرفة وهي تتحرك مع أحداث الرواية على حافة المجتمع . □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

رسائل القرن الواحد والعشرين

هذه إطلالة على القرن المقبل الذي يصبح تعداد العرب (٢٨٠) مليون نسمة في بدايته ويصبحون أكثر من (٤٠٠) مليون عام ٢٠١٥ . وسوف يحافظ الوطن العربي على صفته الأساسية ، وهو أنه وطن إفريقي في معظمه . فثلثا السكان سوف يقطنون وادي النيل والمغرب . أما الثلث الباقي فسوف ينتشرون في الرقعة الأسيوية من الوطن العربي . وسوف يصبح مجتمع المدينة هو السائد . فسكان الحضر يحتلون الآن نصف سكان الوطن العربي . والنسبة تنمو بمقدار (٥ - ٦) بالمائة سنوية . هو إذن مجتمع افريقي حضري . لكن ذلك ليس هو الأهم .

نظرة إلى الوراء

في دراسة قام بها مركز دراسات الوحدة العربية لاستشراف مستقبل الوطن العربي حتى عام ٢٠١٥ اتضحت حقائق كثيرة من الماضي والحاضر . كما برزت توقعات كثيرة مثيرة حول المستقبل .

حول الماضي سجلت الدراسة التي استغرقت خمس سنوات ، وتمت مناقشتها في اكتوبر الماضي عديداً من الأرقام المهمة التي تعطي مؤشرات حول التطور في المجتمع العربي .

خلال العقدين السابقين (٦٥ - ١٩٨٥) تضاعف عدد سكان الوطن العربي ، وتضاعف متوسط الدخل مرتين ، وزاد حجم المدن ثلاثة أضعاف ، وعدد المدارس والجامعات وقدرتها الاستيعابية أربعة أضعاف ، وفي نفس الوقت زادت أجهزة المذياع عشرة أضعاف والتلفاز عشرين ضعفا ، كما زاد عدد المسافرين للخارج عشرة أضعاف .

هناك إذن نمو مادي سابق لنمو السكان ، يعكس نفسه على تحسن مستوى المعيشة ، وهو ما تؤكده أرقام التعليم والصحة ومتوسط الأعمار ونسبة الوفيات .

وهناك نمو هائل في الاتصال عبر المذياع والتلفاز والسفر للخارج . لكن كما تقول نفس الدراسة ، هناك نصف الأطفال العرب مهددون في صحتهم بأخطار المجاعة والفقر والحروب ، . وهناك أربع حروب شهدتها تلك الحقبتان ، وهناك الديون العربية التي تضاعفت ثلاثين مرة في عشرين عاما .

لا تناقض في ذلك . فالنمو المادي لا يعني بالضرورة عدالة توزيع الدخل ، وتحسن مستوى معيشة الجميع . كذلك فإن زيادة الدخل قد تتبدد في ظل الحرب ، والموارد قد يتبخر جزء منها في ظل التشرذم وسيطرة المراكز الخارجية على كل مايجري في الوطن العربي . فالخارج هو مركز الاستقبال للنفط

والمال والعقول المهاجرة ، وهو مركز التصدير للآلة والسلاح وقطعة الجبن والخبز ونمط الاستهلاك وشريط الفيديو . وعبر رحلة (العرب ـ الخارج) يضيع الكثير ، حتى أن الدراسة تتوقع أنه إذا استمرت نفس السياسات فالأخطار سوف تتزايد ، « فاسرائيل » تهيمن ، ودول الجوار تنقض على الجسد الضعيف ، والولايات المتحدة ترفض التعامل مع العرب كمجموعة واحدة ، والتنمية مشوهة ، وسوء التوزيع هو الغالب .

نظرة للأمام

ماذا يجري خلال ثلاثين عاما تمتد حتى عام ٢٠١٥ ؟ إن الدراسة تضع كل الاحتمالات : استمرار التدهور ، مع بعض التقدم المادي هنا وهناك ، أو إيقاف التدهور بقدر من التعاون العربي ، أو الدخول في دولة الوحدة ، و اتحاد عربي فيدرالي بقيد من عناصر التوحيد ، ويحافظ على ايجابيات التمايز ، و في ظل هذا المشهد يقفز الانسان العربي .

سوف يتحسن مستوى الاستثمار والدخل ، وتتحسن عدالة التوزيع ، وبناء عليه :

* تهبط وفيات الأطفال الرضع من (٢١١) في الألف إلى (٨٠) في الألف عام ٢٠٠٠ ، و (٦٠) في الألف عام ٢٠١٥ ، وبالتالي يزيد معدل نمو السكان .

* تزيد مشاركة النساء في قوة العمل لأكثر من الضعفين .

* يزيد متوسط العمر المتوقع للوفاة .

وبينما يزيد الاستهلاك العائلي في أوائل القرن المقبل بنسبة لاتتعدى (٥ ٪) في مشهد التجزئة ، فإن فرصة ذلك الاستهلاك في ظل الوحدة تقفز الى ١١ ٪ .

حينذاك سوف يكون متاحاً القيام بثورة زراعية تواجه تحديات نقص المياه ، وتحكم الآخرين فيها ، ونقص الأراضي المروية ، وتصحر أجزاء منها .

وحينذاك ستواجه ذلك الخطر الذي يقول إن الوطن العربي يحتمل بانتاجيته الزراعية الراهنة أكثر من (٧٥ ٪) من سكان عام (٢٠٠٠) ، و ٥٠ ٪ من هؤلاء السكان عام (٢٠١٥) .

واذا قامت دولة الوحدة فسوف تواجه كثيراً من المخاطر المادية ، وتضاعف غلة ماتملك ، لكن الأهم أنها سوف تواجه أخطارا سياسية ، وأخطاراً تتعلق بالأمن القومي ، ذلك أن مشهد التجزئة يضعنا أمام احتمالات واسعة لتجزئة التجزئة وسيادة منطق القطرية الطائفية والعرقية . إنه مشهد التآكل أمام الخطر الخارجي ، والتآكل أمام الخطر الداخلي ، وتزايد أرقام التسليح وأعبائه ، دون أن يكون لذلك مردود حقيقي على تزايد الأمن القومي .

دراسة « استشراف المستقبل العربي » تحاول بالأرقام أن تحدد دروس الماضي ، ومعالم الحاضر ، وتوقعات المستقبل . ولأن الأرقام لاتنحاز فإن النتيجة العلمية الأكيدة : (الوحدة هي الحل) ، وإن كانت لها مشاكلها ومحاذيرها .

إنها وحدة لاتلغي « المحلية والخصوصية » ، لكنها تبرز سمات الشعب الواحد بامكانياته الموحدة .

هذا رأي علمي ، وليس مجرد أمنيات سياسية ، إنه رسائل القرن الواحد والعشرين . فهل نسمعها ؟ □

■ إن الذي ينتصر على غيره قوي ، والذي ينتصر على نفسه أقوى .

(مكرم عبيد)

أحيانا يصوغ شاعر فكرة أو صورة جميلة تأتي مشابهة لمثلها ابتكرها شاعر سابق عليه أو معاصر له ، وقد يكون التشابه ناتجا عن توارد الخواطر ، أو محكوما بالضرورة الفنية .

فما هو الفاصل بين الابتكار أو الاتباع لأفكار الغير .. ؟

إن قضية السرقات الشعرية شغلت نقاد الأدب العربي قديمه وحديثه ، وقل من نجا من سهامها .

طرائف في السرقات الشعرية

بقلم : الدكتورة وديعة طه النجم

لقد أولع النقاد العرب القدماء بموضوع السرقات الشعرية ولوعا جعلهم يفردون لهذه السرقات فصولا خاصة مطوّلة في كتبهم ، بل كتبا متخصصة يتتبعون فيها بكل عناية وتدقيق موضوع السارق والمسروق .

وما لبث الحديث عن السرقات الشعرية حتى أصبح مظهرا من مظاهر الصراعات الفردية ، وتهمة يتقاذفها الخصوم بينهم ، كتهمة الزندقة أو الهرطقة بين أصحاب المذاهب المختلفة . فهذا الآمدي يفرد مقدارا كبيرا من كتاب الموازنة بين الطائيين لسرقات كل من أبي تمّام (من عامة الشعراء الذين تقدموه عصرا) ، وسرقات البحتري من أبي تمام . ومن العجب أن الآمدي يعدّ ثقافة أبي تمام الواسعة في الشعر العربي عيبا عليه ، لا فضلا له ، كما يجب أن يكون . فتراه يقول (بعد أن يورد جملة من مؤلفات أبي تمام حول مختارات الشعر العربي) :

« ... وهذه الاختيارات تدل على عناية بالشعر ، وأنه اشتغل به .. فإنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه واطلع عليه . ولهذا أقول : إن الذي خفي من سرقاته أكثر مما ظهر منها ، على كثرتها ... » .

هذا ما يقوله الآمدي متهما أبا تمام بالسرقة ، ثم

بالتخفي وراء علم بالشعر العربي ، بدلا من أن يكون هذا العلم بالشعر مما يزيد في قدر أبي تمام .

ويذهب الآمدي إلى تتبع ما سمّاه بسرقات أبي تمام تتبعا يتجاوز فيه كثيرا من حدود النقد التي يجب أن تراعى في فهم الشعر أو تذوقه . ولنقف عند أمثلة مما عدّه الآمدي ، أو سواه ، في عداد المسروق في شعر أبي تمام .

ينقل الآمدي بعض هذه الأمثلة ، فيقول :

« . . . وقال مسلم بن الوليد :

فلمّا انقضى الليـل الصبـاح وصلتـه
بحاشيـةٍ مـن لـونـه المشـوَرْدَة

أخذه أبو تمام ، فقال :

حـطّت عـلى قتبـة الاسـلام أرحُلَه
والشمس قد نفضت وَرْسا من الأصُل

كـذا ؟ !

لكن الآمدي ما يلبث أن يعود ليصحح خطأ القائل بهذه السرقة ، بغير وجه حق ، فيقول :

« . . . هذا ما ذكره ابن المنجّم » . وقد يتبادر الى الذهن أن الآمدي يحاول أن يبرّيء ساحة أبي تمام ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . إذ يعود فيقول :

« . . . والذي أظنّه أنه أخذه من قول الآخر :

والشمس صفراء   كلون الوَرْس

وكأن تشبيه لون الشمس بلون الورس هو الشعر كل الشعر ، وكأن ليس لأبي تمام أي فضل غير أنه شبّه الشمس بلون الورس .

وأمثلة أخرى من هذا التجني على الشاعر ، يقول الآمدي أيضا :

« وقال (أي أبو تمام) :

طلبُ المجْـد يـورثُ المـرء خبـلا
وهمومـا تقضقض الحيْـزومـا

فـتـراه وهـو الخـليّ شجـيّـا
وتـراه ، وهـو الصحيـح ، سقيمـا

أخذ قوله (وهموما تقضقض الحيزوما) من قول لقيط الإيادي :

لا يـطعم النـوم إلا ريث يبعثـه
همّ يكـاد حشـاه يحـطم الضـلعـا

وهكذا ؟ !

للمتنبي نصيب أكبر

أما المتنبي الذي أثار غيظ كثير من معاصريه بتعاليه على صغائرهم وتحديه لضعف هممهم ، فقد أصابته سهام النقد من كل صوب ، وراح خصومه يتتبعون أشعاره مسفّهين كل صغيرة وكبيرة . فهذا الصاحب بن عبّاد (أديب البويهيين الكاتب الوزير المعاصر للمتنبي) يؤلف في مساويء شعر المتنبي .

وذاك العميدي (من كتّاب القرن الخامس) يكشف عن سرقات المتنبي في كتابه المسمى (الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى) . وللحاتمي (معاصر المتنبي المتألب عليه) أكثر من رسالة يسفّه فيها شعر المتنبي ، سمّى إحداها (الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره) . وما دامت التهمة تهمة سرقة ، فلا بدّ أن تستتبع الأوصاف التي تليق بالسارق كالسقوط والسوء وما أشبه . وهكذا أصبح الشعراء هدفا لنقد لا غاية من ورائه ، وأهدرت طاقات كان يمكن أن تنصرف لخدمة الحركة الشعرية وتطورها ، ولم يقتصر الأمر على القول بالسرقة ، بل أصبح مواجهات بين النقاد والشاعر ، أثيرت فيها خصومات كبيرة حول شعره . وظل المصنفون يجرون على هذا المنوال حتى بلغت مؤلفات بعضهم مئات الصفحات ، تنقّب وتدقق في مفردات الأشعار بعناء وجهد عظيمين ، كما في المؤلّف الذي سماه صاحبه (المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي) للحسن بن وكيع التنيسي .

لقد كان خصوم المتنبي ، منذ حياته ، يتقصون كل قول له ، بحثا وتنقيبا في الشعر العربي قبله ، كي يجدوا ما يشبهه أو يوحي به إيحاء ، لكي يعلنوا التهمة بالسرقة . لننظر الى هذه الحكاية الطريفة التي يرويها ابن جني (اللغوي المعروف الذي شرح ديوان المتنبي وأخذه عن الشاعر نفسه) . يقول ابن جني إنه حين

كان يقرأ على أبي الطيب بائيته التي فيها قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يغري بي

قال المتنبي : قال لي ابن حنزابة وزير كافور :

« أعلمت أني أحضرت كتبي كلها وجماعة من أهل الأدب يطلبون لي من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا بذلك . . . » .

فهذا المعنى الظريف الذي يحمله بيت المتنبي لا يلتفت إليه هؤلاء ، بل كل همهم في الشعر البحث عن العثرات،فإذا لم يجدوها راحوا ينقبون في الكتب والدواوين عن (المسروقات) . وكأنهم يستكثرون على شاعر له تلك البدائع أن يقول شيئا كهذا .

لكن المتنبي ، على أية حال ، حتى في صباه وفي أول عهده بالشعر حينما كان ما يزال يقتدي بكبار الشعراء السابقين عليه ، أمثال أبي تمام أو البحتري ، لم يكن ليتيح لمثل هذه المواقف أن تنال منه ومن شعره ، فيمنح مثل هذا النقد فرصة ليعترض سبيله ، وليشكك في مواهبه وقابلياته . فكان اذا عُرّض به في أنه يترسم ، في بعض شعره ، خطى أبي تمام أو البحتري ، كان يجيب بحزم وبكلمة واحدة تلخص موقف الشاعر من القضية برمتها ، قائلا :

(الشعر جادّة ، وربّما وقع حافر على حافر) !

فأين هذا من حديث السارق والمسروق ؟ !

وإذا كانت قضية السرقات الشعرية قد شغلت النقاد شغلا استهلكت أكثر طاقاتهم النقدية ، فإن الشعراء كان لهم موقف آخر من هذه القضية ، ربما يكشف عن عمق الهوّة التي صارت تفصل ما بين الطرفين ، كما يكشف عن الوجه الآخر لتناول الشعر وعمله وفهمه ، ذلك هو فهم من يصنع هذا الشعر ويعانيه ، ألا وهم الشعراء .

أبو نواس يتحدى

فأبو نواس الذي كان من أوائل من تعرّض للاتهام من قبل ناقديه بالسرقات الشعرية من شعراء الخمريات السابقين عليه ، مثل الأعشى والوليد بن يزيد وغيرهما ، كانت له مواقف مع شعراء عصره تستحق الوقوف عندها في هذه السبيل :

لقد اشتهر أبو نواس بحبه للعبث والنادرة يتبادلها مع شعراء عصره ، سواء في مواقف الجدّ أو الهزل ، بل هو كثيرا ما يقلب الجد مقلب الهزل تعابثا وتظرفا . وقد كان هذا شأنه كذلك في هذا الذي سمّاه النقاد (سرقة) شعرية ، يسطو فيها شاعر على شاعر . ولأبي نواس حكايات طريفة مع شعراء عصره ، سارقا أو مسروقا منه ، لا تخرج عن إطار الظرف والفكاهة والعبث . ولننظر في بعض تلك الحكايات :

لأبي نواس خبر مع الحسين الضحّاك المعروف بالحسين الخليع . وكان كلا الشاعرين ينظم في موضوعات متقاربة تدور في دائرة المجون والخمريات ، وهما متعاصران على أية حال . وقد كان الحسين شاعرا وصّافا وصاحب خمريات ربما كان له السبق فيها على أبي نواس . وكان النقاد يقولون أن أبا نواس كان : « يأخذ شعره ومعانيه في الخمر فيغير عليها . وإذا شاع له ذكر بشعر نادر في هذا المعنى نسب الى أبي نواس » . والسبب في ذلك هو ذيوع صيت أبي نواس في هذا الفن دون سواه من شعراء هذا العصر ، أو ما سبقه بقليل . ويبدو أن أبا نواس قد استغل هذه الشهرة التي كانت له في هذا الباب .

ولكن استغلاله لها جاء ممزوجا بقدر كبير من الفكاهة والهزل . ومن هنا فإن ما يسميه النقاد (إغارة) على شعر الحسين ، كان عند أبي نواس شيئا آخر تماما . فهو قبل كل شيء يأخذه أخذا صريحا على مسمع ومرأى من الحسين الضحاك نفسه ، بل ويذهب أبعد من ذلك في تحدّي الشاعر الآخر بأن ما سيقوله هو (أي أبو نواس) سيكون على كل لسان ولن يذكر الرواة قول الحسين كما سيذكرون قوله هو . ولنستمع إلى الحكاية كما جاءت على لسان الشاعرين :

« قال الحسين بن الضحاك ، أنشدت أبا نواس قصيدتي :

وشاطري اللسان مختلق التكـ
ـريه شاب المجون بالنسك

حتى بلغت قولي :

كأنما نصب كأسه قمر
يكرع في بعض أنجم الفلك

قال : فأنشدني أبو نواس بعد أيام لنفسه :

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته
يقبّل في داج من الليل كوكبا

قال : فقلت له ، يا أبا علي هذه مصالتة .

(والمصالتة هي أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى) .

فقال لي : أتظن أنه يروى لك في الخمر معنى جيد وأنا حيّ ؟؟

هكذا يكابر أبو نواس ويعبث وينتهي إلى انتزاع الصورة التي جاءت في قول الحسين :

يكرع في بعض أنجم الفلك

فجعلها في بيته : (يقبل في داج من الليل كوكبا)

ولا يكتفي بالأخذ العلني ، بل يتحدى الحسين بأنه ما دام حيا فإن كل ما يتصل بوصف الخمر سيرد اليه ، حتى وان كان من نصيب شعراء آخرين معروفين مثل الحسين ، وذلك لبعد صيته في هذا الفن . ولقد كان ذلك ما حدث فعلا ، فنحن لا نكاد نجد معنى مستحدثا في هذا الباب أو شبيهه إلا وقال الرواة إنه من إبداعات أبي نواس ، حتى وإن كان مصدره بعض معاصريه من الشعراء المحدثين .

تندر وهو مقصود

ومهما يكن من أمر ، فمن الواضح أن الموقف الذي يتخذه أبو نواس مما سماه النقاد صراحة (سرقة) وأجهدوا أنفسهم في البحث عن مكامنها وأجزائها ، كان عنده شيئا آخر تماما . إذ لا يعدو الأمر عنده أن يكون موضع تندر وهو مقصود .

ومن الطريف أن أبا نواس لم يكن يجد ضيرا كبيرا كذلك حينما يسطو بعض الشعراء على شعره هو ، بل يجعل من الموضوع فرصة مواتية للعبث والفكاهة التي كان مولعا بها أيما ولع . ويبدو أن الشعراء كانوا كثيرا ما يتمازحون بهذا النمط من المزاح ، لا سيما من أصحاب أبي نواس الذين عرفوا حبه للهو والعبث ، كما عرفوا مذهبه في عمل الشعر الذي ينطلق أصلا من حياة اللهو والعبث الذي عرف به هو وأصحابه . ومنه الحكاية التالية :

قيل إن أبا نواس كان عند محمد بن زهير صاحب الشرطة يشرب ، حتى إذا بلغ إلى نهاية من سكره ـ وكان إذا سكر لم يفق إلا بإنشاد الشعر ـ فأمر محمد بن زهير خيار بن محمد الكاتب أن ينشد أبا نواس ، فأنشده خيار أبياتا ، أبو نواس قائلها ، وادعاها خيار . وهي :

صاح مالي وللرسوم القفار
ولنعت المطيّ والأكوار

شغلتني المدام والقصف عنها
وافتراع الطنبور والمزمار

ومضى في الشعر ، فوثب أبو نواس فتعلق به ، وبركا قدام محمد بن زهير وأنشأ يقول :

أعدني يا محمّد بن زهير
يا عذاب اللصوص والدعّار

يسرق السارقون ليلا وهذا
يسرق الشعر جهرة بالنهار

صار شعري قطيعة لخيار
لم ؟ لماذا ؟ لقلّة الأشعار ؟

قل له فليغر على شعر حمّا
د أخي الفتك أو على بشّار

وليست هذه الحكاية وأشباهها إلا من باب المداعبات التي أولع الرواة بنسبتها إلى أبي نواس الذي تتناسب أمثال هذه الحكايات مع شخصيته المولعة بالدعابة والعبث . وإذا كانت تدل على شيء فإنما تدل على الفرق الشاسع بين طرفين قل أن التقيا في ذلك العصر ، ألا وهما :

طرف يمثله اللغويون والنحاة الذين نصبوا من أنفسهم نقدة للشعر .

وطرف كان يصنع الشعر ويعانيه ، وهم الشعراء . □

رحلة استكشافية

التنويم المغناطيسي في الطب النفسي

بقلم : الدكتور محمد المخزنجي

رحلة طويلة وشاقة ، تلك التي يبذلها الإنسان في التعرف على أمراضه النفسية ، وطرق علاجها فمرة يداويها بالسحر ، وأخرى بالخرافات ، ولكن العلم يتدخل بمناهجه وأدواته ، مستخدماً كل الطرق والأساليب . والكاتب يصحبنا في رحلة معالجة بالتنويم المغناطيسي ، مبحراً بنا في أعماق التاريخ حيث البداية وصولاً إلى ما استجد في هذا المجال .

كان على القطار الكهربائي أن يمضي قرابة نصف الساعة مارقاً بين الثلوج كي نصل ـ نحن مجموعة الأطباء الدارسين لاختصاص طب النفس والأعصاب ـ إلى ضاحية المدينة البعيدة التي تقع فيها مستشفى من وسائل العلاج فيها وسيلة العلاج النفسي بالتنويم . وكان بياض الثلوج الناصع هو العنصر الطاغي مروراً خارج نوافذ القطار ، وهو يوحي برسوخ الصقيع في هذا الشمال ، ويدفع بخاطر الجنوب بعيداً في الاتجاه المعاكس ـ نحو دفء الجنوب .

ومن الغريب أن نعثر على معظم البدايات ـ لاجتهاد الإنسان في الوصول إلى تفسير ـ في أرض الجنوب . وشرق هذا الجنوب كانت الهند والصين . وغربه

كانت أمريكا الهنود الحمر ، ووسطه كانت أرض الرافدين وساحل شرق المتوسط ومصر القديمة . وفي مصر الجانب الغامض من النفس ، والجانب الذي استنتجوا هيمنته السرية حتى على البدن قبل قرابة خمسة آلاف عام من استخدام « فون هاتمان » لتعبير العقل الباطن ، أو إطلاق « فرويد » لمصطلح « اللاوعي » أو « اللاشعور » إلى آخر هذه التسميات التي تعني : مخزن المحركات الداخلية للسلوك الإنساني ، مقر طاقته النفسية وغرائزه ، وجوهره المختبيء ، والأساس العميق لعالمه النفسي المحسوس . ففي عام ٢٨٥٠ قبل الميلاد كان « أمحوتب » أبو الطب المصري القديم ، في مدرسته الطبية ومستشفاه بمدينة « منف » ، يستخدم طريقة تشبه الإيحاء للوصول الى هذا المخزن السري ، بأن يترك مرضاه ينامون ، سواء كان نوماً طبيعياً أو في أعقاب تناول النباتات المخدرة ، ثم يجعل الكهان يرددون على أسماع هؤلاء المرضى النائمين عبارات إيحائية لتتسلل إلى أحلامهم ، وتلعب دوراً إيحائياً في حفزهم على التعافي من أمراضهم التي يعانون منها .

وكانت نباهة مبكرة من « أمحوتب » أن يلجأ في إيصال إيحاءاته الشافية إلى العقل الباطن خلال النوم ، بغض النظر عن النتيجة النهائية (وإن جاء « فرويد » بعد آلاف السنين ليقر بإمكانية التدخل في نسج الحلم بمؤثرات خارجية) ، لأن هذا الإيحاء لا يبلغ أوجه إلا بكشف الغطاء عن هذا الباطن ، بعبور السياج إليه ، وبإزاحة الرقيب الكابح الذي يسميه الفرويديون : (الوعي) ، ويسميه العضويون : « لحاء المخ » .

العلاج بالسحر والخرافة

ومن الغريب - غريب دورات الحضارة الإنسانية - أن الإنسان يميل إلى الضعة دائماً بعد الارتفاع ، فبعد هذه النباهة المصرية القديمة راح العلاج الإيحائي يتخبط في دياجير العصور التالية ، وبات إمراضاً إيحائياً عبر خرافات السحر والسحرة وخرافات الرقى والتعاويذ . وحتى يعود معافى من جديد كان عليه أن يخوض في وحل الدجل مرة ، ولجج الكذب مرات ، ويخرج في النهاية إلى مفهوم العلاج الإيحائي النفسي المعاصر . وليضيف وسيلة أضمن وآمن لزيادة تأثير هذا الإيحاء ، لا بالنوم هذه المرة ، لكن بالتنويم الذي اقترن اسمه بنعت « المغناطيسي » ، كأنما ليذكرنا دوماً بوحل الطريق الذي سلكه هذا التنويم إلى أيامنا .

مستشفى في طرف المدينة :

وصلنا الى ضاحية المدينة البعيدة ، وكانت الثلوج ما زالت تهيمن على هذا العالم الشمالي . وقبل أن نخرج من دفء المحطة إلى صقيع البراح كنت أحتج بيني وبين نفسي على هذه النظرة التي ترقد مستشفيات النفس والأعصاب بعيداً ، كأنما تنفي مرضاها . لكن مع خروجنا اكتشفت أن الضواحي في هذا الشمال ما هي إلا مدن أصغر تدور حول المدينة الكبيرة ، وتوشك على الرغم من صغرها أن تكون مكتفية بذاتها ، لا تنقصها خدمات أو سبل ترفيه . وفي وسط هذه المدينة الصغيرة مستشفى كبير حديث ، سابح في البساتين ، هادىء ، ودافىء ، ومع إيغالنا فيه إلى القسم الذي سنلاحظ فيه جلسات التنويم العلاجية ، كان الهدوء والدفء يستتبان أكثر . ومن

ردهة هذا الدفء والهدوء ، خفت إلينا واحدة من الممرضات ، تنتعل (خفاً) قماشياً ، وتسرع ـ كأنها تسير على أطراف أصابع قدميها حتى لا تصدر ضجة ـ وترحب بنا همساً ، فتسحب ضوضاء اندفاعنا الجماعي ، وتدخل إلى الغرفة التي تفتحها لنا لننتظر فيها ، ريثما ينتهي الطبيب من جلسة بدأها في قاعة التنويم المجاورة ، ولا يصح دخولنا في هذا الوقت إليها ، أو خروجه هو منها .

مدارس علم النفس والتنويم :

« التنويم حالة يتم استحداثها لدى المرء صناعياً ، وتشبه النوم ، لكنها تختلف عنه ، من حيث قابلية الوسيط (المنوّم) المفرطة لاستقبال الإيحاء والتأثير النفسي والعقلي من المنوّم ، إلى درجة تتعدى طور الطبيعة ، وفيها يتم تضييق مجال انتباه المريض ويقظته ، وحصرهما في قصد المنوّم الذي يُنقل إليه عبر الكلام . ويعتبر بعض العلماء ، من مدرسة علم النفس المرضي الفرنسية ، أن التنويم ما هو إلا حالة (تفكيك) نفسي محدثة ، أي تعطيل وظيفي للترابطات والتداعيات التي تتم داخل العقل أو لحاء المخ ، مما يفقد الشخص قدرته على التواصل العادي ، ويفقده سيطرته الشخصية الواعية التي يمارسها في العادة على مختلف عملياته الحركية .

ويفسره آخرون ـ من مدرسة الفسيولوجي « بافلوف » ـ بأنه نوم جزئي ، يحدث فيه تثبيط انتقائي وسطحي لنشاط قشرة المخ العليا (بينما النوم تثبيط عام وعميق لهذه القشرة) يُبقي على بورة غير مثبطة أسماها « بافلوف » النقطة ، أو « البؤرة الحارسة » ، وهي المنطقة الخاصة بتحليل المسموعات ، مما يفسر استمرار استقبال صوت المنوم وإيحاءاته ، دون غيره ، فهي بمثابة نقطة الاتصال الوحيدة الباقية في هذه الحالة من قطع الاتصالات .

وقد بينت التسجيلات الحديثة لنشاط المخ الكهربائي ، أن التنويم لا يشبه النوم المعتاد ، لكنه أقرب إلى حالة الاستيقاظ منه .

تنوع طرق التنويم :

وتتنوع طرائق التنويم ، لكنها تشترك في وجوب إتمامها في غرفة هادئة ، خافتة الضوء ، أو معتمة قليلاً ، ويسترخي داخلها المريض أو المرضى (في جلسات التنويم الجمعي) جالسين في مقاعد مريحة ، أو راقدين على الحشوات . ثم يتم « تجهيزهم » للتنويم بإفهامهم جوهره ، وآليته ، والهدف العلاجي منه . بعد ذلك يشجع المريض أو المرضى لترك كل عضلاتهم تنفك وتسيب ، والأجساد تغوص عميقاً في وثارة المقاعد أو الحشوات ، بينما يعطون كل اهتمامهم لتعليمات المنوّم حتى يبدأ التنويم ، ومنه :

أ ـ التنويم السريع : وفيه ينهج المريض ، ومع إيحاء مناسب ومدروس ، يمكن إدخاله في التنويم حتى أعمق مراحله .

ب ـ التنويم غير السريع : وتوشك أن تنحصر آلية كل طرقه في فكرة أن المنبه الضعيف المستمر والمتواتر من النوع الواحد يحدث تثبيطاً لنشاط لحاء المخ من هذا النوع الجزئي والسطحي الذي أشار إليه « بافلوف » في دراسته للتنويم ، ومن طرائق هذا النوع :

(١) طريقة التربيت براحة الطبيب وأصابعه على جسم المريض في منطقة ما بين الرأس والجذع ، على نحو متواتر ، متكرر ، وإيقاعي .

(٢) طريقة تثبيت نظر المريض محدقاً في جسم لامع ، وتوجد لهذا الغرض أداة خاصة عبارة عن كُرَيَة من النيكل البراق ، ترتكز على الطرف المدبب لعصيّة شبه مخروطية ، يمسك بها المنوم في مواجهة المريض ، ويوحي إليه أثناء إدامة التحديق ، بأن أجفانه تثقل وتثقل ، وأنه سيغمض عينيه ، ويغمض عينيه لأن الخدر يزحف على رأسه ، ويتسلل منه إلى أسفل ، لينتشر في بقية الجسد .

(٣) طريقة تكرار بعض الكلمات ، أو المقطوعات ، مرات عديدة ، بصوت ثابت النبرة ،

تواكبه سلسلة من الحركات البطيئة ، مع الإيحاء .

وبشكل عام فإنه عند الوصول إلى التنويم الخفيف يمكن للمنوّم أن يستخدم (الكلام) بهدف الإيحاء ، لإدخال المريض في مراحل أعمق من التنويم ، تبعاً لنسق مدروس ، كأن يوحي للمريض بكونه يشعر باسترخاء ممتع ، ينتشر رويداً رويداً في جسده ، وأنه يشتهي أن ينام . وهكذا ينتقل الإيحاء من الخارج لإحداث إيحاء داخلي ، والنتيجة تعميق درجة التنويم ، وهنا يبدأ الإيحاء للتعافي من الأمراض المستهدف علاجها .

التنويم رأي العين :

كان المنوّم طبيباً لم يتنازل حتى عن معطف الأطباء الأبيض ، وكانت قاعة التنويم العلاجي التي استقبلتنا فيها خالية بعد أن فرغت من مرضى الجلسة التي انتهت تواً ، وفي انتظار مرضى الجلسة التالية . الغرفة فسيحة ، هادئة ، ودافئة وخافتة الضوء ، وتوحي بخلوة من نوع خاص . ربما لغياب هذه الأشياء المرتفعة بين أثاثها ، كالدواليب ، والأرفف ، ولا صور على الحيطان ذات الطلاء الفيروزي . وعلى مصاريع النافذة الزجاجية العريضة المطلة على حديقة المستشفى الخلفية تتدلى ستارة سابغة من « شيفون » ، كثيف بلون الشفق ، تتخلله خطوط طولية أكثر كثافة ولم يكن في الغرفة غير مكتب صغير في الركن البعيد إلى جوار النافذة ، وقد التصقت بالجدار العريض الأيمن مقاعد المرضى المتلاصقة - مقاعد وثيرة تشبه مقاعد الطائرات ، وأمامها ببعد كاف كان مقعد الطبيب ، وخلفه ملاصق بالجدار الأيسر كانت مقاعد الدارسين المشاهدين التي شغلناها متراصة . وبعد أن أعطانا نبذة مختصرة عن التنويم والطريقة التي يتبعها ، أذن للمرضى بالدخول ، فتقاطروا على القاعة . خليط من أربعة عشر رجلاً وامرأة في أعمار مختلفة ، وهيئات مختلفة . بعضهم كان واضحاً مجيئه من خارج المستشفى لمجرد أخذ الجلسة ثم العودة .

شغلوا المقاعد الأربعة عشر كلها ، وأغلقت الممرضة الباب بعد أن انسحبت خارجة بهدوء . وبهدوء بدأ « التجهيز » . بدأ بخلق ، أو استعادة الألفة بينه وبين المرضى . فكان يتجه إليهم واحداً واحداً بتحية ودود ، ثم يسأل الواحد منهم عن حاله ، وعن المرض الذي يعاني منه إذا كان يحضر الجلسة للمرة الأولى ، وعن إحساسه بالتحسن أو العكس ، إذا كان قد حضر جلسة أو جلسات سابقة .

كان هذا الطبيب يضرب عدة عصافير بحجر واحد في هذه الخطوة ، اذ كان يتعرف على المرضى . وأعراضهم ، ويتذكر تشخيصاتهم ، ويخلق الألفة فيما بينهم وبينه ، ثم بينهم وبين بعضهم بعضاً . وكان يُسقط على وجه الخصوص غطاء السرية ، هذا الذي يلف به المريض مرضه - النفسي خاصة - بدافع الخجل ، وكأنما ليحفزهم على إخراج معاناتهم من

دواخلهم . وعادة عندما تخرج المعاناة إلى خارج النفس يراها المريض في ضوء أفضل ، يراها أضأل . درجة ما من التحرر من الخوف ومن المرض النفسي . لعله كان يقصدها في (تكتيكه) المشابه (لتكتيك) طبيب أمريكي تابه ذاع صيته في أواخر الأربعينات ، هو « اوارسينسكولز » ، وتتشابه مع (تكتيك) جلسات العلاج النفسي الجمعي . ومع ذلك ظل بعض المرضى محافظين على خجلهم من أمراضهم . فكان الواحد منهم ، أو الواحدة ، ينهض أو تنهض لتسر في أذنه بشكواها . (ومكثت اثنتان صامتتين في مكانيهما لطبيعة مرضهما الذي عرفه وعرّفنا به) . وعبر هذه الخطوة تعرفنا نحن أيضاً على شخصيات مرتادي هذه الجلسة وأمراضهم . وكانت أربع حالات رهبة (خوف مرضي) : حالة فقد صوت هستيري ، حالتا اكتئاب إحداهما مصحوبة برغبة انتحار دائمة ، ومحاولة فاشلة للانتحار .

وحالة اضطراب في ضربات القلب ذات منشأ نفسي ، وحالة إدمان للكحول ، وحالة ربو شعبي ، وحالة فقد بصر هستيري ، وحالة ارتفاع ضغط دم عصبي . وحالتان ممن أسرتا بأمراضهما للطبيب . ويتكشف أن إحداهما لفتاة (في الخامسة عشرة) تعاني من السلس البولي ليلا ، والأخرى لشاب متزوج حديثاً يعاني من عُنّة نفسية .

التحضير للتنويم :

بعد ذلك نهض الطبيب ، ووقف في مواجهة المرضى بمنتصف الغرفة . وكان صوته الواضح مرتفعاً قليلا لكنه لا يرعد . شرح مفهوم التنويم ، وأسلوبه ، وغايته . كل ذلك في إيجاز وهو يتحرك جيئة وذهاباً . ثم طلب منهم الاسترخاء ، والاستراحة في أماكنهم . ثم أمرهم بأن يغلقوا أعينهم ، ويضعوا راحاتهم على ركبهم . وكان يكرر مع كل خطوة : « أنتم تهدأون ... اهدأوا ... أنتم تهدأون » . وطلب منهم أن ينتبهوا إلى أياديهم اليمنى ، مع الإيحاء بأنها خفيفة ، وبأن اليسرى ثقيلة « اليسرى ثقيلة ... واليمنى خفيفة ... خفيفة » . وطلب منهم أن يرفعوا الاصبع حال الاحساس بأي سريان للحركة فيه . وراحت بعض الأصابع تتحرك خفيفاً ، وأوحى لهم من جديد بأن الذراع اليمنى تخف « فهي أخف ... أخف ... أخف ... » وعندما سيرفعون أياديهم ليمسوا جباههم بطرف الأنامل سيذهبون في التنويم . وأعطى الإشارة بأن يبدءوا برفع أياديهم « ببطء ... ببطء منتظم ... ببطء » وعندما كانت تتخلف بعض الأيادي ، كان يتجه إليها ، ويلمسها مع الإيحاء بصيرورتها أخف ، فترتفع . كانت الأيادي اليمنى الأربع عشرة كلها ترتفع ببطء . ليست في مستوى واحد ، ولا هيئة واحدة لكنها ترتفع ببطء . وكان يواصل الإيحاء بالذهاب في التنويم فور لمس الأنامل للجبهة . وكان شيئاً مدهشاً أن ترى العين هذا التساقط المتوالي للبشر الأربعة عشر في جب التنويم مع لمس أو اقتراب الأيادي من الجباه . وعندما كان يلاحظ اضطراب أو تخلف أحدهم يسرع ، ويطلق مع لمسة للصدر كلمة « نم » فيسقط المريض مُنوماً كأنما كان على حافة . وحتى قبيل هذه اللحظات لم أكن واثقاً - رغم اقتناعي النظري ، بسيكولوجية التنويم وفسيولوجيته - في إمكانية إحداثه بهذه البساطة ، وهذه السرعة النسبية ، إذ لم يستغرق الأمر أكثر من ربع ساعة ، لكن الصورة كانت جلية للعين ، والأمر لا لبس فيه ، وخاصة لطبيب عمل مدة سنوات باختصاص الطب النفسي ، ويعرف جيداً معنى وهيئة الـ « كاتاليبسي » أو « الجمدة » أو « التصلب الشمعي » أو « الصمول » . فقد كان جميع المرضى الأربعة عشر في حالة الجمدة هذه . كأنما مسهم سحر ساحر ، فثبتهم كيفما كانوا في لحظة المس في أوضاع لا يمكن الثبات عليها إفتعالاً أو توهماً . كانت بعض الأيادي معلقة في الهواء ، وبعض الفكوك مدلاة ، وبعض الرؤوس مائلة .

تشابه عام ، واختلافات طفيفة ، لكن كُليّة الصورة تذكر بمشهد تلك المدينة في « ألف ليلة وليلة » التي سقط على أهلها السحر في لحظة فتثبتهم حيث كانوا ، وكيفما كانوا . لم يكن في الأمر أي إيهام ، ولا بد أن كلا من الأطباء المشاهدين للجلسة قد هتف في داخله مثلما هتفت مدهوشاً في داخلي : « آه كاتاليبسي » . راح بعدها المنوِّم يعطي إيحاءات جديدة لتعميق التنويم . ثم راح يكرر : « هذا تنويم . . . أنتم الآن مُنوَّمون ، وتذهبون في تنويم عميق ، عميق .

تشعرون بأياديكم اليمنى في ماء دافيء ، واليسرى لا تحس . . . اليسرى لا تحس . . . لا تحس » . وصار يتوالى على أياديهم اليسرى الراقدة على ركبهم بالوخز بإبرة الأعصاب ، ولم يكونوا يبدون أية استجابة للألم . وكان يواصل : « وهكذا تهدأون . . . أنتم الآن هادئون تماماً . . . هذا التنويم عميق » وراح يدخل في مرحلة الإيحاء العلاجي مروراً بهم ، حالة ، حالة . « تشعرون بأنفسكم أحسن . . . قلوبكم تعمل بهدوء ولا تحسون بها . . . القلب هاديء . . . الرأس صاف في الليل رائق البال . . وتغفو في هدوء كل يوم .

في طريق الإياب :

كنا نرجع ونحن على موعد مع جلسات أخرى ، لعل أكثرها إثارة جلسة تنويم علاجية لمجموعة من الأطفال ، وكان القطار الكهربائي يمرق بنا من جديد بين ثلوج الشمال ، والخاطر من جديد يذهب بي الى الجنوب . وكنت أتأمل لائحة الأمراض القابلة للمعالجة أو التي يشارك في علاجها الإيحاء التنويمي . لائحة طويلة تبعاً لتعدد المصادر التي تشير إلى أن وجود القابلية للتنويم توفر أسرع وسيلة للعلاج النفسي لأمراض كثيرة منها : أمراض النفس الجسمية ، كاضطرابات القلب الوظيفية ، وارتفاع أو انخفاض الضغط الشرياني ، والصداع ، والقيء ، والربو ، وفقد الشهية النفسي ، والاضطرابات الجنسية النفسية ، وأمراض العُصاب بشكل عام ، خاصة الهستيريا ، والوسواس القهري ، والمخاوف ، والاكتئاب التفاعلي ، والتوتر ، والإدمان على المسكرات ، والحالات البينية ، والسلس البولي في الأطفال ، والبالغين ، وتخفيف الآلام ومنها ـ خاصة آلام السرطان ـ . وآلام الولادة (وهو ما يُدرّب عليه بعض دارسي اختصاص أمراض النساء والتوليد) . . قائمة طويلة من الأمراض يضاف إليها إمكانية التحليل النفسي عبر التنويم .

أما آن لنا أن ننقذ هذه الوسيلة العلاجية من أيدي المشعوذين والدجالين والراجين بالجهل ؟ . . أما آن لنا أن نكتشف بفهمها ، طبياً ، كثيراً من دعاوى المعالجة التي يسميها بعضهم مرة « روحانية » . وأخرى « سحرية » ، ؟ !

وتقف بي التساؤلات عند يقين واضح وبسيط مفاده أن ما أيسر هذه الوسيلة للمعالجة ، إذا ما قورنت بوسائل أخرى لعل أوضحها : طرق معالجة الأنواع التحولية في الهستيريا ، مثل فقد الصوت أو الشلل أو العمى الهستيري التي يلجأ فيها إلى طرق للمعالجة تضني المريض والطبيب معاً ، مثل رش المخدر الموضعي شديد اللذع في الأنوف ، أو الحقن بالكحول المؤلم تحت الجلد ، كما يفعل بعض الأطباء غير المتخصصين في أقسام استقبال بعض المستشفيات ، أو الحقن بالمهدئات والتنبيه الكهربي لدى بعض المتخصصين ، نعم ، حتى بعض المتخصصين !

هل نأخذ بالأيسر ، وهل نحترس في نفس الوقت إذا أخذنا به ؟ فما أسرع ما يجرنا اليسر إلى الاستسهال ، وما أخطر الاستسهال مع وسيلة كهذه إذا راجت بغير حنكة ، فاللجوء إليها لمعالجة حالة ربو ملازم ، وفي وجود أعراض نقص للأكسجين على سبيل المثال . يعد قتلاً محققاً لما تسببه من إبطاء إضافي لمعدل التنفس المتباطيء أصلاً . □

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

التمذهب والتعصب والتخلف !

لا خشية على أمتنا من التمذهب ، إنما الخوف كل الخوف من التعصب ، إذ التعصب ليس سبيلا إلى الفرقة والفتنة فقط ، لكنه في نفس الوقت علامة على التخلف والانحطاط . وبوسع الراصد لمسار التاريخ الاسلامي أن يلحظ في مختلف مراحله وصفحاته ذلك التلازم الدائم بين التعصب والانحطاط ، حتى يكاد الاثنان أن يصبحا وجهين لحقيقة واحدة .

والذين يتصورون الحل في الدعوة إلى (إسلام بلا مذاهب) - وهم بيننا أحياء يكتبون ويرزقون - يخطئون التشخيص والعلاج ، أجل أكاد أقول إنهم يفسدون بأكثر مما يصلحون ، إذ هم بهذه الدعوة لا يختلفون كثيرا عمن يدعون إلى اغلاق باب البحث في علوم الوراثة ، بسبب المخاطر التي يمكن أن تنشأ عن تطور تجارب التحكم في الأجنة ، بما يؤدي الى التلاعب في صفات البشر . أو أولئك الذين يريدون وقف استخدام الذرة ، لأنها كانت بلاء على العالم منذ كانت القنبلة الذرية إحدى ثمارها .

إن إساءة استخدام العلم لا تعالج بإغلاق أبواب المعامل ، كما أن إساءة استخدام الحق لا تقوم بإهداره والدعوة الى مجتمع بلا حقوق . كذلك الحال بالنسبة للمذاهب التي كانت مجالا خصبا للتجديد والاجتهاد ، وتعبيرا أصيلا عن حرية الفكر وثراء عقل الأمة ، وإغناء الواقع الاسلامي بما يلبي احتياجاته أولا بأول . هذه المذاهب ، إذا أسيء تلقيها بشكل أو آخر ، كأن تتحول عند بعضهم إلى أديان ، أو كأن تؤدي إلى المنازعات وإراقة الدماء ، لا ينبغي أن تصحح نتائجها بحرمان الأمة في كل ما تمثله من ثراء فكري عظيم . وإذا استبان لنا أن العلاقة بين التعصب والانحطاط هي تعبير عن تلازم النتيجة بالسبب ، فإنه يصبح من غير الحكمة ، بل من غير المجدي ، أن نتجه بالعلاج الى المرض الذي هو التعصب ، بينما يترك المرض - الانحطاط - يسري في جسد الأمة ، ليدمر خلاياه ويهد كيانه .

لنتجه - إذا أردنا - إلى أصل الداء ومنبع الشر ، وهو التخلف والانحطاط ، ولنحاول في الوقت نفسه أن نضع التمذهب في إطاره الطبيعي ، من حيث أنه فكر إسلامي يفيد ويحترم ، لكنه لا يلزم ولا يتعبد به . لنحاول أيضا أن نقرب بين المسافات ، ونقيم الجسور بين أتباع المذاهب الاسلامية ، وأن نزيل ما بين المسلمين من حجب ، ومن أشواك وألغام ، أثخنت جسد الأمة في الماضي والحاضر بجراح عميقة ، عوقت مسيرتها ، وألهتها عن التصدي لتحدياتها الحقيقية وقطعت أوصالها في كل حين .

دعك من كون الدعوة الى الانخلاع من المذاهب ـ اللامذهبية كما يسمونها ـ مستحيلة التحقيق من الناحية العملية ، وأنها لا تعدو أن تكون نداء يردده بعض الحالمين ، الذين يغيب عنهم أن اقتلاع فكر عمره ألف عام من عقل الأمة وضميرها يمكن أن يتم بخطبة من فوق منبر ، أو بتأليف كتاب يقرأه عدة مئات في زمن قصير ، ثم ينسونه ويعودون الى ما كانوا عليه .

إن التشرذم السياسي حقيقة قائمة ، والعالم الاسلامي الذي ملأ الأعين في زمن مضى صار الآن عوالم عدة ، بينها ما بينها من حواجز وحوائل ، لا حيلة لنا فيها ، ولا أملا منظورا في إزالتها . إذ عمت البلوى فتقطع الجسد ، وحيل بين اجتماع أطرافه وأوصاله ، فتواضعت أمانينا وأحلامنا ، وصرنا أعجز من أن نسأل الله رد القضاء ، لكننا فقط نسأله اللطف فيه !

* * *

من هذا المنظور نتعامل مع قضية المذاهب ، داعين إلى وفاق لا خصام ، وإلى فهم وتفاهم ، لا إلى قطيعة وتنازع ، وإلى اجتماع والتئام ، لا إلى تقاطع وانفصام .

وثمة نقطة جوهرية هنا ، تتصل بمنهج التعامل مع هذه القضية ، ذلك أنه فيما بين المذاهب والفرق الاسلامية هناك العديد من نقاط الاتفاق ، ونقاط الاختلاف ، بل هناك العديد من الدعاوى والأقاويل ، الحقيقية والوهمية . وعلى من يريد أن يتناول هذا الموضوع أن يحدد أولا هدفه : هل يريد الانتصار لمذهب على آخر ، أم يريد تصفية الحساب مع هذا الفريق أم ذاك ، أم يريد تقريبا وتفاهما ؟ هل يستهدف وحدة الأمة الاسلامية ، أم هو أحرص على إنصاف أهل السنن مثلا ، وتسفيه غيرهم ، أو تبيان مواضع الخطأ في تعاليمهم واعتقاداتهم ؟

إن من يريد أن يصل إلى اتفاق وتفاهم وتقارب سيجد ألف باب مؤد إلى مراده . كذلك من يريد أن يثبت اختلافا ، أو يصفي حسابا ويسفه رأيا ، فإنه سيعثر على ألف باب أيضا يوصله إلى ما يريد .

إننا في عصر يتجه فيه العالم الى التكتل دفاعا عن مبادئه أو مصالحه . وفي زمن صار الحوار فيه لغة ضرورية لدوام التعايش وتحقيق المصالح بين الأعداء والأصدقاء ، سواء بسواء ، فهذا حوار متصل بين الأمريكان والسوفييت ، يمضي متوازيا مع التنسيق بين الكتلة الشرقية ، ومحاولات تحقيق أشكال مختلفة من الوحدة الأوروبية (البرلمان الأوروبي والسوق المشتركة) . وهذا حوار بين الشمال والجنوب . وذلك حوار إسلامي مسيحي . أما البند الذي ما يزال غائبا عن القائمة فهو الحوار الاسلامي الاسلامي !

وما يدعو حقا إلى المزيد من الدهشة ، بل الحزن والأسى ، أننا سبقنا هؤلاء جميعا في محاولة إجراء الحوار ، وقمنا به فعلا في الأربعينيات ، لكن المحاولة لم يكتب لها الاستمرار وماتت في الستينيات .

إذ شهدت مصر عام ١٩٤٨ م تشكيل لجنة « للتقريب بين المذاهب الاسلامية » ، ضمت عددا من علماء المسلمين في مختلف البلدان والمذاهب ، كان ذلك الحوار المنشود سبيلها ، أما هدفها ، فقد تحدد في الاسم الذي تسمت به . وكان الشيخ محمود شلتوت ـ شيخ الأزهر لاحقا ـ هو أحد العلماء الناشطين في اللجنة . وعندما كتب قصة التقريب في الجزء الأخير من تفسير « مجمع البيان » للطبرسي ، الذي أقرته اللجنة وصف اجتماعاتها قائلا : « كان يجلس المصري إلى الايراني أو اللبناني أو العراقي أو الباكستاني ، أو غير ذلك من مختلف الشعوب الاسلامية ، ويجلس الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الامامي والزيدي ، حول مائدة واحدة ، تدوي بأصوات فيها علم ، وفيها أدب ، وفيها تصوف وفيها فقه ، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة وذوق المودة والمحبة ، وزمالة العلم والعرفان » .

أصدرت اللجنة مجلة فصلية باسم « رسالة الاسلام » ، كان شعارها المثلث على واجهتها هو الآية الكريمة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا

ربكم فاعبدون » ، بينما سجلت على ظهر الغلاف بعض مواد القانون الأساسي للجمعية ، التي تنص على أهدافها ، ومنها : العمل على جمع أرباب المذاهب الاسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الايمان بها ، والسعي الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما .

لقد ظل هذا الفريق من علماء الأمة يواصل العمل من خلال لجنة التقريب ، ويوجه الخطاب الى عامة المسلمين عبر مجلة « رسالة الاسلام » طوال ١٦ عاما ، إلى أن قدر لهذا الجهد الجليل أن يتوقف لأسباب سياسية في عام ١٩٦٤ م .

* * *

قلنا في حديث سابق ـ مقال الشهر الماضي ـ إن الاختلاف يعد أمرا طبيعيا لا بد من حدوثه ، لأسباب عديدة تتراوح بين اختلاف المدارك والمعارف والمصالح ، وإذا كان الخلاف السياسي حول مسألة الامامة ، هو الذي فتح الباب لظهور الفرق في التاريخ الاسلامي ، مما ترتب عليه ظهور الشيعة والخوارج ، وبينهما فريق الوسط المعتدل ، الذي عرف فيما بعد باسم « أهل السنة » ، الا أن الخلاف الاعتقادي والفقهي هو الذي أفرز الكم الأكبر من المذاهب الاسلامية ، الذي هو أكثر ما يعنينا الآن ، في سياق معالجة مشكلة « الآخر » في التفكير الاسلامي .

ذلك أنه بعد الخلاف السياسي الذي أعقب فتنة مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وبعد انتقال الخلافة الى الكوفة ثم الى الشام ، وما تخلل ذلك من أحداث جسام ، فإن تلك الأحداث أدخلت الى دائرة الاختلاف أمورا عدة كانت خارجها ، وساعدت على انطواء كل بلد على ما وصلهم من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والنظر الى ما لدى بقية الأمصار بقدر من التحفظ ، ربما لعب فيه التأييد السياسي أو المعارضة دورا . وكان العراق بيئة خصبة لتفاعل الأفكار والآراء ، خاصة في الكوفة والبصرة ، ففيه نشأ التشيع ، وظهرت الجهمية (أو الجبرية ، وهي منسوبة الى جهم بن صفوان) ، والمعتزلة ، وانتشر الخوارج ، وجملة من أهل الأهواء والبدع .

والى جانب ذلك فقد اشتهر العراق بأنه بلاد أهل الرأي ، فإن أهل الحجاز كانوا على قناعة بأنهم ضبطوا السنة ، إذ كان بالمدينة عشرة آلاف من الصحابة ، ولذا فقد اعتبرت الحجاز بلاد أهل الحديث والأثر . وعندما أخذ واحد من أهل المدينة بالرأي وهو ربيعة بن أبي عبدالرحمن شيخ الامام مالك فقد كان موقفه لافتا للأنظار حتى صار لقبه (ربيعة الرأي) !

برزت تلك التيارات الفكرية بعد انقضاء عصر الصحابة التابعين ، أي منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، وهي مرحلة تشمل العصر العباسي الأول بوجه أخص ، الذي وصل فيه عدد مذاهب أهل السنة الى ١٣ مذهبا . وإن بقيت منها مذاهب أئمة أهل السنة الأربعة المعروفين ، إلا أنه لم يقدر لمذاهب الآخرين أن تنال نفس القسط من الذيوع والانتشار ، ومنهم الامام الحسن البصري (المتوفى ١١٠ هـ) ، والامام الأوزاعي (ت ـ ١٥٧ هـ) والامام سفيان الثوري (١٦٠ هـ) والامام الليث بن سعد (١٧٥ هـ) ، والامام سفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) . . . وغيرهم .

كانت هناك اختلافات بين أصحاب تلك المذاهب جميعها ، سواء في الاستدلال ببعض الأحاديث النبوية (أحاديث الآحاد خاصة) أو في الاستدلال بعمل أهل المدينة الذي كان يحبذه الامام مالك ، أو في الاستناد إلى القياس والرأي والاستحسان ، أو في حجية الاجماع .

كان مدار اختلاف الفقهاء هو طريقة استنباط الأحكام من أوامر الشارع ونواهيه ، ولكنه كان خلاف أهل علم ونظر ، يقوم على المحاجة واحترام الرأي والاعتراف بالفضل ودوام المودة والألفة . ومشهورة تلك الرسالة القيمة التي وجهها الليث بن سعد إلى الامام مالك وتحفظ فيها على أخذه بعمل أهل المدينة . وثابت قدر الاجلال والاحترام الذي كان يتبادله أبو حنيفة ومالك . وقد نقل عن الشافعي

قوله : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ، وقوله : مالك بن أنس معلمي ، وعنه أخذت العلم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم . وعندما سئل ابن حنبل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية قال : مالك أكبر في قلبي . ولما سئل عن اختلاف مالك والأوزاعي قال : مالك أحب إلي وإن كان الأوزاعي من الأئمة .

* * *

لم يستمر ذلك المناخ الصحي ، وإنما بدأت إشراقاته تنحسر تدريجيا بالتوازي مع تدهور الدولة العباسية فيما بعد القرن الرابع الهجري ، وهي المرحلة التي بلغ فيها الانكسار ذروته بسقوط الدولة في أيدي التتار في القرن السابع الهجري .

ألقى الانكسار بظله على ساحة العلم ، فأصابها الفقر ، وسرت روح التقليد في الأمة ، واقترن التقليد بضيق الصدور والعقول ، فشاع التعصب واختفى الحوار ، واستبدل به الجدل والمناظرة ، بما لم يكن هدفه توصل المتجادلين إلى الحق ، ولكن نجاح كل منهما في تخطئة الآخر . وقد وصف الامام الغزالي صاحب الأحياء (توفي ٥٠٥ هـ) هذه المرحلة وما أشاعته المناظرات فيها من فتن بقوله : إن هذا الباب تولدت عنه « التعصبات الفاحشة والخصومات القاسية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد » . وأن الناس تركوا « الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص » .

ويروى أن القادر بالله أحد الخلفاء العباسيين نقل القضاء من الأحناف إلى الشافعية ، فوقعت الفتن في بغداد ، وثار الناس وصخبوا ، ولم يهدأ لهم بال إلا عندما تراجع الخليفة عن قراره وعزل القاضي الشافعي وولى بدلا منه حنفيا !

ذلك كله حدث في محيط أهل السنة وحدهم ، ولنا أن نتصوره مضاعفا إذا جرنا الحديث الى علاقة أهل السنة بغيرهم من أصحاب المذاهب ، وبخاصة فرق الشيعة المختلفة .

لقد وصل الأمر الى حد شيوع الاتجاه الى تحريم اقتداء المسلم في صلاته بمخالفه في المذهب ، اعتمادا على قاعدة مبتدعة تقول إن العبرة في الاقتداء بمذهب المأموم لا بمذهب الامام (على عكس المبدأ المستقر) . ولأن كثيرا من صلاة الشافعية لا تصح في نظر الحنفي ، والعكس لأسباب متعلقة بشروط صحة الوضوء ولزومه ، فإن النتيجة التي ترتبت على ذلك لا بد وأن تقطع ما بين مذهبي أهل السنة من وشائج .

وإن لم يحدث التحريم ولله الحمد ، إلا أن الاتجاه الذي ساد في بعض بلاد المسلمين كرس فكرة انفصال أتباع المذاهب في صلواتهم ، لشكوك تراود كلاً منهم في صحة صلاة الآخر . ومن أسف أنه حتى بدايات القرن الحالي فإن الصلاة الواحدة كانت تقام في الأزهر الشريف وراء أربعة أئمة مختلفين في آن واحد ، كل إمام يصلي وراءه أهل مذهبه . وهو وضع استمر حتى عهد قريب في الجامع الأموي بدمشق .

* * *

لم تخف صراعات أهل المذاهب بمختلف فرقهم في زماننا ، إذ ما يزال أوار المعارك مستمرا على جبهات عدة ، مما يزيد من فرقة الصف الاسلامي وتشرذمه . فالصراع بين السلفيين والمتصوفة لم يتوقف ، وقد وصل إلى حد الصدام الذي أراق دماء كثيرة في غرب أفريقيا ، التي ما زال الناس في بعض بلدانها ـ خاصة السنغال ونيجيريا ـ يقتتلون حول ضم اليدين أثناء الصلاة وإرسالهما وما زالت الخلافات والمشكلات بين أتباع المذاهب المختلفة قائمة ، تثور حول أمور ليست من جوهر الدين والرسالة . وإذا كان العالم كله يتجه الآن نحو التكتل ، فقد آن الأوان لنا أن نعيد النظر في كثير من دواعي التشرذم والخلاف اللامنطقي ، فنحن في المبتدأ والمنتهى كما يقول تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » . □

العربي الصغير
صدر العدد
٢٤
يناير ١٩٨٨
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريره مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
اقرأ
في هذا العدد:
● رسوم أطفالنا تغزو العالم
● ألف ليلة وليلة في حكاية الشيخ والكلبتين
● همام.. في.. مال من غير صاحب.. مسلسل بالرسوم
● غضبة الماء.. قصة بالرسوم
● الصعلوك العبقري.. قصة بالرسوم
● الأرز الشامخ.. يشكو المرض "استطلاع"
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة:
■ دائرة معارف العربي الصغير.
■ اصنع بنفسك.
■ إسلاميات.
■ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
٦٤
صفحة بالألوان

خصومة أدبية فريدة!

بقلم : عبدالرزاق البصير

ينبئنا التاريخ وحياتنا المعاصرة أن بعض الأدباء يتجاوزون حدود الأدب في خصوماتهم مع أقرانهم .

ولكن ذلك ليس إلا وجها من وجوه الصورة .

ففي وجهها الآخر نجد أدبا عالي المستوى في الحوار والخصومة ، وعفة في القول والتعبير .

ذكر الحصري في كتابه « جمع الجواهر » مساجلة جرت بين هذين الأديبين المتفوقين ، وهما عبدالله بن المعتز العباسي ومحمد بن القاسم المعروف بابن الأنباري . وقد دارت هذه المساجلة حول رواية الشعر الماجن ، فإن ابن الأنباري لا يستحسن روايته ، فنجده يقول في رسالة بعثها لابن المعتز : « كان حق شعر هذا الخليع ـ أبا نواس ـ ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ، ولا يدونونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم ، لأن ذوي الأقدار والأسنان يجلون عن روايته ، والأحداث يغشون بحفظه ، ولا ينشد في المساجد ، ولا يتجمل بذكره في المشاهد » . . وقد أطال في هذه الرسالة حول هذه القضية ، فأجابه ابن المعتز قائلا : « بأن رواية هذا اللون من الشعر ليس فيها إزراء للأديب ولا عيب للفقيه » ، ويقول أيضا : « وهل يتناشد الناس أشعار امريء القيس والأعشى والفرزدق ، وعمر بن أبي ربيعة ، وبشار ، وأبي نواس على تعهيرهم ومهاجاة جرير والفرزدق إلا على ملأ من الناس وفي حلق المساجد ؟ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم ، وقد نفى حسان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، فما بلغنا أن النبي (ص) أنكر ذلك عليه في هجائه حيث يقول :

وأنـت زنـيـمٌ نِـيـطَ في آل هـاشـم
كـما نِيطَ خَلْفَ الـراكبِ القـدحُ الفـردُ

وقد زعم بعض الرواة أن النبي (ص) قال للحارث : ـ أنت من خير أهلي . وما نهى النبي (ص) ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر » .

اعتراف ابن الأنباري بخطئه

ولقد كنا نتمنى أن تسلك الخصومات الأدبية هذا الأسلوب الرفيع ، ذلك أن المساجلات بين شاعرنا ابن المعتز وعالمنا ابن الأنباري كانت مساجلات أدبية علمية خالصة ، لم تمس أحدهما بأي نعت يجرح الشعور ، بل إن ابن الأنباري اعترف بصواب ابن المعتز حيث يقول : « وقد صدق سيدنا - أيده الله - في كل ماقاله من الأشعار التي عدل قائلوها عن سنن المؤمنين المتقين ، ولم أكن أجهل أكثر ذلك ، إلا أنه لم يخطر ببالي ذكر ما كنت أعرف منه في وقت كتابتي ما كتبت به ، وما كل ما يعرف الانسان يحضره ، ولا تتوالى كل وقت خواطره . على أن الذي جرى في هذا الأمر إنما هو على سبيل التعلم والتفهم ، يذكر الذاكر شيئا قد تقدم صوابه ، فيحتج له وعليه فيه حجة قد تركها ، فيكتشف السامع لها غطاءه مستمرا ومذكرا ، فإن كان الحق ضالته وجد ما ابتغى وغنم ما وجد ، وإن أنف من الرجوع واشتد عليه النزوع جحد ما علم واحتج لما جهل ، لأن كل مطالب بباطل لا يخلو من جهل بما يدعي أو جهل بما يعرف » .

ومن الواضح أن التهذيب في إبداء الرأي هو الطابع لهذه المساجلة الأدبية بين هذين الأديبين الكبيرين . بخلاف ما نقرؤه في الخصومات الأدبية القديمة والمعاصرة ، فكثيراً ما يتجاوز معظمها القضية المختلف عليها إلى التجريح بين المتخاصمين تجريحا لا يليق بالذين يفترض فيهم أنهم قدوة للناس ، وأن غرضهم الوحيد هو إبداء ما توصلوا اليه من رأي في هذه القضية أو تلك . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نكتفي بذكر بعض منها من باب التفكه فقط .

بين نفطويه وابن دريد

روى كثير من مؤرخي الأدب أن منافرة شديدة قد جرت بين ابن ناقيا البغدادي وابن الشبل ، وهما من الفضلاء . وقد بلغ من شدتها أن سئل ابن ناقيا : « ألم تقرأ على الشيخ ابن الشبل ؟ قال : بلى ، وإلا من أين أكتسب هذه البلادة التي فيّ ؟ » .

فبلغ ذلك ابن الشبل فقال :

فقل ما شئت إن الحلم رأيي
وشأني الخير إن حاولت شرا
فأنت أقل ان تلقى بذم
مجاهرة وان تغتاب سرا

وقال ابن الشبل يهجو ابن الناقيا :

فكونك في الظهر من آدم
بشؤمك أهبطه إذ عصى
ولو كان آدم ذا خبرة
بأنك من نسله لاختصى

ومثلها ما جرى بين ابراهيم بن محمد العالم النحوي الشهير المعروف بنفطويه ومحمد بن الحسن اللغوي المعروف بابن دريد ، فقد قال نفطويه يهجو ابن دريد لما صنف كتاب « الجمهرة » :

ابن دريد بقره
وفيه لؤم وشره
قد ادعى بجهله
جمع كتاب « الجمهره »
وهو كتاب العين إلا
أنه قد غيّره

فأجابه ابن دريد قائلا :

لو أنزل الوحي على نفطويه
لكان ذاك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه
مستأهل للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصيّر الباقي صراخا عليه

فأين هذه المساجلة العنيفة من تلك المساجلة المهذبة ؟

أما النهج الذي سلكه معظم الأدباء المعاصرين في خصوماتهم فإنه نهج واسع متشعب ، ألفت فيه كتب كثيرة . فمن أشهرها تلك الخصومة التي جرت بين المرحومين ، الأستاذ الرافعي والأستاذ العقاد ، والخصومة التي جرت بين كل من الشاعرين

العراقيين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي . وأكتفي هنا بذكر جمل بسيطة مما قاله كل من الشاعرين الكبيرين في خصمه .

بين الزهاوي والرصافي

يقول الرصافي : إني لا أفهم كثيرا من رباعيات الزهاوي التي يدعي أنها فلسفة .

يقول الزهاوي : إني أول من نظم الشعر القصصي في العراق ، أو في الوطن العربي ، وتعلم الرصافي الطريقة مني .

يقول الرصافي : لا نجد صفة من صفات الفلاسفة عند الزهاوي ولا نعرف ما هي فلسفته التي أرهقتنا بذكرها ؟

يقول الزهاوي : معروف صديقي وهو فرحي لأني علمته الشعر وفقهته في الاجتماعيات . ومما يستحسن ذكره بهذه المناسبة أن الرصافي علق على رباعية الزهاوي التي جاء فيها :

أكثر الترب عظام
من ضلوع وصدور
سحقتها أرجل الدهر
وأقدام العصور

علق عليه قائلا : غفر الله لأبي العلاء فقد سطا على معاني الزهاوي عندما نظم قصيدته :

خفف الوطء ما أظن أديم
الأرض إلا من هذه الأجساد

القول شيء ، والواقع شيء آخر

والطريف بالأمر أن أي خصومة لا تكاد تثور بين أديبين إلا ونجد كلاً منهما يدعي بأنه مخلص في نقده ، وأن صاحبه قد خرج عن النهج القويم ، وأن الأمانة العلمية تقتضي أن يسود التهذيب ، وأن نبتعد عن التجريح . غير أن الخصومات الأدبية تتخذ العنف أسلوبا لها في معظم الأحيان . ومن حقنا أن نتساءل عن سبب تفرد تلك الخصومة الأدبية المذكورة آنفا والتي جرت بين ابن المعتز وابن الأنباري بكل ذلك التهذيب والمرونة التي قل أن تتصف بها خصومة أدبية ؟ ويأتي الجواب أن هذا التفرد قد حدث بسبب أحد أمرين ، فإما أن يكون ذلك عائدا إلى طباع ابن المعتز وابن الأنباري ، وهذا أمر ليس من المستحيل ، فإن من الناس أناسا تأنف أخلاقهم من أن تنحدر إلى السباب أو التجريح ، وإن كانوا قلة ولكنهم موجودون على كل حال . وإما أن يكون ابن الأنباري رأى أن يسلك هذا النهج مع الشاعر عبدالله ابن المعتز بصفته أحد الأمراء العباسيين . وهو أسلوب لا ضير على ابن الأنباري في اتخاذه . فإن للخلافة منزلة تستحق التكريم .

من ترجمة ابن المعتز وابن الأنباري

وقد يكون من تمام الحديث أن نتعرف على كل من هذين الشاعرين الأديبين ، فإن في التعرف عليهما فائدة لمن يقف على تاريخهما ومتعة لمن يعرفهما .

اتفق مؤرخو الأدب على أن محمد بن القاسم الأنباري ممن وهبهم الله قوة نادرة في الذاكرة، وحلاوة في الحديث ، وشغفا في التأليف ، فقد كان مجلس إملائه حاشدا بطلاب الحديث والأدب ، وكان يملي عليهم من ذاكرته ، ويخيل لي أن القدماء - رحمهم الله - قد بالغوا في قوة حافظته ، قد قالوا عنه بأنه يحفظ مائة وعشرين تفسيرا بأسانيدها . ولا أتصور أن ذاكرة إنسان تستطيع أن تحفظ كل هذه الثروة العلمية . على أن الله قادر على أن يهب بعض خلقه موهبة تفوق التصور . أما تآليفه فقد بلغت سبعة وعشرين كتابا ، بعضها في تفسير القرآن ، وبعضها في اللغة ، وبعضها شرح فيها دواوين الشعراء مثل زهير والنابغة الذبياني والأعشى والنابغة الجعدي والراعي ، وشرح المفضليات .

أما صور حياته فإنها تتكون من عفة النفس والتشدد على نفسه في الابتعاد عن الاستجابة لرغباتها ، ويتمثل ما ذكرناه في أن الخليفة الراضي وهب له جارية حسنة كاملة الوصف ، فلما صارت إليه اشتغل قلبه بها فاختلفت عليه مسألة كان يطلبها ، فقال للخادم : ردها ، فليس قدرها أن

تشغل قلبي عن علمي ، فلما بلغ الراضي أمره قال : لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحد أحلى منه في صدر هذا الرجل . ولا بد لمن يملك تلك الثروة الثقافية التي يملكها عالمنا ابن الانباري إلا أن يعبر بالشعر عن بعض خواطره ، فمن ذلك قوله :

إذا زيد شرا زاد صبرا كأنما
هو المسك ما بين الصلاية والفهر[1]
فإن فتيت المسك يزداد طيبه
على السحق والحر اصطبارا على الضر

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن شيخنا ابن الأنباري قد تربى في كنف أبيه القاسم الأنباري ، وهو عالم لغوي ، يمتلىء مجلسه دائما بطلاب الأدب والعلم .

كانت مدة عمر شيخنا المترجم له ستا وخمسين سنة ، فقد ولد في سنة ٢٧١ وتوفي سنة ٣٢٧ للهجرة . رحمه الله وطيب ثراه .

أما الطرف الثاني في هذه الخصومة الأدبية فإنه عبدالله ابن المعتز ، وهو فنان متمكن في فن الشعر ، يصدق من يقول عنه بأنه إمام في البلاغة ، لا يلحقه لاحق في تشبيهاته . كان يحيا حياة مترفة ، يصورها شعره السهل في ألفاظه ، فقارئه لا يحتاج إلى تفكير ، ولا إلى تعب في استجلاء صوره ومعانيه لسهولة أسلوبه .

وليت شاعرنا رضي بهذه الحياة المترفة الناعمة مبتعدا عن مزعجات الحكم ، فانه كان يعيش في فترة مضطربة ، لا يأمن الفرد فيها على نفسه ، حتى ولو كان بعيدا عن الحكم ، فكيف به إذا كان جالسا على كرسي الخلافة . وليس من شك أن شاعرنا كان يعرف ذلك حق المعرفة ، فقد قتل والده «المعتز» شر قتلة وأذلها ، ذلك أن خصومه سحبوه من فراشه وأوقفوه في حر الشمس يرفع رجلا ويضع أخرى ، فصار ينادي بخلع نفسه ، لكن المتربصين به لم يقبلوا منه إلا أن يأتوا بالقضاة ليشهدوا عليه ، ثم قتلوه بعد ذلك . وكان عمر شاعرنا بين الثامنة والتاسعة ، وليس من شك أنه قد شاهد الواقعة أو أنه عرفها كل المعرفة ، فما الذي دفعه الى قبول الخلافة حين عرضت عليه . لا شك أن حب الرياسة قد أنساه ذلك كله ، مما جعله يتقبل ما عرض عليه ، غير أنه لم يلبث إلا يوما وليلة ، وبعد ذلك قتل كما قتل والده في أواخر القرن الثالث الهجري سنة ٢٩٦هـ ونحن حين نتتبع ما كتبه المؤرخون عنه لا نجدهم يعدونه من الخلفاء لقصر مدة خلافته ، بل يجعلونه كجملة معترضة .

فما أصدق قول الشاعر :

حب الرئاسة داء لا دواء له
وقلما تجد الراضين بالقسم

غير أني أرى بأن شفاء هذا الداء يكمن في تحكيم العقل ، فإن من يريد الحكم للحكم يستحق أعنف النقد . أما من يريد الحكم لخدمة أمته ومجتمعه فإنه مستحق للتقدير والاحترام بها ، ولا ضير عليه حين يتعرض لأمور مؤذية مزعجة ، فإن على حامل الرسالة أن يحتمل في سبيلها ما يصيبه من أذى وبلاء . ومن الأمانة للتاريخ أن نقول بأن ابن المعتز كان يقصد من وراء تقبله للخلافة أن يزداد تقلبه في النعيم بدليل قوله :

إذا كان يومي ليس يوم مدامة
ولا يوم فتيان فما هو من عمري
وإن كان معمورا بعود وقهوة
فذلك مسروق لعمري من الدهر

وإننا مع إعجابنا بموهبة ابن المعتز الفنية لا نملك إلا أن نلومه أشد اللوم على تقبل الخلافة ، لأنه لا يريد إلا أن تكون كلمته نافذة ، وأمره مطاع ، بغض النظر عما إذا كان فيها نفع لأمته أم لا .

الفنية الشعرية عند ابن المعتز

قد يكون من حق هذا الخليفة الذي لم يسعد بخلافته أن نقف حول شعره وقفة قصيرة ، والحق أننا إذا فعلنا ذلك فستجد شاعرنا شاهدا لعصره ، ذلك أن له لونا من الشعر يسمى بالشعر التعليمي ، نظم فيه أرجوزة مطولة ، سجل فيها ما كان يقع من أحداث تدل على اضطراب شديد في الأمور ، مما

١ ـ الصلاية : مدق الطيب * والفهر : حجر صلب ناعم تسحق به الأدوية .

جعل الناس يحيون في خوف وفزع . وليس شيء أثقل على الانسان من أن تكون حياته على مثل هذا الحال . فلنقرأ قوله :

وكم فتاة خرجت من منزل
فغصبوها نفسها في المحفل
وفضحوها عند من يعرفها
وصدقوا العشيق كي يقرفها
وحصل الزوج لضعف حيلته
على نواحه ونتف لحيته

ولندع هذا اللون الكئيب من شعره إلى اللون المرقص المطرب ، فقد أجمع النقاد أن شاعرنا استطاع أن يكون من الشعراء المبرزين ، فإن شعره الغزلي كله يفصح عن ذلك .

يقول في بعض نسيبه :

تيمني الحب وخلاها
ولج بي سقم وعافاها
كدت أقول البدر شبه لها
أجعلها كالبدر حاشاها

ونقتطف من شعره هذه القطعة التي قد عذبت ألفاظها وأشرقت معانيها :

يومُ سعدٍ قدْ أطْرقَ الدهْرُ عنْهُ
خاشِعَ الطَّرْفِ لا تراهُ الخُطوبُ
فيه ما تشتهي نديم وريحان
وروح وقينة وحبيبُ
منعم مسعد يؤاتيه في الوصل
رقيب على العيون رقيبُ
ورسول يقول ما تعجز الألفاظ
عنه حلو الحديث أديبُ
ولنا موعد إذ هدأ النُّوَّ
مُ ليلا ، والليل منا قريبُ

والحق أن أزهار أشعاره يانعة شذية ، يحتار الانسان فيها ، لا يدري ماذا يدع وماذا يختار لكثرتها وتنوعها ولا سيما تشبيهاته التي يرع فيها ، وكاد أن يبز أقرانه . ذلك ما أجمع عليه نقاده . على أنها في جملتها تدل على أن صاحبنا لا يفكر إلا في نعيم هذه الحياة والارتياح فيها . ولعل تشبيه الهلال بالسفينة المصنوعة من الفضة المملوءة بالعنبر من أسطع الأدلة على ذلك ، حيث يقول :

أهلا بفطر قد أنار هلاله
فاغدوا الى شرب المدام وبكر
وانظر إليه كزورق من فضة
قد أثقلته حمولة من عنبر

وخلاصة القول أن شاعرنا المترف كان غزير الثقافة ، حاضر البديهة ، أخذ ثقافته من أبي العباس المبرد ، وأحمد بن سعيد الدمشقي ، وهما من أشهر أدباء زمانه . كان من المفترض أن يقدر أعظم التقدير لما يتمتع به من انتسابه لبيت الخلافة العباسي ، ولما يتصف به من موهبة فنية ، ولكن السياسة قاتلها الله أبت إلا أن تكون أيامه الأخيرة بالغة القسوة . فقد قتل صبرا على يد مؤنس الخادم المعروف بعدم الشفقة والشدة . ودفن بخربة قرب داره ، فما كان أغناه عن هذا المصير البائس . □

● من أكون أنا حتى أجزم أنك على خطأ ؟ (سارتر)

● حب الحياة يزداد كثيرا لدى الانسان اذا ما انهالت عليه المصائب . (طاغور)

● ان الذين لايعرفون قيمة الحياة .. لايستحقونها . (بيكون)

● قد تصل الى مانحن اليه من الثروة ، غير أنك تشعر بلذة لاتقل عن لذة الفوز بأمانيك اذا التفت وراءك ، فشاهدت أن كل خطوة من خطواتك كانت تدل على جدك وعزمتك . (الياس قنصل)

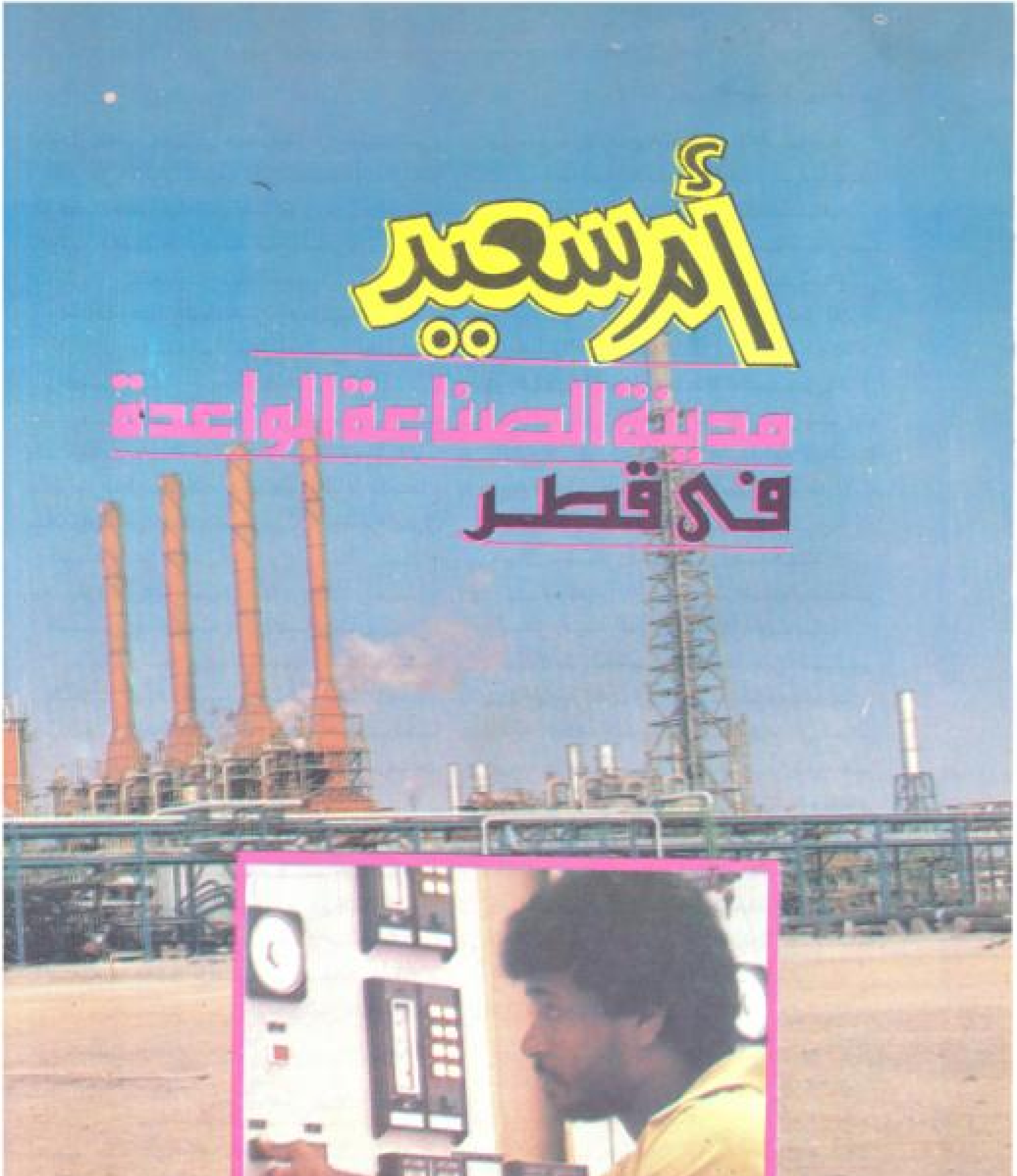
أم سعيد
مدينة الصناعة الواعدة
في قطر

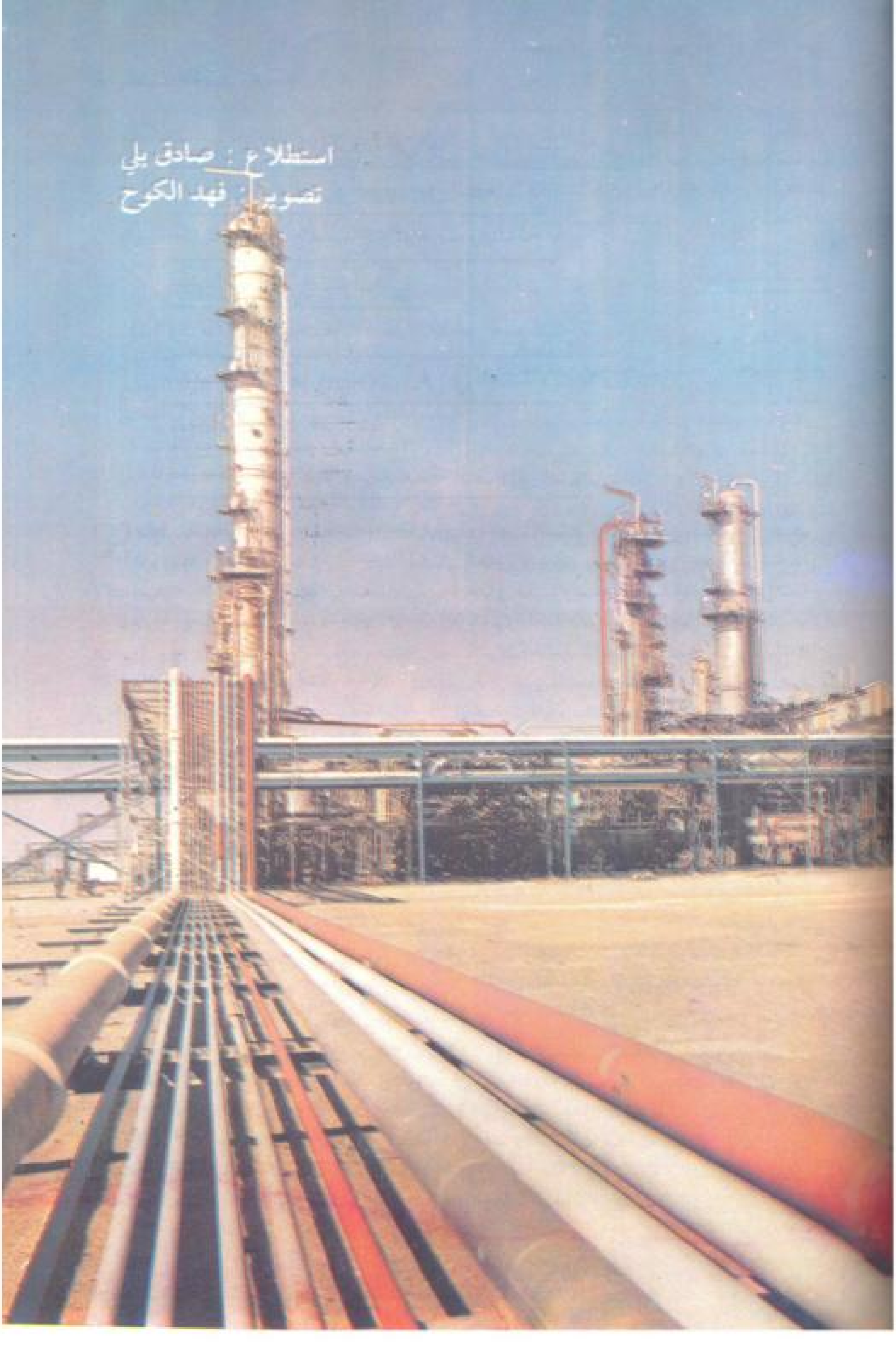

استطلاع : صادق يلي

تصوير : فهد الكوح

التنمية بأبعادها المتعددة هي هاجس الإنسان العربي
منذ حصلت أقطارنا العربية على استقلالها .
ولقد تعددت النماذج والتجارب والنتائج ،
لكنها ما تزال قضية أساسية .
والقطر العربي الخليجي ـ قطر ـ يدخل هذه الساحة .
مدفوعا بآمال تحقيق مستوى أرقى في المعيشة لأبنائه .
ومقتحما لعالم ما بعد النفط .
يشيد صناعات ثقيلة دعامة لنهضة اقتصادية واعدة .

قالوا : استطلعوا قطر ، فإنكم منذ مدة لم تزوروها . فسألنا : وما هو الجديد الذي يمكننا استطلاعه ؟

فأجابوا : هناك الكثير الذي يستحق الحديث عنه .

طلبنا منهم مثلا . فقالوا : عندنا نهضة تعليمية ، وجامعة وليدة . فقلنا : إن خليجنا يشهد نهضة ناشطة في كل بقعة من بقاعه ، والحديث عنها تكرار لن يشبع العقول المتلهفة للجديد والمبتكر . فقالوا : عندنا مدينة صناعية متكاملة واعدة ، فلتكن هي وجهتكم هذه المرة . فأثاروا فضولنا ، وقلنا لهم : حبا وكرامة . وكانت رحلتنا السريعة إلى مدينة « أم سعيد » الصناعية .

التوجه التنموي في قطر

إن « قطر » واحد من أقطار خليجنا العربي الذي يعتمد اقتصاده على مصدر أحادي للإنتاج ، ومن ثم للعائد ، حيث يشكل النفط مصدرا وحيدا للإنتاج ، ولأنه سلعة قابلة للنضوب بعد فترة من الزمن ، لذلك سعت السياسة الاقتصادية لقطر إلى تنويع مصادر الدخل الوطني ، في الاتجاه إلى التنمية المتوازنة في كافة قطاعات الإنتاج ، مع التركيز على قطاع الصناعة ، باعتباره ركيزة أساسية للقطاعات الأخرى . واختارت ـ الحكومة القطرية ـ الاستثمار في الصناعات كثيفة رأس المال ، في مجال الهيدروكربونات ، حيث تتوفر احتياطات ضخمة منها في قطر ، وعملت السياسة الاقتصادية على تنمية القوى العاملة الوطنية ، باعتبار أن الإنسان هو الثروة الحقيقية للشعوب ، فصدر قانون بإنشاء المركز التقني للتنمية الصناعية ، محددا مهامه في إعداد خطط ومشروعات استغلال ، وتصنيع الثروات الطبيعية ، بما يتلاءم مع الموارد والاحتياجات ، وإعداد دراسات الجدوى الاقتصادية والفنية لهذه المشروعات ، وكذلك دراسة الاقتراح في مدى المساهمة التي تشترك بها المؤسسات الحكومية ، مع القطاع الخاص في المشروعات الصناعية المشتركة ، بالإضافة إلى مساهمة المركز مع الجهات الحكومية المعنية بالتخطيط ، لتوفير الأيدي العاملة القطرية ، ثم إعداد دراسات مشروعات التدريب والخدمات ، والمرافق العامة المتصلة بالخطة التنموية في المجال الصناعي .

كما أوكل للمركز إعداد البيانات والمواصفات الفنية اللازمة ، لطلب عروض المشروعات الصناعية التي يقرر تنفيذها ، ثم متابعة تنفيذ ما يتم إقراره من خطط ومشروعات صناعية بالتعاون والتنسيق مع الأجهزة المعنية ، والإشراف على تسليم المشروعات للجهات المسؤولة عن تنفيذها ، وتنسيق التعاون مع

الجهات الأجنبية ، والمنظمات الإقليمية والدولية والاشتراك في المؤتمرات الدولية المتعلقة بالتنمية الصناعية ، ومتابعة القرارات والاتفاقيات التي تمت بهذا الخصوص ، وكل ما يرتبط بالتنمية الصناعية في ميادينها المتعددة .

مدينة صناعية

وكانت أولى الخطوات الجادة المهمة لتحقيق التوجه الطموح في مجال التنمية الصناعية هي إنشاء مدينة صناعية ، تضم بين جنباتها مجموعة من الصناعات الثقيلة .

ومدينة « أم سعيد » ـ أو « مسيعيد » كما تسميها النشرات الحكومية والرسمية ، تقع على بعد ٤٥ كيلو متراً جنوب مدينة « الدوحة » العاصمة ، وتمتاز سواحلها بمياه عميقة ، قابلة لزيادة التعميق لقلة نتوءاتها الصخرية ، ولذلك كانت البداية فيها إنشاء ميناء لتصدير نفط الحقول البرية في «أم دخان» غرب

البلاد ، حيث افتتح رصيفه الأول سنة ١٩٧٦ ، ثم تلا ذلك تنفيذ مخطط لتوسعته لبناء المزيد من الأرصفة وقد بلغت أحد عشر رصيفا بطول نحو ٢٨٠٠ متر .

وتلا ذلك إقامة مجموعة من الصناعات الثقيلة ، أهمها مصنع الحديد والصلب ومصنع البتروكيماويات ، ومصنع تسييل الغاز ، ومصنع الأسمدة الكيماوية ، هذا إلى جانب مصفاة النفط ، وصاحب توسعة الميناء وبناء المصانع ، توفير الخدمات اللازمة بتخطيط الطرق ، وإنشاء المرافق العامة ومحطات القوى الكهربائية ، ومخازن البضائع ، ومراقبة الأرصفة ، ومكاتب تحركات الميناء .

كما أقيم في الشطر الثاني من « أم سعيد » مدينة سكنية للموظفين والعمال ، بها كافة الخدمات والمرافق ، كالمدارس ، والمستوصفات، والمجمعات الاستهلاكية وغيرها .

وقد رافق ذلك كله خطة لتدريب « الكوادر » القطرية ، ثم صدور قانون التنظيم الصناعي ، الذي أنشئت بموجبه لجنة التنمية الصناعية ، ولجنة قروض الصناعات الخفيفة تحفيزا للقطاع الخاص للدخول في هذا المجال ، والمشاركة في مسيرة النهضة الصناعية في البلاد .

صناعة ثقيلة

وقبل زيارتنا للمصانع كان يدور في خلدنا سؤال مهم : كيف تستطيع قطر بمساحتها الصغيرة وعدد سكانها المحدود أن تدخل ميدان الصناعات الثقيلة ؟ وعندما واجهنا المهندس الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن جبر آل ثاني المدير العام للمركز الفني للتنمية الصناعية بهذا السؤال أجابنا : « قد يكون التصنيع بالنسبة للدول النامية ضرورة لازمة ، لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتوازنة والتغلب على المشكلات التي تواجهها كزيادة السكان ، وتشغيل الأيدي العاملة ، وتحسين وضع ميزاني التجارة والمدفوعات،وبالتالي زيادة معدل دخل الفرد،أما في دولة قطر فإن الصورة تأخذ شكلا مغايرا بعض الشيء ، فالهدف الرئيسي للتصنيع في قطر هو توسيع القاعدة الإنتاجية ، وتخفيف الاعتماد على مصدر ناضب وشبه وحيد للدخل القومي ، أو بتعبير آخر استخدام موارد مرحلة النفط لبناء اقتصاد متوازن لمرحلة ما بعد النفط ، يستطيع أن يضمن حياة كريمة للأجيال القادمة . ويضيف الشيخ عبدالرحمن بن ثاني قائلا : وعلى الرغم من توفر المقومات التصنيعية كرأس المال ، والطاقة المنتجة بتكلفة منخفضة ، والنفط كمادة أولية للتصنيع الكيماوي والبتروكيماوي ، لكن نظراً لقلة عدد السكان فإن نجاح الصناعات الكبيرة يتوقف أساسا على إمكانيات تسويق منتجات هذه الصناعات خارج قطر ، وهنا لابد من إيجاد استراتيجية للتصنيع من أجل التصدير . ويضيف قائلا : لذلك فإن خطط التنمية الصناعية وبرامجها في بلادنا تعتمد أساسا على الصناعات القادرة على الانطلاق والنمو والمنافسة في الأسواق الخارجية معتمدة على جودتها وأسعارها التنافسية ، ولا شك أننا نستفيد من المقومات التصنيعية المتوفرة في دولة قطر ، وعلينا الإقرار بأن بعض الصناعات تتطلب استثمارات عالية ، ونسبة تكلفة الطاقة فيها إلى مجمل تكاليف الإنتاج مرتفعة ،

مصنع سوائل الغاز الطبيعي حيث يعالج الغاز الرفيق القادم من حقول النفط البحرية والبرية (الى أعلى) سير ناقل يستخدم لنقل كريات الحديد الخام الذي يصل الى ميناء أم سعيد من الهند والبرازيل والسويد (الى أسفل) و (الى اليسار) مدينة أم سعيد مجمع كبير للصناعات الثقيلة في دولة قطر .

89
Santa Fe

مثل مشروعات صناعة الحديد والصلب والبتروكيماويات ، إلا أن ذلك يجب أن لا يمنعنا من التوجه إلى تنويع مصادر الإنتاج ، ونحن نركز على التمويل التدريجي والمرحلي من الإعتماد الكلي على عائدات النفط الخام ، إلى اقتصاديات متنوعة ومتوازنة مستفيدين من وفورات عائداتنا النفطية واستثمارها في الصناعات المختلفة المعتمدة مباشرة على خام النفط ، ثم على الإمكانيات الهائلة التي لدينا من الغاز الطبيعي ، وذلك كمصدر للطاقة ثم على التقنية المتقدمة . ومع ذلك فإنني أقولها بصدق أن لا جدوى للتنمية إلا من خلال اطار من التنسيق المدروس مع باقي أشقائنا في أقطار الخليج العربي ، على وجه الخصوص ، ومع باقي الأقطار العربية على وجه العموم ، حتى نضمن أفضل النتائج لمشاريعنا ، وتأخذ مسارها الاقتصادي المنشود .

النفط عماد الصناعة

ولما كان النفط الركيزة الأساسية للاقتصاد الوطني في دولة قطر ، حيث تعتمد الحياة الاقتصادية على عائداته ، اذ تمثل قيمة الإنتاج في المتوسط ٧٥٪ من حجم الناتج الوطني الإجمالي ، بينما تشكل ايرادات الحكومة العائدة من قطاع النفط حوالي ٩٥٪ من اجمالي الدخل العام فقد فرضت الدولة سيطرتها الكاملة على مواردها النفطية ، في نهاية عام ١٩٧٤ وأنشأت المؤسسة العامة القطرية لإنتاج البترول كمؤسسة وطنية ، تشتغل بكافة مراحل صناعة النفط الخام والغاز الطبيعي التي كانت تضطلع بها شركات النفط الأجنبية . ولتحقيق الاستغلال الأمثل لها بما يخدم أهداف عملية التنمية في المجالات كافة والتركيز على تطوير « الكوادر » الوطنية لإدارة هذا القطاع الحيوي وتشغيله ، لذلك قامت مجموعة من الصناعات الثقيلة يمثل النفط والغاز الطبيعي عمادها ، ففي عام ١٩٨٤ شهدت دولة قطر خطوات مهمة في تطور الصناعة النفطية ، تمثلت في تشغيل مصفاة أم سعيد بطاقة انتاجية قدرها ٦٢ ألف برميل في اليوم ، وقد أدى هذا الانجاز إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي من المنتجات النفطية كوقود الطائرات ، وغاز النفط المسال والكيروسين والديزل وزيت الوقود ، وبذلك لم تعد هناك حاجة إلى استيراد تلك المنتجات من الأسواق الخارجية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن مصفاة أم سعيد وفرت فائضا للتصدير ، يقول المدير المسؤول عن مصفاة أم سعيد : « إننا راعينا منذ تصميم المصفاة إمكانية التوسع مستقبلا دون الحاجة إلى إجراء تعديلات جوهرية على المصفاة ، كما وفر مشروع المصفاة فرصا لتدريب عدد من المهندسين القطريين على مختلف الجوانب المتعلقة بعمليات التكرير ، وذلك خلال دورات عملية وعلمية قامت بتنظيمها المؤسسة العامة القطرية للبترول مع شركات متخصصة في هذا المجال .

ومدت خطي أنابيب يتولى أولها نقل المنتجات النفطية السابقة الذكر إلى مدينة الدوحة حيث مناطق الاستهلاك الرئيسية ، أما الخط الثاني فيقوم بنقل فائض المنتجات من الموقع إلى ميناء أم سعيد للتصدير .

أسمدة كيماوية

ومن الصناعات المرتبطة بالنفط ذات المردود الاقتصادي الجيد مصنع الأسمدة الكيماوية « قافكو » فقد أبرمت دولة قطر ممثلة في المؤسسة العامة القطرية للبترول سنة ١٩٦٩ اتفاقية مع شركة « نورسك هايدرد » النرويجية ، لإقامة مصنع للأسمدة الكيماوية برأسمال قدره ١٠٠ مليون ريال قطري ، تمتلك قطر ٧٥٪ من رأسمالها ، وتمتلك الشركة النرويجية ٢٥٪ ، وقد بدأ الإنتاج عام ١٩٧٣ ، والمصنع يتكون من مصنعين ، الأول لإنتاج الأمونيا بطاقة إنتاجية تصميمية ، بلغت ٢٩٧ ألف طن سنويا ، والثاني لإنتاج اليوريا بطاقة إنتاجية تصميمية ، بلغت ٣٣٠ ألف طن سنويا . ونظرا لتزايد الإقبال والطلب على منتجات الأسمدة الكيماوية في الأسواق العالمية ، أضيف إلى المصنع وحدتان جديدتان للأمونيا واليوريا عام ١٩٧٩ ، وبذلك أصبح إجمالي الطاقة الإنتاجية التصميمية للأمونيا ٥٩٤ ألف طن ، ولليوريا ٦٦٠ ألف طن سنويا ، ويعتبر انتاج شركة قطر للأسمدة الكيماوية

من أفضل أنواع الأسمدة في العالم ، حيث تصل نسبة النيتروجين فيه إلى أكثر من ٤٦٪ ، أما أهم الأسواق التي تستقبل انتاج قطر من الأسمدة الكيماوية بصورة أساسية فهي الأسواق الآسيوية مثل الهند ، وبنغلادش ، وباكستان ويضع المدير المسؤول عن المصنع أمامنا احصائية بانتاج مصنع الأسمدة الكيماوية لمدة خمس سنوات وهي كما يلي :

السنة	انتاج الأمونيا	انتاج اليوريا
١٩٨١	٤٤٧/٠٠٠	٥٧٥/٠٠٠
١٩٨٢	٥٢٨/٠٠٠	٦٦٢/٠٠٠
١٩٨٣	٥٨٦/٠٠٠	٦٥٨/٠٠٠
١٩٨٤	٦٣١/٠٠٠	٧٣٤/٠٠٠
١٩٨٥	٦٣٩/٠٠٠	٧٠٣/٠٠٠

البتروكيماويات

وضمن خطة دولة قطر للاستفادة من مواردها الطبيعية على الوجه الأكمل ، وبخاصة الغاز الطبيعي الذي كان يضيع هدرا قبل تصنيعه واستغلاله ، فقد أقامت حكومة قطر شركة ـ قابكو ـ لتدير مصنع البتروكيماويات بالاتفاق مع مجموعة « سي . دي . ام شيمي » الفرنسية برأس مال قدره ٣٦٠ مليون ريال ، وتمتلك قطر نسبة ٨٤٪ من الشركة ، فيما تمتلك المجموعة الفرنسية ١٦٪ . وقد بدأ انتاج المصنع في الربع الأخير من عام ١٩٨٠ . أما المادة الأولية المستخدمة في تشغيله فهي الغاز الغني « بالإيثان » والغاز النصيل ، وهذان الغازان يصلان إلى مصنع البتروكيماويات عن طريق مصنع تسييل الغاز التابع للمؤسسة العامة القطرية للبترول .

ويتكون الغاز الغني « بالإيثان » من ٦٠٪ إيثان ، و ٢٠٪ ميثان و ٢٠٪ غازات حمضية ، أما الغاز الآخر وهو غاز النصيل فيتكون عادة من ١٥٪ إيثان و ٦٠٪ ميثان و ٥٪ بروبان و ٢٠٪ غازات حمضية .

يقول مدير المصنع : « انتاج مصنع البتروكيماويات سنويا يبلغ ٢٨٠ ألف طن من « الإيثيلين » ، و ١٤٠ ألف طن من « البولي إيثيلين » مخفضة الكثافة و ٤٦ ألف طن من الكبريت الصلب ، وتقوم الشركة بتصدير الإيثيلين إلى جميع الأسواق العالمية أما البولي إيثيلين فتصدر الشركة نسبة ٥٥٪ منه إلى بلدان الشرق الأوسط و ٤٥٪ منه إلى بلدان الشرق الأقصى وبلدان جنوب شرق آسيا ، أما الكبريت الصلب فأسواقه هي الهند وباكستان وبنغلادش . ويعمل بهذه الشركة ٦٦٥ عاملا وفنيا من جنسيات مختلفة » . ويضيف المدير المسؤول عن الشركة قائلا : « إننا بصدد إنتاج وحدة جديدة لاستخلاص غاز الإيثان لضمان إمداد مصنع « الإيثيلين » بالمادة الخام اللازمة لتشغيله بكامل طاقته التصميمية » .

الغاز.ثروة واعدة

تعد أراضي قطر من أغنى مناطق العالم بالغاز الطبيعي غير المصاحب ، حيث يعد حقل « الشمال » أكبر خزان منفرد للغاز الطبيعي غير المصاحب ، يتم اكتشافه حتى الآن . وهذا الحقل الذي تم اكتشافه عام ١٩٧١ يقع في المنطقة البحرية الواقعة إلى الشمال الشرقي من دولة قطر ، وتبلغ مساحته نحو ٦ آلاف كيلو متر مربع تقريبا ، وتقدر احتياطات الحقل بـ ١٥٠ تريليون قدم مكعب من الغاز ، أو ما يساوي ٤,٢ تريليون متر مكعب من الغاز غير المصاحب وهو الغاز الذي لا يرتبط إنتاجه بإنتاج النفط الخام .

يحدثنا المهندس عبدالرحمن بن محمد بن جبر آل ثاني مدير المركز الفني للتنمية الصناعية وابتسامة رضا ترتسم على محياه قائلا : « إن هذا الحقل الغازي هو هاجسنا الأول لأنه يعد أضخم مشروع صناعي في تاريخ بلادنا ، بل إنه سيكون عندما يتم تشغيله بكامل طاقته ـ دعامة كبرى لاقتصادنا ستفتح آفاقا واسعة أمام النهضة الشاملة التي نستهدفها ، لقد بدأنا بتنفيذ مشروع حقل « الشمال » بهدف استغلال احتياطاته الكبيرة من الغاز الطبيعي غير المصاحب لتصديره إلى الدول المجاورة والأسواق العالمية . فقد أبرمت شركة قطر للغاز المسال في نوفمبر عام ١٩٨٤ اتفاقية للتعاون مع شركة البترول البريطانية والشركة الفرنسية للبترول وشركة مروبيني اليابانية ، حصة قطر منها ٧٧,٥٪ ، وتساهم الشركات الأجنبية

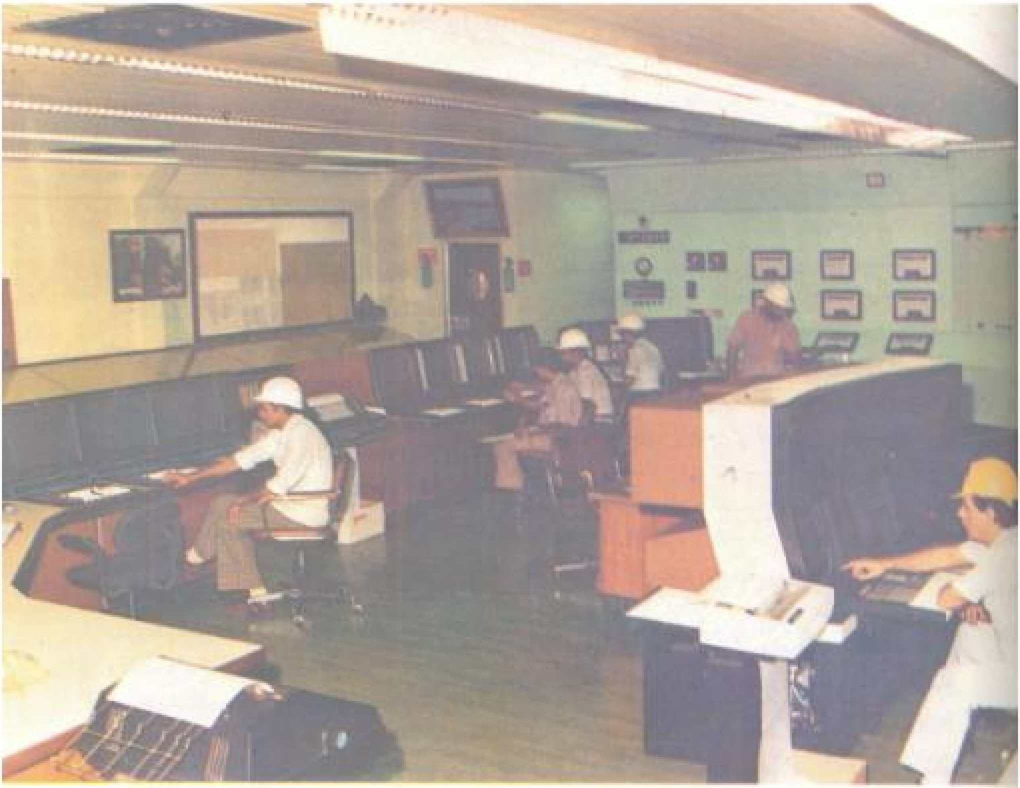

مصفاة تكرير النفط في مدينة أم سعيد أول المشاريع الصناعية الثقيلة (في أعلى الى اليمين) . أحد خطوط الانتاج في مصنع الأسمدة الكيماوية (الى اليمين) ، أجهزة « الكمبيوتر » الحديثة في غرفة المراقبة (الى أعلى) (والى اليمين) صهر الحديد في الأفران الكهربائية بمصنع الحديد والصلب .

بحصة قدرها ٧,٥٪ لكل منها ، وتقدر التكاليف الأولية لهذا المشروع بما يتراوح بين ١٣٠٠ ـ ١٥٠٠ مليون دولار أمريكي ، وتهدف المرحلة الأولى منه تلبية الاحتياجات المحلية ، حيث يشكل الغاز ٨٠٪ من استهلاك قطر من الطاقة ، وتهدف المرحلة الثانية تصدير نحو ٦ ملايين طن من الغاز غير المصاحب إلى الأسواق العالمية ، والدول المجاورة ، وقد قام ممثلون عن المؤسسة العامة القطرية للبترول خلال السنتين الماضيتين بزيارات تفقدية لأسواق أوروبا واليابان وكوريا لتعريف هذه البلدان بنشاطات قطر في هذا الميدان » .

وفي قطر الآن مصنعان لسوائل الغاز الطبيعي يقومان بمعالجة الغاز المصاحب للبترول الخام الذي يتم إنتاجه من محطات إنتاج النفط البحرية والبرية ، وذلك لإنتاج الغاز الغني « بالميثان » والغاز الغني « بالإيثان » ثم غاز « البيوتان » السائل وغاز «البروبان» السائل بالإضافة إلى المكثفات مثل « الغازولين الطبيعي » .

الأسمدة لها نصيب

يقول الأستاذ يوسف فضل التميمي مدير مصنع تسييل الغاز : « إن قطر تستهلك جزءا كبيرا من الغاز الغني بالميثان كوقود في المرافق المختلفة للمؤسسة العامة القطرية للبترول ، في حين يتم تحويل ما يتبقى منه إلى شبكة توزيع الغاز الحكومية لاستخدامه كمادة خام في صناعة الأسمدة بمصانع شركة قطر للأسمدة الكيماوية وتوليد الطاقة ، أما الغاز الغني « بالإيثان » فيحول بالكامل لاستخدامه كمادة خام في مصنع قطر للبتروكيماويات والمنتوجات السائلة كالبروبان والبيوتان والمكثفات ، فيجري تصديرها للخارج . والطاقة اليومية القصوى للمصنعين معاً تبلغ نحو ٢٣٧٠ طناً من البروبان و ١٧٥٠ طناً من البيوتان ، و ١٧٥٠ طناً من الجازولين الطبيعي ، و ٢٤٩٥ طناً من الغاز الغني بالإيثان .

ونظراً لارتباط كمية الغاز المرافق الذي يصل للمصنع بمعدلات انتاج النفط الخام ، فإن معدلات الإنتاج الفعلي لمصنعي سوائل الغاز الطبيعي تتأثر زيادة أو نقصاً بمستويات إنتاج النفط » .

مصنع للحديد والصلب

ومن الخطوات الجريئة التي خطتها دولة قطر في مجال الصناعات الثقيلة ، اقامة مصنع للحديد والصلب « قاسكو » ، وقد تأسست هذه الشركة بالاتفاق بين دولة قطر وشركتين يابانيتين متخصصتين في مجال صناعة الحديد والصلب ، هما شركة كوبي ستيل وتمتلك ٢٠٪ ، وشركة طوكيو بوكي وتمتلك ١٠٪ ، وقد افتتح المصنع وبدأ إنتاجه في عام ١٩٧٨ ، ويقوم بإنتاج حديد التسليح الأملس والمجدول بطاقة إنتاجية وصلت إلى نحو نصف مليون طن في العام ، وبمقاسات مختلفة تبدأ من ١٠ ملم إلى ٣٢ ملم مطابقة للمواصفات الدولية . يقول المهندس ناصر محمد المنصوري نائب المدير العام لشركة الحديد والصلب : « أقيم مصنعنا على مساحة ٧٠٧ آلاف متر مربع ، مقسمة على عدة وحدات ، منها وحدة الاختزال المباشر ، ووحدة الصهر ، ووحدة الصب المستمر ، ووحدة الدرفلة ، ووحدات أخرى مساعدة ، وقد تصاعد إنتاجنا منذ أن بدأ التشغيل ، وحققنا أرقاماً قياسية في الإنتاج وصلت في بعض السنوات إلى ما يزيد عن نصف المليون طن من الإنتاج في كل مراحله ، ابتداء من مرحلة الحديد الاسفنجي ثم بمرحلة كتل الصلب ، منتهيا بمرحلة قضبان التسليح » . ويضيف « إن دولة قطر بإنتاجها في مصنع الحديد والصلب تعد ثالث دولة عربية تدخل ميدان صناعة الحديد والصلب بعد مصر والجزائر ، كما أن مصنعنا هو أول مصنع في الشرق الأوسط يعتمد على طريقة الاختزال المباشر باستخدام الغاز الطبيعي .

أما إنتاج الشركة من الحديد والصلب ، فتقوم الشركة بتسويقه محليا ، وذلك لتلبية متطلبات حركة البناء والعمران التي تشهدها قطر . ويصدر الجزء الأكبر من الانتاج إلى الأسواق الخارجية ، وبخاصة السوق الخليجية وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية ، والكويت ، والإمارات العربية ، . أما

عن العمالة الفنية فيقول المهندس المنصوري : « إن المصنع يضم نحو ١١٠٠ عامل فني وإداري ، وهم من جنسيات مختلفة ، وقد أتاحت الشركة الفرصة أمام الشباب القطري للعمل في هذا المجال ، ومعظم أقسام الشركة الفنية منها والإدارية ، تدار الآن من قبل الشباب القطري ، كما أن الشركة منذ تأسيسها أوفدت الكثير من الطلبة القطريين إلى أمريكا وأوروبا للتدريب في كافة مجالات الإنتاج ، علما بأن من المقرر أن تكون إدارة المصنع القطرية مائة في المائة مع نهاية عام ١٩٨٨ » .

مصنع الاسمنت

واستجابة للتوسع العمراني الذي شهدته دولة قطر أسست شركة أسمنت قطر عام ١٩٦٥ برأسمال قدره ٣٥ مليون ريال قطري مناصفة بين الحكومة القطرية ومساهمين من القطاع الخاص ، وقد بدأت الشركة انتاجها في مصنعها في مدينة « أم باب » عام ١٩٦٩ بداية متواضعة بفرن واحد ، ثم أضيف فرن ثان عام ١٩٧٤ ، ثم ثالث عام ١٩٧٦ . وتنتج الشركة الأسمنت البورتلندي العادي والأسمنت المقاوم للأملاح بطاقة إنتاجية تتراوح بين ٣٠٠ ألف طن و ٣٢٠ ألف طن في السنة ، إضافة إلى ٣٠ ألفا من الجير الحي ، وتستهلك السوق المحلية إنتاج الشركة من هذه المادة . يقول المهندس أحمد عبدالرحمن المانع رئيس مجلس إدارة الشركة : « إننا نجري الدراسة الآن لإقامة فرن رابع ، طاقته الإنتاجية ٣٠٠ ألف طن ، ليصل بالطاقة الإنتاجية نحو ٦٢٥ ألف طن سنويا . ويضيف المهندس المانع قائلا : « وقد تم تشغيل مصنع الجير المطفأ في يوليو عام ١٩٨٥ ، ويغذى هذا المصنع بالجير الحي كمادة أساسية . ونحن ننتج الجير المطفأ بنوعيه ، جير مطفأ كيماوي وجير مطفأ للإنشاءات ، حيث تبلغ طاقة الجير المطفأ نحو ١٩،٧٥٠ في السنة .

ومن المعروف أن الجير المطفأ يستعمل لمعالجة الماء وذلك بإضافته إلى الماء المقطر بكميات محدودة لإدخال أملاح الكالسيوم للماء المقطر ، ليجعله صالحا للاستعمال ، كما أن الجير المطفأ يستخدم كمانع للتآكل ، ويحمي أنابيب المياه من الماء المقطر ، كما أنه يصلح لتنقية مياه المجاري ليجعلها مياهاً صالحة لري أشجار الزينة غير المثمرة .

أما الجير المطفأ المستخدم للإنشاءات فهو مادة هامة في صناعة البناء ، إذ يمكن استعماله في الخلطات الأسمنتية ليعطي ليونة ويقاوم الاهتراء والتلف ، كما يمنع ترشيح الماء ويكبح صدأ الحديد ويعزل الأصوات ويحد من التشقق الناتج عن الانكماش ، ويدخل أيضا في صناعة الطوب الرملي وإنتاجه » .

صناعات خفيفة

ويساهم القطاع الأهلي بدور مميز في إرساء قواعد التنمية الصناعية ، لذلك قدمت الدولة له العديد من الحوافز التشجيعية لدعم مستثمريه ، باعتباره جناحا ثانيا لانطلاقة التصنيع في البلاد ، منها منح القسائم الصناعية للمشروعات بتسهيلات واسعة ، وتطوير شبكة الطرق والنقل لخدمة الصناعة ، وكذلك إعفاء المشاريع الصناعية ومستورداتها من آلات ومواد من الضرائب والرسوم الجمركية ، وتقديم القروض والتسهيلات الائتمانية اللازمة لهذه المشاريع ، بالإضافة إلى توفير الطاقة الكهربائية والمياه للمناطق الصناعية . يقول المهندس ماجد عبدالله المالكي مدير إدارة الشؤون الصناعية في وزارة الصناعة والزراعة : « لقد صدر في أواخر عام ١٩٨٠ قانون تشجيع الصناعات الخفيفة الذي يرمي إلى دفع القطاع الخاص خطوات في مسيرة التنمية الصناعية ، فسمح القانون للمستثمرين القطريين بالاستفادة من القروض التي تمنحها الدولة للصناعات الخفيفة ، فهي تقدم قروضا تتراوح بين ٤٠٪ و ٥٠٪ من رأس مال المشروع ، كما يلزم القانون الدولة بشراء انتاجه للاستهلاك المحلي في حالة تفوقه من حيث الجودة على الإنتاج الأجنبي المماثل ، ودعمه بتخفيض سعره عنها بما لا يقل عن ١٠٪ ، كما تعهد هذا القانون بتوفير سياسة الحماية الجمركية للإنتاج المحلي لهذه الصناعات ، بغية تشجيعها للمضي قدما لتطوير إنتاجها » .

وإسهاما من دولة قطر في تشجيع الصناعة للقطاع الخاص أقامت الدولة منطقة الدوحة الصناعية ،

منصة تصدير الغاز (أعلى الى اليمين). تقوم شركة الحديد والصلب بتصدير إنتاجها عن طريق رصيفها الخاص في أم سعيد (الى أعلى). وهنا مجموعة من الثلاجات ومبردات الماء التي تقوم شركة خاصة بإنتاجها (الى أقصى اليمين). مدينة أم سعيد السكنية تستوعب جميع العاملين

وتقع هذه المنطقة الصناعية على بعد ٧ كيلو مترات غرب مدينة الدوحة ، وهي مخصصة للصناعات الخفيفة والمتوسطة ، وقد تم تزويدها بالخدمات الأساسية من كهرباء وماء وبأسعار دون سعر التكلفة ، وبطرق تصلها بالعاصمة ، أما إيجارات هذه القسائم فهي إيجارات رمزية .

مشروعات أهلية

وأمام هذه الإغراءات الواسعة قامت عدة فعاليات اقتصادية أهلية بتكوين مشروعات صناعية خفيفة ومتوسطة ، منها الشركة القطرية للمنظفات ، حيث يقوم المصنع بتصنيع مساحيق المنظفات الصلبة والمنظفات السائلة . يقول الأستاذ محمود الجرشة المدير التنفيذي لهذا المصنع : « إننا ننتج نوعين من المنظفات ، أولها منظف ذو رغوة وفيرة ، يمتاز بقوة تنظيف عالية ، وقدرة على التنظيف على البارد وعلى الساخن على السواء ، كما أن مسحوقنا يحتوي على مواد تذيب الأوساخ داخل محلول الغسيل ، وتمنع الأوساخ من الترسب ثانية على الملابس ، وهذا المسحوق يمكن استخدامه يدوياً أو في الغسالات العادية ، وبالإضافة إلى ذلك ينتج مصنعنا منظفاً يطلق عليه المنظف الأوتوماتيكي ، وهو منظف ذو رغوة قليلة خاص بالغسالات الأوتوماتيكية يحتوي على مواد فعالة أيونية ، وغير أيونية بجانب احتوائه على مواد لإزالة عسر المياه ، ومواد تشتيت الأوساخ ومنع ترسبها على الغسيل ، كما أن المصنع يقوم بإنتاج منظفات خاصة بالمستشفيات ، والفنادق الكبرى ومغاسل الملابس ، ومنظفات أخرى سائلة تستخدم في مغاسل السيارات ، وأغراض أخرى صناعية .

ومن شركات القطاع الخاص أنشطة شركة الأصباغ البحرية لصناعة البويات والورنيش واللاكيهات إذ حصلت هذه الشركة على امتياز خاص من شركة « همبل » لتصنيع الأصباغ في قطر . يقول صاحب المصنع : « إننا ننتج نحو مليون ونصف مليون لتر من الأصباغ البحرية والأصباغ العادية ، منها الزيتي والمائي ، وننتج الأصباغ المخصصة للأعمال الثقيلة التي تستخدم في طلاء حديد التسليح لمنع الرطوبة والصدأ ، وكذلك الأصباغ البحرية التي تستخدم لطلاء السفن الكبيرة التي تعمل في الموانىء ، بالإضافة إلى أننا ننتج أصباغاً مخصصة لقناطيس الفيبر جلاس ، وأصباغاً فسفورية مخصصة لعلامات المرور والعلامات الأرضية المرورية .

ويساهم القطاع الخاص كذلك بعدة صناعات مهمة ، منها شركات تقوم بإنتاج الأواني البلاستيكية المتنوعة ، وشركة أخرى تنتج الأكياس البلاستيكية بأحجام متنوعة ، إلى جانب شركات لصناعة الإسفنج والمفروشات ، وشركات لإنتاج المواد العازلة للمباني ، وشركات متخصصة في صناعة الخرسانة سابقة الإجهاد .

صناعات أخرى

وهناك شركة تقوم بجمع وتصنيع الثلاجات ومبردات الماء . يقول المدير المسؤول عن الشركة : « إننا نقوم باستيراد المواد الرئيسية لصناعة الثلاجات من ايطاليا ، أما « الكمبرسر » فإننا نستورده من فرنسا ، ونقوم بجميع الأعمال الصناعية هنا في قطر ، فننتج جميع أنواع ثلاجات العرض التي تستخدم في الأسواق المركزية والبقالات ، وكذلك الثلاجات العادية بمختلف أحجامها ، ومبردات الماء بجميع أحجامها ، حيث تستخدم هذه المبردات في المساجد ووحدات الجيش والشرطة ، كما أننا ننتج المطابخ والأرفف من الصاج المجلفن والصاج المرشوش وكذلك تجهيزات المطاعم « الكونترات » ، بالإضافة إلى الخزانات الحديدية والمقاعد والطاولات للمدارس . وإن أكبر أعمالنا التي نفخر بها هي تجهيز غرف مبردة بأحجام مختلفة لحفظ الفواكه والخضراوات التي تصل إلى دولة قطر من الأسواق الخارجية .

هذه لمحة عن التوجه الصناعي في دولة قطر ، وهو التوجه الذي يقوم على استغلال الخامات المحلية لإيجاد مواد أخرى تضاف إلى النفط ، كما أن هذا التوجه يركز على تنمية وتطوير الثروة الأساسية بثروة الإنسان غير الناضبة . □

قصة مترجمة

ربيع بارد

تأليف : دانييل سالناف /ترجمة : الدكتور محمد برادة*

في يوم من أواخر مارس ، عندما كان توماس عائدا إلى بيته حوالي الساعة الخامسة ، قاطعا شارع « كوبلان » تيقن فجأة أنه لا يستطيع أن يخطو إلى أبعد ، وفيما هو ينظر حوله (عبر الضوء الأبيض الذي كان يجعله يطرف بعينيه) لمح عند زاوية الشارع مقعدا خشبيا صباغته متشققة ، فاتجه ليجلس عليه .

لم يكن يحس أنه مريض . كلا ، ولا حتى أنه متعب بكيفية خاصة . فقط لم يكن يقدر أن يذهب إلى أبعد . عندما جلس شعر بدوار خفيف مصحوب بخفقات عنيفة تنبعث من قلبه ، لم تلبث أن تناقصت مثلما يحدث عند تذكر خطأ ، أو تحت تأثير لقاء غير منتظر . كان انفعالا دون سبب مما جعله مفزعا ، دون قوة منبوذا . ارتمى الى الخلف على المسند الصلب ، فأحس بقضيب الخشب الضيق يتغرز في ظهره ، فرفع رأسه نحو السماء عاليا ، كانت طائرة

---

* تعتبر الكاتبة الفرنسية دانييل سالناف Daniele Sallenave من الأقلام الجديدة المعبرة عن حساسية مغايرة لحساسية جيل « الرواية الجديدة » ولكتابات « الطليعة » المشدودة إلى (الموضات) الأدبية ، تكتب سالناف القصة القصيرة والرواية ، وتترجم عن الايطالية . فازت عام ١٩٨٠ بجائزة « رنودو » عن روايتها « أبواب كبيو »

ترجمنا هذه القصة عن مجموعتها التي تحمل نفس العنوان : « ربيع بارد »

مايلفت النظر في هذه القصة هو الاستيحاء اليومي المعتاد ، وجعله منطلقا لنسج مناخ شعري يستمد رواقه وظلاله الموحية من التفاصيل ، ومن استبطان الديمومة التي تلازمنا وسط جلبة الحياة وسرعة عقارب الزمن التعاقبي المشترك . هكذا يصبح وجه « توماس » المتعب الجالس على كرسي عمومي طلبا للاستراحة في قصة « ربيع بارد » وجها إنسانيا نلتقي عبره بصورة الإنسان الذي يعيش داخل مدينة كبيرة جهنمية ، فيحاول أن يحتمي من الإحباط والترك والنسيان والموت بالحلم وطلب التواصل عبر فضاء « داخلي » حيث الأحياء والأموات متعاصرون إلى الأبد ، وحيث الماضي والحاضر يتعايشان داخل تأمل مطمئن » .

في « ربيع بارد » تمد سالناف جسورا جديدة مع نموذج قصة « اللحظة الكاشفة » كما أرسى دعائمه قصصيون رواد من أمثال تشيكوف وكاثرين مانسفيلد .

* باحث وناقد وأستاذ جامعي من القطر المغربي .

سوغلة في العلو تبتعد نحو الغرب ، وتبدو كأنها تختفي وسط أعماق السماء المدرجة الشفافة ، تاركة وراءها نمرا مزدوجا كان يتناثر في شكل نديف بصعوبة . أعاد توماس بصره نحو الرصيف ، ثم نحو الشارع حيث كانت الحافلات تنساب دون توقف متجهة نحو ساحة ايطاليا ، وفوقها قطار مواز . لكنه أكثر بطئا من السحب البيضاء البالغة الكثافة التي كانت تصطفق من غير صوت في الأعالي التي كنستها الريح . من جديد انقلبت عيناه ، وحاول بصره أن يتحاشى تلك الحركة التي كانت تبعث فيه الدوار ، فيضيع وسط لون السماء الرمادي الخالي من أي عمق .

أغمض العينين . لكنه وجد في داخله ... الامتداد الرمادي . فأ... أخرى ، وحاول أن يثبت نظره على ساقيه ، على قدميه داخل الحذاء ، على تشققات الجلد الرقيقة حيث ظل الغبار عالقا ، ثم وجه نظره الى يديه المبسوطتين على فخذيه ، البيضاوين الرخوتين ، المجعدتين كأنهما منفصلتان عنه . حرك خفية الأصابع ، بسطها فخيل إليه أنها تستجيب بصعوبة لارادته ، كأنها قد فصلت عنه بمسافة كبيرة جدا ، وبينة معادية له ، مقاومة لرغباته . في النهاية رفع يديه أمام عينيه ، وقربهما ببطء ، ثم حشرهما في جيبي معطفه الشتوي . كان يحس بالبرد ، لكنه كان بطريقة ما في وضع جيد . كان يكفي أن ينتظر قليلا ليتمكن من استئناف الطريق . فجأة عاودته موجة الانفعال دون سبب ، نفس القلق الخالي من المحتوى ، كأنه ينتظر مصيبة أو يتذكر هزيمة ، وكان الانفعال يثقل بقوة على أعضائه ، حتى أنه بدد رغبة الهرب التي كان هو وراء ولادتها في نفسه . من جديد تحتم عليه أن يغمض عينيه . كان مستسلما لأمر لا يعرف سببه ولا مصدره ، يجعله مستمرا على المسند الخشبي ، مثل يد تطبق عليه عند وسط الصدر . كان يحس كأنه طفل ، لديه رغبة في البكاء . ظهر له أن تعقيدات الضجيج الذي كان يحيط به متشكة بطريقة غير مجدية ، فكل ما حوله كان يروح ويجيء ويصيح ويصمت ، ويرسل عبر الغبار إنذارات خشنة ، ويزحف بغموض نحو أهداف لم يكن هو يعرفها ، ولم تكن هي أهدافه . كان مبعدا عنها . ومجموعة العمارات الشاسعة التي كان يخمنها بشكل مبهم على يساره ، كانت تتفكك هي نفسها ببطء مثل ديكور ، متحرك لأفعال لا نهاية لها . أحجار وسقوف من نفس اللون الأزرق ، ودخان عوادم السيارات ، وضباب على البعد ، ولا شيء يوقف هذا الانزلاق المحتوم الذي كان يتركه على هذا الكرسي مستسلما لجموده دون جدوى . حاول أن يكف عن الانصات للريح التي كانت تحرك الملصقات المنشورة على أسلاك حديدية فوق بناية بائع الصحف الصغيرة ، وكأنها تذكره بالفضاءات الشاسعة والمدن الأجنبية والغابات التي لن يستطيع أبدا أن يجوبها . كل نداء كان شتيمة ، وتعريضا ساخرا بعجزه ، و... وقحا لم يعد بمقدوره أن يواجهه . أطبق الجفنين و... يديه داخل جيبه . هدير السيارات المتوقفة عند المفرق وهي تستأنف السير عبر رائحة (مطاط) محروق ، وقرقعة خلاطة أسمنت ، وعواء صفارة سيارة إسعاف . فتح عينيه من جديد . كانت السا... قد تمهلت عند مرمى بصره ، فلمح وراء زجاج نافذتها وجها مقلوبا ، وعينين مضطربتين ، وفما دون أسنان . ارتمى توماس إلى الوراء وقد رجه قلق أصم ، ونفس تلك الرغبة في الجري التي كانت تخض أعضاءه ، غير أن قليلا من الهدوء عاوده . وبالقرب منه فوق الكرسي حمامتان ، قد استقرتا ، وأخذتا تهدلان بلطف ، كان كل شيء ينزلق ، ولا شيء يظل في مكانه ، لكن كان بالامكان أن تتبين وراء الصدمة الخشنة لضجيج العالم ، ووراء تنافس الضوضاء الشرس ، شيئا مثل نظام ، مثل حركة

منتظمة . ولو أننا أولينا مزيدا من الانتباه لأدركنا أن هدير المدينة يتكون من ضوضاء مدرجة ، ومن ارتفاع وديمومة وكثافة متغيرة ، كلها تطابق أفعالا أو تنقلات يمكن أن نهتم بها من غير أن نكون مضطرين للمشاركة فيها . ولأدركنا أيضا أن بالامكان أن نحاول فكها وفهمها من خلال ملاحظة الطريقة التي تتواصل بها لكي تنصهر آخر الأمر في كل منسجم ، وأقل عداء مما يمكن أن نظن . بل كان هناك شيء ممتع ستكون فيه مسرة ، وربما سيكون من السهل الانضمام اليه لو أسعفتنا طاقتنا .

بسط ساقيه أمامه الى أبعد ما يستطيع ، وعلى الرغم من محدودية هذا التحريك فقد بدا له أنه غير متناه ، في تلك اللحظة كان ضجيج الشارع قويا جدا ، بحيث لم يسمع حك نعليه على الرمل ، كأنه قد سحب منه آخر دليل على وجوده المادي . عثر أخيرا على مفتاح المرور والكشف . أحسّ فجأة أنه لديه عزاء ، وأنه مسموح له ومغفور له .

كل شيء كان حسنا ، وكان الأمر يتعلق فقط بالموافقة . وهذه الفكرة استخفت به ، فخيل إليه أنها وحدها ما تزال قادرة على تعبئة قواه المتدهورة .

انغلقت عيناه من جديد ، لكن على ضوء لطيف مرحب ، مثل ضوء صباح صيفي ، يتسلل عبر مصاريع النوافذ التي نتأخر في فتحها بدافع من كسل .

كانت ضوضاء المدينة تخترقه من جهة لأخرى ، ولم يكن يحول دون ذلك ، وطراوة الهواء القارس تنشر جلد جبهته وخديه وذقنه . كان يخمن ذلك ، فجزء من نفسه على استعداد لأن ينضم إلى احتداد الأشياء ، إلى حيادها ، وإلى التشتت المحيط بها ، بل إنه أحس أنه كان يبذل جهدا لادراك الاتجاه لكي يلتحق بها . لكنه لم يتمكن من ذلك جيدا . ما تكاد اندفاعته تخرج منه حتى تسقط دون قوة ، أو بالأحرى كانت تتجمد حوله ، وكأنها بخار فاتر .

سحب بصعوبة إحدى يديه من جيبه ، ومرّرها على وجهه ملامسا سطحه الخشن البارد المتوتر عند الوجنتين ، المتقعر عند أسفل الخدين والعنق .

وظهر له جسده منفرا غريبا دون نفع . وأدرك أنه لن يكون هناك خلاص ما دامت تنتصب بينه وبين العالم هذه الكتلة من اللحم غير الملائمة ، وطالما سيظل مستسلما لغرائبها ونزوات مزاجها .

كان جسده المزعج ينتصب بينه وبين العالم ، وكان يحس كأنما هو مفصول عن الضوء بظل شجرة وارفة ، على أن شيئا ما كان يحاول أن يشق طريقه داخله ، شيء مشع ، لا مادي ، ومنير ، مثل تلك القوة التي كانت هناك فوق ، تدفع أشعتها نحو السماء الصافية ، وتحرك الماء والسحاب . سيتحتم عليه للالتحاق بها أن يترك وراءه هذا الجسد الناشز الذي كان التعب يسمره فوق كرسي مواجه لضوء الربيع الصافي ، وعندئذ سيمكنه أن يرتفع ويرتفع ليعانق هناك في الأعلى ذلك الشيء الخفيف الذي كان يناديه . لكن عليه قبل ذلك أن يعرض عن كل تهيج ، وأن يتجنب كل حركة قد تضطره الى الاندماج مجددا في هذا الجسد المتعطع ، عديم المهارة المؤلم . هذه الفكرة جعلت راحة مجهولة تستولي عليه . كانت عيناه تنغلقان ، وطراوة ريح قارسة تهدهده ، وتفقد وجنتيه حساسيتها ، وتدثره بحماية ناعمة . بعودة الاطمئنان إليه ، كان الزمان يتجمع ، فأدرك أنه يغفو ، وأخذت السنوات الماضيات تمثل أمامه في دائرة صامتة ، فلم يكن يخفض عينيه عن الوجوه التي لا تحصى ، ذلك أن كل واحد منهم كان مثل أبيه ومثل أحد أبنائه الذين لا يخصيهم العد . وجسده لم يعد يثقل عليه الآن .

كان يتكاثر أمامه بلطف ، وتلك الأيدي التي كان من الممكن أن تلمس يديه انتصبت على مسافة منه ، وكل شيء كان جيدا . . . يستطيع أن يرتاح . استيقظ متأسفا وأحس من جديد أن قلبه ينبض بقوة ، وكان نفس الاحساس بالوهن يعاوده .

انتصب ومرر يديه على فخذيه المجفاوين وعلى جنبيه وصدره وذراعيه ، ثم جذب أهداب معطفه فوق ركبتيه المثلجتين . من جديد كان الفراغ الكبير بداخله ، وأمامه كانت الأشجار تكاد تغادر فصل الشتاء ، كاشفة في الطرف القصي الأسود

لأغصانها ، عن فقاقيع صغيرة بيضاء تكفي أشعة قليلة من الشمس لتفتيحها .

وأحس مجددا بانطباع من التهديد والخوف والرفض . كان لازما أن يبتعد هذا الجسد ما دام هو الذي يبعده عن العالم . كان يتحتم عليه أن يخمد ما دامت الشعلة الضئيلة فيه تستطيع أن تلحق بالنار الكبيرة التي انحدرت منها .

لكن لا مناص .. فالعالم كان يستعيد ألوانه ببطء ، وقواه كانت تعود إليه متعتشة بعد لحظة قصيرة من النوم ، فأحس أن بداخله يستيقظ ذلك الشكل السائل من الحياة الذي سبق له أن نبذه .

كانت الأشياء ترتد اليه ، فاستشعر رغبة في ثني ساقيه فوق بطنه ليحتمي منها ، مثلما تفعل لاتقاء ماء يتصاعد . غير أن الخجل جعله يحجم عن ذلك . على أن الحركة العائدة لم تكن لتتوقف : فقد امتلأ جسده من جديد بالضوضاء المضنية المتنافرة التي كانت تحدث صدى مؤلما مع ضجة العالم المستعادة . لقد رحل ذلك الادراك المسبق اللطيف ، الذي كان يوحي له بانسجام ممكن بينه وبين المسيرة الخفية للأشياء . ماذا حدث إذن ؟ لماذا السعادة الذاتية هربت قبل أن تكتمل ؟ منذ لحظة فقط تبدى له أنه كان من السهل أن ينصهر داخل انزلاق الأشياء الحتمي : فما الذي منعه إذن من ذلك ؟

أغلق عينيه محاولا أن يلقى من جديد داخل النوم نسيان ذاته الذي حمله أحيانا مخلصا إياه من جلبة الأيام . كان يتأهب لأن ينام مجددا ، وقد أخذت تضعف من حوله ضوضاء الشارع ، عندما اخترقه إحساس مسبق ، انتشله من الخدر الذي كان يسري في عروقه . إن ما أدركه على أنه وعد صاعق بالسعادة ـ تلك الرغبة في الانصهار مع الضوضاء الخالص ـ لم يكن سوى خدعة ماكرة من النوع الأرذل : البرهان على انهزام جسده ، والعلامة المعلنة عن استلامه للامحاء والتلاشي والموت . ضغط القلق على قلبه . رفع يده كأنه يحتمي من الأنظار ، ثم أعاد فتح عينيه وهو يمس بأصابعه على وجهه : داخل الجلد الرقيق المشدود عند قاعدة إبهامه ، كان شريانا أزرق ينبض . وضع فوقه أصبعا ونظر إلى البقعة فاقدة اللون وهي تستعيد لونها الوردي تدريجيا بمجرد أن كف عن الضغط . وغمره يقين مضاعف بالتقزز ، فما حاول إخماده داخله بحجة اللحاق بالانسجام الكبير للعالم لم يكن سوى الحياة ولا شيء غيرها . والصور الاثيرية التي فتنته لم تكن سوى حيل جسد منهك كان يطمح إلى الراحة . لقد خانه جسده وتخلى عنه ، ففكر بنوع من الرعب أن عليه أن يعيش منذ الآن مشدودا إلى جثة رفيقه في القيد .

نظر من جديد إلى يديه الصفراوين حيث كان الدم يعاود السريان : ألم يكن هناك ، دائما ، داخله شيء أعلن الموافقة والقبول ؟ وهذا السائل الثقيل الدافىء الذي كان يترع شرايينه ألم يكن في الحقيقة يحاول أن يهرب منه وأن يتوغل داخل الغبار في شكل قطرات للعاصفة لينصهر داخل مادة الأرض التي لا اسم لها ؟

كانت المدينة تفرغ والسماء تنسكب من خلل فجوة سحب تعلن عن غروب الشمس . كل شيء كان يسير نحو نهايته ، ولم يكن هناك مجال لنقض الحكم أو استئنافه . وفي آخر المطاف سيجدون أنفسهم جميعا بشرا وحيوانات مختلطين ، وأغصانا ميتة و « خردة » حديد صدئة .. الكل سيطويه نفس النهر الكبير . إنه ببرود الدم داخل شرايينه ، لم يفعل أكثر من استباق خمود العالم الكبير .

شملته هبة ريح مفاجئة : أحس بنفسه أفضل من ذي قبل ، فقام منتصبا . وعندما أصبح واقفا من جديد وهو يسير وسط الآخرين راوده انطباع خاطف .. كلهم كانوا يتابعون طريقهم ما عدا هو ، هو وحده سيموت ، وهم جميعهم سيستمرون في الحياة من بعده . والنهر المتلألىء سيطوي على البعد مياهه : هو وحده يظل على الشاطىء . وهذه الفكرة تلاشت بدورها فخطا بضع خطوات في الشارع ولما كان المطر قد عاد ، فإنه احتمى بإفريز كشك كان يشتري منه جريدته . ثم اتجه إلى منزله وهو ينظر متفكرا إلى أصابعه التي لطخها مداد المطبعة ، فهذا وحده الآن كان يكتسي أهمية لديه □

عصر جديد للغة العربية

القرآن الكريم على شاشة كمبيوتر

استطلاع : محمود عبدالوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي
دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ
تَوَّابًا ﴿٣﴾

۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ
دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ

في صمت شديد تتم هذه التجربة العلمية الفريدة ، وعلى الرغم من المساحات الواسعة في وسائل الاعلام العربي .
الا أن هذا الانجاز العلمي لم يقدم بشكل واف .
ولم ينتبه أحد الى ان هذه التجربة تمثل نقلة نوعية قد حدثت في مسار نقل التقنية والاقتراب من عصر جديد مليء بالتغييرات .

هكذا كانت البداية :
بطاقة دعوة رقيقة لحضور افتتاح معرض للكتاب يقام برابطة الاجتماعيين بالكويت ، وفي ركن من المعرض كان يستقر جهاز « كمبيوتر » قال عنه ، مسئولو الرابطة انهم وجهوا الدعوة لهذه الشركة لانها تقدم لاول مرة القرآن الكريم مكتوبا باللغة العربية على شاشة الكمبيوتر » ، واقتربت من الجهاز الصغير الذي لايزيد حجمه عن حجم تلفاز صغير ، مزود بلوحة مفاتيح ، وكانت المفاجأة ! فعلى الشاشة تتوالى سور وآيات القرآن الكريم بالرسم العثماني وبالزخارف الجمالية ، وبالتشكيل النحوي (ضم وفتح وجر) انه عمل يفوق قدرة العقل على التصور والانجاز .

وبدأت تتوالى على الذاكرة أخبار لم نقف عندها طويلا تتعلق بالشركة صاحبة هذا البرنامج ، فمنذ عامين ـ مثلا ـ تفضل صاحب السمو أمير دولة الكويت باهداء عدد من اجهزة الكمبيوتر هذه الى النادي العلمي الكويتي ـ بؤرة اعداد الموهوبين وتربيتهم ـ ايمانا من سموه بأهمية وخطورة تعريب « الكمبيوتر » وبعد ذلك بعام ـ تقريبا ـ قررت وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية تعميم اجهزة كمبيوتر نفس الشركة في جميع مدارسها ثم توالت بعد ذلك مدارس الاردن والبحرين والجزائر وعدد من الاقطار العربية، فسلكت نفس المسلك وتوالت الاخبار عن برامج جديدة ومشروعات علمية تدور كلها حول تعريب «الكمبيوتر » واستخدام اللغة العربية ، وحينذاك ـ مازالت الذاكرة تحفظ ـ كانت كل هذه البرامج خطوات نحو كسر دائرة التحدي للاقتراب من صياغة اخرى تتجاوز مفهوم ان التعريب هو مجرد استخدام لوحة مفاتيح باللغة العربية .

وانا له لحافظون

شريط صغير يوضع بداخل الفتحة المخصصة في جهاز « الكمبيوتر » ويبدأ برنامج القرآن الكريم ، ويعرض البرنامج النص القرآني على مستويين: اما باختيار عرض سورة أو عرض آية واختيار السور يتم بأن يطلب مستخدم الجهاز رقم السورة (من ١ ـ ١١٤) . أو يذكر اسمها أو يحدد رقم الجزء أو الحزب الذي توجد به السورة، فيعرض له « الكمبيوتر » السورة مكتوبة برسم الخط العثماني وبالتشكيل النحوي ، وفي الهامش يذكر ان كانت السورة مدنية أو مكية وعدد آياتها ، ويستطيع مستخدم البرنامج الانتقال بين آيات في السورة الواحدة ، كما يستطيع الانتقال للسورة التالية أو السابقة بيسر شديد . وعلى مستوى اخر فان المستخدم يمكنه استعراض آية ما بذكر اسم السورة أو رقمها ثم رقم الآية المطلوبة فتظهر له الآية خلال ٣٠ ثانية فقط .

هذا العرض الآلي بالغ اليسر . لا يشكل أي صعوبة للمستخدم فبمجرد ضغط على مفتاح محدد ، واستخدام مفتاح الاستزادة أو النقصان يمكن المستخدم من عرض مايشاء من سور وآيات لاحقة او سابقة . وعلى سبيل المثال فلو كان المستخدم يعرض سورة البقرة فان هذه السورة تحتل رقم (١) بالضغط على مفتاح الاستزادة وتأتي السورة رقم (٢) وهي سورة آل عمران ، يمكن للمستخدم ان يبدأ العرض

وزير الإعلام الكويتي يستمع إلى شرح طريقة عمل أول برنامج للقرآن الكريم ، الذي تم بمعرض كتاب رابطة الاجتماعيين بالكويت .

بأن يضغط على رقم (٢) في خانة السورة ثم رقم ٥٦ للآية ، فتظهر له على الشاشة الآية ٥٦ في سورة آل عمران . وعند اختيار سورة مايقوم المستخدم بالاختيار ثم يتحرك بمرونة ليقف عند الآية المطلوبة ويمكن البحث ايضا على مستوى اخر ، وهو مستوى البحث عن كلمة وهذا الجزء يعتمد على ما يمكن ان نعتبره فتحا جديدا للغة العربية .

المحلل الصرفي

تتميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات بخاصيتين : خضوعها للاشتقاق والتشكيل النحوي ، وعلى سبيل الايضاح فان كلمة (كتب) مثلا يتفرع منها - اشتقاقا وجمعا - كاتبان وكتبة ، ومكتوب وكتاب وكاتبات الخ . على عكس المقابل في اللغة الانجليزية مثلا لنفس الكلمة (**write**) اذ لا يشتق من الكلمة ولا يتوالد عنها الا (**writer**) وتفيد معنى كاتب أو (**writing**)وتفيد معنى اسم الفعل وهو كتابة ، و (**written**) وتعني مكتوب و(**wrote**) وهي صيغة الماضي، وعلى عكس اللغة العربية فان الكلمة الانجليزية هنا لم تتغير بنيتها ، بينما الكلمة في اللغة العربية تغلف بسوابق ولواحق ولواصق وتنصهر جذريا . هذه المشكلة كانت عقبة علمية كبرى امام استخدام اللغة العربية في « الكمبيوتر » ولكي نزيد الامر ايضاحا فان تطور البحث عن المعلومات بواسطة « الكمبيوتر » قد قفز من مجرد معلومة رقمية إلى أن شمل البعد اللغوي ، وقد تغلب العلم الحديث على مشكلة التخزين بابتداع ما يسمى بالقرص الضوئي ، الذي يتسع لاحتواء نصوص (١٠٠٠) كتاب ، ومع مايوفره « الكمبيوتر » من سرعة البحث دخل العالم عصر ثورة المعلومات من أوسع ابوابه،واصبح ممكنا تخزين نص كتاب كامل بعد ان كان الامر مقتصرا على مجرد حفظ اسم الكتاب واسم مؤلفه وناشره ونبذة عن مضمونه ولكن هذا لم يحل مشكلة اللغة . كان هذا

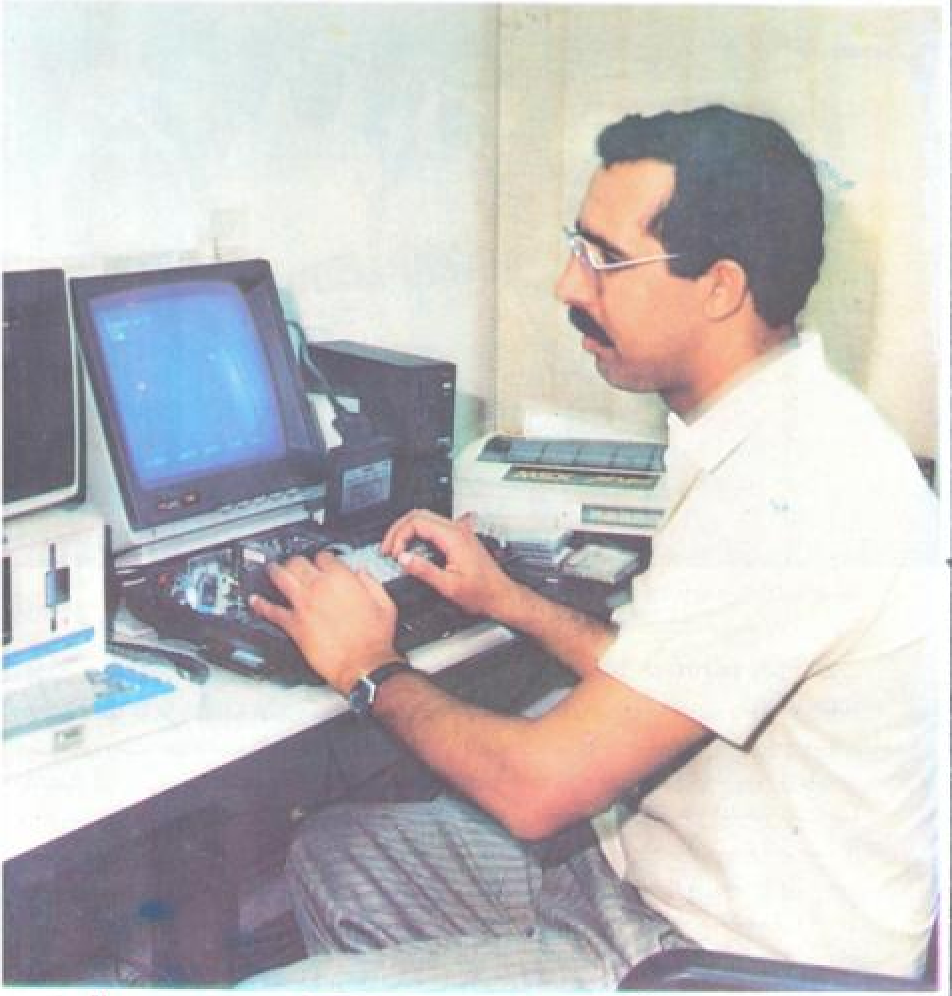

غرفة اختبار البرامج الجديدة .

مبرمج في ورشة العمل أثناء إعداد برنامج جديد ، ثم فريق إدخال البيانات

أحد اجتماعات قسم البيانات واختيار المعلومات اللازمة لبرنامج جديد .

يحدث في العالم لمرونة اللغات الاجنبية وعدم تعرض بنية كلماتها لتغيرات جذرية تغير من مضمونها وهكذا ظلت هذه المشكلة قائمة حتى تم التوصل الى احدث محلل صرفي في اللغة العربية ، ليفتح بذلك عصراً جديداً لهذه اللغة لتلحق بالعالم الذي أوشك ان يتجاوزنا .

وتقوم فكرة المحلل الصرفي على تحليل النص ـ أي نص ـ تحليلا صرفيا ، ثم تخزينه صرفيا ، وعند الاستعادة يستعاد صرفيا ايضا ، وبهذه الطريقة تم ضغط احرف كلمات القرآن الكريم بنسبة ٧٠٪ . ولتوضيح الفكرة نأخذ كلمة (مثل (متشاكسون) فجذر الكلمة « شكس » والكلمة مصوغة على صيغة متفاعل بزيادة « ون » دلالة الجمع والرفع ويتم تخزين الكلمة بموجب رقم الجذر والوزن الصرفي مضافا اليه الواو والنون وتصبح المسألة بذلك مجموعة معادلات رياضية تخزن،وعند الاستدعاء يحول « الكمبيوتر » المعادلة الرياضية الى مقابل لغوي فتتم العملية بشكل عكسي، فعندما يسجل ناتج المعادلة يستدعي الكمبيوتر مكوناتها فيستدعي الجذر (شكس) ويصيغه على وزن متفاعل ثم يضيف اليه الواو والنون .

هذه بتبسيط واختصار فكرة المحلل الصرفي الذي تعرض لأقصى اختبار صلاحية بأن طبق عليه برنامج « القرآن الكريم » ، واستخدمت الصلاحيات والامكانيات التي يتيحها المحلل الصرفي في تحقيق اكبر فائدة ممكنة لتيسير الاستخدام والبحث في القرآن .

ونتيجة لهذا اصبح ممكنا للمستخدم أن يستخرج من برنامج القرآن الكريم الآيات التي يريدها حتى وان كان لايحفظها اولا يتذكر موقعها في أي سورة أو حزب إذا كان يعرف المعنى فقط ، وعلى سبيل المثال يطلب مستخدم البرنامج الآيات التي تتناول فكرة « الخنزير لحمه حرام ، وبعد ٣٠ ثانية فقط تظهر له على الشاشة كل الآيات الكريمة التي ورد بها لحم الخنزير وتحريمه . وعلى نطاق أوسع يستطيع الباحث ان يطلب كل الآيات التي تعرضت للحلال ، فيذكر جذر الكلمة وهي « حلل ، وبعد ٣٠ ثانية ايضا تظهر له على الشاشة كل الآيات التي تناولت أوامر التحليل ، من زواج إلى مأكل الى آخر ما أمرنا به كتاب الله الكريم .

وبالاضافة الى هذا يقدم البرنامج مستويات للبحث الموضوعي في القرآن ، وهي امكانية متاحة عند ذكر الموضوع فيذكر المستخدم مثلا الموضوع وهو العقيدة فتظهر له الآيات المتعلقة بها ، أو موضوعا آخر كالأحكام الفقهية أو الاخلاق والسلوك . . . الخ . .

كما يقدم البرنامج امكانيات اخرى ، تتيح التعليم المتفاعل حيث يقوم البرنامج بالمساعدة في تحفيظ القرآن الكريم ، ثم يقدم جزءا علميا تاريخيا عن القرآن وأسمائه وتاريخ كتابة المصحف والآيات المدنية والمكية ، ثم يقدم حصرا بأسماء الكتب والمؤلفات المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه ، كما يقدم بالاضافة الى ذلك تفسيرا ميسرا مع بيان اسباب النزول،وبيان الناسخ والمنسوخ ، والأشباه والنظائر ، وهي الالفاظ التي تحتمل اكثر من معنى واستعملت بمعان مختلفة في آيات ومواضع مختلفة .

زيارة إلى ورشة العمل

في احد احياء الكويت الهادئة وداخل منزل ابيض صغير ، تزدحم الغرف بأجهزة « الكمبيوتر » والباحثين وفريق عمل كامل ، وداخل ورشة العمل الصغيرة ـ كما يحلو لاصحابها ان يسموها ـ تتم ابحاث ، ويجري العمل على السير قدما باتجاه تعريب « الكمبيوتر » وخطورة قضية التعريب تكمن في أن العالم يستعد الآن لاستقبال الجيل الخامس من « الكمبيوتر » والتعامل معه ، وهذا المستوى من اجيال « الكمبيوتر » هو مستوى لغوي يتكلم ويعي اللغة ويحلل ويركب ويولد ، وبالفعل ظهرت في اليابان وأوروبا وامريكا نتائج مبكرة لهذه البحوث ، وبتكلفة اقتصادية مقبولة ، وبذلك سوف يتجاوز « الكمبيوتر» مجال عمليات الحسابات والارقام ، ويدخل الى نطاق الانسانيات التي تعد اللغة وعاءها وادواتها .

وفي لقاء مع السيدة موضي محمد الصقير مسئولة تجميع المعلومات والبيانات في ورشة العمل حدثتنا قائلة :

« كنا منذ البداية حريصين على ان نقدم عملا مختلفا ، فمما لاشك فيه أن الوطن العربي على اتساعه قد بدأ مؤخرا يدرك أهمية «الكمبيوتر» ويدرك ان هذه الثورة هي آخر الممكن في هذا القرن ، والتي لوفاتتنا فسوف يفوتنا الكثير ولذلك فقد بدأنا منذ اليوم الاول في انتقاء نوعية البرامج التي نعدها ونقدمها ، فلم تستوقفنا برامج الالعاب والتسلية ، بقدر ما كان اهتمامنا بالتوصل الى برامج تحقق اكثر من فائدة فبدأنا ببرامج تعليمية وبرامج تاريخية ، وبرامج معلومات عامة ولم يستغرق هذا طويلا ، وانتقلنا بعد ذلك الى برامج القواميس فقدمنا (قاموس عربي ـ انجليزي)يضم الكلمات الاكثر شيوعا واستخداما في اللغة الانجليزية ، وكنا دوما ندرك أن المرحلة الاولى المهمة هي أن نكسر رهبة « الكمبيوتر » لدى المستخدم ، ثم نجعله يشعر بأهميته ومساعدته الايجابية له . ويخضع أي برنامج يعد لعدة خطوات فضلا عن الخطوات الفنية التي يقوم بها مصمم البرنامج فإن هناك قسما كاملا هو قسم البيانات وجمع المعلومات يقوم بجمع المعلومات والمادة العلمية ويخضع عمل هذا القسم لمراقبة علمية وإشراف دقيق ويشارك في تقديم المشورة لهذا القسم عدد من أساتذة الجامعات على امتداد الوطن العربي ، كل في تخصصه ومجاله ، وبعد جمع المعلومات يتم الانتقاء والاختيار ، وبعد ان تستقر نهائيا على المادة العلمية التي سيتضمنها البرنامج تبدأ عملية ادخال المعلومات الى البرنامج،وبقية العمليات الفنية اللازمة،وهي عمليات طويلة ومعقدة ، لكن تنظيم العمل وتتابعه يحل كثيرا من الامور».

ويحدثنا رئيس قسم الأبحاث بالشركة د . نبيل علي الذي قام برنامج « القرآن الكريم » على بحوثه وتصميمه عن قيمة هذا الانجاز من الناحية العلمية :

«استند تطبيق برنامج القرآن على استغلال الخاصية الصرفية للغة العربية ، مما تطلب في البداية تطوير معالج صرفي آلي قادر على تحليل جميع الكلمات العربية باستخلاص جذورها وأنماطها الاشتقاقية وزوائدها التصريفية وعلاماتها الاعرابية بتلقائية . وفي نفس الوقت يقوم المعالج الآلي المذكور بإعادة تركيب هذه الكلمات عند إعطائه عناصرها التحليلية المذكورة . ونظرا لبعض القيود الفنية على الحيز المتوفر من ذاكرة الحاسوب اللازم لحفظ النص الكامل ، استخدم المعالج الصرفي لضغط النص القرآني في ربع حجمه الأصلي ، وذلك بتمثيل الكلمات العربية بدلالة الجذر والصيغة الصرفية ، وهكذا تحفظ كلمات النص القرآني في صورة شفرة صرفية ، يتم فكها من خلال إعادة التركيب عندما يراد إظهار النص القرآني على الشاشة المرئية أو طبعه على الآلة الطابعة .

وتتمثل ذروة الانجاز التقني في الأسلوب المبتكر الذي يتم به استرجاع النص القرآني صرفيا ، حيث يمكن استرجاع الكلمات التي تتحد في جذرها أو في ساقها بغض النظر عن صيغها الصرفية أو زوائدها التصريفية ، مثال ذلك : يمكن تحديد مواضع ورود جميع الكلمات المشتقة من الجذر (أمن) التي تشمل ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ إيمان ، مؤمن ، مؤمنة ، مؤمنات ، آمنين ، آمن ، مستأمن ، أمانة ، إلخ ، وذلك كمثال للبحث على مستوى الجذر .

أما على مستوى ساق الكلمة فيمكن استرجاع الكلمات المشتركة في الساق مثل كلمة (مشرك) لتستخلص كلمات مثل : مشركة ، مشركون ، مشركات ، مشركان ، وهلم جرا .

إن الاسترجاع الصرفي للنصوص العربية المستخدم في برنامج القرآن الكريم يمثل نقلة نوعية في استرجاع المعلومات العربية ، ليخلصها من قيود الأسلوب المصمم للغة الانجليزية ، المبني على المطابقة الميكانيكية بين الكلمات المفتاحية المراد البحث عنها مع الكلمات الواردة في النص الذي يجري البحث في نطاقه ، والذي لا يتلاءم مع طبيعة بنية الكلمة العربية التي تطرأ عليها تغيرات حادة

عملية مراجعة القرآن الكريم تمت
حرفا حرفا لضمان الدقة.

قسم الفني بورشة العمل حيث يتم تصميم أغلفة البرامج
وإعدادها.

بفعل عمليات الاشتقاق والتصريف والاعراب والاعلال والابدال .

بجانب ذلك قام برنامج « القرآن الكريم » بحل مشكلة أساسية ، هي إظهار النصوص العربية على الشاشات المرئية ، حيث نجح في إظهار جمال الكتابة العربية بصورة مطابقة لجمال كتابة المصحف المطبوع . كما تضمن البرنامج وسيلة تلقائية لتحويل الاملاء الحديث للغة العربية إلى الاملاء العثماني المتبع في كتابة نص القرآن الكريم».

رجاء الانتباه

بعد اثنى عشر عاما فقط ، سيدخل العالم إلى القرن الحادي والعشرين وهو قرن سيكون مختلفا ومغايرا لقرننا هذا ، واذا لم يلحق العالم النامي-ونحن منه - بثورة المعلومات التى يعيشها العالم الآن ، ويعبر الى القرن الجديد ، فانه سيظل أسيرا للتخلف إلى الأبد .

وجانب من خطورة ثورة المعلومات و «الكمبيوتر» أن هناك جيلا بأكمله يتغير نمط تفكيره وينتقل عقله إلى طرق تفكير بالغة الاهمية ، والتجربة العلمية التى قامت بها أستاذةعلم نفس شهيرة في إحدى الجامعات الامريكية لقياس ذكاء ابنها البالغ من العمر ٢٠ عاما دليل على ذلك ، فقد فوجئت عالمة النفس بأنه من خلال «الكمبيوتر» قد اكتسب ذاتيا قدرة في تفكيره على الخروج من اسلوب المعالجة الخطية المتسلسلة الى اسلوب المعالجة المتوازية لعدد من الاعتبارات والمتغيرات التى هى لب اسلوب المنظومات ، ولعل شكاوى الآباء والمعلمين من تجاوز الابناء والطلبة لنهجهم في التفكير ، واحساس علماء التربية بوجود فجوة عميقة بين الاجيال،هي الدافع لطرح المتخصصين رأيا مفاده أنه أصبح من الحتمى أن نختار التثوير في تطوير المناهج ونظم التعليم وطرق تفكير الاجيال الجديدة . وجانب اخر لايقل أهمية عن كل ما سبق ان العالم الان يعتمد على عصر المعرفة ، والمعرفة هى نتاج حضارى وعقل للمجتمع كله وليست امتيازاً لفرد أو طبقة ، وتسهم

واحدة من أعضاء الفريق الرئيسي لبرنامج القرآن الكريم وعملية تدقيق معادلات البرنامج

السيدة سوسن محمد الصقر مسئولة قسم البيانات والمعلومات

جانب من فريق العمل : مصممو برامج ، وباحثون . ورغم ضيق المكان فالعمل لا يتوقف .

المعرفة بنسبة عالية تجاوزت النصف بكثير في تكلفه المنتج النهائي لصناعات عديدة .

وأمام محمد الشارخ رئيس مجلس ادارة الشركة ألقينا بتساؤلات عن اهمية ما تقوم به الشركة . قال :

في تقديري هناك ثلاث نقاط أو محاور تتركز حولها اهمية ما نفعله وهي :

أولا : من الناحية الحضارية والتقنية فلاشك أن ما نفعله هو تيسير تقنية المعلومات للمستخدم العربي والتيسير من وجهة نظرنا يعنى تعريب النظام واعداد البرامج وتقليل ثمن الجهاز وأعداد الكتاب ، ونحن نشعر الآن اننا قد اسهمنا اسهاما فعليا ، - يكاد ان يكون وحيدا - في أن يدخل « الكمبيوتر » الى المجتمع العربي خاصة ، وان ادخال«الكمبيوتر» الى المجتمع العربي لايسهم فيه برامج وسعر جهاز فقط ، بل يساعد عليه وبشكل فعال شبكة توزيع ممتدة على ساحة وطننا العربي كله ، ونحن نفعل هذا ، وفي تقديري انه لا احد غيرنا يفعل ما نفعله

ثانيا : نحن نزعم اننا نجدد شباب اللغة العربية فاللغة العربية تواجه مشاكل ، منها مثلا جهل قد يصل الى عداء المتعلمين العرب لها ، فهم قد تعلموا بلغات اجنبية ، ويفكرون باللغة العربية ، وقد اصبحت اللغة العربية مقصورة على العلوم الدينية والشرعية:والمشكلة الثانية ان تعليم اللغة العربية لم يسهل ولم يسر مع بدء النهضة التعليمية الحديثة بحيث يصبح تعلمها سهلا للفرد،ويضاف الى ذلك ان المؤسسة التعليمية لم تنجح في تيسير وتسهيل اللغة العربية ، لكنها في الوقت نفسه ارتكبت خطأ اخر وهو تعليم اللغات الاجنبية منذ المرحلة الابتدائية فأصبح المتعلم العربي منذ الطفولة يشعر بأن هناك لغة اخرى غير لغته ، والتحدى الآن ان اللغة العربية تواجه مشكلة كبرى بسبب التقنيات الحديثة التي تيسر امكانيات هائلة للتعامل مع اللغة سواء من ناحية الشكل او من ناحية المضمون ، وكلاهما يحتاج الى تخصصات ودراسات متقدمة في اللسانيات

عضوة في فريق تصميم الأغلفة وفكرة جديدة .

الرياضية ، وهو تخصص شبه معدوم في الوطن العربي ، فالتقنية الحديثة صارت تفرض على اللغويين في كثير من ابحاثهم ان يكونوا رياضيين ايضا . والثابت ان هناك انفصاما بين التقنيات الحديثة واللغة بالنسبة للعرب ، وسينعكس هذا الانفصام في إدعاء يقول أن اللغة العربية لاتصلح للتطبيقات الحديثة أو ادعاء آخر يشوه المحاولات ،

التي تتم لكسر هذا التحدي بأن التقنية الحديثة تشوه اللغة العربية من ناحية الخط أو التشكيل مثلا . وهنا - في تقديري - والحديث مازال لرئيس مجلس ادارة الشركة - أهمية وخطورة ما نفعله ، فنحن ببرنامج القرآن الكريم وبالمحلل الصرفي قد وضعنا اسسا منهجية علمية للتعامل مع التقنيات الحديثة ، وقمنا بتطويع الآلة للغة دون تنازل عن أي جانب من الجوانب الجمالية أو البنائية أو الدلالية الخاصة باللغة العربية .

والأهمية الثالثة ان هذه التجربة وانتشارها على امتداد الوطن العربي كله قد اثبتت انه من الممكن القيام بمشروعات عربية وان الشركة العربية الممتدة فكرة ممكنة التنفيذ بشيء من الجهد وكثير من العناء ، وانه لاتوجد مشاكل تقصم الظهر وتعوق المشروعات الاقتصادية أو العلمية التي تريد ان تتخطى الحدود الجغرافية للوطن العربي .

آفاق جديدة

وبضعنا برنامج القرآن الكريم أو البرنامج العلمي الذي قام على أساسه وهو برنامج المحلل الصرفي - على بوابة عصر جديد للغة العربية ، ويفتح الباب امام معالجات كثيرة في مجال اللغات الطبيعية ، ويترتب على هذا البرنامج افكار هي لب ثورة تقنية المعلومات فبواسطة هذا البرنامج يصبح ممكنا التصحيح الاملائي بواسطة « الكمبيوتر » ، وكذلك الاعراب الآلي وهذان مجالان من اهم مجالات وميادين التعليم بالتفاعل وليس بالتلقين ، ويفتح امكانية تلخيص النصوص والنشر الاليكتروني وهو الميدان الأرحب والأوسع ، فقد اصبح ممكنا تخزين عدد كبير من الكتب والنصوص العربية بواسطة الاقراص الضوئية واسترجاع أي جزء أو موضوع أو اجزاء تتناول موضوعا أو فقرات متباعدة في الكتاب الواحد في زمن لايزيد عن دقائق ، ويفتح الباب ايضا الى عصر المعاجم والقواميس وبرامج تحقيق التراث وبرامج تحليل لعروض الشعر واختبار صحة وزن ابيات الشعر وتصحيحها آليا ، وكل هذه المجالات بتواليها وتعقيداتها المتراكمة سوف تفتح الباب امام مستوى آخر ، وهو مستوى الصياغة وكتابة المقالات والترجمة الآلية .

عصر جديد بأكمله يطل علينا يعيشه العالم بصراعه المحموم منذ عشر سنوات وبفريق محدود من الباحثين العرب ، فوق ارض عربية بدأت محاولات جادة وعلمية للحاق بهذا العصر - فهل نتنبه ؟ وهل ندعم ونساند ؟ وهل تلتفت مؤسساتنا العربية التربوية الى أن هذا هو الجسر الوحيد والممكن لدخول بوابة القرن الجديد ؟ أرجو أن نفعل . □

الحروب الصليبية ضد المغرب العربي

بقلم : عبد الكريم غلاب*

بعض ما هو شائع ومدوّن عن الحملات الصليبية
أنها كانت تجعل من المشرق العربي مقصدا لها .
إلا أن هذا المقال
يجتهد في القول بأن حملات صليبية أخرى شنت على المغرب العربي أيضا ،
وأن آثارها بل ووجودها المادي الحي ما زال مستمرا !

اعتاد المؤرخون أن يكتبوا تاريخ الأمة العربية ممزقا ، كما تصوروا الوطن العربي لا سيما المتأخرين منهم . والتاريخ الاسلامي لم يكتب كمنظومة تاريخية ، بُعدها الغربي في المغرب ، وبُعدها الشرقي في اندونيسيا ، لكن كل قطر قد كتب تاريخه ، ومن يكتبون عن منطقة أخرى غير التي وجدوا فيها يكتبون ما يريدون من تاريخ ، دون أن يفكروا في مدى ارتباطه حتى بتاريخ بلادهم ، وهكذا وجد عندنا مثلا : تاريخ فتح العرب لمصر ، وتاريخ فتح العرب للمغرب ، وفتح العرب لبلاد الفرس ، كما وجد عندنا مثلا : تاريخ الحروب الصليبية الذي لا يتحدث إلا عن الفترة التي هاجم فيها الصليبيون بلاد الشام ومصر ، ولم يهم كتّاب هذا التاريخ قط أن جزءا مهما من الهجمات الصليبية على الاسلام حدثت في المغرب ، وأن حروبا طاحنة مرت بها هذه البلاد ، من جراء أطماع الصليبيين في القضاء على الاسلام في المغرب ، وأن هذه الحروب كانت جزءاً مكملا للهجوم الصليبي على المشرق

* مدير جريدة العلم - المغرب

العربي الاسلامي ، فقد انطلق الهجوم هنا وهناك من نفس المنطلق ، وكانت له نفس الأبعاد ، حقق منها ما استطاع ، وتخلف عن تحقيق ما لم يستطع ، وانهزم فيها العرب والمسلمون ، ثم انتصروا ، وأجلوا الصليبيين عن بلادهم ، وما تزال بقية منهم شاهدة على هذا التاريخ في مدينتين ، لاحداهما أثر مهم في الحضارة الفكرية والسياسية الاسلامية ، وهما سبتة ومليلية اللتان تتحركان الآن للتحرر ، والانضمام إلى وطنها الأصلي المغرب .

حكاية يعقوب المنصور الموحدي

يعرف تاريخ الحروب الصليبية المشرقية صلة مهمة بالمغرب الاسلامي (على مستوى الحملات الصليبية) تتمثل ـ حسب ما يرويه التاريخ ـ باستعانة صلاح الدين بيعقوب المنصور ، أشهر ملوك الدولة الموحدية في المغرب الكبير والأندلس (حكمه من سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٢م حتى ٥٩٥هـ / ١١٩٧ م) . يروي المؤرخون أن صلاح الدين استعان بيعقوب المنصور ، ويضيفون إلى ذلك أن يعقوب تقاعس عن إنجاده ، والمؤرخون القدماء يلجأون إلى بعض التعليلات التي لا تنتمي إلى منطق سليم ، ولا تستقيم مع عقلية أولئك الرجال الذين قاموا بأحداث مهمة في تاريخ الاسلام .

تقول رواية بعض المؤرخين إن صلاح الدين لم يلقبه في الرسالة التي طلب فيها النجدة بلقب أمير المؤمنين ، فغضب المنصور لذلك ، ولم ينجده .

والواقع أن يعقوب المنصور كان يعاني مشكلتين أساسيتين ، لا تقلان عن المشكلة الصليبية التي يعانيها صلاح الدين ، فقد كانت الامارات النصرانية في شمال اسبانيا والبرتغال تهاجم أطراف الأندلس ، وقد استمر المغرب يقاوم هذا الزحف النصراني في عهد المرابطين ، ثم في عهد الرواد الموحدين مثل عبد المؤمن بن علي ، ويوسف بن عبد المؤمن والد يعقوب . وكان إلى جانب ذلك يعاني مشكلة أخرى ، هي تمرد بعض الولاة في الامبراطورية الواسعة ، وكان عليه ـ والنصرانية تزحف من الشمال ـ أن يعيد الأمن إلى أطراف مملكته ، ولذلك لم يستطع أن يستجيب لدعوة صلاح الدين .

ثم ان هناك سبباً آخر ، يتعلق بصلاح الدين نفسه ، فقد روى المؤرخون أن مؤسس الدولة الأيوبية طمع في أن تشمل دولته بلاد المغرب ، فبعث بقراقوش ليحتل طرابلس سنة ٥٦٨هـ ، ويبدأ يناوىء السلطة المغربية في تونس ، في وقت كان المغرب فيه مشغولا بمواجهة النصرانية الزاحفة على الأندلس كما سنرى . كان يعقوب المنصور إذن يخشى أن يوزع قواته وأساطيله في شرق الوطن العربي وغربه في مثل هذا الوقت الحرج .

ضربات من الشرق والغرب

كانت الأندلس ـ حينئذ ـ ضعيفة ممزقة بين ملوك الطوائف . وقد وصف ابن الخطيب وزير الأندلس ومؤرخها وأديبها حال الأندلس حينذاك التي ربما كانت تحكي حالنا الآن ، في شطر من بيت في منظومته « رقم الحلل » فقال ساخرا :

* وصاح فوق كل غصن ديك *

واجه هذا الحلف الاسلامي حلفا نصرانيا قويا ، ضم إلى جانب الفونسو ملك قشتالة اسانشو راميرث ، ملك ارغون الذي كان يحاصر طرطوشة ، من أعمال الأندلس وكان تبرنجار ريموند يتأهب لغزو بلنسية ، فجمع الفونسو قوات من مختلف الامارات المسيحية في شمال اسبانيا ووسطها ، من جليقية ، وليون ، وبسكونية واشتوريش ، وقشتالة ، وحاصر بهذه القوات سرقسطة ، وحينما علم بعبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس استنجد بدول مسيحية أخرى ، فأنجدته الامارات الفرنسية المجاورة لاسبانيا بقوات كبيرة العدد والعدة .

وتلاقت القوتان ، الاسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين ، والنصرانية بقيادة الفونسو ، في سهل الزلاّقة ، على مقربة من « بطليوس » ، وأحاطت القوات الاسلامية بجيوش المسيحيين ، فانهزم الفونسو ، وانتصر المسلمون في معركة رهيبة مصيرية ، قررت مصير الاسلام في الأندلس ، واستمر المسلمون يثبتون وجودهم في كثير من المعاقل ، مدة أربعة قرون أخرى .

كانت تلك المعركة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م) ، وقد أصبحت الأندلس بعد هذه الموقعة تابعة للمغرب ، لأن أمراءها لم يكونوا على استعداد لحكمها ، والدفاع عنها ، والوقوف في وجه الحملات الصليبية المتوالية التي كانت تجهز على بعض أطرافها . وكما كانت الحملات الصليبية مستمرة على المشرق العربي الاسلامي كانت الحملات الصليبية على المغرب الاسلامي العربي مستمرة أيضا ، وكانت الدول النصرانية تنتهز فرصة دورات الضعف في الدولة الاسلامية لتجدد نفسها ، وتقوم بحملاتها ، وحينما ضعفت دولة المرابطين ثم انهارت لتخلفها دولة الموحدين قامت الدول النصرانية في شمال اسبانيا بإعادة الكرة على الأندلس ، وهذا ما تسميه الرواية الغربية « حروب الاسترجاع » ، فما كادت الدولة تستقر حتى وجدت نفسها أمام مسؤولية جديدة ذات شقين :

أولهما تمرد الأمراء والحكام الاقليميين الذين نصبهم المرابطون لحكم المناطق الأندلسية التابعة لدولة المغرب ، أو كانوا يحكمونها بالوراثة ، وقد اضطر عبدالمؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة إلى الحرب ، لاستعادة نفوذ دولته على مختلف المناطق المتمردة في الأندلس ، وهو تمرد كان الصليبيون يتأهبون لاستغلاله في هجوم جديد ، وقد انتهزوا فرصة تجدد التمرد في إحدى المدن ـ « المرية » ـ فاستولى عليها الفونسو السابع ملك قشتالة .

كان الأمراء والحكام الاقليميون الذين استمروا على خلافهم وتمردهم أحيانا على الدولة ـ في محاولة للاستقلال بإماراتهم ـ يحدثون مصاعب للامبراطورية الاسلامية التي اتسعت في عهد الموحدين ، فشملت المغرب الكبير ، حتى حدود مصر ، وشملت كل الأندلس أيضا ، بعد أن استرجعوا « المرية » من يد النصارى في معركة ضارية ، حطم فيها النصارى ما أبقته الحرب من المدينة عند جلائهم عنها .

رغم قوة الموحدين لم ييأس الصليبيون من غزو الأندلس بل كانوا يغيرون من حين لآخر على أطرافها فيحتلون مدينة أو منطقة ، ثم لا تلبث الجيوش المغربية الاسلامية أن تطردهم منها .

وكانت أعظم المعارك التي خاضتها الدولة الاسلامية الموحدية ضد الهجمات الصليبية هي المعركة التي خاضها يعقوب المنصور الموحدي المغربي ، وتعرف في التاريخ باسم معركة « الأرك » (٥٩٣ هـ ـ ١١٩٥م) ، وبانتصار المغرب في هذه المعركة عادت للأندلس مكانتها ، واستمرت فيها دولة الاسلام حتى سقط آخر معقل منها وهو « غرناطة » ، في يد الصليبيين بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون (٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م) .

في هذه القرون الثلاثة عانت دولة الاسلام من هجمات الصليبيين كثيراً فكانت موقعة « العُقاب » سنة ٦٠٩هـ ـ ١٢١٢م ، وقد انهزمت دولة الاسلام عندما واجهت حلفاً خطيراً من الامارات النصرانية ، وهو حلف قشتالة وأراجون ونافار والبرتغال .

التطويق الصليبي للمغرب

كانت موقعة العقاب بداية النهاية لدولة الموحدين ، ذلك أن النصر أو الهزيمة في الحروب ضد الصليبيين هو الذي كان يعلي من شأن الدول المغربية أو يحط منه ، ويتكرر هذا النموذج في دولة المرينيين كما سنرى ، على أن الدولة التي خلفت الموحدين في المغرب ـ دولة المرينيين ـ لم تتخلف عن مواجهة الزحف الصليبي على الأندلس ، وعن صد طموحهم إلى المغرب ، فقد اجتازت جيوش المغرب بقيادة السلطان يعقوب بن عبد الحق المضيق مرة أخرى ، لمساعدة بني نصر على صد الهجمات الصليبية على

الممالك الاسلامية ، واستقر غازيا في الأندلس من سنة ٦٦٨ هـ حتى سنة ٦٧٤ هـ ١٢٧٥م ، واستمرت الحروب الصليبية حتى سقط آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة ١٤٩٢ م كما سبق أن قلنا .

كانت الأندلس جغرافيا وسياسيا تمثل الجزء الشمالي لأقصى الممالك الاسلامية في المغرب الاسلامي ، وكانت الممالك والامارات النصرانية في وسط اسبانيا وشمالها تعتبر المغرب حصن الاسلام العتيد ، ولا يمكن أن يستقر للنصرانية كيان إلا إذا تحول المغرب إلى شعب مسيحي ، وتحت سلطة مملكة مسيحية ، وقد قويت بينهم هذه النظرية بعد سقوط الأندلس ، ومطاردة المسلمين فيها ، والقضاء على من بقي منهم ، وهم الذين تسميهم الرواية المسيحية بالمورسكيين ، ومن لم يقتل منهم أرغم على التنصر والتنكر لاسلامه . لذلك لا تستغرب إذا رأينا أن الحروب الصليبية قد انتقلت إلى المغرب ، فالهجوم الصليبي قد أصبح يستهدف تطويق المغرب من شواطئه الشمالية والغربية ، والدفاع عن الاسلام قد تطلب تجنيد كل قوى المغرب لصد العدوان .

وتبرز في هذا الموضوع عدة حقائق تنير لنا الطريق ، لنتصور خطورة التهديد الصليبي للاسلام في الغرب الاسلامي .

أولاها : أن الحروب ضد الاسلام في الأندلس ـ وقد أشرنا إلى نماذج منها ـ لم تكن حروب « استرجاع » كما يعبر كثير من المؤرخين ، ذلك أن الأندلس لم تكن قبل دخول الاسلام إليها جزءا من الممالك النصرانية التي تضافرت على احتلالها ، لأن وسط شبه الجزيرة الايبيرية وشمالها كانت تتقاسمه مجموعة من الممالك والامارات المسيحية ، منها مملكة قشتالة ـ وهي أكبرها جميعا ـ وأرغون ، وجليقية ، وليون ، وبسكونية ، واشتوريش ومملكة البرتغال ونافار .

ولذلك لا يمكن أن تسمى هذه الحروب حروب استرجاع إلا أن يقصد بذلك الاسترجاع لحظيرة النصرانية ، لأن الأندلس لم تكن أرض المهاجين ، وما تزال حتى الآن تشعر باستقلاليتها عن اسبانيا ، وإنما كانت حروب غزو صليبي ضد الاسلام الذي بني دولة عظمى منذ الفتح الاسلامي بقيادة طارق بن زياد المغربي ، وموسى بن نصير المشرقي .

ثانيها : أن موقع المغرب الجغرافي كان يوحي لزعماء الصليبيين بأنهم لن يطمئنوا على صليبية الأندلس إلا إذا غزوا المغرب ، وركزوا فيه المسيحية ، فهو قريب من أوروبا ، لا يفصله عنها غير الزقاق (مضيق جبل طارق ١٥ كيلو متراً) .

وثالثها : أن شواطىء المغرب الواسعة ـ ٣٥٠٠ كيلو متر ـ تغري بالاحتلال ، وتجعل من الصعب على دولة الاسلام في المغرب حماية هذه الشواطىء الواسعة جميعها إلا إذا امتلكت قوة برية وبحرية هائلة .

ورابعها : أن المغرب كان طريقا لافريقيا ، وإلى الشرق العربي ، فالصحراء المغربية الجنوبية لم تكن فاصلا بين شمال القارة وجنوبها وشرقها ، بل كانت هي طريق القوافل التي تصل إلى بلاد الذهب والمواد الأولية ، ثم إن شواطئه كانت محطات ، يمكن استغلالها لاستراحة القوافل الأوروبية التي كانت تسعى للوصول إلى الشرق الأقصى (بلاد التوابل) عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وقد كانت البرتغال من بين الدول التي استفادت من عصر النهضة ، فانطلقت تجوب البحار ـ المحيط الأطلسي على الأخص ـ للالتفاف حول القارة الافريقية إلى أرض الهند وجزر المحيط الهندي ، وإلى الخليج العربي .

وخامسها : أن اسبانيا والبرتغال قد اقتسمتا المسؤولية بتوفيق من البابا ، بعد أن كاد النصر المتوالي في الأندلس يعصف بوحدة الصليبيين ، وقد قسم البابا بينهما المسؤولية فمنح اسبانيا حق احتلال ما يقع في شرقها من جنوب البحر الأبيض ، ولذلك اتجهت إلى الجزائر وتونس وليبيا ، ومنح البرتغال حق احتلال ما هو غربي هذه المنطقة من أرض الاسلام ابتداء من المغرب ، فاتجهت إلى شواطئه الشمالية على البحر الأبيض ، وإلى شواطئه الغربية على المحيط الأطلسي ، ومنها إلى غرب افريقيا ، وبها

ممالك ودول إسلامية ، ثم إلى جنوبها في الطريق إلى المحيط الهندي ، أما الغرب غير الاسلامي فلم يكن مما يحتكم فيه إلى البابا ، ولذلك اتجهت اسبانيا إلى العالم الجديد ، إلى أمريكا ، حيث المناطق الغنية بالذهب ، وفي هذه الفترة ـ خاصة ـ اكتشف كريستوفر كولومبوس الأرض الجديدة ، بمساعدة ملك اسبانيا وملكتها ايزابيلا الكاثوليكية .

سادسها : أن اسبانيا والبرتغال كانتا تستهدفان من الهجوم على المغرب هدفين متوازيين : أولهما تنفيذ وصية ايزابيلا بالقضاء على الاسلام أينما وجد ، وهي تعرف أن الأرض التي انطلق منها إلى الأندلس أرض المغرب ، وأن الأرض التي لجأ إليها المسلمون الأندلسيون الذين قد يعود بهم الحنين إلى أرضهم فيعيدون الكرة ويسترجعون بلادهم هي المغرب أيضا ، ومن وصايا ايزابيلا الكاثوليكية احتلال بلاد المغرب ، وتحويل المغاربة المسلمين إلى مسيحيين ، ورفع علم الصليب في الديار المغربية بدلا من علم الهلال الاسلامي ، ولذلك يجب القضاء على الاسلام فيه ، كما قضي عليه في الأندلس . وثانيهما : القضاء على الكيان الاقتصادي الذي بناه المغاربة ، حيث لعبت بلادهم دورا مهما في التجارة الافريقية التي كانت تصل إلى اوروبا عن طريق المغرب وافريقيا ـ كما نعرف ـ بلد المواد الأولية والعاج والذهب .

تلك بعض الظروف التي مهدت لانتقال الحروب الصليبية الغربية من الأندلس إلى المغرب .

فما هو حظ المغرب من هذه الحروب ؟

وبدأ الغزو والاحتلال

المغرب كما عرفنا كان هو الدرع الحصين للاسلام في الأندلس ، وكان هو الجبهة الموالية بعد سقوط الأندلس في أيدي الغزاة الصليبيين ، وكان لا بد أن تنتقل إليه المعركة إذا أرادت الصليبية أن تطمئن إلى مصيرها في أوروبا ، فهي لم تنس أن العرب والمسلمين في المغرب قد دقوا أبواب بواتيه في قلب بلاد الغال ، كما دق العرب والمسلمون في المشرق أبواب فيينا .

وبدأ الهجوم على المغرب ، وكانت المعركة الأولى احتلال إحدى بواباته المهمة على البحر الابيض وهي سبتة ، وقد احتلها البرتغال في هجوم غادر سنة ٨١٨هـ ـ ١٤١٦م وسلموها بعد ذلك إلى اسبانيا ، باتفاق بين الدولتين سنة ١٠٨٠هـ ، بعد أن حاصروها ست سنوات ، واستمر هجوم الدولتين على أرض المغرب الكبير ، فاحتل الاسبانيون بجاية في الجزائر سنة ١٥٠٤م ، والمرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ، ووهران سنة ١٥٠٨م . وفي نفس السنة احتلوا جزيرة بادس بالمغرب وحاصروا الجزائر العاصمة ، ودمروا ميناء طرابلس سنة ١٥١٠ ، واحتلوا وهران وتلمسان سنة ١٥٤٢ ، وكانوا في نفس الوقت يطاردون المسلمين الهاربين من الأندلس وهم يتجهون بحرا إلى المغرب والجزائر وتونس ، فكانوا يقضون عليهم في البحر . وقد كون المغرب أسطولا مهما لحماية هؤلاء المسلمين ، حتى يصلوا إلى شاطىء الأمان ، واشتبك هذا الأسطول مع البحرية الاسبانية والبرتغالية في معارك طاحنة ، أظهرت ـ من جديد ـ قوة المغرب واستمراره في الدفاع عن الاسلام ، وزادت مخاوف الصليبيين التي كانت تراودهم من المغرب ، فازدادوا إصرارا على احتلال المغرب ، وتنفيذ وصية ايزابيلا الكاثوليكية بالقضاء عليه كدولة ، وتنصير من سيبقى من أبنائه .

اتجه البرتغاليون إلى احتلال الشواطىء المغربية مبكرا ، قبل أن تسقط آخر معاقل الأندلس ، وذلك ليعملوا على تطويق الأندلس التي كانت شمس الاسلام قد بدأت تغرب عنها ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بنفس الفكرة التي شرحناها ، أي أن يقطعوا الامداد الاسلامي المغربي عن الأندلس ، باحتلال الشواطىء المغربية ، وإشغال المغرب عن واجبه في الدفاع عن الاسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكان من ذلك دخولهم إلى مدينة « سلا » ، وهي من أقدم المدن الحضارية في المغرب على الشاطىء الأطلسي (تقع بجوار الرباط ويفصل بينهما نهر أبي رقراق) . وقد دخلوها غدرا متهزين فرصة نزاع على السلطة بين المسؤولين ، وذلك سنة ٦٥٨ (١٢٦٠م) ، ثم أجلوا عنها بالقوة بعد مدة قصيرة ،

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٦٦٨ (١٢٧٠ م) هاجموا مدينة « العرائش » على الشاطىء الأطلسي ، ودمروها وأحرقوها .

واتخذوا مدينة « سبتة » رأس جسر لمهاجمة الشواطىء المغربية الأطلسية ، على نحو ما تم الاتفاق عليه بينهم وبين اسبانيا ، وحاصروا مدينة طنجة سنة ٨٤١ (حوالي ١٤٣٥) ، لكن المغرب دافع عن المدينة العتيدة بموقعها الاستراتيجي المهم ، ودارت معركة ضارية مع الجيش البرتغالي انهزم فيها البرتغال بقيادة « فرناندو » وأسر الجيش المغربي القائد البرتغالي فيمن أسر من الضباط والجنود ، ثم حاول البرتغاليون تحرير أسراهم فاشترط المغرب لذلك الجلاء عن « سبتة » ، فقبل البرتغاليون ، لكن « فرناندو » مات في السجن ، وكان ذلك من سوء حظ المغرب فلم تتحرر سبتة ، واغتنم البرتغاليون الفرصة فهاجموا مدينة طنجة واستولوا عليها ، وقد ظلت تحت قبضتهم ٢٦٥ سنة ، وسلموها سنة ١٠٧٢ ، ١٦٦٢م لانجلترا في عملية مصاهرة يوم بدأت انجلترا تمد سلطانها لتتخذ من المدينة المغربية ومركزها الاستراتيجي المهم ، وقبل أن يحتل جبل طارق المقابل لطنجة على الشاطىء الأوروبي، ليتخذ منه البرتغال محطة للالتفاف حول افريقيا في طريقهم إلى المحيط الهندي ، بحثاً عن المستعمرات الغنية . وقد استرجعها المغرب بعد ذلك من انجلترا سنة ١٠٩٥ ـ ١٦٨٤ .

نستخلص من كل ذلك أن الهجوم البرتغالي على الشواطىء المغربية لم يكن ليحدث لو أن الدولة تقوقعت على نفسها ، وتركت الأندلس لمصيرها ، ولم تستجب للنداءات التي كانت تصدر من حين لآخر من الأمراء والعلماء ومجموع المواطنين المسلمين الذين كانت الصليبية تُطبق عليهم بالحصار ، حتى إذا نفذ زادهم من المقاتلين ومن السلاح والأقوات استسلموا ، إلا أن ينجدهم المغرب ، وهو البلد الوحيد الذي نهض بهذه المسؤولية الاسلامية في الغرب الاسلامي .

وحينما خلفت الدولة السعدية الدولة المرينية في أوائل القرن السادس عشر كان في مقدمة مهماتها تجنيد الشعب لمقاومة الاحتلال البرتغالي ، فاستجاب الشعب ، ونهض بالمسؤولية ، وخاض المغرب حروبا طاحنة ضد البرتغال ، واسترجع كل الشواطىء الأطلسية بين سنتي ٩١٥هـ (١٥١٠م) و ٩٨٥هـ (١٥٧٧) ، ولم تبق من المدن المحتلة إلا « سبتة » و « طنجة » و « الجديدة » .

لكن البرتغال لم تستسلم ، بل صممت على القيام بحملة كبرى ، واستنفرت فيها قوات من كل الدول المسيحية في غرب أوروبا ، وبارك البابا هذه الحملة التي قام بها الملك البرتغالي سيباستيان ، وقادها ، واستعد المغرب لمواجهة الحملة التي اختارت لها البرتغال « وادي المخازن » بالقرب من العرائش ، وقاد جيوش المغرب الملك السعدي عبد المالك وأخوه أحمد الذي دعي فيما بعد بالمنصور الذهبي ، وتطوع في المعركة آلاف من المواطنين ، إلى جانب الجيش النظامي ، يتقدمهم العلماء والمثقفون والطلاب ، ووقعت معركة ضارية قتل فيها سيباستيان ، واستشهد عبد المالك ، وقتل أخ له كان يطمع في الملك ، والتجأ إلى البرتغال ليخوض معه المعركة طمعا في أن يلي الملك إذا انهزم أخوه ، وعرفت المعركة في التاريخ بمعركة الملوك الثلاثة .

وكانت هذه المعركة نهاية المجد البرتغالي ، فعادت البرتغال إلى آخر الصف بين الدول التي تتطلع إلى احتلال العالم الثالث واستعماره .

أما المدن الاربع التي بقيت تحت سلطة الاحتلال الصليبي فقد استرجع المغرب منها « الجديدة » ، من الاستعمار البرتغالي ، وطنجة من الاستعمار الانجليزي ، بعد حصار طويل ، ومعركة ضارية سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) ، وبقيت بيد الاستعمار الصليبي مدينتان ، تمتازان بمركز استراتيجي مهم ، هما سبتة ومليلية اللتان تحتلهما اسبانيا حتى الآن كشاهد على المعركة الصليبية التي خاضها المغرب ضد ثلاث دول كبرى ، هي اسبانيا والبرتغال وانجلترا ، وأضيفت إليها في العصر الحديث دولة رابعة هي فرنسا ، والتي ما تزال مستمرة حتى الآن □

يتحكم الجهاز العصبي اللاإرادي في جميع العضلات والأجهزة غير الارادية ، كعضلة القلب ، وعضلات الشُعَب الرئوية ، والقصبة الهوائية ، والمعدة ، والأمعاء الدقيقة والغليظة ، والجهاز البولي ، والأعضاء التناسلية ، كما يتحكم أيضا في إفرازات الغدد اللعابية والدمعية ، والغدة الدرقية ، والكبد ، والمرارة ، والبنكرياس ، وغدد فوق الكلى . .
فماذا عن أمراض هذا الجهاز
وكيف السبيل إلى علاجها ؟

اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي

بقلم : الدكتور أنيس فهمي

في الانسان يتكون الجهاز العصبي اللاإرادي من شقين : الشق الأول هو الجهاز الباراسمبثاوي ، وهو مختص بتوليد الطاقة في الجسم ، والشق الثاني يسمى الجهاز السمبثاوي ، وهو الخاص باستهلاك الطاقة ، ويتضح من هذا التقسيم أن كل قسم من القسمين له نشاط مضاد لنشاط الآخر ، ومن حصيلة هذين النشاطين يحدث نوع من التعادل بين قسمي الجهاز العصبي اللاإرادي ، وعلى أساس من هذا التعادل أو الانسجام تقوم الأعضاء غير الارادية بوظيفتها على الوجه الذي يهيء للجسم صحة جسمية ونفسية جيدة .

من المعروف أن أي مؤثر - سواء كان خارجيا ، أو نابعا من البيئة التي يعيش فيها الانسان ، أو منبثقا من داخل الجسم نفسه ، يحدث رد فعل في الجهاز العصبي اللاإرادي متناسب مع قوة المؤثر ، وتكون نتيجته أن يتكيف الجسم نحو هذا المؤثر ، بشكل يحفظ له البقاء والصحة ، وانتظام كافة وظائف أعضائه .

أما إذا حدث رد فعل للمؤثر بشكل أكثر أو أقل من المطلوب فإن الجهاز العصبي اللاإرادي عندئذ يصبح في حالة اضطراب وظيفي ، وتتوقف قدرة الشخص على مجابهة عوامل البيئة المختلفة على سلامة تركيب الجهاز العصبي اللاإرادي عنده ، وتختلف

طاقة هذا الجهاز من شخص إلى آخر ، تبعا لاختلاف السن والجنس ، وحتى في نفس الشخص تتغير هذه الطاقة من وقت إلى آخر ، تبعا لظروف الحياة ، وعلى الرغم من تذبذبها بين علو وانخفاض إلا أن لها حدودا خاصة في كل فرد لا تتعداها ، والوظيفة الأولى لهذه الطاقة حفظ التوازن بين الجسم والبيئة التي تحيط به ، وهي تواجه عوامل كثيرة مختلفة تتغير من وقت إلى آخر ، بدون ضابط أو رابط .

عوامل وأسباب

ليس هناك شك في أن اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي قد زادت بنسبة كبيرة مع ازدياد المدنية ، ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة أهمها :

(١) يتوقف الإيقاع الخاص بتنظيم حياتنا على تعاقب الليل والنهار ، ونشاط الجهاز الباراسمبثاوي المختص بتوليد الطاقة ، ونشاط الجهاز السمبثاوي المختص باستهلاك الطاقة . وقد اقتضى سعي الإنسان وراء الرزق في عصرنا الحالي أن يزيد من وقت صحوه واستيقاظه على حساب الوقت المخصص للنوم والراحة ، وهذا بالطبع يؤدي إلى حدوث خلل في وظيفة الجهاز العصبي اللاإرادي كثيرا ، مما ينتج عنه إصابة بعض الأفراد بالأرق ليلا ، كما لا يستطيعون ـ نتيجة لإحساسهم بالتعب ـ القيام بعملهم على الوجه الأكمل أثناء النهار .

(٢) يتسم عصرنا الحالي بطابع السرعة والعجلة في كل شيء ، وهذه السرعة تؤثر على الجهاز العصبي اللاإرادي لجميع الأفراد ، سواء في ذلك العمال في المصانع أو قائدو الطائرات ، أو رجال الأعمال والتجارة ، أو رجال العلم ، أو رجال الفن ، أو غيرهم .

(٣) ونتيجة للحاجة الجماعية لزيادة الإنتاج في جميع المرافق أصبح المواطن في العصر الحالي لا يقتنع بما يصل إليه من جاه أو نفوذ أو مال ، وهذا الطموح الزائد عن الحد يلقي على الجهاز العصبي اللاإرادي عبئا ثقيلا ، يصعب تحمله .

(٤) الحيرة والقلق وعدم الاستقرار من خصائص العصر الذي نعيش فيه ، حيث لا تأمل البشرية في

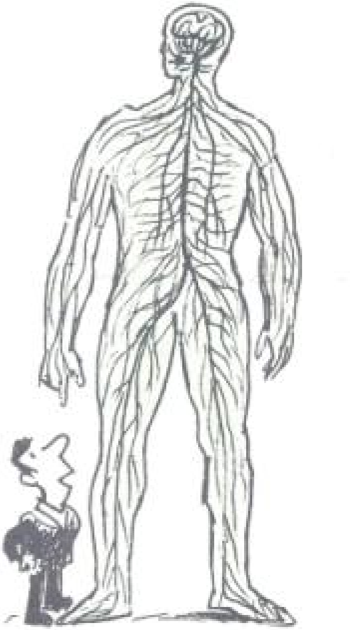

العيش بظل سلام دائم . فالحروب مشتعلة في أماكن كثيرة من العالم ، مما يبعث في الإنسان القلق الذي يولد ـ بطريقة شعورية أو لا شعورية حالة من الخوف ، وهذا الخوف قد يؤدي إلى حالات من الإحباط واليأس التي تعتري الشباب ، والتي قد تدفعهم إما إلى محاولة الهروب من الواقع الأليم عن طريق المخدرات ، والاستهتار واللامبالاة ، وإما إلى اتخاذ طريق العنف والإرهاب ، كما نلاحظ بأن حالات الخوف تؤدي إلى ابتعاد رجال الأعمال أو الساسة عن الارتباط بقروض أو بسياسات طويلة الأجل .

(٥) ازدياد العوامل المزعجة في حياتنا ، لا سيما الضوضاء التي تسبب ضغطا كبيرا على الجهاز العصبي اللاإرادي .

(٦) عدم انتظام الطقس وتقلبات الجو .

إن هذه العوامل المختلفة التي يشترك في حمل أعبائها جميع أفراد البشر يجابهها الجهاز العصبي اللاإرادي في البداية بزيادة في نشاط الجهاز العصبي السمبثاوي والتي تؤدي في آخر الأمر إلى حدوث اضطراب في وظيفة الجهاز العصبي اللاإرادي كله، حيث يصبح حينئذ غير قادر على مواجهة الأعباء الجديدة التي تفرضها عليه البيئة أو الظروف.

وبالإضافة إلى العوامل التي ذكرناها توجد عوامل فردية «تزيد الطين بلة» من أهمها:

(١) الإرهاق في العمل: من المعروف أن كل شخص يجاهد في سبيل تحسين مستقبله، أو يكافح في سبيل تحصيل رزقه، لابد له من الإسراف في بذل الطاقة اللازمة للوصول إلى هدفه، مما يؤدي إلى زيادة الضغط على جهازه السمبثاوي الذي يصيبه التوتر، ويستمر متوترا حتى في لحظات الراحة التي يريد فيها الجسم استجماع قوته.

(٢) الصدمات الانفعالية: وهذه الصدمات سواء حدثت في المنزل أو في أثناء أداء العمل فلها تأثير على الجهاز العصبي اللاإرادي، أشد من تأثير العوامل النفسية غير الشخصية.

(٣) تهيج الجهاز العصبي اللاإرادي: نتيجة للإصابة بالأمراض المعدية، وبخاصة التهابات المخ التي تصاحب حمى التيفوس أو شلل الأطفال، وكذلك حالات التسمم بالكحول والباربيتيورات والثاليوم.

(٤) إصابات الجمجمة: إذا حدثت الإصابة في منطقة (الداينكيفالون) نتج عنها نوع خاص من اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي، أما في حالات ارتجاج المخ فإن الاضطراب الذي يحدث ماهو إلا اضطراب مؤقت، يزول بشفاء المريض من الارتجاج، أما في حالات كدم المخ فتستمر الاضطرابات العصبية بعد شفاء المريض أحيانا.

(٥) الحرمان من الحرية: وسائر أنواع الاضطهاد التي يعانيها بعض الأفراد تكون عاملا هاما من عوامل اضطراب الجهاز العصبي اللاإرادي، وهذا العامل يشمل تجمع عدة عوامل، أهمها الصدمات الانفعالية، وسوء التغذية.

وقد أثبتت الأبحاث التي قام بها (فرانكل) وباحثون آخرون أن أعراض الاضطراب في الجهاز العصبي اللاإرادي لا تظهر إلا بعد أن ينال الشخص حريته، وبمعنى آخر إن الضغط الشديد وحالة التوتر المستمرة التي يعانيها الإنسان في معسكرات الاعتقال أو معسكرات أسرى الحرب تجهد جهازه العصبي اللاإرادي إجهادا شديدا، لا تظهر آثاره إلا بعد الإفراج عنه، حيث يصاب عندئذ بالانهيار العصبي، ومن المعتاد ألا تظهر أعراض الاضطراب في الجهاز العصبي اللاإرادي إلا بعد أن تستنفد قدرة التعويض التي يملكها هذا الجهاز، وبعد أن يصبح عاجزا عن القيام بدوره في تكييف الجسم لعوامل الضغط والإرهاق الحادة، أو المزمنة.

أعراض الاضطراب

أهم أعراض الاضطراب في الجهاز العصبي اللاإرادي بحسب نسبة حدوثها هي: التعب، فالخمول، فالاحساس بعدم الاطمئنان، فالدوار، فالصداع الذي يكون في شكل ضغط على الرأس، فإحساس المريض بالانقباض الذي يعوقه عن الاقدام على أي عمل، كما يفقد الاحساس باللذة في الحياة، فشعور المريض باضطرابات في دقات قلبه، وببرودة في أطرافه، وضعف في ذاكرته، يجعله كثير النسيان، فشعور المريض برغبة شديدة في النوم، فالتهيج العصبي الذي يجعله سريع التأثر ويضعف لديه قوة التركيز ويقلل شهيته للطعام ويؤدي إلى اضطراب قواه الجنسية، وعلى الرغم من إحساسه بحاجته إلى النوم فإنه يشكو من الأرق، ويحس بالقلق، والخوف من المستقبل، وقد تصيبه الرعشة أحيانا، وقد تضطرب لديه وظيفة التبرز، كما يضطرب الحيض عند السيدات.

وبالكشف على المريض يجد الطبيب هبوطا في ضغط الدم الانقباضي الذي قد يهبط إلى مائة ملليمتر (من الزئبق) أو أقل، ويهبط ضغط الدم الانقباضي أيضا عندما يتغير وضع المريض من حالة الاستلقاء

على الفراش إلى حالة النهوض من الفراش ، ويلاحظ وجود دوائر سوداء حول العينين ، كما يظهر التعب والعبوس في تعبير وجه المريض ، وتضعف الأفعال المنعكسة لأوتار العضلات ، ويبدو على الشخص شحوب غير طبيعي ، ويقل وزنه ، ويتقصف شعره ، وأظافره ، كما أن شخصيته قد تتغير ، نتيجة لنقص هرمونات غدة فوق الكلى (الغدة الكظرية) ، وتغير الشخصية من الظواهر التي كان (فرانكل) أول من لاحظها .

أما هرمون (كيتوستيرون ١٧) فقد لاحظ (بيركماير) أن إفرازه في البول قد انخفض عن المعدل الطبيعي في بعض الحالات ، وزاد عن المعدل الطبيعي في الغالبية العظمى من المرضى ، وذلك بالرغم من أن الأعراض تشير إلى نقص في إفراز هرمونات غدة فوق الكلى .

وعلى العكس من ذلك فإن هرمون (جونادوتروفين) الذي تفرزه الغدة النخامية ينقص إفرازه في البول عن المعدل الطبيعي .

وقد وجد أيضا أن حقن ملليجرام واحد من (الأدرينالين) لا يحدث تغييرا في ضغط الدم ، أو النبض ، أو درجة حرارة الجسم ، أو مستوى السكر في الدم ، أو عدد كرات الدم البيضاء .

وقد أثبت (بيركماير) أيضا أن اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي تحدث في سن مبكرة في السيدات عنها في الرجال ، وهذا يدل على أن أجسام السيدات أكثر استعدادا من الرجال لعمليات البناء والهدم بالنسبة للجهاز العصبي اللاإرادي ، عندما يتعرض لعوامل الضغط والارهاق الشديد ، أما بالنسبة للمهن فإن اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي تكثر لدى أصحاب المهن ذوي المسئوليات الخطيرة ، مثل السياسيين ، والمحامين ، والأطباء ، ورجال الأعمال .

أما العلاج فطويل ، ومعقد ، ومع ذلك يمكننا القول بأن اضطرابات الجهاز العصبي اللاإرادي يمكن شفاؤها ، وليس هناك ما يجلب السرور والرضا إلى الطبيب أكثر من نجاحه في أن يعيد لمريضه إحساسه بالحماس للحياة ، وشعوره بالصحة ، وبأنه قادر على تأدية عمله على الوجه الأكمل . □

الكنز الحقيقي

● كان في قديم الزمان رجل سعيد ، قد بلغ الثمانين من عمره ، ومازال قوي الجسم موفور النشاط ، وشاع بين أهل قريته انه قد عثر على كنز ثمين فيه حلى وجواهر وفيه سبائك وتماثيل من الذهب الخالص ، واعتقدوا أن هذا الكنز سر سعادته . .

وكان الرجل في شغل عما يقولون ، تراه كل صباح راكبا دابته في طريقه الى الحقل يعمل ، او الى المدينة لينجز شأنا من شؤونه .

وذات يوم ضمه مجلس مع نفر من أهل القرية ، فطلب منه أحدهم أن يصف كنزه ومافيه من جواهر وحلى . فقال : ان الكنز الذي منحني السعادة ليس فيه فضة ولاذهب ، انه اجتهاد في العمل واستقامة في المسلك ، واعتدال في كل شيء ، انه ثقة بالنفس يحدوها الايمان بالله .

من بين جميع كتاب روسيا الكبار يتمتع تشيكوف بمكانة مميزة ،
لا يحظى بها أديب غيره ،
ومثلما كانت قصصه القصيرة التي تجمع بين الطرافة والذكاء والحكمة ونفاذ البصيرة
كانت مسرحياته التي تبدو سهلة وبسيطة التركيب إرهاصا بتغيرات عظيمة ،
شهدتها روسيا فيما بعد .
وكانت مسرحيته الشهيرة بستان الكرز وصية إبداعية عظيمة من مبدع عظيم .

تشيكوف والمسرح:
أربعون عاما من الفشل والنجاح

بقلم : عز الدين وهدان *

في التاسع والعشرين من يناير من كل عام يجدد الاتحاد السوفياتي ، ومعه كل الأوساط الأدبية في العالم ، احتفاله بمناسبة فريدة وحميمة في تاريخ الأدب والمسرح ، إنها ذكرى ميلاد انطوان بافلوفيتش تشيكوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) ، ومثل هذه الاحتفالية التي يستحقها هذا الروائي والمسرحي العملاق ، الذي قال عنه ميخائيل غورباتشوف زعيم الحزب الشيوعي السوفياتي في ذكرى ميلاده في العام الماضي : « إنه مفخرة بارزة في تاريخنا الفكري والمسرحي المعاصر » ، لم يحظ بها أي أديب ، أو حتى سياسي ، في الاتحاد السوفياتي . بدليل أنه يكرم سنويا بتقدير واهتمام فائقين .

ولعل تشيكوف هو أكثر الأدباء والمسرحيين الروس مثارا للجدل ، ففي رأي انتقادي يدعمه ميكاليلوفسكي ـ الزعيم الفكري للشباب الروسي ـ بأنه : « كاتب فكري ... » ، في حين يقرر الكاتب الروسي العجوز غريغوروفيتش ، ردا على ذلك النقد وفي معرض إجراء مقارنة بين « كاتب فكري ... » وتشيكوف ، قائلا : « إنه غير جدير حتى بتقبيل الأثر الذي تتركه البقة التي تعض تشيكوف ... » ، ذلك أن هذا الأديب المتميز الذي بدأ بكتابة العدد الكبير من القصص القصيرة

* كاتب من القطر العربي السوري

الفكاهية ، الطريفة ، المليئة بالتخيلات ، التي جاوز عددها الألف ، والذي تحول بعد ذلك الى كتابة الرواية الكلاسيكية والمسرحيات المدهشة ، هو صاحب موهبة فذة يعرفها الجميع ، حتى أولئك الذين ناصبوه العداء ، لأسباب شخصية ، في أول الأمر ، وعندما أعيتهم الحيل ، ووجدوا أن نقدهم اللاذع قد أسقطهم في هوة تناقضاتهم ، كان تشيكوف يحقق ذاته ، ويترجم نبوغه يوما بعد آخر ،

بل إن أعماله ، بدءا من مجموعته القصصية « الشفق » التي نالت جائزة الاكاديمية ، قد أصبحت محورا لنقاش أعمدة الأدب والفكر في روسيا قبل أن تترجم الى غالبية اللغات الحية في العالم .

أما أعماله المسرحية التي بدأها في مسرح موسكو الفني فقد لاقت رواجا كبيرا في تلك المرحلة المتقدمة . إلا أن فشل مسرحية « النورس » كان بمثابة صدمة قاسية على نفسه وصحته ، فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يشير الى مرضه ، ولكن بعد فشل تلك المسرحية بدأ عنده نزيف الرئتين ، وأخذ مرض السل يتفاقم في صدره ، غير أن أعماله المسرحية المعدودة كانت ، ومازال ، تحدث دويا هادرا في جميع الأوساط . ذلك أنه كان يعبر ، ببساطة وبصدق وبشفافية ، وبأسلوب ذكي ورشيق عن معاناة المثقف الروسي وإرهاصاته ومصيره ، وكانت مثل تلك الأعمال تستقبل بتقدير وعناية ، نظرا لادراك الجماهير أن تشيكوف كان صادقا كل الصدق مع نفسه ، وأنه كان يستنزف آخر قواه ثمنا لانجازاته .

كان تشيكوف في الثامنة عشرة من عمره عندما كتب مسرحية « اليتيم » التي لم تقنع النقاد فترة طويلة ، ثم اعتبرت بعد ذلك منعطفا هاما في حياته ، مع أن تلك المسرحية لم تعرض في حياة تشيكوف قط . وقد انقضت بضعة عقود قبل أن تجرى محاولات لعرضها على المسرح ، لا في روسيا وحدها ، بل وفي بلدان أخرى . ولكن بعناوين مختلفة مثل : « بلاتونوف » و « العسل البري » . وتحت الاسم الأخير ظلت هذه المسرحية تعرض على مسرح « ليتلتون » بلندن عدة سنوات .

ايفانوف المثقف :

وحتى صدور مسرحيته الثانية « ايفانوف » عام ١٨٨٧ التي أنجزت في عشرة أيام فقط ، كان تشيكوف قد حقق بعض نجوميته بسبب انتشار قصصه الفكاهية المتنوعة . وقد قدمت تلك المسرحية لأول مرة عام ١٨٨٧ على مسرح موسكو الخاص « كورشا » ، وكان نجاح تلك المسرحية مدويا ، على الرغم من أن النقاد والجمهور على حد سواء لم يفهموا « ايفانوف » بما فيه الكفاية . وتتحدث تلك المسرحية عن شخصية « ايفانوف » كمثال لغالبية الروس الذين كانوا يرون ، في تلك السنوات ، أن ماضيهم هو أفضل من حاضرهم . فالبطل هو مثقف جامعي ذو طبيعة نزيهة ، قام بمساع دءوبة لخدمة الشعب

فكريا عبر دعوات لاقامة اقتصاد عقلاني وانتاج مدروس واستهلاك متوازن، الى غير ذلك من الخدمات. غير أن قواه سرعان ما بدأت تتلاشى وهو مايزال بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره، حيث استولى عليه الكسل وخيبة الأمل والجمود، بفعل الاحباطات اليومية المتصلة. يقول البطل عن تلك الحالة: «لقد أحببت وكرهت وصدقت كما يفعل الجميع، فقد اشتغلت وحلمت مقابل عشرة أشخاص. وألقيت على عاتقي عبئا جعل ظهري ينحني وعروقي تتمدد وتتوتر...»، وهي حالة عامة عاشها المثقف الروسي الذي كان يبدأ متحمسا متعطشا للمعرفة والعطاء ثم سرعان ما كان يصاب بالاحباط واليأس والتحجر.

وفي ربيع ١٨٩٥ بدأ تشيكوف بكتابة عمل مسرحي جديد هو مسرحية «النورس»، وكانت هذه المسرحية من نتائج تأثره بفتاة رائعة الجمال، ذات شعر مجعد وعينين رماديتين، كانت في الثانية والعشرين من عمرها، تدعى «ليديا ستاكيفنا ميزنوفا»، وكانوا يطلقون عليها اسم «ليكا»، وقد استحوذت تلك الفتاة على اعجاب تشيكوف، إلا أنه لم يقع في حبها مثلما وقعت هي في حبه، بعد أن كانت قد فشلت في غرامها السابق بالكاتب «بوتابينكو»، وقد كتب تلك المسرحية بنبرات رقيقة ملونة ومشبعة بحزن تأملي. وعندما عرضت لأول مرة في السابع عشر من تشرين أول ١٨٩٦ على المسرح الالكساندري في بطرسبرج سقطت سقوطا مريعا بسبب سوء اختيار الممثلين وعدم قدرة المخرج على إدارتهم، فقد كان اختيار الممثلة الفكاهية الروسية «ليفكيا» التي كانت تتمتع بشهرة واسعة آنذاك هو سوء تقدير من قبل المخرج، ذلك أن جمهور تلك الممثلة الكوميدية، وهم طبقة من التجار والمقاولين وأشباه المثقفين ضيقي الأفق، كانوا ينتظرون منها أن تقدم لهم مسرحا ترفيهيا ضاحكا، في حين كان أبطال تشيكوف شخصيات جادة كل الجد، فبطله «تريبليف» شاب يعبر عن معاناته بأشكال جديدة في الفن، وبطلته «نينا زاريتشنايا» فتاة ساذجة قوية، لا تعرف الفكاهة والمرح، إضافة الى كاتب معروف ـ «تريغورين» ـ وممثلة مشهورة تقادم بها العمر «أركادنيا»، وكذلك طبيب ومعلم ريفي، وتجري الأحداث في مكان واحد، هو عبارة عن قرية صغيرة، تطل على بحيرة رائعة. إذن فالممثلون كانوا يتكلمون بلغة صعبة، لم يكن ذلك الجمهور على استعداد لاستيعابها وفك مغاليقها، إلا أن الاعتبار قد أعيد لتلك المسرحية الخالدة بعد عامين فقط، عندما قدمت ثانية بممثلين جيدين، على مسرح موسكو الفني، وهذه المرة كان العرض نصرا هائلا، والمسرحية التي حصدت الفشل قبل ذلك فتحت آنذاك عصرا جديدا في مسرحيات تشيكوف، وسجلت ميلاد مسرح جديد في روسيا كلها.

وقد كتب «اليكسيف فكي» الممثل المسرحي والمخرج المعروف عن مشاعر تشيكوف في تلك الفترة قائلا: «كانت مشاعر تشيكوف تجاه المسرح الفني تتعمق، ويعتبر نجاح مسرحية «النورس» هو أحد أهم انجازات المسرح الفني في موسكو، بل لعله أفضل صفحة من صفحات الكتاب الذي سيوضع في يوم ما عن المسرح المعاصر. أما «نيميروفيتش دانتشينكو» الكاتب المسرحي والمخرج الشهير فقد قال بهذا الصدد: «لقد شكلت مسرحيتا «النورس» و«الخال فانيا» أساس المسرح الفني الذي توضحت هويته بصورة متميزة، حيث كانت المشاعر صادقة، وحيث سادت البساطة المتواضعة والحيوية في التمثيل، وقد بدت مسرحيات تشيكوف، كما لو كانت مفصلة على مقاس هذا المسرح على الأخص.

فانيا والنضج المسرحي:

أما مسرحية «الخال فانيا» التي عرضت في تشرين أول ١٨٩٩ فقد أيقظت الوعي الجماهيري المسرحي، وشدته أكثر فأكثر للأعمال الجادة الهادفة التي أصبحت النسيج الذي واصل تشيكوف العمل

من خلاله . وتتحدث المسرحية عن التضحية الروحي للخال (فانيا) ـ فوينيتسكي ـ الذي أمضى حياته بالعمل في الريف حتى يستطيع قريبه البروفيسور « سيريبريكوف » من العيش في المدينة برفاهية ، عاكفا على تأليف كتيباته التافهة ، وعندما أحيل البروفيسور على التقاعد وعاد للاقامة ثانية في القرية ، سنحت الفرصة للخال فانيا أن يكتشفه ، حيث أدرك أن سيريبريكوف هو إنسان غير موهوب ، وأنه لم يستطع عمل أي شيء مفيد طوال خمسة وعشرين عاما ، الأمر الذي أدخل في روع فوينيتسكي أن حياته هو قد قامت على خطأ كبير ، وأنه قد أضاع شبابه في عمل لا معنى له ، وأن المرأة التي كان يحبها قد يئست منه ، وتزوجت من ذلك البروفيسور الذي تقادمت به السن الآن ، أما صرخة الاحتجاج التي أطلقها فوينيتسكي التي دفعته لتقويم شخصيته ، فقد جاءت متأخرة .

إذن فقد كانت عديمة الجدوى ، وذلك أن مصدر تعاسة فوينيتسكي لا تكمن في خطأ شخصي ارتكبه ، وإنما لأنه لم يدرك أن فلسفة سيريبريكوف في الحياة تتكيء على نظام راسخ متين ، لم يعد بالامكان تغيير بعض ارتكازاته .

وفي صيف عام ١٩٠٠ عكف تشيكوف على كتابة مسرحية « الشقيقات الثلاث » التي تختلف عن « الخال فانيا » بنبرتها وإيقاعها ، فهي احساس حاد بعدم الرضا ، من شأنه أن يعمق صراع الانسان ضد واقعه البائس ، مع رغبة دافعة لسبر أغوار الحاضر والمستقبل ، وهذه الدراما مبنية على أساس « المحدث الداخلي » ، وهي ظاهريا دون موضوع كغيرها من أعمال تشيكوف المسرحية السابقة . وقد تحدثت تلك المسرحية عن شقيقات ثلاث يعشن في بلدة تقع في مقاطعة بعيدة : ـ أولغا ـ و ـ ماشا . تبدوان منذ بداية المسرحية أنها تعبتان من الحياة . أما الشقيقة الصغرى ـ ايرينا ـ فهي مليئة بحيوية الشباب والنقاء والطاقات المتراكمة والآمال الجياشة ، لكن مأساة ـ ايرينا ـ التي تتصاعد مع الأحداث ، وتتسع أمام أنظار المتفرجين ، تكمن في أنه يستحيل عليها ترجمة وتوقيع معارفها وقدراتها ، واسقاطها على أرض الواقع ، وأنه يصعب عليها ايجاد الفرص الملائمة لممارسة فعالياتها وقناعاتها ، لكي تحقق سعادتها الشخصية ضمن تلك العلاقات العائلية والمجتمعية ، علما بأن الشقيقات الثلاث متعلمات ومثقفات . كان تشيكوف يحمل تجاههن مشاعر عميقة من التعاطف ، وهو الأمر الذي مكنه من ابراز شخوصهن بأسلوبه الذكي ، ليصبحن قريبات من المتفرج الذي يصعب عليه نسيانهن ، وقد عرضت تلك المسرحية في أواخر شهر كانون الثاني عام ١٩٠١ .

وصية تشيكوف الابداعية :

أما كوميديا « بستان الكرز » التي أنجزها تشيكوف عام ١٩٠٣ فهي آخر عمل مسرحي قدمه هذا الرائد الكبير للمسرح ، فقد مات في العام التالي ـ في الثاني من تموز عام ١٩٠٤ ـ بعد صراع طويل مع مرض الدرن الرئوي ، ولم يكن له من العمر سوى أربعة وأربعين عاما ، وربما كانت هذه المسرحية هي الوصية الابداعية الأخيرة التي تركها الكاتب .

يتمحور موضوع تلك المسرحية حول مصير « بستان كرز » ، وكذلك مصير القرية التي يقع فيها ، ومنذ الفصل الأول ، أي منذ وصول صاحبة الأراضي ـ رانيفسكايا ـ والحديث يدور حول تخليص تلك الأراضي من الحجز المفروض عليها بسبب الديون ، وهذه المشكلة تبلغ ذروة تأزمها في الفصل الثالث . أما الفصل الرابع فيشهد وداع السيدة لأراضيها بعد إفلاسها تماما .

ويمكن القول بأن الجو العاطفي المرتبط بصورة « بستان الكرز » يعكس لنا القيم الجمالية الثابتة له قبل أي شيء آخر ، حيث تتحول كل الأحاديث عنه الى مناقشات يضفي عليها أحيانا الطابع الاجتماعي ، ويكون البستان بحد ذاته رمزا أو

محورا لربط الأحداث والشخوص . ففي ازدهار أشجاره المورقة شاعرية حياة الأسياد الآيلة الى الزوال . فالبستان كان ينمو ويورق لمجرد ارضاء بعض النزوات والغرور . فبالنسبة لرانيفسكايا ، فان البستان يذكرها بطفولتها وبوالديها وبماضيها اللامع . أما الرمز الآخر الذي يعكسه البستان فهو ماضيه القائم على نظام الرق والاستعباد ، حيث النظام الاقطاعي الذي تقوم عليه اقتصاديات الأرض التي تحقق أرباحا طائلة لقلة قليلة من الناس . ثم يأتي رمز البستان الحاضر : لقد فقد أهميته التجارية ، ولذلك أصبح القضاء عليه أمرا حتميا . فالقرية كلها غارقة في الديون ، ولم يعد من الممكن على أصحابها انقاذها ، مما يدفع بالمالكين الى بيعها الى تاجر مثل «لوبوكين » الذي يعمل بسرعة على قطع أشجار البساتين ، وتأجير المساحات الشاسعة للراغبين بتشييد"بيوت اصطياف واستجمام عليها . وفي ذلك تصوير ميداني للمرحلة التي سادت فيها الروح التجارية الجشعة ، ومع ذلك فإن الرمز المستقبلي لذلك البستان يظل الهاجس الأكبر لتشيكوف الذي لم يخامره اليأس مرة ، بل ان الأمل يظل الصفة الطاغية على الهدف الذي كان يصبو اليه ، لذلك نرى بطلته ـ

بيتيا ـ تقول في النهاية : « روسيا كلها بستان لنا ، الأرض شاسعة ورائعة ، وفيها أماكن بديعة ، إذن فلسوف نزرع بستانا جديدا أكثر فخامة وعطاء من هذا » .

انحياز للحياة :

وهكذا يؤكد تشيكوف ، الكاتب المسرحي الفذ ، أنه قد انحاز الى الحياة ضد اليأس والاستغلال والعلاقات الاجتماعية المتردية غير المتكافئة ، وأنه

يدحض كل الآراء والمقولات النقدية أحادية الجانب التي وصفته بأنه كان « كاتبا لا فكريا . . » بل إن عظمة هذا الكاتب التي تجاوزت حدود روسيا مازالت تتعمق وتتجدد وتتسامى يوما بعد يوم ، وأن أعماله ما برحت هي الأكثر أهمية وموضوعية في العالم كله . □

التمريض

في العصر الحديث كانت هناك محاولات جادة في أقطار الوطن العربي لدعم مكانة التمريض والطب ، فقد رأى محمد علي تقبل البيئة المصرية في ذلك الوقت للأطباء من الرجال ، وبخاصة في حالات الولادة ، فلما انتهى من إنشاء مدرسة الطب للذكور فكر في إنشاء مدرسة مماثلة للاناث ، وكان ذلك في عام ١٨٣٠ ، فبدأ في شراء عشر جوار ليتعلمن مهنة التوليد والطب والجراحة ، باشراف (كلوت بك) ، وهكذا تكونت النواة الأولى لمدرسة الولادة الملحقة بمدرسة الطب ، بأبي زعبل ، وقد فكر (كلوت بك) في تمصير المدرسة ، فازداد عدد التلميذات في سنة ١٨٤٠ فبلغ ستين تلميذة ، بينهن عدد من المصريات ، ومن الطريف أن خريجات المدرسة كن يمنحن رتبة ملازم ، وكان الديوان يحرص على كرامة حكيماته ، فيعين بصحبة كل منهن أحد « الأغوات » لحراستها ، كما كانت تمنح لقب « أفندي » .

منتدى العربي

قضية

من الاستشراق الغربي الى الاستغراب الشرقي

مناقشة لبعض أفكار الدكتور محمد عابد الجابري

بقلم : الدكتور طيب تيزيني

الدكتور محمد عابد الجابري ، والدكتور الطيب تيزيني مفكران عربيان ، الأول من المغرب العربي ، والثاني من المشرق العربي ، ويعتبران من أبرز المفكرين العرب الذين اشتغلوا بالكتابة عن موقعنا كعرب في دنيا الحضارة الانسانية المعاصرة ، ونقبوا في تراثنا ، فسلطا عليه نتاجات فكرهما واجتهاداتهما ، كل بمنهجه الخاص وبأسلوبه المحدد .

في هذا المقال - يقدم الدكتور تيزيني مناقشة نقدية لبعض مقولات الدكتور الجابري ، التي وردت في بعض كتبه ومحاضراته . والباب ، بطبيعة الحال ، مفتوح للدكتور الجابري للرد ولغيره للحوار .

يحدث احيانا في مجال تطور الأفكار والنظريات ، أن افكارا ونظريات بعينها قد تمارس وظائف متقاربة أو متماثلة في وضعيات اجتماعية مختلفة ومتباينة في موقعها من التقدم والتخلف التاريخيين . وقد غدت طرافة الموقف التي لاحظها جمع من الباحثين والمؤرخين والمثقفين ، سابقا وراهنا مسألة مهمة من مسائل الدراسات الفكرية المقارنة ، وذلك بصفتها أحد أوجه العلاقة الجدلية (التضايفية) ، بين « الداخل و الخارج » ، هذا مع التأكيد على تماثل أو تقارب الوظائف المذكورة آنفا . وينبغي أن يفهم في ضوء البعد الدلالي للعلاقة بين الفكر والواقع .

على صعيد هذه المسألة تعتبر كتابات المفكر البارز الدكتور محمد عابد الجابري حالة نموذجية .

وجدير بالاشارة أن الانتاج الفكري للاستاذ الجابري لا ينحصر في حدود المسألة التي نعنيها في هذا السياق ، وأن ما يقال عن ذلك وما يستنتج منه لا ينطبق بالضرورة على أوجه أخرى من إنتاجه المذكور ، لكن يبقى مع ذلك صحيحا أن علاقة بنيوية ووظيفية ما بين مجمل أوجه هذا الانتاج وإنتاج أي كاتب آخر يمكن تسجيلها واستقصاؤها والاقرار بوجودها .

غاية الاستشراق

إن الاستشراق في منشئه الغربي ، وبغاياته ـ في صيغته الاجمالية العامة ـ تعبير عن مصالح الاستعمار الرأسمالي الغربي تجاه بلدان « الشرق » ، لم يكن له إلا أن ينطلق من نزعة الهيمنة للفكر الذي سوغ هذه المصالح في الغرب و كرسها . ومن ثم من مقولة التخلف التاريخي والدونية الفكرية لتلك البلدان . وقد أنتجت هذه الوضعية مركبا معقدا من المواقف الفكرية ، تبلور شيئا فشيئا تحت إطار المصطلح الجامع « المركزية الأوروبية » « **Eurocentrism** » .

أما الوجه الذي يهمنا من هذه الأخيرة فيتمثل في التأكيد على الطابع الأوروبي المحض للحضارة « العقلانية » ، وذلك على النحو الذي يقود إلى القول بـ « مركز أوروبي » للحضارة العالمية ، وبـ « هوامش » متعددة لهذه الأخيرة ، تجسدها الشعوب الأخرى غير الأوروبية .

وقد أوضح ذلك الوجه من المسألة عن نفسه في مجموعة غير قليلة من الأعمال التي أنجزها مفكرون وسياسيون وباحثون ومؤرخون في عدد من البلدان الأوروبية المركزية ، أحد هؤلاء كان الفيلسوف ومؤرخ الفلسفة الفرنسي ارنست رينان من القرن التاسع عشر . فلقد ألف هذا المؤرخ الفلسفي كتابا مهما في دلالته المركزية الاوروبية ، أطلق عليه عنوان « ابن رشد والرشدية » ، ونشر للمرة الأولى في سنة ١٨٥٢ . في هذا العمل يسهم الكاتب بقدر كبير في صياغة المعالم الكبرى للنزعة المعنية هنا في بعدها الفكري الفلسفي على الأخص . أما الأطروحة الرئيسية التي نواجهها هنا على صعيد التأريخ الفلسفي العالمي فتقوم على الاقرار الذاتي من قبل رينان بريادته التالية : « وأعدني أول من يعترف بأنه لا يوجد ما نتعلمه أو نتعلمه ، لا من العرب ، ولا من القرون الوسطى ، ولذا لا يجوز أن يطالب الماضي بغير الماضي نفسه . أما السبب الكامن وراء ذلك فهو ـ في رأي المؤلف ـ دونية ما يسميه « العرق السامي » على صعيد التفكير الفلسفي والعقلي عموما : « وليس العرق السامي هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروس في الفلسفة . ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق . . أقل ما يكون من بواكير خاصة به في حقل الفلسفة ، ولم تكن الفلسفة لدى الساميين غير استعارة خارجية صرفة خالية من خصب كبير ، وغير اقتداء بالفلسفة اليونانية . . . » .

وإذا ما انتقل رينان إلى تخصيص الموقف إسلاميا عربيا فإنه يقودنا إلى النتيجة التالية الحاسمة : « وإذا لم يستطع الاسلام أن يتحول ويتحلى أي عنصر من الحياة المدنية والعلمانية فقد نزع من جوفه كل أصل من الثقافة العقلية . أجل ، كوفح هذا الميل المقدر ما بقي الاسلام في قبضة العرب » . وهكذا نواجه الموقف تلو الموقف ، وكل ذلك مقترن بالفكرة الكبرى التي تخترق كتاب رينان وأعمال المركزيين الأوروبيين ، فكرة « الشرق شرق والغرب غرب » . إن الأطروحة الرينانية المجسدة على الصعيد الفكري العقلي ، بتمييز قطعي بين الشرق « السامي » و « الآخر الآري » هيمنت طوال عقود متعددة من الوجود العربي الحديث والمعاصر . ومن الدال على هذا الصعيد أن يعلن مترجم كتاب رينان أنه « من دواعي الأسف أن تخلو اللغة العربية من ترجمة لكتاب رينان الذي هو من أهم ما ألف الغرب عن فلسفة العرب » .

المفكرون . . وقانون التبعية

ودون أن نستعرض أسماء أخرى من الباحثين

والمترجمين والمفكرين العرب الذين أخذوا ضمنا أو على نحو مفصح عنه ، بتلك الأطروحة الريبانية . نشير إلى أن قانون التبعية الاقتصادية والسياسية ، الذي ساد العلاقة بين أوروبا الاستعمارية الرأسمالية والشرق العربي منذ الاخفاق النهضوي البورجوازي العربي في أواخر القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين ، اكتسب أيضا وبصيغ متنوعة مضامين وأبعاداً ثقافية فكرية .

بيد أنه مع بروز طلائع حركة التحرر العربية ، الطامحة إلى التقدم الاجتماعي والاستقلال الوطني والتوحيد القومي ، أخذ يتضح أن النزعة المعنية هنا (المركزية الأوروبية) لم تعد مهيأة لاستيعاب الموقف الفكري الجديد قليلا أو كثيرا ، فكان عليها أن تتهافت تحت وطأة الدراسات المستفيضة التي توازت مع حركة التحرر تلك واخترقتها في اوروبا نفسها وفي الوطن العربي ، حول تاريخ الحضارات والشعوب ، وهذا ما جعل ورثة المركزيين الأوروبيين يتحدثون عبر نشاط متساوق أحيانا وغير متساوق في حالات متعددة مع مفكرين وكتاب من العالم الشرقي ، فأصبح الوجه الآخر من المركزية المعنية ، وهو « المركزية الشرقية » . أما هذه فقد أنيطت بها مهمة التأكيد على أن مركز الحضارة العالمية ليس « الغرب » ، وإنما « الشرق » ، وذلك بعد أن يكون منظرو هذا الأخير قد ضبطوه بمفاهيم ومقولات « البراءة اللاعقلانية » ، و « النقاء البدئي » ، و « الأصالة المحضة » .

وهنا يجري استجلاب أطروحة التمييز القطعي بين « الغرب » و « الشرق » ، ليستنتج منها أن خلاص الشرق عموما - والشرق العربي من ضمنه - يكمن في العودة إلى الفردوس المفقود » فردوس البراءة والنقاء والأصالة ، ومن ثم رفض التقدم الاجتماعي والاقتصادي والثورة الصناعية والتقنية العلمية والثورة الثقافية ، وذلك حيث يعلن أن هذه الأمور مفسدة لـ « جوهر الانسان الشرقي » .

إن سير الأمور على ذلك النحو لم يؤد على الرغم من ذلك إلى استنفاد دور المركزية الأوروبية هنا وهناك ، وذلك حسب الوضعيات المشخصة في « الغرب والشرق » ، وهذا نفهمه خصوصا حين نتبين أن « المركزية الشرقية » لقيت وتلقى صعوبات لدى شعوب الشرق عموما ، والفئات المثقفة ضمنهم ، وعلى نحو الخصوص . وإذا خصصنا الموقف أكثر لاحظنا أن الشعب العربي بطلائعه المتقدمة يواجه حاليا هجوما فكريا ايديولوجيا مكثفا من التشكيك في جدواه التاريخي عموما وعلى نحو الاجمال . هذا الهجوم تحمل لواءه قوى الاستعمار والصهيونية والظلامية في الوطن العربي . وفي سياق ذلك تبرز فئات من المثقفين والمفكرين والكتاب العرب لتجد نفسها - بصيغة أو بأخرى - في معمعان الموقف وتعقيداته ، ولا تجد إمكانية الخروج منه سالمة « بريشها وعظمها » . نعني بذلك أن هذه الفئات تتحول إلى مواقع القصور النظري والاجتماعي حيال فهم وإدراك ما يعلن عن نفسه من ظواهر جديدة في الواقع العربي . وهنا وباسم عملية إنهاض جديدة لهذا الواقع يبرز الحديث عن ضرورة الاطاحة بالتاريخ العربي الاسلامي الفكري ، وذلك بدعوى أنه قام أساسا على أركان لا تستجيب لاحتياجات عملية الانهاض تلك .

خطان متشابكان

إن محمد عابد الجابري قد يكون أحد أهم ممثلي تلك الفئة من المثقفين والمفكرين والكتاب العرب المعاصرين . ففي نشاطه الفكري الواسع الذي أنجزه ، وما يزال يبرز خطان متشابكان متعاضدان ، تتبين من خلالهما المعالم الكبرى لنشاطه هذا ، فالخط الأول يتمثل بالاطاحة بـ « تاريخية » العقل العربي والفكر العربي تاريخا وفي الوقت الراهن ، في حين يعلن الثاني عن نفسه من موقع التمييز القطعي بين « لاعقلانية » العقل العربي والفكر العربي وذلك عبر النظر إلى التاريخ الفكري العربي بصفته ذا بعد واحد من طرف ، وإلى التاريخ الفكري الاوروبي بمثابته ذا بعدين أو أكثر ، أحدهما البعد العقلاني من طرف آخر ، فهو يكتب بوضوح

لا لبس فيه » والثقافة العربية بوصفها الاطار المرجعي للعقل العربي تعتبرها ذات زمن واحد منذ أن تشكلت إلى اليوم ، زمن راكد يعيشه الانسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية ، يعيشه دون أن يشعر بأي اغتراب أو نفي في الماضي » ، فنفي تاريخية الثقافة العربية الثاوية وراء العقل العربي يقوم على النظر إلى الزمن الثقافي العربي على أنه فوق الزمن التاريخي العادي ، أي بمثابته تحجراً لا استمراراً . انطلاقا من هنا يقرر الجابري أننا إذن لم نخرج عن (العصر الجاهلي) بكل ما يتحدد به هذا العصر من عناصر بنيية جغرافية واقتصادية واجتماعية وثقافية » ، فهل يجوز لنا تعميم خصائص (العقل العربي) في العصر الجاهلي على العصور الاسلامية التالية ؟؟

أهكذا بهذه الصورة التقريرية اللاتاريخية يجاب عن المسائل المتصلة بتاريخ الثقافة العربية ؟ هل الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي نعيشه ما يزال هو نفس ما كان قائما في « العصر الجاهلي » ؟ كيف له إذن أن يطرح آراءه هذه على جمهور يرغب أن يفهمه ؟ هل بحث المؤلف في البنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية العربية منذ القرن الخامس الميلادي حتى الآن لينتهي إلى النتيجة « القصوى » التي يتضح منها غياب الاحساس « بالزمن التاريخي » ؟!

إن الجابري إذ نظر إلى تاريخ الثقافة العربية ، من حيث أنها « زمن راكد أطاح بها ، وجعلها ظاهرة غير مفهومة ، ومنتزعة من لحظاتها المشخصة المتنوعة » ، وقد وصل إلى هذه النتيجة من موقع الاستخفاف بضرورة فهم العوامل الاجتماعية التاريخية لتلك اللحظات ، ومن ثم من موقع النظر إلى أن « الزمن الثقافي لا يخضع لمقاييس الوقت والتوقيت الطبيعي والسياسي والاجتماعي » ، وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن « الثقافة العربية » تاريخا وراهنا لا تغدو ثقافة شعب عربي له أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تجلت بأشكال وصيغ لا ترتد إلى واحدة منها ، وإنما تتحول إلى تراكم ثقافي ، يحدث « بدفعة » أولى من مثقفي هذا الشعب ، ليستقل بعد ذلك عنهم ، ويختط طريقا متميزا خاصا به . وهذا ما جعل الجابري يعلن أن التاريخ الثقافي العربي الآن هو مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل رديء لنفس التاريخ الثقافي الذي كتبه أجدادنا » . إن ما يطرحه الجابري على صعيد تحديد بنية الثقافة العربية تاريخا وراهنا لا يمكنه بأي حال أن يجيب عن السؤال « التطبيقي » التالي : هل على المؤسسات الثقافية والسياسية الثقافية في الوطن العربي الراهن أن يضعوا استراتيجياتهم الثقافية لتطويره ثقافيا كما لو أنهم يفعلون ذلك في المجتمع العربي الجاهلي (القرن الثاني قبل الاسلام) ؟ أية سياسة ثقافية ستكون هذه ـ حينذاك ـ لو سارت الأمور على هذا النحو ؟ ألا يكفي المجتمع العربي الراهن ما تصوره من مشكلات كبرى حتى يعود ليضع نصب عينيه سلفه الجاهلي ؟

البعدان الرئيسيان

ألا يلاحظ الجابري أنه يكتب بمناهج القرن العشرين ، ويعلن ضرورة إعادة النظر في التاريخ العربي الفكري ؟ هل هذا الموقف وضع يتفرد به ، أو هو حالة تكاد تكون عامة في أوساط الباحثين والمفكرين والمؤرخين العرب ؟

ولعل من الدقة أن نقول بأن الجابري في موقفه اللاتاريخي ذاك لم يمسك ببعدَيْ الفعل التاريخي الرئيسيين ، بعد التواصُل وبعد التفاصُل ، فلقد رأى في هذا الفعل بعدا واحدا منهما ، وهو التواصل ، وإن كان قد أنجز ذلك بكثير من الاجحاف والقسر . أما بعد التفاصل التاريخي ، فقد غاب عنه بصورة حاسمة عموما ، مما جعله عاجزا عن تلمس اللحظات النوعية المتمايزة كثيرا أو قليلا في الثقافة العربية تاريخا وراهنا . ولعله في ذلك قد انطلق من تعميم وتوحيد لظاهرة التخلف التي رافقت معظم مراحل التاريخ العربي الثقافي ، حيث نفذ من هذه الظاهرة إلى القول بتجانس نفس المراحل

من حيث الأساس . وهنا نلاحظ مرة ثانية أن الجابري لم يتمكن من تلمس التمايز البنيوي والوظيفي في وضعيات التخلف عينه . وعلى هذا كان من الطبيعي أن يتحول التخلف إلى مقولة شمولية فاقدة لعناصر التشخيص الاجتماعي التاريخي . وكذلك الأمر فيما يتصل بالتقدم . إن « لا تاريخية » النظر إلى الثقافة العربية لدى الجابري تبدو عبر قناة أخرى في كتاباته . هذه القناة تتمثل في التقابل بين ثقافتين اثنتين ، الثقافة العربية والأخرى اليونانية (الأوروبية) ، مع الاشارة إلى أن عملية التقابل هذه تنطوي - كما يقدمها الجابري - على عناصر من الاضطراب والتناقض ، فإذا كانت الثقافة وجها من أوجه « الحضارة » فإن الأولى لدى الجابري « هي ثقافة فقه » ، في حين أن الثقافة الأخرى هي ثقافة « فلسفة » : « إذا جاز لنا أن نسمي الحضارة الاسلامية بإحدى منتجاتها فإنه سيكون علينا أن نقول عنها انها (حضارة فقه) ، وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على الحضارة اليونانية ، حينما نقول عنها (حضارة فلسفة) » .

أما وجه الاضطراب والتناقض في المسألة ، فينهض على إعلان الجابري - بعد تقريره ذاك - أن « الثقافة العربية لم تكن في الواقع مجرد حلقة وصل بين الثقافة اليونانية والثقافة الأوروبية الحديثة ، بل لقد كانت بالفعل إعادة إنتاج لجانب مهم من الثقافة اليونانية (العلوم والفلسفة) ، يحق لنا الآن وفي سياق ذلك أن نقدم الملاحظات التالية :

أولا : كيف لنا أن ننظر إلى « الحضارة الاسلامية » بأحد منتجاتها ، لنقارنها بحضارة أخرى عبر أحد منتجاتها ؟ فمن الواضح أن انتزاع هذين « المنتجين » من أصليهما جرى لصالح تقابل لاتاريخي بين حضارتين . إن الحضارة الاسلامية انطوت هي أيضا على « فلسفة » ، وإن لم تكن بالخصائص والاشكالات نفسها التي انطوت عليها الفلسفة اليونانية . من طرف آخر ، كيف يقرر الجابري ذلك التعارض بين الحضارتين (والثقافتين) المعنيتين ليعود ثانية إلى التوحيد بينهما من طرف واحد ؟ كيف تكون الثقافة العربية « إعادة إنتاج » لجانب مهم من الثقافة اليونانية (العلوم والفلسفة) ؟ إن هذا الطرح يلزم بتساؤل مركّب كبير : هل كانت الثقافة العربية ثقافة الشعب اليوناني ؟ كيف يمكن لشعب أن يقتات ثقافيا من شعب آخر ، دون أن ينتج هو نفسه قيمه الثقافية على نحو من الأنحاء ؟ إن الجابري هنا يطيح بالعلاقة الجدلية بين الداخل (العربي) والخارج (اليوناني) ، أي لا يتبين أن الخارج يمارس فعلا وتأثيرا على الداخل من موقع هذا الأخير أولاً وبالدرجة الأولى . وإذا كان الأمر بهذه الصيغة ، فإن « الداخل العربي » قد أنتج ثقافته المتطابقة عموما مع احتياجاته وشروطه التاريخية الاجتماعية ، تلك التي كانت بطبيعة الحال - أي بفعل التواصل التاريخي الذي جرى الحديث عنه سابقا - عرضة للتأثر بـ « الخارج اليوناني » .

وإذا كان الأمر كذلك ، أفلا يلاحظ أن القول بذلك الموقف (أي كون الثقافة العربية إعادة إنتاج لجانب مهم من الثقافة اليونانية) يقود ضمنا على الأقل ، إلى مزالق المركزية الأوروبية (اليونانية) ؟ لنستعد رينان ، ولنتبين خطل وخطر موقف الجابري المنوه عنه : « إن الشرق السامي مدينٌ لليونان بكل ما عنده من الفلسفة ضبطا » . إن هذا « الدّين » يكتسب عند الجابري تعبير « إعادة انتاج » ، بحيث لا يستطيع « معيد الانتاج » أن يزعم بأنه « مبدع » إبداع « المنتج الأصلي » . وقد يتضح هذا إذا نظرنا فيما يعلنه رينان عن ابن رشد ، الفيلسوف العربي المغربي ، الذي يعول عليه الجابري في مفهومه اللاتاريخي حول « القطيعة المعرفية » بين الفكر العربي المشرقي والفكر العربي المغربي . كتب رينان أن ابن رشد قد قطف ثمار « أعمال لم يفعل غير عرضها في مجموعها ، فكأن ابن رشد بويس الفلسفة العربية ، أي أحد أولئك الذين يظهرون مؤخرا ليعوضون عن الابداع الذي يعوزهم بموسوعية آثارهم القائمةعلى الشرح والنقاش » .

معجزة علوم العربية

إن آلية التفكير المهيمنة هنا ، تكمن في التأكيد على « المعجزة اليونانية المتمثلة بـ « التفكير الفلسفي العقلاني » هذه المعجزة التي يأخذ بها الجابري ليضع معها « معجزة العرب » ، التي هي عنده « علوم العربية » ، فالعربي حيوان فصيح ، وبالفصاحة وليس بمجرد العقل تتحدد ماهيته ، في حين أن اليوناني حيوان « عقلاني » ، ذلك لأنه « إذا كانت الفلسفة هي « معجزة اليونان » فإن علوم العربية هي « معجزة العرب » .

هكذا تتضح اللوحة التي يدعو إليها الجابري : إنها النظر إلى الفكر العربي والعقل العربي في تاريخه ، من حيث هو ذو بعد واحد ، بعد اللاعقلانية ، وعدم القدرة على مواجهة الطبيعة والمجتمع باستكشاف قوانينها . وهذا في محصلة الموقف تعبير عن أن الانسان العربي عموما لم يكن منذ الجاهلية وحتى الآن « في الوضع الذي سمح له أن يواجه مشكلاته » .

إن ذلك ، منظورا إليه في إجماله وعمومه ، يمثل دعوة للتشكيك بالجدوى التاريخية للفكر العربي ، بحيث تغدو الدعوة إلى نهضة جديدة مقترنة برفض التراث العربي الفكري . وهنا تتشابك المواقف بين عدمية تراثية ، ومذهب لا تاريخي للفكر الاوروبي والمغربي الذي ينتزع من سياقه العربي العام . □

منتدى العربي

تعقيب

على مقال :

هل كان الرجل المريض مريضاً ؟

جاء في العدد ٣٤٦ لشهر (سبتمبر ١٩٨٧) من مجلتكم الغراء في البحث (هل كان الرجل المريض مريضاً) للاستاذ فتحي رضوان (ان الصهيونية عجزت ان توطن يهوديا واحدا أو ان تنشىء مستعمرة بموافقة الدولة العثمانية) والواقع المرير يثبت ان اكثر من ثلاثين مستعمرة انشئت في ذلك العهد ويكاد يكون معظمها ان لم يكن كلها في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٥ - ١٩٠٨ م) واليكم قائمة بأسماء هذه المستوطنات وتواريخ انشائها :

١ - بتاح تكفا انشئت سنة ١٨٧٨ في موقع قرية ملبس العربية .

٢ - ريشون لتسيون انشئت سنة ١٨٨٢ في موقع قرية عيون قارة العربية .

٣ - زخرون يعقوب انشئت سنة ١٨٨٢ في موقع قرية زمارين العربية .

٤ - روش بناه انشئت سنة ١٨٨٢ في موقع قرية الجاعونه العربية .

٥ - نس تسيوناه انشئت سنة ١٨٨٣ في موقع قرية وادي حنين العربية .

٦ ـ مزكرت بتاه انشئت سنة ۱۸۸۳ في موقع قرية عقرون العربية .
٧ ـ يسود همعلاه انشئت سنة ۱۸۸۳ في موقع قرية منطقة بحيرة الحولة .
٨ ـ جدراه انشئت سنة ١٨٨٤ في موقع قرية قطرة العربية .
٩ ـ مشمر هيردن انشئت ١٨٨٤ في موقع جسر بنات يعقوب العربي .
١٠ ـ كاستينيه (بئير طوفياه) انشئت سنة ۱۸۸۷ في مقاطعة عسقلان العربية .
١١ ـ بتشلومو انشئت سنة ۱۸۸۹ في مقاطعة الخضيرة العربية .
١٢ ـ رحفوت انشئت سنة ۱۸۹۰ قرب قرية ديران العربية .
١٣ ـ حدراه انشئت سنة ۱۸۹۰ في منطقة الخضيرة العربية .
١٤ ـ مئير شفياه انشئت سنة ۱۸۹۰ في منطقة الخضيرة العربية .
١٥ ـ عين زيتيم انشئت سنة ۱۸۹۱ في منطقة صفد العربية .
١٦ ـ موتساه تحيت انشئت سنة ١٨٩٤ في جوار القدس الشريف .
١٧ ـ هارطوف انشئت سنة ١٨٩٥ قرب قرية عرطوف العربية .
١٨ ـ مطولاه انشئت سنة ١٨٩٦ قرب قرية المطلة العربية .
١٩ ـ سجيرة او ايلانياه انشئت سنة ۱۸۹۹ قرب قرية الشجرة العربية (مقاطعة طبرية) .
٢٠ ـ كفار تافور انشئت سنة ١٩٠١ قرب قرية مسحة العربية .
٢١ ـ فتحمياة انشئت سنة ١٩٠٢ في مقاطعة طبرية .
٢٢ ـ كفار [illegible] نشئت سنة ١٩٠٣ قرب قرية كفر سابا العربيه .
٢٣ ـ عتليت انشئت سنة ١٩٠٣ في موقع قرية عتليت العربية .
٢٤ ـ حولداه انشئت سنة ١٩٠٥ في مقاطعة الرملة .
٢٥ ـ بئير يعقوف انشئت سنة ١٩٠٧ في مقاطعة الرملة .
٢٦ ـ مرحفياه انشئت سنة ١٩٠٨ قرب قرية الفولة العربية .
٢٧ ـ متسفياه انشئت سنة ١٩٠٨ قرب قرية مصبة العربية .
٢٨ ـ كيرت انشئت سنة ١٩٠٨ في مقاطعة طبرية (قرب البحيرة)
٢٩ ـ دجانياه انشئت سنة ١٩٠٩ في مقاطعة طبرية .
٣٠ ـ مجدال انشئت سنة ١٩٠٩ قرب المجدل العربية .

كما ان مدينة تل ابيب ـ يافو تأسست سنة ١٩٠٨ ـ سنة ١٩٠٩ عدا عن مستعمرة مكفه يسرائيل تأسست سنة ١٨٧٠ كمدرسة زراعية الى الشرق من يافا . علما ان كثيرا من هذه المستعمرات اقيمت بعد تدمير وازالة معالم القرى العربية فحلت محلها . □

قسطنطين خمار

● من الناس من يحبون ان يقعدوا في صندوق من الجهل ، ويقفلوه على أنفسهم ، حتى لايأتي فاتح يفتحه ويفرج عنهم . (الامام محمد عبده)

● لايضيع شيء ذو قيمة اذا صرفنا الوقت الكافي في اتقانه . (ابراهام لنكولن)

● أعظم الثروات هي الرضى بالقليل ، لأنه لاتكون هنالك حاجة حيث تكون القناعة . (كوليريتيوس)

الجوانب الاجتماعية للمعرفة العلمية

بقلم : الدكتور ادريس سالم الحسن*

تجاوز العلم دوره كعنصر من عناصر المعرفة الانسانية الشاملة ،

فصار مرادفا للمعرفة ،

وأصبح استخدامه أحد أسلحة العصر ،

ومعيار القوة في مجتمعنا الدولي .

يمر المجتمع البشري المعاصر بلحظات حاسمة من تاريخه الطويل ، لحظات قد تؤدي به إما إلى ازدهار ، ومستقبل مشرق ، تتخلص فيه البشرية مما تعاني منه الآن من جهل ومرض وفقر ، وإما أن تفضي به إلى سبيل ليس فيه إلا الدمار المهلك ، الذي لا يبقي ولا يذر . وقد مرت بعض الشعوب بمثل هذه المواقف من قبل ، مواقف مصيرية ، واجهت فيها احتمالات بقائها أو فنائها ، لكن ما يجعل هذا الموقف الذي تواجهه الإنسانية الآن يختلف عن غيره من المواقف السابقة ، هو أن الموقف الحالي يهدد الإنسانية جمعاء ، وينذرها بالفناء الشامل ، في حين أن ما سبق من مواقف كانت مقصورة على جماعات وشعوب متفرقة ، وحتى بالنسبة لتلك الجماعات والشعوب ، لم تكن مسألة فنائها كلية في عداد الممكن . فما يوجد الآن من أسلحة فتاكة ـ سواء أكانت ذرية أم هيدروجينية أم غيرها ـ كفيلة بالقضاء على كل مظاهر الحياة على سطح الأرض . أسلحة وأجهزة لم يسبق أن خبرها الإنسان من قبل ، خلال آلاف السنين من تاريخه الطويل .

* أستاذ بقسم الدراسات الاجتماعية . كلية الآداب . جامعة الملك سعود ـ الرياض .

وما كان في الإمكان اختراع أسلحة الدمار الرهيبة هذه ، ولا السيطرة عليها ، دون التغير النوعي والكمي الذي طرأ على المعرفة الإنسانية ، ودون تطور العلم والتقنية وانتشارهما ، وملاءمة الظروف التاريخية الراهنة التي جعلت العالم كله يبدو كأنه قرية صغيرة ، فالمعرفة الإنسانية قد صارت شاملة ومتاحة - إلى حد ما - لعدد كبير من الناس من خلال وسائل التعليم والإعلام وغيرها ، بينما كانت في الماضي مقصورة على فئات قليلة من الناس ، يحتكرونها لأنفسهم ، ويتداولونها في سرية كهنوتية ، تجعل عامة الناس في عزلة ورهبة من هذه القوى الخارقة .

وقد أصبحت المعرفة الآن متاحة عبر الصحيفة والكتاب والتلفاز والمذياع ، يتناولها الشخص في سهولة ويسر ، بنفس الكيفية التي يتناول بها طعامه .

ومع هذا الانتشار كثرت التخصصات ، وتعددت المعارف ، وطرق تحصيلها ، وتشعبت دروبها ، بدرجة تكاد تقطع الصلة ما بينها - كمًا وكيفاً - وبين المعارف السابقة . وأهم ما يميز المعرفة الحديثة - في رأي الكثيرين - بالإضافة إلى انتشارها وتنوعها ، أنها تعتمد على العلم كأهم مكوناتها ومرتكزاتها ومحددات طبيعتها ومسارها . وقد تبع التغير في المعرفة ومكوناتها تغير في علاقتها مع المجتمع الذي تغيرت طبيعته ومكوناته أيضا ، وصارت العلاقة صعبة ومعقدة إلى حد بعيد .

فإلى أي طريق تقودنا معرفتنا ؟ وأي سبيل يسلكه بنا العلم ، وقبل هذا وذاك ما هي المعرفة ؟ وما هو العلم ؟ وما موقعهما من مجتمعنا ؟ .

جوانب المعرفة الإنسانية

إن المعرفة وتحصيلها وزيادتها ونقلها من مكان إلى آخر ، أو من جيل إلى جيل ، هي خاصية يتميز بها الإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى . والعلة في ذلك أن السلوك الإنساني في معظمه مكتسب ، في حين أن السلوك الحيواني - مثلا - غريزي في معظمه ، ولذا أصبح لزاما على الإنسان أن يتعلم كل شيء في حياته منذ مولده إلى مماته ، وحتى ماهو غريزي عنده (كالطعام والشراب والتناسل ، والمأوى . . . الخ) أحاطها الإنسان بجوانب اجتماعية غير غريزية - مكتسبة - فصارت بذلك خاضعة للتعلم .

والمعرفة الانسانية بدأت منذ اللحظة التي فضل الإنسان أن يشق فيها طريقه في الحياة بمفرده ، أي منذ اللحظة التي آثر فيها النزول من الجنة ، والتي ليس فيها مجال اختيار ؛ إلى الدنيا التي لابد له في كل خطوة أن يختار ، وذلك بأكله من الشجرة المحرمة (رمز المعرفة) . وبهذا الاختيار فضل الإنسان نفسه عن غيره من الكائنات ، بما فيها الملائكة . لكي يحقق الإنسان مبدأ الاختيار كان لابد له أن « يعرف » ، إذ ليس هناك من اختيار دون معرفة للبدائل . يحدثنا المفكر الإسلامي مالك بن نبي بأن بداية ذلك كانت مع « وعلم آدم الأسماء » ، ومعرفة الأسماء تعني بالضرورة إضفاء صفات على المسميات ، وبذلك يمكن التفريق بينها ، وتحديد أهميتها ، ومدى الاستفادة منها ، أو تجنبها ، ويعني هذا - من ناحية أخرى - أن الإنسان من خلال معرفته بكنه الأشياء قد أصبح مسيطرا عليها ، فالإنسان الأول عندما عرف النار وعرف خصائصها وطرق التعامل معها أصبح مسيطرا عليها ، وقادرا على استخدامها في شتى المجالات :

في الطبخ ، وتطويع المعادن ، والتدفئة ، وفي الحروب . . . الخ . وبهذا تكون المعرفة هي مصدر القوة بالنسبة للإنسان .

اكتساب المعرفة

لكن المعرفة عند الإنسان لا تتم بصورة مباشرة ولا كاملة ، ولا يتأتى له معرفة جوهر الأشياء كما هي . وكل ما يستطيعه الإنسان في هذا الخصوص هو المعرفة التقريبية للأشياء ، وذلك لأن الإنسان يعرف

الأشياء عن طريق « المعاني والرموز » ، فالمعرفة الإنسانية رمزية غارقة في الرمز ، سواء أكان ذلك في فهمها أو في التعبير عنها أو استخدامها .

وعليه فإن معرفتنا بالكون وما يحويه هي معرفة متغيرة متجددة من مكان إلى آخر ، ومن زمان إلى زمان ، عبر الحقب التاريخية المتعاقبة .

ووسائل تحصيل المعرفة متعددة عند الإنسان ، إذ يمكن أن تتم بواسطة العقل ، ومن خلال التجربة التي تتم مباشرة بالحواس الخمس ، وكذلك للأحاسيس ، والعواطف والتجارب الوجدانية دور في إثراء الخبرة وزيادة المعرفة . وقد يضيف بعض العلماء طريقاً آخر من وسائل المعرفة ، وهو الحدس ، إلى الوسائل السابقة على الرغم من صعوبة تعريفه وإثباته .

درجات المعرفة ومستوياتها

للمعرفة الإنسانية درجات ومستويات ، تحددها عوامل متعددة ، بدءاً من العوامل الذاتية للأفراد ، كدرجات ذكائهم ، ومدى خبرتهم ، وعمقها . . . الخ . إلى الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تضع أطراً لحدود المعرفة لأي مجتمع من المجتمعات ، في حقب تاريخية محددة . وطبقاً للظروف التاريخية قد تسود بعض عناصر المعرفة أو مستوياتها على غيرها من العناصر والمستويات المعرفية .

وللعلماء كثير من النظريات في هذا الخصوص ، ليس هنا مجال بسطها وشرحها ، لكننا نذكر فقط ما له علاقة مباشرة بموضوعنا ، وهو أن معظم العلماء الغربيين يكادون يتفقون فيما بينهم ، (ولا يلزم أن يتفق معهم في هذا كاتب المقال) على أن المعرفةقد تطورت ، وانتقلت من المعرفة الميتافيزيقية إلى الدينية ، وإلى الفلسفية ، وتوجتها المعرفة العلمية التي هي في نظرهم خاتمة المطاف ، وقمة المعرفة الإنسانية . وهم بهذا يربطون بين السيادة العسكرية والاقتصادية للغرب ، وهيمنته على الشعوب الأخرى ، وبين تجربتهم الخاصة التي أدت إلى بزوغ فجر العلم ، كما يعرفونه هم ، واعتبارها قمة التجربة الإنسانية جمعاء .

العلم الحديث : أصوله وطبيعته

ذكرنا بأن الإنسان في سعيه لمعرفة العالم المادي من حوله وتسخيره ، كان لابد له من معرفة عناصر البيئة الطبيعية ، ومكوناتها ، والقوانين التي تحكمها . لكنه في نفس الوقت سعى إلى تحديد علاقته بالقوى الخارقة من جهة ، وعلاقته بالبيئة الاجتماعية من جهة أخرى ، وعليه فقد كانت البدايات الأولى للمعرفة الإنسانية ، وعلى الرغم من أوجه قصورها الشديد متكاملة ، ولذلك ظهرت بوادر المعرفة الأولى دون حواجز بين الفلسفة والدين والعلم الطبيعي وعلوم الإنسان ، فتداخلت هذه العناصر مع بعضها بعضاً ، دونما انفصام في وحدة ، تحاول أن تفهم وتفسر وتحدد طرقاً للعمل والتعامل مع عناصر الكون المختلفة ، سواء أكانت طبيعية أم فوق طبيعية ، أم اجتماعية . ونمثل لذلك بمثال واحد فقط ، وهو نظرية الأخلاط الأربعة مثلا،(الماء والهواء والنار والتراب) ، فهي محاولة لفهم وتفسير القوى الطبيعية وصفاتها ومكوناتها الأساسية ، فالعناصر الأربعة كانت في نظر مفكري ذلك الزمان اللبنات الأساسية لكل عنصر طبيعي ، فوق هذا وذاك يمكن تطبيقها على الإنسان ، فهي تصف سلوكه وتفسره ، كما يمكن تطبيقها على غيره من الكائنات (كالجن والملائكة) ، واستمر الحال هكذا إلى عهد الحضارة الإسلامية ، حيث كان الأدب والفن والفلسفة والدين والعلوم أجزاء من معرفة شاملة متكاملة . وقد كان المفكرون من طبقة الفارابي وابن سينا مثلا علماء ثقاتاً في أكثر من فرع من فروع المعرفة ، دون أن يكون هناك تناقض أو تضارب ، بل إن مكونات نظرياتهم نفسها يدخل فيها أكثر من فرع في المعرفة

وتغيرت الصورة في أوروبا في عصر النهضة ، وما تلاه من قرون ، فيما يعرف بالثورة العلمية . وقد جاء عصر النهضة ليس بثورة فكرية فحسب ، وإنما مهدت لها وصاحبتها ثورة اجتماعية ، أطاحت بالنظام الاقطاعي المتحجر اقتصاديا وفكريا واجتماعيا ، حيث أنه كان يقوم على مبدأ العبودية بين السادة والمزارعين ، ويعتمد على الكنيسة بفكرها الديني الرجعي من الناحية الأيدولوجية . وحل بالتدريج نظام اجتماعي جديد يعتمد على التجارة والملاحة ، ويقوم على مبدأ الحرية الفردية ، عوضا عن النظام العبودي . وكان لابد من هدم الفكر الكنسي ، الذي كان عقبة كأداء في سبيل تقدم الفكر ، وقد مهدت كل هذه الأحداث لمجيء الثورة العلمية التي أصبح العقل فيها سيد الموقف ، وأزيح - جانبا - الفكر الديني وما كان يمثله من قهر وتسلط وإرهاب على كل رأي يخالف للكنيسة (كالقول بدوران الأرض مثلا) ، وما صاحبه من قتل وحرق وسجن وتعذيب للعلماء (كوبرنيكس ارازمس ، جاليلو . . . الخ) . وبانحسار تأثير الكنيسة والفكر الديني أصبح الإنسان هو محور الكون ، وهو المسيطر عليه من خلال عقله ومعرفته ، كما أن كل تفسير يسعى إلى إيجاد قوانين خارج نطاق العالم المادي قد اعتبر فكراً غيبياً ، وأدمج مع الفكر الديني ، ثم أهمل ، وبذلك صار التركيز الأساسي منصبا على البيئة الطبيعية المادية ، فهي عنصر العطاء ، ويمكن معرفتها بواسطة العقل ، وعناصرها مكونات موضوعية لا يمكن الشك فيها . وبلغ الإيمان بالعلم درجة أصبحت العلوم الأخرى من إنسانية واجتماعية تطمح أن تكون مثله في مناهجه ووسائله وأدواته ، وتمثل ذلك في التيار الذي يعرف الآن في العلوم الاجتماعية بالوضعية .

ونتيجة للتغيرات السابقة تغيرت النظرة إلى الكون في نظر العالم الغربي ، فصارت صورة الكون تمثل آلة ميكانيكية ضخمة ، (كما في فكر نيوتن) ، تحكمها قوانين الميكانيكا التي تمثل علاقات القوى بين الأجسام والكواكب وبقية العناصر الطبيعية . ولم تتغير هذه الصورة التي استمرت إلى وقت طويل . إلا بمجيء اينشتاين بنظرية النسبية ، حيث قضى على فكرة الصورة الميكانيكية ، وحل محلها الضوء والفراغ والزمن في علاقات تسارع يصير معه كل شيء نسبياً .

العلم وعلاقته بالمجتمع

إن علاقة العلم - كجزء من المعرفة الإنسانية - بالمجتمع علاقة شائكة ، ومعقدة ، وذات تاريخ طويل ، يساوي تاريخ المعرفة الإنسانية نفسها ، فمهما قيل عن قصور بداية المعرفة الإنسانية ، لا يستطيع أحد نكران أنها كانت بداية محاولة الوصول إلى معرفة علمية ، هذا بالطبع إذا وسعنا من معنى كلمة علم .

أما في العصر الحديث فقد صارت العلاقة بين العلم والمجتمع أكثر تعقدا وتشابكا ، وسنحاول أن فيما يلي :

هناك من يقول بأنه لا صلة البتة بين العلم ونموه وتطوره ، وبين التغيرات التي تحدث في المجتمع . وأصحاب هذا الرأي قلة لا يؤبه لها ، لأن فكرها طوباوي لا يفسر تقدم العلم وازدهاره إلا من خلال فكرة الإلهام الذي يأتي لأفراد متميزين ، لا تربطهم بالمجتمع صلة تذكر ، وهذا أمر لا يسنده الواقع ، ولا التجربة التاريخية ، ولا المنطق السليم .

ثانيا : هناك فئة تنادي بأن المجتمع هو الذي يحدد بصورة كاملة طبيعة العلم ومحتواه وشكله ، وعند أصحاب هذا الرأي أن العلم - كجزء من المعرفة - ما هو إلا انعكاس للعلاقات الاجتماعية بصفة عامة ، وعلاقات الإنتاج على وجه الخصوص . ويمثل القائلون بهذا باكتشافات جاليلو مثلا ، وبأنها لم تكن في واقع الأمر إلا تلبية لاحتياجات مجتمعه العملية

الضرورية ، كالمنظار المقرب الذي كان يحتاجه أصحاب السفن من التجار الذين كان قلقهم يدعوهم إلى محاولة رؤية سفنهم قبل دخولها الميناء ، للتأكد من سلامتها ووصولها . ويمثل أصحاب هذا الرأي بالثورة الصناعية ، وما أعقبها من تغيرات اجتماعية ، قادت إلى تغيرات علمية للتدليل على صحة قولهم .

ثالثا : هناك من يرون أن تأثير المجتمع على العلم أمر لا جدال فيه ، إلا أنهم لا يذهبون مذهب أصحاب الرأي الثاني كل المدى ، لكنهم يرون أن شريحة من المجتمع هي التي تسيطر على مجريات أحداثه السياسية والاقتصادية ، وتتحكم في كل ما يصدر وينشر في المجتمع ، من خلال سيطرتها على وسائل النشر والجمعيات الأدبية والعلمية ... إلخ . أي أن هيمنة فئة معينة على المجتمع يجعلها ذات مصلحة في التحكم في مؤسسات العلم (وغيره) ، بحيث أن ما يخرج منها لا يهدد مصالح تلك الفئة ، وأن يكون ملائما للأيدولوجية السائدة التي تخدم أهداف المجموعة المهيمنة . وبمعنى آخر فإن تأثير المجتمع في هذه الحالة في نطاق الممارسة العلمية داخل مؤسسات العلم .

رابعا : يوافق أهل هذا الرأي غيرهم ممن يقولون بتأثير المجتمع على العلم ، إلا أنهم لا يضعون أهمية كبرى لكل عناصر المجتمع ، ولا لشريحة اجتماعية بعينها ، تكون لها الهيمنة الاجتماعية والسياسية ، وإنما يأخذون جانبا واحدا في المجتمع ، وهو مستوى ثقافة المجتمع ، وما فيه من أفكار وقيم سائدة . إلخ يتشبعها العلماء ، كأفراد في مجتمعهم تؤثر فيهم عمليات التنشئة الاجتماعية ، وتؤثر لا شعوريا في اختيارهم لمواضيع بحوثهم ونتائجها .

خامسا : أصحاب الرأي الخامس يتفقون بأن هناك تأثيراً متبادلاً بين العلم والمجتمع ، إلا أنهم يركزون على أهمية التأثير من قبل العلم على المجتمع ، وليس العكس ، كما في الآراء الأربعة السابقة ، كما أنهم يرون للعلم تأثيرا بالغا على المجتمع من خلال تطبيقات العلم العملية ، وبخاصة في تطبيقاته التقنية . وقد قوي هذا الرأي خاصة في العقود الأخيرة من عالمنا المعاصر ، حيث أصبحت التقنية جزءاً من حياتنا اليومية المعاشة ، ودخلت غرف المطبخ والجلوس والنوم ، ودخلت مكاتبنا ومدارسنا ، وكل أوجه حياتنا الأخرى من ترفيهية وثقافية ... إلخ .

سادساً : الرأي السادس الأخير يتحدث عن تأثير العلم على المجتمع من خلال استخدام بعض فئات المجتمع للنظريات العلمية ، لتأكيد آرائها في نطاق المجتمع ، أي بمعنى آخر الاستخدام الأيديولوجي للعلم . وقد حدث هذا قديما عندما استخدمت كلمة عالم الطبيعة والأحياء داروين الشهيرة « البقاء للأصلح » في غير موقعها الأصلي ، فطبقت على المجتمع البشري لتوكيد أهمية مجموعة اجتماعية على أخرى . ويحدث هذا الآن فيما نراه من نقاش مستفيض حول ما يعرف بالبيولوجيا الاجتماعية التي يحاول فيها بعض العلماء أمثال (لورنز) تطبيق نظرياتهم عن السلوك الحيواني على السلوك الاجتماعي .

إن علاقة العلم بالمعرفة من جهة ، وبالمجتمع من جهة أخرى ، هي علاقة شائكة معقدة . وقد كان ذلك نتيجة لتبادليتها وجدلياتها .

فالعلم جزء لا يتجزأ من المعرفة ، يؤثر فيها ، وتؤثر فيه ، وتضع له أطر حركته وتطوره ، والمعرفة تثري وتغير من تركيبة المجتمع ، تحت ظروف تاريخية معينة ، لكن المجتمع أيضا يضع للمعرفة حدودها ، بل حتى محتواها في بعض الأحايين . □

إعداد : يوسف زعبلاوي

مخابز منزلية حديثة

يتميز أهل اليابان بولعهم بالآلات والأجهزة ، وبقدرتهم الفائقة على ابتكار الجديد منها ، واتقان صنعها ، ولعلهم يتميزون أيضا بتحسسهم التجاري لما تحتاجه الأسواق العالمية من تلك الأجهزة والماكينات ، حتى إذا نجحوا في ابتكار الجهاز أو الآلة التي يتعطش إليها المستهلك في كل مكان سارعوا إلى صنعها وإغراق أسواق العالم بها ، ومفاجأة المنافسين الأوروبيين والأمريكيين بذلك ، وكأن أولئك المنافسين هم بالفعل آخر من يعلم .

والجهاز المقصود هنا هو المخبز المنزلي الذي استكملت تطويره إحدى كبريات الشركات اليابانية في شهر مارس الماضي (١٩٨٧) ، والذي سيعرض للبيع في الأسواق بين لحظة وأخرى .

ولعل منظر الطوابير التي ألف المرء مشاهدتها هذه الأيام عند الأفران في شتى العواصم والمدن العربية وغيرها والتي قد يطول الانتظار فيها ساعات وساعات بغية الحصول على بضعة أرغفة هو الذي أوحى للشركة اليابانية المعنية بتطوير المخبز المنزلي،ولعل ذكريات الأمس القريب حين كان الناس في بلدان الغرب والشرق - أكثرهم إن لم نقل كلهم - يعتمدون على الخبز المنزلي ، الخبز الذي عجنته ربة البيت بيديها ، وصنعته بطرق بدائية داخل البيت، أقول لعل تلك الذكريات هي التي طمأنت الشركة اليابانية إلى أن رواج أفرانها المنزلية المبتكرة مضمون إلى حد كبير .

هذا والمخبز المنزلي الجديد صغير الحجم ذاتي الأداء . وهو بحجم سخان الخبز

: المخبز الياباني الجديد هو الذي نرى في صورة اليمين وليس الذي نرى في صورة اليسار . فهذه تمثل فرنا تجاريا من الأفران المألوفة في الوقت الحاضر .

العادي ، أو أكبر بقليل ، ولا يكلف ربة البيت إلا وضع المقادير المحددة من الدقيق والملح والماء ، فضلا عن الزبدة والسكر والحليب (إذا كان المقصود صنع الخبز الافرنجي) في وعاء خاص بهذه المواد ، ثم وضع الخميرة في الوعاء الآخر المخصص لها ، وهو موجود في أعلى المخبز ، وذلك بالمقادير المحددة أيضا، ولايطلب من سيدة البيت بعد ذلك إلا الضغط على زر صغير لينطلق المخبز في عجن تلك المواد تلقائيا بأحدث الطرق ، ومدها بالخميرة التي يجري إفرازها من وعائها اوتوماتيكيا بالتدريج وفقا للمقدار المطلوب .

وتنتظر ربة البيت بعد ذلك بعض الوقت ، فلا يلبث الفرن أن يفرغ من مهمته ، ويصبح الخبز جاهزا للأكل . وتتراوح المدة التي يحتاجها المخبز بين ساعتين للخبز العادي وأربع ساعات للخبز الافرنجي .

وهو مزود بكمبيوتر يضبط إفراز الخميرة بالمقادير التي يتطلبها المخبز .

وجبات صينية للغذاء والدواء في وقت واحد

يلجأ المريض ، كما هو معروف ، إلى عيادات الأطباء أو المستشفيات لمعالجة مرضه ، وقد يلجأ إلى الحكماء العشبيين ، ويتناول من النباتات الطبية ما قد يصفونه له ، فلا ترى في ذلك ما يبعث على العجب ، أما أن يرتاد المريض مطعما من المطاعم ويتناول وجبة من وجبات ذلك المطعم وذلك بقصد معالجة آفة أو علة يعاني منها فذلك ما لا يخطر على بال .

لكن ذلك هو ما يحدث كل يوم في مطعم صيني أقامه صاحبه (آلان لاو) في مدينة سان فرنسيسكو ، وسماه (المطعم الأعشابي الامبراطوري الجديد) . حقا إنه المطعم الوحيد من نوعه في المدينة الأمريكية ، ولكن أمثاله كثير في هونغ كونغ وشتى مدن الصين ، فقد درج أهل الصين على تلمس العلاج والشفاء لا في النباتات الطبية فحسب،ولكن في ألوان من الطعام تمد آكلها بالغذاء والدواء في وقت واحد . ولما كان السر في هذه الأطعمة يعتمد على طريقة طهوها نقلا عن النباتات أو اللحوم التي تتكون منها،كان على المطعم الصيني في سان فرنسيسكو أن يعتمد على طهاة خبراء متخصصين من أهل الصين .

ولعل الوجبات الأكثر رواجا في مطعم (المستر لاو) تلك التي تعالج العقم عند النساء ، والعنة عند الرجال . وقوام هذه الوجبات أعشاب صينية وكائنات بحرية وهي لا تقف عند تحسين الخصوبة في المرأة والكفاءة الجنسية في الرجل ، لكنها تسهم

بالاضافة إلى ذلك في مضاعفة النشاط والحيوية وتنظيم ضغط الدم وهضم الطعام .
ومن طريف ما يذكر عن هذه الوجبات أو الألوان تلك الأسماء التي تعرف بها في المطعم ، من ذلك طبق «ذهب مع الريح »وهو الطعام الذي اشتهر به المطعم والذي تعالج به حالات الصداع المزمن ـ والصداع النصفي خاصة ـ وقوامه مخ العصافير .

وثمة لحوم أخرى تدخل في إعداد أطباق أخرى ، نذكر منها لحم السلحفاة ، ولحم الثعبان . على أن للنباتيين الحق في رفض تلك الأطباق التي تحتوي على لحوم ، وغالبا ما يكون البديل في تلك الحال نوعا من الفطور البيضاء .

ويقدم المطعم مع الوجبات خمرا تختلف عن سائر الخمور ، فهي مصنوعة إما من ذنب الغزال أو من الأرز الأسود . والأول يضاعف نشاط المرء وحيويته ، والثاني ينشط دورته الدموية .

على أن تناول الوجبة الواحدة مرة واحدة لا يكفي للشفاء من المرض ، بل لا بد من أن يتناولها مرارا قد تصل إلى (١٠) عشر مرات إذا أراد الخلاص من علته .

ومما تجدر الاشارة إليه شوربة العشاق التي راح يقدمها المطعم لعملائه في المدة الأخيرة ، فقد لاقت إقبالا منقطع النظير ، ولعل ذلك يعزى للفائدة الملموسة التي جناها الناس من هذه الشوربة ، وبخاصة العرسان اللذان يقضيان شهر العسل في سان فرنسيسكو أو بالقرب منها .

مرض الايدز هل من أمل جديد ؟

نشرت مجلة لانست الطبية خبرا هاما مثيرا في عددها الصادر في مطلع شهر نوفمبر الماضي (١٩٨٧) ، ومحور الخبر هو مرض الايدز ، واللقاح الجديد الذي نجحوا في تركيبه ، والذي يبشر بمعالجة المصابين بهذا المرض ، معالجة ناجحة ، كما يبشر أيضا بالوقاية منه على نحو فعال ، وقد تعاون في هذا الصدد فريقان من الأطباء ، فريق في لندن وفريق في سان انطونيو في تكساس ، وقد عمل كلا الفريقين برئاسة الدكتور انجوس دالجيش .

يقول الدكتور أنجوس هذا إن اللقاح الجديد قد عمل بالفعل على تحييد فيروس الايدز في المختبرات ، على أن هذا اللقاح لا يحيد كل فيروسات الايدز ، لكنه يحيد الفيروس الذي انتشر في المدة الأخيرة في غرب أفريقيا وفرنسا .

ويعمل اللقاح المذكور الذي يعرف باسم **(Anti - idistype)** واختصاره **(Anti - id)** بالاطباق على المتلقيات **(Receptors)** التي توجد على جدران خلايا الجسم ، والتي يستعملها فيروس الايدز من أجل البطش بخامات الجسم الجينية (أو الوراثية) ، فالاطباق على هذه المتلقيات يفقد الفيروس حيويته ، ويحول دون تكاثره . ويؤكد الدكتور أنجوس أن اللقاح الجديد يفيد في الحالات التي يكون فيها المرض كامنا .

سلامة البشرية في

سلامة البيئة

جهاز بسيط يقي من التسمم والحرائق

هذا جهاز جديد كبير الفائدة ، زهيد الكلفة ، يهم العاملين في مجال مكافحة التلوث وحماية البيئة بقدر ما يهم أصحاب المصانع وربات البيوت . وهو لا يعدو كونه جهازا بسيطا ، لا يغير في البيئة ولا يبدل ، بل إن كل ما يفعله يقف عند الإنباء أو الكشف ، ولكنه يكشف عما هو في غاية الخطورة ، عن وجود غاز أول أكسيد الكربون .

فهذا غاز سام وخطير ، وقد يتسبب بالحرائق إذا وجد بكميات كبيرة ، ثم إنه بلا لون ولا رائحة ، ويسهل تسربه في الأجهزة والآلات ويسهل انتشاره في جو الغرف والمصانع من حيث لا يشعر به أحد ، وهو يتولد عن الاحتراق غير الكامل لشتى أصناف الوقود الهيدروكربوني كالغازولين (أو البنزين) والكيروسين والغاز الطبيعي والبروبين السائل . وتتضاعف مخاطره في فصل الشتاء ، حيث يحكم إغلاق النوافذ كما هو الحال في البلدان الباردة .

وقوام الجهاز الكاشف الجديد واسمه (كوانتوم آي) قرص من البلاستيك يحتوي على مواد كيماوية ذات حساسية خاصة لغاز أول أكسيد الكربون . ونذكر من هذه المواد النحاس والبلاديوم ، وأكثرها وجودا في الجهاز ثاني اكسيد السيليكون .

ويتغير لون المادة الكاشفة لدى تعرضها للغاز ـ غاز أكسيد الكربون ـ فتصبح خضراء ثم زرقاء وذلك تبعا لتزايد كمية الغاز الذي يلامس الجهاز . والجهاز حساس جداً ، ومبدأ فاعليته لدى انتشار الغاز في الجو بنسبة ٣٠٠ جزء في كل مليون جزء من الهواء . وما أسرع ما يسترد لونه الأصفر لدى تلاشي الغاز في الجو وزوال خطره .

على أن فاعلية الجهاز لا تدوم سوى سنة واحدة ، ولكنه رخيص الثمن ويسهل على الجميع تغييره سنويا .

الجهاز الكاشف الذي يتغير لونه من الأصفر إلى الأخضر إلى الأزرق تبعا لكميات غاز أول أكسيد الكربون الموجودة في الجو .

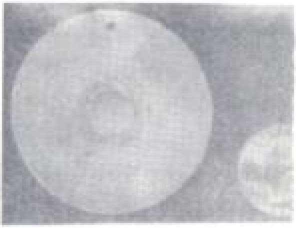

يسددون الديون وينقذون الغابات الاستوائية المهددة

تحدثنا في هذا الباب في أعداد سابقة عن الأساليب الغريبة التي تبتكرها الهيئات البيئية المختلفة من أجل حماية التربة ووقاية أحيائها من الانقراض الذي يتهددها . ونتحدث اليوم عن أغرب تلك الأساليب وأكثرها فاعلية ، إنه الأسلوب الفريد الذي يعود بالفائدة على البلد المعني ، لا في مجال البيئة فحسب ، ولكن في المجال الاقتصادي أيضا .

فقد تأملت الهيئة البيئية الامريكية (هيئة الحماية الدولية) أوضاع دول العالم الثالث ، وبخاصة دول أمريكا الجنوبية فوجدتها منهارة اقتصاديا ، وقد أثقلت الديون المتراكمة كاهلها ، ووجدتها منهارة بيئيا أيضا ، وقد أخذت غابات الأمزون الاستوائية بالاختفاء بالفعل ، وبات المناخ العالمي بأسره مهددا نتيجة تلف تلك الغابات ، وذلك تبعا لأعمال التحطيب والتعدين الواسعة الجائرة التي تتعرض لها تلك الغابات في تلك الدول ، وفكرت الهيئة الامريكية ـ وهي ذات أهداف إنسانية لا تجارية ـ فيما عساها أن تفعل للربط بين الكارثتين اللتين حلتا بدول أمريكا اللاتينية ، الكارثة الاقتصادية ، والكارثة البيئية .

وما أسرع ما اهتدت إلى أسلوب ذي حدين ، يضمن لها إنقاذ الغابات الاستوائية من تلف محقق من جهة ، ويضمن للدول المعنية من جهة ثانية الخلاص من ديونها الضخمة الآخذة بالتزايد لا التناقص ، وذلك بسبب عجز الدول عن تسديدها ، ونظرا لتراكم فوائدها .

ولعل أطرف ما في ذلك الأسلوب أنه كان موضع ترحيب كلا الفريقين المعنيين ، الدول المدينة وصاحبة البيئة المهددة ، والبنوك الدائنة ، فقد رحبت الدول المدينة لأنه يعفيها من تسديد ديونها الباهظة ، ورحبت البنوك لأنه يضمن لها تسديد نسبة ما من ديونها التي اعتبرتها ميتة ويئست من تسديد أي جزء منها .

على أن تسديد ديون الدول نيابة عنها ليس بلا مقابل ، لكن الهيئة البيئية الأمريكية لا تطالب تلك الدول لقاء تسديد تلك الديون إلا بحماية غاباتها والحد من أعمال التحطيب والتعدين فيها ، فذلك هو الهدف الوحيد الذي تعمل من أجله ، أما المال الذي تدفعه الهيئة إلى البنوك فمالها هي ، ومن المخصصات والتبرعات التي تصلها سنويا من أجل حماية البيئة ، أما النسبة التي تسددها من الديون فتتراوح بين ١٠٪ و ٦٠٪ . ونذكر على سبيل المثال الصفقة التي عقدتها الهيئة البيئية مع حكومة بوليفيا مؤخرا ، فقد قامت بتسديد بعض الديون المتراكمة على هذه الحكومة ، ما يبلغ (٦٥٠,٠٠٠) دولار من مجموع ٤٠٠٠ مليون دولار ، وذلك بدفع مبلغ (١٠٠,٠٠٠ دولار فقط) ، وقد رضيت البنوك ، وسعدت بهذا المبلغ الزهيد ، ومحت كافة الديون بمجموعها ، لا لسبب إلا أن الاحتمال الآخر هو عدم استردادها أي مبلغ كان من تلك الديون . وكان على حكومة بوليفيا بالمقابل ان تضع تحت تصرف الهيئة البيئية ٣,٧ ملايين فدان من غابات الأمزون المهددة مقابل خلاصها من تلك الديون .

صورة لنهر الامزون العظيم وللغابات الاستوائية التي تعمل الهيئات البيئية على إنقاذها .

العربي - العدد ٣٥٠ - يناير ١٩٨٨ م

زيارة لمتحف بيكاسو في باريس

بقلم : احمد داود

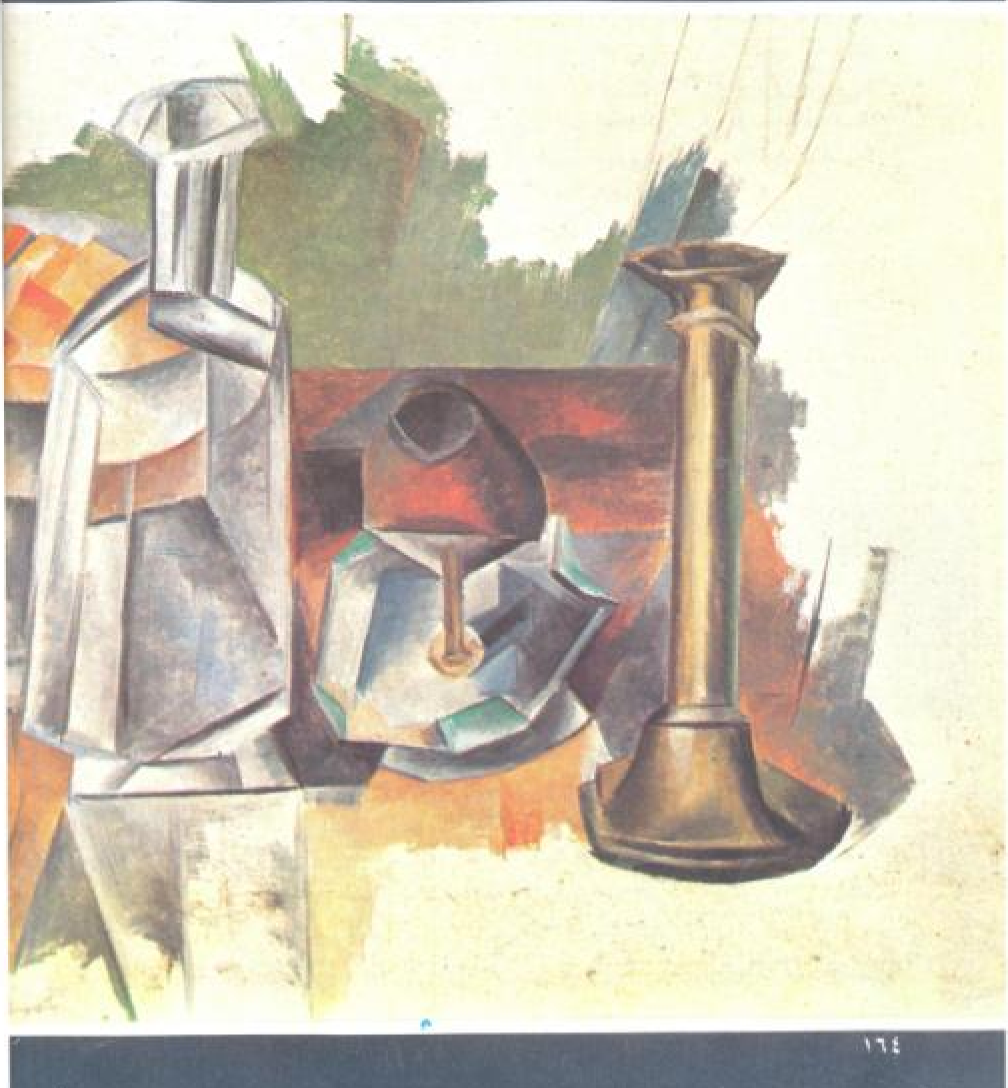

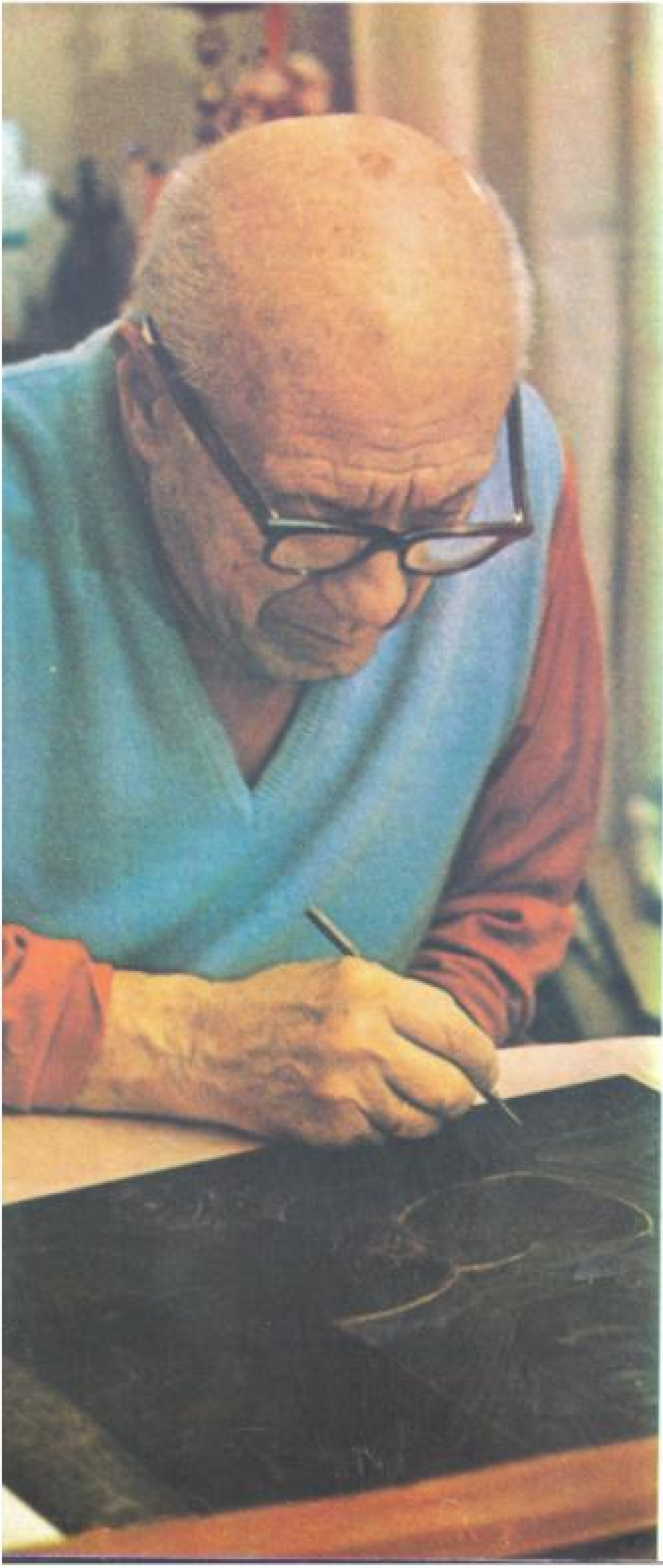

بيكاسو
اثناء عمله
باحدى
اللوحات .

غرافة ماء
مع شمعدان ـ
عام ١٩٠٩ .

ليس هناك من فنان ، قديما كان أو حديثاً ، أثار هذا القدر من الجدال والنقاش مثلما أثاره بابلو بيكاسو ، فالعصر الذي عاش فيه ـ القرن العشرين ـ يعتبر بحق عصر تحول هائل ، وانقلابات عظيمة ، وحياة بيكاسو الغنية الخصبة على كل المستويات تجسيد لهذا العصر بانكساراته ونجاحاته .

الفن في القرن العشرين لم يساير فقط التطور المتزايد السرعة ، بل سبقه في بعض الأحيان . فالجديد فيه (نعني الفن) ولد مباشرة مع القرن على خلاف ما هو عليه الحال في القرن التاسع عشر الذي لم تبدأ ارهاصاته الفنية الأولى إلا حوالي عام (١٨٣٠) . هذا لا يعني بأن الاتجاهات الرئيسية للفن الحديث في القرن العشرين تمثل نقطة انقطاع تامة مع مجرى التاريخ . فقد كانت سوابقها تمتد في أحشاء القرن الماضي . فتكعيبية (بابلوبيكاسو) و (جورج براك) كانت لها مقدماتها عند (سيزان) والكلاسيكيين الجدد ، والتعبيرية عند (فان جوخ وسترندبرج) والسريالية عند (رامبو ولوتريامون) . سوى أن الجديد في القرن العشرين انعكس في محورين أساسيين :

أ ـ عبر تفجيرالألوان المتمثل في الحركة الحوشية وزعيمها (هنري ماتيس) .

ب ـ وتفتيت الأشكال من قبل الحركة التكعيبية لبابلو بيكاسو و جورج براك .

لقد وضع بابلو بيكاسو مع زميله براك نهاية دورة هائلة في تاريخ الفن . فترى الكاتبة (سارة نيوماير) بأن دورة الفن تلك تمتد إلى ستة آلاف سنة ، عندما أخذ الرجل البدائي يروي على جدران الكهوف قصص مغامراته ، بكلمات تتألف من صور مبسطة ، ترمز إلى الأشياء أو الأفعال . ومع الزمن أخذت هذه الصور الرمزية تبتعد رويدا رويدا عن الأشكال الواقعية ، حتى انتهت إلى الكتابة المسمارية والهيروغليفية ، وأخيرا تحولت هذه الكتابات إلى حروف وكلمات ، هي بمثابة صور « مجردة » للأفكار والكائنات ، لا تنتمي إليها بأية صلة من صلات الشكل ، حتى وإن قامت في أصلها السحيق على صور مرئية .

بيد أن هذا التطور في لغة الكاتب لم يحدث ما يوازيه في لغة الفن . فقد ظل الفنان يتشبث بالصور المرئية ، معتبرا إياها أنفس من كل رمز تجريدي يدل عليها ، واستمر في تشبثه هذا حتى مطلع هذا القرن ، فشرع الرسامون في « تخريط » الأشكال وتشقيقها إلى شرائح آخذين بقول سيزان : « إن كل ما في الطبيعة ينطوي على صورة الاسطوانة أو الكرة أو المخروط » ، واستخدمت هذه العناصر بمثابة لبنات لإعادة بناء الشكل الأصلي ـ في صورة يصعب أحيانا التعرف عليها ـ أو تشتيت هذه العناصر وبعثرتها في لوحة لا تشبه شيئا معروفا !

لذلك لا يمكن الحديث عن بيكاسو دون وضعه في خضم هذا القرن المتفجر ليتحول بحق إلى أسطورة في وقت كان في أوج عطائه الفني ، فقد قال عنه الروائي الفرنسي الشهير (اندريه مالرو) : « إن بيكاسو هو أعظم مكتشف ومحطم للأشكال معا » ، فبيكاسو كفنان حديث ـ ونعني بذلك « فنان أصيل » ـ ينظر إلى العالم كما لو كان شيئا لم ير من قبل ، وكأنه هو أول من وقعت عيناه على معالم الكون .

ويروى عن بيكاسو بأنه قال : « إني لا أبحث ، وإنما أجد » . وهذه النظرة الجديدة للفنان تدخله في خلاف ، بل وصراع مع الثقافة السائدة ، لتنتج عادة وشائج صعبة ، وصراعات مريرة ، تدفع بالكثير من الفنانين صوب الانحسار أو الاعتزال والهجرة ، فأقلام الصالونات في القرن التاسع عشر على سبيل المثال تصدت للطبيعيين ومن بعدهم للتعبيريين والتكعيبيين ، بل ودخلت معهم في صراع منظم بفعل رفضهم استخدام الوسائل التقليدية في التعبير

الفني . فوصلت حالة التوتر أوجها من خلال اتهام رواد الفن الحديث « بالانحلال الخلقي وفقدان الحس الجمالي » . فكانت حصيلة هذا الصراع المحتدم أن سافر الفنان (مونيه) إلى اسبانيا ، و (بيسارو) إلى انكلترا ، و (رينوار) إلى الجزائر . أما (ديجا) فرحل إلى نيوأورليانز و (جوجان) إلى تاهيتي ، حتى (سيزان) ذلك المترف اعتكف في مدينته (اكس اون بروفنس) في حين مات (فان جوخ) وسط فاقة وصرع مفزعين . وبمجرد موت هؤلاء الفنانين تراكضت المتاحف الدولية وتجار اللوحات لشراء أعمالهم بملايين الدولارات !!

بابلو بيكاسو الوحيد من بين ذلك الرعيل ومن لحقوه تسلق سلم المجد وهو لم يزل على قيد الحياة . « فيورصات اللوحات » - كما يقال استهجانا - تراقب حركة أعماله من طوكيو إلى نيويورك ، فدخل ذلك الأندلسي متحف اللوفر بجوار رسامي عصر النهضة والمرحلة الكلاسيكية . وعندما غادر بيكاسو العالم في الثامن من نيسان عام ١٩٧٣ أعلنت الحكومة الفرنسية عن عزمها على إنشاء متحف دائم لأعماله في باريس . ومن أجل ذلك سنت قانونا يلزم عائلته تسديد ضريبة الإرث عينا أي أن تدفع لوحات . وخصصت بلدية باريس أحد القصور الجميلة وسط العاصمة ، يعود تاريخه إلى عهد الملك لويس الرابع عشر ، لاستقبال تلك الثروة التي تقدر نقديا بمئات الملايين من الدولارات . وقد افتتحه الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران رسميا في أواخر شهر ايلول عام (١٩٨٥) .

لقد عاش بابلو بيكاسو قرابة ستة وعشرين ألف يوم ، أنتج خلالها حوالي ستة وعشرين ألف عمل فني ، من لوحة زيتية إلى تخطيطات وتصاوير وجوه وخزفيات وملصقات .. الخ . ولإدراك قيمة هذه الثورة الهائلة في تاريخ الفن نرى من الأهمية بمكان التوقف عند بعض محطات حياته الحافلة .

الطفل المعجزة

في ٢٥ من شهر (تشرين الأول) أكتوبر عام ١٨٨١ ، ولد في مدينة ملقة الأندلسية بابلو روخيث بلاسكو . ومنذ سنوات عمره الأولى ظهرت موهبته الفذة ، فتولى والده الذي كان استاذا للفن ، إرشاده والعناية به .

وفي لاكورونا إحدى المدن المطلة على المحيط الاطلسي ، التي انتقلت إليها العائلة بدأ بابلو الصبي بتصميم مجلات صغيرة يملؤها قصصاً وتخطيطات قوبلت بدهشة بالغة ، وكان والده بعد أن اكتشفها واثقا من أن ولده سيصبح يوما من عباقرة الرسامين . ويقال إنه قد أهداه أدوات رسمه وقرر الاعتزال ، اعترافا منه بموهبته الفنية وببلوغه سن الرابعة عشرة ذاعت شهرته كرسام ، خاصة للوجوه (البورتريه) . ومن الطريف أنه كان هاويا لرسم شخصه على الأخص ، إذ رسم سلسلة كبيرة من الصور تحت عنوان « صورة ذاتية » استمرت حتى عامه العشرين .

وحينما بلغ بابلو الخامسة عشرة من العمر انتقلت العائلة مجددا إلى مدينة ثانية في شمال اسبانيا (برشلونة)، وهناك تقدم بطلب الالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة ، فمنح شهرا كاملا لإنجاز الرسوم المطلوبة للامتحان ، كما جرت العادة في ذلك المعهد . وفيما بعد كتب بيكاسو عن هذه الحادثة يقول : « أنهيت الرسوم المطلوبة بيوم واحد فقط . لقد تأملتها بدقة ، لعلها تتطلب بعض الإضافات ، ولكني لم أجد مايتوجب علي إضافته ، حقا لا شيء » . وفي الفترة القصيرة التي قضاها الفنان في المعهد لم يكف عن إثارة زملائه ومدرسيه ، إذ كان بإمكانه أن يبدأ أي رسم ومن أي موضع يشاء ، من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس ، أو من الداخل إلى الخارج ، أو باتجاه معاكس دون أن يتلكأ مسار خطه ، وبلا أية تحسينات أو تغيرات وكأنه يرسم رسما جاهزا مسبقا . وبعد فترة قصيرة ضاق بيكاسو بالتعاليم المدرسية « العقيمة » ، وبعد هذه التجربة الفاشلة قرر الرحيل إلى العاصمة مدريد وكسابق عهده ، تقدم بابلو بطلب امتحان جديد لدخول الاكاديمية الملكية (سان فرناندو) ، وأنجز المواد المطلوبة بيوم واحد أيضا . ومن الغريب أن المرء

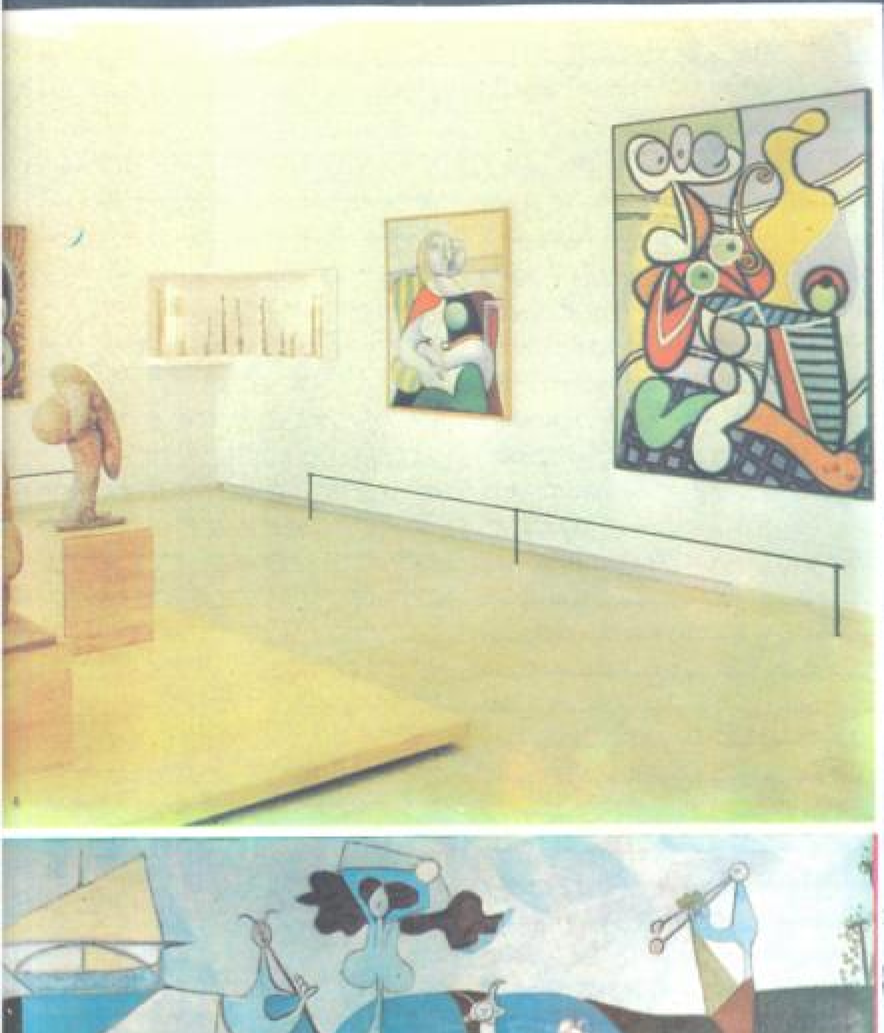

(الصورة أعلى) لقطة لاحدى القاعات في متحف بيكاسو الباريسي (وإلى اسفل) متعة العيش في انتيبولس ١٩٤٦

اولغا كوكلوفا ،
زوجة الفنان الاولى .

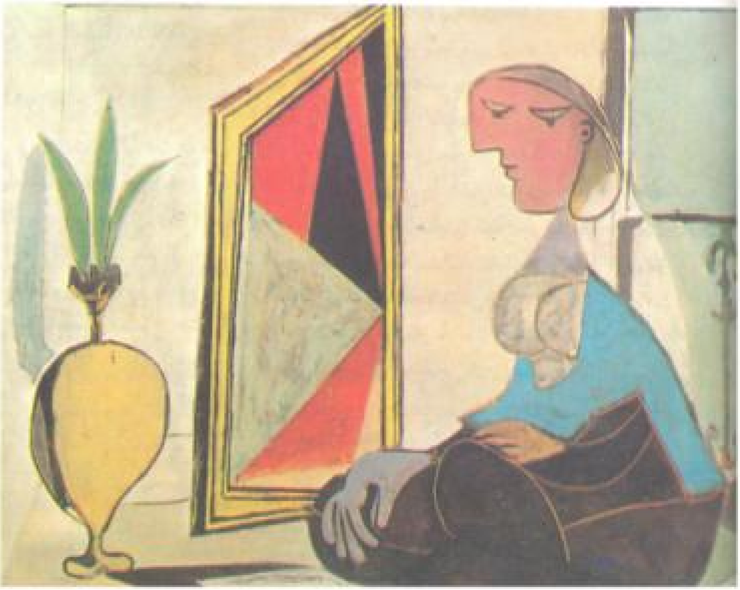

امرأة عند المرآة

نادرا ما كان يراه في الأكاديمية خلال سني الدراسة ، فمواطن وجوده كانت شوارع وأزقة العاصمة أو الجلوس ساعات طوالا في متحف (برادو) لاستنساخ لوحات عمالقة الفنانين ، وفي مقدمتهم أبناء وطنه ، دييجو فيلازكيز (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) وال غريكو (١٥٤٨ ـ ١٦١٤) والهولندي فان دك .

وفي هذه السنة أقيم معرضه الأول ، وهو في السادسة عشرة من عمره . وفي نفس العام نشر أول مقال عنه في إحدى المجلات الفنية .

بيكاسو في عاصمة الفن

مع ميلاد القرن العشرين أقيم في باريس معرض دولي للفن . وقد اختيرت إحدى لوحات بيكاسو للمشاركة في المعرض ، مما أتاح له فرصة زيارة عاصمة الفن والثقافة . فأخذ يهيىء نفسه من خلال انكبابه على العمل المتواصل ، فرسم مجموعة لوحات تعبر عن مشاهد يومية اسبانية وفي مقدمتها مشاهد مصارعة الثيران بهدف بيعها في باريس . وما أن لامست أقدام بيكاسو أرض باريس حتى أخذ يلتهم مشاهدها اليومية بناظريه ، ويقضي ساعات طوالا في متحف اللوفر ، وصالات الفن ، ويتنقل من متجر فني إلى آخر ، فيتعرف لأول مرة على أعمال الانطباعيين . وفي إطار هذه الدوامة اليومية كان يعمل دون توقف ، فصاغ عشرات التخطيطات عن انطباعاته اليومية في باريس : مشاهد من الشوارع والحانات والبشر . لقد رسم العشاق المتعانقين في الشوارع في وضح النهار (إنه مشهد لا يمكن له أن يحدث في اسبانيا على الإطلاق !) .

أمضى بيكاسو السنوات الثلاث التالية متنقلا بين فرنسا و اسبانيا ، دون أن ينقطع سيل نتاجه الغزير . ثم استقر في باريس ابتداء من ربيع عام (١٩٠٤) ، متخذا لنفسه مرسما في أحد المنازل العتيقة في حي مونمارتر ، الذي كان سكانه من شعراء ومصورين وممثلين ـ يطلقون عليه اسم المغسل العائم . هناك عاش بيكاسو ، مدة خمس سنوات ، عاش عيشة البوهيميين ، لا يكاد يجد ما يسد الرمق . ولكن حياته في هذه الحارة الخيالية ـ مونمارتر ـ كانت حافلة بأسباب التوقد والحماس ، إذ كان يعيش ويعمل وسط تلك الطائفة من الفنانين التي قدر لها أن تؤثر تأثيرا قويا في مجرى الحياة الثقافية ليس في فرنسا وحدها ، بل وفي العالم أجمع .

لقد كانت تلك الفترة سنوات عجافا في حياة بيكاسو ، فعلى الرغم من الفاقة المادية كان يتعرض إلى تخرصات ما يسمى « النقد الأكاديمي » . ومنذ معرضه الأول في باريس عام (١٩٠١ م) جرت الاستهانة بشأنه ، متهمين إياه (بتقليد غيره) من الفنانين المجددين . غير أنه لم يكن مقلدا في الواقع ، إنما كان مستوعبا ، فقد تذوق وجرب العديد من الأساليب لفنانين قدامى ، ومحدثين ، وتأثر بالنحت الاركايكي والبدائي . وفي السنوات القليلة التي تلت تلك التجربة نبذ بيكاسو الكثير من هذه الأساليب ، أما القليل الذي اقتبسه منها فلم يلبث أن ذاب في شرايين فنه هو ، منطلقا في سلسلة مغامراته الفنية المذهلة من حيث تعدد صورها ، هذه المغامرات التي أصبحت تعرف عند نقاد الفن الحديث « بمراحله » المختلفة التي سنتوقف عند أهمها .

المرحلة الزرقاء

تعرف المرحلة الزرقاء في حياة بيكاسو بمرحلة البؤس والتشريد بين باريس وبرشلونة وملقة . وغرفته في المغسل العائم باتت ثقيلة عليه ماديا ، فتقاسمها مع صديقه (ماكس جاكوب) ، على أن ينام أحدهم ليلا في السرير الوحيد والآخر أثناء النهار ، فكانت حصة بيكاسو من النوم في ذلك السرير اليتيم هي ساعات النهار . فكان يقضي الليل بالرسم والقراءة .

وقد أنتج عددا مهولا من اللوحات ، منها لوحة (اللقاء) التي تتحدث بلغة فنية معبرة للغاية عن لقاء أم وابنتها في محطة سانت لازار بباريس . وهذه اللوحة تذكرنا بالنحت القوطي من خلال إيقاعاتها وخطوط شخوصها وبخاصة قسمات الوجه . هنا يعود بيكاسو إلى منابع الفن ليستقي منها أشكالا ومقومات يستطيع بواسطتها التعبير عن آلام يعتقد بأنها عمق الحياة .

وفي السنتين التاليتين تعود الشخصيات المنبوذة إلى أعماله : البهلوانات والموسيقيون والمتسكعون في الطرقات والأطفال المحرومون ، والنساء اللواتي أضناهن الكد والتعب والمضحكون والمهرجون الذين تنم وجوههم - من وراء أصباغها الزاهية - عن الحزن الدفين . كانت لوحات بيكاسو في هذه المرحلة تكاد تكون من لون واحد ضارب إلى الزرقة ، ولذلك سميت تلك المرحلة « المرحلة الزرقاء » .

ومن أهم النتائج الواضحة في هذه الحقبة تنظيم معرض له من قبل تاجر اللوحات (بيدرو ماناخ) ، مخصصا لأعماله الزرقاء في باريس . وعلى الرغم من عدم تمكنه من بيع أية لوحة من المعرض ، إلا أنه استفاد من مقالة نقدية هامة كتبها (شارل موريس) ، أحد المقربين إلى الفنان (جوجان) ، وقد احتوت مدحا للمعرض ، فيها : « أليس هذا الطفل الرهيب الناضج بصورة مبكرة غير مؤهل لإضفاء قدسية التاجات العملاقة على الشعور السلبي بالحياة ، وعلى الحقارة ، التي يئن هو نفسه تحت وطأتها أكثر من أي شخص آخر ؟ » .

المرحلة الوردية

في نهاية عام (١٩٠٤) حدثت تطورات مهمة في حياة بيكاسو ، منها تعرفه على الشاعر جيوم ابولونير الذي تعرف بواسطته على مجموعة واسعة من الشعراء والفنانين ، ثم دخلت حياته امرأة (فيرناندا اوليفير) التي شاركته الحياة طول سبع سنوات . هذه العلاقة التي شجعته في تناول مواضيع الأمومة ، ومن ثم إنجاز سلسلة رسوم المهرجين الشهيرة ، لدرجة أنه رسم نفسه في هيئة مهرج رشيق القامة . فبدلا من مشاهد البؤساء والتعساء والمحرومين شرع يختار موضوعات أبهج ، (كصبي يقود حصانا) ، أو (نساء يمشطن شعورهن) .. إلخ . وأصبحت شخصياته الجديدة أكثر فرحا ونشوة مقارنة بالمرحلة الزرقاء .

وتوفرت الفرصة لبيكاسو لزيارة هولندا عام (١٩٠٥) ، ورسم هناك لوحته المعروفة (الهولندية الحسناء) والمعروضة في متحفه الدائم بباريس .

خبز أم أصابع بيكاسو ؟ !

المرحلة الزنجية والايبرية

إنها من أكثر المراحل خصوبة ، ليس على المستوى الشخصي فحسب ، بل في تاريخ الفن الحديث في القرن العشرين . فهي تشكل منعطفا حاسما ، وخروجاً نهائيا على الأسلوب الواقعي الذي اتصفت به أعماله حتى ذلك الحين . وشهدت أعماله رواجا جعل تاجر اللوحات « فيلار » يشتري كل أعماله الوردية بألفي فرنك ذهبي ، مما جعل بيكاسو يعود إلى برشلونة طلبا للراحة فترة قصيرة .

بورترية سيلفيت بالزيت

ومع عودته إلى اسبانيا اعتصم بيكاسو في قرية نائية تدعى (جوسول) ، وفي عزلته التامة شهدت الحياة أولى رسوماته الجديدة التي أعلنت ميلاد اتجاه جديد في الفن . لقد كان تكرار لقاء بيكاسو بالفنانين (ماتيس و ديراين) حافزا للعودة إلى الجذور البدائية للرسم ، وذلك إثر زياراتهما المستمرة لمعرض المنحوتات القديمة في باريس . فطوال انعزاله في جوسول حاول بيكاسو محاكاة ، بل ومبارزة تلك المنحوتات بلوحات جديدة . وحال عودته إلى باريس نفذ مجموعة أعمال وفق أسلوبه الجديد ، منها (صورة شخصية مع باليت) . ومنذ عام (١٩٠٦) تجددت اللقاءات بين الفنانين الثلاثة (ماتيس ، ديراين ، بيكاسو) التي تصفها الكاتبة جيرتورد شتاين قائلة : « لقد كانت لقاءاتهم تمثل لحظة حرية بالتأمل . فهناك انفعال سائد في الجو الاجتماعي » .

وعن الحديث عن هذه المرحلة يجب التذكير بأن الفن الحديث قد حاول تجاوز ما يسمى الإرث الأوروبي لعصر النهضة وما تبعها . فجرى التوجه لدراسة الآثار الفنية الافريقية (الفن الزنجي) وشعوب ماخلف البحار . ولم يكتف بيكاسو بهذه الأصول الجديدة ، بل رجع إلى بدايات النحت الايبري (الأسباني القديم) . وفي السنة التالية انصرف للعمل في لوحته الشهيرة (غانيات افينيون) . وتعتبر هذه اللوحة من أهم الآثار الفنية للقرن العشرين . فهي حصيلة دراسة تحضيرية واسعة ، خاصة لأعمال (ال جريكو) وزواياه الحادة ، والفن الزنجي وأقنعته الشهيرة ، بالإضافة إلى معرفته الدقيقة للنحت الايبري القديم ، ودراسته التحليلية لأعمال سيزان الأخيرة . إن كل تلك الدراسات تعتبر ذات قيمة عظيمة ، فهي البرهان الدقيق على أن بإمكان الرسم أن يكتشف أساليب تعبيرية جديدة على مر الزمن .

المرحلة التكعيبية

الفضل في ولادة الحركة التكعيبية تعود إلى شخصين : بابلو بيكاسو ، والفنان الفرنسي جورج براك ، ففي خريف عام (١٩٠٧) التقى الرجلان من

صورة شخصية لفرناند .

امرأة في لون ازرق

بورترية امرأة ..
رسمها عام ١٩٥٤ .

بورترية مايا وهي ابنة الفنان بيكاسو
رسمها بالزيت عام ١٩٣٨ .

خلال صلتها بالشاعر ابولونير ، وما لبثا أن أصبحا زعيمي جماعة من الفنانين والكتاب الشبان . فيتعقد شملهم كل ليلة في مطعم صغير من مطاعم مونمارتر ، ليحتدم بينهم النقاش حول القديم والجديد في الفن والأدب بعامة ، وحول الفن البدائي عند مختلف الشعوب بخاصة . في هذا المطعم الصغير سجلت التكعيبية ولادتها . وما أن ظهرت نتاجاتها الفنية الأولى حتى انهال عليها النقد الاكاديمي متهما لفيف الفنانين : « أنهم يحولون الأشكال إلى مكعبات » ، أي أن أصل المفردة هو بالأساس ساخرا ومتهكما . ومن باب التحديد قبل أنصار هذا اللون من الفن وصف أعمالهم « بالتكعيبية » ، فأقاموا معرضهم الأول عام (١٩١١) ، باسم « التكعيبية التحليلة » .

وتعني تجزئة الجسم إلى أجزاء هندسية ، حيث تحليل الهيكل الرئيسي ومن ثم إعادة تركيبه في اللوحة . فالرسام التكعيبي كان يلجأ إلى تجزئة اللوحة إلى مكعبات (سواء أكانت وجها أم قنينة أم قيثارة) ، ثم تجميع هذه المكعبات وكأنها قطع أحجار منحوتة في بنيان جديد . إن بيكاسو وزميله براك على معرفة تامة بأن صورة الطبيعة لا يمكن لها أن تظهر في كتل مربعة ، بل كان هدفهم الأساسي هو الكشف عن الشكل الهندسي الذي يكمن وراء المظهر الخارجي . وبعد تحليله التجزيئي للأشياء ، عكف بيكاسو للتلاعب بهذه المكعبات من أجل التوصل إلى صورة تدل على « الهيكل » الأساسي الكامن داخل الجسم أو الموضوع المرسوم ، وبفعل ذلك تحولت المكعبات إلى سطوح منبسطة متداخلة تبدو عليها الحركة بفضل التلاعب بالظلال ، والإغفال المتعمد للون ، والتخلي عن الإطارات التي تحد النظر .

- التكعيبية التركيبية : بعد حصيلة هذا التفتيت للأشكال إلى عناصرها الأساسية ، ثم استخلاص بعض هذه العناصر لإعادة بنائها في صورة أخرى ، يظهر اتجاه جديد يدعى بالتكعيبية التركيبية ، هدفه العودة إلى واقع الأشياء . فأخذ بيكاسو يختار جزءا أو عدة أجزاء من الموضوع الذي يصوره . ولنقل مثلا

ظهر كرسي أو ساق منضدة ـ فيرسم هذه الأجزاء على اللوحة متخذا إياها بمثابة نواة يحيك حولها ما يروق له من تكوينات ثنائية الأبعاد ، متجاهلاً بذلك أحد أعمدة فن التصوير منذ عصر النهضة ، ونعني بذلك المنظور ، أما صديقه براك فدخل هو أيضا في مغامرة جديدة متسائلا : ما جدوى الكد وبذل الجهد في رسم صورة على مثال الشيء المصور ؟ ولماذا لم يجر تناول هذا الشيء أو جزء منه ووضعه على اللوحة ؟ من هنا راح الرسامان يلصقان على لوحاتهما قصاصات من الجرائد أو ورق اللعب وقطع من علب الكبريت ، بل وحتى الخيش ، مضيفين إلى هذه الأشياء خطوطا وألوانا من نسيج الخيال لاستكمال التكوين . وهكذا نشأ ما يسمى أسلوب (الكولاج) « التلصيق » الذي شاع استخدامه فيما بعد بين التجريبيين والسورياليين .

العودة إلى الكلاسيكية

أثناء الحرب العالمية الأولى لم تسمح فرنسا للاسبان المقيمين على أراضيها بحمل السلاح ، فاستدعي براك للخدمة العسكرية في حين مكث بيكاسو في باريس ، يرسم الوجوه (بورتريه) وسط صياح واتهامات الصحافة الفنية له بخيانة التكعيبية ، وفي الحقيقة أن بيكاسو قد صد عن هذا الأسلوب بعدما التمس حدوده القصوى وتعذرها عن مسايرة تطوره المتسارع ، فقرر العمل مع الكاتب المسرحي جان كوكتو ، كمصمم للديكور وراسم للستائر لمسرحيات وباليهات عديدة ، وبالتالي السفر إلى روما . وهناك قابل بيكاسو استاذ الباليه الشهير دياجيليف ، كما تعرف على سترافنسكي ، أحدث المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين .

وتزوج براقصة الباليه الروسية أولجا كوجولوفا عام (١٩١٨) التي أنجبت له ولده (باولو) . واتسمت حياته بالاستقرار والنشوة ، مما دفعه إلى رجوع رصين إلى الكلاسيكية ورسم شخوص رقيقة وصافية .

السوريالية وسنوات الحرب

إن رجوع بيكاسو للكلاسيكية لا يعني الارتماء في أحضان الأصول الأولى ، بل يعني محاولة أخرى منه لضم ما هو مفيد من التكعيبية ، واكتشاف أشكال جديدة لها ، ففي عصره المائج لا يمكن لفنان مجدد كبيكاسو الاكتفاء الآلي بالأصول ، فأمام الجديد في القرن العشرين وصل صراع الأضداد إلى أوجه . فظهرت الحركة الدادائية التي ارتبطت بزمن الحرب العالمية الأولى،والاحتجاج على المدنية التي قادت للكارثة ، فعملت على مقاومة إغراءات القوالب الجاهزة و « الكليشيهات » التعبيرية السائدة التي زيفت الموضوع المراد وصفه . فالدادائية هي صراع من أجل التعبير المباشر ، وهي بذلك مماثلة للسوريالية ، وليس غريبا أن ينحاز جل الدادائيين في فرنسا إلى الحركة السوريالية في منتصف العشرينيات .

إن أهمية الدادائية لاتنحصر في أعمال ممثليها الرسميين (اندريه بريتون ، اراغون ، بول ايلوار . . . .) فحسب ، لأنهم لفتوا الأنظار إلى الطريق المسدود الذي وجد الفن نفسه فيه عند نهاية الحركة الرمزية ، وإلى عقم التراث الفني الذي لم يعد له أدنى اتصال بالحياة الواقعية .

في هذه الدوامة العارمة انتقل بيكاسو إلى مرحلة جديدة اتصفت بتحريفات عنيفة للشكل « جروتسكية » ، وهو أسلوب ينطوي على إغراب وإغراق في السخرية والتشنيع . والمقصود هنا على الأخص : غرابة الشكل الذي يبدو ممسوخا في صورة شاذة عجيبة . فنزعته الجروتسكية تعني القضاء المتعمد على وحدة الشخصية ، والتجانه للمحاكاة ما هو إلا شكل من الاحتجاج على عبادة الأصالة ، وتشبيهه للواقع الذي يكتسي دائما بأشكال جديدة ، ويتدرج ضمن منطقه الخاص من أجل إثبات عرضية هذه الأشكال بصورة أقوى . وقد أخذت هذه التشويهات للشكل أول الأمر صورا مسطحة متداخلة الخطوط ، يستطيع المرء أن يتبين فيها مع ذلك ما يشبه الإنسان ، وإذا بها تتخذ ابتداء من عام (١٩٢٧) صورة شنيعة ، مجسمة كالتماثيل ، يكاد يستحيل التعرف فيها على أي عنصر إنساني .

فبيكاسو ينقلب إلى ساحر ومقلده ساخر ليس من الرومانتيكية فحسب ، بل لقد تبرأ أيضا من عصر النهضة بمفهومه للعبقرية وفكرته في وحدة العمل والأسلوب . وهو يمثل خروجا تاما على النزعة الفردية والذاتية ، وإنكارا مطلقا للفن من حيث هو تعبير عن شخصية لاتخطئها العين .

حاولت السوريالية كحركة ضم بيكاسو إلى حلقاتها دون أن يحالفها النجاح ، فهو أكبر من أن ينحصر في مفاهيم وأساليب تعبيرية محددة مسبقا . وفي هذه السنوات على الأخص تأزمت علاقته الزوجية بأولجا ، فانصرف لرسم الوجوه المزدوجة ، أي تصوير الإنسان في صورته الجانبية والأمامية ، ليصل من عنف التعبير حدا يشعرنا بأن بيكاسو لا يصور وجها ، وإنما يصور حالة نفسية .

وبفعل تعمق الأزمة السياسية في أوروبا واندلاع الحرب الأهلية في وطنه اسبانيا أنجز بيكاسو قمم أعماله الفنية ، ومنها لوحة « المرأة الباكية » المعروضة اليوم بلندن في جاليري تيت .

إن مأثرة بيكاسو الاسطورية تجسدت دون أدنى شك في جداريته « جرنيكا » عام (١٩٣٧) ، فقد كانت جرنيكا مدينة هادئة مسالمة في مقاطعة الباسك الاسبانية ، بعيدة عن صوت المدافع ومجازر سنوات الحرب الاهلية ، فتعرضت إلى قصف وحشي من قبل الطائرات الهتلرية لتبيد سكانها العزل .

إن اللوحة قد تجاوزت بعدها التسجيلي والتاريخي ، لتكون ندا لصورة الإنسان حين يتمزق بدنه ويتناثر إربا أو فتاتا . وقد يكون ذلك الإنسان فلسطينيا في قرية « دير ياسين » أو مخيمي « صبرا و شاتيلا » .

في سنوات الحرب العالمية الثانية لازم بيكاسو باريس ، يرسم ويبحث في انعزال تام ، فمنعت أعماله من العرض أمام الجمهور . وعلى الرغم من أن النازية قد نعتت فنه بالانحطاط لكن الجستابو لم يتجاسر على المساس به ، بل عمل بعض جنرالات الجيش الهتلري المحتل لفرنسا على زيارته بين الحين والآخر ، فكان بيكاسو يهدي كلا منهم صورة فوتوغرافية للوحة جرنيكا ، إلى أن زاره يوما أوتو ابتز مندوب هتلر في باريس عارضا عليه زيادة نصيبه من الأغذية والوقود ، فرفض بيكاسو بإباء . وعند الخروج وقعت عينا الزائر الثقيل على صور لجرنيكا فسأله : « أهو أنت إذن صانع هذه اللوحة يا سيد بيكاسو ؟ » فأجابه الفنان : « كلا ، أنتم الذين صنعتموها » !

فنان القرن

عندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها اكتشف العالم جوانب جديدة من حياة بيكاسو ، فظهر أنه كان نحاتا من طراز فريد ، من منحوتاته « رجل وخروف » وقد نفذها عام (١٩٤٤) ، كاحتجاج على الحرب ، وهي اليوم معروضة في عتبة متحفه الدائم بباريس . وتركت تلك السنوات نتاجات هائلة في حقل الخزفيات وفن الليتوغرافية ، فأقيم له معرضان كبيران ، أحدهما في متحف اللوفر ، والثاني في المكتبة الوطنية . وآنذاك اتهمه بعض النقاد على الرغم من اعجاب الجمهور ، بأنه لم يكمل ثورته التي بدأها مع لوحة « غانيات افينيون » ، لكن السنوات التي بقيت من حياته أظهرت عقم تلك التقييمات النزقة ، فراحت تسقط تلك الأقنعة الواحد بعد الآخر ، ليظهر فنه عصريا نادراً . ويجب القول في هذا الصدد بأن الفن إن كان حديثا أو قديما ، لن يخلق إجماعا بين الجمهور والنقاد . وبيكاسو قد عقب يوما على ذلك قائلا : « إن فن التصوير لم يخلق لتزيين الحجرات » .

في كتاب عن بيكاسو صدر عام (١٩٣٧) تقول الكاتبة الأمريكية جروترود شتاين : « إن الأشياء التي رآها بيكاسو كانت هي الأشياء الكائنة . وينبغي ألا ننسى أن حقيقة القرن العشرين ، ليست هي حقيقة القرن التاسع عشر . وقد كان بيكاسو هو الرسام الوحيد الذي شعر بذلك ، فماتيس وجميع الآخرين رأوا القرن العشرين بعيونهم ، لكنهم لم يبصروا غير حقيقة القرن التاسع عشر . أما بيكاسو فكان الوحيد بين الرسامين المعاصرين الذي رأى القرن العشرين ، وأبصر حقيقته . □

شكل الكون كما كان يتصوره العرب ، وتبدو فيه الأرض في مركز الكون وحولها الكواكب بما فيها الشمس التي اعتبروها كوكبا يدور حول الأرض . وقد قسم العرب فلك المحيط (فلك البروج) إلى اثنى عشر برجاً

العلاقة بين البيئة والإنسان في كتب التراث

بقلم : الدكتور محمد علي الفرا

كان موضوع العلاقة بين البيئة والإنسان من المواضيع التي تناولها كثير من الجغرافيين والمفكرين العرب بالبحث والدراسة ، ولعل من أبرز من كتب في هذا الموضوع « الهمداني » ، والمسعودي ، وابن خلدون . وقد تبنى هؤلاء أفكار اليونان الحتمية التي تقول بأن البيئة تؤثر في الإنسان من حيث الشكل واللون والصفات الجسمية ، والسلوك والطباع والأخلاق والأنشطة والفعاليات التي يمارسها الإنسان كي يحيا ويعيش .

لعل من المتعارف عليه اليوم أن البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من مظاهر ومؤثرات وظروف وأحوال ، وعند دراسة العلاقة بين البيئة والإنسان كان القصد هو البيئة الطبيعية التي تسبق الإنسان في وجودها ، وتتألف من عناصر ومكونات لا دخل للإنسان في إيجادها ، ولم يؤثر فيها تأثيرا يغير من معالمها ، أو يخل بتوازنها . وتشمل مكونات البيئة الطبيعية الموقع ، ومظاهر السطح ، وتضاريسه ، والبنية ، والأحوال المناخية ، والحياة النباتية ، والحيوانية ، الطبيعية أو البرية .

أما مفهوم البيئة عند غالبية الجغرافيين والمفكرين العرب فكان أوسع من ذلك ، فقد كان يشمل السماء بما فيها من نجوم وكواكب وأبراج ، وبناء عليه يمكننا - لأجل التبسيط - القول بأن العرب - كاليونان - اعتقدوا بسيطرة النجوم والكواكب على بني البشر ، وفي نفس الوقت نادوا بتأثير البيئة الطبيعية على الإنسان . وسنطلق على السيطرة النجمية بمؤثرات البيئة الفلكية ، تمييزا لها عن البيئة الطبيعية التي سبق شرحها .

تأثير البيئة الفلكية على البشر

أخذ العرب عن اليونان - وبخاصة « بطليموس » - فكرة تأثير الأبراج والكواكب والنجوم على طبائع الشعوب وعاداتها وسلوكها وأمزجتها . وينقل « الهمداني » عن « بطليموس » قوله بأنه « لما انقسمت دائرة البروج بأربعة أقسام وهي المثلثات ، لأن كل قسم منها ثلاثة أبراج ، على طبيعة من الطبائع الأربع التي هي : النار والأرض والهواء والماء ، انقسم عامر الأرض بأربعة أقسام ، كل قسم منها منسوب إلى قسم من المثلثات في الطباع ، لأن كل محيط يطبع ما أحاط به على قدر طبيعته » .

وعليه تكون هذه المثلثات على النحو التالي :

١ - المثلثة النارية ، وتشمل أبراج : الحمل والأسد والقوس أو الرامي . أما الكواكب المدبرة لها أو المؤثرة فهي المشتري والمريخ .

٢ - المثلثة الترابية ، وتشمل أبراج : الثور والسنبلة والجدي . والكواكب المدبرة لها الزهرة وزحل .

٣ - المثلثة الهوائية ، وتشمل أبراج : الجوزاء والميزان والدلو . والكواكب المدبرة لها زحل والمشتري .

٤ - المثلثة المائية ، وتشمل أبراج : السرطان والعقرب والسمكة . والكواكب المدبرة لها المريخ والزهرة .

وكما سبق القول فإن كل مثلثة من هذه المثلثات الأربع التي تتألف منها دائرة البروج تقابل قسما من أقسام الأرض الأربعة ، لاعتقادهم بأن الأرض مقسومة إلى أربعة أقسام . أما دائرة البروج فهي الدائرة التي تصنعها الشمس نتيجة دورانها حول الأرض ، فالأرض عندهم تقع في مركز الكون ، بينما الشمس وسائر النجوم والكواكب تدور حولها .

وبناء على تطابق المثلثات الفلكية على أقسام الأرض الأربعة فإن المثلثة الأولى - النارية - تنطبق على قارة أوروبا ، والمثلثة الثانية - الترابية - تنطبق على جنوب آسيا ، والمثلثة الثالثة - الهوائية - تنطبق على شمال آسيا ، أما المثلثة الرابعة - المائية - فتنطبق على افريقية .

وبما أن كل مثلثة لها كواكب تدبرها فإن سلوك وطبائع سكان كل قسم من أقسام الأرض تتأثر بتلك الكواكب المدبرة لكل مثلثة تنتسب إليها على النحو التالي :

١ - يتصف سكان أوروبا بصفات عامة ، أهمها : الحرية والشجاعة والقوة ، وتتميز الأقوام الشمالية والغربية من أوروبا - كبريطانيا - بالتهور والوحشية ، أما في الجنوب - كايطاليا - فهم أصحاب سياسة ، وحب للخير .

٢ - يتصف سكان جنوب آسيا عموما بالتشابه في الصور ، واعتدال البدن والأنفس ، وهم أصحاب سياسة ، أشداء ، محبون للحرية ، انفراديون ، محبون للموسيقا والأغاني ، يكرمون الغرباء . وفي هذا القسم يقع شبه جزيرة العرب .

٣ - يتصف سكان وسط آسيا - مثل ارمينية ،

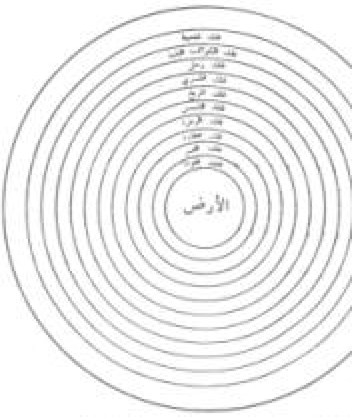

شكل يوضح البروج بأسمائها المختلفة .

وسمرقند وطبرستان وخراسان ـ بالنظافة والحكمة والأخلاق الحسنة والحرية ، ونبل النفوس ، وبغضهم للشر ، ومقتهم للنميمة ، يجودون بأرواحهم في الشدائد ، ولهم دهاء ومكر .

٤ ـ يتصف سكان افريقية ـ مثل السودان والزنج والأحباش ـ بحرارة طباعهم ، وفيهم خبث وشر وإفك وغش وغيلة ، أصحاب شجار ونزاع ، قساة غلاظ على بعضهم .

ونجد « الهمداني » في كتابه المذكور آنفاً يقسم كل قسم من أقسام الأرض الأربعة إلى أجزاء ، ويتبع كل جزء مجموعة من البلدان ، ويذكر النجوم التي تسيطر على كل قسم ، وصفات وطبائع كل منها .

مؤثرات البيئة الطبيعية في الإنسان

لعل « أبو قراط » ـ **Hippocrates** ـ صاحب القسم الطبي المشهور ، والذي يطلق عليه « أبا الطب » والمولود سنة ٤٦٠ ق . م . كان أول من بحث في العلاقة بين البيئة والإنسان في رسالته الشهيرة التي أطلق عليها اسم « الأهوية والمياه والأماكن » ، وكانت أول رسالة في علم المناخ ، تصف أثر طبيعة الأرض والمناخ والصحة . ومن بعد أبقراط كتب في نفس الموضوع كل من « أرسطو » ، و « بطليموس » ، و « جالينوس » .

وكان « المسعودي » من أوائل الجغرافيين العرب الذين كتبوا في العلاقة بين البيئة والإنسان ، فنراه في كتابه الشهير « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يقول : « وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال ، اجتمعت فيه ، ولم توجد في غيره : تفلفل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين ، وتحديد الأسنان ، وسواد الحدق (الخلق) ، وتشقق اليدين والرجلين ، وكثرة الطرب » .

آراء ابن خلدون في البيئة

يعتبر العلامة « عبدالرحمن بن خلدون » أكثر العلماء العرب تفصيلا في شرح العلاقة بين الإنسان والبيئة . كان « ابن خلدون » متعدد المواهب ، كتب في كثير من العلوم والمعارف ، فهو واضع أسس فلسفة التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وتطرق إلى مواضع جغرافية متنوعة . ففي مقدمة كتابه المسمى « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » يخصص ثلاث مقدمات يحلل فيها ويفسر مدى تأثير البيئة الطبيعية في الإنسان . ففي المقدمة الثالثة وعنوانها « في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم » يقول ابن خلدون :

« وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم ، فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر ، يخصفونها عليهم ، أو الجلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس » .

وكان العرب شأنهم شأن الإغريق ، اعتقدوا بأن المعمور من الأرض ، أي المأهول بالسكان ربعها فقط ، ولذلك أطلق عليه « الربع المعمور » ، وقسموا هذا الربع إلى سبعة أقسام ، كل قسم يسمى إقليما ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، ويتمشى من درجات العرض ، وشكله كالحزام أو البساط المفروش . وهذه الأقاليم مختلفة في الطول

خريطة العالم للشريف الادريسي ومن المعلوم بأن الخرائط العربية كانت تضع الجنوب في أعلى الخريطة .

والعرض ، فأطولها وأعرضها الإقليم الأول ، لأنه يشمل أراضي تقع في جنوب خط الاستواء وشماله ، ويختلف كل اقليم عن الآخر حسب اختلاف طول الليل والنهار .

ونظرا لقرب الإقليم الأول والثاني من خط الاستواء ، فهما شديدا الحرارة ، بينما يتميز كل من الاقليم السادس والسابع بشدة البرودة ، لبعدهما الشديد عن دائرة خط الاستواء ، أما الإقليم الثالث والرابع فيغلب عليهما الاعتدال لموقعهما الوسط .

لون البشرة نتيجة تأثير البيئة

يعتقد ابن خلدون ـ كما اعتقد غيره من العرب كالمسعودي والإدريسي ـ بأن اختلاف ألوان البشر يرجع إلى مؤثرات بيئية ، ففي المقدمة الثالثة يرى ابن خلدون أن الاختلاف بسبب تباين الحرارة في الأقاليم ، وفي ذلك يقول :

« فإن الشمس تسامت رءوسهم (يقصد سكان الإقليم الأول والثاني) مرتين في كل سنة ، قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ، ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسود وجوههم لإفراط الحر . ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس ، شمل سكانها أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ، إذ الشمس لاتزال بأفقهم في دائرة مرأى العين ، أو ما قرب منها ، ولا ترتفع إلى المسامتة ، ولا ما قرب منها ، فيضعف الحر فيها ، ويشتد البرد المفرط عامة الفصول ، فتبيض ألوان أهلها ، وتنتهي إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون ، وبرش الجلود ، وصهوبة الشعور » .

تأثير البيئة على الأخلاق والسلوك

اعتقد العرب بتأثير البيئة ـ متمثلة في المناخ ـ في سلوك الناس وأخلاقهم . وقد خصص ابن خلدون المقدمة الرابعة وعنوانها : « في أثر الهواء في أخلاق البشر » لبحث هذا الموضوع ، وفيها يقول :

« وقد رأينا من خلق السودان (يقصد الزنوج) على العموم الخفة والطيش ، وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له ، زائدة في كميته ، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها

سورة الخمر في الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح ، وتجيء طبيعة الفرح » .

تأثير البيئة في أبدان البشر

ولم يقتصر تأثير البيئة على ألوان البشر وسلوكهم وطبائعهم وأخلاقهم ، بل شمل أيضا الخصائص البدنية والمعيشية ، ففي المقدمة الخامسة لابن خلدون ، وعنوانها « في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم » يقول :

« فإنا نجد الأقاليم المخصبة العيش ، الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه ، يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم ، والخشونة في أجسامهم » .

الأفكار البيئية تنتقل إلى أوروبا

لقد تتلمذ الأوروبيون على العلماء العرب ، وقاموا بترجمة كتبهم ، واعتنقوا الكثير من آرائهم وأفكارهم في مختلف العلوم والمعارف ، ولا شك في أن الأوروبيين مدينون للعرب بنهضتهم التي أعقبت العصور الوسطى ، والتي اقترنت بالجهل ، وآذنت بانبثاق عصر جديد ، شعاره العلم والحرية .

وقد اعتبر الأوروبيون « ابن خلدون » رائدا لكثير من العلوم ، فأخذوا عنه أسس علم الاجتماع ، وتبنوا آراءه في العلاقة بين البيئة والإنسان ، فمونتسكيو يردد أقوال ابن خلدون بأسلوبه الخاص ، ويقول بأن المناخ الحار هو سبب الجمود في العادات والتقاليد والقوانين ، وسكان المناطق الحارة ضعاف الأجسام كسالى .

وقال المفكر الفرنسي « بودان » **Bodin** الذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر بأن للبيئة تأثيرا على البشر ، فسكان الأقاليم الشمالية يتصفون بالقوة والغلظة والإقدام ، أما أهل الأقاليم الجنوبية فأصحاب مكر ودهاء ، ويحبون الانتقام ، ولكنهم يمتلكون القدرة على التمييز بين الحق والباطل . ويتميز سكان الأقاليم المعتدلة بأنهم أوفر حظا في المواهب من أهل الشمال ، وأكثر نشاطا من أهل الجنوب ، وهم وحدهم يمتلكون موهبة التدبير التي لا غنى عنها في قيادة الشعوب .

وقد ظلت الأفكار البيئية الحتمية مسيطرة حتى مطلع القرن العشرين ، حينما تحول الفلاسفة والمفكرون في الغرب إلى فكرة « الإمكانية » **Possibilism** التي تقول بأن الإنسان يختلف عن سائر الكائنات بعقله وإرادته ، وبفضل ذلك استطاع أن يتغلب على كثير من عوامل البيئة ، ولديه الكثير من الإمكانيات التي تمكنه من التأثير على البيئة . وكان شعار هؤلاء : « ليست هناك حتميات وإنما هناك إمكانيات » . □

■ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها :

أوصاني بالاخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون نطقي ذكرا ، وصمتي فكرا ، ونظري عبرا . »

في الظل والظلام

قصة بقلم : ابراهيم قنديل

خلف وجهه كان زجاج النافذة المغلق يؤطر مستطيلا من سماء نهار شتوي غائم ، تمتد فوق أطراف المدينة كخيمة عسكرية مغبرة ، والحجرة التي يصر على عدم إشعال أي ضوء فيها إلا بعد أن تغرق تماما في الظلام ، كانت تلفني معه في صمت ، تكثفه برودة وإظلام انتهاء النهار . وقع خطا ابي عبد الرحمن كلما اقترب من باب الحجرة ، أو صياحه الذي يكلم به أمه أو جدته أو أشياء البيت ، هو كل ما يخدش هذا الصمت بين الحين والحين .

على الضلع السفلي من إطار النافذة الخشبي كان يسند مؤخرة رأسه ، وخصلات طويلة شعثاء من قمتها ، حيث المنطقة الوحيدة من جسمه التي تسقط عليها بقايا ضوء النهار الشحيحة ، تبدو في لون الفضة القديمة ، تماما كلون قطعة مسدسة من فئة القرشين أعطاني إياها صبيحة ذهابي إلى المدرسة للمرة الأولى منذ ثلاثين سنة تقريبا . ملامح وجهه تكاد لاتتبين ، ولحيته الشيباء التي لم تعد تحلق إلا كل اسبوع عندما تترك أختي عزة بيتها وتجيء لغسل جسده وملابسه ، تغطي وجنتيه الغائرتين بضباب يزيد وجهه شحوبا ونحولا ، عيناه شاخصتان إلى أعلى الجدار في مواجهته ، خلف مقعدي ، حيث لاشيء سوى الدهان القديم ، وذراعاه مسدلتان على فخذيه الضامرتين داخل « روبه » الثقيل ذي المربعات الداكنة الزرقاء .

حين وصلني بالسعودية منذ شهور خطاب أختي عزة لم أصدق ، وكتمت قلقي وانزعاجي ، معتقدا أنها تبالغ كعادتها ، فقد كان خلال جميع اجازاتي السابقة ، قبل ثلاث سنوات يتمتع بنفس حيويته ومرحه المعهودين ، خاصة حين يداعب أيا من أحفاده أو أبنائه ، على الرغم مما كان يعتريه من الاعتلال وفقدان النشاط اللذين قد لازماه منذ توقف عن العمل منذ عشر سنين .

فور وصولي الى البيت في هذه الاجازة ، وبعد الحاح لايهدأ على أمي ، تحاملت على أوجاعها التي ألزمتها الفراش منذ سنتين وأخبرتني ، وهي تبكي عجزها عن الاهتمام به ، وتبكي الموت الذي لايجيئها حتى لاتراه هكذا ، بتفاصيل حالته : قد يمر يوم أو يومان دون أن ينطق ولو عبارة واحدة ، وان سأله أحد عن شيء فكأنه لايسمع ، و ان أجاب فبكلمة أو بكلمتين ، وفي الأوقات القليلة التي يبدأ فيها بالحديث ينتقل فجأة من موضوع الى آخر لا علاقة بينها على الاطلاق ، ولا يتم هذا أو ذاك ، كلامه المنظم المفهوم الوحيد هو ما يحدث به نفسه ، كأنه يتناقش في أمور العمل مع من ماتوا من زملائه القدامى . . « الباشمهندس عاصم » الذي سماك باسمه ، والمعلم « أنور » رئيس النقاشين ، والحاج « عبد الباقي » مقاول الأنفار . كان أحيانا يطلب منا أن نصنع الشاي والقهوة لهم ، كما أنه لارغبة له في

* كاتب قصة من القطر المصري

طعام أو شراب ، وغالبا ما يقضي حاجته وهو جالس كالطفل ما لم يساعده أحد . في أوقات أخرى نادرة يكون طبيعيا تماما ، ينادي « جابر » الحلاق من النافذة ، ليصعد ويحلق ذقنه ويهذب شعره ، ويطلب مني مساعدته في تغيير ملابسه ، أو استدعاء « عزة » لغسلها ومساعدته في الاستحمام . يسأل عنكم واحدا واحدا ، ويحسب كم سنة باقية ليصبح « عمر » عقيدا أو مأمور قسم ، يتساءل متى سيجيء « عاصم » من السعودية ، ومتى تنتهي بعثة « علا » لترجع هي وزوجها من أمريكا ، ويدعو « لعزة » على ما يكيدها من عناء . لم تترك طبيبا واحدا لم نذهب اليه ، لكنهم كلهم أجمعوا على أنه يعاني من آثار الجلطة ، بالاضافة الى أعراض أخرى سببتها الشيخوخة ، واضطراره للبقاء في البيت دون عمل .

أوشكت اجازتي على الانتهاء وأنا بعد لا أصدق أن هذا هو أبي الذي رأيته آخر مرة منذ ثلاث سنوات ، وما أن لمحني أهبط وزوجتي من سيارة الأجرة التي أقلتنا من المطار حتى اختفى من النافذة ، وكانت عصاه التي يتوكأ عليها تقرقع على بلاط الدرج ، وصياحه بفرح يتدفق إلى الشارع .. « أين عبد الرحمن ؟ .. » « أين عبد الرحمن ؟ ! .. » كانت تلك أول مرة يرى فيها ابني « عبد الرحمن » الذي كان عمره حينئذ بضعة أشهر ، ولم يسمح لأحد طوال تلك الاجازة أن يرفعه عن ركبتيه أو صدره ، بل كان على زوجتي أن تقسم له أنها ستعيد إليه الطفل بعد ارضاعه حتى يعطيها إياه . كانت فرحته بأول حفيد من أحفاده يسمى باسمه تبرق في عينيه ، إذ يضم الطفل إلى صدره سائدا رأسه بكفه ، وباحثا في ملامحه الصغيرة عن ملامحه هو ، ويضحك والامتنان ملء وجهه ، مداعبا زوجتي ، « أنت وزوجك مجانين يا سهير ، الناس هذه الأيام يسمون أولادهم ماجد ، هيثم ، رامز .. وليس عبد الرحمن .. ! » يقول ذلك وهو ينطق اسم « عبد الرحمن » بتضخيم مبالغ فيه ، فتضحك زوجتي معه .

هل هذا هو أبي ؟ هل هذا هو « عبد الرحمن مصطفى » الذي كان في وقت من الأوقات أشهر مقاول في الاسكندرية ؟ هل هذا هو الرجل الذي كان يسيطر وحده دون مهندسين أو ملاحظين على جيش من البنائين والنجارين والنقاشين وحدادي المسلح والعمال ليخرج إلى الوجود أجمل المباني الباقية حتى الآن بشوارع الاسكندرية والقاهرة والكثير من مدن مصر .. ؟

كان يغضب كلما كانت أمي تلمح إلى أنه يرهق نفسه دون طائل ، وأن غيره من المقاولين لايتعب مثله ، ويكسب أكثر منه بكثير ، ويوضح لها منفعلا أنه لايبغي طمعا في ربح ، ولا حتى رغبة في اسكان الناس ، بل لأنه فقط يحب مشاهدة المباني الجميلة والمزخرفة ، ولا يتصور كيف تبنى عمارة دون نقوش بارزة بمدخلها أزهار لوتس وشموس فرعونية ، ورءوس أسود وزخارف رومانية وحليات غائرة وبارزة على وجهات الشرفات وأسفل النوافذ . كان يفخر دائما أنه المقاول المسلم الوحيد الذي يلجأ اليه المسيحيون لتشطيب زخارف كنائسهم أحيانا . هل هذا هو أبي .. ؟ وهل هذا البدن الضامر المتكمش داخل « روب » ثقيل داكن هو نفس الجسد العملاق الذي اخترق كتل المتفرجين ورجال الأمن واللاعبين ، حين طوحتني على الأرض ركلة شرسة من أحد لاعبي الخصم ، لينحني علي ودائرتان كبيرتان من العرق على قميصه الأبيض تحت ابطيه تردني رائحتها طفلا على صدره بين الوعي وغيبوبة الألم .. ؟

الأثر الأخير لصفرة نهاية هذا النهار الشتوي كان يختفي خلف زجاج النافذة ، تحت مساحة مبهمة من لون رصاصي ثقيل ، تاركا بفراغ الحجرة ذلك الوخز الثلجي الخافت الذي يصاحب مغيب الشمس وتلك البرودة التي يكثفها الصمت والشرود .

كان يرجع الى البيت في مثل هذا الوقت من أيام الشتاء ، وقد تكدست بين ذراعيه وصدره أكياس ورقية صفراء ، يبرز من فوهاتها المكتظة البرتقال والموز واليوسفي وأبو فروة ، أو يتبعه أحد عماله حاملا حزمتين أو ثلاثا من القصب ، ينادي حتى قبل أن ينغلق وراءه باب البيت .. يا « عمر » .. يا

« عاصم » . . يا « عزة » . . . . يا « علا » . تحمل عن صدره الكبير وذراعيه أكياس الفاكهة إلى طاولة الطعام ، بينما أمي تنفض عن سترته عوالق طفيفة من غبار الاسمنت والطوب . يسأل كلا منا كيف قضى يومه بالمدرسة ، ويلقي بدعاباته التي لم نكن نعرف كيف يبتكرها بهذا السرعة عن ردودنا ، عن عجلة « عمر » في معاينة أكياس الفاكهة والتهام بعض مما بها ، عن بقعة حبر بجيب « بيجامة » « عزة » . يدخل الى الحمام ليأخذ « دش » ماء بارد ، وهو كعادته لم يتكاسل عنه يوما واحدا حتى أقعده المرض . نتناول العشاء الذي يمتد بحضرته ساعة أو أكثر ، ونعود إلى مذاكرة دروسنا وتظل أسماعنا ضحكاته وحكاياه مع أمي حيث مازالا جالسين إلى مائدة الطعام يشربان الشاي . ويجيء وقت الالتفاف حول موقد الكحول الصغير الذي يعد عليه قهوته المسائية بنفسه ، آنية طهي « الكيك » مجوفة الوسط مترعة بالفول السوداني المحمص ، وأعواد القصب التي جهزها هو وقطعها أذرعا قصيرة . حتى تلك الأمسيات التي كان العمل يضطره فيها إلى الرجوع إلى البيت متأخرا ، بعد أن نكون قد نمنا أو تظاهرنا بالنوم تحت ضغط أوامر أمنا المشددة ، يرن فجأة صوته ، ونصحو على وجهه الضاحك وهو يرفع عنا الأغطية بمشاكسة أليفة ، يصر على أن نتعشى ثانية معه ، ويقشر لنا البرتقال بطريقة سريعة دقيقة لا يخدش معها فص واحد .

على الرغم مني انحدرت دمعة على خدي ، فمسحتها حين أحسست بابني يدخل علينا الحجرة متجها نحوه مباشرة . هذا هو عبد الرحمن يا أبي ، انظر كيف كبر . ألا تعرفه ؟! كاد قلبي يقفز من صدري حين أخفض بصره عن الجدار ، وحنى رأسه قليلا ناظرا إلى « عبد الرحمن » . لاحقته على الفور : « وأنا عاصم . . ابنك . عدت من السعودية منذ شهرين » . رفع وجهه ناحيتي دون أن يتغير انفعاله في شيء . . « أنا عاصم يا أبي . . ألا تريد أن تكلمني ؟! هل نسيتني ؟! » رفع حاجبيه قليلا وكسا وجهه فرح مفاجيء . . « . أخيرا يا بحيري وافقت على العمل معي . . ! هذا أجمل خبر سمعته منك في

حياتي . . » . « يا أبي . . أنا عاصم ابنك . « الباشمهندس » عاصم البحيري مات منذ سنوات . . أنا ابنك » . يمكننا الآن نأخذ مقاولات أكبر وأكثر ، وسترى بنفسك الفارق بين عملك معي وعملك في الحكومة . . يا علا . . القهوة لعمك عاصم » . « علا في أمريكا يا أبي . . والمهندس عاصم البحيري « تعيش أنت » . . ! » « اسمع يمكنك أن تبدأ العمل من الغد إن أحببت ، أنا مسافر إلى طنطا في الصباح بإذن الله للاطلاع على شروط مناقصة لبناء ثماني فيلات للمحافظ وكبار المديرين . . ما رأيك ؟ هل تجيء معي ؟ . . » « يا أبي كلمني أنا أرجوك . . ! » « هه . . ماذا قلت ؟ . ستجيء معي ؟ . أليس كذلك ؟ »

كان في عينيه نظرة الالتماس المحب التي لا يكشفها المرء إلا لأقرب أصدقائه

« نعم يا عبد الرحمن . . سأذهب معك إن شاء الله » .

« على بركة الله . . . . سنتفق على جميع الشروط التي ترضيك . وعندما نعود إلى طنطا سنمر على المكتب بالمنشية . لأريك تفاصيل بعض المشروعات التي أخطط لها » .

« كيف سنلتقي في الصباح ؟ يمكنني أن أمر عليك في أي وقت تشاء » .

« لا تتعب نفسك . فتحي ذاهب معي إلى طنطا بسيارته . وحين يمر في السابعة سنجيء إليك » .

« سأكون جاهزا في السابعة ، وسأنتظر أمام البيت » .

ومددت ذراعي كما لو كنت أضع فنجان قهوة وهمي على الطاولة إلى جواري « شكرا » .

« هنيئا . . . والآن دعني يا عاصم أفاتحك في موضوع أود الحديث فيه معك منذ مدة » « خيرا يا أبا عمر ؟ . »

« إنه بخصوص عمر يا سيدي . . وابنتك نأمل . . خير بإذن الله . . نتعشى أولا ثم نتكلم . أنا جائع جدا . يا علا . . يا علا . . دعي أمك تجهز لنا الطعام . عمك عاصم سيتعشى معنا . . . » □

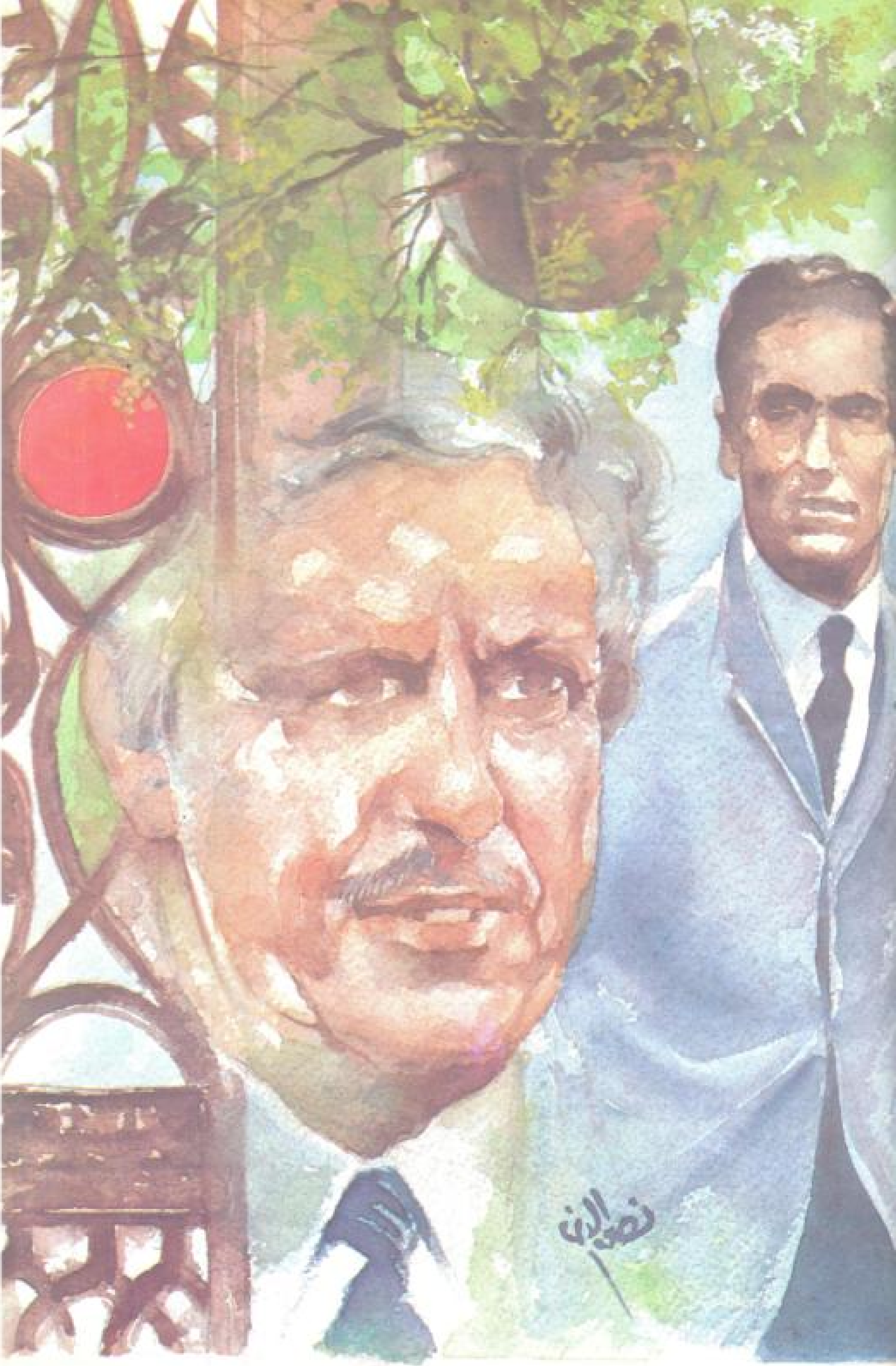

مـــاذا وراء صَرعــــة

هاري كريشنا!

إعداد : رجاء أبو غزالة*

إن إطلاق قدرات العقل ، والتركيز الكثيف على ما هو مادي ، وغير ذلك من أمور ، قد أحدث فراغا روحيا عند كثيرين من مواطني قارتي اوروبا واميركا وغيرهم ، لذلك فإن كثيراً من الصيحات والتقليعات التي تتزيا بالبدائل الروحية تلاقي بعض القبول عند بعض الأفراد .

ودعوة هاري كريشنا الروحية مهما أطلق عليها أتباعها من أسماء وأوصاف تبقى تقليعة من التقليعات ، وصرعة من الصرعات ، وهذا تعريف اجتهادي ، ومتابعة من قبل الكاتبة لاتتبناه طبعا ، بل نوصله للقارىء كي يعرف أكثر .

كنت أجوب « لوب » المنطقة التجارية في « شيكاغو » بحثا عن منحوتات « بيكاسو » و « هنري مور » ، عندما استوقفني أحد أفراد حركة « هاري كريشنا » الدينية ، و سألني ببساطة : « هل تحبين كريشنا ؟ » في حقيقة الأمر فوجئت بوجه الشاب السكسوني الطفولي ، ورأسه الحليق إلا من خصلة شعر أشقر في الوسط ، وشعرت بمغرزى عينيه الزرقاوين تسمران ذهني المشغول بتقلب ضجيج الشارع المكتظ بالسيارات والأبواق وأصوات الأطفال الزنوج وهم في ثياب العيد .

قال لي : هل تتكلمين الانجليزية أم الاسبانية ؟ » وقبل أن أجيبه انفلتت مني نظرة عجلى إلى مرايا إحدى ناطحات السحاب السوداء ، فوجدت نفسي أشبه بالعالم الثالث . أجبت : « الانجليزية » .

قال وعيناه تقطران سلاما شرقيا : « ربما صادفت شعب هاري كريشنا يرقص ويهزج في أحد شوارع العالم ؟

أجبت وفضولي يتسع : « بالطبع إن منظركم مألوف لدي » . تذكرت كيف طلعوا علينا فجأة من شارع اكسفورد في لندن قبل عشر سنوات . تأملت

* كاتبة من القطر الأردني

ثياب الشاب البيضاء المريحة ؛ لو شاهدتها على رجل أسمر من الهند لما دهشت ، فالتباين بين اللونين الأبيض والأسمر يعتبر فنا ، أما أن يكون الرجل أبيض وفي ثياب بيضاء ، فذلك هو العدم بحد ذاته ، إذ يبدو الشاب مثل بيضة رسمت على خلفية بيضاء من قبل فنان أميركي عابث .

قدم لي بعض الكتب والمجلات .

قلت : « وهل هذه بلا مقابل ؟ » .

أجاب بتردد « نعم ولكن من المستحب أن تقدمي هبة » .

« دسست يدي في جيب تنورتي وأنا أقول : كم مثلا ؟

قال : « هذا يعتمد عليك » .

سحبت دولارا وأسقطته في صندوق موضوع على رف الكتب . ثم تناولت مجلة زاهية الألوان صقيلة الغلاف وتصفحتها . أصبت بالدهشة للتكلفة العالية لهذه المجلة بالنسبة لمظهر أفراد الحركة الدينية المتواضع . قرأت بعض العناوين الجذابة ، منها ، « العودة إلى الله » . وعجبت من لقب ناشر الدعوة في أميركا ، جلالة المقدس « باكتفدانتا سوامي برابهوباردا » .

قلت في ذهني إنها « صرعة دينية » أخرى تصلح « كتنفيس » للحضارة الغربية الشرسة .

المنبع اللغز !

سألني ببطيئة وأنا أعاود التحديق في وجهه الروحاني .

« كم مرة تساءلت من هم هؤلاء ؟ بل لماذا يلبسون ثيابهم على هذه الشاكلة ؟ بماذا يؤمنون ؟ ولماذا يغنون أو بالأحرى من هو كريشنا ؟ » .

وأعادني بلمح البصر إلى المنبع ، إلى اللغز ، إلى كريشنا الذي لا علم لي به .

وقبل أن أفتح فمي ناولني مجلة أخرى في غاية الاناقة والجاذبية ، بعنوان « اتما » أي الروح ، وأتبعها بثالثة بعنوان « من هم ؟ » ثم بكتاب عن الطهو وكيفية إعداد أطباق الخضار الخالية من ردود الفعل « كرما فري دايت » . شعرت بالخجل من كرم الرجل الزائد على الرغم من إحساسي بالشك العميق لحماسه هذا . دسست يدي مجددا في جيبي . فسارع إلى القول : « لا داعي للتبرع ، يكفي اهتمامك » .

أجبت وأنا متلهفة إلى المعرفة : « لا بأس أريد أن أعرف المزيد . » .

قال بسرعة : « هدفنا تنوير الناس بحركتنا . لدينا مدارسنا الخاصة وعملنا الخاص . نزرع الخضار ولا نتناول اللحوم . نرسم وننحت ونمثل ونعزف على آلاتنا الفريدة .

كما نملك مطاعم ومزارع خاصة بنا . وفي كل سنة نقيم الاحتفالات . بالاضافة إلى أن الكثير من الأساتذة والطلاب ينضمّون إلينا . كذلك علماء النفس ورجال الدين . وستصابين بالدهشة أكثر عندما تعلمين أن حركتنا الروحانية لا تضطرّك إلى تغيير لبسك أو تسريحة شعرك أو دينك » . وكدت أسأله لماذا تلبس هكذا إذن ، ثم صمت . وتابع « وستكتشفين أن ضمير كريشنا يعتبر أكثر من دين ، إنه حركة روحانية عالمية ، بل عملية لأنها تحقق السعادة الداخلية والرضا لكل إنسان . وتساءلت : ما دام الأمر كذلك فأين أصبح أمر الديانتين المسيحية والاسلامية ؟ . وهل هذه شبيهة بهما ؟ .

وتابع قائلا : « إذا صادف وتحدثت إلى فرد من مجموعة هاري كريشنا ، وتذوقت الطعام الروحاني الذي يقدم لك فحتما ستؤمنين . » تناول قطعة حلوى من على صينية مغطاة بقطعة قماش . أجفلت ثم مددت يدي خجلا . قضمت جزءا منها . لذيذة مثل حلوى التمّورة عندنا ، حلوى هندية بالطبع لوجود الكثير من جوز الهند والبهارات فيها . ثم أكمل وهو يشير إلى الكتب التي في يدي . « اقرئي بعضا منها أو غني أنشودة هاري كريشنا ، غنيها ولو مرة واحدة وأنا على يقين بأن نظرتك ستتغير نحونا ، وبالتالي نحو الحياة ، وهذا التغير هو المفتاح الأساسي لتحسين نوعية الحياة على كرتنا الأرضية . » .

شكرته وأنا على ثقة أن علماء النفس ومن جاراهم يساهمون في هذه الحركة بشكل فعّال أو بآخر . ولكن ما كدت أبتعد خطوات عن كشك الكتب حتى

كريشنا ـ لوحة

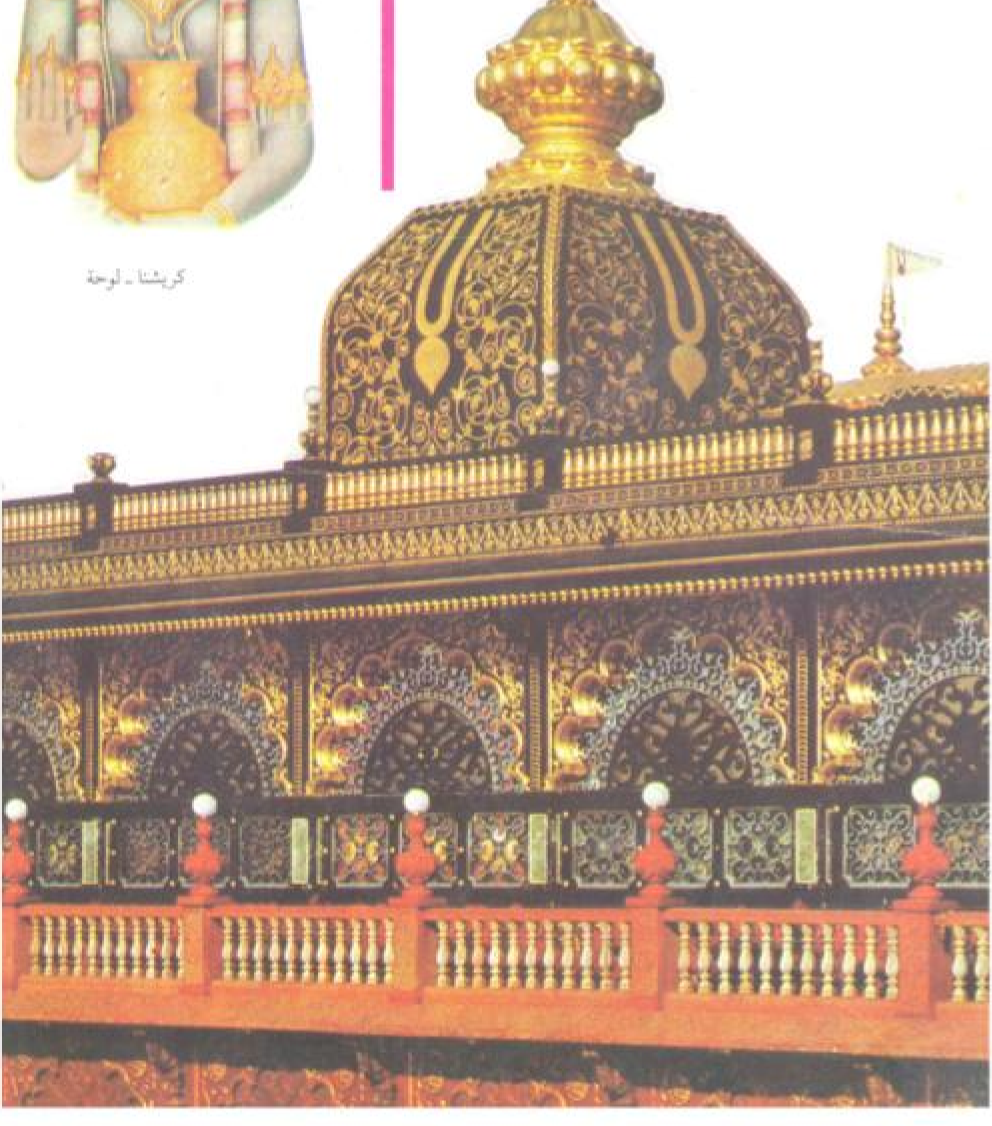

اصطدمت نفسي التي سافرت آلاف الأميال إلى الهند بمنحوتة ضخمة للفنان « كالدر » ، لا أذكر اسمها بالضبط ، لكنها تبدو لي مثل حشرة حديدية حمراء خارقة للعادة ، هبطت للتو من فضاء العالم الخارجي ، وحطّت برشاقة إلى جانب مبنى ناطحة السحاب السوداء . عالم غريب . ووجدتني أقف مسحورة بين ثلاثة تيارات إنسانية وحضارية وجمالية تثير فضولي : مجموعة من أولاد الزنوج التي تلمع وجوههم كالأحجار السوداء الكريمة تحت شمس الظهيرة ، وقد ارتفعت ضحكاتهم في سماء الأسواق المزدحمة ، مثل « بالونات » العيد الملونة ، ومجموعة هاري كريشنا التي تفترش الرصيف في محاولة يائسة لاصطياد اليائسين وإعادتهم إلى حظيرة الايمان ، وذلك التمثال المصنوع من الحديد والدم ، وقد جثم فوق مجرى الحاضر برشاقة متناهية الأبعاد . إلى أيهم ألتفت ؟ . إلى نهر الأبنوس الذي عبّد وما زال يعبد الاقتصاد الاميركي بدموعه ودمائه ، أم إلى هاري كريشنا الذي عبر القارات الخمس على بساط التقنية بمتاحفه ومنشوراته الحديثة ليهدي النفوس المعذبة ، أم إلى الحشرة الحديدية التي تحكم العالم بصلابة ورشاقة وجمال الحيوان المفترس ؟

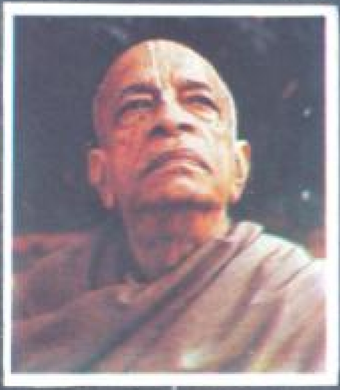

براهبوبادا ناشر الدعوة في امريكا

ماهية هاري كريشنا

كريشنا تعني الله باللغة السنسكريتية ، وهي تشير إلى السعادة القصوى الدائمة ، أما هاري فمعناها القوة الالهية التي تساعد المؤمن للوصول إليه ، خاصة إذا ما ردد أغنية هاري كريشنا . و « السانكرتانا » هو الغناء الجماعي ، عادة قديمة تسمو بالضمير العام لاستعادة أصول النمو الروحاني للبشرية ، وذلك يهب السعادة الكاملة والتواصل مع الله ، ويقضي على « الكرما » أي ردة الفعل ، محررا الروح من كل أدرانها . أما « الجابا » فهو الغناء المنفرد ، وتكون تأديته بهدوء ووضوح ، أي بعبارة أخرى : هو تأمل خاص يصاحبه تسبيح متتابع . فالمتدين يحمل سبحة من مائة وثماني حبات مصنوعة من الخشب ، ويردد أغنية كريشنا بخشوع حماسي يشبه إلى حد كبير صرخة طفل ينادي أمه . وتتكون الأغنية من ثلاث

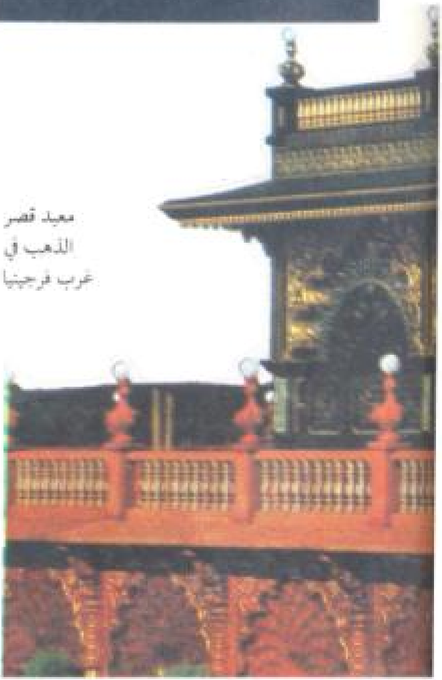

معبد قصر الذهب في غرب فرجينيا

كلمات أو بمعنى أدق من كلمتين صيغت في ثمانية مقاطع كالتالي :

هاري كريشنا هاري كريشنا
كريشنا كريشنا
هاري هاري
هاري راما هاري راما
راما راما هاري هاري

الباغفاد ـ جيتا او غيدا

إن « الباغفاد جيتا » هي تعاليم كريشنا التي تتناول حقيقة النفس والكون . جاءت على شكل حوار دار بين الاله كريشنا وتلميذه « ارجونا » . وهي تعتبر جوهر فلسفة الهند الروحانية التي تجيب على أهم وأعمق المسائل الانسانية المتعلقة بهوية الانسان المؤمن ووجوده ، مثل ماهية الوعي ، والتناسخ ، وقانون ردة الفعل وأصل الكون .

ماهية الوعي

تعطي تعاليم الجيتا أهمية قصوى للوعي ، لأنه مركز الوجود الذي لا يتبدل أو يتغير ، فتقول : إن الوجه الذي تراه في المرآة كل يوم يعبرّ عن الحياة . هناك نور يلمع في العينين ، لكن هذا الوجه يتغيرّ مع الزمن ، كذلك الجسد . ثمة وعي لدينا أن هناك شيئاً في داخلنا لا يتغيرّ مهما طرأ من تغيرّ مستمر على أجسادنا . لذا فعندما ننظر إلى أطرافنا نهتف دوما هذه يد وتلك قدم . فالنفس أو الأنا في داخلنا هي الفرد الواعي . وفي حال انعدام الوعي يصبح الجسد جثمانا .

وتضيف تعاليم الجيتا : لا يوجد ولادة أو موت بالنسبة للروح ، لأنها خالدة دائمة الوجود ، وبدائية ، وهي لا تنحر عندما ينحر الجسد ، إنها قوة كونية تعلو على المادة . وحين تبني أجسادنا من عناصر المادة المتغيِّرة تعمل القوى النشطة في الروح على تحريكها .

وقد شبهت الروح ، أو منبع الوعي ، بالهواء النظيف الخالي من أي رائحة ، فهو حيثما يحط يحمل معه رائحة مميزة ، إما عطرة أو فاسدة ، حلوة أو مالحة إلخ ، وكل هذه الروائح تصبح بالضرورة مختلفة عن الهواء النظيف . وللروح الواعية قدرة على التشكل ، فبإمكانها أن تكون رجلا أو امرأة أو حيوانا ، سمينا أو نحيلا ، غنيا أو فقيرا ، شابا أو عجوزا .. إلخ ، آخر ما هنالك من أشكال ودلالات مؤقتة تأتي وتروح كالسحاب الذي تجرفه رياح الزمن . لماذا ؟ لأنها القدرة التي لا يستطيع أحد تبديلها .

التناسخ أو رحلة الروح السرية

تقول تعاليم الجيتا إنه ما دام للروح قدرة على التشكل فكذلك لديها قدرة على التقمص أو الهجرة من جسد إلى آخر . وأن تورطها مع المادة جاء نتيجة لسلسلة شائكة ، طويلة لا متناهية من الفعل وردود الفعل التي تدعى « الكرما » . لذا فإن الانسان الذي يعمل صالحا في هذه الحياة يجني العمل الصالح ، ومن يتصرف بقسوة لاشباع رغباته تتقمص روحه جسد الحيوان الذي تتجسد فيه هذه الرغبات . وتضيف التعاليم قائلة : إن الانسان يمتاز عن الحيوان بالقدرة على التسامي ، وكسر سلسلة التناسخ ، لأنه متطور وذكي ، وقابل على الاتصال بكريشنا وتحصيل المعرفة .

كما تمتاز الروح أو « الاتما » أيضا بالقدرة على الاختيار بين خدمة كريشنا أو خدمة مآربها ، وفي حال اختيارها الأخير تترك العالم الروحاني لتقع تحت تأثير عالم المادة ، إلا أنها في الحالة الأولى تمتاز بالخلود والمعرفة والرحمة ، لأنها على اتصال دائم بالله نبع الذكاء والمعرفة .

الله وأصل الكون

إن معرفة الله تأتي بصور عدة : « براهمان » ، هو القوة الروحانية أو النور - « براماتما » أو « فشنو » وهو الروح العليا الموجودة في قلوب كل الناس ، وأخيرا « بجفان » أو الانسان الأمثل . وإذا فكرنا أن كريشنا هو « بجفان » فيجب أن نفكر به على أنه المدرك المسيطر المسير اللامرئي .

أما الكون فتصفه تعاليم « الجيتا » على أنه قوة

مادية خارجية من قوى الله ، ولذا فهو لم يخلق من العدم . وهذه الفلسفة أقرب ما تكون إلى النظرية العلمية الحديثة « الانبثاق » . وتتابع « الجيتا » فتقول : إن هذه القوة تعمل بأمر الله على تكوين العوالم التي تخضع لدورات الخلق والصيانة والزوال ، وأن فترة وجودها تستغرق ما يقارب الأربعة بلايين و ثلاثمائة مليون عام .

وتفلسف التعاليم حيثية وجود الكون والحياة بالفكرة القائلة ان المادة التي يتكون منها الكون والانسان على السواء مزروعة بالقوة الروحانية ، وأن التوازن الموجود في طبيعة الأشياء يعتمد على الذكاء والتنظيم ، تماما مثل التنظيم الذي تلاحظة في أي شارع تمر فوقه السيارات في أي مدينة في العالم . والانسان الواعي يدرك أن وراء كل هذا قوانين قام على صياغتها وتطبيقها.فئة من العقول الذكية . كذلك هي قوانين الطبيعة الأساسية ، فهي لم تنبثق من العدم . وهناك قوة ذكية تشرف على كل شيء .

جذور هذه الفلسفة

تقول الدكتورة « ديانا ايك » أستاذة الديانة الهندوسية في جامعة هارفرد : إن تاريخ حركة كريشنا يشكل جزءا لا يتجزأ من تقاليد « جوديا فسنايا » الدينية القديمة التي تعود بجذورها إلى القرن الثاني قبل الميلاد .

في القرن السادس عشر الميلادي قامت حركة « باكتي » في شمال الهند ، وهي حركة تصحيحية شبيهة بالحركة البروتستانتينية ، بإضفاء الطبول والصنوج الصغيرة إلى فرقة إنشاد أغنية كريشنا التي تحب الله وتتفانى في خدمته . وقد جاء فيا بعد « سري كايتانيا » وغيره بأفكار جديدة لتحسين ونشر الدعوة في كافة أرجاء الهند . أما في عصرنا الحاضر فقد قام « سريلا برابهوبادا » سنة ١٩٦٥ بنشر الدعوة في العالم الغربي .

من هو سريلا برابهوباردا ؟

إنه أستاذ وعالم هندي معروف ، اختص بفلسفة « الفادك » القديمة . هاجر إلى أميركا وهو في التاسعة والستين من عمره لينشر دعوة كريشنا . ووصل إلى بوسطن سنة ١٩٦٥ ، وهو لا يملك سوى خمسة دولارات ، ومجموعة من الكتب الثمينة التي تتحدث عن فلسفة الشرق الروحانية .

في نيويورك أسس جمعية هاري كريشنا العالمية . ولم يلبث أن فتح لها فروعا في كافة أنحاء الولايات المتحدة . ثم أتبعها بأربعة وعشرين مكتبا عالميا لادارتها . شيّد المعابد وفتح المدارس وعمد إلى زيارة مراكزه لإلقاء المحاضرات . ثم عكف على تأليف سبعين كتابا في الفلسفة والدين والأدب والثقافة .

وقد حوت هذه الكتب كافة الارشادات المتعلقة بتحقيق الذات وطلب الحب وراحة الضمير . وقد انتشرت كتبه مثل انتشار النار في الهشيم . وقامت المكتبات في أبرز الجامعات الاميركية بشرائها ، وأهمها جامعات ، هارفرد وييل وبرنستون واكسفورد .

وقد كتب عنه « توماس هوبكنز » رئيس قسم الدراسات الدينية في كلية فرانكلين ومارشال في الولايات المتحدة : « أنه إنسان سام ومستقيم ويتمتع بقوة خارقة تؤثر في كل من يلتقي به . لا يفرض السلطة ولكنه يستقطب الاحترام » . وقد ذكرت انسكلوبيديا برتانيكا في كتابها السنوي سنة ١٩٧٦ :

« لقد استطاع هذا الكاتب أن يثير الدهشة والاعجاب في كل من يعمل في حقل الأدب والعلوم الاكاديمية لقدرته على كتابة ونشر ٥٢ كتابا يختص بثقافة الفادك ما بين سنة ١٩٦٨ - ١٩٧٥ .

أما سريلا برابهوبادا فقد عبر عن فلسفته في الحياة في كتابه The Nectac Of Devotion أو « رحيق التفاني . » لقد عمد المجتمع الانساني في وقتنا الحاضر إلى تعليم أطفاله حب الوطن والعائلة والذات ، ونسي الاشارة إلى أهم كائن تدفعنا الفطرة إلى توجيه حبنا الطبيعي إليه ، هذا الكائن هو الله . فإذا تعلمنا كيف نحبه يصبح من السهل علينا حب كل ما هو حي . » □

العقـــل المفـكـر.

هذه آلة حجمها صغير
وعقلها كبير.
بداخلها عقل اليكتروني
يميّز بين الأسطح المختلفة.
فمثلاً سيدتي، إذا كنت
تنظفين السجاد أو الستائر
أو حتى الأثاث الناعم
فإن جهاز M-sensonic
يقوم تلقائياً بتنبيه وتوجيه
المحركات. لتغيير نوعية الشفط
بتغير السطح المراد تنظيفه.
فما عليك يا سيدتي،
إلا الابتسام... وطبعاً
إعادة القطع إلى مكانها
المخصص.

Miele

اختيارك لمدى العمر

شركة [illegible] أخوان
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible]

يوسف بن يوسف فخرو و.ش.م
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: ١٩ البحرين

مصطفى حسن باقرات
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible]

مؤسسة [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible]

مؤسسات [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible]

عبدالعزيز عبدالمحسن الراشد
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible] الكويت

مؤسسة [illegible] الفنية والتجارية [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible] مسقط سلطنة عمان

مؤسسة [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب: [illegible]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ التعبير عن الغضب بين الزوجين

■ الحياة في الخريف

التعبير عن الغضب بين الزوجين

بقلم : راجي عنايت

إن الأوقات الحلوة والأيام السعيدة ، بين الزوجين المتآلفين ، لا تحتاج الى خبرة في تناولها ، أو الى خبير ينصح بالتصرف حيالها ، انها تمضي تلقائيا بشكل طبيعي سلس ، تجلب المتعة للطرفين ، لكن المشكلة التي تقود الى فشل الزيجات هي عدم قدرة الطرفين على التعبير عن الغضب الذي لابد ان يتولد «عن أي علاقة تآلف بين شخصين» .

يقول خبراء العلاقات الزوجية إن فشل العلاقات الزوجية يرجع الى «عدم قدرة الزوجين على مواجهة غضب كل منهما» .

فالثابت أنه مع زيادة الألفة تصبح احتمالات الغضب أكبر ، كما يصبح الطرفان أكثر تعرضا للاحساس بالايذاء . وقد جاءت الأبحاث النفسية الحديثة لتدعم الرأي القديم الذي قال به وليام بلاك ، وهو ان الغضب الذي لا يجد متنفسا له يزداد غالبا عمقا وشدة ، بيد أن هناك عدة وسائل لمواجهة الخلافات بشكل فعال .

وقبل التعرف على هذه الوسائل يحسن بنا أن نقف أمام أشكال الخلافات :

الوفاق المزيف ، وهو أول ما تلفت اليه النظر ، فالكثير من العلاقات الزوجية تبدو لأصدقاء الزوجين وقد سادها السلام ، مع أنها علاقة غير محتملة بالنسبة للزوجين . ومن الوقائع الشائعة

المتكررة التي غالبا ما يوردها خبراء العلاقات الزوجية ، تلك التي تصف ذهول احدى الزوجات من تصرف زوجها . تقول انه خلال خمسة عشر عاما من الزواج لم يحدث أن رفع صوته في وجهها ، أو نطق لفظا جارحاً ، أو شكا من تصرفاتها . كما أنها تنكر معرفتها بعدم رضا زوجها عن أي مظهر من مظاهر علاقتها الطويلة . وذات يوم تعود الزوجة الى بيتها لتجد رسالة قصيرة ، تركها لها الزوج ، لا تقول كلماتها أكثر من « سأهجر البيت الى الأبد ، فإني لم أعد أحتمل هذه الحياة أكثر من ذلك » .

تكشف هذه الواقعة عن ظاهرة كراهية الانسان التقليدية لاظهار غضبه . وكثير من الأزواج يحجمون عن مواجهة خلافاتهم مع زوجاتهم ، خوفا مما قد يقود اليه الافصاح عن الخلاف من توتر واحساس بالذنب واثارة وعصبية ، وهم لخوفهم وخجلهم من الغضب الذي يعتمل في نفوسهم يتركون احاسيس الاستياء والتوتر والشعور بالظلم تتراكم داخلهم ، بدلا من محاولة الحديث عما يستنكرونه . هؤلاء يكون التوافق الكامل في العلاقة هو مثلهم الأعلى ، وهم يرون ان إعلان الاستياء واظهار الغضب يشوهان هذه الصورة المثالية ، فأي ثمن يدفعون مقابل ذلك السلام المزعوم ؟

إنهم يضحون بأهم احتياجاتهم ورغباتهم الشخصية ، ويجلبون الركود والملل إلى علاقاتهم .

الغضب المكبوت

تنشأ لدى الأزواج والزوجات غالبا عادة كبت الغضب ، خوفا من فقدان الحب ، استمراراً لما تعودوا عليه في مراحل طفولتهم ، فالكثير من الأطفال ينشأون على ما تلقوه من أن إظهار الغضب نقيصة أخلاقية . كما أن هناك كثيراً من الأشخاص الذين يخشون التعبير عن غضبهم ، حتى لا يخسروا الطرف الآخر ، ويتعمق هذا عندما يصبح للطرف الآخر أهمية كبيرة في حياتهم .

وخوف هؤلاء من الكشف عن غضبهم ، والتعبير عن غيظهم ، يجعلهم يبالغون في موقفهم هذا ، ليصبحوا أكثر حساسية ، بحيث يشعرون أنه للتعبير اللطيف الرقيق عما يغضبهم نفس العواقب الوخيمة التي للعراك العنيف . وهكذا يتراكم الاستياء ويتعمق الضيق .

والاستياء الدقيق المكبوت يسد مسار الألفة بين الزوجين . فإخماد المشاعر السلبية يضعف في نفس الوقت المشاعر الإيجابية . يقول (ولو ماي) في كتابه (الحب والارادة) :

« الشيء الغريب الذي يثير دائما الدهشة عند الأزواج والزوجات الذين يخضعون للعلاج النفسي ، أنه بعد أن يفصح الواحد منهم عن غضبه ، ويعترف بالخصام الذي يضمره ، ويعلن الكراهية التي يحملها للطرف الآخر ، وبعد تعنيفه للطرف الآخر ، على مدى ساعة كاملة ، فإنهما ينتهيان وقد سادت بينهما مشاعر الحب المتبادل . ثم هناك ذلك المريض الذي يقبل على الطبيب النفسي الذي يعالجه وقد جاشت نفسه بالمشاعر السلبية ، لكن مع هذا يكون حريصا على كبت هذه المشاعر ، ولو بشكل لا شعوري ، محاولا ان يلعب دور الرجل الشهم ، لكنه ما يلبث ان يكتشف حبه للطرف الآخر ، في نفس الوقت الذي يكبت فيه الاستياء والغضب .

هدية الزوج المحب

إن الغضب المكبوت الذي لا يجد متنفسا له يعبر عن نفسه بشكل غير مباشر ، فيبعث الارتباك في حياة الطرفين . وهذا التعبير غير المباشر يكون سلبيا ، على شكل نسيان خطة مشتركة سبق الاتفاق عليها مع الطرف الآخر ، أو تعمد تخريب هذه الخطة ، أو إثارة المشاكل بطريقة تبدو في الظاهر غير مقصودة .

مثال ذلك الزوج الذي يؤمن أن تعبير الشخص عن مشاعره السلبية عمل غير أخلاقي ، وغالبا ما يقول هذا النوع من الأزواج لزوجته بأنها إنسانة مدهشة ممتازة ، على الرغم من كل ما يشعر به من استياء نتيجة لبعض تصرفاتها ، لذا فقد يعمد الى التعبير عن غضبه بشكل غير مباشر .

يحدث أحيانا أن يتفق مع زوجته على القيام معها

برحلة في نهاية الأسبوع ، ليتفرد بها بعيدا عن الأولاد ومشاغل البيت ، وتترقب الزوجة الرحلة باشتياق شديد ، وقبل الموعد المحدد مباشرة يلغي الزوج هذه الرحلة متعللا بأسباب واهية . وفي مناسبات أخرى يتصل بها مساء من مكتبه ليقول انه لن يتمكن من تناول العشاء معها ، أو مصاحبتها الى المناسبة الاجتماعية التي كان قد اتفق معها على الذهاب اليها .

ومن الطريف انه عندما بدأت الزوجة نظاما غذائيا خاصا في محاولة لتخفيض وزنها ، تلقت من زوجها هدية ، علبة حلوى ، كمفاجأة لطيفة من الزوج المحب !

كقاعدة ، الشخص الذي يتعمد اخفاء عدوانيته ، لابد ان تظهر اثارها بشكل غير مباشر وتراه يضفي على دوافعه وتصرفاته مسحة من الرقة واللطف لتجنب الكشف بشكل مباشر عن عدوانيته .

ضغط الدم

وعدم التعبير عن الغضب بشكل مباشر يمكن ان يؤدي الى ظهور أعراض مرضية تنتج عن التوتر النفسي ، الأمر الذي حدث للزوج (ص) ، فقد كان وديعا دمث الخلق ، يعاني من تحكم زوجته وابنته العدوانيتين ، ونتيجة لوداعته كان يعبر عن غضبه تعبيرا سلبيا بافساد أي خطة تضعانها ، دون أن يؤخذ عليه ما يكشف غضبه . حاول الطبيب المعالج أن يكشف عن غضب (ص) دون جدوى ، ولم يستطع الكشف عن هذا الغضب الا عن طريق قياس ضغط دمه ، الذي يرتفع كلما شعر بالغضب . وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة والمؤشر الظاهر لما حرص (ص) على عدم التعبير عنه لفظيا .

والثابت من هذا أن المشاعر العدوانية إذا ما ارتدت إلى داخل الشخص ، ولم تجد وسيلة للتعبير عن نفسها ، يمكن أن تخلق العديد من المشاكل الجسمانية .

العنف البدني

وعلى الرغم من خطورة كبت الاستياء وتجاهل الصراع ، فإن التنفيس غير المحكوم عن الغضب يمكن أن يكون أكثر إضرارا بالشخص ، لأن النقد الحاد الجارح والاساءة البدنية يؤديان الى تحطيم الألفة بين الطرفين ، والشواهد تفيد أن الذين يسمحون لأنفسهم بأن ينطلق غضبهم من عقاله بلا ضابط يتضاعف احتمال اندفاعهم الى العنف البدني .

فوصول العلاقة بين الطرفين الى حد التآلف ، يتضمن نوعا من التسليم المتبادل ، مما يجعل الطرفين أكثر تعرضا للهجوم ، فإذا ما تبادل الطرفان إطلاق عنان الغضب الأهوج ، تحطمت العلاقة كلية .

وإذا حدث أن كانت لدى احد الطرفين ميول ماسوشية او استعداد للتلذذ بتعذيب الذات ، فإنه في هذه الحالة سيشجع الطرف الآخر على أن يتحول غضبه الأهوج الى ايذاء بدني ، والدليل على هذا ما حدث لواحدة من المترددات على العيادة النفسية ، لتشكو من الضرب الذي تتلقاه من زوجها في حالات سكره . وعند دراسة تاريخ حالتها تبين أنها اشتكت من نفس الشيء في زيجتين سابقتين ، مما يؤكد أن لديها ذلك الميل إلى تعذيب الذات ، وأنها تسعى دائما الى أن يتحول غضب الزوج الى إيذاء بدني .

٧٥ ألف زوجة

في استبيان قامت به مجلة « ريدبوك » حول الزواج ، وأجابت عليه ٧٥ ألف سيدة متزوجة أفادت أول حقيقة ان معظم السعيدات في زواجهن يصفن حياتهن الزوجية بأوصاف لا تطابق الصورة المثالية الحالمة المبهمة للزواج عند الباقيات ، وأن الأزواج والزوجات الذين يستمتعون بعلاقة زوجية طيبة يصادفون المشاكل ويعانون مشاعر القلق ، ويواجهون الاختلافات مع الطرف الآخر ، لكنهم يعبرون عن اختلافهم بطريقة مقبولة . كما تقول الدراسة إن الزوجات والأزواج يختلفون مع بعضهم بعضا ، ويتناقشون عادة حول ستة موضوعات أساسية هي : العادات الشخصية للطرف الآخر ، التي تثير الغيظ والقلق ، والمال ، ومسألة عدم إظهار الكفاية من الحب ، والمشاكل القانونية ، وأسلوب تربية الأطفال ومعاملتهم ، ثم أخيرا العلاقة الجنسية بين الطرفين .

ومن أهم الحقائق التي كشف عنها هذا الاستبيان فيما يتعلق باختلاف الرأي بين الزوجين هو أن الطريقة التي يعبر بها الأزواج والزوجات عن الرفض أو الاختلاف ، تكون أهم بكثير من الموضوع الذي يختلف عليه الزوجان .

وقالت أكثر الزوجات سعادة أنهن يتبادلن مع أزواجهن الكشف عن مسببات الاستياء ، ثم يتشاركن مع أزواجهن في البحث عن حل لها ، عن

طريق التفاهم بأسلوب هادىء عقلاني . وقلن إنهن لا يعرفن في علاقتهن بأزواجهن أي شكل من أشكال العراك التي طرحها الاستبيان ، كالوسائل العدوانية (مثل تبادل الشتائم) أو الصياح أو التشابك البدني أو البكاء أو تحطيم الأشياء ، وكالوسائل العدوانية السلبية (مثل ترك الحجرة ، أو التجهم ، أو التزام الصمت) .

الزواج والتنس

يقول خبراء العلاقات الزوجية إن قدرة الشخص على التصدي للخلافات الزوجية تعتبر مهارة من المهارات ، شأنها شأن معظم المهارات ، تتطور عن طريق الجدية ، والفهم والممارسة ، بل يقولون « إذا أردنا أن نمضي في تشبيه المهارات هذا الى أبعد من ذلك ، نقول إن تطبيق المبادىء التي سنطرحها ، يمكن مقارنته بتطبيق قواعد التنس النظرية في الملعب » .

فالكتاب الذي تقرأه عن لعبة التنس يصبح مفيدا عندما تضعه موضع التنفيذ بشكل عملي ، إذ ستكتشف حينئذ أن الكثير من المبادىء يصعب تطبيقه بمهارة ، فقد يعي الشخص الأخطاء التي يقع فيها ، لكنه يحتاج وقتا حتى يتمكن من تصحيح هذه الأخطاء ، إذ أن اتباع التعليمات في طريقة الإمساك بمضرب التنس أمر مزعج في البداية ، لكنه يصبح ـ مع الممارسة ـ من العادات السليمة ، وبنفس الطريقة سيختفي بالتدريج ذلك الارتباك الذي تواجهه عند البدء في تطبيق القواعد اللاحقة ، عندما تكتسب خبرة من خلال الممارسة .

مبادىء المواجهة الزوجية

إن المبادىء التي تطرحها من السهل على الشخص أن يقرأها ، إلا أن تطبيقها يستوجب الاهتمام والتعاون بين طرفي العلاقة الزوجية . ونحن نفترض جدلا أنك والطرف الآخر تعملان بجدية على تطوير علاقة التآلف بينكما وتنميتها والقواعد التي نطرحها تندرج تحت ثلاثة أقسام رئيسية كما يلي :

قواعد أساسية :

١ ـ عبّرا عن شكواكما بروح طيبة .
٢ ـ تجنبا مهاجمة بعضكما بعضا .
٣ ـ ركّزا على المشكلة الراهنة فقط بشكل محدد .
٤ ـ اعترفا بعواطفكما ومشاعركما .

أساليب محدودة :

٥ ـ تخيرا الوقت المناسب .
٦ ـ كونا أكثر تحديدا .
٧ ـ تناولا موضوعا واحدا في جلسة النقاش الواحدة .
٨ ـ اسعيا إلى تغييرات معقولة في سلوك كل واحد منكم .
٩ ـ استمعا جيدا لبعضكما .
١٠ ـ حاولا أن يتقبل كل واحد منكما الآخر ويتفهمه .

الوصول الى حل :

١١ ـ فكرا ، وابحثا ، وتأملا .
١٢ ـ كونا على استعداد لتقبل الحلول الجزئية ، غير الكاملة ، وغير النهائية .
٣١ ـ ادخلا عنصر التنازل في حسابكما .
٤١ ـ ليتجنب كل واحد منكما محاولة الخروج من النقاش رابحا . □

● أحسن مقياس لعقلية الانسان ، أهمية الموضوعات التي يتجادل فيها .

(لافونتين)

الحياة في الخريف

« لم يعد هناك مايقاتلان من أجله ، ولا مايحلمان به ،
ولم يبق من خريف العمر
إلا ذكريات العمر وعالم صغير يحيط بهما » .

في حياة كل منا ، وداخل كل عائلة جد وجدة أو أب وأم دخلوا مرحلة خريف العمر ، وانفضت من حولهم الحياة بصراعاتها وأحلامها ، ونفضوا هم أيضا أيديهم من الحياة ، وعلى الرغم من التصاقنا الشديد بهم على مدى عمر مضى ، إلا أننا أحيانا نفاجأ بأننا لانعرفهم ، وأن تصرفاتهم ليست كما اعتدنا منهم ، أو نجدهم شديدي الالتصاق بنا ، وكلما غمرتنا دوامة الحياة ازداد تعلقهم بنا وافتقادهم لنا .

أنماط وشهادات :

همست لابنتها الكبرى : لا أدري ماذا أصاب أباك في هذه السن التي تجاوزت الستين ؟ أراه شديد الاهتمام بأناقته وملابسه ، وكل صباح يرتدي ملابسه كاملة ، ويجلس في الشرفة يحتسي قهوته الصباحية ، ويقرأ الجريدة ، ويحيي جاراتنا ، كأني به عاد إلى سن العشرين مرة أخرى .

● ودمدم غاضبا لابنه : أمك أصبحت عصبية إلى حد

لايطاق ، كل شيء يثيرها فيندفع رشاش غضبها ، تصور أنها تثير معارك على أشياء مضت منذ زمن طويل ، بالأمس فقط أثارت معركة حول موافقتي على زواج شقيقتك ، وهذا الزواج قد تم منذ أربعة عشر عاما ، تصور يابني !

* ولأولادها قالت : لا أراه في البيت ، فهو يصحو قبل الفجر ، ويظل يعبث في البيت فسادا ، يكسر كوبا ، ويقلب مقعدا ، ويعد قهوة ، فيقلب نظام المطبخ ، ويفتح مذياعا فيطير النوم من عيني ، وبعد ذلك يغادر البيت إلى المقهى ، ولايعود إلا وقت الغداء ، وبعد أن يصحو من القيلولة يغادرنا إلى المقهى مرة أخرى .

* وقال لشقيقه : علينا أن ننظم أوقاتنا معا ، ونرتب مواعيد زيارة أبينا وأمنا ، وليكن لك اسبوع ولي أسبوع آخر ، وفي منتصف الأسبوع تذهب شقيقتنا إليهما ، فبالأمس كان الأسى يملأ وجه والدي وهو يقول لي : « يبدو أنكم نسيتمونا يابني ، ونحن لانريد منكم شيئا ، فقط نسعد عندما نراكم » .

* وبهدوء قال لزوجته : إن أباك وأمك سيفسدان الأطفال ، ففي الأسبوع الماضي عندما طلبت من صغيرنا أن ينزوي في ركن يؤدي واجباته المدرسية المتأخرة صرخت جدته قائلة : إن هذا حرام ، وتدخل جده قائلا : دعه يلعب معي قليلا ، ثم يؤدي واجباته . وفي نهاية اليوم نام الولد ولم يفعل شيئا .

السن والزمن :

مع تقدم السن نبدأ نعاني من مشكلات صحية عديدة ، لعل أهمها وأكثرها تأثيرا على نشاطاتنا الإنسانية ، نقص كمية السكر في الدم ، مما يؤثر على أداء الأعضاء الحيوية لوظيفتها ، وبخاصة المخ والكبد والعضلات ، كما يتغير معدل التمثيل الغذائي ، ومعدل نشاط الغدد الصماء ، وتتبدل قوة دفع الدم ، وتصاب العضلات بالارتخاء . هذه المشاكل الصحية ـ الطبيعية ـ ليست منفصلة عن النشاط الإنساني ، فهي تؤثر في السلوك الإنساني ، وعوارض هذه المشكلات تتضح أكثر ، وبقدر مواز للشكل العضوي ، في السلوك على الأخص ، فحالات العصبية الدائمة وقلة النوم والقلق والتوتر والملل هي نتائج رئيسية لعوارض صحية . وعندما تتفاعل هذه العوارض مع الظرف الاجتماعي الخاص بكبار السن تصبح نتائج سلوكهم العام وملامح حياتهم مختلفة تماما عما اعتدناه منهم . ولكي تقترب الصورة أكثر علينا أن نتصور كبار السن وقد بدأت علاقاتهم الاجتماعية تتقلص ، وأحلامهم الشخصية تتلاشى ، وانحصرت في نجاح أبنائهم فقط ، وغالبا مايجهل أبناؤهم تفاصيل حياتهم ، مما يجعلهم أطرافا غير فاعلين ولا مؤثرين ولا متابعين لتحقيق هذه الأحلام .

إن اليوم طويل شديد الطول مع العصبية والقلق والتوتر ، ومع الأخبار التي تتوالى عن رفاق العمر الذين يرحلون عن الدنيا ، وكل هذه العوامل تجعل آباءنا وأجدادنا أكثر حساسية ، حتى تبلغ حساسيتهم رقة الزجاج القابل للكسر .

وتبدأ المشكلات ، فالطاقات الداخلية حبيسة ، والحاجات غير مشبعة ، والتعلق بالحياة قائم ، لهذا تثور كل هذه الدوافع في صور مختلفة ، مشاجرة حينا ، واهتمام زائد بالذات حينا آخر ، وتخاوف على النفس .. إلخ .

للدكتور محمد عودة أستاذ التربية في جامعة الكويت ملاحظة علمية على هذه الحالات ، يقول : « عندما تتقلص أنشطة المسن في المجالات الاجتماعية يصبح لديه وقت طويل من الفراغ الباعث على الملل ، وهذا من شأنه أن يسبب مشاكل كثيرة للمسنين ، كتردي حالته الصحية ، أو إصابته بحالات الاكتئاب والقلق نتيجة لقلة التفاعل الاجتماعي ، إذ أن المسن يفقد فرصة الاشتراك في

النشاطات الاجتماعية التي كان يشترك فيها أثناء شبابه ، وهذا يقلل من فرص الالتقاء بالأصدقاء والزملاء والأهل » .

أمان ضد الموت :

لم يعد صعبا الآن أن نفهم لماذا يتشبث كبار السن برؤية أبنائهم ، فقوق الحب والحنان والرغبة في الاطمئنان ، فإن الأبناء يمثلون للآباء امتدادا طبيعيا في الحياة ، بل إنهم رمز لكل حياتهم التي مضت . ولأهمية هذا الإحساس فإن زيارات الأبناء تظل هي الأمان الحقيقي للآباء ضد فكرة الوحدة والخريف وانتظار الموت ، فهاهم يقرعون الباب عليهم ويعشون في البيت صخبا ، ويعيدون الدفء إلى الغرف التي أصابتها برودة الوحدة والفراغ والملل . ولذلك فإننا نرى تشبث الآباء بزيارة الأبناء وحساسيتهم المفرطة تجاه انقطاع أبنائهم عنهم ، أو تأخرهم عن زيارتهم ، وفرحهم المتجدد بأحفادهم - الاستمرار والتجدد - ولهفتهم على سماع كل تفاصيل حياة الأبناء مهما بلغ بالأبناء الضيق من هذا الإلحاح ، أو أحسوا أنه فضول بلا معنى ، فهذه « الميكانيزمات الدفاعية » ماهي إلا تصرفات تلقائية ، يعلن بها كبار السن أنهم أحياء ، وأنهم طرف فاعل في الحياة .

إلا أن « ميكانيزمات » الدفاع هذه لاتقتصر فقط على التشبث بزيارة الأبناء ، بل هي تظهر في تدفق التعبير العاطفي لدى كبار السن تعبيرا عن مشاعرهم كل تجاه الآخر ، وهذا التدفق ليس شرطا أن يكون ايجابي المظهر ، بل يكون أحيانا سلبيا ، ويتمثل في صورة عنف أو غضب ، ولكنه دوما يأخذ شكل الحنان والتفاهم بين الشريكين .

وإذا كانت الظروف الصحية لبعض كبار السن تسمح لهم بإقامة علاقات زوجية إيجابية فإن استمتاعهم بها وقدرتهم على تحقيق الإشباع المشترك تكون أكثر من كل خبرات عمرهم السابقة .

إلا أن العاطفة الحنون تظل دوما برأسها خلف كل مظاهر التعبير ، حتى لو كانت مظاهر سلبية ، فسرعان مايعود الطرفان إلى لحظة تفاهم وحنان ، لأن كل طرف منهما في النهاية يدرك أن الآخر هو الذي بقي له ، وهو الشريك والرفيق ، وهو شاهد أيام العمر التي مضت ولن تعود .

وتظل حياة آبائنا في خريف العمر محتاجة منا إلى كثير من الفهم ، وكثير من الحنان ، وكثير من العطاء ، مهما كانت دوامات الحياة التي تشغلنا ، فما أقل مانعطيه لهم ، وما أكثر ما أخذناه منهم . □

هل تعلم ؟

● انه يتساقط في اليوم الواحد من ٢٥ الى ١٠٠ شعرة ، ولكن الانسان الموفور الصحة يستعيدها في اليوم نفسه .

● ان حياة الشعرة لاتزيد على السنتين ثم تسقط .

● ان الشعر ينمو بمقدار ١٢ مليميترا تقريبا في الشهر ، وتتوقف سرعة نموه على درجة حرارة الجو فهو في الصيف أسرع نموا منه في الشتاء .

هو.. هي

غيرة الرجال

عجيب أمر هؤلاء الرجال ! لماذا يكرهون أن تبدو زوجاتهم أنيقة جميلة ، على الرغم من أن جمال المرأة وأناقتها محسوب على الرجل ؟ فعلى الأقل سوف يمتدح الناس ذوقه ، وسوف يغار منه الرجال الآخرون . لكن زوجي على ما يبدو متبلد الحس ، لا يدرك كل هذه المعاني الخافية خلف اهتمامي بأناقتي .

لأننا من أسرة متوسطة الحال ، فكلانا ـ زوجي وأنا ـ موظفان ، لا نملك إلا دخلنا الشهري ، فكل ما أملكه من قطع زينة ومجوهرات وذهب محدود ، لكن لأن ذكائي قادر على أن يتعامل مع الواقع فأنا أبتاع قطع زينة بدأت في الانتشار في الأسواق أخيرا ، وهي قطع تشابه إنتاج كبريات شركات الذهب والمجوهرات ودوره العالمية ، وعلى الرغم من ارتفاع ثمنها النسبي قياسا بأنواع الزينة الأخرى إلا أنني أحرص على أن أبتاع كل ما هو جديد ومتاح . ويبدو أن زوجي لم يستوعب هذا الحرص على اكتمال مظهري ، فانطلق يسخر مني جيئة وذهابا . قلت : إنه من الأدعى أن يشكرني ، لأنني لا أرهقه بطلبات تفوق قدرتنا المالية ، وأنني أيضا أرفع رأسه أمام الناس الذين يرونني ويعتقدون أن ما ارتديه هو قطع زينة حقيقية ، وعندما ثار وأرغى واتهمني ـ ظلما ـ أنني أسيء إليه ، وأجعله مضغة في أفواه معارفنا وأصدقائنا قدمت إليه حلا آخر ، وما أن استمع إليه حتى أغرق في ضحك هستيري ،

قلت : إنني سأقول للناس ان هذه القطع هدايا من أهلي أو بعض ميراث أمي من أمها (جدتي) ، ويبدو أن هذا الحل أيضا لم يرق لهواه ، فقد انطلق في سيل من التهكمات والغمز واللمز ، وزاد الأمر سوءا عندما أخذ يصرخ في سخرية ويقول بأنه لا يذكر ولا يعرف أن أمي قد امتلكت شيئا ثمينا باستثناء حياتها . حاولت أن ألفت نظره إلى أنه قد أخذ يحط من شأني ، ويسخر مني ، لكنه أصر على أنه ينقذني من شر

نفسي ، ويحاول أن يجمل صورتي أمام الناس ، ولا يجعلني أضحوكة بينهم عندما أغادرهم .

وازداد يقيني أنه يفعل هذا غيرة مني ، وخوفا من أن يقول الناس انني بنت أثرياء وأصول وقد تزوجت رجلا عاديا مثله . ألم أقل إن غيرة الرجال أحيانا تكون أشد كيدا من غيرة النساء ؟!

هي..

مـؤامـــرة

نصف آفاتنا تبدأ من تصورنا أننا أكثر ذكاء من الآخرين ، وأن الآخرين دائما يصدقون ما نقوله ، والذين يقعون في هذا الفخ هم دوما مادة كل نادرة ، ونسيج كل سخرية .

حاولت جاهدا أن أقول لها إن ما تفعله سلوك غير صحيح وغير صحي ، وأن الجمال يكمن في البساطة ، وأن البساطة نقيض للبهرجة ، وأنها قد تجاوزت تلك السن التي يغفر لها الناس فيها لو تبهرجت ، وقلت لها إن محلات الاناقة تعرف الآن هذه القطع الرقيقة المصنوعة من الخشب والبلاستيك والزجاج بأذواق رائعة وألوان متنوعة ، لكنها لم تصدق ، ولم تر ما أرى ، وأصرت أن تبتاع وتتزين بمقلدات ، تضاهي قطع مجوهرات وطرزاً من الزينة معروفة عالميا بانتسابها إلى بيوت كبرى . حاولت أن أفهمها كيف يصدق الناس أن ما ترتديه حقيقي ، وأنهم يعرفون إمكانياتنا ودخلنا ، ويعرفون كيف نسكن وما هو مستوانا الحقيقي . بل كيف يصدقون وهي ترتدي هذه القطع فوق فساتين متوسطة الثمن ؟! قلت لها : كيف يصدق الناس أنك ورثت هذا عن جدتك ، أو أن أهلك أهدوك إياه ، وهم يعرفون أباك وأمك وأشقاءك ؟! ولماذا تتصورين أنك وحدك التي تذهب إلى الأسواق وتتزين بهذه الأشياء ، خاصة أنها منتشرة في كل المحلات ؟!

عندما صدقت ما قاله لها بعض زملائها وصديقاتها عن جمال تلك القطع المزيفة التي ترتديها وقيمتها تدهورت حالتها ، وصارت تصر على أنها قطع حقيقية ، وحاولت أن أنقذ صورتها ، فأخذت أطلق تعليقات هنا وهناك ، بروح من الدعابة ، لكي يستقر في ذهن السامعين أننا ـ هي وأنا ـ نسخر من كل هذه الأشياء ، وأننا ناضجان إلى درجة أننا نمزح من أنفسنا ونمزج الجد بالمزاح . فيتلاشى أثر ادعائها ، لكنها ثارت وادعت أنني أغير منها ، وأقسمت أنها سوف تحرجني لو تكرر موقفي هذا .

وبالفعل كنا في زيارة بعض الأصدقاء ، وأدارت هي الحديث ـ كعادتها ـ كي تصل إلى قطع مجوهرات كبيرة مثبتة على قاعدة تشبه الذهب ، تحلي بها باقة فستانها ، وأصرت بأنها حقيقية ، وعندما تدخلت كعادتي لأنفي هذه التهمة فوجئت بها تقسم أنها حقيقية ، وتهورت وخلعتها من صدرها وأعطتها لصديقة لها ، قائلة اذهبي إلى أكبر محل مجوهرات في البلد ـ وسمّت محلاً ـ وهو سيقول لك إن كانت حقيقية أم مزيفة .

وأسقط في يدي ، وغادرنا بيت أصدقائنا وأنا أقسم ألا نريهم وجهنا مرة ثانية اتقاء للفضيحة .

لكن المفاجأة أن نفس الأصدقاء اتصلوا بنا بعد يومين يدعوننا لسهرة ، وقد قالت صديقة زوجتي بأن أكبر محل مجوهرات قد قال بأن القطعة أصيلة ونادرة ، وأن ثمنها يتجاوز أربعة أرقام ، ونظرت إلى زوجتي بشماتة بالغة وآمنت أن النساء أكثر قدرة على التآمر من كل الرجال .

.. هو

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

صيدلية المنزل أم خزانة إسعاف؟

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

لولا ماجرى عليه الناس من العرف والعادة لكان أحرى بنا أن نلقي بهذا الاصطلاح جانبا ونقتلعه من قواميس اللغة الدارجة ، اذ لايصح أن نستعمل اسم الصيدلية لمفهوم صندوق الاسعاف الذي نقصد به خزانة أو علبة أو صندوقا ، نلجأ اليه في حالات الطوارىء للتصرف السريع العاقل ، قبل أن يحضر الطبيب،أو قبل أن نجد معونة واشرافا طبيا معتمدا . فالصيدلية بمفهومها الصحيح هي مكان تداول العقاقير،من حيث صرفها واستعمالها أو بيعها وشرائها ، والقانون يفرض مواصفات معينة يجب توافرها ، أولها وجود صيدلي معتمد ، يشرف على صرف الدواء واستهلاكه على نحو ما يقرره الطبيب ، وهو شرط لايتوافر في صيدلية المنزل .

وربما قد فهم بعضهم أن صيدلية المنزل هي مكان حفظ العقاقير ، حتى يحين استعمالها ، وهذا أمر لايجوز ، لأن العقار يصرف لمرض معين ، وشخص معين ، باشارة طبيب معتمد ، وحيث أن المرضى متفاوتون في أمراضهم ، مختلفون في طبيعة أجسامهم ، فلا مجال اذن لاستعمال دواء لشخص غير الذي صرف له الدواء أصلا ، والا حمل هذا التصرف احتمالات الضرر أكثر من احتمالات الفائدة .

ان صيدلية المنزل التي أحرى بنا أن نسميها خزانة الاسعاف لايجب أن تحتوي على مواد أو أجهزة الا بالقدر الذي يمكن لانسان عادي أن يستعمله ، في حالات الطوارىء ، دون أن يتعدى مهمة المسعف الأولى فقط ، اذ لامجال للعقاقير أو الأدوية في خزانة الاسعاف اطلاقا .

ومن أخطاء مايجري عليه بعض الناس من حفظ مايسمى « صيدلية المنزل » مجازا (صندوق الاسعاف أو خزانة الاسعاف حقيقة) في الحمام أو المطبخ فهو أمر ضار ، ان لم يكن خطيرا ، لأن الحمام أو المطبخ هما مكانان حاران رطبان ، لايصلحان لحفظ مواد يفترض في حفظها جفاف الهواء ، واعتدال درجة الحرارة . ومن هنا فان لخزانة الاسعاف مواصفات علمية ، يمكن أن نوردها بايجاز وعمومية على الوجه التالي :

نختار خزانة أو صندوقا ذا حجم معقول ، من خشب أو بلاستيك أو معدن ، ويكتب عليها بخط واضح « خزانة الاسعاف » ولابأس من رسم اشارة

معينة ، مثل الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر ، للدلالة على الغرض ، وتوضع الخزانة في مكان متوسط ، مناسب ، قريب من الجميع ، وعلى ارتفاع مناسب ، لاتصل اليه أيدي الاطفال ، ويجب الحرص على اختيار مكان معتدل الحرارة ، خفيف الرطوبة ، بعيدا عن أشعة الشمس المباشرة .

أما ما يوضع في خزانة الاسعاف فهو الأدوات الواجب توافرها في كل بيت مثل ميزان الحرارة ، وقطع من القطن ، وأربطة من الشاش ، وأربطة ضاغطة ، وبعض المحاليل المطهرة ، والأشرطة اللاصقة ، وقد يكون هناك مجال لوضع الجبائر المعدنية أو الخشبية ، أما عن صبغات اليود والميكروكروم والكحول فقد رأت السلطات الصحية ايقاف استعمالها ، لما ثبت من ضررها ، وانعدام الفائدة المرجوة منها ، لهذا فلا مكان لها في خزائن الاسعاف ، ويكتفى لتطهير الجروح بالماء الجاري والصابون ، أو ربما السيافلون . وربما جاز لنا أن نضع بعض الأقراص والعقاقير المألوفة الاستعمال ، مثل الاسبرين والباراسيتامول ، أو الاقراص المهدئة للمغص والألم البسيط ، أما ما عدا ذلك فلا يجوز حفظه في خزانة الاسعاف ، كما لايجوز استعماله الا باستشارة طبية معتمدة .

بريد طبيب الأسرة

حساسية

● أعاني من بحة في الصوت ، واحتقان ،قيل لي انهما نوع من الحساسية من غبار المنازل . فما هي هذه الحساسية ياترى ؟

ف . ي .

الجزائر

- يذهب بعضهم الى أن كلا منا يعاني من حساسية من شيء ما ، بمعنى أن الجسم يرفض قبول هذا الشيء ، ويعبر عن رفضه له بأعراض شتى ، منها ماهو في الجلد أو في العين أو في الجهاز التنفسي ، الخ .

ومن المألوف أن ترفض كثير من أجسام الناس غبار المنازل لاحتوائه على مواد أو أحياء دقيقة ، قد لاتراها العين ، ولابد لها من تحاليل واختبارات لاستكشافها .

لقد شاء الله أن تكون الحساسية التي تعاني منها بسبب غبار المنازل ذات أعراض تتركز في الحنجرة والأحبال الصوتية ، مما يؤدي الى احتقانها ، والى تفاعلات أخرى يمكن للاختصاصي في الأنف والأذن الحنجرة تقصيها واكتشافها .

فاذا ماثبت بالاختبار الجلدي صحة حساسية جسمك من غبار المنازل الذي تستنشقه دوما ، فربما تفيدك عمليات الحقن التدريجي بتطعيمات مشتقة من هذا الغبار ، فضلا عن تعاطيك للعقاقير المضادة للحساسية . وهذا أمر يتولاه الطبيب المتخصص .

مرض الضوضاء

● أرجو تعريفنا بمرض الضوضاء ، وماهي أسبابه ، وأخطاره .

ع . ع . ع
اليمن الشمالي

ـ الضوضاء ليست مرضا جسديا كما تتوهم ، وانما هي شكل من أشكال تلوث البيئة ، ساقته لنا المدنية وموجة التصنيع ، مع ما ساقته من مصانع وطائرات وسيارات وأبواق ، ووسائل مواصلات أخرى . لهذا فالأجدر بنا أن نسميه « المرض الاجتماعي » .

والضجيج أو الضوضاء هي أحداث شتى متنافرة ، تصدر عن مصادر عديدة ، بمستوى أعلى من احتمال الأذن البشرية ، ترهقها ، وتدمر الخلايا العصبية ، ونهايات عصب السمع ، مما يؤدي الى فقدان السمع كليا أو جزئيا .

هذا بالاضافة الى التعب والارهاق الجسدي والنفسي اللذين ينعكسان بصورة أمراض وعلل أطلق عليها اسم « أمراض الحضارة » التي تشمل الأمراض النفسية كالقلق والاكتئاب ، والأمراض الجسدية النفسية كارتفاع ضغط الدم والقرحة الهضمية .

ولاسبيل للعلاج والوقاية من مرض الضوضاء الا بكبح جماح هذه الأحداث ، وادراك الناس لمخاطرها ، وترشيد سلوكهم الى مايسمى بآداب السكون .

ردود سريعة □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

■ السيد / محمد السيد حامد حجازي ـ كفر الشيخ ـ مصر

ـ ربما كان هناك بعض الخلل العصبي ، والأمر بحاجة الى فحص من متخصص ، فراجع طبيب الأمراض الجلدية .

■ السيد / م . م . ـ حلب ـ سوريا

ـ قضيتك تستحق الطرح والمناقشة مع طبيب نفساني متخصص لاستنباط جذورها فربما كانت عوارض الشيزوفرينيا (الفصام) كما ذكرت ، والأمر يستحق الاهتمام حقا .

■ السيد / رستم ـ اللاذقية ـ سوريا

ـ اذا كان سقوط الشعر بمعدل ٥٠ شعرة يوميا فهذا أمر في الحدود الطبيعية للانسان ، لايورث صلعا لأن هناك عددا مساويا ينبت في فروة الرأس ، لكن من الأفضل استشارة اختصاصي الأمراض الجلدية ، فهو أعلم وأدرى .

اما العقار الجديد لعلاج سقوط الشعر فاسمه العلمي مينوكسديل ، واسمه التجاري ريجين ، ومازالت المعلومات عنه محدودة ، لأنه لم يطرح في أسواقنا العربية على نطاق واسع بعد .

■ السيد / عبد الباسي ـ ع . م . ـ اسيوط ـ مصر

ـ أنت بحاجة لاستشارة اختصاصي في القلب ، اذ لايكفي السؤال ، بل لابد من فحوصات .

■ الأخ أحمد سالم المنشاوي ـ منوف ـ مصر

ـ لغط القلب هو أصوات للقلب ، تنتج من تلف يصيب صمامات القلب من مرض ما .

وعلى ماتصف فالأغلب أن يكون ما أصابك هو نتيجة لحمى روماتيزمية ، أصابت القلب ، وكل ماتعاني منه من تخلف في النمو وصفرة في الوجه وآلام في المفاصل هي من أثر هذه الحمى الروماتيزمية التي توجب عليك مراجعة طبيب الأمراض الباطنية الاختصاصي للعلاج فورا . □

وَهْم

تربطني به صلات قديمة ، مذ تفتح وعينا على الحياة ، كان دوما رقيقا ، متوهج المشاعر ، عصبي المزاج ، حاد الانفعال ، يخفي داخله طيبة هائلة ، وقدرة على الحنان لاتحد ، وكانت صفاته هذه توقعه دوما في تجارب لايتوقعها . وتفرقت بنا سبل الحياة ، وتزوج هو واستقر بعد تجربة عاطفية ناضجة ، وحمدت الله ، وتمنيت أن يخفت قليلا تأجج مشاعره ، إلى أن زارني يوما شاردا وقلقا ، فأدركت على الفور أن رقته وتوهجه مازالا يوردانه مايكرهه وما يعذبه في آن واحد .

حدثني عنها ، زميلته في العمل ، رقيقة عطرة ، تفيض حيوية وتألقا ، وبها قدر من المشاغبة والتمرد ، فالناظر إليها يحسبها طفلة صغيرة لم تزل ، وهي تخفي خلف مسام جلدها بركانا من الأنوثة والدعة . إنها زوجة وأم ، ولاشيء في حياتها سوى عملها وبيتها ، وعلى الرغم من ذلك فإن اللحظات التي يتعاملان فيها معا في الشركة التي يعملان بها قليلة متباعدة يقول : إن هذه اللحظات تمتلىء بفيض من البوح المكتوم ، والتيار السحري الغامض بينهما ، وتنتهي لحظات مراجعة الأوراق أو تسليمها من قسمه الذي يعمل به إلى قسمها الذي تتولى فيه هي مكانة طيبة . تنتهي اللحظات بإحساس عارم ، وإيماءة رأس ، وبسمة هادئة ، وضحكة مشعة ، وكلمة مجاملة . ولأن كليهما يمثل قسما مختلفا في الشركة فإنهما كثيرا ما يصطدمان بعقبات البيروقراطية والاجراءات المكتبية ، وبعد أن يحتدا يعودان ليبحثا عن طريقة تنهي هذه الحدة ، وتأتي اللحظة الدرامية الناعمة : ابتسامة ، فكلمة مجاملة ، ثم يمضي . .

ولم أتمالك نفسي من الابتسام وهو يدلل على أن كل هذه الدلائل إشارات وتعبير عن حس مشترك ، وبوح مكتوم ، واعتراف غير معلن . ووجدت نفسي على خلاف ما اعتاد مني طيلة عمرنا أصرخ فيه ، طالبا منه أن يفيق ، وأن يكف قليلا عن أحلام وأوهام صنعتها طبيعته الرقيقة المتوهجة . حاولت أن أقول له وهو الذي كان على الرغم من توهج مشاعره الدائم شديد النضج ، كثير الحرص ، حاولت أن أقول له إن أخلاق العمل يكمن فيها حسن الزمالة ، والزمالة تتسع لكل ماذكره . وأسهب في وصفه وتحليله ، وليس ذنب إنسان ما ، أي إنسان ، أن يفسر الآخرون تصرفاته على أنها حب أو كره . وكل ما تتخيله لايصنع حبا ، إنه يسهم في صنع درجة إعجاب ، لكن كما تقول لي أنت لايوجد بينكما حوار مشترك ، ولا آمال مشتركة ، ولا خصوصية حلم ، ولا نقاط اتفاق ، ولا حتى اختلاف ، كل ما بينكما علاقة عمل محددة متباعدة .

وحاولت أن أوقظه من وهمه العذب المعذب ، لكنه نظر إلى بحزن شديد ، متهما إياي بعدم الفهم ، وبتبلد الحس ، وغادرني هامسا بأسى : ولكنك لم ترها ، ولم تر مثلي هذا البوح المكتوم على الرغم من كل الجسور والعقبات التي بيننا ومضى . □

محمود عبد الوهاب

تجليات المصادفة

شعر :
شوقي بغدادي

كانت مصادفةً
أم آنّ الريح تخلطُ من جديدٍ
كلَّ أوراق الشجرْ
وتعيدُ قِسمتها
فيرجعُ لي نصيبي
أم أن آخرَ خطوة في الغاب
تكشفُ وحدها الأغصان
عن وجه الحبيب
كانت مصادفة
وقد ألقت بساطَ الريحِ قدامي
لأصعد ثم تصعدُ
ثم يبتدىء السفرْ
أم أنّ طبعَ الليل
أن يغري بصيد اللؤلؤ المنثور
في بحر السهرْ
في هذه اللحظات لا يأتي المساء
مُضمّخاً عبثاً برائحة المطر
ويطل بدر دوْرَتهُ الدهشةُ الأولى لمرآنا
نطيرإلى القمر
في هذه اللحظات لا تدعُ الجبالُ مكانها
وتشاركُ العشّاق نُزهتهم بلا سببٍ
ولا ترمي السهول لحافها عنها
لتقتنصَ الخبرْ
كانت مؤامرةً إذنْ
رسم المساء خطوطها
وتواطأتْ كل العناصر في الطبيعة
كي تُنفِّذَ ما تجاهله القدر
أم أن بستان الطفولة لم يكن يكفي
فلم ينضج
ولم تطرح فواكهها الشجر
والآن .. في هذا المساء الفذ
تكتمل الفصول
فإنْ هززتُ الغصنَ أبسط هزة
سقط الثمر
أوّاه .. في إبّانها تأتي المواسم
أم نداورها لتأتي
أم تلفق للقطاف الصيف
ثم تضيف وهج المهرجان
كانت يداي على يديك
وكنت أعزف فوق بشرتك الطرية
بعض ما فوّتُّ من ماضي الزمان
وكنت ترتعشين ، ثم تخاطرين بلمسة
كي تخطفي بعض الفتات من الزمان
وأنا أردد بالأصابع
نغمةً هبطت على مهلٍ
وساحتْ فوق رسغك
مثلما القوسُ الحنون على الكمان
لم أخترع شيئاً خرافيًا
وقد حلقت في هدي الأنامل

نحو منطقة الأمـان
إذ مال رأسك نحو كتفي
فاستراح هناك ، واسترخى
فذبتُ من الحنان
وانساب شعرك فوق صدري
فاطمأن الكون من حولي ولانْ
ورأيتُ فيم رأيتُ
أرضاً لا سياج لها
وجوّابين لا يتوقفون ليسألوا : من أين ؟
ثم رأيت كرامين غير مسلحين
يرحّبون ويقطفون
ويسكبون بلا حساب
ورأيت دبّاكين من كل القرى
يتحلقون على مدار الأرض زنارا
يحرّضُ خصرها
ورأيت نفسي وسطهم شيخَ الشباب
ورأيت ثوبك خيمة ، فدخلت
واندفع الجميع وراء إيقاعي
فطرت بنا إلى قمم الهضاب
لتصير سكان الفضاء الآخر
الآتين في سُفن السحاب

*

كانت يداكِ على يدي
تؤكدان بأبسط اللمسات
إعجازَ التفاهم دون شرح من أحد
ليست مصادفةً
فتلك سريرةٌ للروح
عتقها ، ونقّطها الجسد
في لحظةٍ يتنهّدُ الحدّاء فيها
مستريحاً من مواصلة السباق الى الأبد

التنازع في العمل باب في النحو ينبغي حذفه

بقلم : محمد خليفة التونسي

لاحظ نحاتنا ان بعض الكلمات (كالأسماء والصفات) تتغير أواخرها بتغير مواقعها أو وظائفها النحوية بين مبتدأ وفاعل ومفعول وتمييز ، فترفع أو تنصب أو تجر او تجزم ، فتوهموا ان هذه التغيرات او الآثار عللا لفظية او معنوية أدت (وتؤدي) اليها كما تؤدي الاسباب الطبيعية في العناصر أو الجواهر الى نتائجها ، اي انهم نهجوا في دراسة الظواهر النحوية المنهج المتبع في دراسة العلوم الطبيعية ، وهذا خطأ ضخم ، ومن اجل ذلك توهموا فكرة العامل او العوامل في الاعراب ، ليعللوا بها ظواهره التي تطرأ على أواخر الكلمات بين ضم او فتح او خفض او سكون ، كأنما هذه العوامل ذوات قدرات ذاتية على اداء ما ينسب اليها

وقد أدى بهم الابتداء بهذا الوهم الضخم الى اوهام وراء اوهام ليس لها أي صلة بالدراسة اللغوية ، وأقوى العوامل عندهم الفعل وما يماثله في الاشتقاق فهو عندهم يرفع الفاعل وينصب المفعول .

ومن يرجع الى أقدم كتاب في النحو عندنا ، وهو « الكتاب » لسيبويه ، يجد أن نظرية العوامل تتسرب او تتدفق بإلحاح خلال كل ابوابه وفصوله ومسائله النحوية منذ اولى صفحاته حتى نهايتها ، وقد تبعه معظم أخلافه في ذلك فعللوا علامات الاعراب بمثل علله ، ثم توهموا لهذه العلل عللا ثانية ، ثم أوغلوا فتوهموا لهذه العلل الثانية عللا ، وهذا ما يسمى في النحو « العلل الثواني والثوالث » ، وكلها اوهام في اوهام تقوم في فراغ ، وقد كانت من اسباب تضخيم النحو وتعقيده وتصعيبه على طلابه ولا سيما الناشئة ، ويكفي ان تقلب بابا في احد الكتب النحوية المبسوطة الجامعة ولا سيما المتأخرة لترى امثال هذه الاوهام والمماحكات تصدع العقول وتورثها الحيرة ، فلا تهتدى الى اي قرار معقول . وقد ألفت في العوامل النحوية كتب خاصة على رغم مهاجمة بعض النحاة لها ولا سيما العلل الثواني والثوالث ، وأشهر من هاجموها ابن مضاء القرطبي في كتابه « الرد على النحاة » . وكان من آثار القول بعمل الفعل ونحوه ظهور باب « التنازع في العمل » .

ما هو باب التنازع عند النحاة ؟ ونوضحه هنا في أيسر صوره ، ووراء ذلك صور اطول ذيولا .

يقال : « رضع الطفل » و « نام الطفل » فكلتا الجملتين فعل وفاعل ، والذي رفع الفاعل عند نحاتنا هو الفعل السابق له ، ولكن اذا قلنا « رضع ونام الطفل » فأقرب الى الفهم ان تعرب (الطفل) فاعلا للفعلين[1] لأن الحدثين : « الرضاعة والنوم » قد استندا اليه وهما صفتان له،وقد تتعدد الأحداث او الصفات التي تنسب الى شخص ، لكن معظم نحاتنا

لا يرون ذلك،بل يرون ان يستقل كل فعل بفاعله ، وكل فاعل بفعله . ولذلك يعربون الطفل فاعلا لأحد الفعلين (الاول او الثاني على خلاف بين البصريين والكوفيين) ويقدرون فاعلا مستترا للفعل الآخر . ويظهر ذلك اوضح اذا كان الفاعل مثنى او جمعا ، فلا يجوز عندهم ان يقال « رضع ونام الطفلان » ويرون الصواب ان يقال : « رضع وناما الطفلان » او « رضعا ونام الطفلان » و « رضع وناموا الاطفال » او « رضعوا ونام الاطفال » فيكون الفاعل لأحد الفعلين ، وتلحق بالفعل الآخر علامة التثنية او الجمع . وتظهر الصورة عندهم أعقد حين يتقدم فعلان متعديان على الاسم ويقتضيه احدهما ان يكون فاعلا ويقتضيه الآخر مفعولا . فعندئذ يرفع احدهما الفاعل ويعمل الآخر في ضميره . فيقال مثلا : نجح فهنأت الصديقان وقابلوني فأكرمني الأصدقاء . فيجب ذكر الفاعل لأنه العمدة كما يقولون فلا يحذف . والعبارتان الاساسيتان هنا « نجح الصديقان فهنأتهما » و « قابلني الاصدقاء فاكرموني » ولكن نحاتنا يضعون بعض الكلمات محل بعض على غير ترتيبها الأساسي . فينشأ هذا التعقيد .

ويشتد ظهور الصورة تعقيدا اذا كان الفعلان متعديين لمفعولين او ثلاثة . فمثال المتعدي لفعلين قول ابن مالك : « اظن ويظناني اخا زيدا وعمرا اخوين » ولا بد هنا من ذكر « اخا » ولا يجوز ذكر ضميره عوضا عنه فلا يقال « اظن ويظناني إياه زيدا وعمرا أخوين » لان « اخا » مفرد و « اخوين مثنى » والعبارة الاساسية السهلة هي « اظن زيدا وعمرا اخوين ويظناني اخا » . ومثال الفعل المتعدي لثلاثة مفعولات ما ذكره العلامة الأشموني في قوله : اعلمني واعلمته أياه إياه زيد عمرا قائما » وقوله « اعلمني واعلمت زيد عمرا قائما اياه أياه » .(٢)

هذا الافراط في ادخال الجمل بعضها في بعض ، وحشر كلماتها في غير مواضعها لا يستسيغه ذوق العرب الذين يفخرون بين فضائلهم بالبيان ويسمون لغتهم الفصيحة بل الفصحى ، ولم يذكر نحاتنا شاهدا واحدا على ما قالوه من كلام نثري فصيح ، وكل ما استشهدوا به لا يعدو بضعة شواهد كلها من الشعر ، وكل الافعال فيها لا تتعدى الى مفعولين ولا ثلاثة بل تتعدى الى مفعول واحد مثل « هوى » في قول الشاعر :

هـو يـنـي وهـويـتُ الـغـانـيـاتِ الى
أن شِبتُ ، فـانـصـرفتْ عنهن آمالي

والفعل « أرضى » في قول الشاعر :

اذا كنتَ تُـرضيـه ويُـرضيـك صـاحبٌ
جِهـارا ، فكُنْ للغيب أحفظ لـلعـهـد

فهل نسي نحاتنا هؤلاء ان للشعر ضروراته من الاوزان والقوافي وانه قد يباح للشاعر ما لا يباح للناثر ، وانه لذلك لا تقام قواعد اللغة على الشعر وحده » .

انهم حين تمسكوا بفكرة العوامل والوثب منها الى القول بالتنازع في العمل قد اضطروا الى تلفيق امثلة من اصطناعهم لم يرد نظيرها في كلام مأثور . واللغة لا تفرض عليها القواعد ، بل يستأنس بأساليبها لاستخلاص قواعدها والقياس عليها . اما هذه التراكيب المعتمة المصطنعة فهي أشبه في عجمتها بالأحاجي والالغاز التي تقصد للمعاياة والتعجيز او بالرقي والتمتمات الخنفشارية التي يلهج بها المشعوذون ليظن الجاهل انهم على شيء . فلنضرب صفحا عن هذا الباب وامثاله ضنا باوقاتنا عن العبث المرذول وصيانة لكرامة عقولنا . فالوقت حياة ، وبالعقل الزم الانسان الفضيلة فاستحق الكرامة . □

---

(١) هذا جائز عند الكسائي والفراء ، يراجع باب « التنازع في العمل » في شرح ابن عقيل تصحيح عبد المتعال الصعيدي ٢١٣ ـ ٢١٨ .

(٢) يراجع باب التنازع في شرح الأشموني ، تحقيق الشيخ محي الدين ٢٩٠ ـ ٣٣٩ ، والخلافات في رافع الفاعل مثلا في همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي ١٥٩/١

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الآباء

حبلُ التمنّي

لميخائيل نعيمة

ميخائيل نعيمة من قمم أدبنا العربي في هذا القرن العشرين ، من مواليد قريته « بسكنتا » من جيرة جبل صنين في لبنان ، ولد في ١٧/ ١٠/ ١٨٨٩ ، وتلقى تعليمه العام في مدارس طائفية ارثوذكسية تابعة للامبراطورية الروسية في العهد القيصري ، وكانت الابتدائية في قرية بسكنتا ، وبداية المرحلة الثانوية في مدرسة الناصرة بفلسطين ، وكان أول صفه في نهايتها فكوفىء بارساله الى مدرسة في مدينة « بولتافا » في روسيا ليتم تعليمه . فأبقى هناك أربع سنوات كان فيها متقدما على زملائه ، وبدأ خلالها ينظم الشعر بالروسية ، ثم عاد الى قريته ليلحق بأخوين له في أمريكا سبقاه الى هناك طلبا للرزق وكان يرغب في اتمام تعليمه هناك ، وفي مدينة واشتطن دخل جامعتها لدراسة الحقوق وقد أتمها هناك ونال شهادتها سنة ١٩١٦ ولكنه لم يمتهن المحاماة طول حياته اذ كانت نزعته الى الأدب غالبة ، وقد أراد الرجوع الى لبنان فحالت دونه الحرب العالمية الأولى التي كانت قائمة يومئذ في أوروبا وكانت الولايات المتحدة مشاركة فيها ، وفي سنة ١٩١٨ جند اجباريا في جيشها مع مقته للحرب ، وأرسل مع فرقة الى الجبهة الفرنسية فقضى هناك السنة الأخيرة ، وكان من حظه أنه لم يبق في خطوط النار غير تسعة أيام ، وفي سنة ١٩١٩ عاد الى أمريكا وفيها سرح من الجيش .

وقد عمل فترة في التجارة ، ثم اشتغل في الصحافة فنشر فيها كثيرا من مقالاته وقصصه وخالط كثيرا من الأدباء أمثاله هناك ، حتى اذا كانت سنة ١٩٢٠ ألف عشرة منهم جماعة أدبية سموها « الرابطة القلمية » كان جبران خليل جبران عميدها ، ونعيمة أمين سرها ، وقد عمرت الرابطة حتى سنة ١٩٣١ حين مات عميدها جبران .

وقد عاد أديبنا نعيمة الى قريته في لبنان سنة ١٩٣٢ وهو يقيم هناك حتى الآن وقد اشتهر بلقبه « ناسك الشخروب » ، والشخروب مرتفع صخري يبعد شرقي قريته بسكنتا بخمسة كيلو مترات ، اتخذ منه أديبنا صومعة له ، وقد بورك في عمره طولا وعرضا فهو اليوم في بداية سنته التاسعة والتسعين وتواليفه نحو الثلاثين ، ولا يزال قلمه حيًّا حفظه الله .

وأديبنا نعيمة عبقري متعدد المواهب متنوع الأنشطة الأدبية ، تغلب عليه النزعة الصوفية في معيشته وفي آثاره ، بدأ نظم الشعر بالروسية وهو دون العشرين ولكنه شاعر مقلّ اذ ليس له في الشعر العربي غير ديوان صغير سماه « همس الجفون » وحين كان في أمريكا أخرج كتابا في النقد الأدبي سمّاه « الغربال » سنة ١٩٢٣ ، ومسرحية سماها « الآباء

والبتون » وبعد عودته طبع بقية تواليفه ومنها قصة طويلة سماها « لقاء » ، ومجموعتان من القصص القصيرة « أبوبطة » و « أكابر » ، ومن كتبه « زاد المعاد » و « البيادر » و « صوت العالم » « وكان ما كان » و «النور والديجور » و « كرم على الدرب » و « دروب » و « في مهب الريح » وله كتاب « مرداد » ألفه بالانجليزية ثم ترجمه الى العربية وهو الى جانب ذلك رسام ، وقد ضمن ديوانه الشعري بضعة رسوم له ، وكتب سيرة حياته التي طبعت في ثلاثة أجزاء سماها « سبعون » ، كتبها حين بلغ السبعين وهو يؤمن بعقيدتين « وحدة الوجود » و « التناسخ » ، ومثله الأعلى شخصية المسيح عليه السلام ، وفيه مشابه من الشاعر الفيلسوف الهندي « رابندرانات تاجور » .

حبلُ التَّمني

نتمنّى ، وفي التمنّي شقاءٌ ... وننادي يا ليت كانوا وكنّا
ونصلّي في سرّنا للأماني ... والأماني في الجهرِ يضحكن منّا
غيرَ أني ، وإن كرهتُ التمنّي ، ... أتمنّى لو كنتُ لا أتمنّى
نتمنّى وما التمني سوى مهماز ... دهرٍ يحثّنا للمسيرِ
فصغيرا قد كنتُ أطلب لو كنت ... كبيراً ولي صفاتُ الكبيرِ
وكبيرا ، لو عدتُ طفلا صغيرا ... واستردّت نفسي نعيمَ الصغيرْ

*

وخليّا ، لو كنت بالحبّ مضنى ... وأسيرَ الغرام ، لو كنت حُرّا
وفصيحا ، لو كنت عيّا سكوتا ... وسكوتاً ، لو كنت أنطق دُرّا
وحكيما ، لو كنت غِرّاً ، وغِرّا ... لو عرفت المكنون سرّاً فسرّا
ووحيداً ، لو كان حولي ناسٌ ... ومحاطاً بالناس ، لو كنت وحدي
وغريباً ، لو كنت ما بين أهلي ... وقريباً ، لو طال أو دام بُعدي
ووضيعاً ، لو كنت صاحبَ مجد ... ومجيداً ، لو لم يكن لي مجدي
وفقيرا ، لو كان لي بحرُ مال ... وغنيّاً .. لو كان لي ضعف مالي
فلكم حالةٍ طمحتُ إليها ... قائلا إنْ بلغتُها قرّ بالي
وأراني ، ما زلتُ عبدَ الأماني ... أتمنّى لو كنتُ في غير حالي

*

كلّنا يزرع الأماني ولا نحـ ... ـصد بعد العناء غير الأماني
فالأماني حبلٌ نسيرُ عليهِ ... فوق بحر الوجود كالبهلوانِ
والأماني يقرضن حبلَ الأماني ... كالثواني يقرضنَ حبلَ الثواني

*

أتمنّى ما زلت أجهل نفسي ... وأنادي يا ليتني ولو اني
وأصلّي في داخلي للأماني ... والأماني في الجهر يضحكن منّي
غير أني لا بدّ أبلغ يوما ... فيه أمسي حرّاً عديمَ التمني

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
			■				■			٢
			■							٣
			■			■				٤
		■							■	٥
			■				■			٦
■				■		■				٧
■							■			٨
		■			■					٩
								■		١٠

كلمات أفقية

١ . من كتّاب وفلاسفة الثورة الفرنسية

٢ - أول الشيء ، تحاق وتباعد ، بمعنى صرع مقلوبة

٣- من أسنّت دون أن تتزوج ، من الأبجدية العربية

٤- قام بعمل الرائد ، سيدة ، عرض سلعة للبيع

٥- جزيرة برتغالية غرب المغرب ، حرف مكرر

٦- تجدها في بات ، شجر من الصنوبريات ، فضل

٧- أمطر ، أرض غزيرة النبت

٨- حرفان من تابع ، اسم لعائلة مالكة بريطانية

٩- رباني ، حُسْن الحال وكثرة النعمة ، والدة

١٠- كلمة دارجة فصيحها الأجرد

كلمات رأسية

١- مفردها جرة ، أداة لصهر المعدن

٢- عاصمة دولة اسلامية كبرى

٣- كلمة يستثنى بها ، أصل البناء مقلوبة

٤- أصابها الجنون ، أعمل المكر ، هلاك

٥- مفسر أحلام عربي مشهور

٦- سياسي كوبي أسس دولة اشتراكية في بلده ، مشى

٧- غير مخير

٨- جمع وعد ، صار ذا مروءة

٩- مدينة سوفييتية تسمى حاليا قولجوجراد

١٠- طمع وسعى لوصول الغاية بشق السبل ، بحر معكوسة

حل مسابقة

العدد الماضي - ديسمبر ١٩٨٧

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
■	س	و	ر	ع	ل	ا	ج	ا	ت	١
ه	ر	ق	ر	ق	■	ر	ل	ي	ش	٢
ن	■	و	■	م	و	ي	د	ا	ر	٣
د	ي	د	ص	■	س	ج	■	د	ن	٤
ر	ص	ا	ن	ل	ا	■	ل	ي	و	٥
ك	ر	ح	■	د	و	ل	و	■	ب	٦
ه	ح	ف	ص	■	س	■	ز	ن	ي	٧
ل	■	و	ح	ص	■	س	ي	و	ل	٨
ت	ا	ر	و	ط	ع	■	ن	ا	■	٩
ز	■	ي	ن	ا	ج	ر	ج	ل	ا	١٠

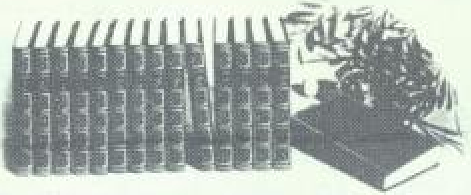

مكتبة العربي

كتاب الشهر

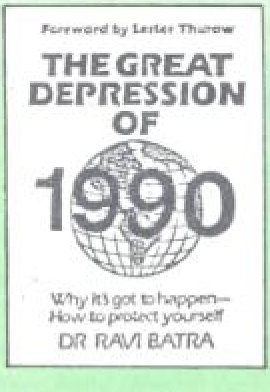

الكساد الكبير عام ١٩٩٠م

المؤلف :

برفسور رافي باترا

مراجعة : الدكتور عبد الاله أبو عياش

« شهد العالم خلال عقد السبعينيات وما مضى من الثمانينيات عدة هزات اقتصادية حادة ، بدأت بركود أوائل السبعينيات ، وانتهت مؤخرا بانهيار أسعار العملات وسوق الأسهم ، مما دفع كثيرين من المراقبين الى التخوف من حدوث أزمة اقتصادية عالمية ، كالتي حدثت في أوائل الثلاثينيات ، لكن مؤلف هذا الكتاب يقطع بأن الأزمة قادمة ، ويعيد الى الأذهان شبح تلك الأيام السوداء ، لأن النظام الاقتصادي الرأسمالي برمته في أزمة حقيقية » .

الولايات المتحدة ودول العالم مقبلة على كساد كبير في عام ١٩٩٠م . هذا ما يتوقعه ويؤكد عليه مؤلف هذا الكتاب البرفسور راڤي باترا . يقول إن كل المؤشرات والدورات الاجتماعية والاقتصادية التي تتبع مساراتها على المستوى العالمي بشكل عام ، وفي الاقتصاد الأمريكي بشكل خاص ، تدل على أن التداعي الاقتصادي قادم لا محالة . وتستند محاولته على تشخيص المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتراكمة ، وإلقاء الضوء على التواترات المتنظمة في دورات التغير الاقتصادي والاجتماعي كمنطلق لتفسيراته وتوقعاته . والكتاب ليس اقتصاديا بحتا ، وإنما تتداخل فيه أبعاد اجتماعية وفلسفية ، يعتبرها المؤلف جزءا لا يتجزأ من أطروحاته ، وهو لا يقف عند حد تشخيص المشكلات واستقراء الفزع الاقتصادي الاجتماعي القادم ، وإنما يحاول في الفصول الأخيرة تقديم النصائح للقراء حول الوسائل والاجراءات التي تساعدهم على امتصاص الصدمة الاقتصادية القادمة ، وكيفية حماية أنفسهم ، والخروج بسلام من التداعي القادم .

تنبؤات سابقة

يحاول المؤلف اقناع القارىء بقدراته على التنبؤ بمتغيرات المستقبل ، استنادا الى أدلة علمية ، وليس مجرد تنجيم أو قراءة للمستقبل ، ويقول بأن توقعاته الدقيقة تحققت بشكل مدهش في العديد من الأحداث السابقة التي تنبأ بوقوعها في محاضرة له في جامعة أوكلاهوما في ديسمبر ١٩٨٧م . فقد تنبأ بأن يسقط شاه إيران ، وأن يستولي رجال الدين على السلطة ، وتوقع نشوب الحرب العراقية الايرانية في عام ١٩٨٠ ، كما توقع بأن أوروبا ستمر بمرحلة ركود اقتصادي خطير في عام (١٩٨٦/ ١٩٨٧) .

وقبل أن تلخص محتويات الكتاب ، من الأجدى التعرف على الكيفية التي يفكر بها هذا المؤلف ، حتى تتحدد أطروحاته ومنهجيته لفهم الاستنتاجات التي توصل إليها ، وكما يعلق الاقتصادي الأمريكي ليستر ثورو الأستاذ بمعهد (ماساشوستس التكنولوجي) في تقديمه لهذا الكتاب ، أن محللي ومفسري مسارات التاريخ البشري ينقسمون الى مجموعتين ، المجموعة الأولى تبني تفسيراتها في إطار التواترات الدورية المتنظمة ، بينما المجموعة الأخرى تفسر الأحداث باعتبارها حالات فردية لها خصوصياتها ، فالذين يؤمنون بالتواترات الدورية والمتنظمة يتهمون أحيانا بأنهم يحشرون ويجبرون الحالات والأحداث الفردية ، ويفسرونها في إطار الدورات المتنظمة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية . أما الذين يؤيدون التفسير الفردي للأحداث فيتهمون بأنهم يتجاهلون التأثيرات المتنظمة للقوى الاقتصادية والاجتماعية . ومؤلف هذا الكتاب يتبع منهجية المجموعة الأولى التي تفسر الأحداث في إطار الدورات التاريخية المتنظمة وتؤمن بذلك .

إن أهم ما يتميز به هذا الكتاب هو أن مؤلفه يعتبر من أبرز المنظرين الاقتصاديين في الجامعات الأمريكية ، وهو من أصل هندي . وقد حاول أن يبني توقعاته من خلال المزج بين حكمة الشرق وفلسفاته ومدخلات النماذج الاقتصادية الغربية ، فالنموذج الذي يرى من خلاله تحليلاته وتوقعاته للكساد الكبير القادم مبني على قانون الدورات الاجتماعية الذي طوره واحد من أبرز علماء الاجتماع الهنود وهو (ب . ساركار) . يبدأ ساركار بتحليل الخصائص العامة للعقل البشري ، ويقول إنه على الرغم من أن معظم البشر لهم تطلعات وطموحات متشابهة ، إلا أنهم يختلفون في

الوسائل للوصول إليها ، ولهذا فإن البشر ينقسمون - في رأيه - الى أربع مجموعات ، والتطور التاريخي - في نظره - يفسر من خلال الأدوار والمراحل التي تتحكم فيها هذه المجموعات بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال مراحل تطورها ، وهذه المجموعات هي العمال ، والمحاربون ، والمفكرون ، والناهبون . وتكون السيطرة في المرحلة الأولى لدورة التطور الاجتماعي هي لمجموعة العمال ، وتتميز هذه المرحلة بضعف التماسك الاجتماعي ، والعودة الى البداية وانهيار القيم والمعنويات ، وانتشار الجرائم والانحرافات ، وتحكم المادية بالمجتمع حتى العظم .

المفكرون والمحاربون

وفي المرحلة الثانية تبدأ ولادة مجموعة المحاربين الذين يعيدون تنظيم المجتمعات من خلال السيطرة والقوة وتعزيز السلطة والمركزية ، وتؤدي هذه الصراعات والحروب الى توحيد مجتمعات عديدة تحت راية سلطة القوة ، وعندما تسود قوانين المحاربين وتتعزز قبضتهم وتستقر الأمور ، تتوفر البيئة الخصبة لظهور مجموعة المفكرين في المرحلة الثالثة في دورة التغير الاجتماعي . وتستطيع مجموعة المفكرين بقدراتها الفكرية التأثير على الحاكم وتوجيهه من وراء (الكواليس) تعزيزا لنفوذهم ، فالمفكرون يؤيدون المحاربين لخدمة مصالحهم وللسيطرة على عامة الناس،وتستمر هذه المرحلة ما دام هناك توازن بين الفكر والسلطة ، إلا أنه عندما تضعف السلطة ، ويتسلل أشباه المفكرين والانتهازيون والناهبون في مناحي الحياة ، وتتولد مجموعة جديدة من هؤلاء الذين ليس لهم هم سوى الحصول على الماديات ، ولا يصبح لهم هدف سوى الحصول على المكتسبات المادية والثروات وتكديسها . وتستخدم هذه المجموعة التي سرعان ما تكبر وتتضخم ، كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول الى أهدافها ، ولهذا تنتشر الرشاوي والسرقات والجرائم والانحرافات بكل أنواعها ، وتظهر نتيجة لذلك طبقة صغيرة طفيلية من الأثرياء والمرتشين والوصوليين والانتهازيين الذين يتدافعون لتكديس الثروات على حساب الأغلبية التي لا يبقى لها سوى القليل ، ويؤدي هذا التفاوت الاقتصادي الاجتماعي الحاد الى ثورة يقودها المحاربون والمفكرون والعمال لاعادة التوازن الاقتصادي والاجتماعي داخل المجتمعات .

إن الاستنتاج الذي يريد مؤلف الكتاب الوصول اليه من خلال تبنيه لقانون « ساركار » في دورة التغير الاجتماعي ، هو أن المجتمع الأمريكي والعالم يمر بمرحلة الناهبين ، فهناك اليوم قلة من الناس تتجمع وتتكدس عندها ثروات طائلة ، بينما أغلبية البشر تعاني من أوضاع معيشية واجتماعية بائسة . ويقول إن هذه كلها تنذر بأن هذه المرحلة الرابعة التي تعيشها أمريكا تقترب من نهايتها ، وأن الكساد الكبير القادم هو بمثابة الآلية التي ستعيد لاقتصاد الولايات المتحدة والعالم التوازن المطلوب .

دورات الكساد في الاقتصاد الأمريكي

في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٢٩ حدث الانهيار الاقتصادي الكبير في سوق الأوراق المالية في نيويورك ، فتساقطت الشركات وأسهمها ، وأعلنت آلاف المؤسسات إفلاسها . وخلال ثلاث سنوات كانت ٨٥ ألف مؤسسة قد أعلنت إفلاسها في الولايات المتحدة . ووجد ١٢ مليون عامل أنفسهم عاطلين عن العمل ، وهذا العدد يعادل ٢٥٪ من إجمالي قوة العمل في الولايات المتحدة في ذلك العام ، وقد امتدت آثار الكساد الكبير الى كل العالم الرأسمالي الذي وقف على حافة الانهيار الاقتصادي .

إن ما حدث في اكتوبر ١٩٢٩ لم يكن سوى حلقة في سلسلة من حلقات الكساد السابقة التي تكررت أنماطها بشكل منتظم خلال تطور الاقتصاد الأمريكي ، ففي عام ١٧٨٠ شهدت أمريكا أول كساد كبير في تاريخها . وبعد ذلك بستين عاما ، أي

في عام ١٨٤٠ ، حدث كساد كبير آخر ، وبعده بثلاثين عاما ، أي عام ١٨٧٠ ، واجه الاقتصاد الأمريكي ثالث كساد كبير ، وانتظر الاقتصاد الأمريكي ستين عاما أخرى ليواجه الكساد الكبير في عام ١٩٣٠ . إن أطروحة مؤلف هذا الكتاب تؤكد أن دورات الكساد هذه لا تحدث بمحض الصدفة ، أو بطريقة عشوائية ، وإنما تحدث نتيجة قوى تضغط باستمرار باتجاه تعديل الخلل المتراكم في الاقتصاد الأمريكي وما يتبعه من اقتصاد رأسمالي وعالمي .

أين يكمن الخلل اذن ؟

يكمن الخلل في رأي باترا في ثلاثة أبعاد : هي الخلل في النظام الرأسمالي المتمثل بدورة النمو المالي والرأسمالي ، وتكديس الثروات في أيدي القلة ، وكذلك الخلل في التضخم ، وعرض النقد ، والخلل في السياسات المالية .

وطالما أن جوانب هذا الخلل مستمرة ومتكررة فإن الدورات الاقتصادية المتواترة التي أدت الى فترات الكساد الاقتصادي في الولايات المتحدة ستؤدي مرة أخرى الى ظهور الكساد الاقتصادي الكبير الذي يتوقعه في مطلع التسعينيات . فما هي مؤشرات هذا الكساد الكبير ؟

مؤشرات الكساد الكبيرة

يعتقد باترا أن أقصى مدى زمني لاكتمال دورة الكساد الاقتصادي الأمريكي هي ٦٠ عاما ، وأن عام ١٩٩٠ هو نهاية هذا المدى . وطالما أنه يؤمن بحتمية دورات الكساد ، فإنه على يقين بأن بداية الدورة الكبيرة في كساد الاقتصاد الأمريكي ستكون حتما في عام ١٩٩٠ . ويدعم جدليته بعدد من المؤشرات أهمها أن هناك فروقا حادة في الدخول والثراء بين الأمريكيين ، وأن هذه الفروق ستتجاوز خلال السنوات القليلة القادمة ما عانى منه الاقتصاد الأمريكي في عام ١٩٢٩ ، وقد أدى استفحال هذه الظاهرة الى تزايد أعداد البليونيرية خلال عام ١٩٨٦ وحده ، من ١٤ بليونيرا الى ٢٦ بليونيرا ، كما أن هناك ٥٪ من الأمريكيين يملكون ثروات أكثر من ٤٠٪ من السكان في الولايات المتحدة . ومن المؤشرات الأخرى الظروف الصعبة والأوضاع المتداعية للبنوك الأمريكية ، خاصة تلك البنوك المتورطة بديون تكاد تكون معدومة لدول العالم الثالث . وتهدد هذه العوامل الأوضاع المالية للبنوك ، وتضعها على حافة الافلاس . ويشير المؤلف الى أن أوضاع البنوك الأمريكية في الثمانينيات شبيهة الى درجة كبيرة بأوضاعها في العشرينيات ، وأن المؤشرات الخاصة بالتضخم وأسواق الأسهم والفوائد والبطالة في الثمانينيات تتشابه مع مثيلاتها في العشرينيات ، لكن المؤشر الأسوأ الذي سيكون بمثابة الضربة القاضية هو حجم العجز التجاري والمالي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الاقتصاد الأمريكي ، فالديون الخارجية المتراكمة على الولايات المتحدة قد وصلت الى ٢٥٠ بليون دولار في نهاية عام ١٩٨٦م . وفي الحقيقة أن المديونية الخارجية للولايات المتحدة هي أسوأ بكثير مما تبدو عليه ، فلم يحدث في التاريخ الاقتصادي البشري أن أصبحت الدولة الأقوى والأغنى هي الأكثر مديونية في العالم .

وصايا ونصائح

يدعو المؤلف القراء الى اتباع استراتيجية مرنة ، مكونة من عدة بدائل لحماية أنفسهم من عواقب الكساد القادم في التسعينيات ، ويؤكد بأن الوصايا التسع التي يقدمها في كتابه تهدف الى تخفيض المخاطر الى أدنى مستوى ممكن وتعظيم الفوائد . أما الوصايا

الواردة في إطار ما أطلق عليها بالاستراتيجية الاستثمارية فتتركز على الجوانب التالية :-

- مزيد من الادخار ومصروفات أقل .
- تخفيض الديون الفردية الى أدنى حد ممكن .
- الاستمرار حتى عام ١٩٨٩ في الاستثمار في السندات والأسهم .
- تجنب الاستثمار في العقارات والذهب حتى عام ١٩٨٩ ، وأن لا تشتري ذهبا إلا عندما تنزلق أسعاره الى مستوى ٣٠٠ دولار للأونصة .
- البدء ببيع جميع الموجودات الاستثمارية من أسهم وعقارات بعد منتصف عام ١٩٨٩ ، مع الاحتفاظ بسندات الخزينة الأمريكية .
- البدء بتسييل الموجودات في أسواق المال في حالة انهيار البورصات العالمية ، بغض النظر عن الخسائر المترتبة على حقوق السحب .
- البدء بشراء العملات الذهبية والفضية وأسهم شركات الذهب .
- الاستمرار بالاحتفاظ بالسيولة وبالمعادن الثمينة ، بحيث تكون موزعة بين صندوق الأمانات في البنوك وفي المنازل .

ويوجه في النهاية نصيحة خاصة لمستثمري المشاريع ، وبخاصة الصغيرة بأن يركزوا استثماراتهم في أعمال الصيانة والتصليح ، لأن المستهلكين سيتوقفون عن شراء أية منتجات جديدة ، ويركزون - بدلا عنها - على إصلاح ما يملكون وصيانته .

كلمة أخيرة

هناك احتمالات كبيرة بأن تتحقق توقعات المؤلف وتنبؤاته ، خاصة في ضوء الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يمر بها الاقتصاد العالمي ، فالمؤلف يؤمن بحتمية الدورات التاريخية التي تتفاعل خلالها القوى والعوامل الاقتصادية في تواترات منتظمة ، لتؤدي في النهاية الى دورات الكساد . وهو يبني تحليلاته وتوقعاته واستنتاجاته اعتمادا على ما يسميها جازما قوانين الدورات الاقتصادية والاجتماعية ، إلا أن المأخذ الكبير على منهجيته أنها تعتبر امتدادا للتفكير الاقتصادي التقليدي ، فهناك ظروف وأبعاد مستجدة ، تبرز مع التطورات التقنية ، تؤثر على الواقع الاقتصادي ، كما أن هناك حالات فردية يصعب تفسيرها في إطار قوانين الدورات المنتظمة .

وعلى الرغم من ذلك فالتسلسل والترابط المنطقي في الكتاب يعطي للمؤلف فرصة كبيرة في إثبات مصداقية تنبؤاته . وليس أمامنا إلا الانتظار فترة قصيرة ، لا تتعدى ثلاث سنوات ، للحكم على مدى صدق استنتاجاته على ماهو قادم في صورة الاقتصاد العالمي . □

الشعراء أربعة أقسام

● قسم علماء الأدب الشعراء تقسيما يمكن أن يعد من المقاييس العامة للشعر ، لكنه لايفيدنا في ترتيب طبقات الشعراء الفائدة المطلوبة ، فقالوا : إن الشعراء أربعة أقسام : شاعر فحل ، وهو الذي يجيد الشعر ، ولايروي لغيره ، وشاعر خنذيذ ، وهو يجيد الشعر ، ويروي الجيد من شعر غيره ، فهو شاعر ، وعالم بالشعر ، وقد يطلق عليه أيضا الفحل ، فيكون أعم من الخنذيذ ، ثم شاعر وسط ، وهو الذي لايبلغ مرتبة الفحول ، ولا ينحط شعره إلى الرديء ، ثم شاعر ورا شويعر ، وهو الرديء

من المكتبة العربية

ساطع الحصري

رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي

عرض : جمال وردة

صدر مؤخرا في موسكو هذا الكتاب الجاد الذي يتناول بالبحث والتحليل سيرة فيلسوف العروبة « ساطع الحصري » وأفكاره ، فكيف تنظر العيون الماركسية اللينينية إلى مفهوم القومية العربية ، وإلى أفكار منظريها الأفذاذ أمثال ساطع الحصري ؟ .

خلال السنوات العشر الأخيرة انصرفت الكاتبة السوفيتية تاتيانا تيكونوفا لدراسة فكر ساطع الحصري ، وقد حاولت تيكونوفا في كتابها هذا تسليط الضوء على المراحل الأساسية في حياة فيلسوف العروبة ، مع تتبع الاتجاهات الرئيسية في فكره النظري ونشاطه العملي ، مبينة وكاشفة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية التي أحاطت به ، وأثرت في تطور أفكاره . وتنطلق الكاتبة السوفيتية في بحثها هذه الحركة الفكرية الواسعة بمنهجية ماركسية واضحة ، وبتجرد علمي صارم ، فهي لم تقيّم طروحات مفكرنا العربي القومي من زاوية مدى قربها أو بعدها من الأفكار الماركسية اللينينية ، وإنما أخذتها في إطارها التاريخي الملموس ، وفي ظروفها الزمانية والمكانية المنوطة بها ، وبذلك تكون هذه الباحثة قد التزمت بمبادىء المنهجية الماركسية في دراسة تاريخ الفكر الفلسفي

والاجتماعي ، كما أشار لينين في أحد أقواله :

« إن تقييم المآثر التاريخية لا يكون في ضوء ما لم تقدمه الشخصيات التاريخية بالمقارنة مع المتطلبات الحالية ، بل في ضوء ما قدمته من جديد بالمقارنة مع أسلافها » .

الوحدة ورص الصفوف

إن الباحث المتجرد حين يقيم هذه الأفكار أو تلك ، يجب ألا يقتصر على النظر إليها من زاوية علميتها فقط ، وألا يكيلها بمعيار الصواب والخطأ فحسب ، بل ينبغي أن يترافق معه معيار آخر هو النفع والضرر ، وفي ضوء ذلك يصبح مفهوما لدينا لماذا تتوقف الدكتورة تيكونوفا عند الجوانب الضعيفة والمحافظة وغير العلمية في إبداع الحصري ، ولم تنخرط في جدال معه حول ما يصادفها من « كليشهات » والتباسات قد تكون خاطئة حول مفهوم النظرية الماركسية في الأمة والمسألة القومية ، وقد اكتفت الباحثة بالاشارة الى هذا الالتباس أو هذا الخطأ في فهمه لهذه الفكرة أو تلك .

إن فكرة الوحدة العربية التي لعبت دورا هاما في رص صفوف فصائل حركة التمرد الوطني العربية في فترة النضال ضد السيطرة الامبريالية ما تزال تمثل أحد العوامل الرئيسية في حياة العرب السياسية المعاصرة ، لقد كانت الحركة القومية العربية التي تشكلت في عصر انهيار البنى التقليدية ، تهدف الى تحوير المجتمع ، وتتسم عموما بطابع علماني ، فقد كانت هذه الحركة ترتكز على تشابه المشكلات الملحة التي تعترض طريق التطور الاجتماعي في الأقطار العربية ، وتستند في صيرورتها على وحدة اللغة والتاريخ ، وعليه فان تجربة الوحدة العربية قد جاءت في المقام الأول كتجربة للنضال المشترك ضد الامبريالية ، ومن هنا يأتي التأثير الكبير الذي تمارسه الايديولوجية الوحدوية على العمليات الفكرية الجارية في الوطن العربي ، والمكانة المهمة التي يشغلها منظرو الحركة البارزون في الحياة الاجتماعية العامة .

ويأتي في مقدمة هؤلاء المفكر العربي الفذ ساطع الحصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨) الذي أرسى أسس التيار العلماني في الفكر القومي العربي . لقد كان لأفكاره الأثر البالغ على أيديولوجية القومية العربية وأدبياتها في العقود اللاحقة ، وعلى فكر عدد كبير من الزعماء السياسيين العرب ، وكان لآرائه تأثير ملحوظ على نظرية الاشتراكية العربية التي تشكلت في الخمسينيات والستينيات .

لقد بدأ الحصري منذ العشرينيات بسوق البراهين النظرية على وحدة الأمة العربية ، بل لقد كان من القلائل الذين أدركوا أن التيارات الفكرية السائدة آنذاك تقف عائقا أمام المسيرة الوحدوية ، وقد تميز الحصري عن غيره من دعاة الوحدة الذين عولوا على المشاعر القومية بقدرته على رؤية القوى الاجتماعية التي تصلح لأن تكون ركيزة للتوجيه القومي التقدمي ، مما انعكس في نقده الحاد للجانب الرجعي الشوفيني في قومية الأمم المضطهدة الذي بدأ يتكشف جليا بعد الاستقلال ، وهو نزوع بورجوازية البلدان الأكثر تطورا نحو بسط هيمنتها على باقي البلدان الأخرى . وفي هذا الاطار راح الحصري

يؤكد على أن الدور القيادي في الحركة الوحدوية يجب أن يكون للأنظمة الساعية لتعميق التحولات الاجتماعية المتطلعة نحو العدل الاقتصادي ، وعلى الرغم من أنه كان يثمن عاليا التحولات الاجتماعية في البلدان الاشتراكية الا أنه كان يؤمن بإمكانية تجنب الصراع الطبقي ، من خلال الاصلاحات الاجتماعية ، وعبر التأثير المعنوي على الطبقات ، وكان يعتقد أن الماركسية تحول دون التلاحم القومي . لقد كانت آراؤه وتقييماته تنم عن تأثير ملحوظ بالنظرة التنويرية التي كانت واسعة الانتشار في صفوف المثقفين العرب في مطلع القرن الحالي ، ومع تغير الظروف أدرك الحصري دور العوامل المادية في التطور الاجتماعي ، لكن هذا ترافق لديه مع فهم مثالي للتقدم ، يميل الى إناطة الأولوية فيه بالجوانب الثقافية والنفسية .

ومن بين مآثر الحصري يأتي قوله بأن الدعوات الاقليمية الانعزالية تعوق رص الصفوف في الأقطار العربية في جبهة واحدة . وكان لمؤلفاته التي يدافع فيها عن عروبة مصر وخطر انعزالها وقع كبير ، خاصة في الأدبيات القومية التي لعب الحصري فيها دورا بارزا في التصدي لتلك النزعات الانعزالية .

نقطة الانعطـــاف

لقد عاش الحصري حياة مديدة ، شهد فيها الكثير من الأحداث السياسية الجليلة التي عصفت بالوطن العربي ، والتي قد ساهم هو نفسه في بعضها . وقد كان لهذه الأحداث شأنها في رسم مصيره ، وفي بناء أفكاره ، فلقد كان لانهيار الامبراطورية العثمانية نقطة انعطاف في حياته ، فبعدها غادر الحصري اسطنبول وهو في التاسعة والثلاثين من عمره لينضم الى دعاة القومية العربية في دمشق . ولقد برز في أواخر القرن التاسع عشر تياران فكريان متصارعان ، هما الجامعة العثمانية والوحدة الاسلامية ، وكان المفهوم الأول يعني القول بمساواة كل مواطني الامبراطورية ، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية ، وكان هذا التيار يعكس رؤية برجوازية للدولة ، ولعله كان أكثر تقدما بالمقارنة مع التيار الثاني ذي البنى الاقطاعية . وفي جو الصراع بين هذين التيارين تكونت آراء ساطع الحصري الذي ولد من أسرة حلبية في مدينة صنعاء عام ١٨٨٠ ، حيث كان والده يعمل قاضيا في اليمن ، وفي عام ١٨٩٢ التحق بالقسم الداخلي في المدرسة الشاهانية باسطنبول التي كانت في ذلك الحين واحدة من بؤر الاختمار الفكري ، والتي فيها تخرج العديد من الناشطين في حركة (تركيا الفتاة) .

لم يكن اهتمام الحصري بالعلوم الطبيعية اهتماما (أكاديميا) محضا ، وإنما كان يقترن بإيمانه العميق بأن نشر المعارف العلمية بين أوسع فئات الشعب سيكون مقدمة ضرورية لاعادة تركيب الوعي الاجتماعي ، الذي يجب أن يتقدم ـ في رأيه ـ سائر الاصلاحات ، وانطلاقا من رغبته في المساهمة النشيطة في هذه الاصلاحات قدم طلبا الى وزارة الداخلية يعبر فيه عن رغبته في العمل التربوي بإحدى ولايات مقدونية التي كانت تدار وفقا لنظام دولي خاص تبعا لاتفاق « مورستيغ » عام ١٩٠٣ ، والتي كانت لا تخضع عمليا للادارة الحميدية . وقد أصبحت مقدونية منذ عام مسرحا لنشاط أتاتورك والاتحاد التركي وأنصار تركيا الفتاة . وقد تحولت فيما بعد إلى معقل للضباط الثائرين في الجيش الثالث العثماني ، واتصل ساطع الحصري بقيادة هذه الحركات جميعها ، لكنه لم ينضم إليها رسميا .

ثم عهد إليه فيما بعد بإدارة مدرسة دار المعلمين بالقسطنطينية ، وكانت أهم معاهد البلاد التربوية ، وقد أعاد بناءها على أسس جديدة تتفق مع آخر الانجازات العلمية الحديثة .

وبعد سقوط الامبراطورية لجأ الى دمشق حيث التقى بالملك فيصل بن الحسين ، وربط مصيره به ، حيث أصبح وزيرا للمعارف في الدولة العربية الوليدة ، وبعد معركة « ميسلون » رافق الحصري فيصلا إلى الحجاز ثم مصر ثم روما ، وبعد ذلك إلى العراق ، ليشرف على وضع خطة تربوية جديدة في العراق . وبقي هناك الى أن أبعد عام ١٩٤١ إثر فشل

حركة رشيد عالي الكيلاني .

يشكل مفهوم الأمة العربية الواحدة محور نظرية الحصري . وقد سبق له منذ أوائل العشرينيات أن طرح تعريفه الخاص ، الذي يؤكد فيه على العاملين الوحيدين في تكوينها ، وهما اللغة والتاريخ ، وظل أمينا لفهمه على امتداد حياته كلها . ومع ذلك فمن الخطأ النظر إلى فكر الحصري على أنه مذهب سكوني ثابت لا يتبدل . فبعد انقضاء فترة زمنية قصيرة راح الحصري يدخل تعديلات هامة على نظريته ، فتعلق بالعوامل التي كان يعتبرها عرضية وثانوية كالدين ووحدة الأرض والعامل الاقتصادي .

الثابت والمتحول

إن إبراز الثابت والمتحول في فكر الحصري ، والنظر إلى العناصر المتحولة في ضوء تغير الشروط التاريخية وتبدل ظروف الصراع السياسي ، يتيحان الوقوف على النزعة الأساسية في تطور أفكاره ، فيجنبان الباحث الوقوع في التقييم الأحادي المجانب لانشاءاته النظرية ، ومن شأنها كذلك توفير إمكانية رصد هذه السمات الايجابية المهمة مثل الانفتاح والديناميية . إن الأمة في نظر الحصري كائن عضوي له حياته وشعوره ، فاللغة حياة الأمة ، والتاريخ شعورها ، والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت في حالة من السبات ، غير أنها تستطيع أن تستعيد وعيها بالعودة إلى تاريخها القومي . لكن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة . ويستبعد الحصري « وحدة الأصل » من مقومات الأمة ، لأن القرابة بين أفراد الأمم تكون معنوية أكثر منها جسمانية ، وأن وحدة اللغة تكفل نوعا من الوحدة في التفكير والشعور ، وهكذا نجد أن الحصري يركز على المؤشرات المعنوية مجاريا في ذلك بعض الفلاسفة الألمان أمثال « فيخته » و « نورو او » والفيلسوف الفرنسي المثالي « ارنست رينان » . وعلى الرغم من هذا التشابه ينتقد الحصري ويدحض هذه الاستنتاجات التي تصور « الطبع القومي » وعقل الأمة كأشياء أزلية ، وذات أصل رباني . والتاريخ في رأيه ليس هو التاريخ المدون في الكتب ، بل التاريخ الحر في النفوس ، الشائع في الأذهان . إن الوحدة التاريخية تؤدي إلى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة ، وفي المصائب الماضية ، وإلى تشابه في أماني النهوض وآمال المستقبل . وقد لا نبالغ حين نقول إن وحدة التاريخ بوصفها المؤشر الرئيسي الثاني من مؤشرات الأمة ، إنما تعني عند الحصري عاملا مفتوح الأبواب للتأثير الذاتي عليه . ويتعزز طردا مع هذا التأثير . أما الأداة الرئيسية لهذا التعزز في نشر المعارف التاريخية ، ولهذا يولي الحصري تعلم التاريخ الدور الحاسم في التركية الوطنية والقومية .

تحولات اقتصادية واجتماعية

وقد تطرق الحصري للمسائل المتعلقة بالاقتصاد لأول مرة في أوائل الخمسينيات ، وقد كان التفات فيلسوف العروبة إلى القضايا الاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة أمرا طبيعيا ، فقد برزت إلى الواجهة بعد حصول الأقطار العربية على استقلالها.ان التحولات التي طرأت على البنى الاقتصادية والاجتماعية قد هيأت الأبنية للانشطار الطبقي سواء داخل الأقطار العربية أو على الصعيد الدولي . وفي ضوء ذلك يسترعي الانتباه تبدل نظرة الحصري الى العامل الاقتصادي ، ففي البداية كان الحصري يتجنب الخوض في مشكلة التناقضات الاقتصادية على الرغم من اعترافه بوجودها ، ثم نراه يعترف بأن العوامل الاقتصادية تلعب دورا هاما في حياة الأفراد والجماعات ، وتؤثر تأثيرا قويا في أحداث التاريخ واتجاهاته ، لكن عدم الفهم الصحيح لمنطق العلاقات الاقتصادية قد دفع الحصري الى إنكار صلتها بتكون الأمة ، وإلى إدراجها في مضمار نشاط الدولة فقط .

« إن المصالح الاقتصادية من أقل الأمور التصاقا بالقوميات ، وأشدها خضوعا لسلطات الحكومات ، وهنا يتفق الحصري مع النظرة الهيغيلية للدولة ، فالتنظيم الناجح للحياة الاقتصادية وفقا للمصلحة

العامة يتوقف على طيبة خاطر « الحكومة الحكيمة » .

ويعود هذا الموقف ـ في الكثير منه ـ الى الظروف الاجتماعية التي كان يعيش فيها الوطن العربي في الحقبة التاريخية التي تشكلت فيها آراء الحصري ، فالتخلف الاجتماعي العام وتعدد الأطر الاقتصادية وضعف التمايز الطبقي وتدني مستوى الوعي ، كل هذه الأمور لم تكن لتتيح للمفكرين القوميين الطليعيين ـ وبينهم الحصري ـ أن يقدروا العامل الاقتصادي حق التقدير ، ثم حدثت تغيرات جدية في فهم الحصري للوحدة العربية ، خصوصا بعد فشل التجربة الوحدوية بين مصر وسوريا ، فقد انبرى مفكرنا العربي لشن حملة عنيفة على الفئات البرجوازية والاقطاعية التي تتلاعب بالمشاعر الوطنية ، فصار يعرف الوحدة على أنها تلاحم القوى التقدمية والديمقراطية على طريق التحول الثوري للمجتمع ، كما أعاد الحصري النظر في موقفه حيال القوى الاجتماعية التي تلعب الدور الطبيعي في معركة الوحدة العربية . كان في البداية يعول على النشئة القومية لأنجلسيا جديدة ، تعطي الزخم المطلوب للمسيرة الوحدوية . أما في أعماله الأخيرة فقد اقترب فيلسوف العروبة من إدراك ماهية الفئات المعنية فعليا بالاصلاحات الجديدة .

رائد في التنوير

لقد كان التنوير أهم ميادين النشاط العلمي لمفكرنا ، حيث كرس له زهاء ستين عاما من حياته . فالاصلاحات الواسعة التي أدخلها على أنظمة التعليم في العراق وسوريا كانت تهدف أساسا الى تحرير الأذهان من الأوهام الخرافية والغيبية ، بنشر المعارف العلمية وتصفية مخلفات السياسة التعليمية الاستعمارية في الأقطار العربية . وفي إطار النضال من أجل ترسيخ وحدة العرب السياسية كان الحصري يعطي أهمية كبيرة لتوحيد النظم التربوية والتعليمية .

إن التقييم الاجمالي لنظرة الحصري القومية يتطلب أن نأخذ بالحسبان تلك الازدواجية التي أشار اليها « لينين » في معرض حديثه عن موقف الماركسيين من النزعة القومية لدى الأمم المضطهدة . فإلى جانب المنحى التقدمي المتجسد في التوجه المعادي الامبريالي والتطلع الديمقراطي العام هناك دعوة الى السلام الطبقي ، وهي دعوة غلبت على أعمال الحصري حتى أواسط الخمسينيات ، وبعدها اضطر للاعتراف بالتناقضات الطبقية عائقا جديا على طريق تحقيق فكرة الوحدة القومية . لكن ظهور نظريته التي جمعت بين العداء الحازم للاستعمار وبين النزوع نحو العصرنة الشاملة ، جاء أمرا طبيعيا وقانونيا في ضوء الجو الفكري والسياسي الذي كان سائدا في الأقطار العربية في مرحلة نهوض حركة التحرير الوطني . بيد أن التطور الذي طرأ على مذهب الحصري يبين لنا أنه كان يتابع باهتمام تغير موازين المستوى في الوطن العربي ، وتبدل النزعات الأيديولوجية فيه . ومن هنا فإن الحصري الذي كان مثاليا في المجال النظري كان أيضا واقعيا تماما في رؤيته للواقع العربي . لم يتوقع في إطار النظرية المجردة ، ولم يعد أسير الأبراج العاجية ، وإنما انخرط في معمعة النضال ، واهبا حياته لنشر الرؤية العصرية التجديدية لاذكاء المسيرة الوحدوية للعرب . □

● قال معاوية ابن أبي سفيان لابن الكوى : صف لي الزمان . فقال : أنت الزمان ، ان تصلح يصلح ، وان تفسد يفسد .

● أكبر خطأ ألا تفطن الى خطيئة نفسك . (توماس كارليل)

يصدر في ١٥ يناير ١٩٨٨

كتاب العربي

الثامن عشر

المسرح العربي

بين النقل والتأصيل

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : السريالية في مصر
المؤلف : سمير غريب
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة
عدد الصفحات : ٢١٤ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٦

يؤرخ هذا الكتاب المهم لفترة مهمة من تاريخ مصر الثقافي والفني ، في الثلاثينيات والأربعينيات ، عندما كانت مصر تمر بمتغيرات ، وحركات تجديد ، وحركات ثورية ، وحركات تمرد مختلفة التوجهات .

في هذه الحقبة على الأخص برزت جماعة أطلقت على نفسها اسم (الفن والحرية) ، ومن أعضاء هذه الجماعة الفنية برز عدد من الفنانين والأدباء من أتباع المدرسة السريالية ، وأثروا حركة التجديد الفني والأدبي المصرية مدة عقود بعد ذلك . ومن أبرز هذه الأسماء جورج حنين ورمسيس يونان ، وفؤاد كامل ، وكامل التلمساني . وكان منهم الشاعر ، والفنان التشكيلي ، والمخرج السينمائي والمثقف الموسوعي ، وقد جمع بينهم التمرد على الأطر والقوالب الفنية والاجتماعية .

■ ■

الكتاب : خذ وردة الثلج ، خذ القيروانية ـ شعر .
المؤلف : سعدي يوسف .
الناشر : دار الحكمة للنشر ـ بيروت .
عدد الصفحات : ١٧٠ من القطع الوسط .
سنة النشر : ١٩٨٧ .

في هذا الكتاب الجديد يواصل الشاعر الكبير سعدي يوسف إبداعه الفني الذي وصل ذروة جديدة في هذا الديوان .

جملته القصيرة المكثفة ، وفكرته الباترة ، وسخريته القاسية المريرة ، تجعل من هذا الكتاب سجلا لحالات الشاعر المتغيرة ، وسجلا للمآسي العربية من بيروت إلى المحيط ، إلى عدن .

وفي قراءة أخرى تجد أن هذا الكتاب سجل لابداع سعدي الشعري الذي يجمع بين قصيدة اللقطة ، والقصيدة الطويلة ذات النفس الملحمي ، والقصيدة الوصفية الشبيهة باللوحة ، لكنها جميعا تحمل أسلوب سعدي الشعري الذي تميز به منذ الخمسينيات ، لكنه الآن أكثر نضجا ، وأكثر مرارة في نفس الوقت .

■ ■

الكتاب : المصباح ـ قاموس انكليزي ـ انكليزي ـ عربي .
المؤلف : د . نايف خرما .
الناشر : مكتبة لبنان ـ بيروت ولونغمان ـ المملكة المتحدة .
عدد الصفحات : ٤٣٤ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٦ .

يخاطب هذا القاموس المهم أساسا دارسي اللغة الانكليزية . ويقدم لهم العديد من المزايا ، فهو يختلف عن المعاجم ثنائية اللغة لأنه يمكن استخدامه معجما انكليزيا انكليزيا ، وفي نفس الوقت يمكن استخدامه معجما ثنائي اللغة ، ولأنه يقدم بالاضافة إلى المعنى الانكليزي جملا كاملة بالمعنى العربي ، فهو عدة معاجم في معجم واحد .

وقد أثبت المؤلف في نهاية معجمه ملحقين ،

الأول لبعض الاختصارات المفيدة للدارس ، والثاني للصفات المشتقة من أقطار العالم المختلفة .

■■

الكتاب : أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت
المؤلفون : جماعة من المستعربين السوفييت .
الناشر : دار ناؤوكا ـ موسكو .
عدد الصفحات : ٢٦٠ من القطع الوسط .
سنة النشر ١٩٨٦ .

يحمل هذا الكتاب عنوانا صغيرا كتب بين قوسين ، يشير إلى أنه هو الكتاب الأول لعشرة أبحاث في التراث العربي ، كما يراه المستعربون السوفييت .

وفيما خصص بعضهم أبحاثهم للكشف عن المخطوطات العربية في جمهوريات الاتحاد السوفييتي المختلفة ، أنجز الآخرون أبحاثا مهمة حول الأدب العربي القديم ، كالمقامة ، والشخصية التشردية ، والأدب الشعبي ، وخواص الأدبيات التاريخية في مصر مثلا .

والكتاب في مجمله جهد قيم ومهم من وجهة نظر جديدة بالنسبة لنا ، وجديدة في إلقاء الضوء على المخطوطات العربية في الاتحاد السوفييتي في نفس الوقت .

■■

الكتاب : كوكب تفاح وأملاح ـ قصص .
المؤلف : محمود الريماوي .
الناشر : دار الكرمل للنشر والتوزيع . عمان .
عدد الصفحات : ٨٤ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٧ .

المجموعة القصصية الثالثة لمحمود الريماوي ، بعد « العري في صحراء ليلية » و « الجرح الشمالي » .

لغة جميلة رائقة ، ومشاهد امتزج فيها الواقعي بالسحري وليس الخيالي ، قصص بعضها يخلو من الحبكة ، والنتيجة هذه المجموعة القصصية الفريدة .

أحداث عادية يقدمها الريماوي بسرد غير عادي ، وحوار بسيط يفضي بالقارىء إلى الدهشة التامة ، وجمله مفتحة على شتى المعاني ، بحيث يعاد للجملة البسيطة اعتبارها ، وللكلمة تألقها ، وللمفردة الكلاسيكية القديمة دورها في قصص كل ما فيها ينبض بالحداثة .

أجواء الريماوي أجواء بسيطة ، فيها الموظف البسيط ، والحرفي المنهلك ، والانسان المتأمل في مسار الحياة الاعتيادي الضائق به ، لكنه لا يستطيع حياله أن يفعل شيئا .

■■

الكتاب/ الشعر ديوان العرب ـ الشعراء الصعاليك
المؤلف/ عبدالله خلف
عدد الصفحات/ ١٣٠ صفحة
سنة النشر/ ١٩٨٧ م

شغل موضوع « الصعاليك » وشعرهم وأدوارهم كثيرا من الدراسات والكتب ، ومازال هذا الموضوع يشغل بعض الباحثين والدارسين الى يومنا ، وربما الى أجيال لاحقة .

وقد تتبع الكاتب مصدر الكلمة ومعناها ، ثم تابع الأدوار التي قام بها الصعاليك في الجاهلية ، وتتبع تاريخ حياة بعضهم ، وتولى شرح قصائدهم والمناسبات التي قيلت فيها ، وموقع ماكانوا يقولونه ويقومون به في المجتمع .

يقول الكاتب عن « الصعاليك » : « منهم من قام لخدمة مجتمعه وقومه فعبر عن رفضه واحتجاجه على وضع سائد ، ومنهم من قام لخدمة نفسه وقومه ، وآخرون قاموا لخدمة انفسهم فقط ، فاستعانوا بالحيلة والغدر والظلم والبطش والسرقة والسطو ، والصعاليك اصطلاح قديم ربما يتكرر مع كل عصر بمختلف طرقه ومناهجه » . □

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٥٠
يـنـــاير ١٩٨٨

جوائز المسابقة:

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط:

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة، ترسل الاجابات على العنوان التالي:

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت «مسابقة العربي العدد ٣٥٠»، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ فبراير ١٩٨٨.

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٥٠

١ يذكر التاريخ مناظرة لغوية جرت في حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي بين اثنين من أئمة اللغة العربية آنذاك كان أحدهم إمام البصريين والآخر إمام الكوفيين .. ترى من كان هذان الإمامان:

* سيبويه والكسائي
* الخليل بن أحمد ونفطويه
* المبرّد والأصمعي

٢ من المعروف أن الحروف الأبجدية هي قوام اللغات الحية جميعا وأن هذه اللغات مدينة الى بلدة واحدة أو حضارة واحدة. كان لها الفضل في ابتكار تلك الحروف. فأية بلدة أو حضارة كانت تلك . . .

* أثينا في القرن العشرين قبل الميلاد
* رومة في القرن العاشر قبل الميلاد
* اوغاريت أو رأس الشمرة في سوريا

٣ الأبجدية المعتمدة في الاتحاد السوفياتي وفي بلدان شرق أوروبا تختلف اختلافا واضحا عن الأبجدية اللاتينية المعتمدة في سائر دول اوروبا .. فما اسم هذه الأبجدية .. ؟

* السيريلية
* الهيروغلوفية
* الآرية

٤ أي اللغات تقـرأ نصوصها المكتوبة من أسفل الى أعلى .. ؟

* اللغة الصينية
* لغة قبائل المايا

٥ ترى ما اللغة التي يتكلمها طفل نشأ منذ مولده في عزلة تامة ونما وكبر في منأى عن الناس جميعا .. ؟

* يتكلم لغة البشر الاولى التي تفرعت عنها مع الأجيال لغاتهم الأخرى العديدة

* يتكلم اللغة العربية
* لا يتكلم أية لغة بل ينشأ عاجزا عن النطق والكلام .

٦ الاطفال الذئاب .. هم الاطفال الذين يضلون السبيل بين حين وآخر ، والذين يستقر بهم المقام في الغاب ويتشأون بين الذئاب .. ترى هل في الإمكان تعليم هؤلاء اللغة حين يكبرون ويبلغون سن الخامسة عشرة مثلا .. ؟

* نعم ، يمكن تعليمهم ولكن بصعوبة كبيرة وضمن حدود ..
* لا ، فهم ينشأون على التخاطب بلسان الحيوان .
* نعم ، يمكن تعليمهم اللغة بسهولة ودون أي حدود .

٧ اللغات ، كل اللغات ، مصنفة ضمن أسر أو عائلات ، تنتمي اليها تبعا لمعالم ومزايا يعرفها علماء اللغة .. ما عدا لغة واحدة هي الوحيدة بين لغات العالم والمستقلة تمام الاستقلال عن كافة اللغات الاخرى .. فأي لغة تلك .. ؟

* لغة الباسك .. وهم القوم الذين يعيشون في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ويطالبون بالاستقلال .
* لغة سكان جزيرة عيد الفصح وهي الجزيرة الصغيرة النائية الواقعة في بطن المحيط .
* لغة سكان جزيرة جرينلند الواقعة بالقرب من القطب الشمالي ..

٨ أي اللغات تتميز على ما سواها بأبجديتها الكبيرة التي يبلغ عدد حروفها ٧٤ حرفا . ؟

* لغة كمبوديا
* اللغة السنسكريتية
* لغة اليابان

٩ أي اللغات تتميز على ما سواها بأبجديتها الصغيرة التي يبلغ عدد حروفها ١١ حرفا فقط . ؟

* لغة سكان جزر سليمان
* اللغة البرتغالية
* اللغة المغولية

١٠ لغة الصفير (السِّلبو) بكسر السين وتشديدها ، لغة متداولة في جزر الكناري عامة .. وجزيرة لاجوميرا بخاصة .. ولكن ثمة لغة صغيرة أخرى يتداولها بعض سكان دولة من دول أمريكا الوسطى .. فأية دولة تلك . ؟

* المكسيك
* كولمبيا
* بناما

١١ من المعروف ان (الفلايوق) لغة عالمية ابتكرها أحد العلماء الألمان سنة ١٨٨٠ ولكن النجاح لم يكتب لتلك المحاولة بقدر ما كتب لمحاولة أخرى قام بها عالم الماني آخر هو (زامنتهوف) . ترى ما الاسم الذي أطلقه زامنتهوف هذا على اللغة العالمية التي ابتكرها والتي أصابت من النجاح والانتشار اكثر (بقليل) مما أصابته لغة الفلايوق . ؟

* السيمافور
* الإسبرانتو
* السلبو

١٢ الخليل بن أحمد ، والفيروز أبادي ، وابن منظور ، ثلاثة من فحول علماء اللغة العربية .. اشتهروا بتأليف المعاجم التالية : لسان العرب والقاموس المحيط ، وقاموس العين فأي معجم في هذه المعاجم الثلاثة ألفه كل منهم ؟ .. □

حلّ مسابقة العدد ٣٤٧ أكتوبر ١٩٨٧

١ ابن النفيس (أو ابن سيناء الثاني ، مكتشف الدورة الدموية) ، وكان من مواليد دمشق . . وتتلمذ على ابن الدخوار رئيس أطباء بيمارستان النوري الكبير بدمشق . . وما لبث ابن النفيس أن لمع اسمه بين الأطباء حتى أصبح من أعظم أطباء عصره .

٢ الحارث بن كلدة هو أول طبيب في الاسلام درس الطب في جنديسابور ودخل في حديث مع الملك أنوشروان ، وفي المدينة كلفه عليه الصلاة والسلام بمهمات طبية مختلفة .

٣ الكتاب الذي أهداه امبراطور القسطنطينية الى عبد الرحمن الثالث هو كتاب ديوسفوريدس في الطب والنباتات الطبية . وقد أوفد بعثة خاصة الى قرطبة تحمل ذلك الكتاب سنة ٩٤٨م . ثم عاد فأوفد الراهب نيقولاوس سنة ٩٥١م ليساعد الأطباء العرب الأندلسيين على ترجمة الكتاب الى العربية . . .

٤ كتاب القانون في الطب . . ومؤلفه هو ابن سينا الذي يلقبونه الشيخ الرئيس أحيانا . . وأمير الأطباء أحيانا أخرى والكتاب عظيم بحد ذاته قد كان عماد تدريس الطب في أوروبا طيلة قرون . . . وترجم الى عدة لغات وأعيد طبعه أكثر من أي كتاب آخر . . بعد الكتاب المقدس . . .

٥ أشهر كتب الرازي الطبية هو « الحاوي » . . وهو موسوعة في الممارسات الطبية ويقع في ٢٨ مجلدا (أو ٣٠ مجلدا) . . ومما يذكر أن الرازي لم يكتب كتابه الحاوي هذا بقلمه . . فقد كتبه بعد وفاته بعض طلابه ومريديه وذلك بتكليف من المسؤولين واستنادا الى مجموعة هائلة من المذكرات التي تركها الرازي . واسم الرازي بالكامل هو محمد بن زكريا الرازي . . وقد توفي سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م .

٦ ظهرت سنة ٧٨٠م وفي عهد الخليفة المنصور بالتحديد وهكذا ألحقوا بكل بيمارستان صيدلية خاصة به . . وانشأوا صيدليات خاصة بالحروب تصحب البيمارستان المنقولة الى ساحة القتال . .

الا أن الصيدليات بالمعنى الدقيق لم تظهر في أوروبا حتى القرن السابع عشر . وكان ذلك في لندن (سنة ١٦١٧) وبمبادرة من جمعية الصيدليات .

٧ ولد في ملقا . . وتوفي في دمشق سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م وقد أمضى أول حياته في الأندلس ثم ارتحل عنها الى المشرق كغيره من الأندلسيين . وكتابه المذكور (الجامع - أو المغني - في الأدوية المفردة) هو بلا ريب من أهم كتب التراث الطبي الاسلامي . . وهو أهم كتب النبات في ذلك التراث دون منازع .

٨ لقد عارض ابن سينا أبقراط في نظرية قيح الجروح .. ووضع نظريته الخاصة التي تناقض نظرية أبقراط .. وتقوم على ضرورة تنظيف الجروح اذا أردنا لها الشفاء ، واستعمل على مراحل تلك اللزقات الساخنة مع الخمرة المعتقة القوية ...

٩ شمس الدين الاكفاني هو صاحب كتاب (غنية اللبيب في غيبة الطبيب) .

١٠ أعظم جراحي السلف الصالح هو بلا ريب أبو القاسم الزهراوي وهو اندلسي وعاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكتابه « التصريف » موسوعة طبية شاملة .. وقد تميز بالفصول الخاصة بالجراحة .. فكان مرجع الجراحة الوحيد في أوروبا طيلة قرون .

١١ انه ابن سينا .. أمير الأطباء ، الشيخ الرئيس ، أبو علي بن سينا . وكان في دون السابعة عشرة من العمر حين عالج والي بخارى .. ونجح في ذلك حيث فشل أشهر أطباء العصر .. وقد رغب الوالي في مكافأته فلم يطلب سوى السماح له بمطالعة الكتب التي ضمتها مكتبة الوالي وكانت غنية بالكتب العلمية والطبية .. فسمح له بذلك .. فما لبث ابن سينا أن التهم تلك الكتب التهاما .. وتوفي ابن سينا سنة ١٠٣٧هـ .

١٢ الأقرباذينات هي لوائح الأدوية أو الفارماكوبيا كما تسمى في الوقت الحاضر .. ومعنى هذا أن تحضير الأدوية أو تركيبها لم يكن عشوائيا عند الأطباء المسلمين قبل نحو ألف من السنين بل انه تم وفق تلك اللوائح .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٧ أكتوبر ١٩٨٧

الجائزة الاولى : جودت أحمد الحمد / اربد / الاردن

الجائزة الثانية : نادية عبدالرازق أحمد / البحيرة / مصر

الجائزة الثالثة : صلاح محمد حسن / دارارية / الجزائر

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ فخر الدين حمودة / صفاقص / تونس

٢ ـ عبدالعلي عبدالحق / بومباي / الهند

٣ ـ عباس النور الحسن النور / الخرطوم / السودان

٤ ـ عمر عبدالرحمن الحراش / طرابلس / لبنان

٥ ـ بنلفقيه لحسن / سيدي بنور الجديدة / المغرب

٦ ـ عائشة محمد موسى / جدة / السعودية

٧ ـ وانيس بسام يعقوبيان / حلب / سوريا

٨ ـ هدى علي القطان / السالمية / الكويت .

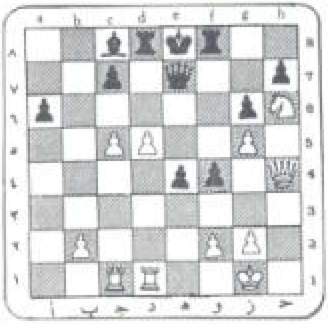

معركة بلا سلاح

حتى عهد قريب كانت بطولة العالم للشباب دون ٢٠ سنة تعتبر ميدانا لتأهيل الأبطال السوفييت الصغار في صعودهم الى القمة ، ويتصدر قائمة الفائزين في هذه البطولة أسماء لامعة ، من أمثال بوريس سباسكي (بطل العالم ٦٩ - ١٩٧٢) ، وأناتولي كاربوف بطل العالم السابق ، وجاري كاسباروف بطل العالم الحالي ، (وهما يتنافسان حاليا على بطولة العالم للمرة الرابعة منذ مطلع أكتوبر الماضي في مدينة اشبيلية الاسبانية) ، واندريه سوكولوف ، وارتور يوسوبوف اللذان يحتلان الصف الثاني بعد كاسباروف وكاربوف . لكن بطولة الشباب لهذا العام المنعقدة في مدينة باجو الفلبينية التي اشترك فيها ثلاثة من اللاعبين الروس ، وعدد من اللاعبين الأمريكيين والأوروبيين خيبت جميع التوقعات ، إذ تمكن البطل الهندي فسواناثان أناند (١٧ سنة) من سحق جميع خصومه ، محتلاً المرتبة الأولى بنتيجة باهرة (١٠/١٣ نقطة) .

وقد سبق للبطل الهندي الشاب أن حقق نتائج مشرفة في مبارياته العديدة مع كبار أبطال العالم ، وقد أصبح معروفا بالسرعة الفائقة في اللعب المصحوبة بالحضور الذهني ونفاذ البصيرة وبراعة التخطيط .

ويعتبر الدور التالي الذي نقتطفه من هذه المباراة اختبارا لقضية نظرية هامة لافتتاحية (روي لوبيز) (١ . هـ ٤ ، هـ ٥ ... ٢ . ح - و ٣، ح - جـ ٦ ... ٣ . ف - ب ٥) ، وهي الافتتاحية المفضلة لدى العديد من كبار أبطال العالم من أمثال الأمريكي بوبي فيشر (٧٢ - ١٩٧٥) ، وبطل العالم السابق أناتولي كاربوف . والمعروف أن النقلة (٣ . ف - ب ٥) تشل حركة الأسود في الوسط ، لكن ماذا تكون عليه الحال لو قام الأسود بكل بساطة بمطاردة الفيل الخطر وابعاده بالنقلة (أ ٦) ، ثم (ب ٥) ، وأتبعها بالنقلة (ح - أ ٥) ؟

ويرى العديد من المحللين أن هذه هي الاستراتيجية الصحيحة للأسود في طابق روي لوبيز ، وعلى الرغم من فشل الأسود في إثبات صحة هذه النظرية على الرقعة الا أن قضية هذه المطاردة المثيرة للفيل تبقى معلقة .

□ ف . أناند (الهند)	■ س . أجدستين (النرويج)
١ . هـ ٤	ح - جـ ٦
٢ . ح - و ٣	هـ ٥
٣ . ف - ب ٥	أ ٦ (بدء المطاردة)
٤ . ف - أ ٤	ب ٥
٥ . ف - ب ٣	ح - أ ٥

٦. ت	د٦
٧. د٤	ح×ب٣
٨. أ×ب٣	و٦
٩. ح-جـ٣	ف-ب٧
١٠. ح-حـ٤	ح-هـ٧

الأسود يعاني من عدم قدرته على التبييت

١١. د×هـ٥	د×هـ٥
١٢. و-و٣	و-د٧
١٣. ر-د١	و-هـ٦
١٤. ح-د٥ ! (بديعة)	ح×د٥
١٥. هـ×د٥	و-و٧
١٦. جـ٤	ف-هـ٧
١٧. ح-و٥	ر-د٨
١٨. ف-هـ٣	ز٦

الأبيض مصر على منع الأسود من التبييت ، متحيناً الفرصة لاختراق تحصيناته

١٩. ح-حـ٦	و-ز٧
٢٠. و-ز٣	ف-جـ٨
٢١. حـ٤ ! (ممتازة)	ف-د٦
٢٢. و-و٣	ف-هـ٧
٢٣. ر(أ)-جـ١	ب×جـ٤
٢٤. ب×جـ٤	ر-و٨
٢٥. جـ٥	و٥
٢٦. ف-ز٥	ف×ز٥
٢٧. حـ×ز٥	و-هـ٧
٢٨. و-ز٣	و٤
٢٩. و-حـ٤	هـ٤ (الشكل)
٣٠. د٦ ! (هجوم ساحق)	و-هـ٥
٣١. د×جـ٧	ر×د١ +
٣٢. ر×د١	هـ٣ ؟ (رديئة)
٣٣. ر-د٨ +	م-هـ٧
٣٤. ح-ز٨ +	يستسلم

حل مسألة العدد (٣٤٨) نوفمبر (١٩٨٧)

١. ف-د٨	و٧
٢. ف-حـ٤	م-هـ١
٣. ر-ز١ (مات)	

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٤٧ أكتوبر ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ محمد أحمد عبدالعال ـ المنوفية / ج.م.ع
٢ ـ محمد أسامة محمد حسن ـ أم درمان ـ السودان
٣ ـ سارة المعالج ـ صفاقس / تونس
٤ ـ مصطفى ابراهيم رضوان ـ الظهران / السعودية
٥ ـ محمد عبدالوهاب محمد ـ غريان / ليبيا

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ محمد صلاح مبروك ـ مسقط / عمان
٢ ـ حسين المحمد ـ دمشق / سوريا
٣ ـ أنصار أنور يوسف ـ عدن / اليمن الديمقراطية
٤ ـ غزلان حميد ـ مراكش / المغرب
٥ ـ خالد أحمد بغدادي ـ الجيزة / ج.م.ع

مسألة العدد ٣٥٠ يناير ١٩٨٨

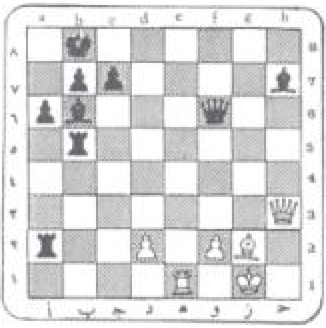

مـات ٤
مهداة من القارىء عبدالكريم المحمد (سوريا)

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

وقفة مع رسائلكم

عزيزي القارىء .

كل عام وأنتم بخير ، مع بداية العام الجديد تنتهز هذه الفرصة لنتحدث معكم حول عديد من الرسائل التي تصلنا منكم ، فنسعد بها لأنها تعبير عن مشاركتكم لنا ، ودعمكم المعنوي لجهودنا ، لكننا نشعر أحياناً بالأسى ، لأننا لا نملك الفرصة لنشر الكثير من هذه الرسائل أو التعليق عليها . بعض هذه الرسائل يقترح أبواباً جديدة للرياضة والتعارف والثقافة الدينية ونشر إنتاج الأدباء الشبان ، تشجيعاً لهم ، والإجابة على أسئلة القراء في شتى مجالات المعرفة ، وتوجيه الدعوة لاستطلاع أماكن جديدة أو قديمة ، أو أماكن تقع بها أحداث حضارية ، مثل إنشاء مترو الأنفاق بالقاهرة .

وبعض هذه الرسائل يطلب أصحابها : كتباً معينة ، مراجع ، مطبوعات العربي ، عناوين أشخاص ومؤسسات ، وبعضها تتحدث عن مشكلات ذات طابع شخصي أو عام ، أو أزمات تحتاج إلى حلول أو مساعدة .

بالإضافة إلى الرسائل الأقرب إلى طبيعة الباب ، التي تحتوي على ملاحظات أو النقد لما ينشر في مجلة العربي ، أو تقدم ألواناً طريفة وجديدة من المعلومات ذات صلة بالمنشور .

ونود أن نقول لكل الإخوة ، إننا لا نهمل أي نوع من الرسائل ، حتى ولو لم تسمح الفرصة بنشرها ، أو التعليق عليها ، فالمقترحات الخاصة بالأبواب الجديدة والاستطلاعات أمامنا ونحن نفكر في تطوير أبواب المجلة ، أو وضع خطة الاستطلاعات . وقد أشرنا في مرات سابقة إلى أن أبواباً للرياضة والتعارف مجالها ليس في مجلة للثقافة العامة كالعربي ، فالصحافة اليومية والأسبوعية أقدر على تغطية هذه المجالات ومتابعتها ، والعربي تخدم الثقافة الدينية من خلال ما تنشر من مقالات وليس من خلال باب متخصص ، وتنشر النصوص الأدبية الجيدة بغض النظر عن شهرة أصحابها ، وهي بهذا تشجع الأدب الجيد بشكل عملي ، دون شروط مسبقة ، أما توفير المعلومات والعناوين والمطبوعات فنقدم منها ما يتصل بما ينشر في المجلة أو بكتابها أو مطبوعاتها ، لأنه متاح لنا ، أما ما عدا ذلك فتوفره المكتبات العامة والمتخصصة ، ودور النشر ، لأن توفير مثل هذه المعلومات المتفرقة يحتاج وقتاً لا نملكه ، أما مناقشة ما يتصل بما ينشر في المجلة من آراء ومعلومات فإننا نبادر بنشرها وفق أهميتها للقارىء وفائدتها .

« العربي »

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

« بين المشيمة والسخد » وردود أخرى

● في العدد ٣٤٥ أغسطس سنة ١٩٨٧ من مجلة العربي عقب الدكتور إحسان جعفر على ما جاء في ملاحظاتنا بعنوان (أخطاء لغوية : طبية وعلمية) الذي نشر في العدد ٣٣٦ ، وكان تعقيبه منصباً على كلمة السخد وبديلتها المشيمة :

وملخص ما جاء في نقد الدكتور إحسان : أن الخلاف كان قد احتدم بين اللغويين والأطباء في عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ حول كلمة السخد ، وأن اللغويين والأطباء كانوا بين مؤيد ومعارض ، وأن أول من وضع مصطلح (السخد) هو الأب انستاس الكرملي ، مستنداً على أن المشيمة هي الغرس (بكسر الغين المعجمة) ، ولذلك فالسخد عنده غير المشيمة . ثم يذكر الدكتور مؤيدي هذا الرأي ومعارضيه ، ويعقب على قولهم بأن للسخد عدداً من المعاني ذكر منها ما ذكر .

وللرد على هذا الرأي نستطلع أولاً أقوال بعض اللغويين الكبار في معنى كلمة (السخد) .

يقول ابن منظور : السخد : ماء أصفر غليظ يخرج مع الولد ، ثم يعقب الدكتور إحسان بقوله : (فإذا أخذنا بالمعنى الذي انفرد به ابن السكيت يكون معنى السخد هو (البلاسنته) حسب رأي الكرملي ، وخاطر ، والشطي،وحتى . ويقول هؤلاء اللغويون في المشيمة : إن المشيمة هي الغرس (بالكسر) وجمعها أغراس ، وهي جلدة رقيقة تخرج مع الولد إذا خرج من بطن أمه . والغرس المشيمة (عند ابن الأعرابي) ذكره ابن منظور . والمشيمة محل الولد تخرج معه عند الولادة .

١ ـ إن للسخد عدة معان لم يتطرق واحد منها إلى ما هو قريب من صفة العضو اللاصق في جدار الرحم ، الذي منه يتغذى الجنين أو الحميل ، المعروف عند الناس عامة وعند معظم الأطباء بأنه « المشيمة » . وهو مصطلح متداول علمياً وشعبياً بين الجميع .

٢ ـ إن الكرملي أخذ المعنى عن (ابن السكيت) الذي انفرد به في كتابه (القلب والإبدال) ، وعن الكرملي أخذ الآخرون هذا المعنى .

٣ ـ إن المجامع العلمية والأكاديمية أخذت المعنى عن هؤلاء العلماء الذين أخذوه عن (ابن السكيت) الذي انفرد وحده بهذا المعنى .

٤ ـ إن الكرملي يرى أن المشيمة هي الغرس ، أي أنها كل ما يخرج مع الولد من الأقذار ـ حسب رأي صاحب التاج (أي تاج العروس) ـ ولذلك فالسخد عنده غير المشيمة . فكيف نوفق بين هذا الرأي وبين أقوال اللغويين من أن السخد ماء أصفر

حوار القراء

ينزل مع الولد ، واصفرار في الوجه ، وبأن المشيمة جلدة رقيقة تخرج مع الولد حين خروجه من بطن أمه ، وأن الغرس هي المشيمة ؟

ثم لماذا تتشبث بمصطلح كثر الجدال حوله ، وبكلمة لها معان متعددة متباينة ، وهي ثقيلة على الأسماع ، وغير معروفة عند الغالبية العظمى من الأطباء بل وعند الناس ، ثم تترك كلمة المشيمة وهي أدنى للحقيقة وأقرب للفهم والاستيعاب عند الناس والأطباء على حد سواء ، أليس لشيوع المصطلح خاصة إذا كان فيه جانب كبير من الصواب ، وعليه إجماع كبير دور للتشبث به ، والعمل على استقراره والأخذ به ؟ وكيف يتفق على إرساء مصطلح لم تتفق عليه غالبية اللغويين ؟ ثم ماذا سنفعل بمعاني هذه الكلمة التي أجمع عليها علماء اللغة في معاجمهم ؟

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

مواقع أثرية تطلب الكشف عنها

● طالما تساءلت في قرارة نفسي عن أماكن قرى الأنبياء العديدة التي تحدث عنها القرآن الكريم ، ولماذا لا تهتم مؤسسة إسلامية بالبحث عن تلك الأماكن استناداً إلى ما ذكره القرآن الكريم عنها ؟

نحن نعرف على سبيل المثال قصة « سد مأرب » ومكان تواجده استناداً إلى الآية الكريمة في سورتي سبأ والنمل « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ . . . » (١٥ سبأ) .

لكننا لا نعرف موقع مدائن لوط على وجه التحديد مثلاً ، على الرغم من أننا نعرف أن البحر الميت في فلسطين كان يدعى قديماً بحيرة لوط ، وأن الله سبحانه وتعالى قد ترك لنا شواهد على ما فعل بمدائن لوط لنتعظ بها «ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » (العنكبوت ٣٥) .

فلماذا إذن الإهمال في الكشف عن آثار العديد من القرى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مثل قرى قوم هود التي تشير إليها الآية الكريمة : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » (الأحقاف ٢١) ، ولعل آثار هذه القرى في وديان الأحقاف باليمن .

لقد قرأ الباحث الألماني هنريك شيلمان في أوائل القرن الماضي إلياذة هوميروس الشاعر الإغريقي الشهير وتيم بها ، وكرس حياته كلها للكشف عن مكان حرب طروادة التي ورد ذكرها في الإلياذة ، فترك موطنه مع زوجته وأخذا ينتقلان بين اليونان وشمال بحر ايجة ، ويجريان الحفر على نفقتها الخاصة في محاولة لإثبات أن حرب طروادة إنما هي واقع وليست قصة خيالية . والآن ألا يجدر بنا نحن المسلمين أن نبحث عن الآثار التي وردت إشارة عنها في القرآن الكريم ؟

محمد طريف فرعون
دمشق / البحر الأبيض

المتوفَّى والمتوفِّي

● وفي العدد ٣٤٣ من (العربي) قام أحد القراء الأفاضل بالرد على كلمة : المتوفَّى (بصيغة المجهول) ، وأن وصف الميت بأنه متوفِّي (بصيغة المعلوم) صواب . ويفهم من قوله أن قولنا : زيد متوفَّى ، وزيد متوفٍّ (بالكسر) كلاهما صواب .

إن الفعل (توفَّى) فعل متعد ، لا يكتفي بفاعله ، بل يتعداه إلى مفعول به ، مثل قولنا : توفَّى الله زيداً ، على النقيض من قولنا مات زيد ، وذلك أن الفعل (مات) فعل لازم يكتفي بفاعله . وإنما يصح أن يقال : توفَّى زيدٌ أجلَه ، واستوفى مُدَّتَه ، وأوْفَى نذْره ، وتَوفَّى حقَّه (أي أخذه وافياً) . وهذا يخرج بنا عن الموضوع وعما نحن بصدده من قولنا توفِّي زيد أي مات . فإذا قلت : توفَّى الله زيداً ، فزيد ماذا تقول عنه ؟ توفِّي أم توفَّى ؟

يقول (البستاني) صاحب (محيط المحيط) : ومن أقبح أغلاط العامة قولهم : توفَّى فلان (بصيغة المعلوم) أي مات . ثم يذكر الطرفة التالية وهي الطرفة التي ذكرناها في مقالتنا آنفاً . قال أحدهم : مررت بجنازة فسمعت رجلاً يسأل : من المتوفِّي (بصيغة المعلوم) فقلت : الله تعالى فضربت حتى كدت أموت .

أما استعمال توفَّى واستوفى وأوفى في مجالات أخرى غير هذا المجال ، أي خارج معنى مات وأمات فهو أمر بديهي لا يحتاج إلى قول أو جدال .

الدكتور محمد صادق زلزلة

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

المجلات العلمية في حياتنا الثقافية

● تشهد الإنسانية اليوم الثورة الصناعية العلمية الثانية ، « ثورة الالكترونيات » ، وهي نقلة نوعية جبارة لا شك ، واتساع للفجوة بين المتقدمين والمتخلفين .

تعمل المجتمعات المتقدمة على تربية النشء تربية علمية سليمة ، وتشجع المواهب وأنصاف المواهب ، كما تعمل على جعل الرموز العلمية في متناول الجميع ، مستخدمة بذلك جميع الوسائل التعليمية الممكنة ، من أفلام ومجلات علمية متخصصة ، يتوخى فيها البساطة والتشويق ، كما يقوم المربون بإذكاء روح التنافس في مختلف المراحل ، في البحث والاستقراء ، وهذا يقود إلى إبداع واختراع . نحن ـ العرب ـ نفتقر إلى هدوء الأساليب ولو استعرضنا عدد المجلات العلمية التي تصدر في الوطن العربي ، لما تجاوز عددها أصابع اليد ، مع تقديرنا للمجلات التي تهتم بالعلوم الإنسانية ، والتي لا تبخل علينا بمقالات علمية في بعض الأحيان . وعلى الرغم من قلة المجلات العلمية ـ كما أسلفت ـ أو ندرتها بتعبير أصح فإننا نجد منها ما يستصرخ طلباً للإنقاذ من الإفلاس ، لأن مردود التوزيع لا يغطي التكاليف ، ولو رفع ثمن النسخة إلى القيمة الحقيقية لفقدت المجلة ٩٥٪ من قرائها ، وهذه كارثة . أليس كذلك ؟ !

في الوقت الذي نجد المجلات الأسبوعية الخاصة بأخبار السينما والتلفاز التي لا يجهدها عناء البحث عن خصوصيات الممثلين والمطربين وتوافه الأمور قد غطت مساحة « الأكشاك » ، وتعذر عليّ حفظ أسمائها لكثرتها .

سلطان عبده سيف الشيباني

سوريـــا

حوار القراء

العربي

ـ ننشر هذه الرسالة لنشارك القارىء الكريم تأكيده على أهمية المجلات العلمية ، ونود إفادته بأنه يمكنه أن يحصل على أفلام الفيديو التعليمية العلمية من مكتبات وزارة التربية والمكتبات العلمية المتخصصة ونوادي الفيديو ذات المستوى الجيد .

□□

رسالة عن « قبيلة جهينة الحميرية » أين كانت وكيف أصبحت ؟

● كان لهذه القبيلة منازل ووديان في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ، وكانت من أول القبائل التي اعتنقت الإسلام عن طيب خاطر ، وضحت في سبيله بالمال والرجال ، وحين بدأ انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية حملت قبيلة جهينة راية الإسلام صوب الجنوب في صعيد مصر ، وهناك حطت مضاربها ، تدعو إلى عبادة الله الواحد ومكارم الأخلاق ، حتى صارت جهينة مضرب المثل في القوة والشجاعة والكرم في كل ربوع صعيد مصر ، والآن بعد أن كثر سكان القبيلة وصار عددهم ١٧٥ ألف نسمة ، وضاقت بهم سبل العيش في أرض ضيقة صعبة،صار يعيش على الفدان الواحد من الأرض ـ بل يتصارع عليه ـ خمس أسر أو أكثر . فكيف يمكن أن تحافظ هذه القبيلة على أخلاقها القديمة في الشهامة والكرم ؟

والآن وقد أفاء الله على إخوة جهينة القدامى في أنحاء الجزيرة العربية بنعمة النفط ، أفلا ينبغي أن يتجهوا ببعض استثماراتهم في مشاريع يعمل فيها بعض أبناء هذه القبيلة العربية الأصيلة التي تعيش الآن بالتحديد في شمال غرب محافظة سوهاج بثلاثين كيلومتراً ؟

محمود أحمد محمود

سوهاج / جهينة الغربية نجع أبو عقيل

□□

مدينـــــة تريـــــم

● هي إحدى المدن الحضرمية الشهيرة . قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : « تريم » اسم إحدى مدينتي حضرموت ، لأن حضرموت اسم للناحية بجملتها ، ومدينتاها هما بشام وتريم .

ويرجع اختطاط مدينة تريم إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، في العصر السبئي ، ودخل الإسلام إلى تريم في السنة العاشرة من الهجرة وقد أرسل الرسول ﷺ أول عامل على حضرموت وهو زياد بن لبيد البياضي . وبقيت تريم تحت راية الدولة الإسلامية أيام الخلفاء ودولة بني أمية ، حتى قام طالب الحق الكندي بثورته سنة ١٢٩هـ ودخلت تريم تحت شوكة الأباضية وقيام دولة آل راشد .

في أواخر القرن الثامن الهجري قامت الدولة الكثيرية الأولى ، واستمر حكمها ثلاثة قرون ، حتى انتزعت السلطة منهم قبائل يافع ، وفي القرن الثالث عشر الهجري برزت مرة ثانية دولة آل كثير والاحتلال البريطاني .

ومع إطلالة ١٤ أكتوبر نال الشعب اليمني استقلاله ، وازدهرت مدينة تريم في ظل حكومة الثورة . ومن أهم معالمها منارة المحضار التي ترتفع شامخة في سماء تريم ، ويبلغ ارتفاعها ١٧٥ قدماً . وقد كان بناؤها عام ١٣٣٣هـ ، الخ .

سالم هادي سعيد منصور

ج . ي . د . / محافظة حضرموت / تريم

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

هـل تتكاثر الخلايـا العصبيـة ؟

● اشكر الدكتور فخري اسماعيل حسن على مقاله العلمي القيم « الذكاء والذاكرة » المنشور في العدد رقم ٣٤٦ من مجلة العربي ، وقد جاء في هذا المقال مايلي :

« يؤدي تعلم الطفل مما حوله إلى زيادة كبيرة في سمك القشرة الدماغية المخية ، مما يؤدي الى زيادة عدد الخلايا العصبية وتنشيط الموجود منها » .

« ومن المعروف ان الخلايا العصبية يزداد حجمها فقط ، ويؤدي ذلك الى زيادة حجم الجملة العصبية مع تقدم العمر ، لان الخلايا العصبية لاتنقسم كسائر خلايا الجسم ، فأرجو نشر هذه المعلومة وشكرا .

محمود ابو الفتح

جامعة دمشق / معهد طب الاسنان

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

- تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .
- هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .
- ميزانها الأساسي في اختيار المترجمات هو الجديد والهام .

- تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني | نائب رئيس التحرير: د . سليمان ابراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يناير ١٩٨٨ م

الدواء

من فجر التاريخ إلى اليوم

تأليف

د. رياض رمضان العلمي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢١

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير : د. عبدالمحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره .

توجه المراسلات إلى : رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص.ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. محمد جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:
  - أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية.
  - ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية.
  - جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.
- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- **الاشتراك السنوي بالمجلة**
  - أ) داخل الكويت: ٢ د.ك للافراد ١٢٫٠ د.ك للمؤسسات
  - ب) الدول العربية: ٢٫٥٠٠ د.ك للافراد ١٢٫٠ د.ك للمؤسسات
  - جـ) الدول الاجنبية: ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي :
ص.ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

تلكس: جامعة الكويت - الكويت

هاتف : ٤٨١٦٨٨٧
٤٨١٦٧٩٩
٤٨١٦٨٤٤
٤٨١٤٦٩٢

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

مجلة فصلية أكاديمية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير

د. فهد ثاقب الثاقب

منبر بارز للأكاديميين العرب

توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة

الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى : رئيس التحرير

مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055

الكويت - هاتف : ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧-٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس : ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية : محكمة

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية

الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٤٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة

رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة إلى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٠ أول يناير ١٩٨٨

تُورْكَارِيهُ

تأليف : ألان - رينيه لوساج
ترجمة وتقديم : د. جان جبور
مراجعة : د. سامية أسعد

العالمية — al Alamiah

الكويت : الشركة العالمية تلفون ٢٤١٤١٥٠
الإمارات : اليوسف لثقافة الكمبيوتر تلفون ٢٢٤٣٦١٠
البحرين : الزياني للخدمات التجارية تلفون ٥٣١١٢٢
قطر : شركة الكمبيوتر العربية تلفون ٤٢٥٥٥٥
عمان : مفتاح المعلومات تلفون ٧٠٥٣٣١

اليمن : اليمنية للحاسبات الالكترونية تلفون ٢٠٨٨١٤٨
الأردن : مركز الكمبيوتر الأردني تلفون ٦٦٩١١٦
السعودية : العالمية العالمية الرياض تلفون ٤٦٥١٠١٦
العالمية جدة تلفون ٦٦٥١٢٩٣
العالمية الخبر تلفون ٨٩٥٣٣١٤

العراق : المنشأة العامة للأجهزة الدقيقة تلفون ٧١٩٦٤٣٣
سوريا : مركز الكمبيوتر العربي تلفون ٢١٦٦٥٣
لبنان : ميكروكمبيوتر سنتر تلفون ٣٤٩١٢٤
مصر : الشركة الاستشارية (سطو) تلفون ٣٥٥٥٤١٠
ليبيا : مؤسسة التنمية العربية للعقل الآلي تلفون ٣٥١٩٧

تونس : شركة الكمبيوتر والبرمجيات تلفون ٢٨٩٨٠٩
الجزائر : المؤسسة الوطنية لتنظيم الاعلام تلفون ٥٩١٢٠١
المغرب : ايفوماتر تلفون ٣٣٣١٣
فرنسا : الإنشاريون للخدمات المعلوماتية ١٧٠٤١٤٧٠٠
البرتغال : العالمية البرتغال تلفون ٣٢٦١٤٥

العربي

الواجهة البحرية .. خضرة تغسل قدميها في مياه الخليج !

أضواء على

معهد العالم العربي في باريس

التجربة الكورية

وهم .. أم حقيقة ؟!

سانيو
SANYO
20"
CMD 6036 RG
شرارة ذات بريق في عالم التلفزيون.
26"
28"
CMX2630SR
CMX2800SR
SANYO Electric Trading Co., Ltd.

العــدد ٣٥١ السّنة الحادية والثلاثون فبراير ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI

Issue No. 350-Jan. 1988 - P. O. Box : 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الاعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الامارات ٥ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : الذخائر والتحف
ـ د . محمد الرميحي ٨
■ المراهقة الثقافية !
ـ د . فؤاد زكريا ١٩
■ التنمية وقانون الجهد الأقل
ـ د . مطانيوس حبيب ٢٦
■ الصراع « الديمغرافي » بين الشمال والجنوب
ـ د . عبدالإله أبو عياش ٧١
■ ظاهرة الفردية في المجتمع الامريكي
ـ د . محمود الذوادي ٧٥
■ أرقام : الحكومة العربية
محمود المراغي ١٣٢

عروبة وإسلام :

■ الانفتاح العربي على الحضارات الأخرى
ـ د . محمد عمارة ٣١
■ للمناقشة : فض الاشتباك الفكري بين المسلمين
ـ فهمي هويدي ٨٤
■ البيان في أسباب نزول القرآن
ـ حسين أحمد أمين ١٥٤

استطلاعات مصورة :

■ التجربة الكورية وهم أم معجزة ؟
ـ سليمان مظهر ٣٦
■ معهد العالم العربي في باريس مركز للثقافة العربية على ضفة السين
ـ صلاح حزين ١٠٠
■ الخضرة تغسل قدميها في مياه الخليج
ـ ريم الكيلاني ١٦٤

طب وعلوم :

■ إنهم يزرعون خلايا المخ ؟
ـ د . محمد نبهان سويلم ٥٩
■ « البيوتكنولوجيا » ومشاكل العصر
ـ د . سمير رضوان ٧٨
■ مكيف الهواء « بادهنج » ابتكره العرب قبل العالم بسنين
ـ إحسان جعفر ٩٦
■ اللغة الراقصة
ـ د . حسين العروسي ١٢٠
■ الانفلونزا مرض الشتاء العنيد
ـ د . صباح السامرائي ١٢٩
■ الجديد في العلم والطب
ـ إعداد : يوسف زعبلاوي ١٥٩
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٦٢
■ الوطواط : الرؤية سماعاً
ـ نبيل الجهمي ١٨٠
■ الفحص الطبي الدوري
ـ د . قاسم طه الساره ١٩٨
■ غدة البروستاتا تلتهب !
ـ د . محمد عبدالله المشاري ٢٠٢
■ كيف مات صخر ؟
ـ د . غسان جناحت ٢٠٨

معهد العالم العربي في باريس مركز للثقافة العربية على ضفة السين ١٠٢

أدب وفنون :

■ حريقية (قصيدة)
ـ محمد ابراهيم أبوسنة ٢٤
■ رؤيا (قصيدة) ـ علي منصور ٩٩
■ الموسيقي الجوال (قصة مترجمة)
ـ يوسف حلاق ١١٦
■ النقيض (قصيدة)
ـ راشد عيسى ١٢٨
■ قراءة نقدية لكتاب « بيروت .. بيروت »
ـ أبو المعاطي أبو النجا ١٣٧
■ غموض الشعر الجديد
ـ سالم عباس خدادة ١٤٩
■ اللغز (قصة)
ـ برهان الخطيب ١٥٦
■ المطروقات النحاسية عند الفنان محمد رزق
ـ محمود بقشيش ١٧٥

■ جمال العربية :

ـ صفحة لغة : أسئلة وأجوبة
ـ محمد خليفة التونسي ٢١٠
ـ صفحة شعر : هكذا غنى الآباء : في الصداقة لأبي تمام ٢١٢

منتدى العربي :

■ قضية : إشكالية التراث والمعاصرة والتقدم
ـ د . هشام بوقمرة ١٤٤

وجها لوجه :
فتحي رضوان ٦٥

عبد الرحمن الشرقاوي ٨٩

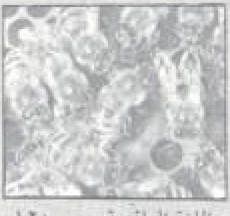

اللغة الراقصة ١٢٠

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

■ تعقيب على مقال : هل كان الرجل المريض مريضا ؟
- هراج ساهاكيان ١٤٦

تاريخ وتراث واشخاص :

■ وجها لوجه : فتحي رضوان
- أمينة النقاش ٦٥
■ عبد الرحمن الشرقاوي فارس الكلمة
- فاروق خورشيد ٨٩
■ حقيقة معركة بواتييه
- د . سلمان قطاية ١٣٤

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : آلة المعرفة ، الذكاء الاصطناعي ومستقبل الإنسان
- بهاء الدين محمود ٢١٥
■ من المكتبة العربية : « فكر الأزمة » دراسة في أزمة علم الاقتصاد والفكر التنموي الغربي
- رافع البرغوثي ٢٢١
■ مكتبة العربي (مختارات) ٢٢٦

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القاريء ٧
■ أقوال ٢٣
■ الكلمات المتقاطعة ٢١٤
■ مسابقة العربي الثقافية ٢٢٨
■ حل مسابقة العدد (٣٤٨) ٢٣٠
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٣٢
■ حوار القراء ٢٣٤

صورة الغلاف

هذه الحسناء من « النمور الصغيرة » التي هزت عرش الأسد الياباني ، وطغيان الغول الأمريكي ، واستغلال الذئب الانجليزي ..

(طالع التفاصيل ص ٣٦)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ البيت الكويتي القديم والتعبير عن البيئة وظروف المجتمع
- د . غانم سلطان ١٩٠
■ هو .. هي ٢٠٠
■ طبيب الأسرة : قضايا منزلية قضية الصداع
- د . حسن فريد أبوغزالة ٢٠٤
■ مساحة ود .. قبل
- محمود عبدالوهاب ٢٠٧

عزيزي القارئ

الكويت وطن الأمل

ما أن يقارب هذا الشهر على الانتهاء ، حتى توقد الكويت شيبا وشبانا ، نساء ورجالا ، شمعة جديدة في مسيرة استقلالها ، محتفلة بالعيد السابع والعشرين لهذا الاستقلال الذي دخلت معه بكل ثقة واقتدار الساحة الدولية .

والناظر الى مسيرة الخير خلال السنوات السبع والعشرين الماضية ، يستطيع أن يلخص هذه المسيرة بعبارة واحدة ، هي أن الكويت بلاد الأمل والمستقبل .

فخبرة الكويت في التنمية والتحديث والعمران المادي والمعنوي أصبحت نموذجا يحتذى ، بذل فيه الأهل قادة وشعبا ، مواطنين ومقيمين ، الكثير من العمل والوقت والتضحيات .

لقد تم تفاعل ناجح بين الأصالة والتحديث ، قاده رجال توارثوا الحكمة كابرا عن كابر ، فعندما تذكر الكويت الحديثة يذكر رجال انتقلوا الى رحمة الباري عز وجل ، وبقيت أعمالهم شاهدة عليهم ، رجال مثل المرحوم الشيخ أحمد الجابر الذي ولدت على يديه الكويت الحديثة ، وكانت حكمته ، وبعد نظره في التعامل مع المتغيرات ، مدرسة سياسية . ويذكر المرحوم الشيخ عبد الله السالم الذي جاء الاستقلال على يديه فرعاه وأنماه ، ثم يذكر المرحوم الشيخ صباح السالم الصباح الذي سار على الدرب فوفى وأوفى .

لكن عندما نذكر المستقبل نذكر الأمل الذي يتطلع اليه أهل الكويت بل العرب أجمعون ، فنشاهد بين أيدينا الرجل الصابر الدءوب الشيخ جابر الاحمد الصباح أمير الكويت ، وهو يعمل ليل نهار في ظروف إقليمية ودولية صعبة ، نراه يتابع من مكتبه في قصر السيف العامر كل صغيرة وكبيرة وأمام ناظريه قرآن كريم هو ديدنه في الحكم والتوجيه ، ليجنب سفينة الكويت المخاطر ، ومن أجل أن تظهر كل صباح بسمة على شفاه أطفال الكويت .

وعندما نذكر المستقبل نذكر الشيخ سعد العبد الله الصباح ولي العهد رئيس مجلس الوزراء ، كنز الحكمة والتسامح والصلابة .

عندما نذكر مثل هؤلاء الرجال فإننا نذكر نماذج القدوة في الوطنية والاصلاح ، نذكر حكم العدل الذى بني على مبدأ الحوار تحت مظلة المحبة ، وعلى تأكيد مواطن الوفاق ، وتقديم العفو عند المقدرة على العقوبة ، نماذج أبت الا أن تتقاسم الرغيف مع إخوة لها في العروبة والاسلام . عندما نذكر ذلك تتمثل لنا الكويت الصامدة في وجه الأخطار ، يتكاتف شعبها كي تصبح وطن الامل ، وطن المستقبل .

وفي عيد الكويت السابع والعشرين .. عيد الامل والوطن .. نزف للكويت وأهلها وإخواننا من أبناء العروبة والاسلام كل تحية وتقدير .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

الذخائر والتحف

كان الحديث بيننا عن التراث العربي والاسلامي ، وتشعب بعد ذلك ليشمل السؤال الأعم :

هل التراث - كما يعتقد البعض - محدد ومحصور فيما يتصل بالعقيدة والشرع ، أم هو - كما يعتقد آخرون - شامل متنوع ، شمول السلوك الانساني وتنوعه ؟

وكان رأيي يتفق مع المعنى الأخير .

قال محدثي : اضرب لي مثلا . . .

قلت : هل سمعت بكتاب « الذخائر والتحف » للقاضي الرشيد بن الزبير ؟

قال : زدني .

قلت : هذا الكتاب جزء من التراث ، بل لقد نشر في الكويت كأول كتاب تنشره وزارة الاعلام في سلسلة التراث العربي ، وكان ذلك قبل ما يقارب ثلاثين سنة خلت (١٩٥٩) ، وكان فاتحة سلسلة رائعة في تحقيق التراث ونشره ، وقد حققه العلامة محمد حميدالله ، وهو من كبار العلماء الذين وقفوا

حياتهم لاظهار محاسن تراث العرب والمسلمين ، وراجعه متخصص كبير هو المرحوم الدكتور صلاح الدين المنجد ، وكان التحقيق على مخطوطة نادرة .

الكتاب مؤلف في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أي قبل حوالي تسعة قرون تقريبا (٤٦٣هـ ـ ١٠٧٠م) ، أما المؤلف فقد كان موظفا ـ كما يعتقد المحقق ـ في دائرة استقبال السفراء في الدولة الفاطمية ، وعن له أن يطرق موضوعا طريفا ، بل موضوعا خاصا لم يعتن به ـ كما أعتقد ـ إلا القلائل في الحضارة العربية الاسلامية ، كما لم يكن هناك حتى ذلك الوقت من اعتنى به في حضارات أخرى بهذا الشمول .

وموضوع الكتاب هو « الذخائر والتحف » التي وجدت في قصور الخلفاء والملوك والقادة ، والهدايا التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم والعلاقات الدبلوماسية بين ملوك العرب المسلمين بعضهم وبعض ، وكذلك بينهم وبين ملوك أوروبا والهند ، والرسائل التي تراسلوا بها ، والتحف النادرة التي تهادوها ، فهو يحدد أشكال تلك التحف وطريقة صنعها وتواريخ توارثها ، كما يحدد اللغة الرفيعة التي تكاتب بها الحكام والولاة بهذا الخصوص ، فترك لنا بذلك كنزا من المعرفة في باب لم يطرقه ـ بشكل مباشر ـ إلا قليلون ، كما أن اعتناءه بهذا الموضوع يدل على الاهتمام الكبير الذي أظهره معاصرو الكتاب لمعرفة أشكال الهدايا وأنواع التحف وما دفع فيها من أثمان .

الكتاب مكون من ثمانية أبواب هي :

١ ـ هدايا الملوك والأمراء (وهو أكبر الأبواب) .

٢ ـ الولائم المشهورة والدعوات المذكورة .

٣ ـ الاعذارات* الموصوفة والحذاقات المعروفة .

٤ ـ الأيام المشهودة والاجتماعات في الأوقات المعهودة والمحافل المحشودة .

٥ ـ الغرائب الموجودات والذخائر المصونات .

٦ ـ الترك الموروثات (أي التركات) .

٧ ـ المغانم في الفتوحات والمقاسم في الغزوات .

٨ ـ باب النفقات .

والكتاب ـ بمنهج اليوم ـ يشكل فهما اقتصاديا سياسيا ودبلوماسيا للزمان الذي وقع فيه الحدث ، يستطيع الباحث من خلاله أن يتعرف على الأوضاع

---

* الاعذارات تعني الاحتفالات التي يقيمها الوالد لمولوده عند ختانه أو احتفالا بانتهائه من تحصيله مرحلة من التعليم .

الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، بجانب طرافته ، كما أن لغته سهلة مقروءة - إلا فيما ندر - يتيسر معه للقارىء بعد بذل جهد يسير فهم ما يرمي إليه المؤلف .

الثراء صورة العصر :

قلت لصاحبي : دون إبطاء دعني أنقل لك بعض ما لفت نظري .

ففي باب الهدايا ، بعد أن يستعرض المؤلف الهدايا التي قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قبل من هدايا من آخرين ، يصف ما تهادى به المسلمون الأوائل ، ثم يعرج على خلفاء بني أمية وبني العباس ، ويذكر نوادر ما أهدى لهم وما أهدوا ، وكيف تصرف بعضهم بتلك الهدايا . ومن ضمن ما يعرضه الكتاب قوله مثلا :

(ذكر المدائني أن ملك الهند أهدى الى الجنيد بن عبدالرحمن أيام ولايته السند في خلافة هشام بن عبدالملك ناقة مرصعة بالجواهر قد ملئت أخلافها « وهي ضروعها » لؤلؤا ، ونحرها ياقوتا أحمر ، على عَجَلٍ من فضة ، إذا تركت على الأرض تحركت العَجَل فمشت الناقة ، فبعث بها الجنيد إلى هشام فاستحسنها ، ثم إن الذي جاء بها بزل أخلافها « أي حلبها » ، فانتثر اللؤلؤ في علبة ذهب كانت معه ، وفك عنقها فسال الياقوت منه كأنه الدم ، فأعجب بها هشام ولم تزل في خزائن بني أمية حتى صارت إلى بني العباس) .

وذكر في موضع آخر أنه (كان في جملة ما قدم به عبيدة بن عبدالرحمن القيسي والي افريقية وسائر المغرب الى هشام بن عبدالملك من هداياه في سنة أربع عشرة ومئة هجرية « ٧٣٢ ميلادية » ، عشرون ألف عبد وأمة ، ومن صفايا الجواري المتخيرة سبع مئة جارية ، ومثل ذلك من الخصيان ، ومن الخيل والدواب والذهب والفضة والآنية ما لا يحصى كثرة) .

لماذا اهتم العرب بوصف الهدايا والتحف قبل تسعة قرون ؟

وحكى أن العلايي ذكر في كتاب « الأجواد » أن صبيحا الكاتب قال :

(بعث عمر بن يوسف الثقفي الى هشام بن عبدالملك بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفه ، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب ، فدخل الرسول اليه فلم ير وجه هشام من طول السرير وكثرة الفرش ، فتناول الحجر والحبة منه وقال : اكتبَ معك بوزنها ؟ فقال : ومن أين يوجد مثلها ؟ وكانت الياقوتة للرائقة جارية خالد بن عبدالله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار) .

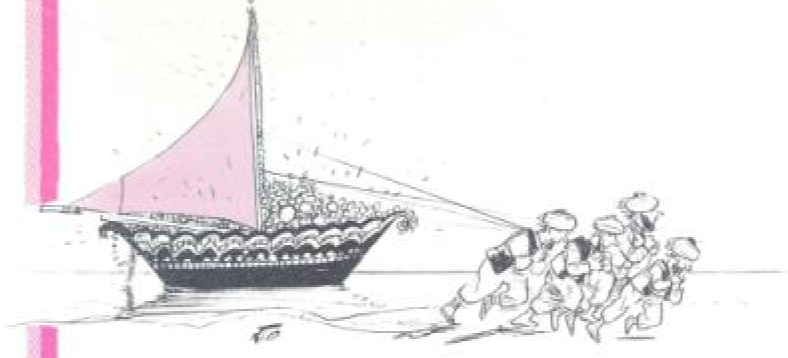

من هذه الأوصاف للهدايا واللؤلؤ النادر ، والمبالغ التي قدرت بها ، نستطيع أن نتبين مقدار الثراء الذي شهدته الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت .

الكتب أول الهدايا :

وحكاية أخرى يرويها الكتاب فيقول :

(كتب دهمي ملك الهند الى عبدالله المأمون بالله مع هدية أهداها اليه ، كتابا حمد فيه الله وعدد نعمه عليه وأسرف في ذكر ما يملكه من ثراء ومافي خزائنه من ذهب وجوهر ثم قال :

« . . . أما بعد فقد افتتحنا استهداءك بأن وجهنا اليك كتابا ترجمته « صفوة الأذهان » والتصفح له يشهد على صواب التسمية ، وبعثنا اليك لطفا بقدر ما وقع منا موضع الاستحسان له ، وان كان دون قدرك . ونحن نسألك أيها الأخ أن تنعم في ذلك بالقبول وتوسع عذرا في التقصير ان شاء الله » ، وكانت الهدية جام ياقوت أحمر فتحه « أي فتحته » شبر في غلظ الأصبع ، مملوء درا ، وزن كل درة مثقال ، والعدة مئة درة ، وفرشا في جلد حية تكون في وادي المهراج تبتلع الفيل ، ووشي جيدها دارات سود على قدر الدرهم ، وفي وسطها نقط بيض ، مغروزة بالدر ، لا يتخوف من جلس عليها السل ، ومن كان به السل وجلس عليها سبعة أيام ذهب عنه ، ومُصَلِّيات ثلاثة بوسائدها من ريش طائر يقال له السمندل « وهو طائر خرافي » إذا طرحت في النار لم تحترق ، وفراوزها « أي حواشيها » در وياقوت أحمر ، ووزن مئة ألف مثقال

جلد الحية الذي يبتلع الفيل.. كيف يمكن أن يشفي العليل؟

عودا رطبا إذا ختم عليه قَبِلَ الصورة ، وثلاثة وثلاثين مناً كافورا محببا ، كل حبة منه مثل الفستقة ، وأكبر من اللوزة ، مع جارية سِنْدِيَّة طولها سبع أذرع تسحب شعرها ، حسنة البشرة لها أربع ضفائر تعقد ضفيرتين على رأسها تاجا ، وضفيرتان تبلغان الأرض من خلفها ، وطول كل شفر من أشفار عينيها أصبع ، يبلغ إذا أطرقت الى نصف خدها ، وكأن بين شفتيها لمعان البرق من بياض أسنانها)

وتروي الحكاية بعد ذلك عن رد عبدالله المأمون على ملك الهند في كتاب شكر له فيه قوله وهداياه ثم قال :

(وقد أهدينا اليك مودتنا لك وهي أوفر حظ المتواصلين ، وأهدينا اليك كتابا ترجمته « ديوان الألباب وبستان نوادر العقول » ومطالعتك ترجمته تحقق عندك فضيلة النعمة ، ومشاهدتك له تحقق عندك ما أسميناه به ، وجعلنا لذلك عنوانا من الهدية ، وهو لطف استقللنا قدرها لك ، ولو كانت الملوك تتهادى على أقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها ، وإنما يجري ذلك بينها على قدر ما يدل على حسن النية وجميل الطوية وبالله التوفيق) .

نلاحظ في الرسالتين بين دهمي وعبدالله المأمون أن أهم هدية تبادلاها كانت « كتابا » فالأول أهدى الثاني كتاب (صفوة الأذهان) والثاني أهدى الأول كتاب « ديوان الألباب وبستان نوادر العقول » .

ورغم أن الكاتب يشير الى عظيم ما صاحب تلك الهدية من الطرفين من خيل ، وعقيق وأصناف من الكسوة والديباج ، إلا أن الأولوية كانت للكتاب ، « بيت الحكمة » ، ولعل تفاصيل الهدايا السابقة ملفتة للنظر ، فهناك فرش من جلد حية حجمها يبتلع الفيل تشفي المريض بالسل ! أما الجارية فهي لا شك رائعة الجمال الى درجة المبالغة ، فهي سندية طولها سبع أذرع وشعرها طويل إلى درجة أنه ينسحب وراءها ، أما رموش عينيها فهي من الطول ان أغمضت وصلت الى منتصف خديها !

ومما يستلفت النظر قصة يرويها الكتاب عن هدية أهدتها « برتا » بنت الاوتاري ، ملكة الأفرنجة الى المكتفي بالله تكرمة له واستجلابا لمودته . الهدية كما ذكرت في كتابها اليه : (خمسون سيفا وخمسون ترسا وخمسون رمحا فرنجية ، وعشرون ثوبا منسوجة بالذهب وعشرون خادما ، وعشرون جارية ، وعشرة أكلب « كلاب » كبار لا تطيقها السباع ، وسبعة بُزاة وسبعة صقورة ، ومضرب حرير بجميع آلاته ، وعشرون ثوبا معمولة من صوف يخرج من قعر البحر يتلون لونا في كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار تكون ببلاد فرنجة إذا نظرت الى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحا

منكرا وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك) .

وقد يكون لبعض تفاصيل هذه القصة ظاهر الخرافة كأن تصبح بعض الطير وتصفق عند رؤيتها للطعام المسموم ، ولكن في هذه الاشارة مقابلة تستحق منا النظر ، وهي المكان المتقدم من الصناعة والتدريب - بالمعنى الحالي - الذي اعتقد البعض وقتها أنه موجود في أوروبا .

النفقات في الولائم :

عندما ينتقل الكاتب للحديث عن النفقات في الولائم المشهورة ، ويعني بها ما أنفق من مال على الولائم والزيجات ، يشير إلى ما ذكره ابن عفير فيقول :

(خرج عبدالعزيز بن مروان الى الاسكندرية في سنة أربع وسبعين ، فاعترضه في طريقه صاحب « بلهيب »* فطلب اليه أن ينزل عنده ، فقال له عبدالعزيز : ويحك ان معي جماعة وتلحقك في هذا مؤونة ، فقال : أن هذا الأمر لا يعظم عندي ، ولولا احتمالي لك ولجميع من معك ما طلبت اليك في هذا ، فلم يزل حتى نزل به ، وكان عبدالعزيز في ألف رجل من خواصه ، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام ، يقدم اليهم الأطعمة والطرائف في كل يوم ثلاث مرات ، ثم أذن عبدالعزيز لأصحابه في المسير ، فما راعهم إلا أربعة من القبط يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أرادب ، في أذنيها خشبة عظيمة ، يحملها اثنان أمامها واثنان خلفها وعليها منديل .

وجاء صاحب « بلهيب » فقال : « ياسيدي مر بهذا فليقسم بين أصحابك » ثم كشف عنها فاذا هي مملوءة دنانير . فأبى عبدالعزيز أن يقبلها وقال : اجعل هذا فيما ينوبك من خراجك . وبلغ ذلك « أم البلهيبي » فأقبلت على عبدالعزيز وقالت : أيها الأمير .. لم ترد هديتنا علينا ؟ قال : إنا كرهنا أن نحملكم مؤونة ، قالت : والله ما يضرنا هذا ان أخذته ولا ينفعنا ان تركته . وان عندنا لما يغنينا عنه ، فعزمت عليك إلا ما أمرت به ، فيقسم بين أصحابك . فأمر به فقسم بينهم حفنا « جمع حفنة » فعمهم أجمعين) .

■ الجارية السِنْدِيَة التي تَسْحَبُ شعرَها وراءَها ، وتصل أهدابها إلى نصف خدّيها .. من أهداها لمَن ؟

وثمة قصة أخرى يرويها الكتاب تحكي عن كثرة الانفاق في الولائم ومناسبات الأعراس . والمناسبة هي دخول عبدالله المأمون ببوران « خديجة »

* بلهيب احدى قرى مصر في منطقة الجيزة فتحها عمرو بن العاص حين فتح مصر ويعتقد أنها قرية من الشمال أي الحول الآن وكان متوليها من أغنياء البلاد .

بنت الحسن بن سهل . . وعلى لسان ابن عبدوس يقول المؤلف (بلغت النفقة ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم . وكان يجري في كل يوم في جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاح ، ووصل المأمون أباها بعشرة آلاف ألف درهم - وقيل ألف ألف دينار - ففرقها في قواد المأمون وحشمه ، ووهب لأخيها ألف ألف درهم وأقطعه « فم الصلح » وكانت قيمته ثمانين ألف دينار ، وكانت نفقة الحسن بن سهل اليها في هذه الوليمة أربعين ألف ألف درهم وقيل أربعة آلاف ألف دينار) . ومن قبيل ذلك الانفاق المبالغ فيه في الولائم ، ما ذكر من أن عبدالله المأمون لما أراد أن يزوج ابنته أم الفضل بأبي جعفر محمد بن علي الرضا أولم وليمة عظيمة جاء عنها في الرواية على لسان الريان ابن خال المعتصم : (وإني لكذلك إذ سمعت كلاما كأنه من كلام الملاحين في مجاوباتهم ، فاذا بالخدم يجرون سفينة من فضة فيها قلوس من ابريسم مملوءة غالية ، فخضبوا لحى أهل الخاصة بها ، ثم مدوا الزورق الى أهل العامة فطيبوهم) .

والقصة التي يرويها الكاتب تشير الى قدر الاسراف والمبالغة في الانفاق حين يرسل صاحب الوليمة لضيوفه سفينة « مصنوعة » من فضة يجرها الخدم بحبال القلوس مصنوعة من ابريسم (وهو نوع من الحرير) وقد ملئت بنوع مميز من طيب مركب يسمى غالية يكفي لتطييب لحى الخاصة والعامة جميعا . . !

إذا انتقلنا الى باب الاعذارات - وهي التي ذكرنا ما تعنيه من قبل - نجد مثل هذه القصص التي تتحدث أيضا عن الاحتفال بمناسبة الإجادة والحذق في حفظ القرآن ، وتقول احداها :

(لما حذق المعتز بالله القرآن دعا المتوكل على الله « شفيعا » خادمه فقال : قد عزمت على تحذيق أبي عبدالله في يوم كذا وتكون خطبته وحذقته ، فأخرج من خزانة الجوهر جوهرا بقيمة مئة ألف دينار في عشر صواني فضة للنثار على من يقرب مني من القواد الأكابر ، وأخرج مئة ألف دينار للنثار على القواد الذين هم دون هؤلاء ، وأخرج ألف ألف درهم صحاحا بيضا للنثار على من بالصحن من خلفاء القواد والنقباء وبقية وجوه الناس) .

باب الأيام المشهودة :

كيف يؤثر المظهر الخارجي على نفسية الموفد من الخارج ؟ عندما قرأت هذا الباب وعنوانه « الأيام المشهودة والاجتماعات في الأوقات المعهودة والمحافل المحشودة » فطنت الى أصول استقبال السفراء الجدد بحرس وموسيقا . فقد جاء في كتاب « الذخائر والتحف » ما يمهد لذلك .

فكاتبنا يصف كيف يستقبل ملوك العجم سفراء ملوك العرب فيقول :

(كانت الأكاسرة إذا ورد عليها رسل ملوك العرب والروم أمرت بتعبئة الجيش في عشر كتائب ، كل كتيبة عشرة آلاف فارس ، بالجواشن المذهبة « وهي الدروع » والحراب اللامعة والدروع المفرغة والأعلام المذهبة من ساباط المدائن « وهي الشوارع المسقوفة » الى الايوان . ثم يمر بالرسل على كتيبة كتيبة . حتى إذا أشرفوا على باب الايوان رفع لهم عنه . وكانا ايوانين متقابلين بينهما فسيح من الأرض ، وفي وسط ذلك قبة من الأرجوان ارتفاعها عشرون ذراعا مغشاة بأجلة الديباج المنسوج بالذهب الأحمر ، وفيها جامات من البلور الأحمر والأبيض وأنواع الأصباغ ، وفي وسطها سلسلة من الذهب معلق في طرفها القنقل والياقوت الأحمر ، وكان الملك يجلس تحت تلك القبة والتاج معلق على جبينه . .

وكان الملك يقيم عن يمينه مئة غلام من أولاد الملوك قد ألبسهم الديباج الملون من الثياب والقراطق « نوع من الملابس » . وفي أوساطهم مناطق « أي أحزمة » الذهب الأحمر مرصعة بأنواع الجواهر وعن شماله أولاد المرازبة عليهم القراطق وفي أوساطهم المناطق ، بأيديهم أعمدة الحديد المذهبة . وكان الملك يقعد أربعين جارية مختارات ، عشرين عن يمينه وعشرين عن شماله . والتراجمة بين يدي الملك . فاذا وقفت الرسل بين يدي الملك أمرت

بالجلوس ، فتبادرت اليهم الحجاب بكراسي الذهب والفضة فيجلسون عليها ويؤدون الرسالة وينصرفون .

عن الموجودات بعد الوفيات من (الترك الموروثات) يحكي الكتاب عن المؤرخين أنه (كان في الجاهلية أربعة نفر من قريش يملك كل واحد منهم قنطارين من الذهب وهم أبو لهب وأمية بن خلف وأبو أحيحة وعبدالله بن جدعان .

والقنطار أربعة آلاف ومائتا أوقية ، والأوقية أربعون درهما وهي ثمانية وعشرون مثقالا ، ولذلك قال الله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » وقال تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ») .

■ كم هي المبالغ التي صرفت عندما أنهى المعتز بالله ختام «القرآن» ؟

قبل أن يختم الكاتب مؤلفه يقدم أمثلة مما خلفته أمهات الخلفاء وذووهن ، فنعرف أن العباسة بنت المهدي بالله خلفت ضياعا تبلغ غلتها في كل سنة أربعة آلاف ألف دينار . وكانت غلة الخيزران أم الهادي والرشيد في كل سنة مائتي ألف ألف وستين ألف ألف درهم . وخلفت شجاع أم المتوكل خمسة آلاف ألف دينار عينا وورقا ، وجواهر قيمتها ألف ألف دينار ، ومن الفرش والرقيق والدواب بقيمة ألف ألف دينار ، بالاضافة الى أربع عشرة ضيعة بلغت غلتها في السنة أربع مئة ألف دينار . كما وجد في بيت مال أم المستعين بالله بعد خلعه احدى وخمسون ومائتي ألف ألف دينار ، وفي بيت مال ابن العباس ست مئة ألف دينار .

الكتاب وطبيعة العصر :

لا شك أن كتاب الذخائر والتحف الذي يعبر عن سلوك الانسان في مختلف مواقعه قد أملته طبيعة العصر وطبيعة المؤلف ، فلقد كان العصر الذي جرت فيه حكاياته وقصصه عصر ثراء وافراط وبذخ يشارك فيه الخلفاء ويشارك فيه علية الناس . . والناس في ذلك فريقان : فريق يطلب الكسب ويتقرب الى أصحاب الأمر للحصول على النعم ويطلب حياة الترف وينالها من خلال إغداق الخلفاء والملوك بالأموال والتحف . . أما الفريق الآخر فتستهويهم

أولُ كتاب صَدر عَن سلسلة التراث في الكويت كَان شاهـدًا عَلىٰ عصْره

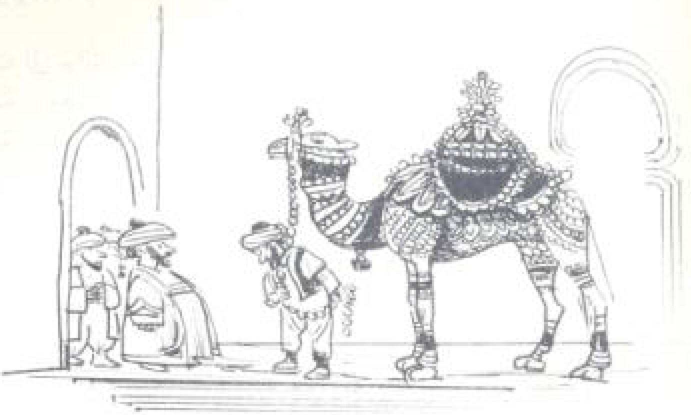

الحياة العلمية والفكرية ، يبحثون عن المعرفة من مختلف الطبقات والثقافات والأجناس . .

وكان بعيدا عن رجل مثل القاضي الرشيد بن الزبير ان يعيش غير متأثر بالعصر الذي أظله ، بما فيه من قصص الترف والبذخ والنوادر الغريبة التي تجري في القصور . . من أجل ذلك أملت عليه طبيعته بعدما أملى عليه عصره أن يكون هذا المؤلف الجامع المتقصي .

وجمع هذا القصص الذي يتناول الكثير من الموضوعات غير المطروقة في ذلك العصر يعد الأول من نوعه الذي التزم أسلوبا جديدا من حيث الاختيار والتبويب والترتيب . وفي تصوري أن القاضي الرشيد لم يقصد الى رواية حكايات ونوادر وأحداث من ذلك النوع دون أن يكون له هدفه من ابراز بعض أنواع السفه والاسراف ، وذلك تبصرة لأهل العلم وتذكرة لسائر الناس وكشفا بأقرب أسلوب الى أذهان القراء عما يجري في القصور ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناقد استيعابها بما في ذلك ابراز بعض جوانب الحضارة العربية الاسلامية الاقتصادية والفنية والخلقية .

ومع كل ذلك فالقارىء لمثل هذا الكتاب التراثي يخرج بحصيلة جيدة من النادرة الطريفة ، والفطنة اللطيفة ، والقصة المثيرة ، والحكاية المضحكة ، كما يروح عنه كد الجد وتعب الذهن . . وهو كتاب مثله مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الأطعمة باختلاف شهوات الآكلين .

هذا عن كتاب « الذخائر والتحف » أول كتاب تنشره وزارة الاعلام في الكويت في سلسلة التراث العربي . . . ولكن ليس معنى أن نتناوله الآن هو أن هذا الجهد أول ما تبذله الكويت في مجال نشر التراث العربي . فقد التفتت

الكويت الى تراثنا العربي وعملت على جمعه واحيائه . فإن الكتب هي بيوت الحكمة . ولهذا استضافت الكويت معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، كما أنشأت « قسم التراث العربي » الذي يشرف على اخراج سلسلتين . . أولاهما سلسلة كتب التراث العربي والثانية : سلسلة دراسات في التراث العربي . ومن السلسلة الأولى أصدرت ستة وعشرين كتابا كان أولها « الذخائر والتحف » الذي تناولناه بالحديث هنا . . وبعض هذه الكتب صدر في مجلد واحد مثل كتاب « الأضداد » لابن الانباري ، و « المصون في الأدب » لأبي أحمد العسكري ، و « مجالس العلماء » للزجاجي - وبعضها لضخامته صدر في أكثر من مجلد ، ومن ذلك كتاب « الأنوار في محاسن الأشعار » للشمشاطي في جزأين ، و « مآثر الأنافة في معالم الخلافة » للقلقشندي في ثلاثة أجزاء ، وكتاب « العبر في خبر من غبر » للذهبي ، في خمسة أجزاء ، وأضخمها كتاب « تاج العروس من جواهر القاموس » ويبلغ أربعين جزءا كل جزء منها يقارب خمس مئة صفحة وصدر منه حتى الآن خمسة وعشرون جزءا . .

وكل هذه الكتب التراثية متنوعة . . بعضها في اللغة ، وبعضها في الأدب ، وبعضها في التاريخ ، وبعضها في النسب ، وبعضها في الشعر .

والسلسلة الثانية (دراسات في التراث العربي) أصدرت منها الكويت عشرة كتب كل منها في مجلد ، وهي متنوعة أيضا . . بعضها في الأمثال العربية ، وبعضها في القصص والقُصّاص ، وبعضها في اللغة ، وبعضها في ترجمة شاعر (عبدالله بن قيس الرقيات) أو لغوي (ابن دريد) أو عالم (ابن النفيس) .

ولا شك أنه من دواعي الرضا عن هذا النشاط في ميدان التراث العربي أن الجهد فيه لا يتجاوز ثلاثة عقود . . والمستقبل أمامه ما يزال ممتدا . وفي الوقت الذي تحتفل فيه الكويت بعيدها السابع والعشرين هذا الشهر ، نشير الى ميزة علمية واحدة هي إحياء التراث العربي والاسلامي ، من ضمن عمل أعمق وأكثر ثراء في مجال الثقافة ومجالات أخرى عديدة في الاجتماع والاقتصاد والتنمية . . ولكن البدء بإنارة العقول هو الخطوة الصحيحة في الاتجاه الصحيح .

محمد الرميحي

المراهقة الثقافية !

بقلم الدكتور : فؤاد زكريا

الرائد لا يكذب أهله . . والكاتب يقول . .

إن أمنية الأمنيات عنده هي أن تتمكن أجيالنا الجديدة من أن تفهم نفسها ، وتفهم العالم ، من خلال أعمال ثقافية ناضجة تصنعها بنفسها .

ولكن كيف ؟ هذا ما يشرحه الكاتب في هذا المقال الخلافي .

شغلتني كثيراً ، في السنوات الأخيرة ، سمة من سمات حياتنا الثقافية الراهنة ، تشكل منعطفاً حاداً وغير متوقع في موقفنا تجاه الثقافة الغربية . ففي هذه السنوات الأخيرة حدث التقاء غريب ، لم يكن له نظير في أية مرحلة سابقة من مراحل نهضتنا الفكرية الحديثة ، بين أنصار العودة إلى الأصول الاسلامية وبين شرائح لا يستهان بها من المثقفين العرب الذين تشبعوا بالثقافة الغربية .

وأساس هذا الالتقاء هو الرفض الحاد لحضارة الغرب ، والدعوة إلى شكل من أشكال « الأصالة » ـ وهو تعبير شديد الغموض والالتباس . ولكنه يزداد في استخداماته الراهنة اقترابا من المعنى الذي يشاركه في الاشتقاق اللغوى ، معنى « الأصولية » ، والعودة إلى جذورنا المتأصلة والضاربة في أعماق التاريخ .

جمع بين خصمين

فلقد كان الوضع المألوف منذ بداية اتصالنا بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر ، هو التضاد بين أنصار التراث الذين يرفضون كل فكر دخيل ويتخذون من عراقة الماضي درعاً يحميهم من كل إغراءات الحداثة والعصرية ، وبين أنصار التجديد الدائم والتغير المستمر ، ممن يسايرون التيارات المستحدثة أولاً بأول ، ويؤكدون أن المقومات الأساسية للنهضة لن تتوافر لنا إلا إذا لحقنا بأسرع وأحدث العربات في قطار الحضارة . وقد أصبح هذا التضاد محوراً لجميع الكتابات التى تعالج حياتنا الثقافية الحديثة ، وربما أضاف البعض إليه طرفاً ثالثاً يسعى إلى التوفيق بين طرفيه الأصليين ويقف في منتصف المسافة بينهما ولكن الاطار العام يظل كما هو ،

ويبدو كما لو كان يعبر عن تضاد طبيعي لاسبيل إلى الاختلاف عليه . ولكن ما حدث في هذه السنوات الأخيرة قد خرج عن هذا الاطار التقليدي خروجاً تاماً ، وجمع بين الخصمين التاريخيين على أرض واحدة ، هي أرض الرفض الحاد « للتغريب » .

ففي الماضي ، كان مجرد الاحتكاك بحضارة الغرب لفترة ما كافياً لأن يحول شخصية نشأت نشأة تقليدية تراثية خالصة ، مثل رفاعة الطهطاوي ، في اتجاه الانبهار الشديد بالغرب . أما اليوم ، فإن مجموعة كبيرة من المثقفين العرب البارزين الذين عاشوا في الغرب حياة طويلة ، واختار بعضهم الاستيطان فيه أو الهجرة الدائمة إليه ، يقودون الحملة ضد الثقافة الغربية ، ويتفق موقفهم في هذه الناحية اتفاقاً موضوعياً مع موقف التراثيين الذين رفضوا الغرب منذ البدء ، والذين لم يعرف معظمهم عن الثقافة الغربية إلا قشوراً سطحية .

وبالطبع فإن ما يلفت النظر في هذه الظاهرة ليس موقف التراثيين ، لأن هؤلاء ظلوا على الدوام متمسكين بعدائهم للثقافة الغربية ، ولم تخرج منهم عن هذه القاعدة سوى فئة ضئيلة أتيحت لها فرص استثنائية للاحتكاك بالغرب . وإنما اللافت للنظر بحق هو هذا التحول الحاد الذي جعل أشد المفكرين العرب تشبعاً بالثقافة الغربية يرى أن من علامات نضجه مهاجمة تلك الثقافة التي تشربها واستمد محتوى تفكيره منها وعاش بين ظهرانيها ردحاً طويلاً من الزمان . فهؤلاء في تكوينهم الثقافي ، هم ورثة المنبهرين بالغرب ، وهم امتداد سلامة موسى وشبلي شميل ولطفي السيد ومظهر سعيد ، ومع ذلك فقد دار بهم الزمن دورة كاملة ، وأصبحوا يقفون في الطرف المضاد بقوة لأسلافهم الروحيين . وحين يطلع المرء على أبحاثهم الناقدة والرافضة للغرب ، ويرى إلى أي حد سيطرت المناهج الغربية الحديثة على طرق تفكيرهم ، ومدى شيوع المفاهيم والمصطلحات والتعبيرات التي لم تستمد إلا من ثقافة الغرب في كتاباتهم ، ويدرك أن المنطق الذي يتحدثون به ، والحجج التي يقدمونها ، والأمثلة التي يضربونها ، ليست إلا حصيلة احتكاكهم الطويل بالثقافة الغربية ، لايملك إلا أن يتساءل : هل نحن هنا إزاء حالة صارخة من حالات التناقض الذاتي ، أم أن الغرب في الواقع هو الذي ينقد نفسه على لسان هؤلاء ؟

في تصوري أن أفضل تشخيص لهذه الظاهرة الفريدة هو وصفها بأنها ضرب من ضروب « المراهقة الثقافية » . وأنا على وعي تام بأن مثل هذه الأوصاف المجازية كثيراً ما تكون مضللة ، فضلاً عن أن تطبيق مفهوم يعبر عن مرحلة من مراحل نمو الفرد ، - كمفهوم المراهقة على ظاهرة ثقافية عامة - ينطوي على مخاطر لايستهان بها . ومع ذلك فسوف احاول أن أثبت بعد ذلك ان وصف « المراهقة الثقافية » هو الأكثر انطباقاً على الحالة التي نحن بصددها .

المثقفون والمراهقة الفكرية

إن أبرز سمات المراهقة ، من حيث هي مرحلة من مراحل نمو الفرد ، تعجل استقلال الشخصية قبل الأوان . فالمراهق ، حين يشعر بأنه وصل إلى المرحلة التي أصبح فيها يحمل بعض سمات الانسان الناضج ، يتصور نفسه ناضجاً بالفعل ، ويتعجل فصم الروابط بينه وبين مرحلة الطفولة التي كان فيها معتمداً على غيره ، ويتطلع إلى عالم الكبار ويحاكيه ، ويتوقع ممن ينتمون إليه أن يعاملوه على أنه واحد منهم . بل إن المراهق يتصور نفسه أنضج وأرشد من الكبار أنفسهم ، ولذلك يرفض كثيراً من الأفكار والقيم والتقاليد السائدة بين الأجيال السابقة عليه ، وتشتد المشاحنات بينه وبين كل من له سلطة عليه داخل البيت وخارجه .

ويبدو لي أن المثقفين العرب المتشبعين بثقافة الغرب ، والذين اتخذوا في العقدين الأخيرين موقف النقد الحاد من هذه الثقافة ، يمثلون بوضوح مرحلة المراهقة في ميدانهم الخاص . فهم يشعرون بأن الأوان قد ان لكي يستقلوا عن ذلك الغرب الذي استمدوا منه كل زادهم الفكري ، وهم يبدون نحوه

خصومة حادة ، ويوجهون إليه اتهامات قاسية تبرر تلك القطيعة التي يسعون إلى إحداثها معه . ومع ذلك فإن التفكير في البديل الذي يمكن أن يحل محل تلك الثقافة المرفوضة لايشغل من اهتمامهم إلا قدراً ضئيلاً مما يشغله التفكير في عملية الرفض ذاتها .

وعلى النقيض من التراثيين ، الذين يتوافر لديهم دائماً بديل جاهز ، هو ثقافة السلف ، فإن هؤلاء « المستغربين » يعلمون حق العلم أن البديل التراثي غير كاف ، ويعرفون أن النهضة العصرية في مجتمعاتهم حديثة العهد من جهة ، وأن ظروفاً معاكسة كثيرة تحول دون وصولها إلى إي مستوى من مستويات النضج من جهة أخرى ، ومن ثم فإن البديل العصري بدوره لم يتشكل بعد . ومع ذلك فإنهم يصرون على رفض المنبع الذي استمدوا منه ثقافتهم ، دون أن تكون أمامهم أية صورة واضحة لما يرفضونه من أجله ، ودون أن يكون رفضهم في ذاته اسهاماً ناضجاً في تكوين البديل .

رجلي العجوز !

وكما يؤمن المراهق بأن جيل الكبار قد شاخ ، ولم يعد صالحاً لشيء (لاحظ أن العبارة المستخدمة لدى المراهقين الأمريكيين عند الحديث عن الأب هي : رجلي العجوز !) فكذلك تشيع لدى هؤلاء المستغربين العرب المتمردين على أصولهم اتهامات للغرب بالتدهور والشيخوخة والانحلال . وهم يقتبسون بشغف شديد من شبنجلر وتوينبي وجارودي وكل من يعزف نغمة « تدهور الغرب » بصورة متكررة في كتاباته . ولم يخطر ببال أحد منهم أن يتساءل : أليس شبنجلر وتوينبي والآخرون غربيين بدورهم ؟ فلماذا إذن لانرفض أحكامهم بدورها ، على أساس أنها جزء من « التدهور » العام للحضارة التي ينتمون إليها ؟ والأهم من ذلك أنه لم يخطر ببال أحدهم أن يقارن بين مظاهر « التدهور » في الغرب ومظاهره في مجتمعاتنا ، أو بين معدله هناك ومعدله هنا ، أو بين ما يتوقع أن يؤدي إليه التدهور عندهم وعندنا . أما السبب في أن أياً من هذه الأسئلة الهامة لم يُطرح لدى هؤلاء المتمردين على جذورهم الغربية ، فلايفُهم إلا في ضوء مايتصف به تمرد المراهق من عنف غير عقلاني وغير منطقي في معظم الحالات .

ومن سمات المراهقة ، الخلط الانفعالي بين المجالات : فالمراهق قد لايستمع إلى أي درس يلقيه المعلم إذا كان يشعر تجاهه ببود مفقود ، مع أن المفروض أن مجال التعليم منفصل عن العواطف الشخصية . وبالمثل فإن هؤلاء العرب المستغربين الكارهين للغرب ، حين يشنون على الغرب حملة شعواء على المستوى الثقافي والعلمي ، لايصدرون في حملتهم هذه إلا عن دوافع سياسية في المحل الأول .

فالهدف هو الانتقام من الإذلال السياسي الطويل الذي مارسه الغرب علينا . وإذا لم يكن في استطاعتنا أن نسوي حساباتنا مع الغرب على المستوى السياسي والعسكري والاقتصادي ، فلا أقل من أن نأخذ ثأرنا منه على المستوى الثقافي (الذي هو متاح للجميع) . بل لقد عرفت بعض الحالات لم يكن الهدف فيها أكثر من تسوية حسابات شخصية ، تراكمت نتيجة للوضع القلق أو للصعوبات التي لابد أن يصادفها أي عربي يقيم في الغرب ، مهما حاول الاندماج فيه ، بحيث يكون الهجوم على « الحضارة الغربية » في هذه الحالات تسوية لاشعورية لثأر شخصي .

نظم ومؤسسات مُحكمة

على أن هذا الهجوم الحاد على ثقافة الغرب ، بما يحمله من دوافع هي في حقيقتها سياسية ، وقد تكون أحياناً شخصية ، يرتكب خطأين أساسيين :

أولهما هو الخلط بين الانسان الغربي والنظم الغربية . فكثير من هؤلاء الرافضين يرتكزون في رفضهم على تجارب سلبية مع « أشخاص » ينتمون إلى الغرب . ومن الممكن جداً أن تكون تجاربهم هذه محبطة حقاً ، وأن تكون نسبة غير قليلة من العناصر البشرية في الغرب جديرة بالنقد ، أو حتى

بالازدراء ، سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الاخلاقي . ولكن الميزة الكبرى التي تمكن الغرب من اكتسابها وتطويرها على مر الزمن ، هي وضع « النظم والمؤسسات » التي تتجاوز قدرات الافراد ، والتمسك بهذه النظم إلى الحد الذي يرغم الأفراد على الرضوخ لها . وهكذا فقد يكون « الفرد » الأوروبي أسوأ مخلوقات الله ، ومع ذلك فإن وجوده وسط نظم ومؤسسات محكمة ، تطورت بعد خبرة طويلة وفرضت نفسها بصورة قاطعة على الجميع ، يرغمه على أن يسلك في الأمور التي تمس علاقته بالآخرين سلوكاً سليماً . وفي اعتقادي أن الحكم على أية حضارة ينبغي أن ينصب على ما وضعته لنفسها من نظم ومؤسسات ، وليس على المستوى الاخلاقي أو الاجتماعي لسلوك أفرادها ، أياً كان عددهم ووزنهم .

فكرة المؤامرة

أما الخطأ الثاني الذي يقع فيه هؤلاء الرافضون فهو مبالغتهم في الاستناد إلى فكرة « المؤامرة » التي يتصورون أن الغرب يحيكها للعالم . هذه المؤامرة يُفترض أنها بدأت منذ العهود الأولى للاستعمار الغربي ، حين تمكن الغرب من أن يكتسب لنفسه تفوقاً في المجال الاقتصادي والعلمي وفي المستوى المعيشي بفضل نهبه لثروات الشعوب التي استعمرها . وهكذا تراكم لديه « فائض القيمة التاريخي » (على حد تعبير واحد من أشهر هؤلاء الرافضين) الذي جمعه من السلب والنهب الاستعماري ، واستطاع توظيف هذا الفائض في اكتساب مزيد من القوة في مختلف ميادين الحياة والفكر .

وفي تصوري أن أصحاب هذا الرأي يخلطون بين المراحل التاريخية التي مرت بها أوروبا في مطلع العصر الحديث : فالثورة العلمية الحديثة في أوروبا ، على أيدي علماء القرن السادس عشر والسابع عشر ، كانت سابقة زمنياً لعصر الاستعمار ، أي أن أوروبا تقدمت علمياً أولاً ، وترتب على هذا تقدم تقني ، وبفضل هذا وذاك تمكنت من تطوير الأسلحة ووسائل النقل التي جعلت استعمارها لمعظم دول العالم في ذلك الحين أمراً ميسوراً . ومعنى ذلك ان البدايات الأولى للتفوق الغربي قد سبقت ، زمنياً ، استغلال الغرب للشعوب الأخرى ولاشك أن هذا التفوق قد ساعد فيما بعد على توسع أوروبا في الاستعمار وفي السيطرة على شعوب العالم ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، ولكن الخطوة الأولى نحو إحراز الأسبقية العلمية والتقنية قد تمت في أوروبا بفعل عوامل ذاتية ، وليس نتيجة استغلالها للآخرين .

حب الاتقان

إن القارىء لابد قد استخلص من الصفحات السابقة أن كاتب هذه السطور مدافع متحمس عن الثقافة الغربية ، حتى ضد أبناء وطنه الذين يسعون إلى الاستقلال عنها . وإذا كان ظاهر الكلام يوحي بهذا ، فحقيقة الأمر أن ما أود التنبيه إليه هو الحذر من الاستقلال السابق لأوانه . ذلك لأنني أشارك مثقفي العالم الثالث رغبتهم المخلصة في أن تكون لهم ثقافتهم الخاصة ، وفي أن تتحرر هذه الثقافة من وصاية الثقافة الغربية وهيمنتها . ومن أبشع الصور في نظري صورة ذلك الشاب المنتمي إلى عالمنا الثالث ، الذي يعوج لسانه ويعجز عن التعبير عن نفسه بلغته القومية بعد أن يقضي عاماً أو عامين في بلد غربي . وأمنية الأمنيات عندي هي أن تتمكن أجيالنا الجديدة من أن تفهم نفسها وتفهم العالم المحيط بها من خلال أعمال ثقافية ناضجة صنعناها نحن ، وأن نكف عن النظر إلى أنفسنا وإلى العالم بعيون الآخرين . ولكن هذه الأمنية تحتاج إلى وقت ، وجهد ، وقبل كل شيء إلى الاتقان .

والواقع أن الميزة الكبرى للحضارة الغربية هي أنها ربت في أبنائها حب الاتقان . يكفي أن تنظر إلى العالم الذي يسهر في معمله لياليَ طويلة ، لسنوات عديدة ، ويحرم نفسه من كل متع الحياة ، لأن متعته الكبرى هي قهر التحدي الذي تشكله نقطة غامضة

معينة في ميدان عمله . يكفي أن تنظر إلى راقص الباليه أو العازف الذي يبلغ درجة من الاتقان يستحيل بلوغها ما لم يكن المرء قد نذر نفسه لفنه ، وقضى ساعات طويلة في كل يوم وفي جميع أيام السنة ، دون تخلف أو توقف ، في تدريب شاق ، كثيراً ما يكون مملاً ومرهقاً للاعصاب.يكفي أن تتأمل الرياضي الذي يركز كل حواسه وانتباهه ويتحكم بطريقة مذهلة في أصغر عضلات جسمه ، ويحاول دائماً أن يتجاوز الزمان والمكان والجاذبية الأرضية ، ويصل في ذلك إلى مستويات لا يحققها المرء إلا حين ينذر حياته كلها لهدف واحد . هذا ما ينقصنا ، وهذا ما ينبغي أن نتعلمه وأن نقتدي به .

توفير اسباب القوة الحقيقية

ومن هنا ، فإن من غير المجدي في رأيي أن نهاجم الغرب ونمدح أنفسنا دون أن تكون قد توافرت لنا الارادة التي تتيح لنا أن نبذل من الجهد بقدر ما بذل ، ونحقق من التفاني والاتقان بقدر ما حقق . صحيح ان الهجوم على الغير والرضا عن الذات أمر مريح نفسياً وعقلياً ، ولكنه ما لم يكن مصحوباً بالوسائل التي تجعل أهدافه داخلة في نطاق الممكن ، فإنه لن يزيد عن أن يكون ضرباً راقياً من ضروب خداع النفس .

إن المراهقة مرحلة خلاقة ، وهي تمثل بداية النضج وبداية تكوين الشخصية المستقلة . وحين وصفْت موقف فئة معينة من مثقفينا بأنه أشبه بالمراهقة الثقافية ، لم يكن هدفي على الاطلاق هو الهدم ، وإنما كنت أهدف إلى زيادة وعينا بحدود النقد الذي يمكننا أن نوجهه إلى حضارة متقدمة وإلى أن نعد لأنفسنا من أسباب القوة الحقيقية ـ لا الوهمية ـ ما يتيح لنا أن نقف أنداداً أمام ثقافة الغرب ، لا أن نتعجل استقلالاً مبنياً على فراغ ، شأن المراهق الذي يتوق إلى حرق مراحل النمو للوصول ، قبل الأوان ، إلى عالم الناضجين □

أقوال

■ إننا نواجه الآن خطراً من إخوان لنا في العقيدة ، لا لسبب سوى الرغبة في التوسع والسيطرة وتصدير الأفكار الغريبة عن مجتمعنا ، وذلك بعد أن كنا نواجه الخطر التوسعي الصهيوني .

الملك فهد بن عبد العزيز ـ ملك المملكة العربية السعودية

■ تؤمن الكويت بجدوى العمل العربي المشترك وحتمية المصير ، وإنها دائماً مع كل توجه يصب في مصلحة الأمة العربية .

الشيخ ناصر محمد الأحمد ـ وزير الاعلام الكويتي

■ **إن الحقوق الإنسانية التي تتحدثون عنها في الولايات المتحدة الامريكية مقصورة على حق الهجرة أو حق الخروج من الاتحاد السوفيتي وهي ـ بعبارة أصح ـ استنزاف العقول ، لكن لماذا لا تناقش هنا أيضا حق آلاف المشردين الامريكيين في المأوى، وحق العاطلين عن العمل ، وحق المرضى في العلاج ؟ !**

الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف

خريفية

شعر : محمد ابراهيم ابو سنة

بقايا طواويس في الأفق . . . .
. . . . هذي سماء تزين أركانها
بالدموع التي تتساقط في لحظات الغروبْ
وهذا سحاب تمزّق
فوق نواصي الجبال . . . . . .
على هيئة الطير يسعى

. . . . سحابٌ على هيئة الكائنات التي تتعاركُ
فهودٌ تنازل أندادها .
والغزال الذي فر من موته
يتراقص بين شباك الغناء الجديبْ

لماذا الأسى في خريف المغيب ؟
يبعثر هذي العيون الخفية . .
خلف السنين التي أكلتها الطحالب . . . .

. . . . . . خلف الليالي التي . . .
هرولت في الجراح التي لاتطيب
لماذا الأسى في خريف المغيب ؟
يبلل وجه الأحبة بالماء . .
. . في شرفات المساء البعيد . .

. . ويسأل هذا الزمان البخيل . .
. . قليلا من الوهم تأوى
إليه القلوب
ويرحل فيه السراب المخادع . . . . .
. . حتى يكف النداء الملحُّ
ويهدأ هذا الوجيب

زوايا من الظل . . . .
. . هذا رماد على حافة الأفق

يهوى
وهذى نوافذ تفتح فوق الصحارى
وزهر يبوح بأحزانه للنساء
.. اللواتي تأملن أعضاءهن
دفنّ المرايا وفارقن
ما خلّفته الطيوب
نثارا على ما تبقى من الجسد المضمحلّ
يناشدن خمر الليالي القديمة ..
كأسا ويلهث بين جبال الثلوج اللهيب
لماذا الأسى في خريف المغيب ؟
يبلل صوت الأغاني القديمة
بالأوجه الغابرة
تفر الغزالة .. تسقط بين مخالب ..
هذى الفهود التي تتعارك

فوق السحاب الذي مزقته رياح
تسافر بين جنوب البكاء
وشرق النحيب
لماذا الأسى في خريف المغيب ؟
يباغت هذا النداء الأخير ..

.. من القلب للحب .. هذا
السؤال الأخير ..
من الورد للماء
هذا الوميض الذي

يتراءى كحلم يخيب
لماذا الأسى في خريف المغيب ؟
يفجر في كل شيء ...
سؤالا صبيا ولكنه لا يجيب

التنمية وقانون الجهد الأقل

بقلم : الدكتور مطانيوس حبيب

تعددت النظريات التي تفسر ظاهرة تخلف العالم الثالث ، فقد أرجعها بعض من مفكري الغرب الى الأصول العرقية ، وأرجعها آخرون الى الاختلافات المناخية ، أو الى سيطرة الدين ـ خاصة الدين الاسلامي ـ على تفكير الشعوب العربية والاسلامية . ولأن فروض هذه النظريات غير عملية تصدى لها الكاتب بالمناقشة ، وقدم تفسيرا مهما لظاهرة التخلف هذه من خلال عرضه لقانون الجهد الأقل .

ليست التنمية مجرد زيادة في بعض المتغيرات الاقتصادية ، بل إنها حالة تغير شامل ، يتناول كل جوانب المجتمع من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ومع هذا فإن النمو الاقتصادي يشكل عاملا رئيسيا من عوامل التغير الاجتماعي والسياسي ، وبالتالي فإنه أساس في عملية التنمية الاقتصادية . ومن المعروف أن عوامل النمو الاقتصادي ثلاثة : العمل ،ورأس المال والطبيعة . ويتفق الاقتصاديون فيما بينهم ، على اختلاف مذاهبهم والمدارس التي ينتمون إليها ، على أن العمل هو عامل النمو الرئيسي ، بل يذهب بعضهم الى إعادة رأس المال الى العمل المتجسد في السلع والتجهيزات الرأسمالية . ذلك أن كل المواد التي يستخدمها الانسان في عملية الانتاج تتكون من مجموعتين : مواد أولية مصدرها الطبيعة ، ومواد مصنوعة وهي عبارة عن نتاج عمل سابق ، سواء كانت آلات أم تجهيزات أم مواد نصف مصنوعة وغير ذلك . وهكذا يقصر هؤلاء الاقتصاديون عوامل الانتاج على عاملين : العمل والطبيعة . ويذهب فريق ثالث الى أبعد من هذا ، فيرى في العمل المصدر الوحيد لكل انتاج ، ذلك أن الطبيعة ـ برأي هؤلاء الاقتصاديين ـ مهما كانت غنية فإنها لا تقدم للانسان أموالا اقتصادية ، اذا لم يبادر هو للعمل من أجل الحصول على المنافع المتوفرة في الطبيعة ، فالأموال الاقتصادية التي تشكل الثروة ـ بمفهوم الاقتصادي الانكليزي آدم سميث ـ مقتصرة على تلك التي تشبع حاجة لدى الانسان . وبالطبع فإشباع الحاجة لن يكون ممكنا ، إلا إذا وضعت السلعة أو الخدمة بتصرف الانسان في زمان ومكان معينين ، أي إذا أصبحت متاحة له بفضل العمل البشري .

● وزير البترول والثروة المعدنية ـ سورية .

والخلاصة أن العمل والجهد البشري أساس النمو الاقتصادي ، وهذا الأخير عماد كل تنمية اقتصادية اجتماعية .

التنمية واقتصاد الكفاف

يحدد الاقتصادي بويك (Boeke) خصائص الاقتصاديات المتخلفة ـ ماقبل الرأسمالية ـ بالسمات التالية التي تجعل منها اقتصاديات متعارضة مع الاقتصاديات الرأسمالية الغربية أو الاقتصاديات الاشتراكية :

ـ منحنيات متناقصة لعرض العمل والمخاطرة . ـ غياب دافع الربح .

ـ عدم توفر خاصية الاستحداث والادارة . ـ عدم توافر فائض اقتصادي للتسويق ، تقانة (تقنية) راكدة ، واستخدام محدود لرأس المال .

وإذا أمعنا النظر في كل خصائص الاقتصاديات المتخلفة التي أوردها بويك يمكن أن نعيدها الى عامل واحد ، وهو نقص كمية العمل المبذول ، أي قانون الجهد الأقل ، فقد أشرنا أعلاه الى أن العمل هو العامل الرئيسي في كل نمو اقتصادي ، وبالتالي في كل تغيير اجتماعي وسياسي . وكل ما من شأنه أن ينقص من كمية العمل في أي مجتمع لابد أنه سيقود الى ظاهرة التخلف وعرقلة التنمية الاقتصادية . وكل السمات التي يتصف بها الاقتصاد المتخلف تؤدي الى تقليص كمية الجهد المبذول ، على اختلاف أنواع هذا الجهد ، سواء كان عضليا أو ذهنيا ، فالمنحنيات المتناقصة لعرض العمل ترجع في الأساس الى خاصية الحاجات المحدودة لدى الانسان ، واكتفائه بتأمين معيشته الأساسية ، وعدم رغبته في المزيد من الاستهلاك ، وهذه الخاصية واضحة في تصرفات الانسان في المجتمعات المتخلفة ، فالانسان في هذه المجتمعات ـ خلافا لنظيره في المجتمعات المتقدمة ـ يميل الى معيشة الكفاف ، فالفلاح يكتفي بزراعة محصول واحد ، أو قطعة محدودة من الأرض ، اذا كان ذلك يكفيه حاجته ، ولا يحاول أن يعمل كل وقته لزيادة دخله . وكذا الحال بالنسبة للعامل الذي إذا كانت أجرة أربعة أيام عمل في الأسبوع تكفيه ، فإنه لا يعمل خمسة أو ستة أيام كما هو الحال بالنسبة للعامل في المجتمعات المتقدمة ، وهكذا قس على جميع فئات المجتمع ، إلاّقلة منهم ، يمثلون بذور مجتمع التقدم والتنمية في محيط التخلف الاقتصادي الاجتماعي ، حتى أن غالبية المجتمع تتهم هؤلاء بالطمع والركض وراء الثروة وعدم الشبع من جمع المال إلخ . . . وحتى رجال الأعمال في العالم المتخلف تنقصهم روح الاستحداث والمخاطرة ، فغالبا ما يكتفون بجمع ثرواتهم بأيسر السبل ، دون السعي الى دخول مجالات مجهولة ، قد تعود عليهم بالربح الوفير . فروح بناء الامبراطوريات الاقتصادية التي كانت سائدة في العالم الرأسمالي المتقدم ، والتي دفعت كبار المستحدثين ورجال الأعمال الى ركوب المجهول وفتح عوالم جديدة ، غائبة أو تكاد تكون غائبة لدى رجال الأعمال في المجتمعات المتخلفة ، ولذا فإنهم ظلوا بعيدين عن روح المخاطرة ، وبناء المؤسسات الاقتصادية الطليعية ، القادرة على إرساء قواعد التنمية الاقتصادية في بلدانهم . يضاف الى ذلك أن سلوك الكثيرين من رجال الأعمال محكوم بأسلوب معيشة الكفاف . وهكذا ، فلمجرد أن يحصل أحدهم على مصدر دخل يكفيه العيش بالأسلوب الذي يراه كافيا تراه يميل الى الاكتفاء بما حصل عليه وعدم الرغبة في توسيع نشاطه ، وغالبا ما يميل الى حياة اللهو والانصراف الى انفاق الأموال . إن سلوكية الفلاح والعامل والرأسمالي وكل الفئات الأخرى في المجتمعات المتخلفة التي تؤدي في جوهرها الى قانون الجهد الأقل تقود بدورها الى عدم توفر الفائض الاقتصادي ـ الأساس الضروري لاستخدام طرائق إنتاج متقدمة (تقنية عصرية) ، وتوسيع الاعتماد على رأس المال العامل الرئيسي في تطوير انتاجية العمل ، وتسريع وتائر النمو الاقتصادي ـ أي تقود الى عرقلة عملية التنمية .

الايديولوجيا والجهد الأقل :

تحاول بعض النظريات تفسير التخلف بعوامل عرقية ، فيميز أصحابها بين العرق الأبيض والعرق الأصفر والأسود وهكذا ، مشيرين الى تفوق العرق

(نسبة إلى فئة الشنتو) التي جعلت من اليابانيين أكثر توجها نحو العالم ونحو العمل من عالم ماوراء الطبيعة والتأملات . وتجري محاولات جادة في الصين لبعث الكونفوشيوسية (نسبة للفيلسوف كونفوشيوس) بحلة جديدة ، وكذلك تجري محاولات في كوريا - وبخاصة الشمالية - لبعث فكرة زوتشه ودمجها بالماركسية ، من أجل التحفيز على العمل وزيادة الانتاج . إن حب العمل والزيادة منه هو العامل الرئيسي في أية تنمية .

نحن وقانون الجهد الأقل :

إنه لأمر يدعو الى التفكير أن يكون الوطن العربي من أقصاه الى أقصاه مشمولا بالمجتمعات المتخلفة ، وعلى الرغم من محاولات المفكرين تفسير ظاهرة التخلف في الوطن العربي والعالم الاسلامي بعوامل متعددة ، تأتي في مقدمتها ظاهرة الاستعمار ، وما فرضه على هذه الأقطار من أساليب الهيمنة الاقتصادية ، وطرق النهب غير الاقتصادي ، فإن الأمر الذي لا يجد تفسيرا له هو كيف استطاعت الدول الاستعمارية أن تفرض سيطرتها على هذه الأقطار ، مع أن عدد سكان المستعمرات أكبر بكثير من عدد سكان الدول المستعمرة نفسها ؟ ! ولعل السؤال الأكثر تعقيدا هو كيف استطاعت اوروبا المدينة بحضارتها وتقدمها للحضارة العربية أن تسبق الوطن العربي ، وتفرض سيطرتها على أقطاره كلها ؟ ! صحيح أن الاستعمار كان سببا في عرقلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الأقطار المستعمرة منذ دخوله إليها ، لكن هذه المستعمرات عرفت نوعا من الركود ، بل والانحطاط قبل أن تطأها أقدام المستعمرين . ألا يعني هذا أن هناك عوامل ذاتية قادت الى ظاهرة التخلف ؟

لقد حاول اقتصاديون وعلماء اجتماع غربيون تفسير حالة التخلف التي كانت تعاني منها أقطار الوطن العربي والأقطار الاسلامية الأخرى بنظرية الأديان القدرية ، معتبرين أن الاسلام دين قدري ، حيث يميز أصحاب هذه النظرية بين دين يحفز على التطور - ويرون أن البلدان التي تقطنها شعوب بروتستانتية كانت سباقة الى التقدم والتنمية - وبين دين يلعب دور الكابح للتقدم ، حيث أن الأقطار التي تقطنها شعوب تدين بالكاثوليكية لم تعرف التقدم إلا بعد أن تم تحررها من سيطرة الكنيسة . وقد رأينا سابقا أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تدعو أتباعها للزهد بالحياة الدنيا ، وعدم السعي وراء الكسب ، بينما تعتبر البروتستانتية العمل نوعا من العبادة ، وتحث أتباعها على العمل لزيادة كمية السلع والخدمات بالنسبة للفرد الواحد . وفي الواقع تلعب الايديولوجيا دورا هاما في حياة المجتمعات وتطورها الاقتصادي ، دورا تقدميا أحيانا وسلبيا أحيانا أخرى ، لكن الايديولوجيا ليست مستقلة عن درجة التقدم الاقتصادي والاجتماعي . والصحيح أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية بحكم كونها تتجه الى التقدم أو الجمود تقود الى تفسيرات مختلفة للأديان ، وإلا كيف يمكن أن تفسر الحضارة والمدنية العربية الاسلامية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا ؟ ألم تكن هذه الحضارة وليدة الاسلام ، ذلك الدين الذي يشيد بالنجاح ، ويشجع المبادرة في المجال الفكري والاقتصادي ؟ وما الذي تغير حتى دخل الوطن العربي في مرحلة الركود الاقتصادي والجمود الاجتماعي ؟

لقد كرم الاسلام العمل ، واعتبره واجبا ، حيث جاء في القرآن الكريم : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ، كما حث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على العمل ، وأنزله منزلة العبادة . فقد امتدح قوم رجلا الى رسول الله بالاجتهاد في العبادة والغنى عن العمل ، وقالوا صحبناه في سفرنا ، فما رأينا بعدك يارسول الله أعبد منه ، كان لا ينتقل من صلاة ولا يفطر من صيام ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمن كان يمونه ويقوم به ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله . قال : كلكم أعبد منه . ولقد شدد الاسلام على العمل وإعمار الأرض ، فقد جاءت الآية الكريمة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون » ، فحث المسلمين على العمل باعتباره قيمة عليا بذاتها . وقد حث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الاستمرار في الانتاج ، ومواصلته مهما كانت الظروف ، فقد قال : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك أجر » . ويذهب بعضهم الى أنه لا يجوز في الاسلام أن تنفصل الملكية عن العمل ، لأن العمل فريضة وواجب ، يمليه الشرف ، ويضيفون أنه إذا تحولت الملكية عن وظيفتها الاجتماعية الى اداة للترفع عن العمل أو استغلال عمل غيره وجبت مصادرتها ، أو على الأقل تحويلها الى ملكية عامة (عبد الغني سعيد : تقدمية الاسلام وعالمنا المتطور) . من كل ما سبق نخلص الى نتيجة أساسية : أن الاسلام دين المبادرة والنجاح ، دين الدعوة للعمل والابتكار ، دين الكسب الحلال المرتبط بالعمل ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده . وحرّم الاسلام الربا لأنه مصدر دخل دون عمل ، واعتبر الاحتكار خطأ ، لأنه مصدر لدخل غير مرتبط بالعمل ، فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطيء » .

وقد يستغرب أحدنا أو لا يستغرب إذا عرف أن الاقتصاديين وعلماء الاجتماع الغربيين يفسرون حالة التخلف في الوطن العربي والعالم الاسلامي باعتبار الاسلام دينا قدريا يدعو للتواكل . وقد يكونون جاهلين بالاسلام ، ولهم من جهلهم به معذرة ، أو يكونون حاقدين على العروبة والاسلام ، فيريدون عمدا الاساءة إلينا ، أو قد يريدون الدفاع عن الاستعمار والامبريالية لتبرئتهما من مسؤوليتهما التاريخية والحالية حيال تعثر عملية التنمية في الوطن العربي والعالم الاسلامي اللذين عانيا من الاستعمار في الماضي ، ويعانيان من النهب الامبريالي في الوقت الراهن ، فتفهم بذلك دوافعهم ، ونحدد موقفنا منهم . لكن أحدا منا لا يمكن إلا أن يستغرب عندما يتجول في أقطار الوطن العربي وفي الخارج ، فيرى ملايين من أبناء أمتنا العربية من المترفعين عن العمل الذين يملأون المقاهي والملاهي ، ويعيشون على حساب هبات الطبيعة ، ويبددون الأموال دون حساب ، ولا يمكن لأحدنا إلا أن يستغرب ، بل ويستنكر وهو يرى ملايين الهكتارات من الأراضي العربية غير مستغلة ، وتضطر أقطارنا العربية لاستيراد المواد الغذائية من دول تستخدم هذا الغذاء سلاحا للضغط علينا ، في نفس الوقت الذي نرى فيه ملايين العمال العرب بغير عمل ، وهم راغبون أو غير راغبين فيه ، والأموال العربية معطلة أو مودعة في المصارف الأجنبية ، تغذي الاقتصاديات الغربية الداعمة لآلة العدوان الصهيوني .

إن قانون الجهد الأقل هو السبب الرئيسي في عرقلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في وطننا العربي ، وهو يتناقض مع تراثنا وحضارتنا وعقائدنا ، وإنه لأمر مستغرب أن تكون أمة لها تراثها وتنتمي الى هذه العقائد فتبقى متخلفة . لقد آن الأوان لندفن في ذواتنا قانون الجهد الأقل ، ونعمل على إعمار الأرض والارتقاء في معارج التقدم . وليعلم كل منا القول الحق ، قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . إننا بغير هذا نستهلك ثرواتنا ، ونحكم على أنفسنا بالتخلف ، وعلى أجيالنا القادمة بالهلاك . ذلك أن العمل مصدر كل ثروة ، كما كان يقول ابن خلدون مشيرا الى أن أرض السودان غنية بالذهب ، لكن البلد يبقى فقيرا لأن رفاهية أي شعب لا تتعلق بوجود الذهب ، بل بحب السكان للعمل . □

● قيل لاعرابي : ما أعددت لحالي فقرك والغنى ؟

فأجاب : الذي أعددته لحفظ الغنى ، هو الذي أعددته لصرف الفقر .

الانفتاح العربي

على الحضارات الأخرى

بقلم : الدكتور محمد عمارة

لا توجد في التاريخ القديم أو الحديث حضارة نقية ، أنجزها أبناؤها دون أن تكون لها مع الحضارات الأخرى صلات وعلاقات وتأثر وتأثير .

وحضارة العرب في الماضي ، ومحاولات الانبعاث الحضاري في هذا العصر لا تخرج عن هذا الإطار الذي عرفته جميع الحضارات .

فما هو اجتهاد الكاتب في هذا الأمر ؟

في مختلف ميادين الفكر وقضاياه ، يستطيع العقل أن يرصد ويبصر « الشواهد » على وجود ما هو مشترك فكري عام بين الإنسانية جمعاء ، وما هو « خصوصية حضارية » تتميز بها بعض الحضارات ، وهناك شهادة التاريخ التي تدعم هذه الشهادة الفكرية ، عندما تؤكد على أن التلاقي والتفاعل اللذين عرفهما التاريخ بين الحضارات العريقة ، المالكة لما هو مشترك ، وما هو « خاص » قد تم وفق هذا القانون ، وحكمة هذا التمييز ، فتلاقي الحضارات ـ وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية ـ وتفاعلها عندما تتلاقى قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه ، لكنه يتم دائما وأبدا وفق هذا القانون الحاكم : التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام ، تفتح له الأبواب والنوافذ ، بل ويطلبه العقلاء ، ويجدون في السعي لتحصيله ، وبين ما هو خصوصية حضارية ، يدققون ـ بحذر ـ قبل استلهامه وتمثله ، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يُقبل منه ويُتمثّل . من ذلك الذي يرفضونه لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية ، وأصولهم التي تكون ما يشبه « البصمة » للشخصية الحضارية والقومية التي هي مناط التميز ،

رغم التطور والتفاعل اللذين مارسهما هذه الشخصية مع الآخرين .

مثالان شهيران

ونحن إذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على تلاقي الحضارات وتفاعلها ، الذي عمل خلاله هذا القانون ، فإن لدينا مثالين شهيرين وثيقي الصلة بموضوع هذا الحديث .

أولهما : التقاء حضارتنا العربية الاسلامية إبان نهضتها وازدهارها بالحضارات الفارسية ، والهندية ، واليونانية ، وثانيهما التقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بحضارتنا العربية الإسلامية .

على أي نحو وفي أي المجالات كان الاستلهام ؟ وعلى أي نحو وفي أي المجالات كان الحذر والرفض للغزو الفكري ؟

إنها « شهادة التاريخ » على عمل هذا القانون ، تدعم « شهادة الفكر » التي قدمناها فيما سبق .

ليس هناك شك في أن الفتح العربي للامبراطورية الفارسية ، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية في إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضاري واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي الذي كان هو النواة التي تبلور حولها الحضارة العربية الاسلامية الجديدة . ولقد زاد من فرص هذا التفاعل ما بلغه العنصر الفارسي ـ حامل الميراث الحضاري ـ من مواقع مؤثرة في دوائر الفكر والسلطة ، في دولة الخلافة ، وبخاصة العباسية منها ، وما بلغه العلماء من ذوي الأصول الفارسية ، بميدان الفكر من جودة في الإبداع ، وتنوع في ميادين العطاء .

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامي إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسي الوافد والطارىء بعد الفتوحات ، يستطيع أن يميز بين ما « قُبل » وبين ما « رُفض » أو وُوجه بالمعارضة والمقاومة من هذا الميراث .

لقد فُتحت فارس في عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ، وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية ، النيل ، وبردى ، ودجلة ، والفرات . ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبني النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية الذي كان يسمى « وضائع كسرى » ، وظل سائدا ومعمولا به حتى عُدّل في ظل الدولة العباسية . وهنا تم استلهام تجربة حضارية ، وخبرة قومية ، في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية .

حذر العرب

لكن العرب كانوا حذرين كل الحذر ، وشديدي الرفض والمقاومة ، لكل ما هو خصوصية حضارية فارسية ، تتعارض مع معايير الإسلام وجوهر معتقداته ، وخصائصه الحضارية المتميزة . لقد رفضت الخلافة الإسلامية ـ وهي نمط متميز في نظم الحكم ـ ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية ، التي كانت ترى رأس الدولة ـ كسرى ـ ابنا للإله « أهورا ـ مزدا » ، يحكم باسمه نيابة عنه ، زاعما أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين . كذلك رفضت حضارتنا الإسلامية ميراث الفرس في « النظام الطبقي المغلق » ، لتعارضه الجذري مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات . والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام في (الملل والنحل) وصراعهم الفكري مع الفرق والمذاهب غير الاسلامية يدركون المقاومة الباسلة التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم من قبل حضارتنا العربية الاسلامية . فالمجوسية والزرادشتية ومذاهب أخرى مثل المانوية (الثنوية) بفرقها المتعددة ، تحتل معارضتها صفحات كثيرة في عشرات المجلدات التي تصدت للوافد الضار المرفوض . وكذلك صنع المتكلمون والفلاسفة المسلمون مع « الغنوصية » التي كانت ثمرة هيلينية في تربة التصوف والعرفان الشرقي ، اتجهت إلى تحصيل المعرفة بالذوق والحدس وليس بالعقل أو الحواس .

فحين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية ولعلوم التمدن العملي كان الحذر ، بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة لمعايرنا الحضارية ،

سواء في السياسة أو الاجتماع أو الدين أو الفلسفات .

وكذلك كان حال حضارتنا عندما فتحت الشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقي ، ذات الميراث البيزنطي . ففي الوقت الذي تبنى فيه عمر بن الخطاب « تدوين الدواوين » ، وهو خبرة إدارية بيزنطية . وسعت الدولة الأموية ممثلة في أميرها خالد بن يزيد (٩٠هـ ـ ٧٠٨م) إلى مدرسة « الاسكندرية » ، فبدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية وفنون التمدن العملي ، التي سميت « علوم الصنعة » ، في نفس الوقت الذي تبنت فيه حضارتنا هذا اللون من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية ، كانت حربها ضد الغنوصية خاصة والهيلينية في الفلسفة والعقائد والتصورات بوجه عام ، وكذلك معارضتها لعقائد المسيحية ومذاهبها التي أخرجتها الروح الهيلينية عن نقاء عقيدة التوحيد . كان ذلك شهادة تاريخ التفاعل الحضاري على عمل قانون التمييز بين ما هو خصوصية حضارية وما هو « مشترك إنساني عام » ، فالباب مفتوح لعلوم الصنعة ، موصد أمام شريعة الرومان .

عندما التقت حضارتنا الإسلامية بمواريث الهندوس في الحضارة الهندية ، عمل هذا القانون .

فالبيروني (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) الذي نهض بمهام البعثة العلمية وأعبائها ، عندما عاش في الهند أربعين عاما ، عقب الفتح الغزنوي لبعض أقاليمها ، وقام بدراسة تاريخ الهند وتراثها وحضاراتها دراسة العبقري المتفرد . البيروني هذا ، يعلمنا ـ دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه ـ كيف ميز أسلافنا في تراث الهند ، بين « الحساب الهندي » و « الفلك » ، فأخذوهما وطوروهما . وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية ... الخ . فكيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، التي أخذوها وطوروها ، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها ، التي رفضوها ، لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ، ومع إلهية المصدر الديني في الإسلام كديانة سماوية ، نزل بها الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

مدى جدّية الاعتراض

وإذا كان الخلاف غير وارد أو غير مبرر ، مع هذه الحقائق التي قدمناها عن عمل قانون التفاعل الحضاري ، في التقاء حضارتنا العربية الإسلامية بمواريث الفرس والروم والهنود ، فإن خلافا وجدلا لابد أن يثورا عندما نقول : إن أسلافنا قد أعملوا هذا القانون ، على هذا النحو عندما انفتحوا وتفاعلوا ـ على النحو المعروف ـ مع تراث اليونان ، ذلك أن ترجمة العرب للفلسفة اليونانية واحتفاءهم بهذه الفلسفة ، والمنزلة التي بلغها فلاسفتها ـ وبخاصة « أرسطو » (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) ، وأفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) ـ في التراث الفلسفي لحضارتنا ، كل ذلك لابد أن يثار كاعتراض على قولنا أن التبني والاستلهام قد وقف عند علوم الصنعة : الطبيعية والعملية والتجريبية ، وأن الحذر والمعارضة والرفض قد جابهت الإنسانيات ، والفلسفة في مقدمتها ، ولذلك فلابد من وقفة متأنية ، نختبر فيها جدية هذا الاعتراض ، وصدق مضمونه ، لنرى وجه الحق في هذا الموضوع .

وليس هناك خلاف على أن العرب قد سعوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية ، آخذين إياها من مصادرها الشرقية ـ أساسا ـ في البلاد التي فتحوها ، فترجموا تراث اليونان في الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات والميكانيكا (الحيل) والزراعة والمناظر والحساب والمنطق ، وغيرها من العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، ثم أضافوا إليها إبداعهم الذي شهد به المنصفون من علماء الغرب وأساتذة الاستشراق .

كذلك لا خلاف على أن هناك ميادين في المعتقدات والإنسانيات اليونانية قد نفر منها العرب ، فضربوا عنها صفحا ولم يترجموها ، ولا حتى للمتخصصين من العلماء ، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية وأساطير آلهتها ، وآداب اليونان وفنونها .

إذن مبدأ التمييز قائم ، وبه وعليه يشهد تاريخ التفاعل بيننا وبين حضارة اليونان . لكن علامة الاستفهام تظل خاصة بحقل الفلسفة . فلماذا أعطى

سواء في السياسة أو الاجتماع أو الدين أو الفلسفات .

وكذلك كان حال حضارتنا عندما فتحت الشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقي ، ذات الميراث البيزنطي . ففي الوقت الذي تبنى فيه عمر بن الخطاب « تدوين الدواوين » ، وهو خبرة إدارية بيزنطية . وسعت الدولة الأموية ممثلة في أميرها خالد بن يزيد (٩٠هـ - ٧٠٨م) إلى مدرسة « الاسكندرية » ، فبدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية وفنون التمدن العملي ، التي سميت « علوم الصنعة » ، في نفس الوقت الذي تبنت فيه حضارتنا هذا اللون من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية ، كانت حربها ضد الغنوصية خاصة والهيلينية في الفلسفة والعقائد والتصورات بوجه عام ، وكذلك معارضتها لعقائد المسيحية ومذاهبها التي أخرجتها الروح الهيلينية عن نقاء عقيدة التوحيد . كان ذلك شهادة تاريخ التفاعل الحضاري على عمل قانون التمييز بين ما هو خصوصية حضارية وما هو « مشترك إنساني عام » . فالباب مفتوح لعلوم الصنعة ، موصد أمام شريعة الرومان .

عندما التقت حضارتنا الإسلامية بمواريث الهندوس في الحضارة الهندية ، عمل هذا القانون .

فالبيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ ٩٧٣ - ١٠٤٨م) الذي نهض بمهام البعثة العلمية وأعبائها ، عندما عاش في الهند أربعين عاما ، عقب الفتح الغزنوي لبعض أقاليمها ، وقام بدراسة تاريخ الهند وتراثها وحضاراتها دراسة العبقري المتفرد . البيروني هذا ، يعلمنا - دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه - كيف ميز أسلافنا في تراث الهند ، بين « الحساب الهندي » و « الفلك » ، فأخذوهما وطوروهما . وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية .. الخ . فكيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، التي أخذوها وطوروها ، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها ، التي رفضوها ، لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ، ومع إلهية المصدر الديني في الإسلام كديانة سماوية ، نزل بها الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

مدى جدّية الاعتراض

وإذا كان الخلاف غير وارد أو غير مبرر ، مع هذه الحقائق التي قدمناها عن عمل قانون التفاعل الحضاري ، في التقاء حضارتنا العربية الإسلامية بمواريث الفرس والروم والهنود ، فإن خلافا وجدلا لابد أن يثورا عندما نقول: إن أسلافنا قد أعملوا هذا القانون ، على هذا النحو عندما افتتحوا وتفاعلوا - على النحو المعروف - مع تراث اليونان ، ذلك أن ترجمة العرب للفلسفة اليونانية واحتفاءهم بهذه الفلسفة ، والمنزلة التي بلغها فلاسفتها - وبخاصة « أرسطو » (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ، وأفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) - في التراث الفلسفي لحضارتنا ، كل ذلك لابد أن يثار كاعتراض على قولنا أن التبني والاستلهام قد وقف عند علوم الصنعة : الطبيعية والعملية والتجريبية ، وأن الحذر والمعارضة والرفض قد جابهت الإنسانيات ، والفلسفة في مقدمتها ، ولذلك فلابد من وقفة متأنية ، نختبر فيها جدية هذا الاعتراض ، وصدق مضمونه ، لنرى وجه الحق في هذا الموضوع .

وليس هناك خلاف على أن العرب قد سعوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية ، آخذين إياها من مصادرها الشرقية - أساسا - في البلاد التي فتحوها ، فترجموا تراث اليونان في الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات والميكانيكا (الحيل) والزراعة والمناظر والحساب والمنطق ، وغيرها من العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، ثم أضافوا إليها إبداعهم الذي شهد به المنصفون من علماء الغرب وأساتذة الاستشراق .

كذلك لا خلاف على أن هناك ميادين في المعتقدات والإنسانيات اليونانية قد نفر منها العرب ، فضربوا عنها صفحا ولم يترجموها ، ولا حتى للمتخصصين من العلماء ، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية وأساطير آلهتها ، وآداب اليونان وفنونها .

إذن مبدأ التمييز قائم ، وبه وعليه يشهد تاريخ التفاعل بيننا وبين حضارة اليونان . لكن علامة الاستفهام تظل خاصة بحقل الفلسفة . فلماذا أعطى

العرب هذا الوزن الكبير لفلسفة اليونان ، ترجمة وشرحا ، حتى تضخمت آثارها في تراثنا الحضاري ؟

وعن هذا السؤال المشروع تجيب الإجابة التي تؤكد صدق واطراد « قانون التفاعل الحضاري » الذي ميز دائما وأبدا بين ما هو خصوصية حضارية وبين ما هو مشترك إنساني عام .

لقد كانت المواجهة الأولى بين خصوصيتنا الحضارية وبين الخصوصية اليونانية عندما واجه الإسلام النمط الهليني في النظر والتفكير الذي كانت « الغنوصية » أبرز مذاهبه في نظريات المعرفة . وكانت الهلينية ـ كما وجدها العرب في البلاد التي فتحوها ـ هي « اليونانية الشرقية » التي امتزج فيها الفكر الفلسفي اليوناني بصوفية الشرق وروحانيته ، ومع هذه الهلينية كانت أولى معارك الإسلام الفكرية .

والحقيقة التي يجهلها كثيرون هي أن المسلمين الذين أبدعوا « عقلانيتهم الإسلامية » المتميزة ، وعلم الكلام الإسلامي ، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة ، منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول ، وقبل ترجمة اليونانيات ، هؤلاء المسلمون قد اتجهوا إلى ترجمة الفلسفة اليونانية وترجمة عقلانية أرسطو أولا وبالتحديد لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام ، وإنما ليردوا بها ـ كسلاح يوناني ـ على الهلينية ـ وثمرتها الغنوصية ـ التي هي تأثيرات يونانية ، مزجت بصوفية الشرق ، وروحانية الشرقيين . فأنصار الغنوصية كانوا ـ كمتغربي زماننا ـ أثرا يونانيا في الشرق ، وامتدادا شرقيا لفكرية اليونان ، فعمد علماؤنا وأعلامنا إلى ترجمة العقلانية اليونانية ، ليردوا بها على أنصار اليونان ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم : إذا كنتم لا تحترمون إلا ماهو وافد ومستورد يوناني الصنع ، فها نحن نجابهكم بأرسطو ، المعلم الأول عند اليونان ، وأبرز عقولهم الفلسفية على الاطلاق ، نجابهكم بالعقلانية اليونانية ، نقضا لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية ، استخداما للأسلحة التي تحترمونها وتعظمونها .

أدلة قاطعة

ولنا على هذا التحليل أكثر من دليل .

كانت الهلينية و « الغنوصية ـ الباطنية » هي « تغريب » ذلك العصر ، والغزو الفكري الذي أصاب به الغرب اليوناني الشرق منذ انتصار الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م) على الدولة الفارسية (٣٣٦ ق.م) ، وبنائه امبراطوريته الشرقية . ولقد غيشت هذه الهلينية توحيد المسيحية الشرقية الأولى ، فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك ، في البلاد التي فتحها المسلمون . لكن المسلمين بعد أن بلوروا عقلانيتهم المتميزة ، تقدموا فاستعانوا بالعقلانية الأرسطية في نضالهم ضد الهلينية والغنوص ، فكانت ـ كما أشرنا ـ ترجمة الفلسفة اليونانية استعانة بحقيقة الفكر اليوناني على هزيمة صورته الشرقية المهجنة بسلاح معترف به من الغنوصيين ؟!

وعلى هذه الحقيقة يشهد شاهد من أهلها ، هو المستشرق الألماني بكر (كارل هينرس) (١٨٧٦ ـ ١٩٣٩) عندما يقول : « إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها ، وتوكيد ذاتها بإزاء الروح اليونانية المجسدة في « الغنوص » يتكرر من جديد في الإسلام في القرون الأولى تحت أسماء أخرى ، فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهلينية كان الإسلام في الصدر الأول على العموم معاديا هو الآخر للروح الهلينية . والميزة الرئيسية للقرآن هي أنه كان يؤثر تأثيرا مضادا للروح الهلينية في عصر تغلغلت فيه الهلينية . وفي اللحظة التي تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول ، بدأ الصراع والتصادم . إن المانوية والزرادشتية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية ، وإن « غنوص » المانوية والمذاهب الشبيهة بها كانت خطيرة على الإسلام خطرا مباشرا ، لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية في الإسلام ـ ونعني بها المعتزلة ـ قد استفادت بعضا من أصولها ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية . وفي كل هذه الألوان من الكفاح تكونت جبهة كفاح فريدة في بابها ، فالدولة والمذهب الديني الرسمي يسيران

هنا . كما يسيران في كل مكان جنبا إلى جنب في صف واحد . لكنهما في كفاحهما ضد « الغنوص » الذي لا يعترف لأحد بسلطان يبيان بالروح اليونانية الحقيقية - (الفلسفة اليونانية) كي تساعدهما . لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينا وسياسيا . وفي هذا النضال استعان المسلمون بالفلسفة اليونانية وعنوا بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية . فكأن الإسلام الرسمي قد تحالف إذن مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضد « الغنوص » الذي كان خليطا من المذاهب القائمة على النظر والمنطق . وعلى مذاهب الخلاص . ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية . وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له . لكن إذا كانت الرغبة في ترجمة كتب الأطباء القدماء قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب ، فلعل ترجمة كتب أرسطو أن تكون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلك . وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسة للعلم ورغبة خالصة في تحصيله فحسب لكان هوميروس أو أصحاب المآسي من بين من ترجمت كتبهم أيضا . لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها ، ولم يشعروا بحاجة ما إليها .

تلك شهادة المستشرق الألماني « بكر » على أن ترجمة الفلسفة اليونانية والاهتمام بعقلانية أرسطو خاصة لم تكن عن رغبة في جعلها فلسفة الإسلام والمسلمين ، وإنما كانت استعانة بالعقلانية اليونانية الصريحة على هزيمة الغزو اليوناني ، كما تمثل في خليط الهلينية والغنوص !

أصول الغنوصية

ويقدر الأهمية المحورية لهذه الحقيقة التاريخية فإنها تستحق وقفة متأنية تجلو حقيقتها كامل الجلاء .

إن الغنوصية - كمذهب باطني عرفاني - كانت قائمة على إنكار الخصوصية الحضارية ، مثلها في ذلك مثل « الغزو الفكري التغريبي » الحديث والمعاصر . ذلك أنها قد جمعت بالتلفيق خليطا « يونانيا غربيا » ، و « اسرائيليا شرقيا » ، ثم مزجا شديدا محكما ، لكن دون أن تستطيع إخفاء ملامح أصولها الثلاثة :

أ - الأفكار القبالية : المتمثلة في الديانة الشعبية « الاسرائيلية » بما فيها من سرية التعاليم ، والرموز الخفية في التوراة ، والقول بإله تصدر عنه الأرواح المدبرة للكون ، ورمزية الأعداد والحروف ، والحديث عن الإنسان باعتباره « العالم الأصغر » الذي جاء على صورة العالم الأكبر .

ب - الامبراطورية الحديثة : كما تمثلت في مذهب أفلوطين (٢٠٤ - ٢٧٠م) ، بما تمثله من نزعة توفيقية بين الآراء الفلسفية المختلفة . وكما تمثلت وتبلورت في مدرسة الاسكندرية من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادي .

جـ - الديانات والمذاهب الفارسية : كما تمثلت في مانوية « ماني » (القرن الثالث الميلادي) . تلك التي حاولت التوفيق بين الزرادشتية ، وقالت بثنائية النور والظلمة ، إلهين للخير والشر . وكما تمثلت في المزدكية (إحدى فرق المانوية) .

تلك هي أصول « الغنوصية » كمذهب تلفيقي ، يجعل عقيدته أسرارا يضن بها على غير أهلها ، ويسمو بها على عامة المؤمنين ، وعلى العقيدة « الرسمية » ، ويمزج الدين بالفلسفة ، بمعناها اليوناني المثالي ، ويعتمد في تصور الذات الإلهية على نظرية الفيض والصدور . الأمر الذي جعله مأوى للمعتقدات السرية والخفية ، بل والملحدة أحيانا .

وكما يقول « ماسينيون » (١٨٨٣ - ١٩٦٢م) فإن أصول « الغنوصية » في المرحلة التي تصدت فيها لمحاربة المسيحية الأولى - حتى غبشت توحيدها - كانت « سامرية - يونانية » . أي أن « الاسرائيليات » مع الوافد اليوناني قد مثلت أصول « الغنوصية » في مرحلتها المسيحية . أما في مرحلتها الإسلامية ، التي تصدت فيها لمحاولة إفساد عقائد الإسلام ، وتجريد حضارته من خصوصيتها الإسلامية ، فإن أصولها قد كانت - إلى جانب الوافد اليوناني - مانوية ، (أعني آرامية وإيرانية) . □

العربي
عيونك
على العالم

التجربة الكورية

وهمٌ أم.. مُعجزة؟

استطلاع :
سليمان مظهر
تصوير :
سليمان حيدر

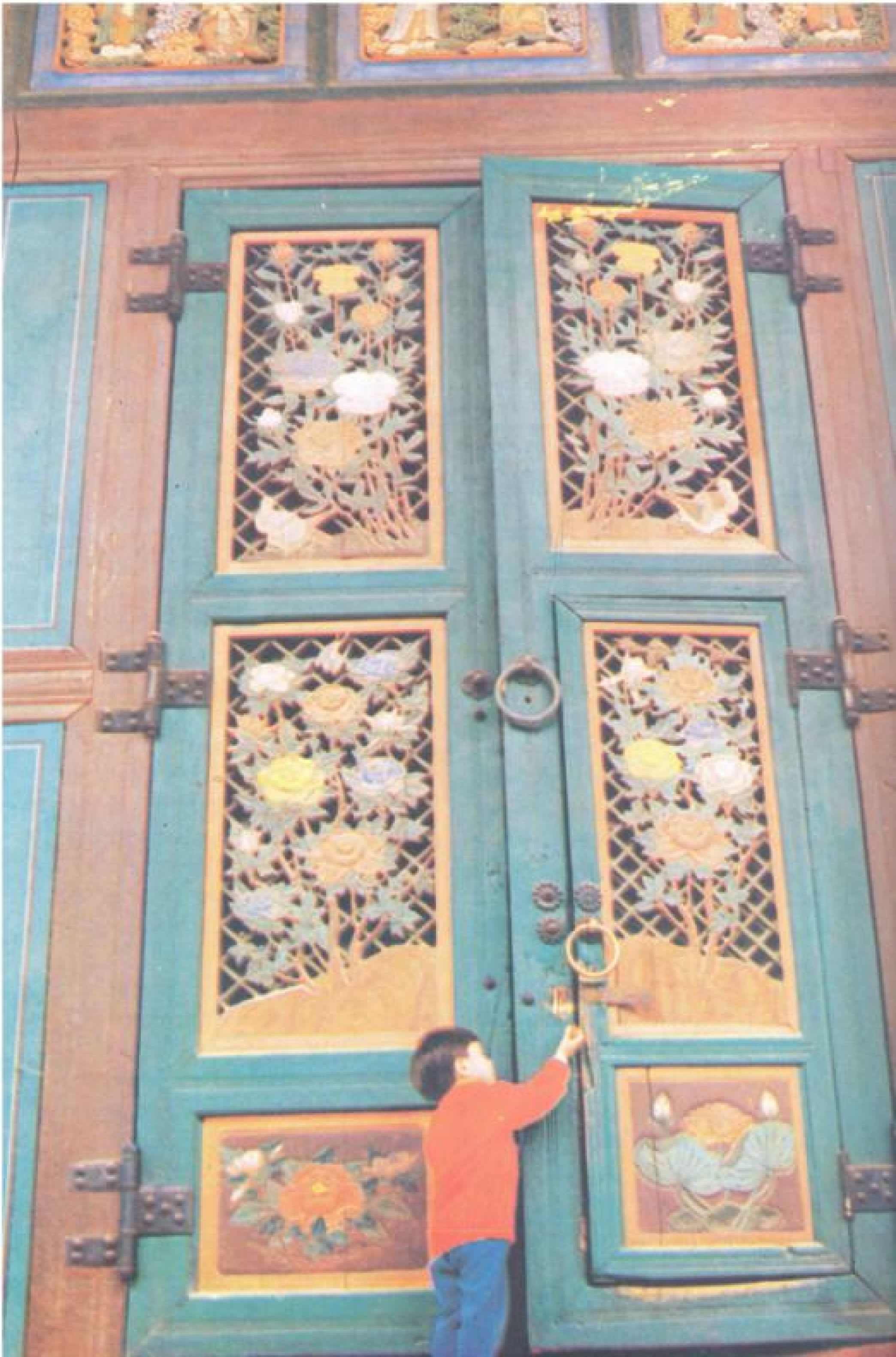

يسمونها في الغرب « النمور الصغيرة » ، لكن الواقع يؤكد أن هذه النمور التي تضم كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وتايلند وهونج كونج ، هزت عرش الأسد الياباني ، وطغيان الغول الأمريكي ، واستغلال الذئب الانجليزي ، وعرفت كيف تسيطر على السوق العالمية بصناعات ومنتجات قد تكون أقل جودة ، لكنها أكثر كمّا ، وذات أسعار تنافسية ، تقبلها الشعوب التي تبحث عن شيء معقول بسعر زهيد ، يكون في متناول اليد ، بعدما اعتصرها الوحوش وامتصوا دماءها !

أكبر هذه النمور الصغيرة « كوريا الجنوبية » شبت عن الطوق ، ونمت أسرع من الآخرين ، واهتمت بالكيف والكم معا ، وسارت بخطى سريعة متطورة لمنافسة الوحوش الكاسرة في الغابة الواسعة المليئة بالمتناقضات-فهل استطاعت تحقيق المعجزة الاقتصادية التي يتحدثون عنها أم ماتزال على الطريق ؟ !

للإجابة عن هذا التساؤل كانت انطلاقة « العربي » الى كوريا ، لتشهد ..وترى وتسجل ..ما يجري هناك .

العيون الكورية في كل مكان ترحب بك وتحييك ، وتقيسك متأملة أعماقك ، من خلال نزعة اجتماعية راسخة في أرض « الصباح الهادىء » ، وتبعث فيك نشوة السرور بحرارة اللقاء .

وقد يثير استغرابك أن « المملكة المتنسكة » - كما يصفونها - قد استغرقت وقتا طويلا لتفتح موانيها ومدنها وحدودها للأغراب ، بعد عزلة طويلة امتدت مئات السنين . لكن الصورة تبدو واضحة إذا تتبعت المآسي التي شهدها الكوريون خلال قرون من السيطرة الصينية ، والطغيان الياباني ، والتخريب الدامي طوال حربين رهيبتين ، إحداهما الحرب العظمى الثانية ، وأخراهما الحرب الأهلية الكورية .

لكن الفلسفة المتأصلة والنظرة الحالمة والهدوء الذي غرسته العقائد المتباينة التي مرت بكوريا - من الكونفوشيوسية والبوذية ، والشامانية ، وغيرها من الفلسفات الروحانية - هي التي جعلت كوريا « المتنسكة » تواصل الحياة ، رغم المآسي التي شهدتها . وقد استطعنا أن نلمح آثارها على ملامح الناس ، وفي نظرات العيون ، وأعماق النفوس .

ولكي نفهم الانسان الكوري الحديث ، ونفهم بلاده المعقدة ، ونعيش حياته الثقافية المتباينة ، ونساير المجتمع الكوري في هدوئه والتزامه وبساطته ، كان علينا أن نحصل على إجابات عن مجموعة من الأسئلة والمفاهيم . حول : من يكون هؤلاء الناس ؟ وكيف يواصلون مسيرة الحياة ؟ ولماذا يتبعون الأسلوب الذي يسيرون عليه ؟ وكيف استطاعوا أن يحققوا ذلك النجاح الكبير وهم في ذلك الموقع البعيد من الشرق الأسيوي ؟

لعل الموقع الاستراتيجي لجمهورية كوريا الجنوبية ، وإحاطتها برا وبحرا بقوى كبيرة متصارعة ، قد حدد للكوريين دوافعهم ، ليثبتوا وجودهم ، ويؤكدوا ثقتهم بأنفسهم ، فإلى الشرق تقع اليابان التي تبعد حوالي ٢٠ كم في أقرب مسافة بينها ، ومن الشمال تحدها كوريا الشمالية المتصلة برا بالاتحاد السوفيتي ، والى الغرب تقع الصين على مسافة ١٩٠ كم في أقرب نقطة إليها عند جزيرة شانتونج الصينية ، وهي تقترب من حدود منشوريا بانحناء طفيف في اتجاه الشرق ثم نحو الغرب .

وشبه الجزيرة الكورية تبلغ مساحتها ٢٢١ ألف كم٢ ، منها حوالي ٩٩ ألف كم٢ تسيطر عليه كوريا الجنوبية ، أي بنسبة ٤٥٪ من المساحة الكلية لشبه الجزيرة ، بينما تسيطر على الجزء الشمالي كوريا الشمالية .

أما سكان كوريا الجنوبية فعددهم حسب آخر إحصاء قد بلغ ٤١ مليون نسمة ، منهم حوالي عشرة ملايين في العاصمة سيول . ويغلب الشباب على سكان الجمهورية ، إذ أن حوالي ٥٥,٩٪ منهم دون الخامسة والعشرين . ويمثل سكان الريف حوالي ٢٢,٢٪ من مجمل عدد السكان .

من القشور الى الجذور !

يقولون إنك كي تستطيع أن تدرك مكونات الانسان الكوري ، عليك أن تعمل وكأنك تقشر « بصلة » ، إذ عليك أولا أن تنتزع قشرتها الخارجية الجافة ذات التأثير والمذاق الأمريكي ، ثم تزيل الطبقة السميكة ذات المؤثرات اليابانية ، ثم تحرك بعناية طبقة بعد أخرى من الطبقات الصينية المتتابعة ، ثم تسبر غور اللب الداخلي للجنس البدائي القديم . عندئذ ماذا يتبقى ؟ ستجد أن البصلة لم يبق منها إلا الجذور ، ولن تجد بين يديك سوى مجموعة من الكرات والشظايا المتناثرة المفككة ، وإذا أعدت تجميعها ستظفر بثمرة ، هي خليط من كل نوع ، ثم لا شيء بعد .. !

هل هناك غير ذلك يرسم لنا شخصية الانسان الكوري ؟ لا شك أن هناك تلك الأصول والمؤثرات النابعة من الجذور التاريخية والجغرافية والاجتماعية والتقليدية .

كتب أحد المؤرخين يقول : « إن كوريا كانت دولة حدودية ، تحيط بها القوى الكاسرة من كل جانب . عاشت قزما بين عمالقة ، وحملا وسط ذئاب ، وغزالا في عرين سباع . فعلى مدى حوالي ألف سنة ظلت تلك الملامح واضحة على وجوه الكوريين . ويفسر ذلك المعنى مثل شعبي كوري : عندما تتعارك الحيتان ، تصاب صغار الروبيان » !

إن الخصائص التي مكنت الكوريين كشعب متباين الحدود من مواصلة العيش وبدت شديدة الوضوح في مواقفهم وتصرفاتهم وطباعهم ، تتلخص في ثلاث صفات : أولها المرونة ، وثانيها العناد ، وثالثها القدرة على المزج بين السخرية والهجاء ، وبين الفكاهة والمرح .. !

● خريطة كوريا الجنوبية تحيط بها اليابان والصين والاتحاد السوفيتي .

لكن مالاحظناه هو أن صبر الكوري لا يعني سلبيته ، وأن مرونته لا تعني ضعف شخصيته ، بل إن عناده وتحمله يؤكدان في كثير من الأحيان دأبه ومثابرته وجديته ، وهي ميزة تفسر الميزتين السابقتين . والحديث عن مؤثرات الصبر الصيني أو التكيف الياباني أو التذبذب الأمريكي ، قد يبدو أقل من ذلك عمقا ، فالخليط من المكونات الشعبية في أعماق الكوري ظهرت مبكرة قبل التأثيرات الخارجية ، لكنها تطورت مع تطور الأحداث . وقد يبدو ذلك بصورة أوضح من خلال متابعة المظاهرات والمصادمات وحركات الاضراب التي تطالب بمزيد من دعم الديمقراطية والحرية للشعب . فهذه الحركات تمثل تركيبة معادلة جديدة ، ستسفر في الغالب عن تغييرات هيكلية في البنيان السياسي والاقتصادي للمجتمع الكوري ، الذي أثبت أنه مجتمع حي ، ارتفعت لديه درجة الحس والوعي السياسي بقدر ما ارتفع مستواه المعيشي اقتصاديا . ولا شك أن الطفرات الكبيرة التي حققها الاقتصاد الكوري هي ما شجع العمال على المطالبة بحقهم في

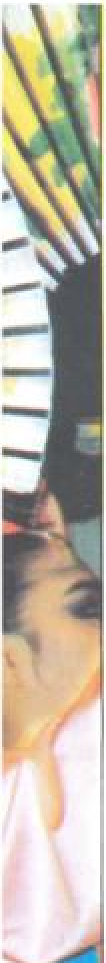

● شريحة من العرض الحي للفنون والموسيقا والرقص التقليدي كما يقدمها « البيت الكوري » . . . وأغلبها مستوحى من الطقوس القديمة والمهرجانات الشعبية ومن أجلها رقصة المراوح الحية .

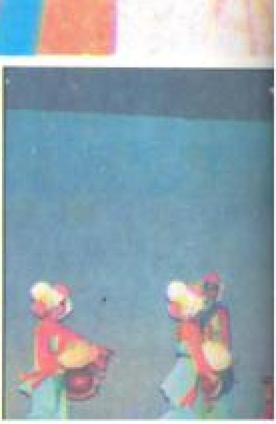

أن يكون لهم نصيب من الثروة الجديدة ، وأن تكون لهم تنظيماتهم الخاصة التي تعبر عن آرائهم بوضوح ، وبحرية مطلقة ، دون تدخل من أي جانب آخر . وقد دعم الطلاب هذا الموقف بتأكيد مطالبهم بالرغبة في التعبير بحرية ، وضرورة حل المشكلة الديمقراطية ، والتوزيع العادل للدخل ، على ضوء الطفرة الاقتصادية ، وهي طفرة لم تتحقق إلا بإرادة الشعب ومثابرته على الجد والعمل ، وقدرته على صنع تطوره المطرد من أجل حاضره ، وحفره الصخر بأظافر من حديد لبناء مستقبله .

النظرة الفلسفية للشعب

طوال جولاتنا ولقاءاتنا ومشاهداتنا أدركنا أن العمل عند الكوري عبادة ، وأن احترام الوقت أساس النجاح . فهذا الشعب يصنع الحياة بالصلابة والتصميم والصبر في آن معا ، وهو يواصل طريقه بالمثابرة والتحدي والحب ، وهو بالعمل والبذل يصنع المعجزات .

ويبدو أن ظاهرة التمدن الحضري وسرعة التنسيق في التنمية الاقتصادية التي صنعها الانسان الكوري قد أحدثتا تغييرا كبيرا في البناء الاجتماعي ، والنظرة الفلسفية للشعب ، فقد اكتسب ثقة متجددة ومشاعر متصاعدة من الاعتزاز والفخار . وأدى ذلك الى تقييم كل جديد على ضوء القيم التقليدية ، خاصة قيمتا البر بالوالدين وحب الوطن . وتضافرت العقائد المحلية لتمكين الشعب من اكتساب رؤية فريدة لنفسه وللعالم أجمع ، كما أكسبته تجارب التاريخ وقيود الحياة الحديثة روح المنافسة والانضباط وتقديس العمل .

فالكوريون شعب يعمل بلا كلل لتحسين ظروف حياته ، وإنجاح خطط التنمية في بلاده . وهم يستيقظون في الصباح الباكر مهرولين الى أعمالهم ، حيث أعلى معدل ساعات عمل في العالم ، يصل الى عشر ساعات في اليوم . وهم ينامون في المساء مبكرا حفاظا على صحتهم ، والتزاما باحترام وقت العمل من أجل سلامة الانتاج .

وهم بالاضافة الى المعدلات الصناعية التي برُّوا بها كثيرا من الدول بارعون في التجارة ، فالتجارة عندهم هي فن التعامل مع الشعوب ، وهذا الفن مكنهم من الانطلاق الى العالم الثالث على الأخص ، وترويج بضائعهم ومصنوعاتهم حتى في العالم المتقدم نفسه . بالاضافة الى أن الكوري بطبعه بائع أكثر من جيد ، يعرف فن الابتسام وكيف يجتذب الزبون .

إن من يتتبع هذه الصورة في الشعب الكوري يجد أنه قد أصبح هناك طبقة متوسطة عريضة من المهنيين ومديري المصانع ذوي المستوى المتوسط ، وطبقة أخرى من صغار رجال الأعمال والعمال المهرة ، مع طبقتين عليا ودنيا محدودتين .

أعماق الصورة وحديث الأرقام

لابد قبل الخوض في أعماق الصورة أن نتأمل الصفحة المفتوحة للعيان ، وأن نسمع ما يقال ، ونتابع الاحصائيات والأرقام ، وأن نتجول بين معالم النمو والتطور الاقتصادي .

في البداية التقينا رئيس دائرة الإعلام الخارجي بوزارة الإعلام « بارك شينل » ، دار الحديث حول القاعدة الثابتة التي تقوم عليها المعجزة الكورية ، وسمعنا منه الكثير . قال :

« نحن لا نسمي ما نحققه معجزة ، بل نجاحا على أعلى المستويات ، يتحقق بتضافر عناصر أربعة : تخطيط حكومي سليم ، وطاقة عمالية ماهرة ، وثقة عالية بالنفس ، مع تقديس كامل للحقوق والواجبات » .

بهذه العناصر مجتمعة حققت كوريا خلال العقدين الأخيرين أسرع تقدم اقتصادي ، يؤهلها في مدى قصير للحاق بصفوف البلدان المتقدمة . وبعد أن كانت في عداد الدول منخفضة الدخل عام ١٩٦٢ ، بناتج قومي عام لا يتجاوز ٢٣٠٠ مليون دولار أمريكي بالأسعار الجارية ، ومتوسط لدخل الفرد لا يزيد عن ٨٧ دولارا سنويا ، أصبحت في نهاية ١٩٨٦ ـ وبفضل تنفيذ سلسلة من الخطط الخمسية للتنمية ـ تحقق ناتجا قوميا يصل الى ٩٤٠٠٠ مليون دولار ، ومتوسط لدخل الفرد لا يقل عن ٢٢٦٨ دولارا . وفي نفس هذه الفترة ازداد حجم

تجارتها الخارجية من ٤٨٠ مليون دولار الى ٦٦٣٠٠ مليون دولار في العام الأخير ، بفضل تزايد مبيعات المنتجات الصناعية الى الخارج . وقام التصدير بدور رئيسي في تقدم الاقتصاد الكوري ، ولعبت المبادرات الحكومية دورا مهما من خلال تبني تعديلات ضرورية للقيمة النقدية ، وعقود مالية تصديرية قصيرة المدى ، بالاضافة الى تسهيلات جمركية واسعة ، مع تمكين المصدرين من الحصول على المواد الخام الضرورية وتشجيع الاستثمارات الأجنبية .

وهكذا تطورت الصادرات من ٥٥ مليون دولار عام ١٩٦٢ الى أكثر من ٣٥٠٠٠ مليون دولار ، وأصبحت نسبة ٩٥٪ من الصادرات تتمثل في المنتجات الصناعية ، وأهمها الفولاذ والمعادن غير الحديدية والآلات الصناعية والمصانع والسفن والسيارات ، بالإضافة الى الالكترونيات والمنسوجات والأحذية والخشب الابلكاج والإطارات والبلاستيك .

وتبعا لسرعة التنمية الاقتصادية تضاعفت فرص العمل ، فزادت نسبة العمالة من ٧.٧ ملايين مواطن سنة ١٩٦٣ الى ما يزيد على ١٥ مليون مواطن بحلول عام ١٩٨٧ ، وتضاءلت نسبة البطالة من ٨.٢٪ الى ٣٪ فقط . »

التقدم التقني

فهمنا أيضا أن هذا التطور الاقتصادي قد واجه كثيرا من المشكلات ، إذ أن أحد الاتجاهات كان في الاعتماد بدرجة أساسية على القروض الأجنبية ، مما نتج عنه قروض خارجية ، بلغت ٤١ بليون دولار مع نهاية ١٩٨٤ . وكان لهذه القروض أعباؤها الضخمة ، فلم تساعد الاقتصاد بالتأكيد ، لكن مع نظام البنوك الدولي ، وتحت ضغط الديون الضخمة في أمريكا اللاتينية ، كان الوقت مناسبا لتقوم كوريا بترتيب بيتها وتنظيمه . ومن ثم ألغت الحكومة خطط الاقتراض . وساعدها على ذلك ضخامة الأرباح المتوفرة من عملية تصدير الخدمات ، واستمرار الزيادة في الصادرات ، وبخاصة الصناعات الثقيلة والكيماوية سريعة التطور ، التي تمثل أكثر من نصف إجمالي المنتجات الصناعية .

ومن أجل مزيد من التطور الاقتصادي والانتاج القومي الذي يتزايد بنسبة تتراوح بين ٦٪ و ٨٪ سنويا ، كان العمل يجري على تطوير التقدم التقني في القطاعين العام والخاص ، وقد دعمت الصناعات الصغيرة والمتوسطة بمنحها مساعدات مالية ، وبتوسيع الحصانات الضريبية .

وسيواصل القطاع المالي سياسة الانفتاح من أجل مزيد من الجذب الاستثماري ، مع توسيع برامج التدريب الصناعي العلمي لتطوير المستوى النوعي جنبا الى جنب مع المستوى الكمي . وقد وضعت الخطة السادسة للتنمية على أساس الاهتمام بتزويد قطاع الصناعات بالمعلومات الجديدة في مجال التقدم الصناعي والتقني ، لتمكين الصناعات من دخول مضمار المنافسة بشكل متمر في السوق العالمية .

التصنيع النموذجي

وبدت لنا الصورة أكثر وضوحا ، خلال زيارتنا لأحد الأمثلة النموذجية ، وهي أحد أشهر المصانع المتخصصة في « الصناعات الالكترونية » ، وتلقى منتجاتها رواجا عالميا كبيرا . لقد تتبعنا كيف يجري خط الانتاج الكامل في قسم إنتاج التلفزيون ، ابتداء من القاعدة الكرتونية الصماء حتى خروج الجهاز بعد اختباره لتغليفه ، مرحلة إثر مرحلة ، دون أي خلل في التوقيت . وبهذا الحساب الدقيق يتم إنتاج ١٧٥٠ جهازا يوميا ، ويتوقعون الارتفاع بهذا العدد في خطة هذا العام الى مليون جهاز في السنة .

صورة التطور في الصناعات الالكترونية تبدو مثيرة ، بعد أن بات واضحا أن هذا القطاع يعتبر مصدرا مهما للعملة الصعبة ، لأنه يعتمد على التصدير بصفة أساسية ، كما أن المستقبل مازال يحمل الكثير في هذا المجال . ومع تتبع هذا التطور نجد ـ على سبيل المثال ـ أنه في كل عام يفتتح في المصنع قسم جديد لأحد أنواع الأجهزة الالكترونية . كانت البداية في عام ١٩٧٢ ، حيث بدأ إنتاج أجهزة التلفزيون . وتلاه افتتاح وانتاج البرادات الكهربائية ، ثم جاء دور أجهزة التكييف

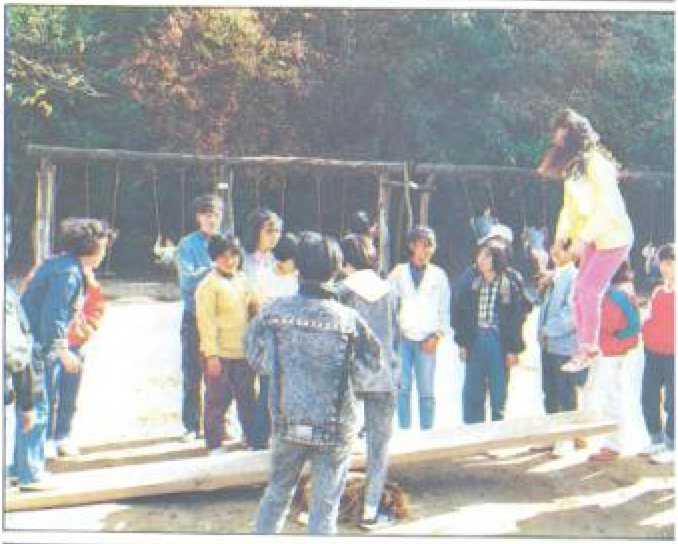

● المتحف الحي للحياة التقليدية الساحرة والعادات الأصيلة والتقاليد العميقة والأزياء الملونة والثقافة المتنوعة حيث تعرض نماذجها في القرية الفولكلورية .
(الصورة العليا) لاثنين من الحرفيين منهمكين في إنجاز صناعتها التقليدية.
(والصورة الوسطى) للعبة المرجيحة بعد أن تنازلت اللاعبات التقليديات للزائرات من الطالبات للاستمتاع باللعبة التي كانت تلعبها الأمهات .
(اما الصورة السفلى) فللفلاحات في الحقل .. يعملن تماما كما كانت أمهاتهن تعملن وسط خضرة الحقول في الأرض المزهرة .
● (الى اليسار) مشهد عام من قلب القرية الفولكلورية حيث البحيرة والبط السابح في مائها والكشك المقام على النمط التقليدي والمقام في نهاية الجسر الحجري الذي يربطه بشاطىء البحيرة .

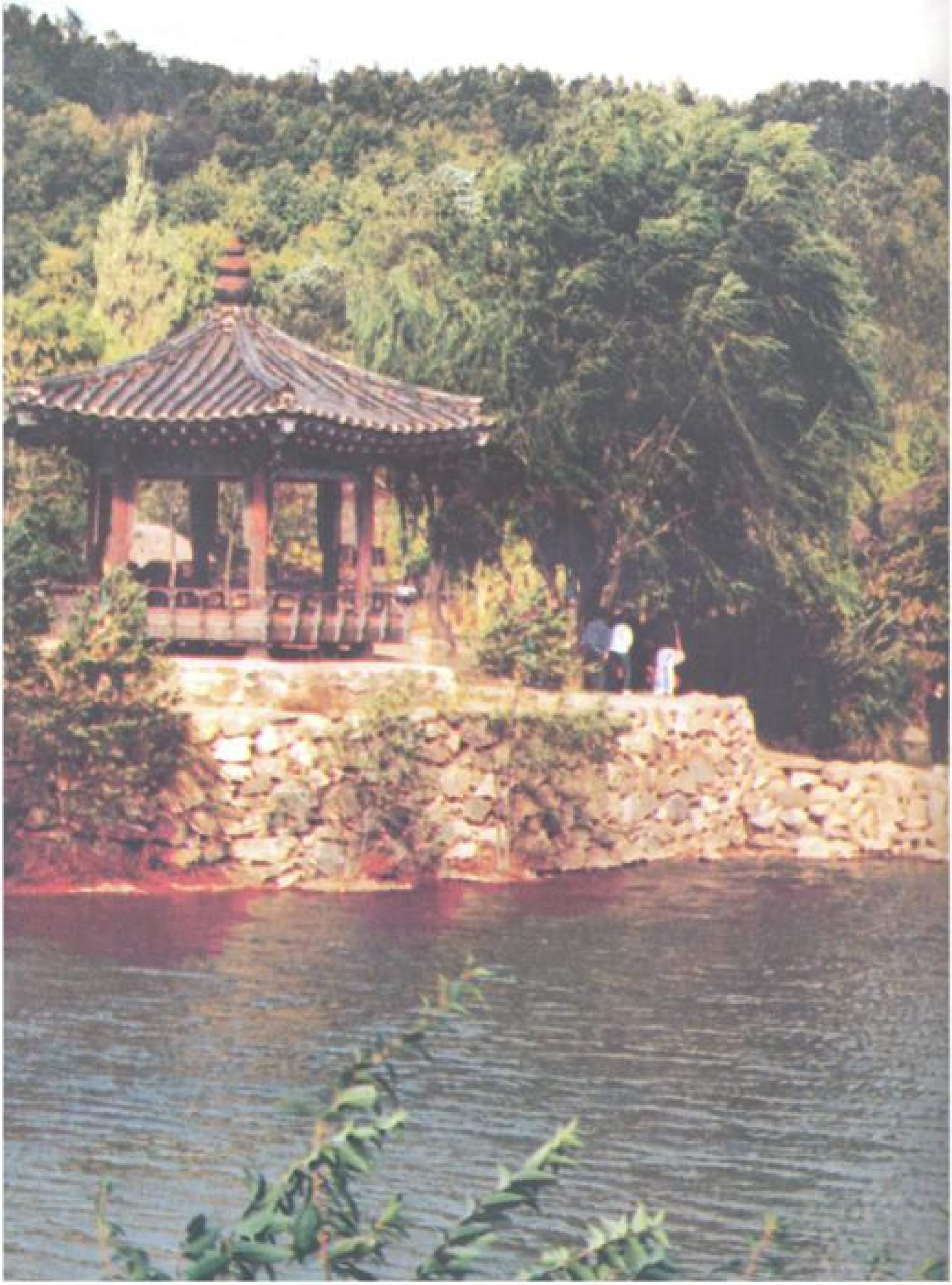

والغسالات . ومن بعد ذلك قسم انتاج الكمبرسورات والموتورات ، ثم ماكينات الطائرات وأجهزتها الالكترونية . وفي عام ١٩٧٨ بدأ إنتاج آلة البيع الحاسبة ، ثم آلات التصوير الضوئي والتلفزيون ، وبعدها أفران الميكروويف ثم الكمبيوتر والآلات الحاسبة والفيديو والأجهزة المكتبية وآلات التسجيل والساعات والمعدات الطبية . ومازال الباب مفتوحا كل عام لانتاج جديد . . . !

ولعل صناعة السيارات واحدة من أبرز الأمثلة الأخرى . فقد مرت هذه الصناعة بصدمات كثيرة ، لكنها حققت بعد ذلك تقدما كبيرا ، وأصبح هناك نوعان بارزان من سيارات الركوب تنافس السيارات اليابانية وتتفوق عليها في صلابة جسم السيارة وتحمل هيكلها للصدمات . وتجد لها سوقا واسعة في أوروبا وأمريكا . ودخلت سيارات النقل والحافلات ميدان التصدير والمنافسة بكميات كبيرة أيضا .

أما صناعة الحديد والصلب فهي العمود الفقري للصناعات الثقيلة . وقد توسعت مصانع « بوهانج » للحديد والصلب ، التي امتلكت الحكومة غالبيتها . طاقتها الانتاجية قدرت بحوالي ٩ ملايين طن ، وبذلك فهي سابع شركة للحديد والصلب في العالم . ثم افتتح مصنع جديد ليضيف الى قدرتها ٣ ملايين طن ، ومع نهاية الثمانينيات ستكون كوريا ضمن أول عشر دول منتجة للصلب في العالم .

وتعتبر صناعة السفن أول المستخدمين للصلب ، وتمتلك كوريا الآن واحدا من أكبر الأساطيل التجارية في العالم ، وتقوم بالتعامل مع كل أعمال الشحن والنقل بأسعار قليلة نسبيا ، بمعنى أنها أقل تكلفة من السفن اليابانية والأوروبية . وفي الوقت الحالي سبقت كوريا جميع منافسيها ، وأصبحت ثاني منتج في العالم بعد اليابان ، ويبدو أنها ستبقى في هذه المكانة عدة سنوات قادمة .

أما صناعة البناء والتشييد ، فقد خرجت الى ماوراء البحار ، وأصبحت كوريا تساهم في إقامة مشروعات كثيرة في أوروبا وأفريقيا والوطن العربي . وتحقق هذه الصناعة حوالي ١٣ بليون دولار في المتوسط كل عام . لكن لا أحد يدري إذا كان نفس العائد سيبقى على ما هو عليه أو أنه سيتغير ، مع معاناة بعض الدول من أوضاع مالية ، بعد اضطراب أسعار النفط والحروب والصراعات التي تسيطر على المناطق التي كانت سوقها مفتوحة للإنشاءات الكورية .

لقد أكد بارك شيل الآمال في آفاق المستقبل قائلا :

« لقد دخلت كوريا بالفعل حاليا في سباق لمواجهة التحديات التقنية خلال السنوات القادمة ، ومواصلة تنميتها الاقتصادية ، خاصة بالمزيد من تطوير صادرات المنتجات عالية التطور ، جيدة الصنع ، التي يتم إنتاجها بكفاءة متزايدة . ومن خلال القدرة الكامنة على التطور في المستقبل ، يتوقع أن تحافظ كوريا مع بداية القرن القادم على معدل مرتفع للناتج القومي ، بحيث يصل الى أكثر من ٢٥٠ بليون دولار بحلول عام ٢٠٠٠ ، يرتفع معه متوسط نصيب الفرد من الناتج القومي الى ٥٠٠٠ دولار أمريكي سنويا . ومن المتوقع أن تحتل كوريا على ضوء هذه النتائج المركز الخامس عشر بين دول العالم من حيث القوة الاقتصادية ، والمركز العاشر في مجال التجارة . »

الاعتزاز بقيمة الوطن

إن المعجزة الاقتصادية الكورية حقيقة واقعة بالفعل . وإذا كان مدير الاعلام قد حدد مقوماتها الأربعة في التخطيط السليم ، والعمالة الماهرة ، والتوازن في الحقوق والواجبات ، والثقة في النفس ، فقد أضاف إليها « شين هون جوك » المدير العام للصحافة الخارجية دافعا آخر هو اعتزاز المواطن الكوري بوطنه وتاريخه الذي يدفعه الى صنع المعجزات .

لمسنا هذا الاعتزاز بالفعل في أكثر من مجال ، حتى في المظاهرات والحركات العمالية والطلابية التي اتسع نطاقها في العام الماضي . إنهم يطالبون بمزيد من الديمقراطية ومزيد من الحرية . وهم يصطدمون بقوات الأمن والجيش ويتبادلون معهم التراشق

بالحجارة ، لكن لا تكاد المظاهرة أو حركة الإضراب تنتهي حتى يتجه العمال والطلاب أنفسهم لتطهير مداخل مصانعهم ومعاهدهم والشوارع المحيطة بها من الأحجار وتنظيفها ، لتبدو في أحسن صورة دون أي تشويه .

حتى في حركة الإضراب يكلف العاملون عددا منهم قبل الأضراب بمواصلة العمل في الأقسام ، حتى لا تتوقف عملية الانتاج وإن قلّت كميتها .. !

واحترام مواعيد العمل واستغلال كل الوقت للانتاج ، دون أي فقدان في ساعات العمل التي تمتد الى أكثر من ٥٤ ساعة أسبوعيا ، مظهر آخر من مظاهر الاعتزاز بقيمة الوطن .. والأمثلة كثيرة .. العمل على تطوير الانتاج وتقدمه ، ونظافة الشوارع ، والامتناع عن إلقاء ما يشوه نظافتها وتألقها ، والمحافظة على قاعات المكاتب والمصانع والمدارس بخلع الأحذية قبل الدخول ، وتعويد التلاميذ والأبناء على زيارة المتاحف ومعالم التاريخ القومي لغرس حب الوطن في نفوسهم .. وحين التقينا بأحد نظار المدارس قال : إننا أحد المجتمعات التي تؤمن بقيمة الحرية والديمقراطية كأساس يستحيل بدونه التقدم والنماء المنشود .

الجد الأسطوري الكوري

حول ما شهدناه من اعتزاز الكوريين بأصولهم العرقية وتاريخهم القديم وتقاليد الآباء والأجداد ، دار حوارنا مع مدير الصحافة الخارجية لوزارة الإعلام خلال مأدبة العشاء التي أقامها لنا بنادي الصحافة فقال :

إن أصولنا تنبع في الحقيقة من منغوليا .. ولعلكم لاحظتم أن المرأة الكورية ، وبخاصة في الريف ، مازالت تحمل صغيرها خلف ظهرها برباط يلتف حول وسطها ، وهو نفس ماكانت تفعله المرأة المنغولية .. وقد لاحظتم بغير شك أن الشعار الذي وضع لدورة الألعاب الأولمبية التي ستجري في سيول هذا العام هو « النمر الكوري » .

كنا في حاجة الى تفسير ما يعنيه شعار النمر ، وكانت الإجابة :

النمر الكوري .. عرفه سكان البلاد الأصليين « الباليو آشياتز » أي قدامى الآسيويين ، وقد نزحت الى شبه الجزيرة الكورية قبل حوالي ٣٠ ألف سنة قبائل متجولة أخرى قادمة من جبال « الالطاي » ومن مناطق منشوريا وسيبيريا ، وكان لهؤلاء الأقوام الرحل لغتهم ، وقد اندمجوا مع السكان الأصليين ، وتكونت مجموعات من الأسر التي تجمعت بعد ذلك لتكوّن عشائر جديدة .

ثم ظهرت تدريجيا مجموعات إقليمية أكبر تحالفت فيما بينها .. ومن بين الوحدات السياسية المتحالفة ذات الطبقات الحاكمة برزت وحدة « زوسان » التي نشأت في الشمال واتخذت من الدب والنمر طواطم لها .. أسس هذه الوحدة الجد الأسطوري « تانجون » ، وكان تاريخ تأسيسها هو القرن ٢٤ قبل الميلاد ، حيث مازال الكوريون يحتفلون حتى اليوم بعيد التأسيس الوطني في الثالث من أكتوبر كل عام .

لكن ماذا عن الدب ، والنمر ، والجد الأسطوري ؟ تروي الأسطورة أن ملكا سماويا يسمى « هوانين » استجاب لرجاء ابنه « هوانونج » للهبوط الى الأرض ، وأن الملك قد اختار من بين القمم المرتفعة على الأرض قمة على جبل « ميوهيانج » مكانا لنزول ولده ومعه ثلاثة آلاف من الاتباع من أجل أن ينشر السعادة على الأرض .. وخلال سير الأمير السماوي التقى دبة ونمرا أعربا له عن رغبتهما في التحول الى هيئة غير حيوانية قريبة الشبه بهيئته .. وأشار الملك السماوي الى أحد الكهوف وطلب منهما أن يدخلاه ويواصلا الصلاة مائة يوم لتحقق لهما السماء أمنيتهما .. لكن النمر لم يحتمل الاستمرار ، فغادر الكهف متمسكا بالأرض التي عاش عليها ، بينما قضت الدبة المدة المحددة كاملة لتتحول بعدها الى حسناء رائعة الجمال .

كانت الرغبة الأولى للمرأة هي أن تنجب طفلا ولم يجد « هوانونج » ما يمنعه من أن يتزوجها .. وجلست تحت شجرة الصندل المقدسة تدعو وتبتهل .. ولم تمض فترة حتى انتفخ بطنها ، وظهر حملها ، وجاءها المخاض تحت جذع الشجرة لتلد

● الانجاز الصناعي في التجربة الكورية يتميز بالدقة والتقنية والمهارة العالية وبالكيف والكم معا . هذا الانجاز الذي يشبه المعجزات لم يمنع الكوريين من مواصلة العمل في ميدان الصناعات التقليدية والفنية التي تؤكد المهارة اليدوية التي تبدعها الأنامل الكورية في مختلف الميادين .

«تانجون» الذي أصبح أول ملك بشري على الأرض . !

ويقول الكوريون إن فترة حكم تانجون قد بدأت عام ٢٣٣٣ ق . م . حيث ظل يعلم الناس الزراعة والعلاقات الانسانية .

وأعد تانجون مجموعة من الطقوس لتقديم الصلوات والابتهالات الى السماء . وكانت هذه الطقوس منتشرة انتشارا كبيرا بين النبلاء وعامة الناس في آخر عهد الممالك الثلاث . لكن ممارسة مذهب «التانجونية» أخذ يفتقر بمضي الأيام الى الإيمان الصادق ، حتى انقرض خلال القرن الخامس عشر . لكن بعودة الاتجاه القومي في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت بعض الطوائف الدينية العديدة التي تنادي بإحياء هذه الديانة العريقة . والمهم أن حكم تانجون في كوريا استمر الى عام ١١٢٢م ، أي أنه حكم حوالي ١٢١١ سنة ، حتى ظهور وجه أسطوري جديد هو «كيجا» أحد أبناء مملكة شانج الصينية . الذي وصل الى كوريا وأعلن نفسه ملكا . حينئذ استعاد تانجون هيئته السماوية واختفى . ومايزال تانجون هو النموذج والمثل للوطنية الكورية . ومايزال النمر المتمسك بأرضه وأصله (طوطما) دينيا قويا ، ورمزا يعتز به الكوريون ويتخذونه ـ كما ذكرت ـ شعارا لدورة الألعاب الأولمبية في العاصمة سيول .

القرية الفولكلورية

لا تستطيع أن تدرك كنه شعب من الشعوب إلا إذا تعمقت في عاداته وتقاليده وعقائده وثقافته المتوارثة . أتيحت لنا هذه الفرصة عندما زرنا القرية الفولكلورية التقليدية على بعد نصف ساعة من سيول ، بالقرب من بلدة «سوون» .

هنا متحف حي للحياة التقليدية الساحرة ، والعادات الأصيلة ، والتقاليد العميقة ، والأزياء المبهجة ، والحرف العتيقة ، والثقافة المتنوعة التي عاشت في أعماق الشعب الكوري منذ مئات السنين .

اجتزنا المدخل الرئيسي المقام على النمط التقليدي الكوري بفتحاته الثلاث وسقفه القرميدي المغطى بعريش جاف من قش الأرز . فإذا بنا داخل القرية التي أقيمت على نمط القرية الكورية في القرن التاسع عشر ، وهي تضم ٢٥٠ بيتا ومبنى ، تمثل كل وسائل ومظاهر الحياة القديمة . وأول ما واجهنا الطاحونة الكبيرة التي يديرها ثور تحت عريش مستدير ، ثم ورشة السيراميك وأفرانه ، حيث يقوم الصناع في أزيائهم البيضاء التقليدية بتشكيل أواني الصيني والسيلادون ذات اللون السري المائل إلى الخضرة ، وقد استخدمه الأقدمون في مملكةكوريو منذ مئات السنين . وبقيت خلطته وطريقة صنعه سرا أمام الكثيرين حتى اختفت . وقبل سنوات عادت لتظهر من جديد بعد أن كشفت مناطق جديدة على الساحل الجنوبي الغربي ، أمكن الحصول منها على أصل الخلطة السحرية من المواد الطبيعية ، واستطاع أحد معلمي قرية «شاوانج» حل رموز لغز تشكيل وأسلوب حرق السيراميك . أما صناعة السيلادون فصعبة لأنها تستخدم مصادر الطاقة الطبيعية ، ونسبة النجاح في صناعتها ليست كبيرة . وحين يعدون الخلطة يعجنونها أكثر من مائة مرة لاخراج الهواء منهاباستخدام الأيدي والأقدام . قبل أن تكون جاهزة للتشكيل ، ثم تحرق في الأفران بدرجة معينة ، ويجري النقش عليها ، ثم تدخل مرة أخرى في الفرن لتخرج آنية السيلادون اللامعة التي تعتبر أغلى مايباع من هذا النوع في الأسواق العالمية .

كل معالم الحياة

لا نكاد نبتعد قليلا حتى نشهد حفل زفاف تقليدي ، يرتدي العريس الثياب الأنيقة التي يتم تأجيرها من أحد المحلات . الثوب عبارة عن سترة فضفاضة بكمين واسعين وسروال عريض يربط عند الكعبين برباط من القماش ، ويتقاطع جانبا السترة فوق الصدر ، ويربطان بعقدة . والعريس يرتدي لمزيد من الأناقة معطفا مزخرفا ، وقد وضع شبه قبعة سوداء معقودة فوق رأسه . أما زي العروس فهو مصنوع من الحرير ذي الألوان الزاهية ، ويتكون من بلوزة قصيرة حذاء واسعة ، يتقاطع جانباها عند

الصدر ، ويربطان برباط طويل من القماش ، وسروال طويل حتى القدمين يوثق عاليا على الصدر . وبعد المراسم التي يحضرها الأبوان يشرب الجميع الأنخاب التقليدية ، وتعزف الموسيقا ، وتقدم الزهور ، وتلتف حولها الجماهير . !

ومن بعيد يسير شيخ ممسكا بيده غليونا طويلا من خشب الخيزران ، وقد غطى رأسه بقبعة عريضة الأطراف مصنوعة من شعر الخيل ، وهو يتهادى بين المنازل ذات السقوف المنخفضة المغطاة بالقش .

مداخل بيوت القرية ذات أرضية خشبية تجلس عليها النساء ، وكل واحدة منهن تؤدي عملا في بيتها . هنا امرأة تكوي ثيابا بضربها بمضربين خشبيين ، وتلك تغزل خيوطا من الحرير تستخرجه بنفسها من شرانق دود القز الموضوعة في إناء من الماء الساخن .

وفي الساحة المواجهة للبيوت نشاهد استعراضا للمشي على الحبال المشدودة ، ومسابقات الطائرات الورقية التي يحاول فيها كل لاعب أن يقطع خيط طائرة خصمه المحلقة عن طريق اعتراضها بخيط طائرته ، ونشهد عروضا ورقصات جميلة يؤديهاالفتيات والفتيان بالأزياء التقليدية . وأبرز الألعاب هي الأرجوحة الخاصة بالفتيات ، حيث يوضع لوح خشبي طويل يرتكز في منتصفه على كيس ملىء بقش الأرز ، وتقف اللاعبتان ، كل واحدة على أحد الطرفين ، وتقفزان دوريا لتنزلا على طرف الخشبة ، وهنا تتنافس الطالبات الزائرات في أزيائهن الحديثة مع اللاعبات التقليديات ، بينما صويحباتهن يصفقن في بهجة ومرح .

في القرية التقليدية أيضا شهدنا الحداد والنجار والفخاري وأصحاب سائر الحرف يعملون كل في ورشته . المهم أن كل شيء يتميز بالنظافة والترتيب ودون تشويه للمكان أو الطرقات .

مثل هذه الصور من الحياة التقليدية شهدناها في صرح ضخم من النمط القديم مفتوح لعامة الشعب ، تعرض فيه نماذج من الفنون والتحف الفنية ، وتقام عروض يقدمها فنانون هم في الواقع كنوز ثقافية بشرية ، تقدم شريحة من الفنون في كوريا القديمة ، مع ألوان من الموسيقا التقليدية وما يصحبها من رقصات وآلات .

الفن في البيت الكوري

شهدنا هذا العرض الحي لأنواع الرقص والغناء والموسيقا التقليدية في « البيت الكوري » . أحد هذه العروض لموسيقا كلاسيكية مستوحاة من الطقوس الكونفوشيوسية ، تسمى « الآك » . وهناك غير هذا النوع موسيقا ذات أصل صيني كانت تقدم في حفلات القصر في حضرة الملك والحاشية ، تسمى « كانجاك » ، وهي غير الموسيقا ذات الأصل الكوري التي تسمى « هيانجاك » . يضاف إلى كل ذلك أنواع من التراتيل البوذية والموسيقاالفولكلورية وفرق الفلاحين الموسيقية الشعبية .

الموسيقا المصاحبة لرقصة البلاط التقليدية تتميز بالوقار والبطء والهدوء والتعقيد . تتداخل أنغامها الطويلة الغنية بالزخارف الجميلة والعواطف المقيدة والانفعالات المكتومة . أما الآلات الموسيقية التي يلعب عليها العازفون فعتيقة ، أكثرها من أصل صيني ثم طورت . من بين هذه الآلات القيثارة والناي ومزمار الغاب ذو الفرعين وأنواع من الآلات النردية . وتصحب صوت المغني دقات الطبول الرتيبة لضبط الايقاع . وتتميز الرقصات المصاحبة بالجلال والوقار وحرفية الأداء .

على العكس من ذلك نجد أن الموسيقا الشعبية تتميز بالسرعة والحيوية والعاطفة المشبوبة ، تصحبها رقصات طبيعية مفعمة بالنشاط ولاتخلو من حركات رياضية ، تغلب عليها الايقاعات غير المنتظمة ذات التوقيت الثلاثي المركب ، وتستخدم فيها بعض الآلات التقليدية ، وإن كانت تعتمد أساسا على النواقيس المعدنية والطبول الشبيهة بالساعات الرملية المسماة « زانجفو » ، وآلات « الأبوا » التي تشبه النفير . ويصحب الرقص أصوات غناء تؤديه فرقة من وراء الستار تبدو كأنها « السلويت » ، وتعطي إيحاء بتعبيرات إنسانية مفعمة بالحياة .

تبدو هذه العناصر الموسيقية الغنائية مجتمعة في

● لايخلو أي معبد بوذي من المتعبدات اللواتي يقدمن صلواتهن أمام تمثال بوذا وهن يجلسن في استسلام واسترخاء وتأمل لساعات طويلة كما تفعل هذه العجوز التي راحت تسبح بالمسبحة وهي تتمتم بالدعوات (الصورة العليا الى اليمين) . . أما الصورة السفلى فلراهبتين تمارسان الطقوس البوذية وعلى رأسيهما الغطاء

الأبيض الثلاثي وحول ذراعيها ، الشانجام ، ذو الأكمام الطويلة . وفي مدخل معبد « بولغوسكا » تقوم أربعة تماثيل لحراس المعبد البوذي لإرهاب الشياطين والشريرين ومنعهم من تجاوز البوابة الرئيسية . وتدل طريقة نحت التماثيل وتلوينها ورسوم الحيوانات الأسطورية على جدران المعبد وأركانه على خيال خصب وخيال جامح .

رقصة الفلاحين الفولكلورية التي يشترك فيها فتيات وفتيان يعزفون على آلات نحاسية وطبول كبيرة وآلات نفخ . ويبدأ العرض بمشهد فوق الجبل الذي يعيش فيه إله القرية لينتهي في بيت أحد الفلاحين . ويرتدي أعضاء الفرقة الموسيقية قبعات ذات ألوان زاهية . وتقدم الرقصات في ستة أشكال متتابعة بعضها ذو إيقاع سريع ، وبعضها الآخر بطيء الايقاع ، تصحبها دقات موسيقية على طبول زجاجية . وهذه الرقصات ماتزال تقدم خلال الاحتفالات الشعبية في القرى بين فترات الراحة في الحقول .

الأسلوب الفني للموسيقا الشعبية يبدو في تباين الأنغام اللطيفة الناعمة في العروض المختلفة . ولعل من أجمل ما شهدناه رقصة المراوح ، وهي مستنبطة من الطقوس التقليدية ، حيث تستخدم المراوح في رقصة تتباين وتتمازج بين القوة والعاطفة في إبداع فني مثير .

وتحكي الرقصة كيف تحولت المروحة المستقيمة التقليدية مع الزمن إلى مروحة سهلة الطي ، زينت بزخارف ذات رسوم ملونة ، وأصبحت تنسجم مع ألوان الرداء التقليدي للفتيات الراقصات في البلاط الملكي ، وهن يزين رءوسهن بتيجان من الزهور . وتحولت الرقصة التقليدية الملكية بما تبدو عليه من الهيبة والجلال لتصبح رقصة شعبية مفعمة بالمرح والعاطفة ، مع نغمات ناعمة نابضة بالحياة . وأكثر المشاهد إثارة في هذه الرقصة عندما تسرع الأنغام الموسيقية بينما تشكل الراقصات باقة واحدة من الأزهار تدور بسرعة ، والمراوح تفتح على آخرها وهي ترتفع وتنخفض بانسجام مع الحركة الدائرية البديعة .

ومن أجمل الرقصات التقليدية رقصة الشامانية ، وهي العقيدة القديمة التي ماتزال حية في أعماق غالبية الكوريين حتى بعد أن اتبع بعضهم عقائد وديانات أخرى . هذه العقيدة هي المنبع الرئيسي للثقافة ، ومصدر فنون الموسيقا والرقص والأساطير والحكايات الشعبية عند الكوريين . وتقدم هذه الرقصات في اثني عشرة لوحة تقدمها الراقصات بأزيائهن الملونة البديعة وأغطية الرأس المزينة بالأزهار وبين أيديهن المراوح يتلاعبن بها خلال عروضهن التي من أبدعها رقصة « سالبوري » التي تقدمها راقصة تحكي قصة تقليدية ، لزوجة تحركها مشاعر الرغبة واللهفة إلى مناداة زوجها الذي مات حتى يعود إلى الحياة . والرقصة تعبر عن تباين المشاعر والأحاسيس واندفاعات الأمل ثم انفعالات الألم النابعة عن اليأس عندما تدرك أن الميت لن يعود .!

اذا كانت هذه هي أنواع الموسيقا والرقص التقليدي التي تقدم في احتفالات الكوريين وأعيادهم ومسارحهم ويتسلون بها في رحلاتهم وحفلاتهم سواء بالغناء المنفرد أو بالرقص الذي يؤديه الجميع كل بدوره ، فإن هناك أيضا أنواعا من الموسيقا الغربية التي شهدت نجاحا سريعا مع دخول الثقافة الواردة في أواخر القرن التاسع عشر . وهناك فرق سمفونية عديدة وفرق خاصة بالأوبرا ومعاهد للموسيقا العصرية . وتقام حفلات موسيقية يحييها موسيقيون كوريون أو أجانب ، وتلقى إقبالا كبيرا . وهناك غير ذلك تراث غني في ميدان المسرحيات التنكرية ، وهي خليط من التمثيل الصامت « بانتومايم » ورقصات الباليه التي تصور مشاهد دنيوية ساحرة ، مع رقصات ومشاهد للقصاصين المتجولين المنشدين على طريقة شاعر الربابة المعروف ، كما أن هناك رقصات الأقنعة التي يؤديها راقصون وممثلون من الجنسين .

هناك أنواع أخرى من الفنون يبرع فيها الكوريون شهدناها خلال زيارتنا للمتحف الوطني للفنون الشعبية . ففي المتحف تعرض مشاهد ومعالم الحياة والأعمال الشعبية التقليدية منذ العصور القديمة ، مع اهتمام كبير بعرض الأزياء التقليدية والأثاث والمجوهرات واللوحات الفنية . ومن خلال العروض يستطيع الانسان أن يتبين أن الفن الكوري يعكس إحساسا بالبساطة التلقائية والقوة الخشنة .

وتدل مشاهد الحيوانات الأسطورية المرسومة في

اللوحات الفنية سواء القديمة أو الحديثة على خيال خصب ، وهيام جامح ، مما من صفات الشعب الأصيلة الراسخة في أعماقه .

فن النحت والبوذية

من أبرز الفنون التي تأثر بها الشعب الكوري ، وأضافت عمقا جديدا الى أعماقه فن النحت . ومن الواضح أن فن النحت الكوري القديم قد تأثر بالبوذية حيث صارت أهم موضوعاته صور « بوذا » في تجسداته المختلفة ، وتماثيل القديسين البوذيين وغيرهم من الشخصيات المقدسة البوذية الأقل مكانة . وأجمل ما شهدناه من ذلك في معبد « بولغوسكا » أكبر المعابد البوذية ، وفي كهف « سوكورام » الواقع قرب مدينة كيانجزو ، أغنى المدن الكورية التاريخية بالفنون القديمة . كيانجزو في الحقيقة متحف بلا جدران ، مليء بالآثار التي ترجع الى عصر مملكة شيلا ، ومعابد بوذية ومقابر ملكية ونصب تذكارية مع أقدم مرصد حجري في آسيا على الاطلاق .

إلى هذين الموقعين الأثريين كان تحركنا من منتجع « بومون » السياحي الواقع على بحيرة وسط أودية تحيط بها جبال مغشاة بالأشجار . وبلغنا موقع كهف « سوكورام » الذي بني عام ٧٥١ م بتماثيله الحجرية وأفاريزه المنحوتة التي تعتبر من قمم الفن البوذي .

يقوم في صدر الكهف تمثال جالس لبوذا ، منحوت من الجرانيت ، يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار ، مواجه للشرق ، يعكس تقويما غاية في الدقة وحسابا ممتازا للأبعاد والمسافات ، مع البساطة المدهشة في تحديد الزوايا والأسس الهندسية والعلمية والتقنية التي اتبعت في بناء الكهف الذي أقيم منذ اثني عشر قرنا .

أما أبرز المنحوتات الفنية فهي ما يحتويه معبد « هاينسا » في كاياسان ، حيث أكبر مركز لتدريب الرهبان البوذيين . أهم ما يحتويه المعبد تعاليم بوذا المحفورة على ٨٠ ألف قالب من الخشب . ويقال ان راهبين بوذيين ذهبا الى الصين حيث عثرا على كتاب يضم تعاليم بوذا . وعندما عاد الراهبان أقاما محرابا لها على جبل كاياسان . وهناك بلغ سمعهما أن زوجة الملك تعاني من مرض عضال ، فذهبا وعالجاها بمعاونة بوذا ودعواتهما له .

ومن أجل أن يشكر الملك صنيعهما أمر ببناء معبد لها هو ذلك المعبد المسمى « هاينسا » ، حيث حفظت التعاليم الكاملة . ويقال انه من الغريب أن حريقين شبا في المعبد والتهما أخشابها ، ولكن لوحات تعاليم بوذا نجت من الحريقين ولم يصبها أي أذى ، رغم أنها محفورة على قوالب من الخشب !

في هذا المعبد البوذي الكبير شهدنا احتفالا دينيا في ذكرى بوذا . كانت ساحة المعبد مليئة بالرهبان بينما الراهبات بالزي المقدس ذي الأكمام الطويلة وأغطية الرأس البيضاء ، والكل يؤدون الصلوات ويرتلون على أنغام آلات الموسيقا التقليدية ، أمام تمثال بوذا الذهبي وحوله المقدسون من تلاميذه ومريديه .

وانتهى الاحتفال برقصة تؤديها راهبتان تمارسان الطقوس البوذية . وقد وضعتا على رأسيهما الغطاء الأبيض الثلاثي وحول صدريهما وذراعيهما « الشانجام » ذي الأكمام الطويلة البيضاء . وتبدأ الرقصة المقدسة في هدوء بينما في الخلف طبلة معلقة تتدلى منها أطراف التنين . وتتتابع الموسيقا في سرعتها حتى تصل إلى قمة الاثارة حين تصل الراهبتان الى الطبلة فتدقانها بمضربيهما المختفيين تحت الأكمام الطويلة ، لترسل نغمات متسارعة تعبر عن الانفعالات الداخلية مع تفاعل الصراع الروحي في الطريق الى « النيرفانا » .. وهي مرحلة السمو الروحي التي يمكن الوصول اليها بعد مراحل متتالية من المعاناة والآلام تعبر عنها الحركات والنغمات .

العقيدة في الأعماق

لكن ، ماذا عن تأثير العقائد والديانات المحلية والأجنبية على بناء شخصية الانسان الكوري وعاداته وأخلاقياته وثقافته ؟

الواقع أن أغلب العقائد والديانات العالمية الشرقية والغربية ، تلتقي مع العقائد والديانات المحلية التي عاشت في كوريا آلافا من السنين . والحرية العقائدية التي يتمتع بها الانسان الكوري

● تنتشر على سفوح التلال في « كيونجزو » متاحف بلا جدران بينها المعابد والايقونات والأديرة والأبراج والأجراس والباجودا وتماثيل بوذا الصخرية والذهبية . وتزخر المدينة بمعالم وآثار تاريخية بينها أول مرصد أقيم في آسيا والأضرحة الترابية للملوك والملكات من عصر مملكة شيلا والتي أقيمت في حديقة توموني وسط المدينة .

وكل هذه الآثار والمعالم تؤكد تألق الفنون الهندسية والمعمارية والنحت والرسم والعمارة على مدى التاريخ الكوري .

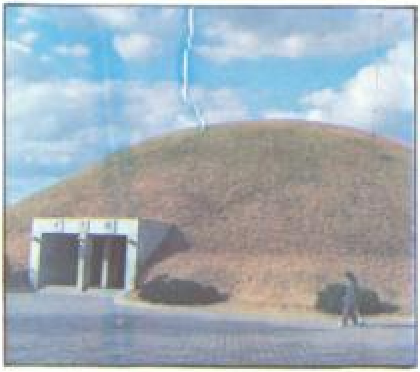

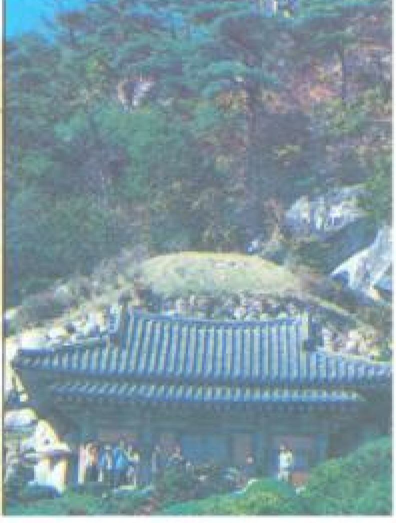

تعطيه الفرصة للاختيار بمحض إرادته دون تدخل حتى من الآباء . ولعل صورة لمسناها بشكل مباشر تؤكد لنا تلك الحقيقة .

فمرافقتنا كانت بوذية طبقا لدين أبويها ، كما أنها تؤمن بتعاليم وحكم كونفوشيوس ، لكنها لم تمض أبدا تميل الى الكونفوشيوسية بل فضلت عليها المسيحية هي واحدى شقيقتيها ، ولم تتدخل أسرتها في ذلك التغيير . لكنها حين بدأت تدرس اللغة العربية كأحد مواد الدراسة الاختيارية في دراستها العليا ، تفهمت القرآن بلغته ، وبدأت تميل الى اعتناق الاسلام ، يساعدها في ذلك ما اطلعت عليه من مفاهيم وفضائل هذا الدين ، وتركت اسمها الكوري وهو « كواك ليه » واكتفت به اسما عائليا ورسميا ، وفضلت عليه اسما عربيا هو « أحلام » ينادونها به في كل مكان بما في ذلك الجامعة . المهم هنا أن أحدا لا يحاول إقناعها هي وشقيقتها بالعودة الى دينها القديم . وكل من في البيت يؤدي عبادته على ضوء ما آمن به دون أي تأثير أو ضغط من الآخرين .

هذه الصورة موجودة بشكل أو بآخر داخل كل بيت في كوريا ، ولكل دين أو مذهب أو عقيدة أو فلسفة معتنقوها . حتى اللادينيين الذين يتجاوز عددهم ٢٥ ألف نسمة ، يوجد بينهم بضعة آلاف يؤمنون بأشكال من عبادة الطبيعة ، والاعتقاد بأن الأرواح تسود هذا الكون كما في معتقدات « المودانج » . ولا يختلف في ذلك « التايجونجيو » الذين يعتقدون في إله ذي أقانيم ثلاثة ، فهو خالق ومعلم وملك دنبوي وأبو الشعب الكوري ومعلمه وملكه . وما تزال هناك طوائف دينية عديدة تنادي بإحياء هذه الديانة العريقة . كما أن عقيدة مثل « التونجهاك » تحيا كمذهب ديني ذي نزعة قومية ، وأتباعها يرفضون الديانات القديمة الأخرى ، مثل الكونفوشيوسية والبوذية والتاوية ، على أساس أنها فقدت جوهرها ، كما أنهم ينبذون الكاثوليكية باعتبارها من « علوم الغرب » . وهم يقولون بأن السماء والانسان متلازمان لا يفترقان ، وأن جميع الناس سواسية ، وأن الجنة موجودة هنا الآن في مملكة الأرض أكثر منها في « مملكة السماء » . على أن

● مشهد لاحتفالات « جونج ميوزي ريه » وهو أكبر الطقوس الكونفوشيوسية التي تقام في أول يوم أحد من شهر مايو من كل عام .

الاعتقاد ذا التأثير الذي ما يزال في أعماق الدينيين ممن آمنوا بالبوذية أو المسيحية الكاثوليكية أو البروتستانتية هو « الشامانية » التي ما تزال طقوسها تمارس ، وبخاصة في الأقاليم الريفية والمناطق الزراعية ولدى البسطاء ، لابعاد سوء الحظ وتحقيق الآمال في النجاح وشفاء المرضى والابتهال إلى قوى الأرواح السائدة في الكون وتهدئة غضب أرواح الموتى وتخفيف ثائرتهم ورغبتهم في الانتقام ممن خلفهم . تأثير الشامانية ما يزال قائما يظهر حتى في معابد الديانات الأخرى ، حيث يوجد في معظم المعابد البوذية هيكل صغير أقيم لروح الجبل وللنمر الذي لا يفترق عنه . وغالبا ما تكون الصلوات بهذا الهيكل الثانوي الصغير أكثر حرارة من الصلوات التي تقام بالمعبد البوذي الرئيسي ، رغم صور بوذا وتماثيله المغشاة بالذهب .

أكثر الديانات أتباعا

أما البوذية فهي أبرز الديانات في كوريا ، ولها تأثيرها أيضا في أعماق الكوريين ، ويبلغ عدد معتنقيها ٧,٥ ملايين نسمة ، أي نسبة مساوية لجميع الدينيين الذين يعتنقون ديانات أخرى ، ومجموع عددهم لا يتجاوز سبعة ملايين . عن البوذية وتأثيراتها في كوريا الجنوبية دار حوارنا مع مدير التعليم البوذي « باك لو أو » في المركز الرئيسي بسيول ، فقال لنا :

البوذية هي الديانة الأجنبية الأولى التي لاقت قبولا

واسع النطاق في كوريا . وقد دخلتها حوالي سنة ٣٧٢ عن طريق الصين بواسطة رهبان مبشرين . وحينما اعتنقتها الأسرة المالكة في عهد مملكة شيلا بسبب معجزات نسبت إلى بعض القديسين البوذيين اقتفى السكان أثرها . وسرعان ما غمرت سفوح التلال الكورية بالمعابد والأيقونات والأديرة وأبراج المعابد وتماثيل بوذا الصخرية « ميروك » . وتألقت الفنون الهندسية المعمارية والنحت والرسم ، والدراسات النظرية البوذية .

وإذا كانت البوذية قد فقدت مكانتها بعض الوقت خلال الاضطرابات السياسية في عهد مملكة كوريو وأثناء حكم أسرة « يي » التي طردت رجال البوذية في عام ١٣٩٢ من العاصمة ، إلا أنها انبعثت من جديد خلال السنوات الأخيرة ، واقتربت في مظهرها من روح العصر ، وسعت الى توثيق الروابط مع الحركات البوذية في البلاد الأخرى ، واتخذت مبادىء جديدة تسعى لخدمة المجتمع ، وتتعاون مع مختلف الديانات في إطار حركة المسكونية العالمية كغيرها من الأديان .

إذا كان هذا هو تأثير البوذية في أعماق الكوريين ، ففي الأعماق الدفينة منهم أيضا تأثيرات الفلسفة الكونفوشيوسية التي تركت أثرا هاما في تكوين الشخصية الكورية . وقد كان التبحر في دراسة مؤلفات كونفوشيوس في الأخلاقيات والفلسفة ، هو الطريق الوحيد نحو النجاح السياسي والاجتماعي ، خاصة في عهد مملكة « زوسان » . وكانت الامتحانات التي تنظمها الدولة ويرسب فيها كثير من المرشحين سنوات متلاحقة هي المعيار الوحيد لقبول المثقفين في المناصب الادارية . وهذه المناصب هي المهنة الوحيدة التي كان في إمكان أي شخص مثقف موهوب أن يطمع في توليها دون مساس بكرامته .

الكل في واحد

الذي لا شك فيه أن العقائد والديانات لها تأثيرها الكبير على الثقافة الكورية . ولأن كوريا ظلت فترة طويلة ساحة لصراعات السياسة الدولية ، فقد وجدت على أرضها أيضا مختلف الثقافات والايديولوجيات القادمة من الشرق والغرب .

إن أي زائر لسيول سيلفت نظره مشاهد الحيوية والنشاط المرتبطة بوجود الثقافات التقليدية جنبا الى جنب مع الثقافات الحديثة . ومهما تلاقت الديانات والعقائد العالمية والتقليدية على الأرض الكورية بين شامانية وبوذية وكونفوشيوسية ومسيحية واسلامية .

فإن أيا منها لا يستطيع وحده تمثيل الثقافة الكورية الحديثة . فتحت هذه الظروف يمارس الكوريون حياتهم الروحية بانسجام وتآلف ، وكما ذكرنا فان أي عضو في الأسرة يستطيع اعتناق أي معتقد من المعتقدات والفلسفات والديانات دون حرج .

فالجدة قد تكون شامانية ، والأم بوذية ، والأب كاثوليكي ، والحفيدة بروتستانتية ، والابن مسلم ، دون أي تفسخ للعلاقات الأسرية . فرغم هذا الاختلاف العقائدي في الأسرة الواحدة فإن الانسجام بين الأفراد مظهر اجتماعي واضح .

ومنذ القدم كان الكوريون يتجمعون معا لتقديم الأضحيات الطقوسية لعبادة الله ، ويمارسون الرقص والغناء ، خلال أداء مختلف الطقوس . فكلهم يعيشون على نفس الأرض التي تمسكوا بها وأحبوها ، بجبالها ووديانها وأنهارها . وهم على هذه الأرض يحتفظون بعباداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وعواطفهم . وإذا كانوا قد استقبلوا عقائد وديانات قدمت إليهم من خارج الحدود ، إلا أنهم عرفوا كيف يتكيفون معها ويكيفونها مع معتقداتهم الأصيلة ، دون أن يقتلعوا الجذور التي تربطهم بالوطن والأرض والتاريخ .

من هنا .. فإنه لكي نفهم التجربة الكورية فإن علينا أن نفهم الانسان الكوري . ولكي نفهم الانسان الكوري فعلينا أن نسبر أغواره وأعماقه . وهنا فقط نكون قد أجبنا عن السؤال الذي ذهبنا للبحث عن إجابته .

التجربة الكورية .. هل هي وهم .. أم معجزة .. ؟ □

إنهم يزرعون خلايا المخ

إعداد : الدكتور محمد نبهان سويلم

أثناء احتفال الولايات المتحدة الأمريكية بالعيد المئوي لتمثال الحرية عام ١٩٨٦، لاحظ المشاهدون شخصا عرفوه جيدا وهو في عنفوان قوته ، وقد أخذ ذراعه يرتعش بحركات لا إرادية . لم يكن هذا الرجل الذي اختير مع شخصيات شهيرة كثيرة ليشارك في الاحتفال المذكور إلا الملاكم محمد علي كلاي .

فما الذي حدث « للملاكم الأعظم » حتى صدرت عنه تلك الارتعاشات ؟ وما هو مرضه ؟ وهل هناك إمكانية للشفاء ؟؟

خلال احتفال الولايات المتحدة الأمريكية بالعيد المئوي لتمثال الحرية ، جمعت الهيئة المنظمة نخبة من مشاهير البلاد في شتى الأنشطة ، ليقدموا التهنئة بالمناسبة ، ويرددوا مع الجماهير الأناشيد والأغاني . وكان من بين المشاركين محمد علي كلاي ، أشهر ملاكمي هذا القرن . لكن راع من شاهدوه ارتعاش ذراعه اليسرى ، واهتزازها هزات لا إرادية . إن أسباب هذه الرعشة معروفة جيدا للأطباء ، وهي رد فعل طبيعي للضربات التي تلقاها طول فترة ممارسته للملاكمة ، ولها نفس مظاهر المرض الذي يصيب العجائز والطاعنين في السن ، ويحد من قدرتهم وحيويتهم ، ويعجزهم عن الحركة والحل والترحال .

عادت الأذهان صوب سويديين أربعة ، ثلاثة رجال وسيدة ، قاسمهم نفس المرض ، وحار معهم الأطباء ، ولم يجدوا حلا سوى زرع خلايا جديدة

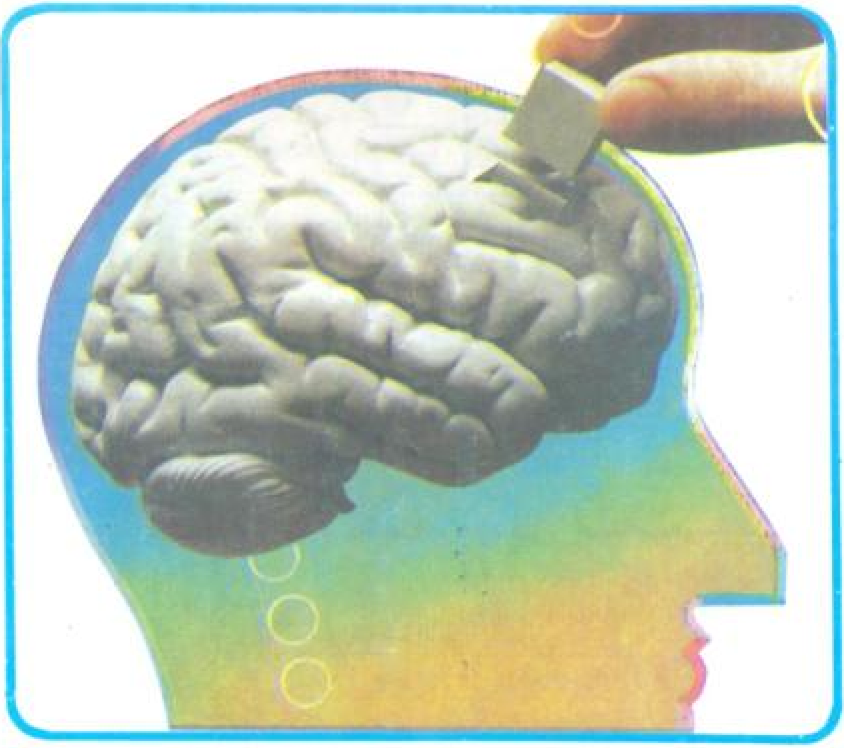

- خلايا صالحة محل خلايا تالفة ، وكأنها قطع غيار آلات وماكينات ، وليست خلايا عصبية .

داخل مخاخهم . بعد أن تقدم العلم وقطع شوطا بعيدا في نقل الأعضاء ، حتى أصبح الأطباء مثل مهندسي السيارات ، يستبدلون قلبا أو كلية أو رئة ، ويضعون الصالح مكان التالف . وعلى الرغم من أن التجربة على أولئك الأربعة قد تمت ، فإن فكرة زرع خلايا داخل المخ ما زالت غامضة ومجالا طبيا بكرا ، يخافه كثير من الناس ويرتجفون عند ذكره ، فهي جراحة جديدة ، نتائجها غير مؤكدة على الرغم من اعتقاد الأطباء الراسخ بأن هذا الاحلال والاستبدال للخلايا قد يكون في قابل الأيام علاجا جراحيا وحيدا ، يحل قدرا كبيرا من المشاكل التي قد يعاني منها بعض الناس نتيجة إصابة أو مرض .

عالم غامض

إن الاقتراب من خلايا المخ بمشارط الجراحة تحيط به - نفسيا - مؤثرات اجتماعية كثيرة ، ومؤثرات علمية أكثر ، فما زال مخ الانسان عالما غامضا على الرغم من كل الأبحاث والمعلومات المعروفة ، فهناك أسرار لم تتساقط أستارها ، كما أن الخشية واجبة ، والحرص مطلوب خوفا من تأثر المخ أو اختلال وظائف قطاعاته ، لكن العلماء يرون أنهم يتعاملون مع عدد محدود جدا من الخلايا ، ولا ضرر أو ضرار ، والدليل على ذلك نجاح العمليات على الرغم من أن فترة النقاهة قد تطول وقد تقصر ،

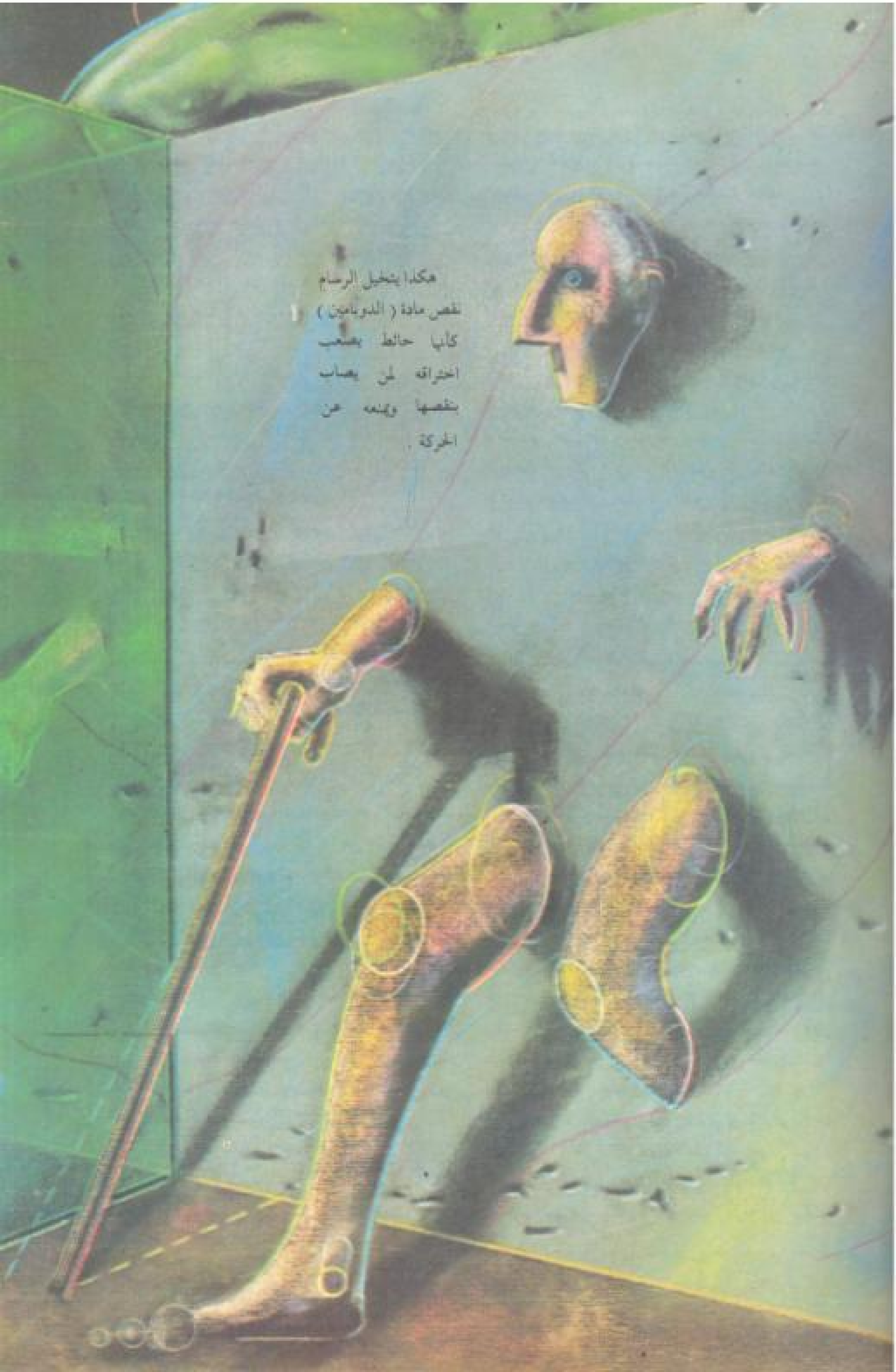

هكذا يتخيل الرسام نقص مادة (الدوبامين) كأنها حائط يصعب اختراقه لمن يصاب بنقصها ويمنعه عن الحركة .

فزراعة خلايا داخل المخ ليست مثل نقاهة مريض استؤصلت زائدته الدودية ، تمر عليه أيام معدودات ثم ينهض من رقدته سليما معافى ، ويعاود مزاولة حياته كأن شيئا لم يحدث ، بل إنها عمليات لها آثار بطيئة ، يوما تلو آخر تتجمع النتائج الايجابية وتتراكم ، ويبدأ المريض بعد فترة قد تطول إلى عدة أشهر في استجماع قوته ، ليصبح قادرا على العناية بنفسه .

يعتقد العلماء أنه في غضون سنوات خمس قادمة سوف تصبح جراحات زراعة خلايا المخ أمرا شائعا ، على الرغم من حاجتهم إلى معارف أساسية متشعبة عن التركيب البنائي وشبكة الاتصالات الحيوية بين الخلايا العصبية .

بيد أن هذه العمليات ليست فكرة جديدة أو مبتكرة كما يتصور بعضهم ، لكن القوة الاعلامية الحالية قد ركزت عليها أضواءها ، وأكسبتها ما ليس لها . ففي عام ١٩٠٣ ميلادية أجرت الباحثة الامريكية اليزابيث دوون من جامعة شيكاغو نقل أنسجة مخ فأر الى مخ فأر آخر . وقد لقيت عنت معارضة شديدة ، وإثارة قوية ، لكنها صمدت ، ونجحت ، فكان لها سبق الريادة بفتحها هذا السد المنيع من سدود العلم .

ان الذين عارضوها ، وصبّوا جام غضبهم عليها اعتمدوا على ما أوردته كتب الجراحة القديمة ، بأن الطفل يولد مكتمل المخ ، وأن بالمخ عددا ثابتا ومحددا من الخلايا ، ثم تبدأ الخلايا في الموت بتدرج وانتظام ، وبذلك ينتفي عمل الباحثة .

خلايا المخ .. تتجدد

ومعنى هذا أن خلايا المخ غير قادرة على صيانة ذاتها وتجديد خلاياها . وقد أكدت الأيام صدق حدس الباحثة ، وسقوط ذريعة المعارضين . فمن خلال بحوث مرهقة أجراها الدكتور جوفري رايزهان إبان فترة الستينيات أثبت النتائج أن خلايا المخ تتجدد ، شأنها شأن كل خلايا الجسم ، إذ لا حياة دون موت ، ولا موت دون حياة ، حتى على مستوى الخلايا ، ولولا هذا التجدد والنماء ما أمكن اندمال جرح ، أو التئام كسر عظمة . فقد راقب الرجل خلايا مخ دمره حادث تصادم مروع ، فوجد أن خلايا سليمة على مقربة من خلايا مدمرة تنمو نموا سريعا ، وتمتد مثلما تمتد ذراعا أم حانية إلى المنطقة المدمرة ، وتؤدي نفس وظائف الخلايا القديمة .

وحتى يفحم الرجل كل الأفواه المعارضة كان لا بد له من دليل لا يأتيه الباطل من يسرة أو يمنة ، فلجأ إلى الميكروسكوب الالكتروني فجاءته الصور بخبر دليل على صدق مقولته ، وهو نفس ما توصل اليه عالم أمريكي آخر هو الدكتور فيرناندو نوتن الأستاذ بجامعة روكفلر ، والذي رأى عين خلايا لحاء القشرة الخارجية لمخاخ الطيور تنمو وتتغير وتتبدل كل سنة ، وبذا تتعلم أنغاما جديدة تشدو بها فوق الأغصان ، وهذا موضوع طريف ، وأبحاث علمية جديدة ، تجري على مخاخ الطيور المغردة .

إن انبثاق خلايا عصبية جديدة أمر حيوي ، والأكثر حيوية منها خلق تشابكات عصبية توصل الرسائل بين الخلايا ، وتنقل الأحداث ، وتترجم مؤثرات البيئة إلى عقل الانسان ، لذلك ركز الدكتور ماريان دياموند أبحاثه على هذا القطاع ، مستخدما بعض فئران التجارب ، فإذا به أمام حقيقة مؤداها أن الفئران البالغة التي تحيا ضمن إطار بيئة نشطة حافزة تنمو لها شبكات بالقدر المطلوب .

كل هذه الحقائق ـ وسواها كثير ـ جعلت أبحاث زرع خلايا المخ أمرا ممكنا ، ومع بداية عام ١٩٦٦ ميلادية ، بدأت تجارب محدودة ، مثل نقل خلايا مخ فأر رضيع الى مخ فأر آخر تارة ، ونقل خلايا عين فأر وليد إلى عين فأر كامل النضج ، وقد تم ذلك وفق « تكنيك » جراحي بسيط ، يتلخص في إحداث شق صغير ، توضع داخله الخلايا الجديدة .

ولو قدر لأحدنا رؤية الخلايا المغروسة لرأى دائرة دقيقة لونها أبيض ، لو تابعها عدة أيام أخرى سوف يلاحظ نمو الخلايا وامتدادها وتشعبها ، وتجاوزها منطقة الغرس ، لدرجة دعت العلماء إلى قياس

مناطق الامتداد ، وحساب معامل التمدد اليومي . وقد يستحيل تسجيل مثل هذه المعلومات لو جرت العملية داخل خلايا المخ .

هنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال : لماذا عين الفأر وليس مخه ؟ وهو سؤال جيد نلمح إجابته من قول الدكتور الذي باشر التجارب ، لأن العين جزء متقدم من المخ ، وهي عضو بارز تسهل مراقبته ، وملاحظة تطورات الغرس ، ومدى قابلية الخلايا الجديدة والقديمة للاندماج والتواؤم والتلاحم ، أضف إلى ذلك عدة اعتبارات ، لعل أكثرها أهمية عدم احتواء قرنية العين على شعيرات دموية تربك عملية الزرع .

ومضت الأيام وتكررت التجارب على فترات أخرى باستخدام خلايا تم اختيارها بدقة متناهية وعناية شديدة ، حتى أن خلايا من قلب فأر قد غرست في عين فأر آخر ، فإذا بالخلايا الجديدة تستجيب للضوء الشديد ، وتتسع مع الضوء الخافت .

خطوات حاسمة

التقط علماء الولايات المتحدة الأمريكية طرف الموضوع من علماء أوروبا وأطبائها ، وتشكل فريق بحث ضم مجموعة رائعة من أعلى التخصصات العلمية والطبية ، وأفرز هذا التجمع الأكاديمي أول مؤتمر في العالم لبحث مشاكل مرضى باركينسون ، وهو مرض سمي باسم مكتشف أعراضه الدكتور الانجليزي جيمس باركينسون ، إبان عام ١٨١٧ . من مظاهر هذا المرض زيادة صعوبة الحركة في البلع والنطق ، وجمود حركة الوجه ، ورعشة اليدين والذراعين . وبتقدم مرحلة المرض لا يستطيع المريض الاعتناء بنفسه . وهو مرض يصيب حوالي مليون شخص من كبار السن في الولايات المتحدة الأمريكية كل سنة .

كل هذه الآلام بسبب نقص إفراز خلايا المخ لمادة الدوبامين .

وقد عالج الأطباء هذه الأعراض بأنواع مختلفة من العقاقير والأدوية ، كلها تسبب نوعا من الادمان ، وتولد حاجة إلى زيادة الجرعة ، مما ينجم عنه عودة أعراض المرض للظهور ، لهذا وجدوا ضالتهم في بحث إمكان زراعة خلايا إفراز الدوبامين بنفس النهج الذي تم على المرحلة التجريبية ، وقد حققت النتائج الأولى نجاحا تجاوز ٩٧٪ ولم يفشل العلاج سوى مع فأر واحد من ثلاثين فأرا تم إعداد مخاخهم بحيث يتعذر عليها إفراز الدوبامين ، ثم غرست داخل مناطق الافراز خلايا جديدة .

وتدريجيا تطور الأمر إلى التجارب على القردة العليا الأقرب تركيبا إلى الانسان ، وباتت المرحلة الانسانية تقترب من بدايتها ، وإن استحالت فعليا ، إذ يستحيل أخذ خلايا من مخاخ رضع لدرء خطر المرض ، ووقع العلماء في حيص بيص .

ولأن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، وعالم باحتياجاتهم ، ومقدر عليهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، لم يقصر إفراز المادة على خلايا المخ وحدها* ، فخلق للانسان مصدرا بديلا منذ خلقه الأول ، لم يعرفه العلماء ، بل ظل غائبا عن الأذهان حتى اهتدوا إليه بعد لأي ، فوجدوه أعلى الكلى ، حيث الغدة الكظرية ، فهناك المنبع البديل والاحتياطي الاستراتيجي للمادة الحيوية . وقد نشطت تجارب العلماء مرة أخرى على قص بعض هذه الأنسجة ، وإعادة زراعتها في المخ ، وقد ترددوا كثيرا ، وأعادوا تجارب خلايا الغدة الكظرية على الفئران مرة ومرات ، بأن قطعوا الخلايا الى قطع دقيقة رقيقة ، ثم حقنوها داخل خلايا المخ ، وبدأت القطع المدخلة في النمو ، وتحول شكلها الجيبي إلى الاستطالة ، واتخذت هيئة الخيوط العصبية الدقيقة ، ولم تمر عدة أيام حتى نشط إفراز الدوبامين ، وتحسنت الحركة العضلية الشاملة للفئران وعاد إليها اتزانها ، فقرر العلماء نقل التجارب الى الثدييات اقترابا من الوثوقية المطلوبة

* تقع خلايا إفراز الدوبامين على جانبي المخ من جهتي اليسار واليمين ، وغالبا يتم غرس الخلايا الجديدة في كلا الجانبين .

فور إقرار تنفيذ التجارب على الانسان سيد المخلوقات .

مع بداية عام ١٩٨٢ ميلادية ، وداخل مستشفى كارولينسكا بالسويد بدأت التجارب البشرية تحت مظلة الخوف والرهبة والاستعداد الكثيف لما يتوقعون من ايجابيات وسلبيات ومفاجآت . وعبر شق جراحي بالظهر يزال ثلث الغدة الكظرية ، بينما يكون المريض واقعا تحت تأثير التخدير ، ويقسم النسيج الى عشرات القطع الصغيرة ، كل واحدة منها لا تزيد عن ميللمتر مكعب واحد ، وبعد ذلك يتم تفتيت المكعب الواحد إلى قطع أدق ، تسحب باستخدام محقن خاص ، وعبر ثقب صغير ذي عمق محدود على جانبي الرأس يتم حقن الخلايا الجديدة .

هذا ما يحدث تماما . فهل لنا أن نتابع حالة المرضى الأربعة ؟؟

لم تمض أيام معدودات إلا وتحسنت حالتهم ، واستقرت حالتهم المرضية ، وبعد عدة أسابيع استعادوا قدرا من حيويتهم ونشاطهم ، وعندما فحصت سوائل الأحبال الشوكية عثر على قدر غير ضئيل من الدوبامين . وبعد ثلاث سنوات ونصف من الجراحة استقرت الحالة المرضية لثلاثة منهم عند أدنى مظاهر المرض ، وأصبحوا قادرين على المشي والحركة والعناية بأنفسهم .

ردود فعل

لقد أحدثت عمليات زرع خلايا المخ ردود فعل عالية واسعة المدى ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، وهناك من عارضوا وما زالوا معارضين ، وهناك من أيدوها دون تردد أو تحفظ ، وفيما بين أصحاب الرأيين كل المهتمين ، حتى بدأ فريق بحثي مضاد في الجامعات الأمريكية أبحاثا على تحقيق المادة معمليا من بعض نفايات المواد المخدرة في محاولة لوقف عمليات زرع الخلايا .

هنا قد يندهش بعضهم من ردود الأفعال ، ويتساءل : لماذا ؟

والاجابة ببساطة أن التخوف ما زال قائما على الرغم من أن زراعة الخلايا قد تعيد لبعض فاقدي البصر هذه الهبة الالهية الغالية ، فقد أكدت الأبحاث الجديدة التي جرت في جامعة مينسوتا الامريكية شيئا أقرب الى الخيال ، مفاده أن الخلايا المغروسة تعرف تماما الطريق الذي تتجه صوبه ، وكأنها إنسان كامل العقل والادراك ، يعرف تماما وجهته وأهدافه ، والطريق الذي يتحتم عليه أخذه تحقيقا لغاياته وأهدافه . فقد لاحظ العلماء أن غرس أنسجة قرنية العين داخل مخاخ الفئران التي فقدت بصرها يعقبها أن الخلايا الجديدة تعبر كل مناطق المخ ، وتتجه دون تردد أو تخبط صوب المراكز البصرية الأولية ، وفق رائعة من روائع هذا الكون المنضغط بقانون كن فيكون . ولم يحدث أن لاحظ العلماء نمو تشابكات عضوية أو اتصالات عصبية خلال هذه الرحلة الطويلة إلى أن وصلت مكان الهدف على بعد مسافات عظيمة* من موقعها الأصلي ، وهناك شكلت شبكة الاتصالات ، وأحدثت التلاحمات المطلوبة ، وكأن للخلايا شفرة خاصة ، وخطة محكمة ، واستراتيجية واضحة . وما أن فردت شعيراتها حتى بدأت تحتل مواقع جديدة ، وتهاجم الخلايا التالفة ، في محاولة واضحة لتحديد حيويتها ونشاطها .

والمأمول أن يستكمل العلم مسيرته ، فقد يكون في هذا الأسلوب شفاء لأنماس أنهك قواهم مرض باركينسون والزهيمر .

واليوم وبعد أن تجاوز عدد هذه التجارب خمسة عشر تجربة ناجحة ، وثلاث تجارب فاشلات ، فشلن فشلا ذريعا ، يبقى الأمل معلقا حتى يصبح علاج أمراض المخ عملا روتينيا لا خوف منه ، ولا قلق يحيط به ، ويبقى لنا ذكر قول الحق سبحانه وتعالى .

(وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) □

---

* الأمر نسبي ، إذ أن سنتيمترا واحدا بالنسبة لحركة خلية يعد مسافة عظيمة .

وجهاً لوجه

فتحي رضوان 9 أمينة النقاش

- المصريون يتباهون بأنفسهم بأنهم "أولاد عرب"
- أدرك عبد الناصر أن فلسطين هي بوابة مصر
- الوحدة العربية .. ضرورة من ضرورات الحياة
- أصبحت زعيماً صغيراً بعد رحلتي للمشرق العربي

فتحي رضوان ليس في حاجة إلى تعريف ، فقد أصبح إحدى الظواهر العربية التي يقرأ عنها ـ ولها ـ كل من له متابعة بقضايا الأمة العربية وأهدافها وأحلامها ، ليس في السياسة فقط ، بل في الأدب والفن والتاريخ ، وفي ميدان العمل العام الذي برز في ساحته منذ أكثر من نصف قرن كاتبا وصحفيا ومناضلا .

يعتبر فتحي رضوان من الجيل الأول لرواد الفكرة العربية في مصر في فترة كانت « المصرية » هي الشعار الغالب بعيد ثورة عام ١٩١٩ . وقد عاش ـ أمد الله في عمره ـ حتى أثمرت افكاره ، ورأى أول دولة عربية موحدة القطرين ، وكان اول وزير للثقافة في الوطن العربي في وزارة الوحدة .

ومازال على الرغم من كل التيارات التي جرت في الأنهار المصرية والعربية يحمل هذا الاخلاص الثابت للفكرة العربية . وحول هذا الثبات ، ونشأته وظروفه دار معه هذا الحوار الذي أجرته الزميلة أمينة النقاش .

* أنت من جيل جمع في شبابه بين الدعوة لتحرير مصر وانتمائها للأمة العربية ، وفي نفس الوقت اشتركت في مشروع القرش ودعوت للرابطة الشرقية . فما هي التأثيرات والتجارب الشخصية والعامة التي خلقت هذا التزاوج ؟

لقد نشأت شابا عاديا في المجتمع المصري . وحين نتأمل في هذا المجتمع نجد أن كثيرا من التيارات التي تبدو متعارضة أحيانا ، هي في الواقع تيارات متناسقة ، ومنتظمة في آن واحد . فالعروبة والمصرية قد تتعارضان في تصور بعض الأشخاص الخاضعين لمؤثرات بعينها ، كالوقوع أسرى للفكر الغربي دون عقلية نقدية ، أو للانتهازية ، أو لأغراض دنيوية خاصة بالجاه أو النفوذ ، أو لخدمة جهات بعينها ، أو بسبب قصر النظر وعدم الفهم .

فالفلاحون وعامة الناس لايعرفون شيئا اسمه مصر ، وهم حين يتحدثون عن مصر ـ أم الدنيا ـ فهم يعنون بها « القاهرة » ، كما كان المثقفون لايعرفون شيئا اسمه العروبة حتى صرت شابا ، فثقافتهم الاسلامية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء الراشدين وعن الحضارة في بغداد ، ودمشق ، والأندلس ، وشمال أفريقيا ، تصب ـ في مفهومهم ـ في سياق الاسلام ولبس العروبة .

ولذلك فقد فهمت المصري عبر أمثاله الشعبية ، وعاداته ، فالمصريون العوام لايصفون أنفسهم بأنهم مصريون فقط . فالمصري لايصف جاره بأنه مصري يسكن بجواره ، ولكنه يقول « ابن عرب » ، وهم حين يتباهون بأنفسهم يقولون « نحن أولاد عرب » ، وحين أنشئت أحياء للمصريين في بورسعيد والاسماعيلية إبان الاحتلال البريطاني سميت « حي العرب » .

من هنا فإن المصري يؤمن بعروبته ، ويعتز بها بالفطرة ، وعبر حكاياته الشعبية ، فعنترة بن شداد عربي ، وهو رمز للشهامة ، والمغني الشعبي كان يحكي بصحبة ربابته قصة « الهلالية » ، وكيف كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر في المنطقة العربية دون حواجز ، أو جوازات سفر ، فهي أمة واحدة .

الولادة والنشأة

وأردف قائلا : ولدت في حي « السيدة زينب » بالقاهرة ، وهو حي امتلك فؤادي وإعجابي دون حدود . وأعتقد أن تاريخ مصر الحديث قد ارتبط به ، كما أنه حي نموذجي ، يحمل كل خصائص

المجتمع المصري بمختلف ألوانها . فالعرب والعروبة والاسلام والمصرية تبرز بسهولة فيه وتتزاحم فيما بينها ، حتى يخيل للمرء أن العروبة تشاغب المصرية ، والاثنتين تزاحمان الاسلام ، والثلاث تسير معا في نهاية يوم من العراك بمحبة وألفة لامثيل لها .

وفي هذا الحي قامت جريدة اللواء التي أسسها مصطفى كامل ، واتخذ من دارها مقرا لنشاطه السياسي والوطني ، وفيه أقيم بيت الأمة - بيت سعد زغلول - الذي اتخذه المصريون لنشاط ثورة ١٩١٩ . وإلى هذا الحي انتسب عدد من كبار المفكرين والكتاب ، منهم مصطفى لطفي المنفلوطي ، وعبد العزيز البشري ، وعلي الجارم ، ومحمد الساعي .

كما شهد هذا الحي أول حادثة قتل سياسي في مصر الحديثة ، حيث قتل بطرس غالي باشا عام ١٩١٠ ، بسبب مشاركته في المحكمة التي أعدمت الفلاحين المصريين في دنشواي ، ثم سعيه لمد امتياز شركة قناة السويس مدة أربعين عاما . وفيه أيضا اغتيل السير لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان في نوفمبر ١٩٢٠ . وفيه مات أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول ، زعماء الحركة الوطنية المصرية ، وفي دار من دوره انعقد المؤتمر الوطني عام ١٩٢٦ للمطالبة بعودة الدستور .

لماذا ألم بي الخوف ؟

في عام ١٩١٩ - عام الثورة الوطنية المكانية - كان حينا يودع كل يوم شهيدا من شهداء الحركة الوطنية في جنازة ضخمة ، تشبه المظاهرة ، وترفع عليها واحدا يحمل الهلال والصليب جنبا الى جنب .

ويستطرد فتحي رضوان : « لقد رأيت بعيني في يوم من أحد أيام هذا العام جنود الاحتلال البريطاني يقتلون برصاصهم المسموم ثلاثة مواطنين ، وعدت إلى المنزل بعد هذه الواقعة ، ونفسي غير راضية ، أسائلها لماذا ألم بي الخوف ؟ ولماذا صمت وصمت الآخرون ؟ وفيما بعد تكشف لي أن ما حدث لم يكن خوفا ، بل حذر من العدو الذي يرغب في دفعنا لعمل طائش ينتهي بمزيد من القتل .

وأذكر أني في صباي كنت أتابع - بعد صلاة العشاء بمسجد السيدة زينب - الخطباء الذين يتبادلون بجسارة إلقاء الخطب الوطنية الحماسية دون خوف من تهديدات الانجليز ، أو خشية من بطشهم . وتعلمت في قلب هذا المكان فن الخطابة بمعناها الصحيح .

ومن قلب هذه المواقف وغيرها تفتحت مداركي ، وترسخت مشاعري الوطنية ، وانتميت إلى هموم الوطن والأمة .

بالاضافة إلى حكايات والدتي التي كانت شديدة الطموح ، عاشقة لكل ما هو جميل في الشعر والنثر والزجل ، محبة لرواية سير الملوك ، وبطولات الزعماء ، فضلا عما منحني إياه حي السيدة زينب ، ذلك الحي الفريد الفذ .

في هذه الأجواء التي تنفست العزائم والبطولات ، وودعت الشهداء ، وتوحدت فيها مشاعر الأمة ، وطوائفها امام الخطر الخارجي ، والتحمت فيها مشاعر العروبة والاسلام والمصرية . في هذه الأجواء نشأت ، وتنفست المشاعر العروبية ، والاسلامية ، والمصرية . فما أنقى صورهم عن طريق الواقع ، لا عن طريق الكتب والمجلات .

الرابطة الشرقية

* وكيف نشأت فكرة الرابطة الشرقية ؟

نشأت هذه الفكرة في الثلاثينيات ، بعد أن تبين لي أننا - نحن العرب - أضعف حلقة في بلدان الشرق ، فقد ساقت لي الصدف فرص التعرف على عدد من الطلاب الشرقيين من تركيا وسمرقند والصين واليابان ، ممن يتلقون العلم في الجامعة المصرية والأزهر . كنت آنذاك أشعر أن الحركة الوطنية في

الوطن العربي هزيلة فكريا وثقافيا وحركيا مقارنة ببلدان الشرق الأخرى . وكنت أبحث عن الوسائل والقدرات التي تمكننا من مواجهة الاستعمار الانجليزي والفرنسي ، كما واجه الأتراك اليونانيين وطردوهم من بلادهم ، وكما حرر اليابانيون والأندونيسيون بلادهم من الهولنديين ، ففكرت أن عملا مشتركا بين كل الشرقيين من شأنه أن يصعد بمصر ويقويها ، ويزيل أي خوف من مواجهة الدول الاستعمارية . وتعمقت لدى فكرة الرابطة الشرقية ، ففكرت في عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين لتوثيق الروابط بين الوطن العربي والدول الشرقية ، وتوسيع نطاقها ، وأقنعت بها عددا من أساتذة الجامعة ، منهم عبد الرازق السنهوري وأحمد أمين وعلي ابراهيم وعلي مشرفة وأمين الخولي وعبد الوهاب عزام .

واستكمالا لجهودي في عقد مؤتمر الطلبة الشرقيين سافرت وأنا في السنة الثانية بكلية الحقوق مع زميل كمال الدين صلاح - الذي دفع حياته ثمنا لحركة التحرر الوطني الافريقية ، حيث لعب دورا في تغذية تطلعات الدول الافريقية المستعمرة للاستقلال ، حين كان يعمل رئيسا للمجلس الاستشاري للأمم المتحدة في مقديشو ، حتى أعلن استقلال الصومال ، حيث اغتالته القوى الاستعمارية - إلى العراق وفلسطين وسوريا وتركيا ولبنان للدعوة لهذا المؤتمر . فاستقبلنا استقبال الأبطال ، وفزعنا من كبر حجم الاستقبال لطالبين مصريين لاشأن لها بعد . وألقيت محاضرات في الجامعة السورية ، تحدثت فيها عن عروبة مصر وعن الوحدة العربية .

وحين عدت للقاهرة كتبت عدة مقالات عن رحلتي السابقة في الأهرام والبلاغ ، فكان لها أبلغ الأثر على شخصي ، وعلى فكرة الرابطة الشرقية .

بعد هذه الرحلة تحولت إلى زعيم صغير على مشاشي ، لكن مقالاتي أوغرت صدور المسئولين والملك من جانب ، وسلطات الاحتلال البريطاني من جانب آخر ، مما دفعهم لالغاء كافة الترتيبات لعقد مؤتمر الطلبة الشرقيين . وكان من أطرف الأسباب التي استندوا إليها أنني دعوت في مقالاتي إلى زعامة مصر للأمة العربية ، وقد فهم الملك أنني أدعو لزعامة النحاس باشا - زعيم حزب الوفد ، وخصم الملك اللدود - مع أنني كنت ضد النحاس باشا - ولم أتعاون معه في أي عمل مشترك من قبل . وطويت فكرة الرابطة الشرقية منذ إلغاء عقد المؤتمر .

يوليو العروبي

* شاركت بنصيب في المسئولية التنفيذية في السنوات السبع الأولى من ثورة يوليو ، وكنت قريبا من قياداتها ، فكيف تخلق الفكر العروبي للثورة وقادتها ؟

استطيع القول بكل ثقة أن عبد الناصر كان تلميذا وفيا جدا لمدرسة مصر الفتاة السياسية ، وكان في سنوات حكمه الأولى يقلد أحمد حسين في طريقة خطبه المرتجلة متكررة المعاني ، وقد أشيع أن المبادىء الستة الشهيرة لثورة ٢٣ يوليو قد بدأت مع قيام الثورة ، وهذا غير صحيح ، فلم ترد تلك المبادىء على لسان عبد الناصر ، لا لي ولا لغيري ، لكنها تبلورت بعد أن نضج عبد الناصر ، وخاض معارك كثيرة ، فأصبحت هذه المبادىء ليست مبادىء الثورة ، لكنها مبادىء تنفيذ الثورة .

ولقد غزا فكر مصر الفتاة العروبي الخاص بقضية فلسطين ومصر والسودان قلوب أعداد هائلة من الضباط ، بينهم الضباط الأحرار ، لكن تأثر عبد الناصر بالقضية الفلسطينية كان مختلفا ، فقد شارك في حرب فلسطين ، وحين تولى السلطة درس وقرأ كثيرا ، وأخذت أفكاره تتكون من الوقائع والقراءات ، فضلا عما يسمع ويرى ، فأدرك بوضوح لالبس فيه أن بوابة مصر للتحرر هي فلسطين ، وأن إضعاف النفوذ الأجنبي على مصر كفيل بتحرير فلسطين .

وأستطيع أن أقرر للتاريخ أن البعد العروبي لدى عبد الناصر واهتمامه بقضية فلسطين ، والربط بينها وبين نقد مصر ، كانت خاصية تميز بها عبد الناصر وحده دون غيره من الضباط الأحرار . فطوال الفترة التي بقيت فيها وزيرا وبعدها عام ١٩٦٤ لم أسمع من أي واحد من الضباط الأحرار الذين يتقلدون مناصب الدولة المختلفة أي حديث أو فكرة تشير من قريب أو بعيد إلى اهتمامهم بالفكر العروبي . لقد كانت العروبة وفلسطين هما من هموم عبد الناصر ، وقد وضع الاهتمام بهما وهو قائد وحاكم في مقدمة أولوياته .

هزائم مؤقتة أم انحسار

● هل يمكن القول بأن عروبة العرب قد تراجعت في العقد الأخير ، وأن الاحساس بالتوحيد والمصير المشترك أخذ في الانحسار ؟

دمعت عينا فتحي رضوان وهو يجيب عن سؤالي فقال بأسى :

هذا سؤال فيه لبس ، يحتمل أكثر من إجابة ، فبعد الهزائم العسكرية المتوالية التي لحقت بالأمة من المحيط إلى الخليج فإن فريقا منها أخذ ينشط دفاعا عن مصالحه ، وينفث سمومه ضد قضية العرب والعروبة ، والحد من عبد الناصر وسياساته هدفا لهجومه ، فحدثت أضرار للفكرة العربية وسط هجمة شرسة على كل سياسات عبد الناصر ، الصائبة والخاطئة .

وهناك فريق آخر من الأمة يتاجر بالعروبة ، وفريق ثالث يكرهها كراهية رسمية ، لكنه لايعبر عن ذلك صراحة .

ولقد أدركنا نحن أبناء هذا الجيل قضية الوحدة العربية وأنها ضرورة في وقت توحش فيه الاستعمار ، وأصبحت فيه الوحدة هي العدو اللدود للاستعمار ، فبذل - ولا يزال يبذل - جهودا مضنية لعمل الانقلابات والمؤامرات واصطناع الحكام المعادين للعروبة والتوحد الفعلي للعرب .

لكن الصورة ليست مظلمة ، فإلى جانب هذا وذاك يوجد في الأمة مثقفون وسياسيون لايرضون عن هذا الفساد الذي يستشري في جسدها ، ويزداد تعلقهم في الوحدة يوما بعد آخر ، وإيمانهم عميق بقضيتي الوحدة والعروبة .

طويت أوراقي ، وحين هممت بالانصراف كان فتحي رضوان قد أخذ بالاشتغال بإعداد مرافعة عن عدد من المعتقلين السياسيين في أحد الأقطار العربية .

شددت على يديه وقلت باسمة :

نعم ليست مظلمة تماما ! □

● الاختلاف في الرأي ينبغي ألا يؤدي الى العداوة والا لكنت أنا وزوجتي من ألد الأعداء .
(سقراط)

● عيّر ثعلب لبؤة بأنها إنما تلد في عمرها كله شبلا واحدا ، فقالت : نعم إلا أنه « أسد » .

● تصادق مع الذئاب ، على أن يكون فأسك مستعدا .

(مثل روسي)

● خير لك أن تشعل مصباحا ضئيلا لايكاد يرى ، من أن تنفق وقتك في استمطار اللعنة على الظلام .
(كونفوشيوس)

اقرأ في العدد القادم من

العربي

مارس ١٩٨٨

- نحو بناء آلة ذكية!
  د. علم الهدى حماد
- تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي
  د. عبده عبود
- المرأة العربية ودورها في النشأة الوطنية
  د. اسعد عبد الرحمن
- لقاحات الإيدز.. طموحات وعقبات
  سمير صلاح الدين شعبان
- التربية.. هل هي الدواء لكل أدواء المجتمع؟!
  د. سعيد اسماعيل
- "الأولمبياد" له قصة
  عادل شريف
- العناكب.. كائنات مبدعة!
  د. وسمية الحوطي
- كتاب الشهر: الهمذاني لسان اليمن
  عرض: د. حسين العمري

قارة اكتشفها مغامر في الشرق الأقصى السوفييتي
سليمان الشيخ

- وجها الوجه: د. محمود المسعدي و د. محمود طرشونة
- العمارة الإسلامية في الإمارات العربية المتحدة
  صادق ياجي

واقرأ أيضا للكتاب

د. محمد الرميحي - د. عبد العزيز كامل - د. محمد الجوهري - د. هاني الراهب

فاروق شوشة - د. عادل عبد الكريم ياسين - د. حامد أبو أحمد - د. صباح اسماعيل علي

الصراع "الديمغرافي"

بين الشمال والجنوب

بقلم : الدكتور عبد الإله أبو عياش

« لم يعد الصراع بين الشمال والجنوب مقتصرا على قضايا نقل التقنية ، وتمويل التنمية ، وتحرير التجارة وأسعار المواد الخام ، والديون وفوائدها ، فقد دخل عنصر جديد الى ساحة الصراع ، لم يكن أحد يحسب له حسابا ، فقد دفعت الظروف والمتغيرات بالبعد « الديمغرافي » الى بؤرة الاهتمام ، ليصبح بعدا أساسيا في الصراع « الاستراتيجي » الدائر » .

لم تعد قضية الصراع « الديمغرافي » مجرد رفاهية فكرية أو متعة للنقاش الأكاديمي ، وإنما أصبحت قضية حيوية ، تمس جوهر وجودنا في حاضره ومستقبله . فهناك اليوم مخاوف متنامية في أوروبا بشكل رئيسي من الخلل الحاد في التوازن « الديمغرافي » بين شمال القارة الأوروبية وجنوبها من ناحية ، وبين شمال البحر المتوسط الذي تمثله دول جنوب أوروبا وجنوب البحر المتوسط الذي تمثله الأقطار العربية .

لقد أصبحت المخاوف تطرح بأشكال مختلفة ، وبصيغ قلقة من الأسئلة والاستنتاجات والشعارات . ويتوقع عديد من المتنبئين بأنه ستحدث اندفاعات سكانية من الجنوب الى الشمال ، ذلك أن دول جنوب البحر المتوسط تتعرض لضغوط سكانية كبيرة ، بسبب الزيادات العالية في المواليد ، واتساع فئات الشباب فيها ،

خاصة فئة ١٤ سنة فأقل . وقد حدا هذا الوضع بأحد كتاب جريدة «اكسبرس» الفرنسية بول ـ جان فرانسيسي الى الاعتقاد بأن هناك حربا صليبية جديدة ممثلة بالعمالة المتدفقة من الجنوب باتجاه المدن والأرياف الأوروبية ، بسبب قلة التناسل وانخفاض النمو السكاني وتناقص المواليد في الدول الأوروبية . ويقف هذا الكاتب حائرا أمام التاريخ وتقلباته حين يقول : «بأن أوروبا التي كانت في الماضي تصدر الهجرات السكانية الى أصقاع الدنيا أصبحت اليوم مهددة بالاندفاعات السكانية القادمة اليها من جنوب البحر المتوسط . »

مزيد من السكان ومزيد من الاضطرابات

تشير الأرقام المستقبلية الى أن عدد سكان جنوب البحر المتوسط سيصل الى حوالي ٢٤٥ مليون نسمة في نهاية هذا القرن ، في الوقت الذي لم يكن عددهم يتجاوز ٤٠ مليونا في بدايته . ومن المتوقع أن يصل عدد سكان كل من مصر وتركيا الى حوالي ١٣٠ مليون نسمة ، بينما لن يكون بمقدورهما إطعام أكثر من مائة مليون نسمة في أحسن الأحوال . كما أن استمرار معدلات الزيادات السكانية الى أكثر من ٢٪ سنويا في جنوب البحر المتوسط مقابل تناقص مستمر في معدلات هذه الزيادات في أوروبا سيزيد من اتساع «الفجوة» الديمغرافية» بينهما . وفي الوقت الذي تشكل فيه فئة الأعمار ١٤ سنة فأقل حوالي نصف مجموع السكان في جنوب البحر المتوسط فإنها لا تزيد عن ٢٥٪ من مجموع سكان أوروبا .

وتتعزز القناعة اليوم بأن استمرار التزايد والضغط السكاني سيؤدي الى المزيد من الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، والى تصاعد العنف الدموي والنزاعات الاقليمية المسلحة داخل الدول وعبر حدودها . وتبرز هذه المظاهر الخطيرة في حزام الجوع الممتد من السنغال حتى أثيوبيا وعبر الدول الصحراوية الافريقية التي تعرضت مواردها للهدر والنضوب . ومما زاد الأوضاع سوءا وتعقيدا الظروف المناخية السيئة التي سادت هذه المناطق خلال السنوات الماضية . وقد نجم عن ذلك استفحال ظاهرة التصحر وامتداد الصحراء والكثبان الرملية الى المناطق الزراعية الخضراء التي تحولت الى قفر يباب . وقد صاحب ذلك هجرات سكانية مكثفة باتجاه المناطق الزراعية التي سرعان ما تعرضت هي الأخرى للتدمير مرة أخرى تحت وطأة الهجرات والضغوط السكانية .

ماذا سيفعل الجياع ؟

تشير التوقعات الى أن عدد الجياع في أفريقيا سيتضاعف من حوالي ٧٪ من مجموع السكان في الوقت الحاضر الى ما يزيد على ١٦٪ في نهاية هذا القرن . وسيؤدي هذا الى مزيد من الاضطرابات ، وربما الانقلابات والتصفيات الدموية . وقد ذكرت اللجنة الاقتصادية للقارة الأفريقية في أحد تقاريرها

«أن المستقبل والسنوات القادمة أشبه ما يكون بالكابوس. وسيكون للتضخم السكاني أثر كبير على الموارد الطبيعية. وستتحول الصعوبات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية المصاحبة لها الى اضطرابات وصراعات دموية.»

يقول نورمان مايرز من صحيفة «غارديان» البريطانية، وهو من أكثر المراقبين خبرة في الشؤون الأفريقية إنه لا يشك بأن هناك ارتباطا قويا بين التفجر السكاني والنزاعات العسكرية. ويستطف من كلام الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية في جمهورية مصر العربية قوله: «إن الحرب في منطقة الشرق الأوسط ستكون حول مياه النيل لا حول المواضيع السياسية القائمة. فمصر التي تعاني من الآثار السلبية لظاهرة التصحر ستتناقص فيها المنتجات الغذائية بمعدل ٦٪ خلال السنوات العشر القادمة. وستزداد واردات مصر من الحبوب من ستة ملايين طن في الوقت الحاضر الى أكثر من ١٢ مليون طن في نهاية هذا القرن. وهناك من يشك في قدرة مصر على تمويل وارداتها في المستقبل في ضوء الديون الخارجية التي تزيد على ٣٦ مليار دولار في الوقت الحاضر، بينما لا تزيد قيمة الناتج القومي الاجمالي عن ٣٠ مليار دولار.

يقول البروفسور جورج تابينو وهو واحد من أبرز خبراء «الديموغرافيا» لحوض البحر المتوسط بأن استمرار التزايد السكاني سيضاعف من «الضغط نحو المخرج»، خاصة بعد أن وصلت الدول الخليجية الى مستويات التشبع من اليد العاملة المهاجرة. والمخرج كما يراه هو باتجاه أوروبا. وأن أشد ما يقلقه هو الهجرة غير المشروعة وأسواق العمالة السوداء التي تنتشر اليوم من اليونان الى البرتغال. ففي الوقت الذي يمكن أن تنجح فيه سياسات الهجرة في الحد من الهجرة المنظمة، فإنها لن تستطيع كبح جماح الهجرات العمالية غير المشروعة، خاصة عندما تلتقي مصالحها بمصالح أصحاب الشركات الذين يشترونهم بأبخس الأثمان.

حلم إعادة التوازن

لا شك أن هذا الوضع يحشر أوروبا في عنق زجاجة «ديمغرافية». ولهذا فإن ما يعنينا هنا ليس هو الأرقام المجردة فقط، وإنما السياسات والتطورات التي تأخذها أوروبا في الحسبان لمواجهة هذا المأزق «الديمغرافي». فالأخطار التي تراها أوروبا في بعدها الاستراتيجي لا تقتصر على محيط الدائرة «الديمغرافية»، بل تتعداها الى الدوائر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فالهجرات المستمرة ستؤدي الى استقطابات اجتماعية، تتمثل في ظهور التجمعات والأحياء السكانية المهاجرة ومدن المهاجرين الذين تزداد ضغوطهم الاجتماعية مع تكاثر أعدادهم. ويرتبط بهذا تغير في أنظمة القيم الاجتماعية، ونوعية الثقافات، مما يؤدي الى مزيد

من التنافر الاجتماعي والثقافي بين السكان . وتعتبر الأخطار الاقتصادية أشدها ، لأن انخفاض النمو السكاني في الدول الأوروبية سيزيد من نسبة إسهام العمالة الوافدة ، وضعف الأسواق المحلية في هذه الدول ، مما يؤدي الى تراجع اقتصاداتها ، ودخولها في مراحل الركود الاقتصادي بكل تبعاته وسلبياته .

وهناك اليوم ضواح وأحياء للمهاجرين ، تنتشر في معظم المدن الأوروبية الكبرى ، ففي ألمانيا الغربية وحدها يوجد أكثر من أربعة ملايين عامل أجنبي غالبيتهم من الأتراك ، كما يوجد مئات الآلاف من المغاربة والجزائريين والتونسيين في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وغيرها من الدول الأوروبية ، كما ينتشر ملايين الملونين والأفارقة في المدن البريطانية ، وبخاصة في لندن والمدن الصناعية الرئيسية ، وتتركز الملايين من دول الكومنولث وغيرها في أكثر المناطق فقرا وتخلفا في هذه المدن ، وتعاني الأيدي العاملة المهاجرة من انتشار البطالة بين فئاتها المختلفة ، ومن تدني معدلات دخولها ، وتردي مستوياتها المعيشية ، ونقص حاد في الحاجات الأساسية والخدمات من صحة وتعليم ، كما أن هناك أعدادا كبيرة تعاني من البطالة الموسمية ، ومن الافتقار الى فرص التعليم والتطور الاجتماعي . وتتميز حياتهم الاجتماعية بالاحباطات المتراكمة ، وزيادة الجنوح والانحرافات بين العاطلين ، خاصة بين فئات الشباب ، وتزداد بينهم المشكلات الاجتماعية الحادة مثل تعاطي المخدرات . ولهذا فإن هذه الأحياء في نظر الأوروبيين ليست سوى بؤر اجتماعية خطرة ، تحمل في طياتها كل احتمالات التوتر والانفجار ، على غرار نمط احتجاجات واضطرابات السود والملونين التي حدثت في المدن البريطانية خلال السنوات الماضية ، كما أن هذه التجمعات تشكل بيئات خصبة لكل التيارات الفكرية والسياسية التي تستهويهم ، وتنتشر بينهم بسرعة مدهشة .

ويبدو على الرغم من كل التحفظات التي يمكن أن تطرح أن ما تسعى اليه أوروبا في استراتيجيتها بعيدة المدى هو إعادة التوازن الى هذا الخلل « الديمغرافي » المتفاقم بينها وبين جنوب البحر المتوسط . وإذا ما تم القبول بمفهوم « الاستراتيجية » على أنها لعبة البدائل والخيارات في إطار الظروف والوضعيات المتغيرة ، فإن البديل أو الخيار « الديمغرافي » يبرز كأخطر بعد يواجه أوروبا في الصراع « الاستراتيجي » التاريخي بين الشمال والجنوب . إن أكثر ما يعنينا هو دخول منطقتنا العربية والاسلامية في دائرة هذا الصراع شئنا أم أبينا ، وهو صراع قائم على خلق التوترات والاضطرابات التي تصب باتجاه إعادة التوازن الى الصورة « الديمغرافية » المهزوزة على جانبي المتوسط شمالا وجنوبا .

الوعي بلعبة الصراعات

إن هذه الحقائق على الرغم من مرارتها هي جزء من الواقع الذي تعيشه أمتنا العربية والاسلامية ، وهي حقائق تصل الى مرتبة الصدمات التي لابد من تقبلها والتعايش معها والعمل على احتوائها في إطار من العقلانية المبدعة والرؤية المصيبة . فهذه المنطقة بشعوبها وثرواتها كانت ومازالت مستهدفة ، ومالم نجد لنا موطىء قدم في حلبة الصراع يساعدنا على تعزيز مراكزنا لنبقي الخيارات ولعبة البدائل في دوائر سيطرتنا وتحكمنا ، أو على الأقل تحت تأثيرنا ، فإن الأثمان التي سندفعها ستكون باهظة مكلفة .

إن قراءة الأحداث وتواتراتها وأنماطها في إطار الرؤية المستقبلية فن وإبداع ، لأن القدرة على ذلك تتيح لنا مواجهة البدائل والبحث في الخيارات التي تمكننا من تجنب المآسي والكوارث التي تتعرض لها منطقتنا بإنسانها وقواها البشرية وثرواتها واقتصاداتها وثقافاتها ، وهي منطقة ستبقى مهددة هشة في غياب الادراك الكامل والوعي العميق بأبعاد لعبة الصراعات هذه ، وإذا ما نجحنا في المشاركة بإدارة دفة الصراع في إطار من العقلانية والوعي المبدع فإننا سنكون قد جنبنا أنفسنا وأهلينا وشعوبنا المخاطر المفزعة والأزمات المدمرة .

وفيما عدا ذلك ، فإن الغيبوبة الفكرية ، والتعامل مع الغيبيات ، وإدارة الظهور للتفكير العقلاني المنظم سيقودنا الى المجهول . □

ظاهرة الفردية في المجتمع الأمريكي

بقلم : الدكتور محمود الذوادي

في داخل فلسفة النظام الرأسمالي تكمن أفكار إعلاء الفردية ، واحترام الفرد ، وإطلاق المنافسة ، ومع الوقت ، وكلما تعقد النظام الرأسمالي من داخله أصبحت الفردية ملمحا مهما من ملامحه ، لكنها اليوم صارت علامة مرضية بعد أن تفاقمت وتطورت .

يبدو أن هناك اتفاقا اليوم بين ملاحظات عامة الناس من جهة ، والدراسات المتخصصة من جهة أخرى ، بخصوص انتشار ظاهرة الفردية في المجتمعات الغربية الرأسمالية الصناعية . ونعني بالفردية هنا ميل الشخص ونزوعه أولا وقبل كل شيء إلى الاهتمام بنفسه وشؤونه الشخصية ، وتهميشه في نفس الوقت لأهمية ارتباطات الفرد الاجتماعية ، ومبدأ الاستعداد للتضحية من أجل صالح الجماعة الصغيرة أو المجتمع ككل .

ومن هنا فنزعة الفردية تمثل ملمحا رئيسيا للشخصية الجماعية للمجتمعات الغربية الرأسمالية الحديثة . ويرى بعض المفكرين الغربيين أن ظاهرة الفردية بالمجتمع الأمريكي تتميز عن أخواتها في بقية المجتمعات الرأسمالية الأخرى ، من حيث ظروفها التاريخية والاجتماعية التي أثرت في مراحل تطورها .

وفي رأينا أن الكشف عن طبيعة الفردية الأمريكية يمكن أن يكون له انعكاسات بالنسبة لنا كعرب في مجال تحسين مقدرتنا على فهم المجتمع الأمريكي ، وبالتالي التعامل معه ومع أفراده ، تعاملا فاعلا على مستوى العلاقات الشخصية أو القضايا المشتركة ، وفي طليعتها القضايا السياسية الشائكة ، وفي فهم طبيعة الفردية في المجتمعات العربية ، واستشراف تطورها المستقبلي في الوطن العربي الذي يعيش تجربة تغيرات واسعة متأثرة الى حد كبير بالنمط الغربي الرأسمالي ، نتيجة لتأثير وسائل الاعلام الغربي (صحافة ـ سينما ـ تلفزيون) واختراقها للشخصية العربية .

جذور الفردية الأمريكية

مما لا شك فيه أن للظروف التاريخية والاجتماعية التي عرفها المجتمع الأمريكي منذ عهوده الأولى دورا

رئيسيا فيما تتميز به الفردية الأمريكية كظاهرة نفسية اجتماعية . فهجرة الأوروبيين الأوائل إلى العالم الجديد كانت تمثل بالنسبة لهم إمكانية حقيقية لتحقيق حلم الحرية بأبعادها السياسية والدينية والاقتصادية . ولا يمكن ـ في نظرنا ـ فهم ظاهرة الفردية هذه ومراحل تطورها عبر القرون دون ربطها بالحرية كقيمة أساسية في تكوين شخصية الفرد الأمريكي .

فقيم الشخصيات السياسية والدينية للمجتمع الأمريكي الأول كانت تنادي بأهمية الوازع الفردي كمحرك فعال للانسان الأمريكي . فبنجمين فرانكلين (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠) أكد على أهمية مبدأ حرية الفرد في تحسين وضعه اقتصاديا واجتماعيا ، وذلك بالاتكال على جهوده الشخصية . وليس غريبا أن يدعو هذا الزعيم الأمريكي الى ذلك ، إذ هو مثل « لهذه الدعوة . فهو ينحدر من عائلة فقيرة ، إلا أنه استطاع بمجهوداته الفردية أن يتسلق السلم الاجتماعي الأمريكي ، ويتصدر الريادة في مجتمعه .

وفي القرن التاسع عشر اشتد عود ما يمكن أن نسميه بالفردية الاقتصادية النفعية ، فأصبح كد الأمريكي لتحسين وضعه الاقتصادي مرادفا لتحسين ظروف المجتمع ككل . ولعل هذه الرؤية الاقتصادية كانت متأثرة بفلسفة عالم الاقتصاد البريطاني « آدم سمث » الذي رأى هو أيضا أن المكاسب الاقتصادية التي يحصل عليها الفرد نتيجة لأعماله هي في نفس الوقت دعم لتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع ككل .

لكن الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي « دي تكفل » كان شديد القلق إزاء انتشار ظاهرة الفردية بمعناها الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الأمريكي آنذاك . فالمفكر الفرنسي كان متشائما من مستقبل المجتمع الأمريكي ومصيره ، حيث ينعزل فيه الأمريكي عن الأمريكي نتيجة لتزايد اهتمام الفرد الأمريكي بهمومه الشخصية .

ونظرا لتجذر ملامح الفردية في الشخصية الجماعية الأمريكية في عهده أطلق « دي تكفل » على ذلك عبارة « عوائد القلب » ، أي أن نازع الفردية أصبح واقعا لا شعوريا ممتزجا مع خبايا القلوب أو مع الجانب العاطفي للانسان الأمريكي . إن هذه الحيلة الفردية الكاسحة قد تقود المجتمع الأمريكي إلى مجموعة من الأفراد المتصارعين لا المتضامنين ، ومن ثم تخلق فرصا لظهور الأنظمة السلطوية والدكتاتورية . وللوقاية من ذلك يدعو « دي تكفل » إلى تأسيس منظمات جماعية مدنية ، يمكن للديمقراطية أن تستمر وتزدهر في ظلها .

اشتداد عود الفردية في القرن العشرين

يلاحظ دارسو ظاهرة الفردية الأمريكية أن عودها قد اشتد أكثر في القرن العشرين على الأخص ، ويرجع ذلك أساسا ـ في نظرهم ـ إلى عمليات التصنيع ، والتحديث ، وانتشار سلطة الثورة العلمية ، وتأثيرها على معظم ملامح المجتمع العصري ، بما في ذلك شخصية الفرد نفسه ، فالعائلة الأمريكية كوحدة اجتماعية أساسية لتنشئة الفرد على أهمية الصالح الجماعي أو أهمية النزعة الفردية قد تأثرت أيضا بالايدلوجية الفردية في تربية أطفالها . وبالطبع فإن سيطرة قيم الفردية داخل المحيط العائلي لا بد أن يؤثر على معنى الترابط والتضامن الاجتماعيين وممارستهما داخل العائلة وخارجها . فالعرف الأمريكي يشجع الأولاد على الانفصال عن آبائهم وأمهاتهم عند بلوغهم سن الثامنة عشرة ، حتى يصبحوا مسؤولين عن أنفسهم ومستقلين عن أي تبعية عائلية أو غيرها . وإذا كانت الثورة الصناعية في الغرب على العموم قد أدت الى اندثار ما يسميه علماء الاجتماع العائلة الممتدة وظهور العائلة النووية (الصغيرة) ، فإن فلسفة التحديث وروح العلوم السلوكية الغربية ساعدت أيضا على تضخم تضاريس ظاهرة الفردية في المجتمع الأمريكي . فمفهوم الحداثة يتضمن أساسا القيم التي تدعو إليها الفردية . فحرية الفرد واستقلاليته عن الآخرين تأتي في طليعة القيم التي تنادي بها روح الحداثة في المجتمع الأمريكي المعاصر . ومن عوامل

تضخم ظاهرة الفردية في المجتمع هو تعامل الأمريكي مع رأس المال والمكاسب المادية التي أصبحت أكثر فأكثر في العصر الحديث من أهم القيم التي تحرك الانسان الأمريكي اليوم . فالأجيال الأمريكية تتم تنشئتها على أن ما يملكه الشخص من مال وممتلكات هي له وحده ، وينبغي استعمالها لحاجاته الخاصة لا غيرها .

وهكذا اشتد عود الفكرة والممارسة لأنانية كسب المال واستعماله من جهة ، وتلاشى في نفس الوقت المعنى الجماعي لاستغلال المال واستعماله من جهة أخرى . ومنه يمكن القول انه بهذا التطور سلب استعمال المال من إمكانية قيامه بدوره الاجتماعي كعملة تضامن بين الأفراد والفئات لا كوسيلة عزل بينهم .

ومثال ثان لدور المال في عزلة الفرد عن الآخرين هو تعامل كبار السن مع المال في المجتمع الأمريكي ، فالكثيرون من هؤلاء لهم أرصدة مالية كبيرة في المصارف (البنوك) أو ماشابهها ، ويقومون بكل الاجراءات لربح أكبر نسبة من الفائدة ، وعلى الرغم من توفر المال عندهم إلا أنه من النادر أن يدعو أحدهم صديقه أو أصدقاءه لغداء أو عشاء في أحد المطاعم ، ويدفع هو وحده ثمن ذلك . فالمال بهذا الاعتبار يقوي شوكة الفردية عند الأمريكي العصري عوضا عن كبح جماحها لصالح الروح الجماعية . ومن واقع سيطرة روح الفردية على تصرفات المواطن الأمريكي الحديث يصبح صعبا عليه فهم سلوك الناس من مجتمعات أخرى ، حيث يستعمل الشخص العادي ماله الشخصي في سبيل الجماعة .

الملامح الاجتماعية لظاهرة الفردية

إن نمط الفردية الأمريكية لا ينحصر تأثيره على طبيعة الاستعمال لرأس المال فحسب ، بل يمس الملامح الاجتماعية للمجتمع الأمريكي أيضا ، فالتقبيل سلوك إنساني ذو طبيعة مشحونة بالمشاعر والعواطف لكنه لم يفلت من تأثير قبضة هذه الفردية الأنانية ، إذ تحكمه في المجتمع الأمريكي معايير صارمة متطرفة . فالتقبيل بين الذكور ظاهرة غير مقبولة اجتماعيا في هذا المجتمع ، وكذلك شأن ظاهرة التقبيل بين الجنس اللطيف من فتيات ونساء ، وإن كانت معايير التقبيل ، بينهن تتصف بشيء من المرونة لا نجده بين الذكور . وقد أدت هذه القواعد المتشددة الى سلب التقبيل عفويته التعبيرية ازاء الآخرين ، ومن ثم عزل ، بعض الأفراد عن بعضهم ثم تدعيم ظاهرة الفردية كواقع نفسي واجتماعي . وبتقليص ظاهرة التقبيل كوسيلة من وسائل التفاعل الاجتماعي الأكثر دفئا ضعفت بالتأكيد حرارة العلاقات الانسانية بين أفراد هذا المجتمع . وهذا واقع أكدته كثير من دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية في المجتمع الامريكي نفسه .

ولاقت ظاهرة التصافح نفس المصير ، فممارسة التصافح ظاهرة نادرة بين الأمريكيين ، لا تكاد تستعمل خاصة بين الذكور الا في مناسبات معينة ، (مثلا بعد غياب طويل بين الأصدقاء) . فاندثار تقاليد التقبيل والتصافح من المجتمع الامريكي الحديث مؤشر واضح على رغبة الأمريكي في عزل نفسه عن الآخرين .

وهكذا يمكن القول أن نمط الفردية الأمريكية قد أنشأ عرفا اجتماعيا ، نتج عنه تبريد شامل في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، ومن ثم عزل بعضهم عن بعض .

وهكذا فالفردية الامريكية ـ كما حاولنا وصفها هنا ـ هي إفرازة نفسية اجتماعية ، تضافرت على تجسيمها ظروف ومعطيات مميزة لطبيعة المجتمع الأمريكي . وإن هذه الفردية المتصلبة في المجتمع الأمريكي الحديث هي في الحقيقة عرض لعمق التفكك الاجتماعي فيه . وفي رأي بعضهم أن النسيج الاجتماعي يعاني من سرطان التصدع ، كما تقاسي البيئة الطبيعية أخطار التصنيع والتقنية الحديثة ، فالحاجة ماسة إذن لانقاذ النسيج الاجتماعي عن طريق الاهتمام بالبيئة الاجتماعية التي تعتبر السبيل الوحيد لضمان استمرار المجتمع الأمريكي كائنا اجتماعيا حيا سليما □

«البيوتكنوجيا»

ومشاكل العصر

بقلم : الدكتور سمير رضوان

تكررت الكتابات حول « الهندسة الوراثية » وتطبيقاتها في استنباط سلالات نباتية وحيوانية وميكروبية جديدة .
وما الهندسة الوراثية إلا أحد فروع « البيوتكنولوجيا » .
ولن نفصل هذه التطبيقات هنا ،
إنما سوف نتعرض لدور « البيوتكنولوجيا » في حل أكثر مشاكل العصر إلحاحا : وهي الطاقة ، والتلوث ، والصحة .

انفجر بركان المعارف العلمية مع بداية القرن العشرين ، وكان من الطبيعي أن يسعى العلماء في العقود الأخيرة - بعد أن تراكمت المعارف العلمية من خلال البحوث - إلى استثمار هذه المعارف لتحقيق فوائد يلمسها الإنسان . هذا الاستثمار هو في الواقع أبسط تعريف لكلمة « تكنولوجيا » . ومن الملاحظ أن الدول المتقدمة « تكنولوجيا » هي بعينها التي كانت ومازالت متقدمة في مجال البحوث الأساسية . هذه حقيقة سوف تبقى ثابتة على الرغم من تناسيها في العالم الثالث ، حيث دفع الطموح بعضهم إلى الدعوة لضغط الانفاق ، وقصر البحوث في الجامعات والمعاهد العلمية على البحوث التطبيقية ، قفزا فوق البحوث الأساسية ، وهو قفز لا يختلف كثيرا عن القفزة الشهيرة لبائعة اللبن التي قرأنا عنها ونحن أطفال ، والتي كانت في طريقها إلى السوق لتبيع اللبن ، وكانت تحلم بأن تشتري بثمنه عنزات تقفز حولها هنا وهناك . وفي غمرة أحلامها قفزت البائعة المسكينة قفزة أطاحت بوعاء اللبن ، فتحطمت معه آمالها المتواضعة .

لا مجال لتحقيق تقدم « تكنولوجي » إلا من خلال البحوث الأساسية ، والبحوث « البيولوجية » على شتى الكائنات الحية ، شأنها شأن مختلف مجالات

البحوث الأخرى . لقد أمكن استثمار الكثير من نتائجها من أجل تحقيق فوائد ملموسة أصبحت تعرف « بالبيوتكنولوجيا » . وسوف تعنى هذه المقالة بمناقشة دور « البيوتكنولوجيا » في حل مشاكل العصر المستعصية . وينبغي أن تتذكر هنا أن تطبيقات الأنواع الأخرى من « التكنولوجيا » كالكيميائية والفيزيائية ، قد خلقت مشاكل مستعصية مثل التلوث بالمواد الكيميائية ، والإشعاعات الضارة ، أما التطبيقات « البيوتكنولوجية » فهي أكثر أمانا من هذه الناحية .

« بيوتكنولوجيا »* أم تقنية حيوية ؟

أود في البداية أن أتناول لفظ « بيوتكنولوجيا » ـ محور هذه المقالة ـ بتعليق مقتضب . فلاشك أن القارىء قد يلاحظ أنه لفظ غريب عن العربية ، والواقع أنه معرب ، أي منقول بالحروف العربية عن الكلمة الأجنبية ، أما ترجمته فهي « تقنية حيوية » ، ولست أصر على استخدام اللفظ المعرب دون الترجمة من باب الحذلقة ، ولا اعتقادا أن الترجمة لا تفي بالمعنى . وأحسب أن مثابرتي على الكتابة لمجلة « العربي » في مواضيع علمية باللغة العربية دليل يكفي لدفع هذين الاتهامين عني ، على أن إصراري على التعريب دون الترجمة في هذه المقالة هو في الواقع جزء من اعتقادي بضرورة تعريب جميع الألفاظ العلمية حينما يترجم العلم . وأنا ضمن من يخشون أن يبتعد بنا تيار الترجمة للألفاظ العلمية العالمية عن نهر العلم ، فإذا بنا نتحدث وحدنا لغة علمية مختلفة عما تعارف عليه العالم أجمع . فلكل علم أساسي ألفاظه العالمية المشتقة من اللاتينية أو الإغريقية ، وهي لا تترجم في أي لغة من لغات الأرض ، بل تكتب كما هي . وكلمة « بيوتكنولوجيا » من هذا القبيل . إنني ضمن من يدعون إلى ترجمة العلوم وتدريسها بالعربية مع تعريب الألفاظ العلمية العالمية ، حتى لا نقطع شعرة معاوية بيننا وبين العالم العالمي .

تطور « البيوتكنولوجيا »

ذكرنا أن « البيوتكنولوجيا » ليست سوى استثمار المعارف العلمية في مجالات « البيولوجي » من أجل تحقيق فوائد ملموسة ، وعلى الرغم من أن اللفظ حديث ـ إذ لا يزيد عمره عن بضعة عقود من السنين ـ إلا أن استثمار الأنشطة الحيوية قديم قدم الإنسان . ولقد كانت « البيوتكنولوجيا » في فجر الإنسانية ـ بالضرورة ـ بدائية . وربما اقتصرت على الزراعة الأولية من أجل توفير الغذاء بصورة شبه مستمرة ، بدلا من الصبر والانتظار طول العام ، ثم تعلم الإنسان من خلال التجربة والخطأ ـ بل والصدفة أيضا ـ كيف تجري عمليات التحليل والتخمر ، فخمر الصينيون القدماء نقيع الأرز ، وخمر البابليون نقيع التمر ، كما خمر المصريون نقيع الشعير . وعمليات التخمر هذه ليست سوى ضرب من ضروب « البيوتكنولوجيا » الأولية ، حيث كان يستثمر الإنسان انشطة الميكروبات ، دون وعي منه ، في إنتاج المادة المخمرة ، على أن الثورة الحقيقية في « البيوتكنولوجيا » قد اشتعلت في القرن الحالي ، وبلغت ذروتها في العقود القليلة الأخيرة منه ، وذلك بعد أن تكثفت وتراكمت المعارف « البيولوجية » من خلال البحوث الأساسية منذ بداية القرن . ولقد كان اكتشاف الميكروبات وابتكار طرق لعزلها ودراستها في أواخر القرن الماضي بمثابة شرارة أشعلت هذه الثورة ، لا توجد حدود لآفاقها المستقبلية . ونتيجة لهذه الثورة نشأت صناعات حديثة ، تعرف « بالصناعات الميكروبيولوجية » ، وتزرع من خلالها ميكروبات معينة في مفاعلات حيوية ، وتزود بكل ما تحتاجه من مواد غذائية وتدفئة وتهوية ، لكي تصنع في النهاية بعض المنتجات الكيميائية القيمة . والمسألة في أساسها ـ كما يرى القارىء ـ لا تختلف كثيرا عن استئناس الماشية مثلا ، وتربيتها وتعهدها بالرعاية ، لتدر علينا لبنا ولحما . وقد أنتجت « البيوتكنولوجيا » ومازالت تنتج من خلال الصناعات

* هذه وجهة نظر الكاتب ، بيد أن هناك أكثر من رأي حول هذا الموضوع .

« الميكروبيولوجية » عديداً من المغذيات العضوية والفيتامينات والأنزيمات والأدوية ، مثل مضادات الحيوية وغيرها كثير . وها هو الانسان يسعى الى ترويض بعض أنواع البكتريا ، لكي تنتج له البروتينات ، ليأكلها ، أو ليعلف بها ماشيته ، وكان من المنطقي أن تتقدم الصناعات « الميكروبيولوجية » وتتطور مع تقدم المعارف العلمية وتطورها ، خاصة بعد اكتشاف العوامل الوراثية ، وآلية عملها ، إذ بات معروفا أن كل مادة ينتجها كائن حي لابد أن يتحكم في صنعها عامل وراثي ، أو عدة عوامل في خلايا هذا الكائن . ومن ثم فقد وجه الباحثون مجهوداتهم صوب دراسة كيمياء العوامل الوراثية ، وإمكان صنعها من مواد أولية في المختبر ، وفصلها من كائن ، وحقنها في خلية كائن آخر ، على أمل أن ينقلوا معها القدرة على صنع منتج معين من كائن الى آخر ، وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه الهندسة الوراثية التي أشرنا إليها في المقدمة .

« البيوتكنولوجيا » الحديثة

يمكن الحكم على مدى التقدم الذي حققته « التكنولوجيا » من خلال حجم الاستثمارات فيها . وأحدث إحصائية معروفة عن حجم الاستثمارات في مجال « البيوتكنولوجيا » في العالم الصناعي هي إحصائية عام ١٩٨٤ ، التي قدر فيها حجم هذه الاستثمارات بحوالي ٦٨ مليار دولار أمريكي ، ولاشك أن هذا الرقم قد تضاعف عدة مرات خلال السنوات الثلاث الماضية ، ولا يمكن لأحد أن يحصي عدد البحوث العلمية التي نشرت حتى الآن في هذا المجال لفرط كثرتها . كذلك يصعب تحديد عدد المؤتمرات العالمية التي عقدت للتشاور حول مسائل « بيوتكنولوجية » محددة ، ويصعب أيضا حصر عدد الشركات الصناعية المنتشرة في أرجاء المعمورة التي تعتمد على « البيوتكنولوجيا » المتقدمة في إنتاجها ، وتنتج هذه الشركات منتجات مثل تلك التي ذكرناها من قبل ، ويرتبط إنتاجها دائما بالبحث العلمي الأساسي ونتائجه ، لكي تستطيع أن تواكب كل حديث ، من أمثلة ذلك ما تدفعه شركات الأدوية من أموال في مجال بحوث مضادات الحيوية التي ينبغي أن تحقق الجديد بصفة مستمرة . ومن أحدث ما اكتشف في هذا المجال هو ما أعلنه خلال الصيف الماضي أحد علماء الهندسة الوراثية في « المعهد القومي لأمراض الأطفال » بميريلاند في الولايات المتحدة ، من اكتشاف مضاد قوي للحيوية ، ينتجه أحد الحيوانات وهو الضفدع . ومن المعروف أن جميع مضادات الحيوية التي أنتجها الانسان حتى اليوم قد حصل عليها من ميكروبات أو نباتات ، لكنه لم يسبق أن عرفها بين الحيوانات . ولقد لاحظ الباحث أثناء إجراء عمليات جراحية على الضفادع أن جروحها تلتئم بسرعة فائقة ، على الرغم من ان المياه التي كانت تعيش فيها في المختبر بعد العملية الجراحية كانت تعج بشتى أنواع الميكروبات . وحثته هذه الملاحظة على دراسة استطاع من خلالها أن يعزل مادة قاتلة للبكتريا من جلود الضفادع ، وهي عبارة عن مضاد للحيوية بروتيني ، وحفظ الباحث اكتشافه بتسجيل براءة اختراع خاصة به ، وقد فازت إحدى شركات الأدوية بحق إنتاجه ، ومن المتوقع أن يطرح في الأسواق بعد سنوات قليلة ، لعلاج حالات كالحروق وغيرها . على أن أهم تطبيقات « البيوتكنولوجيا » الحديثة هي تلك التي ينوي العلماء من خلالها حل بعض مشاكل العصر الملحة من نقص الطاقة وتلوث البيئة والمشاكل الطبية .

« البيوتكنولوجيا » ومشكلة الطاقة

من المتفق عليه أن مصادر الطاقة الحفرية التي يستخدمها الإنسان الآن سوف تنضب في المستقبل غير البعيد . ونقصد بمصادر الطاقة الحفرية النفط والفحم واليورانيوم . ولقد شرع العلماء في البحث عن بدائل ممكنة لهذه المصادر ، وعلى الرغم من أن جهودا مكثفة قد بذلت في الدول الصناعية من أجل استثمار مصادر الطاقة غير الناضبة كالرياح وأشعة الشمس إلا أن الاقتناع قد ترسخ الآن لدى

المتخصصين بأن أكثر الأساليب واقعية لتوفير الطاقة في عهد ما بعد النفط هو من خلال «البيوتكنولوجيا»، إذ يمكن من خلال أنشطة «الميكروبات» في صناعات «ميكروبيولوجية» عادية إنتاج ما أصبح يسمى «بالبيوكحول» كوقود بديل للبنزين. والانسان كما ذكرنا كان ينتج المشروبات الكحولية منذ فجر التاريخ ومازال ينتجها الى اليوم. ويعني ذلك أن الخبرة «البيوتكنولوجية» متوفرة بالفعل. وما على الانسان إلا أن ينقي هذا الكحول بالتقطير ويستعمله وقوداً. ولاستكمال الحلقة اخترع المهندسون محركات تدور بالكحول بدلا من البنزين أو الديزل. وقد أجريت عليها تجارب عديدة أثبتت كفاءتها، ولسوف يكثر إنتاج هذا النوع من المحركات، خاصة لصناعة السيارات، فور انقضاء عصر النفط.

و«البيوكحول» مصدر للطاقة لا ينضب أبدا، فإنتاجه يعتمد على عملية تخمر مادتها الأولية، وهي محاصيل نباتية لا تنضب كالسكر من قصب السكر والبنجر والعنب، وكالنشا من الحبوب والبطاطس وغيرها. وطالما كانت هناك زراعة على الأرض سوف يكون هناك مصدر للطاقة هو «بيوكحول»، لكن من المتوقع أن تكون هذه الطاقة مرتفعة السعر مقارنة بالطاقة الحفرية. كما أن أسعار الحبوب والسكر وغيرها من المنتجات الزراعية سوف ترتفع ارتفاعا كبيرا. ونستطيع أن نتصور مدى ما سوف تعانيه دول العالم الثالث من أجل توفير الغذاء والطاقة. وإذا لم تتفق الأقطار العربية ابتداء من اليوم على «استراتيجية» زراعية للمستقبل، تستثمر من خلالها أراضي غير مستثمرة في السودان والعراق على وجه الخصوص، لمصيرها التبعية السياسية لدول صناعية لا قدر الله ذلك. ويقدر العلماء أن الانسان بعد عصر النفط سوف يخصص حوالي خمس الرقعة الزراعية الحالية على كوكب الأرض لإنتاج المادة الأولية اللازمة لتوفير الطاقة. وياليتنا ـ نحن العرب ـ ننتبه لهذه الحقائق، ونعطيها ما تستحقه من عناية، وقبيل لجوء الانسان الى البيوكحول لاستخدامه مصدراً للطاقة، سوف يستثمر أساليب «بيوتكنولوجية» حديثة ـ قد تم ابتكارها ـ من أجل استخراج أقصى ما يمكن استخراجه من النفط من الآبار الناضبة. والمعروف أن أساليب الضخ الحالية لا تسمح باستخراج الزيت الى آخر نقطة منه، بل تترك قدرا محسوسا من هذا الخام، لأن ضخه مكلف وغير اقتصادي. وهناك طرق لضخ قدر من هذا الجزء ... في الآبار من خلال حقنها بالماء، الذي يدفع النفط الى أعلى. فمن عيوب الماء في هذه الطريقة أنه أكبر كثافة من الزيت ولا يختلط به اختلاطا كاملا، ومن ثم فهو لا يستخلص كل المتبقي منه. والوضع المثالي هنا هو حقن الآبار بمواد تقترب كثافتها من كثافة الزيت. وقد استطاع العلماء إنتاج مثل هذه المواد بأساليب «بيوتكنولوجية»، وهي عبارة عن «بوليمرات» تنتجها الميكروبات خلال صناعة «ميكروبيولوجية» عادية، وهي جاهزة الآن للاستخدام في الوقت المناسب.

كما أن هناك دراسات تستثمر أنشطة أنواع من البكتريا، من أجل استخلاص «اليورانيوم» وغيره من المعادن من الخامات الأرضية التي تحتوي عليها، وقد وجد أن تحويل هذه المعادن الى كبريتاتها من خلال معالجتها بحمض الكبريتيك هو أقل الطرق المتاحة تكلفة. على أن عيوب هذه الطريقة تكمن في ضرورة استخدام كميات هائلة من حمض الكبريتيك لمعالجة الكميات الهائلة من الخام الذي يحتوي غالبا على كميات ضئيلة من المعدن، إضافة الى صعوبة تصميم وعاء ضخم لانجاز هذه المعالجة. لذلك استثمر العلماء الأمريكيون نشاط البكتريا المؤكسدة للكبريت لحل هذه المشكلة، إذ أنهم يخلطون الخام بمسحوق الكبريت، ثم يضيفون إليه خلايا البكتريا التي تؤكسده وتحوله الى حمض، وهذا يحول المعدن بدوره الى أملاح الكبريتات التي يسهل فصلها بعد ذلك من الخليط، وتتم العملية كلها في الحقل.

«البيوتكنولوجيا» ومشكلة التلوث

• أصبح التلوث الكيميائي بشكل واحدة من أعقد

مشاكل العصر الحديث ، وأخطر الملوثات - كما ذكرنا في مقالات سابقة - هي تلك المواد الكيميائية التي شاع استعمالها حديثا ، كمضادات الحشرات والآفات الأخرى ، خاصة إذا كانت هذه المواد تستعصي على التحلل الميكروبي ، فلا تقوى ميكروبات التربة أو الماء على هضمها ، وتبقى في البيئة لتمثل خطرا دائما على صحة البشر وربما على حياتهم . والأمل أصبح ماثلا الآن أمام أعين العلماء في استثمار الأساليب البيوتكنولوجية من أجل تخليص البيئة من خطر هذه الملوثات . ومن المضادات الحشرية الخطيرة التي أجريت عليها الدراسات المبيد المعروف باسم « د . د . ت » ، فقد استطاع علماء الكيمياء تصنيع جزيء بروتيني يسمح تركيبه الفراغي باحتواء جزيء « د . د . ت » في داخله وتغليفه ، وعزله عن البيئة ، ووقاية المخلوقات من شروره . إذن يمكن الآن رش هذا المبيد في التربة للقضاء على حشرة ضارة ، وبعد إنجازه مهمته يمكن عزله برش البروتين الجديد . على أن المشكلة هنا تكمن في أن إنتاج البروتين بكميات تسمح برشه عملية مكلفة جدا ، والوضع المثالي هو أن نبرمج بعض بكتريا التربة برمجة وراثية ، يمكن بواسطتها أن تنتج خلاياها هذا البروتين باستمرار في التربة . وقد استدعى تحقيق ذلك أن قام العلماء بدراسة التركيب المحتمل للعامل الوراثي الذي يمكن له أن يتحكم في تخليق مثل هذا البروتين ، ثم صنعوا هذا العامل الوراثي ، وها هي التجارب تجري على حقن هذا العامل الوراثي في نوع مختار من أنواع بكتريا التربة المسالمة . ولا شك أن السنوات القادمة سوف تحمل إلينا نبأ القضاء على مشكلة التلوث بمبيد « د . د . ت » وسوف يصبح ذلك نموذجا يحتذى به في القضاء على غيره من ملوثات البيئة الكيميائية الأخرى .

وهناك أساليب بيوتكنولوجية أخرى مبتكرة للقضاء على ملوثات البيئة ، يعتمد العلماء خلالها على ميكروبات شرهة ، تلتهم هذه الملوثات وتهضمها ، ولا يمكن استخدام مثل هذا الأسلوب إلا في القضاء على الملوثات ذات الأصل الطبيعي ، مثل النفط وغيره ، فالبيئة تحتوي دائما على أعداد قليلة من مثل هذه الميكروبات الشرهة ، وما على الباحث إلا أن يبتكر الأسلوب المناسب لعزلها ، وانتقاء أكثر السلالات شراهة وإكثارها ، ثم استخدامها لتحقيق الهدف المطلوب . وقد أجريت بنجاح في الصيف الماضي في مقاطعة « وستفاليا » بألمانيا الغربية تجربة على بقعة من الأرض الزراعية ، كانت قد انقلبت عليها شاحنة تنقل النفط ، فتلوثت به ، وأصبحت لا تصلح للزراعة ، وقد عالج الباحثون التربة الملوثة بسلالات بكتيرية شرهة ، استنبطت من أجل هذه الدراسة ، وبعد أسابيع قليلة عادت التربة خالية من مكونات النفط ، وأصبحت صالحة للزراعة مرة أخرى .

« البيوتكنولوجيا » والمشاكل الطبية

كما هو متوقع أصبح للتطبيقات الطبية نصيب رئيسي من اهتمامات البيوتكنولوجيا الحديثة ، فليس هناك ما يحرص عليه الانسان أكثر من حرصه على صحته وحياته . ومجالات البحوث هنا متباينة ، لكن يمكن تصنيفها في مجموعتين متجانستين ، تختص الأولى منهما بأساليب تشخيص الأمراض ، والثانية بأساليب العلاج .

أما استثمار البيوتكنولوجيا في التشخيص فهو ينصب في المقام الأول على الأمراض المعدية ، ويهدف الى التعرف على ماهية سلالات البكتيريا والفيروسات المسببة لها ، والتعرف على السلالة هو الخطوة التي لابد منها من أجل تحديد الدواء الملائم للحالة ، وهي خطوة صعبة التحقيق ، حيث تتشابه السلالات البكتيرية والفيروسية في أشكالها تشابها كثيرا يصل الى حدود التطابق غالبا . وتعتمد الطرق المتبعة حتى الآن على عزل هذه الميكروبات من المريض وزراعتها في أوساط غذائية معينة ، ثم إجراء دراسات ميكروسكوبية وبيوكيميائية عليها . ونتائج هذه الدراسات هي التي يمكن أن تميز بين السلالات المتشابهة التي كثيرا ما تبلغ أعدادها العشرات . ومن

الواضح أن كل هذه الدراسات تستغرق زمنا لا يقل عن عدة أيام ، وقد يتجاوز أسبوعاً . في أثناء ذلك يبقى الميكروب في جسد المريض يعبث فسادا ، ولا ينتظر نتائج التحاليل . والوضع الأمثل هنا هو توفير طريقة يمكن بها تحديد ماهية السلالة الميكروبية مباشرة فور عزلها من المريض ، وذلك بهدف توفير زمن تتوقف عليه الحياة كثيراً . وتعتمد الطريقة البيوتكنولوجية الحديثة في تحقيق ذلك على النفاذ مباشرة الى تشخيص العوامل الوراثية للسلالة الميكروبية ، إذ لا يتطابق كائنان حيّان أبداً في كيمياء عواملها الوراثية تماما ، كما لا يتطابق شخصان في بصمات أصابعهما .

يقوم الدارس بعزل الأحماض النووية (حمض ريبونكليك) من السلالة المراد تشخيصها ، ثم يمزجها بكشاف مشع ، حضّر خصيصا من أجل التشخيص ، وهو يتفاعل بصورة نوعية مع أحماض سلالة واحدة ، ثم يعزل الحمض بعد ذلك ، ويفحص لمعرفة إن كان قد التصق بالمادة المشعة أم لا . ومن خلال تكرار الاختبار مع جميع الكشافات الخاصة بالسلالات المختلفة يمكن التعرف على السلالة في خلال ساعات محدودة ، والسبب في استعمال المواد المشعة هنا هو سهولة التعرف عليها باستعمال أجهزة خاصة .

كذلك وفرت البيوتكنولوجيا الحديثة طرقا لتشخيص بعض أمراض الدم الوراثية في أطوار الحمل المبكرة . مثل هذه الأمراض الخطيرة يتعرف عليها الآن من خلال ملاحظة كريات دم حمراء عدسية الشكل بين الكريات العادية في دم المريض ، وواضح أن طريقة التشخيص هذه متأخرة جداً ، إذ أنها تشخص مرضا قد وقع ولا يمكن علاجه . والوضع الأمثل هنا هو ابتكار طريقة لتشخيص المرض في الجنين أثناء مراحل الحمل الأولى ، حتى يتسنى للطبيب نصح الوالدين بقطع الحمل حتى لا يأتي المولود الى الدنيا وهو يحمل مرضه في دمه ، بل ينبغي أن تكون هناك وسيلة لتشخيص المرض في الوالدين أو في أحدهما ، فهو آت منهما على أي حال .

وهنا يمكن تبصيرهما قبل الزواج بالمخاطر التي تنتظرهما في أبنائهما . ومن خلال البحوث الأساسية أثبت العلماء أن سبب هذا المرض هو اختلال في التركيب الكيميائي لأحد العوامل الوراثية التي حددوها بدقة . وتعتمد الطريقة البيوتكنولوجية الحديثة على الكشف عن هذا الخلل الكيميائي قبل ترجمته الى خلل في تركيب الدم ، إذ يفصل الدارس جزءا دقيقا من مشيمة الأم ، ويزرعها في وسط غذائي معين ، لتتكاثر الخلايا ، ثم تفصل الأحماض النووية التي تتكون منها العوامل الوراثية في الخلايا ، وتدرس باستخدام كشاف مشع ، للتعرف على أي شذوذ في تركيب العوامل الوراثية الكيميائية .

أما بخصوص استثمار البيوتكنولوجيا الحديثة في العلاج فقد انصب اهتمام الدارسين في هذا المجال على محاولة إيجاد علاج للأمراض الوراثية في البويضة المخصبة ، خلال عملية دقيقة تعرف باسم « العلاج الوراثي » ، ويهدف هذا الأسلوب الى قطع الجزء المعطوب من العامل الوراثي واستبداله بجزء سليم . وعلى الرغم من أن الأسس العامة لهذه العمليات الوراثية قد درست بالتفصيل ، وطبقت على كائنات حية عديدة ، إلا أن استخدامها من أجل علاج الأمراض الوراثية في الانسان مازالت تواجه حواجز نفسية ودينية واجتماعية عديدة .

ونشير في النهاية إلى أن البحوث الأساسية قد وفرت الآن أساليب لحفظ الدم سليما عشرات السنين . ومن المعروف أن عمليات نقل الدم العادية قد ارتبطت في الزمن الحديث بانتشار أمراض معدية خطيرة ، إذ يكفي أن يكون بين المتبرعين حامل لمرض خطير كي ينتشر هذا المرض من خلال نقل الدم ، لذلك كان الوضع الأمثل أن يتبرع الانسان بجزء من دمه ، وهو في كامل صحته ، ليحفظ طوال عمره في مؤسسة خاصة ، وليكون جاهزا له عندما تطرأ الحاجة اليه . ولقد تغلبت البيوتكنولوجيا الحديثة على العقبة الرئيسية الخاصة بطول مدة الحفظ ، حيث لم يكن ممكنا حفظ الدم قبل ذلك إلا فترات وجيزة . □

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

فض الاشتباك الفكري بين المسلمين

لا بديل عن صيغة للتعايش بين أبناء الملة الواحدة ، إذا اختلفت مذاهبهم واجتهاداتهم في أمور الدين قبل أمور الدنيا ، ولا بأس من أن تتعدد المذاهب ، وتختلف طرائق التعبد لله سبحانه وتعالى ، شريطة أن يتم الاتفاق على الأصول الجوهرية ، وأن لا تتحول المذاهب الى أحزاب دينية وطوائف ، فالإسلام ليس ملكا لأحد ، والمعرفة به ليست وقفا على أحد دون أحد .

إن « الأخ » المسلم ، هو أخ في الدين قبل كل شيء ، وهو جزء منا ، ينبغي المحافظة عليه ، ومد جسور الوصل معه أينما ذهب بفكره ، وحيثما حل بكيانه ، ذلك التزام تفرضه العقيدة أولا ، وتقتضيه المصلحة ثانيا .

لحقوق المسلم على المسلم ، من الموالاة الى المؤاخاة لا حصر لها في تعاليم الإسلام ، وإنكار هذه الحقوق أو حتى مجرد إهمالها وعدم الالتفات إليها سلوك يجرح صدق إيمان المسلم ، وينزله عند الله منزلة تشينه ولا تشرفه .

ثم إن العصبية المذهبية التي تؤدي الى قطع خطوط الاتصال والحوار مع أتباع المذاهب والملل الأخرى ، فضلا عن أنها تخرب وحدة الصف الإسلامي ، وهو أمر بالغ الأهمية بحد ذاته ، فإنها ترتب نتيجتين خطيرتين على المستوى العقدي ، أولاهما إهدار فرصة تصحيح المعتقدات المنحرفة التي تشيع بين بعض ملل المسلمين ، خصوصا عند الأجيال الجديدة التي ورثت تلك المعتقدات ، دون أن تعرف حجم الخطأ والصواب فيها ، ومن ثم فقد التزمت بها ، وتعاملت معها باعتبارها إسلاما صحيحا لا شك فيه ولا مراء .

وأخراهما عزل بعض الأقليات الإسلامية التي تعيش في عدد من الدول الإفريقية والآسيوية ، فضلا عن التي تعيش في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، مما يؤدي بمضي الوقت الى تذويب تلك الجموع في الواقع الذي يحيط بها ، جيلا بعد جيل ، وبالتالي ، انحسار الإسلام عن تلك البلاد .

الولايات المتحدة الأمريكية نموذج واضح للفكرة التي نريد أن نطرحها ، فهناك يعيش مجتمع المسلمين السود ، الذين مر انتماؤهم الى الإسلام بمراحل عديدة ، أهمها مرحلتان بارزتان ، فحتى أواخر الستينات انعقدت زعامة هؤلاء المسلمين لواحد منهم ، اشتهر باسم « إيلايجا محمد » ، وقد ادعى لنفسه النبوة ، ومارس تخليطا وتلفيقا في الشعائر والمعتقدات ، وصلت الى حد إسقاط بعض الفرائض والأركان في مراحل معينة ، واستكمالها فيما بعد ، مما يعد نوعا من تطبيق نظام « التقسيط » في الالتزام بالإسلام .

في أخر الستينات توفي « إيلاجا محمد » ، وتولى قيادة المسلمين ابنه « وارث الدين » الذي كان على معرفة بالإسلام أفضل من أبيه . وبالتالي فقد قطع شوطا لا بأس به في تصحيح عقائد أتباعه ، ووضعهم على طريق الفهم الصحيح للدين .

لولا أن المسلمين الأخرين في الولايات المتحدة الأمريكية ـ المهاجرين خاصة ـ حافظوا على خطوط الوصل مع إخوانهم السود ، على الرغم من كل ما شاب اعتقادهم من تحريف في الأصول قبل الفروع . ولولا أنهم ساعدوا « إيلاجا محمد » على أن يوفد أحد أبنائه لدراسة الإسلام في الوطن العربي . لولا تلك « الشعرة » لاتسع نطاق التحريف وفساد الاعتقاد . ولخسر الإسلام ذلك التجمع المهم المؤثر في الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد كانت هناك أسباب كافية لتجريح اعتقاد هؤلاء الوافدين الجدد الى الإسلام وانتقادهم . وكان هناك خير كثير في الصبر ـ وليس القبول ـ على ما هو محرف ومشوه في فهمهم للدين . ولما اقترن ذلك الصبر بسعي حثيث الى التصحيح والتقويم كسب الإسلام الكثير من أجيال أدركت الحق فاتبعته ، وتخلت عن الباطل حين تبينت لها حقيقته .

والنموذج الثاني الذي يحضرنا هنا يتمثل في جموع المسلمين من شبه القارة الهندية المهاجرين الى مختلف أنحاء العالم ، وهم خليط من أهل السنة والإمامية والاسماعيلية والبهرة والقاديانية أو الأحمدية . كل هؤلاء يعلنون انتماءهم الى الإسلام واعتزازهم به ، لكن بعضهم له معتقدات لا تخلو من تحريف وتخليط . ونحن بين خيارين . إما أن نوفر لأنفسنا صيغة رصينة تعكس نهج الصبر عليهم والسعي الرفيق لتصحيح معتقداتهم . وإما أن نخرجهم من الملة ونتركهم وشأنهم فيستمر انحرافهم . وتذوب كياناتهم في المجتمعات التي وفدوا إليها جيلا بعد جيل .

أسارع بالرد ـ وأجازف ـ داعيا الى الانحياز الى الرأي الأول ، ملحا في مناقشة تلك الصيغة المرجوة ، التي توفر المحافظة على ملة الإسلام . وعلى صف المسلمين .

ذلك في الشق المتصل بالعقيدة . أما على صعيد المصلحة ففي عالم يتجه الى التكتل والتجمع ، تهدر فيه مصالح الضعيف ، ولا يكترث فيه بالشراذم والفتات ، فإن التقريب بين صفوف المسلمين واختصار المسافات الاعتقادية بينهم ، هو ركن حيوي في هذا الاتجاه .

وفي كل الأحوال فإن المحيط الإسلامي الزاخر باختلاف ألسنته وألوانه ومِلَله ومذاهبه يظل هو « المجال الحيوي » ، وربما أيضا « الخزان البشري » لكل بلد إسلامي على حدة . والذين أتيح لهم أن يقتربوا من مجتمعات المسلمين في مختلف مواطنهم النائية لابد أن يدركوا عمق مشاعر التضامن والتأييد والدعم التي يستشعرها هؤلاء المسلمون تجاه إخوانهم المسلمين حيث وجدوا .

لقد هوجمت بعض السفارات العربية . وأحرقت بعض مقار السفارة الأمريكية في العاصمة الباكستانية (إسلام أباد) عندما شاع بين المسلمين أن للولايات المتحدة الأمريكية ضلعا في عملية احتلال الحرم ، التي قام بها بعض الشباب قبل عدة سنوات . واحتشدت صفوف المسلمين في بعض دول أسيا وأفريقيا على أبواب السفارات المصرية في الخارج طلبا للتطوع دفاعا عن مصر ، خصوصا عقب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . أما قضية فلسطين واحتلال القدس الذي يؤرق الضمير المسلم في كل مكان ، فلو أن باب تطوع المسلمين فتح من أجلها لتوافدت الألوف من كل فج ، داخلة من باب الإسلام العريض ، معبئة بلاغته وأرضه وحدها ، متجاوزة عن كل خلاف أيا كان نوعه .

وقبل أن نخوض في أمر الصيغة المقترحة للوصل بين شتات المسلمين المبعثر ، ننبه الى أمور عديدة في مقدمتها :

* اننا لا ندعو الى إلغاء المذاهب . لاستحالة ذلك من الناحية العملية . كما ذكرنا من قبل . لكننا مع الإبقاء على هذه المذاهب ، باعتبارها مدارس فكرية ، واجتهادات عقلية ، تحترم ولا تلزم .

وهنا نؤيد دعوة أستاذنا الشيخ محمد أبي زهرة الى إلغاء الطائفية ، التي هي بمثابة اجتماع فريق من الناس على رأي واحد دون غيره ، والتعصب له ، « لأن الخلاف الطائفي يشبه أن يكون نزعة عنصرية ، والذين يريدون الكيد للإسلام يتخذون منها منفذا ينفذون منه الى الوحدة الإسلامية ، ولأن وحدة المسلمين توجب وحدة الشعور ، ولا وحدة للشعور مع الطائفية » .

هذا يضيف الشيخ أبو زهرة : « نقدر أن الطوائف الإسلامية كلها يجب أن تتلاقى على محبة الله ورضاه ، وتحت ظل كتابه تعالى وسنة نبيه الصحيحة ، والمقررات الإسلامية التي علمت من الدين بالضرورة ، ولا مانع من أن تختلف آراؤنا ، لكن يكون اختلاف آحاد في منازع علمية ، ولا يكون اختلاف جماعات وطوائف ، تجعل الأمة الإسلامية متفرقة متنازعة » (أبو زهرة ـ الإمام زيد ـ ص ١١) .

* إننا ندعو الى فض الاشتباك بين أتباع المذاهب والاجتهادات الإسلامية المختلفة ، و « وقف إطلاق النار » فوراً بين رموز تلك المذاهب والاجتهادات ، أي أننا نلح على وقف عمليات التجريح المستمرة التي يمارسها بعضهم تجاه اعتقادات بعض المسلمين أو ممارساتهم ، مذكرين بأن تلك الحروب الضارية التي يشنها بعض « السلفيين » في زماننا بصفة دائمة ضد الصوفية ، أو ضد الزيدية والأباضية بين حين وآخر ، غاية ما تحققه أنها تزيد من فرقة المسلمين وتشرذمهم ، وتكدس صيغة تقطيع أوصال الأمة على الصعيد الاعتقادي ، بعد السياسي والجغرافي .

إن أي حديث عن وصل بين جموع المسلمين باختلاف معتقداتهم ومشاربهم ، يصبح بغير معنى أو جدوى ، في ظل استمرار التراشق الفكري والتجريح العقيدي الذي يمارسه بعضهم . وإذا كان هناك طرف يؤمن حقاًبوحدة المسلمين ولم شملهم ، فإن الإيمان يتعارض تماما مع نهج التجريح والاتهام لمعتقدات « الآخر » الإسلامي .

* إن لدينا في الكتاب والسنة دليلا يهدينا الى الطريق السوي والنهج القويم للتعامل مع كافة فرق المسلمين ومذاهبهم ، فعندما ينص القرآن الكريم في سورة النساء على « إنّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ مادُونَ ذلك لِمَنْ يَشاءُ » مرتين ، في الآية ٤٨ والآية ١١٦ ، ثم عندما يقرر الله سبحانه وتعالى أنه : « إن تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ماتُنْهَوْنَ عَنْهُ . نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَريماً » (النساء ٣١) ، ويتكرر المعنى في سورتي الشورى (الآية ٣٧) والنجم (الآية ٣٢) ، ثم عندما يعلن النبي عليه الصلاة والسلام على الأمة أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، عندما تجتمع هذه النصوص أمام العقل المسلم ، فإنها تنير له الطريق ، وتحدد له الإطار الذي يمكن قبول الاختلاف في شأنه ، وهامش الخطأ المقبول ، وتصيب المجتهد المخطيء إذا حسنت نيته وجانبه الصواب .

إذا توافرت لنا مثل هذه الضوابط فلماذا إذن نقسو على أنفسنا ، ونسهم في تعميق جراح أمتنا ، وتوسيع الفجوة بين أوصالها وأطرافها ، وقطع الطريق على أي أمل في التقارب والوصل الفكري والعقيدي ، إذا استحال في المجالات الحياتية الأخرى ؟

إننا إذا وضعنا الوحدة الإسلامية هدفا لنا ، واتفقنا على أن الانتصار المطلوب هو للإسلام وحده ، وليس لفرقة بعينها أو تيار بعينه فإننا سنلاحظ ما يلي :

١ ـ أن المتفق عليه بين فرق المسلمين ومذاهبهم كثير جدا ، وأن التشبث به وحده كاف للنجاة ، فالإيمان بالله وبلقائه والسمع والطاعة لما جاء عنه ، وأداء الأركان المجمع عليها في ميدان العبادات ، وترك المعاصي المجمع عليها في مجال المحظورات ، وبناء النفوس على مكارم الأخلاق وأشرف التقاليد .

إن هذا كله يقيم أمة لها مكانتها في الدنيا والآخرة ، لكن جماهير من الدهماء والأذكياء ، شغلتها للأسف الخلافات العارضة ، ولم تحسن استثمار ما انعقد عليه الإجماع ، فكادت تضيع الإسلام بهذا العوج الفكري .

٢ ـ أن المذاهب الإسلامية الكبرى اختلفت في الفروع لا في الأصول ، وكان من الممكن أن يتعاون الاتباع فيما اتفقوا فيه ، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه ، وهذا ما آثره أولو الألباب ، لكن المرضى بالشقاق عكروا الصفو ومزقوا الشمل .

ولنضرب هنا مثلا : إن الإيمان بالله ينمو بالنظر في الكون ، والتأمل في التاريخ ، وهذا الإيمان أصل جامع لا ريب فيه ، فلماذا لا نتعاون على تقويته وتنميته ، والإفادة منه في المعاش والمعاد ، بتكثير الوسائل التي ترسخه في القلب ، وتضخم آثاره في الفرد والمجتمع ؟

ولماذا لا نتجاوز في ميدان العبادة قضية هل على المأموم قراءة القرآن في الصلاة ، أم تغني عنه قراءة إمامه فيها ؟

فيرى من شاء جواز القراءة أو وجوبها ، أو امتناعها ، ونترك له وجهة نظره ، فلا نضيع الوقت في المجادلة حولها ، ونوفر قوانا النفسية والفكرية في البناء على الأركان الممدودة ، وهي كما ذكرنا كثيرة .

٣ ـ اننا عندما نتأمل في التركة الثقيلة من الخلافات التي ورثناها نجد أن بعضها أملاه الترف العقلي ، وأن بعضا آخر لفظي لا محصل له ، وأن منها ما أشعل ناره الاستبداد السياسي واستبقاه عمدا الى يومنا هذا ، وأن منها ما يصح أن يكون مسرحا لنفر من الخاصة ، ويعد شغل الجماهير بها جرما ، وأن منها ما جده المقلدون المذهبيون لقصور شائن في معرفتهم .

ومع ذلك فإن الخلاف الفقهي قد كان في الفروع ، وسيبقى الى آخر الدهر ، لأسباب طبيعية مقبولة ، تعرضنا لها من قبل . ويجب ألا نتطير من هذا الخلاف ، وألا نحاول قتله أو تجاهله ، لكننا ينبغي أن ندعو عقلاء الأمة لبحث جاد في كيفية التعامل معه ، بحيث يستخلص منه ما يمثله من ثراء فكري عريض ، ويجتنب ما يفتح الأبواب للشقاق والخصام (محمد الغزالي ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ـ ص ٥٦ بقليل من التصرف) .

إن هناك معيارين أساسيين يمكن بهما قياس مشروعية أي خلاف بين المسلمين ، هما :ـ

× أن يكون لكل من المختلفين دليل يصح الاحتجاج به ، فما لم يكن له دليل يحتج به سقط ، ولم يعتبر أصلا .

× ألاّ يؤدي الأخذ بالمذهب المخالف الى محال أو باطل ، فإن كان ذلك بطل منذ البداية ، ولم يسمح لأحد القول به بحال .

وبهذين الأمرين يتميز الاختلاف عن الخلاف ، إذ الاختلاف المقبول هو ما توافر فيه الشرطان المذكوران ، مما يجعل القضية محصورة في إطار اللفظ العقلي والاجتهاد ، ويحفظ لأسبابه المنهجية والموضوعية . أما الخلاف المنكر فهو الذي يفقد الشرطين أو أحدهما ، وهو مظهر من مظاهر التشنج والهوى والعناد ، وليس له من سبب يمت الى الموضوعية (د . طه العلون ـ أدب الاختلاف في الإسلام ص ١٠٤) .

قلنا من قبل ـ مقال الشهر الماضي ـ أننا في التعامل مع الآخر الإسلامي على المستوى المذهبي والاجتهادي نفرق بين دوائر ثلاث : محيط أهل السنة أنفسهم ، ومحيط المذاهب الإسلامية التي لا تختلف مع أهل السنة في الأصول ، ولا مجال للحديث عن سلامة اعتقادها ، ثم دائرة المذاهب والفرق الأخرى التي يثار الجدل حول سلامة معتقداتها ، وأكثرها كامن أو متطلق من شبه القارة الهندية ، ولا ينفك يعلن انتماءه للإسلام ووقوفه على أرضيته .

وإذ نذكر بأن الدعوة الى الله ينبغي أن تظل في إطار الحكمة والموعظة الحسنة ، بمقتضى النص القرآني ، وأن ذلك يستلزم تنمية أسلوب التجريح والاتهام أو فض الاشتباك الفكري بين أتباع الملل الإسلامية كما ذكرنا ، فإننا ننبه أيضا أن السعي على هذا الطريق له مكانه وله أهله ، أعني أن تلك أمور تناط بمجالس البحث ومجامع العلم ، وبالتالي بالباحثين وأهل العلم ، ولا مكان لها في المنابر العامة ، ولا على صفحات الصحف ، فضلا عن أن الخوض فيها ينبغي ألا يستباح لكل من هب ودب من المنتسبين للكلمة المنطوقة أو المكتوبة .

وإذا جاز لنا أن نرتب المهام طبقا لأولوياتها فنحسب أن قليلا من الوعي والحكمة يطفىء النار المشتعلة بغير مبرر في محيط أهل السنة بين تيار السلفيين وبين غيرهم ، ويؤجل العراك حول قبض اليدين أو إرسالها في الصلاة ، وحول إطلاق اللحية وتقصير الثياب ، حتى إشعار آخر !

لكننا نعتبر أن القضية الأكثر إلحاحا الآن هي كيفية فض الاشتباك ومد جسور التقارب والتراحم بين أتباع المذاهب الإسلامية التي لا يختلف فقهاؤها حول الأصول والأركان الأساسية في الإسلام .

هنا نجد بين أيدينا مشروعا للوصل والفهم والتفاهم بين فقهاء المسلمين على اختلاف مدارسهم ومشاربهم ، عرضه أحد الفقهاء المصريين ، وهو الشيخ محمد عبد عباس ، وذكره الشيخ محمد الغزالي في مؤلفه الثمين « دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين » ، إذ دعا الفقيه المصري الى تأليف لجنة تعيد النظر في التراث الفقهي الإسلامي على أسس خمسة هي :

ـ تقرير الأحكام الأساسية المتفق عليها بين فقهاء الإسلام ، أي التي لم يثر بشأنها خلاف جوهري .

ـ في المسائل المختلف عليها اختلاف تنوع يؤخذ بجميع الآراء مادامت ثابتة في الشريعة ولا معنى للاقتصار على واحد منها ومخاصمة غيره .

ـ في المسائل المختلف عليها اختلاف تضاد ينظر في دليل كل مذهب ، ويؤخذ بأقوى الآراء وأرجحها دون تعصب لمذهب بعينه .

ـ في المسائل التي يصعب ترجيح رأي من الآراء فيها ، وتتساوى أدلتها في القوة يجوز الأخذ بأي رأي منها ، ويحسن تقديم ما يحقق مصلحة عامة للمسلمين .

ـ يترك من الآراء ما ظهر بطلانه أو ضعفه .

لقد دعا فقيهنا الى تعميم هذا الاتجاه وتسميته « مذهب الكتاب والسنة وجميع الأئمة » ، وأيد الشيخ الغزالي دعوته ، وتمنى أن تبحثها المجامع الإسلامية المعنية بحاضر المسلمين ومستقبلهم .

على صعيد آخر أورد الشيخ الغزالي في كتابه مشروعا محددا للتقريب بين أكبر مذاهب المسلمين المعتبرة ، وحدد عناصره في نقاط أربع هي :ـ

× يتفق الفقهاء المعنيون في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد ، وهو المصدر الأول للتشريع ، وأن الله حفظه من الزيادة والنقصان وكل أنواع التحريف ، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه ، وأنه ليس في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف .

× السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ، والرسول أسوة حسنة تتبع الى قيام الساعة ، والاختلاف في ثبوت شيء من السنة أو عدم ثبوته مسألة نوعية .

× ما وقع من خلاف في القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي ، والعبرة التاريخية ، ولا يسمح بامتداده الى حاضر المسلمين ومستقبلهم ، بل يجمد من الناحية العملية تجميدا تاما ، ويترك حسابه الى الله . وفق الآية الكريمة (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَاكَسَبَتْ وَلَكُمْ مَاكَسَبْتُمْ ، وَلَاتُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة ـ آية ١٣٤) .

× يواجه المسلمون جميعا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة الكثيرة جدا ، وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ، ووجهات النظر المذهبية الأخرى (دستور الوحدة الثقافية الإسلامية ـ ص ١٤٧) .

تلك نقاط قابلة للزيادة والنقصان بطبيعة الحال ، لكنها تظل جديرة بالبحث والنظر من جانب كل من تشغله وحدة الأمة الإسلامية ، وهي تعني قبل كل شيء أن الطريق مفتوح ، وأن السبل قائمة ، وما على أهل العلم والعقل إلا أن يتقدموا .

بقيت الدائرة الأخيرة التي أشرت إليها ، وموضوعها هو العلاقة مع الفرق والملل الإسلامية التي يثار الجدل حول سلامة معتقداتها وممارساتها .

ولا أملك صيغة أو مقترحا محددا في هذا الصدد ، لكن أكرر لفت النظر الى أهمية الموضوع فقط ، داعيا من هم أقدر مني وأعلم الى أن يولوا هذا الموضوع عنايتهم واهتمامهم ، دون تفريط في دين الله ، أو إهدار لقيمة الوحدة المنشودة بين المسلمين . □

عبد الرحمن الشرقاوي
فارس الكلمة

بقلم : فاروق خورشيد

فرسان الكلمة يتساقطون واحدا إثر الآخر .
قائمتهم طويلة ، يتخطفهم الموت الطبيعي وموت الرصاص والاغتيالات فرداً إثر فرد
والمكلوم ليس الكلمة فقط ، بل الأمة بأسرها ، وعقلها النابض الحي .
ومرة أخرى مع فارس آخر من فرسان الكلمة ،
إنه عبد الرحمن الشرقاوي الذي وافته المنية في
١٠/١١/١٩٨٧ وهو شعلة عطاء .

رحل عبد الرحمن الشرقاوي فجأة ، وكنا على موعد ان نلتقي إثر عودته من موسكو ، فلم يتحقق هذا اللقاء ، ولن يتحقق في هذه الدنيا أبدا . كانت عادتنا أن نلتقي كل عدة أسابيع مرة ، نطرح القضايا والهموم ، ونتناقش فيما يمر بحياتنا الثقافية من علل وأعراض . وكان سر هذا اللقاء شبه الدوري ما كان يحس به كل واحد منا من راحة ، لأن الآراء تلتقي وتتقارب ، فيجد كل منا في هذا التقارب عزاء لما يجد في نفسه من مرارة تجاه هموم حياتنا الثقافية والفكرية ، بل وهمومنا المصرية والعربية بعامة ، التي نحملها مرغمين بحكم اشتغالنا بالفكر ، وارتباطنا بمعنى الحرية والعدل ، واتجاهنا الى التعبير عن كل هذا إما بالقلم ، فإن لم يكن ففي هذه الجلسات واحة من هجير الصمت ، وضياع الحقيقة ، وصحراء الجهالة التي نعيشها ونعايشها مرغمين .

رحل عبد الرحمن الشرقاوي فجأة فاستراح ، فقد كان قلبه يحمل من هموم ناسه وأمته ما يفوق طاقة قلب إنسان عادي ، وكان فكره يمور بمشكلات الثقافة العربية والانسان العربي بما يتجاوز احتمال فكر إنسان عادي ، وكان وجدانه ينفعل بهموم وقضايا رجل الشارع البسيط في كل مكان من وطننا العربي ، وهموم وقضايا رجل الفكر المثقف في كل مجمع علمي أو ثقافي في دنيا العرب . .

كان قلبه لا يعرف إلا نبض الصدق ، وينبذ الكذب والنفاق وازدواج الشخصية والتمزق المرضي ، ويهتز نبض الصدق بالألم والأسى ويلتف حول نفسه في حزن عظيم .

وكان فكره لا يعرف إلا صوت الحرية ، الحرية له ولأبنائه ولوطنه ولكل إنسان يذوق طعم العبودية والاستعمار والاستغلال والطغيان الغبي الذي يدمر الأمن والسلامة ويفرق بين الأهل والأصدقاء ، ويرفع صوت الرصاص على صوت الحب ، ويدفق أنهار الدماء بدلا من أنهار الخصب والنماء ، ويزرع البغضاء والحقد .

وكان وجدانه لا يعرف إلا معنى العدالة ، رغم ما كان حوله من ظلم . فالغني يزداد غنى ، والفقير يزداد فقرا ، وقوم ينفقون أموالهم الغزيرة على أدوات ترف لا تحصى أغرقتنا بها الرأسمالية الشرهة ، وقوم لا يعرفون ماذا يحمل لهم الغد ، وكل يوم تتضاعف الأسعار عن اليوم السابق أو تكاد . قوم تخموا حتى لم يعد فكرهم يستطيع أن يتخطى كروشهم العالية ، فأخذوا ينادون في سعار باستلاب الشعب كل مكاسبه في الغذاء ذي الأسعار المتاحة لقدراتهم المحدودة ، وفي الكساء الذي يقع في متناول أجورهم الهزيلة ، وفي التعليم المجاني ، وفي المواصلات السانحة لأمثالهم لا لأصحاب العربات الفارهة التي تبنى لها الجسور وتمهد الطرق وتحفر الأنفاق ليخلو سطح الأرض لمرحهم ومشيهم في الأرض طربا . قوم أذهلتهم الدوامة عن شئون مستقبلهم بل وحاضرهم ، إذ هم في الطوابير من أجل رغيف عيش أو لحوم أو دواجن أو حتى خضراوات مازالت تيسرها لهم هذه الطوابير الدوامة ، المضيعة . العدل أن يجد كل إنسان حاجته فوق أرض الله ، وأن يقول كل إنسان كلمته في دنيا الله ، وأن يعيش كل إنسان أمنه في رحاب رحمة الله .

من قلب القرية

منذ البدء كانت هذه هي تركيبة عبد الرحمن الشرقاوي ، تركيبة القلب الصادق والعقل الحر ، والوجدان المتشرف الى العدل . منذ خرج هذا القروي ـ الذي تربى في الكتّاب وحفظ القرآن ، وقرأ التراث الإسلامي والفكر العربي ـ الى القاهرة ليدرس الحقوق ويجرب القلم ، وقلبه يضطرب بمعنى الصدق ، وعقله يضطرم بنور الحرية ، ووجدانه لا يتوانى يبحث عن العدل . وفي القاهرة صدمه الواقع المر ، استعمار انجليزي راسخ بثقله فوق ضمائر أبناء الوطن ووجدانهم ، وقصر مستغل ارستقراطي متعال يسوم الناس العسف ، ويحكم البلاد بالحديد والنار والتآمر مع المستعمر والعسكري الأسود ، والاغتيالات بليل ، وقمع مظاهرات الطلبة بالرصاص ، وإغراقهم في النيل . واقع أسود مر ،

قلة مالكة لكل ثروات البلد ، وكثرة لا تملك شيئا ، مجتمع النصف في المئة ، والكل مغرق في دوامة حزبية اسمها الائتلاف الحزبي ، ووزارة تروح ووزارة تجيء ، والحال يسوء ، والاستعمار باق رازح ، والاستقلال مستمر دائم راسخ ، والصدق مات والحرية ضاعت والعدل امحى ، والكلمات المطروحة في الساحة تغرق الناس في دوامة الواقع المصطنع ، وتساند المستعمر في استعماره . .

شاهت الكلمات ، وضاقت السبل ، وهذه النفس الفوارة بحب الوطن وبمعنى الكرامة لا تجد طريقا تلتفت إليه إلا وقد رصده أعداؤها وأغلقوه وسدوا المنافذ نحوه ، لا تجد نافذة تطل منها هبة هواء نقي إلا وقد تدافعت الستائر السوداء لتسدل عليه ، وامتدت القضبان الحديدية تمنع كل نسمة حرة ، وكل معنى جريء . أعجيب إذن أن يبحث الشرقاوي كما بحث زملاء له في جيله عن بارقة أمل أو طاقة نور ؟ أو عجيب حقا أن يتجه الشرقاوي كما اتجه زملاء له الى عدو عدوهم ، عل عنده الخلاص ، وعل لديه ما يجيب عن الأسئلة الحائرة ، ويهدي الى بعض النور ؟

ويحكي الشرقاوي عن منهجه الجغرافي الذي خلا من كل إشارة الى روسيا ، ويصور لنا حيرته ، وحيرة الصغار من التلاميذ أمام هذا الغموض المثير ، ويقول في قصيدته الرائعة « رسالة من أب مصري الى الرئيس ترومان » ، التي صدرت عام ١٩٥١ ، أي قبل قيام الثورة المصرية ، وهو يحكي موقف المدرس الحائر حين يسأله تلاميذه عن المجهول ، الممنوع . !

« وضج الصغار : « وما روسيا ؟ . وما روسيا ؟ »

فدمدم يلعن آباءنا وأجدادنا والجدود الكبار ،

الى أن تناهى الى آدم فأدركه طائف من وقار ،

وعاد يقول : « اسمعوا يا كلاب ، فهم بلشفيك : هم البلشفيك » ،

وثم تلفت من حوله ، وفي جسمه خبل من حذر ،

فقلت له : « ومن هم البلشفيك ؟ » ،

قال : « انتظر » ،

فأنت غلام غرير العمر ،

وبعد قليل ستبلو الحياة ، وتعرف من أين يأتي الخطر .

وفي الحق أني لم أنتظر ،

فما كنت أفهم هذا الخطر ،

ولما رجعت الى قريتي سألت أبي : « من هم البلشفيك ؟ »

فصفق من عجب قائلا : « لقد جن والله هذا الغلام » ،

فمن أين يعرف هذا الكلام ؟ ! »

الهم العام والهم الخاص

ومن هذا المعين الجديد بدأ إيمان الشرقاوي بكفاح الشعوب من أجل الاستقلال ، وبدأ إيمانه بكفاح الطبقة الكادحة مرتبطا كل الارتباط بهمومه الوطنية المحلية العاجلة . ويشرح الشرقاوي هذه المرحلة من حياته الفكرية ، فيقول في نفس القصيدة :

« وقامت شعوب تهز الظلام بمشرق أحلامها الهائلة ،

وتعلو على ضربات الفساد بناء مدينتنا الفاضلة .

ولما بدأت أعي ما يقال رأيتهم يملأون الطريق ،

تهز الفؤوس ركود الحقول وتغلي بما تحتويه العروق

وكانوا يقولون : « يحيا الوطن »

حفاة يهزون ريح الحياة ويستدفعون شراع الزمن

وساءلت أمي عما هناك « ماذا دها القرية الساكنة »

فقالت : « يا بني هم الانجليز يثيرون أيامنا الآمنة

وقد أخذوا كل غلاتنا . . وقد نضب الماء في الساقية

ولم يبق شيء على حاله سوى حسرة مرة باقية . . »

امتزج الهم العام بالهم الخاص عند عبد الرحمن الشرقاوي ليصبحا معا همًا واحدا ، ووجد نداءات الخلاص عند الماركسية تتجاوب مع نداءات الخلاص التي يهتز بها قلبه وعقله ووجدانه معا ، وهكذا

انخرط عبد الرحمن الشرقاوي في هذه المرحلة من حياته في التجمعات الماركسية التي ملأت دنيا المثقفين العرب، وكون مع صديق عمره الرسام حسن فؤاد ومجموعة من الآخرين (لجنة الفنانين والكتاب أنصار السلام).. وأصدرت اللجنة العديد من الأعمال الأدبية والمنشورات التي تندد بالحرب، وتدعو الى السلام العالمي، كما تهاجم الاستعمار والاستغلال، وتدعو الى تحرير الشعوب من الاحتلال، وتحرير ناس الشعوب من الاستغلال والقهر. وأصدرت هذه اللجنة مجلة الغد. وظهر فيها العديد من مقالات الشرقاوي التي كانت تتسم بالحدة والشاعرية والثورية الصارخة. وبدأ الشرقاوي يغزو الصحافة بكتاباته وفصوله القصصية. فنشرت أعماله في جريدة المصري الواسعة الانتشار في حينها، وهي الجريدة التي نشرت له هذه القصيدة، كما نشرت له روايته الرائدة «الأرض» في حلقات متتابعة.. كما ظهرت أعماله في (الاثنين) و(قصص للجميع) و(الكاتب) و(المصور).. وفي المصور نشر عبد الرحمن الشرقاوي مجموعة من القصص تصور كفاحنا الشعبي في عصور المماليك، ثم نشرها بعد ذلك في مجموعة قصصية باسم (أرض المعركة)..

وإذا كانت (الأرض) عملا واقعيا يستمد حوادثه وشخصياته وحواره من أرض الريف المصري، وربما من قرية (الدلاتون) بالمنوفية التي ولد فيها الشرقاوي عام ١٩٢٠. فإن (أرض المعركة) عمل مستمد من عمق التاريخ المصري، ولكنه ليس تاريخ الملوك والأمراء، وإنما هو تاريخ الشعب، بناته البسطاء وكفاحهم الدائم النبيل.. ويقول صديقنا المشترك الأستاذ سعد لبيب الذي كتب مقدمة هذه المجموعة: (... تعرض المؤلف لفترة من تاريخنا.. هي الفترة التي سبقت دخول الحملة الفرنسية الى مصر، وامتدت حتى وصلت الى بداية الاحتلال البريطاني.. وبالرغم من أن قضية الكفاح الشعبي لم تبدأ في هذه الفترة ولم تنته عندها كذلك، إلا أن هذه السنوات كانت غنية حقا بألوان الكفاح الشعبي في صوره المختلفة.. فكان هناك الكفاح الشعبي ضد المستعمر، وكان هناك الكفاح الشعبي ضد الحاكم المستبد، وكان هناك الكفاح في سبيل لقمة العيش.. ذلك أنه في الفترة التي سبقت دخول الحملة الفرنسية الى مصر، كان الذي يحكم مصر فعلا هم جماعات المماليك.. صحيح أن الخليفة العثماني هو الذي كان له حق السيادة الرسمية على مصر.. ولكن هذا الحق لا يتعدى الحدود الشكلية وحدها. وبالرغم من أن المماليك لم يكونوا مصريين في أصولهم، إلا أن حركات المقاومة الشعبية ضدهم لم تأخذ شكل حركات المقاومة ضد المستعمرين. فإن طول إقامة المماليك في مصر، وما اكتسبوه من عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم جعلتهم أقرب الى المصريين منهم الى أي شيء آخر. والشيء المهم أنهم لم يكونوا على الإطلاق يعملون لمصلحة دولة أجنبية. فإنهم لم يعرفوا غير مصالحهم الخاصة. فكان وضعهم بالنسبة لجماهير الشعب في مصر وضع الطبقة الحاكمة المستغلة لا أكثر ولا أقل. وعلى هذا فإن ما قام ضدهم من حركات شعبية كان يتسم بطابع الحركات التحريرية الداخلية. أي أن هدفها الأول كان وقف الطغيان المحلي..)..

معركة مستمرة

إن معنى المعركة عند الشرقاوي نابع من معنى الأرض. فهي معركة هذه الأرض. وهي معركة مستمرة لا تتوقف طالما ران على الأرض الكذب والعبودية والظلم.. وهذا الالتفات الى العمق التاريخي لوجود الكفاح الشعبي التفات مبكر من الحياة الأدبية المعاصرة. فقد كان البحث دائما عن البطل في صورته التاريخية الملحمية القديمة مستمدا دائما من تقريرات المؤرخين عن الملوك الأبطال والقادة الأبطال، أي مرتبطا بمعالم البطولة في الرجل الفذ، والرجل الخارق.. فجاء الشرقاوي ليبحث عن أبطاله العاديين في حواري مصر وشوارعها، وحقولها وأسواقها. وبهذا بدأ تغييرا هاما في صورة البطل ومعناه. وبدأ أيضا التفاتا أصيلا وجذريا نحو الملامح الشعبية لثقافتنا في العمل الحضاري لأبناء الشعب العاديين سواء برصد كفاحها في (أرض

المعركة) أو في رصد حياتها في (الأرض) ، وفي مجموعته القصصية الثانية التي أسماها (أحلام صغيرة) ، وتناولت نماذج معاصرة من القرية والمدينة معا ، امتازت كلها بخصوصيتها الفائقة في رسم الشخصية المصرية ، وبالذات الشخصية المصرية الشعبية ، وتقف قصة (العقرب) في هذه المجموعة ، صورة فنية رائعة للجمع بين معنى البطولة الشعبية ، ومعنى العناء والطحن الذي يعانيه (الكادحون) كما كان يسميهم الشرقاوي . ونحن نعتبر أن قصة (العقرب) من أبرز الملامح في دنيا القصة العربية القصيرة المعاصرة .

وفي تصوير عبد الرحمن الشرقاوي لمعركة الأرض ، أو أرض المعركة ، ممثلا في ناسها وشخوص أحداثها ، التفت بشدة وبصدق الى شخصية (رجل الدين) البسيط في صورة شيخ الكتاب أو سيدنا أو المقرىء الأعمى ، أو خادم المسجد ، أو المؤذن أو خريج الأزهر ، أو حافظ القرآن ومأذون القرية .. وهذا الرجل يلعب دورا مؤثرا وبارزا في التوجيه الفكري والشحن المعنوي في القرية ، وكذلك في مجتمع الكادحين في المدينة ، ولو أن الظروف الضاغطة قد حتمت التوجه الخاطىء لهذه الشخصية إلا أن دورها البارز والمؤثر يحتم أنه لابد من أن يعاد النظر في المحتوى الذي يشكل فكره هو ، وفي الفعالية التي قد تكون له ، بل ولابد أن تكون له في تربية الجماهير وتكوينها .. إن هذا الاتجاه ، وإن شكل رؤيا نقدية اجتماعية وأدبية لشخصية من أبرز الشخصيات في المجتمع الشعبي ، إلا أنه في نفس الوقت يشي بترسب الدين برموزه وتعاليمه ومبادئه وأفكاره في عمق الشرقاوي منذ البدء . فأيا كان دور الحافز الوطني أو الفكر الاشتراكي في تكوين الشرقاوي فإن الإيمان الديني هو المحور الذي تدور حوله كل الرؤى والأفكار ، ويبدو هذا واضحا في التضمين القرآني في قصيدته الشهيرة (رسالة من أب مصري الى الرئيس ترومان) يقول فيها موجها الخطاب الى الرئيس الأمريكي :

« متى سوف تقرأ هذا الكلام . سألتك يا سيدي .. بالجنون

بنيتو ، بدجول ، بالمرسلين

بفاروق .. بالنقطة الرابعة

وبالدول (الحرة ..) التابعة

. . . . . . بكل العبيد من العابدين

وبالتابعين ،

وبالتابعات .

وبالمرسلات ، وبالعاصفات ،

وبالناطحات ، وبالشاطحات .

وبالنازعات ، وبالناشطات ، وبالغارقات .. »

ويقول في مكان آخر :

« ولكن لمن كل هذا العديد ؟

وتلك الحشود ؟

ولكن لمن كل هذا الهزيم ؟

لمن هذه النافثات السموم ؟

لمن هذه الناشرات الجحيم ؟

لمن تسرق اليوم أقواتنا لتصنع ما شئت من فاتكات ؟

لمن تحشد اليوم في السابحات ، وفي الغائصات ، وفي الطائرات

وفي الناسفات ؟

لمن هذه الذاريات الحطام .. لمن ؟ ولمن هذه النازعات ..

لمن كل هذا ؟ لغزو السماء .. لتصنع معجزة ؟ »

وإذا كان التأثر اللفظي هنا واضحا بالصياغات القرآنية فهناك إشارة مباشرة الى إحدى قصص القرآن الكريم وهي أهل الكهف في قوله :

« فقلنا لهم : « إننا لا نريد سوى أن نمارس معنى الحياة

ونعمل كي يتساوى الجميع .. أمن أجل هذا نسمى عصاة ؟ »

فقالوا : « المساواة ما تطلبون ؟ »

فقلنا : « أجل بكلاب القصور ؟ »

فقالوا : « إذن أنتم ملحدون »

فقلنا : « وكيف ؟ وهل قدست كلاب القصور

كأهل القبور ؟

أمانا .. أمانا كلاب القصور .. فقطمير أقدسكم يا كلاب

لقد مات كلبا كما عاش كلبا .. ولم يغد يوما ولي الإله

على أننا ما أهنّاكمو ...

في إشارة الى كلب أهل الكهف الباسط ذراعيه بالوصيد ، والذى حدد المفسرون اسمه (بقطمير) .

محمد رسول الحرية

على أن هذا الامتزاج بين التطلع الاشتراكي المعاصر ، والعمق الدينى المتوارث يبدو في أروع صوره في كتابه المميز (محمد رسول الحرية) الذى بدأ كتابته عام ١٩٥٣ وقدمه الى النشر عام ١٩٦٢ والذى أهداه الى أبيه قائلا (الى أبي .. الذي غرس في قلبي منذ الطفولة ـ حب محمد) مؤكدا بذلك عمق الوجود الاسلامى الدينى في وجدانه . ولكنه يؤكد أيضا أنه ينظر الى هذا الدين كفكر وكدعوة انسانية لتحرير الانسان ، ولا يكتفى منه بمجرد الايمان الساكن غير المتحرك ، أو المبتهل الضارع وحسب .. أحب أن يخرج بشخصية محمد من الغلالة التى تحيطها بها أغانى المداحين والذاكرين من (لأجل النبى) و (شفيعي يارسول الله) و (مدد يامحمد) الى معنى الانسانية في شخصية محمد ، ويحقق الرجولة الحقة الفاعلة لتحرير أمته من جهالة الكفر ، وذل الاستكانة ومكابدة الفقر في الصحراء ، وعار العمالة والخضوع للروم مرة وللفرس مرة .. هذه الصورة تعنى تغيرا في مضمون الشخصية التى تطرحها صور الأدب المجتر الذى يكرر نفس المقولات ، ويقف في مكانه لا يريم ..

ولكن طموحه كان أكبر من هذا أيضا . فقد أراد أن يقدم من حياة محمد عليه الصلاة والسلام (قصته) بشكلها الروائي المعاصر .. فهناك إذن إضافة جديدة من ناحية المضمون ومن ناحية الشكل كذلك ..

وهو يؤكد قصده الأكيد نحو هذه المحاولة الطموحة بقوله في مقدمة الكتاب (لسنا في حاجة الى كتاب جديد عن الدين ، يقرأه المسلمون وحدهم ، ولكننا في حاجة الى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الاسلام ، كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين ، تصور العناصر الايجابية في تراثنا ، وتصور ما هو إنسانى في حياة صاحب الرسالة .. إننا بحق في حاجة الى مئات من الكتب يقرأها الناس كافة ، الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لا يؤمنون .. الى تصوير القدر المشترك ـ المتفق عليه بين الجميع ـ من دور أصحاب الرسالات .. أى الى تصوير الجانب الدنيوى الذى أصبح ميراثا حضاريا مشتركا لكل الناس مهما تختلف دياناتهم وفلسفاتهم وآراؤهم ...) ..

الأمر أنه آن أن نشارك في ثقافة البشرية وحضارتها من جديد ، بعد عهود التخلف والاستعمار والقهر ، والأمر أننا لا نستطيع أن نقوم بدور فعال في هذه المشاركة إذا ظللنا نقدم لأنفسنا وللآخرين نفس المعطيات الثقافية التى سادت هذه العهود وسببت تخلفها ، والأمر آخر الأمر أن نهضة وطنية ما لا يمكن أن تقوم بدون نهضة ثقافية حقيقية ، وكفانا انبهارا بالغرب وثقافة الغرب ، وكفانا الاصرار على دور المشاهد السلبى المقهور المندهش ، وآن لنا أن نعيد النظر في كل شىء ، في حقيقة تراثنا ، في المشاركة التى قام بها فكرنا ومفكرونا وأبطال حضارتنا لاثراء الفكر الانسانى ، والدفاع عن قضايا التقدم ، وكشف عوامل التخلف ، واستبعادها ـ وكان الشرقاوى بهذا يشارك في حركة ضخمة قامت منذ رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده شارك فيها الكتاب والمفكرون والمشتغلون في حقول البحث والدراسة حتى الجيل الذى سبقه مباشرة كطه حسين في أحاديث الأربعاء يعيد بها رؤية التراث الأدبي وعلى هامش السيرة يعيد بها رؤية التراث الدينى ، والأيام يعيد بها اكتشاف عمق الانسان المصري في جذوره ، و المعذبون في الأرض يشارك فيها في الكشف عن الام الكادحين ومعاناتهم .. وكأمين الخولي في المجددون في الاسلام ومناهج تجديد ، في القول

كاعادة رؤية في المنهج والمتوارث والمسلمات ، وكالعقاد في عبقرياته ، وهيكل في كتبه محمد وعمر وأبو بكر ومحاولته للكشف عن القرية المصرية في زينب ، وكالمازني في الديوان وفصوله النقدية ومحاولاته الروائية .. وجاء جيل الشرقاوي ليكمل البعد الاشتراكي للنظرة الاسلامية ، والبعد الأممي للنظرة الوطنية .

البعد الوطني بعد الثورة

وجاءت فرقة الشرقاوي عن الرفاق الاشتراكيين بعد قيام الثورة المصرية التي كانت جهوده وجهود زملاء له وجهود من سبقوه هي التي مهدت الأرض لقيامها وتحديد مبادئها .. إذ انضم الشرقاوي بكل ثوريته وفكره المتمرد والبناء الى كتاب الثورة ، ولعله كان في طليعتهم . وتعمق البعد الوطني في مسرحياته (الفتى مهران) و (عرابي زعيم الفلاحين) بينما ظهر البعد القومي العربي وفرض نفسه تماما في (وطني عكا) و (النسر الأحمر) و (مأساة جميلة) .. وزاد تعمقه في كشف الشخصية المصرية في رواية (الشوارع الخلفية) ورواية (الفلاح) ..

وبدأ يتجه في فكره الى أهمية تثبيت المعنى القومي وصولا الى الأممية . أما أن نحاول الوصول الى الأممية دون أن نحرر إنساننا نحن المصري ثم العربي فشيء لن يؤتي ثمار الجهد المبذول فيه .. وهوجم الشرقاوي من رفاق الأمس ، كما هوجم دائما من السلفيين وأصحاب التجمد الخانق من المساس بأمور الدين فكرا ومناقشة ، فما بالك بالابداع وكتابة القصص عن أبطاله .. وقد استمر الشرقاوي في استخراج المعاني الانسانية ومعاني البطولة من سير عظماء الاسلام يدخلهم الى عالم أبطال الانسانية كلها من باب العلاج القصصي الجديد ، والعلاج القائم على فهم البطولة التي هي كفاح مشترك في كل مكان من أجل الانسان ، فقدم رؤيته القصصية الانسانية لعلي إمام المتقين ، وخامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، والفاروق عمر بن الخطاب ، والصديق أبو بكر ، وابن تيمية الفقيه المعذب ، وأئمة الفقه التسعة في كتابه (شخصيات اسلامية) .. وأراءه في الفكر العربي الاسلامي المتجه الى الشمول وأفق الانسانية الرحب في (قراءات في الفكر الاسلامي) .. واستمر يدلي بدلوه في مكافحة الارهاب الاستعماري العالمي فقدم (رسالة الى جونسون) عام ١٩٦٧ ومسرحية (تمثال الحرية) في نفس العام و (باندونج والسلام العالمي) عام ١٩٥٥ ..

إن أطروحة السلام عن طريق الحب ، وأطروحة القومية عن طريق التراث ، وأطروحة المعاصرة عن طريق الاسلام .. أطروحة مثلث أقانيم رئيسية في حياة الشرقاوي وفكره . وعلى الرغم من كل ما قدمته المطبعة العربية من كتب للشرقاوي فإن مقالات عبد الرحمن لم تجمع ولم تطبع ، وهي بذاتها ثروة فكرية هائلة ، ومتابعة حقيقية لكل الأحداث السياسية والقومية في بلادنا وفي العالم من حولنا . وما أجدرها إن جمعت وطبعت أن تضيف الى المكتبة العربية تسجيلا حيا لأحداثها من واقع قلب صادق ، وفكر حر ووجدان طامح الى العدل .

وما أجدرنا أن نسمي الشرقاوي باسم فارس الكلمة الشريفة ، فما أكثر ما أبرز من ملامح الفروسية في أبطال الاسلام والعرب ، وفي أبطال الشعب الكادحين على مر التاريخ المصري .. ما أكثر ما نادى بشرف الكلمة وقدسيتها ..

وداعا عبد الرحمن ، واللقاء حتمي .. اقترب .. وأسمع وقع أقدام داعيه .. □

● لايمكن لأي انسان أن يصبح عالما بمعنى الكلمة ، من غير أن يصير قبل ذلك انسانا بمعنى الكلمة .

(نوفالس)

تكييف الأجواء عند العرب

مكيف الهواء «بادهنج»

ابتكره العرب قبل العالم بسنين

بقلم : إحسان جعفر

«قد لا يعرف كثيرون أن العرب هم أول من ابتكر مكيف الهواء ، بنوعيه البارد والساخن ، ورغم أن التراث العربي يحفل بذكر هذا الابتكار ، إلا أن أحدا لم يتوقف ليقدم لنا كيف دفعتهم ظروف المناخ القاسية إلى ابتكاره ، وكيف ساعدهم عليه عصر نهضة علمية شاملة» .

لا شك أن القارىء عندما يقع نظره على لفظ «البادهنج» سيتساءل : ما هو البادهنج ؟ وماذا يعني ؟ هل هو اسم لنوع من العطور ؟ أم هو اسم صنف من الزهر يماثل البنفسج مثلا ؟ أم أن له صلة ما بحجر البادزهر أو الدهنج . لن أطيل في تقريب معنى البادهنج إلى الأذهان . لكن أقول إنه ليس هذا وليس ذاك أيضا . ولا يمت إلى ما ذكرناه بصلة .

فالبادهنج جهاز علمي للتهوية ، مصمم ببراعة مدهشة . على أدق الأسس الفنية . ابتكره العرب في العصر العباسي لتكييف أجواء الدور والقصور ، بيد أن كل من تناول هذا الجانب الحضاري «تكييف الأجواء عند العرب وتهويتها» ، لم يشر إلى هذا الجهاز التقني الظريف متقن الصنعة . فآدم متز في كتابه الحافل «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري» لم يتطرق إليه في كلامه على طرق تبريد الجو ، واتخاذ قباب الخيش والسراديب والمراوح . ولم يذكره ناصر الخان في دراسته المقتضبة المسماة «في الحضارة العربية» على الرغم من أنه حاول أن يأتي بجديد عن اصطناع العرب لوسائط التهوية .

ويلوح أن معنى البادهنج قد استعصى على الدارسين ، فلم يتوصلوا إلى معرفة كنه هذا الجهاز ، حيث لم تنص المعجمات العربية عليه ، ولا حتى كتب المعرب والدخيل ، فضلا عن أن الالماح إليه في المصادر الأدبية والتاريخية والعلمية أتى بشكل من مقطعين (باد) هواء ، و (نج) فوهة ، فيكون المعنى (فوهة الهواء) ، وهي ترد أيضا بلفظ : «باذهنج» (بالذال المعجمة) وبادنج ، وباداهنج ، حسب اختلاف المصادر .

إشارات شتى

ولقد أشار إلى هذا الجهاز دوزي في (تكملة المعاجم العربية) بقوله : «بادهنج أو بادنج : أنبوب شبيه بأنبوب الموقد أو المدفأة يتخذ للتهوية» .

ولم يزد على ذلك شيئا .

ومن مراجعة رحلة ابن بطوطة تبين لنا أنه أتى على ذكر هذا الجهاز في معرض الكلام على سلطان بركى حيث يقول : « ويعث إلى بدبت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ، ويسد متى احتيج إلى سده » .

وجاء ذكره أيضا في « ألف ليلة وليلة » . ففي تضاعيف إحدى الحكايات ورد القول التالي : « وفيه بادهنج إلى جانب المطبخ » .

ووجدته منصوصا عليه في كتاب « عنوان البيان وبستان الأذهان » لعبد الله الشبراوي ، حيث شرحه بأنه المنفذ الذي تجيء منه الريح .

وسماه أبو الحسن عبد الكريم الأنصاري « راووق النسيم » يقول :

ونفحة بادهنج أنكرتنا
وجدت بروحها برد النعيم
أتتنا من أنيق الشكل سمح
نراه مثل راووق النديم
صفا وجرى الهوا فيه رقيقا
فسمّيناه راووق النسيم

وجمعه بادهنجات ، وعربته الملقف ، وجمعه الملاقف . وكان يشيد وسط المبنى ، فوق الأسطح لتلقي الهواء الملطف ، ويسقطه من فتحات في السقف إلى القاعات والايوانات ، وكأنه نوع من طرق تكييف الهواء . وأقدم مثل للبادهنج في مصر ما يزال في جامع الصالح طلائع بن رزيك ، كما توجد أمثلة أخرى له في المدرسة الكاملية من العصر الأيوبي ، وفي خانقاه بيبرس الجاشنكير .

وكان القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي أكثر الناس ولوعا بالبادهنج ، وله فيه أشعار وأقوال . وأقدم من ذكره من الشعراء مهيار الديلمي (ت ٤٢٨ هـ) ، يقول في قصيدة يصف فيها هواء بيت مجلوب من بادهنج قد شيد على سطحه مفتوح الجناحين لمهب الجنوب والشمال .

وأهدى الهواء له ناشرٌ
جناحين لو حلاه لطارا
تنفّست للريح مستقها
بأذنين لا يحملان السرارا
إذا عبرت مطلقات الريا
ح ليسلكنه ظلن فيه أسارى
فتلفظ منها السموم[1] الشرار
ويلقى إلينا النسيم الحِرارا[2]

اسس علمية دقيقة

والذي لفت النباهي أن نصب البادهنج وتوجيه جناحيه لمهب الريح لم يكن اعتباطا ، وإنما وفق أسس علمية دقيقة ، يراعى فيها ما يراعى في تعيين القبلة وجهة المحراب . وكان يتولى ذلك ويشرف على

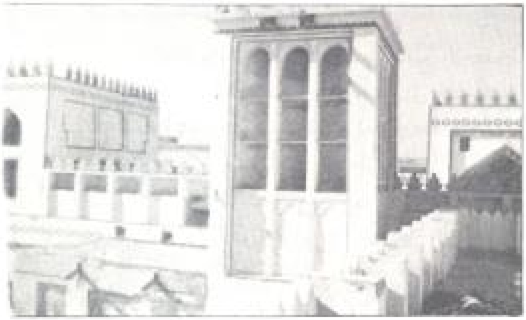

التنفيذ مهندسون أو فلكيون . ولهم في تعيين الجهة وكيفية وضعه رسائل عديدة ، لعل من أشهرها « تحفة الأحباب » في نصب البادهنج والمحراب » وهي للفلكي المؤقت المصري المشهور ابن المجدي المتوفى في سنة ٨٥٠ هـ . ويقول في أولها بعد الديباجة : « اعلم أن سمت القبلة بمدينة مصر حماها الله على سبعة وثلاثين درجة ، وسمت البادهنج سبعة وعشرين ونصف ، وكلاهما في الربع الشرقي الجنوبي . . » . وما تزال هذه الرسالة مخطوطة تنتظر من يبعثها من مرقدها في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

والمعروف أنه كان للعرب معرفة ودراية بالأنواء ومهاب الرياح . ولهم في ذلك دراسات متقدمة

أفادت العلوم الحديثة .

وقد أشار القيراطي ـ وهو شاعر من عصر المماليك ـ إلى انحراف البادهنج عن سمت القبلة في قصيدة له وصف فيها البادهنج ، يقول :

وَرَوحُهُ لَطيفَةٌ
وَذاتُهُ مُنحَرِفَةٌ
عَنْ قِبلَةِ الدينِ أرى
حُبَّ الهَوى قَدْ صَرَفَهْ

وربما نصب البادهنج مطلا على البحر ، قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر على لسان بادهنج يسقط نسيم البحر :

أنا نعمى من ابتهج
أنعش الروح والمهج
وعن البحر يا نسيم حدث
(القلب) لا حرجْ

وكان يبالغ في تشييد جناحيه مع الاحتفاظ بمقاسات معينة لطوله وعرضه . وإلى ذلك أشار شهاب الدين بن أبي حجلة في شعر أودعه لغزا :

وذي جناح طوله
أضعاف ما في العرض
ما جار في شرع الهوى
وحكمه إذ يقضي
ولم يطر مع كونه
بين السما والأرض

وقد أغرى الشعراء بوصف البادهنج ، ولهم فيه لقطات عديدة ، ومن الطف ما صور به قول برهان الدين القيراطي :

يا طيبَ نفحةِ باذهنجٍ لم يزلْ
بهوائه لنفوسنا تنفيسْ
مغرىً بجذبِ الريحِ من آفاقِها
فكأنه للريحِ مغناطيسْ

وقول شهاب الدين بن أبي حجلة :

وباذهنج تراه
كغصنٍ فانٍ ترنّحْ
يهزُّ عند العطايا
لأنه بتريحْ

وللقيراطي قصيدة طويلة ـ كما ذكرت ـ تكلم فيها على أحواله وشؤونه وما قاله ملغزا :

أهواؤنا المختلفةْ
قَدْ أصْبَحَتْ مُؤتَلفَةْ
في شامخٍ بأنفِهِ
على العوالي أنفَةْ
وذي جناحٍ لم يطرْ
وكل طيرٍ ألفَهْ
جناحه طول المدى
يبدي علينا رفرفَةْ
كَمْ مِنْ كئيبٍ عاشقٍ
أهدى له مشرفَةْ
ولا يزال مرسلا
لنحوه مُلطفَةْ
في الريحِ ضاعَ قولُ مَنْ
على هواه عنّفَهْ

ويقول :

هَواهُ تحتَ طوعِهِ
كَيفَ يشاءُ صَرَفَهْ
وكلُّ ما لاحَ لَهُ
مِنَ الهواءِ التَقَفَهْ

وذم الشعراء النوم في الأجواء المكيفة ، وها هو ذا صدر الدين بن عبد الحق (ت ٧٨٠ هـ) يقول ناصحا :

في الباذهنجِ لأنتمْ
فَما لمرضاهُ دَوا
لا يأمنِ الشخصُ الذي
يسرق في الليلِ الهوى

وكان الباذنج يكيف بحسب تقلبات الطقس ، ففي الصيف تكبس مواضع منه بالثلج . وكان يجلب إلى مصر من جبال لبنان وجبل الشيخ ، وعندما يروح يخرج منه النسيم المبرد ، أما في الشتاء فتوضع في منحى منه كوانين فيها الفحم . وعليه قول القاضي الفاضل يصف بادهنج ينشر الدفء : « في بادهنج شديد الحرور كأنما يتفس نفس مصدور »□

رؤيا

شعر : علي منصور

الشُرفَةُ أُمسيةٌ مَحْظورَةٌ
وكتابٌ مزْهوٌ
بملاحقة البصاصين ،
مغرورٌ بطفولته البرية ، وطباعته السّرية ،
وعلائقهُ المبتورة
والمنضدةُ العرجاءُ
تنتصبُ عليها باقةٌ خيلاءُ
والأركانُ تغادرها الدهشة ،
والبهــجة ،
والرائحــة المعتــادة ،
والذاكرةُ المقهــورة .
مَنْ هذا الواقف في أعماق الصورة
يضحكُ في الليل ،
ويعشو فجراً .. في منقار العصفورة

* * *

أنقذني يا نومي مِنْ هذا الصَّحوْ ،
وأغمِضْ عينيْ الحمقاوين ،
وأفتحْ قُدامَ القلب سماواتِ الرؤيا ،
وأراضيــن التذكــار .
الروح يبابٌ
والأعمار بوارٌ .
والوطنُ المغترب يفتش عن درٍّ ولآلي ...
والكل تجاويف ،
تجاويفُ الكل عار ..
مَنْ هذا الواقف في أنحاء الصورة .
يبكي في الليل ،
ويبحث عن أغنيةٍ في رئتيْ المدنِ المكسورة

* * *

دمعتكَ البلّورةُ
تنساب على استحياءٍ
ياوطناً مستاءً
مِنْ عجز الطبقات المهورة .

معهد العالم العربي في باريس

قصر للثقافة العربية على ضفاف السين

استطلاع : صلاح حزين

كان يوما عاديا تماما ، مثل كل أيام باريس ، تلك المدينة الهائلة التى أدمنت الجمال فعرفت كيف تجعل كل أيامها جميلة ، وكيف تعطي كل فصل من الفصول لونا من الجمال ، فتساوت الأيام والشهور والفصول ، واحتفظت مدينة النور بجمالها الأخاذ على مر السنين .

مبنى معهد العالم العربي على ضفة نهر السين وإلى (اليمين) الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران في يوم الافتتاح

في ذلك اليوم ، في الثلاثين من نوفمبر من العام الماضي ، كانت باريس تودع خريفها الجميل ، فلخريف باريس جماله الخاص ، يأخذه من ألوان أوراق أشجاره التي تراوحت بين الأخضر الذي احتفظ بخضرته حتى في فصل تساقط الأوراق ، وبين الأحمر والأصفر والبرتقالي والذهبي ، وفي الوقت ذاته كانت تستقبل الشتاء الذي لم يكتمل بياض أيامه الآتية .

كان كل شيء عاديا على ضفة السين . زوارق السياح التي تجتاز الجسر الذي يربط « جزيرة المدينة » بضفة السين المقابلة ، وتترك كنيسة نوتردام القائمة فوق « الجزيرة » خلفها ، وتمضي مع النهر العظيم ، ويتوجه المثقفون نحو مقاهيهم القريبة من الكنيسة الشهيرة قرب شارعي سان ميشيل وسان جرمان اللذين يشكل التقاؤهما قلب الحي اللاتيني ، ويبدأ رسامو « البورتريه » و « الكاريكاتير » بنصب أدواتهم البسيطة ، وفتح كراسيهم الخشبية الصغيرة استعدادا ليوم من العمل . ويمضي الطلبة والطالبات الى جامعاتهم في ذلك الحي العريق ، الذي شهد إنشاء صروح التعليم منذ أن كان العلم (لاتينيا) .

على رصيف سان برنار

وفي شارع غير بعيد عن هذا الجو الذي امتزجت فيه الثقافة بالفن والجمال ، كانت سيارات كثيرة تتوقف بالقرب من بناء ضخم ، صرح هندسي كبير زينت جدرانه ذات اللون المخضر بالنقوش العربية والاسلامية المميزة ، فأضفت على البناء جمالا شديد الخصوصية في هذا الجو الخاص ، وكانت حركة المرور في ازدياد، وجماهير من الناس ـ فرنسيين وعربا ـ من جميع البلدان يدخلون عبر بوابة البناء الضخم .

كان العمل الذي أنجزه المعماريان الفرنسيان المشهوران توفيل وروبان بمشورة المعماري السعودي السيد زيدان ، قد انتهى لتوه ، فأزيلت شبكة السقالات الحديدية التي كانت تحيط بالمبنى المكون من إحدى عشرة طبقة ، وأزيلت بقايا البقع الأسمنتية من جدرانه الجميلة ، كما أزيلت القطع البلاستيكية التي وضعت لتحمي الواجهات والأرضيات من التلف ، وبدا المبنى الواقع على زاوية رصيف سان برنار بالدائرة الخامسة من مدينة النور جاهزا لاستقبال الزائرين والمسؤولين العرب والفرنسيين القادمين لافتتاحه رسميا .

في حفل الافتتاح كان الكل هناك ، عرب من جميع البلدان التي وافقت على هذا المشروع الضخم ، وفرنسيون ينتمون الى ذلك البلد الذي ارتبط بعلاقات حضارية قديمة مع العرب ، كان هناك الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران ، ورئيس وزرائه جاك شيراك ، ورئيس مجلس إدارة المعهد بول كارتون ذو الصلة الوثيقة بالوطن العربي التي أقامها من خلال عمله كسفير في عدد من الأقطار العربية ومنها الكويت . وعلى الجانب العربي كان التمثيل رفيع المستوى أيضا .

كان هناك الأستاذ الشاذلي القليبي الأمين العام للجامعة العربية ، والشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح وزير الاعلام الكويتي، ووفد كبير مثل الكويت في حفل الافتتاح ، وهناك أيضا كانت فرقة التلفزيون التي أضفت على الحفل جوا شرقيا مميزا من خلال رقصاتها وايقاعات موسيقاها التقليدية القديمة .

بالاضافة الى هذا الوجود الرسمي كان هناك وجود عربي كويتي غير رسمي تمثل في شركة الأجهزة العالمية التي عرضت أجهزة كمبيوتر حديثة تمت برمجتها باللغة العربية . ومنها برنامج القرآن الكريم الذي عرض في حفل الافتتاح .

جاء الجميع ليضفوا على عمل المعهد الذي تضمه طبقات المبنى الكبير صفته الرسمية .

على ضفة السين تلك ينهض المبنى الضخم المخضر على مساحة قدرها ٧٢٥٠ مترا، فيما تبلغ مساحته بمجمل طبقاته ٢٧ ألف متر مربع .

ويشتمل المبنى على متحف احتل ثلاث طبقات من المعهد ، وقد قسمت محتويات المتحف بحيث تحتوي كل طبقة على آثار مرحلة من مراحل التاريخ العربي ، حيث تمثل المرحلة الأولى الحضارة العربية قبل الاسلام ، ومن ضمن معروضات هذه المرحلة

الرئيس الفرنسي ميتران والأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي يزيحان الستار عن اللوحة التذكارية .

آثار تنتمي للفن القبطي والفارسي والبيزنطي . وتمثل المرحلة الثانية الحضارة الاسلامية العربية ، بينما تمثل المرحلة الثالثة الحضارة الاسلامية بامتداداتها خارج الوطن العربي .

وفي المعهد أيضا ، المكتبة العامة التي لا غنى عنها في أي صرح ثقافي . وتحتل المكتبة ست طبقات توزعت عليها عشرات الآلاف من المراجع في شتى فروع المعرفة ، التي كتبت باللغات العربية والفرنسية والانجليزية . بالاضافة الى المجلات والصحف والوثائق والخرائط والأشرطة السمعية والبصرية . وتقدم المكتبة تسهيلات تمكن الزائرين من متابعة الأحداث الثقافية الخاصة بالوطن العربي بعلاقاته المتشعبة وبتطوره اليومي ، كما تمكن الباحثين والدارسين من متابعة بحثهم الوثائقي المتخصص الذي يعتمد الى درجة كبيرة على بنك المعلومات الذي تخزن فيه - وبأحدث الطرق والأساليب التقنية - المعلومات الضرورية لأولئك الباحثين .

كما تحتوي المكتبة على قاعة لمتابعة الصحف والمجلات اليومية والاسبوعية التي تنقل للقراء الحالة الراهنة في الوطن العربي ، سواء عبر الصحف والمجلات العربية، أو الأجنبية التي تهتم بشؤون الوطن العربي . كما تحتوي المكتبة على قاعة للعروض السينمائية ، تعرض فيها الأفلام الروائية والوثائقية العربية أو تلك التي تتعلق بالوطن العربي ، كما تقام فيها المهرجانات والأسابيع السينمائية .

والآن ، هاهو المبنى شاخص أمامنا على ضفة السين ، يروي قصة الثقافة العربية . فكيف بدأت قصة المعهد ؟

دور جديد قديم :

في الفترة الأخيرة من حكم الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكاردستان طرحت فكرة المعهد من قبل الشيخ صباح السالم الصباح أمير دولة الكويت السابق . وعلى الفور وجدت الفكرة ترحيبا من جانب الأقطار العربية التي أبدت استعدادا

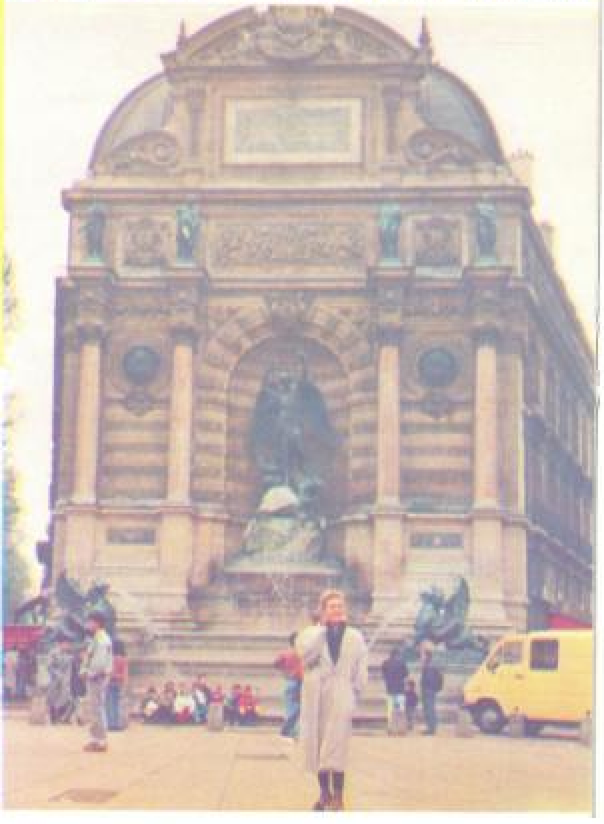

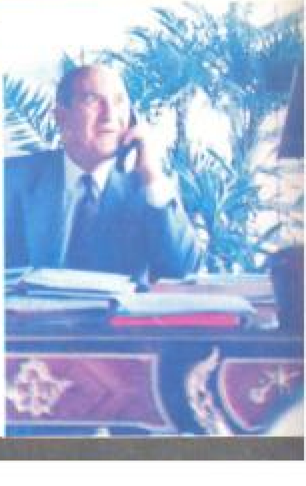

الى اليمين (في الأعلى) نقوش وزخارف تزين جدار المبنى والى الاسفل (يمين) نافورة السان ميشيل في قلب الحي اللاتيني .
(الى الاعلى) الرئيس ميتران والشيخ ناصر محمد الصباح (أسفل) باسم الجسر بول كارتون ، وبدر الدين عرودوكي .

لتدعيمها على أعلى المستويات ، وفي فبراير عام ١٩٨٠ تم إنشاء معهد العالم العربي ، حيث اتفقت ١٨ دولة عربية مع فرنسا على إقامة المعهد ليكون « مؤسسة تهدف الى تطوير معرفة العالم العربي وبعث حركة أبحاث معمقة حول لغته وقيمه الثقافية والروحية ، كما تهدف الى تشجيع المبادلات والتعاون بين فرنسا والعالم العربي ، خاصة في ميادين العلوم والتقنيات ، مساهمة بذلك في تنمية العلاقات بالتالي بين العالم العربي وأوروبا » .

وفي عام ١٩٨٤ انضمت ليبيا أيضا الى الاتفاقية ، وهذا يعني أن فرنسا كدولة قررت أن تكون المركز الذي يمكن لاوروبا منه الاطلال على واقع الوطن العربي ، ولكن ليس من خلال نفطه أو من خلال أمواله أو من خلال علاقاته السياسية ، بل من خلال ثقافته وإسهاماته التي قدمها ومازال لركب الحضارة الانسانية . وبذلك فإن فرنسا قررت أن تلعب من جديد دورها القديم في نشر الفلسفة العربية والاسلامية الذي لعبته في القرون الوسطى ، حين كانت جامعات باريس مركزا لنقل وتدريس فلسفة ابن رشد وابن حزم وغيرهما من فلاسفة العرب المسلمين وعلمائهم . لذا فان العرب ومن خلال معهد العالم العربي سيدخلون ثانية الى أوروبا من باب الثقافة والفنون .

لماذا باريس ؟

ولكن لماذا باريس ، إحدى أهم العواصم الأوروبية وأبرزها ثقافيا ، بكل تأكيد ؟ والجواب خاضع لأكثر من اجتهاد ، لكن كل الاجتهادات تصب في مجرى واحد . ففرنسا ، من بين دول أوروبا جميعا ، تضم أكبر تجمع من العرب ، بل إن هناك أحياء خاصة تتردد فيها اللغة العربية بلهجاتها المختلفة أكثر من أي لغة أخرى . ويقدر عدد العرب الذين يقيمون في باريس وحدها بأكثر من مليون شخص ، ومن بين كل ثلاثة من سائقي السيارات ، هناك عربي ، وهناك عدد كبير من المجلات العربية تصدر في باريس حيث لها القراء والمتابعون . وفي باريس أيضا عدد كبير من المثقفين العرب ، ومنهم من يقدم إبداعاته باللغة الفرنسية . وبالرغم من أي تحفظ يمكن أن يثار حول هذه النقطة ، إلا أن الحقيقة الباقية هي أن باريس تكاد تكون المدينة المثالية للقيام بهذا الدور الثقافي المهم .

في الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٩٨٠ وقع السفراء العرب المعتمدون في فرنسا العقد التأسيسي للمعهد ، بعد موافقة حكوماتهم على إنشائه كمؤسسة خاضعة للقانون الفرنسي ، تشارك فيه الحكومات العربية كأعضاء مؤسسين عن طريق الاسهامات التي يرونها مناسبة ، وضمن الشروط التي يحددها عقد التأسيس .

وتنص الفقرة الأولى من المادة الأولى على « أن معهد العالم العربي مؤسسة تخضع لاحكام القوانين الفرنسية » . ومنذ البداية برز خلاف بين الجانبين الفرنسي والعربي على عدد من فقرات عقد التأسيس للمعهد . المادة الأولى كما ذكرنا تنص على أن « المعهد » خاضع لأحكام القوانين الفرنسية ، أي أنه مؤسسة فرنسية أساسا ، وتنص المادة ٢١ من العقد على أن الموارد السنوية للمعهد تتألف من :

« ١ - عائدات المخصصات - بما فيها كليا أو جزئيا - المال المعين الناتج عن فائض القيمة والمتحقق عن طريق البيع .

٢ - الأعانات التي تقدمها الدولة المؤسسة .

٣ - حصيلة التبرعات المجاز استخدامها

٤ - المبالغ التي يدفعها الأفراد والمؤسسات ولاسيما في اطار الأنظمة الضريبية التي تقبل بإعفاء مثل هذه المدفوعات من ضريبة الدخل أو الضريبة على الشركات .

٥ - من عائد الموارد التي يتم إيجادها بصفة استثنائية وبموافقة السلطات المعنية إذا دعت الضرورة .

٦ - من عائد المكافآت التي قد يتم قبضها مقابل خدمات يقدمها المعهد » .

وهذا يعني أن الطرف العربي ممثلا بالحكومات العربية الموقعة على عقد التأسيس ليس ملزما بدفع « المساهمات » في الموارد المالية المنصوص عليها في

العقد ، لأنها مجرد مساهمات غير ملزمة بقوة عقد التأسيس . لكن هذا الطرف لاحظ أن الجانب الفرنسي ومنذ بدأ المعهد نشاطه ، بدأ بمطالبة الجانب العربي بالاسهام في ميزانية التشغيل بما في ذلك رواتب الموظفين والمصروفات الأخرى ، على أن تدفع المصروفات المذكورة مناصفة بين الجانبين الفرنسي والعربي ، وخصصت لكل دولة نسبة معينة من هذه الميزانية تدفعها سنويا ، وهي مساوية للنسبة التي تدفعها كل من هذه الدول الى الجامعة العربية ، ولكن ظلت المساهمات متعثرة .

لجنة .. لجنتان :

ورأى الجانب العربي أنه لابد من إيجاد صيغة قانونية جديدة تحدد مسؤوليات وواجبات كل من الطرفين بشكل واضح وصريح . لذا اتصل السفراء العرب بوزير العلاقات الخارجية الفرنسي آنذاك كلود شيسون لبحث المسألة معه ، وكانت النتيجة أن تم تشكيل لجنة عربية فرنسية مشتركة تضم في عضويتها سفراء خمس دول عربية هي : الكويت ، تونس ، الجزائر ، سوريا ، ولبنان ، مع عدد من بعض كبار الموظفين في وزارتي الخارجية والمالية الفرنسيتين ، وعقدت اللجنة التي مثل الكويت فيها السيد/ عيسى الحمد سفير الكويت في باريس انذاك ،والذي ترأس الجانب العربي في الاجتماع الأول ،وتركز البحث حول عدد من المسائل هي :

- مسألة هوية المعهد .
- موضوع ميزانية التشغيل .
- مسألة التوظيف .
- موضوع سياسة المعهد الثقافية والاعلامية وكيفية توجيهها .
- موضوع حل المعهد .

وفي الاجتماع الثاني للجنة اتخذ قرار بتشكيل لجنتين مختصتين :

- لجنة قانونية عربية ـ فرنسية مشتركة .
- لجنة إعلامية عربية ـ فرنسية مشتركة .

وتتلخص مهمة هاتين اللجنتين في حل المشكلات القانونية المعلقة ، والخاصة بهوية المعهد وموارده المالية بالدرجة الأولى ، وكذلك برسم سياسة إعلامية مناسبة،ومتفق عليها للمعهد .

وتوالت اجتماعات اللجنتين ، لكن الإشكالات الأساسية بقيت معلقة دون حل . وفي نهاية عام ١٩٨٥ توصل السفراء العرب المعتمدون في فرنسا الى ثلاث إمكانيات رأوا عرضها على الجانب الفرنسي فيما يخص المعهد وهويته المستقبلية . وهي :

١ ـ إبقاء المعهد على صيغته الحالية والحفاظ على النظام الأساسي في شكله الأصلي ودون تعديل ، وفي هذه الحالة فإن الدول العربية تكون غير ملزمة بدفع أية مساهمات سنوية في ميزانية التشغيل .

٢ ـ تحويل المعهد الى مؤسسة لها صفة المنظمة الدولية ، وهو مالا يرغب الجانب الفرنسي بفعله .

٣ ـ إبقاء المعهد مؤسسة فرنسية تقوم الى جانبها اتفاقيات دولية ثقافية تعقد بين فرنسا والدول العربية ، واتفاقيات أخرى تقوم بين الجانبين وتشمل الحصانات والامتيازات للموظفين العرب في المعهد والنواحي الثقافية والمساهمات المالية .

وبقي الجدل مستمرا وتواصلت الاجتماعات ، ولكن دون التوصل الى نتيجة حتى الآن !

نشاط وجدل :

غير أن هذا الجدل وتلك الاجتماعات لم توقف نشاط المعهد الذي بدأ منذ عام ١٩٨٢ ، والذي كان يدار من مبناه المؤقت في شارع « شيرش ميدي » بالدائرة السادسة بباريس ، ففي عام ١٩٨٣ أقام المعهد بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) ، والمجلس الاعلامي للغة الفرنسية معرضا متنقلا للغة والثقافة العربيتين ، وبعد افتتاحه في مدينة بواتييه تنقل الى مدن شاتيلرو وكليرمون فران وليل وليموج ودنكرك وتولوز وغيرها من مدن فرنسا .

وفي عام ١٩٨٤ قدم المعهد في إطار معرض اللغات الذي أقيم في قاعة « الغران باليه » بباريس مجموعة من تطبيقات المعالجة الآلية للمعلومات على الاستخدامات المتعددة للغة العربية وتعليمها .

وفي العام نفسه والعام الذي تلاه اشترك المعهد في

رئيس الوزراء
الفرنسي جاك
شيراك يلقي
كلمته في
حفل الافتتاح .

الرئيس الفرنسي ومدير العلاقات الثقافية بدر الدين عرودكي وفرقة التلفزيون الكويتية .

الأيام الموسيقية العربية التى تنظمها مسرح الاماندييه ، حيث أحيت فرق موسيقية من تونس والجزائر ومصر والمغرب وموريتانيا عددا من الحفلات الموسيقية مثلت ألوانا من موسيقا المشرق والمغرب العربيين ، فيما خصصت حفلات مماثلة أقيمت عام ١٩٨٦ للموسيقا الجزائرية . كما شارك المعهد في عدد من المعارض التى قدمت إنجازات ثقافية عربية منها معرض الخط العربي ، وحدائق بلاد الاسلام ، والصحارى العربية ، والعمارة العربية ، وفن الرسم العربي وملتقى الشعوب والفنون الافريقية وألف ليلة وليلة . . . وغيرها .

وفي المجال الأدبي وبالتعاون مع منشورات جان كلود لاتيس نشر المعهد ترجمات لسبعة أعمال روائية عربية حديثة لكل من نجيب محفوظ وفؤاد التكرلي ويوسف ادريس وحنان الشيخ وعبد السلام العجيلي واميل حبيبي .

ويلاحظ القاريء معنا أن هذه الأسماء الأدبية الكبيرة هي كلها أسماء معاصرة تمثل الرواية العربية في أرقى وأحدث مراحلها . ولعل هذه النقطة أن تكون أفضل مدخل للحديث عن نوع الثقافة التى يقدمها المعهد ، وعن الجديد الذى يمكن أن يقدمه هذا الصرح الثقافي الكبير للمواطن الفرنسي والأوروبي .

فقد جاء في كتاب « معهد العالم العربي » الذى نشره المعهد وفي باب رسالة المعهد ، أن هذه المؤسسة الثقافية جاءت وليدة تساؤل عن سبب انعزال الثقافة في أواسط السبعينيات عن حركة انتعاش العلاقة بين فرنسا والعالم العربي في جميع الميادين الأخرى ، فقلما كان الفرنسيون في الواقع يلمون إلماما وافيا بالثقافة والحضارة العربيتين ، كانوا يتمثلونها من خلال صورة ناقصة ، كاذبة ، بل ومحقرة في بعض الأحيان . فكان لابد والحالة هذه من تقويم تلك الصورة واطلاع الفرنسيين على ذلك التقليد الروحي والفكري المجيد الذي يتحدر منه العالم العربي ،

وإفهامهم أنه وريث حضارة رائعة زاهية ، وان تضاءل وهجها في بعض العصور ، إلا أن ذلك لم ينل من خصوبتها وهي مازالت منبت الأدباء والفلاسفة والعلماء وأهل الفن .

لذا تقول الرسالة : اقترحت فرنسا ، ووافقت الدول العربية على إنشاء مؤسسة لا تكون هيئة اكاديمية أو مركز بحوث من الطراز المعروف ، بل تقوم رسالتها الأولى على تعزيز معرفة الثقافة والحضارة العربيتين لدى الجمهور الفرنسي . وأضافت الرسالة ، ان المعهد لا يقتصر نشاطه على الجمهور الباريسي بل ذلك الجمهور الواسع غير المتميز الذي ربما قل اهتمامه خصيصا بالعالم العربي ، والذي يهدف المعهد الى إثارة فضوله ومده بالعناصر الكفيلة بتعزيز معرفته بالثقافة والحضارة العربيتين .

ومن هذا المنطلق ، فقد حدد المعهد لنفسه دور الوسيط والمنسق نظرا لأنه لا يطمح الى التفرد في تحقيق كل شيء . ولأنه لا يتوجه بالأساس الى الجمهور « الباريسي » ، فقد أنشأ المعهد شبكة من المراسلين في أنحاء فرنسا ، وجعل من نفسه أشبه « بوكالة للخدمات الثقافية » ، على غرار مركز جورج بومبيدو الواقع في قلب العاصمة الفرنسية .

وبكلمات السيد بول كارتون رئيس المعهد الفرنسي فإن المعهد يهدف الى « التقريب بين الشعبين الفرنسي والعربي عن طريق الثقافة ، فهناك واقع عربي وشعب عربي يتعين علينا أن نحمل الشعب الفرنسي على التعرف اليه حق بقدره ، وألا نترك هية العالم العربي تتداعى بسبب أحداث دوافعها الخفية ليست دائما بريئة » .

أزمات النشوء :

الصحفي اللبناني باسم الجسر هو المدير العام للمعهد ، واليه توجهت « العربي » بأسئلة تستهدف توضيح بعض المسائل التي أتينا على ذكرها والتي ماتزال معلقة ، ومنها الأزمة القانونية ، الخاصة بهوية المعهد الفرنسية ، وبالمساهمات العربية الطوعية وبالموارد المالية وغيرها .

يرى مدير المعهد أنه ليس هناك أزمة قانونية بالمعنى الحقيقي للكلمة ، فالمعهد لا يشكو من مشكلة مالية ، لا من حيث البناء ولا من حيث التشغيل ، وغاية ما في الأمر أن الأعمال الكبيرة والمهمة لابد وأن يعترض مسيرتها ما يسمى « بأزمات النشوء » . ويضيف الأستاذ الجسر ، أن وجهة النظر الفرنسية تقول ان المساهمة الفرنسية تأتي سنويا بانتظام ، وفي وقتها المحدد ، وتتدرج حسب حاجات المعهد وضمن قوانين محددة . ولكي يستطيع المعهد القيام بمهماته فإن ذلك يجب أن يتلازم مع إلزامية المساهمات العربية التي لا تسدد في وقتها مما يجعل وضع الميزانية المسبق لا يخلو من صعوبات .

الجانب العربي بدوره يقول ،- يواصل الأستاذ الجسر - قائلا : ان النظام الأساسي ينص على الهبات والتبرعات وليس على الالزام ، كما أن من الصعب قانونيا إلزام دولة بقرار من مجلس إدارة مؤسسة خاصة تابعة لدولة أخرى ، ومن هنا برزت فكرة إعطاء المعهد نوعا من النظام الدولي على غرار اليونسكو ، وغيرها من المنظمات الدولية . فرنسا بدورها رفضت واقترحت تعديل النظام ، ومايزال هذا الأمر موضع بحث ودراسة من الجانب العربي .

ولكن ماذا عن آفاق الحل . . خصوصا أن المعهد افتتح رسميا والنشاط فيه مستمر ومتواصل ؟

يجيب الأستاذ الجسر :

- أنا لا يحق لي التحدث عن فرنسا أو عن الدول العربية ، لكنني أعتقد أن بالامكان التوصل الى حل وسط ، وهو أن المساهمة العربية يمكن أن تبقى على شكل تبرع على أن تتولى السفارات العربية في باريس القيام بمساعيها لجعل هذه التبرعات متصلة ومنتظمة ، وأعتقد أن فرصا جديدة للحل ستبرز من الآن فصاعدا وبعد افتتاح المعهد رسميا .

ويستدرك مدير المعهد قائلا : « ان المعهد يستطيع - اعتمادا على المساهمة الفرنسية ومداخيله والمساهمات العربية الراهنة - أن يقوم بمهمته ، ولكن إذا أراد مؤسسو المعهد أن يكون له دور مميز وبارز بالفعل ، فلابد من إيجاد طريقة لأن تأتي جميع

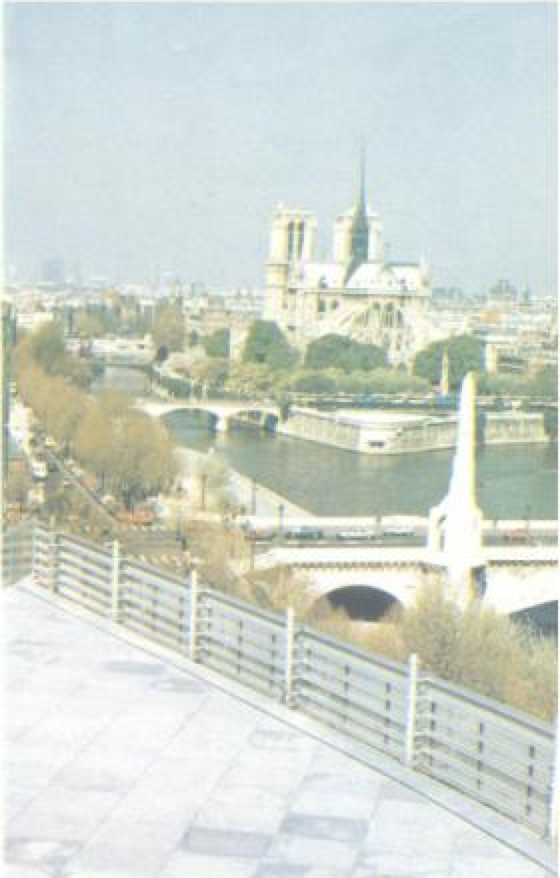

(فوق) كنيسة نوتردام كما تبدو من سطح المعهد
وإلى اليسار (فوق) رقصات فرقة التلفزيون
أضفت جوا شرقيا على حفل الافتتاح ولقيت
استحسان الجمهور (أسفل) .

المساهمات العربية سنويا ، أو البحث عن طريقة عملية لتوفير هذه المساهمة الضرورية للقيام بهذا الدور المميز . وبهذا يمكن أن تلجأ الى مجلس الامناء كما هو متبع في أمريكا وأوروبا ، أو طريقة التبني (Sponsering) . ويشرح المدير هذه الطريقة بقوله : انها باختصار اللجوء الى القطاع الخاص لتمويل المشروعات الثقافية ، انطلاقا من أن كل عمل ثقافي جيد هو على المدى البعيد استثمار جيد ، فالبنوك مثلا تحصل على اعفاءات خاصة عندما تتبنى تمويل الأعمال الفنية الثقافية ، كما انها تسهم في ازالة الصورة « الاستغلالية » للبنك أو للمؤسسة المالية ، ويعطى نشاطها بعدا فنيا أو ثقافيا يسهم في تحسين صورتها . اضافة الى ذلك فان العمل الثقافي والابداعي يعطي مردودا استثماريا حين يصبح جزءا من الدورة الثقافية ، وبذلك فإنه يتحول في النهاية الى استثمار جيد ، واستشهد بمثال عن تمويل مؤسسة استثمارية كويتية إنتاج فيلم عن المهندس المصرى الشهير حسن فتحي . وأسأل الأستاذ الجسر عن موضوع آخر : فقد لاحظت ان قائمة أسماء الدول العربية المشاركة في المعهد قد خلت من مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية فماذا عنها ؟

قال الأستاذ الجسر ان توقيع الاتفاقية بإنشاء المعهد تم بين فرنسا وأعضاء الجامعة العربية ، وكان ذلك بعد خروج مصر من الجامعة العربية إثر توقيعها اتفاقيات كامب ديفيد مع « اسرائيل » ، أما بالنسبة للمنظمة فإن لدخولها شكليات أخرى حيث ان فرنسا لا تعترف بالمنظمة ، فضلا عن ان للمنظمة مكتب تمثيل في باريس وليس سفارة ، وعلى أى حال فإن المعهد وجه يوم الافتتاح دعوة لكل من السفير المصري وممثل المنظمة في باريس ، ومهما يكن من أمر ، فإن هذا لا يعني ان نتجاهل هذين البلدين والإسهامات الابداعية لمثقفيها .

افاق ثقافية :

ومن باسم الجسر المدير العام انتقلت الى بدر الدين عرودكي مدير العلاقات والنشاط الثقافي بالمعهد .

استهل الأستاذ عرودكي حديثه بالاشارة الى ان المعهد قام منذ بداية تأسيسه بعدد من الأنشطة التي استهدفت التعريف بالسينما العربية وبمظاهر وجوانب الحضارة العربية القديمة والحديثة .

وضرب أمثلة عن الكتب التى تم انجازها ومنها كتاب « الكوفة ـ ولادة المدينة الاسلامية » للمؤرخ التونسى هشام جميط الذى كان قد نشر بالعربية في الكويت بإسهام من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي . وكتاب ضخم من ثلاثة أجزاء تُنشر بالفرنسية تحت إشراف البروفيسور جوزيف شلحوت ، وهو من أصل لبناني ، وأسهم فيه كبار الاجتماعيين والمؤرخين والاقتصاديين ، وهو عن « جنوب الجزيرة العربية » ، ويتضمن هذا المشروع ترجمة أهم الأعمال الأدبية والفكرية الكلاسيكية مثل كتاب الأغاني وكتب الجاحظ وغيرها من كتب التراث التي ينتظر أن يثير صدورها بالفرنسية ضجة كبيرة . وأضاف عرودكي إن بإمكان الزائر الآن الاطلاع على مختلف أوجه النشاط والتطور في البلدان العربية المختلفة من خلال آلاف أشرطة الفيديو والأشرطة الصوتية التي توضع تحت تصرفه في المتحف والمكتبة ومركز التوثيق والقاعات السمعية والبصرية . بالإضافة الى المعارض المؤقتة التى تقام في قاعتي المعرض التابعتين للمتحف ، أو في قاعة الأحداث الثقافية التى تضم آخر ما أنجزته المطابع العربية ، فضلا عن المجلات والصحف العربية .

هذا ما يتعلق بالجانب التقني والتسهيلات المتوافرة في المعهد ، فماذا عن الفلسفة أو السياسة التى تسير عليها الأنشطة الثقافية المختلفة ؟

يجيب عرودكي بأن المعهد يحرص على أن يتم دوما نوع من الحوار بين المفكرين والمبدعين والفنانين الفرنسيين وزملائهم العرب ، ومن خلال هذا الحوار يتم التعرف على أوجه الابداعية العربية ، ومن خلاله أيضا يمكن للجمهور الفرنسي أن يتابع عبر المقارنة والموازنة ما يتم في وطننا العربي من ابداع . ومماألح عليه ـ يضيف عرودكي ـ هو أن الموضوعات الابداعية سيبحثها الطرفان ويناقشانها

الرئيس ميتران يستنشق البخور .

ويبدي كل منهما وجهة نظره على قدم المساواة ، ولن يكون الطرف العربي مجرد شاهد أو مستمع ، وأشار الى ندوة الرواية العربية التى ستعقد في مارس المقبل ، والتي سيُدعى اليها مجموعة كبيرة من الروائين العرب والأوروبيين ليناقشوا معا موضوعا مهما هو « الابداع الروائى اليوم » .

فيما يتعلق بالأمسيات الشعرية ، يقول عرودكي ، فإن المعهد سيحاول القيام بتجربة جديدة تقوم على تكوين مشهد مسرحي تؤلف فيه مجموعة القصائد السيناريو الأساسي ، بالاضافة الى عناصر الاضاءة والتخيل والموسيقا والرقص ، وغيرها من المؤثرات المسرحية ، وهو مشهد يدوم ساعة كاملة ، وفي الوقت نفسه يتم عرض كافة مجموعات الشاعر الشعرية واللوحات الفنية التى رسمت من وحي شعره ، والكتب النقدية التي تناولت تجربته الشعرية ، ويستمر هذا المعرض الذي يبدأ مع الأمسية الشعرية أسبوعا يلتقي في نهايته الشاعر وجمهوره .

أما العروض السينمائية فانها تتناسق مع مهمة المعهد الرئيسية ، وهى التعريف بمنجزات الثقافة العربية التى تستجيب أكثر في تعبيرها عن مستوى الابداع العربي الحقيقي .

ومن هنا فإن بعض الأعمال السينمائية التى قد تبدو قليلة الأهمية في نظر المثقفين العرب ، تكتسب بالنسبة للجمهور الفرنسى أهمية مختلفة ولا يعود ذلك بالضرورة الى المعايير الفنية الصرفة ، بل ان هناك معايير أخرى اجتماعية تاريخية أو ذات علاقة بتطور الفن السينمائي في الوطن العربي تفرض هذه الأعمال.

ويتم اختيار الأفلام من قبل لجنة مختصة أعضاؤها من العاملين في حقل السينما والمتابعين لمسيرة السينما العربية منذ البداية وحتى انجازاتها الأخيرة .

هكذا تكلم القائمون على ادارة المعهد ، وعلى أنشطته الثقافية والابداعية التى لم ينجز الكثير منها حتى الآن ، نظرا لعمر المعهد القصير وطموحاته الكبيرة ، لكن كل الأمور تشير الى أن شيئا كبيرا قد تحقق ، وان المستقبل يحمل معه الكثير من الآمال الكبيرة ، وان كانت المسيرة تبدأ بخطوة واحدة ، فإن مسيرة تقديم الثقافة العربية للجمهور الفرنسى قد بدأت بخطوة كبيرة تنبىء بإنجازات أكبر بفضل ذلك الصرح الثقافي القائم على ضفة السين . □

الموسيقي الجوّال

من وحي قصّة أميركية قديمة

قصة : ريفاز ايتانيشفيلي *

ترجمة : يوسف حـــلاق

في بلاد السويد ، وفي قراها المتناثرة على شاطىء البحر كان يظهر في فصل الصيف موسيقي جوال . كان هذا الموسيقي يرتدي فراكاً ** عتيقاً مهترئاً وقبعة هي الأخرى ، كالفراك ، عتيقة ومهترئة . كان يجيء الى القرى في زورق شراعي صغير . وكان الزورق ، والحرام ، ذو المربعات والكمان كل ما يملكه الموسيقي في هذه الدنيا . كان يرسو عند الشاطىء ثم يسحب زورقه من الماء ويخرج كمانه ، وحرامه ، ويتجه الى ساحة القرية الهادئة . وهناك في الساحة كان يبحث عن أنظف مكان ممكن فينشر جريدة ويبسطها على الأرض ويضع عليها الحرام المطوي بعناية وعلى الحرام ، جراب ، الكمان ، ثم يرفع كمانه الى كتفه ويأخذ في العزف ،

* ريفاز ايتانيشفيلي من ألمع كتاب القصة القصيرة المعاصرين في جمهورية جورجيا السوفيتية . ظهر بعض من قصصه مترجمة الى اللغة الروسية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى .

** هو لباس رسمي أسود وضيق .

وسرعان ما كان الناس كباراً وصغاراً يتحلقون حوله . كانوا يصغون اليه ، بعضهم تعلو وجهه ابتسامة بهجة ، وبعضهم يستغرق في تفكير حزين . الأطفال هم الذين كانوا يبتسمون ، والكبار هم الذين كانوا يستغرقون في التفكير ، وكأنهم يتذكرون امراً نسوه من زمن بعيد ويصعب عليهم تذكره .

وحين كان يفرغ من عزفه كان يرفع قبعته وينحني محيياً ثم يضعها على رأسه . وكان المستمعون المغتبطون يلقون بقطع النقود في « الجراب » .

كان الموسيقي الجوال يُدعى أحياناً الى الحفلات التي تقام في القرى ، وفي هذه الحفلات كان يعزف بالدرجة الأولى أنغاماً راقصة . كان يقف في الوسط وحوله الرجال والنساء يرقصون باندفاع ومرح بحيث كانت وجوههم تتوهج . كانوا يسكبون له نبيذاً فكان يرفع كأسه في صحة الراقصين ثم يعيده الى الطاولة بعد أن يرشف منه رشفة تكاد لا تذكر ، ويعود الى كمانه يعزف عليه بمتعة وشغف .

كان بعضهم يقول ان العازف لم يتمكن من أن يصبح موسيقياً كبيراً ، ولهذا أخذ يجوب المدن الصغيرة والقرى ، وكان بعضهم الآخر يؤكد على العكس بأن عازف الكمان لم يصبح موسيقياً كبيراً لأنه آثر التنقل بين القرى والعزف للناس البسطاء . وكان من الصعب على أي حال أن يرى المرء أي الفريقين على حق .

شيء واحد كان أكيداً هو أن الموسيقي كان إنساناً طاعناً في السن ، لكنه كان يبدو ، رغم هذا ، إنساناً موفور الهمة والنشاط تلمع عيناه ببريق الفتوة والشباب ، وكانت كتفاه ويداه مفتولة العضلات لكثرة ما كان يجدّف بالمجداف ، أما أصابعه فكانت قوية وذات جمال رجالي خاص . لم يكن يتناول الا القليل من الطعام كما لم يكن يشرب اطلاقاً كما قلنا ، ولم يكن يأبه كثيرا بمبيته : كان يرى أي ظلّة أو سقيفة أو مخزن حشائش مجففة هبة من الله ، فكان يلف نفسه بالحرام ذي المربعات ويضع كمانه تحت رأسه ويروح في نوم عميق .

ذات مرّة ومع اقتراب الليل ، والموسيقي في البحر ، ساء الطقس فجأة . هبط الضباب واصطخبت الأمواج وبدأ النوء . ومع هذا ظل الموسيقي يجدّف بهمة باتجاه الشاطيء . وأخيراً رأى نوراً فأخذ يجدّف مهتدياً به ، فما لبث أن وصل الى منارة ، وما أن صعد الى الشاطيء وتمكن بعد جهد من سحب الزورق حتى انهمر مطر شديد . أخذ الموسيقي الحرام والكمان واختبأ في المنارة .

هناك طالعه رجل ذو لحية شعثاء كثيفة ، ومنظر يبعث الخوف . كان الرجل يشحذ بسكين كبيرة ، حادة كالشفرة ، عصا صغيرة . ردّ الرجل على تحية الضيف غير المنتظر بنظرة ثقيلة رازه بها ، وترك سؤاله ، إن كان دخوله المباغت عليه لا يسبب له ازعاجاً واقلاقاً دون جواب . ظل الرجل جالساً يقطع عصيه دون أن يعير القادم أي اهتمام . وبعد أن قطع بضع عصي ، نهض ومضى يصعد الدرج الى أعلى حيث الشعلة . وتأكل الموسيقي الفضول ، فسأله « أيمكنني أن أصعد معك ؟ » ، ومضى في اثره دون أن يتلقى جواباً .

وصعد الى أعلى فوجد نفسه فجأة وسط البخار واللهب . كانت الريح تقذف من البحر قطرات

باردة تصبها فوق الضوء الذي يكاد يختنق وسط البخار . كانت المنارة تتأرجح والزجاج يرتج . جلس حارس المنارة القرفصاء ودق على الزجاج بقبض سكينه الثقيلة فأوقف ارتجاجه ، ثم مضى بمحاذاة جهاز الانارة وهو يتلمس الجدار بيده . وألقى الرجل نظرة الى وجه الموسيقي المبهور ، ثم حوّل نظره الى البحر الذي كان يموج في الأسفل كأنه قطران يغلي وغمغم كأنما يحدث نفسه :

ـ كي لا تضل السفن الطريق .

ثم هبطا الدرّج الى أسفل . وضع حارس المنارة خبزاً وسمكة وجبناً جافاً على الطاولة أمام الموسيقي وأخذ يأكل . كان يقطع كل قطعة خبز وجبن بسكينه الحادة ثم يروح يمضغها طويلاً في صمت ، بينما كان الموسيقي يأكل بإقبال وشهية مصيخاً السمع طول الوقت الى هدير البحر وصوت المطر . لكنه رغم هذا وجد الوقت ليسأل حارس المنارة من يكون ؟ ومن أين ؟ وان كانت له أسرة ؟ وأجابه الحارس بنبرة تكاد تكون نبرة اعتزاز . .

ـ ليس لي أحد . اني وحيد تماماً .

وأستغرق الموسيقي في تفكير . . . . . .

ثم سأل حارس المنارة بدوره ضيفه . ولما أجابه هذا عن مهنته ، بأنه عازف كمان ، شعر أن حارس المنارة لم يفهم معنى عبارته فأخرج الكمان من جرابه وقال :

ـ هذه هي آلتي ، وعليها أعمل .

ورفع كمانه الى كتفه وأخذ يعزف عزفاً خافتاً ، وحارس المنارة ينظر اليه في دعة وسكون ولما انتهى من عزف لحنه كانت عينا الحارس تشيان بتعابير جعلت الموسيقي يعزف لحناً ثانياً وثالثاً . . . .

وأخيراً وضع الموسيقي الكمان على الطاولة . مر حارس المنارة بيده في رفق شديد على الكمان وقال والابتسامة تعلو شفتيه :

ـ عمل جيد ، كي لا تضل نفوس بني البشر . . . الطريق .

في هذه اللحظة كان هناك انسانان سعيدان على هذه الأرض . □

□□

« صحيفة الصادقة »

● من المعروف أن الرسول عليه السلام كان ينهى عن كتابة الحديث ، مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » .

حتى إذا شاع القرآن بين المسلمين ، وأصبحوا يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ، ويميزونه عن الحديث ، سمح لهم بكتابة الحديث ، ومن ذلك ماروي أن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال للرسول : يا رسول الله ، أسمع منك الشيء فأكتبه ، قال : نعم ، قال عبد الله : في الغضب والرضا ، قال عليه السلام : نعم ، فإني لا أقول إلا حقا : وبذلك قد عرف في عهد الرسول مدونات حديثية ، أخرجها بعض الصحابة ، كابن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجابر بن عبد الله الانصاري ، وكان أشهرها صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو التي ضمت ألف حديث ، وقد سماها بهذا الاسم بقوله : « هذه الصادقة ، فيها ما سمعته عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس بيني وبينه فيها أحد » .

اللغة الراقصة

بقلم :
الدكتور حسين العروسي

الرقص حركات إيقاعية تلقائية أو منظمة ، يعبر بها الإنسان عن مشاعره وأحاسيسه فرحا في الغالب أو حزنا ، وقد يشاركه فيه عدد من الكائنات الحية ، بيد أن النحل يستخدم الرقص لغة في التفاهم بين أفراد الخلية ، لتحديد ، أماكن الغذاء .

الرقصة الدائرية للنحلة
للاخبار بوجود غذاء قريب (شكل ٢)

إن اللغة طريقة للتعارف والتفاهم بين الكائنات الحية ، وهي في أرقى أنواعها طريقة يتخاطب بها أفراد الكائن الحي ، أي أنها ذات إمكانيات صوتية سمعية . يحدث الكائن الحي أصواتا مختلفة ، لكل صوت منها معنى معين ، إذا وصل الى سمع كائن آخر من نفس النوع استوعبه واستجاب له . أما الرؤية فغير أساسية للتخاطب .

لكل نوع من أنواع الكائنات الحية عادة لغة واحدة ، لأنها لغة غريزية ، تولد في تركيبته الوراثية ، يتفاهم بها أفراد النوع الواحد مهما تباعدوا أو تقاربوا . لكن الإنسان يختلف في ذلك ، فلغاته متعددة ، تختلف من موطن الى آخر ، إذ أنها لغات مكتسبة ، يتعلمها الفرد من بيئته . ونظرا لتعدد الأصوات في لغة الإنسان واعتماد ذلك كثيرا على استخدام اللسان ، سميت اللغة لسانا ، فقيل لسان العرب ، ولسان الفرس ، وكلية الألسن .

وإذا عجز الصوت عن التعبير والتفاهم تحولت لغة التفاهم من الصوت الى الإشارة ، وأصبح الاعتماد الأكبر في اللغة على الرؤية وليس على السمع . وأحيانا يجمع الكائن الحي في التعبير بين الإشارة والأصوات المحدودة ، فالأخرس الأبكم قد استعاض عن لغة الكلام بلغة الإشارة ، وأصبح يعبر بيديه وبتعبيرات وجهه عما يريد ، وأحيانا يصدر بعض الأصوات التي تساعده على التوضيح .

النحل ترقص

كثير من الكائنات الحية - غير الإنسان - تتفاهم فيما بينها وتتبادل المعلومات ، فمن المعروف أن الدلافين - وهي من الحيوانات البحرية الكبيرة - تصدر أصواتا مختلفة متميزة ، يتفاهم بها أفرادها والكلاب والقطط تصدر أصواتا تختلف في حالة الخوف عنها في حالة السرور أو الجوع أو المخاطبة الجنسية .

والغالبية العظمى من الكائنات الحية لا يعرف لها لغات ، وبعضها يتفاهم بحركات معينة ، ومن ذلك النحل - نحل العسل - (شكل ١) ، التي درست دراسة مستفيضة نظرا للمعيشة المنظمة الراقية التي تعيشها ، ونظرا لإنتاجها القيّم الذي أوضحه القرآن الكريم ، وبين أهميته في بعض آياته .

من أهم الدراسات الحديثة على النحل - نحل العسل - ، تلك الدراسات التي أجريت على لغتها وحواسها ، وقد قام بها كارل فون فريتش الأستاذ بجامعة ميونيخ ، نشرها في كتاب سنة ١٩٥٠م ، ثم أعاد نشرها مع بعض الإضافات سنة ١٩٧١م .

النحل حشرة تعيش حياة اجتماعية متخصصة ، ففي خلية النحل تعيش الملكة التي تضع البيض ، وتعيش الحاضنة التي تقوم بالتربية، وجند من النحل قائمات على الحراسة ، والنحلة البناءة التي تبني الحجرات التي تتربى داخلها الصغار . وأهم عمليات النحل التي تقوم بها أعداد كبيرة من شغالات النحل هي جمع الغذاء من الخارج لتغذية أفراد مستعمرة النحل ، ولهذا كانت أهم مفردات لغة النحل متعلقة بالتفاهم على جمع الغذاء ، والغرض الرئيسي من هذه اللغة إفهام أفراد النحل بالمستعمرة بوجود غذاء خارجي مع تحديد بعده واتجاهه ، ولغة النحل ليست لغة صوتية ، لكنها لغة تعتمد على حركات خاصة منتظمة تعرف بالرقصات ، ولذلك اعتبرت لغة النحل لغة راقصة ، أساس مفرداتها حركتان مختلفتان ، تتكرر كل منها عدة مرات . يتم الرقص في معظم الحالات داخل خلية النحل ، حيث الظلام دامس والرؤية تكاد تكون منعدمة ، لهذا كان تمييز الحركة أو تفهم اللغة يعتمد على حواس أخرى غير الإبصار ، من ذلك حاسة اللمس ، فتلامس الحشرات القريبة الحشرة الراقصة بقرون استشعارها ، وفي حالة الحديث عن الغذاء تلعب حاسة الشم والتذوق دورا مهما . وتصدر الحشرة الراقصة أصواتا مميزة بواسطة نبضات عضلات الطيران ، تنبه بها النحل الأخريات القريبات منها وتدعوهن للحضور لمشاهدة الرقصة والتعرف على مكان الغذاء المستكشف .

نحل فوق برواز خلية (شكل ١)

الرقصة الدائرية

الرقصة الأولى للنحل رقصة دائرية ، تتحرك فيها النحلة في دائرة ، ثم تغير اتجاهها كلما أتمت دائرة كاملة ، فتتم دائرة في اتجاه حركة عقرب الساعة ، ثم تغير الاتجاه ، وتتم الدائرة الثانية بعكس اتجاه حركة عقرب الساعة ، وهكذا (شكل ٢) ، وتستمر الحركة عادة ثلاثين ثانية أو تزيد عن ذلك ، وحتى يشاهد الحركة الراقصة أكبر عدد ممكن من النحل ، فإن النحلة الراقصة غالبا ما تنتقل من مكانها الى مكان آخر في الخلية لترقص مرة ثانية وثالثة وهكذا ، ثم تخرج من الخلية لتجمع كمية أخرى من الغذاء ، وتقوم النحلة بهذه الرقصة عند عودتها محملة بالغذاء من خارج الخلية . وبهذه الرقصة تفهم النحل أنه يوجد في الجوار غذاء ، قد يكون رحيقا زهريا أو محلولا سكريا أو حبوب لقاح ، وأن هذا الغذاء يبعد عن الخلية مسافة قريبة لا تتعدى مائة متر ، دون تحديد لاتجاه معين . وغالبا ما يقترب النحل المجاور من النحلة الراقصة ، ويسير خلفها مقربا قرون استشعاره من جسمها ، ليعرف نوع الحركة ، ويشم رائحة الغذاء (شكل ٣) .

أثناء الرقص يترك النحل المتابع للنحلة الراقصة الخلية ، واحدة بعد أخرى ، باحثا عن الغذاء في المنطقة المحيطة بالخلية ، فإذا وجدته عدن محملات به ، وبدأت كل واحدة منهن في الرقص ليخبرن مجموعة أخرى من النحل ، وهكذا .

الحركة الراقصة الثانية

يطير النحل في سبيل البحث عن الغذاء مسافة قد تبعد عن الخلية عشرة كيلو مترات ، لهذا فإن الخبر الذي تعبر عنه الرقصة الدائرية لن يفيد كثيرا في البحث عن الغذاء في المسافات البعيدة ، فإذا بعد الغذاء مسافة كيلومتر واحد ، فإن على النحل أن يبحث عن الغذاء في دائرة نصف قطرها كيلومتر واحد . وتقدر مساحتها بثلاثة كيلومترات مربعة ،

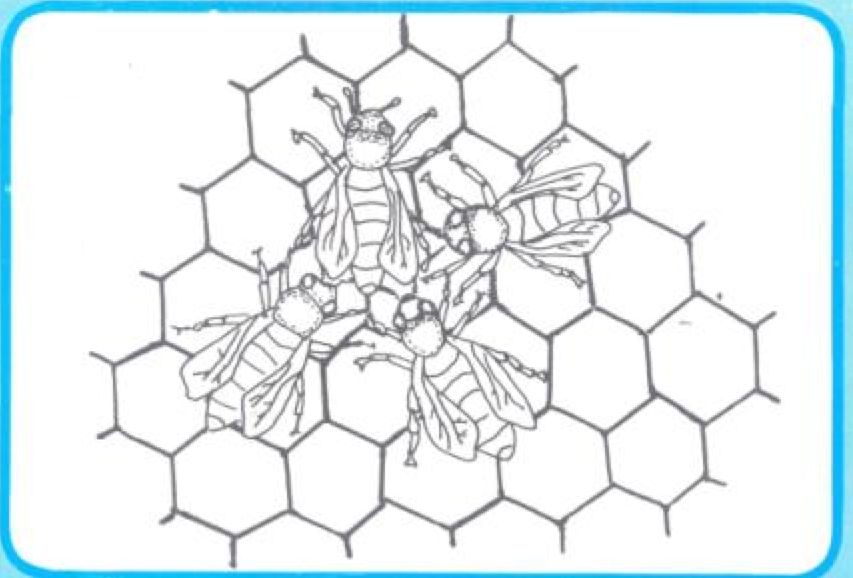

ثلاث نحلات تلامس النحلة الراقصة (شكل ٣)

وإذا زاد نصف القطر على كيلومترين تصل المسافة الى أكثر من اثني عشر كيلومترا مربعا ، وإذا وصل نصف القطر الى عشرة كيلومترات زادت المساحة عن ثلاثمائة كيلومتر مربع . والبحث عن الغذاء في مساحة قد تصل الى ٣٠٠ كيلومتر مربع ، أي ثلاثين ألف هكتار ليس بالعملية اليسيرة ، لهذا كانت الحركة الراقصة الثانية للدلالة على الغذاء البعيد مع تحديد دقيق لبعده ومكانه .

عند عودة النحلة الى خليتها محملة بالغذاء الذي وجدته في مكان بعيد ـ مائة متر أو أكثر ـ فإنها تعلن ذلك لأخواتها بلغتها الراقصة ، مؤدية الحركة الراقصة الثانية . فتسير النحلة الراقصة على أحد براويز الخلية في خط مستقيم مسافة قصيرة من أعلى الى أسفل أو من أسفل الى أعلى رأسيا ، أو تميل بزاوية معينة عن الخط الرأسي ، وأثناء سيرها تهز بطنها هزا شديدا يمينا ثم يسارا ، وهكذا . وعند وصولها لنهاية الخط المحدد تغير اتجاهها الى اليسار في حركة دائرية بعكس اتجاه عقرب الساعة ، لتنتهي الى بداية خطها الأول ، وتسير في نفس الخط المستقيم السابق ، وبنفس الاتجاه مع استمرار الرقص وهز البطن ، حتى إذا وصلت نهاية الخط غيرت اتجاهها الى اليمين في حركة دائرية ثانية باتجاه عقرب الساعة ، حتى تعود مرة ثانية الى بداية الخط لتعيد الرقص وهز البطن والدوران مرة يسارا وأخرى يمينا ، وهكذا عدة مرات . وبعض النحل أثناء ذلك يتابع النحلة الراقصة ليتلقى منها الرسالة المطلوبة (شكل ٤) .

سرعة الرقصة تحدد مكان الغذاء

وقد لوحظ أن سرعة الرقصة تزداد كلما كان الغذاء أكثر قربا ، وتقل كلما بعد مصدر الغذاء ، فإذا كان الغذاء على بعد مائة متر أتمت النحلة الجامعة للغذاء أربعين لفة كاملة في الدقيقة ، وإذا كان الغذاء

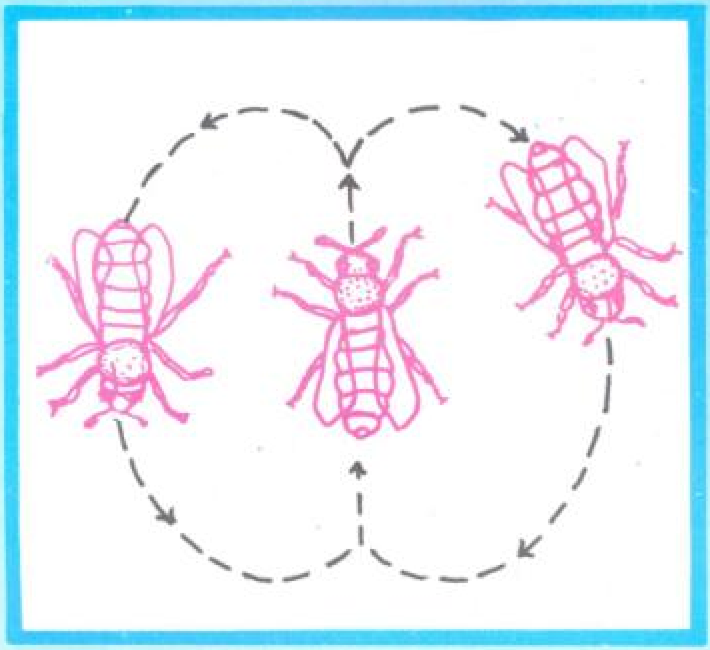

الرقصة الثانية
لتحديد خبر
وجود غذاء بعيد
(شكل ٤)

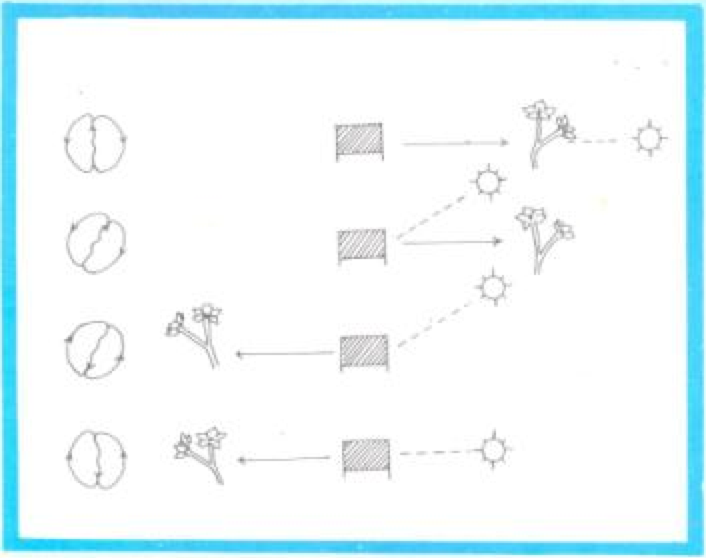

رقصة النحلة
لتحديد اتجاه
مصدر الغذاء
(شكل ٥)

على بعد خمسمائة متر أتمت النحلة أربعا وعشرين لفة في الدقيقة ، وإذا بعد الغذاء كيلومترا واحدا رقصت النحلة بسرعة ثماني عشرة لفة في الدقيقة ، وقد تنزل الى ثلاث عشرة لفة في الدقيقة إذا بعد الغذاء كيلومترين ، ثم الى تسع لفات في الدقيقة بخمسة كيلومترات ، والى خمس لفات عندما يبعد الغذاء عشرة كيلومترات .

إن الجزء المهم من الرقصة هو الجزء الذي يتم في خط مستقيم ويصاحبه هز البطن . وقد وجد أن زمن هز البطن يزداد كلما بعدت مسافة وجود الغذاء. فقد وجد أن مدة هز البطن تستمر مدة ثانية واحدة عندما يبعد الغذاء خمسمائة متر ، وتزداد الى ثانيتين عندما يبعد الغذاء كيلومترين ، والى أربع ثوانٍ لخمسة كيلومترات .

وأثناء حركة هز البطن تحدث النحلة أصواتا منغمة ، تنتج عن مجموعة من النبضات القصيرة ، تقدر بحوالي ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة ، تحدثها عضلات الطيران الموجودة في الصدر .

ويعتقد أن تحديد النحلة لمسافة الطيران ينتج عن الجهد المبذول أو عن مدى استهلاك النحلة للسكريات في جسمها أثناء رحلة الطيران في الذهاب ، ولهذا فقد وجد أن تقدير النحلة للمسافة يزداد عندما تطير في مواجهة رياح عن تقديرها للمسافة عندما تطير في جو ساكن . ولهذا يقل تقدير المسافة عندما تكون الرياح في صالح النحلة عند الذهاب ، أي عندما يكون اتجاه الرياح هو نفس اتجاه الرحلة وكذلك يحدث عند صعود جبل أو الهبوط عنه .

تحدد النحلة الراقصة بسرعة أدائها للرقصة وبزمن هز البطن بُعد الغذاء من الخلية، ومعنى ذلك أن على النحل الباحث عن الغذاء بعد أن يتلقى الرسالة من النحلة القادمة أن يذهب للمسافة المحددة ، ثم يتجول في دائرة مركزها الخلية بحثا عن الغذاء ، فإذا كان الغذاء على بعد كيلومتر واحد ، كان على النحل الباحث عن الغذاء أن يسير كيلومترا الى محيط الدائرة التي سيقطعها ، والتي يصل طولها الى حوالي ستة كيلومترات . وإذا كان الغذاء على بعد خمسة كيلومترات ، فإن مجال البحث سيصل الى ٣١ كيلومترا . أما إذا بعد الغذاء عشرة كيلومترات فسيصل مجال البحث الى ٦٢ كيلومترا ، مما يجعل عملية البحث عن الغذاء عملية شاقة أو غير مقدور النحلة القيام بها . لذلك كان خبر تحديد مكان الغذاء عن طريق سرعة أداء الرقصة وزمن هز البطن غير كاف للتعرف على مكان الغذاء والوصول اليه ، وكان لابد من مؤشر آخر يحدد للنحل اتجاها معينا يبحث فيه حتى يتوفر له الجهد الحركي ويزداد الرصيد الغذائي .

اتجاه الشمس .. إتجاه الغذاء

تحديد اتجاه الغذاء يحدده النحل بالنسبة لاتجاه الشمس ، فقد يكون اتجاه الغذاء باتجاه الشمس ، وقد يكون عكس اتجاه الشمس . والنحل القادم بالغذاء لا يقوم بالرقص خارج الخلية ، حيث الضوء ، وحيث يمكن للنحل الآخر رؤيته ، لكنه يقوم بالرقص داخل الخلية حيث الظلام الدامس ، ولا يوجد ضوء يحدد به النحل اتجاه الشمس ، ولهذا كان لابد من طريقة تحدد بها النحلة الراقصة موقع الغذاء بالنسبة للشمس ، فكانت الجاذبية الأرضية هي الترجمة لعكس اتجاه الشمس . واتجاه الشمس يصبح عكس اتجاه الجاذبية الأرضية . فإذا كان الغذاء في اتجاه الشمس كان الاهتزاز في الحركة متجها الى أعلى ، أي بعكس اتجاه الجاذبية الأرضية . أما إذا كان مصدر الغذاء في الاتجاه المضاد للشمس ، فإن الاهتزاز في حركة الرقص يصبح متجها الى أسفل ، أي باتجاه جاذبية الأرض ، أما إذا انحرف اتجاه مصدر الغذاء عن اتجاه الشمس فإن الاهتزاز ينحرف عن الوضع الرأسي بنفس زاوية الانحراف عن الشمس واتجاهه (شكل ٥) .

سبحان الله الذي خلق فأبدع ، فنوع من مخلوقاته ، ويسر لكل منها سبل الحياة ، بما فطرها عليه من صفات ومواهب ، وما وضعه فيها من أسرار ، علمنا قليلا منها ، ومازال في علم الغيب معظمها □

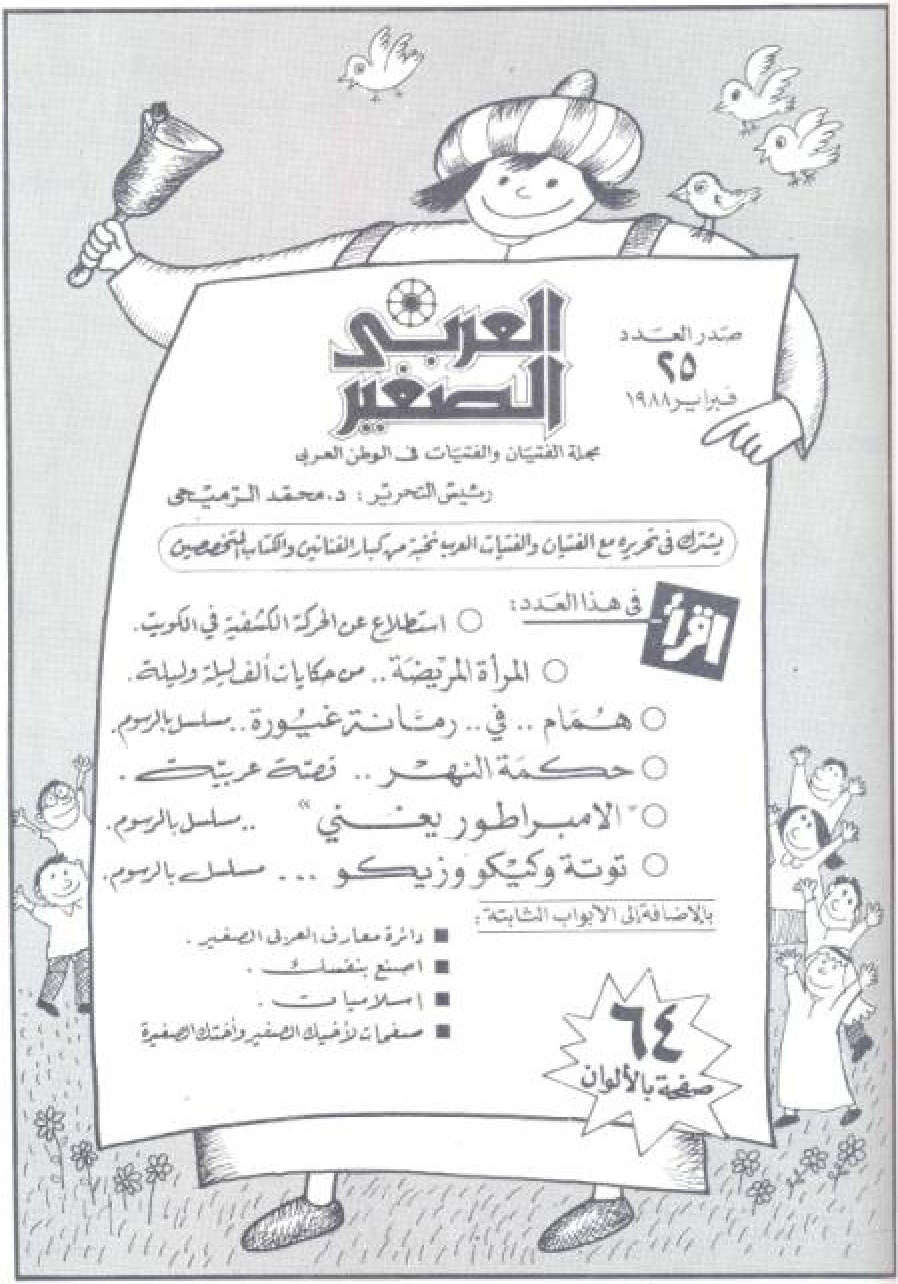
العربي الصغير
صدر العدد
٢٥
فبراير ١٩٨٨
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريره مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
اقرأ
في هذا العدد:
○ استطلاع عن الحركة الكشفية في الكويت.
○ المرأة المريضة.. من حكايات ألف ليلة وليلة.
○ همام.. في.. رمانة غيورة.. مسلسل بالرسوم.
○ حكمة النهر.. قصة عربية.
○ "الامبراطور يغني" .. مسلسل بالرسوم.
○ توتة وكيكو وزيكو ... مسلسل بالرسوم.
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة:
■ دائرة معارف العربي الصغير.
■ اصنع بنفسك.
■ إسلاميات.
■ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
٦٤
صفحة بالألوان

النقيض

شعر : راشد عيسى

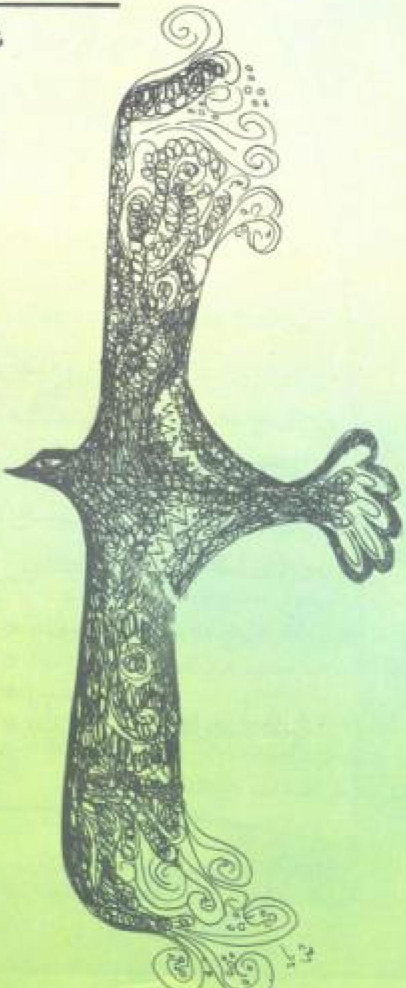

تبيتُ على حُلُمٍ نشتهيه ..
ونصحو على ضَحَكات النقيضْ
إذا اتضحت رؤيةٌ في المساء
يَخيط لها الصبحُ ثوبَ الغموض
وإنْ يومض النجم في صيفنا
تُكَبِّلُ ليالي الشتاءِ الوميضْ
هو الحُلُمُ يعلو سفوحَ المدى
فيركُلُهُ الأفقُ نحو الحضيضْ
فياسيد الوقت لا تنتحبْ
فإن مضيقَ الخلاصِ عريضْ
إذا أنت ياسيدي لم تقفْ
ولم تستجب لصهيلِ النهوض
فمن سيضيءُ المسافاتِ فينا
وكيف سَيُشفى الفضاءُ المريض؟!!
وإن ضقت بالموج ياصاحبي
فإن بحور الهلاك تفيضْ
فلا شيء فيما تشاء محالٌ
لأن ديوكَ المحالِ تبيضْ

الانفلونزا

مرض الشتاء العنيد

بقلم : الدكتور صباح السامرائي*

ما تزال السجلات الطبية تحفظ في ذاكرتها أسوأ كارثة صحية سببها فيروس الانفلونزا في مطلع هذا القرن وذلك في عام ١٩١٨ حين انتشر انتشارا واسعا في شرق العالم وغربه ،
وأدى إلى وفاة أكثر من عشرين مليون إنسان .
وفي عام ١٩٥٧ أدى الى وفاة سبعين ألفا في الولايات المتحدة وحدها .
فما هي فيروسات هذا المرض ؟

لاحظ الأطباء أن مرض الأنفلونزا ينتشر بهيئة وباء كل عشرة أعوام تقريبا ، وذلك منذ عام ١٩٤٧ . ورغم عدم وجود تفسير شامل لهذه الظاهرة إلا أن هناك ما يلقي بعض الأضواء عليها . من ذلك ، أن كل وباء ينشأ عن تغير في الغشاء الذي يغلف الفيروس ، وهذا التغير يجعل الفيروس يسلك كأنه فيروس جديد ، ولهذا لاتؤثر فيه المناعة التي اكتسبتها أجسام الناس نتيجة إصاباتهم السابقة بالمرض فيستشري .

تركيب الفيروس

توجد ثلاثة أنواع من الفيروسات التي تسبب مرض الانفلونزا ويرمز لها بالحروف الأبجدية (أ ، ب ، ج ،) ويعتبر فيروس (أ) أوسع تلك الفيروسات انتشارا فهو الذي يسبب أوبئة الانفلونزا ، في حين أن النوع الثاني (ب) لا يسبب

* طبيب عراقي من مدينة سامراء

إلا إصابات متفرقة لاتبلغ درجة الوباء . والنوع الثالث (ج) لايسبب أي مرض إلا نادرا ، ولهذا سيقتصر حديثنا على النوع الأول .

يتخذ هذا الفيروس شكل كرة صغيرة جدا يبلغ قطرها (٠,٠٠٠١ مليمتر) أي أنك لو وضعت عشرة آلاف فيروس أحدهما جنب الآخر بهيئة مستقيم ، لبلغ طول المستقيم مليمترا واحدا . إن الغشاء الذي يغلف الفيروس يحوي مواد كيميائية ذات أهمية خاصة ، فهي التي تمنح الفيروس هويته المميزة ، وتحدد طبيعة الأجسام المضادة التي يصنعها الجسم البشري ليدافع بها عن نفسه ضد الفيروسات الغازية . وهذه المواد توجد بهيئة مركبين ، أحدهما يرمز له بالحرف **H** وهو مختصر كلمة **Hemag-glutinin** والآخر يرمز له بالحرف **N** وهو مختصر كلمة **Neuraminidase** وفي جوف الفيروس ، توجد ثماني قطع من الحامض النووي المعروف الذي يسمى **KNA** ويستطيع هذا الحامض أن يغير تركيب المواد الموجودة في غلاف الفيروس التي رمز لها بالحرفين **H N** وتغيير تلك المواد يعني تغيير « هوية » الفيروس ، فلا تؤثر فيه مناعة الجسم .

خلاصة القضية ، وبعيدا عن التفاصيل المعقدة والرموز الأجنبية نستطيع القول أن فيروس الانفلونزا يمتلك مقدرة كبيرة على تغيير نفسه . ان انتشار المرض وتكرار الاصابة به ، يجعل أجسام الناس تصنع (اجساما مضادة) تفتك بالفيروس ، وكأنما يجد الفيروس نفسه قد بطل سحره ، ولم يعد يؤثر في الناس بسبب امتلاكهم تلك الأجسام المضادة له ، فيغير هيئته ويتسلل إليهم دون مقاومة ، وعندئذ ينتشر وينتشري .

أعراض الانفلونزا

تختلف الأعراض في مدى شدتها اختلافات كبيرة من شخص لآخر ، فقد تكون بسيطة يسيرة ، فلا يشعر بها المصاب ، وقد تشتد حتى تجعل صاحبها طريح الفراش عدة أيام ، وفي حالات نادرة تسبب « ذات الرئة » الذي يكون أحيانا شديد الخطر ، وربما هدد حياة المريض .

تبدأ الاصابة بالانفلونزا عند استنشاق الفيروس مع الهواء ، فيصل البلعوم والقصبة الهوائية . وبعد فترة حضانة تبلغ يومين ، تظهر أعراض المرض بهيئة حمى مفاجئة ، وصداع ، وسعال ، وشعور بالتعب ، وآلام عضلية ، وحرقة في البلعوم ، وقلة الرغبة في الطعام ، وتستمر هذه الأعراض فترة تتراوح ما بين ، يومين ، وخمسة أيام ، ثم تزول تلقائيا . وبعض المرضى يظل يشعر بالتعب عدة أسابيع بعد أن يشفى .

المضاعفات

مرض الانفلونزا لايعد من الأمراض الخطيرة ، بل هو مرض سهل ميسور وقلما تجد من لم يصب به .. ورغم ذلك فانه أحيانا يسبب مضاعفات لاتخلو من الخطر .. وأشهر تلك المضاعفات وأخطرها « ذات الرئة » الذي يحصل بتأثير مباشر من فيروس الانفلونزا حين يتسلل إلى أعماق الرئتين ، أو بتأثير غير مباشر حين يوهن الفيروس مناعة الجهاز التنفسي فيمهد الطريق أمام البكتريا .. لتغزوه .

ومن أجل التفريق بين « ذات الرئة » الناشيء عن الفيروس نفسه ، وذات الرئة الناشيء عن غزو البكتريا ، نلاحظ أن الأول ينشأ في وقت مبكر ، أي أن المصاب يشعر بأعراض الانفلونزا تشتد عليه يوما بعد يوم وتسوء حالته .

أما الثاني ، فإن المصاب يشفى من الانفلونزا ، وبعد عدة أيام تداهمه الأعراض مرة أخرى ، فيحسب أن الانفلونزا عادت اليه ، وهي في الحقيقة « ذات الرئة » وليست انفلونزا ثانية . وبالاضافة الى « ذات الرئة » فان الانفلونزا قد تؤدي ـ نادرا ـ الى التهاب القلب ، والتهاب الدماغ ، والعضلات والاعصاب .

ان أكثر الناس عرضة لهذه المضاعفات ، هم كبار السن ممن تجاوزوا الخامسة والستين ، والمصابون بأمراض مزمنة في القلب ، أو الرئتين ، والمصابون بالسكر ، والمصابون بعجز الكلى المزمن ، والمرضى (الذين يتناولون العقاقير المثبطة للمناعة ، أو

المصابون بنقص المناعة) وهذا تجب وقايتهم من الانفلونزا باللقاح أو العقاقير .

لقاح الانفلونزا

مرض الانفلونزا واسع الانتشار ، وعندما يداهم الناس بهيئة وباء . فان معدل الاصابات قد يبلغ خمسين بالمئة . وفيما عدا المخاطر الصحية ، فان انتشاره الواسع يسبب خسائر اقتصادية كبيرة ، نتيجة ترك معظم المصابين أعمالهم طوال فترة مرضهم . وقد بذلت جهود كبيرة من أجل ابتكار لقاح يقي الناس من المرض ، غير أن المشكلة الكبرى التي تقف في هذا السبيل هي أن الفيروس يغير نفسه من حين لآخر ، فيجعل اللقاح قليل الفائدة .

ورغم ذلك ، فقد استطاع العلماء صنع لقاح يقي من المرض بمعدل أكبر من خمسين بالمئة ، وهذا اللقاح هو فيروسات الانفلونزا نفسها ، تحقن في الجسم بعد ايقاف نشاطها المرضي أي قتلها . . وعندما تدخل هذه الفيروسات الجسم ، تحفزه لصنع أجسام مضادة تقيه من المرض . وفي العادة يعطى ، هذا اللقاح لمن تكون الانفلونزا شديدة الخطر عليهم .

ان اللقاح لايخلو من الأضرار الجانبية ، وأشهرها الحمى ، وآلام العضلات التي تحصل بمعدل خمسة بالمئة . وفي حالات نادرة يسبب اللقاح الحساسية وخاصة حين يعطى لشخص مصاب بالحساسية ضد البيض ـ لأن اللقاح يحتوي على بعض بروتينات البيض ـ ورغم أن اللقاح لاخطر منه على الحوامل ، فإنه يفضل الا يعطى لهن الا عند الضرورة القصوى ، تجنبا لأخطار قد تحصل دون انذار سابق .

وفي الاتحاد السوفيتي يفضل العلماء استعمال لقاح يصنع من الفيروسات الحية المضعفة وليس من الفيروسات الميتة ، فالمناعة التي يعطيها أقوى ، لأنها ستكون موضعية وجهازية .

الوقاية بالعقاقير

لقد جرى اختبار عدد من العقاقير كوسيلة للوقاية من الانفلونزا ، وتبين أن عقار « أمانتدين » يمنع الفيروس من دخول الخلايا ، فيقي من المرض . ويتصف هذا العقار بأنه سريع الامتصاص من قبل بطانة الجهاز الهضمي بعد تناوله عن طريق الفم ، ويصل أعلى مستوى له في الدم بعد ثلاث ساعات من تناوله . وهو يعطى بجرعة ١٠٠ ملغم مرتين يوميا ، غير أن المناعة التي يمنحها للجسم مؤقتة في حدود « ٢٤ ساعة » ، ولهذا يجب تناوله يوميا طوال فترة انتشار المرض ، وهي الشتاء عادة .

ورغم فائدة العقار في الوقاية من الانفلونزا ، فانه ليس شائع الاستعمال ، بسبب تأثيراته الجانبية على الجهاز العصبي التي تظهر بهيئة دوار وغثيان ، وأرق ، وهلوسة ، واضطراب الادراك للزمان والمكان، وتظهر هذه التأثيرات لدى خمسة بالمئة ممن يتناولون ذلك العقار ، وفي العادة تزول هذه الأعراض بعد التوقف عن تناوله .

ولايوجد تعارض بين اللقاح واستعمال هذا العقار ، بل ان الدمج بينهما ذو فائدة خاصة ، فأثر اللقاح لايظهر الا بعد فترة زمنية معينة ، وخلال هذه الفترة يقوم العقار بالوقاية من المرض ، وهكذا تكون الوقاية مستمرة .

العلاج

علاج الانفلونزا هو علاج تخفيفي في معظم الحالات ، أي علاج الأعراض ومحاولة الحد من حصول المضاعفات . فيعطى المريض العقاقير المسكنة ، والخافضة للحرارة « كالاسبرين والباراسيتول » لتخفيف الصداع ، وآلام العضلات ، وخفض درجة الحرارة المرتفعة ، وينصح بالراحة وملازمة الفراش من أجل مساعدة الجسم على مقاومة المرض .

ولا ينصح بتناول المضادات الحيوية « أمبسلين تتراسايكلين . . الخ » الا عند حصول التهاب ثانوي ناشيء عن البكتريا ، ويمكن التأكد من ذلك بفحص القشع بالمجهر . وفي حالات الانفلونزا الشديدة ، ينصح الاطباء بتناول عقار « أمانتدين » الذي يمتلك قدرة علاجية بالاضافة الى قدرته الوقائية . □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الحكومة العربية

مازال التساؤل التاريخي قائما : ما هو دور الحكومة في المجتمع ؟ وأين يقف تدخل الحكومة ، أو تدخل الدولة ، وأين يقف نشاط الأفراد ؟ وما هو القدر الذي يتنازل عنه كل طرف للآخر ، وما هو القدر الذي يتشبث به كل طرف باعتبار أنه صاحب الحق باتخاذ القرار ؟

إنه تساؤل تاريخي لأنه شغل فلاسفة السياسة طويلا ، لكن أبرز انقسام في الرأي حول هذه القضية ، كان بين فلاسفة النظامين الرئيسيين في العالم ، النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي .

في الرأسمالية ، أو نظام الاقتصاد الحر ارتفع الشعار المعروف :

« دعه يعمل ، دعه يمر » ، وهو شعار ينتهي بنا إلى اقتصار دور الدولة على الدفاع ، والأمن ، والعدالة ، والسياسة الخارجية أيضا ، أما النشاط الاقتصادي ـ الاستثمار ، والتجارة ، والمال ، والانتقال ، وحق العمل ، وحق التشغيل ـ فكله تابع للأفراد ، يقررون فيه ما يشاءون .

صحيح أن الدولة الرأسمالية قد احتكرت منذ قرون بعض الأنشطة ، مثل الملح أو النبيذ أو بعض المحاصيل أو الثروات التي توفر دخلا للنشاط الحكومي ، وصحيح أن تدخل الدولة الرأسمالية حديثا قد امتد لكثير من الأنشطة أيضا ، وأصبحت الحكومة على أي حال هي التي تحدد المسار العام للمجتمع ، والإيقاع الرئيسي للنشاط الاقتصادي ، لكن ذلك كله في إطار مورد للدولة (قديما) أو في إطار تنظيم ما هو حر (حديثا) .

وقد جاءت الاشتراكية ، كما جاءت نظم الاقتصاد الموجه ، لتفعل عكس ذلك .

وكان القياس باستمرار لدرجة تدخل الدولة وتعاظم دور الحكومة هو السؤال التقليدي : هل هو نظام رأسمالي أو اشتراكي ؟ وهل هو اقتصاد حر أو اقتصاد موجه ؟

خريطة أخرى

واختلف الأمر في الوطن العربي خلال السنوات الأخيرة ، فسجلت كل النظم ـ اشتراكية ، ورأسمالية ـ درجة عالية من التدخل ، وأصبحت الدولة في معظم الحالات أكبر صاحب دخل ، وأكبر صاحب عمل ، وأكبر قوة مؤثرة ، إنها متخذ القرار الأول الرئيسي ، بصرف النظر عن النظام الاجتماعي !

وتعكس ذلك أرقام آخر تقرير للاقتصاد العربي الموحد الذي تساهم فيه الجامعة العربية وثلاث منظمات أخرى هي صندوق النقد العربي والصندوق العربي للإنماء ومنظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول .

وأبرز هذه الأرقام : كم تنفق الحكومات

العربية ؟ وكم يبلغ ذلك من الناتج المحلي الإجمالي ؟

في عام ١٩٨٠ بلغت النفقات العامة في الأقطار العربية (٤٩,٤٪) من الناتج المحلي الإجمالي ، وفي عام ١٩٨٦ تراجع الرقم قليلا ، فأصبح (٤٥٪) ، أي أن نصف إنفاق المجتمع يأتي عبر أصابع الدولة ، والحكومة هي التي تقرر ماذا تنفق ، وأين ، وكيف .

وفي تفسير هذه الظاهرة تأتي أرقام الإيرادات العامة التي مثلت (٦٠,٦٪) من الناتج المحلي عام ١٩٨٠ ، لكنها بسبب انخفاض أسعار النفط تراجعت عام ١٩٨٦ إلى (٣٥,٢٪) ، أي أن الإيرادات الحكومية التي حصلتها الحكومات العربية في بداية الثمانينيات قد اقتربت من ثلثي الناتج المحلي ، لكنها بسبب أسعار النفط تراجعت إلى مايقرب من الثلث فقط .

بلغت الايرادات العامة عام ١٩٨٠ (٢١١) مليار دولار ، لكنها هبطت بشكل حاد، فأصبحت (١٢٠) مليارا عام ١٩٨٦ . وتحول الفائض الذي بلغ (٣٩) مليارا في العام الأول إلى عجز بلغ حوالي (٣٤) مليارا في العام الأخير .

إذن فالنفط هو العنصر الحاسم ، لكن عندما انخفضت أسعاره لم ينسحب تأثيره على نمط الإنفاق ونمط تدخل الدولة ، ودور الحكومة الذي بقي كما هو عليه تقريبا بدليل أن نسبة الايرادات العامة للناتج المحلي قد تراجعت إلى مايقرب من النصف ، بينما بقيت النفقات العامة قريبة مما كانت عليه ، ولم تتراجع بأكثر من (١٠٪) .

إذن فالتدخل قد أصبح نمطا ، والدور الحكومي قد أصبح حقيقة يصعب التراجع عنها ، والسؤال هو : في أي المجالات تتدخل الحكومة ؟

مسارات واضحة

توضح الأرقام أن هناك تنافسا واضحا بين دولة الرفاهية أو بين الدور الاجتماعي للدولة وبين تعزيز الأمن والدفاع عن المجتمع .

وبصرف النظر عن المقارنات التاريخية فقد سارت الثمانينيات على وتيرة متقاربة في نمط الإنفاق ، وإذا أخذنا العام الأخير الذي تتوافر عنه الأرقام وهو عام ١٩٨٦ فإننا نجد :

* أن (٢٦٪) من الإنفاق العام الجاري يتجه للأمن والدفاع ، وترتفع النسبة في أماكن الخطر (سوريا : ٥٥٪ ـ الأردن ٤٢٪) ، كما ترتفع في بلدان النفط ، حيث اجتمعت العوامل الثلاثة ، وهي الامكانيات المالية ، وحداثة تكوين قوة الدفاع ، وتزايد الأخطار . وكلها يدفع للمزيد من الإنفاق الدفاعي الذي بلغ في السعودية ذات الدخل الضخم ٢٤٪ ، كما بلغ في الكويت وليبيا ٢٧٪ من الإنفاق الجاري .

* في نفس الوقت اقترب الإنفاق العربي على الخدمات العامة والخدمات الاجتماعية من حجم الانفاق على الدفاع ، فكانت النسبة للخدمات العامة ٢٣٪ ، ونفس النسبة تقريبا للخدمات الاجتماعية .

* لم يتخط الإنفاق على شئون الاقتصاد (١٣,٣٪) وبما لايزيد كثيرا عن بداية الثمانينيات .

إذن فالأولوية للأمن والبنية الأساسية والخدمات الاجتماعية كالتعليم والصحة والاقتصاد ـ أي أن الاستثمار الإنتاجي المباشر أو الاستثمار المالي له أولية ثانية في منطق الموازنات العامة ، خاصة في أقطار النفط ، لكن ذلك لايعكس انسحابا لدور الدولة من الحياة الاقتصادية ، فدائرة التأثير قائمة في كل الأحوال ، لأن أرقام البنية الأساسية أو الخدمات العامة ، بل وجزءا من أرقام الدفاع يحرك عجلة الاقتصاد ، حيث تضخ الحكومة المال ، فيستقبله مستثمر ومقاول وصاحب بنك وخبير .. الخ

والقطاع الخاص ليس بعيدا ، لكن بصمات الدولة واضحة من خلال حجم كبير من الإنفاق ، كرسته الاتجاهات الاجتماعية في مجموعة من الأقطار العربية ، وكرسته ظاهرة النفط في مجموعة أخرى ، فهل استطعنا أن نوفر لأجهزتنا الحكومية أفضل خبرة ، وأفضل كفاءة ؟ وهل استطعنا أن نضمن الرشد باتخاذ القرارات ؟

والتساؤل خطير ، لأن الحكومة العربية تنفق نصف الدخل ، ر" ك معظم التأثير . □

مع التاريخ

حقيقة معركة بواتييه

بقلم : الدكتور سلمان قطاية

لا بد لكل سائح يزور باريس من أن يزور قصرفرساي الفاخر الذي بناه الملك لويس الرابع عشر الملقب بالملك الشمس . وفي إحدى قاعات القصر الكبيرة مجموعة ضخمة من اللوحات التي تسرد أهم المعارك الحربية التي قامت بها فرنسا ، وبالتحديد الانتصارات ، لأن الأمم تفتخر بانتصاراتها ، فتمجد فيها وتعظم ، بينما تتناسى أو تقلل من هزائمها . وهكذا لا توجد ساحة أو شارع يحمل اسم واترلو في فرنسا كلها ، بينما يطالعنا هذا الاسم في كل مكان في انجلترا .

يرى شارل مارتيل (٦٨٥ - ٧٤١ م) في اللوحة وهو يوجه ضربة رهيبة إلى قائد العرب ، عبد الرحمن الغافقي الذي ينظر إليه بهلع شديد !

ومارتيل كلمة لاتينية ، تعني مطرقة ، وشارل هو الاسم الأول لشارلمان ، أي شارل الكبير جد مارتيل .

وتروي القصة للفرنسيين الناشئين بأن العرب المسلمين هاجموا فرنسا ، فتصدى لهم القائد شارل مارتيل ، فقضى عليهم في واقعة بواتييه عام ٧٣٢ م ؟ وقتل قائدهم الأمير عبد الرحمن في معركة سماها العرب بلاط الشهداء ، لكثرة ما أوقع فيهم من قتل وتجريح . ويتخذ اليوم الفاشيون الجدد في فرنسا من هذه المعركة مثلا حتى أن إحدى عصاباتهم التي تتعرض للعرب بالقتل والغدر قد أسمت نفسها باسم شارل مارتيل . ويقال إن عصابة مضادة من الشبان العرب ، في مرسيليا تألفت تحت اسم عبد

الرحمن ؟

إلا أن الـواقع والحقيقـة التاريخية يكذبـان هذه الصـورة المشوهـة ، لذا عمـدت القناة الثـالثـة في فرنسـا ، المعروفة بأنها مخصصة للثقافة والفكر إلى بث برنامج عن حقيقة هذه المعركة ، أسندت مسؤوليتها إلى كبار العلماء والمفكرين والمؤرخين .

وأستطيع قبل الخوض في الكلام عنها أن ألفت الأنظار إلى بضع نقاط مهمة :

أ ـ كان العرب أكثر مدنية وحضارة وإنسانية .

٢ ـ أثبت هؤلاء أن ما يورده المؤرخون العرب هو الحقيقة .

٣ ـ كانت خسارة المعركة لأسباب تافهة .

٤ ـ لو كسب العرب المعركة لفتحوا كل اوروبا ، لكنهم كانوا سيتراجعون بعد قليل .

حينما جاوز العرب جبال البرانس انبثوا غـربا وشمالا وإلى الشرق أيضـا ، غربـا : فاحتلوا كـل الشاطىء اللازوردي الفرنسي ودخلوا ايطاليا ، بل إنهم جهزوا حملة لاحتلال روما .

وفريق منهم ذهب شمالا حتى مقاطعة السـافوا العالية على الحدود السويسرية .

وغربا في منطقة الاكسيتين واللانغدوك حيث ما تزال آثارهم في اللغة والفنون باقية .

وارتقى آخرون شمالا فاحتلوا مدنـا كثيرة حتى وصلوا بواتييه . نعني بذلك أنهم احتلوا قرابة ربع مساحة فرنسـا ، وقطعوا من البرانس حوالي ٧٠٠ كم . وكان من عادتهم أن يصطحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم . وإلى جانب بواتييه ـ المدينة ـ يوجد سهل كبير واسع يفصله عن المدينة نهر صغير .

ضـرب العـرب خيامهم في السـهـل استعـدادا للمعركة ، إذ بلغهم أن العدو قد جمع جموعا غفيرة من عساكره للقتال .

تميز العرب ـ على قول المؤرخين الفرنسيين ـ باستهانتهم بالموت والجوع والعطش ، وبإيمانهم أن الشهـادة هي مفتاح الجنة ، كما تميزوا بسيوفهم الفولاذية وبخيولهم التي لا مثيل لها .

أما العدو فلقد كان ذا حضارة بدائية بربرية ، وأسلحة بسيطة ، لكنها ماضية ، وخيول ثقيلة .

وكان مارتيل قد جال في طول اوروبا وعرضها عرضا على دفع العرب المسلمين وردهم ، فتجمع لديه عدد يزيد على ضعف عدد عساكر العرب ، وذخيـرة لا تنضب ، وتشجيـع كبيـر من كـل المسؤولين .

وأخذت العساكر مكانها ، ولم يبدأ العرب المعركة إلا بعد الظهر ، فهجموا على العساكر الفرنجية وراح هؤلاء يدافعون متراجعين ، بل إن فرقا منهم بدأت بالانهزام تاركة أسلحتها وعتادهـا ، وأيقن العرب بالنصر ، الا ان بعضا منهم اكتشف ان وراء سـور المدينة الكائن على ضفة النهر من الطرف الآخر ، كنيسة عظيمة فيها كنوز لا تقدر بثمن .

هنا هرع كثير من الجنود المسلمين فعبروا النهر على قوارب صغيرة الى الضفة الأخرى ، وراحوا يملؤون الأكيـاس بكنـوز من الـذهب والفضـة والأحجار الكريمة ، مما وجدوه في الكنيسة ، وساروا بها على ظهورهم نحو النهر ، ولثقل الأكياس غرق بعضهم مع القوارب في النهر . وسرى الخبر بين العرب ، فهرعوا أكثر فأكثر يقتتلون فيما بينهم لأخذ أكبر نصيب من الكنوز .

وهنا حدث شيء غير متوقع وغير منتظر ، بل وغير معروف حتى الآن ، فقد سقط الأمير عبد الرحمن الغافقي قتيلا .

لم يستطع المؤرخون حتى الآن معرفة أسباب مقتله وكيفية ذلك ، ربما أصابته سهام أو ضربة !! لا أحد يعرف .

وسرى خبر مقتله كالنار في الهشيم ، فتضعضعت الصفوف ، وتبلبلت النفوس ، وزادت الفوضى في الجيش ، فاذا بالليل يسدل ستاره .

وكان من عادة الجيوش أن تتفرق بعد المغرب ، ويقوم كل فريق بجمع جثث قتلاه لدفنها ، وجرحاه لاسعافهم ، ويستريح الجميع استعدادا لليوم التالي .

وفي صباح اليوم التالي ، لم يسمع الفرنجة أي صوت أو ضوضاء من الطرف الآخر .

فأرسل مارتيل كشافين ، إذ خاف أن يكون العرب قد نصبوا لهم فخا ، فعاد هؤلاء مؤكدين بأنهم لم يروا عربيا واحدا .

إذ أن العرب انسحبوا ليلا بقضهم وقضيضهم .

هنا عرف مارتيل أنه قد انتصر ، فصاح صيحة النصر ، وقال إنه لابد من متابعة العرب حتى جلائهم التام عن فرنسا ، ومضى في مشروعه اكثر من عشرة أعوام حتى نفذ وعده .

ومما يروى أن العرب قد انهزموا ولاذوا بالفرار تاركين ما يملكون للفرنجة !

ومن ذلك أنهم تركوا خيولهم الجميلة الأصيلة ، هكذا كما يدعي هؤلاء ، وعرف الفرنجة الحصان العربي لأول مرة .

وهذه القصة تكذب الادعاء . ثم هل من المعقول ان يهرب الهارب جريا على الأقدام تاركا حصانه السريع الذي لا يجارى ؟ ثم إننا لم نر ما يذكر بالحصان العربي في أوروبا ـ وفرنسا بشكل خاص ـ إلا بعد الحروب الصليبية ، وعندما عاد ريتشارد قلب الأسد ببعض الخيول العربية .

كذلك ادعى أحد المؤرخين في تلك الحلقة التي كما قلت بثت في التلفزيون أنه كان هناك بين العرب يهود .

فكتبت له أفند دعواه ، لأن شرف الجهاد كان محفوظا للمسلمين ، وكان الآخرون يدفعون الجزية بدلا عن ذلك . ولم استلم منه جوابا ؟

وطرح سؤال في نهاية المطاف : لو كسب العرب المعركة فماذا سيكون المستقبل ؟ فأجيب : بأنه كان من الصعب على العرب أن يتغلغلوا في بلاد لا يعرفونها ، ولا يطيقون طقسها . ثم ان اوروبا المسيحية كانت قد بدأت تشعر بالخطر وتلملم شعثها وقواها ، وكانت ستتصدى للعرب مرات ومرات ، وستضعف مقاومة العرب بسبب بعدهم عن بلادهم الأصلية . فاذا كانوا قد استطاعوا البقاء في اسبانيا ثمانية قرون فذلك بسبب قربهم من المغرب . ونحن نعلم كم مرة جاءتهم النجدة منه . يكفي ان نذكّر بيوسف بن تاشفين وسنده للمعتمد .

والذي امله وأرجوه أن يتولى احد الاقطار العربية اقامة نصب أو آبدة تذكرنا بالشهيد الغافقي الذي استشهد هناك ، وفي المكان نفسه ، وما أظن الحكومة الفرنسية الا موافقة على ذلك . □

العبقرية والجنون

اجتمع فريق من المفكرين والأدباء الانجليز بالفيلسوف البريطاني برتراندرسل قبل وفاته بأسابيع قليلة ، ودار الحديث حول العبقرية ، هل هي حقيقة ضرب من الجنون ؟

وطالت المناقشة ، واحتدم الجدل ، دون أن يشترك (رسل) في أية مرحلة من مراحلها ، وأخيرا عندما اقتربت المناقشة من نهايتها أجمع الحاضرون على رأي واحد ، وهو أن العبقري لا يمكن إلا أن يكون مجنونا ، أو مصابا بخلل ما .

وبدأ المجتمعون يستعدون للانصراف ، إلا أنهم ما لبثوا أن عادوا إلى أماكنهم مرة أخرى عندما سمعوا صوت (رسل) يناديهم قائلا : مهلا أيها السادة ، هل لي أن أسألكم ما الذي يضير العبقري إذا كان مجنونا ، أو مصابا بخلل ، طالما أن هذا الرأس قد أنتج إنتاجا فذا ؟ هل فكرتم في المحارة التي تغوصون وراءها في قاع البحر ؟ هل تعلمون أنها لابد أن تصاب بخلل لكي تنتج لؤلؤة ؟ أنا شخصيا كنت أتمنى أن أصاب بالجنون ، لكي أهتدي إلى وسيلة ، يمكن أن تنقذ البشرية من الهلاك الذي يتهددها .

قراءة نقدية لكتاب

بيروت ... بيروت ..

رواية من تأليف صنع الله إبراهيم

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

إن كتابة رواية جيدة ، بكل المقاييس نوع من المغامرة ، أما كتابة رواية عن الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها فمغامرة تقترب من حافة الجنون ! إذ على الكاتب منذ البدء أن يواجه أسئلة كثيرة ، منها :

كيف يحقق نصيحة همنجواي الشهيرة : « لا تكتب إلا عما تعرف » إذ من ذا الذي يزعم أنه يعرف أسرار هذه الغابة (لبنان) المفعمة بالجمال والحب والكراهية والعنف والقتل ، وتعقيدات التاريخ والجغرافيا ، والتنوعات البشرية والدينية والمذهبية والاقتصادية والسياسية ؟!

من الذي يعرف أفضل وأصدق،من يعيش داخل الغابة ، وقد يغرق في التفاصيل وتحيزاتها أم من يأتي من الخارج فيراها كلها ، ثم يجوس خلالها بعين طازجة غير متحازة ؟؟ وإذا كان من الضروري أن يكون الكاتب محايداً في مرحلة ليعرف أفضل ، ومنحازاً في مرحلة أخيرة ليكتب أفضل ، فمتى ينبغي أن ينتهي الحياد ويبدأ الانحياز ؟؟

عن الكاتب وأعماله :

ومع ذلك فقد فعلها عدد من الكتاب ، كل بطريقته من داخل لبنان ومن خارجها ، وحين فعلها صنع الله ابراهيم بكتابة رواية « بيروت .. بيروت » سنة ١٩٨٤ لم يدهش كثيرا أولئك الذين تابعوا رحلته مع فن الرواية ، فصنع الله ابراهيم كاتب لا يؤثر فقط مواجهة التحديات ، بل صناعتها كذلك ، فحين قدم أول رواية له سنة ١٩٦٦ بعنوان « تلك الرائحة أحدث » نوعاً من الصدمة للقراء وللنقاد معا ، سواء بالأسلوب الذي كتب به أو بالتقنية التي اختارها ، ففي الصفحة الأولى من الرواية يتحدث الراوي : (شاب خرج من السجن لتوه يرافقه شرطي إلى البيت ليعرف العنوان) هكذا : « ذهبنا إلى بيت أخي ، وقال أخي وقد قابلناه على السلم إنه مسافر ، ولابد أن يغلق الشقة ، ونزلنا وذهبنا إلى بيت صديقي ، وقال صديقي : أختي هنا ولا أستطيع أن أقابلك ، وعدنا إلى الشارع ... » .

موقفان كان غيره من الكتاب يكتب عنهما صفحات كثيرة نائحة بالفجيعة في الأخ والصديق ، أما صنع الله ابراهيم فكان قد قرأ كتاب « كارلوس

بيكر » عن حياة همنجواي وأدبه ، وفتنته « فكرة جبل الثلج » التي تعني الاقتصاد في التعبير وبدأ يطبقها خلال بحثه عن أسلوب جديد ، وخلال بحثه عن تقنية جديدة قدم روايته تلك من خلال تعاقب صوتين للراوي نفسه ، صوت - كما قرأنا - يبدو وكأنه يترجم بإيجاز وحياد وبرود ما يواجهه في الحياة اليومية ، وصوت آخر للراوي نفسه يبدو وكأنه ترجمة لمشاعر وصور تتثال في داخله من الماضي ، ويقوم بناء الرواية على تعاقب هذين الصوتين في نسيج متصل بلا فصول ، وقد وظف الكاتب التباين بين هذين الصوتين لشخصية واحدة في تجسيد الفجوة القائمة بين الراوي وبين مجتمعه الذي يعود إليه بعد خمس سنوات في السجن !! كأن ظواهر كثيرة تشير إلى أن مجتمعه يقوم الآن بإنجاز الأشياء التي سجن الراوي لأنه كان يطالب بها ، وكانت تلك هي الفجوة التي يريد أن يعبرها . وقبل أن يفيق القراء والنقاد من صدمة « تلك الرائحة » كان الكاتب يقوم بزيارة لموقع السد العالي في أسوان ، وكأنه ما يزال يسعى للاقتراب من فهم ما يجري في واقعه الجديد . وهكذا جاءت روايته « نجمة أغسطس » سنة ١٩٧٤ تعبيراً عن رغبته في أن يجتاز الفجوة ، ويصل إلى المعنى ، وتجسيداً لرؤيته لهذا الانجاز ، وتطويراً للتقنية التي بدأها في « تلك الرائحة » ، فهو في « نجمة أغسطس » يجعل من الصوت الداخلي للراوي - صوت الذكريات والمشاعر - مقابلاً تعبيرياً عن النواة الصلبة الداخلية للسد التي تتكون من طمي ناعم رقيق كالذكريات ، ومن الصوت الخارجي الهادىء المحايد مقابلاً تعبيرياً عن الجسم الخارجي للسد الذي يتكون من الصخور والحجارة والحصى !

بين « بيروت . . » و« نجمة أغسطس » :

قد يلاحظ من قرأ الروايتين أن هناك أوجه شبه واضحة بينهما ، فكلتا الروايتين مقدمة أساساً من خلال شخصية الراوي ، التي تتبين فيها ملامح من شخصية المؤلف ، مما يعطي الروايتين شيئا من طابع السيرة الذاتية . وفي كلتا الروايتين يسافر الراوي الى مدينة أخرى ، يجري فيها حدث كبير له أبعاد تاريخية واجتماعية وسياسية ، ويحاول الراوي الاقتراب من الحدث الكبير في وقت محدود ، بوسائط متعددة ، للتعرف عليه واكتشاف معناه ، مما يعطي الروايتين طابع التحقيق الصحفي . ومع اختلاف طبيعة الحدثين (بناء السد) و(الحرب الأهلية) إلا أن المشكلات الفنية التي تثيرها محاولة تناول مثل هذه الأحداث الكبيرة المتشعبة تكاد تكون واحدة !!

أكان هذا هو السبب في أن الكاتب قد عاد في رواية « بيروت . . بيروت » إلى تقنية شبيهة بتلك التي استخدمها في « نجمة أغسطس » بعد أن كان قد لجأ إلى تقنية مختلفة تماما في رواية « اللجنة » التي كتبها بين الروايتين ؟

ألا تعيدنا هذه الملاحظة إلى سؤال قديم متجدد : بأي جانب ترتبط أكثر «تقنية أية رواية؟» هل بجانب الوجود الموضوعي للحدث الخارجي الذي يتناوله ، وطبيعته . .

أم بجانب رؤية الكاتب لهذا الحدث ، وعقيدته الفنية - إذا صح التعبير - وثقافته في هذه المرحلة من مراحل نموه وتطوره ؟!

أعتقد أن الوقت قد حان لنقترب أكثر من رواية « بيروت . . بيروت » ، لنرى كيف واجه الكاتب مشكلات عمله الفنية ، وكيف التمس لها الحلول .

استكشاف الغابة :

من الفصل الأول وحتى السابع نتابع الراوي في رحلته من القاهرة الى بيروت لنشر كتاب له هناك ، ومن الصحف العربية والأجنبية التي يقرأها في الطائرة نبدأ في التعرف على شيء مما يجري في بيروت، في الفترة السابقة على تاريخ سفره في اليوم السابع من نوفمبر ١٩٨١ . وفي الطريق - من المطار الى الفندق - في شارع الحمراء ، نرى بعين الراوي مدينة بيروت فندرك أن الحرب الأهلية التي انتهت رسميا منذ أعوام بدخول قوات الردع العربية ما تزال آثارها قائمة على واجهات المباني ، وفي كلمات سائق سيارة الأجرة ، وأن طلقات الرصاص ، وحوادث التفجير ما تزال تقطع السكون في الليل ، وتحتل عناوين الصحف في الصباح !

ومن الفندق الذي ينزل فيه يتصل بزميل قديم في

الدراسة والكفاح اسمه « وديع مسيحة » ، وكانا قد عملا بعض الوقت في جريدة واحدة بالقاهرة ، ثم انتقل « وديع » مديرا لمكتب الجريدة في بيروت منذ سنوات ، ثم استقال حين أصروا في القاهرة على عودته ، ويعمل الآن في مكتب خدمات صحفية خاص ، ويصبح « وديع مسيحة » منذ لقائه بالراوي نوعا من الدليل الى عالم بيروت ، الظاهر والخفي ! يسأل الراوي صديقه وديع بعد أن نزل ضيفاً عليه في شقته الأنيقة .

ـ لا أفهم سر إصرارك على عدم العودة الى مصر ؟!

ـ كلما تخيلت نفسي هناك شعرت بالاختناق !

ثم يلوذ بالصمت فلا يلح الراوي بسؤال آخر ، وإن كان سيبقى الى آخر جزء في الرواية يحاول أن يفهم مغزى هذا الشعور ولكن في موقف آخر يلفت « وديع » نظر الراوي الى خبر في الجريدة عن نسف دار نشر يملكها « عدنان الصباغ » الذي قدم الراوي الى بيروت بناء على اتفاق مسبق معه لنشر كتابه ، عندئذ يتساءل الراوي في جزع :

ـ من تظنه فعلها ؟

وحين لا يتلقى جوابا محددا من صديقه ، يعيد سؤاله بشكل آخر :

ـ هل « عدنان » مرتبط بجهة معينة من الجهات المتصارعة في بيروت ؟

ـ الإجابة صعبة ، فقد مضى العهد الذي كان الواحد يرتبط فيه بجهة واحدة ، فالكل ينوعون ارتباطاتهم تحسبا للمفاجآت .

ـ كنت أفضل التعامل مع « عدنان » فسمعته طيبة .

ـ لا تكن ساذجا ، كلهم متشابهون .

ويتأكد الراوي من صدق ما قاله « وديع » بعد عدة زيارات لدور نشر مختلفة ، ترفع واجهات ثقافية وتقدمية ، لكن روح التاجر هي ما يتخفى تحتها ، وحين يلوح أن مشروع نشر كتاب الراوي يواجه بعض الصعوبات ، ويحتاج بعض الوقت فإن وديع يقدم الراوي لانطوانيت فاخوري التي أخرجت فيلما تسجيليا عن الحرب الأهلية اللبنانية ، وهي في

حاجة لمن يكتب لها تعليقا على الفيلم . ويزيل وديع شكوك الراوي وهو يجيب عن تساؤلاته قائلا :

الفيلم لا علاقة له بأي حكومة فالمنتج هو مجموعة تعاونية من السينمائيين اللبنانيين الشبان ، ولا علاقة لهم بأي حزب أو حركة ، لكن يمكن أن تقول انهم يساريون بشكل عام .

ـ هل سيدفعون أم يعتبرون الأمر مساهمة مني في القضية ؟

ـ سيدفعون طبعا ، كل شيء الآن بثمنه !

سيطرة كاملة :

سوف يلاحظ القارىء ابتداء من هذا الجزء من الرواية كيف أن الكاتب المفتون سلفا بفكرة « جبل الثلج » قد لامس في إحكام سيطرته على ذلك الأسلوب الخيط الرفيع الذي تختفي عنده الحدود بين الوظيفية والتلقائية في استخدام اللغة ، وفي الحوار، فما يقوله وديع مسيحة عن عدنان الصباغ يخبرنا عن وديع بقدر ما يخبرنا عن عدنان ، وعن الوضع في بيروت في الوقت نفسه ، ولا تكشف المواقف الجزئية المختلفة سوى عن جزء يسير من كل شخصية ، ومن الموقف العام ، ليبقى القارىء مشدودا لكل كلمة ، وكل نأمة ، مشاركا في خلق الشخصية وفهم الموقف ، حتى عندما يعم بيروت هدوء نسبي في أحد الأيام فإن الراوي ووديع يخرجان معا في نزهة قصيرة لرؤية معرض للصور الفتوغرافية من لبنان القديم ، وفي هذا المعرض نشاهد الحياة القديمة في لبنان ، في الجبل والسهل ، وفي القصور والأحياء الفقيرة ، ونرى تعدد الطبقات والطوائف والمذاهب في الأزياء

والأثاث والمباني ، كأن الكاتب يريد أن تبدأ الرحلة من أولها . وهكذا تتطور الأحداث في نسق بارع بين التلقائية والوظيفية ، لكن الرحلة في هذا الجزء من الرواية رحلة في الزمن الحاضر ، أما في الأجزاء التالية فاننا نقترب من التقنية التي تقوم على تقاطع الماضي مع الحاضر في حلقات متواصلة ، لكن الزمن الماضي في هذه الرواية لا يتدفق من خلال الذكريات كما في « نجمة أغسطس » ، بل من خلال شريط سينمائي يدور على « المافيولا » التي تقف خلفها مخرجة الفيلم انطوانيت فاخوري .

ماذا عن الفيلم ؟

في البداية شاهد الراوي الفيلم مرة واحدة ، واكتشف بعدها أنه لا يدرك مغزى كل إشارة فيه ، إلا شخص عاش الحرب الأهلية في لبنان ، فأمدته المخرجة بمجموعة من الكتب والوثائق عن تاريخ المنطقة منذ الحروب الصليبية حتى قبيل الحرب الأهلية ، وكان من الطبيعي أن يقدم المؤلف للقاريء الخلاصة نفسها التي خرج بها الراوي من هذه الوثائق ، ليمكنه من متابعة الرواية والفيلم معا . وهكذا جاءت هذه الخلاصة بعد الفصل السابع تمهيداً طبيعيا لتقديم الفيلم للقاريء ، وكان من الطبيعي ليتمكن الراوي من كتابة التعليق بشكل جيد على الفيلم أن يسجل وصفا تفصيليا لمشاهد الفيلم على الورق وقد تم هذا التفريغ على مراحل ، وكانت كل مرحلة تدخل في نسيج الرواية التي تقوم أصلا على ما يشبه رصد يوميات الراوي في بيروت ، وبهذه الطريقة تمكن المؤلف من عرض أجزاء من زمن الحرب الأهلية خلال الزمن الذي يعيشه الراوي (سنة ١٩٨٠م) .

الفيلم : مجرد حيلة فنية

سواء أكان للفيلم وجود فعلي أم هو مجرد حيلة فنية لجأ إليها المؤلف لتقديم الحرب الأهلية ، فهذا لا يؤثر على وثائقية المشاهد التي يضمها الفيلم ، إذ يضم عناوين صحف صدرت خلال الحرب الأهلية ، وتصريحات مسئولين ، وصور محاربين وقتلى ، واجتماعات ، ولقاءات ، وسيارات ملغومة ، وطائرات مغيرة ، وبيوت مهدمة ، وأقوال منسوبة لقائليها ، وشهادات شهود عيان . لكن يبقى سؤال جوهري هو : لماذا لجأ الكاتب الى صيغة الفيلم التسجيلي لتقديم صورة شاملة للحرب الأهلية ؟ولماذا لم يلجأ لذكريات فرد أو أفراد ممن عاشوا خبرة الحرب الأهلية ؟

قبل أن نقدم الإجابة عن هذا السؤال نود أن نؤكد أن حكاية الفيلم كلها مجرد حيلة فنية ، لأنه من الضروري أن تنسجم الرؤية الكامنة وراء الفيلم مع رؤية المؤلف ككل ، وهذا يتحقق بشكل أفضل مع هذا الافتراض .

أسباب اختيار تقنية الفيلم التسجيلي :

صيغة الفيلم التسجيلي تسمح بالتنوع ، ومرونة الاختيار ، وتغطية مختلف المجالات والمستويات في أحداث الحرب الأهلية ، فأنت تقرأ وصفاً للقطة عن حادث يقع في عين الرمانة أو الكارنتينا أو تل الزعتر أو الميناء ، ثم تتابع أصداءه في سائر لبنان أو العواصم ذات الصلة ، وترى الشهود وتسمع شهاداتهم من مختلف الاتجاهات ، وأحيانا يقدم الفيلم أحداثا موازية زمنيا في بلد آخر ، يبدو لأول وهلة أنه لا علاقة له بما يجري في بيروت ، لكن بقليل من التأمل تسفر العلاقة عن وجهها . وأما ذكريات أي فرد عن خبرته في الحرب الأهلية فستبقى محكومة بتجربته ، وبمجال حركته ، وهي بالضرورة محدودة !

وهم الموضوعية :

صيغة الفيلم التسجيلي تعطي حسا أعمق بالموضوعية ، فاللقطة ـ أيا كان محتواها ـ محايدة وواقعية ، والقاريء هو الذي يقوم بدور إيجابي في استنطاق معنى الصورة أو الخبر أو التصريح ، والربط بين حدث يقع في لبنان وتصريح في سوريا أو القاهرة أو «الكنيست» أو الأمم المتحدة أو واشنطن أو موسكو ، ويصبح القاريء مشاركا في تأليف الرواية ، ومع ذلك فإننا نقول : « وهم الموضوعية » ، لأن اختيار الوثائق والأخبار وترتيبها

في نسق معين هو في النهاية اختيار يترجم الرؤية الخاصة للمؤلف ، ويبقى أن ضمان تحقق أكبر قدر من الموضوعية في العمل الأدبي رهن بغنى وثراء ذات الكاتب ، ودرجة وعيه بحقائق مجتمعه وعصره ،

ولأن العالم الخارجي والوجود الاجتماعي يفصحان عن جزء من أسرارهما من خلال الرؤية الخاصة لأي فنان حقيقي بالضرورة ، فهل يمكن أن نجيب الآن عن السؤال الذي طرحناه في بداية المقال حول (إلى أي جانب ترتبط تقنية أية رواية) ؟ من الواضح أنها هنا ارتبطت أكثر بالوجود الموضوعي الخارجي للحرب الأهلية اللبنانية

منهج الفيلم :

قدم الفيلم من خلال الوثائق أكثر من وجهة نظر في الموقف الواحد ، مثل المواقف المتعددة من دخول سوريا الى لبنان ، كما أوضح وجهة النظر السورية نفسها .

الى جوار تقديم الخطوط الرئيسية لسياسة الجبهتين الأساسيتين المتصارعتين في لبنان ، وهما الجبهة الوطنية والموارنة ، قدم الفيلم أوجه الصراع والاختلاف داخل كل جبهة ، بما في ذلك الاختلافات داخل منظمة التحرير الفلسطينية .

واهتم الفيلم من خلال الوثائق بإلقاء أضواء على أسباب الصراع الدينية والوطنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمذهبية في لبنان .

أبرز المواقف المزدوجة لبعض الأقطار العربية .

اهتم بتوضيح المواقف المستقلة داخل بعض الجبهات ، وكذلك المواقف المتطرفة على الجانبين .

أبرز دور « اسرائيل » وبعض القوى العظمى في تأجيج الصراع ، ونشاطها مع عناصر من الموارنة .

لقطات لها أكثر من دلالة :

لقطة في أحد الشوارع : من جانبي الشارع ترتفع بعض الأعلام البيضاء ، ويخرج المتقاتلون من وراء المتاريس من الجانبين ، ليشتركوا معا في نهب بعض المحال التجارية في منتصف الشارع ، ويتم تكويم المنهوبات ، ثم يتم اقتسامها بنظام وعدالة ، ثم يعود كل فريق لموقعه ، لاستئناف القتال بعد وقت ، (هنا يتضح أن الفقراء من الجانبين هم الذين يصطلون بنار الحرب) .

لقطة لبعض القناصة في أعلى البنايات ، يصوبون بنادقهم نحو أحد المارة ، ويطلقون أولا رصاصة خلفه ، فإذا جرى أطلقوها أمامه ، فإذا وقع على الأرض أطلقوها على يده ، فإذا واصل الزحف قتلوه ، (هنا يصبح القتل لعبة) .

لقطة لجماعة مسلحة تهاجم مستشفى للأمراض العقلية ، لتنتزع منه أحد النزلاء بالقوة ، وبعض المرضى ينتهزون الفرصة ليغادروا المستشفى ، بما يوحي بإطلاق الجنون . وفي لقطة تالية يشاهد أحد المجانين الفارين يعود إلى المستشفى هاربا من العالم الخارجي .

فصل كامل به شهادات بعض الناجين من مذبحة تل الزعتر .

رؤية الفيلم :

يوحي الفيلم بأنه من التبسيط أن نتصور أن المشكلة هي مجرد صراع بين يمين ويسار ، أو مسلمين ومسيحيين ، أو عرب وغير عرب ، أو قوى وطنية وقوى خارجية ، والمشكلة هي كل ذلك ، وما نجم عنه من أوضاع ومصالح تضاربت وتعقدت عبر التدخلات المستمرة من القوى المحيطة ، مهما ضاقت الدوائر أو اتسعت ، ولذا أجهضت روح المواطنة التي لم تجد فرصة للميلاد الحقيقي ، وأصبحت نجاة الفرد في الانتماء للطائفة أو الحزب ، ونجاة الحزب في الارتباط بقوة عظمى في الخارج . والفيلم بهذه الرؤية يضع القارىء أمام مسئولية المشكلة ، ويوحي بأن حل مشكلة الجزء اللبناني مرتبط باتجاه حل مشكلة الكل العربي .

اختلال في التوازن :

إذا كنا هنا تحدثنا عن الفيلم مرة واحدة ، فإن قارىء الرواية كان يقرأ وصفا لجزء من الفيلم ، ثم يتابع حياة الراوي في بيروت عام ١٩٨٠ ، ثم يعود ليقرأ وصفا لجزء آخر ، وهكذا كأن القارىء يعيش

أحداث الحرب الأهلية ، ثم يعايش نتائجها بعد أعوام في وقت واحد . وربما شعر القاريء بشيء من عدم التوازن بين مادة الفيلم التي تقدم نوعا من المعرفة الكمية ،ـ ربما فوق ما تحتمله رواية ، وبين مادة الحياة اليومية للراوي التي تقدم طرازا آخر من المعرفة الكيفية التي يعني الأدب بتقديمها ، لكننا نلتمس شيئا من العذر للكاتب ، حيث ان المعرفة الكمية كانت شبه ضرورية لامكانية تمثل المعرفة الكيفية ، كما تتجلى في شخصيات الرواية عام ١٩٨٠ . إن علاقات الراوي (الذي كان ما يزال يبحث عن ناشر لكتابه وهو يواصل كتابة وصف لشاهد الفيلم) كانت تتطور مع عدة شخصيات في عدة اتجاهات ، علاقته بلمياء الصباغ زوجة عدنان الصباغ صاحب دار النشر الذي وعده بنشر كتابه ، وانطوانيت فاخوري مخرجة الفيلم ، ووديع مسيحة ، وهي كلها وجوه مختلفة من بيروت عام ١٩٨٠م .

وجوه من لبنان عام ١٩٨٠

لمياء الصباغ

كانت تقوم بعمل زوجها في دار النشر أثناء غيابه في الخارج ، وهو غياب أصبح شبه دائم ، بعد حادث نسف أجزاء من الدار . امرأة جميلة في منتصف العمر . في لقاءاتها الأولى مع الراوي بشأن نشر كتابه كانت تترك لديه انطباعا بإمكانية نشر كتابه ، رغم كل ظروف الدار ، وقد سألته مرة بعدما دعته للغداء في بيتها الفاخر .

ـ هل أعجبك منزلي ؟

ـ جدا ، رغم أني لم أر غير جانب صغير منه .

ـ سترى الباقي فيما بعد .

ثم تسأله عن الفيلم بطريقة تشي بأن سؤالها عن علاقته بانطوانيت ، وحين لا تتلقى ردا محدداً تقول له :

ـ أرجو ألا يكون عن بطولات الفلسطينيين .

ـ وماذا لو كان ؟

ـ لا شيء سوى أننا مللنا هذا النوع من الأفلام ، ثم إنهم سبب البلاء الذي نعيش فيه !

يمثل هذا الحوار يرسم الكاتب شخصية لمياء الصباغ ، عبر مختلف اللقاءات مع الراوي ، فنعرف أنها كانت في طفولتها تجد الأمان في حضن أم قوية الشخصية ، وفي ظل ظروف مجتمعها الآن الذي يمنح الموت المجاني ، وفي غيبة زوجها شبه الدائمة فإنها تسعى بشكل غريزي الى ما يطمئنها فتصبح المتعة مهربا من الخوف ، أو نوعا من المخدر ، أو دفاعا عن الحياة ، وقد وجدت المتعة الآمنة المضمونة في صداقة امرأة تكبرها قليلا ، وتمتلك يدا قوية مثل يد رجل ، أو يد أمها . وأحيانا كانت وهي المفتونة بجمالها ، العاشقة لذاتها تثور على هذه الصداقة ، وفي هذه المرة تجد هذه الثورة متنفسا لها في علاقتها بالراوي الذي ظل طول الوقت يشعر بأن في شخصيتها شيئا مثل السراب .

ولعل هذا كان من ضمن الأسباب التي جعلته يفشل في كل محاولات التواصل معها . وقرب نهاية الرحلة ومن خلال العلاقة يكتشف الراوي أن دار النشر التي يملكها عدنان تعمل بالتعاون مع دار نشر سويسرية ، تطبع باللغة العربية ، لتوزع منشوراتها داخل فلسطين المحتلة بين عرب يعيشون في شوق الى أية كلمة مطبوعة باللغة العربية ، وطبعا يتم التوزيع بتنسيق مع سلطات الاحتلال ، وبرضاها عما هو منشور !

ويقترن اكتشاف هذه الحقيقة بلحظة كانت تؤذن بنجاح تواصله معها ، وتصبح رغبته في هذا التواصل مساوية لرغبته في قتلها ، وتتعانق الرغبتان في ذاته تعانقا مدمرا ، الى الحد الذي لا يدري هل ما يشعر من نشوة خارقة نابع من رغبته في قتلها ، أم من رغبته في الحصول عليها ، ولا يصبح أمامها من خيار سوى أن تفشل هذا التواصل لكي تنقذ حياتها من يده المجنونة التي لم تكن تدري هل تحيط بعنقها هياما أم غلا .

إن لمياء الصباغ هي أحد وجوه لبنان ما بعد الحرب الأهلية !

انطوانيت فاخوري :

مارونية ، تعمل في حقل السينما بالتعاون مع منظمة التحرير في هذا المجال ، تعكس شخصيتها

تعقيدات الوضع في بيروت ، فهي تملك حرية في أن تعمل نهارا مع المنظمة ، ثم تعود ليلا لتبيت في منزلها في بيروت الشرقية دون أن يؤثر على موقفها من عائلتها المارونية . وتملك حرية بأن تقضي ليلة في شقة وديع مسيحة ، لأنها سكرت في شقة أخرى ولم تستطع أن تعود بالسيارة الى بيروت الشرقية . يلتقي الراوي عندها بنماذج بشرية فلسطينية ، منها أبو نادر الذي كان يناضل داخل فلسطين المحتلة ، وقام بعمل بطولي خارق ، تحدثت عنه الصحافة طويلا ، ثم سكتت ، وظل هو بقية حياته يتحدث عن هذا العمل مرة بعد مرة ، ولا شيء آخر ، ومنها شخصية فتى وسيم فنان اسمه وليد نجا من مذبحة تل الزعتر ، ومع أن علاجه من أثر الصدمة التي أثرت على قدرته على النطق قد تم بنجاح ، وأصبح قادرا على الكلام إلا أنه لسبب لا يعرفه أحد آثر أن يصمت ، وإن بقي وجهه قادراً على التعبير ، وريشته قادرة على الرسم ، غير أنه لا يرسم غير صورة واحدة ، وهي خريطة لفلسطين وه اسرائيل » ، تمثل فوقها نقطة صغيرة ، ثم خريطة أخرى للنقطة وهي تكبر ، وتكبر .

وحين قدم هذه الخرائط للراوي مع ابتسامة مليئة بالرغبة في التواصل . لم يعرف الراوي ماذا يقول له . فهل أتت به انطوانيت الى هنا ليحدثه هذا الفتى الصموت عن شيء يعرفه الجميع ، لكنه تنبه فجأة لأمرين ، الأمر الأول أن ما يجري في بيروت والوطن العربي يؤكد أنه لا أحد يريد أن يرى هذه الحقيقة التي يعرفها الجميع ، أما الأمر الثاني فقد بدا في شكل سؤال رأته انطوانيت في عين الراوي ، فأجابت عليه على الفور : إنه لم يلمسني ، لكنني لن أتخلى عنه ، فأنا أحبه . أكان حبها لهذا الفتى الصامت عما رآه في تل الزعتر جزءا من حبها للحقيقة التي تبحث عنها في فيلم عن الحرب الأهلية اللبنانية !؟؟

إن انطوانيت فاخوري هي أحد وجوه لبنان ما بعد الحرب الأهلية .

وديع مسيحة :

ربما لم تبدأ مشكلته في بيروت ، ولعلها بدأت في القاهرة عندما كان طفلا مع الراوي يقول له : « عظمة زرقاء » ، فينتابه غم عظيم . ربما وجد في بيروت أن مسيحيته التي كانت مصدر قلق ظاهر أو خفي في القاهرة تمنحه شعورا أعمق بالأمان في بيروت ، لكن في عام ١٩٧٥ حين بدأت الحرب الأهلية أدرك فجأة أنه لا أمان لشيء ، وانفجر خوفه القديم . ويبالغ الخائف في رؤية مخاوف الآخرين ، ويسوغ لهم ما يريد أن يسوغه لنفسه ، فلقد كانت تعليقاته المرتابة في كل شيء ، وكل أحد هي أول ما أثار شكوك الراوي فيه ، وحين اختفت مفكرة الراوي من مكانها في شقة وديع ثم ظهرت في مكان آخر ، بعد أن نفى وديع علمه بها بدأ شك الراوي يزداد في أن وديع هو الذي فعلها ، لكن لماذا ؟ لم يكن يعرف !! ولم يتأكد الراوي من شكوكه في وديع إلا بعد أن تعرض لحادث اختطاف في الشارع ، قامت به جماعة تتبع إحدى جهات الموارنة ، ومع أنه تم إنقاذه بجهود وديع وانطوانيت فإن الطريقة التي أنقذه بها المكتب الثاني في بيروت كانت حيلة المؤلف ليصيب ثلاثة أهداف بضربة واحدة ، أن يقدم فرصة عرض ومناقشة لوجهة نظر الموارنة في الرواية من خلال استجوابهم للراوي ، وأن يكشف عن الدور بالغ التعقيد الذي يلعبه المكتب الثاني في بيروت ، وأن يكشف علاقة وديع مسيحة بالمكتب الثاني ، وأن يسقط آخر ورقة توت كان وديع يخفي وراءها خوفه القديم والجديد !!

لكن الراوي يقول له ولوديع : وهما يشاهدان معا في آخر ليلة في بيروت مشهدا على شاشة التلفزيون لسياسي عربي في موقف يهون في ظله كل ما يقوم به أمثال وديع : صدقني أنا لا ألومك أبدا .

ـ وديع مسيحة إنه هنا أحد وجوه لبنان ما بعد الحرب الأهلية ولا شك أن من يقرأ هذه الرواية أو هذا المقال عنها في عام ١٩٨٨ سوف يتساءل في دهشة :

ـ وهل انتهت الحرب الأهلية اللبنانية ؟ وهل مثل هذه الشخصيات هي كل نتاجها ؟؟ ثم قد يشعر بالحاجة إلى إعادة قراءة الرواية أو مواصلة كتابتها . ولعل هذا جزء من إنجاز هذه الرواية □

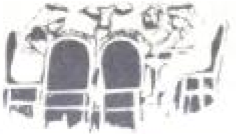

منتدى العربي

قضيـــة

إشكالية التراث والمعاصرة والتقدم

بقلم : الدكتور هشام بوقمرة

إن وصف المجتمع العربي بالمتخلف أو المتأخر ـ وهو وصف لا نناقش كثيرا في صحته بالرغم من نسبيته ـ يشير إلى طبيعة المهمة الأساسية التي تحدد مرحلتنا . وهي (التقدم) . صحيح بشكل عام أن فلسفة التقدم هي التي كانت تحرك الفكر الأوروبي خلال القرن التاسع عشر من أجل استنهاض همة « البرجوازية » الوطنية لتحقيق الرأسمالية والنمو المادي . وأن اعتبارها من مهام المرحلة العربية الحالية يدل ـ في أقل معانيه ـ على أن قرنا كاملا يفصلنا عن المستوى الأوروبي المعاصر . لكنه قابل للنقاش والدحض أيضا . بيد أنه يصبح أمرا واقعا حين نضعه تحت منظار الحوافز الفعلية للنظام العربي فيما يحدده لنفسه من أهداف بشكل عام . فالتقدم يطرح في الخطاب الرسمي . وكذلك في التصور الشعبي يطرح على أنه تحقيق لمجموعة من المنافع والخدمات المادية الداخلة ضمن ما يدعى « باللحاق بركب التطور » وهو يشير ـ أساسا . وحصرا ـ إلى النمط الأوروبي الغربي السائد حتى في البلدان التي اختارت أحلافها في المنظومة الاشتراكية . والتي ـ بالرغم من إعلانها المبدئي للتقدمية واليسارية ـ ترفض التطبيق الاشتراكي . ثم المنهاج المجتمعي السائد في البلدان الاشتراكية .

الاستنجاد بالتراث

لكن الخطاب الرسمي نفسه يصر باستمرار على ربط التقدم والتنمية بمجموعة من المعطيات الأخلاقية . وفي مقدمتها الاستنجاد بالتراث . على أساس أنه مفتاح الأصالة . أو أنه الضامن للاستمرار في نطاق تصور أفقي للزمن . غير قابل للانفصال . رأسه الماضي . ووسطه الحاضر . وتواصله المستقبل .

إن التراث بهذا المعنى شيء غامض . ومطاط . وليس له حدود . فهو في نفس الوقت يمكن أن يكون

موغلاً في القدم ، كما يمكن أن يكون آنياً . إذ أن اللحظة الحالية هي ماض بالنسبة للتي تليها ، ويمكن أن تصبح افتتاحية جريدة صباحية تراثاً في المساء ، وكل شيء يصبح تراثاً . وحتى الآن لم يتحدد مفهوم التراث بشكل عقلاني . وغاية ما توصلوا إليه هو أنه دخل ضمن المنظومة الواسعة لهذه المفاهيم الفضفاضة التي نتعامل بها يومياً دون تحديدها ، والتي قد تكون سبباً أساسياً في تخلفنا الفكري ، وفي تشويش أنظمتنا العقلية ، وعدم قدرتنا على السيطرة على الزمن ، وجعل اللغة وجوداً خارجاً عن العقل ، أي فاقداً للدلالة .

ولذلك فإن التراث باعتباره شاهداً غائباً متعدد الأصوات يمكن أن يُسند إليه أي « تصريح » ، وأن تستنطق به أي « عقيدة » . ومنذ حوالي نصف القرن والساحة الفكرية العربية تتقاذفه في كل اتجاه . وهو كالكرة المضغوطة ، يستجيب بطواعية خارقة لكل قاذف ، فأقصى أطراف السلفية تجد في « التراث » لها سنداً صريحاً ، وأقصى أطراف اليسارية إن لم يجد فيه النص الصريح وجد فيه من التأويل ما يقنع ويشفي . وبين هذين الطرفين لم يعدم اتجاه ـ مهما كان منزعه ـ أن يجد في التراث مرجعاً ، لأن كل الاتجاهات تراهن على الجمهور ، ولأن جمهورنا متخلف أساساً في ماضيه المريضة أحياناً ، وكلها جميعاً تتحول في مرحلة أخرى إلى نبّاش قبور ، أو فكّاك طلاسم . والمثقفون أنفسهم ـ وهم الذين طرحوا هذا الموضوع ـ مصابون بنفس الصداع ، وآخر ما وجدوه أن التراث يتضمن قيماً إيجابية وأخرى سلبية ، وأن فيه نوراً وظلاماً ، وأن فيه جوانب مضيئة مشرقة ، وأخرى غائمة مفزعة ، وأن علينا القيام بعملية انتقاء .

حسناً ، ولكن من أي موقع ؟ إن اليسار يقوم بانتقائه ، واليمين كذلك ، والسلفيون هم أشد الناس انتقاء ونصباً لمحاكم التفتيش في الماضي العربي ، وهكذا نعود إلى نفس الدوامة . إنني لا أسجل هنا موقفاً ولا اختياراً ، ولكن حيرة .

التحرك بأقدام مثقلة :

ولنبدأ رحلة الحيرة من الواقع بالسؤال التالي : أيهما أوكد بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا : أن نبني مدرسة أم أن نرمم حائطاً ؟ وحين أرى خريجي جامعاتنا يتسكعون بلا عمل على أرصفة القهر والغضب ، أتساءل : أيهما أصلح : أن نوفر لهم شغلاً ، أم أن نخصص ميزانية عريضة للتثبت من نسبة قطعة خزفية ؟ وما الذي يهمني في أن يكون العرب هم الذين اكتشفوا ـ وفي القيروان بالذات ـ قلم الحبر الجاف وأنا أكتب اليوم بقلم ياباني ؟ وأن يكون عمر بن عبد العزيز مثال العدل والاستقامة والإنصاف ، وأنا أعيش العسف والظلم والتسلط ؟

إن الشيء الوحيد الذي يقدمه التراث في كل هذه الحالات سلبي بحت ، فنحن نتغنى بالماضي ، حتى لا نبصر الحاضر ، وحتى ـ وهو الأخطر ـ لا نجدد ملامح المستقبل ، ونحن نتحرك بأرجل مثقلة بقيد ضخم وخانق اسمه الماضي ، يشدنا إلى الوراء ، حتى لنكاد لا نرى المستقبل ، ونحن نعيش وضعاً غريباً وشاذاً ، يؤطر في عقولنا الشذوذ الفكري ، فأوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والدستورية تحكمها قوانين وضعية « مستوردة » ، بينما يتأطر تفكيرنا المدرسي والجامعي وتنحت ذواتنا ، داخل أطر ليس لها أي وجود فعلي .

حاولت مرة أن أعرف « الحجم المادي » لحضور التراث في واقعنا ، من خلال مثال محدد ، هو النشر ، فأخذت منشورات إحدى الدور الشهيرة في مصر ، فوجدت أن ما يدخل تحت التراث منها لا يصل ـ عددياً ـ إلى الثلث بحساب العناوين ، لكنه يتجاوز الثمانين في المائة بحساب الكلفة ، لسبب بسيط ، وهو أن نشر كتاب فقهي في خمسة أجزاء ضخمة يستوجب من الإنفاق أكثر من نشر مائة عنوان من الشعر والقصة والمسرحية وكافة أنواع الإبداع الأخرى ، وبهذا المعنى يصبح التراث أيضاً عائقاً للخلق ، إن لم يكن له مانعاً !

وتأملوا : منذ متى أصبح التراث « قضية » و « موقفاً » ؟ ألم يتزامن مع المد اليميني ، ويشتد منذ السبعينيات مع اشتداد الضغط الأصولي ؟ أنا كما قلت لا أقرر موقفاً ، وإنما أعبر عن حيرة ، ولا أظن أن هناك أحداً يستطيع أن يفلت منها ، ولكن كثيرين تغنيهم المسلسلات التلفازية عن الاحساس بصداعها . مرة أخرى - وإن كنت سأكرر كلامي - أقول : على ماذا تدل ظاهرة المسلسلات التلفازية التي تصب كلها بشكل أو بآخر في التراث ؟ أليست - فقط - هرباً من الواقع ، لأنه مخز وشائن ؟ لتطعم الناس إذن ماضياً مجيداً وشخصيات بطولية ، ومواقف متفردة في الماضي ! حتى لو أدى ذلك إلى نهاية الابتذال والابتزاز التجاري ، مثلما يتقمص ممثلون لبنانيون مسيحيون - كجان وجورج - شخصيات إسلامية ، يضرب بها المثل في الورع والتقوى .

□□□

منتدى العربي

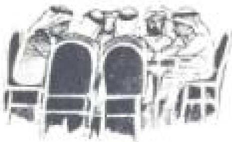

تعقيب

على مقال :

هل كان الرجل المريض مريضاً ؟

كتب السيد فتحي رضوان في العدد ٣٤٦ من مجلة العربي (سبتمبر ١٩٨٧) ، مقالاً بعنوان « هل كان الرجل المريض مريضاً ؟ » .

لي عليه عدة ملاحظات تجعلني أحاول أن أوضح بعض الأمور لتصحيح ما لمسته من الأخطاء التاريخية والجغرافية الواردة في المقال .

١ - ذكر الكاتب في المقال أن القوات التركية المتوغلة في شرق أوروباقامت بغزوة ساحقة لفينا ، عاصمة النمسا ، وكانت آنذاك امبراطورية مترامية الأطراف ، ذات شهرة ، وكان اسمها امبراطورية النمسا والمجر يملأ الأسماع .

والحقيقة التاريخية المجردة ، أن امبراطورية النمسا والمجر تشكلت عام ١٨٧٦ ، بعد انقضاء عهد آل هابسبورغ في حكم الامبراطورية النمساوية ، فالقوات العثمانية وصلت إلى العاصمة فينا عام ١٥٢٩ ، أي قبل أكثر من ٣٣٠ سنة من تاريخ إعلان امبراطورية النمسا والمجر ، والصحيح أنها لم تكن في ذلك الوقت إلا « إمبراطورية النمسا » .

٢ - ذكر في المقال أن لجنة ألفت من ثمانية أعضاء أشرف عليها الانجليز وقدموها على أنها تمثل مصر (كما يقول صاحب المقال) . وكانت مهمة اللجنة تهيئة أسباب توطين اليهود في سيناء ، وإنشاء مجالس بلدية يهودية في أنحاء سيناء ، ، وصدر قرار هذه اللجنة سنة ١٩٠٣ ، وكان من بين شروط إقامة هذه الدولة أن تحول مياه النيل إلى سيناء » .

والآن نستطيع أن نتساءل : كيف يمكن تحويل مياه

النيل إلى سيناء بوجود عائق جغرافي ضخم مثل قناة السويس ؟ هل هذه خطة خيالية اتخذت اللجنة المذكورة على عاتقها مهمة القيام بها ؟ إلا أن قلقنا يتبدد عندما نقرأ أن اللورد كرومر رفض الاقتراح ، « لأن المياه المطلوبة من النيل تؤثر على المساحة المزروعة في مصر » .

٣ ـ وفي المقال أن وكالات الأنباء الدولية ذكرت الأتراك « بما اقترفته أيديهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من مذابح في البلاد التي كانت خاضعة آنذاك لحكمهم ، كمنطقة الأرمن والبلغار واليونان وجريب ورومانيا » .

أولاً : لم نسمع من قبل عن منطقة تدعى « جريب » ، وعن شعب يحمل ذاك الاسم (الأصل هو كريت) . أما التعليق الثاني وهو أن منطقة « اليونان » التي ذكرها كانت مستقلة عن الدولة العثمانية منذ عام ١٨٢٩ . فهل دبرت فيها المذابح غيابياً ؟ ثم إن مذابح الأرمن جرت معظمها في بداية القرن العشرين .

٤ ـ الملاحظة الأخيرة على ما ورد في السطور الأخيرة من قوله : عجزت الصهيونية بكل ملايينها وبنفوذها السياسي ودسائسها ، أن توطن يهودياً واحداً ، أو تنشيء مستعمرة بموافقة الدولة العثمانية . فالرجل المريض لم يكن مريضاً ، ولو تنبه العرب إلى أهمية شفاء الرجل المريض لتغيرت الأحوال .

لابد هنا من التحدث قليلاً عن الاستيطان اليهودي في فلسطين . صحيح أن الحكومة العثمانية تنبهت إلى سيل الهجرة والاستيطان ، وفرضت حظراً مؤقتاً على الهجرة واستملاك الأراضي ، لكنها عادت فرفعت الحظر ، ثم عادت ففرضته مرة أخرى تبعاً للقوى الضاغطة عليها . واختصاراً نقول : إن الحكومة العثمانية ، لم تكن حازمة حزماً أكيداً في قضية الاستيطان والهجرة اليهودية .

إن الهجرة اليهودية الجماعية الأولى إلى فلسطين نظمت في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ، وارتطمت بصعوبات كبيرة ، لكنها نجحت في تأسيس ٢٢ قرية يهودية في فلسطين ، وتوطين حوالي ٢٥ ألف عامل ومهاجر .

أما الهجرة الثانية الكبرى فقد حدثت خلال فترة ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ (في عهد الدولة العثمانية أيضاً) ، وشملت هجرة ٤٠ ألف عامل ومهاجر ، وشكلت عصابات مسلحة تحمي المستوطنات .

من ناحية ثانية يورد المقال قولاً منسوباً إلى السلطان عبد الحميد عندما « ردع » الصهاينة عن مطالبهم في السيطرة على فلسطين : « لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحفظ اليهود ملايينهم » . فهل يعتقد صاحب المقال أن الشعب المقصود هنا ، صاحب أرض فلسطين ، هو الشعب الفلسطيني ؟

لعل تسمية « الرجل المريض » والصراع الاستعماري الذي خاضته الدول الغربية ضد الدولة العثمانية أثارت عواطف كاتب المقال ، ونسي أن الدولة العثمانية ـ وان كانت في أول عهدها دولة نشرت الإسلام وفتحت بلداناً كثيرة على غرار ما قد يخطر في البال من الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي ـ قد أصبحت دولة تضطلع بدورها في ساحة الصراع الاستعماري والامبريالي ، في مجال السيطرة على الشعوب المغلوبة على أمرها .

هل كانت الدولة العثمانية « سليمة » عندما قمعت حركات التحرر في المجر وبلغاريا واليونان وأرمينيا وفي الأقطار العربية ؟ وهل من دلائل هذه السياسة « السليمة» قمع الحركة القومية العربية ، وتعليق رواد النهضة العربية على المشانق في ٦ أيار في بيروت ودمشق عام ١٩١٦ ؟ وهل يمكن الاستدلال على « سلامة » الامبراطورية العثمانية بمجرد مراجعة التدابير الحازمة التي اتخذتها لمكافحة العنصرية الصهيونية ، ومكافحة الاستيطان الصهيوني ؟

ثم ما مغزى العبارة الأخيرة المبهمة في المقال : « ولو تنبه العرب إلى أهمية شفاء الرجل المريض ، لتغيرت الأحوال » . ماذا يعني هذا الكلام ؟ لقد تغيرت الأحوال فعلاً ، وها هي الأقطار العربية مستقلة . فهل المقصود من العبارة السابقة أن

فلسطين لم تكن لتصبح هدفاً صهيونياً ؟ وما الدليل على ذلك ؟

يبدو أن صاحب المقال يرى بأن جسد الدولة العثمانية ، كان مليئاً بالحيوية ، وفياضاً بالقوة ، في عهد سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) ، وفي عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، لأنهما استطاعا ضم أصقاع كبيرة إلى الدولة العثمانية . فسليم الأول احتل سوريا وأرمينيا وكردستان وفلسطين والحجاز والعراق ومصر والجزائر ، أما سليمان القانوني فضم المجر إلى الامبراطورية العثمانية . ومن المؤكد أن كاتب المقال لا يدرك أن السبب الأكبر في ضعف الدولة العثمانية لا يكمن في دسائس الدول الأجنبية بقدر ما يكمن في البنية السياسية والاجتماعية والإدارية للبلاد ، وإلا لما تقوضت الامبراطوريات الأخرى كالامبراطورية الألمانية والروسية وامبراطورية النمسا والمجر .

لقد تشكلت في الأمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر طبقة غنية من الاقطاعيين ، نتيجة للتوسع في احتلال الدول . ومن جهة ثانية ضعفت القوى المنتجة في الامبراطورية ، كما أن حركات التحرر القومية استمرت طوال الحكم العثماني . ولا ننسى بهذا الخصوص حرب التحرير اليونانية ، وجهود محمد علي . فقد سعى محمد علي إلى إقامة حكومة مستقلة عن الدولة العثمانية ، ونجح في ذلك إلى أبعد حد ممكن . وأسس أول دولة عربية معاصرة ، ولم تكن صلاته بالعثمانيين إلا اسمية ، وهو لم يتوان عن محاربة العثمانيين أنفسهم في سبيل هدفه . فهل كانت أهداف وجهود محمد علي – التي كانت في نهاية الأمر تؤدي بالضرورة إلى زعزعة كيان الدولة العثمانية – أهدافاً ذات صلة بالمخططات الاستعمارية ؟ □

هراج ساهاكيان

□□

التراث العربي ما هو ؟

● يقول الدكتور عبد الحميد يونس : « التراث العربي هو مجموع ماورثناه ، أو أورثتنا إياه أمتنا من الخبرات والانجازات الأدبية والفنية والعلمية ، ابتداء من أعرق عصورها إيغالا في التاريخ ، حتى أعلى ذروة بلغتها في تقدمها الحضاري .

فالتراث على هذا هو تاريخ الأمة السياسي والاجتماعي ، والنظم الاقتصادية والقانونية التي شرعتها ، ومجموع خبراتها الأدبية ومنجزاتها في الطب والكيمياء والفلك والفيزياء ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وفن التصوير ، والعمارة والتزيين ، يضاف الى هذا الخبرات المكتسبة عن طريق الممارسات اليومية ، والعلائق الاجتماعية التي كثيرا ما تصاغ في حكايات وخرافات وأمثال وحكم ومزح تجري على ألسنة الناس بأساليب تعبيرية متنوعة ، تعكس خبراتهم النفسية والوجدانية ، ونشاطاتهم التخيلية ، ومواقعهم الاجتماعية ، ومواقفهم السياسية » .

غموض الشعر الجديد

بقلم : سالم عباس خدارة

تواجه الحركة الشعرية الجديدة تساؤلات كثيرة حول ظاهرة بارزة ،
هي صعوبة وصول القصيدة إلى متلقيها
لما فيها من غموض سواء أكان المتلقي ناقداً أم قارئاً عادياً .
فما أسباب هذا الغموض ؟
وما علاقته باللغة والثقافة والحداثة ؟
وما ألوانه في الشعر الجديد ؟
هذا ما يتعرض له بالمناقشة هذا المقال !

أعلم بدءاً أني سأخوض بحراً متلاطم الأمواج ، تكاد الرؤية فيه أن تتلاشى ، لكني سأحاول قدر طاقتي عبوره بسفينتي المتواضعة ، وهي سفينة لن تكتشف الكثير ، لكنها ستحاول مواجهة الكثير .

فالحركة الشعرية الجديدة تواجه تساؤلات كثيرة حول ظاهرة بارزة فيها ، هي صعوبة وصول القصيدة إلى متلقيها . نقول ظاهرة ، لأن ما أثير حول هذه القضية كثير ، ولأن الكثيرين ما زالوا يتساءلون شاكين ، سواء أكان الشاكي ناقداً أم قارئاً عادياً ، وربما نستطيع أن نصل الى شيء ما حول هذه القضية إذا استطاعت السطور التالية أن تجيب عن الأسئلة الآتية :

ما أسباب الغموض ؟
وما علاقته باللغة ، والحداثة ، والثقافة ؟
وما ألوانه في الشعر الجديد ؟

مفهوم الغموض :

نود قبل المضي في حوارنا حول هذه التساؤلات أن نقف قليلا لبيان مفهوم الغموض ، وهو مفهوم لا يختلف في جوهره بين النقدين : القديم والحديث ، فكلاهما يرى أن اللغة الفنية يجب أن تتشح بمسحة من الغموض حتى تشتاق النفس إلى المراد ، وكلا الموقفين يميز بين الغموض الإيجابي والغموض السلبي .

يقول عبد القاهر الجرجاني : « ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف » .

ويقول في موضع آخر مشيراً إلى المعاني الغامضة : « فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني

كاللؤلؤ في الصدف ، لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المتحجب ، لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه » .

وهذا الوعي الدقيق لعملية الإبداع الفني هو الأساس الذي ينطلق منه كل متحدث حول مفهوم الغموض ، فالغموض صفة تلازم الإبداع الفني الأصيل ، لكن هذا المستوى من الغموض الذي دعا اليه عبد القاهر يتصل بمفهوم الشعر في تلك العصور ، حيث كان معظمه يميل نحو الوضوح ، ومن ثم فإن مستوى الغموض سيتأثر بتغير مفهوم الشعر ، إذ كان الشعر التقليدي في مفهومه العام رسما لنسق الوجود كما هو موجود ، نسق الوجود في بناه الاجتماعية والثقافية والسياسية وهو نسق كان واضح المعالم ، محدد القسمات ، ولم يكن الشاعر يتجاوز هذا النسق إلا نادراً ، وكان يواجه في تجاوزه النادر هذا بهجوم عنيف ، كما حدث في حالات مثل أبي نواس ، وأبي تمام والمتنبي . أما الشعر الجديد فإنه في حالة توتر دائم ، لأنه في حالة تجاوز دائم ، بحكم العصر الذي يحياه ، وهو عصر كشف الكثير ولم يعد المكشوف يثير شوقاً إلى كشف جديد ، وهكذا يستمر الشوق المتوتر في اكتناه المجهول . فالشاعر الجديد كما يقولون « ينظر إلى الأشياء قبل وقوعها وكأنه يتنبأ بها ، ولا يرى الوجود كما هو ، بل كما ينبغي أن يكون » .

أسباب الغموض :

ومن هنا كان الموقف الجمالي مختلفاً ، وهو موقف يستدعي الغموض إلى ساحته في الشعر الجديد ، لأن الموقف الأول يرى الفن وفق ظروفه التاريخية تقليداً ومحاكاة ، أما الثاني فيراه حدساً ورؤيا . وهذا يعني أن الفن ـ ومنه الشعر ـ قد انتقل من مجال إلى آخر ، من مجال واضح المعالم يسيطر عليه العقل والمنطق في الدرجة الأولى ، إلى مجال غائم يهيمن عليه الإحساس والخيال تحت مظلة الرؤيا المتوترة للكون والحياة .

فغموض الشعر يرجع في المقام الأول إلى هذا السبب ، أي تغير مفهوم الشعر من القديم إلى الحديث . لكن هناك أسباباً أخرى ذكرها الباحثون نستطيع حصرها في الآتي :

١ ـ اعتماد الشاعر على ثقافته أكثر من تجاربه المباشرة .

٢ ـ التجريب المستمر بدافع الحداثة .

٣ ـ التخلف الثقافي للمتلقي .

٤ ـ ارتداء الرمزية العميقة خوفاً من سيف الواقع .

٥ ـ التركيز التعبيري الشديد : فالشاعر الحديث « حائر بين نوازع كثيرة ، لم يستطع أن يحدد موقفه تجاهها ، ومن هنا يجد نفسه سعيدا كل السعادة إذا استطاع أن يشكل في بضع جمل صورة ، يمكن أن تتمثل فيها تلك الأزمة . لا بد له إذن من التركيز الشديد . وهذا التركيز يؤدي بكثافة إلى لون من الغموض .

٦ ـ اللجوء الى التجريد : وهو ينشأ من حيرة الشاعر بين الذات والمجموع ، فيلجأ إلى خلق عالم مستقل له علاقاته الداخلية المغايرة لما هو خارجي ، ومن ثم يحمل هذا العالم مضامينه ولغته المصادمتين لوعي المتلقي ، الذي يقع في حيرة التأويل والتفسير .

٧ ـ التقليد الفج للنتاج الأجنبي : وقد أسهب النقاد في بيان ملامح الآثار السلبية للشعراء الأجانب في شعراء الحداثة العربية ، بما يجعل ذكرنا لهذه الآثار ـ ومنها اللجوء للغموض ـ نافلة من القول ، لكن لا بأس من الإشارة إلى أن تأثر شعرائنا بالاتجاهات الأدبية في أوروبا وبخاصة ما دعا له الرمزيون من تراسل الحواس ، ومزج المتناقضات ، وما روج له السرياليون من الصور الشعرية القائمة على أساس التداعي الحر لمعطيات الشعور في غياب أية رقابة من العقل أو المنطق ، قد أدى إلى الغموض .

٨ ـ ضعف الأداة الفنية : وهو سبب لا نراه وجيهاً ، لأن هذه الظاهرة يجب أن يحكم عليها من

خلال المتميزين من الشعراء ، وشعراء الغموض الذين تعنيهم شعراء متمكنون ، فإذا كان في شعر أدونيس غموض فإن لغته النقدية تكشف عن آفاقها الرحبة ، ويبدو أن حظ إبداعه بالنسبة لنقده ، كحظ إبداع مدرسة الديوان بالنسبة لنقدها مع الفارق بين الاثنين .

والآن سنقف عند بعض هذه الأسباب من خلال طرح علاقة الغموض بكل من : اللغة والحداثة والثقافة ، وهي مصطلحات ذات علاقات حميمة فيما بينها .

الغموض واللغة :

يقول أدونيس : « لا يمكن أن نخلق ثقافة عربية ثورية إلا بلغة ثورية » ، وهو يعني « بثورية اللغة » أن تصبح الكلمة وبالتالي الكتابة ، قوة إبداع وتغيير ؛ تضع العربي في مناخ البحث والتساؤل والتطلع » ، ونحن نرجو أن تؤدي لغة أدونيس وزملائه إلى البحث والتساؤل والتطلع ، لكن الواقع يكشف أن هذه اللغة لم تؤد في مجال الإبداع إلا إلى الحيرة والعجز والتراجع ، ومن ثم أدت إلى نتيجة معاكسة تماماً ، وهي ازدياد يقين المتلقي بموروثه ، وارتيابه في الإبداع الشعري الجديد .

واللغة في واقعها الاجتماعي أداة اتصال بين الناس ، لكنها في واقعها الفني أداة اتصال وتأثير ، فإذا فقدت اللغة الفنية وظيفة الاتصال ، فان وظيفة التأثير ستتلاشى ، ومن هنا يفقد العمل الفني وجوده في وجدان المتلقي . واللغة في الشعر هي الشعر ، فإذا كان الشاعر القديم قد ترك لغته مفتوحة غالباً لضرورة البيان والإخبار وفق ما تقتضيه طبيعة تلك الحياة ، فإن الشاعر الحديث قد أغلق لغته من هذا الجانب ، لأنه لم تعد ضرورة لوظيفة البيان والإخبار ، فالوسائل الأخرى تقوم بذلك خير قيام .

وإذا كانت اللغة الشعرية لدى التقليديين من القدماء والمعاصرين شكلاً للمضمون ووعاء للتجربة ، فإن اللغة الشعرية في القصيدة الجديدة كما يرى أحد النقاد تفارق « مفهوم الوعاء أو الظرف الذي يحتوي التجربة ، إذ تصبح التجربة نفسها فعلاً لغوياً يتبني أثناء عملية الصنع » . ومن ثم فاللغة في الشعر الجديد من هذا المنطلق تختلف اختلافاً واضحاً عن اللغة في الشعر التقليدي ، فهي تتحول من مجرد وسيلة في الأداء إلى لبنة من لبنات الدلالة في النص ، قيمتها فيما توحي به لا فيما تخبر به اخباراً ، وفيما تولده في النص من أوضاع جديدة ، لا فيما توضع له في الأصل . والواقع أن هذه اللغة الجديدة التي تولد في النص أوضاعاً جديدة ، هي لغة على الرغم من إيجابيتها ، فإنها من خلال عملية الإبداع المفتعل لدى بعضهم ، أدت إلى سلبية التعمية والإبهام .

فكل شاعر منكفيء على ذاته يخترع دواله الشعرية ليمتاز عن غيره من الشعراء .

والحقيقة أن الذاتية حاضرة بقوة في عملية الإبداع الفني ، لكن الإغراق في افتعال لغة ذاتية يصدم المتلقي ، فيسقط في الحيرة واضطراب الرؤى .

الغموض والحداثـــة :

كان النزوع إلى إبداع الجديد ، يخلق في فترات من التاريخ صعوبة في التوصيل ، فقد صادف الشعر العربي منذ قدوم بشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي هذا الأمر ، إلا أن صعوبة التوصيل قد بدت ملامحها تظهر على نحو جلي في شعر أبي تمام والمتنبي . ولعلنا في هذا المجال نذكر عبارة أبي تمام المشهورة عندما سئل : لماذا لا تقول ما يفهم ؟ فأجاب : لماذا لا تفهمون ما يقال ؟ هذه الإجابة تحمل في طياتها أن المبدع مدرك تماماً لما يقوم به ، لكن المتلقي هو الذي لا يحاول تجاوز ذاكرته الشعرية ، فهو يطلب سماع ما اعتاد على سماعه ، على أن هذه العبارة لا يجب أن تؤخذ على علاتها لتسوغ للشعراء الجدد ما يقومون به من عبث تحت وطأة نزعاتهم الحداثية . إن مقولة أبي تمام يجب أن توضع في إطارها الصحيح ، وهو أن معظم شعر أبي تمام مفهوم لدى المتلقين في عصره ، ولم تكن قضية فهم شعره أو شعر المتنبي تشكل ظاهرة كالتي نعاني منها ، ذلك أن الغموض كان جزئياً ، أي يرد في أبيات قليلة . كانت محل إثارة ، وكد ذهن ،

ومجالاً لمثل تلك التساؤلات .

والحداثة في الشعر ـ كما جاء على لسان أحد الشعراء الحداثيين ـ هي التوكيد على أولية التعبير . أعني أن طريقة أو كيفية القول أكثر أهمية من الشيء المقول . وأن شعرية القصيدة أو فنيتها هي في بنيتها لا في وظيفتها . وهذا القول يحمل في ثناياه التأكيد على وظيفة الشكل في الشعر دون وظيفة المضمون . مع أخذنا في الاعتبار أن الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة هي البناء الشعري . وهذا الإهمال المبطن للمضمون . يعني مجيئه كيفما يطرحه البناء الجمالي للنص . ومن ثم يأتي الشكل التعبيري متأنقا . وتظل الحيرة في كيفية النفاذ إلى المضمون . حيث تتمخض القراءة في أغلب الأحيان عن رؤية تتصادم في منطقها مع منطق العلاقات الواقعية . ولعل هذا التكلف في العناية بشكل الشعر أدى إلى ضبابية المضمون وتشكله المريب . والعناية بالشكل تحت دافع الحداثة أمر لا غبار عليه . لكن بشرط أن تكون العلاقة بين الشكل والمضمون علاقة ناجحة . يؤكد نجاحها وصولها إلى المتلقي . وهو وصول يؤكد من زاوية أخرى مدى وعي الشاعر بالحداثة من هذا المنطلق .

إن إلحاح الشعراء على التجريب المستمر والميل إلى غموض المعنى في الغالب . هو الذي دفع أحد الباحثين إلى أن يقول : إن من مظاهر الحداثة في الأدب الغموض في الشعر . أي أن الغموض مقصود في التجربة الشعرية الجديدة . بفعل الرغبة في الحداثة . وأن ما ليس غامضا ليس حديثا وفق هذه المقولة . والحقيقة أن الحداثة بمعنى التجاوز المستمر نحو التجديد . من خلال رفض الأشكال والرؤى الموروثة أو المطروحة قبل التجاوز . أمر يدفع له العصر الذي نعيشه . وهو عصر يختصر القرون في لحظات . وهذا ما لا يختلف عليه عاقلان . لكن الذي حدث ويحدث كثيراً في نتاج التجربة الجديدة يخالف مفهوم الحداثة الحقيقي . الحداثة المنطلقة من واقعها . والمتجاوزة له . لأن التجاوز فيها أتى من الخارج . من مناخ غريب اللون والطعم والرائحة . من مناخ القصيدة الانجليزية أو الفرنسية أو الأمريكية . وهي مناخات تحمل رؤى إنسان تلك البيئات . رؤى تختلف عن رؤى الإنسان في بيئاتنا . وصحيح أن العالم قد أصبح قرية صغيرة كما يقولون . والتراث الإنساني مشاع لبني الإنسان . وأن لنا يداً في صنع الحضارة الحديثة كما يرى يوسف الخال . لكن تبقى هناك خصوصيات لا يمكن تجاوزها بسهولة . خصوصيات كل مجتمع له تراثه وثقافته وحضارته . مهما كان مستوى هذا التراث وهذه الثقافة وتلك الحضارة . وهي أمور يجب وضعها في الاعتبار خلال عملية الامتياح من منابع الآخرين . وقد غفل شعراء الحداثة عن هذه الأمور أو تغافلوا عنها أثناء عملية التسابق المحموم لاكتشاف ما هو جديد وحديث .

الغموض والثقافة :

لهذه القضية طرفان . المبدع والمتلقي .

الطرف الأول : المبدع :

يرى بعض النقاد أن من أسباب الغموض اعتماد الشاعر الجديد على ثقافته أكثر من اعتماده على تجاربه المباشرة . فهو ذو ثقافة موسوعية . لا يستمد مادته من التاريخ أو من الأعمال الأدبية السابقة فحسب . بل كثيرا ما يستمد من ثقافته العلمية أضعاف ما يستمده من ثقافته الأدبية . ولعلنا نلمس هذا الأمر بوضوح من خلال القصائد التي تعول على الأسطورة . أو التي تحتشد فيها الأساطير حشدا يضع المتلقي أمام امتحان عسير نادرا ما ينجح فيه . ونحن هنا لا نريد أن نغض الطرف عن أثر الثقافة في الشاعر والشعر . إنما نريد الكشف عن أسباب الغموض في القصيدة الجديدة . فلا شعر بغير ثقافة . لكن بشرط هو ألا تستخدم هذه الثقافة على نحو تصبح فيه جدارا لا يستطيع المتلقي النفاذ منه أو تسلقه . وهنا إشارة لا بد منها . وهي أن تجارب الشاعر لا تعني رصده لواقعه أو اكتناهه لعلاقاته الجوهرية فحسب . وإنما ترتبط تجاربه أيضاً بالروافد الثقافية التي أخذ منها . ومن ثم فإن ثقافة الشاعر تشكل جانبا مهما من تجربته . بل ربما تشكل هذه التجربة إذا ما التحم

الشاعر باتجاه ايديولوجي معين ، لكن ما يؤخذ على الشاعر هو أن تؤدي هذه الثقافة نفسها إلى انفصاله عن المتلقي ، لأن الثقافة المؤدية للغموض الشعري هي تلك الثقافة المنفصلة فصلاً تاماً عن رؤية الواقع ، وهذا هو الإسراف الذي أدى إلى هذه السلبية ، ومن جانب آخر ، فإن اعتماد الشاعر على ثقافته المؤدية إلى الغموض يصطدم بمقولة الالتزام ، فأين التزام الشاعر إذا كان ما بينه وبين المتلقي كما بين المشرق والمغرب ؟ اللهم إلا اذا كان التزاما بينه وبين نفر من النقاد يكتب لهم ، أو التزاما بينه وبين نفسه على أسوأ الأحوال .

الطرف الثاني : المتلقي :

كثيراً ما يتهم الشعراء الغامضون أو النقاد المساندون لهم المتلقي العربي بقصور ثقافته بل بتخلفه . يقول أحدهم : « إن في مقدمة عوامل أزمة القصيدة الجديدة ، هذا التخلف الهائل الذي يعاني منه الجمهور العربي وجهله عن استيعاب أبسط شروط الفن والأدب ، فالأمية والقهر الاجتماعي والسياسي وغياب المؤسسات الاجتماعية والديمقراطية قد حكم عليه بأن يظل أسير تخلفه ، وجعله بعيدا عن التفاعل والانفعال مع أي جديد يرمي إلى تجاوز التخلف الحضاري ومواجهته » .

ومن ثم نلحظ هوة واسعة بين الطرفين ، فالطرف الأول ـ الشاعر ـ يعتمد على ثقافته الواسعة ، بينما يعول الطرف الآخر على تخلفه أو على ثقافته المحدودة في حالة حسن الظن . هذا ما يراه المبدعون والمساندون لهم في حركة الشعر الجديد . ولعل الذي يزيد من اتساع الشقة بين الطرفين هو هذه الحركة النقدية المساندة لهذا الشعر الجديد ، فهي ـ في الغالب ـ بدل أن تيسر صعبا أو تصنع جسرا بين المبدع والمتلقي ، إذا بها تزيد الأمر سوءاً من خلال نقد يتهم هو الآخر بالغموض ، بل ويطالب الشعراء به . ولنستمع إلى أحدهم وهو يمدح الشعر الذي يتحدى الناقد ، فكيف القارىء ؟ يقول : « فهذا النوع من الشعر ، الجدير وحده بلقب الشعر ، وهو الشعر ـ الكشف ، الشعر ـ الرؤيا ، الشعر ـ الإضاءة ، وهو الشعر الذي ينطوي على شيفرة شعرية خاصة ومتميزة ، تطرح على الناقد تحديا أساسيا هو تحدي فك رموز هذه الشيفرة الشعرية المعقدة » .

وإذا كنا نسلم بشيء من اتهام هؤلاء لجماهيرهم ، فإن هذا الاتهام لا يسهل تسويغه إذا ما حوصر بمثل هذه التساؤلات .

لماذا يشكو الجمهور الغربي من غموض الشعر الحديث ؟

هل هو جمهور متخلف أيضا ؟

لا أظن أن حداثياً سيقول إن الجمهور الفرنسي جمهور متخلف . إذن لماذا غيَّر شاعر كبير مثل أراجون موقفه من الغموض . فقد خدع هذا الشاعر في حياته بتيار الغموض الذي جرف شعراء فرنسا بين الحربين العالميتين ، لكنه ما لبث أن التصق بشعبه ، فصفع السريالية صفعة قاسية . وكانت زوجته تنصحه بالبساطة والوضوح حتى يصل صوته إلى الجميع .

الخلاصـــــة :

إن النقد الذي أبدعه شعراء الغموض كان نقدا واعيا في أطروحاته الفنية المختلفة ، لكنه لم يستطع في مجال الإبداع من مجاراته ، فقد تاهت السبل بالشعراء في هذا المجال ، فلهثوا تارة وراء الاقتراب من المعاصرة من خلال تقليد القصيدة الأمريكية أو الانجليزية ، كما لهثوا تارة أخرى تحت اسم الجديد وراء الاشتغال بإيجاد مرتكز فكري يجاوز الأفكار ، وليس وراء الوقائع والأحداث .

وبعـــد ،

فليس صحيحاً كل ما يتكىء عليه التقليديون ، وليس صحيحاً كل ما ينادي به الحداثيون ، والصحيح الذي نراه هو النزوع إلى الجديد من خلال استيعاب الماضي والحاضر ، وتجاوزهما ، والتجريب المنضبط ، والتغريب المقيد ، مع مساندة حركة نقدية فاعلة ، لا تصفق بحمق ، ولا تخشى الاتهام □

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) سورة الانسان ٨ ـ ١٠

عن أبي عباس : أجّر علي بن أبي طالب نفسه نوبة يسقي نخلا بشيء من شعير ، فلما قبض الشعير طحن ثلثه وجعل منه شيئا ليأكله فلما تم انضاجه حتى أتى مسكين فأخرج اليه الطعام . ثم طحن الثلث الثاني ، فلما تم انضاجه أتى يتيم فسأل فاطعمه ، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم انضاجه أتى أسيرا من المشركين فاطعمه ، وقضى يومه ذلك هو وأهله دون طعام ، فانزلت فيه هذه الآيات .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحشر (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) قال عبدالله بن عمر : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاه . فقال : ان أخي فلانا وعياله أحوج الى هذا منا . فبعث بالرأس اليه ، فاذا به يرسله الى ثالث يرى أنه أحوج اليه منه . فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها سبعة ثم رجعت الى الأول ، فنزلت هذه الآية .

كان الناس في الجاهلية يطعمون الطعام ويكرمون الغرباء ، وربما كان بعضهم يؤثر الأضياف على نفسه ولو كان به خصاصة . غير أن الحافز عندهم على الجود غير حافزه في الاسلام . فأساسه في الجاهلية كان التقاليد القبلية ، ومقتضيات البيئة الصحراوية ، وكراهة أن توصم القبيلة أو يوصم الفرد منها بالدناءة والبخل ، والحرص على طيب السمعة وعلى أن تتحدث بجودهم الركبان . أما الشفقة ومشاعر التضامن الاجتماعي والرغبة في رفع الظلم وازالة البؤس ، والخوف من « يوم عبوس » فاعتبارات ما كانت لتخطر بأذهانهم ، ولا هي بالتي نجد لها أثرا في قصائد الشعراء الجاهليين ممن فخروا بجودهم ، أو أثنوا على جود غيرهم . وما كان المساكين واليتامى والأسرى بأولى الناس عندهم بأن تمد لهم يد العون ، وبأن يحظوا بثمرات الجود . وانما كان أولاهم من توسم فيه المحسن القدرة على رد الجميل ، والاسهام في اعلاء الصيت وذيوعه .

ثم جاءت الآيات القرآنية التي تتحدث عنها تقرر فضيلة الجود ، وتذكر في الوقت ذاته بواعث أخرى لها غير الرغبة في الجزاء والشكر ، وتحذر من مغبة تجاهلها . فإن كان في ظاهر الآيات حديث عن العلاقة بين أفراد ، فإن إعمال الفكر في معانيها السامية ، وإمعان النظر في الحكمة المقصودة منها ، يقودانا الى القطع بأنها انما تنطبق على العلاقات بين الدول انطباقها على العلاقات بين الأفراد .

لقد تنبأ كارل ماركس في القرن الماضي بأنه من شأن النظام الرأسمالي ان يزيد الفجوة بين مستوى معيشة الأغنياء ومستوى معيشة الفقراء ، وان من شأن تزايد اتساع الفجوة بين الطبقات أن يعجل بثورة الكادحين . غير أن الواضح أن الكثير من النظم الرأسمالية (في أوروبا الغربية والولايات المتحدة) قد أمكنها في القرن العشرين أن تحبط نبوءة ماركس عن طريق العمل على تضييق هذه الفجوة بشتى الوسائل ، ورفع مستوى أفراد الطبقة العاملة فيها ، وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية ينفي شبح الثورة ، ويبعد أسباب التوتر والسخط .

ومع ذلك ، فإن نبوءة ماركس بدأ يظهر صدقها واحتمال تحققها في مجال آخر ما كان هو نفسه ليتوقعه أو يحلم به ، الا وهو اتساع الفجوة بين مستوى المعيشة في الدول الغنية والدول الفقيرة مما ينذر الآن بأوخم العواقب في ميدان العلاقات الدولية . لقد تمكن عدد من الدول من تحقيق رفاهة في عيش شعوبها تصل أحيانا الى حد البذخ ، في الوقت الذي تتفاقم فيه المشكلات الاقتصادية والاجتماعية في دول أخرى . وقد كان الفقراء في الماضي أقل إحساسا بفقرهم وأقل تبرما به وثورة عليه من فقراء يومنا هذا الذين باتوا يدركون جيدا ـ بفضل الاذاعة والصحافة والسينما ـ كيف يعيش غيرهم في الدول الغنية المتقدمة ، وما يتقلبون فيه من نعمة وترف . فالفجوة قد صارت واضحة لكل عين ترى واذن تسمع . ومع وضوحها زاد احساس الفقراء بفقرهم ، وضيقهم بوضعهم وثورتهم على واقعهم اذ يحرمون مما يرون غيرهم يستمتعون به . وقد نما عندهم من التطلعات والمطامح ما لم يعرفه أجدادهم ، وما ليس بوسع اقتصاد دولهم الفقيرة أن يُحققه لهم أو يُشبعه .

وبالتالي ، فقد غلب عليهم الشعور بالقهر والاحباط والسخط والمذلة ، وهي مشاعر كثيرا ما باتت تجد متنفسا لها في حروب أهلية ، أو حروب بين الدول المتخلفة ذاتها أو في أعمال عنف وتخريب ، أو في عمليات إرهابية تنفذ ضد مصالح الدول الغنية أو في أراضيها ذاتها وضد رعاياها .

وقد بدأت الدول الغنية تستشعر القلق ازاء هذه التطورات ، وتدرك أن أمنها ورغد عيشها لا يمكن الاطمئنان الى استمرارهما ما دامت هناك شعوب ودول خارج حدودها ، تغلب عليها مشاعر الحسد والاحباط والاحساس بالظلم والقهر . وقد يحسب رؤساؤها والسلطات فيها ان الخطر منحسر ان هي اتخذت الاجراءات القوية لمحاربة الارهاب ، أو عززت من حراسة مصالحها في الخارج ، أو حدت من دخول رعايا الدول الفقيرة اليها أو أبعدتهم عنها ، أو وحدت جهودها مع جهود غيرها من الدول الغنية لوضع حد لهذا الخطر المستفحل . غير ان الخطر ـ في اعتقادنا ـ سيظل ماثلا وقائما ما دامت المظالم ماثلة ، والفجوة بين الشعوب قائمة ، وما دام السعي الى تحقيق العدالة الاجتماعية في نطاق الأفراد والطبقات في الدولة الواحدة لم يتبعه السعي الى تحقيقها بين الدول كافة . □

قصة قصيرة

اللغز

بقلم : برهان الخطيب*

أيقظه من النوم عين الحلم المزعج ، رأى نفسه بصحبة عدد من مشاهير الشرق الأغنياء ، جالسا في صالة متعزلة بمطعم « مكسيم » في باريس ، أو في لندن ، لايدري بالتحديد . وحول مائدة خالية إلا من صحون « البورسلان » النظيفة والملاعق والسكاكين الفضية،جلس في صمت مطبق بانتظار تقديم الطعام إليهم ، وحولهم (شمعدانات) متألقة بأنوارها أمام مرايا محيطة بهم . جاء الخدم بمهابة ، يحملون أواني كبيرة ، فوضعوا للجميع وجبة واحدة عجيبة : « براغي » ضخمة من تلك التي اشتراها قبل أيام ، طقطقت واستقرت في الصحون ، ثلاثة لكل واحد منهم ، وانتصب الخدم قريبا منهم بانتظار الاقبال عليها !

التفت الى أحدهم بتضرع ، فاكتفى هذا برفع ذقنه بتجهم ، كأنه يأمره : كل قبل أن تبرد براغي الحديد اللذيذة . لكنه لا يستطيع تناولها . ولم يبق له سوى الطفو إلى اليقظة .

تلمس في النور الرمادي ساعته اليدوية على إفريز السرير ، ما زالت هناك ساعات طويلة حتى موعد إقلاع طائرته . ألهذا الحلم علاقة بالمشكل الذي

---

* كاتب [illegible] من القطر العراقي

يجايه أم بالبرقية التي تلقاها قبل أسبوع ؟ ولما لم يستطع العودة إلى النوم نهض من فراشه محاذرا إيقاظ مريم وهي بجواره .

وأسند ذقنه على راحة يده . كان قد تعرف على مريم في حفلة أقامها أصدقاؤه بمناسبة عيد رأس السنة . وحول مائدة الدعوة لم يتجاهلها ولم تتجاهله . عيناها الكئيبتان الواسعتان أسرتاه ، وقد لاحظ الآخرون ذلك ، وشجعه أحدهم هامسا في أذنه قبيل منتصف الليل :

ـ هيا يا نبيل ، ما هذه الرسميات ؟ إن الأعياد نهاية لماض وبداية لمستقبل جديد .

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة تقارعوا بالكؤوس ، وعلت الهتافات ، وعند ذلك تبادلا الابتسام لأول مرة وسط الضجيج ، لكن بابتسامة حزينة من كليهما ، ثم شاركت هي بعد الحاح أحدهم في الرقص الصاخب . كانت حركتها بطيئة لامبالية ، بينما نظرت إليه طويلا دون مواربة ، فرفع لها كأسه من مقعده في الزاوية ـ خافتة النور ـ محييا ، فأجابته برفيف رموشها الطويلة ممتنة ، ثم غرقا بعيدا عن بعضهما ، هي في الزحام ، وهو في دخان سجائر لم يكن يحب تدخينها .

ولما انسابت الموسيقا هادئة وجدها تقف أمامه بعينيها الكئيبتين وجمالها الغامض الباهر وقوامها المشوق الملفوف بفستان سهرة أسود :

ـ ألا تحب الرقص قليلا ؟

اهتز السائل في قدحه مضطربا وأجاب بنبرة موزونة مبتسما :

ـ إنني سمين كما ترين ، فإذا تحركت معك بدوت دبا مع مروضة في سيرك !

ونهض بصعوبة متلقيا يدها الممدودة إليه ، وتساءلت وهما يتمايلان بطيئا وسط الراقصين :

ـ غريب أن يكون رجل في مثل عمرك وحيدا في مناسبة كهذه !

ـ فرد بما كان يفكر فيه :

ـ الأغرب أن تكون فيها فتاة وحيدة بمثل جمالك !

رفعت وجهها بإيماءة جزع فيما تلامعت عيناها وهمهمت :

ـ في الأعياد يعود العشاق إلى زوجاتهم . .

واقترب إليها يطرد عنها وحشة :

ـ المتوحدون ينجذبون إلى بعضهم إذن ؟

قالت بأدب جم مشيرة برأسها إلى أصدقائه :

ـ هذا من تدبيرهم ، لكن لاتدعي الوحدة وعندك كالآخرين ثلاث زوجات في بلدك !

داعب أرنبة أنفه بقفا سبابته :

ـ المعذرة لكن هذا الانطباع عنا لم يعد عصريا على الأقل .

فرمقته من خلف خصلة شعرها بعذوبة :

ـ ما العصري إذن يافرويد هذا العصر البائس ، خبرني ؟

رفع حاجبيه دهشة :

ـ معلوماتك وافية ، لكننا نعاني اليوم من نفس أمراضكم .

هزت رأسها متأثرة ، أومستنكرة وعقبت :

ـ إن المرأة في هذه الحال أكثر إحساسا بالوحدة .

فضحك :

ـ مع هذه الصلعة والسمنة والطلاق يكون إحساس الرجل بها أقوى .

ـ لاتبخس نفسك ، أنت ممتلىء فقط ، والصلعة علامة ذكاء ، خذ مثلا أغلب العظماء ، أما الطلاق . .

سكتت ، وتسللت بينهما أنغام البيانو في جهاز الموسيقا بنعومة ينبوع .

وفي الشارع كان الثلج قد كف عن التساقط ، فاذا المدينة في ردائها الأبيض الناصع السميك ، والمصابيح في أشد لمعانها . تركا سيارته الصغيرة رابضة في مكانها ، ومضيا إلى البيت مشيا .

ولما أوصلها بعد أشهر إلى عملها ذات صباح ظلت غائمة الوجه طوال الطريق ، وكانت كآبتها قد فارقتها منذ مطلع العام ، فسألها عن حالها لكنها لم تجب بغير ابتسامة حزينة ، فأدرك ما تحاول اخفاءه عنه ، ومنذ ذلك الحين والأحلام الثقيلة والكوابيس تطارده . ألح عليه في البداية حلم عجيب آخر ،

يرى نفسه فيه طفلا قدم إلى بيروت بصحبة والدته للاصطياف ، يلعب على « الفيبرز » طويلا ، وحين يعود إلى الفندق يراها شعثاء الشعر تدخن في السرير المكش ، وعيناها الدامعتان شاخصتان في السقف . . حتى لم يعد يميز في النهار ما اذا كان ما يراه حلما حقا أو ذكرى عن حادثة وقعت فعلا وعلقت في ذهنه كبقعة قطران على رداء أبيض . فكر بالكتابة عن ذلك إلى والدته لتبدد عنه الأوهام ، لكنه خشي وقوع الرسالة بيد أبيه فيسوء التقدير والتدبير . يكفيه منه قطع المال عنه أشهرا عقابا على بقائه طويلا في الغربة ، ولولا مريم لجاع . ها قد تبدل الحلم القديم بآخر أثقل،كله « براغ » ضخمة ، منذ تسلم البرقية قبل فترة : « والدتك مريضة تود أن تراك » .

لعله كان سيضرب كل الأحلام بعرض الحائط لولا أنه ما جاء إلى هذا الصقيع البعيد إلا ليدرسها مع ما يدرس ، وليقع على منابعها وتأثيراتها سابقا ولاحقا في حياة كل واحد منا . والده أيضا دفعه إلى ذلك :

ـ هيا . . هيا يا نبيل ، سافر ، سوف تصبح عالم نفس يملأ ذكره الدنيا ، ما أكبرها حرفة ! تدر ذهبا في الغرب ، وعندنا تدر أكثر ، سوف نحتاج إلى أمثالك في المستقبل أكثر من المهندسين والأطباء . .

لعل مشكلته كانت تبدو هينة جدا لو عرضها آخر عليه . فهل هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن حب رجل شرقي لامرأة لها ماض ، فلا هو قادر على الزواج بها كما يدعوه قلبه ، ولا الافتراق عنها كما تهيب به تقاليد الأجداد .

إنما المشكلة الآن في روحه ودمه ، في قلبه وعقله ، ولاسبيل إلى مهادنته . في معالجته لحادثة بيروت قاده استبطانه لوعيه إلى أن يجعلها كابوسا أو ذكرى حب ، وهو أمر حتمي لتوزع أهوائه شرقا وغربا ، فهو صراع بين قديم وجديد ينتصر فيه الأقوى لا الأفضل بالضرورة ! لكنما الأكثر دلالة أن يكتشف حقيقة ما ألح على ذهنه . فإذا كان كابوسا حقا ، وانعكاسا مقلوبا عن الواقع ، فالماضي إذن سليم ، والعيش في هداه واجب . أما اذا كان ذكرى فعلا ، أي صورة حقيقية للواقع ، فإن ماضيه في هذه الحال وهم مؤكد لابد من إنكاره ومشكلته بالتالي مع مريم وكل ما حوله عقدة حلها في يده . .

تثاءب على الوسادة مظللا عينيه بساعده ، كان يعرف أنه لن يجد الجواب عن سؤاله سوى عند والدته ، فكيف يفاتحها ؟ استبعد الرسالة ، فمكاشفة والدته عند زيارته للأهل أفضل لكن كيف ؟ كيف يخرق هالة القدسية المحيطة بها ، وينبش الماضي الذي ظن أنه مات ؟

وراح سابحا الى ضباب النسيان ، والسؤال يطارده ، ما قضية « البراغي » الضخمة التي عليه أن يأكلها قبل أن تبرد ؟ يكاد يشعر بصلابتها وثقلها منذ الآن في معدته ، عليه هضمها بحامض داخلي قوي ، أو لفظها الى الخارج تقيؤا . أتكون هذه « البراغي » حضارة عصرنا ؟ أوه ، كلا ، لقد بدا شأنه شأن بعض علماء النفس المهووسين بتهويل المشكلة وتحويلها من لقمة عشاء لم تكن سائغة إلى قضية اجتماعية مصيرية خطيرة . لكن الحلم تكرر ، وعليه في كل الأحوال أن يتأكد من أمر واحد على الأقل : بيروت كابوس أم ذكرى ؟ في ذلك مفتاح الحل كما يؤكد المنطق ، ولسوف يفعل ذلك بطريقة حصيفة لاتلحق أذى ، أجل ، سوف يسألها ولو على فراش المرض رأيها في زواجه بمن يحب دون اخفاء شيء ، فربما تباركه وربما يجد عندها تفسيرا للغز البراغي . كان الصمت مخيما في الشقة عندما استيقظ ، وكانت حقيبته تنتظره قرب الباب ، ومريم تنتظره في عملها لتوديعها وهو في طريقه إلى المطار ، والافطار جاهز هناك على المائدة في المطبخ . مضى الى الحمام ملقيا نظرة عبر النافذة فرآه طافحا بسيول أمطار لايدري من أين أتت ، فتيقن أنه نام بعد حلمه المزعج ساعة أخرى أو ساعتين ، وتذكر أنه سمع قبل قليل رنين جرس وجلبة أقدام وصوت باب يفتح أو يغلق . .

وقادته خطاه إلى طاولة المطبخ . فوجد عليها طبق « البراغي » الذي عرفه جيدا من قبل وبرقية جديدة تقول :

« إنا لله وإنا إليه راجعون » . □

الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

طريقة جديدة لتشخيص الجلطات وتصلب الشرايين

هذا جهاز جديد يمكّن الأطباء من تشخيص حالات تصلب الشرايين وإنقاذ الكثيرين من هذه الآفة التي كثيرا ما تكون قاتلة . والجهاز جهاز تصوير أولا واخرا ولكنه يختلف كثيرا عن أجهزة التصوير القديمة .

يسمونه QAD-1 ، ويتميز بأنه يحتوي على كمبيوتر ويرسم الخرائط ويلوّن ، وتصنعه احدى الشركات في ولاية واشنطن ، وأهم ما يذكر عن هذا الجهاز أنه يتيح للطبيب فرصة مشاهدة دم المريض وهو يجري في عروقه ، ويمكنه من تبيّن هذه العروق في الوقت نفسه وذلك على شاشة الجهاز ودون أي تأخير .

أضف إلى ذلك أن الطبيب يرى الدم بلونه الأحمر المعروف ، ويرى الأنسجة بلون رمادي ، ويرى باللون الأزرق الجلطات التي قد تعترض سبيل الدم أو تسبب تغيرا ما في اندفاعه أو مسيرته . ومعنى هذا أن الجهاز لا يصور فحسب ، ولكنه يشخص ويحدد العلة أيضا ، ولا يترك للطبيب أي مجال للاجتهاد أو التخمين ، بخلاف الأجهزة القديمة (duplex system) .

والجدير بالذكر أن الفضل في ابتكار الجهاز المذكور ، إنما يعود إلى شركة يابانية . وفي الإمكان تطوير الجهاز بحيث يمكّن الطبيب من تشخيص السرطان ، والجزم فيما إذا كانت الأورام المشتبه بها خبيثة أم حميدة . وكذلك تطويره بحيث يستطيع الطبيب تقييم مدى نجاح عمليات الزرع عامة وزرع الكلى خاصة .

ويبلغ ثمن الجهاز الواحد ١٢٥٠٠٠ ـ ١٧٥٠٠٠ دولار .

جهاز الدم وهو يجري في عروق المريض المصاب بتصلب الشرايين

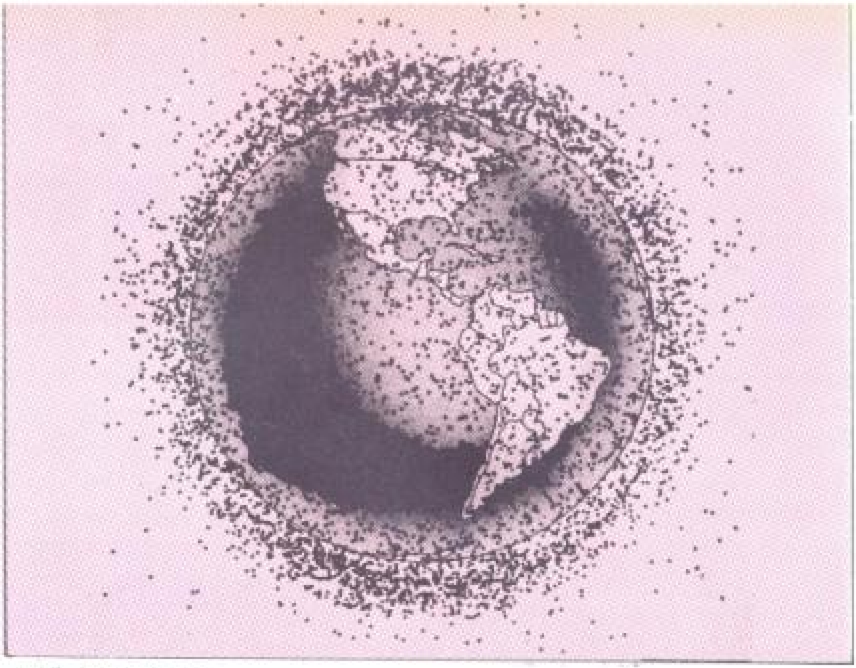

مستودعات خردة في الفضاء

مستودعات خُـرْدة ... في الفضاء

يسعى العلماء الأمريكيون وغيرهم ، إلى تحديد السبل وابتكار الوسائل الكفيلة بدراسة نفايات الفضاء وأخطارها ، دراسة شاملة مستوفية وذلك بقصد التمهيد للعمل من أجل القضاء على تلك النفايات ، أو على الأقل الحد من تفاقمها . وتشمل هذه النفايات السابحة في الفضاء الخارجي والتي تدور حول الأرض كما تدور حول الأقمار الصناعية أقمارا صناعية تالفة ، مفاتيح ومقصات ، محركات صواريخ مستهلكة ، ناهيك بأجزاء وقطع الأقمار الصناعية التي انفجرت لسبب أو لآخر ، وعددها يزيد على ٩٠ قمرا . واستطاع العلماء التأكد من أن بين تلك النفايات ما لا يقل عن (٧٠٠٠) قطعة بحجم كرة التنس أو يزيد .

ولا يخفى ما تنطوي عليه (مزبلة الفضاء) هذه من مخاطر ، فهي لا تهدد الأقمار الصناعية فحسب ، ولكنها تشكل خطرا كبيرا أيضا على تلسكوب الفضاء الضخم الذي ستطلقه (ناسا) عما قريب ، وعلى مختبر الفضاء وكذلك على أسلحة حرب النجوم ، فهذه منشآت هامة بالغة التكاليف وذات قيمة علمية كبيرة ، ولا يجوز تعريضها لأي خطر ، ناهيك بخطر النفايات . وحسبك أن قطعة صغيرة من تلك النفايات بحجم حبة البازيلا كفيلة بتحطيم قمر صناعي بكامله اذا اصطدمت به ، وقد تبلغ كلفة هذا القمر ١٠٠ مليون دولار ، وهي على كل حال تعتبر تافهة لو قورنت بتكاليف تلسكوب الفضاء أو المختبر الفضائي أو أسلحة حرب النجوم .

والرسم المرافق لهذا الكلام رسم واقعي وقد وضعه جهاز « الكمبيوتر » ، بناء على المعلومات التي غذّوه بها ، وهي تمثل النفايات التي تدور حول الأرض على ارتفاع منخفض نسبيا .

حذار من السمن البلدي

نشرت مجلة لانست الطبية العلمية البريطانية تقريرا هاما للدكتور « جاكوبسون » ، أحد كبار الاختصاصيين في مستشفى شنايدر للأطفال في بلدة نيوهايدبارك في ولاية نيويورك .

ويؤكد العالم المذكور أن تناول السمن أو الزبد الحيواني (Ghee) باستمرار يعرّض المرء للإصابة بمرض القلب ، ذلك أن الدهن المذكور يحتوي على أكاسيد الكولسترول ، وهي الأكاسيد التي تتكون في الأطعمة التي تحتوي على الكولسترول فيما إذا حفظت هذه الأطعمة لمدة من الزمن بعد اعدادها ، وهي قادرة على التسبب بانسداد الشرايين .

وتدل التجارب والفحوص التي أجراها الدكتور « جاكوبسون » على جماعات من الهنود المهاجرين المقيمين في لندن وفي جزر الهند الغربية على ارتفاع نسبة الذين يصابون بتصلب الشرايين بين اولئك المهاجرين ، وارتفاع نسبة الذين يموتون بسبب مرض التصلب .

ويشير الدكتور « جاكوبسون » الى أن الزبد الحيواني يدخل في صناعة كثير من المأكولات الهندية ، نذكر منها على سبيل المثال الكاري وهي مأكولات لا غنى للهنود عنها حيثما كانوا .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

استنشاق الانسولين

نجحت مؤسسة الأبحاث الطبية في بوسطن في تطوير أداة تمكن مرضى السكر من تناول الانسولين استنشاقا بالأنف ، لا حقنا في العضلات . وقد استغرقت أعمال التطوير هذه خمس سنوات ، لكنها تكللت بالانجاز الذي طالما تطلع إليه العلماء ، وسعى إلى تحقيقه التقنيون ، منذ العشرينيات من هذا القرن .

ذلك أن الكثيرين يتذمرون من حقن الانسولين في أجسامهم ، حتى لو كانوا هم الذين يجرون هذا الحقن بأنفسهم .

فالأسلوب الجديد لا يتطلب أكثر من استنشاق الانسولين من الانبوب الصغير الذي يحتوي على عدد محدود من الجرعات ، ويسمح باستنشاق الانسولين بضع مرات في اليوم ، وذلك قبل تناول الوجبات لو أمكن . وهو يضمن وصول الانسولين إلى الدم بسرعة لا تقل عن السرعة التي يصل بها إلى مجراه في حالة الحقن في العضلات ، ويضمن كذلك تنظيم مقاديره في الدم بمثل الاحكام الذي تضمنه حقن الانسولين في العضلات .

والسر في هذا الأسلوب الجديد يعود إلى المادة التي تضاف إلى الانسولين عند تعبئته في الأنابيب الصغيرة ، فهي التي تسمح للانسولين بالتغلغل إلى مجرى الدم ، عقب استنشاقه بالأنف .

وتتحفظ مؤسسة الأبحاث الطبية ، وتقول بأن هذا الأسلوب الجديد قد لا يفي بحاجة بعض مرضى السكر الذين قد يضطرون إلى حقن الانسولين مرة واحدة في الصباح ، بالاضافة إلى استنشاقه . هذا وقد تقدمت المؤسسة بطلب ترخيص الأسلوب الجديد من وكالة الغذاء والدواء . □

سلامة البشرية في
سلامة البيئة

أول اتفاقيــة
بيئــة شاملة

أيقن العلماء لأول مرة في الصيف الماضي (٨٧) أن مظلة الأوزون الواقية آخذة بالتلف ، وأيقنوا أن تلفها يعزى - دون أدنى شك - إلى عدد من المواد الكيماوية التي اكتشفت عام ١٩٧٢ ، ثم دخلت في صناعة الثلاجات والمكيفات وصناعات أخرى عديدة . نذكر من هذه المواد الرغوة البلاستيكية والفلور وهايدر وكربونات ومواد التنظيف ، ونذكر عن طبقة الأوزون التي اخذت تتلف أنها مظلة ممتدة في الجو على ارتفاع (٦ - ٣٠) ميلا ، وأنها تقي الكائنات الحية التي تعيش على سطح الأرض من فائض الأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء ، وهو فائض فتاك دون أدنى ريب .

ذلك أن ١٢٠ عالما أتوا من شتى بلدان العالم الى جنوب شيلي ، وأقاموا في بلدة « بونتا اريناس » في أقصى الجنوب ، خلال شهري أغسطس وسبتمبر الماضيين ١٩٨٧ م ، وذلك للقيام بدراسات مستفيضة لظاهرة تلف الأوزون التي ذكرنا ، وللتأكد من الأسباب التي أدت الى تلف مظلة الأوزون الواقية . وقد قام هؤلاء العلماء برحلات جوية علمية (٢٥ رحلة بالتحديد) في أجواء القطب الجنوبي ، وعلى ارتفاع ٤٠,٠٠٠ (على متن طائرة دي سي ٨) وعلى ارتفاع ٧٠,٠٠٠ قدم (على متن طائرة من صنع لوكهيد) شقيقة طائرة التجسس (u — 2) . ويذكر أن تكاليف هذه الرحلات والدراسات بلغت نحو ١٠ ملايين دولار ، دفعتها كلها الولايات المتحدة .

وقد أثبتت دراسات العلماء وأبحاثهم أن طبقة الأوزون آخذة في التناقص ، وأن متوسط نقص كثافتها قد بلغ ٧ ٪ ، وأن هذا التلف شامل لحزام الأوزون الذي يلف الكرة الأرضية كلها ولا يقتصر على منطقة القطب الجنوبي وحدها ، وأن تلف طبقة الاوزون في القطب الجنوبي يفوق تلفها في غيرها .

وغني عن البيان أن ثمة أخطارا جسيمة تترتب على هذا التلف اذا لم يوضع له حد، ومن هذه الأخطار انتشار سرطان الجلد. ومرض العيون (السد) cataracto وإضعاف جهاز المناعة ، وقد يؤدي تفاقم التلف إلى القضاء على الحياة بكل صورها وأشكالها .

إذن لا عجب إذا تم التوقيع على اتفاقية الأوزون الدولية (في مونتريال في شهر سبتمبر ٨٧) ، تلك الاتفاقية التي كانت موضع نقاش وجدل طوال السنوات الخمس الماضية والتي وقعتها ٢٣ دولة ، بالاضافة الى الولايات المتحدة ودول السوق الأوروبية المشتركة ، دون أي تردد ، بعد ظهور النتائج العلمية التقنية التي تمخضت عنها أبحاث العلماء الميدانية سالفة الذكر .

الأوزون واتفاقيته الأخيرة

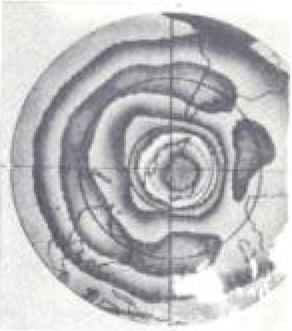

تنص هذه الاتفاقية على الحد من انتاج الفلوروهيدروكربونات وأمثالها ، بمقدار النصف تدريجيا حتى نهاية القرن العشرين (١٩٩٩) .

بيد أن الاتفاقية استثنت الدول النامية ، فسمحت لها بالمضي في انتاج المواد المذكورة دون قيد أو شرط مدة عشر سنوات ، وذلك حرصا على مشاريع التنمية فيها ، كما سمحت للاتحاد السوفياتي بمواصلة إنتاجها حتى عام ١٩٩٠

بادرة طيبة لكنها لا تعفي من المسؤولية

تعتبر مادة بولي كلوريتد بايفنل (P C B) من أخطر المواد الكيماوية الملوثة ، وقد أثبتت الدراسات أنها مادة مسرطنة ، اي تسبب السرطان ، وذلك قبل نحو عشر سنوات ، فعمدت وكالة البيئة في الولايات المتحدة الى حظرها .

ويبدو أن الرقابة المحكمة التي يتطلبها هذا الحظر لم تكن متوفرة في السنوات الماضية ، ذلك أن أحواضا كثيرة من مادة (P C B) قد ظهرت في ١٤ ولاية ، دون أن تدري سلطات البيئة عنها شيئا . والغريب أن الذي أخطرها بوجود هذه الأحواض لم يكن سوى الشركة المتهمة نفسها .

والشركة المذكورة هي شركة خطوط أنابيب الغاز الشرقية (تكساس) فهي التي تملك خطوط أنابيب الغاز التي تمتد من آبار تكساس الى نيوجرسي والتي يبلغ طولها نحو ١٠,٠٠٠ ميل ، وهي المسؤولة بالتالي عن تسرب مادة (P C B) من تلك الأنابيب ، وعن تجمعها في أحواض ، بعضها بمساحة مقدارها فدانان ، وبعمق مقداره ١٧ قدما ، وقد بلغ مجموعها ٨٩ حوضا .

وقد أثبتت الفحوص والدراسات التي أجرتها وكالة البيئة أن تلوث التربة حول الأحواض المذكورة قد بلغ ٢٤٠ ضعف الحد الذي تسمح به الوكالة ، وان المادة المسرطنة تغلغلت في باطن الأرض ، وانتشرت حتى أصبحت قاب قوسين من مياه بعض الآبار المخصصة للشرب (٢٠٠ قدم فقط) . من هنا كان قرار الوكالة بتغريم الشركة مبلغ (١٥) مليون دولار ، وبإلزامها بالقيام بأعمال تنظيف شاملة للمواقع التسعة والثمانين التي ظهرت فيها الأحواض وهي أعمال تقدر تكاليفها بأكثر من ٤٠٠ مليون دولار . وستعمد الشركة الى التخلص من مادة (P C B) إما بحرقها في أفران خاصة عالية الحرارة ، أو بدفنها في المواقع التي تحددها لها الوكالة .

خطوط أنابيب الغاز والتلوث الذي أحدثه

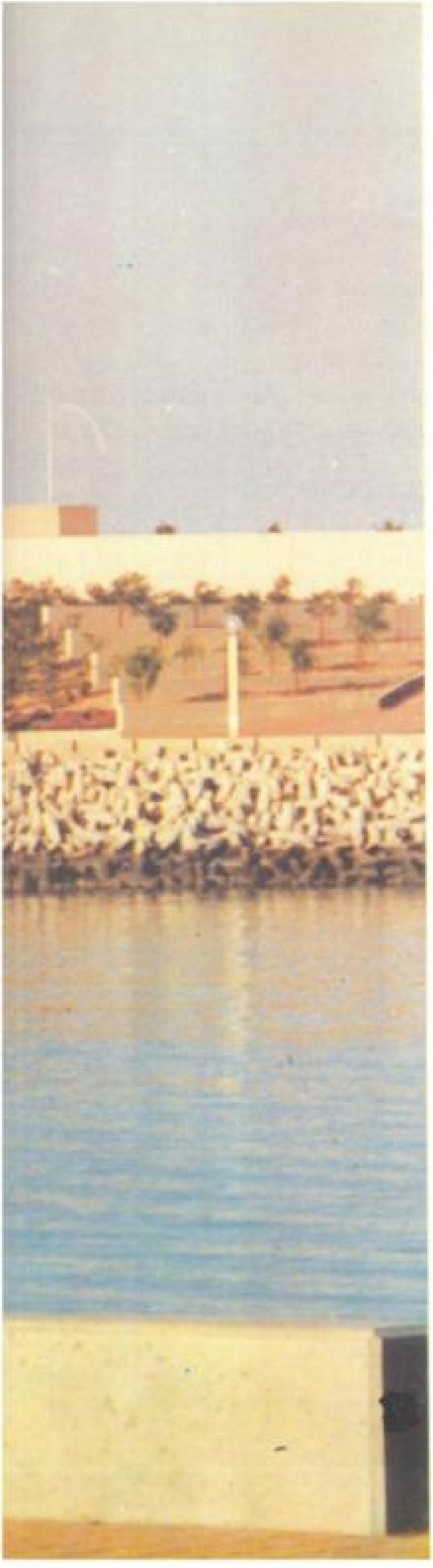

الخضرة تغسل قدميها في مياه الخليج

الواجهة البحريّة

إطلالة جديدة على مياه الخليج العربي

استطلاع ريم الكيلاني

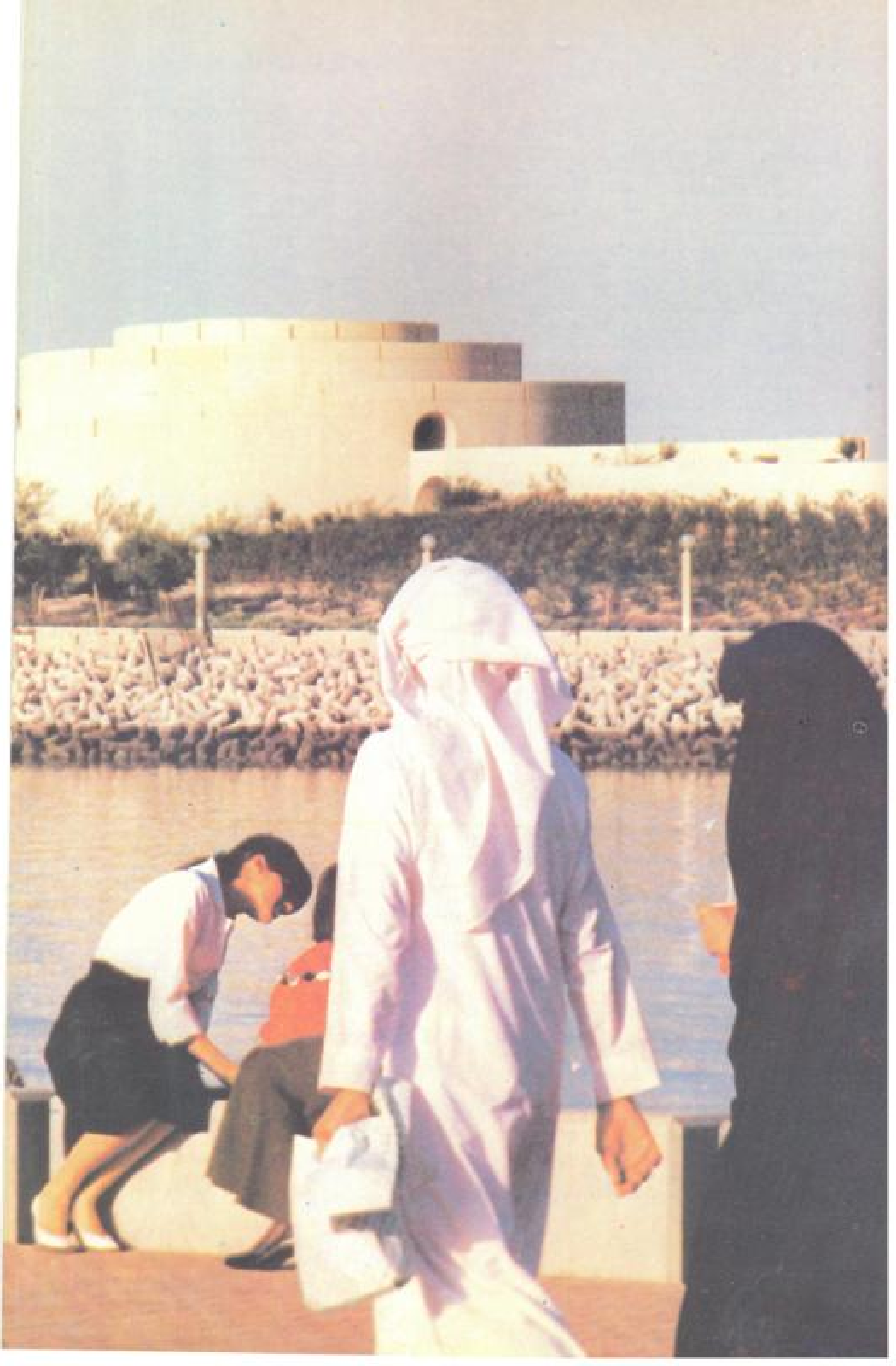

ارتفعت الجدران الاسمنتية على شاطىء الخليج وامتدت الطرق المرصوفة ، ووقفت اشجار النخيل وسط جزيرة خضراء وأصبح مشروع الواجهة البحرية حقيقة ملموسة تراها العين ، بل غدا معلما سياحيا يجتذب الناس اليه على مدار الساعة لقضاء أحلى الاوقات وأمتعها .

الراحة بين خضرة الاشجار وزرقة المياه حق لاينازع لكل من يقضي يومه بين العمل والمسئوليات ومشاغل الحياة المتعددة ، ولاشك ان وجود مكان مناسب للعائلة يروح فيه افرادها عن انفسهم يعني متنفسا تقضي فيه الاسرة يوم اجازتها بعيدا عن المنزل وخارج جدرانه .. هكذا كانت البداية فكان مشروع الواجهة البحرية .

لمشروع الواجهة البحرية في الكويت قصة بدأت في عام ١٩٧٥ ، حين وضعت بلدية الكويت المخطط الهيكلي للبلاد نصب عينيها ، في محاولة جادة لتجميل شاطىء الكويت على مسافة تمتد ٢١ كم تبدأ من منطقة الشويخ غربا وتنتهي برأس الارض شرقا ، حيث كان الشاطىء على امتداد هذه المسافة مجرد اكوام من الاتربة والصخور المختلطة بماء الشاطىء المكدر .

ضد الطرد السياحي

يقول السيد محمد السنعوسي رئيس مجلس ادارة شركة المشروعات السياحية : «كان مشروع الواجهة محاولة من بلدية الكويت ومن شركة المشروعات السياحية للحد من ظاهرة الطرد السياحي الى الخارج ، حيث ان معظم الناس يغادرون الكويت صيفا بسبب شدة الحرارة وطول فصل الصيف ، ونحن بالطبع لن نوقف هذه الظاهرة ، وخاصة أن الاحصائيات تؤكد ان ٧٠ ٪ من المواطنين والمقيمين الذين يغادرون الكويت في فصل الصيف يتجهون لقضاء اجازاتهم السنوية في اقطار عربية ، وان ٣٠ ٪ منهم يتجهون الى اوروبا وامريكا . »

ويضيف رئيس مجلس ادارة شركة المشروعات السياحية الكويتية .

« كنا نعلم تماما أننا نضع انفسنا امام تحد كبير ، لكن الواقع اثبت نجاحنا ، ولن اقول ان انجازنا قد حد من عملية السفر ، لكنني اقول انه قد وضع حدا لتفاقم ظاهرة الطرد السياحي ، فأصبح عدد المغادرين في فصل الصيف اقل مما كان عليه في السنوات الماضية ، وبعرضه لهذه الفكرة كان محمد السنعوسي يقدم لنا دعوة ضمنية للقيام بجولة ميدانية في ارجاء المشروع الكبير نتعرف من خلالها على الواجهة البحرية واهم معالمها .

ومنذ البداية ادهشني هذا الجهد الكبير الذي بذل في التصميم والتنفيذ ، فلم يكن من السهل انشاء مشروع ضخم ، كالواجهة البحرية على شاطىء البحر برماله وصخوره دون تجهيز قدرات هائلة تحول ركامات الصخور والرمال إلى متنفس سياحي بهذا الحجم ، وكان لابد من عمل مضاعف ، حتى بدا لي ان ضخامة العمل كانت تمثل تحديا رئيسيا لاصحاب الفكرة . فقد كان هناك مايقرب من ٨٠٠ فني يعملون في وقت واحد بالمشروع ، الى جانب جهاز اشراف كبير في عدده ومعداته ، وكان هذا يثير الفضول والرغبة في معرفة الكثير عن عمليات البناء خاصة اننا نرى المسافة الممتدة الى داخل البحر وقد اتسعت وازدادت جمالا . وقد احضرت كميات كبيرة من الرمال والصخور من امارة الفجيرة في دولة

الامارات العربية المتحدة لان تلك الصخور تتميز بالصفة البازلتية المقاومة للامواج والتآكل ، كما تم حفر نحو ٦٠٠ الف متر مكعب في البر والبحر وشملت عمليات الردم مليونين و ٣٥٠ الف متر مكعب ، حيث تم ردم مايتراوح بين ١٠ ـ ٣٥ مترا في المناطق الممتدة على طول الشاطيء . اما الجزيرة الخضراء فقد كان واضحاً انها حظيت بأكبر عملية ردم ، فهي تبعد عن اليابسة بمسافة ٣٥٠ مترا وتم ربطها بالشاطيء عن طريق ممر بري ردم بكامله الى جانب ٥٠٠ متر اخرى هي قطر الجزيرة .

اصلاح ما أفسدته الرياح

كان الجو حاراً والعجاج يملأ المكان ، وبالاضافة إلى التأثير الذي يخلفه هذا على سير العمل ونشاط المهندسين والفنيين فقد كانت الرياح الشديدة في بعض الاحيان تهدم مايقومون به من انجازات ، وقد اضطرت جماعة كانت تقف معنا لمغادرة المكان الى موقع آخر لاصلاح ما افسدته الرياح . وقد لفتت انتباهي تلك الآلة الضخمة التي كانت تدق الصخور الموجودة في البحر حيث تشكل طبقة صخرية يتراوح سمكها بين مترين ومترين نصف ، وقد جلبت هذه الالة خصيصا لاختراق هذه الطبقة الصلبة .

وراودني شعور يتراوح بين الاعجاب والدهشة وأنا اتابع سير العمل في ذلك النفق الذي شق تحت شارع الخليج العربي لمد انابيب المياه وخطوط الكهرباء، حرصا من العاملين على حركة المرور ولصعوبة اغلاقه باعتباره شارعا رئيسيا في الكويت .

وقد قامت بلدية الكويت المشرفة على عمليات بناء الواجهة البحرية ببناء مختبرات مزودة بأحدث المعدات لفحص الصخور البحرية والرمال وترددات المياه . وكانت تلك المختبرات خير معين للمقاولين الذين كانوا يعملون في بناء الواجهة البحرية . وقد وصلت تكاليف المشروع الى (٥١) مليون دينار كويتي اقتضاها التصميم والتنفيذ والاشراف .

كانت تلك هي الزيارة الاولى للواجهةوهي

● برج المراقبة في الواجهة . من أعلى يستطيع الصاعد أن يرى كل أجزاء هذا المشروع ، كما أنه يستخدم عادة لرصد حركة السفن.

مازال مشروعا ، وكان لابد لنا من زيارة أخرى لنرى عن كثب ما أسفرت عنه كل هذه الجهود المبذولة .

رائعاً كان ذلك الشاطيء بحلته الجديدة ، وجميلا برماله ومياهه واضوائه واناسه الذين اجتذبهم اليه ليقضوا فيه وقتا ممتعا مع البحر الهاديء والرمال الناعمة .

ينقسم المشروع الى خمس مراحل افتتح منها حتى الآن المرحلتان الاولى والثانية . وتمتد المرحلة الاولى مسافة ستة كيلو مترات ، وتحتوي على الجزيرة الخضراء التي تبلغ مساحتها ١٦ هكتارا ويمكن الوصول اليها عن طريق ممر طوله ٢٥٠ مترا .

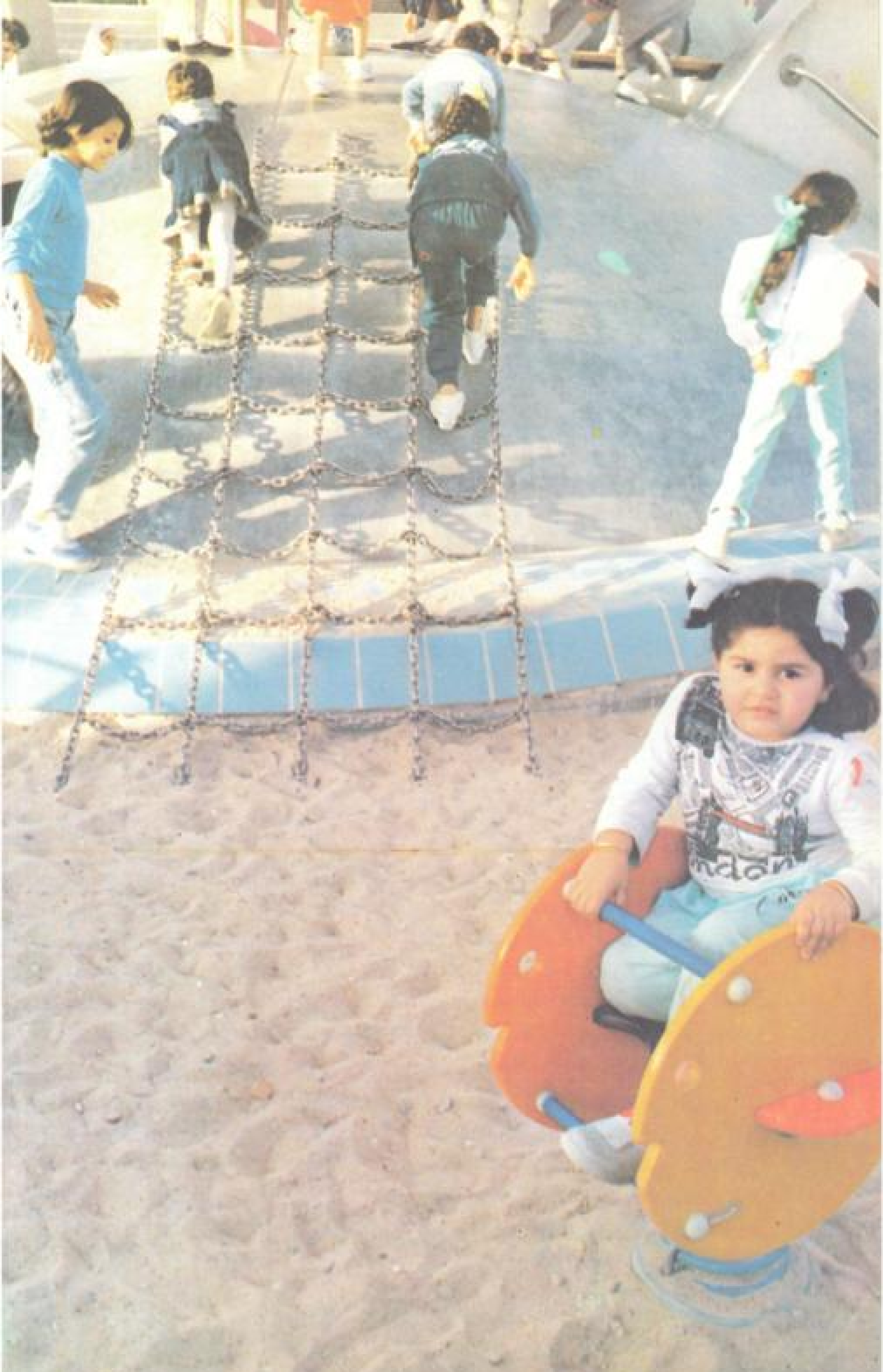

● إلى اليمين :
في عينيها سعادة غامرة بالمكان وبوسائل التسلية المتاحة فيه .
يبقى البحث عن المتعة هو هدف كل انسان ، فالسياحة متعة ، والتمتع بالرمال الناعمة متعة اخرى من متع البحر ، ومما يحبه الأطفال بناء قصور من الرمال واللعب بالاصداف . أعلى :

في الوسط ما تزال الابتسامة ترافق صغارنا وهم يلهون بعيدا عن رتابة الحياة اليومية ، مما يزيد في نشاطهم وحيويتهم

الأسفل : أسرة تنعم بالسباحة في مياه الواجهة البحرية .

كانت ضحكات الاطفال تتردد مع امواج البحر وهم يلهون ويمرحون ، وتبدو سعادة الامهات على ملامحهن وهن يراقبن اطفالهن وهم يلعبون بأمان تام. من اهم المرافق التي اقيمت في المرحلة الاولى كذلك مرسى اليخوت الذي يتسع ل ٢٦٥ قاربا بطول ٣٠ مترا . كانت المياه في المرسى ساكنة هادئة ، وحين عبرت عن استغرابي لاختلاف حركة المياه عن الشاطىء بادر احد مهندسي المشروع الى القول : « لقد وضعنا كاسرات للامواج في المرسى محافظة على سلامة اليخوت ، وسلامة عملية الابحار والرسو ، وتتكون هذه الكاسرات من صخور وقطع خرسانية ذات مواصفات خاصة من حيث الوزن والبعد والكثافة لابقاء المنطقة هادئة نسبيا . وبجانب المرسى يوجد ناد لليخوت ، خصص لاصحاب القوارب ، يضم مطعما ومركزا للتزود بالوقود للقوارب ، ومواقف خاصة للسيارات . لكن هذا ليس كل شيء فيما يتعلق بالتسهيلات الخاصة بالزوار .

فهناك ايضا مراكز خدمة ممتدة على طول الشاطىء ، تقدم المرطبات السريعة الى جانب غرف تبديل الملابس وغرف للاسعافات الاولية بالاضافة الى الهواتف والمرافق العامة الاخرى ، وتنتشر على طول الشاطىء خمسة احواض مكشوفة للسباحة ، مقسمة الى حوض رئيسي واثنين للاطفال ، وواحد للمبتدئين ، وحوض خاص للغطس . وقد خصص مهبط لطائرات « الهليوكبتر » ليستعمل في الحالات الاضطرارية ، ومن المناظر الجميلة التي راقت لنا تلك الالسنة الصخرية الممتدة داخل البحر والتي تقف عليها جموع من الناس يقومون بصيد الاسماك ، ويشبعون هذه الهواية التي كانت ومازالت حبا يسري في عروقهم ، فالصيد كان يوما ما احد اسباب العيش في الكويت قديما .

وأتساءل عن سبب اختيار هذا المكان على الاخص لاقامة المشروع فيقول السيد محمد الفلاح نائب مدير شركة المشروعات السياحية : البحر هو المتنفس الوحيد والأهم لأهل الكويت ، وقد شمل التطور

● مرسى اليخوت يتسع لحوالي ٣٦ قاربا طولها ٣٠ مترا تقريبا والمرسى مزود بكاسرات الأمواج للمحافظة على سلامة اليخوت ، وسهولة عملية الابحار والرسو .

وتحتوي على مسرح مكشوف تقام عليه العروض المسرحية والاستعراضات ، كما سيتم استغلال المسرح كذلك لتقديم المحاضرات والندوات .

ويتسع المسرح لأربعمائة شخص ، وقد شعرنا بمدى المتعة التي يحس بها الزائرون مثلنا ونحن نجلس على هذا المسرح بالخليج العربي والبحيرة الصناعية الموجودة هناك وهما يشكلان خلفية رائعة تضفي على المكان جمالا فريدا .

يوجد في الجزيرة الخضراء كذلك بحيرة صناعية ، وهي الى جانب ما تضفيه من منظر بديع على المكان ، فهي توفر امكانية ممارسة ركوب العجلة المائية ، وهي رياضة ممتعة ومحببة لقلوب الكبار والصغار ، وهناك ايضا القلعة التي خصصت للأطفال والعاب اخرى متنوعة الاشكال والاحجام .

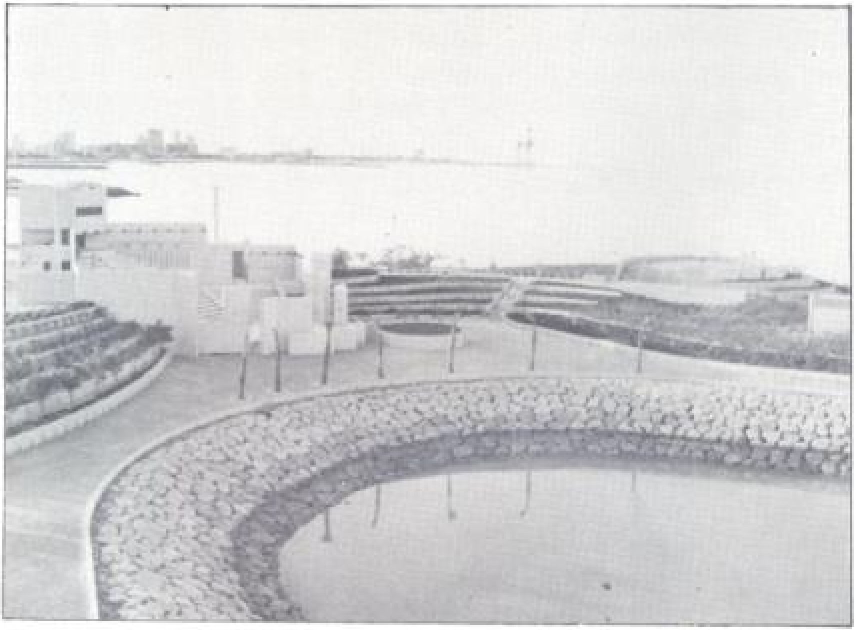

● البحيرة الصناعية في الجزيرة الخضراء توفر للرواد إمكانية ممارسة ركوب العجلات المائية وهي رياضة محببة للصغار والكبار .

العمران والنهضة الواسعة مناطق سكنية مختلفة وظل الساحل مهجوراً، وحين فكرنا بالمشروع حددنا هذه المساحة لتصبح منطقة جذب سياحي تسمح بارتياد المواطنين للتنزه والترويح عن النفس .

من أجلهم

قد يفاجأ كل من يسير في شارع الخليج العربي بالكثافة الزراعية الممتدة على طول الساحل ، وقد يدهش لنجاح الزراعة في هذه البلاد الصحراوية شديدة الحرارة . لكن الحقيقة انه قد تم اجراء عدد من الاختبارات والتجارب لانتقاء الصالح من الشتلات والنباتات والاشجار التي تتلاءم مع حرارة الصيف الملتهبة ، والتربة البحرية ، وقد اضفت الزراعة على المكان جمالا وجاذبية لاتقاوم .

ونعود لنتساءل : هل سيمنع هذا المشروع وغيره من المشاريع الترويحية عملية الطرد السياحي الى الخارج ؟

يقول السيد السنعوسي : «مشروع الواجهة البحرية لن يوقف السفر ولكنه سيقلل منه خاصة وان هناك عروضا كثيرة متوافرة ومتنوعة للناس للتنزة تفي بالغرض وتحد من تكاليف السفر الباهظة ، ومن مخاوف المواطنين الامنية والاقتصادية التي قد يتعرضون لها في الخارج ، ولاشك ان النشاط الخليجي المشترك بين دول الخليج العربي سيعزز مشاريعنا الاستثمارية لما لها من مردود جيد على كل الاصعدة . كما ان تعدد العروض وكثرتها سيزيد من الطلب بالتأكيد ، وان امالنا كبيرة واحلامنا حية . ونحن لانريد ان نقلد احدا ، لكننا نسعى دائما الى الافضل .

مازال نسير على الرمال الناعمة ومايزال نسيم البحر يداعب اوراق الاشجار وهناك عند الشاطىء

● إلى اليمين : المشي رياضة محبة ، والرصيف المشجر فوق الشاطىء يتيح الفرصة لكثير من الناس أتباع رغبتهم بالتنزه سيرا على الأقدام . وقد يفضل الأطفال ملازمة ذويهم وهم يركبون العجلات .

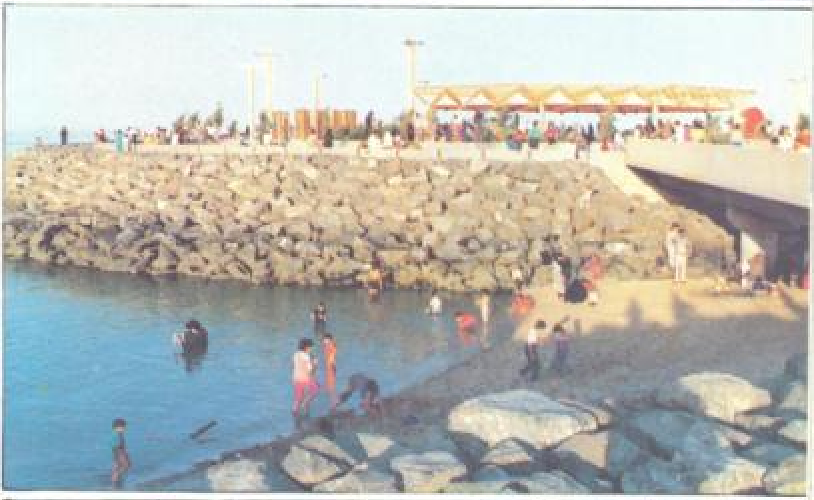

بعيدا عن عيون الناس يسبحون محتمين في ظلال الصخور البازلية المقاومة للأمواج والتآكل التي أحضرت خصيصا من إمارة الفجيرة .

أسفل : منظر عام للجزيرة الخضراء التي تضفي على المكان منظرا بديعا .

في ساعات الصباح الاولى يبدو الشاطىء هادئا ، فيرتاده بعض الناس الذين يجون البحر هادئا دون صخب .

الذهبي (المرحلة الاولى) كانت تلتف مجموعة من الناس حول بائعي الزهور المتجولين على احد الأرصفة ومجموعة اخرى حول لوحات فنية عرضت على رصيف خاص ، وخصص رصيف ثالث لعرض وبيع المصنوعات والحرف اليدوية الكويتية .

وفوق هذه الأرصفة الثلاثة توزع الناس ليحصل كل منهم على اكثر من متعة ، فهم يستمتعون بالبحر وبالرمال ، ويلهو الاطفال بالعابهم ويبحث آخرون عن شيء جديد يمتع كل من جاء للتنزه .

لقد بذلت في المشروع جهود ضخمة واستمرت سنوات عديدة بين اقتراح واستشارة وتصميم وتنفيذ واشراف وهو بلاشك يحتاج جهدا اضخم للادارة والصيانة ليظل أفضل متنفس للناس وليكون صرحا شامخا ومظهر جمال دائم .

ماذا يقولون ؟

كان الشاطىء يضج بالناس الذين جاءوا للاستمتاع بالطبيعة وبالشاطىء والرمال .

قالت لنا احدى السيدات : انه مكان جميل أستمتع به مع اطفالي يوم الاجازة ، فالشاطىء يمتد على مسافة طويلة ويتسع لعدد كبير من الناس ، فلا نجد بذلك ضيقا في المكان ، بل متنفسا جيدا ، يوفر علينا الكثير من نفقات السفر الباهظة فماذا يهم الاطفال سوى اللعب على الشواطىء وبناء قصور من رمال ؟! نحن لم نعتد السفر كل عام ، وبذلك فاننا من رواد مرافق شركة المشروعات ، وان كنا نجد في هذا المكان رحابة اكثر ، ويقول احد الشباب : اجمل مافي هذا المكان انه يترك الناس على راحتهم ، فلا ضغوط تقيدهم او تحد من استمتاعهم بالشاطىء ، وقد انشأت شركة المشروعات السياحية مطاعم ضخمة ، وتركت لمن لايناسبهم ارتياد هذه المطاعم الحرية في اختيار ما يناسبهم من طعام ، ولكن المكان يفتقر الى المقاهي الخفيفة التي تقدم المرطبات والمشروبات الساخنة ، بحيث يتمكن الفرد من ان يرتاح قليلا في هذه المقاهي ويستمتع بالمكان دون ان يضطر للجلوس على الرمال او جلب ما يحتاجه من طعام وشراب من البيت .

لقد زرت كثيرا من الواجهات البحرية في اكثر من دولة اوروبية ، حيث كانت المقاهي تمتد على طول الشاطىء تغص بالناس الذين جاءوا للراحة والاستجمام .

يقول السيد فؤاد الشريف مدير احدى الشركات : يعجبني في هذا المكان بعده عن الشارع العام ، فلا يصلنا ما تنفثه عوادم السيارات الملوثة للهواء ويضمن بقاء اولادنا بعيدا عن الخطر .

كانت رحلة ممتعة ، غادرنا بعدها المكان ومايزال الناس جالسين فيه وكأن يومهم مازال في بدايته . □

في الأسواق

كتاب العربي

الثامن عشر

المسرح العربي

بين النقل والتأصيل

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

المطروقات النحاسية

عند الفنان محمد رزق

بقلم : محمود بقشيش

إن التعبير عن هموم الانسان ومعاناته ـ هزيمة وانتصارا ـ بالكلمة ، والحركة ، والنغمة والريشة قديم ، وللعرب فيه تراث عريق .
أما تجسيم هذه المعاناة بدقائق خلجاتها ، وانفعالاتها ، على النحاس فتجربة حديثة ، برع فيها قلة من الفنانين ، يتصدرهم الفنان محمد رزق بتجربته الثرية .

بدأ محمد رزق « حياته الإبداعية محاولا كتابة الشعر ، والقصة ، والعزف على الناي . كان ذلك في قريته « سيف الدين » بمحافظة دمياط التي يتحدث عنها حديث العاشق قائلا : « إن اللون الأخضر ، وسلاسة العلاقات البشرية ، كانا يفعمان حياتي بأحلام مستقبل الوردي في « القاهرة »

كالالتحاق بالجامعة ، والنجومية الأدبية ، وفي « القاهرة » تبخرت الأحلام ، ولم التحق بالجامعة ، بل التحقت بمصنع الحديد والصلب عام ١٩٥٧ ، وتعطلت محاولاتي الأدبية تماما ، وارتبكت خططي حتى عام ١٩٦١ » .

الصدمة والتحول

كانت صدمة « القاهرة » كبيرة ، فقد حوصر بكل ما هو مناقض لرحلة القرية ، فالقاهرة مدينة عدوانية ، وإن مارست العدوان بطريقتها الخاصة غير أن الشاعر يقول : « وداوني بالتي كانت هي الداء » كان نافعا له ، فتخفف من النفور الى نوع من التعايش ، ومع الاعتياد استخرج من ظروفه الجديدة ممكنات جديدة للابتكار ، فاستبدل اللون الأحمر ـ لون النار ـ باللون الأخضر ، واستبدل « ديناميكية » التحولات الصناعية بالاستسلام « السكوني » للحياة في القرية ، وشغف بشرائح النحاس الرقيقة ،

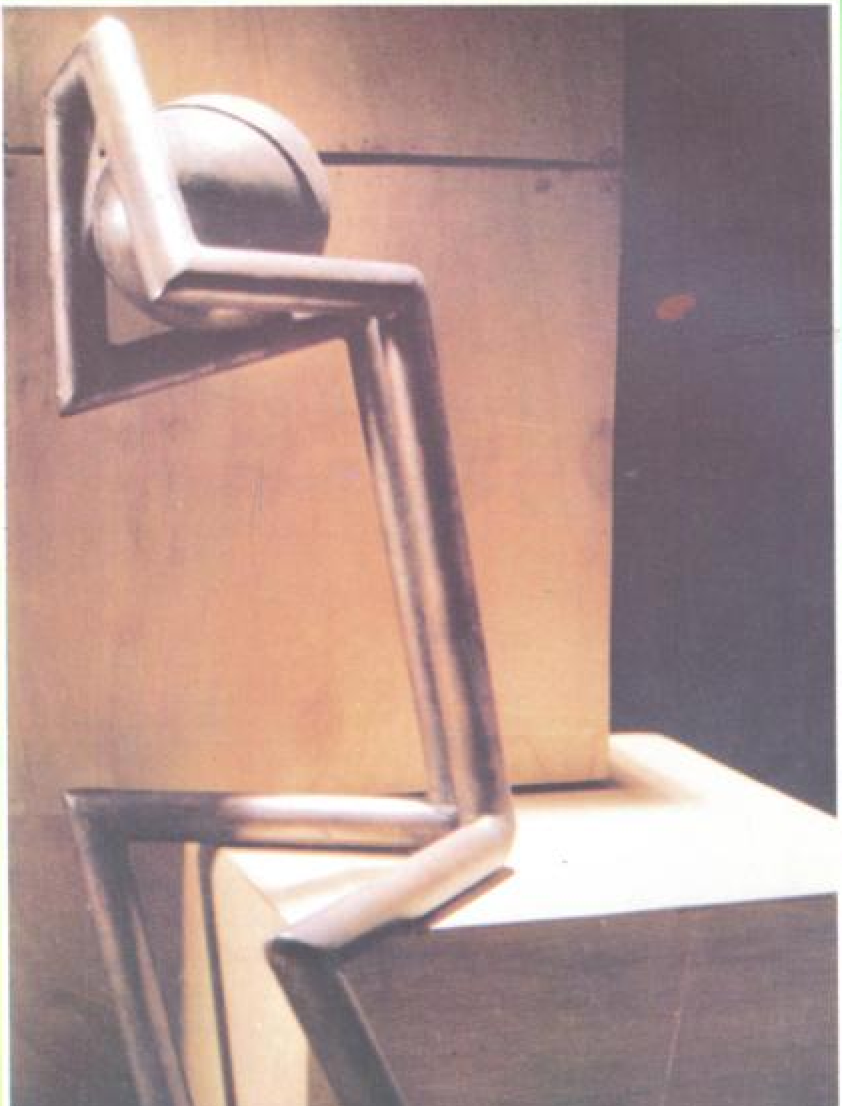

المهزوم .. مواسير نحاسية مع كرة (عام ١٩٧٨)

والصلبة ، وأغرته بالاقتران بها ففعل . ومنذ ذلك الحين ظل وفيا لها ، وما أن يُذكر أحدهما حتى يتداعى الآخر الى الذاكرة . وجاء عام ١٩٦٢ ، وكان عاما محوريا بالنسبة له ، ففيه قرر الالتحاق بكلية الفنون الجميلة (القسم الحر) ، وهناك التقى بفنان النحاس الرائد (جمال السجيني) . يقول رزق عن تلك المرحلة : « توجهت الى السجيني ، كي أتعلم منه تقنية النحاس ، غير أنه نصحني بأن أتعلم هذا وحدي ، فالفن لا يلقن ، فتركت الكلية ، ولم أمض بها أكثر من ثلاثة شهور ، وتوجهت الى شارع « خان الخليلي » لمتابعة الصناع المهرة ، والتعلم منهم . وأستطيع التوكيد بأن هذا الشارع كان أستاذي الحقيقي » . والعجيب أنه حصل في نفس العام على جائزة الدولة التشجيعية في النحت . وكان هذا الاعتراف بموهبته دافعا قويا لمواصلة الانتاج الفني ، وتفرغه له فيما بعد تفرغا كليا .

قوبلت معارضه الخمسة التي أقامها باستحسان النقاد والجمهور ، ولم يحتف به نقاد الفن التشكيلي فقط ، بل نقاد الأدب أيضا ، فكتب عنه محمود أمين العالم يقول : (محمد رزق يطرق النحاس طرقات من نوع آخر ، نحس فيها بألحان الآلات الموسيقية إحساسا بصريا ، .. نحس بالمطروقات دراما ، حية ، تعبر ، وتفيض بأعماق التجربة البشرية ، ولهذا ففي مطروقاته قصة أحداث بشرية كبيرة ، قد تعبر عنها لفتة سريعة ، أو حركة مبتكرة ، أو إيماءة موحية . ومن حركة الأشياء ، ومن بناء الأشياء ، من موقف الانسان إزاء الأشياء يصنعها ويصوغها ويسيطر عليها ، ومن العمل ، والصناعة ، والإرادة الإنسانية ، يستخلص محمد رزق ألحانه ، ثم يروح يصبها ، بل يستخرجها بطرقاته الموهوبة على صفحة من نحاس) . وكتب الفنان الناقد « بيكار » : « إن ارتباط الفنان « محمد رزق » ببيئته ، وأبناء بلده ارتباط جذري ، ينعكس في رشاقة الخطوط التي تتماوج ، وتتلوى في سيولة الموال ورقة الناي ، وتبرز آثار المطرقة فوق السطح كأنها إيقاع نقرات الدفوف والطبول ، تزف المشخصات الراقصة فوق

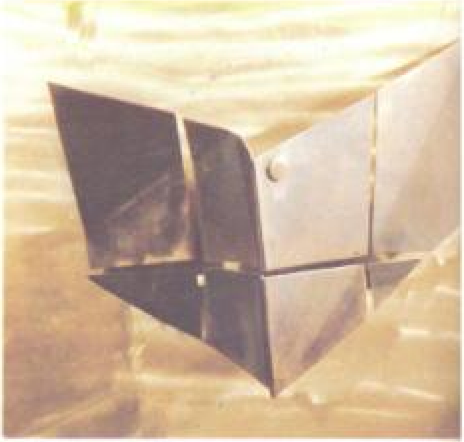

الحرية من ثلاثية الحرية .. طائر ممزق (عام ١٩٨٥)

وجه مبتسم .

السطح المعدني اللامع » . وقال عنه الفنان « حلمي التوني » : « تلاحظ فرقا كبيرا » شاسعا بين أوائل الأعمال التي تتسم بالخطابية والتزويق والتي يقل فيها العمق والاحساس الفني ، وبين أعماله الأخيرة التي بلغ فيها درجة كبيرة من البلاغة الفنية ، والتعبير الرقيق المرهف » . ومهما كانت الآراء التي أبداها نقاده ، ودرجة اختلافهم في التلقي والتفسير ، فقد اتفق الجميع على أهمية هذا الفنان ، الذي لم يتلق ـ

ربما لحسن الحظ ـ أي تعليم منهجي ، ولم يحصل على شهادات ، ولم يتسلح إلا بموهبته وإصراره ، فقدم إضافة في مجال المجسمات النحاسية ، التي بدأها الرائد ، جمال السجيني . وأضيف اسمه الى قائمة موهوبي جيل الستينيات ، الذين لم يحصلوا على شهادات عليا ، ولم يتوظف بعضهم في وظائف حكومية أمثال : عبد الرحمن الأبنودي ، وسيد حجاب ، وأمل دنقل ، وابراهيم فتحي ، وعبد الرحيم منصور ، ويحيى الطاهر عبد الله ، وجمال الغيطاني ، وابراهيم أصلان ، وخيري شلبي ، ويوسف القعيد .

تنوع العطاء

إن فطرته ، وسماحته الريفية ، تنعكسان على مجمل رحلته الفنية . فتطالعنا أعماله ذات الطابع التعبيري الرمزي الحريف (في مجملها) بانعكاس مايدور في الواقع الاجتماعي ، والسياسي المصري ، انعكاسا صادقا ، وتحفزنا في كثير من الأحوال الى الصمود والتحدي ، ويشترك مع « السجيني » في كونهما يعبران عن قضايا الواقع المصري ، ويختلفان في طريقة التناول ، ففي الحين الذي يتجه فيه « السجيني » ـ في مطروقاته النحاسية ـ الى « تحميل »

الشحنة التعبيرية ، والحرص على الأناقة ، مستعرضا قدراته الأكاديمية في بناء الشخوص ، يواجهنا « محمد رزق » مواجهة مباشرة بأشكال محمومة ، لا تتوقف بنا عند حلية مهذبة ، بل تتنوع في عطائها ، ودرجة بلاغتها . كانت أعماله في مرحلة الشباب عالية النبرة ، ثم صارت في مرحلة الكهولة ترجمة لقول

« النفري »
« إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة » . وتحكي أعماله حكاية الآمال العريضة التي عاشها جيل الستينيات ، ثم سقوطها مع الأحلام الوردية .

يختلف « رزق » عن كثير من الفنانين المصريين في رفضه الالتزام بقالب جامد متكرر ، فمراحله الفنية تزدحم بالتداخلات الأسلوبية ، ولا تحدد مراحله ملامح حاسمة ، بل تتعايش الأساليب في إطار واحد ، ففي معرض واحد نلتقي بأعمال تعكس تعبيرية حريفة ، الى جوار مستنسخة إسلامية أنجزها بقصد دراسة لون من ألوان الفن الاسلامي ، الى جوار أشكال تجنح الى التجريد ، وهكذا . وفي تقديري أن رفضه أن يوضع في قالب يعرف به يتفق مع حرصه على أن يكون صادقا مع نفسه .

الانسان هو الغاية

وربما كانت وجهة نظره أن الحياة أكثر تنوعا وخصوبة من أن توضع في تابوت فني ، وبالتالي فتنوع الأساليب يعني تنوع زوايا النظر للحقيقة الواحدة ، وبالنسبة لمثال النحاس فإن الحرص على التكرار يضعه في إطار صانعي القدور . وعلى الرغم من التداخل الأسلوبي ، فإن موضوعاته ثابتة ، محورها الانسان ، شاعرا متألقا أو حزينا ، فلاحا صامدا أو ثائرا ، وريفية سعيدة ، أو وجها غاضبا ، أو نازفا أو مشوها . ومن موضوعاته الرئيسة الأخرى : الجياد الجامحة أحيانا ، المنكسرة أحيانا أخرى والصفة الثابتة في مجمل أعماله هي « الحركة »

التي تأتي تارة من الخطوط المتماوجة والمتصلة ، وتارة عن طريق التحليل التكعيبي ، حيث الانتقالات المفاجئة بين النور والظل ، وبين الانسان والجياد . وتظهر بعض الحيوانات الأخرى ظهورا غير متكرر ، مثل الديك ، والعنزة ، والثور .

من أهم أعماله المعبرة عن محنة الوطن مجسمات ثلاثة ، تحمل العناوين الآتية : « الصمود » : وهي تلخص الشعب في وجه ريفي صريح ، ممتلىء بالغضب والإصرار ، متحفز للمنازلة ، ويرتكز

« الوجه » على رقبة عملاقة ، غنية بالتضاريس ، يقع في مستويات خطية متداخلة . وتقوم الطرقات المتنوعة في إثراء السطح ، وتحفل اللوحة بتفاصيل دقيقة ، ومفاجآت غير متوقعة في بناء الوجه بشكل خاص ، فهو لم يقم بتحليل شكل بنائي واقعي ، يلتزم النسب التشريحية للإنسان ، لكنه أنشأ وجها ينتمي الى « العمارة » ، وقد أعانه الأسلوب التكعيبي في الأبنية التحريفية الحادة ، كالتحليل المثير لمنطقة أسفل الفم والذقن ، والحفرة على الجبهة والأسارير . وتتسع المجسمة لكثير من الإيحاءات القصصية . وقد أدرك الفنان ذلك الطابع ، فقدم ما يشبه النقد الذاتي ، تمثل في عمل آخر يحمل نفس الاسم ، ويختلف في التاريخ ، وطريقة المعالجة ، فقد نفذ « الصمود الجديد » عام ١٩٨٥ بطريقة الطرق ، ونفذ العمل الثاني عن طريق السباكة .

يرتبط العمل الأول بإيحاءات رمزية مثل : الشعب المصري ، المزارع الشجاع . السمح ، يحاكم « الهزيمة » ، ويدعونا الى التحدي . بينما يمس « الوجه » الثاني تجسيدا لمحنة إنسان عصر العنف .

وتنتمي المجسمة الأولى الى النحت البارز ، والثانية مسبوكة تنتمي الى « النحت الفراغي » ، بل هي أقرب الى العمارة ، بهندسيتها الصارمة ، ومسطحاتها الصريحة ، وملامسها المعمارية ، غير أنه يفاجيء هذا الرسوخ المعماري بزلازل يفصل المقطع الأعلى من الفم عن المقطع الأسفل منه ، ويمزق جزءا من الوجه بحدة (كان يريد لهذا التمزيق أن يمتد ، غير أن مساعده صاح : قلبي لا يطاوعني .. لا أستطيع مواصلة التشويه !) .

صمود ممزق

إذن فصمود الثمانينيات صمود ممزق ، مشكوك في أمره ، على النقيض من صمود الستينيات ، القائم على مواجهة الخسارة التي كان يظن أنها عارضة .

ويحتل موضوع « الخيول » مركزا مرموقا في إنتاجه الفني ، ويأخذ نفس التوجهات الأسلوبية ، التي صاغ بها بقية موضوعاته ، كالتقلب بين شاعرية الأقواس ، والتموجات ، وبين صلابة الخطوط المستقيمة ، وصراحة المسطحات العريضة . وبعض خيوله تسيدها الأقواس ، والمنحنيات ، والخطوط المتصلة ، والأشكال المقعرة ، والمحدبة المموسقة ، وبعضها الآخر تسيده الخطوط المستقيمة الحادة .

وإذا تأملنا خيوله الجديدة فإننا نكتشف أنها تسجل مايلم بالوطن من مصائب ، فشموخها القديم قد انكسر ، وغزاها الجفاف . وتتردد نفس الحالات الوجدانية في موضوعات أخرى كالشاعر الشعبي الجوال ، حيث تتراوح حالته بين الانطلاق ، والانطواء ، كما تتراوح بين الإغراق في التفاصيل والاكتفاء بما هو جوهري ، . غير أن كفة التلخيص الذي يقترب من التجريد قد رجحت في مراحله الأخيرة ، وبشكل خاص في مجموعة أعمال تعتمد اعتمادا كليا على حوارية المواسير المستقيمة ، والكرات المعدنية ، وهي من الأعمال القليلة التي تجمع فيها الخطوط المستقيمة ، والخطوط المنحنية .

لقد أعطانا بمواسيره خطوطا صريحة ، وحوارا ذكيا بينها وبين الفراغ الناشيء عنها ، مع إعطاء الإيحاء في نفس الوقت ، ببعض الوحدات الزخرفية الإسلامية ، وقد نجح في استنطاق مواسيره تعبيرات متباينة ، ففي مجسمة بعنوان « المهزوم » يواجهنا بشكل إنسان يتلقى ضربات من مصدر مجهول ، وفي ثنائية « انسجام » نشعر أننا أمام رقصة « فالس » لعاشقين ، وهكذا ، تختفي الإشراقة القديمة في أفراحه الريفية ، والتفنن بالعمل ، والخيول الطليقة ، ومواويل المغني الشعبي . يختفي كل هذا ، مستسلما للحزن ، وتتكسر الخيول ، ويتمزق المغني ، وتغيب ليونة الجذوع النسائية ، ويغلب عليها الجفاف ، والحدة ، وتشبه رءوس حراب متقاتلة ، بعد أن تلاشى الوئام والمحبة ، وتاه الحلم الوردي ، ولم يبق غير الانطواء والإجادة في الأداء □

الوطواط

الرؤية سماعًا

بقلم : نبيل الجهمي

يؤدي الجهل حتما إلى الخشية ، وجهلنا بالوطواط سبب من أسباب خشيتنا منه ، وبالتالي الصاقنا عدداً لايستهان به من التهم به ، دون نسيان ما تركته المعتقدات القديمة من آثار في مخيلتنا تجاهه .

وعلماء الطبيعة في دراستهم له يؤكدون بأن بعضه ذو فائدة للإنسان والطبيعة ، ومصاص الدماء منه قليل ، لكنه موجود .

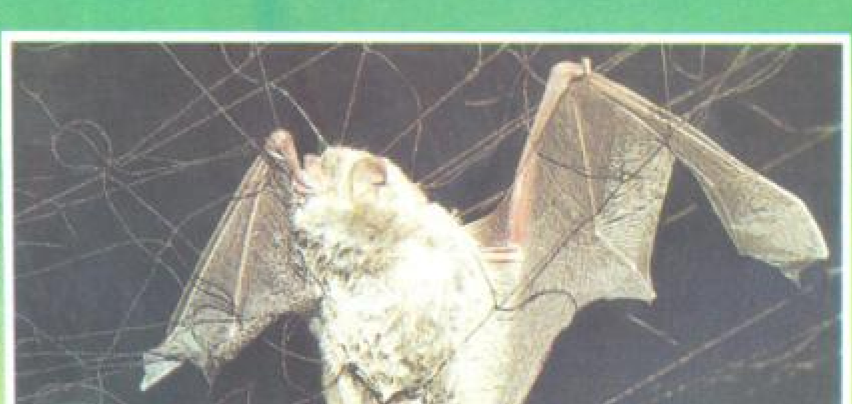

عينا الوطواط وأذناه وأنيابه كما تبدو في الصور المجاورة .

تعد قصة (الكونت دراكولا) قاطن بلاد ترتزسلفانيا التي كتبها الانجليزي « برام ستوكر » ملخصاً لكل المعتقدات القديمة ، إذ يختلط في (دون جوان الليل) الدم بانعدام الأخلاق .

وحين عالجت افلام توم براونتغ ، ومورنو ، وترانس فيشر ، وبولانسكي موضوع دراكولا سينمائيا كانت معظم تلك الأفلام تشبه دعاية سيئة الصنع للكنيسة ، إذ أن دراكولا يرتعد أمام الصليب ، وينتهي منتحرا بدق أخشاب في قلبه . لكن السينما على الرغم من ذلك جسدت بالصورة شكلا لدراكولا ، وأحاطته بالخفافيش من كل جانب بل وفي بعض الأفلام كان الكونت نفسه يتحول إلى خفاش .

لماذا اختارت السينما الخفاش ؟

حفظت الذاكرة الجماعية لشعوب وسط أوروبا عدداً لا بأس به من الخرافات الدموية ، حيث اختلطت عادات المسيحيين في القرون الوسطى بمعتقدات الشعوب القديمة ، ففي تراث الإغريق ، والفراعنة وروما القديمة ، عدد من الخرافات التي تروى نهوض جثث الغيلان ليلا من قبورها لتأكل أجساد الأحياء وتشرب دماءهم . ومن الغريب أن هنود امريكا الجنوبية ـ في الطرف الآخر من الأرض ـ ينسبون إلى الإله هيكال ، ذي الرأس الخفاشي بعض الأفعال المشابهة .

وألصقت صفة (مصاص الدماء) للمرة الأولى بالخفافيش التي اكتشفت في أمريكا اللاتينية في كتاب التاريخ الطبيعي لبوفون ١٧٦١ م ، في حين تحدث فولتير عن (الأشباح التي تنهض من قبورها لتشرب دماء الأحياء) ـ القاموس الفلسفي ١٧٦٤ م .

كانت أجساد الخفافيش ، ولأزمنة طويلة ، تعلق على مداخل البيوت والمزارع لإبعاد (الأرواح الشريرة) ، لكن ذلك لم يكن كافيا للقضاء على مجاميع هذا الجنس . ومن الغريب أنه منذ أن خفت الحملات البشرية للقضاء عليه ، فإن الخفاش ـ أو بعضاً من أنواعه ـ أصبح مهدداً بالانقراض ، على الرغم من أنه لم يكن قط فريسة مغرية لهواة الصيد ، فالإنسان الذي لا يستخدم البندقية لقتله ، يقوم بالقضاء عليه بطريقة اكثر فعالية ، وهي تغيير مجاله البيئي الطبيعي اللازم للحياة .

ويصل عدد أنواع الخفافيش المعروفة إلى ثمانمائة ، يقطن معظمها المناطق الحارة ، ويعيش ٩٠ نوعا منها في أوروبا ،لتشكل بهذا أكبر نسبة معروفة من الحيوانات (المتوحشة) التي تعيش على أرض العالم القديم . ويجهل سكان المدن الكبرى في معظم مدن العالم أن الخفاش يشاركهم الحياة ، حيث تعيش أسرابه تحت الجسور ، وفي كهوف المنازل أو ثنايا الأسقف . ولا شك أن زائر بعض بلدان آسيا قد لاحظ طيران بعض أنواعه الضخمة وقت الغروب ، في حين لم يفت زائر افريقيا رؤية (عناقيده) الكثيرة المعلقة على أشجار المدن . أما في أمريكا اللاتينية فكثيراً ما تضم أسرابه الطائرة مئات الآلاف ، كسحابة سوداء تعبر السماء .

طائر الليل الراداري

على الرغم من العثور على كثير من بقايا الوطاويط المتحجرة ، ومن بينها تلك التي عثر عليها في كهوف (ميسل) بالمانيا الاتحادية ، والتي يعود تاريخ بعضها إلى خمسين مليون سنة ، فإن ما نعرفه عن أصل هذا الحيوان قليل جدا .

لقد ظهرت أوائل الوطاويط على سطح المحيط منذ ما يقرب من خمس وستين مليون سنة ، وهي تشبه كثيرا الوطاويط المعروفة حاليا . ويتفق معظم علماء الإحاثة* على انحدار الخفاش من آكلي الحشرات البدائية ، لكن لا أحد يعرف الأشكال الوسيطة التي تم خلالها ظهور وتطور بعض الأجهزة العضوية الجانبية التي سمحت لهذه الثدييات بالطيران (السباحي) الذي تمارسه ـ في عصرنا هذا ـ بعض أنواع السناجب المجنحة ما بين شجرة وأخرى ،

* علم الحفريات ـ المستحاثات

بالإضافة إلى تطور جهاز (راداري) عضوي متقدم قادر على بث الموجات فوق الصوتية (هو السونار) واستقبالها ، مما مكن هذه الليليات من الصيد في الظلام التام ، دون خشية منافسة صائدي الحشرات النهاريين كالطيور .

منذ حوالي قرنين لاحظ الايطالي (سبالانزاني) أن الخفافيش لا تصطدم أبدا بالخيوط المشدودة وسط غرفته رغم الظلام الدامس . لهذا قام بتغطية عيونها دون أن يغير ذلك من الأمر شيئا ، وانتهى به الأمر إلى سد آذانها ، ليكتشف أن الوطاويط لم تصب بالطرش فحسب بل بالعمي أيضا . وبعد مضي مائة وخمسين سنة ـ وفي سنة ١٩٣٠ ـ قام الهولندي (ديجكغراف) والأمريكي (غريفن) بحل اللغز نهائيا ، وذلك ببث موجات فوق صوتية لا تدركها الأذن البشرية ، وقياس ردود الأفعال في دماغ الحيوان ، لتتضح لهما القدرة العالية للخفاش على استقبال الصدى بدرجة مقدارها عشرة مليمترات من القطر ، أي ما يعادل حجم الحشرات الصغيرة جدا .

وتتشابه التركيبة العضوية لكل الخفافيش مهما اختلفت أحجامها ، إذ تنبسط أطرافها فيما يشبه اليد الضخمة التي يوجد بين أصابعها غشاء رقيق ويشكل المجموع جناحا . أما الأطراف الخلفية التي تدخل في تركيبة الجناح ، فتنتهي بأقدام مخلبية طويلة تساعدها على التعلق مقلوبة على فروع الأشجار . إذ تنام الخفافيش متعلقة وقد تدلت رؤوسها أسفل أقدامها ، وهذا لا يخفى على أحد .

لكن شكل رأس الخفاش أو سحنته تختلفان من نوع لآخر . فمنها ما يشبه القردة أو الكلاب أو الفئران .. الخ . أما الزوائد الموجودة فوق أنوفها فذات تمددات عريضة ، يستخدمها كالهوائيات ، لاستقبال صدى الموجات الصوتية ، وهي جميعها ذات أنياب حادة جدا . فحذار أن تمسك بخفاش دون احتراس .

يبلغ وزن أكبرها حجما تسعمائة غرام ، ويبلغ وزن أصغر أحجامها غرامين ـ كالفارق ما بين قطة وثور ـ . وبقدر اختلاف أحجامها ، فإن طرق طيرانها تختلف . فأكبرها تلك التي تقطن أوروبا (وهي عريضة الأجنحة ، ويمكن مقارنتها بطيور القيقان التي تتراوح ضربات أجنحتها ما بين عشر ، واثني عشر ضربة في الثانية (١٥/١٦ كيلومترا في الساعة) . في حين تستطيع خفافيش أخرى (أصغر) الوصول إلى سرعة ٥٠ كيلومترا في نفس الفترة الزمنية .

بعض الأنواع ـ كما لمحنا ـ قادرة على الطيران السباحي (أو التحليق فترة دون تحريك أجنحتها) ـ كطائر القطرس وبعضها قادر على الطيران دون التحرك من مكانه فوق زهرة ما ، كخفافيش المناطق الحارة (الجارسة) . وعلى عكس ما يظنه كثيرون ، فإن الخفافيش قادرة على عمل ما تقوم به الطيور ، بل إنها كثيرا ما تتفوق عليها ، فهي في الغالب أخف وأكثر رشاقة من العصافير . ومن الصعب جدا إمساك خفاش بشبكة صيد مثلا ، وهو قادر على التقلب بمقدار ١٨٠ درجة للتعلق على أغصان الأشجار بالأرجل بالاضافة إلى تسلق للأشجار كالقطط ، بل إن بعض الخفافيش قادر على السباحة قفزا على سطح الماء كالأسماك الطائرة . والأدهى من كل هذا قدرة الوطواط على المشي على أطرافه الاربعة ، وعلى المناورة والمخادعة والكر والفر (أرضا) إذا ما استدعت ضرورة الصيد ذلك .

مصاص الدماء

كمعظم الثدييات البدائية ، تنجب الأنثى واحدا في السنة ، فالخفافيش حيوانات تعمر طويلا ، ـ وقد عثر على واحد منها بمنطقة السارث بفرنسا عمره ثلاثون سنة ! ـ ويقرر علماء دراسة التصرف الحيواني أن الخفاش ذو ذكاء وذاكرة متطورين نسبيا ، فهو قادر على التأقلم داخل وسط إنساني ، والتعرف على اسمه إذا ما ناديناه ، بالإضافة إلى تنفيذ حركات معينة . وقد استطاع الباحث الالماني (مارتن ايزنشتروت) مثلا تعويد خفاش على التقاط الطعام الموجود في راحة يده .

في المناطق معتدلة المناخ ، تقضي الخفافيش فترة سباتها الشتوي مقتاتة على الحشرات الصغيرة ، أما في

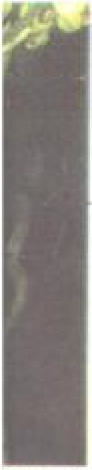

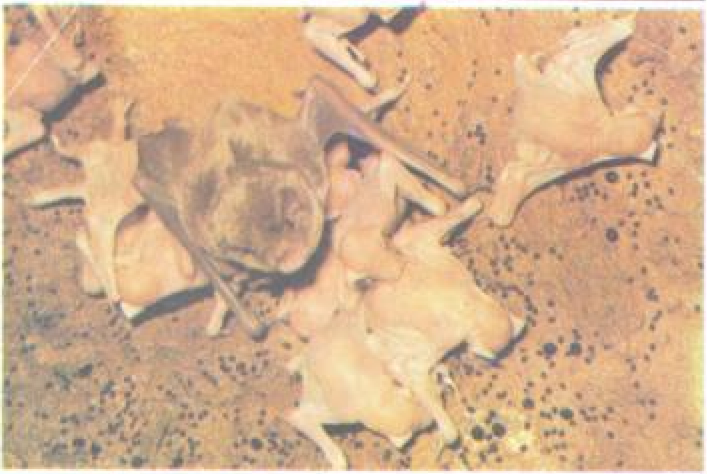

كان يرمز للشيطان في الأعمال المسرحية بالوطواط ، وهذا ما نراه في الصورة المجاورة - وإلى جانبها باحث يحاول تحليل دم الوطواط ، كما يظهر الوطواط بأشكال مختلفة .

المناطق الاستوائية ، فتختلف وجباتها كثيرا ، حسب أنواعها ، فمنها ما يقتات بثمار الفاكهة أو الأزهار ورحيقها ، أو البراعم والديدان والضفادع والعصافير الصغيرة ، بل إن بعضها يأكل الخفافيش الصغيرة .

تعيش في آسيا الاستوائية فصيلة من فصائل الخفافيش تسمى (الشقاحة) أو (آكلة الثمار) ، قد يبلغ حجم بعضها ـ وخاصة في ماليزيا ـ ١٨٠سم ولا تنام هذه داخل الكهوف متوارية عن الانظار ، بل إنها تبقى معلقة على الأشجار طوال النهار ،وعند حلول المساء ، تذهب باحثة عن أشجار الفاكهة ملحقة بها أضرارا كبيرة ، وبخاصة أشجار المانغا والحمضيات ، ولا تملك هذه الفصيلة سونارا يمكنها من كشف الحواجز ، لذا يسهل اصطيادها رغم حذرها الشديد . حيث يقوم السكان المحليون بداياكا ، بمنطقة بورنيو بأكلها ، أما (اللحاسة) ـ وهي نوع آخر يعيش في مجموعات كبيرة بامريكا الجنوبية واستراليا ـ فمتخصصة في امتصاص رحيق الأزهار . واللحاسة خفافيش ضئيلة الحجم ، ذات لسان أطول من جسدها ، ينتهي بما يشبه الفرشاة ، تلعق به الرحيق وهي طائرة متنقلة بسرعة كبيرة من زهرة لأخرى ، لاعبة بذلك دورا طبيعيا أساسيا في تلقيح بعض أشجار تلك المناطق ، كشجرة الحميرة ، ذات الأزهار كريهة الرائحة التي تجذب إليها هذا النوع من الخفافيش . والحميرة (بضم الحاء) : شجرة استوائية عريضة الجذع في ثمرتها لب يؤكل (المنهل) . رغم ذلك فإن معظم خفافيش المناطق الاستوائية تتغذى على اللافقاريات التي تقوم باصطيادها مطاردة أو مباغتة ، حيث يقوم الخفاش بالتربص في مكان ما ، ثم بفضل سوناره يبدأ في بث موجاته فوق الصوتية بحثا عن فريسته في نطاق قطر الصدى ، وبمجرد عثوره على واحدة يقوم بالهجوم عليها فجأة ، وابتلاعها بعد شلها تماما بفضل أنيابه . ويتخصص بعض هذه الخفافيش في اصطياد العقارب السامة التي يهاجمها بسرعة كبيرة دون منحها أي

فرصة للسعه ، لكن يحدث أحيانا أن تقع (حرب رادارات) حقيقية بينه وبين بعض الفراشات ، فلقد اكتشف أن بعض أنواع الفراشات قادرة على رصد الموجات فوق الصوتية التي يبثها الصياد ، وأن بعضها قادرة على بث نفس الموجات التي يستعملها لتشويش موجات الخفاش ، والتمكن من الهرب منه .

ويطرح المتخصصون تساؤلا عن مدى الخسائر التي يلحقها الخفاش بعالم الحشرات بالمناطق الحارة إذ تستحيل الإجابة علميا على وجه الدقة عن هذا السؤال ، لكن قدرت كمية الحشرات التي تستهلكها مستعمرة خفافيش واحدة (عدة آلاف) بثلاثة أطنان من الحشرات في الليلة الواحدة .

يوجد إلى جانب الخفاش اللحاس ، الخفاش (الصياد) الذي يتغذى على سمكات البرك والأنهار الصغيرة ، إذ تسمح له مخالب أرجله بالتقاط الأسماك الصغيرة التي تقفز على سطح الماء بين الفينة والأخرى . ويحدث أحيانا أن تأكل الضفادع الخفافيش الصغيرة التي قد تسقط على سطح مياه البرك صدفة ، إلا أن الضفادع نفسها تشكل وجبة شهية لبعض أنواع خفافيش أمريكا الجنوبية والهند .

وهي قادرة على اكتشاف أماكنها عند قيام ذكور الضفادع في البحيرات بالنقيق لاجتذاب الإناث .

وكثيرا ما يحدث أن تجد بالهند كهوف خفافيش مليئة بجلود الضفادع وأفخاذها ، إذ يبدو أن الخفاش لا يحب أكل الأفخاذ التي يشتهر الفرنسيون بتذوقها وأكلها . إن خفافيش الهند آكلة لحوم شهيرة ، وهي تتغذى على الفئران ، بعد أن تقوم بقتلها عضا في رقبتها ، وتتركها مقلوبة الجلد بعد مصها ، كما أنها تأكل العصافير الصغيرة ، وبعض القواضم وعددا من الخفافيش . ويعيش على شواطىء نيوزيلندة نوع من الخفافيش الضبعية التي تفضل أن تقتات على الجثث . إلا أن اغرب عادات الخفاش الغذائية ، بطبيعة الحال ، هي تلك التي يختص بها الخفاش (مصاص الدماء) ، وهو نوع يعيش في امريكا الاستوائية ويمتص دم الثدييات .

على خلاف ما يعتقده كثيرون ، فإن جسم مصاص الدماء ضئيل ، إذ يبلغ وزنه ـ في المتوسط ـ ٣٠ غراما ، وهو ذو شكل قبيح ، وفك ضخم ، وعلى قدر كبير من الذكاء . يخرج ليلا باحثا عن الثدييات ، كالأبقار والخنازير على الأخص ، وعند عثوره على ضحيته يحط على ظهرها ، ويجرح جلدها بأنيابه التي تشبه موسى الحلاقة ، ثم يضع شواربه على الجرح ، ويبدأ في مص الدم كالمضخة . وتوجد بلعابه مادة ضد تجمد دم الحيوان ، فيبقى الجرح مفتوحا عدة ساعات ، بل عدة أيام في بعض الأحيان ، الأمر الذي يدفع بالخفاش إلى الرجوع تكرارا إلى ضحيته الجاهزة للاستهلاك . وهو شره لا يشبع ، فقد يمتص كميات هائلة من الدم ، وبالدرجة التي لا يستطيع معها الحركة بعد ذلك . ويتحتم عليه حينئذ أن يمضي فترة الهضم قرب ضحيته في دعة وسلام !

إن الخطر الحقيقي الذي يشكله هذا الخفاش على الثروة الحيوانية لبعض البلدان يكمن في أنه ناقل جيد لبعض الأمراض (الحمى) ، فقد مات عشرات الفنزويليين محمومين ، لاستهلاكهم لحوم الأبقار المصابة ، كما مات لنفس السبب ما يقرب من ١٥ مليون بقرة . لهذا وجب التخلص منه ، إلا أن العثور عليه صعب لذكائه الشديد ، وكثيرا ما يصعب التمييز بين مصاص الدماء وخفافيش أخرى غير ضارة يتم قتلها اقتناعا بأنها مسببة الداء ، ولكن لا يوجد هذا الخفاش إلا بامريكا الاستوائية .

السلوك الاجتماعي للخفاش

لا يتجاوز عدد أنواع الخفافيش التي درس سلوكها بطريقة علمية جيدة اثنى عشر نوعا .

والوطواط ذو حياة اجتماعية منظمة ، وهو حيوان لا يعيش إلا في مجموعة ، وإن كان يصطاد وحيدا ـ

أحيانا ـ وفي تكساس مثلا يمكن رؤية بعض أنواعه التي تتجمع بالملايين ، والتي تبدو للناظر عند خروجها من مكان إقامتها كبركان في حالة هيجان .

وفي مناطق معتدلة المناخ . يعيش ذكر الخفاش منفصلا عن أنثاه ، حتى حلول موسم الإخصاب .

وتبدأ الإناث عند حلول فصل الربيع في تهيئة أماكن وضع الصغار ، وتربيتها وحمايتها ، ولا يحق للذكر البقاء في تلك الأماكن بمجرد انتهاء فترة الاتصال الجنسي . في حين تعتنق خفافيش امريكا الاستوائية

نظاما اجتماعيا غنيا عن التعريف ، هو نظام الحريم الذي يسيطر فيه ذكر واحد على ما يقرب من خمسين أنثى ، إلا أن فترة سيادة الذكر هشة لكثرة منافسيه ،

وهي تنتهي عند اللحظة التي تبدو فيها إصابته بالضعف أو الإرهاق ، ليحل محله منافس جديد .

وككل الثدييات تلد أنثى الخفاش وترضع أطفالها ، وهي التي تقوم باختيار أب المستقبل لإخصابها ، عملا بقانون الطبيعة الأساسي « استمرارية حياة النوع الحيواني » . وذلك بتحليقها بين مئات الذكور الذين يطلقون صرخاتهم الحادة ،

لتختار فجأة واحداً من بينهم ، ويحق لنا أن نتساءل عن أسباب اختيارها لذلك الذكر بعينه من بين بقية المجموعة . إن السبب يرجع ببساطة إلى قدرة الأنثى على معرفة الذكر الواصل ـ في تلك الفترة ـ إلى قمة الدورة الإنتاجية المؤهلة للاخصاب ، ففترة

الإخصاب هي أهم مرحلة من مراحل حياة الحيوان ، لأنها تسمح له بأداء دوره الرئيسي في استمرارية وجود نوعه على سطح الأرض ، لكن

الحيوان يمر بعدة مراحل أثناء دورته الحياتية ، إذ بمجرد ولادته يتعلق بجسم أمه التي ستصبح سريراً له ، وهو مزود منذ ولادته بأظافر حادة ، رغم أن

جلده يخلو تماما من الشعر ، وبعد مرور عدة أيام تقوم أمه بتركه مع بقية صغار المستعمرة عند خروجها للصيد ، وهي قادرة على التعرف عليه عند عودتها

بصرخاته الضعيفة التي تقوى شيئا فشيئا بمرور الأيام ، فتنمو جهازه الصوتي يعني أيضا نمو سوناره

وقدراته على استقبال الموجات فوق الصوتية وبثها ، وبعد ذلك يبدأ الصغير في الطيران متبعا أمه التي تقوم بقيادته بتلك الموجات . حتى يتمكن الخفاش الصغير من الطيران والصيد وحيدا بعد مضي ثمانية أسابيع من يوم ولادته .

الخفاش : حيوان مفيد !

إن إدراك الإنسان العصري للفوائد الجمة التي يؤديها هذا الحيوان (المظلوم) للطبيعة لا يرجع في الواقع إلا إلى السنوات القليلة الماضية ، إذ عرف الباحثون دوره الرائع في استمرارية حياة غابات بأكملها ، فأنواعه من آكلة الثمار تحلق حاملة وجبتها في نفس الوقت الذي تقوم فيه بنثر حبوب اللقاح النباتية فوق أماكن طيرانها ، دون نسيان دورها الفاعل في القضاء على أعداد هائلة من الحشرات والديدان والعقارب الضارة ، ودون نسيان استفادة علم الفيزياء النظرية من التجارب والملاحظات التي أجريت على سونارها ، فقد أعطت دفعات علمية تقدمية رائعة في فهم ما فوق الصوت وتطبيقاته .

ولربما حل اليوم الذي سيعتبر فيه الإنسان الوطواط حيوانا مفيداً ، ويكف عن وصمه بأسوأ الصفات ، ولينتهي كمصاص دماء يملأ ليالي الكثيرين بالكوابيس المزعجة .

أيضاً تعني كلمة خفاش في اللغة العربية ضعيف النظر ، في حين تعني كلمة وطواط الضعيف الجبان من الرجال ، لكن الخفاش ليس بسيء السمعة في معظم الحالات ، فلقد جاء في (لسان العرب) للعلامة ابن منظور :

قال أبو عبيد : ويقال إنه الخطاف (بضم الخاء) ، قال : وهو أشبه القولين عندي بالصواب لحديث عائشة ، رضي الله عنها ، قالت لما أحرق بيت المقدس : كانت الأوزاغ تنفخه بأفواهها ، وكانت الوطاويط تطفئه بأجنحتها . □

بالهمس .. باللّمس .. ولكن بدون آهات .

صوتها مثل الهمس ..
وتعمل فقط باللمس ..
غسالة الصحون ميليه ،
لها سبعة برامج إلكترونية
تختارين منها ما يناسبك .
صوتها خافت لدرجة أنك
لن تسمعيها وهي تعمل ،
وذلك بفضل العازل الثلاثي
للصوت . وهي تتمتع أيضاً
بقوة جبارة للتجفيف بفضل
نظام turbo-thermic
drying
غسالة الصحون ميليه ..
تزيل جميع همومك
فلا آهات بعد اليوم .

Miele

اختيارك لمدى العمر .

شركة طه حبيب أخوان
تلفون: ٨١٦٥٩٠ تلكس: ٢١٠٤٠
ص.ب: ٢٠٥٨ ، الدمام

يوسف بن يوسف فخرو ذ.م.م
تلفون: ٥٣٢٩٢٦ تلكس: ٨٥٤٥٠
ص.ب: ٢١٤ ، البحرين

مصطفى حسن وشركاه
تلفون: ٢٢٦٨٨٥ تلكس: ٣٣٦٥٤٣
ص.ب: ٥٤٠١ ، حلب ، سورية

مؤسسة عاطف ...
تلفون: ٤٢٦٢٠١٠ تلكس: ٤٢٣٥
ص.ب: ٦٥١٠ ، الدوحة ، قطر

[redacted] تلكس: ٨٧٨٧
[redacted] ب: ٥٢٦٠ ، البحرين

عبد العزيز عبد المحسن الراشد
تلفون: ٢٤٤٣٠٢٢ تلكس: ٢٢٠٦٣
ص.ب: ٢٤١٠ صفاة ١٣٠٠٣ الكويت

مؤسسة الكتب الفنية والتجارية ...
تلفون: ٧٩٤٩١١ تلكس: ٣٠٢٢
ص.ب: ٥٢٠ ... سلطنة عمان

مؤسسة داكيم
تلفون: ٨٩٩١٠٩ تلكس: ٤٠٤٢٦
ص.ب: ٩٠٠٤٤١ ...

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

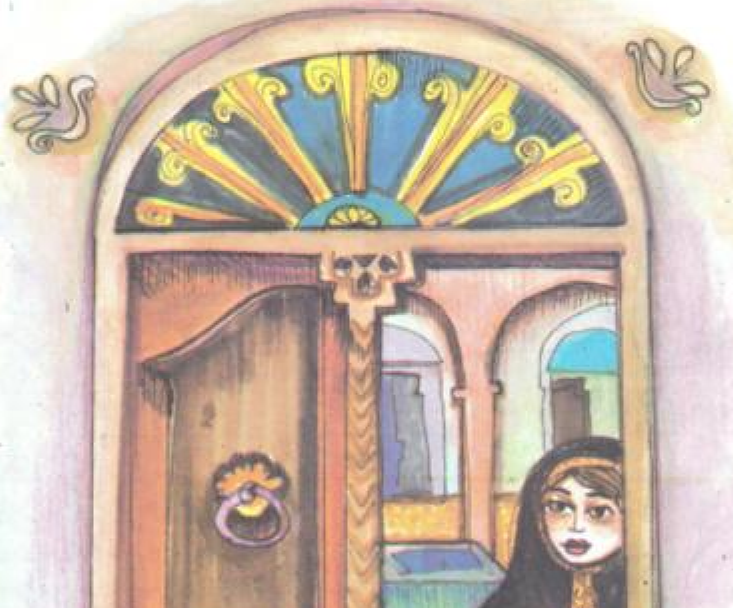

البيت الكويتي القديم..

تعبير عن البيئة وظروف المجتمع

العربي - العدد ٣٥١ - فبراير ١٩٨٨ م

البيت الكويتي القديم

تعبير عن البيئة وظروف المجتمع

بقلم : الدكتور غانم سلطان

« كان المدى هو الصحراء من جهة ، والبحر من جهة ثانية ، وعلى شاطىء البحر استقرت الحياة وازدهرت ، وفرضت الصحراء والبحر شكلا للحياة ، فامتهن الناس مهنا بعينها ، وسادت تقاليد وعادات وأنماط حياة ، هي نتاج للبيئة وتأثيراتها وتفاعل الانسان معها . وهذه محاولة لقراءة أثر البيئة والمجتمع على مظهر من مظاهر العمران » .

تتحدد أنماط الحياة الاجتماعية في أي مجتمع بعدد من العوامل ، وتلعب البيئة بظروفها دورا مهما مؤثرا . فالبيئة هي التي تحدد شكل النشاط الاقتصادي ، وهذا بدوره يسهم بشكل فعال في نوع العلاقات الاجتماعية ، وتحديد مكانة التقاليد والعادات السائدة في أي مجتمع وأنماطها .

ولا تنفصل هذه (الأسباب النتائج) عن أثر البيئة بمعناها الجغرافي (التضاريس والمناخ) ، فنشاط بلاد السهول الاقتصادي غيره في بلاد الجبال ، ومدن السواحل غير مدن الصحراء ، والبلاد الممطرة غير بلاد الجفاف ، وهكذا .

ولا يخرج المجتمع الكويتي عن هذه القواعد التي صاغها الاجتماعيون لفهم البلدان وتحليلها ، فقد أثرت البيئة - بشكلها الجغرافي المباشر (التضاريس المناخ) - في اختيار النشاط الاقتصادي وتحديده ، فكان لعناق البحر بالصحراء أكبر الأثر في اتجاه النشاط الاقتصادي الأغلب إلى الصيد والتجارة والرعي ، وكان للمناخ بقسوته الشديدة آثار محددة واضحة في عديد من مظاهر الحياة ، ولعل أوضح أمثلتها كان في العمران ، فبنفس القدر الذي أثر المناخ في تحديد ساعات العمل ومواسمه فحتم البدء مبكرا ، والراحة وقت الظهيرة والهجير ، فقد أثر

المناخ على شكل العمران ونمط البناء .
وإذا كانت المدن والبلدان تقرأ من مبانيها ، ومن شكل البناء وتوظيف المساحات وتصميم المباني ، فإن بيوت الكويت القديمة تعد نموذجا حقيقيا لعلاقة البيئة بالحياة الاجتماعية ومظاهرها المختلفة .

المناخ وأثره على العمران

من المعروف أن العناصر المناخية المؤثرة على العمران هي الحرارة والرياح والأمطار ، فبالنسبة للحرارة التي تعتبر من أهم عناصر المناخ ، فقد أثرت على العمران في الكويت لارتفاع درجاتها معظم أيام السنة . وتبدو شدة الحرارة بصورة واضحة في الكويت إذا نظرنا إلى النهايات العظمى اليومية ومعدلاتها الشهرية ، حيث نجد أن هذه المعدلات ترتفع في معظم شهور الصيف ، وتصل إلى ٤٣°م ، وقد تزيد عن ذلك . وتجدر الاشارة إلى أنه حتى لو وصلت كتل هوائية من ناحية الخليج فإن مساهمتها في تلطيف الجو محدودة ، إذ أن درجة حرارة مياه الخليج نفسها مرتفعة ، ويزيد من الاحساس بحرارة الصيف أنها مقترنة بنسبة مرتفعة من الرطوبة .

أما في الشتاء فتعتدل الحرارة في الكويت بوجه عام ، حيث أن معدلات أشهر الشتاء لا تنخفض عن ١٠°م ، وذلك باستثناء موجات البرد القارص التي تحدث أحياناً ، والتي قد تنخفض درجة الحرارة أثناءها إلى الصفر المئوي أو ربما دونه . هذا ومن الملاحظ أن عدد الأيام التي يرتفع فيها متوسط الحرارة عن ٤٠°م على مدار السنة يصل الى نحو ١٢٤ يوما ، وأن متوسط عدد الأيام التي تنخفض فيها درجة الحرارة عن ١٠°م يصل إلى ٧١ يوما فقط .

من ذلك يتضح أن صيف الكويت طويل وحار ، إذ يمتد من منتصف ابريل وأوائل مايو إلى منتصف سبتمبر تقريبا ، أما شتاؤها فقصير بارد ، يمتد من منتصف نوفمبر إلى أوائل فبراير ، أما الربيع والخريف فلا يكاد يلاحظ وجودهما ، وإن كان الربيع أكثر وضوحا من الخريف . ولعل ما يساعد على ارتفاع حرارة الصيف في الكويت هو قلة السحب وطول النهار وارتفاع مقدار الاشعاع الشمسي بسبب ذلك . وتجدر الاشارة إلى أن للرياح وتغير اتجاهاتها أثره في اختلاف درجة الحرارة بين الصيف والشتاء ، فرياح الشمال تقلل من حرارة الصيف ، لكنها في الشتاء تعمل على جلب السحب والأمطار وخفض درجة الحرارة ، أما الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب على البلاد صيفا فتؤدي إلى ارتفاع نسبة الرطوبة ، أما في الشتاء فهي رياح لطيفة تجلب الدفء .

أما الرياح وهي العنصر الثاني من العناصر المؤثرة في العمران ـ لا سيما في بيوت الكويت القديمة ـ فإن تأثيرها المباشر ملحوظ على العمران في مدينة الكويت القديمة ، والمراكز العمرانية خارج سورها . وتؤثر الرياح على عناصر المناخ الأخرى ، فهي على سبيل المثال تؤثر في اختلاف نسبة الرطوبة بين الجهات الساحلية والجهات الداخلية ، مما يؤثر على توزيع العمران .

رياح وزوابع

تسيطر على الكويت صيفا الرياح الشمالية الغربية ، وهي رياح صحراوية ناشطة شديدة الحرارة والجفاف ، ولا تنافسها في ذلك أية رياح أخرى ، ولشدة حرارتها سميت « السموم » . تستمر الرياح الشمالية الغربية مسيطرة على الكويت طوال فصل الشتاء ، بيد أنه قد يتغير اتجاهها بسبب الاضطرابات التي تصحب الانخفاضات الجوية التي تتكون على البحر المتوسط ، وتتحرك ناحية الخليج العربي ، عندما تهب رياح جنوبية شرقية أو جنوبية غربية ، لكن الرياح الأخرى دون نسبة الرياح الشمالية الغربية .

وتجدر الاشارة إلى أن متوسط السرعة السائدة للرياح الناشطة في الكويت يتراوح بين ١٣ و٣٢ ميلا في الساعة ، ولا يعني ذلك عدم هبوب الرياح بسرعة أكبر من هذا المعدل ، ففي بعض الأحيان تصل السرعة إلى أكثر من ٨٠ ميلا في الساعة . ومن آثارها المدمرة في هذه الحالة اقتلاع الأشجار وأعمدة

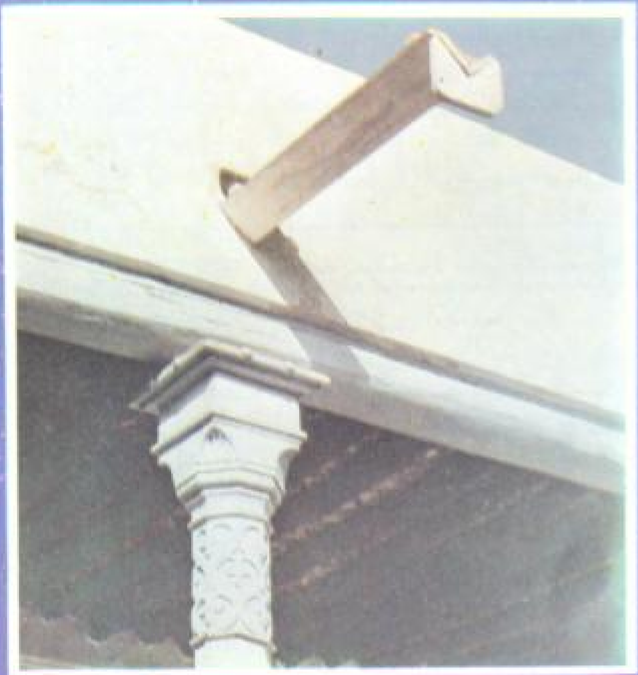

«المرزام» لتصريف المياه المتجمعة فوق اسطح المنازل في البيوت التقليدية

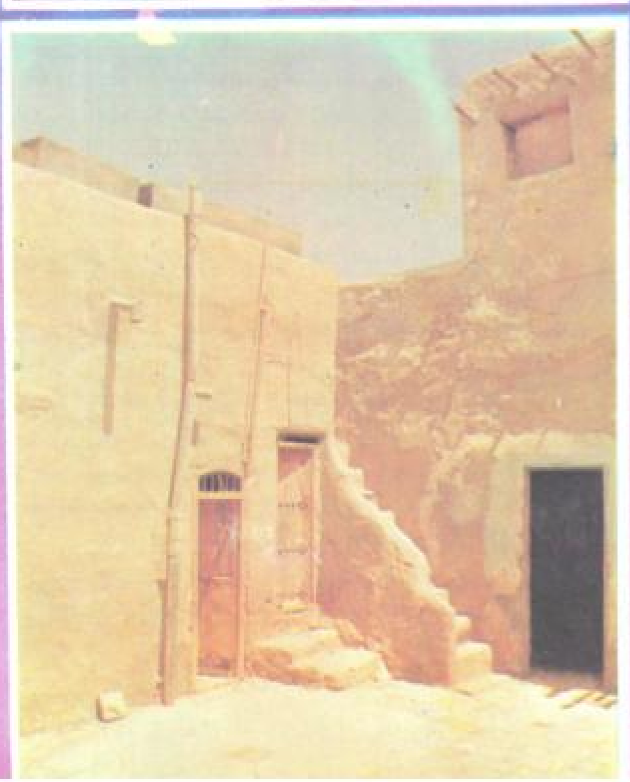

بناء البيوت القديمة في الكويت من الطين

موقع البرك وسط أحواش المنازل التقليدية في الكويت .

أحد الجوانب لمنزل كويتي قديم

الكهرباء وتدمير بعض المنازل البسيطة .

أما الزوابع الرملية في الكويت فتحدث بسبب المنخفضات الجوية ، وهي من الظواهر كثيرة التردد على الكويت ، إذ يبلغ المتوسط السنوي لحدوثها ٢٥٢١ ساعة في العام ، أي بواقع ٧ ساعات يوميا ، ويبلغ المتوسط الشهري لكمية الغبار المترسبة في مدينة الكويت ٦١,٢ طنا / كم² شهريا ، وهو ما يعادل « جرامين / م² يوميا ، وتبلغ أعلى كمية منه شهريا (١٠٢,٥) مائة وطنين ونصف خلال شهر ابريل ، أما أدنى كمية فتبلغ ، ٢٨,١ طنا خلال شهر يناير .

وتتعرض الكويت لهبوب الزوابع الرملية التي ترتفع معها ذرات الرمال إلى حوالي ٣٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ قدم ، وتعتبر هذه الزوابع احد الملامح المميزة لمناخ الكويت ، ويطلق عليها محليا اسم (الطوز) ، وتسود هذه الظاهرة في الغالب خلال فصل الصيف ، خاصة في شهري يونيو ويوليو . ويبلغ متوسط عدد أيام حدوثها خمسة أيام في يونيو وأربعة في يوليو ، وقد يصل عدد هذه الأيام إلى خمسة عشر يوما ، وقد يهبط عددها إلى يوم واحد خلال أي شهر من شهور الصيف . والواقع أن هبوب الرياح قوية ومحملة بالغبار والرمال يتوقف إلى حد كبير على اتجاهها ، حيث يلاحظ الارتباط الواضح بين الزوابع الترابية النشطة والرياح القادمة من الشمال الغربي خاصة في فصل الصيف . وتبدأ الزوابع غالبا بهواء حار ، ثم تعقبه الزوبعة مع بلوغ الرياح سرعة مقدارها ٢٠ ميلا في الساعة أو أكثر ، حيث تصل أحيانا إلى ٤٠ و ٥٠ ميلا في الساعة ، وتتوقف كمية الرمال كذلك على عمق المنخفض الجوي فوق المنطقة . ويبلغ متوسط عدد الأيام التي تحدث فيها الزوابع الترابية في فصل الشتاء أربعة أيام ، وفي فصل الربيع عشرة .

أما العنصر الثالث من عناصر المناخ فهو المطر ، وقد كان له تأثيره على العمران في الكويت القديمة ، فالكويت تتميز بقلة أمطارها ، إذ يبلغ المتوسط السنوي لكمية المطر فيها حوالي ١٠٠ ملم ، ويتميز سقوط المطر بالتذبذب . ومن دراسة متوسطات كمية المطر الشهرية لفترة ١٩٧٨م ـ ١٩٨٢ في الكويت لوحظ أن متوسط كمية المطر في شهور ديسمبر ويناير وفبراير تعادل ٧٠٪ من مجموع ما يسقط في موسم المطر ، والسبب في تفاوت الأمطار في الكويت أنها أمطار إعصارية ، ترتبط بعمق الاعصار وموقعه وخط سيره ، وغالبا ما تصحبها العواصف الرعدية . أما عن موسم سقوط الأمطار فيرتبط بانخفاضات البحر المتوسط ، أي أنها تسقط غالبا في الشتاء والربيع بين شهري نوفمبر وابريل ، وإذا سقطت في أواخر الربيع عرفت باسم « السرايات » ، وتكون مصحوبة بعواصف البرق والرعد ، أما في فصل الصيف فيندر سقوط المطر .

التصميم ومواد البناء

كان المنزل الكويتي القديم يتألف من طابق واحد في أغلب الأحيان ، وتبنى حجراته على جانب أو جانبين أو أكثر ، ويبدو المنزل دائما بشكل مربع أو مستطيل ، تشغل جوانبه الحجرات والمرافق ، ويظل القسم الأوسط منه يمثل حوش المنزل الذي خصص لاستخدامات كثيرة .

وتبنى جدران البيت الكويتي القديم عالية ، لتطلبات بيئية واجتماعية ، سيأتي ذكرها فيما بعد ، أما باب المنزل فغالبا ما يكون على هيئة بابين ، الأول كبير والثاني صغير ، الأول صمم ليستوعب دخول الحيوانات كالأغنام والماعز وقطع الأثاث الكبيرة أما الباب الصغير فقد خصص لدخول أهل البيت وزائريهم .

والبيت يحتوي على عدد من الحجرات ، خصص بعضها للنوم وبعضها الآخر للتخزين ، علاوة على استقبال الضيوف ، لا سيما ضيوف ربة البيت ، وتتعدد الغرف في المنزل بحسب حجم البيت وعدد أفراد الأسرة والمستوى الاجتماعي لأصحابه . وعادة ما يكون متوسط مساحة الغرفة (٤×٦) أمتار ، أي ٢٤ مترا مربعا . وكان يراعى أن تكون النوافذ

صغيرة عالية لمتطلبات بيئية . والحجرات تضم تجويفات في جدرانها تمثل ما يسمى بالديكور في عالم اليوم ، لتوضع فيها التحف والأدوات التقليدية بقصد الزينة أو الانتفاع بها .

ولم يكن هناك بيت ـ لا سيما بيوت العائلات الموسرة ـ يخلو من الديوانية ، وهي حجرة استقبال ضيوف رب الأسرة ، وكان يراعى في تصميمها الاتساع وكثرة النوافذ الكبيرة الأقل ارتفاعا التي تطل على الشارع ، وكانت تحتوي على مكان مخصص لاعداد الشاي والقهوة . ويشتمل البيت على مكان مخصص للحيوانات على شكل حظيرة ، إما منفصلة عن البيت أو في نطاقه ، ويحدد ذلك حجم الثروة الحيوانية لدى الأسرة ، إذ أن العدد الكبير من الأغنام والماعز أو البقر يحتاج لمكان خاص منفصل عن بيت الأسرة ، بعيد عن أعين أهل البيت والزائرين ، إذ لا يخفى وجود القاذورات والروائح المنبعثة من مخلفات الحيوان التي تحتاج دائما للتنظيف .

أما دورات المياه فهي عبارة عن غرف صغيرة ، تزود بالمياه اللازمة . وتجدر الاشارة إلى أنه لم يكن هناك نظام صحي للصرف العام ، فقد كانت المخلفات تصرف بطريقة فردية . وقد تخصص عدد من الناس من الرجال بالقيام بأعمال التصريف والتنظيف ، حيث كانوا يستفيدون من بعض المخلفات الطبيعية في الأغراض الزراعية .

وهناك « الليوان » وهو امتداد للأسقف ناحية الحوش ، تسنده أعمدة تختلف في أحجامها وزخارفها حسب حالة اصحاب البيت المادية . وغالبا ما يكون « الليوان » مرتبطا بتصميم حجرات البيت ومرافقه ، فهو إما أن يكون امتداداً لجانب من سقف الحجرات أو امتداداً لجانبين أو ثلاثة أو أربعة ، فيصبح على شكل مستطيل ينقصه ضلع أو على شكل مربع . وستحدث عن استخدامات « الليوان » في الصفحات التالية .

أما سقف البيت فكان جذوع أشجار معينة تستورد من الهند ، وتمد فوقها شرائح طويلة من الخشب تكون على شكل شبك ، يوضع عليها نوع

مخطط للبيت الكويتي القديم

من الحصير مصنوع من البوص (يسمى بواري) . ثم توضع بعد ذلك طبقة من الطين .

أما الأسطح فتبنى جدرانها عالية . وسنذكر السبب في ذلك .

وتحتوي بعض بيوت أهل الكويت القديمة على غرفة ملحقة بالسطح ، كثيرا ما كانت تزود « بالباقدير » ، وهو عبارة عن برج يبنى فوق أسطح المنازل له أبواب لا تزيد على أربعة . ولم يكن هذا الباقدير يبنى لأغراض جمالية فوق الأسطح وإنما يشيد لأغراض وظيفية يظهر معها بجلاء تكيف الكويتيين قديما مع بيئتهم .

هذا وقد استفاد الكويتيون من إمكانات بيئتهم في مجال البناء والعمران ، فاستخدموا الرمال التي تزخر بها أرض الكويت ، كما استخدموا الطين المتواجد في مناطق الأودية القديمة حول مدينة الكويت ، هذا علاوة على استخدام صخور الشاطىء المتوفرة على جهة المدينة البحرية ، أما الأخشاب ولوازم البناء فقد جلبوها من الهند وشرق افريقيا .

نمط البناء وظروف البيئة

لو نظرنا إلى حوش المنزل أو فنائه في البيت الكويتي القديم لوجدناه متسعا ، وقد وظف هذا الحوش لأغراض شتى منها بناء بركة لتخزين المياه في وسطه ، يكشف غطاؤها أثناء مواسم المطر كي تستقبل كميات من المياه ذات الاستخدامات المتعددة ، كذلك أمكن تغذية هذه البركة من المياه المتجمعة على سطح المنزل عن طريق « المرزام » الذي يوصل به أنبوب مصنوع من قماش الأشرعة لينقل المياه منه إلى فوهة البركة . وقد جاء بناء البركة وسط الحوش نتيجة للحاجة الماسة لتخزين المياه ، سواء كانت من الأمطار أو تلك التي يتم شراؤها .

ويستخدم « الحوش » لمبيت أفراد الأسرة صيفا حيث تهب ليلا نسمات ريح الشمال ، كما تجلس نسوة البيت في أوقات الضحى في أطراف الفناء الظليلة ، فالجدران عالية ، وهذا العلو أو الارتفاع يوفر الظل سواء كان ذلك داخل المنزل أو خارجه . وقد يضم الفناء بئرا تحفر لتوفير المياه الباطنية لبعض الاستخدامات المنزلية ، ومياه الآبار إما مالحة أو مائلة إلى الملوحة .

استخدام « الليوان » ينحصر في الجلوس فيه ، لا سيما وقت الظهيرة لتناول وجبة الغداء صيفا ، كما يستخدم للنوم عند القيلولة لما يوفره من ظل وبرودة نسبية . كما كان يعلق في أركان « الليوان » الظليلة ما يسمى « المَلاّلة » ، وهي سلة يوضع فيها الطعام الزائد عن الحاجة ، وللمحافظة عليه من الفساد في هذا المكان الظليل البارد نسبيا . وفي ذلك يذكر السعيدان ما يلي :

« الملاّلة »سلة تصنع من الخوص أو الأسلاك ، كانت تعلق في الماضي في حوش المنزل ، حيث تتدلى من العريش أو « الليوان » ، توضع فيها بقايا الأكل لليوم التالي ، كباقي الطعام أو الطبيخ أو اللحم ونحوه ـ قبل وصول الثلاجات إلى الكويت ـ وذلك لتتعرض للهواء .

وبعض البيوت التي لا يتوفر فيها « ليوان » فإن بناء العريش فيها ضرورة لابد منها . يذكر السعيدان أن العريش عبارة عن سقيفة من البواري أو الحصر ، ترتكز على أعمدة من خشب « الجندل » ونحوها ، وتصف فوق أعواد البردي أو « الباسجيل » (خشب مستورد من شرق افريقيا) وتغطى بنسيج من الحصر والخياش وتتخذ ظلا ، ويضيف بأنه لم يكن يخلو بيت في الكويت القديمة من العريش وقد يستعاض عنه بالليوان .

ومن فناء البيت تعرج على حظيرة الماشية أو حوش الغنم الذي يقتطع من فناء البيت . وقد فرضت الظروف البيئية على الكويتيين اقتناء الماشية والأغنام والماعز لتوفير المتطلبات الأسرية من الألبان ومنتجاتها ، ومن الدواجن والبيض ونحوه ، كما أن بعضهم كان يحتفظ بحيوانات النقل مثل الحمير والبغال لعدم توفر وسائل النقل المتطورة في الكويت قديما ، خاصة لنقل السلع والبضائع والمياه .

وتجدر الاشارة إلى أن بعض الأسر كانت تزرع في فناء المنزل بعض الأشجار المثمرة التي تتلاءم مع ظروف البيئة المحلية كالنخيل والسدر لتفي باحتياجات أهل المنزل . وكانت تروى من الآبار التي تحفر في أحد جوانب الفناء .

بحثاً عن الظل

وقد نتج عن بناء جدران البيوت التقليدية العالية وتلاصق البيوت وجود شوارع ضيقة أو أزقة بمعنى أدق ، والهدف من ذلك محاولة إيجاد الظل في تلك الشوارع ، بحيث تخفف من حدة أشعة شمس الصيف اللاهبة . وقد عرفنا مما سبق طول فترة الصيف وارتفاع مقدار الاشعاع الشمسي . وهذا النمط من البناء إنما يعالج هذه الظاهرة عن طريق توفير الظل .

وفي نمط بناء الحجرات رأينا أن النوافذ عالية صغيرة ، وهذا النمط من البناء يعالج ظاهرة بيئية هي شدة الحرارة ، ومن وظائف هذه النوافذ الصغيرة العالية التخفيف من شدة الاشعاع الشمسي

المنعكس إضافة إلى التقليل من كمية الغبار . أما « الباقدير » الذي سبقت الاشارة إليه ، والذي يبنى فوق الأسطح في المنازل القديمة فقد كان يمثل ما يعرف اليوم باسم أجهزة التكييف صيفا . يذكر السعيدان ـ أن الكويتيين قد استخدموا الباقدير للحصول على الهواء المنعش ، وذلك قبل أن يعرفوا المراوح وأجهزة التكييف الكهربائية ، وهو عبارة عن برج بارز ، يبنى فوق أسطح المنازل ، له عدة أبواب لا تزيد عن أربعة ، تصطدم بها الرياح من كل اتجاه ، فتدخل في تجويف البرج فتصل إلى داخل الغرفة فيلطف جوها . وكان يوضع بأسفل الباقدير قطعة من القماش المبلل ، حتى إذا ما هبت الرياح المتربة تقوم بتصفيتها من الرمال العالقة بها ، وكلمة باقدير كلمة فارسية الأصل ، معناها برج الهواء البارد ، وتلفظ قاف الكلمة كالجيم المصرية .

ومما سبق يتضح أن « الباقدير » صمم لمواجهة حرارة الصيف وأيامه المتربة ، وفي ذلك تحايل على قسوة البيئة ومعطياتها المناخية الصعبة .

هذا وعلى الرغم من أن للأمطار آثارها الايجابية على سكان الكويت قديما ، وتتمثل في توفير المياه وحفظها في البرك ، فإن هذه الأمطار الاعصارية آثاراً سلبية ، تتمثل في احالة الشوارع غير المرصوفة آنذاك إلى أوحال يصعب السير عليها .

كما كانت مياه الأمطار تتجمع في بعض الشوارع الضيقة وتسدها ، وتحول دون المرور فيها ، إلا بعد أن يتعاون الأهالي في ايجاد طريقة لتصريفها . وكما تتجمع مياه الأمطار في الشوارع الضيقة فإنها تتجمع أيضا في أحواش وأفنية البيوت القديمة ، وتجعل التحرك داخلها أمرا صعبا . ولتصريف هذه المياه لجأ الكويتيون إلى حفر قنوات من الحوش إلى الشارع عبر أسفل الجدران ، مهمتها تصريف المياه إلى خارج البيوت ، وقد سميت هذه القنوات « المداعيب » ومفردها « مدعاب » .

ومما سبق يتضح لنا أن الكويتيين قد تفاعلوا مع ظروف البيئة في مجال بناء بيوتهم ، فجاءت أنماط البناء كنوع من التكييف البيئي والتحايل البشري الذي أفرز صورة من التعايش والمواءمة بين الانسان والبيئة في الكويت قديما . □

كعكـــة العـــرس

● يقال ان كعكة العرس نشأت من التقليد القديم الذي يجعل شراكة العريس والعروس في طعام واحد ، رمزا للوحدة ، ومع الوحدة الغبطة والهناء ، ويقال كذلك ان قدماء الاغريق كانوا يصنعون الكعكة من طحين السمسم بعد خلطه بعسل النحل ، ثم توزع الكعكة على الضيوف ، وفي روما القديمة كان من مراسم الزواج الأولى صنع فطيرة من القمح ، يهبها العريسان الى الآلهة ، ثم يأكلان منها معا .

وتوارثت أوروبا هذه الكعكة ، يصنعونها من عجين بلاخيرة ، فهي اشبه بالبسكوت ، ومع تطور فن الطهي زادت الكعكة حجما ، وزادت محتوى ، وتعقدت صناعتها ، فتفننوا في تزويقها ، وهي اليوم مرسم من مراسم العرس قائم دائم ، تبدأ العروس بقطع الكعكة بالسكين يعينها في ذلك عريسها ، وذلك في الحفل الذي يقوم بعد عقد الزواج ، وتوزع على الحاضرين والحاضرات ، وتستبقى للغائبات والغائبين قطع صغيرة منها ترسل اليهم تحية وذكرى .

الفحص الطبي الدوري

بقلم : الدكتور قاسم طه السارة*

لا يخفى على من يعيش في عصرنا الحاضر كثرة حدوث أمراض القلب والشرايين ، مثل الجلطة والفالج ، وكثرة حدوث داء السكري ، والقصور الكلوي ، والسل الرئوي ، وغيرها . ومن المعروف أن مثل هذه الأمراض تأتي نتيجة تطور تدريجي وبطيء ، وقد يستغرق تكامل المرض سنوات أو حتى عشرات السنين .

ومن هنا كان للكشف المبكر لعلامات هذه الأمراض وأعراضها ، والمعالجة المبكرة دور هام في تجنب حدوث مضاعفات في مثل هذه الأمراض الوخيمة .

والفحص الطبي الدوري يشبه الفحص (الميكانيكي) للسيارات ، فكل من يمتلك سيارة عليه إجراء فحص (ميكانيكي) دوري لها ، وعليه أن يتفقد أجزاءها ، وأن يغير الزيت ويبدل الإطارات قبل أن تتلف تلفا تاما ، وذلك حرصاً على بقائها تعمل بحالة جيدة ، لأطول فترة ممكنة .

وبدن الإنسان هو أغلى ما يملك ، وهو أجدر أن تقدم له مثل هذه العناية ، وأحق أن يتعهد بالفحص الدوري لكل أعضائه وأجهزته من حين لآخر .

إن الفحص الدوري هو قيام شخص سوي ، يتمتع بصحة جيدة ، سليم من الأمراض ، لا يشتكي من أيّ علةٍ ظاهرة ، وليس في عائلته مريض بمرض مزمن أو وراثي ، بمراجعة الطبيب أو المركز الطبي المختص ، في فترات زمنية منتظمة ، كل سنة ، أو كل ستة أشهر ، لتجرى له الفحوص الطبية السريرية ، والمخبرية ، والشعاعية .

أما إذا شكا الإنسان من علةٍ ما ، أو كان هناك أحد أفراد عائلته مصاباً بمرضٍ مزمن أو وراثي ، مثل ارتفاع ضغط الدم ، أو داء السكري ، فيجب مراجعة الطبيب في فترات متقاربة أكثر ، والتركيز عند إجراء الفحوص السريرية أو المخبرية أو الشعاعية على علامات ذلك المرض ، دون إهمال علامات الأمراض الأخرى .

أهداف الفحص الطبي الدوري :

١ ـ الكشف المبكر عن الامراض الخطيرة القابلة للشفاء بالمعالجة النوعية ، قبل أن تظهر أعراضها ، ويستفحل خطرها ، وقبل أن تصبح معالجتها قليلة الجدوى ، أو عديمة الفائدة ، ومن تلك الأمراض

* طبيب من القطر العربي السوري .

الخطيرة احتشاء القلب ، وجلطة الدماغ « الفالج » ، وانسداد الشرايين في الساقين ، والسرطان القصبي الرئوي عند الرجال ، وسرطان الثدي عند السيدات ، وارتفاع ضغط الدم ، وداء السكري ، وارتفاع شحوم الدم ، والتدرن الرئوي « السل » .

٢ ـ يؤدي التماس مع الطبيب أو مع عناصر المركز الطبي المختص إلى سماع الوصايا والارشادات الطبية التي تكفل للمرء العيش بصحة وعافية ، مثل :

أ ـ استعمال أحزمة الأمان في مقاعد السيارات .

ب ـ المحافظة على الوزن المناسب ، وتفادي البدانة .

جـ ـ ممارسة الرياضة بشكل صحي .

د ـ تنظيم ساعات النوم .

هـ ـ تناول الطعام الذي يحتوي على كمية قليلة من الشحوم ، ومن السكريات ، وكمية وافرة من الألياف النباتية .

و ـ الامتناع عن العادات الاجتماعية الضارة بالصحة : مثل التدخين ، وشرب الخمر ، وقضاء أوقات الفراغ في المقاهي أو الصالات المغلقة التي تحتوي على هواء ملوث .

ز ـ وصايا عامة تتعلق بالأمن الصحي في العمل ، والعناية بأجهزة الجسم المختلفة مثل جهاز القلب والدوران ، وجهاز التنفس ، وجهاز الهضم ، والجهاز البولي ، والجهاز العصبي . . . الخ .

ح ـ وصايا صحية تتعلق بتربية الأطفال ، وتقديم الرعاية الطبية الأولية لهم ، مثل التلقيح ، والتغذية المناسبة .

٣ ـ تحسين نوعية الحياة في المستقبل ، ومواصفاتها ، وبالتحديد في سن الشيخوخة ، إذ يهدف الفحص الدوري إلى المعالجة المبكرة ، فور كشف العلة أو الاضطراب السمعي أو البصري مثلا ، وبالتالي يؤدي إلى الوقاية من حدوث الصمم أو العمى في المستقبل .

كيفية الفحص الدوري :

١ ـ يقوم الطبيب بسؤال الزائر ، ولا أقول المريض ، لأن الزائر غالبا ما يكون صحيح البدن ، عن بعض الشكاوي التي قد يهملها بعضهم ، أو يعتبرونها « أموراً طبيعية » ، كالصداع ، وطنين الأذن ، وكثرة التبول ، ووجع الصدر .

٢ ـ يقوم الطبيب بإجراء فحص سريري كامل ، يشمل الوزن ، وقياس ضغط الدم ، وقياس النبض ، وقياس درجة حرارة الجسم ، وسماع دقات القلب ، وسماع الأصوات التنفسية للصدر ، وجس الشرايين في العنق والفخذين والإبطين والقدمين ، وجس البطن « للتحري عن وجود كتل ورمية » ، وجس العقد اللمفية ، والطحال والكبد ، للتحري عن وجود تضخمات مرضية ، وفحص الفم والبلعوم ، ومس الشرج ، وفحص الثدي عند السيدات .

٣ ـ بعد التأكد من سلامة أجهزة البدن يحول المريض إلى المختبر ، لدراسة مكونات الدم وعناصره ، والبول ، والتحري عن الطفيليات بالبراز .

٤ ـ يفضل بعد سن الثلاثين إجراء تخطيط كهربي للقلب ، وتصوير شعاعي للصدر .

٥ ـ بالنسبة لمن لديهم قصة عائلية للإصابة بداء السكري ، أو بفرط شحوم الدم ، أو فرط حمض البول ، يجب إجراء الفحوص المخبرية على فترات متقاربة ، لا تزيد عن ستة شهور .

٦ ـ الحوار أو المناقشة حول النتائج العامة للفحوص السريرية والمخبرية ، مع التأكيد على الحمية المطلوبة ، وتغيير العادات الاجتماعية السيئة ، وأحيانا التوصية باستشارة اختصاصي في موضوع معين ، أو دراسة جهاز من أجهزة البدن بطرق أكثر تعقيدا . □

هو.. هي

تدخل

إنه شيء لا يطاق ، لقد أصبح البيت جحيما ، وحمدت الله أنني لم أر لزوجي أمّا ، وأنها توفيت وهو لم يزل طالبا في المرحلة الثانوية . كنت أسمع من شقيقاتي وصديقاتي عن تجربة التعامل مع أم الزوج ، لكن ما حمدت الله عليه اتقاء وخوفا ، من مخاطره كان أهون كثيرا مما عانيته من شقيقته .

لقد تولت شقيقته الكبرى تربية أشقائها بعد وفاة والدتهم ، فصارت هي الأم والأخت ، وكان عطاؤها لهم كبيرا وعظيما ، وبقدر عطائها تعاظم لديها إحساس بأنها تمتلكهم . وبعد زواجي بشهر واحد بدأ أنفها يتدخل في كل أمر في حياتي ، تتابعني بشكل يومي : هل أنهيت أعمال البيت ، وماذا أطهو ، وكيف أطهو ، بل وصل تدخلها إلى أكثر مما يحتمل ويطاق ، وصارت تسأل بشكل مباشر بعد أن كانت تسأل بطرق ملتوية ، لكنها مكشوفة : ماذا فعلتم بعد أن استيقظتم ؟ . . هل استحم زوجك ؟

وحاولت كثيرا أن أوقف هذه التدخلات وهذه المشاحنات الدائمة ، لكنه كان يبتسم في وجهها ، ويهش لها ، ويقبل رأسها ، ويربت على كتفها ، ويجلسها بجواره منتظرا إشارة أو لفتة منها . طيلة سبع سنوات لم تتغير ولم تكف عن أسئلتها ، ولم تقلع عن صراخها في وجهي طالبة الرحمة للرجل ، لأن صحته لا تروق لها . ولم تتوقف عن مناقشتي في مصروف البيت وميزانيته ، وماذا أنفق ، وماذا أشتري ، وتفحصها الدائم لملابسي ، فهذا ضيق ، وهذا قصير ، وهذا . . وهذا . . وفي مساء أحد الأيام كنا نسهر معا ، ومعنا والدتي ، ويبدو أن زوجي قد داعبني ، وربت على كتفي مرتين وتجاهلها . وعندما جاءت خلفنا إلى المطبخ تساعدنا في حمل أطباق العشاء ضبطت زوجي وهو يقبلني في وجنتي قبلة مجاملة عادية ، وظلت بقية السهرة كأنها جالسة على موقد نار ، وعندما مضى وقت تلكأت في الانصراف ، فعرضنا عليها المبيت هي ووالدتي ، فقبلت فورا ، وعندما دخلت غرفتي وجدتها نائمة في سريري ، فقد اشتاقت للنوم بجانب شقيقها . وعبثا حاولت أمي أن تقنعها بأن هذا لا يليق ، وأن . . وأن . . . لكنها ادعت المفكاهة والمداعبة ، وأصرت على البقاء في سريري ، فتركته لها ، وذهبت للغرفة الأخرى لأنام مع أمي وابنتي وقلبي يحترق غيظا من برودة زوجي وابتساماته المشجعة لها .

..هي

القوى العظمى

قال حكيم قديماً : إننا نرى القشة التي في عيون الآخرين ، لكننا لا نرى ما بأعيننا ، أعرف أن بيتي صار ساحة من ساحات المعارك الكبرى ، طرفاها القوتان العظميان في حياتي ، أمّ زوجتي وشقيقتي ، لقد حاولت كثيراً أن أفهم زوجتي وأشرح لها ، أن شقيقتي هذه بمثابة أمّ ، وأنها ربتنا وضحّت من أجلنا اكثر من كثير من الأمهات، وأنني أجلها وأحترم سنها وحبانها التي وهبتها لنا عن رضا تقديراً مني لأنها ضحّت ، والتضحية ليست فرضا ، ووهبت والهبة ليست سلوكا واجبا .

فسبحان الله وحده الذي يجعل في قلوب الأمهات محبة لأبنائهن . وعندما تحبنا واحدة ـ أياً كانت ـ حبا كالأمهات ، وتضحي من أجلنا كتضحية الأمهات فإن تقديرنا لها يجب أن يكون عظيما ، وغفراننا لكل ما تفعله يكون متسعا رحبا . وعندما عجزت زوجتي أن تفهم ، وبدأت ردودها على شقيقتي ـ أمي ـ تصبح أكثر حدة ، وبدأ صوتها يعلو عليها ، وصارت سخريتها من تعليمها المحدود تزداد بدأت أنقل لها الصورة الأخرى ، وأشكو ، وأصرخ عما بقيت صامتا عليه ، فقد كانت تدخلات أمها منذ اليوم الأول للزواج لا تطاق ، فإذا ناديت زوجتي بصوت عال تصرخ : لماذا ترفع صوتك على ابنتي هكذا ؟ وإذا ذهبت إلى لقاء أصدقاء في المساء . . تعاقب وتحاسب : لماذا تركت ابنتي وحدها في البيت ؟ وإذا اعترضت على طعام أو عدم وجود قميص نظيف أو وجود مقعد مقلوب تصرخ : مد يدك واعمل في البيت مثلها ، وساعدها . ولا تكف يوما عن الحديث عن الأقارب والصديقات والمعارف وأزواجهن ، وماذا فعلوا لزوجاتهم ، وماذا اشتروا لهن ، والنقود التي يتركونها لزوجاتهم لكي يبعثرنها ، وينفقن منها كيفما يشأن ، ولا تقلع عن الوصفات الشعبية (المقوية) التي أفاجأ بزوجتي تنفذها بإرادة مسلوبة . حتى علاقتي بأصدقائي لا تكف عن التدخل فيها ، وقد سمعت يوما أنني أقرضت صديقا ، فصرخت في وجهي قائلة : بدلا من أن تقرضه اشتر ذهبا لزوجتك . وفي مساء أحد الأيام أصرت شقيقتي أن تنام بجواري ، فثارت أمّ زوجتي تضامنا مع ابنتها ، وعندما تدهور مستوى كلماتهما أصررت أن أنحاز لشقيقتي ، فقد عز عليّ أن أهين مشاعرها ، ولم يهن عليّ أن أجرح الخمسين عاما من عمرها الذي وهبته لنا . وتركت الحرب دائرة ، فمن ذا الذي يجرؤ أن يوقف أو ينهي صراع القوى العظمى في عالمنا المجنون هذا ؟! □

.. هو

غدّة البروستاتا تلتهب !

بقلم : الدكتور محمد عبدالله المشاري

تفيد بعض الدراسات أن ٢٢٪ من الرجال دون سن الأربعين في الولايات المتحدة الأمريكية مصابون بالتهاب البروستاتا ، وأن ٦٠٪ من الرجال الذين تجاوزوا سن الأربعين مصابون بهذا المرض أيضا .

إن هذه النسبة العالية ، التي يمكن أن تقابلها نسبة مشابهة على الصعيد العالمي تحتم محاولة تقصي أسباب هذه الظاهرة .

إن التركيبة التشريحية لغدة البروستاتا تأخذ شكلا مخروطيا مقلوباً ، تقع أسفل المثانة ، وتحيط بمجرى البول ، وتلامس المستقيم من جهة الخلف . وتتكون الغدة من عدة فصوص ، الفص الأوسط وفصين جانبيين ، وتغلف هذه الفصوص كبسولة عضلية ليفية . ونسيج الغدة ذو تكوين أنبوبي متعرج ، وتبطن هذه الأنابيب خلايا ظهارية عمودية . وتفتح قنوات الغدة في مجرى البول البروستاتي ، ونجد أن القناة الدافقة تخترق غدة البروستاتا لتفتح في مجرى البول البروستاتي .

وتقوم غدة البروستاتا بإفراز ٣٠٪ إلى ٤٠٪ من حجم السائل المنوي . ويتكون سائل البروستاتا من المواد التالية :ـ الزنك ، المغنيسيوم ، الكالسيوم ، الكوليسترول ، حامض الستريك ، السبرمين ، الليسوزيم ، حامض الفسفتيز ، ووجود هذه المواد في سائل البروستاتا دليل على سلامة عمل الغدة وسلامة نشاطها . وتعتمد غدة البروستاتا في عملها على تواجد هرمون « الدايهيدرو تستيستيرون » ، وهو الهرمون المذكر .

أسباب المرض

قد لا تظهر أعراض المرض واضحة عند كثيرين من المرضى ، لكن الفحص المختبري لنسيج الغدة المريضة يبين وجود خلايا صديدية وبعض الميكروبات . ونجد أن الاصابة بالمرض تبدأ بعد سن البلوغ ، وتزداد امكانية الاصابة بالمرض بتقدم العمر ، وهناك العديد من الميكروبات التي كثيرا ما تكون سبباً للإصابة بالالتهابات الحادة أو المزمنة لغدة البروستاتا . أما أهم هذه الميكروبات فهي :ـ اشيريشيا كولاي ، بروتيس ميرابيليس ، وعدة أنوع من الكلبسيلا ، البسودومونس ، كلاميديا ، نايسيريا جونوريا ، مايكوبلازما هومينس . وقد تصاب الغدة بأكثر من ميكروب في نفس الوقت .

ونسبة إمكانية الاصابة بالناسيريا جونوريا والكلاميديا والميكوبلازما لا تتعدى ١٠٪ من الحالات ، مع ملاحظة أن استزراع سائل البروستاتا غالباً ما يظهر سالباً ، أي خاليا من هذه الميكروبات . هذا وتصل الميكروبات المسببة للمرض إلى غدة

البروستاتا نتيجة لالتهابات في مجرى البول ، أو المثانة ، أو الحالب أو الكلى ، أو قد تصل إليها عن طريق الأوعية الدموية عند إصابة الجسم ببؤرة صديدية ، كالتهاب اللوزتين مثلا ، أو قد تمتد الالتهابات من أعضاء قريبة من غدة البروستاتا مثل المستقيم ، حيث تصل الميكروبات من خلال الأوعية الليمفاوية . وقد ينتج الالتهاب من استعمال أدوات جراحية أو عند استعمال القسطرة .

وتوجد بعض العوامل التي تساعد على تفاقم الحالة مثل احتقان البروستاتا ، والتضخم الحميد ، أو الأورام السرطانية في البروستاتا ، أو ضيق مجرى البول ، أو تقلص عنق المثانة ، الخ .

أعراض المرض

تبدو أعراض المرض غالبا على هيئة : حمى ، صداع ، خمول عام ، آلام متفاوتة الشدة في منطقة العانة والقضيب ، والخصيتين ، ومنطقة العجان ـ وهي المنطقة الممتدة من الخصيتين الى فتحة الشرج ـ ، وقد تمتد الآلام إلى أسفل البطن والظهر والجزء الداخلي من أعلى الفخذ ، وقد تصاحب الحالة آلام أو حرقة عند القذف ، مع خروج قطرات سائل ذي لون أبيض من القضيب وذلك عند التبرز ، خاصة عند الإصابة بالإمساك .

وهذا وكثيرا ما يشتكي المرضى المصابون بالتهاب البروستاتا المزمن من مشاكل في التبول ، ككثرة التبول ، والحرقة في البول ، أو خروج قطرات من البول بعد الانتهاء من عملية التبول ، أو قد تصاحب بخروج إفرازات صديدية من القضيب على هيئة قطرة في الصباح .

ويجب أن أذكر بأنه قد لا تصاحب الحالة أي أعراض مرضية ، إنما يتم اكتشاف الحالة بعد فحص سائل البروستاتا أو السائل المنوي .

وعند فحص الغدة بإدخال الأصبع الوسطى في القناة الشرجية ، نلاحظ تضخماً في حجم الغدة مع إحساس المريض بالألم ، خاصة عند الضغط عليها بواسطة الأصبع ، وقد يصاب أحد الفصوص الجانبية أو كلاهما .

ونتيجة لوجود الميكروبات في غدة البروستاتا ، قد تحدث تفاعلات مناعية ، مما ينتج عنها قلة عدد الحيوانات المنوية وضعف حركتها . فلقد تبين من احدى الدراسات أن وجود ميكروبات مثل : اشيريشيا كولاي ، البروتيس ، ترايكوموناس فاجاينالس ، الكانديدا أليكنس ، يؤدي إلى ضعف الحيوانات المنوية أو عدم حركتها ، بينما ميكروبا الاشيريشيا كولاي والكانديرا البيكنس يؤديان إلى تلازن الحيوانات المنوية .

ومما يلاحظ أن تركز مادة الزنك في سائل البروستاتا يقل عند إصابة الغدة بالالتهاب ، مما ينتج عنه ضعف في حركة الحيوانات المنوية .

توجد بعض الأمراض التي قد تشبه في أعراضها مرض التهاب البروستاتا ، مثل التضخم الحميد لغدة البروستاتا ، عند الرجال المتقدمين بالعمر غالبا . وكذلك مرض تصلب المثانة ، وانسداد عنقها ، وضيق مجرى البول الذي كثيرا ما يصاحب بالتهاب البروستاتا . ويظهر ضيق مجرى البول غالبا كمضاعفات لمرض التهاب مجرى البول المتعدد الأسباب ومرض السيلان . لكن نظرا لنجاح علاج هذين المرضين باستعمال المضادات الحيوية ، نجد أن نسبة الإصابة بضيق مجرى البول كمضاعفات لهذين المرضين لا تتعدى ١٪ من الحالات .

وقد يشبه التهاب البروستاتا في أعراضه مرض اضطراب عنق المثانة ، حيث عند المصابين من الشباب غالباً . ومن أعراض المرض كثرة التبول ، ونزول عدة قطرات من البول بعد الانتهاء من عملية التبول ، وقد تصاحبه في بعض الأحيان التهابات البروستاتا . ولا نستطيع أن نشخص مرض اضطراب عنق المثانة إلا عن طريق تصوير المبال والمثانة وقياس كمية البول . □

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

قضية الصداع

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

لو سئل الناس عن معنى الألم لعجزوا جميعا عن الاتفاق على الاجابة السليمة ، ومع هذا فالألم هو الحادي الأول الذي يدفع الناس إلى عيادات الأطباء في كل مكان وزمان ، وعندما طلبوا من المتخصصين تعريف الألم لم يجدوا جوابا لديهم سوى أنه إحساس غير مرغوب فيه ، لا يحب الناس تكراره .

ولعل أبرز أشكال الألم الذي ينتاب كل الناس في بعض أيام حياتهم هو الصداع .

فالصداع هو أكثر أعراض الألم شيوعا بين كافة البشر . تقدر الاحصائيات نسبة المرضى الذين يشكون للأطباء من الصداع بما يتراوح بين ١٠ ـ ١٥٪ ، بل ربما تصل المعدلات في بلد متقدم كالولايات المتحدة الأميركية إلى أعلى من هذه النسبة بكثير ، إذ يقدر عدد مرضى الصداع ممن يراجعون الأطباء كل عام بحوالي ٤٢ مليون إنسان تقريبا .

والصداع معاناة شخصية تتمثل في عرض متميز لا يدركه إلا صاحبه فقط ، قد تصاحبه علامات تعين الطبيب على التشخيص ، أو يكون منفردا ليس للطبيب حيلة في تحديده إلا بما يروي المريض ويصف ، ومن هنا كانت أهم درجة في سلم التشخيص هي التاريخ المرضي الذي يقصه المريض على طبيبه . وأهم دعائمه هي :

أ ـ وصف الألم إذا ما كان نابضا أو ساكنا أو حارقا أو واخزا .

ب ـ موضع الألم من الدماغ وجهته ، فبعضه ألم شامل للرأس ، وبعضه في نصفه فقط . وبعضه الآخر يتركز في موضع محدد دون غيره ، كأن يكون في مقدمة الرأس أو مؤخرتها أو أحد جانبيها .

ج ـ موعد الألم : حيث تتميز بعض الأمراض بمواعيد محددة تلتزم بها ، إذ منها ما يداهم ليلا ، ومنها ما يداهم نهارا ، وقد يكون الألم عند الاستيقاظ ، أو قد يكون قبيل النوم ، وهكذا .

د ـ مدة الشكوى من الصداع : بعض أنواع الصداع يمر مرورا خاطفا يستغرق مدة دقائق ؛ أو يبقى ساعات معدودة . وبعض أنواعه يستقر ساعات طوالا أو أياما .

هـ ـ العلامات المصاحبة المتميزة لبعض أنواع الصداع حيث إن هناك صداعا قد يداهم أعزل دون علامة مصاحبة له ، بينما يداهم صداع آخر مصحوبا بعلامات تعين على تشخيصه ، كاحمرار العينين مثلا أو ادمائها .

و ـ المؤثرات والمثيرات : هناك عوامل معينة قد تثير نوبة الصداع ، وهناك عوامل أخرى قد تهدئها .

ز ـ الأعراض التي تسبق الصداع أو تلحق بها وهذا ما اصطلح عليه في عرف الطب باسم البأورة (أو الأورا Aura) كما هي حال الصداع النصفي التقليدي الذي يسبقه اضطراب بصر ، وزغللة في العين مع هلوسات صوتية وحسية وهكذا .

ولهذا فالأسئلة التي يطرحها الطبيب لابد لها من إجابات دقيقة ، تعين على التشخيص الصادق لمعاناة المريض وسببها ومن ثم تحديد علاجها .

من الجدير بالاشارة إليه هنا لفهم طبيعة الصداع أن نذكر أن خلايا المخ التي يقدر عددها بحوالي ثلاثة عشر ألف خلية لا تحس بأي ألم إطلاقا ، فهي إذن ليست موضع المعاناة ، وإنما السر في ألم الصداع يعود إلى إثارة ما يعرف بمستقبلات الألم التي تتركز في جدران الأوعية الدموية الكبرى وفي نسيج السحايا ، وهي الأغشية المغلفة للمخ والنخاع الشوكي ، ومن هنا كان سر المعاناة أحد ثلاثة أسباب هي :

(١) احتقان في الأوعية الدموية الكبرى للدماغ (بينما لا دور للأوعية الصغرى داخل المخ) مما يؤدي لانتفاخ جدرانها وبالتالي إثارة مستقبلات الألم فيها .

(٢) ضغط على الدماغ كما يحدث في أحوال نزيف المخ أو أورامه أو مع زيادة ارتشاح سائل المخ النخاعي داخل الجمجمة وأنسجة المخ .

(٣) الشد على أنسجة المخ أو أغلفته ، ولعل أبرز أمثلته ذلك الصداع الذي يداهم المرضى عقب إجراء عملية بزل للسائل المخي النخاعي ، وهو صداع يزداد حدة عند الجلوس أو الوقوف ، ويخف مع تخفيض الرأس أو النوم . إن فهم هذه الحقيقة يعين على التعامل الصحيح مع قضية الصداع وعلاجها على الوجه الأسلم .

لقد تعددت أنواع الصداع كما تعددت أسبابه ، ومن هنا ذهب الأطباء إلى تصانيف شتى للصداع ، يهمنا أن نعرض هنا لأهمها وأكثرها شيوعا ، وهي :

١ ـ الصداع العرضي الذي يعاني منه الجميع من وقت لآخر دون مقدمات ، ويتغلبون عليه بوسائل سهلة ، وعقاقير بسيطة ، والأغلب أن يستغنوا عن الطبيب معتمدين في الخلاص منه على أقراص مسكنة ، ومن أهمها الاسبرين والبارسيتامول ، وهؤلاء ننصحهم بالآتي :

أ ـ تناول أقراص المسكنات مع الحذر من تعاطيها والمعدة خاوية ، لأن الأسبرين يهيج بطانة المعدة ، ويتلف الأوعية الدموية ، ويؤدي إلى نزيف لا تحمد عقباه .

ب ـ عدم الاسراف في تعاطي المسكنات التي قد لا تنفع ، فالطبيب أولى بالمشورة وأقدر على النصح .

جـ ـ استعمال الكمادات الباردة على الرأس وتدفئة بقية الجسم بالأغطية والبطانيات .

د ـ النوم والراحة مفيدان لعلاج الصداع والخلاص منه .

هـ ـ الراحة النفسية والبعد عن القلق والمثيرات النفسية علاج للصداع الطارىء ، فأغلب الأسباب تعود إلى معاناة نفسية .

٢ ـ الصداع الأولي ويشمل كل صداع ليس له مرض يبرره ، بل هو الأساس الأول في معاناة المريض ، ومن أهم أنواعه :

أ ـ الصداع النصفي الذي ينتمي إلى مجموعة تعرف بالصداع الوعائي ، لأن المعاناة بسبب اختلال في أوعية الدم الكبرى المغذية للدماغ من انقباض أو احتقان .

والصداع النصفي صورتان ، الأولى تعرف بالصداع النصفي التقليدي ، وهي تتميز بحدوث ما يعرف بالباورة ، حيث يعاني المصاب من اضطرابات بصرية وزغللة في العينين أو هلوسات حسية سببها ضيق في أوعية الدم الدماغية ، ثم يعقبها الصداع الذي يتميز بالمعاناة في نصف الدماغ فقط ، وهذا

الصداع سببه توسع في أوعية الدم عقب انقباضها ، ومن ثم احتقانها بالدم . ويدوم هذا الصداع وقتا قد يقصر فيكون في ساعات معدودات ، أو يطول فيبقى أياما متلاحقة ، وغالبا ما يداهم الصداع مريضه في فترات متعاقبة متكررة كل بضعة أيام أو ربما كل بضعة شهور .

أما الصورة الثانية للصداع النصفي فهي ما تعرف باسم الصداع النصفي الشائع ، ويختلف عن صورة الصداع التقليدي بعدم حدوث الباورة وباحتمال أكبر أن يتملك الدماغ كله لا نصفه فقط .

وهذا الصداع يتميز بعدم حدوث انقباض في أوعية مما لا يتيح فرصة لحدوث الباورة الأولية أو الهلوسات الحسية .

هناك علاجات شتى للصداع النصفي المعروف باسم الشقيقة (أو الميجرين **Migraine**) في لغة الطب العلمية الأجنبية ، ولعل من أهم هذه العلاجات مشتقات الأرجوت .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نسبة الاصابة بالصداع النصفي التقليدي لا تزيد عن ١٠٪ ، بينما نسبة الصداع النصفي الشائع هي النسبة الغالبة التي قد تصل إلى ٨٠٪ تقريبا ، ولكن العلاج متشابه تقريبا لكليهما .

ب - الصداع العنقودي وهو أشد أنواع الصداع شدة وحدة وقسوة ، وقد أطلقوا عليه اسم صداع الرجال لأنه يتميز باستئثاره بالرجال المتزمتين والملتزمين دون النساء ، أما تسميته بإسم العنقودي فلأنه يهاجم ضحيته في نوبات متلاحقة ، تدوم النوبة الواحدة منها ما بين عشرين إلى ثلاثين دقيقة ، حيث يعاني المصاب من ألم حاد شديد يداهم صاحبه فجأة دون إنذار على صورة ألم خلف العينين أو جانب الوجه ، مع احمرار في العين وسيولة لدمعها ، وتدلي جفنها مع سيولة الأنف واحتقان الوجه ، مع عرق غزير .

إن شدة الألم تدفع بعضهم إلى ضرب الرأس في الحائط أو ربما قد تدفع بالمريض إلى الانتحار ، فلا غرابة إذن أن يسميه بعضهم الصداع الانتحاري .

جـ - صداع توتر العضلات :

وهذا شكل من أشكال الصداع التي لا دخل فيها للمخ ولا لأنسجته ، وإنما سببها انقباض شديد يصيب عضلات الرأس ، وغالبا ما يستأثر بالإناث ، ويعقب غالبا حالات الانقباض النفسي والقلق والاكتئاب ، أو يصاحب دورة الطمث .

ويتميز هذا الصداع بصورة تشابه الشد على الجمجمة مع حساسية وألم عند اللمس أو الضغط عليها ، وغالبا ما تداهم النوبة ضحيتها ليلا أثناء النوم .

٣ - الصداع الثانوي وهو أنواع شتى لا مجال لحصرها في مقالنا هذا حيث إن الصداع يكون عرضا مصاحبا لأمراض عدة ، منها أورام المخ ، ومنها نزيف المخ ، ومنها التهاب السحايا أو الحميات الانفلونزا مثلا أو الزكام أو التهاب الأنف والأذن والأسنان ، وهذه كلها تعرف بما يصاحبها من أعراض أخرى ، وبعلامات يميزها الأطباء ويتعرفون عليها من خلال أبحاثهم وفحوصهم ومختبراتهم ، ولكل منها علاج للسبب لا للعرض ، ولهذا كان الصداع ثانويا .

ردود سريعة

● الناضور - المملكة المغربية :

من الأفضل أن تجرى تحليلا للدم ، لاستطلاع طبيعة المرض . وما خلق الله من داء إلا وجعل له دواء .

● السيد س . ص - سوريا :

ألا ترى معنا أن الأمر بحاجة إلى العرض على متخصص في جراحة الدماغ للفحص أولا ، وقبل الاجابة الصادقة على سؤالك ؟! □

مساحة ود . .

قتـــــل

كنت شاهدا على جريمة قتل . وللأسف أنها جريمة لا يعاقب عليها القانون . ولا يستطيع أحد أن يقدم الجاني فيها إلى القضاء . كنت في زيارة لأسرة صديقة . الأب في نهاية الأربعينيات موظف مرموق ، له مكانة اجتماعية بارزة ، وله في هذه الدنيا ولد وحيد ، طالب جامعي ، ما يزال في السنة الثانية من دراسته ، يتعثر عاما ويجتاز - بنجاح ضئيل - عاما آخر .

ويبدو أنني وصلت في موعد غير مناسب . فقد كان الحوار ساخنا بينهما قبل وصولي . فالابن له طلب وحيد ، يتلخص في عدم إكماله دراسته الجامعية ، ويطرح بديلا مذهلا ، سيذهب إلى ورشة إصلاح سيارات ، ويمكث بها عاما أو عامين ، ثم سيفتتح هو ورشة لحسابه . وعندما وصلت أصروا أن يشاركوني في الحديث . فأخذت أسمع الابن ، وهو يسرد مبرراته ، ردا على قيمة العلم وأهمية التعليم . وأخذ يصرخ في وجهي : ماذا فعل العلم لكم جميعا أبي وأنت وعمي وبقية أقاربنا وأهلنا الذين تمسكوا بالعلم ، واحترموا قيمته ؟ كلكم متسولون ، وماذا تفعل لكم القيمة الاجتماعية ؟ لا قيمة في أي مجتمع إلا للقوة ، والقوة مصدرها مال أو سلطة ، فماذا منحكم علمكم ؟ ثم ما هي القيمة الاجتماعية ، ياقات بيضاء وجيوب فارغة ، واستدانات سرية ، وتوتر ، وخوف من المرض أو الحاجة ، وحرمان من بعض - بل من كثير من أشكال الرفاهية ؟ طيلة حديث الابن كان لون وجه الأب يتغير ، ثم فجأة وقع من مقعده فاقد النطق ، فقد أصيب بشلل نتيجة انفجار في المخ .

وظلت متابعتي وعلاقتي بالأسرة طيلة الشهور الماضية ، وظل ضميري مؤرقا من هذه الجريمة البشعة . ترك الابن الجامعة ، وذهب لينفذ إرادته دون احترام حتى لرغبة الأب الذي خسر صحته غيظا منه . وعندما عاتبته قال بصفاقة : إنه قد سقط مريضا عندما رأى صورة حياته على حقيقتها . وكلما ذهبت لزيارة صديقي ، دارت الأسئلة برأسي : كم من أبناء الجيل الذي يعيش ويكبر تحت سمعنا وبصرنا تتغير أخلاقه وتتبدل قيمه ؟ وماذا نفعل نحن جميعا - تربويين وساسة وإعلاميين - لننقذ مجتمعاتنا من أن تتحول إلى بضع ورش ومحلات أطعمة ؟

وماذا نفعل كي نزرع في عقول هذا الجيل فكرة بسيطة ، مفادها أن العلم في حد ذاته قيمة وغاية ومنهج لتدريب العقل ، وليس مهما بعد ذلك أن تعمل وتمتهن ما تعلمت ؟

ماذا نفعل جميعا كي نحمي أنفسنا من زحف الجهلة الذي يهاجمنا تحت أسماعنا وأبصارنا ؟ .

محمود عبدالوهاب

كيف مات صخر ؟

بقلم : غسان حتاحت

تعتبر دراسة أسباب الوفيات من الأمور الهامة في الطب ، حتى أن كثيرا من الدول لا تقبل باعتماد مستشفى تعليمي أو كلية طب ما لم تقم هذه المستشفى أو تلك الكلية بتشريح نسبة معينة على الأقل من جثث المتوفين فيها ، وما لم تجر جلسات دورية لدراسة أسباب الوفيات الحاصلة .

ولقد توسع هذا الاهتمام حتى شمل دراسة المومياء ، وما يعثر عليه من رسم ، أو حتى من شظايا عظام ، وهكذا نشأ علم (الباليو باثولوجي) أو دراسة الأمراض في الرمم القديمة .

وفي كتب الأدب العربي قل أن تجد روايات عن أسباب وفيات المشاهير إلا فيما ندر ، فامرؤ القيس مثلا مات بالجدري كما تروي مراجع المستشرقين ، أو مات بعد أن أهداه القيصر حلة مسمومة ، لأنه عشق ابنته - حسب ما تصوره الخيال العربي - وأيا كان السبب فإن الروايات تحكي أنه ظهرت عليه قروح أدت الى وفاته ، ولهذا سمي بذي القروح .

والحجاج بن يوسف عندما مات بالأكلة ، أسهبت الكتب في وصف فرح الناس بموته أكثر مما روته عن مرضه ، والجاحظ أصيب بالنقرس والفالج في آن ، ثم مات بعد أن وقعت عليه بعض كتبه ، وثقل الكتب القديمة معروف ، ناهيك عن ثقل بعضها من حيث موضوعاتها .

وثمة حالات أخرى من مشاهير الخلفاء والأمراء والأعيان قضوا اغتيالا بطعنة رمح ، أو ضربة سيف ، أو ماتوا بالسم ، أو السكتة ، كما يروي الرواة .

وبما أننا لا نستطيع دراسة أسباب وفاتهم مما تبقى من جثثهم - إن بقي منها شيء - فلا بد لنا من الاكتفاء بما تذكره كتب الأدب والتاريخ ، وذلك نزر يسير .

وهنا نتناول وفاة فارس مشهور ، بل هو أشهر من رثي في الشعر العربي قاطبة ، صخر بن عمرو بن الشريد ، أخو الخنساء . ففي قصة وفاته عبر وطرائف ، ونافذة على الطب أيام الجاهلية إن صدقت روايات الرواة،ورواية وفاته - في أحسن الظروف - تضم أكثر من اختلاف وتباين ، لكن كيف مات صخر ؟

مما يروى أن صخرا هذا شارك - وهوفارس - قومه ومدره وعشيرته في أكثر من يوم من أيام العرب . وفي يوم « ذات الأثل » طعنه ربيعة بن ثور الأسدي ،

فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي مدة حول في أشد ما يكون من المرض ، وقد نتأت قطعة مثل اليد في موضع الطعنة ، ثم استرخت ، وطال على صخر البلاء ، وكانت أمه وزوجته سليمى تمرضانه ، فضجرت زوجته منه ، وعندما كانت تُسأل عن حاله كانت تجيب : لقد لقينا منه الأمرين ، لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى ، وكانوا إذا سألوا أمه قالت : أرجو له العافية ، وسمع صخر ذلك فقال بعض أبيات من الشعر ، تلمح فيها خفقة القلب الجريح ، وأسى النفس اليائسة ، إذ يقول :

أرى أمَّ صخرٍ لا تملُّ عيادتي
وملَّتْ سُلَيْمى مضجعي ومكاني
وما كنتُ أخشى أنْ أكونَ جنازةً
عليك ، ومن يغترُّ بالحدثانِ
لَعَمْري لقد نبَّهتِ من كان نائماً
وأسْمَعْتِ من كانتْ له أُذُنانِ
وأيُّ امرىءٍ ساوى بأُمٍّ حليلةً
فلا عاشَ إلا في أذًى وهوانِ
أهمّ بأمرِ الحزْمِ لو أستطيعُه
وقد حِيلَ بينَ العيرِ والنزوانِ

ولما طال البلاء على صخر قيل له : لو قطعت ذلك البروز لرجونا أن تبرأ ، فقال : شأنكم ، الموت أهون علي مما أنا فيه . فقطعوها وقد يئس من نفسه ، فمات .

مما تذكره كتب الأدب يتبين لنا أن بعض حلقات الدرع قد دخلت في جنبه إثر الطعنة ، وبقيت فيه . وهذه الحلقات تعتبر جسما غريبا لا بد للجسم أن يتخذ رد فعل ضدها ، ويعتمد مدى رد فعل الجسم على موقعها منه ، فإذا كان ذلك في منطقة عضلية مثلا ، يحصل تكلس حولها وتبقى مكانها دون كبير عناء ، أما إذا كانت متسخة فمن الممكن أن تسبب التهابات وخراجات ، وفي هذه الحالة لا يتوقع أن يعيش المصاب عاما كاملا خاصة في وقت لم تكن فيه المضادات الحيوية مستخدمة في العلاج .

أما النتوء الذي تصفه الكتب بأنه بحجم اليد ، فتختلف الروايات حوله ، بعضها ذكرت أن الأمعاء قد برزت ، وهذا أمر يصعب قبوله طبيا ، لأن بروز الأمعاء لفترة طويلة وهي عارية سيؤدي إلى جفافها والتهابها وموتها ، أما إذا غطيت بكمادات رطبة فإنها - حتما - تصاب بتنن يقضي على المريض خلال ساعات أو أيام . وليس ثمة شك في أن ما برز هو دحاق أي فتق حصل في موضع الطعنة ، وأن الأحشاء التي يحويها البروز كانت مغطاة بالجلد بعد أن شفيت الطعنة ، ويتضح من بعض كتب الأدب أن هذا النتوء قد برز لاحقا ، مما يؤيد أنه دحاق وليس أمعاء عارية خرجت إثر الطعنة مباشرة .

ونأتي الى اختلاف آراء الأطباء في العلاج ، فمعظمهم نصح بأن يترك النتوء وشأنه ، لأن قطعه سيؤدي إلى الموت لا محالة . وهو رأي صواب ، فقطع الأمعاء - حتى في عصرنا الحاضر - على جانب من الخطورة غير قليل . لكن عصر « صخر » لم يخل - كما لم يخل أي عصر آخر - من أطباء مغرمين باستعمال المشرط ، مولعين بإجراء الجراحة ، مهما كانت الظروف . وعملية كهذه تقتضي موافقة المريض وأهله . وكما هو واضح من كتب الأدب فإن المريض وافق على ذلك بملء إرادته . وهنا لنا وقفة ، فحالة صخر النفسية - كما تصفها الكتب - كانت مزيجا من الاكتئاب والهمود واليأس ، وهذه تدفع إلى الانتحار ، لذلك فإن موافقة المريض على إجراء عملية خطيرة في مثل هذه الحالة النفسية موافقة مرفوضة طبيا .

مما تقدم نرى أن صخرا كان مصابا بالاكتئاب النفسي واليأس ، وقد أجريت له عملية جراحية هي في حد ذاتها خطأ طبي . وهكذا فإن وفاته كانت ناجمة عن حالة نفسية سيئة ، وعن خطأ طبي ، استنكره أطباء ذلك الزمن ، ويستنكره الأطباء الآن .

لقد مات صخر لكن ما قيل فيه من أبيات رثاء عصماء ستبقى خالدة ما بقيت لغة الضاد .

أعَيْنَيَّ جُودا ولا تجمُدا
ألا تبكيان لصخرِ الندى
ألا تبكيان الجريءَ الجوادَ
ألا تبكيان الفتى السيِّدا
طويل النجاد رفيع العماد
وساد عشيرتَه أمْرَدا

جمال العربية

□ صفحة لغة

أسئلة وأجوبة

بقلم : محمد خليفة التونسي

١) « أكو، وماكو »

في رسالة من السيد احمد محمد عبدالفضيل محمود (الشويخ الجنوبي - الكويت) سؤال عن هاتين الكلمتين اللتين تستعملان في الكويت وبعض البلاد الخليجية ، هل هما عربيتان أم خليجيتان ، واذا كانتا أجنبيتين فمن أي البلاد ؟ .

سمعنا كثيرا هاتين الكلمتين في البلاد التي وردت في السؤال ، ومنها العراق ، وقد استغربناهما في البداية ، ومعنى الكلمتين في الاستعمال « يوجد » و « لا يوجد » او « يكون » و « لا يكون » وهما ليستا عربيتين ولكن يبدو أنهما من أصل عروبي (سامي) او لهما أصل في واحدة او اكثر من اللغات العروبية (السامية) ، ومن هذه اللغات اللغة المنداعية أو المندائية[١] وهي متفرعة من اللغة الآرامية التي كانت منتشرة بين كل شعوب الشرق الاوسط مالم تنتشر فيه لغة عروبية اخرى الا اللغة العربية التي غلبت بعدها مع انتشار الاسلام فقضت عليها . واللغة المنداعية احدى اللغات الآرمية الشرقية ، وكانت مستعملة في العراق من حران شمالا حتى البطائح في جنوبه ، وربما كان استعمالها قد امتد جنوبا الى بقية بلاد الخليج العربي .

في هذه اللغة المنداعية تجد لفظ « كا » و « اكا » بمعنى يوجد او يكون ، ويقابلها في النفي « لكا » أي لايكون ، « لكا » مكونة من كلمتين : اللام وهي بمعنى حرف الجر إلى و « كا » بمعنى موجود التي تقابلها في اللهجة الخليجية « اكو » ، ولسنا نعرف لها كلمة تضارعها وزنا في عربيتنا ، فهي ليست منها .

ويحسن بنا ان نلاحظ في عربيتنا الفعل « يكون » وهو أجوف بالواو ، فاذا جزم قيل « لم يكن » و « لم اكن » وقد تحذف نونه كما في قوله تعالى « ولم أكُ بغيا » وقوله « وان تكُ حسنة يضاعفْها » وقوله « قالوا لم نكُ من المصلين » وقوله « فان يتوبوا يكُ خيرا لهم » فهل الكاف هي جذر الكلمة الدال على الوجود أو الكينونة ؟

هذا مالا سبيل فيه الى القول الفصل في لغة هي اعرق اللغات الحية وهي العربية ، وهل « اكو » المنداعية التي تفيد الوجود ادخلت عليها « ما » التي تفيد النفي في العربية فصارت « ماكو » ؟ كما ان الصابئين كانوا يعيشون في شمال العراق من حران الى جنوبه (البطائح) منذ القرن الاول للميلاد وامتدت معرفتهم حتى مكة في الجاهلية ، ومنهم اليوم قلة تعيش في العراق شمالا وجنوبا ويتوخون ان

يعيشوا بجوار المياه لان دينهم يقتضي الطهارة بالماء والانغماس فيه لاداء شعائر كثيرة[٢] .

٢) بيت شعر وقصيدته وقائله

في رسالة من السيد / داود عاني الماضي (القورية / دير الزور / سورية) يسأل عن معنى بيت ، والقصيدة التي هو منها وقائله ، والبيت هو :

اذا شاب الغراب رجوت أهلي
وعاد القير كاللبن الحليب

ـ ولسنا نعرف قائله ولا القصيدة ، وقد سألنا عنها بعض زملائنا هنا فلم نظفر بجواب ، وننشر السؤال هنا لعل بعض القراء يعرف الجواب ومرجعه ، واما معنى البيت فهو الاستحالة ، لأن الغراب لا يظهر عليه بياض الشيب والقير « القار » بطبيعته أسود ، فيستحيل ان يكون أبيض كالحليب .

٣) مبارزة أسد

كنا قد نشرنا في العربي العدد ٣٢٨ في باب جمال العربية ـ قصيدة عنوانها « مبارزة أسد » ونسبناها الى « بديع الزمان الهمذاني » وقد ورد إلينا تعقيبان .

أحدهما من الدكتور سيمون الحائك (الاستاذ بجامعة السوربون / فرنسا) يذكر ان القصيدة لبشر ابن عوانة . الثاني من السيد حسن عبود الحمادي (شارع الوحدة / الميادين / سورية) يذكر مثل ذلك ، وان الشيخ كمال الدين الدميري في كتابه « حياة الحيوان الكبرى » قد ذكر ذلك ايضا عند كلامه عن « الهزبر » نقلا عن الجوهري .

ـ ونشير الى ان القصيدة وردت مع قصة طويلة في آخر مقامة من مقامات بديع الزمان ، وهي اطول مقاماته ، ومعروف أنه أسند رواياته كلها الى عيسى ابن هشام ومنها هذه المقامة البشْرية ومحورها هو : « بشر بن عوانة العبدي » وكلا الرجلين من خيال بديع الزمان وكذلك القصيدة .

٤) بالكاد

في رسالة من السيد / محمد المصطفى بن محمد سيديا (بوتلميت / موريتانيا) يسأل عن كلمة « بالكاد » ويقول انه تحير في معناها لا لأنها نادرة ، بل لأنها استعملت من أشهر الأدباء الذين يؤتمنون على لغتنا ، وانها استعملت في مجلة « العربي » خلال استطلاع عن الجامع الأزهر .

ـ لم نقرأ هذه الكلمة في أية مقالة لأديب متمكن ، ولم تمر بنا في كتاب أو صحيفة الا احسسنا منها بنفرة ، والبلغاء لا يستعملونها فيما يكتبون ، بل يستعملها صغار الصحفيين أو الناشئة لانتشارها في الحديث بالدارجة ، وهم ينقلونها عنها بحكم العادة حين يكتبون .

و « بالكاد » كلمتان : باء الجر و « الكاد » وأصلها الفصيح (بالهمز) وهو مصدر ذو معان كثيرة منها الشدة والمشقة وتكلفها ، وفعله كأد « كثأر » يكأد كأدا ، يقال : كأدني الأمر ، وتكأدني وتكاءدني ، أي شقّ علي . ويقال : مسألة كأداء وكؤود ، أي شاقة صعبة او شديدة ، والدارجة لاتهمز المصدر « كأد » بل تقول « كاد » مثل : فار وراس وفاس بلا همز ، والبلغاء لا يستعملون « بالكاد » ويميلون الى مترادفاتها او نحو منها فيقولون مثلا « عبرنا النهر بصعوبة او مشقة » ولا يقال كما في الدارجة : « بالكاد عبرنا النهر » ، ولم يمر بنا الفعل كأديكأدكأدا » في كلام بليغ ، ولو استعمل لكان فصيحا مع غرابته . □

---

(١) المندائية هي المنداعية ، وقد سقط صوت العين فيها وان كان محتفظا بمكانه في ترتيب أبجديتها التي تشبه الأبجدية العربية ترتيبا في حروفها الاثنين والعشرين الاولى .

(٢) تراجع الكتب الآتية « الصابئة المندائيون » للسيدة دراور ترجمة نعيم وغضبان ، طبع بغداد سنة ١٩٦٩ ، و« مفاهيم صابئية مندائية » للسيدة ناجية غافل مراني .

وكتاب الصلاة القانونية للسيدة دراور . E.S. Drower . The Canonical Praybook of the Mendaeans.

جمال العربية

☐ صفحة شعر

☐ هكذا غنى الآباء

في الصداقة

لأبي تمام

أبو تمام (حبيب بن أوس) الطائي نسبة الى قبيلة طيء العربية لأنه كان منها دماً ، أو ولاء ، أو ادّعاء ، ولد في احدى قرى دمشق نحو سنة ١٨٨هـ في أسرة مسيحية فقيرة ، انتقلت في طفولته الى دمشق ، وفيها فتح أبوه حانة ، وعمل هو عند حائك ، ولما بلغ رشده دخل الاسلام وغيّر اسم أبيه « تدوس » الى « أوس » ثم انتقل الى حمص ، واتصل بشاعرها « ديك الجن » فتأثر به وبشعره ، ثم انتقل الى مصر ، واخذ يتكسب بسقي الناس الماء في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، ويستمع الى حلقات العلماء فيه ، وحفظ كثيرا من القرآن والأشعار ، ومضى ينظم الشعر متكسبا ، فيمدح من يطمع في عطائه ، فإن حرمه هجاه ، ثم عاد الى الشام يطوف بربوعها ، وحاول التقرب الى المأمون العباسي في بغداد ، فخاب أمله فيه ، فمضى يتنقل بين ربوع المشرق كالعراق والشام وارمينية وخراسان ، متصلا بكثير من ولاة الدولة وقوادها حتى ذاع صيته فيها ، فاستدعاه المعتصم العباسي وقدمه على سائر شعراء عصره حتى أخمل كثيرا منهم ، وأجزل له العطاء ، ومن أشهر قصائده في مدحه قصيدته في فتح عمورية من بلاد الروم ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وقد امتلأت يده بالمال ، وكان جوادا ، مسرفا في طلب اللذات ، شديد الاهتمام بزيه وزينته . وكان اسمر طويلا فصيحا ذا صوت أجش مع تمتمة يسيرة ، ولهذا اتخذ له غلاما فصيحا ينشد قصائده امام ممدوحيه . وكان متوقد الذكاء قوي الحافظة حتى قيل انه كان يحفظ مئات الأراجيز والقصائد وفي شعره إشارات كثيرة الى آيات القرآن والسيرة النبوية واخبار تاريخ العرب . وتشهد على اطلاعه الواسع على الشعر قبله اختياراته الكثيرة منه جاهليا واسلاميا ، واشهرها « ديوان الحماسة » وهو مطبوع وله عدة شروح طبع بعضها ، وفي ديوانه - وهو مطبوع - كثير من التكلف في محاولة تحسين شعره ، فقد ملأه بالمطابقة والجناس مما أفقده كثيرا من السهولة والبهجة .

وكان سمح الخلق لطيف العشرة وفيا لأصدقائه يشاركهم في ماله وجاهه ، ومع كثرة الاخوانيات في دواوين شعرائنا ، قلّ ان نجد خلافا في الصداقة ما لأبي تمام فيها ، كما في هذه الأقباس ، ومنها في فراق الأصدقاء ويسميهم الأحباء :

في فرقة الاحباب شغل شاغل
والثكل صرفا فرقة الاخوان

في طلب الصديق

مَن لي بانسان اذا أغضبتُه ... وجهلت ، كان الحلمُ ردُّ جوابه
واذا طربتُ الى المُدام شربتُ من ... اخلاقه ، وسكرتُ من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبه ... وبسمعه ، ولعله أدرى به

في وَداع صديق

هي فرقة من صاحب لك ماجد ... فغداً إذابة كل دمع جامد
فافزع الى ذُخْر الشئون وغَربه ... فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد
واذا فقدت أخا ولم تفقد له ... دمعا ولا صبرا فلست بفاقد
أعلي يا ابن الجهم انك زُفت لي ... سما وجرا في الزلال البارد
لا تبعُدَنْ ابدا ، ولا تَبْعَد ، فما ... اخلاقك الخضرُ الرُّبا بأباعد
إن يُكْدِ مطرف الاخاء فإننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذبٌ تحدَّر من غمام واحد
أو يفترق نسَبٌ يُؤلِّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالد

في رثاء صديق

وقلتُ : « أخي » قالوا : أخ من قرابة ؟ » ... فقلتُ : نعم ، ان الشكول أقاربُ
نسيبي في عزمي ورأيي ومذهبي ... وان باعدتنا في الأصول المناسبُ
مضى صاحبي واستخلف البثَّ والأسى ... عليَّ ، فلي من ذا وهذاك صاحبُ
عجبتُ لصبري بعده ، وهُوَ ميِّت ... وقد كنت أبكيه دما وهو غائب
على أنها الايام قد صرن كلُّها ... عجائبَ ، حتى ليس فيها عجائب

في الحنين الى صديقين

طوتني المنايا يوم الهو بلذة ... وقد غاب عني أحمدٌ ومحمدُ
جزى الله ايام الفراق ملامةً ... كما ليس يوم في التفرُّق يُحمَدُ
اذا ما انقضى يومٌ بشوقٍ مبرِّح ... أتى باشتياق فادح بعده غدُ
فلم يُبقِ مني طولُ شوقي إليهمُ ... سوى حسراتٍ في الحشا تتردَّد
خليليَّ ما أُرتعت طرفي ببهجة ... أوانبسطت مني الى لذة يد
ولا حُلتُ عن عهدي الذي قد عهدتُما ... فدوما على العهد الذي كنت أعهَد
وان تحُلوا دوني بأُنسٍ ولذة ... فإني بطول الشوقِ والبثِّ مُفرَدُ

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك ، وامتاعك ، بالاضافة الى إثراء معلوماتك ، وربطك بتراثك الفكري والحضاري ، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم ، والموسوعات ، وغيرها من المراجع . والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقابلة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم .

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١										■
٢								■		
٣					■					
٤			■					■		
٥					■			■		
٦	■					■				
٧					■					
٨					■				■	
٩				■					■	
١٠			■					■		

كلمات أفقية

١ ـ من المعاجم العربية الكبرى للعلامة الزبيدي .

٢ ـ أقدم ملحمة هندية تروي أعمال ، راما ،في معكوسة .

٣ ـ عكسها يعلن ، انبجس مبعثرة .

٤ ـ حرف مكرر ، ولد الظبية ، للاستفهام عن غير العاقل .

٥ ـ أخذت أبعادها ، اشتد في الخصومة ، ضعف .

٦ ـ قبطان ، بلد عربي شقيق مبعثرة .

٧ ـ خاص بالنساء ، جمع صندل مبعثرة .

٨ ـ ضعفت همتهن ، رمح .

٩ ـ كلمة إغراء وتحريض ، فصاحة وحسن تعبير .

١٠ ـ رئيس القوم جمعها رتوت ، بدأت ، حيوان من الزحافيات شبيه بالحرذون .

كلمات رأسية

١ ـ بلسم شاف للأمراض ، كراهية .

٢ ـ من كبريات ناطحات السحاب في العالم .

٣ ـ طبق كبير ، لوح أسود من حجر عادة .

٤ ـ عالم رياضي فذ وصاحب نظرية النسبية .

٥ ـ كلا ، معروف .

٦ ـ مفردها عندليب ، جليد أو ثلج .

٧ ـ الاسم الأول لفيلسوف الهند العظيم طاغور .

٨ ـ جمع دن .

٩ ـ الاسم الأول لمؤسس علم التحليل النفسي فرويد .

١٠ ـ من أمهات المعاجم العربية لابن منظور .

حل مسابقة العدد الماضي يناير ١٩٨٨

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ج	ا	ت	ج	ا	ك	ر	و	س	و
٢	ر	س	■	ن	ب	ا	■	ع	ت	ص
٣	ا	ل	ع	ا	ن	س	■	و	ا	و
٤	ر	ا	د	■	س	ت	■	د	ل	ل
٥	■	م	ا	د	ي	ر	ا	■	ي	ي
٦	ب	ا	■	س	ر	و	■	م	ن	ك
٧	و	ب	ل	■	ي	■	م	ر	ح	■
٨	ت	ا	■	و	ن	د	س	و	ر	■
٩	ق	د	س	ي	■	ر	ي	■	ا	م
١٠	ك	■	ا	ل	ا	ج	ر	و	د	ي

تأليف : دونالد ميتشي و روري جونستون / عرض : بهاء الدين محمود

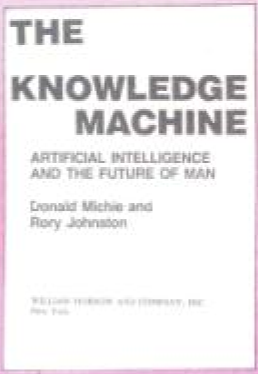

آلة المعرفة

الذكاء الاصطناعي ومستقبل الإنسان

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٥ في الولايات المتحدة الأمريكية. ويتحدث في مجمله عن الاعتقاد الخاطىء الذي نسلم فيه بأنه لا يمكننا أن نحصل من العقول الألكترونية (الكمبيوتر) أكثر مما أعطينا لها من معلومات. لقد كانت هذه المقولة تنطبق على ما صمم من عقول الكترونية خلال الثلاثين عاما الماضية ، أما الآن فإن ثمة شيئا جديدا قد تمخضت عنه صناعة العقول الألكترونية ، وهو ما يسمى (آلات المعرفة التي تقدم لنا المعرفة كما يمكنها أن تقدم لنا اختيارات جديدة ، أو استراتيجيات مبتكرة ، أو حلولا لمشاكل حقيقية تواجه الكثيرين من البشر بصفة عامة والعلماء بصفة خاصة).

كتاب الشهر

يبدأ المؤلف بالباب الأول من الكتاب بعنوان : (القوة غير العاقلة والجهل) ، فيتحدث عن الشعور بالزهو والدهشة اللذين تملكا إنسان هذا العصر في شهر يوليو عام ١٩٦٩ ، حينما استطاع أول إنسان في التاريخ الهبوط على سطح القمر . لقد تناولت وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم هذا الخبر المثير ، وقد أيقن الإنسان ـ لأول مرة ـ أن العقول الألكترونية التي ساعدته على إنجاز مثل هذا العمل الخارق لم تُصَمَّمْ للقضاء على المشكلات الاقتصادية والحسابية فحسب وإنما تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك بكثير .

ثم مرت الأيام والسنون ، وتجادل الباحثون حول موضوعات شتى ، وكان لديهم الإحساس الكامل بقضية سبب الوجود ، ثم حاولوا الخوض في هذه القضية بابتداعهم (كمبيوتر الذكاء) ، ومما يجدر ذكره أن بعض الناس قد اعترض على وسم هذه الآلات بصفة (الذكاء) ، مؤكداً أن الذكاء ماهو إلا ميزة يمتاز بها البشر ، وربما يكون مصطلح الذكاء مُضَلِّلاً في بادىء الأمر ، لكن ما يحدث في واقع الأمر هو أن آلة (الذكاء الاصطناعي) إنما تقوم بمهمتها في حدود ما يُعْطَى لها من معلومات ، ومن خلال البرنامج الذي صُمِمَتْ على نَهْجه ، فتُبْرِزُ النتائج تَبَعاً لهذه المعلومات المعطاة لها ، وكذلك على ضوء البرنامج الذي صُمِمَتْ على نَمَطِهِ .

ثم يتحدث المؤلف في موضع آخر عن (التجوال في كوكب المريخ) ، فيذكر أن من المجالات التي يحتاج الإنسان فيها إلى جهود (آلة الذكاء) مجال غزو كوكب المريخ ، وقد أولت الولايات المتحدة الأمريكية هذا الموضوع كثيراً من الأهمية تحت ما سمي « مشروع التجول فوق المريخ » ، وتكمن فكرة هذا المشروع في الاستعانة بإنسان آلي (روبوت) للتجول فوق هذا الكوكب الغامض . ويتم التحكم في هذا (الروبوت) بواسطة آلات التحكم عن بُعْدٍ (الريموت كنترول) ، كما يتم تجهيز هذا الروبوت بعدد من آلات التصوير ، وآلات لأخذ العينات من تُربة هذا الكوكب ، وكذلك آلات لارسال المعلومات الى الأرض من على سطح هذا الكوكب الذي ظل الإنسان يحلم منذ أمَدٍ بعيد بارتياده .

النظام الخبير

ثم يتحدث المؤلف في فصل آخر عن (الحاسب الآلي ومساعدته للخبراء) ، تحت عنوان (الكمبيوتر ينضم للخبراء) ويذكر المؤلف أنه خلال الأربعينيات من هذا القرن استطاع العلماء تصميم أول جيل من أجيال الكمبيوتر التي كان يطلق عليها آنذاك ولفترة طويلة اسم العقول الألكترونية . ثم أخذت هذه الآلات بعد فترة وجيزة اسم الآلات الحاسبة (الكمبيوتر) ، إذْ كانت أكثر استخداماتها شيوعاً هي عمليات حسابات الأرقام ، وقد تخطت هذه الآلات في الوقت الحاضر مجالات الحسابات العددية إلى ماهو أكثر من ذلك ، فأضحت تساعد الإنسان في كثير من مجالات الحياة العملية ، إذ لم يعد الإنسان بحاجة إلى أن يسأل الكمبيوتر : ما هو الجذر التربيعي للعدد ٣٥,٧٦٩ على سبيل المثال ؟ لكن إنسان هذا العصر يريد أن يسأل الكمبيوتر : ما هو الخلل الوظيفي الحادث في جسم هذا المريض ؟ أو : ما هو التركيب الجزيئي لهذا المركب الكيميائي ؟ أو ما هي الطريقة المثلى لتصنيع مادة الأنسولين ؟

وغير ذلك من المجالات التي يبحث الإنسان فيها عن كل ماهو جديد وفريد .

ثم يبدأ المؤلف حديثه عما يسمى (النظام الخبير)

في الكمبيوتر ، ذلك النظام الذي يستخدم فيه الكمبيوتر على نطاق واسع للبتّ في كثير من الأمور والمشكلات في مجالات الطب والكيمياء والزراعة وغير ذلك .

ويتكون هذا (النظام الخبير) من قاعدة معرفة ، وآلة استنتاجية ، ويعمل هذا النظام طبقا لقواعد معطاة له مسبقاً تبعاً لكل مجال يعمل فيه مثل ذلك النظام ، ومن المجالات المهمة التي استخدم فيها ذلك (النظام الخبير) مجال البحث عن النفط في منطقة (بحر الشمال) ببريطانيا ، فقد اسْتُخْدِمَ في هذه الاكتشافات النفطية نظامُ خبير تمّ استحداثه في جامعة ادنبرة البريطانية ، وذلك لاكتشاف الخلل والأخطاء التي ربما تعتري خطط البحث عن النفط في هذه المنطقة المهمة من العالم ، وقد حقق هذا النظام الخبير كفاءة قصوى ، فتحققت تبعا لذلك أكبر معدلات في إنتاج النفط في منطقة بحر الشمال ، كما يُسْتَخْدَم نظام خبير آخر في الكشف عن الكنوز الدفينة في باطن الأرض ، وذلك في مجال التعدين ، ويستطيع العلماء باستخدام هذا النظام الكشف عن المخبوء الاستراتيجي من المعادن المختلفة في منطقة معينة من الأرض ، كما يستخدم (نظام خبير) آخر في مجالات الكيمياء العضوية للكشف عن التركيب الكيميائي لعديد من المركبات الكيميائية المعقدة ، وذلك بإعطاء معلومات أولية لهذا النظام الخبير عن هذه المركبات ، باستخدام تحليل « مقياس الطيف » . ويساعد هذا النظام العلماء والباحثين في معرفة كيفية ترتيب الذرات في كل جزيء من جزيئات مادة كيميائية بعينها ، كما يستخدم (نظام خبير) آخر في المجال العسكري ، وذلك للتعرف على السفن أو الطائرات المعادية بسهولة على شاشات الرادار ، كما يستخدم (نظام خبير) آخر في مجال علم الوراثة ، فيتم التحكم في الحمض النووي الديوكسي ريبوزي (D.N.A) ، وهو الحمض النووي المسئول عن نقل الصفات الوراثية في الكائنات الحية ، وقد ساعدت هذه التجارب على نشوء ما يسمى تقنية إعادة اتحاد الحمض النووي الديوكسي ريبوزي .

وقد فتحت هذه التقنية آفاقاً جديدة في مجال علم الهندسة الوراثية ، فتمخض عنها كثير من الإنجازات ، مثل تخليق هرمون الأنسولين وهرمون النمو ، وذلك للمساهمة في إنهاء آلام كثير من المرضى .

ثم يتحدث المؤلف في موضع آخر عن علاقة هذا (النظام الخبير) للكمبيوتر بالمجتمع وأفراده ، فيعطي مثالا على هذا باستعانة الأطباء (بالنظام الخبير) في معالجة كثير من المرضى ، ويتساءل : هل سيؤدي ذلك إلى نشوء نوع من البطالة بين الأطباء ؟ ويردف المؤلف قائلا : إن الكثيرين قد عارضوا مثل هذا النظام المسمى (الكمبيوتر المُشخّص) .

ولا يستطيع المؤلف أن يجيب على تساؤله هذا ، لكنه يعتقد أن هذا النظام الخبير ربما يكون ذا أهمية قصوى لتدريب الكثيرين من الشباب الأطباء ذوي الخبرة المحدودة . ومما يجدر ذكره في هذا المضمار أن إحدى الجامعات البريطانية قد أوْعَزَتْ إلى إحدى الشركات المُبرمجة لمثل هذه الأنظمة الخبيرة لتنجز لها (نظاماً طبياً خبيراً) ، لمساعدة الجراحين الشباب في تشخيص حالات (آلام البطن الحادة) ، لتنمية قدراتهم وخبراتهم في التشخيص والعلاج .

نافذة الإنسان

ثم يتحدث المؤلف عن (نافذة الإنسان على العالم) ، فيسرد حادثة تسرب بعض فقاقيع غاز الهيدروجين داخل المفاعل النووي في جزيرة ثري مايل بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة في ٢٨ مارس سنة ١٩٧٩ ، ذلك الحادث الذي أثار القلق والذعر في كثير من الأوساط العلمية في الولايات المتحدة وخارجها ، ثم يتحدث المؤلف كذلك عن ثلاثة إنذارات خرجت من المركز الأمريكي لقيادة الدفاع الجوي الأمريكية بين عامي ٧٩ ـ ١٩٨٠ التي أعلنت أن السوفيت على وشك الهجوم على القوات المسلحة الأمريكية .

وقد اتضح فيما بعد أن الإنذار الأول جاء نتيجة خطأ في تشغيل كمبيوتر هذا المركز ، والثاني جاء

نتيجة خطأ في الدائرة المتكاملة لنفس الكمبيوتر . أما الإنذار الثالث فكان يبدو مُتعمّداً ، وذلك كمحاولة لقياس مدى استعدادات القوات المسلحة الأمريكية إذا ما حدث ذلك الهجوم في الواقع .

والغرض كما يقول المؤلف من سرد هذه القصص هو التدليل على أن أنظمة الحاسبات الآلية في هذه المراكز قد أضحت أكثر تعقيدا ، بل أكثر صعوبة على الفهم ، وبالتالي أكثر صعوبة في التحكم فيها ، أما في الوقت الحاضر فقد استطاع العلماء بناء هذه الآلات المُعقدة ، لتؤدي أغراضاً أكثر من المطلوب منها ، ولذا تُبنى هذه الآلات على مستوى التفكير البشري ، لتنجز كثيراً من الأعمال في وقت واحد .

ثم يتحدث المؤلف في موضع آخر عن التجارب المستقبلية التي تجريها (اليابان) في مجال تقنية آلات الذكاء ، فيذكر أن الحكومة اليابانية لم تُخف خططها في هذا المضمار ، فقد أعلنت عن برنامج طموح لبناء الجيل الخامس من هذه الآلات خلال فترة التسعينيات من هذا القرن ، ومن المُزمع أن يكون هذا الجيل الجديد من آلات الذكاء قادراً على فهم لغات وأحاديث البشر المعتادة ، وكذلك إدراك هذا العالم المرئي ، وبالتالي حل العديد من المشكلات التي تعجز آلات الذكاء الحالية عن حلها . ولا يلبث المؤلف أن يذكر مدى ما يعانيه اليابانيون من جَرّاء الجدال والمناقشات العديدة حول التأثير المستقبلي لهذه الآلات على المجتمع الياباني بأسْره ، ويزيد ذلك تعقيداً إذا ما علمنا أن الديانة اليابانية « الشنتو » تُولي الكائنات المُدْركة الواعية وبخاصة الإنسان كثيراً من التبجيل والتقديس .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن العقل البشري وقدراته تحت عنوان (التفكير في التفكير) ، فيذكر أن للعقل البشري قدرة هائلة على أداء العمليات الحسابية المعقدة . ويحتوي المخ البشري على العديد من المناطق المنوط بها القيام بوظيفة من الوظائف . ولقد وقع الباحثون والأطباء - في الماضي - في حيرة من أمرهم لتلك الأشياء التي تكْتنفُ المصابين بإصابات الدماغ ، فتفقدهم القدرة على الكلام .

وقد اكتشف العلماء بعد ذلك أن جزءاً من النصف الأيسر للمخ هو المسئول عن التحدث والقدرة على الكلام ، ثم اكتشف العلماء بعد ذلك ماهو أكثر من ذلك ، وهو أن هذه المنطقة نفسها تنقسم إلى عدد من المناطق المسئولة عن التعامل مع المفردات اللغوية ، وتركيب الجمل الكلامية ، وحركة اللسان ، وكذلك حركة الشفاه عند الكلام ، وحركة الحبال الصوتية ، وغيرها من الوظائف المعقدة .

الأساطير تملأ الفراغ

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن رؤية الألوان ، ومقدرة المخ على ترجمة هذه الرؤية بعد سقوط هذه الألوان على مُستقبِلات الرؤية فوق شبكية العين ، ثم يتحدث في موضع آخر عن الأساطير ، وهل تستطيع أن تملأ الفراغات ، فيذكر أن للأساطير وظيفة مهمة في المجتمع ، وعادة ما تنتمي هذه الوظيفة إلى نوع من الأكاذيب ، وإذا كانت الأديان تستطيع أن تملأ هذه الفراغات العقلية لأبناء عديد من المجتمعات البشرية ، فإن الإنسان يشعر في بعض الأحيان أن الأديان يجب أن تفسر وتشرح له بعض الأشياء المبهمة الصعبة على الفهم ، ويضرب المؤلف مثالا على ذلك بقوله : فإذا ما سألنا متى ستمطر السماء ؟

فإننا نشعر بالارتياح إذا ما ملأنا الفراغات التي تكتنف مثل هذا التساؤل ، كأنْ نقول : إن السماء سوف تمطر إذا ما شاء الله لها أن تمطر . وتقوم بعض المجتمعات البشرية بأعمال إيجابية لاستنزال مثل هذا المطر ، كأنْ يرقصوا رقصة المطر ، ليستجيب

الرب لهم .

ثم يضرب المؤلف مثلاً آخر وهو التساؤل العجيب الذي يسأله بعض الناس :

أين تذهب الشمس عندما تغرب ؟ ولماذا تسقط في مياه البحر عند آخر كل نهار ؟

وتجيب الأساطير على ذلك بقولهم : إنها طائر أحمر كبير يعود إلى عشه كل غروب ، وهناك آخرون يتساءلون وإذا كانت الشمس طائراً كبيراً أحمر يعود لعشه كل مساء ، فلماذا لا تستقر هناك ؟

وما الذي يجعلها تعود من الجانب الآخر في صباح اليوم التالي ؟

وهكذا يمضي المؤلف في سرد الأساطير والخرافات معلناً أن أنظمة (آلات الذكاء) يجب أن تستخدم الأساطير مثلما يستخدمها الإنسان ، حتى يتسنى لها التعامل مع الخرافات والأكاذيب ، وهذا ما يشكل في الوقت الحاضر مشكلة كبيرة لعلماء تقنية الحاسبات الآلية ، وكذلك علماء الاجتماع ، وربما لم تأخذ هذه المشكلة أبعاداً كبيرة خلال هذه الأيام ، لكنها ربما تتشعب وتتداخل في السنوات القليلة القادمة .

ثم يتحدث المؤلف عن الأصوات التي تعالت في الآونة الأخيرة حينما بنى العلماء أجهزة الحاسبات الآلية ، تلك الأصوات التي ظلت تندب وتنوح على موت الحساب والرياضيات ، إذ لم يعد أطفال المدارس يبذلون جهداً جهيداً للبحث عن الجذر التربيعي لرقم معين ، مثلما كنا نفعل نحن وآباؤنا وأجدادنا منذ عهد ليس ببعيد . إن أبناء الجيل الحالي لا يفعلون أكثر من الضغط على أزرار الحاسبات الألكترونية للحصول على ما يريدونه من قيم وأرقام . ثم يتحدث المؤلف عن التعلّم بالخبرة ، فيذكر عديداً من أنظمة الذكاء التي ابتدعها علماء الكمبيوتر في شتى أنحاء العالم لتنمية قدرات الأطفال والكبار وذكائهم ، حتى لا يكون الكمبيوتر معولاً لهدم الذكاء لدى بني البشر ، ثم يتحدث المؤلف عن الاستخدامات الاستقرائية للكمبيوتر . ومن هذه الاستخدامات مجال مقاومة أمراض النبات والآفات الزراعية ، فقد استُخدِمَ (نظام خبير) لوقاية نبات (فول الصويا) من بعض الأمراض ، ويستطيع هذا النظام الخبير إكتشاف هذه الأمراض وعلاجها ، فقد استطاع هذا النظام الخبير علاج ٣٧٤ حالة من بين ٣٧٦ إصابة تمَّ رصدُها ، مما يُثبت نجاح هذا النظام نجاحاً منقطع النظير في مقاومة آفات النباتات وعلاجها . كما تحدث المؤلف كذلك عن استخدام نظام (الكمبيوتر الخبير) في مجال الكيمياء الجزيئية الذي تمكّن العلماء عن طريقه استنباط عديد من المركبات الجديدة التي لم توجد من قبل ، وأمكن تخليق عديد من هذه المواد على ضوء هذه الاستنتاجات والاستنباطات باستخدام هذا النظام الخبير .

لحن عباد الشمس

ثم يتحدث المؤلف عن استخدامات (آلة المعرفة) في مجال الأدب والفن ، فيسأل المؤلف سؤالاً مهماً : هل من الممكن أن تُبدِع آلات المعرفة والكمبيوتر أعمالاً فنية مبتكرة في مجالات الرسم والنحت والشعر والموسيقا ؟ ويجيب المؤلف على سؤاله هذا ، فيذكر نجاح العلماء في الحصول على عدد من اللوحات المرسومة بواسطة الكمبيوتر ، وذلك بعد إمداده بالبرنامج المراد اتباعه خلال عملية الرسم ، أما في مجال النحت فقد أمكن كذلك للعلماء الحصول على عدد من النماذج في فن النحت باستخدام الميكروكمبيوتر ، بعد توصيله بعديد من الآلات الرافعة والبرنامج المراد اتباعه خلال هذه العملية ، وكذلك في فن الموسيقا الذي استطاع فيه العلماء الحصول على عديد من الأعمال الموسيقية بمساعدة الكمبيوتر . أما أغرب ما في هذا المضمار فهو إنجاز القصائد الشعرية بواسطة آلة المعرفة أو الكمبيوتر ، وفي هذا المجال تم إمداد الكمبيوتر بنظام للمفردات اللغوية ، وكذلك ببرنامج للهيكل العام للقصائد الشعرية (THE POETRY FRAMEWORK) الذي عن طريقه يقوم الكمبيوتر بترتيب الجمل أو الكلمات المعطاة له ، بحيث يُشكّل في النهاية القصائد الشعْرية ، وقد تمكّن العلماء من

الحصول على عدد من النماذج الشعرية ، مثل المجموعة الشعرية المُسَمَّاة : (لحن عباد الشمس) .

ومن هذه المجموعة نقتطف هذه القصيدة :

موسيقا قديمة لأطفال الفضاء العميق

(العوالم الثلجية

تسبح في هذه الكواكب الأسطورية ،

إنها تضيع في هذا الغُبار النَّجْميّ خلال الأزمنة البلورية ،

إن بذورك قد انتشرتْ ،

لقد أُضيئتْ بومَضاتٍ سَرْمَديّة ،

ثم ضاعتْ في هذا المحيط الفارغ .

إنني طِفْلُ الأبدية ،

أسقط في هذه الحياة

في كل الاتجاهات والزوايا) .

ولا يستطيع العلماء حتى الآن التنبؤ بما سوف يكون عليه هذا المجال من مشاركة الكمبيوتر في العملية الفنية الإبداعية ، إنها لم تتعدَّ حتى الآن مرحلة المحاولاتِ والتجريب ، ومَنْ يدري ، فلَعلَّ الغد يحمل أكثر من ذلك في هذا المجال .

ويتحدث المؤلف في الباب الأخير عن آلات المعرفة بوصفها اختراعا لكل البشرية ، فيذكر أن التحدي الحقيقي للولايات المتحدة وأوروبا في مجال تقنية هذه الآلات إنما يكمن في السباق الياباني في هذا المضمار . إن هذا التحدي لا يعود بأي حال إلى قلة المواهب في الولايات المتحدة ، وإنما يعود في حقيقة الأمر إلى نقص في عملية الابتكار ، ثم يؤكد المؤلف تحت عنوان « الخَطَرُ الأَصْفَرُ » . أن هذا السباق والتنافس القائمين الآن بين أمريكا واليابان في مجال تقنية الذكاء الاصطناعي سوف يحسمان ذلك الصراع الصناعي والاقتصادي الحادث الآن بين هاتين الدولتين . وينهي المؤلف حديثه في هذا الكتاب بدعوته إلى إنشاء معهد عالمي ، وليكُنْ مقره في (جنيف) ، حيث يبدأ فيه العلماء جهوداً جادة للارتقاء بتقنية (آلات الذكاء) على نطاق واسع ، ويدعو المؤلف إلى وجوب استقلال هذا المعهد عن التأثيرات السياسية والضغوط المالية ، وإلى حَشْد الكثير من المواهب والخبرات والعلماء المتخصصين في هذا العلم المستقبلي .

يستطيع العلماء في وقتٍ وجيز أن يحققوا الكثير من الإنجازات في هذا المضمار الجديد الذي تُعلَّقُ عليه كثير من الآمال ، لتحقيق الخير والسعادة لبني البشر في شتى مجالات الحياة والفن . □

الديوك زعيمها أكثر صياحا

● يظهر أن الزعامة شيء لا بد منه ، حتى بين الحيوانات ، والزعامة هذه تظهر جلية بين الديوك ، وقد تساءل بعض العلماء عن الديكة ، أيها أكثر صياحا ، وأيها أكثر زعامة ، وهل الزعامة هي التي تخلق الصياح ، أم أن الصياح هو الذي يخلق الزعامة وقاموا بالتجربة .

جاءوا بعدد من الديوك ، وجعلوا كل واحد منها في بيت ، وأحصوا صياحها ، فلم يجدوا بينها فرقا ذا بال ، ثم جاءوا بدجاجات ، وأدخلوا الديكة عليها ، فقامت بين الديكة المعارك ، كل واحد منها ينقر صاحبه ، وانجلت المعارك عن ديك أقر له الآخرون بالزعامة ، ومنذ أن حمل هذا الديك أعباءها ظل يصيح ويصيح عشرين مثلا مما يصيح الآخرون ،ثم أخرجوا هذا الديك من مملكته ،وأبعدوه عن الدجاجات ، فقامت المعركة بين الديكة الباقية ، وتغلب أحدها ، وتزعم ، وزاد صياحه أضعافا عن صياح سائر الديكة .

الصياح إذن هو شارة الزعامة ، والزعامة هي التي تخلق الصياح . يا ترى ماذا تكون نتيجة هذه التجربة لو طبقناها على الناس في أركان الأرض جميعا ؟

فكر الأزمة

دراسة فى أزمة علم الاقتصاد الرأسمالى والفكر التنموى الغربى

تأليف : الدكتور رمزي زكي /عرض : رافع البرغوثي

الأزمة المعاصرة في علم الاقتصاد الرأسمالي ، الأزمة الراهنة في الفكر التنموي ، أزمة الديون العالمية في ثلاث قضايا يتناولها كتابنا لهذا الشهر ، ويعالجها المؤلف في سياقها التاريخي ، في إطار قوانين الأزمة العامة للرأسمالية ، ويقدم للقارىء ثروة معرفية في كتاب يجمع بين العمق والبساطة .

يرى المؤلف أن الأزمة التي تشهدها الدول الرأسمالية منذ مطلع العقد الماضي ، والتي امتدت فشملت مجمل النظام الاجتماعي الرأسمالي بأبعاده المحلية والعالمية ، ليست أزمة دورية عادية ، بل إنها تمثل نقطة تحول حاسمة في تاريخ الرأسمالية ، وأن إمكانات التغلب عليها تتجاوز كل ما هو مألوف في مملكة الفكر الاقتصادي البرجوازي المعاصر .

الأزمة في ثلاثة محاور

ويطرح المؤلف « السؤال الجوهري الذي تسعى هذه الدراسة للاجابة عنه : ما هي البدائل المطروحة على ساحة الفكر الاقتصادي البرجوازي المعاصر للخروج من هذه الأزمة ؟ وهل هذه البدائل تقدم حلا شافيا لأزمة الرأسمالية في مرحلتها الراهنة ؟ » وللوصول إلى الاجابة يتناول الدكتور رمزي زكي

ثلاثة محاور : المحور الأول : هو إفلاس الكينزية التي أصيبت بفشل ذريع منذ دخلت الرأسمالية العقد السابع من هذا القرن . وتمثل الفشل في « العجز النظري » للكينزية في فهم ما جرى في الواقع الراهن للرأسمالية العالمية . وفي عدم فاعلية أدوات السياسة الكينزية في مواجهة الأزمة الحالية . ويلخص المؤلف أبرز الضربات التي تلقتها الكينزية في خضم الهجوم الشرس عليها من مختلف المدارس والاتجاهات . ويخلص إلى القول بأن تجربة « العصر الكينزي » برهنت أن فلسفة التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي تتضاءل قدرتها على مر السنين على تلافي الأزمات الدورية . وأن تحقيق التوظف الكامل أصبح أمرا مستحيلا . وبخاصة في ظل التغيرات الهيكلية التي طرأت على الرأسمالية على النطاق المحلي . وعلى النطاق العالمي » .

والمحور الثاني هو « مواجهة الأزمة على النطاق العالمي » وتحت هذا العنوان يتناول المؤلف تيارين رئيسيين . برزا في الفكر الاقتصادي الغربي . يستهدفان تجاوز الأزمة . والحفاظ على البنية الاجتماعية السياسية للرأسمالية . الأول هو التيار الذي ينادي بوقف النمو الاقتصادي . والثاني هو الداعي إلى ضرورة تنمية « الجنوب المتخلف » .

ويلاحظ أن تقرير نادي روما « التيار الأول » لم يأخذ في الحسبان الاختلافات الجوهرية القائمة بين النظم الاقتصادية في العالم . بل اكتفى بإلقاء مسئولية ما حدث على العالم أجمع دون تمييز . كما أنه افترض بقاء النمط الحالي لتقسيم العمل الدولي دون أي تغيير . كما يلاحظ أن تقرير « الشمال والجنوب ـ برنامج من أجل البقاء » وكذلك التقرير الثاني الذي وضعته لجنة (برانت) مؤخرا يمثلان ما يمكن أن نسميه الكينزية العالمية . فليست هناك مشكلة اختلال جوهري في بنية النظام . بقدر ما هي مشكلة نقص في الطلب الفعال على النطاق العالمي . وأن زيادة الانفاق ـ أي الموارد المنقولة من الشمال إلى الجنوب ـ يمكن أن تتكفل بزيادة هذا الطلب .

ويتوقع المؤلف أن تطبق الكينزية العالمية هذه على الرغم من أن الغرب الرأسمالي قد نبذ تطبيقها على الصعيد الداخلي . ويؤكد أن الكينزية العالمية لن تفلح في علاج الاختلال الجوهري الذي ينطوي عليه تشغيل الرأسمالية على المستوى العالمي . وإن كان من المتوقع أن تحدث تلطيفا مؤقتا لحدة الاختلال . كما يؤكد أيضا أنها لن تقدم علاجا لمشاكل التخلف والتبعية التي تعانيها البلاد المتخلفة . لأن علاج تلك المشاكل ذات الطبيعة الهيكلية تكمن في تغيير بنية هذا النظام .

أما المحور الثالث . فهو مواجهة الأزمة على الصعيد المحلي . وفي هذا المحور يناقش المؤلف التيارات الاقتصادية التي برزت في الخمس عشرة سنة الماضية في ساحة الفكر الاقتصادي الرأسمالي . وحاولت أن تقدم رؤاها الخاصة في مواجهة الأزمة الراهنة في الاقتصاد الرأسمالي . ويرسم المؤلف صورة لفكر التيار الليبرالي المتطرف (مدرسة النقديين) . ثم يقرر « أن الكينزية والمدرسة النقدية هما في حقيقة الأمر رافدان ينبعان من ايديولوجية واحدة . هي ايديولوجية الفكر الاقتصادي الرأسمالي . والخلاف الوحيد بينهما يتمثل في ذلك الحد (من وجهة نظر كل منها) . لتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية » وبينما رأى كينز ضرورة التدخل الحكومي على نطاق واسع نسبيا . يرى النقديون حصر التدخل الحكومي في أضيق نطاق ممكن .

ويبين أن الانتصار الذي حققته المدرسة النقدية في الآونة الراهنة يعود إلى ردود الفعل التي نجمت عن التناقضات الأساسية التي انطوت عليها سياسة التدخل الحكومي أيام العصر الكينزي . فبينما أدى هذا التدخل إلى تدعيم النظام الرأسمالي . ووفر له شروطا أفضل . إلا أنه يناقض مصلحة رأس المال الاحتكاري . لأنه ألغى مساحات مهمة من طرق الاستثمارات الرأسمالية على الأخص . كما أنه يوفر ـ عبر الزمن ـ بعض الشروط المادية لنمو الاتجاهات الاشتراكية . وقد وفر إمكانية استخدام جهاز الدولة من قبل بعض القوى الديمقراطية ضد مصلحة الاحتكارات .

ويتنقل المؤلف بعد ذلك إلى « التيار الاصلاحي » . ويستعرض ملامح فكر خير ممثل للتيار ، وهو جون كنث جالبريت ، الذي يدعو إلى أن تلعب الدولة دورها كوسيط محايد لحل الخلافات بين المؤسسات الكبيرة ونقابات العمال ، وإلى تطبيق نوع من التخطيط ، وإبقاء إعانات الضمان الاجتماعي ، بالاضافة إلى التنسيق بين الدول الرأسمالية .

ويؤكد المؤلف أن هذا التيار ينطلق من الأرضية الكينزية ، وإن كان يعلن نقده لها .

ويتناول بعد ذلك « التيار الراديكالي » مشيراً إلى أن فكره يتفق - إلى حد كبير - مع آراء جالبريت ، لكنه يتجاوزه في بعض الاقتراحات والمواقف المميزة ، وأهمها تبنيه لكثير من المقولات والنظريات التي يزخر بها علم الاقتصاد الماركسي . كما يلاحظ صعوبة الوصول إلى الخطوط العريضة لرؤية مشتركة بين فرق هذا التيار لكيفية الخروج من الأزمة الراهنة .

وفي خاتمة هذا البحث يقرر الدكتور رمزي زكي أن علاج الأزمة التي يمر بها النظام الرأسمالي « سيحتاج لأساليب غير عادية ، يكون من شأنها التوصل إلى وضع تاريخي جديد وملائم لاستئناف التوسع السريع في الانتاج والتراكم الرأسمالي » .

اقتصاديات التخلف

ويشير المؤلف إلى أن أزمة التنمية التي تعيشها الآن مجموعة الدول المتخلفة تعود - إلى حد كبير - إلى طغيان نوع معين من الفكر التنموي الذي ثبت افتقاده للصدق حينما يواجه بالواقع الاقتصادي الاجتماعي .

ويرى أن الفكر التنموي يعيش أزمته الراهنة بين فقد القديم ومحاكمته ومحاولة اكتشاف البديل الجديد ، مؤكدا أن أزمة الفكر التنموي ليست إلا انعاكسا أصيلا لأزمة علم الاقتصاد الغربي .

ويتناول المؤلف أهم الأخطاء والثغرات التي تطبع اقتصاديات التخلف والنمو ، وهي : العجز الواضح في تفسير التخلف ، والتضخم في حجم المشكلة السكانية ، وإهمال الطبيعة الخاصة للبلاد المتخلفة ، والصياغات الخاطئة لديناميات عملية التنمية ، والصياغات غير الصحيحة لمقاييس التنمية وأهدافها . ويشير إلى أن هذه الحيثيات يمكن بلورتها في نقيصتين في الفكر التنموي التقليدي ، هما افتقاده للكفاءة النظرية ، وافتقاده للكفاءة التطبيقية . ويرجع افتقاده للكفاءة النظرية إلى المنهج التجريدي الذي اعتمد عليه في تفسير التخلف ، وهو منهج عجز عن الاحاطة الشاملة التاريخية والمعاصرة بظاهرة التخلف ، ويرجع افتقاده للكفاءة التطبيقية إلى افتقاده للكفاءة النظرية . يقول المؤلف: « فبينما أن منطق الأمور كان يتطلب من هذا الفكر أن يبحث في قوانين النمو للمجتمعات المتخلفة من داخل هذه المجتمعات ، رأيناه يلجأ إلى تطبيق قوانين النمو التي حكمت تجارب الدول المتقدمة ، بشكل آلي على هذه المجتمعات » .

ويضيف بأن تجارب التنمية في الدول المتخلفة قد أشارت بأصبع اتهام ثابتة إلى مشاركة هذا الفكر في مسئولية الفشل الذي منيت به معظم هذه التجارب في ربع القرن الماضي .

وفي الجزء الثاني من هذا البحث يحلل المؤلف العلاقة بين أزمة التنمية في الدول المتخلفة وتبني الفكر التنموي التقليدي ، وذلك في ضوء أربع نتائج ، ترتبت على تبني هذا الفكر ، وهي :

عدم تحقق الأهداف المباشرة المنشودة ، وقد تمثلت في تعاظم معدل نمو الناتج القومي في أقصر فترة ممكنة .

نماذج فاشلة للتصنيع : حيث تم اختيار نماذج للتصنيع لاتتناسب إطلاقا مع موارد هذه الدول وواقعها الاقتصادي ، مما أدى إلى تشويه نمط الانتاج والاستهلاك لصالح أصحاب الدخول العالية وسكان المدن والتبعية للخارج .

الآثار السلبية لتضخيم دور الاستثمار في التنمية : وقد ترتب على النظر إلى التنمية الاقتصادية أنها دالة على معدل التراكم ، وإهمال جوانب أخرى

من عملية التنمية ، وإغفال إمكانات أخرى لزيادة الناتج القومي ، واتساع فجوة الموارد المحلية .

عدم الثقة بالنفس وتزايد الاعتماد على الغير : وقد أدى تأثير مقولة « نقص المدخرات المحلية وعدم كفايتها لتمويل التنمية » إلى الإفراط في الاعتماد على التمويل الأجنبي ، وما تبع ذلك من آثار سلبية ، وحصاد مر .

نحو فكر تنموي جديد

يرسم الدكتور رمزي زكي في الجزء الثالث من هذا البحث أهم ملامح الفكر التنموي الجديد الذي تمخض عن المراجعات الانتقادية للفكر التنموي التقليدي ، وتتمثل تلك الملامح في :

تغيير منهج التحليل : ففهم المعاني الحقيقية لمصطلحي « التخلف » ، « والتنمية » يتطلب منهجا جديدا قادرا على الاحاطة الشاملة والتاريخية والمعاصرة بالظاهرتين اللتين يشير إليهما ، وتزايد الادراك بأن التنمية حدث حضاري شامل ، وليست مجرد نمو اقتصادي .

الرؤية الجديدة في تفسير التخلف : فهو ظاهرة نسبية تاريخية ، يجب البحث عن القوانين التي حكمت نشأتها وتطورها من منظور تاريخي اجتماعي والعلة الأساسية للتخلف الراهن هي التبعية للعالم الخارجي ، ويجب تحطيم طوق التبعية بكل مكوناته .

عودة الاهتمام ببحث العلاقة بين التوزيع والتنمية ، واعتماد نمط التوزيع على نمط التنمية .

الرؤية الجديدة للتنمية : كتنمية هدفها الجوهري تحقيق التنمية الاقتصادية المستقلة التي تستهدف رفاهية إنسان العالم الثالث ، ويكون توجهها الأساسي نحو الداخل ، وتتحقق بالاعتماد على الذات أساسا ، وتتم بالمشاركة الشعبية ، وترفع مستوى معيشة أغلب السكان ، وتتضمن الوصول إلى التقنية الملائمة للواقع الاقتصادي الاجتماعي ، ذات الكفاءة الاقتصادية .

الاهتمام بالاطار العالمي الملائم للتنمية : وقد بدأت الدول المتخلفة تعي أهمية استثمار المواقع التي تملكها في العلاقات الاقتصادية الدولية ، وتدرك ضرورة تعاونها وتضامنها لمواجهة الأوضاع غير المتكافئة في النظام الاقتصادي العالمي .

أزمة الديون العالمية

تحت عنوان « أزمة الديون العالمية والامبريالية الجديدة ، الآليات الحديثة لاعادة احتواء العالم الثالث » يناقش الدكتور رمزي زكي الجذور الحقيقية لأزمة الديون العالمية ، وآثار النمو الانفجاري لديون البلاد المتخلفة ، وإعادة جدولة الديون ، والرضوخ للامبريالية الجديدة .

وهو يستعرض تطور مشكلة الديون تاريخيا ، ثم يشير إلى أن نهاية الستينيات وبداية السبعينيات تمثل نقطة تغير نوعي في منحى المديونية الخارجية ، وفي خطورة ما تمثل بالنسبة للبلاد المدينة ، وهي تشكل أهم آلية من آليات الامبريالية الجديدة المعاصرة ، لاستعادة هيمنتها المباشرة على البلاد المتخلفة .

ويلقي الضوء على أهم آثار النمو الأخطبوطي للديون الخارجية للبلاد المتخلفة التي تمثلت في النقل العكسي للموارد ، وإضعاف القدرة على الاستيراد ، والانزلاق في طريق انكماشي خطير ، وهرب الأموال إلى الخارج ، والتورط في فخ إعادة جدولة الديون .

ويسلط المؤلف الضوء الكاشف على قضية إعادة جدولة الديون ، والرضوخ للامبريالية الجديدة ، موضحا أن على البلاد المدينة التي تلجأ إلى هذه العملية أن تقبل بالادارة الخارجية المباشرة لاقتصادياتها ، وينبه إلى الدور الخطير الذي يلعبه صندوق النقد الدولي في تكييف البلاد المتخلفة المدينة مع متطلبات مواجهة الرأسمالية العالمية لأزمتها .

وفي نهاية الكتاب ملحق للبحث الثالث عن صندوق النقد الدولي والأموال المهربة للخارج ، يعرض فيه المؤلف أشكال تهريب الأموال ، وأسباب اهتمام المنظمات الدولية بهذه الظاهرة ، ويؤكد استحالة عودة هذه الأموال إلى بلادها ،

ويدعو إلى مكافحة هذه الظاهرة ، بفرض سلطة الدولة في مجال الاستيراد والتصدير والنقد الأجنبي .

ملاحظات

الكتاب قيم بكل المقاييس العلمية ، فقد تناول الكاتب قضايا في منتهى الأهمية ، وعالجها بعمق في سياقها التاريخي ، وعرض ما توصل إليه ، بأسلوب بسيط . لكن المؤلف - كما نرى - لم يعط التيارات الثلاثة التي تناولها حقها من التحليل ، لتكون إجابته عن السؤال الجوهري الذي سعى إلى الاجابة عنه كاملة تامة .

فعند تناول الكينزية اكتفى بسرد الاتهامات التي وجهت إليها من قبل مدارس واتجاهات مختلفة ، ولم نجد تناولا لمسيرة الكينزية وأسباب فشلها ، وللأسباب التي تنفي إمكانية الرجوع إليها في صورة محدثة .

وإن كان صحيحا مايشير إليه المؤلف من أن النقديين أعطوا الأهمية الارتكازية للنقود غير أنه لم يلاحظ أنهم لم يعطوا أهمية لدور العلاقات والسياسات النقدية في التأثير على معدل النمو الاقتصادي في المدى البعيد ، وعجزوا عن توضيح كيفية تأثير النقود على أداء النظام الاقتصادي . وحين يقرر المؤلف أن الخلاف الوحيد بين الكينزية والنقدية يدور حول الحد الأمثل لتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية ، فإنه يجانب الدقة ، حيث أن أبرز قضية هي الخلاف حول الأساليب التي يجب أن تتبع ، والوسائل التي يجب أن تستخدم لتنظيم الدولة الاحتكارية للاقتصاد .

وأود في النهاية الاشارة إلى حقيقة أرى أنها فاتت المؤلف ، وهي مساهمة الانفاق على التسليح في تضخم المديونية الخارجية لدول كثيرة ، ففي عام ١٩٨٢ - على سبيل المثال - أنفقت دول أمريكا اللاتينية وحدها أكثر من ٢١ مليار دولار في ميدان التسليح ، وأنفقت الكثير في بناء مصانع الأسلحة ، وما واكبها من إنفاق غير منتج ، وقد ساهم رفع سعر الفائدة في دول حلف الأطلسي في سحب أموال كثيرة من الدول المتخلفة ، ومنها دول أمريكا اللاتينية ، وكانت الولايات المتحدة التي زادت إنفاقها العسكري بشكل كبير منذ عام ١٩٨١ قد طلبت من حلفائها أن يحذوا حذوها ، وتطلب ذلك أموالا كبيرة ، فلجأوا إلى الأسلوب المذكور (ورفع سعر الفائدة) لاجتذابها ، وتم فعلا تهريب الأموال إلى أمريكا وأوروبا الغربية . □

■ لاسفاهة في المهن ، إنما السفاهة في الأشخاص . (هوجر)

■ إذا اجتمع المال الرديء والمال الأصيل في الأسواق اختفى المال الأصيل . (مثل إغريقي)

■ إذا قُلْتُ المُحَالَ رَفَعْتُ صوتي . . وإنْ قُلْتُ اليقينَ أَطَلْتُ هَمْسي (شعر المعري)

■ عجبت لمن لايجد القوت في بيته كيف لايخرج على الناس شاهرا سيفه (أبو ذر الغفاري رضي الله عنه)

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب / تاريخ السينما السورية .
١٩٢٨ ـ ١٩٨٨
المؤلف جان ألكسان .
الناشر / وزارة الثقافة السورية ـ دمشق .
عدد الصفحات / ٣٠٠ من القطع الكبير .
سنة النشر / ١٩٨٧ .

جان ألكسان ، صاحب كتاب « السينما السورية خلال خمسين عاماً » « والسينما في الوطن العربي » ، يقدم هذا الكتاب الجديد تعريفا بالسينما السورية . ويتابع مسيرتها خلال ستين عاما .

والقيمة الاساسية في الكتاب هي القيمة المرجعية والتوثيقية .

فهو مرجع للسينما السورية منذ بدايتها وتتبع لفروعها المختلفة ، كالسينما الوثائقية والتسجيلية والروائية .

وبالاضافة الى هذه المتابعة الجيدة لصناعة السينما في سوريا يتعرض المؤلف لنشاط النادي السينمائي في سوريا وكذلك لاوضاع دور السينما والجمهور المتردد عليها ، مما يجعله مرجعا مهما لأي مهتم بشؤون السينما في سوريا .

■■

الكتاب / نحو تنمية عربية تعتمد على الذات .
المؤلف / د . سعيد محمد ابوسعده .
الناشر : دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع ـ قبرص .
عدد الصفحات / ١٥٣ من القطع الكبير .
سنة النشر / ١٩٨٧ .

ينتمي هذا الكتاب الذي يحمل عنوانا فرعيا هو « تنمية وتعبئة مصادر المياه في الوطن العربي » الى مجموعة من الكتب يشير اليها في تصديره للكتاب الاستاذ عبدالله محمد علي . وهي كتب ستصدر في الكويت عن المعهد العربي للتخطيط يجمع بينها موضوع واحد هو «الاعتماد على الذات» الذي يظهر في الكتب المذكورة من جوانبه المختلفة ، الثقافية والتقنية والاقتصادية والتنموية . . الخ .

وبذلك فإن الكتاب يأخذ اهمية مزدوجة باعتباره دراسة قائمة بذاتها ، وكذلك باعتباره حلقة في سلسلة من الكتب التي تقدم جديدا للقارىء العربي .

■■

الكتاب / البئر الأولى ـ فصول من سيرة ذاتية .
المؤلف / جبرا ابراهيم جبرا .
الناشر / رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن .
عدد الصفحات / ١٩٣ من القطع الكبير .
سنة النشر / ١٩٨٧ .

يختار جبرا ابراهيم جبرا البئر رمزا ومدخلا لكتابة سيرته الذاتية ، فهو يذكر أول ما يذكر ان البئر كانت اول ماتسأل عنه عائلته عند انتقالها من دار قديمة الى اخرى جديدة .

والبئر الأولى ايضا هي رمز الحياة الاولى التي كانت بئرا خالية جاهزة للامتلاء بالخبرة والمعرفة والحياة بكل ما فيها من تعقيدات ومفاجآت ومدهشات .

وتمتد مرحلة البئر الأولى عند جبرا من ايام

الطفولة الاولى وحتى عام ١٩٣٢ ، عند انتقال عائلته من مسقط رأسه في بيت لحم الى القدس . ويروى جبرا القصص التي عاشها في تلك الأيام باعتبارها مزيجا من الذكرى والحلم والكثافة الوجودية والغيبوبة الشاعرية .. لكنه يؤكد حضوره ابدا في عمق ما من النفس .

■ ■

الكتاب / في الايقاع الروائي .
المؤلف / الدكتور احمد الزعبي .
الناشر / دار الأمل ـ عمان .
عدد الصفحات / ١٠٨ من القطع الكبير .
سنة النشر / ١٩٨٦ .

يقدم المؤلف كتابه باعتباره مساهمة « نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية » . ومنذ البداية يعتمد المؤلف على تعريف يوجين ارسكين للايقاع باعتباره التكرار المقصود الموظف لغايات فنية ونفسية وفكرية في العمل الفني .

ومن هذه النقطة ينطلق الكاتب ليرصد « عالم الأمكنة والأزمنة والاحداث في حركتها وتغيرها وبنائها ومدلولاتها » التي تشكل بناء الرواية ومعمارها وهندستها .

وفيما عدا المقدمة فإن الكتاب مجموعة دراسات تطبيقية لهذه الفكرةعلى عدد من الروايات العربية المهمة وهي السفينة والمستنقعات الضوئية وموسم الهجرة الى الشمال واللص والكلاب وتلك الرائحة .

■ ■

الكتاب : الجنوبي .
المؤلفة : عبلة الرويني .
الناشر : مكتبة مدبولي ـ القاهرة .
عدد الصفحات : ٢١٦ من القطع الوسط .

الجنوبي ، هو امل دنقل الشاعر الكبير الذي رحل عن دنيانا عام ١٩٨٣ ، وهي عنوان لاحدى آخر القصائد التي كتبها أمل وهو نزيل المستشفى في مرضه الأخير . والكتاب هو قصة السنوات الأخيرة من حياة امل التي قضى معظمها مريضا في معهد السرطان ترويها زوجة أمل كاتبة القصة المصرية عبله الرويني .

والكتاب رغم قسوة موضوعه ، فهو يسرد أحداث موت شاعر كبير ، فإن به قدرا من العذوبة والجمال وكشفا لخبرة ابداعية وانسانية كبيرة .

■ ■

الكتاب : نظرية الحضارة .
المؤلف : ادوارد ماركاريان .
ترجمة : عبدالله حبه .
الناشر : دار ناؤوكا ـ موسكو .
سنة النشر : ١٩٨٧ .

تقدم أكاديمية العلوم السوفيتية التي أشرفت على اصدار هذا الكتاب المؤلف باعتباره شخصية علمية متعددة الاوجه والاهتمامات وهو أمر يمكن اكتشافه بسهولة لحظة البدء بقراءة الكتاب .

يضع ماركاريان مفهوما خاصا للحضارة باعتبارها الوسيلة الخصوصية للنشاط الانساني وآليتها في التكيف . ومن خلال بحثه في نشوء الحضارات الانسانية يستفيد المؤلف من شتى معارفه العامة واهتماماته الخاصة . وبشكل أو بآخر يعتبر هذا الكتاب استكمالا ونقدا في الوقت نفسه لمسألة علم الحضارة التي دأب على تناولها منذ الأربعينيات عالم الحضارة الامريكي المعروف ليزلي وايت . □

● اذا صادقت رجلا ذا أهلية ، فتدبر كيف يمكن ان تكون مثله ، واذا صادقت رجلا عديم الأهلية ، افحص نفسك .
(كونفوشيوس)

العربي - العدد ٣٥١ - فبراير ١٩٨٨ م

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٥١
فبراير ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥١ » . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ مارس ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٥١

١ من المعروف أن أقصر سور القرآن الكريم هي سورة الكوثر (٣ آيات) فما هي أقصر آياته . . . . ؟

٢ هل من المذاهب المسيحية ما يبيح تعدد الزوجات . . وأي مذهب هذا . . . ؟

٣ ديانة السيخ تعتقد بتناسخ الأرواح . . ولكن هل تعتقد بوحدانية الله ؟

- نعم تعتقد . . وقد جارت الدين الحنيف في هذه العقيدة .
- لا تعنيها الوحدانية ولا تبالي بها شأنها في ذلك شأن الكونفوشية .
- لا تعتقد . . فهي ديانة وثنية .

٤ من المعروف أن انتخاب البابا الجديد يجري في اجتماع سرّي يجمع بين كردينالات الكنيسة الكاثوليكية جميعا . . ويتم باقتراع سرّي وعلى أساس ثلثي الأصوات بزيادة صوت . . ويعرف أهل الفاتيكان أن عملية الانتخاب هذه قد تمت لدى تصاعد الدخان من احدى مداخن الفاتيكان . . ترى ما لون هذا الدخان . . أبيض أم أسود ؟

٥ أيها أكثر عددا في العالم : البوذيون أم الكونفوشيون ؟

٦ أيها أكثر عددا في العالم : المسيحيون أم المسلمون . . ؟

- المسيحيون فهم يفوقون المسلمين عددا بحوالي ٣٠٠ مليون نسمة . .

- المسلمون،فهم يفوقون المسيحيين عددا بحوالي ٣٠٠ مليون نسمة .
- متساويان تقريبا .

٧ أي المذاهب الدينية قامت به ودعت إليه امرأة . . ؟ متى كان ذلك وأين ؟ وما اسم هذه المرأة ؟

٨ « عامل الناس بمثل ما تريدهم أن يعاملوك » هذا مبدأ سليم في السلوك الانساني دون أدنى ريب . . . ولكنه يرقى إلى مرتبة الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أحد الأديان التالية :

- الكونفوشية
- الهندوسية
- الزرادشتية

فأي دين هذا ؟

٩ من المعروف أن أهل اليابان درجوا على تأليه امبراطورهم (الميكادو) وعبادته . . فبأي دافع فعلوا ذلك ؟

- انطلاقا من نعرة قومية عسكرية متطرفة اشتهرت بها اليابان في العصر الحديث .
- مجاراة لتقاليد قديمة .
- بدافع معتقداتهم الدينية .

١٠ فرقة (كراي ما) فرقة دينية هندية تقدس الفئران . . ولو تسنى لك زيارة معبد هذه الفرقة لرأيت حشود الفئران تسرح فيه وتمرح . . ترى أين يوجد هذا المعبد . . في أية مدينة وأية ولاية من مدن الهند وولاياتها .

١١ أتباع الديانة الزرادشتية لا يدفنون جثث موتاهم في التراب ولا يحرقونها في النار . . فماذا يصنعون بها ؟

- يلقون بها في أعماق البحر أو النهر لتأكلها الأسماك .
- يضعونها فوق أبراج عالية لتأكلها النسور .
- يحنطونها ويحتفظون بها في سراديب منازلهم .

١٢ ترجموا القرآن الكريم ، كما هو معروف الى كل اللغات تقريبا ، ولكن هل ترجموه إلى لغة الاسبرانتو ؟!

تعليمات هامة للمشتركين في المسابقات الثقافية

١ ـ كوبون المسابقة : يجب أن يلصق ، من الآن فصاعدا ، على الغلاف الذي يتضمن ورقة الأجوبة . وكل غلاف لايحمل الكوبون ملصقا عليه بإحكام يهمل .

٢ ـ الاسم والعنوان : يجب أن يكتبا على الغلاف بالاضافة إلى تسجيلها على ورقة الأجوبة نفسها ، وذلك بخط واضح . وكل غلاف لايحمل اسم المرسل وعنوانه يهمل .

٣ ـ ورقة الأجوبة : درج بعضهم على انتزاع صفحة الأسئلة من المجلة ، واستعمالها للاجابة عن تلك الأسئلة ، بحيث تصبح صفحة أسئلة و أجوبة في آن معا . فتصبح مشوشة ، وتصعب قراءتها . وهذا أسلوب غير مقبول يحكم على الرسائل التي تنتهجه بالاهمال .

حل مسابقة العدد ٣٤٨ نوفمبر ١٩٨٧

١ الشاعر العباسي المقصود هو : البحتري .

٢ الكتان هو أقدم الألياف النسيجية التي عرفها الانسان في تاريخه فقد عثروا على بقاياه ضمن آثار العصر الحجري في سويسرا .. وانتشرت زراعته وصناعة نسيجه في مصر القديمة .. أما القطن فلم يظهر ولم ينافس الكتان الا في القرن الثامن عشر .. وأما الخيش (الجوت) فلم تنتشر زراعته وصناعته خارج بلاد الهند لا في القرن الثامن عشر ولا بعده ..

٣ الشجر المقصود هو شجر جوز الهند .. في بعض فصائله ..

٤ السعوف ، ومفردها سعفة ، هي جريد النخيل ..

والخوص (بتسكين الواو وضم الخاء) هو ورق النخيل .. في عرف العرب ومفردها (خوصة) .

٥ نأكل القرنبيط .. وهو زهرة النبات .
نأكل السبانخ .. وهو ورق النبات .
نأكل الفجل .. وهو جذور النبات .

٦ شجرة الجاك فروت تنمو في الهند وسري لانكا .

٧ شجرة بروسيموم يوتيلي : تنمو في أمريكا الجنوبية وفي فنزويلا بصفة خاصة .. والطريف أن عصارة هذه الشجرة لا تشبه لبن البقر فحسب ـ وهي تشبهه لونا وطعما ـ بل وتشرب أيضا بقصد الغذاء على نحو مايشرب لبن البقر .

٨ استخرج الاسبرين أول ما استخرج من شجرة الصفصاف بل من لحائها بالتحديد وكان الأسقف ادوارد ستون الانكليزي من أوائل الذين اكتشفوا مزايا هذا اللحاء العلاجي سنة ١٧٥٨ .

٩ السيكويا هي شجرة كاليفورنيا العملاقة .. وهي أضخم شجرة في العالم

كله تبلغ ٨٠ مترا طولا و ٢٤ مترا محيطا وتحتوي على ٢٠٠٠ طن من الخشب .. والسيكويا شجرة معمرة أيضا وقد تبلغ من العمر ٤٠٠٠ سنة ، أما شجرة بنيان التي تنمو في الهند وسري لانكا فتعزى ضخامتها الى كثرة جذوعها وفروعها .. وقد يبلغ عدد الجذوع في بعض الأحيان ٣٠٠ جذع أو يزيد .

١٠ البونساي شجيرة أو شجرة قزمة .. أتقن اليابانيون تطويرها وزراعتها ضمن أوان صغيرة لتبدو للناظر وكأنها أشجار كبيرة مضغوطة .

١١ السعوف اذا جردت من خوصها أصبحت جريدا ومفرد الجريد جريدة .

١٢ هذا بيت شعر من خمرية أبي الحفص الفارضي .. وهو من المتصوفين .. والمدامة هي الخمرة ، كما هو معروف .. ولكن المعنى المقصود في الشعر الصوفي شراب المحبة الالهية .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٨ نوفمبر ١٩٨٧

* الجائزة الأولى : فواز عثمان آغا ـ الكويت
* الجائزة الثانية : افراح سيد حسن محمود ـ الخرطوم ـ السودان
* الجائزة الثالثة : آني جوزيف اشجيان ـ المتن ـ لبنان

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ فاطمة جميل نجار ـ المدينة المنورة ـ السعودية

٢ ـ شريف حجاج ـ الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية

٣ ـ عبدالحليم اكر ـ حلب ـ سوريا

٤ ـ الشتيوي نصر بالنور ـ مدنين ـ تونس

٥ ـ عبدالغني عبدالهادي ـ عمان ـ الأردن

٦ ـ بهنان عبدالله ـ زنقة الكويت ـ المغرب

٧ ـ زاهد طاهر سعيد ـ بابل ـ العراق

٨ ـ علي سعيد ـ ممباسا ـ كينيا

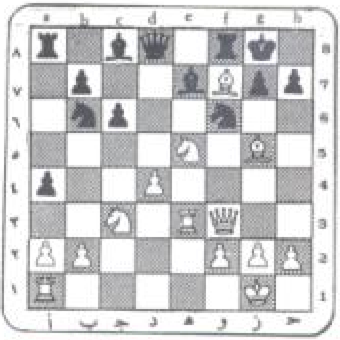

معركة بلا سلاح

من الأسماء الخالدة في تاريخ اللعبة اللاعب الكبير « بيتروف » (١٨٠٠ ـ ١٨٦٧) وهو لاعب روسي فذ ، ينسب إليه الدفاع المشهور المعروف باسمه . والحق أن هذا الدفاع معروف منذ مطلع القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد قام بدراسته وتحليله والتعليق عليه العديد من كبار اللاعبين والمحللين الشطرنجيين من أمثال لوبيز وداميانو وبونزياني ولكنه ينسب الى بيتروف لأن الفضل يرجع إليه في إحيائه وممارسته ونشره .

وتعرف هذه الافتتاحية كما سبق ان ذكرنا بدفاع بيتروف ، ومع ذلك فهي أقرب الى الهجوم منها الى الدفاع ، لأن الأسود يواجه تهديد خصمه للبيدق « هـ ٥ » بتهديد مماثل للبيدق « هـ ٤ » ، ولهذا الهجوم العديد من المزايا أهمها حرمان الأبيض من الميزة التعبوية التي تمنحه إياها نقلة البدء والذي من شأنه أن يتسبب للأبيض بمضايقات جمة ويملأ طريقه بالمزالق والأفخاخ .

ولايزال دفاع بيتروف الذي يعرف أيضا بالدفاع الروسي يحظى بشعبية كبيرة لدى كبار اللاعبين والكثير منهم يدينون له بالعديد من الانتصارات الباهرة التي حققوها في ميادين الصراع الدولي . والتفريعان الأكثر شيوعا في الرد على هذا الدفاع يتمثل أولهما في أخذ « هـ ٥ » بالحصان ، أما ثانيهما فيتمثل في مضاعفة الهجوم على « هـ ٥ » بتقديم البيدق « د ٤ » وهو ما يعرف بتفريعه ستينتز **Steinitz** (نمساوي وبطل العالم بين ١٨٨٦ ـ ١٨٩٤) والدور التالي بين الاستاذين الكبيرين (شورت وتيمبون) يعتبر مثالا جيدا على هذه التفريعة من دفاع بيتروف .

□ شورت (بريطاني)	■ تيمبون (أرجنتيني)
١) هـ ٤	هـ ٥
٢) ح ـ و ٣	ح ـ و ٦
٣) د ٤ (مضاعفا الهجوم)	ح × هـ ٤
٤) ف ـ د ٣	د ٥
٥) ح × هـ ٥	ف ـ هـ ٧
٦) جـ ٤ (لابعاد الحصان)	ح ـ و ٦
٧) ت	ت
٨) ح ـ جـ ٣	د × جـ ٤
٩) ف × جـ ٤	ح (و) ـ د ٧
١٠) ف ـ و ٤	ح ـ ب ٦
١١) ف ـ ب ٣	ح (٨) ـ د ٧
١٢) و (وزير) ـ و ٣	ح ـ و ٦
١٣) ر (و) ـ هـ ١	جـ ٦

(للسيطره على العمود)

١٤) ف - ز ٥ — أ ٥

تمهيدا لطرد الفيل الذي أقضّ مضجعه

١٥) ر - هـ ٣ — أ ٤

١٦) ف × و ٧ + — ر × و ٧

(الشكل)

يضحي الأبيض بفيله لكشف الشاه الأسود وتحطيم تحصيناته ومن ثم الاستفادة من تفوقه التعبوي

١٧) ح × و ٧ — م × و ٧

١٨) ر (أ) - هـ ١ — ف - و ٨

١٩) ح - هـ ٤ — ر - أ ٥

٢٠) ح × و ٦ — ز × و ٦

ترى هل كان يستطيع أخذ الفيل بالرخ ؟

٢١) ر - هـ ٨ — و - د ٦

٢٢) و - حـ ٥ + — م - ز ٨

٢٣) ر - هـ ٧ ! (بديعة) و × هـ ٧ (مضطراً)

٢٤) ر × هـ ٧ — ف × هـ ٧

٢٥) و - هـ ٨ + — يستسلم (لماذا ؟)

أرسل الجواب مع حل المسألة فيضاعف فرصك في الفوز

مسألة العدد ٣٥١ (فبراير ٨٨)

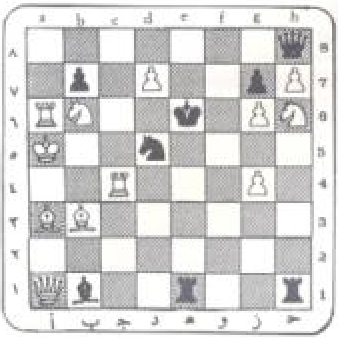

مات ٢

مهداة من القارىء خليل شموس

(دمشق)

حل مسألة العدد ٣٤٩
ديسمبر ١٩٨٧

١) ح - حـ ٤ — ز × حـ ٤

٢) م - و ٢ — حـ ٣

٣) م - و ١ — حـ ٢

٤) ح - و ٢ (مات)

الفائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد ٣٤٨ ـ نوفمبر ١٩٨٧

الفائزون باشتراك نصف سنة :

١) أحمد عبد المنعم ـ الجيزة/ ج م ع
٢) علي الجاويش ـ بيروت/ لبنان
٣) لحريشي فؤاد ـ فاس/ المغرب
٤) فضل المولى عبد الرضي ـ المناقد/ السودان
٥) د . عمرو الزيات ـ مصر الجديدة/ ج م ع

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١) عبد الله آدم بن سلام ـ طرابلس/ ليبيا
٢) عماد مصطفى دحبور ـ عمان/ الأردن
٣) أسامة علي قاسم ـ جدة/ السعودية
٤) منصور بن بركة ـ باريس/ فرنسا
٥) عبد الله أحمد علي ـ دبي/ الامارات

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

تقدم العلم وتلوث البيئة هل هما مترابطان ؟؟

● نشرتم في عدد تشرين الثاني ١٩٨٧ من مجلتكم (العدد ٣٤٨) مقال الدكتور سمير رضوان (تقدم العلم والبيئة) ، ولي ملاحظات على المقال أوجزها بما يلي :

١ - جاء في مطلع المقال قوله : « زماننا يركض بساقين أحدهما العلم وثانيهما التلوث ، وللتقدم العلمي ابهاره الذي قد يصرف الأنظار - ولو الى حين - عن التلوث المصاحب له كظله ، والعارف ببواطن الأمور يضع يده على قلبه إشفاقا من كل إنجاز علمي جديد ، فهو يدرك أن هناك جانبا مظلما لهذا الانجاز غالبا » .

وجاء في عنوان فرعي بارز قوله « التلوث إفراز التقدم العلمي » ، وحمل عنوان فرعي آخر قوله : « حتى التقدم الزراعي قد أفرز تلوثا » . . الخ .

الواقع أن ما يوحي به الكلام السابق الى قارئه أو سامع ليس من مسلمات الأمور ، وإنما هو مسألة فيها نظر .

صحيح أن الإنسان يعمد الى الافادة من انجازات العلم وابتكاراته بالتطبيق التقني ، وصحيح أن خطي سير العلم و التقنية متوازيان ، لكن هذا لا يعني أن أوزار أحدهما تقع بالضرورة على كاهل الآخر .

ويبقى النشاط الانساني في مختلف صوره وأشكاله أساس التلوث الكبير ، فالإنسان يستطيع أن يلوث بيئته حتى بأبسط أنواع نشاطه ، كالصرف الصحي للإنسان وحيواناته مثلا .

والتقنية نشاط من أرقى أنواع النشاط الإنساني ، ومع ذلك فليس من سبيل الى الحد مما تفرزه بعض فروعها من ملوثات خطيرة إلا سبيل التقدم العلمي ، فالتطور العلمي في صالح الإنسان ورفاهيته وسعادته وتزويد عقله بأذرع طويلة يدرك بها غوامض الطبيعة وأسرارها واحدا بعد آخر . وإنني أقول ذلك على الرغم من أن الدكتور رضوان قد أشار في ثنايا مقاله الى أن على العلم أن يخوض معركة كبرى ، هي معركة الحد من آثار التلوث .

وفي هذا السياق لابد من ذكر مقولة من المقولات التي تثيرها مشكلة التلوث في هذه الأيام ، وهي مقولة (الانحراف التجاري بالعلوم) ، وهذا التعبير المهذب ينطوي على معان كبيرة ، تعكس الضوء على الأسباب الحقيقية للتلوث ، وعلى أسباب اتساع حجمه .

٢ - وتحت عنوان « التلوث بالنترات » جاء قوله : إن من الضروري أن تكون كميات الأسمدة النتروجينية محسوبة بدقة ، بحيث لا تزيد عن حاجات النبات أبدا

على هذه الصفحات .. ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

وإلا تحولت الزيادة الى تلوث ، كما هو واقع الحال الآن . ويسعى الباحثون بدأب لكي يتوصلوا الى طريقة لتحقيق ذلك ، والى أن يتوصل العلم الى تلك الطريقة يتحتم على البشرية أن تتعرض لآثار التلوث الناجمة عن سوء استخدام الأسمدة النتروجينية .

لكن واقع الأمر هو أن الأبحاث العلمية قد توصلت حتى الآن الى مستحضرات أطلق عليها اسم مثبطات النترجة ، وهي مركبات عضوية من زمرة (كلور البريدين) ، تحول دون عملية إزالة النترجة البيولوجية التي تقوم بها مجموعات من البكتريا ، وتؤدي الى تحول النترات الى النتروجين وأكاسيده التي تنطلق من التربة الى الجو ، وتحول المثبطات كذلك دون غسل النترات في التربة ، ومن ثم تحول دون تلوث مصادر المياه بها ، وهي كذلك تقلل من كميات النترات في المنتجات الزراعية نفسها .

فالمثبطات تبطيء عملية النترجة وتعرقلها مدة شهرين من الزمن تقريبا ، وتحافظ على النتروجين في التربة وفي السماد النتروجيني نفسه على صورة أمونيوم . وقد دلت تجارب (سميرنوف ومورافين) في الاتحاد السوفياتي على أن استخدم مثبطات النترجة يؤدي الى زيادة المحاصيل زيادة كبيرة ، ويرفع من فاعلية الأسمدة النتروجينية .

٣ ـ وجاء تحت العنوان الفرعي السابق نفسه : إن تلوث التربة بالنترات يؤدي الى انطلاق أكاسيد النتروجين الى الجو ، وهي تأكل طبقة الاوزون التي تغلف الكرة الأرضية ، ولولاها لهلكت الحياة الراقية برمتها .

والحقيقة هي أن الأشعة الخطرة هي الأشعة فوق البنفسجية ، لاسيما ذات الموجة القصيرة منها ، وحزام الاوزون يحمي الأرض وأحياءها من تلك الأشعة التي إذا ما وصلت الى الأرض دون أن يعوقها الاوزون فإنها كثيرا ما تؤدي الى انتشار سرطان الجلد في الناس ، والى نقصان التركيب الضوئي في البلانكتون ، وهو غذاء الأسماك الأول في المحيطات ، والى إحداث تغيرات وراثية في النباتات .. الخ .

رياض كلاليب

مدرس الفيزياء في كلية الهندسة الكيميائية والبترولية بحمص ـ سوريا

رد على تعليق

● وقد تلقت « العربي » ردا على تعقيب القاريء الكريم من الدكتور سمير رضوان جاء فيه :

لم يرد فيما كتبت ما يمكن أن يعتبر دعوة الى نبذ العلم أو مجافاة التقدم التقني ، كما لا يستقيم مثل ذلك مع كوني أحد المشتغلين بالبحث العلمي منذ ثلاثة عقود ، إلا أنني

حوار القراء

لست ممن يفتنهم التقدم التقني الذي أوشك أن يصبح لكثير من غير المشتغلين بالعلم « إله القرن العشرين » . فأنا من المتحمسين للبحث العلمي والتقدم التقني لكن مع التبصر الواعي بنواقصها ، وهي عديدة . وحينها يحذرك أحد من أخطار تحدق بك في طريق مهم تسلكه ، فهو حينئذ لا يحول بينك وبين غايتك ، بقدر ما يسعى لكي تبلغها سالما آمنا .

أما ما جاء في تعليق القارىء عن استخدام مواد مثبطة لإنتاج النترات في التربة فلابد أنه يعلم أن قائمة هذه الكيماويات لا تقتصر على ماذكر ، بل هي أطول من ذلك بمراحل ، إذ منها أيضا الأزيد ، والثيويوريا ، والايزثيوسيانات ، والبيروزولات والتراي كلورو أسيتايدات ، وغيرها كثير . لكن ألا يرى القارىء أنه يقر هنا في مضمون تعليقه أن العلم يلجأ في معالجة التلوث بالنترات الى مواد كيميائية ، معظمها له سمية ، وهي أيضا ملوثات غير مأمونة العواقب ؟ أليس في ذلك مايؤيد ماذهبت اليه من أن التقدم العلمي لايفتأ يفرز تلوثا مع معظم الخطوات التي يخطوها ؟ .

أما الملاحظة الخاصة بأن طبقة الأوزون تمتص الأشعة فوق البنفسجية فهي صحيحة ، وأنا غالبا ما أحرص في كتابتي على تجنب الألفاظ التي لا يعرفها إلا المتخصصون ، مما دفعني الى استخدام لفظ « الأشعة الكونية » ، قاصدا ما يصل الأرض من الكون الخارجي من إشعاع ، فانزلقت بذلك - سهوا - الى تسمية نوع من الأشعة موجاتها أقصر من فوق البنفسجية . وجل من لا يسهو . للقارىء شكري على هذا التصويب وعلى اهتمامه عامة .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الصندوق الكويتي للتنمية

● متى أنشىء الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ؟ وما هي مصادر تمويله ؟ وما هو دوره في عمليات التنمية على المستوى العربي والدولي ؟ وكيف تتم الرقابة عليه ؟ وما هي المشاريع التي ساهم فيها الصندوق ؟

أحمد محمد كمال الشال

محافظة المنوفية - جمهورية مصر العربية

العربي

- أنشىء الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية في ديسمبر ١٩٦١ ، بهدف تقديم الدعم والمعونة والقروض الميسرة للأقطار العربية الشقيقة لتمويل مشروعاتها ، ولعدد من الدول غير العربية ، إضافة الى تقديم المعونة الفنية .

يبلغ رأس ماله ٢٠٠٠ مليون دينار كويتي ، مصدرها الميزانية العامة للدولة . والصندوق مؤسسة عامة مستقلة إداريا وماليا وفنيا . والمقر الرئيسي للصندوق دولة الكويت .

ولقد سبق لمجلة « العربي » أن قامت باستطلاع موسع عن الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية في العدد رقم ٣٣٩ ـ فبراير ١٩٨٧ . يمكن للقاريء الكريم الاطلاع عليه للاستفادة الكاملة .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

مــــــــاذا نقــــــرأ ؟

● قرأت كعادتي بعض الوقت وإذا بي أشعر فجأة بضيق واكتئاب ، فدعتني رغبة ملحة للخروج من غرفتي . رجعت الى نفسي أفتش في حناياها عن سبب هذا العارض الذي لا مبرر له ، وبعد أن أعياني البحث والتفكير عدت الى حالتي ، وفجأة وضعت يدي دون مقدمات على العلة التي استغربت أيما استغراب بأنها لم تخطر لي على بال .

• إن علة اكتئابي ليست شخصية أو فردية ، فنحن نولد وأعناقنا مطوقة بلائحة لا نهاية لها من المحرمات والممنوعات التي تخدرنا ، وتشل فينا كل قدرة على الإبداع . عدت الى حالتي ومآلت إليه بعد قراءة ما بين يدي ، فوجدت أن ما قرأته كان عدة مقالات صغيرة ، حملت العناوين المرعبة التالية : (تلوث البيئة وخطر الموت ، عودة الى الانحطاط ، هجرة العقول ، المستقبل النووي ، خطر السرطان أم خطر الايدز . . الخ) ، وهنا ضحكت بصمت ، واطمأنت نفسي ، لأن حالتي ليست آفة أو مرضا عضويا ، وإنما هي نتيجة حتمية لما قرأته من هذه المقالات لأولئك الكتاب الذين يلملمون من مجلات العالم ما يدعو الى القنوط واليأس ، لتتسرب الى بيوتنا عن طريق صاحبة العصمة التي تدخل دون استئذان ، وليصيبنا ما أصابني من ضيق ووهن ويأس واكتئاب .

يركن المرء الى كتاب يفرغ فيه عناء يومه ، ويهرب ولو الى حين من عالمه الصاخب المضني ، وإذا به يمسي أتعس وأسوأ حالا .

هاني خليل

سوريا ـ اللاذقية

العربي

ـ يبدو أنك تبحث عن نوع من القراءة ، يسليك وينسيك متاعبك ، مع أنك في بداية الرسالة تتحدث عن الخوف والممنوعات التي تشل القدرة على الإبداع والانطلاق .

إن الإنسان السوي هو القادر على أن يحتفظ بتوازنه وتفاؤله ، مع إدراكه الحقيقي لحجم التحديات والأخطار التي تواجهه وأنواعها ، ويجد السعادة الحقة في مواجهة هذه المشكلات والعمل على تذليلها وحلها .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

شــــــرح للوحــــــات الفنيــــــة

● عندما تقومون بنشر لوحة فنية دون تعليق أو شرح يجد بعض القراء صعوبة في تذوقها ، فحبذا لو قدمت المجلة شرحا مفصلا للوحات الفنية المنشورة ، لإفادة الهواة ، وياحبذا لو أصبحت هناك إرشادات من رسام محترف ، فالمجلة هي همزة الوصل بين القاريء والثقافة .

عدنان الجبروت

سوريا

حوار القراء

قـــــاريء يـــــرد

● لقد اطلعت على عدد نوفمبر سنة ١٩٨٧ من مجلة « العربي » في باب حوار القراء حول تساؤل القاريء فارس شاكر من سوريا ، حول (لماذا لم تقم مجلة العربي باستطلاعات عن الأكراد) ، وأود أن أبين للقاريء العزيز أن المجلة قد تحدثت عن الأكراد في عدد أغسطس ١٩٦١م ، حيث بينت بالتفصيل نشأتهم وعاداتهم وتقاليدهم في العراق .

خالد عبد الله عيسى نصار

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

طباعـــة « العـــربي » باللغـــات الأجنبيـــة

● أصبحت « العربي » مجلة ذات مستوى عالمي ، ووسيلة قيمة يعتمد عليها للمعرفة ، ولدراسة كل ما يتعلق بالقضايا العربية والإسلامية ، ولذلك وجب العمل بجدية على انتشارها في القارات الخمس ، إلا أنه لا يمكن الوصول الى هذه الغاية مادامت المجلة تصدر باللغة العربية فقط ، وتوجه للقاريء باللغة العربية ، مما يدفعني الى الطلب بأن يتم إصدارها باللغات العالمية (الانجليزية ـ الاسبانية ـ الفرنسية) ، ليكون الرأي العام العالمي على بيّنة من القضايا العادلة .

الحاج بوزيدي محمد

وجدة ـ المغرب

العربي

ـ هدف المجلة الأساسي خدمة القاريء باللغة العربية ، وهذا ما نعمل على تحقيقه ضمن الإمكانيات المتاحة ، أما ما تقترحه فهو طموح نرجو أن نتمكن من تحقيقه في المستقبل .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الأدب العالمي

● أنا طالب أدرس الأدب الانجليزي ، وبهذه المناسبة أهيب بمجلس تحرير المجلة أن يقوم بدراسة إمكانية وضع باب ـ ولو غير منتظم ـ بعنوان « ملامح من الأدب العالمي » ، يقدم فيه مسرحية أو رواية من الأدب العالمي ، لتعريف القراء بالجديد في اتجاهات الآداب العالمية .

أشرف فوزي دياب

دمياط ـ جمهورية مصر العربية

العربي

ـ تعنى مجلة العربي بنشر مقالات عن شخصية عامة لها أهمية في مجال تخصصها ، وأحيانا تكون هذه الشخصية من كبار الأدباء العالميين ، كما تعنى بنشر مقالات عن الاتجاهات الأدبية الجديدة في العالم ، آخرها كان مقالا عن أدب أمريكا الجنوبية ، بالإضافة الى القصة العالمية المترجمة ، وابتداء من شهر يناير سنة ١٩٨٨م تقدم المجلة بابا

جديدا بعنوان « قراءة نقدية لكتاب » . وسيكون الكتاب أساسا في الأدب العربي ، أو الثقافة العربية ، لكن يمكن أن يكون عن القصص العالمية . ولعل في هذا كله ما يحقق شيئا من اقتراح القارىء العزيز .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

مقترحــات باستطلاعات جديــدة

● القارىء عزوز سمرا من الدار البيضاء بالمغرب يقترح استطلاعا حول السلاسل الثلاث الأطلسية في المغرب الأقصى .

● صلاح الدين محمد ـ الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية يقترح استطلاعا عن الصومال وجيبوتي وموريتانيا والصحراء المغربية .

● رضوان كرامة محمد ودعان ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ـ يقترح استطلاعا عن مدينتي تريم وشبام في اليمن الجنوبي .

● القراء : علي حسن محمد ـ محمد المجبري ـ عبد الله أحمد حويل . يرغبون في أن تقوم المجلة باستطلاع عن ليبيا .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

رد خاص

السيد طارق محمد جبر ـ دمشق ـ سوريا . يرجى إرسال عنوانك الكامل للمجلة بأسرع وقت ، وذلك للأهمية .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .

• ميزانها الأساسي في اختيار المترجمات هو الجديد والهام .

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت

رئيس التحرير
محمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير
د . سليمان ابراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

فبراير ١٩٨٨ م

أدب أمريكا اللاتينية

قضايا ومشكلات

القسم الثاني

تنسيق وتقديم : فرناندث مورينو

ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد

مراجعة : د. شاكر مصطفى

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢٢

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص.ب 23996 الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط الأ يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص والأ يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية.
ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية.
جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.

- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها، واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- **الاشتراك السنوي بالمجلة**

أ) داخل الكويت: ٣ د.ك. للافراد، ١٢ د.ك للمؤسسات.
ب) الدول العربية: ٣,٥٠٠ د.ك للافراد ١٢,٠ د.ك للمؤسسات
جـ) الدول الاجنبية: ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات.

جامعة الكويت - الشويخ
هاتف ٤٨١٦٨٧
٤٨١٦٧٩٩
٤٨٩٩٨٤٤
٤٨١٤٢٩٥

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص. ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت. الرمز البريدي 72451

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى : رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف : ٢٥٤٩٤٢١ - ٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس : ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية : محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير:

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13128 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء.

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد.

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢٢١ أول فبراير ١٩٨٨

السيدة دي ساد

تأليف : يوكيو ميشيما
ترجمة وتقديم : كامل يوسف حسين
مراجعة : د. أكرم سعد الدين

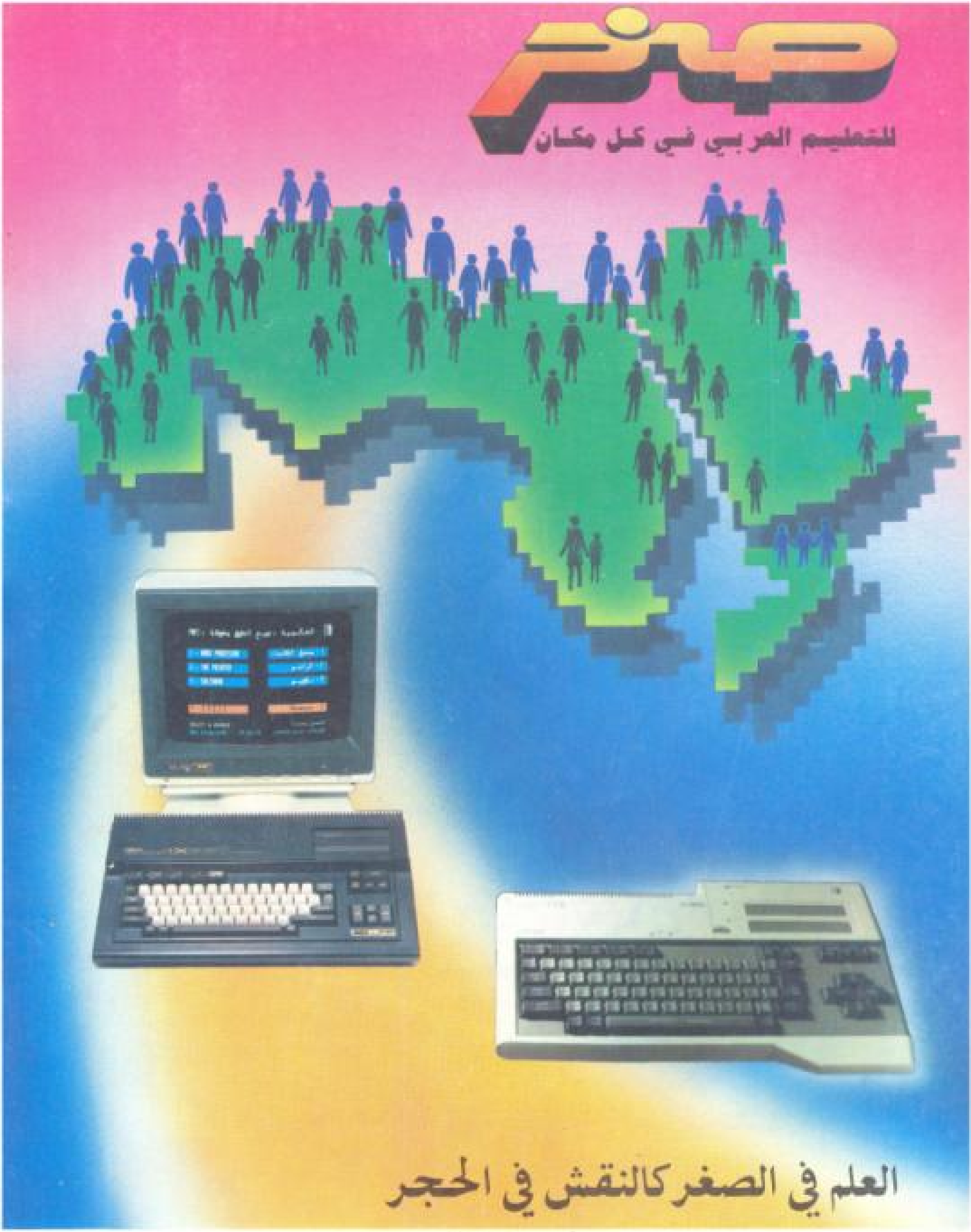

العالمية
al Alamiah

رجب ١٤٠٨ هـ - مارس (آذار) ١٩٨٨ م

العربي

مغامر.. يكتشف قارة!

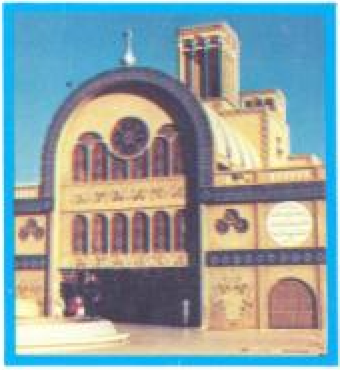

عُمْران إسلامي في الإمارات العربية

العناكب كائنات مبدعة!

دور المرأة العربية في التنمية الوطنية

الصّقر و رولكس
الدقّة والأناقـة

ساعة ديوور داي-ديت من الذهب الأبيض والأحمر والأصفر مرصّعة بالماس.

منذ حضارة بلاد ما بين النهرين، كانت رياضة الصّقور، ولا تزال حتى يومنا هذا، رياضة النبلاء.

الصّقر طائر قويّ، أنيق وسريع الحركة، يُروّض ويُعلّم خصّيصاً فنّ الصّيد. هذا الترويض والتعليم يتمّ على يديّ أخصائيّين لمدّة طويلة تدوم أكثر من ثلاثين يوماً. العناية عينها هي التي بها تصنع كل ساعة رولكس.

حتى اليوم لا تزال رولكس تصنع من قطعة معدن واحدة وتُنحت يدويّاً، سواء من الذهب الخالص أو الفولاذ أو الإثنين معاً.

كل ساعة تمرّ إفرادياً بمجموعة تجارب قاسية قبل أن تعطى شهادة الكرونومتر السويسريّة الرسميّة.

جمال رولكس غنيّ عن التعريف وقيمتها تدوم وتدوم لسنوات وسنوات طويلة جداً.

مجموعة ساعات رولكس رائعة ومتكاملة لترضي أصحاب الذوق الرفيع.

رولكس والصّقر رمز الدقة والأناقة.

ROLEX

رولكس

العـدد ٣٥٢ السنة الحادية والثلاثون مارس ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا : "العربي" - الكويت - تلكس MITR.44041KT
تلفون فاكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI
Issue No. 352 March. 1988. P.O.Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت	٢٥٠ فلسا	تونس	٤٠٠ مليم	سوريا	١٠ ليرات
العراق	٢٥٠ فلسا	الجزائر	٤ دنانير	الإمارات	٥ دراهم
الأردن	٢٠٠ فلس	السعودية	٥ ريالات	المغرب	٣ دراهم
البحرين	٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي	٣ ريالات	ليبيا	٣٥٠ درهما
اليمن الجنوبي	٢٥٠ فلسا	قطر	٥ ريالات	أوروبا	دولاران أو جنيه استرليني
مصر	٣٠ قرشا	سلطنة عمان	ربع ريال	فرنسا	١٥ فرنكا
السودان	٢٠ قرشا	لبنان	١٥ ليرة	أميركا	دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : عقد التنمية الثقافية
- د . محمد الرميحي ٨
■ أرقام : للرجال .. تقريبا- محمود المراغي .. ٥٤

عروبة وإسلام :

■ العلمانية والدين بين الشمال والجنوب ، نماذج من التطبيقات - د . عبدالعزيز كامل .. ١٨
■ للمناقشة: « لافتة » حزب الله !
- فهمي هويدي ٤٢
■ البيان في أسباب نزول القرآن
- حسين أحمد أمين ٦٢

استطلاعات مصورة :

■ مغامر يكتشف قارة في الشرق الأقصى السوفيتي ! - سليمان الشيخ ٦٨
■ الامارات العربية المتحدة ، عودة الى المعمار الاسلامي - صادق يلي ١٣٢

طب وعلوم :

■ نحو بناء آلة ذكية
- د . علم الهدى حماد ٤٧
■ العناكب كائنات مبدعة !
- د . وسمية الحوطي ٨٨
■ الاسهال بين هجوم الجراثيم ودفاع الجهاز الهضمي
- د . صباح اسماعيل السامرائي ١٠٩
■ الجديد في العلم والطب
- اعداد يوسف زعبلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠
■ لقاح الايدز طموحات وعقبات
- سمير صلاح الدين شعبان ١٤٧

أدب وفنون :

■ رسالة الى أبي (قصيدة) - فاروق شوشة .. ٢٤
■ قراءة نقدية لكتاب « البئر الأولى » «فصول من سيرة ذاتية - أبو المعاطي أبو النجا ٣٦
■ تقارير عن حالة مرضية (قصة)
- د . هاني الراهب ٦٤

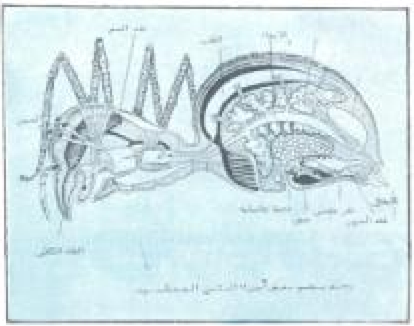

العناكب كائنات مبدعة ٨٨

عودة الى المعمار الاسلامي .. ١٣٢

■ ترابي .. أنت من جندي
ـ د . عيسى درويش ١٠٢
■ كل ما يأتلق (قصة مترجمة)
ـ د . أحمد زياد محبك ١٥٦
■ لبيك ... لكن (قصيدة)
ـ يعقوب السبيعي ١٦٠
■ الأطفال والأدب الشعبي
ـ د . محمود ذهني ١٧٦

■ جمال العربية :

ـ صفحة لغة « الحاسوب » والحيسوب
ـ محمد خليفة التونسي ١٨٠
ـ صفحة شعر : هكذا غنى الآباء : الأبناء بين البر والعقوق لأمية بن أبي الصّلت ١٨٢

منتدى العربي :

■ قضية : عصر السرقات الأدبية
ـ مصطفى سليمان ١١٣
■ تعقيب على مقال : الطيران حول العالم دون توقف ـ سليمان أحمد الهيماوي ١١٥

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ وجها لوجه : د . محمود المسعدي
ـ د . محمود طرشونة ٩٧
■ ماريو فارجس ايوسا وأدب الواقع والتجريب في أمريكا اللاتينية ـ د . حامد أبو أحمد ١١٧

وجها لوجه :
د . محمود المسعدي ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تلقاها للنشر والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء.

■ الألعاب الأولمبية لها تاريخ
ـ عادل شريف ١٢٢

تربية وعلم نفس :

■ التربية هل هي الدواء لكل أدواء المجتمع ؟
ـ د . سعيد اسماعيل علي ٥٦

اجتماع :

■ تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي ، نظرة على الأبعاد الاجتماعية والحضارية
ـ د . عبده عبود ٢٦
■ المؤشرات الاجتماعية من ضرورات العصر
ـ د . محمد الجوهري ٣١
■ دور المرأة العربية في التنشئة الوطنية
ـ د . أسعد عبدالرحمن ١٠٣

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : عقول الأطفال
ـ د . عادل عبدالكريم ١٨٥
■ من المكتبة العربية : الهمداني لسان اليمن ، دراسات في ذكراه الألفية
ـ د . حسين عبدالله العمري ١٨٩
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ الكلمات المتقاطعة ١٨٤
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٤٩) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

صورة الغلاف

تاجر مغامر توجه نحو جنوب شرق سيبيريا وجعلها منطقة لعملياته .. وأطلق اسمه على أكبر مدنها ... من هو ؟
(طالع التفاصيل ص ٦٨)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ عقد في حياتنا
ـ ترجمة محمد صوف ... ١٦٢
■ أبناؤنا .. والرجولة المبكرة
ـ ريم الكيلاني ١٦٧
■ هو ... هي ١٧٠
■ طبيب الأسرة :
أطفالنا يحبون الشيكولاتة
ـ د . حسن فريد أبو غزالة ١٧٢
■ مساحة ود : نموت وقوفا ولا نعيش راكعين
ـ محمود عبد الوهاب ... ١٧٥

عزيزي القارئ

تتابع العربي مسيرتها في إثراء الثقافة العربية في عدد الربيع ، هذا الذي بين يديك ، عدد الربيع والثقافة ، الذي يساير التحرك النهضوي والبطولي في أرضنا العربية المحتلة ، أرض أهلنا في فلسطين التي قام أطفالها بالوقوف أمام أعتى آلة حربية وفاشية في هذا القرن .

فكتب لك د . أسعد عبد الرحمن عن موضوع يهمنا جميعا ، وهو « هل قامت المرأة العربية بدورها في التنشئة الوطنية » ، كما كتب لك د . عبدالعزيز كامل في موضوع نحب أن تتابعه هو « العلمانية » ، لكنه يناقش في هذه المرة موقفها في كل من شطري الشمال والجنوب على كرتنا الأرضية ، ويكثر الحديث عن التربية على أنها مفتاح لحلول مشكلات كثيرة تواجهنا في وطننا العربي ، فيتساءل د . سعيد اسماعيل في مقاله في هذا العدد عن (هل التربية هي الدواء لكل أمراض المجتمع ؟)

أما الدكتورة وسمية الحوطي فكتبت لنا عن الابداع لدى العناكب ، فقد كان المعروف أن الابداع مقصور على الانسان ، لكن هل هو كذلك ؟

أما الطموحات والعقبات التي تواجه محاولات البحث عن علاج لمرض الايدز ، واللقاحات التي تجري تجربتها فهي موضوع المقال الذي كتبه سمير صلاح الدين شعبان .

ويناقش فهمي هويدي ما وراء لافتة « حزب الله » التي أصبحت إحدى قضايا العصر ، وفي ميدان الرياضة والتمهيد للدورة الأولمبية القادمة كتب لك عادل شريف عن قصة الأولمبياد منذ البداية .

هذه بعض القضايا التي تقدمها لك العربي في هذا العدد ، وهناك موضوعات أخرى مثرية للثقافة ، استطلاعات وزوايا ثابتة ، يتناول كتابها الجديد في العلم والمعرفة والأدب .

المحـــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

عقد التنمية الثقافية
أفكار وتساؤلات!

تحتفل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) هذا العام ببدء عقد سمته « العقد العالمي للتنمية الثقافية » (٨٨ - ١٩٩٧) وأهداف هذا العقد كما حددتها تلك المنظمة أربعة هي :

١ - مراعاة البعد الثقافي للتنمية .

٢ - تأكيد الذات الثقافية وإغناؤها .

٣ - زيادة المشاركة في الحياة الثقافية .

٤ - النهوض بالتعاون الثقافي الدولي .

هذه الأهداف الأربعة ، وإن كانت ذات أهمية لأقطار وشعوب كثيرة في العالم ، فهي مهمة لدرجة قصوى لنا نحن العرب ، في هذه المرحلة التاريخية التي نعبر فيها منحنى تنمويا وسياسيا بالغ الخطورة والأهمية .

إلا أن الاشكالية في نظري ، هي كيف يمكن شرح هذه الأهداف المعلنة وتبسيطها وتوصيلها لفهم عقد التنمية الثقافية من جهة ، ومن ثم كيف يمكن تبني هذه الأهداف كي تصبح أهدافا مقبولة ومندمجة في إطار الثقافة العربية المعاصرة من جهة أخرى .

هناك بغير شك عقبات :

العقبة الاولى : هي مشكلة مفهوم الثقافة ، فرغم الحديث عنها وتناولها يوميا في الصحف السيارة أو بين السراة (النخبة) إلا أنها مازالت مفهوما خلافيا بين الكثيرين ، بعضهم يتصور أنها مرتبطة بأشخاص ، فالمثقف هو من يعرف ويعلم في أمور متعددة نسبيا ، وربما هو الحاصل على درجة علمية جامعية أو ما فوقها ، أو قد يكون هو من يجعل الثقافة طريقة في الحياة . . وتتعدد المفاهيم لتتسع أو تضيق ، لتنحصر أو تشمل ، ولكن هذه المفاهيم ـ حتى الأكاديمي منها ـ مستعصية على فهم الشخص العادي .

فالثقافة ، هذا السهل الممتنع ، تعني في نظري مدركا كاملا من الحياة المادية والفكرية التي يبتكرها الانسان لينظم بها حياته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، ليكسب الانسان بها انسانيته .

والعقبة الثانية : هي أن الثقافة مؤسسة اجتماعية ، بمعنى أنها تصدر عن التجمع الانساني وتصب فيه ، والثقافة أيضا لها وظيفة وتحقق هدفا ، كما أن الثقافة في النهاية تبرز ملامح المجتمع في فترة معينة أو في عصر معين .

الموروث الثقافي والاجتماعي قد يقف عقبة أمام خطوات التنمية

لذلك فإن المثقف انسان يملك رؤية واضحة لمجتمعه ، بشكل عقلاني ، وما يريد أن يكون عليه هذا المجتمع ، وهو قادر على الفهم والتحليل والاستنتاج ، هذا الفهم يتيح له امكانية استخدام أمثل لقدرات العقل وفق المناهج العلمية للتفكير .

والعقبة الثالثة : هي ان وظيفة الثقافة ليست وظيفة ضيقة ـ كوظيفة الآلة ـ التي تؤدي عملا ما محددا رتيبا ، فوظيفة الثقافة مرتبطة بالبعد المستقبلي ، بنزوع الانسان الدائم لتحرير ذاته ومجتمعه . لذلك فانه في

المراحل الحرجة التي تواجه الأمم ، يكثر الحديث عن « دور المثقفين » « دور القدوة » ممن يملكون تصورا شاملا أو قريبا الى الشمول لتقديم حلول لمشكلات مجتمعهم .

وليس غريبا أن يحمل مفهوم الثقافة في لغتنا العربية معنى أقرب إلى (تقويم ما اعوج) ، والتقويم يحدث إذا كان هناك معيار وقيم عليا يراد الوصول اليها .

بهذا المفهوم الاجتماعي التقويمي ، المادي والمعنوي ، ننظر إلى الثقافة .

ومن هذا المفهوم يظهر لنا الارتباط الوثيق بين (الثقافة) و (التنمية) .

والتنمية ماذا تعني ؟

التنمية أيضا مفهوم خلافي من جهة ، وغامض من جهة أخرى ، وسنبذل جهدا لتبسيطه ، فالتنمية تعني اطرادا ونموا مقصودا ومخططا ومحددا له وظائف وأهداف ، وهو يتباين بذلك عن النمو العشوائي الذي يصيب بعض المجتمعات وفق قانون الحركة والزمن والتراكم . ولذلك فنحن نرى أن المقابلة بين الدول النامية والدول المتقدمة ، تتم على أفضل وجه إذا قابلنا بين الثمار الفجة للأولى واليانعة للثانية ، التي تتمثل في نتائج ومحصلات التنمية وانعكاساتها على الحياة ، وتتم أيضا في الجذور ، أعني المحاور الأساسية للمجتمعات والقطاعات الرئيسية للانتاج .

ومفهوم التقدم ينطوي على تراتب ، فهو يعني أن هناك مجتمعات أكثر تقدما وأخرى في طريق التقدم (نامية) . لكن أليس (التقدم) أو (النمو) هو حصيلة تدخل الانسان في الطبيعة ، وما يتلو ذلك من قيم ومفاهيم هي إحدى نتائج هذا التدخل ؟ بمعنى أن الرعاية الصحية والرعاية الاجتماعية والمنازل الحديثة والطرق المعبدة . . . الخ هي جزء من تلك النتائج .

إذاً يمكن النظر إلى التنمية باعتبارها حصيلة ما حققه الانسان أو صنعه في الطبيعة ، انها كل ما صنعته البشرية باستغلال مواهب الانسان المادية والفكرية .

ويصدق في هذا الصدد القول إن تمايز الانسان عن غيره من المخلوقات هو أنه كائن يستخدم وسائل غير مباشرة لتحقيق أغراضه .
وهذا المقياس صحيح أيضا بين مجتمع وآخر ، فالمجتمع الذي تقتصر فيه وسائل النقل على (الدواب) هو مجتمع لم يغير كثيرا في وسائل الطبيعة بالمقارنة مع مجتمع يستخدم وسائل النقل الأكثر تقدما كالقطار أو السيارة !

وكذلك فإن مجتمعا يستخدم الوقود كالنفط وغيره في تسيير مواصلاته وتسهيل تنقلاته هو مجتمع أكثر تقدما من الآخر الذي ما يزال يستخدم العجلة مثلا .

محصلة النقطة التوضيحية السابقة أن الاختلاف بين المجتمعات ، يظهر في أنّ واحداً منها طور مهاراته وابتكر أدوات لخدمة أغراضه بشكل أكثر من المجتمعات التي يملك أفرادها مهارات أقل .

ومجتمع ينظم نفسه ويجدد طرق قيادته من أجل تحقيق إنجاز أكبر بجهد أقل وبفارق نوعي ملحوظ ، هو بالتأكيد متقدم على مجتمع لا يستطيع تنظيم نفسه ، أو يطور مهارات أفراده .

هنا تأتي الثقافة بالتصور الذي وضحناه آنفا ، لتلعب دورها في قضية التنمية ، فهي إما أن تقلل من المعوقات والعقبات التي تعرقل التطوير والتنظيم في ذلك المجتمع ، وإما أن تضاعف من المعوقات وتراكمها .

وتلك هي معركة المثقف .

وليس الأمر بالسهل ، فلقد قلنا ان الثقافة مؤسسة اجتماعية ،

فهي ناتجة عن المجتمع ومختلطة به ، وتدخل خيارات ذاك المجتمع وظروفه وقيمه وتاريخه كلها كأجزاء من الثقافة السائدة .

وهنا ترتبط عملية الثقافة بالتنمية ، أو التنمية بالثقافة ، وبالأحرى تصبح « التنمية الثقافية » أحد الشروط الأساسية للتنمية بمعناها الشامل .

بمعنى آخر كيف تسهم الثقافة المجتمعية ، والمثقفون ، في تمهيد الطريق لتحقيق تنمية حقيقية . أي تحقيق سيطرة أكثر للانسان على الطبيعة في المجتمع المعني .

حل هذه المعادلة ليس سهلا ، فهناك بعض الموروث الثقافي والاجتماعي قد يقف عقبة أمام بعض الخطوات التنموية ، والخطورة في هذا المقام أن هذا الموروث يحمله (انسان) . وهنا يختلف (الانسان) كأداة للتنمية عن بقية الأدوات كلها .

فالأدوات الهامدة (الطبيعية) لا تقاوم مستخدميها ولا تمتعض منهم ولا تجفل . ولكن الانسان له ارادة ومشاعر وقيم وأولويات ، ولذا فإنه أصعب أدوات التغيير على الاطلاق . من هنا تأتي مقولات « الاستثمار في الانسان » و « التثقيف للانسان » .

هذا ما يفسر إحدى الاشكاليات الرئيسية في التنمية العربية ، فلقد ظن بعضنا لفترة طويلة أن مجرد قبول طريق (اشتراكية الدولة) أو (الليبرالية الاقتصادية) يستطيع أن يوصلنا إلى مجتمع اشتراكي أو دولة رأسمالية !! أي يجتذبنا إلى نادي البلدان الأكثر تقدما ، وهكذا تمت المحاكاة لهذا النظام أو ذاك ، ولكننا نرى اليوم أن الأقطار العربية التي اختارت هذه المحاكاة أو تلك ، لم تنتفع بها كثيرا بل ربما شوهت مفاهيم كثيرة لديها .

لقد فاتنا الدرس الأساسي وهو أنه من أجل تنمية واقعية نابعة من المجتمع ، لابد من هوية ثقافية ، تأخذ من الموروث الثقافي من جهة ، وتثري من نتائج العصر من جهة أخرى .

التفاعل الثقافي :

من أجل تنمية نابعة من المجتمع ومحققة لأهدافه لابد من البحث عن هوية المجتمع الثقافية . ولقد طرحت قضية الهوية الثقافية العربية وتفاعلها مع الهويات الثقافية الأخرى كثيرا على ساحة الفكر العربي

المعاصر ، بل أستطيع أن أقول ان هذه القضية طرحتها ثقافات أخرى متعددة قبلنا ، في البحث عن الأصيل في (الأنا) والدخيل في (الآخر) وأن نطرحها من جديد هنا - بعد أن تناولها كتاب عرب منذ قرن ونيف - فذلك يعني أنه مازال هناك قول يقال في هذا الصدد ، وهو في تقديري أمر صحي .

وفي كل مرحلة من التاريخ عندما تطرح أمة قضية هويتها الثقافية وعلاقتها بثقافة الآخرين ، فذلك يعني أن هناك حوارا حيويا داخليا بغرض تحديد كل من (الأنا) و (الآخر) بشكل واضح ، ومن ثم تحديد التفاعل بين (الأنا) و (الآخر) ومدى حدود التداخل والاختلاف .

هذا الحوار هدفه الوصول إلى توافق ثقافي ، ومن ثم توافق تنموي صحيح يقود الأمة إلى النهوض . وهو حوار يتصاعد في نظري بشكل أكبر في أوقات الأزمة الفكرية والتنموية والحضارية ، فهو لا يطرح بشكل واسع في أوقات المسيرة الاعتيادية لشعب أو لثقافة تؤثر وتتأثر بالآخرين بشكل متفاعل طبيعي ، ولكنه يثار فقط عندما يبدأ التفاعل بين ثقافات تشعر إحداها (بالضعف) في نفسها أو بالقوة في الأخرى أو الأخريات ، ولقد ثار هذا النقاش لدى الروس في القرن الثامن عشر عندما بدأ الاحتكاك بين الحضارة الغربية (الصناعية) وحضارة روسيا القيصرية (الزراعية/ الاقطاعية) ، وأدى هذا الاحتكاك غير المتوازن إلى إثارة نقاش حاد بين المثقفين الروس في ذلك الوقت لفترة طويلة حول

خصوصية وأصالة الثقافة (السلافية) في مواجهة الروح (الكونية) و (الشمولية) التي يمثلها الغرب الجديد . وقد انقسم المثقفون إما إلى شاجب للنزعة الاوروبية كليا أو إلى قابل بتلك النزعة كليا أو إلى فئة بين هذه وتلك .

فالشاجب لهذه النزعة ، أصبحت أوروبا بالنسبة له مصدرا للأفكار المخربة ، التي تنتصر للعقل على حساب كلية الكائن الانساني ، حيث نظر الى العلم الأوروبي على أنه محدود ومؤقت ، وأن الأخلاق في المجتمع الصناعي أخلاق نفعية . . . الخ المقولات المضادة . أما القابل بالروح الاوروبية على أنها نهضة فكرية وصناعية جديدة فقد أشاد باهتمامها بالعلم والمعرفة والعمل والتنظيم ، وأن ذلك كله قاعدة لأي تطور اجتماعي ، ولابد من الأخذ بها وتبنيها .

وهناك فئة ثالثة من المفكرين أرادت المزاوجة ما استطاعت بين القابل والرافض لإيجاد خط وسط .

ويقول لنا التطور التاريخي ان ذاك النقاش الكبير قد حسم بشكل من الأشكال ، بدءاً من اصلاحات بطرس الأكبر ثم الثورة البلشفية في مطلع هذا القرن ، ولكن هذا الحسم ـ وهنا بيت القصيد ـ جاء حاملا الهوية الثقافية الروسية .

ويكاد النموذج يتكرر في اليابان بدءا من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ونموذج آخر في الصين وفي كوريا .

معركة المثقف هي العمل على إزالة المعوقات والعقبات التي تحول دون نمو المجتمع وتقدمه

الدرس المستفاد من كل تلك النماذج يتلخص في أن الخبرة الحديثة تقنية كانت أم قانونية أم اقتصادية ، هي مزاوجة بين نتائج العقل والعمل والتنظيم السائد في الغرب وبين محتوى وطني محلي أي ثقافة وطنية ، لا تنقل فقط ولكن تستوعب وتهضم ثم تقدم نموذجا خاصا بها .

انها ليست الانقطاع الثقافي أو الانفصال عن المسيرة الثقافية السابقة ولا هي أيضا (الاندماج) الذي يفقد الهوية ، ولكنها مزاوجة ناجحة بينهما .

تلك المزاوجة تعتمد على عناصر عديدة منها ما تملكه تلك الثقافة من تراث حضاري سواء كان قديما وراسخا أو كان جديدا وهشا ، ومنها ما إذا كانت الأمة قد تعرضت للاستعمار الحديث ومدى قوة هذا الاستعمار في تشتيت الهوية الثقافية لتلك الأمة . . . الخ من العناصر . بجانب ذلك فإن المزاوجة الناجحة ليست محصلة تفاعل تلقائي تأتي من نفسها عن طريق تشابك العناصر الهامدة ، إنما يؤثر فيها الانسان بحيويته وطاقته وآماله بما يريد وبما لا يريد ، بما يطمح أو لا يطمح لأمته أن تكون .

وهي أيضا مزاوجة لا يمكن أن تتم في أمة تغيّب دور العقل وترفض الجديد ، وترى كل اجتهاد خروجا عن مألوف وكل تفكير تخريبا للمجتمع .

صيغة تنموية عربية :

محاولة الوصول إلى هوية ثقافية عربية هي إحدى الخطوات الرئيسية للوصول إلى صيغة تنموية ، ولكن هذه المحاولات ظلت حتى الآن تحت صيغة التجربة والخطأ . ومنذ قرن تقريبا طفق أهل الفكر العرب يدخلون في حوار كبير ومازالوا يطرحون موضوعات (الهوية الثقافية) و (الغزو الثقافي) و (الأمن الثقافي) أو (الاستلاب الثقافي)

أو (اليقظة الثقافية) الى آخر المصطلحات العديدة التي تصب في هذا الاطار .

الملفت للنظر أن المساهمين في هذا الحوار الكبير ـ وان تعددت انطلاقاتهم الأيديولوجية ـ يكادون أن يصلوا اليوم إلى نفس النتائج في بحثهم عن تفاعل حيوي وإيجابي بين الثقافة العربية الاسلامية وبين الهويات الثقافية الأخرى ، هذه النتائج ـ إن استثنينا الغلاة ـ هي الدعوة إلى تفاعل حيوي وفعال . ولعل مثالا يتكرر في الكتابات الحديثة يبدو في مثل قول « على عقلة عرسان » في مقال له نشره سنة ١٩٨٥ حول الشخصية الثقافية العربية والغزو الثقافي . فبعد جهد في توصيف وتشخيص الشخصية الثقافية العربية والغزو الثقافي يقول : (ليس العلاج في أن تقفل على أنفسنا الأبواب والنوافذ فنتقوقع خوفا أو ظنا منا أننا أفلسنا . . ولابد الا نكتفي بالعودة إلى التراث عودة تغنينا عن العصر الذي نحن فيه ، وليس العلاج في أن نطلب من الثقافات الأخرى الغازية أن تكف بلاها عنا وليس الحق في أن نهجر القديم . . .) .

هذا النوع من الحلول لابراز الهوية الثقافية المعاصرة يكاد يظهر في معظم الكتابات . . فالدعوة ليست إلى الانغلاق ولكنها ليست إلى الانفتاح ، والدعوة ليست إلى العودة إلى التراث ولكنها ليست إهمالا له . . هذا النوع من النقاش في تقديري لا يصل إلى نتيجة ، إن الاشكالية التي أمامنا هي كيف نصل إلى نوعية حياة أفضل لجماهيرنا العربية ؟ لن نستطيع أن نصل إليها إلا إذا كانت لدينا « قدرة حضارية » أي ما نستطيع أن نحققه للانسان من حيث السيطرة على الطبيعة وتسخيرها له ، وانتظام المجتمع ، وتلبية حاجات العقل إلى الفهم

عِنْدَما تَطْرَحُ أُمَّةٌ
قَضِيَّةَ هُوِيَّتِهَا
الثَّقافِيَّةِ ، فَإنَّ ذلِكَ
يَعْنِي أنَّ هُنالِكَ
حِوارًا حَيَوِيًّا داخِلَها

والادراك وحاجات النفس إلى الايمان والثقة .

هذه القدرة الحضارية بمكوناتها تلك تحتاج منا إلى سبر أغوار ثقافتنا الموروثة وتأصيل ما يساير تلك القدرة الحضارية وتوسيعها وتعزيزها ، وتجاوز العناصر المعوقة لها في ثقافتنا كعدم الاعتماد على العقل والايمان بالخرافة وكراهية التنظيم وطلاق العلم ! وأن نحارب كل ذلك على رؤ وس الأشهاد .

إنه خيار ابتكاري يجعلنا نؤ من بأن التفاعل الحضاري والثقافي من سنن الحياة ، وأن نحدد بأقصى ما يمكن من الدقة والوضوح جوهر « القدرة الحضارية » وقشور الحضارة أو ما يقرب من القشور ، كل ذلك باتجاه تحقيق مستوى أفضل للحياة لجماهير أمتنا .

عُسْـر الحـداثـة :

إن كان ثمة عسر للتحديث في وطننا العربي فإنه عسر لابد من مواجهته ثقافيا ، فالوطن العربي في جل أقطارنا يواجه اليوم بتحولات عميقة .

تحولات أقحمت علاقات اجتماعية جديدة ، فحل بها مجهول العلاقة ، والعلاقة غير المباشرة بدلاً من العلاقة الحميمة والدافئة ، وحلت الآلية محل العفوية وحل الاحساس بالزمن متسارع الوتيرة محل الاحساس القديم بوفرة الزمن ، كما حل التنظيم والتعقيد محل التلقائية والعفوية ، وساد معيار الفاعلية والمنفعة محل الوفاء والقرابة . أمام هذه التحولات يسارع البعض إلى ردود فعل احتجاجية مرتدين إلى الرمز والمتخيل والتقليدي حماية للذات والجماعة من الاضطراب ، ويسارع البعض الآخر بالمطالبة بالاندماج والذوبان . هذا التحول ليس تلقائيا ولا يسيرا فهناك صراع يصاحبه في أكثر من مجال . على رأس تلك المجالات المجال الثقافي .

لذلك فإن التنمية الثقافية عملية شاقة وعسيرة ومكلفة أيضا ، ولكنها من أهم المهمات التي يجب التصدي لها لخلق تنمية حقيقية نابعة من المجتمع . □

محمد الرميحي

العلمانية والدين

بين الشمال والجنوب

نماذج من التطبيقات

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

كان أكثر الحديث في تقسيم العالم الى شرق وغرب ، ثم برزت قوة اليابان والشعوب السلافية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي ، وجذورها اسيوية فأصبح الحديث عن شمال متقدم وجنوب أقل نموا : في الشمال نطاق العلم والقوة والثروة ، وفي الجنوب ـ أو أكثره ـ نطاقات التخلف والضعف والجوع .. ولكل منهما حظ من العلم والدين ، مع اختلاف في أمرين أساسيين : مدى هذا الحظ ، وأسلوب التفاعل بين العلم والدين ، وفي هذا الحديث نماذج تطبيقية من النطاقين ومواقع العلمانية فيهما .

لنبدأ بالنموذج الياباني .. وهو نموذج يجتذب أنظار العالم لأكثر من سبب : قيامه القوى ودخوله المعترك العالمي الذي بدأت خطواته منذ القرن التاسع عشر ، تعاظم قوته في النصف الأول من القرن العشرين .

التفجير الذري وتدمير هيروشيما ونجازاكي عام ١٩٤٥ وهو تفجير غير مسبوق وغير ملحوق حتى الآن كان « هدية » التقدم العلمي الأمريكي الى الشعوب الأسيوية أولا ، ونقطة تحول في النظرة إلى آثار العلم على مسيرة الانسان .. ثم كيف استطاعت اليابان أن تعيد بناء قوتها معتمدة على الفكر والابداع ، حتى أصبحت المنافس الاقتصادي الأخطر أمام الولايات المتحدة .

ولقد قامت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بدراسات متعمقة في العقل الياباني ، تستهدف شيئا وراء مجرد التحليل والمعرفة ، وهو إعادة تركيب هذا العقل ، أو صياغته من جديد ، ليدور في الفلك الأمريكي بخاصة والغربي بعامة . وكان على اليابانيين من ناحيتهم أن يبذلوا الجهد المادي، المكثف والمتواصل للمحافظة على هويتهم دون انطواء ، والتقدم في المجال العلمي والتقني والاقتصادي ، بحيث تصبح هذه المجالات الثلاثة الركائز التي تقوم عليها الحياة الجديدة .. ولابد لها من جذور تنبع من عقائدهم .. أقول عقائدهم حيث التعددية عنصر أساسي من عناصر الحضارة اليابانية . وهي التي نتوقف عندها في هذا الحديث .

الجمع بين الأصالة والتطور

لم يكن أمام « الميكادو » بعد الهزيمة الذرية في الحرب العالمية الثانية الا التسليم ، وكان في ذهنه صيانة « العامل البشري » لأنه الرصيد الأكبر الذي ستقوم عليه اليابان الجديدة . وكان الامبراطور بعيد النظر الى درجة يستطيع أن يرى فيها طريق المستقبل ، رغم التفجير والاشعاع الذري . هكذا قام بالتنفيذ . وهكذا كتب وصيته لولي عهده .

ولا تستطيع أن تتصور بعثا حضاريا لا يستند الى مواريثه الذاتية ، والى عناصر القوة من خصوصيته ، والى هذا ذهب المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي عقدته هيئة اليونسكو في مدينة مكسيكو في شهري يوليو واغسطس عام ١٩٨٢ . والذي أعلن قناعة الاتجاه العالمي المعاصر ، باحترام الثقافات وحقها في التعبير عن ذاتها وتنميتها ، دون أن تكون ظلالا لدول كبرى أو توابع لحضارات عملاقة .

كانت اليابان ابرز هذه النماذج القادرة على الجمع بين الأصالة والتطور . فلننظر الى هذا الأمر بتفصيل أكثر ، وبخاصة في زاوية العلاقة بين العلم والدين ، أو بين العلمانية الوافدة والأديان القديمة والجديدة . (وأرجو ألا يظن القارىء هنا خطأ . ففي اليابان أديان جديدة ظهر بعضها بعد الحرب العالمية الثانية) .

وسنرجع الى كتاب ديل ساوندرز عن « البوذية في اليابان » وقد صدرت طبعته الثالثة عام ١٩٨٠ عن دار تشارلس تتل في طوكيو . وفيه فصل عن عهد الميجي (١٨٦٨ - ١٩١٢) يليه مسح للبوذية اليابانية ، وفصل عن الأديان الجديدة ، وهي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب (من ص ٢٥٥ الى ٢٨٦) .

ففي القرن التاسع عشر حدث تنافس وصل الى

شيء من الصراع بين البوذية ، والشنتوية ، والمسيحية الوافدة التي جاءت مصاحبة للتوسع الغربي . ورأت البوذية نفسها في الميزان . ماموقفها من التحدي الغربي وكيف تستطيع تأكيد قيمها ومقابلة المتغيرات الجديدة ؟

ولنذكر أن الحكومة اليابانية أقرت الشنتوية دينا وطنيا عام ١٨٧٠ باسم « دايكو » أو العقيدة الكبيرة . وأنشأت إدارة حكومية للدين والتربية ، وأعطت البوذية مكانة رسمية ولكنها دون الشنتوية ، وفي عام ١٨٧٣ سافرت بعثة بوذية الى أوروبا وأمريكا لدراسة التنظيمات الغربية الدينية ، وكيف تعمل . ورأوا هناك مكانة العلم في حياة الانسان ، والعناية المتزايدة بالفكر والحرية والارادة الانسانية . وعادوا ليفسروا البوذية بأنها دين توحيدي ، وأنها أقرب الى روح العلم من المسيحية التي تذهب الى الايمان بقوى علوية لها القدرة على تغيير العلاقات بين الأسباب والنتائج ، وهي العلاقات التي يقوم عليها العلم . وذهبوا الى أن البوذية ـ كالعلم ـ تعترف بتبادل التأثير بين جميع الأشياء (ص ٢٥٨ من المرجع السابق) وأرسلوا مبعوثا آخر عام ١٨٧٥ الى جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة ، لمزيد من الدراسة عن أسباب نجاح المسيحية .

الابداع العلمي

لقد أثمر المزيد من الفهم والاتصال بالعالم الخارجي الاحساس بضرورة فصل العوامل الوطنية (الشنتوية) عن العوامل الدينية البحتة (البوذية) مما أدى إلى إلغاء « الدايكيو » أو « العقيدة الكبيرة » .

وأحس الجميع بضرورة سياسة حكومية جديدة تستطيع أن تقابل التغيرات والتطورات السياسية .

وتراجعت الصراعات الدينية بين البوذية والشنتوية ، وبرز من وجه الغرب ذلك التحدي الحضاري الجديد ، وبخاصة في العلم والتقنيات وهو الذي خاضت فيه اليابان تجربتين : كانت أولاهما قبل الحرب العالمية الثانية ، وهي مرحلة ارتبط فيها العلم بالاقتصاد بالقوة العسكرية بالنظرة التوسعية ، وكانت الثانية علمية اقتصادية سلاحها الأكبر هو « الابداع العلمي » على المستوى العالمي ، ورصيدها الأكبر هو « العقل الانساني » القادر كل يوم على فتح آفاق جديدة .

وفي هذا « الابداع » يلتقي العلم مع جانب من الفكر البوذي الذي يذهب الى التأمل المؤدي الى « الاستنارة » او « الساتوري » اذا استخدمنا اصطلاح القوم .

والاستنارة هي كشف ذاتي لطريق جديد .. وكانت من قبل في عالم الاشراق وفلسفة الحياة . وهي الآن ـ بالاضافة الى مواريثها-أو بتطوير مواريثها ـ في عالم العلم والتقنيات .

والأديان الجديدة التي ظهرت في اليابان تلتقي عند ركيزة الاستنارة أو الكشف .. ونستطيع القول بأنها تكون ـ مع بعضها البعض ، ومع الأديان القديمة ـ مجمعا من الفكر الديني .. « بانثيون » .. لو أخذنا اصطلاحا قديما حديثا مستخدما في الغرب .

واستهدفت الديانات الجديدة ملء الفراغ الروحي الذي نجم عن الصراع بين الأديان وبخاصة ماكان بين البوذية والشنتوية ، وقد تحررت هذه الأديان الجديدة من الطبقية الكهنوتية ، وتجنبت الفصل القديم الدقيق بين رجال الدين من ناحية ، وبين المؤمنين العلمانيين من جهة أخرى .. وأي مثقف من هؤلاء وهؤلاء له القدرة ، وله الحق ، في إمامة العبادات أو قيادتها ، وأكثروا جميعا من استخدام وسائل الاعلام الحديثة من الاذاعة المسموعة والمرئية والمطبوعات الجميلة والمبسطة .

وأبرز ما في هذه الديانات أن أحدا منها لايدعي احتكار الحقيقة كلها . وكل منها يقبل الآخر ويتعايش معه على أساس من المساواة . وقد اتسعت أرض السماحة بينها ـ مع بعض استثناءات ـ بل وصل الأمر بينهم الى تكوين منظمة الأديان الجديدة للتعاون المشترك والاعلام بهذه الأديان . وليس غريبا عندهم أن يجمع فرد بين دينين فتكون له مقدسات شنتوية في داره ، وتردد على معبد بوذي أو أحد معابد هذه الأديان الجديدة .

مقارنة :

طبيعة الفكر الديني في الشرق الأقصى ـ وبخاصة في اليابان ـ تختلف اختلافا اساسيا عن التشدد والتعصب والصراعات العتيقة التي نجدها في كل من (شبه القارة الهندية الباكستانية)، وفي أرض العرب حيث الفواصل والحدود، والتي سبق ان شاهدناها اوروبا في الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية، والتي بلغت ابعادها البشعة في محاكم التفتيش التي أقامها الكاثوليك في أسبانيا بعد سقوط غرناطة واخراج الحكم الاسلامي منها عام ١٤٩٢ ومطاردة كل من لا يعتنق الدين أو المذهب الكاثوليكي.

لقد تخطى اليابانيون ارض الصراع التي لا يزال نفر من مفكرينا رافعا اسلحته الفكرية فيها، واتجهوا الى قبول التحدي الحضاري وذهبوا الى تعميق التعددية الدينية والتعايش بين الأديان والعقائد والمذاهب. وأصبح المصنع او «المؤسسة» وحدة اساسية ـ مع الاسرة ـ في بناء المجتمع الجديد ورفع انتاجيته. فحياة اليابان هي في انتاجها وابداعها. والوقت اغلى عندهم من ان يضيع في نقاش نظري مما يأكل اوقات الكثيرين عندنا، ويستنزف حيوية شبابنا، دون مردود على حاضر او مستقبل.

كذلك لم يقف اليابانيون امام الحضارة الغربية الغازية موقف الانبهار، ولكن موقف الاختيار ثم الابتكار.. بدءوا مقلدين في بعض الأوقات، ثم أصبحوا «مجتهدين» لم يذوبوا في صراع المذاهب والعقائد، ولم تضطرب خطاهم في طريقهم الصاعد الذي اختاروه جامعا بين اصالتهم وانفتاحهم حاملا شخصيتهم النامية المتطورة، قادرا على «الاستنارة» وكشف الجديد.

وأختم هذا الحديث عن التجربة اليابانية بقصة قصيرة ذكرها الفيلسوف الياباني د. ت سوزوكي في كتابه «مقدمة الى مذهب الزن البوذي» (ط ١٩٧٤ عن دار رايدر) وفيه يخصص الفصل السابع عن الساتوري (او الاستنارة) باعتباره كسبا لوجهة نظر جديدة. ويذكر أن راهبا بوذيا كان يبحث عن الاستنارة، وصاحبه في رحلته معلم صديق، وقال له «اني راغب في عونك. ولكن هناك أمورا ينبغي ان تقوم بها بنفسك. فأنت اذا كنت جائعا او ظامئا، هل أستطيع أن آكل او أشرب نيابة عنك؟ وأنت وحدك الذي تستطيع ان تحمل جسدك وأنت على هذا الطريق».

وفتح هذا القول بصيرة الراهب في وجوب الاعتماد على النفس في كشف الطريق (ص٩٠) والاعتماد على الذات ـ عمليا ـ فردي، كما هو جماعي ووطني. ويبدو عميقا وقويا في مجتمع متجانس كالمجتمع الياباني.

الغرب : سوق مركزي للمذاهب :

والذين ينادون عندنا بالعلمانية، انما يلمسون جانبا واحدا من حياة الغرب، مع تعدد مفاهيم العلمانية هناك، كما ذكرنا في مقال سابق (العربي: ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧) وفي عرض العلاقة بين العلمانية والدين في أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى الآن يمكن الرجوع الى بحث بيتر برك وعنوانه «الدين والعلمانية»، وهو الفصل الحادي عشر من الجزء الثالث عشر من الطبعة الجديدة لتاريخ كمبردج الحديث / ١٩٨٠.

والغرب سوق مركزي للمذاهب: ترى فيه الذين ينكرون الدين أساسا وكأنهم ـ في جوهرهم ـ يذهبون الى ماذهب اليه قدامى العرب وسجله القرآن الكريم «وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم إلا يظنون» (الجاثية: ٢٤). وقد لقيت من هؤلاء علماء كباراً لا علاقة لهم بأصل الوجود ولا حساب الآخرة، وحياتهم وجودهم، وهما محصوران بين مولد وموت، لا يعنيهم قبل ذلك ولا بعد.

وترى هناك الذين يتمسكون بنصوص ونبوءات العهد القديم والجديد تمسكا حرفيا، حتى فيما يتعلق بالحروب المدمرة التي ينتهي بها عالمنا الى خراب. وأمامي الآن كتاب الصحفية الامريكية جريس

الشنتو والبوذيون .. وعبادة مشتركة في معبد واحد بكانون في طوكيو ... حيث الكل في واحد ... !

هالـل وعنوانه « النبوءة والسياسة : الانجيليون المناضلون على طريق الحرب النووية » (وهو صادر عن دار لورنس هل ـ كنكتكت ـ الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨٦) .

ويبشر هؤلاء المناضلون الانجيليون بأن الدمار الذري لا يمكن تجنبه ، وتتجه رسالتهم الى اقناع كبار المسئولين الحكوميين في الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل وغيرهم بذلك . وتصل اصواتهم وبخاصة عبر التلفاز الى اكثر من ستين مليونا من المشاهدين .. ويتبنى اليمين المسيحي الجديد ، والحزب الجمهوري ـ بنجومه الجديدة الصاعدة ـ هذا الاتجاه . ويبدو أن لهم موارد مالية غير محدودة . ولهم موقع في فلسطين حيث الكيان الاسرائيلي « للمعركة الكبرى الاخيرة ، لأن هذه ارادة الله » .. وهؤلاء يحبذون المزيد من دعم الترسانة الحربية الأمريكية ، وبالتالي دعم اسرائيل . ووصلت بعض نبوءاتهم الى كلمات رئاسية في الولايات المتحدة .. وفي هذا المجال الاعلامي تبرز اسماء بات روبرتسون ، جيمي سواجارت ، جيري فالول .. هؤلاء وغيرهم يبشرون بأن الحرب النووية هي التي تمهد لعودة المسيح الى الأرض ..

هذه هي معركة « هرمجدون » وقد جاءت في الاصحاح السادس عشر عدد ١٤ ـ ١٦ من رؤيا يوحنا اللاهوتي . وفيها يتنبأ كاتب الرؤيا أن هذا الموقع سيتحول الى ساحة للرب ، ويجتمع فيه كافة ملوك الأرض في يوم قتال الرب ..! وتقع مجدو في مرج ابن عامر ، وهي على خط المواصلات بين القسمين الشمالي والجنوبي من فلسطين ، ولها مكانة استراتيجية من قديم .

لقد أهدت المؤلفة كتابها الى الذين يحبون عن السلام . وذكرت تجربتها في رحلتها الى الأرض المقدسة مع جيري فالول ، وخصصت فصلا عن جهود اسرائيل في التحالف مع اليمين المسيحي الجديد (ص١٤٥ ـ ١٦٠) وثلاثة فصول عما تجنيه اسرائيل من هذا التحالف (ص١٦١ ـ ١٨١) وهي

ثلاثة مكاسب : المال ، مزيد من الأرض ، مزيد من « زراعة » الدعم المسيحي في الأرض الأمريكية . . !

وتحدث الكتاب عن ان هذه الجماعات ـ من اليمين المسيحي الأصولي الجديد المؤيد لاسرائيل ـ وصل عددها الى مائتين وخمسين . . وذكر اسماء وابرز هذه المنظمات ونماذج من الأدوار التي قامت بها تأييدا لاسرائيل وعونا لها على تحقيق النبوءات . وخصصت الكاتبة الفصل الأخير عن مزج الدين والسياسة (ص١٨٥ ـ ١٩٤) .

وتختم الكتاب بفقرة جاء فيها :

« في عظات جيري فالول وغيره من التلفازيين الانجيليين افتقدت حديثهم عن الموعظة على الجبل (وهي اروع عظات المسيح الانسانية) وافتقدت ان يخبرونا ان المسيح اختار طريقا غير قائم على القوة الحربية ، ان طريقه لم يكن الغاء لحق الفرد في الملكية ، ولا الغاء للبحث عن الحكم السياسي في هذه الأرض . لقد جاء داعيا الى التقدم بالحياة واثرائها . لقد جاء برسالة السلام . وبالسلام علمنا ان نحافظ على الحياة وان نزيدها جمالا (ص٢٠٠) . . !

إن بين الذين رأيناهم ينكرون الدين ومصدره الالهي نكرانا تاما ، ولا يرونه الا ظاهرة اجتماعية ، وبين الأصوليين الذين يتمسكون بحرفية النصوص الداعية الى الحرب الكونية والدفاع عن الخراب والتخريب . . بين هؤلاء وهؤلاء في الغرب ينتشر حشد من المذاهب والآراء بين اقصى العلمانية واقصى الحرفية النصية في الدين .

والآن : أين الطريق :

أردت بهذا الحديث أن أؤكد أربعة مبادىء هي : التعددية ، التعايش ، الاختيار ، الابداع . . والتعددية تقتضي حسن دراسة التراث اولا، وفهم الحاضر واستشراف المستقبل ، والقدرة على التحليل اولا ، والتركيب ثانيا ، لتكوين صيغة تستطيع ان تستجيب لمسئوليات الحاضر وهو في طريقه الى بناء المستقبل .

والتعايش يقتضي ان تتسع آفاقنا لندرك أننا لسنا وحدنا في هذا العالم العريض ، واننا لكي نمارس حق الاختيار ، علينا ان نعترف به لغيرنا ، ومن الاختيار علينا ان نصعد الى مستوى الابداع .

ولا أود أن نبدأ من بعيد . . وليكن البدء بعالمنا العربي ومن حوله عالمنا الاسلامي . . ففي ارض الحضارات العريقة من الطبيعي ان تتعدد الآراء والمذاهب ، فماذا علينا لو كان للفرد معتقده الذي يحترمه الآخرون ، كما يحترم هو معتقدهم . فتكون صلته بمعتقده « دينا » وتكون نظرته الى معتقد غيره « ثقافة » . وليس هناك ما يدعو الى نزول الخلافات المذهبية والعقائد الى صراعات الحياة اليومية . لكن دراسة الخلافات « علمية » للمعرفة ، وليكن التعاون فيما نلتقي فيه ، وهو كثير .

وعلى الذين يعيشون في وطن واحد واجبات نحو هذا الوطن : ان يحافظوا على ارضه وعلى وحدته الوطنية ، وان يقبلوا التحدي الحضاري الداعي الى التقدم ، وان يبذلوا الجهد متعاونين .

وعلى الذين يعيشون في اوطان متجاورة وتجمعهم لغة او عقيدة او حتى مجرد الجوار ، ان يؤمنوا بالتعايش ، واذا كانت بينهم فروق مذهبية فلا يذهب معها الود . وان يحاولوا الاشتراك في مشروعات اوسع لمقابلة مسئوليات الحياة وليدعوا أحقاد التاريخ للتاريخ ، وليدعوا التقليد في كل من العلمانية والتعصب المقوت . وليكن لهم الحق في ان يصنعوا لأنفسهم تاريخا جديدا يقوم على التعددية والتعايش والاختيار والابتكار . . ولتكن هذه الأربعة وجوها لكعبة الفكر الصاعد الى الغد .

ان الاختيار بين الثنائيات في ذاته قيد ، فلعل وراء الثنائية فكرا ثالثا او رابعا ، هو استثمار افضل مافي الحاضر لبناء المستقبل . ومن أجل ذلك ذكرت النموذج الياباني بشيء من التفصيل ، وأشرت الى هذا الحشد الهائل من الأفكار والفلسفات ، لتكون لدينا القدرة على استنبات الأفكار ، لا مجرد استيرادها دون مراعاة للعوامل الطبيعية والبشرية . □

رسالة إلى أبي

شعر : فاروق شوشة

فاجأني الذي اكتشفتُ : أنت في نفسي حللْتَ
في صوتي المرتج بعضُ صوتك القديم
في سحنتي بقية من حزنك المسل في ملامحك
وفي خفوت نبرتي - إذا انطفأتُ - ألمح انكساراتك
وأنت عازفا حينا ،
وحينا مقبلا ،
وراضيا ، تأخذنا في بُرْدك الحميم
حيـنـا ،
وحينا عاتبا مغاضبا
فأنت في الحالين لن تصدَّنا
وتستخير الله ، أن تكون قدْ عدلت
فاجأني أنك لم تزلْ معي
وأنت شاخص في وقفتي الصماء ، والتفاتي
أرقبني فيك
وأستدير باحثا لديَّ عنك
تحوطني ، فاتكيء ،
تمسك بي إذا انخلعْتُ
تردُّني لوجهتي
مفتحا كآبة الليل المعتم ،
الآن عدنا ، اختلطنا
صرتُ واحدا

وصرتُ اثنين
عدتُ واحدا
عنك انفصلْتُ واتصلْتُ وانفصلْتُ واكتملْتُ
لم أدر كم من شجوك النبيل قد حملت
أضفته لغربتي
ومن عتابك المرير للزمان كم شهدت
فاكتملت معرفتي
واتسعت أحزان قلبي اليتيم
بالرغم من أبوتك
وأنت ناصحي المجرب الحكيم
لم تنجني من شقوتك

❋ ❋ ❋ ❋

أبي . .
تراك في مكانك الوثير مانحي سكينتك
وقد فرغت من رغائب الحياة
فانسكبت شيخوختك
على مدارج الصفاء والرضـا
وصار قوس الدائرة
أقرب ما يكون لاكتمالها الفريد
ها أنذا ألوذ بك
أنا المحارب الذي عرفته . . المفتون بالنزال

وابنك . .
حينما يفاخر الآباء بالبنوة الرجال
منكسرا أعدو إليك
أشكو سراب رحلتي
وغربتي
ووحدتي
محتميا بما لديك من أبوتي
ولم يزل في صدرك الرحيب متسع
وفي نفاذ الضوء من بصيرتك
جلاء ظلمتي وكربتي
فامدد يديك للذي قد غاله الطريق
واخترقت سهامهم صميمه فلم يقع
لكنه أتاك ، نازفا ، مضرجا
دماؤه تقوده إليك
وندبة في جبهته
وصرخة مكتومة يطلقها إذا امتقع
هذا ابنك القديم
وابنك الجديد
يبحث فيك عن زمانه
وحلمه البعيد
فافتح له خزائنك

تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي

نظرة على الأبعاد الاجتماعية والحضارية

بقلم : الدكتور عبده عبود *

مع ثورة المواصلات ، واتساع الفجوة العلمية بين دول الغرب والعالم الثالث ، تزايد الاقبال على تعلم اللغات الأجنبية ، ولظروف تاريخية سادت اللغات الأوروبية هذا المضمار ، حتى طغت على اللغات القومية لبعض البلاد النامية .

وحتى لا تتعرض اللغة العربية لمخاطر الاهمال والازدواجية يجب مواجهة هذه الظاهرة بنتائجها .

توجد في الوطن العربي حركة ثقافية دءوبة واسعة . يشارك فيها الكبار تماماً كما يشارك فيها الصغار ، وينخرط فيها الرجال ، تماماً كما تنخرط فيها النساء . إنها حركة تعلم اللغات الأجنبية وتعليمها . وبالقدر الذي تتسع فيه هذه الحركة تكثر وتتنوع المؤسسات التعليمية التي تمارس فيها ، ومنها الرسمي والخاص ، والمحلي والأجنبي ، وهذه المؤسسات تبدأ بالمدارس والمعاهد والجامعات الرسمية ، وتمتد فتشمل المدارس والمعاهد الخاصة ، الصباحية منها والمسائية ، والمراكز الثقافية الأجنبية التي قل أن تخلو منها عاصمة عربية . أما الأسباب والدوافع التي تحدو هذه الأعداد الهائلة من الناس للاقبال على ممارسة تعلم اللغات الأجنبية فهي كثيرة ومتنوعة . والتلميذ والطالب يتعلمان اللغة الأجنبية لأنها مقرر مدرسي أو جامعي ، لا ينتقل المرء من صفه أو سنته الدراسية إن لم ينجح فيه . أما رجل الأعمال فيتعلم اللغة الأجنبية لحاجته إليها في أسفاره وتعامله مع شركائه الأجانب . والشيء نفسه يمكن

* باحث ومترجم من القطر العربي السوري

أن يقال عن السائح الذي يقضي إجازته في بلد أجنبي . أما ربة البيت التي كبر أولادها فربما تتعلم لغة أجنبية من باب قضاء وقت الفراغ بهواية ممتعة . هذه مجرد أمثلة على الدوافع التي تحدو الناس إلى تعلم لغة أجنبية . لكنها بالتأكيد ليست كل الدوافع . وعموماً يمكن التمييز على هذا الصعيد بين نوعين رئيسيين من المتعلمين ، الأول هو أولئك الناس الذين يكتسبون لغة أجنبية لأسباب عملية أو مهنية . وهذا النوع يسعى إلى إجادة اللغة الأجنبية واكتسابها بصورة نشيطة وفاعلة ، بغية التمكن من توظيفها عملياً ومهنياً ، كرجل الأعمال في تجارته ، والدليل السياحي في تعامله مع السياح ، والمترجم في نقل النصوص . . . الخ . أما الفئة الثانية من المتعلمين فتكتسب اللغة الأجنبية هواية ، ولا تريد توظيفها عملياً أو مهنياً ، لذا فهي لا تسعى بالضرورة إلى إجادة اللغة الأجنبية بشكل فاعل ، بقدر ما يهمها الحصول على معلومات ومعارف حول تلك اللغة ، وما تحويه من أدب وثقافة . ولعل أقرب الناس إلى هذا النمط هم دارسو اللغات القديمة (الميتة) التي باتت خارج إطار التداول والتعامل ، كاللاتينية والاغريقية واللغات السامية القديمة . وقد وُجد هذان النمطان من متعلمي اللغات الأجنبية جنباً إلى جنب ، وعلى مدار تاريخ تعلم تلك اللغات ، وكان لوجودهما أثره في تحديد المضامين والمناهج وطرق التدريس المتبعة .

تاريخية الظاهرة

لكن بغض النظر عن صحة هذا التصنيف وجدواه ، يظل تقريبياً قابلاً للاستبدال ، لأن تعلم اللغات الأجنبية ، كغيره من الظواهر الثقافية ظاهرة تاريخية ، لها مقوماتها ووظيفتها الاجتماعية والحضارية . فتعلم اللغات الأجنبية في بلدان العالم الثالث مثلاً يتم في ظل ظروف تاريخية ، ويؤدي وظيفة اجتماعية حضارية ، تختلف إلى حد بعيد عن شروط هذا التعلم ووظيفته في المجتمعات الصناعية المتطورة ، غربيّها وشرقيها . فمن المعروف أن تعليم اللغات الأجنبية في أقطار العالم الثالث قد نشأ في مسار احتكاك تلك المجتمعات بالدول الاستعمارية ، التي لم تفرض على تلك الأقطار سيطرتها العسكرية والسياسية والاقتصادية فقط ، بل فرضت عليها في الوقت نفسه سيطرة ثقافية ، كان التبشير الديني والسيطرة اللغوية ، بمعنى فرض لغة الدولة الاستعمارية على البلد المستعمر ، أخطر أشكالها . وقد بلغت الهيمنة اللغوية في بعض الحالات درجة محاولة القضاء التام على اللغة الوطنية ، كما فعل الاستعمار الفرنسي في أقطار المغرب العربي على سبيل المثال . إذن لقد اقترن الاستعمار العسكري والاقتصادي والسياسي في معظم الأحيان باستعمار ثقافي لغوي ، يمثل استمراراً واستكمالاً للشق الأول من العملية الاستعمارية . وبعد أن انحسر الاستعمار في شكله القديم عادت الأقطار المتحررة وطنياً إلى إحياء لغاتها القومية ، وسعت إلى نفض غبار الاستعمار اللغوي عن كاهلها . وهذا هو ما نسميه في الوطن العربي « التعريب » ، وهو عملية مستمرة ، طويلة الأجل ، متعددة الجوانب ، أخذت تبرز في الأعوام الأخيرة في شكل تعريب المصطلحات العلمية والعلوم في المقام الأول .

لكن بعد أن تحررت شعوب العالم الثالث من الاستعمار المباشر وجدت أن الحاجة لم تزل ماسة لتعليم اللغات الأجنبية ، ولا سيما لغات الأقطار المتطورة صناعياً ، وهي لسخرية التاريخ لغات القوى الاستعمارية السابقة بالتحديد ، أي الانكليزية والفرنسية . فالهوّة الاقتصادية والتقنية والعلمية والثقافية بين العالم الأول والعالم الثالث كانت تكبر عاماً بعد عام ، مما أسفر عن وقوع العديد من دول العالم الثالث في تبعية اقتصادية وعسكرية وتقنية جديدة . وحتى الأقطار التي سلمت نسبياً من الوقوع في تلك التبعية وجدت نفسها في حاجة ماسة إلى عبور الهوة الاقتصادية والتقنية والعلمية السحيقة التي تفصلها عن الأقطار الصناعية المتقدمة ، وهذه مهمة لا يمكن الاستغناء فيها عن تعليم اللغات الأجنبية في مسار السعي لانجازها . فهذه اللغات

تفتح الطريق إلى الكنوز والثروات العلمية والفكرية والثقافية للمجتمعات المتطورة . وهكذا أصبح لتعليم اللغات الأجنبية في ظل الواقع التاريخي للدول النامية وظيفتان متضادتان . الأولى هي تكريس التخلف والتبعية ، وذلك في الأقطار التي تسود فيها بُنى اقتصادية وسياسية متخلفة تابعة ، حيث تمثل السياحة والسمسرة والبغاء والوكالة قطاعات أساسية . في تلك الأقطار يتعلم الناس اللغات الأجنبية على نطاق واسع جداً ، كي يتواصلوا مع سادتهم تواصل « التابع » و « المتبوع » ، وبلغة الطرف المسيطر ، لا المسيطر عليه ، فهذا أمر طبيعي ومنطقي ، كاستمرار لجدل « السيد » و « العبد » الذي تحدث عنه الفيلسوف الألماني المعروف « هيجل » .

أما الوظيفة الثانية (البديلة) التي يمكن لتعليم اللغات الأجنبية في بلدان العالم الثالث أن يؤديها فهي أن يكون عاملاً مساعداً في التطور والتنمية ، فاللغات الأجنبية ضرورية بالنسبة للكوادر العلمية التي تُرسَل إلى الخارج من أجل الدراسة والتدرب والاطلاع ، وهي ضرورية جداً من أجل ترجمة الأعمال العلمية والفكرية والأدبية المهمة إلى اللغات المحلية ، ولا غنى عن اللغات الأجنبية في استخدام المراجع والمصادر العلمية المكتوبة بتلك اللغات ، إضافة إلى ضرورتها من أجل متابعة ما يستجد في العالم الخارجي سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلمياً وثقافياً . تلك هي الوظيفة التي يمكن أن يضطلع بها تعليم اللغات الأجنبية في مجتمع العالم الثالث الذي يريد أن يسلك طريق التطور الاقتصادي والسياسي والثقافي المستقل ، وأن يتحرر من التخلف والتبعية .

ومن الملاحظ أن تعليم اللغات الأجنبية يتمّ في البلدان المتخلفة التابعة على حساب اللغة القوميّة التي تضمر ، ويتراجع دورها بشكل مواز لضمور الاقتصاد والثقافة الوطنيين ، ولنمو القطاعات الاقتصادية الطفيلية التابعة ، كما تأخذ أجزاء واسعة من المجتمع باستخدام اللغات الأجنبية في تواصلها اليومي ، بدلاً من استخدام اللغة القومية ، فاللغة الأجنبية ترمز في تلك المجتمعات للانتماء إلى الطبقات العليا ، خلافا للغة القومية التي تُترك للشرائح الدنيا من المجتمع . ومن مظاهر هذا « التثاقف » الذي يتم في ظل التخلف والتبعية تطعيم اللغة المحلية المحكية بالمفردات والتعابير الأجنبية التي ترمز للانتماء إلى العالم المسيطر ، وهذا ما نلاحظه مثلاً في بعض الأوساط الاجتماعية العربية التي تمثل لغتها الدارجة مزيجاً من العامية واللغة الأجنبية ، حيث يقولون « مرسي » بدلاً من « شكراً » ، و « طانط » بدلاً من « عمة » ، و « باي » بدلاً من « إلى اللقاء » . . . إلخ .

أما في المجتمعات التي تريد السير على طريق التحرر من التخلف والتبعية ، فينبغي أن يكون لتعليم اللغات الأجنبية وظيفة نهضوية وتنموية حيوية ، ولا يجوز أن يتم اكتساب تلك اللغات على حساب تعليم اللغة القومية وتطويرها ، بل يجب أن يتزامن مع تكثيف تعليم هذه اللغات وتطويرها . فتعليم اللغات الأجنبية يمكن أن يساهم في إغناء الثقافة الوطنية وتطويرها ، لأنه يؤدي إلى ترجمة عديد من الأعمال العلمية والفكرية والأدبية العالمية إلى اللغة القومية ، فتتحول إلى لغة عصرية ، تستوعب كلّ ما في العصر الحديث من معطيات علمية وثقافية .

على ضوء الوظيفة التي يضطلع بها تعليم اللغات الأجنبية في بلد من العالم الثالث تتحدد أيضاً مسألة أية لغات أجنبية يجري تعلمها . ففي الأقطار التابعة يكون تعليم اللغات الأجنبية مقتصراً على لغة الدولة الاستعمارية السابقة ، أو لغة العاصمة الصناعية المهيمنة حالياً ، بينما تُهمل لغات المجتمعات الصناعية الأخرى ، ناهيك عن إهمال لغات أقطار العالم الثالث ، أما في المجتمع الذي يريد أن يسلك طريق التطور الاقتصادي والحضاري المستقل فلا بد لتعليم اللغات الأجنبية من أن يشمل لغات أقطار صناعية مختلفة ، إضافة إلى بعض لغات شعوب العالم الثالث ، والشعوب التي تربطه بها علاقات جوار وتاريخ وحضارة مشتركة . وهكذا فإن تعليم

اللغات الأجنبية ليس مسألة تربوية بحتة ، بل هو قضية ثقافية سياسية من الطراز الأول ، لذا لابد من أن يكون المدخل إلى مناقشة هذه القضية هو أن نطرح على أنفسنا الأسئلة التالية :

ـ ما هي الحاجات الاجتماعية الحضارية التي يلبيها تعليم اللغات الأجنبية ؟ وما هي وظيفة هذا التعليم بالنسبة لمجتمع من العالم الثالث يقف أمام خيارين مصيريين لا ثالث لهما : التخلف والتبعية الدائمين ، أو التقدم والتطور الاقتصادي والحضاري المستقل ؟

ـ ما هو أثر تعليم اللغات الأجنبية على اكتساب اللغة القومية (اللغة الأم) ؟ هل يتم على حسابها ، ويمثل بذلك شكلاً خطيراً من أشكال الغزو الثقافي ، أم يترافق مع تطويرها وإغنائها وبذل جهود مناسبة من أجل تعليمها للأجانب وغير الناطقين بها ؟

أهداف عملية

إذا اتفقنا على الوظيفة الاجتماعية الحضارية لتعليم اللغات الأجنبية في ظل الواقع التاريخي العربي المعروف (واقع التخلف والتبعية من جهة ، ومحاولات التقدم والنهضة من جهة أخرى) ، يصبح بإمكاننا أن نخطو خطوة أخرى لنتساءل عن الأهداف العملية (البراغماتية) في مجتمع نام ، يودّ أن يسلك طريق التقدم والتحرر من التبعية . إن الهدف العام لابد أن يتمثل في تدريب (كوادر) تجيد اللغات الأجنبية ، وتعمل في مختلف المجالات التي تقتضي حاجات المجتمع المذكور أن تعمل فيها . ولعل أهم هذه الحالات :

ـ الترجمة بأشكالها المختلفة : الخطية ، والشفهية ، والفورية ، والتبعية ، والعلمية والأدبية ، والصحفية والعسكرية ، فالترجمة هي ـ في رأينا ـ أبرز المجالات التي يجب الاستفادة منها ممن يجيدون لغات أجنبية . ومن المعروف أن الشرط الضروري الأول الذي ينبغي توافره في المترجم هو إجادة اللغة الأجنبية (لغة المصدر) ، إضافة إلى إجادته للغته الأم (لغة الهدف) .

ـ إضافة إلى المترجين يحتاج المجتمع النامي إلى اتقان علمائه وباحثيه اللغات الأجنبية ، كل في حقل اختصاصه ، بحيث يتمكنوا من استخدام المراجع والمصادر العلمية الأجنبية ، والاستفادة من أحدث ما توصلت إليه البحوث الدولية من طرائق ونتائج ومعارف . ومن البديهي ألّا يعني ذلك إحلال اللغات الأجنبية محلّ اللغة القومية كلغة للعلم .

ـ يحتاج المجتمع النامي كذلك إلى إعلاميين (صحفيين) يجيدون اللغات الأجنبية بصورة جيدة ، ليتمكنوا من مخاطبة الرأي العام العالمي بصورة ناجحة ، وكسر الحصار الاعلامي المخيف الذي تضربه القوى المسيطرة على كلّ بلد نامٍ يحاول أن يشقّ طريق التقدم والتطور المستقل .

ـ أما المجال الدبلوماسي فيحتاج بطبيعة الحال إلى (كوادر) تجيد لغة البلاد التي تعمل فيها دبلوماسياً ، فالدبلوماسي الذي لا يتقن تلك اللغة ، إلى جانب إتقانه للغة التداول العالمية يشبه المحارب بلا سلاح .

تلك هي بعض ـ وليس كلّ ـ المجالات العملية التي يحتاج فيها المجتمع النامي بصورة ماسة إلى أناس يتقنون لغات أجنبية . لكن أية لغات ؟

أية لغات أجنبية ؟

من البديهي أن المجتمع العربي بحاجة إلى أناس يجيدون لغات المجتمعات الصناعية المتطورة ، ما دمنا نريد توظيف الاحاطة بتلك اللغات في تعاملنا الاقتصادي والعلمي والثقافي مع تلك المجتمعات التي تشكل تحدياً كبيراً بالنسبة للوطن العربي (والعالم الثالث كله) . وما دام الأمر كذلك فمن الطبيعي والمنطقي أن نولي تعليم لغات المجتمعات المذكورة أهمية خاصة ، أما هذه اللغات فهي في المقام الأول الانكليزية : لغة التداول العالمية في هذا العصر ، واللغة الأم لعدة أقطار صناعية متطورة .

ـ الروسية : لغة القوة العظمى الثانية في عالم اليوم ، والدولة القائدة في المعسكر الشرقي . وفي المقام الثاني الفرنسية والألمانية والاسبانية : وكلها لغات أوروبية .

لكن لا يجوز لتعليم اللغات الأجنبية في الوطن

العربي أن يقتصر على هذه اللغات ، بل يجب أن يشمل لغات شعوب تجمعنا بها روابط الجوار والتاريخ المشترك والحضارة الاسلامية . إنه لأمر مخجل حقاً أن يضطر العربي للتفاهم مع الايراني والتركي والباكستاني والاندونيسي بالانكليزية أو الفرنسية ، وألا يعرف شيئاً عن لغات شعوب تجمعنا بها « منظمة المؤتمر الاسلامي » ، ويعيش الآلاف من أبنائها بين ظهرانينا ، مثلما يعيش الآلاف من أبنائنا في أقطار تلك الشعوب . ترى ألا تستدعي الروابط المشار إليها آنفا أن تُدخل لغات الشعوب المجاورة في تعليم اللغات الأجنبية ؟ (كيف وعلى أيّ مستوى ، تلك مسألة أخرى يمكن مناقشتها إذا أقررنا بالمبدأ) . أوَلا يساعد ذلك على أن تفهم جيراننا بصورة أفضل ، فتزيد بالتالي فرص التفاهم معهم ، ويخفّ التوتر الناتج عن سوء الفهم « عبر الثقافي » ؟

تساؤلات نطرحها وفي الذهن حرب الخليج الرهيبة ، والصراعات الكامنة بين عدد من دول العالم الاسلامي . إذا كان تعلم اللغات يقرّب الشعوب فلماذا لا نطبّق هذا المبدأ على علاقتنا بالشعوب المجاورة ؟

لكن كيف تبدو الأمور على صعيد واقع تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي ؟ على صعيد الواقع يكاد هذا التعليم أن ينحصر في لغتين أوروبيتين ، هما الانكليزية والفرنسية ، أي لغتي القوتين الاستعماريتين السابقتين ، الأمر الذي يعني استمرارية المرحلة الاستعمارية على هذا الصعيد . أما لغات الأقطار الصناعية المتطورة الأخرى كالألمانية والروسية والاسبانية فلا تُدرّس إلا على نطاق ضيّق جداً في بعض الأقطار العربية . وبالنسبة للغات الشعوب الاسلامية وشعوب العالم الثالث فليس لها حتى اليوم مكان في تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي ولو على نطاق ضيق ، لذا فإننا لا نذهب بعيداً إذا قلنا انّ هذا التعليم يمثل إلى حدّ بعيد استمراراً للحقبة الاستعمارية التي عاشتها معظم الأقطار العربية ، ومرآة للتبعية التي تعيشها المنطقة العربية إلى هذا الحد أو ذاك .

بعض النتائج

لقد أصبحت النتائج المترتبة على هذا الطرح الأولي المؤقت لمشكلة تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي واضحة ، وتتلخص في ضرورة إلغاء الثنائية الموروثة من المرحلة الاستعمارية ، وإحلال تعددية لغوية محلها ، بحيث ينسجم تعليم اللغات الأجنبية مع الحاجات الاجتماعية والحضارية ، ومع الواقع التاريخي للمنطقة العربية ، باعتبارها جزءاً من العالم الاسلامي والعالم الثالث ، وباعتبارها مؤلفة من عدد من الأقطار النامية التي ينبغي عليها أن تسعى لفكّ قيود التخلف والتبعية . أما إلغاء الثنائية وإحلال التعددية اللغوية فيعني بالتحديد :

١ـ إدخال لغات أوروبية مهمة أخرى كالروسية والألمانية والاسبانية ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الأخيرة ليست لغة اسبانيا فقط ، بل هي لغة قسم كبير من شعوب أمريكا الجنوبية أيضاً .

٢ ـ ادخال لغات بعض الشعوب الاسلامية المجاورة كالفارسية والتركية والأوردية والسواحيلية ، إضافة الى لغات بعض شعوب العالم الثالث كالصينية والفيتنامية والهندية والكورية .

ومن الطبيعي ألاّ يتم إدخال اللغات الآنفة الذكر بالصورة نفسها ، فهناك بعض اللغات التي يجب أن تدرس على نطاق واسع ، أي على مستوى المدارس الاعدادية والثانوية ، كلغات أجنبية رئيسية ، بينما يكفي في حالات أخرى أن تُدرس على نطاق واسع ، أي على مستوى المدارس الاعدادية والثانوية ، كلغات أجنبية رئيسية ، بينما يكفي في حالات أخرى أن تُدرس تلك اللغات في أقسام خاصة بها في الجامعات ، أما أن تغيب هذه اللغات غياباً تاماً ، وألا يوجد عندنا ولو عدد محدود من المتخصصين فيها ، فهو أمر غير مقبول .

وبعد ، فإذا عرفنا لماذا نتعلم اللغات الأجنبية ونعلّمها ، وأية لغات نتعلم ونعلّم ، نكون قد حسمنا الجانب الثقافي السياسي لهذه المسألة ، بعدئذ تطرح مسألة كيف نعلّم ونتعلم اللغات الأجنبية □

المؤشرات الاجتماعية

من ضرورات العصر

بقلم : الدكتور محمد الجوهري

رغم كثرة ما كتب عن « المؤشرات الاجتماعية » في الخارج أساسا ، ورغم أن ميدان « المؤشرات الاجتماعية » يتصل أوثق اتصال بحياة المواطن العادي ومستقبله ، كما يتصل بعمل المخطط وصانع القرار السياسي ، إلا أن مستوى دراية المثقف العادي به مازالت متواضعة .

لإلقاء المزيد من الضوء على هذا الموضوع الهام يقدم لك الكاتب هذا المقال .

المؤشرات الاجتماعية في تعريف بسيط مبدئي : عبارة عن بيانات كمية أو كيفية عن جانب أو أكثر من جوانب الحياة الاجتماعية ، يمكنها أن تدل أو « تؤشر » - بسبب طبيعتها - على واقع هذا المجتمع . كأن نختار متوسط العمر في مجتمع ما ، أو متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي ، أو متوسط الكمية التي يستهلكها الفرد من الطاقة سنويا في مجتمع ، أو نصيب الفرد من غرف المسكن . . . الخ .

وهي بذلك ليست كلها « اجتماعية » كما نرى . فبعضها صحي ، وبعضها اقتصادي ، وبعضها ثقافي ، وبعضها اجتماعي خالص . ولكن المقصود بصفة « الاجتماعية » أنها تدل على طبيعة الواقع الاجتماعي أو على نوعية الحياة أو مستوى الحياة الاجتماعية في المجتمع الذي نتحدث عنه . وهذا تحفظ مبدئي لئلا يفهم البعض أن المؤشرات التي نقصدها هي نفسها من طبيعة اجتماعية .

المؤشرات الاجتماعية والسياسة

واللافت للنظر أن الدفعة القوية التي تلقتها حركة المؤشرات الاجتماعية ، أو دراسة المجتمع باستخدام المؤشرات ، قد جاءتها ومازالت تأتيها من المجال

السياسي . فهذا الاهتمام بفهم المسرح الاجتماعي . والرغبة في ملاحظة التغير الاجتماعي ورصده ، واستخدام هذه المعرفة في رسم السياسة الاجتماعية . كل ذلك اهتمام مبعثه سياسي ، وهو في النهاية يخدم صانع القرار السياسي في مجال التخطيط الاجتماعي . وهذا يفسر لنا جانبا من هذا النمو المتزايد في الاهتمام العلمي بالمؤشرات الاجتماعية .

والوجه الآخر لهذا الارتباط السياسي هو اتصال استخدام المؤشرات الاجتماعية بمفهوم جديد اسمه « نوعية الحياة » وهو مفهوم تكتنفه القيم ، وان كان لا ينقصه العلم ، ولكنه مشحون بالطبع بدلالات ومعان سياسية ، بحيث أصبح تحسين نوعية الحياة جزءا من برامج الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية والاتجاهات الفكرية . ومعرفة نوعية الحياة القائمة ، وبالتالي تحديد التحسينات والتطوير المنشود في نوعية الحياة ، وكذلك رصد ما يطرأ من تغيرات على نوعية الحياة ، كل ذلك يتم من خلال المؤشرات الاجتماعية واستنادا اليها .

ويجب أن نوجه النظر عند هذه النقطة الى ملاحظة لا تغيب على فطنة القارىء . فمفهوم نوعية الحياة هذا لم يظهر إلا في المجتمعات المتقدمة ، مجتمعات الرفاهية واليسر التي أخذت توجه الاهتمام ـ بعد توفر الضروريات وحدوث الاغراق حتى بالكماليات ـ الى العناية بنوعية الحياة ، وليس بكم الأشياء المتوفرة في هذه الحياة أو التي توفرها هذه الحياة . لم تعد المشكلة توفير الرغيف . فقد توفر وفاض ، ولكن أصبحت القضية أي نوع من الخبز هو المفيد للهضم ولبناء الأنسجة والحفاظ على الشباب وأقل مساهمة في زيادة الوزن . انها باختصار قضية الاهتمام « بالكيف » أو « بالنوع » بعد توفر « الكم » .

ولا يصح أن يغيب عن الأذهان أن استخدام المؤشرات الاجتماعية كان محلا للانتقادات أو على ـ أحسن الفروض ـ موضوعا للمآخذ والتحفظات التي كانت تقدح في كفاءتها كأداة لوصف الواقع الاجتماعي ، والتعبير عنه تعبيرا دقيقا ودالا . ومن الطبيعي أن تتزايد هذه الانتقادات مع التوسع في استخدام المؤشرات الاجتماعية . ولكن الرد على ذلك عندي بسيط غاية البساطة : هل ضعفت حركة المؤشرات الاجتماعية أمام هذه الانتقادات وتوارت وانزوت ، أم أنها متصلة الجهود ، مستمرة العطاء ؟ الاجابة واضحة وكررنا التأكيد عليها . ان استخدام المؤشرات الاجتماعية في نمو مستمر . اذن معنى هذا أن النقد قد شحذها وزاد من قدرتها ورفع كفاءتها ، لأنه وجه أصحابها الى نقاط ضعفها ، ونبه الى العيوب التي ينطوي عليها استخدامها ، وما قد توقع فيه صاحبها من تضليل ، والنتيجة الطبيعية ـ اذا كان النقد صادرا من عاقل الى عاقل ـ أن يؤدي هذا النقد في نهاية الأمر الى زيادة تدقيق الأداة ، واضفاء مزيد من الإحكام عليها ، بحيث تصبح أغنى في المميزات ، وأقل في العيوب . وهذا هو ما حدث تقريبا .

استخدام المؤشرات الاجتماعية .. كيف ؟

ومن أمارات الصحة في حركة المؤشرات الاجتماعية أن بدأت إبان ازدهارها المعاصر تطرح في عمق بعض الجوانب والمشكلات النظرية العلمية المتصلة باستخدامها . فعملية اختيار المؤشر ليست قضية « عملية » يسيرة متاحة للجميع ، ولكنها يجب أن تستند الى اطار نظري يتم في نطاقه هذا الاستخدام ، وتستمد منه هذه المؤشرات دلالتها . بمعنى : أي جوانب الحياة هو الأكثر أهمية . لكي اختار مؤشرا يقيسه ويعبر عن ظروفه ؟ هذه قضية نظرية : متوسط الدخل أم كمية الطاقة ، أم عدد أسرة المستشفيات ، أم كمية الأمتار المسطحة المزروعة حدائق في المدن لكل عدد من الأفراد ، أم عدد أجهزة المذياع ، أم عدد أجهزة الفيديو ، أم عدد مقاعد المسرح أم السينما ... الخ ؟ كل تلك تساؤلات لا يصح أن تخضع للاختيار العفوي ، ولا المزاج الشخصي ، ولكن للرؤية النظرية للمجتمع .

هذا ما قصدت اليه من القول بأن التوسع في استخدام المؤشرات دفع أصحابها الى الاشتغال بقضايا الإطار النظري لأعمالهم .

ثم ان التوسع في عملية القياس ينطوي بالضرورة على تطوير للقواعد والاجراءات المنهجية المتبعة في علم الاجتماع ، أو في غيره من العلوم التي تدرس المجتمع والتي يستعين بها المشتغل بالمؤشرات الاجتماعية . فالتدقيق المنهجي ضرورة لتطور ونمو العمل في ميدان المؤشرات الاجتماعية وهذا بعض ما حدث فعلا . ولذلك لا نغالي اذا قلنا ان تطور هذه الحركة العلمية قد ترددت أصداؤه على الصعيدين النظري والمنهجي لعلم الاجتماع . ولم تكن تلك الأعمال العلمية الجديدة هدفا في ذاتها ، أو ترفا ، أو إضافة الى التأملات والأفكار والتصورات المتاحة ، ولكنها كانت اهتمامات ذات طبيعة عملية تطبيقية ، وهذه ايجابية هامة . فالجهد النظري العادي ينفقه صاحبه ولا يتوقف عنده كثيرا ، يتتبع مدى جدواه ويقيس درجة كفاءته في فهم الواقع الذي ينظر له . أما الإسهام النظري لأصحاب هذه الحركة الجديدة فهو يحمل في طياته « مؤشرات » الحكم على كفاءته وجدواه ، ويفصح عن القيمة التي ينطوي عليها . وأعتقد أننا نتفق جميعا على أهمية هذا البعد .

ليس هذا فحسب . لقد عملت حركة المؤشرات الاجتماعية على تحقيق اسهام علمي فريد ، اذ أعطت دفعة قوية للبحث العلمي المتعدد التخصصات ، أو لتكوين الفرق العلمية ذات التخصصات المختلفة المتساندة في نفس الوقت . فالمؤشرات بحكم طبيعتها تنتمي الى فروع علمية متباينة ولا يستطيع باحث واحد أن يدعي التخصص فيها والتعامل معها بمفرده . كما أنه ان لم يحتج الى زملائه عند اختيار المؤشر وتصميمه ، فانه بالتأكيد سوف يحتاج اليه عند تحليل الدلالات واستنطاق المؤشرات . وقد أثمر ذلك التعاون ، من بين ما أثمر القاء ضوء جديد على مشكلات قديمة مما تداوله العلماء الاجتماعيون ، واختلفت حوله اجتهاداتهم . كما قاد ذلك الى بعض النتائج غير المتوقعة ، من حيث اثارة الشكوك في بعض الأفكار التي كانت تبدو مستقرة وراسخة من قبل ، مثل أفكار مجتمع الرفاهية ، ومدلول الرفاهية ، وهل نحن نبحث عن الرفاهية ، أم عن نوعية أفضل للحياة ، قد لا تكون هي الأكثر رفاهية . هل مائدة الطعام الأكثر رفاهية هي الأكثر صحة ؟ وهل قطعة الزي الأغلى هي الأكثر ملاءمة ، وهل .. وهل .. كل تلك تساؤلات ارتبطت في حقيقة الأمر ومازال بمفهوم نوعية الحياة من ناحية ، وباستخدام المؤشرات الاجتماعية من ناحية أخرى .

إنجاز ضخم وشهرة متواضعة

على أنه من العجيب برغم كثرة ما كتب عن المؤشرات الاجتماعية ، في الخارج أساسا ، وعلى ضخامة الانجاز العلمي الذي تحقق في هذا الميدان ، إلا أن مستوى دراية المثقف العادي بها مازال متواضعاً أشد التواضع ، بحيث لا تستطيع أن نفترض في القارىء المثقف اطلاعا على بعض منجزات هذه الحركة الجديدة . وقد يجوز أن يحدث ذلك في ميدان آخر من ميادين العلم لا صلة له بالحياة اليومية للمواطن العادي ، ولا صلة له بالقرار السياسي اليومي ، ولكن ميدان المؤشرات الاجتماعية ميدان يتصل أوثق الاتصال بحياة المواطن العادي ، ومستقبله ومستقبل أولاده ، كما يتصل اتصالا هاما بعمل المشتغل بالتخطيط وصانع القرار السياسي . ولعل اسهامنا المتواضع هذا يساهم في اثارة بعض الاهتمام بهذا الميدان ، لأننا لا يصح أن نترك أنفسنا وحياتنا هكذا نهبا للظروف والمتغيرات الطارئة ، وانما يجب أن نحرص على رصد ما يجري ، وفهم هذا الواقع الماثل أمامنا ، والمشاركة في توجيه مسار الحركة الاجتماعية المستقبلة . فالنشر والتعريف بهذا الميدان البحثي الهام واجب على الدارس المتخصص لا ينبغي أن يقصر فيه .

والحقيقة أن الفهم الشائع لمدلول المؤشرات أو استخداماتها يكاد ينحصر في ناحيتين: الأولى في استخدامها كنوع من الآمال التي لا تخلو من المبالغات

أو الاغراق في التفاؤل ، الى حد أن يتصورها البعض بديلا عن السياسة ، أعني هنا سياسة التخطيط أو سياسة التنمية نفسها . بحيث يصبح « تحسين » المؤشر هو الهدف وهو البديل عن أي سياسة أو رؤية .

كيف ذلك ؟ نحن نقول الآن مثلا ، ان المتوسط السنوي لاستهلاك الفرد في بلد ما من الطاقة الكهربائية كان منذ ثلاثين عاما ١٠٠ كيلووات ساعة ، وأنه الآن يبلغ ٢٠٠ كيلووات ساعة . فهذا في نفسه دليل تحسن ونمو وتقدم . ونحن نستهدف أن نرفع هذا المتوسط في عام ٢٠٠٠ الى ٣٥٠ كيلووات . والمسئول الذي يطرح هذا يريد أن يثبت كفاءته في ادارة هذا المرفق ، ويدعو الى استمراره في العمل بنفس الأسلوب لمدة عشرين عاما أخرى . وهو لا يتساءل ، كما لا يتيح لنا الفرصة كي نتساءل ، ما هي تكلفة هذه الطاقة ؟ ما هي الآثار السلبية للأساليب المتبعة في انتاج هذه الطاقة (كتلوث البيئة مثلا) ، هل استخدمنا في انتاج هذه الطاقة الأسلوب الأرخص والأنظف ؟ ما هو توزيع هذا الاستهلاك بين المدينة والريف ؟ ما هي الأبعاد الطبقية لاستهلاك هذه الطاقة .؟ ما هي معدلات الاستهلاك المنزلي ، والصناعي ، والصناعي الزراعي منها .. الخ . كل تلك تساؤلات في صميم سياسة انتاج الكهرباء ، واستهلاكها وتوزيعها والتخطيط لها ، انها سياسة الكهرباء ، ولا يصح أن تختزل هذه السياسة الى أرقام أو الى مؤشر واحد قد يكون أصم أو قاصرا . وهذا ما قصدت اليه عند القول بأن استخدام المؤشرات قد يحل أحيانا ـ عند التفاؤل ومع المبالغة ـ محل السياسة .

أما المشكلة الأخرى فهي الصورة الشائعة عن المؤشرات في استخدامها عند تقييم مشروع اجتماعي . ففي هذا الاستخدام تتعرض المؤشرات لانتقادات عديدة بسبب الاختيار المغرض لأنواع المؤشرات التي تخدم غرض مستخدمها . فاذا كان الذي يتعرض لتقييم المشروع مدافعا عنه ساعيا الى اثبات نجاحه اختار من المؤشرات ما يخدم غرضه ، والعكس بالعكس .

والحقيقة أن من يثيرون هذه المشكلات يتجاهلون أن المؤشرات الاجتماعية يمكن أن تساهم في توجيه الفعل الاجتماعي الموجه على مستويات مختلفة ، كما أنها تستطيع المساعدة في التحكم في نتائج أي فعل المرغوب فيه وغير المرغوب . كما يفيدنا جميعا أن نعرف أنها لا تستطيع سواء في السياسة أو الاقتصاد أو في أي مجال تستخدم فيه أن تولد الموافقة وتفرض الاقناع أوتوماتيكيا ، كما أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحل محل القرار وتقوم مقامه . اننا يجب أن ندرك بوضوح أن المؤشرات الاجتماعية ليست أكثر من أداة في يد صانع القرار ، وهي وان كانت أداة فعالة ودقيقة ومفيدة ، إلا أنها ليست في النهاية أكثر من أداة .

والقرار ضروري أولا عند اختيار المؤشر : موضوعه ، ومجاله ونطاق تطبيقه ، ووقت هذا التطبيق .. الخ كل تلك قرارات هامة ولازمة قبل تحديد المؤشر . ثم يكون القرار ضروريا بعد ذلك أيضا (بعد قراءة المؤشر والوقوف على نتائج البحث) .

وأعتقد أننا نتفق على وجود نقص معيب في المعرفة العلمية الدقيقة بالمؤشرات الاجتماعية لدى جمهور المشتغلين بعلم الاجتماع ، وليس فقط بين عامة المثقفين قراء العربية . وهذا الوضع لا يتسق مع ما قررناه من أهمية المؤشرات وجسامة الدور الذي يمكن أن تلعبه في حياتنا المعاصرة . والمأمول أن نعمل جميعا على المشاركة في معالجة هذا النقص وسد تلك الثغرة ونشر صورة دقيقة لطبيعة المؤشرات الاجتماعية واستخدامها . □

■قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده :
«ليكن أول إصلاحك لنفسك ، فإن عيون الطلاب معقودة بك» .

اقرأ في العدد القادم من :

رمضان كريم

العربي

أبريل ١٩٨٨

- أبناؤنا.. في رمضان د. عبدالعزيز كامل
- بقايا صور رمضانية.. لك الله يا دمشق.. د. شاكر مصطفى
- رمضان في الأدب العربي محمود الشرقاوي
- صورة العربي في السينما الأميركية د. جاك شاهين
- نزعات الانتحار عند المبدعين ! د. محمد جابر الأنصاري
- الموصلات المثالية تخرج من الصقيع ! د. سعود عياش
- التهاب القصيبات المزمن إنذار للمدخنين د. صباح السامرائي
- الأيدز.. وافريقيا.. والعنصرية د. علي الدين هلال
- وجهاً لوجه : د. حسين نصار و د. أحمد المرسي
- كتاب الشهر: الإرهاب لجيرار شاليان
  عرض: جمال وردة

استطلاعات :

- **سيول..** عروس الأولمبياد.. سليمان مظهر
- **ماربيا..** لؤلؤة الشاطئ الأندلسي.. بسام الكزبري

واقرأ أيضاً للكتاب :

د. محمد الرميحي - عبدالحميد بن هدوقة - فهمي هويدي - د. نادر عبدالغفار
د. علي القريشي - د. عزت قرني - د. دري حسن عزت - إبراهيم نصرالله

قراءة نقدية لكتاب

"البئر الأولى"

فصول من سيرة ذاتية

تأليف : جبرا ابراهيم جبرا

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

البئر في الحياة هي تلك البئر التي لم يكن العيش دونها ممكنا ، فيها تتجمع التجارب ، كما تتجمع المياه ، وحياتنا ما هي إلا سلسلة من الآبار ، نحفر واحدة جديدة في كل مرحلة ، لنعود إليها كلما ضرب الجفاف أرضنا ، فماذا قدم لنا الروائي العربي « جبرا ابراهيم جبرا » في بئره الأولى عن طفولته ؟ وكيف ؟

لماذا لم يزدهر فن كتابة السيرة الذاتية في أدبنا العربي الحديث مثلما ازدهر فن الرواية ، مع أن السيرة الذاتية من أقرب الأشكال الأدبية إلى الرواية ؟

لعل جوهر المشكلة هو أن مناخ الحرية والممارسة الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية لا يسمحان لكتابنا بأن يطوروا هذا الشكل الأدبي إلى المستويات التي وصل إليها غيرنا في الآداب العالمية ، حيث يستمد هذا الشكل قيمته وأهميته من تقديمه لمستويات عالية من الصدق فيما يتصل بحياة الكاتب الخاصة والعامة وخبراته الشخصية في مختلف المجالات ، مهما اصطدم هذا الصدق بما هو سائد في المجتمع ، من قيم أو نظم أو تيارات ، ولسنا هنا بصدد تحديد المسئولية في عدم نضج الممارسة الديمقراطية ، وتمثل الأفراد لفكرة الحرية ، فالكتاب مسئولون بالتأكيد عن تأخر هذا النضج أكثر من غيرهم ، ومسئولون بالتالي عن انزواء هذا الشكل الأدبي الذي يقوم أساسا على القدرة على مواجهة النفس ، ومواجهة الآخرين ، وسبر أعماق الذات وأحوالها في الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه ، وتعاني منه أو من

أجله .

ويوازي خوف بعض الكتاب فيما لو كتبوا بصدق عن حياتهم وتجاربهم ـ في مثل مجتمعاتنا ـ من المساس بأشخاص أو أوضاع تتصل بهم ، خوف مثل هذه المجتمعات التي اعتادت الازدواجية في حياتها ، من أن تمس هذه الكتابات استقرارها ، وسلامها الظاهري ، وربما لهذه الأسباب يؤثر عدد من الكتاب أن يقدموا جوانب من حياتهم ومن تجاربهم الشخصية من خلال أعمالهم الروائية ، حيث يتاح لهم أن يمارسوا الصدق الذي يتطلعون إليه دون حرج أو خشية ، لأن ما يتحدثون عنه لا ينسب إليهم أو إلى من يحرصون عليه من أشخاص أو أوضاع بشكل مباشر ، مثلما فعل « فتحي غانم » في عدد من رواياته !

ومع ذلك فإن السير الذاتية الموجودة في حياتنا الأدبية ما تزال تعكس بشكل أو بآخر جوانب من هذه الأزمة ، وتتفاوت تفاوتا واضحا في درجة ما تقدمه من الصدق والمواجهة وقيمة ذلك ، وبخاصة ما يتصل بمسائل في الدين والجنس والسياسة .

تقاليد فنية للسيرة الذاتية

نتيجة لما تقدم يلوح أن هناك نوعا من القصور في إرساء تقاليد فنية لهذا الشكل في أدبنا ، للتفريق بين السيرة الذاتية التي يكتبها الكاتب عن حياته ، والتي يكتبها كاتب عن غيره من الكتاب ، أو المذكرات التي قد يكتبها الساسة أو العلماء أو الفنانون عن حياتهم وتجاربهم ، ومع أن فن السيرة الذاتية يستخدم الكثير من تقنيات الرواية إلا أنه يحتاج بالضرورة إلى بلورة قواعده الخاصة في أدبنا ، فهو فن يختلف من وجوه كثيرة عن الرواية ، فالسيرة الذاتية تدور حول شخصية محورية واحدة ، تتعدد من حولها الشخصيات التي قد تظهر مرة أو مرات ثم تختفي تماما ، وللزمان والمكان في السيرة الذاتية قيمة وثائقية ، لا يملك كاتب السيرة الذاتية حيالها الحرية التي يمتلكها الروائي ، ومن هنا تبرز إشكالية تحقيق درجة من الوحدة والانسجام اللذين لا بد منهما لأي عمل فني . وكاتب السيرة الذاتية يملك حق الانتقاء فيما يتصل بأحداث حياته أو حياة مجتمعه ، في إطار رؤيته لتلك الحياة ، لكنه لا يملك حق إغفال ما هو جوهري أو ثابت ، كما لا يملك حق تغييره ، فيما يختار !

الطفل هو والد الرجل

آثر كاتبنا جبرا ابراهيم جبرا لأسباب ذكرها في مقدمة سيرته الذاتية أن يقتصر في « البئر الأولى » على أحداث طفولته حتى سن الثالثة عشرة من عمره ، واختار الأحداث « التي تفرض نفسها على الذاكرة ، وتنضح في دمه برقة لا يملك تفسيرها » . وإذا كان كتاب السيرة الذاتية ـ كما أشار الكاتب في مقدمته ـ يميلون إلى تجنب فترة الطفولة بسبب صعوبتها الخاصة ، فإنه آثر الاهتمام بهذه المرحلة ، مستذكرا قول الشاعر « وردز ورث » أن « الطفل هو والد الرجل » ، لكن عن رغبة في التأكيد على روعة تلك الفترة من حياة الانسان في حد ذاتها ، وربما لقربها من أصل الكينونة !

و « إذا كان كتاب السيرة الذين يهتمون بهذه المرحلة قد جرت عادتهم أن ينظروا إليها بعين النضج ، فهم يحاولون استيضاح ما جرى لهم في الماضي ، ويستبقون النقاد بشأن تجربتهم بأن يعلقوا هم عليها ، وينقدوها » ، فإن كاتبنا يقول عن منهجه في العودة إلى تلك المرحلة : « لقد حاولت أن أعود ، فأحيا تلك الفترة من جديد طفوليا ، دون تحرق للتحليل ، ودون أن أفلسف ما جرى ، أو أعقب عليه بالضرورة »

وعن بعض المشكلات التي واجهها الكاتب يقول : « إن الطفولة ليست قصة واحدة ، بل هي قصص متباينة ، يصعب في معظم الأحيان وصل أجزائها إلا بشيء من الحيلة الروائية » مضطرا بطبيعة الحال إلى الانتقاء والحذف ، مدركا مشكلة الكاتب الأبدية ، وهي كيفية توفيقه بين سيولة التجربة ، و « شكلانية » الكلمة

وإذا كان كاتبنا الكبير قد أخفى الكثير من أسرار فنه في عملية الاختيار هذه ، وإعادة التشكيل والتركيب ، وإذا كان قد آثر الاختفاء وراء هذه

الذات الطفولية ، فإن علينا أن نكتشف من خلال هذه العملية مغزى هذا الاختيار وهذا التشكيل ودلالاته ، وكيفية توفيق الكاتب بين سيولة التجربة و « شكلانية » الكلمة ، وكيفية تحقيقه درجة ملائمة بين الوحدة والانسجام بين قصص الطفولة المتباينة ، وإلى أي مدى أسهم ـ وهو الخبير بفن الرواية ـ في بلورة تقاليد فن السيرة الذاتية .

محاور أساسية

كيف تابع الكاتب « ذاته الطفولية » وهي تنمو مع الأيام وعيا ومعرفة وعاطفة ؟

إذا ألقينا نظرة شاملة على جملة الأحداث التي اختارها الكاتب من مرحلة طفولته نجد أنها تغطي نمو هذه الذات في عدة محاور أساسية :

المحور الأول : نموها باتجاه اكتشاف التناقض بين نزوعه القوي ـ كطفل ـ نحو الحرية والتلقائية واللعب والمشاركة ، وبين حدود الضرورة التي يفرضها المجتمع أو الطبيعة .

المحور الثاني : نموها باتجاه اكتشاف ما في الطبيعة من جمال وتناغم وثراء ، يخاطب أشياء في ذاته ، تسعدها وتغنيها ، وما فيها أحيانا من قسوة ، وعدم مبالاة ، وعنف وغموض ، تقابل أشياء في ذاته أو ذوات الآخرين ، تصل أحيانا إلى ذروتها في فعل الجريمة .

المحور الثالث : نموها باتجاه اكتشاف تعقد العلاقة بالآخر ، فثمة حاجة ملحة إلى الاقتراب منه ، وثمة حاجة إلى وجود مسافة بيننا وبينه ، فالآخر ليس نمطا واحدا ، فقد يكون أقرب إلى القسوة والشر كبطرس الكندرجي ، وقد يكون أقرب إلى المرح والطيبة كالعم حنا ذيبان المغني الأعمى .. الخ .

المحور الرابع : نموها باكتشاف التعليم شرطا لتوسيع حدود الحرية والتلقائية والتفرد ، وتضييق حدود الضرورة .

المحور الخامس : نموها باتجاه اكتشاف ملامحها الخاصة أو المنابع الأولى لهذه الملامح ، مثل اهتمامه بالأدب والرسم والموسيقا ، والاعتزاز بقيمتي الحرية والتفرد دون رغبة في التنافس أو السباق .

وفي بذور هذا الاختيار تكمن جذور الوحدة والانسجام في أحداث هذه السيرة ، وتتحقق الوحدة في عمق هذا العمل عبر ايقاعات حركة فكرية ، تتمثل في هذه المحاور التي ينتظم كل محور منها مجموعة من تجارب الطفولة ، تدور كلها حول محور خبرة واحدة ، يقدمها الكاتب في مستويات متعددة ، في أزمنة مختلفة ، ومواقع مختلفة ، لكنها كلها تسجل نمو خبرة واحدة واتساع مداها .

وتتحقق هذه الوحدة كذلك خارجيا في إيقاعات حركة مكانية عبر الزمان ، فمن بيت إلى بيت في بلدة بيت لحم مهد المسيح في فلسطين . في العقد الثالث من هذا القرن كانت أسرة الصبي جبرا تنتقل سعيا وراء بيت أقل أجرة ، ونتيجة لهذا الانتقال كان الصبي ينتقل بدوره من مدرسة إلى مدرسة ، بدءا من المدارس الصغيرة التابعة لبعض الكنائس التي تعنى بأطفال بعض الطوائف المسيحية ، إلى المدرسة الوطنية التي تضم أبناء بيت لحم والقرى المجاورة لها ، على الرغم من تعدد طوائفهم أو أديانهم ، ومع هذا التنقل كان عمر الطفل يزداد وتنمو معرفته وخبرته بنفسه وبناس آخرين في مواقع أخرى يفصح الطفل عن نمو وعيه ، كما تفصح بلدة بيت لحم من خلال هذا الوعي عن شوارعها وبيوتها وطبيعتها وناسها وعاداتها ، وحين يتم انتقال الأسرة من بلدة بيت لحم إلى مدينة القدس يكون الصبي قد قارب الثالثة عشرة من عمره ، ونكون قد تعرفنا عليه وعلى بلدته من خلال أثر إيقاع هذه الحركة في المكان والزمان في وقت واحد . وقبل أن نتحدث عن الايقاعات الفنية داخل فصول السيرة وبنيتها ، وهي تعطي اللمسات الأخيرة في بناء وحدة هذا العمل ، نعود لنقدم نموذجا لأحداث المحور الأول ، وكيف تعامل معها الكاتب .

الطعام ليس لعبة

ليس مصادفة أن تكون أول خبرة يسجلها الكاتب في سيرته وهو في الخامسة من عمره تدور حول اليوم الذي طبخت فيه الأم للأسرة وللأب الكادح الذي

يعمل طول النهار ـ عامل بناء ـ طبخة شعبية ، بسيطة مصنوعة من اللبن ، اسمها « هيطلية » ، إن احتفاء الأسرة البالغ بهذه الطبخة يتحدث كثيرا عن حالة الفقر التي تعيش فيها الأسرة ، ربما أكثر مما يتحدث عنها وصف البيت ذي الحجرة الواحدة التي تسمى خانا ، مما يشي بأصلها كدكان للبيع ، حجرة بلا نوافذ لكنها دائما ـ وفي كل مرة يتنقلون فيها ـ يكون حولها « حاكورة » فيها بعض الأشجار ، ومكان لتربية الدواجن وبعض الماعز ، وبئر للماء ، فوجود البئر ضرورة حياة في بلدة تعيش أساسا على مياه الأمطار .

ويتحدث الطفل إلى أصحابه في الشارع عن الطبخة التي عندهم ، فلا يصدقونه ، ولا يجد طريقة لاثبات صدقه ، سوى دعوة الأولاد لرؤية الطبخة التي أوصته أمه بألا يقترب منها حتى تعود من السوق ، وحتى تبرد ، ويذهب معه الأولاد بعد أن اطمأنوا لعدم وجود أمه ، فيأتون على كل ما طبخته الأم في لحظات ، ويفاجأ الأولاد بعودة الأم التي تكاد ترى ما فعلوه بطعام الأسرة فتطلق صرخة تدفع بهم جميعا ـ ومعهم ابنها ـ إلى الفرار للشارع فزعا وخوفا . وأثناء تجواله في الشارع يرى مجموعة من الجمال تشرب معا من إحدى الآبار بجوار صاحبها ، فيقف ويتفرج عليها دون تعليق من الكاتب (لاحظ المفارقة) . ومع أن الكاتب يسوق هذه الخبرة بأسلوب هادىء محايد يخلو من أي انفعال أو مبالغة أو تعليق ، فإن هذه الخبرة تكشف للطفل على نحو قاس أن الطعام الذي تملكه الأسرة هو فقط للأسرة ، وأنه ليس شيئا مما يشترك فيه الأولاد الذين يحبون أن يشتركوا في كل شيء وكأنه لعبة . فالطعام ليس لعبة .

وإذا كان اللعب هو وسيلة الأطفال لتوسيع حدود عالمهم ، فقد كانت هذه الخبرة أول اكتشاف لحدود الضرورة ، أو عوائق التلقائية والحرية ، وتتكرر مثل هذه الخبرة عبر أحداث أخرى ، وبمستويات تنمو بنمو وعيه ، ففي أول مدرسة ـ لأن خبرة التعليم فيها لم تكن تقدم من خلال اللعب ـ يحول الطفل أدوات التعليم إلى لعبة ، فيصنع « الطقاعات » من أوراق الكراس الوحيد الذي داخ بالأمس من أجل الحصول على ثمنه ، ويستل الصور الجميلة الموجودة في كتاب « الانجليزي » الذي يمتلكه أخوه يوسف ، ليحولها إلى صور في « صندوق الدنيا » ، أول لعبة يصنعها بيده ، ثم يحطم الأولاد اللعبة التي صنعها من أجلهم ، ويتركونه باكيا ، وحين يأتي أخوه الذي يتوقع منه العقاب ، ويبصر دموعه ، يواسيه ويقول له مثيرا حيرته وكبرياءه في وقت واحد : « لا تترك أحدا يراك باكيا » ! فيضع حاجزا جديدا بينه وبين الأولاد ، بعد أن وضعوا أول حاجز بتدميرهم لعبته .

في مرحلة تالية يتجح « الأب دوماجي » الذي يشرف على ملعب « دير أبونا انطون » في أن يقدم لأطفال « بيت لحم » التعليم الديني والمهني واللعب والسينما (في أول عهد للمنطقة بها) على مائدة واحدة ، ويزاوج بذكاء بين التلقائية والضرورة ، ويمنح جوائز لأكثر الأولاد مواظبة على الحضور للدروس الدينية وللملعب ، ويحصل صبينا على جائزة ، عبارة عن ـ بوتين ـ زوج فاخر من الأحذية ، وتفوق فرحة الصبي وأسرته بهذه الجائزة أي فرحة عرفها في حياته ، وتحفظ أمه الهدية في مكان أمين ليلبسها الصبي في عيد الميلاد ، لكن حين يقترب العيد تقوم الأسرة التي لا تمتلك نقودا لشراء اللحم اللازم لمثل هذا اليوم بعد صيام قاس دام خمسة وعشرين يوما ـ ببيع « البوتين » الفاخر مضطرة ، لكي تشتري لحما للأسرة ، وتعوض الصبي بزوج قديم من الأحذية من أحد محلات اليهود المغاربة في مدينة القدس .

إن خبرة اكتشاف الوجوه المتعددة للضرورة تواصل نموها من مصادر مختلفة من المدرسة والبيت والكنيسة والشارع والطبيعة ، إنها ـ كما أشرنا ـ تأتي من الأطفال أنفسهم ، من اللعب نفسه ، من الحرية عينها ، فالأولاد الذين يلعب معهم لعبة الغالب والمغلوب يسببون له جرحا بليغا في وجهه ما يزال يحمل آثاره حتى اليوم وذلك حين أصر بسبب عناده

أن يكون الغالب دائما خلافا لقواعد اللعبة !

هكذا يحقق الكاتب التلاؤم بين سيولة التجربة و « شكلانية » الكلمة ، وينتظم في خيط واحد الأحداث التي تنمي خبرة واحدة بمستويات مختلفة ، محققا درجة من الوحدة والانسجام بين قصص الطفولة المختلفة .

وبالمنهج نفسه ينسج الكاتب الأحداث التي تدور حول بقية المحاور في علاقة الصبي بالطبيعة ، وعلاقته بغيره ، واكتشافه لأهمية التعليم طريقا لتوسيع حدود الحرية وتضييق حدود الضرورة ، ثم اكتشافه ملامح ذاته الخاصة .

منحى الكاتب في رسم الشخصية

في الأغلب يجسد الكاتب الشخصية من خلال سلوكها قولا أو فعلا ، لكنه يلجأ أحيانا إلى تقديم صور فنية منفصلة ، تحمل تعبيرا رمزيا عن الشخصية ، يعمق جانبا من جوانبها ، فقصة الناسك التي تعود الأب أن يرويها لأبنائه تقدم صورة رمزية للأب نفسه وتكاد تكون تعبيرا عن موقفه من الحياة ، موقف الزاهد الراضي المقتنع بأن ولوج الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني في ملكوت الله . وشجرة الزعرور القوية المتفردة عن كل ما حولها من نباتات الوادي وأشجاره صورة أخرى للأب الصامد الصابر الذي يحمي أولاده من عواصف الحياة ، ويمتزج في داخله الرضا بالكبرياء ، والقناعة بالعزة ، والشموخ والتفرد في السلوك بالتواصل مع الناس ، فهو لا يترك العمل في مهنته مع تقدم السن ، ويقبل على أي نوع منه ، ولا ينحني أمام ضربات المرض ، ويتحمل أقسى أنواع العلاج ، كالكي بالنار ، متشبثا بآخر أمل ، حتى لا يترك أولاده لزمن يعرف كم هو قاس لا يرحم .

والأم هي الوجه الآخر للأب ، تكافح في البيت ، وتعطي بغير حدود ، وتعرف كيف تحافظ على القرش والكبرياء معا ، تقدم لمعلم ابنها الدجاج المحشو الذي هو فوق طاقة الأسرة من أجل كرامة ولدها في المدرسة ، لكنها ترفض أن يشترط المعلم هذا النوع من الطعام لحضوره .

وحين تلجأ الأسرة لتربية الخنازير لزيادة دخلها تطلب من ولدها أن يحسب تكاليف علف الخنازير التي توفرها من بقايا أثمان كل شيء ، حتى لا يكونوا مثل جحا الذي يشتري عشرين بيضة بشلن ويبيع خمسة وعشرين بشلن ، ليقول عنه الناس انه تاجر ، وتغرى الدجاجة (القرقة) بأن تنام على ما عندهم من بيض البط ، ليصبح لهم تسع فراخ « توصوص » حول الدجاجة ، وتشعر الدجاجة بأنه قد غرر بها حين تجد فراخها تسبح في حوض الماء الذي تقف وهي خائفة على حافته ، بينما يشعر الابن الذي يشاهد المنظر أن الطبيعة تكشف له عن بعض أسرارها .

حكاية نعوم

نعوم عبيط القرية وصعلوكها ، لا بيت له ، لكن كل البيوت تفتح له أبوابها ، ولا عمل له ، لكنه مستعد للقيام بأي عمل يستنكفه أصحاب المهن . الأخيار يعطفون عليه ، والأشرار لا يعبأون بأن يخففوا عنه شرهم . تتعرف على خواقي البلدة إذ تتعرف عليه ، ليست مشكلته الوحيدة إشباع حاجته من الطعام ، بل هو مثل كل الأطفال في حاجة إلى الأصدقاء ، وتقوده الحاجة إلى الأصدقاء إلى مزابل بيت لحم ، فتتعرف على أحد الوجوه الخلفية للمدينة ، فمزابل البلدات والقرى الفقيرة أشد فقرا ، وعلى الرغم من ذلك فهو يجد فيها ما قد يسد جوعه أحيانا ، وما قد يرشو به الصغار ليصبحوا أصدقاءه له . إن نعوم هو الشخص الزائد عن الحاجة في القرية ، لكن لا يستغني عنه الصغار أو الكبار ، أو المؤلفون ليقدموا من خلاله مالا يمكن تقديمه من خلال غيره . !

إيقاعات فنية داخل الفصول وخلالها

لاستكمال اللمسات الأخيرة في الوحدة الفنية للسيرة يقوم الكاتب بتوفير عدة إيقاعات فنية ، خلال مجموعة تقابلات يلتقطها الفنان الخبير بصناعة الرواية من الأحداث والمواقف والأجواء الطبيعية في السيرة ، فتحقق للسيرة درجة عالية من الوحدة والتناغم والانسجام .

من أمثلة هذه الايقاعات :

في الفصل السادس يقدم الكاتب مقابلة مؤثرة بين الأحزان الانسانية التي تبعثها الطقوس الدينية لأسبوع الآلام الذي يسبق عيد القيامة ، وبين روعة الطبيعة وجمالها المتجدد في الربيع الذي يأتي مقترنا زمنه بزمن هذا العيد !!

وفي الفصل العاشر يعيش صبينا خبرة أول تعرف على جريمة قتل . كان يجلس مع القاتل قبل ساعات من ارتكاب جريمته ، وكان مبهورا بملابسه الغريبة القادم بها من تشيلي ، وبقوته غير العادية التي تمكنه من ثني قطعة نقود بيده . عدا ذلك لم يكن فيه شيء غير عادي . ثم قدر لصبينا أن يبصر في اليوم التالي دم القتيل متناثرا متجمدا على مساحات واسعة ، مما يشي بعنف مقاومة القتيل للقاتل . ويتذكر صبينا أن هذا القتيل كان ضحية للقوة التي أعجبته بالأمس ،

ويتذكر قصة الثأر التي سمع عنها من قبل المرتبطة بشجرة كان يخاف المرور تحتها ، لأنها شهدت جريمة قتل قديمة لم يثأر لها أصحابها . أتكون هذه الجريمة الجديدة تلبية للثأر القديم ؟ ومتى ينتهي مسلسل العنف ؟ ومن أي شخص يحدث العنف في المدة القادمة ؟

في الفصل الحادي عشر مباشرة يقدم الكاتب قصة الناسك ، بما تحمله من صور ساحرة لجمال الطيبة والقناعة والتواضع والرحمة التي تبني الحياة في مواجهة القتل والعنف !

وتتكرر في السيرة مثل هذه الايقاعات التي تقوم على التقابل بين النقائض أو النظائر مثل الأب وشجرة الزعرور ، في تفرد كل منها ، وروعة صموده . وجمال كبريائه ، ووحدته ، وسوسن الأخت الصغرى وقطتها « قُلّة » في حياتها الناعمة القصيرة ، وموتها المفجع ، وصلاة الأولاد بالسريانية التي لا يفهمونها ، وحركة أبي الحراذين والأولاد يقولون له : « صلِّ صلاتك يا حرذون » ، وخبرة العطش القاتل في رحلة التلاميذ الى جبل قريطون ، ثم خبرة الارتواء من بئر طبيعية باردة في قلب الجبل ، حيث تبدو الطبيعة واهبة للحياة والموت . بمثل هذه التقابلات تمكن الروائي جبرا ابراهيم جبرا أن يغني السيرة التي كتبها بالعديد من جماليات الفن الروائي .

نظرة شاملة

يمكن القول بأن الكاتب الروائي جبرا ابراهيم جبرا قدم في « البئر الأولى » وثيقة رائعة تنبض بمستويات عالية من الصدق عن طفولة كاتب ،

ولمحات عن حياة مدينته ، وهي مدينة بيت لحم في ثلاثينيات هذا القرن . قدم للقراء وللباحثين في مصادر الكاتب الينابيع الأولى التي ارتوى منها جبرا وحبه العميق للأدب والرسم والموسيقا ، سواء في شوارع المدينة وناسها ، أم طبيعتها الغنية ، أم في المدرسة الوطنية في بيت لحم ، أو المدرسة الرشيدية في القدس ، والأحداث التي حفرت مخاوفه الغائرة وأحزانه الجليلة ، وحوافزه العميقة للتفرد والحرية ، واختيار الطرق الصعبة . لكن هل كان حرص الكاتب على أن يكون محايدا وموضوعيا في صفحات هذه السيرة وراء ضبطه الشديد الى حد الاختناق لمشاعر الطفولة في بعض المواقف التي عاشها بطل هذه السيرة ؟ وهل بدا الكاتب محايدا أكثر مما ينبغي وهو يصور خبرة العطش والضياع في جبل قريطون ، بل وهو يصور رؤية الصبي لتجربة الكي بالنار التي يتعرض لها إنسان عزيز عليه ، هو والده ؟

لقد افتقدت بعض المواقف نتيجة لهذا الضبط الشديد غنائيتها الطبيعية بالنسبة لطفل في هذه المرحلة من العمر . ربما نسي العديد من القراء تفاصيل من سيرة « الأيام » لطه حسين ، لكن هل نسي أحد ذلك الشجن الذائب في أحزان طفل أعمى بالغ الحساسية في قرية مصرية في بدايات هذا القرن ؟ وهل نسي أحد شعوره العميق بالقهر أمام ضغوط الحياة وقسوتها وظلامها وهو المتطلع في شغف إلى الاحساس بكل ما فيها من جمال ورقة ؟

وهل ظلم الكهل أباه الطفل حين خنق غنائيته وعاطفيته الطبيعية باسم الموضوعية ؟ □

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

لافتة « حزب الله » !

تشكل لافتة « حزب الله » واحدة من أكثر الصياغات خطورة في العمل السياسي الاسلامي قديمه وحديثه ، لأن احتياء أي فريق بها ، يصنف الآخر الاسلامي ، الواقف في نفس الساحة ، بحسبانه مغايرا أو نقيضا ، ممن ينطبق عليهم « حزب الشيطان » ، وبذلك ينتقل الحوار السياسي من كونه اجتهادا مشروعا ومطلوبا في أمور الدنيا ، ليصبح معركة بين الايمان والكفر .

لقد كنا على موعد مع مناقشة إشكالية « الآخر » ـ السياسي ـ في الواقع الاسلامي ، بعدما فرغنا من الحديث عن « الآخر » في مجال الاجتهاد الديني ، وكان مفترضا أن ينصب جوهر المناقشة المستجدة على محاولة تصور صيغة العمل السياسي في المجتمع الاسلامي ، وهل يحتمل أحزابا أم لا ، وبالتالي هل يحتمل الاختلاف والمعارضة أم لا .

ولست أخفي أنني عندما مضيت أعد لهذا البحث وجدت أن ثمة معوقات في الموضوع لابد أن تزال من البداية ، والتباسات ينبغي أن تستجلى ، وكان على رأس تلك المعوقات والالتباسات مختلف التأويلات التي حمل بها تعبير « حزب الله » ، وفكرة الأحزاب عموما ، الأمر الذي يصب في النهاية باتجاه مصادرة حرية العمل السياسي ، وإلغاء دور « الآخر » في الواقع الاسلامي .

ونحن اذ نسجل أن الموقف التقليدي للحركات الاسلامية الكبرى الرافض لفكرة الأحزاب قد تغير سواء بتطور فكر هذه الحركات ، أو بحكم الضرورات السياسية التي أملت على تلك الحركات إعادة النظر في مواقفها (والجماعة الاسلامية في الهند وباكستان ، والاخوان المسلمون في مصر نموذجان يضرب بهما المثل في هذه النقطة) . نسجل ذلك حقا لكن نلاحظ ان التيار السائد بين الفصائل الاسلامية الجديدة يتخذ موقفا حادا من قضية حرية العمل السياسي والتعدد الحزبي ، ويتبنى ذلك التفسير المتعسف الذي يسقط عبارة « حزب الله » على الحياة السياسية ، وهو ما يعزز دعوتنا إلى ضرورة استجلاء اللبس والتخليط في هذه الدعوة .

درجات المحظور

وقبل أن نشرع في محاولتنا فإننا ننبه إلى نقطة مبدئية ، يتعين الاتفاق عليها أولا ، وهي تنصب على المعيار الذي يقاس به المحظور في الاسلام ، والحدود

التي يمكن أن يقال عندها ان هذا « التصرف » أو تلك « الصيغة » مرفوض اسلاميا . ودون أن توضح تلك الحدود ، فمن الطبيعي أن يختل الميزان وتتخبط الآراء ، بحيث يزعم كل طرف أن ما يقوله هو رأي الاسلام .

وهذه هي الحجة التي تلقى عادة في وجوه الاسلاميين ، كأن الأمر خال من الضوابط والمعايير ، وكأنه ليست هناك وسيلة لحسم أي خلاف فكري بين المسلمين ، مع أن هناك الحرام الصريح الذي فصلّه القرآن والسنة ، وهو نوعان : صغائر وكبائر ، وهناك المكروه ، تنزيها ، وهو ما كان الى الحلال أقرب ، وتحريما وهو ما كان إلى الحرام أقرب ، وهناك المشتبهات التي لايعلمهن كثير من الناس ، فمن وقع فيها وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

هذه درجات المحظور التي يمكن الرجوع إليها والاستدلال بها ، وليس فيها أن عدم وقوع الحادثة في العصر الاسلامي الأول مما يمكن أن يعد ابتداعا يحسن تجنبه ، لأن البدعة المكروهة هي في أمور الدين ، وأمور العبادة بالدرجة الأولى .

استنادا إلى هذا المنطق ، وإلى القاعدة الشرعية التي تقول إن الأصل في الأشياء الاباحة ، لنا أن نقرر بضمير مطمئن أن كل ما ليس منهيا عنه في القرآن والسنة هو من الأمور المباحة شرعا ، حتى وإن لم يجر العمل عليه في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته .

على سبيل المثال ، فإن أدبيات حزب التحرير الاسلامي تقرر أن نظام الاسلام ليس جمهوريا ، وإنما هو نظام خلافة وان الاسلام يمنع تحديد مدة زمنية لرئيس الدولة ، بل يبقى مدة حياته ، مادام ملتزما بتطبيق كتاب الله وسنة رسوله ، وقادرا على القيام بأعباء الحكم . فالحديث يقول : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي ما أقام حدود الله » . والخلفاء الراشدون لم تحدد لهم مدة زمنية معينة ، بإجماع من الصحابة ، كما أن نص البيعة يدل على ذلك « نبايع على السمع والطاعة ، على كتاب الله وسنة رسوله » . (نقض مشروع الدستور الايراني ، ونص الدستور الاسلامي المقدم من حزب التحرير في ٣٠ أغسطس « آب » سنة ١٩٧٩ ـ ص ٣٨) .

فقه أم اجتهاد بشري

لا بأس أن يتبنى أي تيار مايراه مناسبا من مواقف واجتهادات في مجال العمل السياسي . لكن أخطر ما في هذا الكلام أنه يعرض بحسبانه رأي الاسلام وحكمه ، في حين أن الذي يعتد به حقا في التعبير عن رأي الاسلام هو نص الكتاب والسنة . وهو ما يمكن أن يوصف بأنه الدين أو شريعة الله . أما ما عدا ذلك فهو اجتهاد بشري ، إذا باشره أهله فهو فقه يحترم ولا يلزم .

والنص الذي ورد في السياق استدلال في غير موضعه ، إذ ليس فيه أكثر من مطالبة المسلمين بالطاعة ، ما لم يؤمروا بمعصية . ولا نعرف كيف استخلصت الجهة التي صدر عنها هذا الكلام أن النص يمنع تحديد مدة زمنية لرئيس الدولة . فضلا عن أننا لانعلم بأن هناك نصا شرعيا يلزم المسلمين بصيغة واحدة للحكم ، كالخلافة .

نحن نفهم أن تقدم المواقف باعتبارها اجتهادات في التصور الاسلامي ، لكننا نرفض أن يتبنى طرف رأيا يستنبطه من واقع اجتهاده وتقديره الخاص ، ثم يعرضه علينا بحسبانه رأي الاسلام زاعما بأن الاسلام يقبل كذا أو يرفض كذا . فذلك تدليس في عالم الفقه والفكر ، لايقره عقل أو نقل !

ولئن كانت الخلافة هي الصيغة التي مورس بها حكم الاسلام في فترة زمنية سبقت ، وإذا كان الخلفاء الراشدون قد تبوءوا مناصبهم حتى لقوا الله فتلك مجرد سوابق تاريخية ، لاتستند إلى نص شرعي يلزم بها ، وإنما يظل الفيصل في هذا الأمر أو ذاك ـ طالما غاب النص ـ هو تحقيق مقاصد الشريعة ، وبالتالي تحقيق مصلحة الناس .

مقاصد الشارع ومصالح المسلمين هما الميزان

المعتمد الذي يستدل به في تقدير الحكم الشرعي ، أو في تقييم أي تصرف أو واقعة . إذا لم يتوافر النص الشرعي . على هذا اتفق علماء الأصول وفقهاء المسلمين في كل زمان .

يهمنا للغاية تقرير هذا المبدأ في مناقشة موقف « الآخر » السياسي ، وتحديد هامش الحركة المتاح أمامه في الواقع الاسلامي ، وهو في موقع الاختلاف أو المعارضة .

حزب الله وحزب الشيطان

أولئك الذين استخدموا لافتة « حزب الله » ، وقسموا الناس الى فريقين ، أحدهما هو « حزب الله » ، والآخر هو « حزب الشيطان » ، استخلصوا هذه العبارات من القرآن الكريم ، مثلما استلوا مفهوم التفرقة بين الاتجاهين من السياق القرآني نفسه ، الذي تردد أكثر من مرة في سورة المجادلة ، حيث ذكرت الآية (١٩) « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ، أما الآية (٢٢) فقد أشارت الى المؤمنين الذين يعتزون بدينهم فلا يتوددون إلى أعداء الله ورسوله ، ووعدتهم برضا الله وجنته ، ثم قالت : « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

وعلى اختلاف التفاسير القرآنية المعتبرة ، فإن عبارة « حزب الله » تنصرف إلى مجموع المؤمنين ، وليس الى طائفة أو فئة محددة منهم ، والفرق جد شاسع بين المعنيين ، خصوصا في أمر بهذه الدقة والحساسية . أما « حزب الشيطان » فهم جموع المشركين الذين يحاربون الله ورسوله .

يقول ابن كثير في تفسيره : (إن الآية ٢٢ من سورة المجادلة : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر » نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح ، حين قتل أباه (المشرك) يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم : « ولو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته ») .

(وقيل في قوله تعالى : « ولو كانوا آباءهم » نزلت في أبي عبيدة لما قتل أباه (المشرك) يوم بدر . « أو أبناءهم » نزلت في الصديق فقد هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن الذي كان على الشرك . « أو اخوانهم » نزلت في مصعب بن عمير ، فقد قتل أخاه عبيد بن عمير (المشرك) يومئذ . « أو عشيرتهم » نزلت في عمر فقد قتل قريبا له (مشركا) يومئذ أيضا ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث فقد قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (المشركين) يومئذ ، والله أعلم .

أضاف ابن كثير : وقوله تعالى : « أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، أي هؤلاء حزب الله ، أي عباد الله ، وأهل كرامته . وقوله تعالى : « ألا إن حزب الله هم المفلحون » . أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : « إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ـ ابن كثير جـ ٦ ـ ص ٥٩١ .

مقارنة غير صحيحة

في تعليق صائب على هذه النقطة ذكر الاستاذ محي الدين عطية في بحث له بمجلة (المسلم المعاصر) أن المقارنة بين « حزب الله » الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وبين مصطلح الحزب السياسي الذي برز في القرن العشرين مقارنة غير صحيحة ، تؤدي بالضرورة الى نتيجة باطلة ، وهي تكفير كل من لاينتمي الى الحزب السياسي الذي يرفع هذه اللافتة ، وإخراجه من الملة ، بسبب إعطائه الولاء لحزب آخر غير « حزب الله » .

ويضيف : إن القضية في القرآن الكريم قضية إيمان وشرك ، وليست قضية فروق سياسية في برامج العمل الوطني أو الاصلاح الاجتماعي ، أو غير ذلك مما تقوم من أجله الأحزاب السياسية في زماننا (العدد ٣٧ من مجلة المسلم المعاصر ـ ص ١٨٦ .)

ولعلي أضيف إلى ما ذكره الاستاذ محي عطية أن السياق القرآني كله يتحدث عن حالة حرب أو مواجهة مسلحة بين المسلمين وغيرهم ، أي حالة حياة أو موت ، وبقاء أو فناء ، الأمر الذي قد يعني أن الأمر لايكون بهذه الصيغة لو كان هناك سبيل إلى التعايش والتفاهم وحسن الجوار .

ذكر الاستاذ عطية تعليقه ، في مجال نقده لكتاب أصدره أحد قيادات العمل الاسلامي في القطر السوري ، هو الاستاذ سعيد حوى ، عنوانه « جند الله ثقافة وأخلاقا » . وكان مما قاله مؤلف الكتاب على صفحة ١٨٥ ما نصه :

« ولعل أعظم مظهر عملي للولاء المحرم الذي يخرج به صاحبه من الاسلام في عصرنا ، هو الولاء لحزب غير « حزب الله » ، مهما كان نوع الحزب والأسس التي قام عليها ، مادام لاتتمثل فيه صفات « حزب الله » وأخلاقه وأهدافه ، وذلك أن نظام الحزبية الحاضرة يقوم على اعطاء الولاء الكامل في فروعه كلها للحزب ولقياداته دون تردد ، مهما كان نوع هذه القيادات وطبيعة أفرادها ومبادئها . وهناك وهم سائد عند طبقات الناس الذين أعطوا ولاءهم لحزب سياسي أو زعيم ، وهذا الوهم هو أنهم يكتفون أن تكون شعارات هذا الحزب لاتعارض الاسلام ، ولو سلمنا جدلا بأن هناك حزبا غير إسلامي ـ وهذا غير صحيح واقعيا ـ فهل هذا كاف ؟ إن العمل الإسلامي الصحيح هو الذي لا يعارض الإسلام ، وفي نفس الوقت يتبنى أهدافه وطريقه . مثل هذا يمكن أن يعطى الولاء ، أما الاكتفاء بالأول فإنه نوع من التضليل الذي يرافقه عادة هدم الاسلام » .

جاءت عبارات الاستاذ حوى عاكسة لذلك الخلط الفادح بين المصطلح القرآني الذي انصرف إلى معسكر الايمان في مجموعه ، وبين المصطلح السياسي المعاصر الذي ينصب على فصيل سياسي دون غيره في ذلك المعسكر .

ولعلنا نجد أصلا لذلك التأويل في مؤلف الاستاذ سيد قطب « في ظلال القرآن » الذي اكتمل صدور أجزائه في بداية الستينيات ، بينما كتاب الاستاذ حوى قد صدرت طبعته الأولى في أواخر السبعينيات ، ففي تعقيبه على الآية (٢٢) من سورة المجادلة يسجل الاستاذ قطب أن « البشرية تنقسم إلى حزبين اثنين ، « حزب الله » ، وحزب الشيطان » ، وإلى رايتين اثنتين ، راية الحق وراية الباطل ، فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . وهما صفان متميزان لايختلطان ولايتميعان » .

ثم يضيف : إن الآية توحي : « بأنه كان في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة ، مما تعالجه هذه الآية في النفوس ، إلا أنها في نفس الوقت ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا الى ذلك المقام » .

تعدد الأيديولوجيات

على الرغم من أن كلام الاستاذ قطب ينصرف إلى المعسكر الاسلامي في مجموعه ، إلا أننا نجد في عبارته الأخيرة فرصة للتأويل ، تفتح الباب لامكانية حصر لافتة « حزب الله » في طائفة من المسلمين ، وليس كل المسلمين ، خصوصا إذا وضعنا في الاعتبار الافكار التي بثها الاستاذ قطب في مؤلفه « معالم في الطريق » التي تصف مجتمع المسلمين القائم بأنه جاهلي ، وأن المجتمع الاسلامي الحق لايقوم حتى تنشأ جماعة من الناس (المسلمين) تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده (المعالم ـ ٩٦) .

وقد حدث هذا التأويل من جانب الذين بالغوا في تبني آراء الأستاذ قطب ، حتى وجدنا في أدبيات « جماعة الجهاد » المصرية أن : الديمقراطية ترسي قاعدة تعدد الأحزاب . و تلك القاعدة تختلف مع الاسلام اختلافا جذريا ، ذلك أن تعدد الأحزاب لاينشأ إلا عن تعدد « الايديولوجيات » في المجتمع فتحتاج كل منها إلى التعبير عن نفسها ، والدعوة لفكرها ، وجمع الانصار للاعتماد عليهم في السعي نحو كرسي الحكم ، بينما الحكم في الدولة المسلمة لاتتنازعه ايديولوجيات مختلفة ، لسبب بسيط هو أن الحكم وسلطته لاتكون إلا في أيدي المسلمين . والمسلمون ليست لهم إلا عقيدة واحدة . ودين واحد ، ومنهج واحد ، ومن ثم فلا خلافات

« أيديولوجية » بينهم ، كتلك القائمة في المجتمعات الديمقراطية ، وبناء عليه فليس هناك في المجتمع الاسلامي الا حزبان ، « حزب الله » المأمور بإقامته ، و « حزب الشيطان » وقيامه ممنوع ! (دراسة للجماعة غير منشورة ، عنوانها « محاكمة النظام السياسي المصري ») .

استثمار لافتة حزب الله

الضجيج المثار حول تعبير « حزب الله » على شذوذه ومحدوديته ليس جديدا في المسيرة الاسلامية ، فالطبري يذكر في تاريخه أن سليمان بن صرد الخزاعي (زعيم التوابين) قد سمى أتباعه الذين خرجوا معه لقتال عبدالله بن زياد والجند الأمويين (حزب الله) ، لكن أبا بلال مرداس بن آدية المتوفى ٥٠ هجرية كان قد فعل ذلك فيما يتصل باتباعه (سماهم حزب الله) منذ عام ٤٨هـ ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ تكررت التسمية من جانب الشيعة والخوارج منذ مقتل سليمان بن صرد سنة ٥٤ هجرية ، إذ ظل كل منهما يطلق على جماعته (حزب الله) مرات كثيرة ، حتى آخر القرن الأول ، وإن ظهرت بعد ذلك تسميات أخرى ، تحفل بها كتب التاريخ المختلفة . (د . رضوان السيد ـ مفاهيم الجماعات في الاسلام ص٤٣) .

لقد كان واضحا منذ ذلك الوقت المبكر حرص بعض الجماعات الاسلامية على تمييز نفسها ، واستثمار لافتة (حزب الله) بكل ما يحمله التعبير من معان جليلة ، لصالح دعم موقفها ، وتجميع المسلمين حولها ، في مواجهة الفرق الأخرى .

مع ذلك فإن تحذيرنا يظل قائما ، من عواقب الخلط بين مفهوم المصطلح القرآني وبين المعنى المعاصر لكلمة (حزب) . ودعوتنا تظل ملحة الى ضرورة التصدي لذلك التخليط الخطر ، وكشفه قبل أن تنتشر عدواه ، ويشيع بين الناس حقا ان مقتضى الايمان الصحيح هو أن ينخرط المسلمون في جماعة أو حزب بعينه ، وإلا فهم متورطون في مربع الكفر ، ومنتمون الى حزب الشيطان .

ذلك أيضا تدليس فكري منكور ، لكنه في الوقت عينه إرهاب فكري واجب رفضه . □

■ لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . **(حديث شريف)**

■ قال رجل لابن مسعود : إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي ، فقال له : اذهب ، هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

■ رب همّة أحيت أمّة . **(الإمام علي كرم الله وجهه)**

■ إن العصيان المدني ذخر للقوة . **(غاندي)**

■ إن العروبة ـ يا بلابلها ـ روح على كفّ الفتى ودم . **(جورج صيدح)**

■ وتسألني السبيل الى مجاهدة مستعمر مسلح ؟ السبيل أن تحب الحرية ، لأن الحياة بدون الحرية موت . **(مكرم عبيد)**

نحو بناء آلة ذكية

بقلم : الدكتور علم الهدى حماد

« لم تنقطع محاولات الانسان لاستنطاق الآلة ، ودفعها للتفكير ، وإذا كان العالم الآن يقف على مشارف جيل جديد من الحاسوب ، أو ما يسمى جيل الذكاء الاصطناعي فإن مسيرة الانسان منذ بدء التاريخ كانت تراكما وراء هذا الانجاز العلمي » .

يتحدث الخبراء عن صنع آلة لها نفس المقدرة الانسانية في التفكير والتقدير واتخاذ القرارات ، أي تتميز بالذكاء وحيث ان هذا الذكاء من صنع الانسان وليس طبيعيا اطلق عليه اسم « ذكاء اصطناعي » . ويقع بعضهم في خطأ تسمية هذا الذكاء بالذكاء الصناعي ، وتصحيح التسمية بأنه اصطناعي أو « صنعي » ينطلق من عملية التقليد والمحاكاة لذكاء الانسان .

لا شك أن ما يحدث الآن من تقدم وتطور علمي سريع لم تشهده القرون التي سبقت ، وما به من طفرات علمية لها أبعاد لا يمكن الحكم على مداها في إطار البيئة الفكرية الحالية ، ولهذا نجد أن رأي المفكرين لم يجتمع على مستقبل تلك الطفرات ، ومدى قدرة الانسان على الوصول الى الهدف المرجو ، وطول الفترة الزمنية .

يتضح من الدراسات أن التاريخ المنقول حافل بقصص فيها آلات وتماثيل تحاكي الانسان ، وقد أراد لها صناعها أن « توحي بأن الحياة تدب فيها ،

ويتصور المشاهد انها تتحرك أو تتكلم مثل الانسان ، أو يمكنها الفهم والتصرف .

إن تمثالي فرعون « أمينوفيس الثالث » المشيدين في مصر منذ حوالي ٣٤٠٠ سنة ، المعروفين بتمثالي ممنون ، والموجودين في الأقصر حتى الآن ، كانا يخرجان أصواتا غنائية عند شروق الشمس ، حسب ما ذكره شاهدو عيان وهو مسجل فيما تركوه من كتابات .

بين الخيال والحقيقة :

كما يلاحظ خلال القرون الوسطى ظهور الفلكيين العرب باختراع آلة سموها الزرقاء ، وكان الادعاء بانها تحاور وتجادل في أمور الفلسفة . وادعاء البابا « سيلفيستر الثاني » تملكه إنسانا آليا (روبوت) يستشف الطالع ، ويعرف المستقبل ويرد بنعم أو بلا عند توجيه السؤال اليه . وقام المبشر المسيحي « رومان لول » في القرن الثالث عشر بنقل فكرة الآلة العربية « الزرقاء » الى أوروبا التي اشتهرت حينئذ بقدرتها على الرد في المسائل الفلسفية ، باسم « آرس ماجنا » وادعاؤه بقدرتها على المجادلة في أمور الديانة المسيحية ، وقد تكونت تلك الآلة من اسطوانات معدنية تدور ، وكلما توقفت إحداها ظهر رقم في طرفها ، ومن ثم تتم مقارنة الرقم برقم يظهر في كشف يحتوي على الأفكار أمام الأرقام ، وهكذا ! وبمقارنة الارقام التي توقفت عندها الاسطوانات بالارقام في الكشف يمكن استخراج إجابة فلسفية لأي سؤال !!

وخلال القرن الرابع عشر قام صانعو الساعات بصناعة ساعات ضخمة ، على هيئة تماثيل على شاكلة الانسان ، تتحرك وتصدر أصواتا ، واتخذها العامة على أنها بشر آلي .

وظهرت قصص ألف ليلة وليلة في مصر خلال القرن الخامس عشر ، لتملأ العقول قرونا عديدة بالخيال ، ووصلت الى اوروبا ، وترجمت الى الفرنسية في عام ١٧٠٤ ، ثم الى الانجليزية في عام ١٨٣٩ وقد تبعتها ترجمات أخرى . وقصة علي بابا الذي عرف سر مغارة الأربعين حراميا ، و « الشفرة » التي تفتح بابها وتغلقه ـ « افتح يا سمسم » و « اقفل يا سمسم » ، فقد كانت كلمتا السر اللتان بدونهما لا يمكن تحريك الحجر الذي يسد مدخل تلك المغارة . الا ينطبق ذلك الوصف على آلة لها القدرة على تلقي المعلومة « الشفرة » ، وترجمتها الى فعل وهو تحريك الصخرة التي تسد باب المغارة بفتحها أو قفلها . وقصة الحصان الأبنوسي الذي يطير بتوجيهات الراكب فمن وصفه نحسب أنه آلة . وقصة بساط الريح الذي يأخذ المرء الى أي مكان يشتهيه راكبه ، وكأنه طائرة بها ربان آلي يسمع ويطيع .

وليس بغريب أن يتمنى الانسان وجود آلات تسمع وتطيع وتنفذ ، وتكون رهن إشارته ، حتى ان كانت من صنع خياله . فقد ظهر عبر التاريخ في جميع المجتمعات ما يمكن تعريفه بالهروب من المستحيل بتخيل عدم « الاستحالة » ، وما زالت حتى الآن في جميع الثقافات أساطير شعبية وملاحم أبطالها من وحي الخيال ، تدور حول تسخير الانسان لآلات تسمع وتطيع (وان لم تذكر كلمة آلة) .

وفي القرن السادس عشر ادعى استاذ الفيزياء والجراحة باراسيلساس في بازل أنه اكتشف وصفة تحضيرية لصنع انسان اصطناعي على النحو التالي :

١ ـ توضع بعض الحوينات المنوية لانسان في جرة محكمة ويختم عليها .

٢ ـ تدفن الجرة مدة أربعين يوما في روث حصان .

٣ ـ عند استخراجها ستكون في شكل انسان لكنه شفاف .

٤ ـ لابد من اطعامه بدم بشري حتى يصبر عمره أربعين أسبوعا وبعد ذلك يصبح قادرا على العيش معتمدا على نفسه .

وفي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر زادت معلومات التقنية الآلية . وانتشرت معها التماثيل المتحركة آليا ، وأصبحت أكثر تطورا في عواصم اوروبا . مثل تلك الساعات الضخمة التي يخرج منها عند اشارة الوقت تماثيل آلية تتحرك

بحركات مختلفة ، وتصدر أصواتا تحسبها كلاما .

وظهر في أدب القرن التاسع عشر وكتاباته الانسان الاصطناعي من وحي الخيال ، وكان أكثر تطورا من تلك التي كانت في ميادين أوروبا وقلاعها . ففي عام ١٨١٥ كتب اي . تي . هوفمان قصة « رجل الرمال » وقد ظهرت فيها امرأة آلية . وفي عام ١٨٧٠ كتب ديليبس ، بالية « كوبيليا » التي تحولت فيها عروسة آلية الى انسانة . ومن المعروف أن أكثر المشاهير في عالم الانسان الاصطناعي في كتابات القرن التاسع عشر هو فرانكشتاين .

وبالمقارنة نجد أن قصص الخيال العلمي المنتشرة في عصرنا الحالي تضارع في شطحاتها وخيالها عن المستقبل ما جاء مجتمعاً في جميع العصور التي سبقت .

ولم يكن فيما جاء أي تأكيد على أن هناك من كان قادرا على بناء آلة ذكية بل كان مجرد تعبير عن الأمل في ذلك وتمني وجوده .

الذكاء الاصطناعي والعلم :

يعتبر القرن التاسع عشر فاتحة للتفكير الجدي في اختراع آلة مفكرة ، حيث جرى البحث عن حل المشكلة الكبرى في هذا الحقل ، ألا وهي كيفية وضع المعلومات في أسلوب يمكن للآلة معالجتها . ومن الطبيعي أن تكون فكرة المعالجة في ذلك الوقت آلية وليست رقمية .

اتخذ عالم الرياضيات جورج بول في القرن التاسع عشر الخطوة الأولى نحو اتجاه « الرقمية » فيما يسمى بجبر جورج بول نسبة اليه . وبذلك ظهر النظام الثنائي الذي أمكن استخدامه ليس في تمثيل الدالات الرقمية فحسب ، بل في دالات المنطق الأولية أيضا ، فتم تمثيل المتغيرات ، إما : الف وباء ، أو صح و خطأ ، او رقمي ١ وصفر .

ومن ثم قام تشارلز بابيدج في منتصف القرن التاسع عشر باستخدامه الجزئي لذلك الجبر بتصميم حاسوب رقمي ، اطلق عليه اسم الآلة التحليلية . وقامت بعملياتها بحساب العجلات التي تدور في اتجاه او آخر حسب نوعية المدخلات . واستخدمت البطاقات المثقبة كمفتاح أمني لا يمكن بدونها استخدام الآلة . ويعتبر أهم تقدم أحرزه بابيدج في آلته هو كونها رقمية . فقد كان العديد من التصاميم السابقة واللاحقة للآخرين تعتمد على القياس ولا تحسب ، بل تقيس . فتلك الآلات يمكنها قياس المسافة بين نقطتين ، بينما يمكن للحاسوب الرقمي تحديد الاختلافات . وعلى سبيل المثال يمكن للحاسوب الرقمي أن يحدد فيما اذا كانت الدائرة الكهربية مقطوعة أو موصولة . وعليه فان أجزاء المنطق في الحاسوب الرقمي مثل مفاتيح أو أزرار الاضاءة التي إما ان تكون في حالة وصل أو قطع . ويمكن لأجزاء المنطق ان تعد المفاتيح التي في حالة وصل والتي في حالة قطع ، وعليه يمكن الحساب . بينما يلاحظ أن المنطق في الآلة القياسية ما هو الا قياسات . فمثلا نجد أن قياس درجة الحرارة يتم بقياس درجة الحرارة في هذه الغرفة ثم في غرف اخرى ، ثم تقاس في جميع الغرف (لكنها لا تجمعها) للتوصل الى درجة الحرارة الكلية . والمشكلة في الآلة القياسية هي أنها معوقة في برمجتها . ومن الصعوبة بل من المستحيل في كثير من الأحيان تمثيل اشكال عديدة من المعرفة ، واجراء الحساب من خلال القياس .

ومع ذلك فقد كانت هناك مشكلة في بناء الآلة الرقمية ، وهي الحاجة الى تقنية لتمثيل حالتي الوصل والقطع ، وحيث ان هذه التقنية لم تكن موجودة في القرن التاسع عشر ، كان مستحيلا بناءآلة بابيدج .

وكانت أهم تقنية فتحت الطريق لبناء اول حاسوب رقمي هي المفتاح الكهربائي ، ففي عام ١٩٤٤ بنى « هـ . ايكن » الة استخدم فيها ٣٠٠٠ مفتاح من مفاتيح بدالة هاتف ، وكانت معوقة وبطيئة جدا ، لكنها كانت البداية . وتبع ذلك الجيل التالي للحاسوب الرقمي الذي استخدم فيه الصمام المفرغ وهكذا فتح الحاسوب الرقمي الباب لدخول الذكاء الاصطناعي .

وقدم « تورنج » تصميما نظريا فقط لآلة رياضيات هدفت الى اختبار امكانية حل درجات معينة من المعضلات الرياضية بشكل رقمي ، وكان عملها يتم

بادخال شريط طويل مقسم الى أجزاء ، يترك كل جزء منه خاليا او يثقب به رمز لرقم ما ، ويمر الشريط داخل الآلة جزءا بعد جزء ، وان كانت عملياتها محدودة ، فقد كان في إمكانها إجراء أي عملية يمكن أن يرمز فيها بالجبر المنسوب الى جورج بول أي « ١ » أو « صفر » .

وقامت حكومة بريطانيا خلال الأربعينيات ببناء آلة تورنج ، التي يرجع عديد من المؤرخين الفضل اليها في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية . وتوجد قصة طريفة حول هذا الموضوع فقد غنمت بريطانيا من المانيا في بداية الحرب آلة لصياغة « الشفرات » السرية وحلها ، وكانت في شكل آلة كاتبة فيها عجلات بين المفاتيح وحروف الطبع ، وأطلق عليها اسم « الآلة اللغز » ، فإذا كان العمل هو ترميز رسالة يقوم الطباع بتحريك العجلات الى رقم معين ويطبع كما هو معتاد ، وتظهر الرسالة المطبوعة في شكل رمزي . واذا كان العمل هو حل « الشفرة » يقوم المستلم بتحريك العجلات الى رقم معين ، ويطبع الرسالة كالمعتاد فتظهر مطبوعة بحروف المانية . وكانت الصعوبة الأساسية التي واجهتها بريطانيا هي استحالة معرفة تركيبة الارقام ، حيث كان الالمان يغيرونها يوميا ، وكان لابد لبريطانيا من حل المشكلة حتى تتمكن من معرفة أسرار المانيا ، وهنا قام تورنج مع مجموعة من العلماء ببناء آلة تورنج ، وسميت « القنبلة » . وكلما حصلت بريطانيا على رسالة رمزية مرسلة من المانيا اخذت منها الحروف « الستة الأولى » التي تعادل التركيبة في « الآلة اللغز » ، وتلقم لآلة تورنج ، وعندئذ تدار العجلات لفحص أي توافق ممكن للحروف ، حتى يمكن التوصل لواحد منها يمكن أن يقود الى رسالة مفهومة .

وفي عام ١٩٥٥ تم تركيب أول حاسوب يلعب الشطرنج ، وإن كان بطيئا جدا وأداؤه سيئا ، فقد كانت كل نقلاته قانونية . في عام ١٩٥٧ وضع برنامج في حاسوب من نوع « اي بي ام » ليلعب الشطرنج بشكل مقبول على مستوى الهواة .

ثورة المعلومات :

وكما حدث في أواخر القرن التاسع عشر من ثورة صناعية ، أدخلت العالم في مرحلة لم يسبق لها مثيل ، شملت الانتاج المكثف ، وأحدثت تغييرا شاملا للمجتمعات وقلبت الأوضاع التي كانت عليها ، وأثرت على جميع المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية ، وما صحبها من شئون مختلفة ، فإن ما نمر به الآن في العقد الثامن يعتبر ثورة أخرى ، تشابه الثورة الصناعية ، يمكن تعريفها بانها « ثورة المعلومات » . وهكذا فإن عصرنا الحالي هو عصر المعلومات ، فكما مرت البشرية من قبل خلال عصور مختلفة بدأتها بالعصر الحجري ، ومهدت الثورة الصناعية دخول عصر التقنية ، فإن عصر المعلومات هو امتداد طبيعي لعصر التقنية ، مبني على التطورات والاكتشافات العلمية لذلك العصر .

يكون الحاسوب حجر الزاوية في ثورة المعلومات ، والأساس في تغيير نمط المعاملات والعلاقات المجتمعية والفردية ، وفتح آفاق جديدة ونوافذ على عالم لم نره من قبل تتوسع حدوده باطراد مستمر ، وتعتبر السيارة مثلا تاريخيا موازيا للمفهوم التقني المتضمن للحاسوب حاليا ، فقد أثر استخدام السيارة في تغيير الملامح المجتمعية والحياة اليومية للفرد ، ولم يكن ذلك التأثير مصاحبا لاختراع السيارة بل كان مصاحبا لانتشار استخدامها ، حيث كان من الطبيعي وجود المعارضين والمرحبين كل حسب مصلحته ، ومع كل سيارة جديدة خفت صوت من المعارضة ، وأصبحت السيارة جزءا لا يتجزأ من الحياة العامة والفردية .

وكما دخلت السيارة في حياة الانسان سيدخل الحاسوب ، فهو مايزال في مهده وما نشاهده الآن ليس الا نقطة في بحر العلم ، وما ستجود علينا به الأبحاث خلال الحقبة القادمة خاصة في مجال الحاسوب سيكون أبعد من كل تصور .

التقدم في مجال الحاسوب :

باستعراض التقدم التقني في مجال الحاسوب لابد أن نأخذ بعين الاعتبار أن قدرة الانسان على التنبؤ محدودة ، وإن نظرته للمستقبل تحمل دائما في طياتها ما تحدده المفاهيم الخاصة في عصره ، أي أن ما تمليه عليه البيئة بما فيها من مقومات ومتغيرات سينعكس على استنباطاته واستنتاجاته . وبالرجوع الى التاريخ نجد ان اللورد « كيلفن » رئيس الجمعية الملكية البريطانية في عام ١٨٩٥ قال انه من المستحيل أن تطير آلة أثقل من الهواء وقد ظهر خطؤه بعد سنوات قليلة . وأخطأ تشالز ديويل مدير مكتب حقوق الاختراع الامريكي في عام ١٨٩٩ بقوله ان كل شيء يمكن اختراعه قد تم اختراعه . وهكذا حتى مع وجود مثل هؤلاء الاشخاص على قمة المؤسسات العلمية المعنية بالتقدم التقني واحاطتهم بكل الامكانات العلمية فان ذلك لم يمنعهم من النظر الى المستقبل بقيود حاضرهم ، وبما املته عليهم ظروف العصر ، وفي حدود المنطق السائر لمجتمعهم ، أي ان هؤلاء المسئولين لم يكذبوا وان وقعوا في خطأ الحكم على المستقبل والتنبؤ بما سيكون .

ولا يوجد أدنى شك في أن ما يحاول العلماء رسمه للمستقبل بكل ما فيه من مؤشرات يعتبر إطارا للجوهر لا يمكن استيعاب كل ما فيه من تقدم تقني ، وهذا هو ما ينطبق على مجال المعلومات بشكل عام ، والحاسوب بشكل خاص .

إمكانيات الحاسوب :

ما هي قدرات الحاسوب ومحدودياته ؟ يمكن تلخيص قدراته كما يلي :

١ ـ تكرار العمليات المتشابهة دون كلل او اجهاد ، ملايين بل بلايين المرات .

٢ ـ السرعة الفائقة في العمليات ، حيث يمكن حل معادلة رياضية في وقت أسرع من عالم الرياضيات بمقدار ملايين المرات .

٣ ـ المرونة في تنفيذ العمليات بشكل يضمن استخدام البرامج المتخصصة او العامة ، حسب ما يراه المصمم .

٤ ـ الدقة المتناهية في تنفيذ العمليات المطلوبة ، ومراجعة تلك العمليات للتأكد من صحة الحلول .

وتتلخص في ما يلي :

١ ـ عدم القدرة على التفكير (حتى بعد الابحاث الفياضة لا يمكن حتى الآن تحديد عملية التفكير) ، لكن حسب الفهم المتعارف عليه أن التفكير يدخل ضمن إطار الذكاء ، فالحاسوب آلة غير قادرة على التفكير حيث انها تنفذ الأوامر التي تعطى لها بشكل تلقائي وبدون تصرف ذاتي منها .

٢ ـ لا يوجد حدس أو بديهة في الحاسوب ، أي أن المخرجات ما هي الا انعكاس لعمليات تتم حسب الأوامر في المدخلات ، ولا عجب أن الانسان باستخدام الحدس يمكن أن يجد الاجابة على سؤال فجأة دون الدخول في عمليات حسابية معقدة ، تعتمد على متغيرات مختلفة .

وبذلك يمكن القول بأنه حتى يأتي الوقت الذي يمكن فيه بناء آلة لها قوة الذكاء ، فلابد من تركيز البحوث على معالجة المشكلات الرئيسية المتعلقة بدراسة الذكاء في الانسان . وحيث ان الحاسوب آلة تنفذ برامج ذات خطوات محددة وأوامر للعمليات لا تحيد عنها قيد شعرة ، فلا توجد لديها القدرة حتى الآن على تقليد ذكاء الانسان .

تقليد ذكاء الانسان :

استخلصت البحوث مدى أهمية دراسة الانسان بما له من قدرات عقلية ، وكيفية عملها ، حتى يمكن تقليدها بجعل الحاسوب قادرا على فهم اللغة ، والتعلم من الخبرة وتكوين علاقات ربطية بين ما يقرؤه وما يدركه بالخبرة . وكما يتضح فإن مجرد فهم عملية التفكير الانساني وخطواتها في غاية الصعوبة ، وما زالت أسرارها مغلقة ، اضافة الى أن العقل الذي يعتبر من المعضلات التي حار فيها العلماء والفلاسفة منذ الأزل ، لا يجد ما يكفي من إجابات على ما يخرج علينا من استفسارات ، وحتى مع التقدم العلمي

السريع فان الحيرة في العقل الانساني ما زالت مسيطرة .

وما نعرفه هو أن المخ يحوي حوالي مائة بليون (اي مائة الف مليون) خلية عصبية ، وحوالي مائة ترليون (اي مائة مليون مليون) وصلة تربط بين تلك الخلايا العصبية . وللتوضيح فإن مجرد محاولة رسم الوصلات في المخ تعتبر اقرب الى المستحيل .

وحيث لا يمكن فهم كيفية عمل المخ ، فان التركيز ينصب على دراسة كيفية قيام الانسان بحل المشكلات التي تتعلق بسلوكه من ناحية الذكاء والكفاءة والقصدية ولابد في هذه الأحوال ان نكتشف كيف يكون الانسان ذكيا ، وكيف يمكن تقليد ذلك أي لابد ان نعرف كيف يقوم الانسان بانتاج التصرف الذكي ، وما هو المنهاج المتبع في العقل لخلق الذكاء ، وما هي آلية ذلك ؟

هنا نتوقف لنبين أن كلمة الذكاء التي يظهر معناها في القواميس ، لا يوجد لها معنى علمي متفق عليه ، ولم يتم حتى الآن اكتشاف قوانين كمية طبيعية تتعلق بالذكاء ، وعليه فان مفهوم الذكاء يتغير كلما زادت المعرفة عن ذكاء الانسان .

العناصر الرئيسية للذكاء الاصطناعي :

يمكن تمثيل عناصر الذكاء الاصطناعي حسب ما هو موضح في الشكل المدرج الذي تظهر فيه العناصر في دائرتين ، واحدة داخل الأخرى ، وكل واحدة منهما بها أربعة عناصر ، وتعتبر العناصر في الدائرة الداخلية هي الأساسية والتي تستخدم في التطبيقات هي التي تظهر في الدائرة الخارجية .

لقد امكن للباحثين في الذكاء الاصطناعي اكتشاف ان السلوك الذكي لا يرجع الى طرق الاستنتاج ، بل الى المعرفة التي يمتلكها الشخص ، والمعرفة المكتسبة خلال حياة الانسان هائلة الى درجة استحالة قياسها ولذلك لابد من وجود طرق يمكن بها تمثيل تلك المعرفة بشكل يسمح بسهولة برمجتها واستعادتها .

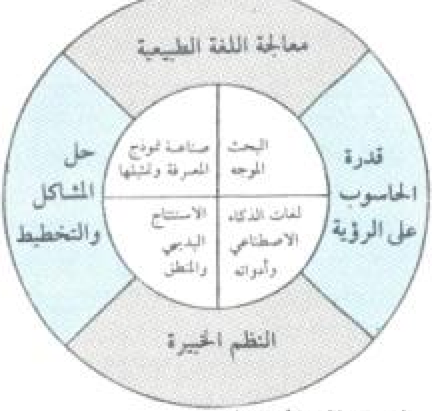

استشراف المستقبل :

لا شك ان البحوث المستفيضة في حقل الذكاء الاصطناعي قد تمكنت خلال السنوات الخمس الأخيرة من تحقيق اكتشافات لم يسبق لها مثيل ، ومع عدم القدرة على بناء الآلة الذكية تم تحقيق أجزاء صغيرة من الحلم ، ووجد الروبوت الآن في المصانع وهو يقوم بقطع ألواح الصلب ولحامها مثلا ، ويعتمد الروبوت في عمله على برمجة معينة ينفذها تنفيذا آليا . لكنه ما زال أخرق أعمى ، وهو يتكون من قطع معدنية وأسلاك ، ولا يمكنه حاليا تنفيذ أكثر من حركات محدودة ، متكررة يستفاد منها في خطوط تجميع السيارات .

ان ما خرج علينا به العلماء مؤخرا وهو ما عرف بمشروع الجيل الخامس للحاسوب (أي الآلات ذات الذكاء الاصطناعي) الذي يؤمل تحقيقه في التسعينات وسيكون تأثيره كبيرا على الطب والتعليم والعلوم والصناعة والهندسة وجميع الأنشطة بشكل لم يخبره البشر من قبل ولم يروه فيما سبق من تقنية .

وقد يجود علينا المستقبل مع التقدم العلمي والتقني باختراعات ومساهمات في بناء آلة ذكية . ومع إيمان بعضهم بامكانيات العلم غير المحدودة وبانها مسألة وقت . إن لم يكن عاجلا فيكون آجلا ـ يرى بعضهم أنه من المستحيل انتاج آلة كالانسان . تفكر وترى وتسمع وتتكلم ـ « والله يعلم وانتم لا تعلمون » صدق الله العظيم . □

يصدر في
١٥ أبريل ١٩٨٨

التاسع عشر

الفلسطينيون

من الاقتلاع الى المقاومة

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

أرقام

بقلم : محمود المراغي

للرجال.. تقريباً

أين تقف المرأة العربية في سوق العمل ؟ هل أصبحت تنافس الرجل ، أم أنها ما زالت تفضل البيت ؟ ماذا عن وضعها الآن ؟ وماذا عن وضعها في مطلع القرن الواحد والعشرين ؟

هناك رقم قد يثير الدهشة ، فالتوقعات ألا تزيد نسبة مساهمة المرأة العربية لمجموع القوة العاملة عن (١٣ ٪) أو بالتحديد (١٢.٩ ٪) عام (٢٠٠٠) أي أنه مقابل كل سبعة رجال سوف تكون هناك امرأة واحدة في سوق العمل . فاذا عرفنا أن مقولة « المرأة نصف المجتمع » مقولة احصائية أيضا ، فإن ذلك معناه أنه في مقابل كل امرأة عاملة سوف تكون هناك خمس أو ست نساء غير عاملات يؤثرن البقاء بالمنزل !

الأرقام قد تثير الدهشة لأن الاعتقاد الشائع أنه مع انتشار التعليم ومع التقدم الاقتصادي ومع اتساع مجتمع المدنية ، وتطور التقاليد ، تزاحم المرأة الرجل في فرص العمل .

أرقام التقرير الذي نحن بصدده تنفي ذلك ، وتقدم دليل توقعاتها من المسيرة التاريخية القريبة للمرأة .

وابتداء نقول إنها دراسة جادة ، فصاحب التقرير هو الصندوق العربي للانماء الاقتصادي بالاشتراك مع أمانة جامعة الدول العربية ، ومنظمات اخرى .

وموضوع التقرير : مستقبل الاقتصاد العربي . والتقريرات تبدأ من الواقع«ماذا كان عليه عام ١٩٨٠ ، ١٩٨٥»إذا بدأنا على هذا النحوتأكدت لدينا هذه الحقيقة ، وهي أن المرأة ما زالت تحتل أهمية نسبية للغاية في سوق العمل ، والتوقع طبقا لأرقام ١٩٨٥ ، ألا تزيد نسبة مشاركة النساء في قوة العمل العربية عن « ١٠ ٪ » تقريبا .. وذلك مقابل (٣٨ ٪) في دولة غربية مثل فرنسا و (٤٦) في دولة شرقية مثل بولندا .

الفرق اذن هائل ، ففي بولندا تكاد كل النساء اللاتي في سن العمل ان يشاركن بالفعل في سوق العمل ، وفي فرنسا يقترب الأمر من ذلك ، اما في وطننا العربي فالأمر يختلف .

الأولى : صومالية

في التحليل ، نجد أن الملامح تختلف من بلد الى آخر ، وفقا للاحصاءات الفعلية لعام ١٩٨٠ ، كانت الصومالية هي الأولى في سوق العمل العربي ، كان هناك ما يقرب من (٣٠٪) من القوة العاملة : نساء مشتغلات . والنسبة شبه ثابتة خلال خمسة عشر عاما سابقة .

على الطرف الآخر تأتي العراق لتسجل أقل نسبة اشتغال للمرأة ، فالنسبة لا تزيد عن (٤.٢٪ عام ١٩٨٠) وهي نفس النسبة بزيادة ضئيلة في كل من اليمن الديمقراطية والعربية اليمنية .

في الترتيب تأتي المغرب تالية للصومال لتسجل

(١٩,٧٪) وتأتي السعودية تالية للعراق واليمن حيث تقف النسبة عند (٤,٨٪) .

التفاوت اذن شديد بين بلد وآخر ، فهل يكون العامل الاقتصادي هو الأساس .

.. أغنياء وفقراء

الاحصاءات العربية والدولية تجري اعدادها على أساس اقتصادي في اغلب الأحوال ، والوطن العربي في هذه الاحصاءات ينقسم لدول تسع ذات دخل مرتفع وهي دول النفط ودول ست ذات دخل متوسط .

ودول ست ذات دخل منخفض وتضم الأخيرة : جيبوتي والسودان والصومال وموريتانيا واليمنين .

ما هو موقع المرأة العاملة في كل مجموعة من هذه المجموعات ؟ طبقا لأرقام (١٩٨٠) أيضا فإن مساهمة النساء في دول الدخل المتوسط تأتي في المقدمة ، نساء الاردن ومصر وتونس وسوريا ولبنان والمغرب يمثلن (١١,٤٪) من القوة العاملة ، يقترب من هذه النسبة نساء الدول ذات الدخل المنخفض ، بينما تقتصر مشاركة المرأة العاملة في الدول ذات الدخل المرتفع على (٥,٥٪) من مجموع القوة العاملة .

معنى ذلك أن مشاركة الأعلى دخلا تكاد توازي بالضبط :ـ نصف مشاركة الأقل دخلا ، وتستوي في ذلك الدول ذات الكثافة السكانية العالية كالعراق والجزائر مع الدول ذات الكثافة السكانية الصغيرة مثل قطر والامارات ولكن ، واستثناء من ذلك تسجل البحرين نسبة اشتغال للمرأة تعادل (١٥,٧٪) وتسجل الكويت نسبة اشتغال تعادل (١٢,٨٪) .

.. خمسة عوامل وسؤال

اذن ، هل يمكن أن نفسر خروج المرأة أو عدم خروجها للعمل على أساس اقتصادي ؟

الواضح أن ذلك يلعب دوراً ، ولا تنفيه النسبة المرتفعة لاشتغال المرأة في بعض الدول الخليجية التي بلغت في حالة البحرين ضعف النسبة في مصر على سبيل المثال . حالة البحرين أو الكويت لا تنفي العنصر الاقتصادي فارتفاع نسبة المشتغلات قد يمثل اقبالا من المرأة الكويتية او البحرينية على العمل ، لكنه يمثل أيضا نسبة الوافدات في سوق العمل .

على أي حال فإن عوامل أخرى تدخل في تفسير الظاهرة دون شك .. أعني ظاهرة انخفاض نسبة مشاركة النساء .

من هذه العوامل : الدين والتراث والتقاليد ، فالحلال والحرام والمسموح والممنوع عناصر في اتخاذ القرار عند المرأة العربية .

ايضا من هذه العوامل انتشار تعليم الفتيات ، ومن الطبيعي ان يكون ذلك مع الانتقال للمدن ـ عنصرين ضاغطين لتزايد النسبة .

ويبقى سوق العمل ، فبينما يلعب انتشار أنشطة كالصناعة والسياحة والخدمات دورا في جذب المرأة للعمل ، فان ضيق سوق العمل في بعض البلدان يلعب دورا كبيرا في طرد المرأة وعودتها للبيت . لقد انتشر في الآونة الأخيرة وفي بعض أسواق العمل ، مثل السوق المصري عبارة « للرجال فقط » و سارت على ذلك كثير من المؤسسات العامة والخاصة ، وفسرت خرقها للمبدأ الدستوري الذي يساوي المرأة بالرجل بأن المرأة أقل انتاجا والمرأة المتزوجة أكثر أعباء ، ومشاكل رعاية الطفولة تؤثر على انتاجية النساء .

على أي حال فانه اذا كان جديرا بالبحث : لماذا لا تشارك المرأة كقوة انتاجية بالقدر الكافي في سوق العمل ؛

فانه جدير بالبحث أيضا ظاهرة الارتداد في أجزاء من الوطن العربي . فالكثير من الرجال الآن يفضلونها « ربة بيت » .. حتى لو اكملت تعليمها ، وحصلت على أعلى الشهادات !

والأكيد أن الكثير من النساء ايضا قد أصبحن يفضلن ذلك .. وكاد سوق العمل أن يصبح « للرجال » .. تقريبا ، وهو ما تشير له الأرقام الرسمية ! □

التربية

هل هي الدواء لكل أدواء المجتمع؟

بقلم : الدكتور سعيد اسماعيل علي*

منذ أفلاطون حتى العصر الحديث ثمة أفكار فلسفية تؤكد ضرورة التربية وأهميتها في مواجهة المشكلات، وصيغ التغيير، وقيادة التطور. فإلى أي مدى يمكن للنظام التربوي وحده في هذا العصر أن يقوم بقيادة التغيير وصيغه ؟

حول هذه القضية المهمة يقدم لنا الكاتب أفكاره ورؤاه .

عندما آذن القرن الخامس قبل الميلاد بالأفول ، وبدأ القرن الرابع ، أصاب الحياة الاغريقية زلزال ، بدأ يبث التباين والاختلاف بين القيم السائدة ، وأضحى هناك اضطراب عظيم في العلاقات الاجتماعية ، شهد بأن هناك خللا واضحا في بنية المجتمع ، يصعب معه على الفرد أن يبصر الطريق الصحيح الذي يتيح له النجاح في الحياة .

هنا تقدم فريق من الناس يؤكد أن الأمر يتطلب عددا من المهارات ، إذا تزود بها الفرد وتدرب عليها فإنه سيبصر الطريق الصحيح ، وهؤلاء هم جماعة السوفسطائيين . وقد حددوا هذه المهارات بأنها تدور حول تزويد الطلاب بطائفة من الخطب المعدة التي تمس موضوعات معينة ، تتكرر في المناسبات الخاصة ، كالمرافعة أمام المحاكم ، وبالجمل والعبارات البراقة ، أو بمجموعة من المعلومات المتناثرة التي يمكن استخدامها كلما سنحت الفرصة . ولا ينسينا هذا أن بعضهم قد قام بدراسة مستفيضة دقيقة للمشكلات القائمة ، وبدراسة مبادىء التاريخ السياسي والتاريخ الطبيعي السائد حينئذ ، وتدريب القدرة على الحوار وتنمية القدرة البلاغية بالتمرين على إلقاء الخطب العامة .

ومن الواضح أن أمرا كهذا يعتبر صيغة خاصة لـ « تربية المواطن الاغريقي » ، تبدو في شكلها طيبة لا غبار عليها ، لكن المشكلة كانت تكمن في أن الفكرة العامة للسفسطائيين هي أنه لا توجد أفكار ولا مقاييس عامة للسلوك ، لأن « الإنسان مقياس الأشياء جميعا » كما قال « بروتاجوراس » أحد مشاهير رجالهم . ولما كان القصد من (الإنسان) هنا هو الفرد ، فإننا نرى من هذه العبارة أن تلك النزعة التي ترعرعت في المجتمع اليوناني ، والتي كانت تهدف إلى زيادة تأكيد قيمة الذاتية في الحياة الخلقية وفي العملية التربوية ، قد وصلت على أيدي السوفسطائيين إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، فمبدؤهم هو مبدأ تشجيع الذاتية على

* استاذ أصول التربية ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس

رجه الإطلاق .

كان السوفسطائي إذن ينادي بأن للفرد أن يقرر غاياته في الحياة ، وأن يضع مقاييس السلوك التي يراها مناسبة لإنجاز هذه الغايات ، كما أن له أن يقرر مدى خدماته للدولة ، ومدى مراعاته للعادات القديمة والتقاليد والأخلاق ، وواضح من هذا أن مواجهة الخلل الاجتماعي القائم تقتضي من وجهة نظر هؤلاء بداية فردية ، ترتد إلى الفرد نفسه ، أي أن تربية الفرد بما يؤهله للنجاح انطلاقاً من معاييره الخاصة هي الوسيلة .

التربية جهد قومي عام

لقد أفزع هذا سقراط الذي أطلق عبارته الشهيرة (اعرف نفسك) مشيرا بذلك إلى ضرورة البدء بدراسة كل إنسان لذاته ، مما يشير إلى فردية نقطة الانطلاق عنده ، إلا أنه سار خطوات إلى الأمام ، متقدما على السوفسطائيين بإلحاحه على ضرورة الوصول إلى معايير عامة موضوعية ، تتيح إطارا قيميا أخلاقيا ، يقوم على المعرفة ، وأن هذا هو السبيل لدحر الاضطراب القيمي والخلل السلوكي ، فالعمل التربوي هنا يبدأ بالفرد ، لكنه يتجه إلى المجتمع .

وإذا كنا نقول إن تلك من غير شك كانت خطوة تقدمية ، إلا أن الخطأ الذي وقع فيه سقراط هو تصوره أن مجرد (التعليم) لابد أن يؤدي إلى (التربية) ، أي أن معرفة الفضيلة تؤدي حتما إلى السلوك الفاضل ، لأنها قد تؤدي إلى ذلك ، لكنها ليست مؤدية إليه (بالضرورة) ، فالسلوك الفاضل هو الذي يحتاج بالضرورة إلى (معرفة) ، وإلى (تعليم) ، لكن ما الذي يضمن لنا السلوك الفعلي ؟ فليس منا من لا يعرف قيمة الصدق وفضيلته ، لكن هل منا من لم يكذب بصورة أو بأخرى ، حتى لو كان هذا الكذب مغلفا أحيانا بذلك الغلاف الرقيق المهذب المسمى (الكذب الأبيض) ؟؟

ثلاث طبقات

يتقدم تلميذ سقراط النابه أفلاطون خطوة أكثر تقدما ، ليبصر في العمل التربوي جهدا قوميا عاما ، وليس عملا فرديا ، حتى لو قام على أسس موضوعية عامة ، فصحيح أن الإنسان لكي يسلك فلابد أن يعرف ، لكن ضمان السلوك لا يمكن أن يتم إلا في مجتمع يقوم على العدالة ، وتلك كانت نتيجة غاية في الروعة وصواب الرأي ، لكنه مع الأسف الشديد أخطأ الوسيلة إلى ذلك . فكيف ؟

لقد تساءل أفلاطون : كيف يصبح العدل المطلق أساسا للحياة الاجتماعية ؟ وأجاب : بتقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات لكل طبقة نظام تربوي خاص ، وهذه الطبقات هي :

أ) طبقة المنتجين : وتشمل الزراع والصناع وأصحاب المهن ، ووظيفتها تحصيل الغذاء ، وتموين الجماعة ، وفيها « ميل إلى الشر » .

ب) طبقة الجند : وعليها توسيع رقعة المملكة ، وحفظ كيانها ، ودفع الغارات عنها .

جـ) طبقة الفلاسفة : ولها الزعامة الفكرية ، وولاية الحكم ، وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة ، حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه ، وإذ ذاك يسود العدل ، وتتحقق السعادة .

أساس التربية

يمكن عن طريق نظام تربوي عام يدخل الفرد فيه منذ طفولته الكشف عن (المعدن) الذي يتكون منه ، من خلال ما يمر به من امتحانات في نهاية كل مرحلة من مراحله ، فإذا ما التزمت كل طبقة بالوظيفة المؤهلة لها ساد العدل في المجتمع ، فإذا ما حاول التجار أن يسيروا مقاليد الحكم فسد المجتمع ، وإذا ما استولى العسكريون على السلطة فإن مآل المجتمع إلى الظلم ، والفلاسفة والمفكرون وحدهم هم القادرون على قيادة المجتمع ، في مناخ يسوده العدل والوئام والانسجام .

فالجهد التربوي وإن كان جهدا قوميا عاما ، إلا أنه قام على منطلقات فلسفية ، تمتلىء بالثغرات ، وليس هنا مجال للإشارة إليها ، كما أن الغاية من هذا الجهد ، على الرغم من أنها تتجه أيضا إلى المجتمع كله ، إلا أن ما اصطنعه من وسائل وأساليب من شأنها أن تودى به ، والوسائل كما نعلم لابد أن تتكافأ

شرقا مع غاياتها ؟!

ولا نود بطبيعة الحال أن نستطرد ، فنثقل على القارىء بقصة التربية على مر العصور ، ذلك أن « الحكاية » قد استمرت وامتدت عبر التاريخ ، لتضم عددا كبيرا من المفكرين ، كل منهم يكون عادة مهموما بمجتمعه ، ومشكلاته ، وقضاياه ، وآماله ، وطموحاته ، فيتأمل ويدرس ويشخص ، وكثيرا ما يخلص إلى نتيجة مشابهة ، وهي أن التربية دواء ناجع ، وأن التعليم هو الشافي ، بل إننا لنذكر أن (بروسيا) بعد هزيمتها من نابليون ، وجه فيلسوفها الكبير (فخته) سلسلة نداءات إلى الأمة الألمانية ، مؤكدا فيها أنهم إذا كانوا قد ألقوا السلاح ، إلا أن هناك أرضا أخرى لا يستطيع أحد أن يحتلها ، تتمثل في عقول الألمان وقلوبهم ، وأن السلاح الذي لم يلق بعد ، والذي عن طريقه يمكن لهم أن يذودوا عن حياضهم ، هو (التربية الحقة) ؟

التربية في العصر الحديث

وفي تاريخ مصر الحديث ركزت الحركة الوطنية على الجهد التربوي ، وسيلة تتوسل بها إلى التغلب على الاستعمار البريطاني ، بحيث كان مصطفى كامل يحتفل كل عام (بمايشبه عيد العلم) بخريجي بعض المدارس التي تبناها ، ومن المعروف أنه هو الذي أطلق الشرارة الأولى لإنشاء جامعة أهلية ، تعد القيادات الوطنية القادرة على الوقوف في وجه التخريب الانجليزي ، بل لقد ذهب إلى حد القول بأن الانجليز إذا تركوا مصر طوعا أو كرها ، وظلت البلاد على ما كانت عليه من الجهل ، فسوف يظل الاحتمال قويا بعودة الاحتلال مرة أخرى .

ومن المعروف أن الخلاف الذي حدث بين محمد عبده والأفغاني ، كان يدور حول أن الأول ينهج نهجا (إصلاحيا تربويا) ، بينما كان الثاني يريد نهجا ثوريا .

ولعل هذا ـ وأمثلة غيره أكثر من أن تعد وتحصى ـ كان سببا في أن تتجه أصابع الاتهام إلى المربين ، وبخاصة عندما تضيق بالمجتمع السبل ، وتتكاثر عليه الهموم والمشكلات ، حتى بالنسبة لبعض المشكلات والظواهر ذات الطبيعة المادية .

بل أحيانا نسمع بعض الأصوات التي ترتفع في أعقاب الهزيمة العسكرية بأن السبب لا يرجع إلى نقص في السلاح والعتاد ، صحيح أن السبب المباشر يكمن في الأساليب والتكتيكات والاستراتيجيات ، لكننا حتى إن أحسنا وضع هذه الأساليب والتكتيكات والاستراتيجيات ورسمها ، فإنا مع الإعداد الهزيل للإنسان بالتربية المختلة ، يصبح كل هذا قصرا فوق رمال .

ومن العجيب حقا أن نرى بعض المؤسسات تشكو من ضعف العاملين بها وهم من خريجي الجامعات الجدد ، مما يجعلها توجه أصبع الاتهام إلى الجامعة ، لأنها لم تحسن إعداد (الكوادر) الفنية القادرة على الإنتاج والخدمة ، فيبحث المختصون في الجامعة في الأسباب ، فإذا بهم ـ غالبا ـ يقذفون بالكرة إلى المدرسة بادعاء أن الجامعة تتلقى نوعيات من الطلاب الذين أسيء توجيههم واعدادهم في المدرسة ، بحيث يصبح صعبا عليها أن تحسن تشكيلهم وإعادة تكوينهم ، فكأننا في داخل النظام التربوي نفسه ، يحاول كل قطاع أن ينفي عن نفسه التهمة ، لتستقر في شبكة المدرسة . .

ليس بالتربية والتعليم وحدهما

والذي نود قوله هنا أننا نظلم التربية كثيرا ، عندما نتصور أنها وحدها هي القادرة بالفعل على مواجهة ما يعانيه المجتمع من مشكلات وآفات ، وما يمر به من أزمات ، وذلك للأسباب التالية :

١) التربية أولا ليست مسئولية المؤسسات التعليمية المختلفة ، مثل المدارس والمعاهد والجامعات وما يتصل بها من مراكز وفروع ، مما يطلق عليه (التربية المدرسية) ذلك أن سلوك المواطنين يخضع لمؤثرات عديدة ، وهو إذا شبهناه بجهاز استقبال ، فإن هناك عشرات من أجهزة الارسال تعمل عليه ، تأتي في مقدمتها أجهزة الاعلام الحديثة من تلفاز واذاعة وصحف ومجلات ، وهناك السينما والمسرح والأندية ودور العبادة . ولو قدرنا حياة الانسان بـ ٦٠ عاما ، فإنه يقضي منها في

مؤسسات التعليم من الصف الأول الابتدائي الى نهاية التعليم الجامعي ، ما يقرب من ١٦ عاما ، ومعنى ذلك أنه يقضي خارجها ٤٤ عاما ، فكيف نحملها مع ذلك المسئولية الكبرى ؟ فإذا ما عرفنا أنه يقضي ربع الـ ١٦ سنة في عطلات عادة ، يبقى ١٢ سنة . وبالطبع فهو لا يقضي اليوم كاملا بالمدرسة ، بل في أحسن الأحوال يقضي ما متوسطه ٦ ساعات ، أي ربع اليوم ، وبالتالي فالمدة الحقيقية التي يقضيها الانسان بالمدارس والجامعات لا تزيد عن ٣ سنوات ميلادية . . ؟ فلنقارن اذن أثر ثلاث سنوات بمؤثرات أخرى تمارس عملها طوال ٥٧ سنة . . ألسنا نظلم التعليم بذلك ظلما فاحشا ؟؟

٢) يتناول فعل التربية جوانب ثلاثة في صياغة وتشكيل الانسان . جانب معرفي ، وجانب مهاري ، وجانب وجداني ، الأول يتمثل في جملة الحقائق والمعلومات التي تحويها قطاعات المعرفة المختلفة مثل : التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والكيميائية وهكذا . والثاني يتعلق بالأساليب والوسائل المتمثلة في مهارات القراءة والكتابة واللغة ، وعديد من المهارات العملية المختلفة . والثالث يتصل بالقيم والاتجاهات .

وإذا كانت المؤسسات التعليمية تستطيع أن تفعل الكثير في الجانبين الأول والثاني ، فإن جهدها متواضع بالنسبة للجانب الثالث ، وهو أخطر الجوانب ، فهو الذي يشكل الدوافع والغايات وأساليب العمل واتجاهاته . صحيح أن الجمهرة الكبرى من المربين تعي تماما ضرورة التكامل بين هذه الجوانب الثلاثة ، إلا أن المستوى التطبيقي ينبيء عن جهد متواضع في المجال الثالث ، خاصة أن الجانبين الأول والثاني يستهلكه معظم الجهد .

البيئة والمجتمع

٣) التربية ماهي إلا نظام ضمن منظومة ضخمة هي المجتمع ، تضم عددا من النظم الأخرى ، مثل النظام الاقتصادي ، والنظام السياسي ، والنظام الطبقي ، والنظام الثقافي . . . وهكذا يتأثر بها ويعمل من خلالها ، بل إنها هي التي تفرض أحيانا المعطيات التي يتعامل بها ومعها ، فالنظام السياسي عادة يضع الأهداف ، ويرسم الفلسفة التي تشكل المناهج والمعاهد لتحقيقها ، والنظام الاقتصادي يحدد مقدار الميزانيات وأوجه الانفاق ، مما يلعب دورا أساسيا في حجم العمل التربوي ، والنظام الأسري هو الذي يفرز الأولاد والبنات وحجم المادة الرئيسية التي يعمل عليها النظام التربوي ، ومن الخطأ الظن بأنهم يأتون الى المدرسة وهم (صفحة بيضاء) ، فهم عادة يجيئون بعد السنوات الست الأولى من العمر ، تلك التي يكتسب الإنسان فيها عادة البذور الأساسية لكثير من جوانب شخصيته .

كذلك فان الطبقة المسيطرة هي التي توجه التعليم وفقا لمصالحها الخاصة ، ولا تسمح به للآخرين إلا بالحد الذي لا يهدد هذه المصالح ، وبالطريقة التي تحجّم بها هذه الطبقات بحيث لا تخرج عن حدودها .

نقول هذا ونحن بالطبع على وعي بأن النظام التربوي نفسه يعود فيؤثر على هذه النظم ، كأن يمد النظام الاقتصادي بالكوادر الفنية المختلفة . . وهكذا . إلا أن هذا لا ينفي المقولة الأساسية التي نذهب إليها ، وهي أن هذه الوضعية تجعلنا ننظر إلى النظام التربوي كمجموعة عازفين على نوع معين من الآلات في فريق موسيقا لا قيمة ولا فاعلية حقيقية له إذا لم يكن هناك تنسيق عام .

٤) ليست « الأخلاقيات » من الأمور التي يسهل ايجادها بقرارات وقوانين ولوائح ، ومجرد « الوعظ » و « النصح » لا ينشئها ، لأنها « إفراز » للبنية العامة للمجتمع ، إن كان خيرا فخير ، وإن كان شرا فشر . ان المواطن الذي يعيش في مجتمع زراعي تقليدي ، يجد « التراب » والحشرات والطين وروث البهائم جزءا أساسيا من بيئته ، ولا يلحظ ضررا مباشرا لها عليه ، بل ويستفيد من بعضها (روث البهائم يستخدم كوقود عند تجفيفه) ، ولذلك فان النظافة عنده لا تعني نفس ما تعني لمواطن آخر ، يعيش في مجتمع صناعي متقدم ، لا يرى في بيئته شيئا من هذا ، بل ان بعض

(التراب) ربما يتسبب في تعطيل أجهزة وآلات تقدر بالملايين ، ونفس الشيء بالنسبة للمحافظة على المواعيد .

ومن ثم فإذا كان المجتمع تقوده عصبة من المرتشين واللصوص ، وإذا كان المجتمع تسوده علاقات الاستغلال والقهر ، وإذا كان المجتمع لا يكاد يخرج من حرب إلا ويجد نفسه مقبلا على حرب أخرى . . . يصبح من العبث أن يقف مرب -مهما أوتي من القدرة على التأثير والبيان والأساليب ، لينصح (بالأمانة) و (الورع) و (الوفاء بالعهد) . . . وما إلى ذلك .

موظفون وحوار

٥) ثم إن النظام التربوي رغم أنه كالنظم الأخرى ـ جزء من جسم المجتمع ـ إلا أنه في العصر الحديث خاصة ، بدأ يفقد استقلاله ليتسم بالتبعية في أغلب الأحوال ، فالكم الأكبر من أجهزة التعليم ومؤسساته أصبح ملكا للدولة ، وهي التي تنفق عليه ، وهي التي تستخدم خريجيه ، مما يجعل لها دائما اليد العليا ، بحيث يعجز المربي أن يقرر ما يرى أنه الأصوب خارج السياسة التي ترسمها الدولة له ، ولعل من أبرز الأمثلة التي يمكن أن تبين ذلك ، ما كان عليه الأزهر عندما كانت له أوقافه التي يمول بها ذاته ، ولعلمائه أن يختاروا شيخهم ، ففي هذه الفترة كان له من حرية الحركة ما مكنه أن يقود حركات الاصلاح في المجتمع ، بل ويقود شيوخه جيوش الثورة ويرهبون الحكام والمستبدين ، حتى اذا فقد موارده الذاتية ، وتحول علماؤه وشيوخه إلى (موظفين) تختارهم الدولة وتعينهم ، فقد الكثير من قيادته .

وهكذا نجد أننا نظلم النظام التربوي كثيرا ، عندما نبالغ ونلقي على أكتافه العديد من المسئوليات التي تشترك معه نظم أخرى في تحملها ، حتى إذا فشل انهلنا عليه بسياط النقد . وهنا نجد أننا إذا حاولنا أن نبحث لماذا تعثرت جهود مصلح كبير مثل محمد عبده الذي تبنى منهج الاصلاح التربوي ، فسوف نجد أنه قد أخطأ كثيرا عندما تصور امكان تحقيق ما يريد ، في ظل احتلال يمسك بقبضته الحديدية على القيادة السياسية ، ويفرغ البلاد من قدراتها العسكرية ، ويطحن اقتصادها بأساليب الاستغلال ، ولعل هذا ما يذكرنا برد الأفغاني عليه عندما طرح منهجه « اذهب إنما أنت مثبط » .

الداخل والخارج

إن عددا غير قليل من التربويين ترتفع أصواتهم الآن ، بأن مواجهة المشكلات التي يعاني منها النظام التربوي نفسه لا يمكن أن تتم من داخله ، بل لابد من أن يجيء ذلك من خارج ، ففي بعض المناطق المتخلفة عندما توجه جهود لمحو الأمية مثلا ، لا يُقبل عليها الناس ، مما يجعل البعض يعكف على أساليب التربية ومناهجها ونظمها واقتصادياتها ، بحثا عن صور فعاليات أكثر ، بينما لو وجهت الجهود الى البنية الاجتماعية لتطويرها اقتصاديا مثلا ، فسوف تبرز الحاجة الفعلية الى التعليم ، ويسعى الناس الى طرق أبواب التعليم مهما كانت ضعيفة .

ولعل هذا أيضا يفسر لنا تلك الظاهرة المألوفة في البلدان المتخلفة عندما يتعلم عدد من أبناء قرية ، ثم يهجرونها للاقامة في المدن ، مما يحرم القرية من فرص التطور ، ويفرغها دائما من امكانياته ، ذلك لأن بنيتها الأساسية عادة تظل كما هي ، بحيث إذا جرؤ متعلم تعلما متقدما على البقاء فيها ، فانه لا يجد فرصة لممارسة ما تعلمه وتوظيفه ، بل يعلوه الصدأ والجمود . □

● لاتركل ماتراه عينيك ، ولاتسمع كل ماتسمعه اذنك . (شكسبير)

● ماتريد نيله بالارهاب ، يسهل عليك بالابتسام . (ستيوارت)

مكتب المتابعة
المسابقة الثالثة في البحث الاجتماعي

في إطار الاحتفال بالأسبوع العربي الخليجي الثالث للعمل الاجتماعي، المقرر إقامته في المملكة العربية السعودية خلال شهر شعبان ١٤٠٩هـ الموافق لشهر مارس ١٩٨٩م يسر مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بالدول العربية الخليجية أن ينظم المسابقة الثالثة في البحث الاجتماعي.

تهدف المسابقة إلى دعم حركة البحث العلمي وتشجيع المهتمين والمشتغلين في الحقل الاجتماعي والإنمائي على الإسهام في دراسة القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية في الدول العربية الخليجية السبع، الأعضاء في المجلس، وهي "الإمارات العربية المتحدة والبحرين والمملكة العربية السعودية والعراق وسلطنة عمان وقطر والكويت".

شروط المسابقة:

١- أن يعالج البحث إحدى القضايا أو الظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي الخليجي، ويمكن أن يغطي نطاق وموضوع البحث الدول العربية الخليجية السبع مجتمعة أو دولة واحدة أو أكثر من الدول الأعضاء.

٢- أن يتوفر للبحث الشروط العلمية المرعية.

٣- ألا يكون البحث قد فاز بجائزة في مسابقة أخرى.

٤- ألا يكون المتقدم للمسابقة قد فاز بجائزة من جوائز هذه المسابقة من قبل.

٥- ألا يكون البحث قد تم تقديمه من قبل لنيل درجة علمية أو أكاديمية.

٦- ضرورة أن تتم الإشارة إلى ما إذا كان البحث المقدم قد سبق نشره في إحدى المجلات المتخصصة أو عرضه على أحد المؤتمرات أو اللقاءات.

٧- ألا يزيد عدد صفحات البحث عن ١٠٠ صفحة فولسكاب، وأن يرفق به ملخص من حوالي ٥٠٠ كلمة.

٨- آخر موعد لاستلام بحوث المسابقة هو ١٧ محرم ١٤٠٩هـ الموافق ٣٠/٨/٨٨

٩- لمكتب المتابعة حق نشر البحوث الفائزة وفقاً لما يراه مناسباً.

١٠- البحوث التي لن تفوز في المسابقة سوف لن تعاد لأصحابها.

١١- ترسل ثلاث نسخ من البحث مطبوعة أو مكتوبة بخط واضح، باللغة العربية، وذلك على العنوان التالي:

مكتب المتابعة - ص.ب ٢٦٣٠٣ - البحرين

١٢- سوف تمنح لأصحاب البحوث الثلاثة الفائزة في المسابقة شهادات تقديرية وجوائز مالية موزعة كالتالي:

الجائزة الأولى: (٢٠٠٠) دينار بحريني، ما يعادل (٥٣٠٠) دولار أمريكي
الجائزة الثانية: (١٥٠٠) دينار بحريني، ما يعادل (٣٩٠٠) دولار أمريكي
الجائزة الثالثة: (١٠٠٠) دينار بحريني، ما يعادل (٢٦٠٠) دولار أمريكي

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم / حسين أحمد أمين

قوله تعالى : (يومئذٍ يصدُرُ النّاسُ أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهم . فمن يعمل مِثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره . ومن يعمل مِثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يره) . الزلزلة (٦ ـ ٨)

في تفسير الفخر الرازي : نزلت في رجلين ، كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة ، ويقول : ماهذا بشيء ، وإنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ! وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالغيبة والكذبة والنظرة ، ويقول : ليس على من هذا شيء ، إنما أوعد الله بالنار على الكبائر ، فأنزل الله عز وجل يرغبهم في القليل من الخير ، فإنه يوشك أن يكثر ويحذرهم اليسير من الذنب ، فإنه يوشك أن يكثر .

جاء الاسلام ومجتمع شبه الجزيرة العربية يعاني أشد المعاناة من أمرين : فوضى في الحياة الروحية والدينية ، ومظالم فادحة في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . وقد ربطت السور القرآنية منذ البداية بين مبدأي التوحيد والمساواة بين البشر ، وأكدت الصلة الوثيقة بين التقوى وبين العدل ، والمعروف والاحسان ، وضرورة الجمع بين الايمان بوحدانية الله والعمل الصالح . وقد حفلت السور المكية بالآيات التي تحض قريشا على البر ، وتخبرهم أن في أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ، وتسألهم اطعام المسكين ، والرحمة في معاملة اليتامى والأسرى وأبناء السبيل ، وفك الرقاب ، غير أن أهل مكة أبوْا أن يعيروا هذه الآيات التفاتا ، واستكبروا أن يأتيهم من يرشدهم إلى أوجه الانفاق من ثرواتهم . وما كان بوسع النبي عليه الصلاة والسلام طوال مدة إقامته بمكة أن يفرض على أهلها من النظم ما لاتهوى أنفسهم .

أما في المدينة فقد اختلف الوضع ، وبات بمقدوره أن ينفذ من الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ما تقبله المهاجرون والأنصار بالرضا . فهنا فرضت الزكاة على الموسرين ، وحرم الربا ، وأولى الرسولُ وكبارُ الصحابة فقراء المسلمين وضعفاءهم عناية كبيرة ، وأشرفوا على توزيع الصدقات بينهم ، وعلى تنفيذ ما أمر القرآن أمة المسلمين بالعمل به .

غير أنه الى جانب الميادين التي تقبل المسلمون

تطبيق التشريعات الجديدة فيها ، كان ثمة أخرى مما يتطلب نضجا أكبر ، ووعيا أعمق ، مما توفر لعامة المسلمون في تلك الحقبة من تاريخهم ، وهم حديثو العهد بالجاهلية ، وهنا في هذه الأخيرة لم يرد تشريع ، وإنما اكتفى القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام ببيان الاتجاه الذي ينبغي على الفرد والمجتمع أن يسيرا فيه ، وأن يعملا قدر وسعهما على تبنيه ، فإن كان القرآن الكريم قد أقر حقوقا أوسع للنساء والرقيق مثلا ، فلا شك أن روح الآيات تشير بوضوح إلى الطريق الذي يجدر بأمة المسلمين أن تنهجه في المستقبل بصددهم ، ألا وهو تحقيق المزيد ، فالمزيد من حقوق المرأة واستئصال شأفة الرق ، وهما أمران ما كان عامة المسلمين في زمن الرسول قادرين على تفهم حكمتها ، أو تبين جدواها .

ففي مثل هذه الميادين إذن تجد في القرآن والسنة النصح والتوجيه ، لا التشريع ، والوعد بالأجر والثواب ، لا التهديد بالعقاب والتقريع ، ومبادىء الأخلاق ، لا أحكام القانون . وبوسع الأمة متى نضجت بمرور القرون ، واتسعت مداركها ونطاق خبراتها ومعارفها ، وعمق فهمها لأغراض القرآن وغاياته وأخلاقياته ، أن تحقق هذه الغايات بتبني مالم يتبنه الأولون ، وبفتح الأبواب التي أعطانا القرآن الكريم مفاتيحها ، وأرشدنا الى كيفية استخدامها .

غير أن المسلمين ـ في ظننا ـ لم يفعلوا ، بل ساروا بعد زمن النبي والخلفاء الراشدين في طريق لا يتفق في كثير أو قليل مع المقاصد القرآنية ، فقد أدت الفتوحات الاسلامية مثلا إلى زيادة رهيبة في عدد الرقيق ، وفي عدد الجواري والاماء ، وهي زيادة أدت إلى نسيان هدف تحرير العبيد (فك الرقاب) ، وأساءت إلى وضع الحرائر ، وانتقصت من حقوقهن وحريتهن . كذلك فإنه بدلا من أن يكرس علماء المسلمين الجهد في سبيل النظر إلى القرآن نظرة شاملة باعتباره وحدة متكاملة ، ثم الخروج بعد ذلك بما قد نسميه « أخلاقيات القرآن » ، يصوغونها في نظام شامل ، يتخذونه أساسا لوضع قواعد الشريعة ، رأيناهم يتصدون للآيات فرادى دون أن يلقوا بالاً لروح القرآن في مجموعه ، ويستخرجون منها ومن السنة أحكاما متناثرة ، لا يجمع بينها رابط أو صلة عضوية ، وينسون أو يتناسون أنه حتى بصدد الشعائر الاسلامية كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، كانت ثمة أغراض اجتماعية واقتصادية ، وأبعاد سياسية بالغة الأهمية . ثم إذا بهم بعد قرون قليلة يغلقون باب الاجتهاد بدعوى أن كافة المسائل الرئيسية قد تمت مناقشتها جملة وتفصيلا ، وصيغت الحلول النهائية لها ، فلا يحق أن يوصف أحد منذ ذلك الوقت وإلى أبد الآبدين بأنه أهل للاجتهاد .

وفي رأينا أننا كنا وما نزال في أمس الحاجة إلى الاجتهاد ، خصوصا فيما يتصل بالأخلاق القرآنية . فإن كانت الآية التي تتحدث عنها تشير الى محاسبة دقيقة للبشر عن أعمالهم ، كبيرها وصغيرها ، دون تفصيل لما يندرج في مضمار الشر ، ودون تحديد لكل ماهو أهل للمثوبة أو العقاب ، فالواضح أن الله سبحانه وتعالى قد ترك للمؤمنين مهمة استشفاف كنه إرادته ، ومفهوم الأخلاق الاسلامية من روح الكتاب المبين ، وسيرة رسوله الكريم ، ومن الخطوط الرئيسية العامة في القرآن والسنة ، كما ترك لهم تحقيق المقاصد التي ألمح إليها دون أن يورد أحكاما بصددها ، وذلك على ضوء مدى نضج أهل كل زمان ، واحتياجات كل عصر ومشكلاته وتحدياته . □

تقارير عن حالة مرضية

قصة بقلم الدكتور : هاني الراهب

■ التقرير الأول .

عن الفتى الـذي أحلتمـوه الينـا للفحص الطبي ، بغية التأكد من ادعائه التعب ، نفيدكم ما يلي : ان الفتى محمد يوسف الكمالي ، عضو وحدة الفتيان الفنية ، خالي الجسم من أية أمراض . وقد قمنا بجميع الفحوص والتحاليل اللازمة ، البولية والدموية منها والخزعية ، فلم نعثر على أي أثر يشير الى أن أنسجته وخلاياه تشكو من التعب أو نظير التعب أو امكانية التعب . ان بدنه يقوم بوظائفه العضوية والحيوية على أكمل وجه ، كما أنه يتلقى ما يحتاج اليه من غذاء ونوم ورعاية . ونظرا للتناقض الصارخ بين ما وصلنا اليه عن حالة الفتى الصحية وبين ادعائه الارهاق والعجز عن متابعة البرنامج الفني المعروف للوحدة ، وخوفا من أن نكون مخطئين في تحليلنا وتشخيصنا ـ فالأمانة العلمية مطلوبة دائما ـ قمنا بزيارة لرفاقه في الوحدة ، وطلبنا منهم بعض المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع . وكان الفتيان متعاونين أتم التعاون ، وذكر لنا كل على حدة معلومات متطابقة مع معلومات رفاقه ومع مكتشفاتنا السريرية . إن هذا كله يتعلق بالحالة البدنية للفتى محمد يوسف الكمالي ، وليست العقلية

■ التقرير الثاني .

عن الفتى الذي أحلتموه الينا بغية التأكد من سبب وقوعه مغمى عليه وهو يقوم بدوره في البرنامج الجديد لوحدة الفتيان الفنية ، نفيدكم ما يلي : أن الفتى محمد سليم الخيرودي متعب فعلا ، وإلى درجة تستلزم انقطاعه عن العمل لمدة عشرة أيام ، رغم ماتعرفه عن ضرورة بقائه في وحدته طوال فصل المهرجانات والأعياد . ويعود السبب اليه هو شخصيا . فقد شاء ، ودون سبب مقبول أن يتستر على تعبه ، ورفض مراجعة الطبيب بشأن حس سخيف يراوده بأن أحدا سيسرقه ، مع أن بعض

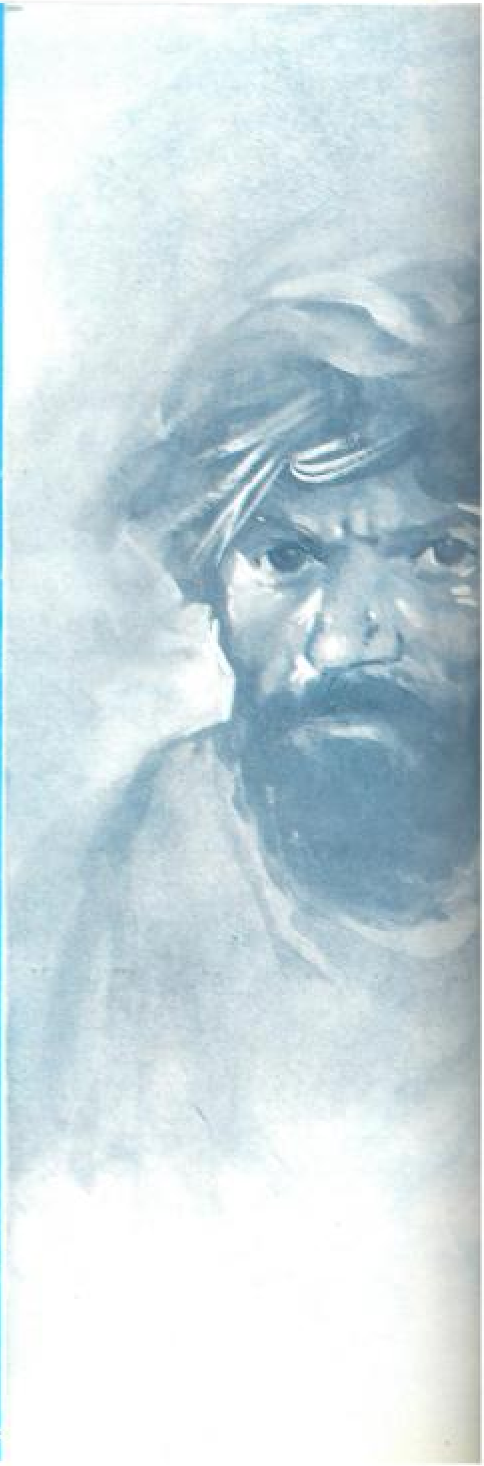

رفاقه نصحه بمراجعة الطبيب، وحذره من سوء العاقبة، وخاصة الاضطراب الذي يمكن أن يصيب موسم المهرجانات والبث التلفزيوني. وهكذا استفحل تعبه وتأصل، بسبب تكتمه. وقد حاولت أن أتبين كيف لهذا الوهم أن يفرخ هذا التعب، فلم يظهر لدي أي خلل في وظائفه العضوية والحيوية، مما يجعل هذا التعب ظاهرة علمية محيرة فعلا، وإن كنا نأمل بإذن الله التوصل الى سرها وماهيتها.

التقرير الثالث.

عن الفتى الذي أحلتموه الينا بغية التأكد من تلكئه أثناء عرض البرنامج الفني لوحدة الفتيان، نفيدكم ما يلي: في الفحص الطبي الأول تبين لنا أن الفتى محمد سيف الدين جعيتاوي، عضو وحدة الفتيان الفنية، يشكو فعلا من التعب، وأن هذا التعب واصل الى درجة الإرهاق، رغم أن الأنسجة والخلايا لاتعاني من مرض محدد بعينه. وكان هذا الفتى قد انتبه الى حالته الصحية الجديدة، ولكنه بادر الى مراجعة أطباء يعملون خارج الوحدة. وقد أفادنا رفاقه أنه لم يخبر أحدا بهذا التصرف الغريب الشاذ، وأنهم اكتشفوه بوسائلهم الخاصة. ولسوء الحظ، لم يستطع هؤلاء الأطباء مساعدته أو التخفيف عنه، أو حتى معرفة كنه مرضه، رغم اهتمامهم المبالغ فيه بكل ذلك. ولدى زيارتي الثانية للفتى، وجدته ميتا على سريره في المهجع الفني. إن مرضه ما يزال غامضا تماما، وأن موته لايمكن أن يفسر الا بكونه قضاء من الله وقدرا. غير أنني لا أستطيع أن أوصي بدفنه الآن، فبين الفينة والفينة يخيل الي أن قلبه ينبض نبضا لا يمكن تحسسه في الأحوال العادية.

التقرير الرابع.

عن الفتى الذي أحلتموه الينا لفحصه بعد انتحاره، نفيدكم ما يلي: بعد التحريات، تبين لنا أن الفتى محمد ماجد درمامي أقدم على الانتحار فعلا، وبملء ارادته وتصميمه، دون أن يدفعه إلى الانتحار أحد من رفاقه أو مرؤوسيه أو سبب من أسباب حياته. وبعد التحريات تبين لنا أيضا أنه كان يشكو من ورمة في جبينه بحجم حبة الكرز، تظهر عندما يكون وحيدا أو شبه وحيد، وتختفي عندما ينخرط مع الآخرين. ومن المؤكد أن هذه الورمة ما كانت لتستعصي على المعالجة الطبية، لكن الفتى المنتحر لم يشأ أن يعرضها على الطبيب، معتقدا على نحو يثير الاستغراب أن الطب لايستطيع أن يقهرها. وبعد التحريات تبين لنا أن ظهور الورمة كان يخلق في الفتى المنتحر أزمة عصبية متوترة ومزاجا سوداويا، فيتلكأ في التدريبات الفنية، وينسى دوره أو بعض العبارات في دوره، ويعجز عن التفاعل المبدع مع رفاقه، وحتى عن مجرد الانسجام. وكان رفاقه يرون ذلك ولا يصدقون، نظرا لأن الفتى المنتحر كان الأكثر مرحا ونشاطا وانتاجا، والأكثر ايمانا ببرنامج وحدة الفتيان الفنية وبرسالة الوحدات عامة.

التقرير الخامس.

عن طبيب وحدة الفتيان الفنية، الدكتور محمد صادق الرمثاوي، الذي أحلتموه الي للنظر في أمر موته المفاجيء، نفيدكم بما يلي: لم يكن المرحوم يشكو من أي مرض معين على ما يبدو. وأستطيع أن أجزم أن موته الغامض هذا ليس انتحارا، بدليل انتفاء الكدمات والرضوض والكسور، وخلو بدنه من أية عقاقير أو محلولات تسبب الوفاة. وأستطيع أن أجزم أيضا أن بدنه خال من أي خلل في الوظائف أو عطب في الأنسجة والأجهزة. وهذا يؤكد أن المرحوم قد توفي قبل الأوان. وكذلك فمن المحتم أن لا يكون أحد قد تسبب في موته، لسبب بسيط ومقبول هو أن موته اقترن برسالة كتبها بخط يده وأرخها يوم الوفاة نفسه. والرسالة تنفي مسؤولية الموت والتسبب فيه عن أي من أقربائه وأصدقائه، وخاصة رفاقه في الوحدة. والشيء الغريب، الذي

لم يحدث لأحد من قبل ، أنه كان عارفا بدنو أجله وهو في حالة عالية من الوعي والصحة ـ علما بأن موته ، كما سبق وأكدنا ، لم يكن انتحارا .

■ التقرير السادس .

عن طبيب وحدة الفتيان الجديد ، الدكتور محمد رميح تفتنازي ، الذي أحلتموه اليّ للنظر في أمر موته المفاجيء ، لحظة شاهد عناصر البرنامج الفني لوحدة الفتيان يتهاوون على الأرض فاقدي الوعي ، نفيدكم بما يلي : من الفحوص الأولية تبين لنا أن المرحوم الدكتور تفتنازي توفي بالسكتة القلبية اثر مشاهدته لأبنائه الفتيان ، الذين كان قد فحصهم قبل ساعتين ، يتهاوون على الأرض بلا حراك . إن هذا ليدل على عظيم احساسه بالمسؤولية ، فرغم تأكده أن أحدا من الفتيان لايشكو من أي مرض على الاطلاق ، ومع أن ما حدث لا يدمغه بأية مسؤولية ، كان حسه بالفاجعة من القوة حيث أودى بحياته . ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم . قل لن يصيبكم الا ماكتب الله لكم .

■ التقرير السابع .

بعد معاينتي للمرحوم الدكتور تفتنازي ، عاينت الفتيان الذين أحلتموهم اليّ للنظر في أمر إغمائهم المفاجيء ، فلم يتبين لي أي شيء . إن حالة هؤلاء الفتيان تخرج عن دائرة علمي وخبرتي ، وخاصة سقوطهم كلهم في لحظة واحدة . لقد استعملت فيهم كل ما ابتكره العلم الحديث من منبهات ومـوقظات ومنعشات ومنشطات . ولكن دون فائدة . انهم جثث هامدة . جميع وظائف البدن العضوية والحيوية عندهم معطلة . خاصة دوران الدم . لكن الشيء الوحيد الذي يحول دون تقديم شهادة وفاة باسمهم ، هو أن قلوبهم ما تزال تنبض .

إهداء

● يعترف الدكتور طه حسين بأن زوجته كانت وراء كل أعماله الكبيرة ، بل وراء حياته الناجحة كلها ، ويخاطب زوجته التي أهداها كتابه الضخم « مع المتنبي » بادئا بقوله تعالى :

« ومن اياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

صدق الله أيتها الزوجه الكريمة ، وتمت كلمته ، ففي ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفي ذرا تلك الرحمة أمليْتُ هذه الفصول ، وإن قلبي ليملؤه البر ، ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبذلين فيه أثناء ذلك من حث لي على الراحة ، ورغبة إلي في التروض ، وإلحاح علي في الاستمتاع بنعيم الحياة، وجمال الطبيعة في جبال الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض ، وما يثور في نفسك من غضب مصدره الرحمة والاشفاق ، وإني لأعلم أني كنت في ذلك قاسيا جافيا ، ولكني أعلم أني مدين لهذه الجفوة ، وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذني لي في أن أقدمه إليك ، لعله ينسيك من ذلك مالا تزالين تذكرين .

العربي
عيونك
على العالم

مغامر يكتشف قارّة

في الشرق الأقصى السوفييتي!

استطلاع :
سليمان الشيخ
تصوير :
طالب الحسيني

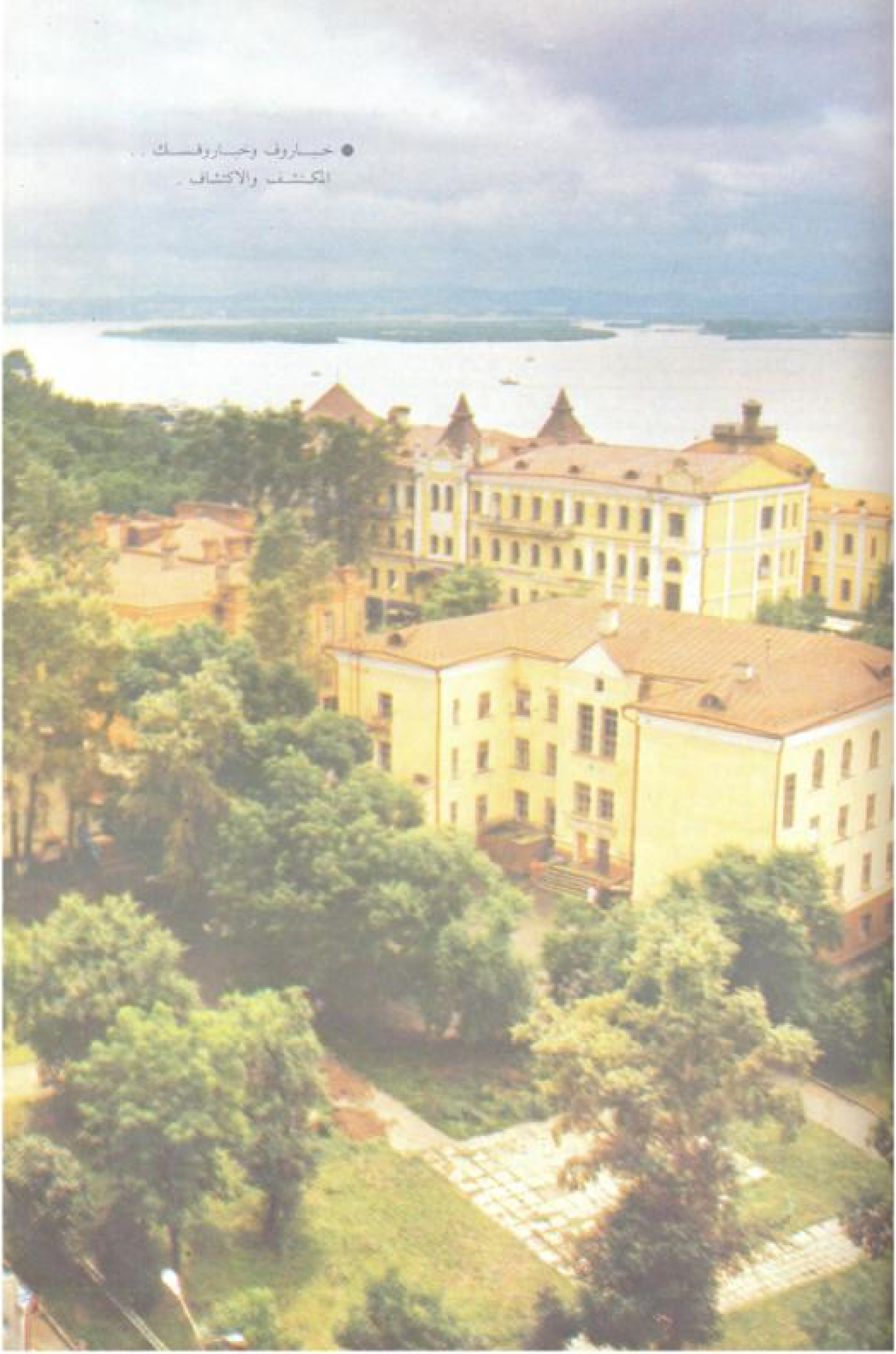

● خباروف وخباروفسك ..
المكتشف والاكتشاف .

إن حلقت بالطائرة من الكويت مدة تزيد على ست ساعات متوجها إلى الاتحاد السوفيتي ، وقطعت حوالي خمسة آلاف كيلومتر تكون قد وصلت مدينة موسكو عاصمة جمهوريات الاتحاد السوفيتي فقط .

لكن وصولك إلى الشرق الأقصى السوفيتي ، وإلى مدينة خباروفسك على الأخص يحتاج إلى رحلة طيران أخرى تتجاوز مدتها ثماني ساعات ، تبدأها من موسكو ، فتقطع مسافة تصل إلى عشرة آلاف كيلومتر ، وبذلك تصبح قريبا من جمهورية الصين الشعبية ، واليابان أيضا . فكيف تم اكتشاف تلك المنطقة النائية ؟

لو راجعنا قائمة الاكتشافات والمكتشفين في شتى المجالات ، فإننا سنجد أن للمغامرة والمغامرين ، وكذلك للصدفة دوراً مهماً ، وأثراً بيناً . وهكذا كانت رحلات ومغامرات قام بها فاسكو داجاما ، وكريستوفر كولومبس ، وابن فضلان ، وابن بطوطة ، وماجلان ، وغيرهم ممن ارتادوا البحار واليابسة والمحيطات بحثاً عن عوالم ودنيا جديدة .

وقد أفلحوا في توريثنا عوالم جديدة ، أدخلوها في قواميس حياتنا ، بعد أن كانت نسياً منسياً .

وكما أن موجة الكشوف والاكتشافات كانت عنواناً على مراحل معينة في جنوب أوروبا ووسطها ، فانها حملت نفس السمات تقريبا في أطرافها أيضا .

هكذا انطلق المكتشفون الروس في مراحل لاحقة لاكتشافات الأوروبيين الآخرين ، وولوا وجههم نحو الشرق ، فاكتشفوا امتدادهم السيبيري الرحب ، ثم خطوا خطوات أخرى ، جعلتهم يغسلون أرجلهم في المحيط الهادي .

وكما أن الحافز الاقتصادي والمغامرة والمجد الشخصي وغير ذلك كانت وراء كثير من اكتشافات دول أوروبا الغربية حسب المصطلح السياسي السائد في هذه المرحلة من الزمن فان اكتشافات الروس لم تختلف عنها بشيء .

شولوخوف المكتشف

إن شولوخوف التاجر المغامر وليس الأديب قد شارك مع غيره من التجار والمغامرين في الكشف عن ولاية الاسكا التي بقيت روسية ردحا من الزمن ، ثم باعها أحد القياصرة بحفنة من الدولارات للولايات المتحدة الأمريكية !

وسيمون ديجنيف هو الذي اكتشف مضيق برنغ الفاصل بين قارتي آسيا وأمريكا . وأطلق اسمه على أقصى نقطة في المضيق .

أما خباروف ـ كان تاجراً مغامراً ـ فانه قد توجه نحو جنوب شرق سيبيريا ، وجعلها منطقة لعملياته ، وقد تميز عن غيره برسم خريطة للمنطقة ، بقيت زمنا طويلا معتمدة لدى الجغرافيين ، وقد أطلق اسمه على مدينة من أكبر مدن المنطقة هي خباروفسك ، وسميت منطقة الاكتشافات الجديدة هذه شرق سيبيريا في البداية ، إلا أنهم اكتشفوا بعد ذلك أنها بحر متلاطم من المساحات ، تصل مساحتها إلى مساحة قارة أو تزيد ، فأطلقوا عليها إسم الشرق الأقصى السوفيتي ، وقسموها إلى جمهوريات ومحافظات ومناطق ذات حكم ذاتي ، داخل جمهورية روسيا الاتحادية بعد قيام ثورة سنة ١٩١٧ ، وهي جمهورية ياقوتيا ذات الحكم الذاتي (ألحقت بالمنطقة سنة ١٩٦٣) ، وأقاليم ومناطق : خباروفسك ، وماري تايم ، وماغادان ، وكمشاتكا ، وسخالين ، وجزر كوريل ، ثم منطقة أمور .

فما هو هذا الشرق الأقصى ؟ وكيف أصبح روسيا ثم سوفيتيا ؟ وما هي حكاية خباروف وخباروفسك ؟

شــرق وأقصــى

تصل مساحة الشرق الأقصى السوفيتي إلى حوالي ٦،٢١٥،٩٠٠ كيلومتر مربع ، أي ربع مساحة الاتحاد السوفيتي ، إلا أن هذه القارة الشاسعة

الواسعة لا يزيد عدد سكانها على سبعة ملايين ونصف مليون نسمة تقريبا ، تحتل الجبال ثلاثة أرباع هذه المساحة ، كما أن الغابات تحتل ٤٠٪ منها ، وفيها مئات الأنهار ، وأكبرها نهر لينا وطوله ٢٩٣٠ كيلومتراً ، يليه نهر آمور وطوله ٢٧٤٠ كيلومتراً ، وهو يسير على حدود الصين الشعبية والاتحاد السوفيتي مسافة تزيد على ٥٠٠ كيلومتر .

يحيط بالشرق الأقصى السوفيتي من الشمال بحر تشوكوتكا وبحر سيبيريا الشرقية ، وهو من بحار المحيط المتجمد الشمالي ، ومن ناحية الشرق المحيط الهادي ، وبحاره بيرنغ وأوخوتسك ، واليابان ، ومن الغرب والشمال الغربي تمر الحدود على سلاسل جبلية ، أما في أقصى الجنوب فالحدود تتصل بحدود الدولة المحاذية للصين والمحيط الهادي .

ونظرا لاتساع هذه المناطق التي تصل مساحتها الى ٤ آلاف كيلومتر من الشرق الى الغرب ، ومثلها من الشمال الى الجنوب . فإن تنوعا واختلافا كبيرا في المناخ يمكن تسجيله بين منطقة وأخرى ، فقد تصل الحرارة الى ٧٠ درجة ستنجريد تحت الصفر في بعض مناطق ياقوتيا في الشمال ، في حين انها قد تصل الى مافوق الثلاثين درجة في بعض مناطق خباروفسك وآمور .

وقد أثر هذا التباين والاختلاف في درجات الحرارة على تنوع حيوانات الطبيعة والظواهر الطبيعية ، فنجد الدب القطبي والأيل في الشمال ، والنمر الأسيوي في الجنوب ، وغيرهما من الحيوانات ذات الفراء والجلود الثمينة كالغزلان والثعالب والوعول والسمور ، ويؤثر هذا التنوع على تنوع نباتات الطبيعة والطيور ، والثروة البحرية . كما ان الشرق الأقصى غني بثرواته الطبيعية ، المطمورات ، كالفحم الحجري ، والنفط والغاز الطبيعي والحديد والذهب ، والزئبق والنحاس وغيرها . وفي هذه المناطق مساقط مياه تنتج طاقة تمثل ثروة تضاف الى الثروات الأخرى .

من ذاكرة التاريخ

تذكر المصادر التاريخية ان مايطلق عليه اسم الشرق الأقصى السوفيتي الآن ، كانت تسكنه قبائل ومجموعات تعود في أصولها الى منشوريا (مقاطعة صينية تحاذي الحدود السوفيتية الآن) ، وإذا ماكان الروس قد سيطروا على سيبيريا ، في القرن السادس عشر والسابع عشر ، فإن نظرية « التمدد » خارج ذلك « الصقع » قد راودت بعض المغامرين والتجار وقطاع الطرق ايضا .

اقليم خباروفسك .

هكذا خرجت البعثات من قلب سيبيريا ، وساحت في ساحات الشرق الأقصى (بعضها رسمي ، وبعضها الآخر من المغامرين الخارجين عن طاعة الحكومة أحيانا أخرى) التي كان يمكن أن يسير فيها الانسان دون أن يقابل أي إنسان آخر مسافة تزيد على مائتي كيلومتر (وقد تسير الآن مسافة تزيد على ٥٠ كيلومترا ولا تجد عماراً أو قرية أو إنسانا) .

وقد توجه سيمون ديجنيف وغيره نحو الشمال ، في حين أن فاسيلي بور ياكوف ، وايروفي خباروف وايفان موسكفيتين وغيرهم قد توجهوا نحو الجنوب . سمع موسكفيتين هذا من السكان المحليين ان بحرا كبيرا يحاذي يابسة بلادهم ، فانطلق مع فرسانه القوزاق سنة ١٦٣٩ كي يتأكد من المعلومات . وتحقق وصوله الى المحيط الهادي ، وبقي مدة سنتين في تلك المنطقة .

وفي سنة ١٦٤٣ وصل بورياكوف مع جماعة من المسلحين الى منطقة آمور وبقوا فيها مدة ثلاث سنوات ، يناوش المنشوريين ويناوشونه .

● ساحة الرواد .. يعيش فيها الحمام بسلام (الى اليمين) (والى أعلى) القنار و « الكورنيش » والغابة على حافة نهر آمور في مدينة خباروفسك وفي (الوسط) الغابة المحمية .. وسيدتان في خريف العمر .. تتناجيان ربما عن ذكريات مضت و (أسفل) مرسى القوارب والسفن على نهر آمور في مدينة خباروفسك لاحظ طراز البناء القريب من الطابع الصيني .

وفي سنة ١٦٤٩ جاء خاباروف مع رجاله وتوجه الى نفس المنطقة ـ موضوع استطلاعنا التي سميت خاباروفسك فيما بعد ـ واشتبك مع المنشوريين ايضا ، وبني قلعة دفاعية على ضفة نهر امور سنة ١٦٥١م . ثم جاءت بعده حملات اخرى على رأسها ستيباتوف وباشكوف .

وقد استغلت السلطات القيصرية بعض المصاعب التي واجهتها السلطات الصينية ، فعقدت معها معاهدة « ايكوف » سنة ١٨٥٨م فأصبحت بموجبها الضفة اليسرى من نهر امور وماجاورها من أراضٍ تابعة للقيصرية الروسية ، وبعد ذلك أخذ الروس يستوطنون مناطق الشرق الأقصى ويتزايدون فيها .

إطلالة على الواقع

عندما وصلنا الى مطار خباروفسك في اواخر الصيف الماضي أشار علينا مراسل وكالة نوفوستي في المدينة ان نعيد ضبط ساعاتنا لتتوائم مع التوقيت المحلي الذي كان الفرق بينه وبين توقيت مدينة موسكو حوالي ٨ ساعات . فاذا كان الوقت في خباروفسك هو الساعة الثامنة صباحا ، فانه منتصف الليل في موسكو .

تركنا موسكو ظهر ذلك اليوم وشمسها تلعب مع الغيم الخفيف لعبة سباق في تبادل الأدوار ، إذ تظهر واضحة بأشعتها وحرارتها احيانا ، وتحتجب خلف ستار الغيوم احيانا اخرى ، الا اننا عندما اقتربنا الى خباروفسك اكتشفنا أن نوافذ الطائرة قد غطت زجاجها بعض حبيبات المطر ، قلنا انها قد تكون من الندى أو الرطوبة ، لكن الرذاذ كان يداعب الطبيعة وما عليها عندما وصلنا المدينة .

وفي المساء خرجنا نستطلع معالم المدينة ، فاذا بضوء الغروب على الرغم من وجود الغيوم والمطر قد بقي مسيطرا على مشهد الطبيعة حتى حوالي الساعة العاشرة مساء . هدتنا كشافات قوية الانارة الى « الكورنيش » الذي يحاذي النهر عندما كنا نهبط نحوه ، واكتشفنا ان النهر واسع كالبحر ، وانه يحيط بالمدينة من عدة جهات ، كما اكتشفنا اننا لسنا وحدنا داخل غابة الأشجار التي تحتل التلة ، والتي تنحدر تدريجيا فتقف حدودها عند حدود المياه . قلت اننا لم نكن وحدنا في غابة التلة الصغيرة ، كنا نسمع أصواتا عن بعد ، أو وقع أقدام ، أو نغمات موسيقية تتردد بين الحين والآخر ، إنهم العشاق أو بعض شلل المراهقين ، كانوا يمارسون بعض « شقاواتهم » وأحاديثهم ، ويملأون ليل الغابة همسا ، وأحيانا صخبا وموسيقا .

كانت بعض المنارات الصغيرة ترسم حدودا في بحر المياه الممتدة أمامنا ، وكانت بعض المراسي ومكاتب الحجز والارشادات تلاطمها الأمواج . قررنا العودة الى الفندق بعد ان ازداد هطول المطر ، لنكتشف ان الفندق يكتظ بروادة من الايطاليين والاسبان واليونانيين والانجليز ورعايا الدول الاسكندنافية ، ونسبة كبيرة من السوفييت واليابانيين . وغالبية الرواد من السياح الذين شاهدناهم في المطار اما قادمين او مغادرين يأتون في مجموعات مدة معلومة الزمن .

إذن فالشرق الأقصى بما فيه من غنى وتناقض في الطبيعة هو مقصد السياح على الرغم من مشقة السفر والبعد .

سوسلوف في خباروفسك

في اليوم التالي بدأ برنامجنا الرسمي في زيارة شخصيات مدينة خباروفسك ومعالمها ، فكان لقاؤنا الأول في مبنى فرع اللجنة المركزية للحزب .

حدثنا السيد سوسلوف الأمين العام للحزب ، وهو ليس منظر الحزب على صعيد الاتحاد السوفيتي كله . قال : « مدينتنا خباروفسك التي حملت اسم المكتشف خباروف مدينة شابة ، عمرها لا يصل الى ١٣٠ سنة ، وقد تطورت من نقطة عسكرية الى قرية ثم الى مدينة ، ثم الى عاصمة لمنطقة خباروفسك كلها ، حيث وصل عدد سكان المدينة الى مايقارب ٦٠٠ ألف نسمة ، وتبلغ مساحة المنطقة كلها حوالي ٨٢٥ ألف كيلومتر مربع ، وعدد سكانها يزيد على مليون ونصف مليون . يخضع الاقليم لتأثيرات قارية ، فتسود فيه الرطوبة خاصة في فصل الصيف نتيجة لقربه من المحيط الهادي ومعظم المنطقة جبلي ، وأكثر من ٥٠٪ منها مغطاة بالغابات . التي تزخر بحيوانات (كالدب والنمر) وطيور ونباتات وأشجار هي خليط مما هو موجود في الشمال البارد والجنوب الحار . يقسم الاقليم الى ٢٢ ناحية ادارية على وجه التقريب ، بما فيها مقاطعة بيروبيجان

المحاذية للحدود الصينية ، ولا تبعد مدينتنا عن الحدود الصينية إلا ٣٠ كيلومترا فقط ، وفيها حوالي ١٢٠ نهرا كبيرا وصغيرا ، أهمها وأكبرها نهر آمور الذي ينبع من المرتفعات المنغولية ، ويقطع منطقتنا خط سكة حديد سيبيريا الذي يصل الى أبعد نقطة في الشرق الأقصى المتمثلة في مدينة فيلا وفستوك ، وهو الخط القديم الأول ، كما أن خط « بام » بايكال - آمور - الذي يزيد طوله على ثلاثة آلاف كيلومتر يمر في منطقتنا مسافة تزيد على ٧٠٠ كيلومتر ، وقد تم « تدشينه » رسميا سنة ١٩٨٤م ، وعليك أن تلاحظ أن أهم مدننا وأشهرها قد قامت على هذين الخطين ، وعلى سواحل المحيط الهادي .

وتابع السيد سوسلوف - تماما كأي مسؤول - ذكر المعلومات المتعلقة بالمدينة والمنطقة ، محاولا قدر الامكان تقديم الوجه الايجابي ، قائلا : إننا بعيدون نسبيا عن المناطق المركزية في بلادنا ، لذلك فإننا نحاول قدر الامكان الاعتماد على انفسنا في شتى مجالات الحياة ، إننا نصنع كل شيء تقريبا ، كما اننا نستورد ما نحتاجه من البلدان القريبة لنا ، كالصين الشعبية واليابان وغيرهما .

سألت : أما زالت تجارتكم قائمة مع الصين ؟

أجاب : نعم ، مازالت قائمة ، يستوردون ما يحتاجونه منا ، ونستورد ما نحتاجه منهم ، ولم يؤثر الاختلاف إلا في بعض المجالات .

● هل انتهت مشكلة الحدود على نهر آمور بينكم وبين الصينيين ؟

- مازالت المفاوضات قائمة ، ونأمل ان تنتهي الى حل يرضي البلدين . وأضاف السيد سوسلوف : بعد المؤتمر ٢٧ للحزب الشيوعي السوفيتي سنة ١٩٨٥ ركزنا جهودنا لحل مشكلة السكن ، وهذا لا يعني أنها مشكلة مستفحلة ، صعبة الحل ، بل انها مشكلة من مشاكل عديدة نسعى لمواجهتها وحلها ، ونأمل ان يحصل جميع الأفراد على شققهم الخاصة ، وقد وضع هذا الأمر على رأس الخطط التي تنتهي مع نهاية هذا القرن .

وقد بدأت بعض المصانع العمل حسب الربح والخسارة ، كما بدأت ببناء بيوت سكنية لعمالها ، اضافة لما تبنيه الدولة ، كما ان بعض المصانع قد بنى الروضات والاستراحات والمستشفيات وغيرها للعاملين فيها .

ومضى السيد سوسلوف قائلا : إننا نقدم الكثير ، لكن احتياجات الناس دائما اكثر ، إننا نتحدث حوالي ١٥٠٠ مقعد للتلاميذ سنويا ، ونبني مدرستين جديدتين كل سنة ، ومع ذلك ففي بعض المناطق تعمل مدارس على فترتين صباحية لعدد من الطلبة ومسائية لآخرين غيرهم ، إن مهمتنا هي توفير مدارس اكثر ، كي تصبح الدراسة على فترة واحدة فقط . وتحدث السيد سوسلوف عن المستشفيات والعيادات (يوجد لديهم ٤٠ طبيبا لكل ١٠ آلاف نسمة) وعمل مزارع الدولة ، والمزارع التعاونية ، ومشاكل الخدمات في المدينة ، وغيرها ، وذكر ان ٧٠٪ من سكان المنطقة يعملون في المدن ويسكنون فيها ، نظرا لتركز المصانع والادارات في هذه المدن . ثم علق : في الحقيقة ان هناك خدمات مختلفة تنقصنا ، لكننا مع ذلك نعرف نقاط ضعفنا ، ونسعى لتقويم مجمل الخدمات لتوفير حياة مناسبة لجميع الناس .

وسيط مهم

عن الجوانب الثقافية في المدينة تحدثت السيدة غالينا غشروفا السكرتيرة في اللجنة المركزية لمدينة خباروفسك فقالت : إن موقع مدينتنا يساعدها على أن تكون ميناء تجاريا ممتازا ، إذ ينقل عبر نهر آمور وعبر مدينتنا كثير من المصنوعات والمنتجات الى دول الشرق الأقصى كالصين واليابان وكوريا وغيرها ، ونتلقى بعض احتياجات بلادنا عن هذا الطريق . وخباروفسك ميناء نهري ، لكنها ليست الوحيدة في هذا المجال ، لأن مدننا غيرها في الشرق الأقصى السوفيتي تمارس هذا الدور خاصة الموانيء البحرية منها .

وقد مارست مدينتنا دورها التجاري بنجاح ، وهي تلعب نفس الدور على الصعيد الثقافي ايضا ، فهي مدينة سياحية ، ومحطة سياحية وثقافية مهمة ومنها يمكن الانتقال سواء بالطيران ، أو بخط سكة الحديد او عبر النهر . وكثير من الفرق الفنية والثقافية تجعل من هذه المدينة محطة للانتقال بين الشرق والغرب ، ويوجد فيها ثلاثة مسارح كبيرة : درامي ، وموسيقي ، ومسرح الأطفال ، إضافة الى ٢٨ ناديا ثقافيا ، وحوالي ٢٠ دارا للسينما ، وفرقة للموسيقا

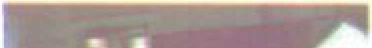

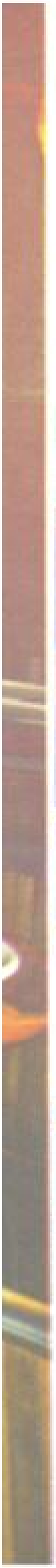

● مطعم كوري .. يدار حسب السياسة الاقتصادية الجديدة ، لكن بقيت المحاسبة فيه حسب الطريقة القديمة !

السيمفونية ، وتصدر فيها صحيفة يومية ، توزع في المنطقة كلها ، اسمها « نجمة المحيط الهادي » ، ويطبع منها ١٦٠ ألف نسخة ، وصحيفة يومية للشباب ، و١٦ صحيفة تابعة لمؤسسات ومصانع محلية ، ومجلة شهرية ثقافية اسمها « الشرق الأقصى » ، يطبع منها مائة ألف نسخة ، و١٣ معهدا دراسيا عاليا ، كمعهد البولتكنيك ، ومعهد الطب ، ومعهد الهندسة الخاص بالسكك الحديدية ، ومعهد الاقتصاد ، وغيرها ، بالاضافة الى ١٨ مدرسة تقنية فوق مستوى الثانوية لتخريج « الكوادر » المتخصصة للعمل في المصانع والمنشآت الصناعية والادارية ، و٨٠ مدرسة ثانوية ، ومدرسة للفنون العامة ، واخرى للفنون الموسيقية . ويصل عدد الطلبة فيها الى حوالي ٨٠ ألف طالب في كل مراحل الدراسة . وقد أضاف السيد الكسندر بوشارنيكوف مدير ادارة الثقافة في منطقة خباروفسك كلها،معلومات اخرى حول الثقافة ، فقال : يوجد ٦٠٠ ناد ثقافي في المنطقة كلها تقريبا ، كما ان فيها حوالي ٦٤٠ مكتبة عامة ، و١١ متحفا ، منها متحفان في مدينة خباروفسك وحدها ، الأول مقصور على تاريخ الشرق الأوسط كله ، والثاني مقصور على مدينة خباروفسك نفسها ، بالاضافة الى ١١ استراحة ثقافية ، ومدرسة « كوادر » للذين يتأهلون للعمل بالمكتبات العامة ، واخرى متخصصة بتخريج « الكوادر » الذين سيعملون في قضايا الريف الثقافية .

سألت الأمين العام للحزب والسيدة السكرتيرة : كيف تنظرون الى السياسة الاقتصادية الجديدة ؟ والا توجد مخاطر في بروز مراكز استغلالية طفيلية ؟

أجاب السيد سوسلوف : أرى انه لا توجد أخطار في السياسة الاقتصادية الجديدة ، التي قضت بادخال ظاهرة كانت على « هامش » السوق والاقتصاد لتصبح جزءا منها ، ولقد تم ادخال الأعمال التي يقوم بها المتقاعدون وربات البيوت والموظفون الذين يمارسون اعمالا فردية بعد دوامهم الرسمي وغيرهم للمشاركة في دورة الاقتصاد رسميا وعلنيا ، وبامكان اية مجموعة تجد تجانسا في عملها تأسيس تعاونيات مختلفة ، وان هذا الاجراء قد أدخل قوى جديدة في مسار الاقتصاد السوفيتي ، وهذا لا يعني ان كل من يقدم طلبا لممارسة عمل خاص او اقامة تعاونية سيحصل على موافقة مباشرة ، فالأمر يتطلب دراسة الجدوى ، وظروف العمل ، والقدرة على تسديد الضرائب دون استغلال الفرد لجهود الآخرين . إن هذا الأمر لم يطلق على عواهنه ، بل إنه يخضع للرقابة وتقدير الجدوى . وأضاف السيد سوسلوف : سترى ذلك بنفسك عندما تزور احدى التعاونيات .

مطعم تعاوني كوري

قبل ان يبدأ الزبائن والرواد بارتياد المطعم التعاوني الكوري الذي تم افتتاحه في الشهر الخامس من سنة ١٩٨٧ والذي يدار حسب نظام التعاونيات الجديد ، التقينا بمديره السيد الكسي كيم ، قال : أنا من مواليد كازاخستان عام ١٩٥٦ ، وقد انتقلت للعمل في الشرق الأقصى ، أصولي كورية ، لكنني سوفيتي (توجد أقلية من اصل كوري في المنطقة ، وعلينا ان نتذكر بأن السوفييت ساهموا في تحرير الكثير من مناطق الشرق الأقصى قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها وبعدها من الاحتلال الياباني ، ومنها كوريا الشمالية) .

وأضاف الكسي : كنت عاملا في مصنع كيماوي ، وآخر معاش تقاضيته في المصنع كان ٢٠٠ روبل شهريا (يعادل حوالي ٢٢٥ دولارا أمريكيا حسب سعر الصرف الرسمي) . وقد وجدت لدي الرغبة في الطبخ والادارة ، فشجعني الأصدقاء ، ثم شجعتني السلطات المحلية على افتتاح هذا المطعم (يحتوي على ١٥ طاولة تقريبا ، ويقدم فيه الطعام الكوري والصيني والروسي والياباني ، وطعام دول اسيا الوسطى السوفيتية) .

* هل أنت عضو في الحزب ؟

ـ لا ، لست عضوا في الحزب .

* من منحك البيت الذي تسكنه ؟

ـ أملك بيتا خاصا .

* ما هي خطوات انشاء المطعم ؟

ـ من خلال اتصالاتي بالأصدقاء كونا مجلس ادارة للمطعم من خمسة أشخاص ، عضوان متقاعدان ، وربة بيت ، أما الاثنان الآخران فقد كانا موظفين ثم استقالا ، وتفرغ الأعضاء لادارة « تعاونية المطعم » ، بينهم مدير التعاونية والمفتش والمحاسب إلخ . وقد ساهم آخرون في التعاونية لاحقا ،

واستأجرنا المكان من الحكومة بمبلغ ٣٠٩ روبلات شهريا ، كما أننا نشتري الخامات والمعدات من الأسواق الحكومية ، ومن أسواق الريف ، وندفع مصاريف أخرى مقابل استئجارنا للطاولات والكراسي ، وندفع مصاريف كهرباء ، وغيرها .

وقد دفع المؤسسون جزءا من رأس المال ، كما ان الدولة منحتنا قرضا وكنا متخوفين في البداية . وقد نشرنا اعلانا في الصحف كي نلفت نظر الزبائن ، الا ان العمل نجح وجاء الزبائن ، وها نحن مازلنا مستمرين .

وقد أنشأنا صناديق تعاونية لتطوير المكان وتحمل مصاريفه والتأمين عليه ، وصندوقا للتأمين الشخصي على العاملين فيه ، وما يتبقى نصرفه على احتياجات آنية أخرى ، وما فاض عن ذلك من الدخل يوزع على العاملين فيه . يعمل في المطعم ٢١ عاملا وعاملة من أصول كورية وصينية وروسية ، وجميعهم سوفيات ، وزبائن المطعم كما ترى من جميع قوميات الاتحاد السوفيتي (بدأ الرواد في تلك اللحظة يتوافدون على المطعم) .

يعمل العمال في فترة التأسيس ١٢ ساعة يوميا ، وقد قررنا ذلك لهذه المرحلة ، وأرى ان العمل مدة ٨ ساعات هو الأنسب لقدرة الانسان ، ونحن نعوض العاملين عن الساعات الاضافية .

* ما هو سعر الوجبة الواحدة ؟

- الوجبة الكاملة ذات الأطباق المتعددة تصل الى ٣ روبلات (حوالي ثلاثة دولارات ونصف دولار) .

* الا ترى ان هذا الثمن غال بالنسبة لدخل الناس ؟

- إننا نضع سعر الوجبات بناء على دراسة تكلفة الخامات والمصاريف الأخرى التي تتبعها ، وأرى أن سعرها مقبول معقول ، وإلا لما رأينا هذا الاقبال من قبل الرواد كما ترى .

* ما هو المعدل الوسطي للمعاش الشهري للعامل في مطعمكم التعاوني ؟

- إنه يصل الى ٤٥٠ روبلا على وجه التقريب .

* ما هو تقييمك للتجربة حتى الآن ؟

- نحن أشخاص بسطاء كادحون ، نعمل لأجل الآخرين وراحتهم ، وهدفنا ليس الربح ، ومع ذلك فإن التجربة من وجهة نظري ناجحة مربحة ، وتمثل استجابة لرغبات نسبة ليست قليلة من الناس ، وأساسها جذب من تقاعدوا أو ربات البيوت او الطلبة وغيرهم كي يصبوا جهودهم في مجرى الاقتصاد العام ، وان يمارسوا نشاطاتهم ضمن القوانين المرعية ، وليس سرا (السوق السوداء) .

* هل يمكن ان ينقلك ناتج العمل هذا مع غيرك من العاملين الى مرحلة الغنى وحيازة اموال كثيرة ؟

- إننا نعمل في إطار مجتمع اشتراكي ، ونظام السوق في مجتمعنا يختلف عما عداه ، إننا لا نمارس استغلال ناتج عمل الآخرين ، لأن تأسيسنا للجمعية - المطعم - كان دافعه ليس الربح ، بل خدمة الناس ، وكلمات الشكر التي نلقيناها ونتلقاها من زبائننا تمثل ثروة وحافزا لنا لتجويد عملنا وتحسينه .

نذير المطر

تحتل الغابات مساحة قد تصل الى ما يزيد على ٥٠٪ من مساحة اقليم خباروفسك ، لذلك فانه من الطبيعي ان تولي السلطات اهتماما لهذه الثروة الطبيعية المهمة ، من حيث استفادتها منها بصناعة الأخشاب والورق .

وقد أنشأت (السلطات) معهدا علميا ، متخصصا لدراسة الغابات اعتبارا من سنة ١٩٣٩م ، حدثنا السيد الكسندر شيتجاوز رئيس المختبر فيه ، فقال : كان المعهد وحيدا في اربعينيات هذا القرن ، الا أن الحاجة حتمت التوسع في عمل المعهد ، فتم افتتاح ١١ قسما تابعا له ، مع سبعة مختبرات ، ويعمل فيه ٢٠٠ عالم وعامل ، همهم دراسة كل ما يتعلق بالغابات واشجارها دراسة علمية ، وقد ألحق بالمعهد في خباروفسك محمية صغيرة مساحتها ١١ هكتارا ، تنمو فيها جميع انواع الأشجار المتوافرة في المنطقة ، وهذا يوفر للدارسين والباحثين افضل الفرص للدراسة والمتابعة . وأضاف السيد الكسندر بعد ان رافقنا في جولة داخل الغابة المحمية : إن الأشجار المتوافرة في المنطقة هي خليط من أشجار المناطق الباردة والحارة ، تماما كمثل كثير من ثروات الطبيعة الأخرى ، كالحيوانات والطيور وغير ذلك .

منها الأرز والصنوبر والبلوط والجوز والباتولا ، والاجاص ، والتفاح ، والعنب البري ، والتوت ، ولا ننس أن في منطقتنا تتوافر جذور الجنسنغ التي يحاك حول مفعولها الصحي كثير من الأقاويل .

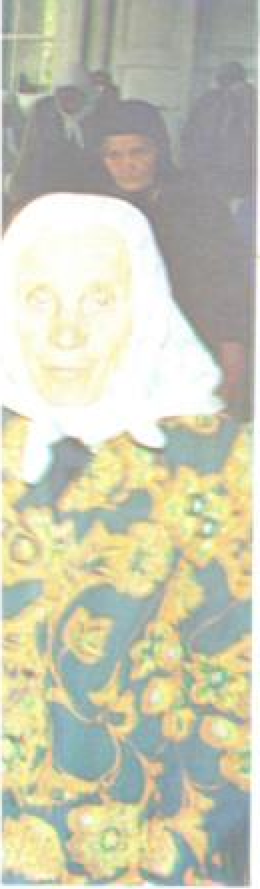

● محاربون قدماء بملابسهم المختلفة ولباشيهم المميزة اللماعة - أعلى - متحف مدينة خباروفسك .. وأطفال يرون التاريخ مجددا - وسط - الجد ستيبان والجدة مايا يحتضنان حفيدتهما تاتيانا - أسفل - داخل كنيسة مدينة خباروفسك وجوه تنطق بالخشوع والرجاء وإلى (اليمين) مصنع للمصانع في الشرق الأقصى البعيد .

ويوجد غيرها من النباتات التي يستفاد منها في صناعة الدواء . ويتتج في المنطقة ٪١ العسل الطبيعي في الاتحاد السوفيتي ، ويعيش فيها عشرات من أنواع الطيور والحيوانات .

ولم يكتف السيد الكسندر بإطلاعنا على أشجار المحمية ونباتاتها ، بل رافقنا الى غابة حقيقية ، تبعد عن مدينة خباروفسك حوالي ٢٤ كيلومترا ، ومساحتها تقارب ٢٢ ألف هكتار .

إن كثافة الأشجار قد جعلت رطوبة المكان مرتفعة . لذلك أخذ العرق يسح على أبداننا ونحن نتجول فيها ، وقد أخذت الغربان الكثيرة في الغابة تطلق أصواتها المميزة ، كما أن صوت طائر « الكانيوك » قد أخذ يتردد ويضارب على ماعداه ، وقد أكد السيد الكسندر بأن صوتي الغراب والكانيوك هما تدبير بأن المطر قادم لا محالة ، (وتساقطت رشقات من المطر وتتابعت بعد ذلك) .

تجولنا بين أشجار الأرز والصنوبر والباتولا ، ووجدنا كثيرا من الكمأ ينمو طبيعيا بين الأشجار ، وبعضه كان ينمو حتى على الصخور ، وقد ذكر السيد الكسندر ان بعض أشجار الأرز في الغابة يزيد عمرها على ٥٠٠ سنة ، وذكر أنه بالاضافة إلى أن الغابة ثروة طبيعية فهي متنزه طبيعي للسكان ، يستروحون فيها ، ويتعايشون مع الطبيعة البكر بكل مافيها من طيور وحيوانات واشجار ونباتات وتلال وجبال وصخور .

خريف العمر

طلبنا من مرافقنا بأن لا تنحصر زياراتنا بالمكاتب والورش والمصانع الرسمية ، وكنا نريد ان نخترق علب الأسمنت المغلقة ، ونصل الى المعايشة مع النبض الانساني الذي يسكنها ، نريد بشرا لا يحدثوننا عن الانجازات والمشروعات ، بل عن احلامهم واحباطاتهم ، وآمالهم ، وما حققوه ، وما لم يستطيعوا تحقيقه في رحلة حياتهم ، وعن التوهج والعنفوان والصورة التي آلوا اليها الآن .

وهكذا ، انتقلنا الى احد الأحياء ، بعض عماراته قديمة نسبيا ، ومساحاته تمتليء بالأطفال وصياحهم ومرحهم ، بعضهم يمتطي الدراجات وآخرون سكنوا في العربات وأسلموا قيادها للأمهات ، وبعض العجائز جلسن على أبواب البيوت كسائنا الشرقيات تماما ، وبعضهن جلسن على مقاعد تحاذي البنايات ، يهذرن ، وربما يسترجعن أياما مضت .

شقة عادية فيها غرفة نوم ، وغرفة صالون ومطبخ وحمام ، ولاشيء غير ذلك ، وفي الشقة رجل وامرأة مسنان ، هما سيميان بوليكوتين ، ومايا ، ترافقهما حفيدتهما تاتيانا . لقد أحيلا الآن على التقاعد ، ومضى قطار العمر بهما فوصل الى محطة الخريف ، فكيف كانت رحلة الحياة ؟

ـ قال الرجل : لقد عملت مدرسا فنيا حوالي ٣٥ سنة ، ١٧ سنة منها في مدرسة واحدة في خباروفسك ، وقد تخرجت في مدرسة المعلمين في بيروبيجان سنة ١٩٥٣ بالمراسلة ، وكنت أذهب الى بيروبيجان لأداء الامتحانات فقط . كان معاشي في البداية ٦٠٠ روبل ، وانخفض مع تقدم السن وانخفاض تحمل المسئوليات الى ٢٥٠ روبلا ، أما معاشي التقاعدي فهو ١٣٢ روبلا فقط .

* هل يكفي هذا للمعيشة ؟

ـ نعم يكفي ويزيد ، فالبيت قد حصلت عليه من تعاونية المعلمين ، وحصلت على قروض لتسديد ثمنه سبعة الاف روبل ، أسددها خلال ٢٥ سنة ، أي أدفع حوالي ٢٥ روبلا في الشهر ، يضاف الى ذلك حوالي عشرة روبلات للكهرباء والماء ، والباقي أصرفه على المآكل والملابس وغير ذلك .

* أين ولدت ؟

ـ لقد ولدت في منطقة خباروفسك .

* والسيدة مايا ؟

ـ أنا من مواليد منطقة تبعد عن مدينة موسكو حوالي ٢٥٠ كيلومترا . بعد أن تخرجت في معهد المعلمين أخبرونا بأن نقضا في « كوادر » المعلمين تعاني منه خباروفسك ، فطلبت ان يرسلوني إليها . وفعلا حضرت سنة ١٩٤٩ مدرسة للغة الروسية . وقطع الرجل الحديث وعلق : لقد تعرفت على مايا سنة ١٩٥٠ ، وعندما أخبرتها برغبتي في الزواج منها أرسلت رسالة الى أهلها ، وجاءتنا الموافقة ، فذهبنا الى مكتب الزواج وعقدنا قراننا في نفس تلك السنة .

* لماذا لم تذهبا الى الكنيسة ؟

ـ نحن ماديان وحزبيان في نفس الوقت ، لذلك فان الطقوس الدينية غير مهمة بالنسبة لنا .

* وبعد ذلك ؟

ـ هنا بادرت المرأة الى مسك زمام الحديث ، وتركت للرجل بعض التعليقات الجانبية البسيطة ، قالت : لقد عشنا مع والدي زوجي حوالي تسع سنوات ، ثم توفيا بعد ذلك ، وقد أنجبنا بنتا وولدا ، البنت تزوجت ، وذهبت لتعيش مع زوجها المدرس الذي تخرجت معه في معهد المعلمين في مدينة كومسمولك الواقعة في منطقة خباروفسك ، ولها ولد وبنت .

أما الولد فقد تزوج أيضا ، ويعيش في مدينة نوريلسك في الشمال ، أما بالنسبة لأهلي ـ مازالت الزوجة تتحدث ـ فإن أبي توفي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبقيت أمي ، وكنا نزورها بين فترة وأخرى الى أن توفيت ، أما اخوتي فقد جاءوا الى مدينة خباروفسك ، وعملوا فيها ، ونزورهم ويزوروننا .

● سألت الرجل : كم مضى على تقاعدك حتى الآن ؟

ـ قال : لقد مضت سنة على تقاعدي ، ولم ألتحق بعمل آخر حتى الآن ، إنني أستريح وأدرس أفضل العروض كي أتابع العمل .

● هل عندكما سيارة ؟

ـ أجابت المرأة : يوجد عندنا نقود كافية ، لكننا لا نريد شراء سيارة .

وأضاف الرجل : إنني كجندي سابق قد كافحت ضد الفاشست فإن عندي تسهيلات عديدة لشراء الأشياء التي أريدها ، لكنني لم أمارس السياقة في شبابي ، ففضلت عدم السياقة في شيخوختي .

صاحب القرار

● من صاحب القرار في البيت ؟

ـ نظر الرجل الى زوجته وعلق : إننا نتشاور في كل ما نصادفه في حياتنا ، ونتخذ قرارا مشتركا .

● لو واتتكما فرصة للعيش في مناطق أخرى قريبة من موسكو ، أو المدن الأوروبية المركزية الأخرى ، فهل تفعلان ؟

ـ أجابت المرأة بحسم : لقد أحببنا المنطقة ، وأمضينا معظم حياتنا فيها ، فلماذا نغادرها ؟ لقد كنا نمضي ٣٠ ساعة طيرانا في الخمسينات كي نصل إليها ومع ذلك فإننا لم نكرهها ، ولم نغادرها على الرغم من كل المشاق ، إنها مناطق جبلية واسعة ، وطبيعتها غنية ، وهي سائرة في ركب التقدم تماما كالمناطق المركزية .

● كيف تمضيان أوقات فراغكما ؟

ـ قال الرجل : إننا نقرأ أدب بوشكين ، وشولوخوف ، وتشيخوف ، وغيرهم ، كما أننا نتابع كتابات الأدباء الجدد ، مثل ايتماتوف ، وراسبوتين ، وشوكشين وغيرهم .

● هل اطلعتما على الأدب العربي مترجما ؟

ـ لا ، لم نقرأ أدبا عربيا مترجما ، قرأنا ألف ليلة وليلة فقط ، ووجدنا فيها خيالا بديعا ، إضافة الى القراءة ، فإننا نشاهد الأفلام السينمائية والعروض المسرحية ، ونهتم بالزراعة أيضا ، إذ أننا منحنا قطعة أرض تبعد حوالي ١٥ دقيقة عن المدينة ، نزرعها خضراوات وبعض الأشجار المثمرة ، كما أنني أهتم بالرسم والنحت على الخشب ، وهي مهنة أفنيت فيها حياتي . ونزور الأهل والجيران والأصدقاء تماما كغيرنا من الناس .

النصوص أم النفوس ؟

وعندما غادرنا الشقة ، ومضينا في طريقنا كانت العجائز جالسات على المقاعد يراقبن الأولاد ، ويثرثرن ربما عن عمر مضى .

واقترب زميلي المصور لالتقاط بعض الصور فهن فأنزل بعضهن المناديل التي تغطي جزءا من رؤوسهن على وجوههن ، وابتعد زميلي وتظاهر بالاستسلام ، لكنه شغل عدسته المكبرة ، فحصل على لقطاته المطلوبة .

همس مرافقنا : ما رأيكم بزيارة الكنيسة ، والتعرف على جانب من جوانب الحياة الدينية في هذه المدينة البعيدة ؟

ـ أجبنا : إننا نمقت التعصب ، ويهمنا الاطلاع إذا ما كان ذلك يثري موضوع استطلاعنا ، ويطلعنا على جوانب لم نتطرق إليها من قبل في الحياة السوفيتية .

كان الوقت ظهرا (الثلاثاء ١٩٨٧/٨/٤) يحيط بالكنيسة سور خشبي ، وحتى الكنيسة نفسها فإن أجزاء منها مبنية من الخشب ، وتتكون من طابق واحد بسيط عادي ، وفيها قاعة كبيرة للصلاة ، وبضع غرف أخرى ملحقة . دخلنا القاعة الكبيرة ، مجموعة من نساء كبيرات في السن يغطين رؤوسهن بمناديل ، يركعن أو يأتين بحركات التثليث المعروفة ، وقس يلقي موعظته ، وشموع كثيرة في المكان ، وبعض الصور التي تمثل السيد المسيح في

● على ضفة نهر آمور .. عارضتان تعرضان أزياء تخص شعوب المنطقة التي أصبحت أقلية .

مراحل عمره المختلفة .

عندما انتهى القس الشاب فاليري فاسيليين من إلقاء موعظته التحق بنا ، وجلسنا معا على أحد المقاعد الكبيرة . قال : إن الكنيسة تعرف باسم « ولادة المسيح » ، ويمكن للانسان عند طائفة الأرثوذكس أن يصبح راهبا دون أن يدخل في معهد ديني ، فإن ذلك يعتمد على الاطلاع الشخصي والثقافة الشخصية الدينية . (كان يتكلم بتؤدة وبحذر ، ويجيب بعد أن يتمعن بالسؤال مليا) .

● ألا توجد معاهد دينية مسيحية في الاتحاد السوفيتي ؟

ـ إنها موجودة ، اثنان للتعليم العالي في زاغورسك ، في ضواحي موسكو ، والثالث لينغراد ، كما توجد ثلاثة معاهد أخرى للدراسة المتوسطة ـ مستوى ثانوية عامة ـ في لينغراد وزاغورسك واوديسا .

● كيف أصبحت قسا في مجتمع لا يحض على التدين ؟

ـ لقد تخرجت من معهد العلاقات الدولية في موسكو سنة ١٩٧٤ . كنت شابا ولم يكن يعنيني الدين ، لكن عندما أصبح عمري ٣٠ سنة (من مواليد سنة ١٩٤٧) وبعد قراءتي المتعمقة للكتب المقدسة ، أخذت ميولي تتنامى نحو الدين ، ووطدت في نفسي أن أصبح قسيا ، فراسلت الأكاديمية الدينية في زاغورسك ، وتلقيت دروس الدين بالمراسلة ، ومازلت أتعلم بالمراسلة . ثم كرست نفسي لخدمة الدين ، فجئت الى خباروفسك ، وتوليت رعاية هذه الكنيسة والوعظ فيها ، إن هدفي هو خدمة الله والناس .

● لقد كان المصلون أقلية ، وغالبيتهم نسوة كبيرات في السن .

ـ نعم إن ذلك صحيح ، لكنهم يزدادون أيام الآحاد وفي أيام الأعياد ، أما اليوم فهو يوم عمل ، والناس مشغولون في أعمالهم ، وحياتهم المادية تشغلهم ، وحتى في أيام الآحاد يأتي للصلاة رجال قليلون .

● هل هناك إجراءات رسمية تحد من التوجه للصلاة ، أو تمنع أحدا من الدخول إلى أماكن

● تنتج منطقة خباروفسك الكثير من المواد الزراعية والصناعية وهذا هو سوق الخضار

● بناء يجمع الطابع الأوروبي بالصيني في الشارع الرئيسي من مدينة خباروفسك .

العبادة ؟

ـ أجاب بدبلوماسية : لا أشعر بأي ضغط من أية جهة ، ولا أحد يمنعني من أداء عملي ، وأبواب الكنيسة مفتوحة للجميع .

● هل أنت راض عن وضع الناس الايماني ؟

ـ لو قلت إنني راض عن ذلك فإنني أكون قـيـاسيا ، إنني أحرص دائما على القيام بواجبي ، وعمل كل ما أعتقد أنه خير ، ودائما أشعر بأن عليّ أن أعمل أكثر مما عملت .

● هناك أقاويل كثيرة عن اضطهاد المؤمنين في الاتحاد السوفيتي ، فما هو تعليقك ؟

ـ لا أعرف كثيرا عما يقال ، ولا أريد الخوض في مناقشة هذا الأمر ، وباعتقادي أنه توجد في كل مجتمع تصورات جامدة عن المجتمعات الأخرى ، وربما يكون بعض هذه التصورات سلبيا وغير صحيح ، وإن الحياة أكثر تعقيدا من التصورات .

● من خلال اطلاعك على الكتب المقدسة ، هل تجد ان التناقضات التي تشحن الخلافات قائمة في النصوص أم في النفوس ؟

ـ أنا متيقن بأنه لا يوجد تناقضات وعداء بين الأديان ، إنما المصالح والأهواء هي التي تشعل نار الفتن بين الناس . لقد دعانا السيد المسيح عليه السلام إلى محبة بعضنا بعضا والى السلام ، فإذا لم نتبع ذلك فإن الذنب ذنبنا نحن البشر ، وأنا على يقين بأن الكتب المقدسة تحتوي على كل ما هو ضروري لخلاص الانسان والسير على الصراط المستقيم .

مصنع المصانع

إن منطقة خباروفسك غنية بالمعادن والثروات الطبيعية كالحديد والخشب والفحم ومساقط المياه والنحاس والتنك وغير ذلك ، وتوجد في خباروفسك مصفاة كبيرة للنفط ، يصل إليها من منابعه في جزيرة سخالين ، كما أن الثروة السمكية النهرية والبحرية متوافرة بكثرة ، ويتم استخراج الكافيار الأحمر من سمك السلمون في بعض الموانىء النهرية والبحرية في المنطقة .

إن وجود هذه الثروات وغيرها حتمت قيام صناعة مزدهرة في المنطقة ، كي تستجيب للمتطلبات المحلية أولا ، وكي تساهم مع غيرها من المناطق في توفير حاجات السوق السوفيتي .

هذه هي المقدمة التي ذكرها لنا السيد اليكسي زفارزين القائم بعمل مدير مصنع الآلات التي تصنع الآلات في مدينة خباروفسك بحضور مجموعة من قيادات المصنع . وذكر السيد اليكسي أن المصنع قد تأسس سنة ١٩٥١ ، وكان عدد العاملين فيه ١٥٠ عاملا ، في حين أن عددهم قد وصل الى ١٥٠٠ مهندس وعامل الآن ، بينهم ٥٤٧ امرأة وفتاة ، والشبان والشابات بينهم يصل عددهم إلى حوالي ٣٠٠ فرد .

● سألت : في كل ورشة أو مصنع زرناه في الاتحاد السوفيتي وجد أن القائمين على العمل فيه يقدمون « جرد حساب » عن المساكن التي بنوها للعمال ، والاستراحات أو روضات الأطفال التي بنوها لأطفال العاملين وغير ذلك . فهل هناك أزمة في هذا المجال تحاول المؤسسات مساعدة الجهات الحكومية في حلها ، أم أن المقصود هو تبيان الجانب الانساني الذي يركز على أن حقوق العمل لا تتركز في جانب واحد هو جانب الأجر المادي فقط ؟

ـ تمعن السيد زفارزين لحظة في السؤال ، وألقى نظرة على زملائه ، ثم قال : إذا كان العمل حقا لكل إنسان في بلادنا فإن تقديم خدمات أخرى غير الأجر هي حق أيضا . لذلك فإن إدارات المصانع وغيرها معنية تماما بتوفير أفضل الأجواء والخدمات ، كي تجعل من حياة العاملين أكثر تقدما ورفاها . صحيح ان الجهات الحكومية ما زالت توالي الجهود للتغلب على أزمة السكن على سبيل المثال ، لكن مع ذلك فالزيادة المطردة في عدد السكان تحتم التوجه لزيادة عدد الوحدات السكنية ، وتكثيف العمل في هذا المجال ، لذلك فإننا تحاول من جهتنا المساعدة في هذا المجال ، وتقديم مساكن مناسبة للعاملين في المصنع . وقد بنينا ١٦٥ شقة في العام الماضي ، وهذا العام ، كما أنه يوجد ناد خاص بالعاملين ، ومعسكر للطلائع ، وفندق ، وروضة أطفال تتسع لحوالي ٢٨٠ طفلا ، ومطعم يتسع لحوالي ٣٠٠ فرد .

ووضعنا في خطتنا أن نبني ٦٠ شقة جديدة سنة ١٩٨٨ ، كما أن آلات مصنعنا سيتم تجديدها كاملة في عام ١٩٨٨ أيضا ، وسنبدأ بالعمل من خلال برنامج الربح والخسارة اعتبارا من بداية نفس العام ، وفي نهاية خطة الخمس سنوات القادمة فإننا سنصنع آلات مبرمجة « بالكمبيوتر » ، كما أننا وضعنا في خططنا علاجا لمسألة قلة المعروض من الشقق السكنية ، لينال كل إنسان حقه كاملا اعتبارا من سنة ١٩٩٥ .

● هل نسبة الحزبيين في المصنع كبيرة ؟ وهل هناك حالات محاباة للحزبي على حساب غيره ؟ وهل هناك ما يمنع أن يكون الانسان غير حزبي ؟

ـ نظر السيد زفارزين نحو مسؤول الحزب في المصنع وعلق : ها قد جاء دورك ، فعلق : إن كل العاملين في المصنع هم أعضاء في النقابة ، وهذا انتماء طوعي لا قسري ، والنقابات قوية ونافذة في بلادنا ، وليس كل من هو عضو فيها هو حزبي ، أما الحزبيون في المصنع فإن نسبتهم لا تصل الى حوالي ١٠٪ ، ومثلهم يوجد أعضاء في منظمة الشبيبة « الكومسمول » ، ولا توجد تفرقة عندنا بين الفرد الحزبي والفرد غير الحزبي ، ولا يقسر الانسان على الانتماء للحزب أبدا . ونسبة الحزبيين في المصنع مقاربة تقريبا لعدد الحزبيين بالنسبة لعدد السكان في كل البلاد . إن التجويد في العمل وتقديم مبادرات لصالح العمل قد يقوم فيها الحزبي وغير الحزبي ، لكن على الحزبي أن يكون قدوة في مجمل النشاطات . والأجور في المصنع تخضع لأهمية وخطورة العمل الذي يؤديه العامل ، بغض النظر إن كان حزبيا أو غير ذلك ، فإننا ضد سياسة التفرقة في هذا المجال وفي غيره ، وأي خطأ في هذا المجال فإن المسؤولين عنه يحالون الى محاكم متخصصة .

تاريخ في متحف

جولة الختام في اليوم الأخير من زيارتنا اشتملت على زيارة بيت الأزياء في مدينة خباروفسك ، ووجدنا فيه اهتماما بالأزياء التقليدية المحلية لشعوب المنطقة ، ومحاولة لتقريبها ومواءمتها لأزياء العصر ، كما وجدنا اهتماما بالأزياء العصرية الحديثة .

ثم انتقلنا لزيارة متحف مدينة خباروفسك . دليلة المعرض ناتاليا سوبالفسكايا ذات الأصول البولونية لخصت لنا تاريخ المنطقة من خلال بعض

الآثار فقالت : لقد تم تأسيس المتحف سنة ١٨٨٦ م ، وتجدون فيه كما ترون بعض عظام حيوانات المنطقة المنقرضة كالماموث وغيره . معظم القبائل التي سكنت جنوب الشرق الأقصى السوفيتي وبخاصة في منطقة خباروفسك هي قبائل مغولية الأصول . وقد بقيت منها أقليات الآن ، بعضها بعد بالآلاف وبعضها بالمئات . وقد أقامت بعض هذه الأقليات ـ من قبل ـ دولا لها في المنطقة إلى أن حطمها زحف التتار المغول ، وبقيت دولة المغول قائمة حتى القرن الرابع عشر ، ثم تفككت واضمحلت ، ثم جاء الروس في القرن السادس عشر ، إلى أن استقرت لهم الأمور في القرن الثامن عشر .

● وماذا عن التاريخ الحديث ؟

ـ لقد سادت السلطة السوفيتية المنطقة اعتبارا من مارس ـ آذار ـ سنة ١٩١٨ ، إلا أن اليابانيين والانكليز والروس البيض المعادين للسلطة السوفيتية أنزلوا قواتهم في مدينة فلاديفوستك ، فقامت الحرب في الشرق الأقصى ، واستمرت إلى أن حررت القوات السوفيتية آخر معقل للقوى المعادية في نوفمبر سنة ١٩٢٢ . وأثناء الحرب العالمية الثانية لعبت قوات الشرق الأقصى السوفيتية دورا كبيرا في تحطيم الهجوم الألماني الذي استهدف مدينة موسكو سنة ١٩٤١ .

وبعد أن تم تحطيم الزخم الألماني تم الالتفاف إلى اليابانيين ، فشاركت القوات السوفيتية في تحرير الصين الشمالية وكوريا الشمالية ، كما دخلت جزيرة سخالين ، واستعادت جزر كوريل من اليابانيين أيضا بعد أن سيطروا عليها اعتبارا من سنة ١٩٠٤ .

وفي بداية أيلول ـ سبتمبر ـ من سنة ١٩٤٥ وقعت الحكومة اليابانية اتفاقية إنهاء الحرب والاستسلام الكامل .

● هل الروس هم الأكثر من بين سكان المنطقة ؟

ـ إن سكان منطقة الشرق الأقصى حاليا هم خليط ومزيج من شعوب وقوميات الاتحاد السوفيتي العديدة ، إضافة إلى الأقليات من السكان المحليين ، ومن الطبيعي أن يكون الروس هم الغالبية من بينهم ، لأن الروس هم العدد الأكبر من بين الشعوب والقوميات السوفيتية . وهناك من غير الروس أوكرانيون وبيلوروس وغيرهم . كما أن القوميات المحلية الصغيرة تمثل ١٣٪ بالمائة من السكان ، وأكبر قومياتهم الناناي ، وعددهم حوالي عشرة آلاف نسمة ، يليهم الايفنك ، وعددهم حوالي أربعة آلاف نسمة ، والأولتشي ، وعددهم حوالي ٢٥٠٠ نسمة ، ثم يليهم النيفخي ، والايفين ، والاوديغي ، والاوروشي الذين يصل عددهم إلى حوالي ٥٠٠ نسمة .

● بماذا تفسرين عددهم القليل وهم سكان المنطقة الأصليون ؟ ألم يرتكب الروس مجازر أوصلتهم إلى هذا العدد القليل ، تماما كما حصل للهنود الحمر في أمريكا ؟

ـ إن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا مما تذهب اليه ، فإن الزحف التتاري المغولي ـ كما ذكرت ـ هو الذي تعرض لدول المنطقة المحلية ، وجاء الروس بعد أن تفككت دول المغول في المنطقة ، ووجدوا هيمنة منشورية ، فخاضوا حروبهم مع المنشوريين التابعين للامبراطورية الصينية ، إلى أن تمت لهم السيطرة على المنطقة بعد منتصف القرن التاسع عشر تقريبا . لقد وجد الروس أن السكان المحليين قد أصبحوا أقليات ، فأحيوا ملامحهم القومية الخاصة ، ونموا مناطقهم .

قبل الرحيل

أبت طبيعة الشرق الأقصى إلا أن ترينا حالاتها المتقلبة ، ففي صباح يوم مغادرتنا كان البرق يلمع والرعد يدمدم ، وهطل المطر بغزارة بعد ذلك . ثم أخذت مساحة اللون الأزرق تتزايد في صفحة السماء ، وقل المطر ، وخف عصف الريح . كان من المقرر أن نذهب برحلة نهرية لاستكشاف معالم نهر أمور ، فحيرنا الطقس وأربكنا ، وشجعتنا الانفراجات التي حصلت ، فمضينا قدما في متابعة الرحلة بعد أن ارتدينا الثياب الثقيلة . وتزايدت الانفراجات ، وبدأت الشمس تلمع بنورها الوهاج ، مما دفعنا الى التخفيف من ملابسنا الثقيلة ، وعندما عدنا من حيث انطلقنا كان كورنيش النهر غاصا بالناس ، بعضهم يتمشى بعد أن خلع ملابسه الثقيلة ، وبعضهم الآخر أبى إلا أن يمارس هوايته المفضلة وهي السباحة فيما كانت مجموعة من قدماء المحاربين بأزيائهم العسكرية ونياشينهم يحتفلون ويغنون . □

العناكب

كائنات مبدعة !

بقلم : الدكتورة وسمية الحوطي

يتوهم الانسان أنه وحده ـ دون الكائنات الحية ـ الذي يمتلك القدرة الابداعية ولكن العلم ـ وهو يكشف للانسان غموض العوالم المحيطة به ، بفتوحاته ، وانجازاته ـ يؤكد :

ان الكائنات الأخرى تمتلك هذه القدرة .

فالعناكب التي لا تحظى منا الا بالضيق والمطاردة تبني عالمها بقدرة إبداعية فذة .

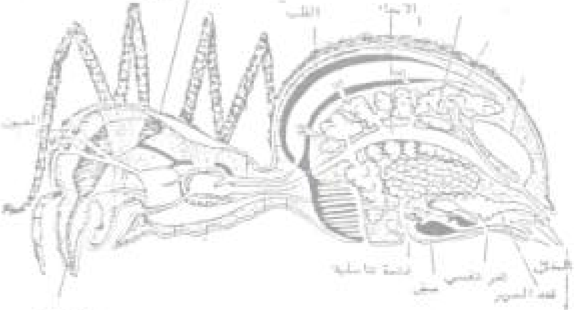

رسم يوضح بعض أجزاء أنثى العنكبوت

التي تحتوي على غدد السم الذي تبثه العنكبوت في جسم ضحيتها . أما الطرف الثاني فيتحور إلى يد ملماسية فيها غدد تناسلية طرفية في الذكور . تنقل الحيوانات المنوية من الجهاز التناسلي قبل نقله الى جسم الأنثى أثناء التزاوج . والجزء الثاني من جسم العنكبوت يحتوي في مؤخرته على ثلاثة أزواج من المغازل أو الغازلات التي تعمل على إخراج الحرير . وتتصل هذه الغازلات بغدد إنتاج الحرير الذي يخرج غالبا على هيئة سائل لزج ، يغلظ ويتماسك عند تعرضه للجو الخارجي .

والعنكبوت لا تنتج الحرير لاقتناص الفريسة فقط ، بل تستعمله كذلك لتبطين الشقوق الأرضية التي تضع فيها بيضها . وبعض العناكب تستعمل الحرير وسيلة للانتقال من مكان الى آخر ، إذ تحيط العنكبوت نفسها بكيس من الحرير يعمل كبالونة أو منطاد ، يطير مع الرياح ، حاملا العنكبوت إلى مسافات طويلة .

والعناكب لا تحيك في الجو البارد ، لكنها تنتظر ظهور السحب ، فإذا ما رأى أحدنا كميات كثيرة من خيوط العنكبوت المحيكة فعليه أن يتنبأ بسقوط الأمطار أو يتوقع ذلك بعد تلبد السماء بالسحب .

وغالبا ما تخدر العناكب ضحيتها بحقنها بالسم ، بالفكوك الكلابية ، وبذلك تشل حركتها دون قتلها ، ثم تتغذى على سوائلها ، بعد أن تمسكها جيدا ، وتصب عليها مواد كيماوية لترطيبها . ولا تتغذى العناكب على الجدار الصلب الذي يحيط بالحشرة ، بل على المكونات الداخلية للجسم فقط .

هناك كثير من أنواع العناكب التي تعيش خارج المنازل أو داخلها ، وتبني أعشاشها على الجدران وخلف حنفيات الحمامات والمطابخ . وفي الكويت توجد أنواع كثيرة من العناكب ، وربما هي من أظرفها ، وإن كان لا يلاحظها الانسان عادة لأنها تعيش بين الأزهار ، وهي العنكبوت السرطانية (أو العنكبوت القبقب) . وقد سميت كذلك لأن شكلها مثل السرطان أو « القبقب » ، ولأنها تهاجم ضحيتها بسرعة فائقة من جهة جانب الضحية ، وليس من الأمام ، تماما مثل ما تفعل « قباقب » السواحل البحرية . وتعيش العناكب السرطانية على الأزهار ، وتتلون بألوانها المختلفة ، فمنها الأبيض والأصفر والوردي ، وتتخفى بذلك عن الأعين . وهذه العنكبوت لا تنسج حريرا لصيد فريستها . لكنها تتمتع بالصبر وطول انتظار الضحية ، حتى تقترب من الأزهار باحثة عن غذائها مثل الفراشات والنحل والذباب الذي يزور الأزهار لجمع الرحيق وعند ذلك فقط تنقض العنكبوت السرطانية بسرعة ومهارة على الضحية وتحقنها بالسم الذي يؤثر على الجهاز العصبي للضحية ، فيشل حركتها ، وبعد ذلك تقوم العنكبوت بعمل شق بواسطة القرون الكلابية في جسم الضحية ، للتغذي على سوائلها .

« الحياة الجنسية »

قبل أن يعزم الذكر على ملاقاة الأنثى للتزاوج يقوم برش نفسه بالسائل المنوي ، حتى يأخذ عبيره بلب الأنثى عندما تشمه ، ومن ثم يذهب للبحث عن أنثى ، وعندما يجدها يقترب محاولا إمساكها بأرجله الملماسية ، حتى تحس بوجوده ، وتشم رائحته .

وبعد ذلك يقوم بالامساك بها جيدا بواسطة أرجله الخلفية ، ويدخل الحيوانات المنوية في جسدها بواسطة يده الملماسية . وفي بعض الأحيان لا ترغب الأنثى باقتراب الذكر منها ، فتعبر عن ذلك الرفض برفع أرجلها الأمامية وهز جذعها لاخافته وتحذيره من الاقتراب ، وعندما لا يفهم الذكر مغزى حركاتها ويتمادى في الاقتراب منها تقوم بالامساك به وقتله ببث سمومها في بدنه . وفي بعض أنواع العناكب ينجح الذكر في الاقتراب من الأنثى الرافضة بالقوة .

وذلك بإنزال أرجلها المرفوعة إلى الارض وربطها بخيوطه الحريرية ليمنعها من الحركة ، حتى يفرغ من نقل حيواناته المنوية اليها ، ثم يهرب مسرعا قبل أن تخلص نفسها وتقتله . وتضع العناكب (مثل العنكبوت السرطانية) بيضها في فترة الصيف على طبق من الحرير ، تقوم بتغليفه بالحرير . وتضع الأنثى تلك البيوض المغلفة بين أوراق النباتات أو بين

الخطوة الأولى لبناء النسيج الدائري للعنكبوت

أنقاض الأوراق المتساقطة من الأشجار . وبعض العناكب لا ترمي بيضها هكذا . لكنها تقوم بصنع خيمة من الحرير . وتقبع فيها لمراقبته حتى يفقس . ولا تغادر الأم بيضها طول فترة الحضانة . وتتحمل من قلة الغذاء . وبعض الأمهات يبحثن عن الغذاء الموجود قريبا من مكان وضع البيض . ولا يبتعدن كثيرا عنه . ويفقس البيض فتخرج منه صغار تشبه الكبار في كل شيء . حتى في الألوان . وتقوم الأم بتغذية صغارها عن طريق الفم بسوائل جاهزة قامت بتحضيرها . وعندما تكبر الصغار قليلا تشارك الأم في اصطياد الحشرات . وذلك قبل أن تكون مستعدة للانفصال نهائيا عن الأم والاعتماد على ذواتها في صيد الغذاء وجمعه . وهناك كثير من الحيوانات التي تتغذى على العناكب مثل الطيور والزواحف والضفادع والخنافس والديدان عديدة الأرجل . كالنمل والدبابير . كما أن العناكب قد يتغذى بعضها ببعض

إنتاج الحرير

يعتبر إنتاج الحرير في العناكب عملية « روتينية » تستعمل فيها العناكب الخيوط الحريرية لحماية البيض من الجفاف والعوامل الجوية . هذا في المقام الأول . ثم يأتي استعمال خيوط الحرير لصيد الفرائس التي تتغذى عليها . وتستطيع العناكب إنتاج سبعة أنواع مختلفة من خيوط الحرير . تختلف باختلاف نوع العنكبوت . ونادرا ما تجتمع الأنواع السبعة في نوع واحد من العنكبوت . فنوع يستعمل لتغليف الضحية بعد شل حركتها لتحفظ طازجة حين الاستعمال . ونوع ثان يستعمل لحفظ البيض . ويكون مثل الكيس . وهذا النوع موجود في الإناث دون الذكور . ونوع ثالث يستعمل لتقييد أرجل الضحية عندما تبدي بعض المقاومة وتحاول الفرار من المصيدة . وهذا النوع عبارة عن خيوط رفيعة لزجة . وهكذا

الخطوة الثانية

الخطوة الثالثة

إن ذلك الحرير عبارة عن بروتين منتج من غدد الحرير التي توجد في الجهة البطنية من الجذع أسفل المبيض والأمعاء ويفرز للخارج عن طريق المغازل في مؤخرة الجسم . والمغازل عبارة عن ثلاثة أزواج من النتوءات المتحركة المفصلة ، وهي اثنتان علويتان كبيرتان واثنتان وسطيتان صغيرتان ، واثنتان سفليتان كبيرتان ، وقمم هذه النتوءات مثقوبة بفتحات غدد الغزل الكثيرة ، ويفرز الحرير من المغازل على هيئة سائل ، يعصر مثلما يخرج معجون الأسنان من أنبوبته ، وهذا الحرير السائل يتصلب متى خرج من المغازل وقابل الهواء الخارجي ، والحرير المنتج قوي جدا ، ومتانته كمتانة الحديد الصلب ، وهو قابل للتمدد ضعف طوله قبل أن يتقطع ، وهو أيضا عبارة عن عدة خيوط ناعمة وليس خيطا واحدا ، وتتصف هذه الخيوط الرقيقة بعضها إلى جانب بعض . وأرق خيط حرير له قطر يعادل ٠٫٠٠٠٠٣ مم تقريبا ، وأغلظ خيط حرير

يعادل قطره خمسة أضعاف ذلك . وحرير العناكب هذا لا يستعمل لصناعة الأقمشة الحريرية لأنه مطاط قابل للشد والجذب ، ولكي تنتج رطلا واحدا من هذا الحرير فإننا نحتاج إلى (٦٦٣٥٢٢) عنكبوتا ، والمعروف أن سكان مناطق جنوب الباسفيك قد استخدموا حرير العناكب في صناعة شباك صيد الأسماك ، وفي صناعة الأكياس والقبعات وأغطية الرأس وشباك صيد الطيور .

العنكبوت يصنع المصيدة

تستعمل العناكب خيوط الحرير لحياكة المصائد التي تقتنص بها فرائسها ، ولعمل أكياس خاصة للبيض . وكلنا يعرف شكل نسيج العنكبوت الدائري الذي نراه على زوايا الجدران ، لكن هذا شكل واحد فقط مما تستطيع العنكبوت حياكته لاصطياد الضحية ، وهناك أربع طرق مختلفة لعمل المصائد ، فهناك العنكبوت التي تصنع بابا تقف وراءه مترقبة اقتراب الضحية ، ويسمى هذا « الباب السحري » ، وهناك العنكبوت صانعة النسيج على شكل كيس يشبه المحفظة أو الجيب ، أما النوع

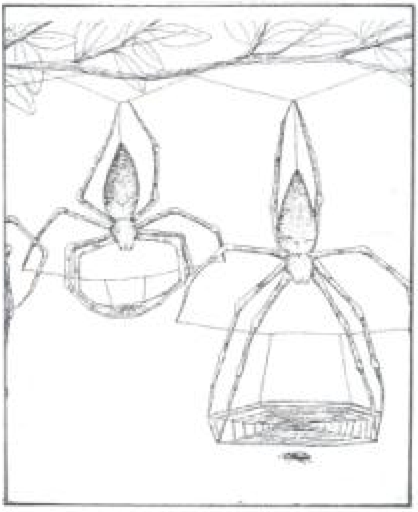
رمي الشباك على الضحية

الثالث الذي يجدر بنا معرفته والوقوف عنده فهو ما تقوم به العنكبوت المهندسة التي تبني نسيجها بتصاميم هندسية رائعة .

أما العناكب ذات « الباب السحري » فهي غالبا لا تتحرك كثيرا ، بل تقضي جل وقتها في نسج باب قوي على مقدمة نفق أرضي تحفره لتقضي فيه نهارها وتنشط أثناء الليل ، فعندما يحل الظلام تقوم تلك العنكبوت الليلية بفتح بابها السحري بواسطة الأرجل والرأس ، وعندما تمر الحشرات بالقرب من الباب دون أن تلاحظه فإنها تتعثر بأرجل العنكبوت المترقبة ، وتسقط في الفخ ، فتلتقطها العنكبوت حينئذ بسرعة ، وتجرها إلى داخل النفق ، محاولة بث السم في جسدها كي تشل حركتها .

أما العناكب ذات النسيج الكيسي فتحيك أنبوبا طويلا من الحرير ، داخل حفرة في الأرض ، بحيث يبرز طرف الأنبوب الى الخارج على هيئة أصبع وتكمن العنكبوت خلف الجدار الداخلي لهذا الأصبع ، وحالما تشعر بعبور حشرة على الجدار الخارجي للأصبع فإنها تعمل بسرعة فائقة ، وتسحب الفريسة إلى الداخل .

أما العنكبوت المهندسة فتبني أعشاشا حريرية على شكل « سقالة » ، أو أرجوحة ذات ثلاثة اتجاهات ، تتدلى من نهايتها خيوط من مادة صمغية ويعتمد طول هذه الخيوط على نوع الفريسة ، ومكان وجودها ، فإذا كانت لحشرات زاحفة مثل النمل فترى الخيوط تلامس الأرض ، أما اذا كانت لحشرات طائرة مثل الذباب فترى الخيوط مقيدة ومتدلية في الهواء ، وغالبا ما تكون هذه الأرجوحة مصيدة على الأشجار والنباتات التي تزورها الحشرات للحصول على الغذاء .

ولا يستطيع المرء منا أن يلاحظ هذه الخيوط المتدلية نظرا لشدة رقتها وشفافيتها ويمكن مشاهدتها فقط أثناء فصل الربيع بعد صباح ندي ، حيث تشاهد قطرات الندى تتلألأ بين ثنايا تلك الخيوط بعد سقوط أشعة الشمس عليها ، أو عندما

تتعلق ذرات الجليد في يوم بارد عليها . وهذه العنكبوت تجلس حائكة الأرجوحة الدائرية في الوسط ، ناظرة الى الأسفل ، مترقبة مرور الفريسة . ومن يرى العنكبوت تجلس بسلام في وسط المصيدة التي حاكتها من الحرير لا يتخيل أن

تقوم هذه المخلوقة الضعيفة بعمل هذه التصاميم الرائعة ، خصوصا عمل الدعائم الحريرية التي قد تصل بين شجرتين أو بين نهرين صغيرين ، وطول هذه الدعائم قد يصل الى متر واحد في بعض الأحيان . وبعد بناء الدعامات الأساسية تقوم العنكبوت بحياكة بقية المصيدة على هيئة دوائر متقابلة

أو تجعلها متكاملة على شكل خيوط منظمة أو منحنية . والعنكبوت قبل البدء في البناء تبدأ بدراسة الموقع أولا من حيث الاتساع والظروف الجوية والبيئة التي سوف يتم فيها البناء . وتستطيع صغار

العنكبوت المهندسة أن تبدأ في التصميم بعد الخروج من البيض مباشرة ، حيث أن خبرة البناء والتصميم وراثية للصغار وليست مكتسبة من الآباء ، فسبحان من علم العنكبوت فن التخطيط والهندسة وبعد النظر ، حتى تقوم بالبناء على أسس مدروسة ، فيدوم بناؤها فترات . ويصمد أمام الظروف المناخية . وللدلالة على عبقرية هذا النوع من العناكب نأخذ عنكبوت الحدائق التي تبني عشها بين جذعي شجرة . فإن الأنثى تقوم أولا بقياس المسافة بين الجذعين بواسطة خيط رفيع من الحرير . وعندما تعرف المسافة بدقة ترجع الى موقعها الأول ، متلمسة طريقها عن طريق هذا الخيط الذي هو مقياسها . وبعد ذلك تبدأ بتكوين خيط سميك من الحرير ، تمده من الموقع الأول الى الثاني كجسر يربط بينهما . وقد تقوم بالتخلص من الخيط الذي استعملته للقياس أو قد تتركه ليدعم الخيط الثاني السميك . وبعد ذلك تبني الجزء التالي بعمل خيوط تتدلى من الخيط الذي اتخذته جسرا .

وأخيرا فإن كثيرا من الناس يعتقدون أن العناكب مضرة ، وأنها حيوانات سامة خطرة ، تعيش في

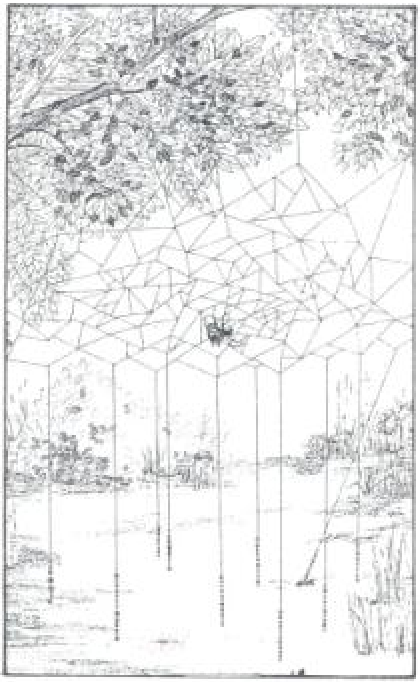

بناء المصيدة بنهايات خيطية لزجة

أماكن قذرة ، في حين يرى بعضهم أنها كائنات جديرة بالدراسة والبحث والاقتناء كحيوانات أليفة يتعلم منها الانسان الصبر والأناة في حياكة الحرير

إن العناكب غير مضرة للانسان ، بل على العكس من ذلك ، هي حيوانات مفيدة ، تتغذى على الحشرات الضارة التي تدخل البيت مثل الذباب .

والحقيقة أن الانسان قد يغفر لقطه الأليفة المدللة إذا هجمت على طيور الحديقة ، وربما على الطيور المستأنسة كالببغاء ، لكنه يقتل العنكبوت التي تخلصه من كائنات مضرة . تعمل على نظافة منزله من بعض الآفات .

وقد نجد العذر لربة البيت في قتل العنكبوت ، لأنها تترك كثيرا من الخيوط على الجدران التي قامت بتنظيفها . □

راحـــة البـــــال ...
لا تـقــدَّر بـالـمـــال ...

ميليه تنتج مطابخ وأدوات منزلية مظهرها الجميل يضاهي أداؤها الباهر.

جمال المظهر هو نتيجة التصميم العصري المتطور، أما الأداء الباهر فهو جزء من تقاليد ميليه.

فمنذ ثمانون عاماً والملايين تتمتع براحة البال بعد شرائهم مطابخ ميليه.

إشترِ راحة بالك.

Miele

[illegible]

شركة [illegible] وإخوان
تلفون: ٨١٦٥٩٠ تلكس: ٦١٠٨
ص.ب ٢٠٥٩ [illegible]

يوسف بن يوسف فخرو ذ.م.م
تلفون: [illegible] تلكس: ٨٥٥٤
ص.ب [illegible] البحرين

مصطفى حسين [illegible] وشركاه
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible]

مؤسسة [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible]

معروضات [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible]

عبد العزيز عبد المحسن الراشد
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible] الكويت

مؤسسة [illegible] الفنية والتجارية [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible]

مؤسسة [illegible]
تلفون: [illegible] تلكس: [illegible]
ص.ب [illegible] لبنان

وجهًا لوجه

د. محمود المسعدي و محمود طرشونة

- لا يوجد أديب نسيج وحده فقط
- الأدب.. هو اللغة قبل كل شيء
- مصيبة اللغات.. هي المحاكاة!
- أسعى إلى أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض

لا نبالغ إذا قلنا ان محمود المسعدي من أشهر الكتاب التونسيين ، وقد عرف خارج بلده بعد الشاعر أبي القاسم الشابي ، وقد ساعد على ذيوع هذه الشهرة ظهور روايته « السد » وما رافق ظهورها من اهتمام ، ثم اشتغاله في العمل السياسي وتقلده المناصب القيادية .

ولد المسعدي بقرية « تازركة » القريبة من العاصمة التونسية في ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩١١ . تلقى تعليمه في تونس ما بين ١٩٢٦ و١٩٣٣ ، ثم درس الآداب في جامعة السوربون ، وحصل فيها على الاجازة في اللغة والأدب العربي عام ١٩٣٦ ، ثم شهادة الماجستير عام ١٩٤٧ . بعد عودته من فرنسا عمل أستاذا للأدب في الثانويات ، وانتقل الى التدريس في معهد الدراسات العليا ، بعد أن حصل على الماجستير ، ثم صار أستاذا محاضرا في معهد الدراسات الاسلامية في جامعة باريس ما بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ .

بعد استقلال تونس شغل عدة وظائف إدارية في وزارة التربية ، ثم تولى منصب وزير التربية الوطنية من ١٩٥٨ الى ١٩٦٨ ، فمنصب وزير دولة (وزير بلا وزارة) بين ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، فوزيرا للشؤون الثقافية من ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦ . وفي عام ١٩٨١ انتخب رئيسا للبرلمان التونسي .

شارك المسعدي في الحياة الأدبية منذ الأربعينات ، اذ كان في تلك الفترة رئيس تحرير مجلة المباحث الأدبية ، ونشر في عام ١٩٥٥ كتابه المشهور « السد » الذي قامت منظمة « اليونسكو » بترجمته الى الفرنسية ، ثم أصدر كتابه الثاني « حدّث أبو هريرة قال ... » في عام ١٩٧٣ ، وبعد ذلك كتاب « تأصيلا لكيان » عام ١٩٧٩ ، وهو مجموعة مقالات في الفلسفة والأدب والثقافة ، وأصدر عام ١٩٨١ رسالة الدكتوراة بعنوان « الايقاع في السجع العربي » .

أما محمود طرشونة فهو باحث وناقد وقصاص ، ولد عام ١٩٤١ ، ويعمل أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب في تونس ، وتناول كتابه الأول أدب محمود المسعدي وعنوانه « الأدب المريد في مؤلفات المسعدي » (١٩٧٨) ، أما كتابه الثاني فكان تحقيقا لكتاب « مائة ليلة وليلة » ، ودراسة عنه ، وكان كتابه الثالث دراسة شاملة عن الأدب المقارن .

وقدم طرشونة رسالة دكتوراة الى جامعة باريس ، ونال عنها لقب « دكتور دولة في الآداب » ، بعنوان « الهامشيون في المقامات العربية وقصص الشطار الاسبانية » ، وهي دراسة مقارنة بين الأدب العربي والأدب الاسباني . كما كتب طرشونة عدة أبحاث ومقالات أدبية مختلفة .

* نلتم العديد من الجوائز الوطنية والعالمية ـ آخرها جائزة مركور ـ فهل هذا تتويج لآثار أدبية معينة ، أم لمجموع النشاط الفكري الذي قمتم به طيلة عشرات السنين الماضية ؟

ـ ان الجوائز الوطنية التي نلتها كانت تقديراً لمجموع إنتاجي الأدبي . أما الجائزة الاخيرة فهي جائزة تمنح للرجال الذين يسهمون في سياسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وأنشطتها في مختلف بقاع العالم ، ولهم كذلك إسهام وعمل نشط في ميدان التفاهم والتعاون بين الشعوب والأمم في نطاق المجهود الجماعي للبشرية .

* هناك العديد من الروائيين الشبان ، تأثروا بأدبكم ، وأشاروا الى وجود « مدرسة المسعدي » ، وقد نشرت لهم روايات طريفة مثل « التصير والقيامة » لفرج الحوار ، و« مدونة الاعترافات والأسرار » لصلاح الدين بوجاه . فما هي في نظركم أركان هذه المدرسة ومقوماتها ؟

ـ أود أن أقول أولا اني لا أحبذ استخدام مصطلح « مدرسة » في مثل هذا السياق . أولا لأن هذا اللفظ المعروف في تاريخ الأدب مترجم عن لغات أوروبية . وثانيا لأني أعتقد أن الاتجاهات والتيارات الأدبية التي تجمع في وقت من الأوقات بأواصر القربى الفكرية بين عدد معين أو غير معين ، قليل أو كثير ، من الأدباء والمفكرين ليس فيها مايشير إليه لفظ « مدرسة » أو إمامة أو تتلمذ . إني أظن أن ماشعروا به هو صلة رحم فكرية ، وأعني بذلك أن الجامع هو الرأي والاحساس . فقد شعروا بهما في أعماق وجدانهم عندما قرأوا ماكتبت ، وحققوا حقيقتهم الوجودية ، واستكملوا الوعي بماهم عليه وبحسب ماطمحوا إليه . شعروا بهذه الصلة في القربى التي برزت بعد الاطلاع على أدبي أو التأثر به ، فلا يمكن لأي أديب أو مفكر أن يقول إنه عصامي مطلقا ، أو أنه نسيج وحده ، بل هو نتاج أو افراز مجموعة من التأثرات والانفعالات التي ينتهي هو بحكم عبقريته الشخصية بافرازها من مجموع هذه العوامل والعناصر التي كان لها عليه تأثير ، وما ينبغي البحث عنه هو أوجه الشبه وصلات القربى . قلت أني أربأ بهؤلاء وبكل من ينتسب الى مدرسة أدبية أن يجعل رائدها في مقام الامام الذي يؤثر ويعلم ، لأن الأدب لا يمكن أن يكون أصيلا اذا كان تعلما .

● هم في الحقيقة لم يعمدوا الى المحاكاة ، بل انطلقوا من طريقة ذكية في توظيف اللغة ، لأداء معان معاصرة لنا ، ويمكن ان نعتبر هذا الاعتماد على اللغة العربية الفصيحة الأصيلة التي تجدها في كتب التراث احدى هذه المقومات ، أما القضايا فمختلفة .

ـ ملاحظتكم هذه وجيهة ، لأنني عندما تحدثت عن وجوه الشبه أو التجانس كنت أعني أن هؤلاء الأخوة في الأدب قد أدركوا مافي أدبي من جهاد أردت به هذا الفتح الجديد في حياة اللغة العربية ، لأني ـ كما قلت في مرات عديدة ـ أعتقد أن الأدب هو اللغة قبل كل شيء ، لما لها من طاقات تفجير للفكر ، وبما لها من طاقات الايحاء . واللغة العربية من بين اللغات التي لها في هذا النوع من الطاقات مايجعلها في نظري من أثرى اللغات في العالم . لذلك عندما بدأت أكتب وأنا أحيا قضايا الوجود الانساني في عالمنا المعاصر ، لم أجد غير اللغة العربية قادرة على الاضطلاع بهذا الأمر ، فقد وجدت فيها مايمكن الكاتب من التعبير عما في نفسه ، وجدتها أقدر لغة على الاستجابة لكل هذا ، وأعني باللغة العربية بطبيعة الحال اللغة الفصحى التي لم تفسدها المحاكاة والتأثر باللغات الغربية ، سواء كانت الفرنسية أو الانكليزية ، ولم تنل من عبقريتها ، لأن مصيبة اللغات هي المحاكاة .

المسعدي والوجودية

● يقول طه حسين إن الوجودية أسلمت على يدي محمود المسعدي ، هل توافقون على هذا الرأي ؟

ـ أتذكر ذلك ، وأود أنْ أذكر بهذه المناسبة ماكان لي من حوار عبر الأثير ، مع هذا الكاتب الأديب الذي رفع الكتابة والأدب في الوطن العربي الى درجة بقيت شرفا للعروبة كلها ، شرفا ليس فيه البهرج ولا المجاملة . قال هذا لما تفضل بنقد كتاب « السد » ، وكتب ماكتب فيه من اطراء ، وهدى قراء « السد » الى القضايا الجوهرية التي عالجتها فيه ، وقد ادرك مافيه من أدب فكري أو ذهني ، ورأى أنه من نوع المؤلفات الأدبية التي تعالج قضية المسؤولية الوجودية . وأنا أعتقد أن الأدب إفراز للتوترات والتفاعلات الجماعية التي تحدث في صلب المجتمع ، وهو من وجه آخر قصة المغامرة الوجودية ، ومحاولة جواب عن السؤال الذي هو مرد كل وجود الانسانية ، وخلاصة الكيان الفردي والجماعي . وقد تحدثت عن هذا السؤال في مقدمة كتابي « تأصيلا لكيان » ، وقلت : « من أنا ؟ ومن أنا ؟ وأين السبيل مني اليّ أو مني إليك ، فمني إلى الكون أو إلى ماوراء الباب الذي وراءه العدو ..؟» هذه هي

الأسئلة التي حوطا يدور معظم مايوجد في كتاباتي ، خصوصا في كتاب « السد » من مشكلة الفعل وقدرة الانسان ، ومامعنى فعل الانسان ؟ ومامدى خلود الفعل الانساني ؟ ولئن أول الكثيرون ـ ومنهم طه حسين ـ نهاية « السد » على انها خاتمة مأساوية تشير الى الفشل ، فذلك لأن الخاتمة كانت إسلامية ، ترجع القضية كلها إلى ماجاء في الاسلام من أن الانسان فان ، وأن المنزلة التي أراد الله أن ينزل فيها الانسان هي من جهة منزلة خليفة الله في الأرض ، المسؤول بأن يكون حينئذ ـ بتكليف من ربه ـ خالق مصيره ومغير الكون بقيامه بالعمل الصالح ، وأن يعطي لوجوده في الكون معنى بكون قائما على الخير . هذه الرسالة التي عرضها الله على السموات والأرض وما بينها ولم يقبلها غير الانسان ، لم تشأ الأقدار أن يصحبها الخلود للانسان فرداً فرداً ، وإن كانت الأقدار كتبت للجنس البشري مدى من البقاء ، لا يعلمه الا الله . لأن العالم كله محكوم عليه بالفناء ، وبالطبع فالفناء العاجل هو فناء الانسان الفرد ، وكل مايقوم به من عمل لابد أن ينتهي في نهاية الأمر بالموت ، وحتى العمل الذي يقوم به الانسان والبشر جيلا بعد جيل ، ويحققون به المعجزات ، عبر فترات مختلفة ، سواء بأرض مصر أو بأرض العراق أو غيرها من الأراضي العربية أو الصين أو اليابان ، بلغت أوجها ثم زالت ، ولم يبق منها غير الآثار . وبهذا فالانسان مدعو إلى أن يبقى في منزلته التي أرادها له الله ، وشرّفه بها ، مثل سعي غيلان في سبيل خلق الخير وسبيل الانشاء ، في سبيل إعانة الحياة حتى تتغلب على الموت ، الموت النهائي . وهذه كلها معان لا تخرج بطبيعة الحال عن إطار التفكير الاسلامي حول المنزلة الانسانية وشرفها وعظمتها .

من الأدب الى السياسة

● كنتم في الاربعينيات تنتجون أدبا رفيعا ، ثم توجهتم الى النضال الوطني ، وما أفضى إليه من تحمل مسؤوليات حكومية وبرلمانية . ألا يعني هذا صعوبة في الجمع بين الفكر والسياسة في آن واحد ؟

ـ أنا في الحقيقة لا أرى تناقضا أو تنافرا جوهريا بين النشاط السياسي والنشاط الأدبي والفكري ، وأعتقد أن من يرى في ذلك تناقضا لا يأخذ بعين الاعتبار خصائص المزاج الشخصي ، فمن الأمزجة ما ينصب كليا على ما يشتغل به ، ولا ينتقل الى نشاط آخر إلا بصفة كلية ، أي أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل إلا إذا انقطع إليه انقطاعا كليا ، بحيث يمتلكه ، وينفرد بعقله وفكره ووجدانه . وأنا رجل نشاط واحد ، لغرض واحد ، وحياة واحدة ، أو بعبارة أخرى أنا رجل عشق وحياة ، فما دمت قررت أن أنصرف إلى نشاط فأنا أتجه إليه بكليتي وخالص مهجتي . وفي « حدث أبو هريرة قال » يمكن أن نجد ما يشير إلى قصة التزامي الاجتماعي ، فقد شعر أبو هريرة بحدود المغامرة الفردية الضيقة ، وشعر بأنه ناقص ، محدود الكيان ، مقصوره ، اذا لم يتسع بكيانه إلى الجماعة ، وقد تجاوز بطبيعة الحال تجربته هذه إلى مراحل أخرى من مغامرته الوجودية ، لكن الظروف التاريخية التي مررت بها بعد أن اتجهت اتجاهي الأول تغيرت ، فقد بدأت كفاحي السياسي عن طريق الكفاح الثقافي في سبيل الدفاع عن ثقافتنا العربية الاسلامية ، وما يمثله التراث الفكري للطاقة الخلاقة الكامنة في تراثنا الثقافي ، كان ذلك اول اتجاه بدأت به للخروج من عالم الأدب البحت الى عالم النشاط الفكري والثقافي الأوسع مجالا ، باعتبار ان الظروف التاريخية اضطرتني وانا امحص كياني للاعتراف بان الاختلاء في عالم الأدب او « خلوة » الأدب حسب الاصطلاح الصوفي فيه نوع من التقاعد ، على معنى القَعَدية الذين كانوا يقعدون ، أي يتخاذلون ويجبنون ، بينما المجتمع الذي كنت اعيش فيه كان مهددا بالفناء ، ومهددا بالاندماج في غيره ، وبضياع هويته بالاضافة الى ماضاع من سيادته ، فقد كان مهددا في كيانه بالذوبان والتلاشي .

وعلى الرغم من اني اعتقد أن الأديب الذي يخدم أمته من موقع الأدب فقط يكون خادما لقومه ، فقد رأيت

من واجبي ان أدخل الكفاح السياسي ، لكن التزامي ودخولي في هذا الميدان واضطلاعي بمسؤوليتي لم يمكنـاني بعد ذلك من أن أتخلص من هذا الكفاح . وكنت أود بهذا العمل إعادة بناء الكيان الثقافي والكيان الأخلاقي والكيان الفكري والوجداني للانسان التونسي عن سبيل التربية . فاضطلعت مدة عشر سنوات بمهام وزارة التربية والتعليم ، وكان لي شرف ضبط مخطط التنمية التربوية ، وضبط برامج التعليم الابتدائي والثانوي ، فكانت برامج وطنية قومية عوضت البرامج الفرنسية الاستعمارية ، كما كان لي شرف ايجاد الجامعة التونسية . هذه هي قصة ابتعادي عن النشاط الأدبي البحت، لكني ما أزال مع ذلك ادعو الله أن يمكنني من العودة الى النشاط الأدبي البحت ، حتى أتمكن من صياغة الكثير مما ألقيته حبرا على ورق ، ومذكرات عديدة ، ووريقات .

طموحي الذي كان . .

● أنتم تشرفون على الدخول في السنة الخامسة والسبعين من عمركم . كيف كان حصاد العمر في نظركم ؟ وهل حققتم ماكنتم تطمحون اليه في عهد الشباب ؟

ـ عبارة « هل حققت ماكنت أطمح اليه في شبابي ؟» لا تطابق تصور ما بنفسي ، فلا يمكن ان أقول إني كنت في شبابي أطمح الى شيء معين ، كنت في شبابي أتساءل عما ينبغي أن أكون حتى يكون للحياة معنى، وحتى أنزل وجودي في الكون منزلة تنزع عني الحيرة ، وتخرجني من حيز عبثية الوجود . اذا لم أجد ماهو معنى لوجودي فلست اذن بانسان ، بل أكون في منزلة الحيوان الذي لا أظن أنه يتساءل عن معنى وجوده ، أريد أن أبرز وجودي بالنسبة الى نفسي فقد جاء في « حديث الصمت »مايلي : « قالت دانية لعمران ذات عشيّ ذائبة الروح : هذا الأفق الذي فيه تغرب الشمس ، ألا نغرب فيه نحن يوما مع الغاربين ؟

قال : الشمس لا تغرب ، وإنما هو أن تتطاوح بها الأوساع وتقصر عنها العين ، وليس المغرب مكانا ، وإنما هو مدى البصر وآخر النظر . وأما الأفق . . . . وسكت عمران كأنما سجر وانطلق فقالت : فأين الحد ؟ ألا مغرب ؟ ألا نهاية ؟ قال : لا نهاية ، لأي كان ولا لأي كون ، لا نهاية للأفق التوق . الكون الأبد ، لأنه واجب الوجود ، وانما العرض الحياة ، والعرض زائل . وللعين وحدها ، للضمير وحده ، للوجود وحده ـ دون الكيان ـ مغرب ونهاية عندها ينتهي . قالت : وهل نسيت داعي البقاء ؟ أليس أن الأفق الانسان ؟ فلو أفلت وحلم أضغاث أحلام ؟ أليس أن الأفق حلم بما هو توق وجهاد وشوق الى الأبد سؤال ؟ قال : بلى . . . » .

فالانسان أبدا حيرة ، وليس هناك جواب نهائي ، بل الجواب نفسه لا يزال أفقا لا حدّ له ، كل مطمحي في الحياة أن يكون لي في حياتي هدف وقد كتبت في أدبي « حبيبي كنت أروم أن أفتح مسلكا الى كياني الانساني ، وأقضي حجّا الى موطني المفقود : وفاء حنين الى الذات الجوهر الفرد وتوليد للعشرة من معدن الوحشة ، وإشهاد على أن تاج الكيان مركب من العشق والفناء » ، كما قلت في مقدمة كتابي « حدث أبو هريرة قال . . . » .

هذا ما أردت أن أقول : أن تبقى ناري أي شعلتي في الوجود في معناه الانساني السامي ، إني أشعر أني حققت الى درجة ما الغاية التي يكون بواسطتها الانسان خليفة الله في الكون . □

الفن عندي نظام ،والنظام عندي هو الاقتصاد ، أي البيان بلا زيادة أو نقصان .

(توفيق الحكيم)

ترابي.. أنت من جسدي

شعر : الدكتور عيسى درويش

ترابي أنت من جسدي
فكيف أفارقُ الجسدا ؟
دعوتُ الله أن يُعطي
فأعطى الأهلَ والولدا
وزادَ الله نعمتَهُ
فزدْنا بفضله عددا
وأكثرْنا تعلّقنا
بأرضٍ تمنحُ المددا
منحْنا تربَها دمَنا
فصارتْ روحُنا البلدا

. . . .

وأزرعُ في ترابِ الأرض
حباتٍ من القمح
تنامُ على وسادتِها
وأسقيها من الجُرح
وتنبتُ ألفُ سنبلةٍ
بوجهٍ مشرقٍ سمْح
وتزهو في ضفائرِها
ويشدو بُلبُلُ الدَّوح
وأنسخُ كلَّ آلامي
وما لاقيتُ من ترَحْ
فيا أرضي التي أحببتُ
أنتِ ومضةُ الروح

. . . .

جمعتُ القمحَ من أرضي
ورحتُ أقلّبُ البيدرْ
عرفتُ السرَّ يا بلدي
فخبزُك دائماً يخبَرْ
وقمحُ الأرضِ من جسدي
علاماتٌ به تختزرْ
فحيناً لونُه لوني
وحيناً كالثرى أسمرْ
وجسمي منْ ترابِ الأرض
سبحانَ الذي صوّرْ
فداكَ الروحُ يا بلدي
وقلبٌ بالهوى يزخرْ

دور المرأة العربية
في التنشئة الوطنية

بقلم : الدكتور أسعد عبد الرحمن

تلعب الأم دوراً كبيراً في عملية التربية الوطنية والتنشئة الاجتماعية عموماً . فما هو أثر الواقع الاجتماعي العربي على المرأة ، وما تأثير ذلك كله على عملية التنشئة الاجتماعية لدى أطفالنا ؟ . الكاتب يحاول أن يجد إجابة على هذا السؤال .

تبقى الأسرة العربية حلقة هامة جدا في المجتمع العربي مثلها في ذلك مثل الأسر المختلفة في مجتمعات العالم الثالث . غير أن دور الأسرة في المجتمع العربي ـ رغم الأثر السلبي لبعض العوامل المستجدة التي سنتحدث عنها لاحقا ـ ما يزال تأثيره متفوقا بقوة ـ وبشكل لا ينازع ـ بالمقارنة مع دور الأسرة في المجتمعات الصناعية وعلى الأخص الرأسمالية الغربية .

كذلك ، ما يزال دور الام في الأسرة العربية مركزيا ومحوريا على غرار أدوار الأمهات في مجتمعات العالم الثالث . وفي السياق ذاته ، فان دورها ـ رغم الأثر السلبي لبعض العوامل المستجدة التي سنتحدث عنها لاحقا ـ ما يزال متقدما وفاعلا من حيث وزنه وقوة تأثيره ، وبشكل لا ينازع بالمقارنة مع أدوار

الأمهات في المجتمعات الصناعية وبالذات الرأسمالية الغربية .

ومكانة دور المرأة العربية ـ والأم صلب وجوهر ذلك ـ في المجتمع بشكل عام مسألة مشهود بها قولاً وفعلاً في الاطار التاريخي بدءا من العصور الجاهلية (بلقيس ملكة سبأ ، زنوبيا ملكة تدمر ، واعتزاز القبائل بالأم وتسميتها باسمها .. الخ) مروراً بمرحلة صدر الاسلام وارتقاء مكانة المرأة وخصوصاً في الفلسفة الاسلامية التي مثلها ابن رشد بوم « عقد التخلف في المجتمع على تخلفها ، ومنعها من ممارسة حريتها » ، وعبر المرحلتين الأموية والعباسية وصولاً الى عهد النهضة ومواقف رموزها المتنورة .

غير أن دور المرأة في سياقه التاريخي قد تأثر كثيراً ـ وكما هو متوقع ـ بواقع وضع المرأة العربية في المراحل المختلفة . وهو واقع مرير على وجه الاجمال بمجراه التاريخي ، رغم حالات التحسن النوعي النسبي المرحلي ومجيء الاسلام نموذجاً على ذلك . ورغم بعض الاستثناءات النسوية الفردية المتميزة بقوة واقعها الذاتي . وكي لا نهرب من الواقع الراهن الى التاريخ ، ننتقل فوراً الى تعداد بعض أبرز ملامح واقع المرأة الراهن لما لذلك من تأثير مباشر على دور المرأة العربية بشكل عام ، ودورها في التنشئة الوطنية بشكل خاص . ويتألف هذا الواقع من محددات ومعوقات بعضها غير مباشر وعام .

المعوقات والمحددات غير المباشرة :

١ ـ تتعرض المرأة العربية لقهر مثلث أو ثلاثي الأبعاد يتمثل أولاً في القهر الذي يتعرض له المجتمع الكبير الذي تعيش فيه . ويتجلى ثانياً في القهر الاجتماعي الطبقي داخل المجتمعات العربية . ويتبدى ثالثاً في القهر الناجم عن كون المجتمع العربي مجتمعاً ذكورياً يتسلط فيه الرجال عليهن .

٢ ـ هذا الشلال من القهر المنهمر تاريخياً على رأس المرأة العربية جعلها بالاجمال الأغلب عرضة لقهر « ذاتي نفسي داخل عقل ووجدان كل امرأة عربية » بحيث أصبحت تحس بالدونية والاستضعاف وعدم الأمان . مهما كانت قدراتها وملكاتها الموضوعية . وقد ثبت أن السلطة الأبوية تمنع الأناث أكثر مما تمنع الذكور في مجالات الحياة اليومية ووقائعها المختلفة مثلما أن نسبة امتثال الشابة لسلطة المنع الأبوية هي نسبة أعلى . هذا عدا الدور الذي تلعبه في النطاق ذاته المؤسسات الاجتماعية المتوارثة والتربوية والتعليمية والاعلامية التي تعزز مثل ذلك الشعور بالدونية والاستضعاف وعدم الأمان .

٣ ـ المرأة العربية ـ بغالبيتها الحالية الساحقة في المستقبل المنظور ـ مفترسة من وحوش الأمية والجهل .

٤ ـ المرأة العربية ـ على وجه الاجمال ورغم التحسينات التي طرأت هنا وهناك ـ لا تتمتع بالمساواة في الحقوق وفي الفرص بل وتعاني من عدم المساواة والظلم :

وعلى الرغم من أنها حصلت في بعض الأقطار العربية على حقوق قانونية واسعة ومحددة فانها في أقطار عربية أخرى ما تزال محرومة من الحد الأدنى لتلك الحقوق .

٥ ـ تهميش دور المرأة في العمل السياسي المعاصر : كانت مشاركتها في مراحل النضال من أجل الاستقلال واسعة ، لكن مع النصر الجزئي أو الكلي جرى تهميش دورها اللاحق . وقد أكدت الدراسات المحددة أن نسبة النساء العاملات أصلاً في الحركة الثورية والحزبية العربية المعاصرة والحالية نسبة قليلة سواء على صعيد العضوية أو القيادة . ولا يساعد في ذلك موقف القيادات الثورية ذاتها التي بقيت ذكورية على نحو حاسم كذلك . اذا استثنينا التنظيمات النسوية العديدة الملحقة بالنظم السياسية ذاتها ، فان مساهمة النساء في العمل النقابي تبقى محدودة وذلك قياساً الى نقابات الرجال في الوطن العربي وقياساً الى مشاركة المرأة نقابياً على صعيد دولي . وهذا التهميش لدور المرأة في العمل السياسي يجعلها بالتأكيد غير مؤثرة ولا فاعلة داخل النظام السياسي لتحسين أوضاعها الخاصة .

٦ ـ المرأة العربية في شرائح الطبقة الوسطى

والبرجوازية وعلى امتداد معظم المجتمعات العربية الرئيسية ـ وكذلك الرجل ـ عانت وما تزال من تلويثات وتشويهات المرحلة النفطية الاستهلاكية التي غمرت المنطقة بأمواجها طوال الفترة منذ أوائل السبعينيات وحتى أوائل الثمانينيات . ومن أبرز ملامح هذه التلويثات والتشويهات : الغاء الدور الانتاجي للمجتمع بما في ذلك أدوار الرجل والمرأة وتأسيس الوعي الزائف لدى المرأة العربية على أيدي أجهزة الاعلام والتربية على أساس أنها مخلوق ضعيف وبحاجة الى الوصاية واشراف الآخرين ، واغراقها بصورتها بوصفها أنثى تولد أنثى وتعيش أنثى وسلاحها أنها أنثى مهمتها ارضاء أو اغواء أو كسب الرجل بعيداً عن قيم الانتاج والمشاركة والمساواة ، ثم دفع المرأة/ أولاً وأخيراً وبالذات ابنة الطبقة الوسطى والعليا نحو الأنماط السلوكية والاستهلاكية التي يتدرج ضمنها ليس الابتعاد عن المشاركة في الانتاج فقط ، وانما المساهمة المؤثرة في تبديد الأموال على المظاهر الاستهلاكية بدءاً من العبث بين المساحيق التجميلية والاقتناءات المظهرية والتظاهرية والكسل واهمال شؤون العائلة وتربية الأبناء والقاء مسؤولية البيت والأبناء على كاهل العمالة الأجنبية بكل ما في ذلك من أضرار متضاعفة بالأجيال الجديدة .

٧ ـ وهنالك التأثير المجتمعي المعاصر المغمور بطوفان من السلبيات المتمثلة في الوقائع الصلبة والقيم الخاطئة والتدميرية : الهزائم المتتالية ، التفرقة والتجزئة ، تفتت المجتمعات الى مكوناتها الفسيفسائية ، التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية والاعلامية ، وتقدير « العمل الفردي الذاتي » مقابل « العمل التعاوني المشترك » ، وتأكيد « نزعات التقليد والامتثال والابتداع » بدل « نزعات التجديد والتجريب والابداع » ، وتعزيز حالات « تجاهل الواقع والتطلع الى أنماط خارجية واصطناع حلولها الجاهزة » مقابل « التعاطف مع الواقع وتطويره وايجاد الحلول الذاتية المناسبة » ، وتأكيد حالات « الاغتراب والبحث عن الخلاص من خلال النقمة أو التعالي أو الفكاك بالهجرة الى وطن آخر » بدل « تكوين الولاءات والانتماءات القومية والوطنية » ، والتركيز على « الطموح المثالي » مقابل « الرغبة في الانجاز الممكن » ، وبث « الفكر الهلامي والعمل الانتهازي » بدل « التوجه العلمي فكراً وعملاً » ، وترسيخ « التسلط التقني التخصصي » بدل « المشاركة الشعبية على مختلف مستوياتها » ، وتشجيع « تراكم الثروة المالية » مقابل « خلق مصادر الثروة المجتمعية » ، وتأصيل نزعات الوصول الى الهدف « من أقصر الطرق الوهمية وغير المشروعة والمغامرة أحياناً » ، بدل « طرق المعاناة وبذل الجهد المتواصل وصولاً الى الهدف » .

هذه هي ـ باختصار شديد ـ أبرز العوامل العامة المعوقة والمحددة لدور المرأة العربية في مجال التنشئة الوطنية بشقيها الاجتماعي والسياسي . الا أن جميع هذه العوامل تندرج تحت اطار خاص عنوانه : العوامل غير المباشرة . ورغم صعوبة الفصل بين ما هو مباشر وما هو غير مباشر ، فان بالامكان وضع الاصبع على مجموعة محددات لدور المرأة العربية في التنشئة الوطنية نجملها على نحو مخروطي ، أي بالانتقال من المحددات في الدوائر الأضيق الى المحددات في الدوائر الأوسع .

المعوقات والمحددات المباشرة :

١ ـ معوقات ومحددات ترتبط بالمناخ السلبي أو غير المشجع السائد في العائلة النووية الصغرى . وفي هذا السياق المحدد تجدر الاشارة الى عدد من الدراسات والملاحظات الميدانية التي أكدت الدور المعوق الذي يمارسه الأب أو الشقيق أو الزوج أو أحياناً الولد . وخصوصاً الذكر البكر وبالذات في المناخات التقليدية . وغالباً ما ترتبط الاعاقة هنا بحرية المرأة ذاتها في ممارسة العمل الوطني والسياسي العام وما يتركه ذلك من أثر عليها وعلى البيئة المباشرة المحيطة بها في مجال تنشئة الأبناء تنشئة وطنية .

٢ ـ معوقات ومحددات نابعة من الاطار الأوسع

الشامل للعائلة الممتدة ، سواء اتخذت هذه شكل عشيرة أو « حمولة » أو غير ذلك . ومن هنا تلقى على كاهل المرأة العربية ضغوط اضافية تزيد من الضغوط الملقاة عليها أصلا من العائلة النووية .

وفي هذا النطاق الأخير ، حتى لو أدت ظروف المرأة الى تمتعها بحرية واسعة أو مقيدة ، فان التأثيرات السلبية الوافدة من الاطار العائلي الأوسع سرعان ما تقلص أو تأكل كل أو بعض الحرية المتوفرة .

٣ ـ معوقات ومحددات متأتية من المدارس والمعاهد والجامعات التقليدية وبخاصة في بعض البلدان العربية المعروفة تاريخيا بهذا النوع من المؤسسات التعليمية ، ناهيك عن البلدان التي شهدت رجوعاً (كي لا نقول ردة) في مجالات التربية والتعليم بسبب صعود قوى تقليدية الى السلطة أو بسبب تنامي هذه القوى وممارستها لدور القوى الضاغطة على النسق السياسي (اللوبي التقليدي المحافظ) .

٤ ـ معوقات ومحددات يفرضها النسق القيمي السائد في المجتمع الكبير . فاذا كانت قيم هذا المجتمع من النوع الذي له أثر سلبي على حرية المرأة ـ وغالبية المجتمعات العربية كذلك ـ فإن ذلك يشكل اضافة كبيرة جديدة الى التأثيرات السلبية الضاغطة عليها في نطاقي العائلة النووية والممتدة . ولا يسعف المرأة العربية كثيراً كونها تتمتع بنوع من الحرية في النطاق العائلي . ذلك أن ارهاب النسق القيمي السلبي السائد في المجتمع الكبير لا بد من أن يترك دوماً بصماته على المحصلة النهائية لحرية حركة المرأة .

٥ ـ وأخيراً ، نأتي الى محددات النسق السياسي القائم . وتجدر هنا ملاحظة أن معظم الانساق السياسية العربية ـ العصرية نسبياً والمحافظة التقليدية ـ هي أنساق جوهرها الغاء حالة التسيس (لدى الرجل والمرأة على حد سواء) ان كانت حالة قائمة أو منع التسيس من أن يقع . واذا أضفنا الى هذه الحالة السياسية العربية ـ القريبة من درجة « الطبيعة الثانية » ـ كون عدد من هذه النظم العربية تتحرك ـ منذ فترة ليست بالقصيرة ـ على منحدر منطق الاعتدال التفريطي نتيجة تقاعدها عن متابعة ومواجهة التحديات الوطنية والقومية ، عندئذ نستطيع أن ندرك أي نوع من التنشئة الاجتماعية والسياسية هو المسموح به سواء على صعيد الرجل أو المرأة أو الأبناء . ولا حاجة بنا هنا للتوكيد على أن التنشئة المتوقعة هي التنشئة الاستهلاكية النفعية الانانية التي لا تساعد في أي من عمليات التعبئة أو التحشيد الاجتماعي / السياسي الوطني .

لقد كانت المرأة العربية دائماً وبالذات عندما ساعدها الوضع الموضوعي القائم ، أو على الأقل عندما لم يقمعها ذلك الوضع ويحد من حرية حركتها ـ امرأة فاعلة في نطاق التنشئة الاجتماعية والسياسة السليمة التي صبت دائماً الماء في طاحونة التنشئة الوطنية . فالوقائع والدراسات المتخصصة تؤكد أن المرأة ـ قبل الاسلام وبعده وبالذات في سنوات صدر الاسلام ـ لعبت دورها كاملا في تنشئة الأبناء التنشئة الاجتماعية والسياسية السليمة . وكثيراً ما كان ذلك من خلال طرح نفسها كنموذج يحتذى أو من خلال ابداء استعدادها لتقبل ـ كي لا نقول للترحيب أو للحث ـ على افتداء ابنها لنفسه دفاعاً عن قيم النبل والشجاعة والمروءة ونشر الرسالة لاحقاً . ثم ان المرأة العربية مارست دوراً مشابهاً بعد تجاوز مراحل الانحطاط الموضوعي وبالذات مع بدء معارك الحرية والاستقلال . ومما تجدر ملاحظته هنا للاهمية القصوى كون المرأة العربية ، حتى عندما كانت ضحية للأمية السائدة ، نجحت بوعيها الفطري ـ النابع من كونها مجسدة وناقلة أمينة للتراث التاريخي النضالي وللتقاليد الاجتماعية والسياسية السليمة ـ نجحت في أن تلعب دورها كاملا ، ليس في نطاق التنشئة الوطنية السليمة فحسب ، وانما ايضا في نطاق الدخول الفعلي في خضم العمل النضالي التحرري الاستقلالي . وشاهدنا الكبير على ذلك هو الدور النضالي الكبير الذي لعبته المرأة العربية في الأرياف

ابان مراحل الاستقلال على امتداد ساحات الوطن العربي . والدور المعاصر الذي تلعبه ، مثلاً ، الأم أو الزوجة وبالذات في الأرياف والمخيمات الفلسطينية حيث لم تصبها تلوثات المرحلة الراهنة السائدة . فهل هي صدفة أن تكون أكبر نسبة - وبما لا يقارن - من الشهداء والمعتقلين الفلسطينيين من أبناء الريف والمخيم ؟

غير أن هذا الدور العظيم للمرأة العربية سرعان ما وقع على وجه الاجمال ضحية العوامل المقيدة والمحددة والمثبطة - القديمة والمستجدة المباشرة وغير المباشرة - التي أشرنا اليها آنفا . ليس هذا فحسب ، بل اننا ربما كنا نشهد - ومنذ فترة ليست بالقصيرة - حالة من تغيب ذلك الدور واستبداله بنقيضه وبخاصة لدى معظم الشرائح الاجتماعية المنتمية الى الطبقة الوسطى والطبقات العليا . ففي ظل مجتمع مقموع ، ومحبط ، وواقع فريسة للعقلية الاستهلاكية ، كيف يمكن لقيم وأدوار التنشئة الوطنية أن تنمو ليس عند النساء فحسب بل وعند الرجال كذلك ؟

أفكار للمستقبل وللتغيير :

ليس المرء في حاجة لذكاء كبير ليستنتج - في ضوء ما ذكر سابقاً - أن مسألة تغيير وتطوير دور المرأة في التنشئة الوطنية هي مسألة نضالية بكل ما في العبارة من معنى . وهي كذلك مسألة مرهونة - تباعا - بتغيير وتطوير دورها العام الشامل من ناحية أولى ، وهو الأمر المرهون بالتالي بأحداث التغيرات الجذرية المطلوبة في المجتمع ككل من ناحية ثانية . فتحرر المرأة وتحرر عملية ممارستها لأدوارها المختلفة - ومن ضمنها دورها في التنشئة الوطنية - ليست مسألة منفصلة عن ضرورة بناء المجتمع الجديد المنشود - المكتفي والمستقل والعادل اقتصاديا ، والمعافى والمتقدم ثقافيا ، والديمقراطي سياسيا . فلا دور - أي دور - للمرأة في ظل استمرار القهر القومي للمجتمع ، وبقاء القهر الطبقي لقواه الأساسية ، والتمسك بالمجتمع الذكوري المتخلف اجتماعيا وعلى أساس السيادة الكاملة والهيمنة المطلقة للرجل . وبذلك نرى أن المسألة تعود الى بدايتها باعتبارها ليست مسألة نضالية فحسب ، بل كونها ، أيضا تحتاج الى نضال طويل ومستمر هو من مسؤولية الجميع - رجالاً ونساء . واذا كانت التوجهات الالحاقية الداعية الى دور نضالي تابع للمرأة،توجهات جديرة بالتجاوز ، فان التوجهات الانفصالية الداعية الى انفراد المرأة هي كذلك توجهات انفعالية وعاجزة دون أن يلغي ذلك تمايز وطليعية نضال المرأة ضمن المجرى العام للنضال . غير أن الحل الشامل المنوه عنه إنما هو - بحكم طبيعته - حل بعيد المدى . ولا يمكن ولا يجوز الركون الى هذه الوصفة « الثورية » الشاملة والعامة ، وكفى الله المؤمنين القتال .

فكما أن المسألة مسألة نضالية وعلى المدى الطويل فهي مسألة جدلية جوهرها أنها نضالية يومية أيضاً . فكسب هذه « الحرب » بشكل نهائي مرهون بكسب المعارك الصغيرة والكبيرة المتتابعة . وفي النهاية ، لن يقام البناء الكبير للمجتمع الجديد المنتصر الا على تراكم الأرضية الملائمة من الانتصارات الصغيرة . فالمرأة ، من جهة أولى ، مطالبة بأخذ زمام أمورها بيديها والسعي الفوري لتحرير نفسها من أسرها لنفسها ومن الوعي الزائف المتراكم على نفسيتها والذي ولد لديها عقدة النقص ومشاعر الدونية . هذه مهمة أولى لا بد من أن تباشرها المرأة سواء على الصعيد الفردي المبادر ، أو على صعيد العمل النسوي المنظم .

واذا ما أنجزت المرأة هذه المهمة ، أو بالأحرى أثناء قيامها بانجاز هذه المهمة ، تغدو مطالبة فورا بالالتحام مع الواعين من أبناء الجنس الآخر المطالبين بتحرير المرأة واطلاق إمكاناتها ، ليوظف كل ذلك في خدمة وظيفة توعية الرجل بالوعي الجديد المتضمن ترسيخ الوعي بانسانية ومواطنية المرأة وبعدم اقتصار وظيفتها على الانتاج البيولوجي للأطفال وعلى متابعة نموهم البيولوجي والاجتماعي فحسب . وهذا الأمر قمين بوضع البداية لتحرير المرأة على مستوى العائلة والاطر الاجتماعية الأوسع وذلك من خلال ارساء الوعي الجديد الذي يرد للمرأة انسانيتها

ومواطنيتها . وهذه خطوة تراكمية باتجاه أحداث التغيير الشامل المنشود .

وما أن يتم ذلك ، أو في أثنائه ، لا بد من أن تلتحم الصفوف على جبهة نضالية جديدة هي جبهة التربية والتعليم . وهي مسألة ممكنة جداً وبخاصة ان الأرقام في الوطن العربي تؤكد التوجه الحاسم باتجاه تأنيث العملية التعليمية وبخاصة في المراحل الأولى والمتوسطة . وهنا يجب أن يتضح تماماً أن المطلوب ليس محو الأمية الأبجدية فحسب ، وانما العمل الحثيث أيضاً على محو الأبجدية ، الحضارية الثقافية ، وبناء الوعي العام للمرأة بعد انجاز الوعي الخاص بقضاياها وتحدياتها الخاصة بها . وهذه خطوة تراكمية باتجاه احداث التغيير الشامل المنشود .

ثم تبدأ في هذه الأثناء معركة دخول المرأة الى معترك العمل الانتاجي وتوسيع ذلك الدخول ليس على الأساس الكمي المستند الى « الأرقام الصماء » فحسب ، وانما على أساس الاعتراف الحاسم بها بوصفها مواطنة وانسانة . وهذه خطوة تراكمية باتجاه احداث التغيير الشامل المنشود .

وأثناء احداث هذه التراكمات جميعها ، لا بد من أن تستعيد المرأة - والرجل كذلك - حقوقهم السياسية وذلك من خلال استعادتهم لحقهم في النضال السياسي . وليس صحيحاً أن الواقع الراهن في الوطن العربي يقف حائلاً صلباً ومانعاً شاملاً دون تحقيق عملية الاسترداد للحقوق تلك ، انها - حقاً - مهمة ليست سهلة . بل انها مهمة صعبة ، لكن ألم نقل منذ البداية ان المسألة مسألة نضالية في الأساس ؟ ثم من يستطيع - حقاً - أن يحول بين المرأة (والرجل) ودورهما في التنشئة الوطنية لأطفالهما ؟ لا أحد فعلاً طالما أن المرأة (والرجل كذلك) قد قررا استعادة أدوارهم السياسية وقررا أن لا تحول التضحية المتوقعة بينهما وبين ذلك ، أو بين أبنائهم وتحقيق ذلك . فالتنشئة الوطنية - هي اللبنة الأولى - التي لا تعد الأبناء بمستقبل أفضل فحسب وانما تعد الأبناء بمثل ذلك المستقبل أيضاً . وهكذا نعود الى جدلية هذه المسألة النضالية . فبقدر ما يشهد الوطن تنشئة وطنية بقدر ما يصبح الوطن حقيقياً وعلى صورة أبنائه المؤمنين به . □

ما هو المقياس الحقيقي للحب ؟

● يقول الكاتب الفرنسي اندريه مالرو : إن المقياس الحقيقي للحب هو الاستمرار ، فلو استمرت مشاعرنا بنفس الدرجة مهما لاقينا ، فهذا هو الحب ، بينما يرى الكاتب الروسي انطون تشيكوف أن التضحية هي أفضل مقياس للحب ، فنحن حينما نحب نشعر أن أشياء كثيرة صارت أتفه مما كنا نتصور ، ومن خلال الحب نكتشف في داخلنا استعدادات جديدة ، وقدرات على فعل ما تخيلناه مستحيلا ، وكلما ازداد الحب اتفقنا على أن التضحية مهما كانت فإنها أقل ما يجب أن نعبر به عن حبنا .

أما الشاعرت . س . اليوت ، فيرى الحب مثل الزهور التي تنمو وتتفتح وتنشر أريجها بعض الوقت ، ثم تموت وتبقى بعض الرائحة العطرة عالقة في أوراقها التي ذبلت ، وهو يرى أنه كما أن أنواع الزهور متعددة فإن أشكال الحب تختلف من أرض لأخرى ، ومقياس الحب يتمدد حسب خصوبة كل أرض .

الإسهال

بين هجوم الجراثيم ودفاع الجهاز الهضمي

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

تلم بالإنسان بعض الأعراض التي يحتار في تفسيرها ، خاصة إذا تعددت احتمالاتها ، فيلجأ بعضهم إلى وصفات شعبية أو عقاقير سبق استخدامها ، مما قد يسبب مضاعفات يسهل تلافيها إذا ما توفرت لنا المعرفة بالأعراض المرضية وعلاجاتها الأولية ، والإسهال كعرض مصاحب لكثير من الأمراض له مسبباته . فما هي ؟ وما أنواعه ؟

يمتلك جهاز الهضم عدة « خطوط دفاعية » ، تقيه من غزو المكروبات التي تسبب الإسهال وغيره من الأمراض . أول هذه الخطوط هو حامض المعدة « HCL » الذي يقتل أي مكروب يتسلل مع الطعام أو الشراب ، ولهذا لا يجوز الإسراف في تناول الأقراص المضادة للحموضة ، لأنها توهن الخط الدفاعي المنيع . الخط الثاني هو حركة الأمعاء وتقلصاتها المستمرة التي تطرد المكروبات المسالمة الموجودة في الأمعاء ، فلا تدعها تتكاثر بصورة كبيرة ، لأنها إذا تكاثرت أعدادها غدت غير مسالمة ،

وقد تسبب الإسهال،لهذا فإن العقاقير المثبطة لحركة الأمعاء مثل أتروبين ، كودائين ، لوموتيل ، لا تخلو من الضرر . أما المكروبات المسالمة ـ ما لم تتكاثر وتنتشر ـ فتعتبر هي الخط الدفاعي الثالث ، لأنها تفرز بعض المركبات ، ـ كحامض اللبن ـ التي تعكر على المكروبات المرضية عيشها . لهذا فإن كثيراً من المضادات الحيوية التي تفتك بالمكروبات المسالمة ـ مثل أمبسلين ـ تؤدي إلى الإسهال ، أما الخط الدفاعي الرابع الأخير ، فهو الأجسام المضادة التي تصنعها الأمعاء ، والتي تقضي على المكروبات حين تتجرأ على اقتحام الأسوار .

حركة السوائل في الأمعاء :

الإسهال هو ازدياد سيولة الغائط أو كميته أو ازدياد عدد مرات التغوط . فإذا زادت كمية الغائط عن ٣٠٠ غرام في اليوم الواحد ، أو زاد عدد مرات التغوط عن ثلاث مرات فهذا يعني الإسهال . ويختلف عدد مرات التغوط من شخص إلى آخر ، إذ يتراوح ما بين مرتين أو ثلاث يومياً ، ومرتين أو ثلاث أسبوعياً ، ولكي ندرك كيف يحدث الإسهال لا بد من حديث موجز عن حركة السوائل في جهاز الهضم .

إن كمية السوائل « الماء » التي تمر في جهاز الهضم تبلغ عشرة لترات في اليوم الواحد ، وتقوم الأمعاء الدقيقة بامتصاص ٩٠٪ من هذه السوائل ، أي تسعة لترات ، ويمتص القولون تسعة أعشار اللتر ، أي ٩٠٠سم٣ ، فلا يبقى سوى ١٠٠سم٣ ، أو ١٥٠ ، وبذلك فإن ما يطرح مع الغائط من السوائل هو ١٪ ـ ١,٥٪ من كمية السوائل التي تمر في جهاز الهضم .

والإسهال يحدث إذا اضطربت حركة السوائل في جهاز الهضم ، كأن يقل امتصاص السوائل ، أو يزداد إفرازها من قبل بطانة الأمعاء ، ومعنى ذلك ازدياد كمية الماء التي تطرح مع الغائط ، فتزداد كميته وسيولته ، ويزداد عدد مرات التغوط . وهكذا فإن كل العوامل التي تؤدي إلى الإسهال ، إنما تفعل ذلك عن طريق تأثيرها على حركة السوائل في الأمعاء .

حالات الإسهال

يقسم الإسهال حسب وقته ، وعلاقته بالطعام والصيام ، فالإسهال الذي يحدث في الصباح يجعل المرء يشعر برغبة جامحة في التغوط أثناء تناول وجبة الفطور أو بعدها بقليل ، وفي بعض الحالات يتغوط المصاب ثلاث أو أربع مرات ، بسبب تهيج القولون ، وهذا النوع من الإسهال منشأه الحالة النفسية ، والقلق والتوتر أيضاً يسببان الإسهال ، أما الإسهال الذي يحدث في المساء ، ويوقظ المرء من نومه فهو ناشيء عن مرض عضوي .

من علاقة الإسهال بالصيام ، هناك حالات شائعة ، تحدث بعد تناول الحليب ، ويرافقه تجشؤ ، وغازات ، وإحساس غير مريح في البطن ، ويختفي المرض عند الامتناع عن الحليب ، أو الامتناع عن أي طعام . فهذا الإسهال ، ناشيء عن نقص « خميرة اللاكتيز » المسؤولة عن هضم سكر الحليب . وبالتالي فنقص أية خميرة من الخمائر المسؤولة عن هضم الكربوهيدرات ـ النشويات ـ يتسبب بإسهال يبدأ عند تناول ذلك الطعام ، ويزول عند الصيام عنه ، أما الإسهال الذي يستمر مع الصيام ، فهو ناشيء عن أحد الأمراض التي تصيب الأمعاء ، وتجعلها تفرز كميات كبيرة من السوائل ، وعلى رأس تلك الأمراض الهيضة « الكوليرا » ، وإصابة الأمعاء « بالمكورات العنقودية » وغيرها .

وهناك تصنيف آخر للإسهال يعتمد على الفترة التي يستغرقها ، وما يرافقه من أعراض جهازية ، كالحمى ، والتعب ، وارتفاع عدد خلايا الدم البيضاء ، ووجود الدم والقيح والدهون في الغائط أو عدم وجودها . هذا التصنيف خطوة أولى في الطريق إلى التشخيص .

فالإسهال الحاد الذي يداهم المرء فجأة ، ويستمر عدة أيام فقط وترافقه أعراض جهازية ، ودم مع الغائط ، دليل على التهاب القولون أو تقرحه نتيجة « للزحار الأميبي » ، والتهاب القولون التقرحي « وغيره ، والمضادات الحيوية قد تكون أحد أسباب

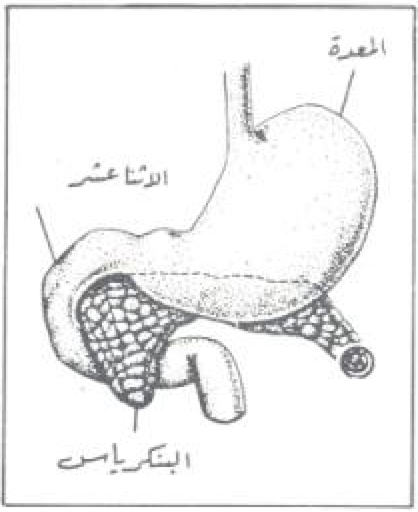

هذا الإسهال ، غير أن الأعراض الجهازية لا ترافقه إلا بدرجة محدودة ، أما الإسهال الحاد المترافق مع الأعراض الجهازية دون وجود دم أو قيح في الغائط ، فهو بالتأكيد ينشأ عن تسمم الطعام ، أو التهاب المعدة والأمعاء الفيروسي .

وآخر حالات الإسهال هي الإسهال المزمن أي الذي يستمر شهوراً أو سنوات ، فإذا لم ترافقه أعراض جهازية ، ودم ، فهو الذي ينتج عن حالة نفسية أو ينتج عن نقص خميرة اللاكتيز ، أو عن تناول المضادات الحيوية ، أو على إثر عملية جراحية في الأمعاء ، أما اذا رافقه تناقص في الوزن ونقص في الفيتامينات فهو « سوء امتصاص » ، وإذا رافقه دم في الغائط ، دون أعراض جهازية ، فهو التهاب المستقيم المتقرح ، أو هو أورام القولون .

إسهال المسافرين

يصاب المسافرون بالإسهال ، وتتراوح نسبة الإصابة ما بين ٢٥٪ ـ ٥٠٪ حسب المنطقة التي يسافرون إليها ، وتكون النسبة أكبر لدى المسافرين من البلدان الصناعية المتحضرة إلى البلدان النامية ، وتظهر أعراض الإسهال عند بلوغ المسافر غايته ، أو بعد فترة تتراوح ما بين أسبوع وأسبوعين ، وأحياناً بعد عودة المسافر إلى بلده ، وغالباً ما يكون الإسهال حاداً ، يداهم صاحبه فجأة ، لكنه غير مترافق مع الغائط ، بل يرافقه ألم في البطن ، وغثيان وتقيؤ ، وإحساس بالتعب ، وربما ترافقه الحمى والقشعريرة . وفي معظم الحالات يكون الإسهال قصير الأمد ، إذ يستمر عدة أيام ثم يزول تلقائياً ، وفي بعض الأحايين يكون شديد الخطر : وبخاصة في البلدان الموبوءة ، مثل بنغلادش التي يؤدي الإسهال فيها إلى نسبة عالية من الوفيات .

وسبب هذا الإسهال في كثير من الحالات (٤٠ ـ ٧٠٪) نوعاً من البكتيريا يسمى « E. Coli » ، وهناك مكروبات وطفيليات أخرى قد تكون هي السبب ، مثل « السالمونيلا » ، و « الجيارديا » ، و « الأميبا » ، وغير ذلك . وفي بعض الحالات ، لا يظهر للإسهال أي سبب واضح .

تحليل الغائط

يعتبر فحص الغائط في المختبر من الوسائل المهمة في تشخيص أسبابه ، ويكون الفحص بالنظر أولاً ، وبالمجهر ثانياً ، ثم بالتحليل الكيميائي .

فبالنظر ترى كمية الغائط ، فاذا كانت أقل من ٢٠٠ غرام في اليوم الواحد فالإسهال عصبي المنشأ ، ومن مظاهر هذا النوع كثرة مرات التغوط ، وقلة كميته في كل مرة ، أما إذا كانت كميته أكثر من كيلوغرام في اليوم الواحد فالإسهال ناشيء عن سوء امتصاص ، أي أن الأمعاء لا تمتص الماء والغذاء بصورة كافية ، فيطرح قسم كبير منه مع الغائط ، أو أنه ناشيء عن مرض يؤدي إلى زيادة إفراز الماء من قبل الأمعاء .

وباستخدام المجهر يمكن اكتشاف الدم ، لأن وجوده يدل على التهاب الأمعاء أو تقرحها ، كما في الزحار الاميبي ، والتهاب القولون التقرحي ،

وغيرهما . وقد نشاهد الديدان والطفيليات وبيوضها . ويستخدم التحليل الكيميائي إن وجدت زيادة في حموضة الغائط ، لأنها دليل على نقصان خميرة اللاكتيز ، وهي الخميرة المسؤولة عن هضم سكر الحليب « لاكتوز » ، فإذا قلت بقي السكر دون هضم كامل ، فيتحول إلى حامض اللبن الذي يزيد « حموضة الغائط » ، وكذلك الأمر مع نقصان أية خميرة من الخمائر الهاضمة للكربوهيدرات .

هل من عــلاج ؟

إن حجر الزاوية في العلاج هو معرفة سبب الإسهال،ولأن هناك مئات الأسباب ، فلن نتناول العلاج بالتفصيل ، بل سيقتصر الحديث على المبادىء الأساسية في العلاج ، أي طرق العلاج التي لا بد منها في كل حالة من الحالات مهما كان سببها .

أهم هذه المبادىء تعويض المصاب عن السوائل المفقودة ، فالإسهال يؤدي إلى فقدان كمية كبيرة منها ومن الأملاح ، ولا بد من تعويضها ، ويمكن التعويض عن طريق الفم ، إذا لم يكن المريض مصاباً بحالة تقيؤ شديدة . ويمكن تحضير المحلول المناسب في البيت ، وذلك بأن يؤخذ مقدار ملعقة طعام من الملح ، وملعقة طعام من الصودا ، وأربع ملاعق طعام من السكر ، وتضاف جميعها إلى لتر ماء ـ أو أقل من اللتر قليلاً ـ ، ويشرب المريض هذا المحلول بعد إضافة مادة تمنحه نكهة طيبة ـ إن وجد ـ . أما إذا كان المريض يتقيأ بشدة فلا فائدة من إعطائه أي شيء عن طريق الفم ، لأنه سيطرحه مع القيء ، ولا بد من نقله إلى المستشفى ليعطى السوائل عن طريق الوريد .

إن العقاقير المثبطة لحركة الأمعاء ـ مورفين ، كودائين ، أتروبين ، لوموتيل ـ شائعة الاستعمال ، لأنها توقف الإسهال بسرعة ، غير أن هناك خلافاً بين الأطباء حولها ، فبعضهم يرى أن الإسهال عملية دفاعية ، يقوم بها الجسم لطرد المكروبات أو السموم، فإذا أوقفت حركة الأمعاء، تتهيأ الفرصة للمكروبات لاختراق الأمعاء . ولهذا فلا بد من موازنة دقيقة ، بين فائدة تلك العقاقير ومضارها المحتملة ، وهذا من شأن الطبيب .

وينصح الأطباء كل مسافر أن يقي نفسه من الإسهال بطرق بسيطة معروفة . لكنها فاعلة ، فعندما يحل في بلد جديد عليه الاهتمام الشديد بالنظافة،والسكن في فنادق نظيفة جيدة التهوية ، وعدم تناول الأطعمة المكشوفة من الباعة المتجولين . ومعظم الأطباء لا ينصحون بتناول المضادات الحيوية القاتلة للبكتريا كوسيلة للوقاية من إسهال المسافرين ، وبعضهم ينصح بها للعلاج فقط ، مثل عقار « سبترين » ، بالإضافة إلى العقاقير المضادة للإسهال . □

● ليس هناك من يستطيع خداعك بقدر ماتستطيع أنت خداع نفسك .

(غريتيل)

● ان لك في مالك شريكين ، الحدثان والوارث ، فان قدرت ان تكون أقل الشركاء حظا فافعل . (ابو ذر الغفاري)

● سأل الممكن المستحيل ، أين تقيم ؟ فأجابه : في أحلام العاجز . (طاغور)

● أدنى أخلاق الشريف كتمان سره ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر اليه .

(المهلب بن أبي صفرة)

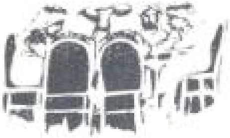

منتدى العربي

قضية

عصر السرقات الأدبية

بقلم : مصطفى سليمان *

يشهد عصرنا ـ عصر الطباعة والاتصال الثقافي ـ ظاهرة مرضية ، تصيب المثقفين والمتثاقفين بشكل لم تعرفه العصور القديمة ، وهي السرقات الأدبية .

ذلك لأن العصور القديمة قد شهدت ظاهرة السرقات الأدبية على نطاق ضيق ، نظرا لمحدودية انتشار الكتاب في تلك العصور ، وتباطؤ الاتصال الثقافي بين الشعوب مقارنة بعصرنا .

لابراهيم عبد القادر المازني مقال طريف ، عن السرقات الأدبية أعادت نشره مجلة الدوحة (عدد آب ـ أغسطس ١٩٨٣) وقد أوضح فيه أن الاستاذ عبد القادر حمزة قد أثبت استنادا على ما وقف عليه . وكشف عنه علماء الآثار المصرية والتاريخ المصري القديم أن (هوميروس) شاعر الملاحم والأساطير اليونانية قد أخذ كثيرا من قصائده وقصصه من المصريين . وقد نشر عبد القادر حمزة النصوص ، وأثبت أن (هوميروس) قد استبدل الأسماء المصرية بأسماء اغريقية .

في التاريخ القديم

يضيف المازني أن (هيرودوت) المؤرخ الاغريقي الكبير يقول عن (هوميروس) كلمة لها مغزاها ، ذلك أنه يصف عمله بأنه (تنظيم) ، ويقول عنه في موضع آخر أنه وضع (إطارا)

* كاتب صحفي من القطر العربي السوري

للقصص ، و (جمعها) ، ومعنى هذا أن (هوميروس) لم يبتكر قصصه ، وإنما جمعها ورتبها .

أما الشاعر الانجليزي (ملتون) مؤلف (الفردوس المفقود) فقد اقتبس موضوعه ، ومواقفه ، وعباراته ـ حرفيا أحيانا ـ عن شاعر إيطالي مغمور ، كان معاصرا له ، حتى عثر (نورمان دوجلاس) على نسخة وحيدة من رواية (أداموكانتو) لمؤلفها الايطالي (سرافينوديللا سالاندرا) . ويروي المازني أن عباس محمود العقاد أعاره قصة (تاييس) ـ مؤلفها (أناتول فرانس) ـ ليقرأها ، وبعد عدة أيام أعاره قصة انجليزية أخرى من تأليف (تشارلز كينجزلي) اسمها (هايبيشا) ، وكان العقاد يريد أن يلفت نظره إلى التطابق الكامل بين الروايتين .

والغريب أن النقاد يتهمون المازني والعقاد أنهما استوحيا كثيرا من أشعارهما ، من المجموعة الشعرية الانجليزية الشهيرة باسم (الكنز الذهبي) !!

وقد أفرد نقادنا العرب القدماء كتبا خاصة ، وفصولا غزيرة المادة لقضية السرقات الأدبية ، وبخاصة في مجال الشعر ، باعتباره الفن الابداعي العربي الأساسي ، وهذا ما نجده عند الآمدي ، والجرجاني ، والثعالبي ، والحاتمي ، وأبي هلال العسكري ، وما نجده في تعليقات للشعراء أنفسهم على قصائد غيرهم . وكل هذا يؤلف مادة غنية للبحث ، كما هو موجود في موسوعة الأدب العربي العظيمة « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني .

واتهامات أبي فراس الحمداني للمتنبي مشهورة في بلاط سيف الدولة الحمداني . وقد كان المتنبي أعظم شاعر يتعرض لتهمة السرقات الأدبية لأنه قد ملأ الدنيا ، وشغل الناس . وكانت هناك اتهامات ظالمة في حقه ، كما نجد في الرسالة الحاتمية في الكشف عن سرقات المتنبي ، حيث نجد تخريجات مضحكة ، مبتذلة ، تؤكد أن الحاتمي قد قضى وقتا طويلا وصعبا في تلفيقها وتخريجها ، أكثر مما قضاه المتنبي في نظم قصائده .

السطو على بحوث كاملة

غير أننا لم نعثر خلال مطالعتنا في أمهات التراث العربي ومظانه على إغارة شاعر من الشعراء على قصيدة كاملة لشاعر آخر ، وادعائه أنها من إبداعه كما نجد في عصرنا الراهن ، اذ يسرق بعض الكتاب ـ ومنهم *أساتذة* ـ *بحوثا كاملة* ، وينسبونها إلى أنفسهم زورا وبهتانا ، ونحن في عصر الطباعة والانتشار السريع الواسع لوسائل الاعلام والتثقيف من الكتب ، والمجلات والصحف . وهذه بعض الأمثلة :

نشرت مجلة « الأسبوع العربي » بتاريخ ٢٢ ـ ١ ـ ١٩٧٩ موضوعا عن القصة العراقية ، بقلم (جوزيف كيروز) ، بعنوان « بحث عن الإنسان وحرية الجسد » . وكان نقلا حرفياً عن بحث للكاتب القصصي (عبد الستار ناصر) من العراق ، وقد نشر في مجلة « الموقف الأدبي » بالعدد ١٢ ـ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ ـ بعنوان « إشارات أولى في القصة العراقية المعاصرة » ، ولم يتغير غير العنوان .

أما الأستاذ المغربي (محمد محمد الخطابي) فقد كشف جذور بحث للدكتور (محمد التونجي) نشره في دورية (اللسان العربي) الصادرة عن مكتب تنسيق التعريف بالرباط ، المجلد الثالث عشر ١٩٧٦ إذ قال الأستاذ الخطابي إن بحث الدكتور التونجي : « رأي في جذور الضمائر العربية » ، يكاد يكون اقتباساً كاملاً عن بحث للأستاذ عبد الحق فاضل ، نشره في الدورية نفسها عام ١٩٦٧ ، بالعدد الخامس .

أما الدكتور (ابن عبد الله الأخضر) الجزائري فقد كشف في مجلة الطليعة الأدبية العراقية ـ فبراير ١٩٧٩ ـ أن عبد الجبار محمود عندما نشر بحثاً في المجلة نفسها بعنوان « أثر ألف ليلة وليلة في المسرح الأوروبي » في عدد أكتوبر ١٩٧٨ ، كان يقتبس حرفياً من مصادر ذكرها الدكتور الأخضر ، دون أن يشير كاتب البحث إلى صفحات تلك المصادر .

وفي العدد الرابع من المجلد السابع من مجلة

« المورد » العراقية الفصلية وجد الدكتور عماد عبد السلام من كلية التربية بجامعة بغداد أن السيد فاخر الرزاق المتاح قد نشر بحثاً في مجلة « المورد » عن مؤلفات عبد الكريم الجيلي في عدد خريف ١٩٧٨، كان الدكتور عماد عبد السلام قد نشره « حرفياً » في مجلة « الأقلام » العراقية، في العدد الخامس ١٩٧٠.

أما بول شاءول، المحرر الثقافي في مجلة « المستقبل » الأسبوعية فقد أجرى لقاء مع المستشرق الفرنسي (جان فونتين) مؤلف كتاب (الموت والبعث عند توفيق الحكيم)، وفي هذا اللقاء - العدد ١٠٩ - ٢٤ مارس آذار ١٩٧٩ - قال فونتين: هناك سرقات في مسرحية « أهل الكهف » فقد أخذت من (النظرة إلى الخلف) لإدوار بيلامي، ومن (الزمن الحلم) لهنري رينيه لونورمان، وقد وجدت عند الحكيم جملاً مترجمة حرفياً عن هاتين المسرحيتين، بل لقد وجدت بعض المواقف منقولة. هذا إلى جانب (١٩) عملاً مستوحى من أعمال غربية.

الاستيحاء والسرقة

ونحن لا نحكم بأن « الاستيحاء » سرقة، لكن لا بد أن نعترف بأن السرقة سرقة!

منذ سنتين أو ثلاث على ما أذكر، قرأت أن بعض الصحفيين الفرنسيين أثاروا حملة شعواء على أحد أساتذة التاريخ في السوربون، لأنه يورد في كتبه اقتباسات من كتب غيره، دون ذكر المرجع، أو وضع الاقتباس ضمن علامات التنصيص المعروفة، وكانت النتيجة أن الأستاذ أوقف عن عمله، حتى أعاد طبع كتبه وفق أصول منهج البحث العلمي.

ومنذ مدة أسقطت إحدى الجامعات العربية صفة الأستاذية عن الدكتور عبد الحسين القطيفي، لخيانته للأمانة العلمية.

لكن الذين يغيرون على إبداع الآخرين لا يرتدعون ولا يستسلمون أبداً، وطالما كان هناك إبداع فسيكون هناك من هو على استعداد للإغارة عليه لكي ينسبه إلى نفسه.

منتدى العربي

تعقيب

على مقال:

الطيران حول العالم دون توقف

قرأت مقال « الطيران حول العالم دون توقف » في العدد ٣٤٤ لشهر يوليو ٨٧ م وفي السطور الأولى من المقال يورد الكاتب الأستاذ المهندس سعد شعبان مايلي: عندما كتب الأديب الفرنسي « جول فيرن » قصته الخيالية « حول العالم في ثمانين يوما » في أواخر القرن الماضي قبل استخدام الطائرات لم يكن يتصور أن شطحات خياله يمكن أن تتحول يوما ما إلى حقيقة، وخاصة أن الوسيلة التي تنقل بها بطل الرواية من بلد إلى آخر، حينذاك، هي البالون الذي كان اختراعا جديدا.

والحقيقة أن بطل الرواية « حول العالم في ثمانين يوما » واسمه السيد « فوج » لم يستخدم البالون بل

كانت الوسائل التي استخدمها في رحلته هي العربات التي تجرها الخيول ، القطارات البخارية ، السفن البخارية ، والفيل في الهند والزحافة الجليدية التي يدفعها الهواء . أي وسائل انتقال متعددة بعضها كانت اختراعات حديثة مثل القطارات البخارية وبعضها قديم قدم الحضارة الانسانية مثل الفيل والعربة التي تجرها الخيول والزحافات الجليدية وليس البالون فقط .

والجدير بالذكر أن جول فيرن نفسه قد ركب بالونا في احدى تجاربه الأولى في فرنسا . وعلى ذكر جول فيرن « ١٨٢٨ ـ ١٩٠٥ فقد كتب هذا الكاتب الفرنسي العديد من الروايات والمسرحيات وان كانت كتبه تعتمد على الخيال العلمي ، ومن أشهرها رحلة الى أعماق الأرض ، من الأرض الى القمر ، عشرون ألف فرسخ تحت الماء ، الجزيرة الغامضة ، وغيرها .

ففي قصته رحلة الى أعماق الأرض تصور الكاتب فريقا من العلماء،وقد نزل إلى أعماق الأرض مستخدما فتحة بركان خامد ليجد عالما غريبا من الديناصورات والسرخسيات والمستنقعات ، ثم يخرج هذا الفريق بعد رحلة من المغامرات من فوهة بركان فيزوف في لحظات كان يتأهب فيها للثوران .

أما في قصته ، من الأرض إلى القمر ، فيتخيل أن عالما يضم مدفعا هائلا يبنى على الأرض ويقذف بكبسولة مزودة بالطعام والاكسجين الى خارج نطاق الجاذبية الأرضية لتواصل رحلتها الى القمر لتحط على القمر وتعود الى الأرض منطلقة من القمر بواسطة صواريخ الدفع الذاتي وتهبط في المحيط مستخدمة مظلات واقية .

وفي قصته ، عشرون ألف فرسخ تحت الماء ، يصمم بطل الرواية الكابتن نيمو غواصته العجيبة النيوتيلس (أمريكا تطلق نفس الاسم على احدى غواصاتها) ويتم صنع أجزاء تلك الغواصة في أقطار متفرقة ليعود نيمو إلى تجميعها على جزيرة نائية وتقوم برحلة طويلة تحت الماء تحطم أثناءها العديد من السفن،وتقوم سفينة أمريكية بتعقبها ولكنها لا تفلح في اصطياد هذا « الوحش البحري » الغامض . وهدف نيمو من بناء هذه الغواصة هو مساعدة الضعفاء والانتصار للمظلومين والمضطهدين ، حيث كان نيمو ومن معه يستغلون الكنوز الغارقة في السفن وإيصالها الى حركات التحرر في العالم . ومن طريف ما تخيله في هذه الروايات أن هناك نفقا تحت الأرض يربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط .

وبعد ،

لايمكن في هذا الباب « منتدى العربي » الكتابة باسهاب عن أعمال « جول فيرن » ولكن يمكن القول انه كان دقيقا في تخيلاته وتصوراته ، إذا علم أنه تصور وجود الغواصة قبل اختراع أول غواصة بخمسين عاما على الأقل ، وقبل اختراع الغواصة التي تعمل بالبترول باثنين وسبعين عاما . □

سليمان أحمد الهيماوي

● لو كان الاستبداد رجلا وأراد أن يحتسب بنسبه لقال : أنا الشر وأبي الظلم وأمي الاساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل ، وابني الفقر وابنتي الحاجة وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب !

(الكواكبي)

● أنا لا أهدي إليكم ورقا ... غيركم يرضى بخبز وورق

إنما أهدي إلى أرواحكم ... فكرا تبقى إذا الطرس احترق

(ايليا أبو ماضي)

«ماريو فارجس ايوسا»

وأدب الواقع والتجريب في أمريكا اللاتينية

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

عملت الظروف السائدة في بلدان أميركا الجنوبية ـ وهي نفس الظروف التي تعم بلدان العالم الثالث ـ على ظهور جيل من الأدباء ، قدر له أن يكون معبرا أصدق تعبير عن الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الكبير الذي تعاني منه شعوب تلك البلدان . وقد اشتهر من أولئك الأدباء جابرييل جارثيا ماركيز ، لكن ماريو فارجس لا يقل عنه أهمية .

ينتسب ماريو فارجس إيوسا إلى الجيل التالي مباشرة لجيل جابرييل جارثيا ماركيز (ولد ماركيز عام ١٩٢٨ ، وولد إيوسا عام ١٩٣٦) ، وكان في بداية حياته الأدبية من أشد المعجبين بماركيز ، فكتب عنه دراسة ضخمة ، في سبعمائة صفحة تقريبا ، نشرت في إسبانيا عام ١٩٧١ . لكن يبدو أن الأيام قد فرقت بين الأستاذ وتلميذه ، وتباعدت بينهما المسافات ، ومن ثم أحجم ماريو فارجس عن إعادة طبع هذا الكتاب القيم مرة أخرى ، على الرغم من أن كتبه غالبا يعاد طبعها في العام الواحد أكثر من مرة ، حتى ان قصته « من قتل بالومنيو موليرو ؟ » ، صارت تطبع كل شهر مرة تقريبا ، منذ أن صدرت في أوائل عام ١٩٨٦م .

وقد لفت ماريو فارجس نظر النقاد إليه منذ شبابه الباكر ، حتى جعله ناقد كبير هو لويس هارس عاشر عشرة أدباء كبار من أمريكا اللاتينية ، من أجيال سابقة (مثل خورخي لويس بورخيس ، وخوان كارلوس أونيتي ، وخوليو كورتاثار وجارثيا ماركيز .. إلخ) عندما تحدث عنهم في كتابه الشهير « أدباؤنا » الذي صدر في نوفمبر عام ١٩٦٦ . وقد بدأ لويس هارس حديثه عنه بقوله : « نحن في عام ١٩٦٦ نواصل الطريق نحو اكتمال فن القصة في بلادنا . ونحن في حالة صعود مستمر . وحتى الآن لاندرك رأس القمة بوضوح ، لكن المحرك (الموتور) تتولد عنه يوما بعد يوم طاقات أكثر ، والدليل على ذلك هو فارجس ايوسا ، فمنذ أربع سنوات تقريبا عندما كان عمره ستة وعشرين عاما ، وله من الأعمال الأدبية عملان فقط ، هما مجموعة قصص قصيرة ورواية ، منذ ذلك الحين برز اسمه بقوة بصفته أحد كتابنا الشبان ، وكان يتميز

عن غيره بموهبته الفذة ، وبإخلاصه لفنه . لقد كان ملهما ، فبدا كأنه ولد وفي مهده لغة من نار وعصا سحرية ، وهو يملك القوة وحرارة الإيمان والطاقة الإبداعية الحقيقية . وقد جاءته الشهرة سريعا لأنه كسبها بشرف ، واستحقها بكفاءة واقتدار » .

البداية الأولى

والعملان اللذان أشار إليهما هارس هما : مجموعته القصصية الأولى « القادة » التي نشرت عام ١٩٥٩ ، وحصلت على جائزة « ليوبولدو ألاس » والتي تحمل اسم ذلك الأديب الإسباني الواقعي من القرن التاسع عشر ، والعمل الآخر هو روايته الأولى « المدينة والكلاب » التي حصلت ـ وهي مازالت مخطوطة ثم نشرت عام ١٩٦٢ ـ على إحدى الجوائز الأدبية عام ١٩٦٣ في برشلونة بإسبانيا ، وحصلت في نفس العام على جائزة النقد ، وترجمت فور صدورها إلى حوالي عشرين لغة منها الانجليزية والفرنسية ، والالمانية والايطالية والروسية والبولندية والسويدية والفلندية والنرويجية والبلغارية والهولندية . وتعتبر هذه القصة هي البداية الحقيقية لسيرته الأدبية . يدور موضوع القصة حول تجربته الشخصية في المدرسة العسكرية ليونثيو برادو في ليما (بيرو) التي دخلها عام ١٩٥٠ وظل بها حتى عام ١٩٥٢ ، فقد تركت هاتان السنتان انطباعا سيئا جدا في ذاكرة الفتى الموهوب ، لأنها كانت أشبه بمجتمع تحكمه شريعة الغاب ، ولابقاء فيه إلا للأقوى والأشرس . كان القانون السائد في تلك المدرسة قانون قوة وعنف ، فبدت المدرسة كأنها تمثل في نظر الفتى نظرية داروين المعروفة خير تمثيل . وقد وصف فارجس إيوسا في قصته أوضاع المدرسة بكثير من السخرية ، مستخدما التقنيات الجديدة في فن القصص . وعلى الرغم من أن القصة قد نشرت في إسبانيا ، أي خارج بلده بيرو ، إلا أنها قد بيعت في ليما بأعداد كبيرة لدرجة أن المسئولين في المدرسة العسكرية أصيبوا بكثير من الحنق تجاه هذا الكاتب الشاب ، فأصدروا بيانا وصفوا فيه ماريو فارجس بفساد العقل ، وذلك بعد أن جمعوا ألف نسخة من الكتاب وقاموا بإحراقها في احتفال رسمي .

وتحدث اثنان من الجنرالات فقالا« إن هذه القصة نتاج عقل مريض » ،ووصفا كاتبها بأنه عدو بيرو ، وهدداه بسحب المواطنة عنه ، وتعريته من كل قيمة وطنية مقدسة .

لكن هذا الهجوم الشرس على القصة زادها شهرة وشعبية ، ولفت الأنظار بقوة تجاه كاتبها الشاب الذي أصبح بين يوم وليلة أحد الكتاب المعدودين . وفي عام ١٩٦٥ انتهى من كتابة روايته الثانية « البيت الأخضر » التي نشرت خلال نفس العام في برشلونة أيضا ، وقد لقيت من النجاح والانتشار مالقيته روايته الأولى ، وحصلت على مجموعة من الجوائز ، مثل جائزة النقد (١٩٦٦) والجائزة الدولية للأدب التي تحمل اسم « رومولو جاييجوس » عام ١٩٦٧ ، وهي جائزة يمنحها المعهد القومي للثقافة والفنون الجميلة في فنزويلا ، وكانت قيمتها المادية في ذلك الوقت ٢٢ ألف دولار .

رؤيته للواقع الاجتماعي

ظهر ماريو فارجس إيوسا بموهبته الفذة في بلد مثل بلادنا ، يشغل الأدب فيه جانبا هامشيا ، ويكاد يكون مجرد ملء لوقت الفراغ كما يقول لويس هارس في كتابه المذكور . ويعود ذلك لأسباب كثيرة ، منها الأزمات الاقتصادية ، والحكومات الدكتاتورية العسكرية ، والفروق الطبقية الهائلة ، والتخلف ، والظلم الاجتماعي ، وغير ذلك من أسباب تحول بين الأدب وبين أن يصبح عاملا مهما من عوامل التوعية الجماهيرية . يقول المفكر المكسيكي أوكتافيوباث في كتابه (زمن الغيوم) « إن أمريكا اللاتينية تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها بقية دول العالم الثالث ، مثل الاعتماد الاقتصادي والسياسي والثقافي على الخارج ، والظلم الاجتماعي ، والفقر المدقع إلى جوار الثروة والتبذير ، وغياب الحريات العامة ، والقمع والحكم العسكري ، وعدم استقرار المؤسسات ، والفوضى ، « والديماجوجية » ، والفساد ، وتخلف المواقف الأخلاقية ، وسيطرة جنس الذكور ، والتخلف في العلوم والتقنية ، وعدم

التسامح في مجال الآراء والمعتقدات والعادات » .

ولذلك فإن الغالبية العظمى من مثقفي أمريكا اللاتينية يرون في قارتهم جحيما يلتهم في أتونه المستعر كل ما هو طيب . وكل واحد منهم ينظر إلى هذا الجحيم من زاوية مختلفة . يقول الناقد خوسيه لويس مارتين في كتابه « قصص فارجس إيوسا » (ص ٣٩) : « إذا كان الروائي جاييجوس قد حاول أن يرى نوعا من الجحيم اللاتيني الأمريكي بعينيه الفنزويليتين في زمنه ، فإن خوان رولف قد حاول في قصته « بدرو بارامو » خلال الخمسينيات أن يرى بعداً آخر لهذا الجحيم من وجهة نظر أخرى ، وقدم فارجس إيوسا في الستينيات شاشة أخرى للجحيم الأمريكي اللاتيني بعيون بيرووية » .

ومن خبرة ماريو فارجس بالحياة في أمريكا اللاتينية وتمرسه فيها رأى كيف يكون الظلم في هذه البلاد قانونا والجهالة فردوساً . ففي كل مكان من هذه القارة المترامية الأطراف نجد الاستغلال ، والفروق الطبقية ، والبؤس والتخلف الاقتصادي والثقافي والأخلاقي . وقد عرض فارجس هذه الأشياء في مقال له نشر عام ١٩٦٧ في مجلة « العالم الجديد » (العدد ١٧) بعنوان « الأدب نار » ، ووصفها بأنها كالتنين في قصص الفرسان الذي يلتهم أحشاءه ، إنه تنين من الداخل ، يتمثل في شياطين الطبقات المميزة ، والنزعة العسكرية ، والاقطاعيات الفوضوية ، والرقابة ، وسيطرة جنس الذكور ، والديماجوجية ، والقواعد الصارمة ، والبيروقراطية البرجوازية التي تقوم بخدمة السلطة ، وتنين من الخارج يتمثل في التبعية الاقتصادية ، والاعتماد على الخارج . أمام هذا الواقع المؤلم وجد الكاتب أنه مطالب بشحذ أسلحته الدلالية والجمالية حتى لو اضطر للدخول في معركة غير متكافئة ضد طواحين الهواء وخرج منها مدحورا ، أو تعرض لحرق كتبه في احتفال رسمي كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ويرى ماريو فارجس أن بلاد العالم الثالث ـ بما فيها امريكا اللاتينية ـ تعاني من حالة فساد جماعي ، فكلهم مدانون ، وكلهم مشتركون في هذا الفساد ، إما بالفعل وإما بالتواطؤ أو بالصمت واللامبالاة . فالواقع إذن في غاية السوء . لكن الحياة يجب أن تتغير ، والقصاص مدعو للمساعدة على إحداث هذا التغيير والخروج من هذه الأزمة الجماعية . فالقصاص يفعل ذلك على نحو ما ذكر فارجس إيوسا في مقاله المذكور آنفا بكتاباته القصصية ، فهو يستخدم فيها كل ما يساعده للوصول إلى هذا الهدف ، كالأحداث ، والأحلام ، والمشاهد ، والمجازات ، والرؤى ، والكوابيس . لكن هذا التغيير يجب أن يتم بوعي أسلوبي كامل ، يدخل في عالم الحداثة ، وبلغة إسبانية أمريكية ، أي نابعة من واقع أمريكا اللاتينية نفسه . إن لغة فارجس أيوسا ولغة كل كتاب أمريكا اللاتينية وشعوبها هي اللغة الاسبانية ، لكن هؤلاء الكتاب المحدثين بحسهم المرهف ووعيهم بواقع مجتمعهم وقضاياهم الساخنة استطاعوا أن يثروا هذه اللغة ثراء عظيما ، ويدخلوا عليها تعبيرات وأساليب تندرج في سياق جديد ، تتمثل فيه كل عناصر الوجود المتأزم في أمريكا اللاتينية وأبعاده .

يقول جابرييل جارثيا ماركيز في المحادثات التي أجراها معه صديقه بلينيو ميندوثا ونشرت عام ١٩٨٢ : (عندما كتبت قصة « الورقة الساقطة » ـ أولى قصصه ـ كنت مقتنعا تماما بأن أجود القصص هو مايكون تعبيرا شعريا عن الواقع) ولعل هذا هو الفرق الكبير بين الواقعية القديمة والواقعية المعاصرة أو الجديدة ، ولهذا يرى ماريو فارجس أن التجارب التي عاشها الكاتب واستوعبها يجب أن تدخل حومة الأسلوب ، كي تحمل أقنعة جديدة ، وتنصهر وتتحول ، ثم تخرج على نحو آخر يمكن وصفه بالشاعرية . وإذا لم يتم التعامل على هذا النحو مع الواقع حكم على هذه التجارب بالجمود ، أو النزف ، وبذلك تفقد خاصيتها الحقيقية .

مستويات الواقع

تحدث ماريو فارجس في أكثر من مناسبة سواء في مقالاته أو في كتبه أو في أحاديثه فقال : « انه يحاول ان يكتب مايسميه «القصة الشاملة » ، وهي كذلك ،

لأنها تأتي من رؤية شمولية للواقع . وقد انطلق في رؤيته هذه من منطلق تأثره بقصص الفروسية التي انتشرت في إسبانيا في أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة . ولذلك يقول : « إنهم ـ يقصد مؤلفي هذه القصص وقد كانوا مجهولين ومازالوا كذلك حتى الآن ـ كانوا يقصون مايرونه ، وما يعتقدون فيه ، ومايحسون به . وكان وصفهم للعالم ، وتمثيلهم له ، على عكس ماكان يحدث في الأنواع الأدبية الأخرى ، فهو شامل غير جزئي ، أو بالأحرى هو شمولي . إن مبدعي هذا النوع كانوا يحاولون إظهار الواقع بكل مستوياته ، وبكل أبعاده ، وكانوا يريدون أن يضمنوا قصصهم الحقيقة برمتها » (من مقال « القصة » في مجلة « دفاتر الأدب » عام ١٩٦٩) .

وقد تحدث النقاد في أمريكا اللاتينية عن خمسة مستويات للواقع في قصص ماريو فارجس نوجزها فيما يلي :-

١ ـ المستوى الحسي : ويتسم بالموضوعية ومتابعة الأحداث اليومية العادية ، وزمنه هو الزمن التاريخي العادي .

٢ ـ المستوى الأسطوري : ويتسم بنقضه للزمن التاريخي ، واستقبال الشيء الخارق للعادة كأنه أمر واقعي ، وطاقته الرمزية .

٣ ـ مستوى الحلم : وهو سوريالي في المقام الأول ، يحمل عناصر غريبة من الفانتازيا ، والحلم ، واللاشعور ، والكابوس والزمن فيه هو الزمن النفسي الذي أصبح يمثل أساس الزمن في علم النفس .

٤ ـ المستوى الميتافيزيقي : وهو في جوهره فلسفي ، ذو طروحات عالمية خالدة .

٥ ـ المستوى الصوفي : ببعده البشري الالهي الذي يجعل من الانسان ضميراً للكون كله .

وقد استطاع ماريو فارجس بموهبته الفذة أن يستخدم بعض هذه المستويات بمهارة واقتدار في قصصه ، في محاولة للوصول إلى الهدف الذي يبتغيه ، وهو القصة الشاملة ، أو الاقتراب من ذلك على الأقل .

وقد تطلب منه ذلك اللجوء إلى أنواع معينة من « التكنيك » ، مثل البناء « الباروكي » (المحمل بالمفاهيم والمجازات) ، والتناسق النغمي وتنوير المعجم اللغوي والأكواب الموصلة ، وغير ذلك من تقنيات فصلها نقاده في كتب كاملة ، مثل خوسيه لويس مارتن في كتابه « قصص فارجس إيوسا » ولامجال للحديث عنها باستفاضة الآن .

ومع لجوء فارجس إلى « تكنيكات » فنية قديمة وحديثة معقدة إلا أنه لم يغفل قط مسألة الوصول إلى القارىء ، لدرجة أن القارىء يحس أن هذا الكاتب يكاد يكون له هدف واحد من وراء كل « تكنيكاته » هو إلغاء المسافة بين القصاص وبين القراء ، حتى يحس الواحد منهم كأنه أحد أبطال الرواية ، أو كأنه قد اشترك مع المؤلف في كتابة العمل . وهذه مقدرة لاتتاح إلا لكبار الكتاب .

موضوعاته

إن الموضوع الرئيسي الذي يمثل العمود الفقري في أي عمل روائي لماريو فارجس هو « الفرد بصفته ضحية لمجتمع متعفن » ، وتتفرع عن هذا الموضوع موضوعات أخرى كثيرة ، تكشف عن الأزمة العميقة التي يعيشها مجتمع يحمل كل أمراض العالم الثالث ، وهذا الفرد يمكن أن يكون شخصا واحدا أو مجموعة من الأشخاص . وهذا الشخص يتميز ـ عادة ـ بصفتين رئيسيتين ، إحداهما أنه بريء ، وأخراهما أنه مخدوع على نحو ما ، مما يؤدي إلى فساده وسقوطه وموته في أغلب الأحيان .

في قصة « محادثة في الكاتدرائية » نجد الشخصية الرئيسية في غاية البراءة ، تقع ضحية آلة البيروقراطية التي تحكم حلقاتها بأسلوب جهنمي في بلاد العالم الثالث . ويتم البحث عن القاتل دون جدوى ، لأن كل شيء يحتاج إلى أوراق وخطط « وبروتوكولات » ، وحركات « هيستيرية » . وفي قصته « من قتل بالومينو موليرو » يقع الشخص ذو البراءة ضحية لمصالح الطبقة الطفيلية في المجتمع ، أو التي يسميها فارجس إيوسا « بالقطط

السمان »وهذة الطبقة تستحل سفك الدماء من أجل تغطية جرائمها ضد الأبرياء الأمنين . وتجد هذا الموت اللغز في كل قصص فارجس إيوسا بدءا من مجموعة « القادة » حتى قصته الأخيرة . وفي رواية « المدينة والكلاب » يكشف هذا القصاص عن « قانون الغاب المرادف للنزعة العسكرية » ، فإما أن تأكل أوتؤكل كما جاء على لسان إحدى الشخصيات وتترجم هذه الكلمات على نحو آخر ، إما أن تُحَطم وتُفسد وتُعكر صفو من لم يسيء إليك وإما أن يتم التخلص منك»إنه قانون الذئاب الذي تحدث عنه منذ قرون الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز . ويبدو أنه يطبق على نحو واسع في بلاد أمريكا اللاتينية .

تذكر كلنا مظاهرات « الأمهات » في بيونس أيرس في الأرجنتين خلال فترة الحكم العسكري ، حين طفن بالشوارع مطالبات بعودة أبنائهن المختفين الذين تم تصفيتهم جسديا في غياهب السجون والمعتقلات . وبما أن المدرسة العسكرية كانت هي الغاب بعينه ، فقد جسد فارجس هذا المجتمع في قصصه ابتداء من « المدينة والكلاب » حيث نجد المدرسة التي يدرس فيها كوبار على نفس هذا النمط ، ونجد مكتب الجريدة التي تعمل فيها زفاليتا في « محادثة في الكاتدرائية » كذلك،وهكذا نجد في كل القصص ذلك المكان الذي تتحقق فيه شريعة الغاب ، ويأكل القوى فيه الضعيف بلا رحمة.

وينطلق القصاص مثل كل كتاب أمريكا اللاتينية من تجربته الشخصية ، ولا يجد حرجا في الحديث عن الصور التي ألهمته هذه القصة أو تلك ، وعن الأشخاص الذين أوحوا له بشخصيات رواياته . يقول جارثيا ماركيز مجيبا عن سؤال لصديقه بلينيو ميندوثا في المحادثات المذكورة سالفا عندما سأله : (ماهي نقطة الانطلاق عندك في كتابة أي قصة ؟) : « نقطة الانطلاق عندي صورة مرئية ، وأظن أن القصة تظهر عند بعض الكتاب انطلاقا من فكرة أومفهوم معين . أما أنا فأنطلق دائما من صورة فأقصوصة « قيلولة الثلاثاء » كتبتها بعد أن رأيت سيدة وطفلة ترتديان ملابس سوداء ، وتحملان مظلة ، وتسيران تحت شمس الصيف المتقدة في قرية تشبه الصحراء . « والورقة الساقطة » جاءت تأثرا برؤية عجوز يحمل حفيده إلى القبر . ونقطة الانطلاق في « الكولونيل لايجد من يكاتبه » جاءت نتيجة لرؤية رجل ينتظر قاربا في سوق بارانكيا في صبر نافد ، وبعد ذلك بسنوات في باريس كنت أنتظر خطابا أو طردا بريديا على أحر من الجمر .. الخ » .

ويحدث نفس الشيء بالنسبة لقصص ماريو فارجس ، فهي غالبا صور مختزنة في الذاكرة لشخصيات وأحداث وتجارب عاشها المؤلف ، وانفعل معها ، سواء بالقبول أو بالرفض ، بكل أحاسيسه ومشاعره بصفته إنسانا مرهف الحس ، يقظ الضمير ، يؤمن بأن رسالة الأديب هي التمرد على الأوضاع الظالمة ، وكل مظاهر التعسف والتسلط والاستغلال والفوضى . يقول في محاضرة ألقاها عام ١٩٦٦ ، أي في بداية حياته الأدبية :

« من الضروري أن نذكر مجتمعاتنا بما ينتظرها ، ونبهها إلى أن الأدب كالنار ، وأن الأدب يعني عدم الرضا بالأوضاع القائمة ، ويعني التمرد ، وأن أصل وجود الكاتب هو الاحتجاج ، والمعارضة والنقد ، وعلينا أن نشرح لهم أنه ليس هناك حلول وسط فإما أن يلغى المجتمع للأبد تلك القدرة الانسانية المتمثلة في الابداع الفني ، ويقضي بذلك على هذا المحرض الاجتماعي وهو الكاتب ، وإما أن يقبل الأدب ويحتضنه ، وفي هذه الحالة لن يكون لديه من وسيلة الا قبول هذا الوابل المنهمر من الانتقادات ، والسخريات ، والهجاء الذي يتحول من العرض إلى الجوهر ، ومن الفاني إلى الخالد ، ومن السطحي إلى قاعدة الهرم الاجتماعي » .

وكاتب هذا شأنه فضلا عن تجويده الفني وقدرته الابداعية الخلاقة ، جدير بأن يقول عنه نقاد أمريكا اللاتينية ـ ويؤكدون ـ أن الأدب الحقيقي في هذه القارة بدأ بأديب من بيرو هو الإنكا جارثيلا سودي لافيجا (١٥٣٩ ـ ١٦١٦م) ، وبلغ قمته في أيامنا الحاضرة بكاتب آخر من بيرو أيضا هو ماريو فارجس إيوسا . □

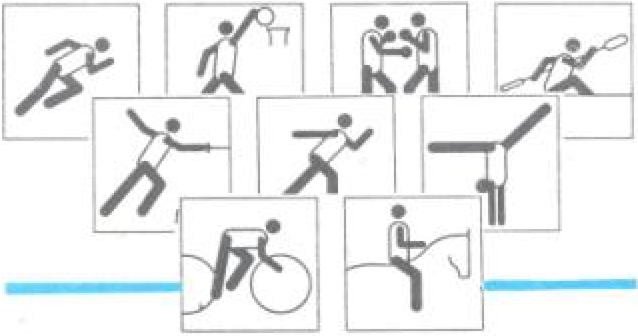

الألعابُ الأولمبيّة

لهـا تـاريـخ

بقلم : عادل شريف

الاستعدادات تجري الآن في « سيول » عاصمة كوريا الجنوبية
لاستضافة الدورة الأولمبية الرابعة والعشرين ..
التي تقام على مدى ستة عشر يوما حسب الـ ميثاق الاولمبي
من ١٧ سبتمبر حتى ٢ اكتوبر ١٩٨٨ .
الألعاب الاولمبية التي تقام كل أربع سنوات لها قصة ورجال .. وتاريخ !

الألعاب الاولمبية قديمة وعريقة . بدأت قبل الميلاد بألف عام في « اغريقيا » .. وهي بلاد « الاغريق » وكانت الألعاب مرتبطة بطقوس دينية وثنية ولا تقام إلا في « اولمبيا » بشمال غرب اليونان .. التي كانت عاصمة الاغريق الدينية المقدسة .

واذا كانت الألعاب مجهولة التاريخ بسبب الزلازل والاعاصير وقلة الأدلة والوثائق المكتوبة أو المحفورة على الحجر .. فإن المؤرخين المحدثين يرون انها بدأت في عام ٧٧ ق . م . لأنه اول تاريخ « مكتوب » يؤكد الاحتفال بالالعاب الاولمبية المنسوبة الى جبل اوليمب أعلى جبال اليونان .. حيث كان « زيوس » كبير الالهة يعيش فوق قمته كما كانت الاساطير الوثنية تؤكد منذ تلك الايام الغابرة .

والاكيد أن الأغريق اخذوا الالعاب الاولمبية عن الفينيقيين سكان الساحل الشرقي للبحر المتوسط ـ هواة الهجرة والترحال الذين بنوا اول ملعب « ستاد » في العالم ومزجوا بين الرياضة واقامة الطقوس الوثنية .. أي الاحتفال بمهرجانات عقائدية ورياضية معا .. كان الاغريق يقيمونها في اوليمبيا

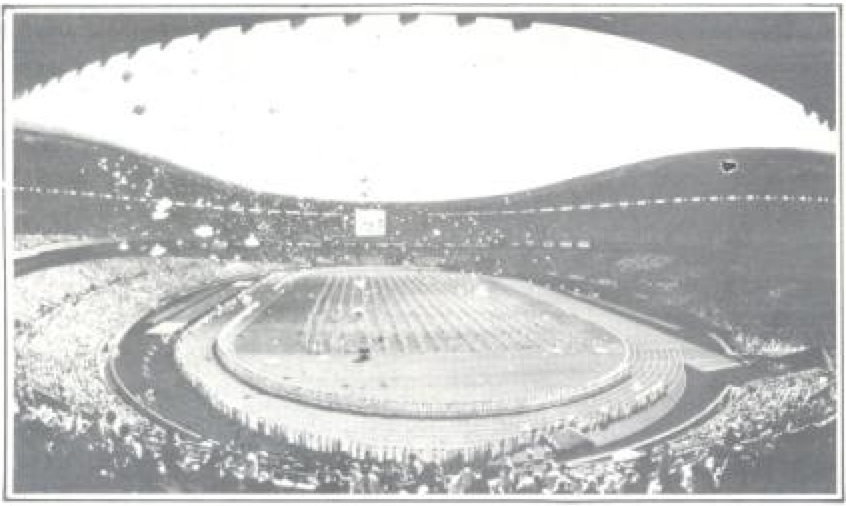

الملعب الرئيسي في سيول . . مستعد الآن لكل التحديات

دائما ، ومرة كل أربع سنوات ، والغريب أن البرنامج الرياضي للالعاب الاولمبية « القديمة » لم يكن يتضمن سوى سباق واحد !! وكان سباق جريّ بطول « الاستاديون » أي الملعب ، وكان طوله ١٩٢ مترا ، و٢٧ سنتيمترا وكان أول فائز اولمبي هو « كوربوس » الذي كان طاهيا من ولاية « ايلليس » . . . وقهر كل منافسيه وهو عار تماما مثلهم ، فهذه كانت تقاليد تلك الايام الخوالي .

وبمرور الأيام وكر الاعوام أضافوا مسابقات اخرى الى « الاستاديون » مما اضطرهم لمد فترة المهرجان الرياضي ـ الديني الى خمسة أيام . . كانت ثابتة الموعد . . عندما يكتمل القمر في شهر يوليو . . ولذلك كانت الناس تشكو من توافر الحشرات وعندما اشتكوا من قلة الماء . . بنى ثرى يوناني نافورة ضخمة على حسابه . . فشربت الناس شاكرة كما تفعل من « السبيل » العربي ، ويوليو تموز ـ هو شهر الحر البحير في اوليمبيا من زمان وحتى الآن .

لا للنساء ولاولمبيا

وكانت التقاليد الاغريقية القديمة تحرم على النساء دخول اوليمبيا ومعابدها المقدسة . . باستثناء كاهنة معبد « ديميترشاو » . . وكانوا يقتلون كل من يقبض عليها في داخل « اوليمبيا » بالقائها من فوق جبل « تيابون » ولم تنج من القتل سوى « كاللبياتيرا » التي تنكرت في زي الرجال وادعت انها « مدرب » ابنها . . الذي دربته واشركته في بطولة « الملاكمة » للناشئين وعندما فاز جنت من الفرحة فوقع عنها ثوبها . فانكشف امرها ولكنها اجادت الدفاع عن نفسها بأنها من عائلة تضم عديدا من الأبطال الاولمبيين ، فعفوا عنها . لسمو مكانة هؤلاء الأبطال . . وإن قرر المسئولون اشتراك المدربين في الألعاب « **عراة » تماماً مثل كل اللاعبين** .

وعندما اتسعت الامبراطورية الرومانية . . التهمت كل جيرانها . . ومن بينهم اليونان . . وكان الرومان يغارون من الاغريق لتقدمهم في العلوم والفنون والآداب والثقافة ، والرياضة و . . ووصلت الغيرة ـ وهي نار تحرق ان لم تكيح ـ الى حد اصدار الامبراطور الروماني « ثيودوسيوس » قرارا جائراً ظالماً في سنة ٣٩٣م . يقضي بالغاء الألعاب الاولمبية . . بتهمة انها تشكل مهرجانات « وثنية »

تخالف المسيحية التي كانت روما قد اعتنقتها .. بعد عهود طويلة من الوثنية .. وقهر المسيحيين والقائهم طعاما للاسود الجائعة !

وكانت اليونان في ذلك العهد ولاية تابعة لروما .. ومن ثم كان عليها الطاعة ..

والامتثال .. رغم ان اغريقيا كانت تعشق الألعاب الاولمبية عشقا مبرحا .. وكانت العاصمة اثينا بعد ازدهار الامبراطورية اليونانية .. قد فتحت باب الاشتراك في الالعاب لجميع البلاد التابعة للاغريق .

وطال رقاد الألعاب الاولمبية .. حتى بدأت حملة البارون الفرنسي « بيير دي كوبيرتان التي جاءت من وحي حفريات الألمان في « اولمبيا .. التي كانت قد اندثرت بفعل المحن والزمن والعواصف والزلازل

مسابقات كرة السلة للسيدات .. دخلت الأولمبياد

وفيضانات نهري « الفيوس » و « كلاديوس » وقال دي كوبيرتان » في حملته جملة شهيرة :

لقد كشفت ألمانيا عن بقايا اولمبيا ....

فلماذا لا تعيد فرنسا امجاد اولمبيا القديمة ؟ و .. وقد كان ، فقد نجح دي كوبيرتان .. وتشكلت اللجنة الاولمبية الدولية في ١٨٩٤ .. وعهدت الى اثينا بتنظيم « أول » دورة اولمبية عصرية صيفية تمييزا لها عن الدورات الاولمبية الشتوية الخاصة بألعاب الجليد ـ في صيف ١٨٩٦ .. فكان ذلك القرار خير تكريم وتشريف لبلاد الاغريق مهد الالعاب الاولمبية .

كوربوس .. الجديد

والطريف أن دورة اثينا « الصيفية » اقيمت في الربيع في ١٦ ابريل ١٨٩٦ الذي وافق عيد اليونان القومي .. وكان اول بطل احرز ميدالية ذهبية في الاولمبياد الجديدة العصرية .. هو الأمريكي جيمس كونوللي الذي فاز بمسابقة الوثبة الثلاثية ، فوضعوا على رأسه اكليل الغار المكون من اغصان الزيتون ، وتلك طريقة تكريم ابطال « اولمبيا » القديمة .. فأغصان الزيتون رمز للسلام .

وفيه اشارة الى معاهدة السلام الاجباري التي كانت تفرض السلام في فترة الألعاب الأولمبية القديمة .. لضمان وصول المتنافسين الى اولمبيا وعودتهم منها .. في اطمئنان وامان .. وان عجزت الدنيا في الالعاب الاولمبية الحديثة فرض مثل هذا السلام لان الحروب مسببة الكروب منعت اقامة دورات ١٦ و٤٠ و١٩٤٤ لان اله الحرب « مارس » مارس مداعباته الثقيلة .. وفرض على الدنيا الحرب والخصام بدلا من الحب والسلام .

شعبية .. جارفة

وقررت اللجنة الاولمبية الدولية عدم اقامة الالعاب في مدينة واحدة ـ فالمدن هي التي تنظم الدورات وليست الدول ـ رغم مطالبة اليونان بذلك .. وكانت ركيزة القرار قائمة على العقل والعدل ، ففي تغيير المدينة المضيفة تمكين للالعاب

الاولمبية من الازدهار والانتشار،وترسيب لمفاهيمها وفلسفتها واهدافها الشريفة السامية الصادقة فهي تطلب تعميق الود والتفاهم والانسجام بين شعوب كوكب الارض ، وتدعيم السلام العادل الشامل بل يقول عشاق فلسفة الحركة الاولمبية ان اعظم مهرجان على سطح كوكب الارض ـ أي الالعاب الأولمبية ـ هو البديل الوحيد المعقول والمقبول للحروب !

فالمنافسة في ميادين هذه الالعاب .. يمكن ان تلغي الاقتتال في ميادين الحروب .

ترى هل ستحقق للبشرية هذه الاحلام الذهبية الوردية السلمية ؟

تصاعدت شعبية الالعاب الاولمبية الى حد لم يتصوره اكثر المتفائلين تفاؤلا ، وكسر عدد الدول المشتركة فيها حاجز المائة دولة ، وعدد اللاعبين واللاعبات حاجز العشرة الاف نسمة . وكانت العاب اثينا ١٨٩٦ شديدة التواضع فقد اشترك فيها ٣١١ لاعبا من ثلاث عشرة دولة ، تنافسوا في تسع لعبات ، اما الالعاب ١٩٨٨ التي ستنظمها « سيول » عاصمة كوريا الجنوبية .. فقد ارتفع عدد المسابقات ـ المدرجة في برنامجها الرياضي الى ٢٥ لعبة . وسيكسر عدد الدول المشتركة حاجز المائة وخمسين دولة ـ مالم تحدث مقاطعة كما حدث لدورتي « موسكو » ٨٠ . ولوس انجلوس ٨٤ ـ وسيحطم عدد اللاعبين واللاعبات حاجز الخمسة عشر الف مشترك .

منافسة .. ساخنة

ولا ادل على حب المدن لاستضافة الالعاب الاولمبية ـ الى حد الطمع والجشع ـ من أن لندن وباريس ولوس انجلوس نظمت كل منها الألعاب مرتين .. ومن ان بعض المدن مثل تورينتو وبرمنجهام الانجليزية ـ تنافس اثينا في استضافة العاب ١٩٩٦ .. بروح غير رياضية . فهذا العام هو « العيد المئوي » للألعاب الأولمبية العصرية . واثينا عاصمة اليونان ـ مهد الأولمبياد ـ هي أجدر المدن بشرف التنظيم في هذا العيد الذي لا يتكرر سوى مرة واحدة في كل التاريخ ، ولذلك تقوم ميلينا مركوري الممثلة السينمائية السابقة ووزيرة الثقافة الحالية في اليونان بحملة عالمية واسعة النطاق لاقناع الدنيا كلها و « الخالدين » بأحقية أثينا في التنظيم .. دون منافسة .

و« الخالدون » هم أعضاء اللجنة الاولمبية الدولية التسعة والثمانون .. فهناك « خالدون » في كل مجالات الحياة . وعلى ذكر « الخالدين » ندعو من فوق صفحات « العربي » القراء بكل روح سمحة الى فكرة أمينة شبيهة معمول بها في الغرب ، وهي قاعات الخالدين » التي يضمون اليها في كل عام اسماء خمسة او عشرة ممن قدموا خدمات جليلة للألعاب الرياضية .. حثاً للاخرين على بذل مزيد من الجهود المخلصة الأمينة في مجال الرياضة السمحة النبيلة .

اول عربي ..

كان اول عربي اشترك في الالعاب الاولمبية هو بطل السلاح (المبارزة بالسيوف) المصري احمد حسنين .. الذي اشترك في ألعاب ستوكهولم الاولمبية ١٩١٢ عندما كان طالبا يدرس في جامعة انجليزية . ثم اصبح فيما بعد احمد حسنين « باشا » رئيسا للديوان الملكي في مصر .

وأول عربي احرز ميدالية اولمبية ذهبية هو بطل مصر في رفع الاثقال : سيد نصير الذي فاز بذهبية خفيف الثقيل في دورة امستردام ١٩٢٨ .. وحمل كل ما اهدوه من زهور وورود الى غرفة جاره ومواطنه ابراهيم مصطفى فكانت فالا حسنا لان ابراهيم فاز في اليوم التالي بذهبية وزن خفيف الثقيل في المصارعة الرومانية .

بعد ذلك تتالت الانتصارات العربية الاولمبية الذهبية .. ففاز العداء التونسي بذهبية الخمسة الاف متر جري في دورة مكسيكوسيتي ١٩٦٨ .

وفي دورة لوس انجلوس عام ١٩٨٤ ، اصبحت البطلة المغربية نوال المتوكل أول عربية تنال ميدالية

ذهبية .. وكان ذلك الانجاز التاريخي المبهج في مسابقة ٤٠٠ متر حواجز .. وفي نفس الدورة نال البطل المغربي سعيد عويطة ذهبية ...٥متر جري.

والى جانب هذه الانتصارات الذهبية المبينة .. فاز بعض ابطال العرب بميداليات فضية وبرونزية وديبلومات المراكز من الرابع الى السادس .. وهم ابطال من مصر وتونس والجزائر ولبنان والعراق والمغرب.

.. ومن الاعماق نرجو كل الخير والنجاح للاعبينا ولاعباتنا في دورة «سيول» التي ستنظمها عاصمة كوريا الجنوبية من ١٧ سبتمبر الى ٢ اكتوبر إن شاء الله.

لا ... لحواء

والطريف أن «دي كوبيرتان» باعث الألعاب الاولمبية الحديثة كان على رأس المعارضين لاشراك «حواء» في الألعاب الاولمبية الجديدة اسوة بالمتبع في الالعاب القديمة. حيث كانت ألعاب مخصصة للنساء فقط ولكن ليس في اولمبيا ـ ولكن الحواءات قمن بهجوم مضاد على حملة «دي كوبيرتان» ونجحن في الاشتراك في الدورة الثانية التي نظمتها باريس «مدينة النور» كما يسمونها في عام ١٩٠٠ عندما اصبحت «شارلوت كوبر» بطلة التنس الانجليزية اول حواء تفوز بميداليات اولمبية. فقد انتزعت من المضيفات الفرنسيات ميداليتي فردي السيدات والنوجي المختلط. فكرهتها كل فرنسا وكانوا يدللونها بلقب «شاي» المشتق من اسمها «شارلوت» وعند عودتها منتصرة ظافرة الى لندن استقبلتها قفشة قالت: واين ميداليتك الثالثة ياشاي؟

او لم تكن هناك مسابقة في الثرثرة؟

وقد اشتركت الفتيات العربيات لاول مرة في الالعاب الأولمبية في دورة ميونيخ ١٩٧٢، واخذت بزمام المبادرة فتيات المغرب وسوريا ولبنان.

حاتم .. اليوناني

وبعد أن نجح «دي كوبيرتان» سكرتيرا عام أول لجنة اولمبية دولية ـ قبل أن يرأس اللجنة فيما بعد ـ في تدويل الالعاب، اي عدم تثبيت اقامتها في اثينا واجه بعد التدويل أخطر المشاكل وهي «التمويل» وكاد فقر اليونان يقضي على فكرة دي كوبيرتان، وان يبقى على فكرته الخلاقة مجرد فكرة على الورق وفي الوجدان..

ولكن يونانيا ثريا جمع ثروته الطائلة وامواله الهائلة من الحياة في الاسكندرية والمتاجرة في القطن المصري تقدم في كرم حاتم الطائي العربي وأنقذ الموقف وتبرع بمليون دراخمة اصلحوا بها ستاد أثينا القديم الذي كان يتسع لأربعين الف نسمة في الأيام الخوالي وجددوه وعصروه. وهل كان يمكن اقامة العاب اولمبية بدون ملعب رئيسي؟

إن اجمل تحية قدمت الى المواطن اليوناني «جورج افيروف» انهم اقاموا له تمثالا في مدخل ستاد اثينا المرمري المستطيل. تكريما لما قدمه من عطاء في سخاء.. أنقذ «أعظم مهرجان رياضي على سطح كوكب الأرض» من مواصلة الرقاد. □

نحو ثقافة عربية أفضل

● يقول الدكتور قسطنطين زريق في مقالة له، بعنوان نحو ثقافة عربية أفضل»:

إن وراء كل حضارة قلة مبدعة من الناس: قلة تتميز عن الكثرة لا بالمال، أو الجاه، أو القوة المادية، أو الزعامة الشعبية، بل الاستحقاق الذاتي: طبيعة وكسبا، قلة تحقق القيم وتعممها في المجتمع، قلة تعمل لا لذاتها بل لغيرها، قلة لاتتعالى ولا تتجبر، بل تحب وتخلص وتعطي، قلة متألفة متعارفة، منها تنطلق نوى التقدم ومجاري الانبعاث، ومصادر الخلق والابداع.

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

أمل جديد للذين يعانون من السكري وأمراض الشيخوخة

كانت بلا ريب ندوة طبية خطيرة ، تلك التي عقدت في جامعة روشستر في نيويورك في مطلع شهر يوليو سنة ١٩٨٧ فقد ضمت نحو ٥٠٠ باحث طبي توافدوا لمشاهدة شريط فيديو تظهر فيه السيدة (تس فولترين) التي كانت تعاني من مرض باركنسون أحد أمراض الشيخوخة ، وشفيت من مرضها هذا تبعا للعملية الجراحية التي أجريت لها في المركز الطبي في جامعة فاندربلت في مدينة ناشفيل . حقا قد يكون شفاؤها مؤقتا ، ولعل أكثر العلماء الذين شاهدوا الشريط لم يغفلوا عن ذلك الاحتمال ، ومع ذلك فقد تملكتهم الدهشة ، كلهم دون استثناء ، ذلك أن مرض باركنسون ـ كان في نظر الجميع ـ مرضا عضالاً لا يسمح بشفاء مؤقت أو غير مؤقت . .

وأول ما يذكر من أعراض مرض باركنسون هذا ، أنه غالبا ما يصيب المسنين فيتسبب لهم بالرجفة في أطرافهم ورأسهم ، ويتسبب لهم أيضا بانحناء في الظهر ، وتباطؤ في الحركة ، وقد تشمل أعراض المرض جمودا في الوجه يذكر المرء بالنهاية التي لا مفر منها لانسان ولا مهرب . . أعني الموت . .

ولعل أكثر ما يعنينا من أعراض مرض باركنسون هنا هو التيبس الذي يصيب العضلات ، فقد كان في طليعة الأعراض التي عانت منها السيدة (تس) ، والغريب أن تيبس عضلاتها لم يسمح لها بالمشي الى الامام ، وإنما الى الوراء فحسب وذلك نتيجة الآلام المبرحة التي ترتبت على مشيتها السوية . وشاهد العلماء والباحثون (على شاشة الفيديو) كيف اضطرت المرأة المسكينة الى المشي الخلفي المعكوس أثناء مرضها ، وكيف اعتدلت مشيتها وأصبحت سوية في أعقاب العملية الجراحية المذهلة التي أجريت لها .

نقول مذهلة لأنها كانت عملية زرع تناولت المخ نفسه . . فقد انتزع الجراحون جزءاً من المخ تلفت خلاياه ، بل ماتت فأدى موتها الى ظهور تيبس العضلات الذي ذكرنا ، وظهور أعراض اخرى لمرض باركنسون ، انتزعوا تلك الخلايا الميتة وزرعوا مكانها خلايا أخرى حية انتزعوها من غدة (الأدرينال التي في جسم السيدة (تس) نفسها . فالفئتان من الخلايا تفرزان نفس المادة التي هي الدوبامين ، فهما اذن نظيرتان ، ويمكن للواحدة منها أن تقوم مقام الأخرى ، هذا

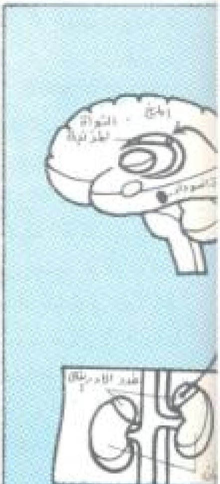

إذا نجحت الزراعة ولم يرفض الجسم الخلايا المزروعة ، وقد أثبت الواقع نجاحها ١٠٠٪ لا في عملية السيدة تس فحسب ، بل في العمليات الأخرى الرائدة التى اجريت في مستشفيات السويد والمكسيك في المدة الأخيرة .

ولم يقف العلماء والباحثون عند هذا الحد ، وتساءلوا لم تنتزع خلايا الأدرينال من جسم المريض نفسه ولا تنتزع من الأجنة المطروحة ، أو أجنة بعض الحيوانات ؟ وما أسرع ما أثبتت التجارب أن خلايا الأجنة هذه لا تقل فاعلية عن الخلايا المنزوعة من جسم المريض نفسه . .

وتساءل العلماء كذلك : لم لا تجرى عمليات زرع أخرى شبيهة لمعالجة أمراض أخرى شبيهة ، أو غير شبيهة كمرض الزهايمر وهنتجتون وهما من أمراض الشيخوخة الخطيرة ، ولم لا تجرى لمرضى السكر فينتزع من بنكرياسهم الخلايا الميتة التى توقفت عن افراز الانسولين ليزرع مكانها خلايا حية تنتزع من بنكرياس الأجنة لاسيما وان هذه العملية قد جربت على الحيوان بنجاح تام طوال السنوات القليلة الماضية ؟ لا عجب اذن أن أجريت هذه العملية مؤخرا لحوالى ثلاثين من مرضى السكر !

■■■

الماء سر الحياة وسر الشفاء من الأمراض

من المعروف أن آلام الظهر هي أكثر الآلام انتشاراً بعد الصداع ، ومن المعروف أن أكثر هذه الآلام مرده الى تقلص في عضلات الظهر ، وأن السبيل الى معالجة أكثر هذه التقلصات إنما يكون في الراحة أو اللصقات أو كمادات الماء الساخن . وقد يضاف الى ذلك بعض حبات الأسبرين أو البنادول وقد لا يضاف . وقد تبين للمتخصصين منذ زمن أن للفرشات التى تنام عليها أثرا كبيرا في آلام الظهر ، فهي تسببها إن آجلا أو عاجلا ، إن كانت فرشات طرية ، وتساعد على الحد والوقاية منها لو كانت فرشات غير طرية ولا تتجوف عند النوم عليها . . كأن تكون مصنوعة من قطن،قليلة السمك ومفروشة فوق قاعدة خشبية . .

لا عجب اذن أن راجت فرشات الماء مؤخرا على ماسواها ، وقد وجد فيها الكثيرون من ضحايا ألم الظهر ضالتهم المنشودة علما بأن هذه الفرشات ليست جديدة ، وقد ظهرت في أمريكا في الستينيات أو قبلها ، ولكن الجديد انما هو الاقبال على استعمالها وشرائها . فقد تضاعف حجم صناعة هذه الفرشات في الولايات المتحدة من ١٣ مليون دولار سنة ١٩٧١ الى ٢٠٠٠ مليون دولار في الوقت الحاضر ، وتعتبر أسرع صناعات الفرشات نموا وأكثرها رواجا ، وقد أصبحت تستأثر بخمس مبيعات الفرشات كلها في الأسواق الأمريكية ، وحسبك أن عدد ما بيع من فرشات الماء في سنة ١٩٨٦ في الولايات المتحدة وحدها قد بلغ ٤ ملايين فرشة ، وأن ٧٥٪ من هذه الفرشات بيعت لأناس تجاوزوا الثلاثين عاما ، ويعانون في الغالب من ألم الظهر أو التهاب المفاصل أو الأرق . . .

وفرشات الماء أنواع وصنوف كثيرة ، ولعل الطراز الأكثر رواجا هو الذى

الفرشة المائية ومبتكراها . . .

يضمن قلة تموج الماء في داخل الفرشة بطريقة أو بأخرى . . وقد يليه رواجا الطراز المجهز بسخان وضابط للحرارة ، فهو يتيح للمرء الدفء المطلوب بالقدر المطلوب . .

بقي أن نشير الى أن سر فرشات الماء يكمن في مرونتها المحدودة ، وتكيفها وفق حاجات الجسم ، فهي تضمن مساندة الجسم في نتوءاته وتجويفاته على السواء .

■■■

على أبواب طائفة جديدة من المضادات الحيوية

دلت الأبحاث العلمية التي أجراها أحد العلماء الباحثين في مختبرات الكيمياء الحيوية في الكلية الملكية في لندن أن أحد صنوف الضفادع يتمتع بقدرة عجيبة على مقاومة الالتهابات ، فقد ثبت للباحث (مايكل كانون) أن الجروح الكثيرة الكبيرة التي أحدثها في عدد كبير من ضفادع « زنوبس » Xenopus صمدت وظلت نظيفة من الميكروبات التي قد لاتسلم منها جروح ، وبخاصة اذا كانت كبيرة ، وبحث العالم عن تفسير لتلك الظاهرة الغريبة ، فوجده في طائفة من المواد ، توجد في جلد الضفدع الذي ذكرناه ، وهي مواد تشبه البروتينات في بنيتها ، يفرزها جلد الضفدع في الوقت المناسب ، فتقف حجر عثرة في وجه البكتريا ، وتمنعها من مهاجمة الجروح التي يعاني منها الضفدع .

وتعرف هذه المواد المضادة باسم ماجنين(Magainin) ، ويعلق بعض العلماء أملا كبيرا على استخراج مضادات حيوية جديدة منها ، قد لاتقل فاعلية عن البنسلين وأشقائه .

■■■

حذار من نوعية الأكل لا من كميته

دلت الدراسات والتجارب التي أجراها علماء أمريكيون برئاسة الدكتور دوجلاس تلسون ـ وهو بروفسور متخصص في الفسيولوجيا في جامعة نورث وسترن ـ على أن البدينين الذين يعمدون الى حمية قاسية بقصد تخسيس الوزن ، ثم يعودون الى الافراط في الأكل ثانية معرضون أكثر من غيرهم للاصابة بارتفاع ضغط الدم . يقول الدكتور تلسون : « يظن الكثيرون أن ارتفاع ضغط الدم في بني الانسان يرتبط أكثر بوزن الجسم ، وأن النجاح في تخفيض الوزن بالحمية يضمن لضغط الدم الهبوط السوي . لكننا نستطيع التأكيد على أن نوعية الطعام الذي يتناوله الانسان ـ لا وزنه ـ هي الوسيلة التي تتحكم بضغط دمه » .

وقد شملت احدى تجارب الدكتور تلسون ١٩ فأرا ، جرى تسمينها بالأكل حتى أصبحت بدينة ، ثم قسمت الى فئتين ، فئة من ٩ فئران ، استمر الباحثون في تغذيتها والافراط في اطعامها على نحو متواصل ، وفئة أخرى من ١٠ فئران حرص العلماء على التراوح في اطعامها ، أي أنهم جوعوها حينا ، ثم أتخموها بالطعام حينا آخر ، وهكذا . فماذا كانت النتيجة ؟! لم تسجل الفحوص أي ارتفاع يذكر في ضغط الدم في الفئران التسعة ، وسجلت ارتفاعا في ضغط دم الفئران العشرة .

وهكذا اتضح للعلماء الباحثين أن نوعية الأكل لا كميته هي العامل المؤثر في ارتفاع ضغط الدم وهبوطه .

سلامة البشرية في سلامة البيئة

الشمس هي المسؤولة

يؤكد علماء الطقس والمناخ أن تزايد الحرارة في جو الأرض ما هو الا نتيجة لتزايد غاز ثاني اكسيد الكربون فيه ، وقد اصطلحوا على تسمية هذه الظاهرة بظاهرة البيت الزجاجي (Green House) ، واعتبروها حقيقة مسلما بها .

الا أن بعض العلماء ـ وهم من الألمان ـ لم يسلموا بحقيقة تلك الظاهرة ، باعتبارها التفسير الوحيد لتزايد حرارة جو الأرض ، فقد وجدوا في بقع الشمس وفي ألسنة اللهيب المنطلقة منها ـ وكلتاهما تذهب ثم تعود ، أو تضعف ثم تزداد قوة ، كل ١١ سنة ـ أثرا قويا مباشرا في طقس الأرض ومناخها ، إذ دلت دراساتهم على أن حرارة جو الأرض تقل تبعا لعودة تلك البقع الى الظهور ، ووجدوا أن ظهور بقع الشمس واختفاءها ذو صلة وثيقة بحركة الرياح عند خط الاستواء ، ففي السنوات التي تهب فيها هذه الرياح من الغرب إلى الشرق تقل البقع الشمسية ، وتنخفض حرارة جو الأرض ، والعكس بالعكس ، فهذه الحرارة ترتفع وبقع الشمس تكثر في السنوات التي تهب فيها الرياح التي ذكرناها من الشرق الى الغرب .

■■■

المعلبات كانت نعمة فأصبحت نقمة

تغلغلت المعلبات في حياتنا حتى حسبناها قديمة قد ابتكرت منذ قرون عديدة ، وهي في الواقع حديثة جدا ، ابتكرها الانكليزي بيتر ديوراند سنة ١٨١٠م .

لكن تعبئة الأطعمة في علب تحفظها وتضمن وصولها إلى أسواق قريبة وأخرى بعيدة قد أحدثت ما يشبه الثورة في حياة الناس دون أدنى ريب ، فلولا التعليب لتعذر صنع معجون الطماطم ، ولتلفت ملايين الأطنان من هذا النبات السريع التلف ، ولولا التعليب لتعذر حصول كثيرين من سكان البادية والأرياف على ماهم بحاجة إليه من أطعمة مغذية ، وقل مثل ذلك في الجيوش المتحاربة ، وقد أصبح توافر المعلبات شرطا أساسيا من شروط خوضها القتال ، تماما كالأسلحة والذخيرة ، وحسبك أن صناعة التعليب قد تعاظمت في السنوات الأخيرة ، حتى بلغ مجموع الأصناف المعلبة في سنة ١٩٨٦ ما يزيد على (٢٠٠٠ و١) مليون صنف ، وبلغ مجموع علب الألمنيوم (سهلة الفتح) التي صنعت في السنة المذكورة (٦٩٠٠٠) مليون علبة .

ودارت الأيام فإذا بالمعلبات التي كانت باعثا على الإعجاب في وقت مضى

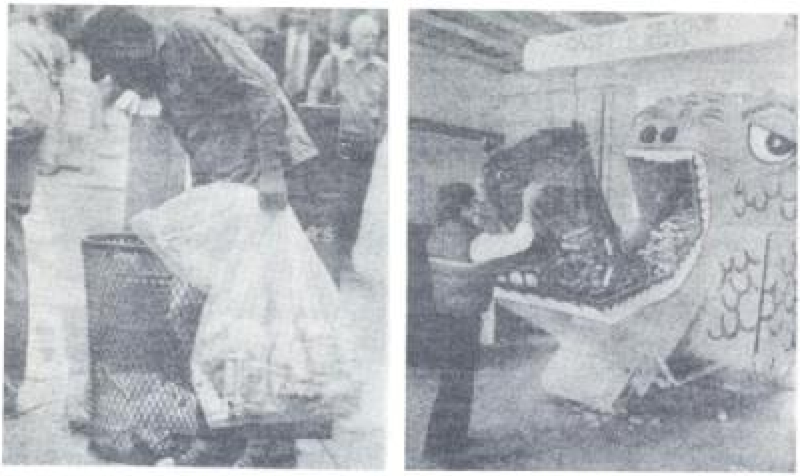

يقبل الناس على جمع العلب الفارغة في أمريكا .. إما بقصد الحركة التي تحتاجها أجسامهم أو من أجل الربح ... أو في سبيل حماية البيئة .

تصبح باعثا على الاستياء ، فقد ثبت أنها مصدر كبير من مصادر تلوث البيئة ، والمقصود هنا العلب الفارغة التي يحرص الناس على التخلص منها كالقمامة .

وهكذا ظهرت في أمريكا صناعة أو تجارة جديدة ، هي صناعة جمع العلب الفارغة ، فقد انطلق آلاف الأمريكيين يجمعون العلب الفارغة من صناديق القمامة الموجودة على الشواطىء أو في الشوارع أو في مراكز التجميع التي لا تخلو منها مدينة أو قرية ، يجمعون العلب الفارغة ليبيعوها ، ويجنوا الأرباح من بيعها .

ومما يذكر أن جامعي العلب الفارغة في شيكاغو يجمعون ما يقارب (١٢٠٠٠) طن من العلب الفارغة كل سنة . ويعتبر المدعو سام هارلي في « بالم بيتش » في فلوريدا بطل جمع العلب الفارغة ، وقد بلغ مجموع ما جمعه منها في ١٢ سنة ما يقارب المليون علبة (بالضبط ٩٤٤٠٠٠ علبة) ، وقد باعها بمبلغ (١٠,٠٠٠) دولار . والأمريكيون كما يعرف الكثيرون لا يجدون أية غضاضة في القيام بأي عمل قذر أو غير قذر مادام هذا العمل يضمن لهم الربح .

ولا يخفى أن الذين يقبلون على شراء العلب الفارغة هم في الغالب من الشركات الصناعية التي تملك صناعات تحويلية بصفة خاصة ، ونذكر على سبيل المثال أن شركة رينولدز متالز قد دفعت في سنة ١٩٨٦ مبلغ ٩٣ مليون دولار ثمنا للعلب الفارغة التي اشترتها ، وقد بلغ وزن الألمنيوم في هذه العلب نحو ٣٠٥ ملايين باوند ، أي ما يكفي لصنع ٨٠٠٠ مليون علبة جديدة .

على أن جني الأرباح ليس هو الباعث الوحيد على جمع العلب الفارغة في أمريكا ، فبعض جامعي العلب يتوخون الحركة والرياضة التي تتطلبها أجسامهم وفق توصيات الأطباء ، وبعضهم يتوخون مكافحة التلوث وحماية البيئة ، لكن الربح يظل هو الباعث الرئيسي على جمع العلب الفارغة في معظم الحالات .

ومن طريف ما يذكر أن جون إدكروفت البالغ من العمر ٥٠ سنة قد عمد إلى جمع العلب الفارغة ، وذلك بقصد تسديد ضرائب قديمة فاجأته الحكومة بطلب سدادها ، ومع أن مجموع هذه الضرائب لم يقل عن ١١,٤٦٦ دولاراً فإن جون قد نجح في تسديدها كلها من ثمن العلب الفارغة التي جمعها بنفسه . □

الإمارات العربية المتحدة

عودة إلى المعمار الإسلامي

استطلاع : صادق يلي

تصوير : فهد الكوح

يشهد الوطن العربي بمدنه وقراه حركة عمرانية هائلة ، فالمدن تتمدد في الصحراء ، أو في قلب الأراضي الزراعية ، والطرق تشق ، والعمارات ترتفع كتلا خرسانية متعددة الأدوار والأشكال . والتخطيط والتصميم والبناء مستلهم من أنماط العمارة الغربية وفنونها ، حتى فقدت المدينة العربية شخصيتها .

لكن دولة الامارات العربية وهي تعيش هذه النهضة العمرانية تتحسس الطريق ، بتجربة مهمة نحو استلهام فنون العمارة العربية الإسلامية ، بحثا عن مواءمة البيئة ووصلا بحضارة أصيلة .

منذ بداية الخمسينيات وأقطارنا العربية الخليجية تشهد نهضة عمرانية واسعة ، نتيجة للنشاط الاقتصادي المتزايد ، بعد تفجر النفط في أراضيها .

ولقد بدأت هذه النهضة بطيئة الخطا ، لكن سرعان ماتزايد إيقاعها ، حتى أضحت ظاهرة المدن الجديدة المنتشرة في ربوع الصحراء من أبرز المعالم التي تفاجيء زائر هذه الأقطار .

ولقد أقيمت المدن الجديدة ، وأعيد تجديد المدن القديمة واحيائها على أحدث أساليب تخطيط المدن وتقنياتها التي توجب توفير كل الخدمات التي تستلزمها حياة الإنسان المعاصر ونشاطاته المختلفة ، فبالإضافة إلى المساكن المتعددة في مستوياتها ، والموزعة على أحياء متكاملة ، تجد الميادين والساحات الخضراء ، والحدائق والشوارع الواسعة ، ومرافق الصرف الصحي ، والمرافق الكهربائية والصحية ، ودور الترفيه ، وكذلك الأسواق المتكاملة التي يجد فيها المواطن والوافد والزائر كل احتياجاته .

ودولة الإمارات العربية المتحدة من أقطارنا العربية الخليجية التي برزت فيها هذه النهضة العمرانية ، حيث شهدت الإمارات السبع المكونة لهذه الدولة الفتية نموا عمرانيا ضخما ، استلزمه التطور الاقتصادي بعد ظهور النفط في حقولها .

ولأن جوانب هذه النهضة العمرانية متسعة ومتعددة فمن الصعوبة الإحاطة بكافة مظاهرها في تلك الامارات السبع باستطلاع واحد ، لذا ستقصر حديثنا في هذا الاستطلاع على إمارات ثلاث ، هي « أبو ظبي » ، و « دبي » ، و « الشارقة » ، ونحاول من خلال رصدنا بعض معالم التطور العمراني فيها أن نسلط الأضواء على تجربة استلهام فنون العمارة العربية الإسلامية وطرزها التي تمارسها بدأب حكومة دولة الامارات المتحدة ، ونثير بالحوار أهمية مقومات هذا الطراز المعماري الذي مازال آثاره باقية في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي تثير الاعجاب والإبهار .

أبو ظبي كبرى الإمارات

إمارة « أبو ظبي » أكبر الإمارات السبع مساحة ، إذ تبلغ مساحتهانحو ٦٧٣٤٠ كيلومترا مربعاً ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٦٧٠١٢٥ نسمة حسب آخر إحصاء أجري عام ١٩٨٥م ، أما أهم مدنها فهي مدينة « أبو ظبي » ، ومدينة العين ، ومدينة زايد ، وعاصمتها مدينة « أبو ظبي » عاصمة دولة الإمارات المتحدة في نفس الوقت ، ومقر وزارات الحكومة الاتحادية ومؤسساتها ، ولقد أدركت إمارة « أبو ظبي » مبكرا أهمية التخطيط لنهضة عمرانية تواكب التطور الاقتصادي ، فبدأت باستخدام العوائد النفطية منذ بداية عقد الستينيات في تمويل خطط البناء والعمران ، وأقامت مجامع من الوحدات السكنية في مدينتي « أبو ظبي » و « العين » ، عرفت بالمساكن الشعبية ، ونموذج هذه الوحدات بيت مبني على الطراز العربي القديم ، يتكون من غرفتين وصالة للمعيشة ، بالإضافة إلى المرافق الضرورية ،

ولقد وزعت هذه الوحدات مجانا على المواطنين الذين لايملكون سكنا خاصا بهم .

ثم أنشأت حكومة « أبو ظبي » دائرة للخدمات والمباني التجارية ، يشرح الأستاذ عبدالله يوسف الزعابي وكيل دائرة التخطيط في إمارة « أبو ظبي » مهامها فيقول : « المواطن الذي يمتلك أرضا ويريد استثمارها ببناء عمارة تجارية عليها ، يعد مخططا هندسيا لمشروعه ، ويقدمه إلى هذه الدائرة ، لتقوم بدراسته ، وتقدير كلفته المالية لتقدم إليه قرضا بفائدة بسيطة ، ولقد استفاد من هذه القروض الميسرة عدد كبير من المواطنين ، كما أن الدائرة يسرت لبعض المواطنين الحصول على قرض آخر ، يسمى « قرض الانتفاع من البناية » لبناء منازلهم الخاصة في المناطق النموذجية التي حددتها الحكومة لسكن الأهالي » .

وأقامت الحكومة في منطقتي « الشهامة » و « المصفح » عدة وحدات سكنية ، بلغت نحو عشرة آلاف مسكن بمرافقها الصحية والاجتماعية ، وأجرتها للعمال الوافدين الذين يعملون في المشاريع الكبيرة التي شرعت الحكومة في إقامتها .

طموحات ومبادرات

لقد أولى المسئولون في إمارة « أبو ظبي » عناية فائقة لتخطيط المدينة ، حسبما يستدعيه التخطيط ، من دراسة لاحتياجات المواطنين المستقبلية ، واحتمالات النمو في عدد السكان ، وفي النشاطات الاقتصادية المختلفة ، وكذلك متطلبات المشاريع الاغاثية . وحول هذه القضية حدثنا الأستاذ أحمد خلف نائب مدير بلدية « أبو ظبي » قائلا : « لقد استعنا منذ البداية في خططنا التنموية العمرانية بالبيوتات الهندسية الاستشارية العالمية ، فعهدنا إليها وضع خطط مدة عشر سنوات ، تستوعب كل المرافق الرئيسية ، مثل الطرق وشبكات المياه العذبة ، وشبكة المجاري الصحية ، والكهرباء والجسور ، ومواقف السيارات ، والحدائق والمتنزهات العامة . وفي هذه الخطط تلافينا بعض السلبيات التي وقع فيها إخواننا في بعض الأقطار العربية الخليجية حين تخطيط مشاريعهم العمرانية ، ففي تخطيطنا للشوارع داخل المدينة ـ مثلا ـ لم نقم ببناء أية جسور خرسانية لاستيعاب حركة المرور داخلها ، وإنما استعنا بالإشارات الضوئية والشوارع الجانبية لانسياب حركة المركبات في شوارعنا ، ومن المعروف أن إقامة الجسور في قلب المدينة يؤدي إلى تشويه جمال الشارع ، وخنق العديد من المباني الجميلة بهذه الكتل الضخمة من الخرسانة » . ويضيف قائلا : « والحق أننا قمنا بإنشاء بعض الجسور خارج نطاق المدينة ، وبخاصة قرب شارع المطار ، وذلك لتسهيل انسيابية المرور ، وربط شارع المطار بالطرق الرئيسية التي تؤدي إلى المدن الرئيسية بالإمارة ، وبخاصة مدينتي « العين » و « الشيخ زايد » ، ثم بالمناطق الصناعية التي استحدثت في السنوات القليلة الماضية ، وربطها كذلك بالطريق الرئيسي الذي يربط إمارة « أبو ظبي » بقية الامارات الأخرى ، لاسيما إمارة « دبي » المجاورة لنا » .

وزائر « أبو ظبي » تلفت نظره بشدة أعداد كبيرة من المباني الحديثة والوحدات السكنية الخاصة ، أبرزت في واجهاتها ـ بل وفي تقسيماتها ـ الأنماط المعمارية والهندسية المستمدة من الفن المعماري العربي الإسلامي ، مما أوجد تناغما هندسيا وجماليا ، تتباهى به شوارع « أبو ظبي » وباقي إمارات الدولة .

وعندما أبدينا إعجابنا بهذه الظاهرة أكد لنا المسئولون أنها توجه تخطيطي ، حرصت حكومة دولة الإمارات أن تمزج فيه بين تراثنا المعماري الذي يحظى بالقيم الجمالية الرائعة ، والجوانب الوظيفية للعمارة التي توائم طبيعة بيئتنا ، وبين ابتكارات الحضارة الحديثة باستخدام المواد ، وتجديد الأشكال .

ولذلك فقد أصدرت الحكومة قانونا ، يلزم كل مالك يقيم بناء حديثا أن يضفي على تصميمات مشروعه ـ خاصة واجهاته ـ اللمسات المستمدة من الفن المعماري العربي الإسلامي ، كي يبرز التجانس المعماري والجمالي بين مكونات مدننا ، والتأكيد على هويتنا المتميزة الأصيلة ، بعد أن استغرقت مدننا العربية منذ فترة طويلة ولأسباب عديدة في تقليد

● اهتمت إمارة دبي بالعمارة المحلية . وهنا السوق المركزي في إمارة الشارقة الذي بني على النظام العربي الإسلامي (إلى الأعلى) ، وفي (الوسط) جانب من مسجد في إمارة « أبوظبي » ، بني على النظام المغولي ، وفي (الأسفل) الواجهة الأمامية للسوق المركزي في مدينة الشارقة . نلاحظ المكيفات التقليدية أو ما يسمى « البوادجير » .

النمط الأوروبي في العمارة والبناء ، مما أفقدها شخصيتها .

الخضرة بهجة للعين والقلب

أثناء تجوالنا في شوارع مدينة « أبو ظبي » جذبت أنظارنا أشجار النخيل واللوز والنارجيل وهي تضفي على هذه الشوارع منظرا جميلا وتكسر حدة الإحساس بجهامة الطقس . وبضخامة العمارات المنتصبة على جانبي الشوارع الواسعة بارتفاعات تصل إلى خمسة عشر طابقا ، وبخاصة خلال فصل الصيف شديد الحرارة . وفضلا عن هذه الأشجار تزدان الشوارع بالمساحات الخضراء الكثيرة المنتشرة في أنحاء المدينة ، فتضفي عليها مسحة جمالية ، وتكسبها ليونة ملحوظة ، بالإضافة لكونها متنفسا لسكان المدينة وبخاصة الأطفال منهم . وقد كانت مثار حوار لنا مع المهندس « أحمد خلف » فقال : « إن حكومة « أبو ظبي » وهي تولي عملية تخطيط المدن عنايتها ، قد أعطت شبكة مياه الأمطار والصرف الصحي أهمية خاصة ، وحرصت على توصيلها لكل المناطق الآهلة بالسكان لأنها مرفق حيوي ، كما أعادت استخدام هذه المياه بعد معالجتها بالطرق الحديثة لري المساحات الخضراء ، وتشجير الشوارع بالأنواع التي تناسب المناخ المتسم بالحرارة المرتفعة ، والرطوبة ، والتربة المالحة . وهذه الشبكة تغطي نحو ٩٠٪ من مدينة « أبو ظبي » ، وتستهلك منها أكثر من ٢٠ مليون غالون يوميا ، وتعد تجربتنا في ري هذه المسطحات الخضراء وأشجار الشوارع تجربة ممتازة ، تستحق الدراسة » .

ولقد أضفت النوافير والأشكال الفنية المستوحاة من تراثنا العربي في حدائقنا وفي المسطحات الخضراء مزيدا من الإحساس بالجمال الذي تخلقه الأشكال الهندسية الرائعة للنباتات المختلفة ، فمن تراثنا المحلي أقمنا نوافير على شكل « دلة » القهوة العربية المعروفة ، ومقاعد جلوس للمواطنين على شكل خيمة عربية ، وأقمنا أيضا عدة نوافير على شكل محارة « صدفة اللؤلؤ » التي كان لها دور حيوي مهم في حياة آبائنا وأجدادنا ، في كل أقطارنا الخليجية قبل مرحلة النفط الحالية .

ولقد راعى مخطط شوارع المدينة توفير مساحات واسعة ، تستخدم مواقف للسيارات والمركبات ، كما أن توزيع المؤسسات والدوائر الحكومية على أنحاء المدينة أعطى حركة المرور انسيابية مريحة ، وتقلل إلى حد كبير من الاختناقات المرورية .

والاهتمام بالمدن الأخرى في الإمارة لايقل عن الاهتمام بمدينة « أبو ظبي » ، فمدينة « العين » ثانية مدن الإمارة التي تكثر فيها آبار المياه العذبة ، مما جعل القطاع الزراعي فيها يصبح نشيطا ، تحتضن جامعة الإمارات بكلياتها السبع ، بالإضافة إلى المجمعات السكنية الجديدة ، والشوارع الواسعة ، والميادين العامة ، والمتنزهات والمرافق السياحية ، وعلى مشارفها « مدينة ترفيهية » .

وتخطيط المدن بهذه الكيفية المتوازنة بين المرافق والقطاعات المختلفة يخلق تكاملا وظيفيا وجماليا ، يذكرنا بمدن الحضارة العربية الإسلامية في عصورها الزاهية ، كبغداد ودمشق والقاهرة ومدن الأندلس .

دبي مدينة التجارة

تأتي إمارة « دبي » في المرتبة الثانية بعد إمارة « أبو ظبي » من ناحية المساحة ، إذ تبلغ مساحتها نحو ٣٨٨٥ كيلومترا مربعا ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٣٠ ألف نسمة ، وقد عرفت « دبي » منذ القدم بأنها أحد المراكز المهمة للتجارة في منطقة الخليج العربي ، فموقعها الاستراتيجي وخبرة أهلها المتوارثة في التجارة ، أهّلاها لأن تسمى « مدينة التجار » ، وقد ازدادت أهميتها كمركز تجاري في السنوات الأخيرة بعد إنشاء ميناءي « راشد » و « جبل علي » وتطويرهما ، وأصبحت المركز الرئيسي لتجارة « الترانزيت » (استيراد البضائع من دول العالم ثم إعادة تصديرها إلى أقطار المنطقة ودولها) .

وهذا النشاط التجاري استلزم وجود نشاط مصرفي مكثف ، لذلك يوجد في دبي عدد من البنوك المحلية والعربية والأجنبية ، تؤمن للحركة التجارية التسهيلات الائتمانية والمصرفية ، وتسهم في كل الأنشطة الاقتصادية بفروعها المختلفة ، وفي عملية

النمو الاقتصادي للامارة .

لذلك لانستغرب الازدهار العمراني الذي تشهده هذه الإمارة مواكبا لحركتها التجارية الواسعة .

والمسئولون في هذه الإمارة يولون اهتماما كبيرا للتخطيط العمراني فيها ، وتجميل مرافقها ، لاسيما أنها كانت قبل تدفق الثروة النفطية في أراضيها ذات نصيب وافر في العمران والبناء . فقد عرفت المباني ذات الأدوار المتعددة في وقت مبكر . يقول الأستاذ « قاسم سلطان » مدير بلدية « دبي » : « لقد قمنا منذ عام ١٩٦١ بتكليف أحد المكاتب **الاستشارية العالمية بوضع أول مخطط هيكلي لإمارة « دبي » ، فكان مخططا بسيطا ،** أدى دوره في تلك الفترة . لكنه لم يعد ملائما للتطورات السريعة في هذه الإمارة ، فقمنا بتطويره أكثر من مرة ، ليستوعب هذه التطورات ، ويلبي الاحتياجات المتزايدة للنشاطات الاقتصادية ، ويشبع احتياجات أهلنا في الإمارة » .

مخطط لسنة ٢٠٠٥

لقد سعى المسئولون في إمارة « دبي » ليتجاوزوا ببصيرتهم وطموحاتهم اللحظة الراهنة إلى المستقبل القريب ، فوضعوا مخططا عمرانيا للإمارة ـ أسهمت فيه مكاتب هندسية استشارية عالمية ـ حتى سنة ٢٠٠٥ ، يتميز ـ كما يقول المهندس ، عبدالله الفيض ، رئيس قسم التخطيط في بلدية « دبي » ـ أولا بتلافي نواقص التجارب السابقة ، وثانيا بالاستفادة من الإنجازات الحالية ومدى ملاءمتها لاحتمالات التطور المستقبلية ، وثالثا بالاهتمام بمكونات البيئة الأساسية من مرافق وطرق وخدمات ، وبالالتزام بالقانون الذي يعطي للنمط المعماري العربي الإسلامي أولوية في اختيار الشكل ، والواجهات والوظيفة في المباني الجديدة .

ترميم الآثار القديمة

من التوجهات الجيدة لإمارة « دبي » التي تستحق الرصد والعرض محاولتها للحفاظ على الآثار القديمة بترميمها أو الإبقاء على بعضها بحالته القديمة ، شواهد على جهود الأجداد والآباء الذين عانوا حياة قاسية . وعن هذا التوجه يحدثنا الأستاذ قاسم سلطان مدير بلدية « دبي » : « في غمرة نهضتنا الحديثة بطفراتها السريعة نسينا تراث الآباء والأجداد أو تناسيناه ، فأزيل الكثير من المباني القديمة ، لكننا حاولنا تدارك الأمر ، فاحتفظنا ببعض الأسواق القديمة ، ونقوم بترميم ماتبقى من المباني أو تقويتها ، أو إعادة إنشائها بنفس الأسلوب القديم .

وإعادة بناء قصر الشيخ سعيد بن مكتوم تعد من أبرز النماذج الناجحة لهذا التوجه . فقد استفدنا من مكونات القصر القديم الصالحة للاستخدام كالنوافذ والأبواب ، ثم أعدنا تركيبها في القصر الجديد الذي بنيناه بنفس الطريقة القديمة مستعينين بما في حوزتنا من صور « فوتوغرافية » له ، وبالعمال والفنيين القدامى ، وبالأساليب والمواد الحديثة ، لكن بطريقة لا يلحظها من يزور هذا القصر .

وهناك عدد من المباني القديمة تدرس بلدية « دبي » ترميمها ، منها مبنى المدرسة الأحمدية التي تعد من أقدم مدارس الإمارة ، بالإضافة إلى مجموعة من الأسواق التجارية القديمة في « دبي » و « الديرة » ، تحاول بلدية « دبي » الإبقاء عليها ، أو إدخال بعض التعديلات الضرورية عليها لتبقى نموذجا للطراز المعماري المحلي الذي كان سائدا في منطقة الخليج في تلك الفترة .

امتزاج القديم بالحديث

لقد أعطى الموقع مدينة « دبي » سحرا خاصا ، يمتع زائرها والمقيم بها ، ففي المنطقة التجارية يمتد لسان من الماء ترسو فيه عشرات من السفن الخشبية المستخدمة لتحميل البضائع وتفريغها ، وتوجد على ضفافه بعض العمارات الحديثة بصورها المنعكسة على صفحة الماء . منظر رائع يمزج مابين الماضي والحاضر ، ويستدعي من الذاكرة معاناة الأجيال السابقة وهي تمارس نشاطاتها ، وتبدع في ابتكار الوسائل والأساليب التي تمكنها من التعايش مع الظروف المناخية القاسية ، فتقسيمات البيوت من الداخل تسمح لدورة الهواء ـ بنظام التبريد الذاتي أو الطبيعي ـ أن تخفف حرارتها الشديدة ، والأسواق

ذات شوارع ضيقة مسقوفة ، فيها منافذ علوية للتهوية .

مازالت « دبي » تحتفظ ببعض الأسواق التقليدية إلى جانب البنايات الحديثة التي ترتفع على جوانب الشوارع ، بحوانيتها المتلئة بالسلع الواردة من أنحاء المعمورة ، والمشيدة على أحدث أساليب البناء التي تعتمد على ابتكارات الحضارة المعاصرة وإبداعاتها في تخفيف قسوة الظروف المناخية .

وحتى لايزداد التنافر بين الوحدات المعمارية في الامارة فقد ألزمت حكومة الإمارة المواطنين المنشئين لوحدات سكنية خاصة أو تجارية تنفيذ القانون الذي صدر بهدف الحفاظ على النمط المعماري العربي الإسلامي في واجهات المباني وتقسيماتها ، مع الاستفادة من معطيات العلم والتقنيات الحديثة .

لذلك أصبح مألوفا للعين أن ترى الأقواس والخطوط اللينة ، والأعمدة العالية الرشيقة ، والمنمنمات في النوافذ والأطر المختلفة في كثير من المباني ، بالإضافة إلى استخدام الحجر الذي يستورد من الأردن والعراق لتكسية الواجهات بدلا من الكتل الخرسانية التي تطل بألوان لا تصمد لتقلبات المناخ .

وعن استخدام الطراز المعماري الإسلامي يقول الاستاذ قاسم سلطان : « إن للمعمار الاسلامي طابعا فريدا مميزا ، وهو مناسب لطبيعة مناخ بلادنا ، ومناسب لعاداتنا وتقاليدنا أيضا ، وإننا نؤكد للاستشاريين العالميين والمحليين أهمية هذا الطراز من المباني ، وضرورة اتباعهم لأنماطه في المشاريع العمرانية المزمع إنشاؤها ، ونأمل في القريب العاجل أن يعم هذا الطراز من الفن المعماري رفيع المستوى مشاريعنا الكبرى ، ومبانينا العامة والخاصة .

الشارقة

تعد الشارقة الإمارة الثالثة بين إمارات دولة الامارات العربية المتحدة ، إذ تبلغ مساحتها نحو ٢٦٠٠ كيلو متر مربع ، أما سكانها فيبلغ عددهم نحو ٢٧٠ ألف نسمة ، بدأت خطة التنمية العمرانية لمدينة الشارقة مع بداية عام ١٩٧٣ ، عقب اكتشاف النفط في هذه الإمارة بكميات تجارية في عام ١٩٧٢ ، وقد ارتكزت هذه الخطة على إنشاء مدينة تنتمي من حيث التنظيم والتنسيق إلى أسرة المدن العالمية المعاصرة ، مرتبطة في نفس الوقت ارتباطا وثيقا بروحها وطابعها وتصميم مكوناتها الاساسية بالتراث الحضاري لفن المعمار العربي الإسلامي ، بخصائصه الأصيلة المتميزة . وفي هذا الإطار المزدوج الذي يجمع بين الأصالة والحداثة تم تخطيط مدينة الشارقة بمبانيها ومرافقها العامة ، وقامت بلدية الشارقة ببناء مجموعة من مرافقها العامة ومباني إداراتها الحكومية على الطابع الإسلامي ، منها مبنى دار الحكومة ، ومبنى البريد العام ، ومبنى بلدية الشارقة ، ومبنى دار القضاء ، ومبنى مركز الثقافة ، ومبنى السوق المركزي ، ومبنى سوق المجرة . يقول المهندس عبيد الطنيجي مدير التخطيط والمساحة في بلدية الشارقة : « لقد استهدف التخطيط الجديد لمدينة الشارقة تحويلها إلى مستوطن سكني ، تتوافر فيه أهم مقومات الحياة الاجتماعية الحديثة ، وإلى بيئة قادرة على استيعاب مرافق الخدمات التجارية ، والصناعية الحالية ، والمتوقع نموها على المدى البعيد ، لذلك جاءت الخطة مشتملة في تقسيمها على ثلاثة قطاعات رئيسية ، وهي : قطاع المناطق السكنية ، وقطاع المناطق الصناعية ، وقطاع المناطق التجارية . وقد أطلقنا على القطاع الأخير اسم قطاع المنطقة التجارية السكنية ، لأنه يضم مجموعة من العمارات الشاهقة التي يصل ارتفاعها إلى أحد عشر طابقا ، خصصت الطوابق الأولى منها للأنشطة التجارية والمصرفية ، بينما خصصت طوابقها العلوية لسكن رجال الأعمال والمشتغلين بالأنشطة التجارية المختلفة .

جسور وأنفاق

لقد توفرت قاعدة متكاملة من مرافق الخدمات العامة الحيوية ، وأعطيت عناية خاصة لمرافق المياه ، والكهرباء ، والمجاري ، والجسور ، والأنفاق ، حيث قامت الإمارة ببناء ثمانية جسور علوية فوق بعض التقاطعات الرئيسية داخل مدينة الشارقة ، تسهيلا لحركة المرور ، خاصة في ساعات الذروة ، ولمواجهة الزيادة المطردة في أعداد المركبات ، وهي

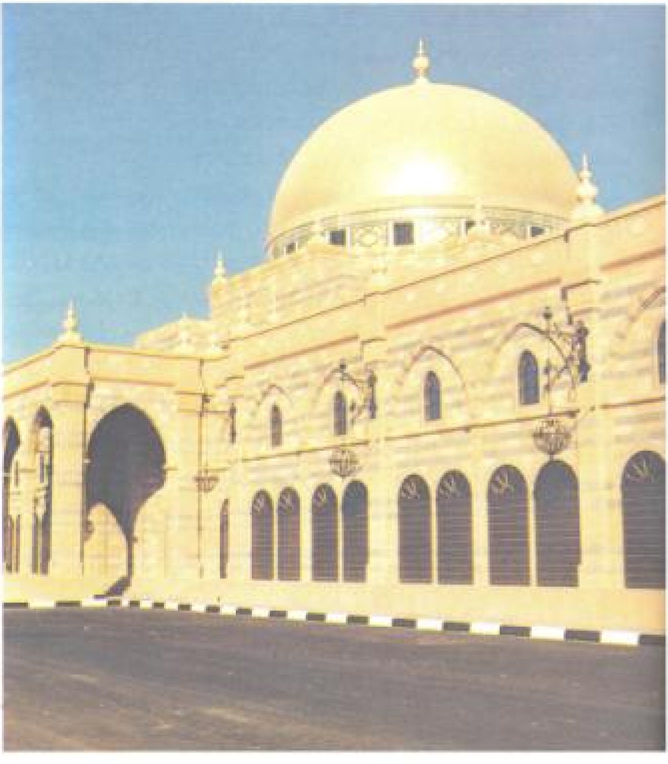

● نافورة اللؤلؤة في مدينة «أبوظبي»، هي أحد الأشكال الجمالية المستوحاة من التراث المحلي (إلى أقصى اليمين) وإحدى الحدائق العامة في مدينة العين في إمارة «أبوظبي» (إلى الأعلى).

وإلى (اليمين) سوق المجرة في مدينة الشارقة وهو أحد الأسواق الحديثة ذات الطابع العربي الاسلامي.

جسور مزدوجة ، يبلغ عرضها نحو ٤٥ قدما ، بينما تتراوح أطوالها بين ٦٥٠٠ قدم و ٢٥٠ قدما ، كما أقيمت خمسة أنفاق للمشاة في المناطق الحساسة من الشوارع الرئيسية في المدينة ، بلغت تكاليفها نحو ٤٨ مليون درهم .

مساكن شعبية

ومن المشاريع الإسكانية التي قامت بتنفيذها بلدية الشارقة مشروع المساكن الشعبية الذي يهدف إلى توفير البيت الصحي الحديث الملائم للأسرة ذات الدخل المحدود ، أو الأسرة التي لايصلح منزلها التقليدي للسكن بسبب ضيقه أو تعرضه للسقوط ، أو عدم توافر الشروط الصحية للإقامة فيه ، وكذلك للأسرة التي لاتملك بيتا لظروفها المالية أو لأسباب أخرى . وقد أولت حكومة الشارقة عناية خاصة بهذا القطاع من المساكن ، وسعت لتوفير المناسب من هذا النوع من المساكن للمواطنين ، بالاشتراك مع الحكومة الاتحادية التي تسهم بنصيب وافر في هذا المجال . وقد وصل عدد ما تم تنفيذه وتوزيعه من هذه المساكن على مواطني إمارة الشارقة نحو ٣٥٣٢ مسكنا ، قامت حكومة الشارقة بتنفيذ نحو ١٨٠١ مسكن منها على نفقتها الخاصة ، بينما أسهمت الحكومة الاتحادية ببناء الباقي ، وهو ١٧٣١ مسكنا .

سوق الشارقة المركزي

أما أهم مشروع يحمل لمسة من الفن المعماري العربي الإسلامي الذي تبنته إمارة الشارقة في البداية ثم أصبح توجها عاما حرصت دولة الإمارات العربية على تنفيذه في العديد من مشاريعها العمرانية ـ فهو سوق الشارقة المركزي ، وسوق آخر أطلق عليه اسم سوق المجرة . وسوق الشارقة المركزي أقيم على مساحة تقدر بحوالي ثمانين ألف متر مربع على ضفاف بحيرة « خالد » في مدينة الشارقة ، ويعد هذا السوق الأول من نوعه في دولة الإمارات العربية ، من حيث هندسته وتصميمه الإسلامي ، وقد بلغت تكلفته الاجمالية حوالي ٨٥ مليون درهم ، أي حوالي ٢٢ مليون دولار أمريكي ، ويتكون هيكله من جناحين رئيسيين في مبنى مكون من طابقين ، يشتملان على ثمانية « بلوكات » ، والجناحان متصلان بجسرين ممتدين بينهما ، ويطل أحد جناحي المبنى على بحيرة « خالد » الاصطناعية ، بينما يطل الجناح الآخر على أحد الشوارع المهمة في المدينة ، ويبلغ عدد المحلات التجارية التي يضمها السوق نحو ٦٠٠ مخزن تجاري ، بمساحات تتراوح بين ١٤ مترا مربعا و ٢٦ مترا مربعا ، وللسوق مرافقه الخاصة ، كما زود بوسائل التكييف التقليدية التي عرفتها منطقة الخليج ، وتعرف باسم « البوادجير » ، وهي عبارة عن فتحات على شكل معين ، تقام عادة في أعلى المبنى ، ليمر الهواء خلالها من الأعلى إلى داخل المبنى ، فيلطف درجة الحرارة في الصيف . وسوق المجرة هو السوق الثاني الذي استخدم في تصميمه وتنفيذه الطراز المعماري العربي الإسلامي ، وبخاصة الطراز الأندلسي ، وقد تم إنجازه هذا العام .

لماذا فن العمارة العربي الإسلامي ؟

إن التوجه لاستلهام الفن العربي الإسلامي في العمارة في تصميمات المباني الحديثة يشكل نقلة مهمة في هندسة البناء والتخطيط العمراني بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ولأنها تجربة تستحق المتابعة بالدراسة والتقويم ، ومن ثم الاستفادة منها بتعميمها في تخطيط مدننا العربية ، كي تخرج من تقليدها للمدينة الأوروبية ، ناقشنا مجموعة من المهندسين المعماريين من ذوي الخبرة في التصميم الهندسي ، والاشراف على تنفيذ عدد من المشاريع في كل من دولة الإمارات العربية والكويت ، وقد تركزت المناقشة معهم على قضية أساسية تدور حول مدى ملاءمة العمارة الإسلامية بالصورة التي عرفناها عنها تاريخيا لنمط حياتنا المعاصرة بكل تعقيداتها ، وإضافاتها .

قال المهندس « عبيد الطنيجي » مدير التخطيط والمساحة في بلدية الشارقة : « إن هذا التوجه نحو بناء المعمار على طريقة المهندسين الإسلاميين قد ارتبط بتاريخنا العربي الإسلامي ، ثم بعاداتنا وتقاليدنا ، وقد طبقنا هذا التوجه على مجموعة من

المرافق والمنشآت في إمارة الشارقة ، منها السوق المركزي في مدينة الشارقة ، ومبنى الحكومة ، وسوق المجرة ، والديوان الأميري ، ومبنى البلدية ، ولاشك أن فن العمارة العربية الإسلامية لايقتصر على القباب والأقواس فقط ، وإن كانت هذه من احد معالمه ، وإنما تتجلى فوائد الفن المعماري العربي الإسلامي في التوزيعات الداخلية والأروقة والساحات المسقوفة التي يحتويها هذا البناء ، ومايوفره من جو ظليل ، وبخاصة في منطقة حارة كمنطقتنا ، لقد راعى « الأسطى » القديم هذه الظاهرة ، فبنى الأسواق المسقوفة ، واستغنى عن النوافذ العريضة بفتحات مناسبة ، تسمح بدخول الضوء المطلوب ، واستخدم « البادجير » في تلطيف جو المسكن ، وتقليل نسبة الحرارة ، وكان « الأسطى » القديم يتحاشى اتجاه الشمس ما أمكن ذلك . من هنا نستطيع القول ان طراز العمارة العربية الإسلامية يفي بالغرض المطلوب ، ويناسب مستلزمات حياتنا الحاضرة ، إذا أدخلنا عليه بعض التعديلات الضرورية » .

أما المهندس سالم خالد المرزوق فيقول : « لقد تضمنت قرارات مؤتمر المهندسين العرب في دورة انعقاده الأخيرة قرارا يقضي بالمحافظة على الطراز المعماري العربي الإسلامي وتشجيع ذلك . والحقيقة أن بعض أقطارنا العربية قد تبنت هذا الأسلوب ، في حين لم تستقر الفكرة أو تتضح عند بعضها الآخر ، ويرجع السبب الرئيسي إلى أن الكثير من المكاتب الهندسية غير العربية لا تعيش الجو والحضارة العربية كما نعيشها نحن ، ومن الطبيعي أن تكون متأثرة بحضارتها هي ، مع أن العمارة هي إطار أساسي للحياة ، فمن خلالها نعيش ونتعبد ، وننام ونعمل ، ونتعلم ونحتفل ، لذلك فنحن في حاجة إلى إيجاد تشريعات ملزمة لجميع المكاتب الهندسية بتبني فن العمارة العربية الإسلامية التي تعكس مقومات بيئتنا وثقافتنا وعناصرها على حقيقتها ، إذ لا يكفي أن تزين مبانينا من الخارج أو من الداخل بأشكال ونقوش معينة لتعبر عن الطابع الإسلامي ، بل يجب أن نتتبع مقومات الطابع في الهيكل الأساسي للتصميم . إنني أنادي هنا ومن خلال مجلتكم واسعة الانتشار بتعيين هيئات مختصة على مستوى جامعة الدول العربية أو منظمة المدن العربية ، يشترك فيها اختصاصيون في التخطيط والعمران ، لوضع أسس ومقاييس إرشادية لفنون العمارة العربية الإسلامية ، على أن يشمل ذلك كل النواحي العمرانية ، انطلاقا من البيئة الصغيرة للعائلة وهي المسكن ، والحي ثم المنطقة والمدينة والمجتمع بكامله ، مرورا بالساحات والمباني العامة وغيرها ، وأن يرصد لهذه الهيئات الأموال اللازمة ، مع توفير تقنية متقدمة لدراسة أساليب البناء والمواد المناسبة لهذا النوع من المعمار ،

وأود أن أشير هنا إلى نقطة مهمة ، وهي تصور بعضهم بأن المغالاة في الزخرفة هي التعبير عن العمارة العربية الإسلامية ، وهذا تصور خاطيء ، وقد يكون هذا سببا في إحجام كثيرين عن تصميم منشآتهم وفقا لطراز العمارة العربية الإسلامية . فالزخرفة بحد ذاتها عنصر قد لا يكون هو الأهم على المدى الطويل ، وقد يكون تصميم منزل بحوش داخلي وبمواد عادية أكثر تعبيرا والتزاما بفن العمارة العربية الإسلامية من منزل آخر ، صمم على طراز غربي بنقوش عربية إسلامية داخلية أو خارجية .

أما المهندس حامد عبدالسلام شعيب ففي رأيه أنه قد طغت مدننا الحديثة والعمارة الحديثة على أشكال المدينة القديمة ، وفي غالب الأحيان هدمت أجزاء من المدينة القديمة لتحل محلها مبان حديثة ، لاتمت إلى تراثنا العربي الإسلامي بأية صلة ، لكن لحسن الحظ في السنوات الأخيرة قد بدأ الناس بتفهم هذا التراث المحلي العربي الإسلامي ، فأخذوا بترميم ماتبقى من مبان قديمة ، وإبراز طابعها المميز في كثير من أقطارنا العربية . وإن إمكانية إيجاد طراز معماري حديث يطور العمارة المحلية لتكون مناسبة لتقاليدنا وتناسب الطقس أمر قد يحتاج إلى فترة ليست بالقصيرة للاتفاق على أسسه ومقوماته ، لذلك أطالب جامعاتنا ومؤسساتنا المعنية أن تقدم لنا دراسات جادة لإيجاد

● العمارات الحديثة متعددة الأدوار في مدينة «أبوظبي» (إلى اليمين)، و(أسفلها) الأقواس والنقوش العربية الإسلامية التي تبرز على واجهة سوق الشارقة المركزي، وإلى (أعلى اليسار) «الفلل» السكنية الحديثة في المناطق النموذجية في إمارة «أبوظبي»، و(إلى اليسار) دلة القهوة العربية وهي أحد الأشكال الجمالية التي استلهمت لتضفي على الحدائق جمالاً ورونقاً، و(أقصى اليسار) المساحات الخضراء المنسقة، إحدى سمات «كورنيش» مدينة «أبوظبي».

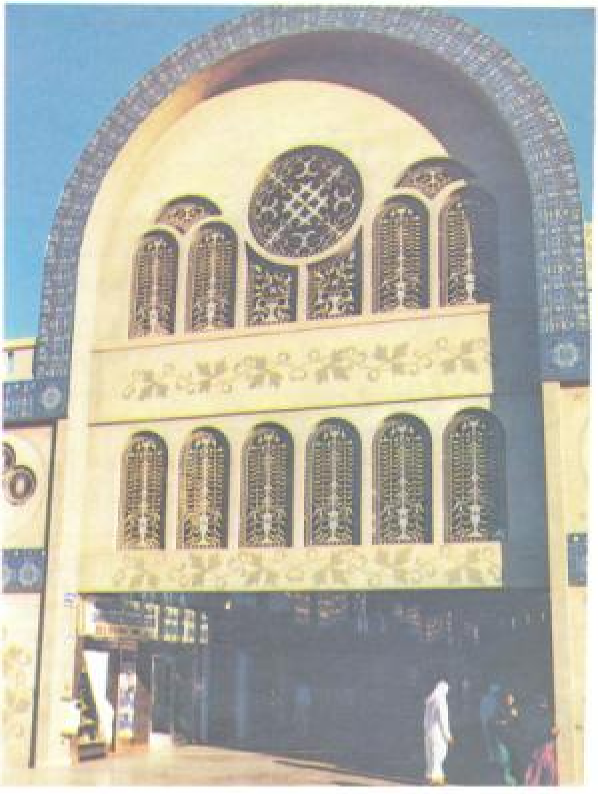

تصاميم معمارية ، تعكس متطلبات حياتنا الحاضرة ، ومستلزماتها ، وتناسب تراثنا العربي الإسلامي الخالد » .

منظمة المدن العربية والمعمار العربي الإسلامي

كان لابد أن نلتقي بالأستاذ عبدالعزيز العدساني لنناقشه في هذا التوجه الجديد للعمارة العربية الإسلامية بحكم موقعه وهو الأمين العام لمنظمة المدن العربية ، وعند لقائنا به قال : « إن المحافظة على الطابع المعماري العربي الإسلامي للمدينة العربية هي أحد أهم الأهداف التي تسعى منظمة المدن العربية لتحقيقه ، فالمدينة العربية الإسلامية كانت صورة لثقافة سكانها ، وانعكاسا لظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ، ترتبط بوحدة حقيقية ، تجعل منها نمطا قريب التشابه بوجود العناصر الأساسية بها ، من أسوار للحماية ، ومسجد جامع للعبادة ، وحمامات وأسواق متخصصة ، بالإضافة إلى الثقافة العربية الإسلامية التي كانت تجمع بينها مهما تباعدت ، لكن هذا الإبداع العربي الإسلامي تراجع ، وبدأت حركة تغريب واضحة تغزو مدننا ، وأصبح الغرب بعد استعماره عدداً من أجزاء الوطن العربي مؤثرا في أفكارنا وأساليبنا التخطيطية لمدننا وهندستها ، وبذلك انتقلت التقاليد المعمارية الأوروبية إلى مدننا ، ومن ثم أصبحت المشكلة التي تواجهها تنبيء بمخاطر كبيرة ، الأمر الذي يستدعي بذل الجهد لحصر الضرر ، والدعوة لإعادة الاعتبار للطراز المعماري العربي الإسلامي ، والهوية العربية الإسلامية لمدننا ، لذلك استخدمت منظمة المدن العربية من أجل هذا الغرض وسائل عديدة ، فعقدت الندوات والمؤتمرات ، وأصدرت العديد من الكتب التي تحتوي على دراسات لأنجع السبل لإعادة الاعتبار إلى المعمار العربي الإسلامي ، ثم رأت المنظمة أن هناك حاجة لوسيلة أكثر فاعلية لاستقطاب الاهتمام بالعمارة العربية الإسلامية فخصصت جائزة أطلقت عليها اسم جائزة منظمة المدن العربية ، الجوائز المعمارية » .

ويضيف الأستاذ عبدالعزيز العدساني قائلا : « لقد انطلقت المنظمة بإيجادها لهذه الجوائز من إيمانها بالمستوى الرفيع للتراث المعماري العربي الإسلامي ، وهو ماتشهد عليه المآثر التاريخية الراقية في العمارة وتخطيط المدن ، كما أرادت بالجائزة تثبيت الحفاظ على التراث العربي الإسلامي المعماري فكرا وفنا ومضمونا ، وتشجيع المنافسة بين المدن العربية في مجال الترميم وإعادة الاستخدام للمعالم التراثية والتاريخية ، ثم خلق روح الإبداع والتطوير بين المعماريين العرب ، وتشجيعهم على استلهام عناصر التراث العربي الإسلامي في أعمالهم العمرانية ، بالإضافة إلى خلق أجيال عربية مؤمنة بمبادىء الفن والفكر المعماري العربي الإسلامي ، لتعمل على تطبيقه وإبرازه وتطويره .

وتتكون الجائزة من ثلاث جوائز معمارية هي : جائزة المشروع المعماري ، وتخصص لأحسن مشروع معماري ينفذ في مدينة من المدن العربية الأعضاء بالمنظمة ، على أن يمثل مرفقا عاما ، يبرز فيه جهد المهندس في استلهام التراث العربي الإسلامي .

وجائزة التراث المعماري ، وتخصص لمدينة عربية ، تقوم فيها مراجع متخصصة للمحافظة على جزء مهم من المدينة التاريخية وإحيائه ، وذلك بمواصلة أعمال الترميم ، وإعادة توظيف المعالم والأبنية في الحياة اليومية ضمن خطة علمية مدروسة .

وجائزة المهندس المعماري ، وتخصص لمهندس عربي تقديراً لجملة من الأعمال التي قام بها تؤكد روابطه وإيمانه بالعمارة العربية الإسلامية ، ودعوته لها في كل الأعمال التي خطط لها ونفذها . وهذه الجوائز تمنح كل سنتين ، والترشيح لها مفتوح أمام كل من له صلة بالمعمار العربي الإسلامي ، وقد جعلت المنظمة مقر الجائزة مدينة الدوحة عاصمة دولة قطر . □

لقاح الايدز
طموحات وعقبات

بقلم / المهندس سمير صلاح الدين شعبان

منذ اكتشاف الاصابات المتسارعة للفيروس الوبائي لمرض « الايدز » أو نقص المناعة المكتسبة ، والذعر يتملك البشرية كلها . وقد راح العلماء والباحثون المتخصصون ـ خاصة في دول الغرب حيث النسبة الكبرى من المصابين « بالايدز » ـ يسابقون الزمن والمرض ، لاكتشاف لقاح أو علاج حاسم .

ويبدو أن هناك بدايات تبشر بالتفاؤل ، ولكنها ما تزال بدايات لطريق صعب طويل .

توصل بعض الباحثين إلى لقاحات ضد مرض « الايدز » . يمكن أن تجرى اختبارات عليها ، أما الدواء فيبدو أمره أكثر تعقيدا ، لأن فيروس الايدز « هيف » من النوع الكامن ، ولم يتم التوصل بعد إلى علاج للأنواع الكامنة ، وهي الأخطر .

ولهذا فإن الدراسات والأبحاث ماتزال مستمرة مكثفة بحثا عن لقاح يمنع انتشار هذا الوباء الذي يهدد معظم سكان كوكبنا الأرضي بالفناء .

طموحات متفائلة

من المعروف أن التلقيح (التطعيم) يمثل واحدة من أقدم الطرق التي ابتكرها الأطباء لحماية الانسان من خطر الاصابة بمرض محدد . والمهم في الأمر أن فائدة اللقاح تقتصر على الأشخاص الذين لم يسبق لهم الاحتكاك بالجرثوم المسبب للمرض ، وهذا يعني ـ مع الأسف ـ أن لقاح « الايدز » لن يفيد المصابين به حاليا الذين تقدر منظمة الصحة العالمية عددهم في سائر أنحاء العالم بحوالي ٥ ـ ١٠ ملايين ، ولا يسع هؤلاء إلا العيش على أمل نجاح الباحثين في التوصل إلى دواء ناجع على جناح السرعة ، قبل فوات الأوان .

يتساءل عديد من الناس بحق : « لماذا فشل الباحثون حتى الآن في التوصل إلى لقاح فعال لوباء « الايدز » مع التقدم العلمي الباهر في مجالات علم

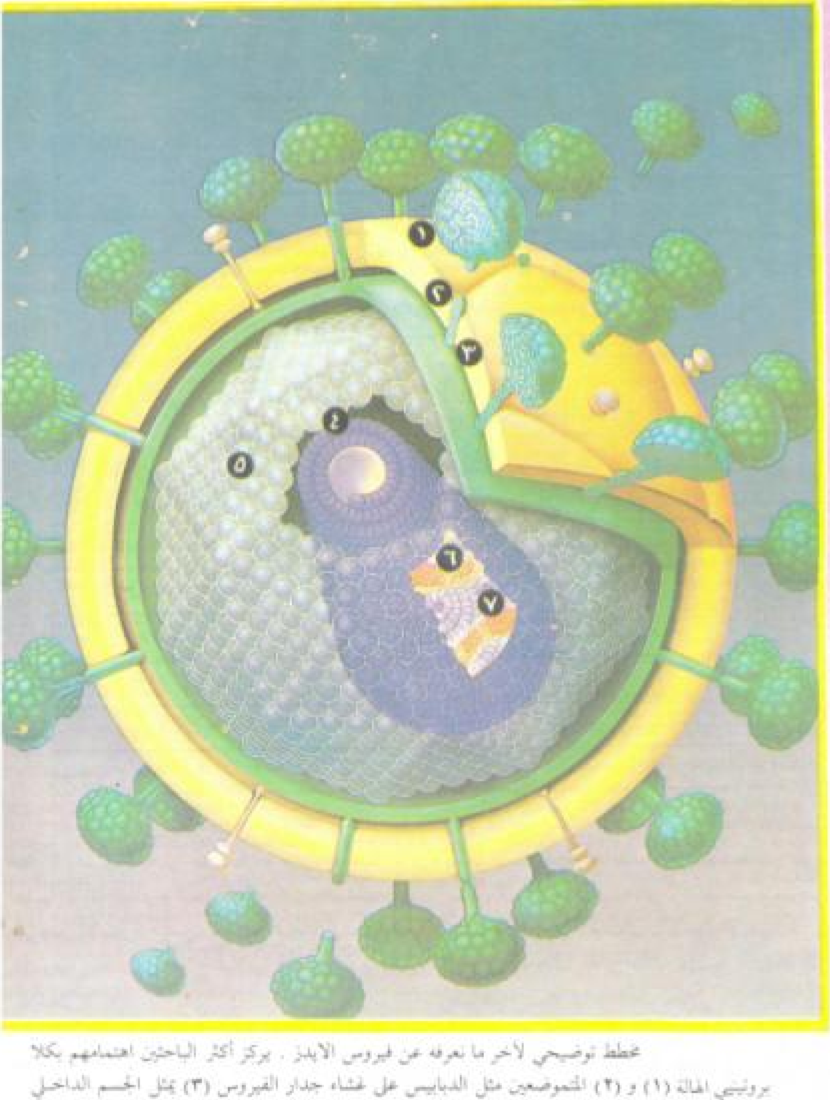

مخطط توضيحي لآخر ما نعرفه عن فيروس الايدز . يركز أكثر الباحثين اهتمامهم بكلا بروتيني الهالة (١) و (٢) المتموضعين مثل الدبابيس على غشاء جدار الفيروس (٣) يمثل الجسم الداخلي المخروطي النواة (٤) التي تحيط نفسها أيضا بهالة من البروتين (٥) تحتضن النواة الحمض الريبي النووي RNAلمادة الفيروس الوراثية (٦) والانزيم ترانسكريبتاز العكسي (٧) الذي يميز أسرة الفيروسات الارتجاعية .

تكمن مهمة هذا الانزيم في تحويل رسل الحمض الريبي النووي (RNA) إلى حمض ريبي نووي منقوص الاكسجين DNA بعد ذلك فقط يتسنى للفيروس زرع موروثاته في المادة الوراثية للخلية المنكوبة .

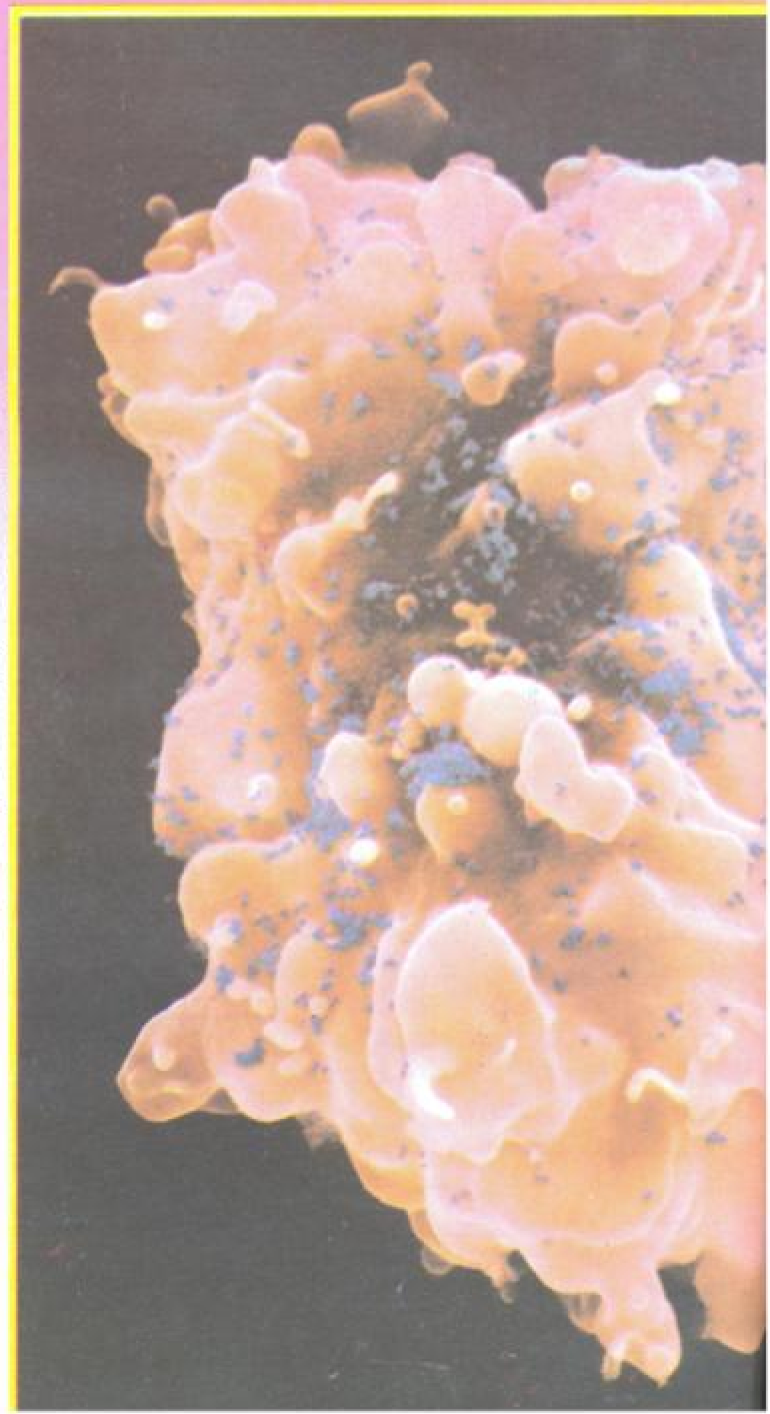

صورة بمجهر راسم الالكتروني تبين المرحلة الاولى من اجتياح فيروسات الايدز الملونة صنعيا ـ باللون الازرق ـ لسطح احدى خلايا المناعة (خلية ت (T-CELL) فإذا قضى على هذا النوع من الخلايا عندها تنهار مناعة الجسم ضد الامراض .

الأحياء (البيولوجيا) والكيمياء وهندسة المورثات ، وغيرها ؟ » .

ويجيب المتفائلون عن هذا التساؤل بأن الأمر لا يعدو كونه « مسألة وقت » ، وينتمي إلى هذه الفئة غير محدودة الطموح عالم الأحياء السويدي البروفور برور مورين في جامعة أبسالا .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن تفاؤله يستند إلى نجاح ـ مع طاقمه ـ في تحضير ما يزيد على ٢٠ لقاحا ضد الفيروسات الممرضة للحيوانات باستخدام تقنيته الخاصة التي أثبتت جدارتها في كل مرة . لذا لا يرى مبررا جوهريا يحول دون نجاحها مع فيروسات هيف (فيروس فقد المناعة المكتسبة عند البشر) .

تعتمد تقنية مورين على مادة حاملة للقاح ، أطلق عليها اسم « ايسكوم » (أي المعقد المحرض للمناعة) ، تتميز بتحريض لجملة مناعة الجسم ، بمفعول يزيد حوالي ١٠ مرات بالمقارنة مع اللقاحات التقليدية . وكانت النتائج الأولية مشجعة إلى حد دفعه إلى الاعراب عن اعتقاده ـ في حزيران (يونيو) الماضي ـ بإمكان البدء بالتجارب على القردة قبل نهاية العام الحالي .

ومع هذا يبدو تفاؤل مورين هادئا جدا بالمقارنة مع الطموحات الجارفة للباحث الفرنسي الدكتور دانييل زاغوري الذي انتقدت مجلة الطبيعة الانكليزية تهوره بالاقدام في بداية العام الحالي على تلقيح نفسه مع مجموعة صغيرة من المتطوعين بمزيج محضر بواسطة هندسة الجينات ، مؤلف من فيروسات محرضة لجدري البقر والايدز ، دون الحصول على موافقة مسبقة من منظمة الصحة العالمية بصورة سرية . وقد حالف الحظ زاغوري حينما حصل على « حماية لظهره » من قبل منظمة الصحة في عاصمة زائير (الكنغو) التي أعلنت دعمها وتشجيعها لباحثي هذا المشروع .

وبعد ذلك نشر زاغوري النتائج الأولية لتجربته في رسالة وجهها إلى مجلة « الطبيعة » حيث قال فيها إن الفحص الأولي للدم قد أعطى نتائج إيجابية حسب ادعائه .

كل هذه الأدلة وكل هذا الطموح المتهور لم يكفيا للمخاطرة والاقدام على التجربة الحاسمة التي تقطع الشك باليقين ، وهي حقن المتطوعين بفيروس هيف الخطر . ولو تجرأ زاغوري ونفذ هذه التجربة على عدد من البشر بنجاح لأصبح بطلا ، ولدخل تاريخ الجنس البشري من بابه العريض ، أما في حال الفشل فسوف يدفع المتطوعون الثمن الفادح لانقيادهم وراء أوهام الأمان القاتل .

عقبات وعثرات

يرجع الفضل إلى علماء القرن التاسع عشر في اكتشاف حقيقة مهمة هي : يثار جسم الانسان بنوع محدد من الجراثيم المحرضة ليفرز أجساما مضادة لها فور اتصاله بها ويمكنه أن يتعرف عليها مرة أخرى . وكان من البديهي تسخير هذا الكشف الحاسم في تحضير عديد من اللقاحات الناجحة للوقاية من عدد من الأمراض التي كانت تفتك في الماضي بآلاف البشر كل سنة .

لذا إبتكر العلماء تقنيات تلقيح مختلفة ، تتوافق مع مقتضيات كل مرض على حدة ، وقد شهدت تطورا سريعا في السنين الأخيرة بفضل الفتوح الرائدة في مجالات « البيولوجيا » الجزيئية وهندسة المورثات ، وغيرها . ومع الأسف ليس بمقدورنا تسخير كل تقنيات التلقيح للوقاية من فيروس الايدز .

تعتمد واحدة من أشد تقنيات التلقيح فعالية على استخدام واحد من أقرباء الجرثوم الممرض ، ليتكاثر في جسم الانسان دون أن تظهر عليه أية أعراض للإصابة . وعلى سبيل المثال يقي فيروس جدري البقر ـ عديم الضرر ـ من عدوى الجدري البشري .

لكن من المتعذر سلوك هذا الطريق مع فيروس هيف للسببين التاليين :

١ ـ ليس من المعروف حتى الآن فيما إذا كان لفيروس هيف أقرباء على الإطلاق . إذ يبدو لمعظم الباحثين كأنه « مقطوع من شجرة » .

٢ ـ في ١٩٨٣ أعرب الدكتور لوك مونتانييه عن اعتقاده بأن محرض الايدز هو « فيروس بشري ارتجاعي » من النوع الذي يولج مورثاته الخاصة في

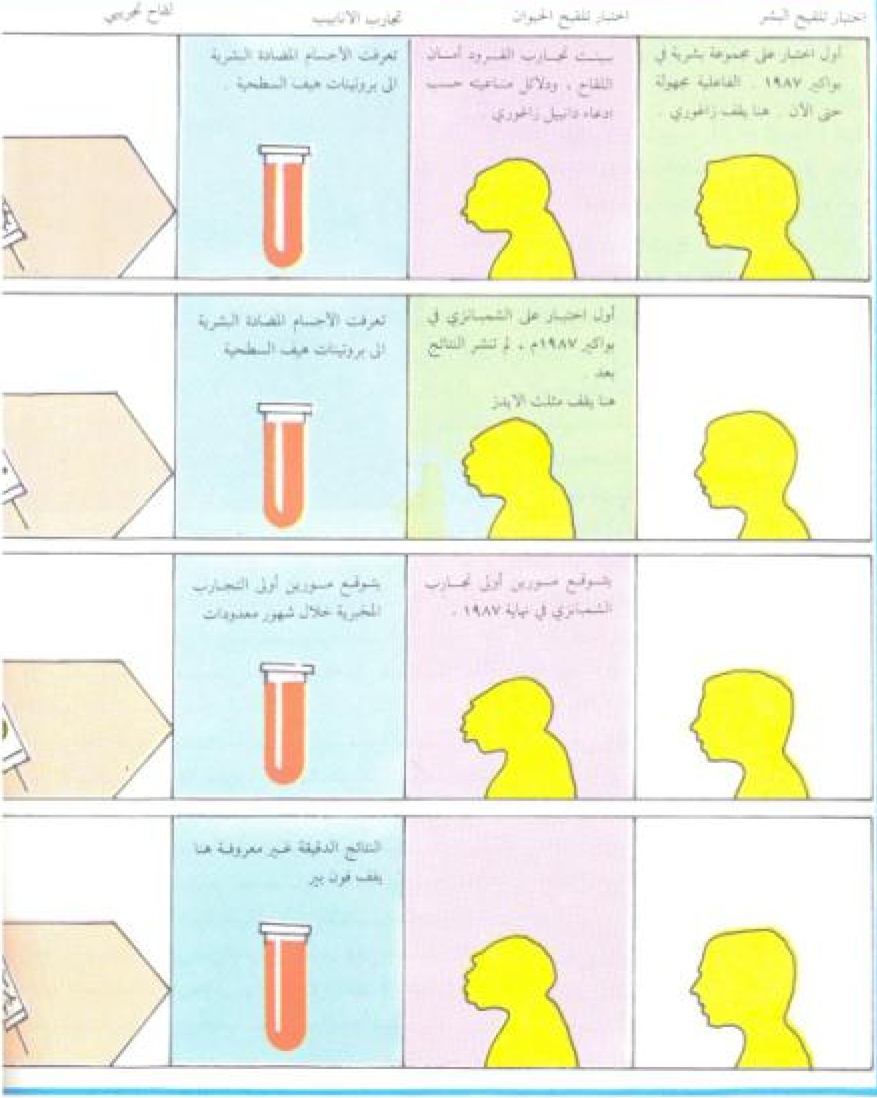

التسابق إلى لقاح الايدز .

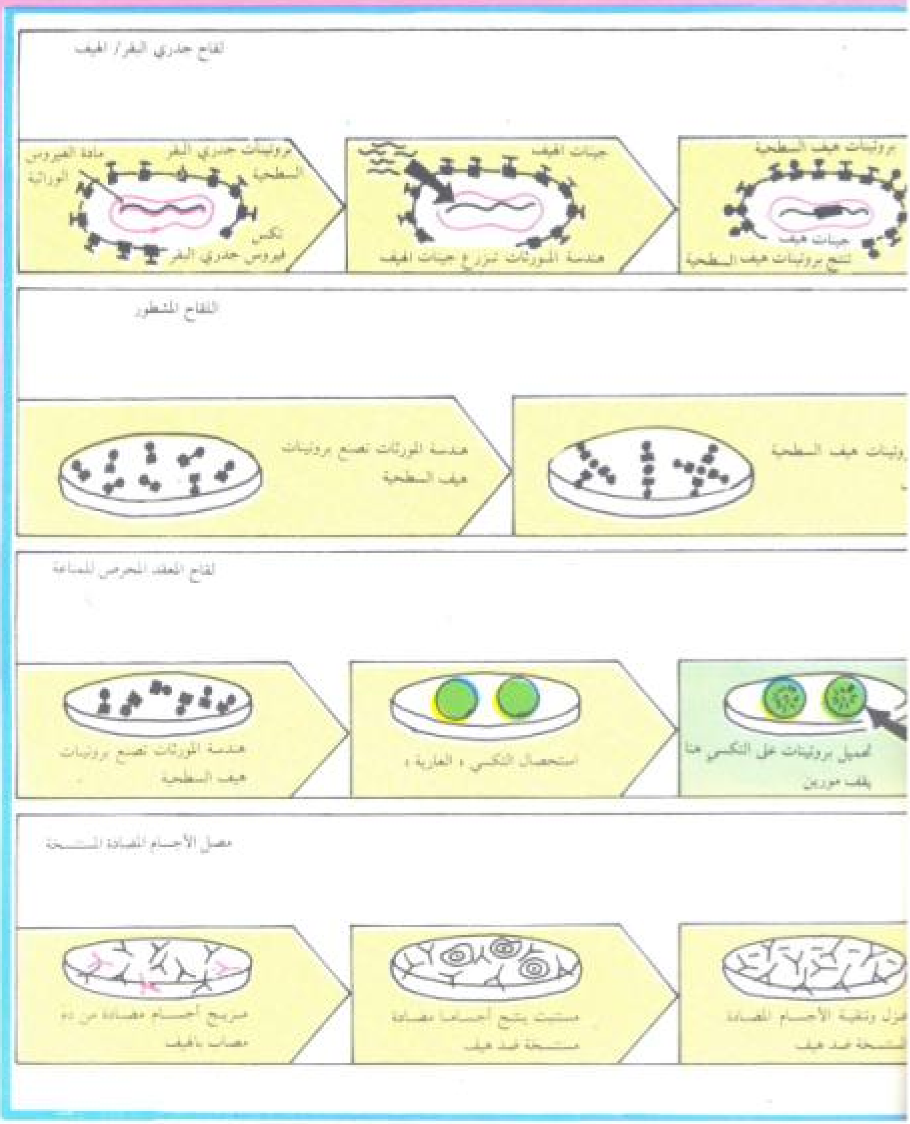
لقاح جدري البقر / الهيف
بروتينات جدري البقر السطحية
مادة الفيروس الوراثية
تكس فيروس جدري البقر
جينات الهيف
هندسة المورثات تزرع جينات الهيف
بروتينات هيف السطحية
جينات هيف
تنتج بروتينات هيف السطحية
اللقاح المتطور
هندسة المورثات تصنع بروتينات هيف السطحية
لقاح المعقد المحرض للمناعة
هندسة المورثات تصنع بروتينات هيف السطحية
استحصال التكس « العارية »
تحميل بروتينات على التكس هنا
يقف موزين
مصل الأجسام المضادة المستنسخة
مريح أجسام مضادة من دم مصاب بالهيف
مستنبت ينتج أجساما مضادة مستنسخة ضد هيف

الجسم الدفاعية .

لم تبق هذه التصورات محصورة ضمن نطاق العموميات ، ففي حالة الايدز نجح العلماء في كشف لبنات هالة فيروس الهيف التي تتعرف عليها جملة مناعة جسم الإنسان . ولا يتسع المقام هنا للإسهاب في الحديث عن هذه اللبنات ، وأكتفي بالإشارة الى أن كلا منها يتألف من بروتين مع جذر سكري ، لذا يطلق على أسرتها اسم البروتينات الفليكوزية . ويتم التمييز بين أفراد هذه الأسرة بالنظر الى حجم الجزيء .

وفي حالة فيروس هيف يطلق على كلا البروتينين الفليكوزيين اسم بروتين الفليكوز ٤١ وبروتين الفليكوز ١٢٠ .

ويتم إنتاج هذين البروتينين ضمن خطة تقسيم العمل بين المجموعات الأربع لمثلث الايدز من قبل مجموعتي العمل الأمريكيتين في بيثيدا ، وقد قامت هاتان المجموعتان (الأولى والثانية) بتطوير طريقة تعتمد على هندسة المورثات لإنتاج بروتينات فيروس هيف ، وهنا يسخر الباحثون الأمريكيون فيروس « جدري البقر معدل الجينات » في إنتاج هذه البروتينات على نطاق محدود .

لكن تجارب اللقاح تتطلب تأمين كميات كبيرة من بروتينات الهيف ، وهذا ما تكفلت به شركة ايمونو النمساوية (المجموعة الرابعة) التي تتمتع برصيد قيم في مجال لقاح الايدز ، إذ يعيش في الاصطبل الخاص بها حوالي ٦٠ شمبانزياً .

والشمبانزي هو النوع الحيواني الوحيد ـ المعروف حتى الآن ـ الذي يتعرض للإصابة بعدوى هيف ، وإن كان لا يبدي أعراض الايدز ، ولذلك لا بد لبحوث أنابيب الاختبار من المرور على محطة الشمبانزي قبل تجربتها على البشر .

وتقع مسؤولية بحوث مناعة الشمبانزي هذه على عاتق الطاقم الذي يقوده البروفسور راينهارد كورت في فرانكفورت الذي يهتم بشكل خاص بالإجابة عن التساؤل : هل يحرض تلقيح الحيوانات تركيب أجسام مضادة للهيف ؟

وقد تم البدء بالتجارب على الحيوانات الأربعة الأولى بلقاحين تجريبيين ، يحتوي الأول منهما على واحد من بروتينات الهيف فقط ، بينما يحتوي الآخر على كلا البروتينين معاً ، علما أن الحامل « التكسي » ، هو في كلا الحالتين مياه (هيدروكسيد) الألمنيوم . وفي حال ظهور المؤشرات الأولى لنجاح اللقاح سيتم حقن الشمبانزي بجرعة عادية من فيروس الهيف ، ونقل عدوى الايدز إليه .

قفص تحريض المناعة :

وهنا تبرز أهمية بحوث البروفسور السويدي « المتفائل » برور مورين التي تسعى الى حمل بروتينات هالة الهيف على ما يسمى « المعقد المحرض للمناعة » . يتم استخلاص المعقد المحرض للمناعة « ايسكوم » من جذع إحدى الأشجار الاستوائية ، ويمتاز هذا المعقد بأنه مشابه لبروتينات هالة الهيف لكونه من البروتينات السكرية ، لكنه يتميز ببنية فراغية فريدة ، فهو عبارة عن « قفص كروي » يشبه كرة قدم حديثة مصنوعة من الأسلاك .

وبمقدور المرء استخدام هذا القفص ـ حسب تصور مورين ـ لحمل بروتينات الهالة الخاصة بأي نوع من أنواع الجراثيم المحرضة التي تصنع « طوقاً » ، يشبه عقد اللؤلؤ ، ويحيط بالمعقد المحرض للمناعة ، وبذلك يتم تقديمها في أشكال يسهل على جملة المناعة تمييزها .

وهذا ما شجع البروفسور كورت على التعاون المكثف مع البروفسور مورين وتزويده ببروتينات هالة الهيف المنتجة بواسطة هندسة المورثات .

ولعل أهم ما يؤخذ على هذه الطريقة الواعدة عدم تجريب استخدام المعقد المحرض للمناعة في جسم الإنسان إطلاقاً ، إذ ليس من المعروف حتى الآن فيما إذا كان يولد ردود فعل ثانوية (جانبية) ، مثل الحساسية أم لا .

لقاح الجدري والايدز

لتلافي هذه العثرة تحاول مجموعات عديدة من الباحثين الفرنسيين والامريكيين تطوير لقاح للايدز

بطريقة يمكن تسميتها تجاوزا « استراتيجية جدري البقر » . وهنا أيضا يتم الانطلاق من ثنائية بروتينات هالة الهيف ، مع الاستعاضة عن الحامل السابق بفيروس جدري البقر .

ومما شجع على خطوة الاستبدال هذه الاستخدام الناجح على مدى عقود طويلة لهذه (الفيروسات) في الحالة الحية للوقاية من جدري البشر ، إلى حد دفع منظمة الصحة العالمية إلى الإعلان عن انقراض هذا المرض على النطاق العالمي .

وتسخير فيروس جدري البقر للحصول على لقاح الايدز يقتضي تعديل الفيروس الأصلي بتقنية هندسة المورثات ، وهذا يوجب ببساطة زرع ثنائية الهيف في المادة الوراثية لفيروس جدري البقر ، تماما كما يقوم المخرج بحشر مشهد جديد بين فقرات الفيلم السينمائي أثناء عملية المونتاج .

ولعل أهم ما يميز المزيج الهندسي الوراثي هذا صلاحيته للوقاية من الجدري والايدز معا . وهذا السبيل قد سلكه الطبيب « المتفائل » دانييل زاغوري .

إلا أن الكيميائي الحيوي الطبيب الدكتور يوهانس لوفر الذي يعمل تحت قيادة البروفسور كورث قد أعرب عن اعتقاده بارتباط استراتيجية جدري البقر هذه بخطرين محدقين :

الأول : تمخض عن لقاح جدري البقر أعراض قوية ، مما أدى إلى سحبه من أسواق المانيا الاتحادية في سبعينيات القرن الحالي .

الثاني : الجهل المطبق بتبعات المعالجة الهندسية الجينية للفيروس الطبيعي . وهذا أمر لابد من استيضاحه بأدق التفصيلات .

يضاف إلى ذلك عقبة أخرى ، فمن المعروف أن معظم سكان الأرض ملقحون ضد الجدري ، وهذا يعني في حالة استخدام المزيج الهندسي الوراثي المقترح أن خلايا الذاكرة عند هؤلاء البشر ستتعرض إلى المتسللين الجدد من جدري البقر على الفور ، وتبدأ بمكافحتها قبل أن يتسنى للجسم البشري تركيب أجسام مضادة لفيروس الهيف ، وعليه لا

في المرحلة الأخيرة تذوب الفيروسات مع أغشية جدران الخلايا .

يتوقع لهذا اللقاح أية فائدة باستثناء المواليد الجدد أو أولئك الذين لم يعطوا لقاح الجدري في الماضي !

آفاق المستقبل

بعد كل الذي استعرضناه من العقبات والعثرات التي تعترض طريق لقاح الايدز ، لا يستغرب المرء ارتباك الباحثين أمام التساؤل الملح للأفراد العاديين : متى سيصبح لقاح الايدز في متناول جميع البشر ؟ وهنا يلجأ العلماء إلى المماطلة والتسويف . أما الذي كسر طوق الجمود ، وحالة الانتظار،تلك المفاجأة التي أذهلت باحثي لقاح الايدز في سائر الدول الغربية ، فقد أعلن البروفسور روديغرفون بير في برلين الشرقية عن نجاحه في إنتاج أجسام مضادة قادرة على مكافحة فيروس الهيف بواسطة طريقة الاستنساخ ، ويشير البروفسور فون بير إلى إمكانية إنتاج الأجسام المضادة في المستنبتات الخلوية زهيدة التكاليف ، القادرة على فضح فيروس الهيف ومكافحته .

ولو حقنت هذه الأجسام المضادة في دم الإنسان لبقي في مأمن من عدوى الايدز فترة من الزمن . وأسارع هنا إلى التذكير بأن هذا الدعم « السلبي » لجملة المناعة ليس من ابتكار باحثي الايدز في السنين الأخيرة ، إذ يتبع منذ مدة طويلة في وقاية الاوروبيين المسافرين إلى المناطق الاستوائية من مرض التهاب الكبد مثلا .

وبذلك تكللت جهود الباحثين بابتكار « مصل » يحقن جاهزا في دم الإنسان ، ليقيه خطر عدوى الايدز . فهل يرضى علماء الغرب بهذه المناعة السلبية ؟ □

قصة قصيرة

كل ما يأتلق

للكاتب الهندي :

جاغاديش موهانتي *

ترجمها عن الانجليزية :

د . أحمد زياد محبك

لا يتخيل أحد عادة أن مجرد قرط بإمكانه إثارة مثل تلك الجوانب القيمة في قصص كثيرة ، ولكن هذا ما حدث ، فقد كان مجرد قرط صغير ، ولكنه أصبح مادة رئيسة للنقاش في المكتب ، وأخذ كل امرىء يأتي بقصة من كنوز تجاربه الخاصة .

في الطريق إلى المكتب ، كان « أروناف » قد التقط قرطاً ساقطاً على الأرض ، يأتلق تحت أشعة الشمس ، أدرك أنه قرط لفتاة ، سقط منها في حركة عشوائية .

عرض القرط على كل واحد في المكتب ، السيد « هاريادا » ، الكاتب في الديوان هو الذي رآه في البدء ، وقد قال : « إنه من نحاس ، من سيلقي بحلية ذهبية في عرض الطريق ؟! » . وقد أجابه « أروناف » ، فقال : ولم لا ؟ فهو قرط فتاة صغيرة ، ويمكن أن يكون قد سقط من أذنها ؟! » ، ورد عليه السيد « هاريادا » قائلا : « حقاً إن كثيرا من الأقراط تسقط ، ولكن هذا القرط ليس ذهبيا ، إنه نحاسي ، ومن جهة أخرى فهو لا يبدو ثقيلا » .

أما السيد « موهانتي » ، فقد فركه بيده ، ثم حكه بالأرض وقال : « لماذا لا تعرضه على الصائغ ؟ فقد يكون فيه بعض الذهب ، فالمرء لا يمكنه أن يكون متأكدا بالنسبة لأمور كهذه ، أنا عثرت مرة على قطعة ذهبية ، وكل واحد كان يقول لي إنها من نحاس ، ولكن الجوهري وجد أنها من ذهب خالص » .

أما السيد « ساهتدرا » ، فقد نظر إلى القرط من جوانبه كلها ، ثم قال : « يجب أن يأتلق إذا كان من ذهب ، ولكن أين البريق ؟ فإني لا أكاد أرى له بريقاً » .

تفحص مساعد الرئيس القرط بدقة ، ثم قال محتجا : « أي ذهب كنت قد رأيت أنت ؟ هل رأيته من قبل ذهب السامبالبور ؟ إنه يبدو مثل النحاس ، ولكنه ذهب مئة بالمئة ، وهذا يجب أن يكون من ذهب السامبالبور » ، ثم قال وهو يقدر ثقله بيده ، وكأنه يزنه : « ست قمحات على الأقل ، بإمكانه أن يجلب لك الآن روبية ، ولكن ليس من المستحسن أن تجد ذهبا ، وكما يرى « شاستري » ، فإن فقدان الذهب

(*) ولد عام ١٩٥٢ ، كتب أول قصصه عام ١٩٦٩ ، وبدأ منذئذ بنشر قصصه في مجلات [illegible] في مقاطعة « أوريسا » ، يعمل في مجال الفحم الحجري في مقاطعة « أوريسا » ، له أربع مجموعات قصصية .

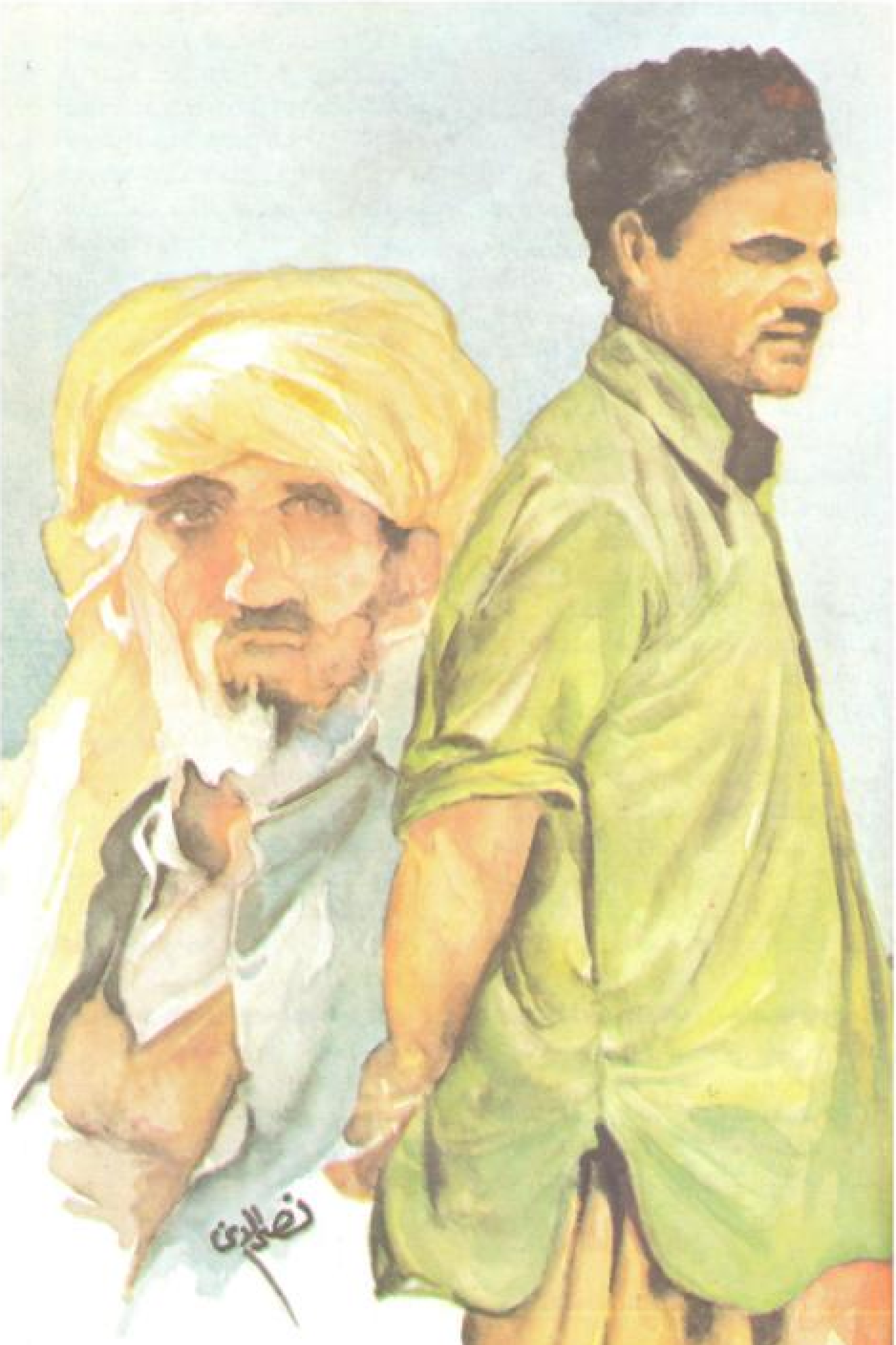

والعثور عليه من الطوالع السيئة » .

دب الخوف في قلب « أروناف » ، وهو يستمع إلى كلمات مساعد الرئيس . في تجويف مظلم داخل دماغه ، طائر مشؤوم بدأ يحوم ، وغمامة معتمة ألقت ظلها على وجهه ، فارتعش قليلا .

ولكن السيد « هاريبادا » قال : « لا معنى لذلك ، هذه مجرد خرافة ، تخيل قول ذلك في عصر العلم هذا ! » .

وكان مساعد الرئيس على وشك أن يقول شيئا على سبيل الرد ، ولكن السيد « موهانتي » قال : « لست أدري لماذا أنت تخالف دائما ؟ هل من أجل أن تُعرف ؟! أنا شخصيا أعرف كم يمكن أن يكون مشؤوما العثور على الذهب ، في العام الماضي عثرت على هدية ذهبية فتوفي والدي ونهب بيتنا ، وفقدنا كل شيء في ذلك العام ، ومن جهة أخرى كان علي أن أضرب في الأرض طولا وعرضا بحثا عن عمل ، وكأني أتعقب سرابا ، إلى أن ألقيت عصا الترحال في هذا المكتب » .

نما خوف « أروناف » ، رفت عينه اليسرى ، وهذه علامة أكيدة على أن أمرا سيئا سيحصل ، وعلى صفحات نفسه البيضاء بدأ ينطبع كل ما يحتمل من أخبار سيئة ، وسرعان ما ارتعش حينما حاول أن يمحوها ، أحس كما لو أنه في زورق مثقوب ضائع في بحر من الحظ العاثر .

وتدخل السيد « هاريبادا » فدل « أروناف » على طريق الخلاص بقوله : « اذهب إلى الصائغ ، فإذا كان القرط من ذهب فبعه ، ثم تصدّق بخمس روبيات من ثمنه ، ضعها في المعبد ، لا يمكنك في الواقع أن ترمي بثلاثين روبية » .

وافق الجميع على الاقتراح ، ولكن « أروناف » كان ما يزال قلقا ، وهو يحكم قبضته على القرط .

انتهى الدوام الصباحي في المكتب الساعة الثانية عشرة ، فخرج « أروناف » الى بائع تبغ ، وعرض عليه القرط ، رماه الرجل بنظرة فيها الدهشة ، ثم حك القرط براحة يده ، وقال : « لا ياسيدي ، ربما كان مكسوا بالذهب ، أو النحاس ، ولكنه ليس ذهبا خالصا ، ألا ترى العلامات السود التي أحدثها في راحة يدي » .

ليس ذهبا ؟! أحس « أروناف » بالخيبة ، إذا كان ذهبا فبإمكانه أن يستفيد بشيء منه على الأقل ، ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل بقرط نحاسي ؟!

وبينما كان « أروناف » يتناول غداءه ، عرض القرط على نادل المطعم ، فقال له مؤكدا : « إنه قرط ذهبي ، من ذهب السامبالبور الخالص » ، رأى « أروناف » وميض أمل ، ولا سيما عندما أضاف النادل قائلا : « ألا ترى روعة السامبالبور في القرط ؟! إن المشكلة في هذا النوع من الذهب تكمن في أنه لا يأتلق » .

ألحان عذبة بدأت تخفق في قلبه ، طيور الأمل حلقت في سماوات فكره ، ولكنه حالما أغلق عينيه ليتذوق طعم السعادة ، حذره نادل المطعم قائلا : « ولكن العثور على الذهب ليس جيدا ، إذ يقال إنه مرتبط بجلب الحظ السيىء » .

توقفت الموسيقا ، الطيور غابت ، وطافت على وجه « أروناف » غمامة سوداء من الذعر ، العثور على الذهب غير جيد ، ماذا يمكنه أن يجلب ؟ أيجلب موتا ؟ حادثا ؟ حريقا ؟ نهبا ؟ رأى موكب جنازة ، جثمان أي ميت يحمل الناس ؟ أغمض عينيه ، وجه والده ، الذهب يحيط بعنقه ، آه ، يا إلهي .

روح شريرة تسحق امرأة عجوزا ، اللصوص ينهبون البيت ، المرأة العجوز ملقاة فاقدة الوعي محطمة الجمجمة ، وجهها مشوه ، تستعيد وعيها ، تصيح : « ولدي ، أين ولدي ؟ » .

« أروناف » ملقى خارج سيارة في حادث ، يده مقطوعة ، والدماء نافرة منها ، وهو يتدحرج على الأرض .

ترك « أروناف » المائدة مرتعشا ، ولما يفرغ من تناول طعامه ، ومضى إلى حوض المغسلة ، قال له النادل : « اترك القرط معي ، أعرف جوهريا ، سأطلب منه أن يفحصه » ، شك « أروناف » في الأمر ، هل يحاول النادل خداعه ؟! قال له : « أنا ذاهب الآن الى الجوهري » ، عبر النادل عن خيبة

أمله وهو يقول : « لا بأس » .

قلق « أروناف » ، أحكم قبضته على القرط الملفوف بورقة .

الحر في الخارج لاهب ، أدرك أنه من المستحيل أن يمضي في حر الشمس ، لقد اعتاد أن يقيل بعد الظهر ، ولكنه نادى سائق عربة « الجتركشة » ، وطلب منه أن يوصله إلى الجوهري .

الدكان الأولى مغلقة ، وفي الثانية يقعد ولد صغير أخبره أنه لا يعرف شيئا عن الذهب ، وفي الثالثة قال له الصائغ : « معذرة سيدي ، إن طفلا ولد اليوم في منزلي ، ولا أستطيع أن ألمس الذهب قبل أن أغتسل » .

كان سائق العربة قد ضجر ، فقال له : « هناك محل آخر على بعد ميل واحد ، ولكن من المؤكد أنه مغلق في هذا الوقت من النهار ، والأفضل أن تأتي إليه في المساء » ، هل في إمكان السائق أن يفهم قلق « أروناف » ؟! ولذلك قال له : « دعنا نذهب إلى ذلك المحل أيضا » ، وعندئذ كان لابد من أن يأخذ السائق ثلاث روبيات ، وقد قال فيها كلمته الأخيرة .

ومع ذلك فقد كان المحل مغلقا ، وعاد « أروناف » إلى البيت ، وقد قرر أن يحاول ثانية في المساء ، فعليه أن يعلم إذا كان القرط مصوغا من ذهب ، وإذا كان كذلك فكم بإمكانه أن يجلب له ، ولكن من المحتمل أن يغشه الجوهري ، وعليه أن يحضر معه الرئيس المساعد في المكتب ، وإذا وجد أن القرط من ذهب ، وإذا حصل به على ثلاثين روبية فعليه أن يتصدق بخمس روبيات في معبد « شيفا » ، أو قد يتصدق بروبيتين اثنتين في كل من معبد « شيفا » و معبد « فيشنو » ، وبروبية واحدة في معبد « لاكشمي » .

لكن ماذا لو كان ثمة حادث سيىء ؟! أو حظ عاثر ؟ إن عينه اليسرى ترف في الأيام الثلاثة الماضية ، وهذا طالع شؤم أكيد ، وهو لم يتسلم أي رسالة من أهله ، هل هناك من هو مريض في الأسرة ؟

قلق « أروناف » على بيته المبني بالقش في القرية ، والنار مصدر خطر عام ، ولا سيما خلال الصيف .

في غرفته الصغيرة بدّل ثيابه ، وبينما هو يعلق سراويله أراد أن يأخذ بعض النقود الصغيرة من جيبه ، وعندئذ صدم ، فلا قرط هناك ، نقّب داخل الجيوب ، قلب باطن السراويل والقميص الى خارج ، ولكن ليس ثمة أثر للقرط .

بحث في الأرض ، بين الأشياء ، يبدو القرط كما لو أنه تلاشى في الهواء ، أين يمكن أن يكون قد سقط ؟ في العربة ؟ في الطريق ؟ في دكان الجوهري ؟ ما رقم العربة ؟ هل يمكن أن يتعرف على السائق وأن يميزه ؟

ارتدى ثيابه وخرج ، الحر في الخارج غير محتمل ، أين يمكن أن يذهب ؟ كيف يمكنه أن يستعيد القرط ؟ أي طريق عليه أن يسلك ؟ استند إلى إطار الباب ، ليس من المستحسن أن تفقد الذهب ، ولا أن تعثر عليه ، ولكنه لا يعلم إذا كان القرط ذهبا أو نحاسا ؟!

لقد كان عبئا حقيقيا سقط عليه ، وقد ذهب الآن عنه ، أحس بفراغ كما لو أن هنالك شيئا ما قد فقد ، كم هو غريب أن يحس قلبه بالفراغ لمثل ذلك الشيء الصغير وظل « أروناف » يقف مستندا إلى إطار الباب .□

● اذا ضمن الشرق الشبان والمستقبل فقد ضمن كل شيء وهانت عليه خسارة الحاضر وإن كانت جسيمة .

(عباس محمود العقاد)

لبيك.. لكن

شعر : يعقوب السبيعي

هُوَ هكذا ، يبدو هناك ويختفي ... يدنو ويبعد حين يلمح موقفي
يبدو لعيني غير مرتين وإنْ ... شدّ الجفون إليه كيما تقتفي
أنفاسهُ تهبُ النسائمَ حرقةً ... فيها تلوذُ من الركود وتشتفي
هُوَ باعثُ الأهواءِ بي لكننا ... شتّان بين حياده وتطرّفي
ما مرّةً أدنيتُ منه حرائقي ... مكشوفةً إلاّ وأطفأ أحرفي
هُوَ زُهدُ آبائي الحكيمة مثلما ... هو نحنُ أحلامي التي لا تكتفي
هُوَ هكذا يبدو إذا غنّيتُ في ... أنشودتي أوْ في تلاوة مصحفي
وإذا انصرفتُ مع الحياة أحسّهُ ... خلفي يزكّي أو يعيب تصرّفي
فأديرُ رأسي نحوَ أراهُ فلا أرى ... إلاّ بقايا هاجسي وتخوّفي
والصمتُ مزرعةُ الظنونِ ، وإنّ لي ... فيها حصيدَ تحرّكي وتوقّفي
وأنا المعيّا في النهوض هاتفٌ ... نادى ، فأيقظ في الظلام تشوّفي
لبّيك ، لكنْ أين أنتَ ؟ وما الذي ... تبغيه منّي ؟ كنْ بهذا منصفي
أتريدُ قلبي ؟ قد وهبتُك فوقهُ ... صدري ، وأكتافي العراض ، ومعطفي
أتريدُ إعلائي لأنجدَ كوكباً ؟ ... إنّ الكواكب لا تخونُ ولا تفي
أنا محضُ ما تهبُ الحياةُ لعابرٍ ... فيها ، ومنها قسوتي وتلطّفي
أنا ألفُ صالحةٍ ترينك عيونها ... أوْ ألفُ شرٍّ بابتسامٍ تختفي

البيت العربي

عُقَدٌ في حياتنا

- مركب النقص
- عقدة الذنب
- مركب الكمال

□ أبناؤنا.. والرّجولة المبكرة

عقدٌ في حياتنا

• مُركّب النقص
• عُقدة الذنب
• مُركّب الكمال

اعداد / محمد صوف*

« تزخر جمل حوارنا ومناقشاتنا بتوصيفات نفسية كثيرة ، وما أسهل ان نقول ان فلانا مصاب بكذا ، أو يعاني من كيت وكيت ، دون أن تعرف بشكل حقيقي دلالة الألفاظ ومعانيها . وهذه محاولة لفهم ثلاثة من أكثر المصطلحات النفسية شيوعا » .

مركب النقص هو أكثر التصورات اللاشعورية المحمّلة بالانفعالات التي تملك القدرة على تغيير السلوك الإنساني . وتجدر الاشارة هنا الى أهمية تفادي الخلط الذي يقوم به عدد كبير من الناس عندما يعتبرون الشعور الواعي والمحدود بالنقص مركب نقص ، ناتجا عن نقص فعلي ، سواء كان جسديا أو اجتماعيا أو مهنيا . يمكن للرجل أن يشعر بالنقص إذا كانت قامته قصيرة بشكل غير عادي ، مع علمه بأن تفوقه العقلي أو الاجتماعي أو المهني قد يعوض هذه الخسارة ، وأنه ليس دون معاصريه . وقد تشعر امرأة بنفس الشعور ، لأن شفتها العليا مشقوقة ، أو لأن عمودها الفقري منحرف ، أو لأن عندها تشوهيا ما ، مع وعيها بمميزاتها وشعورها بأنها ليست أدنى الفتيات الأخريات .

وإذا كان لدى هذين الشخصين أسباب لا واعية لشعورهما بالنقص (كالشعور بالذنب مثلا) فإنهما لا يريان العناصر الإيجابية التي تعوض خسارتهما ، ولا يريان غير هذه الخسارة ، ويعتبران نفسيهما أضعف من أمثالهما ، آنذاك سيكون هناك مركب نقص ، وندرك فورا أن هذين الشخصين كانا سيتعذبان من عقدة النقص لنقص جسدي لا يؤدي سوى دور إضافي .

« خلف القناع »

وهنا أيضا يقع خلط في الألفاظ ، ونسمع كثيرا عن مركب النقص أو الشعور بالنقص عندما يتعلق الأمر ببساطة بخنوع صريح يتماشى مع احترام الشخص لذاته

كيف يتجلى مركب النقص بطرق ليست مختلفة فقط ، بل أحيانا متعارضة ؟

قد يتبلور عند شخص يبدو خاليا من كل نقص خارجي ، كما قد ينحت على شعور محفز بالنقص ، وقد يتكون الحافز من عدة عوامل ، عيب جسدي ، ضعف مهني ، نقص ثقافي أو اجتماعي نسبي .

* تم إعداد هذا المقال استناداً على دراسة للاختصاصية السويسرية الدكتورة ج . ستيفاني شير بوليز .

وليس هذا سوى شعور واع ، ومجموع التصورات اللاواعية تدفع الشخص الى الشك في نفسه ، والتصرف كمن يراه الناس جيما ضعيفا وعديم القدرة .

وقد يبدو الذي يعاني من مركب النقص خجولا مترددا بسيطا دون أن يعرف لماذا هو هكذا ، كما أنه يستطيع أن يظهر في شكل معاكس تماما ، بفضل تدخل عناصر التعويض لدرجة أن الشخص يبدو مصابا بمركب الكمال ، مع أن هذا المركب لا يوجد الا مظهريا . إن الشخص الذي يتعالى ويحدث الناس بادعاء ، ويعتبر نفسه فوق الناس ، لمصاب غالبا بمركب نقص ، يصر على تعويضه في نظره وعلى إخفائه عن الآخرين .

وهكذا نرى رئيس مؤسسة أو ضابطا قليل الثقة في نفسه يصرخ في وجه مرءوسيه بدل أن يحدثهم بهدوء ، لأنه قليل الثقة في سلطته ، وبالتالي فهو يحتاج الى سماع نفسه وهو يصرخ حتى يطمئن ، وكذلك حال الأب أو الأم ، فقد يشعر الأب أو تشعر الأم بارتجاج السلطة ، فيمارس أحدهما الطغيان ليتأكد في كل لحظة من قوته . واذا حفرنا تحت قشرة تعاظم نابليون أو هتلر وتساميها فسنعثر الى جانب الشخصية العبقرية والديناميكية على مركب نقص طاغ ، لدرجة أن المصاب يندفع الى الفتوحات المتزايدة ، حتى يتأكد من عظمته . وتستطيع أن تتحدث بحق عن مركب الفاتح ، ولنتذكر شباب هتلر الذي كان يرسم البطاقات البريدية لكسب لقمة العيش ، وكان يعطيها لأحد أصدقائه ليبيعها في الشوارع ، لأنه كان خجولا جداً من القيام ببيعها بنفسه .

عموما يظهر مركب النقص على شكل تعويض ، أي بواسطة الكبرياء العدوانية والتعالي العدواني ، وروح النقد ، وكل المظاهر السلبية ، ويتزع هذا المركب الى جعل حامله فظا إلا إذا غلب لديه طبع طيب أليف أساسا ، يصحح مظاهر التعويض هذه عنده .

وهناك أشياء قليلة قد تؤدي الى مركب نقص أكبر من الضعف الجنسي عند الرجل والبرود الجنسي عند المرأة ، ومعروف عند كل واحد أن الفاقدين للقدرة الجنسية والنساء الباردات جنسيا هم في الغالب يملكون طباعا صعبة التحمل ، لكن أحد هذه الأسباب المترددة بكثرة لمركب النقص هو للأسف نتيجة لتربية الخضوع التي تمارس على الأطفال ، فكثير من الآباء يدعون منع أطفالهم من أن يصيروا متكبرين وغير بسطاء ، فيمارسون عليهم القسوة والعدوانية ، ويهيئونهم باستمرار بأحكام وملاحظات لا يستطيع الصغار مواجهتها ، فيعتقدون في النهاية أنها صحيحة .

لنعط أمثلة

● لإيرين صوت جميل ، وهي تحب الغناء منذ مدة ، وتغني في المناسبات ، وطبيعي أن صوتها ليس قادرا على أداء أكثر « ١٥ سنة » ، تغني كما يغني أقرانها . وشاء سوء الحظ أن يثير صوتها الطفولي أباها الذي

يتقد غناءها بصوت مرتعش ، وكلما فاجأها تغني تهكم عليها ـ أنت تنافسين الماعز ـ حتى ان الطفلة شعرت بالإهانة ، وتوقفت عن الغناء ، لأنها اعتقدت فعلا أنها تغني كالماعز ، وأن صوتها فظيع ، وقد أضيفت الى هذه الإهانات تهكمات من أقارب تحبهم ، فتولد لدى الطفلة مركب نقص ، وأصبحت تنتقل من فشل الى فشل ، حتى جاءت طبية نفسية فبعثت في نفسها الاحساس بقيمتها الحقيقية .

● من ثلاثة إخوة أتم اثنان مرحلة التعليم الثانوي ، وانتقلا الى مرحلة النضج ، أما الثالث فكان مهيأ أكثر للحياة العملية ، فتعثر في الثانوية الى أن تم فصله من المدرسة وإدخاله الى معهد يتلقى فيه مهنة يدوية ، وعلى الرغم من أنه يكسب المال ولا يكلف والديه شيئا فإنه لم يستطع التخلص من مركب النقص الذي تكون لديه . كان أخواه يعرفان القراءة وهما في سن الرابعة ، وكان هو يتهمك في الحديقة . وفي سن السادسة كان يحاول القراءة بصعوبة شديدة ، مما كان يثير مقارنته بأخويه بصيغة لاذعة ، وتهكم أخويه عليه . وقد ردد أصدقاؤه أن أخويه اللذين هيئا لعمل فكري لن يكونا غنيين ، في حين أنه يستطيع في يوم من الأيام أن يكون ذا تجارة وغنى . ومع ذلك لم يتوصل الى كسب ثقته في نفسه . وفي كل مناسبة يحاول إثبات ذاته كان والده يقول له : « أنت لم تستطع حتى انهاء تعليمك الثانوي » ، محطما بذلك الاطمئنان الداخلي لابنه . وقد ظل يعتقد أن التاجر بحكم ماهيته أدنى من المثقف . هذه الفكرة العبثية لا تقاوم التحليلات الا أنها تجذرت في مركب لا واع ناتج عن الصدمات المتكررة التي عاشها في طفولته .

ونستطيع ذكر أمثلة مماثلة لايحدها حصر عن عدد كبير من الآباء يبدون غريبين متناقضين في حمل الكراهية والحب لأطفالهم في وقت واحد . ومن الجمل التي يلقي بها الآباء على الأبناء مثلا : « أنت لا قلب لك ولا ضمير ، ولن تكون نافعا في شيء أبدا » ، « ستذهب في النهاية الى السجن » ، « أنت مصيبة حياتي ، أنت عار على عائلتك . أختك لطيفة رقيقة ، وأنت فظة ، تبدين كبليدة صغيرة » ، « إنك لا تعرف ماهي المجاملة » . هذه عبارات التقطتها بالصدفة ، وقد سمعها في طفولتهم وحتى في شبابهم أشخاص موهوبون جديرون بالتقدير قد قابلتهم ، وكان لي حظ في تخليصهم من مركب نقص يعانون منه بسبب أسلوب آبائهم .

ومما لاشك فيه أن عددا من المربين ـ غير الآباء ـ يستعملون هذه العبارات المقيتة ، كالمعلمين والمعلمات ومربيات الأطفال ، لكن صدورها من أشخاص غير مقربين نفسيا للمراهق أو الطفل لايؤثر ولايصدم كثيرا مثل صدورها من أقارب محبوبين يكون لأقوالهم وقع قوي على النفس .

« صدمات متوالية »

إن الأسباب التي تؤدي الى تكوين مركب نقص قد تختلط عند مريض واحد ، ويمكن لنا القول ان صدمة أولى في هذا الاتجاه قد تفتح الطريق لصدمة تالية تحدث مايسمى في علم الأحياء « التحسيس » ، فإن « من لدغته الأفعى يخاف من الحبل » ، وإن كل من شعر بالنقص وأهين مرة أولى يكون قد تم تحسيسه لهذه النقطة ، وقد تجعله كلمة غير مؤذية أو مرض ليس فيه خطورة يحس أنه قد أهين لدرجة أن كل من يصاب بمركب نقص غالبا ما يصير ذا حساسية متزايدة ، ويشعر دائما أنه المقصود بشيء في حين أنه غير ذلك .

ويتضح لنا إلى أي درجة يفسد مركب النقص طبع ضحيته تجاه أمثاله . وضحية كهذا لا يجد القدرة على الشعور بالحب الذي بفقده تغدو الحياة مليئة بالآلام أكثر من احتوائها على الفرح ، ويصير غير قادر على الشعور بالطمأنينة والسلام .

وقد يكون مركب النقص منبعا لآلام كبرى ، فإذا كانت لدى المصاب بالنقص شجاعة المواجهة والتحرر فقد يرى أن حياته قد تتبدل .

عقدة الذنب

هي إحدى العقد التي تجوب الطرقات في البلاد المتحضرة ، ونستطيع القول بأنها عالمية ، لكن بدرجات متفاوتة ، وهي في بعض الأحيان واعية ،

وفي الأغلب ليست واعية إلا جزئيا ، وأعراضها الخارجية أقل ظهورا من أعراض مركب النقص ، لكنها أكثر إيلاما وإرهابا للمصاب ، سواء كان الذنب حقيقيا أو خياليا ، فإن حاصل هذه العقدة يشعر بأنه دائما متابع بالانتقام ليل نهار ، وأن الخوف والخجل الواعي واللاواعي من عقاب غير محدد حاضر مخيف بقدر ماهو غير محدد . وهو هنا يوجد بالطبع حسب درجات تختلف من الشعور الخفيف بالضيق حتى العصاب الحاد ، ويمكن لطفل أن يكون مصابا بحزن غير محدد ، في أوقات متقطعة ، فيحمر خجلا عندما يسمع سؤالا حول عمل مشين « من فعل هذا ؟ » . وقد لا يكون ضميره مرتاحا أبدا ، ومع ذلك يتواصل مع الحياة بشكل عادي مرح أحيانا ، لكن الوضع يتفاقم مع الأيام ، فالشخص الذي يشعر بالذنب وبالخوف من العقاب ينتهي الى رد فعل عنيف ، كمن يدافع عن نفسه عندما يهدده خطر (وهنا يجب البحث خارج حدود المعقول ـ مثلا التمييز بين الحقيقة والخيال وميكانزمات الهذيان بالعذاب) .

الأسباب والأصول

والآن بعد أن عرفنا كيف تتمثل عقدة الذنب لننظر في أسبابها وأصولها ، وهي متعددة ، وليس من السهل ضبط بعضها ، لا لأنها غير واعية ، بل لأنها تنتمي جزئيا الى الغرائز البدائية التي تبدو فطرية إن لم تكن وراثية .

وعلى رأس قائمة الأسباب الواعية الى حد كبير تتموضع من جديد ، نتيجة أخطاء التربية التي يرتكبها عدد من الآباء . يولد الطفل لا اجتماعيا ثم يتعلم من أسرته كيف يحترم قواعد المجتمع الذي ينتمي اليه ، ويجابه بسلسلة من الإزعاجات في كل لحظة ، ويرى الطفل رغباته الصغيرة تقمع ، وأحلامه تباد ، ويرى نفسه يضرب على أصابعه لأنه أخذ شيئا أعجبه ، ويسمع الشتائم لأنه سحب ملاءة أوحطم مزهرية ، وفي كل لحظة يلام على تصرفاته ، ويدرك بسرعة أنه إذا فعل ما يعجبه سيلاقي غضب الذين يعيش تحت رحمتهم ، وهو غضب يجعله يشعر بسحب المودة عنه ، وهذا ما لا يستطيع أن يطيقه ، لأن أشياء في داخله تحذره من فقدان عناية الذين يتعلق بهم ، إنه الموت بالنسبة له ، وإنه يخضع خوفا وحبا في البقاء ، ويتعلم كيف يعتبر الأفعال التي تمثل بالنسبة له خطرا رديئة وحسنة ، تلك التي تساهم في ضمان الاطمئنان الذي لا يستطيع الاستغناء عنه .

وكلما كبر تأكدت لديه الرغبة في الإخلال بين الحين والآخر بالقواعد الاجتماعية ، وشعر بالجرأة على ذلك ، مضيفا غالبا الكذب أو التظاهر بالطاعة حتى يتعرض لأذى الجزاء والعقوبة . ويولد هذا التصرف شعورا واعيا بالذنب ، قد يصبح مزعجا لدرجة تدفع الطفل إلى ارتكاب حماقة كبرى ظاهرة تؤدي الى معاقبته ثم يشعر بأنه قد أدى ثمن حماقته ، لينقص من شعوره بأنه الجاني . حتى هنا لا يمكن لنا أن نقول إن الأمر يتعلق بأخطاء في التربية ، إذ أن ترويض الحيوان الصغير البشري أمر ضروري ، ولو تم هذا الترويض برقة وذكاء لا يوقظ سوى احساسات واعية مرتبطة بالذنب ، لن تكون وحدها أساس عقدة نفسية إلا إذا عايش الطفل وسطا مصابا بوسواس مزمن .

والأمر يختلف عندما تتدخل مثل الأقوال التي ذكرتها آنفا عندما تحدثت عن مركب النقص الذي تسببه هذه الأقوال إذ أن لها تأثيرا مضاعفاً يهمنا منه الآن :

١ ـ التأثير المباشر : الطفل الذي يسمع دائما أولياء أمره يتهمونه ، ينتهي به الأمر الى الاعتقاد بأنه مخطيء .

٢ ـ التأثير غير المباشر : تحت سيل الأوامر والاتهامات يكون رد فعل الطفل داخليا بالغضب والعدوانية ، ولا يستطيع إظهارهما ، فيحتفظ بها في داخله ويكبتهما في اللاوعي ، فيشعر الطفل بالذنب ، وإذا كان هذا الذنب لا شعوريا ساهم آليا في تكوين عقدة الذنب . إذن فالسبب الرئيسي لعقدة الذنب هو الاتهامات العشوائية الصادرة عن الآباء أو الأمهات .

إلى جانب هذه الأسباب التي تختلف آثارها حسب طبيعة حساسية المريض ودرجتها ، هناك سبب آخر مجهول في الغالب ، عميق في اللاوعي ، نستطيع أن نقول عنه ـ دون مبالغة ـ أنه متعدد الحضور ، موجود في كل مكان ، وعند كل فرد على درجات مختلفة ، انه التعارض العميق الفطري اللاشعوري ، الموجود وفق قانون الطبيعة بين جيلين متتابعين ، وقد يدهش هذا التأكيد ـ دون شك ـ بعض القراء الذين سيصفونه بالتعسف ، وهو أمر يفهم لأنه يصدم المفاهيم المتلقاة حول العلاقات الموجودة بين الآباء والأطفال ، لهذا فانني أشرح هذا المعطى بشكل أكثر إيضاحا ، فمن المعلوم في كل مكان تقريبا أن الآباء يحبون أطفالهم ، وأن الأطفال يحبون آباءهم ، وهذا صحيح في أغلب الحالات .

لكن الى جانب هذا هناك حرب صامتة تسود بين الشيوخ والشباب في عدد من الأسر . إن إحدى ميزات التحليل النفسي الحزينة أن يعرف العدد المدهش للآباء الذين يكرهون أبناءهم عن وعي أو عن لاوعي ، أو يخافون منهم دون أن يعوا ذلك . لنفهم لماذا تكون الأمور هكذا . لن نفعل خيراً من العودة الى ما نعرفه عن أخلاق رجل الكهوف الى ما يمكن أن نلاحظه لدى بعض القبائل المتوحشة في أفريقيا . هنا يبدو التعارض الموجود بين جيلين متتابعين بوضوح للملاحظ العادي . إن الجيل الجديد ـ كل يوم ـ يزداد حيوية ، ومتطلبات . ويطلب مكانا أكبر في الشمس . والذكور الأكبر سنا يملكون كل ما للعشيرة ـ خاصة النساء ـ فيشعر الشباب بضرورة إنقاص عددهم ، فيقتلونهم ، وهذا ما يحدث بين الحين والآخر . يرى هؤلاء الكبار بعين الخوف هذا الجيل الجديد ينمو ويشكل خطر نزع ما يملكون وبخاصة النساء الشابات . ولا يستطيعون أن يتمنوا موتهم لأن قوة الشباب ضرورية لحياة العشيرة أو القبيلة ، لكن نزعتهم الى التقليص من خطورتهم بخصيهم مازال قائمة ، حتى اننا نجد آلاف المخصيين في بعض الشعوب الافريقية ، وعند بعض الشعوب الأخرى . ويظل المخصي قائما بشكل رمزي : لن يقبل الذكر الذي قطعت إحدى خصيتيه مثلا في صف الرجال ، ويرغب الآباء في أن يجهل أبناؤهم هذا المجال أطول مدة ممكنة ، ويغضبون دون سبب عندما يبدي الأبناء الرغبة في الدخول الى مجال الجنس . وكل هذا مشروع لاعتبارات أخلاقية ، لكن السبب العميق لهذا السلوك اللاواعي هو ضمن ماذكرنا .

مركب الكمال :

نستطيع أن نقول عن مركب الكمال أنه ملازم لعقدة الذنب ، على الرغم من أننا لا نعثر عليه كثيرا كما هو الشأن بالنسبة لعقدة الذنب ، وهو يطبع بعض الأفراد الذين لا يرضون عن أنفسهم ولا عما يفعلون بهذا المركب ، إن هؤلاء التعساء لا يطلبون من أنفسهم دون وعي منهم أقل من الكمال . إن الشعور اللاواعي الذي يؤدي الى هذا الموقف يختلف . الكبرياء شعور لا واع ، كذا مركب النقص ، لكن العامل الرئيسي هو عقدة الذنب . ويتبين على الفور أن الأمر يتعلق بالتعويض . ومن جديد تكون التربية الخاطئة هي الأصل . وقد جاءتني يوما أم بطفل في العاشرة ، سريع الانفعال وعصبي ، تقول : « لا أفهم ... نحن لا نعنفه ولا نضربه أبدا ، وإذا لم يحصل على درجة الكمال في دراسته نقتصر على عقوبته بأن يقضي يوم الأحد في الفراش » . قلت : سيدتي ، هل تستطيعين أن تقولي بكل صدق : هل تحصلين على الكمال في كل شيء ؟ كيفما كان الحال فإن الأمر يختلف بالنسبة لي . قالت السيدة : تصور أنني لم أفكر في هذا قط » وهكذا يعمل عدد من الآباء على تربية « عصاب الكمال » لدى أطفالهم . وبديهي أن التربية لن تنتج هذا التأثير إلا على أشخاص حساسين جدا .

« مــــن حولنــــا »

لعلنا الآن نحرص على أن نقل هذه المصطلحات من مفرداتنا اليومية ، وأن نمعن النظر فيمن حولنا ، وفي أنفسنا ، فقد نكون بشكل أو بآخر ، وبوعي أو دون وعي نسهم في إصابة واحد ممن نحب بهذه الحالات . □

أبناؤنا... والرجولة المبكرة

اعداد : ريم الكيلاني

من منا لم يعش تلك المرحلة الحرجة من العمر التي تنتقل بالأطفال إلى عتبة الرجولة ؟ ومن منا لم يبحث الوسيلة الفضلى من أجل تعامل مثالي مع الأطفال الرجال .

قد يظن البعض أن الخوض في أعماق المراهق للتعرف على مشاعره، وعواطفه أمر سهل . على الرغم من كل ما يحدث له من تغيرات جسمية وعقلية وعاطفية واجتماعية ، غافلين عن نظرة المراهق لنفسه بعدما أصبح رجلا من وجهة نظره الضيقة على الأقل ، حيث بدأ الشعر يظهر في مناطق من جسمه وعلى وجهه ، واخشوشن صوته ، متناسين إحدى أهم المواجهات للمراهق في هذه المرحلة . وهي كيفية تقبل الأم لهذا التغير الجذري في طفل الأمس ، وأي حرج قد تواجه في تربيته وتوجيهه .

طفلي يغدو رجلا :

تقول إحدى الأمهات : بدأت ألاحظ أن ابني يجلس كثيرا في شرفة المنزل ، مهملا مذاكرته ، ضاربا بكل واجباته المدرسية عرض الحائط . وحينما حاولت مراقبته من بعيد وجدته يتعمد الجلوس في الشرفة كي يراقب الجارة وهي تقوم بالاعمال المنزلية بملابس البيت .

وتقول ثانية : يصر أحد على مجالسة ضيوفنا كلما أتى أحدهم لزيارتنا ، وقد اكتشفت ذات مرة أن عينيه قد اتجهت نحو ساقي سيدة جالسة أمامه .

وتقول أخرى : اعتدت جمع الملابس كل يوم سبت لغسلها ، وكأمر طبيعي كنت أخرج كل ما في الجيوب من أوراق حتى لاتبتل بالماء . لكن المفاجأة أذهلتني ، فقد وجدت صورة امرأة خليعة قد قطعت من إحدى المجلات الأجنبية في أحد جيوبه .

ويبدو أن الأم في أكثر الحالات تنسى أن المراهقة لها خصائصها ومتطلباتها ومشاكلها أيضا . يقول كلاباريد العالم النفساني : « تنقل المراهقة بالطفل من دائرته الذاتية الضيقة المقصورة على نفسه إلى بداية الخروج من قوقعة الذات والاتجاه إلى الجنس الآخر الذي تتطلع الذات إلى بلوغ درجة أعلى من النمو والاشباع من خلال التكامل معه ، وهذا يقود إلى دراسة الوسط الذي يعيش فيه ، دراسة أساسها الحرية والتمرد على أوامر الوالدين » .

الرجولة في قمقم

وعلى الجانب الآخر يتقمص المراهق دور الأب

أحيانا ، ويحاول ممارسة سلطاته : ـ

يقول أحد الشباب : من حقي أن أمنع أمي من التحدث مع هذا الشخص ، فهو لايحول نظره عنها ، وينظر اليها بعيون وقحة ، وهي تجلس معه في كامل زينتها وأناقتها ـ من حقي ـ لأني ابنها الأكبر ورجل البيت في غياب والدي ـ أن أحدد لها ما ترتديه من ملابس فلا تسبب لي حرجا أمام أصدقائي الذين يحسدونني على جمال أمي .

وصورة أخرى من الصور التي تواجه الشاب المراهق تتمثل في قول أحدهم : كنت سعيدا بدعوتها لي للمذاكرة في بيتها ، حيث الهدوء ، لكنها كررت دعوتها لقضاء الليل عندها ، متحججة بالوحدة التي تعيشها بعد أن هجرها زوجها ، لكن والدي كان يصر على رفض هذه الدعوات ، مصمما على زجي في خضم الطفولة .

ويقول آخر : كلما وطأت قدماي المنزل أمطرتني أمي بوابل من الأسئلة ، كأنني أقف في محكمة عسكرية ، ثم تقترب مني وتحاول أن تشم في فمي رائحة السجائر ، وتمد يديها إلى جيوبي لتبحث عن أدلة أخرى !

القانون السحري :

تناول عدد كبير من علماء النفس دور المراهقة بالدراسة والبحث حتى لم يعد يخلو أي كتاب في علم النفس من تناول هذه المرحلة المهمة من العمر التي يكون فيها النمو الجسدي أسرع من النمو الوجداني والعقلي ، مما يخلق فجوة بين الرجولة المبكرة والرجولة الحقة . وقطعا لايوجد هناك قانون سحري يصل بالمراهق إلى النضج دفعة واحدة . فالنضج يحتاج إلى عمر وعمل ومعرفة بالذات ، ومسايرة للواقع ، وتقبل للأمور التي لايمكن تغييرها ، والتخلي عما لايمكن تحقيقه من أحلام اليقظة .

الفطام النفسي :

يتجه المراهق في هذه المرحلة لاكتساب حقوق جديدة خارجا من إطار المنزل وسلطة الوالدين إلى المجال الذي يراه هو مناسبا ، فإذا لم يؤخذ باللين أصبحت الثورة النفسية جزءا من طبعه .

يقول الدكتور كمال مرسي استاذ علم النفس التربوي بكلية التربية بجامعة الكويت : لكل مرحلة من مراحل نمو الانسان خصائص تميزها عن غيرها من المراحل .

ويستقر في أذهان كثير من الناس بعض الأخطاء الشائعة عن مرحلة المراهقة ، حيث ينظر الغالبية للمراهق على أنه شخص مضطرب متمرد ، لايحط في مكان إلا يكون سببا في مشكلة ، وكأن العصيان خاصية حتمية مقترنة بهذا الفرد .

والحقيقة العلمية مخالفة لمثل هذه الاعتقادات ، فالتشكك في سلوك المراهق يعني أننا ندفعه للمشاكل دفعا ، ومن ثم إلى سوء علاقته بمن حوله واضطرابها .

ومن ضمن الدراسات والبحوث المتعددة التي أجريت حول تلك المرحلة الحرجة في حياة الانسان ظهرت نظريتان ، إحداهما تقليدية قائمة على أساس نظرية الامريكي « ستانلي هول » الذي يعتبر المراهقة مرحلة للعواصف والضغوط معللا ذلك بعمليات البلوغ الجنسي في هذه المرحلة التي تخلق اضطرابات نفسية وعاطفية تكون سببا في حالة التمرد تلك .

وهناك نظرية أخرى تؤكد بالضرورة خطأ النظرية السابقة من حيث أنه ليس كل مراهق نمو بالضرورة صاحب مشاكل ، بل إن كثيرا من المراهقين قد مروا بهذه المرحلة بسلام وهدوء . فهي اذن ـ تبعا للنظرية الثانية ـ مرحلة نمو ونضج عقلي وفكري ، إلى جانب أنها مرحلة نضوج وتفتح جسمي كذلك .

وهذه النظرية التفاؤلية جاءت بعد دراسات وأبحاث تؤكد صحتها ، فلو كان للاضطراب الهرموني دور في تغير أخلاق الفرد وسلوكياته لكان الحال كذلك بالنسبة للمراهق في البيئة البدائية ، حيث يعيش الشاب أو كثير من الشباب دور المراهقة هناك دون أدنى اضطرابات وجدانية أو سلوكية على الرغم مما يحدث له من تغيرات جسمية .

والعبء الأكبر الواقع على كاهل الوالدين هو جعل الابن يرضى عن نفسه ، بمعنى أن لايحقران ولا

يسخران من نبرات صوته الخشنة ، ولا من مظاهر البلوغ الظاهرة في جسمه وعلى وجهه ، لأن رضا المراهق عن نفسه أحيانا يعني رضاه عن الآخرين ، وهذا ما يساعده في الاتجاه نحو التوافق الاجتماعي .

حق غير مشروع :

ويستطرد الدكتور مرسي : تنحصر مشاكل المراهقة في قضيتين رئيسيتين : القضية الأولى منها ـ وهي الرئيسية ـ هي قضية البلوغ الجنسي . فالرغبة الجنسية لدى الانسان حاجة فطرية تنشأ معه . وقد ظهرت في بدايات القرن العشرين نظرية إشباع الرغبات (فرويد) التي ترى ضرورة إشباع رغبات الأطفال والشباب الجنسية ، حتى لايصاب أحد منهم بالعقد النفسية . وهذه النظرية قد أدت إلى اختلاط الفتى بالفتاة وتفاعلهما معا . واليوم وبعد خمسين عاما اكتشف النفسانيون خطأ هذه النظرية ، ورأوا أن التربية لاتقوم على إشباع الرغبات ، وإنما على تنمية الضمير ، وتصريف الرغبات ، وإعلائها وتنظيمها ، وإشباعها بطرق مشروعة . ومن هنا كان لابد من إيجاد حل لهذه النظرية المدمرة ، خاصة أن ٩٠٪ من الفتيات و ٩٨٪ من الفتيان في دول أوروبا وأمريكا قد مارسوا الجنس دون زواج . وقد حلتْ على الأقل ٤٠٪ من الفتيات ، وهذا يعني تخلفهن عن الركب العلمي والاجتماعي . ويقع العبء هنا على التربية التي من شأنها إعلاء الرغبات بإيجاد نشاطات تشغل الشباب عن هذه القضية دون زجر أو تهديد .

ويجب أن نذكر هنا أن الاشباع الجنسي ليس حقيرا ودنيئا إذا أشبع بطريقة مشروعة ، لأن ذلك ببساطة سبب في وجود الانسان . فطبيعي مثلا أن ينظر الشاب الى النساء ويختلس النظر إليهن ، لكن تبقى عملية تنمية الوازع والضمير هنا خاضعة للتربية وللأسلوب الذي يتعامل به الأهل مع ولدهم . فوجود الأب ضروري للشاب في هذه المرحلة ، فهو أقدر من الأم ـ خاصة إذا لم تكن متعلمة ـ على توجيه ابنه دون خجل أو حرج . ونحن هنا لانلغي دور الأم،ودور التعليم عند الأم يفيدها في توفير إجابات على أسئلة ابنها بأسلوب أكثر نضجا وأقرب إلى العلمية ، كما يجعل الحديث أكثر صراحة ووضوحا .

الانتظار المضطرب :

أما القضية الثانية ـ وهي رئيسية أيضا ـ فهي قضية اثبات الذات ، وهذه مرتبطة باشباع الرغبات الشخصية ، حيث يميل المراهق إلى الاعتماد على نفسه في اختيار نشاطاته ، فإذا ما منع من إشباع حاجاته من قبل أسرته تراه يلجأ للحيل النفسية الدفاعية لاثبات الذات ، ومن هذه الحيل ما يسمى (بالخلفة) ـ خالف تعرف ـ حيث يعمد الشاب إلى الاتيان بأفعال قد تثير الوالدين لمجرد لفت الانتباه ، وهذه الظاهرة نجدها لدى البالغين الذين حرموا من الاعتماد على النفس في مرحلة الطفولة ، إما بسبب قوة شخصية الوالدين أو بسبب التدليل المفرط ، فيضطر الشاب إلى إثبات ذاته بواسطة الاتجاه نحو فعل يلغي العادات الضارة كالتدخين مثلا .

وتفوت الأهل هنا ضرورة سلخ الابن في هذا العمر من بوتقة الدلال التي تعود عليها حتى باتت مبرّرا لكثير من التصرفات ، في حين أن الشاب لو اعتاد منذ نعومة أظفاره الاعتماد على النفس ، واتخاذ القرار لحصل على قدرات تدريبية ، تتوفر له سلوكيات جيدة ، ومهارة في التعامل مع مشاكل الحياة ، ولتقبل الوالدين وجهات نظره وقراراته التي اعتاد عليها ، أما الطفل الذي ينشأ في أسرة متسلطة لا تسمح له باتخاذ القرار وبممارسة حقه الطبيعي في الاسرة فيبقى ـ مهما كبر في نظر والديه طفلا صغيرا عاجزا عن مثل هذه الأمور .

وعلى الأسرة كذلك أن تنمي لدى المراهق مشاعر الأمن والطمأنينة والتقبل حتى لو أخطأ ، فمثل هذه المشاعر تزيد من ثقته بنفسه وبوالديه ، ومن ثم بالمجتمع . وتبقى المراهقة على الرغم من كل الدراسات والبحوث مرحلة بحاجة الى الوعي بمتطلباتها ، كي يتم الانتقال الى المراحل التي تليها بصورة عادية طبيعية خالية من التعقيدات ومتجاوزة لكل السلبيات . □

هو.. ..هي

رسل

كاي زوجين يحدث بيننا خلافات ، ويمتد الخصام ، فيظلل الصمت علاقتنا ، وعقب كل خلاف وثورة وحدة تختلط مشاعري وتتشابك ، وأصبح غير قادرة على الحديث معه أو الجلوس أمامه ولا راغبة في ذلك ، بل حتى النوم معه في غرفة واحدة ، لكن لأن الحياة لابد أن تسير وتمضي فإنني أحاول أن أتعايش في أيام الخصام هذه كي أصل إلى لحظة المصالحة .

إلى أن حدث آخر خلاف بيننا ، وكان سببه - كالعادة - سببا بسيطا تافها ، لكن لأن ثورته - كالعادة أيضا - كانت حادة فقد ظللّ الخصام حياتنا ، فتركت غرفتنا ونمت مع ولدينا ، وفي اليوم التالي عندما سألني ولدانا ماذا بك يا أماه ؟ قلت لهما باختصار إن أباكما أغضبني وأخطأ في حقي . واستمرت أيام الخصام بيننا ، ومن أجل طلبات البيت التي لاتنتهي كنت أرسل أحد ولدينا إليه ، يطلب منه ما نريد ، خبزا . . . طعاما ، ويبلغه إذا ما سأل عنه أحد أو يسلمه رسالة وصلته ، وكلما مرت الأيام ازداد اعتمادي على ولدي كرسولين بيني وبينه ، على الرغم من أنه عندما يريد شيئا كان يأتي إلى باب الحجرة ، ويقول ما يريد دون أن يوجه خطابه إلي ، أو يناديني باسمي إلا أنني رفضت أن أسلك سلوكه ، فهو يفعل هذا رغبة منه في الاسراع بالمصالحة ، وكان ينتظر مني أن أرد عليه أو أتجاوب معه ، لكنني أصررت على أنه لابد أن يجلس أمامي ويعتذر ، حتى جاءت عطلة نهاية الاسبوع ، واصطحب ولدينا معه للنزهة الاسبوعية كعادته مساء كل خميس ، يتمشون قليلا أو يذهبون إلى إحدى الحدائق العامة أو إلى دار سينما ، ثم يعودون إلى البيت . عاد في ذلك اليوم وقد تغير وجهه ، ودخل غرفتنا ونادى علي ثم أغلق الباب ، وانفجرت ثورته . لماذا حكيت لولدينا عما بيننا ؟ وماذا يقول هو عندما يبكي ابناه أمامه يطلبان منه أن يحسن معاملتي ؟ وكيف تقبل - هكذا يقول - زوجة وأم أن تتوسط ابنيها بينها وبين زوجها ؟ وتدافعت الكلمات ، وازدادت ثورته ، واحتقن وجهه ، فما كان مني إلا أن فتحت باب الغرفة ، وناديت ولدينا كي يريا أباهما ويشهدا عليه .

..هي

قاتـــــلة !

لم أكن أتصور قط أن يدفع العناد والأنانية بأي زوجة إلى أن تنسى دورها ورسالتها كأم . فقد كان تقديري دوما أن الأمومة مقدمة على ماعداها ، وأننا حين ننجب فإننا جميعا ـ آباء وأمهات ـ ننسى ذواتنا ، ونمنح حياتنا راضين لأبنائنا ، بل قد يصل بنا الأمر ـ في تقديري ـ إلى أن نتغاضى عن كثير من حقوقنا ثمنا لكي ينمو أبناؤنا بشكل صحي ناضج ، بلا عقد أو مخاوف . كنت أقول لها كثيرا تعالي روضي ردة فعلك عندما تغضب أو نختلف ، تعالي ندخل غرفتنا ، ولا نتناقش أمام ولدينا ، حتى لايصل إلى سمعهما رشاش الخلافات أو الاختلافات ، وقلت لها : لايوجد في العالم كله زوجان لايحدث بينهما خلاف ، لكن العقل يقضي بألا يشعر ولدانا به ، ولايلمسان آثاره ، لكنها تغضب غضبة أطفال ، وتجري من أمامي ، وتذهب إلى ابنينا وتحتضنهما ، وتبكي ، وتترك غرفتها وتجلس طوال اليوم مقطبة الجبين دامعة العينين ، حتى يسألها ابنانا عما بها ، فتبدأ في الشكوى إليهما مني .

ولم تنصفني يوما ، ولم تر قط أن أكثر من نصف خلافاتنا يبدأ بسوء تصرفها ، ولم تتذكر قط أنها وسط الخلافات كثيرا ما تلقي بألفاظ وتعبيرات لايتحملها أحد ، وعندما تزداد حدة ثورتي أو أحاول الرد عليها تهرع إلى ابنيها وتحتضنهما .

قلت لها كثيرا : ليستمر خصامنا إلى ما شاء الله أن يستمر ، لكن ليس من حسن التربية أن يعرف ابنانا خلافاتنا ، ولا أن ترسلي لي طلباتك عن طريقهما ، تعالي قولي ما شئت ، وهذا لايعني المصالحة أبدا ، لكن الظلم أن ندخل ابنينا في دائرة الخوف والقلق والميل لطرف أكثر من طرف ، فمن القسوة أن نشوه داخل ابنينا صورة أحد والديهما . حاولت أن أفهمها ، لكن دون جدوى ، حتى فوجئت بابني يتوسطان لها ، وعندما استدرجتهما في الحديث اكتشفت أنهما يعرفان كل تفاصيل الخلافات من وجهة نظرها هي طبعا، وأنهما يشعران بأنني ظالم ، وأن أمهما مظلومة معي ، وعدت إلى البيت وأنا لاأرى من أمامي ، وصرخت في وجهها ، إنها قاتلة ، تقتل أرق المعاني في نفسيْ ابنينا انتصارا لأنانيتها . فما كان منها إلا أن صرخت على ابنيها تشهدهما علي . ألم أقل إنه لاجدوى منها ؟

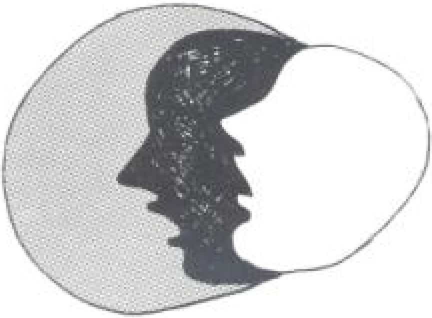

.. هو

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

أطفالنا يحبّون «الشيكولاتة»

بقلم: الدكتور حسن فريد أبو غزالة

أطفالنا من عشاق «الشيكولاتة»، وربما شاركهم كثيرون منا في هذه المحبة، لا لقناعة منهم أو منا بفائدتها، ولا بعراقة تاريخها، وإنما لطعمها اللذيذ المحبب، وسهولة هضمها.

غير أن الأطفال ما قبل القرن السادس عشر لم يكونوا على غرار أطفال هذا الزمان، لأن «الشيكولاتة» لم تكن معروفة لهم، فهي بضاعة مستوردة من المكسيك، والفضل في استجلابها لقائد اسباني شهير، يدعى فرناند كورتيس. غزا المكسيك بأساطيله عام ١٥٢٠، فالتقى هناك بأهل المكسيك من الهنود الحمر من قبائل الأزوتيك. وقد وجد القائد كورتيز أن الأزوتيك مغرمون بطعام يحضرونه من حبوب حمراء، يخلطونها بالمحليات، ويطلقون عليها اسم تيوبروما كاكاو الذي يعني بلغة الأزوتيك «طعام الآلهة». ولما عاد القائد الاسباني إلى بلاده كان معه في جملة ما حمل طعام آلهة الأزوتيك من حبوب التيوبروما كاكاو، وقدمها هدية متواضعة إلى رهبان أحد الأديرة تبركا منه وطلبا للغفران.

وقد أطلق الرهبان اسم لوز الهند على هذه الحبوب التي تشبه اللوز حقا، ونسبوها الى ما ظنوه أرض الهند. سحقوها وأضافوا إليها السكر والحليب حتى استحالت الى معجون لذيذ الطعم، سهل الهضم، هو أول أشكال «الشيكولاتة» في التاريخ.

تسللت حبوب لوز الهند أو التيوبروما كاكاو (طعام الآلهة) عبر جبال البرانس لتغزو القارة الأوروبية، ومن بعدها كل بلاد العالم القديم، فوقف منها الناس مواقف شتى. إذ أن منهم من عاداها، فحرمها أو اتهمها بالسمية، ومنهم من أغرم بها وعشق التهامها.

وبليت مع الأيام كلمة (التيوبروما) فيما صمدت كلمة (كاكاو)، لهذا أصبحت كلمة مشتركة في كل لغات العالم في زمننا.

فما هو موقفنا نحن أبناء هذا الجيل من هذا «الكاكاو» أو «الشيكولاتة»؟

قد تعيننا المعرفة العلمية لمحتوى الكاكاو وتركيبه على إصدار حكم صادق في قضية «الشيكولاتة»، واتخاذ موقف عادل محايد.

لن نطرح «الشيكولاتة» على بساط المناقشة، لأنها تركيب معقد من حبوب الكاكاو والحليب والسكر والفواكه والنقل، وهذا أمر معروف، وقد تبين الناس فوائدها الغذائية، وتبينوا أضرار الاسراف فيها - لو كانت هناك أضرار - وإنما سنطرح أمر الكاكاو نفسه.

فالكاكاو هو مسحوق للحبوب التي تؤخذ من ثمرة قريبة الشبه بالخيار، قد خططها الخالق بالأخضر والأصفر. ولعل أهم ما يميز تركيبها هو احتواؤها على مادة شبه قلوية، تدعى الثيوبرومين، وهي قريبة الشبه بالكافيين الذي اشتهرت به القهوة والشاي. لهذا فالثيوبرومين وإن كان أضعف قليلا من الكافيين إلا أنه مادة منبهة منشطة للدورة الدموية

مدرة للبول .

هذا الى جانب حامض قابض ، هو حامض التنيك الذي يتوافر بكثرة في الشاي .

إن حبوب الكاكاو شأنها شأن الحبوب الأخرى ، فهي غنية بالدهون التي تتراوح ما بين ٢٥٪ إلى ٤٠٪ التي يطلقون عليها اسم زبدة الكاكاو .

وهناك نسبة عالية من النشويات في تركيب الكاكاو ، لهذا يعتبر الكاكاو ، والشيكولاتة ، مصدر طاقة حرارية عالية بفضل هذا التركيب النشوي الدهني ، إذ تصل قدرة مائة جرام منه في تزويد الجسم بالحرارة إلى حوالي ٤٥٠ سعرا حراريا .

هناك نسبة عالية من الزلاليات في الكاكاو ، تصل إلى حد ١٢٪ ، ويمكن أن نتصور قدر هذا الزلال إذا ما قارناه باللحوم التي لاتزيد بأية حال عن ٢٠٪ .

وهناك نسبة عالية من النشويات في تركيب الكاكاو ، ولهذا يعتبر الكاكاو والشوكلاتة مصدر طاقة حرارية عالية بفضل هذا التركيب النشوي الدهني ، إذ تصل قدرة مائة جرام منه في تزويد الجسم بالحرارة إلى حوالي ٤٥٠ سعرا حراريا .

وإذا ما قلبنا الصفحة لنستطلع تركيب الكاكاو من أملاح وفيتامينات ، فستقنعنا الأرقام بغنى هذا الطعام المحبب بالكالسيوم الذي يصل إلى ما يقارب ما يحتويه الحليب من الفسفور والحديد الذي ينافس اللحوم والكبد .

ربما لن نجد الفيتامينات بوفرة في الكاكاو إذا استثنينا فيتامين (ب) الوفير فيه .

لهذا لايمكن الا أن نصدر حكمنا على الشوكولاتة بارتفاع قيمتها الغذائية ، مما يبرر لاطفالنا غرامهم بها ، وإن كان غراما قائما على غير علم منهم ، غير أن الأمانة العلمية توجب علينا الحذر ، والتحذير من الافراط في هذا الطعام المحبب ، تجنبا لعسر الهضم أو الاضرار بالمرضى الذين يتوجب عليهم الامتناع عن تناولها أو الاسراف فيها على أقل تقدير .

وهؤلاء هم ضحايا الحساسية والقرحة الهضمية والتهاب المفاصل والنقرس ومرض السكر وحصيات الكلى وارتفاع دهنيات الدم وأمراض القلب بالاضافة إلى من يعانون الامساك وعسر الهضم وآلام المفاصل الروماتيزمية (الرثية) .

هذه هي قصة الشيكولاته التي يقبل أطفالنا على التهامها بنهم يحسدهم عليه الكبار .

ردود سريعة

● السيد أنس ابراهيم آغا ـ اللاذقية ـ سوريا :

من الأفضل أن تستفسر عن مراكز علاج النطق من وزارة الصحة السورية ، فهي الأدرى والأعلم .

● السيد أ . م . م :

من الأفضل لك مراجعة طبيب متخصص في الأمراض الجلدية ، فالمهم ليس إزالة البقع وإنما هو علاج السبب .

● السيد المبروك أحمد حويل ـ جالو ـ ليبيا :

١ ـ عدم تحريك المصاب بالعمود الفقري أساس من أسس الاسعاف الأولي ويترك أمر نقله للمسعفين المتخصصين .

٢ ـ المواد المهدئة والمهلوسة تؤدي الى الادمان والاضرار بالجهاز العصبي .

٣ ـ لايعلم أن للقهوة والشاي أضرارا خطيرة ، إلا مع الاسراف فيها ، وليسا أخطر من تدخين السجائر إطلاقا .

٤ ـ لم نسمع عن صلة بين التدخين والاشعاع .

٥ ـ ضعف البصر والنزيف داخل العين من مضاعفات مرض السكر إذا أزمن .

● السيد عبد المجيد آيت الطالب ـ الرباط ـ المغرب :

لانظن أن هناك علاقة بين حادثة سيارة والاصابة بفقر الدم .

● السيد / سالم حمدان ـ العين ـ أبوظبي :

لم يصل الطب بعد إلى أي عقار لشفاء مرض السكر ، وكل العقاقير إما منشطة للبنكرياس الكسول ، أو هي لتعويض المصاب بهرمون الأنسولين المفقود .

● السيد ر . أ ـ أسفي ـ المغرب :

ننصحك بمراجعة طبيب عيون متخصص .

* السيد س . ع ـ حمص ـ سوريا :

تنصحك بمراجعة طبيب تجميل متخصص لأن الحالات لاتتشابه .

* ت . ت ـ بيروت ـ لبنان :

طول الشاب في سن ١٥ سنة ما بين ١٦٠سم و ١٧٦ سنتمترا ، أما الوزن فهو بين ٥٥ كيلوجراما و ٦٥ كيلوجراما ، لهذا فإنك مازلت في الحدود الطبيعية للطول والوزن ، وقد يزيد طولك بضعة سنتيمترات أخرى بعد ذلك ، فلا تقلق .

* السيد س . م . الجزائر :

عقار المينوكسديل لعلاج الصلع لم يطرح في الأسواق العربية حتى الآن ، ولعله يجد طريقه الى الصيدليات قريبا .

* السيد كسوس حميد ـ الدار البيضاء ـ المغرب :

الاستجماتيزم هو عدم انتظام تحدب قرنية العين ، والناظر لايمكن له تمييزها إطلاقا ، وعلاجها هو استعمال النظارات المناسبة التي يصفها لك المتخصصون .

* القارىء م . س ـ مراكش ـ المغرب :

تنصحك أن تراجع اختصاصيا في الأمراض التناسلية في أقرب فرصة ممكنة ، حتى لاتتعقد الأمور .

* الأخ سامر مسكية ـ طرابلس ـ لبنان :

أنت صغير السن ، وأمامك متسع من الوقت لتزيد طولا ووزنا فلا تقلق .

* الأخت ح . م . ب الاسكندرية !

يبدو أنك تعانين من التهاب داخلي ، ولابد لهذا الأمر من تحليل وكشف طبي ، لمعرفة طبيعته ، وهذا الأمر لايتولاه سوى طبيب متخصص في أمراض النساء . صارحي والدتك بالأمر لتساعدك ، فالمرض ليس فيه ما يعيب .

* أ . ع . ح ـ الدار البيضاء ـ المغرب :

راجعي اختصاصيا في الجراحة لفحص حالتك .

* الأخ عماد ابراهيم فياض ـ المحلة الكبرى ـ مصر

حبذا لو زودتنا بتقرير عن مرضك من طبيب ، حتى نجيبك بدقة عما تسأل عنه .

* م . ع . م لبعوس ـ اليمن الجنوبي :

لطفيليات الجيارديا والأميبيا علاجات ناجحة ، فاستشر اختصاصيا في الأمراض الباطنية ، ويا حبذا لو كان متخصصا في الجهاز الهضمي . ولا شك أنك ستجده في مدينة عدن .

* خ . ع . ع ـ المنوفية ـ مصر :

تنصحك بمراجعة اختصاصي الأمراض الجلدية لفحص حالتك أولا ، فربما تحتاجين الى علاج بالهرمونات ، أو تحتاجين لازالة الشعر بالكهرباء .

* السيد ناجي ـ صنعاء ـ اليمن :

لم نتبين طبيعة مرضك من رسالتك لهذا نرجو تزويدنا بتقرير طبي من أي طبيب معتمد ، حتى نفتي في أمرك بإذن الله .

* السيد أحمد محمد التطوري ـ الاسكندرية ـ مصر :

بعض الأمراض الجلدية قد تكون وراثية ، أو أن هناك استعدادا وراثيا لها إذا ما توفرت للمرض ظروف مواتية .

غير أن أغلب الأمراض الأخرى ليس لها أي علاقة بالوراثة ، وبخاصة الأمراض المعدية . والمطلوب هو تحديد المرض لتكون الاجابة أكثر دقة .

* المعذب أ . م . ن . س ـ حمص ـ سوريا :

تنصحك باستشارة طبيب متخصص في أمراض الغدد الصماء ، فقد تأخر افراز الهرمونات الجنسية لديك على ما يبدو ، وبعد ذلك ستجد الأمور تسير سيرا طبيعيا .

* خ . ن ـ تازة ـ المغرب :

ليس هناك ما يعرف بمرض البرد إطلاقا ، فاذا لم يكن مرضك حمى روماتيزمية فراجع طبيبا آخر متخصصا وماهرا .

* السيد / ش . س . أ . م ـ الزقازيق ـ مصر :

المينوكسوديل علاج لسقوط الشعر الموضعي ، أما حالتك فهي نقص في الافراز الهرموني ، مما يستوجب مراجعة طبيب متخصص في الغدد الصماء في أقرب وقت .

* السيد / محمد ابراهيم عبد الرحيم ـ عمان ـ الأردن :

لم يصل إلى علم الطب أن هناك علاقة بين الكهرباء وسرطان الدم الذي احتاروا في البحث عن سبب مباشر له .

* السيد / أ . ع . ح ـ قنا مصر :

لاداعي للقلق ، فأنت طبيعي ، ولا أثر لمعاناتك على الزواج أو الانجاب . □

نمـــوت وقــوفـــاً ولانعيش راكعين

تكمن قيمة الحياة كلها في بعض المعاني . وبدونها تصبح الحياة رحلة بهيمية لا معنى لها ولا قيمة . ويستوي البشر والكائنات الأخرى . تولد لتعيش . ثم تموت ولا تضيف شيئا . فهي لا تنتصر لقيمة . ولا تعلي مبدأ . ولا تضحي من أجل معنى أعمق وأنبل

في أزمنة التخاذل والتراجع تغيب هذه المعاني كثيرا وتختفي القيم الانسانية الراقية من مفاهيم الأفراد . كقيم الحق والخير والجمال والمعرفة . ويقابل هذه الحالة اختفاء قيم الشرف والنبل والتضحية والوطنية والكبرياء لدى الشعوب كتعبير مجتمعي عن تردي الأفراد .

ووسط حالة الحزن العام التي تحياها نحن العرب أبى أطفال فلسطين ونساؤها وشبابها الذين يسيحون في السابعة عشرة من العمر إلا أن يضيفوا إلى حياتنا معنى نبيلا رائعا .

تخرج آلاف الأطفال والنساء . يواجهون الرصاص وقنابل الغاز وعصي الاحتلال وأحذية القتلة بصدورهم العارية ولحمهم الحي وقطع الحجارة الصغيرة . وامتلأت شوارع المدن العربية التي ترزح تحت الاحتلال بصيحات النبل والشرف . بالذين انتفضوا انتصارا لكرامة وطن مغتصب . وغضبا للأرض التي دنستها أحذية الغزاة .

يخرجون في الصباح مدركين أن عودتهم إلى منازلهم أمر مشكوك فيه . وأنهم سيدفعون ثمنا لن يقل عن الموت أو الاعتقال . وعلى الرغم من ذلك تمتلىء بهم الشوارع والطرقات وأسطح المنازل .

شعب بأكمله ينتصر لقيمة الأرض والوطن . ويضحي بما هو زائل من أجل ما هو أكثر بقاء . وعلى شاشات « التلفاز » العربية تطل علينا شوارع غزة والقدس والخليل وعديد من المدن والقرى وهي تمتلىء بالأطفال وهم يرقصون رقصة الحجارة في رشاقة فرسان زمان غير زماننا هذا ونبلهم .

سألني صديق أثق في صدق نواياه عن جدوى مايفعله هؤلاء العزل في مواجهة حرب ألد طاغية . وهل هذا سيحرر شبرا من تراب ؟ وأدهشني السؤال . وأفزعني . فقلت له : يكفي هؤلاء أنهم يموتون بشرف وكبرياء انتصارا لمعنى معنوي راق . غاب عن كثيرين منا .. فهم يقدمون الموت ثمنا للحياة .

يكفي هؤلاء أن كل الذين ملؤوا سمع الدنيا عن حقوق الانسان وعن الحرية انكشفت عوراتهم عندما لم يروا من حقوق الانسان إلا بضعة جنود من الصهاينة أصابتهم حجارة أبناء الأرض السليبة . يكفي هؤلاء أنهم انتصروا لهذا المعنى العربي الجميل الذي غاب عنا طويلا . هذا المعنى الذي كنا نردده ونحياه في زمان المد الجميل : نموت وقوفا ولانعيش راكعين !! □

محمود عبدالوهاب

الأطفال والأدب الشعبي

بقلم : الدكتور محمود ذهني

عندما ترجمت كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة الى الآداب الأوروبية ، أحدثت ترجمة كل منهما ردود فعل كبيرة ، فاقتبس منها الكتاب ، وتأثروا بهما في كثير من مجالات الكتابة الأدبية ، وبخاصة في كتابة قصص الأطفال . فهل أولاهما كتاب قصص الأطفال عندنا عناية مماثلة ؟

الانتاج الأدبي العربي يمكن تصنيفه في ثلاثة ألوان متمايزة ، هي : الأدب الرسمي ، والأدب العامي ، والأدب الشعبي . وكل لون من هذه الألوان له مجموعة من الخصائص والسمات التي تميزه عن غيره ، فالأدب الرسمي هو أدب الصفوة ، أصحاب المراكز الرفيعة والمستويات العليا ، سواء كانت في الغنى أو السياسة أو الثقافة . لهذا فإن منشىء هذا الأدب الذي سوف يقدمه لأصحاب تلك المستويات العليا لابد أن يتخير له موضوعا من الموضوعات التي تدخل في دائرة اهتمامهم ، وأن يصوغه في لغة فصحى ، تتحرى أقصى درجات الفخامة والضخامة والأناقة والتصنع ، وتحت هذا اللون من الأدب يدخل كل شعر المديح والهجاء الذي شغل العصور الأولى من تاريخ أدبنا العربي ، كما يدخل تحته أيضا شعر المناسبات .

ولما كان هذا الأدب لا يدخل في اهتمام عامة الناس ، بل إنهم لا يعيرونه التفاتا ، ويعيشون بعيدين عنه ، حيث يضعه أصحابه ، ذوو النفوذ والسلطان ، مدونا في كتب فوق أرفف المكتبات ، ثم يأتي الاستعمار الثقافي ليفرضه على الدراسات الأدبية ، ويفرد له وحده الميدان في المدارس والجامعات ، مدعيا أنه الانتاج الوحيد للقريحة العربية ، واللون الوحيد الذي يمثل فن العرب الأقدمين .

والأدب العامي هو ذلك الأدب المحصور في نطاق اجتماعي ضيق ، حيث يقدم نفسه لعدد قليل من البشر ، تجمعهم لهجة لغوية واحدة ، فينغلق فهمه على أصحاب اللهجات الأخرى لنفس اللغة ، ولا يهتم إلا بالأحداث اليومية الجارية لتلك الجماعة ، فيبتعد عن الوجدان الإنساني العام ، أو المشاعر البشرية المشتركة .

أما الأدب الشعبي فهو الأدب الذي يصل الى الشعب بكل طبقاته ومستوياته وأفراده ، أو بمعنى أصح ، هو الأدب الذي يختاره الشعب ، حيث يجد أنه يعبر عن شعوره الجمعي العام ، ويؤدي له مهمات الفن في الحياة التي تبدأ بنقل التجربة الوجدانية ، وتنتهي بالتسلية والترفيه ، وبين البداية والنهاية عدد كبير من المهمات التي تتفاوت من عمل

أدبي الى آخر .

فالأدب الشعبي ينتج أساسا باللغة العامة ، حتى يستطيع الوصول الى جميع الأفراد ، ولا غضاضة بعد ذلك في أن تتناقله كل جماعة بلهجتها الخاصة ، وإن استمر محتفظا بخصائصه الشعبية .

أدب الشعب

الأديب الفنان لا يستطيع أن يصنف نفسه ، أو ينصب نفسه أديبا رسميا أو عاميا أو شعبيا ، لكنه بحكم كونه فنانا ينتج ما ينفعل به ، فإن حاز انتاجه خواص الأدب الرسمي كان رسميا ، وإن أخذ سمات الأدب العامي كان عاميا ، أما إذا اختارته جماهير الشعب لتضمه الى مواردها الفنية وغذائها الروحي ، فإنه يكون بذلك أدبا شعبيا .

وصاحب الأدب الشعبي لن يتمتع ـ للأسف ـ بهذا اللقب ، فهو لن يطلق عليه في حياته ، لأن سمات الأدب الشعبي لا تتحقق إلا بعد أمد طويل ، ولن ينعم به بعد مماته ، لأن الأدب الشعبي لا يحفل كثيرا بشخص قائله ، وإنما يترك نفسه لطبقات الشعب ونطاقاته المختلفة ، يشكله كل منهم طبقا لاحتياجاته ، ويدخل عليه من التغيير والتعديل والتبديل والاضافة والحذف مايلائم ظروف بيئته ومتطلبات حياته ، ومقتضيات عصره .

فالى أيهم يتجه الأدب الشعبي في بداية انتاجه ؟

إذا أراد الأدب الشعبي أن يصل الى الشعب بأكمله فلن يتجه الى صفوة المثقفين ، مثلما يفعل الأدب الرسمي ، فيستغلق فهمه على العامة من المتعلمين وغير المتعلمين ، في حين أنه إذا توجه الى عامة الشعب بإمكانياته الفنية فسوف يستطيع جذب أصحاب الثقافة على اختلاف مستوياتهم .

كذلك لن يحاول أن يكون في مستوى الكبار ، فيفقد الأطفال ومن هم في مراحل الصبا والشباب ، وهم نصف الشعب ، لكن يمكنه أن يتجه الى الصغار ويفتن الكبار في نفس الوقت .

وليس هذا غريبا علينا الآن ، في حياتنا المعاصرة ، فالسيرك ومدينة الملاهي وحدائق الألعاب وأشباهها تنشأ للأطفال أساسا ، ومع ذلك فإن إقبال الكبار عليها يفوق إقبال الصغار . لقد وجد « والت ديزني » مبتكر الرسوم المتحركة في السينما الذي أنشأ في أمريكا مدينة الملاهي الشهيرة باسمه « ديزني لاند » ، أن عدد الكبار الذين يؤمونها يبلغ عشرة أضعاف عدد الصغار ، الأمر الذي حفزه على انشاء مدينة جديدة هي « ديزني ورلد » (أي عالم ديزني) .

ونحن نعرف أن الفولكلوريين يرجعون بداية علم الفولكلور ، وتسميته بهذا الاسم الى العالمين الألمانيين « الأخوين جريم » ـ وليم ويعقوب أو « فلهايم وجيكوب جريم » وذلك من خلال كتابها « حكايات البيوت » . وهذه الحكايات في حقيقتها قصص للأطفال .

ثم كتاب « ألف ليلة وليلة » الذي يعتبر درة الأدب الشعبي العربي ، أليست حكاياته هي التي كانت تحكيها الجدات والأمهات لأطفالهن ؟ وأنها كانت ـ حتى الجيل الماضي ـ الزاد الثقافي والمتعة الوجدانية التي لا يرضى عنها الطفل بديلا ، ولا ينام إلا بعد أن يسمع واحدة من تلك الحكايات ، مهما تكررت عشرات المرات ، بل ربما تعلق بواحدة منها فيطلبها دائما لتحكى يوميا ، وتلك هي طبيعة الأطفال .

أما الذين يبحثون في أزمة الشباب المعاصر ، فإنني أوجه أنظارهم الى واحد من أهم أسبابها ، وهو حرمان أطفال الأجيال الحديثة من هذا الزاد الوجداني التربوي منذ أن انقطعت المرأة عن أطفالها،وانشغلت عن بيتها وأولادها ، دون أن تقدم لهم البديل المناسب ، ففقد الأطفال متعة الأدب الشعبي ، وفقد الأدب الشعبي أرضا كان مسيطرا عليها .

أما الدول المتقدمة ، فحين حدث فيها هذا ، سارعت بإعداد البديل ، وهو مطبوعات للأطفال تقدم لهم الأدب الشعبي في صورة جديدة معاصرة ، مستفيدة من التقدم العلمي المذهل ، ومن تقنية العصر .

ولعل أفضل مثال لذلك حكايات « هانزكريستيان اندرسن » التي نسجها على منوال الحكايات التراثية

التي جمعها الأخوان جريم ، ثم جاء « والت ديزني » وحولها الى رسوم سينمائية متحركة ، بعد أن طبعت في طبعات متعددة ، مزينة بالرسوم والألوان .

ومثل ذلك « خرافات لافونتين » الشاعر الفرنسي الشهير الذي نظم مائة وأربعين خرافة من خرافات الحيوان ـ أي الفابولا ـ وأخذ عددا غير قليل منها عن حكايات « كليلة ودمنة » لابن المقفع .

اختلاف واسع

اذا كان الأدب الرسمي أدبا ثابتا يتطلب سلامة النص ، وتوثيق الأصل ، وصحة النسب ، فإن الأدب الشعبي أدب متغير متطور ، لا يبقى على حال واحدة ، بل يغير شكله من عصر الى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ومن بيئة الى بيئة ، ومن مجال الى مجال ، فالحكاية الشعبية مثلا قد يكون لها أصل مدون في كتب التراث ، لكنها تحكى بطرق مختلفة متعددة تناسب كل منها زمن حكايتها ، والبيئة التي تحكى فيها ، وحال المتلقين .

من أوسع طرق الدراسات الفولكلورية الآن « المنهج المقارن » الذي يحاول أن يتتبع مسارات الحكاية الشعبية وانتشارها ، والاختلافات بين أشكالها ، ويثبت ذلك في فهارس فولكلورية ، أو يوقعها على خرائط .

يقسم علماء الفولكلور الحكاية الشعبية الى عدد من الألوان ، يأتي على رأسها لونان أساسيان هما الحكاية الخرافية المسلية أو حكايات الجان ، وحكايات الخرافة الحيوانية أو « الفابولا » ، ثم يأتي بعد هذين القسمين ألوان أخرى كالحكاية الغرامية ، والحكاية الفكاهية ، والحكاية التعليمية ، والحكاية الأسطورية وغيرها .

ولم ينس علماء الفولكلور أن يوضحوا أن هذا التقسيم تقسيم نظري تقعيدي الى حد كبير ، شأنه في ذلك شأن التقسيمات والتقنينات التي تتناول العلوم الانسانية بصفة عامة ، والفنون والآداب بصفة خاصة ، فهدفها أساسا دراسي تنظيري فقط ، أما في الواقع فمن المتعذر وجود اللون النقي الذي تتوافر له جميع الخواص ، وتتمازج فيه وتختلط ، وأقصى ما نطمع فيه هو أن نجد في الحكاية لونا يغلب على غيره من الألوان ، أو لونا أساسيا وألوانا أخرى فرعية أو مكملة ، وغالبا ما يكون اللون الأساسي هو أحد القسمين الرئيسين للحكاية الشعبية ، وهما حكايات الجان ، وفابولا ، الحيوان .

وإذا أمعنا النظر في هذين القسمين الرئيسين سوف نجد أنهما ـ شكلا وموضوعا ـ يتوجهان أولا وقبل كل شيء إلى الأطفال ، أو لعلنا نقول إن مكانهما الطبيعي هو « أدب الطفل » ، وأنهما إذا كانا من الأدب الشعبي الفني الحقيقي فإنهما سوف يستطيعان الوصول إلى الكبار أيضا ، ثم إلى المثقفين والدارسين ، وتلك شيمة الأدب الشعبي .

وقد كان فنانا العربي « ابن المقفع » فولكلوريا بالسليقة حين قال في مقدمة درته الخالدة « كليلة ودمنة » : « وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض ، أحدهما ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان فتستمال به قلوبهم ، لأنه احتوى على النوادر من حيل الحيوان . والثاني اظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور ، والثالث أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع ـ وهو الأقصى ـ وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » . (ص ٧٣ ط المطبعة الأميرية سنة ١٩٣١) .

أليست هذه أهم سمة من سمات الأدب الشعبي الذي يقدم لجميع أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم ، فيجد فيه كل منهم ما يناسبه من غذاء روحي ، ويغترف منه ما يروم من مهمات الفن في الحياة ؟

صور متعددة

هكذا نجد أن الحكاية الشعبية لا تتمسك بصورة موحدة ثابتة ، أو بشكل محدد ، وإنما يمكن أن يكون

لها أكثر من صورة وأكثر من شكل ، ليس بسبب اختلاف الزمان والمكان فحسب ، بل بسبب اختلاف المتلقي كذلك ، سواء من حيث المستوى الثقافي ، أو العمر الزمني ، وغير ذلك من أسباب .

تفسيراً لهذه الظاهرة يقول المتخصصون إن العنصر الأصلي في الحكاية واحد أو ثابت ، وتتغير من حوله عناصر الربط ، والشكل البنائي ، فينتج عنها عشرات الحكايات المتحدة في الفكرة المختلفة في الشكل ، وبالتالي مختلفة في الهدف . أما الأستاذ فاروق خورشيد فيطلق عليها اسما أرق ، استعارة من المصطلحات الموسيقية ، فيقول إنها « تنويعات على أصل فولكلوري » .

والعناصر الأصلية لكثير من الحكايات الشعبية تتشابه عند كثير من الشعوب ، على الرغم من بعد مكان أحدها عن الآخر ، أو صعوبة الاتصال بينها . ولتفسير ذلك ظهرت نظريتان علميتان أولاهما نظرية التشابه التلقائي ، نظرا لتشابه الطبيعة الانسانية في خواص عمومية ، تشمل جميع البشر في كل مكان ، وبالتالي فإن العنصر الأصلي لحكاية ما يمكن أن ينشأ في بيئات مختلفة لا اتصال بينها .

أما النظرية الثانية فهي نظرية هجرة الحكاية الشعبية ، حيث تنبت ـ كعنصر أصلي ـ في بيئة معينة ، ثم تنتقل منها إلى البيئات الأخرى ، لتكتسي كل منها بمجموعة من عناصر الربط التي تؤهلها لملاءمة بيئتها الجديدة ، وهذه النظرية هي أساس عمل « المنهج المقارن » في الدراسات الفولكلورية .

وسواء صحت هذه النظرية أو تلك ، أو كان لكل منها نصيب من الصحة ، فإن للحكايات الشعبية العربية تأثيرا مباشراً فاعلا في الأدب الشعبي الأوروبي ، منذ أن ترجم المستشرق الفرنسي « أنطوان جالان » حكايات ألف ليلة وليلة عام ١٧٠٤ ، وقد انبثقت عنها في فرنسا وألمانيا آلاف الحكايات الشعبية التي حذت حذو ترجمة جالان أو نسجت على منوالها ، بحيث يمكن القول بأن « الليالي » هي أصل من الأصول التي نتج عنها نبض الحكاية الخرافية الأوروبية .

أما حكايات « كليلة ودمنة » فقد ترجمت إلى الفرنسية قبل « الليالي » بكثير ، فقد ظهرت أول ترجمة لها عام ١٦٤٤ ، لكنها لم تنتشر وتشتهر إلا بعد أن جاء الشاعر الفرنسي الشهير « لافونتين » ، واقتبس منها عشرين حكاية نشرها ضمن خرافاته عام ١٦٧٨ .

ويمكننا القول بأن « حكايات الجان » منذ أن جمعها الأخوان جريم ، « وفابولا » الحيوان منذ أن نظمها لافونتين ، سواء كانت مقدمة للأطفال أو للكبار ، قد فتحت أمام أدباء أوروبا وأمريكا الباب واسعا لينتجوا الآلاف المؤلفة من قصص الأطفال التي أخذت منها بعض لبنات أصولها أو احتذت بها ، أو نسجت على منوالها ، فأثرت بذلك وجدان ناشئيها ، وما فاض منها صدرته إلينا ضمن ثقافتها الغربية التي تريد أن تفرضها علينا .

عودة الى الأصول

أما نحن العرب فقد حاكمنا « الليالي » ، ووجهنا إليها تهمة إفساد الخلق والحض على الرذيلة ، وأهملنا « كليلة ودمنة » واعتبرناها تراثا أثرياً لا يتمشى مع العصر ، فبقي أطفالنا دون زاد ثقافي قومي ، يعطيهم الدفعة الوجدانية التي تتطلبها الحياة ، ويمنحهم القدرة على مواجهة ذلك الغزو الاستعماري الثقافي .

واليوم ، حين يستشعر بعضنا هول ما آل إليه حال شبابنا وأطفالنا من ضعف ثقافي ، وما ظهر من أثر ذلك على سلوكهم وقيمهم وأخلاقياتهم ، راحوا ينشدون العون من الغرب والشرق ، ويطالبون بالنقل عنهم وترجمة كتبهم . وفاتهم أنهم بذلك يمكنون لثقافتهم الاستعمارية من التغلغل في وجداننا ، ويحطمون أسمى ما يتطلبه بناء الإنسان العربي .

ولم يدر بخلد هؤلاء أن لنا تراثا عربيا ، من واجبنا إحياؤه وتقديمه غذاء روحيا قوميا لهؤلاء الناشئة ، وأن هذا التراث قادر على ذلك أمين عليه ، لأنه كان النبع الذي استقى منه الغرب الأوروبي ثقافته ، بعد أن عرف كيف يستفيد منه الاستفادة المثلى ، ويضعه في الثوب الذي يناسب بيئته ، ويحقق أغراضه . □

جمال العربية

صفحة لغة

«الحاسوبُ» و«الحَيْسُوبُ»

بقلم / محمد خليفة التونسي

من دواعي الأسف : أن بعض اللغويين بيننا يحاولون احتكار التشريع اللغوي تحريما وتحليلا ، أو منعا وإباحة، ويقيمون أنفسهم كهانا في اللغة ، ويرون انهم اصحاب القول الفصل في قضاياها ، مع انه لا كهنوت في اللغة ولا في الدين ، وهم احرص على النزوع الى التحريم حين لا يجدون أن اللفظ مذكور بمعناه الجديد وتركيبه الجديد في معجم أو في نص مأثور ، ويتخذون هذه الحجة لتحريمه ، والالحاح في مطاردته ، وفي وصفه بأنه دخيل ، أو مولّد ، أو عامي ، للتنفير منه حيث ظهر على لسان أو قلم ، ولو أنهم اقتصروا بهذه الحجة نفسها على التوقف في إبداء رأي لكان لهم بعض العذر ، وليس غمزهم لأي لفظ بهذه الاوصاف أي معابة مادام له وجه في الفصيحة مع قيام الحاجة اليه .

ولكن لا مفر من التسليم به لوقته مادامت الحاجة اليه قائمة ، وله وجه ـ أي وجه ـ في الفصيحة ، وليس هناك لفظ آخر فصيح يؤدي معناه ، والضرورات تبيح المحظورات في الدين واللغة وفي كل مجال بشري .

عند ظهور السيارة والدراجة والقطار مثلا بيننا كنا نسميها بأسمائها الأجنبية « الأوتوموبيل » و« البسكليت » و « الوابور » أو مع بعض التحريف ، ثم اهتدى بعض فضلائنا الى تسميتها هذه الاسماء الفصيحة الثلاثة ، مع أن هذه الاسماء لم تكن تدل قبل عصرنا على ما تدل عليه الآن .

ونزعة التحريم على النحو السابق نزعة وبيلة ضارة باللغة والناطقين بها ، وقد لا تدل على الاخلاص لها ، أو الغيرة عليها ، والثقة بها ، بقدر ما تدل على جمود الفكر أو ضيقه أو كسله أو جبنه أو بقدر ما تدل على الحذلقة وحب التسلط .

مادامت اللغة ـ أي لغة ـ حية تتداولها الألسنة فلابد ان تساير معيشة الناطقين بها ، فتهمل ألفاظ وتستجد الفاظ ، وانما مثلها في ذلك مثل الجسم الحي في تطوره ، تموت فيه خلايا وتتكون خلايا جديدة مادام حيا ، ولا تتوقف فيه عملية الهدم والبناء حتى يموت ، وقد تستعمل الكلمة بعد اهمال ، ومن أبعد الاوهام الاعتقاد بأن أي لغة قد تمت معانٍ وألفاظا مع ان المعايش تفاجئنا أو تفاجئها كل يوم بجديد ، وقد بيّنا في صفحة سابقة أن قوام أي لغة أو لهجة هو أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية وليس معجماتها ، فالمعجمات تتجدد أو ينبغي أن تتجدد هدما وبناء مع تجدد الالفاظ لتجدد الافكار والكشوف والاختراعات وأساليب المعيشة ، وحلتها في كل يوم تلد جديدا .

الحاسوب

أكتب هذا وبين يدي كلمة « الحاسوب » التي بدأت تشيع الآن للدلالة على الأداة التي تسمى

« الكمبيوتر » تعريبا للكلمة الأجنبية (Computer)، وعلى هذا النحو بدأت تسمى عندنا حين عرفناها ، أو تسمى « العقل الالكتروني » احيانا ، وشكرا للمجتهد الذي ترجمها بكلمة « الحاسوب » فأصلها الأجنبي هو الفعل (Compuete) بمعنى يحسب، ملصقة بلاحقة (er)

لتدل الكلمة على انها صفة للفاعل فيكون معنى الكلمة هو « الحاسب » أو « الحاسوب » أو تدل على اسم أداة ، وكثيرا ما تستعمل صفة الفاعل للدلالة على الأداة مثل : الحاجز ، والقائم ، والحاجب ، ثم إن الحاسوب يدل على صفة الفاعل والأداة ايضا

ووزنه « فاعول » ، وعلى هذا الوزن أيضاً وردت في لغتنا عشرات الكلمات ، كثير منها يدل على صفة الفاعل ، واسم الأداة ايضا . ووزنه « فاعول » ، وعلى هذا الوزن وردت في لغتنا عشرات وعشرات من الكلمات وكثير منها يدل على صفة الفاعل مثل : جاسوس ، قاشور ، ناطور ، ناظور ، وكثير منها يدل على أدوات مثل : راقود ، راووق (للخمر) وجاروف ، وخازوق ، وقارور (قارورة) ، كابول (حبل) ، ناقوس ، ساجور ، كانون ، ناقور (قرآنية) ، وبعضها يدل على معان اخرى . وعلى هيئتها كلمات معرّبة مثل : سابور (شاه بور ، أي ابن الملك) وجاموس (كاوْموش ، أي البقر - الاسود) .

ونفضل استعمال كلمة « الحاسوب » لانطباقها على هذه الأداة فإن معظم اعمالها تقوم على الحساب ، مع تقدم اطوارها ، أو أجيالها ومجالات استعمالها ، وان كانت اليوم قد ازدادت تعقيدا واستوعبت أنشطة جديدة كما شاهدنا ذلك في أحدث اجهزتها عندنا اليوم ، ونفضل استعمالها وتخصيصها لطرافتها بهذه الآلة كي تفرق بينها وبين الحاسبة وهي الأداة الالكترونية الصغيرة في الأيدي والجيب ، و« الحاسوب » أفضل أيضا من « العقل الالكتروني » لأن « كلمة واحدة أفضل من كلمتين ، ثم ان استعمال عبارة « العقل الالكتروني مضللة » لأن هذه الأداة آلة مقيدة بما يدخلها من معلومات ، والعقل أبعد ما يكون عن الآلية ، وفي هذه التسمية مهانة للعقل الذي شرف الانسان على سائر المخلوقات .

الحيسوب

وبهذه المناسبة نود احياء كلمة « حيسوب » وهي من جذر كلمة حاسوب وبمعناها ايضا ، وكنا قد اطلعنا عليها في بعض بحوث الفلك القديمة ، وإن نسينا مصادرها الآن لقدم العهد بها ، ولكنا وجدنا بعض المهندسين الفلكيين في العراق يستخدمونها الآن لتدل على العالم المختص بالبحوث الفلكية فهي مخصصة به ، ولا تعم كل حاسب . والكلمة من جذر عربي (ح . س . ب) ووزن عربي « فيعول » ، وعلى وزنها كلمات فصيحة كثيرة مثل : « طيفور ، ديجور ، صيهود ، صيخود ، خيشوم ، قيصوم ، حيزوم ، قيدود ، بزيادة الحرف الثاني فيها جيما) وكل منها صفة تدل على تلبُّس موصوفها بمصدرها ، وقد تدل على معنى آخر يسبيله .

ويلاحظ في الأوصاف التي يكون الحرف الثاني فيها زائدا انها غالبا دالة على الوصف بمصدرها الثلاثي على اختلاف وزنها ، مثل : خيدع (خادع) ، فيصل (فاصل) ، قيعر (متقعر في الكلام) صيرف (صارف) ، صيقل (صاقل) ، خيطف (خاطف) ، ومثل غيداق (الكريم) ، وهيذار (الهاذر) ، وقيعار (المتقعر في الكلام) .

هذا ولغتنا - كما نعلم - اشتقاقية كبقية اخواتها العروبية (السامية) ، وكل ما فيها من فصيح الأسماء والصفات والأفعال محكوم بوزنه ، والأوزان عشرات وعشرات ، فمنها ما تذكره الكتب الصرفية ومنها ما سكتت عنه ، ولكن قد تستدركه المعاجم وقد تذكر بعض معانيه وتهمل بعضا . ومهما يكن الأمر فإن هذه الأوزان قائمة ، وأمثلتها من الالفاظ قائمة على كثرة أو قلة ، ومن الممكن توليد آلاف الالفاظ على وفق هذه الأوزان مما لم يرد في نص ولا معجم ، وقد نتناول بعض ذلك في صفحات قادمة والله المستعان . □

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأبناء

الأبناء
بين البرّ والعقوق
لأمية بن أبي الصّلت

هذه ثلاث مقطوعات ، أولاها لشاعر (نجهله) كان راضيا عن ابنه ، لأن هذا الابن كان بارا بأهله ، فأبوه يظهر اعجابه وفخره به .

والمقطوعة الثانية لشاعرة لا نعرف إلا انها من قبائل هوازن التي كانت حول ظهور الاسلام تسكن في جيرة الطائف بالحجاز ، وهذه الشاعرة تشكو عقوق ابنها بها حتى بلغ من عقوقه انه كان يضربها ويمزق ثيابها ، ونحس خلال انكارها عليه ذلك ، ما تبطنه من عواطف الأمومة ، فهي تذكر احتضانها له في صغره حين كان عاجزا حتى شب وظهرت علامات الرجولة على طلعته ، وتكاد تبرئه من ذنب العقوق ، وتلقي اللوم في ذلك على زوجته التي تتظاهر بالدفاع عنها ، وبحاجتهم اليها ، ولكنها في سريرتها تغتبط بتعذيب الأم على يد غيرها وتتمنى لو استطاعت هلاكها .

والمقطوعة الثالثة للشاعر أمية بن أبي الصلت الذي كان معاصراً للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكان مطلعا على بعض العقائد الدينية السابقة وأطراف من سير الأنبياء ، ولقي في تجارته الى الشام بعض الرهبان والقس في الأديرة والكنائس ، وكان نزاعا للتدين ، فانتهى الى ايثار الزهد ، والشك في عبادة الأصنام ثم انكارها ، ومال الى عبادة الله ، وكان يأمل اصلاح أحوال قومه باصلاح عقائدهم وعاداتهم ، فلما ظهر النبي عليه السلام خاب أمله في النبوة فوقف من النبي وأصحابه موقفا عدائيا . الى ان توفي سنة ٢ هـ بعد غزوة بدر الكبرى .

والشاعر في مقطوعته يُذكّر ابنه بفضله عليه طفلا ويافعا ، وتعاطفه معه في شكاواه كأنه هو المصاب دونه ، ثم يذكر ألمه لعقوق ابنه حين بلغ سن الرجولة وانتظر خيره ، فجزاه شرا ، كأنه هو صاحب الفضل على ابيه ، وكان أقل ما ينتظر منه معاملة الجار للجار في الحماية وحسن التواصل ، ومن الموازنة بين المقطوعتين الأخيرتين في موضوع العقوق نستشعر الفرق بين شعور الأمومة وبين شعور الأبوة .

غبطة أب ببر ابنه

رأيت « رباطاً » حين تم شبابه ... وولى شبابي ـ ليس في بره عَتْبُ (١)
اذا كان أولادُ الرجال حزازةً ... فأنت الحلالُ الحُلوُ ، والباردُ العذبُ (٢)
لنا جانبٌ منه دميثٌ ، وجانبٌ ... اذا رامه الأعداء ـ ممتنعٌ صعبُ (٣)
وتأخذُه عند المكارم هِزَّةٌ ... كما اهتزَّ تحت البارح الغُصُنُ الرطْبُ (٤)

أم تشكو عقوق ابنها

ربَّيْته ، وهو مِثلُ الفرخِ أعظمُه ... أمُّ الطعام ترى في جلدِه زَغَبا (٥)
حتى اذا صار كالفُحّال شذَّبه ... أبّارُه ، ونفى عن متنه الكَرَبا (٦)
أضحى يمزِّقُ اثوابي ، ويضربُني ... أبعد شَيْبَي يبغي عنديَ الأدبا
اني لأُبصِر في ترجيل لِمّتِه ... وخطَّ لِحيته في خدِّه عجبا (٧)
قالت له عِرْسه يوما لتَسْمعني : ... « مهلا ، فإن لنا في أمنا أربا »
ولو رأتني في نار مسعَّرة ... ثمّ استطاعتْ ـ لزادت فوقها حطبا

أب يشكو عقوق ابنه

غذوتُك مولودا ، وعُلْتُك يافعاً ... تُعَلُّ بما أُدْني إليك ، وتَنْهَلُ (٨)
اذا ليلةٌ نابتك بالشكو لم أبِتْ ... لشكواك إلا ساهراً أتململُ (٩)
كأني أنا المطروقُ دونَك بالذي ... طُرِقْتَ به دُوني ، وعيني تَهْمِلُ (١٠)
فلما بلغتَ السنَّ والغاية التي ... إليها مدَى ما كُنْت فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائي غلظة وفظاظةً ... كأنك أنتَ المنعمُ المتفضِّلُ
فليتك إذْ لم ترعَ حقَّ أبوَّتي ... فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعلُ

---

(١) ليس في بره عتب : بره تام لا مأخذ عليه .

(٢) حزازة : ألم في القلب من غيظ أو سخط أو غيره .

(٣) دميث : لين .

(٤) هزة : نشاط وراحة ـ البارح : الريح الحارة .

(٥) ام الطعام : المعدة .

(٦) الفحال : طلع النخل الذكر . شذّبه أباره : أصلحه مصلحه . نفى عنه الكرب : قشر عنه غلافه .

(٧) اللمة : شعر الرأس يجاوز الأذنين ، وترجيلها : تسريحها بالمشط أو غيره .

(٨) تعل وتنهل : النهل (بفتحتين) الشربة الأولى ، والعل والعلل (بفتحتين) الشرب بعد الشرب تباعا .

(٩) نابتك : أصابتك . اتململ : أتقلب .

(١٠) المطروق : المصاب . تهمل : تفيض دموعا .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

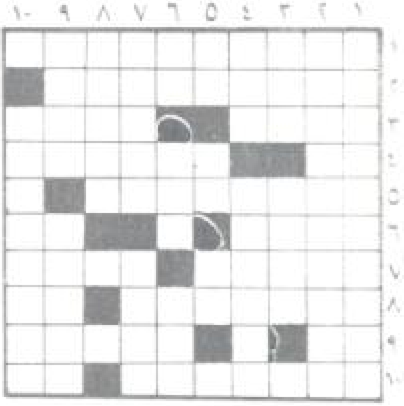

كلمات أفقية

١ - إمام مذهب إسلامي خالف الحسن البصري واعتزل مجلسه
٢) الاسم العلمي لغاز النشادر
٣) روائي بريطاني مشهور . أخطاء أو زلّات
٤) يوم مبتورة . من أبناء قطر عربي افريقي شقيق
٥) من رواد النهضة الفكرية العربية في مصر
٦) يحدث ليلا . تجدها في موج
٧) مكسوة بالزينة . من المحرمات في الاسلام
٨) مدينة ساحلية في قبرص . صار حلالاً
٩) حرفان متشابهان . كتاب تجمع فيه القصائد
١٠) من جمهوريات الهند الصينية . أداة ترفع بها السيارة

كلمات رأسية

١) مقبرة فرعونية مشهورة
٢) مدرج يتسع لمائة ألف متفرج في روما
٣) حفظ . مطلّ مبعثرة
٤) عاب أو اغتاب . هنداوي مبعثرة
٥) ربو مبتورة الأول . طس مقلوبة . أخفى الكلام
٦) حرف مكرر . كاف أو تام . دال على المودّة
٧) وديعة مبعثرة . طويلا
٨) يا وطن غير مرتبة
٩) طمأنينة . أداة يبرى بها الخشب
١٠) فاتح تتري دموي أحرق بعض العواصم العربية

حل مسابقة
العدد الماضي فبراير ١٩٨٨

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ت	ا	ح	ا	ل	ع	ر	و	س	
٢	ر	م	ا	ي	ا	ن	ا		ي	ل
٣	ي	ب	ط	ن		ا	ب	ن	ح	س
٤	ا	ا		ش	ا	د	ن		م	ا
٥	ق	ي	س	ت		ل	د		و	ن
٦		ر	ب	ا	ن		ر	د	ن	ا
٧	ن	س	و	ي		ص	ا	ن	د	ل
٨	ق	ث	ر	ن		ق	ن	ا		ع
٩	و	ي	ه		ب	ي	ا	ن		ل
١٠	ر	ت		ش	ر	ع	ت		س	ب

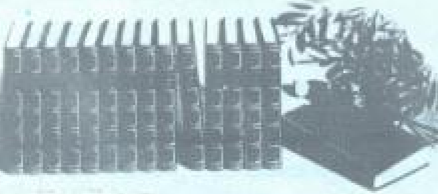

مكتبة العربي

كتاب الشهر

عقول الأطفال

تأليف : مارغريت دونالدسون

عرض : الدكتور عادل عبدالكريم

عقول الأطفال هي عقول المستقبل ، وهي عالم مجهول لم يكتشف بعد . وعلى الرغم من محاولات كثيرة لاكتشافه ـ ربما أهمها محاولات جان بياجيه العالم السويسري الشهير ـ إلا أنها بقيت منطقة مفتوحة للمزيد من الاكتشاف والدراسة .

وهذا الكتاب مساهمة متخصصة من مؤلفه لاكتشاف هذا العالم الشاسع الذي يسمى عقل الطفل .

كتاب الشهر

يقع الكتاب في ١٥٦ صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على أحد عشر فصلا وينتهي بملحق لنظرية « بياجيه » في تطور الذكاء .

تتميز مؤلفة الكتاب التي تعمل في قسم علم النفس بجامعة ادنبرة في انجلترا ، بأنها عملت فترة مع كل من « بياجيه » ، « وبروز » . أثار الكتاب في مستهل صدوره عام ١٩٧٨ ضجة عالية ، لما طرحه من آراء جريئة ، استوجبت طبعه عدة طبعات كانت السابعة منها عام ١٩٨١ ، فقد بدا كأنه يهز جوانب صرح مدرسة بياجيه ومدرسة السلوكيين الارتباطية ، فالمؤلفة تعارض موقفا جوهريا ، تتفق فيه هاتان المدرستان ، وتختلفان كثيرا فيما عداه ، إذ يتفق كل من « بياجيه » و « هل » ـ أحد رواد المدرسة السلوكية ـ على أن الطفل لا يكون قادرا قبل السابعة على المحاكمة العقلية . ولهذا الاتفاق مضامينه التربوية الواسعة التي لا يسعنا تجاوزها . وقد عرضت المؤلفة مجموعة الاختبارات التي تتطابق بنيويا مع اختبارات « بياجيه » و « هل » ، وتوصلت إلى نتائج وتفسيرات معارضة لها . وهي بذلك تقف مع عالم التفكير « دي بونو » الذي يصر على عدم وجود « أبقار مقدسة في التربية » .

ويضفي على الكتاب أهمية ما كتبه « برونر » أحد أبرز التربويين الذي تزين عباراته صفحة الغلاف الأولى ، إذ يصف الكتاب بأنه : « واحد من أقوى الكتب وأحصفها وأكثرها توازنا ، وأفضلها بما يقدمه من معلومات في مجال تطور عقل الطفل ، وذلك فيما نشر منها خلال عشرين عاما . أما مضامينه التربوية فبالغة الأهمية » .

أطفال في باحة مدرسة

تقدم المؤلفة مدخلا لكتابها ، يبرر دوافعها في تأليفه ، فتصف مشهدا مثيرا لأطفال في باحة مدرسة واسعة ، يغمرهم الحبور ، وينكب كل واحد منهم على شيء يشغله ، وتقول بعد ذلك :

« بينما كنت أعيش هذا المشهد تبادر إلى ذهني تساؤل عما سيكون عليه حال زائر يجهل واقعنا ، إذ غالبا ما سيظن أنه وقع في « اليوطوبيا » ، خاصة إذا ما قيل له إن هؤلاء الأطفال ينتمون إلى حي فقير في إحدى مدننا الكبيرة .

وعندما أطلقت لعقلي العنان عجبت عما سيكون لهذا الزائر من موقف إذا ما تجاوز المشهد ، وبادر إلى دراسة السلوك والأحاديث للأطفال الآخرين الذين يوجدون في فصول معينة من نهاية السلم التعليمي المدرسي والذين قد يكونون أشقاء وشقيقات أكبر سنا لهؤلاء الأطفال أنفسهم ، فيجد أولئك الكبار على وشك ترك المدرسة والحبور يملؤهم لقرب خلاصهم من المدرسة . لقد تخيلت هذا الزائر وهو يقرأ صحفنا ، ويتابع برامجنا التلفزيونية ، التي تندب بلا انقطاع مصائبنا التربوية ، حيث المعايير الهابطة والمراهقون الذين يجهلون مبادىء القراءة والحساب ، ويتركون المدرسة بالآلاف غير مؤهلين لكسب عيشهم ، يملؤهم الشك ، ويتجرعون الهزيمة سلفا ويتحررون من أوهام الآمال الكاذبة .

لابد لمثل هذا الزائر من المسارعة إلى التحرر من أوهام الوقوع في « اليوطوبيا » ، إلا أن الحيرة تتملكه حين يعجز عن فهم ما يحدث » . وتكرس المؤلفة جهدها في هذا الكتاب لتحري أسباب هذا الواقع المأساوي ، إذ كيف يبدأ الأطفال استقبال المدرسة بالحبور ، ويغادرونها بمثل تلك الهزيمة القاسية ؟ وتحاول المؤلفة أن تقدم ما يفيد لتغيير هذا الخاتمة المفجعة . فتؤكد في الفصل الأول « الخبرة المدرسية » على ضرورة فهم الاشكالية التي تبحث عن إدراك ما الذي حدث خلال الانفعال ، من بداية جيدة ، إلى مثل هذه النهاية السيئة . وتبدو الخبرة المدرسية سيئة على العموم لمعلمي الأطفال غير السعداء . ولا يكون أمام المعلمين ـ للأسف ـ إلا اتخاذ قرار دفاعي بوصف هؤلاء الأطفال بالغباء ! فقلما يتاح لهم الخيار لتقرير ما

إذا كانت الأشياء التي يعلمونها غبية ، أو أن النظام يتسم برمته بالغباء ! فهل هناك احتمال آخر غير الاقرار بإخفاقهم . من يفعل ذلك ؟

ولا توجد للمجتمع كله ـ أو على الأقل ، للجزء المسئول من المجتمع عن الأهداف التربوية ـ إلا نتيجتان دفاعيتان ، الأولى ترى أن عدداً كبيرا من الأطفال يتسم بالغباء ، والثانية ترى أن هناك عددا كبيرا من المعلمين لا يؤدون واجباتهم بإتقان . فأين موقع الحقيقة في هذا الشأن ؟

مستويات الكرب المدرسي

وترى المؤلفة أنه لم يعد في طاقة المجتمع احتمال مستويات الكرب المدرسي الراهنة ، خاصة أن جهود الباحثين قد أسفرت عن إلقاء أضواء جديدة على المهارات الأساسية للتفكير واللغة ، لا يجوز تجنبها .

وتنتقل المؤلفة في الفصل الثاني « القدرة على اللاتمركز حول الذات » لمعالجة وجهة نظر « بياجيه » في هذا الشأن ، فتنتقد اختبارات بياجيه لاخفاقها في إعطاء صورة صادقة عن الطفل ، إذ يزعم بياجيه أن طفل السادسة أو السابعة قناة اتصال رديئة ، لكونه يتصف بالتمركز حول الذات ، وبالضعف في قدرة الانفصال عنها . وقد كان هذاالزعم محوراً لنظريته حول قدرات الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة . ثم تستعرض المؤلفة دراسات هيوز ولويد وآخرين ، حيث صمموا اختبارات لها بنية اختبارات بياجيه ، إلا أن عرضها كان مختلفا ، وخرج هؤلاء بأن الأطفال لا يتمركزون حول الذات بالقدر الذي يزعمه بياجيه . وتعتقد المؤلفة أن لهذه مضامين بعيدة في فهم طبيعة الأطفال ، وما يجب أن تزودهم به التربية .

تعالج المؤلفة في الفصل الثالث « تعليم اللغة » ، فتناقش المقولة المركزية لتشومسكي التي تقول بأننا نولد بقدرة فطرية ، تختص باللغة أو بطبيعة نظامها ، وتتساءل كيف يتسنى للطفل ـ قبل السابعة ـ الذي يعجز عن المحاكمة العقلية ـ كما يزعم بياجيه ـ أن يكون قادرا على إدراك النظام اللغوي الدقيق كما يقول تشومسكي ؟ وكيف يعجز الطفل عن أشياء كثيرة تبدو يسيرة للراشد ، بينما يكون قادرا على استنباط قواعد معقدة للغة الانسانية ؟ فترد بذلك على بياجيه وتشومسكي معا .

وتعود المؤلفة في الفصل الرابع « للاستدلال الاستنتاجي » ، أهو إخفاق في المحاكمة العقلية ، أم إخفاق في الفهم ؟ فتناقش آراء بياجيه حول اختباراته الخاصة بالمجموعة الجزئية والمجموعة الكلية ، وتبين أن الأطفال لم يفهموا لغة الفاحص ، وتعرض اختبارات مماثلة بنيويا لها ، بلغة مختلفة ، فيتفهم الأطفال الاختبارات ، ويؤدونها بشكل مقبول .

وتقدم في الفصل الخامس « الواقع وما يجب أن يكون عليه الحال » دراسات تجريبية مثيرة ، ترد فيها على تجارب بياجيه و « هل » ، وتخلص إلى أن الأطفال لا يتمركزون في أية مرحلة حول الذات كما يزعم بياجيه ، وأن قدرات الأطفال في الاستنتاج الاستدلالي ليست محدودة .

وفي الفصل السادس « القول والفحوى » تتابع المؤلفة تحديها لأراء بياجيه ، فتناقش اختبارات « المحافظة على الكم » ، وسبب إخفاق الأطفال فيها ، وتطرح تجارب مماثلة ، لم يخفق الأطفال فيها .

قليل من النجاح وكثير من الفشل

وتقدم في الفصل ـ السابع « التفكير اللامستوطن والقيم الاجتماعية » مناقشة مستفيضة للتفكير الصوري أو المجرد ، وهو ما سمته « اللامستوطن » ، فتعرض دراسات تبين قصور الراشدين ، بل حتى خريجي الجامعات في مثل هذا النوع من التفكير فتقول :

« لا يمكننا أن نتقن نظاما صوريا ، مالم نكن قد تعلمنا كيف نتجاوز حدود الادراك الانساني ببضع خطوات ، وما يزال الأسلوب الناجح للعمل على مساعدة الأطفال لفعل ذلك في مراحلهم المبكرة غير معروف لنا . . . . . ومن ثم فإننا ننتهي إلى عدد قليل من مرات النجاح مع حصيلة مفزعة من الفشل » .

أما الحل ، فواحد من اثنين :

إما أن نجري تغييرا في نظام القيم ، فنهبط بالفكر من خلال موقف يعادي الفكر ، وإما أن نجري تغييرا في نظام القيم دون إنكار لمهارات الفكر وذلك بتخفيض الوزن النسبي لهذه المهارات مع زيادة جوهرية في قيمة أخرى ، هي مهارة اليد ، والمؤلفة تدافع عن وجهة النظر الثانية ».

وفي الفصل الثامن « صعوبة الطفل مع التعليم المدرسي » ترى المؤلفة أن الصعوبة تكمن في عدم قدرة الأطفال على الوعي بالكلمة المكتوبة ، فالكلمة المكتوبة تشجع على وعي الفرد بتفكيره ، ولعل لها صلة بتطور التحكم الذاتي الفكري ، وهي تصر على توفير السبل لجذب الطفل إلى القراءة كمفتاح لتطوير فكر الطفل . وتتطرق المؤلفة في الفصل التاسع « إمكانات المدرسة » إلى أن هذه الامكانات أعظم بكثير مما يستفاد منها . وتعاود الاصرار على توفير السبل لوصول الطفل إلى الكلمة المكتوبة ، إذ أن هذا طريق الوعي .

وترفض المؤلفة مفهوم « السرعة » في القراءة ، وتؤكد على القراءة المتأملة ، وتنهى عن « بطاقات العرض الخاطف » ، إذ تتيح هذه الفرصة للتخمين ، وتنأى بالطفل عن الوعي . والمؤلفة لا تخشى وقوع الطفل في الخطأ إذا اهتم المعلم بتبصيره به ، وتلمح أن لهذا فائدة لا يستهان بها .

صياغة عقل المستقبل

وتقول في الفصل العاشر « الرغبة في التعلم » إن الأطفال يبدون امارات مشجعة ، تحث على السيطرة على البيئة . إلا أننا لا نشجع الكفاءة ، أي أننا نقودهم إلى الاتكالية ، فننكر عليهم فرصة اختبار قدراتهم المتميزة في المبادرة أو في أداء الأفعال المعقولة ، مما يعيق رغبتهم في التعلم . وتصر المؤلفة على عدم تأنيب الطفل ، بإطلاق صفات مهينة عليه ، فهذا من أسباب عزوفه عن التعلم . وتصر المؤلفة على ضرورة احترام شخصية الطفل ، فهو يعي جيدا هذا الأمر ، ويتحسسه . وتؤكد على التشجيع المعنوي ، وتنهى عن التشجيع المادي ، حتى تلك النجوم التي ترسم على كراسته ! وترى أن هذا يسبب إحراجا ذاتيا للأطفال الذين لا يحصلون عليها ، مما يدفعهم إلى عدم الايمان بقدراتهم ، فيتسبب ذلك في إخفاقهم . وتتساءل المؤلفة بمرارة عما إذا كان المعلمون يحترمون الأطفال حقا ، وعما إذا كان الأطفال يشعرون بذلك ، فترى أن هذا شرط يجعل المدرسة لا تبدو سجنا .

وتعرض المؤلفة مناقشة مثيرة في الفصل الختامي ـ وهو الفصل الحادي عشر « عقول الغد » ، فتطرح رؤاها التربوية حول صياغة عقل المستقبل ، وترى أن الأطفال ليسوا نباتا ينمو بطريقة طبيعية واحدة ، لكنهم كائنات تطيق التعلم ، للوعي بقدراتها العقلية ، فيجب أن يكون هناك متسع أرحب في المجتمع ، لغير أفراد النخبة الألمعية ، فسيادة هذه النخبة ، مع وجود فجوة كبيرة بينها وبين باقي أفراد المجتمع يؤدي إلى طغيان وكارثة اجتماعية . وتصر المؤلفة على ضرورة عدم ازدراء العمل اليدوي ، بل تدعو لرفع قيمته ، ليصبح جنبا إلى جنب مع المهارات الفكرية ، وبهذا يكون هناك مجتمع يتمتع باستقرار أفضل .

أما الملحق فإنها تعرض فيه ملخصا لأعمال بياجيه ، دون نقد لها . ويعتبر هذا الملحق ـ حقا ـ من أفضل ما يمكن تقديمه من خلاصات في هذا الاطار . □

● الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ، ولا يمل ، ولا يعاتبك إذا جفوته ، ولا يفشي سرك .

(ابن الطقطقي)

الهمداني

لسان اليمن

دراسات في ذكراه الألفية

بقلم : الدكتور حسين عبد الله العمري

في عام ١٩٨١ أشرفت لجنة الهَمْداني على انعقاد الندوة العلمية العالمية ، بمناسبة الذكرى الألفية للسان اليمن الحسن بن يعقوب الهمْداني ، شارك فيها كثيرون من المهتمين والمتخصصين والمستشرقين المرموقين . ومنذ عامين صدرت الأبحاث التي ألقيت في الندوة في كتاب بالعنوان المذكور ، وفيما يلي عرض لهذا الكتاب .

أخيراً أصدرت « جامعة صنعاء » للعلماء والباحثين المهتمين بفكر علاّمة العرب الكبير وتراثه في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) الحسن بن أحمد الهمداني ، كتاباً مهماً عكف على تحريره ومراجعة طباعة فصوله المختلفة باللغتين العربية والانجليزية الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله ، أمين عام لجنة « الهَمْداني » التي أعدت للندوة العلمية العالمية بمناسبة الذكرى الألفية « للسان اليمن » التي عقدت في جامعة صنعاء (٢١ ـ ٢٧ ذو الحجة ١٤٠١هـ / ١٩ ـ ٢٥ أكتوبر ١٩٨١م) ، وحضرها وشارك في محاوراتها عدد كبير من العلماء والمتخصصين العرب والمستشرقين المرموقين ، ولاقت نجاحاً كبيراً ، لتوافر جهود كل المتخصصين في جامعة صنعاء وأعضاء اللجنة التي أولتها الدولة أيضاً اهتماماً خاصاً ، فكان رئيسها الفخري نائب رئيس الجمهورية الأستاذ عبد العزيز عبد الغني ، ثم لتجمع ذلك العدد من الباحثين الذين كثيراً ما تاقوا

للقاء في ندوة أو مؤتمر خاص بعَلَم شامخ كالهمداني الذي لم يلق قبل تلك الندوة ما يستحقه من البحث والدراسة، لتعدد الجوانب والميادين التي أبدع فيها، وكان من أهم نتائج تلك الندوة وفوائدها صدور البحوث والدراسات في هذا الكتاب القيم عن جامعة صنعاء بعنوان «الهَمْداني لسان اليمن: دراسات في ذكراه الألفية» تحرير الدكتور يوسف محمد عبد الله، وقد طبعته «دار التنوير للطباعة والنشر» ببيروت: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

تماثل واختلاف:

الكتاب ـ بعد مقدمة مدير الجامعة الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح وكلمات افتتاح الندوة ـ جاء في قسمين:

الأول: «الدراسات باللغة العربية» وفيه تسع دراسات أو فصول، أملت على المحرر طريقته (وهي المثلى) في ترتيبها أبجدياً على أوائل حروف أصحابها في أن تكون «ترجمة الهَمْداني» هي آخر تلك الفصول، التي تناول كل منها جانباً محدوداً من لسان اليمن، ولعل الأوجه أن تكون الترجمة هي أول الفصول تعريفاً ومدخلاً للكتاب وبخاصة أنها كانت بقلم المحرر نفسه الذي التزم الطريقة أو المنهج متعماً لأي حرج أو سوء فهم لأنه هو المحرر، وقبل ذلك أو بعده لم تكن تلك الترجمة المقيدة في الواقع مجرد تعريف تقليدي بصاحبها، بل «صياغة جديدة» لحياة علامتنا الهمداني سنعرض لها فيما بعد.

أما (القسم الثاني) فقد خصص للدراسات التي أسهم بها باللغة الانجليزية ثلاثة عشر باحثاً، جلهم من كبار المستشرقين المتخصصين في الثقافة والحضارة اليمنية القديمة والإسلامية، أمثال «البروفسور» الفرد بيستن (اكسفورد)، وزميله «البروفسور» س. ب. سرجنت (كمبردج)، والبرت جام (واشنطن)، ووالتر موللر (ماربورج المانيا) وغيرهم، مع آخرين من الجيل التالي أمثال المستشرق السوفيتي ميخائيل بيتروفسكي (لينتغراد)، وزميلنا في جامعة كمبردج الدكتور روبرت ولسن، الذي نال درجة الدكتوراه بعد أن أمضى في اليمن بضع سنوات، متبعاً في دراسته المهمة لأسماء الأماكن في صفة الجزيرة للهَمْداني، وعن هذا الموضوع كان إسهامه في الكتاب.

لقد رجحت كفة فصول القسم الثاني على القسم الأول، وربما لو تمكن علاّمة الجزيرة الكبير الشيخ حمد الجاسر المختص بالهمداني وشيخ المؤرخين الدكتور جواد علي من الحضور والمساهمة، وكذلك لو كتب بالعربية «البروفسور» عباس الهمداني، (نجل المرحوم المؤرخ حسين فيض الله الهمداني) اسهامه القيم «الهمداني في بداية سلطة همدان على اليمن»، لكان القسمان متناصفة، بيد أن هذا الاستطراد لا علاقة له بفحوى تلك الدراسات وأهميتها، فالقسم الثاني مكمل لدراسات الأول، والعكس صحيح، ومن ذلك مثلاً ذلك المبحث الذي عقده الباحث العالم الدكتور محمد عبد القادر بافقيه عن «الهمداني والمثامنة» الذين «لا يصلح الملك لمن ملك حمير إلا بهم..» يكمله من جانب آخر أول دراسة القسم الثاني «للبروفسور» بيستن عن «الهمداني والتبابعة»، والأمر نفسه مع فارق في التحليل والتوسع المرجعي في تناول الدكتور رضوان السيد لموضوع مهم شائك، طالما جرّ على صاحبه المحن والخطوب ذلك هو «القحطانية واليمانية عند الهمداني»، ففي القسم الثاني مبحث للمستشرق بيتروفسكي بعنوان «الهمداني والأخبار القحطانية». وتضفي دراسة الدكتور يوسف فان إس (أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة توبنجن الألمانية) المعنونة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر السياسي للهادي» أهمية خاصة في هذا القسم، لكونها دراسة في الفكر السياسي في العصر الذي نشأ فيه الهَمْداني وعاصر ـ صغيراً ـ تأسيس الهادي يحيى بن الحسن (ت ٢٩٨هـ/ ٩١٠م) للمذهب الزيدي في اليمن، ثم محنته بالسجن أيام الناصر أحمد بن الهادي (ت ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م) لوضعه كتابه المشهور «القصيدة الدامغة» التي عارض بها قصيدة الكميت بن زيد الأسدي (ت

١٢٦هـ / ٧٤٣م) ، وردّ فيها على من كانوا يتعصبون على قبائل اليمن . ومثال أخير للتشابه والتكامل بين دراسات القسمين تلك الدراسات المتعلقة بأحد حقول الهمداني التي أبدع فيها ـ أعني (الجغرافيا) ـ ومن أحسنها بحث الدكتور عبد الله الشيبة عن « أهمية الهمداني للجغرافية التاريخية لليمن القديم » الذي استهله بقول المستشرق النمساوي شبرنجر (ت ١٨٩٣م) قبل أكثر من قرن وربع قرن من أن « صفة الجزيرة الى جانب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي يعتبران أهم عملين جغرافيين قدمها العرب » .

وقد عني بحث « البروفسور » (فرنر مادلنج) أستاذ الدراسات العربية بجامعة اكسفورد ـ في القسم الثاني ـ بما يمكن أن يكون توضيحاً لتلك العبارة التقريرية لشبرنجر في دراسته عن « معارف الهمداني الجغرافية في ضوء معارف القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادي عشر للميلاد) ، فكتابه « صفة جزيرة العرب » الذي نشره المستشرق الألماني مولر قبل قرن (ليدن ١٨٨٤ ـ ١٨٩١م) هو أهم مصدر تاريخي جغرافي عن اليمن والجزيرة في القرون الإسلامية الأولى ، كتب في ذروة ازدهار الأعمال الجغرافية العربية قبل « مسالك » ابن حوقل (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٧م) ، وأحسن التقاسيم للمقدسي الذي توفي ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) .

وهكذا نجد أن مختلف فصول القسمين يكمل بعضها بعضا ، غير أن قيام جامعة صنعاء بنشر بحوث القسم الثاني باللغة الانجليزية ، « دون ترجمة أو تلخيص نابع من الحرص على التوثيق ، ونقل الصورة كما كانت . والجامعة تنوي في الوقت القريب ترجمة هذه الأبحاث إلى اللغة العربية ، ونشرها في كتاب مستقل » كما ذكر الدكتور المقالح في تقديمه ، فلعلها تفعل ذلك قريباً وفي طبعة قادمة تحوي القسمين معاً ، فتيسر بذلك للباحثين والقراء العرب الاطلاع على أول دراسة شبه متكاملة عن لسان اليمن وأحد عباقرة العروبة والإسلام .

التعريف بالهمداني :

الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، أبو محمد ، لسان اليمن ، عالم ، مؤرخ ، جغرافي ، فيلسوف ، شاعر ، سياسي ، ولد بصنعاء (١٩ صفر ٢٨٠هـ / ٨٩٣م) وبها نشأ ، طاف البلاد والجزيرة العربية ، واستقر بمكة أكثر من ست سنوات حين كان في الخامسة والعشرين من عمره بغرض العلم والتحصيل ، ورغم تعرضه « لأذى حرِّ مكة وهجيرها إلاَّ أنها ـ فترة مكة ـ كانت من أخصب سني التحصيل لديه ، حيث تفتحت له آفاق المعرفة ، وانفتح له فيها باب نفيس من المنطق فازداد منه » ثم عاد إلى اليمن وبقي بصعدة ، قاعدة أئمة الزيدية والمحطة الهامة على طريق التجارة الممتد من أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام ، وكان لاستقرار أوضاع صعدة السياسي والاقتصادي ـ بعكس صنعاء التي كانت نهباً لأكثر من قوة سياسية آنذاك ـ أهمية خاصة جعلتها « تستقطب كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم ، وكذلك التجار من داخل اليمن وخارجه ، فقامت فيها حركة أدبية وفكرية ، وانتعشت فيها التجارة ، فكان أن أفاد الهمداني من فنون العلم التي كانت تزخر بها ، كما أسهم فيها بنصيب وافر ، لا سيما في علوم الأخبار والأنساب والشعر . . » وهكذا مال الهمداني إلى الاستقرار بصعدة « وعمر فيها داراً وامتلك عقاراً واستطاب المقام بها » ، كما ينقل لنا المحرر عن الهمداني . بيد أن شخصية كالهمداني ما كان يمكنه أن يعيش خاملاً أو في سلام ، فقد قضى شبابه منذ استقر بصعدة ثم كهولته ، ليس في محراب الفكر والتأليف فحسب ، بل كان له مع رجال عصره من حكام وأمراء ، وعلماء وشعراء شأن وأخبار وصراع كثير ، بلغ ذروته بمحنته الكبرى بقيده وسجنه في قصر صنعاء على يد أميرها أسعد بن أبي يعفر الحوالي بأمر إمام صعدة الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسن ، واستمر سجنه ومعاناته واحداً وعشرين شهراً و ١٩يوماً (بين ٢٤ شوال سنة

٣١٩ و ٢٧ شعبان ٣٢١هـ) ، لكنه « لم يبلغ مأمنه بعد إفلاته من حفظته في الطريق ، ثم اختياله إلا في حوالي ١٧ ذي القعدة من عام ٣٢١هـ » . ويرجح بحق الدكتور يوسف محمد عبد الله بأن مأمنه كان مدينة « ريدة » من بلاد قاع البون ، على بعد ١٠٠كم شمال صنعاء ، وفيها قضى الهمداني شيخوخته وبقية عمره (ص ١٩٦) ، عاكفاً على مؤلفاته وكتبه التي لم يصل إلينا إلا بعضها ، ومن الغريب أن يكون تاريخ وفاته غير معلوم على وجه اليقين ، بيد أن التاريخ الشائع الذي ذكره ابن صاعدة الأندلسي (ت ٤٦٤هـ / ١٠٧١م) ، في كتابه « طبقات الأمم » وهو عام ٣٣٤هـ لم يعد صحيحاً ، وقد سبق للمؤرخ المحقق القاضي محمد الأكوع أن نبه إلى ذلك ، وهو ما ناقشه العلامة حمد الجاسر في مقدمته النفيسة لطبعة الأكوع « صفة جزيرة العرب » ١٩٧٤م ، وعاد إلى بحثه الدكتور يوسف عبد الله في آخر ترجمة للهمداني حيث رأى بعد عرضه لكل ما سبق من افتراضات وتخمينات « بأنه عاش إلى ما بعد ٣٣٤ وربما بعد ٣٣٦ بسنوات أيضاً ، لكن ليس هناك دليل قاطع بذلك » (الكتاب ص : ١٩٨) . ولقد أفادنا الدكتور يوسف كثيراً بترجمته الجديدة التي أعاد فيها صياغة المعلومات المبثورة عن حياة العلامة الكبير ، مستفيداً بشكل خاص من المقالة العاشرة من كتاب « سرائر الحكمة » للهمداني المفقود التي نشرها العلامة الأكوع قبل نحو عشر سنوات ، والتي أماطت اللثام عن معلومات وأخبار ذكرها الهمداني عن نفسه ، بعضها في معرض وضعه تطبيقات لعلاقات البروج والقرانات الفلكية التي يتناولها في تلك الرسالة القيمة الهامة ، كتحديده تاريخ مولده (الذي لم يكن معروفاً) ، وذلك « . . يوم الأربعاء ١٩ من صفر سنة ٢٨٠ لعشر ساعات مستوية من النهار . . يكون الطالع من الميزان أحد عشر جزءاً ونصفاً بالتقريب . . ثم يضيف في نص الرسالة ـ تحقيق ما ظهر من دلائل الطالع ، وهو أن المولود يصاب بنكبتين عظيمتين من الأعداء ، ثم يؤرخ لإحداهما يوم الثلاثاء ، يوم أحد عشر من رجب من سنة ٣١٥ ، ولثانيتهما يوم الاثنين من شهر شوال سنة ٣١٩ » (ص ١٨٧) ويذكر لنا الدكتور يوسف عبد الله بهذا الصدد أن الدكتور أوسكار لوفجرن أستاذ الدراسات السامية بجامعة اوبسالا السويدية قد نقل عن القاضي الأكوع التنويه بتاريخ ميلاد الهمداني ، لكن لم يتسن له الإفادة من المقالة المذكورة عندما كتب مادة « الهمداني » في دائرة المعارف الاسلامية (الانجليزية) . والدكتور لوفجرن قد ساهم في الواقع بدراسة في القسم الثاني من الكتاب بعنوان « اكتشافات لتراث الهمداني » .

الخسارة الفادحة :

إن الخسارة الفادحة في ضياع كثير من أعمال الهمداني لا يعادلها أي خسارة أخرى إلا ضياع أو فقد أعمال ومؤلفات لعظماء آخرين أمثاله من أعلام أمتنا الذين أسهموا ببناء ذلك النسيج الحضاري العربي الإسلامي المبدع الذي كان جسراً وضوءاً هادياً للإنسانية في طريقها إلى عصر النهضة عبر ظلمات الغرب فيما يسمى بالقرون الوسطى . ولقد كان ـ وما زال الأمل قائماً عند الباحثين والعلماء ـ (في العثور على بعض مؤلفات الهمداني المفقودة أو أجزاء منها ، وذلك على الرغم من أن مؤرخاً مثل القفطي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) قد أشار في « إنباه الرواة : ١/ ٢٨٣) وقبل قرابة ثمانية قرون إلى أنه من المتعذر وجود نسخة كاملة لأهم مؤلفات « لسان اليمن » ، كتاب « الإكليل » الذي يحتمل أن بعض أجزائه الستة المفقودة قد أحرقت من قبل بعض القبائل للمثالب والخلافات القبلية التي أشرنا إلى بعضها ، ومع ذلك فبعد العثور عليها ونشر الأجزاء الأربعة المعروفة (١ و ٢ و ٨ و١٠) ما زال أمل الباحثين والمهتمين في العثور على أي جزء من الأجزاء الأخرى قائماً ، شأنها شأن بقية أعماله المفقودة .

لقد كان الهمداني أبرز رجال عصره في اليمن ، وأحد عظماء العرب في ذروة الحضارة العربية الإسلامية ، وقد نقل لنا المحقق القاضي محمد الأكوع في موضوعه عن « أوليات الهمداني التي انفرد

بها ، ما ترجمه المؤرخ اليمني الكبير محمد بن الحسن الكلاعي الحميري (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م) الذي كان من الجيل التالي بعد الهمداني ، وله كتب لا يعلم بعد وجودها ، ما نصه :

« كان الحسن بن أحمد الهمداني الأوحد في عصره ، الفاضل على من سبقه ، المبرز على من لحقه ، الذي لم يولد باليمن مثله علماً وفهماً ولساناً ، ورواية وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة ، والغريب والشعر ، والأيام والأنساب ، والسير والأخبار ، والمناقب والمثالب ، مع علوم العجم ، والهندسة ، والاستنباطات الفلسفية ، والأحكام الفلكية » (ص : ١١١) .

وحتى تكتمل صورة الهمداني في هذه العجالة نختمها بشهادة مستشرق عظيم عميق المعرفة ، متعدد المواهب ، هو العلامة الروسي « كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) » الذي رسم لنا شخصية الهمداني « من وجهة نظر استشراقية محايدة » كما وصفها الدكتور المقالح في مقدمته المركزة ، فقد جاء في كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب) لكراتشكوفسكي عن الهمداني :

« وفي مصنفاته ترتسم أمام ناظرينا شخصية فذة لوطني متحمس ، بل خبير كبير بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ، وبخاصة آثارها القديمة » ، وهو أمر نادر بين العرب ، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة العربية (الحميرية) القديمة في جنوب الجزيرة ، ويقف مصنف الإكليل الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه ، فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار ، بل حتى لأدب الحميريين سكان الجزيرة في القدم . ولم يكتف في كتابه بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام ، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد ، وذلك على ضوء دراسته للنقوش التاريخية » .

ذلك هو لسان اليمن ، في ذكراه الألفية التي يكون صحيحها بعد مرور ١١٢٥ عاماً من مولده أو ١٠٧١ عاماً ـ تقريباً ـ من تاريخ وفاته غير المؤكد . □

أوهم محمد

● يقول الكاتب الامريكي مايكل هارت في كتابه الشهير « الخالدون مائة » :

لقد اخترت محمداً ﷺ في أول هذه القائمة ، ولا بد أن يندهش الكثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك . ولكن محمدا هو الانسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي . فمحمد دعا إلى الاسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا . وبعد ١٣ قرنا من وفاته فإن أثر محمد مايزال قويا متجددا . وأكثر هؤلاء الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا في مراكز حضارية ، ومن شعوب متحضرة سياسيا وفكريا إلا محمدا فهو ولد سنة ٥٧٠م في مدينة مكة ، في منطقة متخلفة من العالم القديم ، بعيدا عن مراكز التجارة والحضارة والثقافة والفن . لقد آمنت بأن محمداً هو أعظم الشخصيات أثرا في تاريخ الانسانية كلها .

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : المرتجى والمؤجل ـ رواية .
المؤلف : غائب طعمه فرمان
الناشر : دار بابل ـ دار الفارابي ـ بيروت .
عدد الصفحات : ١٣٩ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

غائب ، صاحب النخلة والجيران ، وخمسة أصوات ، وغيرها من الروايات التي ترصد حركة المجتمع العراقي وترسم شخوصه النابضة بالحياة ، يعود في هذه الرواية الأخيرة مختلفا .

فبعكس الروايات السابقة التي كان يجمع بينها ذلك الوصف الدقيق لشوارع بغداد وأزقتها واحيائها الشعبية ، وذلك الرسم للشخصيات التي تنتمي الى الفئات والطبقات الشعبية والمثقفة ، تتحدث « المرتجى والمؤجل » عن نماذج من العراقيين الذين عاشوا مغتربين عن وطنهم لسبب أو لآخر لفترة طويلة ، ثم يستيقظون على الزمن الذي يضيع من بين أيديهم ، وتنقضي فصول من حياتهم دون أن يدروا .

وبعكس روايات غائب الأخرى أيضا ، فإن الشخصية وليس المكان أو الحدث هو العنصر الأبرز في هذه الرواية الجميلة .

■■

الكتاب : شخصيات وأدوار في الثقافة العربية الحديثة .
المؤلف : محمد دكروب
الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت .
عدد الصفحات : ٢٧٦ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٧

ليس هذا الكتاب تجميعا لمقالات متفرقة كتبت في أزمان مختلفة عن « شخصيات مختارة » من الفنانين والأدباء والمفكرين كما قد يتبادر الى الذهن فور رؤية غلاف الكتاب ، بل هو عمل فني جديد وجيد ، رغم احتوائه بالفعل على مقالات كان المؤلف نشرها في الصحف والمجلات اللبنانية سابقا .

فالاسماء التي ذكرت على غلاف الكتاب الامامي والتي تضم صلاح جاهين وتوفيق يوسف عواد وحسين مروة وغسان كنفاني وبول غيراغوسيان وحنا مينه ورئيف خوري وعاصي الرحباني وآخرين ، تظهر في هذا الكتاب بصورة ابداعية جديدة يتعاون فيها فن المقالة الأدبية وفن القصة وفن المقالة الصحفية بهدف رسم صورة قلمية لشخصية ما ، لينتج هذا المزيج الفني المتكامل في كتاب يحمل من الجمال بقدر ما يحمل من الفائدة .

■■

الكتاب : أزمة التحليل النفسي
المؤلف : أريك فروم
ترجمة : محمود منقذ الهاشمي
الناشر : وزارة الثقافة السورية ـ دمشق
عدد الصفحات : ٢٤٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

في هذا الكتاب الذي حمل عنوانا فرعيا هو « دراسات حول فرويد وماركس وعلم النفس الاجتماعي » جمع عالم النفس الشهير . أبرز العلماء الفرويديين الجدد ضمن بعض مقالاته التي كتبها في بداية حياته العلمية ، في الثلاثينيات ، بالاضافة الى كتابات أخرى كتبها بعد ذلك بكثير ، فكان هذا الكتاب المهم والمثير في آن واحد .

وقد أخذ الكتاب عنوانه من أول دراسة في الكتاب

وقد حملت نفس العنوان ، وفيها يتناول الأزمة التي وجد علم النفس فيها لأسباب عديدة منها بروز الطب النفسي كمنافس أساسي لعلم النفس الذي يصفه فروم بأنه رسالة . ثم يتعرض للمحاولات العديدة التي قام بها بعض العلماء الفرويديين لتجديده . كما يتعرض لذلك التيار في علم النفس الذي حاول أن يستفيد من الفرويدية والماركسية في الوقت نفسه ، علما بأنه أي فروم واحد من أبرز هؤلاء .

■■

الكتاب : بحوث سوفيتية جديدة في الأدب العربي .
المؤلف : مجموعة من المستعربين السوفييت
ترجمة : محمد الطيار
الناشر : دار رادوغا ـ موسكو
عدد الصفحات : ٢١٣ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

يقول كاتبا مقدمة الكتاب ، اللذان جمعا مادته ، ان هذه البحوث « الجديدة » ، بالاضافة الى البحوث « القديمة » ، التي قام بها المستشرقون السوفييت لدراسة الأدب العربي تشكل جزءا من عمل ضخم يقوم به باحثون سوفييت من تسعة مجلدات تحت عنوان « تاريخ الأدب العالمي » .

ويتضمن الكتاب دراسات حول مختلف عصور الأدب العربي القديمة والحديثة ، كما تتضمن المقالات الكثير من الآراء الجريئة والجديدة الخاصة بهذا الأدب ، وخاصة الأدب العربي في القرون الوسطى والسير ، والملاحم الشعبية العربية ، التي تقع في نقطة متوسطة بين الملحمة والرواية . يقول احدى المقالات . وبالاضافة الى ذلك كله ، هناك دراسات في الرواية الفلسطينية والمسرح المصري ، وغير ذلك من مقالات جيدة وممتعة من وجهة نظر جديدة علينا .

■■

الكتاب : بابا نويل لايهدي وطنا ـ مجموعة قصصية .
المؤلف : توفيق المبيض
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب
عدد الصفحات : ٢٢٢ من القطع الوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

أطلق المؤلف على مجموعته هذه التي صدرت ضمن سلسلة قصص عربية اسم « حكايات معاصرة من فلسطين » ، ولأن فلسطين واحدة ، والفلسطينيين موزعون في أنحاء العالم المختلفة ، فقد كان مسرح هذه القصص فلسطين والمنافي الفلسطينية .

ومع أن المؤلف قسم عمله هذا الى ثلاثة أجزاء الا أن قصص المجموعة من وجهة نظر اخرى تتوحد لترسم صورة كاملة للحياة الفلسطينية في حالاتها المختلفة ، من فلسطيني المنفى البعيد في لندن حتى الفلسطينيين المنفيين في أرضهم بغزة ، ومن الفلسطيني المثقف الى الفلسطيني البسيط ، ومن الفلسطيني المكافح من أجل عيشه الى الفدائي المكافح من أجل بلده .

■■

الكتاب : رسالة في الطريق الى ثقافتنا .
المؤلف : محمود محمد شاكر
الناشر : دار الهلال ـ القاهرة
عدد الصفحات : ٢٥٧ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٧

ظهرت هذه « الرسالة » الى ثقافتنا التي كتبها العلامة محمود شاكر لأول مرة مقدمة لكتابه الشهير عن المتنبي الذي نشر في الثلاثينات فأصبحت جزءا منه تعاد طباعتها مع طباعة الكتاب .

وقد رأت دار الهلال أن تصدر هذه « الرسالة » في كتاب مستقل فكان هذا الكتاب الذي يمس قضايا تراثية ومعاصرة عديدة ، تمتد من زمن الشعر الجاهلي الى النصف الأول من هذا القرن ، وتغطي حقولا عديدة كالنحو واللغة والتذوق والاستشراق التي تشكل أساس ثقافتنا العربية المعاصرة . □

العربي ـ العدد ٣٥٢ ـ مارس ١٩٨٨ م

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٥٢
مارس ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت ، مسابقة العربي العدد ٣٥٢ ، ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ أبريل ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٥٢

١ ـ مقر القطب الاسلامي في الكويت ، آية من آيات فن العمارة الاسلامية الحديثة ، وقد افتتحه سمو الأمير في مطلع السنة الماضية (١٩٨٧) ترى كم بلغت تكاليف هذا المقر الرائع ؟

* حوالي مليون دينار
* حوالي ٣ ملايين دينار
* اكثر من ٦ ملايين دينار .

٢ ـ أضخم مكتبة عامة في العالم تشغل مساحة تزيد على ٦٤ فدانا ، وتحتوي على رفوف يبلغ طولها فيما لو مدت كالقضيب ، ٨٥٦ كيلومترا .. ترى أين توجد هذه المكتبة الكبرى ؟

* في واشنطن
* في لندن
* في جلاسكو

٣ ـ أي قصور السكن التالية هو أضخم قصر للسكن في العالم .

* قصر سكن البابا في الفاتيكان
* قصر سكن سلطان بروناي
* قصر بكنجهام

٤ ـ ما هو أضخم مبنى حكومي في العالم ، والمقصود هنا المباني التي تشغلها الوزارات أو الدوائر الحكومية ، وذلك بقصد تصريف أعمالها الادارية ؟

* مبنى اسكوتلند يارد في لندن .
* مبنى ك . ج . ب بموسكو .
* مبنى البنتاجون في ولاية فرجينيا .

٥ ـ المقر الجديد لمجلس الأمة في الكويت مبنى ضخم ، ومتميز في

هندسته . وقد صمم مدخله على هيئة خيمة . أما المهندس الذي وضع تصميم هذا المبنى الرائع فمهندس دانمركي اشتهر اكثر ما اشتهر بوضعه تصاميم دار من دور الاوبرا تعتبر في طليعة دور الاوبرا العالمية روعة وجمالا فأي دار هذه ؟

* دار الاوبرا في كوبنهاجن
* دار الاوبرا في باريس
* دار الاوبرا في سيدني باستراليا .

٦ ـ أي المباني التالية هي ناطحة السحاب الأولى في العالم ؟

* مركز التجارة العالمية بنيويورك .
* برج سيرز في شيكاغو .
* الامبيرستيت في نيويورك .

٧ ـ يتقاضى أغلى فندق في العالم ٣٠٠٠ دولار عن كل ليلة يقضيها المرء في أحد أجنحته . ترى أين يوجد هذا الفندق ؟

* اسبانيا
* الولايات المتحدة
* اليابان

٨ ـ أكثر الفنادق في العالم فنادق تجارية اقيمت بقصد الاستثمار وجني الأرباح .. ترى أي هذه الفنادق التجارية هو الأضخم ؟

* فندق هيلتون لاس فيجاس في امريكا .
* فندق روسيا في موسكو .
* فندق والدورف استوريا في امريكا .

٩ ـ تعتبر (ديزني لاند) المدينة الترفيهية الاولى في العالم من حيث عدد الذين زاروها منذ افتتاحها في سنة ١٩٥٥ . وقد بلغ مجموعهم في غضون الثلاثين سنة التي انقضت على افتتاحها :

* ٢٥٠ مليون نسمة
* ١٠٠ مليون نسمة
* ٣٠ مليون نسمة

١٠ ـ أي الأبراج التالية هو أعلى برج في العالم ؟

* برج ايفل في باريس
* برج الاذاعة المستقلة في بريطانيا
* برج تورنتو في كندا .

١١ ـ المصاعد السريعة جزء لا يتجزأ من المباني العالية .. ولولا مصاعد الركاب لما قامت لناطحات السحاب قائمة . ترى أين يوجد أسرع مصعد للركاب في العالم . علما أن سرعته تبلغ بالضبط (٦٠٩,٩) مترا في الدقيقة الواحدة :

* امريكا
* اليابان
* الاتحاد السوفيتي

١٢ ـ شهدت احدى العواصم العربية مؤخرا ظهور مكتبة عامة تتميز بفخامة مبناها وروعة هندستها .. فأية عاصمة هذه ؟

* دمشق
* بيروت
* الخرطوم

حل مسابقة العدد ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧

١
انه مبنى الجامع الكبير في اسلام أباد ، ويعتبر هذا المسجد تحفة معمارية لا يضاهيها في الجمال والروعة مبنى آخر ، ويتسع صحن المسجد لنحو (١٥٠٠) مصل ، كما يتسع الفناء المحيط به لنحو ٣٠٠ ألف مصل .
(راجع صفحة ٧٠ من عدد يونيو ١٩٨٧)

٢
عين العذاري أشهر المعالم السياحية في البحرين ، وهي عبارة عن ينبوع من الماء العذب يتدفق ليكون البحيرة الرائعة التي تحيط بها الحدائق الغناء .
(راجع صفحة ٨٩/٨٨ من عدد أكتوبر ١٩٨٧)

٣
التشاشان انغوشيتان من أنغوش القفقاس ، فمنطقة جبال القفقاس في الاتحاد السوفياتي تسكنها شعوب كثيرة ، نذكر منها شعب الشاشان وشعب الداغستان ، وشعب البلكار ، وشعب الكباردين ، والاوسيت ، والشركس ، والشعب الانغوشي وكلها شعوب قفقاسية .
(راجع صفحة ١٣٤ من عدد مايو ١٩٨٧)

٤
أسلوب الري بالأفلاج وهو الأسلوب المعتمد في سلطنة عمان منذ أقدم الأزمان . وتجدر الاشارة الى أن عدد مافي عمان من أفلاج يبلغ (٤٠٠) فلج ، يتفاوت طولها ، ويتراوح بين ١٠٠ متر و ١٢ كيلومترا أو يزيد .
(راجع صفحة ١٤٧ من عدد سبتمبر ١٩٨٧)

٥
إنه سوبرنوفا ١٩٨٧م ، وقد شاهده الفلكيون في شهر فبراير ١٩٨٧ ، وهذا السوبرنوفا يمثل الانفجار الذي رافق احتضار نجم وقع قبل ١٧٠,٠٠٠ سنة في مجرة سحابة مجلان الكبرى ، أي أن الفلكيين شاهدوا في فبراير الماضي ما قد حدث قبل ١٧٠,٠٠٠ سنة .
(راجع صفحة ١٥٥/١٥٤ من عدد أغسطس ١٩٨٧)

٦
انه جسر المحبة ، جسر السعودية ـ البحرين ، يبلغ طوله ٢٥ كيلو مترا ويتفاوت عرضه بين عرض الجسور الخمسة التي يتكون منها من ٥ أمتار ـ ٩ أمتار ، أما تكاليفه فقد بلغت (١٠٠٠) مليون دولار .
(راجع صفحة ١٣٦ من عدد ديسمبر ١٩٨٧)

٧
تمثال الحرية مصنوع من صفائح نحاسية من الخارج ، وهيكل فولاذ من الداخل وذلك وفقا للتصاميم التي وضعها جوستان ايفل ، المهندس الفرنسي المسؤول عن انشاء برج ايفل الشهير في باريس ، أما القاعدة التي يقوم عليها التمثال فمصنوعة من الجرانيت والأسمنت المسلح . ويبلغ طول التمثال وحده ٤٦ مترا ، ويبلغ طوله الاجمالي (بما في ذلك القاعدة) ٩٣ مترا . ومن طريف ما يذكر أن تمثال الحرية في مدخل

٨ نيويورك له شقيق توأم مازال قائما على ضفاف نهر السين في باريس ، ويبلغ طول هذا الشقيق الأصل ٢,٧ مترا ، وقد نحته النحات برتهولد ، وفيما عدا ذلك فالتمثالان نظيران .

المواد التالية تزيد افراز اللعاب :

السكروز وحماليل حمض الليمون وحمض الخل والقلويات اللاذعة . ويزداد افراز اللعاب أيضا في حالة التسمم بالرصاص ، وبالتدخين ، وبعض المخدرات كالكلوروفورم . أما المواد التي تنقص افراز اللعاب فهي :

الليغنوكائين والكوكائين وذلك تبعا لتخديرها الموضعي .

(راجع صفحة ٣٨ عدد سبتمبر ١٩٨٧)

٩ ان للدلفين عدداً من (المعدات) شأنه في ذلك شأن البقر والماعز ، وقد دلت الدراسات المكثفة أن الدلفين يركز الملح في الكلى تماما كما يفعل الجمل .

(راجع صفحة ١٠٨ عدد سبتمبر ١٩٨٧)

١٠ فتح المسلمون البحرين في شهر محرم من العام السابع الهجري ، أما القائد الفاتح فهو العلاء بن الحضرمي .

(راجع صفحة ٧٠ من عدد أكتوبر ١٩٨٧)

١١ بلغت تكاليف مقر الطب الاسلامي ٦,٥ ملايين دينار كويتي ، أما الذين تبرعوا به فهم : حرم المرحوم يوسف المرزوق وأبناؤه .

(راجع صفحة ١٣٠ عدد سبتمبر ١٩٨٧)

١٢ منطقة كاهوتا هي التي يقع فيها مفاعل الباكستان النووي .

(راجع صفحة ٨٧ من عدد يونيو ١٩٨٧)

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧

الجائزة الأولى : مسرور أحمد بن محب الرحمن الأعظمي / يولى / الأعظمي ـ الهند

الجائزة الثانية : محمد يحيى الدباغ / سوريا / حلب .

الجائزة الثالثة : أشرف مصطفى إبراهيم عوض / مصر / شبين الكوم .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ نبيهة محمد ناجي / اليمن الديمقراطي .
٢ ـ فيصل عبد الغني عبد الوهاب / بغداد العراق .
٣ ـ خالد أحمد الأغا / دبي / الامارات العربية المتحدة .
٤ ـ سهيل موسى يوسف السكر / الرياض / المملكة العربية السعودية .
٥ ـ عالية عبد الجواد عبد أحمد القدورة / الكويت / الصليبية .
٦ ـ موسى عبد المجيد محمد عبابنة / إربد / الأردن .
٧ ـ المنجي السوغلاني / الجمهورية التونسية .
٨ ـ جلال صلاح / دراوية / الجزائر .

معركة بلا سلاح

أخيرا انتهت واحدة من أكثر مباريات البطولة تشويقا وإثارة في تاريخ اللعبة، باحتفاظ بطل العالم جاري كاسباروف (٢٤ سنة) بلقبه، وبقائه بطلا للعالم حتى عام ١٩٩٠، وبالتعادل (١٢ ـ ١٢) مع متحديه على البطولة، مواطنه السوفييتي أناتولي كاربوف (٣٤ سنة). وقد استمرت هذه المباراة المثيرة التي كانت شغل محبي اللعبة الشاغل طوال الأسابيع العشرة التي استمر فيها اللعب في مدينة اشبيلية الاسبانية حتى الثلث الأخير من شهر ديسمبر الماضي. قال كاسباروف ردًا على تهنئة رئيس الاتحاد الدولي للشطرنج الفلبيني فلورنشيو كامبومينز له بالفوز: «لقد ارتكبنا ـ كاربوف وأنا ـ أخطاء عديدة أثناء المباراة، خصوصا في الجولتين الأخيرتين».

والحق ان المباراة وبخاصة في الجولتين الأخيرتين كانت مشحونة بالقلق والتوتر، فقد كان عرش الشطرنج يهتز بشدة تحت أقدام كاسباروف، بعد الفوز الدرامي الذي حققه متحديه في الجولة الثالثة والعشرين، حيث أصبح متقدما عليه بنتيجة (١٢ ـ ١١)، ولم يعد يحتاج الا إلى التعادل في الجولة الأخيرة لاستعادة عرشه السليب، في حين كان يتوجب على كاسباروف الفوز بالدور ليحقق التعادل ويحتفظ باللقب، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا، لكنه مع ذلك تحقق، وتمكن كاسباروف من الاحتفاظ باللقب، مخيبا جميع توقعات المحللين الذين كانوا يعتقدون أن لا أمل لكاسباروف مطلقا بالاحتفاظ باللقب. وقد اعترف كاسباروف نفسه بذلك بقوله عشية فوزه: «لقد كان لكاربوف إمكانات في العرض أفضل من إمكاناتي، لكنه أضاعها، وقدم لي البطولة على طبق من ذهب».

أما كاربوف فقد قال وهو يتحسّر على الفرصة الذهبية التي تركها تفرّ من بين يديه: «لقد كان اللقب بين يديّ، لكنني أضعته في اللحظة الأخيرة!».

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المباراة كانت نسخة مكررة من مباراة عام ١٩٨٥، عندما فاز كاسباروف بالجولة الثالثة والعشرين، وأعقبها تعادل لكاربوف حينئذ. ومهما يكن من أمر فإن الجائزة (٢,٧ مليونا دولار وسبعمائة ألف) التي سيتقاسمها مع كاسباروف مناصفة ستكون له خير عزاء.

وسنقتطف لكم الجزء الحاسم من الجولة الأخيرة. (انظر الشكل أعلاه) بعد النقلة (٣٠):

□ كاسباروف	■ كاربوف
٣١. ح ـ هـ ٥	ح × أ ٤
٣٢. ر × جـ ٨ +	ح × جـ د

٣٣	و ـ د ١!؟ (بديعة)	ح ـ هـ ٧
٣٤	و ـ د ٨ +	م ـ حـ ٧
٣٥	ح × و ٧ (معوضا البيدق)	ح ـ ز ٦
٣٦	و ـ هـ ٨	و ـ هـ ٧
٣٧	و × أ ٤	و × و ٧
٣٨	ف ـ هـ ٤	م ـ ز ٨
٣٩	و ـ ب ٥	ح ـ و ٨
٤٠	و × ب ٦ (مجانا)	و ـ و ٦
٤١	و ـ ب ٥	و ـ هـ ٧
٤٢	م ـ ز ٢	ز ٦
٤٣	و ـ أ ٥	و ـ ز ٧
٤٤	و ـ جـ ٥	و ـ و ٧
٤٥	حـ ٤	حـ ٥ (لايقافه)
٤٦	و ـ جـ ٦	و ـ هـ ٧
٤٧	ف ـ د ٣	و ـ و ٧
٤٨	و ـ د ٦	م ـ ز ٧
٤٩	هـ ٤	م ـ ز ٨
٥٠	ف ـ جـ ٤	م ـ ز ٧
٥١	و ـ هـ ٥ +	م ـ ز ٨
٥٢	و ـ د ٦	م ـ ز ٧
٥٣	ف ـ ب ٥	م ـ ز ٨
٥٤	ف ـ جـ ٦	و ـ أ ٧
٥٥	و ـ ب ٤	و ـ جـ ٧
٥٦	و ـ ب ٧	و ـ د ٨
٥٧	هـ ٥	و ـ أ ٥ (معادلة يائسة)
٥٨	ف ـ هـ ٨ !	و ـ جـ ٥ (مضطرا)
٥٩	و ـ و ٧ +	م ـ حـ ٨
٦٠	ف ـ أ ٤	و ـ د ٥ + (غير مجدية)
٦١	م ـ حـ ٢	و ـ جـ ٥
٦٢	ف ـ ب ٣ (مناورة بديعة)	و ـ جـ ٨
٦٣	ف ـ د ١	و ـ جـ ٥
٦٤	م ـ ز ٢	يستسلم

حل مسألة عدد يناير (٣٥٠)

١	ر ـ هـ ٨ +	م ـ أ ٧
٢	ر ـ أ ٨ +	م × أ ٨
٣	و ـ جـ ٨ +	م ـ أ ٧
٤	و × ب ٧ (مات)	

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . فيانة العبد ـ عمان / الأردن
٢ . رمضان جابر عباس ـ الاسكندرية / ج . م . ع
٣ . خليل الدويلة بافطوم ـ المهرة / اليمن الديمقراطية
٤ . مريم الطرخيم ـ دمشق / سوريا
٥ . لميس وليد ـ كاليفورنيا / أمريكا

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . هاتف الحجيلي ـ الأنبار / العراق
٢ . أحمد السيد ـ السويس / ج . م . ع
٣ . نادر أبو عيطة ـ الشعبية / الكويت
٤ . نور عثمان ـ شتوت غارت / ألمانيا الغربية
٥ . مدثر محمد ـ السجانة / السودان

مسألة العدد ٣٥٢ مارس ١٩٨٨

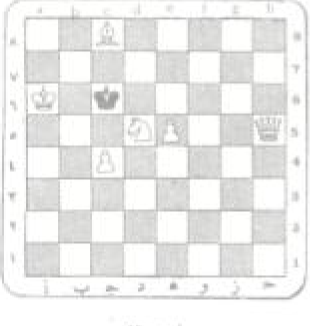

مات ٣
مهداة من القارىء
عبدالغفور البكار (المغرب)

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

استطلاع الموصل :

● السيد رئيس التحرير

إن مجلتنا الرائدة « العربي » هي في الواقع سفير في المهجر الثاني ، ودليل في الغربة ، نستنشق منها عبير اللغة والأهل والوطن .

وقد كان استطلاعكم عن الموصل رائعا روعة الموصل . « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » . وفقكم الله للمزيد

الدكتور/ أحمد الجوادي

دبلن - جمهورية ايرلندا

■■■

تعريب العلوم :

● مما يسر الخاطر وتطيب له النفس أن تتبنى مجلة « العربي » « دعوة التعريب » ، وتخصص لها جزءا من صفحاتها الغالية ، معبرة عن آمال قديمة جديدة ، مازالت حبيسة في صدور كثيرين من العرب ، وكثيرا ما يعبر عن هذه الآمال على صفحات الكتب والجرائد ، لكن سرعان ما تنسى ، ويعود الوضع على ما كان عليه .

إن المناداة بتعريب العلوم جميعا دون استثناء حق طبيعي من حقوق هذه الأمة ، ولا نظن أن عربيا واحدا يختلف معنا حول هذا الموضوع . مجمل الخلاف ، كما كنا نسمعه ، من أكثر المخلصين يدور حول التوقيت والوسائل .

وطرح « العربي » لهذا الموضوع يساهم بإذن الله كما تتمنى ، بالتعجيل في الوقت ، والتسهيل بالوسائل .

ونحن هنا في هذه « العجالة » لا نريد أن نمس أهمية التعريب للأمة العربية ، ولا الخسائر التي تنالها من التدريس بغير لغتها ، لأن غيرنا قد كفانا هذا ، لكننا ونحن مجموعة من الأطباء والمهندسين الكويتيين ، المبعوثين للدراسات العليا بالمملكة المتحدة الذين لا تمثل اللغة بالنسبة لهم مشكلة كبيرة ، وبحكم هذا الواقع نتصارح بما واجهناه في بداية حياتنا الطبية والهندسية من صعوبات وعوائق ، كانت اللغة الأجنبية تمثل قاعدة لها . ولو أن هذه الصعوبات مرت مرور الكرام لهان الأمر ، لكنها أبعدت بعض زملائنا ، وأدت إلى تأخير بعض آخر منهم ، كما أننا في يومنا هذا على الرغم من هذه السنوات العديدة مايزال زميلنا البريطاني يتفوق علينا ، بشكل واضح في كل ما يتصل بأمور اللغة التي لها أحيانا قصب السبق في التفوق العلمي .

ولو أردنا أن نسرد الأمثلة التي نعلمها عما تفعله اللغة بالأطباء وغيرهم من العرب ، وكيف أدت إلى تعطيل دراستهم لما وسعنا المجال ، لكننا أردنا أن نعلن عن

على هذه الصفحات .. ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

استعدادنا للمشاركة التي نرجو أن تجد لها قبولا على بساطتها ، وجميعنا كدارسين للدراسات العليا على استعداد للمساهمة في أي حقل وبذل أي مجهود يطلب منا ، حتى تسر آذاننا بسماع لغتنا الجميلة وهي تصدع بين ردهات العلم ، فتكون حقيقة لدفع أمتنا العربية إلى الأمام .

م . ابراهيم الرهيف/ د . بدر بورسلي/ د . حمود الصباح/ د . خالد الصالح/ د . زيدان المزيدي

م ـ سعد المزيرعي/ د . شهاب الشهاب/ م . عبدالناصر العثمان/ م . محمد الحسيني

■■■

العربي

● تقوم جهات عديدة في دولة الكويت بتبني فكرة نشر ما يتم تعريبه من علوم المعرفة في لغات شتى ، ومجلة « العربي » هي إحدى تلك الجهات التي تبنت فكرة التعريب ونشر المعرب مبكرا ، كما أن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب يصدر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مجلة « الثقافة العالمية » ، وتصدر مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ترجمة للمجلة الأمريكية للعلوم ، وهناك جهات أخرى تقوم بنفس الجهد في فرع من هذا السبيل .

ومجلة « العربي » إذ تبارك بادرتكم الطيبة هذه وترحب بنشر كل ما يؤيد هذه الفكرة أو يضعها موضع التنفيذ ، وتفتح صفحاتها لنشر الترجمات والمقالات الملائمة في هذا المجال ، بحدود الخطة المرسومة للنشر في « العربي » .

■■■

بقر الوحش لا علاقة مباشرة له بالظباء إطلاقا :

● مجلة العربي من المراجع الموثوق بها نظرا لتحري الدقة والأمانة العلمية فيما ينشر فيها .

وقد تمتعت بقراءة المقال المنشور في العدد رقم ٣٤٧ اكتوبر ١٩٨٧ م ، ص ١٢٩ ـ ١٣١ بعنوان (وعاد الأوركس إلى موطنه) . وأود الحديث عن الاسم الصحيح لهذا الحيوان الذي له مكانة سامية لدى العرب قديماً وحديثاً .

فقد جاء في ص ١٢٩ سطر ١٠ (والأوركس من بقر الوحش)

لقد ذكرت الاسم أو التعريب الصحيح إلا أن كاتب المقال قد ذكر في صفحة ١٢٩ س ٦ و ٧ وكذا تحت صورة هذا الحيوان أن اسمه (ظبي الأوركس) ، وتكرر ذلك في صفحة ١٣٠ .

ومن الإنصاف أن نقول ان إطلاق لفظ ظبي على إحدى بقر الوحش من الأوهام

حوار القراء

الشائعة والصواب أن لا يسمى « ظبي الاوركس » لأن الظبي من فصيلة أخرى لا علاقة لها ببقر الوحش ، وتفصيل ذلك كما يلي :ـ

المها : جمع مهاة ، وهي الأنثى من بقر الوحش ، و(الذكر) هو (الثور) .

قال امرؤ القيس :

(فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دراكاً ولم ينضح بماءٍ فيغسل)

واسم بقر الوحش العلمي (LUCORY X (PALLAS

أما ORY X « أوركس » فهو الاسم الانجليزي .

واسمه المتداول في الجزيرة العربية والهلال الخصيب (الوضيحي) .

ومن الصفات التي يتميز بها بقر الوحش عن فصيلة الظباء :ـ

١ ـ الذيل الطويل الذي يصل إلى حوالي نصف قائمتيه الخلفيتين ، وبنهايته خصلة من الشعر كثيفة ، تمتد إلى ما بعد نصف قائمتيه ، بينما ذيل الظبي والوعل صغير جدا ، ينثني إلى أعلى ، على شكل يشبه نصف دائرة .

٢ ـ الرأس طويل كبير بالنسبة لرأس الوعل والظبي ، وفي جانبيه وكذا في جبهته لمعة أو خط أسود .

٣ ـ في الرأس قرنان عموديان حادان ، تتخللها نتوءات دائرية بارزة تزيد القرنين قوة وصلابة ، ويتراوح طولها في متوسط العمر بين ٥٠ و ٧٠ سم .

٤ ـ ثدي (المهاة) له أربع حلمات كما هو مشاهد في البقرة الأهلية تماما .

٥ ـ العينان واسعتان نجلاوان كحيلتان ، بشكل يثير الإعجاب ، حتى أن بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين شبهوا عيني المرأة بعيني (المهاة) .

وحسبنا قول علي بن الجهم شاهدا :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

هارون أحمد العطاس
ـ مكة المكرمة ـ

■■■

تحية من لبنان الجريح :

● السيد رئيس التحرير :

تحية طيبة وبعد . .

أسمى التهاني القلبية أبعثها إليكم من لبنان الجريح بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لصدور العدد الأول من مجلة كل العرب مجلة « العربي » القراء ، ولا أنثني

سرا إذ أقول إن « العربي » هي المنهل العذب والمعين الذي لا ينضب لقارىء العربية في كل أصقاع الأرض .

إن كل أبيات المديح والاطراء تظل عاجزة عن الوفاء بحق « العربي » ، وأرجو ألا تعتبرني مجاملا . فالحق يقال على رءوس الأشهاد .

وفقكم الله في قيادتكم الرشيدة لرفعة المجلة . ولأداء عملكم الدءوب للارتفاع إلى أعلى المستويات العالمية .

تحياتنا وتقديرنا للكويت أميرا وحكومة وشعبا ، وفي رعاية الله ، وإلى الأمام .

سعد الدين مصطفى الغالي
بيروت ـ لبنان

■■■

العربي في الجزائر :

● الدكتور رئيس التحرير :

لشدة تمسكنا وارتباطنا الوثيق بمجلة « العربي » ، فإن انقطاعها المفاجيء منذ شهر مايو ١٩٨٧ قد ترك في أنفسنا فراغا كبيرا . لذا أطلب منكم أن تعملوا على إرسال مجلتنا المفضلة إلى الجزائر ، فهي رافدنا الوحيد في تلقي المعلومات ، وإنارة السبيل لنا وتوثيق ارتباطنا بوطننا العربي وعالمنا الإسلامي ، وحافزنا على التفكير في مستقبل أمتنا .

بن خليفة عبدالوهاب
طالب جامعي بمعهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية ـ الجزائر .

■■■

العربي

● إن من أهدافنا الأساسية إيصال مجلة « العربي » إلى كل قارىء في كل بقعة من البقاع ، لكن تواجهنا في بعض الأحيان معوقات خارجة عن إرادتنا ، فمشكلة وصول المجلة إلى القراء في الجزائر ليس لنا فيها أي تدخل فهي راجعة للموزع المسئول في الجزائر .

نأمل أن يحل هذا الموضوع في أقرب وقت ، وأن تكون « العربي » بين أيديكم في أقرب فرصة ممكنة .

■■■

أهم الإنجازات العلمية في القرن العشرين :

● كتب إلينا الدكتور ياسر عبدالفتاح آدم حول ما نشرناه في العدد (٣٤٩) بخصوص الابتكارات الجديدة في طب العيون ، ونقتطف فيما يلي بعض ما ورد في رسالته المهمة :

« . . . يجري تصحيح قصر النظر جراحيا بإحداث قطوع بواسطة أشعة الليزر ، وذلك على السطح الأمامي للقرنية ، أما عندنا هنا فليست الأشعة هي السبيل ، وإن كانت جراحة هذه العملية لا تستغرق سوى ربع ساعة أو نحو ذلك ، وتجري تحت التخدير الموضعي .

كما أن الجهاز الخاص بهذه العملية متصل بتلفاز وفيديو داخلي ، لتسجيلها وعرضها على الطلبة الموجودين في حجرة العمليات أو المتواجدين في حجرة مجاورة ، ليتسنى لهم مشاهدتها على شاشة التلفاز . ثم إننا نرجو إعداد ملحق خاص بأهم

حوار القراء

الأحداث العلمية في مختلف المجالات ، يشمل أهم الإنجازات العلمية في القرن العشرين .

د . ياسر عبدالفتاح آدم
طبيب بشري ـ الاسكندرية / ج . م . ع

■■■

العربي

● نشكر الدكتور ياسر على اقتراحه الذي كان موضع اهتمام « العربي » البالغ في المدة الأخيرة ، علما بأن الهدية السنوية التي وزعتها « العربي » مع عدد يناير ١٩٨٨ الممتاز قد تضمنت عشرات من تلك المنجزات شرحا وتصويرا .

■■■

حول حشرة السوكيدو :

● كتب إلينا بعض القراء معقبين على ما نشرناه في باب البيئة ، بالعدد (٣٤٨) حول حشرة (السوكيدو) مؤكدين أن هذه الحشرة ليست وقفا على أمريكا ، وأنها توجد في بلادهم أيضا (الجماهيرية واليمن) ، وذلك خلافا لما تذهب إليه المصادر التي اعتمدناها في هذا الموضوع .

يقول الأخ رمضان مسعود ربيع منصور (قالوت ص . ب ٦٦٧٣١ الجماهيرية العربية الليبية) : « توجد هذه الحشرة في الجماهيرية ، وعلى الجبل الغربي على الأخص (جبال نفوسة) . . . وذكرها يحدث طنينا مزعجا لا تحدثه أنثاها . . وهذه الحشرة لا تصدر طنينا في الليل ولا في الصباح الباكر ، وإنما بعد شروق الشمس بحوالي ساعتين . . . ومن طريف ما يذكر أن أهالي القرية (قرية فرسطاء ، قريتي أنا) يقولون عن طنين « السوكيدو » أنه عبارة عن نصيحة يوجهها ذكر السوكيدو إلى الفلاحين ، كأنه يحضهم على الجد والاجتهاد رغم حرارة الجو . . فإن كان حر هذا اليوم شديدا فقد يكون حر الغد أشد . . . »

ويقول رشيد أحمد مرشد (من الرياض ـ السعودية) : « تقولون إن حشرة « السوكيدو » لا توجد إلا في أمريكا ، وهذا خطأ ، فالحشرة موجودة في اليمن ، حيث تعرف بالصرير ، ويقال إنها لا تظهر إلا مرة واحدة كل ١٧ سنة ، ويكون ظهورها في فصل الصيف .

■■■

ردود خاصة مركز الطب الإسلامي

● كتب إلينا كثيرون من قرائنا حول استطلاع مركز الطب الإسلامي المنشور في « العربي » عدد سبتمبر الماضي (١٩٨٧) ، وتوجه كثيرون منهم إلى مركز الطب الإسلامي مباشرة . ولما كان القصد من كتابة هذه الرسائل ـ كلها أو أكثرها ـ هو الحصول على عقاقير أعشابية تعالج ما يعاني منه كتاب تلك الرسائل من أمراض فإننا نقدر لهؤلاء القراء اهتمامهم ، وندعو لهم بالشفاء العاجل ، ونود أن نلفت نظرهم إلى الملاحظات التالية :

١ ـ لا يعقل أن يتم علاج الأمراض عن بعد ، دون فحص أو تشخيص أو تحليل أو تصوير ، ولا يعقل أيضا أن ترسل العقاقير بالبريد لتعالج بها تلك الأمراض التي لم يجر تشخيصها والتأكد من أعراضها ، ويصدق هذا على التداوي بالنباتات الطبية بقدر ما يصدق على المستحضرات الكيماوية . ومن هنا تبدأ مهمة مركز الطب الإسلامي الأولى

في تشخيص الأمراض ، فهو مركز طبي لا مستودع عطارة ، وهو لا يصف الدواء إلا بعد التأكد من الداء .

٢ ـ كذلك لا يعقل أن يرسل المركز عقاقيره النباتية بالبريد ، حتى في الحالات التي تكون فيها الأمراض مشخصة معروفة . ولو أباح لنفسه المعالجة بالمراسلة لما بقي لديه من الوقت ولا من العقاقير ما يفي بحاجة المرضى الذين يترددون عليه يوميا ، وقد بلغ مجموعهم ٢٠,٠٠٠ أو أكثر .

٣ ـ ثم إن مركز الطب الاسلامي لا يقرر اعتماد عقار نباتي ووصفه لمرضاه إلا بعد أن يستوفي دراساته وتجاربه الخاصة على ذلك العقار ، إذ لا بد أن يتثبت من فاعلية ذلك العقار العلاجية أولا ، ومن خلوه من أي قدر من السمية ثانيا ، ولا بد له أن يتأكد من خلوه أيضا من أية آثار جانبية ضارة ، هذا بالإضافة إلى حرصه على تحديد الجرعة الطبية المناسبة . . الخ . لذلك كان لا مفر له من اهمال اقتراحات بعض القراء بشأن عقاقير نباتية اهتدوا إلى فوائدها العلاجية مهما كانت تلك الفوائد كبيرة .

■■■

جهاز سبر المياه الجوفية :

● كتب إلينا كثيرون يستوضحون عن جهاز سبر المياه الجوفية (وادي) (راجع العربي عدد ٣٤٥) ، ويطلبون عنوان الشركة السويدية التي تصنعه .

وإننا نقدر لهؤلاء القراء اهتمامهم ، لكن كثيراً من المراجع العلمية تتجنب في الغالب ذكر عناوين الشركات المنتجة التي تكون مبتكراتها موضع حديث تلك المراجع ، وذلك حرصا منها على تجنب الدعاية لتلك الشركات .

عالم الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .

• ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام .

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

رئيس التحرير
محمد مساري العدواني

نائب رئيس التحرير
د. سليمان ابراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

مارس ١٩٨٨ م

ثقافة الأطفال

تأليف

د. هادي نعمان الهيتي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢٣

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٧٥
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية

ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية

جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية

- عقد الندوات التي تهم المنطقة أو المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم
- الاشتراك السنوي بالمجلة

أ) داخل الكويت: ٣ د.ك. للأفراد ١٥ د.ك للمؤسسات

ب) الدول العربية: ٣,٥٠٠ د.ك للأفراد ١٥,٠٠٠ د.ك للمؤسسات

جـ) الدول الأجنبية: ١٥ دولاراً للأفراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص. ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

الفرع جامعة الكويت - الشويخ

هاتف: ٨٤١٦٨٠٧
٨٤١٦٧٩٩
٨٤١٦٨٥٤
٨٤١٤٢٩٥

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجيه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف: ٢٥٤٩٤٢١ - ٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩، ٨١٤٤٣٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارئ.

ترفق قسيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٢ أول مارس ١٩٨٨

الأيام الخوالي

تأليف : هارولد بنتر
ترجمة : الشريف خاطر
مراجعة وتقديم : محمد الحديدي

القرآن الكريم
سورة البقرة
بسم الله الرحمن الرحيم
• النص القرآني بالرسم العثماني والتشكيل
• فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
• فهرس لآيات القرآن حسب موضوعها
• البحث عن كلمة أو مجموعة مفردات
• شرح لغريب ألفاظ القرآن الكريم
• بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
• تحفيظ القرآن الكريم
• مكتبة القرآن الكريم
صخر كمبيوتر
al Alamiah
العالمية

رمضان كريم

شعبان ١٤٠٨هـ - ابريل (نيسان) ١٩٨٨م

العربي

ابناؤنا .. في رمضان

سيول .. عروس الاولمبياد

رولكس وسفينة الصحراء
الاعتمادية المطلقة

رولكس ديت جست، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر
عيار ١٨ قيراطاً.

في الصحراء، قليلة هي الأشياء التي يمكن الاعتماد عليها. في تلك الأماكن القاحلة قليلة الماء والكلأ، يعتبر الجمل من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها. وهو رمز حيّ لقدرة التحمّل والصبر في حرارة الصحاري اللاهبة أثناء النهار، والباردة جداً أثناء الليل.

من دلائل أهمية الجمل بالنسبة للعرب، انه كان الوحدة التي بها يقاس مهر العروس أو دية القتيل. يضاف لذلك أهميته من ناحية الغذاء، الاستفادة من الحليب واللحم، وفي الكساء، وبر الجمل.

لتلك الأماكن من العالم، حيث الاستقرار والحياة هما دائماً للقوي كثير التحمّل، أنتجت رولكس ساعة قوية كثيرة التحمّل من الذهب الصافي عيار ١٨ قيراطاً أو من الفولاذ الذي لا يصدأ.

ساعة لا يدخلها الغبار أو الرمال إطلاقاً وذلك بفضل علبة الأويستر المصنوعة على مبدأ "المحارة"، وقفل السلامة الخارجي المثبت بطريقة ملولبة وبإحكام على هيكل الساعة. حركة الساعة المصنوعة قطعة قطعة يدوياً ومجمعة بكل إتقان ودقة، لا تتأثر إطلاقاً بالرطوبة أو الماء أو التغيير المفاجئ للحرارة.

ROLEX

رولكس

العـدد ٣٥٣ السنة الحادية والثلاثون ابريـل ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI

Issue No. 353 Apr. 1988. P. O.Box: 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 ـ الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقيًا : "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الإعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت	٢٥٠ فلسًا	تونس	٤٠٠ مليم	سوريا	١٠ ليرات
العراق	٢٥٠ فلسًا	الجزائر	٤ دنانير	الإمارات	٥ دراهم
الأردن	٢٠٠ فلس	السعودية	٥ ريالات	المغرب	٣ دراهم
البحرين	٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي	٣ ريالات	ليبيا	٣٥٠ درهمًا
اليمن الجنوبي	٢٥٠ فلسًا	قطر	٥ ريالات	أوروبا	دولاران أو جنيه استرليني
مصر	٣٠ قرشًا	سلطنة عمان	ربع ريال	فرنسا	١٥ فرنكًا
السودان	٢٠ قرشًا	لبنان	١٥ ليرة	أميركا	دولاران

العربي - العدد ٣٥٣ - ابريل ١٩٨٨ م

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : اغلاق العقل الأمريكي ..!
- د . محمد الرميحي ٨

■ الايدز وافريقيا والعنصرية .
- د . على الدين هلال ٣٢

عروبة وإسلام :

■ أبناؤنا في رمضان
- د . عبدالعزيز كامل ٢٥

■ للمناقشة : التعددية السياسية وشبح الفتنة .
- فهمي هويدي ٤٩

استطلاعات مصورة :

■ سيول .. عروس الاولمبياد .
- سليمان مظهر ٦٨

■ ماربيا .. لؤلؤة الشاطيء الاندلسي .
- سلمى الحفار الكزبري ١٣٢

■ جمعية الجنوب والخليج العربي ..
شمعة وضاءة في طريق الخير .
- ريم الكيلاني ١٤٢

طب وعلوم :

■ الموصّلات الكهربائية الفائقة تخرج من الصقيع !
- د . سعود عياش ٥٨

■ انذار للمدخنين قبل فوات الاوان .
- د . صباح السامرائي ٩٠

■ الجديد في العلم والطب .
- اعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٧

■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠

■ الطلاء الايوني قفزة واسعة في تقنية الطلاء .
- د . نادر عبدالغفور احمد ١٥٦

أدب وفنون :

■ أغنية وقصيدة .
- ابراهيم نصرالله ٣٠

■ رمضان في الأدب العربي .
- محمود الشرقاوي ٣٦

■ قراءة نقدية في كتاب :
رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .
- د . سعد مصلوح ٤٢

الموصّلات الكهربائية الفائقة ص٥٨

ماربيا . . لؤلؤة الشاطيء الاندلسي . . . ص١٣٢

■ نزعات الانتحار عند المبدعين .
ـ د . محمد جابر الانصاري ٥٣
■ الذاكرة المثقوبة (قصة) .
ـ عبدالحميد بن هدوقة ٦٢
■ النزف في طاحونة المدينة (قصيدة) .
ـ عبدالنبي التلاوي ٩٦
■ العربي كما تراه هوليود .
ـ د . جاك شاهين ١٠٤
■ الجواد والموت (قصة مترجمة)
ـ محمد الظاهر ١١٣
■ شيء يخص الروح (قصيدة)
ـ شوقي بغدادي ١٧٨

■ جمال العربية :

ـ صفحة لغة : في أفعال المطاوعة .
ـ يوسف العياشي ١٨٠
ـ صفحة شعر : هكذا غنى الأباء : تأملات في الناس والحياة للامام الشافعي ١٨٢

منتدى العربي :

■ قضية : الافكار الميتة والافكار القاتلة !
ـ د . علي القريشي ١١٦
■ تعقيب على مقال : أرقام الحساب عربية أم هندية ؟
ـ السيد يوسف عبدالحميد ١٢٠

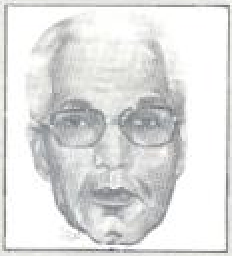

وجها لوجه :
د . حسين نصار ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

تاريخ وتراث واشخاص :

■ لك الله يا دمشق ، بقايا صور رمضانية .
ـ د . شاكر مصطفى ١٨
■ وجها لوجه :
ـ د . حسين نصار
ـ د . احمد مرسي ٩٧
■ قاسم أمين أديباً .
ـ د . عزت قرني ١٢١

تربية وعلم نفس :

■ صحتك النفسية والالوان
ـ د . دري حسن عزت ١٤٨

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : « الارهاب » من الكفاح الشعبي إلى الاثارة الاعلامية .
ـ جمال وردة ١٨٥
■ من المكتبة العربية : صورة الأرض أو المسالك والممالك للرحالة ابن حوقل
ـ د . هشام سخنيني ١٩١
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القاريء ٧
■ الكلمات المتقاطعة ١٨٤
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٠) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

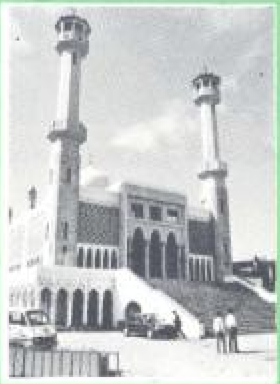

صورة الغلاف

سيول عروس الاولمبياد .. هي مركز القلب الذي تنبض منه كل عروق الحياة في كوريا الجنوبية ، تجذب الى مجالها السحري كل شيء

(طالع التفاصيل ص ٦٨)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ حتى لا تكون الرياضة وبالاً .
ـ د . عماد شمسي باشا ١٦٢
■ لغة اطفالنا .. هل نعرف حروفها ؟ ـ د . سامي عزيز ١٦٧
■ هو وهي ١٧٢
■ طبيب الأسرة : الطفل الأعسر .
ـ د . حسن فريد ابوغزالة ١٧٤
■ ساحة ود : لكي تستحق الحياة
ـ محمود عبدالوهاب ١٧٧

عزيزي القارئ

. . . وحلّ شهر فضيل آخر من شهور رمضان ، وأمة الاسلام والأمة العربية بخير . .
وعددنا هذا من « العربي » يحوي عدة جوانب مهمة . .

● أولها الاحتفال برمضان الذي تصادف غرته منتصف الشهر الميلادي تقريبا (شهر الصدور) وقد كتب لنا في هذه المناسبة الكريمة ثلاثة أساتذة هم : د . شاكر مصطفى ، و د . عبدالعزيز كامل ، ومحمود الشرقاوي ـ كل من مدخل خاص ـ عن رمضان الكريم الذي نرجو أن يعيده الله على هذه الأمة وقد وعت أن قوتها في وحدة كلمتها وعملها وتكاتفها وتآزرها في عالم لا تعرف دوله إلا مصالحها .

● وقد يبدو للبعض أن أولمبياد سيول ما زال بعيدا . . ولكننا في « العربي » قد أعددنا عدتنا منذ أشهر . . فذهبنا الى سيول كي تنقل لقارئنا بالصورة والكلمة شيئا عن هذه المدينة التي سوف تكون حديث العالم في الأشهر القليلة القادمة ، حيث تناولنا الاستعدادات التي تجري لاستقبال شباب العالم الرياضي والاعلامي بهذه المناسبة . ومن جانب آخر كثر الحديث عن صورة الانسان العربي في الاعلام الغربي ، وقد خصنا د . جاك شاهين وهو الرجل المختص بهذه الأمور بعدة مقالات ينشر أولها في هذا العدد عن صورة العربي في السينما الأمريكية . . ترى كيف هي ؟

● أما الكاتبة سلمى الحفار الكزبري فهي أديبة عربية عشقت الأندلس ، وتكتب لنا في هذا العدد عن (ماربيا) عروس الصيف العربي في اسبانيا الحديثة ، ترى كيف كانت أيام أجدادنا العرب فيها !

● وقد يكون المُدخّن قد ملّ من نصائح الأطباء حول الاقلاع عن التدخين ، لكننا نعتقد أن المدخنين جميعا سوف يعيدون حساباتهم بعد قراءتهم لمقال د . صباح السامرائي عن انذار مبكر للمدخنين ! .

● أما نزعات الانتحار عند المبدعين فان د . محمد جابر الأنصاري يلقي الأضواء على هذا الجانب الخافي في حياة بعض رجال الفكر ، ويكشف عن عدة محاولات قاموا بها . . نجح بعضها وفشل البعض الآخر !

● وعن جمعية لها أهميتها ودورها في مجال الرعاية والتعليم والتدريب هي جمعية الجنوب والخليج العربي في الكويت كتبت ريم الكيلاني تفصيلات جديدة في هذا المجال .

● ويسعدنا أن نستقبل في هذا العدد أول مقالات الكاتب العربي والمعلق السياسي الدكتور علي الدين هلال الذي حدثنا هنا عن « الايدز والعنصرية » . انه مدخل سياسي لقضية خطيرة .

وتظل « العربي » تقدم لك خلاصة الفكر العربي المستنير . . فما ذُكر هو غيض من فيض في هذا العدد الذي نستقبل فيه شهر الصوم ، والذي هو بجانب ذلك متعة للقراءة الجادة المثمرة . . فإلى موضوعات العدد . .

المحـــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

إغلاق العقل الأمريكي..!

عندما يتحدث أحدنا في العالم الثالث عن التعليم أو التقنية أو التنظيم والادارة فانه غالبا مايشير الى تجارب الآخرين .. في الغرب غالبا .. وفي الولايات المتحدة بوجه خاص .

فيقول قائل : انظروا مايحدث في أمريكا ، شاهدوا التعليم ، أو شاهدوا التنظيم والادارة هناك .

وقد لايكون الامر كله خاطئا في عملنا ذاك ، ولكنه بالتأكيد يجب أن لايجعلنا نأخذ الامور على علاتها دون اعمال للعقل .

ولقد نبه الاستاذ الامريكي « ألن بلوم » الامريكيين أنفسهم ، والعالم أيضا ، عندما نشر كتابه منذ أشهر خلت وعنوانه « اغلاق العقل الامريكي » نبههم الى تدهور الموقف الثقافي الامريكي ، والمؤلف ليس شابا صغيرا يبحث عن الشهرة في اطلاق عناوين جذابة ومثيرة ، مثل

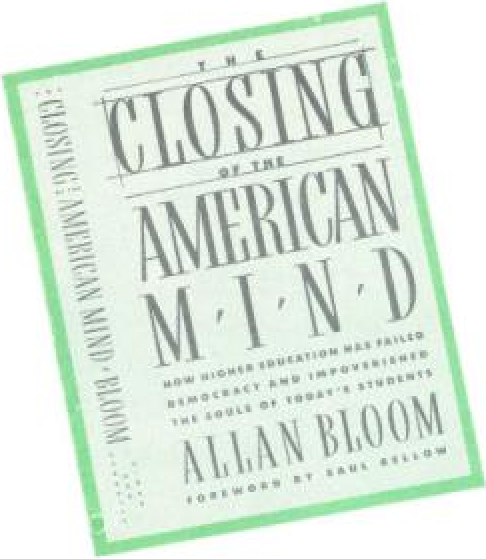

أعظم الرجال ليسوا هم أهل المعرفة بل هم أهل الفن!

العنوان السابق ، فهو في نهاية العقد الخامس من عمره ، ويعمل أستاذا للفكر الاجتماعي في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة منذ فترة طويلة .

وفي كتابه هذا الذي أهداه الى طلابه والذي قسمه الى ثلاثة فصول رئيسية ومجموعة كبيرة من الأبواب الفرعية أكد في مقدمته (أنه يريد أن يغوص في أعماق الفوضى المتفشية في الحياة الفكرية والاخلاقية في الجامعات الامريكية) وأن الأزمة الحقيقية في المجتمع الامريكي كما يراها الكاتب هي في جوهرها أزمة فكرية ،(فالجامعات الامريكية تفتقر الى الهدف ، وطلبتها يفتقرون الى التعليم القويم . .)

في هذا الكتاب يعرض الكاتب لمجموعة من القضايا في ثلاثة محاور رئيسية :

في المحور الاول يتناول قضايا الطلاب الامريكيين بدءا بالسبورة ومرورا بالكتاب الذى يدرسون ، والموسيقا التي يتعلمون ، والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ بينهم .

وفي المحور الثاني يتناول الكاتب فلسفة (العدمية) التي يعتقد أن الفكر الامريكي اقتبسها من (حثالة) الفكر الأوروبي وأضفى عليها طابعا امريكيا خالصا ، ويستعرض الكاتب نتائج هذا الفكر على المجتمع الامريكي .

وفي المحور الثالث يتناول الكاتب الفكر الانساني منذ الفلاسفة الاغريق ، وأثر المجتمع المدني الذي مرت به الانسانية في الاضافة والتجديد الذي يصل الى قمته في الفلسفة الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويستعرض بعد ذلك ماقام عليه التعليم في الجامعات الامريكية الذي (انتقل اليه التعفن والتحلل وافتقد روح الانضباط) .

يقع الكتاب في حوالي ٤٠٠ صفحة ، وقد أصبح ظاهرة من ظواهر النشر ، فقد ظل لمدة ستة أشهر على رأس قائمة المبيعات للكتب التي نشرتها « نيويورك تايمز » في النصف الأول من العام الماضي .

لقد لامس الكتاب عصبا حساسا في مسيرة الثقافة الامريكية ، فانبرى له مؤيدون وناقدون ، ونوقش في البرامج الثقافية للتلفاز الامريكي أكثر من مرة .

ولكن ماذا يقول الكتاب باختصار ؟

الطالب الاوروبي والطالب الامريكي :

يقول الكاتب : الطالب الامريكي يتلقى أي تعليم يعن للمدارس أن تقدمه له قبل دخوله الجامعة ، فليس له حق في الاختيار . لذلك نراه يعيش حياة يسيطر عليها فراغ روحي ، وهو عندما يدخل الجامعة لايكون لديه أدنى فكرة عما يعتمل في أعماق نفسه من رغبات وميول ، ولايعرف من الدنيا سوى مظاهرها السطحية ، أما الطالب الاوروبي فيتلقى مبادىء ثقافته الأولى في بيته أولا ، ثم في المدرسة الحكومية ثانيا ، حيث تندمج البذور الثقافية الاولى التي غرست في نفسه منذ الصغر مع التراث الأدبي لبلده ، لتشكل في نفسه ذلك المواطن الذي يشعر بالانتماء القوى لبلده وأنه جزء لايتجزأ من شعبه ووطنه .

والكتاب بالنسبة للطالب الاوروبي شيء جوهري واساسي ، يعتمد عليه في صياغة أفكاره « فحب المعرفة » قضية اساسية للاوروبي يتلقاها الطالب منذ الصغر عن طريق الكتاب ، والطالب الامريكي يعد بدائيا بالنسبة للطالب الاوروبي ، فهو - أي الامريكي - لايعرف حتى اسماء مشاهير الكتاب الامريكيين ، وبالتالي لايعرف شيئا عن أفكار هؤلاء الكتاب ، فهو لايقبل الا على قراءة الكتب ذات المواضيع العامة . هذه البلاهة - كما يقول الكاتب - في التوجه الفكري للطالب

لايستطيع المدرّس تعليم الكتابة لطلاب لايقرأون!

في أميركا صار هناك ثقافة اسمها "ثقافة الفشل في الحصول على الثقافة"

الامريكي في المرحلة التي تسبق دخول الجامعة تبدو بدائية وفي غاية التخلف ، فهي تعمل على تقزيم الجنس البشري في نظر الطالب ، وتؤدي الى فقدان القدرة على تمييز النواحي الجمالية في الحياة ، وعلى عجز عن مسايرة التقدم الحضاري .

يقول المؤلف في إشارة الى علاقة الطالب الامريكي بالكتاب : عندما لاحظت ظاهرة عدم الاقبال على القراءة عند طلابي في أواخر الستينيات ، بدأت اسأل طلابي المستجدين عن أسماء الكتب التي يعتبرونها مهمة ، فكان معظمهم يلوذون بالصمت أو يصابون بالارتباك ! .

فالفكرة السائدة بين المثقفين « بأن الكتاب خير رفيق » بعيدة عن أذهانهم .

ويضيف الكاتب بعد اعطاء أمثلة عديدة على تفاهة مايقرؤه طالب الجامعة الامريكي فيقول : لنتخيل شابا من هؤلاء يتجول في ردهات معرض اللوفر مثلا ، كم سيشعر هذا الشاب بالفراغ الفكري والروحي عندما يلمس مقدار جهله بالقصص التي تروى عن تاريخ

الأفلام السينمائية تحور التاريخ للوصول الى أهداف سياسية

الحضارات القديمة ومنجزات رافائيل وليوناردو دافنشي ومايكل انجلو وريمبرانت ؟

ويرى الكاتب : ان السفر الى الخارج هو طريق هام للمعرفة ، وقد سر سرورا بالغا عندما تلقي بطاقة بريدية من طالب سابق سافر الى اوروبا يقول له فيها : انك لست استاذا للاجتماع ولكنك أيضا وكيل سفريات ناجح !

ويقول الكاتب في موضع آخر : مما يؤسف له ان طلابنا ينصرفون الى القشور فيهتمون بصبغ شعرهم أكثر من اهتمامهم بتنمية معلوماتهم وتنويع اطلاعهم ، فيصبح التمييز بين انسان وآخر منصرفا الى الشكل الخارجي دون الغوص في الاعماق .

بعض طلابنا يتعلمون التاريخ من مشاهدة السينما ، فهم يفضلون مشاهدة فيلم عن حياة غاندي أو توماس مور بدلا من قراءة ماكتب عنهما ، ودون أن ينتبهوا إلى أن الكثير من الافلام السينمائية تحور التاريخ اما لإرضاء المشاهدين واكمال الحبكة السينمائية أو لأهداف سياسية .

وفي اشارة واضحة الى المدرسين الجامعيين يقول الكاتب ان الطلاب الذين يأتون الى الجامعات يخشون الاستفسار ، وحتى أولئك الذين يملكون الجرأة الكافية على توجيه الأسئلة يخشون الاخفاق في الحصول على الاجابات الشافية !

العملية التعليمية والعلاقات الانسانية :

يعقد الكاتب بابا كاملا لهذا الموضوع ، فهو يتعرض لبعض العلاقات الانسانية السائدة في المجتمع الامريكي التي تتحكم بالسلوك العام للطلاب الامريكيين فيقول : لقد أصبح الطلاب متحررين من معظم القيود التي كانت تكبلهم في الماضي ، وصارت أسرهم تقدم لهم المعونات والتضحيات دون أن تطالبهم مقابل ذلك بشيء من الطاعة والاحترام ، وحتى تعاطي المخدرات وممارسة الجنس التي كانت ممنوعة في الماضي أصبحت مباحة ومتوافرة بشكل يرضي رغباتهم . وعلى الرغم من وجود بعض مشاعر الاحتشام والتمسك بأهداب الفضيلة في صفوف بعض الإناث الا أن معظم هؤلاء أصبحن متأكدات أن لاشيء يقف في سبيلهن ، كما ارتفعت الكلفة بين الشباب وبين من هم أكبر منهم سنا ، والأمور التي كانت تبدو كأنها أحلام مستحيلة في الستينيات أصبحت

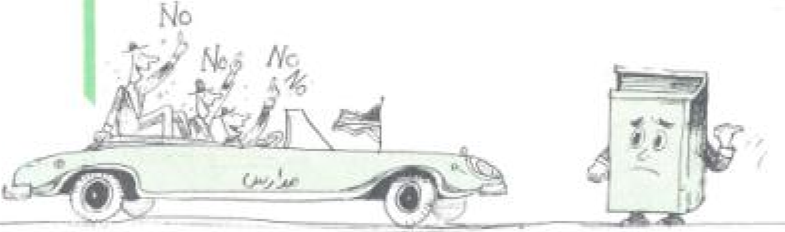

الآن حقائق واقعة وممكنة ضمن نطاق الحياة الامريكية الفضفاضة .

ويصف الكاتب ظاهرة (المساواة) التي يشعر بها الطلاب الامريكيون اليوم ، فهم جميعا ذكور واناث لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، وأحد عناصر القصور التي فشل الطلاب الامريكيون في التغلب عليها ـ كما يعتقد الكاتب ـ هي العلاقة بين الطلاب البيض والسود ، فالطلاب البيض لايتخذون لهم أصدقاء من الطلاب السود ، والآخرون منطوون على أنفسهم ، هذا الانفصال ينسحب على الطلاب الاجانب أيضا .

تعايش الفتى والفتاة دون زواج في الجامعات الأميركية أصبح حالة طبيعية!

واحدى القضايا المهمة التي يتعرض لها الكاتب من ضمن العلاقات الاجتماعية هي قضية العلاقات الجنسية بين الطلاب . . فهو يقول : نحن نطالع الأدب الاباحي متسلحين بحرية الكلمة وحق التعبير عن النفس ، كما أن المعارضة التي كان يبديها الوالدان والمدرسون ضد السماح للشبان والشابات بالعيش في مكان واحد أو النوم في حجرات تضم الجنسين ، اختفت من الحياة الامريكية ولم يعد لها وجود . . فالطالبات لم يعدن يخجلن من اظهار مفاتنهن التي تجتذب الشباب . . وتعايش الفتى والفتاة دون زواج ، الذي كان يعتبر عملا خطيرا في العشرينيات ، ثم عملا غير محتشم أو بوهيميا في الثلاثينيات والاربعينيات ، أصبح الآن أمرا طبيعيا ، حاله حال الانتساب الى فرقة كشافة للبنات . . !

كما أن الخجل لدى الفتيات ـ اليوم ـ لايعدو أن يكون أكثر من مجرد (تقليد) أو (عرف) أو (عادة) اكتسبتها الفتيات من أمهاتهن ، فلم يعد من الصعب عليهن أن يتخلصن منه ويتغلبن عليه .

نسب الطلاق في المجتمع الأمريكي من أبرز الأدلة على أن الشعب لم يخلق للتعايش معا

ويصف الكاتب بشكل مفصل أشكال العلاقات الاجتماعية السائدة بين الطلاب والطالبات والأسرة والمدرسين في المجتمع الامريكي المعاصر ، ويصل الى نتيجة مفادها : ان العلاقات بين الافراد اليوم ، سواء كانت قائمة على الصداقة أو الحب ، علاقات يشوبها الشك وتكتنفها عدم الثقة .

ويلاحظ المؤلف الآثار الضارة على الطلاب نتيجة تفاقم ظاهرة الطلاق في المجتمع الامريكي ، فيقول : ان الطلاق له آثار عميقه على الجامعات الامريكية لأن عدد الطلاب الذين ينحدرون من أبوين مطلقين في تزايد مستمر ، وهؤلاء يحملون معهم مشاكلهم التي تنعكس على الطلاب الآخرين وعلى الجو الجامعي بشكل عام .

والطلاق في امريكا ـ كما يلاحظ المؤلف ـ هو من أبرز الأدلة على أن الشعب في هذه البلاد لم يخلق للتعايش معا ، وأنهم على الرغم من حاجتهم لخلق رغبة مشتركة تكون حصيلة للرغبات الخاصة للافراد ، الا أن معظم تلك الرغبات الخاصة تنزع باستمرار الى الانفصال والاستقلالية فلا تلبث أن تتغلب عليه ميولهم الأنانية ، فكل فرد يحب نفسه أكثر من غيره ، ولكنه يريد من الآخرين أن يحبوه أكثر من أنفسهم ! وهي نزعة ـ يعلق المؤلف عليها ـ بأنها أقرب ماتكون الى تصرفات الاطفال .

ويتعمق الكاتب في هذا الموضوع أكثر وأكثر فيكمل : اننا عندما نقول عن الجيل الحالي بأنه جيل الأنانية والنرجسية نكون قد وصفناه فقط ، ولكننا لم نبين سبب هذا الوصف ، فاننا لانستطيع توجيه اللوم الى الشخص الذي يعيش في عالم يمثل الاهتمام بالذات فيه المكانة الأولى من تفكير الافراد ، بل ومن تفكير المؤسسات الرئيسية فيه ، وأي تظاهر بالاهتمام بالمصلحة العامة لايعدو أن يكون نفاقا ، والأبناء الذين يربون في ظل حالات الطلاق والتفكك الأسري لايلبثون أن يصيروا تكرارا للمأساة التي عاشوها فيخلقوا مشاكل جديدة ، ويصبح عدم الولاء للأسر والمؤسسات أمرا عاديا .

الثورة على المعتقدات التقليدية على الطريقة الامريكية :

يبدأ الكاتب حديثه في القسم الثاني من الكتاب بالاشارة الى قضية لغوية واجتماعية مهمة هي مانسميه بالعربية (انتقال الدلالة) للفظ

في الصراع بين الشعوب لا يجد متخذو القرار مكاناً وسطاً بين "الخير" و"الشر"

أو مجموعة ألفاظ ، ويبرهن عليه الكاتب بالاشارة الى وصف الرئيس رونالد ريجان الشهير للاتحاد السوفيتي على أنه « الامبراطورية الشريرة » يقول الكاتب ان الرئيس عندما استخدم هذا المصطلح تضافر العديد من رجال الفكر الامريكيين على الاحتجاج على هذا المصطلح ولكن عندما قال في وقت لاحق : « ان القيم التي تؤمن بها الولايات المتحدة تختلف عن القيم التي يؤمن بها الاتحاد السوفيتي » قوبل هذا القول بالصمت ، على الرغم من أن محتوى الموضوع لايختلف كثيرا كما يعتقد الكاتب ، هذا القبول ـ يقول الكاتب ـ يلفت نظرنا الى موضوع مهم هو أن الناس يميلون الى استخدام ألفاظ بديلة وجديدة غير كلمتي (الخير) و (الشر) في وصفهم للدول أو السياسة أو الأشخاص . وإذن فإن هناك (لغة جديدة) صار يستخدمها الناس للتعبير عن الاختلافات في الرأي أو الاتجاه ، وهي (اختلاف القيم) ، ولكن الباحث المنقب يرى أن الرئيس ريجان يعتقد في استخدامه لمفهوم القيم أن الامريكيين وحدهم الذين يعرفون ماهو الخير ، وهم وحدهم الذين يدركون معاني الشرف والكرامة ، ويعرفون المسالك التي تؤدي الى الخير وتلك التي تؤدي الى الشر ، هذا التوجه كما يقول الكاتب ، يحمل ضمنا شعور الامريكيين

الاقتصاديون يعلمون الناس كيف يحصلون على النقود والأطباء النفسيون يهيئون لهم المكان الذي ينفقون فيه هذه النقود

بالاحتقار للشعوب الأخرى التي لاتشاركهم هذه « القيم » .

القيم - يقول الكاتب - هي أمور نسبية ، ولكن هذه النسبية غير متاحة المعرفة لدى الشباب الأمريكي ، لأن ماتلقوه من تعليم هزيل في مدارسهم قد أوهن من تطلعاتهم وحد من ادراكهم ، انهم معتمدون على « الثقافة الامريكية » التي هي - كما يشير الكاتب - اشبه بالبناء الذي ليس له اساس عميق يرتكز عليه ، كما أن الأسوأ من ذلك أنّ الثقافة الامريكية لايخامرها احساس بسطحيتها وضحالة معرفتها .

ويشير الكاتب في مقارنة مطولة بين أفكار الكاتب والفيلسوف الانجليزي جون لوك ، والفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو فيقول ان المجتمع الامريكي قد زاوج بين هاتين المدرستين المتعارضتين في بعض مجالاتها لصالح بقاء المدرسة النفعية ، وهو يضيف بأسلوب لايخلو من التهكم : هذان النوعان من التنظير (لوك ، وروسو) يمثلان طريقتين مختلفتين في التفكير : المدرسة التي تتبع فلسفة لوك الواضحة الايجابية والكفوءة والتي يتبناها رجال الاقتصاد ، والمدرسة التي تتبع فلسفة روسو

القائمة على التفكير العميق والتي يتبناها المحللون النفسيون . . هاتان المدرستان متعارضتان تماما من حيث المبدأ الذي تقوم عليه كل منهما . . ولكن الهدوء الذي يتم به التفاعل بين أنصار المدرستين في أمريكا هيأ لها سبيلا للتعايش معا ـ فالاقتصاديون يعلمون الناس كيف يحصلون على النقود والأطباء النفسيون يهيئون لهم المكان الذي ينفقون فيه هذه النقود !

●●●

لقد انقسم القراء والنقاد أمام هذا الكتاب ، الذي لخصنا جزءا من أهم أفكاره ، الى فريقين : الفريق الاول اعتقد أن هذا الكتاب ماهو الا رجل شديد المحافظة يريد أن يرجع المجتمع الى الخلف بإشاعة أخلاق القرن الثامن عشر ، والفريق الآخر اعتقد أن الكتاب نقد موضوعي لمجتمع الولايات المتحدة اليوم ، وهو مجتمع في نظرهم يحتاج الى وقفة مع النفس ومراجعة للقواعد الفلسفية والاجتماعية التي يعيش فيها . . هذه المراجعة تبدأ من نقد الجامعات وطلابها .

لقد استخدم الكاتب عبارات قاسية تجاه الشعب الامريكي ، وعلى الأخص بالنسبة لاستعصائهم على المراجعة والنظر في الأمور ، على حد التعبير الذي أورده « شعب ينفر حتى من مجرد رؤ ية نفسه في المرآة » كما أنه في مجال آخر يغوص في قضية شائكة يصفها بأنها تفاؤل الامريكيين الساذج بتمجيدهم للطرق العلمية ، وهم في نظر أهل الفكر الاوروبيين « مجرد أطفال يلعبون في ألعاب مصممة للكبار » .

الا أن الكاتب من جانب آخر يثير قضية مهمة هي قضية التعليم الديني المستنير في مدارس وجامعات الولايات المتحدة التي مازالت تقف أمامها العقبات الكثيرة .

وينتهي الكاتب بتذكير الجميع بإحدى الوصايا الموجهة للشعب الامريكي التي تقول :

. . تذكروا أن الله هو الذي أخرجكم من بيوتكم في أوروبا وخلصكم من الطغاة الاوروبيين وأسكنكم في هذه الارض الخيرة . . أرض الله . . فكونوا أقل حدة وصرامة من الطغاة الذين أنقذكم الله منهم . □

محمد الرميحي

لك الله يا دمشق

.. بقايا صور رمضانية

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

عندما يقترب رمضان تشرع المدن العربية بارتداء زينتها الخاصة احتفاء بالشهر المبارك ، وتأخذ بعض الجماعات بالاستعداد لإحياء لياليه ، ولكن تطور المدنية الحديثة عفى دور بعض الجماعات كالمسحرين ، وحلت محلهم أجهزة الراديو والتلفاز . فماذا بقي من طرق الاحتفاء برمضان في مدينة عربية كبيرة مثل دمشق ؟ .

كان ما كان ، في سالف العصر والأوان ، كانت هناك مدينة اسمها دمشق .. إنها ليست هذا السيل الاسمنتي الشاسع الذي يملأ السهل والجبل فيما يسمى بدمشق اليوم : عمائر وجسور وبيوت التهمت المتنزهات والغوطة فلم تبق على « مقاصف » دمر ، ولا على الظل الظليل في بساتين النيربين ، ولا على أشجار الثمر والخضرة في الغوطة ! دمشق التي أتحدث عنها شيء آخر انقرض أو يكاد ..

إنها دمشق مطالع هذا القرن ، ودمشق ما بين الحربين التي أدركنا أواخرها ، دمشق التي كانت قلبا كقلب النسر هو الشام القديمة ، وجناحان ممدودان ، واحد نحو الجنوب (هو الميدان) وآخر الى الشمال على جبل قاسيون (هو الصالحية) ، لقد ضاعت

معالم هذه المدينة ، وبهتت التقاليد فما تبين . تغير كل شيء فيها حتى البشر . دمشق الشمشير والياسمين والليلك وشجر النارنج والكباد والبحيرات الدافقة « وأرض الديار » والايوان (الليوان) لم تعد موجودة . تراجع الماء الدافق فيها الى الخزانات ، وحل الاسمنت محل الخضرة على الأرض ، وانسحب سحر الشرق منها الى كتب السياح !

دمشق التي في خاطري

دمشق التي أتحدث عنها أمضت عدة قرون سابقة لم تتغير فيها ملامحها إلا قليلا ، أما تقاليدها فلم تتغير في شيء . ما ذكره ابن جبير قبل ثمانمائة سنة عن أهلها وعاداتهم ، كنت ما تزال تراه ماثلا في البيوت ، في الأسواق في باحة الجامع الأموي وفي الحارات القديمة . . بل وفي عمائم الرجال « وزكرتية » (أي فتيان) الحارات وفي طريقة التحية !

مئات السنين مرت ، وكل شيء يجري في المدينة مكرورا رتيبا . من خرير مياه « الطوالع » الى نزهات المتنزهين عند الربوة وكيوان الى قرقرة النراجيل في « لواوين » البيوت . لم تكن هذه الرتابة تضطرب إلا مرة في العام : حين يحل شهر رمضان !

إنه الموسم السنوي للتغير . المدينة تنقلب الى شيء أشبه بالجامع الكبير بما فيه من تهليل وخشوع ، وطيور آمنة ! فلرمضان نكهته ودنياه وأجواؤه الخاصة به كأنما شيء مما وراء الطبيعة يحل مع حلوله . وتغشى البلد كله غلالة هفهافة ملونة بقوس قزح ، فتلون الدروب والناس والجدران المهترئة بالرطوبة ، فالدنيا بحر خشوع وشموع ، وشيء من سكون غير قليل !

يبدأ هذا الانقلاب كله قبل يومين أو ثلاثة من قدوم رمضان ، إذ تمتلىء المتنزهات حول دمشق وضفاف الأنهر بالمتنزهين من العائلات أو الأصدقاء . إنها عادة دمشقية يسمونها « تكريزة » رمضان ، هي وداع للمفاسد كي تنصرف النفوس بكليتها الى التعبد ، والى روحانية رمضان المقبلة . فبعض يغني وينقر العود وبعض يذكر . وبعض يلهو بالألعاب والحزازير أو بالقمار أو بطاولة الزهر وينتهي (السيران = النزهة) بأكواب الشاي أو بأكواب أخرى تعلن بعدها التوبة حتى اطلالة العيد المقبل .

في الليلة التي ينتظر فيها رؤية هلال رمضان تكون كل الأعين والآذان على الترقب . الأتقياء يلزمون المساجد . الباعة يعدون أنفسهم للشهر الطويل ، الذين اعتادوا العبث تابوا منذ الليلة . ودعوا الكؤوس والأوتار وأدوات القمار شهرا بطوله . الفقراء ينتظرون بدء موسم الخير . . والناسون المهملون يهرعون الى الأسواق يتدبرون السحور الأول ، والكل على الترقب أعينا وآذانا .

لم يكن هناك تلفاز ولا اذاعة تعلن ثبوت رؤية الهلال . القاضي الشرعي هو الذي يعطي الاشارة فاذا بالمدافع تطلق احدى وعشرين طلقة وبذلك يعلم الجميع أن رمضان قد حل : « هل هلالك شهر مبارك » ، وتضج البيوت والأسواق بالتهاني المتبادلة وبالحركة ، ويتراكض الأطفال في الحارات :

« سبتوها ، سبتوها ! سبتوها وما خلوها ! » .

وترافق المدافع الشهر كله ، عند موعد الافطار مرة وعند موعد السحور في الليل ثلاث مرات ، أولها قبل الفجر بساعتين وآخرها لحظة الامساك . وتكفهر وجوه المقاهي والحانات ودور العبث الحرام ، فان عليهم أن يصوموا بدورهم شهرا عما

فيهم واهم ليصومونه مرغمين . ومع أن لإبليس مداخله التي لا تنتهي وخباثه الا أن الجو الرحماني يطرده الى ما وراء الأبواب المغلقة . رمضان « الفضيل » هو صاحب الكلمة الأولى . صحيح أن « رمضان كريم » ولكنه كرم التقي . إن له حرمته التي تغشى كل شيء . . وتسيل في الدروب وتنزل الى الأسواق فاذا هي قد اتخذت زينتها الكبرى .

السجاد يعلق على الدكاكين ، والأخشاب تنصب لتقوم عليها الأغصان الخضراء المجلوبة أحمالا من الغوطة ، والفوانيس تعلق . ويتبارى الباعة في عرض بضاعتهم ، فالدكاكين تتدفق بمحتوياتها الى الخارج . وتجد أكياس الرز معروضة بشكل مغر بجانب السكر وقوالبه المخروطية . والطحين الأبيض مع البرغل الأسمر . وغير بعيد تقدم أكياس النقوع والصنوبر واللوز والفستق والجوز ولفائف القمر الدين ، وبين هذا وذاك صفائح السمن البلدي . وتقف صفائح الزيت والجبن والزيتون

وراء ذلك المشهد . وأما الخضار والفواكه فلها سوقها الذي تسمع فيه ألوان الغزل بها : « أصابيع البيو ياخيار » ، « نصب الملوك يادراقن » ، « الحلوة ليكا يافندي لا تدور عليها الحلوة ليكا » ، « بحر الشورة يازبداني ياتفاح » ، « عالمكسر يا أخضر (للبطيخ) » ، « استامبولدار مملكت يابامية » ،

« الزيق ألماس والأحمر دباس ياعنب » ، ومع أن هذه النداءات الغزلية غير خاصة برمضان ، إلا أن لها فيه جاذبية خاصة ، لا سيما حين يشتد الجوع قبل الافطار .

شهر الصيام شهر الولائم

إن شهر الصيام هو أيضا شهر الطعام . لا يتمتع الموسرون وحدهم بالأطايب ، وتكتظ موائدهم بما تشتهي الأنفس ، ولكن يصيب بعض ذلك الفقراء أيضا ، فالولائم تكثر وتكثر وتأتي على رأسها ولائم الحكام الذين يقسمون الشعب فئات متعددة ، ولكل فئة يوم محدد يدعون فيه . وبعض الناس يتبارون في الدعوة الى ما يقيمون من المآدب لذوي القربى

وللطارئين على المساجد من الغرباء،وللمساكين ، أو يرسلون الأطعمة للأسر « المستورة » ، وغالبا ما تكون الولائم غنية أكثر مما ينبغي بالأطايب وألوان الحلوى فالمغالاة في ذلك ميزة رمضانية يصر عليها الدمشقي لا بسبب التقى ولكن تحت ضغط صيامه على الأغلب ، فشراب عرق السوس ونقيع قمر الدين والجلاب وعصير التمرهندي توجد معا .

وأنواع الشوربات والمقبلات والفول والفتوش بعدها . وألوان الخضار المطبوخة تلي ذلك وقد يذهب بعضها « سكبة » من بيت لبيت (أي هدية طعام) . ويأتي الخشاف بعد الأكل وأنواع الحليب المطبوخ وألوان الفاكهة وتنتهي المائدة بكوب سخي من الشاي الأخضر . . يحاول أن يهضم ذلك الخليط كله !

وتظهر في الأسواق أنواع من الحلوى لا تصنع إلا في رمضان . يظهر الخبز « المعروك » في المخابز . ويطوف الباعة بأقفاص كبيرة من الخوص ملأى بخبز « الجرادق » عليه الدبس . ويكثر الحلوانيون من صنع « النهش » ، والقطائف والبرازق ، فهي حلوى الشهر . وللصغار حلواهم أيضا : (ليلة الله) .

ما يكادون يسمعون بمناديها حتى يهرعوا اليه بقروشهم ويتناولوا منه بضعة أساور عريضة ملونة من السكر . . وفي السحور لا بد من النقوع وبعض قمر الدين . .

مرق وخرق وورق

وتبدأ بذلك مسيرة الشهر « الفضيل » شهر الخشوع والصدقة والأطايب والزيارات وصلة الأرحام وحسم الخصومات أيضا،(اللهم اني صائم)

ومع أن الناس يقسمون رمضان أثلاثا : فثلثه الأول مرق (أي بحث عن شهي الطعام) والثلث الثاني خرق (أي تهيئة لملابس العيد) والأخير ورق (أي دفع صدقات وبحبوحة من المال على الأهل) . مع ذلك فرمضان المقسم بهذا الشكل هو رمضان

« البيوت » . الأسر هي التي تشغل بالمرق والخرق والورق . ولكنك ما أن تغادر البيوت حتى تغرقك أجواء من المد الروحي تسري ملامحها في جميع الوجوه .

التهاني التي تستنفذ اليوم الأول وأمسيته الطويلة ، تستنفذ معه اليوم الثاني . وتصبح المدينة في الأمسيات الأولى بخاصة خلية نحل . حركة الأسر تنتقل من بيت الى بيت . الأهل والجيران تصبح زيارتهم أشبه بالفرض ، والضيافات من الحلو تزيد المعد اكتظاظا ، وحين تمر الأيام الثلاثة تبدأ الأحياء بتبادل الزيارات فيخرج كبار الحي ليباركوا للحي المجاور وينتظرون في اليوم التالي هذا الحي ليبادلهم التهنئة .

العُشر الأول من الشهر هذا دوره ، في حين يكون العلماء ومشايخ الطرق الصوفية قد تبادلوا التهاني مع نقيب الأشراف والمفتي ويكون هؤلاء قد أدوا واجب التهنئة للسلطات الرسمية من والٍ أو رئيس .

.. ولا تستغرق هذه الزيارات وقتا طويلا فإن صلاة التراويح في الانتظار ، وهي عشرون ركعة تصلى حتى في البيوت ، وتتخللها الأدعية كل أربع ركعات : سبحان الملك القدوس ! اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك . وبك منك . لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . . » .

وقد تمتد التراويح في الليالي الأخيرة من الشهر لتزيد عما كانت عليه بإثنتي عشرة ركعة أخرى يسمونها صلاة الرغائب ، فينقضي بذلك كله هزيع طويل من الليل ، في انتظار السحور .

كل هذه التقاليد تمر في جو من البشر والحبور إلا لدى الأسر المنكوبة منذ قريب بفقد أحد أعضائها ، عند ذلك يكون رمضان مناسبة لتجديد العزاء والنواح والخروج الى القبور . .

ليالي رمضان

رمضان ليس بنهاره الصائم ولكن بلياليه . الليالي هي رمضان وحياة رمضان تبدأ بعد الافطار . النهار باهت لا تسمع فيه بكل مكان إلا رمضان كريم » وقد تحتد فيه النفوس أو يضيق الخلق أو تنعس العيون بعد العصر » فالجو متوتر وكل « يتخانق » مع ذباب وجهه . فاذا جاء الليل بسط رمضان أجنحته الملائكية روحانية عميقة هادئة . فالمآذن مضيئة حتى الصباح والزينات المشعة تجمع الصغار والكبار على السمر . والسهرات الأسرية بكل بيت ، وأهل التقى في المساجد قائمون قاعدون في صلاة التراويح ، أو قارئون للقرآن في تبتل وخشوع ، بعضهم يتلو الختمة في شهر ، وبعضهم يتلو كل يوم ختمة ! والناس أهواء وأشتات ، بعض يتمعن بقرقرة النرجيلة أمام الحكواتي الذي يبدأ قصة « عنترة » أو « الزير أبي ليلى » أو « أبي زيد الهلالي » فيستغرق الشهر كله متلاعبا بعواطف السامعين .

وبعضهم يفضل سينما ذلك العصر : إنه (قره كوز) الذي يعمل في ليالي رمضان فقط . ويجتمع اليه اللاهون ، فللصغار موعدهم المبكر ، وللكبار موعد آخر بعدهم يقضون فيه ساعة من الضحك المتواصل والغناء والتفكر بمقالب « قرة كوز وعيواظ والبيو والكر وبكر المصطفى » . وقد يتخلل ذلك نقد جارح للحكم والحكام ! وقد يتجمع الأطفال كعصائب الطير من الحارات مجموعات،بعضهم يحمل الفوانيس أو الشموع أولا ، فهم يتساندون في العتمة وعلى ضوء مصابيح الدكاكين يهزجون :

يا مفطر يابم   يا بزاق الدم
دمك دم الخنزير   ربطوك بالجنزير
والجنزير مالو حلقه   علقوك بالمشنقة

ولا عجب في حماسة الأطفال لرمضان ، فإن لهم رمضانهم الذي يصومونه ويسميه الناس « درجات المئذنة » يصومون حتى الظهر فقط . ولاغرائهم بالصيام تقوم كبيرة البيت بحمل الطفل على ظهرها ، والطواف به في ساحة الدار ، ثم تضع له مائدة

صغيرة ليأكل كالكبار . ويمتد الليل ويمتد بمعظم الناس ليصبح ليلين أو ثلاثة فلا ينتهي الا مع طبلة المسحر ! الأداة الموسيقية بامتياز لهذا الشهر .

طبلة المسحر

في الليلة الأولى لرمضان يسمع النائمون في الهزيع الأخير من الليل نقر الطبلة ومن ينادي عليهم بالصحو . إنه المُسَحر ! يوم كانت المدينة صغيرة في القديم ، كان طبل واحد يقرع للسحور فيها .

وحين كبرت صغر الطبل ، وتوزع طبلات صغيرة يقرعها المسحرون في الحارات والأزقة . وقبل توافر الساعات المنبهة ، كان الكثيرون في حاجة الى من

يوقظهم لتناول السحور ، وكان في دمشق ما يقارب خمسة وسبعين مسحرا يملأون الليل بالنقر والنشيد والصياح . ويسلي المسحر نفسه بالغناء أو يستعين به

على لسعة البرد أو على الظلمات المتراكمة . وتسمع في هدأة الليل طرقا على الأبواب والمسحر ينادي على صاحب البيت باسمه :

قوم يانائم   وحد الدايم
يابوكاسم وحد الله   قول لااله الا الله

وقد ينشد المسحر وهو عائد من جولته بعض المدائح النبوية :

ياماسارت لك المحامل بأشرف العربان
حنين بدرك وحنين نورك يامحمد بان

وليس المسحر بالمتطوع ، إنها مهنة وأجر جزيل يدومان شهرا في السنة ، والمهنة مقصورة على بعض الأسر المتخصصة بها ، ولها مشيخة ، وشيخ الكار منصبه وراثي ويتقاضى أجره من التابعين ، واليه يجتمع المسحرون قبيل انتهاء النصف الثاني من شعبان لتوزيع المطافات (المناطق) بينهم أو استئجار تسحيرها ، ولحسم ما ينشب من الخصومات أيضا ، فثمة خصومات لا تنتهي ، وللمهنة نقيب مهمته التفتيش ، وشاويش يقوم بمهمة الاتصال بين المسحرين وشيخ الكار !

ويتقاضى المسحر أجره يوميا قبيل الافطار من جميع البيوت التي يطوف بها في الليل : صحون طعام يختلط فيها المحشي مع اللحم والسلطات مع الحلوى حتى صارت هذه التشكيلة مثلا شاميا على الخليط غير المتجانس : مثل « صحن المسحر » أو « سلة المسحر » وقد يلحق به بعض الأطفال لسماع غنائه وطبله أو ينتظرونه ليضايقوه وهم يهزجون :

أبو طبلة   مرتو حبلة
شو جايت ؟   ما جابت شيء
جابت جردون بيمشي !

لكن المسحر ينسى عند نهاية الشهر كل المضايقات والليل والزمهرير « بالعيدية » التي لا بد منها ويدفعها رب الأسرة شاكرا أول أيام العيد . . وقد غابت صورة المسحر الآن فلم يبق من شخصيته الا الظل الباهت في الحارات القديمة .

مظاهر الوداع

حين يتجاوز الشهر منتصفه تلتقي معظم العيون والقلوب في سرة البلد : في الجامع الأموي ، هناك تجتمع كل مظاهر رمضان من التقى الخاص ، ومن المظاهر الخاصة ، ويبدأ الشعور بتصرم رمضان

وهرب لياليه ، فتبدأ حركة وداعه التي تصل أوجها ليلة السابع والعشرين من الشهر . . وفيها تشتغل النساء في إعداد ملابس العيد للصغار ويسهر الخياطون عليها وينهمك الحذاؤون في إنهاء أحذية

الصغار الذين يبكون لأن ملابس العيد لم تته في مواعيدها . وينادي باعة الآس في المنعطفات وعلى

قارعة الطريق لبيع أغصانهم الخضراء للناس كي يزوروا بها القبور صباح العيد ، ويتراكض المساكين الى أطراف الجوامع يتلقون زكاة رمضان وزكاة الفطر . . وكل ذلك يجعل المدينة شعلة نشاط وحركة

وسهر ، ثم ينصرف أصحاب الشعائر الدينية الى ما ينبغي من الترتيبات لوداع الشهر . وللوداع طقوسه وتقاليده ، ولكل جماعة دينية طريقتها في الوداع .

أما المؤذنون فيخرجون الى المآذن في جوقة متطوعة وينشدون كل ليلة اعتبارا من الخامس والعشرين من الشهر :

يا شهرنا أودعتنا
عليك السلام
لا تشتكي من سوء أفعالنا
واصفح فان الصفح من شيم الكرام

وينبري واحد منهم منفردا :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا
ونويت من بعد المقام رحيلا
نبكيك يا شهر الصيام بأدمع
تجري فتحكي في الخدود سيولا

ويبرز أصحاب الطرق الصوفية كل منهم بلباس طريقته الى الجامع الأموي أو الى الاحتفالات الدينية في المدينة ، أو الى الحضرة (مقر الطريقة) لاقامة الذكر .. ولكل طريقة يومها الخاص الذي يحرصون أن يكون فرديا لأن ليلة القدر قد تتجلى في تلك الأيام حتى السابع والعشرين .

ولما كانت غايات الطرق متشابهة هي عبادة الله كأنك تراه،فان طقوس الذكر لديها متشابهة ، تنشد المدائح النبوية وتوزع أجزاء من القرآن على الناس لتلاوتها ثم تأتي فترة الدعاء والاستغفار ولها بدورها تراتيبها : أستغفر الله ١٠١ مرة ، لا اله الا الله ١٠١ ، الله الله ١٠١ مرة . وبعد وصلة من المدائح النبوية ينهض مريدو الطريقة ويبدأون الذكر على ايقاع الدفوف : الله يادائم (٣٣ مرة) يا حي يا قيوم (٣٣ مرة) الله (٣٣ مرة) كل ذلك مع هز الرؤوس يمنة ويسرة ووضع الكف الأيمن على القلب !

وتتميز الطريقة المولوية طريقة جلال الدين الرومي التي نشرها العثمانيون وتبرز ،فأتباعها الدراويش لهم ذكرهم الخاص ، بل ! إنهم يجتمعون ليلة الاثنين والجمعة من كل أسبوع ، وليالي ٢٧ رجب والنصف من شعبان وليلة المعراج والمولد ، لكن اجتماعهم الأكبر انما يكون في ليلة القدر السابع والعشرين من رمضان . انهم يعقدون مجلس الذكر في مقر التكية المولوية حيث يجتمع الدراويش بالألبسة التقليدية (الكلاه والعباءات السود تحتها الثوب بالتنورة الفضفاضة) ويدخلون الى الحضرة (السمع خانة) ثم يلحق بهم شيخ الطريقة وتبدأ قراءة القرآن ثم تفخ النايات ثم يقوم الدراويش للدوران على رؤوس الأقدام والكعوب وتتحرك الأيدي من الصدور الى الأعلى ويمتد الدوران وتعلو الأناشيد النبوية فيما يظل الناي على النواح ليصبح الجميع مجرد خاريط بيضاء تدور وتدور .. وينتهي الذكر بتلاوة القرآن ثم يتلوه الدعاء .. ولكن بالفارسية فهذه هي التقاليد .

ويخرج الدراويش بعد ذلك الى مقرات الطرق الأخرى متنقلين من دار الى دار . مقدمين في كل منها « وصلة » راقصة للتحية ويدركهم السحور فيتسحرون عند شيخ الطريقة الأخير قبل أن يدخلوا الجامع الأموي . ويدخلون وهم يدورون ويعودون ثم يكررون فاذا وصلوا مقام النبي يحيى وسط الجامع حيوه « دام سره »ثم صلوا الصبح وانصرفوا خارجين .

أما أصحاب الطرق الصوفية الأخرى فيلتقون في الجامع الأموي بعد عصر اليوم الأخير من رمضان .

وتعرف كل طريقة موضعها من الجامع . فهنا الرفاعية ، وهناك القادرية ، ومن بعدها التلمسانية والأحمدية والمولوية وغير بعيد الهاشمية ، ويتجمع السعدية أمام مقام النبي يحيى ، ويقوم الجميع بالأذكار وتلاوة الأوراد والتهليل والتكبير . إنها لحظات الوداع الأخير لرمضان قبل أن تضرب المدافع احدى وعشرين طلقة معلنة حلول عيد الفطر .

كلٌ له احتفال

وللمسحرين بدورهم احتفالهم بوداع رمضان ليلة السابع والعشرين . يجتمعون في مقهى معين وفي

صدر المكان شيخ الكار والنقيب والشوايش ، وأمامهم مائدة تزينها الشموع ومع كل مسحر طبلته

وأمامه فانوسه وسلته ويأخذون في انشاد المدائح النبوية وعزف الطبلات حتى يأخذهم « الحال » وهي

لحظة الاشراق الصوفي . وحين تذوب الشموع يخرجون بفوانيسهم والطبلات وهم ما يزالون ينشدون ويهزجون :

ياسامعين ذكر النبي عالمصطفى صلوا
لولاك يا محمد ما بنوا جامع ولا صلوا

غير أن قمة احتفالات السابع والعشرين هي الاحتفال بشعرة النبي ، في تلك الليلة يقوم حفل خاص في جانب من الجامع الأموي هو مشهد الحسين ، الحفل للتبرك بشعرة من شعرات النبي ،

وفي دمشق ثلاث شعرات من شعره : احداها لدى آل سعد الدين أهداهم إياها السلطان عبدالحميد ،

والثانية لدى شيوخ الطريقة الشاذلية آل أبي الشامات ، والثالثة لدى الاشراف آل حمزة يحفظونها في مشهد الحسين ، فلا تخرج الا في المناسبات الدينية الكبرى : ليلة ٢٧ رجب ، النصف من شعبان ،

ذكرى المعراج ، ذكرى المولد ، وفي ليلة القدر هذه يقام الذكر أولا حتى الوصول الى حالة الوجد العميق ثم يكشف الشيخ الستارة عن مقام الشعرة ويخرج صندوقها من محرابه مغشى بالحرير وموشى بالآيات المذهبة ، وحين يبدأ بكشف الأغطية غطاء بعد غطاء يتعالى صوت المنشدين :

يا زائرا شعر النبي محمد
كن عند كشفك للغطاء معظما

ويتلمس الحضور تلك القارورة التي تحوي الشعرة أو يحملها الشيخ فيلوح بها في حركة دائرية على الجميع قبل أن يعيدها الى الصندوق في انتظار موسم قادم . . وتهوي الأيدي إثر ذلك على صحون الطعام والحلويات في عشاء دسم أو سحور فاخر .

كانت جدتي تروي لنا قصة أهل الكهف وتختمها بقولها :

« وقال بعضهم لبعض : ناموا لتنام ، لا الدنيا دنيا ولا الناس ناس »

أنستطيع أن نقول ذلك عن رمضان الأمس ورمضان اليوم ؟

لك الله يادمشق ! □

عناصر الدعوة الاسلامية

● مما قاله المرحوم الشيخ محمود شلتوت في مؤتمر عقد في رابطة الاصلاح الاجتماعي سنة ١٩٤١ ما يلي : تتلخص الدعوة الاسلامية مهما تشعبت فروعها في مبدأ واحد هو « دعوة العالم إلى الخير » ، فإذا أردنا أن نفصل في هذا المبدأ بعض التفصيل قسمناه إلى نواح ثلاث هي : التوحيد والمساواة والعدل .

فقد أصلح الاسلام بالتوحيد فساد العقيدة ، فدعا الناس إلى احترام عقولهم بهجر ما كانوا عليه من الأوثان ، معلنا أن للكون ربا عظيما ، وإلها مدبرا حكيما ، هو الجدير وحده أن يعبد . وقرر بالمساواة مبدأ الوحدة الانسانية التي لا تعرف التفريق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين عنصر وعنصر .

وقضى بمبدأ العدل على الظلم ، والتحكم ، والاستبداد ، وأقربه الأمن والطمأنينة والرضا ، ولم يفرق فيه بين قريب وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ولا بين مؤمن وكافر .

أبناؤنا في رمضان

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

رمضان يتقرب الى أبنائنا قبل أن يتقربوا اليه . ويأتي ومعه الهدايا دون أن يسألهم شيئا .

وهو الشهر الوحيد الذي جاء اسمه صريحا في القرآن ، كأنه يوسف بين إخوته .

حين تثبت رؤية الهلال يتبدل في العالم الاسلامي نظام الحياة اليومية ، في فرحة تضيء بها الوجوه والمآذن ، وتشرق آفاق من الحب والسخاء وصلة الأرحام .

رؤية الهلال ... والوجه الآخر

ومع هذه الفرحة ، من حق أبنائنا ومن حقنا معهم أن نتوقف عند مشكلة تقابل العالم الاسلامي كل عام ، وهي الاختلاف في بدء شهر الصوم . ذلك الشهر الداعي الى الوحدة في العبادة ، وهي التي نراها في الصلاة كما نراها في الحج .

ان رمضان يتبع التقويم القمري ، والنظام الاداري والعلمي في أكثر أقطار الاسلام يتبع التقويم الشمسي . والشمس والقمر آيتان من آيات الله جعلها لنعلم بها عدد السنين والحساب . وبهذا يدور رمضان مع التقويم الشمسي فيأتي في الصيف أو في الشتاء . وإن أكثر أرض الاسلام في المنطقتين الحارة والمعتدلة ، ولها امتدادها الحديث الى العروض الباردة ، وقد قاربت بعض الجاليات الاسلامية الدائرة القطبية . وأدى هذا الى ظهور قضايا لا يصح أن تترك لاجتهادات فردية أو محلية .

إن العالم أصبح الآن مدينة واحدة كبيرة ، وقضى التقدم العلمي على الاحساس بالمسافات . وأمامنا اقتراحان عمليان لتوحيد بدء الصيام في العالم الاسلامي :

الأول : أن نتفق على اعتبار مطلع مكة هو مطلع

الهلال . فمع كروية الارض لابد أن تتعدد المطالع . ولنعامل الصوم كما نعامل الحج . يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » (البقرة : ١٨٩) . ولا يمكن أن يجادل مسلم في اتخاذ مكة مطلعا موحدا للعالم الاسلامي . الثاني : مع التقدم الهائل في علم الفلك وعلوم الفضاء الخارجي لم يعد الحساب الفلكي محل شك . ونحن عمليا نسير عليه في بقية ايام رمضان بعد ثبوت الرؤية . ونتبعه امساكا وصلاة وفطرا . . فلماذا هلال رمضان وحده يبقى بعيدا عن دائرة الحساب الفلكي . هذه الامساكيات أو الروزنامات التي نسير على هداها كلها تتبع الحساب الفلكي . ألا ترى في هذا تناقضا استمر في حياتنا حتى أصبح عادة لها احتفالاتها واتصالاتها ـ وأحيانا ـ محاولات التوفيق فيها ؟! .

وأبناؤنا يعرفون الكثير عن التقدم العلمي المعاصر من مدارسهم وصحافتهم وأجهزة الاعلام . ويعجبون ـ ونعجب معهم ـ في أمر هذه القضية المتجددة .

لو أتفقنا على إقامة مرصد رئيسي في مكة فيه رجال فلك ورجال شريعة ، وأصدرنا « تقويم مكة » لكانت هذه خطوة جليلة نقدمها الى الأجيال المقبلة .

عمليا : سيكون هناك أقطار لاترى الهلال وتصوم . والعكس قد يحدث . ولكن توحيد المطلع واتخاذ الحساب الفلكي الدقيق فيه ، هو الطريق الأمثل ـ هل أقول الوحيد ـ الى وحدة العالم الاسلامي في شهر الصيام وفي الحج معا ، وهما أهم شعيرتين تقتضيان رؤية الهلال وتحديد أول الشهر .

وعندما يطول نهار رمضان

وفي المنطقة الحارة لايزيد الفرق بينهما عن أربع ساعات ، ثم يزداد في المناطق المعتدلة الدفيئة ، ويتسع الفرق في المناطق المعتدلة الباردة حتى يصل الى عروض يزيد فيها طول النهار عن عشرين ساعة .

ولفقهائنا في هذا أكثر من رأي . وان الامر يحتاج الى لقاء عالمي بين علماء الاسلام . علماء يمثلون هذه المناطق جميعا ، ويبحثون مشكلاتها وعلاقة الصوم بالحياة اليومية ، ودورة العمل والنظام الدراسي والامتحانات . والله تبارك وتعالى يقول في كتابه وسط آيات الصوم « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (البقرة : ١٨٥) .

ونحن في المناطق المعتدلة نقابل أمر الصيام وقت أداء الامتحانات ، وفي الابناء حب لأداء الفريضة . وحب للتفوق الدراسي . فما دور الدولة في تنظيم ذلك ؟ هذا بالاضافة الى مشكلات الاقطار الشمالية والجنوبية الباردة .

صورة واقعية

ومازلت أذكر مؤتمرا إسلاميا في أواخر الستينيات شهدته في مدينة كوالالمبور عاصمة ماليزيا بدعوة من حكومتها . وكان هذا المؤتمر ـ عمليا ـ تمهيدا طيبا لقيام منظمة المؤتمر الاسلامي التي عقدت اجتماعها الأول في الرباط بعد حريق المسجد الاقصى .

كانت قضية القدس الشريف وفلسطين في مقدمة جدول الاعمال ، وكنا وفودا من أكثر من عشرين دولة اسلامية . وفي الجدول موضوع رؤية الهلال وموضوعات أخرى .

وفي سهولة ويسر اقترح أحد الحاضرين إعلان الجهاد المقدس في أمر القدس وفلسطين . ووافق الحاضرون بالاجماع . ثم جاء موضوع رؤية الهلال فاختلفوا . . وما زالوا مختلفين . ودعا رئيس وزراء الدولة المضيفة رؤساء الوفود الى اجتماع خاص . . وكان مما قاله بكل الوضوح :

ـ إنكم تجمعون على اعلان الجهاد المقدس . فهل أنتم رؤساء دول حتى تتخذوا هذا القرار ؟ إن الجهاد المقدس هو ذروة الاسلام . وهو قرار استراتيجي كبير يقتضي حشد كل طاقات العالم الاسلامي وتوجيهها الى هدف محدد ، وتنسيق العلاقات بين الدول . أتدرون لماذا اتخذتم قرارا اجماعيا ؟ الحق أقول لكم : إنكم اتخذتموه لأنكم لن تنفذوه . واختلفتم في رؤية الهلال لانكم ستصومون . فأنتم اتفقتم على ما لا تعملون ، واختلفتم فيما تعملون . ولكل منكم رأي لابود التنازل عنه . منكم من يأخذ بالحساب الفلكي وقد أعلن ذلك . ومنكم من

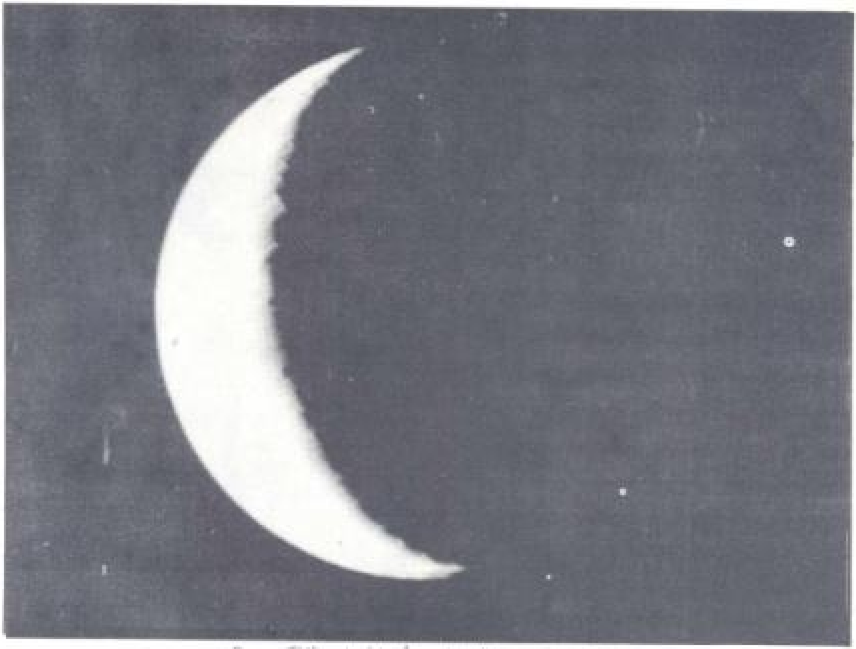

هلال رمضان .. بالرؤية .. أم بالحساب الفلكي ..؟

يتمسك بالرؤية النظرية .

ثم تابع الرئيس قوله :

ـ أود أن أنقل لكم ما يقوله إخوانكم في ديارنا ، وما سمعته في بعض الاقطار النائية . إن إخواننا في كثير من الاقطار العربية يفكرون بعقلية صحراوية . السماء فوقهم صافية أكثر أيام السنة . ومن اليسير على صاحب النظر الحديد منهم أن يرى الهلال بالعين المجردة . ونحن في ديار لا نكاد نرى فيها السماء الا قليلا . ويسقط المطر أكثر ايام السنة . وليس أمامنا الا سؤال الجيران أو الاخذ بالحساب الفلكي . والاسلام جاء عالميا . والعلم من صفات الله تعالى ، ومما دعانا الى طلبه والاجتهاد فيه . فلماذا لا نوحد المطلع ونأخذ بالحساب الفلكي .

ثم هناك أقليات إسلامية تعيش في دول أكثر أهلها من غير المسلمين : وضرب لنا مثلا من سريلانكا ، حيث يقل المسلمون عن عشر السكان . وكذلك الجاليات الاسلامية الجديدة في العالم الجديد وأوروبا واستراليا ونيوزيلندة . يسألهم رؤساؤهم عن موعد العيد لتنظيم دورة العمل ، وإعطائهم فرصة لصلاة العيد وعطلته . فيقول المسلمون : حتى نرى الهلال . ويعجب الرؤساء من طريقتنا في مقابلة مشكلاتنا ونحن في عصر العلم والتقنيات وغزو الفضاء . ولكم أن تتصوروا الحرج الذي يعيش فيه اخوانكم .

ورغم هذه الدعوة الحارة المخلصة ، لم يتفق قومنا على كلمة سواء في أمر الصيام ورؤية الهلال .

فهل تستطيع الالتقاء ، ليكون هذا هدية من علمائنا الى أبنائنا

أحكام صيام الابناء

ولنا في هذا كلمتان الاولى لغوية والثانية فقهية .

الصوم في اللغة هو الامساك . قال تعالى عن مريم « إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » (مريم : ٢٦) والصوم هنا الصمت ، لأنه إمساك

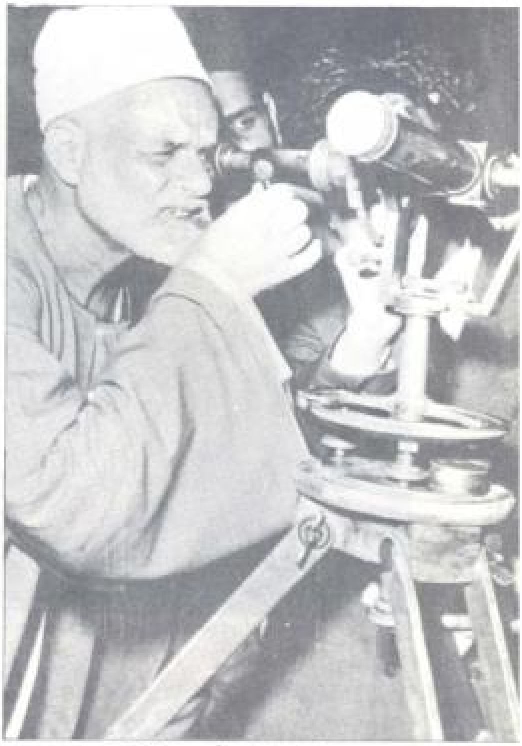

رؤية الهلال بالأجهزة الفلكية ..

عن الكلام . ويصفون به الخيل لو كانت صامتة .
يقول الشاعر :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما .

(والصائمة الممسكة عن الصهيل)
والصوم شرعا الامساك عن أشياء مخصوصة في أوقات مخصوصة . وصوم رمضان فرض في الكتاب والسنة والاجماع .

وتقرأ في الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة (ت ٦٨٢ هـ) :«ولا يجب الصوم الا على المسلم البالغ العاقل القادر على الصوم . ولا يجب على كافر ولا مجنون ولا صبي .. فأما الصبي العاقل الذي يطيق الصوم فيصح منه ، ولا يجب عليه حتى يبلغ ، وكذلك الجارية » .نص عليه (أحمد بن حنبل رضي الله عنه) وهذا قول أكثر أهل العلم . وذهب بعض أصحابه إلى أنه يجب على الغلام الذي يطيقه إذا بلغ عشرا ، يقول ابن قدامة « ويمكن حمله (أي القول بالوجوب) على الاستحباب ، وسماه « واجبا تأكيدا » (٣ : ١٣) ، ويأمر الولي الصبي بالصيام إذا أطاقه ليتمرن عليه ويعتاده كالصلاة (٣ : ١٤) واعتبار الصوم بالصلاة أحسن لقرب إحداهما من الأخرى في كونها عبادتين بدنيتين من أركان الاسلام ، إلا أن الصوم أشق فاعتبرت له الطاقة ، لأنه قد يطيق الصلاة من لايطيق الصوم (٣ : ١٤) .

وأنت ترى في هذا درجات من التحمل والارادة وأسلوبا في التربية بالحرمان الى حين . حرمان مما أحل الله وبأمره ، ليس فيه على الانسان رقيب الا الله .

وتستطيع أن تأمر الصبي بالصلاة ، وترقبه حتى يصلي ، فإذا فرغ انصرف الى شئونه من مذاكرة أو عمل أو ترويح . أما الصوم فلا تستطيع أن ترقبه فيه طول نهاره . فالصوم عبادة متصلة تقوم على الرقابة الذاتية واحترام النفس والوعد أمام الله تعالى . وفي هذا يتفرد عن العبادات جميعا ، وتأتي منزلته التي نقرؤها في الحديث الشريف « كل عمل ابن آدم يضاعف . الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى الا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به . يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه (أي رائحة فمه) أطيب عند الله من ريح المسك . » (رواه الستة عن أبي هريرة) .

فرحتان

وفرحة الفطر ليست ذاتية فقط ، وإنما تمتد الى المشاركة في إعداد الطعام وتيسيره لأهل البيت وضيوفه والعابرين وللأبناء في هذا نصيب . وما زالت بعض أقطار الاسلام تحافظ على تقاليد كريمة ـ وبخاصة في الريف وعلى مواقع السفر والرحلة ـ

فمنهم من يمد المائدة في رحبة أمام بيته ، فلا يحتاج العابر الى استئذان في دخول . ومنهم من يجعل لدار الضيافة بابا مفتوحا على الطريق . وللابناء في اكرام الضيوف تسابق . ولو تأملنا لفظ « حفيد » وهو ابن الابن ، رأيناه يحمل معنى المسارعة الى عمل شيء .

وفي الدعاء « وإليك نسعى ونحفد » والحفدة أيضا من يقومون بالخدمة . وفي هذا يبدو الترابط اللغوي والاجتماعي ـ قل والانساني ـ بين الأبناء والتعود على المسارعة الى عمل الخير ، وله في رمضان مجالات واسعة ، وتبلغ هذه الفرحة مداها مع نهاية الشهر المبارك ، والمشاركة في توزيع زكاة الفطر قبل صلاة العيد .

وفي حديثين رواهما الامام مسلم عن عبد الله بن عمر نقرأ :

١ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باخراج زكاة الفطر ، أن تؤدى قبل خروج الناس الى الصلاة .

٢ـ أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس : صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، على كل حر أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

ويعادل الصاع نحو أربعة كيلوجرامات مع جبر الوزن ، ودفع القيمة أفضل من دفع العين . وفي هذا تفصيل يمكن الرجوع اليه في كتب الفقه .

والذي يعنينا هنا بالنسبة لابنائنا ، أنهم يشعرون مع رمضان ومن طفولتهم بالاخاء الاسلامي والمشاركة والتكافل ، يدفع الأباء زكاة الفطر عنهم وهم صغار ، فإذا بلغوا السعي دفعوا عن أنفسهم ، واذا كونوا أسرا دفعوا عن أهلهم .

أما الفرحة الثانية فهي عند لقاء الله . وكل انسان مهما طالت حياته فسيودعها يوما . ولكل انسان ثلاثة أصدقاء : المال والأهل والعمل الصالح .

أما الأول فيظل في داره ولا يخرج لوداعه . وأما الأهل فيشيعونه الى قبره ثم ينصرفون . وأما العمل الصالح فهو الرفيق الذي لايتخلى عن صاحبه « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . . » (الأنبياء : ٤٧)

هناك حيث البقاء ، وحيث يموت الموت ، وحيث الخلود في دار الخلود . □

دار النـــــدوة أول برلمان عربي

● يقول المستشرق « أوليري » في حديث له عن مكة ، ان القبائل العربية التي استقرت في مكة كانت مشتركة في تحالف بقصد نقل التجارة ، وكان لهذا الاتحاد مجلس عام أو « ملأ » يضع الخطط التجارية ، ويناقش القضايا العامة ، ثم تطور هذا المجلس الى شيء من الاستقرار النسبي ، وما ان انتصف القرن الخامس الميلادي حتى انبثقت من هذا المجلس دار الندوة التي اسسها قصي بن كلاب بن مرة أحد أجداد الرسول . فالندوة لغة « المجلس » ودار الندوة كل دار يُجتمع فيها للمشاورة .

ويظهر ان استخدام هذه الدار لم يكن للتشاور فقط ، بل ان قريشا كانت تعقد فيها ألوية الحرب ، أو منها كانت ترسل قوافلها للتجارة ، بل لم يكن ليتزوج رجل أو امرأة من قريش الا فيها ، ففي دار الندوة اجتمعت قريش لتقرر مصير الرسول قبل هجرته ، وفيها كانت تجتمع للتداول في أمر غزواته ولتراقبه ورفاقه .

أغنية وقصيدة

شعر :
ابراهيم نصر الله

الأغنيـــة :

أدافعُ عما سيبقى من الوردِ .
ماذا تبقى من الوردِ
في ساحةِ المذبحةْ ؟ !
أدافعُ عن كِلْمَةٍ لم أقلْها ،
وعن فرصةٍ لم تكن سانحةْ .
أدافعُ عن ولدٍ وجدارٍ ،
وعن شمسِ أشلائنا الجارحةْ .
أدافعُ عن كتبي ودمائي ،
وعن طائرِ اللحظة المُفرحةْ .
أدافع عنكِ ،
وعنـكَ ،
وعـني ،
وأطلقُ شريانَ قلبي يغني :
اعطنا أيها البحرُ
ماءً ، هواءً ،
وقبلَ الهواءِ اعطنا أسلحةْ .

القصيـــدة :

أنتِ لم تعلمي بعدُ
أن الرياحَ تدورُ ،
وحينَ تعودُ إلى بيتها
لا تجـد
غيرَ صـدري ،

وأن الطيورَ تغني ،
وحين يجيء الظلامُ
تحطُّ بحزنٍ على ساعديَّ ،
وفي آخرِ الليلِ تدركُ سري .
أنتِ لم تعلمي
أن هذي الحقولَ التي تركضُ الآن
أشجارُها في الفضاء ،
وتعلـو
بأني أجمعها كالصغارِ
تنامُ هنا ،
ثم تصحو صباحاً ، وتسرقُ شعري .
أنتِ لم تعلمي
أن روحي حائرةٌ كالمدى
بين مدي وجزري .
إنني ذاهبٌ
ذاهبٌ
فدعيني على صدركِ الآن أغفو ،
وأسرقُ أشرعتي آخرَ الليلِ أسري .
أنتِ لم تعلمي أنني جارحٌ كجناحٍ ،
وأغنيـةٍ
شـاردٌ
سـاكـنٌ
إنني منذ جئتُ إلى العالمِ الرحبِ أحيا هنا
وهنـا
وهنالكَ خارجَ عمري .
أنتِ لم تعلمي أنني راحلٌ كالصدى ،
ومقيمٌ كظلٍ ،
ومنتشرٌ لأضـلَّلَ قبري .

الأيدز وأفـــريقيا والعنصـــريّة!

بقلم : الدكتور علي الدين هلال*

كتب كثير عن مرض « الايدز » ، أو نقص المناعة المكتسبة ، ووجدت عدة فرضيات حول أسباب هذا المرض ، ومكان وجوده الأول ، فقال بعضهم إنه تم تحضيره في المعامل ، وقال آخرون : بأن موطنه الأول هو افـريقيا ، وغيرهم قال ببطلان ذلك .

والمقال التالي يأخذ بعدا سياسيا تحليليا لهذا المرض ويدلي دلوه في هذا الاتجاه .

في عالمنا المعاصر صار من الصعب عزل الاعتبارات السياسية عن كثير من الموضوعات التي تبدو لأول وهلة بعيدة عنها ، أو ينبغي أن تكون هكذا . من ذلك موضوع أصل مرض نقص المناعة الذي سمي في اللغة الانجليزية « ايدز » (AIDS) ،

وفي اللغة الفرنسية « سيدا » (CIDA) ، وفي أوغندا « سلم » (SLIM) ، وقد أثار ظهوره وانتشاره موجات من الفزع في أوروبا والولايات المتحدة ،

وفتح الباب لعدد غير قليل من الكتابات الصحفية المتسرعة غير المسئولة عن أعداد المرضى وأصل المرض .

مصدر خطورة هذا المرض أنه على الرغم من اكتشاف اول حالة له في الولايات المتحدة عام ١٩٨١ ، وعلى الرغم من تخصيص موارد مالية وطنية كبيرة لمواجهته في الدول الغربية المتقدمة ، فإنه لم يتم الوصول إلى علاج حاسم له حتى الآن ، وأنه ما زال ينتشر بسرعة في العالم .

فوفقا لأرقام منظمة الصحة العالمية فإن عدد المرضى في سبتمبر ١٩٨٦ وصل في الولايات المتحدة إلى ٢٥,٥١٥ ، وفي أوروبا إلى ٣,١٣٠ ، وفي افريقيا إلى ١,٠٠٨ ، وفي آسيا إلى ٥٤ ، وفي سبتمبر ١٩٨٧ وصل الرقم إلى ٦٠,١٥٣ في ١٢٤

* استاذ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة - مركز البحوث والدراسات السياسية .

دولة . واحتلت القمة الولايات المتحدة ، حيث بلغ العدد فيها ٤١,٨٢٥ ، بنسبة ٦٥٪ تقريبا ، يليها فرنسا ١,٩٨٠ ، فالبرازيل ١,٦٩٥ ، فألمانيا الغربية ١,٢٩٨ ، فأوغندا ١,١٣٨ ، فتانزانيا ١,١٣٠ ثم كندا ١٠٠٠ ومن الدول التي يتراوح عدد المرضى فيها من ٥٠٠ إلى ٩٩٩ استراليا وهاييتي وكندا وايطاليا . أما اليابان فإن العدد يتقلص إلى ٤٣ مريضا .

تنبع خطورة هذه الأرقام من أنها تشير إلى انتشار المرض عاما بعد عام . لكن أيضا من حقيقة أن هذه الأرقام تمثل الحالات التي تم تسجيلها رسميا من جانب الحكومات وابلاغها لمنظمة الصحة العالمية . ويقدر بعض الباحثين أن هذه الأرقام تمثل نصف العدد الحقيقي للمرض . أضف إلى ذلك أن هناك فارقا بين المرضى الذين يتم علاجهم ، وحملة فيروس المرض الذين أصيبوا به دون أن تظهر عليهم أعراضه ، وتتراوح تقديرات هذا العدد بين ٥ ـ ١٠ ملايين في العالم .

نحن إذن إزاء خطر حقيقي ، تتنوع أساليب نقله لا سيما في المستشفيات وأثناء نقل الدم . ويقدر خطورة المرض كانت محاولات تفسير أصله ومصدره .

فقد سارعت مجلة عسكرية سوفيتية في عام ١٩٨٣ بالشرح :

إن فيروس مرض نقص المناعة لا يوجد في الطبيعة ، وإنما هو فيروس اصطناعي ، تم تركيبه في معامل الجيش الأمريكي الذي كان يقوم بتجارب في الحرب الكيماوية ، وتم تسرب الفيروس منها . وقال بنفس الرأي عدد من الأساتذة الأوروبيين والأمريكيين الذين ذكروا أنه ربما تم الحصول على عينات أولية من الفيروس من القرد الأخضر في غابات أفريقيا ، ثم تم تطويرها في المعامل .

هل أصل الفيروس أفريقي ؟

لكن الرأي السائد في الكتابات الأمريكية والأوروبية وبخاصة على مستوى الصحافة والمجلات هو أن المرض أصله أفريقي ، وأن الدول الأفريقية لا

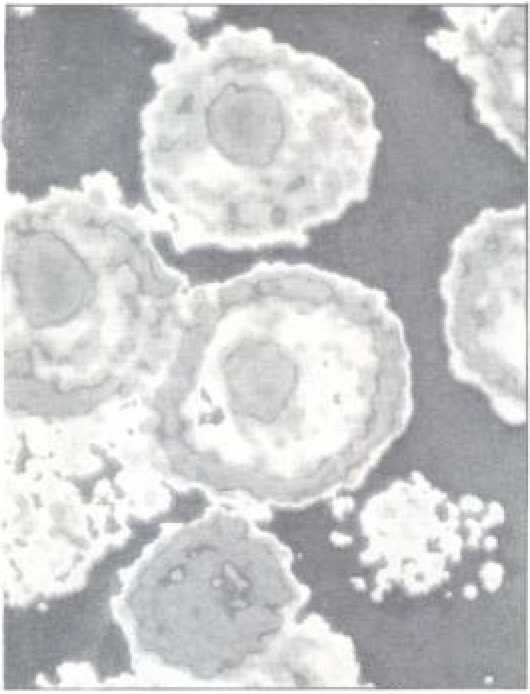

فيروس الأيدز يتحول إلى مادة مدمرة لجملة المناعة عند الإنسان

تريد الاعتراف بحجم المشكلة الموجودة لديها ، ومن ثم فإنها لا تقوم باتباع السياسات اللازمة الضرورية لمواجهة المشكلة .

وتقدم هذه الكتابات عددا من الحجج التي يمكن إيجازها على النحو التالي :

١ ـ أن هناك عددا من المرضى الذين توفوا في الستينات والسبعينات في أفريقيا بسبب أمراض لم تكن معروفة أو مفهومة في ذلك الوقت ، وأنه يمكن اليوم تفسير تلك الوفيات بأنها نتيجة لفيروس مرض « الأيدز » .

٢ ـ أن أول مريض ظهرت عليه أعراض « الأيدز » كان في افريقيا في عام ١٩٧٧ ، تلاه بعد ذلك المريض الأمريكي عام ١٩٨١ .

٣ ـ أن أحد المرضى الذين ماتوا مبكرا من

« الايدز » كان بلجيكيا ، عاش في زائير مدة طويلة .

٤ - أن أحد مكونات فيروس « الايدز » موجود في القرد الأخضر .

على أن هذه الحجج تتضمن قدرا كبيرا من الفرضيات والمعلومات غير المؤكدة التي لا تستند إلى دليل .

فلو كان المرض قد ظهر حقا في افريقيا قبل ظهوره في أمريكا ، لكان يجب أن ينعكس ذلك على انتشار المرض وعدد المرضى ، وهو الأمر الذي لم يحدث ، فما زالت الولايات المتحدة تتقدم على كل القارة الافريقية في عدد حالات المرض . ولو كان المرض قد بدأ في افريقيا لكان من الطبيعي أن ينتشر أولا في أوروبا ،قبل أن ينتقل إلى امريكا ، لا سيما في الدول ذات الصلة الوثيقة بالدول الافريقية كفرنسا وانجلترا ، وذلك بحكم القرب الجغرافي نسبيا ، وبحكم تبادل الزيارات بين الطرفين .

أما بالنسبة لاحتمال أن يكون المرض قد وجد في أفريقيا قبل عام ١٩٨١ ولم يتم اكتشافه أو التعرف على مظاهره وأعراضه ، فإن ذلك غير مرجح ، فأعراض المرض واضحة ، ولا يمكن تجاهلها أو الخلط بينها وبين أمراض أخرى ، ولا يوجد في سجلات الأطباء الأفارقة أو الأوروبيين الذين اشتغلوا في أفريقيا خلال الستينات والسبعينات ما يشير إلى وجود تلك الحالات الغريبة أو التي لم يمكن تفسيرها .

هذا ما كتبه الدكتور البريطاني « روبرت بيجر » في المجلة الطبية البريطانية في يناير ١٩٨٦ ، وقد أشار إلى أنه لا يوجد دليل على ظهور حالات مرضية تقترب أعراضها من أعراض الايدز خلال مدة العشرين سنة الماضية ، لذلك رجح أن يكون الايدز مرضا جديدا لم يكن معروفا من قبل في افريقيا .

تمييز وعنصرية

تبقى نظرية - أو افتراض - القرد الاخضر ، وأنه باعتباره حاملا لفيروس المرض ، وأن بعض السياح قد قام بنقل المرض إلى امريكا . والرد على هذا الافتراض بسيط ، فهذا القرد الذي عاش دوما في الغابات لا بد أنه قام بعض عشرات ومئات الافريقيين ، وكان من الضروري أن ينتشر المرض بينهم ، وهو ما لم يحدث ، أضف إلى ذلك أن هذا القرد يعيش في الغابات ، ولو صدق الافتراض لحدث انتشار المرض بين سكان المناطق الريفية القريبة من الغابات ، وهو ما لم يحدث أيضا ، فالمرض ينتشر في أفريقيا في المدن والمناطق الحضرية .

وقد علمنا أن الولايات المتحدة قد خصصت ما يقرب من بليون دولار سنويا في السنوات الخمس الأخيرة لمواجهة هذا المرض دون أن تتمكن من السيطرة عليه ، ونحن نعلم أن الدول الافريقية لا يمكن أن تنفق ولو نسبة ضئيلة من هذا المبلغ ، ولو كان صحيحا أن هذا المرض منتشر في افريقيا بالصورة التي تتحدث عنها الكتابات الصحفية الأوروبية والأمريكية لكان من الضروري أن يكون نصف الأفارقة قد هلكوا بسبب هذا المرض .

والرغبة في نسبة هذا المرض إلى افريقيا تبدو لي استمرارا للنظرة الأوروبية التقليدية إلى افريقيا من موقع الاستعلاء والتمييز بين الانسان الأبيض والأسود . لذلك ظهرت دعوات في الجرائد البريطانية مثلا تطالب بتطبيق اختبار مرض « الايدز » في المطارات والموانىء على كل الزائرين من افريقيا قبل دخولهم البلاد ، ومن الغريب أن أحدا لم يدع إلى مثل هذا الاجراء بالنسبة للقادمين من الولايات المتحدة أو الدول الأوروبية التي ينتشر فيها هذا المرض .

سامحهم الله . □

● ان الطبيب الماهر ينبغي أن يعرف طرفا يسيرا عن كل الأشياء ومنها الطب .

(تاليران)

اقرأ في العدد القادم من

العربي

مايو ١٩٨٨

ملف فلسطين (أربعون عاماً من النضال لاستعادة الأرض):

- من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء ـــ د. شفيق الغبرا
- الأقليات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم ـ د. عبدالوهاب المسيري
- الجيل الفلسطيني الجديد تحت الاحتلال ـــ توفيق أبوبكر
- "إسرائيل" كتهديد نووي ـــ أمين هويدي
- فرنسا وجذور الصهيونية غير اليهودية ـــ رياض معسعس
- نظرات في الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية ـ د. إبراهيم أبوربيع

واقرأ:

- الإسلام والتوازن الاجتماعي ـــ د. عبدالرحمن زكي إبراهيم
- علمان عربيان في سماء الطب ـــ د. علي مبارك
- ثلاثة مشاريع أوروبية لغزو الفضاء ـــ سعد شعبان
- المدرسة الانطباعية في الفن ـــ رباب العابد العظم
- كهربائية الجسم والأمراض النفسية ـــ د. أمل علي المخزومي
- وجهاً لوجه: الجنرال دافيد دراغونسكي وسليمان الشيخ

استطلاعات:

- تايوان .. الجميلة لم تعد عذراء ـــ سليمان مظهر
- اليونسكو .. عطاء الثقافة والعلوم والتربية ـــ صلاح حزين

واقرأ أيضاً للكتاب:

د. محمد الرميحي ـ د. عبدالله عبدالدايم ـ د. سمير رضوان ـ د. خليفة الوقيان
د. عبدالكريم أبوشويرب ـ فهمي هويدي ـ أبوالمعاطي أبوالنجا ـ محمود الريماوي

رمضان في الأدب العربي

بقلم : محمود الشرقاوي*

لرمضان في الأدب العربي آثار عميقة خصيبة ، تطالعنا في النثر والشعر معا ، وتمثل لنا تمثيلا صادقا ما يختلج في نفوس الأدباء والشعراء من عواطف ومشاعر لهذا الشهر الكريم .

وليس الهدف من هذا المقال أن نستوفي كل هذه الآثار المتشعبة ، لكن حسبنا أن نرسم خطوطا وملامح لهذا الأدب وما يتصل به مشفوعة ببعض الشواهد المختارة .

كانت الدولة الإسلامية وشعوبها تعنى عناية فائقة بهلال رمضان ، وترصد مطالعه حتى تثبت رؤيته ، فيتحقق أول الشهر ويحق الصيام ، ويكون ذلك من الأيام المشهودة ، فتؤلف المواكب الدينية ، وتنار مآذن المساجد ، وتعلن البشائر والتهاني .

كان يوم الرؤية يسمى بيوم الركبة ، وكانوا يستزيدون من إنارة المساجد عند رؤية هلال هذا الشهر المنير ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من فكر في إنارة المساجد في ليالي رمضان ليتمكن الناس من إقامة صلاة التراويح وإحياء شعائر الدين . وروي أن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه مر ذات ليلة في رمضان على المساجد ، فوجدها مضاءة ومزدانة من الداخل والخارج بالقناديل فقال : (نور الله على عمر بن الخطاب في قبره كما نور علينا مساجدنا) .

حدثنا أحمد بن يوسف من كتاب الدولة العباسية قال : أمرني الخليفة المأمون أن أكتب إلى جميع العمال في أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح في شهر رمضان ، وتعريفهم ما في ذلك من الفضل . فما دريت ما أكتب ولا ما أقول في ذلك ، إذ لم يسبقني إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه . فنمت وقت القيلولة ، فأتاني آت فقال : قل : فإن في ذلك أنسا للسائلة وإضاءة للمجتهدين ، ونفيا لمكان الريب ، وتنزيها لبيوت الله من وحشة الظلمة .

تهاني رمضان

كانت التهاني بحلول شهر رمضان ترفع إلى الخليفة والأمراء والاخوان ، ولا يزال هذا الرسم مرعيا في هذا العصر ، وسيدوم إلى آخر الدهر إن

* كاتب وصحفي من القطر العربي المصري .

المسحراتي يطوف في الأحياء والأزقة ، يوقظ الناس في المدن والأرياف .

شاء الله تعالى . فمن ذلك قول الشريف الرضي ، يهنيء الخليفة الطائع العباسي

تهنّ قدوم صومك يا إمامي
يصوم مدى الزمان عن الأنام
إذا ما المرء صام عن الدنايا
فكل شهوره شهر الصيام

وهبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك من قصيدة :

تهنَّ بهذا الصوم يا خير صائر
إلى كل ما يهوى ويا خير صائم
ومن صام عن كل الفواحش عمره
فأهون شيء هجره للمطاعم

وفي التشهير بالمفطرين يقول الشيخ محمد الجنيبي من قصيدة له :

جاء الكتاب بأعمال لها حكم
إن ظل يعملها الأعمى تبصره
منها الصلاة ومنها الصوم هل سقطت
عنك الصلاة لعذر أنت ذاكره
صام الأفاضل شهر الصوم وانسكبت
دموعهم لشهور لست تحضره
وأنت ساه ولاه غير مرتكب
إلا الذي كاتب الأوزار يحصره
أطعت بطنك ما لاحظت عاقبة
يا من تصاغر والدنيا تكبره

رمضان شهر بر وإنفاق

شهر رمضان ، شهر بر وإنفاق ، وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أجود الناس ، لكنه كان في رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة ، لا يسأل عن شيء إلا أعطاه .

كان رؤساء الدول الإسلامية يتخذونه مجالا للأفضال على المحتاجين وإطعام الفقراء ، وإجزال الهبات لذوي القربى والأرحام . وممن كان يحتفل بهذا الشهر الكريم أحمد بن طولون ، فقد جمع أعيان القاهرة في أول شهر رمضان في قصره ، وبعد أن أكلوا وشربوا خطب فيهم قائلا : (إني لم أجمعكم حول هذه الأسمطة إلا لأعلمكم طريق البر بالناس ، وأنا أعلم أنكم لستم في حاجة إلى ما أعده لكم من طعام وشراب ، ولكن وجدتكم قد أغفلتم ما أحببت أن تفهموه من واجب البر عليكم في رمضان ، ولذلك فإني آمركم من الآن أن تفتحوا بيوتكم وتمدوا موائدكم وتهيئوها بأحسن ما ترغبونه

لأنفسكم فيتذوقها الفقير والمحروم) .

وأمر أن يعلق هذا القرار في كل مكان ، وتوعد كل قادر لا يؤدي واجبه نحو الفقراء ، ولا يفتح بيته لهم طوال شهر رمضان بأشد العقاب ، فامتثل الجميع لأمره ، واحتوت الناس عاطفة من الألفة والتعاون ، وقد عنيت الدولة الفاطمية عناية كبيرة بشهر رمضان ، وأحاطوه بأنواع الحفاوة والتكريم ، ففي أول يوم من أيام رمضان يرسل من دار الخلافة لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلوى ، صرة من ذهب ، فيعم الفرح سائر أهل الدولة ، ويقال لذلك غرة رمضان .

سحور رمضان

بدأت شخصية « المسحراتي » منذ عهد الرسول الكريم ، فقد كان ابن أم مكتوم يؤذن حتى يمتنع الناس عن الطعام .

في مصر كان الوالي عتبة بن اسحق (عام ٢٣٨ هـ) يخرج من منزله في مدينة العسكر إلى جامع الفسطاط ماشيا ، وكان في طريقه يصيح مناديا على الناس بالسحور .

كانت شخصية « المسحراتي » من أجمل معالم شهر رمضان ، وكانت طائفة المسحرين تتفنن في الأناشيد والأزجال ، وتؤديها وقت مرور أيام الشهر الكريم ، وفيها وعظ وحث على الصيام والقيام والتوبة والصدقة ، بالإضافة إلى الدعوة إلى تناول السحور ، ومما كانوا يقولونه :

أيها النوام قوموا للفلاح
واذكروا الله الذي أجرى الرياح
إن جيش الليل قد ولّى وراح
وتدانى عسكر الصبح ولاح

اشربوا عجلى فقد جاء الصباح

لم يكن التسحير مقصورا على الرجال ، بل شاركت فيه النساء ، وقد وصف الشيخ زين الدين بن الوردي إحداهن بقوله :

مئذنة مسجد قديم ترتفع في الفضاء ، يسمع منها صوت المؤذن وهو يدعو إلى الصلاة في أوقاتها .

عجبت في رمضان من مسحرة
بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت
قامت تسحرنا ليلا فقلت لها
كيف السحور وهذي الشمس قد طلعت

فانوس رمضان

لفانوس رمضان قصة طريفة ، يرجع تاريخها إلى عصر الفاطميين ، ففي يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، دخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مصر قادما من المغرب ، وكان دخوله إليها ليلا عن طريق الجيزة في موكب كبير ، فخرج الأهالي لاستقباله ، واحتشدت جموعهم على الطريق من

الجيزة إلى حي الجمالية ، وفي أيديهم الشموع الكبيرة ، والمشاعل ، والفوانيس لإضاءة الطريق الذي سيمر به الخليفة إلى قصره .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت فكرة الفوانيس ترتبط برمضان ، وكان الأطفال في ذلك العصر يحلو لهم أن يمسكوا الفوانيس لينيروا الطريق أمام أهاليهم وقت خروجهم ليلا إلى المساجد أو لزيارة الأهل والأصدقاء .

كان فانوس رمضان موضع مساجلة بين الأدباء والشعراء يتبارون في وصفه بخيال رائق ، قال علي بن ظافر الأديب المصري المتوفى سنة ٦١٣ هـ :

اجتمعنا ليلة في رمضان فجلسنا بعد انقضاء الصلاة للحديث (في جامع عمرو بالفسطاط) ، وقد أوقد فانوس للسحور ، فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبي الحجاج يوسف بن علي أن يضع فيه شعرا فأنشد :

ونجم من الفانوس يشرق ضوءه
ولكنه دون الكواكب لا يسري

ولم أر نجما قط قبل طلوعه
إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

وقال :

هذا لواء سحور يستضاء به
ويسكر الشهب في الظلماء جرار

والصائمون جميعا يهتدون به
كأنه علم في رأسه نار

وقال مظفر الأعمى

أرى علما للناس في الصوم ينصب
على جامع ابن العاص أعلاه كوكب

وما هو في الظلماء إلا كأنه
على رمح زنجي سنان مذهب

ومن عجب أن الثريا سماؤها
مع الليل تلهي كل من يترقب

فطورا تحييه بباقة نرجس
وطورا يحيّيها بكأس تلهب

وما الليل إلا قانص لغزالة
بفانوس نارٍ نحوها يتطلب

ولم أر صيادا على البعد قبله
إذا قربت منه الغزالة يهرب

أشهر حلويات رمضان

من أشهر حلويات رمضان الكنافة والقطائف .

ومن العقائد الموروثة : أن للحلوى أثرا محمودا في رد قوة الصائم إليه ، وقد بلغ من شهرة الكنافة والقطائف أن جلال الدين السيوطي جمع ما قيل فيها في كتاب سماه « منهل اللطائف في الكنافة والقطائف » .

يذكر ابن فضل الله العمري : إن أول من اتخذها من العرب معاوية بن أبي سفيان ، وكان يأكلها في السحور ، وذلك أنه شكا إلى طبيبه الجوع - وكان معاوية من الأكلة المشهورين - فوصفها له .

وهناك رواية أخرى تقول : إن الكنافة صنعت خصيصا لسليمان بن عبدالملك الأموي ، ومما قيل في الكنافة قول أبي الحسين الجزار المصري الذي أنشد يتغزل بالكنافة بقوله :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبا لأوقات المخلل إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمري

والمراد بالقطر هنا : ما تسقى به الكنافة من العسل وذوب السكر ويقول شهاب الدين الهائم :

اليك إشتياقي يا كنافة زائد
ومالي غناء عنك كلا ولا صبر
فلا زلت أكلي كل يوم وليلة
ولا زال منهلا بجرعانك القطر

وفي القطائف يقول أبو هلال العسكري :

كثيفة الحشو ولكنها
رقيقة الجلد هوائية
رشت بماء الورد اعكافها
منشورة الطي ومطوية
جاءت من السكر فضية
وهي لدى الأذهان تبرية

وقال سيف الدين بن قزل المشد في وصف القطائف :

وقطائف مثل البدور ... أتت
لنا من غير وعد
قد أسقيت قطر النبا
ت وطيبت بالماء ورد
فحسبتها لما بدت
في صحنها أقراص شهد

وقال سعد الدين بن عربي :

وقطائف مقرونة بكنافة
من فوقهن السكر المذرور
هاتيك تطربني بنظم رائق
وبروقني من هذه المنشور

عيد الفطر

عيد الفطر هو أحد العيدين المعظمين في الإسلام ، ويعد من المواسم الشعرية المرموقة ، وقد أنتج لنا أدبا وشعرا رائعا .

يقول البحتري يهنيء المتوكل العباسي بصومه المبرور وعيده الأغر ، ويصف فيها خروجه للصلاة يحف به جيشه الجرار .

بالبر صمت وأنت أفضل صائم
وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بعيد الفطر عيدا إنه
يوم أغر من الزمان مشهر

ويقول الأمير تميم من قصيدة يهنيء أباه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي :

أهنيك بالعيد الذي أنت عيده
ونورسنا إقباله حين يطلع
إذا ما تأملت الزمان وجدته
بكفيك يعطي من يشاء ويمنع

كعك العيد

بدأ الشعب في مصر تقاليد صنع كعك العيد في عصر الدولة الفاطمية . ويقال ان الدولة الاخشيدية سبقت الدولة الفاطمية في العناية بكعك العيد، ويؤثر عن أبي بكر محمد بن علي المادراني وزير الدولة الاخشيدية أنه عمل كعكا حشاه بالدنانير الذهبية ، أطلقوا عليه وقتئذ إسم (افطن له) ، وعناية الفاطميين بالمائدة ، وعمل الكعك ، جعلا لمطبخهم وطباخيهم شهرة ، وقد بقيت من طباخيهم بقية عملت في القصور الأيوبية ، ومنهم طباخة كانت تعمل كعكا شهيا عرف بها « كعك حافظة » .

استمرت مصر معنية بعمل الكعك وتوزيعه على الفقراء حتى لا يحرموا منه ، وتنص الوقفيات على توزيعه في عيد الفطر على الفقراء واليتامى ، ومنها وقفية الأميرة « تتر » الحجازية التي تنص على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفي مدرستها التي أنشأتها سنة ٧٤٨ هـ ، ولرواج هذا النوع من الحلوى اهتم به تجار الحلوى ، وكانت أسواقه رائجة

ـ عجينة الكنافة : يكثر الطلب عليها في رمضان ، وهي شائعة في معظم أقطار الوطن العربي .

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وكانت تروق رؤية الكعك بأنواعه في عيد الفطر لكثرة ما يعرض منه في حوانيتهم .

وكان للفن دخل في صناعته ، فعملت له القوالب المنقوشة والمكتوبة ومنها مجموعة في متحف الفن الإسلامي في مصر مكتوب على بعضها : « كل هنيا » ، « كل واشكر ، كل واشكر مولاك » . « بالشكر تدوم النعم » .

ومن الأبيات التي قيلت في كعك العيد ما كان على لسان الشاعر المصري الجمال أبو الحسن الجزار المتوفي عام ٦٧٩ هـ/ الموافق ١٢٨٠ م كتبها إلى الأمير جمال الدين بن يغمود يقول فيها :

أيهذا الأمير قد أشكل المعنى
وما زلت عارفا بالمعاني
ظاهر البستندود لم أدر ماذا
فيه حلا وباطن الخشكنان

ومن السنة في عيد الفطر ، التوسعة فيه على الأهل بأي شيء من المأكول . وينبغي على كل مسلم أن يبتهج ، وأن يبهج من حوله في هذه الأيام المباركة . □

الامتياز في النجاح

● قيل للأديب العربي المعروف مصطفى صادق الرافعي هل تكره الموت ؟ فقال : لا ، بل أكره ذنوبي ، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر . وقيل له ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة ؟ فقال :

تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي : النجاح لا يقصنا ، بل يقصنا الامتياز في النجاح .

قراءة نقديّة في كتاب:

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

للاستاذ محمود محمد شاكر

بقلم : الدكتور سعد مصلوح*

« رسالة في الطريق الى ثقافتنا » هو آخر كتاب أصدره العلامة الكبير الاستاذ محمود شاكر ، وقد أودعه خلاصة رأيه في عديد من القضايا الاساسية المتصلة بمسيرة ثقافتنا العربية الحديثة ، « الاخطار التي أحدقت بها وحرفتها عن الطريق الذي كان ينبغي أن تسير فيه لتواصل نموها الخاص والأصيل »

في المقال التالي يناقش الدكتور سعد مصلوح هذا الكتاب المهم ، ولعل أهمية هذه المناقشة أنها تصدر عن واحد ممن يعرفون للاستاذ الكبير محمود شاكر قدره ، ويعتبر نفسه واحدا ممن خرجوا من عباءته ، لكنه مع ذلك يختلف مع استاذه اختلافا نرجو أن يكون في ابرازه خدمة للقارىء وللثقافة وللحقيقة التي نتطلع اليها جميعا .

إن تعجب فعجب أن يحول الحول أو يزيد ، على هذه الرسالة الجليلة الخطر ـ منذ ظهورها لاول مرة ـ دون أن تلقى ما هي حقيقة به من العناية الواجبة على كل مهتم بأمر الثقافة العربية ، مع توافر الدواعي الموجبة للحوار حولها ، ذلك أنها رسالة تستمد أهميتها وخطرها من جهات عدة ، من مؤلفها ، ومن موضوعها ، ومن غايتها .

فأما مؤلفها فحسبك أن تسميه ولا تزيد ، وأما موضوعها فهو ثقافة الأمة التي اليها تنتسب ، وتاريخها العقلي الضارب بأعراقه في أطباق الزمن ، وأما مادتها فقد جلت عن أن تكون صحفا مجردة ، وأوراقا مرقومة ، يجمعها جامعها كيفما اتفق ، ويصنفها نحوا من التصنيف ، ويقول فيه بما تؤديه إليه النظرة العجلى أو المتأنية . كلا ، فالرسالة هي فوق ـ ذلك رحلة عمر ، وتجربة حياة ، وهذا نوع من التأليف نادر جدا ، وخطير جدا . وأما عن غايتها فقد أرادها مؤلفها بيانا من ناصح أمين لما يراه من فساد وبيل ، أخذ علينا حياتنا الادبية من أقطارها ، واستظهارا للعلل الخبيثة المنتجة لهذا الفساد في محاولة دءوب لاستنقاذ امة يراها هو وقد جرى تفريغها الثقافي على يد المستشرقين والمستعمرين من أبناء الثقافة الغربية الحاقدة على الاسلام وأهله ، وعلى يد المقهورين الخاطبين في حبالهم من ابناء هذه الامة على تعاقب الاجيال .

* استاذ بكلية دار العلوم (سابقا) ـ استاذ مشارك بكلية التربية الأساسية بالكويت (حاليا) .

ويتبين مما سلف موقفه الرافض للثقافة الاوروبية رفضا قاطعا حاسما ، يعالن به صاحبه الناس في غير جمجمة ولا التواء في هذه الرسالة ، بل في مواطن أخرى كثيرة مما كتب ، بل في كل ما كتب .

ملامح أساسية :

٢ـ لكي نكون على ذكر من فحوى الرسالة ، رأيت أن أبدأ بعرض لابرز المعالم التي تشكل قسماتها باختصار . وهذا العرض الموجز أمر واجب إذ به تتحقق غايتان ، أولاهما تيسير الرسالة لمن لم يقرأها ، وتعريفه بما لها من جلال وخطر ، واخراهما أن يكون مدخلا لطرح طائفة من الملاحظات احببت أن يطلع الناس عليها ، عسى أن أسهم بقولي هذا في اختراق الصمت الذي أراه مطبقا عليها ، كما أطبق من قبل أربعين سنة على منهج الشيخ الجليل في كتابه عن المتنبي . وقد التمست معالم الرسالة فوجدتها بحسب ما هداني اليه اجتهادي هي : (١) حد الثقافة (٢) مراحل الصراع بين المسيحية الأوروبية والاسلام (٣) تقويم الاستشراق (٤) النهضة الاسلامية . (٥) تقويم الحملة الفرنسية وحكم محمد علي في مصر (٦) فساد الحياة الادبية ومظاهره .

مقومات الثقافة

لقد ساق صاحب الرسالة تعريفا للثقافة تغيا فيه تحقيق الامور الآتية : (١) اثبات السلطان المطلق للدين على ثقافة أهله . (٢) اثبات أن الدين هو المحرك الفاعل في الصراع بين الامم والثقافة المتباينة ، بل هو الفاعل في حركة التاريخ البشري كله (٣) اثبات التداخل غير القابل للفصل بين الدين واللغة في كل ثقافة (٤) تزييف القول بوجود « ثقافة عالمية » يشترك فيها جميع البشر ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم (٥) وجوب التمييز بين « الثقافة » و « العلم » أي « العلوم البحتة » ، إذ الاولى متعددة بتعدد الملل والنحل والثاني ميراث مشاع بين خلق الله جميعا .

وإعمالا للمفهوم السالف بيانه في رصد مراحل

الصراع بين المسيحية الأوروبية ودار الاسلام يتتبع المؤلف حلقات الصراع منذ المرحلة التي بدأت بهزيمة المسيحية في أرض الشام ، إثر الفتوح الاسلامية الأولى ، الى المرحلة التي أعقبت سقوط القسطنطينية في يد المسلمين . وتميزت بالتخطيط الدقيق لغزو دار الاسلام ، واستبدال سلاح العقل والعلم ثم المكر والدهاء بالمواجهة العسكرية المباشرة في ميادين القتال . وقد انتجت هذه المرحلة الأخيرة حاجة ملحة الى معرفة اللسان العربي وحيازة علوم المسلمين وبذلك ظهر في ميدان الصراع ثلاثة اصناف من الرجال هم : المستشرقون والمستعمرون والمبشرون وهذه ثلاثة عند المؤلف ، اخوة أعيان لاب واحد وأم واحدة ، لا ينبغي لاحد أن يفرق بينهم . بهذا يضع المؤلف نشأة الاستشراق في سياقها التاريخي من مراحل الصراع . ويمهد الطريق للابانة عن تقويمه للاستشراق منذ نشأته الأولى الى أن تحققت له ـ في رأيه ـ سيطرة فاعلة على التعليم والثقافة في بلاد الاسلام .

ويصل المؤلف الى أن عوامل النشأة والثقافة واللغة والدين والاهواء كلها أسوار مضروبة بين المستشرق والفهم النزيه للثقافة العربية الاسلامية ، ومن ثم ينفي عن جميع ما كتبه المستشرقون صفة « العلمية » كما ينفي عنهم صفة الاهلية . ويقرر أن المخاطب بكتبهم ودراساتهم هو المثقف الأوروبي لاغير ، وأن غايتهم هي الحيلولة بينه وبين فهم الاسلام على وجهه الصحيح . ويرى أن المستشرق بذلك غير مذموم فعله لانه خدم به دينه وثقافته وأهله أما الحقيق بالمذمة فهم توابعه من المنتسبين الى العروبة والاسلام .

بداية أم نهاية

والمؤلف ينفي نفيا قاطعا أن تكون الحملة الفرنسية على مصر هي بداية التاريخ للنهضة الحديثة ، على ما هو شائع لدى جمهرة الباحثين . بل هي البداية الحقيقية لنكبة مصر ودار الاسلام . ويأبى ثانيا أن يخلع على محمد علي « صفة المؤسس لمصر الحديثة » ولا يرى في « رفاعة الطهطاوي » زعيما من زعماء التنوير والتحديث . وهو يرى أن النهضة ولدت اسلامية عربية خالصة حين بدأ احساس بالخطر المحدق يداخل عددا من اعلام الثقافة ، فانبعثوا يحاولون اصلاح الخلل في « اللغة » وفي علوم الدين و « العقيدة » و « علوم الحضارة » ويجعل على رأسها خمسة من الرجال « عبد القادر البغدادي » و « الجبرتي الكبير » و « محمد بن عبد الوهاب » « والمرتضى الزبيدي » و « الشوكاني » . ويرجع بهذه النهضة الى ما بين القرن السابع عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر ، فهي عنده نهضة معاصرة للنهضة الأوروبية وكانت توشك أن تؤتي ثمارها . ومن ثم كانت الغاية من الحملة الفرنسية هي وأد اليقظة في مهدها فكان تدمير القاهرة ، ونهب المخطوطات والقضاء على المماليك، أكبر قوة مقاتلة في دار الاسلام بعد قوة دار الخلافة ، كان ذلك على يد بونابرت . أما « محمد علي » فعلى يده وئدت النهضة الداعية الى صفاء العقيدة في جزيرة العرب ، وشقت دار الخلافة ، وعزل الأزهر وشيوخه عن قيادة الأمة . وبرزت فكرة البعثات العلمية التي هي - عنده - رجس من عمل شياطين الاستشراق والاستعمار وكان « رفاعة الطهطاوي » منفذ سياستهم ، وحامل وزرها بانشائه « مدرسة الالسن » واحداثه صدعا مبينا في ثقافة الأمة ، بقسمتها الى شطرين متباينين . ثم جاء الاستشراق الانجليزي ليرث دور الاستشراق الفرنسي ، ويرسم رمزه « دنلوب » لمصر سياسة تعليمية وضع بها أسس التفريغ الثقافي الكامل لجيل طلاب المدارس من تاريخهم كله . وبذلك انتهى الأمر الى ما نحن عليه الآن من فساد وبيل في الحياة الادبية من كل وجه في المنهج الادبي ، والنتاج المسرحي والقصصي . وأصبح السطو في رأي المؤلف سنة متبعة سن تقاليدها شيوخ كبار ، وشاعت الثرثرة والاستخفاف والقضايا الهزلية كقضايا الموقف من الغرب « والأصالة والمعاصرة » و « والثقافة العالمية » تكان كل ذلك مسوغات للقطيعة التي أرادها بينه وبين الثقافة الأوروبية ، ولرفضها رفضا حاسما قاطعا لاجلجة فيه ولا التواء .

أما وقد عرضنا منهج الشيخ الجليل ، وأبنا عن رحلته الناصبة وراء هذا المنهج ، فقد صار لزاما أن نتأمل ونحاور ونناقش ، ولا بأس على المناقش إن شاء الله ، إن هو جاوز الصواب أو جاوزه الصواب وهو أمر وارد على كل حال ، ما دام الحق بغيته ، واخلاص النية في الفهم عن شيوخه هجيراه . ومن زكاة العلم الواجبة على شيوخه الذين أحكمتهم التجربة ، وصهرتهم المحن أن يأخذوا بيد المتفقه في السبل المخوفة فاني رأيت أكثر هذا الناس وكأنه المعني بقول الشاعر القديم :

صعدة نابتة في حائر
أينما الريح تميلها تمل

المنهج وما قبل المنهج

أبان المؤلف في أكثر من موضع في هذه الرسالة وغيرها عن تصوره للمنهج العلمي ، أو ما يؤثر تسميته « ما قبل المنهج » وهو بعبارة المؤلف « ينقسم

الى شطرين :
شطر في تناول المادة ، وشطر في معالجة التطبيق » (٣٤) ويقوم الشطر الاول على جمع المادة على وجه الاستيعاب المتيسر ، ثم التصنيف والتمحيص ثم التحليل الدقيق لتمييز صحيحها من زائفها . أما شطر التطبيق فيقتضي إعادة ترتيب المادة ، واستبعاد كل احتمال للخطأ . ووضع الحقائق في مواضعها الحقة . ويزيد المؤلف هنا أن شطر التطبيق هو الميدان الفسيح للخلاف العلمي ، واصطراع العقول والحجج ونشأة ما يسمى « المناهج » و « المذاهب » .
وهنا ترد أمور جديرة في ظني بالتنويه : أولها أن هذا المنهج لاخلاف على صدقه وحجيته ، وهو أكثر شيء صلاحية للبحث التاريخي ، ونقد النصوص ، ولكنه لايستثني مناهج أخرى ، ولا يسد مسدها فلدينا المناهج الوصفية والتجريبية والفلسفية والمقارنة والتنبئية والاحصائية . وكلها ممكن وقوعه في مجال درس الثقافة وعلوم الانسان . كذلك تتجاوز القضية اطار منهج بعينه لمسألة بعينها في علم بعينه الى دائرة أوسع تتصل بتصنيف المناهج ووسائل البحث ، والتماس الأسس المعرفية لاختلافها ، ومشكل العلاقات بين العلوم ، ومشكل العلاقة بين العلوم ومجالات المعرفة مع اختلافها ، وبحث المسائل التي تستوجب تضافر أكثر من علم أو منهج لدراستها ، ويشكل هذا كله كيانا لعلم قائم برأسه هو علم المناهج وثانيها أن الخلاف العلمي في البحث التاريخي ونقد النصوص قد يقع في شطر المادة كمايقع في شطر التطبيق ، إذ أن جمع المادة لايستوي فيه جميع البشر ، بله التصنيف والتمحيص والتحليل .

ويرجع التفاوت إما لاختلاف القدرة وإما لتفاوت الامكان المتاح ، وإما لاختلاف وجهات النظر حول حجية المصادر ودرجة الثقة بها أو اختلاف مراتب الادلة . وقد يكون مرد الخلاف الى تباين الاصول المنهجية أو المذاهب» وهو ما جعله المؤلف واقعا في شطر التطبيق . يلزم هنا الدور والتسلسل . وثالثها : أن هذا المنهج اذا اعمل على وجهه في كثير من القضايا التي أثيرت في الرسالة بأن جمعت المادة على وجه الاستيعاب المتيسر فان عمود الصورة الحادثة يوشك أن يختلف اختلافا كبيرا عن الوجه الذي وردت به فيها . وما أظن المقام متسعا لكلام شديد التحصيل والتفصيل في جميع ما طرح من قضايا بيد أني ساحاول الابانة عن نفسي بقدر ما يسمح المقام .

نظرة أحادية

يبدو لي أن رجع جميع أشكال الصراع بين الامم والثقافات الى عامل واحد يراد له أن يكون سبب الاسباب هو أمر قبوله من أصعب الصعب يستوي في ذلك أن يكون العامل هو الدين أو القومية أو الاقتصاد أو ما شئت من عوامل . هذه النظرة الاحادية في تفسير حركة التاريخ تواجه القائلين بها ، بمصاعب أحسب أن تجاوزها ليس باليسير . ذلك أن فيها تبسيطا شديدا لعالم معقد تتصادم فيه المصالح والعقائد والاهواء والانتماءات . وقد يكون عامل من هذه العوامل أكثر ظهورا للعيان في مرحلة بعينها ، وقد يراد له أن يكون قناعا ساترا لعوامل أخرى أشد منه خطرا وأعلى شأنا ، لكن ذلك ما ينبغي له أن يحجب عنا أن حقيقة الصراع معقدة ، وخيوطه مشتبكة ألفاف . وجمع المادة على وجه الاستيعاب المتيسر ، واعتبار مالم يكن منهاموضع اعتبار عند النظر في القضية ، يقودنا الى هذه النتيجة لامحالة وأحسب أن هذا هو موطن الخلاف الذي يدفعنا الى ايراد عدد من الاسئلة على الرؤية المطروحة في الرسالة .
يرد المؤلف أسباب النهضةالأوروبية الى صراع «الغضب المشتعل بعدفتح القسطنطينية» ويرى أن صراع الغضب المشتعل بلهيب البغضاء والحقد هو وحده الذي صنع لأوروبا كل شيء الى يومنا هذا (٦٨) والذي لاشك فيه أن الدين كان حاضرا في ميدان الصراع ، أما رد النهضة الى الصراع الاسلامي المسيحي وحده فيوجب أن تكون النهضة العلمية قد تمت في كنف الكنيسة وبهدي من تعاليمها، وبتنظيم وتنسيق منها ، أو أن تكون رموزه من ذوي النزعة الدينية العميقة ، أو هو يوجب على أقل تقدير

أن لا تقف الكنيسة موقف المعارضة والتقييد والقمع من كل مكتشف أو مخترع أو ذي فكر حر اذا لم يكن موقفها هو التعزيز والنصر . غير أن حقائق التاريخ تؤكد أن الكنيسة لم تكن في أفضل أحوالها إبان عصر النهضة ، وأن الانقسامات الدينية في معسكر المسيحية كانت آنذاك من أبرز ملامح العصر ظهورا . وكان الصراع مشبوباً بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وبين الارثوذكسية والاترودكسية وبين المتدينين في مجموعهم والاتجاهات العقلانية وأديان الطبيعة التي تثبت وجود الله وتنفي الوحي وغير ذلك من البدع

واندلعت حرب دينية في فرنسا دامت ثلاثين عاما ، (١٥٦٢-١٥٩٣) أهلكت الحرث والنسل ، ويزيد الأمر تعقيدا صراع الكنيسة مع العلم حين تورطت السلطة الكهنوتية ـ وعلى رأسها البابا نفسه ـ في تبني آراء تعارض صحيح العلم والثابت بالتجربة ، فكان اضطهاد العلماء ولم يتخلص كوبرنيكوس من قبضة الكنيسة الا بالموت ، وأحرق جوردانو برونو ، وسجن جاليليو ، وحمل على إنكار ما ثبت لديه من حقائق العلم . وحاصل القول أن المسيحية والكنيسة كانتا في محنة حقيقية مع عصر النهضة . وان علماء النهضة تحيزوا الى جانب النور القادم لهم من أرض الاسلام على حساب المسيحية والكنيسة وعلى غير رغبة منها .

وطردا للنظرة الأحادية في تفسير الصراع ، يرى المؤلف أن « الدين » ، « واللغة » هما أبلغ العوامل في تشكيل كينونة الانسان منذ النشأة الاولى وانها متداخلان في كل ثقافة تداخلا غير قابل للفصل ، وشطر القضية الأولى لااعتراض عليه ، أما التداخل غير القابل للفصل بينها فلا يصدق الا على الثقافة العربية الاسلامية ، ولكنه بالنسبة للمسيحية ليس كذلك بيقين ، فالقوم لاينسبون اعجازا لغويا لكتبهم المقدسة ، ولا يرون مذمة ولا نقيصة في ترجمتها من لغة الى لغة . بل ان هذه الترجمة كانت عند مصلحيهم وسيلة لكسر احتكار رجال الكهنوت فهم أسرار الدين ، ولرفع الوساطة بين الرعية والعقيدة ، فهي عندهم اذن ضرب من العبادة . أما العربية والاسلام فكانت وثاقة العروة بينها مفاجأة لأهل الاستشراق . ولم تصح لهم ولا لغيرهم عداوة لنقيضها .

الحملة الفرنسية على مصر

وتقويم الحملة الفرنسية على مصر شاهد آخر على أن احادية التفسير للصراع لايمكن أن تقبل على علاتها . ذلك أن هذه الحملة لم تكن واحدة الغزوات في حياة نابليون . لقد دوخ بونابرت أكثر ممالك أوروبا واستباحت جيوشه فيها .

ولم يكن عنف اجتياحه للنمسا وايطاليا بأقل من عنف اجتياحه لمصر . ولم تمنعه مسيحيته من أن يفتك بجيش البابا في « أنكونا » ، وأن يشلي البابا بالنفي والسجن ، ويصادر أملاكه كلها ويضمها الى النظام الاداري الفرنسي ، فما الذي يمنعه اذن أن يفعل بالقاهرة وبالازهر وبطلاب العلم فيه ما فعل ؟ وهذا هو فيشر في كتابه « تاريخ أوروبا في العصر الحديث » يقول : « إن نابليون لم يكن رحيما متلطفا في معاملة أبناء وطنه الايطاليين ، فقد نهب متاحفهم وأروقة قصورهم وانتزع من جيوبهم آخر فلس بضرائبه الباهظة ومطالبه العسكرية ، وقمع بقسوة بالغة أقل مقاومة لسلطانه » يضاف الى هذا أن الثورة الفرنسية التي انجبته لم تكن على وفاق مع الكنيسة ، بل عادتها ، وصادرت أملاكها ، وجعلت انتخاب رجال الكهنوت من الامور المدنية ، وحظرت على رعيتها الاعتراف بأي سلطان كنسي خارج فرنسا . وتدلنا حوادث التاريخ على أن حكومة الادارة الفرنسية كانت قد دعت نابليون الى غزو انجلترا نفسها ، لكنه عدل عن ذلك الى غزو مصر حين اتجه وهو بايطاليا بأنظاره الى الشرق كما فعل الاسكندر الاكبر . وكانت مصر والمصريون وبلاد وشعوب أخرى كثيرة ثقال الرحى وقطبها لصراع يدور بين قطبي المد الاستعماري آنذاك . ويستبين من ذلك أن نابليون لم يكن رسول الكنيسة والصليبيين الى مصر بالاصالة ولكنه الصراع الدنيوي الجشع وأحلام التسلط والغزو ، وغطرسة المستعمر وغروره .

وقل مثل ذلك في حروب « محمد علي » وقمعه للصحوة الاسلامية في جزيرة العرب ، إذ يذكر الاستاذ الجليل مماطلته تركيا حين دعته لقمعها واستجابته لسلطان القناصل . ولكنه يمر مرور الكرام بحروبه في المورة وقمعه لحركة التمرد المسيحي في البلقان ضد دار الخلافة . ترى هل صادفت هذه الحرب هوى من الكنيسة والمستشرقين والقناصل ؟ . ولماذا تقع الملامة في حروب الجزيرة على أم رأس محمد علي ، ولا تنال دار الخلافة حامية الاسلام والمسلمين ؟ . إن مفتاح القضية كلها هو الاطماع السياسية . ورغبة محمد علي بوراثة حلم نابليون الغابر . فلقد كان الرجل صادقا مع أطماعه ، بل إنه لم يتورع في سبيلها عن محاربة دار الخلافة نفسها حين اجتاحت جيوش ابنه ابراهيم الشام وآسيا الصغرى .

أما الصراع بين نابليون ـ ومن بعده محمد علي ـ وبين المماليك فلنقرر مطمئنين أن أي مذمة تشيل بها كفة الرجلين ليست بالضرورة محمدة يثقل بها ميزان المماليك ، وأن الحملة الفرنسية وحكم محمد علي بالنسبة لمصر لم يكن شرا محضا . وما شأنها في ذلك الا كشأن الحروب الصليبية بالنسبة لأوروبا على نحو ما يقرره الشيخ الجليل (٦١،٦٢) فالصدام كان أمرا لا مفر منه . ولم تكن لدار الاسلام حيلة في دفعه . وكان « التحديث » ، « والابتعاث » ، « وانشاء مدرسة » الألسن وسائل ». المواجهة لم يكن ثمة غنى عنها . وهي وسائل إلا تكن خيرا محضا فليس من الانصاف أن نعدها شرا محضا أصاب « الثقافة المتكاملة » في مقتل . اذ ما الثقافة المتكاملة ؟ وما هي خصائصها عند المؤلف ؟

الثقافة المتكاملة

إن مفهوم « الثقافة المتكاملة » هو عندي معضلة من معضلات الرسالة إذ يتردد وصفا ملازما للثقافة العربية في أطوارها المختلفة الى أن انتهت الى ما يسميه المؤلف « عصر النهضة الاسلامية » . والذي نعلمه علما ليس بالظن أن هذه الثقافة المتكاملة ، وان تكن عربية النشأة على أرجح الاقوال لم تكن خالصة العروبة فيما تلا ذلك من أطوار . بل إنها نتيجة مباشرة لحوار علمي حضاري بينها وبين ثقافات الأمم السالفة . وهكذا يلقننا أسلافنا درسا ما أحوجنا الى استيعابه في هذا الزمان ، فهم لم يضعوا أصابعهم في آذانهم ، بل أفادوا من غيرهم لثقافتهم ما طوروا به أعرق العلوم العربية والاسلامية كالنحو والنقد والبلاغة وأصول الفقه وعلم الكلام ، بله الفلسفة والطب والرياضيات والبصريات وغيرها من العلوم الحادثة . وكان لهم من دينهم وثقافتهم ضابط يحدد للعقل المسلم المتطلع للمعرفة ما يأخذ وما يدع ، وحاولوا التوفيق بين العقل والنقل ، وبين الشريعة والحكمة . وهذه هي سنة الله في التطور . فلا نعرف ثقافة تطورت وتجددت من داخلها فحسب دون أن تتلاقح افكارها وعلومها مع الافكار والعلوم الناشئة في ثقافات غيرها .

ونعم صدق المؤلف حين نفى إمكان وجود « ثقافة عالمية » يشترك فيها البشر كافة ، ولكنه من الصحيح أيضا أنه لاوجود لثقافة منطوية منعزلة عن سائر ما يعج به العالم من ثقافات . والمؤلف إذ يقرر محقا إمكان التحاور والتناظر والمناقشة بين الثقافات المتباينة (١١٢) وضرورة أن يكون التجديد « حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة » (٢٣٧) إنما يقرر حقيقة تشفي النفس وتبرىء السقام ولكن هذه النظرة المتسامحة تئول الى نهاية غير متوقعة حين يثبت للمستشرق حقه في أن يكون مستفيدا مناقشا ، وينكر عليه أن يكون دارسا (١١٤) ولا أدري كيف تكون استفادة ومناقشة من غير بحث ودراسة ، واذا كان ذلك لايكون وكان الخطأ واردا على اجتهادات البشر ، فليس ثمة ما يدعو الى الخوف والفزع إلا إذا افتقدنا الثقة بما في أيدينا ، وكان تراثنا في أعيننا هشيما تذروه الرياح . ولماذا نفترض دائما أن اقامة جسور الاتصال بين ثقافتنا وغيرها من الثقافات تهديد لها ؟ ولماذا يتلعب بها الغرباء الحاقدون على الاسلام ؟ هل لي أن أطمئن الاستاذ الجليل فأقول : إني لاعرف قوما يخطئهم الحصر قد زادهم الاطلاع على ثقافة الغرب ايمانا مع ايمانهم بقيمة ما لديهم .

وجلى لهم جوانب العظمة في العقلية العربية المسلمة في أجلى صورها ؟

حوار الثقافات

ولعل من أظهر قسمات الرسالة تضييق المؤلف لمجال العلاقة بين الثقافة العربية وثقافة الغرب المعاصرة حتى حصرها في قضية الاستشراق والمستشرقين . ومن ثم وصل نسبها بقضية الاستعمار والتبشير ، ثم انه استصحب مرارة تجربته الأولى مع قضية الشعر الجاهلي ليصل بها في النهاية الى تعميم لامسوغ له باعتبار قضية « الأصالة والمعاصرة » تشدقا بالاوهام وتغريرا بالعقول . ومجال العلاقة بين الثقافتين عندي وعند كثيرين أرحب وأعقد من أن تحصر بين أسوار الاستشراق . إذ هي تتناول سائر ما انتجه الفكر الغربي من نتاج في ميادين الدراسات الفنية والاجتماعية والانسانية والادبية والعلوم البحتة . ولا أحسب أن الفصل الحاسم الذي أراده المؤلف بين « الثقافة » والعلم يمكن أن يثبت في هذا المجال فالعقلية المبدعة كل مركب . وجسم متناسق التركيب ، معقد العلاقات متعددة الوظائف . وهذا كله هو موضوع الحوار الذكي بين الثقافات المتباينة لذلك كان حصر القضية في مجال الاستشراق وحده تخصيصا بلا مسوغ ، كما أن استصحاب تجربة الشعر الجاهلي تعميم بلا مسوغ . ولقد أرجعت هذه التجربة المريرة صاحبها الى نوع من المجاهدة يشبه المجاهدات الصوفية ، وولدت لديه منهجا شديد الخصوصية والتفرد على نحو يصعب معه تحويله الى منهج عام يحكم خطط التعليم والبحث العلمي في مدارسنا وجامعاتنا . حتى أنني كدت لفرط حيرتي بازائه أن أناشد الاستاذ الجليل ابراء لذمته أمام دينه وأمته ، أن يخرج للناس كتابا يصوغ لهم فيه تصورا محددا قابلا لان يستبدل به ذلك النظام الذي صنع ـ في رأيه ـ على عين المستعمرين والمستشرقين والذي يقول عنه « اننا لانزال نسير عليه مع الأسف الى يومنا هذا » .

إن الذي أراه هو أن اتساع دائرة الابتعاث ووفرة المجيدين للغات الغرب والمطلعين على ثقافته غير كثيرا من مظاهر الفساد التي لحظها المؤلف في بداية تجربته فلا « السطو » أصبح متاحا مهما استخفى به صاحبه وبالغ في تمويهه ، ولا الدعوة الى التبعية وانسلاخ الامة من كينونتها تجد سميعا مطيعا ، ولم يعد لاحد ـ مستشرقا كان أو غير مستشرق ـ قول في مسألة يمكن أن يتلقى بالتسليم والاذعان الخاشع ، ولم تعد ثقافة الغرب هولة يخافها الناس وتنخلع لها القلوب . نعم إنها واقع نعيشه ويفرض نفسه في عالم اليوم ، ولا يحل مشكلتنا معها أن ننظر اليها على أنها « سامرية » يقال في شأنها « لامساس » فالرفض أو القبول أو التعديل في أي فرع عن تصوره ولايمكن أن تكون صيغة العلاقات الدولية المعقدة في زماننا هي الصيغة نفسها التي حكمت الدنيا في عصر الحروب الصليبية أو الحملة الفرنسية .

نعم ان قضية المواجهة بين ثقافتنا وثقافة الغرب حق وليست من أوهام الخيال . وثقافتنا مطالبة بتجديد نفسها ، وبمواجهة عاقلة رصينة لمتغيرات كثيرة لم تكن من قبل ، وبدفاع رشيد عن كينونتها وشخصيتها المتميزة ، وبدور فاعل في تشكيل الحضارة الانسانية المعاصرة ، ولكن صلاح آخر هذا الامر لايكون الا كما صلح به أوله . ألا هو الحوار الذكي والانفتاح المنضبط على ثقافات البشر ، من موقع الثقة بالنفس ، والوعي بالخصوصية وتحديد المعيار الضابط لما تأخذ وما تدع ، وبالتمثل الصحيح لاي زاد ثقافي غريب حتى يستحيل في جسد الأمة ذكاء ونماء وعنفوانا . وأحسب أن هذا هو الدرس الذي لقنتنا اياه أسلافنا العظام ليجعلوه لنا تذكرة ، وتعيه أذن واعية . □

● ثمن الحرية والكرامة فادح ، ولكن الاستكانة للذل والاستعباد أشد فداحة .

(حكيم عربي)

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

التعددية السياسية وشبح الفتنة

امتنعت إحدى المجلات الاسلامية عن نشر مقال لواحد من أئمة الدعوة الاسلامية في زماننا هو الشيخ محمد الغزالي ، إذ كان موضوع المقال يمس نقطة حساسة مضطربة في فهم بعض الحركات الاسلامية المعاصرة ، وهي التعددية الحزبية . ولسنا نرى غضاضة في أن تختلف مساحة الرأي إزاء قضية ممارسة الحرية السياسية في الواقع الاسلامي . ولا تثريب على من دعا إلى فكرة الحزب الواحد ، أو استحسن أن يكتفي بحزبين اثنين ، تضييقا لشقة الخلاف واحتمالاته . أو من دعا إلى فتح الأبواب لتعدد الأحزاب . إنما أكثر ما يعنينا في المسألة أمور ثلاثة ، أولها أن يظل الحرص قائما على ضرورة الدفاع عن قيمة الحرية ، باعتبارها دعامة أساسية من دعائم المجتمع الاسلامي ، وكل مجتمع إنساني . وثانيها ألا يصر دعاة هذه الصيغة أو تلك على أن الموقف الذي يتبنونه هو رأي الاسلام ، وما دونه خارج عنه .

آخرها أن يتواصل الحوار بين الأطراف المختلفة ، حتى يتبلور التصور الصحيح للمسألة ، فيخدم مقاصد الشارع ، ويحقق مصالح الناس .

لا نريد أن تستغرقنا تفاصيل واقعة حجب نشر مقال الشيخ الغزالي ، لكن دلالة الواقعة ينبغي أن تستوقفنا كذلك . أحسب أنه يعنينا إلى حد كبير أن نحاول استجلاء الحقيقة في مسألة موقف التصور الاسلامي من التعددية الحزبية ، أو بوضوح أكثر موقع الآخر « السياسي » في المجتمع الاسلامي .

الموقف من التعددية الحزبية

فنحن إذا رجعنا إلى أدبيات التيارات الاسلامية المعاصرة ، فإننا نلمس بوضوح مدى التذبذب في موقف تلك التيارات من قضية التعددية الحزبية . وفي مقال سابق (الشهر الماضي) تحدثنا عن مصطلح « حزب الله » الذي يستخدمه البعض في مجال العمل السياسي ، وهو ينصرف أصلا إلى جماعة المسلمين على عمومهم ، وليس إلى جماعة بعينها بينهم ، بحيث تصادر فكرة التعددية السياسية ، ولا يبقى في الساحة إلا قوة سياسية واحدة ، هي تلك التي تحتمي بلافتة « حزب الله » . ذكرنا أيضا أن إقحام ذلك المصطلح في مجال العمل السياسي برز في العقدين الأخيرين ، واستقر في قاموس الخطاب الذي تعتمده بعض فصائل العمل الاسلامي الشباب (جماعة الجهاد في مصر مثلا) . على صعيد آخر نجد اعتراضا مبكرا على التعددية السياسية في الفكر التقليدي لجماعة الاخوان المسلمين . سجل ذلك الاستاذ حسن البنا ـ مؤسس الجماعة ـ عندما ذكر في رسالة « إلى المؤتمر الخامس »

أن هناك فرقا بين حرية الرأي والتفكير والابانة والأفصاح والشورى . وهذا ما يوجبه الاسلام . وبين التعصب للرأي والخروج على الجماعة والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام في الأمة ، وزعزعة سلطان الحكام ، وهو ما تستلزمه الحزبية ، ويأباه الاسلام ويحرمه أشد التحريم . والاسلام في كل تشريعاته إنما يدعو إلى الوحدة والتعاون .

أضاف الاستاذ البنا أن الجماعة طلبت من رؤساء الأحزاب المصرية « أن يطرحوا خصوماتهم جانبا ، وينضم بعضهم إلى بعض » ، وأنهم دعوا الدولة إلى « حل الأحزاب القائمة حتى تندمج جميعا في هيئة شعبية واحدة ، تعمل لصالح الأمة على قواعد الاسلام » (مجموعة الرسائل - ص ٣١٦) .

ويبدو أن ذلك أيضا هو الموقف التقليدي للجماعة الاسلامية في الهند وباكستان ، وهو ما تستدل عليه مما تضمنته رسالة الشيخ أبو الأعلى المودودي - مؤسس الجماعة - حول « نظرية الاسلام السياسية » ، وهي محاضرة مبكرة ألقاها في سنة ١٩٣٩ قبل تأسيس دولة باكستان ، إذ ذكر وهو يتحدث عن تصوره للدولة الاسلامية أن « مجلس الشورى الاسلامي لا يمكن أن ينقسم أعضاؤه جماعات وأحزابا ، بل يبدي كل واحد منهم رأيه بالحق بصفته الفردية ، فإن الاسلام يأبى أن يتحزّب أهل المشورة ، ويكونوا مع أحزابهم ، سواء كانت على حق أو على باطل » - (ص ٦٠) .

وفي أسس الدستور الاسلامي التي أقرها في سنة ١٩٥١ م جمع من علماء شبه القارة الهندية (عددهم ٣١ فقيها) لا نكاد نعثر على إشارة يفهم منها قبول مبدأ التعددية السياسية ، إذ بينما اتفق العلماء على ٢٢ نقطة لتكون أساسا للدستور المقترح لباكستان آنذاك ، فإن إشارتهم في الشق الذي يعنينا لم تتجاوز « حرية المبدأ والمسلك وحرية العبادة ، والحرية الشخصية وحرية إبداء الرأي وحرية التنقل وحرية الاجتماع » - (النقطة السابعة في الأسس المقترحة - ص ٣٧٣ من كتاب المودودي « نظرية الاسلام وهويته ») .

ولئن عدلت جماعة الاخوان ، وكذلك الجماعة الاسلامية في الهند ، عن هذا الموقف التقليدي في الثمانينات ، وشاركت كل منها بالمعترك السياسي في ظل التعددية الحزبية - بصورة أو بأخرى - إلا أنه ليس بين أيدينا ما يقطع بأن ذلك العدول إنما هو تطوير للموقف الأساسي ، وليس إجراء مرحليا اقتضاه حسن الأداء السياسي .

مواقف أخرى

هذا عن الجماعتين « الأم » في العالم الاسلامي ، غير أننا نجد إلى جوارهما وعلى هامشهما تيارات إسلامية أخرى تقبل بالتعددية السياسية مثل :

حزب التحرير الاسلامي الذي يقرر في مشروعه للدستور أنه : للمسلمين الحق في إقامة أحزاب سياسية ، لمحاسبة الحكام ، أو الوصول إلى الحكم عن طريق الأمة ، على شرط أن يكون أساسها العقيدة الاسلامية (مشروع الدستور . ص ٢٧) .

الجبهة الاسلامية في السودان التي أعلنت التزامها بمختلف مبادىء الديمقراطية والشورى ، بما في ذلك مبدأ التعددية السياسية ، وذهبت إلى الاعلان عن أنها لا تضيق بمشاركة غير المسلم في مجالات إعمار الحياة الدنيا ، فيما يمكن أن يتعاون فيه الناس جميعا » - (دستور الجبهة الاسلامية القومية - ص ٢٦) .

حركة الاتجاه الاسلامي في تونس التي قررت في إعلانها الصادر في عام ١٩٨١ عن إقرارها لحق « كل القوى الشعبية في ممارسة حرية التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعية ، والتعاون في ذلك مع كل القوى الوطنية » .

ويلفت نظرنا في هذا الصدد رأي سجله أحد الممثلين البارزين للحركة السلفية في الكويت ، هو الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ، ورد فيه على الرافضين لفكرة الأحزاب السياسية ، مؤيدا إقامة تلك الأحزاب . وكان مما قاله في هذا الصدد :

« إن هذه المؤسسات والوسائل (الأحزاب والجمعيات) ليست حراما ، وإنها بذاتها ، بل هي

مصالح مرسلة ، لم يأت نص شرعي بإلغائها .

إن إقامة أحزاب أو جمعيات أو تجمعات في أي نظام ديمقراطي يسمح بتعدد الآراء والاتجاهات لا يعني بالضرورة إقرار المخالفين ، ولا الرضا بما هم عليه من الباطل ، وإنما يعني فقط الرضا بالطريق السلمي ، والدعوة العلنية ، سبيلا ومنهجا للتغيير ، والتخلي عن سياسة العنف والسرية . وهذا في حد ذاته محمود في الدين ، بله الأصل في الدعوة إلى الله » . (المسلمون والعمل السياسي - ص ٢٨) .

ونحن لا نبالغ إذا قلنا ان المسلمين من أهل السنة ، على إطلاقهم ، يستشعرون حساسية خاصة ، بدرجات متفاوتة ، تجاه بوادر الفرقة والانقسام ، ليس فقط لأن مثل تلك الفرقة قد نهي عنها شرعا ، فضلا عن أنها من قبيل المخاطر والمرذولات التي ينكرها كل أحد ، لكن أيضا لأن أحداث الفتنة الدامية التي لاحت في عهد خليفة المسلمين عثمان بن عفان ما زالت ماثلة في الوعي الاسلامي حتى زماننا هذا .

وقد أشرنا من قبل إلى أصداء تلك الفتنة عند فقهاء أهل السنة الذين ما انفكوا يسدون منافذ الفرقة بكل وسيلة ، حتى قبل بعضهم الصبر على ظلم الحكام ، خشية أن تؤدي المعارضة إلى انفراط عقد دولة الاسلام ، وانهيار نظامها (على الرغم من أن للتعاليم الاسلامية موقفا حازما تجاه هذه النقطة ، مسجلا في العديد من الأحاديث النبوية) .

وربما كانت كلمات فقيهنا أبي بكر الطرطوشي (ت - ٥٢٠ هـ) صاحب « سراج الملوك » معبرة عن هذا الموقف ، فهو القائل : إن « من إجلال الله إجلال السلطان عادلا كان أو جائرا ... الطاعة عصمة من كل فتنة ، ونجاة من كل شبهة » .

الاختلاف الجذري والفرعي

في كتاب نشر بالعربية في القاهرة مؤخرا لأحد الباحثين في الجامعة السلفية بالهند عنوانه « الأحزاب السياسية في الاسلام » اتخذ مؤلفه الأستاذ صفي الرحمن المباركفوري موقفا حازما في رفضه لفكرة الأحزاب في الواقع الاسلامي . قال فيه : الاختلاف الجذري لا يصلح أن يقبل في الاسلام ، والاختلاف الفرعي وإن كان يحتمل ، لكن المطلوب اتجاهه مهما يكن ، ولا يجوز أن يوفر له رصيد من الأحزاب والجماعات . والاختلاف الهامشي أو الخارجي أيضا لا يصلح لبناء الأحزاب في هذه الأمة (الاسلامية) .. ثم إن الاختلاف - من أي نوع كان - ممنوع شرعا ، والنصوص متوافرة في هذا الباب ، وصريحة في المنع والنهي . والرسول عليه الصلاة والسلام لم يترك بابا صغيرا من الاختلاف إلا وكان يسده وينبه الصحابة إلى شره - (ص ٨٦) .

مضى الاستاذ صفي الرحمن على طريق الطرطوشي فقال : أوجب الله ورسوله طاعة الأمير ، ما لم يأمر بمعصية الله ، وشدد في النهي عن منازعته (الحاكم) ، ولو صدر عنه بعض الجور ، وظهر منه الاستبداد بالحكم وببعض الحقوق ، اللهم إلا إذا ظهر منه الكفر البواح الذي يكون فيه عند المسلمين من الله برهان » .

في مقابل ذلك نقرأ نحن رأيا آخر للباحث الباكستاني خالد اسحاق في دراسة له حول « الأحزاب السياسية ونمط القيادة في الدولة الاسلامية » (المسلم المعاصر - عدد يوليو ١٩٨٥ م) . فيه يفند الحجج التي يستند إليها دعاة رفض التعددية السياسية بحجة الفتنة . ومنها على سبيل المثال ، الآية : « إنّ الذين فَرّقُوا دِينَهم وكَانُوا شِيَعاً ، لَسْتَ منهم في شيْء » (الأنعام - ١٥٩) ، وهو ينبه إلى أن الآية تنصب على التفريق في الدين ، وأنه ليس كل اختلاف في الرؤية السياسية يمكن أن يؤدي إلى ذلك . وإشارة إلى الآية : « وَإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما . فَإنْ بَغَتْ إحداهما عَلى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي حَتّى تَفِيْءَ إلى أمرِ الله » (الحجرات - ٩) .

عقب الباحث الباكستاني على الآية قائلا : إنه حتى إذا ما وصل الخلاف بين الفرق إلى الصدام المسلح ، فإن ذلك لا يخرج أحدا من الملة ، بدليل أن الخطاب القرآني وصف الطوائف الثلاث (الطرفين المتحاربين

والفريق الثالث الذي يتوسط بينهما) وصف القرآن هؤلاء جميعا بالمؤمنين .

ومن الخلاصات الأساسية التي انتهى إليها الأستاذ اسحاق ، أن ثمة عديدا من الواجبات الكفائية التي ينبغي أن تنهض بها جماعة المسلمين في ممارسة الشورى ، وتوجيه النصح للحكام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وحتى تؤدى هذه الواجبات على نحو صحيح فإن ممارستها تكون من خلال جماعات سياسية ، شريطة ألا تؤدي أنشطة تلك الجماعات إلى تفتيت وحدة الأمة .

في المحيط العربي

أما على صعيد المحيط العربي فلعلنا لا نبالغ إذا قلنا انه ليس بين من يعتد بهم من الفقهاء أو المفكرين الاسلاميين المعاصرين ، (لاحظ أن القضية مستحدثة من أساسها) ، من عارض فكرة التعددية السياسية في المجتمع الاسلامي ، من محمد عبده ورشيد رضا إلى شلتوت والغزالي والقرضاوي ، ومعهم الدكاترة محمد ضياء الدين الريس ، وفتحي عثمان ، وكمال أبو المجد ، ومحمد عمارة ، وجمال عطية ، ومحمد العوا ، وهذه أسماء تحضرنا من بين المصريين الذين صنفنا معهم الشيخ رشيد رضا ، باعتبار أن دوره الثقافي برز في القاهرة . ولسنا نشك أن هناك آخرين في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية الأخرى - سوريا خاصة - يقفون على نفس أرضية التعددية ويؤيدونها .

والخط الأساسي الذي نجده واضحا في كتابات هؤلاء الفقهاء والباحثين أن الأمة الاسلامية منذ بداية مسيرتها ارتضت الخلاف في الفروع ، ولم تقبل الاختلاف في الأصول . وأن التعددية السياسية تظل من ذلك النوع المقبول . باعتباره نوعا من الاختلاف في الفروع .

ونحن نضيف هنا أن تعدد المذاهب الاسلامية يعبر عن ذلك النوع من الخلاف ، وأنه إذا جاز للأمة أن تحتمل اختلافا في أمور الدين على ذلك النحو الذي تفاوتت بصدده اجتهادات الفقهاء ، فيما لا حصر له من نقاط فأولى بها أن تقبل اختلافا في أمور الدنيا ، التي تتراوح بين بدائل وحلول للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه الناس .

ولعلنا نضيف هنا ما قاله الدكتور الريس : من أن الفرق الاسلامية لم تكن مجرد مدارس فكرية ، تصل إلى تكوين الآراء ، ثم تكتفي بإبدائها أو تدوينها ، لكنها كانت أحزابا - بالمعنى السياسي الذي نفهمه اليوم في ميدان السياسة العملي - فلها مبادىء معينة ، أشبه بالبرنامج المرسوم ، ولها نشاط ، وفيها نظام ، ثم هي تسعى وتكافح حتى تحقق لهذه المبادىء النصر ، وتجعل منها - إن استطاعت - منهاج الحكم » (النظريات السياسية الاسلامية ص ٥١) .

مما يشير إليه الدكتور محمد العوّا في هذا الصدد أن وجود الأحزاب في المجتمعات الاسلامية المعاصرة (التي لا تنقض مبادىء الاسلام) ضرورة لتقدمها ، ولحرية الرأي فيها ، ولضمان عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين .

وهو ينقل عن شيخ الاسلام ابن تيمية رأيه الذي أثبته في مجموعة الرسائل بشأن موقف الاسلام من الأحزاب السياسية ، وقوله ان الأحزاب التي تدعو إلى خير وحق ، ويؤدي وجودها إلى تحقيق مصالح الناس ، تدخل في نطاق قوله تعالى عن المؤمنين : « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون » ، وأن الأحزاب التي تقوم على محادة الله ورسوله تدخل في وصف الله سبحانه وتعالى للضالين بأنهم « حزب الشيطان » .

وينتهي الدكتور العوّا إلى أنه ليس في تعدد الأحزاب « ما يخالف الاسلام أو نصوصه القطعية ، بل لعل قول الله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يدعون إلى الخير وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر » مما يشهد لصحة هذا الرأي . (في النظام السياسي للدولة الاسلامية - ص ٨٤) .

ذلك عن التعددية السياسية من حيث المبدأ . أما في الضوابط والتفاصيل فلها حديث آخر بإذن الله . □

نزعات الانتحار عند المبدعين !

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

للمبدع حياته الخاصة تماما كالآخرين ، انه دائب الرهبانية في قضية الابداع ، وقضية النضال والمبادىء .

لكن له شبكة من العلاقات الأسرية والاجتماعية ، وله كذلك غرامياته وحياته الجنسية تماما كالآخرين ، وربما له في هذا المجال خصوصيات قد تكون غريبة ، أو شاذة فلماذا ينتحر المبدع ؟

هل لأنه أخفق في بناء علاقة حب سوية ، أو لأن الواقع المحيط به فيه احباطات وهزائم كثيرة ، أم أن الأمر يعود الى تفاعل هذا بذاك وغير ذلك من الأسباب ؟

الفنانون والأدباء هم أكثر المنتحرين ميلا « للانتحار من أجل القضية » ، لغلبة الجانب المبدئي القيمي على تكوينهم وتفكيرهم . انهم كالرهبان البوذيين الذين يشعلون النار في أنفسهم للاحتجاج على ظلم أو للتنبيه الى قضية عادلة .

غير أن هذا البعد في انتحار المبدعين وان كان واردا في حالات كثيرة ، أو كان عنوانا أبرز وأعم لفاجعة انتحارهم ، الا أنه ليس « البعد الوحيد » في الحالة الانتحارية من حيث هي حالة نفسية انسانية بالغة التعقيد متشابكة الأبعاد .

فبعد إمعان النظر والتدقيق في تحليل كثير من الحالات الانتحارية لدى المبدعين ، سواء تلك التي قد انتهت بالانتحار أو كانت محاولة لم تتحقق، أو كانت احباطا نفسيا شديد الوطأة نهايته العزلة الدائمة شبه الانتحارية ، يتبين للناظر في مختلف تلك الأحوال أن المبدع صاحب النزعة الانتحارية قد عاني - مع معاناته قضيته المبدئية - مشكلتين فرديتين أساسيتين ، احداهما تتمثل في استحالة الانسجام مع الآخرين ، أو مع الحياة ، أو حتى مع نفسه ، بينما تتمثل الثانية في مشكلة عجز أو قصور جنسي أو غرامي أو اخفاق مرير في علاقة زوجية ، بحيث تتضافر هاتان المشكلتان مع شعور المبدع باخفاق قضيته الكبرى - قومية أو فكرية أو انسانية - بشكل يؤدي الى بلورة قرار الانتحار ، أو الانحراف نحوه بصورة أو بأخرى

مشهد انتحاري من اليابان

لقد اندهش العالم وفي طليعته اليابان من مشهد انتحار الأديب الروائي الياباني « يوكويو ميشيا » يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠ ، عندما احتل هو وقلة من رفاقه مقر كلية الأركان العسكرية في قلب طوكيو ، واحتجزوا قائدها ، ثم صعد « ميشيا » الى شرفة الكلية المطلة على ساحة التدريب ، وألقى كلمة عصبية لم تستغرق أكثر من عشر دقائق ، في الجنود الشباب المندهشين للحديث ، دعاهم فيها الى رفض خضوع اليابان لأمريكا ، والى تغيير دستورها « السلمي » الذي فرض عليها بعد الاحتلال الأمريكي عام ١٩٤٥ ، والعودة الى تقاليد اليابان العسكرية ، وقيمها القومية التاريخية ، قبل أن ينجرف مجتمعها مع موجة « التغريب والتأمرك » في العقود الأخيرة . وعلى الرغم من أن رد فعل الجنود كان أقرب الى السخرية ، بل ان بعضهم أغرق في الضحك على عصبية « ميشيا » وغرابة أفكاره - بمعيار الجيل الجديد في اليابان - وعلى حركاته الدرامية المبالغ فيها ، وعلى الرغم من ذلك قرر « ميشيا » المضي في عملية الانتحار ، فغرز سيفه في أعماق أمعائه ، وأخرج رأس السيف من جانب بطنه الآخر ، على طريقة انتحار فرسان اليابان القدماء (الساموراي) ، المسماة (هارا - كيري) ، ثم قام أحد رفاقه بحز عنقه ، وفصل رأسه عن جسده ، تخليصا له من ذلك العناء الدموي .

وقد أثار حدث انتحاره اهتماما واسعا في اليابان وفي الغرب ، واعتبره بعضهم دليلا ، وان يكن معزولا ، على أن وراء الأكمة ماوراءها ، وأن الروح اليابانية المتحفزة للمواجهة مازالت تسري في الأعماق . ولم يكن « ميشيا » بالأديب الصغير الفاشل حتى يمر انتحاره دون زوبعة ، فقد كان روائيا كبيرا ناجحا ، وكان قد فرغ توا من ارسال الجزء الأخير من قصته الأخيرة الى المطبعة ، ثم أخذ يخطط لحادث الكلية العسكرية بشكل مدروس ، بعد أن اطمأن الى أنه سجل كلمته النهائية عن اليابان في تلك الرواية التي سماها (بحر الخصب) .

غير أنه على الرغم من هذا البعد المبدئي لانتحار « ميشيا » ، من حيث انه اعلان صارخ عن قضية اليابان التقليدية التي جرفها « التغريب والتأمرك » ، فإن التحليلات والشواهد التي أخذت تترى عن سجل حياة « ميشيا » بأقلام دراسية ، قد أخذت تشير أيضا الى أبعاد شخصية مهمة ، تداخلت في نسيج فاجعة انتحاره . فلقد تبين كما كشف دارسه وصديقه الصحفي البريطاني « هنري سكوت ستوكس » في كتابه المثير (حياة « ميشيا » وموته) ، أن الأديب الياباني الكبير المنتحر كان يمارس الشذوذ الجنسي على الرغم من أنه متزوج ورب عائلة وأبناء . ومما لفت النظر أن شريكه في الشذوذ الجنسي (موريتا) كان رفيقه الوحيد أيضا في عملية الانتحار ، الأمر الذي جعل البعدين السياسي القومي والشخصي الجنسي يتداخلان بشكل عضوي ، ثم ان ظاهرة الشذوذ هذه كانت بادية من ناحية أخرى في أعماله الأدبية ، بما يشير الى ارتباطها بموهبته الفنية الابداعية مع الظواهر الرئيسية الأخرى في أدبه التي تتلخص في كلمات ثلاث ، هي الموت ، والدم ، والانتحار ، بالاضافة الى رفض عميق لعقم الحياة الغربية المعاصرة . وهكذا يتبين أن شخصية « ميشيا » كانت تنطوي على « اشكالية جنسية » من نوع ما ، تتمثل في شذوذه الذي هو اشكال جنسي غير طبيعي . وكان « ميشيا » منذ زمن فتوته قد واجه تحديا لكفاءته الجسمية الرجولية عندما سقط في امتحان اللياقة البدنية اللازمة للانخراط في الجيش ، مما اضطره الى الاتجاه للدراسة النظرية المدنية . وعلى الرغم من انه أصبح كاتبا كبيرا ، لكنه أصر على انهاء حياته في كلية عسكرية ، أي في المجال العسكري الذي حرم منه ، ولم يفته أن ينادي في أحد أعماله الأدبية (الشمس والفولاذ) الى تقديس بناء القوة العضلية الجسمانية في الجيل الياباني الجديد للتعويض عن الهزيمة المذلة . أما عمله الأدبي الذي تحول الى فيلم (عام ١٩٦٦) فقد كان يصور حلمه الأخير وهو « الانتحار الفروسي على طريقة فرسان (الساموراي) باعتباره جزءا من قيم اليابان العليا

هكذا تتداخل أبعاد الجسد : بناؤه بالفروسية عبوره بالجنس ، تضحيته بالانتحار ، مع الانبعاث المثالي لليابان التاريخ وأبعاده ، بحيث يستحيل التحديد والتمييز : أين ينتهي « ميشيما » الشخص ؟ وأين يبدأ « ميشيما » الرمز أو القضية ؟

واذا كانت « اشكالية الجسد ـ الجنس » أكثر تميزا في شخصية « ميشيما » ، ونسيج انتحاره من الاشكالية الأخرى ـ معضلة العلاقة مع الآخرين ـ فان هذه الاشكالية واردة ضمنا في تكوينه ونهايته ، لم يعان «ميشيما» مشكلة كبيرة في التعاطي مع اصدقائه وزملائه ، بل كان لطيف المعشر معهم كما يشير الى ذلك كاتب سيرته « هنري ستوكس » . غير أنه واجه استحالة الانسجام مع عالمه الحديث داخل اليابان المعاصرة وفي العالم المعاصر الذي يسيطر عليه الغرب ، كما استحال عليه ـ وذلك هو الأخطر الانسجام مع ذاته حيث ظل قلقا متحولا من اليسار الى اليمين المتطرف ، ومن الرواية الى المسرح الى السينما الى « الفولكلور » ، ومن الحياة اليومية حسب النمط الغربي الى الحلم اليومي باليابان العسكرية القديمة لدرجة تكوينه « لميليشيا » خاصة اسماها « المجتمع الدرع » ، غير أن درعه الذاتي في النهاية أصيب بالتصدع تحت عبء التحولات المستحيلة ، فلم يجد من وسيلة لتحويل كلماته الى أفعال الا بفعل الانتحار .

انتحار حاوي : القضية والشخص

في حزيران سنة ١٩٨٢ عندما بدأ الجيش الاسرائيلي يزحف نحو بيروت ، فجع الوطن العربي بالاضافة الى فاجعة العدوان الاسرائيلي الجديد بنبأ

انتحار الشاعر اللبناني العربي الكبير خليل حاوي ، وذلك بأن اطلق على رأسه ـ جهة العين اليسرى ـ رصاص بندقيته وهو داخل شقته الكائنة في رأس بيروت قرب الجامعة الأمريكية ، دون أن يترك أي ايضاح مباشر بشأن انتحاره .

كان طبيعيا أن يرتبط انتحار حاوي بالقضية العربية في مرحلتها المأساوية هذه ، حيث « تعهرت » حتى اللغة حسب تعبيره الأخير ، وهو الشاعر الذي قصر معظم شعره ان لم يكن كله على قضايا الانبعاث القومي والحضاري في مواجهة عقم الانحطاط وشراسة الأعداء .

لاشك فان البعد المبدئي ، بعد القضية هو عنصر رئيسي واساسي في نسيج شخصية حاوي ونسيج انتحاره ، والذين يعرفونه عن كثب ـ وبينهم كاتب هذه السطور ـ يدركون الى أي مدى كان حاوي مهموما بالقضايا العربية في عمقها القومي والحضاري خاصة ، حيث كانت بمثابة خبزه اليومي وهو الذي لم ينشغل بهموم تأسيس عائلة أو الارتباط بزوجة أو الاهتمام بمشروع شخصي .

واللافت للانتباه أن خليل حاوي قد فكر في عملية انتحار علني على رؤوس الاشهاد ، يعلن فيها احتجاجه الصارخ على تردي الأوضاع العربية ، ثم يلجأ الى فعل الانتحار باعتباره الفعل الوحيد المتاح أمامه :

فاتني طبع المجاهد
لم أعد غير مشاهد
فلأمت غير شهيد
مفصحا عن غصة الافصاح
في قطع وريد .

وكان يتصور نفسه وقد حمل مسدسه وذهب به الى منطقة الحمراء المكتظة بالناس ليقوم بانتحاره العلني ، غير أنه أدرك أنه ليس في تقاليد الحياة العربية « فعل انتحار » كهذا يماثل الـ « هارا ـ كيري » الذي لجأ اليه « ميشيما » في اليابان، ولايستبعد أن يكون حاوي قد تابع قضية انتحار « ميشيما » خاصة وأنها حدثت عام ١٩٧٠ بعد أن فجع حاوي بكارثة حزيران ١٩٦٧ ، وظل ينتظر قدره بعد ١٥ سنة في حزيران سنة ١٩٨٢ عندما تجددت الهزيمة دون رد عربي في مستواها ، وكانت من آخر عباراته « رباه كيف استطيع تحمل هذا العار ؟ » .

غير أن عناصر تكوين حاوي الفرد قد تداخلت بلا ريب مع عناصر تكوين حاوي القضية وتضافر الجانبان في نسج قصة انتحاره .

لقد أخفق حاوي من ناحية أخرى في تأسيس علاقة عاطفية دائمة مع المرأة باعتبارها شريكة حياة ، على الرغم من اشارة طبيبه وصديقه الدكتور « نسيب همام » الا أنه « كانت له بعض الغراميات ، فقد كان يميل الى النساء ، وكانت له جاذبية خاصة ومعجبات كثيرات اذ أنه كان محبوبا وقريبا من القلب » (مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد حزيران تموز ١٩٨٣ ص ١٠٧)

ضاع على خليل حبه الأول والأقوى بسبب تقاليد الضيعة ، فقد شغف - كما يروي أخوه الاستاذ ايليا حاوي « بفتاة كانت وحيدة والديها ، جميلة ، هيفاء ، عالية الجبين ، ووجنتاها موردتان وعيناها سوداوان وشعرها مدل على كتفيها . نظم فيها معظم شعره الريفي واحبها،لقد كان حبه الأول الذي ظل حيا في أعماقه ، وأما الحب الآخر وغيره فقد كان طيفا وانعكاسا له ، وقد تواعد مع تلك الفتاة على الزواج وقررا أن يقترنا ، الا أنها خطفت في غيابه لأحد اقاربها ، وعاد خليل ينظم فيها شعر اللوعة والحسرات ، وهو شعر مازلنا نحتفظ به بخط يده ، بعضه نشر ومعظمه لم ينشر » - (المصدر السابق ص ٢٨) .

اذا كان حبه الأول قد تحطم بهذه الصورة ، فان مشروع زواجه من امرأة أخرى فيما بعد واجه مصيرا مماثلا ، وعلى الرغم من أن هذه المرأة هي التي اهداها كتابه الأول (حياة جبران وآثاره) الذي تقدم به للدكتوراة في كمبردج ، وتحدث عن مكانتها ودورها في حياته بقوله « الى اليد التي امسكت بيدي في ليالي الشك والخلق وهي التي رافقتني الى كمبردج ، على الرغم من هذه العلاقة المتميزة فانه يعود الى الحديث عن دور المرأة في حياته بصفة عامة قائلا : « لم التق بالمرأة التي يمكن أن تكون رفيقة تملأ جوانب نفسي ، المرأة تابعة لي تابع المسحور دون أن استجيب لها استجابة تامة ، العلاقة كانت علاقة رفقة صراع أكثر مما هي علاقة رجل بامرأة تبلغ حد الاندماج التام ، « شعور بالاخفاق في هذا المجال » ، ان أقرب النساء الي كما قالت احداهن تأتي في الدرجة العاشرة بعد الشعر ! . » (المصدر السابق ١٠٢ - ١٠٣)

هذا يلخص مدى رسوخ النزعة الفردية المتفردة في شخصية حاوي واستحالة انسجامه مع الآخر حتى لو كان الحبيبة * والواقع أن الشعر في حد ذاته لايمكن أن يمنع هذا الانسجام ، فكم من الشعراء الكبار اتخذوا من الحبيبة رمزا للانطلاق في الشعر ، وتوحد الشعر لديهم بالحبيبة مثل الشاعر الايطالي « دانتي » كمثال بين أمثلة كثيرة ، فالمعضلة هنا - في حالة حاوي - ليست معضلة الشعر بل معضلة الشاعر ، ويبدو لي أن شك الشاعر وريبته العميقة في الطبيعة الانسانية على الرغم من ايمانه القوي بالانسان قد أدى الى تصدع العلاقة واخفاقها ، يلاحظ أن الأديبة « ديزي الأمير » وهي المرأة التي رافقته ، واهداها كتابه الذي ذكرنا ، قد عنونت مقالتها التذكارية عن حاوي بعنوان (عطاء حاوي والشك) وأرخت لشخصيته بقولها : « وخليل اذا ظن شيئا صار يقينا يستحيل تغييره ، اصدقاؤه أحبوه وتحملوا غضبه وقطيعته بحلم ومودة ، لأنهم يعرفون طيته الجيدة » وأشارت الى أنه منذ بداية السبعينيات انقطع عن الدنيا والناس انقطاعا شبه تام ، وزادت صعوبة تعامله معهم ، ثم تلخص المسألة كلها قائلة : « يعللون سبب انتحاره بتراكم الهزائم العربية ، « نعم خليل شاعر عروبي صادق ، مسؤول وطنياً ، ولكن ألم يكن خليل من البشر ؟ ألم تكن له حياته الخاصة » ؟ . (المصدر السابق ص ١٢٠ - ١٢٢) .

---

* كانت معضلة استحالة الانسجام مع الآخرين ظاهرة أساسية متكررة في حياة الفنان الهولندي المنتحر : فان جوخ أيضا .

وهذا يلخص الاطروحة التي طرحناها في البداية .. وهي ان المبدع المنتحر تشغل « القضية » في الأغلب ـ جزءا كبيرا من نسيج انتحاره .. لكنها في كثير من الحالات تبدو تفسيرا تبسيطيا لقضية اكثر تعقيدا . وفي أساس انتحار كل مبدع تترسب اشكاليتان لايمكن غض النظر عنها ، وهي استحالة انسجام المبدع مع الآخرين أو الواقع أو النفس ، وعجزه عن تأسيس علاقة انسانية عاطفية ثابتة يمكن أن تكون « خيطه السري » الذي يربطه بالحياة عندما تتقطع خيوطه الأخرى .

حالات أخرى

الامثلة عديدة لا يتسع المجال لذكرها، نذكر بايجاز أن الشاعر السوفياتي المنتحر « ماياكوفسكي » (١٩٣٠) قد انتحر ليس لأن « قضيته » بناء الاشتراكية لم تعد تحتاج شعره ، بل لأنه جوبه بالرفض من المرأة الروسية المهاجرة التي احبها حتى العبادة عندما كان في باريس . والناقد المصري « أنور المعداوي » قد عاش عزلة انتحارية حتى وفاته . لانه عجز عن التلاؤم مع الواقع الأدبي والاجتماعي فضلا عن عجزه عن اقامة علاقة طبيعية مع امرأة ، كما كشف ذلك الاستاذ الناقد « رجاء النقاش » في كتابه الموثق :

« صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر » من واقع معرفته الحميمة بأنور المعداوي .

النساء والانتحار

أما النساء ـ مبدعات وغير مبدعات ـ فهن أقل عرضة للانتحار من الرجال وهذه حقيقة احصائية عالمية .

وماذلك في رأينا الا لأن خيوطهن العاطفية العميقة مع الحياة أقوى بكثير من خيوط الرجال الذهنية الواهية . ويقولون ان الرجل أقوى من المرأة وأن المرأة مخلوق ضعيف .

انها ليست كذلك فيما يتعلق بقوة تشبثها بالحياة . وقوة مقاومتها للموت . فالمرأة أطول من الرجل عمرا .

واذا كانت المرأة أقوى من الرجل في التمسك بالحياة وفي مقاومة الموت فماذا يتبقى للرجل من قوة فيما يتعدى الحياة ويتعدى الموت ؟ □

مسرح الجيب

● قامت فكرة مسرح الجيب في البلاد الأوروبية على نوع من الأعمال المسرحية التي لا يمكن عرضها في المسارح العادية ، ولا أمام الجمهور العادي . والمعروف أن مسارح الجيب هي مسارح صغيرة ، جمهورها يتكون من خلاصة المثقفين المستعدين للتجاوب مع التجارب الجديدة الصعبة في المسرح .

وكما أن لكل تجربة في البداية مشاكلها ، فقد لقيت أول مسرحية لتشيكوف ـ وهي مسرحية بستان الكرز التي عرضت في موسكو ـ أسوأ استقبال من الجمهور ، حتى لقد فر تشيكوف هاربا من المسرح أثناء عرض المسرحية ، بل إن تشيكوف قد خرج من موسكو نفسها ، ليبتعد عن هذا الجو الفني السيىء الذي أثارته مسرحيته الأولى ، علما بأن المسرحية لم تكن سطحية ولا تافهة ، لكنها كانت عملا فنيا جديدا غير مألوف للجمهور ، فأنكرها وانصرف عنها .

الموصّلات الكهربائية الفائقة

تخرج من الصّقيع !

اعداد : الدكتور سعود عياش

الموصلات الفائقة (Superconductivity) ظاهرة فيزيائية تعبر عن فقدان المواد كل مقاومة لسريان التيار الكهربائي . فالمعروف أن المواد الموصلة للكهرباء تبدي مقاومة بدرجات متفاوتة لسريان التيار الكهربائي ، وينجم عن المقاومة فقدان جزء من الطاقة الكهربائية في الموصلات على شكل حرارة . وتعتبر السخانات الكهربائية ومصابيح الاضاءة من الأمثلة الشائعة على تحول الكهرباء إلى حرارة بفعل مقاومة المواد الموصلة (ملف التسخين وفتيلة المصباح) لسريان التيار الكهربائي ، أما في الموصلات الفائقة فإن مقاومة سريان التيار الكهربائي تختفي تماما ، ويصبح بالإمكان انتقال التيار الكهربائي عبر مئات أو آلاف الأميال دونما خسارة أو فقدان في شدته .

تعيش أوساط الفيزيائيين في حقل الموصلات الكهربائية الفائقة حالة من الاثارة والترقب ، فقد شهد هذا الحقل من الفيزياء تطورات مثيرة ، وصفت بأنها أهم حدث علمي في ثمانينيات هذا القرن ، وربما يكون الحدث العلمي الأهم حتى نهاية هذا القرن . فالتطورات العلمية التي تحققت ، وتلك المتوقع إنجازها مع نهاية هذا القرن ستكون لها آثار بعيدة المدى ، بحيث تغير وجه أشياء كثيرة مما يحيط بنا ، فالقطارات السابحة التي تندفع في الهواء على ارتفاع بسيط فوق خط سكة الحديد قد تصبح حقيقة واقعة ، وقد يسافر بعضنا في هذه القطارات التي ستسير بسرعة تزيد على ٥٠٠ كيلو متر في الساعة ، وقد يصبح بالامكان تغذية مدينة بأكملها بكل احتياجاتها من الطاقة الكهربائية بواسطة عدد من الكابلات الكهربائية . والأغلب أن نرى الحاسبات الآلية أصغر حجما وأسرع وأكثر قدرة على

معالجة البرامج والبيانات ، كما سنرى محركات ومولدات كهربائية أصغر حجما وأكبر قوة . وقد تتخلص في نهاية المطاف من الهدر الهائل في الطاقة الكهربائية الذي يفقد أثناء سريان التيار الكهربائي في شبكات النقل والتوزيع .

الاكتشاف في صدر الصفحات

احتلت أنباء الاكتشافات الجديدة صدر صفحات الصحف والمجلات وأغلفتها ، ولم يقتصر الاهتمام بأخبار الظاهرة الجديدة على المجلات العلمية ، بل تعداها الى المجلات ذات الطابع السياسي والاقتصادي ، مثل التايم الاميركية والانترناشونال بيزنس ويك وغيرها .

وخلال فترة وجيزة امتد الاهتمام بالظاهرة الفيزيائية الجديدة من أوساط العلميين والاعلاميين ليشمل الادارات الحكومية وصانعي القرارات ، وخاصة في الدول الغربية الصناعية . وقد عبّرت دوائر صناعية وحكومية في الولايات المتحدة وبريطانيا عن خوفها من أن تتمكن اليابان من احتلال موقع الريادة في الاستفادة من التطبيقات العلمية للظاهرة العلمية الجديدة ، فالادارة الاميركية أخذت على نفسها أن تغير قوانين براءات الاختراع ، وأن توفر حماية أفضل للبيانات والمعلومات العلمية ، وأن تزيد من حجم الدعم المالي للبحوث العلمية في مجال الموصلات الفائقة ، وقد وصل الأمر إلى حد استثناء العلماء الأجانب من حضور مؤتمر علمي حول هذا الموضوع نظمته وزارة الطاقة الامريكية . أما في بريطانيا فقد شكّلت وزارة التجارة والصناعة مجموعة عمل لاستقصاء كيفية تمكن بريطانيا من استغلال التطورات العلمية الجديدة .

اكتشاف الظاهرة :

يعود تاريخ الموصلات الفائقة إلى أوائل القرن الحالي ، حين تمكن الفيزيائي الهولندي مايكه أونيس من إسالة الهيليوم عام ١٩٠٨ . وقد حصل أونيس بعد سنوات على جائزة نوبل مكافأة على إنجازه العلمي هذا . والواقع أن الهيليوم كان هو الغاز الوحيد الذي لم يتمكن الفيزيائيون من إسالته حتى

أحدى التجارب على الظاهرة .

ذلك الوقت . وقد لا يبدو الأمر غريبا حين تعلم بأن الهيليوم يتحول إلى سائل في درجة حرارة تبلغ ٢ ، ٤ كلفن . والمعروف أن درجة الصفر بمقياس كلفن تساوي ٢٧٣ درجة تحت الصفر المئوي أو ٤٦٠ درجة تحت الصفر الفهرنهايتي . ويعرف الصفر بمقياس كلفن بالصفر المطلق ، إذ لا يمكن أن تنخفض درجة الحرارة دون ذلك . وبالمناسبة تقترب درجة حرارة الفضاء الكوني بين الكواكب والأجرام السماوية من الصفر المطلق..

بدأ أونيس باستقصاء سلوك المواد على درجة الحرارة القريبة من الصفر المطلق ، مستخدماً الهيليوم السائل وسيلة لتبريد المواد ، واكتشف أنه حين تصل درجة حرارة الزئبق الى حوالي ٤ كلفن فإنه يفقد كل مقاومة لسريان التيار الكهربائي ، أما في درجات الحرارة الأعلى فيفقد خاصية التوصيل الفائقة ،

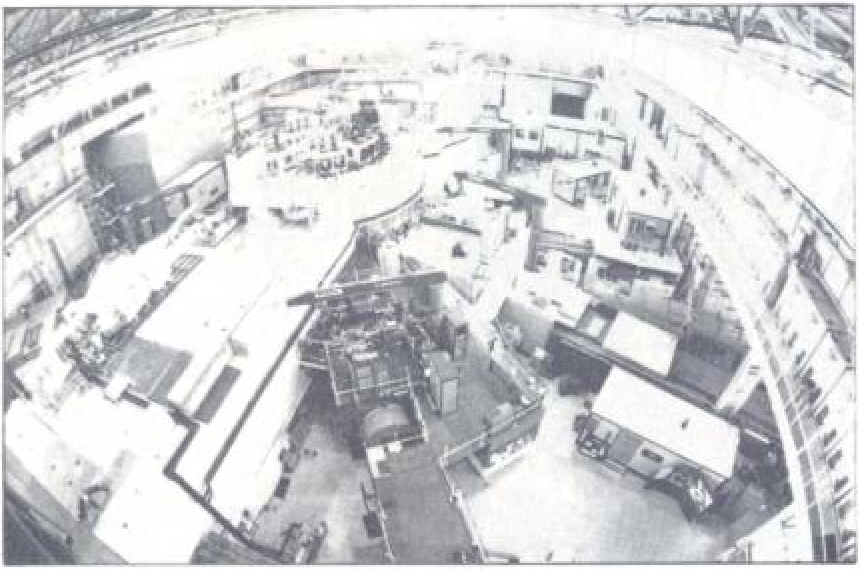

مختبر لانتاج الموصلات الفائقة .

ويعود الى خصائصه الاعتيادية . وتبين لأونس أن المواد الأخرى تسلك سلوكا مشابها من حيث انها تكتسب خاصية التوصيل الفائقة في درجات معينة ، وتفقدها فوق تلك الدرجات ، وتعرف هذه الدرجات بالدرجات الانتقالية . ووجد أن الدرجات الانتقالية للموصلات عموما تبلغ بضع درجات فوق الصفر المطلق .

لم يتمكن الفيزياليون من الانتقال بظاهرة التوصيل الفائقة من المختبر الى حقل التطبيق العملي لأن الظاهرة لا تتحقق الا في درجات الحرارة المنخفضة جدا . وقد أدرك الفيزيائيون منذ البداية الامكانيات الواعدة التي تحملها الظاهرة الجديدة في المجال العلمي . لكنهم أدركوا أيضا أنه لن يمكن تحقيق أي من هذه الامكانيات على الصعيد العملي إلا اذا خرجت الظاهرة من الصقيع . وتم تطوير موصلات فائقة تحتفظ بخصائصها عند درجات الحرارة المألوفة ، أي حوالي ٢٠ درجة مئوية أو ٢٩٣ كلفن وما فوقها . ولذلك انصبت جهود الفيزيائيين منذ البداية على محاولة تطوير ما يطلق عليه اسم الموصلات الفائقة ذات درجة الحرارة العالية .

أدرك الفيزيائيون نتيجة لتجارنهم بأن أي مادة من المواد لن تحتفظ بظاهرة التوصيل الفائقة بعيدا عن الصفر المطلق . وفي محاولة للخروج من هذا المأزق استخدموا السبائك المعدنية علها تساعد على الخروج من الصقيع الى الدفء لكن دون جدوى ، وخلال أكثر من سبعة عقود لم تسفر جهود الفيزيائيين في مجال الموصلات الفائقة عن تحقيق الظاهرة على درجة حرارة تزيد على ٢٣ كلفن . حصل ذلك عام ١٩٧٣ . وحتى ديسمبر ١٩٨٥ وتوقفت الأمور عند تلك الدرجة .

التطورات الحديثة :

في نهاية يناير ١٩٨٦ تمكن اليكس مولر وجورج بدنورز من معهد الأبحاث التابع لشركة (اي . بي . ام) في زيورخ بسويسرا من تحقيق ظاهرة التوصيل الفائقة على درجة ٣٠ كلفن باستخدام مركبات سيراميكية ، ولم تنشر نتائج الأبحاث حتى سبتمبر من

نفس العام ، وعقب ذلك مباشرة تمكن العاملون في مختبرات أخرى في الولايات المتحدة والصين واليابان من تأكيد صحة الاكتشاف الجديد ، ومع نهاية عام ١٩٨٦ تم تحقيق الظاهرة على درجة ٣٩ كلفن . ثم جاء التطور المثير في مارس ١٩٨٧ حين أعلن عن تطوير مادة تحتفظ بظاهرة الموصلية الفائقة حتى درجة ٩٤ كلفن ، ثم توالت أخبار الاكتشافات والتطورات المثيرة ، وجاءت أنباء غير مؤكدة عن تحقيق الظاهرة عند درجة ٢٤٠ كلفن ، أو ٣٣ درجة تحت الصفر المئوي ، وقد أعطى هذا الادعاء دفعة قوية لطموحات الفيزيائيين وآمالهم بقرب تطوير الموصلات الفائقة التي تعمل تحت درجات الحرارة العالية .

على الرغم من التطورات والانجازات المثيرة التي أمكن تحقيقها خلال الفترة القصيرة الماضية في مجال الموصلات الفائقة فما زالت هناك مهمات كثيرة بحاجة للمزيد من البحث والاستقصاء وتقديم الحلول العلمية ، وأول هذه المهمات هي تطوير المواد التي تحتفظ بقدرة التوصيل الفائقة على درجات الحرارة العملية ، فإذا استمرت الظاهرة في نطاق درجات حرارة الصقيع سيقتصر تطبيقها على بعض التجارب المختبرية والبحثية الطابع . والواقع أن هذا الجانب من تطبيقات التوصيل الفائقة سيتسع كثيرا لسهولة الاحتفاظ بالمواد الجديدة دون درجة ٩٤ كلفن باستخدام النيتروجين السائل رخيص الثمن سهل الاستعمال الذي تبلغ درجة حرارته ٧٧ كلفن ، ويكاد لا يخلو أي مختبر فيزيائي أو كيميائي منه .

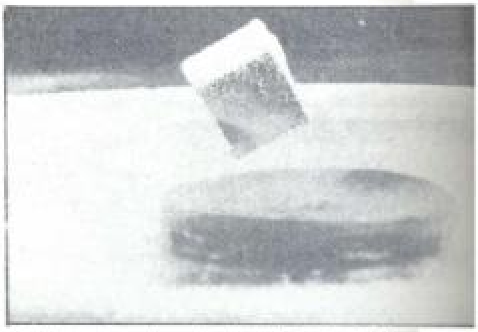

ـ ظاهرة ميزنر في التنافر المغناطيسي للموصلات الفائقة .

من جانب آخر فإن المواد الجديدة إما أنها سيراميكية أو تتشكل أساسا من أكاسيد مواد مختلفة ، وهذه مواد هشة سهلة القصف ويصعب تشكيلها ، ولا يخفى أن استخدام هذه المواد في حقل التطبيقات العملية يقتضي تطوير مواد سهلة التشكيل والمعالجة ، ومن الضروري أن تكون تلك المواد الجديدة مجدية من حيث الكلفة الاقتصادية .

الخلاصـــة :

ما تحقق مؤخرا في مجال الموصلات الفائقة يعتبر كشفا علميا مذهلا ، وكما أشرنا في صدر المقالة يلقى هذا الكشف اهتماما كبيرا على الصعيدين الأكاديمي والرسمي ، ويبدو أن النتائج المستقبلية المترتبة على هذا الكشف ستكون مثيرة واسعة النطاق بعيدة المدى ، وستتطلب أعدادا كبيرة من الفيزيائيين المختصين بموضوع الموصلات الفائقة ، لذلك يلاحظ من الأدبيات العلمية وجود اتجاه قوي في الدول الصناعية الغربية لإشراك حتى طلبة المرحلة الثانوية في التعرف على الظاهرة الجديدة وتكرار التجارب التي لم يمض على إنجازها في المختبرات المتخصصة أكثر من أشهر قليلة ، علما بأن رواد هذه التجارب مرشحون لنيل جائزة نوبل على اكتشافهم . وبالمناسبة فإن كل المواد المطلوبة لصناعة قطعة من المادة التي تحتفظ بظاهرة التوصيل الفائقة عند ٩٤ كلفن لا تكلف أكثر من دينار أو دولارات قليلة .

إننا نقف أمام ظاهرة علمية مثيرة ، لا تقل أهمية عن اختراع الترانزستور ، وما أمكن إنجازه في مختبرات متخصصة قد أصبح خلال فترة وجيزة بمتناول طلبة المدارس والجامعات . والمجال مفتوح للمساهمة العلمية في هذا الكشف العلمي والاستفادة من ثماره العملية . وعسى أن لا يمر هذا الكشف كما مر غيره دون أن يثير حتى مجرد الرغبة في متابعة أحدث ما يستجد في مجاله . □

الذاكرة المثقوبة

قصة قصيرة بقلم : عبدالحميد بن هدوقة

- هل أنت نائم ، أم لا تريد الحديث معي ؟ ماذا قال لك الطبيب عن ذاكرتك ؟ عندما لا تريد الحديث معي تبدأ بالشخير ! أعرفك ، ليست هذه هي المرة الأولى .

لم افتعل الشخير ، صدري يصفر من التهاب أصابه منذ أيام ، لكن زوجتي تصدق حدسها أكثر مما تصدق الآخرين .

- حدثني ولو مرة كامرأة كاملة الانسانية !

ماذا أقول لها ؟ كم هي طيبة ! تريد أن أطرح عرض الطريق أكثر من ألفي سنة ذكورة !

- ليست ذاكرتك هي المريضة ، أنانيتك .. لا تتحدث إذا شئت ، حديثك لم يعد يهمني كثيرا . لا تنس إطفاء الضوء قبل أن تنام .

قالت ذلك وجذبت الغطاء على رأسها ، بعد ما أدارت لي ظهرها كما تفعل دائما عندما تكون في مزاجها القاتم .

لم أجبها لأني أعرف أنها لا تصدق أني ذهبت فعلا لاستشارة الطبيب عن ذاكرتي . كانت تريد أن نذهب معا الى بعض « المغازات * » وأروقة البيع في وسط المدينة . وكنت على موعد مع الطبيب ، فلم تصدق .

يزعجني كثيرا أمر ذاكرتي ، صارت لا تبقى شيئا مما أريد . أأتمنها على أشياء ، ثم بعد فترة قصيرة أعود إليها فلا أجد شيئا ، أو أجد معظم ما ائتمنتها عليه قد ضاع !

أتأفف ، أتأسف ، ثم شيئا فشيئا يزول تأففي وتأسفي ، وأنسى أني أنسى !

أعود إليها من جديد ، أضع فيها ما أظنه ثمينا ، قمينا بالحفظ . أوصيها بالحزم ، أقول لها : إن المخزون ثمين ، يجب أن أجده عند الحاجة ، كما وضعته .

تمر الأيام ، وتستوقفني حادثة أو حديث ، فأحاول التذكر .. لاشيء ! صندوق أمي القديم الذي اشترته يوم زفافها أحفظ من ذاكرتي وآمن !

ثم أفكر : لماذا أنا ضعيف الذاكرة ؟ أعرف أشخاصا يتكلمون الساعات الطوال عن ذكرياتهم بلا توقف . يقول لك أحدهم : إن أول حبة برتقال أكلت كانت تشتمل على تسعة « أبراج » ، وأن حبة الرمان الأولى كانت حباتها وردية ساعدا واحدة ، ويقول لك الآخر : إن الاجتماع الأول الذي التقى فيه ديغول وعبدالناصر وقع في الجزائر سنة ١٩٧٢م ، « بجنان الميثاق »[1] وأن أول خبر صدر عن ذلك الاجتماع كان بجريدة « المساء[2] » ، بحروف سوداء كبيرة تمتد على « طول » الصفحة

* المحلات التجارية كما يطلق عليها في المغرب العربي وبخاصة في الجزائر .

(١) عبد الناصر وديغول توفيا سنة ١٩٧٠م . « جنان الميثاق » : فيلا حكومية ضخمة بالجزائر العاصمة ، خاصة باقامة ضيوف الدولة الكبار .

(٢) المساء : يومية مسائية جزائرية صدرت سنة ١٩٨٥م .

الأولى ! . . »

أنا لا أتذكر شيئا . عندما تكون زوجتي في مزاجها العسلي تسألني عن اسمها ، فيحمر وجهي خجلا ! تنتظر لحظات ، ثم تأخذ في سرد الحروف الهجائية العربية التي علمتها إياها ، تسردها حرفا حرفا ، لكن ذاكرتي لا ترى من بين تلك الحروف ما يمكن أن يكتب به اسم زوجتي ، كأنه اسم من عالم آخر ، سكانه من حضارة غريبة لا صلة لها بالبشر ، فأبقى صامتا . تغضب زوجتي غضبا شديدا ، وتقول : « هل اسمي أطول من حروفك الهجائية ، أو أقل منها قيمة ؟ لا أجد جوابا يقنعها . أتساءل في نفسي : هل اسم زوجتي أطول من الحروف الهجائية ؟ هل هو أصعب منها ؟ لا ، يقينا . هو يتركب من بعضها فقط . وآخذ من جديد في سرد الحروف الهجائية حرفا حرفا ، لكن الحروف التي يكتب بها اسم زوجتي لا أجدها ! إن ذاكرتي تتحداني ، تبقى كل الحروف الهجائية كما لقنتها في صغري مكتوبة بالصمغ على اللوحة الخشبية ، الى درجة أنني أراها الآن متشخصة أمامي حرفا حرفا ، بما كانت توحي به اليّ أشكالها من صور ، بينما اسم زوجتي هذه النائمة الى جانبي لا أتذكره !

أسرد كل الأسماء المتداولة في وطننا ، الصحيح منها والمحرف ، ولاسيما ماكان منها على وزن « تفعليلت » مثل تسعديت ، و« فعيلة » مثل « دهيلة » ، ولكن عبثا ، اسم زوجتي ليس هناك ! إنه في غيابات جب الذاكرة ، حيث لا يصل إليه ذكر ولا تداع ! أليس هذا تحديا من ذاكرتي ؟ لماذا أتذكر اسم « ماسو » ؟ أنا لا أعرفه . لم أكن في الجزائر العاصمة عندما كان فيها هو سيد الجلادين ، ومع ذلك يكفي أن يتحدث شخص أمامي عن حرب أو ثورة لكي يخطر ببالي ! بل أكثر من ذلك ، يكفي أن أمر بشارع من شوارع العاصمة التي أعطيت لها أسماء جديدة لأتذكره ، ولو لم أمر بشارع « العربي ابن المهيدي »[٣] ماسو ، ليس من ذكرياتي في شيء . أنا لست مؤرخا ، لكنه يخطر ببالي ضمن سلسلة

(٣) العربي بن المهيدي أحد أبطال الثورة التحريرية ، وأحد قادتها الأوائل ، أعدم من قبل المصالح العسكرية التابعة للجنرال الفرنسي « ماسو » ، وأذيع أنه انتحر ، وذلك سنة ١٩٥٧م .

طويلة من الأسماء السوداء والبيضاء : « غي مولي »(٤) ، عبدالناصر ، « هوشي مينة » ، نيكسون ، « سالزار » ، « كابرال » ، وغيرهم وغيرهم ، ، بل أتذكر حتى من أخذ جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٧٨م !

إن هذا الميكانيزم الغريب الذي يرتب الأشياء في ذاكرتي ليحيّرني ، يبقي مايشاء ويحذف ما يريد !

كثيرة هي الأسماء المضيئة التي يبهج النفس تذكرها ، ومع ذلك لا أتذكرها بسهولة ، بينما الأسماء المظلمة قلما أجهد نفسي في تذكرها ، هل تلألؤ نور اسم زوجتي يبهر ذاكرتي الى درجة أنها لا تراه من بين الأسماء ؟ لماذا إذن أتذكر أيامنا العذبة ، عندما كنا خطيبين ، نبيت على الأحلام وتصبح على الأماني ؟ إنني أراها رأي العين ، ببسمتها المحتشمة وإشاراتها الخجلة ، بسنواتها العشرين المنادية من وراء فستانها الأرجواني ! أتذكر حتى لقاءاتنا الصامتة وصمتنا الناطق ! أتذكر السيارة التي زفت فيها عروسا ، كانت من نوع «٤٠٤» . يوم أن كانت السيارات أشياء مرادفة للخيال ! يوم أن كان الشاب الشعبي يقول : « لا من مات ، في كات صان كات » !(٥) أتذكر عندما دخلت بيتنا وكانت الجزائر لا تملك شيئا ولكن فيها كل شيء ، لم يكن جلب المواد الغذائية يبرمج في مقدمة المهام اليومية . كان أيّ طفل يمر ، يمكن أن يرسل الى دكان زاوية النهج فيأتي بما تحتاج اليه ربة البيت ! كانت امكانياتنا المالية محدودة ، لكن وفرة المواد كانت تيسر لنا سبل التصرف ، وكنا سعداء . كنت أنادي زوجتي باسمها ، وكانت تناديني باسمي . كان اسمانا خفيفين على اللسان وعلى الذاكرة ، لا أحد منا يجد مشقة في النطق باسم الآخر . لماذا تغير كل شيء ، حتى أسماء الأشياء ؟ نحن الآن نملك كل شيء ، ونفتقر الى كل شيء ! تعلقت عيوننا بما لا نملك ، فنسينا ما نملك ، وخسرنا راحتنا وأرواحنا !

تتهمني بعدم حبها ، لأني لا أتذكر اسمها ! كيف لا أحب زوجتي ؟ هي شبابي الذي لا أنساه . هي وطني ، فكيف لا أحب وطني ؟

عندما أسألها عن اسمها يغضبها سؤالي . ولها الحق . كيف يمكن أن تصدق أني لا أسخر منها ؟ هل يعقل أن يسأل زوج زوجته عن اسمها ؟

كثيرا ما أحاول القيام بعملية نقد ذاتي ، لكني أفشل في النهاية . كم من مرة طرحت على نفسي هذا السؤال : لو سألتني هي عن اسمي ماذا يكون موقفي ؟ لا جواب . أو لقلت في أحسن أحوالي النفسية : « زوجتي مريضة ، ولابد من عرضها على الطبيب . »

أحيانا أقول : لماذا لم تتخذ هي موقفا حاسما معي ؟ تتحداني ، تقول مثلا : « لا أبقى مع زوج لا يتذكر اسمي » . تقول ذلك بجد وحزم ، بحيث أفهم أنها تعتزم فعلا فراقي ! وأتذكر : أنها لا تستطيع فعل شيء مطلقا . أبواها ربياها تربية منزلية ، اذا خرجت من المنزل ماتت ، كالسمكة تخرج من الماء ، لأنها لا تستطيع حتى كسب قوتها اليومي . ثم إن القانون لا يعطيها أي حق في المطالبة بالطلاق ، لو طرحت قضيتها على أي قاض ، وقالت له مثلا : « زوجي نسي اسمي ، لا يتذكره بتاتا ، لذلك اريد الطلاق ، لا يمكن ان ابقى مع رجل يستخف بي الى درجة نسيان اسمي » . ماذا ترى يكون رد القاضي ؟ لأفرض أنه يحب زوجته مثلي ، ويتذكر العواطف النبيلة التي تربط بين زوجين ، أتخيل أنه يقول لها في أحسن أحواله النفسية : « إن مشاكل الحياة معقدة يا امرأة ، لو كنت رجلا لأدركت ماتحيا فيه نحن الرجال ، احمدي الله أن رفع عنك

---

(٤) غي مولي ، رئيس الحكومة الاشتراكية الفرنسية الذي أقدم بالاتفاق مع انكلترا ، واسرائيل ، على ما يسمى « بالعدوان الثلاثي » على مصر سنة ١٩٥٦م .

(٥) ترجمة الجملة الى الفصحى هي : « ما اجمل الموت في سيارة من نوع «٤٠٤» (سيارات بيجو الفرنسية ، كانت لها شهرة واسعة سابقا في الجزائر ، وما تزال) .

« القلم » ، وكل تكليف مالي » .
لكن القاضي لا يقول هذا . القاضي ليس زوجا . وظيفته تمنعه ان يتكلم بهذه اللغة الساذجة ! ماذا يبقى من هيبته وسلطته اذا تكلم لغة الأزواج الذين فقدوا ذاكرتهم ؟ السلطة لها ثوابتها وأصولها ، إنها لا تبقى سلطة بدون اثارة الاحساس بالخوف ، لذلك أعتقد أن القاضي يرد عليها بحسم : « لا حق لك في الطلاق » . الطلاق لمن أخذ بالساق » . !
ما أجملها كتابة فقهية : الطلاق لمن أخذ بالساق ! لاحياء في الدين !

زوجتي مسكينة ، ها هي ذي نائمة الى جانبي ، لا تدري أني أفكر في كل هذا مكانها ! وأعرف أنها لا تستطيع فعل أي شيء من هذا القبيل . ربما أدركت ذلك بحدسها النسوي ، لذلك جعلتني أعيش في حرمان متواصل ، حتى من المواد التي أشتريها من السوق « البيضاء » ! أطلب أي شيء ، فتجيب في الحال : « ماكاش » ، « خلاص » لها ذاكرة تيل بكلمات النفي والسلب . تحفظ من مترادفاتها ما لا تضاهيه « جواهر ألفاظ » قدامة بن جعفر البغدادي !

ماذا أفعل ؟ هل يعقل أن أتغرب من أجل أكلة أو شربة ؟ هل يعقل أن أنهي حياتنا الزوجية ، لأنها لم تلب لي رغبة زهيدة ؟
قلت لها ذات مرة : « أنت وطني الذي وهبته روحي وحياتي » . ردت عليّ في الحال بما معناه : « وطنك لم تنس اسمه ، لأنك لست شيئا في اوطان اخرى . » ألم تقل إنك تحمله معك في وجهك ولسانك ؟ أما أنا المسكينة فمن يذكرك باسمي ؟ شبابي ؟ لقد شربته ولما تسل جداوله . مالي ؟ أبي أوصى بمنع بناته من الميراث ، قال : « إنها عادة الأجداد ، أرضنا تبقى تحت اسمنا الأبدي ، لا يمكن بحال أن تنتقل الى غيرنا بسبب أنثى لم يرد مجيئها الى الوجود أحد » .
قال : « المال كالاسم العائلي لا ينقل الى اجنبي » .
من يذكرك باسم باسمي؟
أحزنني كلامها . فهمت منه أكثر مما في كلماته ! ومع ذلك لم أتذكر اسمها !

أشعر بأجفاني تزداد ثقلا ، حتى لكأني نائم ! لم لا أغادر الوطن وكل ما أعرف ومن أعرف ، لأبحث عن اسم زوجتي في أوطان أخرى ، لعل البعد يزيح عن ذاكرتي الأشياء الغثة التي تتراكم عليها كل يوم أكثر ؟ لم لا أغادر كل هذه التفاهات والمنغصات العابرة التي أنستني أعز حلم ؟
أجل ، زوجتي أعز حلم .

إنني أشعر بعيني تغوصان في أعماقي حتى لكأني أدخل في عالم آخر ! إنني أحلم لاشك في ذلك . لقد نمت ولم أدر ، أراني أحلق في فضاء رحب ، رحب ! ما أراه ليس من محض الخيال ، بل هو حلم ! هأنا أراني في فضاء بنفسجي ، ناسيا كل ما يربطني بالأشياء الصغيرة ، كلما علوت ازداد الفضاء علوا وامتدادا . كم هو جميل التحليق بلا أجنحة ، وبلا طريق ! لكن السفر صعب بلا رفيق ! من هذه الأعالي الممعنة في العلو أرى سحابا كثيفا ، يقترب بسرعة مذهلة ، في شكل جبال ضخمة متراصة . أرتطم بها في ذعر ، لكنها لا تصمد أمامي ! أنفذ منها الى صحراء قاحلة ، تبرية الرمال . ما أشد الفرق بين التحليق والتعثر في الرمال ! أين أنا ؟ ولماذا جئت الى هنا ؟ بل من ألقى بي هنا ؟ أشعر بالعطش يلتهب في حلقي . لا واحة ولا حياة على مدى الرؤية . يجب أن أمشي ولو في خط دائري . الاتجاهات متساوية ، وحظي في العثور على الماء في هذا الاتجاه متساو ايضا . الحركة في الرمال كالحركة في السلاسل تغل الرجلين !

في لحظة السقوط يتشكل امامي امل في صورة سراب . أحث السير . يتلاشى « ماء » السراب ، وتبقى الرمال وحدها بجفافها ولهيبها ، وأتذكر : لو كان اسم زوجتي كهذه الرمال لما نسيته ! لا أدري كم مشيت ، ولا الى اين وصلت ، أسقط على الأرض ، وفي سقوطي يقف امامي شيخ يشبه رعاة التوراة !

العصا طويلة تصل الى كتفه ، الشعر ابيض اشعث أغبر ، الملابس رثة ، النظرات واسعة تحتضن الأفق . يشير اليّ أن أتبعه . أحاول القيام بكل ما بقي في نفسي من أمل . أرى رجليه

لا تلمسان الرمل ، بل تتحركان في الهواء ! إنه يمشي في الهواء مشيا عاديا ! أو لعل رؤيتي كلّت ، فلم أعد أفرق بين رجليه والرمال ! كل خطوة اخطوها يتضاعف شعوري بالعطش والتعب . إحاول جاهدا أن أحرك رجلي فلا تتحركان ، كأنها غرستا في الرمل ! يلتفت الشيخ اليّ فيرى حالتي تلك ، ينظر الي برهة ثم يفتح جناحيه ، واذا بواحة تنتصب امامي ! أشعر برطوبة تحت قدمي ، أحس بنسمات تهب في وداعة ولطف على وجهي . يشير الى الشيخ بالجلوس ، أجلس ، وأجد رجلي في بركة ماء لازوردية الزرقة ! أنتعش ، ويبرز رأس زوجتي من البركة ! غريب ما ارى ! انها تضحك في براءة الطفل ، في يدها طاس بلوري ممتلىء ، تناولني إياه ، أشرب بلهفة ماء لا أعرف أعذب منه ! يتطفىء مارج اللهيب الذي كان يتلظى في صدري بمجرد انتهائي من الشرب . يختفي الطاس ، وتختفي زوجتي بصورة غريبة ! ويزول عطشي نهائيا ، كأني لم أعرف عطشا في حياتي مطلقا ! يضم الشيخ ذراعيه اليه ، فيمحي كل شيء ، وتبقى الرمال وحدها ، ممتدة امتداد الفضاء أمامي . يساورني الخوف وأنا أحيا في هذا الجو السوريالي الغريب ! أخشى أن يلحقني عطش جديد . أقوم وأتوسل الى الشيخ : « إني تهت في هذه الرمال ، ولولاك لهلكت ، أرجوك ، لقد تساوت الاتجاهات أمامي ، وتساوت الآفاق ، فلا أدري أين أتجه ! أريد الرجوع الى وطني ، هل تعرف الطريق إليه ؟ دلني عليه ، أرجوك ! »

ينظر إليّ نظر المشفق الساخر ، ثم يفتح ذراعيه كمن يحتضن الفضاء ، ويقول وهو ينظر الى المدى البعيد : « هذا كله وطن للانسان . ألست من الأرض » ؟

ماذا يقول هذا الشيخ ؟ كأنه أممي لايؤمن بوطن ! أنا أبحث عن وطني أنا ، وهو يتكلم عن وطن لإنسان !

لما رآني لم أجبه ظن أنني لم أفهمه ، فقال : « الأرض متشابهة ، وهي واحدة ، والانسان فيها واحد . والأوطان كلمات وهمية وضعها الأقوياء ليحكموا بها الأغبياء ، والذي يبحث عن الوطن في الأرض كالذي يبحث عن الجنة في السماء ! »

لم أفهم جيدا ما يرمي اليه . سكت ، وراح ينظر في الفضاء البعيد ، كأن الكلمات بدت له أكبر من رأسي ! أود لو أعرف كيف يتصورني هو الآن ؟ ترى من يكون هذا الشيخ ؟ هل هو « درويش » سائح على وجهه ، أو ملك من ملائكة السراب ؟

لم أكد أشرع في التفكير فيه حتى قطع في ذهني أفكاري :

« لست أنا كما تتوهم ، إن الحلم الذي دفع بك الى السفر هو نفس الحلم الذي يدفع بك الآن الى الرجوع ، إنك لم تسافر ، ولم تبرح مكانك ، فلماذا تفكر في الرجوع ؟ انك في مكانك من الأرض ، حيث كنت ، تبحث عن شيء في الفيافي وهو في نفسك ! »

ـ نعم ، نعم ، هو في نفسي ، لكني نسيته : إنه اسم زوجتي ، نسيت اسمها . انني أتعذب ، أرجوك ! . .

ـ زوجتك ؟

ـ نعم ، نسيت اسمها ، دلني عليه ان كنت تعلم مايضيع في الضمائر ، أو دلني على طريقة أتذكره بها ولا أنساه أبدا . أنت الذي يبدع الواحات في الرمال القاحلة . . دلني ، أتوسل اليك بمن تحب ! لقد نسيت اسم زوجتي ، كلما حاولت أن أتذكره عرضت عليّ هذه الذاكرة اللعينة صورا بلا ترتيب ، تمثل مشاهد البؤس التي يعرضها برنامج منظمة الأمم المتحدة للتغذية في التلفاز ، أو مشاهد الحروب والمجاعات وقوافل الأيتام والمشردين والخائفين . . مع أني لا أبحث عن هذه الصور مطلقا ، لأني لست في حاجة الى تذكرها ، فهي تتجدد في كل لحظة ، وأمام كل عين ، حتى فقدت كل تأثير .

ـ صف لي زوجتك .

ـ هي . . هي كالذهب رواء !

قاطعني قبل أن أتم وصفها كما أتخيلها الآن وأنا في الرمال .

ـ لاشك أنك فقير ، تصف زوجتك بالذهب !

- عفوا ، أردت أن أقول : هي عرجون في نخلة من نخيل الواحات .

- إذن أنت جوعان !

قال ذلك بنفس السخرية المازحة . حاولت أن أتدارك هفوتي ، وأصف زوجتي بما لا يقتني أو يؤكل :

- لا لا ، أردت أن أقول : هي شمس لكنها أحلى ، جدول بل أعذب ، أغنية بل أطرب ، هي حب ، لكنها أرحب !

- أرحب من الحب ! كيف نسيت اسمها إذن ؟ ليس هناك ما هو أرحب من الحب سوى الحرية !

- هي ، هي ! اسمها « حرية » ! يا لسعادتي تذكرت اسم زوجتي !

- يبدو أنك لا تحبها كثيرا .. ذهبت تبحث عنها في الفيافي وهي في نفسك !

- في نفسي ؟ كيف ؟ حبها ، نعم ، في نفسي .. لكن الشيطان أنساني اسمها ، والحياة ، وأشياء أخرى .. تشكّل ضبابٌ كثيف غطى اسم زوجتي في ذاكرتي ، و ..

- متى تزوجتها ؟

- منذ مدة طويلة ، منذ شبابي الأول !

- زواجا واحدا فقط ؟

- وكم تريد أن يكون ؟ هل هناك من يتزوج بامرأة مرات عديدة ؟

- لابد أن تجدد زواجك بها كل يوم إذا كنت - كما تقول - تحبها ، وإلا ضاعت منك هي نفسها ، لا اسمها فقط !

ماذا يقول هذا الشيخ الغريب ؟ أنا أتحدث عن زوجتي وهو يتحدث .. لست أدري عن ماذا ؟ لاشك أنه لم يفهمني ، أو أنه من عالم آخر ، يتزوج فيه رجاله ونساؤه كل صباح !

- نعم كل صباح !

قال ذلك وارتفع في الفضاء كالبراق !

وداعا أيها الشيخ الجليل ، ذكرتني باسم زوجتي . رويتني بعد أن كاد العطش يهلكني ، وداعا . أعاهدك ، ولو لم تفهمني ، أو أفهمك ، أنني لن أنسى أبدا اسم زوجتي منذ اليوم : حرية ، حرية ، حرية !

- قم يا رجل ! قم ، مالك تهذي ؟ على من تنادي ؟ انهض !

- ماذا ! .. أنا في الفراش ؟ كنت أحلم إذن ! زوجتي تهزني بغضب :

- أفق ! من « حورية » هذه التي تحلم بها وتنادي عليها حتى في المنام ؟ قل ، من هي ؟

- لاشيء ، حلم .. كنت أبحث عن اسمك في قفار عذراء لو تعلمين !

- اسمع ، لا تشعر عليّ ! لست غبية .. من « حورية » هذه ؟ أين عرفتها ؟

ليس من الممكن اقناعها بحلمي ، وبهذا الاسم الغريب الذي ظنته في المنام اسمها !

كنت عازما ان اقول لها : « أنت سجن ولست حرية » ، لكني عدلت عن ذلك ، فالليل مازال أمامنا طويلا ، وكلانا في حاجة الى النوم ..

- من هي ؟ ..

نظرت إليها بكل ما أستطيع من حنان ، ومن شفقة أيضا ، وأنا أرى أنه لابد من إقناعها بجواب مهما كان ، وإلا بتنا في ظلام :

- عرفتها في السجن !

- ومازلت تتذكرها الى الآن ! كيف عرفتها ؟ هل مازلتما على اتصال ؟

- منذ زواجنا انقطعت عن الاتصال بها .

- تكذب ، لو لم تكونا على اتصال لما تذكرتها بعد هذه السنين الطويلة .. ولما نسيت اسمي !

ثم استوت جالسة في الفراش ، كمن تذكر شيئا ، وقالت بسخرية :

- قل لي ، إذا عرفتها قبل أن تتزوج ، لاشك انها الآن عجوز « حوريتك » هذه !

لم أجبها . حاولت أن استعيد حلمي وأحاول الوصول الى هذا اللغز الذي طرحه عليّ الحلم ، أو ذاكرتي ، لكن ما الفائدة ؟ اسم زوجتي الحقيقي لم أتذكره .. الأفضل أن أنام ، بدل اليقظة في الظلام . □

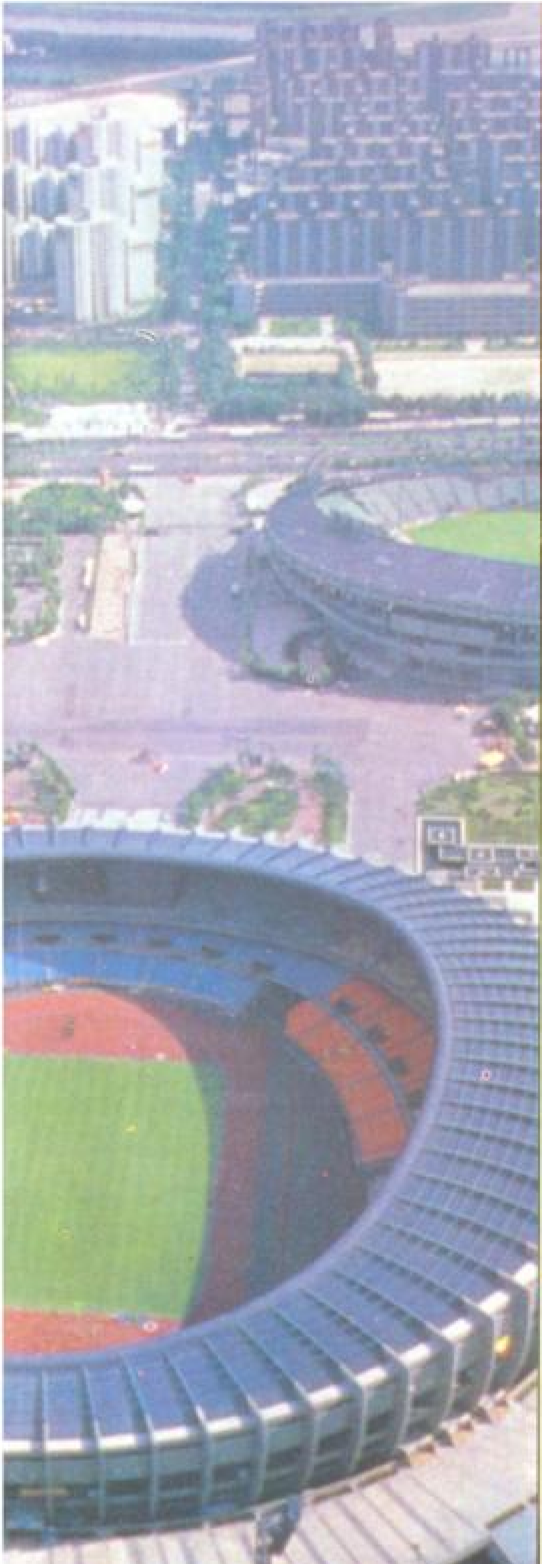

العربي عيونك على العالم

سيول
عروس الأولمبياد

استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر

« في كوريا يقولون إنه لا يوجد منطق ، لكن هناك مشاعر فياضة ، وبصيرة نافذة ، وروح عاطفية منطلقة نحو السماء » .

هكذا قالها الكاتب « لي أو يونغ » وهو يتحدث عن سيول* ، العاصمة المستنيرة الزاخرة بالحياة ، فالمثل يقول « إذا كان لديك جواد فأرسله الى شيشو ، وإذا كان عندك ولد فأرسله الى سيول » .

فجزيرة شيشو هي مرتع الجياد بحشائشها الخضراء ومراعيها الخصبة ، أما سيول فهي متعة الأبناء ، الزاخرة بالمدارس والجامعات ، المشرعة الأبواب للباحثين عن الوظيفة في الحكومة والمؤسسات والشركات ، والطامحين الى عالم التجارة والإدارة والمال ، والمغامرين على طريق الحظ والشهرة والمجد ، والمتهزين للفرص في مختلف ميادين الحياة .

تلك هي العاصمة الآسيوية الثانية بعد طوكيو ، التي تحتضن بين حناياها في السابع عشر من سبتمبر القادم « دورة أولمبياد ١٩٨٨ » .

سيول عروس الأولمبياد ، هي مركز القلب الذي تنبض منه كل عروق الحياة في كوريا ، لكأنها قطعة عملاقة من المغناطيس ، تجذب الى مجالها السحري كل شيء ، الحكم والمال والتجارة والصناعة والسياسة والعلم والثقافة والفن والتاريخ . وقد استجاب لحركة الجذب المغناطيسي كل سكانها الذين يتجاوز عددهم ربع سكان البلاد ، رجالا ونساء وأطفالا ، حتى أنك لو تسللت الى طرقات المدينة بعد السادسة صباحا ، لوجدت نفسك غارقا في خضم دوامة الزحام الخانقة المسيطرة على الشوارع والأرصفة وإشارات المرور ، ولتعذر عليك أن تتنفس دون أن يمتلىء صدرك بدخان عوادم الحافلات والسيارات والدراجات البخارية وهي تجري وتتقافز في صراع مستميت وسباق مجنون . . . !

قبل أن تبدأ جولتك في المدينة ، فاعجب لتماسكها وتكيفها ، وانظر الى انقسامها وتفرعها بين قديم هامد وجديد صاخب ، بين معالم ساكنة ومشاهد متغيرة ، وتذكر ماقاله أحد أبناء المدينة « تفهم سيول . تعرف عليها وعلى ناسها ، عش في عمقها ، واندمج مع أهلها ، عندئذ ستفهم كوريا بكل تناقضاتها الظاهرة والخافية » .

حقا إن سيول هي روح كوريا المنطلقة نحو القمة ، وهي المدينة التي دفنت تحت الانقاض والردم لتنهض فجأة في إعجاز ، لتنافس كبريات العواصم المتطورة المتقدمة ، سواء في الشرق أو في الغرب . . !

نظرة من فوق القمة

سيول كما رأيناها وتجولنا بين أنحائها ، مزيج من القديم والحديث . أما الحديث فهو ما اطلعت عليه عيوننا ونحن نطل عليها من فوق برج « تاسان » ، أبرز معالم المدينة ، التي تتناثر على صفحتها مجموعات من ناطحات السحاب الحديثة ، التي شيدت في فترة وجيزة لا تسبق بدايتها عام ١٩٨٠ . وإن كانت قد بدت لنا كأقزام ونحن نطل عليها من فوق البرج الذي يعتبر ثالث أعلى برج في العالم .

انطلقنا الى قمة البرج « بالتلفريك » الكهربائي

* يسميها بعضهم سيئول ، ويسميها آخرون سول ، وينطقها الكوريون سيول بتخفيف الياء ، ويحرفونها بالانجليزية من Seoul

السريع . إنه يرتفع حوالي ٤٧٩ مترا فوق سطح البحر . منها ارتفاع جبل نامسان البالغ ٢٤٣ مترا وطول جسم البرج البالغ ٢٣٧ مترا .

أما الشرفة التي هبطنا عليها فترتفع ٣٥٥ مترا فوق سطح البحر . ومنها انتقلنا الى شرفتين أخريين على درجات وصلت بنا الى الشرفة المفتوحة الواسعة . حيث الهواء النقي الطلق . ومنها صعدنا الى الشرفة الدائرية حيث محلات بيع الهدايا التذكارية ومطاعم الوجبات الخفيفة . ومن هذه الشرفة كانت إطلالتنا على المدينة الحديثة التي بدت كأنها مدينة أقزام بسياراتها التي تظهر كالنمل المتحرك حول مبانيها التي تبدو مثل علب الكبريت !

المدينة الحديثة بناطحاتها ومجمعاتها وفنادقها ومصانعها وشوارعها الفسيحة النظيفة المنمقة . بدأ تأسيسها الحديث عام ١٩٤٦ . بعد أن تحررت من الحكم الاستعماري الياباني . ولم تكد ترفع رأسها حتى شهدت فترة من التخريب والتدمير خلال الحرب الأهلية التي دارت بين الشمال والجنوب . وامتد فيها ثلاث سنوات . ومع نهاية الحرب عام ١٩٥٣ عادت لتصبح إحدى أكبر عشر مدن في العالم . بملايينها العشرة الذين قاموا على أكتافهم بناء المدينة . التي امتدت على مساحة ٦٢٧ كم² في عام ١٩٧٣ . ثم اتسعت بجهدهم ومثابرتهم وحديثهم لتتحول الى مدينة عصرية رائعة . تعد من أجمل مدن العالم .

مانهاتن الكورية

من يستطيع أن يصدق عينيه عندما يجد أن كثيبا رمليا كبيرا متخلفا من نهر « هان » قد تحول الى مدينة ناطحات مبانيها السحاب . في مدى أقل من خمس عشرة سنة . يتزاحم بين حناياها نهارا مئات الآلاف من العاملين المتدافعين الى أعمالهم . ويتحول ليلها الى أضواء متلألئة متباينة الألوان . مع تواصل نشاطات أبناء المدينة في مختلف الميادين .

يحتضن حي « يودو » وحده مئات المنشآت الحكومية الرئيسية . بما فيها مبنى الجمعية الوطنية بقبته النحاسية الضخمة . والمركز الرئيسي للإذاعتين المرئية والمسموعة . والمؤسسات العامة للصناعة . والمصارف . والمجمعات والمراكز التجارية . تتوسطها أطول ناطحة سحاب في آسيا بطوابقها الثلاثة والستين التي تعتبر قمة من قمم النهضة الكورية الحديثة .

أما الجسر الطويل الممتد بعرض نهر « هان » الذي لا يقل اتساع مجراه عن نهر النيل . فيربط حي يودو . بقلب سيول الذي يسمونه « مانهاتن كوريا » . حيث المركز المالي الرئيسي الشبيه بمثيله في الولايات المتحدة . والذي يضم البنك المركزي وسوق الأوراق المالية والمصارف الائتمانية .

وفي الضفة الجنوبية لنهر « هان » يمتد حي « يونغ دونغ » الذي تربطه بالمدينة القديمة ثلاثة جسور . ويتوسطه مجمع المعارض الكبير المسمى « كوكس » . بما يضمه من أجنحة لمختلف المعروضات والصناعات والسلع التجارية المحلية والأجنبية .

النهر الكبير الذي يقسم سيول . ويمتد مسافة ٥١٤ كم من منبعه في قلب شبه الجزيرة الكورية . لم يلعب دورا رئيسيا في الحياة السياسية والاقتصادية والصناعية والتجارية والثقافية للبلاد فحسب . بل لقد كان له دور رئيسي في الدفاع الوطني والأمن القومي . كما كان مسرحا للحكايات والأساطير الشعبية للشعب الكوري . لهذا لم يكن غريبا أن يلقى النهر ذلك الاهتمام الحضاري الذي يجعله نموذجا للتألق والجمال . بما أقيم على طول ضفتيه من المتنزهات والحدائق والعمران الحضاري . بتنسيق نموذجي . وما امتد على شطآنه من شبكات للتصفية . تساعد على تطهير مياه النهر وتنقيتها . وتضمن عدم تلوثها بالنفايات والعوالق . ليكون مرآة لامعة نظيفة طوال اختراقه للمدينة بين الشمال والجنوب .

على جانب هذا النهر العظيم . أقيم أحدث الإنشاءات الحديثة في سيول وأجملها . بالجهد والتصميم والمثابرة والبراعة في الإنشاء والعمارة . إنها المدينة الأولمبية ومجمع سيول الرياضي

ميدان أولمبياد ١٩٨٨

هنا نشهد صورة رائعة للإنشاء والتنظيم

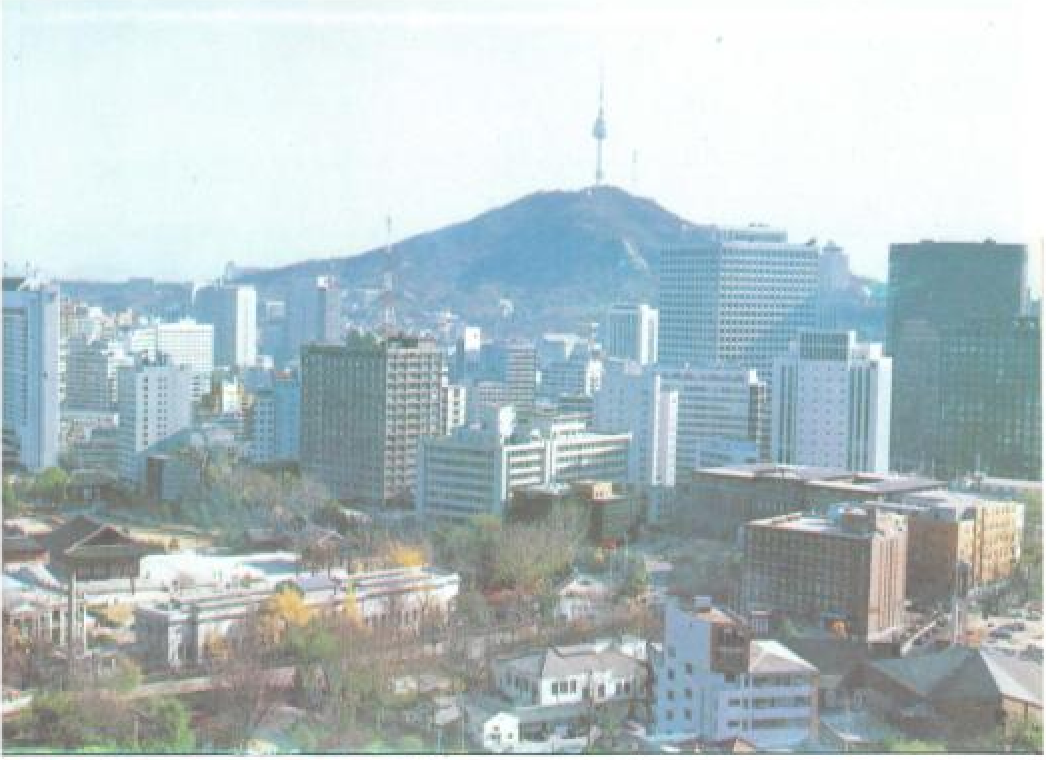

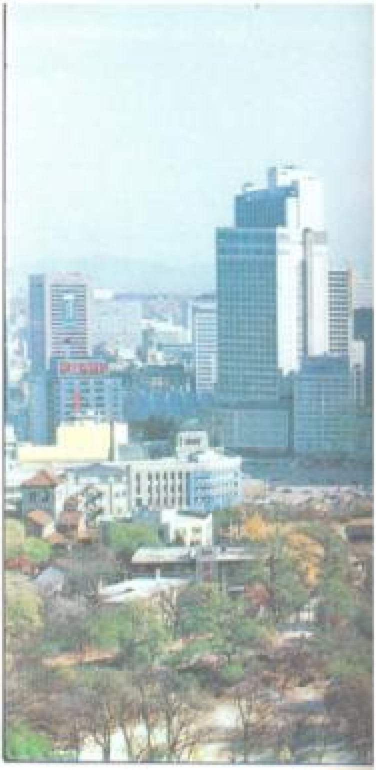

• سيول الحديثة تحتضن المدينة القديمة في مشهد بانورامي رائع .. يطل عليه البرج من قمة جبل نامسان (أعلى) بينما في القلب من المدينة تنتشر معابد البوذية التي يعتنقها اكثر من ٧,٥ ملايين نسمة يتساوى عددهم مع جميع الدينيين الذين يعتنقون ديانات أخرى .. (الى اليمين) .. ولكن الكوريين في نفس الوقت يحتفظون بموسيقاهم ورقصاتهم التقليدية يؤدونها في الاحتفالات والمسارح كما يحدث في البيت الكورى (الى اليسار) .

والإعداد . تتفق مع الشعار الذي اتخذته « لجنة سيول لدورة الألعاب الأولمبية » تحت عنوان : حسن التنسيق والحرص على النجاح » .

منذ اللحظة الأولى داخل أسوار المدينة الرياضية . أحسسنا بمدى الجهد الذي يبذل لتأكيد تصميم كوريا الجنوبية - كأول بلد نام ينظم دورة الألعاب الأولمبية - على أن تجعل من الدورة حدثا رياضيا عالميا مهما . وتجربة ثقافية رائدة . وكما قال لنا مرافقنا الذي تجول بنا بين أنحاء المدينة : « لقد صدقت نيتنا على أن نجعل هذه الدورة أكثر الدورات كفاءة . وأنجحها اقتصاديا في تاريخ الألعاب الأولمبية . وبذلك نعطي مثلا يمكن أن تحتذي به سائر البلدان النامية . وتصبح الألعاب الأولمبية حدثا دوليا بمعنى الكلمة . ليست مقصورة على الدول المتطورة وحدها » .

عندما بلغنا الساحة المواجهة لادارة الأولمباد . فوجئنا بمئات من الشباب يؤدون تمارين الصباح الرياضية في جد ونظام ومثابرة مدة لا تقل عن نصف ساعة . تصورنا أول الأمر أنهم من الرياضيين الكوريين الذين سيسهمون في ألعاب الدورة . لكن اتضح أنهم جميع الموظفين العاملين في المدينة الأولمبية - لم يتخلف منهم أحد - يبدأون يومهم بتدريبات رياضية . تكفل لهم النشاط والحركة وسلامة البنية . . . (والعقل السليم في الجسم السليم) .

الحلبات وأحواض السباحة

المجمع الرياضي يحتل مساحة من الأرض تبلغ ٥٤٥ ألف متر مربع . والمدرجات في صالاته معدة لاستقبال ٢٠٠ ألف مشاهد . ومواقف السيارات تتسع لعشرة آلاف سيارة . والمنشآت الرياضية استخدمت لاقامتها وتشغيلها أحدث الالات الميكانيكية والالكترونية والتقنية .

وتدخل الى حلبة الاستاد الأولمبي . .

الساحة مساحتها ١٣٢ ألف متر مربع . والمدرجات تتسع لمائة ألف متفرج . تتحرك كلها الكترونيا . بحيث تتداخل كل مقاعد المدرجات في بعضها لتظهر لامعة نظيفة آمنة من جوانب الملعب قبل المباريات لاستقبال المشاهدين . ثم تختفي تماما بعد خلو الملعب في أقل من نصف ساعة ولا يظهر منها شيء . أما المدرجات فمغطاة بمظلة دائرية جذابة . تمتد من جوانب الاستاد . وقد صممت بطريقة تجمع بين هندسة العمارة الحديثة والنمط التقليدي الكوري . في هذا الاستاد الرئيسي ستقام مراسم افتتاح الدورة وختامها . وفوق ساحته ستجري مباريات كرة القدم النهائية ومسابقات الميدان وألعاب الفروسية .

وفي الجانب الشمالي الشرقي من المجمع الرياضي تدخل الى صالة الجمنازيوم المغلقة . المساحة تبلغ ٢٦ ألف متر مربع . وتتسع المدرجات لعشرين ألف متفرج جلوس و ٧٥ ألفا وقوفا . ويدخل في نطاق الصالة قاعتان للتدريب . وقاعة للمؤتمرات . ومكاتب مخصصة للتسهيلات الخاصة باللاعبين .

في الركن الشرقي يحتل حوض السباحة المغطى مساحة من الأرض تبلغ ٢٢ ألف متر مربع . وتتسع مدرجاته لحوالي ستة آلاف متفرج . أما الحوض الذي ستجري فيه مسابقات كرة الماء والغوص فيبلغ طوله ٥٠ مترا وعرضه ٢٥ مترا بعمق خمسة أمتار . والى جواره حوض اخر تجري فيه التدريبات وعمليات التسخين قبل المباريات .

أقيم الحوض المغطى على هيئة سفينة بشكل السلحفاة تسمى « جوبكسون » . وهو اسم سفينة القيادة للاميرال « لي سون شين » التي قاد بها المعركة البحرية . حيث حقق الانتصار على أسطول الغزو الياباني في أواخر القرن السادس عشر . وقد تم فتح هذا الحوض في غير أوقات المسابقات في الدورة لتستغلها ربات البيوت والأطفال في ممارسة السباحة والسباقات المحلية .

في الجنوب الغربي من المجمع الرياضي يقوم ملعب مغطى مخصص للبيسبول على مساحة ٦٠ ألف متر مربع . ويتسع لخمسين ألف متفرج . ويضم الملعب قاعات للتسهيلات وغرفا للتدريب وصالة للتليفزيون . وقد أنشىء على الشكل التقليدي المعروف في كوريا . وخاصة أن لعبة البيسبول

رياضة شعبية يعتز بها الكوريون . وكنا نشاهد الشباب في زي اللعب وهم يصوبون الكرات ويصدونها بمضاربهم خلال ممارسة اللعب في أي أماكن فسيحة تصلح للعب .

وعلى مسافة حوالي أربعة كيلومترات تقوم قرية الألعاب الآسيوية ومتنزهاتها ، التي شهدت دورة الألعاب التي أقيمت في سيول عام ١٩٨٦ . تحتل القرية حوالي مليون متر مربع ، منها مليون وستمائة ألف مخصصة لحلبات السباق ، بينما الباقي عبارة عن متنزه تتناثر بين خضرته أحواض الزهور المنسقة في جاذبية رائعة .

القسم الخاص بحلبات السباق يضم ثلاث صالات مغطاة ، تتسع لحوالي ٣٦ ألف متفرج ، وتجري فيها مسابقات الألعاب السويدية ، والمبارزة بالسيف ، ورفع الأثقال ، كما تضم حوض سباحة مغطى ، يتسع لعشرة آلاف متفرج ، وتجري فيها مسابقات السباحة والغوص .

وعلى الطريق الموصل بين المجمع الرياضي والمتنزه التابع له تشهد القرية الصحفية والقرية الأولمبية على أرض مساحتها ٦٢٦٤٤م . هاتان القريتان تضمان ٥٥٤٠ شقة سكنية في ١٢٢ مبنى ضخما تتسع لإيواء ١٣٠ ألف رياضي وإداري ينتمون الى ١٩٧ دولة ويتبارون في ٢٣ نوعا من الألعاب الرياضية ، بالإضافة الى حوالي عشرة آلاف صحفي .

لقاء مع رئيس الإعلام

قال لنا رئيس مكتب الإعلام لما وراء البحار « لي راي هونج » : عملية الإعداد للألعاب الأولمبية وتهيئة الأماكن المناسبة للمسابقات وما يتبعها من التسهيلات تعتبر من أكثر العمليات تكلفة في العالم ، ولذا حرصت اللجنة المنظمة على استكمال أعمال التخطيط في وقت مبكر للحيلولة دون إهدار الأموال في الانفاق على منشآت لا طائل وراءها ولا ضرورة لها . كما حرصت كذلك على الاستفادة التامة من المنشآت القائمة فعلا ، ووضعت الخطط لتجديدها وإصلاحها لتكون صالحة للاستعمال الدولي .

وعندما بدأت إقامة المنشآت الجديدة وضعت اللجنة في اعتبارها أن تضمن لكافة المشاركين في الدورة كل التسهيلات التي تمكنهم من تقديم أحسن ما عندهم وإظهار كل قدراتهم » .

ولكن .. كيف ستجري ألعاب الدورة ؟

لقد تقرر إقامة ٣٤ حلبة للمسابقات . بعض هذه الحلبات تولت البلديات إقامتها ، بينما أقامت الجامعات والمؤسسات الخاصة حلبات أخرى ، وافقت على وضعها تحت تصرف اللجنة المشرفة طوال فترة الدورة ، وتم إعداد ٨٥ ميدانا للتدريب ، ستوضع كلها تحت تصرف الرياضيين .

شهدنا جملة من الإنشاءات الأخرى التي وضعت تحت تصرف اللجنة المشرفة على الإعداد للدورة ، منها ملعب « تونجدامون » المدرج ، وتتسع مدرجاته لثلاثمائة ألف متفرج ، وهو مخصص لسباق الخيل . وهناك ميدان الرماية الدولي في « تايننج » شمال شرقي سيول . أما المسابقات الأخرى في الرماية بالسهام فقد أعد لها ميدان « هوارانج » . وستجرى مسابقات كرة المضرب في صالة الألعاب المغطاة بجامعة سيول الوطنية . أما مسابقات الهوكي بول فستجرى في ملعب جامعة هانيانج المغطى على مسافة عشرة كيلومترات من القرية الأولمبية ، وتتسع مدرجاته لثمانية آلاف متفرج . أما في المدن الأخرى فستقام مباريات عديدة ، ففي ملعب سوون المغطى الذي تتسع مدرجاته لحوالي خمسة آلاف ستقام مباريات كرة اليد ، بينما في ملعب سونجنام الذي يتسع لحوالي ٢٥ ألف متفرج ستجرى مباريات الهوكي والمصارعة . وفي ملاعب البلدية في تاجيون وكوانجيو وتايجو وبوسان التي تتسع مدرجات كل منها لحوالي ٣٠ ألف متفرج ستقام المباريات التمهيدية لكرة القدم .

كل النفقات غطيت

يثير كل ذلك تساؤلات حول النفقات التي صرفت للإعداد للدورة ، وردا على هذه التساؤلات كانت إجابة رئيس مكتب الإعلام : « وضعت الخطة على أساس أن التكاليف تصل الى ٣١٠٠ مليون دولار

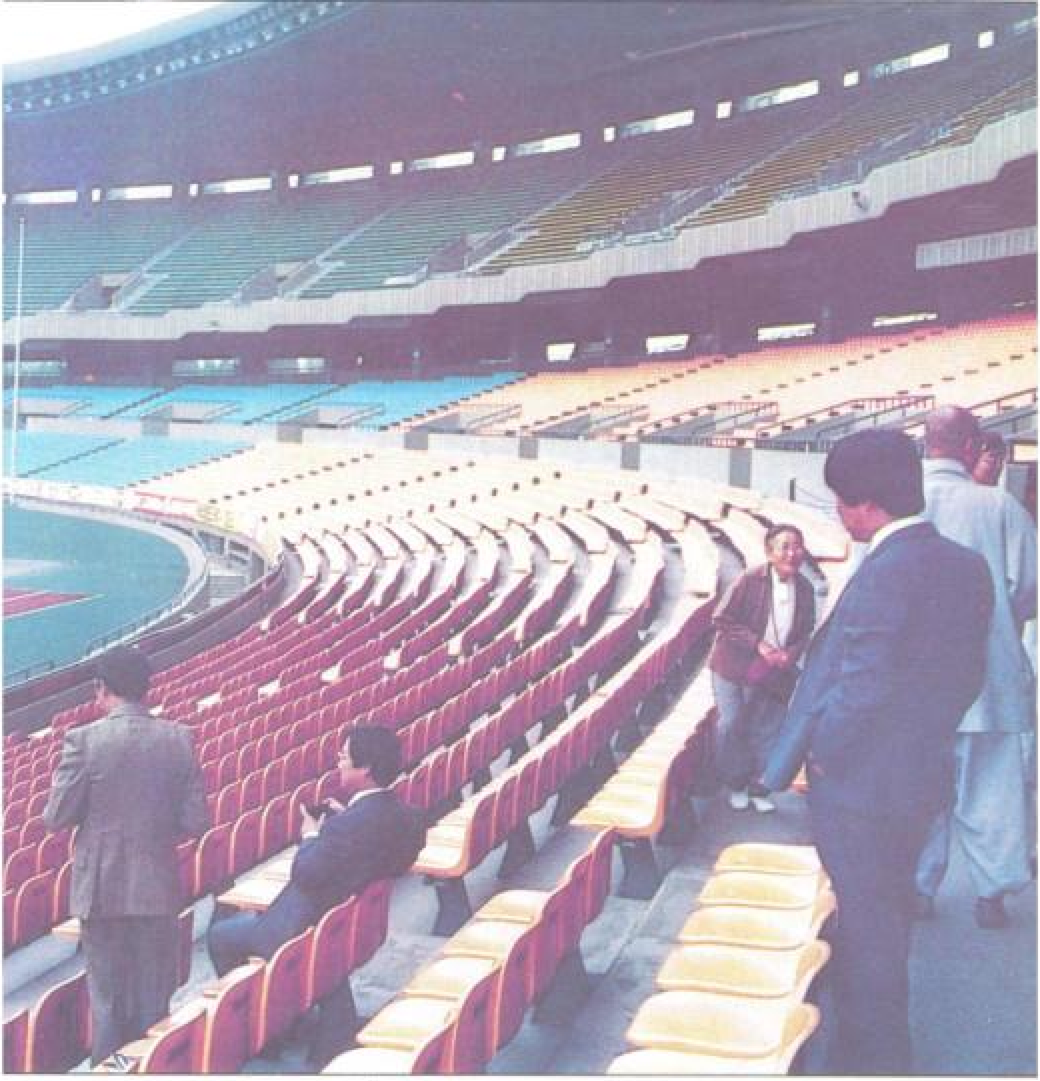

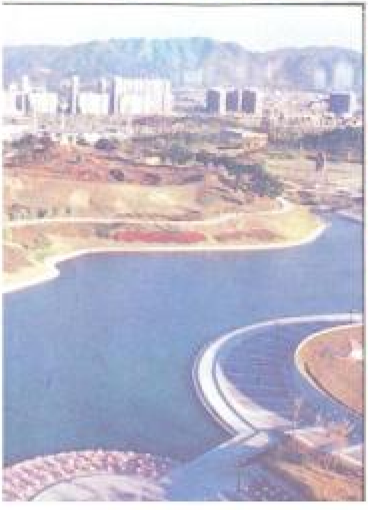

기념 합동지구대회
축

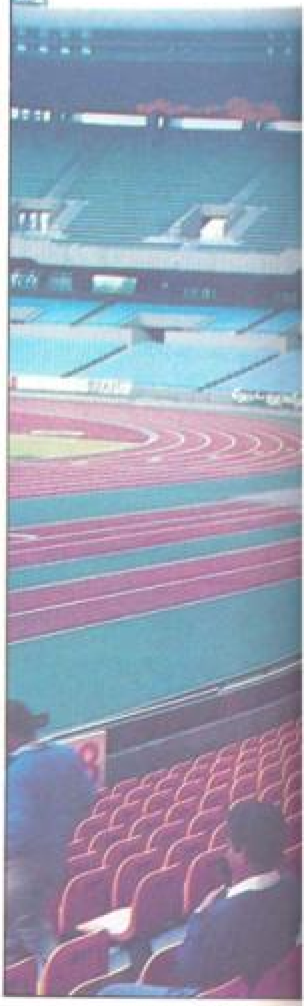

* الاستاد الكبير أبرز معالم المدينة الرياضية (أعلى) ويمتد على طول شاطىء نهر هان حيث تبدو خلفه مباني المدينة .. ومن بينها بنايات القرية الصحفية التي تتسع لايواء ١٣٠ ألف رياضي (الى اليمين) وحيث تجرى الاستعدادات في مختلف الساحات الرياضية بما في ذلك مركز الهدايا التذكارية للدورة (الى اليسار) .

أمريكي . منها ١٤٠٠ لتكاليف المشروعات الثانوية التي ترتبط بالألعاب الأولمبية ارتباطا غير مباشر . ومن هذه المشروعات ما يعتبر جزءا من خطة التطوير الاقتصادية والاجتماعية الخمسية ٨٢ ـ ٨٦ التي سبق وضعها وإقرارها ، مثل مشروع تطوير نهر هان ، ومشروعات تجديد مدينة سيول . أما بقية التكاليف البالغة ١٧٠٠ مليون دولار فقد تم إنفاقها بشكل مباشر على الإعداد للدورة وإنشاء مراكز التدريب والتسهيلات الأخرى ونفقات العمل وتكاليف إقامة المنصات ومستلزمات الألعاب المختلفة ، ومتطلبات الأمن .

لكن ، هل تتحمل الحكومة كل هذه النفقات ؟

الحقيقة أن بعض هذه النفقات قد قام بدفعها مجموعة من المستثمرين لإنشاء القرية الأولمبية والقرية الصحفية ومركز رسو اليخوت وبعض المرافق الأخرى ، وسيقوم هؤلاء المستثمرون باستغلالها لأنفسهم بعد انتهاء الدورة . أما بقية النفقات فستكون لجنة تنظيم الألعاب مسئولة عن تحصيلها من خلال بيع حقوق البث الإذاعي والتليفزيوني وإصدار عملات تذكارية وبيع تذاكر « اليانصيب » وحقوق استعمال شعار الدورة ، بالإضافة الى قيمة التذاكر المبيعة . وهناك تغطية أخرى للنفقات ، فجميع الشقق السكنية وعددها ٥٥٤٠ شقة قد تم بيعها بالفعل لأبناء المدينة ، وسيمتلكونها فور انتهاء الدورة .

كل الظواهر تؤكد أن دورة الألعاب الأولمبية في سيول مع هذه الاستعدادات الجادة ستكون من أروع الدورات التي شهدها العالم .

وليس هذا رأينا فقط ، فهو أيضا رأي خوان سامارانش رئيس اللجنة الأولمبية الدولية الذي قال :

« إن دورة الألعاب الأولمبية في سيول ستكون أنجح الدورات في تاريخ الأولمبياد . فقد فعلت كوريا الجنوبية كل ما بوسعها من أجل الإعداد لها ، وقد شهدت بنفسي الاستعدادات الرائعة لهذا الحدث الكبير الذي أستطيع أن أقول إنه يفوق كل ما شهدته في الدورات السابقة » .

هذا هو ماقاله سامارانش في كلمته التي ألقاها أثناء الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكاري النحاسي الذي أهداه للجنة المنظمة ، فنان اسباني ، وهو نصب يمثل رياضيا شابا وقد قام بصنعه هذا الفنان ، وتقرر أن يوضع في المتنزه الأولمبي .

وقد تبع الحفل دعوة مفتوحة لكل المشاركين في الاعداد للدورة مع أعضاء اللجنة الدولية ، لتناول نماذج من الأطعمة التي ستقدم للرياضيين ، أبرزوا فيها فنون المطبخ الكوري والاهتمام بتجهيز الوجبات المناسبة لكل الرياضيين من مختلف الدول .

حكاية لحم الكلاب

قبل أن ندخل القاعة التي أقيمت فيها المأدبة ، تبادلنا وزميلي المصور نظرات التردد عندما وجدنا في الصدر مائدة حافلة بالطعام الشعبي المميز للاعبين الكوريين ، وهو ماكان علينا أن نجربه في البداية ، وأدركت مرافقتنا سر ترددنا وما كنا نخشاه فقالت باسمة :

ـ لا تخشوا شيئا ، المهم ألا تجربوا « البوشنتانج » !

كنا نسمع أن البوشنتانج نوع من الطعام يفضله الكوريون وبخاصة في الريف ، وهو شواء من « لحم الكلاب » ، وبسببه كنا نتعمد الا نأكل اللحوم في أي وجبة إذا كانت خارج الفندق ، لهذا أعلنا لمرافقتنا أكثر من مرة أننا لن نجرب أي شواء !

ابتسمت وهي تقول :

ـ عليكم أن تطمئنوا ، فالبوشنتانج ممنوع بأمر الحكومة في كل المدن الكورية ، وإن كان بعضهم في القرى مازالوا يفضلونه . لكن لماذا تتأففون ؟ لقد سمعت أن بعض القبائل العربية تأكل الجراد ، وفي أوروبا يأكلون لحم الخيل ، وفي فرنسا يتلذذون بأكل الضفادع ، والفلاحون في بعض الدول الغربية يأكلون فيران الحقل ، وفي بعض دول أفريقيا يأكلون دود الأرض الكبير مسلوقا ومقليا ومشويا أيضا . . !

كانت تقول الحقيقة . ولكننا عندما جربنا وجبة الطعام الشعبية لم نتناول سوى الأطباق الرئيسية من الطعام الكوري ، وهي الحساء والأرز والخضار

الشكل مسلوقا والبقول المطحونة بالثمار و« الكمشي » ، وهو كرنب مخلل متبل حار المذاق ، ومرق الصويا ومعه مشروع « الجينزنج » وهو نوع من الأعشاب يعتقدون أنه يقوي الجسم ويجدد الشباب !!

وكانت هناك أطباق أخرى تقدم كلها وتؤكل معا ، منها « البولغوق » وهي شرائح من لحم البقر تشوى على الجمر فوق المائدة ، بعد أن تتشرب مرق الصويا الممزوج بالزيت والسمسم والثوم وعدة توابل أخرى ، وذلك غير « الشنسولو » ، ويجمع بين اللحم والبيض والجوز وخضراوات مرتبة بشكل فني جميل في طبق ذي مدفأة مصممة للمحافظة على حرارة الطعام عند درجة معينة .

مثل هذه الأطعمة التي يتميز بها المطبخ الكوري جربناها بعد ذلك خلال جولاتنا بين معالم سيول الحديثة والقديمة ، خاصة عندما كنا نتنقل بين الأسواق الشعبية والأحياء التجارية التي لا تستطيع أن تقطع جولتك فيها لتعود الى الفندق لتناول الطعام الغربي .

الأسواق متعة وحدها

في هذه الأوقات كانت متعتنا أن نتجول بين المتاجر والمعروضات داخل أسواق « نامدامون وتو نجدامون وايتاون » ومراكز الصناعات التقليدية في ميلي دمون ، والأسواق الشعبية العامرة بالبضائع ذات الثمن الزهيد . هناك كنا نصاب بالدهشة أمام الطريقة التي يتعاملون بها مع كل راغب في الشراء من معارضهم ومتاجرهم . فالبائعات عندما يروننا نقترب كن يخرجن إلينا من المعرض لمصافحتنا ببشاشة وود وترحيب ، ويجذبننا الى الداخل ، وهذا ما يفعلنه مع الجميع . وطريقة البائعين محببة ومغرية في عرض سلعهم التي يعرفون من خلال نظرتهم الى المشتري والمتجول في السوق كيف يجذبونه ، وهم يدركون من خلال نظرتهم المتفحصة جنسية الزبون ، وما يود أن يقتنيه ، وما يمكن أن يغريه ، المساومات لابد منها ، وهي إحدى سمات ، التعامل التجاري وبخاصة في أسواق ايتاون التي يرتادها السياح من كل مكان .. وتستطيع أن تهبط بالثمن المعروض الى ثلث القيمة أو نصفها في كثير من الأحيان . ومهما دفعت من ثمن فلن تستشعر أنك كنت مغلوبا في عملية الشراء ، خاصة عندما تشتري الملابس أو الأقمشة التي يفصلونها لك خلال ٢٤ ساعة لتتسلمها « بدلة » من ثلاث قطع غاية في الأناقة والدقة وسلامة المقاس ، وبأقل الأسعار ، بل حتى ملابس النساء يمكن تفصيلها خلال نفس المدة بعد اختيار نوع القماش ، وأجمل أنواع الحرير ، بألوانه الزاهية الأنيقة . لكن هناك ما هو أكثر جاذبية من الملابس والأقمشة والأحذية ، إنها المجوهرات ، والصناعات التقليدية واليدوية ، والفنية التي تعمر بها المعارض والمحلات بل حتى الأرصفة التي يفترشها الباعة على الجانبين ، ويعرضون عليها كل أنواع السلع ، بما في ذلك الأجهزة الالكترونية والساعات والحقائب وألعاب الأطفال ، خاصة المصنوعات الجلدية ، ومنتجات الكائنات البحرية المحببة ، الموجودة بكثرة في كل مكان . وأجمل من كل ذلك ما تجده في أسواق تونجدامون من القطع الفنية التقليدية والتاريخية والأثرية ، وبخاصة المحفورة في الخشب أو المصنوعة من السيلادون والسيراميك واليشب الأخضر الذي يبدعون في تشكيله وصياغته ويجد له سوقا رائجة بين السياح القادمين من دول الغرب ، باعتبارها أجمل الهدايا التي تمثل إبداع الشرق . على أنك طوال تجولك في الأسواق الممتدة ومع مضي الوقت ستجد باستمرار ما يخفف عنك التعب في المطاعم والمقاهي وأندية الموسيقا والفيديو ، وكلها تتميز بالأناقة والنظافة والجاذبية في كل شيء

متحف بلا جدران

وبعيدا عن الأسواق نواصل جولاتنا في سيول عروس الأولمبياد .

وهي حقا عروس تتألق في كل شيء ، بالجمال والأناقة والنظافة التي لا تجد معها ورقة أو عقب سيجارة في الطريق أو على الرصيف أو أي نفاية يمكن أن تخدش جمال المدينة ، بل إن ذلك الجمال يزداد

仁
孝
義
悌
禮
忠
智

* لايقتصر التعليم على المدارس.. فالمسيرة التعليمية تشمل أيضا المعاهد الفنية حيث التدريب على الصناعات التقليدية بما في ذلك صناعة الملابس والمنسوجات والفنون الجميلة من رسم وتلوين وموسيقا تشترك فيها كلها فتيات الجيل الجديد يتعلمنها على أيدي المتمرسات من المعلمات والفنانات.

جاذبية بما يعمرها من معالم معتنى بها كل العناية ، يمتد تاريخها الى أكثر من ستمائة سنة من الثقافة الكورية ، يمثلها تراث وكنوز ، تجعل منها بانوراما ومتحفا مفتوحا لكل فنون البلاد وتاريخها وأمجادها .

على أن هذه السنوات الستمائة هي فقط الأكثر بروزا في عمر سيول الذي يمتد الى ثلاثة آلاف سنة في عمق التاريخ . كانت المدينة في أول أمرها تحمل اسم « ويري ساتسونج » ، ومعناها « القلعة » ، في عصر مملكة بايكزيا ، إحدى الممالك الثلاث الكبرى التي حكمت شبه الجزيرة الكورية منذ عام ١٨ ق . م ، حتى قامت مملكة شيلا الموحدة (٦٦٨ ـ ٩٣٥م) .

ثم مملكة كوريو (حتى عام ١٣٩٢م) ، حيث يبدأ عصر مملكة زوسان (عصر يي) التي امتد حكمها حتى بداية القرن العشرين عام ١٩١٠ واتخذت المدينة مقرا لحكمها بعد أن حولت اسمها الى (هايانج) .

خلال عصر « يي » شهدت العاصمة أزهى فترات تاريخها الذي مازال معالمه باقية حتى اليوم ، فقد أقيمت على أسس هندسية متميزة ، سواء في قصورها الرائعة أو معابدها الملكية ، أو أسوارها المحصنة التي كانت تحيط بالمدينة بطول ١٧ كم ، تتلوى بين جبل نامسان وجبل بوك هانسان ، ببواباتها الثماني التي مازال متبقيا منها خمس حتى الآن . وأعيد ترميمها وأصبح بعضها يتوسط أجمل الميادين وأفسحها ، مثل البوابة الجنوبية (نامدا اسون) ، والبوابة الشرقية (تونجد امون) .

بعد الغزو الياباني لكوريا عام ١٩١٠ أعيدت تسمية المدينة لتصبح « كيونج سونج » ، وظلت تحمل ذلك الاسم حتى أغسطس عام ١٩٤٥ ، حين تحررت كوريا من الحكم الاستعماري الياباني ، وسمت عاصمتها « سيول » .

من خلال نظرة قريبة متعمقة تجولنا بين معالم رائعة من الآثار القديمة في « مدينة الملوك » التي تم ترميمها والمحافظة عليها . روعة هذه المعالم تبدو في القصور والمعابد والأضرحة والأسوار والبوابات البرجية والمتاحف التي تعطي لدارسي الحضارة الكورية ثروة ضخمة من المعلومات عن البلاد وسكانها ، وتمثل تاريخا مجيدا لعصر مملكة زوسان الذي امتد أكثر من خمسة قرون .

تعال بنا نشهد بعض أمثلة ذلك التاريخ الذي يعتز به الكوريون ، ويغذون به أبناءهم منذ مراحل الرياض والابتدائي ، الذين تراهم يتجولون بين أنحاء القصور والمتاحف باحترام وهيبة ، ويسجلون في دفاترهم الصغيرة كل ما يرونه اعتزازا منهم بماضيهم التليد .

عندما تحكي القصور

وندخل قصر « كيونج بوكونج » وهو قصر سيول الرئيسي ، بناه الملك تايجو عام ١٣٩٤ ، لكنه أحرق عند الغزو الياباني عام ١٥٩٢ ، وترك القصر المدمر خربا تماما حتى عام ١٨٦٧ ، حين قام الحاكم تاونجون بإصلاحه وترميمه ، ليكون مقرا لابنه الملك كوجونج ، ولأجل أن يجعل القصر آية في العظمة أقام مجموعة من الأجنحة والقاعات الملكية التي تفوق ما كان عليه القصر الأصلي من فخامة ، واضطر لمواجهة النفقات الضخمة لإعادة تشييد القصر الى فرض ضرائب ثقيلة على الشعب ، وصك نقدا بقيمة كبيرة دون تغطية قيمته بالذهب ، وسخر عمالا من جميع أنحاء البلاد ليشاركوا في البناء . وقد أثقل ذلك كاهل الميزانية النقدية للمملكة حتى أن استنزاف أموالها لإعادة بناء القصر كان سببا غير مباشر وراء سقوطها في أيدي الغزاة عام ١٩١٠ .

ولأهمية القصر وارتباطه بالتاريخ القومي فقد اهتمت به الدولة بعد الاستقلال ، وأعيد بناء بوابته الرئيسية (كوانجحدامون) عام ١٩٦٩ بقبابها الثلاث وأفاريزها المزدوجة وسقوفها الهرميدية التي تعد من أروع الآثار القائمة في المدينة ، وتطل على أكبر شوارع سيول وميادينها ويقوم على مدخلها تمثالان لحيوانين أسطوريين ، يقال إنهما يحميان القصر من النار ، وإن كانت النار قد أحرقت القصر أكثر من مرة على مدى سنوات متتالية !!

لم نكد نجتاز باب القصر ونجتاز أسواره ذات البوابات الأربع حتى وجدنا أنفسنا في ساحة متسعة ، تحيط بها الحدائق وأحواض الزهور ، وواجهنا في

وسط الساحة بناء رائع ، يمثل « الباجودا » ، وهو من أجمل الآثار الملكية الكورية ، والباجودا أحد معالم الفن الكوري المنقول عن الصين ، وهو عبارة عن برج شيد من الأحجار ، يرتفع فوق ثلاث قواعد من الحجارة ، تقوم فوقها ثلاث طبقات ذات شرفات كبيرة ، يعلوها سبعة طوابق صغيرة مربعة ذات شرفات على نفس الهيئة ، وكل طابق يحمل تماثيل لبوذا وأتباعه المقدسين ، وتتوسطه زهرة اللوتس . وقد اصطبغت الباجودا في العقيدة البوذية ببعض الخرافات التي كانت منتشرة في البلاد ، وكانت رمزا للتنبؤ بالغيب عن طريق الشقوق والعروق ، كما كانوا يعتقدون أنها تقي الناس غوائل الأعاصير والفيضانات ، وتسترضي الأرواح الشريرة ، وتجلب الرخاء ورغد العيش ، لهذا فهي توجد بصورة أو بأخرى في كل المعابد البوذية وقصور الملوك التابعين لهذه العقيدة . بجوار المبنى الرئيسي للقصر تقوم عدة أبنية ، منها قاعة استماع ومشاهدة تسمى « كونتشجون » ، وهي أكبر بناء خشبي في كوريا .

ويقوم صرح آخر يسمى « كيونج هورو » على أعمدة فخمة ، عددها ٤٨ عمودا حجريا ، وسط بحيرة رائعة ، أعدت لتكون مقصورة للاستقبالات الملكية . ويزين الصرحين والأفاريز تماثيل للتنين بألوان زاهية مستلقية وهي رافعة رءوسها لحماية المكان الملكي . أما الزخارف الملونة في السقف فهي على النمط الكوري التقليدي بنقوشه الزاهية ذات اللون الأحمر والأخضر والأصفر .

القسم الخلفي من القصر تحول الآن ليكون مقرا للمتحف الوطني . في هذا المتحف شاهدنا كنوزا تاريخية قيمة ، من بينها تماثيل كبيرة من البرونز لبوذا ، ولوحات حائطية رائعة ترتبط بالعقيدة البوذية التي كان يعتنقها ملوك زوسان ، جلبت من مقابر قديمة . ومن أروع محتويات المتحف المجوهرات الملكية والتاج المصنوع من الذهب على درجة كبيرة من الروعة والفخامة والاتقان ، بالإضافة الى قطع خزفية لا شبيه لها في جميع أنحاء العالم ، مصنوعة من السيلادون « كوريو » ، الذي اشتهر في ذلك العصر ، وبرغم المشاهد الرائعة للقصر وما يحيط به ، والتي فقدت الكثير من ماضيها الملكي التاريخي ، إلا أنها مازالت مفخرة ودليلا على عظمة عصر زوسان الملكي .

وننتقل الى قصر « شانج دوكونج » قالت لنا مرافقتنا « أحلام » : « إن القصر قد تم بناؤه عام ١٤٠٥ كقصر ملكي شرقي ، جرى الآن ترميمه وإعادة إصلاحه . وهو أحد النماذج الرائعة للقصور الملكية في سيول . والأكثر اجتذابا للسياح ، على أمل أن يلتقوا بأميرتين مازالتا تقيمان فيه ، وهما كل من بقي حيا من الأسرة المالكة التي أطيح بها ، وإن كانتا لم تظهرا لأحد من الزائرين قط بعد أن أغلقتا على نفسيهما الجناح الملكي الخاص بهما

القصر يعتبر أكبر القصور الملكية الباقية على الطراز التقليدي الكامل . وينقسم الى أربعة أقسام ، المبنى الرئيسي ، وقاعة الاستقبال الملكية ، وجناح الأسرة المالكة من السيدات ، ثم الحديقة السرية المسماة « بي وان » التي تغطي مساحة ٧٨كم² والتي كانت ممنوعة إلا للملك والملكة ، ولا يسمح لغيرهما بارتيادها . تضم مباني القصر المقامة على النمط الشرقي آثارا ترجع الى عهد آخر الأسر المالكة في كوريا ، وأغلب الغرف مازالت مؤثثة كما كانت في عهد الملوك وحاشيتهم ، وقد شهدنا العربة الملكية وأولى السيارات القديمة التي كان يستخدمها الملوك السابقون خلال الأيام الأخيرة للأسرة الحاكمة وسقف الجناح الملكي من قرميد أزرق ، من نوع فريد زاخر بالزخارف ، وتماثيل التنين الحارسة ، كما توجد معروضات تضم الملابس التاريخية القديمة والأسلحة وسائر القطع الفنية التقليدية العتيقة .

تضم سيول مجموعة أخرى من القصور الملكية ، وكان آخر ما شاهدناه منها قصر تشانج بوكونج الذي تم ترميمه في العام الماضي . وأمام هذا القصر توجد حديقة ومقابر « شونجيو » ، حيث تحفظ لوحات بأسماء أسلاف الملوك والملكات في عصر أسرة زوسان ، وعددهم ١٨ ملكا .

في ساحة هذا القصر تقام الاحتفالات

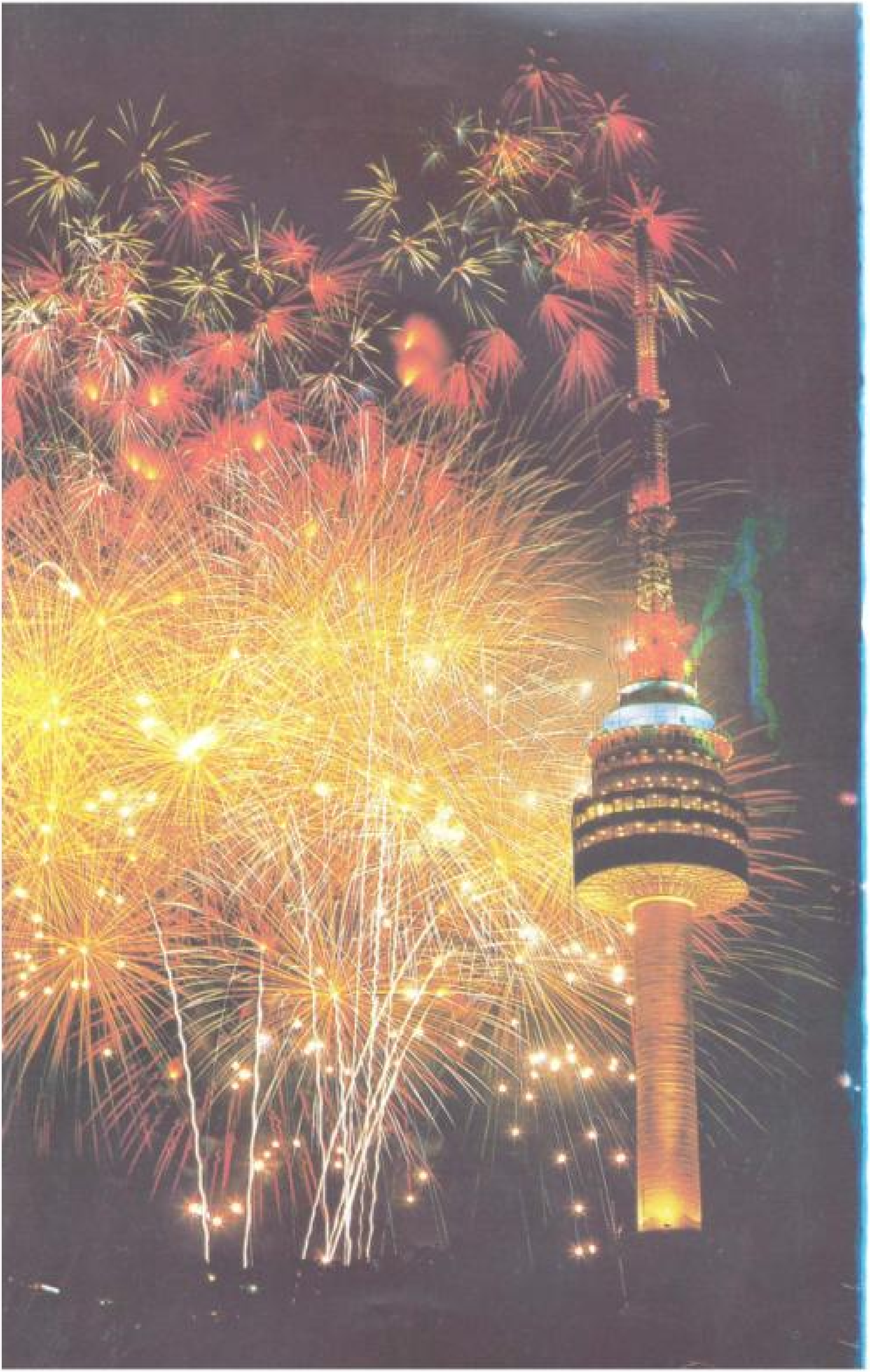

* عندما تشهد سيول احتفالاتها الوطنية فإن أول ما يجري فيها هو إطلاق الالعاب النارية حول برج نامسان المطل على المدينة بأنواره المتلألئة (الى اليمين) ولا تخلو الشوارع والاسواق والمعالم التاريخية من الزائرين من أبناء المدينة والسياح الاجانب بما في ذلك معبد بوذا الذهبي وأسواق نامدامون وإيتاون ومراكز الصناعات التقليدية في مبنى دمون والقصور الملكية التي تزخر بها سيول .

الكونفوشيوسية التي كانت تجري من قبل خمس مرات في السنة في عهد مملكة زوسان . وشهدنا إحداها وهي تقدم إحياء للطقوس الكنفوشيوسية . وقد شارك في إحيائها أحفاد مملكة زوسان . وذلك للحفاظ على تقاليد ذلك العصر . كان المحتفلون يرتدون الزي التقليدي الملون ، ويشاركون في تقديم المعزوفات على آلات موسيقية تنتمي لنفس الفترة .

الجذور في التعليم

الاحتفالات ليست وحدها ما يرمز الى الفلسفة والتعاليم الكونفوشيوسية التي تعتبر الركيزة الرئيسية التي اعتمدت عليها التقاليد والعادات في المجتمع الكوري ، فنظم التعليم أيضا تقوم على هذه القاعدة قديمة الجذور التي تربّت عليها الأجيال .

والمثل الواضح الذي شهدناه كان عند زيارتنا لمقر جامعة سونج كوان للدراسات الكونفوشيوسية . قال لنا مدير التعليم في الجامعة : « يمتد تاريخ هذه الجامعة التي أقيمت في هذا المكان الى عام ١٣٩٨ ، وكانت تحمل نفس الاسم ، وبعنى « المعهد القومي للتعليم العالي » وقد أنشئت لتكون مقرا أكاديميا للتنوير والتثقيف ، وتخريج القيادات الادارية والتعليمية بعد تدريبها على أسس فلسفة كونفوشيوس وتعاليمه الأصيلة . ومازالت هذه الجامعة تؤدي نفس المهمة وإن تضاءل عدد الدارسين فيها نسبيا .

والجامعة في عهدها الجديد الآن بعد التحديث ، تمشيا مع متطلبات التعليم المتطور أصبحت تضم إحدى عشرة كلية جامعية ، وأربع مدارس للتعليم العالي ، وخمسة معاهد للأبحاث . وعدد الدارسين في الجامعة يبلغ ١٨ ألف دارس من مختلف أنحاء كوريا ، ومن بعض الدول الآسيوية الأخرى . ومنذ ١٩٧٨ أنشأت الجامعة فرعا جديدا على مساحة ١٠٠٠ هكتار بجوار مدينة سوون لتخريج باحثين من كليات العلوم والهندسة والزراعة والصيدلة .

فالتعليم الديني لم يعد دينيا فقط ، لكنه تطور ، ليصبح أكاديميا على أعلى المستويات ، من أجل النهضة والنمو وبناء الإنسان الكوري .

النظرية الكونفوشيوسية التي تعتبر التربية والتعليم مفتاح كل نجاح في المستقبل مازال راسخة في نفوس الشعب الكوري .

يقوم التعليم الكوري أساسا على فلسفة ديمقراطية ، توفر للمجتمع فرصا تعليمية متكافئة ، وتحترم الكفاءات الفردية . وترمي البرامج التعليمية بالاضافة الى تعليم المعارف الأساسية الى تلقين التلاميذ القيم والمهارات اللازمة لبعث الأمة الكورية . وقد تخلصت كوريا من الفقر في سنوات قليلة ، وأصبحت بلدا صناعيا تتعقد فيه الحياة الاجتماعية . لهذا لم تكن غاية التربية مساعدة الطلبة على المساهمة الفاعلة في المجتمع الجديد فحسب ، بل كان هدفها إكسابهم القدرة على تكوين الأحكام التي تتآلف مع القيم الكورية التقليدية في مجال البر بالآباء والاخلاص للوطن . وتتم على الدوام دراسة التاريخ الكوري والثقافة الكورية وإعادة تقييمها على ضوء النهضة التي تسري الآن داخل المجتمع ، كما يهدف التعليم الى تنمية الوعي التاريخي ليخلق لدى الطلبة شعور الاعتزاز بالوطن ، وليدركوا أهمية المساهمة الكورية في الثقافة العالمية .

تفهمنا كل ذلك عن مسيرة التعليم في كوريا عند زيارتنا لمدرسة « صويو » ولقائنا بناظر المدرسة « لي دو وان » ، وهو في نفس الوقت رئيس المجلس التعليمي بالمنطقة . قال لنا : « إذا كانت التربية قديما تعنى قبل كل شيء بالتعليم العقلي النظري ، فان المتطلبات الملحة للمجتمع العصري اليوم قد خلقت وعيا جديدا بكرامة العمل اليدوي وقيمته ، ومسئولية التعليم في المساعدة على الاسراع بالتنمية الصناعية . وينعكس هذا الأمر في سياسة الحكومة الرامية الى تشجيع التعليم الفني والمهني وتطويره . ففي السنوات الأخيرة تم إنشاء المدارس الثانوية الفنية والمهنية العديدة ، وقام بتأسيس معظمها مجموعات الشركات الصناعية الكبرى . واستجابت المعاهد العليا والجامعات من جانبها للدعوة لتقديم برامج عملية ، وكان على المعاهد والجامعات في

الريف إقامة أقسام للزراعة . أما المعاهد الموجودة في الجهات الساحلية فكان عليها إقامة أقسام لمصايد الأسماك وعلوم البحار وهكذا ..

وليس هناك شك أن التقدم الذي حققته كوريا في السنوات الأخيرة يدين لما يعلقه الكوريون على التعليم من أهمية . النظري منه والعملي وإذا كانت وزارة التربية والتعليم مسئولة عن سير التعليم الرسمي وصيانة المؤسسات التعليمية ، فإن لبعض المدن والمقاطعات مجالس تعليمية خاصة تعمل كأجهزة تنفيذية تليها إدارات تعليم لكل مديرية ومدينة . وهي مسئولة عن أنشطة التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي . وتتلقى التوجيهات السياسية من الحكومة فيما يتصل بشئون التعليم الأساسية ، كما تقدم العون المالي .

أما عن التعليم العالي فهو يرمي الى تكوين فهم عميق للإنسان وبيئته ، وغرس الرغبة لدى الدارسين للمساهمة في بناء المجتمع . وتأكيد الإرادة لديهم للمشاركة في تحسين منهج حياتهم .

وقد تم أخيرا إنشاء « مجلس الإصلاح التعليمي » الذي يرفع تقاريره مباشرة لرئيس الدولة . ويتكون هذا المجلس من قادة التربية والتعليم ومديري المدارس وقادة آخرين من مختلف مناحي الحياة ، ويتولى هذا المجلس ـ مع الاستعانة بفريق مختار من الأساتذة الجامعيين والاختصاصيين ـ مراجعة وإعداد نظام أكثر ملاءمة لحاضر كوريا وحاجاتها المستقبلية .

المسيرة الإسلامية

قبل أن نمضي مبتعدين بعد زيارة مدرسة «صونغ مودعين بطابورين من الكشافة والمرشدات يصفقون ويغنون وعيوننا بالأيدي تلوحها . كان الأذان لأداء صلاة الجمعة يرتفع من فوق مئذنة « مسجد سيول » القائم في مكان غير بعيد من قلب المدينة وسوقها التجاري . وبعد الصلاة كان لابد لنا أن نتعرف على مسيرة الإسلام في كوريا الجنوبية من خلال لقاء جمعنا مع إمام المسجد « محمد يون » . وضم الدكتور عبد الوهاب ناصر الداعية الإسلامي الموفد من الكويت ، وداعية آخر أندونيسي موفد من ليبيا .

دخل الإسلام كوريا خلال الحرب الكورية بين الشمال والجنوب ، بفضل الوعاظ الأتراك المسلمين الذين صاحبوا الجيش التركي المساهم في قوات الأمم المتحدة بين عامي ١٩٥٠ الى سنة ١٩٥٣ . فكان الإسلام آخر الديانات العالمية الكبيرة التي اعتنقها الكوريون .

وتم تأسيس اتحاد المسلمين الكوريين حديثا (في سنة ١٩٦٠) ، حيث نشطت حركة اعتناق الإسلام بفضل تواجد العدد الكبير نسبيا من المهندسين والعمال الكوريين الذين يقومون بأعمال التشييد في بعض أقطار الوطن العربي ، في مشاريع تتولاها الشركات الكورية منذ أوائل ١٩٧٠ . وقد تم تدشين مسجد سيول عام ١٩٧٦ الذي أقيم على الطراز المعماري التقليدي ، وافتتح في احتفال شهده أربعون من ممثلي العالم الإسلامي . كما توالى إنشاء ستة مساجد في مدن بوسان وكوانجزو وأولسان وأنيانج وشينجو ، وقد أقيم آخر مسجد عام ١٩٨٦ . يبلغ عدد المسلمين في كوريا الجنوبية كلها حوالي ٣١ ألف مسلم ، بينهم ١٨ ألفاً في العاصمة ، وهو عدد ليس بالقليل بالنسبة لدخول الإسلام حديثا ولفترة لم تتجاوز ثلاثين سنة .

قال لنا الدكتور فؤاد الخازندار الأستاذ بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبية : إن هناك عددا لا بأس به من الطلاب سواء من المسلمين أو غير المسلمين الراغبين في دراسة اللغة العربية ، يدرسون في الكليات الجامعية ، حيث افتتحت في ثلاث جامعات كورية أقسام للغة العربية والدين الاسلامي . ففي كلية الدراسات الاسلامية يوجد ١٢٠ طالبا ، وفي كلية العلوم الانسانية هناك ٨٠ طالبا ، بينما يوجد ١٢٠ طالبا آخرين في كلية الاقتصاد والإدارة ، يدرسون العربية الى جانب الشئون الادارية والاقتصاد والتجارة . وحين سألناه عن سر الاهتمام بتدريس اللغة العربية في كوريا قال : إن الدافع الى ذلك في الغالب أسباب اقتصادية نابعة من اتجاه الدولة الى توثيق العلاقات مع الأقطار العربية ، وبخاصة

مع تزايد أنشطة التبادل التجاري مع هذه الأقطار في الفترة الأخيرة ، فهناك مصالح اقتصادية تحتاج الى فتح باب تعليم العربية ، وبخاصة في مجال الترجمة ، ولعل هذا هو دافع غير المسلمين للدراسة في أقسام اللغة العربية ، أما المسلمون من الدارسين وأغلبهم من الطبقات المثقفة فلا شك أن لهم أسبابا أكثر أهمية ، فجميع المراجع والكتب التي كتبت عن الإسلام ودرسها الطلاب كانت مترجمة الى الكورية عن اللغة الانجليزية وبأقلام غربية كانت تتعمد باستمرار إعطاء صورة سيئة مشوهة عن الإسلام ، وهي تتجه الى إظهار أن هناك سلبيات كثيرة في الدين الإسلامي من وجهة نظر الكتاب الذين يتجاهلون إيجابيات الإسلام ، كما أن السفارة الاسرائيلية التي كانت موجودة في كوريا قبل سنوات قد لعبت دورا كبيرا في نشر الكثير من الأكاذيب والافتراءات والكتب المضللة التي قرأها الطلاب والمثقفون الكوريون . وبذلك فإن المعلومات الموجودة في كوريا أغلبها معلومات مزيفة ، وقد بذل الأساتذة الذين دخلوا الإسلام جهودا كبيرة لترجمة الكتب الإسلامية الصحيحة من اللغة العربية مباشرة الى اللغة الكورية .

هل هي مسئولية الدعاة ؟

من خلال نفس الدوافع يتم تشجيع الطلاب المسلمين لتعليم العربية ، ليتاح لهم دراسة الدين الإسلامي بلغة القرآن ، ونقل المعلومات الصحيحة عن هذا الدين القويم من الكتب الإسلامية الصحيحة . وقد بذلت محاولات لترجمة القرآن الى اللغة الكورية ، قام بها عدد من الأساتذة ، إلا أنها باءت بالفشل حتى الآن ، ولم يستطيعوا إبراز المعاني القرآنية كما يجب أن تكون ، لأنهم أخذوا في الترجمة عن اللغة اليابانية . وقد اتجهت رابطة العالم الإسلامي أخيرا الى تشكيل لجنة لترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الكورية ، تضم عددا من الأعضاء المتفهمين القادرين على هذه الترجمة ، وهو أمر - حين يتم إنجازه - سيفتح الطريق أمام آلاف كثيرة من الدينيين واللادينيين في كوريا وغيرها لدخول

* مسجد سيول القائم في قلب المدينة وسوقها التجاري بمئذنتيه اللتين ترتفعان الى السماء لينطلق الأذان داعيا أكثر من ثلاثين الف مسلم كوري الى الصلاة .

● المدخل المميز للمسجد بهندسته ذات الطراز الاسلامي الممتزج بفنون العمارة الكورية بزخارفها وأعمدتها وقبابها التقليدية .

الاسلام . ولاشك أن هناك دورا يجب أن يلعبه الأزهر والجامعات الإسلامية في الأقطار العربية لتصحيح صورة الإسلام ، وترجمة معانيه في كوريا وغيرها من الدول الأسيوية التي تنتشر فيها بعض الكتب المترجمة أو المنقولة من مصادر غربية ، وهي تحمل صورا متخيلة للرسول الكريم والصحابة ، وهو أمر بالغ الإساءة للإسلام وتشويه صورته في هذه البلاد .

ويهمس لنا الداعية الإسلامي الدكتور عبد الوهاب الموفد من الكويت قائلا : إنه حين يهتم بدعوة الدول الاسلامية والمسئولين عن الدعوة الإسلامية لبذل المزيد من التسهيلات لمساعدة الدعاة في أداء مهمتهم في هذه المناطق ، فلأن الصورة التي يشهدونها حتى بين من اعتنقوا الإسلام في هذه الدول لا تبعث على الرضا . ومن بين الأمثلة التي ذكرها قوله : زرت إحدى القبائل التي دخلت الإسلام ، وهاجرت من الصين الى تايلند منذ مائتي سنة ، فوجدت أنهم نسوا كل شيء عن تعاليم الإسلام ، ولم يعودوا يعرفون شيئا عن الدين الإسلامي ، برغم أنهم يؤمنون بالإسلام . زرنا بيوتهم فوجدنا هناك شيئا مغلفا بقماش من المخمل ، محفوظا في مكان أمين . فسألناهم عنه فقالوا لنا : لا تمسوه ، ولكننا حين أخذناه وفتحناه وجدناهم يرتعدون خوفا . فقلنا لهم لماذا ترتعدون ؟ فقالوا لنا إن آباءنا وأجدادنا قالوا لنا ان هذا الشيء مقدس وعظيم وإياكم أن تفتحوه ، فلا يجوز فتحه أو العبث به . ولكننا حين فتحناه وجدناه مصحفاً قديما مخطوطا ، عمره لا يقل عن مائتي سنة . وفي مكان آخر وجدنا معبدا جمع بين البوذية والنصرانية والإسلام ، وقد صوروا الرسول الكريم في تمثال أقاموه الى جانب تماثيل بوذا والمسيح ، وحين سألناهم قالوا لنا : إننا مسلمون ، وهذا هو تمثال إلهنا محمد ، كما أن هنا تمثال إله البوذيين ، وذلك تمثال إله المسيحيين . وحين بينا لهم الحقيقة وجدناهم قد نهضوا يساعدوننا في تحطيم التماثيل كلها باعتبارها أصناما . ولكن كيف لنا الوصول الى مثل هذه الأماكن وتصحيح الدعوة الإسلامية ، وغرس قيم الإسلام بين معتنقيه ودعوة الأخرين الى اعتناق هذه الديانة ؟

نحن نعرف أن تلك هي مسئولية الدعاة ، ولكن ماذا بيد دعاة لا يملكون الأموال والتسهيلات التي تمكنهم من اجتذاب الأخرين الى دينهم ، سواء كانوا دينيين أو لادينيين ؟ !

وبالنسبة لنا هنا في كوريا ماذا يستطيع أن يفعل أربعة دعاة فقط ، بينما هناك آلاف آخرون يتجهون بكل قدراتهم الى المناطق التي يقيم فيها أكثر من خمسة عشر مليونا من اللادينيين . إنهم يجتذبون الآلاف بينما لا نستطيع أن نجتذب سوى العشرات .

ولسنا ندري هل هو تقصير فعلي من الدعاة أم ممن بيدهم زيادة عدد الدعاة ، وتسهيل مهمتهم في هذه البلاد التي تحتاج أن يشرق فيها نور الإسلام ؟ ! □

إنذار للمدخنين

قبل فوات الأوان

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

سعال مستمر يرافق المرء فترة طويلة ، ومع السعال طرح قشع « بلغم » ، ومعهما عسر في التنفس بسيط قد يشتد ، هذه هي الأعراض الرئيسية لالتهاب القصبات المزمن الذي يضع المدمن عن مفترق طريقين ، له أن يختار أحدهما ، فإما التوقف عن التدخين والتخلص من شروره وأخطاره ، واما الاستمرار عليه ، فيرى المرء بوضوح « التاج » الذي يكلل رؤوس الأصحاء !! فكيف يمكن الاحتفاظ بهذا « التاج » ؟

ان العلامة الرئيسية لالتهاب القصبات المزمن هي طرح القشع (Sputum) ، فترى المصاب يسعل من وقت لآخر ، ومع السعال يطرح كمية من القشع الذي يثير التقزز في نفوس الحاضرين ، مسببا للمريض حرجا اجتماعيا

وكثير من الناس يقللون من شأن هذه الظاهرة المرضية ، ويصفونها بأنها « سعال المدخنين » ، وكأنها ظاهرة طبيعية . ونريد التأكيد هنا على أن طرح القشع ظاهرة مرضية ، تدل على تهيج المسالك التنفسية

كثير من أمراض جهاز التنفس - الحادة منها والمزمنة - تؤدي الى تكوين القشع ثم طرحه . فمن

* طبيب من القطر العراقي

تقول ان هذا القشع دليل على « التهاب القصبات المزمن » وليس على أي مرض آخر من أمراض جهاز التنفس ؟ تقول ذلك عندما يستمر طرح القشع معظم أيام ثلاثة شهور متتالية على الأقل في السنة ، وعلى مدى سنتين متتاليتين أو أكثر . ومن هذا الوصف نستطيع التمييز بين الالتهاب المزمن الذي يستمر شهورا ، والالتهاب الحاد الذي يستمر عدة أيام أو أسابيع ثم يزول .

ان مصدر القشع هو نوعان من الغدد في جهاز التنفس . فاذا تضخمت هذه الغدد ـ وهو مايحدث في التهاب القصبات المزمن ـ ازدادت افرازاتها المخاطية التي تطرح بهيئة قشع ، وهذان النوعان هما الغدد القصبية والخلايا الكأسية . أما النوع الأول فيوجد في القصبات الهوائية فقط ، وأما النوع الثاني فيوجد في القصبات وفروعها الصغيرة « القصيبات الهوائية » .

التدخين أصل البلاء : ان الخطر الرئيسي لدخان السجائر على جهاز التنفس يكمن في « القطران » ، وهو المادة الصفراء التي نراها تتكثف في أعقاب السجائر . تقدر كمية القطران المتجمعة من احتراق سيجارة واحدة بمقدار ١٧ ـ ٤٠ ملغم ، وقد أوصت كلية الأطباء الملكية في لندن بأن يكون أقصى مقدار من القطران ١٥ ملغم في السيجارة الواحدة .

ان هذه المادة تهيج المسالك التنفسية التي تحاول أن تقي نفسها من الدخان الذي يزورها في الليل والنهار ، فتقوم بافراز مواد مخاطية ، تحجب عنها هذا الزائر الثقيل . وتطرح هذه المواد بهيئة قشع ، والافرازات المخاطية تفرز أساسا من « الغدد القصبية » التي تتضخم لكي تؤدي واجباتها الزائدة ، وكلما ازداد سمك الغدة مقارنة بسمك جدار قصبة الهواء فهو دليل على اشتداد التهاب القصبات . انظر الشكل رقم (١) .

والافرازات المخاطية الزائدة ـ على الرغم من فوائدها في التقليل من أخطار الدخان ـ لاتخلو من الضرر ، بل قد تسبب تضييق بعض المسالك التنفسية أو انسدادها ، وبخاصة الدقيقة منها « القصبات الهوائية » ، وبسبب دخان السجائر ـ بالاضافة الى التهاب القصبات ـ تغيرات مرضية أخرى ، تقلل من كفاءة الأسناخ الرئوية (Alveoli) في عملية التبادل الغازي ، فيشعر المصاب بضيق في التنفس . أما السعال فينشأ عن تهيج المسالك التنفسية والتهابها بفعل الدخان .

وتؤكد الأبحاث أن التدخين هو السبب الرئيسي لالتهاب القصبات المزمن وترتفع هذه النسبة فتبلغ ٢٥٪ بين الذين يدخنون باعتدال « أقل من ١٥ سيجارة يوميا » ، وتبلغ ٤٥٪ بين الذين يدخنون بافراط « أكثر من ١٥ سيجارة يوميا » .

كما يبدو بوضوح من هذه الارقام ، فان غير المدخنين قد يصابون بالمرض ، وأن أكثر من نصف المدخنين لايصابون به ، ويقودنا الاستنتاج المنطقي الى القول بأن التدخين هو السبب الرئيسي للمرض وليس السبب الوحيد . ومن الأسباب الأخرى التي وجدها العلماء « العامل الوراثي » ، وضعف المناعة ، والاصابة بالتهاب القصبات الحاد في السنة الأولى من العمر أو في الطفولة المبكرة ، والتعرض المستمر للغبار أو الدخان ، والحساسية .

ظاهرة مثيرة : يختلف المدخنون فيما بينهم اختلافا كبيرا في مدى تأثرهم بالتدخين ، فترى بعضهم شديد التأثر به ، يصاب بالتهاب القصبات المزمن في عمر مبكر نسبيا ، وتتدهور صحته شيئا فشيئا ، وترى آخرين أقل تأثرا . فلا يصاب الواحد منهم بهذا المرض على الرغم من افراطه في التدخين ، وكذلك الأمر مع غير المدخنين . فبعضهم شديد التأثر بالغبار أو الدخان أو غيرهما من المهيجات ، وبعضهم الآخر قليل التأثر .

وقد لفتت هذه الظاهرة المثيرة انتباه الناس ـ خاصة المدخنين منهم ـ وأثارت اهتمام الأطباء ، أما المدخنون فقد اتخذ بعضهم من هذه الظاهرة ذريعة للاستمرار بالتدخين ، فما دامت نسبة كبيرة من المدخنين لا تصاب بالمرض ، وما دامت نسبة من غير

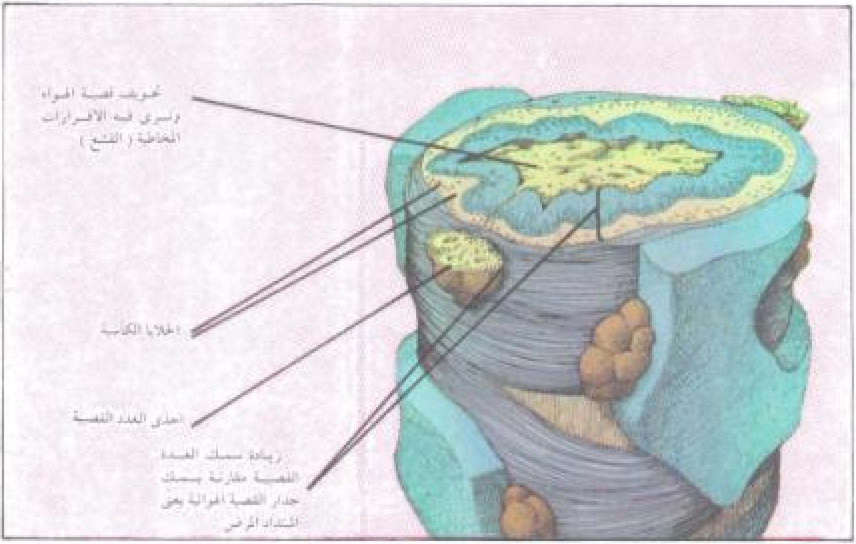

المدخنين تصاب به ، فلا مبرر لترك التدخين !! ، ولسنا بحاجة الى مناقشة هذا الاستنتاج الواهي .

أما الأطباء فقد راحوا يبحثون عن منشأ هذه الظاهرة وسببها ، فوجدوا أنها ناشئة عن قوة ـ أو ضعف ـ تفاعل المسالك التنفسية مع الدخان والأتربة وبقية المهيجات ، فبعض الناس يمتلكون مسالك تنفسية شديدة التفاعل مع المهيجات ، ولهذا فهم شديدو التأثر بها ، وأكثر عرضة لأخطارها وبعضهم الآخر عكس ذلك ، وقد يكون سبب هذا الاختلاف وراثيا ، ويرى بعض الباحثين أن كثرة التعرض للمواد المهيجة ـ كالإفراط في التدخين فترة طويلة ـ تجعل الجهاز التنفسي شديد التفاعل معها والتأثر بها .

المكروبات والتهاب القصبات : من المعروف أن كثيرا من أمراض جهاز التنفس تنشأ عن غزو المكروبات له ، ومن هذه الأمراض التهاب القصبات الحاد ، وذات الرئة ، وغيرهما . ترى ماذا عن موضوع حديثنا « التهاب القصبات المزمن » وعلاقة المكروبات به ؟

لقد لاحظ الباحثون أن ٨٠٪ من المصابين بالتهاب القصبات المزمن يمتلكون نسبة عالية من الأجسام المضادة لنوع من البكتريا ، يسمى (Hemophilus Influenzae) ، وظن بعضهم أن هذه البكتريا قد تكون هي سبب المرض ، غير أن معظم الباحثين لايؤيدون هذا الرأي ، ويقولون ان هذه البكتريا ماهي الا نتيجة للمرض ، وليست سببا له ، أي أن التهاب القصبات المزمن بما يسببه من وهن في مناعة جهاز التنفس ، يمهد الطريق لهذه البكتريا وغيرها من المكروبات .

التدخين ممنوع : الامتناع عن التدخين هو حجر الزاوية في علاج التهاب القصبات المزمن ، وفي منع تطوره الى مرحلة خطيرة . والغريب أن كثيرا من الأطباء يترددون في التأكيد على هذه الخطوة العلاجية المهمة جدا ، لأنهم يظنون عدم استجابة المرضى ، ويظن بعضهم عدم جدواها ـ وتؤكد للمرضى ـ والأطباء أيضا ـ أن هناك أدلة كثيرة تشير

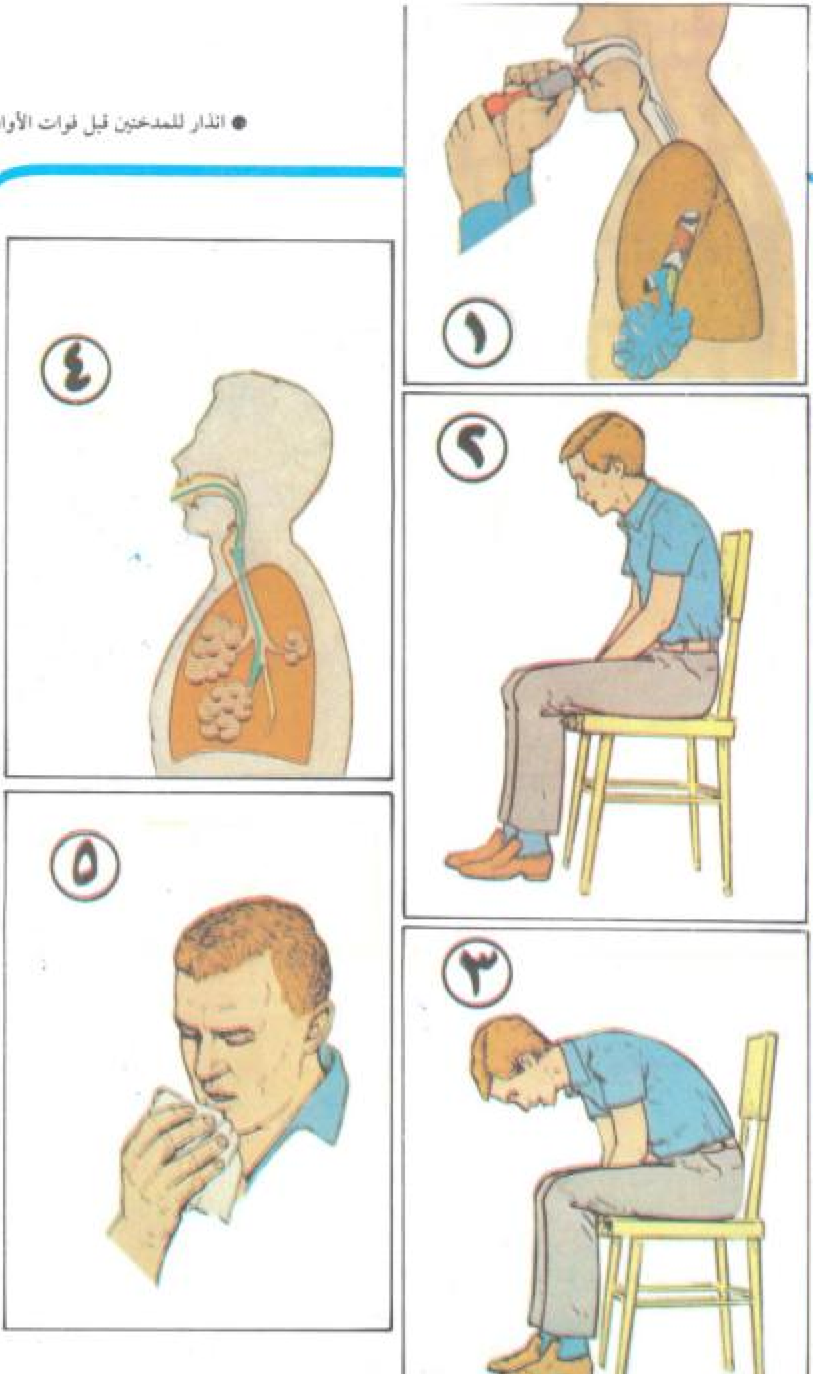

شكل (٢) الطريقة الصحيحة للتخلص من البلغم

الى فائدة هذه الخطوة في العلاج،حتى بعد فترة طويلة من التدخين المفرط .

فقد أكدت الأبحاث التي قام بها « فلتشر » في لندن أن الامتناع عن التدخين لايوقف تطور التهاب القصبات المزمن فحسب ، بل انه يعمل ، على تحويل التدهور الى تحسن ، وهذا هو المثير ، وبعبارة أخرى تعود وظائف الرئة شيئا فشيئا الى سابق عهدها من الكفاءة أو قريبا من ذلك .

وعلى عاتق الطبيب يقع جزء كبير من مسؤولية محاربة التدخين فقد يكون شفاء المريض على اثر نصيحة صادقة يقدمها له الطبيب وهو ينصحه بترك التدخين ويوضح له مخاطره . ويجب أن تكون غرفة انتظار المرضى في العيادة مزودة بالصور التي تؤكد مخاطر التدخين ، وأن توضع فيها لوحات تحتوي جملا تمنع التدخين . ولايجوز أن يشاهد الطبيب وهو يدخن ، لأنه مثال يقتدي به الناس في الأمور الصحية ، فلا يكونن مثالا سيئا

وحين ينصح الطبيب مريضه بترك التدخين فعليه اختيار الكلمات المناسبة والأسلوب المفيد ، لأن الكلمات المروعة التي تحفل بصورة الموت أو الأمراض الفتاكة المهلكة قد تثير في نفس المريض الخوف والقلق ، وربما اليأس والقنوط ، فيلجأ الى التدخين بافراط « !! » . ولافائدة من العبارة التي يستعملها بعض الأطباء « الامتناع عن التدخين يطيل العمر » .

فقد أكدت الأبحاث أن الترغيب أفضل من الترهيب في هذا المجال ، وبدلا من العبارات المخيفة والتهديد بالمصير المظلم على الطبيب أن يخبر مريضه بفوائد الامتناع عن التدخين ، وأنه سيلاحظ التحسن في صحته خلال عدة شهور فقط ، فيتوقف السعال ، ويزول القشع ، ويرتاح النَّفَس ، وتهدأ النَّفْس .

التخلص من القشع : وهو الخطوة الثانية المهمة في العلاج ، فالتخلص من القشع « بالطريقة التي ستوضحها بعد قليل » ، يقلل من السعال ، وضيق التنفس ، وأزيز الصدر Wheeze « وأصوات موسيقية في الصدر عند مرور الهواء في القصبات الهوائية المتضيقة بفعل القشع » ، كما أنه يحرم المكروبات من فرصة عيش مناسبة .

أما طريقة التخلص من القشع ، كما أوضحتها الباحثة الامريكية « ج . لاجرسون » ـ انظر الشكل رقم (٢) ـ فهي كالآتي :

١ ـ استنشاق البخار أربع أو خمس مرات يوميا ، فالبخار يرطب القشع في القصبات الهوائية وفروعها ويجعله لينا سهل الخروج . ومن المفضل استعمال موسعات القصبات الهوائية بهيئة « منشقة » Inhaler قبل استنشاق البخار ، لكي يصل البخار فروع القصبات الدقيقة .

٢ ـ بعد استنشاق البخار يجلس المريض على كرسي وجذعه يحني الى الأمام قليلا ، وقدماه ثابتتان على الأرض .

٣ ـ ثم ينحني الى الأسفل طارحا الهواء من الفم .

٤ ـ ثم يعود الى جلسته العادية مستنشقا الهواء ببطء ، من أجل زيادة الهواء في الرئتين وادخاله خلف أي قشع في المسالك التنفسية .

٥ ـ بعد تكرار هذه العملية عدة مرات ، يشعر المرء بالرغبة في السعال ، وعليه حينئذ استنشاق نفس عميق ، ثم السعال برفق لطرح القشع .

ولابد من الاشارة الى أن هذه الطريقة أكثر فائدة من العقاقير المزيلة للقشع . وعلى المرضى أن يجعلوا منها ممارسة يومية . وينصح بعض الأطباء باستعمال العقاقير التي توسع القصبات الهوائية ، وتؤخذ بهيئة حبوب عن طريق الفم

علاج الالتهابات المكروبية : على المصابين بالتهاب القصبات المزمن أن ينتبهوا الى ثلاثة أمور رئيسية وهي :

* تغير لون القشع أو ازدياد كميته .
* ازدياد السعال .
* اشتداد عسر التنفس .

ان أي واحد من هذه التغيرات معناه أن بعض المكروبات قد غزت جهاز التنفس ولابد من طردها .

وعلى المريض عندئذ استعمال المضادات الحيوية فورا بعد استشارة الطبيب وحسب توجيهاته . وبهذا العلاج الفوري يشعر المريض بتحسن كبير لم يكن يتوقعه . □

يصدر في ١٥ أبريل ١٩٨٨

كتاب العربي

التاسع عشر

الفلسطينيون

من الاقتلاع إلى المقاومة

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

النزف في طاحونة المدينة

شعر : عبدالنبي التلاوي *

قبلَ السحابةُ تمتطي الريحَ العنيدةَ ،
كي تبشّرَ بالربيعْ ،
والأرضُ تشربُ مِنْ حليبِ الغيمِ
كالطفلِ الرضيعْ .
كانَ المساءُ يدقُّ بابَ الدارِ ،
والراعي يعودُ معَ القطيعْ .
وجهي على « الشباكِ »
هذي القريةُ السمراءُ تجهلني ،
وتعرفني المدينةُ ،
حافلاتُ النقلِ تعرفني ،
وكلُّ مواقفِ « الباصاتِ » تشهدني
أبعثرُ شهوتي تحتَ المظلةِ ،
والمدينةُ تنحني تحتَ الضبابِ
يشدني بردٌ وتخذلني ثيابي
والمدينةُ تنحني . . .
وأنا انحنيتُ
إذا المدينة موطني
لا بدَّ لي أنْ أنحني .
وأنا اختنقتُ أمامَ حانوتِ البقالةِ ،
واختنقتُ أمام شيطانِ البطالةِ .
ليسَ لي وطنٌ سوى هذي القصيدةِ ،
كي أجمعَ جثتي
حيناً ،
وأشربَ قهوتي
حينا ،
وأذكرَ إخوتي
وأنا أحنُّ لقريةٍ
أرتاحُ من هذا الدخان
ومن غبارٍ طالعٍ
من مصنعِ الغزلِ الكبيرِ
أمامَ نافذتي الصغيرةْ ،
والقريةُ السمراءُ تجهلني ،
وتعطيني مفاتيحَ المدينةْ .
إن المدينةَ أنكرتْ وجهي ،
وضيَّعني الزحامْ .
يا من أتيتم من قراكم ،
إمنحوني شاعراً في قريةٍ
حُبلى بأسرابِ الحمامْ ،
إني تعبتُ مِنَ الهموم ،
وبتُ أحلمُ أنْ أنامْ .
يا من أتيتم من قراكمْ
كيفَ جئتم من بيادرِ قمحكمْ
وتطالبونَ بأنْ أقاسمكم رغيفي ؟ !
أنا لستُ أملكُ في المدينةِ
غيرَ هذا النزفِ ،
فاقتسموا نزيفي .

* شاعر من القطر العربي السوري

وجهاً لوجه

د. حسين نصار و د. أحمد المرسي

■ الإنتاج الفكري يخضع للبيئة الفكرية التي أنتجته .

■ النتاج العلمي نتاج مشترك بين الإنسانية كلها .

■ ظواهر الوحدة في التراث أكثر وأعمق من ظواهر التفرق .

■ لكي تؤدي الجامعات العربية دورها ، عليها أن تستقل عن السلطة السياسية .

منذ فترة قصيرة كرمت مصر الأستاذ الدكتور حسين نصار بحصوله على جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وهي أعلى الجوائز التي تمنح للعلماء والباحثين والمفكرين والمبدعين الذين أثروا الحياة علما وإبداعا وتنويرا ، وأسهموا في تقدم الانسان وتأكيد إنسانيته . وهو المؤلف المحقق الناقد المترجم الذي أثرى المكتبة العربيـــة بإنتاج علمي متنوع وفير ، يتسم بالأصالة ، ويتميز بالمنهجية العلمية الصادقة التي تدل على نظرة موضوعية ، وتناول محايد ، ودأب على العمل الذي يحث على المعايشة ، ويغري بالسعي الى الوصول للأعماق البعيدة والمجالات البكر .

وهو إلى جانب ذلك العالم المساهم بخبرته وتجربته في إدارة المؤسسات العلمية والثقافية وعضويتها ، فقد رأس قسم اللغة العربية بكلية آداب جامعة القاهرة مددا عديدة ، وهو العميد المنتخب لنفس الكلية .

● د . أحمد مرسي : المتتبع لانتاجك الخصب المتنوع يستطيع أن يلمس لديك نزوعا الى النظر للتراث الانساني ـ والتراث العربي جزء منه بالضرورة ـ نظرة شاملة ، تصل الثقافة العربية بالثقافة الانسانية ، دون إغفال للتنوع والاختلاف ، ودون إعلاء أو تقليل من شأن التأثير المتبادل بينها . فهل كانت هذه النظرة عندك وليدة مناخ عام بين الرواد من جيلك ، أم كانت وليدة تصور متميز خاص بك ؟

د . حسين نصار : أنا أتصور الانسان ـ في كل أرجاء العالم ـ إنسانا قبل أي شيء ، أعني بذلك أنه كائن ذو مشاعر وفكر ، ويؤدي بي ذلك الى تصوره (واحدا) في أي مكان في العالم : كائنا يشعر ويفكر ، وإنما تأتي الاختلافات بين الناس في : أنواع المشاعر التي يشعرون بها ، والمظاهر التي يعبرون عن تلك المشاعر بها ، وفي أنواع الأفكار التي يفكرون فيها ، وإلام تدفع بهم هذه الأفكار ، وكيف يستثمرونها ، وتلك اختلافات تقع بين أبناء المجتمع الواحد ، كما تقع بين أبناء المجتمعات المختلفة .

ثم يضاف إليها مشاعر وأفكار أو أعراف صدرت عن اجتماع أفراد في بيئة واحدة ، فرضت عليهم بسبب المقر والقدرة على الحياة معا ، والثقافة المشتركة ، وامتداد الزمن . طابعا خاصا يباعد بينهم وبين غيرهم من المجتمعات . غير أن هذا التباعد في المظاهر لا في الماهية . وعلى الرغم من كل هذا فكل واحد من هذه المجتمعات نجد من أبنائه من يستطيع أن يعبر عن فكره وحده ، ومن يعبر عن مشاعره ممزوجة بفكره .

وقد أتسامح فأقتصر على تسمية التعبير الفكري علما وفلسفة ، وتسمية التعبير عن الفكر الوجداني فنا وأدبا . ولا جدال أن النتاج العلمي نتاج مشترك بين الانسانية كلها . أما الفلسفة والفنون فلا جدال أنها ذوات طوابع محلية . تميز النتاج مجتمع عن آخر ، لكنها في خلدي هي إنتاج (إنسان) و (مجتمع إنساني) ، ومن ثم فالروابط بينها جوهرية وعميقة .

هذا التصور يدفعني الى :

ـ ألا أعيب مجتمعا لأنه فقد نمطا من أنماط الثقافة ، كما عاب بعضهم على العرب فقدانهم الأدب المسرحي . لكني أشترط أن يكون هذا المجتمع قد امتاز في أنماط ثقافية أخرى . كما امتاز العرب في الشعر الغنائي . والسبب في موقفي هذا أن الأنماط

الثقافية - في تصوري - مظاهر وليست ماهيات ، ومن ثم فالاختلاف فيها له دلالة اجتماعية فقط ، وليس له دلالة إنسانية على النقص أو الفضل .

- ألا أصم مجتمعا بالفقر أو الحاجة إذا ما أخذ عن مجتمع آخر نمطا ثقافيا ، لأن المجتمعات تتواصل بعد قطيعة ، فتتغير الأعراف ، وتنشأ حاجات اجتماعية جديدة تبيح الاستيراد ، بل تفرضه أحيانا ، فإذا ما وجد النمط الثقافي المجلوب الأرض الخصبة الملائمة أثبت جذوره فيها ، وأحسن النماء ، فأعطى روائع الثمر .

الانفتاح على الثقافات البشرية ضرورة

وأنا أدعو أن نفتح المجتمع العربي للثقافة البشرية من كل أرجاء العالم ، ولا نقتصر على العطاء الأوروبي الأمريكي ، فإن ذلك يتيح لنا فرصا واسعة غزيرة للاطلاع والتعرف والتأثر والانتقاء ، وذلك هو طريق الثراء .

لقد عرف المجتمع العربي في العصر العباسي - الى حوار التراث الاغريقي - التراث الفارسي والهندي والصيني ، فأبدع ما أمكنه الابداع . وأرى أنه من الواجب علينا أن نحتذي بهم ، ثم نتوسع باتساع عالم عصرنا ، فنوغل الى أقطار الشرق الأقصى ، وننفذ الى الجماعات الافريقية ، ونبعد الى أمريكا الجنوبية ، ولا نقتصر على ما عرفنا من ثقافات أوروبية ، وراءها ثقافات شعوب قد تكون صغيرة العدد غير أنها أصدرت أنماطا عظيمة من الثقافة . ثم أدعو ألا نقتصر على ثقافة العصر عند هذه الشعوب ، بل يجب الايغال الى ماضيها الثقافي أيضا .

ولا ينفع - عند التقصير - الاحتجاج بالاختلاف الديني أو المذهبي أو الفكري أو غيره . فلست أدعو الى الأخذ منها أو الاندماج فيها ، وإنما أدعو أولا وثانيا الى التعرف ، ثم الانتقاء ، أو التأثر أو الأخذ إن كان هناك مجال لذلك .

وأعتقد أن جميع الرواد المصريين امتازوا بالنظرة الواسعة للثقافة ، لكن مدى الاتساع هو الذي يتباين عندهم ، فاتجه بعضهم الى التراث الفرنسي اللاتيني ، مثل محمد حسين هيكل ، وبعضهم الى التراث « الانجلوسكسوني » مثل جماعة الديوان ، وأحمد زكي أبو شادي ، ولويس عوض ، وبعضهم الى تراث البحر الأبيض المتوسط ، مثل طه حسين . وتحدث كل منهم عن التراث الذي تحدث عنه وما حوى من تراثات نقلت اليه ، مثل التراث الألماني والروسي . ومن الرواد الجامعيين فتح أحمد أمين الباب للثقافة الانجليزية خاصة ، وأمين الخولي للثقافة الايطالية ، وعبد العزيز الأهواني للاسبانية . وتعود نظرتي المتسعة للثقافة الانسانية الى التطور الذي وقع في وسائل المواصلات ، حتى صار العالم - كما يقال - قرية كبيرة ، والتطور المماثل الذي وقع في وسائل الاتصال الفكري من اذاعة وتلفاز وفيديو وأقمار صناعية ، وتصوري أن النهضة الثقافية لا تبدأ ولا تزدهر ولا تستمر إلا بالتلاقح الفكري بين الثقافات المختلفة .

تجربتي في البحث العلمي

تؤدي بنا هذه النظرة الشاملة الى الثقافة الانسانية عامة ، والثقافة العربية خاصة - إذا أذنت لي - الى ضرورة وجود مشروع منهجي واضح ذي عناصر محددة واضحة ، يحقق هذه النظرة ويعمل على أن تكون مدرسة علمية ذات خصائص متميزة .

- منذ كنت في السنتين الأخيرتين من دراستي الجامعية طمحت أن أكون : إما عضو هيئة تدريس جامعية ، أو موظفا في المكتبة المركزية للجامعة . وكنت طوال سنواتي الجامعية أقسم العطلة الصيفية قسمين : أخصص أحدهما لدراسة شرح ابن عقيل للألفية باعتباره جامعا لزبدة النحو العربي في عبارة يسيرة واضحة ، وأخصص الثاني لترجمة مقال أو فصل أو كتاب صغير باللغة الانجليزية .

وتبلور كل هذا بعد ذلك في تصوري للباحث الجامعي ، فكان عندي الباحث القادر على استخدام لغة أوروبية واحدة على الأقل في معرفة الفكر غير العربي ، القادر على اكتشاف إضافة علمية توضع في الرصيد العلمي له ، القادر على توصيل فكره بلغة عربية سليمة .

ولأوضح هذا أقول إنني لا أتصور الأكاديمي الحق مدرسا ، وإنما هو أولا باحث ، ثم مدرس . وإذا كان البحث في مجالات علمية كثيرة واضح الحاجة الى معرفة الفكر الأوروبي، فكذلك البحث في مجالات العلوم الانسانية ، بل لعل هذا المجال أشد حاجة ، لأنه مجال انساني مشترك ، تفيد فيه المعرفة المجردة والنظرية حتى لو لم تقم على مجتمع واحد . ومن هنا يكون اتصال الباحث الاكاديمي بالفكر الأجنبي واجبا ، فإذا أضيفت الى هذه القدرة قدرتان أخريان : قدرة في اللغة الأجنبية ، وقدرة في اللغة العربية كانت الترجمة محبذة ، وذلك ما فعلته في صدر حياتي الجامعية .

وأولى الخطا الى الكشف في مجال الدراسات الانسانية معرفة ما كان عند القدماء أو السابقين على الباحث الأكاديمي ، ويفرض عليه ذلك الاتصال الدقيق الشامل بالمكتبة العربية مخطوطها ومطبوعها ، وهذا هو ما وصل بيني وبين تحقيق المخطوطات .

فقد رأيت أكثر الدراسات السابقة قامت على الانتقاء قبل الاستقصاء ، وعلى الاكتفاء بما اشتهر من مواضع الاشراق والضياء ، ورأيت ذلك قاصرا بل مضللا ، فهو قاصر لأنه يقصر الشهرة على من حكم القدماء لهم بالشهرة ، فيحتفظ بمعايير القدماء ويغفل ما حصلنا عليه من ثقافات من الواجب أن تؤثر في معاييرنا ، وهو مضلل لأنه يجعل القراء يتصورون أن الثقافة العربية لم تعرف إلا الازدهار ، ويحول بينهم وبين معرفة مواطن الانحدار ، والبحث عن أسبابها ، والسعي الى تجنبها في عصرنا الحديث أو عصورنا المقبلة .

ودفعني ذلك الى :

١ ـ العناية بتحقيق المخطوطات ، استكمالا لصورة التراث العربي .

٢ ـ العناية بالكشافات أو الفهارس المنوعة لما أُحقق من كتب، تيسيرا للبحث العلمي فيها ، ولأن كثيرا منها يحوي خليطا غير متجانس ، بل وجوده فيها غير متوقع .

٣ ـ الاتجاه الى دراسة الظواهر المحدودة في الاتساع ضمانا للسلامة ، والوصول الى الجديد .

وفي مجال القدرة اللغوية التزمت السلامة وألزمت بها تلاميذي ، وألزمتهم البعد عن اللغة الفضفاضة التي تتدفق من القلم حاملة معان واحدة ، طالبا أن يكون لكل جملة مدلول جديد ، وألزمتهم البعد عن اللغة الانشائية التي تجرف صاحبها اليها وتغرقه في سيل من الزبد الرونقي الزائف .

كاتب عربي مصري

● في مجال التنوع داخل المشروع المنهجي الذي حققته ، لا شك أن هناك علاقات ضمنية ، تجمع عناصر هذا المشروع (الترجمة ـ التحقيق ـ التأليف) ، (اللغة ـ الموسيقا ـ الشعر ـ النثر) .

هل تأذن لي أن أطلب منك أن توضح لنا تلك العلاقات التي تربط عناصر هذا المشروع ؟

ـ أعتقد أن الناظر في كل انتاجي ـ خاصة بعد مرحلة الصبا ـ يخرج بأن صاحبه كاتب عربي مصري ، فكل ما كتبت من لغة وأدب وفن وتاريخ يدور في فلك الثقافة العربية قديمها وحديثها ، غير مقالات قلائل وجدت فيها فوائد أحببت أن أنقلها الى القارىء العربي فترجمتها أو عرضتها .

ثم إني أرى أن المؤرخ الأدبي يجب أن يكون محيطا بثقافة المجتمع العربي كلها ، وكلما زادت معرفته بهذا المجتمع ونشاطاته الثقافية اتسعت أمامه فرص الفهم والانارة والكشف والامتياز في دراسته الأدبية الخاصة .

قد يتعارض ما قلته مع دعوى التخصص ، والتخصص مبدأ أقول به أنا أيضا ، لكنني أعني بالتخصص أن يتركز نشاط صاحبه ، فلا يهمل أي إنتاج فيه مهما كان مصدره قوة أو ضعفا ، وأن ينتهز كل الفرص لاثرائه ، لكني أرى أنه يجب على صاحب التخصص الادبي أن يعرف معرفة دقيقة كل ما جعل تخصصه يتخذ مسارا معينا ، ويحمل ظواهر بعينها ، فإذا ما أراد ذلك كان واجبا عليه أن يعرف في دقة التخصصات الأدبية الأخرى ، بل أن يتسع الى المجالات الثقافية المتعددة لتصح أحكامه ، وتسلم تعليلاته ، ويهتدي الى مالم يهتد اليه غيره .

ولعل أقرب الأمثلة على ذلك أصحاب الدراسات الاقليمية ، فمنهم من حصر نفسه داخل عطاء الاقليم الذي تخصص فيه ، وظن كل ظاهرة فيه خصيصة له ، وجمع كل ذلك ، فخرج بصورة لشخصية زعمها لهذا الاقليم ، وزعم أنها تفرق بينه وبين الشخصية العربية العامة ، أو شخصية الأقاليم العربية الأخرى ، ومن هؤلاء الدارسين من جمع عطاء الاقليم الذي تخصص فيه والعطاء العربي العام في الأقاليم الأخرى ، وقابل بينهما ، وأحسن استخراج الفروق إن كانت هناك فروق ، ووصل الى أحكام لانزاع فيها .

لا شك أن كل مجال من مجالات المعرفة الانسانية له طريقته الخاصة في التعامل ، خاصة إذا افترقت المجالات افتراقا تاما أو كبيرا ، مثل العلوم التجريبية والفنون . وقد تناولت عناصر تنتمي للعلوم المحضة مثل الدراسات اللغوية ، وعناصر لها طريقة تعامل خاصة مثل الترجمة والتحقيق ، لكن المضمون في هذه العناصر كلها هو التراث العربي ، بل من يمعن النظر في هذا الانتاج يجد ما يلي :

- عامة الدراسات اللغوية فيه تنتمي الى علم المعاجم أو علم اللغة العام ، وهما أقرب العلوم اللغوية الى الدراسات الأدبية أو الثقافة العامة .

- الدراسات الموسيقية فيه قريبة كل القرب من الدراسات الأدبية ، بحيث يعد تاريخ الموسيقا مرجعا مهما لدراسة الأدب العربي ، ولا يمكن الفصل بين الموسيقا والغناء في ألف ليلة وليلة والدراسات الأدبية .

- الدراسات التاريخية التي ترجمتها أو ألفت فيها تنتمي الى تأريخ التاريخ ، أعني تاريخ الفكر التاريخي ، وهذا الفكر أحد عناصر الثقافة التي عنيت بها طول حياتي ، أضف الى ذلك أن بعض هذا الانتاج قد اعتبرته أدبا ، وأدخلته في أول دراساتي الأدبية « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي » .

ومن ثم فهي عناصر تتحاور وتتكامل لتعطي المشروع المنهجي صورته الكاملة .

البارزون من الجيل الحالي

● إذا عدنا مرة أخرى الى المشروع المنهجي ، فهل تتصور امكانية قيام مغايرة بين المشروع السائد في جيلك وما يمكن أن تطرحه أو ماقد طرحته الأجيال اللاحقة ؟

- لا يمكن الاجابة عن هذا السؤال في جملته ، وانما أود أن أفتته الى عناصر ، كما لا أود أن أتحدث عن الجيل الحالي في مجموعه وإنما فيما أرى أنهم هم البارزون فيه .

- أما الدراسة العلمية المنهجية للأدب فهي المثل الأعلى عند الدارسين الجامعيين جميعا ، سواء من يحرص منهم عليها أو من يتهاون منهم فيها ، وهي السائدة عند أقدر الجامعيين الآن .

- كذلك يسود الآن الاعتماد على النص الأدبي أولا وأخيرا ، واستنطاقه على ضوء مالدى الباحث من ثقافة ومعرفة بالنصوص المماثلة في عصور الأدب العربي وبيئاته المختلفة ، دون تعسف أو استعراض أو استهواء للغريب الباهر .

ثم أضاف الجيل الراهن اتصالا أوثق وأشمل بالتراث الحديث ، وبخاصة المعاصر ، والأدب الشعبي الميداني ، والاتجاهات الحديثة في الدراسات اللغوية .

ومعنى ذلك أنني أرى أن منهج الدراسة الأكاديمية عند أبناء الجيل الحالي أقرب الى أحمد ضيف ، وأحمد أمين ، وطه ابراهيم ، ذوي النظرة العلمية منه الى طه حسين ، ومحمد كامل حسين وهما من ذوي النظرة الأدبية الانفعالية ، فهم الى الدراسة أقرب منهم الى النقد ، وإن كان القادرون منهم الذين مارسوا النقد في بعض الأحيان قد كشفوا عن قدرات واضحة .

علاقتنا بالتراث

● هناك موضوع كان ـ ومايزال ـ يشغل بال باحثينا ومثقفينا ، أعني به علاقتنا بالتراث ، فمن خلال خبرتك بالتراث وتعاملك معه ، ماهو تصورك للعلاقة التي ينبغي أن تربطنا بالتراث العربي في إجماله ، وهل هذا التراث خصوصية تميزه عن غيره ؟

ـ العلاقة التي أرى أنها ينبغي أن تربطنا بالتراث هي الفهم ، أريد بذلك أن أول ما أطلبه من القارىء العربي الحديث أن يقرأ الانتاج القديم كما يقرأ الانتاج الحديث ، وألا يحول بينهما بعد في اللغة أو نوع التأليف أو الطباعة ، وأن يبغي من هذه القراءة الفهم أولا ، والتقييم ثانيا ، واستلهام المواضع القادرة على الإلهام ـ وهي كثيرة ـ قد فطن أدباؤنا الى بعضها .

إن كل انتاج فكري لابد أن يخضع للبيئة الفكرية التي أنتجته ، لكن بعض الانتاج يخضع لها خضوعا كاملا ، فيفقد بذلك كل قدرة على الحياة ، ويتحرر بعضه بعض التحرر ، ويحمل ظواهر هذا التحرر ، وهي التي تعطيه خصوصيته وحقه في الخلود .

وتراثنا العربي يحتوي على عناصر كثيرة متميزة خالدة ، إضافة الى جوهره الخاص القائم على التجريد والتوحيد والفردية .

● في داخل هذه الخصوصية ، ما العلاقة بين البعد القومي ، والبعد الاقليمي ؟

ـ لقد شارك في انتاج هذا التراث قطر عربي خالص منذ وجد ، هو شبه الجزيرة العربية ، وأقطار موغلة في التعرب مثل العراق والشام ، وأقطار عربها الاسلام مثل مصر والمغرب بعناصرها المعروفة ، وأقطار استعربت مدة ثم خلعت رداء العروبة ، واحتفظت بالاسلام مثل فارس وأفغانستان وباكستان وتركيا والجمهوريات السوفيتية ، وأقطار استعربت مدة ثم خلعت رداء العروبة والاسلام معا مثل الأندلس .

وعندما دخلت الجيوش الاسلامية هذه الأقطار ثم هاجر من هاجر إليها من أبناء القبائل العربية حملوا معهم ثقافتهم العربية الخالصة .

والتقت هذه الثقافة بالثقافات المحلية في هذه الأقطار عن طريق جوار أصحابها ، وعن طريق التزاوج الذي فتح النظام الاسلامي أمامه كل الأبواب ، مما أنتج مجتمعا جديدا امتزج فيه كل شيء .

ثم وفدت ثقافات جديدة من مواطن قريبة وبعيدة الى هذه الأقطار العربية ، وبخاصة العراق ، موطن الخلافة ، عن طريق حركة الترجمة الدءوب .

ولم تقف الحدود في هذه الأقطار حائلا دون أي اتصال ، فقد دام الاتصال البشري نشيطا ، يخرج العالم أو التاجر من المشرق الاسلامي فيصل الى المغرب أو العكس ، ودام التيار الثقافي يتدفق من العاصمة ـ حاضرة المعرفة ـ الى جميع الأقطار في سرعة مذهلة ، حتى أن بعض الشعراء الكبار كالمتنبي وأبي نواس ترددت أصداء شعرهم في الأقطار البعيدة أثناء حياتهم .

وكان اتجاه الأغلبية في هذه الأقطار الى الاسلام أولا ، والعروبة ثانيا ، والامتزاج الشديد بينهما في أذهان الناس والخضوع والتطلع الى العراق حاضرة الخلافة ، والاعجاب بالشعر العربي القديم ، والاغتراف من الكتاب الواحد ـ القرآن المجيد ـ وما أثاره من حركة علمية بعيدة الآماد ، واسعة المجالات ، عربية اللغة والمنطلق ، وتنكر المسلمون الجدد لثقافاتهم القديمة : كان كل ذلك وما واكبه من

ظروف أخرى عوامل قوية على توحيد الفكر والشعور في هذه الأقطار ، وتنصب مثلا أعلى واحدا في الفنون ، تتطلع اليه العقول ، وتطمح المواهب في احتذائه ، ولذلك كانت ظواهر الوحدة في هذا التراث أكثر وأعمق من ظواهر التفرق ، وظواهر الاتصال أجلى من ظواهر الانقطاع ، فاختفت أو كادت الشخصيات المحلية للأقطار العربية المتباعدة ، وبرزت الشخصية العربية العامة .

وليس معنى ذلك اختفاء الشعور الوطني اختفاء تاما لدى الأدباء القدماء . لقد عبر ابن بسام في ذخيرته عن مثل هذا الشعور ، لكنه شعور لم يتطرق اطلاقا الى القطيعة أو إرادة القطيعة بين الثقافتين العربية والمحلية ، وإنما جأر بالشكوى من إهمال الانتاج الوطني ، وتركيز العناية على الانتاج القومي ، فدل على مدى سيطرة الثقافة القومية على الفكر الأندلسي .

أما الآمال والادعاءات التي عبر عنها الدعاة من دراسة الآداب العربية الاقليمية ، فقد ضللت - في رأيي - بعض الدارسين الأولين ، ثم جمدت ، وشرعت عند الدكتور عبد العزيز الأهواني تتبين حقيقتها ، وأخذت في دراساتي حجمها الحقيقي الذي لا مغالاة فيه ولا تقليل .

وتراثنا الحديث

● إذا صح هذا في التراث القديم فهل يصح في التراث الحديث ؟

- في خلدي أن الصورة لم تتغير تغيرا تاما ، فقد بقي التراث القديم مصدر إلهام للفكر الحديث ، غير أنه فقد جزءا كبيرا من سلطته ، بل ربما الجزء الأكبر عند المعاصرين .

وبقيت الحاضرة العربية مصدر إشعاع تغترف منه كل الأقطار العربية ، لكن هذه الحاضرة انتقلت من العراق الى مصر في مطلع العصر الحديث ، ثم شاركتها الشام ، وفي منتصف القرن العشرين شاركت كثير من الأقطار الأخرى في الاشعاع ، بل جاء في العصر الحديث إشعاع من قطر بعيد ، لم يعرفه العرب القدماء ، أعني الأمريكتين ، حيث ظهر الأدب المهجري الذي كان له أثره الواضح في آداب كل الأقطار العربية .

الجامعات العربية آمال ومعوقات

● أنتهز فرصة هذا الحوار فاسأل عن تصورك لمستقبل الجامعة في وطننا العربي ؟ وما هي الجوانب التي عاقتها عن أداء دورها ؟!

- لا أذهب مع الذاهبين الى أن الجامعات العربية - خاصة الجامعات المصرية وهي الأقدم - لم تؤد دورها في الحياة الفكرية العربية ، بل أرى أنها أدت دورا كبيرا ، ملموس الأثر في كل المجالات .

لكنها لم تؤد كل الدور الذي نتمناه ، وأسباب ذلك متعددة متغايرة ، وربما كان أهمها الأسباب الاقتصادية ، فالميزانيات المرصودة للجامعات لا تحقق للكليات العملية الأجهزة التي تحتاج إليها والتي تتطور بسرعة هائلة ، تجعلها في حاجة الى التجديد الدائم ، ولا تحقق للكليات الانسانية المكتبات الغنية ، والاتصال الفكري الدائم عن طريق الدوريات العلمية الكثيرة والندوات العالمية التي يجب أن تعقدها الجامعات العربية في مقارها ، ويجب أن تشترك فيها بإيفاد أفراد من أبنائها الى مواطنها من أنحاء العالم .

واذا ما أردنا لهذه الجامعات أن تؤدي دورها الحق المطلوب وجب علينا أن نوفر لها الاستقلال عن السلطة ، وتضمن لها الحرية في تصريف أمورها الادارية والعلمية والتعليمية والثقافية ، فيكون لها حق السخط والأمل والبحث عن طريق الارتقاء دون ضغوط . ولا يمكن أن يتم هذا إلا في مناخ ديمقراطي : خارج الجامعة ، ليشعر كل واحد من أبناء المجتمع أنه مسئول عن الجامعة ، وعن دفع الأذى عنها ، والدفاع عن حرياتها . وداخل الجامعة ليشعر كل واحد من العاملين فيها بالأمان ، فيتاح له أن يستثمر كل طاقاته فيما يعود عليها وعلى المجتمع بالنفع ، ويسير بها نحو التقدم والازدهار . □

العربي.. كما تراه هوليود

بقلم : الدكتور جاك شاهين

لم نسمع عن فيلم أمريكي قدمت فيه شخصية « العربي » بموضوعية . فخلال تاريخها الطويل رسمت هوليود صورة وهمية للعربي ، هي مزيج من الشراسة والشبق والجبن والتخلف ، فكان لهوليود عربيها الخاص الذي يقدم لنا الكاتب ملامحه في هذا المقال .

يقطن الوطن العربي اليوم أكثر من (١٨٠) مليونا من البشر ، يشتركون جميعا في تراث واحد ، وديانات سماوية مشتركة ، وتاريخ واحد ، هذا الوطن يتكون من (٢٢) قطراً ، ويتوزع سكانه بين المدن والضواحي والأرياف ، ولا يختلفون إلا في الأزياء التي بلغ تعددها حدا يتعدى الاختلافات البسيطة المعهودة في أزياء الشعب الواحد ، وفي طرق المعيشة التي ارتضاها كل قطر لنفسه .

الأمريكيون والشعوب الغربية الأخرى لا يعرفون عن العرب إلا القليل ، كما لا يعرفون عن عاداتهم وانجازاتهم عبر تاريخهم الطويل إلا النزر اليسير ، فالصورة التي تطبع في ذهن الأمريكي عن الإنسان العربي ، والتي رسختها ثقافته الشعبية في ذهنه منذ الصغر ، صورة مشوهة ، لعب بها الخيال والأهواء ، فعندما يسمع الأمريكي لفظ (عربي) يتبادر إلى ذهنه أنه « عدو لأمريكا » ، أو « عدو للنصرانية » ، أو « إنسان مخادع » ، أو « شخص غير ودود » ، أو ربما « شخص مولع بالحرب والقتال » . هذه الصورة الذهنية المترسخة تساعد على تعميق الشعور بعدم الثقة وسوء الفهم ، فالصورة الذهنية إذا ترسخت انطبعت في أعماق النفس وطال بقاؤها ، والحصيلة النهائية لها تكون أكثر شبها بالصورة « الكاريكاتورية » الساخرة التي تجرد صاحبها من الصفات الإنسانية ، وتجعله مجرد صورة خيالية ، ليس بينها وبين الصورة الحقيقية للإنسان السوي أي صلة .

الصورة والسلوك

يقول أستاذ التاريخ والدراسات الافروأمريكية البروفيسور جوزيف بوأسكن من جامعة بوسطن :

« إن الصورة الذهنية المبسطة للإنسان تعلق بالذاكرة ، وتزداد ترسخا كلما تكرر عرضها . ولا

يؤثر فيها تغيير الزي أو المظهر الخارجي لصاحبها ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذه الصورة الذهنية لمجموعة من الأشخاص أو لقضية من القضايا أو لحادثة من الحوادث لا تلبث أن تتغلغل إلى الأعماق ، وتترك أثراً كبيراً في التصرف السلوكي للإنسان الذي انطبعت في ذهنه .

روس وعرب

ولنضرب على ذلك مثلاً ، فالصورة التي انطبعت عن الشخص الروسي في ذهن المشاهد الأمريكي للعروض التلفازية تتمثل في صورة امرأة روسية بدينة ، ترتدي ملابس روسية مضحكة ، وتتناول ساندويتشات الهمبرجر الأمريكية . هذه الصورة ظلت تعرض جزءاً من دعاية نظمتها شركة وينديز لمنتجاتها من الهمبورجر حتى عام ١٩٨٥ ، حين التقى ريجان بجورباتشوف ، ولم يلغ عرضه إلا بعد أن قدم الموظفون الروس احتجاجات وشكاوي من استمرار عرض صورة الإنسان الروسي على هذا النحو الذي انطبع وترسخ في ذهن المشاهد الأمريكي .

كما أعرب الرسميون الروس عن استهجانهم وعدم رضاهم عن عدة أفلام أمريكية ، منها (الفجر الأحمر) ، و (الليالي البيضاء) ، و (رامبو) ، و (غزو الولايات المتحدة الأمريكية) و(روكي ٤). تظهر الروس أعداء للولايات المتحدة الأمريكية ، كما وجد بها بعض الأمريكيين إهانة وتحقيرا أيضا . ومن جهة أخرى وافقت شبكة الـ التلفازي (أيه . بي . سي A B C) على عدم بث حلقات مسلسل (أمريكا) ، حتى لا تفقد مكتبها في موسكو ومراسلها هناك (ولتر رودجرز) . إمعانا في التجاوب مع هذا الاتجاه قدمت شبكة (أيه . بي . سي A B C) للبث التلفازي برنامجا خاصا ، حرصت فيه على الابتعاد عن تكوين صورة ثابتة عن الإنسان الروسي ، لا تلبث أن تنطبع في الأذهان ، وتصبح هي الصورة المعتمدة عن كل إنسان روسي ، لما في ذلك من عواقب سياسية وخيمة .

إن أثر الصورة الذهنية ليس جديدا على عالم الإعلام الغربي ، فإعطاء صورة تحط من قدر الإنسان الآسيوي سبق أن خلقت مشاعر عداء ضد الآسيويين في الغرب قبل الحرب العالمية الثانية وأثناء احتدامها ، وقد قامت الشركة الدولية للأفلام السينمائية التي تشكل جزءا من امبراطورية وليام راندولف هيرست للأفلام بإنتاج فلم سينمائي ، أطلقت عليه اسم (باتريا) ، وهو عن حرب وهمية نشبت عام ١٩١٦ ، تصور فيه القوات اليابانية وقد انضمت إلى القوات المكسيكية للقيام بهجوم على

● جولدي هون كما تبدو في فيلم البروتوكول حين قرر الشيخ العربي الفاسد أن يضمها الى مجموعة زوجاته .

الولايات المتحدة الأمريكية ، وتتقدم قواتها فتغزو كاليفورنيا ، وتجري محاولات يابانية لاغتصاب بطلة الفيلم ، واقتراف عدد من الأعمال الوحشية . هذا في الوقت الذي كانت فيه اليابان في الواقع تحارب إلى جانب بريطانيا ، وهذا يعني أنها كانت حليفة وليست عدوة .

وقد جاء في الكتاب الذي قام بتأليفه البروفيسور دوجلاس كيلز ومايكل رايان ، والذي سينشر قريبا باسم آلة التصوير السياسية : « إن التصوير العنصري للعرب » بأنهم جماعة من الأثرياء الجشعين في « أفلام المؤامرات التي يشركون فيها العرب » يشعر المشاهد كأن العرب هم الملومون عن كل المشاكل الاقتصادية في هذا العصر . وفي العديد من الأفلام السياسية المثيرة بصور العرب على أنهم جماعات من الإرهابيين المتعصبين الذين يقتلون ضحاياهم الأبرياء بدم بارد ، وأنهم يفتقرون إلى المشاعر الإنسانية . وهكذا أصبح العرب يمثلون دور الأوغاد في أفلام هوليود » .

كتبت « ميج جرينفيلد » في العمود المخصص لها في مجلة نيوزويك تقول : « إن ما أراه وشيكا قادما دون ريب هو عودة إلى الماضي ، عودة إلى التعميم دون التخصيص ، عودة إلى الموقف العدائي نحو العرب أو المسلمين (بشكل عام وشامل) ، يشترك فيه الشعب والحكومة جنبا إلى جنب ، ويستمر مدة طويلة ، ثم تضيف قائلة : « هذه المشاعر المشوشة التي لا تميز بين الغث والسمين والجيد والرديء ، والتي تتركز على العرب عموما أصبحت تتردد على كثير من الألسن في الأماكن العامة ، وصرنا نسمع اليوم ونرى اتجاها لوصم العرب جميعا بأنهم ارهابيون وأشرار . فإذا استسلمنا لهذا النوع من أخذ الكل بجريرة البعض وخلقنا صورة العربي الإرهابي الآثم ، وغرسناها في الأفكار نكون كمن يهاجم الشعب الذي يجب أن نحاول حمايته . ونقدم لأعدائنا انتصارا علينا ، لأننا نقول شيئا ونفعل عكسه » .

في الأفلام السينمائية القديمة كان العربي يُصوّر وكأنه مخلوق بعيد عن الحضارة ، متشرد لا تحكمه الضوابط الأخلاقية ، وبخاصة في الاتصالات الجنسية . وفي الأفلام الحديثة يُصوّر العربي كإنسان همجي ، خاصة في الأفلام التي تم تصويرها في الثمانينيات ، ونادرا ما نسمع عن اعتراض على هذا التصوير من المشاهدين ، أو نقرأ عن ذلك في الصحف ، ولذا نرى أن هذا التصوير قد أصبح مألوفا للقارىء ، وسائدا في الأفلام ، بل ربما أصبح مقبولا ومستمراً.

صانعو الأفلام ينقبون عادة في حقائبهم عن الصور الجاهزة التي تصلح لاظهار شخصية معينة ، فيعثرون على مجموعة الصور التي تمثل العرب . . . فإذا كانوا يبحثون عن صور نسائية ، اختاروا صور الراقصات اللاتي يتقن هز البطن ، أو النساء المحجبات اللاتي يرتدين العباءات السوداء والأثواب الفضفاضة ، وإذا كانوا يبحثون عن صور للرجال تراهم يختارون صورة الرجل الذي يعتمر الكوفية ويرتدي الدشداشة الفضفاضة والعباءة ، ويضع

فوق عينيه النظارات الشمسية الملونة إمعانا في الأناقة ،ويتمنطق بالسيف المعقوف ويركب الجمل أو سيارة الليموزين . فإذا فرغ من اختيار صور الشخصيات النسائية وشخصيات الرجال ، راح يبحث عن الخلفية التي تصلح لمثل هذه الشخصيات . فيختار آبار النفط وكثبان الرمال ومناظر الأسواق العربية ، فإذا انتقل بعد ذلك لاختيار الصفات التي تتحلى بها الشخصيات نراه يضفي على الذكور منهم صفات الخسة والتفاهة والجبن والبدائية والجهل ، والنزعة الى الشر ، والميل المفرط الى الفسق والدعارة والثراء الفاحش المغيظ . أما الاناث فهن دائما شهوانيات أو من الراقصات اللاتي لا عمل لهن إلا هز الوسط ، أو ممن يمتهن الدعارة ، أو ارهابيات ، أو محجبات لا يقفن إلا السير خلف أزواجهن كذيول لهم .

ما الذي يراه المشاهد عند النظر إلى فيلم جرى اختيار عناصره الرئيسية بهذه الطريقة العشوائية ؟ لا شيء سوى اعادة وتكرار لشخصيات سلبية في مشاهد متشابهة وغير واقعية . فالشخصيات التي يفترض بأنها تقيم في الأقطار العربية كما في فيلم Arabland ، يقوم بأدوارها ممثلون اسرائيليون أو أمريكيون لا يعرفون عن هذه البلاد شيئا . فالنساء دائما محجبات تغطيهن العباءات السوداء ، والرجال دائما يرتدون الملابس الرثة ، وهم إما ارهابيون ضراة ، أو من الحرس الصامتين ، أو هم حكام مستبدون . والمشاهد حين تصور فبخلفية صحراوية تمثل الأرض العربية يتنشر فيها الرعاة بأغنامهم وخيولهم وجمالهم ، وفي وسط هذه الصحراء يشاء المخرج أن يقيم قاعدة جوية عسكرية ، أو قصرا زهيد التكاليف بالحجم الطبيعي شبيها بقصور ألف ليلة وليلة . أما إذا كانت المشاهد تصور في المدن فإنهم يظهرون لنا شيوخ العرب ، وقد غطوا عيونهم بالنظارات الشمسية الملونة ، يقترفون الأعمال الخسيسة في سياراتهم الليموزين السوداء الفارهة أو سيارات المرسيدس المتلألئة ، ونادرا ما يظهر المخرجون مدينة عربية حديثة .

بروتوكول وأفلام أخرى

وعلى سبيل المثال هناك ستة أفلام تمثل العربي الفاحش الثراء الذي يتدخل في أمور لا تعنيه ، لأنها تتعلق بالسياسة الأمريكية ووسائل الاعلام الأمريكية ، وترافق هذه المشاهد نصوص تمثيلية تعرض للخلافات والنزاعات المتفشية بين العرب أنفسهم : هذه الأفلام هي : جوهرة النيل ، بروتوكول،الدفاع الأفضل ، بوليرو ، صحاري والقذيفة (الجزء الثاني) . وثلاثة أفلام أخرى تقدم العربي بصورة الارهابي هي : نحو الليل ، النسر الحديدي ، قوة الدلتا .

وقد جرى التأكيد على هذه الصورة وترسيخها في أذهان المشاهدين في فيلمين تلفزيونيين آخرين أخرجا عام ١٩٨٥ هما : تحت الحصار ، طيران الرهائن وكذلك هناك تسعة أفلام أخرى تظهر العربي بشكل يبعث على السخرية مع أن موضوعات قصصها لا علاقة لها بالعرب من قريب أو بعيد ، ولا بالأرض العربية ، وهذه الأفلام هي : أيها الشيطان ، نيران سانت إلمو ، مسألة ليست بسيطة ، عودة إلى المستقبل ، تجوال في بفرلي هيلز ، الحياة والموت في لوس أنجلوس ، سائقي الخاص وشرلوك هولمز الصغير .

وتدفع دقة البحث العلمي بالكاتب الى الاستشهاد بثلاثة أفلام أخرى لا تخلو من المحافظة على بعض التوازن والتطرق الى الحسنات جنبا الى جنب مع السيئات بدلا من الاصرار على الالتزام بايراد النواحي السلبية عند العرب دون غيرها ، وهذه الأفلام هي : ما وراء الجدران ، قارعة الطبل الصغيرة ، السفير .

المجموعة الاولى من الأفلام والتي تظهر العربي على صورة الانسان الداعر الذي يعمل على إفساد السياسة الأمريكية ، ووسائل الاعلام الأمريكية كما تبرز النزاعات والخلافات العربية الداخلية ، يغلب عليها محاولة الجمع بين هذه الصفات كلها دفعة واحدة وإلصاقها بالانسان العربي في الفيلم نفسه ، ففي فيلم بروتوكول مثلا ، وهو من انتاج عام ١٩٨٤

تتمكن بطلة الفيلم (جولدي هون) من إحباط مؤامرة لاغتيال أحد الحكام العرب ، وكنوع من المكافأة على البطولة التي أبدتها في إحباط تلك المؤامرة . أرسل الشيخ حراسه المدججين بالسلاح ، والذين يرتدون وجوههم بالنظارات الشمسية الملونة ويتمنطقون بالسيوف الحدباء ، لاحضارها إليه ، فيأخذونها وينطلقون بها بسرعة الى الأرض العربية المزعومة التي يحكمها ذلك الشيخ ، وظنت جولدي أنها ستكون في حضرة الشيخ نعم السفيرة التي تمثل حسن النوايا الأمريكية ولكن أكثر ما أزعجها وضايقها تلك الحشود من النساء المحجبات اللاتي يغطين أجسادهن كلها برداء أسود فضفاض ويثرثرن بجلبة هي أقرب الى نعيق الغربان منها الى الأصوات الآدمية ، وفي طريقها الى مقر الشيخ مرت بالحراس الذين يضعون الكوفيات فوق رؤوسهم ، فلاحظت أنهم كانوا يرمقونها بنظرات شهوانية ، فهي فتاة شقراء ، والفيلم يريد أن يظهر العربي (الفاسد أخلاقيا) بصورة الانسان الذي لا يبالي بعمل أي شيء في سبيل الحصول على فتاة شقراء تثير غرائزه الجنسية ، وبعد ذلك كله تكتشف جولدي أن ما عملته لانقاذ الشيخ ، وما أبدته من حسن نية ستكون مكافأتها عليه أن تصبح إحدى زوجات الشيخ نفسه ، نعم . . (الشيخ الذي لديه من الزوجات ما يفوق عدد كل العرب الذين يظهرون على شاشة الفيلم) ، وعرفت بعد ذلك أنها اذا لم تستسلم لمشيئة الشيخ فانه لن يسمح لأمريكا ببناء قاعدة عسكرية في تلك الرقعة من الصحراء التي يسيطر عليها . وهكذا نرى الحاكم العربي يحاول التلاعب والتدخل في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في سبيل نيل ما يريد ، إنه يريد أن يحول فتاة أمريكية شقراء الى واحدة من الرقيق ، ولا ينقذ جولدي من ورطتها ويحفظ عليها عفتها وفضيلتها إلا ثورة تشبت بين فئتين من العرب فقتل العرب بعضهم البعض ، وخرجت الأمريكية الشقراء سالمة نقية طاهرة .

فموضوع هذا الفيلم إذاً يقوم على الاحتيال والدجل ، والبطلة الشقراء هذه هي كل العناصر التي استخدمها المخرج لايراد قصة بناء قاعدة عسكرية على أرض هذا الشيخ العربي ، والنتيجة التي يخرج بها الفيلم هي وصول البطلة (جولدي) سالمة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومثولها للتحقيق أمام إحدى لجان الكونجرس الأمريكي حيث يبث هذا المشهد على شاشات التلفزيون ، ويسمعها المشاهدون وهي تنصح وتحذر رجال الكونجرس أن يفكروا مرتين قبل دعوة الشخصيات العربية الكبيرة لزيارة البيت الأبيض حيث تقول : « إن أمن وسلامة بلادنا يتعرضان للخطر على يد هؤلاء العرب ، والتعامل معهم أمر في غاية الخطورة » .

أما فيلم « جوهرة النيل » وهو من انتاج عام ١٩٨٥ ، فيعمد الى ترسيخ فكرة وقوف العرب ضد بعضهم البعض ، والخلافات المستشرية بينهم ، قصة الفيلم تدور حول تشوب عصيان مسلح في « الأرض العربية » ، كما سبق وشاهدنا في فيلم البروتوكول ، والمشاهدون هذا الفيلم تطالعهم نفس الأماكن تقريبا ، ونفس الخلفية الصحراوية ، والنساء المحجبات ، والحراس المسلحين بالسيوف الحدباء الذين يرمقون كل انثى شقراء بنظرات غرامية وشهوانية ، ثم يشاهدون بطل الفيلم ، الحاكم المستبد واسمه عمر خليفة ، وهو يحاول أن يغوي كاتبة أمريكية جميلة اسمها جوان وايلدر (وتقوم بهذا الدور كاثلين تيرنر) ، إذ يدعوها لزيارة مملكته على النيل لتقوم بتدوين نجاحه في « توحيد القبائل التي تعيش على ضفتي النهر » ، باعتباره إنجازا تاريخيا ، ثم يضيف الى دعوته هذه قائلا : « الصحافة الغربية لا تستطيع أن تتفهم الروح الوطنية التي أتوخاها من عملي هذا » .

ثم نرى قصر الحاكم الذي يشبه إحدى قلاع الجيوش الأجنبية التي نشاهدها في الأفلام الأمريكية ، تحيط به الحواجز والتحصينات من كل الجهات ، وفي داخل هذا القصر تطرق مسامعنا صرخات السجناء الذين يتعرضون للتعذيب ، وعندما تصل كاثلين الى داخل القصر يأتي من يخبرها

بأنها تستطيع أن تتمتع بحريتها تماما في هذا المكان ، ولكننا سرعان ما نكتشف أنها وقعت في نفس الفخ الذي سبق أن وقعت فيه جولدي هاون في فيلم البروتوكول ، وانها أصبحت أسيرة في قبضة الشيخ عمر .

وكان الشيخ عمر هذا قد قام بخطف « جوهر » وهو رجل دين يحبه الناس وينظرون له نظرة احترام وتبجيل ، وهنا نرى العرب وقد انشقوا الى مجموعتين ، مجموعة جوهر ورجاله الطيبين يقفون في مواجهة مجموعة عمر وجنوده الأشرار بألبستهم السوداء . ويلجأ عمر الى حيلة سخيفة فيستخدم موسيقى الروك وما تحدثه من أثر في هز الأجسام لاقناع الناس بالتخلي عن « جوهر » والانضمام اليه ، ثم نرى حشوداً هائلة من العرب وقد تجمعوا ليشاهدوا أثر الموسيقا عليهم ، فالفيلم يريد أن يظهر العرب كشعب بدائي يؤمن بالخرافات ، فهم عندما يشاهدون « جوهر » الرجل المقدس يمشي داخل النار المشتعلة يشهقون مندهشين ، ترى كيف يكون رد فعل المتفرجين لو أن جوهرا هذا كان يمثل دور رجل دين مسيحي أو يهودي يمشي داخل النار وجموع من المسيحيين أو اليهود يقفون شاهقين مندهشين ؟ وهكذا ينتهي فيلم (جوهرة النيل) بعد أن يسمع المشاهدون من يهمس في آذانهم ببعض وصمات العار التي يريد أن يلحقها الفيلم بالعرب،« انظروا الى هؤلاء الفتيان ، انهم لصوص ، ولن تسلم أية نعجة من أيديهم عندما يحل الظلام » .. ثم يعود للكلام .. « اذا أعطيت هؤلاء الفتيان خمسة أو ستة دولارات فسوف يسرقون لك ما تريد من أي بيت ، » ويمضي قائلا .. لماذا تظل هذه المزابل قائمة في العالم الثالث تدب فيها الحياة ؟ .. إن الذي يقف في طريق إزالتها هو ذلك الشيخ العربي (العظيم الشأن) » .

عذراء ولكن

وفي فيلم (بولير) نرى شيئا بغيضا آخر ، فهو يقدم لنا العربي على صورة العاشق الشهواني العاجز جنسيا . فالفيلم الذي ترجع أحداثه الى العشرينيات يقدم لنا امرأة شابة غنية تقوم بدورها الممثلة بوديريك تطمع بأن يقوم انسان مجرب وخبير بالنساء بفض بكارتها ، وبعد أن استعرضت أبطال الأفلام ، قررت أن تغوي أحد الشيوخ الحقيقيين بأن يقوم بهذه المهمة ، على أساس أنه خبير بالنساء .. وتشد (بو) الرحال الى مراكش ، وتذهب الى أحد النوادي الليلية ، حيث يقودها أحد القوادين من يدها مارا فيها عبر مجموعة من راقصات هز البطون ثم مجموعة من الجمال (وليتصور القارىء وجود الجمال في نادي ليلي !!) ثم يلقي بها في أحضان أحد الشيوخ الذي يتقبل عن طيب خاطر القيام بهذه المهمة ، وتقترح ديريك عليه أن يقوما بنزهة على ظهور الخيل في ضوء القمر فوق رمال الصحراء ، ولكن الشيخ كان عاجزا عن تلبية رغبتها فهو لا يستطيع حتى امتطاء صهوة الحصان بسبب تدخينه المستمر للنارجيلة ، وتستسلم ديريك للأمر الواقع وتقوم بخلع ملابسها ، وكان هذا كافيا لاستثارته ، ويقوم الشيخ بدهن جسمها كله بمزيج من الحليب والعسل وتستسلم له مغمضة جفنيها ومتوقعة لمساته الحانية ولكن الشيخ الذي كان قد غلبه النعاس يفقد قوته ، ولا يعود قادرا على القيام بالمهمة الموعودة ، وتنخرط ديريك في البكاء ، فأنين اللذة الذي كانت تتوق الى أن يصدر منها لم يتحقق منه شيء ، ولا تلبث أن تصرخ قائلة : « هؤلاء الشيوخ لماذا يتظاهرون بما ليس فيهم ولماذا يكذبون » ؟

ويمضي الفيلم في سرد الأحداث فيرينا كيف يقوم الشيخ بمرافقة عدد من أتباعه بثيابهم السوداء باختطاف (بو) من بيت عشيقها الأسباني .. وتسألهم بو مستغربة : « لماذا تفعلون ذلك بي » ؟ ويجيبها الشيخ : « إذا كنت مازلت عذراء فسأقوم أنا بفض بكارتك » ..

وتجيبه بو : « ولكنني لم أعد عذراء الآن » .

ويجيبها الشيخ : « هذا يحزنني .. ولكن الأمر سيان » ويمضي في اصراره على طلبه قائلا : « أريدك أن تعيشي معي الى الأبد ، انني أخطفك الآن كما خطف أبي أمي من قبل » .

● جولدي هون ، الفتاة الأمريكية تحاول التأقلم مع حياة الصحراء والسيطرة على أحد جمالها في فيلم بروتوكول .

فالعرب على الشاشة الأمريكية يقومون بخطف نسائهم سواء كن راضيات أو كارهات .

وفي فيلم الدفاع الأفضل الذي ظهر عام ١٩٨٤ ، نرى كيف يقوم الجيش العراقي بمهاجمة الكويت ، إن أي شخص يعرف ولو قدرا ضئيلا من المعلومات عن الوطن العربي لا يمكن أن يظهر القوات العراقية وهي تصب حممها على الكويت ، فالكويت والعراق قطران عربيان جاران ، كما أن الكويت لم تطلب أبدا مساعدة القوات الأمريكية لمواجهة قوات عربية حليفة .

وعلى كل حال فالفيلم يرينا « ادي مورفي » الذي يمثل دور ضابط في الجيش الأمريكي المرابط في الكويت ، وهو يقوم بتشكيل وتدريب الجنود الكويتيين (الأغبياء والجبناء) الذين اسندت أدوارهم الى ممثلين اسرائيليين ليجعل منهم رجالا يصلحون للقتال ، ويرينا الفيلم كذلك الضابط الأمريكي وهو يشكو من كثرة روث الجمال ونسمع تبجحا وكبرياء كذلك الذي سمعناه في فيلم (لورنس العرب) .

ويظهر لنا هذا الفيلم النساء الكويتيات والنساء العراقيات على شكل قطعان من الحريم ، أو هن ارهابيات محجبات ، يقمن بمهاجمة الدبابات الأمريكية . . . ويظهر لنا مورفي وهو يمارس الجنس معهن ثم يقول ساخرا : أشكركن على حسن هزكن لبطونكن !!!! هكذا يصور الفيلم النساء العربيات .

أما فيلم (الدفاع الأفضل) الذي جرى تصويره في « اسرائيل » فيمكن تلخيص محتواه في بضع كلمات ، فعندما يقوم أطفال الكويت بالقاء الحجارة على دبابة ميرفي يصرخ بهم قائلا : حسنا أيتها الحيوانات القارضة . . سوف تموتون الآن ، ثم يطلق الرصاص عليهم وتمضي أحداث الفيلم الى أن يرينا ميرفي وهو يقود الكويتيين أثناء المعركة ، ولا يلبث أن يصرخ بهم ، والآن اخرجوا سجاداتكم للصلاة ، وعندما تهاجمه امرأة متحجبة فتقذفه بقنبلة مولوتوف يصرخ بها « أيتها الكلبة الصحراوية » .

إن فيلم (الدفاع الأفضل) مبني على معلومات وردت في كتاب ألفه (روبرت جروسباك) عام ١٩٧٥ عن تورط الولايات المتحدة في الحرب الفيتنامية وعنوانه : طرق سهلة وصعبة للخروج

فلماذا يعمد المخرج الى تغيير صلب الموضوع ويحول الأحداث من فيتنام الى الكويت ؟

والعربي ، في السينما الأمريكية عندما لا يكون عاملا على تشويه وتخريب السياسة الأمريكية ووسائل الاعلام الأمريكية نراه يصور على أنه انسان منحرف جنسياً ، ويقوم بقتل زملائه العرب ، ففي فيلم الصحراء (صحارى) الذي أنتج عام ١٩٨٤ وصور في « اسرائيل » نرى العرب على صورة قبائل همجية من البدو الرحل ، يلاحقون احدى (آلهات الجمال) الممثلة بروك شيلدز وبما أنها كانت احدى المشاركات في سباق السيارات الكبير الذي يجري في مراكش فنحن نراها دوما وكأنها تهرب من مطاردة العرب ، عديمي الأخلاق الذين يقتلون بعضهم البعض ، وكما سبق وشاهدنا العرب في فيلمي : (جوهرة النيل) و (بروتوكول) نراهم في هذا الفيلم أيضا جماعة من الشهوانيين الداعرين الذين يعتدون على النساء الغربيات ، ويسمع المشاهد من يصف العرب قائلا : « هؤلاء الأشرار جاءوا من الصحراء ليشتروا النساء بأموالهم » ، وتقوم جماعة منهم أخيراً باختطاف بروك شيلدز ، ويتقدم أحد الشيوخ الشباب مطالبا بها ، كما يقوم عم هذا الشاب بمحاولات عدة لاغتصابها ، وعندما تستعصي عليه يشتمها قائلا : « ياكافرة إنك شيطانة ذات عيون زرقاء » .

الملك فلافل !

وفي فيلم (سباق القذيفة الثاني) (من انتاج عام ١٩٨٤) نرى صورة العربي السخيف الذي يتصرف تصرفات منافية للعقل تتكرر لكي تثبت في أذهان جمهور المشاهدين ، نفس صورته في فيلم (سباق القذيفة الأول) الذي أنتج عام ١٩٨١ ، ففي الفيلم نرى في البداية الملك (فلافل) الذي يقوم بدوره الممثل ريكاردو مونتالبان وهو يقوم بتوبيخ ابنه (العبد بن فلافل - ويقوم بتمثيل دوره جيمي فار) ونفهم من سياق الكلام أن الابن قد خسر سباق (القذيفة الأول) ونسمع الأب يصرخ في وجه ابنه قائلا « يابن أبشع زوجاتي .. إليك الملايين فاذهب

● « الشيخ » العربي كما يبدو في فيلم البروتوكول - شخص شهواني ، غارق في الملذات

الى أمريكا ولتفز في سباق (القذيفة الثاني) .

ونفهم من سياق الفيلم أن العرب لا يملكون أية مهارة في ميكانيكا السيارات بحيث يستطيعون الفوز في سباقات السيارات ، ولذا فهم يحاولون الحصول على كل شيء بنقودهم ، فهي الشيء الوحيد الذي يمتلكونه بوفرة ، وبها يحاولون شراء الفوز في مسابقات السيارات ، وشراء النساء الغربيات أيضا . ولكنهم نادراً ما يستطيعون الحصول على مبتغاهم ، الصورة التي يحاول جيمي فار تثبيتها في الأذهان عن العربي ، هي الصورة الاسطورية عن « الشيخ الغبي » فنحن نسمع الشيخ يقول « لقد جاء الله إليّ في احدى الليالي وأمرني بتوزيع الثروة بين الناس فخذ هذه النقود واشتر لنفسك أحد مخازن الملابس » ويأخذ ابنه النقود ويبدأ يبعثرها في أرجاء الحجرة ، وكأنها من الأوراق النقدية المزيفة التي تستعمل في الألعاب ، وهو يغني احدى الأغاني الغربية ، ثم يقول لأبيه « لقد أحببت هذه الأغنية فاشتريت الشركة التي سجلتها .. كل ما دفعته هو (٤٨) مليون دولار .. إنها نقطة من بشر مليء بالمياه » .

ومع أن فيلم (سباق كانون بول الثاني) يخلو من

النساء العربيات إلا أن الفيلم يشوه سمعتهن ، فنحن نسمع ابن الشيخ يقول : « انني أفضل النساء الشقراوات على النساء ذوات الشوارب » . أما ذوق والده فهو أشد انحطاطا وأكثر حقارة ، فعندما يقوم سائق ابنه بتقبيل الملك من شفتيه يضحك الملك مسرورا منتشيا وهو يقول . . « ليت أمك تستطيع أن تقبلني بهذه الحرارة » .

النسر الحديدي

أما فيلم (النسر الحديدي) الذي أنتج عام ١٩٨٦ فقد جرى تصويره في«اسرائيل»أيضا ، وبلغ دخل شباك التذاكر (١٢) مليون دولار في خلال الاسبوعين الأولين من بدء عرضه ، فكان من الأفلام العشرة الاولى التي عرضت في ذلك العام ، منذ أن بدأ عرضه لأول مرة في السابع عشر من يناير عام ١٩٨٦ ، فقد كان عملا ناجحا على المستوى الشعبي ، وان لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للنقاد . وفي هذا الصدد يقول مخرج الفيلم (سيدني ج . فيوري) : حالما تظهر الطائرات الأميركية في الجو ، يبدأ الجمهور بالهتاف . ويتكهرب الجو .

ولكن الأمر الذي لم يذكره فيوري هو أن فيلم (النسر الحديدي) يعمل على زيادة مشاعر الخوف والكراهية للعرب .

في هذا الفيلم يرى المشاهدون طائرتين مقاتلتين أمريكيتين تسقطان فوق أرض متنازع عليها على حدود احدى الدول العربية الوهمية (الكرم) . ويستغل الديكتاتور العربي هذا الحادث ليحاول ارغام الولايات المتحدة الأميركية على رفع الحظر التجاري المفروض على بلاده .

وتجري محاكمة الطيار الأميركي ويحكم عليه بالاعدام شنقا .

ثم نسمع من يقول لابن الطيار الأسير هامسا . . إن بعض البلاد تلعب الكرة بطريقة تختلف عن طريقتنا ، ثم نسمع عسكريا أميركيا متقاعدا (الكولونيل) لويز جوسيت وهو يقول هامسا : « في هذه اللحظة مازالت الكرة في أيديهم ، وفوزنا أي الأميركيين ليس مضمونا على أولاد الزنا هؤلاء . فهم يقطنون في بلاد صغيرة كريهة على نفوسنا ، ويمضي الفيلم على هذا النسق من الحديث ، وفي كل مرة يرد فيها ذكر العرب . . يوصفون بأبناء الزنا ويمضي جوسيت في حديثه قائلا : إن ما يشعرني بالتقزز والقرف هو تصوري هؤلاء المهووسين (يعني العرب) وهم يتناولون طعامهم مع الرجال الطيبين (يعني الأسرى الأميركيين) .

ويرينا الفيلم كيف كان دوج يرافق الكولونيل في جولة باحدى الطائرات فوق تلك البلاد الغريبة . . وعندما رأوا الأغنام والرعاة . . يصرخ الكولونيل . . ها هو شاطىء بلاد الأعداء .

ثم يضيف : « زالآن دعنا نرى كيف يكون شعورهم عندما يجدون أنفسهم وقد فقدوا ما قيمته (١٠٠) بليون دولار من النفط ، أظنهم سوف يضطرون الى استيراد النفط في هذا العام » .

والذي يقوم بدور الوغد في فيلم (النسر الحديدي) هو القائد العسكري العربي الذي يقع الكولونيل أسيرا في قبضته . . فنراه يخاطبه قائلا : « إنني معجب بقدرتك على تحمل الألم ، وأنا أتطلع لاكتشاف قدرتك على مواجهة الموت » . ونرى عملية تعذيب الكولونيل على أنغام أغنية تقول كلماتها . . الـ . . لن تقع في الأسر بعد الآن .

إن فيلم (النسر الحديدي) يدعم الصورة الذهنية للعربي المتوحش كما تظهرها الأفلام الأميركية . . العربي الذي يكره الأميركيين ، ويعمل على تعميق وترسيخ جذور الكراهية للعرب التي كانت مقصورة على البعض ، فيعمل على نشرها بين أفراد الشعب الأميركي كله ، والى تعميم هذه الكراهية على كل العرب .

الرسالة التي يريد فيلم (النسر الحديدي) إبلاغها للأميركيين هي : الأميركيون قادرون على مهاجمة البلاد العربية ويجب عليهم القيام بهذه المهمة لأن العرب يقتلون الأميركيين ويرفسونهم بأرجلهم حيثما يجدونهم ، هذا النوع من الأفلام يعمل على التمهيد لتقبل الشعب الأميركي للاستعدادات العسكرية لمحاربة هؤلاء العرب . □

قصة

الجواد والموت*

ترجمة : محمد الظاهر

لم أكن أحب الاستماع إلى حكاياته ، لا لأن تلك الحكايات لاتستحق الاستماع إليها ، لكن لأنني كنت أشعر في كثير من الأحيان أن هذه الحكايات نوع من العبث الذي لاطائل منه .

كنت أقف والقدح في يدي ، وحين انتهى من إحدى حكاياته وجدت نفسي أضحك مع الآخرين ، ووجدت رب البيت يضحك معنا ، أما جان مارك ، فقد سعل ، ونظر تجاهنا ليتأكد من حسن استماعنا له ، وقال :

سأحكي لكم حكاية واقعية ، واقعية جدا ، أظنكم تعتقدون أنني كنت فيما مضى برجوازيا من أصحاب الكروش ، ولكن هذا محض اعتقاد ، فأنا لم أكن أرغب في العمل في بيع العقارات ، وإنما كان تفكيري منصبا على دراسة الهندسة المعمارية . وكان أصدقائي يتهمونني بأنني رجل خيالي في هذا الأمر ، ولكن لابأس ، فالخيال شيء مثير ويدل على التفكير الراقي الرفيع .

في ذلك اليوم ، أو بتعبير أدق ، في تلك الليلة كنا في حانة بلازوك ، ستة رجال يشربون وينشدون ما يحفظون من أغنيات ، لاشك أنكم تعرفون تلك الحانة الواقعة في شارع أرتس ، الحانة التي ينساب نبيذها في الحلق كالزيت .

كان الوقت منتصف الليل ، حين تركنا الشراب وخرجنا من الحانة ، ولم يكن هناك مانفعله ، لذلك ما أن لمحنا أحد الجياد ، موثوقا إلى جذع شجرة حتى سارعنا بحل وثاقه ، وأحسسنا أن ذلك الجواد ، كان ينتظر هذا الأمر منا ، فقد سار معنا دون ممانعة ، وقابل تصرفنا بشكل طبيعي ، وتركنا نمتطي ظهره الواحد بعد الآخر ، دون جموح ، أو قيام بأية حركة غريبة ، وقد حاولت الانتحاء به بعيدا عن موقعه لكنه ما أن سار مسافة قصيرة لاتتجاوز عدة أمتار حتى توقف ، ولم يعد قادرا على السير ، وحين تركته مضى في حاله سبيله ، أخذ يسير ببطء كأنه يريد أن ينام .

هذا الوضع ، جعل الملل يتسرب إلى نفوسنا ، ولم ندر ماذا نفعل . لكن الشيء الوحيد الذي لم نفكر فيه ، هو إعادة الجواد إلى مكانه .

فجأة طرأت ببالي فكرة . هل تعرفون شارع هيوسمانس ، أكثر شوارع باريس قذارة ، الشارع الذي بنيت منازله على طراز بيوت البرجوازيين ؟

حسنا ، إنه مكان موحش ، يشعر الإنسان بالضيق والملل والاكتئاب ، لا أكن لذلك الشارع الرصاصي ، سوى الكره الشديد ، لأنه شارع

---

* صاحب هذه القصة ، هو صاحب أشهر رواية عن المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي ، إذ تعد رواية « صمت البحر » التي وزعت كمنشور سري أثناء المقاومة من كلاسيكيات الرواية الفرنسية الحديثة .

ومع أن الاسم الحقيقي مازال مجهولا ، ويتعامل الناس مع ابداعه من خلال الاسم الحركي الذي أطلقه على نفسه ، إلا أن الدراسات التي أجريت حول هذا الكتاب تشير إلى أنه كان فنانا تشكيليا وأنه لم يمارس العمل الكتابي إلا أثناء المقاومة . لكن أعماله الابداعية في ميدان الكتابة ، تعتبر من أرقى الابداعات العالمية في مجال أدب الحرب والمقاومة .

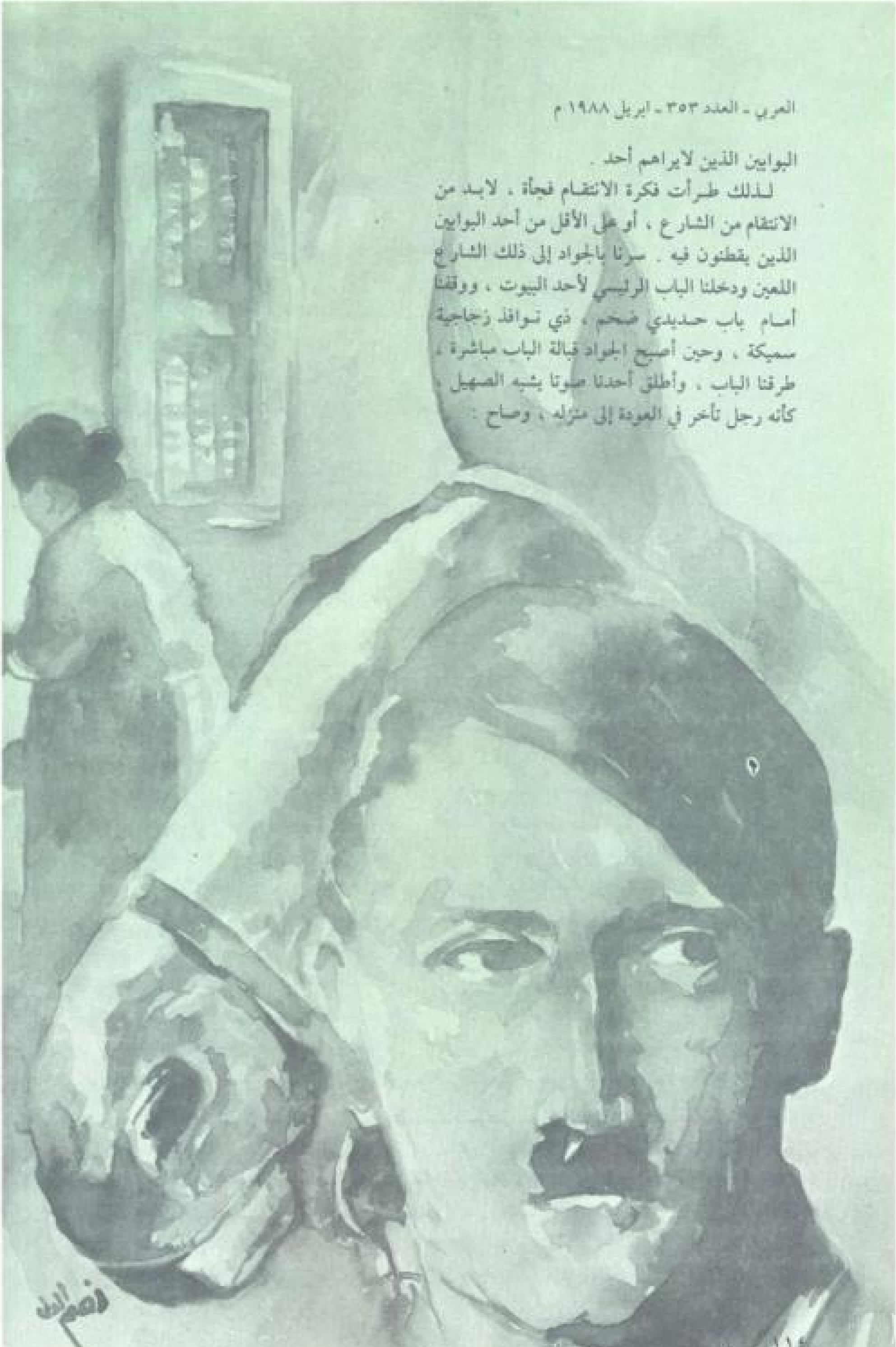

العربي ـ العدد ٣٥٣ ـ ابريل ١٩٨٨ م

البوابين الذين لايراهم أحد .

لـذلك طـرأت فكرة الانتقام فجأة ، لابـد من الانتقام من الشارع ، أو على الأقل من أحد البوابين الذين يقطنون فيه . سرنا بالجواد إلى ذلك الشارع اللعين ودخلنا الباب الرئيسي لأحد البيوت ، ووقفنا أمام باب حديدي ضخم ، ذي نوافذ زجاجية سميكة ، وحين أصبح الجواد قبالة الباب مباشرة ، طرقنا الباب ، وأطلق أحدنا صوتا يشبه الصهيل ، كأنه رجل تأخر في العودة إلى منزله ، وصاح :

ـ جواد

ـ جواد

هربنا وتركنا الجواد بالباب ، دون أن ندري ماذا حدث بعد ذلك .

وأضاف :

ليس في الحكاية ما يثير ، لكن لابد للتخيل أن يأخذ مداه ، تصوروا : جواد يقف وحده عند مدخل العمارة ، البواب غير موجود في العمارة وساكن العمارة جواد ! وتخيلوا معي عندما ينظر البواب من ثقب الباب فيرى أمامه جوادا .

كلما تذكرت تلك الواقعة التي وقعت منذ مايزيد على عشرين عاما ، شعرت برغبة جامحة في الضحك .

عندئذ ، وضع رب البيت الكأس على المائدة وقال : أما أنا فسأحكي حكاية في غاية الجمال عن هتلر . وقد برقت تلك الحكاية في ذاكرتي كما يلمع البرق ، ونزلت نزول الصاعقة ، لأنها شبيهة بتلك الحكاية التي سمعناها قبل قليل ، إنها قصة واقعية أيضا ، وإذا لم تكن كذلك ، فأنا أؤمن بواقعيتها وصحتها ، لأنها تختلف عن كل القصص . فهي بلا نهاية .

بالطبع أنتم لا تعلمون ، أن هتلر حين وصل إلى باريس عام ١٩٤١ ، كانت الساعة تدق معلنة الخامسة صباحا ، وأنتم لا تعلمون أيضا ، ولا حتى باريس التي كانت نائمة في ذلك الوقت ، أن هتلر قد طلب التجول في شوارعها ، وأنه أطل عليها بهيئته المخيفة من شرفة شيلوت بالأس ، التي تشرف على العاصمة . لقد طلب هتلر في تلك الساعة زيارة دار الأوبرا ، وكانت الساعة السادسة صباحا عندما وصل إلى هناك ، وقد جلس وحيدا في المقصورة الخاصة برئيس الجمهورية . هل يعني لكم هذا شيئا ؟ هل يمكنكم تصور هذا المخلوق يجلس وحيدا في قاعة دار الأوبرا وفي ذلك الوقت ؟

كم أشعر بالغضب الجارف ، حين أتذكر ذلك ، حين أرى محتل باريس يجلس في تلك الصالة ، تحت ضوء الفجر المغبر .

لكن لا داعي لإكمال الحكاية ، لننتقل إلى حكاية أخرى ، فما أريد الحديث عنه شيء آخر ، فقد أراد الديكتاتور أن يزور ذلك المكان الذي كان يعيش فيه في باريس منذ عشرين عاما .

وحين يفشل مرافقوه في العثور على ذلك المكان نتيجة للتغيرات التالية التي حدثت خلال تلك السنوات،يحاول أن يهتدي إليه بنفسه حيث ينزل من سيارته محاطا بمساعديه ويقف أمام باب حديدي ضخم ، هتلر قبالة الباب والمساعدان يطرقان الباب بقوة .

أعتقد أن المرء لا يحتاج لخيال كبير ليتصور ما يجري ، تماما كما يمكن أن يحدث في قصة الجواد والباب . الفرق هو أن الشخص الذي سيفتح الباب هذه المرة ليس البواب بل امرأة مسنة . ومع توالي الطرقات على الباب ستلف المرأة عنقها بشالها اتقاء للبرد وتهرع إلى الباب ، وما أن تفتح المزلاق الضخم حتى ترى أمامها هتلر !!

هذه هي الحكاية باختصار ، حكاية مليئة بالدهشة والرعب ، هل يمكنكم تصور مدى الصرخة التي ستطلقها تلك المرأة حين تفاجأ بمن يطرق بابها ؟ وهل يمكنكم تصور وقع هذه المفاجأة عليها ؟

إن أي تعبير سوف يعجز عن الكشف عن كوامن نفس هذه المرأة التي ستسارع إلى إخفاء وجهها بيديها ، لأنها لا تستطيع أن ترى الشيطان بلحمه ودمه يقف قبالتها .

لو كان الطارق ألمانيا ، أي ألماني آخر ، فإن المرأة ستشعر بالخوف والرعب ، وربما تساءلت : ترى عمّ يبحثون ؟

ولو كان الطارق موسليني أو فرانكو ، فربما تعرفت عليهما منذ الوهلة الأولى ، ولما أطلقت مثل هذه الصرخة الدامية المدوية .

أما حين ترى هتلر أمامها ، فإنها لن ترى سوى كائن الموت ، ذلك الكائن الذي يحمل آلة القتل في يد ، والكفن باليد الأخرى ، يبتسم بلا شفاه ، ابتسامة بلهاء مشؤومة .

أجل ، لن ترى سوى الموت مجسدا أمامها . □

منتدى العربي

قضية

قراءة في فكر مالك بن نبي :

الأفكار الميتة والأفكار القاتلة !

بقلم : الدكتور علي القريشي*

ليس كل ما في التراث العربي الاسلامي صالحا لزماننا ، وليس كل ما جاءت به الحضارة الغربية صالحا لبيئتنا ، ما الذي يصلح منهما اذن ؟ وما المعيار في الاختيار ؟

في سياق التفكير بإحداث التغيير الاجتماعي ، هناك استقطاب متنافر إزاء مسألة الموروث والمستحدث ، أدى الى حالات من الاضطراب والخلل في عالم الأفكار ، انعكس بدوره اضطرابا في عالم السلوك . فبدلا من تكامل الاصالة بالاقتباس في شكل ايجابي وصحي خلاق ، وفي اطار يخدم حركة التغيير الاجتماعي في حياة الانسان العربي والمسلم ، فقد حدث انشطار يمثله اتجاهان : الاول يهدف الى الحفاظ على الافكار القديمة حتى وان كانت « ميتة » والثاني يسعى الى استنبات الأفكار المستجلبة ، حتى وان كانت « قاتلة » .

تلك هي ظاهرة « الافكار الميتة والافكار القاتلة » التي نبه اليها وعالجها المفكر الجزائري الكبير « مالك بن نبي » (١٩٠٥ - ١٩٧٣ م) منذ وقت مبكر .

فالفكرة الميتة - كما يتصورها - : هي فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن أنموذجها المثالي ، ولم تعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي . فالفكرة التي عرفتها الحضارة الاسلامية وهي ذاتيا صحيحة وفي اطارها

* كاتب من القطر العربي المصري .

التاريخي صالحة تغدو في اطار مجتمع لا يستوعبها فكرة فاقدة للتوازن ، وبالتالي فإن ممارستها في غير مناخها المناسب ستحولها الى فكرة ميتة .

تباين الأفكار

ان الفكرة الواحدة قد تباين فعاليتها الاجتماعية في المجتمع الواحد ، عبر ظرفين مختلفين . ففكرة التقدم « مثلا كما يشير ابن نبي كان لها دور مؤثر في ثقافة المجتمع الاوروبي لكونها مؤيدة بالنظرية الوضعية « لأوجست كونت » وبنظرية التطور « لدارون » ، لكنها أصيبت بصدمة في القرن العشرين ، لأن إشعاعها فقد فاعليته الاجتماعية ، ولم يعد له بالتالي أثر فعال » .

اذن فالافكار كما تقاس ذاتيا ، تقاس موضوعيا . والبرجماتيون حين يرون أن الفكرة ليست صادقة إلا عند اختبارها والوقوف على نتائجها التي تُلاحظ موضوعيا ، فإن « ابن نبي » يلتقي معهم في القيمة الموضوعية للفكرة ، ويقرر بأن الفكرة الفعالة ليست بالضرورة صادقة ذاتيا ، لأن « صدق الفكرة أو بطلانها يتجلى في مجال العقيدة والمنطق والعلم والاجتماع ، ولكن تاريخها ، لا يتوقف على خصائصها الذاتية ، وانما يتوقف على التحريك وعلى سلطانها في قلب العالم الثقافي » .

إن ظاهرة الافكار الميتة وما تلعبه من دور سلبي يتطلب ـ كما يقول « ابن نبي » ـ (أن تُواجه بنقل فكر باستير وأساليبه العلمية الى المجال التربوي لاكتشاف موطن الظاهرة المرضية في الثقافة الحديثة للعالم الاسلامي . وإلا فإن الافكار الميتة ستواصل عملها في المجال الاجتماعي والسياسي) . وهذه هي المشكلة البارزة التي تعاني منها حركات التغير السلفية التي يحاول بعضها تجزئة الامور (رؤية الجزء خارج إطاره البنيوي) والنظر للقضايا بشكل ذري دون نظرة موضوعية شاملة .

وبالمقابل تطرح قضية الاقتباس عن الغرب كرد فعل ، أو كمحاولة لـ (إحياء العالم الثقافي المشحون بالافكار الميتة بالاستعانة بأفكار قاتلة مقتبسة من حضارة اخرى . فهذه الأفكار حين تكون قاتلة وهي في موطنها الأصلي ، تصبح أشد قدرة على القتل عندما تنسلخ عن هذا المحيط . فهي تترك مع الجذور التي لا تستطيع حملها وتقلها مضادات السميات التي كانت تخفف من شدة ضررها في موطنها الاصلي .

وعلى هذا النحو يقتبس المجتمع الاسلامي المعاصر الافكار الحديثة من الحضارة الغربية) . فمثلا الفكرة الغربية القائلة ان « كل انسان لنفسه والله للجميع » إذا ما استعارها المجتمع الاسلامي ـ كما يقول ابن نبي ـ فستكون غير صالحة ، فاذا كان المجتمع الغربي قد درأ خطرها بقيم أخرى فإن نقلها العقلي والسلوكي للمجتمع المسلم ، يصبح مضرا للتربية الاجتماعية لأن نقل هذه الفكرة معناه أن تحل محل فكرة التكافل : « الفرد للمجتمع والمجموع للفرد » .

فمشكلة النقل القاتل إذن ، وهي المشكلة البارزة التي تعاني منها حركات التغيير التغريبية ، ليست راجعة للثقافة المُقتَبس عنها إذ (ليس مضمون الثقافة الغربية هو الذي يحدد طريقة الاختيار ، وإنما ضمير « عصر ما بعد التحضر » هو الذي يحدد طريقة الصفوة في الاختيار الارادي أو اللا إرادي)

درس من الفارابي

إن الفارابي وهو ينقل فلسفة « ارسطو » المادية عمل في الوقت نفسه على تكييفها إسلاميا و « توماس الاكويني » كان ينزع المضمون الاسلامي لفلسفة ارسطو ويطوعها لمجتمعه المسيحي . فكلا العالِمَين كان عندهما وضوح في الرؤيا ، وهو ما يفقده المثقف العربي المتغرّب . واشكالية ذلك ترجع برأي « ابن نبي » الى سببين :

الاول : منطقي يتصل بالحضارة المُقتَبس عنها ، فالعناصر التي تَسِم الثقافات المختلفة ليست كلها

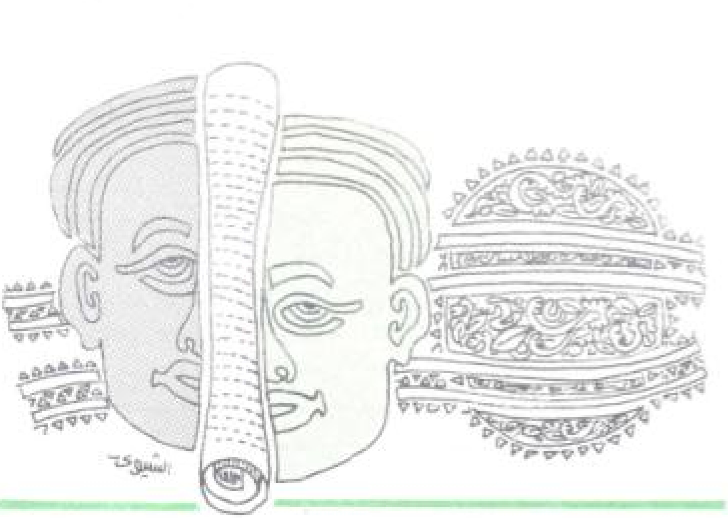

قابلة للتداول ، فالحياة الاجتماعية بطبيعتها محكومة بقوانين خاصة بها ، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية .

الثاني : نفسي تربوي يتصل بالمقتبس نفسه اي استعداداته وتكوينه . فالمجتمع الناشيء لا يمكنه تمثل العناصر الثقافية الجديدة التي يقتبسها بصورة صحيحة الا بتوافر شرط الحاجة الملحة أو الامر العلوي . والمجتمع العربي لم يقدر في اقتباساته هذين الشرطين ، حيث اقتبس من الغرب دون أدنى مقياس او نقد . من جهة اخرى هناك عملية الخلط بين صدق الافكار وفاعليتها ؛ لقد رجحت أوروبا قيمة الفعالية على قيمة الصدق والاصالة في نظامها الاستعماري ، وأصبح عالمها الثقافي ذا وجهين :

وجه يتجه اليها مع اخلاقياتها الخاصة ، ووجه ينظر الى الدنيا ولا يعنى بشيء آخر سوى الفعالية ، واما الصفوة المسلمة التي تربت في الجامعات الاوروبية فلم تكن ترى الا وجها واحداً ، اذ ووري عنها الوجه الآخر .. فأصبح في تكوينها التربوي خلط بين مظهرين متمايزين للفكرة الواحدة : صدقها وفعاليتها ، اذ يعتبر هذا اللبس المفروش في اعماق نفسية هذه الصفوة هو النواة التي تدور حولها جميع دسائس الصراع الفكري ومناوراته » أي إن التكوين النفسي والتربوي الذي لم يميز بين فعالية بلا اخلاق وبين فعالية محصنة بأخلاق هو الذي يؤدي الى حالات التهيؤ للانحراف بما يساعد المستعمر ودوائره إبان مراحل الصراع على إحداث التغيرات التي يبتغيها .

صور ناقصة

إن الافكار القاتلة في الثقافة الغربية ، هي الافرازات التي تمثل في هذه الثقافة « جانبها الميت » الجانب الذي يتصه فكر « ما بعد الموحدين »* « في جامعات العواصم الغربية » وهذه الافكار وهي

* « عصر ما بعد الموحدين » مصطلح نحته ابن نبي للتعبير عن مرحلتنا الحضارية التي اعتبرها المرحلة الثالثة (الانحطاط) في دورة الحضارة الاسلامية ، كما يتصورها هو .

تلعب دورها المعيق في عملية النهضة والتغيير. تعبر عن مشكلة تربوية مردها أن «موقفنا من مشكلة الثقافة ليس صحيحا لا من الناحية الفكرية ولا من الناحية الاجتماعية»، وهو موقف تعكسه - كما يذكر ابن نبي - صورتان :

الأولى : صورة السائح المهتم بالجانب التافه من الحياة الغربية . والذي يتلمسه في مقهى أو مرقص أو نحو ذلك من الأمكنة التي تتحلل فيها الحضارة وتنتهي فيها الى مخلفاتها القاتلة .

الثانية : صورة الطالب المبعوث الذي ينغمس في الجانب النظري والتجريدي من هذه الحضارة، متكئا على كتاب هنا أو عاكفا في مكتبة ، أو مرابطا في كلية هناك ، أي في الامكنة التي تتقطر فيها الحياة الغربية الى خلاصتها العلمية ، ومع عناصرها القاتلة والمقتولة أحيانا اخرى .

لقد كان لظاهرتي الأفكار الميتة والأفكار القاتلة في حياة المجتمعات العربية والاسلامية أدوارها المعطلة وآثارها السلبية الخطيرة على النمو المعنوي والمادي ، وهو ما نلمسه - كما يدلل ابن نبي - «بمقارنتنا لتجربتي المجتمعين الياباني والاسلامي اللذين دخلا المدرسة الغربية في نفس الوقت تقريبا - حوالي سنة (١٨٦٠ م) - ، ولكن الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي أن النتيجة اختلفت تماما ، فإننا نجد بعد قرن ، معجزة اليابان في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد . في حين نجد في المجتمع الاسلامي دون ريب مجهوداً لا ينكر فيما نسميه «النهضة» ولكنه مجهود تشله «الافكار الميتة» الموروثة من «عهد ما بعد الموحدين» .. فمعجزة اليابان لا تفسر قطعاً إلا بموقف فيه «فعالية» اكثر اتخذته اليابان من الثقافة الغربية ، لانه تخلص من الافكار الميتة الموروثة من عهد «الشوغون» ، ولا يمكننا على أي حال أن نقول بأن الاستعمار أعطى للنخبة اليابانية أفكارا مثمرة خلاقة ، وأنه على العكس يعطي الـ ٩٠ ٪ من النخبة المسلمة «الأفكار القاتلة» والعقيمة . وعليه فالواضح ان القضية لا تعود الى طبيعة الثقافة الغربية بقدر ما تعود الى طبيعة صلتنا بها . وهذه الصلة يحددها تراثنا الاجتماعي الذي لم نتخلص بعد من تأثيره .

أساس النهضة

وبناء عليه - يضيف «ابن نبي» - «فإن تصفية الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميتة يعتبران الأساس لأي نهضة حقة» . وهذا يقتضي التمييز بين «صحة» الفكرة و «صلاحيتها» أي أن «كل ما يناط بمفهوم التغيير ، يجب أن نتوخى فيه أمراً ، ألا وهو أن كل فكرة لها جانبان : جانب الصحة وجانب الصلاحية» . فقد تكون فكرة ما صالحة ولكنها في الوقت نفسه غير صحيحة ، وقد تكون فكرة ما صحيحة ولكنها في الوقت نفسه غير صالحة .

مما تقدم يخرج «ابن نبي» باقتضاء التمييز بين الأفكار وتفحصها حين تثار قضية التراث والاقتباس . ففكرة في التراث قد تكون صالحة في حينها ، لكن نقلها في وسط غير مؤهل لاستيعابها قد يكون له مردود سلبي ، أي ان الفكرة التي كانت لها قيمتها الايجابية في السلوك في الماضي ، قد تصبح عديمة الجدوى (ميتة) في الحاضر . كما أن الفكرة التي قد تناسب احد المجتمعات قد تصبح مضرة (قاتلة) في غير مجتمعها . بل ان الفكرة في المجتمع الواحد قد تفقد مدعماتها الظرفية ، وبالتالي تفقد فاعليتها الاجتماعية .

من هنا لا بد للعالم الاسلامي ، وهو يعالج مسألة العودة إلى التراث ، ومسألة الاقتباس عن الآخرين أن ينتبه الى ظاهرتي : الافكار الميتة ، والافكار القاتلة . فيتعامل مع التراث الحي دون الميت ، ومع المقتبس المثرى دون القاتل ، واعيا التفرقة بين صحة الفكرة وصلاحيتها ، وهو يخوض عملية التغيير الاجتماعية . □

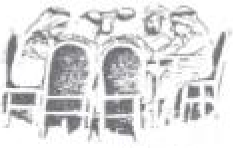

منتدى العربي

تعقيب

على مقال :

أرقام الحسَابِ .. عربية أم هندية ؟

لدى اطلاعي على مقال « أرقام الحساب عربية أم هنديه » للدكتور - سعيد النجار والذي نشرته العربي في العدد ٣٤٥ ، وجدت انه يحتوي على بعض التناقضات والاخطاء .

وارجو ان تتسع صدوركم وصدر الدكتور بالتعليق السريع على ماجاء في المقال .

نظام العد الحالى الذى يستخدم في معظم انحاء العالم يسمى بالنظام العربي الهندى ، ورموزه العشرة تأخذ الصورتين المعروفتين .

(أ) الصورة الاولى ٥٤٣٢١ .. وهى تستخدم في الشرق العربي ، ويعتقد انها من اصل هندى . وقد نقلها العرب من خلال ترجمتهم بناء على امر الخليفه المنصور لكتاب (السدهانت) ، وكان اكبر موسوعة هندية في الفلك والرياضيات (وكان العرب يسمونها السند هند للتسهل) وقد حملها الى بغداد عالم هندى يدعى (كانكاه) ، وقام بترجمتها الى العربية يعقوب ابن طارق المتوفي سنة ٧٩٦م ، وابراهيم الفزاوى المتوفى في عام ٧٧٧ م .

ب - الصورة الاخرى . وهى الصورة المعدلة ٥٤٣٢١ ......

وهذه الرموز التى تستخدم حاليا في المغرب العربي .

وقد نقلت هذه الرموز الى اوروبا عن طريقة كتاب للخوارزمى ، وقد ترجم كتاب الخوارزمى الى اللاتينية بواسطة اديلارد عام ١١٢٠ م ، ولكن هذه الرموز كانت قد وصلت قبل ذلك بواسطة المسافرين والتجار العرب الى الاندلس .

وأعتقد انا شخصيا ان حسم هذه المسألة في الاختلاف بقول ابو الريحان البيرونى وهو من مشاهير الرياضيين العرب في القرن الحادى عشر الميلادى ، وذلك في الكتاب السابق ذكره ، ص٤٣ فقد ذكر ابو الريحان البيرونى ان صور الحروف وارقام الحساب تختلف في - الهند - باختلاف المحلات ، وان العرب اخذوا احسن ما عندهم فهذبوا بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين عرفت احداها بالارقام الهندية ، وهى التي تستعملها بلادنا واكثر الاقطار الاسلامية والعربية ، وعرفت الثانية بالارقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والاندلس ، وعن طريقها دخلت الى اوروبا باسم الارقام العربية .

وعلى هذا ، فكلا الصورتين الهندية وهى المشرقية ، والغبارية وهى المغربية ، ما هى الا ابتكارات عربية كما استنتج الدكتور سعيد في المقال ص ١١٨ حيث يقول (والنتيجة التى نخرج بها من دراسة هذه الحقائق تظهر لنا ان هذه الاشكال التى اوجدها العرب في السلسلتين المستعملتين في الوقت الحاضر ما هى الا ابتكارات عربية) . □

السيد يوسف عبدالحميد

قاسم أمين

أديبا

بقلم : الدكتور عزت قرني*

لم يسمع القارىء بأن للمفكر المصري المشهور قاسم أمين صاحب «تحرير المرأة»، و «المرأة الجديدة» قصصا أو شعرا أو مسرحيات، ففيم نسبة الأدب له ؟

الحق أننا لانقصد من وراء هذا العنوان أن قاسم أمين كان أديبا، بل نقصد أن ننظر إلى إنتاجه لنستجلي معالم وإشارات لعلها تقربه قليلا أو كثيرا إلى باب الأدب، وتظهر عنده شيئا أو أشياء تدخل في صنعة الأديب. إن القصد من هذا العنوان ليس تقريريا، بل استفهاميا، أو قل هو تخيلي، فماذا لو قرأنا لقاسم أمين وكأنه أديب ؟ألا نقرأ للجاحظ وكأنه لغوي أو مؤرخ ؟ بل قد ترتفع درجة أخرى لنبحث عن كتابات لقاسم أمين تدخل صراحة وقصدا في دنيا الأدب، وليس بحثا عن معالم أو إشارات تقربه منها.

فما تبرير هذا كله ؟ إنه ليس مجرد طرافة هذا الضرب من البحث الذي يمكن أن نطبقه على من كانت حرفته السياسة أو الطب أو الفلسفة أو غيرها مما لايدخل في نطاق الادب، بل هو أن قاسم أمين وأمثاله من مؤسسي ثقافتنا الحديثة وضعوا البذور

* رئيس قسم الفلسفة ـ كلية الآداب بجامعة عين شمس ـ معار حالياً لجامعة الكويت.

وأقاموا بعض الدعائم ، ليس في الميدان الذي خصصوا له انتباههم ، أو على الأدق جل انتباههم ، بل وفي سائر الميادين بدرجات متفاوتة ، لأن الثقافة كل واحد يتأثر فيه كل جانب بشتى الجوانب ، وبخاصة في مراحل التكوين الأولى ، وعلى الأخص إذا كان قصد مفكر مثل قاسم أمين ليس أن يقترح تغييراً في ميدان محدود هو ميدان الأسرة ، بل أن يتقدم بمشروع شامل « لمدنية » أو « لتمدن » جديدين ، إذا استعرنا لفظين مما كان يستعمل . وهكذا فإن قاسم أمين مؤسس بالأصالة في ميدان الفكر الاجتماعي ، لكنه مؤسس بالاضافة في ميادين أخرى من التجديد الثقافي . وحديثنا هنا يختص بتوجهات جديدة ، بل بحساسية جديدة ، نستطيع أن نستشفها عنده وتتصل بدنيا الأدب ، وببعض من إنتاجه قد يدخل مباشرة في هذه الدنيا الجميلة .

الأدب وفن الكتابة

فما الأدب ؟ ومن الأديب ؟ ليس هذا مكان بحث نظري ، لا مطول ، ولا مختصر ، لننتهي إلى تعريف ، وإنما نقدم ونقول إن الأدب هو فن الكتابة على نحو خاص ، بغرض الإمتاع ، أما الأديب هو الذي يقوم على هذا الفن على نحو متصل ، يمتد طول حياته أو فترة طويلة منها ، ويظهر خلالها إنتاج له نو امتداد .

فليس من أطلق مثلا حكيما بليغا واحدا بأديب ، ولامن قال بيتا من الشعر هو كبيضة الديك بأديب ولامن كتب يوما قصة في ثلاث صفحات . ومن هذه الزاوية فليس قاسم أمين بأديب ، على الرغم من وجود صفحات طوال تدخل صراحة ـ كما سنرى ـ في معنى الأدب ، ومع ذلك ومن حيث تعريفنا للأدب ، فإن هناك عناصر أدبية في إنتاج قاسم أمين ، أقلها كمّا هو ذلك الذي يدخل صراحة في قصد « الإمتاع » ، وأكثرها الذي يدخل بوضوح في باب « الكتابة على نحو خاص » ، نقصد الأسلوب الأدبي . بل ربما كان قاسم أمين يتوخى أحيانا كثيرة ـ وهو بسبيل الإخبار والتبليغ ـ أن يضع مايقول في قالب يتوخى منه الامتاع .

الثقافة نبت ، وقد تكون إعادة للإنبات في شجرة ذبلت ، أوزرعٌ جديدٌ في أرض مجربة ، لم يظهر قاسم أمين وكتاب جيله من أمثال مصطفى كامل وأحمد لطفي السيد وشوقي وحافظ من فراغ ، بل كانت أمامهم نماذج للكتابة الجديدة التي استحدثها محمد عبده وعبدالله النديم وأديب اسحق والشدياق وغيرهم من مصريين وشاميين ، وهذا جيل ، ومن قبلهم كان جيل رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وبطرس وسليم البستاني الذين بدءوا خط التجديد اللغوي والأدبي من أوله مع بعض غيرهم ممن هم أقل شهرة مع عظيم الفضل للجميع .

وربما استطعنا أن نقول عن نموذج أسلوب قاسم أمين أنه كان في نموذجين ، طريقة الشيخ محمد عبده الذي عرفه قاسم أمين أخص معرفة ، واستند إلى سلطته في تجديداته الفكرية ، وذلك من حيث الاهتمام بالمعنى في المحل الأول ، واختيار اللفظ المناسب له من غير الغريب ، والحرص على تسلسل الأفكار ، والعناية بالوضوح والقصد في الكلام ما أمكن ، وعدم اصطناع البحث عن المحسنات البلاغية بأنواعها ، مع الترحيب بها إن أتت بتلقائية دون تعمد أو عدوان على المعنى ، والتسلسل والوضوح والاقتصاد في القول . ولاشك أن اتصال قاسم أمين بالشيخ العظيم قد حدث بعد عودة محمد عبده من منفاه عام ١٨٨٨م ، وأن معرفته بكتاباته قد توثقت بعد ذلك التاريخ . لكن لاريب أن تلك المعرفة قد بدأت قبل ذلك بكثير ، حيث انتشرت كتابات محمد عبده منذ ١٨٨٠ م على الأخص ، وكان قد بدأ في النشر منذ ١٨٧٥م ، ونعرف أن قاسم أمين الذي ولد عام ١٨٦٣م كان في سن القراءة في ذلك الوقت ، بل إنه أنهى دراسة الحقوق في القاهرة عام ١٨٨١م ، وأرسل للدراسة العالية في فرنسا في نفس العام ، فلا بد أن يكون قد قرأ لمحمد عبده وأقرانه قبل سفره ، كان الشيخ فضلا عن ذلك أحد المقدمين في ميدان الكتابة أثناء حركة النهضة المصرية العظيمة في ذلك الوقت (١٨٧٨ ـ ١٨٨٢م ـ) .

الاسلوب والصياغة القانونية

أما النموذج الثاني لكتابة قاسم أمين فنظن أنه نموذج المختار من الكتابة الفرنسية الرفيعة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وذلك من حيث تفضيل العبارة القصيرة والبحث عن الرشاقة ، والحرص على التوازن بين الجمل ، وتقديس الوضوح الفرنسي الشهير الذي ورثه الفرنسيون عن إمامهم « ديكارت » ، وهو إمام في الفلسفة ، وإمام في أسلوب الكتابة وعرض الأفكار . وقد عرف قاسم أمين الأسلوب الفرنسي في القاهرة أولا ، أثناء دراسته بمدرسة الحقوق بها ، ثم عرفه قراءة وكتابة وحديثاً على السواء أثناء إقامته بفرنسا حيث درس في كلية الحقوق في جامعة « جريتوبل » في الجنوب الفرنسي ، مابين عامي ١٨٨١ م ، و ١٨٨٥م . ثم لم ينقطع عن الاتصال به بعد عودته ، حيث عين بالنيابة والقضاء ، وكانت لغة القانون هي الفرنسية بالأساس وبالمرجع ، حيث كتب قاسم أمين كتابا كاملا بالفرنسية ردا على افتراءات أحد الكتاب الفرنسيين على الاسلام والمصريين ، عنوانه « المصريون » (ويستحق أن يسمى « دفاعا عن الاسلام والمصريين ») . ولايفوتنا أن نشير إلى التأثير المؤكد للغة الصياغة القانونية على أسلوب قاسم أمين ، من حيث الدقة والترتيب على الأخص .

هذه الخصائص الأسلوبية لنموذج الشيخ محمد عبده ونموذج البلاغة الفرنسية ، هي نفسها الخصائص التي اجتهد قاسم أمين على أن تكون طابع كتابته لمجابهة من ؟ هنا نصل إلى إدراك أمر ذي أهمية طريف ، وذلك أن نفس الخصم الذي سيعارضه « فكر » قاسم أمين هو الذي سيعارضه « أسلوبه » ، ألا وهو النموذج المتجمد الذي نام عليه التمدن الاسلامي خلال المئات الست السابقة ، سواء كان في نظم السياسة والاجتماع أو في أساليب التعبير والقيم الجمالية على السواء . وهكذا فإذا كان فكر قاسم أمين ثورة على ماض ، رأى أنه لاحياة للأمة إلا بنقضه ، فإن أسلوبه أيضا رفض للأسلوب الذي استقر عليه تراث هذا الماضي الذي تجمد مثل تجمده . إن أسلوب قاسم أمين يماشي فكر قاسم أمين. و فيم سيكون الفرق إذن بين طريقته في الكتابة وطريقة محمد عبده ؟ ربما جمعنا القول عن هذا الموضوع ، الجدير بالتفصيل ، في عبارة واحدة هي أن محمد عبده درس على الطريقة البلاغية القديمة ، وثار عليها ، ودرس المصطلح القديم ، وانتقى منه ، وقدم الجديد ، فكان عنده الجديد أسلوبا ومضمونا واصطلاحا ، مع بقاء شيء بالضرورة من القديم. وهل ينسلخ المرء عن جلده انسلاخا تاما حتى إن أراد ؟ أما قاسم أمين فإنه لم يعان شيئا من معاناة الدراسة على القديم ، بل درس في المدارس « الأميرية » ، أي مدارس « الأمير » الجديدة التي أنشأها محمد علي في مواجهة الكتاتيب وطريقة التعليم الأزهرية ، ثم درس العربية فالفرنسية ، ثم وجد الطريق معبدا من خلال تجارب الجيلين السابقين عليه ، فكان التجديد الحق صفة أليق به وبجيله منها بجيل محمد عبده وأقرانه . ونستطيع أن نقول مطمئنين إن الاسلوب السائد اليوم في الكتابة العربية إنما هو الابن المباشر لما نشره أحمد لطفي السيد ، وما أسلوب أحمد لطفي السيد بل وما فكره ، إلا محتوى بجوهره وكثير من تفاصيله في أسلوب قاسم أمين وفكره ، مع ميل إلى استطالة الجملة عند الأول ، وقليل من التأثر المباشر بالنموذج الفرنسي ، وبخاصة من حيث الرشاقة والحرص على التوازن .

أسلوب علمي

إن السمة الكبرى لأسلوب قاسم أمين حين يكون بسبيل عرض أفكاره الاجتماعية هي أنه « أسلوب علمي » يسلك فيه سبيل الدقة والاقتصاد في التعبير ووضوحه . انظر إلى أول سطور كتابه الأول بالعربية « تحرير المرأة » : « كل مسألة من المسائل التي أجملتها في هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة ، وقد تعمدت الاختصار فيها ، حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها ، كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن إلى موضوع قل عدد المفكرين فيه . ويرى المطلع على ما أكتبه أني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في

وقت قريب ، لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال في شؤونها مما لايسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية ، وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم ، وتبدو ثمرته في أحوالها ، فهو ليس بالأمر البسيط ، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة ، تحصل بالتدريج في نفس كل واحد شيئا فشيئا ، ثم تسري من الأفراد إلى مجموع الأمة ، فيظهر التغير في حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة » (ص٢ ـ ٣ من طبعة ١٨٩٩م) .

وانظر إليه يلخص موقفه من الحجاب ويبرره : « إننا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية في جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد ، أو التعلق بالجديد لأنه جديد ، فإننا نتمسك بعوائدنا الإسلامية ، ونحترمها ، ونرى أنها مزاج الأمة ، تتماسك به أعضاؤها ، ولسنا ممن ينظر إليها نظره إلى الملابس ، يخلع ثوبا كل يوم ليلبس غيره ، وإنما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعي مدخلا عظيما في حياتنا المعيشية . لسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته ، وإنما نحن بصدد مابه قوام حياة المرأة ، أو مابه قوام حياتنا » (ص ٦٨) .

وانظر إليه على الأخص حين يريد أن يلخص كلامه عن الاستبداد ومضاره على الحضارة الإسلامية ، وذلك في كتابه الثاني « المرأة الجديدة » : « ليس هنا محل البحث عن الأسباب التي وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذي حرمها الترقي في المدنية ، وحصر حركاتها في مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها ، وإنما يهمنا هنا أن نثبت أمرا يتعلق بموضوعنا ، وهو وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد ، ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق ، حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس في البلاد التي تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا » (ص ١٦ من طبعة سنة ١٩٢٨م) .

في كل هذه الأمثلة نجد مصداقا لما سميناه بالأسلوب العلمي

الإمتاع والإقناع

على أن قاسم أمين قادر على الإمتاع ، حتى وهو بسبيل التوجيه العقلي وعرض الحقائق ، فانظر إليه كيف يستخدم الألفاظ الموحية ، ويأتي بالصور والتشبيهات مما يساعده على إقناع قارئه ، ولكم صدم كثير من قراء كتابه الأول الذي خرج إلى الناس في عام ١٨٩٩م « هاهي مسألة الحجاب مسألة من أهم المسائل ، ولها مكان عظيم في شؤون الأمة ، إذا ترك القارىء نفسه لعواطفه ، واستسلم إلى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن ، لأنه ألفه في صغره ، ونشأ بين المحجبات ، وعاش معهن ، حتى صار ذلك عادة مألوفة له ، ثم إنه ورثه عن آبائه وأجداده ، فلا يستغربه ، بل يميل إليه ميلا غريزيا ليس للعقل فيه مدخل ، وإنما هو حركة ميكانيكية ليس الا ، أما إذا نزع من نفسه العوامل التي أحدثت تلك العواطف ، وخلع ما ألبسه إياه أسلافه من أردية الوراثة ، وبحث في المسألة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر إلا بالتجربة التي تجرى في الوقائع الصحيحة ، وحصل لنفسه رأيا من ملاحظاته الشخصية ، وكان ممن تتجذب نفسه للحق ، وتبعث إلى السعي للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع ، وكان لايغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين ، وإنما يسمع صوت وجدانه السليم ، ويرجحه على كل هوى سواه ، فعند ذلك يرى أن المرأة لاتكون ولايمكن أن تكون وجودا تاما إلا إذا ملكت نفسها (ص ٦٩ ـ ٧٠)

وما أشد تأثير إيجاز قاسم أمين وعباراته القصيرة المتتالية المتقابلة : « انظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة في رق الرجل ، والرجل في رق الحاكم ، فهو ظالم في بيته ، مظلوم إذا خرج منه » (المرأة الجديدة ص ١٦) وانظر إليه كيف يزاوج بين الحكم العام

والحالات الجزئية : « كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل في قوته أخذ يحتقر المرأة في ضعفها ، وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر في الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق . قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة أن الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ، ويميل إلى الشفقة ، لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه ، لكن المشاهد يدل على أن الأمة المظلومة لايصلح جوها ولاتنفع أرضها لنمو الفضيلة ، ولايربو فيها إلا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين ، - وما العهد منهم ببعيد - يعلمون أن شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مائة من الأهالي ، والعمدة الذي كان يضرب مائة « كرباج » عند عودته إلى بلدته ينتقم من مائة فلاح » (ص ١٣ - ١٤) .

قاسم والتجريد

إن قاسم أمين قادر على التجريد الشديد ، والمحاجاة العقلية ، وقادر على أن يكون رقيقا ، وأن يكون ساخرا سخرية شديدة . فأما الرقة فتلمسها في حديثه عن الحقيقة وعن السرور وعن صعوبة التطابق بين الاحساس والتعبير ، فيقول عن هذا الأمر الأخير : « كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقي رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئا عاديا أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن مافي نفسه بقي فيها مختفيا » .

ويقول عن الحقيقة قول العاشق : « الحقيقة هي ضالة الانسان في العالم ، ويجب عليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب ، الحقيقة هي الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الانسان ، لايجدها إلا من رغب فيها ، ومال عن سواها ، الحقيقة هي مشرق السعادة ، لأنها الوسيلة وحدها لوصول الانسان إلى كمال العقل والنفس » (ص ٤٥) .

ولربما بلغت رقة تعبير قاسم أمين أقصاها في إهدائه كتابه الثاني « المرأة الجديدة » إلى سعد زغلول : « إلى صديقي سعد زغلول . فيك وجدت قلبا يحب ، وعقلا يفكر ، وإرادة تعمل،أنت مثلت إلي المودة في أكمل أشكالها ، فادركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها ، من هذا أمكنني أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته ، ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالا ونساء » .

أما السخرية فإنها ليست لذات السخرية عند قاسم أمين ، بل هي موظفة دائما لغاية عقلية أو خلقية ، قد تكون للاقناع أو الحث ، وقد تكون للتفنيد والافحام ، أو قد تكون صراحة للترقيع ،

فأما مثال استخدامه للسخرية من أجل الاقناع فقوله : « علينا أن نأخذ من العوائد ، وأن نكتسب من الأخلاق مايلتئم مع مصالحنا ، فتكون سالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع ، لا أن نكون عبيدا لعاداتنا التي وجدنا عليها آباءنا ، فيكون مثلنا مثل الرجل وجد لباسه ضيقا ، فرأى أن يجوع ليهزل ويضعفَ ويتحل ، حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه ، لا أن يصلح لباسه بتوسيعه حتى يتفق مع جسمه » .

وأما مثال استخدامها للتفنيد فقوله ردا على من زعم من نقاد كتابه الأول ، أن حرية النساء تعرّضهن للخروج عن حدود العفة : « التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد في ملكاتهن الأدبية ، وتبعث فيهن إحساس الاحترام لأنفسهن ، وتحمل الرجال على احترامهن .

ولاتذهب في تأييد هذا الرأي مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له ، نشره بعضهم في الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ، ونسب فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات ، والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة ، والهولندية أربع مرات ، والطليانية مرة وخمسة أسداس ، والفرنساوية مرة واحدة ، وهكذا حتى وصل إلى التركية ، والمراد بها الشرقية : فقال : إنها لاتخون زوجها إلا عشر المرة الواحدة » .

الكتابات الأدبية

ونأتي الآن إلى ماقد يدخل صراحة ومباشرة في باب الأدب من كتابات قاسم امين ، أي ماكتب ليس بقصد التقرير والاخبار النفعي ، بل بقصد الإمتاع الجمالي ، وكل مايدخل في هذا الاطار نجده فيما نشره لقاسم أمين بعض أصدقائه بعد وفاته ، مما كان

ينشر في الصحف بعنوان « كلمات » و « أخلاق ومواعظ » ، ونظن أن البحث الدقيق في صحافة العصر جدير بأن يخرج إلى النور كتابات أخرى لايحتويها هذان السفران . وهذه الكتابات هي بأسرها من

نوع « الصور السريعة » أو « اللقطات » أو مايسمى باللغات الأوروبية « اسكتش » ، فهي أقل كثيرا من القصة القصيرة ، وكثيرا ما تكون بهدف أخلاقي

لأجل الموعظة ، كما يدل عنوان الكتاب الثاني ، وهي دائما لقطات حادة : ويكون قاسم أمين في أعلى حالاته حين يكون الموضوع نفسيا كله أو في جانب رئيسي منه ، لكن بعض هذه الكتابات ذات موضوع

اجتماعي ، ومما يؤسف له أن بعض « المحققين » المزعومين أدخلوا على هذين الكتابين في الفترة الأخيرة عناوين وتقسيمات لا هي من يد قاسم أمين ولا من يد أصدقائه ناشري الكتابين . ومما يحتويه الكتاب الأول كلمة عن تفسير عبارة فرنسية تقول : (إني أخشى ما أتقي) ، وأخرى عن ادعاء الشجاعة ، وثالثة عن مواقف مختلفة بإزاء متحف « اللوفر » ، ورابعة عن منظر الجنازة ، وإن كان الجانب الاقتصادي فيها بارزا ، وخامسة عن تجربة عرس عاشها قاسم أمين وهو لم يزل طفلا ، وسادسة عن الشراهة ، وسابعة عن أخلاق طالبي الوظائف ، على أننا نعتقد أن أجمل ما في هذا الكتاب « كلمات » مقطوعة ، تصف منظر امرأة « محجبة » ظاهرا ، لكنها سافرة الجسم واقعا .

وسيرى القاريء مدى القدرات الأدبية الكامنة في قلم قاسم أمين حين يقرأ هذا النص الرائع على قصره : « رأيت يوما في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم ، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، عمرها بين العشرين والثلاثين ، في وسطها حزام من الجلد ، مشدود على خصر رفيع ، وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما ، الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ، ومرسوم تحت شعار الملاءة باعتدال جميل ، القسم الأعلى غير مستور ، وإنما الملاءة مشبوكة على رأسها ، مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين ، على وجهها قطعة من « الموسلين » الرقيق أقل عرضا من الوجه ،

تحجب فاهها وذقنها حجابا لطيفا شفافا ، كما تحجب قطع السحب الرقيق شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة ، كانت تمشي خطوات مرتبة ، يهتز معها جسمها ، مائجا كما تفعل الراقصة على « المرسح » (المسرح) ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام ، وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم » .

أما الكتاب الثاني « أخلاق ومواعظ » فإنه يحتوي على مقطوعات ذات غرض أخلاقي واجتماعي ، وتختص بانتقاد أحوال الموظفين في الحكومة ، لكن معظمها يدخل في باب الوصف الأدبي من بابه الواسع . فكم يجيد قاسم أمين في التمثيل على نفاق هذا الموظف بين سائر الفئات في ذلك العصر ، من فرنسيين إلى إنجليز إلى سوريين إلى أقباط إلى مسلمين وكم يحسن وصف « نشاط » الموظف الحكومي ، حتى لتحسبه يصف منظرا وقع بالأمس ، وكم يتقن وصف وزير يداهن كل الجهات ، أو صاحب المعاش الذي فارق وظيفته متألما لفراقها .

هذا إذن قاسم أمين كما رأيناه أديبا ، ولعل عرضنا هذا يكون مثيراً لانتباه دارسي تاريخ الفكر ، ودارسي الأدب والمثقفين عامة ، ولعله يزرع نبت فكرة نرجو أن يتأصل الاعتقاد فيها ، ألا وهي أن ميادين الثقافة متداخلة فيما بينها ، والفهم الجيد للجزء لايكون الا بإدراك للكل □

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

السيارات الشمسية باتت وشيكة

لعل استغلال الطاقة الشمسية للأغراض المنزلية مازال بعيد المنال . وذلك بالنظر للتكاليف الكبيرة نسبيا التي تتطلبها منشآت توليد الطاقة من الشمس . لم يغفل العلماء عن رخص التكاليف الهالكة التي يستوجبها استعمال هذه الطاقة ، ولا رخص نفقات الصيانة ، لكنهم يسعون على ما يبدو إلى العثور على وسائط لتوليد الطاقة الشمسية ، ووسائط أخرى لتخزينها ، تكون تكاليفها معقولة مقبولة .

لكن ما ينطبق على استغلال طاقة الشمس للأغراض المنزلية قد لا ينطبق على استغلالها وقودا للسيارات ، وقد لا تمضي سنوات قليلة حتى تعم السيارات الشمسية وتنتشر للاستعمال داخل المدن وفي المناطق الحارة الجافة على أقل تقدير .

وليس أدل على ذلك من سباق السيارات الشمسية الذي أقيم في استراليا في شهر نوفمبر الماضي ، فقد كان على السيارات المشتركة في هذا السباق ـ وعددها ٢٣ سيارة ـ قطع مسافة ١٩٨٠ ميلا من مدينة داروين إلى مدينة ادلايد . ولعلهم قصدوا من ذلك امتحان قدرة تلك السيارات على قطع تلك المسافة الطويلة دون توقف ، وامتحان مدى تحملها للظروف المناخية القاسية التي تعرضت لها أثناء الرحلة ، بالإضافة إلى امتحان سرعتها .

ولعل السيارات المشتركة في السباق قد حققت من النجاح في امتحان السرعة ما فاق نجاحها في امتحان القدرة على التحمل ، فقد بلغت سرعة السيارة التي فازت بالجائزة الأولى ٧٥كم في الساعة بالمتوسط ، فوصلت الهدف في غضون ثلاثة أيام ، متقدمة على سيارة الجائزة الثانية بحوالي ٢٥٠ ميلا ، ووصلت السيارتان وبعض السيارات الأخرى دون تلف يذكر ، بخلاف سائر السيارات التي لم تستطع الصمود أمام درجة الحرارة المرتفعة جدا ، التي أتلفت البطاريات ، وأعطبت الخلايا الشمسية ، وأجهزة الضبط الكهربائي ، ناهيك عن الإطارات الخفيفة التي اعتمدتها أكثر السيارات .

ترى ما معنى ذلك ؟؟ معناه نجاح في تقنية استغلال الطاقة الشمسية وقودا للسيارات مقترنا بقصور في صنع هياكل تلك السيارات . لكنه قصور يسهل على الشركات المعنية تداركه والتغلب عليه .

استخدام الطاقة الشمسية في تسيير السيارة دون وقود ، اعتمادا على بطاريات تشحنها خلايا شمسية بالطاقة .

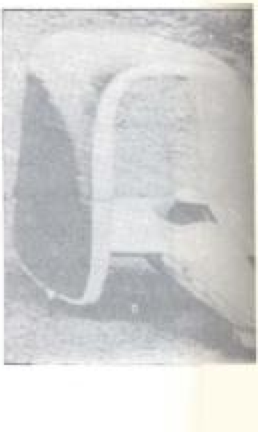

جهاز جديد للقضاء على سرطان المخ دون جراحة

يسمون هذا الجهاز سكين جاما ، وما هو بسكين ، وان كان يقطع بدقة واحكام كسكاكين الجراحة الحادة ، بل قد يكون أدق منها ، ولو نظرت اليه لبدا لك كأنه قبعة معدنية كالتي يرتديهارجال الفضاء الذين يزورون الأرض بين حين وآخر على متن الأطباق الطائرة ، وماهو إلا جهاز يستعمل أشعة جاما القوية للقضاء على أورام المخ السرطانية ، وعلى التشوهات الشريانية الوريدية ، الا أنه جهاز حديث جدا ،متطور جدا ، لايوجد الا في مستشفى واحد في الولايات المتحدة كلها ، وهو مستشفى جامعة البرسبتيريان في بتسبورغ .

فالجهاز اذن يطلق أشعة جاما ولايقوم بأي جراحة ، ويعود الفضل في ابتكاره الى طبيبين سويديين ، هما (لارس لكسل) و (بورج لارسون) ، وقد أنشأ نموذج الجهاز الأول قبل نحو عشرين سنة (عام ١٩٦٨) ، ومضيا في استعماله في معالجة آفات سلوكية عصبية . وقد طور الجهاز في أمريكا واستعمل من أجل معالجة سرطان المخ والتشوهات الشريانية الوريدية . ومما يذكر أن ٥٠٠ مريض من المصابين بهذه التشوهات قد عولجوا في امريكا في المدة الأخيرة ، وان ٨٧٪ من هذه التشوهات قد تم القضاء عليها في غضون سنتين .

ويتكون الجهاز من ثلاثة أجزاء : قبة الاشعاع التي تدخل رأس المريض في تجويفها ليتلقى رزمة من أشعة (كوبالت ٦٠) قوامها ٢٠١ شعاع ، والخوذة المعدنية ، والاطار المجسم (Stereotactic) . ويبقى رأس المريض داخل الجهاز ٢٠ دقيقة ، ليتسنى لأشعة جاما البدء في تحطيم الورم الخبيث ، وتتكرر الجلسات حتى يتم التحطيم نهائيا ، وذلك في غضون مالايزيد عن سنتين .

ومما يذكر أن أشعة (كوبالت ٦٠) تبلغ من الدقة مايسمح بتسليطها على بقعة قد لايزيد حجمها على جزء من مائة من المليمتر ، فهي قادرة على معالجة أورام يتراوح حجمها بين بضعة مليمترات وبضعة سنتيمترات ، دون المساس بأنسجة المخ الأخرى السوية .

على أن الشركة التي تصنع هذا الجهاز سويدية لا أمريكية ، وهي تبيعه بحوالي ٣ ـ ٤ ملايين دولار . وقد بلغ مجموع مابيع منه ٤ أجهزة ، أما تكاليف المعالجة بسكين جاما فلاتزيد على ١٦٠٠٠ دولار ، أي أقل من نصف تكاليف العملية الجراحية التي تجرى لاستئصال أورام المخ الخبيثة .

جهاز سكين جاما يستخدم أشعة جاما للقضاء على أورام المخ السرطانية .

بالونات فولاذية للشـــرايين

تصلب الشرايين آفة تصيب الملايين ، وتودي بحياة الكثيرين ، وقد درج الأطباء على معالجتها بعملية جراحية تعرف باسم التجاوز الاكليلCoronary byrass ، أو بعملية أخرى وعائية تعرف باسم بالون القسطرة. وقوام هذه الجراحة الوعائية البالون الصغير الذي يدخلونه في الشريان بواسطة القسطرة ، أو الانبوب الأجوف ، حتى يصلوا به الى رواسب الكولسترول التي تسبب الانسداد ، وتعطل مجرى الدم في ذلك الشريان ، وعند ذلك ينفخ الجراح الهواء عبر الانبوب الأجوف الى البالون ، فينتفخ ، ويوسع الشريان ، وينطلق الدم في مجراه ، ويعمد الجراح بعدذلك الى تنفيس البالون واخراجه من جسم المريض .

وقد ثبتت فاعلية هذه العملية ، لكن ليس في كل الحالات ، ففي بعض الأحيان يتلف الشريان عقب اخراج البالون مباشرة ، وعندئذ تتعرض حياة المريض للخطر : وفي حالات أخرى ـ نحو ٣٠٪ يضطر المريض لتكرار عملية القسطرة في غضون سنة ، وذلك لأن الشريان يعود الى الضيق والتصلب مرة ثانية . من هنا جاءت الرقائق الفولاذية التي نجح في تطويرها باحثون أوروبيون وأمريكيون في المدة الأخيرة ، فهذه الرقائق المجوفة القابلة للتفخ يدخلها الجراح مع البالون في الشريان ، لكنه لايخرجها منه ، كما يخرج البالون ، بل يتركها فيه لتزرع في جداره وهي منفوخة . وهكذا تحول هذه الرقائق الفولاذية ـ ويسمونها بالانكليزية Stents ـ دون عودة الشريان الى الضيق والتصلب ثانية ، وتغني عن تكرار القسطرة مرة ثانية .

وتختلف هذه الرقائق الفولاذية حجما ، لكن أكثرها لايكاد يبلغ نصف بوصة طولا . وهي مصنوعة كالشبك ، وقد راعوا في صنعها ضرورة الابقاء عليها في الشريان مدى الحياة .

والجدير بالذكر أن وكالة الغذاء والدواء قد أقرت استعمال هذه الرقائق ، لكن في الشرايين الجانبية لا التاجية .

شرايين فولاذة مصنوعة كالشبك لعلاج الضيق والتصلب في الشرايين الجانبية .

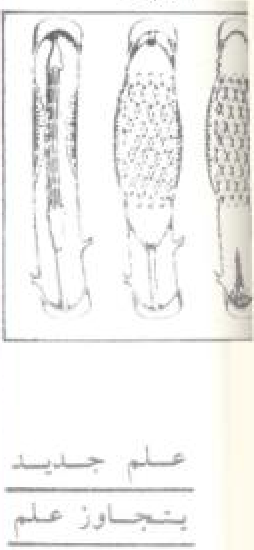

■ ■ ■

علـم جديـد يتجـاوز علـم الالكتـرونيات

يسميه العلماء الفوتونيات Photonicsوقد خطوا به خطوة كبيرة الى الأمام في مطلع هذه السنة ، حين عرض المهندسون المتخصصون في مختبرات بل في بركلي بكاليفورنيا مضخمهم البصري الجديد .

فقد بلغ هذا المكبر من الفاعلية مايمكنه من توسيع المسافة بين المتكررات وبالتالي تقوية الاشارات التي تحملها كابلات الألياف البصرية بمقدار ٣٧٠ كيلومترا . . أضف الى ذلك أن هذه المضخمات هي الأولى من نوعها التي تعمل دون الاضطرار لتحويل الاشارات من بصرية الى الكترونية ثم الى بصرية مرة ثانية . وقد أكد بعض المهندسين أن في امكان هذا المضخم الجديد حينما يستثار باشارات الضوء التي تدخله ، إطلاق ضوئه الخاص الذي يبلغ بريقه (١٠٠٠) ضعف بريق تلك الاشارات . □

سلامة البشرية في سلامة البيئة

الإدمان على الكحول في الولايات المتحدة

من المعروف أن الغرب ككل يقوم بحملات واسعة لمكافحة التدخين ، وان هذه الحملات التي بدأت قبل نحو ٢٠ سنة قد أعطت ثمارها ، فقل بذلك عدد المدخنين في أوروبا وأمريكا بنسبة ملحوظة .

والغريب أن حملات مكافحة الادمان على الكحول أيضا ـ وهي الحملات التي لم تبدأ في بلاد الغرب إلا قبل بضع سنوات ـ قد أعطت ثمارها كذلك ، إذ دلت الاحصاءات التي يقبل على اجرائها الأمريكيون بشغف ، والتي تكاد تشمل مجالات الحياة كلها ، دلت على أن حوادث الطرق المترتبة على سكر السائقين قد تناقص عددها في الثمانينيات ، وكان المنتظر أن تتزايد تبعا للزيادة السكانية من جهة ، ولتكاثر السيارات من جهة اخرى ودلت الاحصاءات كذلك على أن الأمريكيات أصبحن أكثر وعيا للمخاطر المضاعفة التي تتعرض لها الحوامل منهن .

■ ■ ■

الجراد وشبكة الانذار المبكر

كان الجراد مصدر تهديد كبير للبشرية ولأمنها الغذائي ، ومايزال كذلك ، فالدمار الذي أحدثه في محاصيل بلدان الساحل الافريقي قبل نحو عشرة أعوام قد شمل ثلث تلك المحاصيل كلها ، وقدروه آنذاك بعدة ملايين من الأطنان . وقد ظهرت أسراب الجراد الصحراوي مؤخرا في بلدان شمال غرب القارة الافريقية ، وفي الحبشة والسودان ، وستصل عما قريب الى كينيا وتشاد والصومال ، وربما تصل الى أقطار الجزيرة العربية أيضا . وقد قطعت بعض تلك الأسراب البحر الأحمر في المدة الأخيرة .

والجدير بالذكر أن المعلومات المسبقة التي حصلت عليها وكالة الأغذية والزراعة عن هذا الغزو الجديد انما حصلت عليها من شبكة الانذار المبكر التي مضت في انشائها بالتعاون مع الولايات المتحدة والسوق المشتركة ، وقد اكتمل انشاء وحدات مختلفة من هذه الشبكة ، وسيكتمل انشاء بقية الوحدات في مستقبل قريب جدا .

ومما يذكر أن قوام هذه الشبكة قمر صناعي ، جهزوه بالمعدات والأجهزة الكفيلة بتسجيل المعلومات المسبقة التي تلتقطها المحطات الأرضية في الوقت المناسب ، فتساعد على مكافحة الجراد ، دون تأخير ، ولو ذكرنا أن قيمة المحاصيل التي تتعرض لخطر الجراد حاليا في نحو ٥٥ بلدا تبلغ بمجموعها ١٥٠٠٠ مليون دولار لتضاءلت في نظرنا تكاليف الشبكة التي تقدر تكاليفها ببضعة ملايين من الدولارات .

كيف يحمون البيئة في الاتحاد السوفيتي ؟

نجح العلماء السوفيات في اعادة توطين فصيلة من الخيول في الصحراء التي سبق أن عاشت فيها قبل نحو (٤٠) عاما ، فقد انقرضت فصيلة حصان برزفالسكي ، أو كادت ، ولم يبق منها الا حوالي ٣٠٠ رأس ، تعيش في الأسر في شتى حدائق الحيوان . ولايخفى أن جهود اعادة هذه الفصيلة من الخيول الى موطنها في أواسط آسيا جهود مضنية ، تتطلب كثيرا من الخبرة العلمية والعملية ، وقد بذلت الجهود في مركز حضانة الحيوانات وتهجينها في طشقند عاصمة اوزبكستان ، وتركزت على حصان واحد من خيول برزفالسكي ، أحضروه الى المركز من احدى حدائق الحيوان .

والجدير بالذكر أن الخيول المذكورة قصيرة ، لايزيد طولها على (١,٥) متر ونصف متر ، ولها رأس كبير ، وعيون صغيرة ، وقد سميت باسمها هذا نسبة الى الرحالة السوفياتي الذي اكتشفها في القرن التاسع عشر ، واسمه نيكولاي برزفالسكي .

أما القصد من اعادة توطين هذه الخيول في مواطنها فقصد بيئي فقط ، أي أن الهدف هو ملء الفراغ البيئي الذي خلفه اختفاء تلك الخيول ، بما يكفل استرداد صحارى أواسط آسيا لتوازنها البيئي .

■ ■ ■

التعاون من أجل حماية البيئة

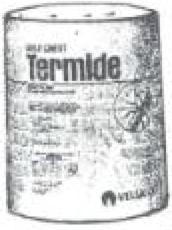

من المبيدات الواسعة الانتشار في أمريكا الترمايد (Termide) وهو مركب يحتوي على الكلوردين والهبتاكلور ، ويفتك بالنمل الأبيض (Termite) الذي يشكل تهديدا خطيرا للمزارع والمنازل الأمريكية .

لكن وكالة حماية البيئة في الولايات المتحدة اكتشفت في الصيف الماضي أن الترمايد المذكور يسبب الاصابة بالسرطان ، فسارعت الى الاتصال بالشركة التي تصنع المبيد ، بل قد تحتكر صناعته وهي شركة (Valsicol) ووافقت الشركة على وقف انتاج المبيد دون نقاش ، علما بأنها لم تقتنع بعد بأن الترمايد يسبب السرطان □

ماربيا

لؤلؤة الشاطئ الأندلسي

بقلم : سلمى الحفار الكزبري *

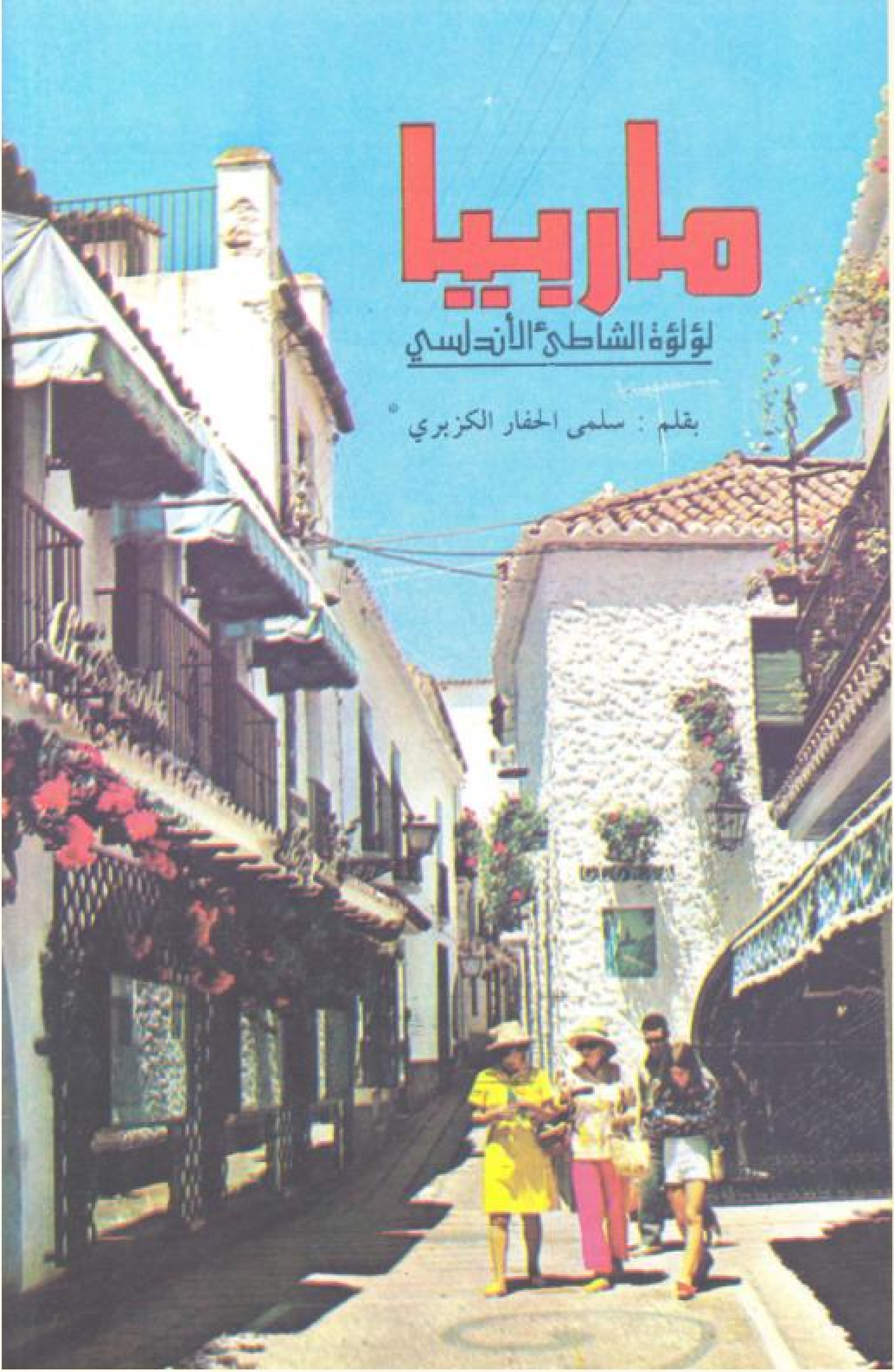

غالباً ما نقيم فترة من الزمن في أماكن لها من عطر التاريخ ما يكسبها قيمة خاصة ، لكننا بانشغالنا بمتع اللحظة قد لا نلتفت لهذه القيمة . من هذه الأماكن ، « ماربيا » المصيف الجميل في جنوب أسبانيا الذي يقصده عدد كبير من العرب كل صيف .

* كاتبة من القطر العربي السوري

إن لماربيا - هذا المتجمع الجميل على شاطيء البحر الأبيض المتوسط في الجنوب الأسباني - تاريخاً إسلامياً، وآثاراً شاهدة، قل من يعرفها جيداً من ألوف السياح الذين أخذوا يتوافدون عليها منذ أكثر من عشرين سنة. ورد اسمها في سجلات القرون الوسطى باللغتين العربية واللاتينية: ماربيا أي: البحر الجميل، ومارفليا (الشريف الأدريسي)، ومارْبلّه (القلقشندي)، ومَـرْبَلّه (الروض المختار)، ومَـرْبلّه (ابن بطوطة).

مناخ ماربيا (كما نسميها اليوم) معتدل في فصول السنة الأربعة، لا سيما في الصيف، لخلوه من الرطوبة، وتميزه بنسائم منعشة، تهب عليها من البحر الأبيض المتوسط الذي يتصل بالمحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق القريب منها، خيراتها كثيرة، وعدد سكانها في يومنا هذا مائة وعشرون ألف نسمة. أما الذين يؤمونها للاصطياف والسياحة في الصيف فإن عددهم يبلغ نصف مليون زائر، أكثرهم من الانجليز والألمان والهولنديين والسويديين. يأتي هؤلاء السياح إلى ماربيا، وسائر حواضر الشاطيء الجنوبي في الأندلس الذي يسمونه «شاطيء الشمس»، والذي يمتد من مدينة «ملقة» حتى مدينة الجزيرة الخضراء، بحثاً عن الشمس والراحة. أما إخواننا العرب الذين يؤمونها إما للإقامة في دور ابتاعوها، وإما في شقق يستأجرونها، أو في فنادق يقيمون فيها، وعددهم لا يشكل أكثر من ٥٪ من زوارها أو من عشاقها الأجانب الذين استوطنوها. ولعل من أكثر المرغبات في ارتياد (شاطيء الشمس) وماربيا لؤلؤته هو أن الأجنبي - أياً كانت جنسيته أو عرقه - لا يشعر بالغربة مطلقاً.

إذ قلما يسأله سكان المنطقة الأندلسيون عن هويته، بل يرحبون به، ويبتهجون بقدومه، ويعاملونه ألطف معاملة، ويحيطونه بكل رعاية وكرم، وهذا ما جعل العديد من الأجانب يسهمون في ازدهار «شاطيء الشمس» عمرانياً واقتصادياً في السنوات الأخيرة، حيث امتد البناء على الشاطيء وعلى التلال المحيطة، وشيدت مجموعات سكنية على الطراز الأندلسي العربي، تتوافر فيها الحدائق الجميلة، لتوفر المياه الجوفية في كل مكان بالاضافة الى الملاعب الرياضية المتنوعة، ناهيك عن انتشار الفنادق الفخمة التي تستقبل السياح صيفاً وشتاءً وخريفاً وربيعاً. إن هذا الاقبال العظيم لا تفسير له سوى جودة المناخ، وجودة المياه، ووفرة الأسماك والفواكه والخضراوات، والسحر الأثيري الذي يدفع عدداً كبيراً من السياح الى ابتياع شقة، أو بناء دارة يلجأون اليها للاستجمام. وكثيرون قد اختاروها لقضاء ما تبقى من حياتهم بعد بلوغهم سن التقاعد.

وإذا قمنا بجولة استطلاعية في تاريخ ماربيا تستوقفنا أحداث جرت فيها من صلب تاريخنا القديم في الأندلس الذي انصهر فيه العرق العربي والمغربي مع العرق الأسباني، خلال ثمانية قرون، كانت فيها الأندلس بلداً إسلامياً، انبعث منه حضارة عظيمة، وشعت أنوارها على أوروبا، وقدمت للانسانية خدمات جليلة عن طريق العلوم والفنون.

ماربيا في التاريخ

كانت ماربيا بلدة صغيرة، ذات أهمية كبيرة في تاريخ الأندلس إبان الوجود الإسلامي بسبب موقعها الجغرافي بالقرب من مضيق جبل طارق، وبعدها عن الحدود الصاخبة التي كانت تفصل بين أسبانيا المسلمة وأسبانيا المسيحية، لاسيا في القرن الثاني عشر الميلادي. لقد ذكرها العالم الجغرافي أبو عبد الله محمد الإدريسي في (كتاب روجر) الذي وضعه آنذاك في بلاط الملك «روجر الثاني» في جزيرة صقلية، فقال: «مارفليا مدينة صغيرة آهلة بالسكان، ذات تربة خصبة، ومزروعات متنوعة، من أكثرها جودة التين»، كما وصف الرحالة الشهير ابن بطوطة رحلته إلى الأندلس سنة ١٣٤٩م التي زار فيها جبل طارق، ورندة، وماربيا، وقلعة سهيل في «فونجيرولا»، وملقة، وغرناطة في كتابه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)،

يقول : « إن ماربله مدينة تفيض بالأغذية المتنوعة لكثرة مزارعها ومواشيها . لقد استفاد المسلمون من تربتها الخصبة وأنهارها وسواقيها وجودة مناخها ، فأنشأوا فيها وفي أرباضها مزارع ، ونقلوا إليها اشجارا مثمرة كالتين والرمان والزيتون ، والليمون ، والبرتقال ، والنخيل ، والتوت لتربية دود القز واستخراج الحرير منه » .

صدر قبل أربع سنوات كتاب في ماربيا بعنوان (ماربيا المسلمة) بقلم أحد أبنائها البررة المؤرخ الأستاذ « فرتندو الكلامارين » ، نشرته محافظة المدينة ، ونال عليه مؤلفه جائزة تقديرية ، وقد كتب في مقدمته :

« تاريخ ماربيا في الحقبة الإسلامية التي دامت زهاء ثمانية قرون ، منذ سنة ٧١١م حتى سنة ١٤٨٥م ، حافل بالآثار العمرانية التي زال أكثرها عبر القرون ، لكن ما هو موجود منها حالياً جدير بالدراسة والترميم والصيانة ، وإن من أقدس واجباتنا اليوم ، وقد أضحت ماربيا منطقة ذات أهمية سياحية ، وتاريخية ، وثقافية كبيرة ، إلقاء الأضواء على هذه الآثار الحربية والمدنية ، وحث المسؤولين على الاهتمام بتراث نفيس ، ينبغي أن تعرفه الأجيال الصاعدة ، لأنه من صلب تاريخ بلدهم وفنونه وثقافته » .

هذا المؤرخ كنية ذات أصل عربي « الكَلاَّ » أي القلعة ، ويعتز بأنه سليل أسرة عربية ، يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ، وقد استقينا من فصول كتابه ، ومن المراجع التي اعتمدها المعلومات التالية :

قلعة ماربيا وأسوارها

كانت ماربيا محصنة بقلعة كبيرة ، تقع على هضبة مشرفة على البحر ، ترتفع عنه حوالي مائتي متر ذات قسمين ، أحدهما مخصص للسلاح شمالا ، والآخر للقصبة جنوباً . شيدت هذه القلعة في عهد الخلافة الأموية في قرطبة . ويقول مؤلف الكتاب : « إن بلدية ماربيا تنوي ترميم جزء القلعة الداخلي ، وأنها منعت دخول الزائرين إليه حالياً . أما أسوار المدينة الضخمة فقد كان يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها مترين ، ولم يبق منها سوى جزء يسير في ناحيتها الشرقية الجنوبية بالقرب من « دائرة البوليس » حالياً . ومما يؤسف له أن بيوتاً شعبية شيدت فوق ما تبقى من القلعة وبين أسوار المدينة القديمة ذات الطابع العربي في بناء دورها المطلية بالأبيض الناصع وأزقتها الضيقة . وتبقى ماربيا الأندلسية العربية ملاذ السائح ، يتجول في حاراتها الطويلة ، ويشاهد بيوتها ذات الجدران والشرف المزينة بالأزهار ، التي يضوع منها ومن ساحة النارنج أريج البرتقال ، والياسمين ، والريحان . كانت أسماء الأزقة عربية فيما مضى لكنها اتخذت أسماء اسبانية بعد سقوط المدينة في ٨ - ٦ - ١٤٨٥ بأيدي ملك الأسبان « فردناند الخامس » . فزقاق « الحور » أضحى اسمه زقاق (Calle del Alamo) وزقاق الممر صار اسمه (Calle del Pasaje) .

أبوابها وأبراجها

أما أبواب المدينة فكانت ثلاثة كما هو ظاهر في الخريطة المرفقة ، فباب ملقة شرقاً ، وباب البحر جنوباً ، وباب رندة غرباً ، وقد سمي أيضاً « حصن رندة » . تبين من الوثائق الموجودة في مديرية الآثار الأسبانية أن باب رندة كان مصنوعاً من المعدن والخشب ، يحصنه برجان ، وأن باب القلعة التي بنيت ضمن الأسوار ظل قائماً حتى سنة ١٨٤٦ ، حيث انهدم قوسه ، وزالت اثاره ، كما أن المنارة التي كانت متاخمة له قد انهارت . ويؤكد علماء الآثار أن مسجد ماربيا كان يقع في مكان كنيستها الكبيرة « Glesia Major » ، وأنه بني على أنقاض معبد روماني ، ثم هدم ، وبنيت هذه الكنيسة في مكانه .

وقد قامت مديرية الآثار بحفريات داخل هذه الكنيسة سنة ١٩٨١ لإعادة تبليط جزئها المتوسط ، فظهرت تحته الآثار الرومانية والإسلامية .

وإذا عدنا إلى الأبراج التي بناها المسلمون في ماربيا وفي ضواحيها لتحصينها والدفاع عنها ، نرى أنهم بنوا أبراجاً متعددة بعضها مستدير الشكل ، وبعضها

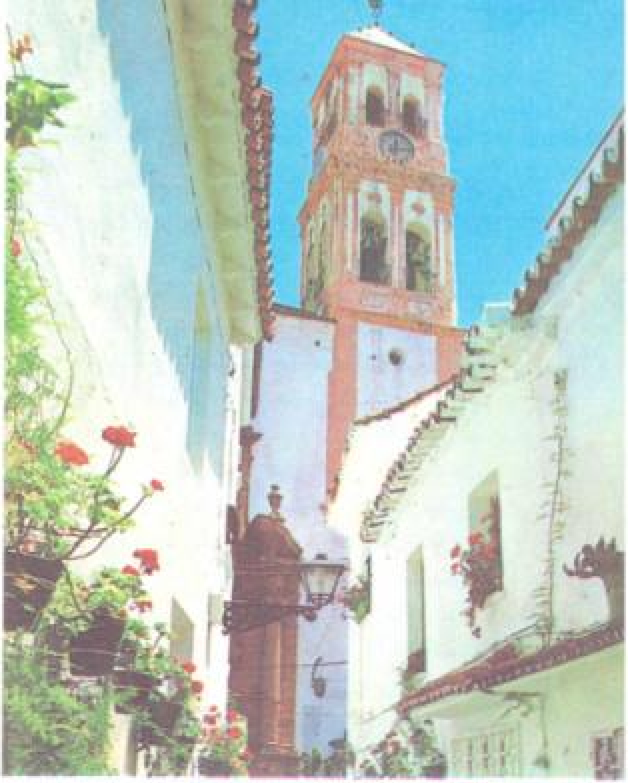

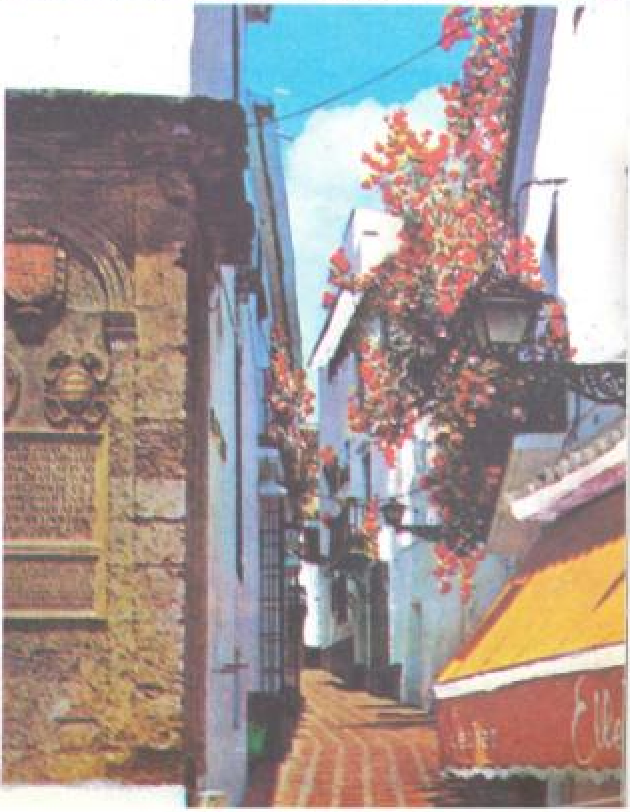

الى اليمين (في الأعلى)
برج أحد الكنائس
والزقاق عربي الطراز والى
الأسفل (يمين) شارع
صغير في ماربيا تتدلى
الورود على جدران
بيوته .

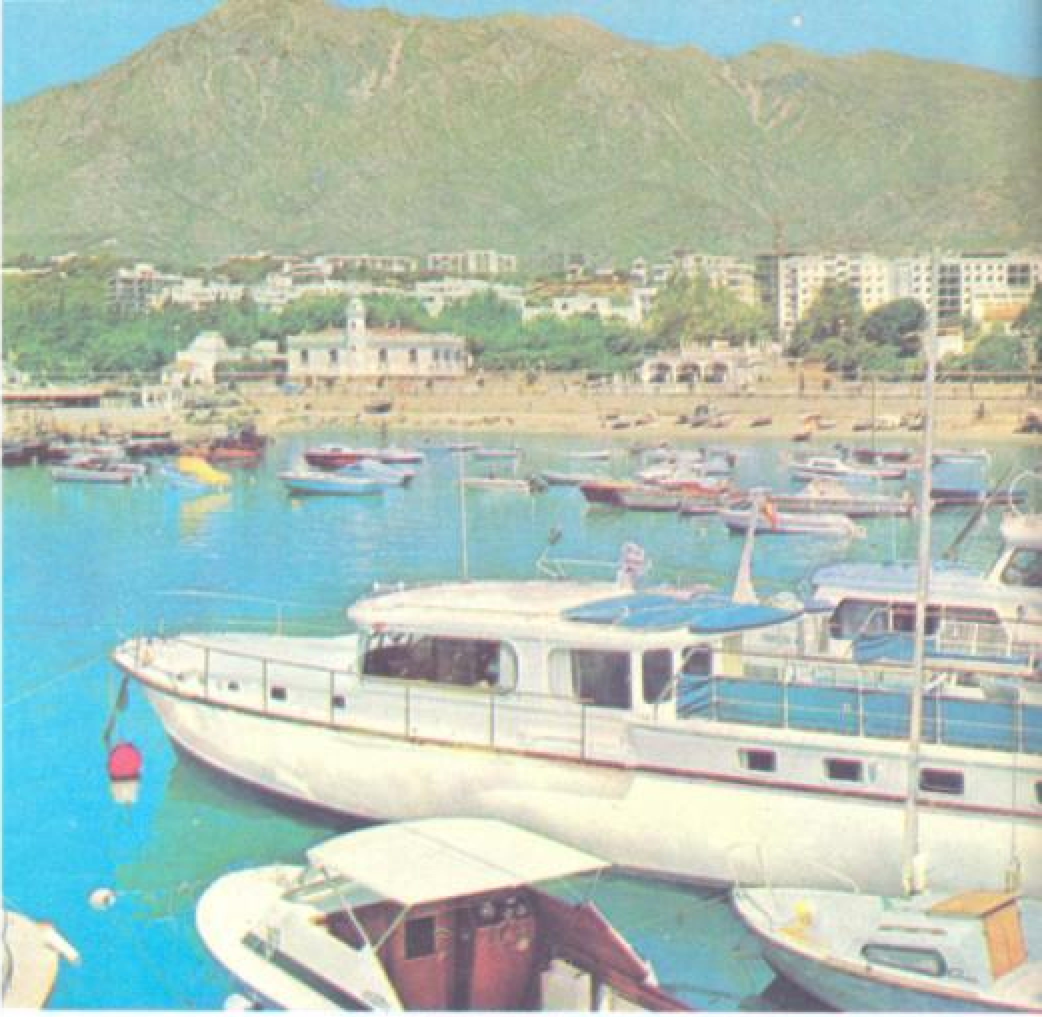

(الى الأعلى)
مرفأ القوارب في ساحل الشمس . (أسفل) أحد الأماكن السياحية التي تنتشر بكثرة في ماربيا .

مربع ، وما زال بعضها قائماً ، لكن أكثرها قد زال أثره . وقد بلغ عدد هذه الأبراج في المدينة وحولها اثنين وعشرين برجاً ، ستة منها في الجهة الشمالية الغربية ، وستة أخرى في الجهة الشرقية باتجاه نهر قديم غاضت مياهه في القرن الماضي ، وعشرة أبراج في الناحيتين الشرقية والغربية ، أهمها : (برج الحمامات) غرباً بالقرب من مصب نهر (المينا) ، وقد بني على شكل حدوة حصان ، و « برج البحر » جنوباً . كان برج الحمامات مستدير الشكل ، وارتفاعه اثني عشر متراً ، وقطره خمسة أمتار . أما برج البحر فكان مربعاً كما يبدو في الصورة المرفقة ، وارتفاعه خمسة عشر متراً وعرضه سبعة أمتار . المؤرخ المعاصر (خوان تامبوري الفاريس) وهو من مواليد ملقة ، ومن سلالة عربية قديمة ، تنبيء عنها كنيته : « الفاريسي » ، أي الفارس في كتابه (الأبراج والمنارات الأندلسية) الذي صدر سنة ١٩٧٥ يدعو إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الآثار المهمة ، وإلى إجراء دراسات وأعمال تنقيب في المنطقة كلها ، خدمة للتاريخ والفن والتراث ، كما يؤكد بأن البرج الذي أقامه المسلمون على شاطيء البحر جنوب ماربيا ، وسمي « برج البحر » قد كان بمثابة منارة ضخمة ، يسترشد بها البحارة وصيادو الأسماك . وكان هذا البرج على بعد مائة وخمسين متراً من أسوار المدينة ، لكنه هدم في القرن الثامن عشر ، وشيدت في مكانه عمارة كبيرة في العصر الحاضر ، معروفة باسم عمارة « البحر الأبيض المتوسط » .

الأسواق في ماربيا

يؤكد المؤرخون أن سوق ماربيا الكبير كان يقع خارج أسوارها ، بالقرب من باب البحر ، وأن سكانها كانوا يتنزهون في حديقة عامة مغروسة بأشجار الحور ، تقع على بعد خمسين متراً من شاطيء البحر جنوباً ، وهو الآن موقع حديقة البلدية التي تعرف باسم : (Ale medre) أي رواق الحور .

كانت حدود ماربيا ممتدة على رقعة تبلغ مساحتها ثلاثين كيلومتراً شرقاً وغرباً ، بساحلها وهضابها ، وأنشئت فيها القرى والمزارع التي ما زال بعضها يحمل أسماء ذات أصل عربي ، نذكر منها : نواله (Neigueles) ، وهي قرية على بعد ثلاثة كيلومترات غرباً ، كان يسكنها فقراء المنطقة ، اسمها مشتق من كلمة نواله باللهجة المغربية الدارجة ومعناها (كوخ) ، وعلى هذا الأساس يكون جمعها أكواخ . ونذكر كذلك قرية إسلامية قديمة ، قامت في غرب المدينة ، تدعى « بنو حبش Benohamis» ، لأن سكانها كانوا من المسلمين النازحين من الحبشة الذين استوطنوا الأندلس آنذاك . كما أن هنالك قرية « خُشَيْن » . (OJEN) الواقعة على هضبة شمال شرق ماربيا وما زالت موجودة . لقد قال عنها البحاثة الأسباني (ميجل آسين بالاسيوس) في معجمه العربي الأسباني للمواقع الجغرافية ، والأسماء العربية : (لقد سميت هذه القرية « خُشَيْن » لخشونة تربتها وجفافها) . وبعد سقوط ماربيا بيد الأسبان حرف اسمها . فأضحى : « أوخين » كما حرفت أسماء عربية كثيرة وبعد هذه القرية بنحو عشرة كيلومترات يصل السائح في يومنا الحاضر إلى قرية أخرى ، اشتهرت بمزارع اللوز والزيتون والمعاصر ، اسمها : قرية ذكوان ـ « COIN» ، والاسم مشتق من اسم رجل عربي يدعى : « ذكوان » كان أول من بنى فيها بيتاً في القرون الماضية ، كما أن في منطقة ماربيا الخصبة أنهاراً عديدة ما زال بعضها يحمل أسماء عربية ، نذكر منها : « وادي عيسى » « ووادي المنيا » .

سقوط ماربيا

كان المسلمون يعيشون في بحبوحة وأمان ، في ماربيا التي تأخر سقوطها بيد الأسبان عن سواها من مدن الأندلس ، بسبب قوة تحصينها من جهة ، وقربها من الشواطيء المغربية التي كان سكانها يهبون للنجدة من جهة أخرى . فقد استرجع الأسبان بلدة « طريف » سنة ١٢٩٢ ، ثم جبل طارق سنة ١٣٠٩ ، ثم استعاده « بنومرين » بقيادة عبد الله المغربي سنة ١٣٣٣ ، وصمدت ماربيا حتى بعد سقوط ملقة سنة ١٤١٠ ، في عهد بني الأحمر

مسبح يمارس فيه الأطفال هواياتهم .

الناصريين بغرناطة . وعندما حاصر الملك فرديناند الخامس مدينة « رندة » ، ذات الحصون المنيعة سنة ١٤٨٥ شعر سكان ماربيا بالخطر المحدق بهم ، فقد بعث إليهم الملك رسالة يدعوهم فيها إلى تسليم المدينة ، وبعد التشاور فيما بينهم أرسلوا إليه رسولاً ، يطلبون منه ضمانات على أرواحهم وأملاكهم وشعائرهم الدينية ، لكن قائد القلعة وشيوخ ماربيا ، وعدداً كبير من سكانها رفضوا التفاوض معه ، خشية أن يرغموا على التنصر ، وأن يصبحوا عبيداً بعد أن كانوا سادة ، وآثروا النزوح إلى المغرب والمنفى ، وطلبوا من الأسبان أن يأذنوا لهم ببيع ممتلكاتهم ، وأن يؤمنوا رحيلهم إلى الشاطىء الأفريقي . وقبل أن يستولي الأسبان على المدينة في ١١ - ٦ - ١٤٨٥ ، كان قد نزح منها عدد كبير إلى ملقة وغرناطة وضواحيها خشية الذل ، فدخل الملك فرديناند الخامس ماربيا مع قواته ، واجتازوا حاراتها الضيقة ، واقاموا في القلعة ، ورفعوا أعلام النصر .

كما ذكر فرناندو الكلا مارين مؤلف كتاب « ماربيا المسلمة » ، أن الملك فرديناند قد أقام معسكراً لقواته على بعد أربعة كيلومترات من وسط ماربيا شرقاً ، بالقرب من نهر سمي في ذلك الوقت : « النهر الملكي » ، حيث توجد اليوم منطقة سكنية جديدة تدعى « البرج الملكي » ويقوم في أولها برج إسلامي قديم . ويذكر المؤلف في كتابه أن المسلمين الذين بقوا في ماربيا قد منعوا من الإقامة فيها ، ومن الاحتفاظ بأسمائهم العربية وتقاليدهم وشعائرهم ، فنزحوا إلى القرى المجاورة ، حيث عملوا بالزراعة وتربية المواشي . وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ تجمع الأندلسيون المسلمون ، وقاموا بثورة مسلحة ضد الحكم الأسباني الجائر ، شملت منطقة ماربيا كلها ، وملقة ، وانتهت بهزيمتهم سنة ١٥٦٩ بعد أن كبدت الأسبان خسائر جسيمة بالمعدات والأرواح ، وقد دفع المسلمون ثمن تمردهم غالياً ، فجردوا من أملاكهم ، وصدر أمر ملكي بتشريدهم في القرى والجبال سنة ١٥٧٠ بغية صهرهم في الشعب الأسباني ، غير أنه يبدو ثابتاً مما كتبه الأستاذ « فرناندو الكلا مارين » أنهم حافظوا على عقائدهم وتقاليدهم في الخفاء . ويؤكد ذلك رحالة الماني يدعى : « خير ونمو منذر » في كتاب نشره عن رحلته إلى الأندلس التي دامت ستة أشهر عام ١٤٩٤ ، حيث وصف حياتهم وزهدهم بمباهج الحياة الدنيا . ولعل أهم ما ورد في كتاب : « ماربيا المسلمة » فصل أخير عنوانه

(استمرار الأسبان المسلمين) ، قال فيه: « لقد انصهر المسلمون الذين بقوا في الأندلس في المجتمع الأسباني بعد هزيمتهم ، لكنهم يشكلون عرقاً مختلفاً عن سائر الأسبان ، فهم اندلسيون في أسلوب حياتهم وتقاليدهم التي حافظوا عليها ، وما زالوا يعتزون بها ، والمسلمون عادة وإن أبعدوا عن أرض الأندلس ما زال حنينهم إليها ملتصقاً بأرواحهم حيثما حلوا . ونحن نعتقد بأن الموقع الجغرافي ذو تأثير بالغ في طبائع الناس ، وأسلوب حياتهم ، وقد اختلط دم المسلمين الذين بقوا في الأندلس اختلط بالدم الأسباني المسيحي عبر القرون الماضية ، لكن الآثار الأسبانية المتبقية في الأندلس ليست ثمرة اختلاط عرق بعرق ، إنما هي ثمرة شيء أكثر عمقاً ، وأبلغ تأثيراً من أي اختلاط عرقي أو ديني ، كما أن هذا الأثر الروحي الراسخ في الأشخاص والأماكن والهواء الذي يمتاز به الأندلسي ، هو ما جذب إلى ماربيا الطائفة المسلمة حديثاً ، وهو ما رمي بحباله إخواننا المسلمين في هذا العصر ، فأقاموا فيها المسجد الأبيض الجميل » . □

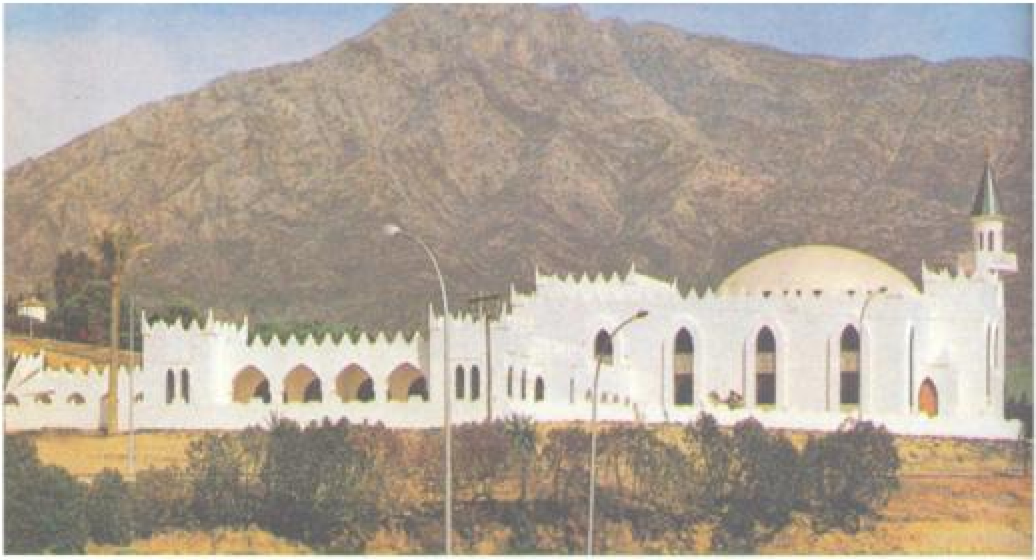

الى اليمين (أعلى) مسجد في ماربيا (أسفل) بيت من الداخل وقد تدلت على جدرانه أزهار وأغصان خضراء الى اليسار (أعلى) جانب آخر من جوانب المسجد . (أسفل) زقاق من أزقة ماربيا القديمة وقد تحول الى أماكن للهو والترفيه .

جمعية الجنوب والخليج العربي

شمعة وضاءة في طريق الخير

استطلاع : ريم الكيلاني

في مطلع عام ١٩٦٣ وصل الى الكويت ثمانية وعشرون طالبا من أبناء اليمن وسلطنة عمان وبعض أقطار منطقة الخليج العربي ، جاءوا سعيا للتحصيل العلمي ، في وقت كانت تعيش فيه المنطقة تحت وطأة ظروف قاسية ، حرمت أبناءها من أبسط مقومات الحياة العصرية . وقد وجد هؤلاء الطلاب مكانا لهم في بيت افتتح في منطقة الفروانية بالكويت ، حمل اسم « أحمد يحيى الثلايا » ، وكان الدافع انسانيا خالصا ، أكد على الحس الحضاري والانساني والقومي الناضج لدى مؤسسي الجمعية التي تحتفل هذه الأيام بمرور ربع قرن على انشائها . فكيف تواصلت .. مسيرة عطاء هذه الجمعية التي عرفت باسم جمعية الجنوب والخليج العربي ؟

بعد نجاح أول بيوت الجمعية « بيت الثلايا » وازدياد عدد الطلاب الوافدين من منطقة الجنوب والخليج العربي إلى الكويت ، وحاجتهم الماسة الى الرعاية والمساعدة لمواصلة التعليم ، تم فتح بيت آخر للجمعية عام ١٩٦٤ في دبي ، كانت الغاية منه رعاية الطلاب المحتاجين من منطقة ساحل عمان ومساعدتهم ، وقد أطلق عليه اسم (بيت المهلب بن أبي صفرة) ، وضم ثمانية عشر طالبا ، يتلقون تعليمهم في مدارس دولة الكويت بدبي في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .

كان النجاح حليف هذه التجربة الرائدة ، وكان لابد من ايجاد مبنى يضم هؤلاء الطلاب ، ليكون المقر الدائم لهم في الكويت ، فأنشىء لهم مبنى جديد عام ١٩٧٠ ، ضم ثمانين طالبا ، يدرسون في المرحلة

الثانوية .

وهكذا تحققت الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل ، وها هم الطلبة الذين أتوا صغارا يانعين يعودون أجيالا متابعة الى ارض الوطن ، بعدما نهلوا علما ومعرفة ، لينيروا بعلمهم وعملهم طريق المستقبل ، وليوصلوا الرسالة الى الآخرين ممن لم تتح لهم فرص مماثلة .

الأب الروحي

بعد افتتاح المبنى الجديد عام ١٩٧٠ كان التعليم يقتصر على المرحلة الثانوية في مدارس الكويت ، وكان الطلبة الناجحون ينتقلون تلقائيا للتعليم العالي في جامعة الكويت . وفي عام ١٩٧٣ بادرت الشركة الكويتية للاستثمار بارسال مجموعة من شباب الجمعية للدراسة في الجامعات العربية والاوروبية والأمريكية ، مقدمة لهم المنح والمخصصات المالية التي يحتاجها كل طالب علم في تلك البلاد ، وقد كانت هذه الخطوة حلما طالما راود أبناء الجمعية ، بتحقيقه سيفتح لهم الباب على مصراعيه ، ليبرزوا كفاءاتهم العلمية .

لكن هذا العمل الانساني الكبير ماكان له أن يتحقق لو لم يكن خلفه شخص يبذل من نفسه وماله الكثير من أجل هؤلاء الشباب ، وهو السيد عبد الباقي النوري .

ترى ماذا يقول الاب الروحي اليوم وابناؤه يكرمونه في حفل الجمعية الذي أقيم احتفاء به ، واحتفالا بمرور ربع قرن من العطاء ؟

توجهنا الى السيد عبد الباقي النوري في المبنى الذي يحتضن ٩٦ طالبا ، وقبل أن نبدأ الحوار معه قمنا بجولة في أرجاء مبنى الجمعية الذي يتكون من ثلاثة طوابق ، وستة أجنحة ، ومكتبة ضخمة ، تضم مجموعة كبيرة من الكتب والمراجع العربية والأجنبية .

في المكتبة مجموعة من الشباب يعدون بحثا ، ومجموعة أخرى تبحث عن معلومة ، وبعض الشباب يطالع الصحف اليومية ، ويتابع أخبار العالم ، وفي الغرفة المعدة للمذاكرة جلس عدد من الطلاب في هدوء تام ، لمتابعة دروسهم بجد وانتباه .

طالت جولتنا في أرجاء الجمعية ونحن نتعرف على النشاطات الاجتماعية والثقافية والرياضية التي يمارسها الطلبة ترويحا عن أنفسهم ، وكسرا للرتابة والملل ، ولكي يستعيدوا نشاطهم ، ويواصلوا الدرس والتحصيل ، فالجمعية وفرت للدراسة أدواتها ، وللترويح أدواته ، حتى يتمكن الشباب من ممارسة هواياتهم في النشاطات الرياضية ، كألعاب الطائرة والسلة وتنس الطاولة ، وكثيرا ماتعقد مباريات ودية في هذه الألعاب بين الطلبة .

وهناك أنشطة ثقافية تتمثل في تنظيم مكتبة الجمعية ، واصدار المجلة الحائطية ، والنشرات الداخلية التي تفيد الطالب في الاطلاع بصورة عامة .

وبينما كنا ننظر في احدى تلك المجلات ، ونقرأ ما كتب فيها ، كانت هناك مجموعات تقف عند كل مجلة تتابع وتطلع وتسجل ، وحين خرجنا الى حديقة الجمعية التي ساهمت وزارة الأشغال في تنسيقها بشكل جميل جذاب وجدنا مجموعة من الشباب تفترش العشب ، وتخطط لرحلة جماعية سيقومون بها في نهاية الأسبوع ، وتناقش خطة الحفل الترفيهي الذي سيقام ليلة الرحلة .

بادرني السيد النوري قائلا : « تغمرني السعادة وأنا أرى أبنائي اليوم رجالا أشداء بعلمهم ، وهم مازالوا يذكرون الجمعية ، ويشدهم الحنين اليها ، كما يشدهم الحنين لأرضهم وأهلهم » .

أعوام من الحنين

بعد الانتهاء من الزيارة دخلت مجموعة من الشباب الذين حيوا السيد النوري بحرارة ، فاستقبلهم بحفاوة واهتمام ، وأشار اليهم وقال لي : « هؤلاء هم أبنائي شباب الجمعية الذين مازال حبهم للجمعية وحنينهم اليها يشدهم لزيارتها بين الحين والحين » .

تعرفنا اليهم ، وكان بينهم مهندس كمبيوتر ، وآخر متخصص في العلوم وأبحاث التلوث البيئي ، وثالث فنان ورسام حاصل على الدرجة العليا في التصميم المسرحي من المعهد العالي للفنون المسرحية في

الصورة العليا لمبنى جمعية الجنوب والخليج العربي و (الى اليمين) صورتان إحداهما لشباب الجمعية في مباراة ودية في كرة الطائرة والأخرى لتنس الطاولة وذلك لتنمية المهارات واشباع الهوايات مما يتمثل في اتاحة الفرص أمام الشباب لممارسة الرياضة التي تستهويهم - وللجانب الثقافي جزء كبير من اهتمام الشباب خاصة من محبي القراءة والمطالعة . (أعلى الى اليسار) - وفي أوقات الفراغ لا بد من ايجاد وسيلة تسلية لتجديد النشاط والتشاور في المقررات الدراسية ويبدو ذلك في الصور الثلاث (الى اليسار) .

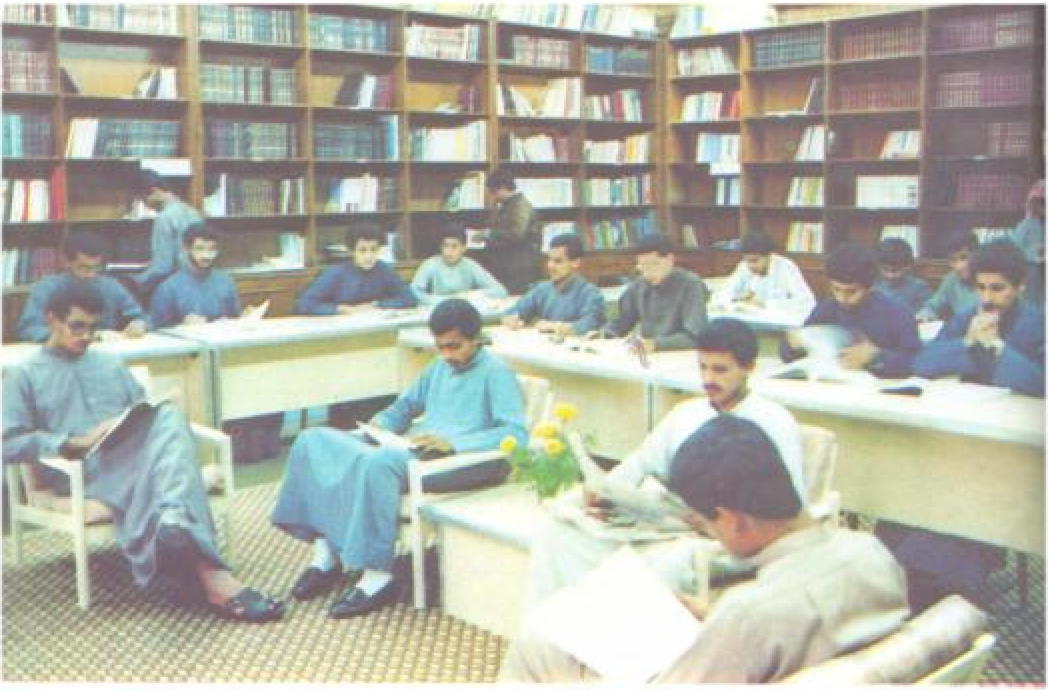
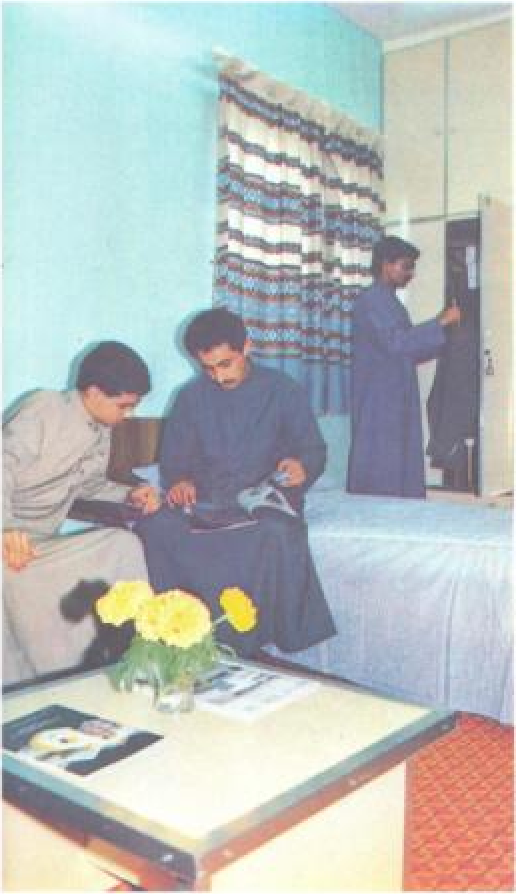

الكويت . آثرنا الجلوس معهم على الخروج لنقف على تفاصيل الطريق التي شقوها بسواعدهم وبمعاونة الجمعية .

المهندس قاسم أحمد ناصر مهندس كمبيوتر ، متخرج في احدى جامعات أمريكا ، متخصص في وضع البرامج قال : حضرت الى الكويت وعمري سبع سنوات ، وتكفل بي أحد أقربائي ، حيث كنت أقيم في بيته ، فدرست الابتدائية والمتوسطة ، وكان لابد من البحث عن مكان آخر ، فالبيت ضيق ، وعاداتنا لاتسمح بوجود شاب غريب وسط الأسرة ، فالتحقت بالجمعية التي احتضنتني ، وعشت في كنفها كأنني أعيش مع أسرتي ، وقد وفرت لي ولجميع زملائي من أبناء الجمعية المسكن والمأكل والمخصصات المالية الرمزية التي تعطى لنا شهريا ، بالاضافة الى الرعاية الأدبية ، حيث تأخذ الجمعية دور ولي أمر الطالب في المتابعة والاهتمام ، وتعليمنا كيفية تحمل المسئولية والمشاركة والتعاون ، وتتيح لنا كذلك فرصا جيدة للتعرف على طلاب من أقاليم وقرى لم نسمع عنها من قبل ، مما يزيد معرفتنا بعادات وتقاليد كثيرة كانت خافية علينا . لقد قدمت لنا الجمعية الكثير مما لم نكن نحلم به ، وفتحت لنا أبواب المستقبل دون مقابل .

عبدّ القادر السعدي فنان مبدع ، وزميل عمل ، وقد التقيت به مع من التقيت بهم لنقل تجربتهم مع الجمعية فقال الفنان السعدي :

التحقت بجمعية الجنوب والخليج والعربي في عام ١٩٧٦ ، أي في السنة الدراسية الأولى من المرحلة الثانوية ، حيث أنهيت دراستي لهذه المرحلة تحت رعاية الجمعية ، والتحقت بعدها بالمعهد العالي للفنون المسرحية ، قسم التصميم المسرحي ، ولا أنكر دور الجمعية في تفوقي وصقل موهبتي وتشجيعي ، فمنذ اليوم الأول لوجودي فيها وهي تغدق علينا جميعا الكثير من الاهتمام والرعاية ، فبالاضافة الى تمتعنا بخدماتها في السكن والغذاء ومصاريف الكتب والملابس اهتمت الجمعية بتشجيعنا على الاستمرار ، وتطوير هواياتنا في مجال الفن ، حيث وفرت لنا الكثير من الألوان وخامات الرسم ، وأمكنة خاصة لكل طالب لكي يمارس هوايته ، وكان للرعاية الأبوية التي أولانا اياها السيد النوري رئيس مجلس الادارة وبقية أعضاء مجلس الادارة أكبر الأثر في تفوقنا في المجالين العلمي والعملي وبالنسبة لي فقد توج ذلك بمعرض أقمته في عام ١٩٨٢ في مقر الجمعية ، حيث قام الأستاذ النوري بافتتاح المعرض الذي دعا اليه الكثير من الشخصيات الكويتية الذين أبدوا اعجابهم بلوحات المعرض .

انني مدين لهذه الجمعية التي أخذت على عاتقها رسالة انسانية نبيلة ، ولولاها لما توفر لي ولكثير من زملائي فرصة مواصلة الدراسة .

سباق مع الزمن

خمس وعشرون سنة مضت والجمعية لم تزل تدفع بأبنائها الى الأمام ، من أجل مستقبل أفضل ، حتى بات خريجو الجمعية هم الاستثمار الوحيد والعائد الجيد لمنطقة جنوب الجزيرة العربية ، فدون هذا العنصر ماكانت تستطيع هذه المنطقة أن تواكب مسيرة التقدم .

وبدأ السيد النوري بسرد قصته مع الجمعية قائلا : « لاتغيب عن ذهني خطوات الرحلة التي بدأت عام ١٩٦٣ ، حين كنت ناظر مدرسة ثانوية ، حيث دفعني احساسي القومي العربي تجاه أمتي الى مساعدة أبناء الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ، ممن كانت تضن عليهم ظروف الحياة بسبل العيش العصرية ، حتى لايضطروا في وسط هذه الأحوال الى ترك تعليمهم من أجل العمل. لقد آثرت ومجموعة من الشباب المتحمسين من أهل الخير أن نقوم بتقديم المعونة لهم ، ونأخذ بأيديهم لتخطي العوائق التي قد تقف حائلا دون أخذهم حقهم ونصيبهم من التعليم ، خاصة أنهم يتمتعون بقدر كبير من الذكاء والطموح . فقد كانت هناك مجموعة من هؤلاء الشباب الذين أتى بهم أقرباؤهم الى الكويت للتعلم ، لكن الظروف المحيطة بهم كانت تحول دون نجاحهم ، فالأماكن التي يعيشون فيها ضيقة ، وظروفهم المادية سيئة جدا . حاولت أن أجمع

وزملائي بعض المال ، بحيث نوفر لهم المأكل والمشرب والملبس والمسكن والاستقرار . وظل الحال كذلك الى أن صدر قانون جمعيات النفع العام الذي تبنته وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، والذي يشمل كذلك الجمعيات الخيرية ، وينص هذا القانون على اعطاء مساعدات مالية لهذه الجمعيات لمواصلة رسالتها ، وقد خصصت الوزارة للجمعية مبلغ ٦٠٠٠ دينار كويتي ، وارتفع هذا المبلغ اليوم الى ٣٠٠٠٠ ، وهي توازي ٣٠٪ من ميزانية الجمعية التي تصل الى ١٠٠,٠٠٠ ، كما تقدم بعض المؤسسات وأهل الخير من الأفراد للجمعية ٧٠٪ من ميزانيتها » .

ويؤكد السيد النوري على استمرار الرسالة التي قامت من أجلها الجمعية ، على الرغم من النهضة الواسعة التي تحظى بها اليمن اليوم ، بعد انتشار المدارس والجامعات في شطري اليمن ، وهذه المؤسسات التعليمية تقدم خدمات جليلة لأبنائها ، ولن يضيرها أن تسير معها الجمعية على نفس الدرب، لتحققا أهدافا مشتركة . ويستطرد السيد النوري : « كان لابد للجمعية أن تدعم خطوات مسيرتها التعليمية بخطة عمل شاملة على المدى البعيد ، لضمان تقدمها ، ولضمان الرعاية الكاملة المطلوبة للسنوات الدراسية المتبقية لأبنائها الطلبة ، وعلى ضوء خطتها تلك كان يتم قبول الطلاب المستجدين ممن تنطبق عليهم شروط القبول وان يكون المتقدم من أبناء الخليج العربي أو من جنوب الجزيرة العربية ، وأن يكون وضع أسرته المادي لايسمح له بمواصلة تعليمه الجامعي ، بالاضافة الى شروط لائحة الجمعية الداخلية . سعادتي اليوم غامرة وأنا أرى أمامي ٢٠٠ خريج من أبنائي الذين رعتهم الجمعية ، وقد تقلدوا جميعا مناصب مرموقة في أقطارهم ، واحتلوا وظائف قيادية حساسة ، مساهمة منهم في بناء وطنهم ومجتمعهم » .

الاستثمار الانساني

بقيت جمعية الجنوب والخليج العربي ركنا يجتمع فيه شباب المنطقة طلباً للعلم والمعرفة ، وكانت المسيرة شاقة طويلة ، ولابد من استراحة يقفون فيها ، ليستعيدوا أنفاسهم قبل يعودوا لمواصلة الطريق .

يقول السيد سليمان المطوع نائب رئيس الجمعية رئيس لجنة شئون الطلبة :

« اننا نسعى دائما الى مزيد من الاستثمار للطاقة البشرية المتوافرة في المنطقة ، لتنهض بها ، وتساعدها على التعايش مع المجتمع والعالم الحديث ، ومن هذا المنطلق تجدنا تشجع على الدراسات الجامعية التي تساهم في التنمية المطلوبة في المنطقة ، وبخاصة الدراسات التي ترتكز على مجال العلوم والادارة بفروعهما . ونحن بدورنا كجمعية خيرية تنتهي رسالتنا مع بدء حياة الطالب العملية ، لتشجيعه على العودة الى مسقط رأسه على الرغم من المغريات الكثيرة الموجودة في الأقطار النفطية في منطقة الخليج العربي . من هذا المنطلق تجدنا في الجمعية نتولى الاشراف والمتابعة التامة على الطلبة ، كما نركز على اعطاء الفرص دون عوائق ، لضمان عودة الفرد الى قطره بعد دراسته للتخصصات اللازمة » .

وأنهى السيد المطوع حديثه قائلا : « لاشك ان أعدادا هائلة تحتاج الى مساعدة الجمعية ، لكن الامكانيات المتاحة محدودة بقانون جمعيات النفع العام ، لهذا آثرنا قصر العون على الطلاب المتفوقين علميا ، المحتاجين اجتماعيا وماديا ، فالطالب يلقى من الجمعية رعاية أدبية ومادية طوال فترة دراسته ، كما أننا نتابعه في دراسته ، لنبعث في نفسه حافزا قويا للتحصيل العلمي ، وننمي ذلك بمواصلة النصح والمتابعة » .

انه لجميل حقا هذا الاحساس الذي يمنحه لنا وجود جمعيات من هذا النوع ، ويقف وراءها ويدعمها أشخاص لايترددون في البذل والعطاء ، وجميل أن تظل هذه النزعة موجودة حتى اليوم ، ونتمنى أن توجد مستقبلا في أقطار عربية أخرى جمعيات مماثلة ، تؤدي رسالة فيها من المشاعر الانسانية بقدر مافيها من المشاعر القومية الفياضة .□

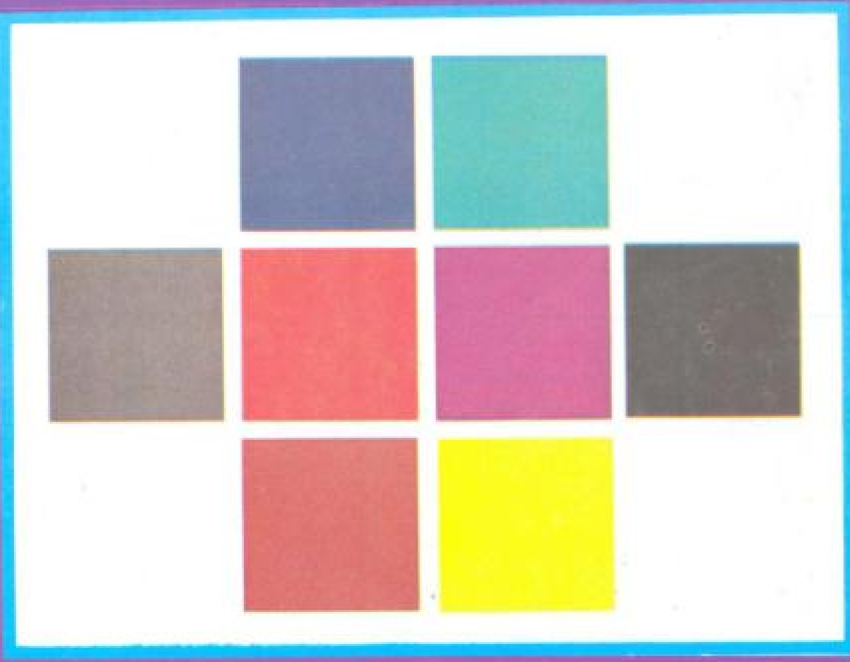

بطاقات الألوان في اختبار « لوشر » لقياس الشخصية

صحتك النفسية والألوان

بقلم : الدكتور دري حسن عزت*

تعد الألوان أحد العناصر الرئيسية التي تمكن الانسان من التعامل مع عناصر الكون ، وبها يميز بين المساحات والكتل ، ويفرق بين المتشابهات من الموجودات الطبيعية ، وبها يعبر عن عواطفه ومشاعره في لوحات مبدعة . والطب الحديث يحاول الاستدلال على أمراض الانسان وتكويناته النفسية من خلال استجاباته لدرجات الألوان المختلفة .

* استشاري الطب النفسي في الكويت .

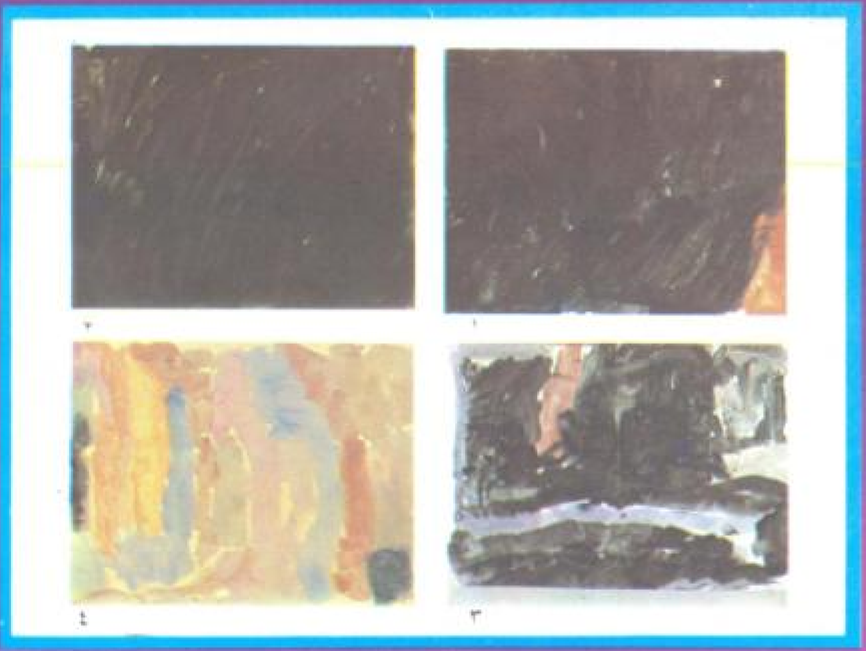

المريض بالاكتئاب يعبر عما يشعر به من معاناة ، مستخدما اللون الأسود ، وينحسر هذا اللون تدريجياً باطراد التحسن حتى بلوغ الشفاء فتظهر الألوان الزاهية كاملة .

للألوان دور حيوي في حياة الانسان ، وقد عرف الانسان الأول منذ القدم تأثير الألوان على حياته خلال دورة الليل والنهار ، وتتابع الظلام والضياء .

بحلول الليل تطل عليه السماء بلون أزرق قاتم ، فيتراجع عنده النشاط البيولوجي ويهمد ، فيلجأ للهدوء والكمون حتى ينام ويستريح ، كي تتجدد قواه ، ويستعد لنشاط اليوم التالي .

وبطلوع النهار يغمر الكون الضوء الأصفر الوهاج ، فيزداد عنده النشاط البيولوجي ، فيندفع الى الحركة والعمل . سبحان القائل « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا » . وهكذا نظم الانسان حياته خلال تتابع لونين من ألوان الطبيعة .

الطبيعة تحيط الانسان بألوان أساسية ، تطل عليه من بيئته ، فاللون الأزرق يطل عليه من السماء الصافية ، ويظهر له في مياه البحار والمحيطات ، واللون الأخضر يصبغ الحقول والغابات بما فيها من أشجار ونباتات ، واللون الأصفر يغمر الصحاري والحقول والغابات في فصل الخريف ، أما اللون الأبيض فيتمثل في الثلوج التي تغمر البلاد ذات الشتاء الممتد أو الأماكن التي تحيط بها الجبال الكلسية ، واللون الأحمر لا يظهر جهارا في مسطحات أو تكوينات بأحجام كبيرة تحيط بالانسان ، إلا أن كل إنسان منا يعلم بأن في شرايينه دماء حمراء .

تأثير الألوان على الإنسان وصحته :

من الذين درسوا الألوان ومدى تأثيرها على الإنسان دراسات مستفيضة ، عالمان شهيران من

علماء النفس هما العالم الألماني (جولد شتين) ، والعالم السويسري (ماكس لوشير) ، من نتائج دراساتهما على الألوان وتأثيرها على الأشخاص الذين يتعرضون لمحيط يغمره اللون الأحمر القاني فترات طويلة،ويركزون تفكيرهم شعوريا على وجودهم وسط هذا اللون ، وجدا أن ضغط الدم يرتفع عندهم وأن نبضهم وتنفسهم يزدادان سرعة ويحفزان لديهم النشاط الغددي ، فيميلون للانفعال والاستثارة بدنياً ونفسيا ، إذ أن اللون الأحمر ينبه الجزء « السيمبثاوي » للجهاز العصبي اللاإرادي المسئول عن التنشيط والتنبه والتحفز .

أما الأشخاص الذين يتعرضون لتأثير اللون الأزرق الخالص فإن ضغط الدم ينخفض عندهم ، وتقل سرعتا النبض والتنفس ، ويتراجع لديهم النشاط الغددي ، فيميلون للهدوء والاسترخاء ، إذ أن اللون الأزرق ينبه الجزء « الباراسيمبثاوي » من الجهاز العصبي اللاإرادي المسئول عن التهدئة ، ويوازن تأثير الجزء « السيمبثاوي » .

أجريت تجارب على أطفال في سن الرابعة ، قصت عليهم حكاية ذات أحداث محزنة ، وطلب منهم بعد ذلك أن يرسموا مشاهد الحكاية ، فغلب على رسومهم اللون البني القاتم ، وعندما قصت عليهم حكاية أخرى ذات أحداث مفرحة غلب على رسومهم اللونان الأخضر والأصفر .

وقد وجد أن الصناديق الثقيلة إذا طليت باللون الأسود شعر من يحملها بثقل وزنها ، أما إذا طليت باللون الأخضر فيشعر بخفة وزنها . والسكر إذا عرض للبيع في أكياس ذات لون أخضر انصرف الناس عن شرائه ، إذ يذكرهم هذا اللون بالفاكهة غير الناضجة قليلة الحلاوة ، إما إذا صبغت الأكياس بخطوط من اللون البرتقالي والأحمر أو الأصفر ازداد إقبال الناس على شرائها .

وينطبق هذا على المريض النفسي المصاب بمرض الاكتئاب أيضا ، فإذا طلب منه أن يعبر عما يعانيه بالرسم غلب على رسمه اللون البني الغامق ، ويدل على بداية تحسنه بالعلاج ظهور اللون الأحمر الفاتح على رسومه ، وباطراد التحسن تظهر باقي الألوان الزاهية كالأخضر والأصفر وينسى اللون البني الغامق .

الألوان والحالة النفسية للإنسان

اللون الأزرق : يهدىء الأعصاب ويزيل التوتر ، ولا شك أن الاستغراق في تأمل زرقة السماء الصافية بعض الوقت يحدث هذا الأثر ، ولذا يحب الناس تمضية إجازاتهم على شواطىء البحار بالقرب من زرقة مياهها .

اللون الأحمر : يسبب الاثارة والانفعال العاطفي ، لذا يستخدم هذا اللون في ممرات الاستقبال للدلالة على حرارتها ، وعلى الود والترحيب بالزائرين ، وفي النوادي الليلية والديكورات الداخلية ، وفي إشارات السير للتيقظ والتنبه الى الخطر .

اللون الأخضر : يوحي بالرخاء والخير والنعيم ، فالمحبة يرمز لها باللون الأخضر ، ويحب الناس أن يمضوا أوقاتهم في الغابات الخضراء والحدائق والبساتين ، كما توجد في بعض البلاد عيادات خاصة للعلاج بالألوان ، يتعرض المريض فيها عدة ساعات لهذا اللون متمشيا أو جالسا في حدائق اللون الأخضر الذي يمتد على مدى البصر . وقد وجد أن هذا الأسلوب العلاجي يساعد على الشفاء من الحالات النفسية الحسية السيكوسوماتية التي تنتج عن التوترات النفسية والاضطرابات العاطفية .

اللون الأصفر : يوحي بالاستبشار ، وتوقع مايسر ، ويساعد على التركيز وصفاء الذهن ، كما أنه يخفف من الشعور بالألم ، ويشيع الاطمئنان في النفس ، فاللون الأصفر هو لون الذهب بكل ما يرمز إليه الذهب ويوحي به .

اللون الأبيض : يوحي بالنظافة والطهارة والطيبة ، ويقال في الأمثال الشعبية في وصف طيبة الرجل بأن قلبه أبيض .

اللون الأسود : رمز الحزن ، ويعبر به عن الحداد

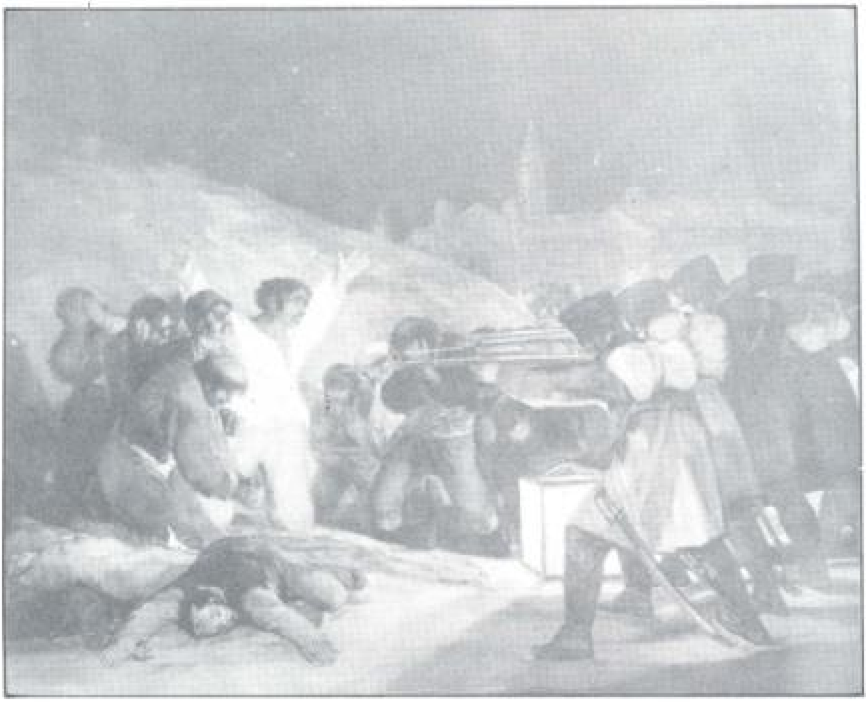

نموذج للألوان الغامقة والموضوعات المحزنة التي كانت نتاج المرحلة الانقباضية في شخصية الرسام جويا .

والعزلة ، في ثقافات بعض الشعوب ، ولدى شعوب أخرى كالصين مثلا يرمز الى الحزن باللون الأبيض .

وبشكل عام لا يحب الإنسان رتابة ونمطية اللون الواحد ، فهو يميل بطبعه - وكما في الطبيعة - الى الألوان المختلفة المنسجمة التي تشيع في نفسه الاحساس بالجمال ، وتزيل عنه التوتر ، وتؤدي به الى الاسترخاء .

هل تعكس الألوان شخصية الإنسان وتعبر عن صفاتها ؟

لا شك أن الرسامين هم أساتذة التعبير بالضوء ، كما أن الموسيقيين هم أساتذة التعبير بالصوت ، والألوان هي المادة التي يستخدمها الرسامون للإفصاح عن انطباعاتهم وعن بيئتهم .

فالرسام الهولندي رامبراندت . كانت تتسم شخصيته بالجد والصرامة والميل للعزلة ، والتفرد والانطلاق الى حد كبير داخل النفس . ولذلك تسود لوحاته الألوان الداكنة ، وإذا ظهرت بقع من اللون الأصفر أو الأحمر فتجد أنه يحيطها بمساحات كبيرة من اللون الأسود أو البني الغامق .

أما الرسام الفرنسي رينوار فقد كانت شخصيته تتسم بالمرح والكرم وحب الاختلاط بالمجتمع والانفتاح على البيئة الخارجية ، ومعاشرة الناس والاقبال على الحياة وطيباتها . ولذلك تغلب على رسومه الألوان الزاهية كالأصفر والأحمر والأزرق والأبيض ، كما أن موضوعاته تجسد المجموعات

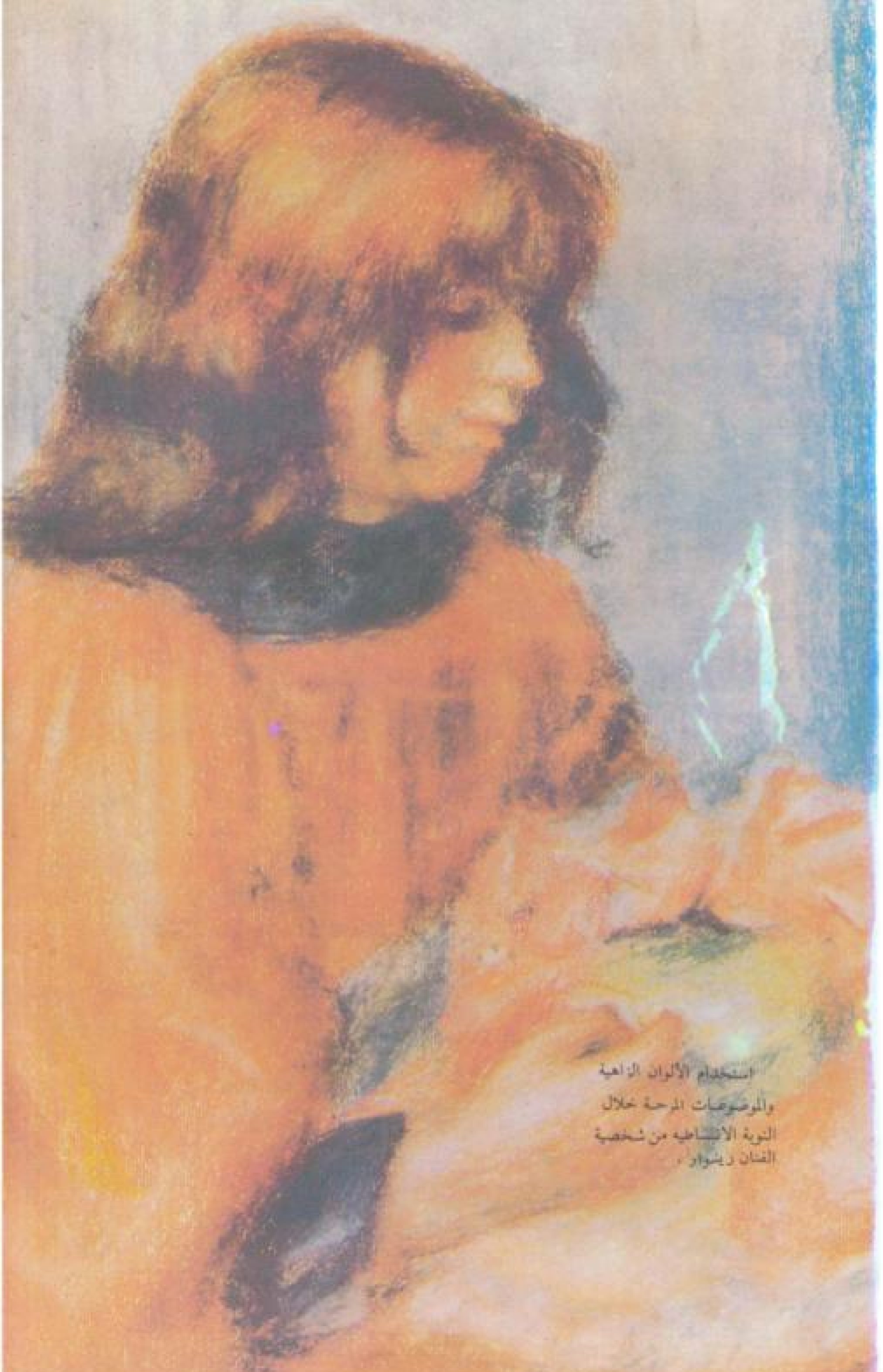

استخدام الألوان الزاهية
والموضوعات المرحة خلال
النوبة الانبساطيه من شخصية
الفنان رينوار .

صورة ذاتية لرامبرانت وصورة لوالدته ، ويلاحظ أنه غالبا ما يستعمل الألوان الداكنة مما يلائم شخصيته المنغلقة .

البشرية في مرحها وصخبها .

لكن شخصية الرسام الاسباني فرانسيسكو جويا ، تتأرجح بين فترات من الانقباض والاكتئاب ، وفترات من الانبساط والمرح ، ففي فترة الانقباض كانت تغلب على رسومه الألوان القاتمة . وهذه الفترة يسميها النقاد بالفترة السوداء ، وفي فترات الانبساط كان يعتمد على تراكيب لونية زاهية كالأحمر والأصفر والأخضر والأزرق .

الألوان وسيلة لقياس الشخصية

بعد دراسات وتجارب عديدة استطاع عالم النفس السويسري « ماكس لوستشير » أن يصمم اختبارا لقياس شخصية الإنسان مبنيا على أساس ما يختاره من ألوان ، وما يفضله وما يرفضه منها .

يطلب من الشخص أن يختار أربعة ألوان من ثمانية يعرضها عليه على ثماني أوراق على هيئة بطاقات والألوان هي ، الأخضر والأزرق والأسود والبنفسجي والبرتقالي والرمادي والأصفر والبني ، ويطلب منه أن يختار الألوان الأربعة التي يفضلها ، ويرتبها حسب تفضيله لها . لوحظ أن الشخصيات التي تتسم بالسلبية وتتهرب من المسئولية وتفضل السهل المريح وتحب الأخذ والاستحواذ وتضن بالتضحية والعطاء تختار أربعة ألوان بعينها ، وترفض أربعة أخرى .

أما الشخصيات الايجابية التي تقبل التحدي وترحب بالتنافس وتسعى اليه وتحب المساعدة والانجاز ، ولديها القدرة على العطاء ، وتقبل التضحية ، فإنها تختار أربعة ألوان معينة ، وترفض الأربعة الأخرى .

ولن نشير هنا بالطبع الى الألوان التي تفضل بواسطة الشخصيات المختلفة ، وتلك التي ترفض ، لكي لا تفقد المعرفة المسبقة عن دلالتها القيمة الاكلينيكية للاختبار .

ونستنتج أن للألوان ارتباطا كبيرا بحياة الانسان ، وأنها تعبر عن مشاعره ، وتفصح عن صفات شخصيته ، كما أنه يمكن استخدامها بذكاء وفاعلية كبيرة للإيماء إليه وتحفيزه لنشاط معين أو منعه من نشاط معين ، كما يمكن استخدامها في علاج بعض الحالات المرضية ، نفسية كانت أو جسمية .

لكن ما ذكرناه لا يؤخذ على أنه دلالات مطلقة ، وحتميات مقررة ترقى لمستوى القوانين النظرية ، فقصدنا الإشارة الى ما يمكن أن يكون للألوان من أثر في حياة الإنسان ونشاطاته وحالاته النفسية المختلفة □

اعتذار .. ودعاء

ورد في حديث الشهر المنشور في العدد ٣٥١ لشهر فبراير ١٩٨٨ من مجلة العربي حول كتاب « الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير » اشارة الى أن مراجعه متخصص كبير هو الدكتور صلاح الدين المنجد » .

وقد حدث خطأ غير مقصود في اقتران اسم الدكتور صلاح الدين بكلمة المرحوم .

واذ نبادر بالاعتذار للقراء وللدكتور صلاح الدين المنجد عن هذا الخطأ نتمنى للدكتور الصحة وطول العمر ليواصل عطاءه المتميز ونتاجه الوفير للثقافة العربية وللقراء .

صدر العدد السابع والعشرون من

العربي الصغير

أبريل ١٩٨٨

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير : د. محمد الرميحي

يشترك في تحريره مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

إقرأ في هذا العدد :

- همام و "زغلول في مأزق" ... مسلسل بالرسوم
- المهلب سفينة شراعية على أرض الكويت
- الحبل .. قصة عربية حديثة
- رمضان .. والمسلمون في الهند .. استطلاع
- الرجل والأسد .. قصة عالمية
- الإوز الأغبر يعبر البحر .. قصة عالمية
- رسالة ما وراء البحار

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة :

صفحات لأخيك وأختك الصغيرة - كمبيوتر العربي الصغير

اصنع بنفسك - تونة وكيكو وزيكو - جحا - همام .....

الطلاء الأيوني قفزة واسعة في تقنيّة الطلاء

بقلم : الدكتور نادر عبد الغفور أحمد *

اذا كان مشاهدو بعض الآثار الفرعونية في مصر ينبهرون بثبات ألوانها ونضارتها في مقابر الفراعنة ، على الرغم من آلاف السنين التي مرت عليها ، فإن التطور التقني المعاصر في ميدان طلاء الأدوات والمعادن قد تطور عبر مراحل من التجارب ، والاستخدامات ، حتى وصل مرحلة الطلاء الأيوني ، ليؤكد على قدرة الإنسان في ابتكار مايشبع حاجاته .

الطلاء علم أتقنه الانسان القديم ، وتفنن فيه ، واستعمله في أغراض شتى ، فمن طلاء جدران البيوت بالألوان والرسوم المختلفة لأغراض كالزينة أو الصيانة ، الى طلاء أواني الطبخ ، والسفن بالقير لحمايتها من الصدأ والتآكل . وقد أدرك الانسان القديم أهمية طلاء محاور العجلات بالزيت أو الشحم ، لتقليل الاحتكاك الناتج عن دوران العجلة ، لحمايتها من التآكل والتشقق . أما قدماء المسلمين فقد زاد إتقانهم لفن الطلاء ، واستعملوه بجدارة ماهرة في التصاميم الرائعة للمساجد والأبنية ، الى درجة أنهم أدخلوا استعمال ماء الذهب ، لاضافة بريق خاص للكتابات القرآنية المنقوشة على المساجد ، كما يلاحظها زائر مدينة قصر الحمراء الأندلسية ، وباقي الآثار الإسلامية القديمة .

على أن تقدم الحضارة الانسانية ، وزيادة متطلبات الحياة التي تعقدت مع الزمن قد ساعد كثيرا على تقدم علوم الطلاء كما هي الحال مع العلوم الأخرى ، بل لقد أدى الى فرض إيجاد التخصص اللازم لاستعمال الطلاء في مجالات الحياة المختلفة .

الطلاء الكهربائي :

بعد اكتشاف الكهرباء في القرن التاسع عشر دخل علم الطلاء طورا جديدا بابتكار تقنية الطلاء الكهربائي ، وبذلك قفز علم الطلاء من فن يدوي الى علم يعتمد على أجهزة متطورة ، لاتتدخل فيها يد الانسان ، وتتلخص طريقة الطلاء الكهربائي - الموضحة - باستعمال قطعتين معدنيتين ، تربط الأولى بالقطب الموجب ، والأخرى بالقطب السالب لمصدر كهربائي

* استاذ الهندسة الكهربائية في كلية (هدرسفيلد) الصناعية البريطانية .

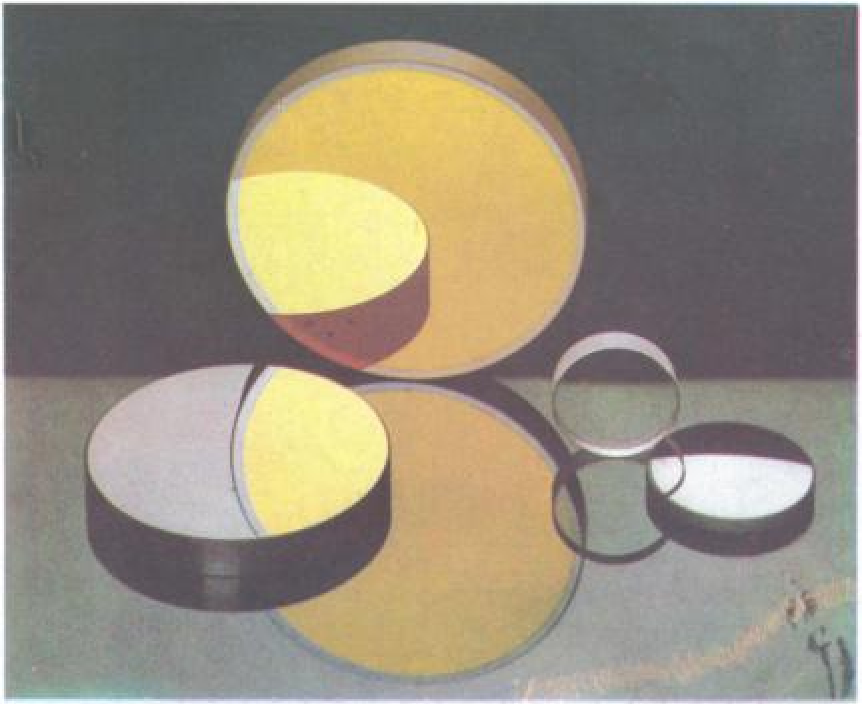

طلاء العدسات للرؤية الليلية

(كالبطارية) مثلا ، وتمثل القطعة الثانية الموصلة بالقطب السالب العينة المراد طلاؤها ، ثم تغمس القطعتان في حوض يحتوي على محلول كيماوي للأملاح المراد استعمالها كمادة للطلاء ، وعند مرور التيار الكهربائي في المحلول يتحلل الأخير الى مركبات موجبة تنجذب نحو القطب السالب ،

وتترسب عليه فتطليه ، أما المركبات السالبة فتنجذب نحو القطب الموجب . ولعل من أحسن الأمثلة التوضيحية لهذه الطريقة من الطلاء ، طلاء الملاعق بالفضة ، حيث تستعمل الملاعق كقطب سالب ،

وتغمس في محلول يحتوي على أملاح الفضة التي تتحلل ، فتترسب ذرات الفضة على الملاعق بعد فترة من الزمن ، ومن الواضح أن الفوائد الكثيرة لهذه الطريقة قد أدت الى تطورها ، واستعمالها في مختلف المجالات منذ ذلك الوقت حتى الآن .

ومن جملة المواد التي تطلى الآن بطريقة الطلاء الكهربائي هياكل السيارات ، وأواني الطبخ ، والحلي ، والمسامير المختلفة ، وغيرها .

وعلى الرغم من ذلك فان للطلاء الكهربائي عيوباً كثيرة ، منها ضرورة كون العينات من المواد الموصلة للكهربائية ، أما اذا كانت المادة عازلة كالزجاج فيجب أن تطلى أولا بطبقة رقيقة من مادة موصلة للكهرباء ، ثم توضع بعدها في أحواض الطلاء الكبيرة لطلائها بالمادة الرئيسية .

وتتمثل العيوب الأخرى في عدم التصاق الطلاء بصورة جيدة على العينة ، مما يؤدي الى انفصال الطلاء مع الزمن ، وذلك يحد من استعماله في الأغراض الخاصة ، وقد حدت كل هذه العيوب بالعلماء الى البحث عن طرق جديدة مبتكرة .

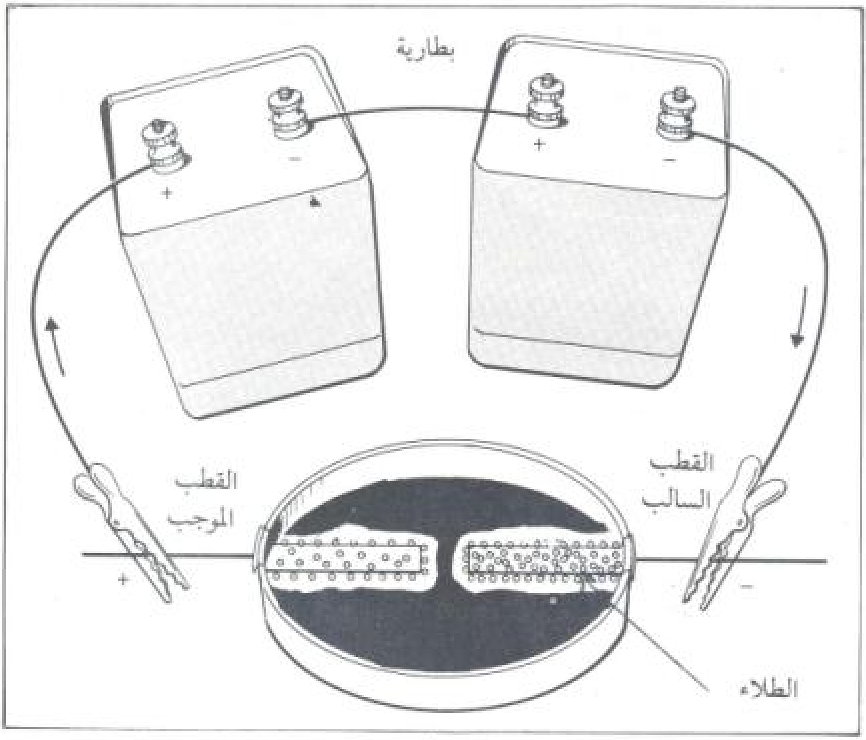

الطلاء الكهربائي

الطلاء داخل الاسطوانات المفرغة من الهواء

في عام ١٨٨٧ وجد العالم (نارولد) أنه يمكن طلاء المواد داخل الاسطوانة المفرغة من الهواء عند تسخين سلك كهربائي داخلها.

وهذه الطريقة تشبه فكرة المصباح الكهربائي المفرغ من الهواء ، الحاوي على سلك كهربائي ساخن ، لكن السلك في هذه الحالة لايحتوي على مواد متبخرة لكي لاتظل جدران المصباح وتمنع النور من الانتشار . تفرغ هذه الاسطوانات باستعمال مضخات خاصة تسحب الهواء من داخل الاسطوانة وتدفعه للخارج ، وبذلك ينخفض ضغط الهواء بدرجة أقل بكثير من الضغط الجوي بحيث ينعدم الهواء تماما داخل الاسطوانة المفرغة ..الا أن مثل هذه الأجهزة لم تكن متطورة آنذاك ، ولذلك اقتضى تطبيق الطريقة عمليا الانتظار فترة طويلة حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد حتى عام ١٩٤٦ . ومنذ ذلك الوقت بدأت تقنية الطلاء داخل الاسطوانات المفرغة من الهواء تقفز قفزات واسعة في مجال التطبيق العملي على نطاق واسع ، أما في الفترات التي سبقت عام ١٩٤٦ فقد اقتصر الاستعمال على المختبرات فقط وعلى نطاق ضيق .

ولعل من أهم أسباب تطور تقنية الطلاء داخل الاسطوانات المفرغة من الهواء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تقدم علم الالكترونيات ، وازدياد الحاجة لتصغير الدوائر الكهربائية لصنع أجهزة الكترونية معقدة كالحاسبات مثلا ، وكان الدافع

الأساسي لذلك سباق التسلح الذي شهده العالم بعد الحرب العالمية الثانية بين الدول المتقدمة ، والتنافس على تطوير الأسلحة وأجهزة الدفاع .

ذلك السباق قد أدى أيضا الى ازدياد الحاجة لتطوير أنواع جديدة من الطلاء ، لاستعماله في المرايا والعدسات البصرية ، خصوصا التي تستعمل في آلات التصوير الليلي التي تسمح للأشعة تحت الحمراء بالمرور من خلالها

والأشعة تحت الحمراء ، هي الأشعة الحرارية غير المرئية التي تبعثها الأجسام الساخنة كجسم الانسان ، والعربات ، والطائرات ، والنار ، وغيرها من مصادر الحرارة .

وفي طلاء مثل هذه العدسات تستعمل مواد مختلفة ، ككبريتات الخارصين ، أو أوكسيدات الثاريوم ، أو الكاربون ، ولهذه المواد خاصية السماح للأشعة الحرارية بالمرور من خلالها ، ومنع الاشعة المنظورة من المرور ، وكلما ازدادت دقة الطلاء ازداد تعقيد جهاز الرؤية الليلية وحساسيته ،

حتى أنه يمكن في بعض الأجهزة اكتشاف المكان الأصلي الذي انطلقت منه الطائرة أو العربة قبل فترة زمنية معينة . وقد أدرك العلماء أن طريقة الطلاء هذه لا تفي بالمواصفات الدقيقة للأجهزة المعقدة ،

ولذلك كان عليهم البحث عن طرق أخرى يمكنها تحقيق المواصفات المطلوبة ، ومن هنا برز استعمال طريقة الطلاء الأيوني التي تعتبر تقنية متطورة من تقنية الطلاء داخل الاسطوانات المفرغة من الهواء ، حيث يمكنها تحقيق بعض المواصفات الدقيقة المطلوبة .

الطلاء الأيوني

لعل أول من اكتشف هذه الطريقة العالم (برغوس) عام ١٩٣٦ ، بعد أن توصل الى الحصول على مواصفات جيدة للطلاء الذي أجراه داخل اسطوانة مفرغة من الهواء التي أعيد ملؤها بغاز

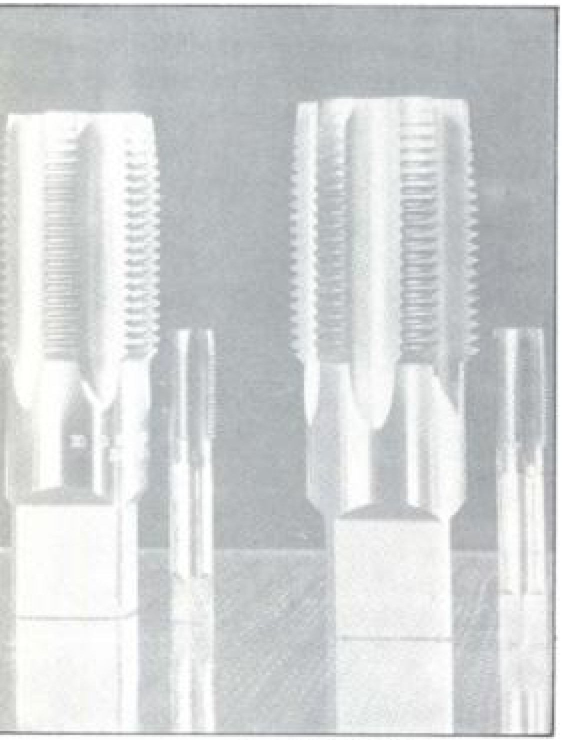

طلاء المثاقب لزيادة عمرها

« الأرغون » الخامل ويشابه غاز « الأرغون » غاز « النيون » الخامل الموجود داخل مصابيح « النيون » لكنه أثقل وزنا من غاز « النيون » . وقد قام العالم (برغوس) باحداث تفريغ كهربائي بين قطبين كهربائيين ، موجب-سالب داخل الاسطوانة المملوءة بغاز « الأرغون » ، ثم قام في نفس الوقت بتسخين سلك يحتوي على المادة المتبخرة المراد استخدامها كطلاء واستعمل العينة المراد طلاؤها كقطب سالب للتفريغ الكهربائي . ويؤدي مرور المادة المتبخرة خلال منطقة التفريغ الى فقدان ذرات المادة المتعادلة كهربائيا لبعض الكتروناتها ، وتتحول بالتالي الى أيونات موجبة (أي ذرات ذات شحنة موجبة) ، بعد أن كانت متعادلة كهربائيا ، وتنجذب

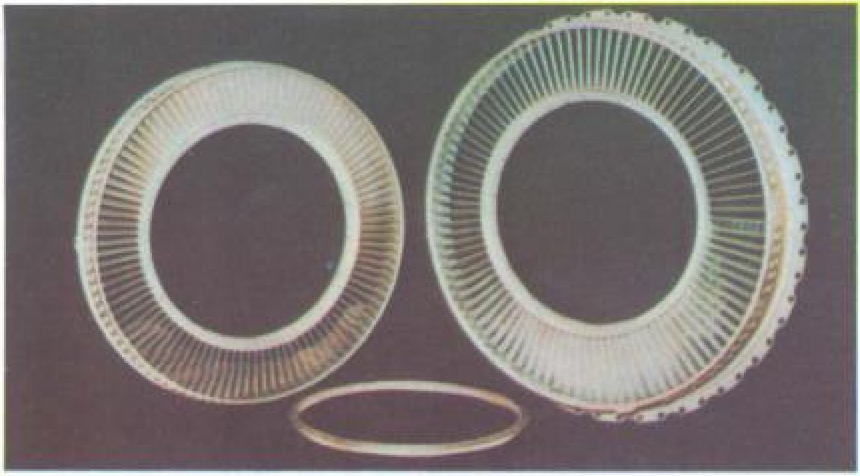

طلاء زعانف التوربينات النفاثة

هذه نحو العينة السالبة بسرعة كبيرة ، حيث تصطدم بسطحها ، وتغوص داخلها ، لتتحول الى طلاء ذي التصاق قوي بالعينة ، وذي مواصفات كيميائية وفيزيائية جيدة . وقد بقيت تقنية الطلاء الأيوني طي الكتمان حتى عام ١٩٦٣ ، عندما اكتشفها أيضا الفيزيائي (ماتوكس) الذي كان يعمل في معهد سانديا الامريكي . أما سبب اطلاق اسم الطلاء الأيوني فيعود الى تأين ذرات المادة المتبخرة في طريقها للوصول الى سطح العينة المراد طلاؤها .

لقد كان لازدياد الطلب على أنواع معينة من الطلاء ذي الخواص الكيميائية والفيزيائية العالية - التي تمكن العينة المطلوبة من مقاومة الصدأ والتآكل ودرجات الحرارة العالية - العامل المهم في تطوير هذه التقنية ، ذلك السبب هو الذي حدا بشركة (ماكدونالد دوغلاس) الامريكية المصنعة للطائرات لتبني هذه التقنية لطلاء أجنحة ومسامير للطائرات ، خصوصا طائرات الفانتوم ف ١٤ (**F-14**) ، ولطلاء زعانف توربينات المحركات النفاثة ، لزيادة مدة استعمالها وقد استعملت طريقة الطلاء الأيوني في طلاء بعض أجزاء الحافلة الفضائية الأمريكية (تشالنجر) .

وباختيار الطلاء اللازم يمكن لتقنية الطلاء الأيوني أن تطلي المعادن المختلفة ، كالحديد ، والتيتانيوم (وهو معدن خفيف وقوي) ، والسبائك الأخرى لزيادة مقاومتها للصدأ الذي ينتج عند التعرض لماء البحر ، أو لزيادة متانة شفرات مقصات الحديد والمعادن ، أو لزيادة عمر الثاقبات التي تستعمل في ثقب المعادن المختلفة إلا أن هذه التقنية لم تقتصر على هـذه الاستعمـالات فقط ، وانما امتدت فشملت طـلاء المعادن الرخيصة بسبائك نترات التيتانيوم التي تضفي على تلك المعادن الرخيصة رونقا ولونا مشابها لرونق الذهب ولونه ، بالاضافة الى صلابة أقوى من الذهب .

ودخلت تقنية الطلاء الأيوني المجالات العسكرية الأخرى ، مثل طلاء قضبان اليورانيوم لاستعمالها في المفاعلات النووية ، وطلاء أغلفة الصواريخ بالألمنيوم لزيادة مقاومتها للصدأ وماسورات المدافع لزيادة كفاءتها ومقاومتها للحرارة العالية التي تنتج عند اطلاق القذيفة ، وفي نفس الوقت لتقليل صيانة الماسورة بعد كل اطلاق . ويبدو أن المستقبل القريب سيشهد استعمالات أوسع لهذه التقنية الحديثة . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- حتى لا تكون الرياضة وبالاً..
- لغة أطفالنا.. هل نعرف حروفها ؟

حتى لا تكون الرياضة وبالاً...

بقلم : الدكتور عماد شمسي باشا

شهدت السنوات القليلة الماضية ازديادا لظاهرة ممارسة الرياضة من قبيل الاهتمام بالصحة العامة ، واندفعت وسائل الاعلام لتقدم متطوعة أنواعا من التمارين ، وطرقا للأداء ، ولم يتوقف أحد ليقول ان ممارسة الرياضة قد تنطوي على خطر حقيقي إذا لم يحسب الانسان ظروفه الصحية وقدراته البدنية .

هناك حقيقة يجب علينا الانتباه إليها ، وهي أن بعض الممارسات الرياضية تنطوي على مخاطر حقيقية ، قد تبلغ حد الموت الفجائي إذا تمت في منأى عن المراقبة الطبية المسبقة ، والمشورة الصحية السليمة ، وإن إدراكنا لهذه المخاطر ، وفهمنا لأبعادها يجعلنا أشد ما نكون حرصا على اتخاذ أسلوب من المزاولة ، يتحقق فيه التناسب المطلوب بين العمل الرياضي والكفاءة الجسمية ، ويتوافر معه عنصرا السلامة والأمان في نفس الوقت ، وتتأكد فيه المتعة النفسية ، واللياقة البدنية ، وهما ـ في أيامنا الراهنة ـ من الأهداف السامية والمطالب الغالية .

من البداية أحب أن أؤكد أن هذه الأسطر لا ترمي بحال من الأحوال إلى التخويف من الرياضة ، أو إلى التهوين من شأنها ، وإنما تهدف إلى تذكير مرتاد الرياضة بوجوب الانتباه لامكاناته البدنية ، ليقوم بعد ذلك بممارسة الرياضة التي تتناسب مع هذه الامكانيات ، بعيدا عن مؤثرات التقليد والدعاية ، وضغوط المؤسسات والأندية . وقد أصبح معروفا في الأوساط الطبية اليوم أن الآثار السلبية للمزاولة الرياضة غير المراقبة وغير الموجهة تكاد تمس كل عضو من أعضاء الجسم ، وتترك بصماتها على كل جهاز من أجهزته

القلب والرياضة

إن الدراسات التي تبين أهمية الرياضة المنتظمة للحماية من مرض تصلب شرايين القلب والوقاية من ذلك ، ومن الأزمات القلبية كثيرة . لكن هذه الرياضة قد تكون سلاحا ذا حدين ، لا سيما بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من ضيق في شرايين القلب ، والاستعداد للاصابة بالذبحة الصدرية

سيدة ورجل .. يمارسان رياضة الجري .. فهل نأكد لها جدوى هذه الرياضة .. دون مضاعفات ؟

(ANGINA) ، ذلك أن الرياضة تعمل على سرعة دقات القلب ، وازدياد شدة انقباضه ، وارتفاع الضغط الشرياني ، مما يزيد حاجة القلب إلى الأوكسجين الذي يحمله الدم إلى القلب ، وحين تكون شرايين القلب سليمة ، فإنها تستطيع بسهولة ودون مشكلة تلبية حاجة القلب المتزايدة من الأوكسجين والدم ، لكن المشكلة تتواجد بشكل حاد أحيانا عندما تكون هذه الشرايين مريضة ضيقة متصلبة ذات قدرة محدودة على توصيل الدم إلى القلب ، عاجزة عن تلبية حاجته المتزايدة من هذا الغذاء الحيوي ، عندها يعاني القلب من أعراض نقص التروية التي تظهر باضطراب نظام دقاته أو بالذبحة الصدرية التي قد تؤدي إلى الموت الفجائي .

ولقد بينت إحدى الاحصائيات أن معدل الموت الفجائي بين ممارسي رياضة الجري كان في حدود شخص واحد تقريبا لكل ثمانية آلاف شخص سنويا ، وأن هذا المعدل الذي يتجاوز سبعة أضعاف معدل الموت في الحياة العادية يكشف خطر الرياضة العنيفة على المصابين بتصلب شديد في شرايين القلب ، ويدعو هؤلاء إلى لزوم الحذر أثناء مزاولتهم لهذا النوع من الرياضة .

يضاف إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى ، لا تقل عن سابقتها أهمية ، وهي أن خطر الاصابة بأزمة القلب أو الموت الفجائي لا يقتصر على الأشخاص المشار إليهم آنفا ، وإنما يتعداهم إلى الرياضيين الأصحاء كامل اللياقة الذين ما زالوا في عنفوان الشباب . وقد تبين من الاستقصاء التشريحي لوفيات عديدة بينهم أن أغلبها قد نجم عن آفات عضوية في القلب ، لم يكشف عنها مسبقا ، ومن هذه الآفات اعتلال القلب الضخامي (Hypertophic) مثلا أو شذوذات خلقية في شرايين القلب ، أو ضيق في إحدى صماماته ، أو تمزق شريان الأبهر (Aorta-) بسبب الأمراض الوراثية كمرض مارفان على سبيل المثال ، ومن المؤسف أنه من الصعوبة بمكان التوصل إلى تشخيص بعض هذه الأمراض قبل حدوث الوفاة .

ونقطة أخيرة في العلاقة بين القلب والرياضة ، هي أن الممارسة الرياضية المنتظمة التي قد تستمر سنوات طوالا لا تحمل في حد ذاتها تأميناً مؤكدا ضد الاصابة بمرض تصلب الشرايين ، ويجب ألا تعطي للشخص شعورا بالحصانة يجعله يستهين ببعض الاشارات والعلاقات التي قد تدل على نقص التروية القلبية ، لا سيما حين يكون هذا الشخص فوق الثلاثين من العمر ، أو حين يكون من المدخنين ، أو حين يكون مصابا بمرض البول السكري أو ارتفاع الضغط الشرياني ، وأمثال هؤلاء ينصحون بإجراء ما يسمى « اختبار الجهد » (stress - Test) تحت إشراف طبي ، يمكن عن طريقه تقييم كفاءة الشخص البدنية ، وقدرته على تحمل درجات متفاوتة من الاجهاد ، وكشف العلامات المبكرة للاصابة بتصلب الشرايين ، ثم وصف النظام الرياضي الملائم ، واتخاذ الاجراءات العلاجية المناسبة .

ماذا عن الرئة والرياضة ؟

تؤدي الرياضة عند بعض المصابين بالربو إلى إثارة أزمة الربو المعروفة أو إلى التشنج القصبي الذي يظهر غالبا بنوبات من السعال ، وضيق في التنفس المصاحب للوزيز وقد يحدث للأشخاص الذين لم يسبق أن أصيبوا بالربو ، ويبدو أن هذا التشنج القصبي ينجم عن البرد الذي يصيب الجهاز التنفسي أثناء الرياضة ، وبخاصة إذا تمت في طقس بارد أو شديد الجفاف ، ويسهل تشخيص أعراض التشنج القصبي إذا قام الطبيب بفحص المريض أثناء الرياضة أو بعدها بإجراء اختبارات لوظائف الرئة تالية للجهد .

ولمحاولة الحد أو التقليل من أزمات ضيق التنفس المصاحبة للرياضة يمكن أن ينصح المريض باستخدام كمامة (Mask) مناسبة ، يضعها على أنفه وفمه أثناء ممارسة الرياضة في جو بارد ، وبالعمل على ممارسة الرياضة بشكل يسمح بالراحة فترة قصيرة تتكرر خلال النشاط الرياضي ، وتجنب أنواع الرياضة التي قد تثير أزمات الربو ، واختيار رياضات ليس لها تأثيرات مزعجة ، وربما كان أفضلها على الاطلاق السباحة . وفي حال فشل الاجراءات الوقائية سابقة الذكر يمكن الاستعانة ببعض الأدوية المضادة للتشنج القصبي قبل بدء الرياضة وتحت إشراف طبي .

حساسية ضد الرياضة

كما أن هناك تحسسا من بعض أنواع الأغذية والأدوية والمواد والأبخرة ، فإن لدينا اليوم تحسسا من نوع آخر ، وهو التحسس من التعب والاعياء اللذين يصاحبان الألعاب الرياضية المجهدة . وعلى الرغم من قلة هذا النوع من التحسس إلا أنه موجود مشاهد ، ويظهر غالبا بإحساس المصاب بتعب تعقبه حكة تشمل الجسم كله ، يرافقها ظهور شَرى (ARTICARIA) مشابه لحالات الشَّرى التي تحدث بعد تناول بعض الأطعمة أو الأدوية التي تكون أجسام بعضنا متحسسة منها ، إلا أن هذه الحساسية الخاصة تحدث غالبا بعد فترة قصيرة من ممارسة الرياضة ، وتستمر فترة تتراوح بين نصف ساعة وعدة ساعات ، وقد يرافقها أحيانا الصداع والغثيان والقيء وألم البطن ، وقد لوحظ أن هذا النوع من الحساسية يحدث خاصة حينما يكون الطقس حارا ، وعلى الرغم من أن آلية هذا النوع من الحساسية ما تزال غير مفهومة تماما ، إلا أنه يعتقد أنها تحدث بآلية مشابهة لآلية الحساسيات الأخرى .

الرياضة والمرأة

على الرغم من شيوع الرياضة بين كثير من النساء في العصر الحاضر سعيا وراء المحافظة على أجسام أكثر رشاقة وتناسقا ، إلا أن آنساتنا وسيداتنا العزيزات مدعوات إلى الترفق والحكمة في ممارسة الرياضة لاسيما المجتهدات منهن فهن مطالبات بعدم الإفراط فيما شأنه أن يؤذي بنيتهن اللطيفة . فهنالك

حالات من اضطراب الدورة الشهرية (الطمث) ناجمة عن كثرة ممارسة الرياضة ، لا سيما الرياضة التنافسية ، وهذه الاضطرابات تتجلى بتأخر البلوغ أو انقطاع الطمث ، وعلى الرغم من أن الأعراض السابقة قد تنجم عن الافراط في الرياضة إلا أن الفحص الدقيق للكشف عن أسباب أخرى قد يكون أمرا بالغ الأهمية ، وفي سياق الحديث عن الرياضة والمرأة أود أن أشير إلى أهمية الرياضة المعتدلة المنتظمة ـ كالمشي مثلا ـ في الوقاية أو في التقليل من حدوث مرض تخلخل العظام (Osteoporosis) الذي يكثر بين النساء اللواتي تجاوزن سن اليأس واللواتي تخلو حياتهن اليومية من الممارسة الرياضية .

وللغدد مسألة أيضا

في مجال أمراض الغدد أود أن أشير بصورة خاصة إلى أثر الرياضة على مرضى البول السكري ، لا سيما بعد أن أصبحت معادلة الطاقة تخزينا وتصريفا واحدة من الخطط والمفاهيم المعتبرة في العلاج ، فنحن نعلم أن ممارسة الرياضة بشكل منتظم أمر مفيد مطلوب لكبح جماح هذا المرض ، وللمساعدة على تنظيم أفضل لمستوى السكر في الدم ، لكن علينا أن ننتبه إلى فئة المرضى الذين يعتمدون في علاجهم على حقن « الأنسولين » ، إضافة إلى الحمية الغذائية لضبط مستوى سكر الدم لديهم ، فهم يحتاجون إلى رياضة معينة ، تتناسب مع امتصاص الجسم « للأنسولين » ، إذ من المعروف أن الرياضة تعمل على زيادة معدل امتصاص « الأنسولين » ، مما يؤدي إلى تأثير أقوى له ، الأمر الذي يعرضهم إلى نوبات نقص سكر الدم ، وما ينجم عن ذلك من اختلاطات غير محمودة ، مما يوجب أخذ الاحتياطات اللازمة قبل ممارسة الرياضة ، ومن أهمها إنقاص جرعة « الأنسولين » المعتادة ، أو تناول القليل من المواد السكرية ، إضافة الى كمية الطعام المقررة .

من ناحية أخرى قد تسبب الرياضة اضطرابا واضحا في مستوى سكر الدم ، لا سيما إذا كانت السيطرة على المرض محدودة أو مفقودة ، إذ تؤدي الرياضة في مثل هذه الحالات إلى زيادة مفرطة في مستوى سكر الدم ، وحدوث الاحماض الدموي ، وظهور « الأسيتون » في البول ، وهي دلائل على اضطراب التفاعلات الحيوية في الجسم عامة .

مفاصلك وعضلاتك والرياضة

تتعدد إصابات العضلات والمفاصل ، وتتنوع باختلاف نوعية الرياضة التي تمارس واستمراريتها ، وتتفاوت خطورتها بين إصابات بسيطة كإجهاد العضلات أو الأوتار أو الأربطة المفصلية ، وبين إصابات أكثر خطورة كالكسور والنزيف وما إلى ذلك ، وقد تبين من الاحصاءات في هذا المضمار أن الركبتين والقدمين من أكثر أعضاء الجسم تعرضا للأذى ، كما أنها تكون أكثر حدوثا حينما يتجاوز معدل السير أو الجري ثلاثين ميلا خلال أسبوع ، كما أن هذه الاحصاءات لم تشر إلى فرق كبير في احتمال التعرض لتآكل المفاصل المبكر بين الأشخاص الذين يمارسون رياضة الجري بشكل منتظم ومعتدل ، وبين الذين لا يمارسون هذا النوع من الرياضة على الاطلاق .

وقفة عند الجهاز البولي والرياضة

من المعروف أن الإجهاد العضلي وبخاصة عند عدائي المسافات الطويلة يؤدي إلى ظهور الدم والبروتين في البول ، وهذه الموجودات البولية ليس لها أهمية كبيرة من الناحية السريرية ، لكن هناك حالات من القصور الكلوي الحاد لوحظ ظهورها بعد أنواع من الرياضة العنيفة ، وبخاصة إذا مورست في الطقس الحار ، بسبب التعرض لنقص سوائل عن طريق العرق الشديد ، ومثل هذه الحالات تفسر بحدوث انحلال في عضلات الجسم ، وترسب مخلفات هذا الانحلال العضلي في الكليتين ،

مما يؤدي إلى توقفها المؤقت عن العمل ، إلا أنه ينبغي التأكيد على أن ظهور الدم في بول الرياضي قبل البدء في الرياضة يجب أن يكون داعيا إلى إجراء المزيد من الفحص والاستقصاءات ، سواء بالمواد الظليلة أو بالتنظير المثاني إذا رأى الطبيب ذلك ضروريا للتأكد من عدم وجود أسباب أخرى لوجود الدم في البول ، ففي حالة معينة تحتاج لعلاج محدد .

الآثار الحرارية

لا يفوتنا ونحن نستعرض الآثار السلبية التي قد تسببها الممارسة غير الحكيمة للرياضة أن نذكر ما يكثر حدوثه منها في المناطق الحارة من أقطارنا العربية . وأعني بها الآثار الناجمة عن ارتفاع درجة حرارة الجسم ، وتشمل هذه الآثار الاجهاد الحراري ، والمغص العضلي ، وضربة الحرارة .

فمن الناحية الفسيولوجية يترافق الاجهاد أو العمل العضلي غالبا مع تولد الحرارة ، ومن الناحية الآلية فإن هذه الحرارة المتولدة تنجم عن تحول الطاقة الكامنة في المركبات الكيميائية في أجسامنا إلى طاقة « ميكانيكية » ، تستخدم في تحريك العضلات والمفاصل . ولكي يتم التوازن الحراري لا بد للجسم من وسيلة للتخلص من هذه الحرارة المتولدة الزائدة ، ولهذا الغرض زود الخالق أجسامنا بوسائل مختلفة للتخلص من هذه الزيادة المؤذية ، ومن هذه الوسائل التعرق والشعيرات الدموية المنتشرة في جلدنا ، والهواء الحار الذي ننفثه بسرعة من الأعماق أثناء الجهد العضلي (اللهاث) ، وحينما تفشل هذه الوسائل في أداء مهمتها أو تتعب تتراكم هذه الحرارة داخل أجسامنا ، مؤدية إلى أعراض الاجهاد الحراري وضربة الحرارة ، أما الاجهاد الحراري فيظهر بالتعب والصداع والغثيان الذي يحدث غالبا بعد

ممارسة الرياضة في جو حار ، لا سيما اذا تعرض الجسم لتعرق شديد ، كما هو متوقع في مثل هذه الظروف وحين يستمر الاجهاد العضلي فإنه يصل بالانسان إلى ما يسمى « بضربة الحرارة » ، وهي حالة صحية طارئة قد تهدد الحياة ، وتنذر بالموت ، وتتميز بارتفاع شديد في درجة الحرارة ، واضطراب في الوعي ، مع آثار سلبية على القلب والكبد والكلى ، وفي هذه الحالة لا بد من التدخل الطبي السريع ، والمعالجة الاسعافية المركزة ، بتعويض السوائل المفقودة ، وتبريد الجسم بمختلف الوسائل المتاحة .

أما المغص العضلي فيقصد به تقلص العضلات المؤلم الذي يحدث أحيانا في أشهر الصيف المعروفة بحرارتها الشديدة التي تؤدي إلى زيادة التعرق وفقدان صوديوم الجسم بسببه ، مع عدم الانتباه إلى وجوب تعويضه بإضافة الملح الى الطعام ، وإلى ضرورة تناول السوائل الكافية . جميع هذه الآثار الحرارية يمكن تفاديها والوقاية من مضارها باستخدام الملابس الخفيفة صيفا ، وتجنب الرياضة وبخاصة ذات الزمن الطويل منها في الطقس الحار ، مع تناول كميات كافية من الماء والسوائل الأخرى ، وتعويض الصوديوم المفقود بالتعرق عن طريق تناول كميات إضافية من ملح الطعام .

بلا إفراط

في الأسطر السابقة حاولت عرض بعض الآثار السلبية التي قد تكتنف الممارسة غير الحكيمة للرياضة ، وذلك في حالتي الصحة والمرض ، ولم يكن قصدي بحال من الأحوال أن أقلل من أهمية الرياضة ، أو أن أثبط الهمم عن ممارستها ، وإنما قصدت إلى التنبيه إلى بعض السلبيات التي قد يفوتنا تقديرها ، والتي قد تأتي بغير المطلوب ، ولعل في الأفكار السابقة ما يدعو إلى ممارسة أكثر عقلانية للرياضة ، تتناسب مع قدرات أجسامنا وإمكاناتها ، وتجعلنا نستمتع برياضة خالية من المخاطر ، بعيدة عن الافراط والتفريط □

لغة أطفالنا

هل نعرف حروفها؟

إعداد : الدكتور سامي عزيز

« يستخدم أطفالنا قبل النطق لغة الاشارة أداة للاتصال والتعبير ، والمدهش أن هذه اللغة واحدة لكل الأطفال في المجتمعات المختلفة . وفي دراسة جديدة اكتشف العلماء أن توجهات أبنائنا ومشاعرهم وسماتهم النفسية تتضح من خلال هذه الإشارات التي يعبرون بها عن أنفسهم » .

يواجه العالم الفرنسي هبرت مونتاجنر المتخصص في دراسة سلوكيات الحيوان حاليا تحديا جديدا ، فلقد طلبت منه جامعة « لسانكون » التي تقع على حدود سويسرا أمرا غير متوقع ، فعلماء الطب النفسي بالجامعة الذين أعجبوا بدراساته في سلوكيات الحيوان والحشرات طلبوا منه الانضمام لهم لدراسة سلوكيات الأطفال ، ولابد من قبول التحدي .

تقول النتائج الأولية التي توصل إليها مونتاجنر بعد عمل شاق استمر عدة شهور ، وبعد أكثر من ٣٢٠ كيلو متراً من الأفلام التي سجلتها عدساته ، إن دراسة سلوكيات الأطفال علم جديد ، سيجد طريقه لجامعات العالم خلال السنوات القليلة القادمة .

هل طفلك طفل اجتماعي ؟ وهل طفلك يصلح لأن يكون قائدا في المستقبل ؟

أسئلة كثيرة أجابت عنها دراسة مونتاجنر ، إلا أن كثيراً من علامات الاستفهام مازالت محل بحث ودراسة .

لم يسبق لها مثيل :

يقول مونتاجنر معلقا على هذه الدراسة : « لقد استطعت من خلال خبرتي الطويلة في علم سلوكيات الحيوان أن أبدأ في تحليل لغة الأطفال غير المنطوقة ودراستها ، فحتى بعد أن يعرفوا كيفية التحدث ببعض الكلمات المفهومة ، فإنهم يستمرون باستخدام هذه اللغة ـ أقصد لغة الاشارة والحركات ـ

مما يؤكد على وظيفتها في الاتصال » . ويستكمل حديثه قائلا : « بعد دراسة ١٥٠٠ طفل أعمارهم ما بين ستة أشهر وست سنوات يمكنني أن أقول إن تصرفات الأطفال وحركاتهم تنقسم إلى عدد من المجموعات . وسنرى معاً أهمية هذا التقسيم في فهم الخصائص التي ترمي إليها كل مجموعة .

حركات طفلك . . من أي نوع ؟

لقد أمكن تقسيم حركات الأطفال - بعد العديد من الدراسات التي قام بها مونتاجنر - إلى خمس مجموعات متميزة :

١ - حركات تنم عن الحب والحنان ، وتزيد العلاقة مع الأطفال الآخرين ، مثل إعطاء لعبته أو الحلوى التي يأكل منها لطفل آخر ، أو المسح باليد على وجهه ، أو الاكتفاء بالابتسام له ، أو التصفيق باليدين ، أو مد اليد إليه كأنه يشحذ منه ؟ أو مسك ذقنه بحنان .

٢ - حركات تظهر التهديد والوعيد ، مثل التكشير ، وإطباق الأسنان ، وفتح الفم ، والإشارة بالسبابة إلى الطفل الآخر ، أو الضغط على قبضة اليد ، أو رفع ذراع واحدة إلى أعلى ، أو مد الجذع للأمام .

٣ - حركات عدوانية ، مثل : القرص والضرب والعض وجذب الشعر والملابس وهز الطفل بعنف ، أو محاولة دفعه للأرض ، أو خطف لعبة الطفل الآخر الممسك بها .

٤ - حركات تنم عن الخوف ، مثل إخفاء الوجه بين الذراعين والنظر لأسفل ، أو الحركة للخلف ، أو الهروب بعيدا ، أو الصراخ

٥ - حركات تنم عن الشعور بالوحدة ، مثل : مص أصابع اليد وجذب الطفل لأذنه ، أو مصه للعبته ، أو الوقوف بعيدا عن باقي الأطفال ، أو الجلوس بمفرده على الأرض ، أو النوم على الأرض في وضع يشبه وضع الجنين في بطن أمه ، أو البكاء منفردا .

لغة عالميـة :

تشير ملاحظات « مونتاجنر » إلى أن بعض الأطفال يميلون إلى استخدام بعض الحركات التي تنتمي لمجموعة معينة من المجموعات التي تعرضنا لها بصورة أكثر من غيرهم . فالملاحظ أن هناك نسبة غير قليلة من الأطفال تستخدم الحركات التي تنم عن العنف بصورة أكثر في سن مبكرة - قبل إتمامهم العام الثاني - في حين أن هناك نسبة أخرى من الأطفال تميل معظم حركاتهم إلى الود والحب والصفاء ، ولا يعرفون شيئا عن العنف أو الوعيد والتهديد . إلا أن هذه التصرفات جميعها غير متعمدة ، أو غير مقصودة ، وهي غالبا ما تتزايد مع نمو الأطفال ، وانتقالهم إلى مراحل العمر المختلفة ، لتصبح طريقتهم الثابتة في تصرفاتهم مع الآخرين .

يؤكد « مونتاجنر » أن حركات الأطفال الذين كانوا مجال دراسته في فرنسا وسويسرا وبعض مناطق أفريقيا تكاد تطابق حركات الأطفال الذين سبقت دراستهم في الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا . لقد اشترك العديد من العلماء في هذا المجال ، أمثال بلورتن جون ، وماك جرو ، وديفيد لويس ، وغيرهم ، وجميعهم يؤكدون تطابق هذه اللغة غير المنطوقة على الرغم من اختلاف العوامل البيئية والجغرافية والاجتماعية .

للحب لغة خاصة :

هل يردد طفلك لغة الحب ؟

يقول « مونتاجنر » : إن الطفل قبل دخوله المدرسة يعرف هذه اللغة ، وبعض الأطفال يظهرونها بصورة واضحة في تصرفاتهم مع الأطفال المحيطين بهم ، فالطفل عندما يميل برأسه على كتفه مبتسما أو يلوح بيده في ود وعطف ناحية الطفل الآخر

الذي يقابله لأول مرة غالبا ما تبدأ علامات الحب والتآلف بين هذين الطفلين في ثوان معدودة في ٨٠٪ من الحالات ، بل في بعض الأحيان قد يذوبان حبا ويبدأ كل منها في تبادل الهدايا مع الآخر ، وقد تندهش حقاً حينها ترى طفلك يقدم عن طيب خاطر أعز لعبة لا يطيق أن يلمسها أحد غيره إلى صاحبه الجديد مبتسما راضيا ، كأنه يريد أن يقول له : انظر كم أنا أحبك .

للحب قوة لا شك في ذلك حتى بين أطفالنا .

وهذه القوة تأتي من حركات متتابعة متسلسلة من الطرفين ، وحتى تتضح الأمور قام مونتاجنر بتصوير العديد من هذه اللقاءات ، حتى يمكن دراستها والتعليق عليها .

في أحد هذه الأفلام طفلة صغيرة ، لم تتجاوز عامها الثاني ، تتقدم بين طفلين ، وأثناء تقدمها تميل برأسها قليلا نحو كتفها الأيسر ، وينم وجهها عن ابتسامة وفرح ، وفي نفس الوقت تجد الطفل الآخر يبتسم لها ، بينما يندفع الطفل الآخر فيمسك بلعبته الوحيدة كما يقول مونتاجنر ويقدمها لها .

لكن هل يستخدم الطفل هذه اللغة مع أمه ؟

الواقع أن الأطفال غالبا ما يلجأون إلى هذه الحركات عندما يودون شيئا معينا ، فهم يريدونه بالود والحب ، لا بالعنف ، لكن إن فشل الحب فالعنف قد يصلح .

ويقول مونتاجنر : أنت أيضا تعرفين هذه اللغة !! فقد استخدمتيها وأنت صغيرة ، لكنك مازلت تستخدمينها دون أن تدري . هل حاولت مرة أن تسكتي طفلك عندما يبكي لأي سبب من الأسباب بالابتسام له ومد اليد إليه بلطف وحنان أو ضمه إلى صدرك ؟

بعض الأمهات في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا يستخدمن هذه الطريقة ،وهي طريقة ناجحة لإسكات ثورة الطفل دون شك .

لكننا قد نلجأ إلى استخدام هذه اللغة مع زملائنا ، فإنها المفتاح لقلوبهم ، لجذبهم ونيل عطفهم وتأييدهم .

هل تمعن النظر في إعلانات التلفاز ؟ لقد تم إخراج هذه الإعلانات على هذا الأساس لغة منطوقة ، ولغة أخرى غير منطوقة ، ولكل لغة هدف ، والإعلان الجيد المؤثر يحتاج إلى اللغتين معا ، لا إلى اللغة المنطوقة وحدها . لكن على الرغم من قوة هذه اللغة لا يعرفها بعض الأطفال إطلاقاً ، أقصد لغة الحب . وماداموا لا يقدمون الحب ، فلا يمكن أن ينالوا عطف الآخرين ، وهكذا يصبحون دون أصدقاء أو أحباب .

هل يصلح طفلك لأن يكون قائداً ؟

يقول مونتاجنر قائلا : « يمكن التنبؤ بتصرفات أطفالنا في المستقبل ، إذ أن ما يقومون به من حركات في الثلاث سنوات الأولى يكشف العديد من خفايا المستقبل » .

هل يستخدم طفلك لغة الحب مع الآخرين ؟

هل يؤثر طفلك في الأطفال المحيطين به ؟

هل يلعب معهم في ود وحب وهم يحبونه أيضا ؟

هل طفلك لا يميل إلى العنف مع الآخرين ؟

هل يقدم لعبته للأطفال الآخرين عن طيب خاطر ؟

الإجابة بنعم عن هذه الأسئلة تعني أشياء مهمة ، تعني أولا أن طفلك طفل سويّ ، وأنه طفل محبوب ، وأنه طفل ناجح اجتماعيا ، وأنه يصلح لأن يكون قائدا في المستقبل .

أما الطفل العدواني ، الغضوب ، الدائم الشجار مع الآخرين الذي لا يعرف الود أو العطف فلن يحبه أحد من الأطفال ، ولن يؤثر في المحيطين فيه ، وبالتالي فهو لا يصلح لقيادة أحد .

والأطفال الذين يصلحون للقيادة غالبا ما يرددون لغة واحدة ، فهم لا يخلطون بين حركات الحب

والعنف كما يظهر من بعض الأطفال في تصرفاتهم . فالطفل الذي يمسك بيده إحدى لعبه ، ويقدمها لزميله ، بينما يجذب شعره باليد الأخرى بعد ثوان - أي أنه يجمع بين حركات مجموعتين مختلفتين - هو طفل عدواني أيضا ، لا يعرف لغة الحب ، وهذا المزج بين الحركات لن يجعله مقبولا من الأطفال الآخرين . وعندما تابع « مونتاجنر » هذه المجموعة من الأطفال التي تخلط وتمزج بين حركات أكثر من مجموعة وجدها أنها تفتقد مع الوقت حب الطفل الآخر ووده ، بل في بعض الأحيان وجد « مونتاجنر » أن الطفل الآخر قد صرخ وجرى باكيا بعيدا عن هذا الطفل على الرغم من أن البداية كانت غير ذلك .

للآباء والأمهات دور !

ماهو السبب في تباين هذه التصرفات بين أطفالنا ؟

هل هي العوامل الوراثية ؟

هل هي البيئة ؟ هل للمحيطين بهم دور ؟

ما أثر العلاقة بين الأم وطفلها في نشأة هذه التصرفات وتغيرها ؟

يعتقد « مونتاجنر » أن العوامل الوراثية ليست ذات أي أهمية في تشكيل تصرفات أطفالنا ، لكن هذه التصرفات ترجع بنسبة قد تصل إلى ٨٥٪ إلى تصرفاتنا نحن الآباء والأمهات مع أطفالنا ، وبخاصة علاقة الأم بطفلها ، فإنها وحدها العامل المؤثر ذو القيمة الملحوظة في نشأة تصرفات معينة دون غيرها . ويقول مونتاجنر مؤكدا على ذلك : « لقد لاحظت أن الأطفال الذين يتمتعون بروح قيادية هم في معظم الحالات أطفال من أسرة متفاهمة ، تسودها روح الحب ، تقوم الأم دائما بمخاطبة طفلها والتحدث معه بلطف وحنان ، وهي في ذلك لا يهمها إن كان طفلها يفهم كلماتها أم لا ، فهي تستخدم كتفيها ووجهها وابتسامتها وصدرها وكل جسمها لتؤكد له شيئاً واحداً ، وهو أنها تحبه ، وأنها قريبة منه ، وأنها تفهمه ، وأنها تلبي طلباته . وهذه المشاعر المتبادلة المتصلة تؤثر في أطفالنا كثيرا ، حتى إن كانوا دون السنة الأولى من عمرهم » . ومن أحسن الأمثلة التي يسوقها لنا « مونتاجنر » تلك الأم التي تأخذ طفلها الذي بلغ من العمر سنة واحدة فتسأله بحب وعطف ماذا يريد أن يلعب ؟ هل يرغب في تسلق ظهرها ؟ هل تحكي له حكاية مثلما فعلت بالأمس ؟ إن هذه الأم التي لا تمل من محادثة طفلها على الرغم من صغر سنه - حسبما يعتقد بعضنا - تخلق بذلك جواً من التفاهم والود والثقة بينها وبين طفلها ، والأهم من ذلك أنها لا تقوم بأي عمل عدواني نحوه إن أخطأ ، بل تعرف كيف توجهه بحزم ، ولا تدلله إلى حد الانسياب ، أي أن أهم عامل في هذه العلاقة أن تكون تصرفاتنا مع أطفالنا تسير في خط ثابت ، دون تناقض بين التدليل أحيانا والعنف أحيانا أخرى ، فهذه الوتيرة الثابتة هي أهم عامل يؤثر في تصرفات أطفالنا مع الآخرين .

ما سبب التصرفات العدوانية التي يقوم بها أطفالنا ؟

يقول مونتاجنر : « ... الطفل العدواني : كيف تتعامل أمه معه ؟ هذا الطفل غالبا ما تكون أمه إما شديدة الغضب ، تعامله بشدة وقسوة ، أو أنها لينة لا تعيره أي اهتمام ، ولا تريد أن تدخل نفسها إلى عالمه الصغير » . وحتى تتضح الأمور لنا يعرض علينا مونتاجنر المثال التالي كدليل لكلامه :

« ... في نهاية اليوم تأتي أم « نيكول » متعبة من العمل ، فتفتح باب حجرته ، وتنادي عليه ، وعندما يراها الطفل يجري نحوها فرحا ويداه ممتدتان نحوها ، لكنها لا تعيره القدر الكافي من الاهتمام والرعاية والحنان ، فتلتفت إلى الخادمة لتسألها : هل مازال « نيكول » لا يسمع كلامها ؟ وهل ظهرت منه أي سلوكيات غير حميدة ؟ وهل مازال يضرب أخته الصغيرة ؟ وهل شرب اللبن اليوم ؟ وهكذا ، من هنا نلاحظ أن الطفل يتقدم بحب وثقة نحو أمه ،

لكنه لا يجد منها أي تفاعل ، فماذا يفعل ؟؟ ستجده يقف بمفرده منطويا في أحد جوانب الحجرة . والأم لا يهمها ذلك . تصرخ فيه لكي يأتي لينام لأن الوقت متأخر ، لكنه لا يبالي بذلك ولا بصراخها ، فتنفعل الأم وتتقدم إليه بوجه غاضب يابس ، وتمسكه بعنف ، بل قد تضربه لأنه لا يسمع كلامها . وقد تحكي عن تمرده لصديقاتها ووالده ، وتظهر تخوفها من تمرده الذي لا تعرف له سبباً » .

هل يغير طفلي من تصرفاته ؟

ترتبط تصرفات أطفالنا بحالة بيوتنا ، لذلك من الممكن أن تتغير تصرفات أطفالنا في العامين الأولين إذا ما تغيرت الأحوال المحيطة بهم . وخير مثال يورده « مونتاجنر » للتدليل على ذلك الطفل الصغير الذي لا يعرف العدوانية ، ويتمتع بسلوك ينم عن روح القيادة والحب لمن حوله من الأطفال ، وفجأة تتغير به الحال ، ويصبح عدواني السلوك . وقد ارتبط هذا التغير المفاجيء بولادة أخيه الصغير ، والأم أصبحت عصبية متوترة ليس لها صبر ولا احتمال بالمقارنة إلى معاملتها السابقة معه ، لكن عندما تتحسن أحوال الأم ، وتعود لطبيعتها الأولى مع طفلها يمكن لعدوانية هذا الطفل أن تتوقف ، ويعود مرة أخرى إلى سلوكياته الأولى .

لكن يجب أن نذكر هنا أن الأطفال الذين يبلغون من العمر خمس سنوات أو أكثر لا يمكن أن تتغير سلوكياتهم ، فالتغيرات التي تحدث مبكراً في حياة أطفالنا هي وحدها التي تؤثر في سلوكياتهم ، أما أي تغير فيما بعد فلن يغير شيئاً .

ويضيف « مونتاجنر » إلى ذلك : « الطفل الذي عرف بسلوكه العدواني في سن سنتين وثلاث سنوات يستمر كذلك حتى سن القيادي يزيد حب الجميع له . أما الطفل الانطوائي الجبان فربما تتغير أموره ويصبح طبيعيا من هذه الجهة .. ربما لأن أمه تغيرت هي أيضا ولم تعد تقلق عليه بهذه الصورة الجنونية .

طفلك ولغة الكيمياء :

لما كان « مونتاجنر » عالما من علماء سلوكيات الحيوان والحشرات كما سبق أن ذكرنا ، وهذه الحيوانات تتعامل بعضها ببعض بلغة كيميائية خاصة بدأ من هذه النقطة أبحاثه . فهل توصل إلى شيء يستحق القيمة ؟

إحدى التجارب الرائدة التي قام بها منذ سنوات قليلة في هذا المجال كان من شأنها أن تغير كثيراً من مفاهيمنا القديمة في علم البيولوجيا ، وتوصلنا إلى معرفة قدرة الطفل الذي لم يبلغ عمره سنتين في تمييز ملابس أمه من رائحتها . فبعد عرض مجموعة متشابهة من الملابس على مجموعة من الأطفال استطاع ٩٥٪ منهم تمييز ملابس أمهاتهم من رائحتها ، وأخذوا يضعونها على وجوههم ، وبعضهم حاول ضمها إلى صدره أو تغطية جسمه بها أو وضع طرفها في فمه ، وقد شغلوا تماما بهذه الملابس ، بل إن تصرفاتهم تغيرت عدة ساعات بعد هذه التجربة .

والواقع أن هذه التجربة فتحت المجال للعديد من التجارب التي تبحث في نفس المجال ، وقد تبين فيما بعد أن الأمهات أيضا لديهن القدرة على تمييز ملابس أطفالهن عن طريق الرائحة . ويرى مونتاجنر أن لغة الكيمياء هي أول اللغات التي تتبادلها الأم وطفلها في الشهور الأولى بعد الولادة .

لكن ماهو الهدف من وراء هذه الأبحاث ؟ وكيف نستفيد من هذه النتائج في رعاية أطفالنا وتربيتهم ؟

يقول مونتاجنر : إننا في طريقنا الآن إلى إعداد قائمة طويلة بالتغيرات التي قد تظهر على أطفالنا في مراحل نموهم المختلفة ، وهذه التغيرات لها دلالات مهمة ، وهي دون شك ستسمح لنا أن نفهم أطفالنا أكثر وأكثر ، وأن نقترب منهم ، ونزيل أي حاجز قد ينشأ بيننا وبينهم . عزيزتي الأم ، طفلك يردد اللغة التي تعلمها منك . فأي لغة تلقنيه ؟ □

هو.. هي

أبي

تحيرني غيرة الأزواج ، وأعترف بأنني لا أفهمها ، وأرى أنها تفتقد المنطق والعقل .

أعمل في إدارة حسابية من إدارات الحكومة ، وفي مكتب واحد يضمني مع زملاء عمل من الجنسين ، يرأسنا زميل هو أكبرنا سنا ، وأقدمنا عملا ، ولأن عملي يرتبط به بصورة مباشرة أتلقى منه تكليفات ، وأعرض عليه ما أنجز ، وقد نشأ بيننا تواصل وحديث ، وفي البداية كثيرا ما كان يحكي لي عن بناته وأطفالهن ، وأحكى له عن أطفالي الذين لم يكبروا ، ويتسع الحديث بيننا مع الوقت ، ودعوته يوما لزيارتنا ، ورددنا له الزيارة يوما ، وترابطت العلاقة بيننا . وأعترف أن نظراته في البداية كان بها شيء غير مريح ، وبطيش مني في أول عمله معنا ثرثرت لزميلات عمل ولزوجي ، وانطلقت ضحكاتنا ونحن نرصد سلوك الزملاء المتصابين الذين يعملون معنا .

والمهم في ذات يوم أصابتني وعكة الزمتني البيت ، وسأل عني زميلنا هذا في البيت أكثر من مرة ، وعندما عدت للعمل أعطاني بعض الكتب ، وقال لي إنه من المهم أن أقرأ ، وأن أطور نفسي ، ولأنني كنت أرى فيه حنان الأب وصدقه فقد كنت أحكي لزميلاتي ، وأصحح لهن عدم فهمي له في البداية ، إلا أن زميلاتي الخبيثات أصررن أن نظراته التي ليس بها أي قدر من الأبوة ، ولا أي جانب من الحنان ، وذات مساء زارتني بعض زميلاتي في البيت ، ودار الحديث ، وغمزت إحداهن الرجل في غيبته أمام زوجي ، وبعد انصرافهن انفجر زوجي غضبا ، وانطلق يتحدث عن حدود علاقتي بالزملاء ومداها ، وعندما صرخت في وجهه قائلة إنه في سن أبي ازداد هياجه ، ولم يترك شيئا رقيقا في الرجل إلا سخر منه ، وأخذ يحكي لي عن كبار السن الذين تعتريهم المراهقة وتفتنهم النساء الصغيرات ، وأنهم يقعون في الحب أسرع من إصابتهم بالانفلونزا ، وأنني برقتي وأدبي وحسن معاملتي للرجل أوسع له هوة لكي يقع فيها . ويضيف زوجي بغضب قائلا : عندما يقع لن يقع وحده ، لكنه سوف يجذبني معه بتصابيه ومراهقته ، ومهما حاول أن يغطي نفسه بقناع من الأبوة والحنان فمصير هذه الحالة المرضية الى افتضاح ، وحينذاك سيصبح الأمر في درجة من الخطورة بحيث لا يمكن تداركه .

هي..

دفاعٌ عنها

غريب أمر النساء ، يسعد الواحدة منهن أن تسمع أنها جميلة ، حتى لو قال لها ذلك رجل أعمى ، وزوجتي واحدة من النساء ، بل لعلها تفتقر الى كثير من حنكتهن ودهائهن ، فقد خطبتها وهي لم تزل في الجامعة ، وتزوجنا فور انتهاء دراستها ، وعلى الرغم من يقيني أن دهاء المرأة يولد معها إلا أن زوجتي كان حظها من الدهاء ـ على ما يبدو ـ قليلا . رئيسها في العمل رجل تجاوز الخمسين ، ملامح وجهه التي يحاول أن يكسبها الطيبة تخفي لؤما وماضيا عريقا ، يجيد فن التسلل الهادىء الى نفوس الآخرين . ولأن زوجتي عديمة الخبرة في الحياة فقد وقعت في شراك أبوته الزائفة . وعندما قالت لي يوما قبل أن أراه إنه يغمرها بحنان لا يوصف ، وكثيرا ما يربت على كتفها إعجابا بعمل أنجزته سألتها : وهل هذا التصرف العفوي يؤديه وزملاؤه في الغرفة ؟! قالت لي إنه لا يفعله إلا عندما يخلو المكتب لسبب أو لآخر من الزملاء ، وهنا قلت لها : ألا تفكرين في أن هذا السلوك سلوك مريب ، وأن قصة حنانه وأبوته ما هما إلا ادعاء ، يخفي به تصابيه ومراهقته وتوهجه ؟ ووعدتني يومئذ بأنها ستطلب منه أن يكف عن هذا السلوك ، لكنها لا تستطيع أن ترفض هذه المشاعر الحانية التي يغمرها بها ، فهو يذكرها بأبيها . قلت لها : افهمي ، إنه رجل في المبدأ والمنتهى ، وهو في خريف العمر ، وجمالك وشبابك يفتحان له أبواب

الأحلام بالعودة الى العمر الذي مضى ، ومهما كانت ثقتي بك ويقيني بأنك لن تسمحي له أن يتجاوز حدوده إلا أن حركاته ونظراته وحديثه عنك مفضوح أمام كل الناس ، وإلا ما كانت زميلاتك يتغامزن عليه ، وهذا الأمر يسيء اليك قبل أن يسيء اليه ، فهو حالة مرضية معروفة ، وما أكثر الرجال المتصابين ، وما أكثر مراهقة الرجال الناضجين ، مهما كان وضعهم الاجتماعي ، ونضجهم ، ورجاحة عقلهم ، والأمر بهذا النحو سيسيء إليك ، وخوفي عليك يلزمني أن أطلب منك أن تحجّمي العلاقة ، ولا تفرطي في حسن الظن ، فكلما أمعنت في حسن المعاملة أمعن هو في التدله ، وقديما قالوا : الصب تفضحه عيونه . صرخت في وجهي قائلة : أتغير من رجل في سن أبيك ؟ وأقسمت لها أنها ليست غيرة ، لكن ذلك دفاع عنها ، ولم تصدق .

.. هو

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

الطفل الأعسر

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

الأعسر هو من يميل إلى استعمال اليد اليسرى ، وقد يسمونه « الأشول » ، وعلى نقيضه الأيمن ، وهو الذي يمثل غالبية البشر بنسبة تصل إلى ٩٠٪ أو أكثر .

أما من هو قادر على استعمال يديه الاثنتين فيدعونه « الأزدل » ، وهذا يمثل القلة النادرة من الناس .

ومن غريب الأمر أن الأصل في الحيوان أن يكون أزدلا ، اذ قلما نجد حيوانا يميز بين استعمال طرفه الأيمن أو طرفه الأيسر ، بل هما عند الحيوان سواء بسواء . لقد تملكت أغلب الناس القناعة منذ قديم الزمان أن اليد اليمنى تمثل نوازع الخير ، بينما تمثل اليد اليسرى الأفعال الدنيئة التي ترتبط بالشر والعيب والشيطان . لهذا كانت التحية باليد اليسرى عيبا لاتقبله التقاليد ولا القيم . كما أن الأكل باليد اليمنى لا اليسرى . أما الاستنجاء ـ على سبيل المثال ـ فباليد اليسرى .

من هنا نجد الآباء والمربين يزجرون كل طفل يستعمل يده اليسرى ، سواء حدث هذا عن طريق الخطأ أو لسبب عضوي في جسم الطفل ، بحجة التربية والتعليم على قواعد الحياة السليمة .

لاننكر سيادة اليد اليمنى عند الانسان ، بدليل ما كشفت عنه الحفريات من أدوات وأسلحة صنعها القدامى لتناسب استعمال اليد اليمنى فقط ، وبدليل بقايا هياكل الحيوانات التي اصطادها ذلك الانسان الأول ، والتي تشير إلى إصابة الناحية اليسرى من جماجمها أو أبدانها ، دليلا على استعمال الصياد القديم ليده اليمنى .

لقد ذهب كثير من المجتهدين في تفسير هذه الظاهرة ، وسلكوا دروبا عديدة ، فمنهم من قال إن جسم الانسان غير متناظر من الداخل ، على خلاف الخارج الذي يبدو متناظرا . فالكبد مثلا في جهة اليمين من البدن ، بينما القلب يميل إلى جهة اليسار ، ويقبع الطحال في جهة اليسار ، وعلى هذا فمركز الثقل عند الانسان يميل الى ناحية اليمين ، حيث يزيد وزن الشق الأيمن من الجسم عن الشق الأيسر بما يقارب (٤٠٠) جرام تقريبا ، ومن هنا يحاول الانسان أن يميل بجسده ناحية اليسار حتى يتوازن ، وهذا ما يحرر يده اليمنى ، ويجعلها أكثر كفاءة وقدرة من اليسرى .

هذه هي « النظرية الحشوية » التي لم تفسر لماذا كان ١٠٪ من الناس يستعملون يدهم اليسرى على الرغم من أنهم طبيعيون في تركيب البدن . وهنالك نظرية أخرى طريفة ، صاغها المؤرخ البريطاني

توماس كارليل . معروف « نظرية السيف والدرع » . قال فيها صاحبها الأعسر : إن الانسان تعود أن يحمل فيما مضى من زمان درعا في يده اليسرى . ليحمي به قلبه . ولهذا كان عليه أن يحمل سيفه بيده اليمنى . مما أعطاها القوة والمرونة في الحركة . حتى صارت هذه طبيعة عند كل البشر .

غير أن نظرية السيف والدرع لم تفسر سر سلوك الناس قبل استعمالهم السيوف والدروع . ولا بعد أن استغنوا عنها باستعمالهم البنادق والمدافع والصواريخ .

بعضهم قال بالوراثة سببا للعسر . ومن الصحيح أنه إذا كان أحد الوالدين أعسر تزيد نسبة أطفاله الذين يستعملون اليد اليسرى بما يقدر بحوالي ١٧٪ . أما إذا كان كلا الوالدين من أهل اليسار فإن نسبة من يماثلهم من الاولاد تصل إلى ٤٦٪ غير أن هناك ٢٪ من أبناء الأسوياء من أهل اليمين يستعملون اليد اليسرى أيضا . لما هو التعليل يا ترى ؟ وبملاحظة التوائم وجدوا أن نسبة ١٠٪ العادية تزداد إلى ٢٠٪ بين التوائم المتناظرة . إذ ليس شرطا أن يكون التوأمان متشابهين تماما في استعمال اليدين . وفي هذا قيل إن التوائم كالمرآة يعكس أحدهما صورة الآخر . وهكذا إذا كان أحدهما أعسر فلا بد أن يكون الآخر أيمن .

أما النظرية الحديثة التي يقتنع بها الأطباء في هذا الزمن فهي نظرية المخ الأيسر التي وضع أسسها أستاذ التشريح الاسكتلندي المعروف كننجهام . وهو يؤكد فيها أن المخ يتركب من فصين . كل واحد منها يحكم شق الجسم المقابل . وحيث أن الفص الأيسر له السيادة في الحركة والكلام والسمع على الفص الأيمن . فاليد اليمنى بالتالي هي الأكثر قوة والأقرب إلى الاستعمال . أما أهل اليسار من مستعملي اليد اليسرى فلا بد أنهم قد خلقوا وقد توافرت عندهم أسباب السيادة للفص الأيمن . ولا حيلة لانسان هذا شأنه إلا أن يستعمل يده اليسرى في تدبير شؤونه . ولا سبيل لتغيير ما خلقه الله عليه .

ومن هنا كانت النصيحة للآباء والمربين أن يتركوا الأمور على علاتها دون إجبار للطفل الأعسر أو توجيهه لاستعمال اليد الأخرى . وإلا كانت النتيجة معاناة نفسية شديدة . قد تؤدي باستقرار الطفل نفسيا واجتماعيا .

لقد ذهب بعض القدامى إلى اعتبار الطفل الأعسر إنسانا معوقا ناقص العقل مختل الادراك . لكن التاريخ حافل بأسماء كثيرة من العظماء الأذكياء والعباقرة . ممن كانوا يستعملون اليد اليسرى . منهم الرسام العبقري الايطالي ليوناردو دافنشي . وزميله الرسام المبدع مايكل انجلو والرئيس الأمريكي جيرالد فورد . والرئيس هاري ترومان . بالاضافة إلى جمع من أشهر الممثلين . يتصدرهم شارلي شابلن وأوليفيا دي هافيلاند الامريكية . ولا ننسى القائد الانجليزي نلسن . ولا الامبراطور الروماني طيباريوس . فهؤلاء جميعا ينتمون إلى نادي اليد اليسرى . ولا نظن أن أحدا يمكنه أن يصم أحدهم بالضعف العقلي أو الغباء . بل ربما كانت هذه هي حجة للغربيين المعارضين لهذا الرأي . ممن ينادون بأن العسر ظاهرة من ظواهر الذكاء والعبقرية والنبوغ .

لن نذهب في تطرف الرأي مع هؤلاء . ولا مع هؤلاء . لكن تبقى لنا حقيقة يعتمدها الطب الحديث . وهي أن ترك الطفل وشأنه وما أراده له خالقه سبحانه أفضل وأولى . فإن لله فيما خلق حكمة .

بريد طبيب الأسرة

داء السمك

● هل لي أن أعرف شيئا عن مرض جلد السمك ؟ ما هو دور الوراثة فيه ؟ وهل له من دواء شاف ؟

ولكم وافر شكري واحترامي . . .

محمود عبد العزيز الشناوي

القاهرة - ج . م . ع

داء السمك عيب خلقي شائع ، تزداد فيه صلابة الجلد وخشونته ، بسبب سماكة الطبقة القرنية فيه ، وهو يصيب الناس بدرجات متفاوتة ، منها ما هو بسيط لايعدو أن يكون جفافا وخشونة في الجلد ، ومنها ماهو على الطرف الآخر شديد إن لم يكن قاتلا .

وقد يولد الطفل بهذه الصورة الشديدة ، وقد تغطي جلده طبقة سميكة من القشور ، أشبه ما تكون بقشور السمك ، لدرجة أنه يطلق عليه اسم « الجنين المهرج » ، لأنه في هيئة مبرقشة تشبه ما يلبسه المهرجون .

وبتقصي التاريخ المرضي والعائلي للمصاب تجد غالبا تاريخا لاصابة عائلية ، والمريض غالبا يعاني من جفاف في الجلد ، سببه قلة العرق وقلة الافرازات الدهنية ، بسبب ضمور الغدة العرقية والغدد الدهنية ، لسبب مازال مجهولا .

لكن المعاناة تبقى محصورة في الجلد ، ولا تتعداه إلى الغشاء المخاطي . والمعاناة من هذا المرض تبدأ غالبا بأصحاب الأعمار الصغيرة ، وتزيد مع البرد وتتحسن أيام الدفء والرطوبة .

وكثيرا ما يشكو المصاب من تشققات في الجلد ، يجد خلالها التلوث طريقا له مسببا الالتهابات والألم .

العلاج والوقاية :

الحديث عن الوقاية ربما اقتصر على تفادي المضاعفات وتخفيف المعاناة ، حيث أن الوقاية من الاصابة أمر بعيد المنال ، لجهل الأطباء بسبب الداء ، ولاحتمال أن يكون الأمر وراثيا ، وهو مما يصعب السيطرة عليه في زماننا ، وإن كان الأمل معقودا على تطور ما يعرف بالهندسة الوراثية مستقبلا .

أما العلاج فهو ينصب على ترطيب الجلد باستعمالات العقاقير والدهانات المرطبة ، أو غمر الأطراف في الماء الدافيء .

لكن الحديث عن علاج ينتزع المرض من أساسه فيبرأ معه المريض أمر سابق لأوانه ، حيث لايتوافر لدى الأطباء أي عقار من هذا القبيل .

ردود سريعة

● السيد ي . م . م . ع . - الكويت :

مركز علاج عيوب النطق في الكويت ملحق بمستوصف الدسمة .

● السيد خ . ح . ز . درعا - سوريا :

بدانة الردفين عبارة عن ترسبات دهنية ، تحدث نتيجة الافراط في الطعام النشوي ، وقلة الحركة ، مع وجود عامل الوراثة ، هذا فلا سبيل سوى التخفيف من الأطعمة الدهنية والنشوية والسكرية ، مع زيادة الحركة للمنطقة البدنية ، كالمشي وركوب الدراجات والألعاب السويدية . □

مساحة ود..

لكي نستحق الحياة

في قلبي مكان لايقترب منه الكثيرون ، أحتضن فيه شخوصا عرفتهم عن قرب ، مروا بحياتي وأثروا بها ، وعنهم يحلو لي دوما أن أتحدث ، وأحكي تجاربهم التي تحمل منهم ملامح انسانية رائعة ، وقد يكون افتتاني الدائم بإرادة الانسان ونضاله وقدرته على الصمود ، واعادة صياغة الحياة سببا مباشرا في أن يفسح قلبي لهؤلاء مكانا ، يمنحهم الدفء والنبل والاعجاب ، واقيم لهم تماثيل ونصبا كرموز لارادة الانسان وشرفه ، ولعل المفارقة تكمن في أنهم جميعا أحياء بفضل من الله ، مما يكسب قصص حياتهم واقعية وصدقا ويبعد أي شبهة للخيال

عن واحد منهم أحكي

في قرية صغيرة من اعمال حيفا في فلسطين المحتلة كان ميلاده ، ذات صباح ، وهو لم يزل في الرابعة من عمره ، اجتاحت القرية عصابات الاحتلال ومارست القتل في اهلها من النساء والاطفال ، وحاصرت طرقها ، فلم يتمكن رجال القرية من العودة من مزارعهم وحقولهم خرج صاحبنا الى الحياة وحيدا يتيما ، معذبا ، تطارده ذكرى والدته ، وصدى هتاف على أبيه الذي ذهب للحقل ولم يعد ، وفي حالة الفوضى والاضطراب لم يلتفت أحد الى طفل صغير باك ، والتقطه أحد الأديرة ورعاه عامين ، ثم ساعده في السفر من الأرض المحتلة الى أقرب نقطة حدود في الأردن

وبدأ مشوارا طويلا قاسيا ، قام بالعمل وهو في السابعة من عمره ، ليعمل في مطعم ومحل اصلاح سيارات ومطحن غلال وفي دكان بقال . لكنه منذ وقت قد حسم أمره ، كان يعمل من الصباح حتى المغيب ، وعلى الرغم من قسوة العمل وشدته كان يقضي ليله كله يدرس ويتعلم ، ولم يكن هذا سلوك عام أو عامين ، بل ستة عشر عاما كاملة ، حتى حصل على شهادة الدراسة الجامعية ، ومنذ شهرين كنت أقرأ في كتاب هو نص رسالة لنيل درجة الدكتوراة في واحد من فروع العلوم الانسانية

وعند الاهداء الذي أختصره في كلمات فرت دمعة من عيني ، فقد كتب يقول : « الى روح أمي وذكرى أبي » وتذكرت هذا المشوار الطويل المضني الذي بدأه وهو في الرابعة ، لم يزل صغيرا أعزل من كل مايستعين به البشر على الحياة ، وحيدا الا من ارادة انسانية رائعة ملأت قلبه ، وحمله بكل كبريائها لتجتاز به عثرات الدنيا ، وليظل في دائرة حياتي والمكان الذي أحميء فيه هذا الصنف من البشر ، رقيق ، نبيل ، عالم أريب ، لايروي مشوار عمره لأحد ، ولايجهد الناس بذكر ماجرى ، فهو لايرى في كل مافعل بطولة وقدرة . خارقة ، فالأمر - من وجهة نظره - لايتعدى تيار يدور الانسان ونضاله لكي يستحق الحياة » ☐

محمود عبدالوهاب

شيءٌ يَخُصُّ الرُّوح

شعر : شوقي بغدادي

أقبلَ الليلُ
وكانَ البابُ مفتوحاً
فأفسحت مكانا للتي تأتي ولا تأتي
فتقضي ساعةً عندي
وتمضي في أماني
إيه يا زائرةَ الليلِ التي تقرعُ بابي
ثم لا تدخلُ إلاّ في غيابي
من ترى في هذه المرة
من غيرُكِ
أم لا أحدٌ إلاّ أنا والريحُ
في الكهفِ الذي امتصَّ كياني
أتقرّى فوق ثلج الحائط الصخري
تشكيلاً بدائيا
لما يشبه صياداً على ظهر حصان
باحثاً عن فجوة أطلقه منها
وأنجو معه
لكنه يهرب من دوني
وأبقى في مكاني

* * *

إنني أبحثُ عن حب
وهذا الحب في غير زماني
وأنا أعرف أني ساذجٌ
أبدع نصاً فارغا
يملؤه القراء من بعدي بآلاف المعاني
إنني أبحث عن دائرة الوجه التي تحتضن الدنيا
وعن ارجوحة الشعر التي تقذفني
حتى حدود الكون في بضع ثوانٍ
وأنا أدرك أني واهم
أصنع للناس إطاراً خاليا
يملؤه الزوار من وحي الدخان
ما الذي يحجب هذا الوجه عني
الآن
مثلما الماء على الرمل يغني
ويرى اثنين من العشاق
فوق الشاطىء الواحد لا يلتقيان
أم لأن الوجه لم يوجد
سوى في ابتكار الروح أسطورتها
والمغنى جسداً يعيده
من دم اللحن وأعصاب الأغاني ؟

* * *

آه لو كنت أنا حقا أنا
لو خيروني
لو سوى لهجة صوتي
أو سوى لون عيوني

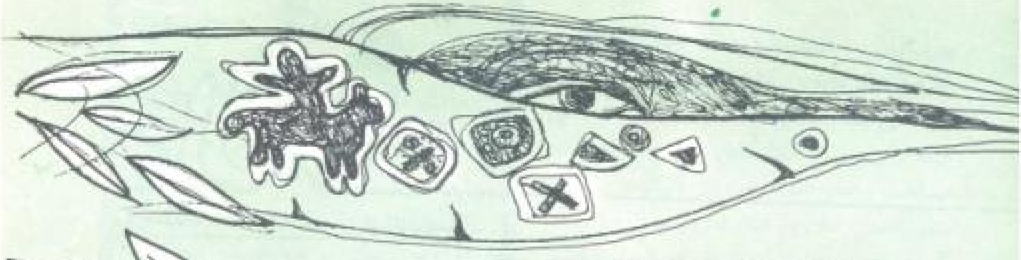

لو سوى الشعر
وغير الثغر
لو غير غضوني
لو سوى الاسم الذي أعطيت
والحزن الذي أهديت
لو بعض شذوذي واندفاعي وجنوني
آه لو كنت أنا حقا أنا
لو في بياني
بعض ذرات المجرات
التي يسبح . . فيها عنفواني
من ترى خططني شكلاً
ومضمونا مجاني
كلما حاولت أن أدنو من نفسي احتواني
ناشراً حراسهُ
ما بين قلبي ولساني

* * *

أقبل الليلُ
فغادرتُ وأغلقتُ ورائي
سوف أختارُ أنا
في هذه المرة زوّاري
فيا زائرة الليل ارجعي
إنني أبحثُ عن شيء يخصُّ الروحَ
في هذا المساء

جمال العربية

صفحـة لغـة

في أفعـال المطاوعة

وردنا من الأستاذ يوسف العياشي الزائري من دولة البحرين الشقيقة تعقيب على المقال الذي كان قد نشر في العدد ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧ من مجلة العربي بعنوان « نائب الفاعل : هل ينبغي حذفه من كتب النحو ؟ » ، وإذ ننشر مقتطفات من هذا التعقيب نرجو ان يسهم ذلك في حوار يثري هذه القضية اللغوية .

عنّ لي وأنا أتابع مقال الأستاذ محمد خليفة التونسي (العربي ـ ديسمبر ١٩٨٧م ـ العدد ٣٤٩) جملة من الملاحظات الأولية عن هذا الصنف من الأفعال ، فحين قسم النحاة الأفعال الأقسام المعروفة اعتمدوا هذه المقاييس :

ـ مقياس بنية الفعل .

ـ مقياس إعرابه وبنائه .

ـ مقياس الدلالة المعنوية .

ولئن أفاضوا في الحديث عن حالات التجرد والزيادة ، والصحة والإعلال ، والقلب والإبدال وغيرها ، مما يعود إلى بنية الفعل وإعرابه ، فقد بقي جانب الدلالة محتاجاً إلى دراسات إضافية ، ولعل هذا مما يدخل فيما سماه الأستاذ خليفة التونسي في مقال سابق نحو الدلالة : (العربي عدد ٣٤٨ ، نوفمبر ١٩٨٧) .

من هذه الوجهة الدلالية يمكن أن ندرس أفعال المطاوعة . فما المقصود بهذه التسمية ؟ وما الخصائص التي تميز هذا الصنف من الأفعال ؟

المطاوعة ـ في معناها العام ـ صفة تطلق على ما يكون من المواد الصلبة قابلا للتغير في الشكل والحجم بتأثير خارجي ، فالقضيب من الألمنيوم إن أردت تشكيله على غير ما هو عليه وجدته بين يديك طيّعاً ، على عكس القضيب من الحديد إلا إذا صهرته ، عند ذاك ينصهر ويتشكل . ومثل هذا ما يكون في المعنى اللغوي . فإذا قلنا : (نصح الوالد ابنه فانتصح) اعتبرنا النصيحة من الوالد عنصر تأثير معنوي أداها الفعل الأول (نصح) ، واعتبرنا الانتصاح (قبول النصيحة) عنصرا مطاوعاً أداه الفعل الثاني (انتصح) . وهذا الفعل الثاني هو ما اصطلح النحاة على تسميته فعل المطاوعة أو الفعل المطاوع لفعل سابق له .

وبتحليل هذا المثال وحده يمكننا أن ننتهي إلى جملة من الخصائص لفعل المطاوعة وللفعل الذي يسبقه في الكلام :

١ ـ الفعل الأول يكون عادة مجردا في بنيته الصرفية ، لأنه يمثل الأصل . والأصل يكون على صورته المجردة من كل زائد ، بينما يكون الفعل المطاوع مزيدا ، ذلك لأنه مشتق من الجذر الثلاثي المشترك بين الفعلين ، أضيف إليه حرفان من أحرف الزيادة (الألف والتاء) .

٢ ـ الفعل الأول يكون متعديا لمفعول ، فهو يمثل عنصرا مؤثرا فاعلا ، لذلك طلب عنصرا يفعل فيه ،

بينما يكون فعل المطاوعة لازماً لأن فاعله انطاع لفعل خارجي فتأثر نتيجته ، وليس له القدرة على التأثير في غيره حتى يطلب مفعولا به . ولأنه أيضا دالٌ على صفة ، والصفة يحملها الفعل اللازم . وقد أشار صاحب « مختار الصحاح » إلى أن النحويين ربما سموا الفعل اللازم (مطاوعا) [ص ٤٠٠ ـ مادة ط ـ و ـ ع] . على أن إشارة صاحب « مختار الصحاح » تحتاج الى بعض التدقيق . فإذا كان فعل المطاوعة لازماً فالعكس غير صحيح ، أي ليس كل فعل لازم فعلا من أفعال المطاوعة .

٣ ـ يشترك الفعل الأول وفعل المطاوعة في الجذر اللغوي ، ويختلفان في البنية الصرفية (فعل وافتعل) . وينتج عن الاشتراك في الجذر اشتراك في الحقل المعنوي (معنى النصيحة) ، كما ينتج عن الاختلاف في البنية الصرفية اختلاف في المعنى الجزئي .

٤ ـ بين الفعلين علاقة منطقية ، هي علاقة السبب بمسببه ، لذلك غالبا ما يقترن فعل المطاوعة بفاء العطف الدالة على النتيجة .

٥ ـ أفعال المطاوعة ظاهرة خاصة ، لكنها مرتبطة بظاهرة عامة في اللغة العربية هي الاشتقاق . وكسائر المشتقات في الأسماء والصفات والأفعال تخضع أفعال المطاوعة لأوزان معلومة ، هي أوزان الفعل المزيد اللازم . ولهذا التحديد أهمية ، إذ يجب أن تستبعد من جملة أوزان الفعل المزيد أوزان الأفعال التي تتطلب مفعولا به ، مثل أوزان : أفعل ـ فاعل ـ فعّل .

والغالب على أفعال المطاوعة أنها تكون على وزن :

افتعل : ويكون الفعل الذي يشتق منه على وزن المجرد أو المزيد

انفعل : ويكون مطاوعا لفعل مجرد أو مزيد .

تفعّل : ويكون مطاوعا لفعل مجرد أو مزيد .

تفاعل : ويكون مطاوعا لفعل مجرد أو مزيد .

على أن فعل المطاوعة في المثال الأخير يضاف إليه معنى ثان هو الدلالة على حدوث الفعل بالتدرج ، وهو معنى كثير التواتر في المزيد على وزن تفاعل .

استفعل : ويكون مطاوعا لفعل مجرد أو مزيد .

تلك أهم خصائص أفعال المطاوعة وأوزانها . □

مات التونسي والقلم في يده

كان أمرا غير مألوف أن نذهب في صباح يوم ١١ / ١ / ١٩٨٨ إلى مجلة « العربي » فلا نجد الأستاذ الأديب محمد خليفة التونسي جالسا الى مكتبه يرد تحية الصباح ، ويصر على الوقوف وهو يرد تحية من يأتي للسلام عليه . تعودنا أن نجده قبل الجميع في مكان عمله ، على الرغم من أنه أكبرنا سنا .

في ذلك الصباح استسلم كل منا إلى نوع من الحزن العميق الصامت ، حين تأكد لنا أن غيبة الأستاذ التونسي ليست مجرد أمر غير مألوف ، وليست لأمر طاريء ، ينتهي بعد وقت يطول أو يقصر . يبدو أن الموت وحده سيبقى قادرا على أن يكون ينبوعا أبديا للدهشة والمفاجأة والحيرة ، مهما تيقنا من حدوثه ، أو حتى تهيأنا لمقدمه !

كان وهو واحد من شيوخ اللغة يعرف أسرار اللغات التي يحتاجها قلب الإنسان في بحثه المضني عمن يتواصل معه وعمن يحسن الاستماع إليه ، وعمن يفهمه ، وعمن يرغب في المساعدة . وبسبب هذه الموهبة تعددت صلاته ، وتعمقت صداقاته بجميع العاملين في مجلة « العربي » من مختلف الأجيال ، وفي مختلف المواقع ، فجيل الشباب كان يجد لديه من البساطة الأسرة ، ومن روح المرح ، ومن تنوع الخبرة والثقافة ، ومن الإقبال على الحياة ، ما يشده إليه متجاوزا فارق السن والتجربة ، وجيل الكهول كان يجد لديه من عمق الخبرة الثقافية ، وتنوع مصادرها في القديم والجديد ما يجعل الحوار ممتدا ثريا موصولا ، وخاصة حين يتصل بذكرياته عن عمالقة الفكر الذين عاش معهم في صالون العقاد في صدر شبابه وجزء من كهولته .

رحم الله فقيدنا الكريم .

« هذه التأملات كانت آخر ماكتبه المرحوم محمد خليفة التونسي .. متناولا آخر ماعبر عنه الامام الشافعي . وكانت آخر اختياراته تمثل خلقه ومنهجه في الحياة حين اختار بيت الشافعي القائل :

« لما عفوت ولم أحقد على أحد ــ أرحت نفسي من همّ العداوات »

تأملات في الناس والحياة

للامام الشافعي

الامام الشافعي (محمد بن إدريس) من أشهر أئمة المذاهب الفقهية في الاسلام ، يتعبد على مذهبه كثير من المسلمين في الشرق العربي وماوراءه شمالا وشرقا ، وهو واضع أصول علم الفقه ، وقد غلبت عليه شهرته الفقهية والأصولية ، مع أنه كان من أوسع شيوخنا اطلاعا ونبوغا في جملة العلوم الاسلامية واللغوية ، وكان كالمتخصصين في تاريخ العرب وكلامهم وأشعارهم ، وهو أشهر فقهائنا بقول الشعر ، وإن كان لايعد من نوابغ الشعراء ، والظاهر أنه كان مقلا ، وإن نسب إليه شعر كثير .

وولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧م) ، وقد ربته أمه ليتمه ، فأحسنت تربيته ، وتنقل في طلب العلم على شيوخه بين مدن اليمن والحجاز والعراق ، وفي سنة ١٩٩ هـ (٨١٤م) عزم الرحلة الى مصر ، وفي ذلك يقول :

لقد أصبحت نفسي تتوق الى مصر
ومن دونها قطعُ المهامهِ والقفرِ
فوالله لا أدري ، ألَلعز والغنى
أساقُ إليها ، أم أساق إلى القبر ؟

وقد استقبل فيها بالعز والغنى مع القبول والشهرة ، وبقى هناك ينشر معارفه بعلوم الدين واللغة والشعر العربي ، ويجدد آراءه الفقهية ، وحظى هناك بتلاميذ نوابغ نشروا مذهبه ، وتوفى ودفن فيها سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م) ، وباسمه حتى اليوم حي كبير بين القاهرة والفسطاط ، حافل بالمقابر حول مشهده .

وهذه المقطوعات التي اخترناها من ديوان كبير باسمه ، هي أليق ما يكون بروحه العالية وسيرته النبيلة وثقافته الدينية واللغوية ، وإن لم نكن على يقين أنها له ، وبعضها في نسبتها إليه أشهر من بعض ـ وربما نسبت الى غيره ـ وهي أشبه بشعر العلماء ، وإن كانت لاتخلو من شعور حي وتجربة بصيرة بالناس والحياة ، وأكثرها صالح للتمثل به فيما يناسبه من المواقف .

لما عفوت ، ولم أحقد على أحد
أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته
لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه
كأنما قد حشا قلبي محبات
الناس داء ، وداء الناس قربهمُ
وفي اعتزالهمُ قطع المودّات

* * *

ولرب نازلة يضيق لها الفتى
ذرعا ، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فُرجت ، وكنت أظنها لاتفرج

* * *

إذا نطق السّفيه فلا تجبْه
فخير من إجابته السكوتُ
فإن كلّمته فرّجت عنه
وان خليته ـ كمدا يموت

* * *

يالهف نفسي على مال أفرقه
على المقلّين من أهل المروءاتِ
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ماليس عندي لمن إحدى المصيباتِ

* * *

كم ضاحك ، والمنايا فوق هامته
لو كان يعلم غيبا ، مات من كمدِ
من كان لم يؤت علما في بقاء غدِ
ماذا تفكّرهُ في رزق يوم غد

* * *

علمي معي ، حيثما يممت ينفعني
قلبي وعاء له ، لابطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق

* * *

المرء إن كان عاقلا ورعا
أشغله عن عيوب غيره ورعه
كما العليل السقيم أشغَلَهُ
عن وجع الناس كلهم وجعه

* * *

الدهر يومان : ذا أمنٌ وذا خطرُ
والعيش عيشان : ذا صفو ، وذا كدرُ
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ
وتستقرُّ بأقصى قاعه الدرر
وفي السماء نجوم لاعداد لها
وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

* * *

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ
ولكنّ عين السخط تبدى المساويا
ولست بهيّاب لمن لايهابني
ولست أرى للمرء مالايرى ليا
فإن تدن منّي تدن منك مودتي
وإن تنأ عني تلقني عنك نائيا
كلانا غني عن أخيه حياته
ونحن ـ إذا متنا ـ أشد تغانيا

* * *

احسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

* * *

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي
من وصل غانية ، وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها
أحلى من الدّوكاه والعشّاق
وألذ من نقر الفتاة لدفّها
نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طربا لكلّ عويصة
في الدرس أشهى من مدامة ساقي
وأبيت سهران الدّجا ، وتبيته
نوما ، وتبغى بعد ذاك لحاقي

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك ، وامتاعك ، بالاضافة الى إثراء معلوماتك ، وربطك بتراثك الفكري والحضاري ، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم ، والموسوعات ، وغيرها من المراجع والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقابلة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١										
٢							■			
٣							■			
٤		■			■				■	
٥			■	■				■		■
٦										
٧						■				
٨					■			■		
٩			■	■						
١٠	■						■		■	

كلمات أفقية :

١ . طبيب عربي عني بأمراض العين .
٢ . عالم فرنسي اكتشف لقاح الكلب ، ما بين الترقوتين
٣ . شجيرات ذات أشواك وأزهار تصلح سياجا ، تمعّن .
٤ . أصدر صوتا كصوت الأفعى ، عار .
٥ . تجدها في صام ، جمع حيلة .
٦ . طبيب بريطاني ينسب إليه اكتشاف الدورة الدموية .
٧ . دواء يدفع السموم ، أنواع من الزيت .
٨ . يعوّق ، مادة قاتلة ، نقيض إنس معكوسة .
٩ . اسم فعل بمعنى خذ ، منسوبة للحرارة .
١٠ . متعلق بمرض الفصام .

كلمات عمودية :

١ . أوتار في باطن الحنجرة .
٢ . حصل على مبتغاه ، خروج الدم من الأنف .
٣ . يقدم معونة طبية عاجلة ، ثلاثة أحرف متشابهة .
٤ . خروج العرق من الجسم ، تجدها في أقام .
٥ . يبس مبعثرة ، فساد في العقل ، سَخَن .
٦ . مرض نفسي يتصف بالمبالغة في حب الذات ، في الخفاء .
٧ . من مكونات الدم غير الكريات الحمراء والبيضاء .
٨ . داء تتعطل فيه الأعضاء عن الحس والحركة ، كثرة النعمة ، كَسَّر .
٩ . مَنْع (صحي أو غير صحي) ، عفن .
١٠ . بثور فاسدة ، مهجتي معكوسة .

حل مسابقة العدد الماضي مارس ١٩٨٨ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	و	ا	ص	ل	ب	ن	ع	ط	ا	ة
٢	ا	ل	ا	م	و	ن	ي	و	م	■
٣	د	ث	ن	ر	■	■	ع	ن	ا	ت
٤	ب	و	■	■	س	و	د	ا	ن	ي
٥	ا	ل	ط	ه	ط	ا	و	ي	■	م
٦	ل	ي	ل	ي	■	ق	■	■	م	و
٧	م	ز	ي	ن	ه	■	م	ي	س	ر
٨	ل	ي	م	ا	س	و	ل	■	ح	ل
٩	و	و	■	ة	■	د	ي	و	ا	ن
١٠	ن	م	ب	و	د	ي	ا	■	ح	ة

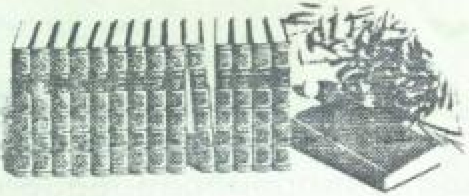

مكتبة العربي

كتاب الشهر

«الإرهاب»

من الكفاح الشعبي
إلى الإثارة الاعلامية

تأليف / جيرار شاليان   بقلم / جمال وردة

هل انتهى عصر النضال المسلح حقاً ، وتحول الفارس القديم إلى مجرد حاو يلعب بالنار المستخرجة من جعبته أمام متفرجيه الأجانب الذين اصطلوا بها إمعانا في الاثارة ، أم أن هذه اللعبة النارية وهجا لم يلحظه جمهور النظارة بعد ؟

ليس العنف بمصطلح جديد في القاموس السياسي ، بل لعله أقدم من السياسة نفسها ، فالعنف السياسي متعدد الجنسية والهوية والقضية ، قد يرتدي ملابس الكهان تارة والقمصان الفاشية السوداء تارة أخرى ، وقد يعتمد الكوفيات الزرقاء أو قبعات جيفارا ، ولعله يأتي على صهوة حصان جامح ليلا ، أو على صهوات « الفانتوم » في وضح النهار .

« الارهاب » سلاح الضعيف عادة ، فالخصم أقوى من المواجهة ، ابتداء من حركات التحرر الوطني في العالم الثالث ، ووصولا إلى قنابل الاثارة في أوروبا ، ومسلسل خطف الطائرات ، والتصفيات الجسدية لحركات التاميل والسيخ والباسك. جماعات فقدت الأمل في إمكانية التواصل مع الطرف الآخر ، بعد أن تعطلت اللغة ، وتقطعت الأيدي ، ولم يعد مجال للمصافحة .

هذه استراتيجية حرب العصابات في تاريخها الطويل الدائم ، من الصين وفيتنام شرقا إلى الجزائر وانجولا في افريقيا حتى كوبا في امريكا اللاتينية بالاضافة إلى عشرات المسيرات النضالية الأخرى في العالم الثالث .

والغريب أن الاستعمار الذي استطاع أن يغزو العالم الثالث قبل أكثر من ١٠٠ عام ، بعدد قليل جدا من جنوده ، مستغلا تفوقه التقني العسكري في ذلك الوقت ، قد وجد نفسه مضطرا للانسحاب والتقهقر على أيدي عدد قليل من الجنود أيضا ، بعد أن أدرك استحالة استمرار اللعبة ، خصوصا بعد أن أدركت الشعوب المقهورة سر تفوقه ، وسر قدومه ، فتفجرت في أعماقها الصحوة القومية والعلمية معا ، وانقلب السحر على الساحر . ولم يقدم فلاسفة الغرب العسكريون والمنظرون الاستراتيجيون كثيراً عن طبائع هذه الحرب الجديدة التي أخرجت المارد من قمقمه بعد سبات طويل . والحقيقة أن الصحوة لم تكن رجوعاً إلى التراث أو التنقيب عن جذور متيبسة للتدفئة بحطبها ، بل باكتساب الجرعات الحقيقية لعودة اخضرار هذه الجذور الضاربة في العمق ، حتى تشق الأرض من جديد أغصانا وجذوعا يستظل بها . .

وضع « ين فو » المانيفستو الجديد للصين عام ١٨٩٦ ، وقد استمده من روح الكنفوشية القديمة ، وكشف عفونة النظام السياسي القائم آنذاك في بلاده ، وجهله وعجزه تماما أمام التحديات الجديدة ، كذلك فساد الطبقة الحاكمة ، وانغلاقها عما يجري حولها في العالم ، ثم أدخل مفهوم التطور المستمر من خلال اكتساب العلوم بشتى فروعها ، وكرس كذلك نظرية المجد للمستقبل ، عوضا عن عبادة الماضي ،وجاء بعده « ماوتسي تونغ » وزاوج بين الكنفوشية والاشتراكية العلمية ، فنفض الصينيون عن رءوسهم غبار آلاف السنين .

ادراك الغايات الخفية :

لقد أدركت الشعوب المقهورة الغايات الخفية للاستعمار الذي برر حركته بأنها مجرد رسالة حضارية إنسانية ، بينما هي في الواقع سلب ونهب لخيرات الدول الفقيرة ، وسعي فاضح لتجارة الرقيق في افريقيا . وعرفت الشعوب حقيقة الاستعمار من خلال إبادة شعب كامل في « ريوجراند » في أمريكا اللاتينية . ومن خلال مذابح الصين الشهيرة عام ١٨٤٠ ومذابح جنوب افريقيا عام ١٩٠٥ بدأت الشعوب تفتش عن عوامل القوة الكامنة عند هذا الخصم المتكبر الجديد ،

فوجدته في العلوم والتصنيع . ولقد استفاد محمد علي باشا في مصر والدولة العثمانية من العلوم الغربية الحديثة ، إلا أن التجربة اقتصرت على الجانب العسكري والتقنية العسكرية فقط وهذا ما يدعو للأسف ، فقد جاءت مقارعة الاستعمار بالعنف السياسي والنضال المسلح . ولا نود السفر بعيدا عبر التاريخ البشري بحثا عن جذور الارهاب السياسي ، فليس القصد نبش القبور القديمة وتعرية الجثث من أكفانها ، كما لا ننوي استعراض طقوس الموت بالخناجر خلال القرن الحادي عشر على أيدي الحشاشين في العصر العباسي ، أو الموت بالمقصلة الفرنسية إبان الثورة الفرنسية ، حيث أصبح الارهاب رسمياً وحكوميا باسم الشعب ضد أعداء الشعب ، ويكفينا مائة عام فقط من التاريخ الحديث .

لقد بدأت بذور الارهاب السياسي في روسيا القيصرية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر على أيدي الحركات السياسية الشعبية في ذلك الوقت ، حيث كان لها فلاسفتها ومنظروها ، « العدميون » بزعامة « نيكاييف » ، والفوضويون بزعامة « باكونين » ومدرسة العنف المسلح لصاحبها « كروبوتكين » .

اتجاهات ثورية جديدة ، تنظر للعنف كوسيلة وحيدة لحرق الفساد والعفن ، وكأسلوب محرك للوعي الجماهيري . وقد استطاعت هذه الحركات الثورية زعزعة النظام القيصري ، بل واغتيال القيصر نفسه عام ١٨٨١ ، كما عقد في نفس هذا العام مؤتمر دولي في لندن ، شاركت فيه معظم الحركات السياسية الأوروبية التي آمنت بالعنف طريقا للخلاص .

يقول مؤلف الكتاب : في أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك ثلاث حركات سياسية نشطة ، تعمل للتحرر من مستعمريها ، كالحركة الأرمنية بقيادة حزب « طاشناق » ، التي كانت تحارب ضد الحكم العثماني ، ومن نشاطاتها المعروفة الاستيلاء على البنك العثماني في القسطنطينية عام ١٨٨٧ ، أما الحركة السياسية الثانية فهي الثورة الايرلندية ضد الحكم البريطاني ، والثالثة « الجماعة المقدونية » التي كانت تحارب ضد الهيمنة العثمانية في البلقان ، واستطاعت بعض هذه الحركات أن تحقق بعض النجاح ، حيث أسفرت عن استقلال ايرلندة الجنوبية ، وبقي الشمال مشتعلا حتى الآن واستقلت بلغاريا عام ١٨٧٨ ، أما الحركة الأرمنية فلم يكتب لها النجاح .

استمرت الشعوب في مقارعتها للاستعمارين الفرنسي والبريطاني . فظهرت منظمة « أيوكا » في منطقة الشرق الأوسط بقيادة « جنرال جريفاس » في قبرص ، وظهر الثوار الفلسطينيون في نضالهم المزدوج ضد الاحتلال البريطاني وضد الاستيطان الصهيوني معا .

نماذج من العنف السياسي

يمكن تقسيم حركات العنف السياسي في القرن العشرين إلى أربعة نماذج رئيسية ، النموذج الأول يشمل حركات التحرير الوطنية (الجزائر وفيتنام) وتتفرع عنها بعض الحركات الأخرى التي تطالب بحق تقرير المصير أسوة بغيرها من شعوب العالم ، كالفلسطينيين وحركة الجيش الجمهوري الايرلندي ، وهناك بعض الحركات الطائفية المحضة ، مثل منظمة « أيتا » التي تطالب بانفصال « الباسك » عن اسبانيا ، وحركة السيخ في الهند ، والتاميل في سيريلانكا .

والنموذج الثاني يمثل الحركات السياسية العقائدية لمقاومة الأنظمة الديكتاتورية والامبريالية ، وهي ذات أبعاد ماركسية طبقية . ويشمل هذا النموذج كافة الحركات الثورية في أميركا اللاتينية ، أو ما يطلق عليهم اسم « ثوار المدن » ، فبعد مصرع جيفارا عام ١٩٦٧ حاول الزعيم الثوري « كارلوس مارجيلا » استنباط نظرية جديدة للثورة في المدن ، واستغلال الأزمات السياسية ، وإعلان العصيان المدني عن طريق قيام نشاطات تخريبية داخل المدن ،

لارباك الحكومات ، وإجبارها على التحول إلى الأسلوب العسكري ، الأمر الذي يعطي المبرر الكافي للجماهير للتصدي لهذه الأنظمة ومحاربتها ، لكن يبدو أن هذه الأنظمة قد استطاعت أن تحتوي هذه الأزمات فلم يكتب النجاح لهذه النظرية حتى الآن ، إذ انسحب ثوار المدن ، وبقيت « العسكريتاريا » جاثمة على صدور أبناء الشعب ، فلقد غالى « مارجيلا » كثيرا في تقديره للدور الذي يمكن أن يلعبه هؤلاء الثوار ، وبهذا انعزلت الطليعة عن قاعدتها الشعبية الحقيقية في الأرياف ، تلك القاعدة الأم التي تغذيهم بالمال وبالرجال . ومن أبرز هذه الحركات الثورية « منظمة مارجيلا » في البرازيل ، و « توباماروس » في « أورغواي » و « مونتونيروس » في الأرجنتين .

يعتبرالنموذج الأوروبي هو النموذج الثالث ، حيث تسعى بعض المنظمات السرية المسلحة هناك إلى إحداث ثورات ديمقراطية في المجتمعات الرأسمالية الصناعية الغربية ، وتهدف إلى محاربة حلف « الناتو » والتحالف الغربي .

ومن أشهر هذه الجماعات المسلحة منظمة « الألوية الحمراء » في ايطاليا ، وقد تكون أهدافها السياسية غير واضحة تماما إلا أنها تتركز على التناقضات الاجتماعية السائدة ، وهناك منظمة « بادر ماينهوف » في المانيا الغربية ، وجماعة « العمل المباشر » في فرنسا ، و « الخلايا الثورية الشيوعية » في بلجيكا . قد لا تكون هذه الجماعات قوية مؤثرة ، إلا أنها تشكل تحديا صارما في وجه النظام الرأسمالي الغربي ، لما تسببه من إرباك وإزعاج للأجهزة البوليسية في أوروبا .

أما النموذج الرابع فهو ما يعرف بإرهاب الدولة ، وخطورة هذا النوع أنه غير منظور تماما ، وغير معلن ، ويبقى طي الكتمان ، بعكس النشاطات التي تقوم بها الجماعات المعارضة ، ومن نشاطات هذا النموذج التصفيات الجسدية الكاملة لقوى المعارضة ، كما حدث في السبعينيات في تشيلي ، والبرازيل خلال فترة (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢) ، وما حدث في أورغواي في نفس الفترة . ويعتبر حاليا الكيان الصهيوني أوضح مثال على إرهاب الدولة ، لما تقوم به « اسرائيل » من نشاطات إرهابية لتصفية قادة المقاومة الفلسطينية وأفرادها ، كما حدث في مجزرة بيروت وفي العواصم الاوروبية من تصفيات جسدية لبعض قادة المنظمة ، وما يحدث يوميا من غارات جوية وقصف مدمر لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان ، وتعتبر جنوب افريقيا نموذجا آخر لهذا الارهاب ، لما تقوم به من قمع واضطهاد للشعب الزنجي ، ومن غارات جوية على جيرانها ، بحجة ملاحقة الثوار الأفارقة . وفي أميركا عصابات رابطة الدفاع اليهودي ونشاطها التخريبي ضد المصالح والمؤسسات السوفيتية والعربية .

احصائيات الارهاب

لقد قلنا إن المحللين العسكريين والمثقفين في الغرب قد شغلوا في الحرب النووية القادمة ونتائجها على الرغم من أن معظم دراساتهم قد جاءت مبتورة ، ولم تضف شيئا يذكر ، وبقيت نظرياتهم مجرد تكهنات خاضعة لاحتمال الصواب والخطأ بينما كان للحروب التقليدية في الماضي مؤرخوها وكتابها الاستراتيجيون الذين لم يتركوا شاردة أو واردة إلا سجلوها ، وأصبحت ملاحظاتهم دروسا ومناهج لكافة « أكاديمياتهم » العسكرية . فما بالهم قد تجاهلوا حروب التحرير الجديدة المعروفة بحرب العصابات ؟ ! إن الدراسات الغربية عن هذه الظاهرة تكاد تكون معدومة ، على الرغم من أن هذا النموذج من الحروب ـ سواء كان تحريريا أو إرهابيا ـ

قد استطاع أن يغير خريطة العالم . في الصين وفيتنام في آسيا ، والجزائر وانجولا في افريقيا ، وكوبا ونيكاراغوا في أميركا اللاتينية . وما تزال جذوتها مشتعلة في الشرق الأوسط . ومع ذلك ما زال الغرب يجهل دوافعها . ففي خلال أقل من عقدين من الزمان ، ومنذ عام ١٩٦٨ شهد العالم اغتيال ثلاثة من رؤساء الدول ، كما حدث هجوم على أكثر من ٥٠ سفارة في العالم . وتدل الاحصاءات ان هناك أكثر من ٢٧٠٠ عمل إرهابي قد حدث ما بين عام ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧ فقط . وتقول الأرقام كذلك أن هناك أكثر من ٣٠٠٠ قتيل قد سقطوا بين عامي ١٩٦٨ ـ ١٩٨٤ ، وفي ١٩٨٦ سقط في فرنسا وحدها أكثر من ٢٠٠ شخص بين قتيل وجريح بفعل الإرهاب السياسي . وخلال الستين الماضيتين تصاعدت عمليات العنف السياسي في العالم ، فقد ثبت أن للسيخ يدا في حادثة انفجار الطائرة الهندية عام ١٩٨٥ ، وكل يوم تطالعنا نشرات الأخبار عن هجمات للجيش الايرلندي في قلب لندن ، أو عن اغتيالات جديدة في ايطاليا واسبانيا ، وما زالت المعارك طاحنة بين التاميل وحكومة سيريلانكا ، وكذلك الحال في الفلبين مع الثوار المسلمين والمنظمات الشيوعية .

وفي اوروبا تكاد تكون أخبار الانفجارات وخطف الطائرات شبه يومية . لكن ، لماذا أوروبا على الأخص ؟ يقول بعض المحللين إن اوروبا تبقى المكان المفضل والمناسب للعروض الارهابية لما تمتاز به من سهولة الحركة وحرية التنقل ، وسرعة الوصول إلى وسائل الاعلام المختلفة ، من صحافة وتلفاز وإذاعة . إن قنبلة واحدة كفيلة بأن يسمع انفجارها العالم كله ، والقضاء الأوروبي والمحاكمات العلنية وما تجلبه من دعاية مجانية لهذه الحركات السياسية وأهدافها ، كذلك تعتبر الأحكام القضائية خفيفة نسبيا ، فليس هناك عقوبات بالاعدام لمثل هذا النشاط السياسي العنيف ، وتعتبر السجون أشبه بفنادق بالنسبة لمواطني العالم الثالث ، فلا جحور ولا زنزانات ، ولا تعذيب ولا محاكمات سرية وهمية .

وقد فطن الأوروبيون أخيراً لذلك ، فبدأت السلطات القضائية بتشديد العقوبة نوعا ما ، كما حدث في فرنسا في الآونة الأخيرة ، كما بدأت بوضع سياسة أمنية أكثر حزما ، توجب تفتيش المسافرين في المطارات ومناطق العبور ، ثم التعاون المشترك بين السلطات الأجنبية في كل الأقطار الأوروبية ، وتزويد بعضهم بعضا بالمعلومات والخطط اللازمة لمكافحة الارهاب الذي استشرى ، ووجد في اوروبا تربة صالحة . لكن هل صحيح أن النضال السياسي قد تحول إلى مجرد عروض مجانية للاثارة ؟

هدف أم مرحلة

إن العنف السياسي ليس هدفا بحد ذاته ، بل مجرد مرحلة مؤقتة ، فرضتها ظروف معينة ، أما إذا ظهرت هناك بعض الجماعات التي استغلت الوضع الجديد ، واستفادت من هذا المد الجارف لتسوى حساباتها مع خصومها بهذا النموذج الارهابي ، فالفشل سيكون نصيبها حتما ، ولن يكتب لها النجاح أو النصر .

إن أي جماعة لا ترتبط بالجماهير أو الارادة الشعبية دون أي بعد سياسي لتغطية نشاطها ، أو قضية وطنية تحارب من أجلها ، ستجد نفسها يوما ما تقف في الميدان عارية حتى من ورقة التوت ، وسينكشف زيفها كحركة إرهابية بحتة ، تمارس الارهاب من أجل الارهاب ، وعندئذ يجب محاربتها كأي عصابة خارجة على القانون .

إن انقطاع أي جماعة عن عمقها الجماهيري يصيبها بالشلل الدماغي ، ويفقدها القدرة على الرؤية ، ويحولها إلى مجرد خفافيش ليلية ضارة ، تعشق سفك الدماء لغايات سادية إرهابية بحتة ، وفي هذا المجال يجب التفريق بين النضال السياسي الذي يركب موجة العنف مؤقتا حتى ينظر الآخرون إلى عدالة قضيته ، وبين جماعات تمارس الذبح دون غاية أو هدف .

وعلى الرغم من أن الكتاب يستعرض الكثير من هذه الحركات ، إلا أنه يكاد يخلط بين هذين الاتجاهين ، فالغرب مازال يعتبر العرب بقايا من هذه الحركات العنيفة في الربع الأخير من القرن العشرين . وإن الفلسطينيين على الأخص هم وقودها ، متناسيا أن البندقية هي الارث الوحيد الذي يتسلمه الفلسطينيون جيلا عن جيل منذ أكثر من ستين عاما . ويعبر الكاتب عن دهشته كيف تحول لبنان الأخضر الى جبل من نار ، وأصبح المورد الأوحد لبذور العنف والارهاب في العالم . لكن المؤلف لم يحلل أو يشخص كيف تحولت بلاد الارز إلى غابات من بنادق ، ولماذا ؟

هناك من هم أحق بهذه الدهشة ، إذ من حق الفلسطينيين أن ينظروا بدهشة إلى إخوة لهم في السلاح من معظم شعوب العالم الثالث ، حين نالت بلدانهم الاستقلال ، وكيف نالت شعوبهم حق تقرير المصير ، فمسيرة الفلسطينيين النضالية قد سبقت كثيرا من حركات التحرر الوطني في العالم . إن لعبة التوازن في المنطقة قد أفرزت الكثير وأفسدت الكثير ، لكن العودة إلى المصب قد تغني عن مشقات الارتواء من الحفريات الطينية الموحلة . □

● أليس من السخف أن يحكم الناس خطباء يستثيرون شعورهم بخطب طنانة كالأوعية النحاسية الجوفاء إذا ضربت عليها طنت وظلت تطن حتى تمسها يد ؟

(سقراط)

من المكتبة العربية

صورة الأرض أو المسالك والممالك للرحالة ابن حوقل

عرض : الدكتور هشام سخنيني

صورة الأرض ، هو المصطلح العربي لعلم الجغرافيا الحديث ، وهو في الوقت نفسه اسم لكتاب وضعه الرحالة العربي الشهير ابن حوقل ، وفيما يلي عرض للكتاب الذي عرف أيضا باسم آخر أكثر شهرة هو المسالك والممالك مع تركيز على بعض الجوانب الاقتصادية .

ولد ابن حوقل ، واسمه أبو القاسم بن علي النصيبي ، في نصيبين ، احدى مدن الجزيرة . وقد قضى على الأرجح ، السنوات الاولى من حياته في بلاد ما بين النهرين ، قبل أن يبدأ في عام ٩٣٤م ، سلسلة من الرحلات التي كان من ثمارها كتابه صورة الأرض . ويبدو أنه كان تاجرا ؛ وهذا يفسر لنا اهتمامه الزائد بالجوانب الاقتصادية لبعض المدن والاقاليم التي زارها . وقد ترك لنا ابن حوقل كتابا عن جزيرة صقلية ، ولكنه لم يصلنا ، وكتابا آخر عن وصف البلاد الاسلامية عنوانه كتاب المسالك والممالك أو صورة الارض ، الذي به اشتهر .

صورة الارض

اعتمد ابن حوقل في تأليف كتابه صورة الارض على كتاب للجغرافي الاصطخري ، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي . ويذكر فيليب حتى أن الاصطخري كان قد طلب من ابن حوقل مراجعة خرائط كتاب الجغرافيا الذي وضعه الأول وأسلوبه . ويبدو أن ابن حوقل أعاد صياغة الكتاب برمته ، وأصدره باسمه بعد ادخال بعض التعديلات والتغييرات عليه ، وبعد أن اسماه المسالك والممالك ،

وهو الكتاب المعروف لنا باسم صورة الارض أيضا .

ومهما يكن من أمر ، فان شخصية ابن حوقل بارزة في الكتاب بوضوح . والكتاب كما يخبرنا ابن حوقل نفسه باسلوبه ، يعنى بما يلي :

المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك ،
وذكر الاقاليم والبلدان ، على مر الدهور
والأزمان ... وطبائع أهلها وخواص
البلاد في نفسها ، وذكر جباياتها
وخراجاتها ومستغلاتها ، وذكر
الانهار الكبار ، واتصالها بشطوط
البحار ، وما على سواحل البحار من
المدن والامصار ، ومسافة ما
بين البلدان للسفارة والتجار ...
مع ما ينضاف الى ذلك من الحكايات
والاخبار ، والنوادر والآثار .

يبدو من كلام ابن حوقل الذي ذكرناه عدم اغفاله للنشاط الاقتصادي للاقاليم والبلدان التي زارها . وقبل أن أتحدث عن هذا النشاط أود أن أشير الى المصادر التي استقى منها ابن حوقل المعلومات الجغرافية والاقتصادية الواردة في الكتاب .

لايدع ابن حوقل القارىء يبحث عن هذه المصادر ، اذ يذكرها له بنفسه وهي : مطالعة الكتب ، الرحلات ، الاستعلام ، والملاحظة المباشرة (العيان) .

وتكاد كل صفحة من صفحات كتاب صورة الارض تزخر بالمعلومات عن الحياة الاقتصادية للمدن والاقاليم التي زارها ابن حوقل ، أو التي يملك عنها معلومات . ان تعليقاته على الشؤون الاقتصادية تشكل في الواقع تغيرا ملحوظا في العرف المتبع في أدب الرحلات ، اذ ان اهتمامه كان منصبا على المنتجات الزراعية والصناعية ، وعلى دراسة وضع اقتصادي ما في فترة زمنية معينة . لقد كان الجغرافي العربي الوحيد الذي رسم لنا لوحة مفعمة بالحيوية عن انتاج بعض المدن والاقاليم في القرن العاشر الميلادي .

وقد رسم ابن حوقل الأوجه المختلفة التالية للحياة الاقتصادية في كتابه المذكور :

١ ـ المنتجات .
٢ ـ الاسواق .
٣ ـ التجار .
٤ ـ الأسعار
٥ ـ الاستيراد والتصدير .

الكركي

ان أول ما يلاحظه قارىء (صورة الارض) بصدد المنتجات المختلفة للمدن والاقاليم التي يتحدث عنها ابن حوقل ، هو الحديث المفصل عن منتجات نصيبين . ولا عجب في ذلك ، اذ أن ابن حوقل من مواليد هذه المدينة . وفي سياق حديث ابن حوقل عن منتجات المدن والاقاليم ، يورد لنا أحيانا معلومات ممتعة ومهمة .

فعلى سبيل المثال ، يذكر لنا حين تحدثه عن منتجات فارس ـ في بعض ما يذكر ـ بأن في اصطخر نوعا من التفاح حلو المذاق الى حد بعيد . وبأن الورد الجوري المشهور من منتجات جور أو فيروزآباد وهما اسمان لمدينة واحدة . ومن منتجات فارس أيضا صنف من الحبر الاسود لايوجد مثه في العالم اجمع ما عدا الصين . وحين يحدثنا ابن حقل عن منتجات احدى مدن الغرب ، يقول :

« وبها من الفواكه والسفرجل المعنّق ما لا أزال احكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته » .

ولا يكاد ابن حوقل يغفل عن ذكر منتجات كل مدينة واقليم ، بل أنه لاينسى معادن بعض المدن والاقاليم كذلك .

يصف لنا ابن حوقل في كتابه الاسواق المختلفة للمدن والاقاليم التي زارها وصفا ممتعا . فمثلا ، يصف لنا سوقا تعرف باسم الكركي (بتشديد الراء والياء) وتقع في مدينة اسمها بردعة كما يلي :

مقداره (أي السوق) فرسخ ، ويجتمع فيه الناس كل يوم أحد ويتنابونه من كل مكان وأوب ... وقد غلب اسم السوق على اسم اليوم لدوامه وقولهم يوم الكركي ، حتى أن كثيرا منهم اذا عد ايام الاسبوع

قال الجمعة والسبت والكركي والاثنين ، يريد بالكركي الاحد .

وبين الحين والحين يردد ابن حوقل في ثنايا كتابه تعابير مثل أسواق حسنة ، كأوصاف للاسواق التي يزورها ، الأمر الذي يدلنا على طبيعة تلك الاسواق في زمنه وعلى اعجابه بها .

ويصف ابن حوقل الاسواق في فاس في المغرب ليرينا مدى العناية بالاسواق في القرن العاشر الميلادي :

في كل يوم من أيام الصيف
يرسل في أسواقها من نهرها الماء
فيغسلها فتبرد الحجارة ، وجميع ما
بها من الفواكه ، والغلات ، والمطاعم ،
والمشارب ، والتجارات ، والمرافق ،
والخانات .

التجارة والاسعار

ويهتم ابن حوقل بتجار المغرب اهتماما خاصا . ولذلك لانعجب حين نراه يهتم بأسواقها كذلك . ومهما يكن سبب اهتمام ابن حوقل بتجار المغرب وبأسواقها، فان قارىء كتابه صورة الارض يستطيع أن يستقي منه المعلومات التالية عن تجار المغرب وغيرها في زمن ابن حوقل :

أ ـ معظم تجار مدينة كُرت (أو كرث) ـ الواقعة في أقصى بلاد المغرب قرب بلاد السودان ـ من البربر .

ب ـ تجار المهدية المغربية دمث الاخلاق .

جـ ـ تزخر عمان بالتجار .

د ـ يؤم طبرقة ، وهي مدينة مغربية ، بها كثير من التجار . وهي ، كما يذكر ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي المشهور ،عامرة لورود التجار اليها ، وفيها نهر كبير .

هـ ـ يقطن سوكن ـ المؤلفة من ثلاث جزر والواقعة تجاه جدة ـ تجار من فارس .

ولا تغيب نصيبين ، مسقط رأس ابن حوقل ، عن ذهنه وهو يتحدث عن أسعار ومنتجات المدن والاقاليم . يقول عن رخص أسعارها :

« لم تزل على ما ذكرته منذ أول الاسلام . معروفة بكثرة الثمار ورخص الاسعار » .

بل يكاد ابن حوقل يذكر لنا سعر كل سلعة من سلع نصيبين .

وتتردد هنا وهناك في الكتاب تعابير مثل : صالحة الاسعار ، ورخص الاسعار ، وخصبة الاسعار . فعلى سبيل المثال ، يخبرنا ابن حوقل عند تحدثه عن سكان الاندلس ما يلي :

« أما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة » .

ولا يكتفي ابن حوقل بتسجيل اسماء الأنواع المختلفة لمنتوجات المدن والاقاليم التي يزورها وذكر اسعارها ، بل يقوم بدراسة وتعليل أسباب رخص المنتجات في بعض الاماكن ، فجزيرة ميرقة الاندلسية ، مثلا ، رخيصة الماشية لكثرة المراعي .

استيراد وتصدير

ولا تكتمل اللوحة الاقتصادية التي يرسمها لنا ابن حوقل عن المدن والاقاليم التي زارها الا بذكر ما يرد الى بعضها من سلع ، وما يصدر الى بعضها الآخر من غلال ؛ فحديد بونة ، وهي مدينة مغربية ، وتينها يصدران الى عدة أقطار . كما أن وهران تستورد[1] السلاح[2] ومنها يحملون الغلال ، و ان فارس تصدر ماء الورد الذائع الصيت الى جميع أنحاء المعمورة .

ولا بد في نهاية المطاف من أن نذكر بأن ثمة في كتاب(صورة الارض)مواضيع عديدة ذات صلة بالحياة الاقتصادية للمدن والاقاليم التي زارها ابن حوقل ، مذكورة في الكتاب هنا وهناك ، وهي مصادرة الممتلكات ، والضرائب وأنواع العملات المستخدمة في أقطار مختلفة ، والمقاييس والاخراج . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : معجم الألفاظ المفسر في كتاب « الأغاني » .
اعداد : الدكتور حسن محسن .
الناشر : وزارة الاعلام الكويتية .
عدد الصفحات : ٣١٨ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٧

الكتاب الشهير لأبي الفرج الأصفهاني الذي صدرت كتابات كثيرة عنه لتضيء جوانبه المختلفة ، هو موضوع هذا الكتاب المعجمي الجديد الذي قام باعداده المصنف .

في هذا الكتاب يتناول المصنف الجانب اللغوي من كتاب « الأغاني » ، فيقوم بشرح الكلمات والتعبيرات التي يرى من الضروري شرحها ، ويزيل الغموض الذي قد يكون موجودا في ثنايا التعبير الأدبي ، وقد رتب هذه الكلمات والتعبيرات والألفاظ ترتيبا معجميا لتيسير الاستفادة منه .

يقول المصنف في تقديمه للكتاب انه تبين أن للكتاب جانبا لم يلق عليه ما يكفي من الضوء ، وهو الجانب اللغوي ، وأن هذا الجانب هو احدى الركائز الأساسية التي اعتمد عليها منهج كتاب « الأغاني » الى جانب ركائز أخرى مثل الموسيقا والغناء والنقد والتاريخ .

■■

الكتاب : التدين المنقوص
المؤلف : فهمي هويدي
الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
عدد الصفحات : ٣١٢ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

هذا كتاب جديد جمع فيه المؤلف مقالات كان قد نشرها في عدد من الصحف والمجلات العربية ، منها مجلة « العربي » .

إن مجموع هذه المقالات يشكل جزءا من معارك فكرية خاضها المؤلف مع ثلاثة أطراف أولها « الناقدون للاسلام » ، وثانيها « المتربصون بالعاملين في ميدان الدعوة » ، وثالثها « فصائل المتدينين أنفسهم » الذين يرى المؤلف أن قلوب أكثرهم قد امتلأت بالايمان ، لكن وعيهم بحقائق الدين وأساليبه ومقاصده تشوبه شوائب عديدة ، مما جعله يطلق على ذلك النوع من التدين عنوان الكتاب « التدين المنقوص » .

ومن البداية يعلن الكاتب أنه يقف على أرض هذا الفريق الثالث وفي معسكره وضد الفريقين الآخرين (الأول والثاني) .

■■

الكتاب : لغة الطفولة والحلم
المؤلف : محمد برادة
الناشر : الشركة المغربية للناشرين المتحدين ـ الرباط
عدد الصفحات : ١٤١ من القطع الوسط
سنة النشر : ١٩٨٦

في هذا الكتاب الفريد يقوم الكاتب الناقد المغربي محمد برادة بأكثر من عمل واحد ، فهو يقدم نماذج من القصة القصيرة المغربية الحديثة بأقلام كتابها المشهورين ، ومنهم (محمد شكري ، ومحمد زفزاف ، وعز الدين التازي ، وأحمد المديني ، وآخرون) ، ويعرف بهؤلاء الكتاب وأعمالهم ، ثم

يقدم قراءة للقصص المختارة ، في محاولات لاستجلاء السمات المميزة لصيغها وخطابها كما يقول .

وهو يقوم بهذه القراءة خلال تحليل أربع محطات أساسية يحددها بالاستذكارية والكاشفة والمجابهة « والفانتازية » ، ويكتشف عبر قراءته هذه ما أسماه محاولة تأسيس « لغة الطفولة والحلم » وهو العنوان الذي اختاره المؤلف للكتاب .

■ ■

الكتاب : الأشباح ـ رواية

المؤلف : اندريه بلاتونوف

ترجمة : خيري الضامن وأبي بكر يوسف

الناشر : دار رادوغا ـ موسكو

عدد الصفحات : ٢٦٤ من القطع الوسط

سنة النشر : ١٩٨٦

هذه الرواية هي العمل الأول من روايات الكاتب السوفييتي اندريه بلاتونوف الذي نقل الى اللغة العربية .

وقد ضم الكتاب مقدمة للرواية والكاتب بقلم الشاعر السوفييتي الشهير يفغيني يفتوشنكو ، قدم فيها الكاتب باعتباره أحد الروائيين الذين لاترى أفكارهم « تمشي على قدمين » ، فأبطاله يسيرون حسب ارادتهم .

وما قصده يفتوشنكو هو خلو روايات بلاتونوف من الطابع الدعائي الفج الذي يميز أعمال كثير من الأدباء السوفييت في فترة الثلاثينيات والأربعينيات التي تنتمي اليها هذه الرواية .

بطل هذه الرواية هو نزار شاغاتيف الذي يسهم في انجاز المشروعات الضخمة لبناء الاتحاد السوفييتي الجديد بعد استقرار الأحوال في أعقاب الثورة البلشفية هناك .

■ ■

الكتاب : الطفل في حالة الصحة وفي حالة المرض

المؤلف : د . محمد صادق زلزلة

الناشر : دار ذات السلاسل للنشر والتوزيع ـ الكويت

عدد الصفحات : ٥٦٨ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٧

هذه هي الطبعة الثانية من كتاب الدكتور زلزلة ، أما الطبعة الاولى فقد صدرت عام ١٩٧٦ ونفدت ، وهذه الطبعة مزيدة منقحة حيث أعاد الكاتب النظر في بعض الأجزاء ، وأضاف ، وبدل ، ليخرج الكتاب على الصورة التي يجدها القارىء بين يديه .

ينطلق المؤلف في جمعه لمادة هذا الكتاب وترتيبه وتنظيمه من حقيقة هي أن المكتبة العربية ينقصها الكثير من مثل هذه الكتب العلمية ، وكتب الأطفال على وجه الخصوص ، فيقدم هذا الكتاب المهم والمنظم ، لا للقارىء المتخصص الذي يمكنه الاطلاع على مايريده باللغة الأجنبية ، بل للقارىء العادي ، وللأم الحامل ، وكلهم يحتاجون الى مثل هذه المعلومات المبسطة المهمة في الوقت نفسه .

ويؤكد المؤلف منذ البداية أنه من الصعب ايجاد حد فاصل بين الطفل السليم والطفل السقيم ، لذا فانه يقدم نصائح عامة بشأن الأطفال وتنشئتهم في الصحة والمرض . □

● أركان السعادة ثلاثة : أن تجد شيئا تعمله وشيئا تحبه ، وأملا ترجو تحقيقه أو تسعى إليه .

(مثل غربي)

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٥٣

ابريل ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥٣ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ مايو ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٥٣

١ من المعروف أن أطول سور القرآن الكريم هي سورة البقرة (٢٨٦ آية) . فما هي أطول آياته ؟ وكم عدد كلمات هذه الآية ؟

٢ سياسة اللاعنف اشتهر بها المهاتما غاندي . ترى من أين أتى بهذه السياسة ؟

* اقتبسها عن مذهب « الجينيين » ، وهو مذهب هندوكي يقوم على اعتقاد بقداسة الحياة ونبذ القتل والعنف بصوره كافة .
* غاندي هو الذي ابتكر سياسة اللاعنف ، وذلك أثناء وجوده في جنوب أفريقيا في المراحل الأولى من حياته .
* جواهر لال نهرو ، وهو رفيق غاندي في الجهاد ومرشده في رسم السياسات واتخاذ القررات ، وهو صاحب الفضل في وضع سياسة اللاعنف .

٣ من المعروف أن السنة الميلادية تبدأ بمولد السيد المسيح ، من هنا كان احتفال العالم المسيحي بعيد الميلاد ليلة ٢٤/ ٢٥ ديسمبر من كل عام ، لكن العالم المسيحي يحتفل أيضا بعيد رأس السنة الميلادية ، وذلك في أول يناير من كل عام ، فلم يحتفل بهذا العيد الثاني ؟ وما مبرر الاحتفال ببداية السنة الجديدة مرتين في غضون أسبوع واحد ؟

٤ كم بلغ مجموع البابوات الذين جلسوا على عرش الفاتيكان ؟

* ١٦٦ بابا
* ٢٦٦ بابا
* ٣٦٦ بابا

٥ ثمة ملحمة دينية (شعرية) نظمت قبل ٢٠٠٠ سنة ، وتعتبر أطول قصيدة عرفها التاريخ دون خلاف ، وقد بلغ عدد أبياتها (١٠٠,٠٠٠) بيت . فما اسم هذه الملحمة ؟ ولأي دين نظمت ؟

٦ أيهما أكبر عدداً في الكنيسة الكاثوليكية الرهبان أم الراهبات ؟
* الرهبان ، وعددهم أكثر من ضعفي عدد الراهبات .
* الراهبات ، وعددهن أكثر من ضعفي عدد الرهبان .
* متساويان تقريبا .

٧ تدعو الديانة البوذية إلى بلوغ « النرفانا » . فماذا يقصدون « بالنرفانا » هذه ؟
* حالة من السمو الأخلاقي والنفساني يستطيع المرء بلوغها إبان حياته .
* « النرفانا » عند البوذيين تقابل جنة الفردوس عند أصحاب الأديان السماوية .
* **الموت والفناء الذي هو مصير كل إنسان .**

٨ الزرادشتية دين الفرس القديم ، وأقدم الأديان حسبما يؤكد الكثيرون. ترى ما هو جوهره ؟
* عبادة النار .
* عبادة الشيطان ، فهو والنار صنفان .
* عبادة إلهين ، إله الخير وإله الشر .

٩ مذهب المورمون مذهب مسيحي معروف، . ترى هل هو مذهب قديم أم حديث ؟ وهل ظهر في أوروبا أم في العالم الجديد ؟

١٠ كان اليهود مضطهدين في العصور الحديثة لا ريب ، لكن في أي البلدان التالية كانوا مضطهدين ؟ وفي أيها لم يكونوا كذلك ؟
* ايطاليا فرنسا أسبانيا
المانيا انكلترا بولونيا روسيا .

١١ أي المذاهب الدينية كثر رهبانه حتى بلغوا ربع مجموع أتباعه ؟
* المذهب اللامي في التبت .
* الديانة الكونفوشية .
* الديانة الطاوية .

١٢ **صحيحا** مسلم والبخاري . . ترى **أيها يفوق الآخر بعدد الأحاديث النبوية التي يحتوي عليها ؟**

□

حلّ مسابقة العدد ٣٥٠ يناير ١٩٨٨

١ سيبويه هو الذي فاز على الكسائي في تلك المناظرة ، وسيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان أعلم النحويين جميعا ، وإمام مذهب البصرة . ولد في البصرة وتوفي في شيراز سنة ٧٧٠م . أما الكسائي فهو أبو الحسن علي بن حمزة (٧٣١ ـ ٨٠٦) أحد كبار أئمة النحو واللغة وقراءة القرآن ، تولى تأديب الأمين والمأمون وتوفي في الري .

٢ ظهرت الأبجدية الأولى في التاريخ في أوغاريت أو رأس الشمرة في شمال سوريا ، وذلك في القرن ١٧ قبل الميلاد ، وقد اقتبس اليونان القدامى أبجديتهم عن تلك الأبجدية الفينيقية الأولى ، واقتبس الرومان عن اليونان حروفهم الهجائية التي انبثقت عنها شتى الأبجديات الأوروبية .

٣ الأبجدية السيريلية ـ نسبة الى المبشر اليوناني سيريل (Cyril) ـ هي الأبجدية التي أنشأها المبشر المذكور بالتعاون مع مبشر يوناني آخر هو « ميثوديوس » ، وذلك في القرن التاسع الميلادي .

٤ قبائل المايا من الهنود الحمر ، وهي القبائل التي استوطنت أمريكا الوسطى قبل الاستعمار الاسباني والتي كتبت وقرأت من أسفل الى أعلى . أما أهل الصين فيكتبون ما يكتبون في أعمدة ـ لا سطور ـ ويقرءون كتاباتهم من أعلى الى أسفل ومتجهين من اليمين الى اليسار .

والجدير بالذكر أن الكتابة في سطور مستقيمة لم تظهر في أوروبا إلا سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وذلك في جزيرة كريت . أما الكتابة والقراءة من اليسار الى اليمين فلم تنتهجها أوروبا حتى القرن العاشر قبل الميلاد .

٥ لا يتكلم أية لغة ، وتجدر الاشارة هنا الى التجربة الرائدة التي أجراها فرعون مصر (بسامتيك Psamtik ٦٦٣ ـ ٦٠٩ ق . م) ، فقد عزل اثنين من مواليد الفقراء عزلا تاما عن الناس وذلك بقصد اكتشاف اللغة الأصلية التي يتكلمها الاثنان بالفطرة ، وأفرج عن الطفلين بعد سنتين ، وتبين أن اللفظ الوحيد الذي ردداه هو بكوس ، وأنهما اقتبسا ذلك اللفظ عندما سمعاه من أصوات الخراف عبر نافذة الغرفة التي عزلا فيها .

٦ يمكن تعليم النطق والكلام للأطفال الذئاب ، لكن بصعوبة كبيرة . وأثبتت التجارب التي أجروها على نحو (٥٠) طفلا عثروا عليهم في غابات الهند وكذلك على الطفلة الأمريكية (جني) التي ظلت سجينة بيتها وفي عزلة تامة طوال ١٤ عاما ، ومما يذكر أن الأطفال الذئاب غالبا ينشأون على التخلف العقلي .

٧ لغة الباسك هي اللغة الوحيدة في العالم التي لا تربطها بسائر اللغات أية رابطة ، ويقدر عدد الذين يتحدثون بها نصف مليون نسمة موزعين في الغالب بين بلدان جنوب فرنسا وشمال اسبانيا .

٨ أبجدية كمبوديا هي التي تشتمل على ٧٤ حرفا وتعتبر أطول أبجدية في العالم .

٩ أبجدية جزر سليمان وتسمى روتوكاس Rotokas ، وهي أقصر أبجدية في العالم ، فعدد حروفها لا يزيد عن ١١ حرفا .

١٠ في المكسيك وعند قبائل فراتكو الهندية بالتحديد يعتمد الصفير بقصد التخاطب وتجاذب أطراف الحديث ، مثلها كمثل سكان جزيرة (لاجوميرا) إحدى جزر الكناري التي تعتمد لغة صفير أخرى تسمى (سلبو) .

١١ الاسبرانتو هي اللغة العالمية التي ابتكرها العالم البولندي الدكتور ل . زامنهوف (١٨٥٩ ـ ١٩١٧) ، وقد نشر كتابه الأول عنها سنة (١٨٨٧) .

١٢ معجم « لسان العرب » ألفه ابن منظور . ولد في مصر وتوفي ١٣١١م ، . أما « القاموس المحيط » ألفه مجد الدين أبو طاهر محمد الفيروزبادي المتوفى ١٤١٤م . قاموس العين أو (كتاب العين) ألفه الخليل بن أحمد الفراهيدي النحوي المتوفى في القرن الثامن الميلادي ، ويعتبر « كتاب العين » أول معجم ظهر في اللغة العربية .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٠ يناير ١٩٨٨

الجائزة الأولى : د . صلاح الدين عبدالقيوم أبو شامة / بورتسودان / السودان .

الجائزة الثانية : عبدالله بوخلخال / قسنطينة / الجمهورية الجزائرية .

الجائزة الثالثة : أحمد عارف الفاني / بيروت / لبنان

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ عبدالقادر عثمان البنا / عدن / اليمن الديمقراطية .
٢ ـ خير الدين المسعودي / الزهراء / الجمهورية التونسية .
٣ ـ جودت أحمد محمود صالح / اربد / الأردن .
٤ ـ شادية أحمد نصرة / دمنهور / جمهورية مصر العربية .
٥ ـ د . فؤاد فاضل / حلب / سوريا .
٦ ـ د . ابراهيم بن محمد أمين / الرياض / المملكة العربية السعودية .
٧ ـ لمى أحمد ابراهيم عامر / السالمية / الكويت .
٨ ـ أحمد الصالح بن احمدو بن احميد / نواكشوط / موريتانيا .

معركة بلاسلاح

« لقد كان اللقب في قبضتي . ولكنني أضعته في اللحظة الأخيرة » بهذه العبارة عقّب أناتولي كاربوف على خسارته في الجولة ٢٤ من مباراته على بطولة العالم . مع مواطنه حامل اللقب، جاري كاسباروف . وكانت الخسارة المذكورة سببا في إضاعته للقب . وتقديمه لخصمه على طبق من ذهب - حسب تعبير كاسباروف نفسه - بعد أن أجمع المحللون والمعلقون على أن بطولة العالم ستكون من نصيبه بنسبة ٨٥٪ . بعد فوزه في الجولة الثالثة والعشرين التي جعلته يتفوق على كاسباروف بنقطة كاملة (١٢ - ١١) ولم يبق بينه وبين استرجاع اللقب سوى نصف نقطة فقط .

ففي الجولة ٢٣ خرج كاربوف من قاعة اللعب بعد انتصاره ودموع الفرح تنهمر على وجنتيه واستقبلته زوجته ناتاشا بولانوفا التي كانت ترافقه لقضاء شهر العسل في ربوع اسبانيا والدنيا لا تكاد تسعها من فرط السعادة ، في حين خرج كاسباروف من القاعة وهو يحجب وجهه بيديه من شدة الحزن والخجل .

تألفت بطولة العالم من ٢٤ جولة ، أحرز كل من البطلين أربعة انتصارات و ١٦ تعادلا إذ فاز كاسباروف بالجولات ٤ ، ٨ ، ١١ ، ٢٤ ، في حين فاز كاربوف بالأدوار ٢ ، ٥ ، ١٦ ، ٢٣ . وبذلك يكون البطلان قد التقيا في (١٢٤) مُباراة تغلب كاسباروف في ١٧ منها وكاربوف في ١٦ وانتهى ٩١ منها بالتعادل منذ عام ٨٤ الى الآن . وقد اخترنا لكم في هذا العدد الدور ٢٣ من المباراة الذي جعل العرش يهتز بشدة تحت قدمي كاسباروف لولا حسن حظه وصلابة عزيمته وقدرته الفائقة على انتزاع النصر في أحلك الظروف . والدور من الافتتاح الانجليزي نبدؤه من النقلة ١٨ (الشكل أعلاه) لطول الدور ولكوْن النقلات الأولى معروفة .

□ أناتولي كاربوف	■ جاري كاسباروف
١٨) ف - ز ٥	ر - و ٨
١٩) ر و - جـ ١	ر أ - جـ ٨
٢٠) ف - د ٢	ر - و ٧
٢١) أ ٤	و × هـ ٤
٢٢) و × هـ ٤	ر جـ - و ٨
٢٣) و ٣	ف - جـ ٨
٢٤) أ ٥	ف - و ٥
٢٥) و - هـ ٢	ر - هـ ٨
٢٦) ف - هـ ٤	ف - و ٨
٢٧) و - د ٣	ف - جـ ٥
٢٨) ر - أ ١	و - د ٧
٢٩) ر - هـ ١	و - جـ ٨
٣٠) م - جـ ١	ر - جـ ٧
٣١) ر أ - ب ١	م - ز ٧
٣٢) ر هـ - جـ ١	ف × هـ ٤
٣٣) و × هـ ٤	ر - و ٧

٣٤) و - ز ٣	ب × أ ٥
٣٥) ف × أ ٥	ر - و ٤
٣٦) ر - هـ ١	و - أ ٦
٣٧) ف - د ٢	ر - و ٧
٣٨) و - د ٣	ر هـ - و ٨
٣٩) جـ ٣	ر - و ٢
٤٠) ر - أ ١	و - و ٦
٤١) ر - ز ١	حـ ٥
٤٢) ر - أ ٥	و - هـ ٧
٤٣) ر - ب ١	حـ ٤
٤٤) ر - أ ٦	ر ٨ - و ٧
٤٥) ر - جـ ٦	و - و ٨
٤٦) ر - ز ١	ف - هـ ٧
٤٧) ر - هـ ٦	م - حـ ٧
٤٨) ف - هـ ١	ر - و ١
٤٩) ف - د ٢	ف - جـ ٥
٥٠) ر - جـ ٦	ر ٧ - و ٣ !
٥١) ز × و ٣	ر × و ٣
٥٢) ر - جـ ٧ +	م - حـ ٨
٥٣) ف - حـ ٦ !	ر × د ٣
٥٤) ف × و ٨	ر × حـ ٣ +
٥٥) م - ز ٢	ر - ز ٣ +
٥٦) م - حـ ٢	ر × ز ١
٥٧) ف × جـ ٥	د ٣

واستسلم كاسباروف

مسألة العدد (٣٥٣) ابريل ٨٨

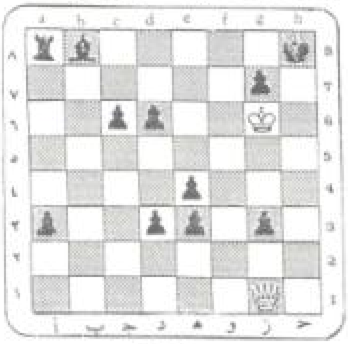

مات ٥

من اهداء القارىء
د . فواز محمد حيدر
(اللاذقية)

حل مسألة عدد فبراير (٣٥١)

مفتاح الحل : ح - ز ٨

يلعب الأسود ما شاء

القائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٠ يناير ١٩٨٨

القائزون باشتراك سنة كاملة :

١) د . محمد الخوالده - عمان/ الأردن .
٢) هدى عبد الباسط - الاسكندرية/ ج.م.ع
٣) جلال عبد الرحيم تركي - الشعبية/ اليمن الديمقراطية
٤) عفيفة بن حسن - المنستير/ تونس
٥) هديل القلق - حمص/ سوريا

القائزون باشتراك نصف سنة :

١) أشرف مبارك - المنيا/ ج . م . ع
٢) وائل الزهراني - الرياض/ السعودية
٣) عدنان سعيد عبد الله - الكويت
٤) عبد المطلب نورفكي - السودان
٥) حسن أحمد العيدروس - عدن/ اليمن الديمقراطية .

حوار القراء

العربي ـ ص. ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الكويت

حول مقال : البيريليوم معدن العصر

● وردتنا رسائل من الدكتور هاني عبيد من الأردن ، وعبد الله أحمد يحيى ، وأحمد محمد باذيب من جمهورية اليمن الديمقراطية ، وعدد آخر من القراء تفيد بأن المقال المنشور في عدد (يناير) كانون الثاني ١٩٨٨ بعنوان « البيريليوم معدن العصر » منقول من كتاب « قصص وطرائف من الفلزات » لمؤلفه السوفيتي س فيتسكي ، مع بعض التقديم والتأخير ، ولقد كنا نتمنى ألا يحدث هذا في « العربي » ، وبخاصة أننا نفتح صفحاتنا لكل الأقلام العربية بلا استثناء ، شرط أن يعي طرفا العلاقة بحسن التعامل . ولا يسعنا ونحن نشكر لكم غيرتكم على المجلة واهتمامكم بها ، إلا أن نشارككم الرأي في أن هذه الظاهرة غير كريمة ، ويجب أن توقف .

مع خالص الشكر ...

« الأيس كريم » أو (الجَمِيْدة)

● الاستاذ رئيس التحرير المحترم ،

كنت أطالع عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ من مجلة العربي فاستوقفتني كلمة (الايس كريم) ، وهو اسم حارت المجامع في تعريبه .

ولما كنت من عشاق الفصحى ، وسبق لي عندما كنت طالبا في المعهد الطبي العربي بدمشق أن نشرت طائفة من المصطلحات العلمية في عددين من مجلة هذا المعهد لسنة ١٩٣٦ فقد حدت بي هذه الكلمة إلى الكتابة في هذا الموضوع .

لا أظن مجامع اللغة العربية قد أهملت (الايس كريم) عجزا أو ترفعا ، فقد سبق لمجمع القاهرة أن وضع كلمة المشطور لتحل محل (السندويتش) ، لكن هذه اللفظة العربية لم تستطع الصمود أمام هجمات دعاة العامية الذين جابهوها بسلاح التهكم ، فقد ادعى أحد الصحفيين زوراً أن مجمع القاهرة سمى (الساندويتش) بالشاطر والمشطور والكامخ بينهما ، فذاع قوله نكتة يتندر بها في المجالس ، ثم ظهرت كلمة (الشطيرة) ، وكانت أسعد حظا من سابقتها ، فقد كتبت لها الحياة .

ولعل المجامع اللغوية قد غفلت عن وضع كلمة فصيحة ، تحل محل (الايس كريم) ومرادفاتها في غمرة السيل العارم من المصطلحات العلمية الأجنبية التي

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

تتحدى الفصحى في كل حين . وإيمانا مني بالكلمة الفصحى ، وإمكان ذيوعها إذا احتضنتها مجلة محببة إلى جماهير القراء العرب في مختلف أقطارهم ، فإنني أتقدم باقتراح كلمة فصيحة للدلالة على (الايس كريم) ، آملا أن تحظى بالقبول لدى الناطقين بالعربية فأقول :

إن (الايس كريم) الانجليزية و (الغلاس) الفرنسية و (الجيلاتي) الطليانية و (البوظة) الفارسية و (الدون دورمة) التركية ترجع كلها إلى الفاظ تعنى بالعربية (الجَمَد) والجَمَد هو ما جَمُد من الماء ، ونقيضه الذَّوْبُ ، أما الجليد فما يسقط من السماء على الأرض من الندى فيجمد (انظر لسان العرب) وإذا كانت الانجليزية قد صاغت (ايس كريم) بجمع كلمتين ، والفرنسية قد دلت بكلمة واحدة على قسمين ، ففي العربية صيغة (فعيلة) للدلالة على المآكل ، فقد قالوا (الهريسة ، الرغيدة ، السخينة ، الوليقة ، الوكيرة ، الوليمة إلخ) ، والأحرى بنا أن نشتق كلمة من (جَمَد) للدلالة على (الايس كريم) فنقول (الجَمِيْدَة) .

الدكتور مختار هاشم

دمشق ـ سوريا

■■■

حكومة الظل

● أود أن أشد بقوة على أيدي كل العاملين على إخراج مجلة « العربي » بهذه الحلة القشيبة والزاد الثقافي الثري .

لكني أتمنى من المجلة زيادة المقالات العلمية كلما أمكن ذلك ، للتعريف بأحدث المنجزات والبحوث العلمية . وأنتم تعلمون قبل غيركم كم نحن بحاجة إلى مثل هذه المقالات ، كما أود أن أشكركم على المقالات التي تتناول الاسلام من نظرة معاصرة وتفكير علمي ، وأقول لكم إنكم رواد في هذا المجال ، وأحب أن أخص الاساتذة فهمي هويدي ، ود . عبدالعزيز كامل بالشكر للدراسات الرصينة التي يكتبانها عن القضايا الاسلامية المعاصرة ، كما أني أود أن تزداد هذه الدراسات الفكرية لقضايانا الاسلامية .

أما بخصوص اقتراح أحد القراء في باب حوار القراء في العدد ٣٤٩ من المجلة بتخصيص صفحات لنتاجات القراء الأدبية فإني لست معه في اقتراحه لأننا لانريد لمجلة العربي ذات المستوى الثقافي الرفيع أن تدخل هذه المجالات التي تهتم

حوار القراء

بها عشرات المجلات والجرائد على امتداد ساحة الوطن العربي ، ولا أرى أي داع لتنشر المجلة هذه النتاجات .

وأخيرا أتمنى أن تجيبوني عن السؤال التالي ؟

هل هناك تعبير سياسي يطلق عليه (حكومة الظل) ، وإذا كان موجودا فماذا يعني هذا المصطلح على وجه الاجمال ؟

القاريء حازم سعدون

بغداد جامعة المستنصرية ـ كلية العلوم ـ الجمهورية العراقية

العربي

ـ نشكرك على الرسالة اللطيفة والاقتراحات القيمة ، أما بخصوص زيادة المقالات العلمية فإن « العربي » تتبع خطة مرسومة في عملية النشر ، وتعمل على التوازن في الموضوعات ، حتى تتوافر قيمة ثقافية وعلمية للقاريء ، وتخدم أهداف النشر وأغراضه ، وإننا نهتم بكل ما هو جديد من علم وثقافة وأدب ، ولاشك أنك قد لمست ذلك من خلال متابعتك ، ولعلك اطلعت على هدية « العربي » في عدد يناير ١٩٨٨ عن أحدث الانجازات العلمية في القرن العشرين .

أما بخصوص المقصود بالتعبير السياسي (حكومة الظل) فقد ورد في الموسوعة السياسية ـ الجزء الثاني ـ الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الطبعة الأولى ١٩٨١ أن حكومة الظل (أو المعارضة) « مؤسسة برلمانية بريطانية ، يرأسها زعيم المعارضة أو الحزب المعارض في البرلمان البريطاني الذي يعتبر مسؤولا حكوميا ، ويتقاضى مخصصات حكومية سنوية » ، وتتكون هذه المؤسسة من الناطقين باسم الحزب المعارض في مختلف المجالات الخارجية والداخلية ، ويقوم هؤلاء بمتابعة سياسة الحكومة وانتقادها ، والتعبير عن رأي الحزب المعارض في مختلف المجالات ، كل في مجاله . ولما كان زعيم الحزب المعارض هو الذي يختار أعضاء « حكومة الظل » فكثيراً ما يحتفظ هؤلاء بحقائبهم عند تسلم المعارضة لزمام الحكم على إثر انتخابات نيابية جديدة ، ووجود هذه المؤسسة يقوي من مكانة زعيم الحزب داخل صفوف حزبه .

■ ■ ■

البقرة القزمة

● جاء في العدد ٣٤٩ ديسمبر ١٩٨٧ في باب سلامة البشرية من سلامة البيئة موضوع عن البقرة القزمة التي يبلغ طولها ما بين قدمين إلى ثلاث أقدام ، والحقيقة أن هذه البقرة موجودة في جزيرة سقطرة في جمهورية اليمن الديمقراطية .

وقد جاء ذكر هذه البقرة في كتاب تاريخ الجزر اليمنية لمؤلفه حمزة علي لقمان في الصفحة ٥٩ طبعة سنة ١٩٧٢ م ، حيث يقول : يوجد نوع من البقر الغريب ، فهو قزم لايزيد ارتفاعه عن ثلاث أقدام ، وليس له سنام ، وله غبب طويل ،

والبقرة أليفة ، تدر كمية كافية من اللبن ، ولا تستعمل في الحراثة ، ولا تذبح إلا نادرا ، وفي المآتم .

ومن المعلوم أن هذه المواصفات تنطبق على البقرة المكسيكية ، إنما البقرة العربية أصيلة المواصفات فقد تأقلمت مع البيئة من حيث قلة المرعى والماء .

وللبقرة القزمة دور استثماري فيما لو توافر المال لزيادة عددها ، وتهجينها ، حتى تكون بمثابة البقرة التي يستطيع كل إنسان اقتناءها وتربيتها ، لأن للبقرة فوائد جمة ، وخاصة لبنها المفيد .

محمد نور عبد الله البخاري

صنعاء ـ جمهورية العربية اليمنية

■ ■ ■

الجامعة الاميركية في بيـــروت

● رئيس تحرير مجلة «العربي» المحترم ،

تحية طيبة وبعد ،

أود أن أبدي الملاحظات التالية على مقال «احتلال العقل» المنشور في مجلتكم (ديسمبر) ١٩٨٧ :

(١) ورد في المقال المذكور (ص ٢٥) أن وكالة المخابرات الأمريكية كانت وراء إنشاء العديد من الجامعات في العالم الثالث ، منها الجامعة الامريكية ببيروت . وما أود أن ألفت النظر إليه هو أن الجامعة المذكورة أسست عام ١٨٦٦ ، بينما وكالة المخابرات الامريكية (CIA) لم تؤسس إلا عام ١٩٤٧ ، فكيف يمكن أن تكون وراء إنشاء الجامعة الامريكية في بيروت ؟!

(٢) الاسم الصحيح للبروفيسور اليهودي ديانة ، المصري أصلا الذي ورد اسمه في المقال (ص ٢٧) ، هو : ناداف سفران "Nadav Safran" مؤلف كتاب : "Israel — The Embattled Ally"

الدكتور هشام سخنيني

جامعة البحرين ـ البحرين

■ ■ ■

إيضـــــاح

● وصلتنا رسائل من القراء عامر صادق علاء الدين من عمان الأردن والسيد عبداللطيف السعيد ، والمهندس عبدالمعين نصر الله من سوريا تشير إلى أن قصيدة الشاعر عبده بدوي «مدينة عربية» المنشورة في عدد يناير سنة ١٩٨٨ تتضمن بيتا وشطراً من قصيدة عروة بن أذينة الحماسية رقم ٤٦٣ ، الجزء الثالث من الحماسية للمرزوقي صفحة ١٢٣٥ .

لما شكوت لصاحبي في حيرة ... ماكان أكثرها لنا وأقلها
أهوى وقال «لعلها معذورة ... من أجل رقبتها فقلت لعلها

دون وضع الأشطر المقتبسة بين قوسين ، للاشارة إلى الاقتباس .

حوار القراء

العربي

- نود أن نوضح أن النص المرسل من الشاعر عبده بدوي قد وضعت فيه الأشطر المقتبسة بين أقواس ، لكن حدث خطأ طباعي سقطت به الأقواس نعتذر للشاعر وللقراء .

■■■

الصقور في الكويت

● أرجو القيام باستطلاع مصور عن الصقور في الكويت ، لأنه في ضوء معلوماتي يوجد في الكويت أنواع مختلفة من الصقور ، بل فيها من أحسن أنواع هذه الطيور ، وللأسف ليست لدى المعلومات الكافية عنها .

ابراهيم علي المليان
طرابلس - الجماهيرية الليبية

العربي

- فكرة مثل هذا الاستطلاع تتسم بالطرافة ، نأمل أن نجد الفرصة المناسبة للقيام بها .

■■■

كتاب الأغاني

● لدي اقتراح أرجو أن تتقبلوه قبولا حسنا :

يعتبر كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني من أمهات الكتب الأدبية التي يعتمد عليها كبار الكتاب والنقاد في بحوثهم . ونظرا لقلة المطبوع منه ، وثمنه الباهظ لم يتمكن أغلب القراء والمتتبعين للأدب من قراءته والاستفادة من درره الغالية .

وقد مرت بخلدي قصة ، ملخصها أن رجلا عربيا كان كلما اعتزم الرحيل أعد عدة وجهز قافلة يحمل عليها كتبا مختلفة في الأدب ، وكان بهذا يجد صعوبة كبيرة في سمره ، فلما ظهر كتاب (الأغاني) للوجود أراحه من ذلك التعب ، ومن تلك المشاق ، فترك القافلة وكتبها ، وتأبط كتاب أبي الفرج الأصفهاني . ونظراً لأهمية الكتاب يشرفني أن أتقدم إليكم راجيا أن تقدموا لنا ضمن محتويات العدد بحثا مستفيضا عن صاحب الكتاب ، والظروف التي أنتجت هذا الأثر الخالد ، وما هي أهم محتوياته . شاكرين لكم صنيعكم .

الطالبي يوسف
مكناس - المملكة المغربية

- ننشر رسالة القارىء الكريم . والمجلة ترحب بنشر أي دراسة جديدة جيدة عن كتاب « الأغاني » لتحقيق ما يصبو إليه القارىء .

اقتراحـــات

● يقترح القاريء سعيد محمد من الجمهورية العربية اليمنية أن تقوم « العربي » باستطلاع عن اليمن والأماكن الأثرية فيها ، وأن يكون هناك استطلاع مصور لبناء سد مأرب الذي له مكانة تاريخية كبيرة .

أما القاريء أسد فجر الحمود من حماة في الجمهورية العربية السورية فيقترح أن تقوم العربي باستطلاع عن مدينة تدمر الخالدة ومعالمها التاريخية والحدائق والبساتين المحيطة بها .

ويود القاريء أحمد صبحي عبد الجواد من أدلب في سوريا أن تقوم « العربي » باستطلاع عن مدينة ادلب في الجمهورية العربية السورية ، فهي الأولى من حيث إنتاج الزيتون في سوريا ، إضافة إلى المزروعات الأخرى . في إحدى مدن محافظة ادلب وهي مدينة المعرة ،ولد الفيلسوف العربي الكبير أبو العلاء المعري .

أما القاريء محمد أحمد مصطفى ، من رأس غارب بمصر فيتمنى على العربي أن تقوم باستطلاع لمنطقة رأس شقير بمحافظة البحر الأحمر في جمهورية مصر العربية ، حيث انها المنطقة النفطية والصناعية الأولى في مصر في إنتاج النفط وتكريره ، فضلا عن أنها ميناء هام لتصدير النفط المصري إلى العالم الخارجي .

● عبد الناصر محمد عبد النظير ـ سوهاج ـ جمهورية مصر العربية يقترح استطلاعا يشمل بلاد وسط أفريقيامثل زائير وأوغندا وجنوب تشاد وجنوب السودان لمعرفة حياة المسلمين هناك بكل وضوح .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

- تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .
- هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .
- ميزانها الأساسي في اختيار المترجمات هو الجديد والهام .

- تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير	نائب رئيس التحرير
أحمد مشاري العدواني	د . سليمان إبراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أبريل ١٩٨٨ م

مرض القلق

تأليف : دافيد شيهان

ترجمة : د. عزت عبد الرحمن شعلان

مراجعة : د. أحمد عبد العزيز سلامة

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢٤

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية

ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية

جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.

- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم
- **الاشتراك السنوي بالمجلة**

أ) داخل الكويت ٣ د.ك للأفراد ١٢،٠ د.ك للمؤسسات

ب) الدول العربية ٣،٥٠٠ د.ك للافراد ١٢،٠ د.ك للمؤسسات

جـ) الدول الاجنبية ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات.

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص. ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

المقر: جامعة الكويت - الشويخ

هاتف: ٨٤١٦٨٧
٨٤١٦٧٩٩
٨٤١٦٨٥٤
٨٤١٦٢٩٥

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها
جامعة
الكويت

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف: ٢٥٤٩٤٢١ - ٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٦٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير:

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعّالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء.

ترفق قسيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢٢٣ أول أبريل ١٩٨٨

الآلية

تأليف: صوفي تريدويل
ترجمة وتقديم: يوسف الشاروني
مراجعة: محمد الحديدي

القرآن الكريم
• النص القرآني بالرسم العثماني والتشكيل
• فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
• فهرس آيات القرآن حسب موضوعها
• البحث عن كلمة أو مجموعة مفردات
• شرح لغريب ألفاظ القرآن الكريم
• بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
• تحفيظ القرآن الكريم
• مكتبة القرآن الكريم
كمبيوتر صخر
al Alamiah
العالمية

رمضان ١٤٠٨هـ - مايو / أيار ١٩٨٨م

العربي

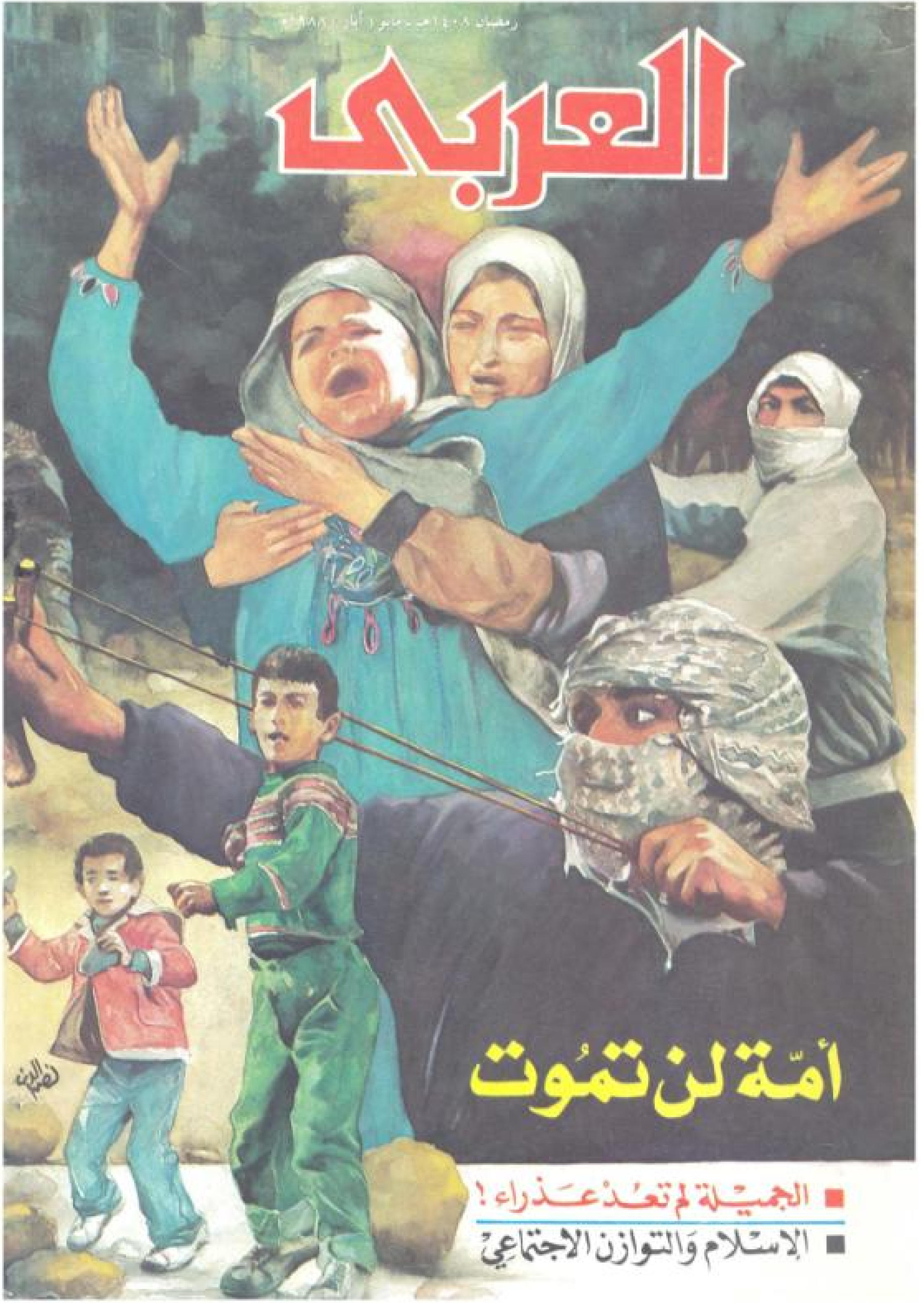

أمة لن تموت

■ الجميلة لم تعد عذراء!

■ الإسلام والتوازن الاجتماعي

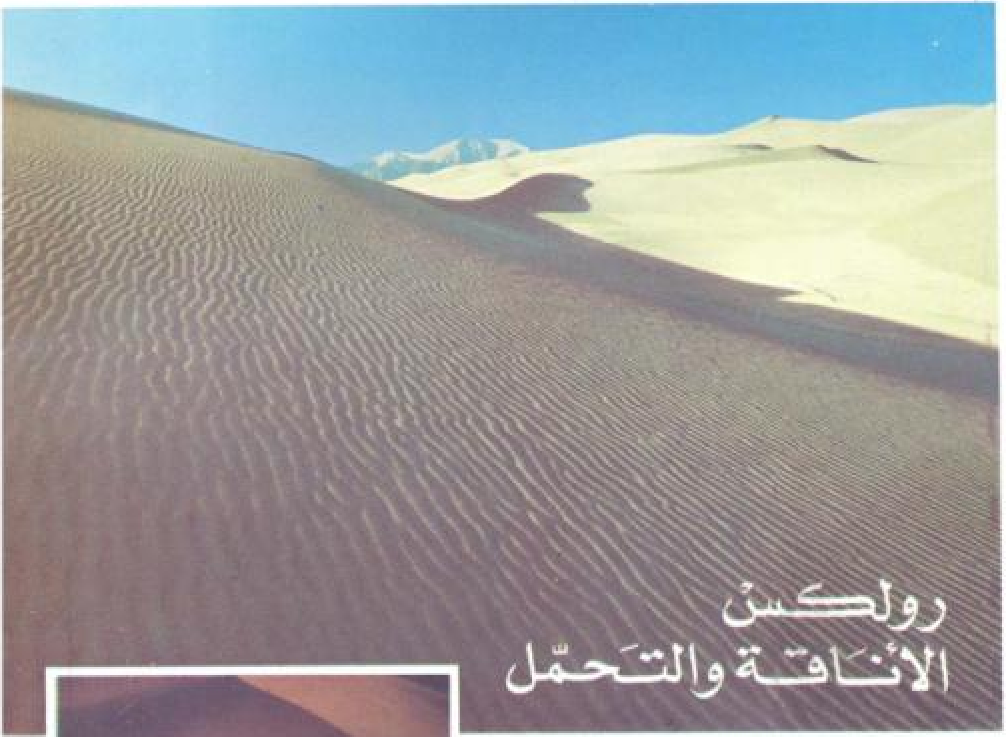

رولكس
الأناقة والتحمّل

الصحراء، أو التي تعرف بالأرض غير المضيافة، هي من أصعب بقاع العالم سواء للعيش أو للعمل.

منذ أقدم العصور، عاش العرب في تلك الأصقاع واعتادوا على الاقامة والعمل فيها وحولوها للأرض المضيافة التي أصبحت بفضل كرمهم وشجاعتهم، أول منطقة صحراوية أهلة بالسكان في العالم أجمع، والتي إستفاد العالم بأسره من خيراتها.

في تلك البقاع القاحلة، التي تحولت بفضل جهودهم الدائبة وفي أقسام كثيرة منها الى حدائق غناء، كان العزم والمثابرة والاصرار أهم الصفات التي ساعدتهم على العيش في تلك الظروف الصعبة.

في الأزمان الماضية كان العرب يعرفون الوقت بواسطة علم الفلك، أي بواسطة النجوم والشمس والقمر. أما اليوم، ومع التطور التكنولوجي فقد قدمت لهم رولكس أفضل آلة توقيت يمكن الاعتماد عليها في حرارة الصحاري اللاهبة أثناء النهار، أو البرودة القارسة أثناء الليل، ساعة لا يدخلها الغبار والرمال إطلاقاً وذلك بفضل علبة الأويستر وقفل الشلاقة المثبت بإحكام على هيكل الساعة الصلد المصنوع من كتلة معدن واحدة سواء من الذهب عيار ١٨ قيراطاً أو من الفولاذ الذي لا يصدأ.

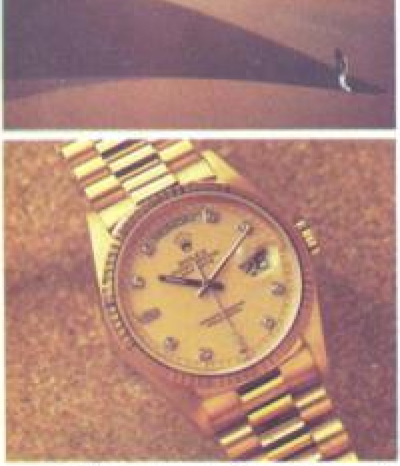

رولكس داي ديت، فائقة الدقة، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً مرصعة بالماس.

ROLEX

رولكس

العدد ٣٥٤ السنة الحادية والثلاثون مايو ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI

Issue No. 354 May. 1988. P.O.Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information - State Of
Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" - الكويت - تلكس MITR.4404IKT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر :
وعلى أرض فلسطين السلام .
ـ د. محمد الرميحي ٨
■ الأيديولوجيا الناعمة ، موجة جديدة في الغرب !
ـ د. عبد الله عبد الدائم ١٨
■ أرقام : المهاجرون .
ـ محمود المراغي ١٢٠

عروبة وإسلام :

■ الإسلام والتوازن الاجتماعي .
ـ د. عبد الرحمن زكي ابراهيم ٢٤
■ للمناقشة : التعددية والمعارضة في الإسلام .
ـ فهمي هويدي ٣٠

■ أربعون عاماً من النضال لاستعادة الأرض : ٣٥

ـ من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء .
ـ د. شفيق الغبرا ٣٦
ـ الجيل الفلسطيني الجديد تحت الاحتلال .
ـ توفيق أبوبكر ٤٢
ـ الأقليات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم .
ـ د. عبد الوهاب المسيري ٤٥
ـ « اسرائيل » كتهديد نووي .
ـ أمين هويدي ٥٠
ـ فرنسا و جذور الحركة الصهيونية غير اليهودية .
ـ رياض معسعس ٥٧

استطلاعات مصورة :

■ تايوان الجميلة لم تعد عذراء .
ـ سليمان مظهر ٦٨
■ « اليونسكو » عطاء الثقافة والعلم والتربية .
ـ صلاح حزين ١٣٢

« اليونسكو » عطاء الثقافة والعلم والتربية ص ١٣٢

تايوان الجميلة لم تعد عذراء ص٦٨

طب وعلوم :

■ علمان عربيان في سماء الطب .
ـ د. علي مبارك ٦٤
■ ثلاثة مشاريع أوروبية لغزو الفضاء .
ـ سعد شعبان ٩٠
■ معارك الاستنزاف بين البيئة والإنسان .
ـ د. سمير رضوان ١١٤
■ الجديد في العلم والطب .
ـ إعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠
■ كهربائية الجسم والأمراض النفسية .
ـ د. أمل المخزومي ١٤٦

أدب وفنون :

■ البشارة (قصيدة) .
ـ د. خليفة الوقيان ٢٨
■ قراءة نقدية لكتاب :
السيد من حقل السبانخ .
ـ أبو المعاطي أبو النجا ١٠٤
■ يد رجل مثله (قصة) .
ـ محمود الريماوي ١١١
■ المدرسة الانطباعية في الفن مرآة
عصر أم حوار مع المستقبل ؟
ـ رباب العابد العظم ١٥٢
■ الحمار (قصة مترجمة) .
ـ حسن يوسف ١٥٨

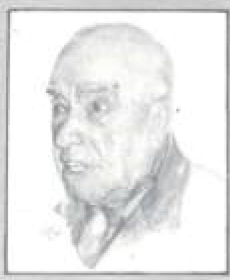

وجهاً لوجه :
الجنرال دافيد
دراغونسكي ص٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

■ جمال العربية :
ـ صفحة لغة : ألفاظ معربة .
ـ د. حسن عباس ١٧٦
ـ صفحة شعر : العنقاء للشاعر
إيليا أبي ماضي ١٧٨

منتدى العربي :

■ قضية : نحن لا نزرع الشك !
ـ فوزي عبد القادر الفيشاوي ١٢٢

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ وجهاً لوجه :
الجنرال دافيد دراغونسكي .
ـ سليمان الشيخ ٩٧

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر :
ـ نظرات في الحركة الصهيونية
والقضية الفلسطينية .
ـ د. ابراهيم أبو ربيع ١٨٣
■ من المكتبة العربية :
ـ السريالية في مصر .
ـ جميل حتمل ١٩٠
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ الكلمات المتقاطعة ١٨١
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥١) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

صورة الغلاف

الانتفاضة الفلسطينية الراهنة حلقة جديدة من سلسلة انتفاضات فلسطينية لم تنقطع منذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ .

[طالع الملف الفلسطيني ص ٣٥ ـ ٦٣]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

• نشاط الطفل التمثيلي .
ـ محمد بسام ملص ... ١٦٢
• كيف تتعامل مع الطفل بطيء التعلم !
ـ عبد الكريم أبو شويرب ١٦٦
• هو . هي ١٧٠
• طبيب الأسرة : أخطر ما نسيناه من الطعام .. الألياف
ـ د. حسن فريد أبو غزالة
١٧٢
• مساحة ود : خاطرة .
ـ محمود عبد الوهاب .. ١٧٥

عزيزي القارئ

في إطار الاهتمام بالقضية الفلسطينية وبمناسبة مرور اربعين عاما على النكبة .. وبعد ان طرأ عليها عنصر جديد منذ أشهر تمثل في انتفاضة الشعب الفلسطيني بقيادة « أطفال الحجارة » . . وجدنا ـ عزيزي القارىء ـ أن نقدم لك ملفا خاصا عن فلسطين ، يستعرض حلقة جديدة في سلسلة طويلة من النضال . . . وقد شارك في تحرير الملف الدكتور شفيق الغبرا فتحدث عن فلسطين من الاقتلاع الى الصراع من أجل البقاء ، وتوفيق أبو بكر عن الجيل الفلسطيني الجديد تحت الاحتلال ، ود . عبدالوهاب المسيري عن الأقليات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم ، وأمين هويدي عن اسرائيل كتهديد نووي ، ورياض معسعس عن فرنسا وجذور الصهيونية غير اليهودية .

لم يشغلنا الملف عن تقديم العديد من المقالات في مختلف المجالات الثقافية التي عودتك العربي أن تضعها بين يديك . . فالدكتور عبدالله عبدالدايم يحدثك عن الايديولوجيا الناعمة ، وهي الموجة الجديدة في الغرب . . كما يقدم لك الدكتور عبدالرحمن زكي ابراهيم مقالا عن الاسلام والتوازن الاجتماعي ، كما يكتب فهمي هويدي عن التعددية والمعارضة في الاسلام ، وفي المجالات العلمية والطبية يحدثك د . علي مبارك عن علمين عربيين في سماء الطب ، ود . أمل المخزومي عن كهربائية الجسم والامراض النفسية . . كما يستعرض د . سمير رضوان معارك الاستنزاف بين البيئة والانسان . . ويقدم لك المهندس سعد شعبان الجديد عن المشاريع الأوروبية لغزو الفضاء . .

ولأن « العربي » هي عيونك على العالم فقد انطلقت الى تايوان . . لتقدم لك الجميلة التي لم تعد عذراء . . . والى باريس لتحدثك عن اليونسكو وعلماء الثقافة والعلوم والتربية . . والى موسكو لتجري وجها لوجه مع الجنرال دراغونسكي الحاصل مرتين على لقب بطل الاتحاد السوفيتي .

وهكذا تختار لك « العربي » باستمرار كل جديد ، فهي تهدف الى أن تضيف الى معرفتك واطلاعك كل مفيد في مختلف الميادين الثقافية . . وهي بذلك تضع في اعتبارها أنك من يقف وراءها باستمرار ويشد عضدها .

« فالعربي » دائما في خدمة قرائها على طريق الإسهام بمادتها التحريرية في إغناء الثقافة العربية . □

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

«وعلى أرض فلسطين السلام»

الحديث عن (الانتفاضة) حديث طويل ، وقد تشعب في الكثير من المطبوعات العربية وغير العربية ، حتى أصبح من حق القارىء العادي أن يتساءل : وما الجديد في الانتفاضة كي نفرد له حديث هذا الشهر في العربي ؟

قد يكون هذا التساؤل طبيعيا ، لذلك وجب تحديد دوافع هذا الحديث منذ البداية ، حتى يتعرف القاريء على خط الإبحار الذي نريده في عرضنا هذا .

فدوافع الحديث أربع نقاط أساسية هي :

- أن ما يحدث هو استمرار لثورة .
- وأن ما يحدث قد كشف على أرض الواقع زيف ادعاء طويل من قبل الصهاينة كاد بعضنا أن يصدقه !

- وأن ما يحدث هو طريق عبقري في المقاومة .
- وأن التوقعات والواجبات المستقبلية هي أهم ما يجب أن نساهم فيه في هذه المرحلة من الثورة .

ثورة مستمرة :

ومن الاختصار الى التفصيل :

باديء ذي بدء ، لقد وقعنا جميعا - في وسائل الاعلام العربية - في اشكالية ليست سهلة ، عندما وصفنا ما يقع هناك في فلسطين على أنه (انتفاضة) ، انها في حقيقة الأمر ثورة ، أو قل استمرار لثورة ضد الاحتلال ، قد تتأجج هذه الثورة وتخلق لها طرقا ووسائل اعلان عن نفسها ، وقد تخبو وتختفي قليلا تبحث عن وسائل جديدة ، لكنها ثورة متراكمة تعبر عن رفض أهلنا في الأرض المحتلة ، ومعهم كل العرب الشرفاء ، أن تظل فلسطين تحت هذا الاحتلال العنصري المدمر ، ثورة لها علاقة بكل ما جاء قبلها من نضالات وثورات منذ مطلع هذا القرن موصولة بكل ما سوف يجيء بعدها من نضالات وثورات حتى تحقيق التحرير الكامل ، ثورة تقول إن للشعب العربي حضارة فيها من روح المقاومة الكثير .

مايحدث في الأراضي المحتلة هو استمرار لثورة

ماهو الشبح الذي يطارد الإسرائيليين؟

فهي في أعماق الانسان الفلسطيني العادي ، وهي كذلك في أعماق الانسان العربي العادي . من هنا فإن ما جرى في الأشهر القليلة الأخيرة ويجري على الساحة الفلسطينية يجب أن نسميه باسمه : ان ما يحدث هو « استمرار للثورة »

ولقد كشفت هذه المرحلة من الثورة التي سماها البعض (بثورة الحجارة) عن أمرين : أولهما هو عبقرية المواطن الفلسطيني البسيط الذي كان الغضب يأكل من أعصابه يوميا على امتداد السنوات الطوال السابقة فقد كشف عن عبقرية تمثلت في المقاومة الايجابية في الشوارع والحواري والأزقة بطريقة يصعب ـ حتى الآن ـ أن يواجهها المجتمع « الاسرائيلي/ المعسكر » هذه العبقرية تمثلت بقذف ذاك المجتمع ـ المعسكر ـ بالحجارة أمام أعين العالم ، هذه العبقرية تمثلت في بساطة الوسيلة ، « فاسرائيل » لديها حتى الآن من الوسائل ما يمكن أن تواجه به الكثير من مظاهر المقاومة ـ وخاصة المسلحة ـ لكنها لم تكتشف بعد وسيلة تقضي بها على هذه العبقرية ، الأهم من ذلك كله ان اكتشاف هذا الطريق سوف يؤدي الى اكتشاف طرق اخرى جديدة لا تستطيع المؤسسة العسكرية والسياسية « الاسرائيلية » احتواءها مثل ما عجزت عن احتواء ثورة الحجارة .

شبح الصليبيين :

الأمر الثاني الذي كشفت عنه ثورة الحجارة هو السقوط على أرض الواقع لمقولات وممارسات صهيونية كثيرة . هذا السقوط لم يكن مفاجئا للعرب ولا حتى للعالم الثالث ، لكنه كان قائما (نظريا) فأصبح مشاهدا ملموسا لا يمكن لأحد انكاره . فما هو هذا السقوط ؟

دعوني أشير إلى مصدر « إسرائيلي » في هذا الموضوع ـ حتى لا يبدو الحديث وكأنه طمأنة للنفس ـ هذا المصدر « الاسرائيلي » هو عبارة عن كتاب نشره في العام الماضي الكاتب (بنيامين بيت حلاحمي) وعنوانه « الاتصالات الاسرائيلية: من تسلحه اسرائيل؟ولماذا؟ » وأهمية هذا المصدر انه نشر قبل التحرك الجديد (ثورة الحجارة) لأهلنا في فلسطين .

يقول الكاتب في إحدى فقرات الكتاب :

(إن هناك شبحا يطارد المجتمع « الاسرائيلي » وقادته ، هذا الشبح هو شبح الصليبيين الذين أنشأوا لهم مملكة في القدس في القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم ليطردوا بعد ذلك بمائتي سنة . . وأشباح أخرى حديثة

تطارد « الاسرائيلي » كمصير المستوطنين في الجزائر وروديسيا وجنوب افريقيا . . مشكلة المشروع الصهيوني الحادة هي كيف يتجنب مصير دولة الصليبيين ؟) .

ويرى الكاتب أن القادة « الاسرائيليين » قد تفتق ذهنهم تاريخيا عن حلين لتجنب ذاك المصير :

الحل الأول هو التحالف مع قوة خارجية عظمى ، والحل الثاني هو تطوير أسلحة ذرية فتاكة لردع أي محاولة تحرك عسكري تقليدي ضدهم من الجيران !

يضيف الكاتب (ان التحالف مع قوة خارجية عظمى لا يمكن الوثوق بها الى الأبد . لكن القوة النووية والردع العسكري يمكن أن يخيفا الآخرين) .

لنتذكر أن هذا الكلام قد قيل قبل (ثورة الحجارة) ومن هنا يأتي قولنا عن عبقرية الطريق التي تبنتها هذه الثورة ، فهذه الوسيلة قد أسقطت كلا من الحلين (التاريخيين) : التحالف مع قوة عظمى ، وتخزين ترسانة سلاح .

مشكلة المشروع الصهيوني الحادة هي كيف يتجنب مصير دولة الصليبيين

« فإسرائيل » تستطيع أن تقصف المفاعل النووي العراقي مثلا وتبرر ذلك أمام العالم ، بدواعٍ أمنية عديدة ، وقد لا يقبل البعض ذلك التبرير لكنها فعلت ذلك .

وتستطيع أن تهاجم سوريا عسكريا تحت شعارات مختلفة ومختلقة ، أو أن يقوم « الجيش الاسرائيلي » بضرب أهداف قريبة أو بعيدة كما حدث تكرارا في لبنان ومخيمات الفلسطينيين أو في أقطار عربية أخرى مثل تونس والأردن ومصر في أوقات سابقة ، أو افتعال حرب مباشرة مع العرب .

كل ذلك يمكن ان تفعله « اسرائيل » . وقد لاحظ أحد المراقبين أن « اسرائيل » تأتي بعد الولايات المتحدة في قائمة أكثر المتورطين في عدد الحروب . . منذ الحرب العالمية الثانية .

هذه القوة العسكرية هي التي أوجدت سمعة ضخمة « لاسرائيل » لدى الدكتاتوريات الصغيرة في كثير من أنحاء المعمورة . فهذا (المجتمع المعسكر) يصرف حوالي ٣٠٪ من مجموع إنتاجه القومي على السلاح وما يتفرع منه من أنشطة .

ولكن هذا (المجتمع المعسكر) كما قلنا لم يستطع أن يضع باعتباره ثورة داخلية يمكن أن يقوم بها المواطنون الفلسطينيون العزل إلا من ايمانهم

بوطنهم ، فسلكت هذه الثورة طريقا لا تستطيع معها (الآلة العسكرية) أن تفعل شيئا .

بهذه الملاحظة يمكن أن نتعرف على ورطة « اسرائيل » اليوم التي كشفت على أرض الواقع زيف ادعاءاتها بأنها تملك قوة مطلقة .

لقد كانت دائما تدفع القوى المناهضة لوجودها الى ساحات تملك هي العصا الغليظة فيها والقوة الكبرى ، فظهرت لها ساحة لا تملك اليوم تجاهها أي سلاح فعال !

الشرعية الدولية :

ديفيد بن جوريون ـ الذي يعتبر من الآباء المؤسسين (لاسرائيل) ـ قال في يناير ١٩٥٧ (من وجهة نظر بقائنا وأمننا ، فإن صداقة بلد أوروبي واحد أكثر قيمة من وجهات نظر كل سكان آسيا) .

فعلاقة (اسرائيل) بالغرب والدعم الذي تجده هناك قضية أساسية لبقائها ، وهي فكرة نابعة من « التحالف مع قوة عظمى » وفكرة متفرعة أيضا من محاربة (اسرائيل) لأشكال تصفية الاستعمار المختلفة ، لأننا لا نجد نظاما ضد شعبه أو استعمارا قديما أو جديدا إلا وأصابع « اسرائيل » تدعمه بقوة .

لكن الأهم في مقولة بن جوريون هو ما يضعه هذا الكيان من أهمية لرأي المجتمع الدولي تجاهه وبخاصة الغربي منه .

ثورة الحجارة الأخيرة كادت أن تسقط هذا الشعار الرئيسي أو تخلخله ، وهو الحفاظ على علاقة طيبة مع الرأي العام الغربي . ديفيد كمحي المدير العام السابق لوزارة الخارجية « الاسرائيلية » ونائب مدير سابق لجهاز المخابرات الاسرائيلي (الموساد) قال : لم تصبح « اسرائيل » هدفا للحجارة في شوارع غزة وفي الضفة الغربية فقط بل وفي اعمدة الصحف البريطانية والأمريكية أيضا .

إنه يقول هذا الكلام لا ليدافع عن أحد ، بقدر ما ينقد (الطرق التي اتخذتها اسرائيل للحفاظ على الأمن والنظام ، بأنها غير لطيفة وقاسية) .

وفي مجلة التايمز البريطانية يتخاطب رئيس الحاخامات البريطاني جاكوبوفيتش مع علي مغرم الغامدي سكرتير عام المركز الاسلامي في مطلع فبراير المنصرم حول ما يقوم به (هذا المجتمع المعسكر ضد المواطنين الفلسطينيين العزل التي ذكرت الناس بالفظائع التي ارتكبها النازيون) .

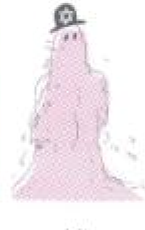

ثورة الحجارة استطاعت وحدها الدق على الجدار الغربي الصلد

صحيح أن رئيس الحاخامات دافع ـ من خلال اختياره لبعض الحوادث وإغفال بعضها ـ عن موقف « اسرائيل » إلا أن الحوار بحد ذاته لفت نظر الجمهور البريطاني إلى صور لم يكن يراها في السابق ، وهو حوار ينشر في مجلة « التايمز » التي لها ثقلها في تشكيل الرأي العام البريطاني .

إن « اسرائيل » لا تعنى كثيرا بالموقف السياسي للعالم الثالث حيالها ، والوقائع تحدثنا عن ذلك ، فاليوم لا توجد أكثر من ٧٥ دولة تعترف «بإسرائيل»ولكن كثيرا منها من دول الشمال الغني المؤثرة ، في حين أن ما يقارب المائة والخمس عشرة دولة تعترف « بمنظمة التحرير الفلسطينية » ، لكن معظمها من العالم الثالث ، واسرائيل لا تقيم وزنا لقرارات الامم المتحدة أو حتى مجلس الأمن ، فقرار مثل مساواة الصهيونية بالعنصرية لم يؤثر في « اسرائيل » . ومنذ ١٩٦٧ أقامت الأمم المتحدة مؤسسات عديدة للتعامل مع القضية الفلسطينية ومع قضايا المواطنين في الأرض المحتلة وعقدت كثيرا من المؤتمرات ، وقدمت هذه المؤسسات الكثير من المبادرات التي تحولت الى قرارات فيما بعد ، ووقفت « اسرائيل » وحدها ترفض هذه القرارات في وجه المجتمع الدولي ، وفي بعض الأوقات فإن صوتا آخر هو صوت الولايات المتحدة كان يؤيد ويدعم الصوت « الإسرائيلي » .

لقد حاول مجلس الأمن ـ على سبيل المثال ـ إصدار حوالي مائتي قرار ضد « اسرائيل » ، بعضها رفض عن طريق (الفيتو) الامريكي وبعضها عطل بعد أن صدر .

هذه القرارات في النتيجة تمثل الرأي العام العالمي ، خاصة في دول العالم الثالث والدول المحبة للسلام والعدل التي قد لا تكون لها قوة تنفيذ ، لكن هذه القرارات هي كتابة على الحائط كي يراها المجتمع الدولي دليلا على حق العرب وباطل « اسرائيل » . انها بداية دخول « اسرائيل » نفق المرحلة الحرجة ، لكن الأهم من ذلك موقف الرأي العام الغربي وبخاصة في الولايات المتحدة التي بدأت ثورة الحجارة تدق على جداره الصلد .

ثورة الحجارة : المناخ والشرارة :

تعددت التفسيرات التي قدمت حتى الآن لما يحدث في الأرض المحتلة ، بعضها كان سريعا والآخر عاطفيا ، وبعضها الآخر لم يخل من غرض ، وأفضل التصورات القريبة الى العقل والمنطق ان قاعدة التحرك الأخير الصلب هو التراكم الذي حدث خلال الاربعين عاما الماضية من

حروب وتحالفات وتنظيمات ومناورات فشل بعضها ونجح بعضها الآخر ، وسقط على الدرب آلاف الشهداء ، فكانت حصيلة هذا النضال الفلسطيني والعربي بكل عثراته تلك الأيادي العبقرية التي حملت الحجر وقذفته في وجه الاحتلال ، يعضدها الأب والأم والجد على الارض وفي المنفى .

وان ابتعدنا عن التعميم الى تحديد التفاصيل ، فإننا نجد شروطا علمية قد توافرت وواكبها مناخ صالح ، ثم حدثت شرارة ثم التحام وترابط الداخل بالخارج .

المناخ الصالح تعددت مدخلاته ، منها السلبي ومنها الايجابي ، لكنها جميعها شاركت في تكوين «المناخ الصالح» كالنار واللحم ، يتعاونان لينتج عنهما أكلة شهية ، ونحن موضوعيا لا نستغنى عن اللحم ، كما لا نستغني عن النار .

لعل الموقف (الإسرائيلي) من القضية برمتها منذ أن بدأت قد زاد في عمق الجرح وازداد ألم الفلسطينين والعرب ، لعل هذا الموقف بأشكاله المختلفة من اعتقال ومصادرة وحرمان وتجويع وقتل قد كان أحد أهم العوامل في إعداد المناخ الصالح ، ونتيجة مواقف التعنت الصهيوني الاستفزازية تلك لم يكسب الى صفه بعد أربعين عاما من الاحتلال أية شريحة أو بعضا من شريحة اجتماعية من أهلنا هناك ، ز د على ذلك الوضع الانساني الذي تركت فيه القرى والمدن العربية في فلسطين ، والوضع اللاإنساني الذي أصبحت عليه المخيمات التي يعيش فيها الفلسطينيون في الأرض المحتلة ، حتى أصبح شعار المرحلة ان « الشاة المذبوحة لا تخشى السلخ » ولم يقم أي احتلال عرفه الانسان المتمدن منذ فترة طويلة بمثل هذه الممارسات .

عامل آخر من عوامل إعداد المناخ الصالح ، هو مالاقاه ويلاقيه الفلسطينيون في بعض ديار هجرتهم ، ولعل ما قامت به بعض منظماتهم من تصرفات قد اتسمت في وقت من الأوقات بقصر النظر أو عدم الفهم ، ولا يمكن استبعاد أن (اسرائيل) تدخلت في بعض تلك التصرفات عن طريق (الأعمال السرية) التي تجيدها ، بل تتفوق فيها لضرب إسفين بين الفلسطينيين وبيئتهم الطبيعية ، ولعل لبنان من بين شواهد أخرى دليل كبير على ذلك ولا أود ذكر المزيد .

حركة التاريخ لاتتجمد في مكان وزمان

إلا ان حصيلة هذه النجاحات والأخطاء في البيئة الخارجية كان إيجابيا على الداخل ، فقامت المنظمات المختلفة خلال عشرين عاما من

ما هي "العبقرية" التي عجزت "إسرائيل" عن مواجهتها حتى الآن؟

الاحتلال الأخير (١٩٦٧) بتشكيلات كانت عسكرية في البداية (فدائيين) لكنها بعد سنة ١٩٨٢ غيرت من بناء هياكلها كي لا تقتصر على العناصر القابلة والقادرة على العمل العسكري ، وهي بطبيعتها تحتاج الى استعداد فكري وكفاحي عالي المستوى ، بل تحولت الى العمل الجماهيري ، وبالحد الأدنى من الالتزام . وهكذا كانت الأرض صالحة في السنوات الأخيرة لقيام جبهة وطنية عريضة في داخل الأرض المحتلة .

كما غيرت المنظمات من شروطها، فبعد هذه المسيرة الطويلة تبين أن المسألة (الايديولوجية) الضيقة تعمل على العزل بدلا من الضم ، فبدأت حدود تلك الايديولوجيات على اختلافها تذوب خضوعا لمواقع المقاومة على الارض . ولعل المؤتمر الفلسطيني الأخير في الجزائر كان محصلة حقيقية لهذا النضج التنظيمي ، وبعد ذلك المؤتمر أصبحت هناك جبهة وطنية شبه كاملة ، تذكرنا ـ حتى عن طريق المكان ـ بجبهة التحرير الجزائرية التي كانت وحدتها أحد أهم عوامل نجاحها في التحرير .

ثورة الحجارة أسقطت كلاً من الحلّين الإسرائيليين التقليديين؟

ومن عناصر المناخ الصالح ما ينطبق عليه القول المأثور (رب ضارة نافعة) ، فقد كان التشرذم العربي الذي ظهر على الساحة في السنوات الأولى من الثمانينيات مخيفا ومنذرا بنذر خطيرة ، وهكذا جاءت القمة العربية في عمان التي سميت قمة الوفاق والاتفاق ، وان كان البعض يعتقد أن الموضوع الفلسطيني لم يأخذ الحيز المرجو فيها ، إلا أن نتائجها العامة التي أعادت الأمل للعرب قد أثرت بشكل إيجابي فيما حدث بعد أسابيع قليلة في الأرض المحتلة .

هذه بعض مكونات المناخ الصالح الذي نضجت من خلاله ثورة الحجارة ، أما الشرارة فقد كانت شهداء (قبية) أو شهداء الطائرة الشراعية الذين تمكنوا بجسارة وبطريقة مبتكرة أيضا من الوصول إلى مفصل من مفاصل (اسرائيل) العسكرية ، جاء بعده شهداء مخيم جباليا عندما قتلت سيارة « اسرائيلية » عمدا مع سبق الاصرار أربعة شهداء وهم يسيرون أبرياء في الشارع العام ، تلك هي الشرارة التي فجرت الوضع الذي كان يتراكم لفترة طويلة .

وبعد ذلك تم التلاحم بين الداخل والخارج ، وأفرزت الثورة هياكلها التي ما زالت على طريق التحرير الطويل تسير .

ثورة الحجارة : التوقعات والواجبات :

من المتوقع أن تزداد حركة الانشقاقات في (المجتمع العسكري الاسرائيلي) ويصبح الفرز واضحا بين اتجاهين : الاتجاه الاول يمين يطالب بأقصى ما يمكن اتخاذه ضد المقاومين الفلسطينيين ، هذا اليمين يتصف علميا بضعف الرؤية التاريخية بعيدة المدى ، فهو يعتقد أن الوضع العربي لابد أن يتجمد عند نتائج حرب ١٩٦٧ ، وإن لم يفعل فيجب شن حرب ضده ، وكانت النجاحات الجزئية التي حققها باتجاه هذا التجميد مغرية له في الامعان بتجاهل حركة التاريخ ، وحركة التاريخ لا تتجمد في مكان أو زمان ، وقوانين الشعوب أقوى من إرادة مستوطن أو مستعمر . أما الاتجاه الثاني في المجتمع العسكري « الاسرائيلي » فسوف يبحث عن حلول وسطية تستطيع أن تحتوي هذه الثورة ، وقد يتفتق ذهنه عن أمور ليست في حسابنا هذه الساعة . هذا الاتجاه يجب وضعه تحت المجهر ، ورصد تحركاته ، والتفاعل مع مناوراته بخطط بديلة .

قد تخضع أمتنا لفترة تحت ظروف قاسية لكنها بالقطع لاتموت

وقد تلجأ (اسرائيل) ـ كما ورد كثيرا ـ الى اتخاذ طريق تفريق الصف الفلسطيني أو اختراق الحائط العربي باتجاه ضرب الثورة ، وذلك ما حدث جزئيا لاحباط ثورة ٣٦ ـ ١٩٣٩ وما بعدها عندما كانت « اسرائيل » تبادر بالاعتداء على العرب كلما شعرت بأن حركة جادة للمقاومة بدأت تجمع قوتها ، وذلك بعض التوقعات .

إلا أنه من أول الواجبات تحديد ما نريده بوضوح شديد ، وفي تقديري أن ما يجب أن يطرح في هذه الفترة التاريخية هو وضع قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن كلها موضع التنفيذ بدءا من القرار ١٨١ ذائع الصيت حتى آخر قرار ، والدعوة السياسية لذلك كله من خلال مؤتمر دولي كامل الصلاحية ، أما الواجبات فهي على أكتافنا جميعا ، وهي كثيرة ، وكذلك هي فرض عين ، فالهدف العظيم يجب أن يرفد بطرق عظيمة ، ومن أول الواجبات الدعم المباشر بكل أشكاله مع الأخذ بعين الاعتبار النجاح في طرق إيصاله الثلاثة : حسن توزيعه ، وتحديد القطاعات الأكثر حاجة إليه ، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار رفع درجة مشاركة الجماهير في الداخل بما فيهم جماهير ١٩٤٨ ، والذين قد يكون تحركهم بشكل أوسع ضربة قاصمة لخطط « اسرائيل » .

ويأتي الموقف السياسي والاعلامي ليعضد كل ذلك ، فاستمرار الأهل في الداخل في تطوير مقاومتهم يحتاج الى رفد إعلامي وسياسي دائم ، تقوم صحف العرب وإذاعاتهم وتلفازاتهم بجزء كبير منه ، لكن الجهد الأقصى يجب ان يبذل ليقف الرأي العام العالمي على فظائع الاحتلال ، وقد يكون من الأولويات الاعلامية فتح ملفات مجرمي الحرب الصهاينة وقائمتهم تطول .

وتلك بعض الواجبات فقط .

فالتحالف التنظيمي الراسخ على أرض الثورة ، والإرباك الذي سببته للقوى الصهيونية المحتلة ، يكشفان لنا حالة من الحيوية . واستعادة للثقة الكبرى المفقودة ، وهي حالة تجدد الأمة فيها نفسها ، وقد وعت ذاتها ، ووعت عدوها ، ووطدت نفسها على مواجهته ، وهي حالة جردت عدوها من أفضل أسلحته بابتكارها طرقا جديدة في الكفاح ، وهي حالة تؤكد لنا بكل الشواهد أن هذه الأمة وإن خضعت فترة ، إلا أنها أمة لن تموت . □

محمد الرميحي

«الأيديولوجيا» الناعمة

موجة جديدة في الغرب

بقلم : الدكتور عبدالله عبدالدائم

تمحيص « الأيديولوجيات » وتنقيحها وإعادة النظر فيها ، بل ووضعها موضع التساؤل والشك ، مواقف ليست جديدة ، وإن لبست تبعاً للأحداث والملابسات حللا متجددة ، وتصويب « الأيديولوجيات » ، وتسديد مراميها في ضوء تقدم الحضارة الإنسانية وتطور مظاهرها وآثارها أمر مألوف كذلك ، لاسيما بعد ظهور الثورة الصناعية في تاريخ الإنسانية منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، لكن بروز موجة جديدة في الغرب تبشر « بالأيديولوجيا الناعمة » هو الجديد في الأمر . فما هي هذه « الأيديولوجيا » ؟

إن أضخم مراجعة عرفتها « الأيديولوجيات » في العصر الحديث سواء انتسبت الى اليمين أو اليسار ، هي تلك التي ولدتها الثورة العلمية التقنية المختلفة في الطبيعة لا في الدرجة كما يقول ثقات المحللين عن الثورة الصناعية التي سبقتها .

ولعل أبرز نتاج تلك المراجعة التي أطلقتها هذه الثورة العلمية التقنية مانجده في ذلك الكتاب الذي وضعه فريق كبير من الباحثين في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم التشيكية بإشراف « رادوفان ريشتا » الذي حملت ترجمته الفرنسية عنوان « الحضارة على مفترق الطرق » عام ١٩٦٨ . ولقد تم تأليف هذا الكتاب بدعوة من الحزب الشيوعي التشيكي قبل أحداث « ربيع براغ » الشهيرة عام ١٩٦٨ ، تلك الأحداث التي أطاحت بأصحاب الاتجاه السياسي الجديد في الحزب ، وأطاحت معهم بالحصاد الفكري « الأيديولوجي » الذي عبر عنه هذا الكتاب . ومحور هذا الكتاب هو تحليل النتائج التي تنجم عن الثورة العلمية التقنية ، وبيان ما تمليه من تعديل في « الأيديولوجية » السائدة .

وعلى منوال هذا الكتاب - بل تحت تأثيره المباشر - كتب « روجيه غارودي » عام ١٩٦٩ كتابه الشهير « منعطف الاشتراكية الكبير » .

وفي الجانب الآخر ، جانب « الأيديولوجية » الرأسمالية اليمينية ، ظهرت أيضا مؤلفات عديدة ، تحاول أن تعيد النظر في « الأيديولوجيات » الرأسمالية ، في ضوء التقدم العلمي التقني ، وما ولد من عالم متسارع في تغيره ، وما أدى إليه من خضوع مسيرة الانسان ومصيره لارادة الاقتصاديين و« التكنوقراطيين » ومديري الانتاج ، ومن أبرز الأمثلة على هذه المؤلفات كتابات «ماركوز» الشهيرة العديدة ،، وبوجه خاص كتابات «ألفين توفلر» ، بدءا بكتابه الشهير الذي أحدث دويا صارخا ، ونعني كتاب « صدمة المستقبل » (وقد ظهر عام ١٩٧٠) ، وانتهاء بكتابه الذي ظهر عام ١٩٨٣ ، وعنوانه « ارهاصات ومقدمات » .

ومن خلال تنقيح « ايديولوجيات » اليمين و« أيديولوجيات » اليسار ظهرت تيارات تحاول أن تقول بالتقارب المحتوم بين هاتين « الأيديولوجيتين » ، وبزوال الفروق الحادة بينهما تدريجيا ، بحكم التقدم العلمي التقني كذلك ، وكأنها تتنبأ بولادة « ايديولوجيات » واحدة ، لابد أن يمليها في نظرها تغير البنى الاقتصادية والاجتماعية تغيرا متماثلا في البلدان المختلفة ، بفعل انتشار آثار الثورة العلمية التقنية في كل مكان .

« الأيديولوجيات » وحاجات الانسان

لقد كانت هذه المحاولات جميعها ـ محاولات التنقيح والتصحيح ومحاولات الجمع والتوفيق ـ تعبيرا عن جهود فكرية دائبة ، همها أن تجد « الأيديولوجيات » الملائمة للعصر ، وأن تتنبأ « بالأيديولوجيات » المرجوة في المستقبل . وكان وراء تلك الجهود دوما الواقع الجديد المتغير الذي تحدثه في عالم العمل وأدوات العمل وعلاقات العمل وحياة العمال التطورات السريعة التي تتم بسبب الثورة العلمية التقنية التي تجاوزت بالثورة الصناعية الى مجتمع مابعد الصناعة ، والتي شاعت فيها الآثار الاجتماعية والانسانية الفريدة « للأتمتة » ، وللتحرك الذاتي للآلة ، والتي غزت عوالم جديدة ، غيرت العلاقات الانسانية ، ورسمت لها اطارا جديدا كل الجدة ، كعوالم الألكترون والذرة والفضاء والمحيطات والهندسة البيولوجية والنسل وسوى ذلك .

الفردوس الموعود

من هنا بدت جهود مراجعة « الأيديولوجيات » في ضوء ذلك كله أمورا طبيعية ، بل لازمة ، وأخذ الكثير من المنظرين يبشرون بمجتمع جديد ، أبعد عن الصناعة واستعبادها للانسان ، وأقرب الى حاجات الانسان الحقيقية ، وأدنى الى إرواء منازعه ورغباته وصبواته ، سواء كانت جسدية أو فكرية أو انفعالية . ومن أبرز من تنبأ بمثل هذا الفردوس الجديد «دانييل بيل »من جامعة « هارفارد » في كتابه « نحو مجتمع مابعد الصناعة » (عام ١٩٧٣) ، وعالم الاقتصاد الفرنسي « جان فوراستييه » في العديد من كتبه ، لاسيما كتابه الشهير « أمل القرن العشرين الكبير » (الذي ترجم الى العربية منذ عقدين ونيف) ، وكتابه « تاريخ الغد » ، وكتابه « الأربعون ألف ساعة » ، بل حتى كتابه (مع ابنته) « من فرنسة الى أخرى » الذي ظهر في آخر عام ١٩٨٧ .

على أن هذا الفردوس لم يتحقق ، ولا تشير الاتجاهات السائدة الى إمكان تحقيقه خلال حقبة معينة ، ولا تكشف عن بوادر تبشر بمخاضه وولادته ، بل إن كل شيء يشير الى أن عالمنا يشهد أزمات متزايدة في شتى جوانب حياته ، وعلى رأسها الأزمات الاقتصادية ، كما أن كل شيء يشير الى أن هذه الأزمات آخذة في التزايد عاما بعد عام وعقدا بعد عقد .

ولاشك أن بروز أزمات العصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، وانتشارها وشمولها العالم المتقدم والعالم النامي على حد سواء ، جديرة بأن تجند أقلام الكتاب وأفكار المنظرين في سبيل البحث عن سبل الخروج منها . وقد فعل ذلك كثير من الكتاب والباحثين والعلماء في مختلف

الأمصار ، ومن شتى ميادين المعرفة ، وأدى ذلك الى مراجعات « أيديولوجية » متباينة المنازع .

الأيديولوجيا الناعمة :

غير أن ثمة منزعا ـ هو قصدنا في هذه الكلمة ـ أخذ في الشيوع والذيوع ، لاسيما خلال الثمانينيات ، يثير كثيرا من التساؤل والعجب ، بل والاستنكار . وهو على الرغم من غرابته منزع شائع لدى كتاب ومفكرين عديدين في الغرب[1] . بل يكاد يكون هو المنزع الشائع لدى كثرة كاثرة من الشبان هناك ، وهذا مادفعنا الى الحديث عنه وتفنيده ، لاسيما أنه منزع لا يخلو من إغراء ، وأن أشعته بدأت تسري الى عالمنا النامي نفسه ، وأن تربة الواقع العربي ـ كما سنرى ـ مهيأة لغزوه . إنه المنزع الذي يواجه الأزمات مواجهة تبدو إيجابية ، لكنها في أعماقها تعبر عن استسلام للواقع وخضوع له ، ذلك أنه يدعو الى ماسماه « هوبيج » و« باريس » في كتاب لهما حديث (ظهر في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧) باسم « الأيديولوجيات الناعمة » ، إن صحت الترجمة (Soft ideologie) .

ومن العسير تلخيص أفكار أصحاب هذا الاتجاه (وهي أفكار مبثوثة على نحو غير منظم في كتابات العديد من المفكرين في الولايات المتحدة وأوروبا) ، وحسبنا أن نقول ـ بلغة برقية ـ إنه اتجاه ينكر المشروعات النظرية الكبرى (أي الأيديولوجيات) التي تحاول بناء المجتمعات بناء جديدا ، ويرى أن عهد هذه المشروعات الاجتماعية عهد قد مضى وانقضى ، وفي مقابل ذلك يدعو الى « ايديولوجيات متواضعة » ، وفي حدودها الدنيا ، همها أن توفر حدا أدنى من الوفاق الاجتماعي الشامل في أي مجتمع . ومن هنا نرى أنه اتجاه يقبل بالواقع ، ويخضع لقوة الأشياء ، ولا تحمل الأيام غير طباعها ، ويرى أن أزمات هذا الواقع وصعوباته (وهي أزمات لا ينكرها) لاسبيل الى مغالبتها ، بل لاسبيل الى مغالبتها بوجه خاص عن طريق « ايديولوجيات » كبرى هي في نظره عاجزة ، بل هي عنده أدهى وأمر ، اذ تزيد في الداء وفي تعقيد الأمور ، وتؤدي الى أخطر نتيجة فيما يرى ، يعني التسلط والتحكم والبربرية . وكل شيء عند أصحاب هذا الاتجاه أفضل من الرؤى « الرومانتيكية » والرسالات الفكرية الحالمة ، تلك الرؤى والرسالات التي عانت الانسانية منها الكثير . وفي مقابل تمجيد أصحاب الرؤى والرسالات والمناضلين في سبيلها ، يمجد أصحاب هذه « الأيديولوجيا » (أو اللاايديولوجيا) الفرد اليائس القانع الرقيق الناعم في آن واحد ، وفي مقابل المجتمع الذي تسيطر عليه قيم « الذكورة » الصارمة يرسمون صورة لمجتمع حر « أنثوي » رفيق رقيق .

الفرد قبل المجتمع !

ذلك أن الفرد وسعادته ومتعته وحريته أهم أهداف أصحاب هذه « الايديولوجيا » ، إنهم يدعون الى « الفردانية » في حالها النقية الصافية المجردة من كل مشروع رسالة ، فلقد انقضى في زعمهم عصر الصراعات والتمرد والثورات والأوهام والمشروعات الاجتماعية الطوباوية ، وجاء عصر اللامبالاة ، وعدم الاكتراث والحياد ، بالاضافة الى عصر المتعة الفردية والتفتح الفردي الكامل . و« الأيديولوجيات » التقليدية منبوذة عندها ، لأنها فاسدة منحرفة في قلبها وجوهرها ،

(١) من بين المتبنين بهذه « الأيديولوجيا » أتباع المدرسة الكاليفورنية في الولايات المتحدة ، وأتباع مدرسة « فرانكفورت » في المانيا (ادورنو وهوركايمر وهابرماس وبلوك الخ بل وبعض الفرويديين الماركسيين امثال رايش وفروم وبعض الذين أطلق عليهم اسم الفلاسفة الجدد في فرنسا ، وكتاب متفرقون أمثال « ايدجار موران والآن مينك واندريه بركوف وجيل ليبوفتسكي و« غي سورمان » و« جان بودريار » و« ميشيل مافيسولي » و« موران ديسو » وسواهم كثير .

ولأنها عائق دون المتعة الفردية .

و« الأيديولوجيا » الجديدة هذه ترفض التأزم والمأساوية وترقب الحلول المعجزة ، وهي حين تدعو الى المتعة والارواء المحسوس للأهواء تدعو الى ذلك دعوة آنية ، ولا تقبل التأجيل ، فلا حاجة عندها الى المرور أولا « بالمطهر » - مطهر المشروعات الاجتماعية الكبرى - من أجل تحقيق السعادة الفردية ، ولا حاجة من أجل العثور على السعادة لانتظار قيام الثورة الاجتماعية او زيادة الدخل القومي ، بل علينا أن نقطف السعادة والمتعة الآن وههنا .

« الأيديولوجيا » الناعمة والأخلاق :

ومع ذلك لا تهمل هذه « الأيديولوجيا » الناعمة القيم الخلقية ، بل تعنى بها ، لكن عنايتها تتم من منظور خاص ، فالأخلاق عندها تستند الى الخوف اولا وقبل كل شيء ، ومطمحها الوحيد في عالم تقر بأنه ناقص وغير كامل هو الحيلولة دون الشر والسوء ، ذلك السوء الذي نجده أولا وقبل كل شيء في البربرية والعرقية والفاشية ونظائرها ، إنها تهتز لمساعدة الحبشة مثلا ، وكل ما يتصل بالاحسان والصدقة يغريها ، وهي تشعر بآلام الإنسانية ، وتدرك أن العالم قاس ومرعب وظالم ، لكن حسبها ، وهي الناعمة الرقيقة ، أن تعلن أن هذا العالم غير مقبول ، وأن تدعو مع ذلك الى الحياة فيه ومعه . والبطولة الخلقية غير غائبة عن نظرها ، غير أن قوامها هو ذلك الثالوث : النجاح والرياضة والمال . قوامها تلك القدرة على المغامرة والكسب والنجاح ، أما النواح وشكوى الزمان والتبرم من فراغ الحياة أو من مجتمع فاسد مفسد ، فتلك مواقف بالية ، ومن البلى كذلك أن يحمل المرء المجتمع مسؤولية مآسيه ومصائبه ، وكل مايتصل بالصحة والجسد يحمل المرء لدى أبناء هذه « الأيديولوجيا » قيمة خلقية خاصة ، فالجسد هو في آن واحد مصدر للمتعة ورأسمال ينبغي (تثميره) وإخصابه .

في عالم الاتصال :

على أن أوضح ما في هذه « الأيديولوجيا » الناعمة إكبارها الخاص للاتصال ، ولوسائل الاتصال الحديثة ، والنظر إليها كأنها اللغز الذي سيغير وجه الخليقة . ودخول وسائل الاتصال والمعلوماتية وسواها الى مجتمعاتنا واتساع نطاق استخدامها من أهم مايوحي لها بالأمل . ويزداد شأن هذه الوسائل بعد ولادة الجيل الثالث ثم الرابع من الحاسبات الألكترونية . والأمل معقود على هذه الوسائل من أجل خلق عالم انساني موحد يسوسه العقل . والعالم في سبيله إلى الانتقال من المجتمع الصناعي المستهلك للموارد الطبيعية الى المجتمع المعلوماتي المبدع للمنتجات المادية المطور للملكات الانسانية .

ويشط بنا القلم إن نحن حاولنا أن نفصل الحديث عن أهم قسمات هذه « الأيديولوجيا الناعمة » . ولعلنا ندرك من خلال هذا العرض الخاطف ومن خلال هذه اللقطات العاجلة لأهم معالمها ، أنها في خاتمة المطاف دعوة الى الخروج من « الأيديولوجيات » والمشروعات الاجتماعية الكبرى ، وقبول بالواقع مهما تكن مساوئه واتفاق على الحد الأدنى من الاصلاح وتمجيد للفرد والحياة الفردية ، وجنوح الى السعادة والمتع الآنية ، ورفض للسياسة بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة ، واصطناع لبعض المواقف الخلقية الانسانية التي تصدر عن الشفقة والتعاطف ، واكبار لمجتمع المعلوماتية والاتصال وما يولده من لقاء ووفاق على مستوى كل مجتمع ، وعلى مستوى الانسانية ، وابتعاد عن كل مايثير العنف والسلطة ، وأخذ بالحلول المؤقتة والجزئية والناعمة . لعلنا ندرك من خلال ما عرضنا أن « الأيديولوجيا الناعمة » لا تنكر أن ثمة أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية ، غير أن ذلك كله في نظرها لا يحول دون البحث عن ضروب صغيرة من السعادة ، ذلك أن البحث عن الخير المطلق كان ومايزال وهما ، وقد آن الأوان لكي نتحرر من الأوهام كلها .

« أيديولوجيا » النهاية

وقد يعجب القارىء لوجود مثل هذه «الأيديولوجيا» ، بل قد يحسب أننا غلونا في وصف قسماتها وصفاتها . والحق أنها « ايديولوجيا » ذائعة - كما سبق أن ذكرنا - لدى الكثير من الكتاب والباحثين والمفكرين ، ولدى عدد كبير من الشبان في المجتمعات الغربية ، بل لعل القارىء يدرك أن السير في مثل هذا المنزلق في الغرب أو في سواه أمر متوقع ، بوصفه رد فعل عاجز ، لكنه متجلبب بجلباب الحداثة والتجديد ، على الأزمات الكبرى التي تعصف بالعصر ، والتي لا تبدو قريبة الزوال ،

ولا يتبين أبناء الانسانية بوضوح حتى الآن أين مستقرها ، وأيان موعد انحسارها ، وما السبيل الى مغالبتها . ان هذه « الأيديولوجيا » تذكرنا (ولكن بلغة أحدث وأعمق) بالنزعات التي ظهرت وتظهر بين الحين والحين ، والتي تدعو الى النكوص عن الحضارة العالمية والعود الى حياة الطبيعة ، فرارا من مآسي الحضارة . ولئن كان القضاء على مآسي الحضارة لايكون الا بالايغال فيها من أجل تقويمها من داخلها ، فكذلك لا يتم التخلص من عجز « الأيديولوجيات » بانكار « الأيديولوجيات » جملة وتفصيلا ، بل يكون بتطويرها وتجديدها ، ومثل هذه « الأيديولوجيات » الداعية الى زوال « الأيديولوجيات » لا تعدو في واقع الأمر أن تكون فرارا من الواقع ومن الجهد ومن التفكير الجاد في مصير الانسانية ، إنها كما يقول بعضهم ليست سوى وضع مسيرة الانسانية بين حاصرتين (معترضتين) لابد أن تزولا بعد حين ، وهي بذلك لا تبرهن على نهاية « الأيديولوجيات » بمقدار ما تفصح عن كونها « ايديولوجيا » النهاية ، نعني « الأيديولوجيا » التي تعلن نهاية السعي من أجل تغيير الانسانية ، وذلك الوجه الضاحك الذي تحاول أن تصطنعه لن يقنع أحداً أمام تفاقم المشكلات العالمية والأزمات الحقة الكبرى التي ستواجهها الانسانية فيما يبدو .

على أن من الانصاف أن نقول ان ثمة منطلقا ايجابيا يدفع القائلين بهذه « الأيديولوجيا » ، نعني حرصهم الشديد على الحرية الفردية ، وعلى الديمقراطية ، ذلك الحرص الذي يصل بهم الى حد رفض « الأيديولوجيات » مادامت تعني دوما في نظرهم حق أصحابها في التسلط والتحكم ، وممارسة الظلم والطغيان باسم المجتمع المنشود ، ومادامت الأفكار والمبادىء قد تنقلب أحيانا - كما حذر من ذلك ماركس نفسه الى تتويج رائع للبربرية (على حد تعبيره) ، غير أنه لا حاجة الى القول ان سبيل التغلب على مزالق « الأيديولوجيات » هذه ليس سبيل رفضها ، بل سبيل البحث الجاد الذي هو ضالة الانسانية دوما وأبدا ، عن الدمج العضوي المتكامل بين حرية الفرد وحرية المجتمع بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية كما يقال .

« الأيديولوجيا الناعمة » والمجتمع العربي

وبعد ، قد يقول قائل أين نحن من هذه « الأيديولوجيات » التي هي نتاج التأنق الفكري المفرط الذي نجده في المجتمعات الغربية ، ووليدة طراز الحياة التي يعيشها أبناء تلك الجماعات . والحق أن الأرضية التي ولدت مثل « الأيديولوجيا » الناكصة الهاربة ليست غريبة كل الغرابة عن الأرضية التي يسرح فوقها مجتمعنا العربي وسائر المجتمعات النامية ، فالأزمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية التي تعاني منها هذه المجتمعات النامية ،

والتي هي في أحد جوانبها انعكاس للأزمة العالمية هي عندنا أيضا ، كما هي في الغرب أزمات ترمقنا شذرا ، ونرمقها شذرا ، دون أن ندرك بوضوح سبل الخلاص منها ، ودون أن نقوى على توليد مشروعات مجتمعية قادرة على تجاوزها . ومن هنا فالتربة صالحة عندنا كذلك لولادة مثل هذه المواقف التي وجدناها في تلك « الأيديولوجيا » التائهة ، نعني المواقف التي تغلف استلامها وعجزها بمنازع جديدة تدعو إليها ، لا تخلو من إغراء ويسر ، ولا يعوزها التحليل المتأنق الحديث ، غير أنها في أعماقها

تبرير لانصراف طاقات أبناء المجتمع نحو مصالحهم الفردية ومتعهم الذاتية ، ودفع لهم نحو اللامبالاة وعدم الاكتراث . ولن نتهم بالغلو إن قلنا إن بذور مثل هذه المواقف أصبحت متبثة لدى الكثير من أبناء الجيل الشاب بوجه خاص في سائر أرجاء المجتمع العربي ، بل لعلها أدركت جيل الكهول والشيوخ . ولئن كان المجتمع الغربي قادرا بفعل تقدمه وآليات بنيانه الذاتي المتطور على امتصاص مثل هذه الاتجاهات ، بله مقاومتها ، فان مجتمعنا العربي الناشيء قد يصاب في قلب حركة تقدمه كلها حين تغزوه مثل هذه المواقف اللامبالية ، وهو في ريعان حياته الجديدة .

من أجل « أيديولوجيا » عربية حية

الحق أن معالجة مشكلات مجتمعنا العربي والبحث في مصيره لابد أن يأخذا بعين الاعتبار حصاد التجربة العالمية وانعكاساتها ، وأن يجنبا هذا المجتمع في الوقت نفسه مخاطر هذه التجربة . والمنظرون الطامحون لبناء مشروع المستقبل العربي لا يمكن أن يهملوا مثل هذا التواصل والتآخذ بين التجربة العالمية والتجربة العربية ، ولابد أن يضعوا هذا المشروع في موضعه الصحيح ، وموقعه الصحيح ، من حياة العصر كلها ، ومن هنا كان البحث عن معالم « الأيديولوجيا » العربية المدركة للعصر والعالمة بواقع الوجود العربي وبموقعه في العصر والمتطلعة نحو المستقبل فضلا عن اتصالها بالماضي أهم ما ينبغي أن تشحذ له أقلام المفكرين العرب في أيامنا هذه . وقد أزف الحين من أجل بناء « ايديولوجيا » حية تجنب المجتمع العربي مزالق العصر ، عن طريق وعي هذا العصر ، ووعي الواقع العربي في آن واحد ، وتقوى على مغالبة أزمات حاضره وصياغة صورة مستقبله . □

الخيل أبدع اكتشافات الانسان

● يقول العالم الفرنسي « بوفون » ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الانسان كالجواد ، فهو الحيوان الوحيد الذي لا يعرف إلا في الحالة الأليفة ، فالجواد أبدع اكتشافات الانسان .

وإننا عندما نعود بالفكر إلى فجر الحضارة الانسانية نجد أن من العسير أن نفصل بين حياة هذا الحيوان والعمران الانساني ، فمنذ أطلت الخيل على التاريخ البشري نجدها لا تحيا إلا في ظل الانسان ، وهي لم تكن فقط للانسان المطية التي تشاطره حروبه وأمجاده ، وإنما الرفيق الأمين الذي يشاركه متاعب العيش ومباهجها .

أما العالم بلوتاك فيقول : إن ظهور الخيل وترويضها لخدمة الانسان كانا من العوامل الحاسمة في تسيير التاريخ القديم ، فان قيام الكثير من الممالك القديمة كان رهنا بمدى ارتباط شعوبها بالخيول السريعة الخفيفة ، أو بمدى تحسينها لوسائل استخدامها . إن الجواد يبدو في كل صفحة من صفحات التاريخ ، وفي كل لفته من أساطير الشعوب ، فكم من معركة قرر مصيرها وجوده وسرعته . وإن الكلمة التي أطلقها أحد غزاة العالم الجديد عندما قال : «إننا مدينون بنصرنا إلى الجواد بعد الله » تصح على الكثير من الفتوحات الانسانية في طريقها نحو التقدم .

الإسلام والتوازن الاجتماعي

بقلم : الدكتور عبد الرحمن زكي ابراهيم*

لم يكتف النظام المالي الاسلامي بتمويل النفقات العامة للدولة ، بل استهدف المساهمة في إقرار التوازن الاجتماعي ، وحين وضع الاسلام مبدأ التوازن الاجتماعي شرح فكرته ، وأوضح أنه يتحقق بتوفير الغنى لسائر الأفراد .

إن التوازن الاجتماعي هو التوازن بين أفراد المجتمع في مستوى المعيشة ، لا في مستوى الدخل ، أي أن يحيا جميع الأفراد مستوى واحدا من المعيشة ،مع الاحتفاظ بدرجات داخل هذا المستوى الواحد ، تتفاوت بموجبها المعيشة . والتفاوت هنا تفاوت درجة ، وكلمة الدرجة تفيد وجود أصل الصفة محل الاشتراك ، والاختلاف إنما هو في مقدارها فقط ، فالغنى يجب أن يكون قاسما مشتركا بين الجميع ، والاختلاف من فرد لآخر إنما يكون في مقدار الغنى ، وليس في أصل الغنى وأساسه ، وإلا لما كان اختلاف درجة ، وإنما كان اختلافا جذريا ، كالتناقضات الصارخة بين مستويات المعيشة في المجتمع الرأسمالي .

ومسئولية الدولة على أساس مبدأ التوازن الاجتماعي لا تفرض عليها إشباع الحاجات الضرورية للفرد فقط ، بل تفرض عليها أن تضمن للفرد مستوى الكفاية من المعيشة التى يحياها أفراد المجتمع الاسلامي ، والكفاية من المفاهيم المرنة التي يتسع مضمونها كلما ازدادت الحياة العامة في المجتمع الاسلامي يسرا ورخاء . وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن حد الكفاية في حديثه بأنه « توفير القوام من العيش » ، أي ما به تستقيم حياة الفرد ويصلح أمره ، ويكون ذلك بإشباع احتياجاته التى تجعله يعيش في مستوى المعيشة السائد ، دون وجود فجوة واسعة تفصل بينه وبين غيره .

وقد أدرج الاسلام التوازن الاجتماعي ضمن أهداف نظامه المالي ، انطلاقا من حقيقتين ، إحداهما كونية والأخرى مذهبية ، فالحقيقة الكونية هي

* استاذ الاقتصاد - كلية التجارة - جامعة الزقازيق ، مصر .

تفاوت أفراد البشر في العقول والمفهوم ، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، أما الحقيقة الأخرى فهي القاعدة المذهبية للتوزيع القائلة بأن العمل هو أساس الملكية وما لها من حقوق .

الاختلاف بين الأفراد

الاختلاف بين الأفراد في الخصائص والصفات النفسية والفكرية والجسدية سنة كونية ثابتة دائمة في كل مجتمع بشري على الاطلاق ، لا سبيل لإنسان أو نظام الى تغييرها ، وهي أن الله سبحانه وتعالى أخضع الخليقة للتمايز في المواهب والامكانيات والمقدرة على الابداع والاختراع ، وحدة الذكاء ، وسرعة البديهة ، وهم يختلفون في قوة العضلات ، وفي ثبات الأعصاب ، الى غير ذلك من مقومات الشخصية الانسانية التي وزعت بدرجات متفاوتة بين أفراد الجنس البشري .

هذه الاختلافات بين الأفراد في مختلف الخصائص والصفات حقيقة مطلقة ، ليست ناتجة عن أحداث عرضية في تاريخ الانسان ، أو على أساس ظرف اجتماعي معين ، فالناس يختلفون في مواهبهم وإمكاناتهم الخاصة قبل أي تفاوت اجتماعي بينهم في التركيب الطبقي للمجتمع . ولا يمكن لنظام اجتماعي إلغاء هذا التفاوت في تشريع أو في عملية تغيير لنوع العلاقات الاجتماعية .

العمل المشروع مصدر الملكية

قد قرر الاسلام أن العمل سبب الملكية ، واتخذ من العمل على هذا الأساس أداة رئيسية في جهاز التوزيع الاسلامي ، لأن كل عامل يحظى بالثروات الطبيعية التي يحصل عليها بالعمل ، ويمتلكها وفقا لقاعدة « أن العمل سبب الملكية » . ومن هذه القاعدة يمكن أن نستنتج أمرين هامين :

الأول : السماح بظهور الملكية الخاصة ، حيث يمتلك الانسان العامل الأموال التي أنتجها ، ذلك أن

في الانسان ميلاً طبيعيا الى الاختصاص بنتائج عمله عن الآخرين ، لكن نوعية الحقوق التي تترتب على هذا الاختصاص لا تتحدد وفقا لميل طبيعي ، وإنما يحددها النظام الاجتماعي وفقا لما يتبناه من أفكار ومباديء . وقد تدخل الاسلام في تحديد حقوق الاختصاص ، فأنكر بعضها ، واعترف ببعضها الآخر وفقا للقيم والمثل التي يتبناها ، فقد أنكر حق المالك في الاسراف والتبذير بماله ، وأنكر كذلك حقه في تنمية أمواله عن طريق الربا ، لكنه أجاز له تنمية هذه الأموال عن طريق التجارة ضمن حدود وشروط معينة .

الثاني : تحديد مجال الملكية الخاصة ، حيث يقتصر نطاق الملكية الخاصة على الأموال التي يمكن للعمل أن يتدخل في إيجادها أو تركيبها دون الأموال التي ليس للعمل فيها أدنى تأثير ، وعلى ذلك فالثروة الخاصة هي كل مال يتكون أو يتكيف طبقا للعمل البشري المتفق عليه ، أما الأموال التي لا يمتزج بها العمل البشري فلا تدخل في المجال المحدد للملكية الخاصة ، وإنما هي أموال مباحة إباحة عامة أو مملوكة ملكية عامة .

التفاوت في الدخول والثروات

نتيجة للايمان بالحقيقتين السابقتين يظهر التفاوت بين الأفراد في الدخول والثروات ، فإذا افترضنا أن مجموعة من الأفراد استوطنت أرضا ، وقامت

بإعمارها ، وأنشأت عليها مجتمعا ، وأقامت العلاقات بين الأفراد على أساس أن العمل هو مصدر الملكية ، ولم يمارس أي فرد عليهم أي لون من ألوان الاستغلال نحو الآخر ، فسوف نجد بعد فترة من الزمن أن هؤلاء الأفراد يختلفون في ثرواتهم تبعا لاختلافهم في الخصائص الفكرية والروحية والحيوية ، وهذا التفاوت أمر يقره الاسلام ، لأنه وليد الحقيقتين اللتين يقرهما معا ، ولذلك تكفل الاسلام بتوفير الايرادات العامة ، لكي تمارس الدولة تطبيقها لمبدأ التوازن الاجتماعي ، وذلك بوسيلتين رئيسيتين هما :ـ

١ ـ فرض التزامات مالية ثابتة تؤخذ بصورة مستمرة كالزكاة .

٢ ـ إيجاد قطاعات عامة ، وتوجيه الدولة الى استثمار تلك القطاعات .

الزكاة أهم الفرائض المالية الثابتة ، والدولة هي التي تجمع الزكاة وأمرها غير متروك للأفراد ، ولم يكتف الاسلام بحصيلة الزكاة ، وإنما قرر أن في المال حقا سوى الزكاة ، ذلك أنه إذا لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء ، فإن للسلطة العامة أن تأخذ من الأغنياء بعد الزكاة ما يمكنها من سد هذه الحاجات ، وهذا الحق لا يتقيد ولا يتحدد إلا بالكفاية ، فيؤخذ من مال الأغنياء القدر الذي يقوم بكفاية الفقراء .

والى جانب الالتزامات المالية والضريبية هناك القطاع العام الذي يعتبر حائلا دون احتكار الأقوياء للثروة كلها ، ورصيدا للدولة ، يمدها بالأموال اللازمة لممارسة التوازن الاجتماعي ، واعطاء كل فرد حقه في العيش الكريم من ثروات الطبيعة ،

حيث يقر الاسلام حق الجماعة كلها في ثروات الطبيعة التي خلقت للجماعة كافة لا لفئة دون أخرى ، ولعل أروع نص تشريعي يؤكد حق الجماعة كلها في الانتفاع بثروات الطبيعة قوله تعالى في سورة الحشر : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ

منكم » ، فإذا كان الوضع المحظور هو أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، فإن التطبيق العادل لتداوله بين الناس كافة هو توزيعه بينهم في ملكيات متفاوتة الفوارق .

تشريعات تمنع تركز الثروة

بالإضافة الى الوسيلتين السابقتين هناك مجموعة من التشريعات الاسلامية ، ذات صلة وثيقة بمبدأ التوازن الاجتماعي ، ويكفي أن نشير هنا الى محاربة الاسلام لاكتناز النقود ، وتحريم الفائدة على رأس المال ، وتشريعه أحكام الإرث والوصية ، ونهيه عن الاحتكار ، وإلغائه الاستثمار الرأسمالي للثروات الطبيعية ، الى غير ذلك من الأحكام .

ومن أحكام الاسلام تحريم كنز المال ، لأنه حق الأمة ، وحق فقرائها ، ينفق منه لدفع الحرمان ، والتأمين على العيش ، وتعهد الضمائر بما يؤيد نوازع الحق والعدل والخير ، وتوفير الرعاية الصحية ، والدفاع عن الأمة في مواجهة عدوها ، وكل نفقة تعود على الأمة جماعة وأفرادا برخاء العيش هي نفقة في سبيل الله . ولا يقر الاسلام الربا ، حيث أنه كسب غير مشروع ، يؤدي الى تركيز الثروة في أيدي الأغنياء ، ويؤدي الميراث والوصية بالملكية الى تجزئة في محيط من يرثون ومن لا يرثون من ذوي القربى وغيرهم ، وليس هنا مجال لتفصيل ذلك ، أما الاحتكار فقد نهى الاسلام عنه ، حيث أنه وسيلة لتركيز الثروة بطريقة جائرة ، لا تحقق تكافؤ الفرص للجميع .

وفي الرأسمالية يستمد الفرد مبرر ملكيته للموارد الطبيعية على أساس مبدأ الحرية الاقتصادية ، فالمذهب الرأسمالي يعتبر أن كل ثروة طبيعية يسيطر عليها الفرد تصبح ملكا له ، طالما أن ذلك لا يتعارض مع حرية التملك الممنوحة للاخرين ، وعليه فلن تكون هناك قيود تحد من حرية الملكية الخاصة لكل فرد ، إلا صيانة حق الأخرين في حرية التملك ، وهنا فالحقوق الخاصة في الموارد الطبيعية تعتبر مظهرا من مظاهر حرية الانسان في ظل النظام الرأسمالي ، بينما هي في ظل الاسلام مظهر من مظاهر جهد الانسان وعمله ، ولن يكون العمل مصدرا لتملك المال مالم يكن بطبيعته من أعمال الانتفاع والاستثمار ، وليس من أعمال الاحتكار والاستئثار ، فأعمال النوع الأول ذات صفة اقتصادية بطبيعتها ، أما أعمال النوع الثاني فهي تقوم على أساس القوة ، ولا تحقق انتفاعا ولا استثمارا مباشرا ، ولن تكون القوة مصدرا للحقوق الخاصة أو مبررا كافيا لها .

فحسب الانسان أن يقلع عن اتخاذ القوة المادية ـ مسلحة أو غير مسلحة ـ مصدرا للحقوق ، أما القوة الاعتبارية ممثلة في الربا والاحتكار ونحوهما من ضروب الاستغلال فذلك مالم ينكره الوعي المتدني يومئذ ، لقرب العهد من أساليب القوة السافرة ، ولعجزه عن النقد والتحليل ، وتبين ما في ذلك الأسلوب من جور ومجانبة للعدل والحق . □

● قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « من تتهمه فلا تأمنه ومن تأمنه فلا تتهمه » .

● قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « الاجتهاد خير بضاعة » .

● قال لقمان لابنه : « لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال فإنه كالسيف حسن مخبره قبيح أثره » .

● لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . (ابن الزبير)

البشارة

شعر : الدكتور خليفة الوقيّان

الارضُ تَرجُمُكم حجارتُها
ويفقأُ عينَكم شوْكُ النخيلْ
في القدسِ في العشّارِ
في ميـانِ في أنحاءِ غزّة
في الجليلْ . .
يتعانقُ الحجرُ النخيل
يعمّد الدّمُ مهرجانَ البعث
في الليلِ الثقيلْ . .

* * *

هذا زمانٌ تستفيقُ به البِشاره
ويهلّلُ القسّامُ
للطفلِ المدجّجِ بالحجاره
يختالُ سعدٌ
في الصفوفِ
تشقّ خيلُ الله فجْرَ القادسيةِ
من جديدْ
ينهار بيتُ النارِ
تُطفيءُ صولةُ الفرسانِ نارَه

* * *

الهيكلُ المهدومُ
والايوانُ
والبغي العنيدْ
وهمٌ السكارى
والطغاةِ الشاربين دم الاسارى
ليلٌ تمزّقه خيول الفتحِ
في الفجرِ الوليدْ .

وجهانِ للوعلِ البليد
يناطحانِ الصخرَ
في الفيحاءِ في الأقصى
يكسِّرُ قرنَهُ
الوعلُ البليدْ .

* * *

هذا زمانٌ تستفيقُ به الحجاره
تندى
تُبرعمُ ألفَ حلمٍ مُزهرٍ
أحلى مناره
هذا زمانٌ
ينهض البرديُّ فيه حَرْبَةً
سيْفاً
وتشتعلُ المياه
والضادُ في حُضنِ الخليلِ
يَضُمُّها للقلبِ
ينزفُ دونَها
تبقى شِعارَه

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

التعددية والمعارضة في الإسلام

التعددية السياسية ثمرة طبيعية للحرية ، والحرية هي الوجه الآخر للعبودية لله وحده ، بالتالي فإن مصادرة هذه الحرية بأية صورة من الصور هي بمثابة عدوان على حق الله سبحانه وتعالى ، سواء من حيث انها استلاب لحق المجموع في التعبير ، أو من حيث انها إخلال بعبودية الناس لله ، وفي إراداتهم ليتوجهوا بالامتثال والعبودية لغير الله .

فالشورى ـ قاعدة الأساس في النظام السياسي الإسلامي ـ لاتتحقق بالصورة المرجوة إلا في ظل هذه التعددية . والتعاون على البر والتقوى يقود إلى التعددية . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ما أريد لهما ألا يتحولا إلى فوضى فإن التعددية تضمن لهما الفاعلية وعمق التأثير . والقاريء المدقق في الخطاب القرآني يلحظ أنه ضد « الأحادية » على طول الخط ، فهو دائم الاشارة إلى « أولي الأمر » بصيغة الجمع وليس بصيغة المفرد .

ومن هذا المنطلق استقرت القاعدة الشرعية التي تقول « تصرف الفرد في المجموع ممنوع » . وفضلا عن ذلك فإن الخطاب القرآني دائم الحث على إعلان الرأي والجهر به ، حتى اعتبر الفقهاء ذلك الإعلان واجبا وليس حقا فقط ، وعد المقصر في ذلك الواجب آثما ، يحاسب على تقاعسه ذاك أمام الله يوم الدين .

ولئن دعا القرآن المؤمنين لكي تنفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم ، فإذا نفر آخرون ليعتنوا بشئون الدنيا عبر مناهج مختلفة للاصلاح ففي ذلك توسيع أكيد لمحيط الخير والتسديد . وكما قلنا قبل ذلك مرارا فإنه إذا كانت التعددية في المذاهب الفقهية قد أثرت العقل والواقع الإسلاميين عبر التاريخ فلماذا نتردد في الإفادة من ثراء آخر محقق نجنيه من وراء التعددية السياسية ؟

إن مصادرة الرأي الآخر بحجة اتقاء الفرقة هو دعوة لإهدار مصلحة محققة تحسبا لمفسدة محتملة ، وهو مالايقول به عقل أو نقل ، ناهيك عن أن إهدار تلك المصلحة يشكل ذلك العدوان على حق الله الذي أشرنا إليه الذي هو ـ في قضية الحرية تحديدا ـ يعد في الوقت نفسه إهدارا لأحد مقاصد الشريعة .

إن إساءة استخدام الحق لا تعالج بمصادرة أصل الحق ، وإنما تواجه بتقويم الاساءة ، وتوفير الضمانات اللازمة لعدم وقوع تلك الاساءة . تلك بديهية لاتحتاج إلى التذكير بها ونحن بصدد الحديث عن التعددية السياسية ، خصوصا إزاء الدعوات التي تقاوم فكرة التعددية ملوحة بمخاطر الفرقة المنهي عنها شرعا . وربما جاز لنا أن نقول إن تلك الفرقة المذكورة هي التي تؤدي إلى تمزيق الصف وتفتيت الكيان الاسلامي ، وهي مرتبة لايختلف أحد على رفضها ، لكن الذي نتحدث عنه هو ذلك التعدد الذي يثري ويبصر ويتيح الفرصة لتلاقح الآراء وإنضاج المواقف ، وإشراك الأمة في تقرير أمورها ومصائرها ، عبر قنوات شرعية فاعلة .

نعترف بأن الأحزاب السياسية ليست هي الصيغة المثلى لتحقيق التعددية السياسية ، لكننا نقر في الوقت

عنه بأنها الصيغة المتاحة المعتمدة في زماننا ، ولايملك متصف أن يغض الطرف عن مساويء النظام الحزبي التي تدفع بالمرء أحيانا إلى التعصب لحزبه ، سواء كان على حق أو كان على باطل .

لكن الانصاف يقتضي أيضا أن نوازن بين كمّ المصالح التي يحققها توفير ذلك النظام ، وبين مثل تلك المفسدة المحتملة التي يمكن تجنبها بترشيد الوعي السياسي .

وتظل قضيتنا الأساسية هي التعددية السياسية ، وإتاحة الفرصة للرأي الآخر أن يعبر عن ذاته ، وأن يكون له حضوره الشرعي واعتباره في الساحة السياسية ، أما صيغة هذه التعددية وتفصيلاتها ، وكيفية ضمان عدم انحراف نظامها عن مقاصده ، فتلك أمور تالية في ترتيب أهميتها .

ولربما سأل سائل عن موقف النصوص الشرعية من تلك التعددية التي تدعو إليها،وردنا على مثل ذلك التساؤل من شقين : أحدهما أن هناك تكاليف ومقاصد شرعية ، لايمكن الالتزام بها أو تحقيقها إلا في ظل التعددية ، وهي التي أشرنا إليها قبل قليل ، أما الشق الثاني فيتمثل في خلو النصوص الشرعية عن حكم يحول دون المضي في تلك التعددية . ولئن قال أحد الفقهاء ـ كما ذكرنا في المقال السابق ـ إنها من جملة المصالح المرسلة التي لنا أن تطرق بابها لنجني ثمارها إلا أننا نضيف هنا أنها أيضا تعد من مقتضى السياسة الشرعية التي عرفها ابن عقيل بأنها « ماكان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يشرعه الرسول ولانزل به وحي » .

ولأن الأصل في الأشياء الإباحة ، ولأن الله لم يحصر طريق إحقاق الحق وإرساء العدل في فرع واحد وأبطل غيره ، ولأنه « إذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل ، وأسفر صبحه بأي طريق كان ، فثمة شرع الله ودينه ورضاه وأمره » فإن « أي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها » ، وهو المعنى الذي أبرزه ابن القيم في « اعلام الموقعين » واستخدمنا كلماته وعباراته بقليل من التصرف (جـ ٤ ـ ص ٣٧٢) .

وفي رصد رؤية الاسلام لقضية التعددية وعنايته بالرأي الآخر فإن الباحث لايسعه إلا أن يسجل تقديره للمنهج الذي عولج به الموضوع في كتاب « المعارضة في الاسلام » لمؤلفه الدكتور جابر قميحة ، الأستاذ بجامعة عين شمس في القاهرة .

ذلك أن المؤلف وهو يقدم لبحثه أفرد الفصل الأول لما أسماه «الضمانات والمرتكزات» ، وذكر أن الاسلام قدم ضمانتين أساسيتين تكفلان للرأي الآخر الحصانة والبقاء : الضمانة الأولى تتمثل في تأكيده على قيمة الحرية ، والضمانة الثانية تتمثل في اعتبار العدل محور الشريعة ومدارها . أما مباشرة الرأي الآخر أو المعارضة فإنها تركز على أمرين هما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشورى (ص ١٩ ـ ٦٠) .

على أرضية الحرية والعدل ، ومن خلال الأمر بالمعروف والشورى فإن الباب ينفتح واسعا لممارسة المعارضة التي هي ترجمة عملية لفكرة التعددية السياسية التي ندعو إليها .

وإذا استعرض المؤلف نماذج من تلك الممارسات في العصر الاسلامي الأول فإنه قدم لنا وقائع مما جرى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام (غزوات بدر وأحد والأحزاب وصلح الحديبية) عندما كان للرأي الآخر دوره وحضوره ، ثم ماجرى في مرحلة الخلفاء الراشدين من ممارسات مماثلة ، لكنه مر سريعا على تجربة الإمام علي بن أبي طالب مع الخوارج ، وإن سجّل بعضا من ملامح هذه التجربة بحسبانها طورا جديدا في المعارضة، حيث ذكر أنه كان قصارى جهد المعارضة الأولى عزل والٍ أو القصاص منه ، أو عزل الخليفة (كما جرى في عهد سيدنا عثمان بن عفان) ، أما المعارضة الخارجية ، فقد أخذت صوراً وامتدادات أبعد من ذلك بكثير ، فهي وإن انطلقت من الحكم على أشخاص كعثمان وعلي ، والحكم على وقائع كالتحكيم ، فإن هذه الآراء الأولية تطورت إلى ايديولوجية « مفصلة في الحكم والمجتمع والحلال والحرام » (ص١٩٠) ، ذلك فضلا عن أن تجربة

المعارضة في عهد الإمام علي تعد نموذجا للمعارضة الحزبية المسلحة التي واجهت الحكم الاسلامي في مراحله المبكرة .

لقد أشار المؤلف إلى ملامح هذه التجربة ، لكنه لم يتوقف عندها طويلا على الرغم من خصوصيتها وخصوبتها وأهميتها ، ذلك أنها مليئة بالدروس التي يتعين علينا أن ندقق في ملابساتها ، لنستوعب الحدود التي يحتملها الواقع الإسلامي لمباشرة ماتسميه في زماننا المعارضة السياسية أو المسلحة .

ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن الفكر السياسي الاسلامي يبني الكثير من الاجتهادات على دروس تلك التجربة ، الأمر الذي يدعونا إلى أن نحاول استرجاع تلك الدروس وما استخلصه فقهاء المسلمين منها .

فهناك تيار بارز بين فقهاء المسلمين يضم عديدا من أهل السلف والخلف استقر رأيه على أن الواقع الإسلامي يحتمل المعارضة السياسية التي يمكن أن تذهب بعيدا في النيل من القيادات الحاكمة ، سواء في سياساتها أو مدى إيمانها - (الخوارج كفروا الإمام علي فوق المنابر وتركهم وشأنهم) - لكن الذي ليس مقيدا عند هؤلاء المعارضة المسلحة التي تهدد كيان الدولة الاسلامية ، وتروع سكانها ، وتجرح وحدتها .

الدكتور يوسف القرضاوي من أبرز المعاصرين القائلين بذلك ، استنادا إلى قول الإمام علي لأحد الخوارج : لكن علينا ثلاث : لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نبدؤكم بقتال ، ولانمنعكم الفيء (الايراد الذي يحصله المسلمون بغير غزو) .

بنى الفقهاء على هذه المقولة - أضاف القرضاوي - أن قوما لو أظهروا رأي الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة وسب الصحابة ، ولم يخرجوا عن قبضة الإمام (لم يحاربوه بالسلاح) - لم يتعرض لهم (منار السبيل جـ ٢ ، ص ، ٤٠٢و٤٠٣) .

وقد روى الغزالي في « المستصفى » أن قضاة البصرة استأذنوا الإمام علي في أن يقبلوا شهادة أهلها من الخوارج وغيرهم - الذين حاربوه - فأمر بقبولها كما كانت تقبل قبل حربهم له ، لأنهم حاربوا على تأويل ، وفي رد شهادتهم تعصب وتجديد للخلاف ، (القرضاوي - شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان - ص ٦٢) .

ومما يقوله الماوردي في هذا الصدد : « وإذا بغت طائفة على المسلمين وخالفوا رأي الجماعة وانفردوا بمذهب ابتدعوه - فإذا لم يخرجوا عن المظاهرة بطاعة الإمام ، ولا تحيزوا بدار اعتزلوا فيها ، وكانوا أفرادا متفرقين تناهم القدرة وتمتد إليهم تركوا ولم يحاربوا ، وأجريت عليهم أحكام العدل فيمايجب لهم وعليهم من الحقوق والحدود .

(ذكر الماوردي مقولة الإمام علي التي مررنا بها ، ثم أضاف : فإن تظاهروا باعتقادهم وهم على اختلاطهم بأهل العدل أوضح لهم الإمام فساد ما اعتقدوا ليرجعوا (بالحوار بطبيعة الحال) ، وجائز للامام أن يعزر منهم من تظاهر بالفساد أدبا وزجرا ولم يتجاوزه إلى قتل أو حدّ ، فإن اعتزلت الفئة الباغية أهل العدل ، وتحيزت بدار من مخالطة الجماعة ، فإن لم تمتنع عن حق ، ولم تخرج عن طاعة لم يحاربوا ، وإن امتنعوا حوربوا » - (الأحكام السلطانية ص ٤٧) .

(وللسرخسي صاحب « المبسوط » تعقيب على كلام الإمام علي للخوارج ملفت للنظر ، يقول فيه : « إن ذلك الكلام .. فيه دليل على أنهم مالم يعزموا على الخروج (التمرد المسلح) فالامام لايتعرض لهم بالحبس والقتل ، وفيه دليل على أن التعريض بالشتم (للامام) لايوجب التعزير - فإنه لم يعزرهم وقد عرضوا بنسبته إلى الكفر ، وفيه دليل على أنهم يقتلون دفعا لقتالهم حين يعزمون على القتال بالتجمع والتحيز دون أهل العدل » (جـ ١٠ ص ١٢٥ - ١٢٦) .

هذه النصوص والضوابط الهامة تطرح بين أيدينا نماذج من اجتهادات فقهاء المسلمين للحدود والضوابط التي يسوغ للمعارضة أن تتحرك ضمنها في ظل الواقع الاسلامي . وأحسب أن تلك الحدود لو صاغها الباحثون صياغة عصرية لاستخلصنا منها إطارا متقدما للغاية بمباشرة ما نسميه الحقوق

السياسية أو التعددية الحزبية . ولو اجتهدوا في الاضافة إليها من واقع التطورات السياسية الراهنة لأثروا الفكر السياسي الاسلامي ثراء له قيمته الكبرى .

ولعل من الأمور التي تحتاج إلى اجتهاد في زماننا الضوابط الايديولوجية التي يجوز للمعارضة أن تتحرك في حدودها ، أعني أننا إذا قبلنا نظريا بالمعارضة السياسية ، وقلنا إن المعارض ينبغي أن تكفل له كل الحقوق والضمانات طالما أنه لم يلجأ إلى العنف المسلح ، استنادا إلى كلام الإمام علي واجتهاد الفقهاء المنبني عليه فما هي الحدود الفكرية أو الايديولوجية التي يجوز للمعارضة أن تنشط في إطارها ؟

فقد أشرنا في المقال السابق إلى فتوى ابن تيمية التي تجيز الأحزاب التي تدعو إلى الخير والحق ، وتمنع الأحزاب التي تقوم على محادة الله ورسوله ، وهي الفتوى التي عقب عليها الدكتور محمد العوا قائلا بجواز التعددية الحزبية ، « شريطة أن تلتزم هذه الأحزاب بقيم الاسلام وتعاليمه ، ثم تترك بعد ذلك لتدعو إلى ما تشاء من برامج سياسية واقتصادية واجتماعية » ـ (في النظام السياسي للدول الاسلامية ـ ص ٨٤) .

ونحن نفهم أن يفتح الباب واسعا للتعددية التي تقوم على أرضية إسلامية ، كما نفهم أن تحظر الأحزاب التي تقوم على العداء للإسلام ، وإنكار تعاليمه ، لأن ذلك يعني التصريح بنقض أساس الدولة وإهدارها نسميه النظام العام للمجتمع ، وهو مما لاتسمح به أية دولة في عالمنا المعاصر ، مهما بلغت طبيعة الممارسة الديمقراطية فيها .

أقول إننا نفهم هذا وذاك ، لكن الذي يمكن أن يثير تساؤلا هنا هو:ماذا عن التيارات الفكرية التي تقف بين النقطتين ؟ أعني تلك التي لاتقف على كامل أرضية الاسلام ، ولا تقف على كامل أرضية المعادين لله من قبيل ماتسميه الأحزاب الليبرالية أو العلمانية أو الاشتراكية التي لاتتخذ بعض تياراتها المعتدلة موقفا معاديا للاسلام على الجملة ، لكن ربما كانت لها بعض التحفظات على حدود التطبيق الاسلامي وقضية النظام السياسي ، أو دعوة الفصل بين الدين والسياسة نموذج لذلك من حيث ان بعض الذين يرددون هذه الدعوة مسلمون مؤمنون بالله ، ولا يمكن تصنيفهم بحسبانهم ممن يحادون الله ورسوله ، أمثال هؤلاء هل يوجد لهم مكان في ساحة التعددية التي نرجوها للواقع الاسلامي ؟

الأمر يحتاج إلى مناقشة واجتهاد ، وإذ أعترف بأني لست من أهل الاجتهاد إلا أنني قد أزعم انتسابا إلى « أهل المناقشة » ، مما يدخر قد يوفر لي قسمة اجترىء من خلالها على الرد بالايجاب عن السؤال !

وهو إيجاب ليس مطلقا ، لكنه مشروط بأمرين اثنين أولهما : أن يظل الخلاف مع هذه التيارات في الفروع وليس في الأصول الإسلامية ، علما بأن مسألة الحكم على ضرورتها وأهميتها هي من الفروع وليست من الأصول بحسبانها فعلا وليست اعتقادا .

وثاني الشرطين أن يكون الفيصل في واجبات والتزامات كل طرف مشارك في التعددية السياسية والفكرية هو العهد المكتوب بين الجميع ، وإذا كانت تجربة«الصحيفة» التي أنشأها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، هي صيغة مبكرة لمثل ذلك العهد ، واتفق الباحثون لاحقا على اعتبارها أول دستور مكتوب في الاسلام ، بل في التاريخ الانساني ، فإننا نذهب إلى أن دستور الدولة هو العهد الذي تلتزم به أمة الإسلام بكل مللها وفصائلها الفكرية والسياسية . وما هو متفق عليه في ذلك الدستور لايجوز لأحد نقضه أو العمل على هدمه ، وإلا وقع تحت طائلة القانون .

نعم كانت الصحيفة عهدا بين المسلمين وغير المسلمين ، لكننا نستقي الفكرة ونقيس عليها مذكرين بأنه لم يكن هناك وجود لفرق أخرى في ذلك الوقت المبكر من التاريخ الإسلامي .

في إطار تلك الحدود والضوابط فلسنا نرى ما يمنع أي تيار فكري أو سياسي من أن يثبت حضوره ، ويمارس دوره في أي مجتمع إسلامي معاصر . والله أعلم . □

يونيو ١٩٨٨

العربي

اقرأ في العدد القادم من

استطلاعات

كريت
من هنا دخل الانجليز
ومن هنا خرجوا!

سليمان الشيخ

كينيا
الوجه الآخر
لأفريقيا

محمود عبدالوهاب

- مجلة اسمها الإسلام !.... د. عبدالعزيز كامل
- أربعة خيوط في نسيج انتحار شاعر ! .. د. محمد جابر الأنصاري
- يكاد المريب يقول خذوني ! ...... شريف الراس
- النخبة العربية والاغتراب ... د. هاني الراهب
- أضواء جديدة على قضية قديمة ! .. عبدالرزاق البصير
- الجديد في علاج الأرق .... د. أمل المخزومي
- الموت ظلما واغترابا !

يوسف القعيد

كتابا الشهر:

- مشاعر محجبة .... عرض / خالد عباس
- لوحات تسر الخاطر ! .... عرض / عادل ثابت

وجها لوجه: • أنجي أفلاطون • نجاح عمر

واقرأ أيضا
للكتاب

د. محمد الرميحي   د. محمد نبهان سويلم
د. علياء شكري   د. أنيس فهمي   أبوالمعاطي أبوالنجا
د. عبدالمجيد زراقط   فهمي هويدي   ابراهيم زعرور

الملف الفلسطيني

حلقة جديدة في سلسلة طويلة

من النضال

حين انطلق أول حجر في انتفاضة الشعب الفلسطيني الأخيرة لم ينتبه الكثيرون الى ما في الحجر من قوة وصلابة ، ولم يروا ما فيه من معنى ورمز ، فالحجر الفلسطيني لم يصب جبهة الجندي « الاسرائيلي » فحسب ، بل كسر حاجز الخوف والغموض الذي ظل يلف ذلك الكيان المدجج بالبنادق والحقد مدة أربعين عاما مضت ، هي عمر نكبة الشعب الفلسطيني ، وعمر ثورته الحديثة في الوقت نفسه .

كانت الانتفاضة الفلسطينية حلقة جديدة في سلسلة انتفاضات فلسطينية ، لم تنقطع منذ صدور وعد بلفور ، ذلك الوعد الذي أعطى ما لايملك لمن لايستحق ، وإن كان الحقد الصهيوني قد بدأ قبل ذلك بكثير ، منذ بدأت عملية تكون النظام الرأسمالي الحديث في أوروبا الذي لعب فيه اليهود دورا مهما وبارزاً، كما يقول د. عبد الوهاب المسيري في مقاله المنشور في هذا الملف ، وتحول ذلك الدور الاقتصادي الى دور استعماري مع دخول النظام الرأسمالي مرحلته الاستعمارية الكبرى التي استهدفت منطقتنا العربية ، والتي أصبحت الصهيونية فيها أداة للاستعمار ورأس حربته في فلسطين المحتلة ، كما جاء في دراسة رياض معسعس المنشورة في هذا الملف أيضا ، وتحولت تلك الأداة التي حملت اسم « اسرائيل » من بعد الى قاعدة للاستعمار والامبريالية ، تهدد الأقطار العربية النازعة الى التحرر والاستقلال والوحدة (كما جاء في مقال أمين هويدي) .

وعبر ذلك التاريخ لم يتوقف الشعب الفلسطيني عن العطاء ، فمن مظاهرات الاحتجاج الأولى وحتى أطول اضراب في التاريخ (١٩٣٦) ، ومن الاشتباكات مع أوائل المستوطنين الصهاينة وحتى الانتفاضة الأخيرة المجيدة ، ومن الحجر الى الرصاصة ، ومن الكفاح الجماهيري الى الكفاح المسلح ، خاض الشعب الفلسطيني نضاله ضد هذه الحركة العنصرية التي ولدت من رحم الاستعمار الأوروبي ، وكان كل جيل فلسطيني يبدع أشكال نضاله الفاعلة المناسبة .

وعلى الرغم مما في الأمر من مفارقة فان الجيل الفلسطيني الجديد هو الجيل الذي استأنس الحجر ، فصنع ثورة تنطق بالغضب من تلك الحجارة الصماء . وعن هذه المسيرة المليئة بالبطولة وبالعذاب كان هذا الملف .

من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء

٤٠ عاماً على نكبة الشعب الفلسطيني

بقلم : الدكتور شفيق الغبرا *

منذ أربعين عاما تحول الشعب الفلسطيني من حالة المواطنة والاستقرار الى حالة اللجوء والشتات . وكلمح البصر سقطت آمال الاستقلال الوطني والمستقبل الحر ، لتطغى عليها حياة المنافي والبحث عن الوطن السليب . أما كيف أخرج الشعب الفلسطيني من بلاده ، وكيف تعامل مع نتائج الاقتلاع والتشريد ، فهذا ما ستحاول هذه المقالة توضيحه .

من أوائل نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، أي قبل ٤٠ يوما من اعلان قيام دولة « اسرائيل » ودخول الجيوش العربية الى فلسطين ، شنت القوات الصهيونية هجوما مسلحا كان جزءا من خطة عرفت بخطة داليت . وقد شملت منطقة الهجوم الساحل الفلسطيني والمناطق الأخرى الواقعة غرب القدس . وخلال نيسان (ابريل) ارتكبت مجزرة دير ياسين ، وهزمت القوات الفلسطينية القليلة العدد والضعيفة التدريب بعد استشهاد قائدها عبد القادر الحسيني في معركة القسطل ، وسقطت مدن يافا ، وحيفا ، وطبريا وطوقت عكا . وقد نتج عن هذه المرحلة اقتلاع ما يقارب ٣٠٠ ألف مواطن فلسطيني من مدنهم وقراهم ، خرجوا بحالة فزع وهلع شديدين ، بعد رؤية ما حل بأبناء قرية دير ياسين . فقد تركت المجزرة أثرا نفسيا عميقا على مجتمع عربي أعزل من السلاح ، ينقصه الكثير من التنظيم بعد أن

* مدرس العلوم السياسية - جامعة الكويت

أرهقته أشكال القمع البريطاني على مدى ٢٨ عاما . ومما لاشك فيه أنه لم تكن للفلسطينيين أية قوة منظمة قادرة على تحدي أكثر من ٦٠ الف جندي اسرائيلي تدربوا قبل وابان الحرب العالمية الثانية وتخرجوا في مدرستها القتالية .

وقد حدثت تحولات مهمة في المجتمع الفلسطيني بعد تدخل الجيوش العربية في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، والتي ادخلت ما مجموعه ١٧,٥٠٠ مقاتل لتواجه ٦٢ الف مقاتل صهيوني . إذ مع بداية الهدنة الأولى في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، بدأ الفلسطينيون يعون أبعاد المخطط وحدود الامكانات العربية العسكرية والسياسية . كما أنهم رأوا ما حل باللاجئين الأوائل ، وشاهدوا بأعينهم كيف صدت القوات الاسرائيلية محاولات الكثيرين منهم للعودة . وهكذا قررت بقية أجزاء المجتمع الفلسطيني الاعزل ، وعلى الرغم من المجازفة ، البقاء في قراها ومدنها ، لقد قرر الفلسطينيون لأول مرة منذ الثامن من نيسان (ابريل) ١٩٤٨ طرد شبح دير ياسين ، حبا في الارض وخوفا من مصير مجهول .

وتشكل الاحداث الواقعة بمدينتي اللد والرملة ، في الفترة ما بين التاسع والثالث عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨ ، مثالا واضحا لبداية هذه المرحلة الهامة . فاستنادا الى الباحث الاسرائيلي بيني موريس ، الذي درس الوثائق الاسرائيلية السرية الخاصة بالحرب ، والتي سمحت اسرائيل مؤخرا للباحثين بالاطلاع عليها ، شنت القوات الاسرائيلية هجوما بالمدفعية والطيران هدفه اخراج سكان المدينتين البالغ عددهم ٨٠ الف نسمة . وفي اليوم الثالث للهجوم انسحبت أغلبية القوات العربية المرابطة في المدينتين والبالغ عددها ١٥٠ مقاتلا . كما نجحت القوات الاسرائيلية ، حسب الوثائق الاسرائيلية نفسها ، باعتقال بعض وجهاء الرملة خارج المدينة مجبرة اياهم على توقيع وثيقة استسلام مقابل عدم مساس السكان بالاذى . وبالفعل دخلت القوات الاسرائيلية المدينة ، وقامت قواتها باقتحام مدينة اللد التي استمر فصيل من الجيش العربي وعدد من سكان البلدة بالمقاومة فيها .

وفي الساعات الأولى من احتلال اللد والرملة بدا الوضع طبيعيا لكن مغلفا ببعض التوتر . وفي مدينة اللد بالتحديد ، وبعد ساعات من احتلالها ، ادعت القوات الاسرائيلية بأن قواتها تعرضت لرصاصات قنص ارتكبت على أثرها مجزرة كبيرة أدت لمقتل ٢٥٠ طفلا وامرأة ورجلا وشيخا . وعلى الرغم من حجم المجزرة رفض سكان اللد والرملة مغادرة مدينتهم . وحسب ما أورده موريس ، أن هذا الوضع ادى الى صدور قرار من بين غوريون لاسحاق رابين وايغال الون بطرد سكان المدينتين . وتم وضع جزء من السكان بالشاحنات الاسرائيلية واخراجهم ، وفرض على البقية السير على أقدامهم . وقد قامت القوات الاسرائيلية باضطهاد اللاجئين فسرقت ممتلكاتهم الشخصية وقطع نقودهم ونزعت الحلي من أيدي النساء . ومات الكثير من الاطفال عطشا خلال رحلة السير الى الخطوط العربية . وقامت القوات « الاسرائيلية » وسكان المستعمرات القريبة ، بعد اخراج السكان ، بنهب المدينتين نهبا شاملا ، وهكذا بدأت القوات الاسرائيلية ، منذ شهر تموز (يوليو) ، الا في حالات استثنائية (الناصرة مثلا) ، وذلك نتيجة تردد القائد الاسرائيلي بطرد السكان) في الدخول الى القرى الفلسطينية الآمنة والقيام بقتل بعض الشباب في الساحات العامة وباغتصاب بعض الفتيات (في حالات محددة) وتهديد بقية السكان بمصير مشابه اذا لم يغادروا ، وبلغ عدد المجازر المرتكبة بحق المدنيين خلال الحرب ما يزيد على ٣٠ مجزرة من بينها مجزرة الدوايمة التي أودت بحياة ما يقارب ٢٥٠ مواطنا مدنيا فلسطينيا رمي الكثير منهم في آبار البلدة أو دفنوا بمغاراتها .

ومع حلول اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨ تحول ٩٠٠,٠٠٠ (تسعمائة ألف) فلسطيني من أصل ١,٤٠٠,٠٠٠ (مليون وأربعمائة ألف) الى لاجئين .

ولقد شكل الفلسطينيون قبل الحرب ثلثي

● عجوز فلسطيني وجنود اسرائيليون .. هو الباقي وهم العابرون .

السكان ، على الرغم من كل أشكال الهجرة اليهودية العلنية والسرية التي سهلتها بريطانيا وامتلك الفلسطينيون ٩٢٪ من الاراضي الفلسطينية ، و ٩٠٪ من الاراضي المزروعة . أي أن الملكية اليهودية لم تتجاوز ٧٪ من الأراضي الفلسطينية .

ومع نهاية الحرب ، وتوقيع اتفاقات رودوس احتلت « اسرائيل » ٧٧,٤٪ من أراضي ومياه فلسطين (٢٠,٨٥٠ كيلومترا) وخضعت بقية أراضي فلسطين ٢٣,٦٪ أي الضفة الغربية والقدس الى حكم الأردن ، بينما خضعت غزة للادارة المصرية .

نتج عن هذه الحرب فقد الفلسطينيين لأراضيهم ومزارعهم ، وقراهم ومدنهم ، كما دمرت مخلاتهم وبنوكهم . ومستشفياتهم ومدارسهم ، وأحزابهم ونواديهم ، أي أنهم فقدوا وطنا كاملا . أما دولة « اسرائيل » ، فقد أقرت فور قيامها ، حق كل يهودي بالهجرة لفلسطين ، بينما منعت الفلسطينيين بعد طردهم من ممارسة حقهم بالعودة . وهكذا وإبان السنوات الأولى من قيام الدولة ، جاء مئات الالوف من المهاجرين ليملأوا المدن والقرى والأحياء الفلسطينية الخاوية ، وليزرعوا الارض التي زرعها الفلسطينيون عبر القرون . واستمرت « اسرائيل » بسياسة سحق كل ما هو فلسطيني ، فدمرت ٤٠٠ من القرى الفلسطينية في الاراضي التي احتلتها عام ١٩٤٨ ، لتقيم على أنقاضها المستعمرات والمتنزهات . وصدرت قوانين اسرائيلية بمصادرة كل أملاك اللاجئين ، كما سنت قوانين على مراحل صادرت فيها أغلبية أراضي الاقلية الفلسطينية التي استطاعت البقاء على الارض عام ١٩٤٨ ، وهكذا تحولت « اسرائيل » منذ انشائها الى أداة مهمتها تهويد

الارض والغاء الوجود الفلسطيني المشكك بشرعيتها ، وتحقيق حلم الدولة اليهودية القوية الممتدة والمسيطرة على العرب والفاصلة بين مشرقهم ومغربهم .

الرد على النكبة

في الايام والشهور الأولى من لجوء ١٩٤٨ انزوى اللاجئون الفلسطينيون يلعقون جراحهم وسط برد الشتاء في خيام أصبحت علامة لمأساتهم . ولكنهم وعبر دور مميز لعلاقتهم الاسرية والقروية والبلدية القديمة نجحوا باعادة تشكيل مجتمعهم . فبينما استطاعت « اسرائيل » أن تحيل وطنا كاملا الى حطام ، دمرت مؤسساته ، واقتصاده ، وبنيانه ، الا أنها لم تستطع أن تلغي روابط الدم والقرابة . فقام الفلسطينيون في الشتات وفي كل مراكز وجودهم باحياء روابط الدم وروابط القرية والمدينة الاصل ، وروابط الصداقة والمعرفة القديمة . ونتيجة لذلك بدأت تبرز اشكال هامة من المساعدة والتكافل الاجتماعي التي سهلت السفر ، والعمل والتعليم والتنقل لهذا الشعب المنكوب . ففي السنوات الاولى من النكبة كان هم الفلسطينيين توكيد قدرتهم على تحويل أسرهم وقراهم الاصلية الى حاضن اجتماعي كبير يعمل في ظل غياب المؤسسات والارض والوطن .

وقد شكلت مرحلة البحث عن لقمة العيش والعمل والانتاج مدخلا هاما لاستعادة التوازن في الذات الفلسطينية المحطمة . وبينما كان جيل الآباء في الاسرة الفلسطينية يعاني حسرة الغربة وتبعة فقدان الارض وفقدان ما بناه كدحهم وجهدهم خلال عقود من العمل ، كان جيل شاب يتحرك ليأخذ زمام الأمور بيده ، فيهاجر من الخيام الى المدينة ، ومن بلد عربي الى آخر ، من أجل اعالة اسرة ممتدة ، وارسال الأخوة والاخوات الصغار للمدرسة أو الجامعة .

علاقة جديدة مع الارض

ولكن المجتمع الذي نجح بحماية بناه الاجتماعية بعد النكبة لم تكن أبعاده لتتكامل دون الارض . فلا يوجد بناء اجتماعي بعيدا عن أرض مرتبطة به ، تتفاعل معه وتمده بأسباب البقاء والاستمرار . وبينما الارض سلبية ، أصبحت قوة الذاكرة والعاطفة ، أي قوة البعث الروحية وسيلة لحضور الأرض بين أوساط مجتمع النكبة . وهكذا ومنذ الايام الأولى للجوء ، كانت محاولات العودة للارض كبيرة .

ولكن « اسرائيل » تصدت لهذه المحاولات ، فالقت القبض على الكثير من الفلسطينيين ، قبل إعادة طردهم ، قتلت بعضا منهم وذلك للحد من ظاهرة التسلل عبر الحدود العربية بهدف العودة . وهكذا شكل هذا المانع للعودة بداية تجذر فكرة العودة المسلحة ، أي قيام الفلسطينيين بالعودة ومعهم السلاح للاشتباك مع القوات الاسرائيلية حينما تعترضهم .

وأخذت الارض بعد النكبة الكثير من المعاني المستمدة من واقع علاقة السكان التاريخية بها . فهي أرض الاجداد وأرض الوطن ، أرض القرية المهدومة وأرض المدينة الاصل ، إنها أيضا أرض الانبياء وأرض الاسراء والمعراج . هي البيت والذكريات ، فيها قبور الآباء والاجداد التي فقدت زوارها ، إنها الجذور التي لاتحيا نبتة بدونها . وهكذا نقل الفلسطينيون حنينهم للارض وارتباطهم بها الى اطفالهم المولودين في الشتات ، فنشروا بين الاجيال الصاعدة قصص الحصاد والنبع ، وقصص التين والزيتون ، وعلموهم أخبار القرية الاسيرة والبيت المهدوم . هكذا رسمت الذاكرة ، الارض الفلسطينية ، فبعثتها حية بناسها وعلاقاتها ، بأفراحها وأحزانها .

الكفاح المسلح

ولكن التماسك الاجتماعي والارتباط بالارض لم يكونا كافيين وكان لابد من محور جديد ذي أبعاد كفاحية سياسية ، تسهم في رحلة العودة لفلسطين .

ورغم أن جذور هذا المحور تعود لاعلان الكفاح المسلح الفلسطيني عام ١٩٦٥ ، الا أن حرب ١٩٦٧ وسقوط بقية فلسطين (غزة ، والضفة الغربية

والقدس) في قبضة « اسرائيل » ترك الأثر الأكبر في اشعال فتيل الثورة الفلسطينية المعاصرة . وخلال سنوات الكفاح الفلسطيني ، بدءا بمعركة الكرامة عام ١٩٦٨ ، ومرورا بمعارك الجنوب اللبناني ضد « اسرائيل » ، استطاعت منظمة التحرير الفلسطينية أن تحول قضية اللاجئين الى قضية شعب (داخل وخارج الاراضي المحتلة) يسعى لنيل حقه في تقرير المصير . وبهذا دخل المجتمع الفلسطيني دائرة العودة الى خارطة العالم السياسية . فالبناء الاجتماعي المتماسك ، ودور الاسرة ، وأهمية العمل ، والتعليم ، والعلاقة مع الارض ، تحولوا جميعا الى فعل سياسي ذي أبعاد نضالية تحررية . فاصبح المجتمع المرتبط بنفسه ، وتاريخه ، وأرضه ، مضطرا للحفاظ على وجوده عن طريق بناء مؤسسات ، ومنظمات ، واقتصاد ، وجيش ومراكز بحث ، وادارات . أي أصبح ذلك المجتمع غير قادر على التعبير عن ديمومته بدون بناء المؤسسات والبنى التي تعينه في الوصول الى دولة خاصة به على أرضه .

وقد مرت الحركة الوطنية الفلسطينية ـ بمختلف مراحلها ـ بالكثير من النكبات . واصطدمت العلاقة بين منطق الثورة الساعية لعبور الحدود باتجاه فلسطين ، ومنطق الدولة المحاذية « لاسرائيل » ، التي تمتلك حسابات خاصة حول اولويات الصراع ومقدرتها عليه ، وهكذا دخلت حركة التحرر الفلسطينية المتبلورة في الشتات ، في صدامات ومعارك جانبية دامية استنزفت جزءا هائلا من قواها .

من المنفى الى الارض :

وبينما استمرت نضالات الشعب الفلسطيني ، خارج وداخل الارض المحتلة ، تصاعدت محاولات تهويد الارض المحتلة ١٩٦٧ ومصادرتها ، (٤٠٪ من الارض أصبحت مملوكة للاستيطان الاسرائيلي) وانشاء عشرات المستعمرات الجديدة ، ومد شبكة الاتصال والطرق المرتبطة بالاحتلال ، وربط اقتصاد الارض المحتلة باقتصاد « اسرائيل » ، وقمع صوت الحركة الوطنية الفلسطينية بالداخل .

ولكن ، وهنا تكمن الثنائية التاريخية المهمة . فبينما سعت « اسرائيل » لابتلاع بقية فلسطين عبر موجة استيطانية جديدة في الضفة الغربية والقدس وغزة ، وقفت عاجزة عن هضم النتائج السياسية لاعمالها ، ففي غمرة التركيز على الضم والتهويد والالحاق في الضفة الغربية والقدس وغزة ، حولت « اسرائيل »العقل الفلسطيني المقاوم الى واقع ترتسم ملامحه المستقبلية داخل أحشاء الكيان الاسرائيلي عوضا عن أن ترسم على حدوده الشمالية حيث يسهل الانقضاض عليها بين الحين والآخر . وكما هو حال الحركة الصهيونية ، التي ربطت المستعمرة بالاقتصاد ، والايديولوجية بالزراعة ، تربط الحركة الفلسطينية في الداخل ، بنجاح واضح ، بين الفكر والممارسة ، بين الارض والاقتصاد . فالمسرح (مثل مسرح الحكواتي وغيره) ، وفرق الغناء الوطني والصحافة ، ومراكز البحث ، والمستشفيات ، والجامعات والمدارس ، والنقابات ، والمنظمات ، والمساجد ، وأشكال العمل التطوعي ، جميعها متجذرة بواقع السكان وحاجاتهم المرتبطة بالمشروع البديل للاحتلال . وعلى مدى السنوات القاسية وعبر الصمود في البيت ، والحقل ، والمصنع ، تعلم الفلسطينيون كيف يعملون في مصنع العدو ويواجهونه . وكيف يزرعون الارض ليعززوا الصمود . وكيف يبنون مؤسسة ، وناديا ، وجمعية ، ونقابة ، وتنظيما ، وجامعة ، تعمل جميعها تحت الاحتلال وتقاومه . هذا النمو الصامت الفاعل ، يمتد ويتشكل ، ليتداخل مع كل مشكلات الانسان المضطهد الذي يقبع تحت الاحتلال .

لقد أدى هذا الوضع القائم بداخل الارض المحتلة عام ١٩٦٧ ، والتداخل مع تعثر تجربة الكفاح الفلسطيني بالخارج ، حيث المخيم المحاصر ، والمنظمة الملاحقة ، والشعب المنفي ، الى احتقان الوضع الفلسطيني في الداخل وبداية الانتفاضة العارمة المنطلقة في ٩ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٧ . فالاعوام من ١٩٨٢ الى ١٩٨٧ ، والتي تلت غزو « اسرائيل » للبنان ، وما رافقها من مجازر

وانقسامات وشتات جديد ، وضعت الفلسطينيين في وضع هو أقرب لخيام الهزيمة التي نصبت لهم قبل أربعين عاما . وهكذا جاء هبوط ما بعد ١٩٨٢ بعد مرحلة طويلة من ارتفاع الآمال (في الاعوام ١٩٦٨ - ١٩٨٢) ليخلق أرضية أساسية لانتفاضة الفلسطينيين الكبرى على الاحتلال .

الانتفاضة : مرحلة تاريخية مهمة :

لقد ادخلت انتفاضة الأرض المحتلة الصدام التاريخي ، بين المشروع التهويدي الالحاقي والمشروع الفلسطيني الاستقلالي ، مرحلة استقطاب وصراع جديدين . فكما أرست معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ بداية علاقة جديدة ، بين الشعب المشتت من أرضه والصهيونية المستوطنة للارض (أساسها العنف المسلح القادم من الشتات) ، أرست الانتفاضة الفلسطينية بداية علاقة جديدة ، أساسها المواجهة بين قوة الاحتلال المدججة بالحديد والسلاح ، وقوة الشعب المحصنة بالايمان والانتماء . وبهذا التشكيل الجديد للعلاقة بين سلطان السلاح وسلطان الايمان ، قطعت فلسطين أشواطا مهمة من المسافة الواقعة بين الاستعباد والتحرر . فمنذ اللحظة التي أقام الفلسطينيون متاريسهم الجماعية الاولى ، ورأوا كيف يتقهقر الاحتلال لدقائق أو لساعات أمام حجارتهم ، اكتشفوا لانفسهم وجودا جماعيا جديدا ، وقوة كامنة مصدرها وعيهم لآفاقها وامكاناتها . فامسكوا حلقة مهمة في لحظة تاريخية نادرة ، ليعيدوا عبرها تشكيل روح المجتمع الفلسطيني والعربي برمته . لقد حطموا اغلالا مكونة من الخوف والرهبة ، وكسروا حواجز أقامها لنا العدو في قلوبنا . لقد بدأوا برسم ألوان لحياة مستقبلية فلسطينية - عربية جديرة بهم .

إن فلسطينيي الأرض المحتلة الذين أعادوا للتحرر الفلسطيني نبضه ، المتصدرين لمهمة حل ازمة الثورة الفلسطينية المعاصرة ، والمستندين على بنية اجتماعية مؤثرة ، هم أكثر الفلسطينيين وعيا باشكال العمل النضالي الفعالة . لقد تعلموا الكثير على مدى العشرين عاما الماضية . إنهم الاكثر معرفة بالعدو لذا فانهم لايخشونه . وبينما هم ، الاعلم ، من بين كل الفلسطينيين بنقاط ضعف منظمة التحرير الفلسطينية ، هم الاكثر تمسكا وارتباطا بشرعيتها ، فهم الاعلم بان جسر تقرير المصير والدولة الفلسطينية لايمكن أن يمر الا عبر تنميتهم ومساهمتهم بالكيان الفلسطيني المتكامل الاطراف والفارض للمسألة الفلسطينية كقضية شعب موحد بالداخل والخارج . فلا تحرر من دون اداة وطنية للنضال ، تترجم الاضراب ، والعصيان والثورة ، الى لغة تحررية عربية عالمية الابعاد .

آفاق جديدة

على مدى أربعين عاما قطعت مسيرة الفلسطينيين من أجل البقاء أشواطا كثيرة . ومن الانتكاسات والهزائم خرجت الموجات الفلسطينية المكافحة للصهيونية . ففي البداية كان اللجوء ، ثم الرد على اللجوء بالسعي للحفاظ على التماسك المجتمعي واحياء الذاكرة الخصبة . ثم جاءت موجة التحرر الوطني والكيانية الفلسطينية التي جمعت الفلسطينيين حول ممثل شرعي هو الأول لهم منذ اقتلاع ١٩٤٨ .

وقد واجهت الحركة الوطنية الفلسطينية نكسات ومآزق كبرى . ولكنها ونتيجة لانتفاضة الارض المحتلة التاريخية ، اكتسبت بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بعدا جديدا وآفاقا مهمة ، أساسها انتقال مركز ثقل الحركة الوطنية الفلسطينية الى الارض المحتلة ، أي الى داخل احشاء الكيان المحتل .

ان قصة الفلسطينيين التاريخية ، التي بدأت مع أواخر القرن التاسع عشر ، هي قصة الحرمان من تقرير المصير . هذا الحرمان المرتبط بالاقتلاع والسحق والمعاناة ، قد شحن العاطفة ، والذاكرة والارادة وخلق جدلا فلسطينيا خاصا بالصراع .

فأينما تكون « اسرائيل » فإن فلسطين تسعى لاثبات حضورها . وحيث يرفع العدو علمه يرفع الفلسطينيون أعلامهم . وأمام ارادته تنمو اراداتهم . إن صهيونيته تثبت فلسطينيتهم وعنصريته عمقت عروبتهم . □

الجيل الفلسطيني الجديد تحت الاحتلال

بقلم : توفيق أبوبكر

الانتفاضة الوطنية واسعة النطاق التى قام بها الجيل الفلسطيني الجديد ، وفاجأ بها الاحتلال والعالم بأسره تستدعى التعرف بعمق على خصائص هذا الجيل الذي ولد في ظل الاحتلال : كيف يفكر ، وكيف يتصرف ، وما مدى استعداده لتحمل المسئولية ؟ .

لقد فتح هذا الجيل عينيه بعد حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧م على الجنود الأغراب المدججين بالسلاح ، وهم يجوبون مدنه وقراه ، باختيال وعنصرية ، ينصبون الحواجز ، ويعتقلون العشرات ، ثم ينطلقون بسياراتهم العسكرية إلى مواقعهم الحصينة وقواعدهم ، وكبر هذا الجيل على الوعود العربية بالزحف المقدس الذي لم يأت بعد ، وسمعوا من آبائهم كيف انتظروا المارد العربي الجبار ، بعد النكبة الأولى ، وبعد الخروج الكبير عام ١٩٤٨ ، وكيف تركت ربات البيوت في مدن فلسطين وقراها كل شيء على حاله في المنزل ، على أمل العودة ، بين عشية وضحاها ، كما تقول كل الاذاعات العربية التي لايمكن أن تتفق جميعها مرة واحدة ، على قول ما لا يمكن (وما لايريدون) تنفيذه .

سمع الفتيان تلك الحكايات المرة كالعلقم من آبائهم ، واختزنوها في ذاكرتهم ، ولما كبروا رأوا أن التاريخ يوشك أن يعيد نفسه معهم ، فقرروا ألا ينتظروا الفرج من الخارج ، وقرروا أن يحملوا العبء على أكتافهم .

تقول الطالبة حميدة من جامعة بير زيت : « لقد فهمنا في وقت مبكر أنه إذا أردنا تحرير وطننا فلا بد أن نضحي بأنفسنا . معظم رفاقي دخلوا السجن ، ولم يعد ذلك يرهبهم » وفي ندوة عقدت بالعاصمة الأردنية في ديسمبر ١٩٨٦م ، بدعوة من منتدى الفكر العربي وجامعة القدس المفتوحة ، قدم د . منذر صلاح رئيس جامعة النجاح الوطنية الذي أبعدته سلطات الاحتلال ، بحثا عن التعليم في

الأراضي المحتلة . وفي النقاش الذي أعقب المحاضرة قال د . صلاح « إن الجامعة كانت تعفي الطلاب الذين دخلوا السجون أثناء دراستهم الثانوية من الأقساط الجامعية ، وتبين أنه لا بد من تنظيم دقيق لهذه العملية ، إذ أن أكثر من نصف الطلاب سبق لهم أن دخلوا سجون الاحتلال فترات متفاوتة » .

ولذلك ، وحتى تصبح شخصية طلابية قيادية ، لايكفي أن تحمل كل صفات القائد الطلابي المتعارف عليها في الجامعات ، بل لا بد أن يكون لك رصيد آخر ، وهو قضاء بضع سنوات في زنزانات الاحتلال الصهيوني وسجونه حتى تقبل بك جموع الطلاب والطالبات قائدا نقابيا .

شروط القياديين

والاستفتاء الشهير الذي أجرته صحيفة الفجر المقدسية وشبكة التلفاز الاسترالي ، وإحدى الصحف الأمريكية ، وأشرف عليه د . محمد شديد ، من جامعة النجاح في آب ١٩٨٦م ، يوضح الحجم الهائل للثمن المباشر الذي يدفعه السكان في الداخل الذين قرروا حمل العبء منفردين ، لمقاومة الاحتلال . وقد كان السؤال الخامس والعشرون الذي طرحه الاستفتاء على عينة من ١١٠٠ شخص ، من مختلف المدن والقرى والمخيمات في الضفة الغربية ، ومن مختلف الشرائح الاجتماعية . هو : هل تعرضت أنت أو أحد أفراد أسرتك لأي من الاجراءات التالية :ـ

١ ـ اعتقال سياسي : ٤٧,٥ ٪
٢ ـ ضرب أو معاناة جسدية أو تهديد من قبل السلطات « الاسرائيلية » : ٥٠,٧ ٪
٣ ـ منع السفر : ٣٤,١ ٪
٤ ـ إبعاد أو إقامة جبرية : ١٥,٧ ٪
٥ ـ مضايقات أو إهانات مباشرة على الحواجز : ٥٥,٧ ٪
٦ ـ منع التجول : ٧٤,٢ ٪
٧ ـ هدم أو إغلاق منازل : ١٧,٦ ٪
٨ ـ غرامات مالية : ٣٧,٦ ٪
٩ ـ مصادرة أراض أو أملاك من قبل السلطات « الاسرائيلية » : ٢٢,٨ ٪
١٠ ـ لم أتعرض لأي إجراء : ٦,٣ ٪

لو قرر السكان ـ والجيل الجديد هو طليعتهم القيادية ـ أن ينتظروا عملا من الخارج ، لتحرير أرضهم وإرادتهم ، لما كانوا مضطرين لمثل هذه المقاومة العنيدة التي دفعت الغالبية الساحقة منهم ثمنا مباشرا لها ، كما أوضحت نتائج الاستطلاع التي وردت في السؤال السابق ، وبخاصة أن الاحتلال كان مستعدا لو ابتعد الناس عن مثل هذه المقاومة أن يكون معهم « ليبراليا » إلى أقصى الحدود ، للتباهي بالصورة « الديمقراطية » المخادعة « لاسرائيل » أمام العالم ، وكذلك من أجل دفع بروز قيادات جديدة شابة ، تتعامل مع الواقع الجديد ، وتذعن لمعطياته ، وتقبل بالأمر الواقع .

اتساع الهوة

وقد كان بعض الاستراتيجيين في الكيان « الاسرائيلي » يراهنون طول الوقت خلال السنوات العشرين الماضية أن يكون الجيل الجديد الذي عاش في رحاب الاحتلال أكثر واقعية ، (بالمعنى « الاسرائيلي » لهذا التعبير) ، وأن يقبل التفاوض والتعايش بالشروط « الاسرائيلية » ، وقد أوضحت حقائق الحياة أن شيئا من تلك النبوءات لم يتحقق .

تقول احدى الاعضاء في هيئة الحقوق المدنية في « اسرائيل » : « خلال عشرين سنة نما جيل (فلسطين الاحتلال) ، وجيل (يهود الاحتلال) ، والنتيجة مذهلة عند الطرفين ، إذ تزداد الهوة اتساعا مع مرور الزمن » .

هذا الجيل الجديد ليس جيل الشعارات الكبيرة التي تميز بها تاريخ الحركة الوطنية السابق ، بل هو جيل عرف ثغرات عدوه ، وحاول خوض معاركه للنفاذ من هذه الثغرات .

وأهم الثغرات التي بات الجيل الفلسطيني الجديد في الأرض المحتلة يركز عليها هي (الأزمة التي تعيشها « اسرائيل ») ، أقصد الأزمة المستقبلية

المتعلقة بمخاطر التوازن السكاني « الديمغرافي » ، فالفلسفة الأساسية الصهيونية التي حاولت تسويقها لدول العالم ، هي ضرورة بناء دولة خاصة لليهود : « دولة يهودية صافية لايلوثها الغرباء » .

كان يقول عنها هرتزل ، مؤسس الصهيونية السياسية : « دولة يهودية مثلها فرنسا فرنسية وكنتاكي أمريكية » لكن استمرار الاحتلال لأكثر من مليون ونصف مليون فلسطيني ، يتكاثرون بمعدل ضعف التكاثر اليهودي ، إضافة لسبعمائة ألف فلسطيني مزروعين في المثلث والجليل والنقب داخل الكيان « الاسرائيلي » ، فكل ذلك يهدد يهودية الدولة مع نهاية هذا القرن ، وبخاصة مع ازدياد منسوب الهجرة المعاكسة (النزوح من اسرائيل) . ومع نضوب منابع الهجرة اليهودية لفلسطين المحتلة ، نضوبا لا يكاد يكون كاملا ، باستثناء بضع مئات يفدون من الاتحاد السوفيتي ، ومن الدول الأوروبية .

الأزمة في نظر الجيل الجديد

الجيل الفلسطيني الجديد يعرف جيدا هذه الأزمة العامة التي تعيشها « اسرائيل » ، فقد تحدثوا عنها جميعا بمناسبة مرور عشرين عاما على الاحتلال ، ولذلك يصعد نضالاته مستشرفا آفاق المستقبل بالكثير من الطمأنينة ، إذ ليس أمام الأعداء في نهاية المطاف إلا التسليم بالانسحاب ، أو ضم هذه المناطق وإعطاء السكان الجنسية « الاسرائيلية » ، لتصبح الدولة دولة ثنائية القومية ، وهو أبعد ما يكون عن دولة يهودية ، كما أرادها الآباء المؤسسون الأوائل ، أما الاحتمال الثالث وهو طرد العرب الفلسطينيين من أراضيهم ، فهو احتمال أمامه صعوبات لا حصر لها ، فإبعاد أربعة مناضلين في يناير الماضي دعا مجلس الأمن للاجتماع ، وأحدث ضجة دولية واسعة . فكيف سيكون الأمر مع ابعاد مئات الآلاف من وطنهم ؟!

هذا احتمال لم يعد ممكنا ، طالما أنه لم يتم عشية حرب حزيران ١٩٦٧م . فالمأزق الديمقراطي سيحول « اسرائيل » لنموذج جنوب افريقيا في المستقبل القريب ، بل إن الانتفاضة الوطنية المجيدة قد أظهرت تلك الدولة العبرية بشكل صريح مكشوف ، وكأنها النموذج الأكثر عنفا من نموذج جنوب افريقيا .

يقول المفكر « الاسرائيلي » « عيدي تسيمح » : « الآن يولد في البلاد عرب أكثر من اليهود ، وفي غضون ثلاثين عاما ستصبح مثل جنوب افريقيا ، حيث تكون هناك أكثرية عربية ساحقة ، لقد قال موشي أرينز أنه مستعد لمنح سكان المناطق الجنسية « الاسرائيلية » ، وهذا يعني تسليم تل أبيب وبيت ألفا وصناعة الطيران إلى أيدي العرب . إن غباء سياسيينا يكمن في أنهم لايعرفون أن هناك مشكلة على بعد دقيقتين ، ولا يفقهون شيئا في ديناميكية الزمن » .

لكن شموخ الانتفاضة الوطنية الباسلة وعظمتها أنها اختصرت الثلاثين عاما التي تحدث عنها المفكر « تسيمح » ، وجرت المشكلة التي هي على بعد دقيقتين ، لتصبح مشكلة راهنة ، وتصبح « اسرائيل » في نظر العالم كله وفي نظر الرأي العام العالمي « جنوب افريقيا » جديدة ، كما تكتب كل يوم غالبية صحف العالم في القارات الخمس .
شمعون بيريز يصف الادانة الدولية الكاملة للكيان « الاسرائيلي » ، من خلال صور التلفاز للقمع الصهيوني لأطفال الحجارة ، ويقول بحسرة وألم .

« لقد انتصر التلفاز على الدبابة » ، لكن في الحقيقة أن إرادة الانسان العربي في فلسطين هي التي انتصرت على « اسبارطة » المسلحة بالتقنية الامريكية حتى الأسنان . تقول المحامية الاسرائيلية فيليسيا لانجر في كتابها (رجال الحجارة) :

« في آخر القرن العشرين زمن لا يعقل أن يظل فيه بروميثيوس راسخا في القيد ، بل لعل هذا هو الاستنتاج الأساسي لدروس الحجارة التي تقصم ظهر آخر القلاع العنصرية في عالمنا المعاصر . □□

الأقليات اليهودية
وظهور الرأسمالية في العالم

بقلم : الدكتور عبدالوهاب المسيري

لم يكن ليهود أوروبا وجود متجذر في المجتمعات التي عاشوا فيها ، بل كان وجوداً عائماً ، يعيش على الإختلافات بينها . وعندما تحولت المجتمعات الأوروبية إلى المرحلة الرأسمالية كان للمال اليهودي دور خاص يلقي عليه الكاتب بعضاً من الضوء .

يمكن القول بشكل عام أن يهود العالم العربي والإسلامي لم يلعبوا دورا اقتصاديا متميزا ، ولم يضطلعوا بوظائف اقتصادية خاصة مقصورة عليهم دون بقية أعضاء المجتمع ، ولذا فإنهم لم يلعبوا دوراً خاصاً أو متميزاً في نشأة الرأسمالية أو في المشروعات الرأسمالية الحرة في العالم العربي الإسلامي ، خاصة أن البلاد العربية والإسلامية التي أست نظاما اقتصاديا يتبع نموذج الاقتصاد الحر (مثل تركيا ودول الخليج ولبنان) لم يكن فيها أقليات يهودية كبيرة ، وحتى حين وجدت ، كما هو الحال في المغرب ، فهي لم تسهم بشكل خاص في تاريخ المغرب الاقتصادي . هذا التعميم لاينفي بطبيعة الحال وجود أي شكل من أشكال التميز بين الأقلية اليهودية والأغلبية ، فهذا ضد طبيعة الأشياء .

سومبارت وفيبر

لكن الوضع في العالم الغربي يختلف بشكل جوهري . ويرى العالم الألماني فرنر سومبارت (١٨٦٣ - ١٩٤١) ان ثمة علاقة قوية بين أعضاء الطوائف اليهودية في الغرب (خاصة يهود المارانو) ، وظهور الرأسمالية وتطورها . ويقدم سومبارت أطروحته في مقابل أطروحة ماكس فيبر .

فقد وصف فيبر اليهودية القديمة بأنها كانت ديانة فريدة في العالم القديم لعقلانيتها وعدم تأكيدها لأهمية السحر أو الأسطورة ولتوجهها الدنيوي (في مقابل الديانات الشرقية الأخرى) . وبتأكيد تحكم الإنسان في مصيره وبيئته . وكل الصفات الآنفة تبين أن اليهود قد ظهرت بينهم روح الإنجاز . ويرى فيبر أن ثمة علاقة واضحة بين روح الإنجاز وإحساس

الإنسان بالتحكم في مصيره وبيئته من جهة وتوجهه نحو المستقبل من جهة أخرى . وهي أحد العناصر الأساسية التي تؤدي إلى التراكم وظهور الرأسمالية ، ومع هذا لم يجد فيبر سوى علاقة واهية غير مباشرة بين الأخلاق اليهودية وروح الرأسمالية (ثم كتب دراسته الشهيرة عن علاقة الأخلاق البروتستانتية بروح الرأسمالية التي طرح فيها تصوره للعلاقة الوثيقة بينهما) .

يرى سومبارت ، على عكس فيبر ، أن الأخلاق اليهودية أكثر علاقة بالرأسمالية من البروتستانتية . فاليهودية لاتحرم التجارة وإنما قامت بتنظيمها ، بل وتشجيعها وقد أبدت اهتماما خاصا بالأعمال المالية من أجل تحقيق الربح . ولا يوجد في اليهودية أخلاقيات أخروية أو غير دنيوية ، ولا تشجع على الزهد (ويمكن أن أضيف أن عدم استقرار فكرة البعث في اليهودية والفكر الأخروي بشكل عام قد شجع الاتجاهات الدنيوية) . وتشجع اليهودية الاعتدال والتحكم في الذات ، والتعبير عن العواطف والدوافع من خلال قنوات معترف بها دينيا ، مما كان يعني في واقع الأمر تحويل طاقات حيوية هائلة للنشاطات الاقتصادية (ماهو في الواقع تحقيق الربح ؟ ليس الترشيد الاقتصادي سوى تطبيق تلك القواعد التي صاغت الديانة اليهودية من خلالها حياة اليهود على النشاطات الاقتصادية ، كما قال سومبارت) .

ويمكن أن نضيف أن اليهودية قدحرمت الاقراض بالربا بين اليهود ولكنها أحلته بين اليهودي وغير اليهودي مما فتح الباب على مصراعيه لليهود للاشتغال بالأعمال المالية . وبتراكم رأس المال (وقد رأى سومبارت هذه الأخلاق على أنها ذات « روح سامية » في مقابل الروح الآرية ، ولذا استفاد النازيون من كتاباته) .

وأطروحة سومبارت متطرفة بسبب عموميتها ، فهو يحاول أن يفسر تجربة الأقليات اليهودية الاقتصادية في الغرب استنادا للنسق الديني . وهو نسق يحتوي كل العناصر التي أشار إليها ، ولكنه يحتوي أيضا على عكسها . فاليهودية ، خاصة في كتب الأنبياء تحتوي على أخلاقيات اشتراكية متطرفة ـ إن صح التعبير ـ كما أن مفهوم اليوبيل الخاص بتوزيع كل الأراضي كل خمسين عاما يمنع أي تراكم للثروة إن طبق . وتعطي اليهودية الحاخامية مرتبة دنيا للتجارة ، فالشخصية الأساسية في الجيتو لم يكن التاجر وإنما كان العالم التلمودي الذي يدرس التوراة . ولو كان النسق الفكري الديني هو الذي يفسر الدور الاقتصادي لكان دور يهود الاقطار العربية يشبه دور يهود وسط أوروبا في القرن التاسع عشر . ولكن الأمر عكس ذلك تماما .

ولكن مع هذا ثمة عنصرا من الصحة في أطروحة سومبارت . فالنسق الديني اليهودي (في صياغته الأولى ثم في صياغاته التلمودية) يخلق ترابطا اختياريا بين اليهودية والرأسمالية لايمكن إنكاره ، وهو ترابط يخلق تربة خصبة يمكن للرأسمالية كأخلاق وكنسق أن تنمو فيها . ولكن لعل العنصر الحاسم في تحديد العلاقة بين أعضاء الطوائف في أوروبا وظهور الرأسمالية هو علاقتهم بالمجتمع الغربي ودورهم فيه . وأهم سمات هذه العلاقة هي أن موقع اليهودي ظل خارج علاقات المجتمع الاقطاعي الاقتصادية والدينية والأخلاقية ، فكان شخصا غريبا بمعنى الكلمة فقد كان يهوديا في مجتمع مسيحي ، وعضوا في طبقة وسيطة لاتنتمي لا للمستغلين ولا للمستغلين .

وقد اضطلع أعضاء الطوائف حتى بداية عصر الثورة التجارية ، بدور تجاري هام رغم هامشيته فكانوا يقومون بنقل الفائض الزراعي والسلع الترفية ، ويؤدون وظائف مالية وتجارية مختلفة في غاية الحيوية للمجتمع الإقطاعي ومع هذا فهي لاتقع في صميم العلاقات الإنتاجية لهذا المجتمع ، ولم يكن بوسع بقية أعضاء المجتمع القيام بها . وقد كان يتم « التسامح » تجاه اليهود طالما أن المجتمع كان في حاجة لهم ، ولكنهم لم يعطوا قط حقوقاً قانونية محددة مثل حقوق وواجبات أهل الذمة في الإسلام . وكانت تصدر مواثيق خاصة تؤمن حقوقهم وتحدد واجباتهم

ومقدار الضرائب المفروضة عليهم وأماكن إقامتهم . وكانت هذه المواثيق تلغى في أي وقت تنتفي فيه الحاجة لليهود أو لدورهم الاقتصادي ، فكان بالتالي يتم طردهم . وكان يشار لليهود على أنهم « أقنان بلاط » ، أي أنهم كانوا خاضعين للملك أو الامبراطور مباشرة بل ويعدون ملكية خاصة له يدينون له وحده بالولاء الأمر الذي حقق لهم قسطا كبيرا من حرية الحركة ، ولكن زاد من عزلتهم عن بقية قطاعات المجتمع .

الحركي والثابت

وقد نتج عن ذلك أن وجود اليهود في الحضارة الغربية كان يتسم بعدم التجذر أو الإنتماء الكامل لأي تشكيل ثقافي أو طبقي محدد فتحولوا إلى عنصر بشري دينامي يحتفظ برأسماله على هيئة نقود سائلة يمكن نقلها بسهولة من مكان لآخر . وقد دعم من هذا الاتجاه أنه كان لايسمح لليهود في معظم الأحوال بشراء العقارات الثابتة .

إن اليهود لغربتهم وعدم تجذرهم وبسبب الطبيعة السائلة لثروتهم تحولوا إلى عنصر بشري متحرك موضوعي ومجرد ، موضوعي لأنه ينظر له دائما من الخارج ، ومجرد لأنه لا يوجد داخل سياق محدد ، وأصبح أعضاء الطائفة يجسدون ضربا من الاقتصاد الحركي المجرد داخل الاقتصاد الزراعي الثابت الطبيعي ، وقد وصل هذا التجريد إلى قمته في التنظيم الكامل لعلاقة اليهود بالمجتمع ، وفي احلال العلاقات القانونية التعاقدية محل العلاقات التقليدية الشخصية المبنية على كلمة الشرف والثقة التي كانت سائدة في المجتمع الاقطاعي . فكانت المواثيق التي تمنح لليهود تحاول أن تنظم كل جوانب العلاقات الممكنة بين المجتمع المسيحي وأعضاء الطائفة ، وهي علاقة كان الهدف منها ، بالنسبة للطرفين ، الربح الاقتصادي المحض . وفكرة القانون اللاشخصي وتموضع العلاقات البشرية (علاقات إنسانية بين أشياء وعلاقات إنتاج بين بشر) هو الجوهر النفعي للاقتصاد والمجتمع الرأسماليين .

لكن هذا ، أي عدم انتماء اليهود وتموضعهم وتجريدهم ، إلى جانب وجود التبادل الاختياري بين اليهودية والرأسمالية تحول أعضاء الطائفة الى الخميرة التي ساعدت على نشوء الرأسمالية ، دون أن يكونوا بالضرورة السبب الوحيد أو حتى الأساسي في العملية التاريخية المركبة التي أدت الى ظهور الرأسمالية .

ويظهر دور أعضاء الأقليات اليهودية كخميرة للنظام الرأسمالي في الغرب في كثير من النشاطات التي لعبوها وفي إبداعاتهم ، فهم كانوا من أوائل من طوروا فكرة الأسهم والسندات التي تحقق تراكما رأسماليا يمكن توجيهه لأي مجال استثماري قد يظهر ؛ أي انهم أسرعوا بعملية تجريد النقود بفصلها عن الأفراد وعن الرغبات البشرية والعواطف والأخلاق ، وزادوا من كفاءتها كرأسمال ، وجعلوا مقياس الكفاءة الذي يطبق عليها هو معدل الربحية وحسب .

واليهودي الذي تم استبعاده من النظام الإقطاعي كان يقع خارج نطاق قيم المجتمع الدينية والأخلاقية ، كما أن قيمه التجارية الموضوعية المجردة كانت مختلفة عن القيم المسيحية التي كانت تنظر بعين الشك للنشاط التجاري ككل وللربا على وجه الخصوص ، وتهدف إلى أن تجعل من السوق مكانا يلتزم بالحد الأدنى من الأخلاق ، وبأفكار مثل فكرة الثمن العادل والأجر الكافي ، وضرورة إتاحة الفرصة لكل التجار لتحقيق ربح معقول مع وضع حد أقصى للأرباح ، وقد أدت هذه الأخلاقيات (المختلفة من منظور رأسمالي دنيوي) التي تخلط بين الاقتصاد والأخلاق إلى الحد من دينامية التجارة . أما العنصر اليهودي فلم يكن يدين بالولاء لمثل هذه الأخلاقيات ولذا لعب دوراً أساسيا في تحطيمها وفي تقويض دعائم هذا الضرب من الاقتصاد المحافظ الذي تتداخل فيه العناصر الاقتصادية بالعناصر الأخلاقية والدينية . فأسهم أعضاء الطائفة في عملية العلمنة والترشيد ، أي فصل العنصر الاقتصادي عن العناصر الأخرى ، بحيث ظهر اقتصاد تجاري مبني على التنافس،وعلى محاولة تعظيم الربح ويطرح فكرة

إشباع حاجات المستهلك والاستيلاء على نقوده كمثل أعلى .

كما كان أعضاء الطائفة ـ بسبب عدم انتمائهم ـ من أكثر العناصر حركية والتزاما بقوانين السوق الاقتصادية كقيمة مطلقة . فنجد أنهم حاولوا دائما أن يوسعوا من نطاق السوق ومن انتشاره (وهي العملية التي انتهت إلى تحويل المجتمع بأسره إلى النمط الرأسمالي والتي أطلق عليها ماركس عملية « تهويد المجتمع ») . فكانوا دائما يبحثون عن أسواق جديدة وعن زبائن جدد وعن سلع جديدة ، كما انهم كانوا على استعداد لأن ينتجوا سلعا أقل جودة وأقل تكلفة عما كان ينتجه الحرفي أو التاجر في العصر الوسيط الذي كان يعتز بحرفته وتجارته ، وتعود على انتاج سلعة بعينها يرقى بها إلى مستوى معين من الجودة . لايمكنه أن يتنازل عنه أو يتهاون فيه ، فحرفته كانت جزءاً من ميراثه الشخصي .

بشر عابرون للقارات

ولعل من العناصر الأساسية التي جعلت من اليهود خميرة للنظام الرأسمالي أنهم كانوا عنصرا بشريا « عابرا للقارات » إن صح التعبير ، فكان يهود بولنده على علاقات تجارية ومالية وثيقة مع يهود ألمانيا ، ومع يهود الشرق ، وهكذا . وقد أسهم هذا في تسهيل عملية التجارة الدولية وتوسيع نطاق السوق . كما أنه سهل عملية جمع المعلومات التجارية ، مما جعلهم قادرين على المنافسة .

وقد لعب يهود شرق أوروبا (بولنده) دورا خاصاً . فالباعة اليهود ، وكذا اليهود الذين كانوا يقومون بأعمال الفنادق الصغيرة وتقطير الكحول وتربية الماشية في المناطق الريفية وجمع الضرائب (الأرندة) لحساب كبار الملاك ، ساعدوا على إدخال عناصر التبادل واقتصاد المال . وكان نشاط صغار التجار اليهود في المناطق الريفية يشجع انتاج فائض زراعي لزيادة استهلاك البضائع غير الزراعية ، كما كان يسهم في إبعاد جزء من قوة العمل الزراعي عن الأراضي ، وتوجيهها إلى صناعة الأكواخ المنزلية وخدمات النقل ، وهذا النشاط هو الذي ساعد على خلق قوة عمل غير زراعي في المناطق الريفية تعتمد على الأجور أكثر من اعتمادها على العائد من الأرض .

وبظهور النظرية المركنتيلية زاد الدور الذي يلعبه اليهود داخل النظام الرأسمالي . فهذه النظرية تجعل من « مصلحة الدولة » المبدأ المقبول لدى الجميع بحيث يتم الحكم على الإنسان لا حسب انتمائه الديني وإنما بمدى نفعه للدولة . وقد ظهرت في هذه الفترة فكرة مدى نفع اليهود وفتح المجال أمامهم للاسهام في جميع النشاطات الاقتصادية . وابتداء من منتصف القرن السابع عشر استعان الملوك والأمراء في وسط أوروبا ـ في ألمانيا وغيرها من الدول ـ باليهود في كثير من النشاطات الاقتصادية مثل التجارة الدولية ، وتمويل الجيوش وعقد القروض والصفقات .

لكل ماتقدم نجد أن تاريخ الطوائف اليهودية في الغرب مرتبط بتاريخ الرأسمالية في كثير من الوجوه . ومن الملاحظ أن كثيرا من الدول التي كانت لها مشاريع تجارية أو استعمارية كانت ترى أن العنصر اليهودي عنصر أساسي في هذه العملية ، ويمكن الاستفادة من خبراته ورأسماله ، ويمكن توظيفه في أماكن نائية وجديدة ، فهو عنصر مجرد دينامي . وقد تم توطين اليهود في بولنده في القرن الرابع عشر (مع التجار الألمان) لتشجيع الاقتصاد التجاري ، ثم تم توطينهم في أوكرانيا بعد ضمها إلى بولنده لنفس السبب . كما تم توطين اليهود في كثير من المستعمرات الاستيطانية والمراكز التجارية التابعة لانجلترا وهولنده في العالم الجديد .

وقد رحب كرومويل بتوطين اليهود في انجلترا حتى ينعشوا الاقتصاد الانجليزي وحتى يكونوا جواسيس له يأتون له بالمعلومات التجارية . وسمحت فرنسا ليهود المارانو المطرودين من أسبانيا بالاستيطان في بعض المراكز التجارية الهامة فيها مثل بايون وبوردو . وقد كان توطين اليهود يأخذ عادة النمط التالي : يبدأ توطين اليهود السفارديين بمالهم من خبرات تجارية مالية ورؤوس أموال واتصالات

دولية في الدول الغربية والدولة العثمانية ، ثم يتبعهم في معظم الأحوال جماعات من اليهود الاشكناز الذين بدأوا في الهجرة بعد ثورة شميلنكي .

هذه هي البانوراما العامة للدور الذي لعبه اليهود في تكوين الرأسمالية والاقتصاد التجاري ، ويمكننا الآن أن نترك المرحلة التكوينية لنرى أثر ظهور الرأسمالية على أعضاء الطوائف اليهودية ومقدار إسهامهم في الاقتصاد الرأسمالي ذاته . . وسنلاحظ أن دور يهود غرب أوروبا يختلف عن الدور الذي لعبه يهود وسط أوروبا وشرقها . وهذا يعود إلى معدلات النمو الرأسمالي في هذه البلاد وإلى علاقة اليهود بالمجتمع ككل . ووضعهم فيه ، فهم في فرنسا وانجلترا وهولنده لعبوا دورا ثانويا ، أو لنقل لعبوا دور الجزء في الكل الاقتصادي الأكبر الذي كان قد اكتسب كثيرا من ملامحه الرأسمالية الحديثة في غيبة اليهود ، وكان يتبعه مشروعه الاستعماري الضخم ، ولذا لم يلعبوا سوى دور منشط جزئياً . أما في شرق أوروبا فإن المجتمعات الأوروبية هناك لم تكن متطورة بما فيه الكفاية ، ولم يقدر للرأسمالية (التي نشأت في مرحلة متأخرة) أن تتطور ، ولم يكن لها مشروع استعماري مهم ، وانتهى الأمر بأن حل النمط الاشتراكي في الإنتاج محل النمط الرأسمالي . ولذا تحول اليهود هناك اما إلى طبقة عاملة أو طبقة برجوازية صغيرة لاوظيفة لها ، وكان من بينهم رأسماليون ولكنهم كانوا نسبة صغيرة لاتتجاوز ٢٪ .

أما وسط أوروبا ، وخاصة المانيا ، فقد ظهر فيها النظام الرأسمالي وأخذ يتطور بسرعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتبلور لألمانيا مشروعها الاستعماري الخاص . وكان اليهود يشكلون عنصرا هاما في عملية التطور الرأسمالي هذه . ولكن تم ضرب الرأسمالية الألمانية ومشروعها الاستعماري ثم تحويل المانيا نفسها الى مايشبه المستعمرة بعد اتفاقية فرساي . وحينما عاودت محاولة التصنيع مرة أخرى لم يتم ذلك حسب النمط الرأسمالي الحر ، وإنما تم بتدخل الدولة . وقد راح الرأسمال اليهودي ضحية هذه العملية .

ويتضح تباين معدلات إسهام أعضاء الطائفة في نمو الرأسمالية من بلد لآخر في علاقتهم بالمدن ومدى تركزهم فيها . وظهور المدن وازدياد أهميتها كان يعني أن الوظائف المالية والتجارية الهامشية القديمة أصبحت تحتل المركز . وقد صاحب ذلك تحول في وضع اليهود . فبدلا من كونهم عنصراً بشريا متحركا يحمل رأسمال متحرك ، ويتحرك على أطراف المجتمع تحولوا إلى عنصر بشري يقطن المدينة في داخل المجتمع وليس على هامشه ، لأنهم أصبحوا جزءاً لايتجزأ من الاقتصاد الوطني ، وقد أتاح ظهور الرأسمالية فرصة أمام الرأسمال اليهودي المتحرك في أن يدخل الاقتصاد الجديد بنسبة أعلى من الرأسمال المحلي غير اليهودي الثابت (المستثمر في العقارات والمزارع) . وهو الأمر الذي تم انجازه في انجلترا وفرنسا ثم المانيا . أما في شرق أوروبا فعلى الرغم من أن تركز أعضاء الأقلية اليهودية في المدن قد ازداد ؛ إلا أن سياقه الطبقي كان مختلفا ، إذ أن وجودهم في المدن هو الذي حولهم إلى بروليتاريا .

أما بخصوص علاقة الصهيونية بالرأسمالية فيمكن القول أنها ليست مباشرة ، فالصهيونية ليست جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي وإنما هي جزء من التشكيل الإمبريالي الغربي ، يخدم مصالحه الاستراتيجية تحت ظروف خاصة ، هي ظروف الاستيطان في فلسطين . ولذا ، لم تصر الامبريالية الغربية أو البرجوازية اليهودية الغربية أن يأخذ المشروع الصهيوني شكلا رأسماليا محددا ، وإنما سمحت له أن يأخذ الشكل الاقتصادي المناسب ، الذي يضمن بقاءه حتى يستمر في خدمتها . وقد تم التوصل إلى أن الأشكال الجماعية في الإنتاج هي أنسب الطرق لتنفيذ المشروع الصهيوني الاستيطاني الاحلالي ، ولذا بينما كانت الولايات المتحدة المكارثية تحارب الشيوعية في الولايات المتحدة كان الصهاينة في الخمسينيات يحتفلون بعيد العمال في مايو وينتسبون إلى الدولية الاشتراكية ويتلقون المعونات بسخاء من الحكومات الغربية ومن أعضاء الأقليات في العالم الرأسمالي ، ويقومون على خدمة الإمبريالية ! . □

«اسرائيل» كتهديد نووي

بقلم : أمين هويدي

ليس هناك مايثبت أن « اسرائيل » لاتملك القنبلة النووية ، لذا فاحتمال وجودها واستخدامها في حرب قادمة ضد العرب يبقى واردا .

ولأنه لاتبدو في الأفق نهاية للصراع العربي « الاسرائيلي » فإن تهديد « اسرائيل » النووي يبقى قائما . لكن كيف ؟ وضمن أي الظروف ؟ في هذا المقال محاولة للاجابة .

لايبدو في الأفق أن للصراع العربي « الاسرائيلي » نهاية قريبة ، لأنه لم « يفرغ » بعد من العوامل الحقيقية التي أدت اليه ، ولأن « اسرائيل » في نفس الوقت تعتقد أن « القوة » هي الحل الوحيد لكل مشاكلها ، الأمر الذي يجعلها تستخدم « القوة » بكثافة وهي تمارس السياسة ، سواء على المستوى الاقليمي أو العالمي ، فهي لاتؤمن « بالدبلوماسية » وسيلة من الوسائل لحل التناقضات ، ولاتؤمن بسياسة « الاقناع » ، بل تميل دائما الى تطبيق سياسة « التخويف » ، وبذلك تصاعدت « غرائزها » العدوانية بمرور الزمن ، وخاصة أمام « تقوقع » الارادة العربية وعجزها عن رد العدوان .

هذه العقيدة العدوانية تجعل من « اسرائيل » « حالة خاصة » ، لاتتمشى مع التغير الذي حدث في مفهوم « الصراع » في ظل العصر النووي ، فالتعريف الشائع للصراع هو أنه « تصادم ارادات وقوى بين خصمين أو أكثر ، حيث يكون هدف كل طرف من الأطراف تحطيم الآخر كليا أو جزئيا ، بحيث تحكم ارادته في ارادة الخصم ، ومن ثم يمكنه أن ينهي الصراع بما يحقق أهدافه وأغراضه » ، هذا التعريف لايتمشى أبدا مع التطور الخطير الذي حدث في ممارسة الصراع ، اذ أصبحت الصراعات الاقليمية« صراعات اقليمية عالمية » في حقيقتها ، وان كانت«اقليمية» في ظاهرها ، وربما أصبحت هذه الصراعات الاقليمية « صراعات اقليمية بالوكالة » ،

ونتج عن ذلك أنه أصبح من المحّتم أن يصل الصراع الى نقطة بين « الهزيمة » و « الانتصار » ، أي أنه لايمكن أن ينتهي بتحقيق « الأغراض الكاملة » أو « الأمن المطلق » لأي طرف من الأطراف ، بل يقتصر مايحققه على « الأغراض الناقصة » أو « الأمن المتبادل » للأطراف المتصارعة - بعض الانتصارات وبعض الهزائم - الاكتفاء بالممكن وليس التطلع الى المرجو - وبذلك أصبح الغرض من الصراع ليس تحطيم ارادة الطرف الأخر ، بل تليين هذه الارادة ليتم التلاقي في منتصف الطريق ، فالسلام الحقيقي لايمكن فرضه بالقوة ، لأنه ان تم ذلك أصبح السلام مجرد « وقفة » في طريق الصراع ، اذ تكون الاتفاقيات المفروضة معبرة عن « توازن القوى » بين الموقعين عليها ، وليس « توازن مصالحهم » ، فالسلام الحقيقي يعبر عنه بالمعادلة الآتية :

السلام الحقيقي اختفاء الجوانب المادية والمعنوية للصراع + تطبيع العلاقات .

أما اذا تم التطبيع دون القضاء على الجوانب المادية والمعنوية للصراع فان هذا يعتبر مجرد « تسوية مؤقتة » ، تزول بتغير « موازين القوى » لصالح هذا أو ذاك .

وعلى ضوء ادارة الأزمات بالعقيدة التي شرحناها أصبح كل من توازن القوى والردع ركنين أساسيين في الصراع الدائر بين العرب و « اسرائيل » .

وتوازن القوى - في رأيي - هو الحالة التي تصل فيها أطراف النزاع الى وضع يتعذر عليها في ظله اللجوء الى استخدام القوة لفض النزاع ، واذا لجأت الى استخدام القوة يكون القتال محدودا وفي أضيق الحدود ، أو أنه هو الذي يحقق الاستقرار الاستراتيجي بالعمل على التقليل من اشتعال الحروب والحد منها لو استعرت . ومعنى ذلك أن « التوازن القوي » عامل مهم في تحقيق « الردع » الذي نعني به منع الأطراف من اللجوء الى القوة في تحقيق أغراضها ، أو هو في عدم استخدام القوة على الرغم من توافرها ، أو هو في تجنب القتال . ويهدف « الردع » الى منع قوة معادية من اتخاذ قرار باستخدام أسلحتها ، أو منعها من الاقدام على فعل أو رد فعل باستخدام أسلحة القتال ازاء موقف معين .

وعلى ذلك فالاستراتيجية الرادعة لاتستخدم أسلحتها ، لأنها تعمل على المقارنة بين المخاطرة المتوقعة والمصلحة المحققة . ولابد أن نفرق بين الردع والقتال ، فالردع يهدف الى منع العدو من استخدام قرار بالتدخل أو العدوان ، أما القتال فيهدف الى اجبار الطرف الآخر على اتخاذ قرار بقبول الشروط المطلوب فرضها عليه . ويفشل « الردع » حينما يبدأ « القتال » .

وواضح أن الصراع الدائر في المنطقة بين « اسرائيل » والعرب وهو صراع بين فرض الأمر الواقع الذي تقوم به « اسرائيل » ورفض الأمر الواقع بواسطة العرب - قد أثبت أن توازن القوى التقليدي بين الأطراف لم يصل الى حد يمكن أحدها من تحقيق كل أغراضه ، كما أثبت فشل الرادع التقليدي ، بدليل أن القتال مستمر، تتخلله فترات سكون ، تعيد فيها الأطراف تنظم قواها ، ليبدأ القتال من جديد . وسبب فشل الرادع التقليدي « الاسرائيلي » هو أنها قلبت مفاهيم الردع ، فبدلا من استخدامه لمنع القتال استخدمت القتال وسيلة للردع ، أما سبب فشل الرادع التقليدي العربي فيرجع أساسا الى وجود فجوتين ، الأولى تتمثل في الفجوة بين توافر وسائل الردع وغياب العزيمة على استخدامها مما أوجد الفرصة للعدوان الصغير أو الكبير للمرور دون عقاب أو توقع العقاب ، والفجوة الثانية تكمن في غياب العمل العربي المشترك ، على الرغم مما يحققه من ضمان وأمان .

الرادع النووي « الاسرائيلي » بديل لرادعها التقليدي عند فشله

أدت السياسة التوسعية « لاسرائيل » وخوفها من التعرض لضغوط عالمية أو اقليمية تحول بينها وبين ضم الأراضي الى لجوئها الى تصعيد سلم الردع التقليدي الى منتهاه ، ولم يعد ذلك كافيا لحالة القلق المزمنة التي تعيشها من جراء خوفها من يوم تتخلى فيه الولايات المتحدة الأمريكية عن تأييدها الأعمى لها ،

أو وصول العرب الى حالة التعادل التقليدي معها Conventional Parity فلجأت الى الخيار النووي.

وقد عبر «ايجال آلون» في كتابه (انشاء الجيش الاسرائيلي وتكوينه) عن ذلك بدقة حينما قال: «يجب على اسرائيل ألا تسمح - مهما كانت الظروف بجعل وجودها يعتمد على ضمان خارجي لعدة أسباب، فقد يؤدي ذلك الى خضوع «اسرائيل» لضغط سياسي حول حلّ النزاع العربي «الاسرائيلي» يكون في صالح الأعداء، أو قد لاتكون الدولة الضامنة متفقة معنا تماما في تقديرنا للموقف، أو قد تصلنا مساعدة حلفائنا بعد فوات الأوان في حالة الحرب. وأخيرا فإننا نعيش في عالم «اصنعها لنفسك»، واستمرار بقائنا يعتمد على قدرتنا الذاتية في الدفاع عن أنفسنا دون معاونة خارجية».

وهناك عوامل أخرى ألجأت «اسرائيل» الى الخيار النووي أهمها:

١ - سرعة تآكل السلاح التقليدي في المعارك الحالية

ففي حرب اكتوبر ١٩٧٣ مثلا ألقى الجانبان ٥٠٠٠ دبابة، ٢٠٠٠ طائرة في معارك ضارية، وكانت الخسائر جسيمة في الأرواح والمعدات طوال الأسابيع الثلاثة التي استغرقتها عمليات القتال، حتى وصل معدل الخسائر الى تدمير أكثر من دبابة كل ١٥ دقيقة، وأكثر من طائرة كل ساعة، وهذا العامل في صالح العرب لقدرتهم المتفوقة على تحمل الخسائر. ومن الأيام الأولى لحرب ١٩٧٣ تبخرت الامكانيات «الاسرائيلية»، ورفعت القيادة «الاسرائيلية» شعار «انقذوا اسرائيل» Save Israel وهي تطلب تعويض المعدات من الولايات المتحدة.

٢ - زيادة تكلفة الرادع التقليدي وتعقيده:

وصل الجيش «الاسرائيلي» الى حده الأقصى، ومن الصعب زيادة حجمه أكثر من ذلك، للتناقض بين الزيادة في الحجم مع الضرورة الحتمية للبناء الاقتصادي للدولة، ومواجهة استيطان المهاجرين الجدد، وبناء الصناعات الجديدة، والتوسع في برامج التعليم والصحة وقد وصلت «اسرائيل» الى نهاية حدود قدرتها على تطوير الأسلحة التقليدية وشرائها، ولذلك فإن السلاح النووي يحل مشكلة الردع بتكاليف أقل، وبصورة ثابتة. ثم عاد دايان في حديث الى يديعوت احرونوت في ١٩٧٦/٤/١١ ليؤكد أن «اسرائيل» وصلت الى أقصى حدود القدرة على استيعاب كمية اضافية من الأسلحة التقليدية، ويجب الوصول الى خيار نووي، حتى يعرف العرب أننا نستطيع تدميرهم... اننا لانستطيع أن نطور الى ما لانهاية أجيالا جديدة من الطائرات، وتحول البلاد الى مخزن سلاح كبير، وعلينا التزود بسلاح مدمر، كرادع للأقطار العربية، اذ لانستطيع اللحاق بكميات السلاح الضخمة التي يتزود بها العرب..».

وهناك عوامل أخرى لاتقل أهمية عن العاملين السابقين، تعمل حافزاً «لاسرائيل» للاتجاه الى الخيار النووي، مثل صعوبة حيازة العرب للرادع النووي في المدى القريب، وخاصة بعد أن أعطت لنفسها الحق في تحديد المستوى التقني الذي لايجوز للدول الاقليمية أن تتعداه، وكذلك لاستنزاف الطاقات العربية، خاصة بعد أن بدأ العرب في تعبئة مواردهم.

بعض «الاسرائيليين» يعارضون الخيار النووي «الاسرائيلي»، منهم أبا ايبان ويسرائيل جاليلي، على اساس أن الرادع النووي «الاسرائيلي» سوف يصبح حافزا للرادع النووي العربي، أو حافزا لدخول روادع أخرى الى المنطقة، على أساس أنه ليس بالضرورة أن يردع السلاح النووي بسلاح من العائلة نفسها، كما يرى أصحاب هذه المدرسة أن الرادع النووي «الاسرائيلي» لايحل المشاكل التي

دعت الى السعي اليه ، وأنه يزيد من عزلة « اسرائيل » بل هناك من يشكك في أن « لاسرائيل » قدرة نووية أصلا ، وخاصة بعد اتباعها سياسة « الردع بالظن » .

ويؤيد هذا الاتجاه تقرير لجنة الخبراء التي شكلها السكرتير العام للأمم المتحدة ، بناء على تكليف المنظمة الدولية والمقدم الى اللجنة المتخصصة في الدورة ٣٥ لعام ١٩٨٠ ، اذ ينص على « وجود دول نووية غير معلنة مثل جنوب افريقيا و« اسرائيل » » ، وفي ١٩ يونيو ١٩٨١ قدمت لجنة الخبراء تقريرا ورد في البند ٥٥ منه النص الآتي : « هناك اقتناع عام عند الخبراء الفنيين أن لدى « اسرائيل » القدرة على صناعة قنابل ذرية ، وتتوافر لديها امكانيات الاطلاق » .

وعلى أي حال ، وإزاء الغموض والشك هناك تصورات أربعة عن قدرة « اسرائيل » النووية :

التصور الأول : أن « اسرائيل » تملك فعلا عدة رءوس نووية ، وأجهزة لإطلاقها .

التصور الثاني : أن « اسرائيل صنعت أجزاء عدة رءوس نووية ، وحفظتها مفككة في مخازنها ، لإعادة تجميعها في فترات محدودة ، حينما تدعوها الضرورة لذلك .

التصور الثالث : أن « اسرائيل » حصلت على المعرفة التقنية لصنع سلاح نووي ، وتوقفت عند ذلك ، لتفادي التعقيدات الدولية ، ولتجنب كثرة النفقات .

التصور الرابع : أن « اسرائيل » لاتملك المعرفة التقنية لصناعة سلاح نووي ، ولذلك فإنها لاتملكه ، وتكتفي بمنع أي دولة اقليمية من الحصول على هذا السلاح .

اذن ، فان حيازة « اسرائيل » لقدرة نووية من نوع ما أمر غالب ، وهناك قاعدة ذهبية في التعامل الاستراتيجي هي أنه مالم تتوافر لدينا معلومات مؤكدة عن نفي وجوده يظل احتمالا قائما ، لابد من وضعه في الحسبان ، منعا من أن تفاجئنا الأيام بموقف تصعب مواجهته .

٣ ـ تقييم الرادع النووي « الاسرائيلي »

ترى « اسرائيل » أن القوانين التي تنظم الحروب تفقد قوة الزامها اذا تعارضت مع تحقيق أغراضها ، أو اذا وقفت حائلا دون مواجهة أخطار تهددها ، فالضرورات تبيح المحظورات كما تأخذ بنظرية « حق المحافظة على الوجود » « Self Preservation » ، أي اتخاذ اجراء وقائي في دولة أخرى ، لوقف عدوان منتظر ، تحت شعار الضربة الوقائية ، أو الضربة الجراحية ، على الرغم من أن هذا الاجراء يعتبر تدخلا أكثر منه دفاعا عن النفس ، ويعتبر عدوانا بكل المعاني ، مثل قيامها في ٧ يونيو ١٩٨١ بضرب المركز النووي العراقي وتدميره « اوزاريك » بالقرب من بغداد . وخطورة هذا الإجراء أن « اسرائيل » لم تعد تكتفي بخرق الحدود الدولية للدول المجاورة فحسب ، بل أخذت تخترق الحدود الدولية اختراقا رأسيا على الرغم من المسافات الشاسعة ، والقوانين الدولية . والأخطر من ذلك رد فعل القوتين العظميين الذي كان أقرب الى المباركة والتشجيع منه الى الاحتجاج والعقاب . واعتبرت الدولة النووية فعلا في حالة دفاع شرعي ضد دولة وقعت على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ، بل أخضعت نفسها لاجراءات تفتيش وكالة الطاقة الذرية .

وعلينا في ضوء هذه العقائد الشاذة أن نقيم الرادع النووي « الاسرائيلي » في ضوء مقارنته مع الرادع التقليدي الاقليمي والرادع النووي العالمي .

أولاً : الفرق بين الرادع التقليدي الاقليمي والرادع النووي الاقليمي

الرادع التقليدي الاقليمي	الرادع النووي الاقليمي
أكثر مصداقية في الدفاع أو الهجوم أو ضد أعمال الفدائيين والمتسللين ، وليس على استخدامه في القتال قيود دولية .	لم يستخدم في القتال بعد هيروشيما وناجازاكي ، ولايمكن استخدامه الا في الضرورة القصوى ، في حالة تعرض البقاء للخطر ، وعليه قيود دولية اختيارية لمنع انتشاره .
يستهدف القوات المسلحة كأسبقية أولى ، والأهداف المدنية كأسبقية ثانية في حالة الصراع العربي « الاسرائيلي » .	يستهدف الأغراض المدنية الممتازة كاسبقية أولى لعدم توافر الرءوس الذرية أو وسائل الاطلاق الكافية .
خطورته في قوته التدميرية .	خطورته الحقيقية في الاشعاعات الحرارية ، والاشعاعات الفورية (أشعة جاما والنيترونات وجزيئات الفا وبيتا المنبعثة خلال دقيقة واحدة من الانفجار ، أو الاشعاعات الآجلة (التلوث نتيجة السحب التي تهبط على الأرض) .
تحديد الأغراض وتحليلها ، وتجميع المعلومات عنها يحتاج الى خطة معلومات معقدة ، تشترك فيها جهود المخابرات المختلفة .	الأغراض هنا أغراض القيمة المضادة ، كأسبقية أولى وتكون أهداف القوة المضادة كأسبقية ثانية ، والمعلومات عنها متيسرة حتى من المصادر المكشوفة .
فرص نجاح الرادع تعتمد على منابع من القوى المركزية .	يعطي حرية أكبر لصاحب القرار .
يحتاج الى عدد من القوة البشرية وتجهيزات ومعدات ضخمة متطورة .	تشغيله يحتاج الى عدد محدود من الأفراد
لكي يصل الى نتيجته الحاسمة لابد من أن يصل الى أعلى درجات العنف .	يمكنه أن يصل الى أغراضه بالاستخدام المحدود والمتدرج .
وسائله متوافرة لدى أطراف الصراع .	هناك احتكار نووي « اسرائيلي » .

نخرج من ذلك بحقيقتين محددتين :

● أن الرادع النووي « الاسرائيلي » يحل لها مشاكلها من ناحيتي ارتفاع تكلفة الرادع التقليدي والقوة البشرية .

● ويحقق لها حرية القرار ، خاصة في فترة الاحتكار النووي .

وهناك عامل مهم ، يحتاج الى بحث تفصيلي ، وهو مايتعلق بالمصداقية ، أي بمصداقية استخدام السلاح النووي في القتال في الصراعات الاقليمية ، وخاصة وهو في يد جهة « كاسرائيل » ، وهذا يقودنا الى مقارنة استخدام الرادع النووي على المستويين العالمي والاقليمي .

ثانيا : الفرق بين الردع النووي الاقليمي والردع النووي العالمي

ـ من الخطأ الفادح التعميم في موضوع الرادع النووي ، ليس على المستويين العالمي والاقليمي فقط ، بل بين الأقاليم المختلفة أيضا وفي داخل الاقليم الواحد لاختلاف الظروف والمخزون

المتاح . فعلى سبيل المثال لم يكن من المحتمل أن تستخدم « اسرائيل » الرادع النووي حينما عبرت القوات المصرية القناة في ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، لكن كان من المحتمل استخدامه لو أن الموقف تطور الى هزيمة ساحقة تهدد وجودها ، أو لو أن القوات المصرية عبرت حدودها عام ١٩٦٧ ، وحققت انتصارات تهدد كيانها حينما كانت القوات المصرية في مراكز حشدها بالقرب من الحدود السياسية .

٢ ـ واذا كان هناك هذا التفاوت بين المستوى العالمي والاقليمي فانه لا يجوز والحالة هذه تطبيق القوانين التي تنظم عملية « ادارة الأزمة أو الصراع » على مستوى القوتين العظميين على المستوى الاقليمي في الصراع العربي « الاسرائيلي » ، اذ لا يعقل تطبيق قواعد الاشتباك بالمدفعية على اشتباك يحدث بالبنادق ، كما لايمكن تطبيق قواعد الاشتباك بين قوتين في أرض المعركة على اشتباك يحدث لتفريق المظاهرات . فعلى المستوى العالمي يملك السوفييت آلافا من الرءوس النووية الذرية وكذلك الأمريكان ، أما على المستوى الاقليمي فيمكن اعتبار أن الدولة نووية ـ كما ورد في تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة عام ١٩٨١ ـ اذا امتلكت ١٢ رأسا نوويا على الأقل مع وسائل اطلاقها ، اذ يعطي هذا الحجم القدرة على ضرب أربع مدن ، بواقع ثلاثة رءوس ذرية قوتها ٢٠ كيلو طنا لمدينة واحدة أو ١٢ مدينة اذا خصص لكل منها رأس ذرّي واحد . واذا حسبنا احتمال الأخطاء التي تحدث بواقع رأس واحد من كل ثلاثة رءوس فيمكن للاثنى عشر احداث خسائر جسيمة في مدن يتراوح عددها من ٣ ـ ٨ .

٣ ـ هذا التفاوت في الحجم المتاح على المستويين العالمي والاقليمي غير معنى المصطلحات الفنية المتفق عليها ، مثل : القوى النووية لمسارح العمليات (TNF) ، والتدمير غير المحتمل ، والتدمير المؤكد ، وأقل درجات الردع ، والرد المرن، والتعادل وغيرها .

٤ ـ لاتتعدد المستويات في الرادع النووي الاقليمي ، اذ لايوجد مايسمى « الردع المتدرج » ، بل وتوجد على المستوى العالمي : الحرب النووية ، التكتيكية وكذلك الاستراتيجية ، وهذا غير موجود على المستوى الاقليمي .

٥ ـ لايحتاج الرادع النووي الاقليمي الى نفس الترتيبات المعقدة التي يحتاجها على المستوى العالمي ، فلا هو يحتاج الى قيادات وأجهزة سيطرة تعمل من الجو ، ولا الى تحصينات هائلة ، ولا الى قاذفات حاملة للقنابل الذرية على درجة استعداد وهي تطير في الجو خوفا من ضربها وهي على الأرض ، ولا الى صواريخ محملة على قطارات تجري على قضبانها .

٦ ـ الصفوة الحاكمة التي تمسك بزمام الرادع النووي العالمي صفوة « نصف عاقلة » ، تجري حوارها على أساس حسابات منطقية ، لكن الصفوة التي قد تدير الرادع النووي الاقليمي صفوة اما مجنونة أو جاهلة أصول الصراع . ولنا أن نتخيل رادعا نوويا تحت سيطرة مناحيم بيجن ، أو اسحاق شامير ، أو ايريل شارون ، وفي هذا الصدد يقول الجنرال بوفر : « في ظل الانتشار النووي سيكون المصير في يد عدد متزايد ليس بينهم الا قلة يمكنها تحمل هذه المسئولية الثقيلة . ان افتراض الجنون بين هؤلاء الرجال شيء متوقع ، لكن الأكثر توقعا والداعي للقلق المتزايد في نفس الوقت هو عدم المعرفة ، اذ أن المشكلات المتعلقة بالسلام والحرب أصبحت بالغة الدقة ، مما يجعلها غير مفهومة تماما لكل رجال السياسة الذين تأتي بهم المصادفة الى السلطة ، كما أن بقاء بعض المفاهيم التقليدية في الحرب التي لاتصلح لمفاهيم اليوم قد تسبب وقوع كوارث مروعة ، وباختصار فان الانتشار النووي مدعاة لأقصى درجات القلق ، فلا يمكن أن يتحقق الاستقرار الا في الدول النووية العاقلة ، ولابد من الحذر من وضع أعواد الثقاب في أيدي الأطفال » .

ونخرج من ذلك أن المقاييس التي تتحكم في الروادع النووية على الصعيد العالمي لايمكن أن تتحقق وتطبق في الصراعات الاقليمية . ومعنى ذلك أن استخدام الرادع النووي في القتال في حالة توافره أكثر احتمالا في الصراعات الاقليمية ، وهو أمر

محتمل لايمكن استبعاده ، وخاصة أن التاريخ قد سجل لنا أنه ما من سلاح دخل مرحلة الانتاج الا استخدم فعلا .

وهذا المفهوم الذي يميز الصراعات النووية العالمية عن الصراعات النووية الاقليمية هو الخطر الحقيقي الذي تتوقعه من « اسرائيل » النووية ، وخاصة اذا ظلت تؤمن أن القوة هي العامل الوحيد للممارسة الدبلوماسية .

لكن هل الرادع النووي « الاسرائيلي » يمكنه فرض استقرار اقليمي لايحققه توازن المصالح لأطراف الصراع ؟ وهنا أيضا تختلف الآراء بين مؤيد ومعارض .

١ ـ فالذين يرون أن الرادع النووي « الاسرائيلي » يفرض استقرارا ظالما جائرا يؤيدون وجهة نظرهم بآراء عديدة أهمها : ـ

أ ـ الخوف الذي يفرضه الرادع النووي الذي يعمل كلقاح مهدىء للعنف .

ب ـ الرادع النووي هو الوسيلة الوحيدة للسباق في التسليح التقليدي مع العرب ، فالرادع النووي « الاسرائيلي » هو البديل الوحيد للرادع العربي التقليدي ، اذ يفرض الاستقرار على أساس قاعدة « التدمير » المرفوض أو غير المحتمل Unacceptable Deterrence .

ج ـ الردع المحقق عن طريق الرادع النووي « الاسرائيلي » يفرض فترة هدوء اجبارية ، تكون بمثابة تمهيد لتهدئة التوتر فالتهدئة تؤدي الى زوال الحروب الذي يؤدي بدوره الى السلام .

د ـ الاحتكار النووي « الاسرائيلي » يفرض الاستقرار ، وفي حالة تعدد القدرات النووية في يوم ما سوف يتحقق الاستقرار عن طريق الرعب النووي ، أو الخوف من التدمير المتبادل لتوافر القدرة على الضربة الثانية لدى كل الأطراف ، وهذا كفيل بتردد كل الأطراف في اللجوء الى الضربة الأولى ، أي العدوان .

٢ ـ وفي المقابل هناك آراء تعارض ذلك ـ ونحن منهم ـ وترى أن الرادع النووي « الاسرائيلي » لايمكنه أن يفرض استقرارا مجحفا للآتي : ـ

أ ـ الرادع النووي بالحجم المحدود ليست لديه المصداقية اللازمة لردع أي حرب تقليدية عادلة .

ب ـ يمكن مواجهة الرادع النووي برادع آخر من فصيلة أخرى لايقل تأثيرا عنه ، وهو ما سميناه « الرادع فوق التقليدي » ، وهو عبارة عن الأسلحة الخارقة أو الكيماوية والبيولوجية .

ج ـ القدرة العربية على امتصاص الضربة الأولى أكبر من القدرة الاسرائيلية ، حتى على المستوى التكتيكي .

د ـ كل طرف رهينة عند الطرف الآخر ، فاذا كان الشعب العربي رهينة عند « الاسرائيليين » فالشعب « الاسرائيلي » رهينة عند العرب .

وعلى « اسرائيل » أن تجيب عن الأسئلة الآتية ، لتعرف الفرق بين قدرة العرب على امتصاص الضربات مقارنا بقدرتها : ما الذي كان يحدث « لاسرائيل » لو واجهت نفس موقفنا في حرب ١٩٦٧ بعد ضرب قواتنا الجوية ؟ وما الذي كان يحدث لها لو ضربت تل أبيب والقدس وبير السبع بالغازات والمدفعية والصواريخ كما ضربت السويس والاسماعيلية والقاهرة وبحر البقر وحلوان والمعادي وبيروت وبغداد وحمص ودمشق ؟

الخاتمة :

إن « إسرائيل » وهي تسعى لفرض استقرار إقليمي يحقق لها مطامعها أخذت في تصعيد مستوى الروادع حتى وصلت إلى الرادع النووي ، ولكن للاستقرار جناحان : توازن القوى وتوازن المصالح فالاتفاقيات التي تحقق الاستقرار إن عبرت عن قوى الموقعين عليها كانت اتفاقيات رديئة : ولو تمت تحت مظلة نووية ، والاتفاقيات الرديئة هي وقفة حتى يعاد تغيير توازن للقوى ، ولذلك فإن الاتفاقيات يجب أن تكون عاقلة تراعي توازن المصالح لأن القوة وحدها سواء كانت تقليدية أو نووية لن تحقق الاستقرار . □

فرنسا وجذور الحركة الصهيونية غير اليهودية

بقلم : رياض معسعس *

قبل إعلان الحركة الصهيونية رسميا في مؤتمر بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ لم تكن الصهيونية حركة يهودية ، بل كانت مرتبطة بشكل وثيق بأعتى دول الاستعمار الغربي ، وإن كان الدور البريطاني معروفا في إنشاء الصهيونية غير اليهودية فإن دور فرنسا لم يكن ليقل خطورة .

هذا المقال محاولة لتتبع ظهور الصهيونية غير اليهودية في تلك الدولة الاستعمارية منذ البدايات الأولى حتى وعد بلفور .

كثيرا ما يعتقد بعض الناس بأن الصهيونية أيدلوجيا وتطبيقاً هي وقف على الطائفة اليهودية التي تعمل على ترويجها وتنفيذ مخططاتها دون غيرها ، بيد أن هذا الاعتقاد خاطيء ، فالصهيونية غير اليهودية هي أشد فاعلية وخطرا من الصهيونية اليهودية نفسها في مواقف ومواضع شتى .

وتؤكد الأحداث التاريخية ، والوثائق العديدة على أن الصهيونية غير اليهودية كانت ومازال الأداة الأساسية التي عملت على ترسيخ أقدام اليهود في فلسطين العربية ودعمهم ماديا ، وسياسيا ، وفكريا .

ويطول المقام إذا أردنا التحدث عن هذه الظاهرة بأكملها ، والتطرق لجميع جوانبها ، ولنشأتها في البلدان المختلفة ، على الرغم من الترابط العضوي بين جميع أطرافها ، لذا فإننا نقصر مقالنا هذا على فترة معينة وبلد معين .

إن الصهيونية كايديولوجية وحركة سياسية منظمة، لم تطف على السطح على صعيد فرنسا مثلا ، ولم يظهر

* كاتب من القطر العربي السوري مقيم في باريس .

لها أي أثر إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، إلا أنها كفكرة قد سبق ظهورها هذا التاريخ بقرون عديدة .

فالمؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧ لم يكن الانطلاقة الأولى ، بل كان تتويجا لتطورات مختلفة ، وولادة لجنين اكتمل تشكيله في رحم الأحداث والانقلابات السياسية والاقتصادية في أوروبا منذ بداية عصر النهضة .

اليهود والماشيح

ولاستكمال الصورة وتوضيحها لابد من العودة إلى الجذور الأولى في المسألة اليهودية ، فبالنسبة للمسيحية الكاثوليكية التقليدية لم يكن في أدبياتها أدنى إشارة إلى مقولة الاساطير اليهودية في عودة « الماشيح » وقيادته لشعب الله المختار إلى ارض الميعاد ، وطبقا « للعقيدة الكاثوليكية » فان اليهود كانوا قد طردوا من فلسطين إلى منفاهم في بابل قصاصا لهم لاقترافهم الذنب الأكبر ، وأن أرض فلسطين هي ملك للمسيحية ، وعندما أنكر اليهود أن عيسى بن مريم هو المسيح ، نفاهم الله مرة أخرى إلى الأبد وأنهى وجودهم كأمة ، أما كأفراد فبإمكان أي يهودي العودة إلى الايمان الحقيقي وطلب الخلاص الروحي باعتناقه المسيحية » . حتى أن بير ليرميت عندما راح يدعو أوروبا المسيحية إلى القيام بغزو فلسطين لم يكن يقوم بذلك ليعيدها إلى « أصحابها اليهود » ، وإنما كان من أجل طرد المسلمين الكفار ، وإقامة « الامبراطورية المسيحية » ، حتى أن الصليبيين عندما احتلوا بيت المقدس جمعوا يهود المدينة في الكنيس وأحرقوهم فيها أحياء .

ففلسطين بهذا المفهوم تعتبر الوطن المقدس الذي أورثه المسيح لأتباعه المسيحين .

وخلاصة القول ان الصهيونية غير اليهودية حتى عصر النهضة كانت غائبة تماما عن أوروبا ، غير أن قدوم مارتن لوثر ، وانبثاق حركة الاصلاح الديني قد قلبت المفاهيم رأسا على عقب ، فمباديء لوثر كانت مغايرة تماما لمباديء الكاثوليكية ، لاسيما ما يخص المسألة اليهودية ، إذ أن التغييرات اللاهوتية في الحركة الدينية الجديدة قد روجت لفكرة أن اليهود أمة مختارة ، وأكدت على فكرة « أرض الميعاد » ، لذا فإن إعادة اكتشاف « العهد القديم » في الحركة البروتستانتية واعتباره عنصراً أساسيا في مفاهيم الحركة ، بعد أن كان مهملا من قبل الكاثوليكية ، قد عزز النزعة اليهودية ، ودعم وجهة نظرها في الأوساط المسيحية الجديدة ، فأضحت بذلك فلسطين أرضا يهودية في الفكر المسيحي في أوروبا البروتستانتية ، وبدأ منذ ذلك الوقت الاهتمام بتحقيق النبوءات التوراتية ، لاسيا « العصر الألفي السعيد » الذي هو الاعتقاد بعودة الماشيح المنتظر الذي سيقيم مملكة في فلسطين تدوم ألف عام .

وبهذا يمكن القول بأن القرن السادس عشر كان بداية التأكيد على الشخصية اليهودية . وقد استمرت هذه الحركة في الانتشار عبر القرون اللاحقة إلى أن بلغت ذروتها في القرن العشرين مع مذهب « العصمة الحرفية » المنتشر في أمريكا ، الذي يقول بأن « اسرائيل » في وضعها الحالي هي التحقيق الواقعي للنبوءة في العصر الحديث .

امتدت أفكار الاصلاح الديني إلى فرنسا ، وقد حملت معها ـ بطبيعة الحال ـ فكرة « العصر الألفي السعيد » التي وجدت من يروجها ، ويعمل من أجلها ، ففي بداية القرن السابع عشر كتب اسحق دولا بيرير كتابه « دعوة اليهود » الذي دعا فيه إلى مد يد العون لليهود ومساعدتهم في العودة إلى الأرض المقدسة ، ثم تبعه قس فرنسي آخر هو بيير غوريو ليطالب بإعادة تأسيس المملكة اليهودية في أرض الميعاد في كتابه « استكمال النبوءات » .

وقد تعدت هذه الأفكار رجال الكنيسة إلى كبار المفكرين الفرنسيين كجان جاك روسو وباسكال ، فظهرت في كتاباتهم الدعوة لقيام دولة يهودية ، ثم تعدتهم هذه الفكرة لرجال السياسة الذين وجدوا فيها خير وسيلة للوصول إلى مآرب سياسية واقتصادية في الشرق .

نابليون بونابرت : صهيونية الامبراطور

لقد طرحت قضية اليهود إبان الثورة الفرنسية ، وفور إعلان حقوق الانسان أعطي اليهود حق

● جندي اسرائيلي يصفع فتاة فلسطينية على مرأى من العالم .

المواطنية الكاملة . ومنحت الجمعية الوطنية الفرنسية اليهود الجنسية الفرنسية والحقوق المدنية الكاملة ، وبهذا الصدد صرح أحد القادة الفرنسيين بقوله : «كل شيء لليهود كأفراد ، ولاشيء لليهود كشعب ، ففرنسا ترفض أن تكون هناك أمة داخل أمة . كان هذا على الصعيد الفرنسي ، أما على صعيد فلسطين فقد كان حديث آخر ، فقد كانت فرنسا هي أول دولة اوروبية تطرح جديا على المستوى السياسي فكرة توطين اليهود في فلسطين ، فإدارة الحكومة الفرنسية كانت قد أعدت خطة سرية في عام ١٧٩٨ لاقامة كومونويلث يهودي في فلسطين في حال نجاح الحملة الفرنسية باحتلال المشرق العربي ، شريطة أن يتقدم أغنياء اليهود بقروض مالية كبيرة للحكومة الفرنسية التي كانت تعاني من أزمة مالية خانقة .

انصبت هذه الفكرة في رأس نابليون الذي كان بحكم مركزه على اطلاع بالاتصالات الجارية بين إدارة الحكومة الفرنسية وزعماء يهود فرنسا ، وقدر إلى أي مدى يمكن له استغلال هذه الفكرة في اكتساب خدمات اليهود له في كل مكان ، وتأييده تأييدا مطلقا ، لذا فإنه بمجرد وصوله إلى مصر أصدر بيانا حث فيه اليهود على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة بناء «مملكة القدس» ، ثم وجه نداء آخر أثناء حصار عكا جاء فيه :

«من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا ، إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الاسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، انهضوا بسرور أيها المبعدون ، إن حربا لم يشهد لها التاريخ مثيلا تخوضها أمة دفاعا عن نفسها بعد أن اعتبر اعداؤها أرضها التي توارثوها عن الأجداد غنيمة يجب أن تقسم بينهم حسب أهوائهم .

إن الجيش الذي ارسلتني العناية الالهية على رأسه ، والذي يقوده العدل ، ويواكبه النصر ، جعل القدس مقر قيادتي ، وبعد بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد ترهب مدينة داوود .

ياورثة فلسطين ، سارعوا ، إن هذه هي اللحظة المناسبة التي قد لاتتكرر لآلاف السنين ، للمطالبة باستعادة حقوقكم ووجودكم السياسي كأمة بين الأمم» .

غير أن الهزيمة النكراء التي مني بها نابليون في عكا جعلت جهوده تذهب أدراج الرياح ، لكن الفكرة بقيت قائمة في ذهنه ، إذ بعد عودته إلى فرنسا دعا في عام ١٨٠٦ إلى عقد اجتماع «السنهدرين» وهي الهيئة القضائية العليا للطائفة اليهودية ، وأعلن نابليون على اثره بأنه سيكون لليهود كيان رسمي داخل الدولة ، وأن الديانة اليهودية ستكون إحدى الديانات الرسمية في فرنسا ، ووعد بأن يقوم بالضغط على الدول الأوروبية الأخرى لتحذو حذو فرنسا في هذا الشأن ، بيد أن هذه الدعوة قد تلاشت واضمحلت مع آخر هزيمة نكراء له في واترلو عام ١٨١٥ .

نابليون الثالث الأكثر صهيونية

إن وصول محمد علي إلى سدة الحكم في مصر جعل فكرة توطين اليهود تأخذ طريقها إلى بريطانيا ، وتجد رواجا عظيما ، إذ أن بريطانيا قد وجدت أن الأقليات اليهودية المتواجدة في فلسطين حينذاك لم يكن عددها يتعدى في تلك الفترة ثمانية آلاف يهودي ، وذلك حسب إحصائيات القنصل البريطاني في فلسطين وأنه لا يمكنها أن تكون ذريعة لها للتدخل بشؤون فلسطين بحجة «حماية الأقليات اليهودية» أسوة بفرنسا التي كانت قد اتخذت الذريعة نفسها في حماية الموارنة في لبنان .

وكانت بريطانيا بمكرها ودهائها تخطط لضرب محمد علي من جهة ، ولقطع الطريق على فرنسا قبل أن يصبح الديك الفرنسي على الأراضي الفلسطينية من جهة أخرى .

ومهما يكن من أمر فموت نابليون الأول ونسيانه وهو قابع في جزيرة القديسة هيلانة بعد هزائمه لم يكن يعني نسيان فرنسا للأفكار الصهيونية التي زرعها امبراطورها في الديار المقدسة ، إذ أنها لم تكن أقل حماسة من بريطانيا في إقامة دولة يهودية في

فلسطين تحت الحماية الفرنسية ، لعلمها علم اليقين أن وراء هذه العملية تكمن بداية السيطرة على الشرق الأوسط .

في نهاية القرن الثامن عشر كانت الافكار الصهيونية قد ترسخت في الأوساط السياسية والفكرية والدينية ، حتى أنها تغلغلت في نفوس قسم لابأس به من الشعب الفرنسي ، وقد بلغت ذروتها خلال فترة حكم الامبراطور نابليون الثالث (الامبراطورية الثانية ١٨٥٢ - ١٨٧٠) ، إذ تجددت في هذه الفترة النشاطات الاستعمارية ، ففي عهده تمت عملية ضم الجزائر العربية واعتبارها قطعة من الأراضي الفرنسية ، وتم إقامة محمية في الهند الصينية أيضا . وراح بعض المفكرين والكتاب السياسيين يدفعون الدعوة للمناداة بفلسطين « إقليما يهوديا » على نحو مماثل للدعوة الصادرة بجعل لبنان « إقليما مسيحيا » . وقد أبدى نابليون الثالث لويس فيليب اهتماما ملحوظا بفكرة توطين اليهود في فلسطين ، لاسيما أن فرنسا كانت قد حصلت على امتياز شق قناة السويس في مصر ، وبدأ يلوح أمام عينيه حلم عمه الامبراطور الأول في احتلال مصر وفلسطين ، ويدغدغ طموحاته بامتداد امبراطوريته لتلتهم الامبراطورية العثمانية بأكملها . كان يقول لمساعديه المقربين : لقد ضممنا الجزائر ، وسنعود إلى مصر ، وفلسطين ومن ثم . . . ، ومن ثم . . . ، ومن يدري ؟ وكانت الإمبراطورية العثمانية تجثم أمام عينيه .

طبق حلوى لذيذة

جان دونان من الشخصيات المقربة من الامبراطور التي كان لها أكبر الأثر في ترويج الأفكار الصهيونية وهو الذي قام بنشاطات واسعة لكسب تأييد الرأي العام الفرنسي والأوروبي من أجل الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وكان قد أسس لهذا الغرض مايسمى « جمعية استعمار فلسطين » . والاكثر منه تأثيرا ، هو سكرتير الامبراطور الخاص إرنست لاهاران ، الممثل الرئيسي للصهيونية غير اليهودية الذي كان يؤيد خطط الامبراطور في احتلال الشرق ، ففي عام ١٨٦٠ وضع كتابا بعنوان : « المسألة الشرقية الجديدة : إعادة بناء القومية اليهودية » ، عرض فيه وجهات نظر الانجليز المؤيدين لهذا المشروع ، وأكد على صعيد آخر أن الامبريالية الغربية ستجد في الدولة اليهودية خير معين لها في منطقة الشرق ، ووصف العرب بأنهم قبائل همجية وحشية يجب طردها من فلسطين وإقامة وطن يهودي ليكون قناة الاتصال الحية بين القارات الثلاث ، وهو يقول بهذا الصدد :

« إن اليهود سيكونون حملة الحضارة إلى شعوب بدائية ، وسيلعبون دور الوسيط بين أوروبا وأقاصي آسيا . . » ثم يتوجه إلى اليهود بقوله : « سيروا قدما ، فإن انبعاثكم سيجعل قلوبنا تختلج ، وستقف جيوشنا إلى جانبكم مستعدة لتقديم المساعدة ، سيروا إلى الأمام أيها اليهود ، إن وطنكم القديم يناديكم ، وسيكون من دواعي افتخارنا أن نفتح لكم أبوابه » .

لقد كان لإرنست لاهاران أكبر الأثر في بعث الحركة الصهيونية في فرنسا ، إذ استطاع التأثير بالكثير ، حتى أن اليهود أنفسهم قد تأثروا بأقواله ، ولاننسى أن موسى هيس أحد مؤسسي الصهيونية اليهودية قد تبنى أفكار لاهاران ، وأصدر على أثرها كتابه المعروف « روما والقدس » الذي يخاطب فيه اليهود ، ويوضح لهم إلى أي مدى تتعاطف فرنسا مع قضيتهم : « لازلتم تشكون في نوايا فرنسا في مساعدتكم على إقامة مستعمرات قد تمتد من البحر المتوسط إلى ضفتي نهر الأردن ، ومن السويس إلى القدس ؟ إن فرنسا ستوسع مهمة التحرير لتشمل الأمة اليهودية ، ويبدو أن الفرنسيين واليهود قد خلق كل منهما للآخر في كل شيء » .

وفي خضم هذه الأحداث كانت الامبراطورية البروسية الناشئة على يد بسمارك تهدد فرنسا مباشرة ، ففي عام ١٨٧٠ وضع هذا الأخير حدا للامبراطورية الثانية في فرنسا ، بعد أن مني امبراطورها نابليون الثالث بهزيمة نكراء ، أعادت إلى ذاكرته هزائم عمه ، وهدمت في مخيلته حلم

« امبراطورية الشرق » ، بيد أن الأوساط الفكرية استمرت في نشر الفكرة الصهيونية وتأييدها ، وفي عام ١٨٧٣ عرض الكسندر دوما الابن مسرحيته « زوجة كلود » التي يتحدث فيها عن حقوق اليهود في فلسطين ، وضرورة إعادة بناء دولتهم ، وفي الفترة نفسها أسس المليونير اليهودي ادموند روتشيلد أول مدرسة زراعية سميت « مكيف اسرائيل » ، وذلك بمساعدة « الرابطة اليهودية العالمية » .

ولم تمض سوى بضع سنوات حتى ظهر البيان الأول للصهيونية الحديثة في عام ١٨٨٢ الذي يدعى « بالانعتاق الذاتي » الذي دعا إليه ليو بنسكر أحد اليهود الروس القاطنين في المانيا ، وتبعه تيودور هرتزل في عام ١٨٩٥ بإصدار كتابه « الدولة اليهودية » ، متأثرا بفضيحة الضابط اليهودي الفرنسي دريفوس الذي اتهم بالتجسس لصالح المانيا ، والذي أثار الجدل والانقسامات في أروقة السياسة الفرنسية ، كما حدث لدى الشعب الفرنسي ، إذ جند كثير من السياسيين والمفكرين أنفسهم للدفاع عن اليهود . ويمكننا على سبيل المثال ذكر الشاعر الكاتب شارل بيجي الذي خصص كثيرا من أشعاره وكتاباته للدفاع عن اليهود ، والدعوة لعودتهم إلى فلسطين ، وأميل زولا في كتاباته الشهيرة ، وقد احتدم الصدام بين مناصري دريفوس الذين كانوا يؤيدون من خلاله اليهود ، وبين مناهضيه الذين كانوا يضمرون في أنفسهم كراهية لليهود ، حتى أعيد الاعتبار للضابط الفرنسي ، وانتهت هذه المسألة التي وصفت بمحاكمة العصر لصالح ليهود ، غير أن مضاعفاتها كانت من الأهمية بمكان بحيث جعلت قسما من الرأي العام الفرنسي يتعاطف مع قضايا اليهود والصهيونية .

القرن العشرون : قرن الصهيونية

إن البذور التي زرعتها الصهيونية خلال القرن التاسع عشر في مختلف الدول الغربية كانت تنبئها بمحصول وفير ، لا سيما أن رياح الأحداث التاريخية كانت تسير وفق ماتشتهيه سفن قادة الصهيونية ومؤيديها ، فمنذ بداية القرن العشرين ساعدت الحكومات الفرنسية المتتالية الحركة الصهيونية على الاتصال بيهود شمال أفريقيا ، بعد أن وضعت يدها على تونس والمغرب ، بالاضافة إلى الجزائر التي ضمتها إلى أراضيها كما أسلفنا ، وبذلك تمكنت الصهيونية من حث هؤلاء اليهود للهجرة إلى فلسطين ، ليكونوا أوائل المرتزقة في عصابات الهاجانا ، والأرغن ، وشتيرن ، ويضاف إلى ذلك أن فرنسا قد ساعدت على دق إسفين التفرقة والبغضاء بين الجزائريين العرب والجالية اليهودية لخلق شرخ في صلب المجتمع المغربي ككل ، حتى أنها منحت اليهود الجنسية الفرنسية لتسهيل فرنسة الجزائر وفصل الطائفة اليهودية عن وطنها الأم .

وقد ساعدت هذه العملية على هجرة عدد لابأس به من يهود المغرب إلى فلسطين ، إذ شهدت فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى موجتين رئيستين من الهجرات اليهودية (١٨٨٢ ـ ١٩٠٣) كان لهما أكبر الفضل في التمهيد لقيام « دولة اسرائيل » فيما بعد .

وبعد اشتعال الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ وانقسام دول العالم الكبرى إلى كتلتين متصارعتين : دول الحلفاء (بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وايطاليا ، والولايات المتحدة) ، ومجموعة دول المحور (المانيا والنمسا ، والدولة العثمانية) وجدت بريطانيا في فترة من فترات الحرب بأنه لابد من تصعيد الحرب في منطقة الشرق ، بعد أن واجهت دول الحلفاء صعوبات عسكرية في المنطقة الغربية ، وقد رأى لويد جورج أن احتلال فلسطين بات أمرا ضروريا عاجلا ، على الرغم من حصول فرنسا على منطقة الجليل الأعلى من فلسطين حسب اتفاقية (سايكس / بيكو) ، وتمهيدا للاحتلال لجأ لويد جورج إلى تعزيز صلته بالحركة الصهيونية وبيهود فرنسا ، تقديرا منه للنفوذ الصهيوني واليهودي اللذين يسيطران على السياسة الفرنسية ، وإمكانات هذين النفوذين المالية الهائلة والمهيمنة على الاقتصاد الفرنسي . □

في الأسواق

كتاب العربي

التاسع عشر

الفلسطينيون

من الاقتلاع إلى المقاومة

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

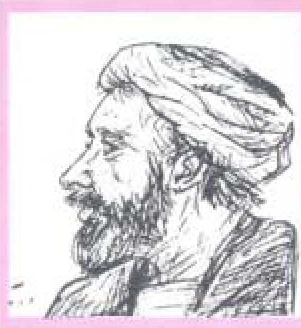

علماء عربيان في سماء الطب

بقلم : الدكتور علي مبارك*

في التاريخ العربي الاسلامي كثير من مشاهير الأطباء أمثال الرازي وابن سينا والزهراوي وغيرهم ممن رفعوا راية الطب العربي ، وقد حظي البعض منهم بنسب متفاوتة من اهتمام المعاصرين ، لكن الزهراوي والرازي ظلا يفتقران إلى من يقدمهما وينوه بذكرهما .

من هو الرازي ؟ . . هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي . ولد في مدينة (الري) احدى مدن بلاد فارس في عام ٢٥١ هـ المصادف ٨٦٥ م ، وتوفي في عام ٣١١هـ المصادف ٩٢٥ م عن عمر ناهز الستين عاما ، وتذكر بعض المصادر أنه بلغ الخامسة والستين . وربما اشتق لقبه (الرازي) من انتسابه إلى مكان ولادته (الري) .

لقد كان حظ الرازي أوفر من حظ أترابه علماء الطب في انتشار اسمه وشهرته وقد يكون مرد ذلك إلى أنه مارس الفلسفة في مقتبل عمره على نطاق واسع ، اضافة إلى ولعه بالعلوم والدراسات الموسيقية ، فاشتهر بالفيلسوف والموسيقي قبل ممارسته الطب والجراحة ، وقد ألف الكثير من كتب الفلسفة ، كما أنه اهتم بالدراسات التاريخية أيضا ، فكان مؤرخا مرموقا آنذاك

الرازي الطبيب

لم يكن الرازي طبيباً حتى سن الأربعين ، حيث بدأ يتجه بشكل حاد ومكثف لدراسة العلوم الطبية ،

* طبيب أول رعاية الأمومة ـ الخدمات الطبية ـ الكويت

فكرس لها البقية الباقية من حياته .

وقد خلد الرازي أعماله الطبية في مؤلف ضخم أطلق عليه عنوان « الحاوى » ، ويضم هذا المؤلف كل دراساته الخاصة والمقتبسة في الطب فقط . وكان قد بدأ في مدينته الرى ، ثم انتقل بعدها إلى بغداد . وقد خصص جزءا من دراساته هذه للبحث في أمراض الأطفال ، وربما يعد أول طبيب اسلامي انتبه إلى أهمية هذا الجانب الخاص بطب الأطفال ، فصنفه وحصره في مؤلف خاص به ضمن كتابه (الحاوى) ، واعتبر ذلك بادرة فريدة للتخصصات الفرعية في ممارسة الطب . في بغداد اشتهر ببراعته في علاج مرض الجدري والحصبة ، وكيفية التفريق التشخيصي بينهما ، حتى أصبح مرجعا في هذين النوعين من الأمراض اذ كانا من أكثر الأمراض انتشارا ، فقام الرازي بوصف كل منهما وصفا تفريقيا دقيقاً اعتبر فيما بعد قاعدة طبية معترفا بها وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة الانجليزية في القرن التاسع عشر ، أي بعد وفاته بتسعة قرون . كما أن كتابه (الحاوى) قد ترجم بالكامل للمرة الأولى إلى اللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر ، وقد بلغ وزنه اثنين وعشرين رطلا ، وان آخر الترجمات قد تمت في عام ١٩٢١ بواسطة أحد الاساتذة الباحثين يدعى (براون) تحت عنوان (الطب العربي) ، ولكن المؤسف أن معظم هذه الاعمال قد فقد من المكتبات العالمية .

المنهج المقارن

الجدير بالملاحظة أن الرازي في كتابته الطبية كان يعتمد اسلوبا علميا معروفا هو الاقتباس والمقارنة في الآراء والأفكار . أى أنه يذكر أعمال الآخرين فيناقشها ثم يطرح أعماله الخاصة بالمقابل ، ويخرج منها بفكر هو حصيلة مجموع الأفكار والاعمال المطروحة ، وبهذا أوجد الرازي أول بادرة من هذا النوع في المؤلفات العربية .

يحتوى كتابه (الحاوى) على الكثير من التقارير المفصلة عن حالات مرضية مختلفة أبرز فيها براعته في طريقة تناول الحالات المرضية وعلاقتها بالتاريخ المرضي السابق للمريض . بهذا اقتبس طريقة سلفه

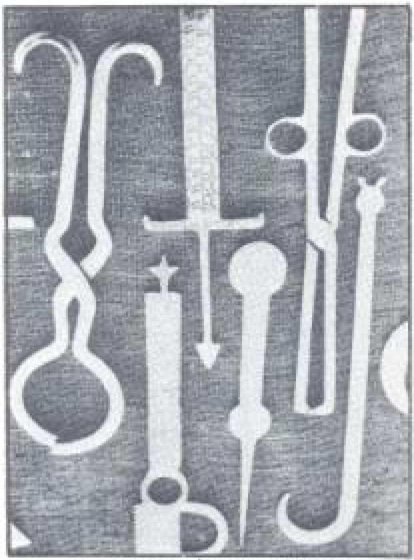

مجموعة اخرى من الأدوات الجراحية التى استعملها الزهراوي في علم الولادة .

الطبيب الاغريقى (أبوقراط) ، وكذلك اعتمد طريقة الاستعانة باجراء بعض التحاليل المخبرية خاصة على عينات من البول للوصول إلى تشخيص الأمراض .

الرازي الكيمياوي والجراح

وكما برع في الطب الباطني وعلوم الأمراض الأخرى ، برع الرازي كذلك في علوم الكيمياء الدوائية ، والتغذية وكيمياء السموم وبخاصة تأثيرات سموم الأفاعى فعمل على تصنيف هذه المركبات والأعشاب المختلفة بشكل مبسط وسهل ، واستطاع أن يمزج بعضها البعض ليستخرج مركبات دوائية مختلفة من هذه الاعشاب ، وعالج فيها حالات الجدري والحصبة والحميات الاخرى وأدخل عبوات الأطفال حسب أعمارهم أيضا .

وقد ضمن أعماله هذه واعتبرها مكملة أو ملحقة بالجانب الجراحي من الطب ، وألف لها كتابا آخر تحت عنوان (المنصوري) ، ويقال إنه اختار لها هذا الاسم تكريما لحاكم المدينة آنذاك (منصور بن

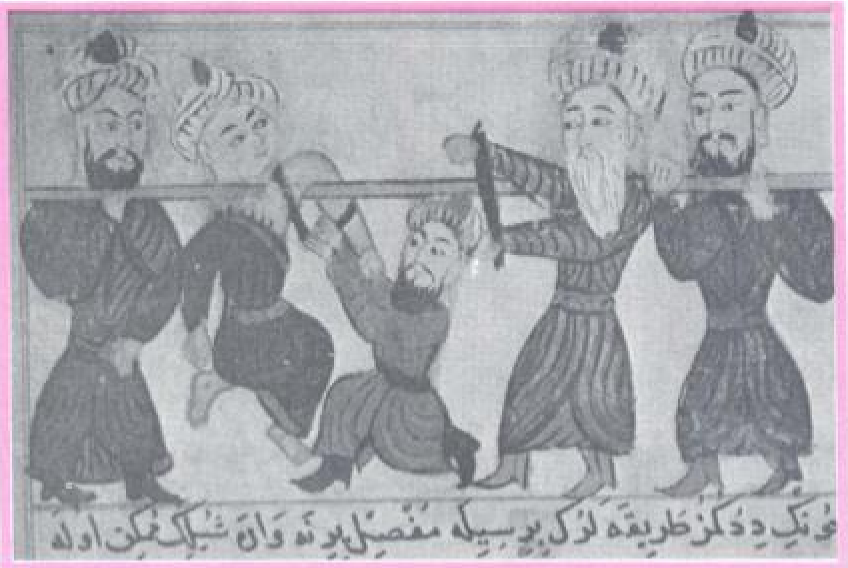

الزهراوي يعالج مريضا مصابا بكسر في العضد .

اسحق) ، وقد ضمن فيه بالاضافة إلى ذلك أبوابا مختلفة تتعلق بكيفية التعامل في شراء العبيد وتوصيات طبية للمسافرين . وعلى الرغم من أنه كتب الكثير في الجراحة إلا أنه لم يتوفر لنا الكثير من المعلومات عن أنواع العمليات الجراحية التي كان يجريها كما فعل خلفه (الزهراوي) ، وربما كان قد صمم بعض الأدوات والآلات الجراحية إلا أنها غير مشهورة .

الزهراوي

كانت الآراء إلى وقت قريب مختلفة حول اسم وكنية هذا الرجل الكبير ، وقد يعود السبب في ذلك الى أننا لم نأخذ عنه من كتبنا العربية والاسلامية بل من ترجمات أجنبية اختلفت كثيرا في كتابة اسمه بشكل صحيح وقد ذكر له مالايقل عن اثنى عشر لفظاً إلا أن بعض الكتب التاريخية العربية تقول إن اسمه الكامل هو : أبو القاسم خليفة بن العباس ـ أو ابن عباس ـ الزهراوي. وفي كتب أخرى القرطبي،كما ذكرت تلك المصادر أنه ولد في عام ٩٣٦م وعاش سبعة وسبعين عاما ، وتوفي في عام ١٠١٣م ، وكما كانت الآراء مختلفة حول اسمه وكنيته لم يتأكد تاريخ وفاته بالضبط . وقد توفي في مسقط رأسه على الأكثر . إن اكثر المصادر العربية المتوافرة تؤكد أنه ولد في مدينة (الزهراء) التابعة لقرطبة آنذاك في اسبانيا ، وماتزال تحمل نفس الاسم باللغة الاسبانية ، ومن المؤكد أنه لقب بالزهراوى نسبة إلى مكان مولده هذا ، وكذلك بالقرطبي نسبة إلى قرطبة . وقد تزامنت معظم سنين حياته التي عاشها مع الفترة التي ازدهرت فيها الدولة الاسلامية في الاندلس ، واعتبرت احدى الفترات الذهبية في الدولة الاسلامية . ويقال إنه كانت له حظوة وتقدير كبيران لدى السلطان عبدالرحمن الناصر ثالث حكام الاندلس آنذاك نظرا لمكانته العلمية وبروزه في ممارسة وتطوير العلوم الطبية ، وقد خدمه في ذلك

كونه ولد وترعرع في هذه البقعة التي سميت بالزهراء مؤخرا لأنها كانت محببة لدى السلطان الناصر ، فاهتم بها وشجع العلماء على تطويرها لتكون مركزا علميا وأدبيا بارزا بالإضافة إلى مركز قرطبة

الطبيب والجراح

لقد برزت قابليات وامكانات هذا الرجل الكبير في ممارساته المتعددة في كل فرع من فروع الطب ، وما يهمنا هو الاضافات التي ادخلها الى الطب آنذاك سواء في حقل العلاج أو في اختراع وتصميم الآلات الجراحية المختلفة . . وقد امتلأت صفحات كتابه (التصريف) بالعديد من التصاميم والصور المختلفة للآلات والأدوات التي استعملها في الجراحة ، وكان آنذاك قد اطلع على التراث الطبي الاغريقي والفارسي ، وخرج بنتائج جمة منها أنه أكد على أهمية دراسة وفهم التشريح كأساس وضرورة لممارسة الطب في الوقت الذي كان هذا العلم غير واسع الانتشار ، فيما عدا مدرسة العالم الاغريقي (هير وفيلوس) الذي أنشأ مدرسة وذلك لتدريس تشريح الجسم البشري في القرن الثالث قبل الميلاد ، وهكذا بنى الزهراوي أساسا متينا لتطوير علوم الطب الباطني والابداع في الجراحة في الوقت الذي لم يكن الغرب يعرف عن الجراحة واساليبها ومداخلها إلا النزر اليسير،وظل الغرب على هذا النحو حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي حين ترجمت مؤلفات الزهراوي بالكامل ليتوكأ الغرب على علومها ، ويستحوذ من ثم على معظم ما جاء فيها .

وكما برع في هذين العلمين ، كذلك برع الزهراوي في علوم العقاقير والمستحضرات وكثيرا ما كان يطلق عليه لقب (الجراح الصيدلي) ، فاستطاع بذلك أن يدمج هذين الشقين في علاجات الكسور وحالات الوثي وتمزقات أربطة المفاصل . كما برع في علاج كسور العمود الفقري بشكل خاص وخطا خطوات واسعة في جراحة بتر الأطراف ولم تقتصر عمليات الجراحة التي كان يجريها ، بل برع في علاج المسالك البولية وتحطيم حصاة المثانة أيضا بواسطة أدوات وآلات من تصميمه وغير هذا كثير مما يعد في ذلك الوقت طفرة هائلة في علم الجراحة ، حتى في حقل طب الاسنان والفم فقد ذكر في كتابه (التصريف) بعض عمليات تقويم الأسنان .

الزهراوي وعلم الولادة

كان الزهراوي أول من اخترع آلة الملقط (الجفت) الذي يستعمل في توليد الجنين عندما تتأخر ولادته في المرحلة الثانية من الولادة . وقد نسب هذا الاختراع مؤخرا إلى الطبيب الانجليزي (شامبرلين) كأول مكتشف للملقط ، وهذا خطأ ، فالحقيقة أنه سابقة فريدة للطبيب الزهراوي . بالاضافة إلى أنه كان أول من استعمل طريقة اخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم خلال جدار البطن والمسماة حاليا (طريقة كريدى) والمنسوبة خطأ لشامبرلين ايضا . كما أنه استطاع أن ينقذ المرأة الماخض من خطر الموت أثناء الولادة عندما يكون الجنين مشوها أو مصابا باستسقاء الرأس بأن اخترع أداة لخرق جمجمة الجنين وافراغها من محتوياتها لتسهيل عملية نزوله ، وللزهراوى طريقة توليد مميزة استعملها في بعض الحالات ، وقد وجدت مؤخرا باسم أحد الاطباء المعاصرين . هكذا نجد أن الغرب لم يكتف باقتباس ما وصل إليه العلماء والاطباء العرب والمسلمون بل نسبوا اكتشافه لأنفسهم . والصمت العربي تجاه هذه التجاوزات ليس بجديد إذ أننا اعتدنا على الصمت حيال اغتصاب اشياء كثيرة من تراثنا وما أكثرها !

إن الكتابة عن هذا العملاق لاتكفيها صفحات قليلة ، بل إن أمجاده بحاجة إلى تقييم وتحليل مسهبين . وقد يخرج القارىء بنتيجة واحدة في كل الحالات المشابهة لتاريخ حياة الزهراوي وهي أنه حيثما توافرت الحرية الفكرية كانت طاقات الابداع وزخم العطاء وافرة ، وعلى العكس فإن الكبت وتقييد حرية الفكر أو حتى الفكر الموجه بتيارات سياسية معينة قد لاتبدع الابداع المطلوب □

العربي عيونك على العالم

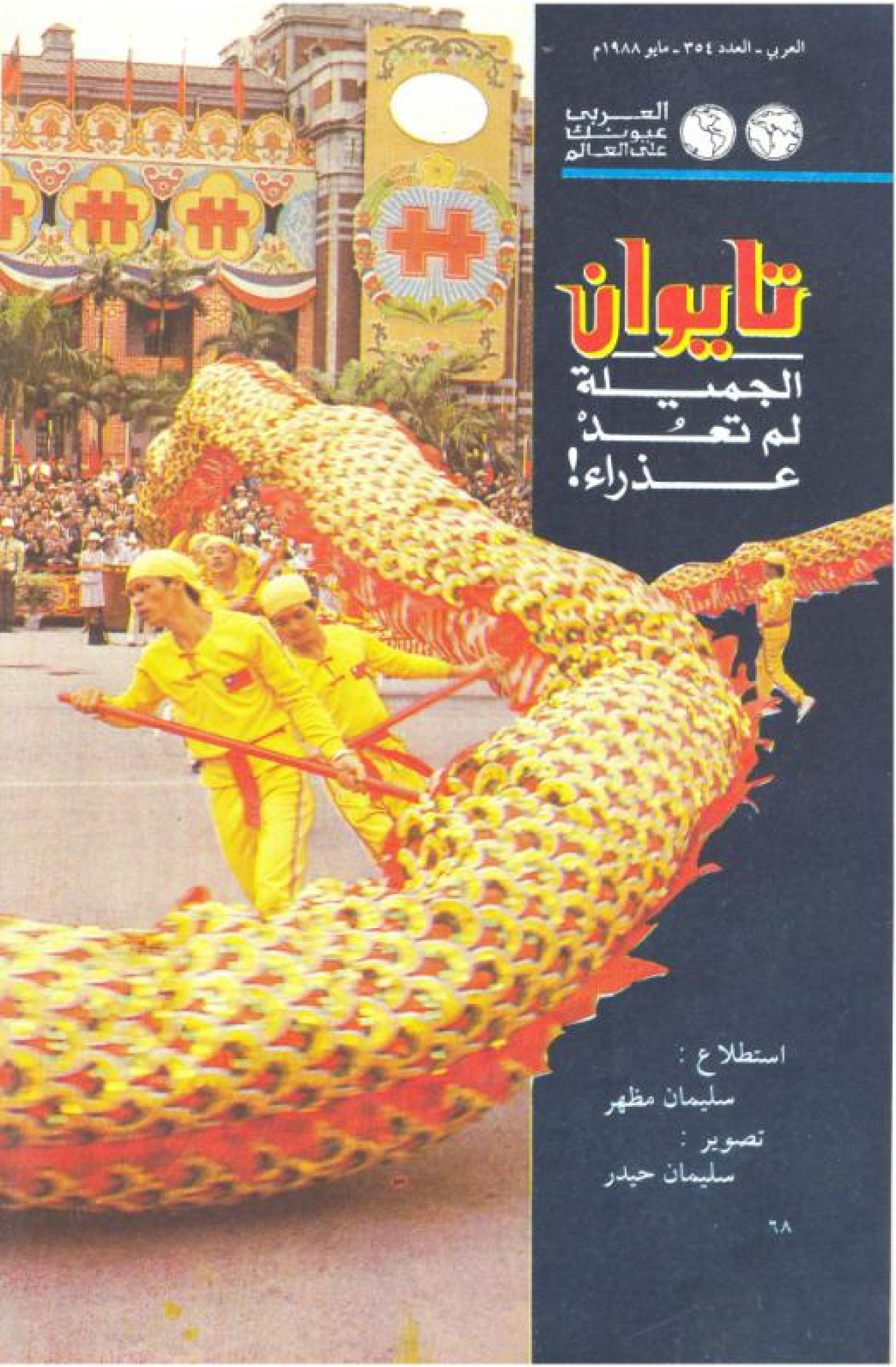

تايوان الجميلة لم تعُدْ عذراء!

استطلاع :
سليمان مظهر
تصوير :
سليمان حيدر

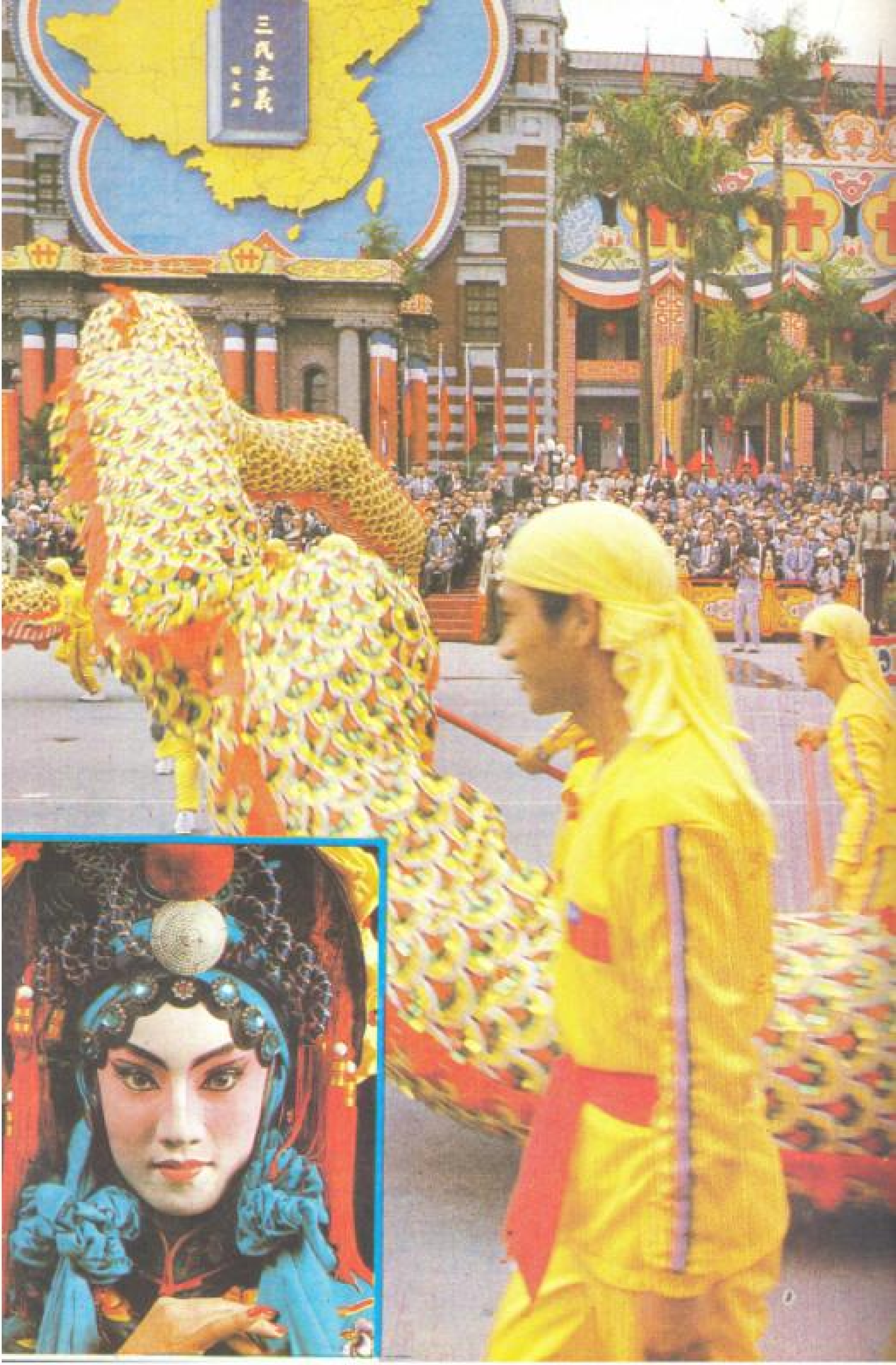
三民主義

حين نزل المستعمرون البرتغاليون عام ١٥٩٠ على ساحل الجزيرة . . تصايحوا في إعجاب « أوه . . فورموزا . . فورموزا » وكانوا يعنون بلغتهم البرتغالية « الجزيرة الجميلة العذراء » !

لكن « تايوان » الجميلة . . لم تعد عذراء ، بعد أن حملت في أحشائها شعبا جديدا ، آباؤه من المضطهدين والنازحين والمهاجرين والمطاردين والصيادين والقراصنة ، وجدوا في أعماقها موئلا طيبا ومستقرا خصبا . ونما الشعب الوليد ليصبح تنينا عملاقا جسده أسطوري ، وقلبه صيني ، وعروقه يغذيها دم من كل لون ، وراح يبني لنفسه مستقبلا واعدا عامرا بالآمال ، طوع له كل ما يملك من قدرة على الإبداع ، ليصنع ما يشبه المعجزات !

قالت لنا وهي تنتقي كلماتها بالعربية الفصحى في لكنة صينية محببة : لا تستغربوا ، فقد غير أساتذتي اسمي الصيني في الكلية إلى « عواطف الدؤلي » . . فهم يرون أنني أستحق الانتساب إلى العلامة النحوي اللغوي « أبو الأسود الدؤلي » لحرصي على النحو والصرف والنطق بلسان عربي سليم . .

وكانت بالفعل تجيد الحديث بالعربية تماما كواحدة من بناتها ، كما كانت تستخدم الكثير من الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية ، وتضعها في أماكنها الصحيحة ، رغم أنها لم تدخل الاسلام إلا حديثا ، بعد أن تنقلت في سنها الذي لم يتجاوز العشرين ، بين الفلسفة الكونفوشيوسية والعقيدة البوذية ، حتى اختارت الاسلام ولغة القرآن عن إيمان واقتناع .

ولم نستغرب ذلك كثيرا . فقد التقينا في تايوان بمسلمين كثيرين يتحدثون العربية بطلاقة ، واثنان منهم مرافقنا موسى وزميله عثمان اللذان انطلقا بنا فور وصولنا الى العاصمة « تايبيه » لنشهد المهرجان الكرنفالي الكبير في الساحة الكبرى للقصر الجمهوري ، حيث كانت تزخر بالأعلام الحمراء واللافتات زاهية الألوان ، والزينات البديعة الرائعة ، بينما الجميع مستغرقون في رقص وغناء على أنغام الموسيقا التي تشدو فتملأ الأجواء وتبعث المرح والبهجة في القلوب .

وكانت المناسبة هي اليوم الوطني الذي يحتفلون فيه احتفالا مزدوجا بإزاحة حكم أباطرة « المانشو » في ١٠ أكتوبر ١٩١١ ، وبإعلان الدكتور « صن يات سين » قيام جمهورية الصين الوطنية في أول يناير عام ١٩١٢ في الأرض الأم ، على أساس المبادىء الثلاثة للشعب : « القومية والديمقراطية ، والرفاهية الاجتماعية » وهي المبادىء التي حملها معه « شيانج كاي شيك » وأنصاره ورجال « الكومنتانج » حين اضطروا للانتقال الى عاصمتهم الجديدة « تايبيه » ، بعد أن سيطر النظام المناهض لهم على الوطن الأم ، وبدأوا يصنعون المستقبل الجديد في الموطن الجديد . . تايوان .

جزيرة الكرنفالات

اسم « تايوان » لم يعد غريبا على آذان الكثيرين منذ أغرقت أسواق العالم منتجات صناعية من كل لون وبمختلف الأشكال وأقل الأسعار ، تحمل العلامة التجارية للصين الوطنية . ولكن أغلب الذين سمعوا وعرفوا قد لا يتصورون أن تايوان ليست أكثر من جزيرة يبلغ طولها ٣٩٤ كم وعرضها في أكثر مناطقها اتساعا ١٤٤ كم ، يسكنها هي وتوابعها أقل من عشرين مليون نسمة ، ولا تزيد نسبة مساحتها عن ٤ في الألف من مساحة الصين الأم . . ثالث أكبر دولة في العالم مساحة ، وصاحبة أكبر عدد من السكان يتجاوز عددهم ١٢٠٠ مليون نسمة . وتبدو تايوان إلى جانب الصين الكبرى جزيرة قزمية على شكل سمكة تستلقي في مياه بحر الصين ، يفصلها خليج فورموزا غربا عن الساحل

الجنوبي الشرقي للصين الشعبية القارية بمسافة حوالي ٢٠٠ كم ، كما لا تبعد كثيرا عن هونج كونج والفلبين في الجنوب وكوريا في الشمال ، ويتجه رأسها الى اليابان في الشمال الشرقي . وفي السنوات الأخيرة ألغت تايوان اسم فورموزا الذي أطلقه عليها البرتغاليون ، ولم تتحول إلى جمهورية مستقلة إلا بعد أن انتقل إليها شيانج كاي شيك يوم ٧ ديسمبر ١٩٤٩ وأعلن تايبيه عاصمة انتقالية جديدة لجمهورية الصين الوطنية .

الفلاحون يرقصـــون

قبل أن تشهد الاحتفال الرسمي بالعيد الوطني ، تذكرنا ما قاله لنا صاحبتنا :

ـ ترون أننا شعب يحب المرح والرقص والموسيقا والغناء .. توارثنا ذلك عن الأمهات والآباء . وتناقلنا عنهم أغانيهم وموسيقاهم ورقصاتهم وحتى حكاياتهم الشعبية .. وإحدى هذه الحكايات تحكي حسب ما جاء في الأساطير القديمة أن « التنانين » كانت منذ عهد بعيد تتواثب وهي ترقص وتغني مرحا في مياه الشاطيء الصيني ، وتقلب في صخب رمال القاع . ومن هذه الرمال المقتلعة أقامت التنانين جزيرة على شكل سمكة أسطورية ملونة تستلقي في هدوء على مياه بحر الصين .. هي تلك الجزيرة التي نعيش عليها الآن .. تايوان ...!

التنين الصيني

حكاية التنين والرقص والغناء هي أبرز العروض التي شهدناها خلال المهرجان الكرنفالي الكبير . بدأ العرض باقتراب التنين الرمزي الضخم بألوانه الزاهية محمولا على الأعناق والأكتاف ، ليسيطر على الساحة بين أنغام الموسيقا الصاخبة . طول التنين البلاستيكي المنفوخ بالهواء لا يقل عن مائتي متر وهو يتحرك راقصا صاخبا ، ويحمل أطرافه أكثر من مائة من الراقصين في الملابس التقليدية يدورون ويقفزون ، وهو يتلوى ويتثنى بين صفوفهم بطريقة مثيرة ، في رقصات غاية في الدقة والبراعة والتناسق والتناغم والجمال . ومن فم التنين تنطلق نفثات دخانية متباينة الألوان وكأنها انطلاقات ألسنة اللهيب المستعر يرسلها خلال رقصته المجنونة الثائرة . ولا تهدأ ثورته إلا حين تحيط به مواكب الزهور التي تضم

خريطة لتايوان المستلقية بجوار الصين الأم ..

فتيات في عمر الزهور ، يرقصن في أزياء تمثل التنانين الصغيرة وسط الورود والرياحين الزاهية الألوان .

وإذ يستمر العرض تتذكر صورة التنين كما تعرفها وتراها مرسومة أو منحوتة في مختلف المعالم التاريخية والدينية ، وفي رسوم الفخاريات الفنية وعلى جوانب الطائرات والفوانيس الورقية التي تنتشر في كل مكان في الصين .

مهرجان الزهور والألوان

ونعود لمتابعة عروض المهرجان ...

موجات جديدة من طالبات الكليات والمعاهد العليا في أزياء متباينة الألوان ، كل مجموعة بلون خاص ، يحملن الورود أو البالونات والأعلام أو المراوح ، ويتلاعبن بها في تشكيلات بديعة ، لينتهي موكبهن بزهرات في زي الفراشات تتراقص أجنحتهن الحريرية المفتوحة ذات الألوان الزاهية المبهجة . وتتابع موجة إثر أخرى من الصغيرات اللاتي يقدمن استعراضا رائعا بطول الساحة وعرضها في تشكيلات من الألعاب والرقصات وباقات الزهور . ثم تطلق آخر مجموعة منهن بالوناتها الملونة لتطير فتغطي سماء الساحة متراقصة هي الأخرى في تناغم وتنسيق متكامل غاية في الإبداع .

طوابير العرض في الساحة الكبرى .. وصورة « صن يات سين » تتصدر واجهة القصر (الى اليمين) . وفتيات في عمر الزهور خلال الاستعراض الراقص في المهرجان الشعبي (الصفحة المقابلة) . بينما تطير فراشة بشرية وهي تراقص بأجنحتها الحريرية ذات الألوان الزاهية (أسفل) .

ولاستكمال الجو الاحتفالي والعيون مشدودة إلى السماء ، يجري عرض جوي بالطائرات التي تنفث خيوطا طويلة ملونة وتقدم تشكيلات بهلوانية يؤديها طيارون مبدعون ، قبل أن يهبط المظليون من الأجواء لينزلوا في ساحة المهرجان .

وتتوالى العروض . . ويتقدم موكب الزهور ولاعبات الاكروبات والألعاب البهلوانية المثيرة على الدراجات البخارية مما يستقطب أنظار الجماهير المتابعة لهن في انبهار يحبس الأنفاس . كما تتوالى جموع المؤدين لمشاهد الأقنعة والأسود في عروض تمثيلية متميزة ، لينتهي المهرجان بطوابير العسكريين والمجندات والملائكة البيضاء والفلاحات والعاملات في مشاهد رائعة مثيرة .

ولأن تايوان بلد الأعياد والمهرجانات ، فإن الاحتفالات تتكرر مرة أخرى في المهرجان الغنائي الموسيقي الشعبي الذي أقيم على مسرح الدولة الكبير في المساء . وتشاهد عروضا استعراضية أخاذة حاوية الكثير من فنون المرح والتسلية . بعض العروض تقدم ألعابا تكريبة تمثيلية فكاهية يشارك فيها الأطفال ، من بينها مشاهد لمجموعة من الصغار وقد صبغت وجوههم بخطوط ذات لون أحمر زاه لتماثل أشكالهم هيئة القرود في القصة الأسطورية القديمة « رحلة الى الغرب » حيث يقدمون أعمالا تمثل القوى السحرية الخارقة . وضمن العروض تشهد رقصة الأسد الفولكلورية التقليدية يقدمها رجال يدخلون في جسم لأسد رمزي ، يؤدي كل منهم ببراعة تامة وتناسق حركات الأسد الحقيقية حين يفرقع بفمه ويطبق أسنانه ويصدر الزئير والصيحات التي تثير إعجاب المشاهدين . وينتهي الحفل بمشهد من أجمل المشاهد يؤديه صغار لا تتعدى أعمارهم الرابعة ، يعرضون قصة الصيادين الذين جاءوا ينصبون شباكهم لاصطياد العصافير ، ولكنها تتجمع وتتكتل معا حتى توقع الصيادين في نفس الشباك . . !

في الليل نجد أنفسنا في غمار الزحام الكبير في الساحة الواسعة التي تتوسط القصر الجمهوري وقاعة صن يات سين التذكارية والضريح الضخم لشيانج كاي شيك . الباحة تتألق بالأضواء الملونة والأعلام الحمراء التي تتدلى على الجدران ، وفي كل ركن منها تقدم عروض وألعاب بهلوانية مثيرة ، وتنطلق طوال الليل الألعاب والصواريخ النارية تشد أنظار عشرات الآلاف من العمال والفلاحين القادمين من المدن والقرى المجاورة ليسهروا طول الليل في رقص وغناء ، وهم يتبادلون التهاني بالعيد الوطني الكبير ، ويشعرون أنهم يستحقون المزيد من الاحتفالات ، فهم يرون أنفسهم رموز التقدم والازدهار والرخاء الذي يعيش فيه شعب تايوان . . .

مجتمع إنتاجي

يقول مرافقنا وهو يشير إلى الكتل المتزاحمة من الفلاحين والعمال : لقد حقق هؤلاء من خلال جهدهم وكفاحهم زيادة لا تصدق في الإنتاج . وهو إنتاج لا يغطي فقط احتياجات الغذاء لهذه الأرض المكتظة بالسكان ، بل يحقق فائضا ضخما من المحاصيل الزراعية يتم تصديره بملايين الدولارات التي تشكل عائدا هائلا لموارد البلاد . وقد أوجدت القوة الشرائية المتنامية للمزارعين أسواقا جديدة للمنتجات الصناعية ، مما عزز الصناعة الحقيقية وشكل أساسا سليما للبرنامج المبكر للبناء من جديد .

ويتم ذلك من خلال السياسات الاقتصادية الهادفة للوفاء بالحاجات الأساسية للشعب ، وهي الغذاء والكساء والاسكان والاتصالات والتعليم ثم الرفاهية والاستجمام . ولا شك أن تحقيق هذه الأهداف على نحو منصف وعادل جاء نتيجة المساواة في ملكية الأراضي وفي الثروة الاجتماعية . هذه المساواة أدت إلى التحسن الكبير في رفاهية الشعب والى التنمية الصناعية للبلاد .

ويمكن إدراك أن كل خطة إنمائية استطاعت أن تحقق أكثر مما كان متوقعا منها ، بفضل دأب هؤلاء الفلاحين والعمال وشجاعة التخطيط وكفاءة القيادات . والنتيجة هي إقامة مجتمع إنتاجي ذي صورة مدهشة لعل شعبه من بين أسعد شعوب العالم .

ازدهار اقتصادي

والحقيقة أن الازدهار الاقتصادي يسير بخطوات سريعة متطورة في جمهورية الصين الوطنية التي لا يعترف بها دبلوماسيا سوى ٢٢ دولة ، لكنها تتعامل تجاريا واقتصاديا مع دول العالم كافة ، بما فيها الصين الشعبية ذاتها ، التي وصل حجم التجارة معها من

خلال هونج كونج الى ١١٤٠٠ مليون دولار أمريكي . والمثير أن الميزان التجاري الخارجي الذي كان يحقق عام ١٩٧٦ فائضا يبلغ ٥٦٧ مليون دولار ، قد حقق عام ١٩٨٦ فائضا يقدر بحوالي ١٦ ألف مليون دولار أمريكي ، حتى أن تايوان أصبحت هي الدولة الثانية في العالم - بعد اليابان - التي تحقق فائضا يتزايد باستمرار في ميزانها التجاري ، كما أن الاحتياطي النقدي المتراكم في خزائنها قد تجاوز ٣٠ مليار دولار .

ولتأكيد صورة هذا الازدهار تقول الأرقام ان إجمالي الانتاج القومي تجاوز ٦٠ بليون دولار عام ١٩٨٥ مع معدل نمو تجاوز نسبة ١٠٪ سنويا . أما دخل الفرد السنوي الذي لم يكن يتجاوز ١٠٠ دولار في عام ١٩٥٢ فقد بلغ في نهاية عام ١٩٨٦ حوالي ٣٧٥١ دولارا يرتفع مع نهاية هذا العام الى ٥٠٠٠ دولار ، وهي إحدى أعلى النسب في العالم ، وتكاد تضع تايوان في مصاف الدول المتقدمة ، وإن كانت لا تصل الى مستويات اليابان التي تتجاوز ١٥ ألف دولار للفرد سنويا .

قال لنا الدكتور يومنج شو وزير الاعلام « إن الحكومة تبحث الآن - مع وجود الفائض النقدي الضخم - تشكيل مؤسسة لاقراض الدول النامية بفوائد مبسطة وعلى آجال طويلة ، كما يجري بحث اقتراح بتخصيص ١٠ مليارات دولار تقدم للدول النامية كمنح لا ترد .

وقد حقق العام الماضي ازدهارا اقتصاديا وسياسيا كبيرا .. وأدى ذلك إلى أن سمحت الحكومة منذ شهر يوليو الماضي للأهالي باستبدال أي كمية من العملة المحلية الى أي عملات صعبة وأن يودعها في أي بنك دون قيود ، بالاضافة الى السماح لأي شخص أن يحول سنويا في حدود خمسة ملايين من الدولارات الأمريكية أو ما يعادلها الى الخارج لأي غرض » .

ولكن .. هناك شيئاً يجب ألا ننساه ...

فالواقع أن هذه الصورة المزدهرة التي تعيشها تايوان ، ما كان يمكن أن تتحقق إلا من خلال تدفق الأموال الأميركية التي انهالت عليها - وما تزال - في صورة مساعدات ومعونات واستثمارات ورءوس أموال وتقنية متقدمة ، هدفها الرئيسي أن تبدو تايوان في صورة متألقة جذابة متطورة ، لتكون شوكة في جنب الصين الشعبية .

فمنذ تبنت الولايات المتحدة الامريكية شيانج كاي شيك لمواجهة النظام الشيوعي في الصين الأم ، انهالت المعونات الامريكية عسكريا واقتصاديا بشكل مباشر وفي أقصى نطاق ممكن ، كما انهالت المساعدات في سخاء أمريكي فريد ، وتدفقت مئات الملايين من الدولارات وملايين الأطنان من الذخائر والأسلحة على جمهورية الصين الوطنية . وكان كل ذلك وراء الازدهار الذي شهدته تايوان«والأموال الامريكية تتدفق كالشلال عليها ، وهو أمر لا ينكره في الحقيقة جميع المسئولين على جميع المستويات .

وكان علينا أن نعود الى التاريخ ونقلب صفحاته ...

من عمق التاريخ

في القديم كانوا يسمونها « جزيرة الكنز » (باو - داو) ، فهي عندهم جنة عدن الخضراء ، ببحارها الزمردية وشمسها الذهبية ، الغنية بمواردها ، الخصبة بأرضها ، الواعدة بالأمل والقوة الكامنة .

هكذا كانت تايوان في نظر سكانها الأقدمين ... !

حكايات الكنز الموعود اجتذبت الكثيرين على مدى التاريخ . كان القراصنة والمطاردون والمنفيون والمغامرون والتجار والمزارعون والصيادون جميعا يهربون من الشواطىء المزدحمة في الصين الكبرى تجذبهم مغناطيسية قوس قزح . !

ووجد الصينيون أن الخضراوات والفواكه تنمو بسرعة وفيرة في أرض الجزيرة الخصبة ، بعكس ما كانت تمنحه أرضهم الأصيلة . كما أن بطن الأرض عامر بالمصادر المعدنية من فحم وحديد وكبريت مما يشجع على إقامة مجتمع جديد ، وهي غنية بالأحجار الكريمة من الجاديت الأخضر والأوبال والمرجان مما يغذي اتجاهاتهم الفنية في الصناعات اليدوية التقليدية .

ومع مر السنين تحولت تايوان لتصبح مركزا للتبادل التجاري الحر بخطوط ملاحية مع الصين واليابان وهونج كونج ، أبرز ما تنقله سفنها البضائع المهربة بعيدا عن عيون الجمارك .

ثم تتابعت الغارات على تايوان . وجاء اليابانيون والهولنديون الذين راحوا يعلمون الصينيين كيف

كل بنات تايوان يشاركن في الكرنفالات .. حتى فتيات القبائل التقليدية من الجنس الأصيل الذي يعيش في الجبال يقدمن رقصة « الباي باي » (الصورة العليا) . أما فتيات الجيل الجديد من طالبات الجامعات المجندات فيسرن في خطوات عسكرية رشيقة (في الوسط) . بينما الزهرات الصغيرات من الجيل الجديد يتلاعبن بالورود والمراوح والبالونات في تشكيلات غاية في الابداع (أسفل) .

وعلى الصفحة المقابلة ثلاثة مشاهد من المهرجان تشترك فيها العصافير الصغيرة والفتيات الراقصات .. مع فرحة الصغير على كتف أبيه .

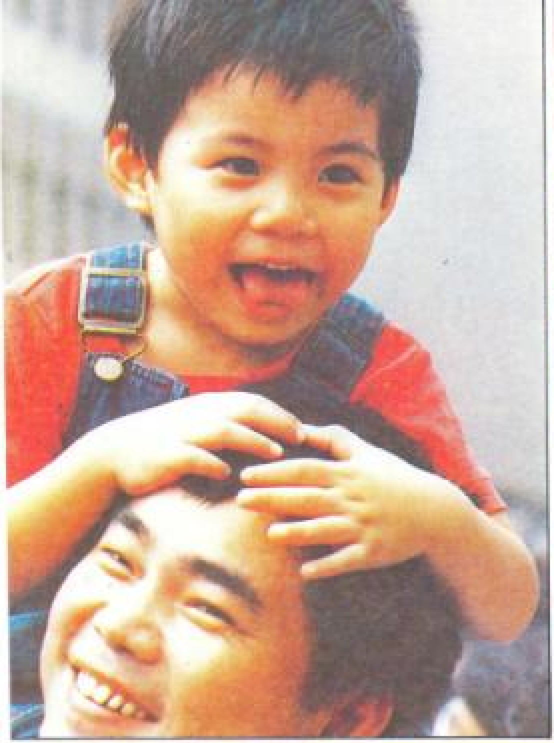

يخلطون الدخان مع الأفيون ليدخنوه . واستطاعت أسبانيا أن تضع أقدامها على أرض الجزيرة حيث أقامت قواعد لها في الشمال كانت موضع هجمات الهولنديين الذين تمكنوا من طردهم عام ١٤٦٢ . وفي نفس العام غزا « المانشو » القادمون من منشوريا جميع أنحاء الصين بما في ذلك تايوان ، وامتد حكمهم من عام ١٦٤٤ حتى عام ١٩١١ . وهو حكم آخر عصور الأباطرة في الصين .

في وسط تلك الفترة جرت أحداث أعادت تايوان الى سجلات التاريخ .. فقبل أن تصل جيوش المانشو إلى بكين وجه آخر أباطرة « منج » ، قائدا من رجال تايوان البحريين اسمه « شنج شي لونج » ليقود بقايا جيوشه . وعندما شنق الامبراطور نفسه بعد هزيمته ، قرر القائد « شنج » أن يحتفظ بالقوات التي بين يديه ، ثم تزوج فتاة يابانية أنجبت له ولدا أسماه « شنج شنج هونج » وحمل الابن لواء أباطرة منج بعد رحيل أبيه وعرف باسم « كوكسنجا » .

البطــل القــومي

على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل وأسطول يضم ثلاثة آلاف سفينة شراعية واصل « كوكسنجا » الحرب ضد المانشو لمدة اثنتى عشرة سنة من عام ١٦٤٦ ، واستطاع أن يستعيد العاصمة الجنوبية « نانكنج » ، غير أن جيوش المانشو عادت فأرغمته على التراجع الى سواحل تايوان ، حيث قطع نفس الطريق الذي قطعه بعده بثلاثمائة عام ، القائد العسكري الجمهوري « شيانج كاي شيك » .

في تايوان واجه كوكسنجا المستعمرين الهولنديين الذين اعتبروه قرصانا استهانوا به . وفي عام ١٦٦١ أبحر كوكسنجا الى الشاطىء على رأس ٣٠ ألف مقاتل في أسطول شراعي كبير ، وأرغم ثلاثمائة مقيم و ٢٢٠٠ جندي هولندي على الانسحاب والتحصن في ثلاثة حصون ساحلية ، وتواصل الحصار لمدة عامين استطاع كوكسنجا بعدها الاستيلاء على قلعة زيلندا ، وسمح للقائد الهولندي ومن بقي حيا من رجاله بمغادرة الجزيرة . ومنذ تلك اللحظة بدأت الهجرة الصينية الكبرى عندما تبع كوكسنجا الكثير من الصينيين للاستيطان في تايوان وهم الذين يشكلون الآن الغالبية العظمى للسكان الحاليين الذين يعرفون بالتايوانيين .

ومع انسحاب اليابانيين والأسبان والهولنديين أصبحت تايوان من ممتلكات كوكسنجا ، الذي حكمها باقتدار كبير ، وتمسك بالتقاليد والفنون والثقافة التقليدية الصينية . ولكن فترة حكمه لم تدم أكثر من سنة واحدة إذ مات في سن الثامنة والثلاثين ، واعتبره أهل تايوان بطلا قوميا برغم أن الجزيرة سقطت - لضعف أبنائه - في يد المانشو بعد أربعة وعشرين عاما .

وإذا كان كوكسنجا يعتبر بطلا قوميا عند أهل تايوان ، فثمة رجل يعتبرونه بطلا قوميا آخر ، وصانعا لتاريخهم الحديث . إنه « شيانج كاي شيك » ، الذي أقاموا له نصبا تذكاريا وتمثالا ضخما ، ولا يمكن لأي زائر لتايبيه إلا أن يضعه في برنامجه ويدور في متحفه الذي يحكي تاريخه .. بالقلم والريشة والصورة .. والتسجيل السينمائي .. !

المتحف والنصب التذكاري

اخترقنا بين البوابة الرئيسية وقاعة النصب التذكاري ممرا طوله ٣٨٠٠ متر ، لتصعد ٨٩ درجة تصل بنا الى مدخل القاعة التي يبلغ ارتفاعها ٧٠ مترا ، يعلوها برج ذو إفريزين دائريين مضلعين من القرميد الأزرق . يتوسط القاعة تمثال برونزي ضخم للرئيس شيانج كاي شيك ارتفاعه أكثر من ستة أمتار وزنته ٢٥ طنا . وعلى الجانبين المحيطين بالجدار وراء التمثال نقش مكتوب يلخص فلسفته في الحياة : « أن تعيش هو أن تخلق حياة طيبة لكل الناس » . . .

ونتنقل إلى قاعات المتحف الخاص الذي يحكي تاريخ الرئيس شيانج . ومن خلال الصور والرسوم والمعلقات الخاصة والنياشين والوثائق وصفحات الصحف والمجلات وبخاصة الأمريكية نتابع تفاصيل الأحداث في حياته التي وزعت على إحدى عشرة قاعة لكل منها عنوان موضوعي :

الانحدار من عائلة ذات أصل ونسب ، طالب نجيب وثائر بطل ، الالتحاق بالأكاديمية العسكرية والانضمام للثورة الوطنية ، البعثات الشرقية ، البعثة الشمالية والوحدة الوطنية ، حمله لواء مناهضة الشيوعية ، الخلاص الوطني والمقاومة ضد الغزاة ،

الوقوف في وجه الاتجاه الشيوعي ، الاندماج من أجل الاحياء الوطني ، الاسهام في العلاقات الدولية، الحزن المروع لفقد البطل القومي . . .

قصـــة الثـــورة

في سجل التاريخ الحديث المعروض في قاعات متحف شيانج كاي شيك عرض لكل ما يتفق مع الصورة المضيئة لبطل قومي . ولكن هناك أشياء أخرى تم التجاوز عنها ولم يأت ذكرها أو تصويرها كما شهدها تاريخ الثورة الصينية ، وكما ذكرتها المراجع والكتب المعاصرة التي تحكي قصة هذه الثورة وأحداثها . . !

ونعود مرة أخرى لنقلب صفحات التاريخ . . .

تحت حكم « المانشو » ، رزحت الصين تحت نير دكتاتورية استبدادية وطغيان إقطاعي لا يعمل حسابا لمئات الملايين من الفلاحين الذين كانوا يمارسون حياة شاقة بالغة القسوة . وإذا كانت أسرة المانشو ـ وبخاصة في القرن الثامن عشر ـ قد أغلقت أسوارها على نفسها في وجه التجار الاوروبيين الذين حاولوا دون جدوى اختراق أبواب الصين ، إلا أن الوضع انقلب تماما لسوء حظ الصين مع بداية القرن ١٩م .

كانت الدول الاوروبية في ذلك الوقت تعيش ثورتها الصناعية الكبرى ، مزيحة المجتمع الزراعي القديم ، ومصوبة عيونها نحو الصين وجاراتها الآسيوية ، على أمل أن تستولي على خاماتها لتشغيل مصانعها ، وعلى منتجاتها الزراعية لتأمين الطعام لشعوبها ، بالاضافة إلى إخضاعها لسيطرتها لتكون ميدانا لأسواقها .

وقع الصدام المفتوح في هذا الاتجاه ضمن سلسلة ضربات موجهة ضد الكرامة الوطنية للصين . ففي سنة ١٨٤٢ شنت بريطانيا حرب الأفيون ضد الصين . وأتيحت الفرصة للاستعمار بكل أشكاله ودوله للانقضاض وإنشاب مخالبه لاقتطاع ما يريد من جسد الصين . وكان لابد من اليقظة وقيام ثورة كاسحة سواء ضد آخر حكام المانشو الضعاف المتخاذلين أو ضد الغزاة المستعمرين . ولكن الخلافات والأيديولجيات والخيانات شقت صفوف الثوار حتى انتهى الأمر إلى حرب أهلية داخل الصين نفسها . . حيث لعب شيانج كاي شيك دورا يستحق التسجيل .

فقد سار الجنرال على درب « صن يات سن » الذي أقام حزب « الكومنتانج » (جمعية تجديد الصين) ورفع علم الثورة على فساد المانشو مما أدى إلى سقوط الامبراطورية وقيام الجمهورية برئاسة الدكتور صن ، وعندما تولى شيانج كاي شيك القيادة بعد موته عمل على إعادة البناء الوطني ومواجهة المعتدين اليابانيين الذين احتلوا منشوريا وأجزاء من الصين وتايوان . وواصل الجنرال قيادة الشعب الصيني في مواجهة الغزو الياباني حتى انتهت الحرب العظمى الثانية باستسلام اليابان واستعادة الأراضي المحتلة . وبعد وضع الدستور القائم على أساس مبادىء الشعب الثلاثة للدكتور صن ، انتخب الجنرال أول رئيس دستوري في التاريخ الصيني عام ١٩٤٥ ، وزار تايوان للاعلان عن انتهاء الحكم الياباني . غير أن الحزب الشيوعي الصيني كان قد بدأ حركته لضرب حزب الكومنتانج وبدأ الزحف للاستيلاء على السلطة . وبرغم المقاومة الشديدة لم يجد الجنرال إلا أن ينتقل بحكومة جمهورية الصين الوطنية عام ١٩٤٥ إلى مقاطعة تايوان لمواصلة البناء الوطني من العاصمة الجديدة تايبيه . وانتقل مع حكومة الكومنتانج إلى تايوان ما يزيد على مليونين من المؤيدين من بينهم الجنود الذين اشتركوا في الحرب الطويلة ضد اليابانيين وبعد ذلك ضد الشيوعيين .

كانت تايوان في ذلك الوقت متخلفة تماما بعد أن استغلها اليابانيون مدة خمسين سنة باعتبارها مصدرا لتزويدهم بالمحاصيل الزراعية . وبدأت حكومة الجنرال عملية إعادة البناء بمساعدة الصينيين التايوانيين لتحويل المقاطعة المتخلفة إلى طراز للمجتمع الصيني الحديث الذي تنبأ به الدكتور صن يات سن . ولأول مرة أتيحت لجمهورية الصين الوطنية الفرصة لتنفيذ مبادىء الشعب الثلاثة دون التدخل العسكري . وكان أساس السياسات الاقتصادية للمبادىء الثلاثة هو الوفاء بالحاجات الست الأساسية للشعب : الغذاء ، والملبس ، والاسكان ، والاتصالات ، والتعليم ، والرفاهية والاستجمام . ومن خلال تنفيذ هذه السياسات شهدت تايوان الازدهار الذي حقق ما يشبه المعجزات في عهد حكومة الكومنتانج . . .

عندما تخترق البوابة الرئيسية الى قاعة النصب التذكاري الضخم للرئيس شيانج كاي شيك تلفت نظرك فخامة المدخل بشكله التقليدي ، وأفاريزه المسقفة بالقرميد الأزرق .. بينما القاعة المنقوشة المزخرفة بالديكور البارز في سقفها يتوسطها تمثال برونزي ضخم لشيانج شيك ارتفاعه أكثر من ستة أمتار .. ولا تكاد تترك النصب التذكاري حتى تدخل في خضم الطرق المحيطة التي تبدو ساحات حية كلها حركة دائبة زاخرة بالحياة .

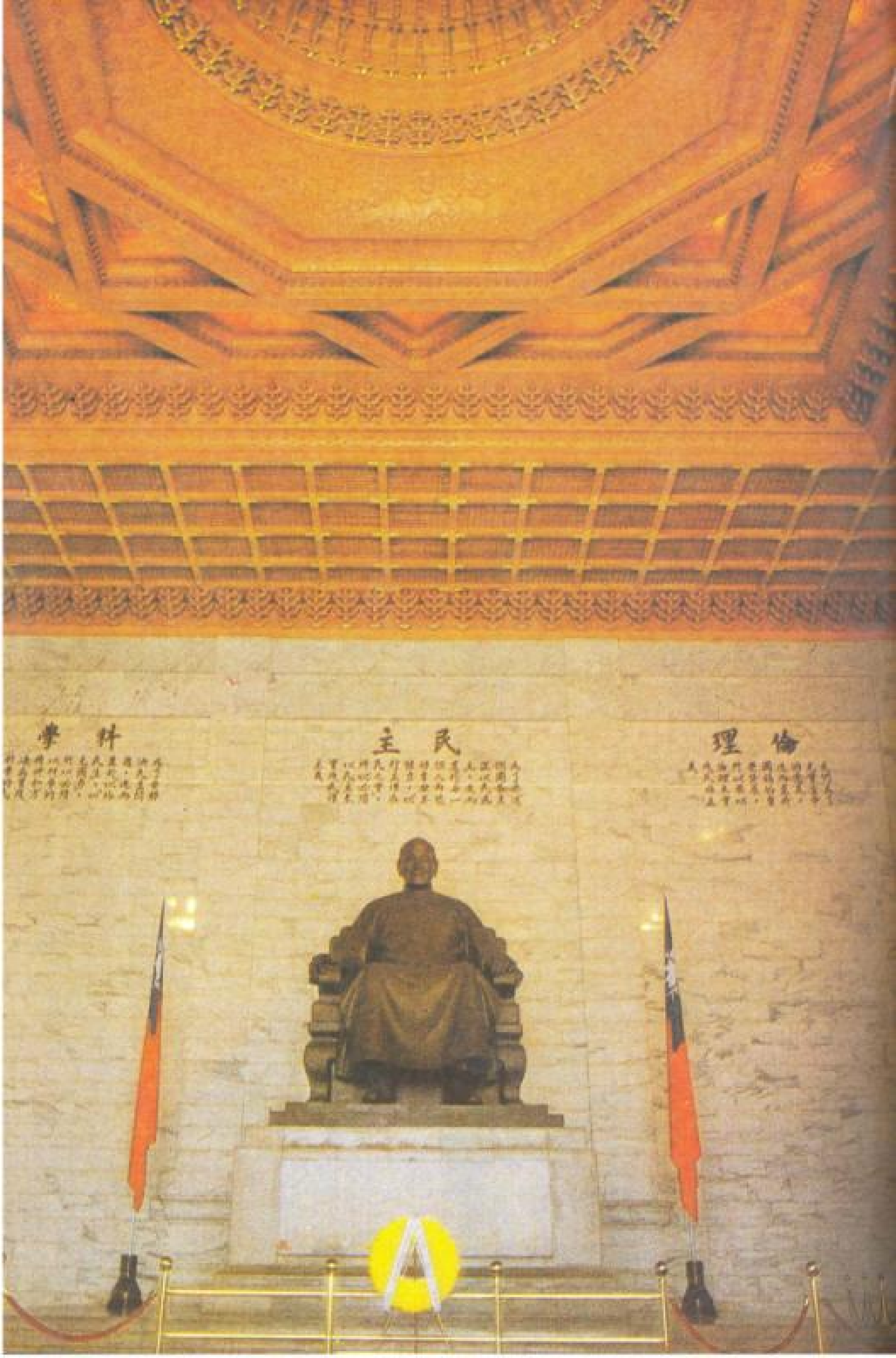
倫理
民主
科學

باي باي .. تايوان !

الجميلة ولو لم تعد عذراء .. ما تزال آية في الجمال والابهار.

وهل أروع من جمال ثقافي زاخر بكل الألوان الفنية والرقص والغناء والموسيقا والتمثيل والأوبرا والنحت والخط والابداع في أعمال الخزف والبشب والسيراميك والزخرفة والرسم والتلوين ؟!

وإذا كنا قد شهدنا في الاحتفال الكرنفالي بالعيد الوطني ألوانا رائعة من المرح والموسيقا والغناء والاستعراضات، إلا أن ذلك قليل من كثير مما تزخر به أيام تايوان من احتفالات ومهرجانات وأعياد وعروض شاملة لكل الفنون، تمشيا مع المبادىء الثلاثة التي أعلنها الدكتور صن الذي دعا إلى تطوير هوية وطنية وحكم ديمقراطي والاهتمام برفاهية الشعب، وهي أفكار وتعاليم ما تزال تؤثر تأثيرا كبيرا على الشعب الصيني في تايوان الذي ما يزال يؤمن بأنها مستوحاة من المبادىء الكونفوشيوسية التي تركز على أهمية العلاقات الأخلاقية بين جميع الناس وأهمية كرامة الانسان، وهدفها الخير والحرية والمساواة والاخوة على أساس المعتقدات الصينية القديمة، كما أنها تؤمن بأن التسلية والترفيه هي إحدى الحاجات الرئيسية لحياة الشعوب ...

من هنا كانت الأعياد والمهرجانات من أبرز معالم الحياة في تايوان. وهي لا ترتبط فقط بالمناسبات الوطنية ولكن بالمناسبات الدينية والتقليدية منها بوجه خاص.

الاحتفالات المحلية الدينية التي تجرى للآلهة الحامية للشعب في تايوان تسمى « باي باي » وتتميز بمهرجانات زاخرة بالألوان نهارا، والسهر والمرح والولائم ليلا، حيث تبدأ دائما بتقديم الطعام والشراب على الموائد لأرواح الأسلاف والآلهة التي تتناولها أولا حتى تشبع بطبيعتها الروحانية التي لا تتغذى بالماديات، تاركة للمحتفلين بقايا الطعام ليتناولوه، وهو بالطبع كل ما وضع على المائدة من أطعمة دون أن ينقص منها شيء مادي.

تقام أبرز الأعياد الدينية في ذكرى ميلاد كونفوشيوس معلم الصين العظيم منذ ٢٥٠٠ سنة، حيث يحتفل به كل الصينيين تحت اسم « عيد المعلم ». تبدأ الاحتفالات مع مطلع الفجر في المعابد الكونفوشيوسية بجميع أنحاء تايوان، وتتضمن عزف الموسيقا على الآلات الموسيقية القديمة، والرقصات الطقوسية التقليدية، وعرضها الواحدة تلو الأخرى من الفنون المستوحاة من الطقوس الكونفوشيوسية.

المعلم الفيلسوف عرف في جميع أنحاء العالم بتعاليمه الأخلاقية. فالأخلاق مطلبه وهمه الأول، وعلاج المجتمع لا يتأتى إلا بتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم. والانسان الكامل الأسمى في رأيه يتمتع بفضائل ثلاث هي الذكاء والشجاعة وحب الخير. والقاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعا، وألا يغضبه أن يسمو غيره من الناس. وهو يجمع الصفات الخلقية لهذا الرجل الأعلى في عبارة تبدأ بها الاحتفالات الكونفوشيوسية في جميع أنحاء تايوان يرددها المحتفلون جميعا: « يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور: فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح، وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا، وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقورا، وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصا، وفي تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته وأن يبعث الاحترام فيمن معه، وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس، وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب، وإذا لاحت له المكاسب فكر في العدالة والاستقامة ».

إيمانا بتعاليم كونفوشيوس وتمجيدا له يستمر الاحتفال بمولده منذ الفجر وطوال اليوم.. ويشارك الشباب والطلبة صغارا وكبارا في تقديم رقصات تقليدية وموسيقية تعبيرا عن احترامهم لمعلم الصين الأول.

الاحتفالات القمرية

احتفال آخر له قيمته هو الاحتفال بأول السنة القمرية. في ذلك الوقت يتوقف كل شيء.

فالاستعدادات قائمة في كل بيت في الليلة الأخيرة من السنة المنتهية. وقبلها بأسبوع يكون إله الطبخ وإله

الثروة قد صعدا لتقديم تقريرهما الى إله السماء حول ما يجرى في البيوت . وخلال الأيام السبعة يكون كل إنسان مشغولا بتنظيف البيت وإعادة صباغته وتلوينه وبإنجاز كل المشتريات والأطعمة المطلوبة من السوق ، وتزيين الغرف بالأزهار والورود ، وتعليق صور الألهة الحارسة على مداخل الأبواب . . .

وعند غروب شمس الليلة الأخيرة تجتمع العائلة كلها داخل البيت ، بينما تكون جميع الأبواب قد ختمت بالشمع والورق الأحمر لمنع ثروة العائلة من الهروب . وتبدأ المأدبة الكبيرة التي تكون قد أعدت خصيصا لهذه المناسبة . وقبل تناول الطعام يحني كبير العائلة رأسه ويتبعه الأخرون لتقديم تحية التكريم للأسلاف . وعندما ينتصف الليل تجرى إزالة الأختام عن الأبواب لاستقبال الأمال والتمنيات الطيبة للعام الجديد . ثم تنطلق الألعاب النارية لتغطي السماء وتظل مستمرة حتى الفجر . ذلك هو اليوم الوحيد من السنة الذي تخلو فيه جميع الشوارع من الناس لوجودهم داخل البيوت ، والذي ينتهي عادة بجلوس رب العائلة لتلقى تهاني جميع أفرادها ، ويتلقى الصغار منه هدايا العيد .

وثمة عيد آخر كانت تتعطل فيه الأعمال لأسبوع أو أسبوعين ، بمناسبة اكتمال القمر في أول شهور السنة ، حيث يجرى مهرجان الفوانيس الملونة التي تزين بها الشوارع والبيوت والمباني الحكومية والأهلية . ولكن عطلة هذا الاحتفال تقلصت الآن إلى يومين أو ثلاثة وإن ظلت القناديل والفوانيس معلقة في كل مكان . . .

الاحتفالات والأساطير

لا يكاد يخلو أي احتفال أو مهرجان في تايوان من علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع أسطورة تروى .

ومهرجان وسط الخريف يكاد يكون صاحب أكبر كمية من الأساطير الرومانسية الصينية التي تروى عن القمر والطعام الرئيسي الذي تقدم خلاله « كعكة القمر » متباينة الأشكال بعضها حلو وبعضها مالح ولكنها محشوة بالفواكه والجوز والبندق . والتذوق من كل صنف منها إجباري على الجميع . . . !

وفي احتفالات الربيع تغلق جميع المحلات في تايوان لمدة أسبوع ، وبتمثل المهرجان التقليدي في تبادل الظروف الحمراء المسماة (هونج باو) وهي مغلقة على هدايا نقدية للأصدقاء تتباين حسب تخمينات الحظ التي ترفق في أوراق صغيرة . ولكن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه أحدهم هو أن يصله رقم ٤ فهو شؤم على صاحبه لأنه يماثل كلمة الموت . وقد لاحظنا بالمناسبة أن رقم ١٣ ملغى تماما في طوابق الفنادق وفي كل مكان لأنهم يتشاءمون منه أيضا !

مهرجان قوارب التنين نوع آخر من الاحتفالات الشعبية في تايوان ، يجرى في اليوم الخامس من الشهر القمرى الخامس . في ذلك اليوم تجرى سباقات القوارب المزخرفة بألوان التنين في الأنهار التي تخترق مختلف المدن في تايوان . ويقول لنا مرافقنا : « ان هذا الاحتفال يقام جريا على تقليد قديم يرتبط بأسطورة شعبية تحكى أن طالبا موهوبا اسمه « شويوان » في القرن الثالث قبل الميلاد لم يحظ بتكريم الامبراطور لمواهبه ، فانطلق الى النهر حيث أغرق نفسه . وأسرع الناس الى قواربهم يحاولون إنقاذه وانتشاله ولكن عبثا ، إذ كان قد اختفى في أعماق المياه . وظل الناس كل سنة يستقلون القوارب ويتسابقون في الأنهار في ذكرى تلك المناسبة . وذات يوم ظهر « شويوان » في الحلم لأحد الفلاحين يستجدى طعامه . من بعدها ظل الناس يلقون حبات الأرز في النهر من أجله . وبعد فترة ظهر « شو » في حلم آخر وهو يقول ان الأسماك تلتهم الأرز الذي يلقى إليه ، ويطلب أن يلقى الأرز في لفافات من أوراق شجر الخيزران مربوطة بخيوط متينة . . وهكذا بدأ الناس يصنعون لفافات الأرز التي يسمونها « تزونج تزى » ، ويلقونها في الأنهار قربانا لروحه في مثل ذلك الوقت من كل عام ، حيث تجرى في الاحتفالات سباقات زوارق التنين النهري . . . »

أوبرا تايبيه

الجميلة التي لم تعد عذراء . . . رفضت أن تعود الى أيام الفقر والشقاء والظلام ، وآلت على نفسها إلا أن تمارس حياة الترف والرفاهية والزخارف والزينات ، وتعيش الليالي المترعة بالأضواء والألوان . ولم يعد يهمها أكثر من أن تبدو متألقة كغانية ، مترفة كنحلة ترتشف الرحيق من كل ما تحط

الأوبـرا هي فن الحياة الـذي يـربط القديم والحديث في تايبيه . . وليس أشد جاذبية من مشهد بطلة أوبرا « المخطية المخمورة » وهي تقدم للجمهور كل ما يرضي المشاعر التقليدية للصينيين المحبين للألوان والأصوات والتمثيل والرقص والاكروبات (الصفة المقابلة) . أما الصور الثلاث اليمنى . . فالعليا لسور الصين العظيم كما يقدم في « نافذة على الصين » والوسطى لرقصة فولكلورية على مسرح المهرجان ، والسفلى لأحد مشاهد موكب الزهور .

عليه من ورود وأزهار . وتضوع عطرها لتجتذب القلوب وتدير رءوس العاشقين . . .

وليس أشد جاذبية من الأوبرا بموسيقاها وألوانها وألحانها ما يستطيع أن يحقق للياليها كل ذلك . . .

ولكن الأوبرا الصينية هي موضع الاهتمام الذي يستحق المتابعة ، وهو ما فعلناه عندما حضرنا عرضا في دار الأوبرا في تايبيه ، حيث تغلق الأبواب ولا يسمح بالدخول بعد بدء العرض . . . ورحنا نتابع في انبهار أحداث قصة « المحظية المخمورة » . . !

الأوبرا كفن من أجمل الفنون تمتزج دائما بالموسيقا والغناء . وليس مثل الأوبرا الصينية ما يرضي المشاعر التقليدية للصينيين المحبين للألوان والأصوات والتمثيل والرقص والأكروبات . وإذا كانت الأوبرا الصينية قد ولدت في بكين عام ١٧٩٠ عندما دعا الامبراطور « تشيان لونج » الفنانين من جميع أنحاء الصين لعرض فنونهم في احتفالات القصر ، إلا أنه حرم في نفس الوقت على النساء أن يشاركن في التمثيل ، فكان الرجال يقومون بأدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن في أيامنا هذه بالتمثيل من جديد ، كان لا بد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمن النجاح . ومع هذا فقد استمر التمثيل الذي يمكن تسميته الأوبرالي ، وإن كان بعيدا تماما عما يقدم في الأوبرا الغربية ، وكانت العروض تقدم في الحانات ونوادي الشاي . وكان لا بد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية حتى يمكن لهم أن يجتذبوا انتباه النظارة الذين كانوا أثناء مشاهدة العرض يشربون ويأكلون ويتحدثون ويساومون الباعة الذين يقدمون لهم الدخان والشاي والمرطبات . تلك الصورة ليست بعيدة عما شهدناه خلال العرض فقد كان المشاهدون مشغولين بشراء المرطبات والمأكولات من « نادل البوفيه » وتبادل الحديث الذي يرتفع أحيانا دون اعتبار لما يجري .

ولم يكن النظارة يتنبهون إلا حين تستلفت أنظارهم قطعة مثيرة جميلة أو عالية الصوت ، مما جعل الممثلين يلجأون الى الصراخ بأعلى أصواتهم أثناء الأداء لكي يسمعهم المشاهدون . وكانوا في أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم . . !

قمم الابداع الفني

يقولون في تايبيه ان تايوان ستبقى حصنا للثقافة والقيم الصينية وأنماط الحياة التقليدية . ومتحفها الذي أقيم على النمط الهندسي لقصور عصر سونج ، بحديقته الواسعة ذات الأسوار التي تحيط به يضم مجموعة عالمية ضخمة من قمم الابداع الصيني

من بين ما شهدناه من هذه القمم أثناء زيارتنا للمتحف الوطني ما شرحت لنا تفاصيله ومعالمه مرافقتنا عواطف الدولي .

يضم المتحف أكثر من ٧٠٠ ألف تحفة تحكي ماضي الصين ، منها الأواني الفخارية المسجلة من عصر ما قبل التاريخ ، والبرونز القديم ، والأنسجة المزدانة بالرسوم والصور ، واللوحات الزيتية من العصور الوسطى ، والتماثيل المثيرة ، والقطع الخزفية الحساسة ، والبورسلين واليشب الأخضر والمجوهرات الرائعة ، وبالتقريب أبرز إنتاج إنساني شرقي يمكن تصوره من مختلف فترات التاريخ

وتحف الخزف والصيني والسيلادون تعد بالآلاف في متحف تايبيه ، الذي جمع فيه أبرز القطع التي نقلتها إليه حكومة الصين الوطنية وهي تنتقل من الصين الأم الى تايوان . وكل هذه التحف مزخرفة وملونة ذات لمعان لم ينطفىء برغم مرور مئات السنين . وأروع المعروض منها تماثيل الأباطرة والأميرات والآلهة الى جانب تماثيل كونفوشيوس وبوذا والمقدسين الآخرين ، بالإضافة إلى الأواني والمزهريات ذات النقوش البديعة التي لم تتغير ألوانها. وكل هذه القطع الثمينة لا تقدر بمال حتى أن إحدى قطع البورسلين المهربة بيعت في مزاد أقيم في لندن بمائة ألف جنيه استرليني !

هكذا تتبعنا معالم الثقافة الصينية في المتحف الوطني في تايبيه وهي ثقافة تربط الصين الأم وتايوان . . على طريق الوحدة .

حلم الوحدة

تايوان مجتمع ديناميكي حديث واقتصادي متطور ، يتمتع بالكثير من النشاط والطاقة غير المحدودة والابتكارات الفنية البارزة والصناعات اليدوية الموروثة ، تماما كما يحافظ على القيم والأخلاقيات التقليدية المرتبطة بتعاليم كونفوشيوس

وفي تايبيه يمكن تتبع أصول الثقافة الصينية منذ عهد الامبراطور الأخضر الذي وحد القبائل في المملكة الوسطى حوالي عام ٢٧٠٠ ق. م . مما يعني امتداد التاريخ المسجل الى حوالي خمسة آلاف سنة . وأغلب ما مر بالصين من أحداث محفوظ في تايوان . ولم يستطع أي شيء على مدى التاريخ تمزيق وحدة الصين مهما اتسعت أنحاؤها . فالثقافة وأنماط الحياة وحتى اللغة لم تتغير في كل مناطق الصين مما جعل العلاقات الداخلية وثيقة ثابتة .

وإذا كانت الأيديولوجيات الحديثة قد حفرت خندقا بين الصينيين ، فإن النظام الجمهوري الوطني في تايوان الذي يحكم من تايبيه ، والنظام الجمهوري الشعبي في الصين الذي يحكم من بكين ، كلاهما يقول انه هو نفسه حكومة كل الصين . وكل من الحكومتين لا تجادل في حقيقة أن تايوان إنما هي إقليم مكمل لأقاليم الصين الكبيرة . فالوطنيون يحكمون وفقا للنظام الرأسمالي والانفتاح الحر ، بينما الشيوعيون يحكمون على الأسس السياسية التي وضعها كارل ماركس ولينين . وكلتا الحكومتين تريدان إعادة توحيد تايوان مع الصين الأم « تحت نظامها » . . !

وبرغم الطريق السياسي المسدود بين النظامين ، فإن أيا منهما لم يطفىء جذوة العادات الصينية الموروثة . وللحقيقة فإن الثقافة الصينية التقليدية أصبحت هي العامل المشترك الذي ترتكز عليه جهود الصين الوطنية على أمل الوحدة . ويؤكد قادتها بحزم على أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم كل الصين في مواجهة الحقائق السياسية لأنهم - كما يقولون - يحكمون تبعا للتقاليد والفلسفات والنواميس الصينية المتوارثة . وتعاليم كونفوشيوس ما تزال تحكم المجتمع في تايوان . وبعد أن تمتعوا بمستوى مريح للحياة والمقاييس والاستقرار السياسي عادوا الى تدعيم وإحياء الفنون وتطويرها بخطى واسعة في الموسيقا والأوبرا والرقص والمسرح وفنون صناعة السينما الحديثة ، وذلك استعدادا لإعادة الروابط الثقافية الكاملة مع الصين الأم حين توحدها تايوان . . !!

هذا الحلم تبدو ملامحه من خلال ما قاله رئيس جمهورية الصين الوطنية « شيانج شنج كو » في آخر خطاب له بمناسبة العيد الوطني قبل وفاته التي حدثت في يناير الماضي : « إن حزب الكومنتانج الذي تحمل أعباء تعبيد طريق تقدم أمتنا التاريخي ، يأمل في التعجيل بحلول النصر وإعادة توحيد الصين تحت المبادىء الشعبية الثلاثة . ومن خلال ذلك سوف نرفع قريبا علمنا الوطني ، الرمز الخالد للحرية والعدل والمساواة والغد المشرق الدائم في كل أنحاء الصين . إننا نأمل من كل الصينيين أن يكرسوا أنفسهم للعمل على تحقيق هذه المهمة التاريخية . وبذلك سوف يرفرف علمنا الوطني على الوطن الأم في أقرب تاريخ ممكن » . . !

الأمل الذي يراود أحلامهم في تايبيه هو أن تنتصر الصين الوطنية ذات العشرين مليون نسمة ، على الصين الشعبية ذات الألف ومائتي مليون نسمة . . وأن تضمهما الوحدة معهما تحت علمها وفي ظل نظامها . . . !!

لعل الأمل والحلم في الوحدة هو ما جعلهم يقيمون مدينة قزمية صغيرة أطلق عليها اسم « نافذة على الصين » . . . في منطقة لونجتان ، تضم ٧١ نموذجا من أشهر معالم الصين التاريخية في مجسمات مصغرة ، تعبر عن الأساليب المختلفة للحياة في مختلف عصور المجتمع الصيني . وأبرز النماذج المقامة في المدينة النموذجية مختارات من معالم الصين الأم ، بينها سور الصين العظيم وممر شويونج ومعبد السماء في بكين والمدينة المحرمة بما فيها القصر الملكي وقاعة الزواج الامبراطورية ، ومغارات لونجمان وحدائق سوشو التقليدية والباجودا البوذية في معبد فوكتنج وقصر لونج شينج والقصر الصيفي في شنتا وقاعة إلهة السماء في معبد شيني ، كل ذلك بالاضافة الى نماذج من أبرز معالم التقدم في تايوان وحياة المجتمع في كل الصين .

الهدف الرئيسي لإقامة « نافذة على الصين » هو أن يغرسوا في أذهان أبناء الشعب في تايوان التعلق بالصين الأم التي يحلمون بضمها وتوحيدها مع الصين التايوانية . . . !

وهو حلم يتصورون أنه يمكن أن يتحقق ذات يوم تعود فيه الجميلة التي لم تعد عذراء . . الى أحضان الأم الكبرى . . حتى لو تمت الوحدة في عهد أحفاد جيل قادم جديد .

الإسلام في تايوان

" قال لنا الامام « تنج فنج » - وهو في نفس الوقت رئيس قسم اللغة العربية في جامعة شنج شي الوطنية - حين التقيناه داخل المسجد الجامع في تايبيه بعد أن انتهت صلاة الجمعة :

قدم الاسلام الى الصين خلال حكم الامبراطور تاي تشونج (٦١٧ - ٦٤٩ م) ثاني أباطرة أسرة تانج . ونزل بالبر الصيني عدد كبير من المسلمين بعد عام ٦٥١ م . واستقر عدد من التجار العرب في بعض الاقاليم الساحلية الجنوبية . وحين قامت جمهورية الصين في عام ١٩١٢ بعد سقوط آخر الأباطرة قدم مسلمون كثيرون إلى تايوان مع جيش « كوكسنجا » مهاجرين من أرض الصين الأم ، كما ازداد عدد السكان المسلمين في الجزيرة مع وصول أفواج أخرى من المسلمين في عام ١٩٤٥ من الصين الام . . . وكان اكبر عدد وصل الى تايوان بعد ذلك عام ١٩٤٩ مع انسحاب شيانج كاي شيك وحزب الكومنتانج من الصين الشعبية حيث بلغ عدد من لحق بهم من المسلمين حوالي ٢٠ الف . . . الآن يقترب عدد المسلمين في تايوان كلها من مائة الف مسلم . . . ويقيم في تايبيه العاصمة وحدها ما لا يقل عن ثلاثين الف مسلم يمارسون شعائرهم الدينية ويؤدون صلواتهم في مساجدها ، وأكبرها مسجد تايبيه الذي أقيم عام ١٩٦٠ وهو أكبر مساجد تايوان ويسمونه المسجد الجامع .

ليس هذا المسجد هو الوحيد في العاصمة فهناك مسجد آخر ، بالاضافة الى عشرة مساجد أخرى موزعة بين مدن شانجلي وتايشونج وكاوهسنج . في كل هذه المساجد تبدو صورة رائعة للمجتمع الاسلامي المتعاطف المتكافل .

ونحن ننفق من صندوق الزكاة لرعاية وتشجيع الصغار والشباب ونقدم جوائز للمتسابقين الذين يحفظون القرآن ، كما أن هناك جوائز كبيرة لمن يختم الكتاب الكريم .

حين سألناه : هل تنفقون على الفقراء من أموال الزكاة ؟ أجاب في ابتسامة مضيئة : المسلمون هنا لا يعانون من الفقر ، فالجميع من أصحاب الدخل المرتفع ، وهم قادرون وغير محتاجين ، بل إن عددا منهم من أصحاب الثراء الكبير تمشيا مع طبيعة الازدهار الاقتصادي الشعبي في تايوان . ومع هذا فنحن نتلقى أموال الزكاة من أغنياء المسلمين في البلاد كما تصلنا بعض التبرعات من الدول الاسلامية الغنية ومن بينها السعودية مما يزيد قدرتنا على استكمال المنشآت وإقامة المساجد الجديدة وملحقاتها من قاعات لالقاء الدروس الدينية وتحفيظ القرآن والتوسع في الأنشطة الاجتماعية والتثقيفية . وقد أنشأنا مكتبات تضم الكتب والمراجع الاسلامية ، وإن كنا في أشد الحاجة مع ذلك الى المزيد

وهذا هو ما لمسناه بالفعل حين دخلنا قاعة مكتبة مسجد تايبيه . هناك مجموعات كثيرة من الكتب

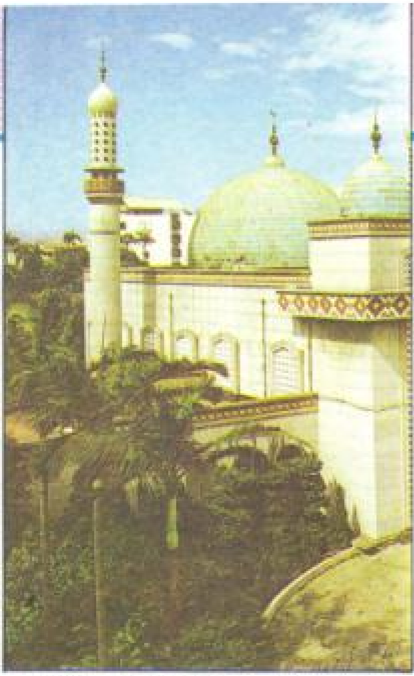

مسجد تايبيه الجامع . . على الطراز الهندسي الاسلامي .

الاسلامية الحديثة لكنها تفتقر الى وجود الكثير من الكتب التراثية والتفاسير والحديث ، وهو أمر لعله يجد اهتماما من الجامعات الاسلامية والجامع الازهر

والكتب في أغلبها بالعربية التي لا يجيدها الا القليل من المسلمين في الصين ، والقليل جدا منها مترجم الى اللغة الصينية .

ومع ذلك فالغريب أن خطبة الجمعة تلقى كلها باللغة العربية الفصحى ثم بعد ذلك يقوم نفس الخطيب بإعادة إلقائها باللغة الصينية .

المسجد الجامع الكبير

المسجد مقام على مساحة كبيرة يتوسط أحد أكبر شوارع تايبيه . وهو مشيد على الطراز الهندسي الاسلامي . وينقسم المسجد الى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء . كما يوجد على الجانب الايمن من المدخل قاعة للمؤتمرات والندوات التي تعقد في المناسبات الاسلامية مثل المولد النبوي الشريف وليلة النصف من شعبان وأيام شهر رمضان المبارك والعيدين . والى الجانب الايسر يفتح الباب على مكتبة المسجد ، وبجوارها المقر الرئيسي لمشيخة المسلمين حيث نلتقي بفضيلة الشيخ داود دائتج شيخ المسلمين في تايوان . . .

حين نلتقي بالشيخ الذي يقترب من الخامسة والسبعين نعرف أنه من خريجي الازهر حيث أوفد عام ١٩٣٣ ، وتلقى العلم على كبار المشايخ والأئمة . ويقول لنا :

كان الأزهر الشريف يستقبل كل عام حوالي مائة مبعوث من الصين حيث يدرسون اللغة العربية والعلوم الاسلامية . وكنت أنا في ذلك الوقت قد أنهيت تعليمي في مدينة شنغهاي حيث تعلمت اللغة العربية وحفظت القرآن الكريم مع أبناء عائلتي قبل أن أذهب الى القاهرة لاستكمال تعليمي الديني على حساب البعثة الفؤادية في الأزهر الشريف . وحين انتقلت الى تايوان مع إخواني من موفدي الأزهر عملنا معا على المشاركة في رعاية أبناء المسلمين .

وحين بدأت في تايوان مسيرة الازدهار الاقتصادي الكبير عملنا على إقامة المساجد في مختلف المدن وكان أولها هذا المسجد الجامع الكبير في تايبيه . .

المصلون الصينيون أثناء أداء الصلاة .

يقول الشيخ الكبير داود دائتج : المسلمون هنا يؤدون شعائرهم بمنتهى الحرية وهم يصومون رمضان ويقيمون مآدب الافطار ويتابعون أخبار قضايا المسلمين في فلسطين ، وهم يتعاطفون مع أبناء الأرض المحتلة ، كما يهتمون بأنباء الحرب بين العراق وايران ويسيئهم أن تستمر طوال هذه السنوات بين دولتين مسلمتين جارتين .

ويضيف الشيخ : ان جميع المسلمين في تايوان ملتزمون بأداء فريضة الحج الى مكة . ويؤديها كل مسلم ولو مرة واحدة في حياته . وتتابع الجمعية الاسلامية للحج كل سنة تسهيل مهمة الحجيج الصينيين الذي يبذلون قصارى جهدهم لاداء هذه الفريضة طالما أن موقفهم المالي يسمح لهم بذلك .

ونسمع من الفنان التقي المسلم شيي شيغو الذي أدى الفريضة العام الماضي عن مدى تأثره بمظاهر الايمان والمساواة التي شهدها حيث يقول : « هل أروع من أن الحجاج الذاهبين الى مكة يصرفون النظر عن مراتبهم وجنسياتهم ومراكزهم الاجتماعية وثرائهم ليتساووا في زي واحد بسيط مع بقية المسلمين ، لا فرق بين غني أو فقير ، كبير أو صغير ، أمير أو مسكين ، الجميع متساوون دون تمييز أو تعصب ، وكل مسلم يرعى اخاه المسلم ، فهل هناك أروع من تلك الانسانية في الاسلام . » □

ثلاثة مشاريع أوروبية لغزو الفضاء

بقلم : سعد شعبان

الطموح المصحوب بالارادة والسعي لا بد أن يتجسد في الواقع بإنجازات ملموسة يستفيد منها أصحابه . هذا هو الدرس الذي تعطيه تجربة الدول الأوروبية في مضمار غزو الفضاء ، حيث ستمكنها خططها وإنجازاتها - بالعمل المشترك - من المنافسة مع الدولتين العظميين في هذا المجال .

عندما بدأ عصر الفضاء عام ١٩٥٧ بإطلاق أول قمر صناعي سوفيتي احتدمت المنافسة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

وكانت هناك أصوات أوروبية تنادي دائما بأنه لا بد أن يكون لأوروبا برنامج فضائي مستقل يرفعها عن مستوى التبعية ، لأي من الدولتين الكبريين . وكانت فرنسا تتزعم هذا الاتجاه بحرارة ، وبخاصة بعد أن تصاعدت المشروعات الأمريكية والسوفيتية إلى مستوى إطلاق أقمار التجسس وسفن الفضاء ، والهبوط على القمر ، ثم إرسال سفن الفضاء نحو الكواكب . فتكونت المنظمة الأوروبية لأبحاث الفضاء في أوائل الستينات .

وكانت باكورة خططها تصنيع صاروخين صغيرين ، أطلق عليهما اسمين هما : « أوروبا - ١ » ثم « أوروبا - ٢ » . وقد أفلح الصاروخان في إطلاق أقمار صناعية صغيرة الحجم محددة الغرض للأبحاث العلمية ، حملت أيضا نفس الاسم « أوروبا » .

ومنذ عام ١٩٧٥ بدت الجهود الأوروبية كطفل يحبو إلى جانب مارد يعدو . وعدّل اسم المنظمة إلى « وكالة الفضاء الأوروبية » (إيسا) على غرار وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » . وقد تألفت الوكالة الأوروبية من أربع عشرة دولة أوروبية .

وخلال هذه المدة لم تكف بعض هذه الدول عن عقد اتفاقيات ثنائية مع الاتحاد السوفيتي أو أمريكا ، على لون من ألوان التعاون المحدود . وكان على قمة هذا التعاون اشتراك بعض رواد الفضاء الأوروبيين في بعض الرحلات الفضائية . وتجلى ذلك في إطلاق « الرائد الفرنسي « باتريك » في إحدى رحلات المكوك الأمريكي عام ١٩٨٥ .

لكن كانت باكورة التعاون الفاعل بين منظمتي

« ناسا » الأمريكية و « إيسا » الأوروبية مشروعا رائدا ، تمثل في بناء معمل بحوث علمية أوروبي ، أطلق عليه اسم (سباسلاب) ليوضع فوق متن مكوك الفضاء الأمريكي . وفي رحلة ديسمبر عام ١٩٨٣ كان يشغل حجم المكوك الفارغ كله . وكان يدير العمل في هذا المعمل عدة علماء أحدهم ألماني ، وكانوا يمثلون تخصصات في الفلك والكهرباء والعلوم .

ولقد برهنت هذه المشاركة الأوروبية الأمريكية على أن العقلية الأوروبية قادرة على السير في ركب غزو الفضاء بخطوات فاعلة .

وبدأت شركات أوروبية تستأجر حمولات في مكوك الفضاء الأمريكي لإجراء تجارب صناعية وبيولوجية وعلمية ، لما آثارها على الإنجازات الفضائية .

الوليد يتحول إلى عملاق

كانت نقطة البداية في خطط وكالة الفضاء الأوروبية هي صنع صاروخ دفع ، له قدرة على دفع الأقمار الصناعية ، ثم ظهر إلى الوجود الصاروخ « ايريان » .

ولقد كان هناك خلاف وجدال حول الاسم ، فقد كان الاقتراح الأول الذي طرحه الفرنسيون هو (ماريان) ، ثم استقر الرأي على أن يصبح (اريان) تشبها بآلهة الحب عند الإغريق .

ولقد أثبتت صواريخ اريان جدارتها في دفع عدد كبير من الأقمار الصناعية بدءا من عام ١٩٧٩ ، سواء لدول الوكالة الأوروبية أو لدول أخرى ، وكان إطلاق كل هذه الأقمار يتم من قاعدة الاطلاق الفرنسية « جوايانا » في أمريكا الجنوبية . وقد ساعد وجود هذه القاعدة على بذل قوة أقل في دفع أقمار الاتصالات إلى المدار الثابت فوق خط الاستواء ، وكان ضمن هذه الأقمار القمر الصناعي العربي الأول « عربسات ـ ١ » الذي أطلق في فبراير عام ١٩٨٥ .

وظهر من صواريخ اريان إلى الوجود ثلاثة أجيال متعاقبة هي « اريان ـ ١ ، ٢ ، ٣ » ، وكان لكل واحد منها مزايا متقدمة عن الأخرى . ولقد سنحت فرصة ذهبية لصواريخ اريان عندما وقعت كارثة انفجار مكوك الفضاء الأمريكي تشالينجر في يناير ١٩٨٦ ، فقد حدث توقف لمشاريع الفضاء الأمريكية المتعلقة بالمكوك ، وما زال متوقعا لها أن تظل كذلك حتى يونيو ١٩٨٨ ، ولذلك تحولت المنافسة التجارية لإطلاق أقمار صناعية لدول عديدة ، وأصبح لدى المنظمة الأوروبية « ايسا » مئات التعاقدات لإطلاق أقمار صناعية لأغراض مختلفة ، حتى بلغت ١٥٠ عقدا ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لرفع الأقمار إلى الفضاء . بل إن وجه العجب هي أن بعض الشركات الأمريكية قد تعاقدت مع الوكالة الأوروبية لإطلاق أقمارها .

غير أنه قد حدثت نكسة أصابت مشروع الصاروخ اريان في مايو ١٩٨٦ ، عندما انفجرت إحدى مراحله ، وكان مخصصا لحمل قمر أمريكي من طراز « انتلسات » ، لذا اضطر الأوروبيون بعد ذلك إلى توقف دام ١٦ شهرا ، ليتداركوا بعض الخلل في التصميم ، حتى عادت إليهم الثقة بعملية الإطلاق الناجحة رقم ١٩ التي تمت في سبتمبر عام ١٩٨٧ .

ثلاثة برامج طموحة

خلال السنوات العشر الأخيرة كانت الأحلام تحوم حول عدد من المشروعات الفضائية ، تفتقت عنها قرائح علماء وكالة الفضاء الأوروبية ، بعضها تجاوز الطاقات المالية المتاحة ، فشطح بعيدا عن الامكانيات ، وبعضها كان يمثل ضربا من الخيال يحتاج إلى سنوات من البحوث العلمية لتذليل كثير من الصعاب .

غير أن أوروبا خرجت من مؤتمرها الأخير في نوفمبر ١٩٨٧ متحدة الكلمة ، على وضع أولويات للمضي في ثلاثة برامج محددة ، حتى لا تزداد فجوة التخلف بينها وبين الأمريكيين والسوفييت ، ولكي تكون لها ملامح مميزة في غزو الفضاء . وقد اجتمعت كلمة كل الدول الأوروبية على هذه المشروعات عدا بريطانيا التي امتنعت عن

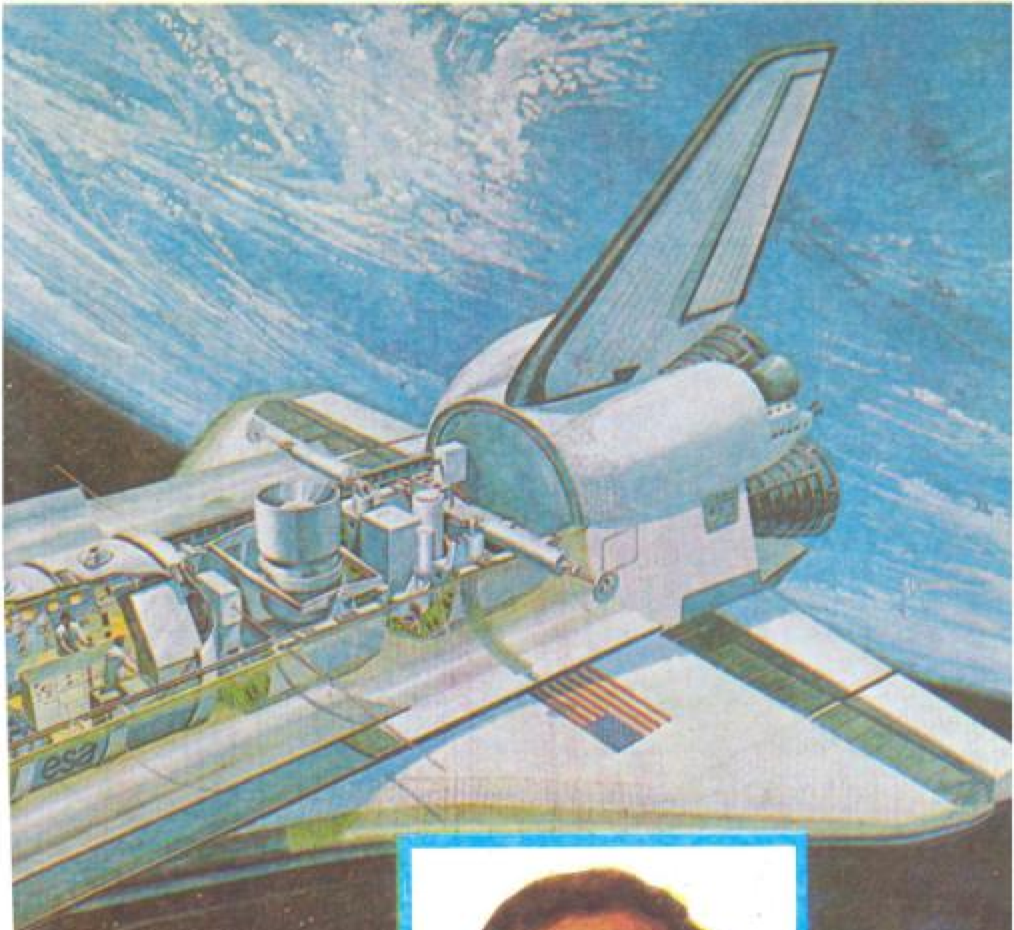

• رائد الفضاء الفرنسي باتريك

الصاروخ الأوروبي ايريان

معمل الفضاء الأوروبي فوق المكوك

التصويت ، لأن لها مشروعات أكثر طموحا ، لكنها تصر على الاحتفاظ بأسرارها ، وعدم الكشف عنها .

أما المشروعات الأوروبية الثلاثة فهي :

١ ـ مشروع الصاروخ اريان ـ ٥

٢ ـ مشروع مكوك الفضاء الأوروبي « هرمس » .

٣ ـ مشروع المحطة المدارية الأوروبية « كولومبوس »

ومن الواضح أن مشروع الصاروخ (اريان ـ ٥) هو حجر الأساس ، لأنه سيكون تطويرا للطرازات القائمة حاليا التي كان آخرها (اريان ـ ٣) ، حتى يستطيع أن يرفع إلى الفضاء أجساما أكبر من الأقمار الصناعية مثل المكوك الأوروبي « هرمس » ، ولذلك فستكون حمولة (اريان ـ ٥) « ١٧ » طنا ، وهذا يعادل ثلاثة أمثال الحمولة التي يرفعها الصاروخ (اريان ـ ٣) المستخدم حاليا . ولذلك فإن (اريان ـ ٥) سيصل طوله إلى ٤٢ مترا ، وهو أطول بكثير من (اريان ـ ٣) ، كما سيتكون الصاروخ الجديد من طابق أساسي يحوي ١٢٠ طنا من الهيدروجين والاكسجين السائل ، وجهازين معمليين كبيرين يعملان بالوقود الجاف بسعة ١٧٠ طنا ، ليعطيا قوة دفع قدرها ٤٥٠ طنا .

وقد كانت هناك خلافات بين الدول الأعضاء في وكالة الفضاء الأوروبية بالنسبة لخطة تمويل الصاروخ (اريان ـ ٥) ، غير أن هذه الخلافات قد وصلت إلى نهاية ، وسيكون الصاروخ المذكور معدا للانطلاق عام ١٩٩٥ .

المكوك الأوروبي « هرمس »

يجري بناء المكوك الأوروبي « هرمس » ليكون على شكل طائرة مقاتلة ، ذات جناحين مثلثين (دلتا) ، على غرار المكوك الأمريكي ، وإن كان يصغره في الحجم بنسبة ٢٥٪ . وسيتمكن للمكوك الأوروبي أن يتسع لثلاثة رواد فضاء . ومن المقدر أن يفرغ من بنائه عام ١٩٩٧ .

ويبلغ طوله ١٧,٩ مترا ، والمسافة بين جناحيه ١٠,٢ أمتار ، ويمكنه أن يحمل حمولة قدرها ٢١ طنا ، وهي تقل عن حمولة المكوك الأمريكي كثيرا .

وكشأن المكوك الأمريكي الذي أنهى شكل سفينة الفضاء المخروطية التي كانت تستخدم مرة واحدة، فقد وضع تصميم المكوك الأوروبي « هرمس » لكي يكون كطائرة تروح وتغدو ، مثل حركة مكوك النسيج عدة مرات . ومن المقرر أن تمتد مهامه في الفضاء مددا تتراوح بين أسبوع وشهر . ولكي تتوالى هذه المهام رصدت ميزانية المشروع لبناء طرازين منه ، حتى إذا فرغت مهمة واحدة منها ، وبدأ الفنيون بإجراء عمليات الصيانة عليه ، كان المكوك الآخر جاهزا للعمل . ومن المقرر أن يتمكن كل مكوك من القيام برحلتين كل عام في المرحلة الأولى ، ثم تزاد الى أربع أو ست رحلات سنويا بعد ذلك .

وسيكون بناء المكوك « هرمس » في القاعدة الفرنسية بتولوز ، بينما يكون الاطلاق من المركز الفضائي « كورو » الموجود في « جوايانا » الفرنسية في أمريكا الجنوبية الذي تقرر إدخال عدة تعديلات وتوسعات عليه ليلائم خطوات المستقبل . وسوف يكون اطلاق « هرمس » بواسطة صاروخ « اريان ـ ٥ » الذي يجري تصميمه ليلائم هذه المهمة ، بينما سيكون هبوطه فوق مدرج طائرات عادي ، طوله يقرب من ثلاثة كيلو مترات ونصف . ولقد اختيرت قاعدة « إيستر » الفرنسية لهبوطه في أول الأمر ، حتى يتم إعداد مدرج الهبوط في قاعدة « كورو » ، كما سيكون ممكنا أن يهبط في قاعدة ادواردز الأمريكية المخصصة للمكوك الأمريكي أو في القواعد الأمريكية الأخرى في هونولولو أو داكار أو جزيرة برمودا .

وقد رصد للمشروع مبلغ ٤,٤ مليارات دولار ، لتحقيق عدة أغراض ، أهمها القيام بتجارب علمية مستقلة عن التجارب الأمريكية ، والعمل متنقلا فضائيا إلى الأجرام الفضائية الصناعية ، كالمحطات المدارية ، سواء الأمريكية أو السوفيتية أو

الأوروبية ، وبخاصة المحطة « كولومبوس » التي ستوضع على مدار قرب نهاية هذا القرن ، كما سيمكنه أن يكون شاحنة فضاء تمد المحطات المدارية بالمؤن والعتاد .

المحطة المدارية « كولومبوس »

وضعت « وكالة الفضاء الأوروبية » خطة لتصنيع محطة مدارية تتكون من أربع كبسولات مختلفة التصميم والأغراض ، لمواصلة استكشاف الفضاء ، ومداومة إجراء البحوث العلمية اللازمة من هذه الكبسولات ، وسيكون ذلك بواسطة الوسائل الالكترونية المستخدمة ، أو بواسطة رواد الفضاء ، ولذلك أطلق على كل كبسولة اسم مختلف ، وستوضع بها معدات وأجهزة تختلف عن الأخرى .

وتقدر التكلفة الاجمالية لهذا المشروع بمبلغ ٣,٩ مليارات دولار ، ومن المقدر أن يفرغ من المراحل كلها قرب عام ١٩٩٨ ، وهو موعد لا يبعد كثيرا عن الموعد المحدد لإطلاق المستعمرة الفضائية الأمريكية . وأكبر الكبسولات الفضائية الأوروبية يمكن أن يتسع لثلاثة رواد فضاء ،وسيتم اطلاقها بواسطة مكوك أمريكي عام ١٩٩٦ تقريبا لتصبح جزءا من المحطة المدارية الأوروبية .

أما المعمل الثاني فسيكون العمل فيه اليكترونيا ، ويمكن أن يتردد عليه رواد فضاء من آن لآخر ، إذ سيمثل العنصر الأساسي في المحطة المدارية الأوروبية ، وسيكون إطلاقه عام ١٩٩٨ بواسطة صاروخ « اريان ـ ٥ » .

أما الكبسولتان الثالثة والرابعة فستعملان اليكترونيا دون أي تدخل من الإنسان ، وستكون إحداهما مخصصة للتحليق على مدار يمر فوق قطبي الأرض ، بدءا من عام ١٩٩٧ م .

ولضمان استمرار العمل في المحطة المدارية الأوروبية يجري تصميم شاحنة فضائية ، سيطلق عليها اسم (أوريكا ـ بي) ، وهي عبارة عن معمل صغير لحمل أدوات ومؤن ومعدات يبلغ وزنها أربعة أطنان إلى المحطة المدارية الأوروبية ، وسيمكن تكرار إطلاق هذا المعمل .

المعارضة البريطانية لماذا ؟

ليس غريبا أن تقف بريطانيا وحدها ، في موقف المعارض لهذه المشروعات الفضائية الأوروبية ، فالطموح البريطاني أكبر كثيرا من هذه المشروعات الأوروبية إلى حد وصف بعضهم له بأنه أقرب إلى الخيال ، فلدى بريطانيا مشروع متقدم لطائرة فضائية أطلق عليها اسم « هوتول » .

ويعتمد مشروع « هوتول » على استخدام محرك ذي تصميم جديد ، يسمح للطائرات بالوصول إلى طبقات الجو العليا ، وتجاوزها إلى طبقات الفضاء ،ثم العودة ثانية إلى الأرض والهبوط كأي طائرة عادية ، ومعنى ذلك أن تتحول الطائرة في المستقبل إلى مكوك فضاء ، يمكنها أن تقلع وتهبط كل يوم دون حاجة إلى إجراءات صيانة معقدة كما يجري على المكوك الأمريكي حاليا . ولا شك أن العقبة الأساسية أمام تحقيق هذه الفكرة الخيالية ، هي التوصل إلى نوع من الوقود ، يسمح بتحويل الطائرة إلى سفينة فضاء ، لكن دون الاعتماد على أنواع الوقود التقليدية المستخدمة حاليا التي يلزمها مستودعات كبيرة تشغل الجزء الأكبر من جسم مكوك الفضاء وتمثل أيضا أكبر وزن فيه .

ولقد قامت بحوث كثير من العلماء منذ عدة سنوات على فكرة استخدام الطائرات ، لوقود يعتمد على الأكسجين الذي يستمد من الهواء الذي تطير فيه الطائرة ، وعلى الهيدروجين الذي يمكن أن يضغط سائلا في مستودعات على متنها . ويتخلى عن الصورة التقليدية لمحركات الاحتراق الداخلي المستخدمة حاليا ، فتصبح بذلك الطائرة أخف وزنا ، وأكثر قدرة على بلوغ مدارات في الفضاء ،وبالتالي تصبح قادرة على حمل حمولات أكبر وزنا ، كما سيكون بامكانها الطيران بسرعات يمكن أن تبلغ بين ٢٠ ، ٣٠ مثلا لسرعة الصوت . (سرعة الصوت = ١٢٢٤ كيلو مترا في الساعة على سطح الأرض) . ولا شك أن هذه التغييرات الجذرية في تصميم الطائرات الجوية الفضائية تقف أمامها بعض العقبات

المكوك الأوروبي هرمس

التي أهمها ضرورة تركيب سبائك معدنية جديدة تستطيع الصمود لدرجات الحرارة العالية ، لمقاومة الاحتكاك بهواء الغلاف الجوي .

فضلا عن أن الوسيلة التقنية لن تتيسر بعد لاستخراج الاكسجين من الجو أثناء الطيران .

غير أنه في عام ١٩٨٢ قد توصل مهندس بريطاني شاب يدعى « آلان بوند » إلى اكتشاف معادلة علمية ، تسمح بفصل اكسجين الهواء من الجو ، لاستخدامه في محركات الطائرات كعامل لحرق الايدروجين . وقد تبنت بعض الشركات الكبرى البريطانية هذا الاكتشاف ، وعلى الأخص شركة « رولز رويس » الشهيرة بصناعة محركات الطائرات ، وما زال هذا المشروع سرا من الأسرار الصناعية التي تحتفظ بها بريطانيا لنفسها .

واستغلالا لنفس الفكرة قامت شركة « بريتش ايروسباس » عام ١٩٨٤ بصنع نموذج مصغر لطائرة أطلقوا عليها اسم « هوتول » لتعمل بنظرية الشاب « آلان بوند » ، وذلك على فرض أن هذا النموذج تصغير لطائرة ، لو صنعت فسيكون طولها ٦٢ مترا ، ويمكنها أن تصعد إلى سقف ارتفاع قدره ٢٦ كيلومترا ، بحمولة قدرها ٢٠٠ طن ، وسيمكنها أن تطير بسرعة تبلغ خمسة أمثال سرعة الصوت ، ولن تستغرق لبلوغ هذه السرعة بعد الاقلاع غير ثماني دقائق فقط ، وسيكون بإمكانها أيضا الصعود إلى مدارات في الفضاء الخارجي والعودة منها .

ولم تلق الفكرة البريطانية للطائرة « هوتول » ترحيبا في أوساط وكالة الفضاء الأوروبية ، لأن البريطانيين رفضوا الكشف عن الأسرار العلمية لاستخلاص أكسجين الهواء ، كما رفضوا الكشف عن تصميم المحرك الجديد ، واقتصر اقتراحهم على أن يعمل الخبراء الأوروبيون تحت إشرافهم المباشر ، لكي يحققوا صناعة الطائرة هوتول التي تعتبر طائرة جوية فضائية ، وذلك بغية أن تبتعد « المنظمة الأوروبية » عن المضي في إنتاج المكوك الفضائي « هرمس » الذي يعتبر مشابها للمكوك الأمريكي ، بل أصغر منه . ولا شك أن للفكر البريطاني وجاهته ، لأنه سيجعل للأوروبيين قصب السبق إلى شيء جديد ، هو جمع مزايا الطائرة والمكوك في جسم واحد . وسيضع البشرية أمام نوع جديد من المحركات ، سيطور في صناعة النقل الجوي في المستقبل ، ويفتح آفاقا جديدة لما يمكن أن نطلق عليه تعبير « السياحة الفضائية » للركاب العاديين الذين ليس لزاما أن يكونوا روادا للفضاء ، ذوي لياقات بدنية ونفسية عالية . وسيكون له ميزة الاقتراب من واقع الحياة بسرعة نقل الركاب بالطائرات المدنية التي لم تتجاوز سرعاتها حتى الآن ٢,٢ ماخ (سرعة الصوت) ، إذ سيكون في مقدور « هوتول » أن تقطع المسافة بين لندن واستراليا خلال ٤٥ دقيقة فقط ، لكن كثيرا من الخبراء الأوروبيين ما زالوا يشككون في الافتراضات البريطانية لاستغلال أكسجين الهواء ، ويعتقدون أن الأفكار البريطانية عن « هوتول » لا تعدو أن تكون لونا من ألوان التعصب والجري وراء السراب .

ومن هنا أتت المعارضة البريطانية لمشروعات أوروبا الفضائية ، إذ امتنع ممثلوها عن التصويت في مؤتمرهم الأخير في لاهاي . وهكذا لن تمضي حقبة التسعينيات ويبدأ القرن الجديد إلا وستكون حلبة المنافسة في سباق الفضاء قد غصت بأعضاء جدد إلى جانب الروس والأمريكيين .

كما سيكون أيضا في الحلبة أعضاء آخرون ، ما زالوا يقفون على عتبات التخطيط ، وهم الصينيون واليابانيون .

ولا شك أن الطفرة التقنية التي سيصنعها برنامج حرب الكواكب الأمريكي ستضع العالم أمام واقع جديد ، سيجعل من الفضاء ساحة مزدحمة بإنجازات جديدة غير الأقمار الصناعية وسفن الفضاء . □

وجهاً لوجه

الجنرال دراغونسكي و سليمان الشيخ

- الصّهيونية .. حركة سياسيّة عنصرية فاشية تتاجر بالدين
- الوطن السوفيتي لجميع شعوبه ، لمن يؤمن بدين ، ولمن لا يؤمن
- الإنسان الحر لا يضطهد الآخرين ، وهذا عكس ما يفعله الصّهاينة
- الضابط العربي كفء ، والعيبُ ربّما في صاحب القرار السياسي !
- الفشل الآني أو الواحد ليس قدراً مستمراً أو دائماً

الجنرال دافيد ابراموفتش دراغونسكي من مواليد سنة ١٩١٠ ، في قرية سفياتسك التي تقع على الحدود الـ[illegible]ـرية بين روسيا الاتحادية وأوكرانيا ، وبيلوروسيا ، تخرج في أكاديمية فرونزه العسكرية سنة ١٩٤١ ، ثم تخرج في أكاديمية الأركان العامة سنة ١٩٤٩ . منح لقب بطل الاتحاد السوفيتي مرتين: الأولى سنة ١٩٤٤ والثانية سنة ١٩٤٥ . حاصل على أوسمة ونياشين وميداليات مهمة من أعلى المؤسسات في الاتحاد السوفيتي وخارجه . خاض وشارك وقاد معارك مهمة ضد القوات النازية الألمانية في كثير من جبهات الحرب ، وأصيب بأكثر من جرح فيها . عضو اللجنة المركزية للرقابة منذ سنة ١٩٧١ . منح رتبة فريق أول منذ ١٩٧٥ ، عمل مديرا للأكاديمية العسكرية لتدريب الضباط الأجانب منذ سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٨٥ التي درس وتخرج فيها عشرات الضباط العرب من أقطار عربية عديدة ، يرأس الآن الجمعية السوفيتية المعادية للصهيونية .

سألت الجنرال الذي مازال يحتفظ بلياقة بدنية تجعله يبدو أقل من عمره الحقيقي بحوالي عشرين سنة :ـ

* يوحي اسمك بأنك تتبع الديانة اليهودية ، فهل يمكن أن يعادي اليهودي الصهيونية ، وأن يكون على رأس الجمعية التي تعاديها ؟ !

ـ إن اليهودية ديانة كبقية الديانات ، أما الصهيونية فهي حركة سياسية تتاجر بالدين أحيانا .

صحيح أنني ولدت لأبوين يهوديين لكنني عشت وناضلت في صفوف الحركة الشيوعية المعادية للنازية والفاشية والصهيونية ، وهأنا أتابع نفس الطريق ، بل إنني على رأس الجمعية المناهضة للصهيونية في بلادي ، إنني مواطن سوفيتي في الدرجة الأولى . إن بلادنا تحتوي على عشرات القوميات والشعوب ، لكن ولاءنا في الأساس للدولة السوفيتية ، كما أنه توجد أديان عديدة في الاتحاد السوفيتي ، وبعض الأفراد متدينون ، لكن الوطن السوفيتي للجميع ، لمن يؤمن بدين ، ولمن لا يؤمن .

لايوجد عندنا من يسأل عن قوميتك أو دينك ، بل يهمهم أخلاقك وأفعالك وسلوكك ، لقد اختلطت الشعوب والقوميات لدينا وضمنهم من يؤمن بالديانة اليهودية ، وحصل التزاوج والتمازج ، وكثيرون لم يعد يعنيهم الدين أو الأصل السابق ، إن الاتحاد السوفيتي دولة أممية .

زوجتي روسية ، وابنتي تزوجت رجلا أوكرانيا ، وعندما بلغت ابنة ابنتي ١٦ سنة من عمرها طلبت أن يكون لها جواز سفر خاص بها ، وجاءت تسألني من أكون ؟ . وإلى أي شعب أنتمي ؟

أجبتها : أنت فتاة جميلة ، أنت سوفيتية .

هناك جمهوريات وقوميات وشعوب عديدة في الاتحاد السوفيتي ، لها مكوناتها الثقافية الخاصة ، لكن لايوجد مطلقا مايمنع انتقال هذا الفرد أو ذاك إلى جمهورية أخرى ، كما لايوجد مايمنع من أن يعلن الفرد أنه أوكراني مع أنه قد يكون من أبوين داغستانيين ، وكثيرون يعلنون أنهم روس مع أن موطنهم الأصلي قد يكون استونيا أو مولدافيا أو أرمينيا أو تركمانيا ، أو غير ذلك ، وقد يحدث العكس .

لقد خضت معارك كثيرة ، في جبهات عديدة ، وكان يوجد بين ضباطي وجنودي من ينتمون لحوالي ٣٠ قومية من قوميات الاتحاد السوفيتي ، بعضهم يدين بالمسيحية أو الإسلام أو اليهودية ، أو لا يدين

بأي دين ، لكنهم جميعا كانوا يدافعون عن الوطن ، وقد طردوا المحتلين ، وانتصروا على النازية . لم تكن نسأل عن الهويات القومية أو الديانات ، بل كنا نقاتل من أجل انتصار الوطن ودحر المعتدين إن بلاد السوفيت لجميع شعوبها ، وهي ترفع راية ومبادىء أممية وتطبقها .

الكيان « الإسرائيلي » :

● كيف تنظر لجنتكم إلى الصهيونية ؟ وبالتالي كيف تنظر إلى الكيان « الإسرائيلي » وممارساته ؟

ـ إن الحركة الصهيونية ماهي إلا حركة عنصرية . لأنها تضمن أدبياتها أن اليهود شعب الله المختار . إنها حركة البورجوازية اليهودية ، ربيبة الحركة الرأسمالية العالمية التي تقوم على استغلال الشعوب واستعمارها . وليست صدفة أن يقف ماركس ولينين ضد الأفكار البورجوازية بما فيها الأفكار الصهيونية .

أما بالنسبة للكيان « الإسرائيلي » فهو قائم على الأفكار الصهيونية العنصرية ، وقد وظف نفسه ضمن الآلة الرأسمالية الأمريكية ، ووقف ضد أماني الشعوب في التحرر والانعتاق .

لقد استخدم الصهاينة ضد الفلسطينيين وغيرهم من العرب نفس الأساليب التي استخدمها هتلر ضدهم ، فقد طردوا الفلسطينيين من أرضهم ، وعرضوهم للقتل والتدمير ، واتبعوا سياسة العدوان على أقطار عربية أخرى ، واحتلوا أراضيها . لقد كان اليهود ضحايا النازية ، ثم اتفقوا مع الرأسمالية الغربية ، فسهلت لهم الهجرة إلى فلسطين ، فاحتلوا أراضي الفلسطينيين ، واضطهدوهم . وإن اليهود في فلسطين ليسوا أحرارا ، لأن الحر لايضطهد الأحرار الآخرين .

● ماهو الحل حسب وجهة نظركم ؟

ـ إن وجهة نظرنا هي نفس وجهة نظر حزبنا ودولتنا ، أي أننا ندعو إلى عقد مؤتمر دولي للسلام ، تحضره جميع الأطراف ، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية لإعطاء الفلسطينيين حقوقهم .

● وهل يمكن عقد مثل هذا المؤتمر وعلى رأس الدولة « الاسرائيلية » حزب الليكود ، أو حتى تجمع المعراخ ـ العمل ـ ؟!

ـ إنني أعتقد بأن قيادة شامير لن تحقق سلاما حقيقيا في المنطقة ، لكن وجود شامير يجب ألا يمنعنا من رؤية نمو حركة تقدمية ، وسوف يفهم الناس في « إسرائيل » الأخطاء التي حدثت ، وسيميلون نحو السلام إن عاجلا أو آجلا . لقد كنا نعتبر كل الماني عدوا أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك فإن جمهورية المانيا الديمقراطية قد ولدت في تلك الأيام ، وسارت على خط يعادي النازية . إن الزمن ليس ولید مرحلة واحدة ، وعلى الإنسان ألا يبني حساباته على لحظات آنية . صحيح أن العرب مشتتون الآن ، وقد يكون فيهم ضعف ، إلا أن ذلك ليس قدرا غير قابل للتغيير .

لقد اجتمعت ببعض نواب « الكنيست » وحذرتهم من المستقبل ، وقلت لهم : إن التطور ليس ملك يمينكم فقط ، ولن تستمر المساعدات والحماية الخارجية في تثبيت أركانكم ، عليكم بالسلام مع جيرانكم . وأتذكر في هذا المجال ماكانت تردده والدتي :

« الجار الحسن ، أفضل من الأقارب الأغنياء » .

ولقد انسحبنا أمام الغزو الألماني الفاجيء سنة ١٩٤١ حتى أبواب موسكو ، وقد استخدموا أفضل جيوشهم ، وأفضل صناعاتهم المتطورة ، فلم نقو عليهم ، فانسحبنا ، لكننا استوعبنا الدروس ، وقوينا أنفسنا ، وأعددنا الخطط المناسبة ، وانتقلنا من الدفاع إلى الهجوم ، ثم بددنا قواتهم ، ووصلنا إلى عاصمتهم برلين . لقد دفعنا ثمنا باهضا ، وهذا صحيح ، لكننا حررنا بلادنا ، وأسهمنا في تحرير شعوب كثيرة ، وقضينا على الفاشية والنازية .

وإنني كثيرا ماأقول ذلك لبعض الإسرائيليين ، لكنهم ، أو على الأصح بعضهم يجيبي : ستقاوم ،

وستعتمد على أصدقائنا في أمريكا والدول الغربية .

وكنت أقول : إن ذلك لن ينهي المشكلة ، ولن يبقى الوضع على ماهو عليه زمنا طويلا .

بيروبيجان واليهود :

● لقد زرت بيروبيجان المقاطعة اليهودية السوفيتية ذات الحكم الذاتي ، ووجدت أن اليهود فيها أقلية ، علما بأنها كانت ـ كمشروع ـ هي الرد السوفيتي على المشروع الصهيوني ، فلماذا اليهود أقلية فيها الآن ؟ وهل كفت الدولة السوفيتية عن اعتبارها مشروعها المضاد للصهيونية ؟

ـ لقد تم تأسيس مقاطعة بيروبيجان منذ حوالي ٥٠ سنة ، والتحق بها اليهود وغير اليهود حسب رغباتهم وطلباتهم الحرة . صحيح أن المشروع في البداية كان يستجيب لرغبات بعض اليهود لكي يعيشوا في مجتمع خاص بهم ، ويراعي هذا المشروع مكوناتهم الثقافية الخاصة . وقد استجابت الحكومة السوفيتية لهذه الرغبة ، وبخاصة أن اضطهادا قد لحق باليهود أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وكان كثيرون منهم يعيشون في مناطق قريبة من ألمانيا وبولونيا (أوكرانيا بيلوروسيا ، مولدافيا) ، وعندما حصل الاحتلال الألماني لتلك المناطق فإن كثيرا من اليهود لجأوا إلى مناطق أخرى في الاتحاد السوفيتي ، ثم قامت الثورة ، وأصدرت قوانين سمحت بموجبها أن يعامل اليهود تماما كما يعامل أي مواطن سوفيتي من أية جمهورية أو منطقة ، بعد أن كانت القوانين القيصرية تحصر وجودهم في المناطق المشار إليها من قبل .

هكذا بدأت تجمعات اليهود تتزايد في موسكو ولينتغراد ثم في أوديسا وغيرها من مدن ، وصولا إلى آسيا الوسطى ، ثم وصلوا حتى إلى فلاديفوستك في الشرق الأقصى السوفيتي ، ثم طرح مشروع بيروبيجان سنة ١٩٢٨ كي يكون مقاطعة خاصة باليهود ، ومازال المشروع قائما ، ومايزال اسمها « المقاطعة اليهودية » ، ومازال اليهود فيها حتى الآن .

● لكنهم أقلية فيها ، على الرغم من أنها تحمل اسمهم ، وهم ليسوا الأغلبية في هذه المقاطعة .

ـ لقد تأسس المشروع بغرض تجميع اليهود في هذه المقاطعة ، إلا أن هذا الأمر لايتم بالقسر والضغط ، فإننا دولة أممية ، وبإستطاعة المواطن السوفيتي ـ كما ذكرت لك ـ أن يستوطن أي مكان يريد ، وخاصة إذا ماوجد عملا مناسبا فيه ، لذلك فإن اليهود الآن يبلغ عددهم حوالي ١٧ ألف مواطن في بيروبيجان ، من بين حوالي مائتي ألف من السكان ، وقد وجد بعضهم أن موسكو هي الأنسب له ، من حيث العمل والمعيشة وتحقيق الذات فبقي فيها ، وغيرهم وجدوا أن الأمر مناسب لهم في أماكن أخرى ، فبقوا فيها . هكذا هي الحياة في الاتحاد السوفيتي .

● لكن بيروبيجان تختلف ، إنها المشروع السوفيتي المضاد للمشروع الصهيوني .

ـ لاتنس أن الصهاينة قد بدءوا العمل بمشروعهم منذ حوالي مائة سنة تقريبا ، وكرسوا له كل إمكاناتهم وعلاقاتهم .

● ألم يكن يهم السوفيت إنجاح مشروعهم في بيروبيجان ؟ لقد وجدت عائلات يهودية في بيروبيجان جاءت من الأرجنتين ، وبعضها جاء من ألمانيا وبريطانيا وغيرها ، وهذا دليل على أن السوفييت كانوا يخططون لتجميع أكبر عدد من اليهود ، وليس يهود الاتحاد السوفيتي فقط في بيروبيجان ، فما الذي حدث ؟

ـ إن الأمر ببساطة يعود إلى أن السوفيت لايستطيعون إجبار اليهود أو غيرهم على الانتقال إلى هذا المكان أو ذاك ، وبيروبيجان بلاد بعيدة ، تقع في الشرق الأقصى السوفيتي على حدود الصين ، والوصول

إليها والعيش فيها كانت تكتنفه صعوبات كثيرة من قبل .

● إن بيروبيجان كما أفهم وكما جاء في الأدبيات السوفيتية في مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن هي مشروع « قومي » لليهود ؟

ـ لقد كان ذلك في البداية ، إلا أن كثيرين لم يقبلوا على المشروع ، على أساس أنهم سوفييت وأنهم ، وتعلموا الروسية ، اللغة التي توحد بين شعوب وقوميات الإتحاد السوفيتي . وعاشوا في بيئات خبروها وعرفوها وتعايشوا مع سكانها وأصبحوا جزءاً منها ، فلماذا يغادرونها إلى مناطق أخرى بعيدة ؟

العسكري والسياسي :

● لقد كنت على رأس الأكاديمية التي درس وتخرج فيها مئات الضباط الأجانب ، ومنهم ضباط عرب ، أود منك أن تجري مقارنة بين ضباطنا والضباط الآخرين في الاستيعاب والعقلية ؟

ـ هناك برنامج واحد موحد نظري وعملي في الأكاديمية ، وهو يطبق على جميع الضباط ، ويتولاه نفس الأساتذة ، وقد كان الضباط العرب ـ حسب رأي مدرسيهم ـ من خيرة الضباط استيعابا وتحصيلا علميا ، بل إن بعضهم حصل على أعلى التقديرات ، إنهم يتعلمون بسرعة لغة وعلما .

● إذاً لماذا ظهرت ومازالت تظهر بعض الثغرات في كفاءاتهم عندما يعودون إلى بلدانهم ؟

ـ قد يكون ذلك ناتجا عن قصور في صاحب القرار السياسي أو الموجه السياسي .

● لقد شاعت مقولات إثر هزيمتنا سنة ١٩٦٧ بأن السلاح السوفيتي غير كفء لمواجهة الأسلحة الغربية فما هو تعليقك ؟

ـ إننا نملك وثائق كثيرة عن حرب عام ١٩٦٧ ، لقد مضت أكثر من عشرين سنة على تلك الحرب ، وإن كثيرين من العسكريين قد درسوا هذه الحرب وقيموها .

لقد كان الدعم الأمريكي « للإسرائيليين » كبيرا ، وهناك تفصيلات لم تنشر في حينها عن هذا الدعم . لقد تم التخطيط لهذه الحرب بالتعاون بين الأمريكيين والإسرائيليين . ولقد مارس « الإسرائيليون » أعلى درجات الخداع وأشاعوا في إعلامهم أنهم بصدد الدفاع وليس الهجوم ، لكنهم كانوا قد حضّروا أنفسهم للهجوم ، وفي الوقت المناسب بادروا بالهجوم .

لقد واجهنا وضعا مشابها مع الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد وقع السوفييت مع الألمان اتفاقية عدم اعتداء وهجوم ، إلا أن الألمان كانوا قد جهزوا أنفسهم للعدوان ، فاعتدوا علينا ، مما اضطرنا للتراجع والانكفاء حتى حدود العاصمة موسكو ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا ، فأعددنا عدتنا ودحرناهم وأسقطنا النازية .

إن الخداع قد لعب دوره الصاعق عام ١٩٦٧ ، لكن ذلك لم يستمر طويلا ، لأنني كعسكري أثق بأن الفشل الآني أو الواحد لايمكن أن يكون قدرا مستمرا أو دائما.لقد تحسن الأداء العسكري العربي في حرب سنة ١٩٧٣ ، وكان متميزا . أما بالنسبة للسلاح السوفيتي وعدم كفاءته فإنني أعتقد بأن من يروج لذلك فإنه يروج لنكتة فظة ، إذ لماذا يكون السلاح السوفيتي كفوا في هذا المكان ولايكون كذلك في مكان آخر ؟

إن الأداء العسكري العربي لم يستمر بصورة مناسبة سنة ١٩٧٣ ؟

لقد ذكرت لك من قبل أن المشكلة هي مشكلة صاحب القرار السياسي .

الإنسان والآلة :

أيها أهم : الإنسان أم الآلة في الحروب المعاصرة ؟

ـ لقد كان الأمر دائما ومنذ فجر التاريخ يعتمد على الاثنين ، الإنسان والآلة معا ، ودون توافق بين الاثنين فإن خللا يحدث ، كما أنهما يجب أن يكونا في حال جيدة .

* هل يصح القول بأن هذا السلاح دفاعي ، والآخر هجومي ؟

ـ أعتقد أن السلاح ـ أي نوع منه ـ كان منذ فجر التاريخ هجومياً ودفاعياً في نفس الوقت ، فإن المدية تستعمل للدفاع والهجوم معا ، والدبابة والصاروخ ، وأي سلاح آخر يستعمل للغرضين .

الصهيونية والاتحاد السوفيتي :

* هل الصهيونية قوية في الاتحاد السوفيتي إلى درجة دفعكم لتأسيس لجنة لمناهضتها ؟

ـ إن عمل لجنتنا لايقتصر على داخل الاتحاد السوفيتي ، إن لنا علاقات عديدة مع منظمات وأنظمة كثيرة ، ونقوم بفضح الأفكار والنشاطات الصهيونية بواسطة كل الوسائل المتاحة كالصحف والبرامج الإذاعية والتلفازية ، ونقيم بالتنسيق مع منظمات أخرى ندوات ومحاضرات ضد الصهيونية ، ولاتقتصر علاقاتنا بمنظمات دول شرق أوروبا أو ذات النهج الاشتراكي ، بل لنا علاقات مع منظمات معادية للصهيونية في أوروبا الغربية وأمريكا ومناطق أخرى ، وهذا يدل على أن وعي بعض الناس قد نما ، واكتشفوا حقائق الصراع ، فوقفوا مع حق الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية على الرغم من الدعاية الصهيونية الكثيفة القوية .

أما من حيث نشاطنا داخل الاتحاد السوفيتي فيمكن القول بأنه لاتوجد منظمة صهيونية لها وجودها العلني داخل الاتحاد السوفيتي ، إنما توجد عناصر تتأثر بالدعاية الغربية المضادة للاتحاد السوفيتي المؤيدة للصهيونية و « إسرائيل » ، وينشطون في مجال تشجيع هجرة اليهود إلى خارج الاتحاد السوفيتي .

* هل لجنتكم وجدت لهذا الغرض . . أي لأجل مكافحة الهجرة ؟

ـ لقد وجدت لأجل هذا الغرض ولأجل غيره ، إننا نعقد الندوات والمحاضرات ، ونصدر المنشورات والكتيبات ، ونستعمل كل وسائل الإعلام المعروفة لكشف أهداف الصهيونية ، وتوضيح مضار الهجرة والمناداة بإعطاء الحقوق الشرعية للفلسطينيين وغير ذلك .

الهجرة في الميزان :

* كيف تنظر لجنتكم إلى موضوع الهجرة ، وخاصة هجرة اليهود إلى فلسطين ، وانعكاس ذلك على العلاقات العربية السوفيتية ؟

ـ علينا أن نضع موضوع الهجرة ضمن إطاره الصحيح ، هناك نص صريح من نصوص الأمم المتحدة ينص على جمع شتات العائلات والأقارب ، بعد أن شتتت الحرب العالمية الثانية العائلات ، لذلك فإن الهجرة قد أصبحت حقا قانونيا لمن يرغب فيها ، وخاصة إذا ماوجد أقارب يدعون الراغب ويتكفلون به . هكذا سارت الأمور بعد الحرب لدى جميع الدول ، لاسيما الدول التي شاركت فيها ، وكما هاجر الآلاف ، بل ومئات الآلاف من شتى قوميات الاتحاد السوفيتي إلى خارجه ، فإن الاتحاد السوفيتي قد استقبل مئات الآلاف من العائدين أيضا ، ومازال الأمر مستمرا إلى الآن .

أما بالنسبة لهجرة اليهود فإن هذا الأمر قد أصبح يستعمل سلاحا مضادا ، وخاصة في سنين « الحرب الباردة » ، والغريب أن الضجة والغبار والدعايات التي يستعملها أعداء الاتحاد السوفيتي تنجلي وتتضح ليكتشف العالم أن ما نسبته ١٠ إلى ١٥٪ فقط من اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتي يتجهون إلى « إسرائيل » ، والباقي يهاجرون إلى الولايات

المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية وكندا واستراليا وغيرها .

إن شعار حقوق الإنسان هو أحد شعارات « الحرب الباردة » الذي يستعمله الغرب لأجل خدمة المصالح الصهيونية فقط . وكي أطلع قراء مجلة « العربي » وبالتالي العرب والعالم أجمع على حقيقة الأمر فإنني أذكر بأن كثيرا من المهاجرين عندما علموا بأن « إسرائيل » وبعض الجهات المؤيدة لها يطالبون بتغيير خط رحلة طيران المهاجرين من فيينا إلى بوخارست ثم إلى « إسرائيل » مباشرة ، دون أن يمنحوا خيار السفر إلى جهات أخرى غير ذلك ، فإن كثيرين من اليهود سحبوا طلبات هجرتهم .

والأمر كما ترى مضحك تماما . إذا كان الغرب ينادي بحقوق الإنسان فعلا وقولا فلماذا لايحتج على السلطات « الإسرائيلية » التي تريد مصادرة حق الهجرة والتنقل ، وتجبر المهاجر كي يتجه إلى تل أبيب بدلا من أن يكون حرا في التوجه إلى أي جهة يشاء ؟

الهجرة والعرب :

* ألا تؤثر هجرة اليهود إلى فلسطين المحتلة على العلاقات الفلسطينية السوفيتية بخاصة ، وعلى العلاقات العربية السوفيتية بعامة ؟

ـ إنها تؤثر ، وهي عامل سلبي ، لكن على أصدقائنا العرب أن يتفهموا الوضع كما هو ، فإن هذا الأمر هو أحد الأسلحة الموجهة إلى سمعة الاتحاد السوفيتي وهيبته ، إضافة إلى أنه حق من حقوق الإنسان ، وعليك ألا تنسى أن الكثيرين ممن يحملون الجنسية « الإسرائيلية » الآن قد هاجروا من الأقطار العربية .

ومع ذلك فإن لجنتنا تتابع برنامجها في فضح الصهيونية وتوضيح مضار الهجرة .. إلخ .

* كيف تتعاملون مع من يرغب بالعودة إلى الاتحاد السوفيتي ؟

ـ لقد منحت السفارة السوفيتية في واشنطن ـ على سبيل المثال ـ ٢٥٠ شخصا إذنا بالعودة إلى الاتحاد السوفيتي في الأشهر الستة المنصرمة من عام ١٩٨٧ ، ويوجد ١٢٠٠ طلب تحت الدراسة أيضا .

ويدرس الطلب دراسة مستفيضة قد تمتد سنوات ، لاكتشاف دوافع العودة ، وألا يكون الشخص قد تورط مع جهات معادية للسوفييت إلخ . وبعد ذلك وعندما تقتنع الجهات المعنية بأن مقدم الطلب نادم ويريد التكفير عن هجرته بالعودة إلى الوطن ، فإنه يتم الإيعاز للجهات المختصة لتوفير عمل وسكن مناسبين له . إننا نأخذ اتفاقية هلسنكي ـ حقوق الإنسان ـ بعين الاعتبار ، ونفهم بأن المقدم على العودة شخص ارتكب خطأ بحق وطنه ، ويريد تصحيح هذا الخطأ .

* هل يمكن أن نقابل بعض العائدين ؟

ـ لقد تولت الصحف نشر مقابلات مع بعضهم ، كما تولى التلفاز والإذاعة نشر مقابلات مع بعض العائدين ، ويمكن أن نوفر لكم بعض الصحف التي نشرت المقابلات .

* ولماذا لانقابلهم شخصيا ؟

ـ إن بعضهم يرفض المقابلات ، وغيرهم لايسكنون في العاصمة ، كما أن الفصل هو فصل صيف وإجازات ، وقد غادر بعضهم العاصمة إلى مناطق الاصطياف في الاتحاد السوفيتي .

* ألا يمكن تدبير مقابلة حتى مع فرد أو عائلة من العائدين ؟

ـ إن الأمر صعب . (هكذا أجاب أحد مساعدي الجنرال ، وأضاف : أقترح أن تتركوا لنا أرقام غرف الفندق الذي تسكنونه ، وسنتصل بكم ، أو تتصل بوكالة نوفوستي كي تخبركم إذا ماجد جديد) .

شكرت الجنرال ومساعديه بعد أن زودونا ببعض صور القصاصات من صحف سوفيتية أجرت مقابلات مع بعض العائدين .

وبدأت أسعى عن طريق علاقاتي الشخصية للوصول إلى بعض العائدين ، وفعلا فإنني قد وصلت . □

قراءة نقدية لكتاب

السيّد من حقل السّبانخ

رواية عن المستقبل
من تأليف صبري موسى

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

هل كتابة رواية عن مشكلات الإنسان في القرن الرابع والعشرين نوع من الترف الفكري والفني ، أم أن كتابة رواية عن المستقبل يمكن من بعض الوجوه أن تكون مثل كتابة رواية عن الماضي محاولة لرؤية الحاضر من موقع مغاير بحثا عن إمكانية أفضل لفهم هذا الحاضر ، والحوار معه ، والتماسا للاتجاه الصحيح لتطور الإنسان ومساعدته على السير فيه ؟

بغض النظر عن الفروق بين رواية عن التاريخ وأخرى عن المستقبل ، فالعنصر المشترك بينهما هو أن الحاضر موجود فيهما بشكل أو بآخر ، وأن هذا الحاضر هو مصدر الخبرة العامة المشتركة بين الكاتب وقارئه التي منها ينطلقان ، سواء لتمثل الماضي في رواية تاريخية أو تخيل المستقبل في رواية عنه !

وقد كان من الطبيعي أن تظهر الرواية التاريخية أولا إلى الوجود ، وأن يبلور النقد الأدبي قيما نقدية حولها ، وأن تبقى رواية المستقبل أو ما يعرف باسم رواية الخيال العلمي حتى الآن تحتل هامشا محددا على حافة أي حركة أدبية ، وأن تثير من الأسئلة أكثر مما تملك من الأجوبة ، وبالتالي فسوف تبقى الحاجة ماسة إلى التماس أجوبة عن هذه التساؤلات : من أين يبدأ كاتب رواية الخيال العلمي ؟ أمن الفروض العلمية التي لم تتحقق بعد ، أم من النظريات العلمية المطبقة بنجاح في مجالات محدودة واحتمالات تطبيقها على مجالات أوسع وأخطر ؟ وماذا ينجم عن احتمالات تحققها ؟

وكيف يرسم كاتب الخيال العلمي شخصياته ؟ بل وما هو مفهوم الشخصية في مثل هذه الروايات ؟ وكيف يقدم الكاتب المعلومات اللازمة للقارىء ، لكي يتواصل مع هذه الشخصيات التي لا سبيل لفهم سلوكها فضلا عن التفاعل معه إلا من خلال هضم

صبري موسى

السيد من حقل السبانخ

هذه المعلومات التي تؤثر في محيط الشخصيات ، وبالتالي في سلوكها ؟

وإذا كنا نعرف أنه لا توجد هناك صورة واحدة لمستقبل واحد ، بل هناك احتمالات لمستقبلات عديدة ، فهل ينحاز الكاتب لإحدى هذه الاحتمالات وتكون روايته تفسيراً لانحيازه ، أم يختار مستقبلا عريضا تتصارع فيه التيارات كما هو قائم في الحاضر ؟! وكيف يكون الصراع بين شخصيات الرواية التي تعكس هذه التيارات ؟ هل سيكون صراعا فيه نبض حياة المستقبل كما يتخيلها الكاتب أم يسقط الكاتب في شرك الأفكار والاتجاهات والمعلومات ؟

وأين تكمن القيمة في مثل هذه الروايات ، هل في دقة المعلومات وجدتها ، أم في روعة الخيال القائم على هذه المعلومات ، وقدرته على الاقناع والإثارة ، أم في صدق التنبوءات التي تحتوي عليها الرواية ، وما يعنيه ذلك من تأجيل للتحكم على قيمتها ؟!!

بعض قصص الخيال العلمي تقتصر على متابعة تحقيق فرض علمي وحيد في مجال بعينه ، مثل مسرحية « لو عرف الشباب . . . » لتوفيق الحكيم التي كتبها في الأربعينات ، وصور فيها إمكانية أن يسترد شيخ طاقة الشباب ، فماذا تفعل شخصية يتاح لها أن تمتلك المعرفة والطاقة في وقت واحد ؟!

وبعضها قد يغامر بتصوير حياة عريضة في إطار متغيرات كبيرة ، في مجتمع بأسره ، مثل مسرحية « رحلة إلى عالم الغد » لتوفيق الحكيم أيضا ، ورواية عام (١٩٨٤) لأورويل ، ورواية « السيد من حقل السبانخ » التي تناولها في هذا المقال . وإذا كان النوع الأول يمكن أن يظفر في العادة ببناء دقيق محكم فإن النوع الأخير يواجه تحدي الحاجة لتحقيق الانسجام والتوازن والوحدة ، وكلها ضرورية لأي رواية ولو كانت رواية من الخيال العلمي !

بناء الرواية

يرتكز بناء هذه الرواية على محورين أساسيين ، المحور الأول : حادث خروج « السيد هومو » عن البرنامج المرسوم خلال عودته من عمله ذات يوم في حقل السبانخ ، ومن هذا الحادث تتداعى أحداث القسم الأول من الرواية ، إذ نتعرف على جميع شخصيات الرواية من خلال مواقفها ، وطريقة تفسيرها لهذا الحادث ، ويكون هذا الخروج عن البرنامج بمثابة الشرارة التي تفجر المشكلات والأفكار والتساؤلات ، ويحتدم صراع الشخصيات حول مغزى هذا الحادث المفجر ، ويتضح هذا الصراع في تيارين أساسيين ، تيار يقوده النظام الحاكم في مجتمع القرن الرابع والعشرين ، ويرى في هذا الخروج مؤشرا على خلل في هذا الفرد ، ينبغي علاجه وتطويقه ، حتى لا يتوالى انتشاره ، وتيار يقوده « بروف » المعارض ، وهو عالم كان يحتل مكانا مرموقا في النظام ، لكنه انفصل عنه ليقود المعارضة ضده ، ويرى في خروج السيد هومو وأمثاله دليلا على خلل في النظام ، ويتخذ من « السيد هومو » رمزا لتيار المعارضة .

المحور الثاني

محاضرة حول « مستقبل الجنس البشري » يقيمها النظام ليحسم فيها الصراع الدائر بينه وبين المعارضة ، ومن هذه المحاضرة والمناقشات الدائرة من حولها يتجلى الصراع عن فوز النظام وحصوله على الأغلبية اللازمة لإقرار برنامجه الجديد عن التطور الانساني في المرحلة القادمة ، ويختار « بروف » وتيارة ومعهم « هومو » بطل روايتنا (رجل السبانخ) أن يخرجوا من مجتمع القرن الرابع والعشرين الذي يستعد لمواصلة رحلته في الكون ، ويعودوا إلى الأرض القديمة التي قد أصبحت غير صالحة للحياة بعد الحرب الالكترونية الأولى في نهاية القرن العشرين ، يعودون للبحث عن إمكانية تحقيق مسار مختلف لتطور الإنسانية . وهكذا يبدو محورا الرواية ، وكأن أحدهما يدور ليفجر المشكلات والآخر يدور ليحسمها !

شخصيات الرواية

كما ألمحنا فإن الكاتب يقدم شخصيات الرواية من حيث علاقتها بحادث خروج « السيد هومو » عن البرنامج ، وابتداء نعرف أن السيد « هومو » قد شعر فجأة برغبة غامضة في ألا يواصل السير في الطريق المعتاد لكن إلى أين ؟ ولماذا ؟ يبدو أنه لم يفكر طويلا في هذين السؤالين . فقد أسلم نفسه لشعور غامر بالارتياح فقط لمجرد إحساسه بأنه كسر ذلك البرنامج ، وتمكن من الإفلات من قبضته ، لكن هذا الشعور بالارتياح لا يدوم طويلا ، فالشارع الذي يسير فيه يمضي بين جدارين مرتفعين من البلاستيك السميك الشفاف ، لا توجد به فتحات أو نوافذ أو دكاكين ، ويكاد يخلو من المارة ، عدا أعداد قليلة من العاملين في معامل البروتين النوعي التي توجد أسفل الأبراج السكنية ، وهم لا يعبأون كثيرا بتحيته التي يلقيها عليهم ، فهم في طريقهم إلى أعمالهم وفق برنامجهم ، ويتنهي به المسير إلى محطة السفر إلى الفضاء الخارجي ، التي لا يوجد فيها سوى أولئك الذين حانت مواعيد سفرهم وفق برنامج مسبق محدد . ويبدو أنه خارج البرنامج - أي برنامج - لا مجال لشيء سوى الشعور بالتعب والإنهاك والجوع ، والغريب أن يصبح هذا هو الجديد المثير بالنسبة للسيد هومو ، فهو لم يجرب هذه المشاعر من قبل ، تلك المشاعر التي تشير المعلومات التاريخية أنها كانت تصيب الإنسان القديم ، وهكذا كان على السيد هومو في النهاية لكي يتخلص من وطأة الشعور بالتعب والجوع والانهاك ، ولكي يتحدث أيضا عن ذلك لزوجته وأصدقائه ، أن يعود إلى البرنامج ، وأثناء غيبة السيد هومو في مغامرته يقدم لنا الكاتب السيدة ليالي زوجة هومو من خلال بحثها عن أسباب تأخر زوجها في العودة ، ثم نتعرف على صديقه « دافيد » ، لأن الزوجة بحثت عن زوجها عنده ، ثم نتعرف على أعضاء لجنة التحقيقات الممثلة للنظام ، لأن زوجها مُثل في اليوم التالي أمام أعضاء اللجنة لسؤاله عن أسباب خروجه عن البرنامج ، ثم نتعرف على « بروف » في أحد ملاهي المناقشات العامة ، وهي أماكن أعدها النظام ليستطيع من يشاء من أفراد المجتمع في القرن الرابع والعشرين أن يقول فيها ما يشاء بصراحة تامة في أي شيء ولو كان ضد النظام (هايد بارك القرن الرابع والعشرين) . وقد ذهبت السيدة ليالي ودافيد إلى هذا الملهى لمتابعة تحقيق اللجنة مع زوجها على شاشات العرض هناك قبل أن يسمح لها بمقابلته في مركز التحقيق .

وقد استمعت إلى أقوال زوجها أمام اللجنة ، وإلى تعليقات المتابعين في ملهى المناقشات ، ومن أهمها تعليق بروف الذي كانت تراه لأول مرة .

حول هذا المحور تتحرك أحداث الرواية في إيقاع هادىء نوعا ما ، ربما لأنه مثقل بوصف الكاتب لملامح الحياة في مجتمع القرن الرابع والعشرين ، ومثقل بتساؤلات كل شخصية عن مغزى خروج السيد هومو عن البرنامج ، وتفسيرها لهذا الحادث ، ومن هذه التساؤلات نتعرف على جوانب من هذه الشخصيات ، وجوانب من هموم العصر ومشكلاته وتطلعاته ، ونقتحم عالم هذه الرواية .

تساؤلات أفراد أم تساؤلات عصر

هل كان خروج السيد هومو عن البرنامج مجرد تصرف عفوي كما يقول أمام أعضاء اللجنة ، وأنه بممارسته كان يمارس نوعا من الحرية أم أن تصرفه هذا يشكل ثغرة في النظام؟ولو أنهم أطلقوا الحرية لكل فرد كي يتصرف على سجيته في أمر كهذا لانفتحت في النظام آلاف الثغرات ، لتدخل منها كل عيوب البشرية القديمة ، مثل الإهمال والفوضى والكسل والكذب ، كما يقول أعضاء اللجنة ؟

وهل يعالجون حالته ـ كما عالجوا حالات سابقة بدأت تظهر في الآونة الأخيرة ـ باعتبارها نتيجة لسأم من حياته الزوجية أو حياته المهنية ، فيلجأون إلى « الكمبيوتر » لإعادة تزويجه أو لتغيير مهنته مع أن « الكمبيوتر » هو الذي اختار له مسبقا زوجته ومهنته ، ولم تسبق له شكوى من أي منهما ؟!

أم أن المسألة كما قال « بروف » في ملهى المناقشات :

« ليست قضية افتقاد الحرية ، بل هي افتقاد الجمال ، فقد ابتعد مجتمع القرن الرابع والعشرين ـ بسبب اعتماده الساحق على التقنية المتطورة جدا ـ عن فطرة الطبيعة الخلابة وجمالها السخي الذي أصبحنا لانشاهده إلا في أفلام الأرشيف السينمائي القديم ، وأن هذا هو السبب في حالات الخروج عن البرنامج ؟ » .

إن حديث السيد « بروف » عن ضرورة العودة إلى الطبيعة في ملهى المناقشات يثير حيرة السيدة ليالي زوجة هومو وهي تبحث عن معنى لخروج زوجها عن البرنامج . كانت لديها تساؤلاتها الخاصة النابعة من علاقتها بزوجها ، فهل يكون لما يقوله السيد « بروف » عن العودة إلى الطبيعة علاقة بذلك ، لقد طلب منها أن تخبر زوجها حين تزوره في مركز التحقيق أن يعتمد في دفاعه عن موقفه على فكرة افتقاد الطبيعة ، وليس افتقاد الحرية ، لكن دافيد صديق زوجها يؤكد للسيدة ليالي « أن العودة إلى الطبيعة مستحيلة ، فنحن نحيا بالفعل في طبيعة بديلة أكثر ملاءمة ، وأن المعادلة الصعبة التي يواجهها النظام هي : إنتاج أكثر لتحقيق عدالة وفيرة يتطلب تزايدا آليا على حساب المساحة الطبيعية » . ولا ينتظر السيد « بروف » حتى تنقل السيدة ليالي رسالته إلى زوجها ، بل يبادر بالاتصال به في مركز التحقيق ، ويحدد له موعدا للقائه ، ولا ينتظر حلول الموعد ، بل يشرح له فكرته باختصار عن أن سبب خروجه عن البرنامج هو افتقاده للطبيعة بسبب سيادة العبيد الآليين « الربوتات » الذين يقومون عنا بغالبية الأعمال التي كنا نقوم بها ، فهؤلاء العبيد الآليون هم السادة الجدد ، وهم سر تلك الظواهر الدالة على التعاسة التي بدأت تظهر هنا وهناك .

وتصبح هذه الفكرة نوعا من الإلهام « للسيد هومو » ، فقد كان قبل أن يتصل به « بروف » وبعد استجواب اللجنة له يتأمل في شجرة صناعية تسقط أوراقها كما كانت تفعل أي شجرة طبيعية ، وكان يفكر أن البشرية تطورت حقا من عصر النحاس الأحمر معدن الصناعات الكهربائية إلى عصر الألمنيوم معدن الطيران إلى عصر التيتانيوم معدن سفن الفضاء ، لكن من حق الإنسان المعاصر أن يتساءل إلى أين ؟ إن الشعار الذي يرفعه النظام الآن وهو : « من الإنسان الفرد إلى الإنسان الملاك » ، لم يعد قادرا على أن يمنحه الثقة القديمة . يقول لزوجته السيدة ليالي وهي تحاول أن توضح له أنه ربما يكون هناك نوع من الخلل في علاقتهما الجنسية قد أدى إلى خروجه عن البرنامج

ـ لا ، ليست هذه هي المشكلة ، إنني أشعر أن كلام السيد « بروف » يقترب من الحقيقة ، فكلما ازددنا تقدما في الكون فقدنا إحساسنا بذواتنا ، وازدادت حاجتنا لابتكار أدوات وآلات أكثر تقدما ، إننا قد نصنع كائنات تتفوق علينا ، بل لعلنا فعلا قد أصبحنا عبيدا لهذه الآلات كما يقول السيد « بروف » .

لكن السيدة ليالي التي كانت تشعر بشرود زوجها وهو معها في الفراش كانت تتفاعل مع فكرة « بروف » بطريقة مختلفة ، فهي تدرك أن الإنسان

وحده هو النوع الوحيد الذي تحصل فيه الأنثى على النشوة الجنسية ، وأنه استطاع أن يوفر لنفسه شكلا من أشكال التناسل يقوم على الاختيار الذي ينتج التنوع والتغاير ويدفع بالتطور إلى الأمام . ولقد ظل هذا الانسان عبر مسيرته الطويلة متأرجحا بين رغبته في اشباع غرائزه من ناحية وبين اعترافه بالمسئولية الاجتماعية من ناحية أخرى ، وليس في الحيوانات كلها من واجه تلك المشكلة ، فالحيوان إما أن يكون فرديا أو اجتماعيا ، والإنسان هو وحده من تطلع إلى أن يكون فرديا واجتماعيا في وقت واحد . وها قد وصلت أداة الاختيار الجنسي بالإنسان في هذا العصر إلى أنهم يصنعون بطريق التكاثر الخلوي في الأنابيب نسخا متماثلة من أم جميلة وذكية وأب قوي وبارع ، وهم ينتجون من هذه النسخ في المعامل بالآلاف ، للعمل في الخطط الانتاجية المبرمجة .

أتكون تلك هي الخيانة التي ارتكبها الانسان وهو يقف على قمة تطوره ضد الطبيعة ، فبدأت الطبيعة تنتقم منه ؟ أما « دافيد » فقد جلس يستمع إلى « هومو » بعد أن عاد من التحقيق ، وهو يعقد مقارنة مثيرة بين حال الإنسان في القرن الرابع والعشرين وهو يعيش بعقل مسترخ في كل تأملي لذيذ بينما الوجبات الباردة والساخنة تأتي إليه عبر الأنابيب ، وبين الكائنات الضخمة التي انقرضت في الماضي البعيد لأن أجسامها الثقيلة ظلت تربطها بالأرض تحت ظلال أشجار الغابات الاستوائية السحيقة القدم ، بينما تطورت الثدييات لأنها أخذت تتسلق الأشجار العملاقة ، وتتاح لها فرصة التحرك والتأمل في عالم رحب من الأضواء والأزهار والبراعم والحشرات .

ويتساءل دافيد باستنكار :

ـ لكن من المؤكد أن لدينا عقولا تعمل لتدبر هذا المجتمع الذي يوفر الحياة السعيدة لكل فرد . فالذين يشغلون المراكز القيادية على جانب كبير من الذكاء .

ـ نعم ، لكن في المقابل فإن جميع الذين لا يشغلون المراكز القيادية مطلوب منهم سهولة الانقياد والمهارة الخالية من « العاطفة » ثم يتابع « هومو » :

إن أوضاعنا في عصر العمل لا تهدد الذكاء الانساني فقط باعتمادنا على العبيد الآليين (الروبوتات) ، بل إنها تطمس الإرادة الفطرية التي تقود غريزة الارتقاء في البشر .

ـ أتريد أن تقول إن لحظة التوقف التي انتابتك هي وليدة انتباه مفاجيء لافتقاد الإرادة .

ـ أجل ، أن تجد نفسك تفعل فقط ما هو متوقع ، ومعتاد أن تفعله !

جدل الشخصية والقضية

واضح من استعراض هذا الجزء من الرواية أن القضية المحورية فيها هي قضية التطور : من أين وإلى أين وكيف ؟ وأننا نتعرف على كل شخصية من خلال تكيفها أو عدم تكيفها لذلك التغير الذي يحدثه التطور التقني الهائل في الطبيعة ، سواء طبيعة الأرض أو طبيعة الإنسان الذي يعيش عليها . ومع أن الكاتب بدأ الرحلة من موقف محدد هو خروج السيد هومو عن البرنامج ، ثم مواقف الآخرين منه ، فإننا مع مسار الأحداث كنا نتعرف على الشخصية من خلال موقفها من الفكرة ، وأحيانا على الفكرة من خلال حديث الشخصية عنها أو تفكيرها فيها . وقد يلاحظ القاريء في الصفحات الماضية طغيان الفكرة على حساب الشخصية ، وأن احتياجات توضيح الفكرة وشرح أبعادها للقاريء كان هو الذي يفرض الجرعة والأولوية ، وشيء مثل هذا قد حدث بالنسبة للمعلومات ، ففي صفحة ٣٧ من الرواية ، وأثناء التحقيق مع « هومو » يستطرد مندوب النظام العام في حديث عن إنجازات النظام في توزيع العمل والطعام والكماليات . . . الخ .

وهذا الحديث لا يقتضيه الموقف ، حيث يتوجه به إلى « هومو » ، والمفروض أنه يعرفه جيدا ، لكن الكاتب في الحقيقة كان يحتال لتقديم هذه المعلومات لقاريء القرن العشرين عما تم إنجازه في القرن الرابع والعشرين . وواضح أيضا أن جوهر الدراما في هذه الرواية هو دراما الأفكار والاتجاهات المتصارعة ، وأن الأساس النفسي لهذا الصراع كان

شاحبا ، وباستثناء شخصية « هومو » التي كانت تراجيدية بمعنى من المعاني ، وشخصية زوجته ليالي فإن بقية الشخصيات كانت أحادية الجانب ، لا يبرز منها إلا ما يتصل بالموقف من قضية التطور .

إن الايقاع السائد في هذا الجزء من الرواية ما هو إلا إيقاع التساؤلات الحائرة بحثا عن إجابات غير مؤكدة ، وفي هذا الجزء من الرواية يتم التركيز على الأصوات التي تصنع المعارضة ، وإذا كنا قد سمعنا أشياء عن وجهة نظر النظام خلال التحقيق مع « هومو » ، فهي من النوع الذي يجيء القاريء للاستماع لوجهة نظر النظام الكاملة وهي التي يرد بها عن الأسئلة الحائرة في الجزء الأول من الرواية ، وذلك في المحاضرة التي يلقيها ممثل النظام في القاعة الكبرى ، حيث تواعد بروف وهومو على اللقاء - أثناء التحقيق - في ثالث أيام الإجازة الأسبوعية ليقودا المعارضة ضد النظام . . !

مستقبل الجنس البشري

في القاعة الكبرى المعلقة التي بنيت على شكل مخ بشري لأنها هي التي احتفظت بكل ما تبقى من الحضارة الانسانية في القرن العشرين بعد أن دمرت الحرب الالكترونية كل شيء ، وقف مندوب النظام يلقي محاضرته التي هي عبارة عن برنامج ثوري للخطوة التطورية القادمة ، ولمعالجة حالات الخروج عن البرنامج التي تكررت في الفترة الأخيرة .

وفي القاعة كان بروف وهومو ومن معهم من المعارضين يجلسون ليستمعوا إلى المحاضرة ، ويعلقوا عليها قبل التصويت على البرنامج الذي تتضمنه .

صوت النظام

وتقوم المحاضرة على الخلاصات التالية :

تذكير الناس بالنظرية التي ترجع الكوارث الكبرى التي حدثت للإنسانية وعاقت تطورها ، والتي كان آخرها الحرب الالكترونية في نهاية القرن العشرين إلى أن دماغ الإنسان يحتوي على قسمين ، قسم خاص بالغرائز والانفعالات ، وقسم خاص بالمنطق والتفكير ، وأنه بينما تطور القسم الخاص بالمنطق بقي القسم الخاص بالغرائز دون تطور . . . »

الطفل البشري يظل عاجزاً ومرتبطا بوالدته مدة أطول بكثير من المدة التي يقضيها أي صغير آخر من المخلوقات الأخرى وبسبب هذا الالتصاق الطويل ينمو مع هذا الطفل التعصب الأعمى للأفكار والمعتقدات الموروثة دون تفكير .

إن العملية التربوية القائمة على فصل الأطفال عن وعاء الأم سواء في المرحلة الجنينية أو مرحلة الطفولة من خلال خطة الولادة المعملية التي بدأ تطبيقها في نصف القرن الأخير قد أثمرت نماذج متجردة من الإحساس الفردي ، ومرتبطة تماما بالنظام العام وأهدافه التطورية .

إن هؤلاء الطلائع يحملون منذ سنوات مسئولية التنمية البشرية في المجتمعات الجديدة فوق سطح كوكب القمر ، وهي مهمة تستدعي البقاء في الفضاء الخارجي عشرات السنين ، وهو شيء لا يستطيع احتماله الأشخاص الذين ولدوا ونشأوا في أحضان عائلاتهم ، حيث يستولي عليهم الحنين والقلق ، ويؤثر على تفكيرهم وطريقتهم في الأداء ذلك الشعور بالاغتراب عن الأسرة .

لهذا أيها السادة فإن خطة التوصل إلى بشر عقلانيين التي يسير فيها النظام بتدرج يجب أن تسير بسرعة أكبر ، فالوقت لا يسمح بهذا الترف الوجداني بالعودة إلى التفكير في الطبيعة التي تعبر عنها تلك الحالات الشاذة التي بدأت تظهر على بعض الأفراد هنا وهناك ، إنها تنذر بأن الشعور الفردي الذي يقود إلى المخالفة والتعصب ما يزال كامنا يهدد المسيرة البشرية الجديدة .

ثم يبدأ المحاضر بناء على هذه الفروض والرؤية المبنية عليها بطرح برنامج النظام الجديد الذي يقوم على فكرتين :

- مواجهة الحالات العارضة للانقطاع عن البرنامج بمعالجة عقول أصحابها كيميائيا بحيث تعود

إليهم السيطرة العاقلة على أنفسهم .

ـ إعلان الغاء مؤسسة الزواج ، وبهذا الإلغاء يتحول الشعور تجاه الابن المجهول تلقائيا تجاه كل الأبناء في المجتمع البشري .

صوت المعارضة

* إن النظام يتحدث عن تطوير العقل وإلغاء الغرائز دون أن يلاحظ ذلك الهبوط المستمر في مستوى الذكاء البشري ، نتيجة لسيادة المنطق الآلي الميكانيكي ، دون أن يلاحظ التناقض بين هبوط ذكاء الإنسان في الوقت الذي تزداد كفاءة العقول الصناعية حتى أصبحت قادرة على الاختراع ، ووضع التصاميم واختزال الخبرات السابقة .

إن البرنامج الذي تقترحونه سوف يجعل عقول الأشخاص تعمل دون إرادة أصحابها ، وأن تتفاهم وهي مستقلة عن ردود فعل أصحابها .

* إن الانسان الفرد هو البداية والنهاية ، وهو الغاية والوسيلة ، ودون ذلك فأنتم صائرون إلى حالة تشبه ما هو قائم في مملكة النحل ، وهي صورة قديمة من صور الحياة ، ومن التنظيم الاجتماعي .

وقبل التصويت الذي يسفر عن فوز برنامج النظام تستمر المساجلات بين المؤيدين والمعارضين التي تتسع لها الرواية ، ولا يحتملها هذا المقال .

نظرة شاملة

إذا كان من الممكن مناقشة الجوانب الفنية في مثل هذه الرواية في هذا المقال ، فمن الذي يملك حق مناقشة الجوانب العلمية الموزعة على شتى العلوم البحتة أو الاجتماعية ؟ ومع ذلك فلا أقل من إثارة بعض التساؤلات .

في ضوء التجربة البشرية التاريخية قد يبدو مقبولا ذلك الفرض القائل بأن طول فترة حضانة الطفل البشري تسهم في خلق مناخ للتعصب والفردية والاختلاف ، لكن ماذا عن مشكلات البديل الذي يقترحه النظام ؟ فطول فترة حضانة الطفل متعلقة بخصوصية طفولة البشر وليس بالزواج ، واحتمال أن يحل التعصب للنظام محل التعصب للأسرة والوطن قائم ، المهم أن مشكلات البديل لم تطرح ، بل لم تعرف على نطاق تجريبي واسع ومن يملك حق الحديث عنها ؟؟

تلجأ الرواية إلى منهج أقرب إلى الحسم بين التيارات المتصارعة في المجتمع الإنساني ، مع أن الجدل بين هذه الاتجاهات قائم في ذات الفرد مثلما هو قائم بين القوى الاجتماعية ، والسؤال هو هل التحدي المطروح هو إزالة الاختلاف بين الأفراد مع أنه أحد مصادر الثراء والتنوع والتفرد ثم التطور ، وأحد مصادر الجمال حين يؤدي إلى التكامل والتناغم ؟

أم أن التحدي الحقيقي هو المحافظة على الاختلاف والتنوع دون أن يقودنا ذلك إلى التعصب والدمار ، بمعنى أن يتعلم البشر كيف يقبلون الاختلاف ، ويتعاملون معه بنجاح لخدمة التطور ؟

ويتم ذلك من خلال صيغة أو مركب جديد يذيب التناقض السابق ويؤدي إلى خطوة تطورية أكثر تقدما .

على الرغم من أن الصراع في الرواية بالدرجة الأولى صراع أفكار وتيارات ، يمتد على نطاق عديد من القضايا ، فقد حققت الرواية درجة عالية من الوحدة والانسجام بين حركة الشخصيات والأفكار والرؤى ، وأكدت ما تميز به الكاتب الروائي صبري موسى في كل أعماله السابقة من جدية والتزام بقضايا تضج في رأسه ، ومهارة فنية عالية . □

● اذا مارأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه ، وأنت تعصيه ، فاحذره .

(الامام علي)

يَدُ رَجُلٍ مِثلَهُ !

بقلم : محمود الريماوي

ما ان استعد لأخذ مكانه وراء الطاولة حتى سمع تحية الصباح من أول زبون ، جاء يشتري علبة كبريت . نعم ، علبة واحدة تكفي . رد التحية وهمّ بمناولته ما طلب ، فاذا بالشاب يقترب منه ، ويرسل إليه نظرات ثاقبة ، ويقول بصوت منخفض لكنه مسموع : اليوم إضراب يا حاج . . . لماذا فتحت الدكان ؟

(استغرب الحاج . لم يكن يعرف .)

ـ هل يجب أن أغلق الدكان حتى ينجح الاضراب ؟ لا أحد يشتري ولا أحد يبيع ، أليس هذا إضرابا ؟

قال ذلك بنبرة متبرمة ، وهو يتفرس في الشاب الذي يعرف قسماته ، ولا يعرف من هو وما اسمه ، لم يكن متأكدا من صحة ما قاله ، وكل ما في الأمر أنه لايريد أن يترك نفسه نهبا للحرج ، أمام هذا الشاب الواثق . الصحيح أنه لا يعرف بالاضراب ، ولعله اليوم الأول .

ـ الاضراب يعني أن تغلق المحلات أبوابها ، ولا تذهب الناس الى اعمالها ، ولا يذهب الاولاد الى المدارس ، ولا يتحدث أحد مع جنودهم ، أنت تعرف ذلك يا حاج .

ـ أعرف ، لا تجعلهم يسمعوك ، خذ كبريتتك واعرف أين تولعها ، تتحدث مثل ابي محمد ، أخذوه ، هل تعرفه ؟

ـ طبعا أعرفه ، سيخرج محمد

تأكد الحاج (الذي على نية الحج) أن جرار الطاولة ليس به نقود ، اطمأن وتنهد ، واتجه الى باب الدكان ليغلقه . قرفص ، وأخذ يعالج القفل ، فإذا بجندي يعتمر خوذة يلكزه من الخلف في كتفه .

ـ أنت ماذا تفعل ؟

ـ أغلق دكاني .

ـ لماذا تغلقها ؟

ـ تريد أن تشتري شيئا ؟

ـ لاأريد أن أشتري .

ـ لماذا تسأل ؟ هذه دكاني أغلقها وأفتحها متى أريد .
ـ قف وتكلم معي ، قف ، يقولون لك لاتفتح فلا تفتح ، افتح تفتح .
ـ من هم يا أفندي ؟
ـ المخربون ، أنت مخرب مثلهم .
ـ نعم ؟ خفيفة على لسانكم هذه النغمة ، لا أحد يخرب البلاد غيركم .

لم يجب الجندي المتأهب ، فقد هرب الى زاوية الشارع ، وانضم الى مجموعته ، إذ رأى صبية يتراكضون . أغلق الحاج الباب وتلفت يمينا وشمالا ، ومشى في السوق عائدا الى البيت . لم يكن على عجلة من أمره . فهل خرج من البيت ليعود اليه بعد ساعة واحدة ؟ تطلع حواليه . المحلات جميعها مغلقة . إنه إضراب حقا . قال لنفسه « لو على الاضراب بتضرب ١٠٠ سنة » ، وشعر بالرضا لانه تحدى الجندي وأغلق الدكان . كان لايغلق الحاج الدكان إلا للذهاب الى الصلاة . وقد شعر وهو يتمعن في الشوارع الخالية ، بشيء من الخشوع الذي يسبق الصلاة : « ماذا يفعلون بمحمد الآن ؟ » ، ودمعت عيناه ، وتمنى لو أنه كان موعد صلاة ليصلي ، ويدعو له من كل قلبه .

ـ قف أنت الى أين تذهب ؟
ـ الى البيت .
ـ أين البيت ؟
ـ تعرفون أين البيت ، البيت الذي أخذتم منه محمدا .
ـ أسأل عن البيت فتقول محمد ، من محمد هذا ؟
ـ محمد ابني وأنا أبوه ، لماذا أنت خائف ؟ دعني أمر .
ـ أنت مجنون .
ـ أنت خائف .

أكمل الحاج طريقه ، لكن لم يذهب الى البيت ، فماذا يفعل هناك ؟ لكن أين يذهب ؟ لقد أغلق تجارته البائرة ، وها هو يمشي كالمأخوذ ، لماذا لا يطلب مقابلة محمد ؟ لن يوافقوا ، سيذهب ، إن ذهب فلسماع الاهانات فقط ، لأنهم لايخجلون .

محمد ابن السادسة عشرة الوحيد الذي عندهم ، أما إخوته الأكبر منه فانهم خارج البلاد ، وأخته الوحيدة متزوجة منذ خمس سنوات . أخذوه في الواحدة بعد نصف الليل ، انتزعوه كالوحوش من سريره ، وضربوه ، وليس عنده سلاح ، لماذا تأخذونه ؟ هكذا خاطبهم وهو يندفع اليهم . فدفعوه بعيدا ، ثلاثة أمسكوا بمحمد ، وأخذوه بسرعة . ولقد مضى على ذلك عشرة أيام . منذ ذلك اليوم والحاج لاينام ، والحاجة لا تنام ، ولا حتى الارض ولا الملائكة ولا السماء تنام ، لا أحد يقبل الظلم ، لا العباد في الارض ، ولا رب العباد في السماء . الدنيا تغيرت في أيام ، والناس ما عادت تخاف أو تحسب حسابا لشيء .

كل شيء له أوان ، فما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع ، الجنود فقط هم الخائفون ، ومع كل هذه الأسلحة والطائرات والدبابات والهراوات فهم خائفون . فكيف لو كانوا بلا أسلحة ؟ وكيف لو كان معنا نحن أسلحة ؟ ولم يرهم خائفين كما يراهم هذه الايام .

ـ لاتذهب من هذا الشارع يا عم .
ـ لماذا ؟ ومن أي شارع سأذهب ؟
ـ من أي طريق ، فالجنود يضربون الشباب .
ـ والشباب . . . ؟
ـ يضربون بالحجارة .
ـ بالحجارة ؟! ماذا تنفع الحجارة يا بني ؟
ـ وهل الكلام هو الذي ينفع ؟ . . اختر لك طريقا آخر .

انتظر قليلا حتى ذهب الشاب ، ولم يختر طريقا آخر ، بل أكمل طريقه بطيئا ، وسمع أصوات طلقات الرصاص ، ورأى سحب الدخان ، هناك ضرب صحيح . كان يمشي على مهل ، ثم يتوقف لاستطلاع ما يجري حوله ، كأنما ينتظر هاتفا ينبئه أين يذهب الآن ، وماذا عليه أن يفعل . الشباب ليسوا كلهم شبانا ، فهناك الصغير والكبير ، يناديه بعضهم بعضا ، ويظهرون ويختفون بلمح البصر ، بعضهم ملثمون وبعضهم مقنعون . ما أشجعهم . عندما

كنت صغيرا ، في عمر محمد ، بل يمكن أصغر ، كنت أسمع عن الثورة ، ورأيت بعض الثوار ببنادقهم الطويلة ، نعم كان معهم بنادق ، فهل من المعقول أن تقوم ثورة بالحجارة ؟

فتح راحة يده ونظر إليها فرأى الشقوق المحفورة فقط في اليد الحافة ، وحاول أن يتذكر ملمس البندقية في يده ، يد رجل مثله . لا ، لم أحمل بندقية ، فقد كنت صغيرا ويتيما أيضا ، ولم يعطني أحد بندقية ، ولم أعرف من أين تؤخذ البنادق ، كنت صغيرا ، ١٤أو١٥ سنة ، أصغر من محمد . . ولكنك كبرت . . سأقف هنا الآن ، فقد يمر أحد أعرفه . ها هو دكان العطار مغلق وهذا صالون أبي رباح مغلق ، ومقهى أبي يوسف مغلق ايضا . أين ذهب الناس ؟ . . مضى العمر ولم تحمل سلاحا . . وها هو محمد مثلك . . شجاع نعم ، لكنه لم يحمل سلاحا .

وأنت تقول للجنود صادقا بأنه ليس عنده سلاح ، فكل الاسلحة مع اليهود ، هل خلق الله الأسلحة لليهود ؟ لا إله إلا الله . . . لست مذنبا ولست فخورا ، ولا يفخر أحد بمثل ذلك

هز رأسه بأسى وندم ، وفتح راحة يده مرة أخرى ، فرأى الشقوق المحفورة ، وكاد يطعنها ، يطعن يده بصقة ، ثم تمتع ، فماذا لو رآه أحد يفعل ذلك ، ألا ينعته بالجنون ، كما فعل الجندي « الاسرائيلي » (الخالع) ؟ ثم انتبه إلى أنه واقف في مكانه يحدث نفسه ، فانتفض ، ودفع كتفيه ، وعبر أول ممر جانبي . ماذا يحدث هنا ؟ . . لقد أصبح في منتصف المسافة تقريبا بين حشد الجنود وجموع المتظاهرين ، وأخذته المفاجأة حتى أنه لم يكترث بسحب الدخان الكثيفة والحجارة المتطايرة ، ولم يوقظه سوى اطلاق نار غزير باتجاه المتظاهرين ، وانحناء مجموعة من هؤلاء على أحدهم وقد سقط أرضا . لا تقل إنه محمد ، محمد بخير ، وهذا الشاب يعلم الله مدى خطورة اصابته . . هذا الذي يحدث أمامك ، وأنت لاتبكي . . لماذا إذن هذه الدموع ؟ وكاد يختنق بينما الشباب يقذفون مصادر الدخان والنيران بمزيد من الحجارة ، بالحجارة ، لم لا ؟ !

ألا يبني الحجر بيتاً ويرفع سوراً ومئذنة ، ويشج رأس كل محتال زنيم ؟ . . ما بك واقف ؟ هل أنت غريب ؟ أنت مع من ؟

انحنى الحاج فجأة كأنما يهم بالركوع ، أو كما ينحني مزارع على ثمار الحقل ، وتناول مثلهم أول حجر صادفه ، التقطه واستدار وقذفه . . . هه . . هل أصابهم ؟ وبحث عن حجر آخر ، حجر أكبر ، وقذفه بعزيمة أشد . . هه ، وتناول حجرا آخر وصوبه جيدا هذه المرة . . نعم إنه يشعر بالخجل لأكثر من سبب ، ويغالب خجله بتصويب المزيد من الحجارة ورجم ابليس بها ، إلا أنه لم يخجل حين سقطت كوفيته ولم يرفعها ، فليس به حاجة إليها الآن ، وقد استبد به لهاث حار طويل متقطع ، جعله يلهج بالشكر واللعنات ولا يدري على من . . ومن لايرى عن مد نظره سوى ذراعه الحاملة للحجارة . . ولا يسمع سوى الصرخات والهتافات والطلقات تنبعث من جميع الجهات ، والسماء تشهد على ما يجري . . بعضهم يحاول أن يبعده الى الوراء ، فيزيحه ، ويتقدم حتى استيقظ هناك ، في المستشفى ، ورأى حوله خلقا كثيرين مصابين مثله ، وعرف أن الحالة لم تهدأ ، وفتح يديه فإذا هما سليمتان . .لم أكن أن أعرف أنني قاذف جيد . . هذا يكفي هذه المرة . . إنها أول مرة يدخل فيها معركة ، فليشكر القوي القهار . . . وأخذ يضحك مع نفسه كالمأخوذ غير المصدق . . اشتاق إلى محمد دون أن يساوره قلق عليه ، ولم يعرف بالضبط وهو على هذه الحال إن كان قد عاد الى صباه ، إلى عمر محمد ، أم أنه الآن فقط قد دخل مرحلة الرجولة الكاملة ؟!

وكلما نظر الى راحة يده كتم ضحكته ، وتولته مشاعر مزيج من الزهو والخجل والحيرة ، ثم أخذ يفرك راحتي يديه متأهبا للخروج دون أن يسأل عن جرحه . . وسأل نفسه : الى أين ؟ثم أجاب : ستقودني طريقي كما حدث في المرة الاخيرة . وأيقظته جلبة حوله . . سيدخل الجنود الى المستشفى ، فهب واقفا وتقدم الى ملاقاتهم . □

معارك الاستنزاف بين البيئة والإنسان

بقلم : الدكتور سمير رضوان

لطم إنسان القرن العشرين البيئة على خدّها الأيمن ، فلم تدر له خدها الأيسر ، بل لطمته على خديه وشدّت أذنيه . . ! وما لم يتعظ الانسان من هذا الدرس القاسي فهو إنما يقامر بوجوده ، وقد يصبح عليه في المستقبل غير البعيد أن يرحل عن كوكب الأرض بلا رجعة . . !

تتسم معارك الاستنزاف بأنها طويلة المدى ، وأن الغلبة فيها مكتوبة في النهاية لذي النفس الأطول الذي يقوى على امتصاص الضربات وردها بصورة أقسى وأشد . ولقد بادر إنسان القرن العشرين بالعدوان على بيئة الأرض . ولم يكن الدافع من وراء عدوانه هذا شرا متأصلا في نفسه . إنما وقع هذا التعدي من باب الغفلة في غمرة تقدمه العلمي والصناعي . وكان من الطبيعي - طبقا لسنة الخلق - أن تقلب البيئة للانسان ظهر المجن علّه يرتدع ويعلم أنه مجرد أحد أنواع الأحياء التي تحنو هي عليها . فبيئة الأرض أقدم في الخلق وأثبت من الانسان - أحدث الأحياء - بل ومن جميع الأحياء قاطبة ، ومن عاداها مدحور بلا أدنى شك مهما أوتي من أساليب القوة . فهي الأطول نفسا - وهي الأكثر قدرة على تحمل الضربات وردها الصاع صاعين وثلاثة وأكثر - إذا لزم الأمر .

الأرض قديمة والكون أقدم :

كان يعتقد - الى عهد قريب - أن عمر الكون يتراوح ما بين ١٦ الى ١٨ ألف مليون سنة . إلا أن أحدث الدراسات التي أعلنت نتائجها هذا العام ، والتي اعتمدت في قياس عمر الكون على مقارنة نسبة عنصر كوني في صورته المشعة الى صورته غير المشعة - وهي أحدث طرق القياس المتاحة الآن وأدقها - قد بينت أن هذا التقرير مبالغ فيه - وأن الرقم الأقرب الى الواقع هو ١٠ الى ١٢ ألف مليون سنة وقد نوقش موضوع عمر الكون في مؤتمر عالمي عقد في العام الماضي في مدينة توردكيرشن بالمانيا الاتحادية ، كما نوقش فيه أيضا كنه المادة الأولى التي تشكل منها الكون في ذلك الزمن القديم . شارك في هذا المؤتمر حوالي ٢٥٠ باحثا في شتى فروع الفيزياء ومن النتائج التي اتفقوا على صحتها أن الذرات التي تتكون منها المادة ومكونات أنويتها المعروفة مثل البروتونات والنيوترونات ليست في الواقع هي « المحطة النهائية » عند البحث عن أدق وحدة للمادة . إذ ثبت أن كلا من هذه المكونات يتركب بدوره من جسيمات أكثر دقة يترابط بعضها ببعض ترابطا وثيقا يصعب فك عراه . وتجري في معاهد علمية أوروبية عديدة دراسات تعرض من خلالها

البروتونات والنيوترونات لتوابل من ذرات تندفع بسرعة الضوء بغية فك عرى هذا الارتباط الوثيق . والهدف من وراء هذه المجهودات هو الحصول على الصورة الأولى التي كانت عليها المادة الكون قبل أن تكثف وتتشكل على صورة نجوم وكواكب . وتجدر الاشارة هنا الى أن العلماء لم ينجحوا بعد في الحصول على هذه الصورة الأولية . إلا أنهم على الطريق الصحيح الى هذا الهدف .

كانت هذه المقدمة ضرورية لالقاء الضوء على أصل كوكب الأرض . فالأرض مثل شتى الكواكب والنجوم مكونة من ذرات تكثفت من الصورة الأولى التي يسعى العلماء للحصول عليها لدراستها وكشف أسرارها . وكوكب الأرض نشأ منذ حوالي ٥ آلاف مليون سنة . تعرض خلالها لصنوف معقدة من التغيرات التي لم تتوقف في الماضي ولن تتوقف في المستقبل . ولقد اختار الله هذا الكوكب ليصبح البيئة التي يعيش فيها الانسان الى أن تقوم الساعة . وعمر الانسان على الأرض لا يتجاوز مليونا واحدا من السنين . وكانت قد سبقته الى كوكب الأرض جميع المخلوقات الحية الأخرى من مكروبات ونباتات وحيوانات . وقد ظهرت أوائل الأحياء على الأرض منذ حوالي ٣ آلاف مليون سنة .

نخلص من ذلك الى أن الأرض أقدم من الانسان بكثير وأن الله لم يخلقها بيئة خاصة به كي يحتكرها . بل ان الانسان هو الذي طرأ على جميع الأحياء . وكان عليه ـ لكي تستقيم حياته وحيوات الكائنات الأخرى ـ أن يتعامل معها ومع البيئة التي تضمهم جميعا بحكمة غريزية أوجدها الخالق فيه بالفعل .

كل الأحياء تؤثر في بيئة الأرض :

ولنفهم ذلك لابد لنا أن نتعرض لما هو المقصود « بالبيئة » فنقول إنها هي الطبقة الرقيقة من كوكب الأرض التي تشمل سطح هذا الكوكب وتمتد الى أمتار قليلة تحت هذا السطح . كما تشمل الغلاف الجوي المحيط بهذا الكوكب الى ارتفاع يبلغ عشرات قليلة من الكيلومترات . هذا هو ما اتفق العلماء على تسميته « بالغلاف الحيوي » أي الغلاف الذي تعيش

كائنات البحر . . . والتلوث القاتل

فيه شتى الأحياء مؤثرا بعضها في بعضها الآخر وفي المادة الصلبة والسائلة والغازية المحيطة بها . وليس هناك كائن حي واحد إلا ويؤثر في هذه البيئة ويتأثر بها . على أنه تأثير يمكن أن يسمى التأثير « الغريزي » الذي يقع دون تدبير أو قصد من الكائن الحي . فالأحياء حين تتنفس الأكسجين وتزفر ثاني اكسيد الكربون إنما تؤثر في كيمياء الجو . وميكروبات التربة التي تهضم المادة العضوية فيها لتتغذى بها فارزة مواد معينة إنما تؤثر في كيمياء التربة . ومثل ذلك يحدث أيضا في الماء وباستمرار . على أن هذا التأثير الغريزي في البيئة محسوب ومتوازن ولا ضرر من ورائه . حتى الحيوانات الضارية لا تؤثر في ميزان الأحياء إلا بمقدار محسوب . فمن المعروف أن معظم الحيوانات الضارية لا تعتدي على الفريسة إلا عند الشعور بالجوع ومن أجل سد الحاجة الغذائية لحسب . وعلى ذلك فلم نسمع عن أن نوعا من الحيوانات انقرض فقط بسبب افتراسه من قبل الضواري .

لم يؤثر مخلوق في البيئة كما فعل الانسان :

عندما أنزل الله الانسان الى الأرض منذ حوالي مليون سنة كان تأثيره على البيئة متواضعا ولم يكن يختلف عن تأثير الأحياء الأخرى . فقد كان هذا التأثير يتسم « بالغريزية » المطلقة . إلا أن الانسان يختلف عن جميع الأحياء الأخرى . إذ ميزه الله « بالعقل » الذي تفتقر اليه كل الأحياء الأخرى . وثمة فرق عظيم بين المخ ، وهو العضو الموجود في أعداد كبيرة من أنواع الحيوانات ـ ومن ضمنها الانسان ـ وبين العقل الذي يتفرد به الانسان ، والذي يستطيع به أن يأتي أفعالا مقصودة ومدبرة فضلا عن الأفعال التي تتحكم فيها الغريزة . ولسنا بحاجة الى أن تذكر أن العقل هو مصدر قوة الانسان وسيطرته على الأحياء الأخرى . فالقرد مثلا ـ وهو أقرب الأنواع للانسان بيولوجيا ـ لا يمتلك إلا قدرا يسيرا للغاية من القدرة على التدبير المقصود لا تزيد عن قدرات الحيوانات الأخرى ، وذلك على الرغم من إمكان تدريبه بعد مشقة على مهارات تبدو عقلية . خلاصة القول أن عقل الانسان قد يسر له استحداث تأثيرات مدبرة مقصودة في البيئة إضافة بالطبع الى التأثير الغريزي الذي أشرنا اليه . ولقد كانت آثار الانسان الأول على بيئة الأرض تغلب عليها السمة الغريزية ويقل فيها التدبير والقصد ، ومع الزمن ، ومع تدرج الانسان في سلم الترقي ، ومع تعقد حاجاته باطراد تزايدت ملكاته التدبيرية ، ومن ثم تأثيره في البيئة .

عدوان الانسان على البيئة :

تدل نتائج الدراسات البيولوجية على أن النوع البشري قد أثر تأثيرا عميقا في البيئة وكان من نتيجة ذلك أن اختلت الموازين السائدة بين شتى الأحياء على الأرض عدة مرات . ومن المستغرب ان أنواع الأحياء التي تعيش على هذا الكوكب اليوم لا تمثل إلا حوالي ١٪ فقط من مجموع الأحياء التي شهدتها الأرض خلال رحلتها الطويلة . معنى ذلك ان ٩٩٪ من أنواع الأحياء قد انقرضت بغير رجعة . كما أثبتت هذه الدراسات أن معدل انقراض الأنواع على الأرض بعد ظهور النوع البشري قد بلغ ٤٠٠ ضعف لمعدلات الانقراض قبل ظهوره ، وهذا يوضح تماما الأثر الحاسم لهذا المخلوق في بيئة الأرض . ولقد كان اختراع الزراعة إحدى الخطوات الأولى التي قضى من خلالها الانسان على أعداد لا تحصى من أنواع النباتات . وذلك من أجل أن يحفظ عددا محدودا من الأنواع الأخرى . فالمعروف أن المساحة المزروعة على الأرض تبلغ اليوم حوالي ١٠٪ من مجموع مساحة اليابسة،يزرع الانسان حوالي نصفها بثلاثة أنواع فقط من النباتات هي القمح والذرة والأرز . أما الأنواع التي قضى عليها في سبيل الحفاظ على النباتات الثلاثة فتبلغ عشرات الألوف . ومن المعروف أيضا أن انسان القرن الأخير قد قضى على أنواع شتى من الحيوانات ، وان كان بعضها قد أمكن الحفاظ عليه من الانقراض في المراحل الأخيرة بعد جهود مضنية .

وكثيرا ما كان يقضي الانسان على الحيوانات التي تضمها بيئته بحماقة تدعو الى الاستغراب . مثال ذلك الجاموس الأمريكي الذي كان الثروة الحيوانية الرئيسية عند الهنود الحمر قبل أن يجتاح الرجل الأبيض أمريكا . هذه الثروة الحيوانية الكبيرة أوشكت أن تنقرض تماما بسبب هواية الصيد عند الرجل الأبيض في أوائل القرن الحالي . كانت قوافل الصيد تخرج بالمركبات الوثيرة لتتوقف بالقرب من قطيع الجاموس الذي ينعم بالمرعى في سلام ، فيترجل الصيادون ويمطرون الحيوانات بوابل من الرصاص ثم يتركونها صرعى ويعودون الى مركباتهم وينطلقون بعيدا . هل هناك حماقة أغرب من هذه ؟ لمجرد إشباع شهوة القتل لدى بعضهم أوشك نوع بأكمله أن ينقرض لولا أن تداركه المعنيون بشئون البيئة فجمعوا الأعداد القليلة قبل أن تنتهي وتعهدوها بالرعاية في حدائق وطنية حتى بلغت أعدادها اليوم عدة ألوف ونحن لا نسعى هنا الى حصر ما قارفه الانسان من عدوان على البيئة . إنما قصدنا ذكر أمثلة قليلة فحسب . ويقتضي الانصاف أن نذكر هنا أن هذا العدوان لم يكن مبعثه في الغالب إلا غفلة الانسان

وجهله . ففي غمرة التقدم العلمي والصناعي غابت عن الانسان حقائق كثيرة . أو لنقل تجاهلها دون أن يقدر مدى خطورة هذا التجاهل . فكانت النتيجة أنه أصاب بيئته بأضرار بالغة نذكر فيما يلي بعضها :

الانسان سمّم البيئة :

لم يشهد الغلاف الحيوي في أية حقبة من عمر كوكبنا قدرا من التلوث مثل القدر الذي أصابه خلال العقود القليلة الأخيرة من هذا القرن . فقد لوث الانسان التربة والمياه والهواء وطبقات الجو العليا . أما التربة فقد لوثها بما ألقى فيها من سموم . إما كمخصبات وأسمدة أو كمضادات للأعشاب والحشرات والآفات أو كنفايات لصناعاته العديدة . ولوث المياه بمخلفات المجاري والصناعة . وكمثال وحيد نذكر الأطنان من مساحيق الغسيل التي تنتهي الى الأنهار والبحار مما رفع نسبة الفوسفات فيها الى حدود حرجة . كما لوث الانسان الهواء بعوادم السيارات والمصانع فرفع تركيز ثاني اكسيد الكربون في الجو ولوثه بغازات أخرى سامة لم تكن موجودة فيه من قبل مثل اكاسيد الكبريت والنيتروجين الناتجة عن احتراق الوقود وعن عملية التسميد . هذه الأكاسيد هي التي تتسبب فيما أصبح يسمى المطر الحمضي ، وذلك عندما تذوب في مياه الأمطار التي تصبح أحماضا مخففة تتركز مع الزمن في التربة لتقضي على شتى صور الحياة فيها . كما لوث الانسان طبقات الجو العليا وعلى وجه الخصوص غلاف الأوزون ، وذلك من خلال الاستعمال المتزايد لغاز « كلور فلور هيدروكربون » كغاز طارد في عبوات الرش المختلفة .

يرتفع هذا الغاز بعد تحرره من عبوة الرش الى الطبقات العليا فيتفاعل مع الأوزون حتى أصبح غلاف الأوزون اليوم على درجة من الرقة والضعف لم يبلغها من قبل . وطبقة الأوزون هي التي تحمي الحياة على الأرض حيث تمتص الاشعاعات الكونية المهلكة فلا تصل الى سطح الأرض . ومن المؤلم أن صور التلوث هذه قد بلغت اليوم بالفعل حدا يصعب معه السيطرة على آثارها السيئة . فغازات الطرد التي ذكرناها ترتفع ببطء شديد في الجو وتستغرق حوالي ١٠ سنوات كي تصل الى غلاف الأوزون على ارتفاع يتراوح بين ٢٥ و ٤٠ كيلو مترا عن سطح البحر . والمعنى الخطير لذلك أن البشرية لو استطاعت اليوم أن تمنع تماما استعمال هذه الغازات - وهو هدف تسعى اليه بالفعل كثير من الدول الصناعية - لما استطاعت على الرغم من ذلك أن توقف تآكل طبقة الأوزون على الفور . بل سوف يستمر هذا التآكل سنوات عشرا أخرى على الأقل وهي الفترة التي تستغرقها الغازات التي رششناها اليوم في رحلتها . ونذكر هنا أن العالم السويدي لارسن - مكتشف هذه الطبقة - قد اعلن منذ شهور قليلة أن معدل تآكل غلاف الأوزون قد انخفض الى حد ما ولكنه مازال في الحدود الحرجة .

الانسان قضى على أحياء نافعة :

لقد قارف الانسان ذلك بالأسلوب غير المباشر . كما قارفه بالأسلوب المباشر . أما الأسلوب غير المباشر فيعود بنا مرة أخرى إلى ظاهرة التلوث . إذ أن هذه الظاهرة قد أدت بالفعل إلى اغتيال أعداد لا حصر لها من الأحياء . بل وإلى انقراض الكثير من الأنواع . ولا بد أن القارىء قد سمع عن الموت الجماعي للأحياء البحرية الضخمة كالحيتان والدلافين . ويميل كثير من العلماء إلى الاعتقاد بأن تلوث المحيطات هو السبب في هذا الموت . ولابد أن القارىء قد سمع أيضا عن موت الأسماك وجميع أنواع الحياة في شتى أنهار العالم . وآخر ذلك ما أعلن في الصيف الماضي عن تسمم مقطع من أعالي نهر الراين في الأراضي السويسرية . اذ أثبت فحص يجري بصورة دورية « روتينية » على أحياء النهر أن جميع صور الحياة قد ماتت بنسبة تجاوزت ٩٠٪ وشمل ذلك الأسماك - صغيرها وكبيرها - والأحياء الدقيقة التي تتغذى عليها هذه الأسماك . وقد ظل العلماء السويسريون يضربون أخماسا في أسداس حول أسباب هذه الظاهرة المفاجئة حتى أعلن العلماء الألمان والفرنسيون أن التلوث بالسموم هو السبب . فقد حللوا عينات من المياه التي أخذت من الجزء الجنوبي

لنهر الراين . وأثبتوا وجود نسبة مرتفعة من مضاد حشري كان يستخدم في هذه المنطقة ، لابد أنه تسرب إلى النهر متسببا في هذه الكارثة . على أن من أخطر ما تسبب فيه التلوث هو بلا شك موت الغابات في شتى بقاع العالم . ففي أحدث الدراسات التي نشرت عن موت الغابات الصنوبرية في أوروبا مثلا ثبت أن هذا الموت قد بلغ حدودا مرعبة . إذ بلغت نسبة موت الأشجار في هولندة ٥٩٪ وفي ألمانيا الغربية ٥٣٪ وفي سويسرة ٥٢٪ وفي تشيكوسلوفاكيا ٤٩٪ وفي فرنسا ٣٨٪ وفي السويد ١٧٪ . كما بينت هذه الدراسة أن التلوث الصناعي هو المتسبب في هذا الموت . وتتضح هذه الحقيقة من اكتشاف علمي حديث أثبت الدارسون من خلاله أن الغازات التي تتصاعد رأسيا من المداخن المرتفعة ـ مهما بلغ ارتفاعها ـ سرعان ما يتغير اتجاهها في طبقات الجو العليا بزاوية قائمة تماما فتنطلق العوادم موازية للأرض أفقيا مع اتجاه الريح مكونة ما أصبح يعرف « بطبقة الانعكاس » . وفي استطاعة العلماء تحديد ارتفاع هذه الطبقة بدقة ، وكانت المفاجأة أن جميع القياسات قد أثبتت أن معظم موت الأشجار التي تكسو الجبال والمرتفعات يحدث على مستوى طبقة الانعكاس هذه . مما يوفر دليلا ماديا على أن التلوث الصناعي هو المسئول عن موت الغابات .

كيف ردت البيئة على عدوان الانسان ؟ :

ذكرنا بأن كوكب الأرض يبلغ اليوم من العمر حوالي ٥ آلاف مليون سنة ، ظل خلالها يتبدل ويتشكل تحت تأثير عوامل طبيعية وكيميائية وبيولوجية لا حصر لها . ولقد كانت الأوضاع السائدة على هذا الكوكب في أية لحظة من عمره المديد هي في الواقع محصلة التوازن الدقيق بين ما أفضت إليه هذه العوامل . ولم يكن هذا التوازن يتعرض لخلل إلا في حدود محسوبة ، وسرعان ما كان يتم تصحيح الخلل مرة أخرى ، دون أن تشعر الأحياء بما يجري في البيئة من حولها . إلا أن إنسان القرن العشرين قد استطاع ـ بما حباه الله من عقل ـ أن يتسبب في تغيرات عميقة مقصودة . تناولنا أمثلة قليلة منها بالوصف . واقتضت سنة الله في خلقه أن تتحرك البيئة من جانبها لكي تصحح هذا الخلل ، وكما هو متوقع كان رد الفعل من قبل البيئة مساويا في عمقه لفعل الانسان مما أدى إلى كوارث حقيقية .

الكوارث الطبيعية في السنوات الأخيرة :

وقعت في السنوات الأخيرة في أنحاء شتى من العالم كوارث عديدة لم تكن تحدث من قبل ، من أمثلة ذلك هطول الأمطار بغزارة في مناطق كان المطر فيها معتدلا ، وانقطاع الأمطار تماما في مناطق كان المطر يهطل فيها ولو نادرا . لقد كان الصيف الماضي في أوروبا مثلا غزير المطر بشكل غير عادي مما أدى إلى تلف المزارع وإلى سيول وانزلاقات وانهيارات أرضية خاصة في المناطق الجبلية . وتسبب ذلك في موت البعض وجرح البعض وتشريد البعض . وتشير الدلائل إلى أن هذه الظواهر الطارئة لها علاقة مباشرة بتعدي الانسان على البيئة . فهل كان هذا التعدي حقا سببا أدى إلى مثل هذه الكوارث ؟ وفي بداية إجابتي على هذا التساؤل أود أن أسجل إحصائية مغزاها على قدر كبير من الخطورة . تدل القياسات الفيزيائية على أن درجة الحرارة في جو الأرض ترتفع باطراد ، كما تدل أيضا على أن معدل هذا الارتفاع سوف يزداد زيادة كبيرة في المستقبل . لقد ارتفع متوسط درجة حرارة الجو في خلال العشرة آلاف سنة الماضية بمقدار درجة واحدة مئوية إلى درجة ونصف درجة فقط . أما في السنوات الخمسين القادمة وحدها فسوف يرتفع متوسط درجة حرارة الجو طبقا لقياسات دقيقة ما بين ٣ إلى ٥ درجات مئوية . وهذا قدر لا يستهان به على الاطلاق .

ولقد ارتفع تركيز ثاني اكسيد الكربون في جو الأرض في العصر الحديث من جراء احتراق الوقود في السيارات والمصانع ، كما أن مساحات الغابات الخضراء التي كانت تستهلك قدرا عظيما من هذا الغاز في عملية التمثيل الضوئي قد تقلصت كما ذكرنا . وهذا هو السبب في ارتفاع حرارة الجو باطراد أضف إلى ذلك أن الباحثين قد اكتشفوا في طبقات الجو العليا غلافا من غاز الميثان (غاز

حريق . . . وتلوث واضح للبيئة

المستنقعات) هذه الطبقة التي نشأت في الزمن الحديث تعكس إشعاعات الحرارة التي تفقدها الأرض عادة في الفضاء . فتعود مرة أخرى لترفع من حرارة الجو . وغاز الميثان هذا تنتجه أنواع لا هوائية من بكتيريا التربة التي تنتعش كلما زاد تركيز ثاني اكسيد الكربون وكلما تشبعت التربة بمياه الأمطار . ولكن ما علاقة ارتفاع حرارة الجو بغزارة الأمطار في مناطق مثل أوروبا وندرتها في أفريقيا ؟ يهطل المطر عندما ترتفع ـ بتأثير الحرارة ـ طبقات الهواء المشبعة بالبخار إلى أعلى وتصادف ريحا باردة تكثف بخار الماء . هذا ما يحدث الآن في أوروبا بغزارة لا مثيل لها من قبل خاصة أن درجات الحرارة ترتفع باطراد كما ذكرنا . أما المناطق الجافة فواضح أن ارتفاع الحرارة يزيدها جفافا على جفاف . فتربتها أصلا فقيرة في الماء . ومن ثم فالهواء الساخن الذي يصعد إلى أعلى لا يحمل بخارا . لكن ما علاقة غزارة الأمطار بالانزلاقات والانهيارات الأرضية التي سمعنا عنها في أرجاء شتى من أوروبا وأمريكا وآسيا هذا الصيف ؟ لقد درس علماء اليابان أسباب ظاهرة الانزلاقات الأرضية فوجدوا أن معظم الانزلاقات تحدث عندما تتسرب مياه الأمطار في التربة حتى تصادف طبقة صماء فتتجمع بغزارة هناك مما يخلخل هذه الطبقة فتكتسح السيول بسهولة الطبقة التي تعلوها . فإذا وقع ذلك على منحدر مثل سلسلة جبال حدثت انهيارات جبارة كالتي سمعنا عنها في منطقة جبال الألب مثلا . ولكن ما علاقة ذلك كله بتدخل الانسان في البيئة ؟ على الأقل في المناطق التي قضى فيها الانسان على الغابات بالتلوث أو بالاجتثات تبدو هذه العلاقة واضحة جلية . فالمعروف أن الأشجار تمتص كميات هائلة من مياه الأمطار بمجرد هطولها وتعيدها بخارا للجو خلال عملية النتح .

الأخطار في المستقبل أعتى وأشد :

ما لم يغير الانسان من أنماط سلوكه تجاه البيئة تغييرا جذريا وما لم يتعلم من دروس الماضي القريب فلا شك أنه سوف يرحل عن هذا الكوكب في المستقبل . فهو ليس بقادر على أن يحارب ضد قوانين الطبيعة بأي حال من الأحوال . لقد تحنبت في مقالتي الخوض في أمور كثيرة ـ لا يتسع المجال لها ـ مثل الاشعاعات النووية التي يقتل الانسان الحديث نفسه بها كما يقتل نفسه بالتلوث . تدل أحدث إحصائية على أن معدل موت البشر بسبب استنشاق مواد سامة ملوثة للجو قد ارتفع في عام ١٩٨٦ بمقدار ٧٫٦٪ مقارنة بعام ١٩٨٥ . أكرر أن هذه الزيادة حدثت خلال عام واحد فقط . ولست بحاجة إلى التذكير « بتشيرنوبيل » ولا بأمراض السرطان والحساسية التي تسببها الملوثات . حتى أن مادة مثل بيركلوروايثلين التي شاع استعمالها في تنظيف الملابس بالبخار أثبتت البحوث مؤخرا أنها تصيب حيوانات التجارب بأنواع من السرطان . على أنني أذكر في الختام بأن الارتفاع المطرد في درجة حرارة الجو سوف يؤدي يوما بالضرورة إلى ذوبان الجليد في القطبين مما سوف يرفع منسوب المياه في البحار والمحيطات إلى مستوى يغرق تحته مناطق كثيرة من العالم آهلة بالسكان . والأرقام والحسابات مسجلة ومحفوظة لمن يريد أن يقرأها . ومن قرأها بالإمعان الذي تستحقه تأكدت لديه ضرورة أن يهادن الانسان بيئته بل أن يخطب ودها وأن يدللها . □

أرقام

بقلم: محمود المراغي

المهاجرون

الترحال نشاط عربي قديم ، وفي صدر الاسلام عرف العرب الترحال البعيد من أجل التجارة تارة ، ومن أجل نشر الدعوة تارة أخرى ، فخرجت القوافل ، وخرجت الجيوش ، وإن أخذت في معظم الأحيان شكل « الترحال المؤقت » .

أما الآن فيأخذ الترحال طريقا آخر ، فدول الأنهار كانت أكثر استقرارا من الناحية الزراعية والنشاط الاقتصادي والسكاني بشكل عام ، وكانت الهجرة منها محدودة للغاية ، لكن بعد أن أصبح العمل في السنوات الأخيرة سلعة قابلة للتداول وللتصدير تغير الوضع ، وأصبحت هذه البلدان - مثل المغرب ومصر والسودان - أكثر قدرة على تصدير قوة العمل .

لقد تغير المألوف ، وأصبحت أقطار عربية كثيرة في دائرة الجذب ، بعد أن كانت في دائرة الطرد .

والأهم أن المنطقة العربية قد أصبحت واحدة من المناطق الرئيسية في العالم التي أصبحت تعرف ظاهرة الهجرة ، فاستقبلت وصدرت بالملايين .

العرب المهاجرون

في تقرير عن مستقبل الاقتصاد العربي حتى عام (٢٠٠٠) أعدته أمانة الجامعة العربية والصندوق العربي للإنماء وصندوق النقد العربي ومنظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول رقم يقول : إن عدد العاملين العرب في الخارج يتراوح بين (٥ - ٥,٥) ملايين شخص ، وأن ربع هؤلاء على وجه التقريب يعمل في بلدان غير عربية ، مثل الجنوب الأوروبي الذي ينتشر فيه القادرون من أقطار المغرب العربي .

والأرجح أن هذا التقرير قد جاء متحفظا ، فتعداد المصريين والفلسطينيين واللبنانيين وحدهم يفوق بالتأكيد الرقم الاجمالي الذي أشارت له الدراسة ، ومع ذلك وإذا اعتبرنا الرقم الذي عكف على دراسته الاقتصاديون رقما يقترب من الصحة فإننا لابد أن نسجل أننا أمام ظاهرة مهمة ، تحتل موقعا متميزا في الاقتصاد العربي ، وفي الخصائص السكانية للمنطقة العربية .

تعداد العرب الآن يقترب من (٢٠٠) مليون نسمة ، لكن قوة العمل التي تمثل القادرين والراغبين في العمل لا تزيد نسبتها عن (٢٨٪) ، أي (٥٦) مليونا .

ومعنى الأرقام أن المهاجرين من أجل العمل تبلغ نسبتهم (١٠٪) من قوة العمل تقريبا ، أو أن هناك مهاجرا واحدا بين كل عشرة من المشتغلين ، سواء كانوا من الإناث أو الذكور .

لكن إذا حاولنا قياس التأثير الاقتصادي فإنه يفوق ذلك بكثير ، فمتوسط دخل المشتغل في الخارج

وادخاره يفوق دخل المشتغل بالداخل وادخاره بعشرة أضعاف .

كما أن ذلك العدد المنتشر في أرجاء العالم كافة تتوزع تخصصاته من بسيطة كعمال البناء ، الى مهن معقدة وخبرات عالية طالما أطلقنا عليهم اسم « هجرة الأدمغة » ، والأكيد أن جزءا كبيرا من النزيف السنوي الذي يتم من العالم الثالث ويتجه للعالم الأول مصدره الوطن العربي . وفي كل الأحوال فإن عنصرا رئيسيا للهجرة يلعب دوره ، وهو تفاوت المستوى الاقتصادي ، وثمن العمل في مختلف الأسواق .

من الرواج الى الانكماش

زحفت العمالة العربية الى الخارج في فترات الرواج ، ومعظمها في فترة الرواج النفطي .

صحيح أن عمالة كثيفة قد انتقلت في وقت مبكر من المغرب والجزائر وبدرجة أقل من تونس الى فرنسا وبعض الأسواق الأوروبية ، وصحيح أن كفاءات علمية سافرت من مصر ولبنان والسودان وغيرها للعمل في الشمال الأمريكي أو الشمال الأوروبي ، لكن الأغلب الأعم جاء مصاحبا للرواج ، وجاء ليشارك في عمليات البناء الأساسية التي شهدتها أقطار النفط العربية في السبعينيات .

لذا فعندما بدأ الانكماش في دول النفط ، وعندما عكس الركود في العالم الصناعي نفسه بات الانكماش في سوق العمل أمرا منطقيا . وطبقا للدراسة السابقة فإنه من المتوقع أن ينخفض عدد العاملين العرب خارج بلدانهم الأصلية بنسبة تتراوح بين (٢٠٪ و ٢٥٪) عام ١٩٩٠ ، أي بنسبة ٤٪ سنويا تقريبا منذ عام ١٩٨٥ حتى بداية الحقبة القادمة .

الأسباب واضحة ، فمع انكماش ايرادات النفط انخفضت الاستثمارات والنشاط الاقتصادي بشكل عام ، ومع مرور السنوات حدث تشبع في بعض الأنشطة الخدمية ، وما يتصل بالبيئة الأساسية والتشييد ، وكان من الطبيعي أن تنحسر بعد ذلك هذه الأنشطة .

الأسباب إذن متعددة ، وخطط دول النفط تبرز أي نوع من العمالة يقع في دائرة الاستغناء ، فالخطة الخمسية تستهدف تخفيض العمالة الأجنبية التي بلغت ثلاثة ملايين مشتغل بمقدار (٦٠٠) ألف خلال سنوات الخطة ، ونصفهم ممن يعملون في التشييد .

قطاع التشييد أول القطاعات الطاردة ، وتليه قطاعات أخرى في الادارة والخدمات والتجارة ، لكن ، وعلى النقيض ، قد تستمر قطاعات الصناعة والزراعة والنقل قطاعات جاذبة .

على أي حال فإن هذه التحولات في سوق العمل سوف يصحبها ارتفاع في الأهمية النسبية لمشاركة الوطنيين في دول النفط بالأنشطة المختلفة . وعلى العكس فسوف تكون عودة هذه العمالة التي تبدأ بالأقل مهارة مشكلة حقيقية في الأقطار العربية الأخرى التي طالما اعتمدت في الحقبة الماضية على أعداد أكثر وتحويلات أكبر للعاملين في الخارج .

الآن تواجه هذه الأقطار مشكلة نقص في المواد ، خاصة من العملة الأجنبية ، كما تواجه مشكلة العائدين ، وضغطهم على سوق العمل . إنها معضلة الحاجة الأكثر للاستثمار ، والقدرة الأقل في نفس الوقت ، فهل تستطيع ؟ □

● لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل .

(أبو بكر الصديق)

● الانسان الذي لا يعمل بعلمه كالشجرة المورقة ، لا ثمر لها .

(أبو حيان التوحيدي)

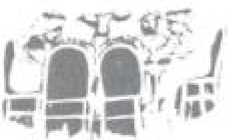

منتدى العربي

قضية

نحن لا ننزع الشك !

بقلم : فوزى عبدالقادر الفيشاوي *

وردية تلك الصورة التي ترسمها أجهزة الاعلام الجماهيرية ، لذلك النوع من التقنية ، المسمى « الهندسة الوراثية » .

وأخشى أن يكون التنقيب عن المشاكل والمعوقات ، والتفتيش ـ بدأب ـ عما تضمره صدور المضاربين والسماسرة في سوق الجينات مخيبا للآمال ، معتما للصورة . والحقيقة فان أي ظلال تصنعها المعرفة سوف تفيد ـ حتما ـ في إعادة التوافق للشكل النهائي للصورة . إن الحديث هنا محاولة للبحث عن مواقع (الظلال) في صورة وردية لامعة . . !

يبدو أن تاريخ العلم سيسجل بأن علماً من العلوم لم يحظ بمثل ما حظيت به الهندسة الوراثية من دعاية وترويج وتدليل في أجهزة الأعلام الجماهيرية ، ومن ثم فإن هناك هدفا رئيسياً لجدلي هنا ، وهو أنه من الواجب أن يكون تحاورنا مع هذا اللغو الدعائي الذي يحيط بالهندسة الوراثية تحاوريا نقدياً ، فالمدهش حقاً أنك حيثما وجهت نظرك ستجد تسطيحاً خيالياً مبالغاً فيه : هذه التقنية قد حلت مشاكلها . هذه التقنية ستخفض أسعار السلع والمنتجات . هذا المستحضر الجديد سيعالج السرطان . هذه التقنية ستحل مشاكل العالم الغذائية . هذه الفكرة ستجعل الأدوية أرخص . !!

وحتى لا نكون كمن يفكر بمجموعة من « الأكليشيهات » الجامدة ، دون أن يحاول الاهتداء إلى الحقائق عن طريق البحث الحر النزيه ، فإننا سنحاول عرض القضايا والمشاكل الحقيقية التي تواجه

* مدرس علوم«وتكنولوجيا»الأغذية ـ كلية الزراعة ـ جامعة أسيوط ـ القطر العربي المصري .

هذه التقنية الجديدة . والتنقيب تحت ما يصل إلى أسماعنا من ضجة إعلامية . مع إبراز التضمينات الاجتماعية للهندسة الوراثية للمناقشة الواسعة بكل موضوعية .

دائرة معارف الجهل

ضحك العالم طويلا حينما أصدرت إحدى دور النشر الانجليزية في الآونة الأخيرة أول « انسيكلوبيديا » دائرة معارف للجهل قد ضمت إجابات أكثر من ٦٠ عالماً دولياً لسؤال مفاده : ما هي الأسرار التي لم تعرفها البشرية بعد عن الكون والطبيعة والانسان ؟ وفي مجلدين ضخمين جاءت ردود العلماء لتؤكد بأن هناك مناطق جهل كثيرة ، وفراغات واسعة في المعرفة الانسانية بالعالم من حولنا .. !

ولو شئنا لاتبعنا نفس المنهج عند مناقشتنا مدى القصور الذي يعتري المعرفة الانسانية بطبيعة الجينات الوراثية . وهي العوامل الأساسية التي صارت لعبة العلماء المفضلة فيما تعارفوا على تسميته « الهندسة الوراثية » . فماذا لو علمت أن الانسان يمارس - الآن - لعبة خطيرة ، وهو يجهل أصول اللعبة ومفرداتها . فالمعرفة الانسانية بوظائف « الشيفرة » الوراثية محدودة للغاية . ومعظم هذه المعرفة تتركز على إحدى سلالات بكتيريا تسمى ايشيريشيا كولاي E. Coli ، وهي السلالة (K_{12}) ، ولم تزد معرفة الانسان على مدى الثلاثين عاما الماضية على حل رموز « الشيفرة » الوراثية في ثلث ملليمتر من الشريط الوراثي (DNA) لتلك البكتيريا ، البالغ طوله ملليمتر واحد . والذي يحتوي على ٥٠٠٠ جينة بسيطة في التركيب الوراثي بالمقارنة مع غيرها من الجينات في الكائنات الأعلى كالثدييات ، ففي الخلية البشرية يصل طول الشريط الوراثي حوالي مترين . ويصل عدد الجينات المعروفة منها حتى الآن حوالي ثلاثة آلاف جينة فقط . ولهذا لكي نستطيع التعرف على تركيب الشريط الوراثي الكامل للانسان نحتاج إلى ستة آلاف باحث يعملون مدة أربعين سنة . أرأيت - إذن - أن المسألة أعقد مما تتصور ؟ ! !

هذا بالاضافة إلى أن هذه الجينات تقوم بعمليات منظمة لا تعرف طبيعتها بشكل دقيق . فالمعروف أن أي خلية في الجسم تحتوي نواتها على الامكانات الوراثية الكاملة اللازمة للقيام بكل التفاعلات الضرورية للكائن ككل . ومع ذلك يظل أكثر من ٩٥٪ من المخزون الوراثي لكل خلية في حالة صامتة ، حيث يتم (كبت) كل الجينات ، ما عدا تلك التي تقوم بوظيفة خلية الكبد أو الدم أو الطحال . وهكذا . ولا يعرف تماماً كيف يحدث ذلك ، وبالتالي سيكون الشروع بالعبث في هذه الخلايا وتحريك الجينات بينها - دون توافر المعرفة الكافية عن كيفية عملها - مسئولية بالغة الخطورة .. !

بكتيريا « فرانكنشتين » في حالة مخاض

قبل عقدين من الزمن ، وفي بداية عصر نسخ الجينات ، رأى كثيرون ومنهم العلماء أخطارا كبيرة محتملة للهندسة الوراثية . وقد أدت هذه المخاوف إلى صدور قرار رسمي بتعليق هذه الأبحاث مدة ثمانية عشر شهرا (من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٧٦) . وقد تركزت تلك المخاوف في احتمال تحول بعض هذه الكائنات الدقيقة غير الضارة نسبيا إلى كائنات شديدة الخطورة عند نقل جينات إليها في شكل جزئيات DNA مطعّم . وقد تساءل بعضهم : ماذا لو أن بكتيريا ايشيريشيا كولاي - التي تعيش غالبا في أمعاء الانسان - حملت جينات لانتاج الكحول مثلا ، ثم تسربت إلى أمعاء الانسان ، ألا يمكن أن يؤدي ذلك إلى أن يصبح البشر جميعا مدمنين للكحول ؟ وتساءل آخرون : ماذا لو حملت تلك البكتيريا جينات جديدة (لتحطيم السليلوز مثلا) ، ثم تسربت إلى أمعاء الناس ، فهل ستسبب مشاكل غير متوقعة ؟ . ومن طريف ما يروى في هذا الشأن أن دكتور « آندا شاكرا بارتي » الذي يعمل في معهد جنرال اليكتريك للبحوث والتنمية بنيويورك كان قد نجح في عزل جينة الميكروب المسئول عن هضم

السليلوز في أمعاء المواشي وزرعها في الشريط الوراثي لبكتيريا القولون التي تعيش في أمعاء الانسان ، وبعد أن تمت التجربة بنجاح تخوف من إمكان انتشار هذا الميكروب المعدل في أمعاء البشر ، فعلى الرغم من أنه سيقوم بهضم سليلوز الخضراوات التي تتناولها ، ويحولها إلى سكر سهل الامتصاص من أمعائنا إلى دمائنا ، لكن ذلك قد يكون له آثار جانبية ضارة . ومن يدري ، فربما أحدث هذا الميكروب إسهالا مزمنا ، أو قد يؤدي إلى تكوين غازات كثيرة قد تحدث الانتفاخ ، (ومن أجل ذلك) قام (الرجل) بتدمير هذا الميكروب . وعلى حد قوله : (حتى لا أتحمل وزر أمر غير محمود العواقب) .

وهكذا فقد استقر رأي العلماء على ضرورة إحكام السيطرة على مثل هذه الكائنات ، بينما يرى آخرون بان هذه البكتيريا المعدلة ، قد ذللت في المعامل بدرجة مفرطة ، بحيث أصبحت غير قادرة على منافسة البكتيريا التي تعيش في الأمعاء .

حينما يحصدون السراب

ذكرنا بأن معظم معلوماتنا الوراثية عن وظائف الجين قد بنيت على أساس الأبحاث التي أجريت على بكتيريا القولون ، ومن ثم فلم يحظ أي ميكروب بمثل هذه العناية والدراسة والتدليل ، حتى صارت شهرته في أبحاث الهندسة الوراثية على كل لسان ، لكن ـ كما يقولون ـ لكل ميكروب (هفوة) ، فقد أعلنت شركة جينتك Genetech عن ردود فعل معاكسة للدفعات الأولى التي أنتجتها من هرمون النمو البشري المسمى « سوماتوستاتين » Somatostatin ، وقد أرجعت ذلك لوجود الجدر الخلوية البكتيرية التي تحتوي على مادة سامة تسمى Lipopolysaccharide endotoxin ، وهي مركب شمي ، يصعب فصله تماماً عن الأدوية المنتجة من ايشيريشيا كولاي . أرأيت ؟ . ! حتى هذا الميكروب المدلل أحيانا يخيب الآمال ، ويتعين علينا البحث عن (بديل) ميكروبي ليحل محله ، وتتم لهذا السبب دراسة أنواع أخرى من البكتيريا أو الخميرة ، فلعلها تكون أكثر أماناً . !

وفي أحيان أخرى يتعطف هذا الميكروب المعدل ، فيعطيك ما تريده دون مظاهر السمية ، لكنه بتكاليف أعلى بكثير مما لو أنتج بالطرق التقليدية . فقد بدت للعلماء إمكانية إنتاج زيت النخيل من البكتيريا ، وحينما قدرت التكاليف كانت المفاجأة ، فقد وصلت ألفي جنيه للطن الواحد ، في الوقت الذي يبلغ فيه سعر طن زيت النخيل المنتج بالطرق التقليدية حوالي ٤٠٠ جنيه ، وكان معنى ذلك ألا نهتم بالانتاج الميكروبي لكل ما يتكلف إنتاجه بطرق الاستخلاص الحالية من المادة النباتية .

والآن هل أدركت أصول اللعبة ؟ إن اللعبة على العموم هي أن تحتضن شركات الهندسة الوراثية ، الطلب على العقاقير والمنتجات (غالية الثمن) ، حيث تستطيع تضييق مجال المنافسة لضمان استرداد تكاليف التطوير الباهظة . إنها لا شك تقنية مكلفة . !

أسطورة الدواء الرخيص

لعلك تتذكر معي قائمة الأدوية التي يُنتظر مساهمة الهندسة الوراثية في إنتاجها (الانسولين ، الانترفيرون ، هرمونات النمو ، مستحضرات الدم ، أنزيمات يوروكينيز) . ألا تلاحظ بأنها جميعا مجموعة من الأدوية (العلاجية) (غالية الثمن) لمجموعة من الأمراض (المربحة) ؟ وتلك يا سيدي ، هي محاور نشاط شركات المستحضرات الطبية التي تبحث دائما عن منتجات جديدة يمكن أن تباع بكميات كبيرة بهامش ربح كبير ، حتى تسترد تكاليف التطوير والترويج . فالانسولين ـ على سبيل المثال ـ يفي بالكثير من معايير المستحضر الناجح المربح ، فهو من ناحية يعتبر الحل الأمثل لعلاج مرض السكر الذي يعاني منه كثيرون في العالم ، حيث يبلغ الاحتياج العالمي له أكثر من ٤٠٠ مليون مليون دولار ، والمتوقع تضاعف حجم هذه السوق باستمرار ، ومن ثم فقد قدمت شركة « ايلي ليلي »

للأسواق نوعا من الأنسولين البشري ، تم إنتاجه من بكتيريا معدلة ، لكن المهم أن هذا الأنسولين لن يكون رخيصا ، كما قد يأمل بعضهم ، وهكذا ترى أن جهود شركات الهندسة الوراثية تتجه أصلا بحوثها باتجاه يرسخ في الأذهان : أن لا مفر ، فالمرض مؤكد ، ودائما معنا ، وليس أمامنا إلا علاجه . هكذا يروجون ، دون أي محاولة للاستفادة من الهندسة الوراثية في محاولة وقف زحف هذا المرض ، وليس علاجه المستمر بحقن الانسولين ، حيث ان مرض السكر يستحضر معه دائما أضرارا للعينين والقلب والجهاز الدوري والأطراف والاصابة بالغرغرينا ، وهذا وضع لا تختلقه شركات الأدوية ، لكن من الضروري أن نؤكد أن هذه الشركات تشترك في جريمة استمرار هذا المرض بسبب تركيز بحوثها ومجهوداتها التسويقية باتجاهاتها الحالية . إنه جدل حول العلاقات الاجتماعية التي تحدد الأولويات الأجدر بالرعاية : بحوث الطب الوقائي لمحاولة خفض الطلب على الأنسولين ، أم بحوث تطوير الأدوية والعلاجات التي يتزايد الطلب عليها باستمرار مع تقدم المرض وتفاقمه . لكن يبدو أن هذا هو عين الهدف المطلوب . !

أدوية وعلاجات أرستقراطية

منذ أن نجحت مجموعة « تشارلز وايزمان » في دفع بكتيريا معدلة لانتاج « انترفيرون » بشري قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن . وصاحب ذلك ضجة إعلامية مدوية ، بدعوى أنه العلاج الأمثل لمرض السرطان وكثير من الأمراض الفيروسية ، ولا يخفى أن هذه الضجة يقف من ورائها بالتمويل شركات دوائية عملاقة ، يهمها مزيد من الترويج في الوقت الذي يعتقد فيه كثير من العلماء بأن هذا الادعاء باطل فالانترفيرون ليس بالعلاج الأمثل للسرطان ، لأن هناك طرقا عديدة أقل إثارة يمكن أن نطرقها لمنع السرطان ، غير أنها ـ ويا للأسف ـ لا تتوافق مثل توافق الانترفيرون مع البناء الاجتماعي والاقتصادي للدول الصناعية الكبرى . فالثابت ـ علمياً ـ أن النوعين الأولين من الانترفيرون المنسوخ ، قد أظهرا بعض الفاعلية ضد أنواع معينة من السرطان ، لكنهما يظهران في معظم الوقت أقل فاعلية من طرق العلاج التقليدية ، كما قد يسببان أعراضا جانبية تشبه الانفلونزا ، كما أن نجاح الانترفيرون في علاج بعض الأمراض الفيروسية مثل التهاب الكبد الوبائي والهيربس والرشح الاعتيادي لا يعد مبررا لمثل هذه الضجة ، فالنظرة المنصفة للأمور تبين أن الملايين ممن تصيبهم الحصبة أو شلل الأطفال أو الالتهاب الكبدي وغيرها من الأمراض الفيروسية هم في الأغلب من الفقراء المحرومين من الرعاية الصحية الذين لا يمكنهم بأي حال الحصول على الانترفيرون ، ذلك الدواء الأرستقراطي ، وممن يعانون أصلا من سوء التغذية ، بحيث لا يستطيعون مقاومة تلك الأمراض ، فيبدو أن الكثير من الفيروسات لا يقتل إلا من أضعفهم الفقر والاستغلال . !

أما عن هرمونات النمو فيكفي أن نذكر بما قاله مدير شركة سلتك ، من أن حجم سوق هرمون النمو البشري يبلغ في أمريكا نحو مائة مليون دولار سنويا ، هذا بالاضافة إلى تقدير آخر ظهر عام ١٩٨٢ يقول بأنه من الممكن تسويق ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار سنوياً من هرمونات نمو الماشية والخنازير ، فالهدف إذن ما يزال البحث عن الربح ، على الرغم من أن الممارسات الأخيرة تزيد من احتمالات ترك بقايا الهرمونات في اللحم ، فترة ليست قصيرة عقب الذبح ، ومن ثم فمن الممكن أن يتلقى من يأكلونه جرعات من هرمون النمو ذات آثار جانبية طبية خطيرة تؤثر بشدة على الغدد الصماء في الأطفال . وليست ذكرى ما حدث للأطفال في بورتوريكو منا ببعيدة . !

أما عن العلاج بالجينات فالكثير من العلماء يعتقدون بأنه طب تجريبي شديد التعقيد ، مستهلك للموارد ، ففي أنيميا البحر المتوسط (الثالاسيميا) ، يفكر العلماء في علاجها عن طريق ايلاج جينات طبيعية إلى خلايا النخاع ، بحيث

يستعيد الجسم عمله الطبيعي الذي افتقده منذ ظهور المرض .

ويرى كثير من العلماء بأن من الصعوبة بمكان ايلاج الجينات في خلايا النخاع بطريقة مأمونة مضبوطة فاعلة ، والأهم من ذلك أن هذه التقنية ـ عالية التكلفة ـ هي مجرد محاولة (لعلاج) أفراد ، وليست أبدا أسلوبا للوقاية الشاملة من المرض .

وحتى لا نسترسل دعنا نتساءل : من يستفيد من كل هذا النشاط ؟ بعض الناس ، بالتأكيد ، لكن المؤكد أنهم سيكونون تلك الأقلية (المقتدرة) التي تزود حاليا بكل ما تحتاجه من مستحضرات وخدمات طبية راقية ، وحتى تكاليف توفير العلاج لهؤلاء المرضى لن تنخفض .

وهكذا فإذا كانت التطبيقات الطبية للهندسة الوراثية سوف تقلل من معاناة الانسان ، وتسمح بعلاج بعض الأمراض بشكل أكثر فاعلية ، كما ستضيء بعضاً من مناطق الجهل الطبي الحالي ، وهذا لا شك يعد تقدماً ، إلا أن العلماء لا يعتقدون بأن الهندسة الوراثية سوف تخفض أسعار الأدوية ، أو أنها ستولي اهتماماً أكبر للأسباب الاجتماعية للأمراض ، أو أنها ستمنح الناس سيطرة أفضل على تطوير الرعاية الصحية ، ذلك لأن شركات « البيوتكنولوجيا » يبدو كما لو كانت ستستخدم الهندسة الوراثية أساساً لتطوير الطب العلاجي ، بحيث يصبح مصدرا لمستحضرات أو علاجات لبعض الأمراض . مستحضرات وعلاجات تهمل تماما دور الطب الوقائي بما يمثله من تحصين ضد المرض ، كما تهمل تماما دور العمليات الاجتماعية والاقتصادية التي تصيب الانسان بالمرض .

ولعل ذلك مما يعتم الصورة اللامعة للهندسة الوراثية ، ليس لأن معظم القائمين على شركات المستحضرات الطبية لا يهتمون بأن عملهم لن يمس حياة ملايين من الناس أبداً ، بل لأن لهم أولويات وأفكارا ـ غير إنسانية ـ عن الطب والعلاج . إن فكرتهم ـ ببساطة ـ أنه عليك أولا أن تجمع الثروة ، ليمكنك بعد ذلك أن تشتري الصحة وإلا فلا صفقة . !

ثم ماذا ؟

إن هناك علماً قد ولد ، وإن هناك علماء يعملون ، على الرغم من المشاكل وتعقدها ، ومع كل يوم يتبدد جانب آخر من مناطق الجهل العلمي ، وتتضخم المعرفة الانسانية بشكل أدق وأشمل ، لكن المهم ألا نغفل المراجعة الاجتماعية الدائمة لتلك العائلة ، أقصد تلك الطرق الحديثة لصناعة الأشياء المسماة « الهندسة الوراثية » .

إن أحداً لا ينكر أننا نعيش الآن مرحلة « محورية » في تاريخ العلم ، تفتح فيها منافذ لقوى هائلة للتدخل في عمليات الحياة ، وما يجري الآن من مجالات الابتكار لهو من الضخامة والخطورة بحيث يتطلب التفحص الكامل والمراجعة الاجتماعية قبل التنفيذ ، إلى تقييم موضوعي للأشياء ، تنزع فيه عن عيوننا تلك التهويمات الهلامية التي تروج لكل شيء على أنه التقدم الخالص ، المبرأ من العيب ، ولتساعدنا على تصور مستقبل حقيقي بكل ما يتطوى عليه هذا المستقبل من خسائر وأرباح محتملة . ! □

● اذا اقبلت عليك الدنيا فانفق فانها لاتفنى ، واذا ادبرت عنك فانفق فانها لاتبقى . (بزر جمهر)

● النار فاكهة الشتاء ، والخلق دهليز الحياة . (من أمثال العرب) .

● كم من عليل قد تخطاه الردى ، فنجا ومات طبيبه والعوّد . (علي بن الجهم)

● ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع . (عمر بن الخطاب)

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

هل في الامكان رجوع الشيخ إلى صباه ؟

هذا مايبشر به عقار قديم معروف اكتشف العلماء بالصدفة فاعليته في تجديد حيوية الشيوخ ، وقدأثبتت هذه الفاعلية ، التجارب العلمية العديدة التي أجروها عليه في الآونة الأخيرة ، فبات مرشحا لترخيص جديد تصدره وكالة الغذاء والدواء في واشنطن ، وتبيح بيعه واستعماله من أجل تجديد الحيوية وتنشيط الخلايا ونمو الأوعية .

ذلك أن العقار راتين أ (**Ratin- A**) معروف في الأسواق منذ سنة ١٩٧١ حين رخصت وكالة الغذاء والدواء استعماله لمعالجة حب الشباب ، فالعقار اذن بحاجة الى ترخيص جديد يقر استعماله الجديد ، وقد تقدم العالم الباحث الذي طور هذا العقار بطلب هذا الترخيص الجديد الذي يتوقع الكثيرون صدوره عن الوكالة المعنية في مستقبل غير بعيد .

ومن طريف مايذكر ان اكتشاف فوائد راتين ـ أ ضد الشيخوخة جاء بمحض الصدفة في أواخر سنة ١٩٨٧ ، فقد اتفق لبعض العجائز اللواتي استعملن العقار ـ بقصد التخلص من حبوب ظهرت على وجوههن وتشبه حب الشباب ـ أن لاحظن اختفاء الكثير من تجاعيد وجوههن نتيجة استعمال العقار ، وعودة الكثير من نضارة الصبا التي فقدنها وتحسرن على فقدانها منذ زمن بعيد ، فحلت النشوة محل الحسرة ، بقدر ماحلت النضارة محل التجاعيد .

وما أسرع ماوصل خبر هذا الأثر السحري الى العالم الدكتور البرت كليجمان استاذ أمراض الجلد في جامعة بنسلفانيا ، وهو الباحث الذي نجح في تطوير العقار قبل عشرين عاما ، فعاد يجري التجارب والتحاليل من أجل التثبت من حقيقة ذلك الأثر ، وفوجىء العالم الباحث بما اثبته تلك البحوث العديدة الشاملة من فاعليات العقار (راتين أ) وآثاره ، فقد كانت مذهلة بحيث اضطر «البروفيسور كليجمان» الى تكرار تجاربه وأبحاثه وتحاليله حتى اذا ثبتت حقيقتها بما لايقبل الشك تقدم الى وكالة الغذاء والدواء بطلب الترخيص الجديد على نحو ما أسلفنا .

ونوجز فيما يلي تلك الفاعليات المثيرة :

* أسهم العقار في تجديد خلايا الجلد .

لا ثبت الشباب يعود يوما .. عبارة تتردد على ألسنة الشيوخ ، لكن هل ينجح عقار رتين في تجديد حيوية الخلايا ونشاطها ونمو الأوعية وعلاج الشيخوخة ؟

- ساعد على نمو الأوعية الدموية .
- تنشط انتاج الياف (الكولاجن) و (الاكتين) .
- تشفي من الخروق الجلدية التي يسببها الافراط في التعرض لأشعة الشمس .

وتجدر الاشارة الى أن طريقة استعمال راتين أ - المرهم - بقصد مقاومة الشيخوخة تكون بطلاء الجسم به مرة واحدة في اليوم وذلك على مدى ستة شهور على ألا يغالي المرء في استعماله وإلا تعرض الجلد لالتهابات هو في غنى عنها . ومرهم الراتين ا لا يكسب مناعة ضد أشعة الشمس وان كان ذا قدرة على معالجة الخروق التي قد تتسبب بها ثم انه لايفيد كثيرا في حالة التجاعيد العميقة التي ترافق شيخوخة الثمانينات والتسعينات .

■■■

جهاز جديد لعمليات القلب

يحرص الجراحون كما هو معروف على رصد كيمياء دم المريض ، حين يجرون لقلبه العملية الجراحية الخطيرة (القلب المفتوح) . وهم يولون الذوائب أو الشوائب الكهرباوية (electrolytes) مزيدا من اهتمامهم ، والقصد من ذلك انما هو المحافظة على محتويات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الدم ضمن الحدود السوية ، وقد درجوا على إرسال عينات الدم من غرفة العمليات إلى أقرب مختبر يتوافر لديه جهاز التحليل المطلوب (Bench-top analyzer) ، لكن هذا الجهاز لا يؤدي مهمته بسرعة ، وقد يحتاج الى نحو ٤٥ دقيقة لانجاز التحاليل ، ثم إنه بالغ التكاليف . من هنا كان الاهتمام البالغ بالجهاز الجديد الذي طورته مؤخرا إحدى الشركات الأمريكية والذي أطلقت عليه اسم (GEM-6) ، فهو جهاز صغير نسبيا ، ويوصل بأجهزة القلوب والرئات الصناعية التي لا غنى للمريض عنها أثناء العملية ، ويقوم الجهاز المذكور بالتحاليل المطلوبة في غضون دقيقتين فحسب ، ويقوم بها ، أوتوماتيكيا ، لدى الضغط على زر من أزراره .

فأنت لا تكاد تضغط على هذا الزر حتى ينطلق الجهاز في عمله ، فيسحب من

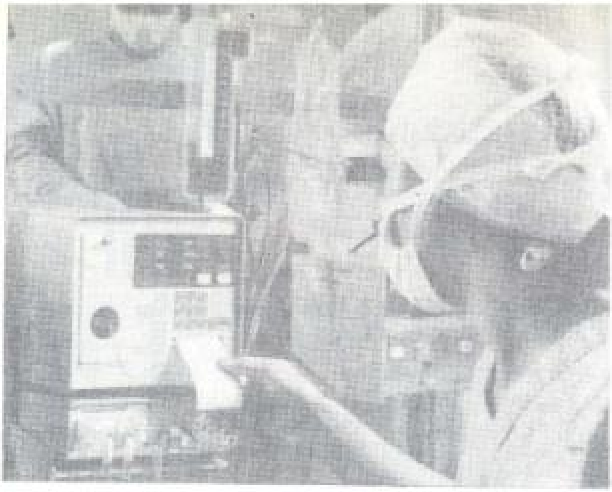

جهاز جديد يستخدم في عمليات القلب وهو يقوم بالتحاليل المطلوبة خلال دقيقتين لدى الضغط على أحد أزراره .

دم المريض ٢ سم وذلك عبر الرئة والقلب الصناعيين ، ثم يتولى تحليل أو تحديد ٦ محتويات موجودة في الدم هي : (الأكسجين) و (ثاني اكسيد الكربون) و (البوتاسيوم) و (الكالسيوم) و (الهماتوكريت أو نسبة الخلايا في الدم) و (توازن PH أو ت ١) . فالزيادة أو النقصان الذي يطرأ على هذه المحتويات في دم المريض أثناء العملية ، ذو خطورة كبيرة على حالته .

ويتم ذلك بواسطة خرطوشة أو لفافة جمعت فيها الشركة مقومات التحاليل المطلوبة جميعها ، وهي تحتوي على كل العناصر الهامة : (محاليل) و (وعاء للنفايات) و (قطب كهربائي electrode) ، أضف إلى ذلك أن هذه الخرطوشة معدة للاستعمال مرة واحدة وتلطرح في سلة المهملات بعد أداء مهمتها .

وتجدر الاشارة إلى أن ثمن جهاز (GEM-6) الواحد يبلغ (١٦٠٠) دولار ، يضاف إلى ذلك ثمن الخرطوشة البالغ (٣٠٠٠) دولار ، وتلك هي الأثمان المقررة لأسواق الولايات المتحدة وأوروبا واليابان .

■■■

لماذا تطرف العيون ؟

ساد الاعتقاد بأن الباعث على طرف العيون إنما هو جفاف الجو وحاجة العين إلى الرطوبة ،لكن « البروفسور جون سترن » ،أستاذ علم النفس في جامعة واشنطن في سانت لويس يتساءل « إن كان ذلك هو سبب طرف العيون حقا ، فلماذا لا تطرف عيون الأطفال الرضع إلا قليلا ، طرفة واحدة كل بضع دقائق ؟ ولماذا تؤكد الدراسات والاحصاءات أن لا علاقة تذكر بين رطوبة الجو وجفافه وبين كثرة طرف العيون أو قلته ؟ » .

لقد دلت الأبحاث العلمية الدقيقة على أن لطرفة العين علاقة بما يختزنه المرء من معلومات ، وما يتخذه من قرارات ، وما ينجزه من أعمال عقلية شاقة ، ودلت أبحاث أخرى على أن للتعب والقلق علاقات وثيقة بطرف العيون ، بحيث يزداد هذا كلما كثر ذاك .

الموز المثالي

الموز فاكهة محببة للملايين ، وغذاء لا غنى عنه للكثيرين أيضا . فهو يقوم مقام الخبز والذرة والأرز في كثير من بلدان افريقيا وأمريكا اللاتينية ، ولا عجب إذن أن يبلغ متوسط استهلاك الفرد الواحد من الموز سنويا (٢٠) رطلا في أمريكا و (٢٠٠) رطل في افريقيا . ولا غرابة أن احتلت زراعة الموز وتجارته مكان الصدارة في اقتصاد دول أمريكا الوسطى . فالموز هو مصدر ٣٢٪ من عائدات التصدير في هندوراس . وحسبك أن مجموع ما تصرفه دول أمريكا الوسطى على المبيدات الكيماوية وحدها (المقصود المبيدات الخاصة بالموز) قد بلغ ١٠٠ مليون دولار سنويا .

ذلك أن مرض « السيجاتوكا السوداء » ضرب شجر الموز سنة ١٩٧٢ ، ثم راح ينتشر حتى عم دول المنطقة كلها بما فيها الأكوادور أكبر دولة مصدرة للموز في العالم . فهذا مرض فطري يصيب الأوراق وينال من الثمار . ويهدد بالتالي انتشار سوء التغذية ، إن لم نقل المجاعة في كثير من الدول . وبلغ من فاعلية هذا المرض أن ضرب فصيلة البلانتين Plantin وهي فصيلة الموز التي طالما اشتهرت بمقاومة المرض المذكور .

موز البلانتين ضخم الحجم وكثير النشا في محتوياته . وهو الموز الذي يقبل الناس على أكله كالخبز أو طهيه كالخضار . وقد نجح مرض « السيجاتوكا » في الفتك بهذه الفصيلة الحديثة نسبيا . بعد أن استكمل فتكه بفصيلة الكافندش Cavendish وهي التي شاعت وراجت في العشرين من هذا القرن .

وبعثت هذه المخاطر على قلق المسؤولين وعلى اهتمام العلماء والبيئيين . ونذكر على سبيل المثال أن مختبرات « اليونايتد فروت » العلمية الموجودة في ضواحي لاليما في هندوراس قد أولت مرض « السيجاتوكا » كبير اهتمامها إلا أنها حرصت على تهجين فصيلة أخرى جديدة في الموز تتميز بالمناعة والقدرة على مقاومة مرض « السيجاتوكا » بالذات .

تولى عملية التهجين أحد العلماء العاملين في تلك المختبرات وهو فيليب راو (Rowe) المتخرج في جامعة « متشيجان » والمتخصص في تهجين النباتات . فقد التحق هذا العالم بالمختبرات المذكورة سنة ١٩٦٩ (وعمره آنذاك ٢٨ سنة) ، ومضى يقوم بالتجارب والأبحاث العديدة التي بلغت تكاليفها ١٠ ملايين دولار ، حتى زاد عدد فصائل الموز التي لقحها بعضها ببعض ، ٣٠٠ فصيلة . ونجح العالم راو في تهجين الفصيلة الجديدة في أواخر السنة الماضية .

فيليب راو ، أبحاثه نجحت في زيادة عدد فصائل الموز التي لقحها بعضها من بعض باستخدام عملية التهجين

ويؤكد الكثيرون أن هذه الفصيلة الجديدة لا تنفرد بالمناعة ضد مرض « السيجاتوكا » ، بل تتميز بحسنات أخرى عديدة حملت بعض الصحفيين على وصف ثمارها بأنها الموز المثالي .

ولعلك تتساءل عزيزي القارىء لم لا يكفون أنفسهم المشقة الكبيرة والتكاليف الباهظة فيكافحون مرض « السيجاتوكا » بالمبيدات .

الجواب أولا : لأن المبيدات لم تعد فعالة في مكافحة مرض « السيجاتوكا » الأسود .

وثانيا : لأن الأضرار التي تلحقها المبيدات بصحة الانسان والحيوان تفوق بكثير الفوائد المتوخاة منها ، ولأن المزارعين والعلماء في الغرب راحوا في المدة الأخيرة يتجنبون رش المبيدات ما أمكن ، ويفضلون مكافحة الحشرات والأمراض الفطرية ، إما بتخليق نباتات جديدة تكون ذات مناعة كافية ، أو بتخليق فصائل جديدة من البكتيريا تقبل على التهام تلك الحشرات ، والقضاء على تلك الأمراض ، وذلك بقصد حماية البيئة ، والحفاظ على صحة الانسان والحيوان .

اليونسكو..

عطاء الثقافة والعلم والتربية

استطلاع : صلاح حزين

في موقع غير بعيد عن برج إيفيل في العاصمة الفرنسية ، باريس ، يقوم مبنى فريد في معماره ، يحيطه سوران ، واحد من الاسمنت ، وآخر من أعلام ١٦١ دولة هي أعضاء الدول المشاركة في منظمة اليونسكو التي تحتل هذا البناء .

فهل هي المفارقة أم الصدفة ، التي جمعت رمز فرنسا الوطني وهذه المنظمة الدولية في هذه الرقعة الضيقة من احدى عواصم العالم الثقافية ؟ .

قال لي الأستاذ الطيب صالح ، ونحن نقف بباب القاعة الرئيسية في مقر منظمة اليونسكو بباريس ، نرقب نتيجة التصويت لانتخاب مدير عام جديد للمنظمة خلفا لمديرها السابق أحمد مختار امبو « انك الآن تشهد لحظات تاريخية من لحظات هذه المنظمة ، حيث يترجل فارس كبير ظل يحتل قمة اليونسكو عدة سنوات قدم خلالها للثقافة خدمة لاتنسى » .

كان ذلك في السابع من نوفمبر من العام الماضي ، يوم انتخب المؤتمر العام لليونسكو السيد فيديريكو مايور الاسباني الجنسية مديرا عاماً للمنظمة ، خلفا للسيد أحمد مختار امبو الذي تسلم الادارة العامة للمنظمة دورتين متتاليتين بين عامي ١٩٧٤ ، ١٩٨٧ .

كانت القاعة تغص بالحضور . وفي البهو الخارجي لم يكن هناك موضع لقدم ، وفود رسمية ، صحفيون ، مصورون ، موظفون ، زائرون ، ومدعوون ، جاءوا من أربعة أطراف العالم ليشهدوا هذا الحدث التاريخي الذي أشار إليه الأستاذ الطيب صالح ، المدير الاقليمي لليونسكو في منطقة الخليج العربي . وكان الانتخاب ذروة لأيام من المناقشات والمشاورات والاتفاقات بين ممثلي الدول المختلفة حول انتخاب المدير العام الجديد . وعلى منصة الرئاسة جلس رئيس المؤتمر والأعضاء يشرفون على عملية الاقتراع ، واتجهت أعين الجميع إلى الصندوق الزجاجي الذي توسط المنصة ، احتشد المصورون الصحفيون ، وممثلو وكالات الانباء ، وأجهزة الاعلام العالمية ، ليسجلوا عملية الاقتراع ولحظة إعلان النتيجة التي شغلت الاوساط العالمية منذ بدأ المؤتمر العام أعماله قبل ذلك بنحو أسبوعين ، وسط أقوال بأن ذلك هو أهم مؤتمر تعقده منظمة اليونسكو في تاريخها .

كانت النقاشات قد انتهت ، والاتفاقات قد تمت ، والمراهنات قد أرسيت ، وأصبحت النتائج شبه مؤكدة ، ومع ذلك فقد جاء كل هذا الحشد ليشهد نتيجة حدث عرفت مسبقاً ، وكان هذا بحد ذاته دليلا على تاريخية اللحظة وتفردها .

كان المدير العام السابق للمنظمة أحمد مختار امبو ، الذي شغل هذا المنصب منذ عام ١٩٧٤ قد اعلن سحب ترشيحه ، ورشح المجلس التنفيذي للمنظمة الدولية السيد فيدريكو مايور لهذا المنصب . وحسب ماهو معروف فإن من الصعب عدم انتخاب شخص رشحه المجلس التنفيذي ، لأن ذلك يعد نوعا من الطعن في هذا الترشيح . وهكذا كان ، فقد انتخب مايور بأكثرية ١٤٢ صوتا من أصل ١٤٩ صوتا ، وبدأ فصل جديد من تاريخ اليونسكو ، فما هي هذه المنظمة ذات الاسم الغريب ؟ متى تأسست ؟ وما أهميتها حتى تكون موضع نقاشات واتفاقات في أروقة المبنى الكبير يقوم بها ممثلون لدول تغطي مساحاتها الأرض كلها ؟

الحروب وحصون السلام

في عام ١٩٤٦ ، وبعد أن خرج جزء كبير من عالمنا من حرب مدمرة كلفت البشرية أكثر من ٥٠ مليونا من القتلى ، قررت عقول مستنيرة مثقفة أن تتبنى فكرة سقراط القديمة الداعية إلى القضاء على الجهل ، وعلى التفاهم من أجل الحؤول دون اقتتال الناس مرة بعد أخرى ، وهكذا ولدت اليونسكو ،

التى كان أحد أهدافها توفير الثقافة للجميع .

السلام والثقافة إذن هما الكلمتان اللتان تتمحور حولها أنشطة المنظمة الدولية منذ نشأتها في ذلك العام التالى على انتهاء الحرب المدمرة . لذا كانت الجملة الأولى في الميثاق التأسيسي لليونسكو هي : « لما كانت الحروب تولد في عقول البشر ، ففى عقولهم أيضا يجب أن تبنى حصون السلام » ، وعليه فإن كل ما تقوم به اليونسكو منذ إنشائها يستهدف السعى الى إحلال السلام بين الشعوب .

وتنص الفقرة الأولى من المادة الأولى على أن « الهدف من إنشاء هذه المنظمة ، هو الاسهام في مجال السلم والأمن ، من خلال نشر روح التعاون بين الدول بالتربية والعلوم والثقافة . وهكذا جاء اسم المنظمة مكونا من الأحرف الأولى لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة .

UNITED NATIONS EDUCATIONAL SCIENTIFIC AND CULTURAL ORGANIZATION (UNESCO)

وتضم اليونسكو ١٦١ دولة عضوا ، وثلاثة أعضاء منتسبين ، ودولة لها صفة مراقب هى الفاتيكان ، وتشمل هذه الدول الاتحاد السوفيتى بمساحته الشاسعة التي تعادل سدس الكرة الأرضية ، وجمهورية سان مورينو التى لاتتجاوز مساحتها عشرات الكيلو مترات المربعة ، وجمهورية الصين الشعبية التى يتجاوز عدد سكانها المليار نسمة . ولهذه الدول جميعا أصوات تدلى بها في أوقات الانتخاب وفي أي عملية تصويت أو اقتراع أخرى جنبا الى جنب ، وعلى قدم المساواة .

واليونسكو أيضا هى الأشهر بين أربع عشرة هيئة من هيئات الأمم المتحدة التى لها اختصاصات محدودة ، فهى أشبه بأمانة دولية يعمل فيها مواطنون من كافة بلدان العالم ، منهم الاداريون والاختصاصيون والخبراء في مجالات مختلفة ، مثل علم الزلازل والمصادر الجديدة للطاقة ، وتمويل مشروعات التربية ، وتنظيم الأسرة ، وغيرها .

بعض هؤلاء يعمل في مشروعات ميدانية أو في المكاتب الاقليمية للمنظمة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، والبعض الآخر يعمل في مقر المنظمة الدولية ، في ساحة فونتنوا ، على مقربة من برج إيفيل الشهير ، الذى يعد رمزاً لباريس ، وهو مجمع معمارى فريد عرف بشكله الثلاثى المميز ، لكن هذا البناء واحد من عدة أبنية تشكل بمجموعها مقر اليونسكو .

وإلى جانب ذلك ، فهي الكبرى بين منظمات الأمم المتحدة ، نظرا لاتساع نطاق أنشطتها ، إذ يبلغ عدد موظفيها نحو ٣٥٠٠ موظف ويشارك في هذه الأنشطة عدد لايحصى من الشخصيات والمؤسسات ، إلى جانب أعضاء اللجان الوطنية التى تتوزع على أراضي ١٤٠ دولة ، فضلا عن علماء وكتاب وفنانين وأدباء ينتمون الى ٤٥٠ منظمة غير حكومية في جميع أنحاء العالم ، تتيح لليونسكو المجال للاستفادة من الموارد الفكرية في كافه أرجاء المعمورة .

ولكن رغم هذا الاتساع والتنوع في أنشطة اليونسكو فان كثيرا من الناس لايعرفون بالضبط ما هو مجال هذه الأنشطة وأين تنتهى حدودها . بل إن صورتها ترسم بحسب صورة المكان الذى يعيش فيه هؤلاء ، فبالنسبة لكثير من الأفارقة مثلا تأخذ اليونسكو صورة المنظمة التربوية التى تشرف على تخريج كوادر المعلمين ، وهى فى المنطقة العربية تأخذ صورة الهيئة الدولية التى تشرف على إنقاذ الآثار وترميمها ، وربما تتداعى إلى الأذهان الحملة المجيدة لانقاذ آثار النوبة بمصر في نهاية الخمسينيات ، عند بناء السد العالى ، أو الحفاظ على المناهج التربوية ، وحرية البحث العلمي ، خاصة فيما يتعلق بالمشكلات الناجمة عن ظروف « الاحتلال الاسرائيلى » للاراضى العربية . وبالنسبة لرجال العلم فإنها الهيئة التى أنشأت في جنيف المنظمة الاوروبية للبحوث النووية ، وبالنسبة للكتاب والناشرين ، فإنها الهيئة الدولية التى ترعى الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف ، والتى تؤمن حق المؤلف أو

● أحمد مختار امبو المدير العام السابق لليونسكو (إلى اليمين) وفدريكو مايور المدير العام الجديد (إلى اليسار) .

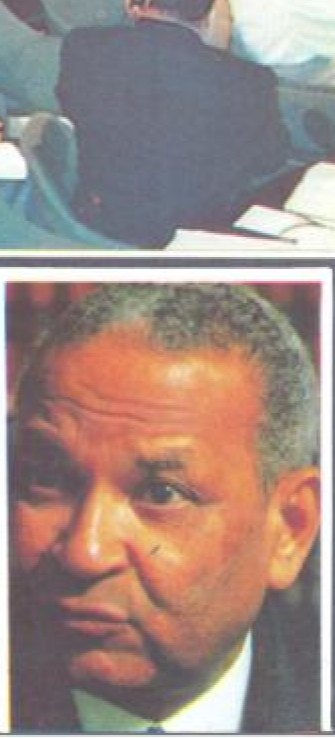

● رئيس المؤتمر يعلن فوز فدريكو مايور بمنصب المدير العام لليونسكو.

● مندوب الكويت الدائم لدى اليونسكو الدكتور فيصل السالم يدلي بصوته في الانتخابات الأخيرة.

● ممثلو الدول الاعضاء باليونسكو يستمعون إلى نتائج التصويت في انتخاب المدير العام الجديد في الدورة الأخيرة.

الناشر . وتحفظه له في جميع أنحاء العالم . . . وهكذا . .

متاعب وأزمات

في بداية أعمال المؤتمر الأخير لليونسكو ، شدد المدير العام السابق للمنظمة على ضرورة الاستمرار في بذل جهود ملحوظة من أجل تحسين صورة اليونسكو في أوساط الرأى العام الدولى كما تحدث عن المأزق المالى الذى تواجهه الميزانية ، والذى يرتبط أساسا بتقلب أسعار الدولار ، وذكر أن ميزانية اليونسكو ، قياسا بمنظومة الأمم المتحدة ، هي منذ عام ١٩٨٠ الأقل حظاً ونمواً .

ولم يكن حديث المدير العام السابق عفويا على أى حال ، إذ أن له ما يربطه بجملة أحداث جعلت اسم المنظمة الدولية يتصدر عناوين الصحف وأخبار وكالات الانباء العالمية ، كما أن له ما يربطه بسير أعمال المؤتمر ، أدى فيما بعد إلى سحب أحمد مختار امبو لترشيحه وسير الأمور بعد ذلك نحو ترشيح المجلس التنفيذى ، وهو الهيئة التى تدير أعمال المنظمة بين مؤتمرين ، للمدير العام الجديد فيدريكو مايور ، فما هى قصة الأزمة المالية ؟ وما هى أسباب الحديث عن ضرورة تحسين منظمة محترمة من منظمات الأمم المتحدة لصورتها في أوساط الرأى العام العالمى ؟

للالمام بالصورة بشكل أوضح ، علينا العودة الى عام ١٩٨٣ . ففى شهر ديسمبر من ذلك العام وجه وزير خارجية الولايات المتحدة جورج شولتز رسالة إلى المدير العام للمنظمة تتضمن إشعاراً بانسحاب الولايات المتحدة من اليونسكو ، اعتباراً من ٣١ ديسمبر ١٩٨٤ . وفى فبراير من عام ١٩٨٤ ، أثار عضو الكونغرس الأميركى جيمس شوير أثناء لقائه بالمدير العام ، إمكانية إجراء دراسة لأعمال اليونسكو ، فوافق الأخير على أن تتم هذه الدراسة وفقاً للممارسات المتبعة في منظمات الأمم المتحدة ، وفي مارس من العام نفسه أبلغت الحكومة الأميركية المدير العام بنيتها إرسال ممثلين لمكتب تدقيق الحساب التابع للكونغرس الى المنظمة ، وفي الشهر التالى بعث وزير التنمية لما وراء البحار في بريطانيا رسالة للمدير العام لليونسكو ، يوضح فيها سياسة بلاده تجاه المنظمة ، وفي ١٦ أغسطس من العام نفسه وجهت هولندا رسالة للمدير العام بشأن سياسة بلادها تجاه المنظمة . وتتسارع الأحداث رغم محاولات بذلتها الهيئة التنفيذية للجنة الوطنية الأميركية لليونسكو ، لاقناع الولايات المتحدة بالعدول عن عزمها الانسحاب من اليونسكو ، فيتم الانسحاب بالفعل في ٣١ / ديسمبر ١٩٨٤ ، وتتبعها بريطانيا بإشعار بالانسحاب ، وفي الشهر نفسه تعلن سنغافورة عن رغبتها في الانسحاب من المنظمة أيضاً .

مايلفت النظر هو أنه في هذه الأثناء صدر بيان باسم مجموعة « الـ ٧٧ » في المنظمة الدولية أشار الى تنازلات ملموسة قدمتها الدول النامية عبر مندوبيها في المجلس التنفيذى لليونسكو .

إذن فهناك الدول النامية وهناك الدول الغربية الكبرى ، الولايات المتحدة ، وبريطانيا وهولندا وكل من هذين الطرفين يقف في جهة وهناك صراع خفى خلف ما هو معلن ، وهناك تنازلات وتنازلات ملموسة . . .

ولكن ما هى القضية التى أدت الى انسحاب الولايات المتحدة من المنظمة الدولية ، ومن بعدها بريطانيا وسنغافورة ؟ لقد أثار إعلان الولايات المتحدة الاميركية قرارها بالانسحاب ، أصداء واسعة تناقلتها وسائل الاعلام العالمية ، ونشرت دعاوى ومزاعم مختلفة تتعلق باتجاهات المنظمة ، وأنشطتها ، وكيفية إدارتها . وقد تحدثت تلك المزاعم عن نوع من العصر الذهبي ، كانت المنظمة خلاله بعيدة عن التوترات العالمية ومثار إعجاب الجميع دون استثناء ! مما يعنى ضمنا أن المنظمة دخلت حيز التوترات العالمية ، وأن الماضى المجيد للمنظمة ولّى إلى غير رجعة ، ووجهت اتهامات لليونسكو بطغيان الاعتبارات السياسية على عملها وذلك عبر تعاون الموظفين وممثلى الدول من البلدان الاشتراكية ورعايا العالم الثالث ، كما أثيرت مسألة المعونات التى تقدمها المنظمة لحركات التحرر الوطنى

وقضايا خلافية أخرى .

وبالطبع فإن كل هذه الاتهامات تعكس وجهة نظر واحدة ، لاترى بروز دور دول العالم الثالث التى تحررت من الاستعمار بين تاريخ تأسيس المنظمة عام ١٩٤٦ ، وبين الثمانينيات . وتنسى ان لكل من الدول الاعضاء ممثلا فى اليونسكو يحمل وجهة نظر بلده السياسية ، وأن المنظمة أنشئت تطبيقا للمقولة التى ذكرناها سابقا ، التى وردت فى بداية الميثاق التأسيسى لليونسكو ، والتى تقول :

« لما كانت الحروب تولد فى عقول البشر ففى عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام » .

وفى هذه المقولة يبرز ذلك الرابط القوى بين السياسة والثقافة ، والذى على أساسه قامت فكرة اليونسكو ، التى تتكون من دول لكل منها سياستها الخاصة .

لكن انسحاب الولايات المتحدة لم يكن مسألة هينة ، فهى صاحبة أكبر نسبة مساهمة فى تمويل أنشطة اليونسكو ومشاريعها ، ومن هنا كان حديث المدير العام السابق عن الأزمة المالية التى عانت منها المنظمة ، ومازالت تعانى ، حتى بعد انتخاب مدير عام جديد ، حظى انتخابه بأغلبية ساحقة . فمن المعروف أن برامج اليونسكو يتم تمويلها من خلال المنظمات الأعضاء فيها ، وذلك بنسب تتفاوت حسب ثراء هذه الدولة وغناها واستعدادها ، ومن هنا كان انسحاب الولايات المتحدة وبريطانيا ضربة مؤثرة ، وربما كان من إنجازات المدير العام السابق أنه استطاع أن يستوعب هذه الضربة ، وأن يستمر فى تسيير العمل منها وتنفيذ مشاريعها دون أن يلجأ إلى طلب مساهمات مالية إضافية ، كما قال فى كلمته التى أشرنا إليها سابقا .

العمليات الخارجية

ولكن مسألة التمويل لايحكمها هذا البعد الواحد فقط فإلى جانب الأنشطة التى تمول بالميزانية العادية التى تتكون من مجموع حصص الدول ، هناك أنشطة أخرى ، لاسيما أنشطة العمليات الخارجية ، التى تمول من خارج الميزانية . وقد كان التمويل من خارج الميزانية مساوياً للتمويل العادى تقريبا ، لكنه فى الفترة الأخيرة زاد عن الميزانية العادية ، وتحت هذا البند ـ بند التمويل الخارجى ـ قام الكثير من المشاريع فى بلدان العالم المختلفة ، وكان لوطننا العربى نصيب كبير منها .

وكلا الأسلوبين من أساليب التمويل يشكلان المورد الأساسى الذى تقوم عليه كل الأعمال العظيمة التى صنعت لليونسكو هذا الاسم الكبير .

ولأن وطننا العربى لايسبح فوق بحر من النفط كما يحلو لأجهزة الاعلام الغربى أن تقول ، بل يقوم فوق مواقع أثرية وتاريخية وبجوارها ، فإن صورة اليونسكو فى أذهاننا نحن العرب ترتبط بعمليات التنقيب عن الآثار والحفاظ على الآثار المكتشفة وحمايتها من المخاطر ، سواء كانت هذه المخاطر على شكل احتلال كالاحتلال الصهيونى الجاثم على جزء من أرضنا العربية ، أو كان عوامل طبيعية كالزلازل ، أو العجز المالى عن الحفاظ على هذه الكنوز الأثرية ، أو عدم وجود خبرات تستطيع القيام بهذه المهمة غير السهلة .

لهذا كله كانت العمليات الخارجية فى مثل أهمية العمليات الأخرى التى تمولها اليونسكو باعتبارها جزءا من مهمتها ، وربما كانت العمليات الخارجية أكثر أهمية ، ففى السنوات الأخيرة كانت ميزانية تمويل العمليات الخارجية أكبر من الميزانية المخصصة للعمليات المذكورة من داخل اليونسكو .

ويشرف على تنسيق أنشطة العمليات والتمويل الخارجى السيد « بقدور ولد على » الذى توجهت إليه « العربى » ، وطرحت عليه سؤالا عن العمليات الخارجية والتمويل الخارجى وجوانبه المختلفة .

قال ولد على : إن التمويل الخارجى قد يكون عن طريق دولة أو بنك ، أو مؤسسة مالية . فى البداية تجرى الدراسات الميدانية ، وبعد ذلك يأتى دور التمويل ، وهذه النقطة البسيطة ظاهريا تلخص جوهر الفرق بين العمليات التى تقوم بها من خارج الميزانية ، وبين العمليات الممولة بالميزانية العادية والتى تهدف أساساً إلى دعم التعاون الفكرى بين

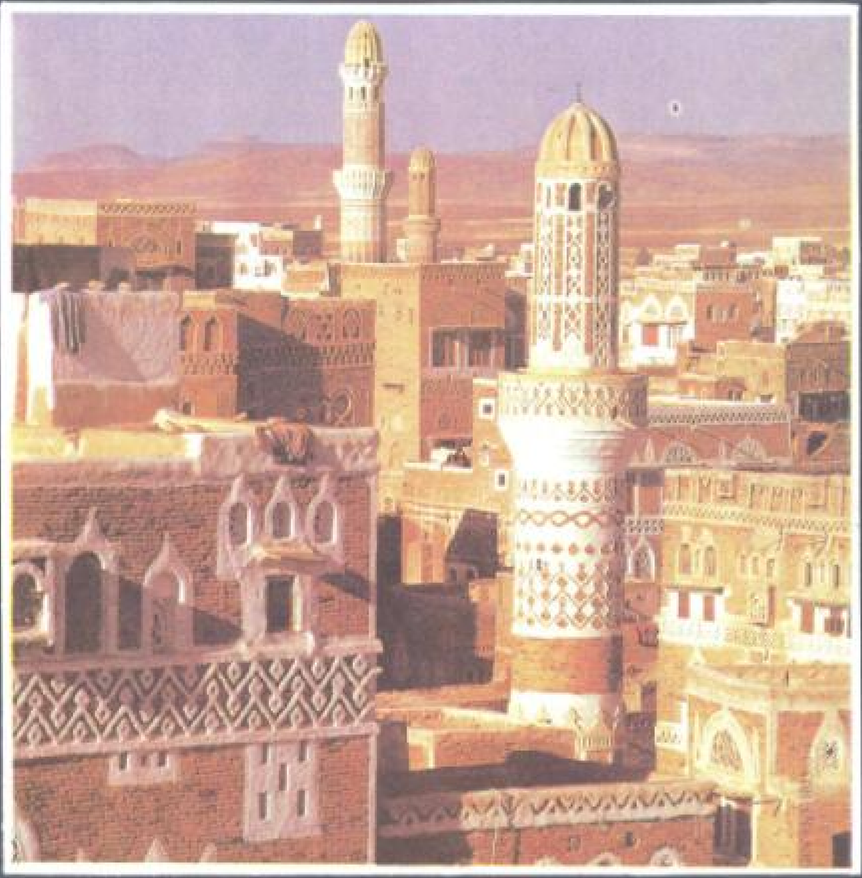

● (فوق) مدينة صنعاء ، واحدة من مدن أثرية عديدة وضعت ضمن قائمة التراث العالمي . و (أسفل) القدس ، لها وضع استثنائي ضمن قائمة التراث العالمي .

الطرفين . وذكر ولد علي أسماء السويد وألمانيا الغربية ، واليابان والسعودية ، والعراق ، وليبيا والكويت باعتبارها أمثلة للدول التى تسهم في تمويل العمليات الخارجية . وبالتالى ، فإن انسحاب الولايات المتحدة وبريطانيا لم يؤثر على سير العمليات الخارجية . . نظريا على الأقل .

أجاب : إن التمويل الخارجي قد يكون عن طريق دولة أو بنك ، أو مؤسسة مالية في البداية تجرى الدراسات الميدانية ، وبعد ذلك يأتى دور التمويل ، وهذه النقطة البسيطة ظاهريا تلخص جوهر الفرق بين العمليات التى تقوم بها من خارج الميزانية ، وبين العمليات الممولة بالميزانية العادية والتى تهدف أساساً إلى دعم التعاون الفكرى بين الطرفين . وذكر ولد علي أسماء السويد وألمانيا الغربية ، واليابان والسعودية ، والعراق ، وليبيا والكويت باعتبارها أمثلة للدول التى تسهم في تمويل العمليات الخارجية . وبالتالى ، فإن انسحاب الولايات المتحدة وبريطانيا لم يؤثر على سير العمليات الخارجية . . نظريا على الأقل .

ولم ينس « ولد علي » أن يشير إلى أهمية دور العمليات الخارجية بالنسبة للعالم الثالث ، ومنه أقطارنا العربية ، وضرب مثلا على مشروع في أوروبا يستفيد منه العالم الثالث أيضا ، وهو مشروع المشكلات الثقافية للعمال المهاجرين في أوروبا . لكنه لم يتبلور بعد .

وحدد جهات التمويل من خارج الميزانية بأنها جهات دولية مثل صندوق التنمية للأمم المتحدة ، والمعروف باسم (UNDP) والذى يمول ٥٠ بالمئة من هذه المشاريع ، أو بنوك أو صناديق التمويل ، وهى صناديق ائتمانية مثل البنك الافريقى ، والبنك الاسلامى والصندوق العربى في الكويت وغيرها . وحكومات مثل ألمانيا ، الكويت ، السعودية ، السويد ، العراق وغيرها .

وأشار ولد علي إلى نوع آخر من التمويل كان متقدما بسرعة في الوطن العربى لكنه تقلص وتراجع بعد انخفاض أسعار النفط العالمية . وهو يتضمن تنفيذ مشاريع في دول قادرة على التمويل ، لكنها غير قادرة على تقديم الخبرة ، وأبرز مثال على ذلك بناء متحف بليبيا بتمويل ليبى وخبرات قدمتها لهم اليونسكو ، وقد قامت المنظمة بأعمال مشابهة في الامارات ، والجزائر وغيرها من الاقطار العربية .

وعن الاجراءات المتبعة في مثل هذه الحالات قال ولد علي ان الحكومات المعنية تقوم بالاتصال باليونسكو بشأن مشكلة تتعلق بصلب اختصاصنا فان كانت لدى الحكومة خبرة كافية بالموضوع ، فانها ترسل لنا الملف كاملا ، والا فاننا نقوم بارسال خبرائنا لدراسة الامكانيات المالية ، وتجميع المعلومات الأساسية ، وقد نتصل نحن بجهات التمويل المناسبة باعتبارنا همزة الوصل بين الطرفين .

وبعد ذلك نبرم اتفاقيات مع الحكومات الممولة ، والتى من حقها معرفة كيفية الصرف ، فلا يبقى بعد ذلك إلا المرحلة العملية . وهكذا فإننا نقوم بدور حيادى تماماً باعتبارنا موظفين في منظمة دولية بغض النظر عن اختلاف جنسياتنا .

التربية . . والنفط

ولكن ماذا عن المنطقة العربية ومدى استفادتها من عمليات التمويل الخارجى ، خصوصا بعد انخفاض أسعار البترول ؟

يجيب « ولد علي » :

بالنسبة لنا معظم المشروعات التى نفذت في المنطقة العربية كانت حول التربية ، والنصف الآخر حول الاعلام وما يتعلق به ، مع بعض الاستثناءات بالطبع ، فقد كان لنا الشرف لأن نبادر إلى دراسة مشروع عن الزلازل في المنطقة العربية ، وانطلاقا من هذه الدراسة التى لقيت استقبالا جيدا في الوطن العربى تم تمويل خمس مشروعات في المغرب ، والجزائر واليمن الشمالى وسوريا ، ومازال العمل جارياً في هذه المشروعات .

أما المشروعات الأخرى ، والتى نصفها تربوى كما ذكرنا ، فهناك مشروع التجديد التربوى ويتضمن شبكة لايصال المعلومات بين بلد وآخر من وطننا العربى . . وهناك مشروع آخر لادخال

« الكمبيوتر » في العملية التربوية ، ومشروع ثالث لتطوير الصناعات التربوية ، وذلك عن طريق مساعدة وتوزيع وتسويق أدوات الدراسة بدل شرائها من الخارج .

وفي هذا المجال ذكر « ولد علي » بعض الحقائق المرة ، فقال : « اننا في الوطن العربي لانملك مصنعا لأقلام الرصاص . . على سبيل المثال » .

ومضى يعدد المشروعات التي يتم تمويلها خارجيا ، مشروع لمحو الأمية في موريتانيا ، ومشروع للحفاظ على التراث القديم ، ومدرسة لتدريب المعلمين في المغرب ، ومشروع لتخطيط التربية في الجزائر ، ومشروع المكتبة الوطنية في الجزائر ، ومشروع لتوسيع التربية في تونس ، وعدة مشروعات في ليبيا ، مثل مشروع علوم البحار ، ومشروع جامعتي بنغازي وطرابلس ، ومشروع كبير في مصر يموله البنك الافريقي للتنمية ، ومشروع عن المعلومات في سوريا ، ومشروع لتطوير التعليم المهني في العراق ، وعدة مشاريع في السعودية ، أحدها بالتعاون مع مؤسسة الملك فيصل كمؤسسة وليس كدولة .

وبالمقابل فقد توقف مشروع في البصرة بسبب الحرب ، واوقف الكثير من الأنشطة في لبنان ، كما حالت ظروف لبنان دون المضي في تنفيذ مشروع الجامعة الفلسطينية المفتوحة ، وذلك بعد أن قدمنا تقريرا شاملا عنها مستعينين في ذلك بخبرات فلسطينية عديدة .

وكما لو أنه ود أن ينهي حديثه بالتذكير بتعاسة أوضاعنا العربية التي كدنا ننساها ونحن نتحاور في أرجاء المبنى الضخم ، قال : « ان وزراء التربية العرب اتفقوا على تمويل بعثات دراسية للطلبة الفلسطينيين ، لكن لم نحصل الا على ١٢٠ ألف دولار ، وهو مبلغ زهيد بالمقارنة مع ثروات الوطن العربي .

التراث والاحتلال

كان هذا حديث التمويل والخبرات ، وفي المجال التربوي بشكل خاص ، إلا أن صورة اليونسكو في

● الطيب صالح الممثل الاقليمي لليونسكو للدول العربية في الخليج .

● بقدور ولد علي ، مسؤول تنسيق أنشطة العمليات والتمويل الخارجي .

● منير بوشناقي مسؤول الحملات الدولية ومشاريع العمليات بقسم التراث الثقافي .

أذهاننا كعرب ارتبطت بالتراث الحضاري الذي تزخر به منطقتنا العربية من أقصاها الى أقصاها ، وبالحفاظ على الأماكن الأثرية التي كثيرا ما تتعرض لمشكلات تنجم عن اضطرابات تعصف بالمنطقة بين حين وآخر . وربما كانت حملة إنقاذ آثار النوبة في الخمسينيات أول فرصة برز فيها اسم المنظمة الدولية على النطاق العربي في هذا المجال فرسمت لنفسها هذا الانطباع الأول الذي مازال سائداً حتى اليوم .

وفي السادس والعشرين من أكتوبر من العام الماضي أصدر المدير العام السابق لليونسكو نداء للبدء بحملة دولية للحفاظ على المواقع الأثرية في مدينة « صور » وحولها ، والتي أصبحت الآن في حالة بائسة .

وليست « صور » هي المدينة الوحيدة التي تضم آثاراً إنسانية خالدة ، وتعيش في الوقت نفسه في حالة بائسة ، فحينما مر الاحتلال الاسرائيلي توجس العالم المتحضر خيفة ، وتداعت إلى الأذهان صور السطو على الآثار وتخريبها من منفات البحر الميت ، وحتى سرقة بعض الكنوز الأثرية من كنيسة القيامة ، وإزالة أحياء بكاملها في المدينة المقدسة بعد الاحتلال بقليل ، وذلك بالرغم من أن بناءها يعود إلى عصور قديمة ، ويهم البشرية جمعاء المحافظة عليها ، ورغم أن الأحياء نفسها مناطق أثرية ، إلى جانب كونها أماكن للسكنى .

منير بوشناقي ، هو مسؤول الحملات الدولية ومشاريع العمليات الذي يتبع قسم التراث الثقافي التابع بدوره لقطاع الثقافة والاعلام . عندما توجهت إليه « العربي » ، بدأ الحديث وكأنه عرف السؤال مقدما :

قطاع التراث الثقافي معروف جيداً لأنه يقوم بعمليات إنقاذ وترميم الآثار ، ونحن الذين قمنا بتنفيذ مشروع إنقاذ آثار النوبة . ونعتقد أن من أهم إنجازاتنا أننا جعلنا العالم يعرف أن التراث الذي يوجد في بلد ما هو تراث للعالم كله . لذا وضعت مديرية الآثار والتراث الثقافي نصوصاً قانونية وافقت عليها اكثر من ٩٠ دولة ، يتعلق بعضها بحماية التراث العالمي ، كما تأسس صندوق للتراث العالمي ، وافقت عليه ٩٦ دولة أسهم فيه الأعضاء بنسبة ١٪ من نسبة مساهمة كل منها في المنظمة ، وشكلت لجنة دولية ينتخب أعضاؤها بشكل دوري للاشراف على مثل هذه العمليات .

وعن الطريقة المتبعة لوضع مدينة ، أو موقع أثري ضمن قائمة التراث العالمي قال السيد بوشناقي إن لكل دولة الحق في تقديم طلب بالمواقع الأثرية التي تريد الحفاظ عليها ، أو التنقيب فيها ، أو وضعها ضمن قائمة التراث العالمي فتقوم المنظمة بعرض الأمر على اللجنة التي تتعاون مع مؤسسة مختصة بالتراث لتقوم بدراسة الموقع والبت في شأنه . وقد وضعت قائمة بأسماء المواقع والأماكن الأثرية تشكل بمجموعها عملنا الذي نقوم به الآن . وتضم القائمة مدينة شبام في اليمن الديمقراطي ، وصنعاء في اليمن الشمالي ، وصور بلبنان ، والبتراء في الاردن ، وقرطاجة في تونس ، ومواقع عديدة في سوريا أهمها مدينة تدمر الأثرية .

للقدس وضع خاص

وماذا عن القدس ، تلك المدينة العظيمة المقدسة . والتي يرزح الجزء الشرقي القديم منها تحت الاحتلال الصهيوني منذ أكثر من عشرين عاما ؟

يجيب مسؤول الحملات الدولية ومشاريع العمليات : للقدس وضع خاص ، فمنذ ١٥ سنة اتخذ قرار بايلاء أهمية خاصة للقدس ، بحيث أخرجت من إطار لجنة الحفاظ على التراث ونقلت الى اختصاصات المجلس التنفيذي والمؤتمر العام ، وهما أعلى هيئتين من هيئات اليونسكو . والقدس هي المدينة الوحيدة في العالم التي تتمتع بهذا الوضع ، وربما كان هذا من الأسباب التي دعت الى انزعاج « إسرائيل » وأمريكا وبريطانيا ودول غربية اخرى ، فهي المدينة الوحيدة في العالم التي توضع صورها أمام العالم أجمع ، وليس أمام لجنتنا فقط . فالقدس مدرجة ايضا ضمن قائمة التراث وضمن قائمة التراث تحت الخطر ، وهي قائمة أخرى ، وقد كان ذلك بقرار عربي جماعي ، وهذا يجعل « إسرائيل » تتردد اكثر من مرة قبل ان تقدم على

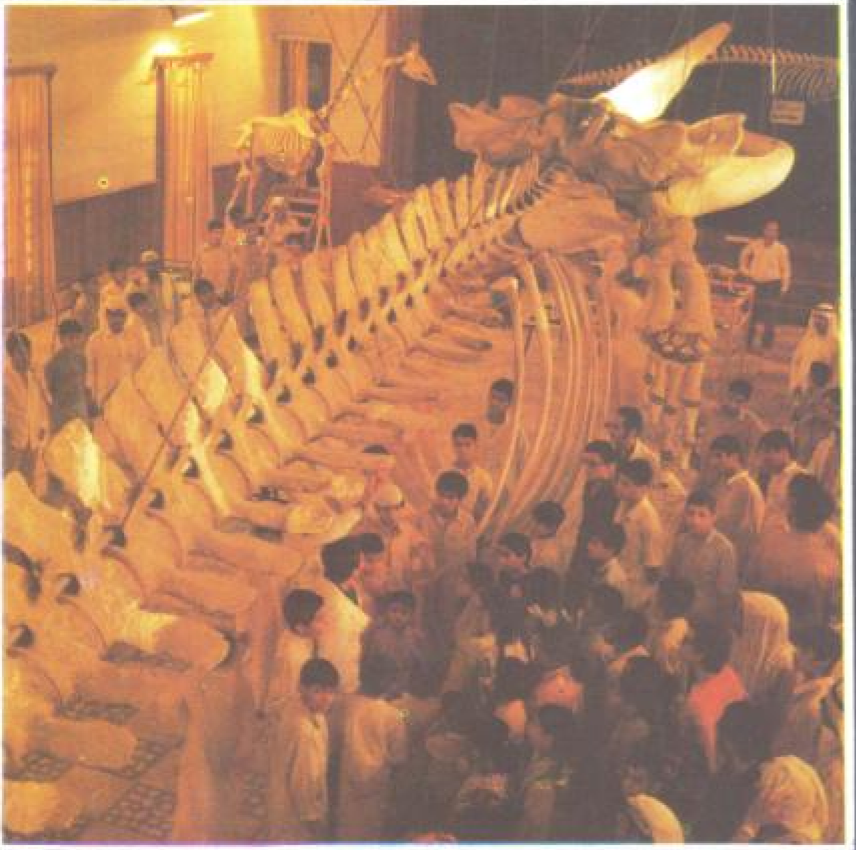

● المتحف العلمي الكويتي (فوق) ساهمت اليونسكو بتقييم أنشطته وتنظيمه والمتحف الليبي بطرابلس (إلى اليمين) أشرفت اليونسكو على تنظيمه .

انتهاك حرمة الاماكن التاريخية هناك . لكن هذا بالطبع لايمنع « اسرائيل » من القيام بالانتهاكات إلا أنها تبقى محدودة بفضل هذا الوضع للمدينة المقدسة .

طوال فترة الحديث عن آثارنا القديمة العظيمة . لم تغب عن ذهني صورة لصوص الآثار الذين كتبت عنهم الروايات وأنتجت الافلام السينمائية ، حيث يظهر فيها لصوص أتوا على هيئة خبراء في الآثار الى بلادنا ليسرقوا هذه الآثار أو يشتروها بثمن بخس ، ثم يعودوا إلى بلادهم لبيعها بأثمان باهظة ، وتكوين ثروات غير مشروعة من ورائها .

وطرحت ماجال بذهني على السيد بوشناقي ، وعن الدور الذي تقوم به اليونسكو لمنع مثل هذه الاعمال .

قال السيد بوشناقي ضاحكا ، ليس لدينا قوة شرطة تمنع السرقة وتعيد المسروقات الى أصحابها ، فعملنا اساسا هو التوعية ، فنحن نقوم بتزويد المتاحف بنوع من التوعية عبر مجلتنا المتاحف التي تتضمن سجلا بالقطع الأثرية المتسربة ، حيث يقع على عاتق كل دولة من الدول محاربة تسرب القطع الأثرية من اراضيها ، وعلى المتاحف عدم شرائها ، كما أن هناك وثيقة تمنع تصدير واستيراد الممتلكات الثقافية . . وأضاف ، إن من الصعب جدا حصر عملية السرقة لأنها قريبة من عملية تهريب المخدرات ، ومعظم السرقات تأخذ طريقها إلى سويسرا ومن هناك الى الولايات المتحدة ثم الى أمريكا اللاتينية حيث تباع .

لكن هذا ليس كل ما تقوم به لجنة العمليات ، فهي تسهم أيضا في القيام بمسح أثرى لبعض المواقع وتنظيم المتاحف أو بناء مراكز ثقافية ، ففى عام ١٩٨٦طلبت الكويت من اليونسكو تنظيم العمل في المتحف العلمي ، وقد تم لها ذلك عن طريق المجلس الدولي للمتاحف (الايكوم) وهي منظمة غير حكومية ، حيث حضر بعض الخبراء إلى الكويت ومكثوا فيها مدة تقارب الشهرين ثم عادوا بعد انجاز مهمتهم .

وفي السعودية أبرمنا عام ١٩٨١ عقداً لبناء مكتبة وقاعة لعرض الفن الاسلامي وتنظيم أرشيف للمخطوطات الاسلامية ومتحف يضم كل الوثائق والمخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس ، وقد بدأنا العمل الذى لم يتم بعد والذى كلف أكثر من ١٠ ملايين دولار دفعتها السعودية .

طلبات صغيرة

ولكن هذه المشاريع الكبيرة التي تمولها دول غنية ليست كل شيء ، فهناك احيانا طلبات صغيرة أخرى من جانب بعض الدول التي تمولها الميزانية الاعتيادية للمنظمة ، مثل طلب سوريا المساعدة في شراء فرن لترميم فسيفساء المسجد الأموى ، وطلب من البحرين لترميم قلعة عراد وطلب من قطر لبعض الخبراء لاجراء دراسات في مدينة زبارة .

وأسأله عن آخر طلب عربي فيجيب السيد بوشناقي :

الأردن طلب منا المساعدة في حماية قطعة اثرية نادرة ، وحين سألته عن آخر أخبار السرقات الأثرية ابتسم وقال : مازالت هنا تشكايات بهذا الخصوص فهناك نزاع بين الاردن والولايات المتحدة حول قطعة أثرية مهمة تقوم حاليا بالتوسط لفضه ، والكونغو تطالب بلجيكا باعادة اكثر من الفي قطعة أثرية من الخشب المنحوت على شكل تماثيل وطواطم تعتبر من أفضل أعمال النحت الخشبي في العالم .

ليس هذا سوى بعض ما يمكن أن يقال عن دور هذه المنظمة الدولية في الحفاظ على التراث ، ونشر العلم والثقافة والوعي التربوى ، فعمل أربعين عاما من العطاء في مجالات الثقافة والعلوم والتربية أكبر من أن تحفظه دفتا كتاب مهما عظم حجمه . وقبل أن ننهي حديث العلم والثقافة والتربية ، يحق لنا في مجلة العربي أن نذكر تجربة بسيطة لكنها عظيمة الدلالة ، ففي عام ١٩٨٥ اختارت اليونسكو مجلتنا لتبني فكرة إنشاء مؤسسة عربية للخدمات الصحفية المصورة وعقدت ندوة لبحث هذه الفكرة في الكويت في أبريل من العام نفسه ومازال العمل مستمراً ، ومازالت اليونسكو كما كانت منذ اكثر من اربعين عاما تواصل عطاء الثقافة والعلوم والتربية . □

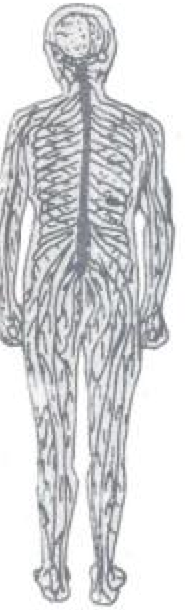

كهربائية الجسم والأمراض النفسية

بقلم : الدكتورة أمل المخزومي *

يرتقي الانسان ذروة سلم التطور إذا ما قورن بالمخلوقات الحية الأخرى ، وإذا كان هذا الرقي يتجلى في مجالات عديدة فإنه يبرز بشكل خاص في الجملة العصبية التي وهبها الله له ليسخر بواسطتها جميع الامكانات التي منحت له على وجه الأرض .

تتكون الجملة العصبية الانسانية من نظام معقد للغاية وقد استطاع الانسان بعلمه أن يصل إلى كشف بعض غموضها .

تنقسم الجملة العصبية الى الجهاز المركزي الذي يتضمن المخ والنخاع الشوكي ، ويتشعب النخاع الشوكي الى مجموعة من الاعصاب ، يتجه كل منها الى منطقة مختلفة من مناطق الجسم . يكون الجهاز العصبي اللا إداري مسئولاً عن جميع نشاطات الأجهزة ، كجهاز الدوران ، وجهاز الهضم وافرازات الغدد المختلفة ، ويؤدي الجهاز اللاإرادي أعماله ذاتيا أي دون تدخل الافراد ، كما يقوم بالعمل في أوقات النوم أيضا .

يتكون الجهاز العصبي من شبكة هائلة من الخلايا التي تتولى مهمة جمع المعلومات وارسال الأوامر . تعمل الاشارات في هذه الشبكة العصبية على هيئة نبضات كهربائية ، تقوم بنقل الرسائل من خلية الى أخرى . كما يعمل المخ بمنتهى السهولة نتيجة للتعاون الحاصل بين عشرة بلايين من الخلايا ، تتصل كل واحدة منها بحوالي ٢٥,٠٠٠ خلية من رفيقاتها .

يعمل الجهاز العصبي طوال النهار والليل وتتفاوت نشاطات الجهاز العصبي نسبيا بناء على النشاطات التي يمارسها الشخص ، كما تختلف نشاطات الخلايا العصبية في اليقظة عنها في حالة النوم ، وما الاحلام إلا من نتائج النشاط العصبي النسبي . يقدر طول أعصاب الانسان بحوالي ١٠٠,٠٠٠ ميل من الاعصاب المتشابكة ، أما سرعة النبضات العصبية فتقدر بـ ٣٠٠ ميل في الساعة .

* أستاذة مساعدة في علم النفس الاجتماعي ـ جامعة أنقرة ـ تركيا .

تركيب الخلية العصبية

الخلية العصبية هي الوحدة الرئيسية للجهاز العصبي، تتحكم بجميع النشاطات الصغيرة والكبيرة، كما أن لها القدرة على الاستجابة لجميع المثيرات الخارجية، وتتصل الخلايا العصبية بعضها ببعض بواسطة الاشارات الكهربائية التي تصدر عنها. يحيط بالخلية العصبية غشاء يتكون من مواد كيماوية مختلفة في نوعها ونسبها، ويحتوي الجزء الخارجي من الغشاء على كمية عالية من «البوتاسيوم»، وكمية منخفضة من الصوديوم، وتكون الشحنات موجبة في الحالتين. وتكون المواد في داخل الخلية على العكس من ذلك، أي يكون تركيز البوتاسيوم منخفضا وتركيز الصوديوم عاليا، كما أنهما يحملان شحنات سالبة.

وعندما تتسلم الخلية مثيرا من المثيرات الخارجية التي يتعرض لها الانسان ينتقل هذا المثير في الخلايا العصبية بواسطة التنافذ في النسب والشحنات الموجودة في داخل الخلية وخارجها، أي ينفذ جزء من الشحنات الموجبة الى داخل الخلية، وتخرج شحنات سالبة الى خارجها، كما يحدث اختلاف في نسب تركيز المواد الكيماوية. يقل تركيز الصوديوم في داخل الخلية ويزداد في خارجها، كما يزداد تركيز البوتاسيوم في داخلها ويقل في خارجها. ويأخذ هذا التنافذ مساره عبر الخلايا العصبية على شكل نبضات أو موجات كهربائية، كما تعيد الخلية توازنها الكيماوي بعد ذلك، لكي تستعد لتسلم مثير آخر. وهكذا يستمر التنافذ والتوازن الكيماوي الحاصل باستمرار حياة الخلية العصبية، مما يؤدي الى شد تلك الخلايا وتوترها. تنتقل الموجات الكهربائية عبر الخلايا كانتقال موجات الحرارة في الاجسام، وتعتمد سرعة انتقال الموجة الكهربائية في الخلية العصبية اعتمادا كليا على شدة المثير أو ضعفه، فان كان المثير شديدا تكون الاستجابة شديدة أيضا، ويترتب على ذلك شدة وسرعة توتر وشد الخلية والعكس بالعكس.

الفروق الفردية في الاستجابة :

هناك فروق فردية في نسبة الكهربائية التي تتولد في الأجسام المختلفة، تبدأ هذه الفروق الفردية في لحظة تلقيح الحوين للبويضة، ونزولها الى الرحم، حيث تتفاعل في داخلها عناصر حيوية كيماوية وميكانيكية وكهربائية، وعندما تتعرض الحامل الى مثيرات شديدة نلاحظ أن الجنين يكثر من الحركة، ويكون العكس عندما تكون الحامل في حالة استرخاء وراحة. قد تكون الحركة نتيجة لتلك الموجات الكهربائية الناتجة من شد الخلايا العصبية وتوترها من جراء تلك المثيرات الشديدة التي تعرضت لها الحامل وهكذا يستمر نمو الفرد من المرحلة الجنينية الى مرحلة البيئة الخارجية، متعرضا لشتى أنواع المثيرات التي تسبب لديه شد الخلايا وتوترها وكهربائيتها، كما تختلف هذه الكهربائية من حيث الشدة باختلاف الافراد واختلاف الأزمان، فلو عرضنا مجموعة من الناس لمشهد من المشاهد المثيرة لوجدنا استجاباتهم مختلفة لذلك الموقف، إذ تختلف الاستجابة باختلاف شخصيات الافراد ومدى ما يتعرضون له من مثيرات شتى، فهناك من ينفعل ويهتاج ويزج بنفسه بالموقف، وهناك من يهرب من الموقف، وآخر يقابل الموقف بعدم المبالاة، كما تختلف الاستجابات باختلاف الاجناس والمناطق، فاستجابة سكان المدن تختلف عن استجابة سكان الريف، والسبب يعود الى أن سكان المدن يتعرضون الى مثيرات أكثر مما يتعرض له سكان الريف، وبالتالي نجد أن انفعالات رجل المدينة تختلف كثيرا عن انفعالات الريفي، وهذا هو سبب التعرض الى الانهيارات العصبية الناتجة عن شدة وتوتر وكهربائية الخلية لدى سكان المدن، وقد تؤدي الانهيارات العصبية الى الانتحار أحيانا. وهناك مثيرات يستجيب لها الريفي في الوقت الذي لاتثير أية استجابة لدى رجل المدينة، والسبب يرجع الى كثرة المثيرات التي يتعرض لها

رجل المدينة ، حيث تبهت « ميكانزمات » جسمه للعمل على غربلة تلك المثيرات ، فلو استجاب جميع الناس لجميع أنواع المثيرات التي يتعرضون لها لأصيب جميع الناس بانهيارات عصبية ، ولوجدنا جميع سكان المدن منهارين أو نزلاء مستشفيات الأمراض العصبية والنفسية .

تؤثر فصول السنة على الانسان تأثيرا مباشرا ، فقد وجد بعض الباحثين أن الكآبة تزداد في فصل الشتاء ، وكان تعليل ذلك برودة ليل الشتاء وطوله مما يجبر الافراد على البقاء في البيت خوفا من البرد ، ويؤدي بالتالي الى انعزال الافراد بعضهم عن بعض ، إضافة الى قلة الخروج الى الخارج للعيش في الهواء الطلق والشمس ، مما يكون سببا للاصابة بالكآبة . كما يؤدي طول النهار في الصيف الى تعرض الانسان الى مثيرات عديدة مختلفة ، مما يسبب استمرارية الاستجابة التي تسبب توترا وزيادة في كهربائية الخلايا . لقد أشار دوركايم من خلال بحثه عن الانتحار بأنه يكثر في فصل الصيف ، وعلل تلك الظاهرة بطول النهار في الصيف ، وتعرض الانسان الى مثيرات أكثر مما يتعرض اليه في نهار الشتاء ، مما يؤدي الى الشد المستمر والتوترات المستمرة التي تدفع بعض الافراد الى التخلص منها بالانتحار . كما أن سكان المناطق الحارة يمتازون بالتوتر وسرعة الغضب لنفس السبب المذكور سابقا .

تتعرض بعض أجزاء الجسم الى المثيرات أكثر من غيرها ، فالعين أكثر أجزاء الجسم تعرضا لتلك المثيرات المستمرة ، مما يترتب عليه أن تكون الموجات الكهربائية لهذه المثيرات مستمرة ، وأن يكون شد خلايا البصر وتوترها مستمرا ، والدليل على وجود تلك الكهربائية بشكل مكثف هو عندما تتعرض العين الى ضربة أو كدمة تتطاير الشرارات الكهربائية منها .

تأثير الكهربائية على العلاقات

للانسان قدرة معينة على استيعاب المثيرات ، يطلق على هذه القدرة اسم العتبة النفسية ، فان زادت المثيرات عن حدها ، وعجزت « ميكانزمات »

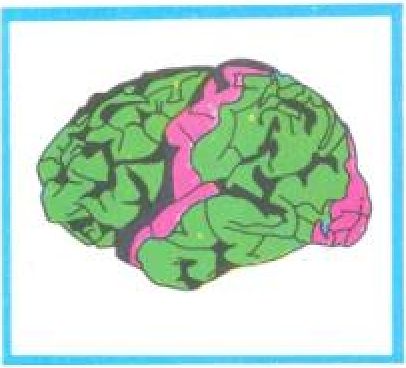

المخ في جسم الانسان .

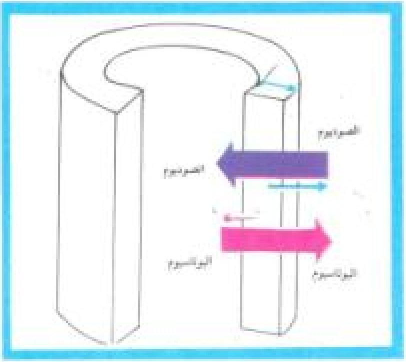

تركيبة الخلية العصبية في جسم الانسان .

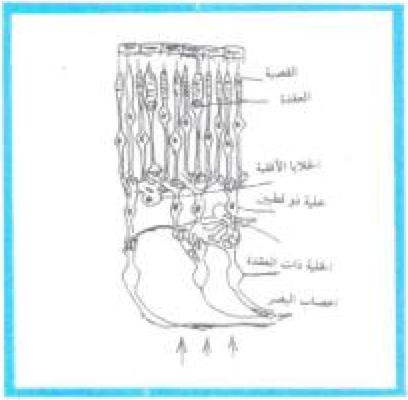

تركيب العصب البصري لدى الانسان .

الجسم عن التكيف معها أدى ذلك الى الاختلال في السلوك ، ويستجيب لذلك بالسلوك العدواني في أكثر الحالات .

قد يحدث لموظف معين أن يقع تحت إمرة مدير يكلفه بما لاطاقة له به ، خال من التعزيز والاثابة ، فتجد الموظف يتذمر من الموقف ، ويكون في صراع بين رفضه لهذه المواقف وبين انقطاع لقمة العيش إن هو اصطدم بالمدير ، وتعمل ميكانزمات الجسم على التخلص من تلك التوترات ، وذلك بافراغ ما يعانيه هذا الموظف على زوجته وأطفاله أو المقربين اليه ، وعند ذلك يشعر براحة بعد أن أفرغ ما يعانيه من توترات وشحنات كهربائية زائدة عن الحد الطبيعي . إن لهذا الموقف عواقب وخيمة على الاطفال الذين ينشأون في تلك الظروف ، بحيث قد تجعل منهم عدوانيين وجانحين ومجرمين في المستقبل ، لانعكاس تلك الصراعات العائلية والزوجية على سلوك الاطفال . وكثيرا ما نلاحظ الاطفال الناشئين في تلك الاجواء يصبون عدوانهم على دماهم . على سبيل المثال إن عنفت الأم طفلتها نلاحظ الطفلة تمسك بدميتها وتعنفها بنفس الطريقة التي استعملتها الأم ، لان الافراغ والتقليد موجودان لدى الاطفال أيضا .

وقد يسلك الشخص المتوتر سلوكا معاكسا ، إذ يجعله ذلك التوتر ينصب على نفسه باللوم والتقريع والاهانة ، مما يزيد في الشد والتوتر والكهربائية للخلايا ، وتتمخض عن ذلك الزيادة في الانهيارات العصبية ، وبالتالي قد تدفع الشخص الى التخلص من كل ما يعانيه بالانتحار .

تأتي الشكوى من المعالجين بزيادة أمراض القلب والامراض النفسية في السنوات الاخيرة ، وهناك من يعلل أسباب ذلك بخروج المرأة للعمل خارج البيت ، ومن يعلل ذلك بصعوبة الحياة وكثرة مطالبها ، ومن يعزوها الى الصراعات السياسية ، الا أن هناك سببا قد يكون مباشرا للاصابة بتلك الأمراض ، ألا وهو انتشار استخدام المواد البلاستيكية والنايلونية بين الناس .

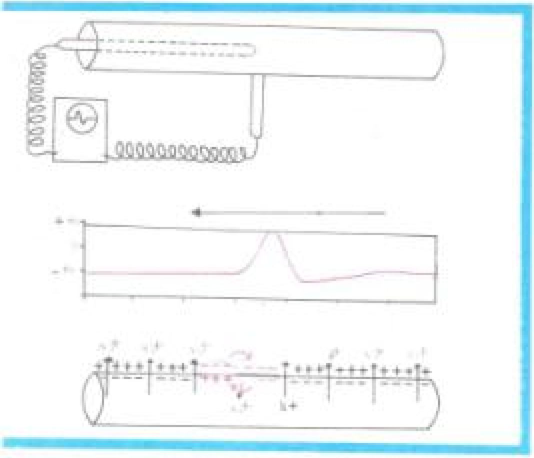

عملية التنافذ في المواد الكيماوية الحاصل في الخلية العصبية .

احتفلت الدول الغربية بعيد ميلاد النايلون الخمسين في ٢٨/٢/١٩٨٧م ، وهذا يعني أن خمسين سنة قد مرت على صناعة النايلون . كما يشير المختصون في مجال صناعة البلاستيك بأنه سينتشر كثيرا في السنوات المقبلة ، وستبنى محطات فضائية متطورة من البلاستيك وكذلك تبنى الطائرات ، وسوف يكون ٣٠٪ من موادها من البلاستيك بعد أن كان ٥٪ . ويذكر بعضهم أن كمية البلاستيك المستعملة التي تدخل في جميع نواحي الحياة تعادل ٦٠٠ طن من البلاستيك في كل عام .

إن لاستعمال تلك المواد آثارا سلبية على الانسان ، وخاصة على القلب والجهاز العصبي ، لما تسببه تلك المواد في اختلال التوازن في الشحنات الكهربائية في الخلايا العصبية والقلب مما يترتب عليه الاصابة بأمراض القلب المختلفة وأمراض الجهاز العصبي والأمراض النفسية المتنوعة .

اختلال التوازن الكهربائي

تشير الأبحاث والدراسات التي أجريت على الرجال والنساء في الاضطرابات النفسية ، بأن الاضطرابات تكون أكثر شيوعا بين النساء عنها بين الرجال ، وقد يكون أحد الاسباب لذلك أن النساء

أكثر استعمالا للمواد البلاستيكية من الرجال . وأستعرض بعضا من الاضطرابات النفسية التي تزداد نسبة المصابين فيها بين النساء أكثر منها بين الرجال وهي كما يلي :

١ - القلق النفسي :

القلق مرض خطير ، وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي يطلق عليه بعضهم اسم عصر القلق . والقلق مركب انفعالي من الخوف والاضطرابات المستمرة . يشعر الشخص القلق بتهديد متوقع أو متخيل ، دون مثير ظاهر . وكثيرا ما يعيق القلق الأداء الفعلي للفرد بشكل عام ، والقلق خوف مبهم غامض ، يصعب علاجه ومعرفة سببه الا بالتحليل النفسي ، ولو أن هناك علاقة وطيدة بين الوراثة والمرض ، إلا أن للبيئة دورا كبيرا في ظهوره .

الهستيريا :

لقد اعتبر أطباء اليونان قديما بأن مرض الهستيريا هو مرض تحرك الرحم في الجسم ، وربما أطلقوا هذا التعبير على المرض لأن الاصابة به أكثر شيوعا بين النساء عنها بين الرجال ، أما الاطباء المحدثون فقد أرجعوا الهستيريا الى انهيارات عصبية يعاني منها الفرد ، كالتوتر الناتج عن المثير ، وكف الاستجابة المبالغ بها من قبل الشخص ، كما تتضمن العمليات الفيزيولوجية للقشرة اللحائية . ومرض الهستيريا هو اضطراب عصبي يتميز بالتفكك العقلي **Mental Dissociation** ، والاختلال الواضح في النشاط الجسمي والعقلي . وقد تكون مظاهر المرض عضوية كالعمى الهستيري ، أو فقدان الذاكرة ، أو الصمم أو التمتمة . وللهستيريا في الطب العقلي عدة معان منها : تلك الحالات من الذهول ، أو عدم الثبات الانفعالي أو التوهمات ، وتكون أحيانا قوية جدا .

٣ - التسلط :

وهو عبارة عن اضطرابات عصبية وظيفية ، تظهر في شعور المريض على الرغم من إرادته ، ويدرك المريض أنها غير منطقية ، ولا يستطيع التخلص منها . يتميز هذا المرض بتسلط الافكار والافعال ، وتعني بتسلط الافكار تلك الوساوس التي تستحوذ على ذهن المريض وتسيطر عليه ، بينما يعتبرها المريض غير مألوفة لديه غريبة عنه ، ويعجز عن التخلص منها .

وتسلط الافعال أي القهر النفسي هو أن تفرض الافعال نفسها على المريض ، ويكون مقهورا ومجبرا على أدائها ، ولا يستطيع مقاومتها ، بل يمارسها باستسلام دون ممانعة، وكثيرا ما يعتبر المريض بأن لاقيمة لهذه الافعال ولا معنى لها ، ولا يعترف بمنطقيتها على الرغم من أنه مجبر على الخضوع لسيطرتها ، لأنه يعتقد بأنه إذا لم يمتثل و يعمل بها فالمصيبة ستقع عليه وعلى المجتمع .

وهناك بعض الأمراض الأخرى التي تصيب الجنسين ، وهي الناتجة عن اختلال التوازن الكهربائي الحاصل في الجسم ، وهي كما يلي :

١ - مرض الصرع

ينتج مرض الصرع عن تهيجات في مجموعات كبيرة من الخلايا العصبية الموجودة في المخ ، ويعتمد نوع الصرع على مكان هذه المجموعات من الخلايا العصبية وكميتها ، مما يؤدي الى توليد شحنات كهربائية تزيد عن الحد الطبيعي، تسبب تشنجات على شكل نوبات صرعية .

٢ - مرض ضعف العضلات :

يتولد مرض ضعف العضلات (ميثينا جرافيزا) نتيجة لاضطرابات نظام المواد الكيماوية وافراز

الانزيمات في الخلايا . تتقبض العضلات وتنبسط وتتحرك نتيجة للاشارات التي تطلقها الخلية العصبية ، وتتلقى الخلية العضلية تلك الاشارات

عند موضع التقاء الخليتين ، وبسبب ذلك إفراز مادة كيماوية معينة يطلق عليها اسم (استيل لولين) ،

وتبدأ سلسلة من التفاعلات الكيماوية قبل ان تتحلل وتختفي بواسطة مواد كيماوية وأنزيمات مضادة لها ، ، وتؤدي تلك التفاعلات الى انقباض العضلة

بالشكل المطلوب ، وينتهي تأثير الانزيم المضاد ثم يعود « الاستيل لولين » الى جميع عناصره مرة أخرى لتلقي الاشارة العصبية القادمة . ويحدث أحيانا خلل

في افراز تلك الانزيمات التي تحلل مادة « الاستيل لولين » الى عناصرها الأولية ، مما يؤدي الى استمرار انقباض العضلة وزيادة حجمها ، كما أن « الاستيل

لولين » يستهلك أثناء النهار لكثرة المثيرات التي يتعرض لها الانسان ، وتعوض بالراحة والنوم .

تتميز أعراض المرض بازدواج النظر مع ارتخاء في الاجفان ، كما يظهر الضعف العام في الجسم ،

وخاصة في الرقبة والوجه واللسان . يصاب المريض بالاعياء والتعب السريع خاصة في الذراعين والقدمين ، إضافة الى اصابته بالاختناق وصعوبة البلع . والعلاج هو النوم مدة ٢٤ ساعة ، مع أخذ

راحة واسترخاء كاملين ، كما أن الانسان الذي يعمل طول النهار يحتاج الى راحة واسترخاء في الليل للتخلص من تلك الظاهرة العضلية الموجودة . لكن هناك أفرادا لا ينامون في اليوم الا ساعتين أو ثلاثا ،

قد يكون نظام « الاستيل لولين » لديهم لايستهلك أثناء اليقظة الا بكميات قليلة ، ولهذا نجدهم لا يحتاجون الى نوم فترة طويلة .

الاحتياط واجب

هناك طرق عديدة للوقاية من الامراض النفسية وأمراض القلب التي تنتج عن زيادة الكهرباء ...

واختلال التوازن الكيماوي في الخلية ، وهي :

١- الابتعاد عن المثيرات التي تزيد من الانفعالات والتوترات .

٢- تقليل استعمال المواد البلاستيكية قدر الامكان .

٣- أخذ حمام حار عند شعور الشخص بالتوتر والانفعال .

٤- خروج الفرد المتوتر الاعصاب الى الهواء الطلق أو أخذ نفس عميق ١٥ مرة .

٥- ارتياد الأندية الرياضية وممارسة النشاطات الرياضية المختلفة .

٦- مشاهدة الأفلام والبرامج المسلية ، والابتعاد عن الافلام المرعبة والمحزنة .

٧- مناقشة ما يعاني منه الفرد مع أقرب الناس اليه ، لكي يساعده على اجتياز تلك الازمة .

٨- الاكثار من اللعب للطفل ، واتاحة الفرصة له ليكسر ما شاء، وليعبث بتلك الدمى واللعب، لأن ذلك تشخيص لما يعانيه من ناحية ، وتنفيس لهذه المعاناة من ناحية أخرى .

٩- الخروج الى النزهات والرحلات ، والانطلاق من تلك المواقف الرتيبة ، لكي يبدد الشخص ما يعاني من توترات كهربائية وانفعالات مختلفة .

١٠- تغيير محل العمل ونوعه إن شعر الفرد بأن عمله سبب في توتراته وانفعالاته .

١١- ابتعاد الزوجين بعضهما عن بعض فترة قصيرة إن حدث بينهما ما يشوب العلاقة الزوجية ، فقد تكون هذه الفترة كافية لازالة التوتر والانفعال

١٢- الاستفادة من أوقات الفراغ ،والاشتغال بهواية واحدة أو هوايات معينة .

١٣- مشي المرء على الأرض حافي القدمين ، وذلك لتبديد الكهرباء من الجسم . □

المدرسة الانطباعية في الفن

مرآة عصر أم حوار مع المستقبل ؟

بقلم : رباب العابد العظم*

في عام ١٨٦٣ أكمل (ادوار مانيه) لوحته الشهيرة « غداء على العشب » التي أثارت ضجة في الأوساط الفنية بجرأة موضوعاتها ، وخروجه بها على المألوف ، وبعد ذلك بتسعة أعوام قدم (كلود مونيه) لوحة بعنوان « الانطباع شروق » ، بتقنيتها التي تقوم على الرسم باللون المباشر ، بدلا عن الخطوط التقليدية ، فاعطت هذه اللوحة اسمها للمدرسة الانطباعية التي ارتبط اسمها (بمونيه) ، و (مانيه) ، فما هي الانطباعية ؟ ومن هما هذان الفنانان صاحبا الاسمين المتشابهين ؟

في مطلع شهر كانون الأول عام ١٩٨٦ أقيم في مدينة لندن مزاد فني دولي ، وصل فيه ثمن لوحة (الشارع) للفنان (ادوار مانيه) الفرنسي الى مبلغ سبعة ملايين جنيه استرليني ، وهي تمثل شارع (مونيه) في باريس ، أو شارع (برن) كما يسمى اليوم ، حيث كانت تطل على هذا الشارع نوافذ مرسم (مانيه) من جهة حي (القديس بطرس) ، وقد عمل (مانيه) لهذا الشارع خمس لوحات ، تخليدا لذكرى اقامته فيه . وتظهر في لوحته - الشارع - عربتان : ، عربة « حنطور » ، وعربة نقل أمتعة ، ومن على طرفي الشارع تظهر البيوت المزدانة بالأعلام الحمراء . وقد عني (مانيه) من خلال هذه اللوحة بالتعبير عن عميق مشاعره وأحاسيسه ، أكثر من عنايته بالألوان ، حيث بدت العربتان باللون البني الغامق ، وسط جو من ألوان فاتحة زاهية مشرقة . ويرى الناقد الفني

* كاتبة ومدرسة لغة فرنسية من القطر العربي السوري

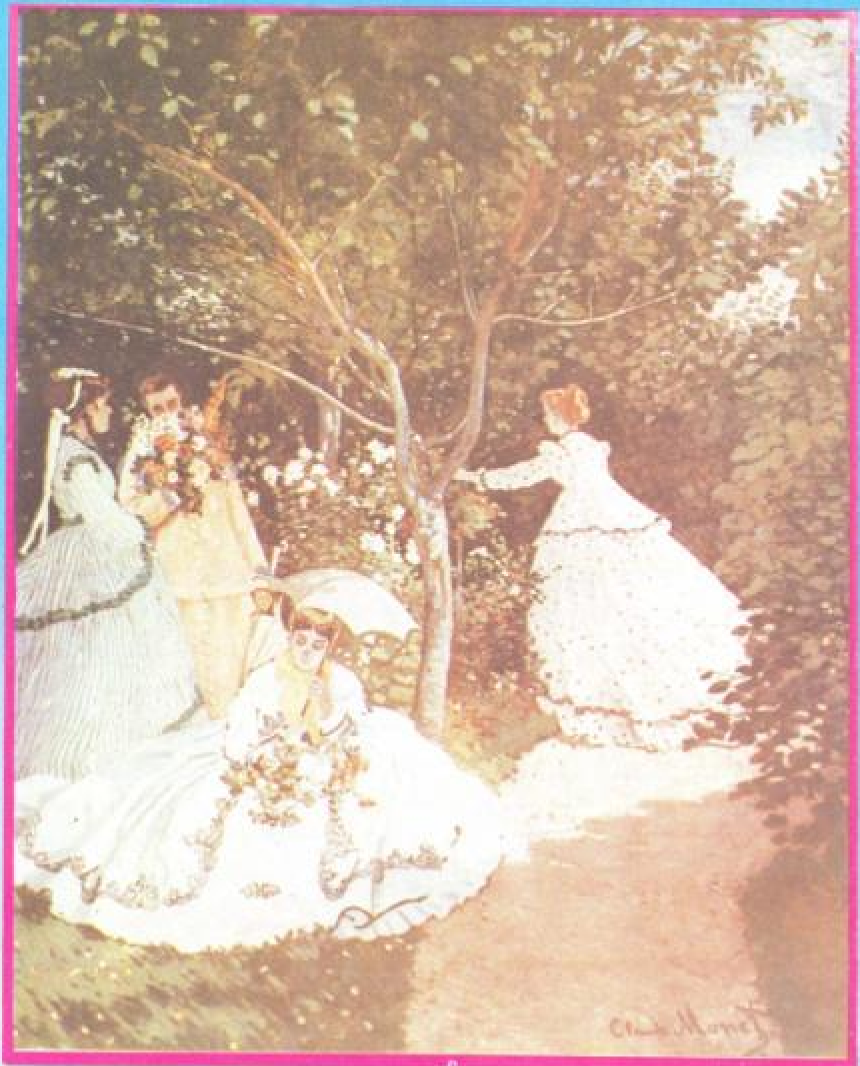

● نساء في الحديقة لكلود مونيه

(ريتشاردسن) أن هذه اللوحة تجسد الأجواء الباريسية التي حاول (مانيه) أن يجعلها أكثر قربا الى الطبيعة من (مونيه).

أما مخطط هذه اللوحة ودراسة معالمها فهو موجود في معهد الفنون في شيكاغو، في الولايات المتحدة الأمريكية.

امرأتان وقطة

قبل أكثر من مائة وعشرين عاما منذ تاريخ بيع لوحته ـ الشارع ـ الذي جرى في صالة كريستي اللندنية قدم (مانيه) في معرض عالمي عام ١٨٦٥ لوحته الشهيرة (أولمبيا) التي تمثل امرأة عارية، تمددت على سرير، وبجانبها امرأة زنجية، تقدم اليها باقة من الورد، وعلى طرف السرير قطة سوداء صغيرة. وقد منيت هذه اللوحة بفشل ذريع، وضج جمهور العصر بنقدها نقدا لاذعا شديدا، ولم يكن ذلك بسبب موضوعها الذي كان الفنان (انغري Ingres) قد تناوله من قبل بل بسبب تضارب الألوان، فمن أصفر فاتح بسبب الضوء الشديد الذي سلطه على المرأة الى لون قاتم يملأجو اللوحة، ولأن الفن في تلك اللوحة قد انحط الى درجة لايستحق معها تعليق، كما ذكر النقاد في ذلك الزمان.

لهذا لم يكن مستغربا أن تطلب لجنة التحكيم رفع اللوحة، وتعليقها في مكان مرتفع جدا، حتى لاتبصرها أعين الجمهور.

وقد حزن (مانيه) حزنا عظيما بسبب النتيجة التي آلت اليها لوحته (اولمبيا)، فكتب الى صديقه الشاعر (بودلير) يبثه همومه وأحزانه، فأجابه بودلير:

هل تعتقد بأنك أكثر ذكاء وعبقرية من (شاتوبريان)، أو (فاغنر)؟ لقد سخر الناس منهما كثيراً، الا أن ذلك لم يثبط من عزمهما على مواصلة الكفاح.

وقد شجعه هذا الكلام على المضي في الرسم، ومتابعة اقامة معارضه الخاصة.

وبعد أن توفي، طرحت لوحته (اولمبيا) في مزاد، ثم سحبتها السيدة (مانيه) لتهديها الى الحكومة الفرنسية في احتفال رسمي، بعد عام ١٨٩٠م، وفي عام ١٩٠٧ أمر (جورج كليمنصو) ـ رئيس وزراء فرنسا في ذلك الحين ـ بنقل لوحة (أولمبيا) من اللوكسانبورغ الى متحف اللوفر في باريس،لتعلق مقابل لوحة (الأوداليسك L'odalisque للفنان المخضرم (انغري Ingres).

و(مانيه) الذي سخر منه الناس بالأمس يتهافتون اليوم على شراء عمل واحد من أعماله بملايين الجنيهات. فمن هو (مانيه)؟ وما علاقته (بمونيه)؟

زيارة للوفر

لابد من زيارة مدينة باريس العريقة بالفنون، ولابد لكل من يزور تلك المدينة الجميلة أن يعرج على متحفها الشهير، متحف (اللوفر)، حيث يمضي ساعات طويلة، يتجول خلالها في ردهات المتحف وقاعاته الواسعة، حائرا تارة، ومعجبا مذهولا تارة أخرى فهنا روائع قدماء المصريين، وهناك نفائس الاغريق، وأمامه كنوز الأوروبيين، وكل واحدة منها تدهش بدقة قسماتها، وعظمة أحداثها، كأن الناظر اليها أمام وثائق تاريخية لاتدحض.

هذه لوحة لمعركة، وتلك لملك، أو قائد، أو رجل من أسرة عريقة، أو وجه لأحد وجهاء المجتمع، مواضيع مختلفة، وقصص متنوعة، وأحداث شيقة، تضع المشاهد في دوامة من السحر والخيال، تلك هي أعمال عصر النهضة ممثلة بأعمال (ليونارد دافنشي)، و(روفائيل) وعصر الفن (الكلاسيكي) الذي تلاه، فاتخذ من فناني عصر النهضة رواداً ومعلمين، حين دخلوا القصور،

ورسموا الملوك ، والمعارك ، والخيول المطهمة ، والثياب الفاخرة ، بدقة متناهية ، تضاهي دقة أفضل عدسات التصوير في عصرنا الحديث .

لكن عندما يصل المرء الى الطابق الثالث من ذلك المتحف ، في جانب من جوانبه ، يشعر أنه عاد الى نفسه ، الى واقعه ، وحياته ، فيعود من غربته التي شعر بها أمام اللوحات القديمة (الكلاسيكية) ، ليرى هنا الشجر ، وأوراق الخريف الذهبية ، والزورق العائم فوق مياه رقراقة ، فيتعرف على تلك القرية ، وهذه البحيرة . انها لوحات الفن الانطباعي ، بألوانها الزاهية ، وسمائها الصافية ، فاذا أجلنا النظر بين هاتين المدرستين ـ المدرسة (الكلاسيكية) والمدرسة الانطباعية ـ وجدنا الفرق شاسعا بينها ، فكيف حصل هذا التطور ؟ وكيف تم الانتقال بين المرحلتين ؟

مرحلة وسطى

كانت هناك مرحلة وسطى بين المدرسة (الكلاسيكية) والمدرسة الانطباعية ، كما أن هناك فنانين قد عاشوا تلك المرحلة ، واستقوا من كل من المدرستين ، فأثروا فيهما ، وتأثروا بهما ، ولعل من أهمهم (تيودور روسو) ، و (كاميل كورو) اللذين اتخذا من الطبيعة حول باريس مرسما لهما ، لما يحيط بها من غابات ، مغطاة بالضباب ، وبحيرات شفافة ، وأشجار ضخمة باسقة ، تلهم الفنان ، وتطلق لريشته العنان ، فتضج لوحته بالألوان ، والأنوار الظاهرة حينا ، والخفية أحيانا ، مما أسبغ على فنهم صفة الانطباعية ، كلوحة (ذكرى مورتفونتين) ، لكورو .

ويعتبر كورو (Corot) ١٧٩٦ ـ ١٨٧٥ ـ سلفا للانطباعيين ، ومبدعاً كبيراً في رسم الطبيعة ، لما في فنه من لمسات رقيقة ، تذكرنا بالشاعر الفرنسي الكبير صاحب قصيدة (البحيرة) لامارتين . وقد كان (كورو) مولعا بالرسم ، وبخاصة رسم البحيرات من خلال الضباب الذي يغطيها ، والأبخرة المتصاعدة منها مع نسائم الصباح ، وقد ظهرت المدرسة الانطباعية عام ١٨٦٠ ، أي منذ حوالي قرن وربع من الزمن ، واشهر من يمثلها خمسة ، من عمالقة الفن ، هم : (ادوار مانيه Manet) و (بيسارو Pissaro) ، و (سيسليه Sisley) ، و (مونيه Monet) ، و (بازيل Bazille) ، بالاضافة الى عدد من الفنانين الانطباعيين الآخرين ، من ذوي الأسلوب الخاص ، والاختصاص في موضوع معين ، مثل : (أوغست رونوار Renair) ، و (بول سيزان Cezanne) ، و (ادجار دوجا Degas) ، و (جوجان Gauguin) الخ .

أما بالنسبة لتاريخ المدرسة الانطباعية فيمكننا القول ان المؤرخين لم يتناولوا حكايتها بالتفصيل الا مؤخرا ، لأنها مازالت تحيا في نفوسنا واعماقنا ، ولذلك لم تصلنا أخبارها الا عن طريق الرواة الذين بينوا كيف كان أولئك الفنانون المغمورون يترددون على متحف (اللوفر) باستمرار ، من أجل عرض أعمالهم الفنية ، الا أنهم كثيرا ماكانوا يخذلون ، برفض لوحاتهم ، وقلما كانوا ينجحون في عرضها . وقد خصصت الدولة فيما بعد جناحا خاصا في متحف (اللوفر) يضم ثلاثمائة لوحة من أجمل لوحات الانطباعيين ، اختيرت منها مائة لوحة ، كي تكون مراجع ووثائق تاريخية للمدرسة الفنية الانطباعية ، ويعتبر (كلود مونيه) خير مثال لهؤلاء المبدعين .

ولادة مدرسة بلقاء رجلين

ولدت المدرسة الانطباعية بلقاء رجلين تشابه اسماهما الى درجة الالتباس ، وهما (ادوار مانيه ١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) ، و(كلود مونيه ١٨٤٠ ـ ١٩٢٦) اللذان ساهما بلقائهما الفني في ولادة الفن الحديث فيما بعد ، إلا أن جذورهما الاجتماعية كانت مختلفة تماما ، فالأول ـ مانيه ـ كان من أثرياء باريس ، وابن قاض كبير ، أما الثاني ـ مونيه ـ فقد نشأ فقيراً ، ولم

يرض حماية أحد من الأغنياء له كما فعل (مانيه) ، بل شق طريقه بنفسه ، واضعا النجاح نصب عينيه ، الى أن جاء وقت اعتبر فيه هو الزعيم الذي قاد المدرسة الانطباعية حتى النهاية .

وقد تحلى (مونيه) بالصدق والوضوح ، وكان يهوى الانطلاق في الطبيعة ، وفي الهواء الطلق على شواطىء البحر الذي استنشق أنسامه العليلة منذ طفولته ، وأشبع منها رئتيه ، كما أشبع نظره من منظر البحر الذي طالما جال فوق سطحه اللازوردي هائما وراء نداءه اللانهائي .

كان القاسم المشترك بين فناني المدرسة الانطباعية هو رسم وجه الانسان ، ورسم الطبيعة ، فمثلا عندما رسم (كوربيه Courpet) لوحة (الدفن في ارنان) لم يكن أسلوبه يختلف كثيرا عن أسلوب (دافيد) في لوحته (تتويج نابليون) .

أما (مانيه) فقد كان الرسم بالألوان عنده لايعني الانسجام التشكيلي ، ولا ابتكار شكل جديد غير مألوف ، بل يعني ابتكار أسلوب فني جديد ، خال من الآثار الرومانسية ، لأنه كان يجرد الرسم بجرأة استثنائية في كل لمسة أخلاقية أو فكرية ، مما جعل منه (رائدا) لعصر جديد ، ينسب اليه وهو (عصر مانيه) .

ان فن (مانيه) هو في الألوان ، وليس في الضوء ، كما هو الحال في فن (مونيه) ، فهو يحشر الوجوه حشرا ، وأحيانا يمزج الخطوط والأشكال بألوان تفقدها معالمها الأصلية ، وقد اعتكف في عام ١٨٦٣ في متحف (اللوفر) ، وكرس جهده لرسم روائعه الفنية الخالدة ، بينما ظل صاحبا (مونيه) وهما (رونوار) و (سيسليه) في غابة (فونتينبلو) لكي يرسما مناظرها الساحرة ، وكانت هذه الغابة قد استهوت في الماضي كبار الرسامين والفنانين أمثال (اودري) في عهد لويس الخامس عشر ، كما استهوت أيضا كثيرا من الفنانين في نهاية القرن الثامن عشر ، وأصبحت قبلة الرومانسيين بعد عام ١٨٣٠ ، مثل (تيودور روسو) ، و (دياز) ، و (مينيه) فيما بعد ، الى أن أصبحت أكاديمية للمناظر الطبيعية .

وبينما كان الأقدمون يجدون في هذه الغابة ظلالا وارفة وجد فيها (مونيه) منبعا للنور والضياء ، كما في لوحته الرائعة التي رسم فيها صديقته (كاميليا) في الهواء الطلق ، بثوبها الأخضر وقد سمى اللوحة (السيدة ذات المظلة) ، وكذلك لوحته (نزهة) التي تقدر مساحتها بثمانية وعشرين مترا مربعا ، والتي وهبها لصاحب النزل الذي كان يقيم فيه ، وذلك تعويضا عن اقامته لديه ، الا أن هذا الأخير طواها ، ورماها بين مهملاته ، فأصابها التلف ، ولم يبق منها الا القسم المركزي المعروض في متحف (اللوفر) ، وتعبر هذه اللوحة عن أبرز خصائص المدرسة الانطباعية ، وهو الرسم في الهواء الطلق ، والرسم بالألوان الزاهية

وكان (مانيه) قد ابتدع ـ من قبل ـ هذه الطريقة في بداية عهده بالرسم ، بلوحتيه ـ (أوليمبيا) و (غذاء على العشب) اللتين سببتا له فضيحة كبرى في المعرض الذي رفض (أوليمبيا) بسبب وجود امرأة عارية في الهواء الطلق ، وليس في مرسم كما كانت العادة أيام (الكلاسيكيين) ، ولم يكن (مانيه) يعلق أهمية كبرى على الموضوع بحد ذاته ، فقد طرقه غيره من قبل ، وكل ماكان يهمه هو أن يكون عصريا وصادقا في نقل الحقيقة ، أما اللون المسيطر على لوحة (غذاء فوق العشب) فهو اللون الأخضر و درجاته القاتمة والزاهية ، وقد جعل من الأوراق شيئا مناسبا لنفاذ ضوء خفي قادم من جميع الاتجاهات .

أما خلفية اللوحة فقد جعل منها (مانيه) في ألوان كالازرق الفاتح والأصفر والأحمر ولون الثوب الأبيض مايسبغ على اللوحة شفافية ضوئية ، تجعل منه رساما انطباعيا فريدا من نوعه .

فنانون وفنانة

أما أشهر الفنانين الذين ابتكروا عالما خاصا بهم فهم (رونوار) الذي افتتن بالصبا فراح يرسم الفتيات والنساء الصغيرات ، مبرزا براءتهن وملامحهن الطفولية ، كالوجنات الوردية ، والشفاه القرمزية ، واستدارة الذقن والأنف والأصابع الخ .

و (ادجار دوجا) الذي رفض أساليب أصدقائه وزملائه ودخل في عام ١٨٧٢ قاعة الرقص في (الاوبرا) كي يراقب حركات راقصات الباليه والأضواء الاصطناعية المتكسرة على أجسادهن وثيابهن الرقيقة ، وحركات أيديهن ، لينقلها الى لوحاته .

وكذلك (بول سيزان) الذي اتسمت رسومه بالبساطة ، بسبب نشأته الريفية ، والذي كان يصبو الى الكمال ، والى معرفة كل شيء ، وقد ابتكر أسلوبا في الرسم خاصا به ، ثم مالبث أن مال في نهاية حياته نحو الفن التكعيبي ، أي أنه أدخل الخطوط المستقيمة والهندسية في أعماله الفنية ، وهذا ما أثر فيها بعد في بيكاسو وماتيس .

وظهرت الفنانة (برت موريزو) التي دعت (مانيه) الى نبذ اللون القاتم في لوحاته . وهي وان لم تكن قد تتلمذت على يد أحد الا أنها كانت تقترب بفنها من أسلوب (رونوار) . وقد استلهمت لوحاتها التي تمثل الأمومة والطفولة من شقيقتها (ادما) التي رسمتها في لوحة رائعة ، تدعى (المهد) ، وهي موجودة الآن في متحف (اللوفر) بألوانها الرقيقة العذبة ، والحرير الرقراق حول طفل رضيع يرقد هانئا في مهده . وهكذا يمكننا القول بأن الفنان كان يرمي دائما ـ من خلال أعماله ـ الى أن يحيا عصره ، وأن تترك أعماله أثرا يدل عليه ، ويخلده .

لكن يبقى هناك سؤال مطروح بالحاح : ترى ماذا يمكن لنا أن نرى في هذه اللوحة أو تلك ؟ هل نرى فيها ذواتنا ، أم نرى عصرنا ؟ وهل هي للماضي ، أم للحاضر ، أم للمستقبل المجهول ؟ □

● زهور عباد الشمس للفنان فان جوخ في يناير ١٨٨٩

● طريق منحدر عن حانة دي بن لـ « ادوارد مانيه » . في ١٨٧٨

الحمار

قصــة الكـاتب الاستــرالي : آلان مارشال
ترجمة : حسن يوسف *

كان الحمار مجرد حمار عادي رث وذاهل ، يقف مطأطئا رأسه وعيناه نصف مغمضتين أمام مدخل خيمة السيرك التي نصبت على البقعة الخضراء الوحيدة المتبقية حول المدينة الكبيرة .

كان ذلك هو أول سيرك تراه المدينة منذ سنة . ولهذا ازدحمت الطرقات المفضية الى تلك البقعة الخالية بصفوف من السيارات التي تتحرك وتقف ثم تتحرك من جديد .

الناس يتحركون بعجالة ، يعبرون ممرات المشاة ، ويجتازون الحواجز الحجرية الممتدة على جانبي الطريق . انهم يتحركون على شكل جماعات وصفوف تلتقي وتتعرج لتصب في البقعة التي تتقدم عبرها حشود من الناس يسيرون برؤوس مرفوعة ليروا ما أمامهم من فوق أكتاف بعضهم بعضا .

تحت هذه الطبقة من الوجوه المرفوعة المترفعة ، نزولا الى حيث الأيدي الكبيرة تمسك بأيد صغيرة ، ثمة وجوه أخرى مندهشة وملطخة « بالبوظة » ، تتحرك عبر غابة من السيقان ، ماضية معها الى حيث تتقدم . كان الأولاد والبنات ـ أصحاب تلك الوجوه ـ عاجزين ، في هذا العالم من « البنطلونات » والجوارب الحريرية ، عن رؤية خيمة السيرك ، ناهيك عن الفيلة التي كانت تتحرك طليقة قرب العربات المطلية : كان على واحدهم أن ينتظر الى أن تمتد اليه يدان قويتان لترفعاه فوق رؤوس الناس .

وهاهوذا ، مقابلهم تماما ، يقف الحمار الأعجوبة وسط الممر الذي يفضي الى خيمة السيرك .

كانت الخيمة كبيرة للغاية . فالملصقات الزاهية التي تستوقف الناس منذ أسابيع ، أمام جدران القرميد القذرة في الشوارع الخلفية والأزقة ، تقول انها أكبر خيمة في العالم كله ، وانها تتسع لأربعة آلاف انسان دفعة واحدة .

كان الحمار مربوطا الى وتد بحبل بال في منتصف طريق العابرين بعجلة نحو صفوف المقاعد التي ترتفع متدرجة حول الحلقة المضاءة . ولهذا كان لابد لهم جميعا من المرور به بعد شراء البطاقات . وبما أنه تقام كل يوم سبت ثلاثة عروض فهذا يعني أن اثنى عشر ألف انسان قد مروا بذلك الحمار خلال يوم واحد . ولاشك في أن ثلاثة أرباعهم على الأقل ربتوا على الحمار أو لمسوه أثناء مرورهم . أي أن تسعة آلاف يد قد قرعت الحمار في مكان ما من جسده في بحر ذلك النهار . ولسوف يكون صعبا أن تحسب

* كاتب ومترجم من القطر العربي السوري .

عدد الضربات الرقيقة التي تلقاها خلال أسبوع .

كانت التربيتات تأخذ أشكالا مختلفة . بعضها كان نوعا من اظهار الفوقية وبعضها كان علائم احتياج خائف . بعضها كان يدل على حب النفس ، وبعضها كان يدل على محبة للحمير . بعضها كان مجرد تياه مبتذل يقوم به الآباء بقصد التأثير على أولادهم ، وبعض آخر منها كان تربيتات رقيقة تحولها المخيلة الى تجارب سحرية .

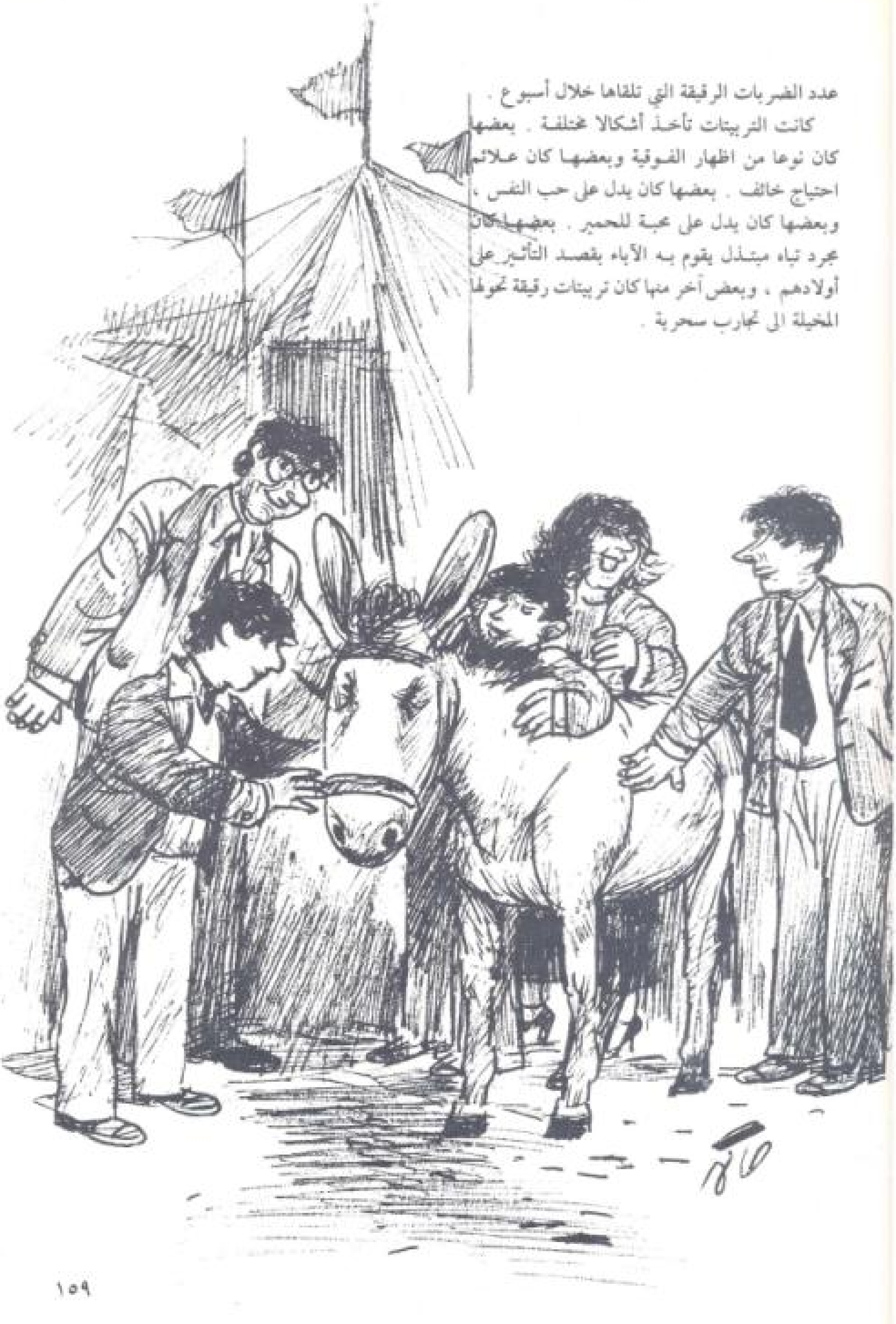

الأم التي يجرها ابنها الصغير المهتاج تقف بينها ابنها يحرك يده المرتعشة برفق على كتف الحمار . والأولاد الصغار الذين يرفعهم آباؤهم بافتخار ينحنون ليحكوا ظهر الحمار أو رأسه بأصابعهم القصيرة السمينة ، أو ليشدوه من أذنيه .

أما الأولاد الذين لايرافقهم من يكبح جماحهم فيستعرضون شجاعتهم المرتجلة لتوها بالاتكاء على الحمار أو فرك أنفه وهم ينظرون حولهم طلبا للتشجيع .

بعض الناس اللطفاء يحاولون ، أحيانا ، ادخال حبات الفستق والحلوى بالقوة بين شفتي الحمار ، الا أن ذلك كان صعبا نظرا لأنه كان يطبق أسنانه باحكام ، ويهز رأسه عندما يشعر بأيديهم في فمه .

كل عشر دقائق يصل رجل ممن يفهمون الحمير ، ويقول بلهجة غير متكلفة : « آه ، حور ! »
مما يجعل المربتين يسحبون أيديهم وينظرون اليه . عندئذ يقوم الرجل الذي يفهم الحمير بتمرير ذراعه حول رقبة الحمار ، ويخاطبه بلهجة تضعه في مكانة المسؤول : « اذن الى هنا آلت أمورك ياصاحبي العجوز ، إيه ! لامزيد من العمل الشاق لك حسنا ، هكذا هي الأحوال اذن » .

ثم يغير الرجل لهجته ، ويوضح للناس الذين يستمعون اليه :
« في الشرق يحمل الحمار أكثر من وزنه .. فهو كما تعلمون من حيوانات حمل الأثقال » . فيتمتم الناس علامة على الفهم ، ويعطون الحمار تربيتة أخيرة ، دليلا على تعاطفهم ، قبل أن يدخلوا ويتركوه .

كان الحمار يقبل اهتمام ذلك الحشد من البشر بخضوع ، مما جعله يوطن نفسه على حياة من التربيت . صحيح أنه كان يشعر بارهاصات التمرد في داخله ، أحيانا ، الا أنه لم يكن يظهر ذلك قط . كان يقف على ثلاث أرجل مدليا إحدى فخذيه ، وشعره الأشعث قد ازداد تشوشا بسبب الأيدي التي فشلت في انتزاعه من الحلم الذي كان تائها فيه .

في آخر أيام السيرك تقدم ، بثقة ، عبر المدخل ، رجل جريء ، يرتدي بذلة زرقاء ضيقة . توقف أمام الحمار ، ملقيا عليه نظرة نقدية شاملة ، ثم عض على شفته ، هازا رأسه ، وتراجع بضع خطوات كي يتمكن من النظر الى الحمار من الخلف ، ثم استدار الى الجهة الأخرى ليتفحصه من هناك . أخيرا أنهى دورانه حول الحمار بالتأمل في رأسه لوقت طويل .

وبعد أن عرف كل مايريد معرفته عن هذا الحمار استدار ليكمل طريقه ، وهو يهوي بيده الثقيلة ، في الوقت نفسه ، على ظهر الحيوان . وكانت تلك هي التربيتة رقم ثمانية آلاف في ذلك اليوم .

كان الحمار تائها ، على مايبدو ، الا أن ثقل يد الرجل على ظهره أثر به كما لو أنه اشارة طال انتظاره لها . فرفع رأسه الثقيل بحركة سريعة ، ثم استدار وأطبق فكه على ذراع الرجل بأسنان انطبقت كمصيدة الأرانب .

انطبقت أسنان الحمار على كم معطف الرجل ، فانتزعت منها مزقة من القماش الأزرق ظلت بارزة من فم الحمار ، الذي أدار رأسه جانبا ، مواصلا أحلامه .

ذهل الرجل ، وترنح متراجعا نحو الناس بعينين جاحظتين وفم مفتوح . أمسك ذراعه بيده الأخرى ، ونظر الى الناس ليؤكدوا له ذلك الشيء المذهل الذي جرى له . ثم تعجب بلهجة مرعوبة :

« عضني ! »

وأضاف وهو ينظر الى الحمار كما لو أنه لايصدق عينيه :

« ياله من بهيم شرير ! » .

توقف المارة جميعا لينظروا الى الرجل والحمار الذي ما يزال يحمل قطعة القماش في فمه . هزوا رؤوسهم موافقين على كلمات الرجل . أجل ، هذا الحمار بهيم شرير ! فقد عض الرجل الجريء في ذراعه رغم أنه لم يرد سوى أن يربت عليه . ياله من مخلوق عاق شرير !

مرت خمس دقائق ، بعد ذلك لم يقم خلالها أحد بالتربيت على الحمار . لابد أن تلك هي أول مرة يذوق فيها السلام منذ سنوات . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

نشاط الطفل التمثيلي

كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم؟

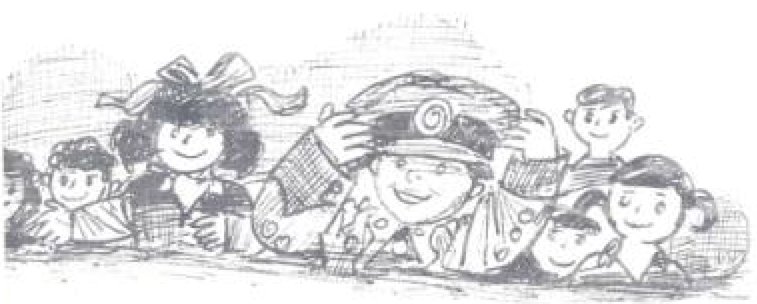

نشاط الطفل التمثيلي

اعداد : محمد بسام ملص*

كانت رائدة نشاط الطفل التمثيلي ومسرح الأطفال تراقب بعض الفتيان وهم يؤدون مشهدا تمثيليا من خيالهم . المكان الذي وقف فيه الفتيان كان مجرد ممشى عادي ، إلا أن خيالهم الخصب قد حوله إلى غابة خضراء ، انتشر فيها الفتيان في مغامرة فما أهمية النشاط التمثيلي للطفل ، وما قيمته في التربية ؟

لا يختلف اثنان في أن اللعب بالنسبة للطفل هو الحياة نفسها . ولا بد للأم والمهتمين بتربية الطفل أن يعتنوا به في مجال هذا النشاط ، لينشأ طفلا سليما قويا قادرا على مواجهة التحديات ، فهو أمل هذه الأمة ومستقبلها .

لا يبالغ علماء النفس عندما يؤكدون على حقيقة أن الطفل ينمو ويتعلم باللعب . يقول بيتر سليد ، أحد رواد النشاط التمثيلي في بريطانيا : إن لعب الطفل هو طريقته في التفكير والتجربة والاسترخاء والعمل والتذكر والاقدام والابداع والانهماك . وجانب من جوانب لعب الطفل هو النشاط التمثيلي الذي يسمى « دراما الطفل » . يلاحظ المهتم بسلوك الطفل ظهور لحظات تشخيص يؤدي فيها الطفل دور الأب أو الطبيب أو عامل التنظيفات ، وهذه تبرز في سنوات الطفل الأولى التي غالباً ما تسمى بمرحلة ما قبل المدرسة . وقد تلاحظ الأم - مثلا - أن ابنتها

* كاتب من القطر الأردني ، صدر له كتاب عن ثقافة الطفل سنة ١٩٨٦م .

الصغيرة تعامل دميتها بعنف ، لأنها رفضت أن تشرب الحليب .

الارتجال . . . والمسرح

ويوضح بعض المختصين بأن هذا النشاط ماهو إلا نشاط تمثيلي غير رسمي ويكون من أجل متعة من يمارسونه وفائدتهم .

لا بد من توضيح نقطة ذات أساس في هذا النشاط ، وهي أن المهتمين بتربية الطفل مطالبون أن يميزوا بين نشاط الطفل التمثيلي وبين مسرح الأطفال . تبين آن فيولا - إحدى المتخصصات في هذا المجال - بأن مسرح الأطفال يعني مسرحية يكتبها أو يعدها مؤلف وفقا خصائص معينة ، يقدمها ممثلون - كبار أو صغار - للأطفال ، وتستخدم المناظر والملابس والموسيقا وغيرها من لوازم المسرح الضرورية ، أما في النشاط التمثيلي فإن الطفل يقدم مواقف ومشاهد « مرتجلة » ، مع التركيز على أن أحد أهم أهداف هذا النشاط هو التطور الشخصي للطفل ، وليس تسلية جمهور الأطفال وإرضاءهم .

من هذا المنطلق الأساسي يظهر النشاط التمثيلي فنا قائما بذاته ، فهو ليس نشاطا اخترعه شخص ، وإنما هو السلوك الحقيقي للانسان .

دور البيت

يسهم البيت مساهمة غنية في النشاط التمثيلي وينميه ، ومن ذلك أن يهتم البيت بالأصوات ، فالأصوات المختلفة الصادرة عن ألعاب وأدوات تشد الطفل ، وبخاصة في السنتين الأوليين . أهم ما يراعيه البيت في مجال الأصوات إدخال كلمات حقيقية ، وإعادتها أكثر من مرة على سمع الطفل الذي سيستخدمها فيما بعد ، فإن هذه التجربة الصوتية تبني لديه أساسا متينا للغة .

يتعرض الطفل إلى مشاكل عديدة ، وبخاصة داخل بيته ، فقد تولّد هذه المشاكل عنده توترا وصراعا ، وتترك في نفسه مخاوف عديدة ، وإذا ما بقيت هذه داخله دون أن نجد لها أي متنفس ، فإنها لا شك تؤثر على تكوينه العاطفي والنفسي ، بل إنها تؤثر على مسار حياته . هكذا يبرز النشاط التمثيلي كمحاولة لتفريغ الشحنات السلبية داخل الطفل .

وقد تلاحظ الأم ظهور العنف أثناء هذا النشاط ، فقد يؤدي الطفل دور لص أو رئيس عصابة ، وهذا يجب ألا يقلقها أبدا . لأن محاولات كهذه تتيح للطفل أن يعبّر عما في داخله من أمور غير شرعية بطريقة مشروعة ، إنه يلعب ويمارس النشاط التمثيلي . ويذكرنا هذا الأمر بمصطلح « النشاط التمثيلي العلاجي » ، الذي يطلق على نشاط يحاول أن يمنع الكثير من الأمراض النفسية ، فهو يتيح للطاقات الكامنة والتوتر والصراع والنوايا الشريرة أن تخرج بطريقة طبيعية .

يشارك الطفل الأطفال الآخرين في هذا اللعب ، وإن تشجيع الأم لطفلها على أن يلعب مع الآخرين يعلمه أن يكون متسامحا ، وسيساعد في نضجه اجتماعيا وعاطفيا .

يحذّر بيتر سليد في كتابه « مقدمة لتمثيليات الأطفال » الأسرة من أن تتفاخر أمام الآخرين بنشاط طفلها ، لأن ما يقوم به الطفل ليس استعراضا أو عرضا مسرحيا ، وإنما هو نشاط يمثل جزءاً لا يتجزأ من حياة الطفل .

في المدرسة

وحين يدخل الطفل المدرسة فإنه يتابع ممارسته لهذا النشاط ، ويبرز هنا دور المشرف والمشرفة في توجيه هذا النشاط ، لكن ليس بإدارته من خلال تعليمات صارمة . ولأن الأطفال يحبون الأصوات يمكن للمشرف أن يُسمعهم بعض الأصوات ، ويطلب منهم أن يتخيلوا مواقف مختلفة ، لكنه لا يقترح عليهم أي موقف ، إلا في حالات نادرة جدا ، بل ينتظر اقتراحاتهم ، ويقبلها برحابة صدر ، فالمهم أن يترك المشرف الأطفال يقدمون اقتراحاتهم تمثيلا دون أن يتدخل في كيفية التقديم . لأن تدخله يعني تقييد إبداعهم .

يتيح المشرف الفرصة للأطفال ليقدموا اقتراحاتهم حول قصص يحبون أن يؤدوها ، ومع نمو الأطفال يراعي المشرف أن تكون القصة بتشخيص أكثر وضوحا ، مع زيادة عدد الشخصيات ، ويهتم المشرف أيضا بارتجال الحوار ، لأن هذا من شأنه أن يسهم مساهمة مؤثرة في تطور اللغة عند الأطفال ، كما حرص المشرف أشد الحرص أن تكون اللغة هي اللغة الفصحى ، وقد يخلط الأطفال بين الفصحى والعامية ، وهذا أمر يتقبله المشرف .

وعندما يصبح الأطفال في سن الثامنة أو التاسعة يشجعهم المشرف على أداء المشاهد الطويلة ، ويهتم بالتقليل من إعطاء التعليمات ، ولا يفاجأ المشرف وهو يرى الأطفال يشاركون في تكوين أحداث القصة ، وفي إضافة أحداث ، كما أنهم يقترحون كيفية تقديم المناظر . فعلى المشرف هنا أن ينمي عند الأطفال حرية التفكير والتعبير عن الرأي ، وإذا ما لاحظ أن الأطفال لم يحسنوا التصرف في موقف ، فإن عليه أن يشعرهم أنه يمكن جعل الموقف أكثر اهتماما وإثارة .

وقد يغلب الخجل على الأداء الأول للأطفال ، إلا أن الكلمات التشجيعية التي من شأنها أن تعزز ثقة الأطفال بأنفسهم وبما يؤدونه في النشاط التمثيلي تعني أن المشرف سيحصل على محاولة ثانية ، قد تكون مدهشة . وربما يضيفون أبعاداً جديدة اليها .

وفي السن من ٩ إلى ١١ يبدأ اهتمام الأطفال بالأدب وهنا يمكن للمشرف أن يستفيد من الأساطير والخرافات . وتنمو القصة بتشخيص أكثر تعقيدا ومواقف أكثر عمقا عندما تعكس النمو الفكري والعاطفي والنفسي للأطفال . ومن الأفضل عدم الاعتماد على نص مكتوب في هذه المرحلة . والأفضل أن يشجع المشرف الأطفال على كتابة القصة التي يريدون تأديتها في النشاط التمثيلي ، ولا يدهش وهو يرى في النصوص عبارات مباشرة قد صيغت على شكل حوار .

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلة الانتقال من الارتجال إلى استخدام النص ، وهنا يُشجع الأطفال (من سن ١١ ـ ١٥) على أن يكتبوا النصوص ويختاروا الحوار المباشر والحبكة ، والمهم ألا يفرض المشرف عليهم أي نص أدبي قد يراه جيدا ، فهذا الأمر لا يتم إلا تدريجيا ، إذ أن الهدف هو تقديم المسرحية البسيطة التي تتسم بالتشخيص القوي .

وإذا لاحظ المشرف الارتباك عند الأطفال وهم يقدمون النص ، فإن عليه أن يطلب منهم أن يتركوا النص ويرتجلوا الموقف كما يبدو لهم ، فهذا يتيح لهم فرصة الابداع ، وبعد ذلك يمكن استخدام النص بكفاءة .

في مجال التربية والتعليم

لا تقتصر الاستفادة من هذا النشاط على هذا الجانب المتصل بنمو الطفل جسميا وعقليا ولغويا واجتماعيا ، بل تمتد إلى مجال التربية والتعليم ، وبخاصة ما يتعلق بتدريس الموضوعات . يعرف المعلم الذي يمارس تلاميذه الأطفال النشاط التمثيلي خلال الحصة المدرسية أن الموضوع التعليمي يأخذ

بعدا جديدا . فالطفل يؤدي المادة التعليمية أداء تمثيليا ، ويقترب من المادة بطريقة تختلف تماما عن تعامل المعلم مع المادة نفسها بالأسلوب التقليدي الذي يعتمد على الالقاء والتلقين . إن الطفل يتفاعل مع الموضوع . وفي حالات كثيرة قد تكون الكلمة المطبوعة جافة ، أو قد يصعب على الطفل تقبلها ، وخاصة إذا كانت تحمل فكرة مجردة وليست ملموسة ، فتأتي الحركة في النشاط التمثيلي لتمنح الكلمة معنى أقوى وتأكيدا ورسوخا أكثر . فالطفل هنا يواجه الموضوع مواجهة مباشرة .

يذكر ماكجريجور لين في كتابه « التطوير في التعليم التمثيلي » هذه الحادثة ، وهي استعمال نموذج واقعي لاستخدام النشاط التمثيلي من أجل ترسيخ الوعي الاجتماعي ، فقد رأت معلمة أن تتعرف الفتيات إلى موضوع التعدين ، وما يحيط به من مشاكل تخص العاملين فيه عن طريق هذا النشاط . في البداية بينت المعلمة الموضوع للفتيات بعدة وسائل ، منها التمهيد للموضوع بتقديم فكرة عن إضراب عمال المناجم في بريطانيا عام ١٩٧٢ ، والاستفادة من عدة كتب تظهر صور الفقر والأمراض التي تعكس ظروف الأطفال والنساء العاملين في المناجم ، وعرض عدة مراجع جغرافية علمية توضح مواقع المناجم وكيفية تكوين الفحم ، والاستعانة بقصاصات الصحف والأشرطة السينمائية المتوافرة حول الموضوع نفسه .

بعد أن ناقشت المعلمة مع الفتيات حياة العمال في المناجم تركتهن لتأدية مشهد تمثيلي ، ظهر فيه الاهتمام والانسجام وروح التعاون والاقتراحات العديدة .

يبين هذا المثال طريقة المعلمة الناجحة في إضفاء الحيوية والحركة على تلقي الطلاب للمادة عن طريق التعلم والتعليم معا ، كما يظهر أهمية النشاط التمثيلي في تشجيع الطلاب على متابعة الموضوعات الدراسية بحماسة وجدية .

هذا ويمكن القول بأن المجال التربوي بمفهومه الواسع في وطننا العربي ما زال بحاجة ملحة إلى النشاط التمثيلي ، ليحقق الأهداف التربوية المرجوة . □

ميكي ماوس فرعوني !

● يقول العلامة الأثري البلجيكي جان كابار : إن المصريين القدماء مع تمسكهم بالرسوم الدينية وتعلقهم بالشعائر المقدسة كانوا يمزجون فنونهم الرصينة ونقوشهم المقدسة بالفكاهة . فقد اتخذوا الحيوانات رموزا لتمثيل الأفكار الفكاهية والسخرية الانسانية ، على نحو ما يبدو في الأفلام التي اتخذ أبطالها من الحيوانات ، وهي المعروفة بأفلام « ميكي ماوس » . ففي متحف بروكسل الملكي صورة للملكة الفرعونية « ماكيت » ، ترى فيها وهي تتناول طعامها ، وأمامها قطة تقوم بخدمتها ، كما يوجد في متحف توربنو لوحة من ورق البردي ، صورت عليها جوقة موسيقية من عدة حيوانات ، حمار بيده معزف ، وأسد ينفخ في مزمار ، وتمساح بيده قيثارة ، وقرد يقود الفرقة بحركاته . وهذه الصورة تمثل شريطا من نوع أشرطة « ميكي ماوس » المعروفة في السينما الآن .

كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم ؟

بقلم : الدكتور عبد الكريم أبو شويرب

يتخلف كل سنة - لأسباب عديدة - مجموعة من الطلبة عن زملائهم في الدراسة ، ونسبة كبيرة من هؤلاء مصابون بصعوبة التعلم ، وهذا يعني مجرد بطء في تطور القدرة فما هي أسباب هذا التخلف ؟ وهل في الأمر ظاهرة مرضية ؟

يقدر عدد الأطفال المصابين بصعوبة التعلم بحوالي ١٠٪ من بين كل الطلبة في أي مدرسة ، وهم ربما لا يشكون من أي مرض عضوي أو عقلي ، وإذا لم يتم تشخيصهم وعلاجهم مبكرا فقد يتسبب الإهمال في رسوبهم وتعرضهم لبعض الأمراض النفسية ، لذا تقع المسئولية على المعلم والطبيب في التعرف على هذه الحالات ، وتقديم العلاج اللازم في وقت مبكر مناسب .

تعلم الأطفال أمر تدريجي ، يحد . عمر الطفل ونوع المادة التي سيتعلمها ، وهو مثل بقية خطوات نمو الطفل ، يتراوح بين المبكر والعادي والمتأخر ، وقد يبكر طفل في مجال الحركة ، ويتأخر في مجال الكلام ، ولكل مجال معدل ، إذا تأخر عنه الطفل عد متخلفا ، ولكل أسباب وعوامل معينة .

ويحتل السلم الدراسي مراحل دراسية ، وحواجز على الطالب أن يجتازها ، ليبدأ المرحلة التي تليها ، وفي كل مرحلة يكتسب الجديد من المعلومات والخبرات التي تضاف إلى حصيلته السابقة ، فضلا

عما يصل له عقله وجسمه من تطور وتبدل مستمر عضوي ووظيفي ، إلى أن يصل إلى مرحلة الاكتمال .

التحدي الكبير

وخلال هذه المراحل يتعرض الطالب لشتى التفاعلات مع زملائه ومع معلميه من جهة ، ومع المنزل والمجتمع من جهة أخرى ، ويكتشف أن عليه أن يبذل جهدا أكثر ، ويفكر وقتا أطول ويبدع إبداعاً أحسن ، لينافس زملاءه ، ويسبقهم لكي يستمر في هذا السلم الدراسي ، ويصاب الطالب بفترات من السعادة ، وإطراء من الرضا ، وغيرها من خيبة الأمل في أداء بعض الواجبات والامتحانات ، أو حتى خلال احتكاكه اليومي وتعامله مع زملائه .

وبينما يتوالى صعود الطالب على هذا السلم يجد بعضهم أنهم غير قادرين على المتابعة أو اللحاق بالأغلبية في الفصل ، أو أنهم يتأخرون أكثر في كل مرحلة ، وعليهم بذل جهد أكثر ، وأنهم يستوعبون بصعوبة ، ويدركون النتائج والفرضيات في وقت يكون فيه رفاقهم قد اجتازوا إلى نظريات وفرضيات أصعب وأعقد ، وهكذا يتراكم هذا التخلف سنة بعد سنة ، ونتيجة لذلك :

١ ـ إما أن يكمل الطالب دراسته بشكل ضعيف .

٢ ـ وإما أن يحاول تغيير الفصل أو المدرسة أو نوع الدراسة .

٣ ـ أو ينقطع عن الدراسة ويتجه نحو الأعمال اليدوية .

وفي كل الحالات الثلاث تتولد لدى الطالب دوافع نفسية سلبية تجاه زملائه ومجتمعه ، قد تظهر في مراحل المراهقة ، كانحراف أو نوع من أنواع الجنوح أو العنف ، مما يجعل المجتمع ينظر له نظرة خاصة مريبة .

ومن الثابت أن ذكاء هؤلاء الطلبة هو في المعدل بالنسبة لأعمارهم ، وأنه من الممكن أن تكتشف هذه الحالات مبكرا ، ويقدم لها العلاج المناسب ، ليلحقوا بزملائهم ويتابعوا دراستهم .

وفي الولايات المتحدة يتخرج ٧٦٪ فقط من طلبة المدارس الابتدائية ، ومن هؤلاء يداوم ٤٤٪ فقط في المعاهد والثانويات ، ويتخرج منهم ٢١٪ فقط ، ويدخل ٦٪ الجامعات ، ويحصل على درجة الدكتوراة ١٪ فقط من هؤلاء .

ولسنا بصدد أين يذهب الطلبة أو لم يرسبون ، لكن يهمنا معرفة كم من هؤلاء المتخلفين مصابون بصعوبة التعلم ، وكم منهم كان يمكن تشخيصه وإنقاذه ومد يد المساعدة له .

أسباب صعوبة التعلم :

هناك عوامل جانبية بدهية تسهم في صعوبة التعلم لدى الطالب ، ومنها الفصل المكتظ بالطلبة ، والمقاعد الخلفية ، وتوقيت الحصة ، وشخصية المعلم ، وغيرها . وما نود أن نناقشه هنا هو سبب فروق الاستيعاب بين الطلبة مع تكافؤ الظروف المحيطة وتساوي درجة الذكاء والعمر وسلامة الجسم .

مستويات الذكاء :

تختلف مستويات الذكاء من طفل لآخر ، وفي كل مجموعة نجد الفوارق الفردية واضحة ، وتمثل نسبة توزيع الذكاء بين الطلبة على شكل هرم ، أوله قليل من الأطفال النجباء ذوي المستوى العالي من الذكاء ، وتمثل قمة الهرم الأغلبية والمعدل العادي للأطفال في نفس العمر، وآخر المنحنى يمثل القلة بطيئي الفهم ، وأخيرا المتخلفين بصورة واضحة .

الأمراض الجسدية والنفسية :

ولهذه أيضا أثر كبير على درجة استيعاب الطفل لدروسه ، أو من المعلوم أن الأطفال ذوي الأمراض

المزمنة كأمراض القلب أو الرئة نتيجة لكثرة تغيبهم لا يستطيعون متابعة الدروس واللحاق بزملائهم ، إلا إذا كانوا منتظمين في مدارس خاصة لهذا الغرض تراعي ظروفهم وتعوض أيام غيابهم .

شخصية الطفل :

يميل بعض الأطفال بطبعهم إلى بعض الدروس ، أو الهوايات ، ويأنفون من أخرى ، لذا لا ريب أن تجدهم متفوقين في مادة أو درس ، ومتخلفين في أخرى ،ولا يعني ذلك تخلفا عقليا أو ضعفا في الذاكرة .

ضعف بعض الحواس :

تشترك كل الحواس خلال فترات التركيز والاستيعاب كي توصل المعلومات نقية سهلة ، بما في ذلك النظر والسمع والنطق ، لكن في بعض الحالات التي تكون فيها هذه الحواس سليمة فإن الطفل يصاب بصعوبة التعلم ، نظرا لضعف سماع بعض الموجات الصوتية ، أو لصعوبة نطق بعض الحروف ، أو عدم إحساس ببعض الألوان أو الأضواء .

أسباب تعود للمدرسة :

بالإضافة لمكان الطفل في الفصل ومعاملة زملائه له فإن درجة التفاعل مع المعلم وشخصيته وطريقة التدريس لها أثر في توصيل المعلومات إلى الطفل وانطباعها في ذاكرته .

وكثيرا ما يتهم المعلم نفسه بالفشل ، لكن سرعان ما يدرك فيما بعد أن الأمر يتعدى موضوع الفروق الفردية في المستوى ، وأن عليه تحويل الطفل لأخصائي والاستعانة برأيه ، سواء طبيب الأطفال أو الطبيب النفسي أو غيرهما .

وطبعا قد يؤدي الى تخلف طفل عن الدراسة إذا حاول المعلم تحقيره أو إهانته أو عقابه ، أو قد يهمل المعلم الطفل لسبب أو لآخر ، مما يجعل الطفل معزولا منبوذا بين زملائه .

على أي حال فالمعلم هو المحور الذي يدور حوله كثير ممن لهم علاقة بهذه المشكلة ، وتقع المسئولية على المعلم للتعرف على هذه الحالة ، وتحويلها ، ومتابعة علاجها ، وعليه يعتمد مستقبل الطفل وشفاؤه أو تغيير دراسته ، وذلك من خلال ملاحظة المعلم المستمرة ، وهو الذي سيقيم ذكاء الطفل ، وحركاته ، ودرجة فهمه ، ومدى الفرق بينه وبين زملائه .

ومع تتابع السنة الدراسية يشعر الطفل أنه يختلف عن زملائه في ادراك بعض الدروس وفهمها ، وهذا يدفعه الى اختيار المقاعد الخلفية بعيدا عن مواجهة المعلم وأسئلته ، ولكي لا يتعرض لسخرية زملائه اذا أجاب خطأ ، فضلا عن أن موضعه هذا يحميه من تعنيف المعلم اذا أهمل الطالب اتمام واجباته المنزلية .

المنزل :

للمنزل دور مهم في تعليم الطفل لغته وأدبه وتراثه وتنمية معلوماته وشحذ ذكائه وقواه العقلية ، وللأبوين أكبر الأثر في توجيه الطفل وتعليمه ومتابعة واجباته المنزلية ، والتأكد من أنه يفهمها ويتمها بشكل مرض ، ولابد من أن نشير الى درجة ثقافة الأبوين ، ووجود المواد التثقيفية بالمنزل ، من قصص وكتب وصور ولعب ، بما يتناسب وسنه ، ولكل ذلك أكبر الأثر لدفع الطفل للاستفادة بما حوله ، وتنمية ملكاته وهواياته الخاصة .

الأعراض والظواهر العامة :

لا يصعب الأمر على المعلم المهتم بتخصصه الذي يلاحظ الطالب يوميا عن قرب ويقيم سلوكه وانتاجه مقارنة بزملائه ، وللمعلم أيضا طرقه الخاصة للتعرف على هذه الحالات أو اكتشافها ، وبالتالي إحالتها للاستشارة ، ومما يثير انتباه المعلم الى صعوبة التعليم لدى أحد الطلبة واحد من الأعراض التالية :

ـ يمسك الطالب القلم بطريقة غريبة بين الأصابع .

ـ سوء الخط وميل الأسطر الى أعلى أو أسفل .

- كبر الكلمات واتساع المسافة بينها .
- صعوبة في تنظيم واجباته المدرسية وإتمامها .
- صعوبة الحفظ وضعف الذاكرة .
- صعوبة التعامل مع الأرقام والعمليات العددية .
- تقديم وتأخير في بعض الحروف داخل الكلمة .
- بطء في القراءة والتهجي والانشاء .

أما التغيرات التي يلاحظها المعلم على سلوك الطالب فتشمل :

- شرود الذهن أثناء الشرح (أحلام اليقظة) .
- السلوك غير الطبيعي في معاملة المعلم أو زملائه في الفصل .
- قصر فترة التركيز والاصغاء .
- زيادة الحركة دون لزوم أو هدف معين .
- سريع التوتر والتهيج لأبسط الأسباب .
- مشاغب ومثير للنزاع في البيت والمدرسة .
- يصغي لكنه لا يسمع ما يقال له .
- يظهر عليه القلق والضجر خلال فترات الانتظار .

دور المعلم :

مما سبق يتضح أن للمعلم دوراً فعالا ومهما في تشخيص حالات صعوبة التعلم لدى الطلبة بخاصة في الفصول الدراسية الأولية ، وكلما كان المعلم على صلة مباشرة مع الطفل (معلم واحد لكل المواد الدراسية) ومتتبعا تطوره يوما بيوم ، أمكن تشخيص الحالة بشكل مبكر وتقديم العلاج في وقت مناسب .

وبعد أن يشتبه المعلم في حالة ما ـ مع منح الطفل الوقت والفرص اللازمة ومع قياس الفارق الفردي في الفرق بين الطلبة حتى في نفس الأعمار ـ عليه محاولة تعديل أداء الطفل وتوجيهه وتصويب أخطائه ومتابعته عن قرب ، ومنحه شيئا من الاهتمام ، كتغيير مقعده إلى الصفوف الأمامية ، أو تقديم المكافآت أو الجوائز التشجيعية .

وبعد ذلك على المعلم أن يطلب رأي طبيب الأطفال إذا ما تأكد أن الطفل يصر على أخطائه ، أو عند عدم اعتدال سلوكه مع زملائه .

ويمكن للمعلم إجراء بعض اختبارات الذكاء البسيطة المعروفة لنفس سن الطفل ، وكذلك التأكد من سلامة النظر والسمع والنطق ، وعدم وجود عيوب أو كسور ظاهرة .

وعلى المعلم أيضا تقع مهمة العلاج ، ومتابعة الحالة خلال السنوات المقبلة ، وأن يكون على صلة مباشرة مع الأبوين والطبيب ويشرح الطريقة التي سيتبعها لعلاج الطفل .

دور طبيب الأطفال :

وتنحصر مسئولية طبيب الأطفال في وضع التشخيص الدقيق ، وتحديد نوع العيوب التي يشكو منها الطفل ، ثم المتابعة في المستقبل بالتعاون مع الأبوين والمعلم .

فإذا تم تشخيص مرض عضوي (كالربو أو داء السكري أو ضعف إحدى الحواس أو غيرها) جرى علاج ذلك حسبما يقتضيه نوع المرض ودرجته ، أما إذا لم نعثر على مرض مع ثبوت الأعراض السابقة فعلى الطبيب أن يوضح للأبوين أن الطفل سليم عضويا وعقليا ونفسيا ، لكنه يشكو من صعوبة التعلم لبطء نضج حواسه وأعضائه ، وهذا يدعو لإدراك الأبوين لحالة الطفل ، وزيادة الاهتمام به ، وبذل بعض وقتهما للمساعدة في تقويمه وإرشاده ، وطبعا من المهم بمكان إقناع الأبوين بأن الطفل سليم عقليا ، وأنه قابل للشفاء ، واللحاق بزملائه .

العلاج :

يكمن نجاح العلاج في التشخيص المبكر وتكاتف الأبوين والمعلم والطبيب ، ومناقشة حالة الطفل ، والتعاون فيما بينهم لإرشاده ومتابعته ، ومن المهم أن يتم التشخيص والعلاج في مراحل الدراسة الابتدائية ، قبل أن يتخلف الطفل عن زملائه ، وقبل أن يصاب بالعقد النفسية ، وقبل أن يوصف بالإهمال أو الغباء . . . الخ . □

هو.. .. هي

«وهو كظيم»

● تختبيء خلف جدران البيوت مشكلة كمشكلتي ، وداخل العلاقات الانسانية يكمن جزء من عقل الرجل الشرقي .

تزوجنا منذ عشر سنوات ، رزقنا الله خلالها ثلاث بنات ، يملأن حياتي بهجة وحنانا ، ولأن ظروفي الصحية ليست طيبة ، وخاصة أن ولادتي ليست أمرا سهلا فقد اقترحت على زوجي أن أجري عملية لوقف الانجاب فترة . لكن زوجي ما أن سمع هذا الاقتراح الذي نقلته له عن طبيبي المعالج ، حتى ثار وأرغى وهدد ، وبعدما راحت ثورته حاولت أن أخاطب عقله ، فلوجئت أن خلف ثورته وغضبه يختبيء عقل شرقي قح ، يتحكم في سلوكه وتصرفاته . قلت له : لقد رزقنا الله البنات ، وقرت أعيننا بهن ، والحمدلله أن وسع علينا في رزقنا ، لكن الطبيب نصحني بأنه من الأفضل لي أن أكف عن الانجاب ، خشية أن أتعرض لمتاعب صحية ، وأعتقد أن الاستجابة لهذا أمر لا يغضب الله ، ولا يتنافى مع العرف ولا التقاليد . نظر إلي طويلا وهمس : لكنني أريد ذكرا . ودهشت ، فلم أكن أتصور أن رجلا في زماننا هذا يفكر بهذه الطريقة . وجاء وقت حديثي ، فقلت له : إن الأبوة تتحقق بغض النظر عن نوع المولود ، وهؤلاء الاناث يملأن البيت حنانا ورحمة ومودة ، وهن بلا جدال أكثر عطفا على والديهن من الذكور ، والولد فرحة تذهب إلى أسرة أخرى ، والبنت فرحة تجيء ، وابن جديد ينضم للأسرة . وقلت له : لم يعد في عصرنا هذا فرق بين الرجل والمرأة ، ولا بين الذكر والأنثى ، وحتى بحساب ذاتي محض ، فأنا أرى أن البنات أكثر راحة لنا ، فهن الصدر الذي يضمنا حين نكبر ، وهن الشجرة الوارفة التي تمتد فتظللنا ، وهن الصغيرات المدللات الحبيبات مهما كبرن ، فهمس لي بحزن : أريد أن يبقى ذكري واسمي . ضحكت ساخرة وقلت : وماذا لو جاء ولد عاق ؟ وماذا يعنيك ذكرك إذا كنت أنت قد غادرت الدنيا ؟ إن أبقى الذكر السيرة الطيبة والعمل الصالح ، والمودة بين الناس . نظر إلي برجاء وقال : دعينا نحاول مرة أخرى أخيرة . قلت له : لن أعرض صحتي للخطر ، وأعرض بناتي للخوف من أن أفقد حياتي في هذه المحاولة الأخيرة التي لن تحقق شيئا إلا بقية جاهلية ما زالت في أعماقك ، وأنا والحمدلله راضية قانعة بما رزقني به الله ، أما أنت فخلص نفسك من أوهامك وارض واشكر .

.. هي

«خلـــود»

أؤمن بالله إيمانا لا يداخله شك ، وتمتلىء نفسي رضا وتسليما بمشيئته ، وأعرف معرفة عقلية وقلبية معنى حكمته في أن يرزق من يشاء ذكورا ومن يشاء إناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، لكنني أحلم ، وأتمنى أن يكون لي ذكر يحمل اسمي ، وأصطحبه معي ، وعندما يكبر أشركه في أمري ، وأسر إليه بخواطري ، وأسمع منه ، ويصير لي ابنا وأخا وصديقا .

لكن زوجتي سامحها الله تنتصر لبنات جنسها ، وتزعم أن البنات أكثر حنانا ، وأكثر رعاية لأهلهن ، وتقول لي : انظر إلى البيوت التي تفقد رجلها ، فتصبح الأم هي الأب والأم ، وذلك بعكس حالات فقدان الأم ، فسرعان ما يأتي الأب لأبنائه بزوجة جديدة . إنها تريد أن تدلل بذلك على أن الأنثى بطبعها وفطرتها أقدر على حماية البيت من الولد ، وعندما قلت لها : إن هناك حالات لآباء منحوا أبناءهم حياتهم بعد فقد الأم ، تقول لي : إن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة .

لكنني بعيدا عن كل منطق أقول : أليس من حقي أن أفرح بصبيّ ، وأن أسعد بأن يتردد اسمي أجيالا ممتدة ؟ ؟ فتقول : إن هذه أنانية ضيقة الأفق ، فماذا يفيدني اسمي ؟ أو ماذا تعنيني الدنيا كلها بعد أن أموت ؟ أليس فينا كلنا حب الحياة ، والتعلق بها ؟ وهل يقوى منطقها على الصمود أمام دعوة نبي الله زكريا عليه السلام عندما سأل ربه أن يهبه وليا ، يرث منه ومن آل يعقوب ؟ تصرخ في وجهي متهمة إياي بالخروج عن العقل ، قائلة : إنه لا يجوز لنا ما يجوز للأنبياء ، وأن ظروف نبي الله الكريم غير ظروفنا ، وأين نحن من هذا المستوى الطاهر بين التخاطب بين النبي وربه ، وتضيق على الخناق . أقول لها : لكن ابنتي الملك لير اتفقتا عليه ، وأهدرتا دمه ، وضيعتاه .. تضحك مني وتقول : أليس عيبا أن تحتمي بقصص من الخيال لتبرر أنانيتنا ، وضيق أفقنا ؟ ثم تنقلب حواء زوجتي إلى حية رقطاء وهي تهمس لي : ولا تنس عزيزي أننا نثمر ما تزرعون أنتم أيها الرجال ، فالرجل هو الذي يتحكم في نوع الوليد . وأصرخ في وجهها قائلا : أعرف ، أقسم برأسي إني أني أعرف ، لكنني أحلم بولد يرثي ، ويقسم برأسي ، ويحمل اسمي ، ويكون وسيلة خلود لي . وهذا هو حلم البشر .

.. هو

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

أخطر ما نسيناه من الطعام

الألياف ..

إعداد : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

هناك منعطفات في تاريخ العلوم الغذائية تعتبر علامات للطريق على درب الصحة والمرض ، لا يمكن للفكر الطبي أن يتجاوزها عند الحديث عن سلامة الطعام .

ولعل من أهم هذه المنعطفات :

أولا : اكتشاف الميكروبات التي تلوث الطعام ، ومعرفة أسرارها على يد حشد من العلماء ، يتصدرهم (كوخ) الألماني و (باستير) الفرنسي .

ثانيا : الكشف عن المخاطر الكامنة في بعض عناصر الطعام ، والضرر من تجاوز الاعتدال فيها إلى حدود الاسراف ، وأبرزها ملح الطعام والسكريات والدهون الحيوانية ، إلخ .

ثالثا : اكتشاف الفيتامينات في الطعام ، ومعرفة الأمراض التي يسببها نقصها . أما ختام هذه المنعطفات وربما أخطرها فكان الكشف عن دور الألياف في الطعام ، وارتباطها بالصحة والمرض . فيما مضى كانوا يظنون بالألياف عنصرا زائدا عن الحاجة ، وأن دورها يتميز بالسلبية ، لهذا عرفوها بقدر ما وسعهم الادراك بأنها ذلك الجزء من الطعام الذي يعبر القناة الهضمية دون أن يهضم ، لهذا لم تنل الألياف حظها من الاهتمام والدراسة الكافيين ، بل ربما وجد فيها بعضهم عبئا ثقيلا على الجهاز الهضمي ، لهذا عملوا على تنقية الطعام منها على حد زعمهم ، فحملت إلينا هذه القناعة قائمة من الأغذية ، أطلقوا عليها اسم (الأطعمة النقية) ، يتصدرها السكر النقي والدقيق الأبيض ، بعد أن خلصوها من الألياف التي اعتبروها من الشوائب ، ليقدموها علفا للحيوانات . لهذا لا غرابة أن يكون محتوى طعام الانسان الغربي المتحضر من الألياف الخام يتراوح بين أربعة إلى ستة جرامات فقط في يومه الواحد ، فيما يقدرون الألياف في طعام أهل العالم الثالث في بلدان أفريقيا وآسيا بما قد يتجاوز الخمسة والعشرين جراما يوميا . فماذا كانت النتيجة يا ترى ؟

الملاحظة الأولى أن الكتلة البرازية عند الانسان الغربي المتحضر تتراوح ما بين مائة ومائة وخمسين جراما فقط في كل يوم ، وهي كتلة قاسية القوام ، أقرب إلى الجفاف والصلابة منها إلى الليونة ، وهذه هي مقومات الغائط لانسان يعاني من الامساك .

بينما الفضلات عند الانسان الأفريقي الذي يتعايش مع الطبيعة بكل أبعادها قد تصل إلى أربعمائة جرام يوميا ، وهي ذات قوام لين لزج ،

منتظم الاخراج في كل يوم . وهذه هي دلائل سلامة الهضم والاخراج الطبيعيين ، وانتظام عمل القناة الهضمية .

منذ أن تسربت مفاهيم الحضارة الخاطئة عن الطعام ، وغابت الألياف بتحضير (الأطعمة النقية) خلال سنوات القرن العشرين ، تزاحمت أمراض عديدة ، لم تكن موجودة عند الانسان القديم إلا فيما ندر ، بل وبقي أهل العالم الثالث الذين لم تصلهم مفاهيم الحضارة الحديثة عن نقاوة الطعام بمنأى عن مثل هذه الأمراض ، لهذا لا عجب أن تكتسب قائمة هذه الأمراض اسم أمراض المدنية ، وكان أحرى بها أن تسمى أمراض المدينة ، نسبة إلى المدينة لا المدنية .

قبل أن نخوض في الحديث عن أمراض عوز الألياف كما يحلو لبعضهم أن يسميها ،بديلا عن اسم أمراض المدنية والحضارة ، لا بد لنا أن نتعرف على هذه الألياف ، ونستطلع كنهها ، ونستكشف دورها .

فيما مضى كانوا يظنون أن (السليلوز) هو قوام هذه الألياف . وقد ارتبطت النخالة في أذهان الناس بالسليلوز . غير أن البحث العلمي والتنقيب قد قلبا المفاهيم رأسا على عقب ، فالألياف هي هيكل الخلية النباتية وغلافها ، وعندما نفذ العلماء في الماضي إلى أعماق الخلية بحثا عن عناصر الغذاء فيها من نشويات وزلاليات ودهنيات نسوا أو أنهم تناسوا هيكلها ، وأغفلوا غلافها ؟

وعندما فرغوا من بحثهم استداروا يتطلعون إلى الهيكل والغلاف ، فإذا بالأمر يتعدى مادة السليلوز إلى مجموعة مواد ، منها ما يذوب في الماء ، ومنها ما لا يذوب ، وتضم قائمة ما يذوب في الماء مواد البكتين والاصماغ والشموع ، أما الذي لا يذوب فتضم قائمته مواد السليلوز وشبيه السليلوز والخشبين .

ولعل من أهم خواص هذه المواد أنها تعمل عمل الاسفنج في امتصاص الماء ، لهذا نجد أن ٨٠٪ من قوام الكتلة البرازية هو ماء ، فيما تشكل البقية الباقية منه ميكروبات مع مواد خشبية متاصفة ، وهذا هو ما يعطي الكتلة البرازية حجمها المطلوب لانتظام حركة الأمعاء وخروج الغائط ، حيث أن البراز الذي يتجمع ويتراكم في قولون الحوض لا بد له من حجم لا يقل عن مائتي جرام ، حتى يمكنه أن يثير جدران القولون لكي ينعكس شعورا بالاخراج ورغبة في التبرز وإلا كانت النتيجة هي الامساك .

الألياف ـ على ـ ماوجدوا مؤخراً ـ لها دور ـ أبعد من مجرد الامتلاء ، وأكثر إيجابية ، إذ أنها أيضا تخفف وتعادل المواد المسرطنة في الطعام التي تسبب سرطان القولون إذا ما تراكمت فيه .

لقد وجدوا أيضا في مادة البكتين معطلا لأحماض الصفراء مما تفرزه الكبد ، ومن هنا ينخفض منسوب الكوليسترول في الدم ، كما تقل احتمالات ترسبه في الشرايين ، أو تكون الحصى في الكيس المراري .

هذه بعض نماذج لما خلفه غياب الألياف عن الطعام الحضاري المزيف ، غير أن القائمة ما زالت طويلة تعد بالعشرات . نذكر منها أهمها وهي :

أولا : الامساك : حيث أن حركة الطعام في أمعاء الانسان الغربي في غيبة الألياف تصير إلى الابطاء إلى درجة يصبح معها الاخراج متعذرا بصورة طبيعية في كل يوم ، وهذا أمر قد يتطلب معاناة وزيادة ضغط داخل البطن في محاولة التغلب على الامساك مما يؤدي بدوره إلى حلقة مفرغة من المعاناة ، تخلف وراءها أمراضا عديدة لا يعاني منها الناس البسطاء في العالم القديم أو العالم الثالث الحديث إلا إذا تفرنجوا وتحضروا وقلدوا حضارة الغرب في نبذ ألياف الطعام . وهنا تكون المعاناة على صور شتى منها :

أولا :

أ ـ البواسير .

ب ـ تجيبات الأمعاء .

جـ ـ دوالي الساقين .

د ـ شرخ الشرج .

هـ ـ فتق الحجاب الحاجز .

ثانيا : التهاب الزائدة الدودية .

ثالثا : ارتفاع منسوب الكوليسترول والدهنيات في الدم .

رابعا : سرطان القولون .

خامسا : ارتفاع سكر الدم وتفاقم المعاناة بالبول السكري .

سادسا : القولون العصبي .

سابعا : تقرح القولون .

ثامنا : أمراض القلب والأوعية الدموية .

أين نجد الألياف ؟

نجد الألياف إذا ما عدنا القهقرى إلى الطعام البسيط غير النقي ، ونبذنا أسلوب الغذاء التقي ومفاهيمه ، وأشحنا الوجه عن إغراءات اللون الأبيض والطعم الشهي ، لهذا فإننا سنجد الألياف في الخبز الأسمر بنسبة أربعة أضعاف ما نجده في الخبز الأبيض ، كما سنجد الألياف في كل الحبوب وكل البقول ولن نعدمها أيضا في الفواكه كالبرتقال والتفاح والجزر ، والبطاطس أيضا غنية بالألياف شأنها شأن كل الدرنيات الأخرى .

هذا بالاضافة إلى الخضراوات والمأكولات الورقية الأخرى الثرية بالألياف .

هذه هي قصة الألياف أو ربما بعض القصة التي نسى العلماء أن يرووها لنا في غمرة بحثهم عن الأطعمة النقية التي تسللت معها أمراض المدينة .

بريد طبيب الأسرة

ردود سريعة

● السيد سيزار رجب / دمشق / سوريا :

ـ الناسور هو التهاب في منطقة المقعدة ، يؤدي الى نشأة قناة ملتهبة ، تصل مابين داخل المستقيم وجلد المقعدة ، وعندما يتليف جدار هذه القناة أو الناسور ويزمن التهابها تصبح مصدر افرازات صديدية وألم للمصاب بها ، وبخاصة عند الاخراج . وعلاجها بالاستئصال الجراحي .

أما سؤالك عن الفطر فأمره يطول شرحه وسنتحدث عنه مستقبلا باذن الله .

● السيد / محمود الزيني / تونس :

ـ من الواجب تنظيف الأسنان والفم عدة مرات يوميا ، ومن الخطأ اهمالها يومين أو ثلاثة .

أما بالنسبة للحنجرة فالأفضل استشارة طبيب اختصاصي في الأنف والأذن والحنجرة ، ليتقصى سبب الداء ان كان في حنجرتك كما تتوهم .

● السيد / م . سامر . ع . / حلب سوريا :

ـ اطمئن ، فلاشيء يضرك باذن الله .

● السيد / خ . ع / دير الزور / سوريا :

ـ يصعب الحكم على معاناتك من خلال وصفك الموجز . وياحبذا لو راجعت طبيبا جراحا ، وأجرى لك تحليلا للبول ، وتصويرا بالأشعة السينية بالاضافة الى الفحص السريري ، فهذا أجدى وأقرب للصواب .

● الأخت / مي شارابي / حمص / سوريا :

ـ ان معاناتك هي احدى صور المراهقة عند كل الشباب ، ولكنها قد تكون مضاعفة ، وسببها قد يكون ذاتيا ، لكن ظروف البيئة والتربية قد ساهمت في تجسيمها بأكثر من حجمها الحقيقي ، والأفضل طلب المشورة من طبيب نفساني .

خاطـــــرة

ما أتعس الذين يمتهنون الكتابة . وما أشد عذابهم عندما يرتبطون بموعد ثابت وباب ثابت . وتصبح مطاردة الأفكار أشبه ما تكون بالعمر الذي يمضي سرابا . أيام تلهث خلف أيام . مطاردا أحلاما لا تتحقق .

هكذا نحن نطارد فكرة وراء فكرة ، ولا نكاد نمسك بواحدة منها حتى يتضح لنا أن هذه الفكرة قد تم تناولها من قبل . أو أننا قد كتبنا عنها . أو . . ، وعالمنا اليوم على الرغم من اتساعه فهو قرية صغيرة ، تكتنفها الاتصالات ، وحركة الترجمة تتيح لكل جهد للانسان ولكل إبداع منه أن يكون في متناول أيدي القراء في كل مكان ، ويصبح علينا التزام أن نقدم شيئا مختلفا وجديدا ، نقول من خلاله شيئا للقراء .

والأصل في الكتابة ـ شأنها شأن الابداع ـ أنها عملية ذهنية حرة تماما ، غير مقيدة بوقت ولا نظم ، لكن تحول الكتابة من عملية إبداع إلى عملية مجتمعية ، وانتشار الصحافة ، وتعقد عمليات النشر ، جعل من الكتابة مهنة والتزاما ومواعيد وقراء وطباعة وتوزيعا .

وسقط بعض الكتاب في هذه الفخ ، وأصبح يملأ مساحته الثابتة كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر بأي شيء ، وهو تصور (للأسف) غير صحيح ، وغير صحي ، فالقارىء أكثر حساسية وإدراكا مما يتصور كل الكتّاب ، والقراء قضاة يحاكموننا كل يوم ، ويناقشون أفكارنا ، ويقبلونها أو يرفضونها ، ويتفقون معنا أو يختلفون ، وهم قد يغفرون لنا ـ نحن معشر الكتّاب ـ أن نختلف معهم ، لكنهم لا يغفرون ولا ينسون الاستهانة بعقولهم . وإذا كانت الكتابة مهنة ملتزمة بمواعيد فإنها تصبح شيئا معذبا ، لكن عذابها الهائل يُمحي بمجرد أن نرى قارئا يقف عند كلمات ويقرأها ، أو يقتطع من وقته فيرسل للكاتب رسالة ، سواء كان القارىء متفقا معه أو مختلفاً ، في هذه اللحظة يهون كل القلق والعذاب ومطاردة الأفكار المضنية ، ويشعر الانسان أن تواصله مع الآخرين وحواره المستمر معهم ، ونقله لما يريد أن يقول ما هو إلا متعة لا تدانيها متعة ، ورسالة نبيلة لا تماثلها رسالة إلا رسالة القضاء ، فالعدل والفكر من أشرف ما فينا نحن البشر إذا كنا نؤمن بقيم الحق والخير والجمال . □

محمود عبدالوهاب

ألفاظ مُعرّبة

بقلم : الدكتور حسن عباس

هنالك ألفاظ طارئة على اللغة العربية لم يكن لها وجود سابق في لغتنا ولم يكن لنا عهد بها قبل بضعة عقود . لقد جاءت بها - وبغيرها من ألفاظ الحضارة - مدنية القرن العشرين ، فدخلت مجال التداول والاستعمال بغير استئذان . ولا حرج على العامة ان تداولتها على النحو الذي سمعتها ، ولكن علماء العربية وأدباءها - وخاصة المجمعيين منهم - ينهضون بعبء تدبرها وتصريفها واخضاعها لنظام اللغة العربية وقواعدها أو إبدالها بغيرها مما يناسبها من ألفاظ عربية .

فإذا كان صدر اللغة قد اتسع قديما لأسماء جديدة فإن هذه اللغة لن تقف موقف التسليم إزاء كل مايطرأ عليها من جديد وتأخذه على علاته ، أو تصده دون النظر فيه ، بل تنفذ فيه أمرها ، وتترك عليه بصماتها . يقول محمود تيمور في هذا الصدد : « لقد تعاقبت عليها أي على اللغة العربية في عصورها الغوابر حضارات أمم ، وثقافات عهود ، فلم تقصر بالتعبير عنها من جوهر الفصحى ومن صميمها ، وإذا كانت قد استضافت من لغات الأمم ما استضافت فما ذلك الا الأقل الأندر ، الذى لايكاد يذكر في جانب الأغلب الأكثر ، وعلى الرغم مما أطبق علينا من ألفاظ الحضارة العصرية في يومنا الحاضر فإن الفصحى استطاعت أن توقف زحف الدخيل ، وأن تستبدل به ألفاظا عربية مخترعة في ميادين شتى وفروع متعددة من العلوم والفنون والاداب » .

على أن السعي الى ايجاد بدائل فصيحة للألفاظ الدخيلة لايعني فرض ذلك على ألسنة العامة ، بل إلزام الخاصة ممن يكتبون ، فإن دوران الألفاظ المعربة أو بدائلها في الصحافة والدوريات والكتب المتداولة ونشرها « في مجالات الاذاعة الفصيحة على اختلاف منابرها ومنصاتها في حياتنا التعليمية والاجتماعية .. سيتيح للجمهور أن يستخدم هذه الكلمات ، فإن الجمهرة العامة تستمد من لغة الكتابة ما يهذب لسانها ، ويرفع مستواها التعبيري » .

من هذه الكلمات الفعل : بستر [1] : وهي طريقة في التعقيم تنسب الى صاحب هذه الطريقة

* يقصد بالمجمعيين اعضاء مجامع اللغة في عدد من المدن العربية .

(١) لايصح احلال الفعل « عقم » محل الفعل « بستر » لاختلاف بينهما . فالتعقيم يقضي على الميكروبات في درجة حرارة ١٠٠ مئوية في حين تعني البسترة رفع درجة الحرارة الى ٧٠١ لمدة ٢٠ دقيقة .

العالم الكيميائي الفرنسي « لويس باستور » ولكن قبول الكلمة - أي كلمة - وإدخالها معجم الألفاظ العربية لايتم الا اذا خضعت لطرائق العرب في التعريب . وقد أكد هذا المبدأ مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الاولى . اما الافعال المشتقة من كلمات أعجمية كالفعل « بستر » فلا يصح الأخذ بها الا اذا صحت صياغتها صياغة عربية وساغت في الذوق .

وقد توافرت لهذا الفعل وللأفعال الأخرى التي سنأتي على ذكرها شروط التعريب وجاء اشتقاقها على وزن عربي صحيح . تقول : بستر ، يبستر ، بسترة وهي على وزن فعلل - الرباعي - يفعلل ، فعللة .

ومن هذه الأفعال : بلور ، من البلور ، وقد عربت قديما ، ودرجت على ألسنة الناس وشاعت في الكتابة ، ومنها أيضا الفعل بلشف ، المشتق من (البلشفية) وهي مذهب سياسي . ومنها كذلك تلفن ، يتلفن وهي تعريب للفظ الأجنبي « تلفون » ومنه : فبرك يفبرك ، وهي تعني صنع الشيء بالآلة ، اما اذا استعملت استعمالا مجازيا فتعني حينئذ : التزوير . والفعل جبّس ، من الجبس وهو من مواد البناء ، وقد عرب قديما . ومنها - أخيرا - كهرب ، من الكهرباء . على أن مجمع اللغة العربية في القاهرة قد أقر هذه الافعال دون الفعل كهرب حيث أقر الاسم فقط .

وقد حفز المجامع العربية على النظر في هذه الافعال وأشباهها واتخاذ القرارات باضافتها الى المعجم العربي لصلتها الوثيقة بالعلوم الحديثة والحاجة الماسة الى تداولها نطقا وكتابة . يؤكد لنا ذلك أن هناك كلمات كانت قد شاعت في عدد من الأقطار شيوعا لم يجاوز العامة ، ولم ترق الى لغة الكتابة على الرغم من طول العهد بها ، ومن هذه الكلمات : كار : أخذت عن التركية من أصل فارسيّ ومعناها صنعة ، مهنة عمل.كشك : تركية وتدعى (كوشك) وهي من أصل فارسي وتعني القصر او البيت الصغير المعد للاصطياف .

أما في اللهجتين الشامية والمصرية فهي تعني البناء الخشبي أو المعدني الذي يقام على الأرصفة لبيع علب الدخان أو الطوابع ، أو غير ذلك .

كرباج : تركية ، تعني السوط المصنوع من الجلد .

كوبري : تركية ولا تستعمل الا في اللهجة المصرية بمعنى جسر .

المطعم ، والنزل (الفندق) . أما المعنى الاول فهو شائع في بعض بلاد الشام وأما المعنى الثاني فهو شائع في البعض الآخر من بلاد الشام وفي مصر .

كبشة : تركية محرفة فهي تدعى هناك (كفجة) ومعناها مغرفة الطعام ، وتستعمل في بعض بلاد الشام وفي بلدان الخليج العربي .

وعلى الرغم من طول العهد بهذه الكلمات ، فقد ظلت في مستوى متدن من الاستعمال ، ولم تعرب لفقدانها شرط التعريب .

العقاد والقصة القصيرة

● في سؤال وجه إلى الأستاذ العقاد عن رأيه في القصة القصيرة أجاب قائلا : القصة القصيرة تدور حول موقف أو مسلك ، وأنها قد لا تنتهي إلى ختام ، فهي تصور لنا حادثا أو شخصا في حالة معينة . والقصة القصيرة هي تخطيط لا تفصيل ، فقد تدور حول شخصين جالسين إلى مأدبة . فتصفها وحسب ، أولا ضرورة للعقدة ، وقد كانت المقدمات والنتائج ضرورية أيام كان الخيال قاصرا وعاجزا . ويرى العقاد أن القصة القصيرة أصعب من الرواية أو القصة الطويلة ، فالقصة القصيرة تعتمد على الملاحظة الشخصية ، وعلى التركيز بينما الطويلة فيها متسع من الوقت والمكان .

العنقاء

للشاعر ايليا أبي ماضي

لو قدر لك أن تضرب في أقطار الأرض ارتحالاً وسياحة لتوجدت في كل بلد تطؤه قدماك مهاجرين من لبنان، وما كل ذلك حبا في السفر، ولا رغبة في ارتياد الآفاق، بل بعد عن الوطن عندما تعلو فيه ألسنة اللهب ويصطلي ابناؤه بنار الحرب الاهلية ويعانون مما تستتبعه تلك الحرب من الانهيار الاقتصادي .. والجوع!

ما أشبه اليوم بالأمس. ففي عام ١٨٦٠ نشبت حرب أهلية كالتي نرى، وتفاقمت طائفية كالتي نرى، وكان للدول الكبرى آنذاك يد في كل ما كان يجري على أرض لبنان، لكن زمن الحرب لم يطل فقد اتفق الباب العالي في اسطنبول وعدد من الدول الاوروبية سنة ١٨٦١ على أن يكون للجبل نوع من الاستقلال الذاتي، وأعقب هذا الاتفاق هدوء واستقرار. ولكن الأجانب استغلوا هذا الاستقرار، وجنوا فوائده، فضاقت سبل العيش بأبناء البلد، فلم يجدوا بدا من الهجرة، فكان أن هاجر البعض منهم الى مصر، وهاجر آخرون الى أوروبا والأمريكتين.

اما ايليا ابو ماضي فقد هاجر ـ في باديء الأمر ـ الى مصر، وكانت بدايته فيها متواضعة. عمل في التجارة، ثم في الصحافة لفترة قصيرة وأصدر في مصر ديوانه الاول «تذكار الماضي»، واختار هجرة أخرى الى الولايات المتحدة الامريكية.

شارك في تأسيس الرابطة القلمية مع كل من جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهما، وأصدر صحيفة أطلق عليها اسم «السمير» أصدرها اسبوعية في نيويورك، ثم تحولت الى صحيفة يومية في بروكلين. وليست مهنة الصحافة هي التي قدمت أبا ماضي وأحلته المكانة الأدبية المرموقة التي يحتلها، بل هو شعره.

صدر لأبي ماضي أربعة دواوين شعرية كان آخرها «الخمائل»، وقد توفي الشاعر في عام ١٩٥٧.

اما القصيدة التي وقع عليها اختيارنا فهي تمثل موقفا فلسفيا يجد السعادة في الذات الانسانية وليس خارجها.

وعلى الرغم من قدم الموضوع فإن القصيدة تحفل بالجديد ممثلا في صدق التجربة الشعورية، وفي اللغة الرشيقة، وفي الحركة الدائبة المعبرة عن قلق مبدع.

فَتَّشْتُ جيبَ الفجرِ عنها والدُّجى
ومددتُ حتى للكواكبِ أصبعي

فاذا هما مُتحيران كلاهُما
في عاشق متحيّرٍ مُتضعضعِ
واذا النجومُ لعلمها أو جَهلها
مُترجرجاتٌ في الفضاء الأوسعِ
رقصتْ أشعتُها على سطح الدُّجى
وعلى رجاءٍ فيَّ غير مُضعضعِ
والبحرُ كمْ ساءلتُه فتضاحكتْ
أمواجهُ من صوتيَ المتقطعِ
فرجعتُ مُرتعشَ الخواطر والمنى
كحمامة محمولة في زعزعِ
وكأنَّ اشباحَ الدهور تألّبتْ
في الشطّ تضحكُ كُلّها من مرجعي
فوأدتُ أفراحي وطلّقت المنى
ونسختُ آيات الهوى من أضلعي
وحطمْتُ أقداحي ولما أرتوي
وعففتُ عنْ زادي ولما أشبَعِ
وحسبتني أدنو اليها مُسرعاً
فوجدتُ أني قد دنوتُ لمصرعي
فكأنني البستانُ جرّدَ نفسهُ
مِنْ زهره المتنوّع المتضوّعِ
ليحسَّ نورَ الشمس في ذراته
ويقابلَ النسمات غيرَ مقنّعِ
فمشى عليه من الخريف سُرادقٌ
كالليلِ خيّم في المكان البلقعِ
وكأنني العصفورُ عرّى جسمَهُ
من ريشه المتناسق المتلمّعِ
ليخفَّ محملُهُ فخرّ الى الثرى
وسطا عليه النملُ غيرَ مروّعِ
لمّا حلمتُ حلمتُ بزهرة
لاأجتني وبنجمة لم تطلعِ
ثم انتهيتُ فلمْ أجد في مخدعي
الا ظلاليَ والفراشَ ومخدعي
من كان يشربُ من جداول وهْمه
قَطعَ الحياة بغلّة لم تنقعِ
حتى اذا نشرَ القنوطُ ضبابه
فوقي وعبّى وغيّب موضعي

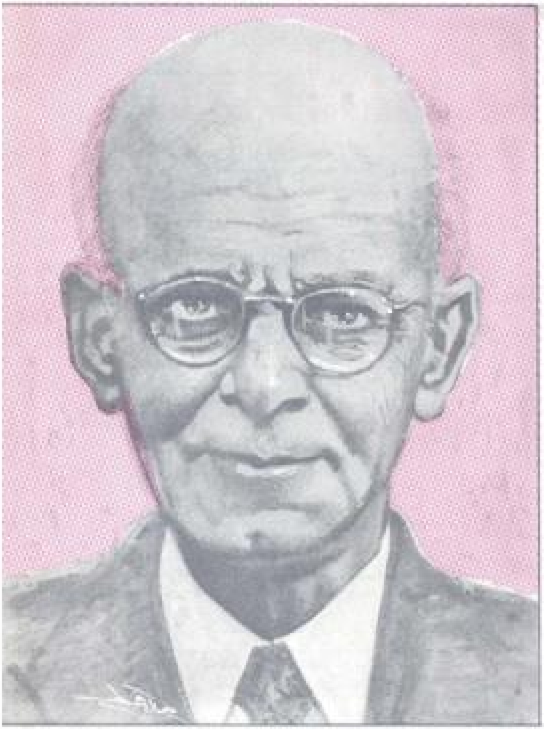

ايليا ابو ماضي

وتقطعت امراس آمالي بها
وهي التي من قبل لم تتقطعِ
عصر الأسى روحي فسالت أدمعا
فلمحتها ولمستها في أدمعي
وعلمت حين العلم لايجدي الفتى
أنَّ التي ضيعتُها كانتْ معي

على هذا النحو يقضي الشاعر ـ الانسان ـ عمره في البحث عنها جادا دائبا ، بل مهموما حائرا . أتدرى ما هي ؟ انها السعادة ثم يجدها بعد طول عناء . . ولكن في ذاته !

يأخذ البحث عنها أشكالا متعددة من النشاط المحموم ، فهو يبحث عنها في مظاهر الطبيعة لعله يلقاها في الفجر ، أو في الدجى أو في البحر ، فإذا أعيته الحيلة مد يده للكواكب ، لعالم غير هذا العالم الذي يعيش فيه ، ولا يجد لدى الطبيعة بمظاهرها

المختلفة أو لدى الكواكب الا الحيرة . . حيرة من هذا العاشق الباحث .

إن القصيدة تحفل بالحركة القلقة المضطربة وتلك سمة من سمات البحث ، ولم يترك الشاعر مظهرا من مظاهر الطبيعة دون توظيفه في التعبير عن تلك الحركة القلقة المضطربة ، فهي ماثلة في رجرجة النجوم ، ورقص الأشعة ، وتضاحك أمواج البحر ، وارتعاش الخواطر ، . . وكلها في حركتها واضطرابها تسخر من سعيه العابث . لقد بدد جهوده دون بلوغ الغاية لذا تراه يمني النفس في العثور عليها في مظاهر الغنى كالقصور المشيدة والرياش وفي حياة الرخاء والنعيم ، فإذا عز مناها في هذا الجانب من جوانب العيش انتقل الى النقيض . . الى الزهد .

فقديما قيل القناعة كنز لايفنى ، فماذا أصاب ؟ تجرد نفسه ـ كالبستان ـ من الزهر الذي يزهو به ومن الأوراق التي تقيه ريح الخريف ، فغدا كالعصفور وقد عرى جسمه ليخف وزنه ، فما كان منه الا أن خر صريعا ، فتكاثر عليه النمل وتبدد .

يهجر عالم اليقظة مادام قد خرج منه خالي الوفاض ، ويتجه الى الحلم لعله يجد فيه ما كان قد خاب مسعاه فيها عداه تجلت له في الحلم زهرة لاتجتنى ، وتجمة لم يرها أحد ، فلما أفاق ادرك أنه ضال فقد عول كثيرا على الوهم ، وما كان ينبغي له .

أين يجدها بعد أن أخفق في العثور عليها في عالمي اليقظة والحلم ؟ لم يبق أمامه الا انتظار مرور الزمن فانتظر وطال انتظاره حتى داخله القنوط ، ورانت على صدره خيبة الأمل بكل ما تحمله من أسى لم يفرج عنه الا الدمع . . حينئذ لمحها . . لمس السعادة في أدمعه ، وعلم بعد ضياع العمر أن التي كان يبحث عنها لم تبرح ذاته قط .

لم يتحدث أبو ماضي عن السعادة حديثا مباشرا ، ولم يتوجه اليها بالخطاب ، ولم يلتفت كثيرا الى البحث في كنهها على طريقة الفلاسفة بل عمد الى وصف تجربته في البحث عنها والسعي اليها ، وكانت تجربة صادقة مريرة ذهب فيها الى البعيد . . وتطرف . لقد أسرف في الأماني حين كان طموحه لايرضى بأقل من النجوم وأسرف في التواضع حين تحول الى طائر يخر على الأرض صريعا . لقد صور القلق بمعناه العميق ، وجند لذلك لغة وثيقة سهلة وصورا موحية معبرة . □

الحب والزواج

آرنست همنغواي

● يقول الروائي الأمريكي آرنست همنغواي : الحب هو أعظم تجربة في حياة الناس ، والقلب هو أكثر نواحي الطبيعة البشرية نبلا ، والعواطف هي أسمى عناصر الطبيعة الانسانية ، والانسان الحكيم لا يتزوج من أجل الجمال وحده ، فقد يكون للجمال جاذبية قوية في البداية ، ثم يثبت بعد ذلك عدم أهميته النسبية . والزواج من شخص وسيم بلا شخصية لا تزينه العاطفة ولا طبيعة طيبة خطأ جدير بالرثاء ، فكما يحيل التعود المنظر الطبيعي الجميل إلى شيء ممل ، كذلك يتحول الوجه الجميل إلى شيء ممل ، إلا إذا كانت هناك طبيعة تشرق من خلاله ، فجمال اليوم يصبح شيئا عاديا ، أما الطبيعة التي تكمن في الملامح العادية فهي جميلة إلى الأبد ، وهذا النوع من الجمال يتطور مع مرور الوقت ، والزمن لا يدمره ، بل ينضجه ، ولا يجب على الرجل أبدا أن يخضع امرأة للتحليل العميق ، فالنساء أجهزة حساسة ، يبث الرجال عواطفهم من خلالها ، والصمت يكون أحيانا أفضل زينة للمرأة .

الكلمات المتقاطعة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١										■
٢				■						
٣			■			■				
٤						■		■		
٥					■		■			
٦									■	
٧				■						
٨						■				
٩			■					■		
١٠				■						■

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية

١ ـ السن التي يَتَبيّنَ فيها الحدث اتجاه ميوله .
٢ ـ قماش ناصع البياض ، أصغر وأخف من الجنحة .
٣ ـ حرفان متشابهان ، وجّه هجوماً ، شكاية غير مكتملة .
٤ ـ توافر الصفات القانونية ، خالص الشيء .
٥ ـ بلد مستقل في الهند الصينية مبعثرة ، مَرَح .
٦ ـ التلاعب بأموال الغير وبخاصة الدولة .
٧ ـ صان بإبدال عينها بحرف الزاى ، عبر مُعَرّفة ومضافة .
٨ ـ أجور ، وهاد مبعثرة .
٩ ـ تجدها في هاج ، منغّص ومؤلم ، تجدها في طوّد .
١٠ ـ تصرف في مال أو عقار ضماناً لِدَيْن ، تحديد .

كلمات رأسية

١ ـ تصميم مسبق على ارتكاب الجرم .
٢ ـ مال يدفعه الزوج لاعالة مطلقته .
٣ ـ قادم ، لسان في محل نَصْب .
٤ ـ رجال كبار السن ، حرفان من تقى .
٥ ـ سلامته ، صندوق من خشب مقلوبة .
٦ ـ خد معكوسة ، نَبيّ ، إله فرعوني .
٧ ـ بلغ سن الرشد ، الشخص الذي يوكل إليه رعاية شئون القاصر .
٨ ـ طعام مبعثرة ، لَدْغة .
٩ ـ مال يدفع لضمان عودة المتهم للمحاكمة ، فَرّقن وضَيّقن (أمواهن مثلا) .
١٠ ـ من أشهر الأطباء الأقدمين .

حل مسابقة العدد الماضي ابريل ١٩٨٨

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ح	ن	ي	ن	ب	ن	ا	س	ح	ق
٢	ب	ا	س	ت	ي	ر	■	ث	ظ	ر
٣	ا	ل	ع	و	س	ج	■	ت	ر	و
٤	ل	■	ف	ح	■	س	ب	ه	■	ح
٥	ص	ا	■	■	ح	ي	ل	■	ع	■
٦	و	ل	ي	ا	م	ه	ا	ر	ف	ي
٧	ت	ر	ي	ا	ق	■	ز	ي	و	ت
٨	ي	ع	ي	ق	■	س	م	■	ن	ح
٩	ه	ا	■	■	ح	ر	ا	ر	ي	ه
١٠	■	ف	س	ا	م	ي	■	ض	■	م

صدر العدد الجديد
من مجلتك :
مايو ١٩٨٨

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير : د. محمد الرميحي

يشترك في تحريره مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

اقرأ في هذا العدد:

- صناع الصواني الخشبية في الكويت .. فن شعبي عربي
- حكاية علي بابا .. قصة من ألف ليلة وليلة
- استطلاع بالصورة والقلم عن فن "الأكروبات"
- الفأر القارض للشعر .. قصة عربية حديثة
- الفسطاط .. أول عاصمة لمصر الإسلامية
- قصة علمية عن التحول العظيم ليرقة الفراشة

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

- دائرة معارف العربي الصغير
- إسلاميات ■ اصنع بنفسك
- صفحة الكمبيوتر
- صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة

٦٤ صفحة بالألوان

- نتيجة مسابقة العدد الخامس والعشرين
ومسابقة جديدة و ٥٠ جائزة

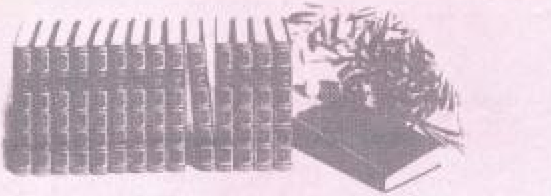

مكتبة العربي

كتاب الشهر

□ «إسرائيل» دولة عنصرية

تأليف : عوري دافيد

□ اختلافات في صهيون

تألبف : ميشيل جانسن / عرض : الدكتور ابراهيم ابوربيع

ماذا طرأ على الفكر الصهيوني من تطور بين ظهور الصهيونية السياسية في نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا ؟

محاولة للاجابة عن هذا السؤال الكبير من خلال استعراض كتابين يكمل بعضهما البعض الآخر، الاول يرى في دولة "اسرائيل" دولة عنصرية ، وهو لكاتب يهودي ، والثاني يناقش السياسة الاسرائيلية تجاه العرب واراضيهم المحتلة بعد عام ٦٧ لباحثة اميركية .

يبدأ د . دافيس كتابه بالتأريخ للحركة الصهيونية ، ويصل إلى استنتاج رئيسي هو أن الحركة الصهيونية كانت وليدة التحولات الصناعية والرأسمالية في أوروبا وخاصة في القرن التاسع عشر . فمن نتائج التحولات الرأسمالية خلق نظام اجتماعي وسياسي أوروبي جديد ، يختلف في أسسه السياسية . وفي منطلقه الايديولوجي عن النظام الإقطاعي البائد . اعتمد النظام الجديد على مبدأ علمانية العقل والأخلاق . ولكن النظام الجديد كان نتاج تراثين نقيضين في الفكر الغربي الحديث : هما التنوير والعنصرية . ففكرة التنوير شجعت الجاليات اليهودية المتناثرة في دول أوروبا على الانخراط الكلي في أطر النظام السياسي والإجتماعي الجديدة ، وهذا ما حدث للطبقة اليهودية الغنية التي رأت من مصلحتها أن تكون جزءاً من النظام الجديد ، وذلك عن طريق نسيان هويتها اليهودية ، ونشر مبادىء النظام الجديد من عقلانية واقتصاد حر دون تدخل الدولة . مما لاشك فيه أن الأغلبية العظمى من اليهود غير الأغنياء لم يستطيعوا الاندماج كليا في النظام الجديد ، وذلك بسبب العنصرية الموجهة ضدهم كيهود . وعندما تكونت الحركة الصهيونية رسميا بعد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا في سنة ١٨٩٧ ، صرح مؤسسها ثيودور هرتسل أن هدف الصهيونية هو القضاء على النظام الأوروبي الجديد عن طريق خلق كيان سياسي لليهود خارج أوروبا . ومن هذا المنطلق فإن هرتسل لم يكن يهمه أين يكون مكان الدولة الصهيونية المتوخاة ما دامت تخدم هدف الصهيونية الأعلى في ذلك الوقت ، وهو وضع حد للمشكلة اليهودية في أوروبا . ومن هنا فإن أحد المبادىء الأيديولوجية للحركة الصهيونية منذ تكوينها حتى الآن هو الفصل بين المجتمع اليهودي وغير اليهودي . وهذا واضح في تاريخ الصهيونية الحديث ، إذ أن الصهيونية ، كما يذكر د . دافيس بالتفصيل ، قد تعاملت مع أعداء اليهود بهدف إجبارهم على اتباع سياسات الحركة الصهيونية . فموقف الصهيونية هو أنه بغض النظر عن ليبرالية غير اليهود نحو اليهود ، فيشعر اليهود دائما أنهم شعب مبغوض ، وأن الطريق الوحيد هو إقامة دولة مستقلة لليهود . من هذا المنطلق استغلت الحركة الصهيونية الحالة الحسنة النسبية التي كانت الجالية اليهودية تتمتع بها في العالم العربي وخاصة في العراق ومصر ، وبثت الرعب في قلوب هذه الجالية عن طريق نسف المحلات التجارية اليهودية وذلك لإجبار الجالية اليهودية على الهجرة إلى « إسرائيل » .

الصهيونية والسكان الفلسطينيون

انطلاقا من مبدأ الصهيونية المشار إليه سابقا ، وهو الفصل بين اليهود وغيرهم ، فإنه مع إقامة دولة « إسرائيل » باشرت الصهيونية عمليا في تطبيق مبدئها هذا عن طريق تدبير المذابح الجماعية للشعب الفلسطيني ، وذلك لإخلاء فلسطين من سكانها العرب « وتهويدها » كليا .

د . دافيس يشير الى هذه النقطة بقوله « ان الصهيونية تدعي أنها تقدم الحل النهائي للمسألة اليهودية عن طريق استعمار فلسطين وإنشاء دولة يهودية لليهود مثلما أن أمريكا دولة للأمريكيين » .

مع نجاح الإستراتيجية الصهيونية في إنشاء كيان سياسي ، وفي التوسع عمليا على حساب الشعب الفلسطيني وشعوب عربية أخرى ، ظهرت مبادىء جديدة مكملة للمبادىء الأولى للصهيونية . هذه المبادىء الجديدة التي ظهرت خاصة بعد حرب ١٩٦٧ تتركز على ثلاث مشاكل رئيسية : ١- الإحتفاظ بالتفوق العسكري والإستراتيجي الإسرائيلي ، ٢- الحفاظ على تفوق سكاني إسرائيلي ، ٣- وإيجاد حل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين في إطار

العالم العربي . يقول د . دافيس انه « من غير الممكن تطبيق الميدأين الثاني والثالث للحركة الصهيونية بدون تدبير مذابح جماعية جديدة للفلسطينيين الذين يرزحون تحت الإحتلال «الإسرائيلي» الذين يبلغ عددهم مليوني نسمة » وهذا العدد يحوي على الأقل ستمائة ألف فلسطيني بقوا في أرضهم بعد حرب ١٩٤٨ وأجبروا على حمل الجنسية الإسرائيلية .

يستشهد د . دافيس بأقوال أهارون ياريف أحد كبار قادة الحركة الصهيونية الحالية بقوله انه في حالة وقوع حرب جديدة بين العرب وإسرائيل فإن هذا سوف يخدم مصلحة دولة إسرائيل ، ذلك لأن هذه الحرب سوف تستخدم في طرد ما لا يقل عن مليون فلسطيني من الداخل ، وأن الحركة الصهيونية قد حضرت نفسها عمليا لمثل هذه الإمكانية . من هنا نستطيع أن نستنتج أن هناك أصواتاً كثيرة في المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة التي تشجع العنف ضد الفلسطينيين كوسيلة لطردهم ، وذلك للمحافظة على التفوق (السكاني) اليهودي . بمعنى أن الأقوال العنصرية للحاخام مئير كاهانا الذي يصرح دائما عن عزمه على طرد الفلسطينيين ليست أقوالاً « شاذة » أو متطرفة في الشارع الإسرائيلي ، وإنما تعبر عن أفكار مجموعة مهمة من القيادة الإسرائيلية ، وأن كاهانا أكثر صراحة من بقية القادة الإسرائيليين في التعبير عن آرائه .

«اسرائيل» والرجوع الفلسطيني

يقول د . دافيس إن اسرائيل أسست كدولة يهودية على الرغم من أن الصهيونية هي حركة علمانية تقوم على الفصل التام بين أمور الدين وأمور الدنيا . فعندما تأسست الدولة واجهت الحكومة الجديدة مشكلة الجنسية . ولكن الكنيست الإسرائيلي حل هذه المشكلة عن طريق الموافقة على قانونين في سنة ١٩٥٠ يحددان مستقبل الدولة السكاني . الأول سمي بقانون العودة الذي ما زال ساري المفعول ، والذي يسمح لأي يهودي في أي بقعة من العالم بالهجرة إلى «إسرائيل» مع إعطائه جميع التسهيلات الممكنة . والقانون الثاني سمي بقانون الأملاك الغائبة الذي بموجبه يكون للدولة الحق في الاستيلاء على أراضي وأملاك الفلسطينيين الذين طردوا من موطنهم ، بحجة أنهم غائبون عن أملاكهم . فعمليا هؤلاء الفلسطينيون أصبحوا لاجئين خارج فلسطين وحتى الذين أصبحوا لاجئين داخل فلسطين ، لا يحق لهم العودة إلى أراضيهم وأملاكهم ، بينما يحق لأي إنسان لم يولد في فلسطين أن يهاجر إلى هناك ، وأن يتملك ويصبح مواطنا . يعلق د . دافيس على هذا الوضع المعكوس بسخرية مرة قائلا إن لكل يهودي - فيما يسمى الآن بإسرائيل - هناك ظل ملازم ، إنه ظل الفلسطيني الذي طرد من أرضه .

ويحلل د . دافيس العنصرية القانونية لإسرائيل عن طريق مقارنتها مع عنصرية الدولة في جنوب أفريقيا فيقول إن الدولتين قد أوجدتا أطراً قانونية للفصل بين السكان . ففي حالة جنوب أفريقيا يجري الفصل على أسس اللون ، فسكان جنوب أفريقيا الأصليين (الذين يبلغون على الأقل ٧٥٪ من عدد السكان الحاليين) لا يحق لهم التصويت ، ولا يُعدّوا عمليا مواطنين ذوي جنسية في الدولة . أما في حالة العنصرية في إسرائيل فمعظم السكان الفلسطينيين الذين أجبروا على ترك فلسطين قد صنفوا تحت قانون الأملاك الغائبة وهذا يجرد الفلسطينيين من أبسط الحقوق الطبيعية لأي إنسان ، وهي حقه العيش على أرضه وفي وطنه . وتبعا لقانون الأملاك الغائبة لا يحق لغير اليهود (أي السكان العرب الباقين في الداخل) من شراء أي أرض أو أملاك يعدها القانون يهودية . فكل الأراضي العربية التي استولت عليها إسرائيل تعد قانونيا من أملاك المؤسسة الصهيونية المسماة "كيرن كيميت" التي أسسها المؤتمر الصهيوني الثاني في ١٩٠٦ . إن الكيرين كيميت استولت على معظم الأراضي العربية بالقوة ، وهذا يدحض الإدعاء الصهيوني القائل أن السكان العرب رحبوا بالمستوطنين الصهاينة وباعوا لهم الأراضي بأبخس الأثمان . فمن أحد الأساليب الفعالة التي

تستعملها "إسرائيل" في سلب الأراضي الفلسطينية (وهنا لا فرق بين الأراضي الفلسطينية في الجليل أو في الضفة الغربية) إعلان الأراضي العربية أراضي مغلقة بحجة أهميتها للدولة . ففي هذا المجال يزودنا د . دافيس بقائمة كاملة للقوانين الإسرائيلية الخاصة بالاستيلاء على الأراضي العربية . من هذه القوانين قانون الأمن ، وقانون إحياء الأرض البوار . وفي الوقت الحالي هناك ألوف الدونمات العربية المغلقة باسم الأمن في الجليل والمثلث والضفة الغربية ولا يسمح لأهلها بفلاحتها . في هذا المجال لا يحلل د . دافيس النتائج العملية لمثل هذه القوانين . فالسؤال هنا هو : ما أثر هذه القوانين على المليون فلسطيني الموجودين في الداخل ؟

ومن أهم النتائج العملية في رأيي هو وقوف فلسطينيي الجليل والضفة في صف واحد لمواجهة المخططات الصهيونية لاستلاب الأراضي الفلسطينية . ووحدة الصف هذه تظهر واضحة كل سنة في ٣٠ آذار «مارس» وهو يوم الأرض الفلسطيني الذي يعبر عن مواجهة صلدة للعنصرية الصهيونية في محاولاتها لسلب العرب من أراضيهم .

ومن ناحية أخرى فإن من النتائج السلبية لمصادرة الأراضي العربية ، حصر السكان الفلسطينيين في مناطق معينة ، وهذا معناه تحجيم الانتشار السكاني الفلسطيني بيث المستعمرات اليهودية في قلب المناطق العربية كوسيلة لخلق واقع سكاني وقانوني جديد . إلى جانب ذلك فإن التضييق الاقتصادي والمالي التي تفرضه "إسرائيل" على السكان الفلسطينيين قد يؤدي بالدرجة النهائية إلى هجرة الكفاءات الفلسطينية إلى الخارج ، وهذا ما يحدث بشكل أو بآخر مع كثير من الفلسطينيين الذين يفقدون حقهم بالرجوع إلى وطنهم بعد مدة من الزمن .

الجيش والسياسة

يذكر د . دافيس أن "إسرائيل" دولة محكومة بواسطة قانونين : قانون مدني وآخر عسكري . فالمناطق الفلسطينية التي احتلتها الحركة الصهيونية سنة ١٩٤٨ كانت خاضعة للحكم العسكري حتى نشوب حرب ١٩٦٧ ، عندما أخضعت إسرائيل المناطق الفلسطينية الجديدة للقانون العسكري . وطبقا لهذا القانون تخضع الضفة الغربية لاشراف عسكري مباشر ويحكمها حكام عسكريون يعينون من قبل وزارة الدفاع . إن معظم الحكام العسكريين يتكلمون اللغة العربية بطلاقة ، وكثير من مستشاريهم السياسيين يحملون درجات جامعية عليا في مجالات اللغة العربية والشرق الأوسط والدراسات الاسلامية . وهذا يبين مدى الإنسجام بين طبقة المثقفين والطبقة العسكرية في إسرائيل . فهذا التطابق في المصالح بين الفئتين يوضح الهيمنة الفعلية للعسكريين على المجالات المهمة من الحياة المدنية والسياسية لإسرائيل ، وهذه الطبقة العسكرية تجد لها تبريراً عقلانياً وثقافياً من قبل طبقة المثقفين . بمعنى أن إسرائيل هي دولة عسكرية بطلاء ديموقراطي .

ويحلل د . دافيس نتائج حرب ١٩٦٧ فيقول ان هذه الحرب قد أدت إلى ظاهرتين متناقضتين في حياة الحركة الصهيونية المعاصرة : أولا ظاهرة تفوق الصهيونية ، ثانيا ظاهرة اضمحلال الصهيونية . فالصهيونية في نجاحها العسكري ضد ثلاثة دول عربية ، استطاعت أن تحصل على بلايين الدولارات من الجاليات اليهودية في العالم الغربي ، إلى جانب المساعدات الطائلة من دول أوروبا الغربية ومن أمريكا ، ولكن من ناحية أخرى ، فإن حرب سنة ١٩٦٧ لم تؤد إلى إخلاء أكثر من جزء بسيط من السكان العرب ، وهو عكس ماحدث في حرب سنة

١٩٤٨ عندما أخلي السكان العرب من أراضيهم . من جهة نظر الحركة الصهيونية التي أرادت إخلاء الأرض من السكان العرب فإن بقاء العرب في بلدهم كان فشلاً للصهيونية . وهذا ما أدى إلى تقليص فعالية إسرائيل على رسم خطط واضحة لمواجهة الزيادة السكانية العربيةفي الداخل . فحسب الإحصائيات يبلغ معدل الولادة لدى العرب في الداخل ٣,٥٪ ، بينما معدل الولادة عند السكان اليهود لا يتجاوز ٢,٠٠٠٪ وهوالذى يعني عمليا أن عدد السكان العرب في الداخل سوف يعادل ان لم يتفوق على عدد السكان اليهود في أقل من عشرين سنة من الآن . فالحرب السكانية التي يشنها السكان العرب في الداخل سوف تؤثر على المستقبل السياسي والقانوني للدولة اليهودية وباعتقادي أن المعركة القادمة التي سوف تشنها "إسرائيل" بشراسة ، بعد إحراز هدوء نسبي على الحدود مع سوريا ولبنان ، وسوف تكون موجهة ضد السكان العرب في الداخل ، وبخاصة في الضفة الغربية ، وهذا الذي يحدث الآن وتتصاعد حدته يوما بعد يوم كالا غلاق المتواصل للجامعات الفلسطينية في الداخل ، والتضييق المستمر على المؤسسات الوطنية ، ووضع الوجوه الوطنية تحت الإقامة الجبرية ، أو طردهم من بلدهم في كثير من الأحيان ، كل هذا يحدث تحت إطار الدعوة إلى إنعقاد مؤتمر دولي ، تدعو إليه شفهيا بعض قيادات حزب العمل الإسرائيلي . وما هذا برأيي إلا لعبة سياسية "إسرائيلية" لكسب الوقت إذ أن الرأي العام والسياسي في إسرائيل يدعو إلى الإحتفاظ بالجزء الأكبر من الضفة الغربية بحجة أهميتها للأمن .

من أهم النتائج السياسية للسيطرة الصهيونية هي فقدان الحرية السياسية للفلسطينيين . وفي هذا المجال يذكر د . دافيس أن الكنيست الإسرائيلي قد وافق على قانون في سنة ١٩٨٠ يحق بموجبه لوزير الداخلية الإسرائيلي أن ينزع الجنسية "الإسرائيلية" عن أي شخص يقوم بعمل يهدد شرعية الدولة . فمثلا ، إذا أيد أي مواطن إسرائيلي (وهنا المقصود بالذات الستمائة ألف فلسطيني الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية لأسباب شرحناها سابقا) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، إما عن طريق رفع شعارات ، أو القيام بأعمال عسكرية وسياسية معادية للدولة ، أو تسلم نقود من المنظمة ، فكل هذه الحالات تعد أسباباً ملائمة لنزع الجنسية عن هذا المواطن . إن هذا القانون وإن لم يطبق حتى الآن قد يؤدي في المستقبل إلى طرد جميع الفلسطينيين من حملة الجنسية الإسرائيلية ، ذلك لأن معظم هؤلاء الفلسطينيين ذوو ولاء قومي ووطني لقضيتهم .

إسرائيل": مجتمع يحكمه العسكريون

بالمقارنة مع كتاب دافيس المتشعب النواحي فإن كتاب جانسن يحلل موضوعاً معينا بشكل تفصيلي ، الا وهو التاريخ العسكري "لإسرائيل" منذ قيامها حتى الأحداث التي تلت حرب لبنان سنة ١٩٨٢ ومذابح صبرا وشاتيلا . تقول الكاتبة ان هدف الكتاب هو شرح الحالة السياسية الراهنة في "إسرائيل"، وتقييم إمكانيات احتمال السلام في المنطقة . من هنا فإن الكتاب يركز على الاعتبارات المختلفة لحرب سنة ١٩٨٢ ، ومنها التناقضات الأيديولوجية في الحركة الصهيونية ، والتي - برأي الكاتبة - قد عمقت من الانقسامات الثقافية والاجتماعية في المجتمع "الإسرائيلي". لذا يجب ألا ننظر إلى حرب لبنان كظاهرة شاذة ، وإنما هي ظاهرة مكملة للحركة الصهيونية بخاصة جناحها العسكري .

خلال تحليلها للتاريخ العسكري "لإسرائيل"، تركز (جانسن) على تقسيم فلسطين وإنشاء "إسرائيل" في ١٩٤٨ . وتقول إن قوات الهاغاناة والارجون التي كونت ما يدعى الآن « جيش الدفاع الإسرائيلي » ، كان بمقدرها أن تزج بـ ٢٠٠ ألف جندي وجندية إلى المعركة ضد الجيوش العربية ، مزودين بأحدث العتاد الحربي . بينما كل الجيوش العربية مجتمعة لم تكن تستطيع أن تزج إلى المعركة بأكثر من مليون جندي مزودين بعتاد غير متطور . فكان معروفا من قبل الهاغاناة قبل التقسيم انه سيكون بإمكانها أن تقيم

دولة يهودية مع تأمين حدودها .

بعد تأسيس "إسرائيل"، فإن القيادة الحاكمة وإن كانت مدنية في هيئتها إلا أنها كانت عسكرية في تكوينها وطرق تفكيرها . من هنا فإن بن جوريون - الذي كان أول رئيس وزراء لإسرائيل - يعد المؤسس الحقيقي للدولة الصهيونية ، لأنه كان أول شخص له سلطة سياسية وعسكرية ، والذي باشر بتطبيق الأهداف العسكرية للحركة الصهيونية على حساب السكان المحليين . فبن جوريون والقيادة المحيطة به آمنوا عمليا أن الطريق الوحيد للحفاظ على الدولة الجديدة ، هو بناء سور حديدي حول إسرائيل ، وأن السلام مع العرب غير ضروري لأنه كان بمقدرة إسرائيل العيش بالاعتماد على جيشها . بسبب هذا الموقف فإن بن جوريون أجبر على إشراك الجيش في القرارات الحساسة التي تهم الدولة ، لذا فإن مسؤولية الأمن كانت تخضع مباشرة للسلطات العسكرية وليس المدنية ، إلى جانب خلق مناوشات عسكرية محدودة ضد الدول العربية المحيطة ، الذي أدى في النهاية إلى مركزية الجيش والأمن في حياة الدولة . وكما تقول الكاتبة فإن بن جوريون بشخصيته العسكرية كان المثل الأعلى لكل إسرائيلي . وقد حاول بيجن أن يحتذي به في حربه ضد لبنان ، ولكن كما سنرى فإن سيرة بيجن العسكرية واجهت فشلا ذريعا . وتبعا لذلك فإن الأحلام التوسعية التي بدأت مع بن جوريون انتهت مع بيغن .

وتتحدث الكاتبة عن تطور العقلية العسكرية الإسرائيلية في عقد الخمسينات فتقول إن هدف إسرائيل بعد الثورة المصرية في ١٩٥٢ كان زعزعة النظام المصري الجديد ، وبالذات تخريب أي علاقة حسنة للنظام المصري الجديد مع الغرب ، وخاصة مع الولايات المتحدة . فمثلا وزارة الخارجية الأمريكية كانت واعية بالمخططات العسكرية الإسرائيلية تجاه مصر ، وكانت مقتنعة أن هدف إسرائيل هو الدخول في حرب شاملة ضد مصر . من احدى الوسائل التي استعملتها إسرائيل في خلق مشاكل لمصر كانت تشجيع بعض اليهود المصريين على القيام بأعمال تخريبية في القاهرة ، وهذا ماحدث فعلا في ١٩٥٤ ، ولكن المشتركين في عمليات الإرهاب مع بعض الجنود الإسرائيليين قبض عليهم حيث اعدم البعض أو انتحر . هذه الحادثة تعرف بحادثة لافون ، التي كانت تحت سمع وبصر القيادة الإسرائيلية . بعد حادثة لافون المشهورة فإن القيادة المصرية اتخذت قرارا ببدء مناوشات محدودة ضد المستوطنات الإسرائيلية ، وهذا ما شجع القيادة العسكرية الإسرائيلية على تنفيذ خططها ، فاتخذت تبعا لذلك قراراً في سنة ١٩٥٥ بالتحضير لمواجهة عسكرية مع مصر . وتلاحظ الكاتبة أن الطبقة العسكرية القوية في إسرائيل اعتبرت الفعالية العسكرية الهدف الأعلى للدولة . فمثلا تعلق شاريت ، - الذي كان وزيراً للخارجية في ذلك الوقت - هو أن المشكلة التي كانت تواجه القيادة الاسرائيلية لم تكن مشكلة السلام مع العرب ، وإنما الاعتماد على الحرب كوسيلة لرفع المستوى العسكري والنفسي للمواطن "الإسرائيلي". هنا تعلق الكاتبة بسخرية على هذه العقلية بقولها ان الإسرائيليين يحبون القتال ولكن ليس الموت من أجل أهدافهم التوسعية .

بن غوريون وديّان

لم يكن الشخص الذي لعب دورا عسكريا وسياسيا مهما قبل وبعد حرب ١٩٦٧ سوى موشي ديان الذي يعد مكملا للدور الذي بدأه بن جوريون مع تأسيس الدولة . فموشي ديان لم يخطط وينفذ

الإستراتيجية العسكرية قبل وبعد ١٩٦٧ فقط ، بل وضع حجر الأساس للمستوطنات الإسرائيلية في الضفة والقطاع ايضاً . وكان هدف المستوطنات من منظار ديان هو الوصول إلى تكامل اقتصادي كامل بين الأرض المحتلة وإسرائيل . إن هذين الهدفين - بناء المستوطنات والتكامل الاقتصادي - ما زالا يشكلان حجر السياسة الإسرائيلية نحو الأرض المحتلة .

لكن النجاح العسكري العربي الجزئي ضد إسرائيل في حرب ١٩٧٣ أدى إلى إنهاء الدور العسكري لديان لأنه كان مسؤولا عن فشل إسرائيل بالتنبؤ بالحرب وبعواقبها . هذا الوضع أفسح المجال فيا بعد ، وبالتحديد في سنة ١٩٧٧ ، لمجيء حزب الليكود إلى الحكم بقيادة مناحيم بيغن . وقد أعلن بيغن فور فوزه بالانتخابات عن هدفه في التمسك بالأرض المحتلة بقوله ان « يهودا والسامرة (أي الضفة الغربية) هما جزء حيوي من دولتنا .... فهذه هي بلادنا التي حررناها بالقوة في حرب ١٩٦٧ » .

وتعلق الكاتبة على موقف بيغن بالقول « ان بيغن اعتبر نفسه منقذاً وهادياً لليهود . فهو أراد أن ينقذهم من الفلسطينيين ولهذا السبب شن حربا عسكريا على الفلسطينيين في لبنان ، وأخرى نفسية وسياسية في الأرض المحتلة » . وبيغن وشارون هما اللذان جهزا لهذه الحرب على الجبهتين الداخلية والخارجية بأربع خطوات رئيسية . الخطوة الأولى كانت تعين رفائيل إيتان ، وهو أحد أصحاب الفكر التوسعي ، رئيساً للأركان . والخطوة الثانية كانت « تهدئة » الأرض المحتلة عن طريق تعين مناحيم ميلسون ، وهو أحد المستشرقين الإسرائيليين المشهورين ، مسؤولاً عما يسمى بالادارة المدنية في الضفة . كان الهدف المرسوم لملسون هو القضاء على القوة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية في الضفة عن طريق الإغلاق المستمر للمؤسسات الوطنية ، وخاصة الجامعات ، وأيضا زج الشخصيات الوطنية في السجن ، أو حتى إبعادها إلى خارج الأرض المحتلة . كما شجع ملسون « روابط القرى » ، وحاول إبرازها كبديل سياسي على حساب المنظمة . والخطوة الثالثة كانت مسرحية إخلاء المستوطنين اليهود من سيناء .

وكما تقول الكاتبة فإن الحكومة الإسرائيلية اتفقت مع المستوطنين على أن يرفضوا الخروج من سيناء قبل تسليمها لمصر حسب اتفاقية كامب دافيد . ولكن الحكومة أخرجت المستوطنين بالقوة ، ذلك حتى تبرهن للرأي العام العالمي صدق رغبتها في السلام . والخطوة الرابعة والأخيرة كانت طبعاً الهجوم على لبنان . وقد استغلت إسرائيل استغلالا كبيرا حادثة الهجوم على السفير الإسرائيلي في لندن من قبل جماعة أبو نضال ، ونجحت في إثارة الرأي العام الغربي إلى جانبها مع أنها وكما رأينا كانت تعد العدة لشن هجوم عسكري على لبنان منذ زمن بعيد ، وان السبب الحقيقي كان القضاء على أي وجود فلسطيني في لبنان .

الثلاثي الارهابي

كان هدف الثلاثي - بيغن وشارون وإيتان - ليس فقط القضاء على الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ، وإنما - كما تلاحظ الكاتبة - هو محو الشعور القومي الفلسطيني . لكن الحرب زادت هذا الشعور القومي ، وخاصة في المناطق المحتلة التي عبرت عن هذا الشعور بالمظاهرات العارمة ضد سياسات الاحتلال .

تقول الكاتبة انه على الرغم من نجاح إسرائيل في اخراج المنظمة من لبنان إلا أن إسرائيل لم تنجح في خلق نظام سياسي موال لها هناك ، وأن اسرائيل لم تجد اللعبة السياسية في لبنان ، مما جعلها تخسر خسارة كبيرة ، وأن تعتمد على جيش أنطوان لحد المسمى بجيش لبنان الجنوبي في الدفاع عن حدودها الشمالية . □

السريالية في مصر

تأليف : سمير غريب / عرض وتقديم : جميل حتمل*

في نهاية ثلاثينيات هذا القرن وبداية أربعينياته كانت القاهرة تمور بالأحداث المنبئة بتغيرات قادمة ، وكانت إرهاصاتها تأخذ أشكالا جنينية لتيارات فكرية وتنظيمات سياسية ومدارس أدبية وفنية ، وكانت الحركة السريالية محصلة لجميع تلك الارهاصات .

بين المقدمة والفصل الذي يكشف فيه المؤلف عن غايته من وضع كتابه « السريالية في مصر » الصادر عام (١٩٨٦) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة ، يوضح سمير غريب موقفه مما يسميه الانحطاط في الوضع الثقافي الراهن ، مستندا الى ذلك الازدهار الذي شهدته الثقافة في مصر ، منذ ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن ، الآخذ حاليا بالذبول . ولهذا يضع المؤلف عنوانا (طعناً في الحاضر) لمقدمته الغاضبة والمحقة الى حد كبير ، منطلقا فيما بعد الى متابعة أوضاع الحركة السريالية ورموزها في مصر ، والتأريخ لها .

المؤسسون أولا :

يقسم المؤلف كتابه الى عدد كبير من الأقسام التي يفتتحها بمتابعة حياة اثنين ، يعتبران مؤسسي السريالية في مصر ، أحدهما (رمسيس يونان) الذي ولد في مدينة (المنيا) الصغيرة في مصر عام (١٩٣١) ، والآخر (جورج حنين) الذي ولد عام (١٩١٤) لأب يعمل في الحقل الدبلوماسي .

ويتابع المؤلف في هذا القسم تفاصيل حياة هذين المؤسسين وانتقالاتهما الفكرية والجغرافية التي أتاحت لكل واحد منهما الاطلاع على دقائق مهمة في الثقافة

* قاص وصحفي سوري مقيم في باريس .

الغربية المعاصرة ، وذلك من خلال تمكنها من اللغة الفرنسية تحديدا ، مما أتاح لها فيما بعد التعرف على الحركة السريالية في فرنسا وغيرها ، والانغماس فيها . وقد كتب (جورج حنين) في عام (١٩٣٥) أول رسائله الى مؤسس السريالية (اندريه بريتون) الذي قام بعد أشهر بالرد على هذه الرسالة بحماس بالغ ، فقال في أحد مقاطع هذه الرسالة : « يبدو لي أن للشيطان جناحا هنا ، وآخر في مصر . . » وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التراسل أن يتم التعارف بين الاثنين ، وأن تعقد صداقة بينهما ، ويبدو أنها أججت حماس (حنين) الذي قام عام (١٩٣٧) بتنظيم جماعة للسريالية في مصر ، بعد تقديمه محاضرة عنها قبل ذلك ، وليصبح (رمسيس يونان) أحد رموز هذه الجماعة ، مقدما إسهاماته في نشاطها الفكري ، و« مدشنا » ذلك عمليا بكتابه « غاية الرسام المصري » ، ومساهما في نفس العام بإصدار بيان جريء للجماعة بعنوان « يحيا الفن المنحط » ، وقد وقع عليه مع أكثر من أربعين شخصا .

ويكمل المؤلف ـ سمير غريب ـ رصد نشاطات واتجاهات هذه الجماعة السريالية ، مبينا بشكل خاص إسهامات رموزها ، ومتابعا الاصدارات التي قدمتها ، كنشرة « دون كيشوت » التي صدرت عام (١٩٤٠م) بالفرنسية ، ثم مجلة (التطور) التي كانت أول مجلة تصدر بالعربية للحركة ، والتي لم تعكس موقفا من الفن فقط ، بل قدمت أساسا توجها اجتماعيا واضحا ، قد يكون ميز الجماعة في مصر عن الحركة السريالية العالمية ، وربطها بهموم الواقع .

وعلى الرغم من تعرض نشرات ودوريات سرياليي مصر للتوقف أكثر من مرة ، وللصدور بأكثر من اسم ، إلا أن ذلك لم يوقف ـ كما يوضح الكتاب ـ نشاطهم المتجلي بفعاليات مختلفة ، أبرزها إقامة المعارض الفنية فضلا عن الكتابة . هذه النشاطات التي أهلت أحد رموز السرياليين المصريين وهو (جورج حنين) ليكون أحد ثلاثة يديرون السكرتارية الدولية للسريالية (كوز) .

هموم الوطن

يظهر الرصد الدقيق الذي يقدمه الكتاب لفاعليات السرياليين في مصر أن الهموم المصرية الوطنية احتلت القسم الأكبر من اهتماماتهم ، حيث لم يكن الموقع العالمي الذي احتلته حركة مصر في إطار السريالية العالمية شاغلا يبعدها عن انتمائها ولونها الخاص ، بل إن موقف (رمسيس يونان) يبدو أكبر مثال على ذلك ، حين رفض إذاعة بيانات ضد النظام المصري من الاذاعة الفرنسية حيث كان يعمل ، وذلك أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، مما سبب

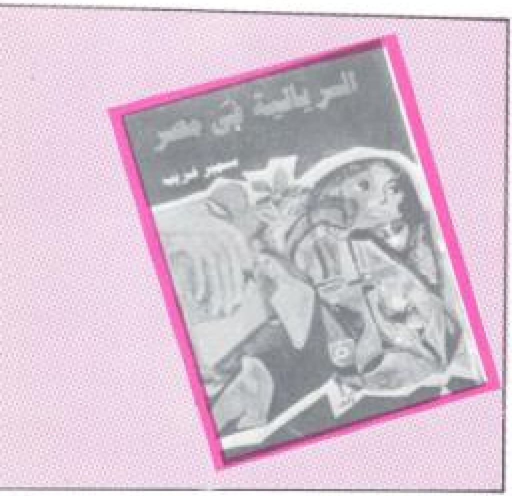

طرده من العمل مع ثلاثة من زملائه ، وليعود على أثرها مباشرة للعيش وللعمل في مصر . وقد سبق مثل هذا الموقف الفردي الشجاع موقف عام للحركة ، حيث رفضت موقف بعض السرياليين الغربيين من إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين ، بل وقد شجبت هذه المواقف في العديد من نشاطاتها .

أصوات طليعية

إن فصول الكتاب وأقسامه المتتالية فيما بعد ، توضح بالتفصيل طليعية سرياليي مصر ، ومدى

جديتهم والتزاماتهم ، وبخاصة ضمن الاطار الاجتماعي السياسي ، وكان من نتيجة ذلك مشاركتهم معا - أو كأفراد - في العديد من المناسبات والمواقف التي يوردها هذا الكتاب ، كالمعارك البرلمانية والنقد والمعارضة ، رابطين بين موقف سياسي متقدم ، وموقف فكري مواز ومماثل ، ومقدمين شروحاتهم وتنظيراتهم فيه ، بما يتعلق بمعظم أنشطة الفن ، كالتشكيل والشعر والنقد والقصة والدراسة ، ومساهمين في ميدان الترجمة ، حيث قام بعضهم بنقل العديد من النصوص الطليعية الى العربية ، كما فعل (رمسيس يونان) مثلا عندما ترجم أعمالا للشاعر الفرنسي (رامبو) .

ويقول الكتاب إن الحركة السريالية عموما في مصر قد ربطت ما بين النظري والعملي حين أردفت مواقفها الفكرية بمجموعة من المعالجات والتحركات الاجتماعية في أطر مختلفة ، نجد في الصفحات العديد من أمثلتها .

أسماء أخرى

ضمن التتبع الدقيق للكتاب ستجد أسماء عديدة أخرى ، أغنت بإبداعها نشاط الحركة السريالية المصرية ، كالفنان « كامل التلمساني » ، والفنان « فؤاد كامل » ، إضافة الى عدد آخر . سيبدو ثقلهم الأساسي متركزا في مجال العطاء الفني التشكيلي وهذا ما توضحه نشاطات الحركة في مجال إقامة المعارض المتلاحقة ، ولعل من أبرز ما يوضحه الكتاب أن الحركة السريالية التي اتخذت اسما أكثر تعبيرا هو « جماعة الفن والحرية » لم تفرق أو تميز بين أعضائها حسب اتجاه أي منهم ، بل تجاوزت ذلك نحو صهر توحيدي ، يعتمد على الموقف الفكري المتقارب

وفي عودة الى إطار الفن ، ستجد فصول الكتاب تشهد بجرأة على متابعة فاعليات أعضاء الحركة في المجال التشكيلي كرمسيس يونان ، وفؤاد كامل ، وابراهيم فارس ، وكامل التلمساني وغيرهم .

كذلك يلقي الكتاب ضوءا على جانب آخر ، ضمن هذا الاطار ، يتعلق بمجال النقد التشكيلي الذي صب بعض رواد الحركة جهدهم عليه ، ولذا لا يجد المؤلف أمام الجانب التوثيقي التاريخي للكتاب بدا من نشر نصوص كاملة في هذا المجال ، وقبل أن ينتقل لتوثيق نصوص أخرى في مجالات إبداعية مختلفة يخلص الى مجموعة نتائج مهمة ، يمكن تلخيصها بالشكل التالي :-

١ - أن السريالية وحركاتها في مصر أدخلت الفن والثقافة المصريين في الإطار العالمي بما يتبع ذلك من إدخال عوالم وقضايا ومصطلحات جديدة إليها .

٢ - مشاركة هذه الحركة في الحيوية الثقافية في مصر .

٣ - تأثيرها على عدة مجموعات ثقافية شابة .

٤ - تأثيرها في أجيال فنية لاحقة .

٥ - ملاحظة أن تأثيرها على المستوى الأدبي كان أقل منه على مستوى الفن التشكيلي .

٦ - مشاركتها في النضال السياسي والاجتماعي ضمن حدودها .

وبعد هذه الخلاصات المدعمة بشرح مستفيض يعمد الكاتب الى إشغال أكثر من ثلث صفحات الكتاب البالغة (٢٤٠) صفحة بمجموعة من النصوص والوثائق المختارة ، كبيانات الحركة الأولى ، وبعض مقالات أفرادها ، وبعض نصوصهم الابداعية ، وإن كان ثقل هذه النصوص التوثيقية لصالح اختيارات لجورج حنين إلا أنها تبدو بحجمها طبيعية قياسا الى دوره الفاعل الرائد .

السريالية المختلفة

إن كتاب « السريالية في مصر » يحمل جهدا واضحا ، ودأبا يبدو أكثر ما يبدو في عملية جمع مادته وتفاصيله ، هذه العملية التي بدت على الرغم من عدم التدخل الكبير للكاتب في الشرح شديدة الأهمية ، نظرا للقيمة التاريخية التي يعيها هذا العمل في رصد حركة كانت ستظل مجهولة بشكل أو بآخر ، على الرغم من طليعيتها واسبقيتها وجديتها .

هذا عدا عن أن الكتاب حاول أن يصحح صورة مشوهة ، قدمت مرارا لهذه الحركة ، واعتمدت

موقفا مسبقا حين عاملتها كحركة « تروتسكية » فقط .

كذلك فإن الكتاب يحمل بشكل مباشر الكثير من الايضاحات عن الموقف الوطني لها ، كما يوضح بشكل غير مباشر الوجه الخاص للعطاء السريالي في مصر الذي ظل مرتبطا بالهم الاجتماعي الداخلي ، فاصلا بشكل أو بآخر بين التعريف الاصطلاحي للسريالية بأنها تستخدم العمليات الآلية اللاواعية والحلم في نتاجاتها ، ثم المتحررة من رقابة العقل . فاصلا بين هذا التعريف وبين الممارسة العملية ذات الإطار الملتصق بالواقع المصري والمشاكل التي تعصف به .

لكن المؤلف ـ في ظننا ـ يقع في الخطأ فيما يتعلق بإبداعات السرياليين خارج مصر ، فهو يقول في مقدمة كتابه إنه قرأ عن صدور كتاب في سوريا عن السريالية في الأربعينيات لكنه شديد السذاجة ، ويبدو أن الكتاب المقصود هو مجموعة شعرية لأورخان ميسر التي صدرت في مثل هذا الوقت ، وحملت اسم « سوريال » ، وكانت من المجموعات الشعرية السباقة في مجال قصيدة النثر ، أي أنها في المحصلة لم تكن كتابا نظريا كما يظهر من مقدمة المؤلف .

أخيرا لعل العطاء الإبداعي السريالي في مصر يوضح أن الفن التشكيلي ذا المنحى السريالي قد قدم نتاجا يبدو مختلفا عن نتاج السريالية الغربي في هذا الإطار . من جانب آخر فإن اعتماد الحركة السريالية في مصر على اللغة الفرنسية سرعان ما تحول الى اللغة العربية ، حاملا معالجات مرتبطة بروح اللغة ، أي بخلفيتها الاجتماعية ، من هنا فإن السريالية العربية ـ إن صح التعبير ـ بدت مختلفة متمايزة . كما أنها قدمت وجهها الخاص ، أي وجه مصر أيضا .

ولعل ميزة الكتاب أنه يسمح باستخلاص ذلك ، وإن لم يقف باستمرار عند معالجة نقطة الاختلاف هذه بين سريالية الغرب وشكل عطائها ، وبين شكل عطاء سريالي مصر . □

الأدب التقدمي

● في استفتاء وجهته إحدى المجلات الأدبية حول (هل هناك أدب تقدمي ، وما هو مفهومه ، وما هي خصائصه ، ومن هم الكتاب الذين يمثلون هذا النوع من الأدب ؟) قال الدكتور عبدالعزيز الدوري : « إن الأدب التقدمي هو الأدب الحر الذي يجعل نصب عينيه هذه الحقيقة الكبرى : حقيقة تطور المجتمع تطورا علميا ، بكل ما في هذه الكلمة من مفهوم ، أما ما يعنيه بعض الناس بالأدب التقدمي الذي يرون أن يتقيد بفلسفة خاصة ، ويتحدد بحدودها ، ويتمسك بمفاهيمها ، فأمر أظن أنه يفتقر إلى الدقة افتقارا واضحا ، وأن كلمة تقدمية لا تزال مبهمة الحدود ، غير واضحة المعالم في اللغة العربية ، لأنها حديثة الاستعمال ، وإن كان البعض يعطي لهذه الكلمة مدلولا خاصا مستمرا من مفاهيم واتجاهات خاصة ، إلا أنه بعيد عن الدقة والوضوح ، وذلك لأن الأدب يجب ان يكون مرآة تعكس أحداث الحياة بمفاهيمها وآرائها المختلفة ، وأن يعبر عن أماني الأفراد والمجتمعات ، ويبين مدى ما فيها من حيوية وركود » .

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب/ قامات الزبد ـ رواية
المؤلف/ الياس فركوح
الناشر/ دار منارات ـ عمان ـ الأردن
عدد الصفحات/ ٢٦٦ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٧م

رواية الياس فركوح الأولى تدور أحداثها في بيروت مكاناً ، أما زمانها فهو بداية السبعينيات وحتى منتصفها ، القنص والاشتباكات والقصف المتبادل وحرب الفنادق وحصار مخيم تل الزعتر المريع وسقوطه .

على هذه الأرضية الزمانية والمكانية تتشكل أحداث الرواية من خلال متابعة مصائر شخصيات ثلاث ، تجمع بينها الدراسة الجامعية المتداخلة مع النشاط السياسي والعسكري والفكري الذي كان يعم بيروت في تلك الأيام .

وإلى جانب ذلك تحمل الرواية نفسا تجديديا على مستوى الشكل ، حيث يتعاون النص مع الهوامش مع فصول الرواية وأقسامها على رسم معادلة لحالة التشظي والانهيار الذي شهدته المدينة فيما بعد .

■■

الكتاب/ من سيرة حنظلة الشجراوي ـ قصص
المؤلف/ سليمان الشيخ
الناشر/ دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع ـ قبرص
عدد الصفحات/ ١٢٥ من القطع الصغير
سنة النشر/ ١٩٨٨م

الكتاب الثالث لسليمان الشيخ ، ومجموعته القصصية الثانية ، يواصل فيها الكاتب رصده للنواحي المختلفة من حياة المخيم ، فما تزال هناك مخيمات ، وما يزال هناك فقراء ومضطهدون ، وهناك من يحتفظ بالأوراق الرسمية ليثبت أنه كان يملك في فلسطين أرضاً .

قسّم سليمان الشيخ مجموعته إلى ثلاثة أقسام هي : من أوراق المخيم ، ملحق لأوراق المخيم ، مساحة للأطفال . وقد ضم القسم الأخير عددا من قصص الأطفال ، أما القسمان الأول والثاني فقد ضما قصص المخيم التي تبرز بينها القصة التي حملت المجموعة القصصية اسمها ، والتي تقدم فيها شخصية حنظلة المتمرد الثائر ، البسيط المتواضع ، من خلال قصة تروى للأطفال الذين يساعدون في الوقت نفسه بروايتها .

■■

الكتاب/ السينما المؤجلة
المؤلف/ محمد سويد
الناشر/ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت
عدد الصفحات/ ٢٠٠ من القطع المتوسط
سنة النشر/ ١٩٨٦م

لأول وهلة يبدو طموح هذا الكتاب متواضعاً ، فهو يؤرخ للسينما اللبنانية خلال عشرة أعوام (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥) ، وهي فترة زمنية قصيرة نسبيا ، لكن القارىء يدرك صعوبة المهمة عندما يتعرف من خلال الكتاب على التعقيدات الكبيرة المحيطة بالأعمال السينمائية والتلفازية التي تتراوح بين الفيلم الروائي

والتسجيلي والوثائقي وبين آلاف الأشرطة التي تم تصويرها خلال سنوات الحرب الأهلية التي ينطلق تاريخ الكتاب من السنة التي بدأت فيها ، إلى جانب رصده وتحليله لاتجاهات السينما اللبنانية خلال هذا العقد ، ويثبت في نهاية الكتاب ما يسميه (فلموغرافيا) ، وهو عبارة عن قائمة بالأفلام السينمائية اللبنانية التي أنتجت خلال السنوات العشر التي تناولها الكتاب .

■ ■

الكتاب/ نظر
المؤلف/ محيي الدين اللباد
الناشر/ العربي للنشر والتوزيع ـ القاهرة
عدد الصفحات/ ١٥٠ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٧م

كتاب فريد لفنان « الكاريكاتير » المعروف محيي الدين اللباد ، فهو لا يتضمن الرسوم « الكاريكاتيرية » التي أبدعتها ريشة هذا الفنان فقط ، بل يتضمن مقالاته التي نشرها منذ عام ١٩٨٥ في مجلة « صباح الخير » القاهرية ، وهي مقالات تتراوح بين تقديم شخصية فنية مهمة في مجال فن « الكاريكاتير » على المستوى العالمي أو العربي ، أو في نقد اتجاه ، أو إحياء ذكرى لفنان ، أو للحديث عن اسهاماته بلغة راقية مبسطة في نفس الوقت .

وقد عمد اللباد إلى إثبات مقالاته تلك بنفس الطريقة التي نشرت بها في المجلة ، دون أن يعيد إخراجها وترتيب مادتها ، وقد أضاف إليها بعض رسومه المميزة ، وربط من خلال بصماته وأسلوبه بين مواد الكتاب الجيد والجديد في الوقت نفسه .

■ ■

الكتاب/ الإله اليهودي
المؤلف/ كارل غوستاف يونغ
ترجمة/ نهاد خياطة
الناشر/ دار الحوار ـ اللاذقية ـ سوريا
عدد الصفحات/ ١٤٨ من القطع المتوسط
سنة النشر/ ١٩٨٦م

في مقدمة هذا الكتاب الذي يحمل عنوانا فرعيا هو « بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس » يقول عالم النفس التحليلي الكبير « كارل غوستاف يونغ » إنه لن يكتب بطريقة موضوعية باردة ، بل سيبيح لذاتيته وعواطفه أن تتكلم . ويضيف بأنه لا يكتب كما يكتب عالم بالكتاب المقدس .

من هذه المقدمة ينطلق يونغ لدراسة الإله اليهودي « يهوه » ، كما رسمت صورته في « سفر أيوب » ، وهي صورة ـ كما يقول ـ لإله لا يعرف الاعتدال في انفعالاته ، ويكابد من الآلام أشدها بسبب افتقاره لهذا الاعتدال ، ويسلم هو نفسه بأن الغضب والغيرة يأكلانه أكلا .

وخلال رحلة يقوم بها المؤلف في « سفر أيوب » والأسفار الأخرى يرسم يونغ صورة للإله اليهودي « يهوه » . □

من أين أقبلت ؟

● كان الصاحب بن عباد يقول : لم أسمع جوابا أظرف وأوقع وأبلغ من جواب عبادة ، فإنه قال لرجل : من أين أقبلت ؟ قال : من لعنة الله ، فقال رد الله عليك غربتك .

العربي - العدد ٣٥٤ - مايو ١٩٨٨م

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٥٤

مايو ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥٤ » . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يونيو ١٩٨٨

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٥٤

١ - بلغت نسبة الزيادة السكانية في العالم ككل ٢٪ وذلك في سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٢ ، ترى كم تبلغ هذه النسبة حسب آخر الاحصاءات (١٩٧٥ - ١٩٨٠) ؟
* حوالى ١,٧٥٪
* حوالى ٢,٢٥٪

٢ - أي الدول التالية هي الأولى في العالم من حيث ارتفاع نسبة الزيادة السكانية فيها : -
* الهند
* البرازيل
* كينيا

٣ - في أي البلدان التالية تهبط كثافة السكان الى أدنى مستوى لها في العالم ؟
* جرينلند
* ايسلندة
* الأسكا

٤ - في أي الدول التالية تبلغ الكثافة السكانية حدها الأقصى في العالم ؟
* بنجلادش
* اليابان
* ج . م . ع

٥ ـ في سنة ١٩٦١ أقامت سلطات ألمانيا الشرقية جداراً يفصل غرب برلين عن شرقها ـ ما هو طول هذا الجدار ؟
* حوالى ١٥٠٠ كم
* حوالى ١٠٠٠ كم
* حوالى ٥٠٠ كم

٦ ـ أي الدول التالية تملك حدوداً مشتركة مع أكبر عدد من الدول الأخرى ؟
* الصين
* تشيكوسلوفاكيا
* كندا

٧ ـ ترى كم بلغ مجموع سكان العالم في سنة (١) ميلادية ؟
* حوالى ٢٥ مليون نسمة
* حوالى ٢٥٠ مليون نسمة
* حوالى ٢٥٠ ألف نسمة

٨ ـ ما هو في تقديرك مجموع سكان العالم الكلي ، أي كافة من عاش على سطح هذه الكرة ، ثم مات على مدى الأربعين ألف سنة الماضية ؟
* حوالى ٦٠٠٠ مليون
* حوالى ٦٠,٠٠٠ مليون
* حوالى ٦٠٠ ألف مليون

٩ ـ بلغ عدد سكان العالم في منتصف السنة الماضية (٥٠٠٠) مليون نسمة ، ترى كم سيبلغ هذا المجموع بعد نحو قرن من الزمان حسب تقدير العلماء ؟
* حوالى ١٠,٠٠٠ مليون نسمة
* حوالى ٨٠٠٠ مليون نسمة
* حوالى ١٢٠٠٠ مليون نسمة

١٠ ـ أي الجزر التالية هي أكبر جزيرة في العالم من حيث المساحة ؟
* كالاليت نونات
* مدغشقر
* بورنيو

١١ ـ ما هو عدد الدول المستقلة ذات السيادة في العالم ؟
* ١٧٠ دولة
* ١٦٠ دولة
* ١٥٠ دولة

١٢ ـ أي الدول التالية هي أصغر الدول المستقلة في العالم من حيث المساحة ، وأيها هي الصغرى من حيث عدد السكان ؟
* الفاتيكان
* موناكو
* نورو

حلّ مسابقة العدد ٣٥١ فبراير ١٩٨٨

١ آية « والضحى » هي من أقصر آيات القرآن الكريم ، وهي مكونة من (٦) أحرف . وكذلك آية « والعصر » ، وآية « والفجر » .

٢ مذهب المورمون هو المذهب المسيحي الذي يبيح تعدد الزوجات ، غير أن كهنة المذهب قرروا إلغاء مبدأ تعدد الزوجات في اجتماع شامل عقدوه في يوتاه سنة ١٨٩٠ . ويعود تأسيس مذهب المورمون إلى النصف الأول من القرن الماضي ، وقد أسسه جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) ، وذلك بناء على الدعوة التي تلقاها لهذا الغرض سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٧ (وهي دعوة ربانية كما يعتقد المورمون . .) .

٣ إن المذهب السيخي الذي أسسه ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) في بلاد الهند ، والذي يعتبر المذهب السائد في ولاية البنجاب يقوم على وحدة الله عز وجل ، وعلى الإخاء بين الناس ، وكان الهدف من تأسيسه التوفيق بين العقائد الهندوكية وبين العقيدة الإسلامية ، وقد غلب الطابع العسكري السياسي على جماعة السيخ في وقت لاحق ، وتسنى لهم إقامة ولاية خاصة بهم ، واحتلال المناطق المجاورة لولاية البنجاب . وهم يسعون في الوقت الحاضر إلى الحصول على الاستقلال الذاتي في ولايتهم .

٤ يكون الدخان أبيض اللون إذا تمّ اختيار أو انتخاب البابا الجديد ، ويكون رمادي اللون إذا لم يتفق الكرديناﻻت ولم يتم انتخاب البابا الجديد ، وعندئذ يعيد الناخبون الكرة المرة بعد المرة حتى يتم الانتخاب .

٥ متساويان تقريباً (مجموع البوذيين = ٢٥٦ مليون نسمة ، ومجموع الكونفوشيين = ٢٧٥ مليون نسمة) .

٦ متساويان تقريباً وقد بلغ عددهم ، كما جاء في الإحصاءات الغربية (المسيحية) كالتالي :
المسيحيون = ١٢٠٠ مليون نسمة .
المسلمون = ١١٠٠ مليون نسمة .

٧ هو مذهب العلم المسيحي ، وقد أسسته امرأة تعرف باسم ماري بيكر ، وذلك في الولايات المتحدة ، قبل حوالي مائة عام (سنة ١٨٧٩ على وجه التحديد) . والجدير بالذكر أن هذا المذهب يقوم على الاعتقاد بأن الشفاء من الأمراض ممكن بالدعاء دون تناول دواء .

٨ الكونفوشية هي الديانة التي أسسها « كونج زي »أو كونفوشيوس كما

يسميه أهل الغرب ، وقد عاش كونفوشيوس نحو ٧٢ سنة (من سنة ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م) ، وقد عمل موظفاً بسيطاً في الحكومة ، ومارس التعليم ، ودعا إلى الأمانة والإخلاص والتعلم ، كما دعا إلى الاعتدال وعدم التطرف .

٩ الديانة الشنطوية هي الديانة التي انتشرت في اليابان منذ أقدم الأزمان . وقد جاءت حصيلة الدمج بين الكونفوشية والبوذية ، أما الاعتقاد بألوهية الامبراطور فقد أخذت من الديانة الشنطوية منذ القرن السادس الميلادي ، لكن هذه العقيدة ألغيت رسمياً بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٦

١٠ يوجد معبد (كراي ما) في مدينة بيكانار في ولاية راجستان الهندية ، والجدير بالذكر أن المعبد المذكور مكرس للآلهة (كراي ما) ، وهي في الوقت نفسه آلهة شعراء الشاران . ويعتقد عبدة هذه الآلهة أن روح الشاعر الشاران إذا مات تعود لتتقمص أحد الفئران .

١١ الزرادشتيون يتركون جثث موتاهم فوق أبراج خاصة ، يسمونها أبراج الصمت ، وذلك لكي تأكلها النسور ، فهم لا يدفنون جثث موتاهم في التراب ،ذلك أن الزرادشتيين يقدسون التراب كما يقدسون النار . وتجدر الإشارة إلى أن الزرادشتية هي دين الفرس القديم .

١٢ نعم ، ترجموه إلى الاسبرانتو في لندن سنة ١٩١٤ . وكان المترجم هو المسلم الانكليزي خالد شلدريك .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥١ فبراير ١٩٨٨

* إيمان الزعبي / دمشق ـ الجمهورية العربية السورية .
* أكرم طه عبدالسلام / محافظة المنوفية / مدينة الباجور ـ جمهورية مصر العربية .
* الهادي بن الطاهر بن ابراهيم / آزمور ـ تونس .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ـ سلوى خوري / بيروت ـ لبنان .
٢ـ محمد الطيبي / تابريكت / سلا ـ المملكة المغربية .
٣ـ عادل عبدالرحيم النور / ام درمان ـ السودان .
٤ـ محمد قاسم سومرو / جتهاني / باكستان
٥ـ قاسم حمودة عاشور / المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية .
٦ـ سيدات بن أحمد / نواكشوط ـ موريتانيا .
٧ـ ماريا محمود حسن / الوحدات ـ المملكة الأردنية الهاشمية .
٨ـ أحمد عارف الفاني / بيروت ـ لبنان .

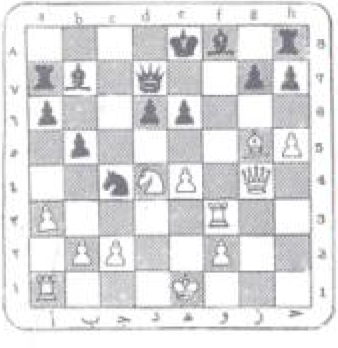

معركة بلا سلاح

إذا جاز لنا أن نشبّه مباريات الدقائق الخمس ونقلات الثواني العشر بسباق المسافات القصيرة ، والمباريات السريعة بسباق الأربعمائة متر ، والمسابقات الدولية بسباق الخمسة آلاف متر حقّ لنا عندئذ أن نشبه الشطرنج بالمراسلة بالماراثون ، فالنجاح في مباريات الشطرنج بالمراسلة كما هو الحال في الماراثون يحتاج إلى نفس طويل وطاقة هائلة وقدرة لا تُحدّ من الصبر والأناة ، وبالاضافة الى ذلك كله فانه يستهلك قدراً لا يستهان به من عمر المتسابق .

ففي بطولة العالم الأخيرة للشطرنج بالمراسلة التي بدأت عام ١٩٧٣ استغرق تأهيل اللاعبين الستة عشر للتصفيات النهائية خمس سنوات ، واستمرت مباريات التصفية التي بدأت عام ١٩٧٨ حتى عام ١٩٨٤ عندما أعلن الاتحاد الدولي فوز الأمريكي فكتور بلاسكياس ببطولة العالم بالمراسلة ، وبذلك تكون هذه المباراة قد استغرقت عشر سنوات غير منقوصة .

ومن الجدير بالذكر أن بطولة العالم الأخيرة للشطرنج بالمراسلة كانت تخلو من الانسحابات والأخطاء المكتبية . وقد قبل بلاسكياس الجامبيت المفضل لديه والمعروف بجامبيت ايفانز من بطل العالم السابق بالمراسلة ج . استرين وفاز في ٣١ نقلة .

ومع أن للسوفييت باعاً طويلاً في الشطرنج بالمراسلة إلا أنهم لا يسيطرون عليه كما هو الحال في الشطرنج فوق الرقعة . وهناك أوليمبياد للشطرنج بالمراسلة يجري حالياً ، ونهايته وشيكة ، وهي تبدو في صالح البريطانيين هذه المرة .

ومن المزايا الهامة للشطرنج بالمراسلة أن الافتتاحيات تكون عادة دقيقة وصحيحة ، فاحتمال الخطأ والنسيان بوجود عشرات المراجع بين أيدي اللاعبين الكبار يكاد يكون معدوماً . ومن أجمل أدوار بطولة العالم العاشرة للشطرنج بالمراسلة الدور التالي من الافتتاح الصقلي الذي فاز به اللاعب الفنلندي ر . كارونين على بطل العالم السابق للشطرنج بالمراسلة ج . استرين .

□ ر . كرائين (فنلندا)	■ ج . استرين (روسيا)
١) هـ ٤	جـ ٦
٢) ح - و ٣	هـ ٦
٣) د ٤	جـ × د ٤
٤) ح × د ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	د ٦
٦) ز ٤	أ ٦ ؟
(حـ ٦ أفضل لعرقلة هجوم الأبيض)	
٧) ز ٥	ح (٣) - د ٧

٨) حـ ٤	ب ٥
٩) أ ٣	ح - ب ٣
١٠) ف - هـ ٣	ح (١) - د ٢
١١) حـ ٥	ف - ب ٢
١٢) ر - حـ ٣	ح - هـ ٥
١٣) ز ٦	ح (٣) - جـ ٤؟ (رديئة)

(ملك الأسود مكشوف والأفضل حـ × ز ٦ والمبادلات التالية لا تشكل خطورة تذكر) .

١٤) ف × جـ ٤	ح × جـ ٤
١٥) ز × و ٧ +	م × و ٧
١٦) و - ز ٤	و - هـ ٧ ؟

(معرضا نفسه للكش دون مبرر) .

١٧) ف - ز ٥	و - د ٧

١٨) ح - د ٥ (لاستغلال التسمير ثم الاعداد لكشة مزدوجة) .

١٨)	ر - أ ٧
١٩) ر - و ٣ +	م - هـ ٨
(لو م - ز ٨	٢٠. ح - و ٦ +)

٢٠) ح - جـ ٧ (الشكل) يستسلم

لأنه لو و × جـ ٧ ٢١) ر × و ٨ + فيفوز بالوزير أو ينتهي الدور إذا أخذ بالرّخ .

ر × و ٨	و × هـ ٦ (مات)

مسألة العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨

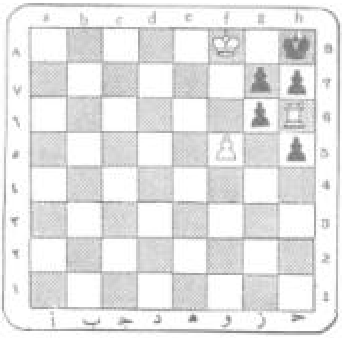

(مات ٢)

من إهداء القارئة حجيرة نوفل (المغرب)

حل مسألة العدد ٣٥٢ مارس ١٩٨٨

١) ف - حـ ٣	يلعب ما شاء
٢) و - ز ٤	يلعب ما شاء
٣) و - جـ ٨ (مات) .	

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥١ - فبراير ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ - رائف صبرا - جدة/ السعودية
٢ - محاسن محمد العلي - حماة/ سوريا
٣ - محمد العيسوي - حلوان/ ج . م . ع .
٤ - ظافر البكري - كشمير/ الهند
٥ - هيثم عبد الله جاسم - بابل/ العراق

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ - بنور عياد - بني حسان/ تونس
٢ - عمرو إمام - الصفاة/ الكويت
٣ - أسامة صادق - القاهرة/ ج . م . ع
٤ - أحمد محمد أحمد - عدن/ الديمقراطية
٥ - حسام نعمان محمد - عمان/ الأردن

حوار القراء

العربي ـ ص.ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الكويت

مواقع تاريخية في الوطن العربي

● قرأت في العدد ٣٥٠ من مجلة « العربي » ـ يناير ١٩٨٨ ـ تساؤلا من القارىء محمد طريف فرعون من دمشق بالجمهورية العربية السورية يتضمن طلبه من جهات الاختصاص في الوطن العربي أن يسعوا جاهدين للكشف عن الأماكن الأثرية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم .

وأضم صوتي من خلال مجلة « العربي » الى هذا الصوت العربي ، وبالمناسبة أذكر بعض ماله صلة بهذا الصدد مما قرأته في بعض المراجع والمصادر التاريخية التي تتفق على وجود أماكن أثرية تاريخية كثيرة في مناطق عديدة من الوطن العربي ، وان كان ذلك من خلال روايات بينها بعض الاختلاف .

ومن أهم تلك الأماكن في اليمن (جنوبه وشماله) مثلا الآتي : ـ

(١) قوم عاد :

هم بنو عاد بن عوض بن ارم بن سام من العرب العاربة أو البائدة ، وهم القوم الذين أرسل الله اليهم نبيه هودا . سكن قوم عاد الأحقاف ، وهي أرض بين عمان وحضرموت والشحر كما جاء في سيرة ابن هشام . قال الإمام علي بن أبي طالب : الأحقاف واد بحضرموت ، يدعى برهوت ، وتشتهر الجهة الشرقية من هذا الوادي بوجود قبر النبي هود ، وما زال أبناء المنطقة يتوجهون لزيارة القبر في شهر شعبان من كل عام . ذكر الهمداني في صفة الجزيرة : ان الأحقاف شرقي حضرموت ، كما أن برهوت عبارة عن حفرة عميقة في جبل من الجبال الشرقية بحضرموت .

(٢) بنو ثمود :

في اليمن خاصة بحضرموت مواقع لقرى بعضها اندثرت والأخرى عامرة ، كلها تحمل اسم ثمود . ولم يعرف لأهل ثمود مملكة ولادولة ولاحضارة ، بيد أنهم اشتهروا برعي الابل ، واشتغلوا كأدلاء للقوافل المخترقة لبلاد العرب من جنوبها الى شمالها ، أما الموقع فهو واضح (شبه الجزيرة العربية) . ويعتقد أن مساكن ثمود في شمال حضرموت ، اذ أن الروايات تقول ان نبي الله صالحا قد دفن في هذه المنطقة وما يزال موقع القبر يزوره الأهالي ويعتقدون أنه لنبي الله صالح في قرية خونب بوادي سر أحد الوديان التي تتصل بالوادي الكبير لحضرموت . كما أن الكتابات الثمودية وجدت في جمهورية اليمن الديمقراطية خاصة في حضرموت ، ووجدت كتابات ثمودية أخرى بمدائن صالح والطائف بالعربية السعودية ، وكذا في مناطق بشرق الأردن وجمهورية مصر العربية .

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

(٣) قوم تبع :

سمى ملوك حمير بالتبابعة وقيل : كان ملك اليمن لايسمى تبعا حتى يملك حضرموت وسبأ وحمير ، وذلك قبل أن يحكم اليمن الحارث بن الرائش ، وهو تبع الأول ، وكان يحكم اليمن قبله ملكان ملك بسبأ وملك بحضرموت ، وكان اليمنيون لايجتمعون كلهم عليها، الى أن جاء ملك الرائش فاجتمعوا عليه وتبعوه فسمى تبعا .

تقول كثير من الكتابات ان المقصود بالتبابعة هم أهل حمير الذين يملكون سبأ وحمير وحضرموت ، ومابين عامي ٢٦٠م ـ ٤٥٠ خضعت بلاد اليمن كلها لملوك حمير .

(٤) أصحاب الأخدود :

اعتنق في القرن الرابع الميلادي أحد ملوك حمير المسيحية فبنى كنيسة في حمير والأخرى في عدن . ودخل أحد الملوك التبابعة (حمير) في اليهودية في القرن الخامس الميلادي .

ويقال ان الملك الحميري يوسف ذو نواس الذي تهود سار الى نصارى نجران بحملة من جنوده بحمير الى نجران ، ليدعو أهلها الى اليهودية ، وقد خيرهم بين ذلك وبين القتل فأبوا ، فقاتلهم ، ومثل بهم حرقا بالنار وقتلا بالسيف ، وقد قتل منهم آلافا . والأخدود هو الشق العظيم المستطيل في الارض كالخندق ، وقد وجد نقش في نجران عليه اسم الملك الحميري ذي نواس ، ونقش آخر في رمال الربع الخالي مؤرخا بسنة ٥٢٤م ، وفيها قصص وأخبار حملة الملك الحميري المذكور .

(٥) أصحاب الرس :

في حضرموت منطقة اسمها بور ، كان يسكنها بنو حارثة بن الأشرس من كندة ، وبنو هذيل من حمير ، وكانت مدينة عامرة . وفي عهد نبيهم حنظلة بن صفوان كانت تسمى الرس ، وهو اسم نهر عظيم ضفافه دفنتها الأتربة فاستحال الى مسيل وما تزال آثاره باقية الى اليوم . وفي هذا النهر قتل أصحاب الرس نبيهم حنظلة في النهر غرقا . ويوجد ببور حاليا بعض المعاين او ينابيع الماء المتفجرة في الشعاب المحيطة بها (شعب الغيل / جبل حلحل / بانجار) . كما أن ببور بيوتا قديمة يستعمل ترابها سمادا . ولقد ذكر أبو الحسن الكسائي في كتابه مبدأ الخلق أن أصحاب الرس بحضرموت .

علوي عبد الله سميط

شبام ـ حضرموت ـ جمهورية اليمن الديمقراطية

حوار القراء

للتواصل الثقافي

● تحية عطرة تحملها النسمات الى أرض الأمان والمحبة ، أرض الكويت ، أقول لكم بصدق دون مجاملة ان هذه المجلة من أمتع المجلات وأكثرها فائدة .

حبذا لو تكرمت بنبذة عن تاريخ اصدار المجلة والغرض من اصدارها .

نبيل وهيب حيدر / طرطوس / سوريا

العربي

ـ مجلة شهرية ثقافية بدأت بالصدور عام ١٩٥٨ م عن وزارة الاعلام الكويتية ، والهدف من صدورها أن تكون واسطة ثقافية بين أبناء الأمة العربية ، وجسرا ثقافيا يصل أبناء المجتمع العربي الحديث بتراثهم الثقافي الواسع ، كما أنها تشكل نافذة واسعة ، يستطلع القارىء العربي من المحيط الى الخليج من خلالها ماتوصل اليه العقل الانساني من نتاج أدبي وعلمي وفني . ويسهم في تحرير هذه المجلة نخبة من المفكرين والكتاب العرب محليا وخارجيا . وقد نشرت المجلة خلال السنوات الماضية موضوعات شتى ، في مختلف مجالات الفكر والفنون والأدب والتربية والعلوم الطبية والعلوم التقنية ، والحضارة العربية الاسلامية ، ومايتعلق بشؤون الأسرة والمجتمع ، وغير ذلك من الموضوعات . هذا بالاضافة الى ماتقدمه مجلة « العربي » من خدمات مهمة للقارىء العربي ، تتمثل في عرض أحدث الكتب العلمية والأدبية ، وتحليلها ، ونقدها بأسلوب فكري سليم ، اضافة الى ذلك يصدر عن المجلة مجلة « العربي الصغير » ، مجلة الفتيان ، وسلسلة كتاب العربي التي صدر الكتاب الأول منها عام ١٩٨٤ ، وهي سلسلة فصلية ، محورها الأساسي تقديم مجموعة من الموضوعات لكاتب واحد ، أو موضوع واحد لعدة كتاب . وقد ارتفع توزيع مجلة « العربي » خلال الفترة (١٩٦٠ ـ ١٩٨٨) من (٣٥) ألف نسخة الى (٣٥٠) ألف نسخة ، أي مايعادل عشرة أضعاف . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو أن هذه المجلة تباع بسعر أقل من سعر التكلفة ، لكي تكون في متناول الجميع في الكويت والأقطار العربية ، فهذه المجلة بانتشارها الواسع لاتهدف الى الربح المادي ، وانما تهدف الى نشر الثقافة بين أبناء الأمة العربية وتنمية الوعي الفكري والعلمي لدى الناشئة على امتداد الوطن العربي ، باعتبارهم الدعامات الأساسية التي يبنى عليها الصرح الشامخ للأمة العربية .

■■■

القدوة الصالحة

● تحية طيبة ،

قرأت مقالة الدكتور أحمد كمال أبو المجد في العدد / ٣٥٠/ من « العربي » فخرجت منها بحمد الله على وجود مجلة على هذا المستوى وكتاب على المستوى نفسه من الاستنارة والعطاء الفكري الفذ ، وإلا لأصبح الانسان العربي في غياهب يأس مطبق .

كان عنوان المقال « المسلمون وعبور الفجوة » والواضح من العنوان وماوراءه أن

المقصود بعبور الفجوة هي تجاوز الواقع الحالي للأمة ، والانتقال بها عبر بوابة الاصلاح الى واقع جديد مختلف ، يبدو اذا وصفناه كالحلم العجيب لطول ما انتظرناه والتمسناه وسلكنا اليه سبلا بلا طائل . واذا كان التشخيص في عالم الطب أهم من العلاج فلقد أجاد الدكتور أبو المجد التشخيص أيما اجادة ، لاسيما عندما تحدث عن الكبائر الأربع التي تتلخص بافتقاد العقل المدبر المجاهد المجتهد ، وقلة الاحتفاء بحرية الانسان ، وإسقاط قيمة العمل والانتاج ، وفساد ذات البين .

هذه هي رءوس الكبائر التي ترتكبها الأمم بحق نفسها ومستقبلها وأجيالها ، ولو سلمنا بها دون زيادة أو نقصان لبقي علينا أن نصف العلاج لهذه الأدواء الخطيرة . وقد جاءت المحاولة في المقال نفسه تحت عنوان « الحشد للاصلاح » ، وذلك في المقطع الأخير الذي تساءل فيه الكاتب المفكر قائلا : « فهل يرتفع بعض أولي الأمر وأولي الرأي فينا الى حيث يستطيعون التذكير بهذه الحقائق الكبرى ؟ » .

وهنا أقول لماذا التذكير بعد ما ذكر مرارا وتكرارا ؟ ألم يأت علينا ضحى الغد الذي نستبين به الرشد ؟ ألم يفتنا الفوت ألف مرة ؟ .

ان الواجب المتحتم في رأيي هو أن تبدأ بصرف الدواء فورا من أقرب صيدلية ، وهي صيدلية محاسبة النفس ، واسم الدواء « القدوة الصالحة » . وهو دواء مر الطعم لكنه ناجع ، مركب من ثلاثة عناصر هي : جهاد النفس بالنفس ، والجهر بالحق أمام محب له وكاره ، ومعرفة المرء قدر نفسه سائلا ومسؤولا ، فبقدر مايكون له يكون عليه .

ان مناهل الوعي مبذولة متوافرة لأبناء هذا العصر ، ولاسيما أبناء أمة ذات تراث حضاري كأمتنا العربية ، شيد جسر العبور لها رواد في الفكر والعقيدة والتضحية .

عبد القادر محمد مايو / حلب / سوريا

■■■

فهـــرس خاص بمجلة « العربي »

● رئيس مجلة « العربي »

منذ خمسة وعشرين عاما وأنا أطالع مجلة « العربي » ، وأود أن أقدم اقتراحا بتصنيف فهرس للمجلة يسترشد به للاطلاع على الموضوعات التي نشرت في الأعوام الماضية ، مما يساعد القارىء في الاطلاع على مقاله المنشور في المجلة في أعداد سابقة ، ويسهل عليه أن يحصل على العدد المطلوب ، كما أن الموضوعات المنشورة في مجلتكم قد أصبحت مصدرا للقارىء . أتمنى أن يؤخذ اقتراحي هذا بعين الاعتبار .

يعقوب حقو

حي السريان ـ سوريا

ـ لقد تم اصدار الكشاف التحليلي لمجلة العربي ، وهو يغطي الفترة من ديسمبر ١٩٥٨ الى نوفمبر ١٩٨٣ ، ويضم الكشاف أربعة أجزاء ، جزءان للموضوعات ، وجزءان للمؤلفين ، وهو يشمل كل ماتقترحه في رسالتك المعبرة عن حرصك على تقدم هذه المجلة وتطورها ، كما أن « العربي » تنشر كشافا سنويا في عدد ديسمبر من نهاية كل عام للموضوعات التي احتوتها أعدادها خلال العام المنصرم . والفهرس يوزع في جميع

حوار القراء

المكتبات ، ويمكن لكل راغب في الحصول عليه أن يطلبه من الموزع المختص بتوزيع « العربي » .

■■■

رد من الدكتور عبد الوهاب المسيري

● نشر تعليق للقارىء جمال أحمد العيسى في العدد ٣٤٨ نوفمبر ١٩٨٧ على مقالي « حقيقة الأقليات اليهودية في العالم » في العدد رقم ٣٤٦ سبتمبر ١٩٨٧ ، وقد ذكر بعض المعلومات القيمة فنشكره عليها . وقد أثار قضية في غاية الخطورة والأهمية وهي ترجمة الأسماء ، فقد ورد اسم « شبتاي تسفي » في مقالي ، ورأى هو أن صحته « شابيتاي تسيف » ، ولا يمكن أن أقبل أو أرفض تصحيحه ، لأن القضية ماتزال خلافية ، اذ لم يستقر الرأي بعد على طريق ترجمة الأسماء ، وتتفاقم المسألة أكثر حينما ترد هذه الأسماء في سياق يهودي ، فشبتاي تسفي ، كان يعيش في سالونيكا وكانت جزءا من الدولة العثمانية ، ولذا كان ينطق اسمه باللغات التالية : اللادينو وهي لغة السفارد ، واليدين وهي لغة الاشكناز ، العبرية وهي لغة العبادة اليهودية وايضا والتركية العثمانية وهي لغة الدولة الحاكمة ، ولعل هناك لغات أخرى كان ينطق اسمه بها بطريقة أخرى ، ولاشك أن النطق يختلف من لغة لأخرى . ضمن أي اللغات تترجم الأسماء اذن ؟

الدكتور عبد الوهاب المسيري

■■■

على أحمد باكثير

● من حق قرائنا أن يعرفوا نبذة قصيرة عن حياة الأديب على أحمد باكثير الذي ولد في اندونيسيا عام ١٩١٠ لأب من حضرموت وأم اندونيسية . ومن المعروف أن العديد من الحضرميين وسكان عدن والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية كانوا يبحرون الى اندونيسيا وغيرها من مناطق شرق آسيا ويشتغلون بالتجارة . وهكذا كان والد الأديب على أحمد باكثير ، لكن المقام لم يطل به في اندونيسيا اذ أرسله والده على عادة الحضرميين الى حضرموت ، وهناك اشتد عوده وبدأ تعليمه ، ومن هناك رحل باكثير الى السعودية فقضى فيها فترة ، ومنها سافر الى مصر عام ١٩٣٤ فاستقر بها ، حيث التحق بقسم اللغة الانجليزية وآدابها بكلية آداب جامعة القاهرة ، حيث تخرج عام ١٩٣٩ ، وعمل مدرسا بعض الوقت ، ثم التحق بوزارة الثقافة والاعلام بمصر ، ومنح الجنسية المصرية ، وبقى عاملا في حقل الاعلام والأدب حتى وفاته عام ١٩٦٩م . أعظم ما أنتج على أحمد باكثير في باب القصة والمسرح انتاج له أهميته في تطور المجتمع العربي المعاصر ، وقد نشرت له قصص كثيرة من أشهرها « سلامة القس » ، « واسلاماه » ، وسيرة الشجاع .

سعيد محمد صالح

صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية

ردود قصيرة

● القارىء محمد غزل من جمهورية مصر العربية محافظة الدقهلية يسأل اذا كانت المجلة تفتح صفحاتها لنشر قصص من انتاج القراء ومجلة « العربي » ترحب بكل انتاج يرد اليها من داخل الوطن العربي وخارجه اذا كان يلتزم بأصول وقواعد النشر المعمول بها في المجلة ضمن خطة النشر الموضوعة ، واذا كان الانتاج غير منشور مسبقا ، وغير مرسل للنشر في جهات أخرى .

● القارىء محمد علي حبيب بوشهري - المنامة - البحرين ، والقارىء عبد الرزاق السيد محمد من كلية العلوم - جامعة طنطا بجمهورية مصر العربية يسألان عن كتاب « الذخائر والتحف » الذي ورد ذكره في افتتاحية العدد ٣٥١ - فبراير ١٩٨٨ بقلم رئيس التحرير . والكتاب هو من ضمن المطبوعات التي تقوم وزارة الاعلام الكويتية باصدارها من أجل دفع عجلة المعرفة والثقافة في الوطن العربي ، وقد صدر ضمن سلسلة التراث العربي سنة ١٩٥٩ للقاضي الرشيد بن الزبير ، وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد ، أما عنوان السلسلة فهو وزارة الاعلام - الكويت - سلسلة التراث العربي .

● القارىء طلال عبد الكريم خليل لديه الأعداد التالية من مجلة « العربي » وهي زائدة عن حاجته ، ويرغب في اهدائها لمن يرغب ، والأعداد هي : ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ومن يرغب في الحصول على عدد منها عليه مراسلة القارىء المذكور وعنوانه : سوريا - حمص الحميدية ، شارع بطرس كرامة رقم الدار «٨» - ص . ب ١٤٩٢ .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .

• ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام .

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير
أحمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير
د . سليمان ابراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو ١٩٨٨م

طبيعة الحياة

تأليف: فرانسيس كريك
ترجمة: د. أحمد مستجير
مراجعة: د. عبد الحافظ حلمي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢٥

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير : د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى : رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية.

ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية

جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.

- عقد الندوات التي تهم المنطقة أو المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- الاشتراك السنوي بالمجلة

أ) داخل الكويت: ٣ د.ك للأفراد ١٥ د.ك للمؤسسات.

ب) الدول العربية: ٣,٥٠٠ د.ك للأفراد ١٢,٠ د.ك للمؤسسات

جـ) الدول الأجنبية: ١٥ دولاراً للأفراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات.

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص.ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت. الرمز البريدي 72451

تلفون: جامعة الكويت - الشويخ
هاتف: [illegible]

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب

توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة

الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير

مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص.ب ٥٤٨٦ صفاة 13055

الكويت - هاتف: ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧-تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة

رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢٢٤ أول مايو ١٩٨٨

شروق الشمس

تأليف : تساويوي
ترجمة وتقديم : عبدالعزيز حمدي
مراجعة : د. تشاتو يوتشي

القرآن الكريم
سورة البقرة
. النص القرآني بالرسم العثماني والتشكيل
. فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
. فهرس لآيات القرآن حسب موضوعها
. البحث عن كلمة أو مجموعة مفردات
. شرح لغريب ألفاظ القرآن الكريم
. بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
. تحفيظ القرآن الكريم
. مكتبة القرآن الكريم
صخر كمبيوتر
العالمية
al Alamiah

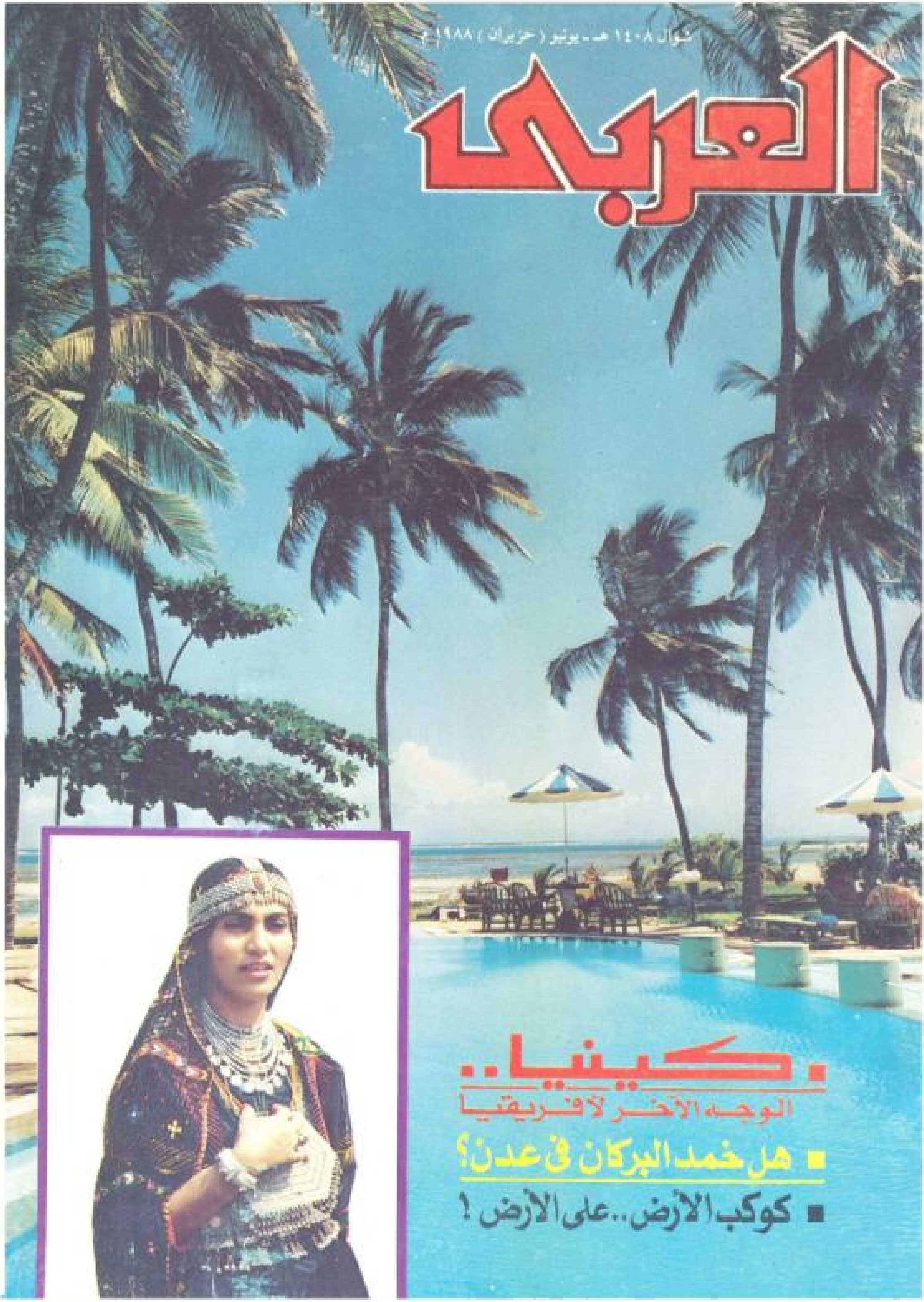
شوال ١٤٠٨ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٨٨ م
العربي
كينيا..
الوجه الآخر لأفريقيا
هل خمد البركان في عدن؟
كوكب الأرض.. على الأرض !

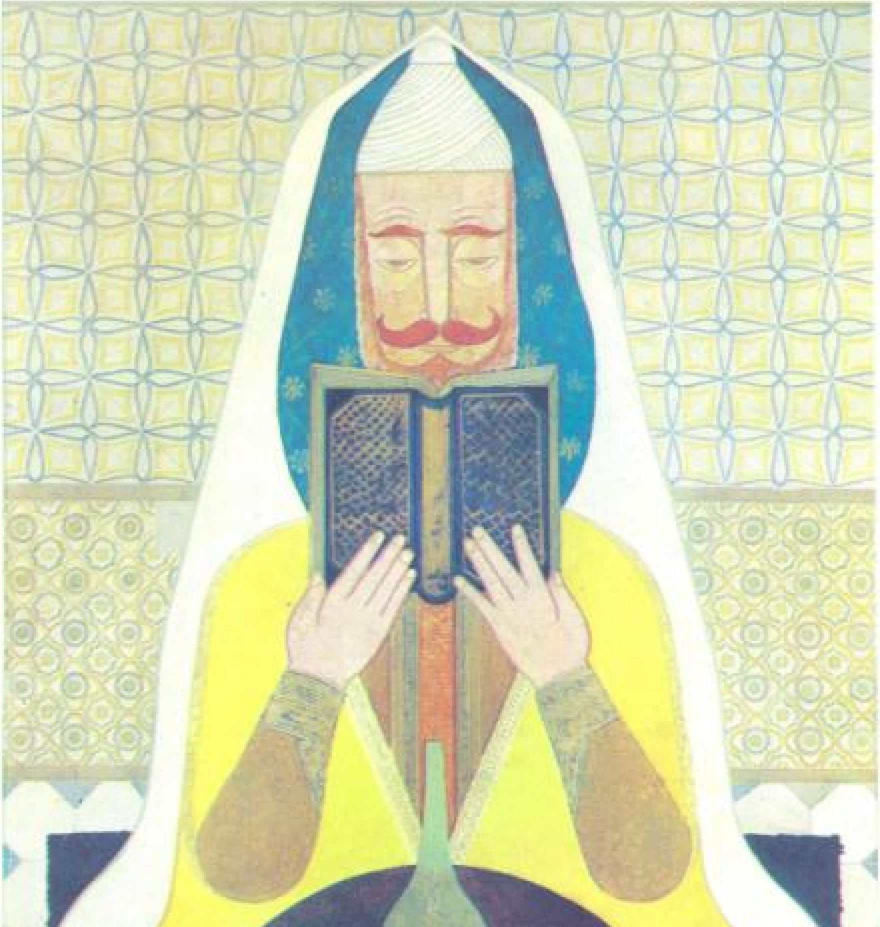

«المفتي»
للفنان التونسي عبد العزيز القرجي

العدد ٣٥٥ السنة الحادية والثلاثون يونيو ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً "العربي" الكويت - تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI
Issue No. 355 June 1988 - P. O. Box : 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

العربي - العدد ٣٥٥ - يونيو ١٩٨٨

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : حين تختفي الأوهام !
« البيريسترويكا » أو إعادة بناء إحدى القوتين العظميين .
ـ د . محمد الرميحي ٨
■ أرقام : الزبون رقم (١)
ـ محمود المراغي ٤٠

عروبة وإسلام :

■ مجلة اسمها « الاسلام » .
ـ د . عبدالعزيز كامل ٢١
■ النخبة العربية والاغتراب
ـ د . هاني الراهب ٢٦
■ للمناقشة : من يملك حقوق نشر القرآن الكريم
ـ فهمي هويدي ٤٨

استطلاعات مصورة :

■ « كريت » من هنا دخل الانكليز ، ومن هنا خرجوا !
ـ سليمان الشيخ ٦٨
■ كينيا الوجه الآخر لافريقيا
ـ محمود عبدالوهاب ١٣٢

طب وعلوم :

■ كوكب الأرض على الأرض !
ـ د . محمد نبهان سويلم ٥٣
■ الجديد في علاج الأرق
ـ د . أمل على المخزومي ٩٠
■ الصداع النصفي أو « الشقيقة »
ـ د . أنيس فهمي ١٠٠
■ الاستشعار عن بعد : العلم والتطبيقات !
ـ د . مأمون ملكاني ١٠٤
■ الجديد في العلم والطب
ـ إعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠

أدب وفنون :

■ أربعة خيوط في نسيج انتحار شاعر
ـ د . محمد جابر الأنصاري ٣١

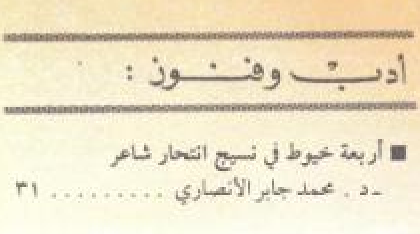

الكريتليه : البيت والمتحف والتاريخ والأثر ١٥٢

«كريتر» من هنا دخل الانكليز وخرجوا! ٦٨

■ يكاد المريب يقول خذوني!
- شريف الراس ٣٦

■ قراءة نقدية لكتاب: مساء البلورات!
- أبو المعاطي أبو النجا ٤٢

■ حقيقة القصيدة اللامية
- عبدالرزاق البصير ٦٢

■ عندليب الدم والأقحوان (قصيدة)
- د. محمود الشلبي ٦٦

■ سيرافيم (قصة مترجمة)
- سهيل أيوب ١٢٢

■ فلسطيني في الشتات
- د. حسين الدباغ ١٦٠

■ جمال العربية:
- صفحة لغة: تعابير يقرها المجمعيون
- د. حسن عباس ١٧٦
- صفحة شعر: تغير حسن الجعفري ... ١٧٨

■ أرقام فضية وأخرى حمراء (قصة)
- ابراهيم زعرور ١٨١

منتدى العربي:

■ قضية: في مفهوم الشعر .. رؤية الشعراء

■ وجها لوجه:
انجي افلاطون
.... ٩٣

المجلة
غير ملزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

الجاهليين
- د. عبدالمجيد زراقط ١١٦
■ تعقيب: براءات الاختراع وتنمية الابتكار
- د. محمد يوسف سعادة ١٢٠

تاريخ وتراث وأشخاص:

■ وجها لوجه: انجي افلاطون
- نجاح عمر ٩٣
■ الموت ظلما واغترابا: أزهري في روسيا
- يوسف القعيد ١١٠
■ الكريتليه: البيت والمتحف والتاريخ والأثر
- عبدالغني محمد عبدالله ١٥٢

مكتبة العربي:

■ كتاب الشهر: مشاعر محجبة
- خالد عباس ١٨٥
■ من المكتبة العربية: لوحات تسر الخاطر
- عادل ثابت ١٩٠
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة:

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٠
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٢) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ الكلمات المتقاطعة ٢٠٢
■ حوار القراء ٢٠٣

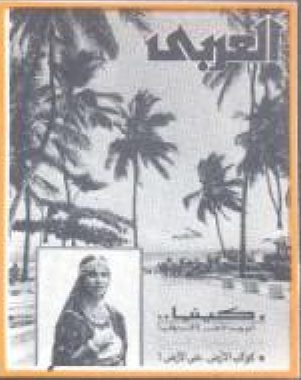

صورة الغلاف

«جمال خاص من نوع فريد، وطبيعة ساحرة.. كل هذا جعل من كينيا واحدة من اهم بلدان العالم الثالث سياحيا، مقدمة بذلك وجها مغايرا لافريقيا التى نسمع عنها».

[طالع ص ١٣٢]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ أطفالنا وعالمهم الجنسي المثير!
- ريم الكيلاني ١٦٢
■ المرأة والقوة المستمدة من العمل
- د. علياء شكري .. ١٦٦
■ هو ... هي ١٧٠
■ طبيب الأسرة: رياضة المشي
- د. حسن فريد أبو غزالة ١٧٢
■ مساحة ود: تقليد
- محمود عبدالوهاب .. ١٧٥

محنة الجابرية

سوف تظل «الجابرية» علامة ورمزا لكفاح شعب ضد الارهاب ، ففي فجر الثلاثاء الخامس من ابريل اختطفت عصابة جبانة الطائرة الكويتية (الجامبو ٧٤٧) قبل ساعات قليلة من نهاية رحلتها المقررة رقم ٤٢٢ من بانكوك الى الكويت ، وعلى متنها ركاب أبرياء . وعلى مدى خمسة عشر يوما بعد ذلك التاريخ ومحنة الطائرة وركابها حديث الاعلام العالمي . لقد انصبت التحليلات الصحفية والسياسية العالمية مع مرور الوقت على محنة الركاب«وعلى الدرس البليغ الذي لقنه للخاطفين ، بلد صغير في مساحته وعدد سكانه ، قوي بمبادئه وارادته ، هذا الدرس:انه لاتنازل للارهاب ، ولاتحقيق لاهدافه . .

وكان موقف الكويت التي عانى ابناؤها من مجمل ذلك الارهاب الذي تتوارى عنه خجلا شريعة الغاب ، موقف العزة والاباء العربيين أمام العالم أجمع . لقد قالت الكويت « لا » لعصابة باعت نفسها للشيطان ، وقالت « لا » لمحركيهم وأسيادهم .

ولم يكتف الجبناء بترويع الآمنين وتعذيبهم القسري بتنقلهم من مطار الى آخر ، في ظروف شديدة الخطورة ، بل قاموا - وذاك أفظع من أن يوصف - بتفريغ رصاص مسدساتهم بوحشية ليس لها نظير في رأس مواطنين كويتيين عربيين مسلمين هما الشهيدان عبد الله الخالدي وخالد أيوب بندر ، لاالذنب جنياه وإنما لكونهما ينتميان لهذا البلد المعطاء ، بلد التكافل والتراحم ، بلد الاسلام قولا وعقيدة وعملا . وقدمت الكويت على طريق تثبيت استقلالها وسياستها شهيدين آخرين في مسيرة شهداء سبقوا الى ربهم .

وظهرت الكويت أمام العالم صفا واحدا في تجاوز المحنة ، وعندما ودعت شهيديها كان ذلك تحت رذاذ المطر الذي مثل دموع الآلاف ،ليس حزنا على من قتلا غدرا فقط ، ولكن قهرا لتلك الطريقة الهمجية الجبانة في قتل ركاب عزل الا من ايمانهم بربهم ووطنهم وقوميتهم .

وعايش بقية الركاب أيام الاحتجاز الطويلة ،وصارعت ارادتهم - وان كانت حبيسة في الظاهر ، لكنها في الحقيقة مطلقة لانهم شرفاء أحرار - صارعت إرادتهم ارادة مختطفيهم - وإن كانت مطلقة في الظاهر الا أنها حبيسة حقدهم وتبعيتهم - وصرعت إرادة المخطوفين إرادة الخاطفين . وكما علمنا التاريخ فإن الحق يزهق الباطل .

وخرجت الكويت الوطنية ، القومية ، المسلمة من المحنة وهي أشد تصميما على اتباع الحق .

لقد كانت الجابرية تجربة أرادت بها القوى المعادية للعرب والاسلام وللسلام والمحبة أن تجعل العرب المسلمين مضربا للمثل في الرضوخ ، فصارت تجربة يضرب بها المثل في الصمود والعزة .

وكما قال سموأمير البلاد الشيخ جابر الاحمد عند انتهاء المحنة :

(إن منهجنا أن ندين العدوان ، وأن ندافع عن أرضنا ، وأن نقيم ميزان العدل في وطننا)،ولم تستطع تلك الشرذمة ، ولن تستطيع أية شرذمة أخرى مماثلة في المستقبل ، أن تمنع الكويت عن التقدم نحو مقاصدها الكبرى الرامية الى مجتمع انساني عادل في الداخل ،والى سلام وأمن تحكمهمامصالح العرب العليا في الخارج ، ولم تمنع مثل هذه الاعمال الكويت من التزام الحق ونصرته حيثما كان ، واقامة ميزان العدل في القول والحكم ، والوفاء بالعقود والعهود . فلقد تواصى الكويتيون بالصبر في المحنة ، وتواصوا بالحق تجاه الآثمين ، وبالحق والصبر انتصر منطق العدل والنور على منطق أصحاب الظلم والظلام .

لقد علمتنا محنة الجابرية أنه ليس هناك بلد صغير وبلد كبير ، ولكن البلدان تكبر بارادتها وقيادتها ، وتلك هي الكويت . □

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

حين تختفي الأوهام!

"البيريسترويكا" أو إعادة بناء إحدى القوتين العظميين

ليس من سمع كمن رأى . . .

ولقد رأيت رؤية العين ، وسمعت وقرأت حول ما يحدث اليوم في الاتحاد السوفيتي ، وخرجت بانطباعات عديدة ، فما يحدث في الاتحاد السوفيتي من تغيرات مشاهدة ومستمرة أو متوقعة أمر له أهميته القصوى ، وهو في تقديري يشابه - في أهميته التاريخية - ثورة أكتوبر العظمى سنة ١٩١٧ وتأثيرها على الاتحاد السوفيتي وعلى العالم الغربي وعلى العالم الثالث بما فيه نحن العرب .

لقد رأيت رؤية العين هذه التغيرات الكثيرة خلال عشرة أيام قضيتها في موسكو ولينينجراد ، قابلت فيها عشرات من الأكاديميين والسياسيين السوفيت ، وكنت قبلها قد قرأت ما توافر لي من مصادر غربية وعربية عما يحدث في الاتحاد السوفيتي منذ أن جاء هذا الرجل الذي شده العالم الى سكرتارية اللجنة المركزية للحزب السوفيتي في مارس ١٩٨٥ ، وأقصد بلا ريب السيد جورباتشوف .

بين مثالية المنظّرين الأوائل وواقعية الجيل الجديد

عندما اقتربت الطائرة قبل ظهر أحد أيام الأسبوع الأخير من شهر مارس الماضي من مطار موسكو الدولي ، أطللت من النافذة فوجدت أن الثلج قد بدأ يذوب في الشوارع المحيطة ، وهو ذوبان مبكر على شتاء موسكو التقليدي ، عندها قلت في نفسي : هل هذا الذوبان المبكر للثلوج يعد نتيجة التغيرات الجديدة الحادثة في الاتحاد السوفيتي ؟

بالطبع الأمر ليس كذلك ، ولكنها مقارنة لا يستطيع الكتاب أمثالنا إلا تصورها حتى لو كان ذلك في مخيلتهم فقط .

وبعد المشاهدة والتجوال والنقاش وتصفح وقراءة الكثير من الوثائق ، أستطيع أن أقول إن هناك مجموعة من الحقائق التي تبدو بارزة للعيان في هذا البلد الكبير ، منها أن الاتحاد السوفيتي في طريقه الى التغير ، وهو تغير لصالح الاتحاد السوفيتي نفسه في المقام الأول ، كما أنه تغير ـ ليس باتجاه التخلي عن النظام الاشتراكي لاعتناق النظام الرأسمالي كما يحلو لبعضهم أن يتوهم ـ لكنه تغير لاصلاح النظام الاشتراكي كما يعتقد القائمون به .

هذا التغير ليس سهلا ، فهناك بعض النتائج غير المحسوبة التي قد تأتي مع هذا التغير ـ إن تفاقمت ـ فقد يعتبرها البعض اتجاها الى الرأسمالية ، أو على أقل تقدير فشلا في الاشتراكية وبنائها النظري والتطبيقي ، كما أنه تغير ليس سهلا ، لأن هناك مقاومة ، بعضها واع وبعضها عفوي ، كما أن هناك ضغوطا خارجية ليست هينة .

وهناك بعد ذلك الكثير من التفسيرات المقدمة لأسباب التغير . لماذا التغير ، ولماذا إعادة البناء (البيريسترويكا) ولماذا العلنية أو الديموقراطية (الجلاسنوست) أهم كلمتين وأكثرهما ترديداً في القاموس السياسي اليومي في الاتحاد السوفيتي في الفترة الأخيرة ؟ !

لماذا هذا النقاش الواسع الملحوظ بين الدوائر السوفيتية المختلفة ، وبينها وبين العالم وخاصة الغربي ؟

هناك الكثير من التفسيرات ـ سنعرض بعضها في ثنايا حديثنا هذا ـ ولكن هناك تفسيراً أعم عدت من الاتحاد السوفيتي مقتنعاً به ، هذا التفسير هو أن هذا العملاق الضخم ـ الدولة العظمى الثانية في كوكبنا ـ تشابه رجلا له عضلات ضخمة وصدر منتفخ ولكنه يعاني من نقص هائل في قدرة احتمال ساقيه للنهوض بهذا الجسم الهائل ! ! وهو الآن يعالج هذا الخلل .

نعم ، فالاتحاد السوفيتي يحتاج الى فترة سماح ، فترة إعادة التفكير بكيفية تقوية هاتين الساقين كي تتناسبا مع بقية الجسم الضخم .

هذا بالتحديد ما يمكن أن يسمى باعادة البناء ، وطريقه (العلنية) والنقد ، وهدفه أن يقف الاتحاد السوفيتي ندا حقيقياً للعملاق الآخر وهو بالتحديد الولايات المتحدة .

وفي الطريق للوصول الى هذه الموازنة بين العملاقين ، هناك الكثير من التكتيكات والكثير من تعليق الأخطاء على المشاجب الجاهزة ، وأيضاً الكثير من التغيرات الفكرية التي قد يبحث لها عن نص هنا أو هناك لدى من سلف من المفكرين أو رجال الدولة الاشتراكية ، مثلهم في ذلك مثل أي مجتمع إنساني ، عندما يريد أن يتقدم فإنه يبحث في أوراقه القديمة .

في تقديري أن شرح ما يجري في الاتحاد السوفيتي اليوم ومحاولة رصد المسارات التي يتخذها ، وتحديد أهداف واضحة لنتائج هذه المسارات عملية فكرية صعبة ، كما أنها تحتاج إلى مساحة أكبر من مجموعة قليلة من الصفحات - وهذه الصعوبة في تصوري تكمن في أن هناك أربعة مستويات رئيسية يجري فيها التحرك الحالي في الاتحاد السوفيتي ، تتبعها مجموعة كبيرة من القضايا الفرعية الناتجة عن تلك المستويات الأربعة . والمستويات الأربعة التي يمكن رصد التغيرات الحادثة فيها هي :

أولاً : الايديولوجيا .
ثانياً : الاقتصـــاد .
ثالثاً : البيروقراطية .
رابعاً : العلاقات الخارجية .

●●●

هذه المستويات الرئيسية كما قلت قد ينتج عنها تفاعل متسلسل في قضايا أخرى مهمة كالعلاقات الاجتماعية الداخلية والموقف من القوميات والموقف من الدين والعلاقات بالعالم الثالث . . ومجموعة أخرى من التفاعلات التي قد لا يكون مخططا لها أو يمكن احتواؤها .

سأتناول بالتفصيل القضايا الرئيسية الأربع ، محور التحرك الجديد في الاتحاد السوفيتي ، ثم أحاول أن أعرض ولو بإيجاز التداعيات المختلفة اللاحقة .

الاشتراكية حمالة أوجه :

أولاً - الأيديولوجيا :

لعل أهم قضية من قضايا (البيريسترويكا) المرفوعة شعاراتها في كل مكان في الاتحاد السوفيتي هي قضية (الايديولوجيا) أي الفكر الماركسي اللينيني أو الفكر الاشتراكي ومدى مواكبته للعصر . وتوضع هذه القضية في تساؤل محدد : ما مدى قدرة هذا الفكر على التكيف مع الظروف المستجدة للواقع الانساني ؟

لقد طرأت على هذا الفكر في السابق بعض التحولات والتغيرات ، انصبت في معظمها على تكتيكات التطبيق ، كما تلونت هذه الايديولوجيا بألوان الثقافات الانسانية التي اعتنقت هذا المذهب السياسي ، فأصبح هناك اجتهادات صينية مثلاً أو إيطالية أو فرنسية وحتى روسية ، ولكن بقيت بعض المقولات شبه ثابتة ، منها مثلاً التنظيم المركزي للاقتصاد ، وتجاهل قوى السوق وميكانيكيته ، وعدم تشجيع المبادرات الاقتصادية الفردية والجماعية ، وأهم من ذلك الملكية العامة لوسائل الانتاج وطرق إدارتها . تلك بعض من المقولات شبه الثابتة .

هذه المقولات الآن تتعرض للنقد ، وحتى النقض . وتشير بعض الكتابات في هذا الأمر الى اجتهادات حديثة مبررة لهذا النقد والنقض ، منها مقالة مشهورة نشرها اندروبوف في سنة ١٩٨٢ ملخصها أن « الاشتراكية حمالة أوجه » بمعنى أنه يمكن تفسير النصوص التي قال بها منظرو الاشتراكية الأوائل ومن جاء بعدهم بمرونة شديدة . ويقول أحد الأكاديميين السوفيت للكاتب عند مناقشة هذا الأمر مازجا السخرية بالجد . . « إننا نعرف على وجه اليقين ظروف مرحلة العبودية الانسانية وكذلك ظروف مرحلة الاقطاع ، وأيضا عوامل ظهور واندثار الرأسمالية ، ولكن الانسانية لم تمر بشكل كامل بمرحلة الاشتراكية ، لذلك فإن ما يحمله تطورها المستقبلي غير معروف لدينا » ويضيف بدعابة لها معنى : إن كان التطور جيداً وإيجابياً فهذا من محاسن الاشتراكية ، وإن كان عكس ذلك فإنه من عيوب الرأسمالية ! !

ولكن الأمر أكثر جدية من ذلك . فالكثير من المحللين السوفيت يبحثون بجد ونشاط عن مقولات وأفعال للينين تؤيد الفكر الجديد ، فكر (إعادة البناء) . وينصب نقدهم على أن ماركس وأنجلز مؤسسى الفكر الاشتراكي كانا مثاليين ، اعتقدا بإمكانية إيجاد مجتمع جديد مثالي يتعدى شرور المجتمع الرأسمالي كما عرفوه ، مجتمع ليس فيه مكان لأن تتحكم السلعة في العلاقات التي تربط الأفراد ، وبالتالي تختفي منه الدولة ـ كما اعتقدوا ـ كتنظيم ، وتنظم جماهير العاملين نفسها لرعاية المصالح العامة .

يعتبر كثيرون اليوم تلك الأفكار مثالية ، بدليل أن لينين عندما أنشأ الدولة ، فإنه أقامها بمعزل عن تلك الأفكار المثالية نتيجة احتكاكه بالواقع ، فشرع فيما سمي « بالسياسة الاقتصادية الجديدة » (NEP) بإعادة الاعتبار الى نظام « السلعة مقابل النقود » كما أعاد فيها الاهتمام بنظام الدولة على أساس أنها (تشكل الحاجز الذي يحول دون التعدي على مصالح العمال) .

لقد وضع لينين ـ في اعتقاد كثير من الكتاب السوفيت اليوم ـ قواعد اقتصادية عملية لبناء الاشتراكية ، ولكنهم يقولون إن تلك الخطط قد تنكر لها

من جاءوا بعده وأحلوا محلها طرزا من الاشتراكية مجهضة . وتتحكم الدولة فيها بالنظام الاقتصادي عن طريق مركزية التخطيط ، واقتصرت فيها العلاقة التي تقوم على أساس (السلعة مقابل النقود) على مجرد التقيد بالسجلات ، وحلت الايصالات الورقية محل تسلم النقود الحقيقية ، وتحولت فكرة الاشتراكية ـ كما يقول هؤلاء النقاد ـ من « مملكة الحريات » الى « مملكة الضروريات » واقعيا .

من الخروتشوفية الى الجورباتشوفية : ٥

لقد شوهت الاشتراكية في عهد ستالين ، كما تقول الكتابات السوفيتية الحديثة ، وأصبح الشكل ـ وهو تأميم وسائل الإنتاج وسيطرة الدولة ـ يغني عن المحتوى ، وهو تمثيل مصالح الشعب ، وادت زيادة تدخل الدولة الى « ملكية الدولة لوسائل الانتاج » وهي تختلف عن « الملكية العامة لوسائل الانتاج » . ملكية الدولة أدت في نهاية الطريق الى عبادة الفرد !

ولقد سار الاتحاد السوفيتي ، كما يقول هؤلاء النقاد على مسار الخطط الاقتصادية التي وضعها ستالين حتى بعد غيابه . وحدثت محاولات إصلاحية جانبية متفرقة هنا وهناك بعد ذلك ، ولكن المسار استمر ، ومن مظاهره تحكم مركزي تمارسه الدولة في عموم الحياة الاقتصادية لا يعير اهتماما بالتكاليف غير المنظورة ، وهو تحكم فرض هيبة المؤسسات الرسمية التي زادتها البيروقراطية تعضيداً ورهبة .

لقد جرت محاولات لاصلاح هذا الوضع ولكنها باءت بالفشل . جرت المحاولة الأولى سنة ١٩٥٦ ، ثم كانت بعد ذلك المحاولة الثانية سنة ١٩٦٤ بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، ولكنها أنتجت فقط (الخروتشوفية) وهي انفتاح جزئي على العالم الخارجي .

وما نحن بصدده هو المحاولة الثالثة للاصلاح سنة ١٩٨٥ وتبدأ (بالبيريسترويكا) أو الجورباتشوفية .

تزخر الصحافة السوفيتية في مرحلة الاصلاح الثالثة بالمناقشات والاقتراحات . بعض هذه الكتابات ما زال ينظر الى المرحلة الستالينية نظرة إعجاب ، بل ويظهر ذلك في اعلى المستويات حتى في المكتب السياسي . وليس بخاف موقف إيجور ليجاتشيف الذي وافق على نشر مقال في إحدى المجلات السوفيتية يدافع عن ستالين ـ أثناء غياب جورباتشوف في زيارة إلى يوغسلافيا ـ في مارس الماضي ـ وقد أعيد طبع المقال في معظم الصحف والجرائد الإقليمية . وبعد اثنين وعشرين يوما ظهر مقال اخر يعارض ذلك المقال ويشيد بسياسة إعادة البناء .

« البيريسترويكا » هل هي أفكار فرد أو محصلة لتفاعل بين أفكار عدة أجيال ؟

المجتمع يتغير :

هذا الحوار ـ وإن شئت الصراع ـ يمكن أن تلاحظه في أكثر من مكان ، إنه ليس صراعا بين الجيل الجديد المطالب بإعادة البناء والتغير وبين جيل (بعضه فاسد ومرتش) كما اطلق عليه بعض الكتاب فقط ، ولكن هناك طرفا ثالثا ـ وهو الأكثرية ـ خائف ووجل من سرعة هذه التطورات . فقد قال لي أكاديمي وصحفي بارز : لقد كنا نشتكي من قلة التعددية محصورين في الرأي الواحد ، فأصبحنا بين عشية وضحاها نشتكي من كثرة التعددية حتى لم نعد نستطيع متابعة الآراء والأفكار الجديدة . . !

هذه التغيرات ـ على كل حال ـ ليست وليدة اليوم ، وليست من بنات أفكار السيد جورباتشوف فقط ، لقد كانت تتفاعل في داخل المجتمع السوفيتي منذ سنوات ، وقد عبرت عنها بعض الفئات والأفراد في بعض الأوقات ، لكنها نضجت في السنوات الأولى من الثمانينيات وظهرت بوضوح بعد أن وصل من يعتنقها الى السلطة . فليس من اليسير فهم إصدار كل هذه التشريعات في السنوات الثلاث الماضية ، وكذلك قبولها بسرعة في الاتحاد السوفيتي ، إلا لأن الظروف الموضوعية كانت جاهزة لهذه الولادة .

مــا هيَ أصــول الحكمــة الشعبيــة الـــتي تقـــول : لابطـالة في الاتحاد السوفيـتي ولـكـن لاأحـــد يعـمــل !

لقد غير جورباتشوف منذ قدومه الى السلطة في كثير من وجوه مواقع المسئولية العليا سواء في اللجنة المركزية أو - وهو المهم - في أعضاء المكتب السياسي .

بعض التغيرات تمت لأسباب قدمتها الظروف ، كاختراق طائرة المغامر الألماني لحواجز الدفاع الجوي السوفيتي ، أو لأخطاء وقعت في أماكن العمل . ولكن الجدل في التغيرات منصب على أن التغير جرى في الأفراد لا في سياسات وممارسات تاريخية طويلة ، كما أن شعار الديموقراطية والعلنية يمنع جورباتشوف من الإطاحة (غير الديموقراطية) بالمعارضين من الحرس القديم .

لقد كانت المشاكل تتراكم وتكبر وتصيب الجسم بالجروح بل وبالتقيح ، ولكنها لم تكن تظهر على السطح . (العلنية) هي التي أظهرتها . تفاقم هذه المشاكل دفع البعض الى أن يحث الخطا في عمليات الاصلاح الى درجة الإرباك ، وكانت قضية (بوريس يلتسن) الذي طالب بإزالة امتيازات لأعضاء الحزب والدولة ، والاسراع في خطوات الاصلاح عن طريق العيش مع معاناة الشعب (كالذهاب الى العمل بالمواصلات العامة ، والوقوف في طوابير لشراء اللحم) هذا التسرع أحرج المطالبين بإعادة البناء ، ولذلك أعفي يلتسن من منصبه . إلا أن التغيرات سوف تكون طبيعية وتدريجية ونتيجة لتغير تركيب الحزب الشيوعي السوفيتي نفسه في السنوات الأخيرة ، والذي يضم الآن حوالي عشرين مليون رجل وامرأة .

في العشرينيات كان عدد أعضاء الحزب لا يتجاوز مليونا ومائتي الف عضو ، القسم الأساسي منهم لم يتجاوز تعليمه الابتدائي (٨٨٪) ، بينما في الوقت الحاضر يشكل الأعضاء الذين أكملوا الدراسات الثانوية والعليا حوالي ٧٩٪ ، أهم من ذلك أن ٩٠٪ من العشرين مليونا الذين يشكلون عضوية الحزب اليوم ، انضموا إليه بعد الحرب العالمية الثانية ، بينهم ٣٢٪ تقريباً انضموا للحزب في العشر سنوات الأخيرة . هذه الاحصائيات تعني أن « الحرس القديم » أقلية رمزية فحسب .

•

ورغم أن هذا العدد الكبير لأعضاء الحزب يشكل عبئاً على حركة التجديد ، ويرجع البعض الى بعض مقولات لينين أيام الصراع الحزبي المبكر قبل الثورة ومنها « أن قوة الحزب في تطهير نفسه » عطفا على إمكانية التطهير والغربلة ، إلا أن القوى الجديدة واثقة من نفسها إلى درجة أن القيادة قد دعت الى « كونفرنس » وهو أقرب ما يكون - بالعربية - الى المؤتمر ، ولكنه ليس مؤتمراً تنظيمياً وسياسياً على غرار المؤتمرات العادية ، إنما هو (كونفرنس) عقائدي ، هو العشرون من حيث العدد ، ولم يعقد هذا (الكونفرنس) منذ

ستة وأربعين عاما (آخر كونفرنس عقد سنة ١٩٤٢ لاعداد البلاد للحرب العظمى الثانية) .

(الكونفرنس) هذا سوف يعقد في نهاية هذا الشهر (٢٨ حزيران / يونيو ١٩٨٨) وهو بالغ الأهمية لـوضع عقيدة (البيريسترويكا) موضع التنفيذ ، وضخ أفكار رجال ونساء جدد في شرايين الحزب على قاعدة « الايديولوجية الجديدة » . إنها بالتأكيد ليست « الأيديولوجية القديمة » .

التخطيط المركزي وفوضى الانتاج :

ثانياً ـ الاقتصاد :

التغير في الموقف الايديولوجي هو في حقيقة الأمر بسبب اقتصادي . فالدولة السوفيتية التي هي واحدة من دولتين عظميين تمتلك كل الأسلحة (والعضلات) كي تكون عظمى ، ولكنها فقيرة ، أو قل خاوية في الهياكل الاقتصادية . فالإدارة الاقتصادية وتوزيع الموارد ، والتقنية ، والخدمات التي يحتاجها الشعب كلها يشوبها عطل مزمن ، ومن (الحكم) الشعبية المرة التي كان الناس يتداولونها في أواخر عهد بريجنيف حكمة تقول « لابطالة في الاتحاد السوفيتي ، ولكن لا أحد يعمل ! ! ولا أحد يعمل ولكن الخطة الخمسية تطبق بتفوق ! ! الخطة تطبق ولكن لا شيء في المحلات ! ! لا شيء في المحلات ولكن كل شيء يوجد في كل بيت ! ! » .

هذه الطرفة الشعبية تعبر عن اللامعقول في الفترة الماضية ، ويمكن تسميتها في أدبيات اليوم بفترة « الركود الاقتصادي » .

ولكن هذه الفترة لها تعبيرات أكثر حدة ، يصفها جورباتشوف نفسه في كتابه بقوله (في النصف الأخير من السبعينيات ، حدث شيء ما في البلاد لم يكن قابلا للتفسير من الوهلة الأولى ، بدأت البلاد تفقد زخمها ، فالإحباطات الاقتصادية أصبحت أكثر تكرارا ، وبدأت المشاكل تتراكم والوضع يتدهور ، وتضاعفت المشكلات التي لم تجد لها حلا ، فإن نـوعية من آلية الكبح قـد تشكلت لتؤثـر عـلى كـامـل وجـوه الـتطور الاقتصـادي والاجتمـاعي . . فانخفضت معدلات نمو الدخل القومي الى أكثر من النصف ، وفي بداية الثمانينيات انخفض هذا المعدل ليقترب من مستوى الـركود الاقتصـادي . وهكذا أصبحت البلاد تفقد مواقعها واحدا بعد آخر) .

هذا النص يجمل الأزمة الاقتصادية السوفيتية في الخمسة عشر سنة الأخيرة ، وهناك نصوص تستخدم الأرقام لتدلل على نفس النتيجة ، وأصبح اللوم منصبا على إدارة الاقتصاد التي تنتج مثلا جرارات من نوع معين لا يحتاج

اليـه المستهلك ، بينما هنـاك نقص في جرارات أخـرى يمكن لنفس المصنع وبنفس المواد إنتاجها .

ويتهكم أحد الكتاب على التخطيط المركزي الأعمى للاقتصاد بقوله : (المخططون يفعلون ما يريدون . . والوضع الأفضل الذي يعشقونه هو عندما يبدأ الجميع بالاستجداء) ، ولقد كان هذا القول لسنوات قليلة خلت يورث قائله تذكرة سفر بلا عودة الى سيبيريا !

ولكن مثل هذا القول يردد على كل المستويات اليوم ، والهدف هـو الوصول إلى إدارة للمشروعات المختلفة بطريقة (اقتصادية) تتحمل الربح والخسارة ، فالمشروعات الـرابحة يكـافأ مـديروهـا وعمالهـا ، أما الأخـرى فيجازى القائمون عليها إلى حد البطالة ! .

لقـد أدى التخطيط المـركزي الى فـوضى في الانتاج . وتشـير بعض الدراسات الى أن ٢٥٪ من إنتاج بعض المصانع إنتاج إما غير لازم أو إنتاج غير صالح ، وهناك ملايـين الأحذيـة وملايـين الأمتار من القمـاش لا يوجـد ـ ببساطة ـ من يشتريها ، كما أن الدين الداخلي قد وصل الى أرقام فلكية ، فقد قامت المزارع الحكومية (الكولخوزات) والمزارع التعاونية (السوفخوزات) بالاستدانة من الدولة آلات ومخصبات ، ولكنها لم تسدد دينها ولم تعوض ما استدانته ! .

لذلك فإن التفكير الجديد ينصب على مبادىء منها العودة الى آليـات السـوق والربحية والإلغاء التـدريجي للمنشآت الصنـاعية أو الـزراعية ذات الكلفة غير الاقتصادية ، وإعادة النظر بمسـألة الأسعـار التي يجب أن تكون اقتصادية أيضاً .

كل تلك العمليات تحتاج الى زمن ، ولكن القرار السياسي قد اتخذ ويبقى فقط شكل التطبيق والذي قد يتصف بالمرونة الكبيرة . وقد صدرت القوانين بالفعل لتقنين الأعمال الفردية وتحديد أعمال (المقاولات) الشخصية والعائلية ، وإنشاء التعاونيات الحرفية في قطاعات إصلاح السيارات مثلاً ، أو إدارة المطاعم والمقاهي الخاصة ، بل وسمح لبعض المؤسسات الاقتصادية بالتعامل مباشرة مع شبيهاتها أو عملائها في خارج الاتحاد السوفيتي ، وأصبح هناك مشروعات مشتركة سوفيتية من جهة وإيطالية أو فرنسية أو سويدية من جهة أخرى . بل لقد شاهدت العمال يعملون ليل نهار في مجموعة من المباني الضخمة في أحد شوارع موسكو ، وعندما سألت عما تحتويه هذه المباني قيل لي : أنها فروع للبنوك الأجنبية ! ! .

إنه الابتعاد عما يسميه البعض « بشيوعية الثكنات » الى « الاشتراكية الواقعية » .

كيف تحصل على تذكرة سفر الى سيبيريا بلا عودة ؟

فك حبال البيروقراطية :

ثالثاً ـ البيروقراطية (الحيزبون) :

اذا كانت القضايا الفلسفية والفكرية سهل التعامل معها ، سواء كنت ضدها أو معها ، فإن الصعوبة الكبرى في تحويل اقتصاد مركزي مخطط استفادت منه طبقة كبيرة ونامية من البشر وتحكمت فيه بيروقراطية دولة ، إلى اقتصاد مرن يقارب « قوانين السوق » . ان العقبة الكئود هي البيروقراطية التي تضخمت في ظلها الرشاوي والسرقات والاختلاس وسوء استغلال الوظيفة وتفشي السوق السوداء . والبيروقراطية السوفيتية ليست جديدة فهي الابن الشرعي لبيروقراطية الإمبراطورية الروسية ، ضخمها تحكم الدولة (الاشتراكية) في كل شؤون الحياة تعقيداً ، فعشرون في المائة مثلا من الانتاج الزراعي السوفيتي يذهب سدى نتيجة للتخزين البيروقراطي ، وقد كتب أحد المعلقين السوفيت عن البيروقراطية يقول (البيروقراطية ليست فتاة ولدت بالأمس ونمت نمواً سريعا ، وإنما هي حيزبون رسم أجدادنا ملامحها الوراثية) .

البيروقراطية في الاتحاد السوفيتي تتلخص في كثرة كتابة الوثائق من جهة ، وفي عدم معرفة من يتخذ القرار في نهاية المطاف عندما تتضخم الوثائق وتنتفخ من جهة أخرى .

فك حبال البيروقراطية من حول رقبة الاقتصاد والمجتمع السوفيتي عملية بالغة الصعوبة ، ومعقدة ، بل هي أهم العقبات أمام (إعادة البناء) فالتطرف في المركزية قاد الى تحكم جهاز الدولة في أصغر الصغائر في حياة الأفراد والمؤسسات ، وأصبح رجال الدولة يقومون باحتكار كل مصادر الحياة ، وقد خلق ذلك طريقا مسدوداً للاقتصاد والمجتمع على حد سواء .

يعزز هذا الطريق المسدود ما درجت عليه الادارة المكتبية السوفيتية من افعال في سنين طويلة ، وما خلقته من التهيب من كل جديد في ظروف عبادة الفرد والنزعة المركزية ، ويقع الانسان السوفيتي العادي أمام معضلة ثنائية طرفاها:ما يتحمله من منغصات وهموم تخلقها ندرة السلع الاستهلاكية الجيدة التي يرى أنه يستحقها ، وطرفها الثاني نفوره من (الفرديين الأوغاد) والذين لا هم لهم إلا الركض وراء « الربح الفاحش » . بسبب هذا الموقف التاريخي المضاد تتعثر تنمية النشاط الفردي والتعاوني أمام عدم رغبة السوفيتي العادي في التغيير ، لذلك يقوم بوضع العقبات البيروقراطية الكثيرة أمام الأفكار الجديدة .

قبول السوفيت بالعادة والتقليد وما درجوا عليه في السابق ومقاومتهم للتغيير يدلل عليه الكثير من الكتاب في واقعة إدانة عبادة الفرد في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي سنة ١٩٥٦ . وقتها شكلت تلك الإدانة انهيارا لمثل الكثيرين الحياتية ، ولم يقبلوها إلا بعد فترة وعلى مضض . واليوم تتجلى انعكاسات الخوف من التغيير المتأصل في ذاكرة الأجيال الاجتماعية في مقاومة نزعات التجديد والعلانية وهدم القوالب الاقتصادية المعتادة .

فوقائع مثل سوء التدبير الاقتصادي ، وعدم التوازن بين العرض والطلب ، ودفع أجور مقابل عمل سيىء ، أو مقابل عمل غير ناجز ، أو بعثرة المال العام في إنتاج سلع لا تستهلك ، أفضل لدى الكثيرين من نشاط اقتصادي فردي من شأنه أن يضعف الروح الجماعية كما يعتقدون .

يكفي العالم أن يدمر مرة واحدة!

رابعاً - العلاقات الخارجية :

تفرض سياسة إعادة البناء مجموعة من الاعتبارات على الاتحاد السوفيتي . على رأس تلك الاعتبارات إقامة وفاق مع الغرب وخاصة الولايات المتحدة . والبعض يسارع الى فهم هذه الخطوة على أنها (تنازل) سوفيتي - وقد تبدو كذلك للوهلة الأولى - الا أن التفكير الاستراتيجي للسوفيت يقول ببساطة : لماذا نكدس الأسلحة النووية الضخمة والكثيرة ، يكفي العالم أن يدمر مرة واحدة فقط ! ! .

وعندما تفكر في هذا الموضوع فإن العين البصيرة لا تخطىء منطقيته. ويضيفون أيضاً : أن تجربة هيروشيما ونجازاكي قد علمت العالم درسا ، ولكننا تعلمنا درساً أكبر منه وأفدح في كارثة (تشيرنوبل) . . ان هذا المارد المسمى بالأسلحة النووية يمكن أن يدمر العالم إلى درجة غير متخيلة عند الكثيرين اليوم ، فهناك إما عالم واحد متعايش أو لا عالم .

يقول لي ايجور بريماكوف عضو اللجنة المركزية الجديد : (عديد من الأساليب والتطلعات الجديدة يحددها العصر الذي نعيشه . نحن نفهم الحاجة الآن إلى الموقف الواقعي ، وإذا لم تكن السياسة هي الواقعية فإن ذلك سيؤدي الى هلاك البشرية ، نحن نحكم على العلاقات الدولية بمعيار واحد هو هل تؤدي الى استقرار الوضع الدولي أم لا ؟) .

هذه الواقعية تعكس كما قلت الحاجة الكبيرة « لفترة الاستقرار » التي يريدها الاتحاد السوفيتي من أجل ترتيب البيت من الداخل . يضيف البروفسور أوليج بيرسيكن عميد الأكاديمية الدبلوماسية وعضو ديوان وزارة الخارجية السوفيتية على ذلك بالقول : (ان الهدف الأول للاتحاد السوفيتي في

ما هي سمات "الواقعية" و"الاستقرار" لإعادة ترتيب البيت السوفيتي من الداخل؟

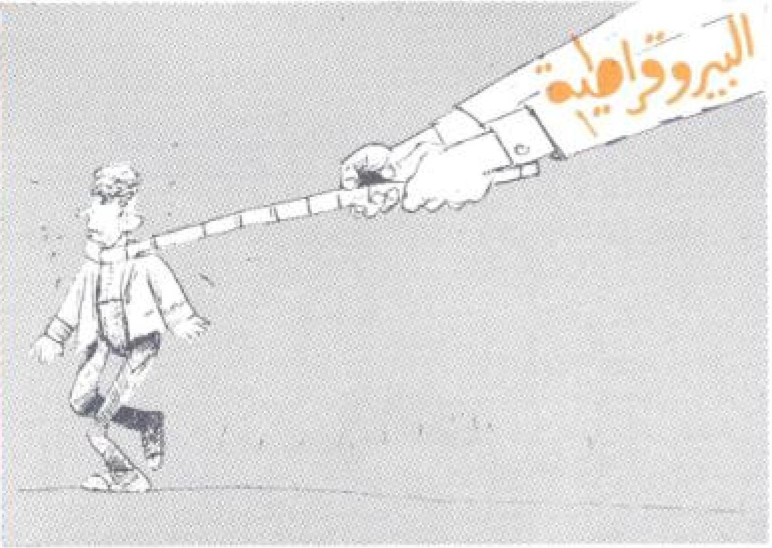

السياسة الخارجية هو ضمان الأمن الشامل للانسانية ، لأننا وصلنا الى قناعة أن البشرية لا تستطيع العيش والازدهار إلا في ظروف السلام ، لذلك نسعى جادين لتخفيض ترسانة السلاح النووي ولا نتعامل في هذا الموضوع بطريقة حسابية بحتة ، كم عندنا من الصواريخ وكم عندهم ؟ نحن قدمنا فكرة جديدة هي « الكفاية المعقولة في الدفاع ») .

من هذا الاطار الشامل تتفرع اهتمامات الاتحاد السوفيتي الدولية . ويصف سياسيو الاتحاد السوفيتي الصراعات المختلفة في العالم بأنها جروح دامية على سطح الكرة الأرضية (ولا نعرف أياً من هذه الجروح مميتة) في إشارة الى أن أي واحد منها يمكن أن يتفاقم كي يسبب صراعاً بين العملاقين ، لذلك لا بد من تطبيب هذه الجروح بالطرق السياسية . ولعل ذاك ما فعلوه في افغانستان ، وهو ما يطالبون به في الشرق الأوسط ، سواء في فلسطين أو في حرب الخليج .

من الملاحظ أيضاً أن اهتمام الاتحاد السوفيتي بتقوية المنظمات الدولية يأخذ طابعاً نشطاً (ونحن نعتبر أن الأمم المتحدة ليست مكاناً للمواجهة مع الغرب وإنما مكان للتفاهم) .

هكذا يقول لي أحد المتخصصين السوفيت (لذلك نحن نهتم مثلاً في موضوع فلسطين بعقد مؤتمر دولي كامل الصلاحية ، كما أننا ندرس تقديم اقتراح أن تكون إحدى دول عدم الانحياز عضواً دائماً في مجلس الأمن)

هــل تتقــدم الأيديولجيا عــلى العقــل السليم ؟

وكذلك (تعزز التعاون مع كل المؤسسات الأقليمية كالجامعة العربية ـ ومجلس التعاون الخليجي) .

ولا يستطيع المراقب إلا أن يلحظ النشاط الدائم للاتحاد السوفيتي في السنوات الأخيرة على الصعيد الدبلوماسي من البرازيل الى استراليا . يقول بيرسبيكن (في الماضي كانت علاقتنا مع العالم علاقة تصب في قوالب جاهزة ، وفهم محدود منبثق فقط من فهم ايديولوجي ضيق الأفق ، أما الآن فنحن منفتحون ومستعدون ، ليس فقط أن نسمع ، ولكن أن نتعاون أيضاً) ثم يبتسم ويقول : (إن الايديولجيا لا تتقدم على العقل السليم) .

●●●

ويبقى كثير من الملاحظات حول السياسات الجديدة للاتحاد السوفيتي . وكما قلت هناك نتائج غير محسوبة لهذه السياسات ، منها مثلاً موضوع الأديان ، فالاتحاد السوفيتي يستعد هذا العام للاحتفال بمرور ألف عام على دخول المسيحية للبلاد . وهي مناسبة تثير كثيراً من القضايا ، ليس بالنسبة للمسيحية فقط ، ولكن للأديان الأخرى بما فيها الاسلام ، فالمسلمون في الاتحاد السوفيتي يشكلون ثقلاً هاماً في تركيبته السكانية ، بل هناك حوار نشط لا يخلو بعضه من الشطط حول مستقبل المؤمنين في جمهوريات الاتحاد السوفيتي . وتعد الأوساط الأكاديمية دراسات جديدة حول موقف الفكر الجديد (البيريسترويكا) تجاه الأديان . كما نشطت حركة سمت نفسها « حركة الذاكرة » بإصلاح الكنائس لكن تحت غطاء ثقافي .

سوف يكون هناك تناقض حاد في ظل (العلانية) إن اتخذت الدولة موقفاً قمعياً من الأديان ، وتلك قضية معلقة لم تحل حتى الآن . . وقضية أخرى هي الموقف من القوميات ، وقد أطلت بالفعل مجموعة من القضايا الساخنة في صراع علني بين بعض القوميات في الاتحاد السوفيتي . ثم بعد ذلك كله نجد أن التنظيم الاجتماعي وحرية القول والعمل والعلاقات الاجتماعية الأخرى . . كلها قضايا قد تكون مرشحة للظهور في المستقبل القريب ولا يتسع المجال للحديث عنها الآن .

●●●

عندما أقفلت أبواب الطائرة في مطار موسكو استعداداً للاقلاع بعد الزيارة والمناقشات الكثيرة ، تذكرت ما قاله بسمارك مرة :

« إن الروس قد يأخذون وقتاً طويلاً لإسراج خيولهم ، ولكنهم ما أن يفعلوا ذلك حتى ينطلقوا مسرعين » . □

محمد الرميحي

مجلة اسمها
الإسلام

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

أبدأ القصة من أولها ، حين التقى نفر من علماء الاسلام ، من أقطار ومذاهب ، وألسنة وألوان شتى ، وأرادوا أن يصدروا مجلة اسمها « الاسلام » . فهو الرابطة الأساسية التي تجمعهم ، ومن جذوره تتفرع تخصصاتهم ، وعلى أغصانه تنمو زهورهم وثمارهم ، وفي ظله يجتمعون ، ومن أجله يعملون .

كان لقاؤهم في المدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج ،وقد تطهروا في هذا الفيض المؤمن ، الذي يجمع روافده من كل فج عميق ، وتلقى فيه الحجيج طائفين حول البيت العتيق ، ساعين بين الصفا والمروة ، دافعين إلى عرفات ، حيث اللقاء الأعظم الذي يضم الايمان والاحرام ووحدة الزمان والمكان ، فاذا غربت الشمس أفاضوا إلى المشعر الحرام ومنى ، ثم يطوفون بالبيت العتيق .

ومن هناك يحدوهم الشوق والحنين إلى زيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي خاطبه ربه : « يأيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ، (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦)، فجمع له في هذا الخطاب سبع صفات : النبوة ـ الرسالة ـ الشهادة ـ التبشير ـ الانذار ـ الدعوة إلى الله . وختام الصفات أنه سراج منير .

وفتحت له المدينة الأبواب والقلوب ، بعد أن ضاقت مكة وأشرافها بما حل إليهم من الهدى ، وكان من حكمة الله أن تتحول القبلة إلى البيت الحرام ، وكانت مكة وقتئذ تحت سيطرة قريش . ولكن البيت بيت الله ، والحرم حرمه ، والأصنام إلى زوال ، ويبقى التوحيد ليقيم من حوله الوحدة ، رب واحد وانسانية واحدة .

قاعة حوار إسلامية ١

وإذا كانت مكة صورة الوحدة والتوحيد ، فإن المدينة هي الصورة الأولى للمجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية . وكان مسجدها أول « قاعة حوار » إسلامية في ظل الحكم الاسلامي ، قاعة شهدت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وربطت بين أهلها من الأوس والخزرج ، ونظمت العلاقة بين

من في المدينة من المسلمين واليهود ، ومسئولياتهم في السلم والحرب ، في أول دستور شهدته الدولة الاسلامية .

في هذه القاعة لقي المصطفى عليه الصلاة والسلام قادة العرب ، وأحبار اليهود ، ونصارى نجران ، وأعطاهم عهده ، وأفسح فيها مكانا للمسلمين الوافدين ، وللمستضعفين والأرقاء ، دون تفرقة بين لون ولسان وعرق ، ودعا النساء إلى الاسلام ، وتحاورن معه ، وبايعهن ، وقبلن الاسلام ومسئولياته .

قاعة حوار من تقاليدها قول الله تعالى : « واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يَدْعُون رَبَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وَجْهَهُ ، ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تُرِيْدُ زِيْنَةَ الحياةِ الدنيا ، ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَه عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواهُ وكانَ أمْرُهُ فُرُطا » . (الكهف : ٢٨) .

ومن تقاليدها : « قُلْ يا أهْلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ، ألاّ نَعْبُدَ إلاّ اللّهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِنْ دونِ الله ، فإنْ تولّوا فقولوا اشْهَدُوا بأنّا مسلمون » (آل عمران : ٦٤) .

وقوله تعالى : « إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والنّصارى والصّابِئين مَنْ آمَنَ باللّه واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحاً فَلَهُم أجْرُهم عندَ رَبّهم ولا خَوْفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنُون » (البقرة : ٦٢) وفيها يحدد أركان الدين الثلاثة : الايمان بالله . الايمان بالجزاء الأخروي . العمل الصالح في هذه الدنيا .

من هذه القاعة الأولى ، من مسجد المدينة ، انطلق الصحابة يحملون أمانة الاسلام بمبادئه السمحة القادرة على التوالد والابداع والانتشار . وآمنت به شعوب تولت بنفسها نشر الاسلام فيما وراءها . وامتد الجناح الشرقي حتى وصل إلى مطلع الشمس في اليابان وجزائر المحيط الهادي . ومدّ الاسلام جناحه الغربي في افريقيا وأجزاء من أوروبا ، وعبر المحيط الأطلسي إلى العالم الجديد . وهناك في أقصى الغرب رفع مآذنه لتطل على مياه المحيط الهادي .

وفي هذا الامتداد ما تركت الحضارة الاسلامية أفقاً من آفاق المعرفة إلا شاركت فيه . ولا زالت آلاف الوثائق عن هذا الازدهار حبيسة المخطوطات غير المنشورة والمكتبات الخاصة .

لم تكن هذه الهواجس المشرقة وحدها في نفوسهم ، وإنما معها هواجس أخرى حزينة . ولكن كان من خطتهم تحويل طاقة الحزن إلى تخطيط واضح المعالم يتقدمون به إلى أمتهم . وكم كان تأثرهم بزيارة ميدان غزوة أحد ، ورؤية قبور الشهداء ، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وزيارة مقبرة البقيع حيث يثوى من لقى ربه في المدينة من الصحابة والتابعين ومن أهل بيت المصطفى رضي الله عنهم أجمعين ، ومن العلماء الذين لا زال عملهم وعلمهم نورا مسطورا تتوارثه الأجيال . وفي زيارتي للبقيع كنت أحس كأنه معلق بين السماء والأرض . أو كأن أرضه سحابة نقية تجمدت ، وضمت هذه الأجداث الطاهرة . وفي صمت البقيع حديث تسمعه بغير أذن ، وأنوار تراها بغير عين . هنا تلتقي أروع صور الجهاد والعلم والعبادة والزهد والتضحية والاخلاص ، كما يثوي في أرضه **من لقوا** ربهم أطهارا مظلومين في حروب داخلية دارت بين المسلمين ، من وقت أن وقعت الفتنة الكبرى وأراق المسلمون دم ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . وتتابعت بعد هذا الصراعات والمعارك التي وصلت حتى إلى اقتحام مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومحاصرة الكعبة ، وضرب مكة والحرم بالمنجنيق أكثر من مرة ، في العهد الأموي . ثم فتك القرامطة بالحجيج في العهد العباسي ، واجتراء بعض من يحملون اسم الاسلام على الحرمين الشريفين .

البدائل الثلاثة

كان أمام هذا النفر من العلماء ثلاثة بدائل ليختاروا منها : أولا : حديث عن أمجاد الاسلام ، وفي هذا أداء لبعض الحق ، ولكن الاقتصار عليه تخدير للعقول ، وانصراف إلى الماضي ، أو بعض الماضي ، عن مسئوليات الحاضر والمستقبل .

ثانيا : حديث عن الصفحات الدامية والصراعات الداخلية بين أبناء القبلة ، وقد ظلت هذه الصراعات الفكرية والسياسية والحربية قائمة لا تهدأ إلا لتقوم . وفي الاقتصار عليها ، أو إعطائها أكبر العناية ما يملأ النفوس ألما وحزنا ، وما قد ينعكس عليها يأسا من الحاضر يمتد إلى المستقبل . وسيقول أكثر من قائل : إذا كان هذا هو الماضي أو أكثر ، وهذا هو تكوين العقل الاسلامي أو العربي ، فإن غده امتداد لماضيه ، وقد تحدث فيه بعض التعديلات ، ولكن الغالب على قومنا هو هذا الفكر الفردي أو القبلي أو العنصري . إنهم لا زالوا أسرى قيود ضيقة ، وولاءات محدودة ، سجلها أكثر من كتاب عن تحليل العقل والفكر الاسلامي والعربي .

ثالثا : التوجه المستقبلي : وأمره ليس باليسير ، وإن كان هو الأكثر قبولا . فاختيار المسار يخضع لعوامل متعددة : من أبرزها الدفع التاريخي القديم والمواريث التي يتحرك بها المجتمع ، وتكوين القادة أنفسهم وثقافتهم ومكوناتها ، والقدر المحلي والمستورد والابداعي فيها ؛ ثم القدرة على تحويل الفكرة إلى عمل . والعالم الاسلامي لا يحيا منعزلا في المجتمع المعاصر . ومفاتيح العصر من العلم والتقنية والقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية ليست في يديه . هو جزء . مجرد جزء من هذه الخريطة العالمية . ومراكز ثقلها ليست في أرض الاسلام . وعلى الذين يخططون للمستقبل أن يكونوا على وعي بكل ذلك . وما هو فوق ذلك :

وهو السؤال الذي ينبغي على مفكري الاسلام المعاصرين أن يواجهوه بكل الموضوعية : هل يلقى تماسك العالم الاسلامي وقوته ترحيبا من القوى العظمى أم أن الأقوياء لا يحبون لغيرهم أن يكون له مقعد على مائدتهم ، المائدة الرئيسية التي يقررون عليها الخطوط الرئيسية للسياسات العالمية ؟

وأثار أحد الباحثين موضوعا :

إن نمو القوة الاسلامية أو بعض قطاعاتها أو بعض دولها ، لن يكون في مستوى واحد . هذه طبيعة الأشياء . فالموارد الطبيعية والبشرية متفاوتة وكذلك نظم الحكم ، ومدى الحرية المتاحة للابداع الفردي والجماعي ، ثم مدى « ترحيب » جيرانها العرب والمسلمين بقوتها ، ومدى « سيطرتها » على نفسها إذا قويت ، فلا تحاول العدوان على الاخوة الصغار الحجم والمحدودي القوة . ولنتذكر أن أوروبا فيها دول عملاقة ، وأخرى متوسطة ودول صغيرة : مثل لوكسمبرج ، وإمارات محدودة المساحة في إقليم الرفييرا لها كيانها السياسي المستقل . والجميع يتعايشون . وأن الأنهار الكبرى كالراين والدانوب تخترقها ، وتمر في أكثر من دولة . ولكل دولة ملكيتها في مياهها ، وللتجارة حرية مرورها ، دون صراع على ميناء أو مرسى . هذا بعد أن مروا في حروب طاحنة خضبت أرض أوروبا بالدماء ، وهدمت فيها مدن عامرة ، وقضت على ملايين الشباب . ثم عاد القوم ليؤمنوا بالسلام ، ومعه القوة التي تحمي السلام ، ثم بالتعايش المتوازن الذي يجمع بينها . أرأيت كم يتشعب بنا الحديث عند اختيار صيغة المستقبل من بين البدائل المتاحة ؟

هدف الحوار بين المذاهب

وقال قائل منهم :

آن الأوان أن تحدد رؤوس الموضوعات التي تتناولها المجلة بالدراسة ، وليكن أولها : كيف كان التفكير فيها ، وأين . فمن حق قومنا علينا أن يعلموا ذلك ، وأن يعلموا الهدف الذي نقصده .

إن أول الطريق هو تكوين العقل الاسلامي . أو على الأصح : الحوار حول إعادة التكوين . ولنطرح سؤالا تمهيديا يبدأ بما نحن فيه ، ليفتح الطريق إلى ما نريد . نتصور كتابا يجمع المذاهب الاسلامية مكتوبا بأيدي قادة هذه المذاهب كتابة موضوعية ليس فيها طعن في مذهب آخر . لا يتعامل مع المذاهب دفاعا وهجوما ، وإنما عرضا يستهدف « الثقافة المذهبية » وحدها . لك أن تعتبره موسوعة صغيرة أو قاموسا دينيا . بحيث يستطيع الشاب المسلم ـ مهما كان المذهب الذي يعتنقه ـ أن يعرف ما عند المذاهب الأخرى . وهذه النماذج كثيرة في الغرب

وعلى أساس من فصول الكتاب يحاول كاتب ـ أو أكثر ـ أن يستخرج القدر المشترك بين المذاهب . وهو المجال الرحب الذي يمكن أن يحدث فيه التعاون ، وتقوى به الروابط . وهناك نقاط ينفرد بها كل مذهب ، وهي التي تميزه عن غيره . فليعتبرها صاحب المذهب لنفسه دينا أو اجتهادا دينيا ، وهي عند غيره ثقافة ومعرفة ، يمكن أن تتعايش دون تصادم . وعلى هذا تتغيّر المعادلة من صراع مذهبي ، إلى تعاون وتعايش : تعاون فيما نتفق فيه ، وتعايش فيما يتميز به كل مذهب ـ هذا على المستوى الفكري .

وهناك مستوى آخر يمكن أن تُعنى به وهو فتح آفاق جديدة ، يحتاج إليها العالم الاسلامي . أود قبل أن أطرحها أن أبين أن فصول الكتاب المقترح عن المذاهب الاسلامية ، وما يدور حولها وبعدها من إقامة الجسور والمعابر ، وهي موضوعات مقترحة للمجلة ، تحت عنوان « الحوار المذهبي » . وهو حوار هادف يتحرك في إطار المزيد من التعاون والتقارب والتعايش .

قراءة التاريخ العربي والاسلامي :

واقترح زميل باباً آخر هو « قراءة التاريخ العربي والاسلامي » . ومناهج التاريخ في تطور لا يقل سرعة عن تطور العلوم البحتة . فالحضارة متكاملة متفاعلة . والحيوية في قطاع تنتقل بسرعة من المجتمعات الحية الناضجة إلى القطاعات الأخرى . خذ مثالا من نظرية التطور عندما نادى بها « داروين » في كتابه « أصل الأنواع » ، وبقدر القبول الذي لقيته كان تأثيرها على علوم أخرى كثيرة . مثال آخر من استقلال كثير من الشعوب الافريقية والأسيوية بعد الحرب العالمية الثانية ، وغلبة الفكر القومي ، وزيادة الرغبة في البحث عن الجذور والأصول ، وزيادة العناية بالخصوصية الحضارية . كان لهذا كله أثره في نقل مركز الثقل التاريخي من أوروبا إلى المنظور العالمي وزيادة العناية « بتاريخ العالم » على أسس أكثر توازنا ، وزادت العناية بالقارات التي كانت شبه مجهولة ، وأصبح قبول « الروايات الشفهية » مصدرا معتمدا من مصادر التاريخ ، بعد أن كان الاعتماد الأساسي على المكتوب والمقروء . وكان يطلق على ما سبق ذلك « ما قبل التاريخ » ، كأن بدء التاريخ هو بدء الكتابة . وبهذا الاتجاه الجديد ، ومع العناية بالتراث الشعبي زاد التاريخ عمقا واتساعا .

خذ أيضا زيادة العناية بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية وتأثير القواعد الشعبية وزيادة العناية بانتاجها الفني وأفكارها وحياتها اليومية . بل وبتاريخ الأمراض والأوبئة . وانتقل مركز الثقل من الحكام والملوك والقادة ، وأصبحوا بعض عوامل من التاريخ .

وبرزت أهمية المؤسسات الاجتماعية والعوامل الجغرافية وكلاهما ممتد الأثر : الأنهار . المناخ . علاقات اليابس والماء . ثم تغيرت الأهمية النسبية لهذا كله مع ثورة الاتصال ، وتسارع الكشوف ، وسهولة تخزين المعلومات ، وتنظيمها ، واسترجاعها . وهنا يبرز اسم مؤرخ فرنسي عميق الأثر في النصف الثاني من القرن العشرين وهو « فرناند برودل » (١٩٠٢ ـ ١٩٨٥) وكان كتابه عن « البحر المتوسط » (١٩٤٩) نقطة تحول كبيرة في كتابة التاريخ ، ومقالاته المنهجية جمعت في أكثر من كتاب من أبرزها مجموعة من المحاضرات والمقالات صدرت بعنوان « عن التاريخ » وهو أحد أعمدة مجلة « الحوليات » ومدرسة الحوليات وعنايتها في التاريخ بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والحضارية .

ويدعو برودل إلى التعمق في دراسة التاريخ فلا نقف عند السطح السياسي ، وانما نبحث ـ في الأعماق ـ عن القوى التي تشكل الوجود الجماعي . وقد شرح منهجه في مقدمة كتابه ، ثم طبق المنهج في الكتاب . ومن روائع إنتاجه كتابه الأخير « شخصية فرنسا » ومن قبله كتاب « الحضارة والرأسمالية » . وهناك عرض لهذه المدارس الحديثة صدر تحت إشراف الأساتذة : جاك ليجوف وروجين شارتييه وجاك ريفيل وآخرين بعنوان « التاريخ الجديد » .

(باريس ١٩٧٨) وهو من سلسلة موسوعات المعرفة الحديثة ـ كما أصدر الأستاذ أندريه بورجيير « قاموس العلوم التاريخية » (باريس ١٩٨٦) عن دار « المطبوعات الجامعية في فرنسا » ، وهو مرجعنا عن برودل (ص ٩٨ ـ ١٠١) .

من الجهود الاسلامية المعاصرة

هذه مجرد نماذج منهجية للتفكير التاريخي المعاصر . ونحن بحاجة إلى تطوير منهجي يربط أولا بين « الخريطة والأحداث التاريخية » ، وهو الجهد الذي قام به الزميل الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في « أطلس تاريخ الاسلام » (دار الزهراء للاعلام العربي . القاهرة ١٤٠٧ / ١٩٨٧ م) . وهو بحق فتح عربي جديد في الربط بين الزمان والمكان ، وفي الاحاطة الشاملة بالعاملين معا مع العناية بخطوط التجارة البرية والبحرية ، وخرائط الحرب والسلام . ومن طبيعة هذه الأطالس أنها تجمع وتنظم المعرفة عند مرحلة معينة من توفر المعلومات . وعلينا بعدها أن نزيد من البحوث التفصيلية الاقليمية ، وهذه البحوث ستجد مكانها في طبعات لاحقة من الأطلس ، أو في أطالس متخصصة ، نرجو أن تجد لها مكانا في المكتبة الاسلامية مثل « أطلس التطور الاقتصادي الاسلامي » أو « أطلس الدعوة الاسلامية » ويعني بانتشارها من مهد الاسلام ومراكز الدعوة ومعاهدها وجامعاتها . . هل أقول وأروقتها كما هو في الأزهر الشريف ؟ إن الأديان الأخرى لها أطالسها التبشيرية ، وهذه كلها جهود علمية تلقي الضوء على الماضي والحاضر ، وتفتح الطريق إلى المستقبل .

آمال في مجلة « الاسلام »

لقد رأى الذين التقوا من أجل مجلة « الاسلام » أن تكون « بنكا » للأفكار ، وأن تكون بعض مقالاتها آمال المستقبل . وكان من رؤوس الموضوعات التي قدموها على أن يتولوا دراستها ـ هم أو غيرهم ـ العناوين الآتية :

الخريطة السياسية للعالم الاسلامي وتقسيمها إلى مناطق تعاون إقليمية ، تتكامل في وحدة كبيرة . صورة الحضارة الاسلامية الجامعة بين خطوط الوحدة العامة والخصائص الحضارية الاقليمية . التربية الاسلامية المشتركة التي تكون الأساس الفكري الموحد للأجيال الجديدة . أفضل الأساليب لتوجيه الشباب إلى قبول التحدي الحضاري المعاصر . تطوير التعاون بين الجامعات الاسلامية وتوثيق الصلة بين أساتذتها وزيادة التعارف بين طلابها . الطريق إلى القدس وصيانة آثاره ، وتحريره . فلسطين مقياس لقوة العروبة والاسلام .

بقيت كلمة أخيرة :

من الاصطلاحات الحديثة التي أخذت تشيع ما يطلق عليه اسم « تاريخ المستقبل » . إنه تصورات الغد ، إذا وضعتها في صيغة ممكنة التنفيذ .

وأرجو أن تعتبر هذا الحديث من تاريخ المستقبل . □

بالحلال والحرام :

كتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج : اختر لي رجلا عالما بالحلال والحرام عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، أستأنس به . فاختار له الشعبي ، وكان أجمع أهل زمانه ، قال الشعبي : « لم أر واليا ولا سوقة إلا وهو محتاج الي ولا أحتاج اليه ، ما خلا عبد الملك ، فانني ما تحدثت إليه بشيء ، ولا رويت له شعرا إلا وجدته قد زاد علي » .

النخبة العربية والاغتراب

بقلم : الدكتور هاني الراهب

إلى أي مدى يستطيع هؤلاء الأبناء الذين يدفع بهم آباؤهم إلى المدارس الأجنبية المشاركة في بناء الوطن وحمل تبعات التقدم والتطور فيه ؟ وإلى أي مدى يقدم هؤلاء على خوض معاركه وتبني قضاياه ؟ ثم إلى أي مدى يستطيعون الإسهام في خلق ثقافة عربية تجمع بين الأصيل والمعاصر ؟

أسئلة مثارة ، يتولى الاجابة عنها هذا المقال .

كان مساء جميلا ذلك الذي شكا فيه أحد الآباء لصديق له من مشكلة لا يجد لها حلا . كان الأطفال يلعبون في الحديقة ، وفي لحظة اقتربت الابنة ، وهي في الثالثة عشرة من العمر ، وطلبت من أبيها شيئا ، باللغة الانكليزية .

رد عليها الأب بالعربية ، فتابعت الابنة بالانكليزية .

بعد دقائق انصرفت الفتاة ، وتنهد الأب ، وبنبرة محزونة سأل صديقه ماذا يفعل . لقد أراد لابنته أن تتعلم الانكليزية فنسيت العربية ، وها هي ذي الآن تعجز عن استعمال لغتها الأم ، وتشمئز منها ، وترفضها !

حقيقة الأمر أن ثمة ما يمكن تسميته « ظاهرة » في الوطن العربي ، وهي ظاهرة تتعلق بوضع النخبة واختياراتها في هذا الوطن ، وليس صعبا على متتبعها أن يلمسها في أي مكان وجدت فيه تلك النخبة .

لنأخذ مثلا النوادي : إنك تسمع هناك حديثا نصفه - وربما ثلثه - بالعربية ، وبقيته بالأجنبية - الانجليزية بشكل عام ثم الفرنسية . فتيان وفتيات وأطفال يلعبون بالمراجيح أو تنس الطاولة أو البلياردو (نعم) وهم يتكلمون الانكليزية أو الفرنسية بلا انقطاع . إنك تسمعهم أيضا في الرحلات الجماعية التي تنظم للنخبة وأبنائها ، وفي الأبنية السكنية الجامعية ، وحتى في قاعات الدراسة والمحاضرات .

ولا بد أنك خارج بانطباع شبه يقيني بأنك تعيش فيما يمكن حقا أن يكون مستعمرات ثقافية . إن فصاحة الآباء والأبناء معا وهم يتكلمون الأجنبية ، توحي لك إذا ما اقتصر انتباهك على حاسة السمع أنك

تستمع إلى أحفاد ايزنهاور وديغول !

وإذا ما شئت أن تشغل حواسك الأخرى ، فقد ترى بعينيك عشرات الأبناء وهم يرتدون ملابس تهريجية غربية ، ويلونون وجوههم بألوان قوس قزح أثناء احتفالهم بأعياد جميع القديسين مثلا ، أو بعيد الفصح أو غيره ، إلا أنك لن تراهم يحتفلون بشم النسيم مثلا ، أو الفطر ، أو غيره .

وعلى مستوى آخر يمكنك أن ترى حتى ممثلين رسميين لبلدانهم يسمعون كلام الامريكيين بالانكليزية أو الفرنسيين بالفرنسية ، وتسمعهم عندما يجيء دورهم يتكلمون ، ليس بالعربية ، وهي لغة رسمية في الأمم المتحدة بل بالانكليزية أو الفرنسية !

وربما فوق كل هذا التقيت بأب غير الأب النادم الذي بدأنا به المقال ، واستمعت اليه يقول بفخر وسعادة واطمئنان ، إن ابنته البالغة من العمر ثماني سنوات ، تجيد وتتقن النبرة (قاهاً بالفرنسية) اللفظية أفضل مما يستطيع هو شخصيا على الرغم من سبع سنوات قضاها في باريس .

وربما التقيت بسيدة رفيعة المقام تناشد زائراتها ـ وهن سيدات رفيعات المقام أيضا ـ أن يمتنعن عن التحدث باللغة العربية أمام طفلتها البالغة من العمر سنتين ، خشية أن يتأثر سمع الطفلة ، فيتشوش ، وتضطرب مسيرة تعلمها للغة الانكليزية .

لقد تسنى لكاتب هذه السطور ، وقد استرعت الظاهرة اهتمامه ، أن يلتقي بهؤلاء الأطفال والشباب ويتحاور معهم . وفي المآل لم يجد أبا من هؤلاء يتقن العزف على آلة موسيقية ، أو يستطيع أن يرسم رسماً بسيطا ، أو يتمكن من إنشاء علاقات اجتماعية مثمرة إنسانية ، على نحو ما يتوقع المرء من متشربي اللغات والثقافات الأجنبية .

التنشئة في أحضان الثقافة الغربية

إننا نستنتج من كل ما تقدم ومن عشرات الملاحظات والتجارب التي لا يتسع المجال لتبيانها هنا ، أن النخبة العربية قد اختارت الغربة عن وطنها ، وأن هذا الاختيار ليبدو في أجلى ممارساته إذا ما دفع الفضول صاحبه إلى السؤال عن المنهاج التربوي الذي يقدمه الآباء لأبنائهم .

إن ثمة موقفا هو مزيج من الازدراء أو التعالي إزاء المدارس الحكومية ، وعلى الساحة العملية تعبر النخبة عن هذا الموقف بابداع أبنائها مدارس تعلمهم كل شيء بالانكليزية أو الفرنسية ، ويقتصر تعليم العربية فيها على ساعة واحدة يوميا .

وواضح من هذا النهج النخبوي أن ثمة خوفا عميقا يدفع أرقى الأدمغة العربية إلى اختيارات لا تتفق والصورة العفوية الطبيعية التي يختزنها المرء للنخبة في أي بلد من البلدان . إن النخبة هي التي تصنع التقدم والحضارة إلى حد بعيد ، وهي التي تؤسس لتغيرات نوعية ترفد التغييرات التي يحدثها التراكم المادي للجهد البشري الذي تبذله الأيدي العاملة لدى شعب من الشعوب .

وعندما تقرر النخبة تنشئة أبنائها في أحضان الثقافة الغربية ، وليس تعليمهم اللغة الأجنبية على النحو الضروري المألوف فقط ، فهذا يعني أن ثمة خوفا مزدوجا لديها . إنه من ناحية خوف على امتيازاتها ، متمثل في انعدام الثقة مما يمكن لوطنها أن يقدمه لها ، وهو خوف على هؤلاء الأبناء من أن يقتصر تلقيهم للعلم على ما تقدمه الثقافة العربية المعاصرة ، وهو لا يؤهلهم للوصول إلى مراتب عليا في السلم الاجتماعي الاقتصادي .

إن النخبة تحس في اعماقها بأنها تستحق أكثر مما تحصل عليه ، ولأنها بطريقة أو بأخرى اضطرت للبقاء في وطنها ، ولم يسعدها الحظ بامتصاص البنية الاقتصادية الغربية لها ، فهي تعاني باستمرار من شعور بالظلم والحيف ، يصاحبه شعور بالخوف من مجتمعها نفسه الذي قد يلفظها في أي لحظة لسبب لا علاقة له بالثقافة أو التقدم . إنها تعرف خصائص المجتمع الذي تعيش فيه معرفة كافية ، وأن الامتيازات التي تنعم بها امتيازات مؤقتة ، مرهونة باستمرار النخبة على رأس عملها وحسب ، ولا تملك صفة الازدياد أو الإثراء أو التوريث ، وان

المرض قد يضع حدا مروعا لهذه الامتيازات، وكذلك الغضب السياسي أو الشخصي لرجال السلطة، ناهيك عن التقاعد أو الموت.

الخوف من المستقبل

ماذا يفعل أب بلغ هذا المبلغ من الثقافة والعلم لضمان مستقبل ابنه؟ إنه سؤال كنبي ومصيري، ومن المسلم به أن خوف الأب على أبنائه وقلقه على مستقبلهم ومصيرهم، إنما هو خوف وقلق يقتربان في قوتها وعمقها من قوة الغريزة وعمقها، وعندما لا يوفر المجتمع جوابا يقنع الأب بأن ابنه سيعيش في مستوى قريب مما يعيشه هو، فمن الطبيعي أن يلجأ إلى حلول فردية.

هذا اللجوء يتخذ مع الأسف صفة اختيار الاغتراب ومعانقته. إن هؤلاء الأبناء لن يكونوا بالتأكيد بين بناة الوطن بالمعنى الالتزامي والتضحوي، فلن تكون الحرية السياسية مثلا قضيتهم، ولن يكون لهم شأن بقضية فلسطين أو حرب الخليج أو تحرير اريتريا، ناهيك بالمطلب الحضاري الجليل الذي هو تكوين ثقافة عربية معاصرة وأصيلة في الوقت نفسه.

إننا مهما نسجنا قواقع حول وعينا ومشاركتنا مع البشر، فلن نستطيع أن نتجاهل أن الوطن الذي نعيش فيه ما زال منذ مائتي عام متشبكا مع أوروبا ثم مع أمريكا في صراع تاريخي، ولقد تميز هذا الصراع منذ بدايته بالحدة والعنف، فتلك البداية لم تكن أقل من احتلال عسكري، وإذا شئنا العودة إلى الوراء بضعة قرون أخرى التقينا بالحروب الصليبية، ولو تمادينا قليلا في هذه العودة لصافحت أيدينا أيدي جيش عبدالرحمن الغافقي في جنوب فرنسا، وقبل ذلك جاءنا الرومان وقبلهم اليونان، وفي فترة بين الاثنين الأخيرين أوشكت جيوش هانيبعل أن تصل إلى روما.

نحن لسنا أبناء الأمس، لكن هذا الحاضر الذي نعيشه يحفل بصراع قد يكون في نهاية المطاف أعنف وأشرس. وقد علمنا هيغل أن تاريخ البشرية إنما يتقدم بالصراعات وعبرها، وأن الصراع هو القاعدة، وعكسه هو الاستثناء، غير أننا لن نتطرق إلى فلسطين وأريتريا والأجزاء الأخرى المستلبة من أرض الوطن، ولا إلى الوضع الاقتصادي الراهن الذي تمتص الامبريالية بواسطته مواردنا وأموالنا، سنشير الى وضع متصل مباشرة بموضوع هذه المقالة، وهو وضع امتصاصي بدوره، ويشكل واحدة من الظواهر الخطيرة في حياتنا القومية، إنه امتصاص أدمغتنا المتفوقة، فلقد مال ميزان الصراع بين وطننا المتخلف وأوروبا وأمريكا المتطورتين ميلانا شديدا، أدى إلى خلخلة العلاقة بين النخبة العربية ووطنها خلخلة أشد، وقد نجم عن ذلك أن اختارت أعداد كبيرة منها الانتماء النهائي إلى بلدان العالم الأول، فمنها من أسلم نفسه نهائيا للامتصاص والتمثل، ومنها من أبقى على علاقات واهية سياحية تقريبا، ليقنع نفسه أن جذوره لم تقتلع.

نحن ننظر إلى ظاهرة امتصاص الأدمغة العربية باعتبارها جزءا من العمليتين الاقتصاديتين الكبريين في علاقة وطننا بالعالم الأول، وهما النهب والتسويق، وإذا لم نر المسألة على هذا النحو فنحن في الحقيقة لا نرى شيئا. صحيح أن نخبتنا (المتأمركة) أو (المتأوربة) تسهم في مواقعها الجديدة في صناعة التقدم، وتضع امكاناتها ومواهبها في خدمة البشرية، لكن هذا الاسهام يؤدي بالضرورة إلى مزيد من الخلخلة الحضارية الفاجعة أحيانا، إنها تغني الغني وتفقر الفقير، وتزيد من سعة الهوة وعمقها بين العالمين المتصارعين، الأول والثالث.

ازدواجية الانتماء

وبطبيعة الحال فإن النخبة التي اتخذت لنفسها هذا المسار قد غدت ذات وضع خاص داخل وطنها، إنها على العكس من الذين التحموا بمجتمعهم وحلوا صراعاته، قد أدارت ظهرها لهذا المجتمع وصراعاته. إن ضريبة المشاركة باهظة لا شك في مجمل ظروف تاريخنا وعيشنا المعاصرين، والذين يختارون دفعها هم قلة قليلة مع الأسف.

لقد نشأ عن هذا المسار نوع من ازدواجية الانتماء ، فإنك تسمع أحاديث النخبة ومناقشاتها للأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فتلمس عقولا نيرة وقلوبا شغوفة بمجتمعها متألمة لأجله ، لكنك عندما تتبع خط حياتها تجد اضطرارا قاسيا لاعطاء الأولوية القصوى للأمن المعيشي على حساب المجالات الأخرى للحياة ، والمشكلة أن الحس بالأمن هذا لا يقف عند حد معين ، فالمزيد منه يدفع إلى المزيد ، وما كان يبدو منه كماليا يغدو ضروريا ، ثم يستيقظ نداء الثروة ، وتستيقظ معه رغبات جديدة .

فمن حسابات في المصارف الأجنبية إلى استثمارات تجارية صرفة أو تجارية ثقافية ، إلى مزارع نموذجية ، وحتى إلى المضاربات البورصية . خلاصة القول أن الاحساس القوي بالتميز لدى النخبة (ولا نقصدها كلها) يدفعها في مسيرة ، تبدأ بالبحث عن الأمن المعيشي ، وتتصل إلى الاستثمارات الرأسمالية الصغيرة ، لكنه لا يدفع إلا القليل منها إلى البقاء ملتحما ببيئته وأصوله .

وإن هذه الازدواجية تورث ، مع الامتيازات والمال إلى جيل الأبناء الذي تراه في حالة أكثر ابتعادا عن البيئة والأصول بكثير ، إنك لا تستطيع مع جيل الأبناء أن تسمع الحديث الذي يفرحك سماعه من آبائهم ، فهؤلاء لا يحسون أصلا أنهم ينتمون إلى ثقافة عربية وإلى مجتمع عربي ، لكنك تحس بما هو عكس ذلك ، ولست بحاجة إلى وقت طويل كي تكتشف أنهم أصلا لا يعرفون هذه الثقافة ولا هذا المجتمع ، وهم يتكلمون عن (الأمم) العربية مثلما يتكلمون عن الأمم الأسيوية ، هذا إذا خطر لهم أصلا تفكير سياسي !

بل ربما وصل الأمر ببعضهم إلى حد ازدراء ثقافة آبائهم ، والنظر إليها كما ينظر المرء إلى طفل خديج أو مستحاثة مروعة الشكل . إن أمنهم الروحي وسلامهم العقلي موجودان في الثقافة التي أصر آباؤهم على تزويدهم بها ، أما أحلامهم بالالتحاق ذات يوم بورشة الأدمغة المهاجرة إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية فليس ثمة ما يعادلها رسوخا وجوحا .

إن انعكاسات هذه الازدواجية عديدة وفعالة ، فعلى المستوى النفسي ثمة واقع شعوري ليس أقل من الحس بالانخلاع في الحقيقة ، فهؤلاء لا يستطيعون مهما أحبوا العالم الأول واعتبروا أنفسهم جزءا منه أن يمتلكوا فعلا ذلك الشعور الجذري الجميل بالراحة والأمن الكيفي الذي يمتلكه بائع الفول في الدكان التاسع من السوق ، وهم لا يستطيعون أن يمتلكوا الشعور بالانتماء إلى أي عالم أيضا ، وربما أي شيء باستثناء مصالحهم المعيشية . ومعروف لدى الجميع أن المصالح المعيشية لم يكن بوسعها يوما ما أن تمنح للروح سلامها وصحبتها البشرية الأصيلة التي لا غنى عنها حتى لأشد الناس أنانية أو شرا أو انخلاعا .

وعلى المستوى العلاقي تجد الحيرة والارتباك نفسهما ، إذ ما دامت الأسس التي تقوم عليها العلاقات قد اضطربت بفعل التصادم الثقافي بين العرب والغرب ، فإن العلاقات نفسها لن تتمكن من التجذر واكتساب القوة عبر قيم متناقضة متصارعة ، وسواء كان الأمر حسنا أو رديئا فإن الاحساس الذي تقوم عليه العلاقات الانسانية العربية أساس مثالي ، يتجلى في مجموعة من القيم والمواقف المثالية ، بينما تقوم العلاقات الانسانية في العالم الأول على أساس واقعي عملي ، يكترث بالنتائج المادية أكثر بكثير مما يحفل بالنتائج المعنوية ، وفي التطوح بين مجموعتي القيم المتضاربتين هاتين مصير نفسي واجتماعي ربما كان مادة غنية لتراجيديات معاصرة متميزة .

الهجمة الحضارية

لكن المستوى الحضاري هو الأهم عندما يتحول المخزون العقلي لأمة من الأمم إلى ميادين الانتاج في أمة أخرى ، فماذا يتبقى للتقدم والتطور والنهوض في الأمة الأولى ؟

إنها سوف تستمر على مستويات الانتاج والتقدم العادية ، ذات المردود الحضاري الضئيل من ناحية ، وسوف تضطر إلى مزيد من التبعية المستنزفة إزاء

الأمم المتطورة من ناحية أخرى .

ولعل من أبرز مظاهر هذه الازدواجية الاستلابية تشوه وضع ألسني خطير ، بأي مقياس ، وانتكاسي . إن العرب يجالدون منذ الحصول على استقلال أقطارهم للوصول إلى الاستقلال العقلي عن طريق تعليم لغتهم القومية في جميع ميادين المعرفة ، وقد تحقق لهم في البداية ذلك ، وتراجعت اللغة الأجنبية إلى حجم مادة واحدة في المنهاج كله .

لكننا نشاهد الآن تأسيس مدارس وكليات في الوطن كله تقدم لطلابها ميادين المعرفة كلها باللغة الأجنبية ، وتقدم اللغة العربية مادة وحيدة ، كالجغرافيا مثلا ، والنتيجة هي أن الانكليزية أو الفرنسية ـ بشكل رئيسي ـ لم تعد لغة أجنبية ينبغي اتقانها لأسباب عديدة مسلم بها ، وإنما صارت لغة ثانية ، تقف جنبا الى جنب مع العربية ، وفي أحيان كثيرة جدا تدفعها إلى المحل الثاني من الأهمية .

لماذا إذن هذا الاختيار المفضي بوضوح إلى إملاق عقلي ونهضوي في وطننا العربي ؟ .

عقبات تواجه تطورنا

هناك لا شك مسوغات شخصية قوية لا يمكن تجاهلها،وأول هذه المسوغات أن النظام التربوي في الأقطار العربية لا يمنح الفرصة الفضلى للامكانات والمواهب أن تتفتح إلى حدودها الطبيعية القصوى عند الطلاب ، بل على العكس ، فقد شهدت المجتمعات العربية هبوطا تدريجيا مؤسيا في مستويات التعليم ، وإعداد الاطارات ، عما كانت عليه إبان المرحلة الأولى من استقلالها ، ولقد أدى التوسع في التعليم إلى هذا الهبوط ، لأنه توسع تم بصورة ارتجالية متسرعة ، فالمدارس التي فتحت أبوابها لجميع أبناء الشعب في تحرك باهر ممتاز نحو ديمقراطية التربية لم تهيأ لاستيعاب الأعداد الغفيرة الهاجمة نحو العلم ، ولم تمتلك الاطارات العلمية المدربة وذات الكفاءة لمواجهة هذه المهمة العظيمة ، وكان طبيعيا أن يؤدي ازدياد الكم العشوائي هذا إلى خلخلة الكيف وتبديده .

وإن للنخبة مسوغا واضحا في أنها لا تريد لأبنائها هذا التحصيل الضئيل للعلم والمعرفة اللذين يزدادان يوما بعد يوم في العالم المتحضر ، وينقصان يوما بعد يوم في الوطن العربي .

كذلك فإن الامتيازات التي تحصل عليها النخبة العلمية الثقافية تأتي في المرتبة العاشرة قياسا إلى الامتيازات التي تحصل عليها نخبة الحكم ، وسواء كانت النخبة الأولى محقة أو غير محقة ، فإنها تعتقد اعتقادا راسخا أنها جديرة بالمساواة مع النخبة الثانية ، وعموما فإن النخبة العلمية الثقافية في الوطن العربي لا تعطى ما تستحقه من امتيازات وتسهيلات وبيئة علمية ، بحيث ترضى ببقائها في وطنها دون شعور مرير بالخسران والظلم .

وفوق هذا فإن ثمة مسوغات موضوعية تزيد عن سابقاتها قوة وتأثيرا ، فإن باب الابداع والانتاج مسدود تقريبا أمام هذه النخبة ، وهناك آلاف القصص والحكايات عن أطباء بلغوا أوجا في التحصيل ، لكنهم لم يستطيعوا أن يستمروا في وطنهم لهذا السبب أو ذاك من الاستعصاءات أو المستحيلات ، وقس على ذلك المهندسين والتقنيين والمربين والعلماء والموهوبين ، إلخ ، فهؤلاء غالبا ما يتحولون إلى موظفين جالسين وراء طاولاتهم ، يوقعون الأوراق ، أو يلقون المحاضرات النظرية ، أو لا يفعلون شيئا أحيانا ، فإن سبل الابداع والانتاج شبه معدومة بالنسبة لهم ، لأنها أساسا شبه معدومة في أقطارهم .

يضاف إلى هذا أن هامش الديمقراطية في الوطن العربي ليس من السعة بحيث يستوعب المستوى العقلي والادراكي للنخبة ، وهذا المستوى ليس سياسيا بالضرورة ، فالنخبة لاتتدخل كثيرا في السياسة ، لكنها تريد مناخا معقولا من حرية الفكر وتبادل الآراء والقيام بالتجارب والدراسات ، مما يتطلبه وضعهم العلمي والثقافي ، وهذا المناخ غير متوافر في معظم أرجاء الوطن العربي مما يشكل تضييقا حقيقيا آخر على النخبة ، ويدفعها باتجاه الاغتراب . □

خليل حاوي

في ذكراه السادسة..

أربعة خيوط في نسيج انتحار شاعر!

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

في يونيو (حزيران) ١٩٨٢ أقدم الشاعر خليل حاوي على الانتحار ، والهجوم « الاسرائيلي » الشامل على لبنان يكتسح الجنوب ، ويتجه صوب بيروت ، في غمرة ضياع عربي مفجع .

ارتبط حدث الانتحار بحدث العدوان ، وجاء الارتباط طبيعيا لدى معظم الذين عرفوا خليل حاوي ، وعرفوا مدى إحساسه بالكرامة ، وحرصه على نقاء الكلمة ، والتحام القول بالفعل ، والشعر بالحياة ، والفكر بالنضال ، وعندما علمت بنبأ انتحاره من الاستاذ مطاع صفدي الذي التقيته بباريس بعد أيام من الحدث ، خيل إليّ أن « انتحار حاوي » مشهد غير غريب علي ، لا يمثل مفاجأة لي ، كأني قد شهدته من قبل ، فقد عرفت حاوي أستاذا وصديقا ، وعرفت أصالته وحساسيته المفرطة ، وخاصة تجاه كل ما يمس الكرامة العربية ، فكان من الطبيعي أن يقدم على ما أقدم عليه ، في مثل تلك الظروف الفاجعة التي عاشها خليل منذ ما قبل البداية - بيروت - مع الارهاصات الأولى للحرب الأهلية اللبنانية ، وصولا إلى وقوع العدوان « الاسرائيلي » المذكور ، وحتى اليوم السادس من حزيران (١٩٨٢) ، يوم انتحار الشاعر .

في السادس من حزيران ١٩٨٨ يكون قد مر على غياب حاوي ست سنوات ، فكيف تبدو صورة الغائب اليوم ؟ وكيف يتجلى سر انتحاره بعد أن دخل الحدث مسافة من التاريخ ، وابتعد قليلا عن أجواء المشهد العاطفي المفجع المتداخل بين البعد القومي العام ، والبعد الشخصي الشعري الخاص ؟

لعل خير تحية نزجيها لروح الشاعر في ذكراه السادسة أن ننظر نظرة شمولية متفحصة في سيرته وشعره وانتحاره ، فقد كان حاوي نفسه من أصحاب النظرات الشمولية في الحياة والكون والحضارة ، وما كان يرضى بالوقوف لدى جزئيات الأحداث ومظاهرها ، وفضلا عن كونه شاعرا ومفكرا كبيرا لا يمكن اختصار سبب انتحاره في حدث واحد ، مهما عظم ، وأيا كان تأثيره عليه .

هل هناك سبب واحد ؟

تقول الأديبة ديزي الأمير عن انتحار حاوي : « يعللون سبب انتحاره بتراكم الهزائم والنكسات العربية . . نعم خليل شاعر عروبي صادق ، مسؤول وطنيا . . . ولكن ألم يكن خليل من البشر ؟ ألم تكن له حياته الخاصة ؟ هل انتحر أو حاول

الانتحار مسؤول عربي (ويمكن أن نضيف : أو شاعر عربي آخر ـ الكاتب) ، فَلِمَ يحمل خليل على عاتقه وزر كل المسؤولين ؟ ومهما حاولنا التفتيش عن سبب انتحاره وتبريره وطنيا أو شخصيا ، ففي اللحظة التي قرر فيها خليل الرحيل . . كان وحده . . . هو وحده يعرف السر »

وصاحبة هذا القول لعلها أقرب امرأة وأديبة إلى « عالم حاوي الخاص » ، فهي التي قال عنها الشاعر نفسه : « . . . ديزي الأمير التي أهديتها كتاب جبران : (هي) اليد التي أمسكت بيدي في ليالي الشك والخلق ، وهي التي رافقتني إلى كمبردج »

ولا ندري ـ بالضبط ـ ماذا تقصد ديزي الأمير بقولها : « هو وحده يعرف السر » ، وهل تلمح إلى سبب أو أسباب معينة مباشرة وراء انتحاره ، أم أنها أرادت القول ـ وهذا ما نرجحه ـ بأن المنتحر ـ أي منتحر ـ يذهب وسره معه ، لا يستطيع أن يجزم به أي فرد آخر على وجه القطع والتأكيد ، حيث يصبح الحدث من أسرار الغيب .

وأيا كان الأمر فإن « مقاربة » حدث انتحار حاوي من زاوية سيرته الشخصية وملابسات السنوات القليلة الأخيرة من حياته ما زالت مقاربة لم تنضج ، ولم يحن وقتها بعد ، حيث أن أقرب المقربين إليه ما زالوا يؤكدون أقوالا ووقائع متناقضة ومتضاربة .

ويبدو أن الأمر يحتاج إلى وقت أطول لتظهر الحقيقة وتتضح الصورة . فحين يؤكد الدكتور نسيب همام طبيب حاوي الخاص وصديقه وابن ضيعته (الشوير) بأن الأخبار عن محاولات حاوي السابقة في الانتحار : « غير صحيحة » ، وأنه « لم تكن هناك محاولات سابقة قط ، فمنذ أكثر من سنة قبل انتحاره دخل المستشفى إثر عارض صحي حاد ، وتبين أنه كان مصابا بنزيف داخلي ناتج عن سم للفئران ، ولم يثبت أنه تناول ذلك عن قصد ، وإذا جاز لي التقدير فإني أقول إن الأمر يعود إلى الإهمال ، ولو أنه أراد الانتحار لتناول الحبوب المسكنة والمنومة التي بحوزته ، والتي تمتاز بالفعالية وباستبعاد الأوجاع »

مقابل هذا النفي ، وبما يخالفه تماما ، تجد ديزي الأمير تؤكد القول : « انتحر خليل حاوي ولم تكن نهايته هي المرة الأولى التي قرر فيها أن يترك الحياة .

في المرة السابقة أنقذ ، وقيل إنه تسمم خطأ ، ولكنه اعترف لي أنه أراد التخلص من الحياة . . . »

هذا مثال واحد ـ بين أمثلة كثيرة ـ على ان « المقاربة » للحدث من هذه الزاوية لم تنضج بعد ، وأنه لا بد من النظر في ظاهرة حياة الرجل وموته من خلال أبعاده الشعرية والفكرية والحياتية الشاملة . فذلك أقرب إلى الحقيقة وإلى الادراك المتكامل من الدخول فيما يشبه التحقيق الجنائي ، إن جاز التعبير ، بين مختلف تلك « الشهادات » التي يستغرب المرء لتعارضها بتلك الصورة على الرغم من صدورها من أناس مقربين منه ، وفي زمن ليس بعيدا على الاطلاق عن زماننا الراهن الذي نعتبره زمن الوقائع الموثقة والخبر الأكيد !

الخيط الأول : غياب الإيمان المطلق

إن القراءة المتمعنة لشعره ، منذ ديوانه الأول ، تكشف أن الرجل على توقه الدائب إلى الحقيقة وأشواقه الملحة إليها ، لم يتمكن من تحقيق الايمان الوجودي الكوني ، سواء بمعناه الديني أو الصوفي ، وأنه على ثقافته الواسعة واطلاعه على التراثين الشرقي والغربي ، لم يستطع أن يستشف وراء الحضارتين الشرقية والغربية معنى متساميا على المستوى الميتافيزيقي ، واستقرت الصورة لديه ، فيما يشبه الصمود الرواقي في مواجهة الحياة ، على النحو التالي الذي صوره في نهاية قصيدته « البحار والدرويش » ، وهي من قصائده المبكرة ، ويعود تاريخها إلى فترة ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٧ :ـ

ـ خلّني ! ماتَتْ بعينيّ
منارات الطريقْ
خلّني أمضي إلى ما لستُ أدري
لن تغاويني الموانئ النائيات

بعضها طينٌ محمّىٰ
بعضها طين موات
آه كم أُحرِقتُ في الطين المحمّىٰ
آه كم متُّ مع الطين الموات
خلّني للبحر ، للريح ، لموتٍ
ينشر الأكفانَ زرقاً للغريقْ
مبحرٌ ماتت بعينيه منارات الطريقْ
مات ذاك الضوءُ في عينيه ماتْ
لا البطولات تنجّيه ، ولا ذلّ الصلاة

في هذه القصيدة التي عرض فيها حاوي أزمته ـ من خلال أزمة الانسان المعاصر ـ تجد أن بطولات البحّار . (المكتشف الغربي) تتساوى مع ابتهالات الدرويش (الشرقي) ، وأنه لا فارق حقيقي في التحليل النهائي بين الطين المحمّى الرامز لفورات الحضارة الغربية الحديثة ، والطين الموات الرامز لآثار الحضارات الشرقية القديمة .

فإنسان حاوي المعاصر يشعر باللاجدوى تجاه الظاهرتين ، وإن كان قد قرر المضي على الرغم من ذلك في إبحاره مع الريح والموت وليس أمامه غير أكفان البحر الأزرق التي تنتظر الغريق ، بعد أن « مات ضوء » الحقيقة المطلقة في عينيه .

ويلمس المرء ألم الشاعر لهذا الاكتشاف المر ، ويتحسس مدى حرقته وغصته الكيانية لعدم قدرته على بلوغ الحقيقة الكونية ، لكنه يقبل قدره ، نظير الرواقيين في دعوتهم إلى صمود الانسان أمام استعصاء اليقين بثبات أخلاقي قد يعوض ، بعض الشيء ـ في عرفهم ـ عن اليقين الكوني .

رافق هذا الموقف ـ على الصعيد الوجودي ـ خليل حاوي طول حياته* ، فلم تستقر مرساته على « رؤيا » ما ورائية دينية أو صوفية ـ كما حدث لميخائيل نعيمة مثلا ـ وجاء إقدامه على الانتحار في النهاية تعبيرا عن ذلك القلق الوجودي العميق . وإذا كانت العوامل الأخرى ـ من شخصية وقومية ـ قد تداخلت في نسيج ذلك الانتحار ، فإن الايمان القوي بالله يمكن أن يكون طوق النجاة في مثل هذه العواصف ، غير أن حاوي قد اعترف ـ بمأساوية ـ منذ البدء بأنه مبحر في العاصفة ، وقد « ماتت بعينيه منارات الطريق » ، وأنه قد استعد « لموت ينشر الأكفان زرقا للغريق » ، في بحر الوجود المتلاطم ، وقد كان عندما تقطعت خيوطه الأخرى .

الخيط الثاني : خيبة الانبعاث الحضاري

في زمن الحيوية الفردية والقومية ، بالأربعينيات والخمسينيات استعاض حاوي عن فقدان إيمانه بالمطلق الكوني ، بفكرة الانبعاث القومي الحضاري ، وأعلى من شأن هذه الفكرة ، حتى جعلها مطلقا .

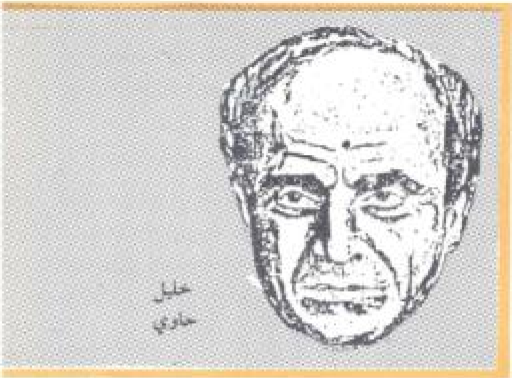
خليل حاوي

يتضح ذلك ، أكثر ما يتضح ، في قصيدته « بعد الجليد » ، التي يصور فيها الانبعاث الشامل لحيوية الأمة كالعنقاء التي احترقت ثم التهب رمادها ثانية وتحول إلى نار مخصبة : « شهوة للشمس ، للغيث المغني ،

شهوة خضراء تأبى أن تبيد »

وقد رافق هذا اليقين الانبعاثي ، بل واندمج فيه حس ريادي رسولي للشاعر نفسه بين أقرانه ورفاقه ، ثم في مجتمعه وأمته ، وكان ألصق الأدوار بشخصيته دور « الرائي » المنقذ ، المنذر ، المبشر ، المرتفع

* حتى في كتاباته النثرية كانت إشكالية العلاقة بين العقل والايمان شغله الشاغل منذ أطروحته للماجستير إلى آخر مقال فكري نشره

بالشعر إلى مستوى الرسالة التي يبدأ بها عصر جديد من عصور التاريخ ، وكان في أقرب الموضوعات إلى قلبه مقاربة دور الشعراء لدور الانبياء في مدى توقهم لاستشفاف « الرؤيا » .

وقد جاءت قصيدته الملحمية « لعازر ١٩٦٢ » في ديوانه الثالث « بيادر الجوع » لتعبر بقوة عن هذا المنعطف المفجع . فإذا « لعازر » المنبعث من القبر والعائد إلى زوجته يعود إليها بموته وعقمه وعجزه ، وإذا انبعاثه مجرد وهم أليم مرعب ، وليس كانبعاث « الشهوة الخضراء » تأبى أن تبيد .. كما بشر بها الشاعر من قبل . وكان ذلك ، كما عبر عنه الأستاذ مطاع صفدي : « تاريخ بداية الانكسار في خط التصعيد النهوضي ، مع فاجعة الانفصال لأول وحدة عربية في تاريخ العرب الحديث » حيث جاءت قصيدة لعازر : « قمة الهرم الذي ارتفع فوقه خليل الشاعر ، وخليل الانسان ، ثم انهار إلى قعره ليكون قبراً لحضوره ومثوله بعد عشرين عاما (١٩٦٢ - ١٩٨٢) ، حيث لم يستطع خلالها لعازر أن ينهض مرة أخرى إلا ليصرخ ليلة موت جسده في حزيران ١٩٨٢ : ربـاه كيف أستطيع أن أتحمل كل هذا العار ! » .

وهي عبارة ظل حاوي يرددها في سنواته الأخيرة ، وجاءت في ديوانه « الرعد الجريح » الصادر عام ١٩٧٩ .

الخيط الثالث : نضوب حيوية الشاعرية

بعد مرحلة الانتكاسة الأولى (الانفصال ١٩٦١) ظلت حيوية الشاعرية تسعف الشاعر في التعبير عن آلام الأمة ، وظل صوته قويا مسموعا في ساحات الثقافة العربية ، مع بقاء الأمل في إعادة الوحدة واستئناف النهضة والانبعاث .

غير أنه بعد نكسة حزيران وما تلاها من تراجعات أخذ يفقد - مع تقدم العمر به - حيوية الشاعرية ، ولأن الشعر كان بالنسبة لحاوي المطلق الذي لا يمس ، فإن نضوب ينابيعه في نفسه ، كان بلا شك من أقسى الضربات ، ولقد حاول حاوي في قصائد « الرعد الجريح » التي تعبر عن فترة السبعينيات الارهاص - مجددا - بقرب ظهور بطل منقذ جديد مستندا - موضوعيا - إلى تجدد عودة الروح في « حرب تشرين » ١٩٧٣ .

إن بقايا الروح الشعرية التي تبدو في ذلك الديوان هي المعادل الشعري لذلك الألق الخاطف في الحياة العربية الذي عرفه العرب باسم « روح السادس من أكتوبر » . ثم مرة أخرى خفتت الروحان : الجماعية والفردية ، وكأنه كان قدرا مقدورا على خليل حاوي أن يرصد النبض العربي - صعودا ونزولا - مثل ميزان الحرارة .

وجاء ديوانه الأخير « جحيم الكوميديا » ليمثل جحيما بالفعل - دون كوميديا - لحيويته الشعرية ودفقه الشعري ولمشاعره القومية والانسانية ، فقد تكاثفت الغصات الكيانية ، وخفتت بالمقابل وبشدة روح الشاعرية ، بحيث لا يمكن المقارنة بين ملامح حاوي في دواوينه الأولى ، ومقاطع هذا الديوان القصيرة ، اللاهثة ، المتجزئة .

واعتبر حاوي سكوت النقد عن أشعاره الأخيرة بمثابة مؤامرة عليه ، ولم يجرؤ أحد من محبيه وناقديه على مواجهته بالحقيقة المرة عن نضوب شاعريته ، على الرغم من وصفه الصريح هو نفسه لهذه المرحلة بأنها « جفاف العمر وصقيعه » ، وما العمر بالنسبة لحاوي سوى الشعر لا شيء سواه . فهي إذن بعبارة نقدية : « جفاف الشعر وصقيعه » ، وكان حاوي عندها قد قارب الستين ، وهي سن قاسية لحيوية الشعر* .

الخيط الرابع : المشكلة مع الذات الفردية

ثم يبقى أخيرا البعد الشخصي الذي يتمثل بإيجاز في حساسية الشاعر ، وعصبيته ومزاجيته ، وفرديته

* على الرغم من تعمقه في الفلسفة والنقد ، وتمكنه من النثر ، إلا أنه لم يهتم بالبروز في هذه المجالات لايمانه المطلق بالشعر ، كما كان يضيق بالتحليلات الاجتماعية السياسية بتأثير مزاجه الشعري ، لذلك لم ينظر للأزمات العربية من زاوية علم الاجتماع بقدر ما أدانها من زاوية الأخلاق ، لذا استحال عليه التعايش معها .

ومقياسه الأخلاقي المطلق الصارم ، ثم إخفاقه ـ ربما نتيجة لذلك ـ في خلق علاقة عاطفية دائمة مستقرة ، تقوم على أساسها عائلة وبيت وأبناء ، فمثل هذه الروابط يمكن أن تجعل لحياة الانسان معنى متجددا عندما تخفت دوافع الشباب والنضال والتفوق الفردي ، وبصراحته وعفويته النادرة يعترف حاوي بذلك : « شعور بالاخفاق في هذا المجال . لم أعط العناية الجدية الوافية لهذا الموضوع » . ويحاول حاوي هنا أن يقيم تعارضا بين حب الشعر وحب المرأة ، باعتبار : « أن الشعر يقتضي من الشاعر وقف الحياة عليه وحده ، وبخاصة عندما يكون شعرا ملتزما بثورة انبعاث حضاري مطلقة »

وأخشى أن هذا يمثل تبريرا وإعلاء لاخفاق الشاعر في هذا المجال (وهو إخفاق لا ينكره وإن كان يبرره) ، ففي حياة الكثيرين من كبار الشعراء توحد الشعر بالحبيبة ، وأصبحت هي « رمز » القضية ، كما لدى أراغون في « عيون إلزا » و « مجنون إلزا » ، وهذا مثال من أمثلة كثيرة . وعلى خصوبة رموز حاوي فقد افتقد شاعرنا رمز الحبيبة الملهمة ، وذلك موضع الجفاف في شعره وحياته ، وربما مثل ذلك منزلق نهايته .

خليل . . . لماذا لم تنتظر ؟؟

وتبقى المفارقة أن حاوي الذي أحب الأطفال والصغار وغناهم وغنى لهم « لم ينجب أطفالا » .

ويَعنُّ لنا سؤال قد يبدو ساذجا بمعيار الفلاسفة : لو كان لديه أطفال . . أبناء . . وبنات . . هل كان سينتحر . . على الرغم من كل مبررات انتحاره التي ذكرنا ؟

أليس هو القائل منذ ربيع الشباب :

« بي حنين لعبير الأرض
للعصفور عند الصبح ، للنبع المغنّي
لشبابٍ وصبايا
من كنوز الشمس ، من ثلج الجبال
لصغار يثرون المرج
من زهو خطاهم والظلال
أنتمُ . . أنتنّ في عمري
مصابيحُ ، مروجٌ ، وكفاه
وأنا في حبّكم ، في حبكن
ـ وفدى الزنبق في تلك الجباه
أتحدى محنةَ الصُّلْب
أعاني الموتَ في حُبِّ الحياة . » ؟

ولم تكن المسألة مجرد شعور عاطفي تجاه الأطفال والصغار ، بل كانت إيمانا عميقا بدور الأجيال العربية الجديدة في تحقيق معجزة الإنبعاث والعبور فوق « الجسر » إلى الشرق الجديد :ـ

« يعبرون الجسر في الصبح خفافاً
أضلعي امتدت لهم جسرا وطيدا
من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد
أضلعي امتدت لهم جسرا وطيدا » .

هكذا آمن حاوي في البداية بقدرة الأجيال العربية الجديدة على الانبعاث والعبور والخلق . غير أن جرثومة شك كانت تختبيء متروية ـ عند ذلك ـ في صدره ، أسماها « بومة التاريخ » . وأسكتها بقوله : « اخرسي يا بومة تقرع صدري » ، عندما وسوست له :

« سوف يمضون وتبقى
صنما خلفه الكهان للريح
التي توسعه جلدا وحرقا
فارغ الكفين ، مصلوبا ، وحيدا »

هذا هو نعيب « بومة التاريخ » ، وقد نسف الجسر وأجياله في أعماق حاوي وأخذ يدوي في تلك الأعماق ليدمرها .

● إنهم يعبرون الجسر . . إنهم أطفال الحجارة

ولكن ها هم يعبرون الجسر . . « أطفال الحجارة » ، يعبرون الجسر في أقدس وأعز حلقاته في فلسطين إلى الشرق الجديد كله « خليل . . لماذا ؟ لماذا خليل ؟ . . هل ترى الآن كم أنت باق وستبقى في هذه الأرض العربية ؟ □

يكاد المريب يقول خذوني!

بقلم : شريف الراس

عندما يكتب الأديب فإنه يجمع صوره من قلب المجتمع ، يتناول بعضها بالنقد المغطى المرموز ، ويتناول الأخرى ربما بالنقد المكشوف .

وهو في ذلك يشير الى الأفضل والأحسن من تصرفات الفرد وعاداته وأخلاقه ومواقفه، وصوره المجسدة هنا قد تكون نتاج خيال وكدح ذهن تم تجميعها من عدة شخصيات وليس من شخص واحد ، ويكون المقصود فيها هو نقد الظاهرة . قال الدكتور أحمد الفشاش :

استقبلني العقيد أبو ضاوي عند مدخل الفندق ضاحكا ، كأنه قد جاء لتوه من قلب نكتة مرحة مضحكة جدا ، وقال لي وهو يتدفق حيوية ومرحا :

ـ الليلة ستخرج عن نطاق الهم والكآبة غصبا عنك ، وستضحك من صميم قلبك ضحكا لم تعرفه في حياتك ، فقد أعددت لك سهرة خاصة ، على عشاء خاص ، يحضره أطرف مهرج في البلاد ، إنه نقيب الصحافة ، وقد أوهمته بأنك ضيف من قطر آخر ، فأنا لا أريد أن يعرفك ، هيا يا صديقي .

قلت مستسلما :

ـ إذن هيا بنا الى حفلتك مباشرة .

ومشيت معه ، وجاء الرائد عناد ـ معاونه ـ خلفنا ، ولم يكن رواق الأندلس بعيدا ، لكنني لم أكن أتوقع أن أراه في الليل جميلا الى هذا الحد ، ربما بسبب البراعة في توزيع الأضواء الخافتة فيه ، أو ربما لأنني أدخله لأول مرة ، على الرغم من أنني نزيل هذا الفندق منذ أسبوع ، لكن ماذا تفعل لنوبة الشعور بالكآبة والحزن التي جعلتني أحصر نفسي داخل غرفتي طول الوقت ؟

كان رواق الأندلس الجميل فسحة مكشوفة ، تتوسطها نافورة ماء أندلسية لطيفة ، وتظللها عرائش الياسمين التي يفوح من نجوم أزهارها البيضاء عطر أخاذ ، وهناك تزيينات رخامية على شكل قناطر ومصاطب وأصص أزهار معلقة ، وهناك مائدة واحدة ، يجلس حولها أربعة ضباط ، لا تخفي ثيابهم المدنية كونهم من أقرب أعوان العقيد أبي ضاوي الذي يثير اسمه الفزع في القلوب ، ومنهم واحد يرتدي نظارة سوداء ، ربما لأن إحدى عينيه من زجاج . كانوا ـ عندما وصلنا إليهم ـ يضحكون وهم مأخوذون بحديث هذا المهرج الذي ما أن رأيته حتى شعرت بأنني أتلقى صفعة قاسية جدا ، ليتني ما جئت الى هذا العشاء . إن خنجرا قاتلا يتغرس في قلبي ، إن هذا المهرج الآن هو النمر سابقا ، وقد عرفته من أول لمحة ، وكدت أصرخ بوجهه : ماذا فعلت بنفسك يا صادر العنداري ؟ وأين صار سيف الله ؟

كان صادر العنداري رفيق صباي في آخر سنة بالدراسة الثانوية ، بل إنه كان مثلي الأعلى وقتذاك ،

لا بل إنه كان زعيم طلاب المدرسة جميعا ، إنه الفتى الرائع الذي سحرنا بشجاعته وجرأته وذكائه وتفوقه في العلوم كافة ، واندفاعه الى الصف الأمامي في كل عمل وطني أو مشروع ثقافي أو اجتماعي . بل إنه كان صاحب فكرة إصدار مجلة طالبية عنوانها « الوثبة » ، قد جعل شعارها :

شَرَفُ الوَثْبَةِ أنْ تُرضي العُلا
غَلَبَ الواثِبُ أمْ لَمْ يَغْلِبِ

فقد كان « النمر » شاعرا أيضا ، وكان سريع البديهة ثرّ العطاء . وذات يوم دعينا الى بيت طالب من رفاقنا لتناول طعام الغداء ، وكان ذلك الطالب فنانا في الرسم ، وما أن دخلنا ذلك البيت الذي كان يعبق بدخان شواء الكبة من منقل الفحم وجاءت أقراص الكبة المشوية المثيرة للعاب ، حتى قدح النمر هذين البيتين :

وكُبَّةٍ قَدْ أكلناها على سَغَبٍ
في منزلِ الفَطِنِ فنانِ الذَّكيِّ الأرِبِ
جاءتْ وَقَدْ وُضِعَتْ في الصحنِ ساخنةً
خدُّ الفتاةِ التي ماتتْ مِنَ الطَّرَبِ

هذا هو المهرج الذي يريد أبو ضاوي أن يسعدني بالضحك عليه الآن . وقدمني اليه على أنني صديق من قطر آخر ، اسمي عبد الرزاق حلمي ، من المؤكد أنه لن يتذكرني بعد غياب عشرين سنة في أوروبا بعيدا عن الوطن ، وحينما صافحته كدت أصرخ في وجهه : « كفى كفى ياصادر ، كيف تقبل على نفسك أن تكون المهرج الذي يضحك هؤلاء الحثالة من المجرمين ؟ » .

غير أنني لاحظت أنه ـ وهو يصافحني ـ لم يعرفني ، بل إنه بادرني :

ـ تشرفنا ، اجلس حتى أحكي لك آخر نكتة ، وواصل تدفقه في سرد النكات ، والآخرون يضحكون ، وأنا أتأمله مبهوتا .

إنه حليق الشاربين ، أمعط الوجه ، أين ذهب شارباك ياصادر ؟ أين وجه النمر ؟ كنا ـ في ذلك الزمن الرائع ـ نلقبه « النمر » لضخامة شاربيه وبريق الفحولة في عينيه ، كان له وجه نمر ، وطموح بطل ، وهو لم يخيب حدسنا ، فقد جاءنا في صباح أول يوم من أيام الامتحان المدرسي ليخبرنا بأنه رأى في المنام « جدنا خالد بن الوليد » حسب تعبيره ، وأن هذا البطل العظيم الذي كان يتوهج نورا ومهابة وجلالا قدم له سيفا من ذهب ، وقال له : « أيها النمر ، هذا سيف الله مني إليك ، احمله واضرب به أعداء الأمة » .

وكان صادر يومذاك يروي لنا حلمه الرائع بصدق وخشوع ، ثم قال : معنى هذا أنني عندما تصدر نتائج الامتحان مؤكدة نجاحي بتفوق فإنني سأتوجه للانتساب الى الكلية الحربية ، سأصير ضابطا في الجيش العظيم الذي كان خالد ثاني مؤسسيه بعد سيدنا محمد ﷺ .

وافترقنا منذ ذلك اليوم ، هو الى الكلية الحربية ، وأنا الى ألمانيا ، وها إن الذاكرة ـ هذه الفعالية النفسية العجيبة التي تغفو على منسيات تراكمت فوقها مشاغل عشرين سنة ـ تنتفض في لحظة خاطفة ، فتطرح الى دائرة الضوء الساطع كل المعلومات المنسية بأدق تفاصيلها وأبهى وضوحها : مجلة « الوثبة » ، والنمر ، وسيف الله ، وحتى الشعر ، على الرغم من أنني كنت ومازلت مشهورا بعجزي عن حفظ الشعر .

وها ان الرجل جالس أمامي ، على مائدة العشاء ، في صورته المزرية المخجلة ، أمعط الوجه كأنه متعهد توريد « ارتيستات » ، وكانوا يضحكون لنكاته ويحثونه على المزيد ، وهم ينادونه بلقب « دكتور » . دكتور بماذا ؟

حين طرحت هذا السؤال بأسلوب مهذب سألني أبو ضاوي مستغربا :

ـ إذن أنت لا تعرف ؟ حضرته دكتور في الصحافة من جامعة لم أستطع أن أحفظ اسمها ، لأنها تقع في مدينة ضائعة على سفوح جبال هيمالايا .

ـ وما الذي أوصله الى تلك المجاهل البعيدة ؟

ـ كان ملحقا عسكريا بسفارتنا بمملكة نيبال ، ووجدها فرصة سانحة لأن يسافر الى تلك المدينة البعيدة التي يصعب حفظ اسمها ، فيتفق مع أستاذ في

جامعتها على أن ينال شهادة دكتوراة في موضوع لم يسبقه اليه أحد ، وهو « التاريخ السري للتراشق بالأحذية في البرلمانات البورجوازية » ، وقد وافق ذلك البروفيسور الجليل بلغته الهندية ولحيته البيضاء الطويلة ، وعقود المسابح المتدلية فوق صدره ، وفقره المدقع ، على أن يقوم هو بتأليف « رسالة » الدكتور صادر باللغة الانجليزية التي لا يعرف أخونا منها ثلاث كلمات ، كل ذلك لقاء حفنة دولارات ، وثوبين جديدين ، وصندوق مشروبات ، يا بلاش ، وقد استغرقت العملية ثلاثة أشهر على ما أظن .

فقال النقيب الأمعط معترضا :

ـ لا يا أبا ضاوي ، حرام عليك ، فلقد أعطيته صندوقي مشروبات اثنين لا واحدا .

فانفجر الجميع ضاحكين .

وأنا قررت الاستسلام فضحكت معهم .

الواقع أنني ضحكت على سخفي ، فبعد أن روعت باكتشاف مدى التفاهة التي انحط إليها من كنا ننظر اليه على أنه « النمر » ، وكان ينظر الى نفسه على أنه جدير بأن يحمل سيف الله ، لم يبق أمامي إلا أن أترك كل شيء ينهار ريثما تنتهي هذه السهرة الفضيحة .

غير أن رمقا من نزعة الفضول الغريزية في الانسان الطبيعي قد دفعني لأن أسأل :

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

أجاب العقيد أبو ضاوي باستخفاف :

ـ ماذا سيحدث ؟ لا شيء ، سيادته نال شهادة دكتوراة في الصحافة ، فاستدعيناه وجعلناه نقيبا للصحافة ، الرجل المناسب في المكان المناسب .

ثم التفت أبو ضاوي اليه قائلا :

ـ مالك يا دكتور صادر ؟ ضيفنا مهتم بك كل هذا الاهتمام وأنت تهمل واجباتك حياله ؟

فتساءل الدكتور الأمعط :

ـ أستغفر الله ، خبروني بماذا قصرت ياسيدي ؟

فأمره أبو ضاوي :

ـ قم الى المطبخ وسلهم أين صار العشاء ؟ ضيفنا جاع .

فنهض المسكين مضطربا وهو يقول :

ـ أمركم سيدي ، أرجوكم عدم المؤاخذة .

وأسرع في الذهاب . ترى هل يمكن أن يزدرى إنسان الى هذا الحد ؟ قلت :

ـ عفوا ، أما كان بمقدورنا أن نكلف أحد الخدم بهذه المهمة ؟

فأفادني أبو ضاوي بالمعلومة العجيبة التي تؤكد على أن الدكتور صادر يشعر بسعادة كبرى عندما يكلفه « أحد المسؤولين » بمهمة من هذا المستوى ، لأن ذلك يعني أنه مازال مرضيا عنه .

وتكلم الرجل ذو النظارة السوداء والعين الزجاجية فأوضح المعلومة عينها قائلا :

ـ هؤلاء أناس كلما ذللتهم أكثر أخلصوا لك أكثر ، خصوصا هذا الإنسان الرخيص .

الى هنا ـ قارئي العزيز ـ أقول: إن كل ما قرأته خيال في خيال ، إنه أوهام كاتب صبها في فصل من رواية عادية لا علاقة لهذا الشخص بأحداثها من قريب أو بعيد .

تسألني : إذن أين هو المريب الذي يكاد يقول خذوني ؟

سوف يدهشك الجواب ، فعندما طبع الكاتب روايته الضخمة التي ليس فيها عن ظاهرة « الدكتور » إلا ماذكرت فوجىء بما لم يكن يخطر على باله إطلاقا ، فكم من « دكتور » من معارفه عاتبه أو قاطعه أو أعلن على الملأ أنه كاتب كذاب ، على الرغم من أن هؤلاء « العلماء » الأفاضل ليسوا نقباء ولا صحفيين .

أليس هذا عجيبا ؟ هكذا سألني صديقي مؤلف الرواية مذهولا ، وأضاف :

« أليس عجيبا أن لا يهتم أحد من هؤلاء النخبة الطليعية بمناقشتي حول أسباب انهيار ذلك الشاب من مشروع بطل الى دودة زاحفة تحت حذاء الطغاة ، ويحاسبونني ـ بدلا من ذلك ـ على ذنب لم أقترفه ، وهو أنني تحدثت عنهم بالسوء وفضحت حقيقة وضعهم ؟ » .

□

إقـــرأ
في العدد القادم من
العربي
يوليـــو ١٩٨٨

استطلاعات

بكين :
المدينة المحرمة تنفتح على العالم
سليمان مظهر

جيبوتي :
حيرة اللسان والمكان !
سليمان الشيخ

- منهج التجديد في الفكر الإسلامي
  د. محمد فاروق النبهان
- إشكالية الوحدة الإقليمية في الفكر العربي الوحدوي
  د. محمد جابر الأنصاري
- مواقف إنسانية !
  د. عبدالوهاب حمد
- الفيلم الأمريكي واللاسامية الجديدة ضد العرب
  د. جاك شاهين
- الايقاع .. طاقة السحر وجسر العبور !
  خالد القشطيني
- هل نقول للعجز الجسماني وداعاً ؟
  د. سامي محمود علي
- النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي
  د. شكري ابراهيم سعد

- **وجهاً لوجه :**

فنان الكاريكاتير علي فرزات و حسن يوسف

واقرأ أيضاً للكتاب :

د. محمد الرميحي - د. سمير رضوان - أحمد الجندي - فهمي هويدي
محيي الدين فارس - د. عباس الحميدي - د. عليا شكري - ياسر الفهد

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الزبون رقم «١»

هذا عالم يسود فيه البؤس أكثر مما تسود فيه السعادة ، ويسود فيه الجنون أكثر مما يسود فيه العقل الرشيد !

وفقا لأرقام الأمم المتحدة فإن هناك بين خمسة مليارات يسكنون هذا الكوكب مليار يعيش تحت خط الفقر ، ومليار بلا مأوى ، ومليار تحت بند المتعطلين . وعندما تتواضع الأرقام لتهبط عن المليار نجد أن هناك (٧٨٠) مليونا لا يحصلون على غذاء كاف ، و ٨٨٦ مليونا لا يعرفون القراءة والكتابة !

الأرقام عن عام ١٩٨٧ الذي انعقد في الخريف منه مؤتمر للأمم المتحدة بعنوان « نزع السلاح والتنمية » ، اتضح فيه أن العالم ينفق ٦٪ من الناتج المحلي على التسلح ، وأن نفقات التسلح قد تضاعفت منذ الحرب العالمية الثانية حوالي خمس مرات ، وأن المشكلة الكبرى في الدول النامية حيث تزيد نفقات التسلح عن عشرين ضعف مساعدات التنمية الرسمية .

زبون رقم (١)

الدراسات لا تتوقف حول هذا التناقض بين الحاجة إلى موارد تواجه الأزمات وإنفاق الموارد على التسلح . وآخر الدراسات جاءت في كتاب يحمل اسم « بازار المدافع » قدمه ميشيل بارزوكا وتوماس اجلوسن ، وهما باحثان في معهد السلام العالمي باستكهولم .

في الكتاب أن العالم الثالث قد اشترى سلاحا قيمته (٢٨٦) مليار دولار بين عامي ١٩٧١ - ١٩٨٥ ، وأنه بينما تراخى معدل التزايد في المشتريات بين عامي ٧٨ ، ٨٤ عاد المؤشر يرتفع من جديد ابتداء من منتصف الثمانينيات .

والرقم ليس صغيرا فهو يقترب من ثلث مديونية العالم الثالث ، أي أنه بين كل ثلاثة دولارات يقترضها العالم الثالث يتجه دولار واحد منها للسلاح في نفس الوقت وأنه بين كل دولارين يخرجان من العالم الثالث لشراء سلاح يدفع الشرق الأوسط دولاراً واحدا منها . فوفقا للبحث السابق جاء الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٥ على رأس زبائن السلاح في العالم ، إنه الزبون رقم (١) الذي يمتص أكثر من نصف المبيعات ، ثم تأتي بعده افريقيا ، وفي مقدمتها دول المغرب العربي ، ثم تأتي أمريكا اللاتينية وآسيا .

في التفسير وبعيدا عن الدراسة السابقة نجد أن كثيرا من بؤر التوتر في الشرق الأوسط ، ففي أقصى الشرق حرب الخليج التي امتدت على مدار ثماني سنوات كاملة ، ولم يقتصر أثرها على البلدين

المتحاربين ، وإنما امتدت لكل الجيران ، وفي المشرق يأتي الصراع العربي الاسرائيلي أيضا بما يعنيه بالنسبة لدول الجوار (سوريا والأردن ومصر ولبنان) ، بل والسعودية أيضا التي لا تبعد كثير عن الأرض المحتلة ، وفي الجنوب من الوطن العربي يأتي أكثر من توتر ، وفي المقدمة الوضع في السودان . وفي المغرب من الوطن العربي تأتي مشكلة الصحراء وغيرها من مشاكل تخلق التوتر .

وربما كانت سنوات ما بعد الاستقلال ، وسنوات ما بعد « النفط المرتفع السعر » تفسر الاتجاه لبناء قوة عسكرية ، لكن الأكيد أن التوتر كان هو العنصر الغالب في سباق التسلح ، حتى باتت ميزانية الدفاع في بعض البلدان تلتهم أكثر من ثلث الانفاق العام في الموازنات الحكومية ، وحتى باتت نسبة الانفاق على التسلح في بعض البلدان الفقيرة تزيد من ناحية الأهمية النسبية عن كثير من البلدان الغنية والمتقدمة !

والتفسيرات كثيرة ، لكن الأهم ما هو مستقبل هذا الانفاق المجنون الذي يتحول ـ في جزء كبير منه ـ إلى ديون تتصاعد ؟

العالم ومفترق الطرق

السؤال مثار ، والعالم الآن يقف في مفترق طرق ، مشاكل العالم الثالث وديونه وأزماته التي تصل إلى حد « الحياة والموت » ، كل ذلك يتزايد ، فهل يعيد العالم الثالث النظر في أولويات إنفاقه ؟

على الجانب الآخر فإن مؤتمر الأمم المتحدة الذي ناقش نزع السلاح والتنمية قد انتهى إلى وثيقة تربط بين الأمرين ، وتضع برنامجا للعمل ، تؤكد فيه الدول المشتركة التزامها باتخاذ « إجراءات مناسبة لنزع السلاح والتنمية ، ولحل النزاعات بشكل سلمي » حدث ذلك في خريف ١٩٨٧ ، فهل يتحقق شيء منه ؟

وربما يكون التحول الأهم هو اتجاه القوتين العظميين لنزع بعض الأسلحة ، بل وتدميرها أيضا ، والسؤال : هل يصحب ذلك انكماش في صناعة السلاح التي يتركز جزء كبير منها في هاتين الدولتين ، أم أن شركات السلاح سوف تحافظ على طاقتها ، ومن ثم فليس أمامها غير العالم الثالث ، تبيع له ، وتكسب منه ، وربما تلعب لعبتها في توفير ما يلزم اللعبة من أزمات أكثر ، وديون أوفر ؟

والأمر هنا يتعلق بالعالم الثالث في المقام الأول : أي أولويات يختار ؟ وأي سياسات يتبع ؟ ذلك أنه اذا كان الخيار بين القمح والبندقية فلا بد أن ترجح كفة القمح ، لكن بشرط أن تعالج قضايا الأمن بأسلوب آخر أكثر رشدا ، وأقل تكلفة .

القضية مطروحة عالميا ، لكن على زبون السلاح رقم (١) ـ أعني الشرق الأوسط ـ أن يكون أول من يعالج الأمر ، وأن يسأل فيما يشتريه من أسلحة : أي عائد من الأمن في مقابل التكلفة الاقتصادية التي تدفعها ؟ وذلك مع التسليم بأن الطرف العربي ليس وحده في الميدان ، وفي القرار . □

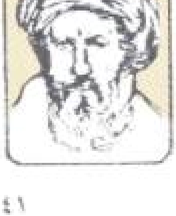

السلطان الحازم

● كانت مسألة السلطان موضع عناية مصنفي الأدب السياسي في تراثنا العربي ، أمثال الماوردي والشيزري وابن الأزرق وابن خلدون وابن الربيع وغيرهم .

يقول أحدهم في ذلك : السلطان الحازم ، من ابيضت آثار أياديه ، واسودت أيام أعاديه ، واخضرت مواقع سيبه ، واحمرت مواقع سيفه ، واصفرت وجوه حساده ، وراقت أعين أنداده ، وكل هذه الصفات تقود للاعزاز ، وتدفع غائلة المذلة والهزيمة عن الأمة .

قراءة نقديّة لكتاب

مساء البلورات

مجموعة قصصيّة

من تأليف عبد القادر عقيل

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

يقدم الكاتب في هذه المجموعة القصصية تجربة صادقة أصيلة ، وآية صدقها ذلك التناغم الرائع بين عناصر التجربة في القصة الواحدة ، وبين المجموعة كلها .

فما هي تفصيلات ما جاء في قصص « مساء البلورات » ؟

منذ أعوام أتيح لي أن أقرأ المجموعة القصصية الأولى للقصاص البحريني عبد القادر عقيل بعنوان : « استغاثات في العالم الوحشي » ، كانت قصص هذه المجموعة صغيرة الحجم نوعا ، ١٨ قصة في ٩٠ صفحة ، الانطباع الذي تركته هذه القصص في نفسي آنذاك أن كل قصة تبدو بالفعل مثل الاستغاثة ، حادة قصيرة ، مكثفة ، لاهثة مباشرة ، وقد كتبت هذه القصص بأسلوب يكاد ينأى عن منهج الكتابة الواقعية السائدة التي تعنى برسم شخصيات من الواقع ، ذات ملامح نفسية واجتماعية محدودة في اطار زمان ومكان محددين ، ورصد حركتها وتفاعلها عبر تفاصيل الحياة اليومية ، ففي كل قصص هذه المجموعة تقريبا كان ما هو واقعي يمتزج امتزاجا حادا بما هو خيالي ، وكان هذا المزيج يتيح للكاتب أن يقطر من تناقضات الواقع الاجتماعي والقومي والانساني سخرية مريرة تعبر عن طبيعة الموقف أكثر منها عن طبيعة الشخصية ، وتكاد تطبع كل قصص المجموعة مسحة من اليأس والأسى والإحباط ، وبطبيعة الحال فان هذه الخصوصية لاتخرج قصص المجموعة عن تيار القصة الواقعية العام ، وهو التيار الذي يهتم بتشكلات الانسان البسيط الذي تسحقه هموم الواقع الاجتماعي اليومي ، وأتذكر أيضا أن هذه القصص كانت تعاني - بحكم كونها مثل الاستغاثات - من المباشرة وربما من السطحية ، سواء في رؤية المشكلة أو في معالجتها الفنية ، فالقصص كلها صرخات حادة ضد الفقر والقهر والبلادة والقسوة والتخلف ، ولاشيء آخر ، لكن أهم ما بقي في نفسي من تلك المجموعة هو

رهافة السخرية وحدتها ، والقدرة الكبيرة على تكثيف المواقف في سطور قليلة مشحونة ومختارة بحساسية بالغة ، قد تذكر بقصص الكاتب السوري زكريا تامر ، والآن ماذا يقدم لنا عبد القادر عقيل في مجموعته القصصية الثانية ؟ كيف تطورت تجربته القصصية ، وماذا أضاف فيها وفي أي اتجاه ؟

سمات عامة

تضم مجموعة مساء البلورات اثنى عشرة قصة ، ست منها مقدمة بلسان الراوي (البطل) والست الأخيرة مقدمة بضمير الغائب (المؤلف) ولكن هذا الاختلاف لايؤثر كثيرا على شعور القارىء بأن العالم القصصي في هذه المجموعة مقدم من خلال شخصية واحدة هي البطل متعدد المستويات والوجوه، يطل عليك من مواقف مختلفة من الحياة ، ومن مراحل مختلفة من العمر ، ولكن جميع هذه المواقف والمراحل تتكامل في صنع رؤية قوامها انسان واحد خائف مهزوم متوجس يعاني من كوابيس مرهقة تنبع أحيانا من مشكلات نفسية غائرة ، وأحيانا من مشكلات اجتماعية خانقة ، فما ملامح هذه الرؤية ؟ وما مكوناتها ؟

كوابيس . . . الليل والنهار

في قصص هذه المجموعة أيضا يمتزج ما هو واقعي بما هو خيالي ، وهذا هو الخيط الفني الممتد بين المجموعة الاولى والثانية . والخيال في هذه القصص ينبع من الحلم الذي سرعان ما يتحول الى كابوس ، وقد تبدأ منه القصة أو تنتهي به ، وقد تتردد القصة بين حالات من اليقظة والكابوس في ايقاع متوازن يبدو فيه الواقع وكأنه كابوس أو يفسر الكابوس ويستمد فيه الكابوس صورة الرمزية من الواقع . . .

فما هي الوظائف الفنية للكابوس في هذه القصص ؟؟

وما الرموز الفنية التي تراءت عبر الكوابيس في هذه القصص ؟

على ضفاف الحلم يغني الأطفال

هذا هو عنوان القصة الأولى في المجموعة ، وسوف نتوقف في البداية أمام القصة ، لأنها تمثل نوعا من المفتاح للدخول لعالم هذه المجموعة ، واكتشاف معالم رؤيتها الفنية .

بطل هذه القصة هو الراوي نفسه ، وهو أب يعيش مع زوجته وطفله ، يقرر فجأة أن يقاطع الجرائد والاذاعة والتلفاز لان الدنيا تبدو له من خلالها وكأنها تعيش تحت خيمة الشر . يكتفي منها كلها بالاستماع لمحطة الموسيقا في الاذاعة لأن الموسيقا هي اللغة الوحيدة التي لا توحي بالشر ، ومع

صعوبة القرار فانه ينجح في تنفيذه بعد معاناة ، ويبدأ في الشعور بأن كل شيء يسير على ما يرام في مملكته الصغيرة فهل يستمر له هذا الحال ؟

ذات يوم يرى وجه زوجته ممتقعا وهي تقول له :

الصغير اختفى ، بحثت عنه في كل مكان ولم أجده !

[لاحظ هنا، وفي كل القصص المقدمة بلسان الراوي أنه لاتطلق اسماء على الشخصيات مما يوحي بفكرة البطل الواحد المتعدد الوجوه والمستويات في هذه القصص] .

إن رحلة الابوين في البحث عن الصغير الضائع في مخافر الشرطة وفي المستشفيات ، لاتسفر عن سر

اختفاء الطفل ، ولكن ما صادفه الأبوان في هذه الرحلة يكشف أشياء عن جذور المخاوف الكامنة في أعماق الاب التي دفعته الى قرار الانسحاب والامتناع عن قراءة الجرائد ومتابعة الاذاعة والتلفاز .

ـ اذن لابد أن عصابة اختطفت ابنكما ، حتما سيتصلون بكم لطلب الفدية ! كانت هذه العبارة هي آخر كلمة قالها لهم رجل الشرطة كأنما ليعلن انتهاء دوره . . . وتستمر أحداث القصة ليتأكد الابوان أن الانسحاب لايوفر أمنا وليكتشف القارىء ـ وهذا هو الاهم ـ أن خطورة الانسحاب ليست في مداه بل في قرار الانسحاب ذاته ، لأن الذي يقرر الانسحاب كطريق للنجاة ، لن يعرف حدا يتوقف عنده ، فالابوان هذه المرة ـ وبعد طول انتظار ـ يسمعان صوت طفلهما الغائب ينبعث من جدار في حجرة نومه . . . وحين يتكرر النداء فان الاب يقذف بنفسه الى داخل الجدار (بداية الكابوس أو الجنون) فيجد نفسه يسقط في فراغ لانهائي تدور فيه الافلاك وتعزف الموسيقا (لاحظ التمهيد لهذا الموقف بعشق الاب القديم للموسيقا) وعلى نغمات هذه الموسيقا يجد أطفالا يرقصون ويغنون ، وحين يقترب منهم يجد ابنه معهم يلعب ويغني ، يتعانق الاب والابن ، ويقود الطفل أباه الى جهاز بحجم الرجل يدخل فيه الاب ليخرج منه طفلا في الخامسة من عمره . . . .

(اشارة الى أن أحد أشكال الجنون هو ارتداد الكبير بطريقة ما الى الطفولة) تلك هي الحدود القصوى للانسحاب الذي قد يبدأ بالامتناع عن قراءة الصحف .

وفي نهاية القصة ينطلق الاب والابن (الطفلان) الى كوكب بعيد ، فيجدان امرأة تنتظر عودة زوجها وابنها فهل يعودان أم أن الام هي التي ستلحق بهما في الطريق ذاته ؟ ويبقى السؤال معلقا . .

في هذه القصة قد يلاحظ القارىء شيئا من اختلاف التوازن بين ما تقدمه القصة بالفعل من مخاوف الراوي (البطل) وبين النتيجة التي انتهى اليها والتي توحي بالجنون أوبمواصلة الهروب الى عالم الاحلام والكوابيس ، ولكن في اطار الفهم أو التفسير الذي نقدمه ، وهو أن الشخصية في هذه القصة ، بل في هذه المجموعة هي الانسان في بلادنا ، وهو يواجه مشاكل مجتمعه في اطار متغيرات العصر ، فانه يتوجب علينا أن نواصل قراءة القصص لنفتش عن بقية ملامح بطل هذه المجموعة ، وعن دواعي خوفه وانسحاقه ، وعن رؤية المؤلف لعوامل الخوف والاحباط سواء في أعماق ذات البطل ، أو في حياة مجتمعه وشتى ظروفه . وقد يجد القارىء ـ ولا نريد أن نسبقه الى الحكم ـ أن بعض قصص المجموعة تركز على أزمة الجنس في حياة البطل ولها بعد اجتماعي ايضا ، وأن بعضها يركز على أشكال القهر والاستلاب في المجتمع ، وبعضها قد يوحي بأن الشر الذي يهرب منه البطل في القصة الاولى عميق الجذور في الوجود الانساني ، بحيث يبدو أن اقتلاعه قد يعني أحيانا اقتلاع الحياة ذاتها ! هل تعجلنا في اصدار الاحكام والتفسيرات بعيدا عن القصص ؟ لماذا لانعود للقراءة ؟

ليس بالامكان حدوث ما كان

في هذه القصة الرائعة نلتقي بالبطل وحيدا تماما في قارب مطاطي في بحر عميق ساكن ، يتطلع في كل اتجاه حيث لاشيء سوى البحر . لايدري ما الذي جاء به الى هنا ، لاحطام سفينة ، لاجثث ، لاسفن عابرة . لايجد بطاقة هوية في جيبه . لايتذكر شيئا ،

هنا تبدأ القصة بنوع من العزلة لعلها تشبه العزلة التي انتهى اليها البطل في القصة الاولى . . . واذا كانت عزلة البطل في القصة الاولى مع الاطفال هي الكابوس ، فان العزلة هنا (مع انها هي الكابوس الفعلي) تبدو من طريقة تقديم الكاتب لها كأنها هي اليقظة أو هي الواقع ، وفي هذه اليقظة يحاول البطل أن يتذكر الاحتمالات التي يمكن أن تكون قد رمت به الى هذه العزلة القاتلة ، ويتذكر البطل أربعة احتمالات كلها مستمدة من ماضيه ، أعني من الواقع ، ولكنها تبدو له ـ وأيضا للقارىء ، لما فيها من

قسوة وغرابة وبشاعة ـ وكأنها هي الكابوس الذي قذف به الى هذا المكان النائي . . . وحين يتأمل القارىء هذه الاحتمالات سوف يجد أن الشرور التي يهرب منها البطل في الواقع الى هذا الكابوس تنبع كلها من قهر السلطة ، أو من عسف التقاليد ، أو من ظلامة القانون . . . !

في هذه القصة الرائعة يتبادل الواقع والحلم أدوارهما ، فتأتي لحظة الحلم ثابتة واضحة قوية كأنها الحقيقة ، بينما تتخللها ذكريات الواقع الكئيب المخيف وكأنها أحلام كابوسية ثقيلة ! تأمل مرة اخرى روعة العنوان « ليس بالامكان حدوث ما كان . »

العقاب

اذا كان البطل في القصة الأولى هو الأب فان البطل في قصة العقاب هو الابن . وهو هنا طفل في العاشرة من عمره ، تبدأ القصة بكابوس يرى فيه الصبي نفسه ساقطا في حفرة عميقة هربا من جمل يطارده ، وجه الجمل يطل عليه من أعلى الحفرة ، ثم يتحول وجه الجمل الى وجه مدرس الحساب يأمره بأن ينهض ، وحين يفتح احدى عينيه يرى في الحقيقة وجه شقيقته التي تكبره بسبعة أعوام توقظه لتنظف السطح الذي تنام فوقه الأسرة صيفا ، يرفض القيام لان اليوم اجازة فتسحب عنه الغطاء فتجده عاريا ، وتجد قرادة تزحف على إليته ، فتدير وجهها وهي تطلق ضحكة ساخرة .

ـ تظن نفسك رجلا حتى تنام عاريا !

هي هكذا تحاسبه على اخطائه كأنه رجل ، ولكنها تعامله كأنه طفل ، ودائما تهزأ منه أمام أبويه وأمام الجيران ، وتجعل من أفعاله حكايات ترويها للسخرية منه ، يقول لها مماثلا :

ـ ساساعدك في تنظيف البيت مقابل سكوتك عما حدث ، وتقول مبتزة :

ـ وتنفذ كل أوامري :

وهكذا يتحدر التهديد والخوف من وجه الجمل الى وجه مدرس الحساب الى وجه الاخت ، وينتهي الى رضوخ الصبي (البطل) الى ابتزاز اخته .

ولكن طفلنا الضحية يسفر بعد لحظات ـ رغم أعوامه العشرة ـ عن انسان مليء بالقسوة والانانية ، إنه يصطاد العصافير بنوع من الحيلة ثم يخاطب العصفور بعد اصطياده قائلا :

ـ تعال ياعصفوري الجميل ، انت الآن تحت رحمتي ، ثم يضع عنقه بين أصابعه ويسحبه بقوة فينفصل الرأس عن الجسد ، ويتفجر دم العصفور ، ويذهب به الى أمه لتطهوه له قبل الغداء ، على مائدة الغداء يحكي أبوه قصة عامل سقط من برج سفينة شحن ومات لتوه ، لكن القصة لاتكاد تثير اهتمام الصبي فكل ما كان يهتم له هو أن لا تثرثر أخته بما حدث له في الصباح .

أثناء النهار يكتشف الصبي أثناء تلصصه على بيت جارهم الغني أن الشقيق المقعد للجار يخون أخاه الذي يعوله ـ أثناء غيابه عن البيت ـ مع زوجته ، يفكر في أن يخبر الزوج المخدوع فقد يحصل منه على شيء من النقود مقابل ذلك ولكنه لايفعل خشية أن يتعرض لأذى رجل غاضب ، ويتساءل هل يمكن لاخته حين تكبر وتتزوج أن تخون زوجها كهذه الزوجة ؟!

وتستمر القصة التي تكاد تكون مجرد تسجيل محايد ـ ولكن مقصود ـ لسلوك طفل خلال نهار وجزء من الليل ، ليقدم لنا الكاتب من خلال بطل القصة الصغير رؤيته لجذور القسوة والانانية في نفوس الاطفال والكبار .

وبغض النظر عن دور الكبار في ذلك ـ فمن الواضح أن الكاتب في هذه القصة يركز أكثر على ما هو كامن في اعماق الفرد الطفل من استعداد شبه فطري للقسوة والابتزاز والكذب ، فالصبي في نهاية هذه القصة يشي بأخته عند أبيه وشاية كاذبة ، ويتسبب في أن تنال من أبيها عقابا عنيفا على جريمة لم ترتكبها لأنها لم تف بما وعدته به من عدم السخرية منه أمام بنات الجيران ، وتنتهي القصة بابتسامة شريرة ـ على حد تعبير الكاتب ـ ترتسم على شفتي طفل في العاشرة من عمره .

قد يبدو في هذه القصة بعض المبالغة ، وشيء من

الانفعال في حشد صنوف من القسوة ، فحين يذهب الصبي مع شقيقته الى بيت الجيران لمشاهدة التلفزيون تجده مغرما بمتابعة « مسلسل ازيز الرصاص » مثلا . . . والمصارعة الحرة . . الخ .

لكن من الواضح أن القصة هنا بكل ما تحمله تبدو وكأنها تؤدي دورا في هذه المجموعة باعتبار قصص المجموعة تقوم برحلة بحث عناصر القسوة والشر في حياتنا وفي واقعنا ، وهي العناصر التي دفعت بالبطل في القصة الأولى الى أن يهرب الى الجنون ، وهي بهذه المثابة لاتجعل من الاطفال مجرد ضحايا بل تكاد تجعل منهم مشاركين .

رقصة الحرب

تبدأ هذه القصة من الواقع ، ويلوح أنها تنتهي فيه ، ولكن ما يحدث في القصة في السطر الاخير ، بل ما يحدث فيها من البداية الى النهاية - حين تعيد حتى قراءتها - سوف يجعلك تكتشف أنها ليست سوى كابوس مخيف ، ليست في حاجة الى أن تنام لكي تراه ، وتتميز هذه القصة بأنها تحمل امكانية تفسيرات متعددة وغنية . .

ففي القصة أب يأخذ ابنه الى أحد المتنزهات العامة . .

(لاحظ أن معظم أبطال هذه المجموعة أب وابنه أو ابن وامه أو رجل وامرأة مما يؤكد عمومية البطل فيها كلها وأنه الانسان في وطننا العربي كله ، وليس فردا بعينه)

كل شيء في المتنزه يوحي بامكانية قضاء وقت جميل للاب وللابن بين الاراجيح والاطفال والزهور والاشجار الجميلة عدا شجار صغير بين طفلين ، وفجأة في هذا الجو المطمئن تقف حافلة صفراء اللون ينزل منها رجال ملثمون معظمهم يحمل سيوفا براقة ، أما البقية فتحمل دفوفا وطبولا ، ويتوجهون الى قلب المتنزه ويبدأ العازفون في العزف ، أما الملثمون فراحوا يؤدون رقصة الحرب على ايقاع الطبول . . . ويتحلق الصغار والكبار حولهم في دهشة لأنه لم تكن هناك مناسبة لمثل هذا العرض الاحتفالي ، لكن الجميع كان مأخوذا بما يقوم به الرجال الملثمون من حركات بارعة بسيوفهم ، يمزقون بها النسيم الرقيق . الطبول تكاد تتفجر من شدة الضرب عليها ، الاب يضع ابنه على كتفيه ليشاهد افضل ، فجأة يطلق احدهم صيحة قوية ، فتشتد أيدي الملثمين على مقابض السيوف ويتوقف الضرب على الطبول ، وفي لحظة سريعة أخذوا يمررون سيوفهم الحادة بكل قوة على رءوس أفراد الحلقة دون تمييز .

هذه هي القصة التي تبدأ رقيقة ناعمة جميلة ،

ثم يتخللها قلق خفيف يتجلى بشجار طفلين لايعني أحد بفض اشتباكهما ، ويتسلل الى جوهما خوف مغلف بالاثارة وبوعد غامض برؤية لعبة مشوقة هي رقصة الحرب ، ومع توتر تمتزج فيه النشوة بالخوف ، أثناء رقصة الحرب تأتي النهاية الفاجعة من مفاجأة تقلب الواقع الى كابوس مخيف ، هنا يزيح

الكاتب الستار عن منابع جديدة للخوف حيث يمكن أن تتحول لعبة التلويح بالحرب في الواقع في أية لحظة الى حرب حقيقية ، لاتميز في اختيار ضحاياها ، وربما يقدم الكاتب في صورة جديدة خوفنا القديم الكامن من الموت الطبيعي الذي نعايشه ونتقبله ونسلم به . وهو يتسلل الى حياتنا مخاتلا مخادعا ، قد يفاجئنا ونحن في أكثر اللحظات شعورا بالامن من ناحيته ، في هذه القصة يحفر الكاتب عميقا عن جذور الخوف في الوجود ذاته !

توظيف تقنية الكابوس

في هذه المجموعة تتعدد استخدامات تقنية الحلم الذي يتحول الى كابوس . . . ففي قصة « النبوءة » يتيح استخدام هذه التقنية تواصل حلقات الاضطهاد الذي قد تمارسه السلطة في العصر الحديث مع حلقات الاضطهاد والعنف الذي كانت تمارسه السلطات في التاريخ في قصة واحدة،فالسجن الذي يذهب اليه البطل في هذا العصر لمجرد الإدلاء بشهادة ، ثم يتحول فيه الى متهم يلتقي بسجينين آخرين ، وهما محمد بن الحسن بن سهل المعروف بشيلمة الكاتب ، وعبيد الله بن المهتدي في عصر الخليفة المنتصر ، ويكتشف البطل والقارىء في وقت معا ـ من خلال تقنية الحلم الذي يتحول الى كابوس ـ أن للظلم «منطقا واحدا في كل العصور .

في قصة « الجاثوم » تتيح التقنية التي تراوح بين حالات الكابوس ، وحالات اليقظة وما يحدث خلالها ـ في تدرج مقصود أن يدرك القارىء لماذا تستيقظ شهوة البطل مع جسد جميل لامرأة دفنت منذ لحظات ، وتموت مع جسد زوجته الحية بجواره .

وقد لانملك في حدود هذا المقال أن نستجلي بتفصيل معالم الرؤية التي يقومها الكاتب في كل قصص هذه المجموعة ، ولعلنا قد حددنا المعالم الاساسية لهذه الرؤية التي دفعت بالبطل الواحد المتعدد الى حافة الجنون ، وهي رؤيا قد يراها البعض متشائمة أو مغرقة في السواد ، وقد يجد كل منا في أعماق ذاته أو في أعماق مجتمعه أجزاء من هذا البطل الخائف المهزم المسحوق ، ولكن الذي قد نختلف فيه كثيرا أن الكاتب في هذه المجموعة وفي غيرها مما كتب كان يقدم لنا تجربة صادقة أصيلة ، وآية صدقها ذلك التناغم الرائع بين عناصر التجربة في القصة الواحدة وبين المجموعة كلها، وانها قدمت لنا ما تقدمه أية تجربة صادقة من قسوة الصدق وجماله في آن واحد . □

ميمون النقية :

كان ابن مسكويه مديرا لمكتبة أبي الفضل بن العميد الوزير المعروف ، وحدث أن ثار العامة على الوزير ونهبوا داره ، فلما عاد إليها بعد ذلك لم يجد فيها شيئا يجلس عليه ، ولا كوبا يشرب فيه ، ولكنه وجد خزانة المكتبة لم تقربها يد سوء ، فسرى عنه الحزن ، وقال لابن مسكوية أشهد أنك ميمون النقية فإن لنا عوضا عما كانت تحويه خزائن المال والجوهر وبقية التحف والنجائب ، أما الكتب فلا يوجد ما يعوضها .

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

من يملك حقوق نشر القرآن الكريم ؟

من يملك حقوق نشر القرآن الكريم ؟ إذا قلنا إنه ملك للناس كافة ، لأنه خطاب الله إلى البشر أجمعين،فمعنى ذلك أن لا أحد - من الناحية العملية - يملك حقوق النشر ، وبالتالي فإن من حق كل أحد أن يقدمه على أي نحو أراد ، دونما رقيب أو حسيب !

ونحن نوافق تماما على أن القرآن ملك للناس كافة ، لكننا نحسب أن إطلاق اليد في ترجمته ، أو ترجمة معانيه ، على الصورة الحادثة الآن ، بغير مراجعة من الطرف الاسلامي ، لا يحرف كلام الله أو يشوهه فحسب ، ولا يفسد معارف الأقليات الاسلامية المبثوثة في مختلف أنحاء العالم فحسب ، ولكنه يصادر إمكانية تبليغه إلى الناس كافة على نحو صحيح أيضا .

لم نتحدث عن المصاحف المحرفة التي تطبع بين الحين والآخر ، ويروج لها في الوطن العربي ، فالحاصل أن المؤسسات الاسلامية في كل بلد تنهض ملاحقة تلك المصاحف أو طابعيها ، وتتخذ بحقهم الاجراءات القانونية المناسبة التي تنتهي عادة بمصادرة ما هو محرف ، وحجبه عن التداول .

• • •

ولن نخوض في جدل مع الذين يحرمون ترجمة معاني القرآن الكريم ويطالبون المسلمين أو غيرهم بأن يتعلموا اللغة العربية إذا ما أرادوا فهم القرآن أو التعامل معه ، فتلك دعوة ضمنية لحصار القرآن في مناطق العرب دون غيرهم ، وحرمان غير العرب مسلمين أو غير مسلمين من ذلك النبع الالهي الفياض ، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى إفساد عقائد ملايين المسلمين الذين يتعذر عليهم تعلم اللغة العربية ، فضلا عن إهدار كل فرصة ممكنة لإبلاغه إلى غير المسلمين في أنحاء العالم . وهاتان النتيجتان تسعدان أعداء الاسلام الذين يحاربونه ، وطالما تمنوا أن يقطعوا صلة المسلمين بكتاب الله ، حتى يصبحوا فريسة سهلة لمخططاتهم ودعاياتهم التي يوجهونها بكثافة إلى مختلف تجمعات المسلمين في أطراف العالم الاسلامي ، خصوصا في قارتي آسيا وافريقيا .

وفضلا عن ذلك ، فمن الثابت أن سلف المسلمين

لم يترددوا في ترجمة معاني القرآن إلى غير العرب ليبلغوا رسالتهم إلى الناس ، ويذكر في هذا الصدد أن موسى بن سيار الاسواري كان يقرأ الآية من كتاب الله فيفسرها للعرب عن يمينه بالعربية ، وللفرس عن يساره بالفارسية . وكان ذلك في القرن الثالث الهجري .

•••

كما يذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام كان ينصح أصحابه بتعلم لغات زمانهم ، ليتسنى لهم إبلاغ غير العرب بالدين الجديد ، فكان منهم من تعلم السريانية والعبرية ، فضلا عن الفارسية والرومية والحبشية .

بل أذهب إلى أننا لسنا بحاجة إلى مختلف شواهد التاريخ وحججه لنبحث عن إجازة لترجمة معاني القرآن إلى غير العربية . تكفينا ضرورة الدفاع عن عقائد المسلمين من غير العرب ، والتكليف الالهي لنا بإبلاغ القرآن إلى الناس كافة .

وأيا كانت حجج القائلين بحرمة ترجمة معاني القرآن فالحاصل أنه ترجم فعلا إلى ٧٢ لغة في مختلف أنحاء العالم ، وأن عدد الترجمات والطبعات التي صدرت منه بتلك اللغات ـ حتى سنة ١٩٨٠ ـ وصل إلى حوالي ٢٠٠٠ ترجمة وطبعة ، منها ٦٧١ ترجمة وطبعة في اللغات الأوروبية وحدها ، وعددها ٢٣ لغة ، وهذه الأرقام أوردتها البيليوغرافيا العالمية لترجمات القرآن الكريم التي أصدرها مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول (سنة ١٩٨٦) .

•••

والخطير في الأمر أن الأغلبية الساحقة في تلك الترجمات تضمنت مالا حصر له من التحريفات والتشويهات التي تقدم كتاب الله ، وتقدم الاسلام كله في أسوأ صورة ممكنة ، مما يجعل من هذه الترجمات حاضرا حقيقيا يحول دون توصيل معاني القرآن وتعاليمه الصحيحة ، إلى الناس ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ولا غرابة في ذلك كله ، وإنما الغريب حقا أن نشهده ونسكت عليه ! ذلك أن الترجمات الأولى للقرآن تمت على أيدي الرهبان ، ولم يكن هدفها بأي حال هو التعريف بكتاب الله ، وإنما كانت ترجماته تلك حلقة في المخطط الكنسي الغربي للهجوم الفكري على المسلمين ، واغتيال كتابهم المقدس خارج حدود الأمة العربية .

ففي بحث هام بعنوان « المحرفون للكلم » نشرت مجلة « المسلم المعاصر » الفصلية (عدد شوال ـ يونيو ١٩٨٧) للدكتور حسن المعايرجي ، الاستاذ بجامعة قطر ذكر أن الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن تمت في سنة ١١٤٣ م لروبرت الكيتوني ،وأن الترجمة اللاتينية الثانية تمت سنة ١٧٢١ م ، وقد قام بها لودفيج ماراتشي .

وتوقيت الترجمة الأولى مهم ، لأن فترة القرنين

الحادي عشر والثاني عشر قد شهدت عديدا من صور الهجوم الأوروبي على عالم الاسلام ، كما شهدت مؤشرات عدة على تقلص النفوذ الاسلامي في أوروبا،إضافة إلى الدور المتعاظم للبابوية والكنيسة الغربية،وبروز دور الرهبانيات في فرنسا الذي كان تعبيرا عن صحوة مسيحية رهبانية في ذلك الحين.

وعلى حد تعبير الدكتور المعايرجي فإنه « في ظل الجو المكفهر القاتم ، المشحون بعداوة الاسلام ومهاجمته على كل الجبهات ، في صقلية ، والأندلس ، وفي القدس (الحروب الصليبية) ترجم القرآن الكريم أول ما ترجم في أوروبا إلى اللغة اللاتينية ، لغة الكنيسة » .

لقد خرجت الشرارة الأولى لتلك الحرب الفكرية الشرسة من «دير كلوني» الذي تأسس في عام ٩١٠م بمقاطعة بورجاندي الفرنسية ، ومنه تخرج عديد من الباباوات والكاردينالات ومستشاري الملوك والأباطرة ، وكان البابا « أوربان » الثاني الذي أعلن الحروب الصليبية على المسلمين في سنة ١٠٩٥ م في مقدمة الذين تخرجوا من ذلك الدير .

●●●

وتذكر المراجع التاريخية أن أحد رؤساء الدير ـ القديس مايول ـ كان يعبر جبال الألب ومعه عدد من الحجاج العائدين من روما (سنة ٩٧٢ م) ، ولكن جيوش المسلمين المتمركزة في قمم الألب آنذاك أسرته ومن معه ، ولم تفرج عنهم إلا بعد ما تلقوا فدية (ألف ليرة من الفضة) ، جمعها رهبان الدير ، بعدما تلقوا رسالة منه بهذا المعنى ، وهي واقعة لفتت أنظار رجال الدير إلى الوجود الاسلامي في اوروبا فضلا عن أن مغزاها ظل كامنا في وجدان الجميع .

غير أن رهبان الدير كثفوا جهودهم باتجاه المسلمين في عهد بطرس الكلوني الذي تولى رئاسته في الفترة من عام ١١٢٢ م ـ إلى ١١٥٦ م . أي طوال أربعة وثلاثين عاما ، فهو الذي دعا إلى حرب المسلمين بطريقة مزدوجة ، أي بحرب عسكرية وحرب فكرية ، وكان في كتاباته إلى الملوك الصليبيين يؤمن بأن يكون الراهب مسيحيا في فضائله عسكريا في أعماله ، وأن تنصير المسلمين أنفع للمسيحية من قتلهم ، وأن سيف الكنيسة الحقيقي ليس هو ذلك السيف المعروف ، ولكنه سيف الكلمة التي تتمثل في التبشير بالانجيل والتنصير .

ومن أجل بلوغه غايته تلك فإنه خرج إلى اسبانيا في سنة ١١٤٢ م ، وكان من أهم ثمار رحلته تلك أنه كلف مجموعة من المترجمين بدراسة وترجمة بعض الكتب التي تتحدث عن الاسلام ، كما أوصى بترجمة القرآن استعدادا لدحضه وتفنيده .

●●●

لم تكن تلك أول محاولة للترجمة من العربية إلى اللاتينية ، ولكن مدينة طليطلة كانت قد عرفت مدرسة باشرت تلك المهمة ، أقامها القس « رايموند » بعد سقوط المدينة في يد الفونس السادس عام ١٠٨٥ ، وقد تولت هذه المدرسة ترجمة العديد من الكتب العلمية ، مثل مصنفات الفرغاني والفارابي وابن سينا والغزالي .

التقى بطرس الكلوني والقس رايموند مؤسس مدرسة طليطلة في عام ١١٤٢ م ، واتفقا على ترجمة مجموعة الكتب الاسلامية ، والمصحف في مقدمتها ، التي عرفت بعد ذلك باسم « مجموعة طليطلة » . وقد حفظت تلك المجموعة في ديركلوني طوال أربعمائة عام ، حتى أذن بنشرها في بازل سنة ١٥٤٣ م .

(كان روبرت الكيتوني الانجليزي الأصل) هو المترجم الأساسي لأول طبعة باللغة اللاتينية للقرآن الكريم .

وعن ترجمته تلك كتب يقول : « لقد كشفت بيدي قانون المدعو محمد ﷺ ، ويسرت فهمه وضممته إلى كنوز اللغة الرومانية لمعرفة أسس هذا القانون ، حتى تتجلى أنوار الرب على البشرية ، ويعرف الناس حجر الأساس يسوع »

ثم أضاف : « لقد رأت كنيسة كلوني في بطرسها ما رآه السيد المسيح في رفيقه بطرس ، ويجب أن يشكر [أي بطرس الكلوني] لتعرية مبادىء الاسلام للضوء ، بعد ما سمح الدارسون في الكنيسة لهذا الكفر أن يتسع ويتضخم وينتشر مدة نحو خمسمائة وسبعة وثلاثين عاما ، وقد أوضحت في ترجمتي في أي مستنقع فاشل يخشخش مذهب السراسين [المسلمين] متمثلا في جندي المشاة الذي يشق الطريق لغيره . . » ، « لقد قشعت الدخان الذي أطلقه محمد لعلك تطفئه بنفحاتك » [أي بطرس الكلوني] .

بهذه الروح كتب الكيتوني ترجمة للقرآن الكريم ، ولنا أن نتصور بعد ذلك كيف خرجت الترجمة ، وحجم التحريف والاستهزاء والسخرية الذي أدخله على النصوص القرآنية التي نقلها إلى اللاتينية ، فضلا عن عبثه وسخريته بأسماء السور ، ولجوئه إلى تقطيع تلك السور وتمزيق سياقها ، كما حدث في سورة البقرة . الأمر الذي جعله يضيف إلى العدد الأصلي لسور القرآن تسع سور جديدة .

ظلت تلك الترجمة محفوظة في الأديرة ، حتى حاول ثلاثة من الدارسين في مدينة بازل نشرها في سنة ١٥٤٢ ، لكن مجلس المدينة اعترض « حتى لا يسمح للهرطقة والكفر أن يروجا بين الناس»غير أن القس مارتن لوثر الشهير تدخل في الأمر ، وكتب إلى مجلس المدينة يقول : إنه لا يوجد أضر على الاسلام والمسلمين من نشر ذلك الكتاب . وبعد خطابه ذاك أذن بنشر المجموعة ، وظهرت الطبعة اللاتينية للمصحف في أوروبا سنة ١٥٤٣ م . وكانت هذه الطبعة (طبعة بيبليانـدر) هي البداية لسيل من الترجمات الأوروبية التي تلاحقت بعد ذلك التاريخ حتى نهاية القرن السابع عشر ، وقد ترجمت إلى الايطالية بعد أربع سنوات (في سنة ١٥٤٧ م) ، ثم إلى الألمانية ، والهولندية ، والفرنسية ، والروسية ، وهكذا .

لقد تصدرت الطبعة الفرنسية صورة لرجل يرتدي اللباس التركي والعمامة التي يرتفع الهلال فوقها ، وهو يجلس أمام « سبيل ماء » من الطراز العثماني ، وحوله مجموعة من لابسي العمائم ، ويدرك من ينظر إلى الصورة أنها للمسلمين ، بينما يوحي جوها العام بأن الشخصية الرئيسية فيها هي النبي عليه الصلاة والسلام ، والعبارة الوحيدة التي كتبت تحت الصورة نصها كما يلي : « رسول الله ، لا إله إلا الله محمد ! » .

●●●

الترجمة الثانية للقرآن إلى اللاتينية قام بها القس الايطالي لودفيجو مراتشي ، وقدر لهذه الترجمة أن تسود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأن تصبح المصدر الأساسي لترجمات القرآن إلى مختلف اللغات الأوروبية الأخرى .

وإذا انتبهنا إلى أن ترجمة الكيتوني قد تمت في حوالي سنة واحدة ، وأن ترجمة مراتشي تمت خلال أربعين سنة ، فلنا أن نتصور الفرق بين المجهود الذي بذل في الترجمتين ، والنتيجة المترتبة على ذلك . وقد وصف الدكتور المعايرجي ترجمة مراتشي بأنها : « أشد جدلا وهجوما على القرآن الكريم ، وأدق ترجمة ، وأوسع مصادر وأكثر عمقا وخبثا » .

يكفينا لفهم الروح التي ترجم بها مراتشي القرآن قوله في تقديم ترجمته إنه لم يسمح لنفسه عند التحدث عن محمد أن يستعمل السباب المشين والتعبيرات اللا أخلاقية التي ظنها الكثيرون ممن كتبوا ضده أنها أقوى أسلوبا للمجادلة ، لكن العكس هو الصحيح « فقد وجدت أنه من الملائم معالجة الموضوع بالحكمة والأدب ، بل والموافقة على الأساسيات التي أعتقد أنها تستحق الموافقة ، كمدى الجريمة الأبدية التي ارتكبها (محمد) بفرضه دينا مزيفا على البشرية ! » .

نعم ، ظهرت في القرن العشرين ترجمات للقرآن من العربية إلى الانجليزية والفرنسية ، قام بها بعض علماء المسلمين الموثوقين ، لكنها تظل نقطة في بحر الترجمات الموجودة حاليا بتلك اللغات وبغيرها ، فقد

قام مولانا أبو الأعلى المودودي ، وعبد الله يوسف علي ، ومحمد أسد ، بترجمة القرآن إلى الانجليزية ، بينما نقله إلى الفرنسية الأستاذ محمد حميد الله ، الهندي الأصل المقيم في باريس حاليا ، لكننا إذا ألقينا نظرة على كم الترجمات والطبعات الأوروبية (٦٧١ ترجمة) فإننا نستطيع أن ندرك حجم التأثير المتواضع - وربما غير المذكور - الذي قد تحدثه تلك الترجمات الأمينة ، الخالية من الهوى والغرض .

•••

ولأن الاستثناء لا حكم له فإن القاعدة تظل كما هي ، ويظل الأصل هو أن الترجمات التي صدرت إلى الآن والمتداولة في مختلف أنحاء العالم قد خرجت من أصول كارهة للاسلام والمسلمين ، تريد تشويه القرآن ، وهدم الدين ، وتجريح صورته في وعي الانسان الغربي ، وفي وعي المسلم غير العربي .

ويقودنا ذلك إلى صلب الفكرة التي تدعو إليها ، وهي أنه آن الأوان لكي تخضع ترجمات معاني القرآن للمراجعة والتنقية من جانب العالم الاسلامي ، الذي أحسب أن أحدا لا ينازعه حقه في الدفاع عن كتابه الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ .

وإذا كان للعالم الاسلامي كيان قانوني يعبر باسمه ، هو منظمة المؤتمر الاسلامي ، فإنه يظل مناسبا - بل واجبا - أن تنشيء تلك المنظمة جهازا خاصا يتحمل مسئولية الدفاع عن القرآن الكريم ، وملاحقة الذين ينتهكون حرمته ، ويشوهون تعاليمه في العالم الخارجي .

إن هناك ١٦ منظمة فرعية تتبع المؤتمر الاسلامي الآن ، وتغطي معظم مجالات النشاط التي تهم العالم الاسلامي المشترك ، وإضافة منظمة أو مؤسسة عالمية للقرآن الكريم يشترط موافقتها على كل ترجمة له بأي لغة من لغات العالم أمر ضروري .

فإن أحداً لا يستطيع أن يطبع الانجيل أو يترجمه إلا بإذن ، وعندما نشر أحد الباكستانيين انجيل برنابا في لاهور دون إذن لاحقه ممثلو جامعة أوكسفورد البريطانية قائلين بأن حقوق نشر هذا الانجيل ملك للجامعة ، ولا يحق لأي طرف في العالم أن يطبعه إلا بموافقة من تلك الجامعة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يترك كتاب الله مستباحاً للجميع يمارسون فيه كل حقوق الاساءة والتشويه ؟ وما الذي يمنع منظمة المؤتمر الاسلامي من النهوض بهذه المهمة الكبيرة ؟ ! □

الطابور الخامس

● نشأ تعبير «الطابور الخامس» أول ما نشأ أثناء الحرب الأهلية الأسبانية التي نشبت عام ١٩٣٦ ، واستمرت ثلاث سنوات ، وأول من أطلق هذا التعبير هو الجنرال الأسباني كويبو ديللانو ، أحد القادة الثائرين ، وكان يتحدث عن قواته الزاحفة على مدريد ، وكانت تتألف من أربعة طوابير من الثوار ، ثم قال إن هناك طابورا خامسا يعمل مع الثوار ، لكنه داخل مدريد نفسها ، وكان يقصد بذلك مؤيدي الثورة من أهالي مدريد .

وبعد هذا الوصف الذي أطلقه الجنرال الأسباني الثائر أصبح استعمال كلمة الطابور الخامس شائعا ، وأصبحت تدل على الجاسوسية ، وعمليات التخريب التي تتم داخل البلد بواسطة أعوان لأعداء هذا البلد .

وقد زاد انتشار هذا التعبير بعد ذلك عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، واعتمد هتلر على عدد كبير من الجواسيس والمخربين داخل البلاد التي كان يحاربها .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية اتسع معنى كلمة الطابور الخامس ليشمل مروجي الاشاعات ومنظمي الحروب النفسية التي انتشرت نتيجة للحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي .

كوكب الأرض على الأرض!

بقلم : الدكتور محمد نبهان سويلم

هل يستطيع الانسان العيش في الفضاء دون الاعتماد على الأرض ؟ إن تجارب رحلات الفضاء التي اجريت في الشرق والغرب كانت ترسل الرواد وتزودهم بكل ما يحتاجون اليه في الرحلة ، ويظل الاتصال بهم قائما طوال فترة تجاربهم ، فهل طرأ بديل ؟

كان الجو داخل قطاع منطقة الغابات الاستوائية حارا رطبا ، مع هذا جاء عالم من أقصى المستعمرة يسعى لجني بضع ثمرات موز نضجت على أشجارها الباسقة وسط مزروعات تلك الأجواء ، وعلى بعد حوالي ثلاثين مترا ، لو دققت البصر وأمعنت النظر فسوف ترقب أحد سكان المستعمرة وعلمائها يتجول متمهلا حول محيط مائي صغير ، عمقه قرابة خمس وثلاثين قدما ، هذا المسطح المائي في حد ذاته نموذج لأحد محيطات الأرض العملاقة التي تحتضن اليابسة وتغطي مياهها قرابة ثلاثة أرباع سطحها ، الفرق الوحيد بين هذا النموذج ومحيطات الأرض ـ ناهيك عن الضخامة ـ أن أمواجه تولدها محركات ميكانيكية ، تدفعها دفعا صوب مرجانيات شبت عند القاع ، وامتدت ، وبرز بعضها على سطح الماء مكونا جزرا صغيرة ، وإن اتجه البصر قليلا صوب شمال المستعمرة فقد تلمح أحد علماء العلاقات بين البيئات الحية وكائناتها المناط بهم رعاية المزروعات والطحالب الخضراء التي

تنمو عالقة أحيانا على الصخور ، أو طافية على سطح الماء ، وعيون الرجل ترقب مجريات الأمور بنظرة خبير متمرس ، علّه يحقق كسبا علميا جديدا ، أو يلمح ظاهرة غريبة تستدعي وقفة علمية متأنية ، ربما تثري نتائج التجارب التي تتم داخل هذا المكان الفريد .

نماذج مصغرة

هذه المستعمرة الفريدة عبارة عن نموذج مصغر للبيئات الحيوية التي حققت استمرارية الحياة فوق سطح الكرة الأرضية ، ولولاها ما كانت هناك حياة أو بشر ، أو هي عدة بيئات حية متكاملة ضمن نُطَيْقات(*) حيوية صغيرة ، تشكل في مجملها نموذجا ومحاكاة للكرة الأرضية الآن ، ومن ثم يطلقون على المستعمرة اسم البيئة الحيوية الثانية ، إذ يعتبرون الأرض البيئة الحيوية الأولى ، أو النطاق الحيوي الأول . وتهدف هذه التجربة الفريدة أول ما تهدف إلى دراسة إمكان تحقيق استقلالية الإنسان عن الموارد الأرضية إذا سافر للفضاء وفضل العيش على سطح أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية . يستوي في ذلك المريخ أو القمر أو العيش في مدينة خاصة بين الكواكب عند نقاط اتزان جاذبيتها .

هل يتطلب الأمر كل هذا الاعداد والتجارب ؟

بداية نعم ، فالواقع أنه حتى الآن لم يستعمر الإنسان الفضاء ، ولم يكن له هناك أي نوع من الإقامة الدائمة ، وكل ما استطاع تحقيقه هو إرسال سفن ومركبات فضائية داخلها رواد بعضهم مشى على سطح القمر ، وبعضهم قبع داخل مركبته أياما وأحيانا عدة أسابيع ، وبعضهم امتد به الزمن عدة شهور ، لكنهم جميعا عادوا إلى الأرض قصر الزمن بهم أو طال ، ولم يعيشوا لحظة واحدة مستقلين عن الأرض استقلالا تاما .

السوفيت كانوا يرسلون إلى روادهم شحنات الغذاء والحلوى والأوكسوجين السائل ورسائل الأهل على متن سفن النقل الفضائية السوفيتية « بروجرس » ، في حين جنحت كل برامج الفضاء الامريكية إلى بث البعثات وهي مصحوبة بكل ما تحتاج إليه من تموين وإمداد . وقد كفل كلا الجانبين لروادهم الاتصال الفوري مع الأرض صوتا وصورة ، وبذلك تتحقق الاستقلالية المنشودة التي كانت وما زالت محور اهتمام العلماء ومؤسسات بحوث الفضاء ، مثلما داعبت وما زالت تداعب خيالات كتّاب القصص العلمية ، وصناع الأفلام والمسلسلات التلفازية .

لكن مع إشراقة القرن القادم ربما ينقلب الخيال إلى حقيقة ، ويتحول الوهم واقعا ، ويعيش الإنسان فضائيا لا أرضيا ، وليس له مع الأرض سوى الاتصال ، هذا إن نجحت البحوث الجديدة التي يجري الآن تنفيذها بخطا حثيثة ، أحدها داخل معامل جامعة برنستون ، يشرف عليه عالمها الأستاذ بها الدكتور جيرارد أونيل(*) ، والثاني بحث البيئة الحيوية الثانية الذي تجري وقائعه فوق رمال صحراء أريزونا الأمريكية ، وخاصة بعد أن يحقق العلم بأدواته ووسائله إمكانية الحياة فوق كواكب المجموعة الشمسية دون مدد وعون أرضي أو دون نقل مفاهيم الحياة الأرضية وأساليبها ودوراتها . وقد أضحى من الأهمية تجربة الفكرة وقياس أبعادها الحقيقية ودراستها ، واستقراء مصاعبها ومشاكلها ، ووضع الحلول المناسبة الكفيلة بأن يتحقق لها النجاح ، وهذا ما أكده تقرير وكالة ناسا NASA لعام ١٩٨٦ صراحة ، وأشار إليه تحديدا أنه لاستكشاف الفضاء وإقامة حياة مستقرة هناك ، يلزم تجربة إقامة بيئة حيوية صناعية على الأرض .

لماذا ؟ لأن الانسان لايود الحياة معلقا داخل معمل أو سفينة فضاء ، شأنه مثل مسافر من الكويت إلى

---

* نُطَيْقات جمع تصغير نطاق

* يدور حول إنشاء مدينة فضائية كاملة ، توضع عند نقط الاتزان بين كواكب المجموعة الشمسية ، وتعتبر بيئة حيوية متكاملة .

القاهرة ، قد يستخدم سيارة أو طائرة عملاقة خلال رحلته ، لكنه ـ قطعا ـ لا يود البقاء داخل المركبة مهما زودت بتجهيزات واستعدادات لإكسابها مظهر الحياة الأرضية ، بل يود أن تدب رجلاه على أرض صلدة وبيئة واقعية .

لهذا يجري الآن على صحراء أريزونا أكثر المشاريع العلمية الأمريكية إثارة للاهتمام العالمي فيما سوف يزاوج بين علوم الأرض وتقنية الفضاء ، لذا تم إعداد قطعة أرض مساحتها قرابة فدانين ونصف ، على هيئة مستعمرة بيئية كاملة ، يبلغ حجمها حوالي ٥ ملايين قدم مكعب ، مقسمة إلى بيئات أو نُطَيْقات بيئية حيوية BIOMES ، كلف إنشاؤها حوالي ٣٠ مليون دولار ، وسوف يتم عزل المستعمرة عن البيئة الأرضية تماما ابتداء من يونيو ١٩٨٩ ، فلا تأخذ من الأرض شيئا ، ولا تعيد إليها شيئا ، ولن يربطها مع الأرض وأهل الأرض سوى شبكة حاسبات الكترونية ، سوف يستخدمها ثمانية علماء في مختلف التخصصات ، بعد أن تغلق عليهم الأبواب مدة عامين متصلين حتى نهاية يونيو ١٩٩١ ، وسوف يتصل العلماء بمركز بحوث جامعة أريزونا ومحطة بحوث في انجلترا واخرى في كندا إلى جانب بعض الجامعات الامريكية ، ولن يقدم للعلماء داخل المستعمرة غذاء أو ماء أو هواء أو أية معدات أخرى خلال العامين ، اللهم إلا قدرا ضئيلا من امدادات الطاقة لفترة زمنية محدودة ، حتى تستكمل محطة الطاقة الشمسية داخل المستعمرة قدراتها وتكفيهم الحاجة من الإضاءة ، والكهرباء والاتصالات والتدفئة . . الخ .

المستعمرة العلمية

إن توفير الغذاء والشراب والملبس كفلته المستعمرة العلمية ، إذ يوجد داخلها قطاع زراعي مساحته قرابة ٢٠,٠٠٠ قدم مربع لإنماء نباتات الحاصلات الغذائية مثل الأرز و البسلة وفول الصويا والقمح وعباد الشمس إلى جانب نباتات الخيوط مثل الكتان والقطن ، كما يضم القطاع مناطق غابات كثيفة ، ومناطق بيئية انتقالية من حشائش السافانا ،

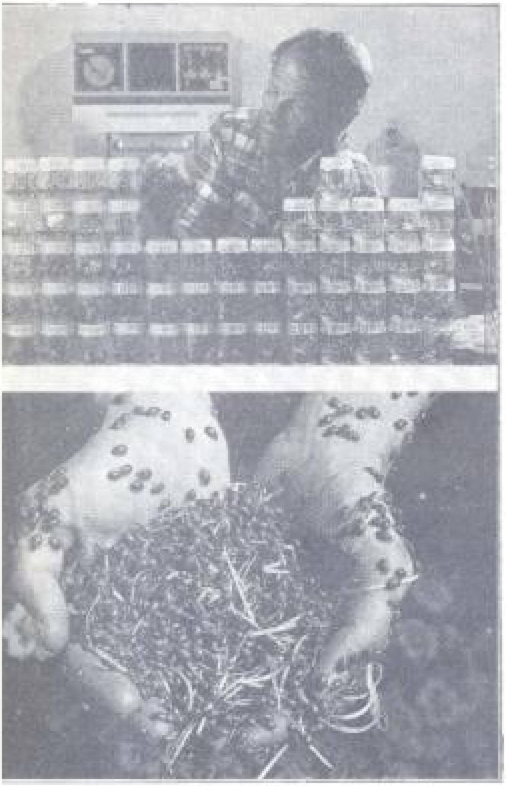

أعلى ـ أنسجة حية من النباتات والأشجار لاستخدامها في الزراعة المائية .
أسفل ـ خنفساء الدعسوقة المرقطة الأجنحة سلاح حيوي في مواجهة الآفات الزراعية التي سوف تصيب زراعات البيئة الحيوية الثانية .

ومناطق أشجار الفاكهة بكل أنواعها . وضمن مسئوليات القطاع الزراعي تخليق القدر اللازم للحياة من الاكسوجين ، وتواكبه نظم لإسقاط المطر وتحريك الرياح ، وداخله سوف يتم تربية الأغنام والدجاج وتربية أسماك التيلابيا TILAPIA داخل أحواض بلاستيك زاهية الألوان ، والسمك الذي وقع عليه الاختيار نوع سريع النمو ، وسوف يشكل مع الأغنام والدجاج المصدر البروتيني المتجدد لسد حاجة أفواه العلماء الثمانية . وتتكامل مع القطاع

1
2
5
6

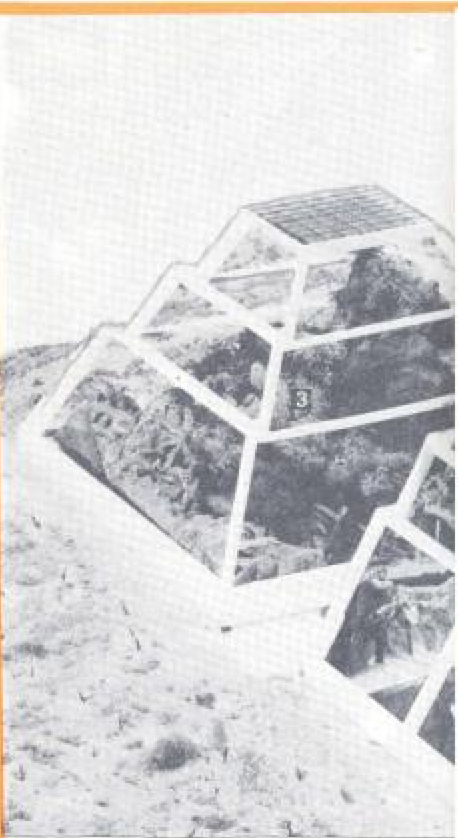

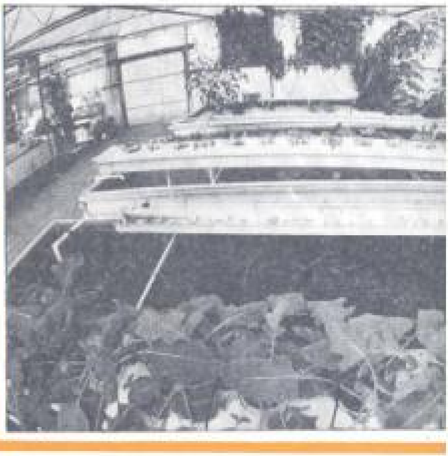

أتم مصممو البيئة الحيوية الثانية ربط عدة تطبيقات بيئية بعضها ببعض لتشكيل نظام مغلق واحد فيما يوضحه الشكل الذي فيه تلمح مبنى إعاشة العلماء (١) في حين يظهر الجناح الزراعي (٢) والبيئة الاستوائية بارتفاع ٨٠ قدما (٣) ويبدو المحيط الصناعي (٤) في حين تغطي البرك والمستنقعات المالحة والعذبة القطاع (٥) ويظهر القطاع الصحراوي تحت الشكل (٦) وبعد تصميم وتنفيذ المستعمرة سيتم عزلها عزلا تاما عن الأرض مع مقدم شهر يونيو ١٩٨٩ والشكل الأسفل يبين التكامل والتكافل بين البيئات الحية داخل البيئة الحيوية الثانية يبدو جليا من تربية سمك التلابيا داخل أحواض تنمو على مائها نباتات وزراعات كثيرة .

الزراعي طواحين القمح والبذور ووحدات صناعة الخبز والحلوى وتجفيف ثمار أشجار الكاكاو .

وتجربة البيئة الحيوية الثانية محاولة علمية لتقليد دورات الحياة الحية التي استقرت فوق الأرض منذ ملايين السنين ، ويضع العلماء علومهم الراسخة ومعارفهم الموسوعية في خدمة ستة نُطَيْقات حية BIOMES زراعية ، واستوائية ، وصحراوية ، وانتقالية ، ومائية ، وبشرية ، وكفل لها العلماء بهذا التنوع التكاملية والعمل في تآلف وتكامل وتناغم يحقق وظائف الدورات الحية ، وأداء أسرع من نظيراتها الأرضية ، وهي دورات حدثنا عنها المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالمحسن صالح في كتابه الصغير العميق « دورات الحياة » الذي عرض فيه إلى دورة غازي الأكسوجين وثاني أكسيد الكربون وتلك الدورات الأزلية التي تحدث بفعل الأجسام الحية التي تستهلك الأكسوجين وتطرد ثاني اكسيد الكربون الذي تتلقاه الأشجار والطحالب الخضراء ، وتستخلص منه ذرات كربون تبني منه أجسامها وتصنع لنا السكريات والبروتين والنشا والزيوت ، ثم تطرد فضلاتها من غاز الاكسوجين حيث يمد الأحياء بعنصر الحياة . كما عرض إلى دورة الماء : يتبخر الماء من البحار والأنهار ، ويتطاير البخار إلى الهواء ، وتتنفس الأحياء كلها طاردة بخار الماء الذي يتجمع في

الطبقات العليا ، ثم يبرد ويتكثف ويرتد صوب الأرض أمطارا وتمضي الدورة . وهناك دورة الحياة نفسها : نحيا ويمتد بنا العمر كل لقدره ، ثم نموت وتتلقى أجسامنا مناشير أرضية من بكتيريا دقيقة ، تحلل الخلايا الرخوة ، ويتصاعد ثاني اكسيد الكربون للجو بينما تتسرب في باطن الأرض عناصر معدنية اكتسبتها الأجسام الحية من غذائها النباتي ، وتتكرر الدورة . وكلها دورات مستمرة لا تتوقف ، لأن توقفها يعني الفناء لكل الأحياء .

والواقع أن البيئة الحيوية الثانية تجربة غير مسبوقة بهذا القدر من التكامل والضخامة ، لقد أتم العلماء السوفييت منذ مطلع الستينيات إعداد بعض مركباتهم الفضائية على هيئة بيئة حيوية ميكروبية متكاملة تحول فيها الميكروبات ثاني اكسيد الكربون إلى اكسوجين ، وتمتص ضوء الشمس ، وتبث ليلا ضوءا جويا باردا . وقد أجرى عالم الأحياء الامريكي جوزيف هانسن تجربة التوازن البيئي بين أسماك الروبيان « الجمبري » والطحالب الخضراء داخل كرة زجاجية مغلقة وظلت حية طوال سبعة عشر عاما نموذجا للبيئات المتوازنة ، لكن تجربة لها نفس مواصفات البيئة الحيوية الثانية وخصائصها وإمكاناتها لم تحدث إطلاقا ، ويمكن مناظرتها بوصول أول إنسان إلى القمر .

مشكلات المستعمرة

الموقع الآن ملىء بنشاط وحيوية ، يجري فيه تركيب صوبات زجاجية ضخمة ، تغطي زراعات غير نمطية ، أساسها زراعة الأنسجة ، يتم إنماؤها في ماء مذابة به المواد الغذائية والأملاح المعدنية ، وتمتلىء الصوبات بخنفساء « الدعسوقة » الصغيرة ذات الجناحين المرقطين ، ودبابير صغيرة ، وكلاهما سوف يتولى مقاومة الآفات الزراعية دون أي كيماويات أو مبيدات حشرية ، وكأن العلماء يردون الأمور إلى نصابها الصحيح ، وإعمال التوازن الطبيعي بين المخلوقات ، بعد أن أتلف الناس أرضهم الزراعية بالمبيدات والسموم والكيماويات . وما دامت هناك داخل المستعمرة العلمية زراعة وإنتاج حاصلات فلا مناص من المخازن ومعامل بحوث التهجين وتحديد أنسب المزروعات ، وهو قطاع يتولاه عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي الدكتور ستيفن ستورم الذي أعطي صلاحية إحلال زراعة محل أخرى إن ثبت لديه فشل الأولى في تحقيق الإنتاجية المطلوبة . ويشترك الآن عدد هائل من علماء متخصصين في نباتات المناطق البيئية في اختيار نباتات كل منطقة وإعداد العدة لها ، وعلى الرغم من هذا ما زالت مشاكل كثيرة قيد البحث والدراسة ، منها التخلص من النفايات البشرية والحيوانية ، وتنقية المياه لتكون صالحة للشرب والري ، والسيطرة على درجة الحرارة ، والحد من تزايد نسبة ثاني اكسيد الكربون داخل البيئة الثانية . وهي نفس المشاكل التي عانت منها الأرض ، وجرت عليها تلوث المصادر المائية والتصحر والارتفاع النسبي في درجة حرارة الأرض ، وتعرض البشر لموجات حر لافح وبرد قارس .

ولحسم المشاكل المذكورة حسما شاملا سوف يمرر الماء في مرشحات ومصاف ومفاعلات بكترولوجية تلهو فيها أنواع خاصة من البكتيريا بالمواد الملوثة والنفايات الضارة ، وتحولها إلى مواد عديمة الضرر ، ولأجل تحقيق التوازن الطبيعي بين غازي الأكسوجين وثاني اكسيد الكربون لم يجد العلماء مفرا من المسئولية الإنسانية ، فالأمر أصعب من بيئة أسماك الروبيان « الجمبري » والطحالب ، كما لم يوجد بعد الحاسوب الذكي الذي يتدخل ويعالج الأمور ويعيدها إلى نصابها الصحيح ، لأن أمور التوازن أصعب كثيرا مما نظن ونعتقد ، لهذا أوجد العلماء داخل المستعمرة منشاراً حيويا طبيعياً ، يجتث جزيئات ثاني اكسيد الكربون من جو المستعمرة إن تعدى حدود التوازن بمجرد أن يرشوا حشائش السافانا بالماء تنشط ، وتخضر ، وتنمو بسرعة فائقة ، وتمتص الغاز مثلما تمتص اسفنجة جافة مضغوطة قطرات الماء . كما شملت الاستعدادات وسائل بكترولوجية متقدمة - يطول الحديث عنها ويتشعب - لضبط التوازن بين ما يثبت من النيتروجين في الأرض وما يعود إلى الهواء .

وتجربة صحراء الأريزونا تختلف جذريا عما سوف

يحدث لو كررت التجربة فوق سطح المريخ أو غيره من الكواكب ، إذ هناك مشكلة التسخين الدائم على الرغم من برودة جو الصحراء ليلا ، لذلك زودت المستعمرة بعدد من المراوح الضخمة التي تولد تيارات هوائية توزع الحرارة توزيعا عادلا منضبطا داخل النُطَيْقات BIOMES ، كما استخدم في تغطية المستعمرة نوع من الزجاج ، يقلل شدة الإضاءة بحوالي ٤٠٪ من الضوء المنظور ، ويمتص ٨٠٪ من الأشعة فوق البنفسجية ، ولأن الأخيرة ألزم الإشعاعات لنماء الحياة فسوف تستخدم مصادر صناعية لتوليدها ، فيما يمثل لعبة خداع علمي للحيوانات والنباتات .

تحكم في العوامل الجوية

أما المطر والرياح والرطوبة فقد أعدت لها عدتها ، بحيث تهب الرياح ، وتسقط الأمطار في التوقيت المناسب والمكان المناسب ، وخاصة في النُطَيْق الاستوائي . لذلك زود سقف المستعمرة بمواسير تبريد ، سوف يتكثف عليها بخار الماء ، وبعد ذلك يوجه آليا ليسقط مطرا،وسوف تكون على سطح المستعمرة أنهار وجداول صغيرة وبرك مائية عذبة وأخرى مالحة ، بحيث يغطي سطح الماء نصف مساحة المستعمرة بدلا من خمس مساحتها كما كان مقدرا من قبل ، بعد أن ثبت للعلماء أن زيادة المسطح المائي وامتداده داخل البيئة الحيوية الثانية سوف يعمل على تجانس عمل النُطَيْقات الحيوية وتناغمها ، ويخفف درجة الحرارة داخل المستعمرة ، وبذلك تؤدي المسطحات المائية نفس الدلالة الوظيفية للبحار والمحيطات حول الكرة الأرضية الأم .

إن تعقيدات تجربة البيئة الحيوية الثانية سيان من حيث الفكرة العلمية الأساسية ، أو من حيث التصميم والمتابعة وأساليب إدارة الماء والطاقة والرياح والسيطرة على نماء النباتات ، وذلك خير لضمان نجاحها حسب قول علماء تماما ، إذ كلما تعقدت العلاقات البيئية وتشابكت كان انهيار احدى البيئات لا يشكل كارثة على الإطلاق ، ولا يهدم التجربة من أساسها ، إذ سوف تتولى النُطَيْقات البيئية الأخرى التواؤم مع الموقف الجديد والسيطرة عليه ، عكس بيئة سمك الروبيان « الجمبري » والطحالب ، إن مات السمك انهار النظام البيئي دفعة واحدة ، وأفضى إلى فاجعة علمية لا يود علماء تجربة صحراء الاريزونا حدوثها لتجربتهم الرائدة التي ينظر إليها العالم كله في قلق وإعجاب ودهشة ، وهي نفس المشاعر التي شعر العالم بها يوم بدأت رحلة الإنسان للقمر .

وتجربة الحياة بمعزل واستقلالية عن الأرض التي ستبدأ منتصف العام القادم وتستمر مدة عامين برهة قصيرة ، لعل أبرز نتائجها المتوقعة تراكم كم هائل من المعرفة ، سوف يستفيد منه العلماء في صيانة أسلوب الحياة على الأرض نفسها ، إذ سوف يواجهون خلالها أسئلة لم تخطر على بال بشر من قبل ، مثل : كم عدد الزهور التي يلزم نموها يوميا للإبقاء على حياة طائر مفرد ؟ وكيف يمكن زيادة إنتاجية أراضي المنطقة المدارية الحارة ؟ وهل يلزم استيراد الطمي لإخصاب أرض الصحراء ؟

وسوف يتعلم العلماء المقاييس المثلى لتصميم البيئات المستقلة ، ومنها سيعملون على تكرار التجربة مرات ومرات ، وكأنها مسلسل سفر مركبات الفضاء ، فلا فرق بينهما ، لأن كليهما سوف يتم بمعزل عن الأرض ، وقد يجد العلماء حلولا أقرب للمثالية في أسلوب معالجة المخلفات الحيوية والتخلص منها وتحويرها من دورة حياة إلى دورة حياة أخرى ، وقد يجدون الإجابة الناجعة عن إدارة البيئات المحمية وحماية النباتات والحيوانات النادرة .

كل ذلك نتائج ثانوية لأبحاث تبغي الإجابة عن السؤال العويص : كيف نحيا على سطح كوكب غير الأرض ؟

ولسوف تمضي سنوات عديدة قبل نقل هذه التقنية إلى المريخ أو القمر ، وقد تستخدم على الأرض لفرش الصحراء بالخضرة . حقا إنها تجربة جديدة ، يحاول فيها الإنسان التوصل بما يعلم إلى ما لا يعلم ، ويبقي ذكر قول الحق سبحانه وتعالى : « وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عليكَ عظيماً » . □

واحة العربي

ضحكات عربية

تزوج أربعًا وطلق خمسًا

حدث الأصمعي فقال : قلت للرشيد يوما : « بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلا من العرب طلق خمس نسوة ، قال الرشيد : إنما يجوز ملك رجل على أربع نسوة ، فكيف طلق خمسا ؟ قلت : كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوما ، فوجدهن متلاحيات متنازعات ، فقال : إلى متى هذا التنازع ؟ ما أخال هذا الأمر إلا من قبلك ، قال ذلك لامرأة منهن » ، اذهبي فأنت طالق ، فقالت له صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقا ، فقال لها وأنت أيضا طالق ، فقالت له الثالثة : قبحك الله ، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين وعليك مفضلتين ، فقال : وأنت أيتها المعددة أياديهما طالق أيضا ، فقالت له الرابعة : ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق ؟ فقال لها : وأنت طالق أيضا .

وكان ذلك بمسمع من جارة له ، فأشرفت عليه ، وقد سمعت كلامه فقالت : والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك إلا بالضعف ، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة .

قال : وأنت أيتها المؤمنة المتكلفة طالق إن أجاز زوجك ، فأجابه الزوج من داخل بيته : قد أجزت ، قد أجزت » .

من قاموس الظرفاء

الواجب: ما نطالب به الآخرين

العانس : امرأة ضاعت منها الفرصة لإشقاء أحد الرجال

الطالب الفاشل : هو الطالب الذي يمكن أن يكون الأول في فصله لولا وجود الآخرين .

الزوج : رجل فقد حريته بحثا عن السعادة .

كلمات في الصميم

- كيف أستطيع تفسير نجاح الذين لا أحبهم لو لم أكن أؤمن بالحظ

جان كوكتو

- اللص يدع لك مجالا للخيار بين حياتك ومحفظتك ، أما الزوجة فتطالب بهما معا .

مارك توين

- المرء يخسر لفرط ما يود أن يربح

لافونتين

ضحكات عالمية

وحيدة مسكينة

التقى كاتب مسرحي ناشيء عرف عنه الغرور بالكاتب المسرحي الفرنسي جورج فيدو فقال له : أيها المعلم لا أعتقد أنك تمانع في إسداء النصيحة إلي .

ـ حسنا ، أنا على أتم الاستعداد ، ماذا هناك ؟

ـ منذ أسبوع تدور في رأسي فكرة .

ـ مستحيل

ـ بل أيها المعلم

ـ مسكينة ، لاشك أنها تعاني من الملل وحدها الآن

□□

كلانا مخطيء

أثناء حديث فولتير مع صديق عن أحد معارفه قال له الصديق : غريب أمرك ، إنك دائما تذكره بالخير وتثني عليه ، علما بأنني لم أسمعه قط يذكرك بالخير ، بل إنه لايترك فرصة إلا ويذمك .

فرد عليه فولتير : من المحتمل أن يكون كل منا مخطئا .

□□

سـم

كان السياسي البريطاني ونستون تشرشل يخطب في البرلمان عن حرية المرأة والقوانين الخاصة بالنساء ، فحمل على المرأة حملة شعواء ، فصاحت احدى الحاضرات : لو كنت زوجي لوضعت لك السم في القهوة

فأجابها فورا : ولو كنت زوجك لشربت فورا .

ابتسامات

زوج الاثنتين

تزوجت اثنتين لفرط جهلي
بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا
فأنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي
تُداوَلُ بين أخبث ذئبتين
وألقى في المعيشة كل ضُرٍّ
كذاك الضُرّ بين الضرتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى
عتابٌ دائمٌ في الليلتين
فإن أحببتَ أن تبقى كريما
من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا فإنْ لمْ تستطعه
فضربا في عراض الجحفلين

أضواء جديدة على قضية قديمة

حقيقة القصيدة اللاميّة

بقلم : عبد الرزاق البصير

شك بعض الدارسين في نسبة قصائد كثيرة من الشعر العربي القديم الى قائليها ، وتلك قضية عرفت بالانتحال في الشعر العربي ، أثارها قدامى ومحدثون ، فهل لامية السموءل واحدة منها ؟

تناول اللغويون والفلاسفة والنحاة وبعض علماء الاجتماع لفظة الاسم بصورة مفصلة ، حيث تحدث كل منهم عما يعنيه علمه المتخصص فيه ، فاللغويون ينظرون اليه من حيث اشتقاقه وهل هو مشتق من سما يسمو أو من وسم يسم ، كما في اللسان ، ومعظم علماء اللغة يعتبرون الاسم مشتقا من سما يسمو ، أما النحاة فإنهم تناولوه من حيث دلالاته وعلاماته واختلافاته عن الفعل ، من حيث حاجة الفعل الى الزمن وعدم حاجة الاسم الى ذلك .

أما الفلاسفة فإنهم ينظرون اليه من حيث دلالته الفلسفية وهل هو حقيقة على المسمى أم غير حقيقة . « فالاسمى هو المنسوب الى الاسم لا إلى الشيء الذي يدل عليه الاسم ، وهو مقابل للحقيقي ، فالوجود الاسمي هو الوجود اللفظي ، والقيمة الاسمية هي القيمة الاصطلاحية ، ويقابلها القيمة الحقيقية ، كما جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا . وتميل أكثر الفلاسفة الى أن إطلاق الاسم على المسمى غير حقيقي ، فأكثر الالفاظ رموز لمسمياتها ، لا على حقيقتها كالورود والازهار والجبال والانهار والاسود والاغنام والذئاب والطيور ، وما إلى ذلك من اسماء الجمادات والحيوانات .

أما علماء الاجتماع فإنهم تناولوا الاسم من حيث دلالته على بعض الجوانب الاجتماعية . والذي يهمنا في هذا المجال أن نقف قليلا حول رأي الاجتماعيين في دلالة الاسم .

أسباب تغيير الأسماء

إذا تأملنا في الأسماء العربية قبل الاسلام وجدناها تختلف عما كانت عليه بعد الاسلام،فقد قال الزبيدي في كتاب تاج العروس في لفظة حمد : « إن من سمى باسم الرسول ﷺ قبل الاسلام سبعة هم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، أحد أجداد الفرزدق ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، أخ عبد المطلب لأمه ، ومحمد بن حمران بن ربيعة ، ومحمد بن عتواره الليثي الكناني ، ومحمد بن مسلمة الانصاري ، ومحمد بن خزاعه بن

علقمة ، ومحمد بن حرماز ابن مالك التميمي » .

لكننا نلاحظ أن هذا الاسم الشريف قد كثر بعد ظهور الرسول ﷺ وانتشار الاسلام ، كأحمد ومحمد ومحمود وحامد . كما أن الذين أطلق عليهم اسم العبودية لأسماء الله قد كثروا بعد الاسلام أيضا كعبد الله وعبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الملك ، وما الى ذلك من أسماء . وهذا بعض تأثير الدين الاسلامي الحنيف . وإذا ما عدنا الى الأسماء في الجاهلية فاننا نجد معظم أسمائهم قد أصبحت غريبة على الناس بعد ظهور الاسلام « كبشامة والحلزة » ، وحتى بعض القابهم « كتأبط شرا والشنفرة » وغيرها كثير . واذا ما تتبعنا كتب اللغة ، فاننا نجد لهذه الاسماء تفسيرا يوضح لنا معانيها كما يحددها لسان العرب . « فالحلزة » هو البخيل ، أو هو نوع من أنواع النبات . قيل سمي والد الحارث صاحب المعلقة المعروفة بذلك ، « وبشامة » لفظ يطلق على عدة معان منها : شجر طيب الطعم والريح ، و« اليأس » هو داء السل ، سمي بذلك لأن « اليأس بن مضر » أحد أجدادالرسول ﷺ مات به . وإذا كان في الاستطاعة تعليل هذه الاسماء وغيرها من أسماء البشر فهل نستطيع أن نعلل أسماء سائر الاشياء من الجماد والحيوان .

اسم السموءل

هناك من الباحثين من يأخذ بهذا المذهب ، لكنني أعتقد أن في هذا الرأى كثيرا من التعسف ، وعلى كل حال فإن في الاسماء دلالة واضحة على الأمة التي ينتمي اليها أصحابها ، وهذه الدلالة ليست عامة بصورة دقيقة جدا ، لكنها لاتخلو من قوة ، فنحن إذا ما تتبعنا أسماء معظم شعرائنا في الجاهلية فإننا نجد لها تفسيرا عربيا يوضح معانيها ـ كما أشرت الى ذلك ـ وبناء على ما ذكر فإني لا أستبعد أن يكون السموءل غير عربي ، لأن حروف اسمه ليست عربية التركيب ، ذلك أن اسمه (صموئيل) في الأصل وهذه لفظة عبرية وليست بعربية ، فللفظة « إيل » اسم من أسماء الله بالعبرية ، وتستعمل « إيل » بمفردها للدلالة على الاله الواحد الحقيقي كما جاء في قاموس الكتاب المقدس ، وقد أطلق هذا الاسم على أحد أنبياء بني « اسرائيل » ، ولفظة « اسرائيل » تعني يجاهد مع الله *

ثم حرف هذا الاسم الى السموءل ، ومما يزيد في تأكيد ما ذهبنا اليه ما جاء في مختار الأغاني من أنه من ولد الكاهن بن هارون بن عمران . وقد ذهب الدكتور جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام إلى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم ، رجل غساني عربي وآخر يهودي . وقال أبو العلاء : في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي « السموءل اسم عبراني وليس بعربي »

ويقول الزبيدي في معجم تاج العروس : السموءل اسم سرياني معرب .

ومهما يكن من أمر فإن وفاءه لامرىء القيس في قصة الدروع المعروفة يعتبر من النوادر الشاذة ، فإن قومه اليهود قد عرفوا بالمكر والغدر بسبب ما توحيه اليهم عقيدتهم من أن جميع شعوب العالم أعداء لهم ، يحل لليهود قتلهم وأسرهم ونهب أموالهم وهتك حرماتهم . ذلك ما تقوله كتبهم التي حرفوها والتي يدعونها بالتوراة .

القصيدة وأقوال العلماء

أما القصيدة اللامية المعروفة التي تقول :

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللؤمِ عِرضُهُ
فَكلُّ رداءٍ يَرتَديهِ جميلُ
وإن هو لم يحملْ على النفسِ ضَيْمَهَا
فليس الى حسنِ الثناءِ سَبيلُ

فإن كثيرا من الباحثين يشكون في نسبتها الى السموءل ، ومنهم الدكتور جواد علي معتمدا في شكه

---

* ناقش الدكتور حسن ظاظا قصة هذا الاسم في بحث ناقش فيه اسطورة هذا الاسم التي تمس الذات الالهية في (مجلة عالم الفكر ـ المجلد العاشر ـ العدد الرابع ـ الشخصية « الاسرائيلية ») ، وليس غريبا على هؤلاء القوم ، فان عقيدتهم تقوم على أساطير ما أنزل الله بها من سلطان .

على قصة الموفق بالله ، من أنه طلب من المبرّد أن يقدم اليه ديوانا في شعر اليهود ، فأخبره المبرد أنه لايعرف شعرا لليهود ، فلا يعقل أن لايكون للمبرد علم بشعر اليهود ، وقد ذكر ذلك من سبقه مثل أبي تمام في حماسته والجمحي في طبقات الشعراء ،كما أورد في الاصمعيات شعرا لهم ، كما أن في كتابه الكامل نتفا من شعرهم ، أو لعل انكاره لشعرهم بمعنى أن أكثر ما ينسب إليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع ، ولهذا لم يعن بجمع ما ورد عنهم .

ومنهم التبريزي في شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام حيث يقول إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ووافقه على ذلك المرزوقي في شرحه لديوان حماسة أبي تمام . وقد كتب بعض الدارسين بحوثا مستفيضة في نفي نسبتها الى السموءل واثباتها للحارثي ، ومنهم الاستاذ زكي ذاكر العاني في دراسته لشعر الحارثي ، فقد أشار في هذه الدراسة الى ما نالته تلك القصيدة اللامية المشار اليها من شهرة واسعة في الادب العربي ، واهتمام رواة الشعر بها ومؤرخي الادب اهتماما كبيرا ، واعجاب البلاغيين بها أشد الاعجاب . يقول الاستاذ العاني : « إن هذا الاعجاب قد تعداه الى الشعراء أنفسهم ، فواحد يعارضها ، وآخر يضمن بعض أبياتها ، وثالث يخمسها ، وما ذلك الا لما تضمنته من سمو في المعاني ، وبلاغة في التعبير ، وجمال في التصوير ، وقد اقترنت هذه القصيدة باسم شاعر جاهلي لم يشتهر بالشعر قدر اشتهاره بقصة رده للدروع التي أمنها عنده أمرؤ القيس الشاعر ، تلك القصة التي لاتخلو من خيال . وقد قيل إن الشاعر هو السموءل قد ارتجل هذه اللامية بعد تلك الحادثة أو المناسبة وعلى إثرها . ونرى أن عزوها للسموءل فيه شطط كثير ، ولا يستقيم عند البحث العلمي الدقيق » وهكذا أخذ الباحث يبرهن على ما ذهب اليه معتمدا على ما ذهب اليه ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » من أنها لدكين الراجز ، وقد أورد منها ابن قتيبة بيتين . ودكين يطلق على شاعرين أمويين ، وقد خلط ابن قتيبة بينهما ، ولا حاجة بنا الى أن نورد ما قاله محقق الكتاب في هذا المقام . ويستمر الاستاذ العاني في دراسته بذكر أقوال القدامى من النقاد في نسبة هذه القصيدة للحارثي ، وهم محمد بن داود الاصفهاني (٢٩٦هـ) في كتابه « الزهرة » ، وابن طباطبا العلوي (٣٢٢هـ) في كتابه « عيار الشعر » ، والصولي (٣٣٥هـ)في كتابه «أخبار أبي تمام»،وأبي الفتح بن جني (٣٩٢هـ) في « شرح مشكل أبيات الحماسة » . والحق أن الاستاذ العاني قد بذل جهدا مشكورا في استقصائه لبحث نسبة هذه القصيدة ، إذ أنه أورد أقوال أكثر من عشرين مؤرخا أدبيا ، وهم من الموثوق بأقوالهم ، وكلهم يؤكد نفي القصيدة اللامية عن السموءل ويثبتها لغيره .

ويتضح لكل من وقف على أقوال أولئك العلماء حول نسبة القصيدة أنها محل اختلاف وجدل بينهم ، وهم ينسبونها لاكثر من شاعر ، لكنهم مجمعون على نفيها عن السموءل ، ثم إن في هذه القصيدة بيتين يؤكدان نفيها عن السموءل أولهما :

فإن بني الديان قطب لقومهم
تدور رحاهم حولها وتجول

ان بني الديان الذين افتخر بهم شاعر القصيدة في البيت الأخير هم قوم الحارثي ، وهم من العرب القحطانية

على أن الاستاذ العاني لم يكتف بما أورده من أقوال العلماء، وإنما عزز بحثه بدراستها دراسة فنية مستفيضة خرج منها بأن في هذه القصيدة كثيرا من الطباق والجناس والتعريض والكناية ، استطاع ناظمها الحارثي أن يبثها في قصيدته اللامية من غير تكلف ولا تعسف ، لما يتمتع به من موهبة شعرية رفيعة ، ومن المعروف أن هذه الصنعة الكلامية غير مألوفة في الشعر الجاهلي . وقد يكون هذا ما يعزز نفي القصيدة عن السموءل ونسبتها الى الحارثي . ثم إن البيت الثاني من القصيدة :

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
ولا طَلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

وقوله «مات حتف أنفه» يقال إن أول من تكلم بها هو النبي ﷺ والحارثي خليق بذلك، ومعنى ذلك أن هذا البيت قد تضمن أمرا إسلاميا لكنني لم أجد في معاجم اللغة ما يفيد ما قيل عن الرسول ﷺ

ترجمة الحارثي

وبالجملة فان شاعرنا الحارثي من المبرزين، فقد قال في حقه ابن المعتز في كتابه «طبقات الشعراء» كان الحارثي شاعرا مفلقا مفوها مقتدرا مطبوعا، وكان لايشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين، وكان نمطه نمط الأعراب، وهو أحد من نسخ شعره بماء الذهب».

وشعره من السهل الممتنع، يهز أوتار قلب سامعه وقارئه. أما عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي فإنه شاعر شامي من فحول الشعراء في صدر الدولة العباسية، لم يبق من شعره الا نزر يسير، وهذا النزر اليسير ينسب بعضه الى غيره. ينتسب عبد الملك الى بني الحارث بن كعب، وهم بطن من مذحج من العرب القحطانية، كان منهم في الجاهلية ملوك نجران، ومنهم بنو عبد المدان، وبنو الديان. أما رهط عبد الملك بن كعب فد كانوا بالفلجة من أرض دمشق.

ويتصف شاعرنا بنفس طموحة تجعله لايمكن أن يحقق آماله الا في بغداد كعبة القصاد في تلك العصور، لكنه لم يوفق لتحقيق أي أمل من آماله، فقد سجنه الخليفة هارون الرشيد لسبب غير معروف، وقد كتب لأخيه من سجنه يقول معاتبا له:

فلو كان بي ـ لايكن بك ـ لاغتدى
إليك وراح البرّ بي والتقربُ

وقد ضن علينا تاريخه بأن يخبرنا بسنة مولده ووفاته.

ليست أول قصيدة منتحلة

وأنا على يقين أنكم تعرفون بأن القصيدة التي دارت حولها هذه الدراسة المتواضعه ليست بالقصيدة الوحيدة التي نسبت الى غير ناظمها في أدبنا العربي، فإن قصائد لاتحصى معروفة بين الادباء قد نسبت الى أكثر من شاعر، ربما كان من أشهرها القصيدة اليتيمة التي مطلعها:-

هَلْ بالطلولِ لسائلٍ ردُّ
أمْ هَلْ لها بتكلّمٍ عَهْدُ
دَرَسَ الجديدُ جديدَ معهدِها
فكأنّما هي ريطةٌ جُرْدُ

نسبت هذه القصيدة الى علي بن جبلة عند البعض، ونسبت الى أبي نواس عند البعض الآخر، حتى جاء المرحوم الشيخ عبد العزيز الميمني وأكد أنها لدوقلة المنبجي الذي لانكاد نعرف عنه شيئا، لأن التاريخ الادبي لم يحدثنا عنه بشيء، ويقال مثل ذلك في قصيدة ابن زريق البغدادي التي مطلعها:

لاتَعْذليه فإنّ العَذْلَ يوجعُهُ
قد قلتِ حَقّاً ولكن ليس يسمَعُهُ
جاوزتِ في عَذْلِهِ حَدّاً أضَرَّ بِهِ
مِنْ حيثُ قدّرْتِ أنّ العَذْلَ ينفعُهُ

نجد بعض أبيات هذه القصيدة منسوبة الى أبي الوأواء الدمشقي، ونجد مثل هذا الاضطراب في قصائد كثيرة كما ذكرت، لكن سبب عنايتي بالقصيدة اللامية يعود الى أنها من القصائد المميزة التي سارت على ألسنة الناس حتى أضحى الكثير من أبياتها من المحفوظات. ونحن جميعا نعلم أن الشاعر ليس فخرا لنفسه وانما هو فخر لأمته، لهذا ساءني أن تكون هذه القصيدة لشخص ينتسب الى شعب عرف بالغدر والمكر عند جميع الأمم لسبب معروف، وهو أن تعاليمهم تقول لهم بأن كل شعب مباح لكم، فأنتم محقون بأن تتخذوا كل وسيلة لالحاق الضرر بالناس ما عدا اليهود لأنهم شعب الله المختار.

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في اثبات أن السموءل ليس عربيا، وأن هذه القصيدة لعبد الملك ابن عبد الرحيم الحا الحارثي المسلم. □

عندليب الدم والأقحوان

شعر : الدكتور محمود الشلبي

للتي أيقظت دمي :

للتي أيقظتْ عندليبَ دمي باكراً
فَوْقَ غُصْنِ الصَّباحْ .
للتي أجْهَشَتْ بالغِناء ، وقالت :
لكَ الآنَ أنْ تُدرِكَ الفَرْقَ ،
بينَ الصَّهيلِ ، ونَبْضِ الدَّمِ المُستَباحْ .
للتي ساءلتني عن اسْمي ،
بَعْدَ التَطهُّرِ بالعِشْقِ ،
بَعْدَ التَرحُّلِ في خَيْمةٍ مِنْ جِراحْ .
للتي أنْشَدَتْني تراويدها ،
قَبْلَ أنْ يَنْثُرَ العُمْرُ أسْفارَهُ
في دُروبِ الرِّياحْ .
للتي ازَّيَنَتْ مِنْ خضابِ الشَّهيدِ ،
وزيتونِ أضلُعِهِ ،
مِنْ لظى دمِهِ ،
من زفيرِ السِّلاحْ .
للتي أسْلَمَتْني إلى نارِها ، فاشْتَعَلْتُ ،
وإلى غارِها فابْتَهَجْتُ .
أنحني ، وأقولُ :
ليتني ريشةٌ في جَناحْ .
ليتني طَلْقةٌ تُلْهِبُ الدّارَ بالعُرْسِ
في بَهْجَةِ الأرْضِ ،
أوْ في مَداها المُتاحْ .
ليتني ، آهِ سيدتي ،
ليتني لُغةٌ في صُدورِ الرِّماحْ .

« زهرةُ الأقحوان »

بَيْنَ عينيكِ والقلبِ ،
رَفٌ مِنَ الأغنياتِ ،
ونهرٌ مِنَ الشَّهْدِ والسَّلسبيلْ .
مَوْسِمٌ للطيورِ التي أشْرَعَتْ بابَها
بانتظارِ الحديثِ الجميلْ .
مَنْزِلٌ لنشيدِ الحُقولِ ،
للشَّمْسِ أغْفَتْ على سَعَفاتِ النَّخيلْ .

●●●

بين عينيكِ والزَّمَنِ المُستحيلْ .
يَهْمِسُ الموجُ بالسِّرِّ ،
والمرجُ يُزْهِرُ في واحةٍ للصَّهيلْ .

●●●

أتهجّى حُروفَ المَسَراتِ ،
مِنْ أوَّلِ الوقْتِ ،
أقْطِفُ قُرصينِ مِنْ عَسَلِ السَّهْلِ ،
أغدو . . .
وفي آخرِ الوقتِ أُدركُ
أنْ قتيــلْ .

●●●

مِثْلما يَنْشُرُ اليومُ ألوانَهُ
فوقَ حَبْلِ الأصيلْ .
والأماني تسيلْ .
أنحني للعيونِ التي أشْعلَتْ في دمي
شَمْعدانَ الفُصولْ .
أنحني وأقولْ :
إنَّهُ وطني
ماثِلٌ فيكِ
يا زَهْرةَ الأُقحوانِ النَّبيلْ .

هل خمد البركان في عدن؟

كريتر

من هنا دخل الإنجليز ومن هنا خرجوا!

استطلاع: سليمان الشيخ

تصوير: فهد الكوح

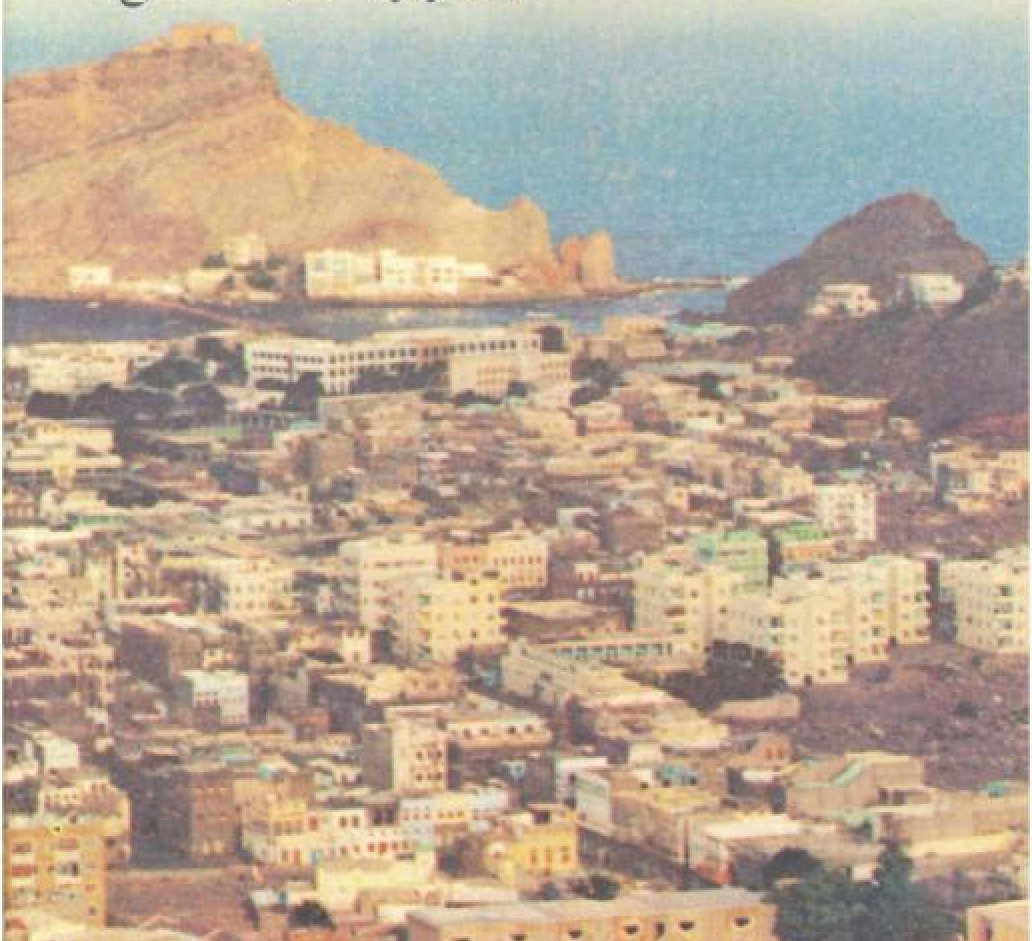

في عشرينيات هذا القرن زار الرحالة أمين الريحاني عدن ، ونقل صورة عن واقعها الاجتماعي والسياسي في ذلك الوقت .

وها نحن ننقل صورة أخرى عن نفس الواقع بعد حوالي ستين عاما من رحلة الريحاني ، وبعد عشرين عاما على الاستقلال .

ما هي ملامح الصورة ؟ وما هي مكوناتها ؟ وما هي آفاق المستقبل ؟ وما هو مستقبل التنمية ؟ وإسهامات النفط الذي بدأ بتدفق في اليمن ؟

.. الى عدن أرض التاريخ والحضارات كانت رحلتنا .

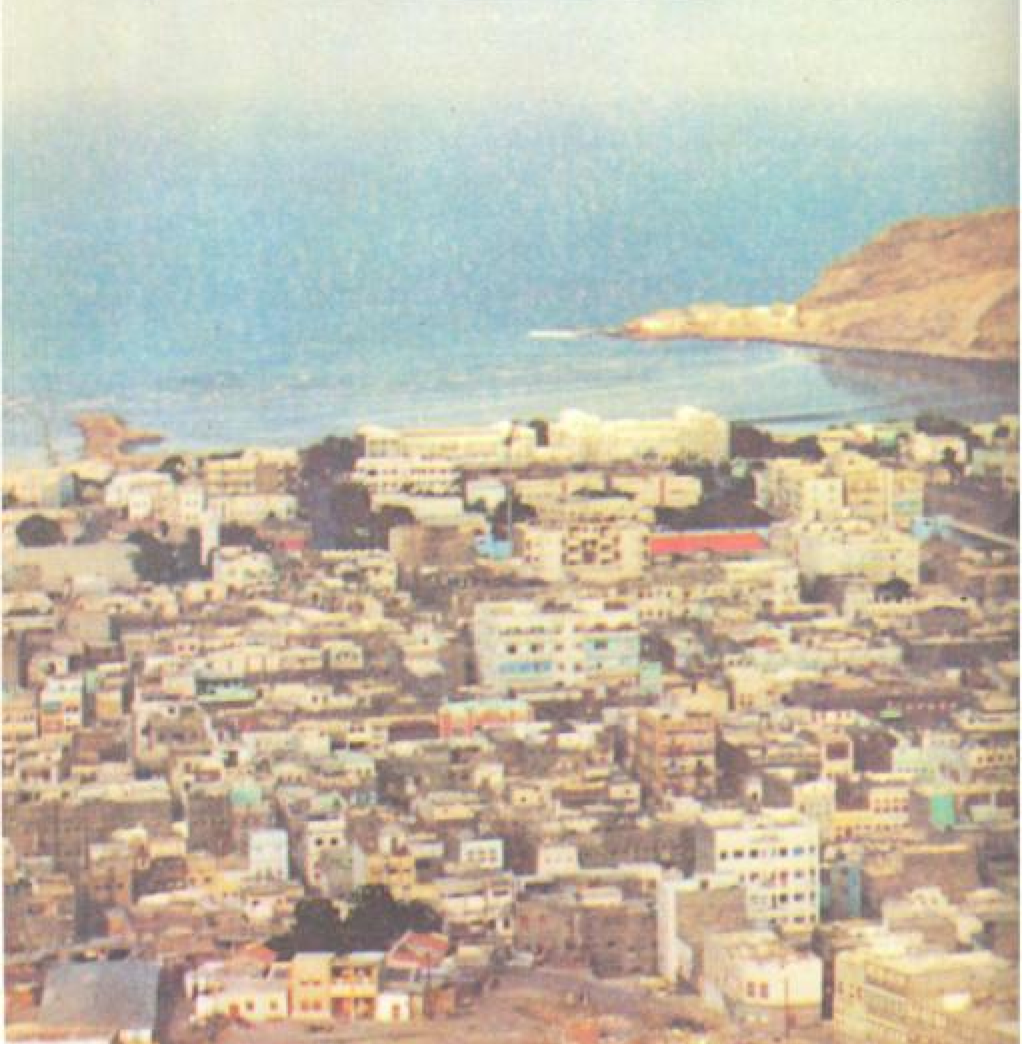

تعتبر عدن من أقدم الأماكن التي سكنها البشر منذ قديم الزمان ، وعدن المعروفة في التاريخ القديم حتى الثلث الأول من القرن الماضي كانت هي المساحة المحاطة بسلاسل جبال شمسان من الجنوب والغرب ، وجبال المنصوري من الشمال وجزء من الشرق ، ولم يكن غير البحر متنفسا لها من هذا الحصار الجبلي المقيم مع بوابة صغيرة في الغرب . وعدن نفسها هذه المستوطنة القديمة كانت ومازالت مجرد فوهة بركان خمد ، وفوهة البركان تعني بالانكليزية « crater » . كريتر » ، ومنذ أن جاء الانكليز أصبح اسمها كريتر بدلا من عدن ، على أساس أنها خرجت من حصار الجبال والطوق المحكم المضروب حولها ، وتوسعت غربا وشمالا وجنوبا ، وأصبح لها أخوات حملن أسماءهن الخاصة (المعلا ، التواهي ، الشيخ عثمان ، خور مكسر . . . الخ) .

ومع ذلك فإن بعض المصادر مازالت تطلق اسم عدن عندما تريد جمع الشقيقات ، مع أن الجغرافيا تغيرت منذ زمن طويل . عن « كريتر » ، أو على الأصح عن عدن القديمة يدور استطلاع « العربي » الجديد .

شكلها بيضاوي طولها حوالي ٨ كيلومترات وعدد سكانها تجاوز مائة ألف نسمة . توجد فيها أبرز المعالم التي خلدها التاريخ ، ففيها صهاريج أو سدود قديمة قدم الانسان فيها ، وفي مقدمتها من ناحية البحر شرقا تقع جزيرة صيرة المشهورة تاريخيا ، وفيها مسجد ابان بن عفان ، ومسجد العيدروس ، وعلى بوابتها الغربية طريق « العقبة » الذي كان حتى أوائل ستينيات هذا القرن طريقا ضيقا فوقه جسر قديم ، وعلى تلالها من ناحية الجنوب بالقرب من الصهاريج معبد وبستان للفُرس ، نعم الفُرس !

وداخل المدينة يوجد المتحف الذي كان قصرا ، والمكتبة الوطنية التي بنتها دولة الكويت ، والمتحف العسكري الذي كان مدرسة قديمة ، وسوق البهرة . نعم البهرة ، ومنارة يقال إنها تعود الى زمن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز .

إنها مدينة عامرة بالقديم والجديد ، فكيف حدث الجدل والتفاعل بين الانسان والمكان ؟ وكيف تحولت عدن الى كريتر ؟ وهل فوهة البركان التي كان اسمها عدن قد خمدت براكينها الآن ، ولم يعد لها في حياتها مكان ؟

الحرس البركاني القديم

لا شك أن الصدفة هي التي جعلتنا نتجه عصر يوم الثلاثاء ١٩/ ١/ ١٩٨٨ إلى الطريق المؤدي إلى قلعة صيرة ، وقلعة صيرة تقع في أعلى مكان من شبه جزيرة صيرة ، وكانت من قبل كما ذكر لنا مرافقنا السيد سعيد محمد ثابت الموظف بوزارة الاعلام ، جزيرة قائمة بذاتها ، مفصولة عن كريتر ، إلا أن قربها من اليابسة - حوالي كيلو متر واحد - حتم بناء طريق مرصوف ، لتسهيل التنقل ، وقد أصبحت هي وبعض المناطق القريبة منها مناطق مهمة للانكليز ، أقاموا عليها بعض المنشآت زمن استعمارهم للبلاد .

كانت نسمات ذلك العصر اللطيفة تغري بالتنزه (درجة الحرارة وصلت الى حوالي ٢٥ دون رطوبة) في الطريق المؤدي إلى شبه الجزيرة التي تشبه الهرم ، والصيادون على جانبي الطريق مدوا صنانيرهم في البحر وانتظروا غمزات السمك ، وبعض سفن الصيد توزعت على الشاطىء أو بالقرب منه داخل البحر ، والقاعدة التي تقول : حيث يوجد بحر فإنه يوجد صيادون وبحارة قاعدة صحيحة تماما .

لفت نظرنا شاب مفتول العضلات يحمل سمكة كبيرة .

فاستوقفناه ، فقال : إنها من نوع سمك الديرك ، طولها حوالي متر ، وقد اصطادها أخي بالقرب من الجزيرة ، وهي من أطيب السمك في بحرنا ، وهأنا أدلل عليها للبيع ، إنها طازجة ، صيد اليوم ، انظروا ، هل تشترون ؟

التقط له زميلي المصور بعض الصور ، فأدرك مهمتنا ، ومضى في طريقه . صادفتنا بعض البيوت جنوب الجزيرة ، وهي حديثة لا يصل عمر أقدمها إلى أكثر من ثلاثين سنة ، وتوغلنا أكثر ، صيادون يصلحون شباكهم ، ومرافقنا يقول بأن مصنعا للثلج

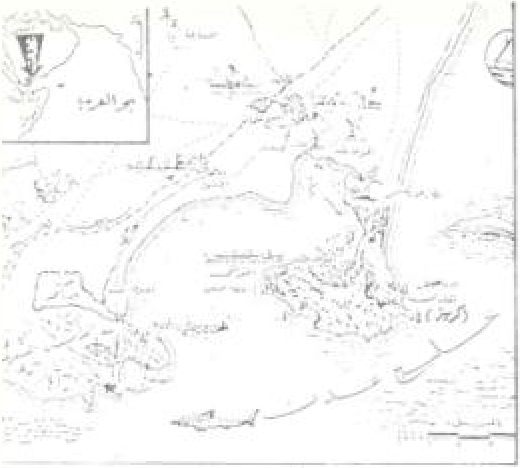

- خريطة عدن

كان قائما في شمال الجزيرة . وبجانبه كان الطريق ممهدا للصعود إلى قمة المكان . إلا ان الطريق تآكلت وتفتت بعض صخورها السوداء البركانية مدببة الرءوس ، فأصبح الصعود اليها صعبا . لذلك فإن المتنزهين كانوا يحيطون بالجزيرة بدلا من الصعود إليها ، ويختارون ساحات يمكن الجلوس عليها ، لتنشق هواء البحر ، والتواصل مع هديره ، والابتعاد عن ضجيج المدينة ومشغولياتها .

أصررنا على الصعود،ومع توالي الهدير والموجات التي تلتطم بالصخور هلت على الذاكرة المعلومات : « الجزيرة بركان جانبي للبركان الرئيسي الواقع إلى الغرب من الجزيرة الذي تقع على فوهته مدينة كريتر ، وفوهة بركان صيرة هي الرقعة التي تقف عليها القلعة ، وهي أعلى نقطة في الجزيرة الهرمية » .

تنفسنا الصعداء بعد أن وصلنا إلى متاريس القلعة المتآكلة ، وانكشفت لنا كريتر بالكثير من تفصيلاتها ، بل وبانت لنا على البعد الشيخ عثمان إحدى شقيقات « كريتر » .

ورأينا مدفعا ، أغلب بدنه مدفون في التراب ، بالقرب من مساقط المياه التي أكلت ونحتت في طريقها الكثير من الصخور والتربة ، وبالقرب من المتاريس كان هناك مدفعان قديمان .

كانت القلعة في الجهة الجنوبية الغربية ، وقد تساقطت بعض حجارتها ، لكن أجزاء منها كانت ما تزال في حالة جيدة . المتاريس كما تذكر المصادر التي كتبت عن الجزيرة (ترتفع ٢٠٠ متر) ، وقد بنيت في القرن الماضي بعد احتلال الانكليز للجزيرة ، في حين أن القلعة يعود تاريخها إلى زمن أقدم ، ربما إلى القرن السادس عشر أو قبل ذلك . وقد أجريت عليها ترميمات عدة من قبل القوى التي سيطرت على عدن في فترات متعاقبة. ويبلغ ارتفاعها ٣٣٧ قدماً.

القيمة الاستراتيجية

ذكرنا أننا في ١٩ يناير من هذا العام كنا نتسلق شعاب جزيرة صيرة وصخورها وفي هذا اليوم منذ ١٤٩ سنة قامت معركة بين الانكليز وأهل المدينة وقوات سلطان لحج وعدن ، وقد انتهت بسقوط المدينة سنة ١٨٣٩ ، فاستمر فيها الاستعمار الانكليزي حتى سنة ١٩٦٧م .

فما هو دور صيرة في هذا الأمر ؟

كانت صيرة هي البوابة الاستراتيجية المهمة التي تركزت في قلعتها وعلى جوانبها قوات سلطان لحج وعدن يومذاك (١٨٣٩) ، لتواجه القوات الانكليزية التي بحثت عن ذريعة لاحتلال عدن ، لتكون محطة لها للتموين بالوقود والاستراحة ، لتتابع طريقاً آمنا إلى الهند .

إن الصراع الانكليزي الفرنسي ، والهولندي ، والدنماركي ، في مياه البحار والمحيطات الدافئة ، وتوفير محطة آمنة على طريق التجارة مع الهند والمستعمرات التي تحيط بها قد جعل الأنظار تتجه إلى عدن المدينة التي تقع بالقرب من باب المندب (آخر محطة في البحر الأحمر) ، والتي تطل على مياه المحيط الهندي أو بحر العرب . لذلك فإن الانكليز قد جعلوا من حادثة السفينة « دوريا دولت » التي جنحت بالقرب من عدن سنة ١٨٣٧م ونهبها أعراب المنطقة سببا وفرصة لاحتلال المدينة . وأن تكون « المعركة » التي انتهت بعد ساعتين ونصف من صباح يوم ١٩ / ١ / ١٨٣٩ معركة حقيقية او مجرد تمثيلية بين سلطان لحج وعدن محسن العبدلي وبين الانكليز . فإن النتيجة كانت سقوط الجزيرة ، ومن ثم الزحف على عدن ، البلدة القديمة التي تذكر المصادر التاريخية أنها كانت قليلة العمران يومذاك بعد أن دمرتها الحروب والغزوات الداخلية والخارجية .

ولأن نظرية الحدود الآمنة لا تقف عند حد معين

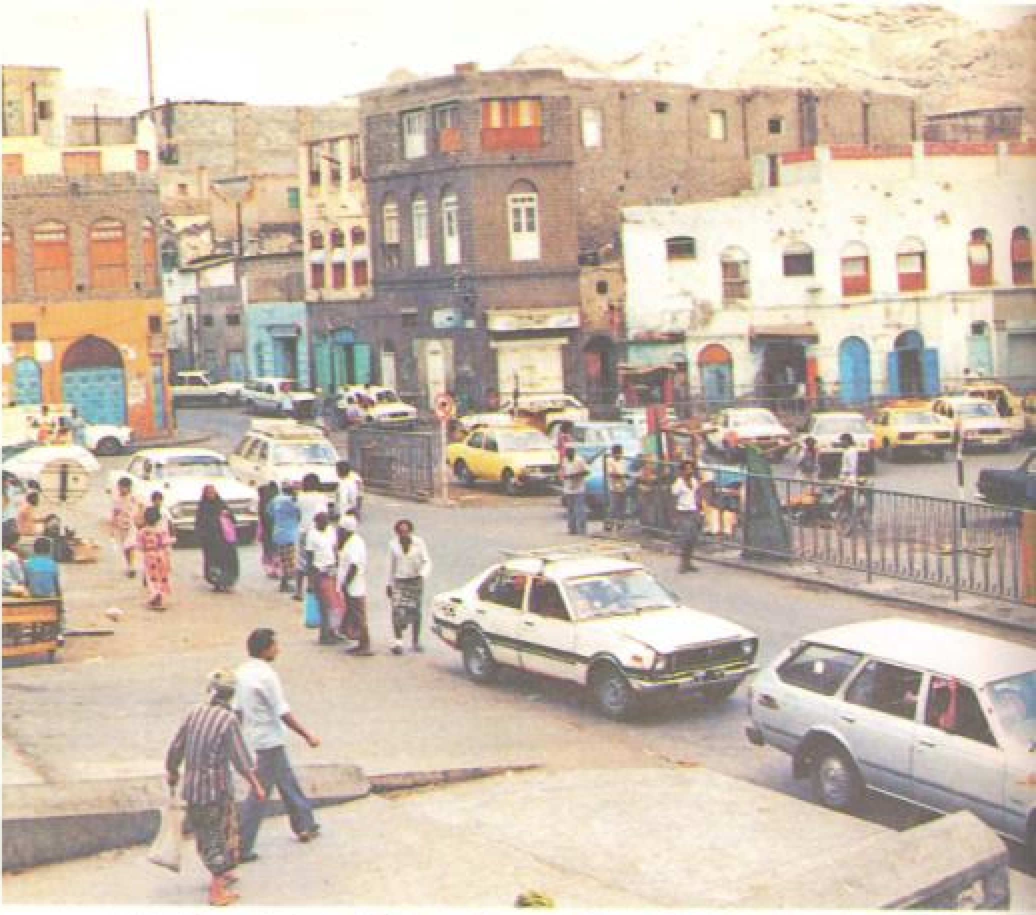

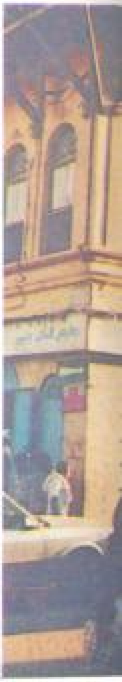

● ملامح من تاريخ اليمن يحتضنها هذا القصر الذي تحول الى متحف وطني ، وفتاة يمنية تعرض زيا يمنيا مميزا . ـ أقصى اليمين ـ ساحة السوق .. لاحظ الجبال .. كأنها تحاصر المكان ـ أعلى ـ بناء قديم .. له هويته وطابعه وتميزه العربي الاسلامي ـ أسفل يمين ـ لباس يمني تقليدي .. كان لباسا لعرائس زمن مضى ـ أسفل ـ

في الكثير من الأحيان لذلك فإن الانكليز أخذوا يتمددون من عدن إلى الشيخ عثمان ، ثم لحج ، ثم يافع إلى أن سيطروا على السلطنات والمشيخات والامارات التي كانت قائمة في الجنوب اليمني ، وبقوا فيها إلى أن قامت الثورة في ردفان سنة ١٩٦٣ وتبعتها المناطق الأخرى ، وصولا إلى الثقل الأساسي في عدن العاصمة والقاعدة الأساسية .

الأيام التي تلت الهزيمة

كانت هزيمة عام ١٩٦٧ قاسية على كل عربي ، فقد كان حلم تحرير فلسطين ومازال أمنية لكل عربي ، إلا أن نتيجة الحرب أحبطت الجميع ، وساد مناخ الهزيمة ، وانتشر في كل الأقطار العربية . أن احتلال سيناء والبقية الباقية من فلسطين والجولان ليس أمرا هيناً ، وهو لا يعني احتلال الأراضي فقط ، بل كان شرخاً في الذات العربية .

هكذا وصف لنا تلك الأيام السيد ياسين محمد ابراهيم الذي يسكن بالقرب من صهاريج الطويلة في مدينة كريتر والموظف في وزارة الثقافة والاعلام . وقد أضاف : في تلك الأيام السوداء أرادت الجبهة القومية في اليمن الديموقراطي (تنظيم سياسي عسكري لعب دوراً أساسياً في الثورة على الانكليز ومن ثم تحرير البلاد) أن تعيد الثقة للنفوس أو لنقل جزءاً منها .

كانت الثورة على أشدها في كل مناطق الجنوب اليمني ، وبتاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٦٧ ظهر الفدائيون في كريتر وهلوا عليها من جبال شمسان ، ومن جبال المنصوري ، بل وخرجوا من داخلها .

وقد سيطروا على المدينة مدة تزيد على ١٥ يوما ، على الرغم من استعمال المستعمر الانكليزي لكل أساليب البطش ، فقد استدعوا « الكوماندوز » أقوى فرقهم ، وبدءوا بقصف مناطق الثوار بالطيران ، بل إنهم قطعوا الماء عن المدينة ، وحاصروها حصارا محكما ، ومع ذلك فقد استبسل الثوار واستمروا في المقاومة مدة اسبوعين ، وعندما قلت الأقوات ، وشح الماء ، فإن الثوار اختفوا كما برزوا ، لكنهم كانوا قد لقنوا الانكليز درسا ، وأعادوا ما استطاعوا من ثقة مهزوزة إلى نفس كل عربي ، وبعد ذلك فإن المناطق أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي الجبهة القومية وصولا إلى التحرير الكامل في نهاية سنة ١٩٦٧ .

صالح حسان رجل خمسيني ، التقيناه في قرية حيل جبر في مديرية ردفان ، قال : لقد التحقت بجيش الجنوب منذ سنة ١٩٥٨ ، وعملت في بيحان ومكيراس وغيرهما ، وعندما قامت الجبهة القومية أصبحت أحد أعضائها السريين داخل الجيش ، وفي سنة ١٩٦٦ نقلت إلى عدن ، وأذكر أننا (جنوداً وضباطاً) قد انتفضنا بتاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٦٧ وتمردنا في معسكر « ليك لين » الذي كنا فيه بعدن .

فقد جاءتنا الأوامر من الجبهة القومية فانتفضنا ورفعنا علم الجبهة في المعسكر ، وأطلقنا المساجين وأحرقنا بعض الثكنات واستولينا على أسلحة كثيرة ، وإن انتفاضتنا كانت جزءا من الانتفاضة التي قامت في كريتر .

السكان خليط تغربل

يذكر أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب (الطبعة الثانية ١٩٢٩) أنه عندما جاء إلى عدن كان فيها ٤٠ ألف نسمة ، أو على الأصح كان في كريتر ذلك العدد ، ويقول :

« في فم البركان ، أو ما كان بركانا في قديم الزمان ، وفيها أربعون ألفا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان ، فيها المسلم الذي يصلي إلى الله ، والفارسي الذي يصلي إلى الشمس ، والبنيا (البنياني) الذي يصلي إلى الأوثان ـ وقد ذكر الريحاني أن البنيا حسب اللغة الهندية معناها صاحب حانوت وكانوا من التجار والصيارفة ـ والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحب الزمان ـ أغلبهم من الهند ـ واليهودي مسبح الذهب الرنان ، وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم ، ومن يحرقونهم ، ومن يحملونهم إلى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان » .

هذا عن السكان والأديان فيما مضى ، أما فيما يتعلق بطراز البناء فإن الريحاني يذكر « أما بيوتهم

فواحدة ، لا تعرف أعربية هي أم هندية أم أوروبية » .

وإذا كان السكان هذا الخليط المتكدس الذي جاء من جميع الدول التي كانت خاضعة لبريطانيا ، قد أصابتهم الغربلة ، واضطروا إلى الخروج مع أسيادهم الانكليز زمن الاستقلال ، وبقيت منهم أقلية ؛ فإن طراز البنيان في كريتر قد بقي على ما هو عليه ، أو أغلبه على الأصح قد بقي كذلك . وإنه الآن مزيج من العربي الاسلامي والهندي والأوروبي كما ذكر الريحاني . حتى المباني الحديثة التي قامت في غرب المدينة واحتلت مكان معسكرات الجيش الانكليزي مازالت تحمل الطابع المحير الموزع على عدة طرز .

أما ما تبقى من سكان فإن الأغلبية العظمى هم الآن من أبناء البلد . وعلينا أن نذكر أن ملامح بعضهم تحمل السمات الهندية الواضحة ، وهذا يعود إما إلى تأثيرات الزيجات التي حصلت منذ عشرات السنين ، وإما إلى أن بعضهم ولد من أب وأم هنديين مسلمين تجنسا بالجنسية اليمنية ، وأصبحا مواطنين ، وخاصة أن بعضهم جاء واستوطن كريتر قبل الغزو الانكليزي .

ويعمل الكثير منهم الآن بالحرف الفنية وبعض التجارات الصغيرة في القطاع الخاص .

جاء في كتاب « سياسة بريطانيا في جنوب اليمن » للدكتور جاد طه الصادر سنة ١٩٦٩ عن السكان ما يلي :

« منذ الاحتلال البريطاني لعدن سنة ١٨٣٩م وسكانها آخذون في الزيادة بصفة مستمرة ، فعند بداية الاحتلال كان عدد السكان نحو ٦٠٠٠ نسمة (كريتر) ، وبعد ثلاث سنوات فقط ارتفع العدد إلى ١٥ ألف نسمة ، ثم وصل العدد إلى نحو ٢١ ألف نسمة (كريتر والنواهي وغيرها) سنة ١٨٥٦ . وبعد نحو قرن من الزمان أي في عام ١٩٥٥ أصبح مجموع السكان ـ في كل مناطق عدن ـ ١٣٨,٤٤١ نسمة ، منهم ١٠٦,٤٠٠ نسمة من العرب ، و ١٥,٨٠٠ من الهنود ، و ١٠,٦٠٠ من الصوماليين ، و ٤,٤٠٠ من الأوروبيين و ٨٠٠ من اليهود . وفي عام ١٩٦٣ ارتفع عدد السكان إلى ٢٢٠ ألف نسمة » . ويجب أن نشير إلى أن عدد اليهود كان حوالي ثمانية آلاف نسمة قبل سنة ١٩٥٠م ، إلا أنه نتيجة لاحتلال فلسطين من قبل الصهاينة سنة ١٩٤٨ ، فإن أعداداً من اليهود هاجروا إلى فلسطين ، إما من خلال مخططاتهم الخاصة واستجابتهم لنداء الحكومة « الاسرائيلية » بالهجرة ، أو نتيجة لغضب الشعب في عدن الذي أحرق بعض متاجرهم ومؤسساتهم ، وهاجم الحي الذي يسكنونه . وقد استمر حوالي ألف منهم يسكنون عدن حتى حرب سنة ١٩٦٧ والهزيمة التي لحقت بالأقطار العربية ، مما دفع الجمهور العربي إلى مهاجمة مصالحهم وبيوتهم ثانية فهاجرت البقية الباقية منهم وخاصة أن الانكليز قد جلوا في ذلك العام .

في شارع البهرة

مازال الشارع في عدن اسمه شارع البهرة ، والبهرة منطقة هندية يقطنها مسلمون شيعة ، جاء بعض سكانها إلى عدن ، قبل الاحتلال الانكليزي وبعده ، فعملوا في التجارة وغيرها ، وقد اختلطوا بالعدنيين وناسبوهم ، فبقي بعضهم بعد الاستقلال في البلاد التي أصبحت بلادهم ، وحصلوا على الجنسية اليمنية ، وعوملوا معاملة المواطنين فيها .

يمتد شارع البهرة بمحاذاة مسجد ابان من ناحية الجنوب ، وهو ضيق كبقية الشوارع الداخلية في كريتر ، وتقع على جانبيه دكاكين العطارين الذين يتاجرون بالعطور والبخور وغير ذلك ، وبضاعتهم إما مصنعة في عدن أو مستوردة من الهند وبعض الدول الأوروبية مثل انكلترة وسويسرة وهولندة . هكذا ذكر لنا السيد أحمد داود العطار عندما سألناه عن نوعية العطور التي يبيعها وأماكن تصنيعها وقد أضاف : نحن أصلنا من البهرة ـ يتجاوز عمره ٦٠ سنة ـ وقد جئت إلى هنا سنة ١٩٢٩، في المحل المقابل « الجونة باناقع » ، صاحبه عربي يمني ، يحتوي على مجامر للبخور متنوعة أماكن الصناعة والأحجام ، بعضها مصنوع في الشيخ عثمان ، ولحج ، وبعضها مصنوع من الفخار المحروق في اليمن الشمالي ،

وهناك نوع آخر صومالي مصنوع من الكلس ، ويوجد في المحل أكواز ماء صغيرة وكبيرة ، وسلال مصنوعة من الخوص ، ومشاجب مصنوعة من الخوص أيضا خاصة بالعرسان ، وأطباق من القش . . . الخ .

في شارع قريب دخلنا إلى مطبعة « الهلال » ، ملامح الرجل هندية واضحة . قال : أصلي من الهند ، وقد جاء آبائي واستوطنوا عدن ، ونحن مسلمون ، وقد حصلنا على المواطنة بعد خروج الانكليز .

إن الآلات متواضعة والمطبعة تأسست سنة ١٩٣٧ ، وتنضد الحروف يدوياً .

فرس وبيت نار !

لقد تكرر اسم « الفرس » كثيرا على لسان بعض من كنا نقابلهم في عدن : بستان الفرس ، معبد الفرس ، استراحة الفرس . . . الخ .

فمن هم هؤلاء الفرس في عدن ؟

دخلنا إلى صيدلية « النجم » التي تقع مقابل المتحف العسكري ، وقد فوجيء بنا الشاب الثلاثيني الذي لم نطلب منه دواء ، بل طلبنا منه معلومات ، فاعتذر بعربية فيها بعض التكسير ، وذكر أنه سيعرفنا على عمه الكبير وهو يملك المعلومات التي نحتاجها .

في نفس الشارع على بعد أمتار قليلة دخلنا محلا لبيع قطع غيار السيارات ، فوجدنا رجلا يلبس الملابس الأوروبية ، وكان كبيرا في السن ، قال : أنا من مواليد سنة ١٩٢٧ في عدن ، وجدي جاء إلى هنا سنة ١٨٧٦ ، ونحن من دولة كوجارات في الهند من مقاطعة سورات ، ومن قرية سيجنبور ، ومازلنا نحتفظ بالجنسية الهندية ، ولم نحصل على جنسية اليمن الديمقراطية لأننا غير مسلمين .

- سألته : أنتم ماذا إذن ؟

- نحن زرادشت وفرس أصليون ، وأصلنا من بندركوساه في ايران ، وعندما جاء الاسلام ووصل إلى ايران هاجرنا بديننا إلى الهند ، وهناك تكاثرنا .

- هل بسبب ذلك يطلقون عليكم فُرساً ؟

- نعم إن أصلنا من بلاد فارس ، وإننا نقدس النار ، وكان لنا معبدنا الخاص الذي يقع بين مسجد العيدروس والبستان الذي يعرف ببستان الطويلة وتقيم فيه المليشيا العسكرية الآن ، إلا أن تناقص عددنا حتم نقله إلى الهند فأعدناه إلى هناك .

- كم وصل عددكم في عدن ؟

- لقد وصل عددنا إلى حوالي ألف نسمة زمن الانكليز . - والآن . . ؟

- لم يبق إلا سبعة أشخاص فقط في عدن . وأضاف : نحن أقلية في العالم ، أعني اتباع الزرادشتية وربما لا يصل عددنا إلى مائة ألف نسمة في كل أنحاء العالم ، ويوجد بعضنا في ايران والهند وأميركا الشمالية ، ومعظمنا يعمل في التجارة ، ولغتنا الحالية لغة كوجاراتية وهي إحدى لغات الهند .

وانتا نقدس النار ونبقيها مشتعلة في معبدنا دائما .

- لقد زرت برجكم في التلال التي تشرف على كريتر من جهة الجنوب ، لم يبق منه إلا بقايا بناء ، ورأيت عظاما في البرج الدائري !

- إن هذا البرج بني سنة ١٨٦٦ ، ويسمى ببرج الموتى ، وهو غير برج الهدوء الذي كان معبدا لنا ، وقد أقمنا سورا حوله ، وكنا نصعد إليه بواسطة الحمير ، وكان مرصوفا وممهدا من قبل ، وليس كما هو الآن تملؤه بالحفائر ، وهناك في مكان الموتى كنا نترك موتانا في ذلك المكان الدائري عُراة كي تمتزج أشعة الشمس المقدسة بهم ، وتباركهم ، والغرفة التي تلي البرج كانت للاستراحة ، وكنا نضع الميت في البرج ثم نستريح حوالي نصف ساعة وبعد ذلك نغادر المكان . كل إلى أشغاله .

- تتركون الجثة للشمس كي تباركها ؟

- نعم إن خيوط الشمس مباركة عند الزرادشتية ، كما أن الجسد يترك عاريا كي تأكله الطيور ، والعظام التي وجدتها ربما هي بقايا من عظام أتباعنا ، إننا نؤمن بالتبرع ، حيث ان الجسد يمنح للشمس والطيور

- هل مازلتم تعرضون أجساد موتاكم الآن لنفس المصير السابق ؟

- لأننا أقلية ، ولأن معبدنا نقل من هنا ، فإننا كففنا عن الصعود إلى البرج ، وأصبحنا ندفن موتانا في القبور ، أو نرسلهم إلى الهند .

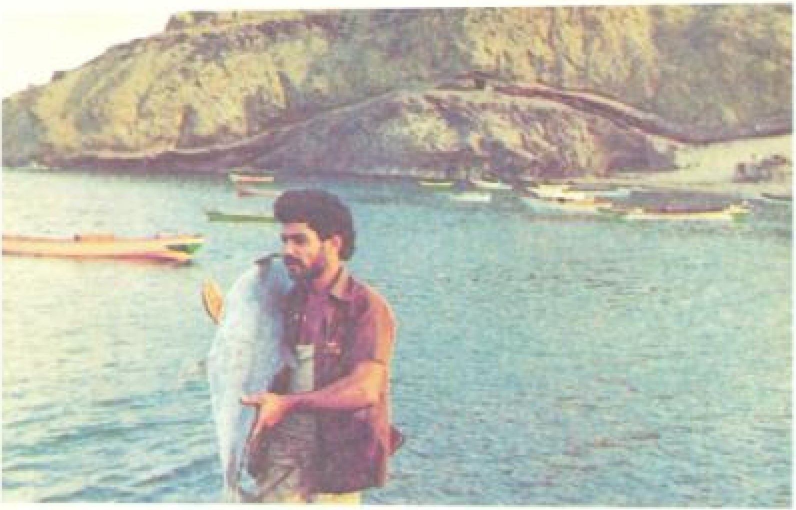

حيث يكـون بحر
يكون صياد وصيد

مدفع قديم في بستان
الـطويلة المحـاذي
لصهـاريج عـدنأ
ـ وسط ـ

صهريج (أبوقبة) ..
أحـد الصهـاريـج
المهمـة المتبقية من
إنجـازات الانسان
اليمني عبر القرون

- الأستاذ عبدالله محيرز

- الأستاذ سعيد المدي

أســـواق ومهن

قبل أن ننتقل من الأسواق إلى أماكن أخرى يجدر بنا الاشارة إلى مجموعة من المعالم البارزة في الأحياء التي تحيط بالأسواق .

أسماء الشوارع مازالت تحمل أسماء شخصيات أو أماكن أو مدن معروفة ، أو أسماء بعض الشهداء الذين سقطوا بمواجهة المستعمر الانكليزي ، منها : شارع لقمان ، وجمال الدين ، ومكة ، وساحة الشهيد مدرم (أحد الشهداء) والخراج ، والسواحل الذي يحتوي على دكاكين الصاغة والمتعاملين بالذهب ، أو ساحة وسوق الزعفران ، وسوق الطويلة ، إلخ . ونظرا لأن بعض الشوارع ضيقة ، وخشية من الاصطدامات فان عدة مرايا كبيرة وضعت على تقاطعات الشوارع كي تنبه السائقين إلى حركة الشارع من الجهة الأخرى .

المقاهي والمطاعم عامرة والأسواق مقصودة خاصة بعد الظهر ، وباعة الأشرطة يطلقون أصوات المطربين والمطربات إلى أعلاها كي يلفتوا سمع الجمهور ، وسوق البلدية عامر والسوق القديم ضربه الانكليز ، فتحول الآن إلى سوق للقات . يسمح ببيع القات وتعاطيه في عدن في يومين فقط (الخميس والجمعة) .

وقد تم بناء سوق جديد من عدة طوابق تباع فيه الكثير من الأصناف والأنواع من خضراوات وفواكه وأقمشة وأدوات المطابخ وغيرها .

وهناك سوق خاص للبن وحب الهال والبهارات والحلويات ، والتنباك (يزرع في حضرموت) .

والمهن البسيطة الأخرى موجودة في أسواق وأماكن عديدة ، معاصر ومطاحن ، وحدادون ، ونجارون ، وبناءون ، قديم وجديد يتمازجان ، والمصنوع في البلد والمستورد تجدهما أحيانا في مكان واحد ، لكن يبدو أن حركة الاستيراد غير متروكة على عواهنها ، كما أن بهرجة الدعاية والاعلان عن محتويات المحلات محدودة وغير مُستفزة ، والناس يشترون حاجاتهم ويمضون . وجوه أجنبية يلحظها المراقب بين الوجوه العربية السمراء ، أغلبها روسية ، والبقية من جنسيات أخرى ، جاءوا للسياحة أو للعمل في مشروعات عدة ، والأسعار ليست رخيصة ، إنها تماثل أسعار الكويت تقريبا .

لفتت نظري اللافتة الخارجية : المخبز اليوناني » .

سألت الشاب الأسمر الذي يقف وراء صندوق الحساب : أمازال هذا المخبز يونانياً ؟

ابتسم ، وقال : لقد كان يونانيا ، وأصبح عربيا ، لقد جددنا آلاته ، لكننا أبقينا على الاسم فقط ، إن المحل مملوك لأحد أفراد عائلة العطاس ، وفيه يصنع الخبز والحلويات .

ـ هل هو ملكية خاصة ؟

ـ نعم ، إنه يعتبر قطاعا خاصا ، والكثير من محلات الأسواق ، إن لم يكن معظمها مملوكة لأشخاص ، يدفع أصحابها الضرائب للدولة ، وينظم وجودها القانون الخاص بها .

معالم أخرى

قرب المساكن الجديدة ، وعلى بعد أمتار قليلة من مسجد أبان فإن بوابة قديمة مازالت متروكة كمعلم للتذكير ، إنها بوابة سجن عدن ، ومازالت الكتابة عليها واضحة بالانكليزية: سجن المنطقة ١٩١٢م .

في الشارع المقابل مازالت كنيسة القديس جوزيف موجودة ، ولونها الأصفر مازال يلمع . قيل إن بعض المسيحيين العرب والهنود والأجانب الآخرين يؤمونها يوم الأحد ، وبجانبها تقع ثانوية الفقيد عبدالله باذيب الكاتب والصحافي اليمني المعروف ، وبجانبها تقع إحدى الروضات الحديثة .

عودة إلى المتحف العسكري الذي ورد ذكره من قبل ، وهو يضم صورا ومقتنيات من مراحل عديدة لاستعمال الأسلحة في اليمن الديمقراطية ، منذ قديم الزمان ، حتى الاحتلال الانكليزي ، ثم قيام الثورة ، والمراحل الحديثة التي مرت بها الثورة ، والشخصيات التي لعبت أدواراً مهمة في هذه المراحل . عن طراز البناء اللافت للنظر الذي يتكون من دورين ويتوزع على عدة جهات ، فإن السيد سعيد المدي المولود سنة ١٩٠٥م ، والذي عاصر الكثير من المراحل التي مرت بها اليمن الديمقراطية ، خاصة مراحل التعليم ، قد علق قائلا :

لقد كان المتحف مدرسة ، بناها الانكليز سنة ١٩٢١ بيد بنائين هنود ، لذلك فإن البناء أقرب إلى الطراز الهندي .

وذكر لنا دليل المتحف العسكري بأن المبنى تحول إلى متحف عسكري اعتبارا من ٢٣ يونيو ١٩٧١م .

وتقوم بجانب المتحف العسكري مكتبة وطنية ، تعتبر المكتبة المركزية في الجمهورية ، وذكر لنا السيد عبدالرزاق معتوق يحيى المشرف بالمكتبة أن المبنى المؤلف من ثلاثة أدوار والمزود بجميع المستلزمات بما فيها « الميكروفيلم » هدية قدمتها حكومة الكويت لحكومة اليمن الديمقراطية ، وقد افتتحت سنة ١٩٨٠ ، ويعمل فيها ٥٠ موظفا ، أغلبهم من الفتيات ، وبينهم حملة للماجستير في علم المكتبات ، وفيها حوالي ٣٥ ألف عنوان موزعين على أقسام عدة منها القسم العام ، والمراجع والدوريات ، والمراجع الأجنبية ، والمخطوطات ، وقسم التزويد والايداع ، وغير ذلك .

عندما سألت مريم قشلون مشرفة المراجع عن سبب كثرة الفتيات العاملات في المكتبة أجابت :

قراء كثيرون من مستويات ثقافية متعددة ، والمرأة أكثر صبرا واحتمالا ورقة في التعامل .

وقد ذكر السيد سعيد المدي أن المكان الذي تشغله المكتبة كان مدرسة لليهود ، تم إحراقها سنة ١٩٤٨ بسبب احتلالهم لفلسطين .

بيت الأحرار

ونحن نبحث عن بيت السيد سعيد المدي القريب من مسجد العيدروس ، وجدنا لوحة مثبتة على زاوية أحد البيوت كتب عليها النص التالي : « بيت الأحرار » .

« هنا عاش نخبة من الأساتذة الشعراء والأدباء والكتاب من الأحرار الذين أسهموا في النضال الوطني ضد الحكم الإمامي الكهنوتي والاستعمار البريطاني في سبيل الثورة والتقدم والوحدة ، في الفترة ما بين أواسط الاربعينيات إلى مطلع الستينيات وقيام ثورة ٢٦ سبتمبر المجيدة ، منهم : أحمد حسين المروني ، وأحمد حسن الحورش ، والشيخ مطيع دماج ، وأحمد مصلح البراق ، وزيد علي الموشكي ، وعلي عبدالعزيز نصر ، ومحيي الدين قاسم العنسي ، ومحمد محمود الزبيري ، ومحمد علي الأسودي ، ومحمد عبدالله الفسيل ، ومحمد علي الأكوع » .

وقد كتبت في مقدمة اللوحة من شعر الشاعر الزبيري الأبيات التالية :

إن الأنين الذي كنا نردده سراً
غدا صيحة تُصغي لها الأمم

● كانت كنيسة زمن الاستعمار ، ثم أصبحت متحفا الآن - فوق -
بوابة السجن القديم .. أثر من آثار « الحضارة » الاستعمارية - أسفل يمين -
المكتبة الوطنية .. هدية من الشعب الكويتي الى الشعب اليمني .

● كريتر .. من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !!

إن القيـود التي كـانت عـلى قـدمي
أضحت سهـامـاً من السجـان تنتقم

وفي نهاية اللوحة تم تسجيل الآتي من شعر الشاعر محي الدين العنسي .

كم تـعـذبت في سبيـل بـلادي
ولـقيـت الحـمـام فـيـهـا مـراراً
وأنـا الـيـوم في سبيـل بـلادي
أبـذل الـروح راضـيـاً مختـاراً

وعلى واجهة بيت آخر ، قريبة من البيت السابق وجدنا لوحة كتب عليها :

« هنا عاش عبدالله عبدالرزاق باذيب الذي قاد حركة النضال والثقافة ، وأغنى الصحافة اليمنية الحديثة » .

صهاريج أم سدود ؟

يذكر أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » النص التالي : « تدعى عدن الثانية المعسكر ، لأن فيها الثكنات وقسماً من جيش الاحتلال ، وهي في حلقة من الجبال السحماء ، تكلل قنتها حصون قديمة مهجورة ، لأن الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية ، أما أشهر ما فيها من الآثار مما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي أسداد الماء (تاريخ هذه الأسداد مجهول ، فمن المؤرخين من يقول إنها بنيت في القرن الخامس للمسيح ، ومنهم من يعود بها إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، ومما لا يختلف في أمره أنها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي ، فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ ، وأنها تسع ثمانين مليون جالون من الماء » ، تلك الأسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين ، بناء متيناً محكماً محفوراً بعضها في الصخور بسد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلىء في السد الذي يليه ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة أسداد إلى الخزان الأخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الأسداد وهي من أجل الأعمال الهندسية في العالم لا تمتلىء لقلة الأمطار إلا مرة أو مرتين في كل بضع سنين » هذا وقد ذكر الأستاذ عبدالله أحمد محيرز مدير المركز اليمني للأبحاث الثقافية والمتاحف في كتابه « صهاريج عدن » الذي

صدر حديثا : « أما نظام الطويلة - سلسلة المصارف التي تذكر بعض المصادر أن عددها ١٨ مصرفا أو سدا - فهي نظام ديناميكي وتقنية بارعة ووجه حضاري فريد . وهو وسيلة لتلقف الماء عبر جدران حاجزة إما منقورة بصفا الجبل أو مبنية بالحجارة والجص في عرضه . تقوم بثلاث مهمات : تلقف الماء ، وحجز الحجارة والطمي الساقط مع الشلالات وتوجية الماء عبر سلسلة من هذه الجدران لتصريفه إلى حيث تكون الحاجة إليه : أي إلى صهاريج المدينة » .

والمصارف في الجبل - شمسان وما يليه من تلال واقعة في جنوب المدينة - كانت حسب ما ذكره الاستاذ محيرز تتوالى في حجز الماء وتوجيهه وصولا إلى خزان كبير كان يقع وسط المدينة قرب مجمع البنوك الآن .

وقد زرنا الصهاريج الواقعة فوق بستان الطويلة ، ووجدنا لوحة تم تثبيتها على إحدى الجدران بالقرب من صهريج أبي قبة ، كتب عليها بالانكليزية « إن السيد لامبيرت اكتشف الصهاريج سنة ١٨٥٤ ، وتم ترميمها بعد ذلك . وتستوعب حوالي ٢٠ مليون غالون امبريالي » ، وكاتب التقرير هو س. أ كاننغهام بريي دي ميرال في ٢٠ فبراير ١٨٩٩م . وصهريج أبي قبة هذا يشبه المسرح الروماني ، وفيه شق طولي هو الذي ينزل منه المطر - إذا ما نزل - كالشلال . وقد بني مسجد بالقرب من المكان ، وربما جاء اسم القبة للصهريج من أسم قبة المسجد . وهناك صهريج أبي سلسلة وآخر اسمه أبو عجلة ، وغيره . وقد صعدنا الجبل كي نرى إلى أين تنتهي هذه السلسلة من السدود أو الصهاريج ، فلم نستطع الوصول إلى أعلى من السد الخامس ، لأن البقية موزعة في جبال شمسان التي تهيمن على المكان بصخورها السوداء المدببة ودروبها المتعرجة ، وقد وجدنا في الجبل بعض المغارات والأعمدة التي نحتها الانسان ، واستخرج منها « البومس » الذي كان يستعمل بدلا من التراية (الأسمنت) في البناء ، وهو أفضل من التراية ، ويحفظ تماسك الحجارة مدة زمنية طويلة .

كما وجدنا في بستان الطويلة متحفا للآثار ، جمعت فيه أشياء تتعلق بالعادات والتقاليد اليمنية .

هذا ويشير الاستاذ محيرز في كتابه إلى أن سلسلة جبال المنصوري التي تشرف على المدينة من ناحية الشمال ، وهي المقابلة لجبال شمسان ، كانت تحتوي على سلسلة أخرى من الصهاريج والسدود ، وكانت تلتقي عند خزان البنوك أيضا ، إلا أنها اندرست وتهدمت كما يذكر .

متحف كبير

إن زائر بعض مناطق اليمن الديمقراطي سيكتشف بأن الكثير من الأماكن يحتوي على آثار قيمة تعود إلى مراحل مختلفة من حياة الشعب اليمني ، ولأن الاهتمام بهذه الآثار يدخل في اطار المنافسة مع الأولويات التي يجب توفيرها لأغلبية الناس كالغذاء والكساء والتطبيب والتعليم ، فإن البحث عن الآثار بشكل مكثف ، وترميم الباقي منها والبارز والمكتشف لم يحن وقته الملح على ما يبدو في أولويات الجهات المعنية باليمن الديمقراطي . لأن قلعة صيرة وجزيرتها وصهاريج الطويلة وآثارا أخرى غيرها بحاجة إلى ترميم ، وإلى شق طرق مناسبة لها ، إلا أن الأولويات الاخرى تحول دون ذلك الآن على ما يبدو .

أخبرنا الاستاذ عبدالله محيرز عندما زرناه في المتحف اليمني بأن هناك بعثة فرنسية ويمنية تنقب عن الآثار في شبوة عاصمة حضرموت القديمة ، وهناك بعثة سوفيتية يمنية تنقب في ريبون في وادي حضرموت .

سألناه : وعدن ، ألم تنقبوا عن الآثار فيها بعد ؟

فأجاب : لا شك أننا نفكر في التنقيب عن الآثار في عدن وفي غيرها من مدن ومناطق ، ولا أخفي عليك بأن اليمن ما هي إلا مستودع كبير للآثار ، لكن هناك أولويات ، وسيأتي دور عدن وغيرها بطبيعة الحال .

ثم حدثنا عن المتحف الذي أقيم في قصر سلطان لحج السابق الذي بني في الفترة ما بين عامي ١٩١٨ - ١٩٢٤ على الطراز الهندي اليمني .

وقال : إن المتحف قد افتتح في القصر سنة

١٩٨٤ ، وهو يضم إلى جانب المتحف المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف ، ودور المركز يتوجه للتنقيب ، ودراسة النقوش ، وصيانة المواقع الأثرية ، ودراسة الوثائق الشعبية والرسمية والتراث الشعبي ، ١٣ متحفا في محافظات الجمهورية .

وذكر:أن المركز يرسم خطة سنوية للجمع والدراسة والتنقيب ، فمثلا إننا نخصص برنامجا لجمع الزينة والحلي من شتى محافظات الجمهورية في سنة معينة، ثم يلي ذلك خطة للاهتمام بالملابس أو الأغاني ، أو حتى الوصفات الشعبية .

والجدير بالذكر أن مؤتمر اليونسكو الذي عقد عام ١٩٨٢ قد أصدر استغاثة دولية للمحافظة على آثار مدينتي شبام وصنعاء في اليمن .

وقد التقينا بالسيد محمد سالم محمد مشرف المتحف الوطني للآثار الذي طاف بنا بين أرجائه وذكر لنا أن المتحف يحتوي على ثلاث قاعات :

الأولى : تحتوي على نماذج من القطع الأثرية التي تعود إلى العصر السبئي القديم ، مثل التماثيل والزخارف المعمارية والكتابات السبئية القديمة ، أما القاعة الثانية فإنها تحتوي على نماذج من قطع أثرية لممالك يمنية قديمة ، مثل ممالك قتبان ، وأوسان وحضرموت ، وغيرها .

أما القاعة الثالثة : فتحتوي على قطع فنية وأثرية لعصور الدويلات الاسلامية : مثل المسكوكات الذهبية والفضية والأختام وغيرها ، وتعود هذه إلى الدول اليعفرية والصليحية والرسولية والطاهرية ، وصولا إلى الحكم العثماني والمصري ، ثم السيطرة البريطانية .

وقد اغتنم زميلي المصور متابعتي لما تحتويه القاعات فخرج لالتقاط بعض صور الأزياء والملابس اليمنية في أضواء الطلق التي ارتدتها ياسمين عبدالملك الموظفة في قسم المخطوطات في المتحف والمتخرجة في جامعة عدن قسم التاريخ .

يقع المتحف الوطني في القسم الشمالي من كريتر ، بالقرب من خليج حقات . وهناك معلم آخر يقع بالقرب منه هو منارة عدن .

وهذه المنارة أثر تاريخي قديم ، اختلف المؤرخون في العصر الذي تنتمي إليه ، وهي مخروطية الشكل . وتذكر المصادر أنها كانت منارة لمسجد بناه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إلا أن المسجد تهدم مع الزمن ، وبقيت منه منارته التي تم تجديدها عدة مرات في عدة عصور .

للرياضة نصيب

يقع بالقرب من المنارة ميدان الحبيشي وملعبه ، والحبيشي هذا هو محمد عبدالله الحبيشي أحد أبرز لاعبي كرة القدم في الستينات بعدن ، كان عضوا مقاتلا في الجبهة القومية ، واستشهد في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، وقد أقيم له نصب تذكاري مع زميله منصور أحمد هادي الذي استشهد في ١٥ يونيو سنة ١٩٦٥ ، والنصبان يقعان قرب بوابة عدن من ناحية الغرب ، أي بالقرب من جسر العقبة القديم ، ويمكن اعتبارهما المعلم الأول في مدينة كريتر من ناحية الغرب . ويوجد عدة أنصبة للعديد من شهداء الجبهة القومية الذين سقطوا بمواجهة الانكليز في مناطق عديدة من عدن ، مثل نصب الشهيد علي سالم يافعي الذي استشهد سنة ١٩٦٧ الذي يقع قرب معسكر ٢٠ بالقرب من بوابة السجن القديم ، ونصب الشهيد خالد هندي ، وغيرهما .

وقد أطلق اسم الشهيد الحبيشي على أكبر ملاعب عدن . وقد ذكر لنا السيد وجدان محمد عمر زبيد أمين السر العام المساعد ـ سكرتير لجنة المسابقات العليا للاتحاد اليمني لكرة القدم ـ بأن الاستاد قد أنشىء سنة ١٩٢٤ زمن الانكليز ، وتمت توسعته عام ١٩٧٢ ليستوعب الآن حوالي ٢٠ ألف متفرج ، وبالقرب من استاد الحبيشي هناك نادي التلال الذي أدمجت فيه عدة نواد ، بعضها كان قائما منذ سنة ١٩٢٢ ، وقد تم دمج النوادي سنة ١٩٧٥ . ومفهوم النادي في اليمن الديمقراطي يقوم على أساس أنه رياضي ثقافي .

وهناك معلم آخر بارز في شمال كريتر ، يتمثل في البناء المخروطي الذي يحتل تلة بارزة ، تشرف على

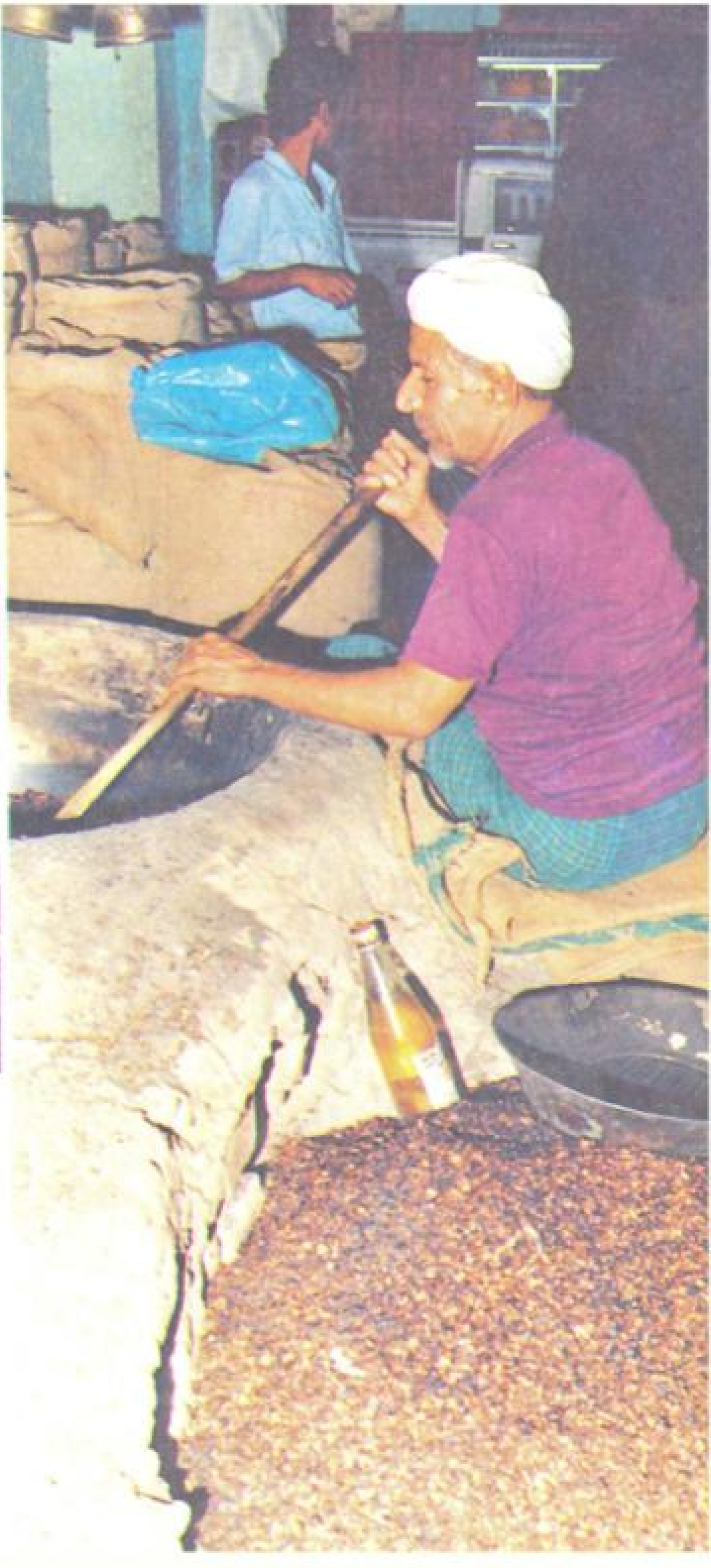

● زراعة وانتاج البن من أقدم المهن في اليمن . قديم يزول .. وحديث ينشأ .. هكذا هي الحياة . ـ أعلى ـ لحام الكهرباء .. إحدى مهن سوق كريتر ـ أسفل يسار ـ المرأة والذهب متلازمان دائما ..

ساحة البنوك . والمبنى كما ذكر لنا السيدان المحيرز والمدي كان كنيسة بناها الانكليز في العشر سنوات التي تلت احتلالهم لعدن أي في سنة ١٨٤٩ ، حسب ما ذكر الاستاذ المدي ، في حين أن الاستاذ المحيرز ذكر أنها بنيت سنة ١٨٦٠ ، إلا أنها يتفقان على أن هذه الكنيسة قد تحولت في بداية ستينيات هذا القرن إلى مركز للمجلس التشريعي الذي أقامته بريطانيا ليجمع ممثلي المشيخات والسلطنات والإمارات التي كانت قائمة في جنوب اليمن قبل الاستقلال ، ثم تحولت إلى ثكنة زمن الاستقلال ، وبعد ذلك تحولت إلى متحف للبوليس .

المساجد

ذكر لنا السيد المدي بأنه يوجد في كريتر ما يزيد على ٣٠ مسجداً ، وهي تحمل أسماء شخصيات دينية ، لعبت أدواراً مهمة في حياة المسلمين ، كمسجد أبان ، والعيدروس ، والزعفران ، والعسقلاني ، والعراقي ، والأدهل ، والاحسان ، والهدى . . . الخ . .

أما عن فن العمارة المتعلق بالمساجد فإن مجلة نداء الوطن الصادرة في عدن يناير ١٩٨٨ قد ذكرت : « أما عن فن العمارة الذي يميز المساجد في عدن فمازال الكثير منها محافظا على نمط العمارة الإسلامية ، حيث نلاحظ النقوش والزخرفة الإسلامية في واجهات بعضها ، وفي منابرها وفي المآذن ، ويحتفظ مسجد ابان حتى الآن بزخرفة جميلة على بوابته الخارجية ، كما تشترك المآذن بفكرة المئذنة المستديرة التي تقطعها حلقات تشكل شرفات وسطية تنتهي بقبة مزودة بنوافذ تطل على عدة جهات » .

ومسجد ابان الذي ورد ذكره بُني في القرن الأول الهجري ، كما تذكر الكثير من المصادر ، وهو يقع في وسط كريتر تقريبا ، بناه أبان بن الحكم بن عثمان ، وتم تجديده عدة مرات ، في عصور مختلفة .

أما مسجد الشيخ العيدروس فهو كما تذكر بعض المصادر قد بُني في القرن العاشر الهجري ، وتذكر مجلة نداء الوطن عن الشيخ والمسجد : « تميز قبل ما يزيد على القرنين من الزمان الشيخ العيدروس الذي كان يُدَرس الفقه واللغة وأصول الدين والتفسير . وقد بني له على نفس المسجد المقام حاليا - بعد توسعته - مكان للصلاة والخطبة ويرتفع المسجد جنوب كريتر . وقد استقدمت مواد بنائه من الهند ، ويمتاز هذا المسجد بفن العمارة فيه . والزخرفة الخارجية ، والأشكال الهندسية التي تميز قبته والمئذنة ، مما يجعله تحفة تاريخية ، وتقترن بهذا المسجد ممارسات دينية عديدة ، أهمها الزيارة السنوية المعروفة التي تقام أواخر العام » .

وقد ذكر لنا حفيده عيدروس عندما قمنا بواجبات الزيارة للمسجد أن الشيخ العيدروس هو أبو بكر عبدالله عيدروس من تريم في اليمن الشمالي ، ولد سنة ٨٥١هـ - ١٤٤٧م ، وتوفي سنة ٩١٤هـ - ١٥٠٨م في عدن ، وهو شاذلي في طريقته الصوفية . وقد ذكر لنا السيد عيدروس عدة خوارق أتى بها الشيخ العيدروس ، كما ذكر أن مياه البئر التابعة للمسجد مياه مباركة تشفي المرضى من أمراضهم !

وعندما سألت السيد المدي والسيد محيرز كل واحد منهما بمفرده حول كرامات الشيخ العيدروس وخوارقه ، فإنهما علقا على ذلك :

إن الشيخ العيدروس رجل دين حقيقي ، لكن الأتباع والمريدين هم الذين يهولون ويبالغون في الكرامات والخوارق التي نسبت إليه ، وأضافا : إن الرسول بشر ، ولم تنسب إليه معجزات وخوارق ، فكيف تنسب إلى غيره ؟ أما بالنسبة للمياه فإنها من نوع المبالغات التي لم تثبت صحتها بالعلم .

عادات الزواج

في حي الطويلة بكريتر ، وفي بناء يحاذي تلال الطويلة وصهاريجها استضافنا السيد ياسين محمد ابراهيم في بيته ، وهو متزوج من السيدة أسماء محمد عمر أغبري ، وله ثلاثة أولاد .

رأفت ١١ سنة ، ورامز ٨ سنوات ، ومحمد ٤ سنوات ، وقد تزوجا سنة ١٩٧٥ . والسيد ياسين من سكان المنطقة منذ أوائل السبعينيات ، وقد حدثنا السيد ياسين وزوجته عن تقاليد الزواج في السبعينيات ، فقالا :

ـ السيد يامين محمد ابراهيم وعائلته

عند عقد القران فإن العريس يقدم شبكة من الذهب لعروسه ، والاحتفال يكون بسيطا ، ويجتمع أهل العريس والعروس ، ويتم توزيع الحلويات وحبات المشموم والفل على المشاركين في الفرح ، وتقدم المرطبات . وعند الاتفاق على تحديد يوم الزواج يسبق ذلك يوم يسمى « يوم الغسل » للعروسة ، فهي تغسل بالحنة وترافقها الزغاريد والأغاني ، وتساعدها أختها أو فتاة من عائلتها ، ثم تلبس لباسا أخضر طويلا ، والمنشفة تكون خضراء أيضا ، واللباس يقال له درع ، وهو يغطي جميع جسم الفتاة ، ثم تتبخر العروس ، وتجلس بين صديقاتها ، ويغنين لها ، ثم ترقص بعد أن تضع على وجهها المنديل ، ويتم الغسل في الصباح . ويمكن لصديقات العروس أن يهدينها بعض الهدايا المالية والعينية أثناء ذلك ، ثم يقيم أهل العريس حفل غداء ، يعزمون فيه أهل العروس ، ويتكون الغداء في معظم الأحيان من أرز ولحم « زربيان » يوضع عليه زبيب ، وتتابع الأغاني مع دق الطبول .

وفي نفس ليلة العرس فإن صديقات العروس ينقلن ملابسها إلى بيت العريس مصحوبات بالطبول والأغاني ، فيستقبلهن أخوات وأهل العريس .

وفي الساعة الثالثة عصرا من يوم العرس تذهب العروس إلى مصففة الشعر لترتيب شعرها وإجراء حمام خاص ، ثم يأتي العريس عند الساعة الثامنة مع أصدقائه فينقلون العروس بعد أن تضع « الطرحة » البيضاء على رأسها إلى مكان الاحتفال ، ثم ينزلها العريس على دق الطبول والزغاريد والأغاني ، ويرافقها إلى مكان مرتفع معد اعدادا مناسبا ، ويجلس بجانبها بعد أن يكون قد لبس أفضل ملابسه ، ثم يتناول المرطبات معها ، ويمكن أن يتبادلا الحديث ، ويلبس كل واحد منهما الآخر طوقا من الفل ، ويستمر الحفل حتى الساعة العاشرة والنصف تقريبا . وحضور هذا الحفل يقتصر على النساء فقط ، أما أصدقاء العريس فيكونون بانتظاره خارج المكان .

وقبل أن يتوجه العريس وعروسه إلى بيتهما الخاص فإنهما يتباركان بجولة حول مسجد العيدروس .

ومن الأغاني المتداولة أثناء نقل العروس هذه الأغنية :

قمري شل (أخذ) بنتنا   قمري شلها وراح
قمري عاشق الملاح

في صباح اليوم الذي يلي الزفاف يذهب العريس بمفرده إلى أهل العروس ، فيستقبل بالزغاريد والأغاني ، وتقدم له مأكولات شعبية .

بعد ذلك يدعو أهل العروس إلى حفل غداء ، فيلتقي الرجال في مكان مخصص لهم مفصول عن النساء، الرجال مع الرجال ، والنساء مع النساء .

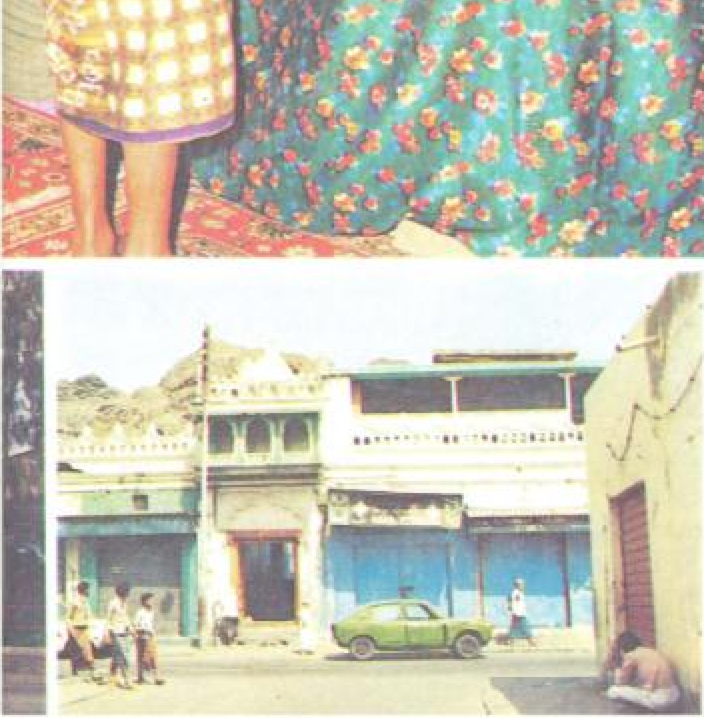

● ضريح الشيخ العيدروس مع أبنائه في احدى الغرف الملحقة بالمسجد الذي حمل اسم الشيخ أيضا ـ أعلى ـ
مسجد ابان .. من أقدم المساجد في اليمن والجزيرة العربية ـ أسفل يمين ـ
لم يبق من مسجد قديم الا هذه المنارة .. تم تجديدها عدة مرات .

● كريتر .. من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !!

وفي عصر ذلك اليوم يدعو العريس أصدقاءه إلى (المقيل) « فيخزنون » القات وهم يغنون ويهزجون ، في حين أن النساء يتابعن مراسم الفرح في مكان آخر ، وتستمر هذه المراسم حتى السابعة والنصف مساء .

وعندما يرزق الزوج والزوجة بمولودهما البكر فإنهما يعزمان أصدقاءهما على وجبة غداء ، وتكون الماعز أو الخرفان ضحاياها ، لأن ولادة البكر تحتم أن يتم الذبح فيها ، ربما اقتداء ، والذبح يحصل إن كان البكر ولدا أو بنتا ، وتترك تسمية الأولاد للزوج والزوجة .

بالنسبة للمهور فإن الأمر يترك تحديده لأهل العريس والعروس حسب اقتدار الزوج .

سألت السيد ياسين وزوجته هل تغيرت عادات الزواج منذ زواجكما ؟ أجابا : مازالت الأساسيات هي نفسها ، لكن من المؤكد أن بعض التفاصيل تغيرت .

خزان العرب

أثناء تجوالنا في المنطقة المحاذية لجزيرة صيرة التقينا بشاب عرّفنا عليه مرافقنا قائلا : إنه الشاعر لطف السماوي .

فبادرته متسائلا : هل هناك علاقة بين سماوة العراق وسماوة اليمن ؟

أجاب مبتسما : هناك علاقة أكيدة بين المنطقتين اسماً وسكاناً .

لقد ذكر هذا الأمر بعض المؤرخين وموثقي الأنساب ، والثابت أن بعض قبائل سماوة حمير في اليمن قد هاجرت إلى العراق ، واستوطنت المنطقة التي عرفت باسم السماوة ، ولقد أعطوا المنطقة الجديدة اسم المنطقة التي كانوا يسكنونها من قبل في اليمن .

ويذكر بعض أجدادنا أن جدودهم كانت لهم مراسلات وعلاقات مع جماعتهم في سماوة العراق .

ثم علق الشاعر : لا تنس أن اليمن كانت الخزان البشري للعرب . وربما مازالت كذلك حتى الآن ! □

الجديد في علاج الأرق

يبذل الانسان جهدا خلال النهار ، ويخلد للراحة والنوم خلال الليل ، ويتراوح معدل ما يحتاجه المرء من ساعات نوم ما بين سبع الى ثمان ساعات في اليوم . كما تشير أبحاث المختصين بالسلوك وأبحاث المختصين بعمل كهربائية المخ أثناء النوم الى أن قليلاً من الناس يستطيعون النوم بسرعة عند رقودهم في الفراش . . فما أسباب ذلك ؟

بقلم : الدكتورة أمل علي المخزومي

إن الجهاز العصبي المركزي مسؤول عن نشاطات المخ المختلفة ، كما أنه مسؤول عن جهاز الانتباه واليقظة . إن السبب المباشر للنوم هو وجود مادة السيروتونين في الجسم إذ تقوم الخلايا العصبية الخاصة في المخ بافراز تلك المادة فتؤثر على التكوين الشبكي الموجود في الجهاز العصبي المركزي .

يحدث عدم توازن في نسبة السيروتونين التي تفرز من تلك الخلايا أحيانا . فاذا زادت كمية تلك المادة الكيماوية فانها تؤدي الى الشعور بالاسترخاء ، ويشعر الفرد بالحاجة الى النوم . يحدث ذلك كثيرا في المناطق الحارة وخاصة في الصيف عند الظهيرة ، أو عند الارهاق والتعب الفكري والجسمي ، أو بعد أخذ حمام حار . أما إن قلت كمية السيروتونين في

الجسم فان الشخص لا يستطيع النوم ولا يشعر بالحاجة اليه ، مما يؤدي الى الاصابة بالأرق .

صعوبات النوم

هناك أشخاص لا يستطيعون تقدير حاجتهم من النوم وبالتالي تصدر عنهم شكاوى عن قلة النوم . اذا استيقظ المرء بعد مضي خمس أو ست ساعات من النوم ولم يستطع مواصلة النوم مرة اخرى ، فإن تلك الساعات تكون كافية لجسمه ، وهناك صعوبات يعاني منها بعض الأفراد مما يؤدي الى الأرق ، وتختلف تلك الصعوبات باختلاف الافراد وظروفهم النفسية والاجتماعية . فان كان الفرد متوترا أثناء النهار ، أو كان مصابا بمرض الكآبة أو القلق النفسي يكون احتمال اصابته بالأرق كبيرا جدا كما تشعر الحامل في الأسابيع الأخيرة من الحمل بضيق التنفس وذلك من جراء ضغط الجنين على الحجاب الحاجز مما يؤدي الى ايقاظها من النوم ، ولا تستطيع معاودته مرة أخرى .

كما يحدث الأرق لبعض الطاعنين في السن لأنهم لا يحتاجون الى ساعات طويلة من النوم . كذلك يتعذر النوم لبعض الأفراد الذين لا تكون لديهم حاجة للنوم خلافا للأشخاص الذين يمارسون الأعمال الشاقة أو الرياضة البدنية المختلفة ، فانهم سرعان ما يداعبهم النوم حال رقادهم في الفراش ، كما يصيب الأرق الأفراد الذين يعانون من مشاكل اجتماعية أو اقتصادية ، أو مشاكل تتعلق بالعمل الذي يمارسونه

● ارق . . . المراهقة

كما يحدث الأرق للمراهقين .

هناك أسباب أخرى تؤدي الى الأرق أو قلة ساعات النوم وهي شرب الشاي والقهوة لاحتوائهما على المادة المنبهة للجهاز العصبي .

الطرق العلاجية للأرق

توجد فروق في الاصابة بالأرق من حيث شدته كذلك في الاستجابة لطرق علاجه . كما تتباين طرق العلاج ووسائله . لقد دأب المعالجون على اعطاء الارشادات الطبية العديدة قبل المباشرة في إعطاء المريض الحبوب المنومة . فإذا ما استجاب المريض لتلك الارشادات وطبقها كما هي ، وشفي من الحالة التي يعاني منها فانه لا يحتاج الى تلك الحبوب . أما اذا لم تنفع تلك المحاولات ، يلجأ الطبيب المعالج الى اعطاء المريض الحبوب المنومة التي لا تخلو من تأثيرات جانبية . والطرق المتبعة في علاج الأرق كما يأتي :

١ ـ اعطاء المريض كوب حليب دافىء ، وذلك لاحتواء الحليب على الحامض الأميني الذي يطلق عليه بـ « تريبتوفان ـ ش » ويساعد ذلك الحامض على تكوين المادة الكيماوية المسماة بالسيروتونين مما يبعث على الاسترخاء ويعجل بالنوم .

٢ ـ التقليل من كمية وجبة العشاء ويكون تناولها قبل النوم بثلاث ساعات على الأقل لأن إتخام المعدة قبل النوم يؤدي الى عدم راحة الفرد ، وبالتالي تعذر النوم . وإذا نام تنتابه الكوابيس والأحلام المزعجة .

٣ ـ المشي في الهواء الطلق أو أخذ نفس عميق خمس عشرة مرة ، قبل الذهاب الى النوم ، مع ممارسة التمارين الرياضية البسيطة ، التي تجعل الجسم في حاجة الى الراحة ومن ثم النوم .

٤ ـ أخذ حمام دافىء قبل الذهاب الى النوم لمدة خمس عشرة دقيقة مما يؤدي الى تبدد الكهربائية الموجودة في الجسم من جراء العمل اليومي ، ويعمل على ارتخاء خلايا الجسم وراحتها ، ومن ثم الاسترخاء والنوم .

٥ ـ التأكد من اعتدال درجة حرارة غرفة النوم لان الحرارة والبرودة الزائدتين تؤديان الى تعذر النوم .

٦ ـ تجنب أخذ أعمال تتعلق بالعمل اليومي الى الفراش ، وان رغب المرء في القراءة عليه قراءة المواضيع التي تبعث على التسلية والاسترخاء .

اذا لم تنفع الإرشادات المذكورة آنفا على المرء ان يترك الفراش ويذهب الى مكان آخر لممارسة نشاط معين لقضاء الوقت ، وعليه تجنب الالحاح في طلب النوم لأن الالحاح يؤدي الى النتائج العكسية .

الأحلام كعلاج

هناك طريقة جديدة لعلاج الأرق ، وهي استدعاء حلم معين من احلام اليقظة التي كثيرا ما يمارسها المرء وخاصة في مرحلة الطفولة والمراهقة . وأحلام اليقظة معروفة من تسميتها وهي الأحلام التي تراود الفرد في حالة اليقظة . وتنقسم تلك الاحلام الى قسمين هما ما يلي : ـ

١ ـ الاحلام غير الارادية : ـ هي الاحلام التي تسيطر على الفرد ولا يستطيع التخلص منها . وكثيرا ما تؤدي بالفرد الى العزلة والانطواء وذلك لانشغاله بتلك الاحلام وتفاعله معها مما يُبعده عن التعامل والانسجام مع المجتمع . وتعتبر هذه الحالة مرضية ، يجب علاجها والتخلص منها ، وذلك بالطرق والوسائل النفسية العديدة ومنها التحليل النفسي .

٢ ـ الاحلام الارادية : ـ وهي الاحلام التي يستدعيها الفرد متى وابنما شاء ، أي أن الفرد هو المسيطر على تلك الاحلام . تضفي تلك الاحلام على الفرد الاسترخاء والراحة والتمتع بها . كما أنها مفيدة لعلاج الأرق . وعلى المصاب بالأرق أن يستدعي حلما معينا يستمتع به ويؤدي به الى الاسترخاء ثم النوم . والطريقة التي يمكن اتباعها في هذا الموقف هو ان يذهب الفرد الى النوم وفي رأسه شريط سينمائي لهذا الحلم . يضع الفرد رأسه على الوسادة ويبدأ بالاسترخاء التام ثم يستعرض الحلم الذي أعده لنفسه ، ففي الليلة الأولى ينتهي الحلم وقد يستغرق بعدها في النوم أو يبقى مؤرقا لفترة ، ثم ينام ، أما في الليلة الثانية فانه يستغرق في النوم بعد الانتهاء من ذلك الحلم ، وبتكرار العملية يغفو في منتصف استعراضه لذلك الحلم ، وهكذا تقضي على الأرق الذي عانى منه الفرد ما عانى بطريقة سهلة ومريحة . □

مي زيادة تصف نفسها

● عاشت الكاتبة العربية مي زيادة في بداية حياتها حياة شرقية حلوة عامرة بالحب والشوق ، تحفها عوامل كلها تفتح الطريق للمجد والحب والسعادة ، فهي وحيدة والديها ، جميلة رائعة ، ذكية القلب والفؤاد ، كاتبة ذات قلم ، واسعة الثقافة . تصف نفسها في مطلع شبابها قائلة : استحضري فتاة سمراء كالبن أو التمر الهندي كما يقول الظرفاء ، أو كالمسك كما يقول متيم العامرية ، أو كالليل كما يقول الشعراء ، وضعي عليها طابعاً سديمياً عن وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي ، وعطش روحي لا يرتوي ، يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور ، واستعداد أكبر للشجن والألم ، وهذا هو الغالب دوماً ، وأطلقي على المجموع اسم « مي » .

وجهاً لوجه

إنجي أفلاطون و نجاح عمر

- أنا ثائرة .. وألواني متمردة !
- نشر إنتاجي في المجلات وأنا في العاشرة من عمري
- على يدي التلمساني عرفت الفن وأنه تعبير عن المجتمع
- رأيت المرأة تجمع المحاصيل وتجني القطن والثمار

في الاربعينيات كانت صغرى « فناني مصر المستقلين » وكان عمرها سبعة عشر عاما عندما وصفت بأنها «ساحرة ركبت فرشاتها . تستثمر الامكانيات الفنية المحدودة المتاحة لها بذكاء نادر » .

في الخمسينيات قال لها الفنانون العالميون الكثير :

الفنان المكسيكي « جوزيه الفاروسيكيروس » قال : « انها فنانة اتخذت الطريق الى فن اجتماعي وواقعي يبدأ من العزيمة القومية ويتحرك بتصميم في المجالات التشكيلية مع الكائنات ومع الحياة الكاملة للناس في وطنها » .

وقالت عنها الدكتورة عائشة عبدالرحمن ـ بنت الشاطىء ـ « لا أتردد في الاعتراف بأن قلمي الذي حاول طويلا أن ينقل الى المدينة صورا من حياة قومي الكادحين في القرى قد عجز حقا عما استطاعت انجي أن تبدعه . »

لقد أقامت انجي أفلاطون ٢٨ معرضا في مصر ، وروما ، وبرلين الشرقية ، وبراغ ، وصوفيا ، وموسكو ، والهند .

وربما كان دخولها ميدان الفن غير مقصود لكنها لم تترك فرشاتها للصدفة فقط ، فكل خط ، وكل لون ، بل وكل فراغ له وظيفة محددة ، يؤدي بكل دقة ماتريد انجي أن تقول : « أنا ثائرة » .

لذلك كانت رحلتها مراحل فنية ، كل مرحلة منها جزء من المرحلة التي تعيشها مصر .

انجي والتمرد

من البداية وانجي متمردة فعلام كان التمرد ؟!

وهي طفلة لم يكن يشبعها ذلك الاسلوب المتبع في تدريس مادة الرسم . شيء ما جعلها ترفض ، شيء غير معلوم أو محدد جعلها تتعمد ان تنقل مايفرض عليها من رسم على السبورة نقلا رديئا . وكانت تشعر بالسعادة وهي ترى الغيظ على وجه المدرسة .

ثم ما تلبث هذه السعادة أن تتحول الى صراع بين قيود المدرسة والرغبة في الانطلاق الفني (وأخيرا حسم ذلك لصالح الفن . .) تقول أنجي :

منذ صغري وأنا أهوى الرسم . وكان لشقيقتي هواية اخرى هي كتابة قصص الاطفال . هي تكتبها ، وأنا أرسمها ، ثم ينشر ذلك في احدى المجلات الفرنسية التي كان يعمل بها زوج خالتي ، كان انتاجي ينشر في المجلات وأنا في العاشرة من عمري ، بينما كنت في المدرسة شيئا اخر . فقد كنت أرفض أن أتحول الى « كارت بوستال »

كان التحرر النسبي الذي عاشته انجي الطفلة بين أفراد اسرتها وراء انطلاق انجي الفنانة . وعلى الرغم من تقاليد العائلات الكبيرة التي كانت سائدة ومسيطرة في تلك الفترة إلا أنه لم يكن صعبا على الأسرة أن تتفهم معنى ما تعانيه الطفلة من صراع ، ومعنى أن ينطلق الفنان الكامن داخلها ، وراح الأب يبحث عن وسيلة يتم من خلالها التصالح بين قدرة الطفلة وواقعها . . فكان « التلمساني » هو المعلم ، وهو الطريق .

تقول أنجي : « لاحظت أسرتي موهبتي الفنية ، فاستقر رأيها على أن آخذ درسا خاصا في الرسم ، وقد سمحت علاقاتنا بأهل الفن والفكر أن تتصل بالاستاذ كامل التلمساني المفكر الأديب الفنان وحينذاك كان التلمساني عضوا مؤسسا في جماعة« الفن والحرية » ، وهي اول جمعية فنية في مصر تدعو الى تحرير الفن من قيود الأكاديمية والشكلية التي كانت (موضة) ذلك العصر .

المهم . . وافق التلمسانى على اعطائى درسا خاصا فانفتح لى باب الفن على يديه وفهمت ما هو الفن ، وعرفت انه تعبير عن المجتمع ، علمنى كيف ارى الناس وكيف انسى كل القيود . وعلى يديه قرأت تاريخ الفن في العالم .

في الدرس الاول قال لى : « ارسمى صورة » وتركنى بلا قيود وخلال اسبوع واحد رسمت ما بداخلى « صورة تعبر عن رفضى وتمردى على المجتمع » وكان ذلك بداية الموقف الذى استمر حتى الآن .

● قلت لانجى : صفى هذه الصورة !

قالت : كانت عبارة عن فتاة ذات شعر طويل تخرج من خلال النار وحولها ثعابين .

وفي عام ١٩٤١ وفي الوقت الذي كنت تلميذة بمدرسة الليسيه متأثرة بما قرأت عن الثورة الفرنسية رسمت صورة أخرى ، فتاة تجرى فوق صخرة ويجرى خلفها طائر متوحش . . كنت اعبر عما بداخلي من رغبة في التحرر . بينما أطلق الفنانون والنقاد على لوحاتي وصف « سيريالية » .

● قلت : هل كنت تدركين ذلك ؟

أجابت : لا . كنت أعبر عما بداخلي فقط ، وأستطيع أن أقول إني كنت في مرحلة البحث عن طريق،والتعبير عن التمرد على المجتمع دون معرفة الأسباب ، ودون وجود خط واضح يحدد ماذا بعد التمرد !!

جماعة الفن والحرية

ولم يمض عام على الدرس الأول حتى كانت التلميذة ضمن جماعة « الفن والحرية » الطليعية . وقد شاركت في معرض جماعي فكانت مفاجأة المعرض . مفاجأة مهدت لمرحلة جديدة من حياة انجي افلاطون ، وفي ذلك تقول :

« بدأت أقرأ ، وأحضر المحاضرات والندوات التي كانت تقام في نادي الأبحاث العلمية ، وهو ملتقى المثقفين الثوريين حينذاك واكتشفت لماذا أنا متمردة . . .

كنت جزءا من مجتمع متمرد على القهر والاستعمار ، لذلك كانت المرحلة الثانية من رحلتي هي مرحلة العمل الوطني ، وقد شكلت وزميلاتي أول مجموعة نسائية جديدة في مصر « رابطة فتاة الجامعة والمعاهد » .

وبعد الحرب العالمية الثانية سافرت مع زميلتين إلى باريس لحضور أول مؤتمر نسائي بعد الحرب ، وكنا نواة الاتحاد النسائي .

وشاركت خلال الاربعينيات في الحركة الوطنية من خلال لجنة الطلبة والعمال ، وكنت ضمن اثنتي عشرة فتاة في اللجنة التنفيذية العليا .

كنت من اللاتي تقدمن بمطالب المرأة « الأجر المتساوي للعمل المتساوي »، « وحق الانتخاب للمرأة المتعلمة » وباختصار تركت الرسم ، ورحت مع زميلاتي والدكتورة لطيفة الزيات وسعاد بدير وهدى شعراوي ، ولقد غرقت وهؤلاء حتى قمة رأسي في الحركة الوطنية . . »

● ولم تكن العائلة غائبة تماما عن هذا التطور ، بل كانت تحاول تقويمه من وجهة نظرها .

وقد حاولت أن تبعدها عن مصر ، وعن السياسة ، وحجتها في ذلك السفر إلى باريس لاستكمال دراسة الرسم ، لكن رفضت انجي الفكرة لا كرها في الفن، لكن التزاما بمسؤلياتها الوطنية . ومن أجل ذلك قررت أن تعمل حتى لاينحني الخط الذي رسمته لحياتها أمام الضغط الاقتصادي .

وعندما أرادت العودة إلى الرسم اختارت مصر لتكون أداة التعبير عنها . تقول :

قررت أن أشتغل كي أحصل على حريتي ، وعملت بأجر ستة جنيهات في الشهر ، وفي ذلك اليوم شعرت أني مستقلة ، وعملت في أحد المعامل ، ثم في مدرسة . وفي عام ١٩٤٨ تزوجت من محمد محمود أبي العلا ، وكان يومئذ وكيلا للنيابة ، فشجعني على العودة للأصل ، أي للرسم ، ومرة ثانية لجأت للفن كي أعبر عن مصر . واتخذت الريف رمزاً لها .

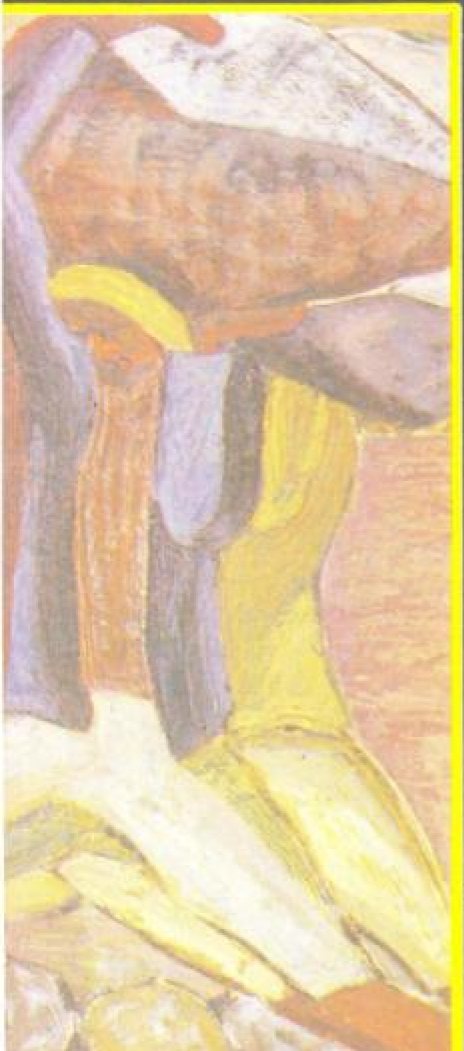

جمع القطن (١٩٨٧)

من الريف (١٩٧٩)

◀ صيادو الأنفوشي (١٩٥٤)

▲ حاملو الاحجار (١٩٥٨)

دخلت في صميم الحياة المصرية ، وتجولت في القرى والأحياء الشعبية ، وكان أول معرض خاص بي في مارس عام ١٩٥٢ ، أي بعد حريق القاهرة ، وقبل قيام الثورة ، وفي تلك الفترة كان الغضب الشعبي جارفا ، والمقاومة ضد الاحتلال في قمتها . وقد ساعدني ذلك على العودة السريعة ، وأخذت أرسم صورا للمقاومة الشعبية والمقاومة النسائية التي كانت في بور سعيد . وفي عام ١٩٥٩ صدر قرار باعتقالي ، فكنت أول مصرية يصدر بشأنها مثل هذا القرار ، وكان ذلك بداية لمرحلة جديدة في حياتي الفنية .

أعوام السجن

أربعة أعوام ونصف قضتها انجي افلاطون في السجن ، أربعة أعوام ونصف كانت خلالها متفرغة تماما للفن ، بعد أن انتزعت بيدها « حق الرسم » ، فحصلت على الجائزة الأولى ومقدارها (٥٠٠) جنيه ، غير ذلك لم يكن بالأمر السهل . قالت انجي :

« عندما يصدم الفنان فليس أمامه إلا طريق من اثنين ، إما أن يقوى أو يتحطم لذلك حاولت أن أتجنب أخطاء الفنانين .

لجأت إلى رسم الواقع فكان ذلك معركة ، فاللوحة الأولى قد صادرتها إدارة السجن ، فلجأت إلى تهريب لوحاتي ، فمنعوا الألوان والأوراق ، حتى كان يوم زار السجن فيه المدير العام ، وكانت له ميول فنية ، وما أن رآني حتى أبدى دهشته موجها سؤاله إلى مأمور السجن : كيف تكون عندك انجي افلاطون ولا تستغل وجودها استغلالا فنيا ؟ ثم أصدر أمره بالسماح لي بالرسم في البداية ، وقد سمحوا لي بالرسم شرط ألا أرسم السجن . وبعد فترة أخذت أرسم كل شيء ، وأعبر عما أراه بصدق ، وكنت أبيع لوحاتي لصالح السجن ، ثم مالبثت أن مللت البؤس ومشاكل المجتمع ، وكنت في شوق جارف للطبيعة ، فرحت أرسم غروب الشمس من خلف القضبان ، كنت أرى الشراع من بعيد وهو يتحرك في النيل ، فتحول في تصوري ـ أنا سجينة سجن النساء بالقناطر الخيرية ـ إلى رمز للحرية ، ومنذ ذلك الحين بدأت الطبيعة تلعب دورا رئيسيا في حياتي ، فقد اكتشفت كم هي عظيمة » .

* سألت انجي : ماذا فعل بك السجن ؟!

قالت : بالنسبة لي تعتبر فترة السجن مرحلة النضوج الفني والانساني ، ولا أنكر حدوث بعض التغييرات .

قبل السجن كان الانسان بالنسبة لي قبل الطبيعة ، أما بعد السجن فقد أصبحت الطبيعة أولا ، وفي الواحات تأكدلي ذلك ، بعد أن اكتشفت أن الطبيعة عملاق والإنسان نملة تكافح قوة الطبيعة .

بعد السجن دخلت في مرحلة البحث عن الضوء ، تعبيرا عن اهتمامي بالنور ، وذلك لخصوصية الضوء عندنا في الوطن العربي وقد بدأ ذلك يترك مساحات بيضاء لابراز شيئين ، هما الضوء والحركة .

وذلك باستعمال الفراغات بين المساحات المرسومة ، وهذا اتجاه جديد في الرسم ، أشاروا إليه في ايطاليا .

* هل يمكن أن نقول بمزاج عربي خاص في الفن ؟!

ـ الفنان المعاصر يستوحي تراثه ، فالفنان المصري المعاصر مثلا وريث الفنون العظيمة في التاريخ ، كالفن الفرعوني ، والقبطي والاسلامي ، وهو يختزن داخله المدارس الفنية الحديثة أيضا .

إنه يمزج بين كل هذا ويصب في النهاية شيئا جديدا مختلفا ، وهو يجرنا إلى قضية الأصالة والمعاصرة ، وأفضل تعبير عن هذه القضية ما كتبه ناقد فني في « ليموند » عام ١٩٧١ تعليقا على معرض فن مصري معاصر أقيم في باريس . قال :

إن الفنان المصري يحمل على أكتافه فنونا عظيمة ، قد يكون ذلك قيدا كما قد يكون ميزة ، فقط لو استطاع أن يخلق فنا جديدا معاصرا .

والحديث عن القيود ذو شجون ، خاصة إذا كان

حوارا مع فنانة متمردة كإنجي افلاطون ، ومنذ أن اكتشفت الأسباب وهي تعلن ذلك على كل مايحيط بها .

قالت للرجل أنت ظالم ، واستطاعت أن تعلن موقفها هذا بالخط ، والفكرة ، واللون ، والمساحة الفراغية .

وفي معرضها الذي أقيم في ألمانيا الشرقية عام ١٩٧٠ قالوا « إنه معرض خاص بالمرأة » بينما قالت انجي : بل إنه تعبير عن الواقع ، والمرأة جزء من هذا الواقع ، وقد تمكنت بصفتي امرأة من أن أدخل بيوت الفلاحين ، وأجلس مع الفلاحات ، وأرى على الطبيعة كيف تعيش المرأة في الريف ، كامرأة عاملة . نعم المرأة في الريف تعمل في كل مكان ، ففي الحقل رأيت المحاصيل الأساسية تجمعها امرأة ، والقطن تجنيه امرأة ، والبرتقال تجمعه امرأة ، وكذلك القمح ، والموز . كل هذه المحاصيل تجمعها أو تضمها أو تجنيها امرأة .

وفي البيت تطبخ ، وتعجن ، وتربي الأولاد . هي إذن امرأة عاملة تتحدى الفقر وترعى الأسرة .

أما نساء الحضر - والكلام مازال لانجي - فقد عبرت عنهن كصورة واقعية .

* كيف ؟

- عندما أرسلت « تحية إلى عروس الجنوب » كنت أعكس واقع المرأة العربية المناضلة التي جسدتها « سناء محيدلي » ، فالمرأة عندي تعبير عن واقع إنساني أينما كان ، بصرف النظر عن اللون والمكان .

* كيف تختارين النموذج ؟ هل هو الحدث ، أم الانسان ، أم المكان ؟

الاختيار أصعب المراحل الفنية ، فبين العديد من الاشياء يبقى شيء واحد هو الذي يحدث الصدمة ، أو ما يسميه الناس « الوحي » ، وهذه الصعوبة هي الاختيار . وقد يحدث هذا أولا يحدث ، فذلك يتوقف على حساسية المستقبل (بكسر الباء) ، أي الفنان.قمت بسفريات كثيرة ، رأيت فيها الطبيعة ، والنخل والجبال ، والألوان الطبيعية ، وفي كل مرة أراهابنظرة جديدة ، وكأنني أراها لأول مرة .

وقد يشدني حدث ما ، وقد أتضامن مع قضية إنسانية أو سياسية ، ومن هذا وذاك يكون النموذج الذي أرسمه أو الفكرة التي أدعو لها !!

الفن والالتزام

* عودة إلى القيود : هكذا حاولت أن أعود بالفنانة المتمردة ، فكان لابد لي أن أعرف أين هي من القضايا التي تبدو مقيدة للفنان ، قضايا الالتزام ، والموقف من السلطة ! فقالت انجي :

أنا لا أتقيد بأي قيد ، حتى الألوان لاتقيدني ، فالسماء قد تكون حمراء أو صفراء فاللون الأزرق لايهم .

* إذن أين أنت من التزام الفنان ؟

أنا فنانة ملتزمة بقضايا مجتمعي ، والقضايا الانسانية بشكل عام ، ووظيفتي التعبير عن هذا المجتمع ، وأي فنان له حس إنساني لابد أن يتوقع القادم ويعبر عنه تعبيرا واضحا .

* أيها يؤثر ويتأثر بالآخر ، الفنان أم المجتمع ، وخاصة إذا كان فنانا تشكيليا ؟ .

«الفن التشكيلي مظلوم عندنا ، لأن جمهوره محدود ، واللوحة أيضا تأثيرها في المجتمع بطيء ، أبطأ من الفنون الأخرى ، كالسينما أو القصة أو الرواية . في بلاد كالمكسيك سجلوا كفاح الشعب في لوحات فنية ، وعلقوها على المصالح الحكومية ، فأين نحن من هذا الوعي ، علما بأن الفن التشكيلي في مصر من أكثر الفنون المعاصرة تقدما ؟

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يعانيه الفنان التشكيلي ابتداء من ارتفاع أسعار المواد والمعارض حتى جهل الجمهور وعدم اهتمامه بما يعرض في المعارض الفنية ، إذا عرفنا ذلك كله أدركنا إلى أي مدى يعاني الفنانون العرب ، وإلى أي مدى يمكن أن تعوق هذه المعاناة الانطلاق الفني » .

أخيرا انتهت المواجهة ، فقد كان على انجي أن تواصل رحلتها الفنية ، حيث حطت رحالها الأخيرة في معرضها الأخير بالكويت . □

الصداع النصفي أو الشقيقة

بقلم : الدكتور أنيس فهمي

على الرغم من أن مرض الصداع النصفي كان ومازال موضوعا للدراسة منذ أكثر من ألفي عام ، إلا أن معلوماتنا عنه مازالت ناقصة ، ومازال علاجه الشافي غير معروف تماما .

وقد عرَّف فريق البحث في الصداع التابع للاتحاد العالمي للأمراض العصبية مرض الشقيقة بأنه اضطراب يحدث في بعض العائلات ، ويتميز بنوبات متكررة من الصداع الذي يتغير كثيرا في شدته وتكرار حدوثه ومدة بقائه .

تصيب النوبات غالبًا نصف الرأس ، وغالبا ما تكون مصحوبة بفقد الشهية للطعام والغثيان والقيء ، وفي بعض الحالات قد تسبقها أو تصحبها بعض الاضطرابات السلوكية والعصبية ، لكن ليس من الضروري أن توجد كل هذه الخصائص في كل نوبة من نوبات الصداع النصفي .

ولذلك فإن بعض الباحثين يعرفون الشقيقة بأنها صداع متكرر ، مع وجود عرضين من الأعراض الخمسة التالية :

(١) صداع في نصف الرأس . (٢) غثيان وقيء . (٣) اضطرابات بصرية أو عصبية . (٤) حدوث نوبات من الصداع النصفي بين بعض أفراد

الأسرة . (٥) الإصابة بالربو أو الأكزيما أو حمى القش أو دوار السفر ، أو القيء الدوري.وفي الغالب تبدأ الإصابة بالصداع النصفي في مرحلة الطفولة أو المراهقة ، ويظل الشخص معرضا لحدوث نوبات الصداع حتى يتخطى مرحلة أوسط العمر ، والإناث يتعرضن للإصابة بهذا المرض أكثر من الذكور .

ومن العوامل التي تساعد على حدوث النوبة عوامل نفسية مثل التوتر والقلق والاكتئاب والانفعالات ، وعوامل هرمونية ، كما يحدث أثناء الحيض عند السيدات أو عند تناول حبوب منع الحمل ، أو عوامل غذائية عند تناول الجبن واللبن والفواكه الحمضية والشكولاته ، أو عوامل طبيعية مثل تغيرات الجو والضوضاء والأضواء الباهرة والإرهاق الشديد ، أو عوامل مختلفة مثل اضطرابات النوم ، وعدم انتظام مواعيد الطعام وتعاطي الخمر .

وصف نوبة نموذجية

في اليوم السابق لحدوث نوبة الشقيقة قد يشعر المريض بنوع من توعك المزاج الذي ينذر المريض بتوقع حدوث النوبة ، وعندما تتكون النوبة من الصداع فقط يستيقظ المريض في الصباح وهو يشعر بصداع في ناحية واحدة من الرأس والوجه ، ويشتد الصداع في حدته ، ويزداد مع الحركة والضوء القوي والضوضاء ، وتقل حدته عند استلقاء المريض على ظهره ، ويتميز الصداع بأنه نابض مرهق ، وعندما يصل الى حدته القصوى قد يصيب الجزء الآخر من الرأس والوجه ، وفي أغلب الحالات يشعر المريض بالغثيان بعد إصابته بالصداع . وإذا استطاع الشخص الخلود الى الراحة التامة فقد يزول الصداع بعد ساعة أو ساعتين ، وإلا فإنه يستمر غالبا طول اليوم .

وفي الحالات النموذجية تظهر أعراض أخرى ، وتتتابع على الوجه التالي : يشعر المريض فجأة ببقعة باهرة من الضوء الساطع في جانب واحد من مجال النظر ، ثم تتضخم هذه البقعة وتنفتح على شكل متعرج منحني ، وهذا الشكل يرتعش أمام عينه ، وأحيانا يكون مصحوبا بضيق في مجال النظر ، وبالإضافة الى هذه الظاهرة يشعر المريض بتنميل في يد واحدة ، يصعد الى الذراع ، وأحيانا يصيب التنميل الشفتين واللسان ، وفي بعض الحالات يحدث اضطراب مؤقت في الكلام . وتستمر هذه المجموعة من الأعراض مدة تتراوح بين عشر دقائق وعشرين دقيقة ثم تتوقف . ويشعر المريض في الحال بالصداع النصفي من النوع الذي سبق وصفه ، ويشعر بالغثيان ، وفي كثير من الأحيان يحدث القيء . وقد يكون القيء إنذارا بانتهاء النوبة التي قد يتبعها إفراز كمية غزيرة من البول .

وتتكرر هذه النوبة في فترات مختلفة ، فقد تحدث مرة كل بضعة شهور ، وقد تحدث مرة أو مرتين في الأسبوع في الحالات الشديدة .

لماذا تحدث نوبة الشقيقة ؟

منذ أن أعلن توماس ويليس Thomas willis في عام ١٦٦٤ أن سبب الشقيقة هو تمدد الشرايين في الدماغ أصبح من المعتقد أن أعراض نوبة الشقيقة تنتج من اضطراب في الأوعية الدموية في الدماغ ، وأن الانذار بالنوبة سببه انقباض الأوعية الدموية ، والصداع سببه اتساع الأوعية الدموية ، لكن هذه النظرية لا تفسر سبب الاضطراب الذي يحدث في الأوعية ، كما أنها لا تفسر سبب حدوث الصداع في نصف الرأس ، ولا سبب رد الفعل الذي يحدث في المخ نتيجة لعمليات فسيولوجية طبيعية مثل الحيض .

وخلال السنوات العشرين الأخيرة ظهرت أبحاث كثيرة أغلبها متناقض تعلن عن حدوث تغيرات في عوامل كيميائية متعددة أثناء النوبة . فمثلا هناك تغيرات في الأملاح غير العضوية ، والأحماض الدهنية ، وبعض العناصر التي تؤثر على الأوعية الدموية مثل النورادرينالين والسيروتونين والبراديكينين . لكن التفاعل بين هذه العناصر ودور البروستاجلاندين غير مؤكد . ولذلك فإن التوصل

نوبات الصداع لا تفرق بين كبير وصغير

الى معرفة السر الحقيقي لحدوث نوبة الشقيقة مازال يمثل تحديا كبيرا لعلماء فسيولوجيا الأعصاب والعقاقير العصبية .

العلاج

الشقيقة لها مجال واسع ، فبعض المرضى يصابون بنوبات خفيفة ، ويستطيعون مزاولة أعمالهم ، في حين أن الآخرين يكونون عاجزين تماما عن ممارسة أي شيء ، ولذلك فإن العلاج يجب أن يتناسب مع كل مريض حسب حالته ، كما أن أي عامل من العوامل المهيئة لحدوث النوبة يجب التعرف عليه من المريض نفسه ، وتجنبه كلما أمكن ذلك . أما من ناحية العلاج فيمكن تقسيمه الى جزأين : الجزء الأول خاص بمعالجة النوبة عند حدوثها ، والجزء الثاني خاص بالوقاية .

علاج النوبة

معظم المرضى الذين يصابون بنوبات خفيفة يستفيدون من تناول الأسبرين أو الباراسيتامول مع عقار مضاد للقيء إذا كان الغثيان بسبب مضايقة شديدة للمريض ، وفي النوبات الشديدة يلجأ الطبيب الى عقار إرجوتامين **ERGOTAMINE** الذي يتميز بفاعلية مزدوجة ، فهو يقبض الأوعية الدموية المتسعة ، ويوسع الأوعية الدموية المتقبضة .

ولما كان الغثيان والقيء من الأعراض الشائعة في نوبات الشقيقة فإن على الطبيب أن يعطي أقل جرعة ممكنة ، ليحصل على أفضل نتيجة ، كما أن العقار يجب أن يتناوله المريض بمجرد إحساسه بحدوث النوبة .

أما المرضى الذين لا يتحملون الإرجوتامين عن طريق الفم فيمكن إعطاؤهم هذا العقار عن طريق الحقن تحت الجلد أو في العضل . وكثير من المرضى يفضلون تعاطي لبوس كافرجوت **CAFERGOT** عن طريق الشرج . ويجب على الطبيب أن يخبر المريض بأن الكمية القصوى التي يمكن تعاطيها خلال الأسبوع لا تزيد عن ٢١ مليجراما من إرجوتامين ، وإلا تعرض لخطر الإدمان على هذا العقار الذي قد يؤدي بدوره الى حدوث الصداع الذي يدفع المريض الى تناول المزيد من الإرجوتامين الذي يؤدي الى مزيد

من الصداع وبذلك يدخل المريض في حلقة مفرغة قد يصعب التخلص منها .

ويجب ألا يعطى عقار الإرجوتامين في حالات الحمل أو للمرضى المصابين بتصلب الشرايين التاجية أو بأمراض الأوعية الدموية في الأطراف ، أو في حالات أمراض الكليتين والكبد .

أما في حالات نوبات الشقيقة المستمرة دون انقطاع فإن المريض يصاب بالانهاك والجفاف نتيجة للقيء المستمر ، وفي هذه الحالة يجب إدخاله الى المستشفى وعلاجه بالمهدئات القوية والمحاليل لمقاومة الجفاف . وفي بعض الأحيان النادرة قد يلجأ الطبيب الى استخدام مركبات الكورتيزون .

إذا كان من الممكن توقع حدوث نوبة الشقيقة مثل الشقيقة التي تصاحب الحيض أو التي تتبع الإرهاق أو القلق فإن تعاطي أقراص البيليرجال بمعدل قرص واحد مرتين أو ثلاث يوميا في خلال (٤٨) ساعة السابقة لحدوث النوبة يمكن أن يجهض النوبة ، في حين أن بعض المرضى الآخرين قد يستفيدون أكثر من تعاطي لبوس كافرجوت CAFERGOT عن طريق الشرج ثلاث مرات يوميا .

وعند تكرار النوبات بشكل يعوق المريض عن العمل أو ممارسة نشاطاته الاجتماعية فيمكن استعمال أقراص ستيمتيل STEMETIL ثلاث مرات يوميا مصحوبة بأحد مضادات الهستامين مثل الفنرجان PHENERGAN بمقدار ٢٥ مليجراما في المساء . وهذا العلاج يقلل من حدوث النوبات في الغالبية العظمى من المراهقين .

أما لكبار السن فيمكن استعمال دايهيدرو إرجوتامين DIHYDRO ERGOTAMINE بمقدار مليجرام واحد مرتين في اليوم . وبعض الأطباء يؤيدون استخدام عقار ساندوميجران SANDO-MIGRAN بمقدار ٠,٥ مليجرام ثلاث مرات يوميا ، ويمكن ان تزداد الجرعة عند اللزوم الى مليجرامين ثلاث مرات يوميا .

كما أن استخدام عقار اندرال INDERAL بمعدل ٨٠ مليجراما مرتين يوميا قد يفيد في الحالات التي لا تستجيب للأدوية التي سبق ذكرها .

ويستحسن استعمال العلاج الوقائي مدة ثلاثة شهور ، وبعد ذلك تخفض جرعاته بالتدريج حتى يتم وقف استعماله .

والملاحظ أن الأشخاص الذين يعانون الشقيقة يصابون بالقلق بسبب هذه النوبات ، مما يؤدي الى حدوث النوبات ، وهكذا تتولد حلقة مفرغة ، فالنوبة تسبب القلق ، والقلق يؤدي الى مزيد من النوبات ، وهكذا دواليك ، ولذلك يجب علاج القلق أو الاكتئاب المصاحب لنوبات الشقيقة يبعث الاطمئنان والتفاؤل لدى المريض مع استخدام العقاقير المناسبة إذا لزم الأمر .

وفي الختام نقول إن العلاج الناجع للشقيقة يعتمد على التشخيص الصحيح ، وعلاج المرض والمريض معا ، وبذل الوقت في الحديث مع المريض وبعث اطمئنانه ورفع روحه المعنوية وبذلك تتوثق العلاقة بين المريض والطبيب ، وتتأكد ثقة المريض بالطبيب ، مما يساعد كثيراً على التقدم نحو الشفاء أو على الأقل على تباعد حدوث النوبات والإقلال من شدتها . □

الجمال الخالد :

سئلت سيدة عجوز يفيض وجهها بشرا : أي مواد التجميل تستعملين ؟ فقالت : استخدم لشفتي الصدق ، ولصوتي الصلاة ، ولعيني الرحمة والشفقة ، وليدي الاحسان ، ولقوامي الاستقامة ، ولقلبي الحب .

الاستشعار عن بعد ..

تطبيقات حديثة لمفهوم قديم

بقلم : الدكتور مأمون ملكاني*

الاستشعار عن بعد ، أو الكشف عن بعد ، أو الاكتشاف عن بعد ، كلها عبارات تطلق على العلم والتقنية التي تقوم بجمع وتفسير المعطيات والمعلومات المأخوذة عن بعد ، سواء من مسافة قصيرة جدا قد لاتتعدى السنتمترات ، أو من مسافات جد شاسعة تبلغ آلاف الكيلو مترات ـ فما الجديد في هذا المجال ؟ ان هذا المجال يقوم على علم وفن الحصول على معلومات حول جسم ما أو منطقة أو ظاهرة معينة ، من خلال تحليل المعطيات التي نحصل عليها من جهاز معين ليس في احتكاك مباشر مع هذا الجسم أو هذه المنطقة أو الظاهرة التي نبحث فيها وندرسها .

إنها تقنية تشكل حاجة ملحة في وطننا العربي غايتها تطوير برامج التخطيط ، وغرضها توفير وتطبيق الكمية الضخمة من المعلومات المقاسة بالأطياف المتعددة والمتوفرة بوسائل وأجهزة الاستشعار عن بعد ، لتنفيذ المهام ذات العلاقة كما هو الحال في وضع الخرائط المختلفة ، وفي مجال استعمال الأراضي ، وزحف الصحراء ، وتنقلات البدو ، ومراقبة نوعية المياه ، والكشف والتنقيب عن المياه الجوفية ، ومراقبة نوعية الهواء ، واكتشاف المعادن والدراسات المائية والبحرية . . .

فالهدف الأول للاستشعار عن بعد هو تمكين الهيئات المسئولة عن التخطيط في دولة ما في ادارة واستخدام مواردها الطبيعية بشكل فعال ، فهي وسيلة اسرع وأدق وأقل تكلفة من الأساليب التقليدية المعتمدة حاليا ، فالاستشعار عن بعد يمكننا من جمع وتحليل وتصنيف المعلومات ، وتقديم الخدمات لمستخدمي المعلومات بما في ذلك اعداد ملفات للصور الخاصة بالوطن العربي (كصور الاقمار الصناعية المختلفة والصور الجوية) وتقديم المساعدات الممكنة ، للاستخدام الأمثل للموارد الاقتصادية في وطننا العربي ، ولما فيه صالح هذا الوطن .

يعتبر الوطن العربي من أقدم البلاد المأهولة في العالم . وهو يحتاج الى دعم في توسعه الاقتصادي الحالي كما الحال في البلاد النامية الاخرى ، حيث أن موارده الطبيعية الكثيرة في تعقيداتها بحاجة الى مراقبة وتطوير من خلال تطبيق وسيلة حديثة هي الاستشعار

* مهندس بوزارة الري ـ في القطر العربي السوري .

عن بعد التي من خلالها ستتحقق أهداف متعددة : كمعرفة وتحديد مساحة وحالة الاراضي الزراعية بما في ذلك الغابات المتوافرة ، والمراعي والموارد المائية ، ومايطرأ عليها من تدهور في النظم البيئية ، ومعرفة المناطق ذات الموارد المعدنية والبترولية والاقتصادية الاخرى .

ماهية الاستشعار عن بعد :

يتمتع الانسان بخمس حواس تمكنه من معرفة العالم من حوله ، وهذه الأجزاء من جسم الانسان التي تسمح له بمعرفة الأحاسيس هي أحد أجهزة الاستشعار عن بعد الطبيعية .

تتطلب بعض هذه الحواس اتصالا فيزيائيا مباشرا بالجسم المحسوس ، فمن أجل معرفة نعومة قماش مخملي مثلا يجب تلمسه مباشرة ، أما حاسة الرؤية فهي تمكن الانسان من ادراك الشكل واللون والقياس عن بعد دون لمس ، وبهذا فالانسان عندما ينظر الى جسم ما فانه يستشعره عن بعد ، حيث يكون مقدار المسافة غير مهم طالما انه لايوجد اتصال فيزيائي مباشر بين الجسم المدروس وبين العين .

وبصورة عامة نجد أن عبارة الاستشعار عن بعد تشير الى أجهزة ميكانيكية او الكترونية وليس الى اعضاء الحواس الانسانية ، فيمكن أن تكون آلة التصوير العادية أكثر الأشكال المألوفة لأجهزة الاستشعار عن بعد ، إذ أنه مثل العين تماما تستخدم الضوء المنعكس من الجسم والمار خلال عدسات مختلفة الى سطح حساس للضوء لتشكيل الصورة وكما تستعمل آلة التصوير لتسجيل الأحداث التي نرغب بتذكرها فانه يمكننا استخدام آلة التصوير هذه للحصول على معلومات مناسبة لموضوع معين نهتم بدراسته ، هذه المعطيات سواء كانت حقائق أو أرقاما والتي تنجت عن استعمال آلة التصوير تجعلها من مصادر المعلومات الهامة جدا ، وبالرغم من أن بعض أجهزة الاستشعار عن بعد قادرة على اعطاء معطيات قيادية مستمرة بنفس وقت تشغيلها فإن اكثر اجهزة الاستشعار عن بعد تقوم بخزن المعطيات بشكل أو بآخر ، وكذلك فإن كمية المعطيات القابلة للاستخدام في الصورة الثابتة .. هي أكبر منها في اللقطات المتغيرة باستمرار والمرئية على جهاز عرض ما .

فأجهزة الاستشعار عن بعد اذاً هي الأجهزة الميكانيكية والالكترونية التي تجمع المعطيات بشكل قابل للتخزين عادة عن أجسام أو مشاهد معينة عن مسافة ما منها ، وبعض هذه الاجهزة كآلات التصوير تستعمل طاقة الضوء المرئي ، بينما يستعمل بعضها الاخر انماطا أخرى من الطاقة . فهناك اجهزة استشعار عن بعد اقل شيوعا من آلات التصوير كأجهزة الرادار وأجهزة التصوير بالاشعة السينية ، فباستعمال الأشعة السينية مثلا يمكن ان تكون المسافة أكبر بقليل من سماكة طبقة من الجلد أو النسيج بدقتها ، أما الاختلاف الاكثر أهمية فهو طبيعة الأشعة المستعملة في كل نظام فبالنسبة للرادار وللاشعة السينية يكون اختلاف موجة الأشعاعات المستخدمة هو السبب الذى يعطي لكل من النظامين ميزاته لمهمات علمية معينة .

بدأ العلماء باستعمال الرادار منذ عام ١٩٤٠ تقريبا بينما اكتشفت الاشعة السينية في أوائل هذا القرن أما مبادىء التصوير الضوئي فهي فعلا اقدم من الاثنين معا ، وبالتالي لايمكن أن نقول عن مفهوم الاستشعار عن بعد أنه حديث ، فالمفهوم ليس حديثا ، ولكن الشيء الحديث هو عبارة الاستشعار عن بعد ، فهناك أمران يبرران استعمال هذه العبارة الحديثة ، الأول منهما : هو ابتكار اجهزة حديثة لجمع معلومات من مسافة ما : والثاني : ان تلك الاجهزة المعروفة لدينا سابقا قد أصبحت أكثر تعقيدا وبالتالي أكثر فائدة .

اذاً فعبارة الاستشعار عن بعد تستعمل لتعني مجموعة المعطيات التي تحصل عليها من مسافة معينة ناتجة عن تفاعل طاقة الاشعاع الكهرطيسي مع المادة ، أو المظهر الذى تدرسه والمقاس باحدى وسائل وأجهزة الاستشعار عن بعد . إن هذا التعريف وان كان شموليا يعتبر على درجة كبيرة من التعقيد احيانا ، فما تتضمنه دراسة المواد والثروات

الأرضية التي ليست على بعد كبير من الأجهزة يجعل استعمال (عن بعد) موضعا للتساؤل أحيانا،كما يعتقد البعض أن الوسائط الاخرى المخالفة للطاقة الكهرطيسية الاشعاعية (كالصوت مثلا) يجب أن تكون مشمولة بهذا التعريف ، وتبقى الحقيقة على أي حال في أن العبارة المذكورة أعلاه قد شهدت استعمالات واسعة في دراسة الاستشعار عن بعد التي تبحث في المدى المطلق للمسافات ، وان بعض أشكال الطاقة الكهرطيسية الاشعاعية قد استعملت لجمع المعطيات واستنتاج المعلومات في كثير من الحالات المشابهة .

بعض تطبيقات الاستشعار :

يعتبر الاستشعار عن بعد احد فروع العلوم التطبيقية الحديثة ، وقد دخل هذا العلم الوطن العربي منذ مدة .

وقد استعملت الطاقة الاشعاعية لجمع المعلومات في اكثر الحالات التطبيقية لهذا العلم،وبغض النظر عن الوقت القصير نسبيا الذي اصبح فيه الاستشعار عن بعد تقنية ابحاث فان محاولات استخدام هذه التقنية متعددة :

أ ـ في مجال الأرصاد الجوية :

إن استخدام الاستشعار عن بعد من قبل هيئات الأرصاد الجوية أصبح مألوفا ليعطي هذا الاستخدام مثالا نموذجيا عن الحالة العملية والتطبيقية الواسعة الاستعمال ، فقد أصبحت مراقبات حركة وتطور الرياح من خلال معطيات الأقمار الصناعية اجراء روتينيا عاديا منذ عدة سنوات ، وقد اثبتت المعلومات الناتجة هذه قيمتها بشكل خاص في تنبؤات الأعاصير القوية .

لقد اطلق أول قمر صناعي مخصص للطقس عام ١٩٦٠ ويعطي هذا النوع من الاقمار مشاهدة مستمرة لنماذج السحب منذ ذلك الحين ، ونماذج السحب هي على اية حال جانب واحد من جوانب معلومات الطقس التي يمكن الحصول عليها بواسطة الأقمار الصناعية الخاصة بالأرصاد الجوية .

ب ـ وفي مجال الزراعة :

يجد المهندسون الزراعيون تطبيقات عديدة للاستشعار عن بعد فالكشف المبكر لاصابات المزروعات ولغارات الحشرات على المناطق الزراعية من خلال استعمال انظمة متعددة للاستشعار سيخفض من الخسائر الناتجة عن ذلك بواسطة اتاحة الفرصة للفعل العلاجي كي يطبق بشكل أسرع وبفعالية اكبر .

والقاعدة المتبعة عادة لمنع اصابة النباتات أو لخفض تخريب المحاصيل التي تنتقيها الحشرات المؤذية هي رش المحاصيل دوريا عدة مرات خلال الموسم ، وبواسطة الاستشعار عن بعد يمكن أن يتم تجنب الرش غير الضروري في المناطق ذات الزراعات الكثيفة وذلك بتعيين الحقول غير المصابة بواسطة تقنيات الاستشعار عن بعد القادرة على كشف وتمييز المناطق المصابة عن السليمة .

ان اطلاق التوابع الصنعية الخاصة بدراسة مصادر الثروات الأرضية يبشر ببدء عهد جديد في كشف اصابات المحاصيل الزراعية وخاصة انها تقدم فرصا متكررة للمراقبة الدورية من اجل تحديد مؤشرات اصابات النباتات ، ورغم ان بعض التفصيلات قد لاتكون ممكنة في لقطات وصور الاقمار الصناعية هذه بسبب المقياس الصغير ، فان التصوير الجوى من الطائرات على ارتفاعات مختلفة يمكن أن يستخدم ليعين بدقة البقاع المتعذرة حالما يؤشر من الفضاء عن وجود هذه الاصابة ، كذلك فان التنبؤ المسبق عن الغلال والمحاصيل من خلال مراقبة نشاط النبات هو هدف مأمول آخر من أهداف هذه الأقمار الصناعية والاقمار الاخرى الأكثر تطورا التي ستطلق قريبا .

ج ـ في مجال المياه :

لقد اظهرت اجهزة قياس الاشعاع الميكروى تجريبيا قدرتها على تحديد محتوى المياه في تجمعات الثلوج وتراكماتها ويمكن أن تعطي مؤشرات كهذه من المنطقة الاجمالية الممسوحة،فبسبب كون الغطاء الثلجي ذا عمق غير منتظم فان اجهزة الاستشعار عن بعد يمكن أن تعطي تنبؤات بتزويد مياه افضل من

خلال التقديرات المبنية على العينات الموضعية التي يأخذها الماسحون في نقاط متعددة من السطح ، وهناك تطبيقات اخرى كثيرة في مجال المياه كتحديد صفات مجرى النهر وعمق المياه وقياس مقدار تدفق النهر ، ودراسة البحيرات والجليديات ، ودراسة المطول المطرى ورطوبة التربة وغير ذلك .

د ـ حرائق الغابات :

كذلك نجد ان لأجهزة المسح الطيفي الحرارى الواقع في مجال الاشعة تحت الحمراء الحرارية القدرة على تعيين الحرائق الصغيرة ونقاط الاشتعال في الغابات ، وهي تستخدم بشكل فعلي تطبيقي لمكافحة حرائق الغابات حيث ان قابلية اختراق الدخان والضباب بواسطة هذه الاشعة تمكنها من التواصل لتعيين النقاط الساخنة ، وبالتالي التوصل لتصوير محيط النار الفعلي .

هـ ـ في مجال حفظ الطاقة :

كذلك يمكن استخدام تقنيات الاستشعار عن بعد لدراسة كمية فقدان الطاقة وسلامة العزل الحرارى للأبنية الموجودة في كثير من مدن العالم حيث يمكن متابعة الاختلافات الحرارية والفروق الموجودة في درجات الحرارة الخاصة بأسطح المنازل وجدرانها وابوابها ونوافذها . والعزل الحرارى الموجود في الأبنية المجاورة لأبنية المنازل كالاسواق العامة ودور العمل وغير ذلك .

أما افضل الاوقات التي يمكن فيها متابعة العزل الحرارى وحفظ الطاقة فهي من خلال ليالي الشتاء الباردة وبعد مرور ست الى ثماني ساعات من غروب الشمس ، وذلك للاقلال من التأثيرات الحرارية للشمس على الأبنية والمناطق المراد دراستها ، كذلك يمكن القيام بمسح حرارى للمناطق التي نهتم بدراستها خلال ايام الشتاء الغائمة والباردة ايضا ، الا أن أسقف الأبنية التي نمسحها حراريا بواسطة اجهزة الأشعة الحرارية تحت الحمراء يجب ان لاتكون مغطاة بالثلوج وأن لاتكون رطبة ايضا ، كذلك الحال يمكن متابعة العزل الحرارى لجدران وابواب ونوافذ الأبنية وأساساتها بنفس الطريقة .

و ـ جرد المصادر الطبيعية :

يتوقع للاجراءات العامة لجرد المصادر الطبيعية أن تعدل بشكل كبير من خلال استعمال التقنيات الأحدث للاستشعار عن بعد ، فما كان يعتبر مشكلة في التصوير الجوى لرسم الخرائط كغطاء السحب في حالة الطقس السيىء قد تم اخضاعه لأنظمة وأجهزة استشعارية حديثة لاتتأثر بالسحب بتاتا ، ففي البرازيل مثلا كانت نتيجة عمل ست سنوات متواصلة من جمع الصور الجوية لرسم الخرائط لمنطقة شاسعة في البرازيل هي أنها انتجت تغطية مقبولة لنصف المساحة المرغوبة والمطلوبة فقط ، بينما انتجت التحليقات الحديثة التي استخدمت الرادار ذا الرؤية الجانبية تغطية كامل المنطقة المطلوبة وبشكل بالغ السرعة .

مجالات أخرى :

إن علم البيئة والسيطرة على التلوث يمكن أن يستفيد أيضا من تطبيقات الاستشعار عن بعد ، فاستعمال أجهزة قياس الأشعة الحرارية تحت الحمراء وأجهزة قياس الأشعة الميكروية الدقيقة للحصول على المقطع الحراري لمناطق المدن يعطي اساسا جيدا لاجراءات التخطيط المتالي التي يمكن ان تتنبأ بالتأثير الذى يمكن أن ينتج عن انشاء طريق حديث على مناحى مناطق المدن المجاورة مثلا ، كما وجد تجريبيا أن بعض اللقطات الخاصة بالصور الفضائية تصور تباين نوعيات المناطق المجاورة ، وان التغطية المتالية والمتكررة لمناطق المدن بواسطة الصور الفضائية تعطي مؤشرات عامة عن تأثير توسع المدن .

ح ـ في مجال التنقيب عن الاثار :

يعتبر التنقيب عن المناطق الأثرية احد تطبيقات الاستشعار عن بعد الهامة ، حيث يمكن استعمال الصور الجوية للكشف عن المواقع الأثرية عن طريق رؤية المظاهر السطحية وما تحت السطحية المهمة كمواقع للتنقيب بالنسبة لعلماء الآثار وذلك من خلال تفسير الصور الجوية هذه .

اما المظاهر السطحية الأثرية الهامة فتشمل الآثار المرئية والتلال والكتل الصخرية والآثار السطحية

الاخرى ، مثال ذلك الآثار التي كانت تشكل بنيات صخرية مثل منطقة ستون هينغ في انكلترا ، والقلاع الأثرية في أوروبا عموما ، ومساكن السكان الاصليين الواقعة جنوبي غرب الولايات المتحدة الامريكية وغير ذلك . أما مثال التلال الأثرية المكتشفة بواسطة تقنيات الاستشعار عن بعد فهي التلال التي تشبه الطيور في شكلها والتلال التي تشبه الافاعي الواقعة وسط غربي الولايات المتحدة الامريكية كذلك اكتشفت كثير من الآثار السطحية بواسطة تقنيات الاستشعار عن بعد في الاتحاد السوفيتي ايضا وبنجاح .

أما المظاهر الأثرية تحت السطحية فتشمل الآثار المطمورة كالأبنية القديمة والقنوات والخنادق القديمة والطرق الأثرية القديمة ايضا ، وعندما تكون هذه المظاهر مغطاة بالحقول الزراعية أو النباتات الطبيعية فانه يمكن أن تظهر بوضوح من خلال الصور الجوية عن طريق متابعة الشواذات اللونية الناتجة عن الاختلافات في رطوبة التربة ومدى نمو النباتات وقوتها، وفي بعض الاحيان نجد ان مثل هذه المظاهر تظهر بوضوح من خلال الاختلافات الموجودة بشكل مؤقت والسريعة الزوال ، وذلك بمتابعة الاشكال والانماط الهندسية التي تأخذها مظاهر الصقيع الحاصل بالمنطقة المدروسة .

إن تسرب النفط يشكل مشكلة متزايدة الصعوبات للحل ، وعادة ماتكون اجراءات جمع المعلومات التقليدية فاشلة في تحديد مدى اتساع تسرب البقع الزيتية أو تتبع آثارها الا أن أنواعا عدة من تقنيات الاستشعار عن بعد قد برهنت قدرتها على اداء هذه المهام فاللون المضيء الفاتح للتسربات النفطية قابل للكشف بواسطة أجهزة الاستشعار عن بعد التي تستفيد من قياس الأشعة فوق البنفسجية في المنطقة المدروسة،وتستطيع اجهزة المسح التي تقيس الأشعة الحرارية تحت الحمراء ، وأجهزة قياس الاشعاع الميكروى الدقيق الكشف عن تسرب النفط والبقع الزيتية أيضا .

كذلك يعتبر التلوث البحرى بالنفط حادثا ليس من الحوادث العفوية وانما المتعمدة التي يقوم خفر السواحل بمراقبتها ، لذا فإن بامكان خفر السواحل توظيف اجهزة قياس الاشعاع الموجودة على متن الطائرات او على متن الاقمار الصناعية لمراقبة مراعاة تطبيق قوانين التلوث المحلية ، فبعض اجهزة الاستشعار عن بعد فعالة ليلا بشكل خاص ، وكذلك في الأوقات الغائمة وأوقات الضباب ، وهي الأوقات المفضلة والمستغلة من قبل اصحاب السفن لتصريف نفاياتهم الى البحر .

الأستشعار والتلوث :

يتمتع علم الاستشعار عن بعد بقدرة فائقة على القيام بتحديد مصادر التلوث حيث يساعدنا في مراقبة الامتداد الموضعي المكاني لهذا التلوث ، وبخاصة عند حدوث تلوث طارىء معين بالاضافة الى القيام بدراسة تراكيز هذا التلوث ، وسرعة تدفقه وجريانه ، ومقدار تشتته ايضا . فالصورة الفضائية تتمتع بفوائد ومحاسن الرؤية الشاملة المتكاملة التي تساعد في دراسة مشكلة التلوث عندما تكون مغطية لمنطقة كبيرة المساحة ، ولفحصها بدقة بعد ذلك ، فالرؤية الشاملة المتكاملة مفيدة وجيدة عندما تستخدم تقنية الحصول على الصور الفضائية المرئية لدراسة الأبعاد الموضعية المكانية لتراكيز المواد الملوثة المختلفة لمنطقة معينة-لذا تعتبر هذه الميزة هامة جداً في كثير من الأمثلة ، ومثال ذلك القيام بتحليل التلوث الحرارى الناتج عن مخلفات محطات الطاقة التي تقوم بطرح فضلاتها ومخلفاتها ذات درجة الحرارة المرتفعة في مياه الانهار حيث نجد أن الصور المأخوذة في مجال اطوال موجات الأشعة الحرارية تحت الحمراء المحرزة بواسطة جهاز مسح طيفي معين موجود على متن طائرة معينة تقوم بتزويدنا بجواب على السؤال المطروح وهو : هل تصل مواد التلوث الى الضفة المقابلة للنهر أم لا ؟ وهل تشكل مواد التلوث هذه عائقا مانعا لمرور الأسماك في مثل هذه الأنهار أو في المصادر المائية الاخرى ؟ اضافة الى ذلك يمكننا رسم خريطة لتوزع درجة حرارة سطح ماء النهر الملوث

من خلال هذه التقنيات الجيدة المفيدة .

لذا يمكننا بواسطة تقنيات الاستشعار عن بعد أن نقوم بدراسة تلوث المياه والجو وسطح الأرض من خلال صور التوابع الصنعية ، وذلك باستخدام الصور الفضائية التي نحصل عليها بعد معالجتها بالحاسب الالكتروني حيث نجد أن الرؤية الشاملة المتكاملة هي حقا ذات فائدة عظمى تجني منها الكثير عند قيامنا بدراسات متابعة التلوث الحاصل في منطقة معينة من العالم .

فهناك برامج علمية دقيقة لدراسة التلوث كميا ونوعيا نفذت سابقا وتنفذ حاليا من قبل دول عديدة مختلفة في العالم باستخدام معطيات الصور الفضائية ، وتحليلها وتفسيرها ، وقد أثبتت نجاحا كبيراً في هذا المضمار اضافة الى ذلك يمكننا استخدام نتائج المراقبة التي نحصل عليها من تفسير الصور الفضائية والصور الجوية باستخدام مجموعة صغيرة من الباحثين والعلماء للقيام بذلك .

فتحليل الصور الفضائية قد أظهر امكانية جيدة لمراقبة ورسم خرائط تلوث المياه والهواء والتربة بناء على خبرات دول كثيرة طبقت هذه التقنيات بنجاح كبير ومازالت تطبقها حتى الآن في كثير من مشاكل التلوث ، ومثال ذلك دراسة اتساع حوادث تلوث معينة ذات امتداد مساحي واسع كمراقبة البقع النفطية والزيتية المختلفة التى تعتبر هامة لكثير من بلدان العالم بالاضافة الى دراسة تلوث مصادر المياه المختلفة وتلوث التربة المفيدة ، لذا نجد أن تقنيات الاستشعار عن بعد مفيدة حقا في القيام بقياس كميات مواد تلوث معينة عندما يكون تحديد هذا التلوث ممكنا ، ويزداد استخدام هذه التقنيات عموما عاما بعد عام في انحاء كثيرة من بلاد المعمورة في هذا المجال .

تطبيقات خاصة :

ان تطبيق الاستشعار عن بعد باستخدام الأجهزة التي تقيس الأشعة الحرارية تحت الحمراء قد أعطى بعض المفاجات في الطب البشري ، فنماذج درجة حرارة الجلد قد اظهرت بشكل غير متوقع نقاطا باردة او دافئة يعتقد انها مترافقة مع اسباب متعددة مثل الاورام تحت الجلدية او عدم الانتظام في جهاز الدم الدوراني للانسان ، وتوجيه هذا النوع من الاستشعار عن بعد يمكن أن يساعدنا في حالات التشخيص المرضي بشكل جيد .

ان تقارير بعض التجارب والاختبارات التي اجريت على أجهزة مشابهة للرادار وذوات الموجات الطيفية الميكروية (طول الموجه من ٣٠٠ ـ ٣سم) تكاد أن تبلغ درجة الخيال العلمي ، فقدرة الاختراق لطاقة الموجات الطويلة جدا تسمح بالرؤية من خلال الجدران الخرسانية والحواجز الاخرى وغير ذلك ، ولكن حتى الآن فان الرؤية المشوشة وغير المؤكدة تترك شكوكا عديدة حول ماتظهره الإشارات الملتقطة بشكل فعلي ، ولكن يبقى أن نذكر ان تلك الاجهزة التي وصلت الى مرحلة تجريبية واختبارية كي يقدم عنها التقارير قد اثارت تساؤلات مقلقة ومثيرة حول المعدات الموجودة والمستخدمة في هذا المجال ، ومدى خضوعها للتصنيفات السرية والأمنية .

هذه بعض التطبيقات التي تتابع استعمالها في هذا المجال العلمي . . . وهناك مجالات أخرى مازالت تحت الاختبار ، . . . لأن العلم والتجريب صنوان متلازمان . □

ارفعوا الغلام

دخل المأمون يوما بيت الديوان فرأى غلاما جيلا على أذنه قلم ، فقال من أنت ؟

قال : أنا الناشيء في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، والمؤمل لخدمتك «الحسن بن رجاء» ،

فقال المأمون : بالاحسان في البديهة تفاضلت العقول ، ارفعوا الغلام فوق مرتبته .

الموت ظلماً واغتراباً:

أزهري في روسيا!

بقلم : يوسف القعيد

عندما كان الطهطاوي قبل قرن ونصف في باريس ينهل من معارفها ، لينقلها بعد ذلك ويزرعها في وطنه ، كان هناك مواطن آخر له قد وصل الى بطرسبرج عاصمة الامبراطورية الروسية حينذاك ـ والمعروفة اليوم باسم لينينغراد ـ ليقوم بدور آخر شبيه ، يعلم ويتعلم ، لكنه بدلا من أن يعود إلى وطنه ليفيده بما تلقى . كان الموت قد عاجله ، بعد أن تخرجت على يديه مجموعات من الباحثين والدارسين زرع في أذهانهم الحرف العربي .

فمن هو هذا الشيخ المعمم الذي لحقه الظلم ؟

حتى أنا ظلمته دون أن أدري ، وقفت في طابور من ظلموه ، وهو أطول طابور لظلم إنسان ، يمتد في الزمان من القرن الماضي ، ويصل حتى زماننا ، ويتربع في المكان من روسيا الى مصر المحروسة ، مرورا بالامبراطورية العثمانية .

والحكاية أنني قضيت أسبوعا في مدينة لينينغراد بالاتحاد السوفيتي ، حيث العودة الى بحار الدهشة القديمة ومحاولة تذوق المرئيات .

بعد العودة ، وجدت السؤال في انتظاري :

ـ هل زرت قبر الشيخ الطنطاوي ؟ وقرأت الفاتحة على روحه ؟

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهري المدفون في أصقاع بلاد الشمال الباردة .

من الصعب القول اننا قد نسيناه ، لأن أجيالا كثيرة خرجت الى الحياة ، لا تعرف من هو الشيخ الطنطاوي .

الشيخ الطنطاوي

اسمه بالكامل : محمد بن سعيد بن سليمان عياد المرحومي الطنطاوي الشافعي ، ولد في قرية نجريد ، من قرى الغربية سنة١٢٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى و ١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح .

كان والده من قرية « محلة مرحوم » ، وفي ذلك الزمان البعيد كانت « محلة مرحوم » لها وزن أكثر من طنطا التي أصبحت عاصمة الاقليم عندما بنى بها علي

الشيخ محمد عياد طنطاوي

بك الكبير مسجدا للولي المعروف السيد أحمد البدوي ، فتغير الحال ، أحيلت العاصمة الى المعاش ، وخرجت الى الوجود عاصمة أخرى ، والمدن كالناس ، تولد وتكبر ثم تأتي اليها الشيخوخة وأخيرا الموت . كان والده يعمل في التجارة ، وكان له شقيق واحد هو مصطفى ، وقد عمل بالتجارة أيضا .

جاء محمد عياد الطنطاوي الى عالمنا بعد حكاية نابليون بونابرت الذي حضر الى مصر ومعه المدفع والمطبعة ، ثم عاد ومن بعده جنده ، معهم المدافع لكنهم تركوا المطبعة في بر مصر . وانبثق التاريخ عن المغامر الجسور تاجر الدخان الألباني (محمد على باشا) الذي قرر أن يستنبت طموحه الذي لا حدود له ، وأحلامه التي لا تعرف المنتهى في تربة وادى النيل العظيم . جاء ببذور أمانيه من أوروبا ، ولذلك كان من الطبيعي أن يرسل النوابغ والنابهين الى أوروبا .

من الأزهر إلى روسيا

كانت تلك هي الكلمة الأولى في مصير الطنطاوي ، وإن كان قد رحل صوب الامبراطورية الروسية بدلا من فرنسا . التحق الطنطاوي بالكتاب في سن السادسة ، وكانت شهرة طنطا في تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين وقد قيل : ما قرآن الا أحدي ، وما علوم الا أزهرية .

في سنة ١٢٣٨ هـ ، ١٨٢٣ م رحل محمد الى القاهرة ودخل الأزهر الشريف ، وكان رفاقه في الدراسة هم : رفاعة رافع الطهطاوي الذي أصبح صديقا له ، على الرغم من أن الطهطاوي كان يكبره بعشر سنوات ، وبعد ذلك أصبح الطهطاوي علم المرحلة ونجمها الكبير ، في حين انزوى الطنطاوي في زوايا النسيان .

حتى كتابه : « تخليص الابريز في تلخيص باريز » فاق في شهرته كتاب طنطاوي : « وصف روسيا » الذي ما يزال مخطوطا حتى الآن . بل إن من كتبوا بعد ذلك عن الكتابين يقولون : إن طنطاوي كتب وصف روسيا وهو تحت تأثير كتاب الطهطاوي .

كان من رفاقه الشيخ محمد قطة العدوى محقق كتاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية ، من كتاب ألف ليلة وليلة وهي النسخة التي عاشت عليها كل الأجيال حتى لحظة كتابة هذه السطور .

وكان من أساتذة طنطاوي : حسن العطار ، وابراهيم الباجوري ، ومحمد الترميذي صاحب القاموس الشهير : تاج العروس . اتجه طنطاوي الى دراسة علوم اللغة في زمان كان كل أبنائه يتجهون الى الفقه أولا ، والفقه أخيرا ، وكأنه بذلك قد بدأ الخطوة الأولى في السباحة ضد تيار العصر ، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضرا في ميدان علوم اللغة ، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر منه دراسة في اللغة .

توفي والد طنطاوي بعد وصوله الى القاهرة بخمس سنوات ، فكان عليه أن يدبر شئون حياته الى جانب الاستمرار في دراسته . في سن العشرين قام بالتدريس في الأزهر رغم أنها سن مبكرة ، وكان يعطي دروسا في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب . وفي السابعة والعشرين من عمره ، جاء الى مصر وباء ، وما أكثر الأوبئة في هذا الزمان ،

وكاد يفتك به ، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلن في القاهرة ، ولكنه نجا من موت محقق .

قضى في الأزهر عشر سنوات مدرسا ، وانقطع عن التدريس في بعض الأحيان بسبب مرضه ، وسيصبح المرض بعد ذلك رفيق رحلته وأنيس غربته ، وسيقعده عن العمل في الوقت الذي يصل فيه الى ذروة المعرفة والانتشار . والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة ، فمرتب الأزهر كان ضئيلا ، وكان لا بد من عمل آخر لكي يعيش ، وهكذا عمل طنطاوي في وظيفة ثانية .

يبدو أن العمل الثاني الذي يمسك برقاب المثقفين عمره أطول مما نتصور ، وربما كان مؤامرة قديمة لأكل المواهب ، وتبديد الوقت وتعكير صفاء الذهن ، ونسف القدرة على الابداع .

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة . وهكذا وجد طنطاوي عمله الثاني وهو التحرير والتصحيح لما ينشر من علوم أوروبا . لكنها القوانين الأقوى والأكثر خلودا في مصر التي اخترعت الأبدية . . قوانين الأزهر منعته من العمل الثاني فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر ، وقد كان .

تغيير مجرى الحياة

عمل في تدريس اللغة العربية وآدابها للفرنجة ، كان أول عالم لغوي ، في أول مدرسة في زمانه .

وكان هذا التدريس هو الذي غير مجرى حياته كلها . كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان ، ومن بينهم ـ وهذا هو المهم ـ اثنان من روسيا التي لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السوفيتي بعد ، هما : موخين وفرين ، الأول هو : نيقولا موخين الذي كان مترجما في القنصلية العامة الروسية في مصر سنة ١٨٣٥ ، ثم نقل الى اسطنبول بعد عامين مترجما رابعا في السفارة الروسية هناك وقد كانت أهم سفارات روسيا في الشرق كله ، حيث الامبراطورية المترامية الأطراف التي لا تحدها حدود ، وتشاء أقدار الطنطاوي أن يكون نيقولا موخين هو مرافق رحلته الى بطرسبيرج بعد ذلك . أما الثاني فهو رودلف فرين . . . كانت تلك هي الخيوط التي نسجت مصير الرجل ورسمت شكل حياته .

في سنة ١٨٤٠ وجهت الدعوة بإذن من قيصر روسيا ، وموافقة محمد علي باشا ، الى الشيخ الطنطاوي ليسافر الى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية في بطرسبيرج ، وكانت هي عاصمة روسيا القيصرية وأصبح اسمها بعد ذلك لينينغراد ، وقد نقلت العاصمة فيما بعد الى موسكو ، ذلك أن دوام الحال من المحال .

وحسب تقاليد ذلك الزمان ، استعد الشيخ الطنطاوي للسفر الى روسيا ، بما يحتاج اليه سفره ، وكانت أهم بنود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية وأرسلها لكي تحصل العلوم في باريس ، كنوع من الاعداد لها للحياة الجديدة ، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيدا في غربته ، وكانت هذه الزوجة تدعى « أم حسن » .

غادر الطنطاوي القاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢٥٦ الموافق السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٠ . ركب صندلا في النيل ، كان يسير ويتوقف حسب حالة الجو ، مر بشبرا التي كانت مشهورة ببساتينها ، ولم يمر على طنطا ، لأن « طريق بحر النيل » ، لم يكن يحضنها ، كان بعيدا عنها ، ولكنه شم رائحتها عندما استنشق هواء الغربية ، لم يتوقف فعفريت السفر كان قد ركبه وانتهى الأمر ، ولم يعد قادرا على أن يحط على الأرض .

وصل الى الاسكندرية يوم الثاني والعشرين من مارس ، وكان لكل مدينة باب يقف دونها اذا جاء الليل ، يحميها من قطاع الطرق ورجال الشر ، ولا يفتح الباب إلا صباحا ، ووصل طنطاوي الى الاسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فاضطر الى المبيت خارجها .

في الاسكندرية ، قضى طنطاوي عدة أيام عند قنصل روسيا العام ، ركب بعدها باخرة في البحر المالح لأول مرة في حياته ، ذلك البحر الذي بلا

شاطىء آخر . . !

وفي السادس والعشرين من مارس أصيب بدوار البحر ، كان السفر عن طريق جزيرة كريت ، حيث تزودت السفينة بالفحم الحجري اللازم للوقود . وصلت الى أزمير في الثالث من ابريل . قطعت الباخرة بحر مرمرة ووصلت الى اسطنبول وأمضى الطنطاوي أياما في الحجر الصحي ، وقابل السفير الروسي الذي كلف الترجمان موخين تلميذ الشيخ سابقا ، بمرافقته في رحلته الى روسيا .

غادرا اسطنبول في الثالث والعشرين من ابريل ، ركبا باخرة روسية . وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا الى أودسا . وأنفق الشيخ الطنطاوي هذه الساعات في دراسة اللغة الروسية . كما كان الوصول الى أودسا في الخامس والعشرين من ابريل ، وقضى وقته الذي مكثه في الحجر الصحي في تعلم الروسية ايضا .

شاهد في أودسا الاوبرا الايطالية ، حيث رأى رواية السلطان محمد في المرة الاولى ، وفي الثانية رواية العاشقين ، ولم يكن في المسرح من يلبس العمامة سواه ، غادرا أودسا يوم الاربعاء الثاني والعشرين من مايو ، اخترقا روسيا من جنوبها حتى شمالها بعربات البريد التي تجرها الخيول وتمشي ببطءشديد . رأى الطنطاوي بلادا سهولها شاسعة وأنهرها عريضة ، وخضرتها كثيفة ، وتخلو تماما من غبار الشرق الأوسط وحرارته وقيظه .

الوصول الى بطرسبيرج

في الخامس والعشرين من مايو وصل الى مدينة كييف ونزل في فندق لندن . وتركها بعد يومين من الراحة ووصل الى قرية موهلوف في الثلاثين من مايو ، وأقام فيها ثلاثة وعشرين يوما لأن موخين رفيق الرحلة ومترجمها كان له أقارب في القرية وطالت زيارته لهم .

فرك الطنطاوي عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة في حياته . وسلك أذنيه الشرقيتين على صوت العزف على البيانو في بيوت

قبر الشيخ طنطاوي في قرية فولكلون

الاهالي ، وحضر حفلات الرقص وزار الحمامات لتي كانت تتفوق عليها حمامات القاهرة واسطنبول كثيرا .

في يوم السبت الثاني والعشرين من يونيو غادر الطنطاوي موهلوف ، وشاهد حريق مدينة الاسكندرية ، وهي مدينة صغيرة بناها الاسكندر ذو القرنين ، ورأى (السكة الحديد) الجديدة في روسيا.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٤٠ وصل الى بطرسبيرج بعد سفر دام ثلاثة أشهر ونصف شهر ، قضى منها شهرين في الحجر الصحي ، وقرية موهلوف . وصل في زمن كانت الرومانسية الغربية قد خلقت حالة غريبة من الاهتمام بالشرق لذلك كان من الطبيعي أن يجذب الشيخ الازهري المعمم أنظار روسيا كلها .

عاش الرجل في روسيا ، ولكن الحنين أكله الى مصر ، فعاد إليها سنة ١٨٤٤ ، ثم رجع الى روسيا حيث بقي فيها حتى توفاه الله . وفي الثامن من اكتوبر سنة ١٨٤٧ ، وبعد سبع سنوات على حضوره الى روسيا عين استاذا في الجامعة ، وكان ميدان عمله قد اتسع فشمل الجامعة أيضا علاوة على وزارة الخارجية الروسية . وفي تدريسه كان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية . كان يدرس قواعد اللغة العربية ويشرح أمثال لقمان ويقرأ قطعا تاريخية من مقامات الحريري . وكان يدرس الترجمة من الروسية الى العربية والخطوط العربية وقراءة المخطوطات والمحادثة باللغة العربية ، وابتداء من سنة ١٨٥٥ ، بدأ يدرس تاريخ العرب .

وفي الخامس عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠

استحق الطنطاوي الشكر القيصري على جهوده في التدريس لطلاب بطرسبيرج ، وبعد عامين حاز على ميدالية من أحد ملوك أوروبا مكافأة له على قصيدة باللغة العربية ، ثم أهداه ولي عهد القيصر خاتما مرصعا بالجواهر شكرا على جهوده . وفي هذه الأثناء كتب عنه الروس الكثير . قالوا في كتاباتهم ، ان طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال وأن ذكاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد .

كان الشيخ الازهري يجلس على أريكة في بيته يشرب الشاي ، وللشاي طقوس جميلة في حياة الروس . ثم يتحدث عن مصر المحبوبة ، ورواتها ومغنياتها وراقصاتها ، وغيرها من المسرات التي كانت تملأ حياته بمصر ، وليس لها أي وجود في حياة روسيا قالوا عنه : انسان تغلب على التعصب ، كتبوا : مرح وعطوف ، أكدوا : ليس لمثل طنطاوي آخر في هذا العالم كله .

قصة النهاية

قام الطنطاوي بالتدريس خمس عشرة سنة منتظمة ، ووصلت شهرته أوجها . وفي سنة ١٨٥٥ افتتحت كلية اللغات الشرقية ، وكان افتتاحها حدثا هاما بالنسبة له . ولكن يبدو أن لحظات تحقيق الأماني هي نفسها لحظات فقدانها . ففي أيام المجد خانته صحته ، والعلة التي تصيب الجسد في الغربة تصبح مأساة ، وهكذا أصبحت حياته نوعا من الهم المتصل ، وفي هذا العام نشر آخر مقالة له بالفرنسية ، وقال آخر قصيدة شعرية في رثاء القيصر نيقولا الاول .

والذي حدث أنه في سبتمبر من عام ١٨٥٥ أصيب بشلل في قدميه . والاوراق التي تركها الرجل بخط يده عن هذه الفترة تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوبة بها .

في ابريل ١٨٥٦ طلب من الأطباء أن يمدوا له اجازته المرضية ثمانية وعشرين يوما ليسافر الى بوهيميا ، وذلك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة . ولا يدري الانسان ، لماذا لم يطلب العودة الى مصر ، ويدفن الجزء المصاب منه في رمالها الساخنة ؟

في مارس من العام التالي طلب السفر الى الخارج للعلاج ، والخط المكتوب به الطلب ، وتوقيعه عليه ، يشي بمدى تدهور حالته الصحية . وفي السابع من فبراير سنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل .

ثم قدمت الجامعة طلبا لتقدير معاش تقاعدي للطنطاوي بمناسبة مرور عشرين عاما على خدمته في روسيا وبسبب مرضه . واستدعي من أجل توقيع الكشف الطبي عليه فأجاب أنه لايمكنه المجيء بسبب المرض ، ويبدو أن الكشف الطبي قد جرى في بيته . واستعفى من الخدمة في ٣١ يناير سنة ١٨٦١ ، أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلغ ١٤٢٩ روبلا ، ولم يطل زمان انتفاعه به ، فقد توفي في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٦١ ، وكما يذكر في شهادة لامام مسجد بطرسبيرج انه مات من مرض « الآكلة » .

وهكذا مضى الرجل . ولكن ماذا عن أسرته التي كونها في الغربة ؟ في التاسع عشر من مايو ١٨٥٠ ولدت زوجة الطنطاوي ولدا أسموه أحمد . ولأن زوجه « أم حسن » توفيت قبله ، توسل الطنطاوي في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا ابنه في داخلية إحدى المدارس الوسطى على حساب الدولة الروسية بسبب مرضه ووفاة زوجته .

وبعد وفاة الطنطاوي توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ذوي الأمر أن يبقى معاشه لابنه . وصار الوصي الرسمي على أحمد الاستاذ كسوفتش الذي عرض سنة ١٨٧٠ على جامعة بطرسبيرج باسم أحمد ، شراء مجموعة مخطوطات الطنطاوي ، وقد اشترتها المكتبة سنة ١٨٧١ .

وهكذا استوطن الشاب أحمد الطنطاوي روسيا وقد قدم في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢ طلبا باعتباره تابعا عثمانيا الى ادارة الجامعة لكي تعطيه سجل خدمة أبيه ، ليقدمه الى الادارة الروحانية المسيحية في بطرسبيرج لأداء القسم حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية . وقد توفي أحمد في أواخر القرن التاسع عشر ، ودفن في جبانة المسلمين

حيث سبق دفن أمه وأبيه . وجبانة المسلمين كانت موجودة في قرية فولكوف القرية من بطرسبيرج ولكن الزمان محا تماما آثار قبر أم حسن وأحمد ولم يبق سوى قبر الشيخ الطنطاوي فقط .

وفي الثالث والعشرين من ابريل ١٨٨٦ قدم الوصي سولفيوف طالبا الى ادارة الجامعة لكي يعطوه وثيقة عن الطنطاوي الابن ، ليقدمها لمجلس الأشراف لادخال حفيدة الطنطاوي «هيلانة» في طبقة الاشراف ، حتى يمكن تربيتها في دار أيتام الاشراف .

وهكذا نكتشف أن حفيدة الطنطاوي قد أصبحت مسيحية ، ونكتشف ضياع آثار أسرة من بلاد الاهرام الدافئة في أصقاع روسيا الباردة . . !

الظلم والاغتراب

مات الطنطاوي ظلما واغترابا . والظلم لم يحدث له بعد رحيله كما يحدث عادة ، ولكنه كان ضيفا ثقيلا غير مرغوب فيه في حياته نفسها . في سنة ١٨٤٠ كتب سافيليف : أن اسم الطنطاوي معلوم لدى كل من يدرس العربية مع أنه لم يؤلف شيئا . وكتب غويغوريف : أن تدريس الشيخ الطنطاوي لم يترك أي أثر في روسيا ، والدور الأساسي الذي لعبه كان في الاستشراق الفنلندي .

أما الدكتور اغناطيوس كراتشوفسكي مؤسس الاستشراق في روسيا كلها ، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوي ومأساته معا ، في كتابه الجميل الذي ألفه عنه ، وتأليف هذا الكتاب حدث هام لمن يعرف قدر الرجل في روسيا والعالم . يقول كراتشوفسكي : (كان الطنطاوي معاصرا لأغلبية رجال النهضة الأوروبية البارزين في القرن التاسع عشر ، لكنه سار على خط غير الذي سار عليه معاصروه الشهيرون ، لقد بقي في عزلة عن الحركة العامة ، ولم يشترك فيها أو يؤثر في تطويرها . كان الطنطاوي ربيب الازهر ، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة في ذلك الحين . ولكن الطنطاوي كان بعيدا عن دائرة صحفيي ذلك العهد ، الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول الجريدة العربية الأولى ، وقد انضم الطهطاوي اليهم . ولا ندري كيف يمكن أن تكيف حياة الطنطاوي لولم يرحل الى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة) .

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد ينسى لدرجة أن العلماء المصريين المندوبين في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ستوكوهلم سنة ١٨٨٩ما كانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم التي وقعت قبل ذلك بثمانية وعشرين عاما كاملة .

كل هذا جرى ، على الرغم من أن الطنطاوي ترك حين وفاته واحدا وأربعين مؤلفا ، معظمها مخطوط لم ينشر حتى الآن ، لعل أهمها كتابه الفريد : «وصف روسيا» ، وعنوانه الكامل : «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا» ، وقد أهداه الى السلطان عبدالمجيد .

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنوات على رحيله ، الا أن أحدا من بني وطنه من مصر لم يتحرك لتحقيق كتبه ونشرها ودراسة رحلته الفريدة والدور الذي قام به ، وما أكثر الرسائل الجامعية التي تلوك ما قيل من قبل وتكوره . وتعيد وتزيد مهملة ، منجم ذهب حقيقي يتمثل في آثار هذا الرجل الذي طارده الظلم والغربة ، حيا وميتا ، وطارد الظلم نتاجه الادبي والفكري ، وحتى أسرته لاقت نفس المصير .

قام الطنطاوي برحلته ، في نفس الوقت الذي قام فيه الطهطاوي برحلته الى باريس ، ولكن الأول بقي في روسيا في حين عاد الطهطاوي . والأول طواه النسيان والنكران والثاني أصبح علما على عصر بأكمله .

اغترب الطنطاوي عن الوطن والديار في زمن لم يكن المصري قد تذوق فيه طعم الاغتراب ، ولا كواه الحنين الى بر مصر .

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصر ، في ذلك الوقت البعيد ، والغربة أسلمته الى ظلم بين . وحتى الآن لا أعرف من أين جاءت البداية ، الغربة التي أوصلت الى ظلم ، أو الظلم الذي رمى به الى الغربة . أم أن كل عصر يكون فيه رجل واحد يمتد ظله الى العصر كله ؟!□

منتدى العربي

قضية

في مفهوم الشعر رؤية الشعراء الجاهليين

بقلم : الدكتور عبدالمجيد زراقط*

تتكرر على ألسنة بعض مؤرخي الأدب العربي مقولة مفادها أن القدماء كانوا يرون في الشعر كلاماً يقصد به الوزن والتقفية ، لكن العودة إلى تقصي رؤية القدماء في مصادرها تفيد أن هؤلاء المؤرخين لم يكلفوا أنفسهم عناء التعرف على هذه الرؤية ، وإنما كانوا يرددون كلاما أطلقه بعضهم ذات يوم ، دونما عناية ، ولأغراض قد لا تكون بريئة تماماً .

الواقع أن عودة حتى لو كانت سريعة إلى رؤية القدماء للشعر ، قد تكون ضرورية في هذه المرحلة من تاريخ الشعر العربي التي يعدها كثير من النقاد مرحلة تحول وتأسيس ، وهذا ما سوف نحاول أن نفعله .

نظم أم حداء ؟

كان للشعر الجاهلي بعض نشاط الانسان الجاهلي في مواجهة الحياة ، فهو مرتبط بالدين والعمل والعلاقة بالآخر والمحيط ، ولعل ارتباطه بالدين والعمل هو الذي جعله نوعا من الغناء ، فهو إنشاد وحداء وليس نظما أو قولا . ولعل كونه في الأساس نوعا من الغناء الفاعل على الصعيدين : الديني والاجتماعي هو الذي أثر في تكون النظرة التالية التي تتناول عملية الإبداع الشعري ومفهوم الشعر ، والتحول التاريخي في مفهومه ودوره وضرورة إيصاله . وإن يكن بعض الشعراء قد صرح على صعيد عملية الإبداع الشعري ، بصدور الشعر عن

* ناقد أدبي أكاديمي يعمل استاذا في الجامعة اللبنانية .

ذوق الحياة والعلم بها ، كقول زهير :

وَمَا الحَرْبُ إلاّ ما علمتم وذقتُمُ
وما هُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

فقد كان السائد لديهم أن الشعر يصدر عن وحي ، أو عن إلهام شياطين تسكن في وادي عبقر ، ومما قيل في هذا الصدد :

وقافية عجبت بليل رزية
تلقيتُ من جَوِّ السماء نزولها
ولي صاحب من بني الشيصبان
فطورا أقول وطورا هُوَهْ

والكلام الذي يتناول هذه المسألة كثير ، ولا ضرورة لاعادته هنا ، ويكفي أن نشير إليه ، غير أن ما ينبغي أن نتوقف عنده هو نظرة كل من امرىء القيس وعنترة إلى الشعر وعملية إبداعه .

يقول امرؤ القيس :

تخبرني الجنُّ أشعارها
فما شئت من شعرهن اصطفيتُ

ونفهم من هذا القول أن امرأ القيس كان يرى في الشعر فنا يصطفي فيه الشاعر ويختار مما يخبر به الجن ، وقد نفهم بـ « الجن » نحن اليوم ، ما يؤتاه الشاعر بفعل تضافر مختلف عوامل التجربة الشعرية .

يقول عنترة :

عبيلة هذا درُّ نظم نظمتُهُ
وأنتِ لَهُ سلكٌ وحسنٌ مبهجُ

ونفهم من هذا القول أن تجربة الشاعر الحياتية الشخصية التي كنى عنها بـ « عبيلة » تشكل « سلك » هذا الشعر الناظم له والمشكّل لخصائصه .

إنها رؤية متعددة الاتجاهات ، يلفت فيها شمولها وعمقها ونفاذها النظر إلى أمور جوهرية ، دون أن تتوقف لدى بعض المسائل الشكلية التي تعلق بها شعراء ونقاد في العصور التوالي .

وعلى صعيد مفهوم الشعر تعدد جوانب الرؤية أيضا ، فكان الشاعر الجاهلي يرى في الشعر أغنية الساري وحداء الرواحل وترنيمة الركبان ، والأبيات الدالة على هذا كثيرة ، نثبت منها لحسان بن ثابت ومزرد بن ضرار والحطيئة على التوالي :

تغن بالشعر إمّا كنتَ قائلهُ
إنّ الغناء لهذا الشعر مضمارُ

زعيمٌ لمن قارفته بأوابد
يغني بها الساري وتحدي الرواحل

فلم أشتم لكم حَسَباً ولكن
حدوت بحيث يستمع الحداء

ولعل هذا الفهم للشعر كان يجعل اهتمام الشاعر الجاهلي ينصب على النغم أساسا ، وعلى ما توفره القافية له من تكامل ، فالقافية ، وهي برأي الحطيئة « حوافر الشعر » أي موقع الايقاع ومحط الانطلاق من جديد حظيت من دواوين الشعراء الجاهليين ، على حد علمنا ، بسبعة أبيات ذكرت فيها الكلمة بمعنى مجازي هو القصيدة ، الأمر الذي قد يعني إذا صحت نسبة الأبيات لأصحابها أن القافية كانت في عرف الجاهليين أهم عناصر الشعر على الإطلاق .

وليس أدل على اهتمامهم بالنغم من قول مسكويه « ان لبعض الشعراء الجاهليين المتقدمين أوزانا لا تقبلها طباعنا ولا تحسن في أذواقنا وهي عندهم مقبولة موزونة » . ويستشهد مسكويه كي يؤكد ما يذهب إليه بقول كل من المرقش الأصغر والشنفري :

لابنة العجلان رسوم
لم يتعفين والعهد قديم

إن بالشعب الذي دون سلع
لقتيلا دمه ما يطلُّ

وعلق على البيت الثاني بقوله : « فإن هذا الوزن ، إذا أنشد مفكك الأجزاء بالنغمة التي تخصه طاب في الذوق ، وإذا أنشد ، كما ينشد سائر الشعر لم يطب في كل ذوق » .

الشاعر والبكاءة

ولم يكن النغم العنصر الوحيد الذي يكون رؤية الشعراء الجاهليين لمفهوم الشعر ، ذلك أن عناصر أخرى كانت تكمل تكوين هذه الرؤية ، ويتضح لنا ذلك من استقراء بعض الأخبار الدالة .

أنشدت الخنساء النابغة ثم أنشده حسان بن ثابت

فقال النابغة :

« إنك لشاعر ، وإن أخت بني سليم لبكاءة » .

والواضح أن النابغة يميز في هذا القول بين مستويين من القول هما :

الشعر من نحوٍ أول ، والتعبير عن العواطف من نحوٍ ثان ، فقول العاطفة البكاء ليس شعرا ، وإنما هو بكاء ، وصاحبه ليس شاعراً ، وإنما هو بكّاء .

ويتيح تمييز النابغة لنا أن نفهم أنه كان ينظر إلى الشعر بوصفه فناً بالدرجة الأولى ، وهو العليم بسمات الشعر وخصائصه بوصفه أحد الذين دفعوا إلى مضائقه وسمّوا « عبيد الشعر » ، والأمر الذي يؤكد لنا ذلك حكمه لقيس بن الخطيم بالشاعرية ، على أثر سماعه بيته التالي :

« أتعرف رسما كاطّراد المذاهب . . » ففي هذا البيت صورة ، أو قول للتجربة يبتعد بها عن التعبير المباشر ويقترب من التصوير .

وتتوالى الأخبار الأدبية التي تشير إلى أن النابغة كان ينطلق منْ مفهوم للشعر محدد وواضح ، فقد حكم مرة حكما لم يرض به حسان فقال له النابغة :

« أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وإن خلت أنْ المُنتأى عنك واسعُ »

ولا يخفى أن النابغة ينظر إلى الصورة في هذا البيت ، الصورة التي تؤدي التجربة المعاشة بشكل فني رائع .

ولم يكن النابغة فردا في فهمه الشعر على هذا النحو ، فالواقع أن هذا المفهوم للشعر كان عاما ومشتركا بين العديد من الشعراء . وأظن أن لا ضير من إيراد بعض الأمثلة :

جاء عبدالرحمن بن حسان إلى والده يقول :

« لسعني طائر كأنه ملتف في بردي حبرة » .

فقال حسان :

« قال ابني الشعر ورب الكعبة » .

لم يصرح حسان بمفهومه للشعر نصا ، ومثله فعل النابغة من قبل ، وجاء بعدهما من حد مفهوم الشعر الجيد ، وذلك هو الحطيئة ، عندما قال : « خير الشعر الحوليّ المحكّك » ، وكعب بن زهير الذي رأى في الشعر ضربا من « الحياكة » يتم بتنخل للفظ وتسوية للبناء في قوله المعروف : « فمن للقوافي شأنها من يحوكها » .

وفي تقصي لمفهوم الشعر عند الشعراء العرب ولتطور هذا المفهوم ، يمكننا تلمس رؤيتين :

ترى الأولى منهما في الشعر ، كما مر بنا ، اصطفاء لما تخير به الجن وتجويدا له يصنع من سمّوا « عبيد الشعر » ، وتطورت هذه الرؤية لتغدو سهرا في سبيل الخلق ، ثم صارت مبيتاً بأبواب القوافي ، كما يذكر سويد بن الكراع واصفاً تجربته في خلق الشعر وصناعته :

أبيت بأبواب القوافي كأنما

أصادي بها سربا من الوحش نُزَّعا

وكما يقول ذو الرمة واصفاً تجربته الخاصة في الخلق قائلا إنه كان يعاني وكأنه يتألف وحوشاً متمردة .

وفي فترات لاحقة ، ولأسباب يوضحها تطور الشعر العربي ، صار الخلق نوعا من الصناعة ، وعبر عن هذا الاتجاه عدي بن الرقاع العاملي ، عندما يقول :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها

حتى أُقَوِّمَ مَيْلَها وَسِنَادَهَا

وتقف الرؤية الثانية على الطرف المقابل للرؤية الأولى ، وتعود هذه الرؤية في جذورها ، إلى القول بشياطين الشعر والإلهام ، وتمتد إلى القول بالصدور عما تبديه الأيام ، كما يقول طرفة بن العبد ، ثم إلى القول على لسان كثير عزة مخاطبا عدي بن الرقاع العاملي ، راداً على ما جاء به عن الجمع وتقويم الميل :

« لو كنت فصيحا ، أو عالماً ، لم تأت فيها بميل ولا بسناد فتحتاج إلى أن تقوّمها لأن تكون مستقيمة لا تحتاج الى ثقاف أجود لها » .

مصطلح القصيدة

لعل « كثير » هنا ينطق بلسان طائفة من الشعراء العرب ، كانت ترى في الشعر ما يراه عبدالله بن

رواحة فيه ، وذلك عندما قال : « الشعر شيء يختلج في صدري فينطق به لساني » .

وفي كل الحالات ، كان الشعراء الجاهليون يرون في الشعر عملا يتجاوز التعبير المباشر عن التجربة .

ويتأكد لنا ذلك عندما نتوقف إزاء مصطلح القصيدة الذي عرف في فترة مبكرة ، وندقق في مفهومه ، فهذا المصطلح يعني القصد إلى الإجادة : كما ونوعاً ، وإقامة بناء ، والسعي المستمر في سبيل تحقيق مستوى أرقى من الجودة . ومن هنا كان للشعراء العرب توقف إزاء بناء القصيدة .

وتدل القصائد التي وصلتنا من العصر الجاهلي على أن تجارب عديدة أجريت وفق مفهوم واضح لبناء القصيدة الجيدة ، وتطور هذا المفهوم بتطور التجارب الشعرية وتداولها .

لم تصلنا أخبار في هذا الصدد ، غير أن ما وصلنا من أخبار يفيد أن الشعراء العرب أحسوا بضرورة أن يكون للقصيدة بناء فني ، وهو ما سموه « القران » أو السياق . ومما يروى في هذا المجال أن رؤبة قال لأحد الشعراء : « قد قلت لو كان له قران » . وقال عمرو بن لجأ : « أنا أشعر منك . . . لأني أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه » .

وقد نقول إن الشعراء العرب تنبهوا لمسألة ضرورة وجود نوع من الوحدة في القصيدة . وليس ضروريا أن تكون هذه الوحدة وحدة الموضوع ، وإنما هي « القران » أو المجرى العام ، وربما التداعي ، أو المناخ الوجداني العام .

إن الإحساس بضرورة توافر بناء فني للقصيدة وتواجد نوع من الوحدة فيها صار أكثر حدة في العصور التي تلت العصر الجاهلي ، والتي عرفت تحولا في طبيعة الشعر الجاهلي . وما يهمنا على هذا الصعيد هنا أن الشعراء العرب تنبهوا لهذا التحول الشعري الذي حدث ابتداء من أواخر العصر الجاهلي .

وبغية إيضاح هذا التحول ، بشيء من الإيجاز نثبت هنا نصا لابن رشيق القيرواني يفسر فيه إلى طبيعة هذا التحول . يقول ابن رشيق : « وكانت العرب لا تتكسب بالشعر حتى نشأ النابغة ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة ، وخضع للنعمان ، وكان قادرا على الامتناع فسقطت منزلته . . . وتكسب زهير بالشعر يسيرا مع هرم ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان » .

والحق أن الحطيئة ، الشاعر المخضرم ، كان أول من أدرك طبيعة هذا التحول وخير من أشار إليه ، وذلك حين تحدث عنه في إشارة ميزت بين الاتجاهين : اتجاه الشعر الجاهلي والاتجاه الذي تلاه ، وحددت الفروق بينهما . قارن الحطيئة في إشارته بين ابن أبي سلمى وبين النابغة ، وعلق على الاتجاه الأخير بقوله :

« ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولاً ـ يعني نفسه ـ والله لولا الطمع لكنت أشعر الماضين . أما الباقون ، فلا شك اني أشعرهم » ويميز الحطيئة في قوله هذا بين ماضين وباقين ، ويرى أن الطمع يمنعه من الوصول إلى مرتبة الماضين ، كما يرى أن الضراعة أفسدت شعر النابغة ، أما الباقون فهو أشعرهم ، وهنا يأخذ قوله التالي : « أشعر الناس هذا (مشيرا إلى لسانه) إذا طمع » معناه ، إذ أنه يميز بين نوعين من الشعراء : الماضون الذين تفسد الضراعة شعرهم ، والباقون الذين يرفع الطمع (الرغبة والرهبة في خبر آخر) شعرهم إلى مرتبة أعلى .

يرصد الحطيئة هنا تطور الشعر ، ويحدد اتجاهيه ، ويشير إلى طبيعة التحول الذي استجد ، والعوامل التي أدت إلى حدوث مثل هذا التحول ، وأهمها التكسب الذي استشرى بعد استخدام الشعر وسيلة إعلام تلعب دورا كبيرا وتحدث تأثيرا فاعلاً .

ولا ندعي ، فيما ذكرناه ، الإحاطة بكل ما خلفه الشعراء الجاهليون بصدد الشعر وقضاياه ، لكننا نستطيع القول ، تأسيسا على ما سبق ، أن رؤية هؤلاء الشعراء كانت رؤية شاملة عميقة تنفذ إلى الجوهر في الموضوع ، وتكاد توازي ما يتردد من رؤى حديثة . □

منتدى العربي

تعقيب

براءات الاختراع وتنمية الابتكار

اطلعت على ماورد بافتتاحيتكم بمجلة العربي العدد ٣٥٠ الصادر في شهر يناير ١٩٨٨ عن الأخ الباحث العربي الذي توصل الى فتح تطبيقي جديد في مجال « المحركات الأساسية » ويرغب في أن يقدم اختراعه هذا إلى إحدى المؤسسات العلمية العربية للانتفاع به. وقد تفضل الأخ العماد مصطفى طلاس باستعداد مركز البحوث العلمية بدمشق لاستقبال الأخ الكريم من أجل تبني اختراعه وإخراجه إلى حيز التنفيذ.

وأود أن أوضح لسيادتكم أن اكاديمية البحث العلمي والتقنية بجمهورية مصر العربية تضم بين أقسامها مكتب براءات الاختراع، وجهاز تنمية الابتكار والاختراع، وإن كان التنظيم الأول وهو مكتب براءات الاختراع يختص بتسجيل الاختراعات التي يتقدم بها إليه المخترعون المصريون والأجانب والأشخاص الطبيعيون منهم أو الاشخاص المعنويون، كالشركات والجهات الحكومية، إلا أنه يهدف كذلك إلى تشجيع الباحثين بمراكز البحوث والتطوير، والمتخصصين في قطاعات الانتاج والخدمات على تسجيل نتائج بحوثهم القابلة للتطبيق وابتكاراتهم إبرازا وحماية لجهودهم، وزيادة الاسهامات المصرية والعربية في نقل التقنية وتطويرها.

أما عن جهاز تنمية الابتكار والاختراع فالهدف منه هو تنمية الابتكارات واستغلال نتائج البحوث القابلة للتطبيق في الانتاج التي يمكن أن تؤدي إلى منتج جديد، أو تطوير أوتحسين خواص أحد المنتجات القائمة، وكذلك العمل على الوصول بهذه الابتكارات إلى درجة الاستغلال التقني حتى تتحقق الاستفادة التامة من الأفكار البناءة.

هذه نبذة موجزة رأيت أن أضعها تحت نظر سيادتكم للمهام التي يقوم بها الجهازان المذكوران خدمة للمبتكرين والمخترعين المصريين والعرب، وإن قطاع تنمية التقنية بأكاديمية البحث العلمى والتقنية بجمهورية مصر العربية ليسعده من خلال مجلتكم الغراء أن يعلن للأخ العربي صاحب الاختراع وغيره استعداده لتقديم خدماته في هذا المجال، من منطلق حماية المخترعين العرب، ومعاونتهم في تسويق ابتكاراتهم، مادامت قابلة للتطبيق الصناعي، وتساعد في التقدم التقني.

أ. د. محمود يوسف سعادة

نائب رئيس الاكاديمية
للتنمية « التكنولوجية » والخدمات العلمية

■ أن تعرف كيف تروق للناس يعني أن تعرف كيف تخدعهم. (إيتين راى)

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

يونيو
١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- كنوز توت عنخ آمون "استطلاع"
- سحر الماضي في متحف خاص
- مدينة الزهراء
  «من التراث العربي»
- همام ..
  «مسلسل بالرسوم»
- الشقيقان «قصة عالمية»
- توتة وكيكو وزيكو

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
  لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٢٧

سيرافيم

قصة للكاتب البلغاري يوردان يوفكوف
ترجمة : سهيل أيوب

فتى غريب الطلعة ، لا هو فلاح ولا هو مديني ، رث الثياب ممزقها ، أخذ سمته إلى مقهى إينيو وجلس في الظل خارج المقهى ، حتى أن إينيو نفسه قد عجز عن التكهن بهويته .

في حر الصيف الشديد لفّ الفتى جسده في معطف شتوي طويل يشبه غفّارة الكاهن ، ودسّ رأسه في قبعة مستديرة سوداء محروقة ، وانتعل « تسورفولي »[1] خشناً من الجلد . وظلت نظرة إينيو تلاحق معطف ذلك الغريب : لعله في غابر الزمان كان أزرق اللون مصنوعاً من قماش أزرق ، ولم يبق منه الآن غير القليل ، فهو رث منسول الخيوط ، مليء بالثقوب والرقع ، وبين الرقع العديدة المختلفة الألوان ثمة رقعتان أو ثلاث رقع كبيرة بصورة ملفتة للنظر ، يبدو أنها قصّت من قطعة من الخيش أو من نسيج خشن آخر يشبه قماش العباءة ، وخيطت عليه كيفما كان قطع قطنية باهتة بدرزات كبيرة .

اقترب الرجل خطوتين أو ثلاث خطوات وتوقف ، وأدرك أن اينيو لم يعرفه .

استرسل إينيو يلاحقه بعينيه ، فابتسمت ابتسامة الفتى الغريب .

هتف اينيو أخيرا :

ـ حسن ، حسن ! سيرافيم ، خطفك الشيطان ! هذا أنت إذن ، أليس كذلك ؟ ما كنت لأعرفك .

ـ لا ريب في هذا يا « بيك » ، هذا أنا بلحمي وشحمي ، ضخم كالحياة ، ومضاعف كالطبيعة كما يقولون .

ـ خطر لي أنك قبس من روح شريرة ، أو أنك « الفزاعة » في حديقة خضار معلم المدرسة « تودور » قد خرجت في نزهة . خطفك الشيطان أيها الوغد الشيخ ! كنت أحدث نفسي عمن يمكن أن يكون هذا الجرمالي الرث الثياب !

ضحك سيرافيم في رقة وهدوء ، وترنّح رأسه من جانب إلى جانب ، وبرقت عيناه النديتان ببريق أشد لمعانا . تمهّل ، وأسند عصاه إلى الدكة ، وأزلق

---

(١) صندل من الجلد الخشن يلبسه الفلاحون البلغاريون .

الكيس الصغير الذي يحمل عن كتفه .

مرة واحدة في السنة ، أو لعلها مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث سنوات ، يزور هذه الأنحاء مع اقتراب عيد القديس « جوارجيوس » أو عيد القديس « ديميتر » ، حين يبدل عمال المزارع أسيادهم . كان يعيش في المدينة ، لكنه ألف التجوال مفتشا عن عمل في القرى ، لم يكن يستطيع القيام بأكثر من الأعمال الخفيفة والأعمال الغريبة . كان يعنى بالحيوانات في الطاحون أو ينظف الاسطبلات في الفندق ، أو يصطحب بقرة أو بقرتين إلى المرعى .

سأل اينيو :

ـ أين كنت خلال هذا الصيف ؟ انقطعت عن العمل مبكرا ، مابك ؟ « اللقالق » لم تسلم أجنحتها للريح بعد ، أليس كذلك ؟

ـ كنتُ هذا الصيف في « بيليستا » ، في فرن للقرميد ، مالكه يدعى باناييوت ، كنت أعمل عنده ، أحرس قرميده .

راح يتحدث في صوت منخفض كمن يخاف أن يصل صوته إلى الأسماع ، عيناه مدورتان متسعتان في شرود واضح . ثم ابتسم على حين غرة ، فلمعت أسنانه بين شفتيه الزرقاوين .

واسترسل يقول :

ـ انتشر الجفاف هذا الصيف ، فأنتج الرجال قرميدا رائعا ، وكان ثمة أشياء كثيرة بخصوص القرويين أيضا ، هكذا تجري الأمور معنا نحن البلغاريين يا اينيو بيك ، نمتلك قليلا من المال ، فنشرع نستدين ، وما أن يباشر الفلاحون دراسة الحنطة حتى يحسّنوا عربياتهم ، فيأخذون جميع ما نملك من قرميد ، إنهم يفعلون ذلك .

ـ يأخذونه كله ؟

ـ يأخذون أكثره ، كانت هنالك أفران ضخمة ، تعمل كلها . وهكذا خاطبني المعلم باناييوت : « سيرافيم ، أيها الشاب العجوز ، لم يبق ثمة حاجة بنا إلى حارس بعد اليوم ، أنت حر في الذهاب . وسدد لي أجري ، وهأنا هنا من غير ملجأ أو معين كما يقولون .

كان سيرافيم يبتسم وهو يقول ذلك ، ثم خلع معطفه ، وانتصب هنالك ضئيل العود هشّ القوام ، ووضع معطفه على الدكة ، وتحسس على الفور داخل قميصه . كان من الواضح بالنسبة لإينيو أنه أخفى نقوده هناك .

أعلن اينيو في صرامة :

ـ حان الوقت كي تفكر في معطف جديد ! لا شك أنك جمعت مبلغا هذا الصيف . ومن المؤكد أنك قادر على شراء معطف جديد .

ـ أنت على حق يا اينيو بيك ، على حق تماما ، دون ريب سأشتري لنفسي معطفا جديدا ، فهذا المعطف قد استُهلك .

وتطلع الى المعطف وابتسم :

ـ إنه جيد ، جدير بالمتحف كما يقولون .

قال اينيو :

ـ اتخذ لنفسك مقعدا ، أرحْ جسدك .

وهبّ واقفا ودلف إلى المقهى .

هذا المقهى فسيح الجنبات رطب الهواء ، بناؤه بسيط أشبه بمخزن محصولات دون سقف ، وفيما بين الروافد الخشبية المتقاربة يستطيع المرء أن يشاهد حفنات من القش مدسوسة في القرميد . وهناك عش أنثى سنونو ملتصق بالرافدة المركزية الضخمة .

قعد سيرافيم على الدكة عاري الرأس ، مجدول الشعر الأشيب ، وجعل يقطع بسكينه الصغيرة نتفا صغيرة من قطعة خبز ، ويتذوق بلذة وسعادة كل كسرة جافة منها . وراحت أنثى السنونو التي بنت عشها داخل المقهى ، تخفق بجناحيها أمام وجهه متحدية مرفرفة . ومن بَعْدُ ، في منتهى الرشاقة ، تطير خارجة من جديد . وعصفوران دوريان أو ثلاثة تتواثب مقتربة منه ، فتجمد أطرافه كيما تتمكن من التقاط بعض قطع صغيرة . وخشخشت هنالك تنورة نسائية ، ومرت به امرأة دلفت إلى المقهى ، فما رفع سيرافيم إليها بصره .

وبُعَيد برهة قصيرة علا صوت المرأة ، فأعار أذنه إلى ما شرعت تقول :

ـ لكل شيء ثمن ، أيها العراب اينيو ، لكل شيء ثمن ! ماذا يمكن أن نشتري ببيضتين أو ثلاث بيضات نحصل عليها من الدجاجات في الصباح ؟ لا يمكن أن نحصل على أكثر من قبضة من الملح وقطعة من

الصابون للغسيل ، أما عيدان الكبريت وزيت البارافين فسينا شكلها ، إننا بصحة جيدة وأحوال حسنة ، أيها العراب اينيو ، لكننا .

ـ كيف حال إيفان ؟ هل هو أحسن ؟

ـ لا ، لم يسعفه الحظ ، ما زال طريح الفراش ، أواه ، من أين أتاه ذلك المرض ، أيها العراب اينيو ، من أين ؟ مرّت عليه سبعة شهور ، منذ قام بآخر عمل له . ثمة شيء يضطرب في صدره ، ههنا تماما ، أترى ؟ هزل ونحل ، وأية نفخة يمكن أن تجعله يطير ، حاله سيئة أيها العراب إينيو ، شاحب اللون أسوده ، مثل الأرض . وقد نصحني الناس : « يجب أن تنقليه إلى المستشفى ، ضعيه في عربة وخذيه إلى المستشفى » .

قال اينيو :

ـ مستشفى ؟ هذا معناه المال !

تنهدت المرأة :

ـ نعم ، هذا صحيح ، معناه المال ، وفوق ذلك كله أيها العراب اينيو ، قبيل عدة أيام نفقت الجاموسة ، كانت في أحسن حالاتها حين أخذتها في الصباح ، ولم تكن تشكو شيئا ، وحين رجعت في العشية سقطت عند درج البيت ونفقت ، هذا ما وقع لنا ، وبكينا كأن فردا من العائلة انطوى عمره فجأة .

قال اينيو :

ـ ثمة مرض منتشر بين الحيوانات ، وقد مات أحد عجولي أيضا .

ـ ولم تحصل منها على شيء من اللحم أو الجلد ، قال الطبيب البيطري حين جاء : « لا ينبغي أن تمسوا لحم هذه الجاموسة ، يحسن أن تدفنوها كلها » . آه ، يا إلهي ، ماذا سأفعل ؟ . .

ـ لست أملك شيئا من المال ، ليس لديّ ما أعطيه لك ! لا شيء !

ـ لا تقل مثل هذا القول أيها العراب اينيو ، ولا ترسلني خائبة ، يجب أن تساعدني ، أرجوك ، يجب أن تساعدني . من لديّ سواك أيها العراب اينيو ، من لديّ أستطيع أن ألجأ إليه وأنا المرأة المسكينة ؟ أرجوك ، أيها العراب اينيو ، أتوسل إليك بعد أن أتوسل إلى الله .

صاح اينيو :

ـ إليك عني ، أقول لك ليس لديّ شيء من المال !

صمتت المرأة وانخرطت تبكي . استطاع سيرافيم أن يسمع نشيجها ونواحها وكأن قلبها يتمزق . احتدم اينيو غيظا ، فاتجه إلى الباب ، وانطلق مبتعدا دون أن يثبت نظره على شيء . وضع سيرافيم في هدوء قطعة الخبز ناحية ونهض واقفا . خرجت المرأة من المقهى ومشت متمهلة . ربطت منديلها بصورة أخفت وجهها ، لكن سيرافيم أيقن من مشيتها أنها في ريعان صباها .

خاطب اينيو في همس قائلا :

ـ هي تسعى وراء المال ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، المال ، من أين يفترض أن أحصل عليه ؟ لستُ مصرفاً ، كانت تريد أن تنقل زوجها الى المستشفى ، رائع ، أما إذا لم أكن أملك شيئا ؟

وتابع اينيو مغضبا :

ـ إن لم أكن أملك شيئا ، فماذا يفترض أن أعطي لها ؟

ـ هل هما فقيران ؟ خزانة خاوية وذئب عند الباب ، كما يقولون .

* * *

أبدا لم يكن سيرافيم يجهد نفسه ، بل هو يتأنى في كل شيء ، لكنه لم يحب الوقوف هنالك دون أن يأتي عملا .

خارج منزل اينيو ، وهو قريب ، كانت ثمة كومة من الحجارة لا يعرف أحد متى تكدست ، وبقيت

تلك الحجارة مثلما هي عليه . رتّب سيرافيم تلك الكومة وجعلها أنيقة ، ثم ذهب ليستلقي ، ثم نثر الماء أمام المقهى ونظف المكان .

في تلك الليلة حلّ سيرافيم ضيفا على ابنيو ، غير أنه رفض النوم داخل المقهى . عزم أن يستلقي في وسط الساحة الصغيرة أمام المقهى ، وصار يهيء لنفسه سريرا .

خاطبه ابنيو قائلا :

- أنت تبحث على الضحك ! إن لم تكن راغبا في النوم داخل المقهى ، فلم لا تستلقي هنا تحت السقف ؟ أسند ظهرك إلى الجدار ، واستلق على الدكة إن طاب لك ذلك !

- لا ، شكرا ، أنا هنا في أحسن حال .

- ثمة تيار هوائي قليل هنا .

- لا تبال ، هبة من هواء هنا لا تسبب أذى ، وحين أموت لا تهمني هبات الهواء أو الريح .

أخذ ينظر إلى ابنيو ، وعيناه النديتان تبتسمان . همس ابنيو في نفسه ، وهو يشاهد سيرافيم يضع يده في مقدمة قميصه : « يخاف أن تسرق نقوده » .

أباح له أن يفعل ما يريد ، وأغلق المقهى ، واتجه إلى بيته .

في الصباح التالي لم يأت مبكرا ، وصل في ساعة متأخرة كي يفتح مقهاه ، فشاهد سيرافيم جالسا على الدكة يتناول فطوره ، ويقطع بسكينه الصغيرة شرائح الخبز ، مثلما كان يفعل في اليوم السابق . وقف ابنيو أمامه ، وأطال إليه النظر ، وما لبث أن استوضح :

- ماذا تنوي ؟

أجابه سيرافيم ساخرا :

- ماذا أنوي أنا ؟ لا شيء ، لم أنسَ أحدا ، لقد ذهبت وأعطيت نقودا إلى تلك « الباقلينا » ، هذه التي جاءت الى هنا ليلة البارحة تطلب المال . كنتُ قبل قليل في بيتها ، وأخبرتني كل شيء .

- كيف تعطي نقودا الى شخص لا تعرفه ؟ ماذا لو كانت تلعب بك ؟ ماذا لو أنها لم تسدد لك ما دفعت اليها من نقود ؟ !

- لست قلقا ، فسوف تسدد لي . لتنقلنّ زوجها الى المستشفى ، ولعل الأطباء يساعدونه ، ولسوف تسدد لي المال فعلا . فقد عقدنا فيما بيننا اتفاقا ، ولست من أمري في عجلة .

عضّ ابنيو على شفتيه وصمت ، ثم سأل :

- والمعطف ؟ كيف ستشتري لك معطفا ؟

- لديّ معطف الآن ، أليس كذلك ؟ هذا هو ، انظر اليه !

وتناول سيرافيم معطفه عن الدكة وفتحه .

- هذا هو معطف حقيقي رائع ، ليس فيه ما يعيب ، أبدا .

كان يبتسم ، وطفق يهز رأسه في لطف من جانب إلى جانب كمن يعد الدرزات أو يتذكر حدثا من الأحداث . طوال العشر سنوات الماضية أو أكثر ظل يَعِدُ نفسه بمعطف جديد ، فهو في فتوته أنفق كل قرش كسبه على الشراب ، وانقطع الآن عن الشراب لأن صحته ساءت ، إلا أنه يبذر أمواله على الدوام ، مثلما فعل في ذلك الصباح مع باقلينا ، وهذا ما جعل تلك الدرزات الضخمة الشهباء من قماش العباءة تبدأ في الظهور على معطفه .

انبرى يقول ، وفي نبرة صوته غنة من سعادة غامرة .

- بلى ، إنه معطف رائع ، معطفي هذا . سأرقعه من جديد ، وستراني أرتديه في الشتاء المقبل أيضا .

و استرسل سيرافيم يخاطب ابنيو دون أن يرفع إليه نظره ، وترك المعطف ينزلق على ركبتيه ، في حين هبّ يمدّ بصره الى البعيد ويبتسم . □

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

الاسبرين : هل هو أنفع العقاقير جميعا ؟

نشرت مجلة نيو انجلند الطبية ، وهي مجلة أمريكية عرفت برصانتها ، في شهر فبراير الماضي (١٩٨٨) ، بحثا جديدا ، يؤكد فاعلية الاسبرين في الوقاية من النوبات القلبية ، ويحدد الجرعة الكفيلة بتلك الوقاية بقرص واحد (٣٢٥ ملغم) فقط ، كل يومين .

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا البحث من خطورة ، فالنوبات القلبية تعتبر العلة القاتلة رقم (١) في الولايات المتحدة ، فهي تصيب ما لا يقل عن ١,٥ « مليون ونصف » نسمة ، وتودي بحياة ثلثهم تقريبا عاما بعد عام ، فضمان الوقاية منها ضمان لانقاذ عشرات الآلاف من موت محقق ، فهو إذن جدير بكل تقدير ، حتى لو جاء بفعل عقار جديد باهظ الثمن ، فما بالك وقد جاء بفعل عقار قديم زهيد الثمن هو الاسبرين ؟

ويتساءل المرء بعد هذا فيما إذا كان الاسبرين هو أنفع العقاقير العجيبة الحديثة (Wonder dreps) جميعا ، فهو من أقدمها ، إن لم نقل أقدمها على الاطلاق ، فقد وصفه أبقراط لمرضاه قبل ٢٣٠٠ سنة ، حين نصح النساء الحوامل بمضغ لحاء شجر الصفصاف ، إذا جاءهن المخاض واستبدت بهن آلام الطلق ، فعصارة اللحاء المذكور تحتوي على حمض الساليسيليك وهو العنصر الفعال في الاسبرين ، وسر قدرته على تسكين الآلام . لا عجب إذن إن ظلت عصارة اللحاء المذكور هي العقار العُشْبيّ الشعبي الأول المستعمل في مشارق الأرض ومغاربها على مر العصور .

جاءت سنة ١٧٥٨ حين نجح ادوارد ستون في إعادة اكتشاف فاعلية عصارة لحاء الصفصاف ، لكنه عجز عن عزل العنصر الفعال في تلك العصارة ، ففشل في الحصول على إقرار الجمعية الملكية البريطانية باكتشافه ، ولم يكد يمضي ربع قرن أو يزيد قليلا حتى نجح العالمان الايطاليان فونتانا وبروجنا تلّي في عزل العنصر الفعال ... الساليسيا عن لحاء شجرة الصفصاف .

وفي عام ١٨٩٧ نجح فليكس هوفمان أحد العلماء العاملين في شركة باير في تطوير الاسبرين ، ثم في تصنيعه سنة ١٨٩٩ ، بقصد معالجة أبيه من آلام الروماتزم . وهكذا شاع الاسبرين ، وأصبح الدواء الشعبي المسكن للآلام ، الخافض للحرارة ، والدواء الفعال في معالجة الأمراض الروماتزمية ، والناجع في الحد من الالتهابات ، وذلك قبل حلول القرن العشرين .

بحث طبي جديد يؤكد أن تناول قرص واحد من « الاسبرين » كل يومين يكفي للوقاية من النوبات القلبية .

انتشر الاسبرين في الولايات المتحدة الامريكية ودول اوروبا ، لفائدته في تنشيط عضلة القلب ، وبلغ استهلاكه في العالم معدل ١٢٣ بليون حبة في السنة الواحدة .

لا عجب إذن إن انتشر الاسبرين وبالتالي رخص ثمنه ... فزاد انتشاره وهكذا ... وقد بلغ ما يستهلك من الاسبرين سنويا (٤٥٠٠٠) مليون حبة في الولايات المتحدة ، و (٧٠٠٠) مليون حبة في بريطانيا ، و (١٢٣٠٠٠) مليون حبة في العالم ككل .

وقد احتسبوا الكميات المستهلكة من العقار في الولايات المتحدة على أساس يومي فوجدوها (٤) أطنان في اليوم الواحد !

وازداد الأسبرين انتشارا ولا ريب حين اكتشف العلماء قبل بضع سنوات فوائد جديدة للاسبرين ... نذكر منها تنشيط عضلة القلب ، وتوسعة الشرايين ، والمناعة ضد تخثر الدم ، وكانت الجرعة التي نصحوا بها قرصا أو قرصين في اليوم الواحد .

على أن الأسبرين ليس سحرا ولا هو بالكعك أو الشيكولاته ، فقد اكتشفوا قبل سنة واحدة أو تزيد قليلا صلته الوثيقة بآفة راي (Reye) التي تصيب الأطفال ، حقا انها نادرة ، ولكنها خطيرة وقد تكون قاتلة ، هذا بالاضافة الى اثاره الجانبية التي عرفها الكثيرون منذ زمن غير قصير .

فقد يتسبب الاسبرين بنزيف داخلي وقد يصيب المرء بالغثيان (Nausea) ، وهو يؤدي الى تفاقم التقرحات المعوية اذا وجدت ، وقد يسببها اذا تناوله المرء ومعدته فارغة ، وقد يؤدي نزيفه الداخلي الى السكتة فالموت ... أضف الى ذلك ان بعض الناس يعانون من حساسية الأسبرين ... فهم معرضون للصدمة (الاليرجية) اذا هم تناولوه .

فالاسبرين اذن ينطوي على مخاطر وأضرار بقدر ما يعود على المرء بالمنافع والفوائد ، من هنا كانت الحيطة ضرورية عند استعمال الاسبرين ، بحيث يمتنع عن استعماله الذين يعانون من حساسية الاسبرين ، أو من التقرحات المعوية ، ولا يتناوله المرء الا عقب وجبات الطعام مباشرة ومع وفرة من الماء ... فاذا ما روعيت هذه الشروط وأمثالها كان الاسبرين ، دون أدنى ريب ، من أنفع العقاقير الحديثة ان لم يكن أنفعها اطلاقا ، فضلا عن كونه أقدمها ، وأرخصها .

الانترفرون والحوامل

من المعروف أن الانترفرون مادة بروتينية تساعد جهاز المناعة في الجسم على قتل فيروسات بعض الأورام السرطانية ، لكن للانترفرون هذا فائدة أخرى ذات أهمية كبيرة ، فقد ثبت للباحثين الأمريكيين العاملين في مختبرات جامعة كولمبيا في « مسوري » أن في استطاعة الانترفرون الحيلولة دون إسقاط الأجنة اسقاطا تلقائيا ، وقد نجحت التجارب التي أجريت على الخراف والبقر والخنازير ، ولاسبيل الى الجزم ـ حاليا ـ بأنها قد تصيب مثل ذلك النجاح ، حينما تجرى على الحوامل من بني الانسان في مستقبل قريب .

هل نتوقع اكتشاف شريعة حمورابي ثانية ؟

يبدو أن آثار الماضي التي لم تكتشف بعد في منطقتنا ـ المنطقة العربية ـ أكثر بكثير من تلك التي تم العثور عليها ، ويصدق هذا خاصة على سوريا حيث نجحت الحفريات في أواخر السنة الماضية (١٩٨٧) في الكشف عن أرشيف حافل بالمعلومات التي تعود إلى سنة ١٧٤٠ ـ ١٧٢٥ قبل الميلاد . وقوام هذا الأرشيف أختام ولوحات من طين يبلغ عددها ١١٠٠ لوحة مكتوبة بحروف إسفينية أو مسمارية ، وهو أرشيف ضخم ، كما يدرك طلاب علم الآثار ، ولعله أكبر من أي أرشيف آخر أمكن العثور عليه في المنطقة ، منذ أكثر من خمسين عاما ، أي منذ اكتشاف أرشيف مدينة ماري في شمال العراق سنة ١٩٣٣ .

وتجدر الاشارة إلى أن ٣٠٠ لوحة عن الأرشيف الجديد ، قد تمت ترجمتها حتى كتابة هذه السطور ، وهي تتحدث عن القلاقل التي أحدثها قطاع الطرق في الأرياف وهددوا بها المدن ، وعن الجهود القمعية الحاسمة التي قامت بها فرق من الجيش هي فرق الخيالة ، ومعنى هذا أن استقرار الأمن كان رائد السلطات تماما كما كان رائد حمورابي في شريعته الشهيرة التي عمد الى سنها ووضعها في تلك الحقبة من التاريخ القديم .

وتجدر الاشارة إلى أن جماعة من علماء الآثار من جامعة ييل الأمريكية يشاركون في أعمال التنقيب التي كشفت عن الأرشيف الجديد أيضا ، وأن الدكتور هارفي ويس هو العالم الذي يتولى الاشراف على جهود أولئك العلماء .

■■■

لقاح ضد التهاب السحايا

تعاني بريطانيا حاليا من وباء التهاب السحايا ، لا عجب إذن أن تنشط الأوساط الطبية والعلمية في انكلترا من أجل تطوير اللقاح الكفيل بكبح البكتيريا التي تسبب ذلك الوباء الخطير .

تذكر من تلك الأوساط علماء جامعة لستر وهم يركزون على تفهم الأساليب التي تعتمدها البكتيريا المذكورة بقصد توطيد أسباب العدوى واحباطها لمحاولات الجسم للتخلص من تلك الأسباب ، ونذكر علماء جامعة ساوثهامبتون أيضا وقد نجحوا بالفعل في تخليق الأنسجة البروتينية الواقية التي تلف البكتيريا السالفة الذكر (**Menin gococcus**) فتحجبها ولا تدع مجالا لمهاجمتها من قبل أجهزة المناعة في الجسم .

يقول الدكتور جون هكلز : من شأن هذه البروتينات أن تمكّن البكتيريا من الالتصاق بالخلايا ثم مهاجمتها خلايا سطح الحرقوة (جوف البلعوم) أو البلعوم الأنفي (**nasopharynx**) .

وتجدر الاشارة الى أن الأطفال بخاصة يفتقرون إلى الأجسام المضادة لبكتيريا السحايا التي لا تلبث أن تنتشر حتى تصل إلى المخ فتسبب التهاب السحايا بالمعنى الدقيق .

ومما يذكر أن منظمة الصحة العالمية تسهم بدور فعال في جهود كلتا الفئتين من العلماء .

سلامة البشرية في سلامة البيئة

الهنود الحمر ورعاة البقر

هذه قصة غريبة من قصص البيئة ، وقد ألفت بين فئتين طالما استحكم الخلاف بينهما في أمريكا وهما فئة الهنود الحمر وفئة رعاة البقر ، في ولاية داكوتا ووادي الجحيم بالتحديد .. فمنذ سنة ١٨٦٨ حين وقعت المعاهدة التي اعترفت للهنود بملكية التلال السوداء الغنية بالمعادن (التلال المذكورة جزء من وادي الجحيم الممتد حوالي ستة أميال) والخصومة إن لم نقل العداوة ، قائمة بين الفئتين ، حتى كان الربيع الماضي (١٩٨٧) حين أقدمت شركة (هوني ول) على شراء (٦٢٠٠) فدان من وادي الجحيم ، وكان القصد من شراء تلك المساحة اجراء التجارب الحية على الذخائر الذرية التي تصنعها الشركة ، وبخاصة قذيفتها المغموسة باليورانيوم والمعدة للفتك بالدبابات ، ومعنى هذا أن البيئة في منطقة الوادي باتت مهددة بالتلوث الذري فيما لو سمح للشركة العملاقة باجراء تجاربها المزمعة ، لا عجب إذن أن تناسى الخصمان أحقادهم التي طالما فرقت بينهم فتآلفت قلوبهم وتوحدت جهودهم بسبب البيئة ومن أجل حمايتها .

وتجدر الاشارة إلى أن شركة(هوني ول)ليست شركة صغيرة أو نكرة ، وان التجارب التي تنوي اجراءها في منطقة وادي الجحيم ذات مساس بأغراض الدفاع وبالأمن القومي ، ثم إن اليورانيوم الذي ستغمس فيه قذيفة الدبابات ذو اشعاع منخفض ومستنفد ، كما أكدت الشركة التي تحتل المنزلة رقم (٥٠٠) في تصنيف الشركات التي تعده مجلة فورتشن ، فالمخاطر التي تتهدد البيئة إذن ليست ذات بال . حسب رأي الشركة .

يرد رعاة البقر والهنود الحمر بأن التلوث الذري ليس الخطر الوحيد الذي يتهدد البيئة ، فهناك الذعر الذي سيصيب الكائنات البرية فيعمل على تنفيرها من مواطنها

منذ مئات السنين دب الخلاف بين الهنود الحمر ورعاة البقر في وادي الجحيم بولاية داكوتا بأمريكا ، لكنهم تناسوا هذا الخلاف الآن لمنع تعريض المنطقة لتلوث ذري .

وتخليها عنها ، وذلك تبعا لما سيرافق التجارب المزمعة من أزيز وضجيج .

ويشيرون إلى اعتبارات وبواعث أخرى غير بيئية ، فمن شأن التجارب أن تؤدي إلى انخفاض في قيمة الأرض لامحالة ، وإلى النيل من القداسة التي تتميز بها المنطقة حسب معتقدات الهنود الحمر عامة وقبائل السيوكس خاصة .

ولاتنفي الشركة اقتران التجارب بالأزيز والضجيج ، لكنها تنفي بشدة أن يكون لهذا الأزيز أي أثر على كائنات المنطقة ، ذلك أن جدران الوادي الشاهقة (٤٠٠ قدم) كفيلة بامتصاص الضجيج ودفنه في موقعه ، أما القداسة المزعومة فمبالغ فيها حسبما تؤكد اللجنة التي ألفتها الشركة للتحقيق في أمر هذه القداسة وفي مداها .

ويبدو أن الفئتين المتحالفتين توشكان على الظفر ، فسلامة البيئة تحتل المكانة العليا بين شتى المصالح ، حتى في أمريكا .

■■■

الإدمان على الخمور في أمريكا . هل بدأ يتقلص ؟

تشهد الولايات المتحدة حاليا حملة ضد الإدمان على الخمور ، على غرار الحملة التي شهدتها ضد التدخين في غضون العشرين أو الثلاثين سنة الماضية . والظاهرة أن حملة مكافحة الخمور قد بدأت تعطي ثمرتها الطيبة ، على الرغم من قصر المدة التي انقضت على مباشرتها .

على أن النجاح الذي أصابته هذه الحملة لم يشمل الشباب والفتيان بل لعله اقتصر على كبار السن من المدمنين ، ويعزى ذلك إلى الدعاية الفائتة ، التي لم تقدم السلطات بعد على حظرها والتي كانت ومازالت تؤثر أبلغ الأثر في صغار السن الذين لم يبلغوا العشرين من العمر .

يقول لوران آرتشر : « حسبنا أننا بدأنا نتحسس مواطن الضعف في أسلوب حياتنا ، فهذه هي الخطوة الأولى في وعينا الصحي ، وحرصنا على تحسين صحتنا وقائل هذه الكلمات يشغل منصب المدير بالوكالة للمعهد الوطني لمكافحة الإدمان على الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية .

كينيا

.. الوجه الآخر لأفريقيا

استطلاع : محمود عبدالوهاب / تصوير : طالب الحسيني

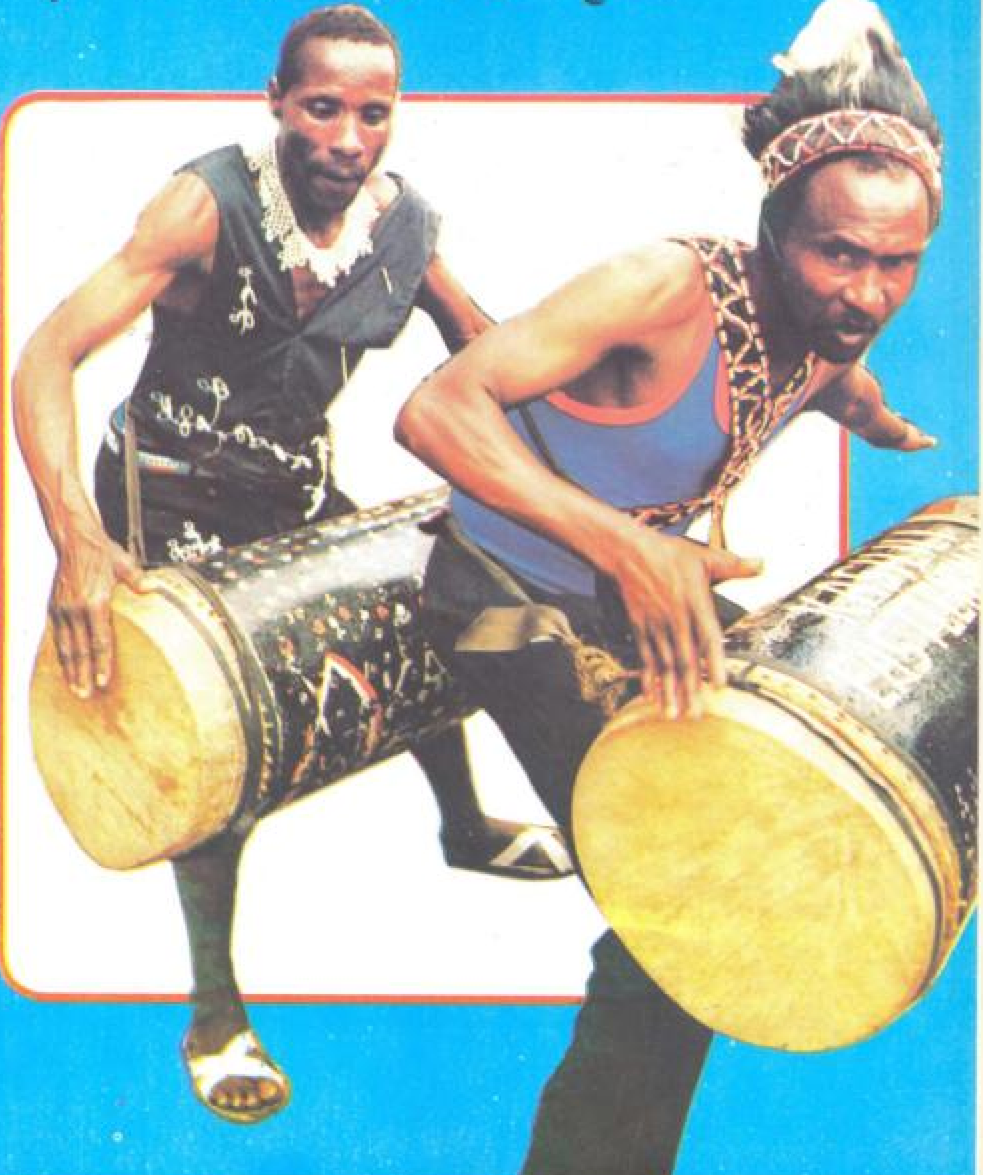

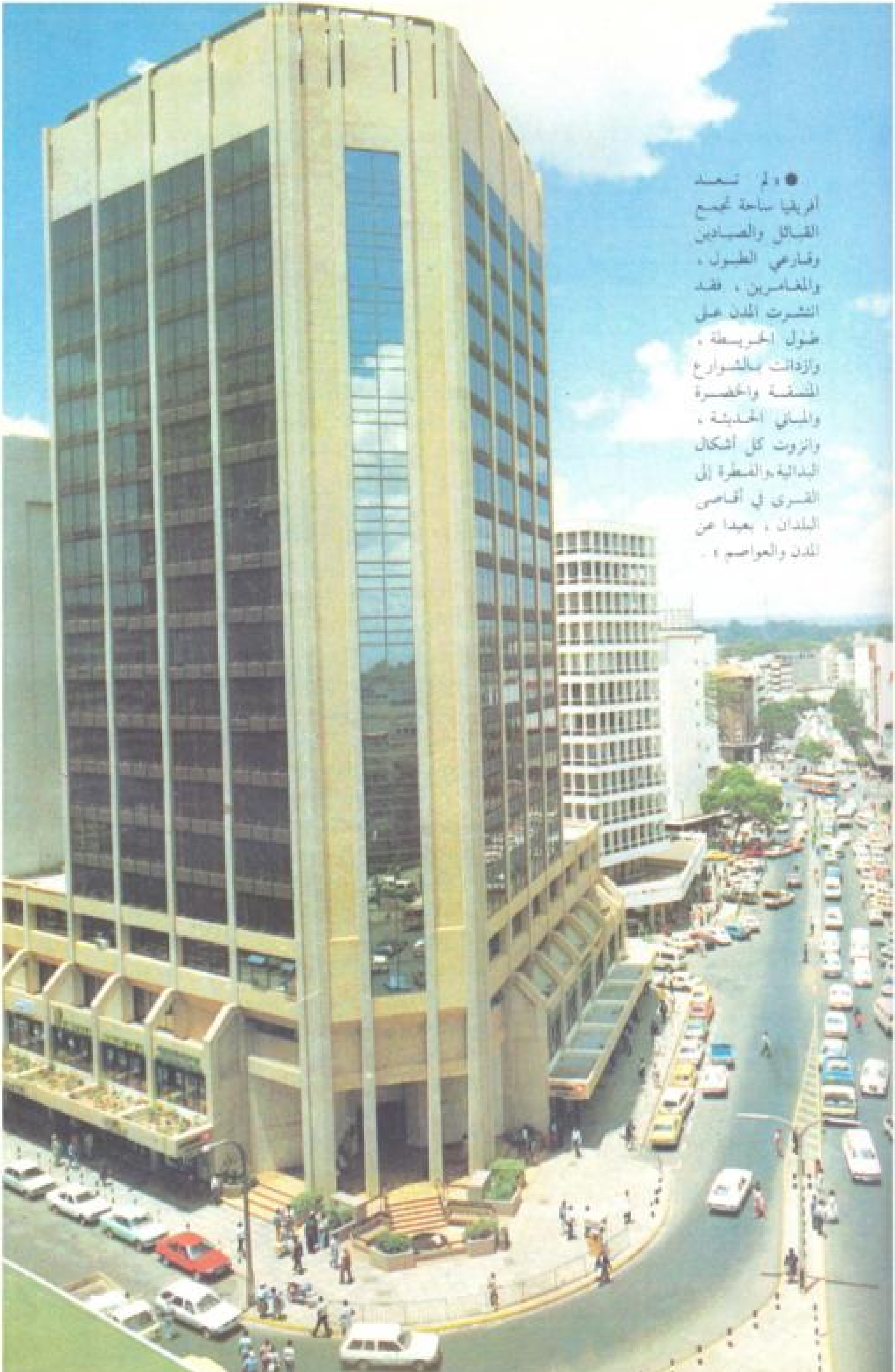

● ولم تعد أفريقيا ساحة لتجمع القبائل والصيادين وقارعي الطبول ، والمغامرين ، فقد انتشرت المدن على طول الخريطة ، وازدانت بالشوارع المنسقة والخضرة والمباني الحديثة ، وانزوت كل أشكال البدائية والفطرة إلى القرى في أقاصي البلدان ، بعيدا عن المدن والعواصم ».

« عندما نذكر أفريقيا تتداعى إلى أذهاننا صور الجوع والجفاف ، وقوافل الأطفال الذين يحتضرون جوعا ، ونتذكر تاريخا من الاستغلال والاستعمار ، وتلمع أحلام الثراء والانقلابات .

لكن هل يخطر بذهن أحد أن أفريقيا مكان رائع للسياحة والاستجمام ؟ وهل يصدق أحد أن أفواج السياح لا تنقطع طوال العام ؟

هذا ما انطلقنا نستكشفه في أرجاء كينيا ، البلد الذي يتمتع بأجمل طبيعة في بلاد الدنيا ، بلاد السهول والجبال والغابات المفتوحة » .

دق جرس التنبيه ، وانطلق صوت قائد الطائرة يقول : سيداتي ، سادتي ، بعد قليل سنهبط في مطار جوموكينياتا الدولي ، حيث التوقيت المحلي هو السابعة وعشرون دقيقة صباحا ، ودرجة الحرارة ست وعشرون درجة مئوية .

ومن نافذة الطائرة أحاطتنا سماء صافية بلا غيوم ، وكلما اقتربنا من الأرض تبدو ساحات خضراء ممتدة ، تشقها ثعابين الأسفلت السوداء ، والشمس ما زالت رقيقة ، وثلث السماء الأول فقط هو الذي يستضيء بها . وعند خروجنا من باب الطائرة أنعشنا الهواء الرطب النقي ، والوجوه السمراء تبتسم وتلقي بتحية أفريقية : « جامبو » ، وحفظنا أول كلمة من اللغة السواحلية .

في قاعة المطار إجراءات شديدة البساطة ، مكتب صغير للاطلاع على البطاقة الصحية للتأكد من التطعيم ضد الكوليرا والحمى الصفراء ، وبجواره منضدة عليها عديد من استمارات الحصول على تأشيرة دخول ، وفور ملء الاستمارة تتوجه إلى صندوق تسليم رسوم الدخول التي تتفاوت من جنسية إلى أخرى ، وفق مبدأ المعاملة بالمثل ، ثم تتجه إلى مكتب الهجرة والجوازات الذي يضع خاتم الدخول على جوازات السفر ، وتعبر البوابة لتتلقاك فتاة أفريقية ، بالزي الوطني ، وتهمس برقة مرحبة بك في كينيا .

ولا تشترط كينيا الحصول على تأشيرة دخول مسبقة لجميع الجنسيات ، باستثناء مواطني عدد محدود جدا من الدول .

في الجمرك يسأل مفتشو الجمارك عن شيئين : الأدوات الكهربائية أو الالكترونية ، والعملة الأجنبية ، ويوضح لك ببساطة قواعد دخول وخروج النقد الأجنبي ، فمن حق أي زائر أن يدخل مع أي كمية من العملات الأجنبية ، شرط أن يثبتها في استمارة خاصة بذلك ، ويحتفظ بايصالات التحويل الرسمية ، وعند الخروج يستطيع بكل سهولة أن يعيد تحويل العملة الوطنية إلى عملات أجنبية ويخرج بسلام .

طوال الطريق إلى الفندق كانت الخضرة البكر ، والأشجار والمساحات البسيطة تمنحان العين تحية رقيقة ، وتقدمان بطاقة تعارف طيبة . وداخل المدينة تظهر آثار الانسان في تهذيب الخضرة ، فتحولت إلى حدائق تملأ الشوارع والميادين . والمباني حديثة عالية ، مزدانة شرفاتها بالمزروعات المنزلية ، والطرق على الرغم من ازدحامها بلا ضوضاء .

وعند باب الفندق سمعنا « جامبو » مرة ثانية ، وسألت قائلها ، حامل الحقائب ، فقال لي : إنها تعني مرحبا . وفور وقوفي أمام قسم الحجز بالفندق بادرت الموظف قائلا « جامبو » ، فاتسعت إبتسامته مقرونة بتحية صباح أفريقي .

حيرة مبتدىء

أجهدت ذهني كثيرا وأنا أحاول أن أتذكر كل الأفلام السينمائية التي رأيت فيها السائحين ، وكل الروايات ، وكل مشاهداتي الشخصية ، لكي أحاول أن أكتسب بعض سلوك السائحين ، ماذا يفعلون ؟ وكيف يتصرفون ؟

قبل السفر بأيام قليلة كانت المفاجأة في اجتماع مجلس التحرير ، فبعد أن عرضت كل ما يمكن أن نفعله في كينيا قال رئيس التحرير : ولماذا لا تقدم وجها آخر لبلدان العالم الثالث ، وخاصة أن السياحة واحدة من أهم مصادر الدخل القومي في كثير من

البلدان ، وهي مدخل للتاريخ ، ووصف حقيقي للجغرافية والمجتمع ؟ وقد استقر رأي المجلس أن أسافر ، وأنظر لكينيا كسائح ، وأكتشفها من الداخل كصحفي ، ووقعت في المطب ، وعانيت من الحيرة .

أمام موظف الاستقبال كانت أول مظاهر الحيرة ، فاجأني الموظف بأنه لا بد لنا من الانتظار ساعة ونصفا على الأقل ، لكي نتسلم غرفتنا ، ولأنني لم أكن أول من يقول له هذا الرد ـ فقد كان حولي عدد كبير من السائحين القادمين من المانيا الغربية ـ فقد انطلقت أحدث الموظف عن احترام الوقت ، وتعب الآخرين ، وخاصة أننا قد أجرينا الحجز منذ أكثر من شهر ، وحددنا فيه موعد وصولنا بدقة ، وهزّ لي الموظف رأسه ، وانصرف لغيري . وبينما كنت أغلي غيظا كان السائحون الآخرون يجلسون فوق المقاعد ، ويتجولون في بهو الفندق ، بعضهم يحتسي القهوة ، وآخرون يجلسون فوق حقائبهم ، والبهو شديد الازدحام ، فقد تصادف وصول فوجين متتالين خلال نصف ساعة فقط ، وعلى الرغم من ذلك فالكل يبتسم ويضحك ، ويطلقون النكات ـ الباردة ـ على الموقف كله ، ويقهقهون ، وأنا وزميلي المصور فقط نتميز غيظا . وانتابتني الحيرة وهمست لزميلي : إننا نبدو جادين أكثر من اللازم ، وما هكذا يكون السائحون .

رب ضارة نافعة

استسلمنا لقدرنا ، وانزوينا على مقعدين في ركن البهو الكبير ، وبدأنا نتناقش أنا وزميلي حول خطة عمل ، واتفقنا أنه بعد أن نتسلم الغرفة سوف نتصل فورا بمكتب الصحافة الأجنبية في وزارة الاعلام ، نخطرهم بوصولنا ، ونحدد معهم موعدا في نفس اليوم ، فنحن في آخر يوم عمل في الاسبوع ، والغد هو السبت ، تبدأ به عطلة نهاية الأسبوع . بجوارنا جلس زوجان أميركيان ، رجل وزوجته ، تجاوزا الستين من عمرهما ، قال الرجل إنهم في الغرب قد ملوا من هذه الأماكن المحفوظة التي يستطيع الانسان أن يراها في مدينته أو مدينة أخرى قريبة ، لكن الجديد المثير يكمن في العالم الذي لا يعرفونه ، ولأنه قرأ كثيرا عن جمال كينيا ، وسمع عنها من أصدقائه

● خريطة كينيا تبين موقعها مع جيرانها

الذين زاروها ، فقد قرر هذا العام أن يحضر هو وزوجته بدلا من ذهابهما إلى مدينة أوروبية أو أمريكية ، ثم ـ وهو الأهم كما قال محدثي ـ ان اوروبا وأمريكا الآن شديدتا البرد ، وهنا طقس نادر ، تستطيع أن تسير « بفانلة » ، ويشطلون قصير طوال النهار بلا إحساس بالبرد أو الحر ، وانضم إلينا عدد من أعضاء الفوج السياحي ، رجل كندي ، وآخر بريطاني ، وثالث الماني ، وعندما قلنا لهم إننا نخطط لأن نطير في اليوم التالي إلى ممباسا ، علق أحدهم بالتأكيد ستذهبان ما دمتما عربيين ، فتساءلت زوجة الامريكي ، لكن ما صلة العرب بكينيا ؟ وأخرج الالماني من حقيبة يده كتابا ، وقال لها : في كل كتب تاريخ كينيا هناك فصل كامل عن الوجود العربي القديم ، وبخاصة في مدن الساحل الشرقي الذي كان منطقة نفوذ بحري أيام الازدهار العربي ، عندما كانت الأساطيل العربية تحتكر الطريق البحري إلى الهند والشرق ، وفاسكو دي جاما عندما ضل الطريق ألقت به مراكبه إلى مدينة ماليندي التي تبعد عن ممباسا مائتي كيلومتر فقط ، واستعان من هناك ببعض البحارة العرب الذين أرشدوه إلى الطريق الصحيح ، وعندما عاد كتب مرافقوه في الرحلة عن « المدن الزاهرة » والتجارة الغنية التي كانت قائمة في

AFRIPRINTS & JEWELS
Alitalia

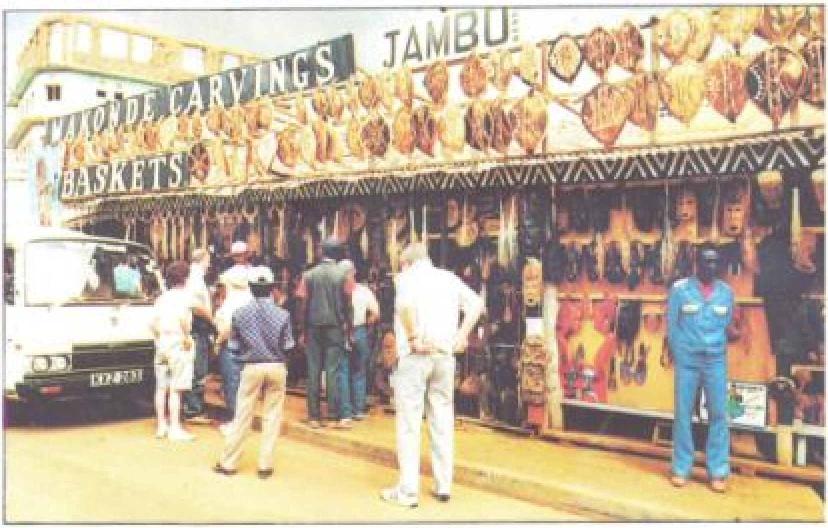
JAMBU
CARVINGS
BASKETS

● كل شيء من أجل السياحة ، ويتفنن أهل كينيا في تقديم الخدمات للسياح ، على شاطيء المحيط سائحان يركبان الجمل ، محلات ملابس « السافاري » والتحف الأفريقية تملأ الشوارع ، وداخل الغابة المفتوحة ترى الزرافات من نافذة السيارة ، وأحد المقاهي في العاصمة التي تمتلىء بالمقاهي والحانات .

مدن الساحل الشرقي لأفريقيا . ونظر إلينا الألماني وغمز بعينه ، وقال : هؤلاء الأحفاد جاءوا يفتشون عن أجدادهم ، وبسذاجة سيدة عجوز تساءلت الأمريكية : هل صحيح أنكم تفتشون عن أجدادكم ؟ وبعد أن هدأ صوت الضحكات قلنا لها : نحن جئنا كي نرى كينيا اليوم ، فهذا تاريخ انقضى ، لكن الذي يعنينا هو كينيا اليوم ، هذه الدولة التي تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا ، والتي منحتها الطبيعة جمالا نادرا ، وأغدقت في عطائها ، فتربتها خصبة ، ومطرها لا ينقطع ، ولها ساحل على المحيط الهندي ، وغابات ممتدة ، وهي بوابة خروج لعدد من البلدان الأفريقية المجاورة لها التي لا تملك سواحل بحرية ، هذه هي كينيا التي تعنينا اليوم .

التي نعرف

تقع كينيا في شرق أفريقيا ، يحدها شمالا السودان وأثيوبيا ، ومن الجنوب والجنوب الغربي تنزانيا ، ومن الشرق الصومال والمحيط الهندي ، ومن الغرب أوغندا ، وتبلغ مساحتها ٥٨٢ ألف كم مربع تقريبا ، وعدد سكانها زهاء ٢١ مليون نسمة ، منهم قرابة ربع مليون غير أفريقي . وكما تقول أبحاث علماء الآثار والانثربولوجيا فقد وجدت آثار إنسانية في كينيا ، تعود إلى حوالي ٢٠ مليون سنة ، في المناطق الواقعة حول بحيرة فيكتوريا ، وقد بدأ التجمع البشري فيها منذ زمن طويل ، وهاجر إليها عدد من القبائل الأفريقية لخصوبة تربتها ، وإطلالها على المحيط ، وقد ساعد هذا على امتزاج المجتمع المحلي بالثقافات الأخرى ، وبخاصة مع القدوم العربي لأفريقيا ، فكانت كينيا هي أول دولة أو (تجمع سكاني) في شرق أفريقيا يعرف الابداع التقني المتمثل في أدوات الزراعة الحديدية ، وما صاحب ذلك من استقرار ، وترسيخ لفكرة المجتمع ، وعندما رسخ المجتمع بدأت التفاعلات الاجتماعية بين القبائل المختلفة تتصاعد ، لكنها تتجه في طريق صياغة المعايير الاجتماعية ، من شكل السلطة والقوة ومفهومها وإقرار العادات والتقاليد ، لكن الظروف الخارجية أجهضت هذه المحاولات بتعسف وقوة ، فأفرزت مجتمعا يثير اليوم الاشفاق من كثرة متناقضاته .

إكرام الميت دفنه

قلنا إن التنظيم الاجتماعي في كينيا كان يشهد تطورا طيبا ، من خلال « ديناميكية » اجتماعية ، نتجت عن التنافس والنزاع الطويل بين القبائل المختلفة . صحيح أن السلطة كانت تتوارثها العائلات الكبرى ، إلا أن المجتمع البشري كان في طريقه إلى حل تناقضاته على الأقل من حيث العادات والتقاليد ، وذلك من خلال تطور التبادل ونموه ، والاحتكاك الانساني ، لكن هذا التطور الاجتماعي الصحي لم يقدر له أن يستمر ، فقد كسر الاستعمار هذا التطور بشكل فظ عنيف .

ويحكون في كينيا عن هذه القصة البالغة الطرافة - من وجهة نظرنا نحن - وهي قضية أوقعت البلاد في أزمة كبرى . ما زالت القبيلة ، والقبلية هي صاحبة الولاء الأكبر ، وتقسيم السلطة واختيار الوزراء يتم وفق معايير قبلية ، والقانون المكتوب يقول إنه في حالة تعارض نص قانوني مع قانون قبلي ، فإن القانون القبلي له حق النفاذ ، ما لم يكن الضرر الناجم عنه يمس الكيان الاجتماعي ، ويترك للقاضي تقدير هذا الضرر .

وحول هذا المبدأ القانوني دارت وقائع أغرب قضية شهدتها ساحة محكمة .

القضية بدأت عندما توفي أحد الأزواج الذي ينتمي إلى قبيلة « اللو » التي تستقر في غرب كينيا ، وزوجته التي تنتمي إلى قبيلة « الكيكويو » المستقرة في العاصمة ووسط كينيا ، وهي القبيلة المسيطرة على مناصب الجيش ومقاليد الثروة والمال ، وإليها ينتمي جوموكينياتا ، الرئيس السابق لكينيا .

وتقضي تقاليد قبيلة الزوجة أن يدفن الزوج محل وفاته ، بينما تقول تقاليد قبيلة الزوج إن المتوفى يدفن مكان قبيلته ، وفي مقابرها . واختلف أهل الزوج وأهل الزوجة ، وأصرت الزوجة أن يدفن الزوج في العاصمة ، ورفض أهل الزوج أن يدفن ابنهم مع موتى قبيلة أخرى ، وتصاعد الخلاف . وفي إحدى الليالي اختطف أبناء قبيلة « اللو » جثمان ابنهم المتوفى ، وهربوا به إلى الغرب ، ولجأت الزوجة إلى القضاء ، واشتعل الرأي العام ، وأفردت الجرائد الصفحات الأولى لهذه القصة ، وانقسم الناس

حولها ، وبادر القاضي بإصدار أمر إحضار الجثمان والتحفظ عليه في ثلاجة مستشفى العاصمة ، حتى صدور الحكم في القضية .

واستمرت القضية ستة أشهر ، وأحاط رجال الشرطة والمدرعات بمقر المحكمة عند كل جلسة ، وتنحى قاضيان عن رئاستها ، وشهدت الجلسات مشاجرات عديدة ، إلى أن تدخل رئيس الجمهورية ، بصورة غير مباشرة ، عندما كان يلقي خطابا عاما ، وتساءل ما هو مصير رجل إذا تزوج من قبيلة أخرى ؟ هل يذهب إلى القبيلة الأخرى ؟ أم تنضم زوجته إلى قبيلته ؟ . وفهم الناس الاشارة ، وحصل القاضي على الضوء الأخضر ، وأصدر حكما بأن ينفذ القانون العرفي الخاص بقبيلة الزوج ، ويدفن الزوج في مقابر قبيلته ، وسافر الجثمان بعد ستة أشهر إلى الغرب ، حيث تستوطن قبيلة « اللو » ، وأشار الناس إلى أن تدخل الرئيس كان يحمل قدرا من المناورة السياسية ، فهو قد انتصر لقبيلة « اللو » التي تعتبر المنافس القوي لقبيلة « الكيكويو » كجزء من سياسته في القضاء على أنصار ومؤيدي الرئيس السابق جوموكينياتا (من قبيلة الكيكويو) ، لكن هذه قصة أخرى لم يأت أوانها بعد .

أم كلثوم مطربة الحي

تسلمنا غرفتنا بالفندق ، وانطلقنا إلى مكتب الصحافة الأجنبية بوزارة الاعلام ، واستخرجنا بطاقتين صحفيتين لضمان عدم حدوث متاعب أثناء التصوير في الأماكن العامة ، وانطلقنا بعد ذلك تجوب أرجاء العاصمة .

على باب الفندق يقف الباعة ، يحملون المنسوجات الأفريقية التقليدية المطرزة بألوانها الزاهية ، ولوحات مرسومة ، وأوشحة نسائية ، وأغطية للموائد ، وبعض التماثيل الصغيرة . تصحبك على امتداد الشوارع كلها ، محلات بيع ملابس الرحلات التقليدية ، قمصان ، وبنطلونات قصيرة ، وطويلة ، وقبعات ، وأحذية ، وكلها باللون الكاكي . لمسة « رومانتيكية » رقيقة ، تأخذ السائح إلى أجواء مكتشفي أفريقيا الأوائل : سبير ستانلي والبرت وغيرهم . وبجوار محلات الملابس محلات بيع التحف الخشبية والعقود والخواتم ، وعديد من المشغولات الفضية والخشبية والعاجية ، وفي أحد الشوارع أحصينا ـ أنا وزميلي المصور ـ عدد المحلات ، وكان بالشارع ٥٨ محلا ، منها ١٤ محلا للملابس والحقائب والأحذية ، وسبعة محلات تحف ، وستة بارات ، وثلاثة مطاعم ، ومكتبتان ، والباقي موزع على مكاتب شركات الطيران ، وصيدلية ، إلخ .

وعلى الرغم من هذا فالملاحظة التي لا تخطئها عين هي نظافة الشوارع والحدائق التي تحتفظ برونقها ، فلا أحد يخرب ، ولا أحد يقطف ، ولا يسير فوقها ، وكل الشوارع مشجرة على الجانبين وفي المنتصف ، ويبدو أن كمية الشجر الأخضر بالمدينة هي السبب الرئيسي في نقاء هوائها .

عند السادسة مساء أغلقت المحلات أبوابها ، بعد أن ظلت تعمل ساعة بعد وقت العمل الحكومي ، واحتشد المواطنون على محطات الحافلات ، وبدأ السكون يخيم على المدينة ، وكأن أهلها سوف يهجرونها في الليل ، ليعودوا إليها في الصباح . وعدنا للفندق . في صباح اليوم التالي انطلقنا إلى ممباسا ، وفي طريقنا إلى المطار سألت أحد موظفي الاستقبال بالفندق عن أجرة سيارة الأجرة ، وأخذتنا السيارة إلى المطار ، وبعد أن وصلنا المطار فوجئت أن السائق يطلب نفس المبلغ الذي ذكره لي موظف الاستقبال بالفندق ، وعندما سألته لماذا لم يطلب أكثر ؟ قال لي إن الحكومة وضعت تسعيرة محددة لأجور الانتقال بسيارات الأجرة ، وكثيرا ما يفاجيء السائق والراكب لحظة دفع النقود رجل أو سيدة يتدخل بينهما ويسأل الراكب من أين استقل السيارة ، وكم دفع ، والويل للسائق إذا تقاضى شلنا واحدا زيادة عن الأجرة المحددة ، إذ ان إجازة قيادته تسحب منه .

وصلنا ممباسا بعد (٤٠) دقيقة ، وفي المطار كانت المفاجأة الأولى ، فدرجة الحرارة حوالي ٣٧ درجة ، ونسبة الرطوبة عالية ، ونحن نرتدي ملابس شتوية ، وتصبب العرق . وفي مكتب الاستعلامات الحكومي كانت المفاجأة الثانية ، فأغلب الفنادق كاملة العدد ، بسياح ومقيمين ، جاءوا يمضون عطلة نهاية الأسبوع على شاطيء الرمال البيضاء ، وبعد

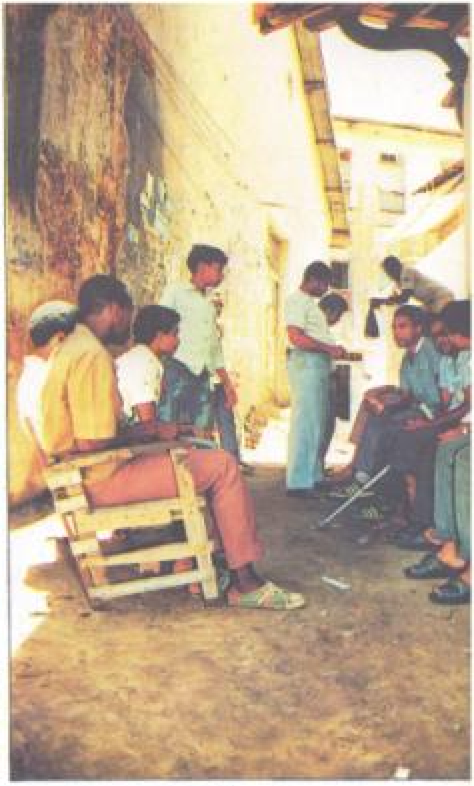

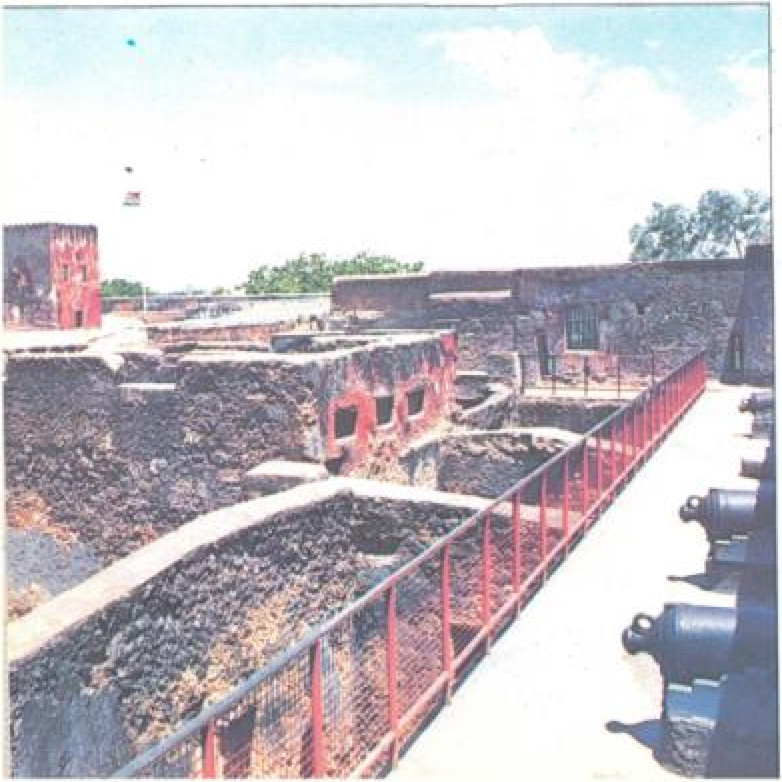

● ما زال نمط الحياة وملامح الوجوه في ممباسا يشي بالتاريخ العربي ، أما طراز العمارة في الشارع وطريقة بناء المنازل فعربية « إلى اليمين » ، عادة الجلوس أمام المنازل في الأحياء الشعبية « الصورة اليمنى العليا » ، القلعة التاريخية التي بناها البرتغاليون عندما احتلوا ممباسا ، وجددها العرب عندما استعادوا الميناء مرة ثانية (إلى اليسار مباشرة) ، وأخيرا وجه إمرأة ترتدي الحجاب العربي وملامحها عربية (الصورة اليسرى العليا) .

مباني « نادي جبل كينيا » أناقة وجمال ورفاهية

ثلث ساعة ومكالمات هاتفية عديدة عثرنا على غرفة واحدة فقط في أحد الفنادق .

المدينة تطل على المحيط الهندي ، وهي محاذية للساحل ، وعدد من الشوارع المتوازية بالمنطقة اللصيقة بالشاطىء كلها فنادق ، أما الشارع الموازي للشاطيء ففيه المباني الحكومية ، ومع انحناءة الساحل يأتي الميناء والحي القديم ، وتستمر المدينة بعد ذلك في شوارع متوازية ، ولذلك فهي مدينة كما ـ يقول أهلها ـ لا يضل أحد فيها الطريق .

الملامح ليست أفريقية ، بل أقرب إلى الوجوه العربية السمراء ، والزي عماني ، ويمني ، وفي قلب الحي القديم ذي الشوارع الضيقة والمباني العربية الطراز انسابت إلى آذاننا أغاني أم كلثوم ، ومحمد عبدالوهاب ، ووقفت مندهشا ، وسألت سائق سيارة الأجرة الذي يطوف بنا ، فابتسم ، وقال : الناس كلها هنا تسمع أغاني أم كلثوم وعبدالوهاب .

أمام أحد البيوت تسمرت قدماي ، فالبيت له شرفة خشبية ، والشرفة بها مشربيات ، وعلى إحدى النوافذ صينية نحاسية ، بها ثلاثة أوعية فخارية لحفظ الماء وتبريده . . . نمط عربي بلا جدال .

طرقت الباب بلا سابق معرفة ، فاستقبلنا صاحب البيت ، اسمه صالح خميس محمود محمد ، موظف بإدارة الميناء ، مسلم ، كيني الجنسية ، يقول إنه يعرف أن أجداده عرب ، لكن من أين أو من هم ، لا يعرف ، ويجهل العربية تماما ، ولذا فهو حريص على صلاة الجماعة ، حيث لا يقرأ المأموم القرآن . يسمع أغنيات عربية نعم ، ولا يفهم كلماتها ، لكنها كما قال نصا ، تتوافق مع روحه ، ولا يعرف كيف ، ولماذا !!

الرمال البيضاء

الشاطيء في ممباسا فتنة ساحرة ، رمال بيضاء ناصعة ، وبحر أزرق ، وخضرة عشب ، وأشجار فارعة على حافة الماء ، لوحة رائعة ، فيها كل الألوان والمتناقضات ، ولذا فعدد السائحين كبير ، ويومهم يبدأ في السادسة صباحا مع أول ضوء للشمس ، يسبحون ، ويمارسون رياضة المشي والركض فوق العشب الأخضر وتحت الشمس الحارة ، ويأكلون على الشاطيء ، ومع المغيب ينامون ، أيام للاسترخاء والاستجمام والرياضة ، ولا شيء يفعلون غير ذلك .

تحاول الفنادق أن تنشط الحركة في المساء قليلا ،

فتقدم بعض الرقصات والأغنيات الأفريقية للنزلاء على سبيل الترويح البريء قبل النوم .

والأغلبية الساحقة في ممباسا من المسلمين ، لكنهم وللأسف شديدو الفقر ، متوسطو التعليم ، ولا يوجد مثلا في المدينة كلها طبيب واحد مسلم ، والمدرسون المسلمون الوطنيون لا يتجاوزون عشرة على أحسن تقدير ، فسوء أحوال المسلمين الاقتصادية تدفعهم إلى دفع أبنائهم إلى سوق العمل ، ليتحولوا إلى مصدر دخل بدلا من الاستهلاك .

ويبدو أن أهل ممباسا قد ارتضوا هذا وقنعوا به ، وأدركوا أنهم يملكون شاطئا خلابا ، وأن الناس تأتي له من كل أرجاء الدنيا ، فانطلقوا يقدمون الخدمات المتصلة بالسياحة ، كل الخدمات بلا استثناء ، وغادرنا ممباسا عائدين إلى العاصمة ، وفي الذاكرة خيالات المدينة الأفريقية ذات الطابع العربي .

بلا أقفاص

بجانب الطبيعة الرائعة تقدم كينيا لزوارها متعة زيارة حدائق الحيوان الطبيعية المفتوحة ، وقد اشتهرت كينيا بهذه الرحلات الطبيعية التي يطلقون عليها اسم « سافاري » ، وتنتشر على خريطة كينيا مواقع الغابات المفتوحة ، في أقصى الغرب ، وتحت سفح جبل كينيا وقرب جبل كليمنجارو ، بل حتى في العاصمة نفسها .

خارج نيروبي تمتد الحديقة الوطنية على مساحة ٧٠ كيلومترا ، وهي حديقة مفتوحة من كل الجهات ، ماعدا جانبها الشرقي الذي يؤدي إلى طريق العاصمة ، والحديقة تمتلىء بالحيوانات الطليقة ، غزلان وزرافات ، وحمر وحشية ، وأسود ، ونمور ، وعلى مسافة ٧٠ كيلومترا يستطيع الزائر أن يتجول خلالها داخل السيارة ، بصحبة مرافق مسلح ، وكثيرا ما يقطع الطريق فوج من الحيوانات ، فتقف السيارات تماما ، وتلمع أضواء آلات التصوير ، وترتفع صيحات الاندهاش من رؤية الحيوانات طليقة حرة بلا أقفاص .

وقد زار الحديقة خلال ستة أشهر (١٠٠) ألف زائر ، دفعوا حوالي ٢٠ ألف دولار رسوم زيارة للحديقة . ملحق بالحديقة مركز طبي لرعاية الحيوان ، حيث تسحب الحيوانات المريضة أو الصغيرة حديثة الولادة ، حتى تكتسب قدرة على الحياة الذاتية ، ثم تطلق في الحديقة مرة ثانية .

وتعد الحديقة مزارا لكل زائري نيروبي ، سواء من السائحين الذين يمضون فترة طويلة ، أو العابرين الذين يقضون يوما أو يومين ، وليس لديهم وقت متاح للسفر خارج العاصمة . وأشهر رحلات « السافاري » هي رحلة إلى « الماساي مارا » ، ورحلة إلى « نادي جبل كينيا » .

تقع « الماساي مارا » غرب البلاد ، وهي منطقة قبائل « الماساي » ، والسفر إليها بالطائرة ، وهناك عدد من الطائرات الصغيرة التي تقوم بخمس رحلات يوميا إلى المناطق المختلفة في منطقة « الماساي » ، وتكلفة يوم وليلة حوالي مائتي دولار أمريكي . تذهب بك الطائرة ظهرا ، وتتركك هناك في معسكر « السافاري » حتى اليوم التالي بلا وسيلة اتصال مع العالم ، اللهم إلا جهاز لاسلكي في المعسكر محدود المدى ، يستقبل إشارات قائد الطائرة . والمبيت داخل خيام وسط الغابة ، والطعام في كوخ صغير ، وعدد من سيارات « الجيب » تطوف بك في المساء قبل الغروب ، وفي الصباح المبكر قبل الشروق ، حيث تبدأ وتنتهي الحركة اليومية للحيوانات المختلفة ، فكل الحيوانات بلا استثناء تتحرك أمامك ، وتراها رؤية العين على فطرتها دون تقليم لوحشيتها وبدائيتها .

الرحلة الثانية إلى « نادي جبل كينيا » ، وهي رحلة السائحين الأثرياء ، والمكان تحت سفح جبل كينيا ، وقد كان في الأصل متنزها بناه أحد الأثرياء البريطانيين لزوجته ، ثم اشتراه منه الثري العربي عدنان خاشوقجي ، وحوله فندقا ، ثم اشترته مؤخرا شركة بريطانية . والمكان ساحر ، رائع ، وهو فوق قدرة أي إنسان على الوصف . أكواخ صغيرة متباعدة ، والمبنى الرئيسي به عدد من الغرف ، كل هذا على مساحة ٤٥ فدانا ، ويمتلىء المكان بأشكال من الطيور النادرة .

ووسط حدائقه برك صناعية ، وحمامات سباحة ، وملاعب رياضية ، وساحة لركوب الخيل . والليلة الواحدة بحوالي ١٥٠ دولارا لشخصين ، شاملة للوجبات الثلاث ، وشاي الساعة الخامسة ، لكن

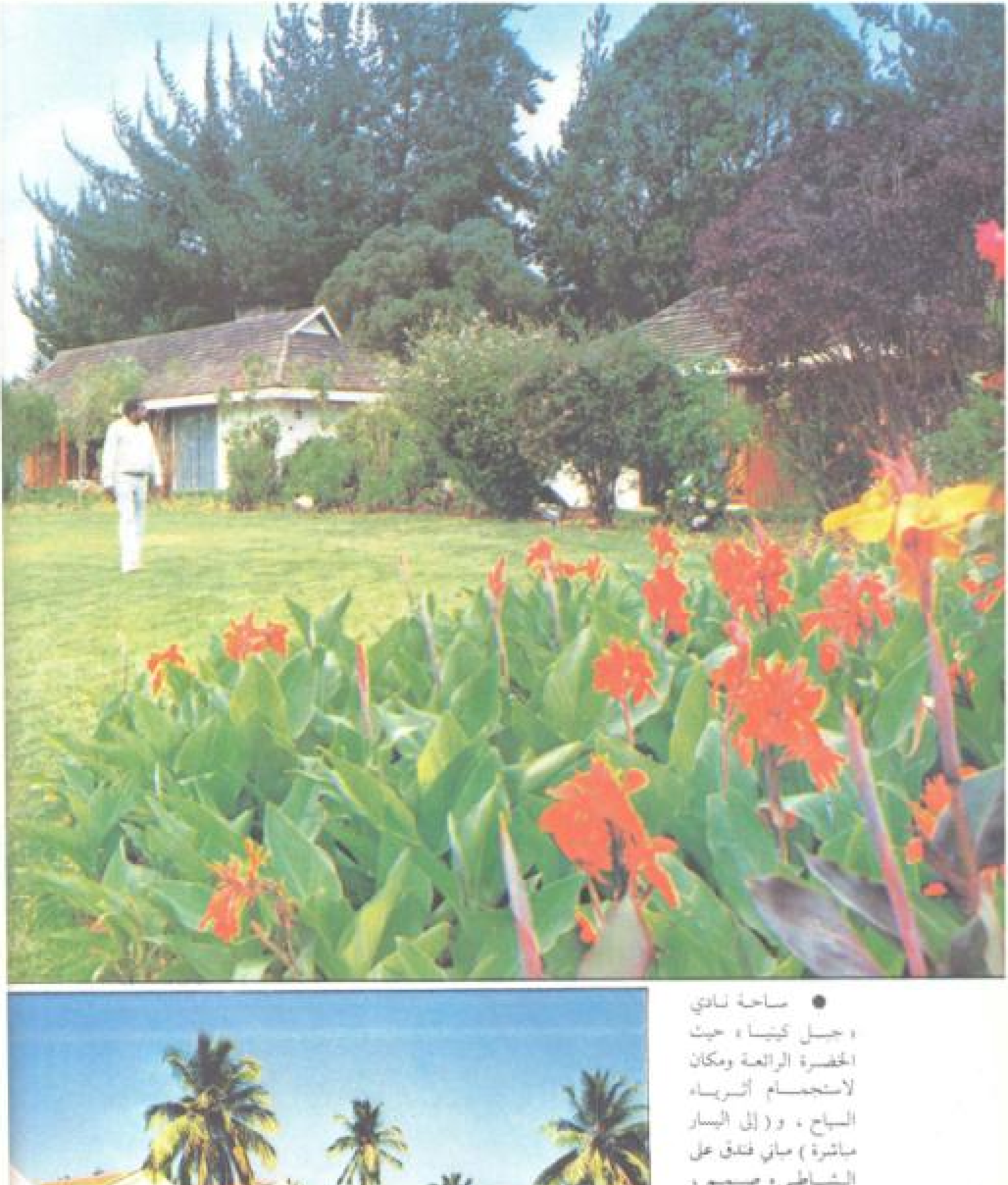

● ساحة لنادي «جبل كينيا» حيث الخضرة الرائعة ومكان لاستجمام أثرياء السياح، و(إلى اليسار مباشرة) مباني فندق على الشاطئ، صمم، لتطل كل الغرف على البحر والسائح يستمتع به، وعازف «للأكرديون» (أقصى اليسار) يقدم فنه في إحدى الساحات العامة.

ركوب الخيل واستخدام الملاعب تسدد عنها رسوم مباشرة ، لا يشملها سعر الغرفة .

والوصول إلى النادي يتم بالطائرة ، أو بالسيارة في رحلة مدتها قرابة الساعتين ، تخترق خلالها عددا من القرى الأفريقية ، والمزارع والأسواق ، ثم تصل إلى الجنة الرائعة التي فور أن تجتاز البوابة تدرك أنك في عالم مختلف ، وكما يقولون فإن كينيا هي الأكثر جمالا في العالم من حيث الطبيعة الساحرة ، ونادي جبل كينيا هو الأروع على الاطلاق . ويحتفظ النادي على جدرانه بسجل لزواره ورواده ، مشاهير العالم ، ساسة وزعماء وأكاديميين وفنانين ، كلهم جاءوا إلى هذه الجنة واستمتعوا بها .

من يحكم ؟

يحمل المجتمع الكيني داخله قدرا كبيرا من المتناقضات والعجائب ، وفي نفس الوقت يحمل بذور انفجار أيضا . غداة يوم وصولنا كان يوم الانتخابات التمهيدية لعضوية « البرلمان » ، وقد أجريت واحدة من أغرب الانتخابات في القرن العشرين ، أو كما وصفها رجال الكنيسة في كينيا بأنها عودة إلى زمان « العبيد » . « البرلمان » يتكون من ١٨٧ عضوا ، وفتح باب الترشيح للعضوية ، وفق نظام تقسيم البلد إلى عدد من الدوائر .

وجاءت طريقة الانتخابات على عكس ما عرف العالم كله ، فبدلا من الصندوق والورقة والاقتراع السري ، قررت الحكومة أن تتم الانتخابات علانية ، ففي كل دائرة يقف المرشحون على منصة ، ويصطف الناخبون في طابور طويل أمام كل مرشح ، ويقوم القاضي بإحصاء أفراد الطابور ، ويصبح هذا هو مجموع أصوات الناخبين التي حصل عليها المرشح ، ويقضي النظام بأن من يحصل على ٣٠٪ من أصوات الدائرة يصبح له الحق في دخول الانتخابات النهائية ، أما الذين يحصلون على ٧٠٪ فما فوق فيدخلون « البرلمان » دون حاجة إلى خوض الانتخابات مرة ثانية .

وأعلنت الكنيسة رفضها للطريقة « المهينة » ، وحذرت من الخلافات والانشقاقات التي ستحدث ، وبالفعل فقد شهد يوم الانتخابات عدداً من حوادث العنف . وكانت سيارات الشرطة المحملة بالجنود تطوف في شوارع المدينة طوال اليوم .

والكنيسة في كينيا واحدة من القوى السياسية والاجتماعية المهمة المؤثرة في المجتمع الكيني ، وفي كينيا المجلس الأعلى لكنائس عموم أفريقيا ، وحركة التبشير العالمية تتخذ من كينيا رأس جسر لها في حركتها داخل القارة الأفريقية ، ويكفي دليلا على أهمية كينيا للعالم المسيحي زيارة بابا روما لها مرتين خلال خمس سنوات ، أي منذ تولى كرسي البابوية .

وتنهال على كينيا كميات كبيرة من المساعدات ، سواء من هيئات أو أحزاب مسيحية أو من وكالات التنمية الدولية والقطرية ، وكما يقول المراقبون السياسيون فإن الغرب الرأسمالي المسيحي حريص على استمرار كينيا على وضعها الراهن ، وخاصة أنها هي الدولة الوحيدة الباقية في منطقة ساحل شرق أفريقيا التي لم تنتهج سياسة اشتراكية . ويؤرق الغرب كثيرا تجارب أثيوبيا وتنزانيا وأوغندا .

ويتحكم في السلطة في كينيا شريحة كبيرة ، مكونة من « التكنوقراط » ، ورجال الأعمال ، وهم القوة السياسية ، وموظفو الادارة والمتحكمون في جزء من حركة السوق ، ولا تنفصل هذه القوة السياسية عن جذورها ، وهي القوى الاجتماعية الموجودة في المجتمع التي تتمثل في القبائل . وأكبر قبيلتين هما قبيلة « كيكويو » وهي قبيلة جوموكينياتا الرئيس السابق لكينيا ، ويسيطر أفرادها على الجيش والثروة والمال ، وقبيلة « اللو » وهي القبيلة الثانية في ترتيب القوى الاجتماعية ، وكما قال لي أحد المراقبين السياسيين الذي يعمل في نيروبي أن الرئيس الحالي منذ تولى الحكم أخذ يبعد أقارب وأفراد قبيلة جوموكينياتا وأنصارها تدريجيا ، ويحاول أن ينتزع منهم المناصب التي احتلوها والمزايا التي حصلوا عليها أثناء حياة زعيم قبيلتهم ، وفي نفس الوقت يعمل الرئيس جاهدا على تخليق شريحة اجتماعية جديدة ، تحل محل الشريحة القديمة تدريجيا ، مستغلا في ذلك أن القانون يسمح لرجال السلطة بممارسة التجارة والأعمال أثناء توليهم مناصبهم .

بلا وطن

نتيجة تراكمات التاريخ فقد كان الساحل الشرقي لأفريقيا موطيء قدم عربي ، وكانت كينيا ضمن

● مهرجان موسيقي في الشارع ... والمناسبة مباركة تأييد اعادة انتخاب الرئيس !

سلطان حاكم زنجبار العربي ، حتى فرض الانجليز عليها الحماية عام ١٧٨٧ م ، وأطلقت بريطانيا على كينيا اسم « بلاد الرجل الأبيض » ، وحاولت توطين عدد من البيض فيها ، ومنحتهم الأراضي الشاسعة ، وأسبغت عليهم الحماية والامتيازات .

وخاضت الأحزاب الكبيرة ممثلة في أكبر حزبين (الاتحاد الوطني الأفريقي والاتحاد الديمقراطي الأفريقي الكيني) معارك شرسة ، ومفاوضات عنيدة مع المستعمر البريطاني ، ساندتها فيها نقابات عمال قوية ، وقبائل تستطيع أن تفرض على أبنائها احترام الاضرابات ومقاطعة الأعمال ، حتى استطاعت كينيا في ١٩٦١ أن تنال استقلالها ، وقد فشلت كل خطط التوطين والاستيطان .

وخلال كل هذا التاريخ ذاب العرب داخل المجتمع الكيني ، ونسي الكثيرون منهم جذورهم ، ولم يتبق منهم إلا إسلامهم وملامحهم المختلطة بين العربية والأفريقية ، ومن الذين لم ينسوا وطنهم وجذورهم الهنود الذين أتوا بواسطة السفن العربية أثناء ازدهار التجارة العربية الهندية . ويشكل الهنود مجتمعا خاصا مغلقا داخل المجتمع الكيني ، وعلى الرغم من أنهم وفق الوثائق الرسمية وطنيون إلا أنهم يحتفظون بكل ما يربطهم بالوطن الأم ، كالزي ، واللغة ، والعادات ، والاتصال مع الوطن الأم ، والتزاوج من داخل مجتمعهم ، وسيطرتهم على سوق التجارة ، والسوق السوداء للعملة ، واحتكار بعض المواد الغذائية ، وفيهم أعلى نسبة من المتعلمين ، كل هذا جعلهم يمارسون سلوكا فيه قدر من الفوقية والتعالي على إخوانهم الوطنيين ذوي الجذور الأفريقية .

ولذلك فما أن حدثت محاولة الانقلاب الفاشل في أغسطس ١٩٨٢ التي قام بها سلاح الطيران ، وتم القضاء عليها بسهولة وسرعة شديدة ، حتى استغل الوطنيون الفرصة ، وهاجموا منازل ومنشآت الهنود ، وأعملوا فيها تخريبا ، وكما يقول معاصرو الأحداث من الدبلوماسيين لم يسرق مسمار واحد ، لكن تم تحطيم كل الممتلكات ، وفي بعض الحالات كان الوطنيون يجلدون الأسر الهندية بالسياط بعد أن يحكموا وثاقهم .

وفهم « الجيتو » الهندي الرسالة ، وبدأ يقلم عدوانيته ، حتى وجه إليهم الرئيس الكيني في خطاب علني إنذارا بأن نهاية تحكمهم في السوق السوداء

● حركة أفواج السياح لا تنقطع من المطار طوال العام (العليا على اليسار) ، والسوق في إحدى القرى خارج العاصمة (الوسطى إلى اليسار) . والرقص الشعبي أحد مظاهر الفنون التي يحرص الكينيون على تقديمها للسائحين (السفلى من اليسار) ، وأخيرا وجه أفريقي لامرأة ترتدي الزي والحلي الأفريقية التقليدية (إلى اليمين) .

للعملة والأغذية سيدفعانه إلى اتخاذ قرار لتجريدهم من ممتلكاتهم ، ونفيهم إلى أماكن أكثر بدائية وقسوة داخل كينيا .

ابتسم للسائح كي تنعش بلدنا

تمثل السياحة المصدر الثالث للدخل القومي في كينيا ، بعد صادرات البن والشاي ، ويعتمد الاقتصاد الكيني الذي يعاني من متاعب عجز ميزان المدفوعات على تنشيط الصادرات والاهتمام بالسياحة ، كمصدر من مصادر الدخل القومي .

وقد استفادت كينيا من عضويتها في رابطة التجارة التفضيلية لدول شرق وجنوب أفريقيا التي تضم ١٥ دولة أفريقية .

استفادت كينيا من هذه الرابطة في تنشيط صادراتها ، فتوسعت في صناعات غذائية ، وهي ضامنة السوق الذي سيستوعب هذه الصناعات ، وهي تصدر لأعضاء الرابطة المربى ، والزبدة ، والعصائر ، والأغذية المعلبة ، والبيرة ، والسجائر . وتستفيد كينيا من ميناء ممباسا كمنفذ بحري يخدم عدة دول أفريقية مجاورة لها ، وتتقاضى مقابل ذلك رسوما بالعملة الصعبة . ويسدد كل مغادر لمطار نيروبي مبلغ ١٠ دولارات بالعملة الأجنبية ، فإذا عرفنا أن كينيا في عام واحد (١٩٨٦) قد دخلها مليون سائح تقريبا ، وتخطط للوصول إلى أربعة ملايين سائح في العام (في عام ١٩٩٢) ، أدركنا كم تستفيد الحكومة من كل الوسائل المتاحة لزيادة رصيدها من العملة الصعبة .

ونتيجة المتاعب الاقتصادية التي تواجهها كينيا ، وخاصة أن متغيرات عالمية تتحكم في أسعار موارد اقتصادها فإن الحياة بالنسبة للوطنيين ليست رخيصة ، فخريج الجامعة يتقاضى راتبا يقدر بألفي شلن ، والدولار الأمريكي يساوي سبعة عشر شلنا ، أي أن خريج الجامعة يتقاضى تقريبا ١٢٠ دولارا شهريا ، وهو مبلغ ضئيل بالتأكيد ، وإن كان أفضل من كثير من بلدان العالم الثالث .

ولذلك فإن اهتمام كينيا بالسياحة له أكثر من سبب ، فوق إسهامه في الدخل القومي ، وكونه مصدرا مهما للعملة الأجنبية ، فإن السياحة تفتح الباب لتشجيع الاستثمارات ، لإيجاد ميادين جديدة للتوظيف ، وتوفير فرص عمل جديدة .

وكما قال لنا وكيل وزارة السياحة ، فإن قطاع السياحة قد أسهم في العام المالي ١٩٨٧/٨٦ بحوالي خمسة بلايين شلن ، ويعمل في قطاع السياحة ٤٤ ألف شخص بصورة مباشرة ، هذا فضلا عن الأعمال الهامشية المتصلة بنفس القطاع ، وتحكم الحكومة عمليات رقابة صارمة لضمان حسن الخدمة وحسن معاملة الزبائن ، ولذلك فإنه غير مسموح على الإطلاق بأن يعمل شخص ما في مجال السياحة في وظيفة ذات احتكاك بالجمهور دون الحصول على إذن مسبق من وزارة السياحة التي تمنحه هذا الإذن بعد اختبارات دقيقة .

وتمثل ألمانيا وبريطانيا وسويسرا مناطق الضخ الأكبر للسياح إلى كينيا ، وتضع الوزارة الآن مشروعا سياحيا لتنشيط السياحة من أمريكا والشرق الأقصى والشرق الأوسط .

ويستكمل وكيل الوزارة حديثه فيقول : ولضمان الخدمة الأفضل فإن هناك كلية للسياحة والفندقة ، تمول من خلال فرض ضريبة قدرها ٢٪ على كل قائمة حساب تقدم في الفنادق ، ويخصص عائد هذه الضريبة لتمويل الكلية . وأول درس في هذه الكلية هو تعليم الطالب كيف يبتسم ، ليس انتظارا « للبقشيش » لكن لكي يسهم في انتعاش اقتصاد بلده .

الحصاد

وفي يوم السفر جمعنا أمتعتنا ، وحزمنا حقائبنا ، وأخذت أرتب أوراقي ، ودفاتر ملاحظاتي ومقابلاتي ، وزميلي يرتب أفلامه وعدساته ، واكتشفنا في لحظة واحدة أننا لم نكن قط سائحين ، لكننا كنا فضوليين ، ذهبنا نرصد ونراقب السائحين لنكتب عنهم ، وبينما نحن نمسك بخيط السياحة انجذبنا إلى شواطىء السياسة ورمال الاقتصاد وشبكة العلاقات الاجتماعية ، وأدركنا أننا فشلنا كسائحين ، وأن أفضل نصيحة لزائر كينيا أن ينسى أعماله وشواغله ، ولا يأخذ معه أوراقا وأقلاما وكتبا ، وأن يترك نفسه للطبيعة البكر الرائعة ، ويحاول أن يستمتع بها بلا هموم ولا تفكير ولا لهاث وراء مواعيد ومقابلات . □

يصدر في ١٥ يوليو ١٩٨٨

كتاب العربي

العشرون

أندلسيات

بقلم محمد عبد الله عنان

كتاب العربي مرآة العقل العربي

الكريتلية

البيت .. المتحف
التاريخ .. والأثر

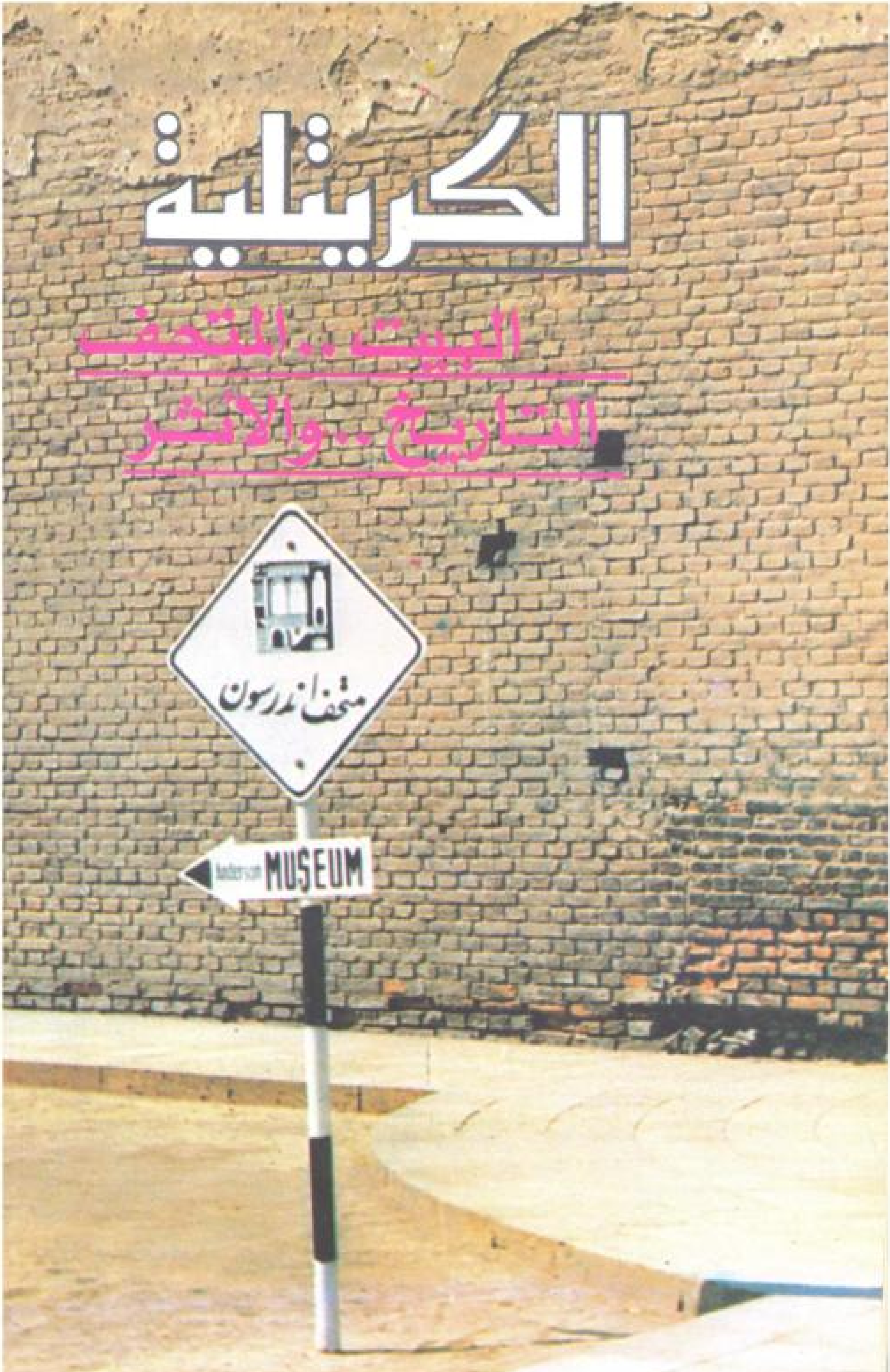

البيتان معا داخل السور .

عطفة الجامع وعمائر حديثة مجاورة .

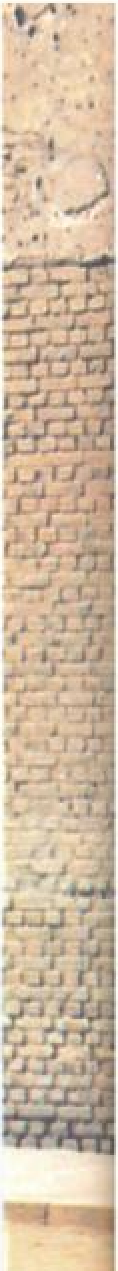

بعد أن تغادر ميدان السيدة زينب بالقاهرة بقليل ستكون أمام الجامع الطولوني ، وستصادف خلفه البيت الأثري المسجل باسم « منزل وسبيل الكريتلية » إنه أثر فني فريد في ماضيه وحاضره ، ولكل أثر أيامه الغابرة ، فما الذي يخفيه هذا البيت من أسرار ؟

بقلم : عبدالغني محمد عبدالله

لمصر الاسلامية أربع عواصم . أولها كانت الفسطاط ، ثم العسكر ، فالقطائع ، وأخيرا القاهرة . ولما جاء صلاح الدين الأيوبي بنى سورا أحاط بالعواصم الأربع ، فصارت عاصمة واحدة باسم القاهرة ، وهي تضم عدداً من الأحياء بالاضافة الى العواصم السابقة ، لكن أسماءها اختلفت .

والمسلمون في مصر وفي غير مصر ، سكنوا دورا مثل كل البشر ، وعبر كل زمان ، وكل مكان وصلوا إليه ، وجاءت بيوتهم على نمط فلسفة عمارتهم الاجتماعية ، واتخذت زخرفتها ـ بطبيعة الحال ـ عناصر تتمشى مع فلسفة فنهم الاسلامي الشهير ، وكانت عناصرها المعمارية مطابقة لعقيدتهم الدينية .

والباقي من عمائرهم المخصصة للسكن يعطينا دلالات كافية على أن بنائيها قد استندوا على ثلاثة عوامل « مناخية ، واجتماعية ، ودينية » ولو نظرنا الى مدينة القاهرة ـ في محاولة للتعرف على أمثلة لذلك لتمكننا أن نحصي عددا غير قليل تتمثل فيه تلك العوامل الثلاثة ، وهذه العناصر المعمارية والزخرفية هي قاعة الدردير ، وقاعة كتخدا ، ومقعد بيت القاضي ، وقصر الأمير طاز ، ومنزل زينب خاتون ، ومنزل جمال الدين الذهبي ، ومنزل الفق ، وقصر المسافر خانة ، وبيت السحيمي ، ثم (بيت الكريدلية أو الكريتلية) ، والأثر الأخير أصبح اليوم متحفا يحمل اسم « جاير اندرسون » ، وهو أحد أشهر الدور الباقية من العصر العثماني .

وإذا كنا اليوم نقف في قلب القطائع ، وهي ثالثة العواصم الاسلامية لمصر ، وعاصمة « ابن طولون » ، إلا أننا سنستعيد ذكرياتها في العصر العثماني .

الكريتلية . . نسبة إلى كريت

بيت الكريدلية ، أو الكريتلية يطلق عليه الآن اسم « متحف جاير اندرسون » ، ويقع في النهاية الشرقية البحرية للزيادة الخاصة بجامع « ابن طولون » ، المعروف تاريخيا ومعماريا باسم « جامع الميدان الكبير » في حي طولون ، أحد أشهر الأحياء وأقدمها في قسم « السيدة زينب » الشهير ، بمدينة القاهرة .

وهذا البيت يتكون من دارين ، أولاهما بيت الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم جلمام الجزار ، وقد بني عام (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) ، وعرف باسم « بيت الكريتلية » بعد ذلك ، نسبة إلى آخر سيدة ملكته وسكنته ، وكان نسبها ينتهي إلى إحدى عائلات جزيرة « كريت » ، ولهذا سمى العامة منزلها « الكريتلية أو الكريدلية » .

وثانيتهما هي البيت الذي بناه المعلم عبدالقادر الحداد عام (٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م) وقد عرف باسم مالكته وساكنته الأخيرة أيضا وهي السيدة آمنة بنت سالم ، وهناك أقوال أخرى ترى أن عمارته وزخارف بابه تعودان معماريا وفنيا إلى العصر المملوكي وبخاصة فترة حكم السلطان « قايتباي » . ومن المعروف أن العصر المملوكي كان قد انتهى سياسيا عام ١٥١٧م ، وعموما فإن السيادة الفنية والمعمارية المملوكية لم تنتهيا مباشرة في نفس التاريخ بطبيعة الحال ، بل استمرتا وقتاً إلى أن سادت المدرسة الفنية التركية بأساليبها وطرزها .

واتصل البيتان في وقت لاحق ببعضهما بواسطة قنطرة علوية ، هي عبارة عن دهليز ، يعرف باسم « الساباط » وهي على شكل غرفة صغيرة مربعة ، هي « الحجرة البيزنطية » ، تضم عدداً من الصلبان القديمة ، والأيقونات ، ومعظم موجوداتها يعود إلى العصر البيزنطي في الشام ، والعصر القبطي في مصر . وباستثناء هذه الغرفة ـ الساباط ـ فإن المنزلين مفصولان بطريق ضيق معروف باسم « عطفة الجامع » وهو عبارة عن عطفة قصيرة ، تبدأ من الحديقة الملحقة بالمنزلين وتنتهي بسلم يؤدي إلى الباب الشرقي للزيادة البحرية لجامع « ابن طولون » .

ونظراً لأقدمية بيت السيدة آمنة بنت سالم ، واتصالها المعماري ببعضها ـ فيما بعد ـ يمكن القول بأن المنزلين باتصالها قد صارا يكونان مجموعة معمارية واحدة متقاربة ومتصلة بالساباط العلوي .

الكريتلية حديثا

في عام ١٩٢٨م نـزعت « مصلحة التنظيم » بالقاهرة ملكية الدارين بعد أن تقرر هدمهما لتوسيع المنطقة حول الجامع الطولوني ، إلا أن لجنة حفظ الآثار العربية حينذاك ـ هيئة الآثار الآن ـ اعترضت على الهدم ، ووقفت بشدة ضد مشروعه ، وقد انتصر رأيها ، وتم إنقاذ الدارين معا ، ثم بدأت عملية الترميم على نطاق واسع ، إضافة إلى إصلاح عمارتها ومحتوياتها .

وبعد الترميم والاصلاح أصبحت الداران من أروع الأمثلة المعمارية في مصر والوطن العربي والعالم الاسلامي ، لطرز العمارة المخصصة للسكن ، وبخاصة خلال العصر التركي ، ووفقا لطرزه المعمارية والفنية أعيدت للدارين روعتها . وقد بني في الركن الشرقي بدار الحاج محمد سيل للشرب ، ذو سقف يحتوي على نماذج جميلة من الزخارف المتعددة الألوان .

وقد بني البيتان من الحجر الجيري وضم إليهما أثاث وتحف من القرن السادس عشر الميلادي وما بعده على وجه التقريب ، ومعظم هذه التحف الفنية من إنتاج آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران والشام ، إضافة إلى الصناعات المصرية المحلية ، وعدد من التحف التي جلبها « المستر اندرسون » من الشرق الأقصى ، وبخاصة من الصين ، ولم ينس بلده انجلترا فخصص قاعة باسم الملكة الانجليزية « آن استيوارت » ابنة جون الثالث وهي تضم أثاثا ذا طابع أوروبي قديم ، ثريا بزجاج ملون أحمر ياقوتي بزخارف ذهبية ، ومنضدة من طراز الملكة « آن » ، وصوراً فنية ، وأربع سجادات تركية ، وخزانتين خشبيتين . وإجمالا فهذه الغرفة ملفتة للنظر بكل محتوياتها إلى حد كبير .

حكاية « اندرسون باشا »

« اندرسون باشا » هو الميجور جاير اندرسون ، وهو (الأمير لاي) بالجيش الانجليزي الذي عمل في خدمة الحكومتين الانجليزية والمصرية في وادي النيل ، وكان هاويا لجمع التحف مغرما بحب الآثار الاسلامية ، مولعا بفنونها . وبعد اعتزاله خدمة الجيش والسفارة تقدم إلى لجنة حفظ الآثار العربية بطلب ، أعلن فيه رغبته في أن يتسلم هذين البيتين ، ليسكن فيهما ، بعد أن يقوم بتأثيثهما على الطراز العربي والاسلامي ، ويضم إليهما مجموعته الأثرية النفيسة ، ويحافظ عليهما من جميع الجوانب الفنية والمعمارية طول حياته .

وبالرغم من أن طلب (جاير اندرسون) كان يمكن أن يقابل بالرفض بطبيعة الحال إلا أن كونه انجليزيا قد ساعده في الحصول على الموافقة بسبب الوجود الانجليزي الاستعماري في مصر حينذاك (١٩٣٥م) .

وقد اشترط على نفسه أن يصبح الأثاث والتحف الفنية التي سيضمها للدارين ملكا لمصر بعد وفاته ، أو حين يغادر الأراضي المصرية نهائيا ، أيهما أسبق ، وقد قامت الادارة بتسليمه الدارين بعد ترميمهما في مقابل تنفيذ ما اشترطه على نفسه .

وأقبل (اندرسون) على تنظيم الدارين ـ بعد أن تسلمهما ـ في همة ونشاط ،وبذوق فني يدل على خبرة كبيرة بالفنون ، وأنفق في سبيل إعداد الدارين لسكناه أموالا طائلة ، صرفها في شراء الأثاث والتحف الفنية التي حصل عليها من البيوت الأثرية القديمة ، ومن أسواق (العاديات) في مصر وغيرها من البلدان ، في وقت لم يكن الاهتمام قد بلغ مداه الحالي في الاهتمام بالآثار ، والمحافظة عليها ، وكان هناك تسيب في التصرف بها .

أضاف اندرسون إلى بيت (الكريتلية) مكتبة رائعة ، عامرة بالكتب النفيسة ، كان أكثرها يتحدث عن مصر ، وبخاصة تلك التي كتبها الرحالة الذين مروا بمصر ، ومما ساعده على ذلك هوايته وولعه بالآثار الشرقية عموما والاسلامية على وجه الخصوص ، وقد تمكن من اقتناء مجموعة نادرة ، تعود إلى مختلف العصور ، واستطاع أن يؤثث الدارين بأسلوب يعيد إلى الأذهان حياة الناس خلال تلك العصور التي تم إنشاء الدارين فيها ، ويبين كيفية حياتهم ، ومعيشتهم ، ووسائل التسلية وقضاء

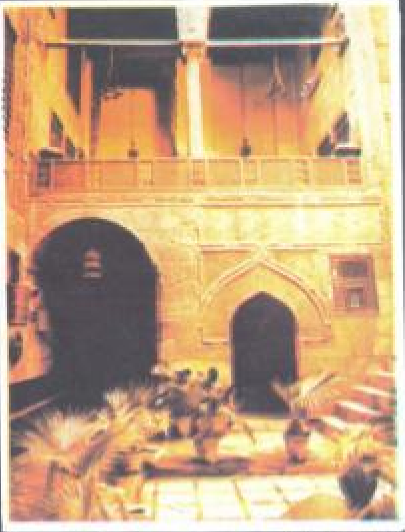

الفناء والمقعد العلوي .

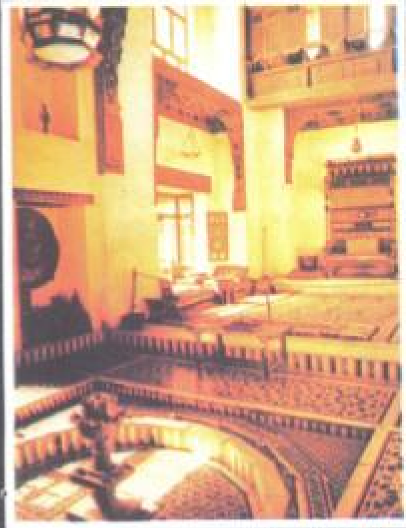

صالة الاحتفالات .

غرفة « الحريم » بالضوء الطبيعي .

أوقات الفراغ لديهم .

وهكذا أصبحت الداران سكنا لجاير اندرسون ، وعاش فيهما ردحا من الزمن ، ثم تحولتا إلى متحف ، يحمل اسمه ، واشتهر بهذا الاسم حتى الآن ، « متحف جاير اندرسون » ، وله إدارة وأثريون متخصصون وزوار .

المدخل والفناء

المدخل على يمين الداخل لعطفة الجامع ، وقد بني بالطريقة المعمارية المعروفة « الابلق » ، وهذه الطريقة عبارة عن بناء صف « مدماك » من الحجر الأبيض ، ويليه صف « مدماك » من الحجر الأحمر ، وقد زينت واجهات العقود « الأقواس » بالصيغ المعشقة ، وتلك الطريقة ـ إلى جانب دورها المعماري ـ تقوم بدور زخرفي ، وقد تم تخفيف حمل البناء عن هذه العقود بعقود أخرى جاءت فوقها .

والمدخل يؤدي إلى فسحة أو « درقاعة » ، وفي مواجهة الداخل توجد « مصطبة » بعدة لجلوس حارس الدار أو « البواب » ، ومنها يمكن الانتقال إلى الردهة « الاستطراق » ، ثم إلى الفناء المكشوف الذي تتصدره دكة « صوفا » من الخشب ، كان يجلس عليها « المقرىء » ليرتل بعض آيات القرآن الكريم صباح كل يوم ، وهو تقليد مازال متبعا حتى الآن في بعض الدور المصرية ، وبخاصة في الريف .

يتوسط الفناء « فسقية » ينتشر حولها عدد من (الكلج) ـ المفرد كلجة ـ الرخامية التي كانت معدة لحمل أزيار الماء الفخارية وقد حلت محلها الآن أواني الزرع . وفي الجدار الشرقي لهذا الفناء يوجد ثلاثة مداخل ، أحدها يؤدي إلى سلم خاص بالحريم ، والثاني يعتبر مدخلا ثانيا للدار ، والثالث يؤدي إلى السبيل .

وفي الردهة « الاستطراق » ، علقت عدة موازين من النوع المعروف باسم « القباني » ، وهي صالحة للاستعمال ، وقد نقش عليها بعض الزخارف والكتابات ، مثل قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ ، ونقش على أثقالها المعروفة باسم « الرمانات » بعض العبارات ، مثل : « أنا القباني لا

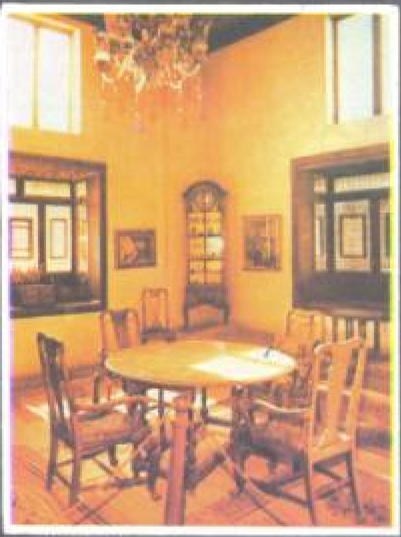

غرفة الملكة « آن » بالضوء الطبيعي

مشربية وسور حديقة السطح .

خـطى »، أي لا خـطأ ، ومثـل : « وغير الحق لا أعطي ، كما نزل المعطى ، ربي » ، وكل واحد منها داخل جامة .

وفي أحد جوانب الفناء بجوار الموازين (القباني) يوجد مصعد ، وهو عبارة عن شكل اسطواني ، يمكن سحبه بالحبال إلى أعلى السطح ، ويستخدم لرفع المشروبات الساخنة والباردة إلى صاحب الدار وضيوفه في حديقة السطح .

المقعد والقاعة الكبرى

يشرف المقعد على الحوش من الجهة الجنوبية ، ويمكن الوصول إليه عبر باب مرتفع بعقد « قوس » مرتفع ، مزخرف بالقرنصات والنقوش الدقيقة . والمقعد مخصص لجلوس الرجال صيفا ، وهو مفتوح على الفناء بواسطة عقدين ، يحملهما عمود رخامي ، له تاج بديع .

أما القاعة الكبرى فتنقسم إلى ايوانين ، يفصل بينهما جزء منخفض ، هو (الدرقاعة) ، وقد كانت لاستخدام الرجال شتاء ، وهي تحتوي على مجموعة سجادات متنوعة ، منها الايراني ، ومنها ماهو من صناعة « سنا Sehnna » ومنها القوقازي والأرمني والتركي . والقاعة الأخيرة ذات سقف غني بالزخارف ، مؤطر بأبيات من البردة المباركة .

ويمكن للزائر بعد ذلك أن ينتقل إلى غرفة (الخزنة) وفيها عدة لوحات ، ومنها ما رسمه بول ماك ، وحمزة كار .

قاعة الحريم

ويمكن الوصول إليها عن طريق درج بعد غرفة الخزنة ، وهذه القاعة تطل على الفناء بمشربيات من خشب الخرط ، وتضم عدداً من التحف والمقتنيات الفنية ، منها « تختيوشان » ، إضافة إلى بعض العلب « الشكمجيات » المطعمة بالعاج والعظم أو القيشاء الرفيعة « الزرنشان » ، وبعض الصناديق الخشبية ، وسرير ، وقطع سجاد من الأناضول ، ومنضدة ، و « منقد » يستخدم في التدفئة ، ومخبأ سري ، وهو عبارة عن (بلاطة) متحركة في الأرض لحفظ المقتنيات الثمينة ، خوفا من الاضطرابات في نهاية العصر العثماني .

غرف كثيرة

وإضافة إلى ذلك يوجد عدد من الغرف ، مثل غرفة الكتابة ، وغرفة القراءة التي تضم منضدتين ودواليب حائطية ، منها دولاب يغلق من الخارج ، أما القاعة الفارسية فهي التي اتخذ منها (جاير اندرسون) مكانا ينام فيه ، وتضم أثاثا من صناعة إيران ، وقد فرشت أرضيتها بسجادة من صناعة الأناضول ، إضافة إلى بعض الفنيارات - شمعدانات زجاجية - مزخرفة ، وتضم الدار علاوة على ذلك غرفا بأسماء مختلفة ، مثل الغرفة التركية التي تضم أثاثا من القرن التاسع عشر ، والغرفة الصينية ، والمكتبة ، ومعرض الصور ، والمتحف الذي يضم عدداً من التحف الفنية ، منها تمثال للقطة المقدسة عند قدماء المصريين « باستت » ، إلى جانب عدد من التحف المصرية عبر العصور المتعاقبة . ومما يلفت النظر خزانة تضم عدداً من الطاسات النحاسية المدون عليها بالطرق بعض الطلاسم ، وكتابات هي عبارة عن أدعية ، وهي المعروفة باسم « طاسة الخضة » ، إضافة إلى خزانة أخرى تضم بعض الأواني الخزفية الاسلامية من صناعة إيران في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وذلك علاوة على كثير من الأواني الزجاجية المستخدمة في حفظ العطور ، وقطع خزفية إيرانية ، ومقابض سيوف من حجر الجاد Gad الأخضر ، ومجموعة من علب البارود ، وغير ذلك .

السلاملك

هو السلم الرئيسي في بيت آمنة بنت سالم ، أما حجرة الضيوف ففيها نافذة على هيئة مشربية ، إضافة إلى عدة لوحات بالبستيل والقلم الرصاص والحبر والألوان المائية وألوان الزيت ، وهي لمناظر طبيعية ، إلى جانب دولاب كبير . ومما يلفت النظر مقصورة سرية تتسع لشخصين ، عليها باب على هيئة دولاب ركن جميل الشكل ، ولا يوحي إطلاقا

بأن وراءه مدخل سري للمقصورة .

غرفة الحريم الخارجية مربعة في مسقطها الأفقي ، تضم تحفاً نحاسية وخشبية وخزفية عديدة ، مثل (نارجيلة) من الخزف ، وقدرا خزفيا ، وصفة على أربعة قوائم ، وشمعدان نحاسي ، وبلاطات مرسومة إيرانية الصنع ، أما غرفة الحريم الداخلية فتشرف هي والدهليز الموصل إليها على قاعة الاحتفالات بمشربيات ، تعرف باسم « المغاني » ، لأن المغنيات كن يقفن خلفها ، إضافة إلى أن سيدات الدار كان يمكنهن أن يشاهدن الحفلات دون أن يراهن أحد .

تعتبر قاعة الاحتفالات حقا أفخم قاعات الدار ، وهي ذات طراز عثماني ، تنقسم إلى ايوانين كبيرين ، بينها (درقاعة) ، ذات أرضية من الرخام ، وبوسطها نافورة من الفسيفساء الرخامية ، وجدران مرتفعة ، تتوجها مشربيات بديعة ، وسقف بثروة زخرفية مسرفة في الأناقة والجمال .

يضم متحف (جاير اندرسون) عدداً من اللوحات لكبار الرسامين ، مثل استيوارت ، وبرناردريس ، وكلارك هول ، وفيفيان فوريس ، وبرونزينو ، وحمزة كار ، وبول ماك ، بالاضافة إلى رسوم إسلامية ، منها ما رسم على لوحات أو على نسيج أو على سجاد أو خزف أو زجاج .

العثمانيون والوطن العربي

بدأ الأتراك العثمانيون الانتشار في الوطن العربي ، وشرع بعضهم في الاقامة بين مواطنيه ، في أعقاب سيطرتهم على هذا الوطن ، وبعد اصطدامهم بالصفويين والمماليك . والمعروف عنهم حب العزلة ، الأمر الذي يتضح من عدم اختلاطهم بالقدر الكافي المناسب لتلك المدة الطويلة التي بسطوا فيها هيمنتهم ، والتي امتدت من بداية القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين « تقريبا » ، وقد ظلوا غرباء حتى بعد تأقلمهم في بعض الأقطار العربية ، رغم انتهاء تبعية الأقطار العربية للدولة العثمانية ، وانتهاء الخلافة ، إلا أنه من الضروري الاشارة إلى أن تلك العزلة لم تكن أكثر من عادة ، وليست قسوة منهم أو تكبرا ، إذ يعرف عنهم طيبة القلب وحب الخير .

أقام الأتراك في الوطن العربي في بيوت مثل سائر الناس ، وقد جاءت بيوتهم على نمط عمائرهم ، وزخرفتها ، مناسبة لأسلوب حياتهم ، وبخاصة فيما يتعلق منها بالحجاب والعزلة ، ، وفي مجموعة بيت الكريتلية تتضح مزايا معمارية عديدة ، ونموذج حي لما كانت عليه الدور المخصصة للسكنى خلال العصر التركي العثماني .

عمائر السكن

من مظاهر العمائر المخصصة للسكن ـ خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين ، السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، الاهتمام بالزخرفة والتنميق من الداخل ، أما من الخارج فتكاد تكون خالية من الزخارف ، وإن كانت تزينها « المشربيات » ، وتظهر العمارة أشبه ما يكون بالحصن .

ويمكن لنا تحديد ما نلاحظه من تلك العناصر في بيت الكريتلية في الآتي :

١ ـ إقامة الفسقيات (جمع فسقية) الداخلية أو الفوارات (جمع فوارة) .

٢ ـ وجود الملاقف (جمع ملقف) لاصطياد الهواء بأسلوب معماري من أعلى السطح وإدخاله للغرف عبر أنابيب خاصة أو مجارٍ داخل الجدران .

٣ ـ تخفيف الاضاءة بواسطة الزخرفة بالزجاج الملون والمشربيات .

٤ ـ المداخل المصممة بطريقة (الباشور) ، وهو أسلوب معماري استخدم بكثرة في العمارة الحربية الاسلامية وهو عبارة عن مدخل منكسر يحمي من بالداخل من الهجوم أما في المنازل فهو لحماية من بالداخل من نظر المارة .

إن هذا المتحف ـ بيت الكريتلية ـ ثروة أثرية عظيمة ، يحق لهيئة الآثار المصرية أن تزهو بها وتجعل منها متحفا للزوار ، وتحيطه برعايتها الدائمة ، ومهما قيل عن عمارته ومحتوياته والجهود المبذولة في سبيل المحافظة عليه فلن يوفى حقه ، فهو أثر فريد . □

فلسطيني في الشتات

شعر : الدكتور حسين الدباغ

في هدأةِ الليال
وقبل أنْ تَلُفّني سلاسلُ السُّبات
كم مرةٍ أعادَ لي الخيال
تذكارَ أيامٍ تولّتْ وانْقضتْ إلى زوال .

* * * *

من افترارِ الثغرِ والدموع
أيامَ أنْ كان الصبا كبرعمِ الزهور :
حديثُنا عَنِ الهوى لا يعرفُ الحدود
وأعينٌ كانت تشعُّ بالحياة
اليومَ نورُها خبا ، مَضَتْ إلى زوال .

* * * *

كم مِنْ قلوبٍ أُترعَتْ ببهجةِ الحياة
لم يَبْقَ مِنْ آثارِها لنا سوى الحطام .
وعندما أَلمحُ في عينِ الخيال
صحابيَ الصِّباح :
عروتُهم وثّقها وُدٌّ لهم وَرَاحْ
رباه كيف تناثروا ؟ ذرتهم الرياح ؟
تملأ قلبي وحشةٌ يا رهبة المكان
أخالني كَمَنْ خلفني الزمان
خَبَتْ به أنوارُهُ وزهْره موات
وحدي أنا به ، تحفّني الأشباح

* * * *

في هدأةِ الليل
وقبلَ أنْ تَلُفّني سلاسلُ السُّبات
كم مرةٍ أعادَ لي الخيالُ تذكارَ أيامٍ تَوَلَّتْ
وانْقَضَتْ إلى زوال .

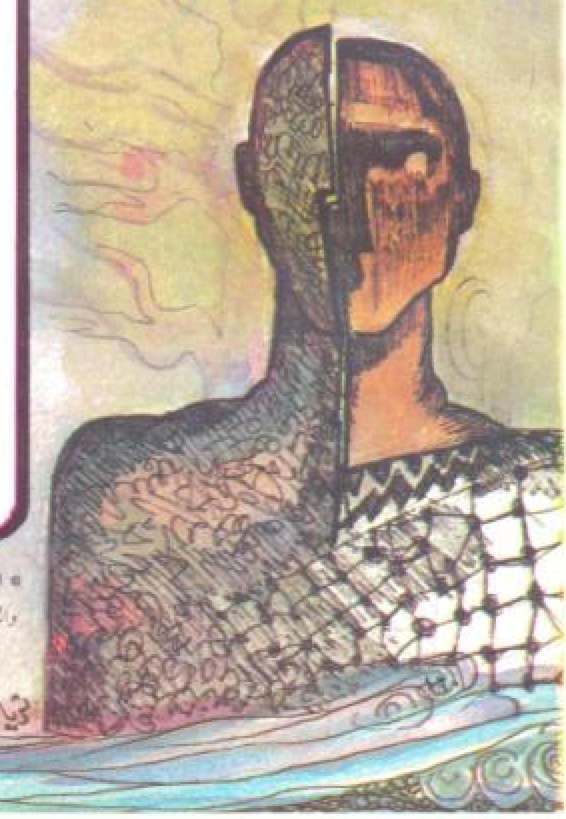

* استاذ اللغة العربية في مركز دراسات الشرق الأوسط والدراسات الاسلامية ـ جامعة درهام ـ بريطانيا

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

□ أطفالنا وعالمهم الجنسي المثير!

□ المرأة والقوة المستمدة من العمل

أطفالنا وعالمهم الجنسي المثير!

إعداد : ريم الكيلاني

« عندما يتحول الحديث إلى همس وتخفت الأصوات ويلتزم الكبار الصمت عند دخول الأطفال ، فالحديث في أغلبه يدور حول الجنس ، لكننا لا ننتبه إلى أن لأطفالنا أيضا غرائز جنسية ، يعبرون عنها بطرق متعددة ، مختلفة عما اعتدنا عليه نحن الكبار . وفهم عالم أطفالنا الجنسي ضرورة لكي نساعدهم على تجنب الآلام الكثيرة في المستقبل » .

منذ لحظة الميلاد ونحن نحمل داخلنا كل صفات ذواتنا ، الخير والشر ، الذكاء وعدم الفهم ، الصحة والمرض ، ونولد ولدينا الحس ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وتكمن داخلنا غرائز الجوع والجنس .

وعند البدء يكون الطفل حاملا لكل بذور إنسانيته ، وحسبما تنمو البذور وتعامل تساقط في الكبر ثمارا .

عالم البراءة والدهشة

اعتقاد سائد لدينا جميعا أن الأطفال هم أبرياء زماننا هذا ، وأنهم يسبحون في بحر البراءة ، ويملؤنا جميعا اعتقاد أن عالم الطفولة مليء بكل ما هو مدهش ورائع ، ويصبح فرحنا هائلا عندما نلحظ دهشة أطفالنا لاكتشافهم جديداً ، أو معرفتهم بشيء لم يعرفوه من قبل . وبينما يرى الكثيرون أن عالم الطفولة هو عالم مفعم بالبراءة فإن بعض علماء النفس يرون أن أطفالنا ليسوا أبرياء كما نظن ، فعالمهم مليء بالغرائز الجنسية والمشاعر والاستعدادات ، لكن الفارق بيننا وبينهم أننا نملك القدرة والفهم ، بينما هم يمارسون التعبير عن غرائزهم بأفعال تثير الدهشة .

ما يدهشنا

تقول أم : لاحظت أن ابني ذا الثلاث سنوات يعمد للعبث بأعضائه التناسلية ، وهو يعبث بها بتلقائية ، وأحيانا يقوم بكشفها بين الناس .

في بيت آخر تحولت الدهشة إلى ازعاج فالابن الذي التحق بالمدرسة مؤخرا لا يسمح لأمه بالجلوس جوار والده ، ويصر في الليل أن يبيت معهما بالغرفة ، ويحتضن أمه طالبا خروج أبيه من غرفة النوم .

قالت لطبيب الأطفال : عصبية ابني زادت عن حدها ، فقد صار عصبيا حادا عدوانيا . قالوا إن هذا مرجعه إلى أنني فطمته بعد أربعة أشهر ، لكنني لا أصدقهم ، فهل بعقل الأطفال يا دكتور ؟

فقرة من صفحة الحوادث في جريدة يومية :
« وقد أثار دهشة المحقق أن المتهم بالشذوذ ابن لعائلة طيبة ، يشغل والده منصبا مهما في أحد المصارف ، وإخوته جميعا من المتفوقين دراسيا ، وقد أثبت الكشف المبدئي أن المتهم خال من أية أمراض عضوية . وقرر المحقق إحالته إلى الاختصاصي النفسي .

ورقة خاصة جدا من دفتر يوميات طالبة جامعية :
« كانت تعليمات الأهل لي في الصغر صارمة ، ولا أكثر من نعم ، ولا للعب الكرة ، ولا لركوب الدراجات . وأول مرة عرفت فيها أن هناك شيئا

اسمه الجنس كان من الخادمة وعمري يومئذ ثلاثة عشر عاما ، وعندما سألت أمي صفعتني على وجهي ، وجذبتني من شعري ، وطردت الخادمة من البيت ، ومنذ ذلك اليوم أدركت أن الجنس شيء معيب وبشع ومليء بالغموض والتكتم !! »

ما بعد الدهشة

يندهش العقل فيبدأ بالتساؤل ، للعثور على إجابات مقنعة . الدكتورة سهام أبو عيطة أستاذة علم النفس التربوي بجامعة الكويت تقودنا الى بدايات المعرفة فتقول :-

« يولد الطفل ولديه منذ اليوم الأول لولادته استعداد خاص للجنس ، وقد أوضح فرويد وغيره من العلماء هذه المسألة على عكس ما يعتقد الكثيرون من أن الجنس وليد مرحلة البلوغ ، وأنه قبل هذا البلوغ لا يوجد أي شعور باللذة الجنسية ، وتظهر بدايات الاحساس الجنسي عند الطفل مع بداية مرحلة الرضاعة التي تستغرق الانتباه استغراقا كاملا ، نظرا لما تحققه من إشباع للغريزة والاحتياج الفطري ، وبعد مرحلة الاشباع للغريزة عن طريق الفم ، تبدأ مرحلة الشرج ، فقد جعلت الاضطرابات المعوية الشائعة في مرحلة الطفولة من منطقة الشرج مكانا للاستثارات الشديدة ، حيث يعمد بعض الأطفال للاحتفاظ ببرازهم حتى يؤدي تراكمه إلى إحداث تقلصات عضلية عنيفة ، فيثير مروره بالشرج الغشاء المخاطي إثارة قوية ، وهو بذلك لا يتسبب في الألم فحسب ، بل في الاحساس العام باللذة أيضا ، وهنا لا بد من التأكيد على أهمية أن يقوم الأهل بتدريب الطفل بعد الشهر السادس على عمليات الاخراج والتبول في مواعيد مناسبة ، حتى لا يؤدي تعوده الحصول على شيء من المتعة بهذه الطريقة إلى الاصابة بنوع من الشذوذ أو العصبية ، حيث نلاحظ أن بعض الأطفال يحجمون عن ممارسة

هذه الوظيفة حين يطلب إليهم ذلك ويختارون الوقت الذي يروق لهم فيه القيام بها . »

وتنتقل الدكتورة سهام للتحدث عن المرحلة القضيبية ثالثة مراحل النمو الجنسي كما أطلق عليها بعض العلماء فتقول : يبدأ الطفل بالتعرف على أعضائه التناسلية ، ولا يقتصر استعماله لها للتبول فقط ، لكنه يبدأ بالعبث بها والنظر إليها ، وأحيانا استعراضها أمام الناس ، وقد يتوجه أحيانا بالأسئلة والاستفسارات لأحد ذويه الذي تقع عليه مسئولية تعريفه بالأشياء بشكل مبسط واضح ، لأن السلوك النقيض من كف أو زجر سيولد لدى الطفل رغبة أكثر بالتمسك بعاداته ، فتبقى الأمور لديه غامضة ، لأنه لا يعرف للعيب أو للخجل مفهوما .

وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل بإدراك الفرق بين الذكر والأنثى ، وقد يتساءل عن سبب الاختلاف بينه وبين أخته . وتقع على الأهل مسئولية التوضيح بشكل لائق ، لأن المراوغة في الاجابة ستؤثر مستقبلا [redacted] علاقته بالجنس الآخر بشكل يصل إلى حد المبالغة .

مع المجتمع

بعد السادسة من العمر يخرج الطفل إلى المجتمع وقد مر في داخله بمراحل تطور للغرائز الجنسية ، وانتقلت مواضع اللذة من الفم إلى الشرج ، فإلى الأعضاء التناسلية ، وتبدأ بعد ذلك مرحلة الكمون ، وهي مرحلة تكمن فيها الغرائز ، وينشط دور المجتمع في تعليم الطفل قواعد الضبط السلوكي والأخلاقي .

الدكتور يحيى حداد أستاذ علم الاجتماع بجامعة الكويت يصحبنا إلى مرحلة ما بعد السادسة فيقول :

سن السادسة هي سن دخول المدرسة ، حيث تبدأ خبرات الطفولة في الانطواء ، ولا يبقى منها إلا شذرات قليلة من الذكريات المبهمة ، وهذا النسيان لا يعني إلغاء انطباعات الطفولة المبكرة إلغاء تاما ، فهذه الانطباعات تترك في حياتنا النفسية أعمق الأثر .

وفي مرحلة الكمون هذه يتقمص الطفل شخصية جنسه ، فيتجه الولد للعب مع الأولاد كما تتجه البنت إلى البنات ، وهنا يظهر الميل للطاعة وتنفيذ الأوامر والخضوع لسلطة الأسرة والمدرسة .

وقد دلت الدراسات الاجت[redacted] على أطفال مرحلة الكمون أن هذه المرحلة يتعاظم فيها دور السلوك المكتسب ، وليس الدافع « البيولوجي » والسلوك يتأثر بالتنشئة الاجتماعية والقيم السائدة .

ففي مجتمعاتنا العربية نلاحظ أن القيم السائدة تشجع الولد على الاندماج في الألعاب الخشنة التي

تعتمد على القوة أو العنف مثل أنواع السباقات في الجري أو اللعب بالدراجات ، بينما تميل البنت في ظل هذه القيم إلى اللعب بالعروسة أو التحدث إلى صديقاتها .

وفي هذه المرحلة قد يقع الأهل في خطأ بالغ ، فكثير من الأمهات يعمدن إلى تشبيه أبنائهن بالجنس المخالف ، فترى الولد يلبس ملابس الفتيات أو العكس ،أو يترك الأهل نشاط الأطفال اللعبي دون مراقبة أو توجيه ، على الرغم من أن اللعب واحد من أهم نشاطات الأطفال التي يعبرون فيها عن أفكارهم ومدى فهمهم للمجتمع .

ما بعد الفهم

تمتلىء الحياة من حولنا بكثير من المتاعب وعديد من الاخفاقات التي لا يدرك أطرافها أن الجذور تكمن في مراحل الطفولة ، وتشهد عيادات الطب النفسي قصصاً وحكايات عن عذابات رجال ، وآلام سيدات هي ثمن لسنوات طفولة غير صحيحة .

ولا توجد بالتأكيد وصفة سحرية ، أو طريقة محدودة ، تقول لنا كيف نتعامل مع أطفالنا ، فالواقع أكثر حيوية وتعددا وتغيرا من أن يتمكن أحد من وضع طريقة تعامل ، فعقول الأطفال وقدراتهم على التحايل وتعاملهم مع المواقف المختلفة يحتم بقطع الطريق أمام أي محاولة لوضع وصفة نهائية ، فضلا عن أن الوصفات المسبقة تناسب الجماد ، لكنها لا تليق بالانسان ، هذا الكائن المتفرد المتميز المتغير .

وتبقى قواعد أساسية تستند إلى فهم مراحل تطور أبنائنا ، فبعد الفهم يأتي التوجيه الدائم القائم على مراقبة أفعالهم للحياة ، ومع التوجيه يلزم تصحيح المفاهيم بكثير من الصراحة والبساطة وقدر من الحب والحنان .

وهذه القواعد قد تسهم كثيرا في أن ينمو أبناؤنا بشكل أكثر صحة وأقل تعرضا للمتاعب ، خاصة إذا أدركوا من خلال البيت والمدرسة حقائق الحياة وأسس الأخلاق.□

شو والعمل

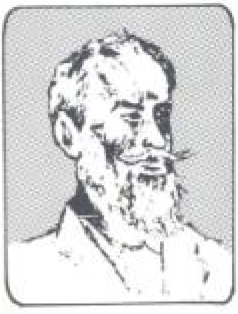

● على الرغم من أن الكاتب الايرلندي جورج برناردشو لم يدرس دراسة منتظمة ، ولم يحصل على درجة جامعية ، إلا أنه كتب المجلدات الضخمة من مسرحيات وقصص ونقد وسياسة وفن واجتماع ، وعندما كان في التسعين من عمره سأله أحد الصحفيين عما ينوي أن يفعل إذا قدر له أن يبلغ مائة من العمر ، فأجاب : إنني لم أسر في حياتي قط على خطة موضوعة ، وسوف أجد الكثير من الأعمال ، ولو قدر لي أن أعيش ألف عام . وفي عام ١٩٤٤ عندما كان في الثامنة والثمانين زاره المحامي موريس آرنست ، وأخذ يتحدث إليه في شؤون كثيرة ، لا طائل من ورائها ، فنهض شو قائلا : هذا يكفي ، اذهب إلى عملك ، ودعني وشأني ، فإن عندي من العمل ما يستغرق العامين القادمين .

المرأة والقوة المستمدة من العمل

بقلم : الدكتورة علياء شكري

« دخلت المرأة ميدان العمل ، وكانت المجتمعات العربية تاريخيا أسبق في فتح المجال للمرأة كي تعمل ، ومع الازدهار والانحدار تأرجحت حقوق المرأة ، لكن الشيء اليقين أن النساء العربيات لم يحولن العمل الى قوة حقيقية ضمن حسابات القوى الإنسانية » .

هل من سبيل أمام المرأة لكي تترجم القوة المستمدة من النشاط الانتاجي (العمل) الذي يدر دخلا الى قوة واستقلال ؟ ذلك هو الموضوع الذي نود أن نلقي عليه بعض الضوء .

هناك أساس بديل لقوة النساء ، وهو نشاطهن الانتاجي الذي يدر دخلا ، والذي يمكن ترجمته الى قوة ،لكن شريطة أن تدعمه أيدلوجية استقلال المرأة استقلالا اقتصاديا .

ومعنى ذلك أن حتمية الواقع ، وقيام هذا الاستقلال أمام نواظرنا ورؤيانا له بوضوح يخطف الأبصار ، كل ذلك لا يمكن أن يغير بذاته وبشكل ميكانيكي واقعا آخر أقدم منه وأرسخ قدما وأقوى أثرا ، إنما لابد أن يتسلح هذا الواقع المادي الجديد بأيدلوجية تسانده وتدعمه وتفسره ، وتنقل دلالاته من جيل الى جيل ، عبر قنوات التنشئة الاجتماعية .

فهل لمثل هذه الأيدلوجية المساندة لذلك الواقع وجود يمكن أن نستدل عليه ؟ نعم ، لقد أثبت كثير من البحوث والدراسات وجود هذه الأيدلوجية ، وأقامت الدليل عليها ، ورسمت معالمها ، وأبانت دورها ، وذلك في مجتمعات ليست بعيدة عنا .

في المجتمعات البدائية حقوق أكثر

لقد أوضحت تلك البحوث في كثير من مجتمعات غرب أفريقيا مثلا أنه يتوقع من المرأة فيها أن تكون

لها مهنة ، لكي تثبت نفسها ، وتؤكد وجودها كفرد بالغ في المجتمع ، وأن تكون مسئولة عن نفقاتها الشخصية ، وعن نسبة مئوية غير قليلة من نفقات أولادها . ففي مثل هذه المنطقة الثقافية لا يقتصر الأمر على مجرد السماح للمرأة بأن تترجم نشاطها الاقتصادي الى قوة ، بل إنه يتوقع منها فوق هذا أن تكون مستقلة اجتماعيا واقتصاديا عن الرجل .

وهناك مجتمعات أفريقية يقوم فيها نظام القرابة على الانتساب للأم ، وواضح أن مثل هذا النظام يمنح المرأة دعما اقتصاديا ونفسيا واجتماعيا ، وقد وجد الباحثون أنه عندما يكون نظام القرابة قائما على خط الأم فإنه يزيد استقلال المرأة ، وينعكس هذا الوضع في منحها حقوقا واسعة داخل العلاقة الزوجية ، وفيما عليها من حقوق وواجبات إزاء الرجل الزوج ، ومن هذا مثلا أن يصبح باستطاعة المرأة في تلك المجتمعات أن تترك العلاقة الزوجية غير الموفقة والزوج غير الصالح ، وتعود الى أسرة أمها (التي تنتسب إليها) .

كما ينعكس هذا النظام على وضع الزوج داخل الأسرة ، لأنه حيث يقرر للمرأة حقوقا يفرض عليها المشاركة في نفقات إعاشة الأسرة ، ومن ثم لا يصبح الرجل هو العائل الوحيد أو أهم مسئول عن الأسرة . وقد أشار الدارسون في تعليق على هذا النظام الى أنه كما قلّت مسئوليات الرجل الاقتصادية والاجتماعية ، فقد قل مقدار ما يتمتع به من قوة .

ولقد أوضحنا بجلاء أن المجتمعات التي تتبع نظام الانتساب للأم توجد فيها أيدلوجية اجتماعية تساند استقلال المرأة الاقتصادي ، ونتيجة لذلك تصبح المرأة أكثر قدرة على العثور على أنشطة اقتصادية ، تدر عليها دخلا ، وتتلقى عنها أجرا ، لكننا يجب أن نكمل الجانب الآخر لنفس الصورة : إن نفس تلك الدراسات قد أكدت بما لا يدع مجالا لأي شك أن هذا الوضع يعمل ـ في الوقت نفسه ـ على زيادة درجة اضطراب الحياة الزوجية للمرأة ، ويؤدي الى عدم استقرارها .

ولا يختلف هذا الوضع الذي ضربنا له بعض الأمثلة من أفريقيا عما نجده في المجتمعات الغربية اليوم ، لأن هذا الوضع يجعل من السهل على المرأة أن تتزوج من جديد ، كما أنه يتسامح بعض الشيء في العلاقات التي قد تقيمها المرأة خارج إطار الزواج .

ولذلك لا نجانب الصواب إذا قلنا أن المرأة تستطيع أن تترجم قوتها التي حصلت عليها متفردة الى استقلال ، وأنها كثيرا ما تعبر عن هذا الاستقلال في شكل موقف « فاتر » من الزواج والمسئوليات الأسرية ، الناجمة في حقيقتها عن العلاقة الزوجية .

لكن هل هذا هو الطريق الوحيد الذي يتعين على المرأة العاملة أن تسير فيه ، أم أن الواقع الاقتصادي الاجتماعي يتيح لها بدائل عديدة ؟ وهل بوسع المرأة أن تشارك في النشاط الاقتصادي ، أي تعمل وتحصل على أجر ، وتحافظ في نفس الوقت على ولائها للزوج والأسرة ؟

بدائل وخيارات

من المؤكد أن هناك مرونة في الحياة الاجتماعية ، تتيح للمرأة اختيار بديل آخر ، مغاير لما رأيناه في تلك المجتمعات الافريقية ذات القرابة الأمومية (الانتساب للأم) ، ومخالف لما نعرفه عن المرأة في المجتمعات الغربية المعاصرة ، حيث تستطيع المرأة أن تتمتع بحرية الحركة ، وتحصل على الاستقلال ، وحق المشاركة في النشاط الاقتصادي ، وأن تحتفظ في نفس الوقت بأدوارها الأسرية ، وولائها للالتزامات المرتبطة بتلك الأدوار .

وقد ترجمت كونستا نتينا سافيليوس روتشيلد قوة المرأة المستمدة من العمل في معادلة أحد طرفيها قوة المرأة ، وطرفها الآخر تلك القوة المستمدة من عمل المرأة ، والقوة المستمدة من أيدلوجية تؤيد استقلال المرأة اقتصاديا ومسئولياتها الاقتصادية حتى في وجود الزوج ، والقوة المستمدة من نظام الانتساب للأم

(وهو غير موجود في مجتمعاتنا العربية) ، وكذلك القوة المستمدة من الجمعيات والتنظيمات النسائية التي توفر للمرأة دعما اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا ، وهذا النوع من الجمعيات والتنظيمات مازال وليدا يحبو في وطننا العربي حتى الآن .

لكن مدلول هذه المعادلة يكمن في حقيقة الأمر فيما تشير اليه من قدرة المرأة على الحصول على القوة مستقلة عن الرجل ، ولو لم تتوافر لها جميع أسس القوة ، أي مثلا : عندما يكون نظام القرابة ليس هو نظام الانتساب للأم . لكن الشيء الذي لاغناء عنه ولا يمكن تجاهله ضرورة توافر الأساس الأيدلوجي للقوة ، لأنه بفضل هذا الأساس الأيدلوجي تستطيع المرأة أن تترجم أسس القوة الكامنة (أو المستترة) الى قوة حقيقية ، وأن تحقق ذاتها بهذه القوة ، وتسعى الى الحصول عليها وترضى بالتمتع بها .

كما ينبغي أن نلاحظ هنا أن فكرة إمكانية حصول المرأة على القوة مستقلة عن الرجل لا تعني أنها لا تستطيع أيضا أن تستمد القوة من الرجل ، فوجود أحد نوعي القوة لا يلغي إمكانية وجود النوع الآخر ، ففي كثير من المجتمعات نجد أن فيها بعض أنواع القوة المستمدة من الرجل ، وهذه القوة نفسها تساعد المرأة على حيازة القوة بمجهودها الذاتي مستقلة عن الرجل ، ونجد الموقف المقابل أو المعاكس متحققا في الواقع أيضا : حيث أن حصول المرأة على القوة المتحققة بالمجهود الذاتي تساعدها بدورها على أن تستمد مزيدا من القوة من زوجها . ويمكن أن نبسط الأمر قائلين : كما أن بعض المال يجلب المزيد منه ، كذلك بعض القوة يجلب المزيد منها ، وتتصل حلقات السلسلة في تصاعد مستمر .

وهذا التداخل في نطاقات القوة أمر على جانب عظيم من الأهمية والطرافة في الوقت نفسه ، حيث أننا يمكن أن نرى في بعض الأحوال الاجتماعية أن الهيبة والثروة والقوة التي تستمدها المرأة من زوجها أو من والدها وغيرهما من الأقارب الذكور ، وخاصة إذا كانت تلك الهيبة أو الثروة أو القوة أكثر مما يمكنها من الوصول إليه بمفردها ، تساعد المرأة على ارتقاء مركزها في وظيفتها ، ومن ثم تزيد من مكانتها الشخصية .

ونجد فضلا عن هذا في المجتمعات التي يكون فيها استقلال المرأة الاقتصادي محلا للتشجيع والتقدير ، نجد أنه يصبح بوسع المرأة ترجمة قوتها الاقتصادية الى قوة في نطاق الأسرة ، وقوة في نطاق العلاقة الزوجية ، وذلك من حيث التأثير واتخاذ القرار .

لكن يتعين علينا عند هذه النقطة أن نلفت النظر الى حقيقة بارزة ، أوضحتها بعض الدارسات الحديثة عن المرأة : إننا لا نستطيع أن نفترض وجود علاقة عكسية بين القوة الانتاجية (أو قوة المرأة واستقلالها الاقتصادي ، سواء بحيازة الثروة أو ممارسة العمل المأجور) والقوة الانجابية (أي القوة التي تستمدها المرأة من الانجاب) ، بل إنه حتى في المجتمعات التي يقوم فيها نظام القرابة على الانتساب للأم ، أو التي توجد فيها منظمات التعاون النسائي الجماعي ، مازالت المرأة في تلك المجتمعات تستمد بعض القوة من إنجاب الأطفال .

الموازنة بين الأدوار

وقد درست الباحثة الانجليزية كريستين أبونج ذلك الموضوع باستفاضة ، وأوضحت أنه في المجتمعات الريفية التي تتبع نظام الانتساب للأم نجد أن الأطفال بالنسبة للمرأة هم : « أكثر ما يعتمد عليه من أصول في بناء ملكيتها الزراعية وتنميتها » . وقد وجدت أبونج في عام ١٩٧٦ في غانا ـ على سبيل المثال ـ أن ٢٪ من النساء المتزوجات فقط كن يقبلن استخدام وسائل منع الحمل ويستخدمنها فعلا .

وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة مهمة أثبتتها الدراسات الحديثة في بلاد العالم الثالث ، وهي أننا لا يصح أن ننظر الى دور المرأة الاقتصادي كبديل لدورها كأم ، وهذه النظرة الخاطئة كانت تتردد في الماضي بكثرة في المؤلفات الغربية (الأوروبية والأمريكية) التي كتبت في موضوع السكان في تلك البلاد ، بل الأصح أن نقول إن دور المرأة الاقتصادي يسهل مهمة الأم ويساندها ويدعمها .

ولا يصح أن يطرأ على ذهننا فكرة عدم التوافق بين الدورين (الدور الاقتصادي ودور الأم) إذ أن مهمة المرأة تجاه المنزل وتربية الأطفال يمكن أن تقوم بها بسهولة قريباتها وبناتها وغيرهن من المعاونات ، أو على الأقل يساعدن فيها مساعدة أساسية . ومن الطريف أن نذكر أنه على الرغم من قدرة المرأة على استخدام القوة الاقتصادية داخل المنزل للحصول على خدمات غيرها من النساء ـ بالأجر أو دون الأجر ـ إلا أنها قلما تستخدمه للحصول على تقسيم عادل في العمل بين الزوج والزوجة للأعمال والمسئوليات التي تتصل بالمنزل أو العناية بالأطفال .

وهكذا نرى أنه حتى في المجتمعات التي تستطيع فيها المرأة أن تترجم نشاطها الانتاجي وتحوله الى قوة اقتصادية أن المعادلة الكاملة لقوة المرأة يجب أن تضم أسسا للقوة مستمدة من الرجل (زوجا أو أبا) ، ومن إنجاب الأطفال في نفس الوقت ، وهي معادلة سبق أن قدمتها كونستنتينا سافيليوس روتشيلد في دراسة حديثة لها . ولم تتضمن هذه المعادلة القوة التي ترتكز على مكانة المرأة بعيدا عن الجنس في خريف العمر (بين الأربعين والستين) ، والسبب في ذلك واضح في رأيي لأن هذا النوع من القوة يصبح أقل أهمية كلما زادت المرأة من قوتها الاقتصادية .

كذلك تدلنا هذه المعادلة على أن القوة الانجابية لا يشترط فيها أن تكون العنصر الحاسم على الرغم من أنها إحدى مكونات قوة المرأة ، وقد تقل أهميتها تماما بالنسبة للمرأة ، فذلك أمر لابد أن يختلف تبعا للقيمة التي تتمتع بها غيرها من أسس القوة النسائية .

ما نسعد به وليس ما نحتاجه

والواقع أننا نستطيع ترتيبا على هذا أن نفترض أن قوة الانجاب تفقد كثيرا من أهميتها عندما تحوز المرأة أسسا أخرى مضمونة للقوة ، وهذا أمر منطقي وطبيعي في ضوء الشرح والتحليل الذي قدمناه .

لكننا نلمس مع ذلك أن الظروف الواقعية قد تسير أحيانا بالمرأة باتجاهات أخرى ، وتحملها حملا على تغيير بعض أطراف هذه المعادلة بإرادتها واختيارها ، فهناك شواهد لا حصر لها تثبت أن التحديث والتقدم يجعلان دور المرأة الانتاجي التقليدي أقل استقرارا وأكثر صعوبة من ذي قبل ، وهذه الحقيقة تتجلى بوضوح أكثر في المجتمعات التي سبقتنا في مضمار النمو والتقدم . وإزاء تلك الاتجاهات الجديدة بدأت المرأة تعتمد على قدرتها الإنجابية في تحقيق الاستقرار والاطمئنان الاجتماعي والاقتصادي .

والى أن يتحقق للمرأة الاطمئنان الاجتماعي والنفسي لنشاطها الانتاجي ودورها الاقتصادي تستطيع بعدها أن تفكر باستخدام وسائل منع الحمل لتنجب الأطفال الذين تسعد بهم وتسعدهم ، وليس الأطفال الذين تحتاج اليهم . □

هو.. هي

لا نسرق طفولتهم

أعرف .. سوف يتهمني الجميع بالتبلد وعدم الاحساس واني امرأة لا مبالية ، لا هم لي إلا الطعام والشراب ، وأعرف أن البعض سيهمس بها سرا في داخله ، إنني لا افترق في شيء عن الحيوان ، فالحيوانات وحدها هي التي لا تهتم بما حولها ولا تشغل نفسها الا بما يدور في دائرتها واهتماماتها مقصورة على المحسوس وليس على المعنوي .

لدينا زوجي وانا ثلاثة أبناء أكبرهم في الخامسة عشرة من عمره ، وكلانا موظف بالحكومة ، نحتل درجات متقدمة في السلم الوظيفي ، وابناؤنا بالتالي جيل يختلف عن جيلنا ، جيل لم يعايش أيا من احداث الوطن الكبرى الى أن اندلعت منذ شهور ، ثورة الأرض المحتلة ، وخرج اخواننا في فلسطين يواجهون الموت والعنف والاحتلال ، وصارت اخبار ثورة فلسطين مادة اساسية في كل الصحف والاذاعات واجهزة التلفاز ، وفوجئت أن زوجي يجمع أبناءنا يقرأ لهم الجرائد ويشرح لهم ما يحدث ، وعند كل نشرة أخبار يستدعيهم ليلتفوا أمام التلفاز يشاهدون اللقطات المصورة التي ينقلها بعض المراسلين عن أحداث الثورة ، وما فيها من قمع وعنف ، ووجد أبناؤنا في هذه الجلسات فرصة طيبة للهروب من الاستذكار وأداء الواجبات ، وصارت جلساتهم احاديث عن ثورة الفلسطينيين ، حتى ألعابهم ولهوهم .. صاروا ينقسمون الى فريقين صهاينة وفلسطينيين ، وصارت ألفاظ سبابهم وغيظهم تشمل « يا صهيوني .. يا قاتل .. يا مأجور .. يا عميل .. الخ » ، وذات مساء عاتبت زوجي وقلت له إن ما يفعله بأولادنا غير صحيح فاذا كان قلبي وانا الأكبر سنا والأكثر ادراكا ينفطر وأنا أرقب وأشاهد ما يحدث للأهل في الأرض المحتلة فماذا يمكن أن يحدث لأبنائنا ، وهون زوجي الأمر واتهمني بضعف القلب ، الى أن كانت ليلة هب ابني الأصغر من نومه مذعورا ، وأخذ ينتفض ويرتعد ويصرخ « انهم يقتلون الصغار ، وسوف يقتلونني ، الدم يملأ الفراش ، دم أخي فوق وسادتي » وبعد أن هدأ وأعدته الى فراشه ثرت في وجه زوجي وقلت له إنه قد آن له أن يكف عن أفعاله .. ويقلع عن دروس التاريخ التي يلقيها على أبنائنا ، واني لست مستعدة لأن أفقد أبنائي وأفسد طفولتهم وأسرق أحلامهم ، وقلت له فلنكن منطقيين دع أبناءنا يكبرون وينمون ويعرفون كيف يستخدمون عقلهم ثم بعد ذلك عندما يصلون الى سن الرجال فانهم سوف يعرفون كل الحقائق وسيحددون مواقفهم ، ويختارون اتجاهاتهم ، أما الآن فظلم أن يرى أبناءنا كل هذا العنف والظلم والقهر .

.. هي

حقّ المعرفة

رحم الله أبا بكر الصديق عندما قال : « أحرص على الموت توهب لك الحياة » ، ونحن شعوب ضعيفة الذاكرة،ننسى ما يمر بنا في الحياة ، ولا نتذكره إلا عندما يمر بنا حدث مشابه ، وأصبح التاريخ بالنسبة لنا مناسبات نتذكرها ونتذاكر فيها ما مر بنا ، ثم يمضي بنا طريق الحياة ، ويفقد التاريخ بذلك أهميته ودوره ، من أنه رحم للأحداث وسجل للشعوب .

تكره زوجتي أن تؤلم أطفالنا وأبناءنا . . وترفض أن يرى (الاطفال) هذا العنف والدم والقمع الذي يواجهه اهلنا الفلسطينيون في أرضنا المحتلة ، وتقول لي دعهم فانهم عندما يكبرون سوف يعرفون كل الحقائق ، قلت لها هنا يكمن الخطأ ، وبهذه الطريقة فنحن نخطيء في حق أبنائنا ، فليس صحيحا أن صور المواجهة الصريحة المباشرة وما بها من عنف هي وحدها التي تؤلم فكل ما في حياتنا به قدر من الألم ، هذا الاستهداف الذي نعيشه نحن العرب جميعا يؤلم وبقدر أكبر ، هذا الاختراق من أجهزة الإعلام ، هذا الاعتماد المتزايد على العالم الخارجي في قضايا الغذاء ، وهذه العراقيل في وجه خطط التنمية والأيادي التي تمتد لتشعل جذوات الفتنة والطائفية داخل الوطن العربي ،أليس كل هذا مؤلما؟ قالت لي وهي تصرخ:هذا فوق قدرة استيعاب الأطفال ، وفهم كل هذا يتطلب درجة وعي ليست متوافرة لديهم ، قلت لها دعينا ننمي وعيهم . . ودعينا نفتح أعينهم ، فنحن شعوب لا تعرف كيف تتعامل مع أعدائها ، وتاريخنا مليء بقصص النبل والكرامة والحب والايثار ، ونحن نحتاج الآن الى الجانب الآخر من التاريخ ، نحتاج الى الفهم الكامل لنعرف أن النبل في غير موضعه سذاجة ، وان الحب على اطلاقه ضعف ، وأن الكرامة بلا قوة تحميها تهدر ، وان الانسانية مع الأعداء تليق بك وأنت قوي . . أما الانسانية وأنت ضعيف فهي استخذاء . جيل أبنائنا جيل لم يفتح عيونه على أحداث الوطن العربي الكبرى ، ولم يعاصر زمان الاستقلال ، وزمان حروب التحرير ، وزمان تصاعد أفكار الأمة الواحدة . والوطن الواحد . ولكنه جيل أتى في زمان قد جرت في الأنهار العربية مياه كثيرة ، وامتلأ جسد الوطن بجراح أكثر ، وهذا جيل يحتاج لأن يفهم ويعرف أن الذي يتحكم في القمح ورغيف الخبز والزبد ويلقى بفائض الغذاء في المحيط ، ويتكتل لكي يهبط بأسعار النفط والفوسفات والقطن هو نفسه الذي يعطي الجندي الصهيوني السلاح لكي يسيل دم الطفل الفلسطيني في شوارع فلسطين المحتلة . سيفزع أبناؤنا ليلة أو ليلتين ولكن حياتهم ستكون أكثر وعيا ، وخير لهم أن يفزعوا وهم نيام من أن يفزعوا في حياتهم ، وتتبدد قبل أن يعرفوا العدو من الصديق .

هو ..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

رياضة المشي

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

لست أدري إن كان المشي بمفهومه الشائع ينطبق عليه اصطلاح الرياضة أم لا ، لأن الإنسان العادي يسير في يومه أحيانا ما يزيد على عشرة كيلو مترات ، وهو لا يدري ، أثناء قضاء حاجاته اليومية ، ولا أحد يعتبر هذه الحركة اليومية المعتادة ضربا من ضروب الرياضة إطلاقا .

بينما لو مشى الإنسان مسافة طويلة بانتظام مرة واحدة لا لغرض سوى المشي لجاز للإنسان أن يطلق لقب « رياضة المشي » على هذا المجهود ، إنما الأهم من هذا وذاك هو أن تحقق حركات المشي هدفاً أو أكثر من الأهداف التي تقصدها الألعاب الرياضية ، ضمن إطار الأصول والقواعد العلمية المدروسة ، وهنا يحق أن يطلق على المشي لقب « رياضة المشي » ويصبح شكلا معتمدا منها .

لكن الغريب أن الأكثرية من الناس تعتمد المشي لإنقاص الوزن « الرجيم » ، وهذا أبعد الأهداف وأقلها قيمة ومردودا . إذن ما هو المشي الصحي ومردوده ؟

إن السرعة التي تعتبر مشيا على الأقدام تتراوح ما بين ٣ الى ٥ كيلو مترات في الساعة تقريبا ، ولا حدود لها إلا إذا شعر الإنسان بالتعب ، وهذا يعني نهاية المشي الصحي ، وإلا تحول الى مشي مرضي يعود بالضرر والتلف وفيما يلي نستعرض المردود الصحي لرياضة المشي .

أولا : المشي وجهاز الدورة الدموية

إن أهم مردود وأخطره للمشي هو تنشيط الدورة الدموية عبر القلب والشرايين والأوردة ، فالقلب - وهو عضلة - يضغط الدم عبر الشرايين الى كل أجزاء الجسم ، حيث توزعها الشعيرات الدموية ، لتقوم بتبادل الغازات ، أي إعطاء الأكسجين وأخذ ثاني أكسيد الكربون ، وإعطاء الغذاء ، وأخذ الفضلات من الأنسجة .

والدم يندفع في الشرايين بقوة ضغط القلب ، غير أنه لا توجد قوى أخرى مقابلة تدفع الدم ثانية عبر الأوردة الى القلب والرئتين ، وبهذا يركد الدم في هذه الأوردة ، وتنتفخ أطراف الجسم ، وبخاصة الساقان ، وهما الأبعد عن القلب .

غير أن الأوردة (أي أوعية الدم التي تعود به الى القلب) مجهزة من الداخل بصمامات تشبه سواقي المياه (أي بوابات صغيرة) ، تسمح بعبور الدم وعودته الى الوراء ، كما أن العضلات التي تحيط بهذه الأوردة تضغط عليها من الخارج وكأنها تعصرها .

لكن كيف للعضلات التي حول الأوردة أن

تضغطها وبخاصة في الأطراف السفلى حتى تدفع بالدم في اتجاه معاكس للجاذبية الأرضية ؟

إن المشي هو الوسيلة الوحيدة التي تتولى هذه المهمة ، لأن المشي يحرك عضلات الساقين ، وهذه بدورها تضغط على الأوردة ، فيعود الدم الى القلب ، ولولا هذا لركد الدم في الساقين بفعل الجاذبية الأرضية وتوقفت الدورة الدموية وفقد الإنسان وعيه .

لهذا يقولون : إنه لا يمكن لإنسان إطلاقا أن يقف ساكنا مطلقا أكثر من عشرين دقيقة .

هذا هو أهم فوائد المشي على الإطلاق ، ولهذا فهو أصلح ما يكون لمرضى القلب والدورة الدموية وكبار السن والناقهين ومن يفتقرون الى الحركة والحوامل .

ثانيا : المشي والجهاز الحركي

نقصد بالجهاز الحركي مجموع عضلات الجسم ومفاصله وعظامه التي تركز عليها لب الرياضات الأخرى والهدف هنا :ـ

(أ) إعطاء الجلد القدرة على التحمل للعضلات .

(ب) إعطاء الليونة والمرونة للمفاصل .

(جـ) إعطاء القوة لجسم العضلة .

(د) اللياقة البدنية والتناسب والتناسق .

ليس من الأمانة العلمية أن تدعي أن المشي يعطي الشيء الكثير من هذا كله إذا قورن بالرياضات الأخرى ، اللهم إلا زيادة الجلد والاحتمال الى حدما ، وبعض اللياقة البدنية والتناسق .

وفي هذا المضمار تقع رياضة المشي في مؤخرة القائمة ، ومن الأفضل البحث عن رياضة أخرى بجانب المشي إذا كان هذا هو الهدف .

ثالثا : المشي وإنقاص الوزن

إن الإنسان العادي البالغ المعتدل يحرق في كل ساعة من يومه ما يوازي سعرا حراريا واحدا فقط (كالوري واحد) ، مقابل كل كيلو جرام من وزن جسمه إذا رقد مسترخيا دون حراك ، وهذا ما يسمى بالتمثيل الغذائي الأساسي ، أي الطاقة اللازمة لتحريك الأجهزة الضرورية في الجسم ، مما لا غنى عنها مثل القلب والرئتين والأمعاء ، وهكذا .

وبالحساب فإن رجلا يزن ٦٠ كيلو جراما يحتاج ٦٠ سعرا في كل ساعة ، أي يحتاج الى (٦٠ × ٢٤ كالوري) أو سعرا في اليوم إذا كان مستريحا تماما ، أما إذا مشى الإنسان فإنه سيصرف (٢,٥) سعرين ونصف في كل ساعة مقابل كل كيلو جرام من وزنه ، وهذا صرف من الطاقة لا يذكر إذا قورن بالرياضات الأخرى .

فالسباحة مثلا تحتاج ٤,٥ سعرات لكل كيلوجرام من وزن الجسم في الساعة ، والجري يحتاج الى حوالي ١٠ سعرات لكل كيلو جرام من وزن الجسم في الساعة ، وقيادة الدراجة تحتاج ما بين ٤ ـ ٥ سعرات في الساعة ، والمصارعة ١٢ سعرا ، وهكذا .

ولذا اعتبر الأطباء المشي وسيلة لإنقاص الوزن يعتمد عليها إذا كان المشي لمسافة خمسين كيلو مترا فهو في هذه الحالة ينقص من الوزن نصف كيلو جرام فقط ، بشرط أن لا يأكل الإنسان خلال وقت المشي .

بينما ينقص الوزن نصف كيلو جرام إذا مورست السباحة لمسافة ٢٠ كيلو مترا مثلا ، أو إذا لعبت التنس ١٤ جولة .

محاذير المشي

إن المشي ـ دون شك ـ له مردوده الصحي وبخاصة على الدورة الدموية ، بشرط أن لا يصل الحال بالإنسان الى درجة التعب ، لأن هذا يعني تراكم فضلات العضلات ، وبخاصة حامض اللبنيك ، وعجز الجسم عن تصريفه ، وهنا لا بد من التوقف والراحة .

كما أن المشي الطويل لا يصلح للمصابين بالاستسقاء والتورم ودوالي الساقين ، حتى لا تتفاقم الحال ، بل إن هؤلاء قد ينصحهم الأطباء بالجلوس أو الاستلقاء مع رفع الساقين الى الأعلى .

ومن المهم أن نؤكد على ضرورة تفادي الأحذية الضيقة أو استعمال أربطة الساق التي تعيق سيرة الدورة الدموية ، وهي الأصل في رياضة المشي ، وإلا أدت الى مضاعفات عديدة منها دوالي الساقين .

أما المصابون بجلطات الساق فقد ينفعهم المشي لتنشيط سير الدم في الأوعية الأخرى غير المصابة ، لكن مشورة الطبيب المعالج ضرورية لكل حالة على حدة . □

ردود سريعة : □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

■ سمير محمود / سوريا : الفتق سببه زيادة الضغط داخل تجويف البطن مع ضعف في عضلات جدار البطن ، وهو أمر لا علاج له الا بعملية جراحية يقررها الطبيب الجراح ، وتأجيل العملية محكوم برأي الطبيب المعالج خوفا من حدوث اختناق في الفتق .

■ عثمان عفان / سوريا : الصدفية مرض جلدي مجهول السبب مزمن ولكنه غير قاتل ولا تحدثه الوراثة ، وعلاجاته تعتمد على التخفيف من حدته وازالة القشور التي تغطي مواقع الجلد المصاب .

■ جميلة علي سالم / الكويت : يبدو انك تعانين من اضطراب عصبي في الجهاز الهضمي وهو امر لابد له من استشارة طبيب مختص في امراض الجهاز الهضمي لتقصي المرض ووصف العلاج المناسب ولا داعي لاجتهاداتك الخاصة في الامر .

■ صلاح عبدالستار الشهادي / دمشيت / مصر : الامراض الجلدية لا تعالج الا بالكشف الطبي لدى طبيب مختص لذا ننصحك باستشارة طبيب الأمراض الجلدية المختص .

■ س . ق . هـ / سوريا : لا سبيل لتشخيص مرضك الا بالكشف الطبي ، ويجب عليك مراجعة طبيب امراض النساء والولادة .

■ لمزكرش خديجة / المغرب : اسم الدواء الخاص بانبات الشعر هو الميتوكسديل المعروف باسم ريجان .

■ م . أ . أ . م / القاهرة / مصر : هناك مراكز متخصصة لعلاج عيوب النطق لهذا ننصح بمراجعة أحدها لتقصي سبب اللعثمة والعلاج المناسب .

■ ب . احمد / المغرب : ننصحك باستشارة اختصاصي في جراحة العظام ، فأنت تحتاج الى معرفة نوع الميكروب المسبب للالتهاب،واجراء اختبار حساسية له لمعرفة اي العقاقير اكثر فعالية وتأثير .

■ ح . ب / سوسة / تونس : ننصحك باستشارة طبيب في الغدد الصماء لتقييم التوازن الهرموني ونشاط الغدد الجنسية فربما كانت قاصرة عن افراز هرمونات الجنس بصورة خاصة وعلى ضوء التحليلات يكون العلاج .

مساحة ود ..

تقليد !

كنت في سفر طويل ، وألقت بي الطائرة في عاصمة تاريخية من بلدان العالم الثالث ، قضيت فيها نهارا ونصف ليلة، ولأنها بدأت منذ سنوات قليلة تجربة وطنية واقتصادية مميزة فقد كنت شديد اللهفة لرؤيتها . وكعادتي في قراءة المدن ألقيت بحقائبي في الفندق ، وانطلقت أجوب شوارع المدينة ، محلاتها ومقاهيها وشوارعها الضيقة وميادينها المتسعة وأحياءها القديمة ، ومبانيها الحديثة ، وأقطع الساعات سيرا على قدمي ، ينقلني حي الى حي ، ويسلمني طريق الى طريق ، وبدأت أرى في الشوارع عجبا ، ففي الميدان الرئيسي بالمدينة تمثال كبير بالحجم الطبيعي لأحد قادة الثورة الاشتراكية بالاتحاد السوفيتي ، وفي ميدان آخر مطروقات بالنحاس تمثل صورا نصفية لأقطاب الفكر الاشتراكي ، وفي كل شارع أقواس ولافتات عليها عبارات وشعارات تحيي مناسبات اشتراكية ، أو ترفع شعارات اشتراكية « كلاسيكية » وفوق قوس كبير عبارة تحيي المؤتمر المنعقد في ذلك الوقت في الاتحاد السوفيتي .

وبالتأكيد أنا لا أحمل عداء للتجربة السوفيتية فهي من أعظم التجارب الانسانية في القرن العشرين ، ولايستطيع عاقل في هذا العالم أن ينكر أن السوفيت هم احدى القوتين العظميين في عالم اليوم ، وأنهم أصحاب مواقف مشرقة في نصرة قضايا التحرر والقضايا العربية ، لكنها تظل تجربة إنسانية سوفيتية ، وما للمواطن البسيط في هذا البلد النامي في العالم الثالث بلينين أو ماركس ، أو . . أو . . ؟ ألم يكن أجدى وأروع أن يكون مكان التمثال نصب فني جميل ، والجمال قيمة انسانية ونضالية داخل الفكر الاشتراكي نفسه ؟ وألم تكن شعارات حب الوطن وتأكيد انسانية الانسان أهم كثيرا وأقرب الى ذهن المواطن من شعارات الطبقة العاملة ، والمؤتمر العام للسوفيتيات .

فلتكن التجارب الانسانية في النمو والتحرر ماتكون ، وليأخذ كل وطن وفق مشيئة أبنائه واراداتهم مايرونه منهجا صالحا للخروج بهم من أزماتهم ، لكن مايقلقني هو المغالاة والفجاجة ، وما يطرحه ذهني من تساؤل : هل معنى أن نكون جادين ألا نعلي قيمة الجمال والفن ؟

في تقديري مازلت أرى أن الفن هو وطن الجدية ، وأن الجمال هو أب الحرية وبوابتها . وقيم اليونان الخالدة الحق والخير والجمال كانت دوما هي إلهام كل المفكرين والمبدعين والثوار وصانعي الجديد في تاريخ الانسان كله . □

محمود عبد الوهاب

تعابير يقرها المجمعيّون

بقلم : الدكتور حسن عباس

كثيرا ما يواجه الكتاب باعتراض النحويين عند استعمالهم ألفاظا وأساليب في التعبير ، لا يجد هؤلاء النحويون لها أساسا في قواعدهم ، ولا وجها من وجوه التصريف ، فيصدرون الفتوى ببطلانها ، وخطأ الأخذ بها . ولقد عكف رجال الاختصاص في مجامع اللغة العربية على تراكيب بعينها ، فدرسوها دراسات موسعة ، وأخضعوها لجدل ونقاش طويلين ، ثم أقروا استعمالها موضحين الأسباب .

١ ـ من على المنابر : قيل إن هذا الأسلوب في التعبير أسلوب خاطىء ، إذ كيف يدخل حرف الجر (من) على حرف الجر (على) ، ومن مقتضيات حروف الجر ألا تدخل إلا على الأسماء ؟ وقد جاء الرد في كتاب سيبويه نفسه ، قال : إن على تأتي على الحرفية ، ثم تأتي على الاسمية ، ولا تكون إلا ظرفا كقول العرب :

نهض من عليه ، أي من فوقه . ومنه قول الشاعر مزاحم العقيلي (وهو إسلامي) :

غدت من عليه بعد ما تم خمسها
تصل وعن قيض ببيداء مجهل

والشاهد في هذا البيت ورود (من) قبل (على) التي هي بمعنى فوق . وقد أخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة بحجة سيبويه فيما ذهب إليه من جواز حرفية (على) واسميتها ، وأقر بصحة هذا الأسلوب من أساليب التعبير .

٢ ـ فلان عالما أكثر منه كاتبا .

يستعمل الكاتبون هذا التعبير على ثلاث صور .

أ ـ محمد خطيبا أعظمُ منه كاتبا . (نصب الوصف ، ورفع اسم التفضيل) .

ب ـ محمد خطيب أعظمُ منه كاتبا . (برفع الاثنين) .

جـ ـ محمد خطيب أعظمَ منه كاتبا . (برفع الأول ونصب الثاني) .

أقر المجمع هذا الأسلوب بصيغته الأولى ، لأن هذه الصيغة هي التي تتفق مع اللغة ونصوص قواعدها .

٣ ـ جواز القول : « سار عبر البحار » أو « الصحاري » .

كان النصر حليف العرب في معاركهم عبر التاريخ .

مثل هذا أسلوب جائز صحيح ، أولهما على الحقيقة ، والثاني على المجاز بتشبيه زمن التاريخ بالمسافة البعيدة التي يقطعها المسافر .

أما لفظ « عَبْرَ » فهو ظرف حل محله المصدر .

أصل « العَبْر » تجاوز من حال إلى حال ، لكن العبور مختص بتجاوز الماء . جاء في اللسان : وعَبَرَ السفر عَبْرا : شقه ، أي قطعه ، فإذا كان السفر هو قطع المسافة البعيدة ، فإن العَبْر إذن هو قطع المسافة البعيدة ، وبناء على هذا يكون التركيب الأول صحيحا .

أما التركيب الثاني فهو صحيح كذلك ، بيد أنه جار على أسلوب الاستعارة المكنية القائمة على تشبيه زمن التاريخ السحيق بالمسافة الطويلة البعيدة التي يقطعها العابر ، تشبيها مضمرا في النفس ، بجامع الامتداد والبعد عن طي لفظ المشبه به ، والرمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو (عَبْرَ) بمعنى عابر . وإثباته التاريخ تخييل ، ويعرب حالا كما في التركيب الأول .

٤ ـ من ذي قبل : وأقر المجمع ما تجري به الأقلام في الاستعمال المعاصر كقولهم : فلان أحسن من ذي قبل ، وقد درست اللجنة المختصة هذا التعبير ، فتبين لها أن الأصل الفصيح فيه أن يقال : فلانٌ أحسن منه قبل ، وأن (ذي) هنا يمكن أن تكون إسماً موصولا معربا على لغة طيء . والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : حال فلان أحسن من التي قبل .

أما المعاجم فتفسر العبارة على النحو التالي :

تقول العرب : أفعل ذلك لِعَشْرٍ من ذي قَبَل ، أو قِبَلَ . وتقول أيضا : لا أكلمك إلى عشرٍ من ذي قَبَلَ أو قِبَل بمعنى : إفعل ذلك أو لا أكلمك إلى عشر مما تشاهده من الأيام ، أي فيما تستقبل .

يقال في معنى قَبَلَ : قبل العام والشهر قُبُولا ، فهو قابل خلاف أدبر . وأقبل بالألف ، فهو مقبل ، والقُبُل اسم منه . يقال : افعل ذلك لقُبُل اليوم ، أي لاستقباله . أما « ذي » فلها ثلاثة من أوجه الاستعمال ، فهي اسم إشارة للمفرد ، وهي اسم موصول مشترك ، وهي اسم بمعنى صاحب . وتستبعد من هذا المجال « ذي » التي للاشارة والموصولة ، لأنها في العبارة تضاف إلى ما بعدها ، فلا يبقى إلا التي تكون بمعنى صاحب .

أما العبارة المعاصرة فتشبه العبارة المأثورة في الجوهر ، وتخالفها في المعنى : هو أحسن من ذي قَبْل ، أو لقد تغير عن ذي قبل ، يقصد بذلك أن المتحدث عنه أصبح في حال أحسن من التي كانت قبلها .

إن العبارة الحديثة تبدو مولدة من القديمة ، ويرجع هذا التوليد من تصحيف كلمة قُبُل ، فقد نطقت ساكنة الباء ، وحملت على أنها ظرف زمان ، ومهد لهذا التصحيف أن قَبْلا أقرب إلى الذهن وأكثر شيوعا من قُبُل المتحركة الباء . □

همنغواي وإعادة القراءة

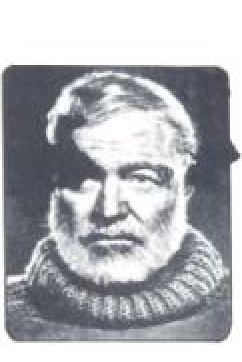

● سئل الكاتب القصصي المشهور همنغواي عن عادته في إعادة قراءة أعماله [redacted] أسلوبه الفني ، فأجاب [redacted]واي : إن إعادة القراءة تمكنك من رؤية نقاط الضعف ، ثم تسهم في مساعدتك على معالجة الموضوعات بطريقة أفضل من تلك التي تؤديها بدونها ، كما أنها تسهم دائما في مساعدتك على تكثيف الواقع ، وحشد جزئياته بطريقة أكثر فنية ، كما تساعدك في إثراء بعض الانفعالات التي تحس بأنك لم تعبر عنها بالطريقة المرضية .

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأنباء

تغيّر حُسن الجعفري

للشاعر: أبي عبادة البحتري

صاحب هذه القصيدة واحد من أبرز شعراء القرن الثالث الهجري إن لم نقل من أبرز شعراء العربية ، إنه أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري ، نسبة إلى بُحْتُر ، وهم بطن من طيء .

ولد في مطلع القرن (الثالث) على اختلاف في تحديد سنة الميلاد ، فهناك من يذهب إلى القول بولادته في عام ٢٠٠هـ ، وهناك من يضيف إلى هذا التاريخ أربع سنوات ليغدو ٢٠٤هـ ، وهناك من يرى أنه ولد في عام ٢٠٦هـ وهو الأرجح . وقد عاش عمرا طويلا ، امتد حتى عام ٢٨٤هـ ، قُدّر له فيه أن يعاصر عددا من مشاهير الشعراء والكتّاب ، وأن يمدح عددا من الخلفاء والولاة والقادة ، فعاش نابه الذِّكر ، ومات بعد أن خلّف وراءه تراثا شعريا ، لا يدانيه فيه إلا القلة من حيث جودة الصنعة ، وجمال الصورة ، وروعة التشبيه ، وعذوبة الجرس .

كانت ولادته في منبج التي لا تبعد كثيرا عن مدينة حلب ولا عن نهر الفرات في شمال سوريا ، ولم يكن يكف في صباه عن التردد على مدينة حلب ، ولم تنسه الاقامة في بغداد ـ لاحقا ـ ولا العيش في قصورها إلى جوار الخلفاء والوزراء والعلماء أيا من هاتين المدينتين ، فقد دأب على أن يُمثّل هواهما في الذكرى كلما هزه الشوق إلى مرابع الطفولة أو ملاعب الصبا .

ولهذه القصيدة مناسبة ، فقد كتبها البحتري في رثاء الخليفة العباسي المتوكل الذي قتل في عام ٢٤٧هـ ، وأبدى فيها حزنا ووفاء يجعلنا نفرق بين موقفه من المتوكل وحبه وإخلاصه له ، وبين موقفه من الآخرين ممن ارتاد قصورهم ومدحهم مديحا ذا طبيعة انتهازية ، تخلو من الصدق والوفاء ، إذ سرعان ما كان ينقلب على أحدهم إذا تبدل به الحال . قيل إنه نظمها يوم مقتل المتوكل ، وفيها أبيات تؤيد هذا المذهب ، وقيل إنه نظمها بعد الحادثة بسنوات ، وفيها أبيات أخرى تعزز هذا القول ، ولا يتسع المقام هنا لتحقيق هذه المقولة أو تلك ، وحسبنا أن نشير إلى أن مقتله نجم عن مؤامرة كان ابنه المنتصر شريكا فيها .

تروي كتب التاريخ روايات تذهب إلى أن الوزيرين عبيدالله بن خاقان والفتح بن خاقان دأبا على إقناع المتوكل بعزل ابنه المنتصر من ولاية العهد ، فأوشك أن يستجيب ، وعهد إلى ابنه المعتز

بالصلاة بالناس في يوم الجمعة ، حينئذ أدرك المنتصر أن الانتظار مُضيّع للوقت ، ولحقّه في الخلافة ، فائتمر بأبيه ، ودبر مع عدد من القادة الأتراك مؤامرة اغتياله ، والفتح بن خاقان الذي تصدى للدفاع عنه . أما البحتري فقد كان حاضرا كما يرجح البعض لكنه اختفى عن الأعين .

محل على القاطول أخلق داثرُه … وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره[١]

كأن الصبا توفي نذورا إذا انبرت … تراوحه أذيالها وتباكره[٢]

ورب زمان ناعم ـ ثم ـ عهده … ترق حواشيه ، ويونق ناضره[٣]

تغير حسن « الجعفري » وأنسه … وقوض بادي « الجعفري » وحاضره[٤]

تحمل عنه ساكنوه فجاءة … فعادت سواء دوره ومقابره[٥]

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى … وقد كان قبل اليوم يبهج زائره[٦]

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه … وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره[٧]

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت … على عجل أستاره وستائره

ووحشته حتى كأن لم يقم به … أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة … بشاشتها والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها … وبهجتها والعيش غض مكاسره

فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت … بهيبتها أبوابه ومقاصره[٨]

وأين عميد الناس في كل نوبة … تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره ؟

تخفى له مغتاله تحت غرة … وأولى لمن يغتاله لو يجاهره[٩]

* * *

صريع تقاضاه السيوف حشاشة … يجود بها والموت حمر أظافره[١٠]

أدافع عنه باليدين ، ولم يكن … ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

---

(١) أخلق : بلي ، داثره : الذي درس وبلي ، تغاوره : تجاريه .

(٢) الصبا : ريح الشرق ، النذر : ما يوجبه الانسان على نفسه تبرعا . تراوحه : تهب عليه في العشي . تباكره : تهب عليه في الصباح .

(٣) حواشيه : جوانبه .

(٤) قوض : تهدم . باديه : ظاهره . حاضره : داخله . الجعفري : قصر المتوكل .

(٥) تحمّل ، رحل .

(٦) أجدّ : جدد .

(٧) السرب : القطيع . الأطلاء : جمع الطلاء وهو الظبي . الجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقر الوحشي ذي العيون الجميلة .

(٨) مقاصره : حجراته ودوره الواسعة المحصنة .

(٩) الغرّة : الغفلة .

(١٠) الحشاشة : بقية الروح . تقاضاه : تطالبه .

ولو كان سيفي ساعة القتل في يدي
درى القاتل العجلان كيف أساوره(١١)
حرام على الراح بعدك أو أرى
دماً بدم يجري على الأرض مائره(١٢)
وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر
يد الدهر والموتور بالدم واتره(١٣)
أكان ولي العهد أضمر غدرة ؟
فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملي الباقي تراث الذي مضى
ولا حملت ذاك الدعاء منابره(١٤)
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا
من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره(١٥)

أما عن مكانة البحتري في ميزان النقد المعاصر له فقد وضعه المتنبي في منزلة الشاعر الحق ، في حين وضع نفسه وأبا تمام في منزلة الحكماء حين قال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري ، وهذه شهادة من شاعر العرب الأكبر لها قيمتها ، أما عن مكانة هذه القصيدة من شعر البحتري فقد قال عنها أبو العباس ثعلب : « ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » .

وهي كذلك حقا ، فصدق العاطفة فيها باد للعيان . والشاعر لا يرثي الخليفة ومن مات فحسب ، بل رثى زمانا وعهدا أثيرين لديه ، قريبين من نفسه . لقد تغير الحال بمقتل المتوكل ، فالقصر الذي كان بهجة للناظرين ، برقة حواشيه ، ونضرة عمارته ، وجنانه ، قد خيّم عليه الحزن والكآبة بعد رحيل أهله ، وغياب سيده ، وأي غياب !

لقد رآه الشاعر وهو يجود بالروح في لحظة كان فيها للموت سيف باتر يحصد الأرواح ، فهل يجدي مع ذلك البأس الشديد أن يدافع عنه باليدين ؟ أما وقد نفذ السهم ولم يكن يملك له دفعا ، فقد حرم على نفسه مجالس الأنس وشرب الراح ، فذلك أقل ما يقتضيه الوفاء . لكن الذي أذهله أنه لا يستطيع الشكوى ، فإن من كان يؤمل منه أن يثأر لأبيه ، وهو ابنه المنتصر ، كان ضالعا في المؤامرة ، شريكا في القتل .

كان المتوكل ولي نعمة البحتري ، لذلك لا تجده يقتصر في رثائه على هذه القصيدة ، بل يذكره كلما وجد إلى ذلك مناسبة . وإذا لم يرد ذكر الفتح بن خاقان وزير المتوكل وأديب القصر في هذه القصيدة ـ وكان قد جاد بالروح وهو يدافع عن الخليفة ـ فقد ورد ذكره في مواضيع أخرى ، حيث أورد له الحصري صاحب « زهر الآداب » بيتين يفيضان حزنا .

مضى جعفرٌ والفتحُ بين مُوسَّدٍ
وبين قتيلٍ في الدِّما ومُضرَّجِ
أأطلبُ أنصارا على الدهر بعدما
ثَوى منهما في التُّربِ « أوسي » وخزرجي

ولا تحفل هذه القصيدة برقة العاطفة وصدق الشاعر فحسب ، بل هي مهرجان للغة ، تبدي فيه زينتها ومحاسنها ، شأنها في ذلك شأن شعر البحتري بعامة ، فلقد كان البحتري رأس مدرسة في الشعر العربي ، هي مدرسة صفاء الديباجة التي تمتاز بجودة السبك ورقة الأسلوب ، والبعد عن الايغال في طلب المعاني ، فالبحتري نفسه يحدد خصائص هذه المدرسة في قصائده بقوله : هي نظام من البلاغة فريد ، يقوم على اختيار الألفاظ ، وتجنب التعقيد ، ثم يعمل على تركيب تلك الألفاظ المنتقاة تركيبا يسهل معه إدراك المعنى البعيد دون تكلف ومشقة . إن هذه الخصائص التي تمتاز بها مدرسة الديباجة تبدو على خير ما تبدو في شعر الوصف ، وصف الطبيعة والقصور والآثار ، وذلك ما أبدع فيه البحتري إبداعا . □

---

(١١) أساوره : أواثبه . (١٢) المائر : الجاري . (١٣) واتر : ظالم . موتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .
(١٤) ملي : متع . (١٥) وأل : طلب النجاة .

قصة قصيرة

أرقام فضية وأخرى حمراء

بقلم : ابراهيم زعرور

عفوا سادتي ، فأنا مضطر لتحذيركم منذ البداية بضرورة متابعة الحكاية حتى نهايتها ، وأحملكم مسؤولية التقصير كاملة ، فطالما خيبتم ظني في السابق عندما حذرتكم من الوقوع بمثل ما حدث معي ، لكنكم كنتم تضربون صفحا عني ، حتى وقعتم في المحظور .

ما حدث لي أسجله هنا ، وهو عين ما يحدث لكل واحد منكم الآن بصورة أقل أو أكثر عنفا بدرجة أو درجتين على أعلى تقدير ، هذا على الرغم من أنني لا أعرف ما يحدث بالضبط .

صدقوني ـ دون يمين ـ أنني حتى هذه اللحظة ، وعلى الرغم من مرور ما يزيد على خمسة عشر عاما ما زلت أجهل مدى جدية العمل الذي أمارسه أو تفاهته ، لأنني ببساطة لا أعرف ما هي طبيعة عملي !!

صحيح أنهم يرهقوننا من السادسة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر ، لكنني لا أستطيع أن أجزم برأي قاطع يحدد طبيعة عملي ، وقصارى ما أستطيعه هو أن أصف لكم ما يحدث حولي .

ولا يمكن لأي مغرض أن يفسر جهلي هذا بقصور ذهني طارىء أو موروث ، فأنا كما تعلمون جميعا ـ دون حاجة لادعاء التواضع ـ كنت أستاذا في الفلسفة ، وكاتب قصة مبدع ، وكانت لي اسهامات نقدية جادة ، ومحاولات شعرية واعدة ـ كما كانوا يقولون ـ ورثتها عن والدي الذي كان شاعرا شعبيا ذائع الصيت ، بل كان « حداء » على وجه التحديد . تكاد تستطيع أن تعثر بين مليون إنسان على شخص واحد يعجز مع كل هذه المواصفات أن يحدد لك طبيعة عمله .

أنا أعمل في الصحراء . أين ؟ لا أعرف أيضا . فقد جرى انتقاؤنا بعناية تامة ، ثم جيء بنا إلى هذا المكان تحت جنح الليل ، وسلمونا لأناس لا أسماء لهم .

جبابرة بجذوع عارية ، وسياط مجدولة ، يعرفون بأرقام فضية ، تتأرجح على صدورهم . وفور وصولنا جعلونا ننزع قمصاننا ، وأعطونا أرقاما بلاستيكية حمراء ، علقناها في رقابنا . وهكذا دخلنا المشروع وابتلعتنا الصحراء بسرعة . صحراء من النوع الجهنمي ، تمتد كبحر لانهائي من حبيبات « السيليكون » النقي الجارح كالزجاج المجروش . في البداية حلقوا رءوسنا ثم حقنونا بعقار يسمونه « الضد » .

يحقنونك « بالضد » فيتساوى لديك سقوط الأزميل مع قطع الذراع !! ولا تعود تفرق بين جرش المنشار وتغريد العصفور . تنخفض درجة الغضب لديك إلى الصفر ، وتختفي الدهشة من

عالمك الجديد . فترى الأشياء والناس كتلا مجردة ذوات أبعاد مكانية ، وسرعات لا تخضع إلا لحتمياتها الرياضية الصرفة ، ويصبح الزمن امتدادا مجرداً لحالة من الاستمرار الحتمي اللانهائي ، لا فرق فيه بين الليل والنهار .

بعد ذلك يعرضونك لمجموعة من الاختبارات ، تشمل الذكاء ودرجة الانفعال وحجم الدماغ والافراز الهرموني والقدرة على التخيل والتصور وحدة الابصار ، اختبارات لا أول لها ولا آخر .

عرضونا لأجهزة كشف الكذب ، وكشفوا عن سرعة الاستجابة العصبية ، ثم أجبنا عن آلاف الأسئلة حول الأحلام والرغبات والصبوات والميول ، فعرفوا كل ما نشتهي وما نكره . وكانت الآلات الحاسبة الجبارة تحيل كل هذه المعلومات إلى أرقام حسابية ، ثم تقوم بمعالجتها بالضرب والقسمة والجمع والطرح ، لتخرج في النهاية بتقدير نهائي لحالتك الانسانية ، يأتي على صورة رقم حسابي مفرد يضيء على شاشة خاصة .

فإذا ما كنت مواطنا صالحا وحصلت على رقم (٧) فأنت العنصر المثالي العياري اللائق للعمل . وسرعان ما تجد نفسك بين أيدي المختصين المهرة الذين يأخذون بيدك للتدريب على العمل ، أما إذا زاد تقديرك أو نقص عن رقم (٧) فإنهم يخضعونك لنوع من العلاج لتسوية حالتك ، ويتحدد نوع العلاج بمقدار الانحراف عن الرقم القياسي .

كانت معظم النتائج تتراوح ما بين الرقمين (٥) و (١٠) ، وهي أرقام تقترب من المعدل على أية حال ولا تدعو للقلق .

لكن الكارثة كانت في حظي السيء ، إذ كانت محصلة بياناتي رقم (١٩) ، وهو نفس الرقم الذي طالما كرهته عندما كنت أحب الشعر والباذنجان المتبل ورائحة البرتقال وابنة الجيران !

لاحظت القلق في وجوه المسؤولين ، ودب في الآلات نشاط مضاعف ، وبعد التحري والتدقيق قرروا حقني بجرعة مضاعفة من « الضد » ، ثم أعادوا فحصي واختباري وتفريغ بياناتي من جديد ، فحصلت على رقم (١٨) . وهنا ساد الذعر في وحدة الفحص التأهيلي ، وقرروا عزلي عن النور في جناح يسمونه « نَعْج » ، وهو الاسم المختصر لوحدة « الانصياع العصابي الجمعي » .

وهناك تداعى على الخبراء من كل حدب وكل ملة ، وجرت عملية مراجعة شاملة لمجمل أرقامي وبياناتي ، فتبين أن المعدات سليمة والقراءات لا تشوبها شائبة .

ـ أي فاجر هذا الذي يصل جنوحه إلى رقم كهذا ؟؟

ـ ألا يكون ابليس متنكرا ، جاء يفسد مشروعنا الوطني ؟؟

وسألني كبيرهم الذي يحمل رقم (٧٧) بعد الجرعة الثالثة من « الضد » أن أميز ما بين القبلة والصفعة ، وأذكر أن إجابتي كانت كالتالي : كلتاهما فعل ، إيجابي ، عضويٌ ، إراديٌ ،ثنائيُّ الطرف ، يصاحبه ارتفاع طفيف في درجة الحرارة .

قال رقم (٧٧) : استجابته صحيحة ، وقابليته متناسبة .

قال رقم (٧٠) : أين الخطأ إذن ؟

قال رقم (١٠١) : لا أدري ، لا أدري .

وأنا لا أدري كيف اندفع الكلام على لساني فصرت أقول : ألا يمكن أن يعزى الخلل إلى حبي للشعر والباذنجان ؟ ! فكما ترون إن حصيلة هذين العنصرين هي رقم (٢) فقط ، الأمر الذي يجعل حاصل القسمة النهائية كبيرا على هذا النحو ؟

ـ اخرس .

ثم اغلقوا فمي بشريط لاصق . وهنا بدأت أشعر بجسامة المسؤولية . إن عنصراً يحصل على رقم (١٩) هو إنسان خطير بالفعل ، لأن الدستور يسمح للمؤسسة بالتجاوز في حدود النصف إلى واحد صحيح زيادة أو نقصا عن المعدل العياري (٧) . وحتى الحاصلون على رقم ثمانية ونصف أو حتى (٩) يمكن علاجهم فيزيائيا دون حاجة للجوء إلى العقارات أو التعريض للاشعاع .

فالصيحات التي تنطلق من ذوي الأرقام الجانحة

عادة أثناء معالجتهم جسديا ، سواء عوملوا بالسياط أو بغيرها من الأدوات قد أعطت نتائج مدهشة . وربما كان يكفي في بعض الحالات مجرد التعرض للأصوات الحادة ذات التردد العالي بما لها من أثر حراري لا ينكر في تمزيق الجملة العصبية وإعادة الاتزان ، بل إن بعض الاختصاصيين من المتفائلين يذهبون إلى حد بعيد ، "ويعتقدون أن مجرد المثابرة على مشاهدة أفلام التوعية التفويجية التي يبثها تلفاز المركز لحملة الرقم (٩) ـ تلك الأفلام التي تعرض صورا شتى للمعالجات الجسدية مع ما يرافقها من صيحات تشخيصية ـ قد تفي بالغرض ، أما في مثل حالتي فإن الأمر يتطلب إظهار شيء من الجدية والحزم .

وهكذا جرى استئصال الجسم الصنوبري من قاعدة المخ ، فهبطت نسبة الكبرياء عندي إلى درجة الصفر ، لكن حصيلة خصوصيتي ظلت على حالها ، فبعد إعادة الاختبار وحصولي على رقم (١٩) مرة أخرى جن جنون المسؤولين أمام تكرار الفشل في استيعاب هذه الحالة النادرة .

ومن باب إحساسي بالمسؤولية ، وإظهاراً لحسن النية اقترحت عليهم أن يكشفوا على جهازي العصبي السمبثاوي ، فاستجابوا لمبادرتي ، وجرى قص جميع الزوائد العصبية ذات الارتباط العاطفي المباشر ، ثم ـ من باب الاحتياط ـ أتلفوا مراكز التخيل على جانبي المخ .

وعند إعادة الفحص وظهور رقم (١٩) مرة أخرى سقط أحدهم ميتا بالذبحة الصدرية ، وأغمي على اثنين آخرين ، فيما راح كبيرهم يشد شعره ووجهه بكلتا يديه ، ويطلق صرخات غير معتادة .

كان الرقم (١٩) ثابتا على الشاشة ، مثل

الصحراء الثابتة حولنا ، الشاسعة الممتدة ـ بحر من حبيبات خشنة من أكسيد السيليكون الزجاجي اللامع الملفوح بشمس عمودية حرارتها تفوق الوصف .

كنت ما أزال أجلس أمام آلة الاختبار مفرغا من المشاعر تماما ، وكان في مواجهتي على بعد عدة أمتار باب نصف مفتوح دائما ، يؤدي إلى مخزن مهمل ، في واجهته البعيدة نافذة صغيرة ، تطل على الصحراء ، ووراء النافذة خزانات مياه صدئة ، ولا تنفك تنز الماء باستمرار خلف المبنى .

كنت ما أزال أجلس أمام نفس الآلة في شبه غيبوبة ، أحدق في الفراغ ، وكانت الأشياء تحيق بي صافنة صماء محايدة ـ تفاصيل جامدة تمتد أمامي فوق جدار من الصمت تعلوه مئات الشاشات والأزرار والموصّلات ، ووراء ذلك باب نصف موارب ، ربما ترك سهوا ذات يوم ، يفضي إلى نافذة صغيرة في الجدار القصي لمخزن مهجور للمهملات . تسللت الصحراء عبر النافذة ، وعبرت فراغ المخزن ، ثم دلفت من فرجة الباب ، ووصلت إلى عيني ، فتشوفت مدة ثانية واحدة ـ فيما يشبه الحلم ـ شجرة برتقال مزهرة وراء النافذة .

كيف سمح لهذه الشجرة أن تخرق صمت المكان بهذه الرعونة ؟ ! أي طائر أخرق هذا الذي أسقط بذرتها عندما غامر باختراق دستور هذه الصحراء ذات يوم ؟ !

وفيما يشبه الهذيان وجدتني أسأل الخبراء حولي :

كيف تستطيع شجرة كهذه أن تزهر في هذا المكان ؟

وعندما تلفتوا إلى حيث كنت أشير وقعت أعينهم عبر النافذة الضيقة على شجرة برتقال مزهرة ، فانفجروا بهستريا : « إنها السبب ، إنها السبب » ، وسرعان ما انهالت عليها الفؤوس ضربا وتمزيقا ، فتهاوت شجرة البرتقال الوحيدة ـ ذات الأزهار البيضاء ـ بذهول .

وما حدث بعد ذلك معروف لكم جميعا ، ولا حاجة لاثارة البلبلة بسرد التفاصيل . □

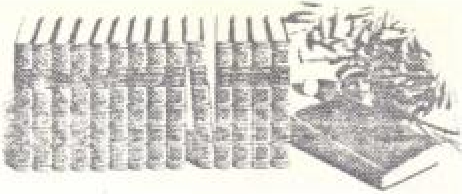

مكتبة العربي

كتاب الشهر

مشاعر محجبة

"الشرف والشعر في مجتمع بدوي"

تأليف : الدكتورة ليلى ابو لغد / عرض : خالد عباس

بين أكتوبر ١٩٧٨ ومايو ١٩٨٠ كانت الباحثة الأمريكية الفلسطينية الأصل تقيم بين قبائل أولاد علي القاطنين في صحراء مصر الغربية لتخرج بدراسة انثروبولوجية ميدانية عن هذا المجتمع شبه البدائي ، لكنها وجدت نفسها تقوم بمهمة إضافية هي دراسة فن الشعر الشفوي الذي ينتجه هذا المجتمع ، فكان الكتاب دراسة فريدة لهذا المجتمع البدوي الفريد .

كتاب الشهر

الكتاب الذي بين أيدينا صادر عن منشورات جامعة كاليفورنيا (١٩٨٦) في الولايات المتحدة الامريكية ، لمؤلفة عربية الاصل هي الدكتورة ليلى أبو لغد ، الاستاذ المساعد بقسم الانثربولوجيا في « وليامز كوليج » ، بجامعة كاليفورنيا ، وعلى الرغم مما يستشعره القارىء في كتابها من ارتباط بالوطن العربي لكن عليه ألا يتوقع قراءة رؤية عربية بأحرف لاتينية مقدمة الى القارىء الغربي ، فهذه دراسة تتخذ من المنهج التحليلي القائم على تخطي حدود المجاملة والرصد المتجرد أساسا لها ، فيأتي حكم مؤلفتنا موضوعيا بالمفهوم الاكاديمي للبحث .

مع أولاد علي

يقع هذا الكتاب* في ثلاثمائة وسبع عشرة صفحة من القطع المتوسط ، وهو مقسم إلى جزئين رئيسين ، يتناول أولها أيديولوجية الحياة البدوية لمجتمع أولاد علي في صحراء مصر الغربية ، بينما يتعلق ثانيها بالحديث عن الشعر الشفهي لهذا المجتمع ، ومؤلفتنا لم تكتب دراستها من خلال زيارات ميدانية متقطعة وإنما من خلال معايشة وإقامة مستمرة خلال فترة ما بين اكتوبر ١٩٧٨ ومايو ١٩٨٠ ، مع أولاد علي ، ابنة وضيفة تشاركهم نمط حياتهم اليومية ، بما لايقارن مع ترف الحياة الامريكية وصخبها . وبهذا استطاعت أن تصل الى مفاهيم البدو في تلك الصحراء الممتدة على مساحة خمسمائة كيلو متر من الحدود الليبية ، تستكشف عالمهم الاجتماعي ، وتتوصل الى اكتشاف أهمية الشعر في حياتهم الاجتماعية ، بل وتقدم دراسة في الانثروبولوجيا تعرض أغنى وأمتع ما كتب في العلوم العرقية وأصل الانسان وعالمه .

تقول الدكتورة أبو لغد إن عالم البدو عالم اجتماعي مترابط بشكل قوي ، العزلة فيه ممقوتة ، حتى أن أحدا لاينام بمفرده ، ومن يقضي وقته بمفرده يعتقد أنه عرضة لأن تهاجمه الارواح الشريرة (العفاريت) . هذا المجتمع المتماسك اجتماعيا يمر بمرحلة تغير في طريقة المعيشة ، من حيث المسكن واستخدام التقنية ، كانتقال أفراده من الخيام الى المنازل وسماعهم لاجهزة المذياع والتسجيل ، وسفرهم في السيارات وسيارات الشحن ، إلا أن أولاد علي لاينظرون الى هذه الامور بانزعاج من فقد هويته كمجموعة حضارية ، لأنهم يعرفون أنفسهم ، وليس من خلال طريقة المعيشة في الاساس ، وإنما بمبادىء التنظيم الاجتماعي التي تحكم : النظام القبلي القائم على « الاصل » والنسب والقربى ، والارتباط بنظام أخلاقي يقوم على الشرف والاحتشام ، فعالمهم الاجتماعي محكوم بهذه المبادىء التي تحدد هويات الافراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

إن العالم الاجتماعي لأولاد علي قائم على أيديولوجيه القربى ، أي القريب في مقابل الغريب ، وهذا ما يميز أحاسيسهم وسلوكهم ، وتأتي قرابة الابوة في أولية لاتنازع . وإن ايديولوجية القربى تشكل هوية الذات ، وتنظم العلاقات الاجتماعية اليومية وهي بؤرة اهتمام الباحثة خلافا لمعظم الانثروبولوجيين المهتمين بالعلاقات السياسية ، فأيديولوجية القربى ، وبخاصة مفهوم « الدم » ، هي تحديد للهوية الحضارية لجمعية أولاد علي ، وتشكيل لاتجاهاتهم الذاتية وعواطفهم تجاه الآخرين ، أما تنظيم الحياة السياسية فيتخذ شكلا من خلال هذه الايديولوجية .

إن مبادىء مجتمع أولاد علي تستند على هذا المفهوم المتعدد الأوجه الذي أشرنا إليه ، أي مفهوم الدم ، فالدم يربط الناس بماضيهم وحاضرهم ، وعلاقته بالماضي آتية من التسلسل النسبي ، فهو إذن أساس لتعريف الهوية الحضارية (نبل الأصل أو النسب) ، وهي نقطة ذات اهتمام كبير لأولاد علي ، فهم ينظرون لأنفسهم على أنهم عرب ، أسلافهم بنو هلال . وفي الواقع تؤرخ بعض المصادر لهجرة أولاد علي من ليبيا الى مصر مع نهاية القرن السابع عشر ، وإن كانت مصادر أخرى تؤثر تحديد التاريخ بنهاية القرن الثامن عشر . ومجتمعهم يمثل ما نسبته ١٪ من سكان مصر ، وهي نسبة بدأت في التضاؤل منذ القرن الماضي ، مصدر عيشهم أساسا رعوي ، قائم على تربية الابل ، والاغنام ، والماعز ، علاوة على ممارسة بعض أنواع التجارة ، ولا تتأثر حياتهم المعيشية بالمنافسة الداخلية مع القبائل الأخرى التي تشاركهم طريقة حياتهم فحسب بل تخضع أيضا للظروف السياسية الخارجية والتغيرات الاقتصادية التي تؤثر على ليبيا ومصر ، وعلى الرغم من محاولات الاحتواء عبر الزمن من أيام محمد علي حتى الآن ، إلا أنهم يتمتعون بهوية حضارية مميزة ، وهم غالبا ما يشيرون إلى أنفسهم لا كبدو وإنما كعرب ، كما أسلفنا . ولقد تبدل بهم الوضع الاقتصادي بعض الشيء فتوفر لهم النقد السائل من خلال التهريب . أو بالعمل المشروع ، وبيع الاراضي والزراعة . وقد أثر هذا على توزيع الثروات ومصدرها ، غير أن تفكك النظام القبلي من الصعب أن يكون وشيكا ، كما تراه الدكتورة أبو لغد ، وهي تدلل على ذلك بأنه على الرغم من انتهاء فترة الحكم العسكري في أواخر الخمسينيات ، فإن ادارة قطاع الصحراء الغربية كانت هامشية محدثة طفيفة لتناسب التنظيم القبلي،أما في التطبيق فالأمر مختلف . فعلى سبيل المثال يصوت البدو على أساس الانتماءات القبلية في انتخاب ممثليهم للبرلمان ، وما يزال الشباب منهم يحاولون تحاشي التجنيد في الجيش المصري بالهرب إلى ليبيا أو الى الصحراء . ومعظم الخلافات يتم تسويتها عن طريق القانون العرفي ، أما في الجرائم الخطيرة مثل القتل التي لايمكن إبعادها عن السلطات ، فإن أحكام المحاكم الرسمية لايعتدبها فيما بينهم ، بل إنهم غير متعاونين مع المحاكم . وبذكاء أو بعدمه فإن معظم الناس يعيشون خارج إطار القانون ، تهريبا ، وعبورا للحدود المغلقة ، وحملا لأسلحة نارية غير مرخصة ، وتحاشيا للتجنيد ، وتجنبا للضرائب ، وعدم تسجيل للمواليد ، وعدم حمل هويات رسمية . وتنفيذ العدل فيما بينهم بأيديهم ، أما الاعتقالات وأحكام السجن فلا تمثل سمة بالنسبة للبدو .

أيديولوجيا الشرف والحشمة

إن مجتمع أولاد علي يمكن فهمه من خلال منطق أيديولوجية الشرف والحشمة ،هذه الايديولوجية التي تخدم في ترشيد اللامساواة الاجتماعية ، والافضلية الاجتماعية . والافضلية الاجتماعية أو التفوق الذي يمثل منطق الشرف لايعتمد على القوة ، وإنما على إظهار الفضائل الاخلاقية التي تكتسب احترام الآخرين ، وتسيطر على الآخرين من خلال نظام يقوم على أخلاقية تكفل استمرارية النظام الاجتماعي والسياسي ، وإن أساس سلطة المرء واستقلاله الذاتي هو ما يمكن إدراجه تحت مصطلح الافضلية الاجتماعية ، لكن إذا كان الشرف عند الرجال نابعاً من فضائل متصلة بالاستقلالية الذاتية ، فهناك كثير من النساء ، بسبب اعتمادهن المادي والاجتماعي على الرجال يصادفن العقبات في جهودهن لتحقيق هذه المثاليات . وترى أبو لغد أن طريقة النساء للتعبير عن الشرف في هذا النظام مختلفة ، فلكي يكون لهن قيمة أخلاقية فإنهن لابد أن يظهرن حشمة ، فالحشمة من جانب النساء أمر مهم لاظهار الاذعان للمتفوقين اجتماعيا ، لان النساء غير قادرات على الاندماج في النظام من خلال تجسيد قيمه العليا ، فمثلهم مثل الصغار والفقراء ، فهن يلجأن إلى إضفاء الشرف عليهن من خلال منطق العقل ، وذلك المفهوم الاجتماعي المتوافق مع النظام

الاجتماعي للقبيلة . فلا غرابة إذن أن المرأة التي تتحشم توصف أيضا بأنها « عاقلة » . فالبدو يعتبرون النقاب (البرقع) مرادفا للحشمة ، وان وضع النقاب يمثل أكثر التصرفات المرئية مراعاة للحشمة ، ومع ذلك فالنقاب أمر طوعي ، ووفق الموقف الاجتماعي لايفرضه الرجال فرضا ، وإن كان هناك من يفرضه فهن النسوة أنفسهن . والنقاب بالنسبة لأولاد علي يفهم كمصطلح في مفردات لغة رمزية للتواصل مع الاخلاقية ، كما ترى د . أبو لغد أنه في باطن كلمة « حشمة » يقع الخوف من مجابهة الأكثر قوة ، والوقوع تحت سيطرته ، وهي حالة مناقضة لمثاليات الاستقلال الذاتي والمساواة ، وإن التخفي والتحاشي ربما يمثل حماية ضد كشف القصور في هذه المثاليات . فالحشمة إذن تصرف اختياري يدل على الاستقلال ، ومن هنا فهو جزء من قانون الشرف ، وإنه استراتيجية شرف الضعيف المعتمد على غيره في مجتمع يقدر القوة والاستقلال الذاتي .

ومن الواضح أن المبادىء الجوهرية المنظمة للحياة الاجتماعية والسياسية تظل ثابتة في مجتمع أولاد علي ، فالزيجات مثلا ما تزال مرتبطة بتاريخ تحالفات الزواج بين الافرع القبلية المرتبطة بالعائلات .

« الغناوي »

الجزء الثاني من الكتاب مخصص للحديث عن الشعر الشفوي لاولاد علي وبخاصة « الغناوي » . تقول د . أبو لغد إن المرء لايستطيع أن يتحدث عن الحياة الذاتية لأولاد علي دون أن يتكلم عن الشعر ، هذا الشكل التعبيري العالي القيمة والحيوية الذي يحمل الرسائل المؤثرة عن المشاعر . والطريف في الأمر أن الباحثة لم تكن أصلا مهتمة بالشعر ، إذ تقول لم أكن مهتمة بالشعر ، جئت لادرس عينة ومعنى من العلاقات ، وبخاصة بين الرجال والنساء ، وبعد ذلك بدأت أتساءل ماذا تعني هذه القصائد ، ولماذا حظيت بالتقدير من البدو ، ولقد لاحظت أن الناس غالبا ما يغنون أو يقاطعون أحاديثهم بالقصائد القصيرة . وهم جميعهم قد أظهروا اهتماما كبيرا بهذه القصائد ، وغالبا ما بدوا متأثرين عند سماعها ، وكان رد فعل النساء بهذه القصائد مفتاحها الاول لأهمية الشعر كواسطة « للتعبير الذاتي » و « الاتصال السري » .

وتلفت د . أبو لغد انتباهنا الى أنها تعطي أولوية للقيمة الاجتماعية للشعر على الجوانب اللغوية ، سواء القيمة الشعرية أو التحليل البنائي ، أو الدخول في مقارنات مع الاشكال الاخرى للشعر العربي ، وإنما يهمها الدور الذي يلعبه الشعر في الحياة الاجتماعية للبدو ، فهي معنية بما يقول الناس عن تجاربهم من خلال قصائدهم ، وما أهدافهم من روايته ؟ ولمن توجه القصائد ؟ ومن هنا فهي تشارك في بعض الاهتمام الذي يوليه طلاب الادب الشفوي في التركيز على الذات (الفرد) والموقف الاجتماعي لرواية الشعر ، بيد أنه في التركيز على الفائدة الاجتماعية ؛ فإن هذه الدراسات أحيانا يقصر نظرها عن الجانب التعبيري للفنون كانعكاس للخبرات العميقة ، ولذا فإن باحثتنا تحاول أن تحافظ على كليهما .

من بين الانثربولوجيين الذين كتبوا عن أولاد علي بيترز (١٩٦٥) الذي ذكر شيئا من الاغاني والشعر ، غير أنه لم يشرح أهميته ، أما الدكتورة أبو لغد فتدرك الشعر من خلال الحياة الاجتماعية البدوية أكثر من كونه قالبا منفصلا عن الحياة اليومية ، ذلك لأن معظم الشعر الذي جمعته ـ جمعت ٤٥٠ قصيدة ـ كان يروى تلقائيا في سياق الكلام الاجتماعي . فاستخدام القصيدة في الحديث اليومي ، ورد فعل الآخرين يشرح كثيرا من دور الشعر في الحياة

البدوية ، وإن أولاد علي يسرهم التغني والاستماع الى « الغناوي » ،وإنهم يولون اهتماما خاصا للرسائل المنقولة في الشعر ،ويتأثرون غالبا الى درجة ذرف الدموع نتيجة للمشاعر المنعكسة في الواقع . وفي تعريفهم للقصيدة الجيدة يرون أنها هي تلك التي تحرك الناس عندما يسمعونها فيقولون : « إن الشعر الجميل يجعلك تبكي » ، كما تلاحظ أن القصائد يمكن أن تؤثر في الآخرين لتغيير تفكيرهم وتصرفاتهم .

ان الموهبة الارتجالية والقدرة على التلاعب بالتراكيب اللغوية لها قيمة كبيرة في الثقافة البدوية ، فالبدو حساسون لقوة عناصر النص الشفوي من طباق وجناس وإيقاع وغيرها ، وهم يعرفون كثيرا من القصائد التي تقال في المناسبات العديدة ، ومن هنا تكتسب القصائد الجديدة معنى من خلال وضعها في إطار العالم المشترك لمجتمع صغير متجانس حضاريا .

« القول والغنيوة »

من أشهر أنواع الشعر الشفوي البدوي لاولاد علي « الغنيوة » التي تتميز عن الاغنية ذات الايقاع واللحن ، وهي تقريبا ترنيمة ، البدو أنفسهم يصنفونها مع الالوان الأخرى للشعر على أنها « قول » . تقول أبو لغد إن « الغنيوة » قصائد غنائية مثل « الهيكو » اليابانية في الغالب لكنها أقرب الى « البلوز » الامريكية في المحتوى والنغمة العاطفية ، وتتميز « الغنيوة » بوضوح في الشكل والمحتوى عن الأنواع الاخرى لشعر أولاد علي وأغانيهم ، فالانواع الاخرى تتألف عادة من أبيات شعرية عديدة ذات إيقاع ، وأحيانا ذات قافية ، بينما « الغنيوة » تتألف من بيت واحد ، يشمل حوالي ١٥ مقطعا .. هي شعر العاطفة الذاتية ، إنها عن الاحاسيس ، أحاسيس الناس وعلاقاتهم الانسانية ، وإن العلاقات الذاتية خاصة علاقات الحب مع أشخاص من الجنس الأخر ، لها اهتمام كبير بين البدو ، إنها فعلا مركزية بالنسبة لايديولوجية الشرف والحشمة .

إن رسائل الشعر في المجتمع البدوي العربي لها معناها العميق ، وهي مهمة جدا لفهم تجربة أولاد علي ، وتعتبر علاقات الحب مركزية بالنسبة للحياة الشعرية ، ويربط أولاد علي « الغنيوة » بالحب الرومانسي أكثر من ربطها بأي موضوع آخر . في الرومانسيات البدوية يتكلم المحبون دوما بعضهم الى بعض من خلال الحب ، وهذه الرومانسيات لاينتج عنها في الغالب زواج ، فزيجات الحب تعارض من حيث المبدأ ، لأنها تنتهك سيطرة العائلة على الزواج ، وتمثل مبادرة ذاتية ، ومن هنا فهي تحد للنظام ، وقبولها يمكن أن يشرع كقوة في الحياة الاجتماعية ، غير نابعة من علاقات القربى . ومن أمثلة هذه الرسائل :

عيب يا عزيز عليك
وتنساني وأنا دوم فاكرك

ويكون رد المحبوبة :

القلب يا بعيد الدار
يمسي معاي ويبات عندك

وتقول الباحثة إن الرجال نادرا ما يغنون « الغناوي » ، لأنها مجال النساء ، فهناك ثلاثة موضوعات تميز القصائد : السهر (مرتبط في الشعر البدوي التقليدي بالبكاء والأسى) ، والمرض (في السيكولوجية الشعبية نتيجة لأي عواطف سلبية) ، واليأس (الكلمة توحي بالشفاء اليائس أو الحزن المفرط) :

خطروا على غفلة
بكى العين في أوان الطرب

إن د . أبو لغد تستكشف من خلال دراستها العميقة كيفية فهم الحقيقة المتمثلة في أن الأفراد إنما يعبرون عن هذه الأحاسيس المختلفة تماما في الشعر وفي الحديث غير الشعري ، ومن خلال النظر في « غناوي » أولاد علي ، تبرز النقطة المركزية في العلاقات بين الحديث الشعري البدوي وبين حديث الحياة الاجتماعية العادية ، وهذه العلاقة التي لابد لنا من التعمق في ايديولوجية الحياة الاجتماعية لفهمها ، وهذا ما وقفت باحثتنا في الوصول إليه . □

من المكتبة العربية

لوحات تسرّ الخاطر

تأليف : الدكتور نعيم عطية

عرض وتقديم : عادل ثابت

مع بداية الثلاثينيات كانت أولى ملامح الفن التشكيلي المصري تتكون على أيدي الرواد الأوائل ، كمحمود سعيد ، ومحمد ناجي ، ثم تلاهما راغب عياد ، ومحمود مختار ، وآخرون ، ومع نهاية ذلك العقد كانت المدرسة المصرية في الفن التشكيلي تقدم مساهمة جيدة في هذا المجال ، على أيدي جورج صنبن ، ورمسيس يونان ، وغيرهما .

ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف عطاء مصر الفني التشكيلي ، وهو العطاء الذي يتابعه هذا الكتاب .

في عام ١٩٠٨ تحققت فكرة إقامة مدرسة الفنون الجميلة بحي درب الجماميز ، بمنزل يملكه الأمير يوسف كمال الذي استجاب للفكرة ، وأنفق عليها من ماله ، وقد قام بعض الفنانين الأجانب المقيمين في مصر على رأسهم المثال الفرنسي « لابلاني » والمصور الإيطالي « نورشيلا » بالتدريس في هذه المدرسة ، وكان من حسن الطالع أن يظهر من بين تلاميذها روادها الأول في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات في هذا القرن . اثنان منهم تمكنا من العبور خارج الحدود والتيارات « الأكاديمية » بفضل اتساع ثقافتهما ، هما محمود سعيد ، ومحمد ناجي . كما كان من حظ هذه الحركة أن تمكن اثنان آخران من هؤلاء الرواد أن يفلتا من قبضة هذه التعاليم ، بفضل حسهما المرهف ، وروحهما المتوقدة ، وهما المثال محمود مختار ، والمصور أحمد صبري ، ثم انضم إليهما راغب عياد في بعض أعماله المتقدمة التي اتسمت بالطابع التعبيري ، ولولا تولي هؤلاء الرواد أمر التدريس في مدرسة الفنون الجميلة لظلت حركتنا الفنية أمدا طويلا تحت رحمة التيارات « الأكاديمية » الراكدة .

على أن ظهور جماعة «الفن والحرية» بعد ذلك قد فتح باب التجديد على مصراعيه . وكان للمعارض التي أقامتها وقع القنبلة في الأوساط الفنية ، على

الرغم من أنها كانت « سريالية » النزعة في صلبها ، حيث كانت « السريالية » أقوى حركات الفن العالمية في ذلك الحين .

وبوسعنا أن نقول إن جماعة « الفن والحرية » كانت بمثابة البذرة التي انبثقت منها شتى النزعات الأخرى التي ظهرت منذ الحرب الأخيرة ، أما الجماعة الثانية فهي تلك التي اختار أصحابها العودة لتأمل الطبيعة وتقاليدنا الفنية العريقة ، فرأينا روادها يطيلون الوقوف أمام الروائع الفنية في متاحفنا تارة ، وأمام الطبيعة تارة أخرى ، ويعكفون على دراستها في تمعن وتأمل .

وإمعانا في التقدير أسندت رئاسة جمعية محبي الفنون الجميلة إلى الأمير يوسف كمال ، وكان الرؤساء من بعده هم محمد محمود خليل ، وعطا عفيفي ، وعلي لبيب جبر ، وجمال عبد الرحمن .

تألق جيل الرواد

كانت العشرينيات هي سنوات التألق لجيل الرواد الأول ، بعد أن أنشأوا جماعة الخيال برئاسة مختار ، من أجل ارساء دعائم فن قومي ، كما ظلت أعمال الرواد تتوالى على صالون القاهرة ، وينمو معها النقد الفني الذي وجد لغته وطريقه ومصطلحاته ، ليس بين النقاد المصريين فقط ، بل بجانب أسماء أخرى كبيرة ، أصبحت مصرية بانتمائها وشعورها ، منهم جورج صباغ ، وهرايت ، وزوريان ، ومسموتيان ، وهليبرت ، وبوركار سميكة ، وآمي ، وإيما كالي عياد ، ومرغريت نخلة ، كما ظهرت أعمال جيل آخر مثل سند بسطا ، وعزت مصطفى ، وأحمد يوسف ، وأحمد عثمان ، وآخرين .

أما في الخمسينيات فنجد مواهب أخرى حالفها التوفيق ، وتألقت خلال المعارض العامة والفردية ، مثل الارناؤوطي ، ونداء الجزار ، وحسن سليمان ، ويوسف سيده ، وتحية حليم ، وعبد الرسول ، وجاذبية سري ، وانجي افلاطون ، ثم تلا هذا الجيل جيل آخر من الشباب .

وتسقط مصطلحات ومفردات ليحل محلها مفردات من نوع آخر ، بنظرة جديدة تتألق ، وتنطلق عبر شباب جديد ، يحمل أفكارا ذات حداثة ، قد يحتمل إرث العراقة بداخلهم أو يكاد .

بين هذه العراقة الفنية والحداثة مشوار طويل ، طوى بعضه صفحات النسيان ، بعضه الآخر ما زال يمسك بتلابيب الملعب متشبثا به ، بأفكاره ، بتجاربه ، مدافعا عنها ، رافعا أمامه راية النصر .

من هذا المنطلق التاريخي الذي امتدت آثاره الطيبة إلى عمق الأقطار العربية منذ قرن مضى من الزمان ،

اختار الدكتور نعيم عطية الذي وقف على النقد التشكيلي حقبة من الزمن وما يزال . اختار مجموعة من الفنانين التشكيليين الذين يمثلون مرحلة تاريخية على خريطة الحركة الفنية في استعراض مرهف الحس ، لين الاسلوب ، ليقدمه للقارىء العربي في كل مكان .

لوحات تسر الخاطر

وتحت عنوان « لوحات تسر الخاطر .. إطلالة على أجمل الفنون » استعرض الدكتور نعيم عطية في

كتابه هذا الذي صدر عن دار المعارف في سلسلة « اقرأ » بنعومة ورقة ، خلال ثلاثة وعشرين فصلا في ١٤٨ صفحة من القطع الصغير ، فنانين تشكيليين ، مبرزا أهم جوانبهم المضيئة التي ألقت بظلالها الوارفة على حياتنا الفنية والثقافية قرابة ثمانين عاما مضت .

وعرفانا واعترافا بالجميل الذي نعتز به جميعا بما حدث بين الفنانين الكبيرين يوسف كامل وراغب عياد ، بدأ الكاتب أول فصول كتابه ، مركزا على شراكة الكفاح التي تكونت بينهما ، فقد اتفقا فيما بينهما بعد تخرجهما على أن يقوم واحد منهما بعمله بالاضافة الى عمل زميله بالمدرسة التي يعمل بها مدرسا للرسم ، وقد التحق راغب عياد بمدرسة الاقباط الكبرى على حين التحق يوسف كامل بالمدرسة الإعدادية ، وذلك تمكينا له من السفر الى الخارج .

ويرسل له زميله القائم بعمله مرتبه طوال مدة سفره للانفاق على نفسه في أثناء دراسته ، حتى إذا ما أتم دراسته وعاد الى وطنه حل محل زميله وقام بالتدريس مكانه ليسر له أن يسافر بدوره الى الخارج للاستزادة من المعلومات الفنية ، وقد تمكن الزميلان بذلك من استكمال دراستيهما في الخارج . وقد كان لهذا العمل الرائع صدى عظيما في النفوس ، وصار موضع حديث الجميع ، كما أسهبت في الحديث عنه الجرائد والمجلات المصرية والأجنبية على السواء .

موعد مع المنظر الطبيعي

« حسني البناني وموعد مع المنظر الطبيعي » هو عنوان الفصل الثاني في هذا الكتاب ، وقد دار حوار بين الكاتب والفنان حسني البناني سأله خلاله عن فلسفته في المنظر الطبيعي ، بما عرف عنه من أنه فنان المناظر ، فأجاب : « انني أبدأ من الواقع ، ومن الطبيعة أعمد الى تصعيد اللون ، إن الاضاءة في الطبيعة متغيرة ، ولهذا فإنني أظل أحوم حول المنظر حتى أضبط اللحظة التي تكون فيها الاضاءة في قمتها » .

ثم استعرض د . نعيم عطية في الفصل الثالث من هذا الكتاب عنوانه « رمسيس يونان وحوار المستحيل » انتاجه في السبع سنوات الأخيرة من حياته ، حتى كاد أن يجعلك تشعر بأن الفنان قد بلغ الذروة التي تؤهله لان يدخل في حوار ضار مع المستحيل فقد أراد رمسيس يونان إن يجمع في لوحاته الأخيرة كل المتناقضات ، ويطوعها لتنتظم معا في عقد سلس رصين ، فتحس في هذه اللوحات بكل القدم التليد الذي يزين مصر ، وبالتقدم السريع لهذا العصر بالاشكال التي تقترب من أن تكون هندسية دون أن تتردى مع ذلك في الهندسية ، بالحركة والسكون ، بالهدوء السائد على السطح والقلق الدفين في الاعماق ، بالخصوصية والموضوعية ، بالبنيات المعتمة والاضاءة السحرية ، بالمشهد الطبيعي واللامشهد على الاطلاق .

ويتلو رمسيس يونان«سعد كامل الذي ولد في شبين الكوم عام ١٩٢٤ ، ومضى بعد ذلك في الظل مغمورا ، لايلتفت اليه أصحاب الايدي الناعمة والياقات المنشاة مرتادو الصالونات ، فانزوى هذا الفنان إلى جوار أنواله وأحباره وأصباغه وخيوطه وأدوات الطباعة والحفر التي شغلت حيز « الجراج » القائم في أقصى الحديقة بعيدا عن بيت الاسرة في العمرانية على طريق الهرم بالجيزة ، وعلى الرغم من عدم الاستحسان الذي كان يلاقيه من الاب مهندس المساحة الا أنه سافر الى روما وباريس في بعثة من عام ١٩٥٠ الى ١٩٥٣ ، وفي عام ١٩٥٤ أقام معرضا خاصا ، اعتبره النقاد على حد قول الناقد حسين بيكار : « قد أعاد الروح الى جسم محنط ، فأصبح له نبض وشهيق وزفير » .

رموز من الحياة الشعبية

وقد استمد سعد كامل من الحياة الشعبية اليومية عددا لابأس به من رموزه التشكيلية ، كالحمامة رمز السلام والوئام ، والشجرة رمز الاخضرار والبقاء ، والنجمة رمز العلو والمطالب البعيدة المنال ، وهناك أيضا النخلة وهي رمز مصري قديم ، يومىء الى الخصب والرخاء ، كما يرمز الى الشموخ والرفعة

أيضا ، والسمكة التي ترمز الى العطاء والنسل الوفير .

وفي لوحات هذا الفنان الشعبية يتكرر رسم الفارس ، فاذا امتطى الفارس صهوة أسد فتحن إزاء الزير سالم الذي شاع عنه أنه كان يفعل ذلك ، ويوميء الشارب المفتول في الوجه الصبوح ذي العينين اللتين لاتطرفان الى الرجولة الواثقة من نفسها التي تبعث في الآخرين الأمان .

ومن النسيج الشعبي يستقي سعد كامل وحدات زخرفية كثيرة ، كالدائرة والمثلث المربع ، يملأ بها الفراغات ، فتتدفق اللوحة بالحيوية والحركة والثراء بأقل الادوات .

ثم انتقل الكاتب ليتابع رحلة الفنان حامد ندا التي تبلغ قرابة الثلاثين عاما من الألوان والخطوط ، فقد ارتبط هذا الفنان منذ تاريخ مبكر بمسار يقظة الوعي التشكيلي في مصر الحديثة ، وقد استرعت لوحاته منذ الاربعينيات من هذا القرن الانتباه بولائها « للروح المصرية » . وقد نفذ حامد ندا إلى قلب الحياة الشعبية منذ أول خط من قلمه ، ثم أول ضربة من فرشاته ، ولفت تركيزه على البيئة الشعبية أنظار النقاد الاجانب ، فبدءوا يكتبون عن هذه النزعة الاصلية بحماسة وإعجاب . لابد أن نذكر أن هذا الفنان كان أسبق من سائر « جماعة الفن المعاصر » ومن بينهم عبد الهادي الجزار في اكتشاف « الموضوع الشعبي » ، فقد وجد بدافع من الصور التي اختزنها العقل الباطن « الغرابة » في البيئة الشعبية ، على حين اتجه سائر رفاقه الى البحث عنها في الطبيعة وفي العقل الباطن ، وذلك تحت تأثير « السيريالية المعاصرة » .

ولعل من يتابع تطور أسلوب حامد ندا منذ مرحلته الأولى الى مرحلته الثانية التي بدأت تتبلور وتتجلى منذ عام ١٩٥٥ ، لعله يتبين كيف أن شخوصه لم تتغير ، فهو ما زال يصور ابن البلد وبنت البلد من واقع البيئات الشعبية ، لكن انعكاس الزمن وجريان سن التطور قد جعلا مظهر هذه الشخصيات وغيرها أيضا يتبدل ذلك التبدل الذي تجلى في أسلوب ندا ، فتحول من أسلوب جامد مقفل الى أسلوب انسيابي غنائي ، ازداد تفتحا ، فازدادت ألوانه بهجة وخطوطه ليونة .

دراما الانسان

ويوالي الكاتب استعراضه بعد ذلك في فصول الكتاب المتعددة عن صمت الفنان صبري منصور ، وإعراضه عن الصخب الزائف ، ولوحاته التي لاتعطي سرها لأول نظرة ، وموضوع «القرية» الذي تناوله منذ صباح الباكر ، كما دخلت عناصر ومفردات جديدة في أعمال الفنان صبري منصور منذ عودته في صيف ١٩٧٨ من بعثه الفنية الى اسبانيا ، فبعد أن كان الشكل ساكنا صامتا بدأت الحركة والايماءات تظهر بوضوح على الاشكال .

أما الفصول التالية للكتاب فضمت فنانين عديدين ذوي تاريخ بعيد في ممارسة الفن ، وفنانين أحرارا أو دارسين أو يقومون بالتدريس في بعض كلياتنا ومعاهدنا الفنية .

فعرض مؤلف الكتاب لاعمال الفنان « علي دسوقي » فنان الباتيك ، وزينب عبد العزيز ، وضياء سيناء ، وسيد سعد الدين صانع الاحلام ، وكمال السراج ، وفرغلي عبد الحفيظ ، وداوستاشي والزخارف الحوشية ، والبهجوري شاعر الحياة اليومية ، وصفوت عباس « ورومانتيكية » القبح ، وعز الدين نجيب واللعبة ، ومصورات في عالم المرأة : انجي افلاطون ، وتحية حليم ، ومرغريت نخلة ، وعفت ناجي ، وخديجة رياض ، وزينب عبد الحميد ، وجاذبية سري ، ومريم عبد العليم ، وآمال معتوق ، وليلى عزت .

ولم ينس المؤلف فناني الاسكندرية ، فقد أطلق على هذا الباب اسم « البحر الأسود ودراما الانسان » ، وضم هذا الفصل كلا من الفنانين عادل المصري ، وأحمد عزمي ، وفاروق شحاتة ، ثم تحدث عن موريس وفاسيلا فريد ، ورباب نمر ، وعادل السيوي ومنفاه الاختياري ، وأحمد زغلول فنان عائد الى الوطن ، وبحار أزميرالدا حداد ، ثم ختم المؤلف كتابه بدراسة وافية عن الكليم من خلال الفنان سعيد الوتيري . □

مختارات

الكتاب : رواية الكويت ـ ملحمة التاريخ لا تنسى
المؤلفة : نورية السداني
الناشر : مطابع القبس ـ الكويت
عدد الصفحات : ١٥٥ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

نورية السداني التي عرفت باعتبارها إحدى نشيطات الحركة النسائية في الكويت منذ بداياتها ، وكاتبة تؤرخ لهذه الحركة في الكويت والخليج العربي تدخل تجربة جديدة هذه المرة ، إنها قصة الكويت منذ كانت حصنا صغيرا قريبا من البحر ، حتى تحولت الى دولة عربية ، تشارك في صنع أحداث الوطن الكبير .

وقد اختارت الكاتبة شكل الرواية أو القصة ، فصاغت خلاله أحداث الكويت كلها منذ كانت مجتمعا بسيطا ، يغلب عليه طابع البداوة ، حتى أصبحت دولة لها مؤسساتها وبنيانها المتين . أبطال القصة هم رجالها القدماء والمحدثون ، من رجال سياسة وعلم وثقافة وتربية .

■ ■

الكتاب : شخص غير مرغوب فيه ـ شعر
المؤلف : سميح القاسم
الناشر : دار الكلمة ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٢٧ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٦

آخر كتب الشاعر الفلسطيني سميح القاسم الشعرية ، يضم سبع قصائد ، معظمها قصائد طويلة ، ذات نفس ملحمي ، تتعالى فيه أصوات مختلفة ، بألوان مختلفة من فن الشعر الذي يأخذ عند هذا الشاعر شكل الحزن الغاضب .

من أول قصائد الديوان ـ القصيدة المفخخة ـ حتى القصيدة الأخيرة التي حمل الديوان اسمها يخوض الشاعر مغامرة شعرية مع شكل القصيدة وموضوعها ، فعلى مستوى الشكل مزج القاسم بين قصيدة التدوير والقصيدة التقليدية وقصيدة النثر في إطار القصيدة الحديثة الواحدة ، وعلى مستوى الموضوع تنوعت مناحي القصيدة ، وتوزعت على قصيدة الرثاء ، وقصيدة الحب ، وقصيدة الغضب الذي غطت نبرته أشعار الديوان كله .

■ ■

الكتاب : الزمن الأصفر
المؤلف : دافيد غروسمان .
ترجمة : سلمان الناطور
الناشر : دار الكرمل للنشر والتوزيع ـ عمان
عدد الصفحات : ٧٩ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

هذا الكتاب في الأساس تحقيق صحفي ، قام به الصحفي الروائي « الاسرائيلي » دافيد غروسمان عن « العرب تحت الاحتلال واليهود الذين يمارسون الاحتلال » ، وقد نشر التحقيق أول مرة في مجلة « اسرائيلية » ، فأحدث ضجة في الأوساط اليهودية داخل « اسرائيل » وخارجها ، لم تهدأ بعد وقت طويل ، وما لبث التحقيق بعد ذلك أن تحول الى كتاب ، ترجم إلى الانجليزية ، ثم نقله إلى العربية الكاتب الفلسطيني سلمان ناطور المقيم في الأرض المحتلة .

والكتاب سجل للحقد والكراهية التي يكنّها العرب للمحتلين ، وبخاصة للمستوطنين ، وهو في

الوقت نفسه سجل للممارسات الفاشية ، وللمعاملة غير الانسانية التي يلقاها السكان العرب في الأرض المحتلة .

■ ■

الكتاب : عرار . . . الشاعر اللامنتمي
المؤلف : د . أحمد أبو مطر
الناشر : دار صبرا للطباعة والنشر ـ دمشق
عدد الصفحات : ٢٦٩ من القطع الوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

الطبعة الثانية من كتاب الدكتور أبي مطر حول الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل الذي عرف باسم عرار ، والذي عاش حياة بوهيمية متنقلا بين المدينة وخيام (النَّوَر) « غجر الأردن بين عامي ١٨٩٧ ـ ١٩٤٩ » .

والكتاب دراسة لآثار الشاعر التي توزعت على شعر الغزل والخمريات والشعر الاجتماعي والشعر السياسي ، والذي يمكن أن يدرج بأجمعه تحت باب الرفض الذي كان سمة الشاعر المميزة ، والذي دفعه الى رفض كامل لمجتمعه آنذاك ، والاتجاه إلى فئة منبوذة اجتماعيا ، هي فئة النَّوَر أو الغَجَر ، حيث عاش بينهم ، ودافع عن مسلكهم في الحياة ، وهاجم مستغليهم ومضطهديهم ، وتغزل بنسائهم في معظم أشعاره التي لم تلق الكثير من الاهتمام من جانب النقاد أثناء حياته .

■ ■

الكتاب : مصادر الأدب الفلسطيني الحديث
المؤلف : الدكتور محمد عبدالله الجعيدي
الناشر : دار الفجر ـ بيت المقدس
عدد الصفحات : ٢٢٦ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

يتضمن هذا الكتاب للدكتور محمد عبدالله الجعيدي الأستاذ الفلسطيني بجامعة مدريد خمسة أقسام ، الأول دراسة لتاريخ تطور الكتاب الأدبي الفلسطيني ، والثاني قائمة بكتب الابداع الفلسطيني من شعر ونثر فني ومقال ، والثالث للدراسات حول الأدب الفلسطيني ، والرابع للدراسات العامة التي تتناول الأدب الفلسطيني في إطار تناولها للأدب العربي .

وقيمة الكتاب الأساسية تأتي من كونه كتاباً مرجعياً للانتاج الأدبي لشعب في الشتات ، وهو أحد كتب قليلة في هذا المجال ، تقدم للباحث والقارىء خدمة كبيرة .

■ ■

الكتاب : نظرية الوحدات في المحاسبة المالية والتكاليف وحسابات المخازن
المؤلف : محمد سيف الدين طه
الناشر : مؤسسة دار الكتب ـ الكويت
عدد الصفحات : ٤٦٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

هذا الكتاب هو الأول الذي يحمل نظرية جديدة في المحاسبة المالية والتكاليف وحسابات المخازن ، فضلا عن نظرية القيد المزدوج المتبعة في علوم المحاسبة حاليا . ومن نظرته التي تعتمد على الوحدة بدلا من المدين والدائن يؤدي الى اختصار الوقت والجهد وضغط المصروفات وسرعة اتخاذ القرار في الوقت المناسب ، وكما أن النظرية لها تأثير على الوحدة الحسابية فقد تطرق مبتكر النظرية في الباب الرابع من كتابه الى تأثير النظرية في الاقتصاد العالمي ، وسعر الصرف المتبع حاليا ، وبهذا يعد هذا الكتاب أول كتاب يصدر في العالم عن مفهوم محاسبي واقتصادي جديد ، ونظرة مختلفة لما هو متبع حاليا □

■ إذا شئت أن تعد كذابا فقل دائما الحقيقة .

(لوغان ب . سميث)

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٥٥

يونيـــو ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥٥ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يوليو ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٥٥

١

في أي المساجد التالية أقيمت أول مئذنة في الإسلام ؟

* المسجد النبوي في المدينة
* الجامع الأموي في دمشق
* المسجد الأقصى في بيت المقدس

٢

أي المسجدين التاليين بني قبل الآخر .. المسجد الأقصى في بيت المقدس أم المسجد النبوي في المدينة المنورة ؟

* المسجد النبوي فهو ثاني الحرمين والمسجد الأقصى ثالثها .
* المسجد الأقصى إذ يعود بناؤه الى أقدم عصور التاريخ .

٣

يوجد في استانبول جامع السلطان أحمد الأول وجامع السلطان حسن .. ترى أي الجامعين أقدم عهدا وأيها أكبر مساحة ؟

٤

أعلى المآذن في العالم يبلغ ارتفاعها ١٣٧,٤ متراً .. فأين توجد هذه المآذن ؟

* في المسجد الجديد بماليزيا .
* في جامع السلطان حسن .
* في الجامع الأزهر .

٥

ما الفرق بين المئذنة والصومعة ؟

* لا فرق بينها ، فالمئذنة والصومعة

والمنارة واحد .

* الصومعة كالمئذنة ولكنها خاصة بالكنائس لا المساجد .

* الصومعة كالمئذنة ولكنها خاصة بمعابد اليهود .

٦ قبة الصخرة أو مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس بناه الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان قبل نحو ١٣٠٠ سنة ترى لماذا بناه ؟

* لإيواء الصخرة المقدسة والمحافظة عليها .

* ليكون مسجدا جامعا يصلي فيه الناس .

* لكي يحج الناس اليه بدلا من الكعبة .

٧ اشتهرت قرطبة عاصمة الأندلس بجامع قرطبة الذي يعود انشاؤه الى سنة ٧٨٥م ترى من أنشأ هذا الجامع ؟ عبدالرحمن الداخل أم عبدالرحمن الثاني .

٨ جامع القرويين في فاس . . مضى على بنائه أكثر من ألف عام لِمَ سمّوه جامع القرويين ؟ .

* نظرا لكثرة السكان القرويين في الحي الذي أقيم فيه .

* لأن قرويي منطقة فاس هم الذين بنوه بأموالهم .

* الاسم محرف أو مخفف عن الاسم الأصلي وهو جامع القيراونيين .

٩ الجامع الأموي موجود في دمشق كما هو معروف . . فأين يوجد جامع التواريخ ؟

١٠ تاج محل يعتبر من أجمل المباني في العالم كله إن لم يكن أجملها دون منازع . . وتيمورلنك يعتبر من أبطش قواد التاريخ إن لم يكن أبطشهم اطلاقا . . ومع ذلك فثمة صلة تجمع بين النقيضين . . ماهي هذه الصلة ؟ .

* شاه جيهان باني تاج محل كان من أحفاد تيمورلنك .

* بني تاج محل على غرار الضريح الذي بناه تيمورلنك لنفسه .

* أعجب تيمورلنك بتاج محل فأمر ببناء ضريحه على غراره .

١١ ماهو أكبر جامع بني في الإسلام . . اطلاقا ؟

١٢ الجامع الأزهر هو مسجد للصلاة وجامعة لتلقي العلم في آن معا . . فأي المساجد التالية يشبه الأزهر في ذلك ؟ .

* جامع الزيتونة
* جامع القرويين
* الجامع الأموي

العربي - العدد ٣٥٥ - يونيو ١٩٨٨

حلّ مسابقة العدد ٣٥٢

مارس ١٩٨٨

١ بلغت تكاليف مقر الطب الاسلامي في الكويت أكثر من ٦,٥ ملايين دينار كويتي وقد افتتحه سمو أمير الكويت سنة ١٩٨٧ ، ويعتبر بحق آية من آيات فن العمارة الاسلامية .

٢ مكتبة الكونجرس في واشنطن هي أضخم مكتبة في العالم بلا منازع ، تبلغ مساحتها ٦٤ فدانا وطول رفوفها ٨٥٦ كيلومترا . . والأهم من ذلك أن مجموع ما فيها من كتب ومراجع ومخطوطات يبلغ (٨٥) مليونا .

٣ قصر سلطان بروناي هو أضخم القصور السكنية في العالم . . اكتمل بناؤه في عاصمة السلطنة سنة ١٩٨٤ وبلغت تكاليفه نحو ٣٠٠ مليون جنيه . . يبلغ عدد غرفه (١٧٨٨) غرفة . . ويتسع مرآبه لسيارات السلطان البالغ عددها (١١٠) سيارات . .

٤ مبنى وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) هو أضخم مباني الوزارات أو الدوائر الحكومية في العالم . . يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه الخمسة ٢٨١ مترا . . وتبلغ مساحته الاجمالية (التي تشمل أدواره الخمسة) ٦٠٤,٠٠٠ أمتار مربعة . . يحتوي على ٧٧٤٨ نافذة و (٤٤٠٠٠) جهاز تلفون . . ويبلغ عدد العاملين فيه ٢٩٠٠٠ نسمة ، أما تكاليفه فقد بلغت (٨٣) مليون دولار .

٥ دار الأوبرا في سيدني باستراليا هي المبنى الأول الذي صممه المهندس الدنماركي (يورن اوتزون) لقد كلفت هذه الدار (١٠٢) مليون دولار استرالي أي ١٤ ضعف تقديراتها الأولى .

وتحتوي هذه الدار على قاعتين رئيسيتين ، احداهما للحفلات الموسيقية ، وتحتوي على (٢٦٩٠) مقعدا والأخرى خاصة بالاوبرا والباليه والمسرحيات وتحتوي على ١٥٤٧ مقعدا .

٦ ناطحة سحاب سيرز في شيكاغو هي ناطحة السحاب العليا في العالم . . يبلغ ارتفاعها ٤٤٣ مترا . . واكتمل بناؤها سنة ١٩٧٤ ، اما مركز التجارة الدولية في نيويورك فقد كان ناطحة السحاب الأولى في العالم حتى سنة ١٩٧٤ وقبل مثل ذلك في الأمبير ستيت في نيويورك التي احتلت المكانة الأولى بين ناطحات السحاب

٧ أغلى فنادق العالم يوجد في اسبانيا (ماربلا دينامار) فهو يتقاضى ٣٠٠٠ دولار عن كل ليلة يقضيها المرء في أحد أجنحته ولا يؤجر أجنحته الا لمدة ثلاثة شهور على أقل تقدير .

٨ فندق هيلتون لاس فيجاس (نيفادا في الولايات المتحدة) هو أضخم فنادق العالم التجارية يحتوي على ٣١٧٤ غرفة و ١٣

قاعة دولية للطعام وتبلغ مساحة هذا الفندق ٦٣ فدانا (٢٥,٥ هكتارا) .

٩ ديزني لاند في كاليفورنيا هي المدينة الترفيهية الاولى في العالم من حيث الاقبال عليها وقد بلغ مجموع زوارها ٢٥٠ مليون نسمة وذلك اعتبارا من تأسيسها سنة ١٩٥٥ وحتى ١٩٨٥/٨/٢٤ .

وتجدر الاشارة الى أن المدينة الترفيهية الكبرى في العالم هي ديزني وارلند في اورلندو بفلوريدا وقد بلغت مساحتها (٢٨٠٠٠) فدان .

١٠ أعلى برج في العالم هو برج كندا القائم في ميدان المترو في مدينة تورنتو . . فهو يبلغ ٥٥٥,٣٣ مترا من حيث الارتفاع ويحتوي على مطعم مرتفع (٣٤٧,٥ مترا) ويتسع (٤١٦ مقعدا) وقد بلغت تكاليفه ٤٤ مليون دولار والمقصود هنا الأبراج المستقلة المبنية بالاسمنت المسلح أو ما الى ذلك .

١١ أسرع مصاعد الركاب في العالم يوجد في اليابان . وبالتحديد في بناية (صنشاين ٦٠) في طوكيو اذ تبلغ سرعته ٦٠٩,٦ أمتار في الدقيقة الواحدة على أن هذه السرعة تقل قليلا بعد تجاوز الدور الستين من البناية (٢٤٠ مترا) أما الشركة التي صنعت هذه المصاعد والتي تتولى ادارتها فهي شركة متسوبيشي .

١٢ دمشق هي التي شهدت مؤخرا ظهور مكتبة ضخمة جدا (مكتبة الأسد) ، ولعل مبنى هذه المكتبة هو أضخم مباني المكتبات في الوطن العربي كله .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٢ مارس ١٩٨٨

الجائزة الاولى : محمد بن سالم بن ناصر البوسعيدي / سلطنة عمان .

الجائزة الثانية : صفوان عبدالغني محمود / عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية .

الجائزة الثالثة : محمد بن محمد / خريبكة ـ المملكة المغربية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ محمد مصطفى الجبوري / بغداد ـ الجمهورية العراقية .

٢ ـ أحمد محسن صالح الرصاع / صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية .

٣ ـ حسن محمد أبونعسه / البقاع ـ الجمهورية اللبنانية .

٤ ـ محمد عطيه محمد نور / دمشق ـ الجمهورية العربية السورية .

٥ ـ مليكة صلاح / ولاية تيبازا ـ الجمهورية الجزائرية .

٦ ـ أنور محمد الهذير / الكويت / الصليبية

٧ ـ محمد كامل أحمد أبوسعدة / بورسعيد ـ جمهورية مصر العربية .

٨ ـ حازم قاسم حمودة البنا / المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية .

معركة بلاسلاح

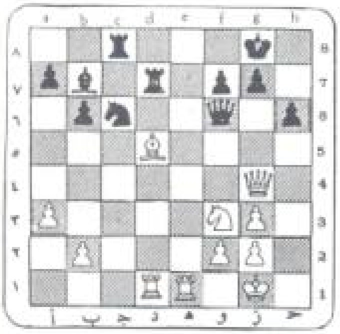

شكل (١)

يخيل للبعض أن ارتكاب الأخطاء الفاحشة في الشطرنج يقتصر على المبتدئين والأغرار من اللاعبين ، وعلى الرغم من أن هذا الاعتقاد صحيح في الغالب الأعم إلا أن كبار اللاعبين من صفوة أبطال العالم ـ بغض النظر عن قدراتهم الفائقة في التخطيط والتحليل الدقيق للمواقف ، وتخيل ما ستكون عليه هذه المواقف بعد عدد كبير من النقلات ـ يرتكبون أحيانا من الأخطاء الفادحة ما يعجب له ويحتار فيه حتى صغار اللاعبين ، ففي بطولة العالم قبل الأخيرة المقامة في العاصمة السوفيتية بين بطل العالم حينئذ أناتولي كاربوف ، ومتحديه بطل العالم الحالي جاري كاسباروف ، ارتكب كاربوف في الجولة الحادية عشرة في النقلة الثانية والعشرين من الدور خطأ جسيماً ، لم يعهد عنه من قبل ، ودون مبرر يشفع له على الإطلاق ، فبعد أن نقل الأبيض وزيره إلى ز٤ (الشكل ١ أعلاه)

نقل كاربوف رخ الوزير إلى د٨ حماية للرخ الآخر ، وهنا بدأت الكارثة :

٢٣ . و×د٧ (تضحية رائعة)	ر×د٧
٢٤ . ر-هـ٨+	م-ح٧
٢٥ . ف-هـ٤+	يستسلم
لأنه لو لعب ز٦	
٢٦ . ر×د٧	ف-أ٦
٢٧ . ف×ج٦	و×ج٦
٢٨ . ر×و٧ (مات)	

وقد كلف هذا الخطأ وأمثاله كاربوف ٢٢ رطلاً من وزنه ، خسرها في تلك المباراة ، ويقال بأنه بدأ يتردد بعدها على العيادة النفسية .

ومن الأخطاء الفاحشة الأخرى التي حفظها لنا أدب الشطرنج عن كبار أبطال العالم الدور التالي : ففي عام ١٩٤٦ عندما كان الفرنسي الكسندر أليخين يتربع على عرش العالم (١٩٢٧ ـ ١٩٣٥ و١٩٣٧ ـ ١٩٤٦) تحداه اللاعب السوفيتي ميخائيل بوتفينيك ، وتم الاتفاق على أن يتلاقى البطلان في مدينة لندن عام ١٩٤٧ ، لكن وفاة أليخين عام ١٩٤٦ حالت دون ذلك ، لهذا قام الاتحاد الدولي بتنظيم سلسلة من المباريات بين كبار أبطال العالم ، قوام كل منها خمس مباريات ، لاختيار بطل العالم ، وقد أسفرت هذه المباريات عن فوز ساحق لبوتفينيك .

وفي المباراة التالية التي جرت في موسكو عام ١٩٤٨ بين البطل الهولندي الدكتور ماكس يو (بطل العالم ٣٥ ـ ١٩٣٧) ، وبين ميخائيل بوتفينيك ، وكان الأخير يلعب باللون الأسود (الشكل ٢)

ويتبين من الشكل أن الدكتور بو يتمتع بموقف ممتاز بفيله القوي ، وبيادقه المتقدمة في الوسط ، لكن بوتفينيك قام بنقلة مذهلة بتحريك وزيره إلى ز٣ مضحياً بحصانه الذي التهمه بطل العالم الأسبق بشراهة عجيبة ، مرتكباً بذلك خطأ لا يليق حتى بالمبتدئين :

٢٢	و×هـ٥
٢٣ . و-ز٧	ر-و٨
٢٤ . ر-جـ٧	و×جـ

مضطراً تفاديا لكش مات ، لأنه لعب و-د٦

٢٥ . ر×ب٧	هـ٣
٢٦ . ر-أ٧	و-هـ١
٢٧ . و×حـ٧	هـ٢

٢٨ . و-ز٦ الذي يحسم الدور

ومن الجدير بالملاحظة أن بوتفينيك هو أول بطل سوفيتي للعالم ، وبعدها عض السوفييت على البطولة بالنواجذ .

وأصبحت تنتقل من بطل سوفييتي إلى آخر حتى يومنا هذا ، ولم يقطع هذه السلسلة سوى البطل الامريكي بوبي فيشر (٧٢ - ١٩٧٥) الذي اعتزل اللعب

وبعد اعتزال بوتفينيك في ١٩٧٠ أنشأ مدرسة للشطرنج ، يعتبر كاسباروف من أبرز تلاميذها ، فالأدوار التي تراه يلعبها هي مزيج من خيال أليخين المجنح وإصرار بوتفينيك على الدقة والبحث العلمي الجاد .

مسألة العدد (٣٥٥)
يونيو ١٩٨٨

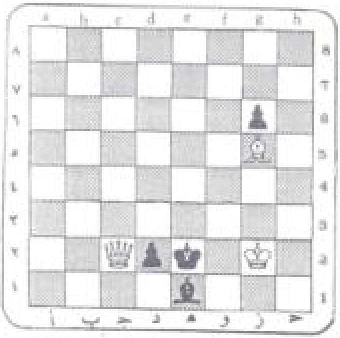

مات ٢

من إهداء القارئة رنا رملاوي (القاهرة)

حل مسألة العدد (٣٥٣) ابريل ٨٨

١ . و-أ١	ر-أ٧
٢ . و-ب١	ف-جـ٧
٣ . و-و١	ر-أ٨
٤ . و-أ١	ر-ز٨
٥ . و-حـ١ (مات)	

الفائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد (٣٥٢) مارس ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ - أمين سليمان ابراهيم - تربه/ السعودية
٢ - م . محمود حلبية - حلب/ سوريا
٣ - عبدالهادي محمد سليمان - بغداد/ العراق
٤ - صالح علي صالح - صنعاء/ الجمهورية العربية اليمنية
٥ - عبدالرزاق حسب الله - القاهرة/ ج٠م٠ع

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ - إيناس يونس علي - العمرية/ الكويت
٢ - هدى نجيب زيدان - بيروت/ لبنان
٣ - أحمد خضر حسن - أم دفرس/ السودان
٤ - عبداللطيف حسين محمود - اربد/ الأردن
٥ - فاطمه أصغر علي - الرفاع الشرقي / البحرين

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
					■					٢
	■			■						٣
			■							٤
■		■				■		■		٥
							■			٦
		■		■						٧
					■					٨
			■						■	٩
										١٠

كلمات أفقية

١ ـ أرض محاطة بالماء من معظم جهاتها .
٢ ـ قطعة ضيقة من البحر بين أرضين ، حجر داكن من أصل بركاني .
٣ ـ أراض مستنقعية ، تجدها في وذي .
٤ ـ غير عضوي ، أضحى ليّنا .
٥ ـ يعمل بالآلة وليس باليد .
٦ ـ أصلح ، كثير المستنقعات .
٧ ـ مراكب صغيرة ، تجدها في موج .
٨ ـ يروي ، شكل من أشكال الأكسجين .
٩ ـ يرجع إليه مرة بعد مرة ، سوى .
١٠ ـ اسم يطلق على العراق .

كلمات رأسية

١ ـ جهة نرعية تستخدم لتحديد المكان الجغرافي .
٢ ـ هضاب مبعثرة ، يحدث في المواسم .
٣ ـ يتيهه أو يجذره مبعثرة ، ذو قرون .
٤ ـ ضاق (للاثنين) معكوسة ، تجدها في (يرمي حجرا) .
٥ ـ بقايا ، شرب ثانية أو مرة بعد مرة .
٦ ـ بئر عميقة ، يخلط بالماء أو السمن ، ظرف . يسأل به عن المكان .
٧ ـ طعام ، يتجه نحو .
٨ ـ يبعد ، قل الشعْرَ .
٩ ـ تجدها في رمل ، الشعر القديم .
١٠ ـ هطول ، شعب ذو حضارة عريقة .

حل مسابقة العدد الماضي مايو ١٩٨٨

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
■	ك	ا	ر	د	ا	ل	ا	ن	ص	١
ه	ق	ل	ا	خ	م	■	ت	ق	ب	٢
ي	ا	ك	ص	■	ن	ص	■	ق	ق	٣
ب	ل	■	د	■	ه	ي	ل	ه	ا	٤
و	ه	ل	■	س	■	و	س	ا	ل	٥
ق	■	س	ا	ل	ت	ح	ا	ل	ا	٦
ر	ب	ع	ل	ا	و	■	ن	ز	ص	٧
ا	د	ه	و	■	ب	ت	ا	و	ر	٨
ط	د	■	ص	ر	ا	ق	■	ح	ا	٩
■	ن	ي	ي	ع	ت	■	ن	ه	ر	١٠

على هذه الصفحات .. ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

مناقشة في مقولة المراهقة الفكرية

● جاء بمقال الدكتور فؤاد زكريا « المراهقة الفكرية » بالعدد ٣٥١ فبراير ١٩٨٨ ، أن الحضارة الغربية تميزت عن الحضارة العربية الاسلامية بالنظم والمؤسسات التي تطورت بعد فترة طويلة ، وفرضت نفسها على الجميع .

ونود أن نناقش كاتب المقال فيما انتهى اليه في مقاله ، فالحضارة الغربية تحاول أن تفرض فكرها ومذاهبها وقيمها على الأمم والحضارات . وإن الاستعمار قد حاول ذلك فترة احتلاله للعالم الاسلامي والأمة العربية بوسائل مختلفة ، أهمها الصحافة والتعليم والتربية ، وخرجت الجامعات والبعثات عديداً من المثقفين الذين اعتنقوا هذه النظريات ، فشكلوا قوة جديدة معارضة للقيم السائدة في الفكر العربي والاسلامي .

إن الفكر العربي الاسلامي لم يغلق نوافذه في مواجهة الفكر الواعي والانساني ، فهو فكر مفتوح ، قادر على التلقي لكل نزعات التطور والتغير ، ولن يستطيع فكر أن يتوقف عن تلقي المؤثرات الاجنبية ، فالتوقف عن قبول المؤثرات الاجنبية هو مظهر للعجز ، وقبول المؤثرات الاجنبية كاملة هو مظهر للنقص ، فنحن نعرف أن الفكر الذي لاتصل اليه مؤثرات أجنبية يتعرض للجمود والتدهور ، لكن يجب أن نكون قادرين على قبول هذه المؤثرات على قاعدة فكرنا وعقائده وأسسه ، وندلل على صحة رأينا هذا بأن دراسة الفكر العربي الاسلامي تقوم على المناهج العلمية الغربية ، ولا جرم في ذلك من وجهة نظرنا ، وحتى يكون للعرب مناهج علمية خاصة بهم ومن ابتكاراتهم ونستشهد بكتابات الدكتور زكي نجيب محمود الذي كرس معظم سنوات حياته ينهل من الفكر الغربي والفلسفات الغربية أكثر من أربعين سنة ، ثم عاد من رحلته مع الفكر الغربي ليعترف ويكشف ويفيد ، ويبين أصالة فكرنا العربي ، فينتج لنا من كتبه الأخيرة ما تستمتع العقول بنهجه ، ولا تمل الابصار من النظر فيه ، ولا تكل العزيمة من تكرار الرجوع إليه ، ومن هذه الكتب « المعقول واللامعقول » ، و « تجديد الفكر العربي » ، و « وثقافتنا في مواجهة العصر » . ويذهب الدكتور زكريا الى القول بأن الحضارة الغربية تميزت عن الحضارة الاسلامية بالنظم والمؤسسات التي تطورت بعد خبرة طويلة ، وفرضت نفسها على الجميع ، ويرى أن الحكم على أي حضارة ينبغي أن

حوار القراء

يتصب على ما وضعته لنفسها من النظم والمؤسسات ، وليست على المستوى الاخلاقي أو الاجتماعي لسلوك أفرادها أيا كان عددهم ووزنهم . ونحن نعارض هذا القول ، حيث أن هذه النظم التي يتحدث عنها الدكتور فؤاد ذكريا ليست بالشكل المثالي المطلوب . فهو يناقضها في مقال له في مجلة العربي بعنوان « أمريكا ـ حقل تجارب العالم » ، إذ هو يرى أن وسائل الاعلام ونظمها هي التي تشكل عقل الامريكي ونظرته الى الحياة والعالم المحيط به بالطريقة التي يريدها المهيمنون على أجهزة الاعلام الجبارة ، فهم الذين يسيطرون على أساليب التفكير وطرق السلوك في المجتمع بأسره ، لاعن طريق الرقابة أو القهر المباشر بل بطرق خفية من التحكم والسيطرة والاقناع لايشعر بها الخاضع لها شعورا واعيا ، فتكون النتيجة أن يصبح هذا الانسان حتى في أبسط تفصيلاته وقراراته اليومية انسانا مسيرا لامخيرا ، وهذا معناه أن النظم والمؤسسات الاعلامية الامريكية تلعب دورا جبارا في تشكيل العقل البشري ببراعة ودهاء . وختاما نشكر أستاذنا على مقاله القيم ، وما هيأه لنا من مراجعة واطلاع في الموضوع .

محمد فؤاد محمد علي
القناطر الخيرية
جمهورية مصر العربية

الدولة العثمانية والمستعمرات الصهيونية

● الاستاذ الدكتور رئيس التحرير المحترم .

تحية طيبة وبعد

طالعت العدد ٣٥٠ يناير ١٩٨٨ من مجلة العربي ، ولقد لفت انتباهي تعقيب الاستاذ قسطنطين خمار على مقال الاستاذ فتحي رضوان حول « هل كان الرجل المريض مريضا ؟ » حيث ذكر أن الصهيونية عجزت أن توطن يهوديا واحدا أو تنشىء مستعمرة بموافقة الدولة العثمانية .

وإن « العربي » تستحق الاحترام والتقدير ، ذلك أنها مجلة تعطي مجالا واسعا للثقافة الناصعة ، ولأن الأمر يتعلق بقضية « العرب » الأولى ، ولأني واحد من أبنائها فمن المناسب أن أعقب على تعقيب الاستاذ قسطنطين وأضيف بأن الحقائق التاريخية أمر لايمكن ولايصح أن يجري التعتيم عليه لاعتبارات قد يكون منها ما يؤمله الفرد ، أو ما يرغب فيه ، والاستاذ فتحي رضوان كان يؤمل أو يرغب ، لكن تظل الحقيقة التاريخية بارزة على الرغم من الاماني والرغبات ، وكان من حق الاستاذ قسطنطين أن يعقب موضحا لأن الحق أحق أن يتبع ، لكن الاستاذ قسطنطين أغفل مع الاسف أو سها عن ايراد أسماء عشر مستعمرات بالاضافة الى ما أورده في تعقيبه وفيما يلي بيان بها :

قضاء صفد	سنة التأسيس
١ ـ كفار جلعادي	١٩١٦
٢ ـ ايلت هشحرة	١٩١٨/٦/٣٠

ـ قضاء طبرية	سنة التأسيس
٣ ـ نفيثيل	١٩٠١
٤ ـ بيت جن	١٩٠٤
٥ ـ مجموعة كزت	١٩٠٩
قضاء حيفا	سنة التأسيس
٦ ـ جبعة عدا	١٩٠٣
٧ ـ كركور	١٩١٣
٨ ـ غن شموئيل	١٩١٣
قضاء الرملة	سنة التأسيس
٩ ـ بن شمن	١٩٠٦
١٠ ـ نحلة يهودا	١٩١٤

عبد العظيم سليمان أبو مصبح
جرش ـ الأردن

■ ■ ■

إعادة نشر المقالات السابقة

● الاستاذ الدكتور رئيس تحرير مجلة العربي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنني أحد قراء مجلتكم المحبوبة ، فأنا أتابعها بشغف كل شهر ، وأحيانا تفوتني الفرصة فلا أجدها ، ولي بعض الاقتراحات على أبواب المجلة ، منها أن تعيدوا نشر بعض المقالات التي تم نشرها سابقا في أعداد المجلة الاولى ، وأن تستحدثوا بابا جديدا تنشرون فيه بعض المصطلحات العربية كمعجم صغير أو يضاف الى باب « جمال العربية » ، كذلك ايجاد باب جديد تجيبون فيه عن أسئلة القراء الثقافية إذا كان ذلك ممكنا ، كما أني أكون شاكرا لو أفدتموني عن كيفية الحصول على بعض أعداد مجلتكم التي فاتني الحصول عليها .

محمد عبده عسيري

أبها ـ المملكة العربية السعودية

العربي

نشكرك على اهتمامك الفائق بالمجلة ومتابعتك لموادها ، أما بخصوص نشر بعض المقالات السابقة ، فإن المجلة تقوم بذلك ضمن سلسلة كتاب « العربي » الذي يحتوي كل اصدار منها على موضوعات مختلفة لكاتب معين ، أو موضوع واحد لكتاب مختلفين ، وقد صدر الكتاب الأول منها سنة ١٩٨٤ ، أما المصطلحات العربية والأسئلة الثقافية فإن المجلة تقوم بالاجابة عن كل ما يرد إليها من استفسارات خلال الابواب المناسبة ما أمكن ذلك ، وللحصول على الاعداد السابقة من المجلة ، يمكنك الكتابة مباشرة إلى المكتب الفني بوزارة الاعلام الكويتية ، وسيعملون على توفير كل ما تحتاجه من أعداد ناقصة .

حوار القراء

رابطة شبابية عربيـــــة

● الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

من منطلق الهدف النبيل تجاه أمتي العربية ، ومكانة مجلة العربي لدى القراء ، ومكانة دولة الكويت في قلوب العرب ، والامكانات التي لديكم في المجلة من أجل الدعوة الى وحدة أمتنا العربية ، فإن في مقدور أمتنا أن تنهض ، وتقف على أعتاب المسئولية تجاه وطنها ومقدساتها ، وهذا لن يتأتى الا بوحدة الصف العربي ، وتجاوز الاختلافات والخلافات . لهذا فإنه يطيب لي أن أقترح عبر مجلتكم تكوين رابطة شبابية من أبناء الأمة العربية ، يكون لها صندوق خاص من ميزانية الجامعة العربية ، لتدعم نشاطات هذه الرابطة المتمثلة في مختلف الانشطة « ثقافية ـ رياضية ـ اجتماعية » .

أبو زيد خضر محمد صالح

الاقليم الشرقي / السودان

■ ■ ■

حشـــــرة الســـــوكيد

● إشارة الى موضوع حشرة السوكيدو (السيكادا) الذي نشر في العدد ٣٤٨ في باب البيئة ، وتعليقات بعض القراء عليه في العدد ٣٥٢ مارس ١٩٨٨ م أود أن أوضح ما يلي : ـ أن هناك أنواعا من حشرة السيكادا وليس هناك نوع واحد ، وليست جميع أنواع حشرة السيكادا تبقى ١٧ عاما في التربة وتفصيل ذلك فيما يلي : ـ

جميع حشرات السيكادا تتبع عائلة Cicaridae ورتبة متشابهة الاجنحة Homoptera . فمثلا من أنواع حشرة السيكادا حشرة Tibicen Canicularis أو ما تسمى في الولايات المتحدة الامريكية « سيكادا يوم الكلب » Dog Day Cicada . وهذه الحشرة يبلغ طولها ٥٠ ـ ٦٠ ملم ، وذات قرني استشعار ، قصيرة خيطية ، أرجلها رفيعة ، وعلى الاجنحة علامات خضراء اللون . ولذكورها طنين عال ، وهذا الطنين يحدث عن عضوين موجودين على الجهة البطنية للعقلة البطنية القاعدية ، وذلك خلال أيام شهر أغسطس الحارة ، وغالبا يستمر الى شهر سبتمبر . وبعد لقاء الذكور بالاناث تضع الاناث البيض على فروع الشجيرات والاشجار الصغيرة ، وقد يبقى البيض طول الشتاء أو يفقس ويسقط على الارض ، ثم تقوم الحوريات بالحفر في التربة ، وتبقى عددا من السنوات ، وفي هذا النوع من الحشرات تبقى مدة سنتين على الاكثر في التربة ، تأكل وتتغذى بجذور الاشجار . ولا تسبب هذه الحشرات أضرارا كبيرة للاشجار ، إنما يقتصر الضرر على احداث موت لأطراف الفروع نتيجة وضع البيض .

وهناك أنواع تسمى السيكادا الدورية ، Magicicada Species وتتبع نفس العائلة ، وطولها يبلغ ١٩ـ٣٣ ملم ، سوداء ، ذات عيون حمراء وأجنحة بها تعريق أحمر .

ويوجد من هذه الحشرة ستة أنواع ، كل نوع يختلف عن الآخر باللون والحجم والطنين ودورة الحياة ، وتتناول هنا حشرة السيكادا ذات ١٧ عاما ، حيث أن الواليد

(الحوريات) تبقى في الارض ١٧ عاما حتى تبلغ ، ومن ثم تصعد الى الهواء الطلق بغرض التزاوج . أما الانواع الأخرى من السيكادا الدورية فتبقى حورياتها في الارض ١٣ عاما . وقد وجد أن السيكادا ذات عمر ١٧ سنة في شمال الولايات المتحدة وذات ١٣ عاما في جنوب الولايات المتحدة . وتظهر السيكادا الدورية في أعداد هائلة في منطقة معينة من سنة الى أخرى،وتحدث الذكور منها طنيناً عاليا قد يُسبب أضرارا بالأذن البشرية . ولكل نوع من السيكادا طنين مميز ، والشخص الذي يألف هذه الاصوات يمكنه أن يميز الانواع عن طريق نغمة الطنين فقط ، وقد تحدث السيكادا الدورية إذا كانت في أعداد هائلة أضرارا وتلفا كبيرا لاغصان أشجار الفاكهة الصغيرة ولنبت المشاتل .

عبد الله علي البيز

الرياض ـ إدارة الأبحاث الزراعية ـ المملكة العربية السعودية

اقتراحات

● القارىء صلاح بن فايز الشولحي من الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية ـ يود أن تقوم بعمل استطلاع عن محافظة مرسي مطروح بجمهورية مصر العربية .

القارىء محمد عبد الله محمد من نواكشوط ـ جمهورية موريتانيا الاسلامية ، والقارىء يوسف قاسم من محافظة ديالي بالجمهورية العراقية يودان لوقامت المجلة بعمل استطلاع عن جمهورية موريتانيا الاسلامية .

القارىء فلاح خبيس السويد من محافظة الحسكة ، منطقة القاقل ، يقترح أن توجد المجلة بابا خاصا بالامثال العربية القديمة ، والامثال الشعبية .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .

• ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام .

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير
أحمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير
د . سليمان إبراهيم العسكري

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

يونيو ١٩٨٨م

اللغات الأجنبية

تعليمها وتعلمها

تأليف : د. نايف خرما
د. علي حجاج

الكتاب ١٢٦

٥٠٠ فلس

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير : د. عبدالمحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة ، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره .

توجه المراسلات إلى : رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص.ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية

ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية.

جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.

- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- الاشتراك السنوي بالمجلة

أ) داخل الكويت: ٣ د.ك. للافراد ١٢ د.ك للمؤسسات

ب) الدول العربية: ٣,٥٠٠ د.ك للافراد ١٢,٠ د.ك للمؤسسات

جـ) الدول الاجنبية: ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي :
ص.ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

مقر جامعة الكويت - الشويخ

هاتف : ٤٨١٦٨٨٧
٤٨١٦٧٩٩
٤٨١٦٨٤٤
٤٨١٤٢٩٥

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها
جامعة
الكويت

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى : رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف : ٢٥٤٩٤٢١ - ٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس : ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية : محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د . عبد الله أحمد المهنا

العنوان : كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13128 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة إلى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢٢٥ أول يونيو ١٩٨٨

١- الحياة المديدة للملك أوزوالد
٢- المؤامرة

تأليف : فيليمير لوكيتش
ترجمة وتقديم : د. جمال الدين سيد
مراجعة : د. محمد موفاكو

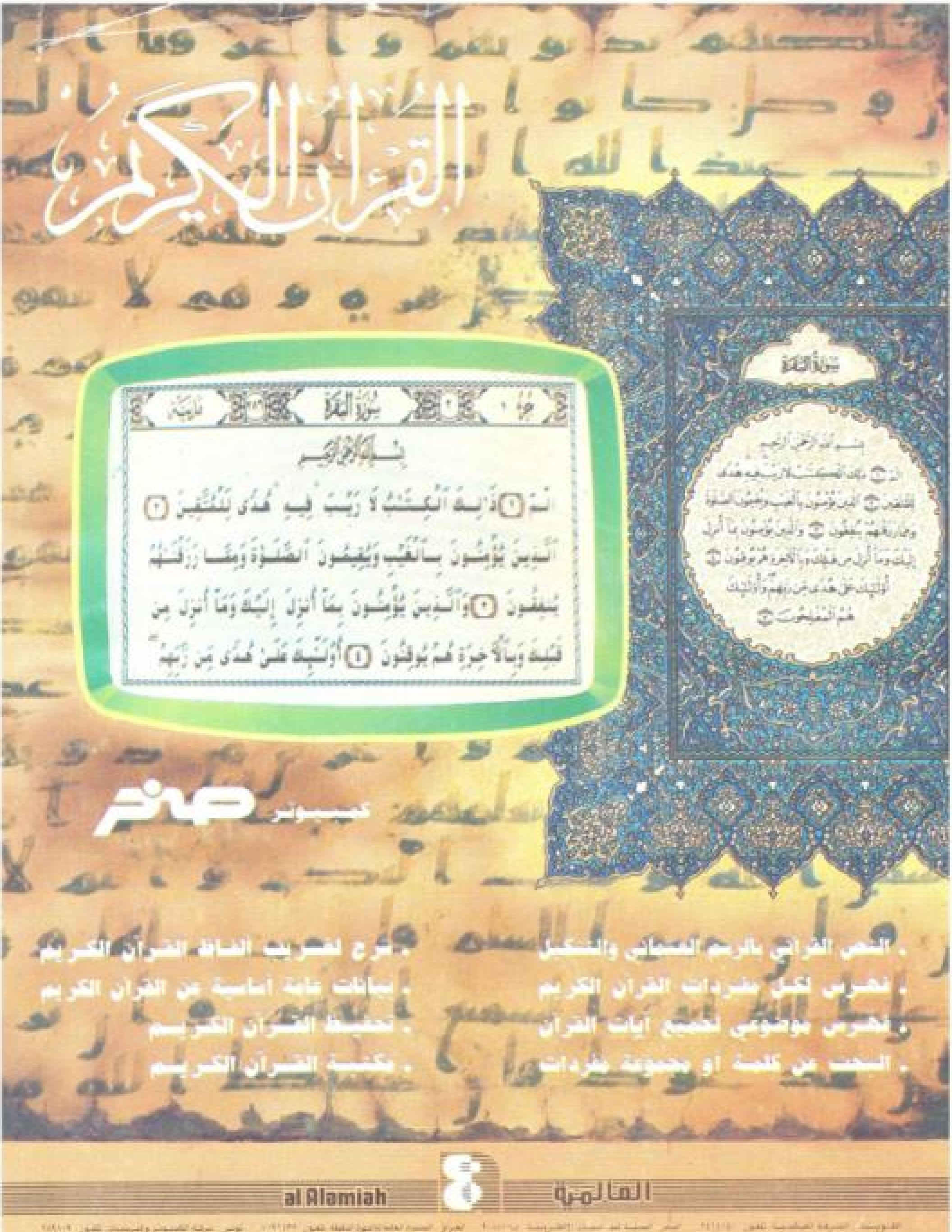
القرآن الكريم
صخر كمبيوتر
. النص القرآني بالرسم العثماني والتشكيل
. فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
. فهرس موضوعي لجميع آيات القرآن
. البحث عن كلمة أو مجموعة مفردات
. شرح لتعريب ألفاظ القرآن الكريم
. بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
. تحفيظ القرآن الكريم
. مكتبة القرآن الكريم
al Alamiah
العالمية

ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٨ م

العربي

المدينة المحرمة تنفتح على العالم!

جيبوتي.. حيرة السكان والمكان!

"نساء من أخاليتشكي"
لوحة للفنان الأرمني
"ناكور كوجيان"

العدد ٣٥٦ السنة الحادية والثلاثون يوليو ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" - الكويت - تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI

Issue No. 356 July 1988, P.O. Box 748 Postal Code No. 13008 Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت	٢٥٠ فلسًا	تونس	٤٠٠ مليم	سوريا	١٠ ليرات
العراق	٢٥٠ فلسًا	الجزائر	٤ دنانير	الإمارات	٥ دراهم
الأردن	٢٠٠ فلس	السعودية	٥ ريالات	المغرب	٣ دراهم
البحرين	٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي	٣ ريالات	ليبيا	٣٥٠ درهمًا
اليمن الجنوبي	٢٥٠ فلسًا	قطر	٥ ريالات	أوروبا	دولاران أو جنيه استرليني
مصر	٣٠ قرشًا	سلطنة عمان	ربع ريال	فرنسا	١٥ فرنكًا
السودان	٢٠ قرشًا	لبنان	١٥ ليرة	أميركا	دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : لعبة الخبراء
- د . محمد الرميحي ٨

■ أرقام : سكرتيرتك .. « كمبيوتر » !
- محمود المراغي ٤٠

عروبة وإسلام :

■ منهج التجديد في الفكر الاسلامي
- د . محمد فاروق النبهان ١٩

■ « إشكالية الوحدة الاقليمية » في الفكر العربي الوحدوي - د . محمد جابر الأنصاري ... ٢٤

استطلاعات مصورة :

■ بكين المدينة المحرمة تنفتح على العالم
- سليمان مظهر ٦٨

■ جيبوتي : حيرة اللسان والمكان !
- سليمان الشيخ ١٣٢

طب وعلوم :

■ « تكنولوجيا » للعالم الثالث .
- د . سمير رضوان ٥٢

■ هل نقول للعجز الجسماني وداعا ؟
- د . سامي محمود علي ٩٠

■ نموذج تعاون طبي دولي خلاق .
- د . عباس الحميدي ١٢٢

■ الجديد في العلم والطب .
- إعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٧

■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠

■ النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي
- د . شكري ابراهيم سعد ١٥٢

أدب وفنون :

■ للجرح شكل الوتر (قصيدة)
- خالد زغريت ١٨

■ عرافة الفيروز (قصيدة)
- محي الدين فارس ٢٨

■ الشعر سيد الفنون ! - أحمد الجندي ٤٢

■ قراءة نقدية لكتاب : الموت يضحك
- أبو المعاطي أبو النجا ٤٦

النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي ١٥٢

جيبوتي : حيرة اللسان والمكان ! ص ١٣٢

■ الحُواء (قصة) ـ دلال حاتم ٦٠

■ لذة العفو (قصيدة)

ـ محمد مصطفى البسيوني ٦٤

■ الايقاع : طاقة السحر وجسر العبور !

ـ خالد القشطيني ٦٥

■ الفيلم الأمريكي واللاسامية الجديدة ضد العرب ـ د . جاك شاهين ١٠٧

■ وضّاح (قصيدة)

ـ جمال عبدالجبار علوش ١١٤

■ جمال العربية :

ـ صفحة لغة : أسئلة وأجوبة

ـ د . حسن عباس ١٧٦

ـ صفحة شعر :

تباريح جريح لجميل بثينة ١٧٨

■ هواجس ليلية لبائع كعك (قصة مترجمة)

ـ سمير مينا ١٨١

منتدى العربي :

■ قضية : حرب النجوم بين وليم جيمس وكلاوزفيتز ـ إيهاب محمد مهدي ١١٦

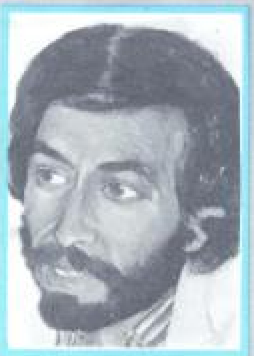

وجها لوجه :
على فرزات ص ٩٦

المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

■ تعقيب : الانفتاح العربي على الحضارات
ـ محمد فؤاد علي ١٢٠

تربية وعلم نفس :

■ الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس
ـ د . عبدالوهاب حومد ٣٠

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ بين ابن ماجد وفاسكو دي غاما
ـ حسن صالح شهاب ٣٥
■ وجها لوجه : علي فرزات
ـ حسن محمد يوسف ٩٦
■ غومة المحمودي مناضل من ليبيا
ـ د . زهدي سمور ١٥٨

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : مناهج البحث والإصلاح والتخطيط ـ ياسر الفهد ١٨٥
■ من المكتبة العربية : اللسانيات وأسسها المعرفية
ـ أحمد محمد قدور ١٩٠
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٥٨
■ الكلمات المتقاطعة ١٨٤
■ مسابقة (العربي) الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٣) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

صورة الغلاف

في قلب بكين عاصمة ربع سكان العالم تجد نفسك في عمق الصورة كلها .. الصين باتساعها وازدحام سكانها الألف والمائتين من ملايين البشر . المدينة المحرمة بدأت تنفتح على العالم .

[طالع التفاصيل ص ٦٨]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

■ نزعة السرقة عند الأطفال
ـ طارق عبدالظاهر محمد ١٦٢
■ المرأة والقوة المستمدة من الرجل !
ـ د . علياء شكري .. ١٦٦
■ هو .. هي ١٧٠
■ طبيب الأسرة : حمى مالطا أو « البروسيلا » ـ د . حسن فريد أبوغزالة ١٧٢
■ مساحة ود : ولو كنت جيلا
ـ محمود عبدالوهاب .. ١٧٥

عزيزي القارئ

ما زالت « العـربي » تجتهد لتنقل إليك الجديد في عالم الثقافة والأدب والطب والعلوم ، وكلما زادت ثقتك في مجلتك زادت الأعباء الملقاة على عاتق هيئة التحرير ، ورسائل القراء التي تصل إلينا بالعشرات إن لم نقل بالمئات يوميا نتعلم منها ونستفيد كثيراً وهي تؤكد لنا أننا سائرون في الطريق الصحيح لتقديم المعرفة والثقافة والعلوم بشكل جيد مقبول لـدى معظم القراء .

في هذا العدد نواصل المسيرة ، فنقدم لك من الفكر الإسلامي ما ينير ويهدي ، ومن الفكر العربي ما يطرح التساؤلات ، ويقترح الحلول ، ومن الموضوعات الخفيفة ما يعظ ويسلي .

فقد كتب لك الدكتور محمد فاروق النبهان عن التجديد في الفكر الإسلامي ، وكتب لك الدكتور محمد جابر الأنصاري عن الوحدة الإقليمية التي تشهد وقائعها في المغرب العربي وفي الخليج العربي ، ولعلك قد لاحظت أيضا أن ما بدأنا تقديمه منذ العدد الماضي في « واحـة العربـي » قد عززناه في هذا العدد بمجموعة من الموضوعات الطريفة الجديدة ، مثل مقـال الإيقاع للكاتب الساخر خالد القشطيني. كما كتب لك الدكتور جاك شاهين أستاذ الإعلام في إحدى الجامعات الأمريكية عن صورة العربي في الأفلام الأمريكية . وقدم لك الدكتور عبدالوهاب حومد من أوراقه صوراً من « مواقف إنسانية » مؤثرة .

وفي باب الاستطلاعات أخذتك « العربي » في هذا العدد إلى بكين المدينة و« الصين » الدولة التي انفتحت على العالم . فما هي نتائج هذا الانفتاح ؟

الاستطلاع الآخر ذهبت فيه « العربـي » إلى جمهورية جيبوتي الدولة رقم (٢٢) في جامعة الدول العربية ، ورصدت بالصورة والكلمة التطورات التي حدثت في هذه الـدولة الفتيـة ، وخاصة أن « العربـي » قد زارتها قبل حصولها على الاستقلال سنة ١٩٧٧ . فما الجديد في هذه الدولة ذات الموقع الاستراتيجي بالغ الخطورة ؟

وفي العلم والطب احتوى هذا العدد على باقة متنوعة من الموضوعات ، منها مقال : النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي ، ومقال آخر عن « تكنولوجية » العالم الثالث ، وما كتبه الدكتور سامي محمود علي عن العجز الجنسي ، وهل آن الأوان لنقول له وداعا ؟

ومقـال عن الأطفال وبعض مشكلاتهم النفسية ، وموضوعه « نـزعة السـرقة عند الأطفال » . فما هي أسبابها ؟ هذا بعض ما يحتويه عددنا الذي بين يديك .

نتمنى لك قراءة ممتعة ، شيقة ، مفيدة ، وإجازة صيف طيبة . وإلـى اللقـاء .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

لعبة الخبراء

ينقل عن جورج بومبيدو رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق قول ظريف مفاده : « أن هناك ثلاثة طرق إذا سلكها السياسي أدت الى دماره ، الأول هو مطاردته للنساء ، وهو أكثر الطرق متعة ! والثاني هو لعب القمار وهو أسرع الطرق مفعولا ، والثالث هو الاعتماد على الخبراء وهو أكثر الطرق تأثيراً » .

قد يظهر هذا القول شبح ابتسامة على شفاهنا ، ولكن الحقيقة أن الخبراء أصبحوا جزءاً من الحياة الحديثة . فالبحث عن الخبرة ، ووجود أشخاص يطلبونها ، وآخرين يقدمونها ، أصبح اليوم على جميع المستويات ضرورة ملحة في جميع البلدان على اختلاف مستوياتها من التقدم ، واختلاف اجتهاداتها الاقتصادية والسياسية .

إلا أن موضوع الخبرة والخبراء ، وطريقة عملهم وعلاقاتهم بصاحب العمل ، وديناميكية العمل بينهم وبين المستفيدين من الخبرة التي يقدمونها ، أو بينهم وبين المنفذين للخبرة التي يقترحونها . كل ذلك موضوع جديد قلما تشير إليه الكتابات العربية ، وما هو متوافر منه باللغات الأخرى محدود .

إغفال هذا الموضوع في مدارسنا وجامعاتنا ، بل إغفاله في وسائل إعلامنا ، قضية ملفتة للنظر ، على الرغم من أهمية دور الخبراء في الحياة

هـل الخبراء نعمة أو نقمة في الدولة الحديثة؟

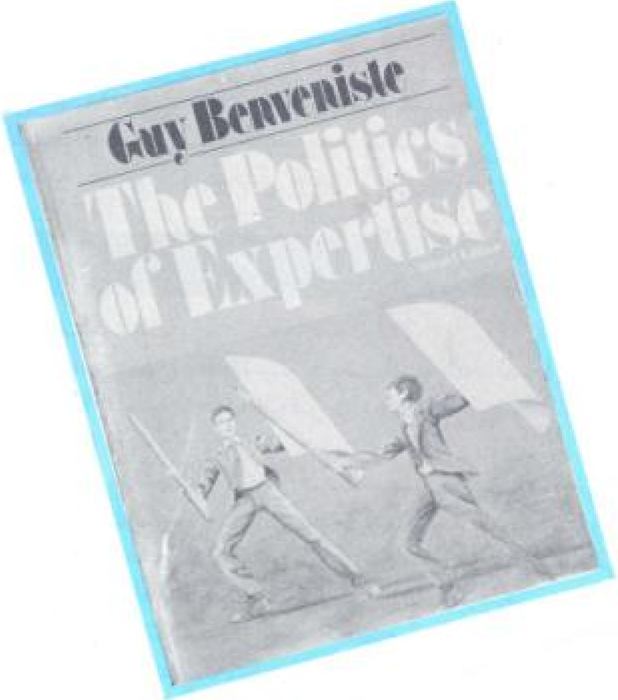

السياسية الحديثة . سواء أكانوا خبراء في الاجتماع والادارة وما حولها ، أو خبراء تقنيين (فنيين) .

ومما يلفت نظرنا في هذا المقام كتاب ممتع كتبه « جاي بنفينست » خصه بعنوان ملفت للنظر هو « الأساليب السياسية للخبراء » ـ وهو أقرب ما يصفه عنوانه باللغة الانكليزية ـ عرض فيه بشكل مشوق ما سميته سابقاً « لعبة الخبراء » . كيف بدأت هذه اللعبة ؟ ولماذا نحتاج للخبراء ؟ وما هي طرقهم في تقديم الخبرة ـ الطرق السوية وغير السوية أيضا ؟

• بداية اللعبة ؟

بعد قراءة الكتاب تبين لي أن هذا الموضوع الجاد المشوق يحتاج الى فهم على قاعدة خبرتنا وثقافتنا العربية ، فلقد عانينا في الوطن العربي سلبا من « لعبة الخبراء » وكثير من كتاباتنا في هذا الموضوع تنصب على (سوء النصيحة من الخبرة الأجنبية) في حين أن الكتاب الذي أشير اليه يتحدث عن موضوع الخبراء كمهنة .

الخبرة ـ خاصة الخبرة الأجنبية ـ لها سمعة سيئة عندنا نحن العرب ،

من المسؤول عندما يُبنى حمام سباحة ساخن في بلاد لا تقل الحرارة فيها عن ثلاثين درجة مئوية ؟

ومعظم هذه السمعة السيئة ملونة بلون كثيف من الموقف السياسي وعلاقة المسيطر بالمسيطر عليه . لذلك نجد هناك نفورا طبيعيا من الخبرة الأجنبية بمعناها الخارجي . وهناك في بعض الأقطار العربية « خبرة عربية » أي خبراء عرب من أقطار عربية أخرى ، لكن حتى هذه لا تنجو من بعض (الشك) .

وإذا كانت قضية الخبراء الأجانب والخبراء من غير أهل البلاد تضيف على موضوع لعبة الخبراء غموضاً وإثارة ، فإن الخبرة الوطنية (المحلية) لها أيضاً مشكلاتها .

ففي بعض أقطارنا يبدو للبعض أن هناك تناقضاً في المفاهيم بين الخبرة الخارجية والمحلية . فهذا البعض في ذهنه أن الخبرة لابد أن تكون بالضرورة (أجنبية) .

من هنا نجد أن الموضوع ـ بالنسبة لنا على الأقل ـ أكثر تعقيداً مما يمكن أن يتناوله كتاب غربي يتصدى لفكرة الخبراء من منظور أكاديمي بارد .

تعقد هذه المشكلة لدينا له طابع البيئة الثقافية ، فالنظر بعين الشك للخبرة والخبراء (الأجانب) وبدرجة أقل الى غير المحليين له ما يبرره علمياً ، لأن هذه الخبرة تعرف على وجه اليقين موضوعها بشكله النظري القانوني أو الاجتماعي أو التقني ، ولكنها لا تعرف البيئة الاجتماعية والسياسية التي سوف تنفذ فيها في وقت لاحق اقتراحاتها . وتقل الفروق نسبياً في حالة الخبرة التقنية ، وتزيد بل وتتسع في حالة الخبرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، أي كل ما يتعلق بسلوك الانسان .

وهناك أمثلة كثيرة يمكن ضربها في هذا المقام ، خاصة في بعض أقطار الوطن العربي ، التي شهدت في السنوات الأخيرة مشروعات تنموية متسارعة .

فلقد قرأنا عن المباني التي ترتفع عشرات الطوابق من أجل الإسكان ولا يسكنها أحد ، حيث أن الناس لم يتعودوا في تلك المجتمعات على السكنى في عمارات مرتفعة ، بل تعودوا على السكن في وحدات صغيرة من المباني .

كما قرأنا عن حمام السباحة الساخن في بلاد لا تهبط درجة حرارتها صيفاً أو شتاء عن ثلاثين درجة على الأقل ، أو المصانع التي ينفذها الخبراء وتقذف بمخلفاتها الضارة في نهر يستخدم الأهالي مياهه منذ آلاف السنين للشرب ! .

وتختفي المظاهر السلبية للخبرة ولا تظهر للعين في مواقع أخرى ، ولكنها لا تقل خطورة ، فالخبرة القانونية أو الادارية التي تنقل من مجتمع كثيف السكان الى مجتمع قليل السكان ، تنقل التعقيدات من هذا المجتمع إلى ذاك ، ويعاني المواطنون إحباطاً في إنجاز معاملاتهم أو فض خلافاتهم من جراء هذه التعقيدات التي لم يكونوا يعانون منها من قبل ، وذلك ينطبق أيضا على الخبرة

المنقولة في التعليم والتدريب وطرق البناء وحتى طرق علاج المرضى .
على الرغم من كل سلبيات الخبرة والخبراء بعيداً عن البيئة الثقافية والاجتماعية - أو قل في عدم فهم البيئة الثقافية والاجتماعية - إلا أن الخبرة والخبراء من مظاهر وضروريات العصر ، فكيف ؟ ولماذا ؟

● ضـــرورة لابـد منـها :

لماذا الخبرة والخبراء ضرورة لابد منها ؟ الجواب عن ذلك بديهي . ففي العقود الأخيرة من القرن العشرين أصبح الايمان بالعقل والعقلانية إيماناً لا يتزعزع لدى غالبية الناس ، هذا الايمان يهيمن على الأعمال الادارية في المؤسسات الخاصة والعامة في كثير من الدول . ولقد أصبح الإيمان بالتخطيط ووجود حلول علمية للمشكلات التي يصادفها الانسان - وهما أهم مجال يسرح فيه الخبراء ويمرحون - ظاهرة العصر ، فإن كان من المفروغ منه معرفتنا الأكيدة بأن هناك تخطيطاً ، ومركزيا أيضا ، في الدول الاشتراكية وشبه الاشتراكية ، فإن البعض قد يفاجأ حين يعلم بأن هناك نوعاً من التخطيط في الدول الرأسمالية ، فحتى في الولايات المتحدة هناك أجهزة للتخطيط ولجان تخطيطية تعد أعمالها سلفا . بل أصبح هناك مؤسسات رسمية حكومية عملها التخطيط والاستعانة بالخبراء في المجالات المختلفة .
وإذا ابتعدنا عن القطاع الحكومي في الدول الرأسمالية ، فإن القطاع الخاص - في المؤسسات الكبيرة والمتوسطة - يتبنى في الولايات المتحدة اليوم وفي غيرها ، سياسة تخطيطية منظمة ، بل تقوم هذه المؤسسات بتعيين طواقم كاملة من الخبراء والمختصين والباحثين يقدمون المشورة للادارة التي تشرف على شؤ ون المؤسسة .
وهذا ينطبق على معظم الدول الرأسمالية والدول النامية .
الحاجة الى التخطيط بمعناه الواسع هي حاجة الى الخبراء ، ولكن وجود الخبراء أوسع من مجرد مجال التخطيط ، فالأسس التي تقوم عليها النظم الاقتصادية الحديثة تستند الى العقلانية والقياس وتنظيم التفسير والتحليل ، بل أصبح استخدام العلم هو الأسلوب العالمي المسيطر على الأفكار السياسية . فلا يوجد سياسي في العالم اليوم ، في بلد صغير أو كبير ، مهم أو هامشي ، ليس لديه مجموعة من الخبراء يستعين بهم في الأمور التي تواجهه أو تواجه إدارته إن كان في الحكم . بل أصبحت علاقة الخبراء بهذا السياسي مجال حديث في وسائل الاعلام ، كما حدث مع الرئيس الامريكي الحالي رونالد ريجين مع أكثر من خبير ، وكما يحدث مع السيدة مرجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية وكثير من أمثالها .

سر التعقيدات التي ينقلها الخبراء من مجتمع الى آخر

التكنوقراطيون أصبحوا يسيرون الدول والمجتمعات الحديثة

لقد قدر لهذا العصر أن يصبح عصر السيطرة (التكنوقراطية) حيث أصبح التحكم العقلي والمطالب الفنية الأساسية يحل محل العلوم والأساليب السياسية القديمة بل وحتى محل الأيديولجيات .

وهكذا أصبح (التكنوقراطيون) أي الفنيون الاداريون (الخبراء) ، سواء كانوا منفذين أو مخططين ظاهرين أو خلف الكواليس قابعين ، أصبحوا يسيرون الدول والمجتمعات الحديثة . وأصبح لطموحاتهم وخلفياتهم السياسية وفهمهم للظروف السياسية أو عدم فهمهم لها وعلاقتهم بالمسئول أو صاحب العمل - سواء كان رئيس دولة أو وزيرا أو مدير بلدية أو مدير إدارة أو صاحب مصنع أو مؤسسة أو أي شخص مسئول يطلب الخبرة - تأثير على اتخاذ القرار الذي قد يستفيد منه آلاف المواطنين أو يتضررون .

صاحب العمل اليوم - أي صاحب عمل سواء كان سياسياً أو صاحب مؤسسة - ليس حرا في اتخاذ القرار ، فصاحب العمل أو الرئيس أو المدير أصبح يعتمد اعتماداً كلياً على دقة المعلومات التي يزوده بها الخبراء ، حتى أصبح من المؤكد أن صاحب العمل الذي لا يتصف بالحكمة هو صاحب العمل الذي لا تجدي معه نصيحة الخبراء ، على الرغم من مقولة بومبيدو الساخرة التي بدأنا بها حديثنا !

ولكن الاستدراك يجب أن يوضح أن « صاحب العمل » عليه أن يعرف كيف يستفيد استفادة صحيحة من الخبرة المقدمة له ، بل كيف يختار خبراءه ويوجههم ، وهي معادلة ذات وجهين ، فإن لم يستطع صاحب العمل أن يستفيد من الخبرة خسر ، وان هو لم يحدد سلطة هؤلاء الخبراء نما نفوذهم الى درجة لا يستطيع معها بعد ذلك السيطرة عليهم . لذلك فإن توزيع الأدوار بين صاحب العمل أو الرئيس أو المدير (طالب الخبرة) وبين الخبير والخبراء يجب أن تحدد بدقة .

• أساليب وطرق

إن الدور الرئيسي في أي مؤسسة يجب أن يضطلع به صاحب العمل أو رئيس المؤسسة . وهو عادة ما يكون سياسياً أو مديرا إدارياً في حاجة الى المشورة وطلب النصح ، وأحياناً يكون هذا الدور لمجموعة من الناس كمجلس إدارة أو مجلس وزراء ، أو مجلس بلدي ، يأخذ هؤلاء على عاتقهم تأليف لجان للتخطيط وتعيين أشخاص للمشورة .

وفي المقام الثاني يأتي دور الخبير ، صاحب الرأي ، الرجل المفكر ، وهو يعمل عادة مع عدد من المحترفين ، وقد يكون عمله في وزارة الدفاع أو في مؤسسة لانتاج الألكترونيات أو في المكاتب التنفيذية لرئيس الدولة ، ولكن

طبيعة عمل هؤلاء الخبراء متشابهة ، فإن لهم اهتمامات بحل المشاكل ويغريهم دائماً وضع تصورات لمواجهة المستقبل ، ولديهم رصيد محترم من الخبرات ـ كل في مجاله ـ وطريقتهم في العمل تشمل الاعتماد على مجموعات الأبحاث المتداخلة ، ولكن طبيعة احترافهم لعملهم تحتمل الأيديولجية السياسية ، فهم ناجحون في عملهم متى كان لديهم وعي سياسي بما يحيط بهم، ولكنهم إن فقدوا هذا البعد (السياسي) أصبحوا بيروقراطيين عديمي النفع .

الخبراء بهذا المعنى أناس يبتكرون صوراً لما يجب أن تكون عليه الأمور في المستقبل . بعض هذه الصور قابلة للتنفيذ ، بل ويتم تنفيذها فعلا ، وبعضها الآخر لا ترى طريقها الى النور .

والخبراء يختلفون عن المصلحين الاجتماعيين المثاليين ، فهم لا يقومون بوضع خطط ـ كما يفعل بعض المصلحين المثاليين ـ تافهة أو مثالية يصعب تطبيقها ، ولا تصلح إلا لتبرير فشل صاحب العمل، بل هم يضعون خططاً وتصورات نابعة من حاجات حقيقية يواجهها صاحب القرار .

فالخبراء إذن يمارسون سلطة خاصة في أنظمة الحكم والدول اليوم ليس من السهل تحديدها ، ولكن من الخطورة تجاهلها . فهم بطرقهم البارعة والذكية يستطيعون التخلص من القيود (الرسمية) المفروضة عليهم للتأثير على القرار السياسي .

الخبراء الأذكياء لا يأخذون بالحسبان رئيس العمل أو القيادة أياً كان شكلها أثناء تقديم المشورة والخبرة ، بل يهتمون أيضاً بفئتين من الناس : الفئة

الخبراء يمارسون سلطة ليس من السهل تحديدها ومن الخطورة تجاهلها

الأولى هم المشرفون على عملية التنفيذ ـ ما دون الرئيس ـ كالبيروقراطيين والمنفذين ، أما الفئة الأخرى فهي جمهور المنتفعين أو المستفيدين من عمل المؤسسة أو الخبرة المقدمة ، تلك المجموعة من الناس التي قد تتأثر حياتهم والأهداف التي يسعون لتحقيقها بمخططات الخبراء .

هاتان الفئتان تكونان أحياناً مؤيدتين مسالمتين لمخططات الخبراء ، وأحياناً أخرى مقاومتين عنيدتين حسب نظرتيهما الى الأمور ومستوى فهمهما لها أو تأثيرها عليهما .

ولكن للخبراء اليد العليا في كثير من الأوقات ضد هذه المقاومة ، فهم يوهمون صاحب القرار ـ حقاً أو باطلا ـ بأن معلوماتهم تكذب ما يشعر به المنفذون أو المستفيدون ، وأن هناك أسراراً وأنظمة وميزانيات وتقنياً ونتائج قد لا يراها المستفيدون الآن ، وكلما توحدت كلمة الخبراء في ذلك ، كلما قرب صاحب القرار من تصديقهم .

• بين الشك واليقين :

يزداد نفوذ الخبراء من خلال طبيعة التطورات التي تشهدها المجتمعات الحديثة ، فالتطورات التقنية الحديثة والمتسارعة تجعل سريرة الانسان تنطوي على شك دائم بوجود أشياء أخرى في هذا العالم مازالت مجهولة ويمكن اكتشافها ولن يفعل ذلك إلا الخبراء ، فالهاتف المتلفز ونقل الصور والوثائق من خلال الهاتف على سبيل المثال تجعل لدى الانسان الاستعداد للتصديق بإمكانية التقاط الأحاديث عن بعد ، أو بث الاشارات التلفازية الى مجال أوسع ، أو اكتشاف مواد مضادة للرصاص والبارود ، أو علاج قرحة المعدة بدواء سائل ، أو استخراج المياه الغزيرة من باطن الصحراء الى سطحها . هذا المجهول والمرغوب الذي قد يكون ممكناً هو الذي يجعل من سوق الخبراء سوقاً رائجة . . وطالما ظل التغير التقني مستمراً ستظل هناك حاجة للخبراء للاستعانة بهم في استكشاف المستقبل ، لمعرفة الذي ما يزال خافياً ، أو استباق الزمن في اكتشافه .

ولكن هل يؤدي ذلك الاستباق للزمن الى اليقين ؟

النظر بعين الشك إلى الخبرة والخبراء له تبريره العلمي :

التناقض غير محسوم بين الخبرة ذات الدافع السياسي والخبرة المحايدة

ليس بالضرورة ، فبجانب دراسة الخبراء وتحليلهم وتوجهاتهم التي تبدو (عقلانية) ، هناك عامل إنساني . فعندما تثار أزمة ويتولد في النفوس الكثير من الشك في إمكانية التغلب على تلك الأزمة ، يصبح واجب الخبراء البحث عن مخارج لهذه الأزمة ، وليس بالضرورة أن تكون تلك المخارج عقلانية بحتة ، إلا أن مقدار القوة التي يتمتع بها هؤلاء الخبراء ، وثقة الناس بهم ، بمكنانهم من أن يخففوا من الشكوك التي تراود الناس كما أنهم يصبحون موضع ثقة الناس بالقدر الذي ينجحون فيه في التخفيف من شكوكهم .

هنا تتدخل الطبيعة البشرية ، فالحقيقة بالنسبة لكثير من الناس هي المصلحة أو هي الأمل . ولقد ثارت مثلا قضية مياه النيل في مصر ونقصانها وخطورة هذا النقص على المجتمع المصري برمته ، وكانت هناك وجهات نظر لخبرات مختلفة ، ومال الناس ـ في هذه الأزمة ـ لتصديق وجهة نظر الخبراء المتفائلة ، بدليل أن الناس قد نسوا مناقشة القضية .

يقوم الخبراء بإقناع المسئولين والجمهور بوجهة نظرهم بعمليتين : الأولى تبريرية ، والثانية مكتبية . فالعملية التبريرية هي أسلوب يتبعه الخبراء لاقناع كل من حولهم بأن الدافع لما يتخذونه من قرارات هو « الضرورة الفنية » التي تمليها اعتبارات فكرية وعقلية وتقنية ، على الرغم من أن الأمر قد لا يكون كذلك . أما العملية المكتبية فهي إيحاء الخبراء لصاحب العمل بأن ما يقومون به يجب أن يبقى سرياً ، للاستفادة من الوقت وتجنب المفاجئات وهما عمليتان متناقضتان ، إذ أنهما تفقدان الخبراء حيادهما المطلوب .

● خبرة محايدة ام سياسية ؟

من التناقضات الرئيسية وغير المحلولة ـ حتى الآن ـ موقف الخبراء الذين يفترض من جهة أن يقدموا تحليلات تتسم بالنزاهة والحياد والموضوعية ، ومن جهة أخرى أن يتلاءموا مع ما تفرضه السياسة من بعد عن الموضوعية والنزاهة في كثير من الأحيان ، أو بتعبير آخر ما تفرضه السياسة من تعايش مع الواقع ؟ .

يحل هذا التناقض عن طريق القول بأن تحليلات الخبراء يجب أن تكون نزيهة وموضوعية ، أو على الأقل يجب أن تبدو كذلك ، ولكن استخدام هذه التحليلات يمكن أن يتم بأساليب سياسية ! وهذه العلاقة على الرغم من هذا التبرير الذي يبدو منطقيا مازالت غير محسومة .

العلاقة غير المحسومة تعرض مفهوم الخبرة لأحد مشاكله . فيقع بعض الخبراء في خطأ الاعتقاد بأنه مادام التخطيط أو التحليل السياسي أصبح سياسياً وفنياً في نفس الوقت ، فلا تثريب على الخبير إن هو أسقط القناع عن

وجهه وقام بدور فني وسياسي معاً ، أو بمعنى آخر أن يصبح عمله أكثر ميلا الى السياسة وأقل ميلا الى عمل الخبير ، هذا النوع من الخبراء لا يتمتعون بوعي سياسي . فلابد للخبير أن يعي دائما التمييز بين البحث الواقعي وبين الطريقة التي يساهم بها في الصياغة السياسية والتخطيطية ، لأنه إن كان على الخبراء أن يلعبوا دوراً سياسياً فإنه سيكون من واجبهم أن لا ينقلوا لأرباب العمل المعلومات الفنية فقط بل والأفكار والآراء السياسية ، وهذا تداخل يفسد مهمتهم .

إن مهمة الخبراء تقتضي الربط بين ما تتطلع إليه المؤسسات التي يعملون بها من مردود ، وبين ما تحتاجه هذه المؤسسات من عطاء ، أي ما هي أهدافها ، وكيف يمكن لها أن تحقق هذه الأهداف . فهم ليسوا سياسيين بالمعنى الحرفي للكلمة ، ولكنهم يعرفون المسار السياسي في البلد الذي يخدمون فيه ، ويعززون هذا المسار ويسندونه واضعين أعينهم على المستقبل .

إن الخبراء يختلفون عن السياسيين في أمرين ، الأول أنهم ليسوا مجبرين بالضرورة أن يخفوا الحقائق غير المرغوب فيها عن الجمهور كما يفعل السياسيون أحياناً ، وإن أخفوها فترة فإن التنافس بينهم سوف يظهرها . والأمر الثاني أنهم يهتمون بالأهداف والمحصلات النهائية لا المظاهر الخارجية ، حتى لو كانت هذه الأهداف لا تحقق مستوى عال من إجماع الرأي العام كما يشترط السياسيون .

• كيف يكتسب الخبراء الثقة ؟

في بعض المجتمعات يصبح للخبراء نفوذ أقوى من السياسيين . وعلى الرغم من أن صاحب العمل عندما يشعر بحاجته الى خبير يستعين بمشورته ، فإنه يحاول أن يظل هذا الخبير تحت إشرافه المباشر ، أو يستعين بأكثر من خبير ، كي يدب بينهم الخلاف ، فليس هناك أسهل من السيطرة على مجموعة من المختلفين . إلا أن هناك أربعة مصادر أساسية يستمد الخبراء منها قوتهم ونفوذهم :

أولا : سهولة الوصول الى مراكز القوة . سواء كان رب العمل رئيس جمهورية أو رئيس محكمة ، فلن يستعصي على الخبراء الوصول اليه ، وليس هناك ريب في أن بعض أبواب هؤلاء المسئولين قد لا تكون مفتوحة دائما ، ومهما بلغت أساليب (رب العمل) من إبعاد الخبراء فهو لا يستطيع الاستغناء عنهم ولا عن نصائحهم ، ولا يستطيع أن يهمل قراءة التقارير التي يكتبونها . ويغتنم الخبراء الأذكياء هذه الفرصة ويستغلونها أفضل استغلال ، ويعطون رب العمل خلال نصف الساعة المتاح حين يستدعيهم لمقابلته ، معلومات

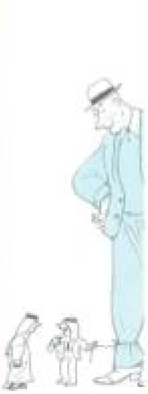

تحتاج الى نصف عام من طالب نشيط لهضمها ، مركزين على الأخطاء الأساسية والواضحة .

إمكانية الوصول الى مراكز القوة تتيح لهؤلاء الخبراء سلعة سياسية يمكن مقايضتها بخدمات أخرى في المجتمع .

ثانياً : الخبراء يتعاملون في سلعة نادرة هي المعرفة ، ولا نعني بالمعرفة هنا مجرد توافر المعلومات التي تصل الى الخبراء بحكم مهنتهم ، ولكن المعلومات التي يستطيعون الحصول عليها بجهودهم الخاصة ، ثم يقومون باستخلاص بعض النتائج منها . وحيث أن معلومات الخبراء تعتبر سلعة سياسية فهي إذن قابلة للمقايضة مع السياسيين ، وعن طريق ذلك يسعون للتأثير في السياسة العامة للدولة .

ثالثاً : تشكيل التحالفات . فبعض الخبراء ليسوا على دراية كافية بالأساليب السياسية ، فهم يهملون المنفذين ، ولا يهتمون بأخذ رأي المنتفعين ، ويحصرون اهتمامهم بصاحب العمل . إلا أن هناك فئة أخرى من الخبراء يتقدمون خطوة على من سبق ذكرهم . هؤلاء يهتمون بعملية التعبئة ، فهم يعرفون سلفاً من الذي سوف يدعم توصياتهم ، كما أنهم يهتمون بالمنتفعين ، ويسعون لدعم توصياتهم . وإذا ما نجح الخبراء في استقطاب عدد من المنفذين والمنتفعين الى اقتراحاتهم زادت أهميتهم في نظر صاحب العمل وعلا شأنهم . فتشكيل التحالفات وكسب المؤيدين يزيد من قوة الخبراء .

رابعاً : يدرك الخبراء جميعاً أن اختلافهم في الرأي يعطي الفرصة لصاحب العمل لاهمال توصياتهم ، لذلك فإنهم يعمدون الى تشكيل مؤسسات مهمتها جمع المعلومات المتفق عليها وتنسيقها سعياً للخروج برأي واحد جماعي ومتفق عليه . هذه المؤسسات تحتكر المعلومات ويصبح الخبراء محتكرين للمعلومات الحيوية ، فهي إذن جماعات تتمتع بالقوة التي يمنحها الاحتكار للمحتكرين .

ما سبق هو مجموعة من الأفكار الرئيسية التي تضمنها الكتاب الذي عرضناه وموضوعها حيوي مازال يحتاج الى المزيد من الكشف والدراسة . ولكن الخبرة تمر بأزمة خلقتها هي نفسها ، فبدلا من أن يتجه الخبراء لحل مشكلات المجتمع وإيجاد طرق بديلة ورخيصة لتلمس مسارات التقدم للبشرية ، اتجه الخبراء للتفكير في وسائل كبح منتقديهم ، ومحاربة الآراء المخالفة لآرائهم . وعلى الرغم من دورهم الاجتماعي الجديد الغامض على الكثيرين ، إلا أن الخبراء يشكلون مجموعات التحدي الأكثر حداثة في المجتمعات المعاصرة .

فهل نستمع الى آرائهم ؟ □

محمد الرميحي

للجرح شكل الوتر

شعر : خالد زغريت*

سقطت دمعة من فمي
وأنا تائهٌ في دروبِ السفرْ
بقايا من الدمعِ فوقَ حجرْ
أحملُ الجرحَ في الصدر شكلَ
وترْ
وأغنّي لعصفورة ترسم الحلمَ
أرجوحةً للقمرْ
لا عيونُك تأتي ولا الحلمُ من
دمعتي يختصر
ليس لي غيرَ جرحي سراجاً
يكسر عتم الليالي
وقلبي ورود تنام بغصنِ شجرْ
فأنا لحن أغنيةٍ تعبت من
ليالي السهر
وأنا وردة ذبلت في الحقائبِ
بين شفاه الزمانِ
على طرقاتِ السفرْ
سقطت دمعةٌ من فمي
وأنا تائهٌ في دروب السفر
لا عيونك تأتي ولا الحلمُ من
دمعتي يختصرْ

* شاعر من القطر السوري - حمص

منهج التجديد

في الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور محمد فاروق النبهان

الأمة التي ترفض التجديد ، ولا تمارس حقها فيه ، تلغي ذاتها ، وتضعف من إمكاناتها الفكرية ، وترضى لنفسها أن تكون عالة على أجيال سابقة أو لاحقة . تلك هي رؤية الكاتب حول منهج التجديد في الفكر الإسلامي ، كأداة للتواصل ، استمرارا للبقاء والصمود في وجه التطورات المستحدثة .

كلمة التجديد تعني تكوين ظروف الاستمرارية ، وتجديد الفكر يعني استمرارية الايمان بصلاحية ذلك الفكر ، لكي يكون أداة لتوجيه الانسان وهدايته ، ومن هذا المنطلق يكون التجديد مطلبا ملحا ، لأنه يمثل العلاقة بين الانسان والفكر ، فإذا توقفت عوامل التواصل بين الانسان والفكر جمد الفكر وتراجع دوره .

والتجديد هو أداة التواصل ، لأنه يعطي للفكرة بعدها الزمني ، عن طريق ربط تلك الفكرة بالرؤية المتجددة التي تمنحها القدرة على الاستمرار والبقاء والصمود في وجه التطورات المستحدثة التي يفرضها الواقع الجديد ، وتألفها الأجيال اللاحقة .

ولا أظن أننا بحاجة الى إقامة الدليل على أهمية التجديد بالنسبة للفكر ، فالتجديد هو وسيلة الاستمرار ، لأن العقل البشري من حقه أن يباشر مسؤولياته في فهم الظواهر الانسانية ، وأن يفسرها بما يراه ويعتقده ، وهو يمارس بذلك صلاحيات مشروعة ، وليس من الانصاف أن ينكر جيل سابق على جيل لاحق حقه في ممارسة رؤيته المتجددة لقضاياه الفكرية ، لأن الإنكار لا يلغي ذلك الحق ، ولا يوقف ممارسة الانسان له بطريقة اعتيادية من غير تكلف أو تجاوز .

والفكر الاسلامي لا يختلف عن الفكر الانساني من حيث قابليته للتجديد ، ومن حيث خصائصه الانسانية ، إلا أنه يختلف عنه في جوانب خاصة ، تكفل له الاستمرارية وسلامة المنطلق ، ويبرز ذلك الجانب المتميز في الفكر الاسلامي من خلال ما يمتاز به من خصائص ذاتية وغايات إنسانية .

أما الخصائص الذاتية فتتمثل فيما يلي :

أولا : إلهي المصدر : وهذه الخاصة تكفل للفكر الاسلامي أن يكون في منأى عن المصالح والأهواء ، لأن التوجيه الالهي تكفّل للفكر أن يكون أصيلا في تكوينه ، إنسانيا في غاياته ، أخلاقيا في مواقعه ، لا يضل ولا ينحاز ولا توجهه مصالح الأقوياء ، ولا تعبث به عواطف أهل الأهواء ، يحكم في البشر ، ويرسم لهم طريق السلامة ، لكي تكون المجتمع في أمن واستقرار .

ثانيا : الثبات والاستمرار : وهذه الخاصة تكفل للفكر الاسلامي أن يكون معبرا عن معنى التواصل والتكامل بين الأجيال المتلاحقة ، بحيث يكون الجيل اللاحق مؤتمنا على منجزات الأجيال التي سبقته ، مضيفا إليها رؤيته المتجددة ، لكي يكون صيغة هذا الفكر في متناول الجيل اللاحق .

ثالثا : أخلاقية الأهداف : وهذه خاصة واضحة ، نجدها في كل حكم من الأحكام ، وفي كل موقف من المواقف ، ولا يمكن للفكر الاسلامي أن يتجاوز هذا المنهج الأخلاقي الذي يعبر عن أصالة الفكر الاسلامي كفكر يستمد أصوله من نصوص معتمدة ، لا تقبل النسخ والإهمال ، لأنها نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية .

أما الغايات الانسانية للفكر الاسلامي فتتمثل بما يلي :

أولا : تنظيم المجتمع ورقيه : وهذه غاية نجد ما يؤكدها من خلال تتبعنا الدقيق للأحكام الشرعية التي اتسعت في تنظيمها للحياة الانسانية ، بطريقة يسرت على الانسان أمره ، لكيلا يضيع في متاهات التردد ، باحثا عن الطريق الموصل إلى العدل والحق والفضيلة .

ثانيا : محاربة الاسطورة في مجال العقيدة : وذلك لأن الفكر أداة للهداية ، ومن أبرز غاياته تحرير الإنسان من الخرافة والأسطورة ، بطريقة جادة ، لكي يشعر عندئذ بإنسانيته التي أكرمها الله بنور العقل وهدايته .

هذه مبادىء أساسية ، لا تخضع للتجديد أو التغيير ، لأنها منطلقات أساسية ، تحمي الانسان من الانحراف ، وتبعده عن مواطن الزلل .

وبعد ذلك يبتديء دور العقل ، وهو أداة التكليف بممارسة حقه في النظر والفكر ، في حدود ما أنيط به من تفسير لنصوص أو تأويل في فهمها في إطار الضوابط المنصوص عليها التي يدركها الحس السليم ، ويعترف بها المنطق السديد .

والتجديد أمر لا خيار فيه ، وهو مطلب عقلي واجتماعي ، لأن العقل يتطلع إليه لممارسة حق مشروع ، والمجتمع يتطلع إليه لتزويده بالرأي الذي يحقق له المصالح المشروعة التي أقر الاسلام بها في مبادئه الأساسية .

وتبرز مبررات التجديد في العوامل التالية :

أولا : التطور المستمر في طبيعة الحياة الاجتماعية : وهذا أمر شاهد ومسلم به ، ولا مجال لإنكاره ، لأن الحياة كالنهر المتدفق بالحياة المتجددة ، ولا يمكن أن تتوقف الحياة ، ومهمة الفكر أن يواكب مسيرة الانسان ، لكي يكون معبرا عن تصوراته الفكرية ، النابعة من الرؤية الزمنية لقضايا الانسان واهتمامه ، والذين يرفضون التجديد يتكرون واقعا قائما متمثلا في أجيال متلاحقة ، تتجدد قضاياها ، وتتجدد معها رؤيتها الفكرية .

ثانيا : قابلية النصوص التشريعية للفهم المتجدد : وهذا مبدأ لا خلاف فيه ، فالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية الثابتة تقبلان التفسير والتأويل ، وليس من حق أي جيل أن يختص بهذا التفسير والتأويل مدعيا في ذلك حقا خاصا ، يمارسه دون غيره ، فالأجيال المتلاحقة سواء في حقها المشروع في التفسير والرأي ، والخطاب الشرعي متجدد في كل عصر ، وهو خطاب لكل مكلف ، ومن حق المكلف أن يقرأ الخطاب ، فإذا توفرت فيه القدرة على الفهم والتفسير التأويل فهو مكلف به ، ولا عذر له في تقليد يحاكي به عوام الناس ممن تنقصهم الكفاءة والقدرة .

ثالثا : ضرورة مواكبة الفكر الاسلامي لحاجات الانسان : وذلك لأن الفكر غايته الانسان ، ولا

يجوز لهذا الفكر أن يكون معزولا عن قضايا ذلك الانسان ، فإن رضي لنفسه بالعزلة فقد حكم على نفسه بالجمود والتراجع ، والفكر الاسلامي يملك كل قابليات النماء ، وهذا منهج استخدمه أسلافنا في عصر النهضة والتقدم بذكاء وشجاعة ، وتصدوا لأداء دورهم في إثراء الفكر الاسلامي عن طريق الاجتهاد الذي أقره الاسلام ودعا اليه ، ولا يمكن لأحد أن ينكر أهمية الاجتهاد في تاريخ الفكر الاسلامي ، وفي تكوين أهل المدارس الفكرية التي أغنت الفكر الاسلامي بتراث خالد ، سيظل معلمة مضيئة في تاريخ أمتنا .

معايير التجديد

يخضع التجديد في مجال الفكر التشريعي لضوابط ضرورية ، تعطي لذلك التجديد شرعيته ، وتمنعه من أن يكون تجديد انحراف يقود إليه عقل غير متبصر ، وهوى نفس لم تبلغ رشدها وكمالها الأخلاقي ، ووسيلة التجديد في الفكر التشريعي هي الاجتهاد الملتزم بالضوابط الشرعية ، وهو اجتهاد مشروع وضروري ، ولا مبرر لمن توافرت فيه شروطه في أن يتقاعس عنه ، كسلا أو ورعا ، وليس من الورع في شيء أن يتخلى المجتهد عن مسؤولياته الفكرية .

وتتمثل معايير الاجتهاد المشروع بما يلي :

أولا : عدم الاخلال بالنصوص الثابتة : وذلك لأن الفكر الاسلامي يختلف في خصائصه عن الفكر الوضعي من حيث المصادر ، فالفكر الوضعي فكر بشري ، يخضع للعقول المجردة ، وللاجتهادات الفكرية من غير ضوابط أو قيود ، بخلاف الفكر الاسلامي فهو فكر ملتزم بمصادره الأساسية ، لا يتجاوزها برأي ، ولا يناقضها باجتهاد ، فإن تجاوزها أو تنكر لها فقد صفته الاسلامية ، وأصبح خاضعا لما يخضع له الفكر الوضعي من قابليات الخطأ والالغاء والتحيز والحيف ، وتعتبر الدلالة اللغوية هي معيار التفسير والتوضيح ، فما أفادته الدلالة اللغوية عن طريق القطع والجزم يدخل ضمن حكم النصوص القاطعة ، وما أفادته الدلالة اللغوية عن طريق الظن خضع لقواعد الاجتهاد ، وتثبت الدلالة اللغوية للكلمة العربية عن طريق النقل المتواتر والاستعمال المتكرر ، كما تثبت عن طريق الاستنباط العقلي المؤكد بالنقل عن علماء اللغة أو استعمالهم للألفاظ اللغوية ، واختلف العلماء في حكم إثبات المعاني اللغوية عن طريق القياس ، والرأي الراجح أن القياس اللغوي يحتاج إلى إثبات استعمال العرب له وقبولهم به ، لكيلا يتحكم العقل في المعاني اللغوية بطريقة تعسفية .

وتخضع النصوص التشريعية الثابتة في توضيح دلالاتها الشرعية لقواعد التفسير المقررة ، وأهم تلك القواعد ما يلي :

الأول : الالتزام بالمعنى اللغوي الذي أقره علماء اللغة ، مع مراعاة المصطلحات الشرعية التي أخرجها المشرع من معناها اللغوي العام إلى معنى خاص دل عليه النص عن طريق أدلة قطعية ، وهذا التغير في معاني المصطلحات الأسماء لا يخرج الكلمة عن معناها الأصلي ، لأن التصرف في اللفظ العربي أمر مألوف في اللغة العربية ، وقد جرى العرف على تخصيص بعض الأسماء للدلالة على المعاني القريبة منها .

الثاني : تحديد علاقة اللفظ بالمعنى المستفاد منه ، عن طريق مراعاة القواعد المقررة عند علماء الأصول ، بحيث يكون استعمال اللفظ معبرا عن معنى أراده الشرع ، وكلما كانت العلاقة واضحة وظاهرة بين اللفظ والمعنى كانت مهمة المجتهد أيسر ، وفي ظل الوضوح تضيق دائرة الاجتهاد ، إلا أن اتساع الدلالة اللفظية على المعاني الشرعية يساعد على نمو حركة الاجتهاد وازدهار الرأي واتساع الفروع الفقهية .

ثانيا : احترام القواعد الاجتهادية : وتعتبر القواعد الاجتهادية من أهم ضوابط الفكر ، لكي يكون أصيلا من منطلقاته ، لا يزيغ ولا يضل عن غاياته ، والاجتهاد هو الجهد العقلي الذي يبذله المجتهد في استنباط حكم من دليله ، وهو أداة التواصل بين النصوص الثابتة والمصالح المتجددة .

وتتسع دائرة الاجتهاد لكي تشمل المواطن التالية :

١ - القضايا التي لم ينص عليها القرآن والسنة ، وهذا هو الموطن الأوسع لحركة الاجتهاد ، لأن القضايا الجديدة متكاثرة ، ويفرضها الواقع الاجتماعي والاقتصادي ، والنصوص محدودة ، والوقائع متجددة ، والوسائل إلى تحقيق المقاصد ليست واحدة .

٢ - النصوص التي وردت في إطار الظنية في ثبوتها أو دلالتها ، وهنا يتصدى الاجتهاد للبحث عن صحة السند من خلال دراسة ذلك السند وطرق روايته ، أو يتصدى الاجتهاد للبحث في تفسير تلك النصوص بما يؤدي إلى وضوح الدلالة على المعاني المرادة منها .

أداة تنظيم ومنهج للحياة

والتجديد عن طريق الاجتهاد هو التجديد الأصيل الذي لا يجوز الخلاف فيه ، لأن منهج الاجتهاد مقرر ومعترف به ، وفي الوقت الذي لا يباشر أهل الاختصاص والكفاءة واجبهم في إبداء الرأي في القضايا الاجتهادية فإنما يسهمون بطريقة مباشرة في إقصاء الشريعة عن أداء دورها الاجتماعي كأداة للتنظيم وكمنهج للحياة الانسانية ، وهم في هذا يسهمون في عزلة الفكر الاسلامي وضعفه وجموده ، لأن الفكر ينمو بالجهد البشري .

وادعاء الورع في أمر الاجتهاد لا يعتبر مبررا للتهرب من المسؤولية في إبداء الرأي والتعبير عن موقف الاسلام من القضايا الشائكة والمستحدثة التي تواجه المجتمعات الاسلامية اليوم ، وليس من الورع في شيء أن يمسك العلماء عن الاجتهاد ، تهيبا وخشية ، فالمسؤولية تفرض على أهل الاختصاص أن يتصدوا للاجتهاد ، لكي تؤدي الشريعة الاسلامية دورها في تنظيم حياة المجتمعات الاسلامية .

وهناك قاعدتان لاستحداث الأحكام الشرعية هما :

القاعدة الأولى : القياس

تقوم على أساس الحاق المسكوت عن حكمه بالمنصوص عليه عند مشاركة المسكوت عنه للمنصوص في علة الحكم ، وكلما كان المسكوت عنه أولى بالحكم من المنصوص عليه كانت العلاقة القياسية أولى وأظهر ، وأحيانا لا يكون الالحاق ظاهرا بين الأصل والفرع ، لتعدد المعاني التي تجمع بينهما ، مما يجعل القياس معقدا وصعبا ، وهنا تبرز الحاجة الى البحث عن العلة التي تعتبر من أهم ضوابط القياس ، لأن الشرع يتيط الحكم بوصف لا يصعب على العقل البشري إدراكه ، مما يدخل ضمن المقاصد الشرعية المتضمنة لجلب نفع أو دفع ضرر مما أقر الشرع الحنيف اعتباره ، وقد أفاض علماء الأصول في بحث الوصف المناسب ، لكي يكون علة في القاعدة القياسية ، واشترطوا فيه أن يكون ظاهرا ومنضبطا ومتعديا ، وألا يكون مما ألغى الشارع اعتباره .

القاعدة الثانية : المصالح المرسلة

وتقوم على أساس حرص الشرائع على تحقيق مصالح الخلق المتمثلة في جلب المصالح ودرء المفاسد ، وتنقسم المصالح إلى قسمين :

- مصالح معتبرة في نظر الشرع ، وتتفاوت بحسب أهميتها للانسان ، فمنها الضروري ، ومنها الحاجي ، ومنها التكميلي ، وجاء اعتبار هذه المصالح للمحافظة على النفس والعقل والمال والعرض .

- مصالح ملغاة في نظر الشرع ، وجاءت نصوص تلغي اعتبار تلك المصالح ، لوجود اعتبارات أكثر أهمية بالنسبة للانسان ، فمصلحة المرابي ملغاة ، ومصلحة المحتكر ملغاة ، ومصلحة شارب الخمر ملغاة ، ومصلحة السارق ملغاة . وسبب إلغاء هذه المصالح ما يترتب عليها من أضرار بحق المجتمع كله .

والمراد بالمصالح المرسلة هي المصالح التي لم يذكر فيها نص بالاعتبار أو الالغاء ، وتركت للمجتمع ، لكي يقرر فيها حكماء الأمة وعقلاؤها التنظيم الذي يحفظ الحقوق ويصون الحريات .

والتجديد لا يعني الخروج عن دائرة الأحكام الشرعية ، لأن ذلك التجديد يحمل معنى الهدم للقيم

الأصيلة لهذه الأمة ، وهو أداة للفوضى والاضطراب ، وكل تجديد يتجاوز النصوص الثابتة أو يتنكر لها محكوم عليه بالفشل .

أما التجديد الذي ندعو اليه فهو اعتماد المنهج الأصولي الصحيح في تفسير النصوص وتأويلها ، وهو منهج يشجع الرأي ، وينكر التقليد والجمود ، والأمة التي ترفض التجديد ولا تمارس حقها فيه تلغي ذاتها ، وتضعف من إمكاناتها الفكرية ، وترضى لنفسها أن تكون عالة على أجيال سابقة أو لاحقة .

وإذا كان منهج الاجتهاد الفقهي يشجع الرأي ، وينيط بالعقل البشري أن يتحمل مسؤوليته كاملة في ميدان التفسير أو في ميدان الاجتهاد فإن التجديد في ميادين الفكر الانساني أمر طبيعي ومنطقي ، لأن العقول البشرية مكلفة بأن تمارس إنسانيتها من خلال ما تفكر فيه .

اتجاهات التجديد

لقد حفل تاريخنا الطويل بمواكب متلاحقة من دعاة التجديد ، وكان لفكرهم دور رائد في مواصلة العطاء وتصحيح المسيرة ، سواء في ميدان العقيدة أو في ميدان الفكر والتشريع ، ولم يضق صدر الاسلام بهؤلاء ، وإنما ضاق صدره بما أثقل كاهل الفكر الاسلامي من انحراف وجمود وتقليد ، حتى أننا أصبحنا نعطي للتاريخ قداسة ، وللتراث عصمة ، وهذا منهج لا يستقيم مع منهج الاسلام الذي يرفض القداسة والعصمة ، ويجعل أمر الفكر في موطن رعاية العلماء المؤتمنين على مواصلة العطاء ، لكي تظل شعلة الفكر متوهجة ملهمة ، تنير الطريق ، وتعبر المسالك أمام قوافل المؤمنين برسالة الاسلام .

إن الفكر لا ينمو بالتقليد ، وسيادة منهج التقليد في مجال الفكر مؤشر واضح على تخلف الأمة ، وعجزها عن العطاء ، والتجديد لا يعني التغيير ، وانما يعني الاضافة المتميزة التي تطبع الفكر بطابع عصره ، لكي يكون وليدا شرعيا للمجتمع ، يحمل قسمات ذلك المجتمع ، ولا يمكن لمجتمع حي أن يتخلى عن مسؤوليته في إبداء رأيه فيما يواجهه من قضايا فكرية .

والفكر الاسلامي يملك إمكانات التجديد المستمر ، لأن النصوص الشرعية التي تعتبر مصادر أساسية للفكر الاسلامي أناطت بالعقل البشري مسؤوليات جسيمة ، واطمأنت الى سلامة اختياراته ، ووضعت له قواعد وضوابط لكي تكون رحلته في البحث والاستنتاج والاستنباط محكومة بمؤشرات الوقاية من الخطأ والضلال ، مطوقة بكل أسباب السلامة .

والانسان هو أداة التجديد ، وهو الغاية من كل تجديد ، والتجديد مؤشر على نضج الممارسة العقلية ، وتحمّل الانسان لمسؤوليته في التعبير عن تجربته الذاتية ورؤيته المتجددة لقضايا عصره ، فإذا مارس الانسان هذا الحق المشروع بحرية وشجاعة كان مؤهلا لحمل المسؤولية ، وإن تقاعس عن ممارسة هذا الحق لجهل أو عجز أو خوف كان جديدا بأن يكون في مؤخرة الصفوف .

وإن مجتمعنا الاسلامي اليوم مطالب بأن يتصدى لقضاياه الفكرية ، مؤكدا في ذلك أصالة الفكر الاسلامي وتميزه بخصائص ذاتية وإنسانية .

وإذا لم يتصد علماؤنا- وهم رموز الحياة الفكرية في مجتمعاتنا المعاصرة- لتحمل مسؤولياتهم في الإعراب عن آرائهم الفكرية ، في القضايا المطروحة على مجتمعنا ، فإن من المؤكد أن عصر التراجع والتخلف سيمتد وسيطول ، وسيبحث مجتمعنا بعد أن يفقد أمله عن البدائل الفكرية المتزاحمة التي نراها في كل يوم وهي بدائل لن تسهم في رقي مجتمعنا ، ولا في ازدهار فكره ، لأن الفكر الدخيل ليس كالفكر الأصيل في قدراته على مخاطبة شعبنا ، وعلى تلمس مشاكلنا .

وسيظل منهج التجديد في مجال الفكر الاسلامي هو الأمل الذي لا خيار لنا في تجاوزه ، لأن مجتمعنا ضاق بليل الظلام ، ويتطلع إلى مشاعل التجديد التي ستضيء ذلك الليل ، وتطارد ظلامه الدامس ، لكي يطل من خلف الأفق البعيد ذلك النور الخافت الذي يحمل في بديه بشرى عهد جديد ، يتصدى فيه فكرنا الاسلامي لكل التحديات الفكرية المعاصرة □

كثير من الكتاب والمفكرين العرب ، يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون لها كتابة ونضالا ، لكن أي وحدة هي المقصودة ؟

هناك أشكال عديدة مقترحة ، وهناك تطبيقات عديدة في أشكال الوحدة على الصعيد العالمي .

فإلى أي شكل يميل الكاتب ؟ وما هي الاجتهادات التي يتضمنها مقاله ؟

اشكالية الوحدة الإقليمية في الفكر العربي الوحدوي

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

من « الحلقات المفقودة » في الفكر العربي الوحدوي حلقة « الوحدة الجغرافية الطبيعية » ، التي يمكن أن تقوم بين عدة أقطار عربية متجاورة ، يجمعها إقليم جغرافي عربي واحد .

إن هذه الفكرة عندما تطرح تثير مشاعر قلق وحذر في أوساط الوحدويين العرب ، وأوساط العرب بعامة ، وتتم المسارعة الى التذكير بمحاذيرها ، قبل النظر بهدوء وتجرد في جانبها الايجابي ، وفي إمكاناتها المحتملة لخدمة حركة الوحدة العربية ككل على المدى البعيد ، ويتجه الرد عليها سريعا الى طرح بديل « الوحدة العربية الشاملة » ، كأنما يقوم تناقض وتعارض بين الفكرين .

طروحات قديمة

والواقع أن الطريقة التي طرح بها انطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري فكرة الوحدة الجغرافية لإقليم سوريا الكبرى (بلاد الشام) في الثلاثينيات كان لها أثر كبير في خلق هذا الشعور بالتناقض بين فكرة الوحدة الجغرافية الطبيعية لأي إقليم عربي ، وبين فكرة الوحدة العربية الشاملة من المحيط الى الخليج .

فقد طرح سعادة الوحدة الطبيعية السورية فكرة نقيضة للوحدة العربية ، من منطلق العداء والاستصغار للعرب ، ومن منطلق الزعم بأن الأمة « السورية » التي يتحدث عنها في تصوره أمة متفوقة حضاريا وسلاليا على العرب وعلى غيرهم ، وأنه لا

يقوم بينها وبينهم رباط قومي واحد* .

ثم إنه رسم لهذه الوحدة المتخيلة في تفكيره حدودا « استفزازية » للأقطار العربية المجاورة التي استبعدها من مفهومه .

فكما تنص « المبدأ الخامس » لدستور حزبه الذي تبلور بين ١٩٣٤ - ١٩٣٧ فإن « الوطن السوري » القومي يمتد : « من جبال طوروس في الشمال الى قناة السويس في الجنوب ، شاملا شبه جزيرة سيناء ، وخليج العقبة ، ومن البحر السوري في الغرب (يقصد البحر الأبيض المتوسط !) الى الصحراء في الشرق حتى الالتقاء بدجلة » .

فسعادة يقتطع سيناء من مصر ، ويصل الى عمق أراضي العراق . وقد تصدى المفكرون القوميون العرب لهذا المفهوم في حينه ، وأبان ساطع الحصري أن سعادة أخطأ في أبسط مبادىء الجغرافيا الطبيعية عندما تحدث عن « التقاء الصحراء بدجلة » ، في حين أن الصحراء لا تلتقي بدجلة في أي مكان كان ، لأن الفرات يقع في غرب دجلة ، فالصحراء التي يشير إليها (الزعيم) تلتقي بالفرات لا بدجلة ، وذلك خلط جغرافي غريب ، يخالف الدقة العلمية التي يجب أن تلازم البحث والتفكير . (ساطع الحصري ، دفاع عن العروبة ، ط ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩) .

ولتفادي هذا الخطأ قام سعادة بإعادة تعريف وطنه القومي على النحو التالي : « الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي . الى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب ، ومن البحر السوري في الغرب ، شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية ، وخليج العجم في الشرق ، ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال الخصيب ونجمته قبرص » .

هنا أضيف العراق برمته الى « الوطن القومي » ، وحاول سعادة التعبير عن المفهوم الجغرافي الجديد ، بدمج كلمتي سوريا والعراق في كلمة واحدة هي حسب نحته : سوراقيا !!

ويلاحظ التعمد في إضافة جزيرة قبرص الى حدود تلك « الوحدة » ، لكونها أقرب بقعة غير عربية يمكن اضافتها ، فلا يعود « الوطن السوري » هو الوطن السوري العربي الأصيل الذي عرفه العرب في تاريخهم ، ويعرفونه جيدا في حاضرهم .

والمعروف أن الحزب القومي السوري في تحولاته في العقود الأخيرة قد صحح الكثير من مفاهيم سعادة عن العروبة ، وتواتر حديثه عن « كتلة عربية متقاربة » ، تقوم بين الأقاليم الجغرافية العربية الأربعة ، بما فيها الاقليم الطبيعي لسوريا الكبرى ، غير أن الأثر الذي تركه الصراع بين سعادة ومفكري العروبة - وكان صراعا مريرا في الواقع - كان له دور كبير في إحاطة فكرة « الوحدة الجغرافية الطبيعية » في الفكر العربي الوحدوي بمشاعر مترسبة من الريبة والحذر الشديد .

ومما زاد الطين « بلّة » أن السياسة البريطانية الاستعمارية في المشرق العربي طرحت في الفترة نفسها تقريبا فكرة توحيد « الهلال الخصيب » ، وذلك لاحتواء النفوذ الفرنسي في سوريا ، ولمواجهة حركة توحيد أقطار الجزيرة العربية التي قادها الملك عبد العزيز آل سعود ، بوضع حاجز سياسي إقليمي ، يفصل بلاد الشام عن بلاد الجزيرة العربية ، ويمنع مواصلة توحيدهما ، كما يشكل كتلة عربية مشرقية شمالية ، تواجه الثقل المصري في آسيا العربية .

كل هذه الاعتبارات أبعدت فكرة الوحدة الجغرافية الطبيعية في الوطن العربي عن إطارها الموضوعي المجرد الذي يمكن أن تعالج من خلاله ، وحفزت الوحدويين العرب لمقاومتها ، خاصة في أقطار الهلال الخصيب نفسها التي طرحت فيها الفكرة ، ثم في سائر الأقطار العربية .

غير أنه بعد تعثر محاولات الوحدة العربية الشاملة

* وكان سعادة يعكس بهذه النزعة تأثره بالنزعة الهتلرية المتصاعدة عندئذ .

التي لا تأخذ باعتبارها قاعدة التقارب الطبيعي والجوار الجغرافي ، كالمحاولة التي بدأت بوحدة مصر وسوريا ثم الحاق اليمن بها ، وبتوحيد القيادة السياسية ، بعد ذلك بين مصر والعراق في الستينات . بعد مثل هذه المحاولات المتباعدة وغيرها والتي لم تتبلور في نمو قاعدة وحدوية مستمرة ثابتة ، فإنه لابد من إعادة الفكر والنظر لاستكشاف وسائل أخرى لتحقيق الوحدة العربية .

الوحدة والفترة الراهنة

ويبدو « مدخل » التقارب فالتوحيد الطبيعي الجغرافي القائم على وحدة الجوار ووحدة الإقليم من أفضل البدائل العملية والواقعية المطروحة في الفترة التاريخية الراهنة من تاريخ العرب ، وتاريخ هذا العصر ، على أن يكون واضحا في الأذهان منذ البداية ، وجليا في النوايا والأعمال،أن ذلك يمثل خطوة مرحلية ـ وإن تكن طويلة الأمد ـ لتحقيق الوحدة العربية الشاملة في النهاية ، ودون أن يتخذ التوحيد الاقليمي الطبيعي أي طابع مناف لمبادىء الأخوة العربية ، والتكافل العربي ، بأي شكل من الأشكال ، معنويا أو ماديا ، ظاهرا أو باطنا .

إن عملية الوحدة الشاملة في منطقة حساسة كالمنطقة العربية التي تقع في قلب العالم استراتيجيا ، تمثل حدثا انقلابيا خطيرا في السياسة الدولية والتوازن الدولي ، بحيث تستعدي على الفور كل القوى الكبرى في العالم ، وتدفعها الى محاربتها وإجهاضها . وليس صدفة أن تختلف هذه القوى من الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفياتي ، الى أوروبا تقف من حركة الوحدة العربية الشاملة موقفا حذرا للغاية ، ظاهرا أو باطنا ، وكانت سياستها منذ بداية العصر الحديث تستند الى مبدأ محاربة أي محاولة لبناء قاعدة وحدوية شاملة في المنطقة العربية .

فقد أجهضت القوى الأوروبية في القرن التاسع عشر محاولة محمد علي الكبير لتوحيد المنطقة العربية ، انطلاقا من القاعدة المصرية ، وكان تدخلها العسكري المكشوف لتحقيق هذا الاجهاض أوضح من أن يحتاج الى دليل (عام ١٨٣٩/ ١٨٤٠) .

ثم أجهضت بريطانيا وفرنسا محاولة الشريف حسين والقيادة الهاشمية من بعده في توحيد آسيا العربية ، أو أي قسم مهم منها ، على الرغم من كل الوعود التي قدمتها بريطانيا بهذا الصدد ، وعلى الرغم من كل المراعاة التي أبداها الشريف لمتطلبات السياسة البريطانية . وكانت معاهدة سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا عنوانا صارخا « للفيتو » الدولي الموضوع على تحقيق الوحدة العربية الشاملة بشكل مباشر .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، وعلى الرغم من حدوث متغيرات كثيرة ، كانت ضربة الخامس من حزيران ١٩٦٧ للقاعدة الوحدوية المصرية ـ وهي ضربة خطط لها بعناية في محافل دولية عديدة ، غربية وشرقية على حد سواء ـ آخر الاجهاضات ـ ولن تكون الأخيرة ـ لأي محاولة عربية من محاولات الوحدة الشاملة .

ويجب ألا يكون لدينا أي وهم بأن المعسكر السوفياتي أكثر تعاطفا أو تفهما لآمال العرب الوحدوية ، فموقف الشيوعية العربية المحلية من وحدة مصر وسوريا ، ومن فكرة انضمام العراق بعد ثورة تموز ١٩٥٨ الى دولة الوحدة ، موقف معروف ، وأشهر من أن يعرّف ، كما أن العلاقات بين القيادة الناصرية والقيادة السوفياتية لم تصبح قط أكثر توترا مما كانت عليه أيام الوحدة المصرية السورية ، وفي أثناء توجهات العراق للاقتراب من تلك الوحدة .

هذا بينما سارع السوفيات والشيوعية المحلية لدعم الكثير من التوجهات الانقلابية المعارضة للتيار الوحدوي ، لذلك فموقف الشرق والغرب يتساوى ، على الرغم من كل التناقضات بينهما ، من حركة الوحدة العربية الفورية الشاملة ، وآثارها الانقلابية على المسرح الدولي .

أضف الى ذلك أن وجود مركز واحد رئيس أو قاعدة واحدة رئيسية لمحاولات الوحدة العربية يستنفر جميع القوى المعادية لها ، لتوجيه ضربة

قاصمة لذلك المركز الوحيد ، كي تتبعثر حبات العقد العربي ، وتتناثر ، وتضيع هباء بلا رابطة متبقية تربطها ، مثلما حدث عندما ضربت القوى الكبرى القاعدة المصرية ، وأنهكتها ، وطوقتها ، وعزلتها في أكثر من مرحلة تاريخية ، منذ محمد علي الى عبد الناصر . وآثار الضربة الأخيرة مازال العرب يعانون منها الى اليوم ، ويعملون على التخفيف منها بمختلف السبل ، من أجل عودة مصر للعرب ، وعودة العرب لمصر . ومصر العربية نفسها تدرك أنها لو عادت سريعا قاعدة أساسية للتوحيد العربي فإنها ستتعرض من جديد للضغط الدولي ، وليس خافيا أن « ضوابط » عديدة قد فرضت على عملية التفاعل المفتوح المنطلق بين مصر ومحيطها العربي ، لمنع أي انطلاقة عربية شاملة .

أما إذا تعددت مراكز التوحيد العربي بين الأقاليم العربية في مشرق ومغرب ، فإنه سيكون أصعب على القوى المعادية أن تضرب جميع هذه المراكز التوحيدية دفعة واحدة .

تدرج وحدوي

كما أن التوحيد الطبيعي الجغرافي المتدرج بطبيعته ، المستند الى وشائج الجوار ، وتلاحم الأرض ، وتداخل المصالح ، ينمو بتريث ـ لكن برسوخ وثبات ـ دون أن يحدث تغييرات مفاجئة تستنفر ضده القوى المعادية ، حتى إذا تنامت الوحدات الطبيعية في الأقاليم العربية على المدى المتوسط ، أمكن النظر في التقريب بينها ضمن (فدرالية) مرنة أوسع على المدى الأبعد ، وعلى هذا المدى سيستحيل على القوى الكبرى المعادية للوحدة العربية أن تفكك هذه الوحدات المتنامية المترسخة كلها دفعة واحدة ، أو تمنع تقاربها الى مالا نهاية .

كما أن التقريب بين أربع وحدات طبيعية عربية في الأقاليم العربية الأربعة التي يتكون منها الوطن العربي الكبير ، سيكون أسهل بما لا يقاس من محاولة تجميع عشرين كيانا عربيا متفرقا ، كما هو الحال في الوقت الحاضر .

وأيا كان الأمر فإن طرح هذا التصور اليوم ليس من قبيل الافتراض النظري المحض ، فقد استمرت رابطة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في اقليمها العربي وتنامت . وتنشط دول المغرب العربي الكبير لإقامة رابطة توحيدية فيما بينها ، بينما تستمر خطط التقريب بين شطري اليمن ، وإعادة التقريب بين شمال وادي النيل وجنوبه .

« فيا وطني الكبير ، هل تسمع النفير ؟ » ،
بلحن آخر مغاير ، أقل « رومانسية » هذه المرة !
ولنا عودة لترديد هذا اللحن . □

■ لو كل كلب عوى ألقمته حجرا : لأصبح الصخر مثقالا بدينار . **(شعر عربي)**

■ حمار يحملك ، خير من حصان يرميك على الأرض . **(مثل عربي)**

■ المقيد بالسلاسل مع الأحبة خير من الطليق مع الأعادي في البستان . **(مثل فارسي)**

■ الابتسامة عنوان الشعور ، والشعور عنوان الانسانية ، ولو أن الشيطان ابتسم لما طرد من الجنة . **(برناردشو)**

■ الارادة التي لا تنثني تعلو على كل شيء حتى على الدهر . **(شاتو بريان)**

■ عندما يخطيء رامي السهام هدفه ، ينظر لنفسه ليعرف لماذا أخطأ ، وهكذا دائما . إذا أردتم الوصول الى هدفكم ، فأصلحوا أنفسكم . **(روكفلر)**

قراءة في انتفاضة ابريل السودانية

عرافة الفيروز

شعر : محي الدين فارس *

وكانَ الفجرُ في رحمِ الدُّجى ماءً بلا جسدٍ ،
وقالوا لامخاضَ له ،
ولاطلقٌ ،
فلا تتوقعوا رؤياه إلا بعدَ بعدَ غدٍ ،
وقد لايلمسُ المرساةَ حتى آخرِ الأبدِ ،
فَمَنْ في خارجِ المَنْفَى
كَمَنْ في داخلِ المَنْفَى ،
لأنَّ السجنَ في أعماقِنا . . فَحُتْ أفاعيهِ ،
وكادَ يموتُ ،
كادَ يموتُ
حتى بارقِ الأملِ
وَظَلَّ الليلُ تحملُنَا مراكبُهُ على عَجَلِ
إلى جبانةٍ ضَاقَتْ وراءَ السهلِ والجَبَلِ
وكان الشارعُ المسكونُ بالغَسَسِ الخرافيِّ
وبالمطرِ الوبائيِّ
وبالموتِ الفُجائيِّ
وبالنُّمرِ الزجاجيِّ
يبثُّ عيونَهُ فينا ، ويوغلُ في الطُّوبْاتِ ،
ويرصدُ هَمْسَنَا و اللاهمسَ ، في كلِّ المحطَّاتِ
وبين سرادقِ الأحزانِ يُصغي للوشاياتِ

نسيرُ ، فكلُّ منعطفٍ متاريسٌ مِنَ الظلمة
وافقٌ ما بِهِ نجمة
نصيخ ، وليس غيرُ الصمتِ يُحْتسُ وَجهَ شارِعِنَا
وغيرُ الريحِ مجهدة حناجرُها
مجندلة هوادِجُها
ونخلٌ حَنٌّ للتقليحِ
ما طَافَتْ به غيمة
ولكنَّا
طَفَوْنَا بعدَ ما كُنَّا
وراءَ القاعِ تحتَ الموجِ واللجة
فإنَّ خُيُولَنَا صهلتْ بقلبِ الغابِ محتجة
وصاحَ الناسُ كلُّ الناسِ
مندهشين مَنْ أنتم ؟
أما كنتم ؟
وكان سرادقُ الأحزان والمأتم
وليلٌ ماله مرسى طويلٌ . . أبكمٌ ، أبكم !!
فكيف خرجتمو من ذلك السرداب
كَسَّرْتُمْ أضلعَ ذلك القمقم ؟
وقد حارتْ
وضاقتْ أعينُ العدساتِ

* شاعر وكاتب من القطر السوداني

كيف تَلُمُّ ذاك السيلَ
ملء الشارع الغضبانِ لم يَرْحَمْ
أجَلْ مَنْ نحن ؟
نحنُ عيالُ « تهراقا » ،
وصوتُ « مِهيرةَ » [1] السمرا ،

و « ودْ حَبُوبَةَ » [2] الأعظم
ونحن سيوفُ « مهدي [3] الله »
في « شيكانَ » [4] في « كَرَري » [5]
نصونُ عروضَنا بالدم !!
وأمسى الأمرُ التاهي بلا دارٍ ، ولا وطنٍ
طريداً يلعنُ الأحزاب ، خلفَ خرائبِ الزمنِ
أجَلْ مَنْ نحن ؟

نحنُ عراقةُ الفيروزِ ، نحنُ قصيدة الزمنِ
فيا ابريلُ
يا ابريلْ
ياشهرَ البطولاتِ
شَممْنَا فيك عِزَّتَنَا

« وصَنْدَلَ » مجدِنا المَرْشُوشِ فوق مجامرِ الأفُقِ
وأغلَقْنَا أمام شراسةِ التنينِ
كلَّ نوافذِ الغَسَقِ
فراقِبْ مضجعَ الأنهارِ إنْ نَامَتْ
لكي تَصْحُوَ ،
كي تَغْسِلَ بالنورِ روابيها
وكُنْ للغابة العذراءِ واليها
تأمَّلْ وَجْهَهَا المَكْسُوَّ بالأعشاب
حَرِّكْ دغلَها المخبوءَ تحتَ الظلِّ
قس أقصى أقاصيها
فسقفُ الليلِ قد يمطرُ سجيلاً
وقد يخفي وراءَ الغيمِ
مَنْ يغزو مراسيها
كُنِ الآتي من الأغوارِ ، أغوارِ مآسيها
وكُنْ تاجَ الدمِ الوهاجِ مصباحَ دياجيها
وقُلْ « ياعازةَ » الشماء [6] ، يا أمَّ البطولاتِ
أتيْتُكِ في يدي الحناءِ « والجِرْتِكْ » [7]
أنادي الثأرَ يا أماه في « قيسانَ » « والكرْمُلْ »

(١) مهيرة بنت عبود احدى البطلات الشهيرات

(٢) ود حبوبه : قائد الحلاوين ١٩٠٨

(٣) مهدي الله بكسر الدال دون تشديد الياء الامام المهدي

(٤) معركة عظيمة انتصر فيها جيش المهدي على جيش هكس باشا

(٥) كرري . معركة هزم فيها جيش الخليفة عبد الله بعد أن أبلى بلاء حسنا

(٦) اشارة الى أغنية « عازة في هواك » للفنان الخالد خليل فرح وهي ترمز الى السودان

(٧) الجرتك . بكسر الجيم والتاء وسكون الراء والكاف طقس من الطقوس النوبية القديمة امتزج بالطقوس الافريقية « القناع والطوطم والجرتك » ما يزال حتى الآن من طقوس الاعراس معتقدا مركوزا في العقول الباطنة للناس كمانع للارواح الشريرة وما يسمى بالكبسة وشق الامراض النفسية .

مواقف إنسانية

الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس

بقلم : الدكتور عبدالوهاب حومد

قال حكيم خبر الحياة وعركته تجاربها : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » . وقد علمتنا الدنيا حقيقة هذه الحكمة ، ولكن قل من يأخذها مأخذ الجد في سلوكه حين تأخذه العزة بالإثم ، ويفقد القدرة على التحكم بأعصابه ، فما هو الشرر ؟ وما هي النار التي يتحدث عنها الكاتب في هذا المقال ؟

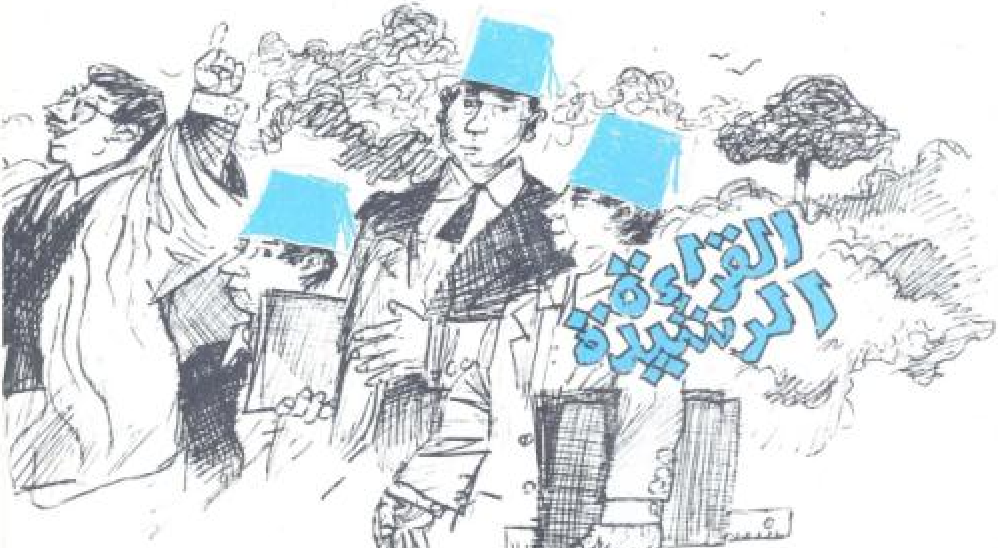

لو ساءل المرء نفسه عن أسباب كثير من الجرائم التي تقلق المجتمع وترهق المحاكم وتنشر البغضاء والشحناء بين الناس لوجد أن المأساة تكمن في ضيق الصدور وعدم التسامح ، ولكن المروءة لم تعدم كبراء في نفوسهم قالوا لانفعالاتهم موتي بغيظك في مواقف إنسانية تخرج السيطرة فيها عن طاقة الحصفاء .

ترتبط وقائع هذه الجرائم بحادثة من القصص الأندلسي قرأتها في طفولتي المبكرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، يوم جلا العثمانيون عن بلدي حلب ، ودخلتها قوات الانتداب الفرنسية .

القراءة الرشيدة

في تلك الفترة تشجع والدي وأخرجني من كتاب الحي حيث كنا نحفظ القرآن الكريم بطريقة التعليم الجماعية ، فيتلو الشيخ آية عطرة بصوت منغم ونعيدها على طريقته مع احناء الجسم إلى الأمام والوراء في حركات رتيبة ، دون أن يفسر لنا آية أو يطلعنا على روعة سورة ، وأرسلني إلى « المدرسة العالمية » . وكانت نظرة أهل الحي إلى « مدرسة الدولة » هذه لا تشجع الآباء على إرسال أولادهم إليها ، فقد كان على التلاميذ أن يرتدوا بذلة زرقاء ، ويعتمروا بطربوش أحمر له « شرابة » سوداء ، تلتاح من خلفه كلما اهتز الرأس ، ثم إنها كانت تعلمهم اللغة الفرنسية والجغرافيا ، وهذه بدع غريبة على ما ألفوه عن « العالِم » الذي كان يتفقه في المدرسة الدينية « الخسروية » ، ثم يتم « علمه » في أروقة الأزهر الشريف .

ولم يكن بين أيدي التلاميذ من كتب عربية آنذاك إلا ما كان يصلنا من مصر ، مستوردا مع قوالب السكر ورز رشيد « أبو غبرة » .

وكان أحلى هذه الكتب منظرا وأعذبها خبرا كتاب « القراءة الرشيدة » ، فقد قرأنا فيه قصة ألهبت خيالي الغض ، وحفرت في زوايا ذاكرتي مكانا لها ، استقرت فيه دون أن تتمكن الأحداث وَغِيَرُ الدهر من أن تنال منها . وكان مسرحها إحدى مدن الأندلس المسلمة ، يوم كانت راية الإسلام ترفرف خفاقة على ذراها ، تنشر في الدنيا قواعد الدين وأركان الأخلاق .

الشرر !

وذات مساء وقد انقضت ثلاثون عاما على أيام « القراءة الرشيدة » وقصتها الممتعة دخل عليّ شيخ يحف به الوقار من كل جوانبه ليوكلني بتمثيل جانب الادعاء المدني في جريمة قتل وقعت الى الشمال من « حلب ذات البساتين » كما وصفها شاعرها البحتري ، وفي قلب الانعطاف الكبير الخيّر لنهر الفرات الخالد ، بعد اندفاعه من الجبال التركية إلى السهول السورية ، ففي تلك السهول المعطاءة حيث ينمو الخير مع البركة كان « أفندي » حلبي يمتلك مزرعة ، ورثها إقطاعا عن آبائه ، وكان على جانب جيد من الثقافة وحلاوة المعشر ، وفهم صحيح لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين المالك والفلاح ، مما حببه إلى وسطه وجيرانه . وكانت تدير له المزرعة أسرة جاء بها من خارج المنطقة ، عرفت فيما بعد بطرقها في الأمانة ، وتشددها في قيامها بما تحتاج إليه هذه الجنة من رعاية وسهر وكد ونصب ، وكان سهلا على كل عين أن ترى ما كانت عليه من نظرة أخاذة ، وتنظيم بديع ، يميزها عما حولها من مزارع تمتلكها

قبيلة بدوية ، استقرت فيها بعد أن تخلت عن حياة البداوة والتنقل في فيافي الأرض بحثا عن ماء وانتجاعا لكلأ .

وكان فصل الربيع يبشر أهل المنطقة بالخصب ورغد العيش في أجواء دافئة من التواد وحرارة حسن الجوار حين سقطت المصيبة على الرءوس دون أن يتوقعها أحد ، فانتشر الحزن في السهل كله ، وعم القلق ، وتحركت عقارب الفتن وحب الانتقام .

ففي صباح أحد الأيام رافق الفتى ابن شيخ القبيلة راعي شياه أبيه في منطقة رعي محمية ، وكان الفتى في تسياره المتكاسل يطلق أنغام نايه بين الحقول المزهرة ، فيخيل إليه كأن كل ما حوله وما فوقه وتحت قدميه يتمايل من أثر النشوة في أعصابه ، وكانت الفراشات المتراقصة بألوانها المثيرة تنقض على الأزهار المخضلة بدموع الصباح لتمتص رحيقها الفواح ، وتناجيه بالفتنة ، فيلح على الناي نفخا وتنفيخا ، ويطرب الناي من دغدغة أنفاسه ، فيتلوى حنانا وعذوبة ، حتى تلبسته النشوة الغامرة ، وزينت له الدنيا حلم يقظة وعرسا للطبيعة أقامته على خلفية من موسيقا وزهور وخضرة وفراشات وشياه .

الثأر !

وفي غمرة السكرة تخطت الشياه تخوم مزرعة « الأفندي » ، وتوغلت فيها بعيدا ، وكانت تقضم ذؤابات الأشتال المنتصبة ، وتدوس بغير رحمة الغراس الطرية القصيرة . واستيقظ الفتى وراعيه على صوت رجل يسوق مواشيها إلى زريبته ، وهو يهدد ويتوعد ، وكان محتملا أن تجد المشكلة حلا لها باعتذار ، ولكنه اندفع وراء الوكيل يشتمه ويتهجم عليه ، وتطور الموقف بسرعة غير منطقية إلى مضاربة بالأيدي والحجارة ، ولمعت السكين في يد الوكيل تحت ضوء الشمس ، ثم غابت في قلب الفتى ، فوقع على الأرض وهو يتلوى كالعصفور الذبيح ، وخشي الراعي أن يلحق بصاحبه ، فأطلق ساقيه للريح باتجاه ذويه ، حتى إذا أصبح مسموع الصوت أرسل الاستغاثة ، وأعلن نبأ الفجيعة بصورة تستفز الحصيف . وتراكض من سمع بالنبأ إلى حيث وقعت الفاجعة ، لعلهم يدركون الفتى وهو حي ، ويقتصون من الفاعل على حق كان أو على باطل .

وكان أسرعهم شابا كان يحمل فأسا أدرك الوكيل على مشارف بيته غير أن الوكيل تمكن منه ، واقتاده إلى كوخ حصين وسكينه على رقبته ، ثم أغلق الباب ، ووقف يترقب تطور الأمور .

وتحسس الذين لبوا النداء من رجال القبيلة جثة الفتى فلم يشعروا بأي نبض للحياة فيها ، فعلموا أنه قتل ، وأن الاقتصاص من القاتل هو أول ما يجب عليهم أن يفعلوه ، وتلك عادتهم التي درجوا عليها وتوارثوها كابرا عن كابر ، وظلوا يقيمون « عدالتهم » الخاصة باللجوء إلى الثأر برغم أنف الدستور والقوانين المرعية ، ثم إنهم ما كانوا يثقون بعدالة تتنقل فيها الدعوى من بداية إلى استئناف إلى نقض ، ويتمتع القضاة فيها بحق التمسك بالشك لصالح المتهم ، ومنح الأسباب المخففة وعدم الاطمئنان إلى الأدلة المقدمة ، وهي عدالة إن بدأت فلا يعرف أحد متى تنتهي .

وأحاط رجال القبيلة بالكوخ مهددين متوعدين ، ولكن القاتل بصرهم بما ينتظر الرهينة من مصير محتوم إن هم اخترقوا عليه الجدران ، أو هشموا الباب ، وكانوا على ثقة بأنه لن يتردد في القضاء عليه حين تصبح حياته مهددة .

الشهامة في أجلى صورها

وفي هذه الأثناء كانت سيارة « لاندروفر » تخب في السهول الخضراء ، قادمة من شرق مضارب القرية ، وكان فيها رجل وامرأة يختلفان في ملابسهما عن ملابس أصحاب المنطقة من الأصل البدوي ، ولفت انتباه الرجل ما رآه عن بعد من تحرك غير عادي ، فقدر أن في الجو شيئا غامضا لم يستبن كنهه ، ومن باب الحذر ، وربما بدافع من شفافية الغريزة اتجه إلى مضافة الشيخ ، فأحسن الشيخ استقبالهما على عادة شيوخ القبائل ودعا لهما بطعام ، وجلس إليهما يؤاكلهما ويؤانسهما ، ولكنه نهض فجأة حين ارتفعت

أمام منزله جلية ، امتزج فيها صراخ الرجال بعويل النساء ، ليرى الأمر ، وعلم أن ولده لقي ربه مقتولا ، وأن قاتله هو أخ شقيق لضيفه ، ولو كان رجلا كسائر الرجال لأشرع سلاحه وأخذ بثأره ، وهذا في أعرافهم حق من حقوقه الشرعية ، وبدون تردد يقمع غريزة الأبوة ، ويعرض كرامته للمهانة . ولقد أشرع سلاحه فعلا ، ولكنه صوبه إلى وجوه ذويه ليبعدهم عن داره ويحمي ضيفه من عدوانهم ، وناشدوه بحقوق البنوة وشرف القبيلة أن يسلمهم الرجل ، فأقسم انه سيفرغ ما في بندقيته من رصاص في صدر كل من يقترب منه .

وحين أدركوا أنه جاد فيما يقول أتوه بجثة ابنه ومددوها أمامه ، ولكن منظر الجثة لم يزده إلا تصميما على حماية ضيفه ، باعتبارهما في حماه وتحت حمايته ، ثم إن أيديهما لم تلطخ بدم ابنه ، والله سبحانه شرع في كتابه بأنه « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وارتأى ذووه ألا يزيدوا في إنهاك أعصابه ، فتركوه لشهامته وعناده .

وفي المساء أدرك أن الطريق أصبحت آمنة ، فأخرج ضيفيه إلى سيارتها وركب معهما وبندقيته في يده ، واتجه الركب على طريق محفوفة بالخوف والمفاجأة حتى إذا أدرك الشيخ أن ضيفيه أصبحا في مأمن أمر السائق بالتوقف ، ونزل من السيارة ، ونصحه بأن يسرع في ابتعاده ، لأن حمايته لهما تتوقف حين يبتعدان عن المدى المجدي لرصاصته ، وانطلق الرجل بسيارته مذعورا ، خشية أن يمزق الرصاص جسده ، ولكن لم يكن في نية الوالد الثاكل أن ينالهما منه ضر .

وحكمت المحكمة

وحضر رجال الأمن بعد طول انتظار ، ومن مألوف سلوكهم ألا يجدهم المرء حين حاجته إليهم ، فاستلم لهم القاتل ، وبذلك أنقذت حياته كما أنقذت حياة رهينة ، واقتيد إلى حيث تحاسبه عدالة الدولة على ما ارتكبه .

وفي محكمة الجنايات دافع عن نفسه بأنه كان ضحية عدوان ليس لمرتكبه ما يبرره ، فاضطر إلى « ممارسة حق قضت بها ضرورة حالّة لدفع تعرض غير محق ولا مثار عن النفس أو الملك أو نفس الغير أو ملكه » (كما تقول المادة ١٨٣ من قانون العقوبات) .

ولم تذهب المحكمة هذا المذهب لأنها لم تجد أن أركان الدفاع المشروع متحققة ، غير أنها أخذت لصالح المتهم بعذر الاستفزاز الناشيء « عن سورة غضب شديد ناتج عن عمل غير محق وعلى جانب من الخطورة أتاه المجني عليه » (كما تقول المادة ٢٤٢ عقوبات) ، وعاقبته بموجب المادة ٢٤١ فقضت عليه بالحبس ثلاث سنوات .

وكان أول من ارتاح للحكم الأب الثاكل ، ولقد أعرب لي عن امتنانه من حكمة القضاء وعدله ، فيما كانت الدموع تسيل سحا على لحيته البيضاء ، فقد عرف حقيقة الظروف التي تم فيها مقتل ابنه ، وأنه البادىء بالشر ، ومن الانصاف أن يتحملوا قسطهم من المسئولية . هذا الشيخ القوي الشكيمة يشعر بعزة تفوق شعوره الحزين بفقد ولده ، ويعرب عن اغتباطه على أن الله سبحانه أعانه يوم الواقعة وبعدها ليكون في المستوى الأخلاقي الذي ظهر فيه ، من ضبط للنفس وصبر على المكروه . وعادت بي الذاكرة إلى ذلك الأب الأندلسي الذي قرأت قصته وأنا طفل في كتاب « القراءة الرشيدة » ، فقد كان يستضيف أصحابا له على الطعام في بيته ، حين أخبره أهله بموت ولد له كان مريضا ، فأوعز إلى كل من في الدار بالامتناع عن البكاء والعويل ، وعاد إلى ضيوفه يؤانسهم ويؤاكلهم ، إلى أن انصرفوا دون أن يشعر أحد منهم بما حل بالبيت وأهله من مأساة ، وبعد أن شيعهم بإكرام أطلق لعينيه عنانها ترسلان الدموع على هواهما .

ومع ذلك فقد ظلت للأعرابي حرمة أقوى في نفسي مما تركته فيها فجيعة الوالد الأندلسي على الرغم مما بين الاثنين من أواصر القربى في المروءة والطاقة على الاحتمال ، ذلك أنه ارتفع بإسلامه إلى أن يصبح أمة في الشهامة والرجولة ، ومثلا فريدا في قدرته على ضبط النفس والتحكم في الغيظ والانفعالات . □

اقرأ في العدد القادم من العربي

أغسطس ١٩٨٨

استطلاعات

الحرمان الشريفان
يسعان جميع المسلمين

سليمان مظهر

"ناخودكا" السوفيتية
.. الصدفة التي أنقذت "أميركا"!

سليمان الشيخ

- نموذج عربي في "نظرية الوحدة الطبيعية"
  د. محمد جابر الأنصاري
- حقيقة موقف الإسلام من الشعر!
  د. مصطفى رجب
- الفكاهة .. طبٌ نفسي
  د. عبدالحميد يونس
- بدون المناقير .. ماذا كانت ستفعل الطيور؟
  عبدالرحمن عريّاف
- الكمبيوتر .. في جيله الخامس
  د. علي زين العابدين
- التدريب والتعليم التطبيقي في الكويت
  ريم الكيلاني

كتاب الشهر:

- رؤية سوفيتية للأدب العربي
  د. نوفل نيوف

وجهًا لوجه:

- د. سعدالدين إبراهيم
- د. محمد حافظ دياب

واقرأ أيضًا للكتّاب:

د. محمد الرميحي - علي الجندي - الشريف خاطر - د. غسان حتاحت
د. أحمد مختار عمر - خالد عباس - د. مصطفى النيّر - محمود بيّومي

بين

ابن ماجد وفاسكو دا غاما

■ أشهر "رواية" خاطئة في التاريخ البحري ؟

بقلم : حسن صالح شهاب *

شهاب الدين أحمد بن ماجد

أمهر ملاح عرفه المحيط الهندي في القرن الخامس عشر الميلادي على الاطلاق

وهو من أبناء (جلفار) بالخليج العربي .

* باحث وكاتب يمني ، صدر له كتاب « فن الملاحة عند العرب » ونال به جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي سنة ١٩٨٤ .

فموقع جلفار ـ كما حدده الربان منصور الخارجي ، شرق (رأس الخيمة) إحدى الامارات العربية المتحدة ، وفي جلفار يقول ابن ماجد في قصيدته « البليغة في قياس سهيل والرامح » .

رَعى الله جِلّفار ومَنْ قدْ نَشابها
وأسْقى ثراها واكِفٌ مُتتابِعُ
بِها من أسودِ البحرِ كلُّ مُجرِّبِ
وفارسُ بحرٍ للشدائدِ بارعُ

وفي جلّفار أيضا فرغ في سنة ٨٦٦ هـ من نظم « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » وهي من أشهر أراجيزه وأطولها :

تمت في شهر الحج في جِلّفار
أوطان أُسْدِ البحر في الأقطار

الملاح البرتغالي فاسكو دي غاما

يوم الغدير أبرك الأيام
إذ خُصَّ بالاحسان والصيام
وكان في الهجرة يا مولايهْ
ست وستون وثمان مايهْ

وقد نظمها ـ كما قال ـ في أيام الشباب ، وجملة أبياتها ألف واثنان وثمانون بيتا :

جملتها ألف وثمانون أتتْ
تزيد بيتين لذلك قد وَفَتْ

أكثر من ستين عاما في البحر :

يقول ابن ماجد إنه فرغ من تأليف « كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » في سنة ٨٩٥ هـ ، وبعد أن قضى في البحر نحو خمسين عاما . فإذا افترضنا أنه بدأ العمل في السفن الشراعية وهو صبي صغير السن ، كما جرت العادة غالبا في سلك العمل بالسفن الشراعية العربية ، وأن هذه السن كانت على أعلى تقدير أربعة عشر عاما ، فإن عمره في سنة ٨٩٥ هـ . أربعة وستون عاما تقريبا . وعليه يحتمل أن يكون ميلاده قبل سنة ٨٦١ هـ أو بعدها بنحو ستين أوثلاث . وسنة ٨٩٥ هـ تقابل ١٤٨٩ م تقريبا ، فيكون عمره إذن عندما نجح (فاسكو داغاما) في سنة ١٤٩٧ م في الوصول إلى الهند حوالي ثلاثة وسبعين عاما . وبعد هذا التاريخ بأكثر من ست سنوات نظم أرجوزته المشهورة « السفالية » .

فهل بقي حتى هذه السن المتقدمة من عمره يقود المراكب في عرض المحيط ؟ وهل هو حقا الذي دل (داغاما) على طريق الهند ؟

رواية النهر والي :

قال قطب الدين النهر والي في كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني » : « وقع في أول القرن العاشر (الهجري) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار

الهند » . وكانوا قبل ذلك يهلكون في « بحر الظلمات ، في مكان كثير الأمواج ، لا تستقر به سفائنهم وتتكسر . . . . . ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند . . . إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج . . وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره » .

وباستثناء « البرق اليماني » لا تذكر جميع المصادر العربية التي عاصر أصحابها ابن ماجد أوالنهروالي أن ابن ماجد هو الذي دل البرتغاليين على طريق الهند ، كما أن النهروالي نفسه لم يعاصر ابن ماجد ، فقد ولد بعد قدوم (داغاما) إلى بحر الهند بنحو أربع عشرة سنة ، وعاش في الفترة (١٥١١ - ١٥٨٢ م) .

فساد هذه الرواية :

أول ما يؤخذ على قصة النهروالي هذه أن ابن ماجد كان - كما رأينا - في العقد الثامن من عمره حينما وصل (داغاما) إلى سواحل شرق إفريقية الجنوبية ، فمن المستبعد - في رأينا - أن يبقى حتى هذه السن من عمره - وهو حاج الحرمين الشريفين - مدمنا على شرب الخمرة ، أما في أيام شبابه فكان كما ذكر في كتاب « الفوائد » يشربها في مجالس الأنس والطرب في النادر ، قال : وكذلك بعض الأشياء يصلحه المزج كالراح ، كما قال مصنف الكتاب في بعض أشعاره القائلة في الراح في عصر الشباب شعرا :

صفراء ساطعة كالنار لم أرها
في الكأس إلا نفت همّي وأحزاني
أصلحتها بشراب الماء من حذر
وكيف تصلح أهواء لنيران

ثانيا : لم يشر ابن ماجد في أرجوزته « السفالية » التي نظمها - كما قلنا - بعدوصول البرتغاليين إلى الهند إلى أنه عرف (داغاما) ، وأرشده إلى طريق الهند ، وهو الذي نراه في جميع أراجيزه وقصائده وفي كتابه

خريطة الطريق إلى ماليندي

« الفوائد » يذكر - متحججا - كل ما اخترعه وابتدعه في فن الملاحة ، صغيرا كان أم كبيرا ، بل إنه خص قصيدته « الذهبية » باختراعاته - حسب تعبيره - في علم البحر ، وفي « الفوائد » يقول مفتخرا إنه قاد مراكب من الهند إلى جدة ، في غير مواسم السفر ، وسلك بها طرقا غير الطرق المألوفة لدى بحارة زمانه ، إحدى تلك السفن لشخص ذكر أن اسمه صدقة الحلبي المعروف بالمحمودي ، وكان قد عزم على السفر إلى بنجاله (بنجلاديش) من (كاليكوت) بالمليبار بساحل الهند الغربي ، فحصل على حمولة وركاب إلى جدة ، فسافر به في آخر أيام موسم السفر من الهند إلى الحجاز ، وقال إنه لم يدخل مرسى جدة « إلا بعد مشقة عظيمة » . وسافر ذات مرة بمركب عبد الرحمن بن الشيخ علي الحموي من هرمز إلى جدة ، وسلك به طريقا بعيدة عن شاطئ بلاد العرب الجنوبي ، بسبب عدم ملاءمة الريح

للسير في الطريق المعتادة ، واستدار من خلف جزيرة سقطرى ، وخرج من الفتحة التي بينها وبين رأس جردفوي إلى خليج عدن ، ثم دخل باب المندب وسار في البحر الأحمر إلى جدة ، وقال إن الناس تعجبوا من وصوله إلى جدة في غير أيام الموسم المألوفة لدى بحارة زمانه من العرب والهنود .

ولعل شهرة ابن ماجد بالمقدرة والجرأة على السفر في غير المواسم والطرق المألوفة لدى البحارة هي التي جعلت الناس يلفقون له تلك الحكاية الأسطورية التي رواها صاحب « البرق اليماني » .

ثالثا : في أرجوزة « السفالية » نجد ابن ماجد يذم الافرنج (البرتغال) ، ويقص علينا خبر وصولهم إلى سواحل شرق إفريقية والهند ، وغرق بعض سفنهم في مياه موزمبيق ، ولم يشر إطلاقا إلى أنه قد اتصل بهم وعاشرهم :-

زلُّوا بها الافرنج غلق الموسم
في عيد ميكال بالتوهم
قام عليهم موجُ تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبتْ أدقالُهم في الماء
والسفنُ فوقَ الماءِ يا أخاتي

يقول إن الافرنج ساروا دون خبرة سابقة في مياه سفالة ، في نهاية موسم السفر فيها ، فقام عليهم الموج المعهود عند تلك الرؤوس - رؤوس ساحل سفالة - فانقلبت سفنهم في الماء رأسا على عقب ، أدقالها في الماء وهياكلها فوقه . وقال :

جازتها في عام تسعمايةْ
مراكبُ الافرنج يا أخايةْ
تجوز في عامين كاملين
فيها ومالوا الهند باليقين
ورجعوا من هندهم للزنج
في هذه الطريق للإفرنج
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم أو سارق مجنونا
ياليت شعري ما يكون منهم
والناس متعجبين من أمرهم

يقول عبرت المياه التي حول طرف جنوب إفريقية ، في عام تسعمائة ، مراكب الافرنج يا أخي بعد سفر عامين كاملين من بلاد الافرنج ، ثم مالوا إلى الهند ، ومن الهند رجعوا إلى الزنج ، أي سواحل شرق إفريقية ، في نفس الطريق التي سلكوها إلى الهند . وقال أيضا :

وجا لكاليكوت خذ ذي الفايدةْ
لعام تسع مايه وست زايدةْ
وباع فيها واشترى وحكما
والسامري بَرْطَلَه وظلما
وصار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف واهتمام

وفي سنة تسع مائة وست جاء - يعني الافرنجي - إلى كاليكوت ، أشهر مراسي المليبار ، والسامري سلطان كاليكوت رشاه وظلمه .

السفر من ماليندي إلى الهند :

وبعد فإن السفر إلى الهند من ماليندي التي انطلق منها (داغاما) إلى الهند - وهي بساحل كينيا - لم يكن صعبا على المراكب الشراعية أيام ابن ماجد ، ذلك لأن الطريق البحرية بينهما تمتد بين الجنوب الغربي والشمال الشرقي ، ومثل هذه الطريق وكذلك الطرق الممتدة بين الشمال والجنوب ، أو الممتدة بين الجنوب الشرقي والشمال الغربي ، كلها طرق كان يسهل على الربابنة السير فيها ومعرفة مسافاتها ، بخلاف الطرق المستقيمة الممتدة بين الشرق والغرب ، مثل الطريق من ساحل الصومال الشرقي إلى المليبار ، وهي طريق بين ساحلين متقابلين شرقا وغربا ، فهذه كان يصعب عليهم السفر فيها ومعرفة مسافاتها الصحيحة . □

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

يوليو ١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- في ضيافة الطائر الحديدي "استطلاع"
- مقبرة الأفيال "قصة بالرسوم"
- حلب الشهباء .. "مدن لها تاريخ"
- سمير اميس "مسلسل تاريخي"
- وردة الرمال "من أساطير الشعوب"
- يوم فطام الأشبال

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٢٨

العربي - العدد ٣٥٦ - يوليو ١٩٨٨

أرقام

بقلم : محمود المراغي

سكرتيرتك «كمبيوتر» !

ما زال العقل الالكتروني «الكمبيوتر» ينافس الانسان .. ويحتل مكانه ويتفوق عليه .. ويغزوه حتى في مهنه .

وما زال استخدام هذه العقول التي تعمل بالأمر ، يحتفظ بالسحر ويثير الجدل بين مؤيد ومعارض .

لقد انتقلت الفكرة من حالتها الأولية كاختراع آلي صممه عالم إنجليزي في منتصف القرن الماضي .. إلى اختراع بالكهرباء صممته جامعة أمريكية إبان الحرب العالمية الثانية ، واستخدمه سرا الجيش الأمريكي حينذاك . ولكن .. خلال أربعين عاما لقد أصبحت استخداماته تمتد من المصنع ، الى المكتب ، والبنك ، ومجالات الطب ، والهندسة ، وعلوم الفضاء ، والطيران ، وتسالي الأطفال ، وحسابات ربة البيت المنزلية ! وتنوعت الأحجام والأشكال .. ابتداء من الساعة الرقمية التي تحملها اليد .. الى أضخم «كمبيوتر» عرفته البشرية وأنتجته عام ١٩٨٧ ليقوم بـ (٢٥٠) مليون عملية حسابية في الثانية الواحدة .

خلال تلك الرحلة صدق القول بأنه ليس مجرد «حاسب آلي» لكنه «عقل ألكتروني» يتلقى الاشارات فيطيع ، ويقوم بمجموعة من العمليات ذات الطابع الذهني .

النتيجة بالأرقام

تقول دراسة لمعهد التحليل الاقتصادي بنيويورك إن موظفي الأعمال الكتابية من سكرتارية ، واختزال ، وآلة كاتبة كانوا يمثلون (١٨) بالمائة من القوى العاملة في الولايات المتحدة عام ١٩٨٠ ، فأصبحوا يمثلون (٣,٣٪) بالمائة عام ١٩٨٧ .

هبطت النسبة الى نحو السدس في سبع سنوات فقط .. فأصبح السؤال : وماذا بعد ؟ .. لقد زحف «الكمبيوتر» من عالم الحساب البسيط الى عالم العقل الخالص ، ومن عالم تخزين المعلومات الى التعامل معها وحل تشابكاتها وتقديم الحلول لما تثيره من معضلات .. انتقل من الأرض الى الفضاء ، ومن المصنع ، الى البيت والمكتب ، وفي الدائرة الأخيرة أصاب هذه الفئة التي التصقت بالمديرين .. وهي مهنة السكرتيرة التي كان عليها أن تكون ذاكرة المدير ، ومنسقة أوقاته ، وحافظ أسراره ومعلوماته .. وكان عليها أن تكون في استقبال مكالماته الهاتفية وفي خدمته عندما يطلب ملفا أو بيانا عاجلا .. و .. كل ذلك أصبح العقل الألكتروني قادرا على انجازه بكفاءة أكبر ، وفي وقت أسرع ، وأصبحت السكرتيرة الواحدة قادرة على أن تخدم

ثلاثة أو أربعة مديرين بدلا من أن يستخدم المدير ثلاث أو أربع سكرتيرات . سقط الرباط « شبه الشخصي » الذي طالما اختصت به العلاقة بين المهنتين : مهنة المدير ، ومهنة السكرتير ، أو السكرتيرة . تقدم عنصر الكفاءة وتراجع العنصر الانساني وحسابات « مزاج سيادة المدير » وعاداته اليومية في احتساء القهوة ، ومطالعة أهم ما تنشره الصحف !

أصبح « الكمبيوتر » منافسا للحسناء التي طالما أظهرتها الأفلام الغربية كساعد أيمن يقف الى جوار المدير .. كما تقف الى جواره زوجته في المنزل .

وأصبح « الكمبيوتر » منافسا لهذا الجيش الجرار من الموظفين الذين كانت مهمتهم جمع الأوراق ، وتنظيمها ، والعناية بها والتعامل معها عندما تصبح في حجم التل ، أو في ذاكرة التاريخ .. بل إن هؤلاء الموظفين لم يعودوا بحاجة لأن يعيدوا كتابة خطاب سبق أن وجهوه لجهة ما ، أو يعيدوا ورقة شابها خطأ يريدون تصحيحه .. ولم يصبحوا بحاجة الى وسيط يطلبون من خلاله ، أو يرسلون عن طريقه ما لديهم للدول أو الأماكن الجغرافية البعيدة . أصبحت الآلة الكاتبة الحديثة ذات السعر المنخفض قادرة على تخزين المعلومات ، والخطابات ، وإعادة طبعها وتصحيح أخطائها ، وأصبحت العقول الألكترونية قادرة على الارسال والاستقبال !

المديرون في خطر !

لكن هذا التقدم الهائل لم يشمل مهنة السكرتارية ، أو الأعمال الادارية المساعدة وحدها .. لكنه بدأ يمتد للدائرة الأعلى :

دائرة الادارة واتخاذ القرارات .. وأصبح السؤال في دوائر المديرين: هل يشغل « الكمبيوتر » أيضا مقعد المدير ؟ والجواب متعدد الجوانب ..

يقولون في علم الادارة إن القرارات تمر بعدة مراحل تبدأ بجمع المعلومات حول المشكلة المثارة ، وتصور الحلول البديلة ، واختيار حل منها .. ثم قياس ردود الفعل المتوقعة .

ويقول علم « الكمبيوتر » ـ اذا جاز التعبير ـ أن هذه المراحل الأربع لاتخاذ القرار يستطيع أن يؤديها العقل الآلي ببراعة أكثر اذا تم تلقينه بالمعلومات وطرق العمل المناسبة ، وبمعنى آخر فانه يمكن انتاج قرارات « سابقة التجهيز » .. واذا كانت علوم الادارة تقول ان القرار (مبدأ) ينبغي الأخذ به في كل الحالات المماثلة فان هذا هو ما يؤديه « الكمبيوتر » بالتحديد ، حيث تغيب العواطف والانفعالات .

وبمعنى آخر فان العقل الآلي يستطيع أن يكون معاونا للادارة العليا ، وأن يضع خبرة أكفأ المديرين وأكبر العلماء في خدمة المدير الصغير ، وعلى شريط ممغنط » ، وبالتالي فان اختزال العمليات التي تقوم بها الادارة العليا وسرعة انجازها تتيحان منطقيتان لاستخدام العقل الألكتروني .. وبما يتيح فرصة لاختصار عدد المديرين ، أو اختصار ما يقدمونه من وقت للعمل ..

ولكن .. سوف يبقى دائما ما نسميه بالعوامل غير المحسوبة التي لا يستطيع التعامل معها العقل الآلي .. وخاصة في قرارات الحرب والسياسة ، مثال ذلك : حرب أكتوبر التي عجزت عقول أمريكا و « اسرائيل » أن تتوقعها رغم وفرة المعلومات .

سيبقى دائما ما هو « خارج الحساب » ، لكن سيتزايد يوما بعد يوم ما يدخل دائرة الحساب الآلي والبشري وهو ما يمثل خطرا يجتاح قمة السلم الوظيفي في المجتمعات : المديرين . □

■ إذا أردت أن تسعد رجلا فلا تعمل على زيادة ثروته ولكن حاول أن تقلل من رغباته .
سنيكا

الشّعرُ سَيّد الفنون

بقلم : أحمد الجندي*

تنبع الفنون جميعا من نفس المصدر ، من هذه الجوهرة المكنونة داخل نفوس المبدعين ، وعلى الرغم من الاختلاف والتباين بين أنواع الفنون إلا أنها تتفق في أنها أرقى وأجمل ما في حياتنا . عن الفنون وتداخلها وتمازجها يحدثنا هذا المقال .

عالم الفن عالم مستقل ، يرتبط من ناحية بالواقع المادي ، ويتصل من الناحية الأخرى بالخيال ، فهو يأخذ من كل منهما بنصيب ، والفن الجميل هو الذي يجمع بين الواقع والخيال بنسبة معقولة ، فلا يفرط في الواقعية ، ولا يبالغ في الخيال ، لأن الإفراط في الواقع يجعل الفن أميل الى المادة ، وهذا مما يسيء إليه ، إذ انه يقلل من رهافته وروحانيته ، كما أن المبالغة في التخيل تجعل الفن بعيدا عن المعقول ، نائيا عن التصور والفهم ، ومن الخير إذن للفن أن يكون متوسطا بين الحالتين ، فيه من الواقع ما يكفيه ، ومن الخيال ما يحييه ويلطف منه . ومن الثابت لدينا أن الشعر أعلى الفنون رتبة ، وأسماها قدرة ، لأنه يضم الى عنصر الواقع والخيال عنصرا آخر يجعله أهم من غيره وهو عنصر الفكر ، فالشعر مزيج من الخيال والواقع والفكر ، وهو بهذه العناصر الثلاثة يتفوق على الفنون الأخرى التي لا تدخل الفكر في كيانها ، ولا تضم العقل الى وجودها . وقارىء الشعر يستمتع بالخيال الشعري

* كاتب من القطر العربي السوري

ويطرب للواقع فيه ، وهو واقع لمسته يد الشاعر ، فجعلته رشيقا مقبولا ، قد خفت مادبته ورهفت حقيقته ، ثم إنه يفهم ما يقرأ ، فيشارك العقل الحواس الأخرى متعتها لتعيش النفس في جو منسق جميل ، هو ما يسمى بالابداع الشعري ، بينما المستمع الى الموسيقا يكتفي بالمتعة الشعورية والخيال الحساس ، أما العقل والفكر فلا دخل لهما بالنغم ، بل لعل النغم أبعد ما يكون عن عالم العقل ، كما يعبر عن ذلك المازني الكاتب المعروف في قصيدة من قصائده حين يقول فيها :

غـنـي لحـنـاً شـجـيـاً فـرحـاً
بـطلقُ الأوصـالَ من قيـدِ الحجـا

إنه يشترط أن يكون النغم داعيا الى الانطلاق من قيد العقل (الحجا) ، لأن الطرب الذي يملك الروح عن طريق الاحساس المرهف من أولى مزاياه أن يريح المرء من التفكير الذي يكون في أغلب الأحيان جادا متصلا بالواقع بعيدا عن الخيال ، وربما كان هذا الواقع مؤلما محزنا .

معنى الطرب

وقد يتساءل بعض المتسائلين عن معنى الطرب أو كنهه ، وهو سؤال محرج حقا ، لأن التعريف في أصله قضية عقلية فكرية ، والطرب غير خاضع للفكر ، ومن هنا فإن تعريفه غير ممكن ، إنه إحساس وشعور يؤثران في الأعصاب عن طريق انسجام الأصوات انسجاما فنيا ، يدل على قدرة المبدع ، سواء أكان هذا المبدع مغنيا أم عازفا أم ملحنا ، ولعل أقرب تعريف الى الصحة في موضوع الطرب والنشوة ، بل لعل هذا التعريف الذي نقدمه الآن أصدق تعريف تعرض لتفسير الطرب وتعليله ، وهو الذي جاء على لسان شاعر المعاني الأول في التاريخ العربي ، أعني به أبا تمام ، فلقد كان في رحلة من رحلاته في خراسان ، فداهمه الشتاء بثلجه وزمهريره ، حتى امتنع عليه الرجوع الى بغداد ، وكان في المكان الذي عاش فيه هناك مكتبة عامرة ، أخذ يطلع عليها ، فصنع مختاراته الشهيرة (ديوان الحماسة) ، ودعي الى سهرة فيها غناء وطرب ، فسمع مغنية فارسية ذات صوت جميل ، والنغم الفارسي كما لا يخفى أقرب أنواع النغم الى الغناء العربي ، وغنت المطربة الرائعة كلاما فارسيا ، لم يفهم منه الشاعر حرفا ، إذ كان يجهل الفارسية ، لكنه مع ذلك طرب طربا عجيبا ، أقامه وأقعده ، بل أخرجه عن وقاره ، وفي اليوم الثاني نظم قصيدته التي يقول فيها :

أيـا سـهـرى ببـلـدة أبـرشـهـر
حـمـدت الىّ نـومـي في سـواهـا

الى أن يقول في وصف الطرب الذي أبدعت به المغنية :

ولم أفـهـم مـعـانـيـهـا ولـكـن
وَرَتْ كبـدي فلم أجهل شجـاهـا

إنه لم يفهم ما قالته المطربة ، لكنه أدرك شجوها وطربها ، وأحس بكل نأمة أو نغمة ندت عنها . إذن فإن الاحساس بالنغم والتأثر بالطرب والنشوة لا يحتاجان الى الفهم ، لأن الفهم في حالة الغناء يتعلق بمعاني الألفاظ ، وهو أمر يتعلق بالشعر أكثر مما يتعلق بالطرب ، فالشعر مادته اللفظ ، وإطاره الكلمات ، بينما الطرب أداته الصوت ، ووعاؤه اللحن الذي يستقر فيه الصوت ، وإليك هذه اللوحة الكاملة التي أبدع في رسمها الشاعر العظيم ابن الرومي ، وهي تصف غناء مغنية مشهورة في عصره اسمها (وحيد) ، إنها لوحة تعبر عن إحساس السامع الشاعر بالطرب الذي فاضت به حنجرة المغنية ، وهو إحساس لا علاقة له بالعمل الفكري الذي يتناول القضايا العقلية ، ولا يتعرض للتأثر الذي يمليه الإحساس ، يقول ابن الرومي :

مـد في شأو صـوتهـا نفس كـاف
كـأنـفـاس عـاشـقـيـهـا مـديـد
وأرقّ الـدلال والـغـنـج مـنـه
وبـراه الـشـجـا فـكـاد يـبـيـد
فـتـراه يـمـوت طـورا ويـحـيـا
مـسـتـلـذا بـسـيـطـه والمـديـد
تـتـغـنـى كـأنـهـا لا تـغـنـي
من سـكـون الأوصـال وهي تجيـد

أهي شيء لا تسأم العين منه
أم لها كل ساعة تجديد

إنه يصف الصوت وعمله في السمع أو الحس كله ، فهو رقيق غنج ، يؤثر فيه الشجو ، حتى يخاله السامع قد سكت ، وهو يموت ثم يحيا ، فكأن المغنية صامتة وهي تغني ، ثم إذا نظرت إليها لم تجد في وجهها لمحة تدل على أنها تغني ، إنها شيء لذيذ ، لا تسأم منه العين ولا الأذن ، فكأنها أو كأن فيها يتجدد كل ساعة أو كل لحظة .

هذا هو الطرب الذي يسمع ويحس ويشعر به ، لكنه يبقى مجهول الكنه ، بعيدا عن التفسير والتعليل ، في حين أن الشعر إحساس وشعور وفهم يخضع للتعليل والتدليل ، لأنه متصل بالعقل والفهم والإدراك .

العين والإحساس

ولو أخذت فن الرسم لوجدت أنه يؤثر في المرء من طريق الإحساس الذي تنقله العين التي ترى فتعجب ، وينتقل هذا الإعجاب الى الرائي الذي تأخذه النشوة مما يرى ، ويملكه الطرب لما يراه من إبداع في تناسق الألوان وتناسب الخطوط ، ويعجب أشد العجب لهذه الحياة التي انسكبت في الصورة ، مع أن الصورة قطعة من القماش أو الخشب أو انها قطعة من حائط في دار أو معبد . ولا يمكن أن يسأل سائل عن كل هذا ، لأن هذا السؤال سيلقى نفس الجواب الذي يلقاه السائل عن الطرب الموسيقي ، وقد يكون السؤال من أين جاءت هذه الحركة التي تشاهدها في الكثير من رسوم العظماء ؟ لقد صرخ مايكل أنجلو في التمثال الذي أبدع نحته بملء صوته : تكلم ، تكلم . لأن الحياة دبّت في الحجر فلم يبق على الحجر إلا أن يتكلم كما يتكلم كل من يمتلك الحياة من مخلوقات الله ، ولو نظر الإنسان مليا في بعض الصور وأطال النظر لحدثته نفسه بأن العين تتحرك ، وبأن الصورة تتنفس ، كأنها الإنسان العادي . فبماذا تعلل هذا ؟ إنه شيء من غرائب فن الرسم عند عباقرة هذا الفن .

مميزات الشعر

وللشعر ميزات أخرى كثيرة يختلف فيها عن الفنون الأخرى كالموسيقا والرسم والنحت ، فإن اللفظة الشاعرة لها قوة تزيد كثيرا على قوة اللمحة اللونية في الرسم أو النغمة الصوتية في الموسيقا أو اللفتة الأخاذة في حجر النحت ، إذ إنها تنقلك الى عالم جديد ، يصوره لك الشاعر ، فيختصر بها الزمن ، ويقصر المدى ، ويقنعك بما لا تقتنع به إذا أنت اكتفيت بالاعتماد على العقل ، وأهملت الخيال الشعري ، يقول بدوي الجبل يصف جمال فتاة

أعجب بها :

أسماء لاسمك فتنة
بوركت موصوفا ووصفا
جرت السلاف به فرحت
أعلّه حرفا فحرفا

إن الفتنة التي خلبت الشاعر قد استحالت الى سائل يجري مع الخمرة ، فأصبح يترشفها رشفة رشفة ، ويرشف معها حروف اسمها مع كل رشفة ، إنه كلام لا ينطبق على العقل ، لكنه ينطبق على الفهم الشعري الذي مازجه الخيال فحسّن منه ورقق ، حتى حوّل الجماد الى سائل ، ومن الغريب أن هذا المزيج كله من الخيال والواقع والفكر يتقبله قارىء الشعر ، ويجد فيه لذة يمكن أن نسميها « اللذة الشعرية » التي لا تعدلها لذة ، ولو أردت تصوير هذا المزيج في صورة ذات ألوان ، أو في لحن ذي أنغام ، أو في منحوت ذي لفتات وأعضاء فإنك لا يمكن أن تصل الى نتيجة ، لأن الوسيلة التي تؤدي المعاني المتشابكة في الشعر أقوى وأدق .

فالشعر إذن أوسع مجالا من بقية الفنون الأخرى .

وإن بيتا واحدا من شاعر عبقري يخلق للقارىء عالما كاملا ، كهذا البيت الذي أجمل فيه الشاعر شوقي الحركة التي تبدو جامدة في تمثال نهضة مصر الذي صنعه مختار نابغة النحت المصري ، فقد رمز للنهضة المصرية بفتاة جميلة ، قد أمسكت بأبي الهول رمز مصر أيضا ، وأرادت أن توقظه ، وقد نحت الفنان هذه الفكرة فجعل أبا الهول كالمتمطي يريد أن يقوم ، كما يحاول الرجل القيام ، وعبّر الشاعر الملهم عن كل هذه الفكرة المركبة بهذا القول :

تعالوا نرى كيف سوى الصفاة
فتاة تلملم سربالها
دنت من أبي الهول مشي الرءوم
الى مقعد هاج بلبالها
وقالت تحرك فهم الجماد
كأن الجماد وعى قالها

إن هذا التعبير الرائع (فهم الجماد) تاريخ كامل لنهضة مصر ، ووصف رائع للتمثال ، وإنه لوصف يعجز عنه كل فن ماعدا الشعر الذي هو سيد الفنون جميعا . □

الدولار

● يقول الدكتور حازم الببلاوي في بحث له عن الدولار : إن استخدام الدولار بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية مع قانون العملات الذي صدر في عام ١٧٩٢ في عهد توماس جيفرسون ، وقد أخذ الدولار تسميته هذه من عملة اسبانية كانت متداولة بكثرة في المستعمرات الأسبانية في أمريكا قبل الاستقلال .

وقد بدأ الدولار في سنة ١٧٩٢ على أساس قاعدة المعدنين التي كانت شائعة بين الدول في ذلك الوقت ، وبخاصة في فرنسا ، فكان الدولار يعادل ٣٧١,٢٥ جراما من الفضة الخالصة ، أو ٢٤,٧٥ جراما من الذهب الخالص .

ومع ما أظهرته قاعدة المعدنين من صعوبات أصبح الدولار اعتباراً من عام ١٨٧٣ على أساس الذهب وحده في ظل قاعدة الذهب .

وقد خفض الدولار بعد الأزمة العالمية في سنة ١٩٢٩ ، فأصبح يعادل ١٣,٧١ جراما من الذهب في ١٩٣٤ ، وبذلك أصبح ثمن الأوقية من الذهب يعادل ٣٥ دولارا ، وقد بقي هذا السعر للدولار مستمرا حتى عام ١٩٦٨ ، حين بدأت سلسلة من التخفيضات .

قراءة نقدية لكتاب

الموت يضحك

مجموعة قصصية من تأليف محمد المخزنجي

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

في أوائل الثمانينيات قدم « يوسف ادريس » إحدى مفاجآته للحياة الأدبية في مصر ، لم تكن المفاجأة قصة أو مسرحية أو كتابا من كتبه ، بل كانت هذه المرة كاتبا شابا اسمه محمد المخزنجي ، فاز في مسابقة للقصة القصيرة ، كان محكمها يوسف ادريس ، ومثل يوسف ادريس كان الكاتب الشاب طبيبا (يستكمل الآن دراسته العليا في الطب النفسي في الاتحاد السوفيتي) .

لعل الذين تابعوا المجموعة القصصية الأولى والثانية لمحمد المخزنجي لاحظوا أنه على الرغم من تأثر الكاتب الشاب ببعض ملامح الطريقة الادريسية في أسلوب القص ، إلا أنه يمتلك رؤية خاصة به ، وملامح فنية متميزة ، كانت تبرز بقوة منذ قصصه الأولى حتى آخر قصة في مجموعته الثانية وهي بعنوان « رشق السكين » التي صدرت عام ١٩٨٤ في مختارات فصول .

لعلهم لاحظوا مثلا أن قصصه قصيرة جدا ، لكن ذلك لايعني أنها تقدم حصاد النظرة الخاطفة ، أو الانطباع السريع،بل هي تقدم لنا حصاد تأمل نفسي وفكري نافذ ، في لحظة نادرة من تلك اللحظات التي يكون فيها السلوك البشري مفعما بالدلالات والإيحاءات .

إنه يختار هذه اللحظة بحنكة صياد ، لايمتلك سوى طلقة واحدة ، ليصطاد طائرا من نوع فريد ، يصطاده حيا ، وغالبا ما تأتي هذه اللحظة عبر موقف يعرف الكاتب كيف ينسج خيوطه بمهارة فائقة ، حتى لاتدري هل هذا الموقف من صناعة الكاتب ، أم أن الكاتب واحد من الموعودين دائما بأن تقع عيونهم المدربة الخبيرة على مثل هذه المواقف التي قد تمر بها كل يوم دون أن نلتفت إلى ما تزخر به من ثروات وإمكانات . ولعلهم لاحظوا أيضا أن قصصه القصيرة جدا ، إنما هي ثمرة لتلك الدقة الهائلة

باستخدام اللغة والأساليب والصور الفنية ، وأنها تكاد تقترب من القصيدة أو اللوحة الفنية ، وأن الحبكة في مثل هذه القصص أو اللوحات تتمثل في تقابل الخطوط أو تقاطعها أو تشابكها أو في حوار الصور والألوان والأفكار والحركات ، وتناغم الجزئيات والتفاصيل .

هذه اللحظة

ما زلت أذكر قصته القصيرة جدا بعنوان « هذه اللحظة » التي يفتتح بها مجموعة « رشق السكين » (لاحظ دلالة العناوين) المقدمة بلسان الراوي ، (حين انقطع التيار الكهربائي فجأة أثناء سيره في الشارع ، فساد الظلام ، واختفت وجوه المارة وعيونهم التي كانت تراه ويراها ، وشعر على نحو خارق بأنه هو وربما الدنيا من حوله يولدان من جديد في سكينة هذا الظلام الذي حل فجأة ، وبأن شيئا في داخله ، وربما شخصا آخر في داخله هو الذي أطلق من فمه هذه الدندنة ، حين أحس على جبينه بنداوة نسيم ذلك المساء الرقيق ، وحين سلست الدندنات انبثقت في فضاء الروح مقاطع أغنية حلوة بعيدة ، ظنها قد ماتت في نفسه من قديم ، وحين اكتشف أن أحد لايراقبه تمادى في الغناء ، مستعدا لأن يخفت من صوته حين يقترب من أحد أشباح المارة ، لكن هنيهة خجلى تحولت إلى دهشة حين تناهى إلى سمعه غناء الأشباح الخجلى التي تمر به في الشارع ، وتلاقت في ظلام تلك الليلة تلك العوالم الداخلية الخفية لهؤلاء الناس ، وهم جميعا يطلقون أغانيهم الحيية المفعمة بالشجو والشجن التي انبثقت من مثواها العميق حين حل الظلام فجأة في هذه اللحظة .

البطل هو الموقف

لعل القراء لاحظوا في ضوء النموذج الذي قدمناه أن البطل الحقيقي في قصص محمد المخزنجي هو الموقف وليس الشخصية ، وأن الدراما في قصصه تنبع من ذلك الموقف ، أعني من تأثيره على الشخصية ، وليس العكس ، فالشخصية في قصة « هذه اللحظة يمكن أن تحل محلها أي شخصية أخرى دون أن يتغير شيء في القصة ، وأن الحركة الدرامية في قصصه ناعمة تنبع من تقابل العناصر الفنية في القصة ، أو تشابكها أو تناقضها ، فما الجديد الذي يقدمه لنا الكاتب محمد المخزنجي في مجموعته الثالثة « الموت يضحك » ؟؟

سمات عامة

في هذه المجموعة نلاحظ أن القصص التي كانت في معظمها قصيرة جدا ، وتقترب من اللوحة أو القصيدة تميل هنا إلى شيء من الطول ، وتقترب

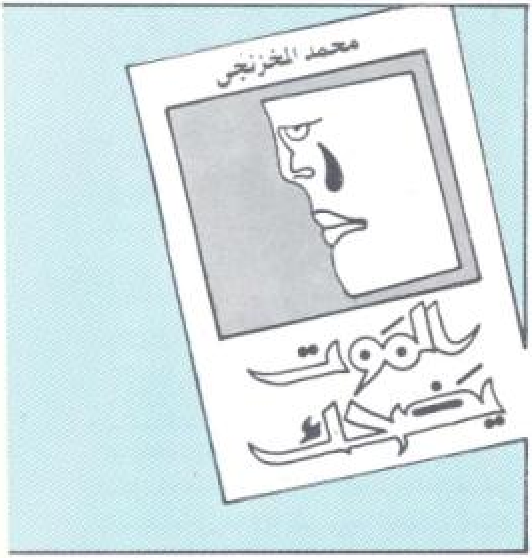

بذلك من بناء القصة القصيرة المعروف ، دون أن تفقد لغتها وما فيها من تكثيف وشفافية .

ونلاحظ أن الموقف ـ وليس الشخصية ـ مايزال هو البطل في كل قصص المجموعة ، لكن هذا الموقف الذي كان في قصصه السابقة يتحرك على مساحات واسعة ، سواء في المجتمع أو في الحياة إلى الحد الذي جعل الكاتب في مجموعة « رشق السكين » يجمع قصصه أو لوحاته القصصية تحت عناوين تشير إلى مجالات متعددة مثل : « حيوانات وطيور » ، و « ملامح شتوية » ، و « في المقهى » و « في الميناء » ، إلخ ، هذا الموقف نجده في مجموعة « الموت

يضحك » يكاد يتركز على « لحظة المواجهة بين قوى الحياة وقوى الموت » ، ففي كل قصص هذه المجموعة نجد الكاتب يقترب بطرق مختلفة ، ومن زوايا متعددة من تلك اللحظة النادرة التي تسقط فيها أقنعة الحياة أو أقنعة الموت ، لترى الوجوه المتعددة لقوى الحياة ، والوجوه المتعددة لقوى الموت في لحظة المواجهة تلك .

قد يلوح في بعض هذه اللحظات أن قوى الموت هي التي تنتصر أو تسود ، وقد يلوح أن قوى الحياة هي التي تبقى في النهاية وتستمر ، لكن النظرة المتأنية تكشف أن الكاتب لا يسعى إلى تسجيل نصر أو هزيمة ، بل إلى الكشف عن تجليات الحياة التي ترتدي أحيانا أقنعة الموت ، أو تجليات الموت الذي يرتدي أحيانا أقنعة الحياة ، وأنه لايكتب لنا إلا عن الحياة الحقة التي قد يكون الاقتراب الشديد من الموت هو السبيل الوحيد لمطالعة وجهها الكريم النبيل ، وأن الموت الذي يكتب لنا عنه هو فقدان الحياة بهذا المعنى ، ولو كنا مانزال نعيش ونأكل ونسمن كدجاج « هذه المزرعة » ، ونسير ونتناسل ، لماذا في هذه المرة يعدنا الحديث عن فن الكاتب في الحديث عن النص ؟!

دم الغزال

نبدأ هذه المرة بالحديث عن آخر قصة في المجموعة بعنوان « دم الغزال » ، ربما لأنها من أكمل قصص المجموعة في الدلالة على رؤية الكاتب للحظة المواجهة بين قوى الحياة وقوى الموت ، ولأنها تمزج على نحو بارع بين دراما القصة والوصف الشعري ، فضلا عن طولها النسبي (٧ صفحات) من القطع المتوسط ، وتحليل هذه القصة يضع أيدينا على خصائص فن الكاتب في هذه المجموعة .

« ابراهيم » جندي في سرية منوط بها حراسة الغزلان التي تعيش في محمية طبيعية ، اسمها الوادي الريان ، لكنه هذه المرة يركب سيارة « اللاندروفر » بجوار السائق وبيده بندقيته ، ليصطاد غزالة من المحمية ، تكون شواء على مائدة القائد الذي يستقبل اليوم قائده الأعلى الذي يزور المحمية ، ويفكر ابراهيم بضمير مثقل بأن حماة المحمية ينهبونها ، ولم يجرؤ على معارضة قائده ، فهل يخفف من شعوره بالذنب وبالضعف أن يخطط لصيد الغزالة دون أن يطلق عليها رصاصة واحدة ؟ « يدفعها من الوادي الريان حيث تعيش إلى الوادي العطشان ، حيث تسهل المطاردة ، وماذا تفعل غزالة في سباقها أمام وحش الحديد ، سوى أن يستبد بها الانهاك بعد حين ، فتقف عاجزة لاهثة ، لينزل هو من السيارة ويمسك بقرنيها ، ويسحبها إلى العربة ثم إلى المعسكر » .

هكذا كان يفكر ابراهيم وهو يقطع الطريق إلى الوادي الريان ، حيث ينتشر العشب الأخضر الذي تعيش عليه الأرانب والغزلان ، ومن حولها تعيش الذئاب والثعالب التي تتغذى بالأرانب والغزلان ، وتحط أسراب الطيور المهاجرة قليلا للراحة ، وفي لحظات الشبع الحيواني يبدو الريان واحة تسكنها سلسلة من الكائنات الأليفة المتوادة .

لكن هذه الواحة التي يبدو فيها كل شيء هادئا ومتناغما يدب فيها الروع مع ظهور السيارة .

ليست المشكلة إذن في أعماق ابراهيم هي مجرد اصطياد غزالة قد تقع فريسة لأي ذئب متربص ، بل هي أولا في ضعفه أمام قائده ، وهي ثانيا في شعوره بأنه بسيارته يقتحم عالما متناغما ، ويفسد انسجامه حتى بنوع القتل الذي يفرضه عليه ، ومع ذلك فكل شيء يتم كما خطط ابراهيم . ترتبك الغزالة أمام مفاجأتها بوجود السيارة ، فترتكب أول أخطائها بالاندفاع الى الوادي العطشان .

المطاردة

وتبدأ المطاردة : الغزالة لم تكن تجري ، بل كانت تطير وقد بدت لابراهيم كأنها صورة حلمية ، فأطراف قوائم الغزالة لاتكاد تلمس سطح الرمال الحريرية المتماوجة ، بل تغمزها غمزا خاطفا ، تتضام في نقطة واحدة بتقوس أعلاها جسم الغزالة قوسا ساحر المرونة ، كأنما يصوب نحو السماء سهما غير مرئي ، فتنتزه وينطلق السهم لا ، بل ينطلق القوس نفسه ، ينفتح جسم الغزالة طائرا في الهواء ،

إلى الأمام ، إلى الأمام في انفساح الوادي ، وعبر المنعطفات بين التلال (الحياة في لحظة المواجهة مع الموت تطلق أروع إمكاناتها ، ومرونة الحياة تكاد تهزأ بآلية وحش الحديد) ويحس ابراهيم كأن الغزالة تلطمه كلما انفتح جسمها طائرا في الهواء ، وتضيف إهانة الى لطمة القائد ، وحين تضيق المسافة بين السيارة والغزالة تصفع الرمال المتناثرة من أطراف الغزالة وجه ابراهيم ، الطبيعة نفسها تمعن في إهانته ، وتصير المطاردة جنونا ، يدفع بابراهيم إلى أول خرق للعهد الذي قطعه على نفسه ألا يستخدم السلاح ، فيقرر أن يطلق واحدة لاتقتلها ، ولكن لتوقف هذا الجنون ، طلقة طائشة ، وطلقة أصابت ، لكن لم تخلف سوى اهتزازة عابرة في مسار الركض الطليق ، ثم عاد التجانس للمسار ، ثم اشتعلت الحرب أو الجنون ، على الركبة يركز الطلقات حتى يرى هذا الجزء من الساق وهو ينفصل فيصرخ ابراهيم صرخة المغلول الذي لاحت له فلتة ، وما لبثت الفلتة أن غرقت ، وصارت الخلفية الوحيدة تعمل عمل الاثنتين، لافارق يكاد يذكر ، إلا أن الركض قد تحور مساره قليلا ، صار قوسا ، وفي انحناءة القوس كانت السيارة تميل لملاحقة القوس ، تميل إلى الحد الذي كاد يؤدي إلى انقلابها ، إلى الحد الذي كاد يميت الموت الكاسح ، ويدفع بابراهيم إلى التفكير في إصابة الغزالة في مقتل قبل أن تقتله ، لكن قبل أن يفعلها ابراهيم قطعت الغزالة قوس ركضها بانعطافة حادة ، ودخلت في فوهة أقرب كهف صادفها ، ثم وقفت وكأنما حشرت في الفوهة .

اعتقد ابراهيم أن المعركة قد انتهت ، ولم يبق أمامه سوى أن ينزل ليجذب الغزالة من الساق الوحيدة التي بقيت لها ، وذهل ابراهيم حين اقترب من الغزالة ، حين رأى أن ما تبقى من الجزء المقطوع من الساق لم ينزف ، وكأن الطلقات الملتهبة كانت تكوي حيث كانت تقطع ، لكن ذهول ابراهيم الأعظم كان حين حاول أن يسحب الغزالة إلى الخلف فلم تنسحب ، حينئذ فقط أدرك أن الغزالة لم تنحشر في فوهة الكهف ، لكنها توقفت ، بإرادتها توقفت ، لاشك كانت أمامها هنيهة ، أمام غريزة الحياة فيها هنيهة للاختيار ، بمواصلة الهروب إلى الخلف ، لكنها اتخذت قرارها الأعظم بأن تتوقف ، فلماذا توقفت ؟

هل سمع ابراهيم صوتا لاشك فيه لسعار ذئاب تختفي داخل الكهف ؟ الذئاب إذن هي التي أوقفت الغزالة حيث يسهل عليه أن يسحبها الآن إلى الخلف ، لكن الذئاب نفسها بسعارها المحموم أوقفته كذلك ، ووضع أصابعه على الزناد ، وبدأ هو يرى مثلما رأت الغزالة التماع العيون الذئبية ، والتماع الأنياب يأتيه من ظلام الكهف ، وراح الجزء الظاهر من الغزالة في فوهة الكهف يهتز ويرتعش ويسكن تبعا لتأجج السعار وخفوته ، ثم رأى خطوطا من الدماء تأتي إليه من داخل الكهف ، من بين أقدام الغزالة الثلاثة الباقية . .

هل يمكن هنا أن نتحدث عن انتصار للموت على الحياة ؟

ومن الذي انتصر ، ومن الذي انهزم ؟ أسئلة كلها أصبحت أمام هذه التجربة لاتعني الكثير ، لكن يبقى السؤال الذي ربما يعني شيئا : لماذا اتخذت الغزالة ، أو فلنقل لماذا اتخذت غريزة الحياة في الغزالة قرارها بالتوقف ، ولم تحاول الرجوع إلى الخلف وقد كانت أمامها ربما هنيهة قصيرة ؟ هل نقول لأنها أدركت بشيء من الرضا الغامض أنه لم يبق هناك شيء لم تقدمه ، وأن هذا هو كل شيء ، أن تقدم الحياة ، كل إمكاناتها ؟ ربما كانت المسألة أننا لاندرك كل هذه الامكانات المبهرة إلا حين نقترب قربا شديدا من الموت أحيانا ، فيصبح بعده الرجوع مستحيلا !

أمام بوابات القمح

في هذه القصة يقرر مجموعة من الأطفال أن يقتلوا طفلة ، كانت وما تزال تلعب معهم ، طفلة جميلة اسمها زمزم ، لكن تنفيذ القتل يقودهم إلى اكتشاف حياة جديدة رائعة .

والمسألة أنهم وهم جميعا من أبناء الفقراء في المدينة يجبرهم ذووهم على أن يذهبوا بقلل الماء إلى حيث

تقف السيارات التي تحمل (أجولة) القمح أمام مخازن القمح ، حيث يحتاج سائقو الشاحنات والحمالون إلى جرعة ماء بارد ، يقدمها الاطفال مقابل حفنة من القمح المتسرب من (الأجولة) ، يملؤون بها أكياسهم ، ويتحول هذا الواجب الثقيل إلى لعبة حين يتسابق الأطفال إلى تحميل قللهم ، ومزج مائها بماء الورد ، ليفوزوا بالمزيد من القمح ، لكنهم ذات يوم يكتشفون فجأة أن الوحيدة التي تفوز في هذه المسابقة هي زمزم ، فأيدي العمال الظمأى لا تشير إلا إلى (قلة) زمزم ، (لاحظ دلالة الاسم) ، فبماذا تمتاز « قلة » زمزم عن (قللهم) ؟ وهكذا يبدو أن زمزم هي التي تقطع أرزاقهم ، وتضعهم في موقف الخائب أمام ذويهم ، فيقررون ببساطة قتلها ، ويجلب أحدهم سكينا والآخر هراوة ، وفي المساء يتربصون بها تحت السلم ، ويجري كل شيء كما خططوا له ، يطرحون زمزم أرضا ، وتحيط بها أيديهم وأجسادهم ، وبدلا من أن يقتلوا زمزم فإنهم يكتشفونها ، بل يكتشفون أنفسهم ، فالأيدي ترتعش ، والسكين تسقط ، والهراوة تنفلت من يد صاحبها التي أصبحت تكتفي بالإمساك بذراع زمزم ، حتى عندما دفعتهم زمزم بعيدا عنها ، وأصبح بمقدورها أن تهرب لم تفعل ، بل ظلت نائمة كأنما قد مسها هي أيضا شيء من ذلك السحر الذائب في الأيدي والأرجل ، الذي يتدفق مع الدماء في العروق ، فيجف الريق ، وترتعش الأحداق ، ويسرع النبض . هنا تقود فكرة القتل إلى اكتشاف منابع جديدة للحياة ، وكأن القرب الشديد الذي تصنعه العلاقة بين القاتل والقتيل يشبه على نحو غامض القرب الشديد الذي تصنعه العلاقة بين حبيبين ، إنهم يكتشفون في تلك الليلة الاجابة عن سؤالهم : لماذا كان العمال يشيرون إلى (قلة) زمزم ؟؟ ولم يعودوا يحقدون عليها ، بل تمنوا أن يكونوا مكان العمال ، ليقدموا لزمزم كل شيء تطلبه ، حتى لو كان قمحهم !

الأسوار

خمسة رجال هم الآن خلف الأسوار ، قبل أيام نجح هؤلاء الخمسة في تحريك المظاهرات الحاشدة ، ضد قوى السلطة في البلاد ، كانوا هم القوة العظمى ، فالجماهير تأتمر بكلمة من أحدهم ، بنظرة عين ، أو باشارة من يد .

وحين تم القبض عليهم وعزلهم عن مصدر قوتهم ، بدوا لأول وهلة كأنهم لم يفقدوا شيئا من قوتهم ، فالناس يجيئون لزيارتهم ، وناس لايعرفونهم يقفون خلف الأسوار بانتظار اللحظة التي يسمح فيها للمساجين بفسحة قصيرة ، فيطل عليهم هؤلاء الخمسة من أعلى السلم الموصلة إلى فناء السجن.في البداية كان الناس يجيئون بلا مناسبة ، ثم أصبحوا يجيئون في المناسبات وحدها ، ثم أصبحوا لايجيئون وهكذا يواجه هؤلاء الخمسة الذين كانوا يضجون بالحياة معنى من معاني الموت ، « إن طول الجرح يغري بالتناسي » ، يصبح هذا المقطع أغنيتهم المفضلة ، فهل تذبل في داخلهم قوى الحياة أمام مواجهة هذه الصورة من صور الموت ؟ الزمن . . العزلة . . . تلك هي بعض أقنعة الموت ، وربما أخطرها ، الفعل الجسور الفائق ينسى ، القضية تنسى . . ! ينسى الناس أمام دبيب الزمن البطيء الذي لايترك أثرا لكن هل ينسون هم . . ؟ يصبح الخروج إلى نفس المكان الذي كانوا يلوحون منه للجماهير خارج الأسوار في وقت الفسحة اليومية لعبتهم المفضلة وعزاءهم الوحيد ، فالأطفال الذين يمرون في نفس الوقت للذهاب إلى « استاد » الكرة يحلو لهم أن يلوحوا للمساجين الذين يطلون عليهم من وراء الأسوار ويأخذ هذا التلويح للاطفال معنى رمزيا ، فيصبح تلويحاً للغد ، وحتى عندما يهطل المطر ويبدو أنه من الصعب أن يخرج الأطفال في مثل هذا الوقت فإن المساجين الخمسة لايتخلفون عن الخروج والوقوف في نفس المكان ونفس الموعد ، ليستقبلوا الأمطار على وجوههم ، فالمطر نفسه وعد بشيء قد يتحقق

في هذه القصة تتبارى قوى الحياة وقوى الموت داخل الأسوار وخارجها .

تنويعات على لحن واحد

تقدم بقية قصص المجموعة تنويعات مختلفة حول لحظة المواجهة بين قوى الحياة وقوى الموت ، ففي قصة « هذه المزرعة » يقدم لنا الكاتب من خلال عيني عضو لجنة تقصي الحقائق إحدى مزارع الدجاج الحديثة ، بطريقة تبدو فيها المزرعة كأنها صورة رمزية للمجتمع الحديث الذي يقوده جنون الاستهلاك ، ومع أن عضو اللجنة يبحث عن دليل إدانة لصاحب المزرعة الذي تشير قرائن كثيرة على أنه ينمي مزرعته بطرق غير مشروعة ، فإنه يجد مزرعة حديثة تنمو بلغة الأرقام ، وتنتظم بمنطق الآلة ، وتلتزم بالتعليمات الموجودة بجميع اللغات في أدلة المزارع ، لكن الطواف داخل المزرعة وأسلوب حياة الدواجن في أقفاصها ، وطريقة أكلها وشربها والعاملين فيها ، يترك لدى القاريء شعورا مريرا وساخرا بأن هذه المزرعة ربما هي مدينته ، وربما تسرب هذا الشعور أيضا إلى عضو لجنة تقصي الحقائق فاندفع في جنون محطما كل الأقفاص التي تعيش فيها الدواجن ، لكنه يفاجأ بأن دجاجة واحدة من دجاج المزرعة لا تتحرك لمغادرة قفصها،أكان هذا هو الدليل الذي يبحث عنه حين ساوره الشك أو ساورك ـ عزيزي القاريء ـ في حقيقة هذه المزرعة ؟

في هذه القصة يلوح أن الحياة في هذه المزرعة أو فلنقل في هذه المدينة هي على الرغم من ـ كل تنمية ـ ليست سوى أحد أقنعة الموت !

عودة إلى البداية

إذا كنا قد بدأنا رحلة هذه القراءة التحليلية لبعض قصص هذه المجموعة من آخر قصة فيها فليس مجرد صدفة أن نختتم هذه القراءة بالحديث عن أول قصة فيها ، وهي بعنوان « الفئران » .

فهذه القصة تكاد تنتمي إلى النوع السائد في قصص المجموعتين الأولى والثانية للكاتب ، مع أنها أيضا تدور حول نوع من المواجهة بين قوى الحياة والموت ، وهي الفكرة المحورية في مجموعتنا هذه .

إلا أن قصة « الفئران » لاتقدم لحظة مواجهة بالمعنى الدقيق للمواجهة ، بل تقدم نوعا من المقابلة الصامتة الصارخة في الوقت نفسه بين مشهدين أحدهما بمثابة الاطار والآخر بمثابة الصورة . مشهد الإطار نرى فيه الطبيعة في لحظات ماقبل الغروب ، والمشهد داخل أسوار أحد المصحات العقلية ، حيث تنمو أشجار الكافور والبانسيانا والتوت ، وحيث تفرش الظلال والأزهار والثمار المتساقطة الطرقات الممتدة بين عنابر المرضى وحدائق المستشفى ، وحيث تغرد طيور قد لاتراها ، لكن صوتها الشجي يذيب في جوانب الاطار حياة رقيقة نابضة .

في داخل هذا الإطار الذي يضج بالحياة والجمال تتحرك مجموعة من البشر ، مرضى وممرض وممرضة ، عجوزان يدفعان أمامهما عربة يد عليها جثة امرأة مغطاة بملاءة بيضاء تسقط عليها أزهار البانسيانا ، فتبدو كأنها نقشت تواً بألوان بهيجة . من خلال ثرثرة العجوزين الواهنة نعرف أشياء عن مأساة صاحبة الجثة التي ينقلانها إلى حجرة العزل ، بل عن مآسي المرضى جميعا . القصة هنا تقترب من القصيدة أو اللوحة ، ولاشيء يحدث هنا سوى هذا التقابل الأليم ، بين طبيعة غنية وجميلة وبشر مهانين وبائسين ، والكلمات التي تتساقط في وهن من شفاه عجوزين على شفا الهلاك ، تبدو كأنها أصابع واهنة تشير في ضعف إلى جذور المأساة التي تجري خارج أسوار المستشفى ، وتدفع بضحاياها إلى هذا المكان ، حيث تضج الطبيعة بالحياة ، بينما الأحياء موتى أو في طريقهم إلى الموت .

وهكذا في هذه القصة كما في غيرها نجد هذا التناسق الرائع بين مادة التجربة وبين شكلها ، سواء أكانت تقترب من عالم القصة أم من عالم القصيدة . □

تكنولوجيا للعالم الثالث !

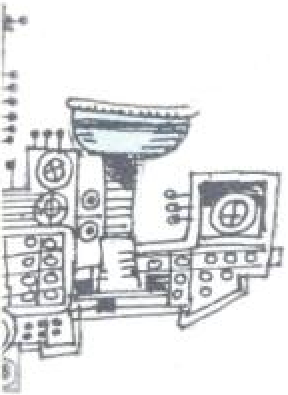

بقلم : الدكتور سمير رضوان

أصبحت العلوم الطبيعية والبحوث العلمية ذات صبغة عالمية ، وأصبح من الخطأ الحديث عن علم للدول المتقدمة وعلم للعالم الثالث ، بل هو علم واحد ، لكن أسلوب استثمار المعارف العلمية في حل مشاكل البشر - أي ما اصطلح على تسميته « تكنولوجيا » - يختلف باختلاف طبائع الشعوب ونوعيات مشاكلها ومدى تعمق المعارف العلمية لديها ، ومن ثم وجب أن نفرق بين « تكنولوجيا » للعالم المتقدم « وتكنولوجيا » للعالم الثالث .

لن يحقق العالم الثالث النجاح المأمول في حل مشاكله - وهي كثيرة - وفي الفكاك من شباك التبعية الاقتصادية والسياسية للعالم المتقدم ، طالما هو يصر ألا يعتمد إلا على « التكنولوجيا » المتقدمة في التنمية ، فهذه « التكنولوجيا » هي نتاج لفكر باحثين ، مشاكل شعوبهم تختلف بالضرورة في طبيعتها عن مشاكل العالم الثالث الأساسية ، فضلا عن أن الخبرة التي تيسرت لعلماء العالم الثالث لاتؤهلهم بعد لاستيعاب الكثير من أنماط « التكنولوجيا » المتقدمة ، ولا لملاحقة التطور السريع في مجالاتها المختلفة ، والطريق الذي لاطريق سواه هو أن يشرع العالم الثالث جادا في تبني « تكنولوجيا » خاصة به ، من نتاج فكره ، تتلاءم مع نوعيات مشاكله ، « تكنولوجيا » ليست بالضرورة عالية ، بل ينبغي أن تكون بالضرورة متواضعة ، يكتسب من خلالها الخبرة درجة درجة . وأمام العالم الثالث فرصة لم تكن متاحة للعالم الصناعي عندما بدأ ، فرصة بأن يتعلم من أخطاء هذا العالم ، وأن يتحاشى الوقوع فيها قدر المستطاع .

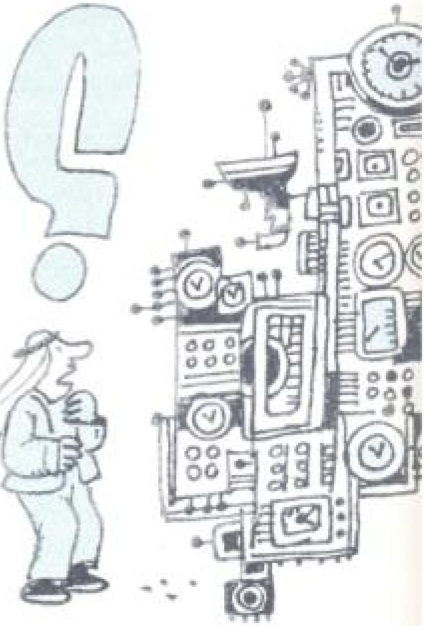

« التكنولوجيا » المتقدمه و المتواضعة

« التكنولوجيا » المتقدمة « والتكنولوجيا » المتواضعة تعبيران دارجان في دول الغرب الصناعية . يقصد بالأول « التكنولوجيا » الشديدة التعقيد التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى رفيعاً من الدراية العلمية . لا تتوفران إلا لدول قليلة . أما « التكنولوجيا » المتواضعة فتعتمد على معارف علمية شائعة . لا تتطلب إلا قدرا متواضعا من الخبرة . ولا يخفى على أحد مقدار التطور الذي بلغته « التكنولوجيا » المتقدمة في الدول المتقدمة ـ خاصة ونحن نستورد نتاجها ـ فنرى آثارها في السيارات التي نقودها . وفي التلفاز وأجهزة الاستماع . كما أن آثارها في مطابخنا ومصانعنا وجامعاتنا وما إلى ذلك . وكثيرا ما نخلط بين « التكنولوجيا » ونتاج « التكنولوجيا » . فننسى أو نتناسى أن « التكنولوجيا » فكر ومعرفة . وليست آلة أو جهازا . وربما استطعنا شراء الآلة أو الجهاز . أما الفكر والمعرفة فيكتسبان . ولا مجال على الاطلاق لشرائهما . ولقد بلغت « تكنولوجيا » الغرب المتقدمة ما بلغته بالبحث العلمي المتعمق الدائم التطور . وتتقدم « التكنولوجيا » في العالم الصناعي بقدر ما تتقدم العلوم الأساسية . إذ أن « التكنولوجيا » والعلم في الواقع وجهان لعملة واحدة . والسبب الأساسي الذي يكمن في عجز العالم الثالث عن مجاراة العالم الصناعي في تقدمه « التكنولوجي » يكمن في تخلفه في مجال البحوث الأساسية لأسباب عديدة . منها أن مثل هذه البحوث تتطلب أموالا لاطاقة لميزانيات معظم دول العالم الثالث باعتمادها . ومنها عدم اقتناع أولي الأمر والنهي في معظم هذه الدول اقتناعا جادا بجدوى تمويل البحوث الأساسية . وقد كان نهرو العظيم أحد الاستثناءات القليلة من هذه القاعدة الأخيرة . إذ كان اقتناعه المطلق بجدوى البحوث العلمية الأساسية هو القاعدة التي بنت عليها الهند اليوم نهضة لولاها لقاست أضعاف أضعاف ما تقاسي فعلا من مشاكل . إلا أن « مالا يدرك كله لاينبغي أن يترك جله » . فما دام مستوى البحث العلمي الأساسي في العالم الثالث مازال متواضعا يتحتم أن تكون لهذا العالم « تكنولوجيا » متواضعة خاصة به . ولسنا بحاجة لأن نذكر بأن لاعلم الغرب ولا « تكنولوجيته » قد ولدا عملاقين . ومن أعجب المفارقات في عالمنا الثالث ـ وكم فيه من مفارقات ـ أنه غالبا ما يسعى إلى القفز مباشرة إلى « تكنولوجيا » متقدمة . تتجاوز طاقاته العلمية المتواضعة . فلا يعدو حينئذ أن يبتاع نتاج هذه «التكنولوجيا» . ويعتقد أنه بذلك قد امتلكها . وذلك على الرغم من أن عالمنا الثالث قد حقق نجاحا منقطع النظير في المحاولات النادرة التي تصدى لها . وأثبت خلالها

بجدارة أن « التكنولوجيا » المتواضعة المعتمدة على المعارف العلمية البسيطة لاتقل أهمية بالنسبة له عن « التكنولوجيا » المتقدمة لانها تصلح لظروفه وقدراته ـ على الأقل ـ في المرحلة الحالية . لكن هذا لايعني مجافاة العلم المتطور « والتكنولوجيا » المتقدمة بل هي دعوة إلى الصعود إليها بالوسيلة المنطقية ، وذلك بأن نضع أرجلنا على الدرجة الأولى للسلم لنصعده درجة درجة ، مكتسبين خبرة وراء خبرة ، كما أنها ليست دعوة إلى مقاطعة نتاج « التكنولوجيا » المتقدمة وهو أمر يخرج عن موضوع هذه المقالة على أي حال .

ليس «بالتكنولوجيا» يتقدم الإنسان

من الخطأ الظن أن التقدم لايتأتى إلا بالتكنولوجيا المتقدمة ، فواقع الأمر أن أنماطا لاحصر لها من « التكنولوجيا » ـ حتى في الدول المتقدمة صناعيا ـ هي من النوع المتواضع ، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر « تكنولوجية » تحويل الطاقة « الميكانيكية » من الرياح إلى طاقة كهربية باستخدام مراوح بسيطة وخبرة متواضعة دون ما حاجة إلى آلات وتجهيزات معقدة . وهناك في العالم اليوم نحو ١٦,٠٠٠ محطة لهذا الغرض ، قدرتها نحو ١١٠٠ ميجاوات ، معظمها أنشىء في أكثر دول العالم تقدما ، ونقصد بها الولايات المتحده الامريكية ، وثمة دولة أخرى متقدمة هي المانيا الغربية ، افتتحت يوم ٢٤ / ٨ / ١٩٨٧ أول محطة من هذا النوع في مقاطعة «شليزفيج هولشتين» على شاطىء بحر الشمال ، وتتكون هذه المحطة من ٣٠ مروحة متوسطة الحجم ، مثبتة على ابراج مرتفعة ، طاقتها معا ميجاوات واحد ، وتنتج من الكهرباء ما يغطي احتياجات ٤٠٠ منزل كامل ، تستهلك جميعها في حدود مليون كيلووات / ساعة ، وقد بلغت تكاليف هذه المحطة نحو خمسة ملايين مارك الماني . ثم إن المسئولين الألمان كانوا قد خططوا لإنجاز ١٤٠ محطة حتى نهاية ١٩٨٧ ، ١٠٠ منها في المانيا ، و ٤٠ في دول أخرى من دول العالم الثالث . ويتوقع المسئولون أن تغطي مثل هذه « التكنولوجيا » المتواضعة نحو ٢,٥ ٪ من مجموع الطاقة التي تستهلكها المانيا مع حلول عام ٢٠٠٠ ، وأود فيما يلي أن أتناول بإيجاز أربع محاولات رائعة ، أثبتت دول العالم الثالث خلالها أنها قادرة من خلال التفكير الأصيل المبتكر أن تستثمر « تكنولوجيا » متواضعة في تحقيق ما يشبه المعجزات .

هذا الشهيد الفلسطيني وآلته الطائرة

لاشك أن القارىء مازال يذكر بإعجاب قصة الشهيد الفلسطيني الطائر الذي عبر الحدود الفلسطينية اللبنانية الحصينة بطائرة شراعية مصنوعة من مواد أولية بسيطة ، وذلك على وجه التحديد يوم الخميس ٢٦/١١/١٩٨٧ . فقد فوجىء الجنود «الإسرائيليون» بالبطل الذي ظنوا أن الأرض قد انشقت عنه ، فوجئوا به يمطرهم بوابل من الرصاص والقنابل ليقتل منهم ستة ويجرح ثمانية آخرين قبل أن يسلم روحه الطاهرة إلى بارئها . وقد اعترفت القيادة «الاسرائيلية» بعجز أجهزة الرادار المتطورة عن رصد هذه الطائرة الشراعية البسيطة اثناء عبورها ، ولقد استحوذت هذه الواقعة على اهتمام الرأي العام والمسئولين في الخارج ، وفي الدول الصديقة « لاسرائيل » على وجه الخصوص ، إذ أن معنى ما حدث أعمق من أن يمر كما تمر أية حادثة عادية ، ففكرة استخدام طائرة شراعية فكرة رائدة في الحرب ، لم تخطر على بال أحد ، وعلى الرغم من بساطتها الفائقة فقد حققت مراد من ابتكرها على أكمل وجه . ولابد أن نذكر هنا أن كثيرا من دول العالم الثالث الأخرى قد شرعت في الأونة الأخيرة إلى اللجوء إلى أساليب غير تقليدية ، وابتكرت خلالها مواد مفرقعة وما إليها باستخدام تجهيزات بدائية للغاية ، وقد استخدمتها بنجاح في حروبها ضد دول أقوى منها ، وقد أسهبت صحف الغرب في الكتابة عن هذه الأساليب وحذرت من هذه « التكنولوجيا » الحربية المتواضعة ومن خطرها في المستقبل . ولو أن الشهيد الفلسطيني البطل كان قد استخدم في عبور الحدود أحدث ما أنتجه سلاح الطيران الامريكي من

مقاتلات لما استحوذت الواقعة على اهتمام أحد على الاطلاق ، فقيمة هذه الحادثة إذن تكمن في أصالة فكرتها وملاءمة أسلوب تنفيذها لواقع الحال .

قهر الساتر الرملي

وتذكرنا قصة الشهيد الطائر بواقعة تشبهها في أصالة فكرتها ، وإن اختلفت عنها في الأسلوب . حدثت هذه الواقعة في أوائل حرب ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ على الحدود المصرية ضد نفس العدو « الاسرائيلي » ، وأقصد بها واقعة شق الساتر الرملي الذي كانت القوات « الاسرائيلية » قد تجشمت الكثير من العنت في بنائه كجزء من خط بارليف الحصين على طول قناة السويس . وكان هناك إجماع على أن هذا الساتر الرملي لاسبيل لاختراقه أبدا ، إذ يستحيل حتى على أعتى القنابل نسفه ، لكن الجندي البطل أعمل فيه سلاحا لم يخطر على بال أحد من قبل ، سلاح في غاية البساطة ، بيد أنه هو السلاح الوحيد الملائم لقهر هذا العائق الجبار . ولم يكن ذلك السلاح سوى تيارات قوية من مياه القناة ، ضخت في خراطيم لتندفع بقوة محسوبة من قبل ، فتشق طريقا في جبل الرمل ، كما تشق السكين الزبد .

ولقد أذهلت الفكرة الرائدة العالم حينما سمع بها ، ولعلها كانت من أكثر إنجازات العسكرية المصرية استحواذا على إعجاب الخبراء الغربيين ، وكم كتبت الصحف الالمانية عن سذاجة خبراء الري المصريين الذين جاءوا إلى المانيا ليتعاقدوا على مضخات مياه ذات قوة غير معهودة ، وكانوا على استعداد حتى لدفع تكاليفها الباهظة على الرغم من أن مضخات أقل قوة من المتعاقد عليها - وأقل تكلفة بالطبع - كانت تكفي تماما لأعمال الري ، كما قيل ساعتها لهم ، ولم يكن أحد يعلم أن المشترى ليس هندسة الري بوزارة الزراعة المصرية ، وإنما كان سلاح المهندسين بالجيش المصري ، كما شاع فيما بعد ، كما لم يكن أحد يعلم أن المضخات العملاقة كانت ستجند لمهمة أسمى وأعظم من مهمة الري »ولقد حلت على الوجوه في الغرب بعد ذلك علامات الدهشة والاعجاب بدلا من ابتسامات السخرية والاستهزاء ، ومرة أخرى كان السر في عظمة الفكرة هو أصالتها وبساطتها وملاءمتها الكاملة للمجال الذي استخدمت فيه بأسلوب مبتكر لم يسبق لأحد استعماله .

انتاج البيوغاز في آسيا

ومن استخدام « التكنولوجيا » المتواضعة في المجالات العسكرية إلى استخدامها في مجال توفير الطاقة . والمصدر الرئيسي للطاقة في العالم اليوم هو النفط ، ويتكون النفط من خليط من مواد تعرف كيمائيا بالهيدروكربونات ، إذ تتكون جميعها من سلاسل أو حلقات من ذرات الكربون التي تتصل بها ذرات الهيدروجين ، وكلاهما من العناصر القابلة للاشتعال ، وهنا تكمن قيمة المركبات كمصادر للطاقة ، أي كوقود . والهيدروكربونات ذوات السلاسل الكربونية القصيرة غازية وليست سائلة ، على أن كلتا الصورتين تصلح كوقود ممتاز ، ويستخدم الغاز كما هو معروف أساسا في مواقد الطهي في المنازل . وأبسط الهيدروكربونات الغازية تركيبا هو الميثان ، إذ تقتصر السلسلة الكربونية فيه على ذرة كربون واحدة تتصل بها أربع ذرات من الهيدروجين ، وهو أحد المكونات الاساسية للغاز الذي يستخدم كوقود في المنازل . وقد أثبتت البحوث البيولوجية أن معظم هذا الغاز تنتجه أنواع معينة من بكتيريا لاهوائية ، وهذا على غير ما كان يعتقد إلى عهد غير بعيد ، من أن معظم الميثان في الطبيعة ذو أصل حفري . وتدل الحسابات الدقيقة على أن نحو ٨٠٪ من مجموع الميثان في جو الأرض ناتج عن النشاط البكتيري ، ولا يمثل الميثان المصاحب للنفط إلا نحو ٢٠٪ فقط ، وتصنع هذه الأنواع البكترية اللاهوائية غاز الميثان كمنتج ثانوي لعمليات بيوكيميائية تحصل من خلالها على الطاقة اللازمة لشتى وظائفها الحيوية . حيث تستثمر هذه البكتيريا غاز ثاني اكسيد الكربون المتوافر في البيئات المختلفة لتؤكسد به غاز الهيدروجين الذي تنتجه أنواع أخرى

من البكتيريا اللاهوائية للطاقة اللازمة لها من هذه الأكسدة التي يتولد عنها غاز الميثان . وعادة ما تستوطن بكتيريا الميثان البيئات الرديئة التهوية مثل الأرض المغمورة بالماء والمستنقعات ، ومن هنا جاءت تسمية الغاز باسم « غاز المستنقعات » . وتعتبر المعدة الأولى للحيوان المجتر من أكثر البيئات ملاءمة لبكتيريا الميثان وللميكروبات الأخرى التي تنتج ثاني اكسيد الكربون والهيدروجين . لذلك فغاز الميثان مكون أساسي لكميات الغازات الكبيرة التي تطلقها الحيوانات المجترة من أبقار وخراف وغيرها طوال اليوم . كما أن مخلفات هذه الحيوانات تحتوي على أعداد كبيرة من بكتيريا الميثان . ومن هنا فكر الباحثون في إمكان تجميع مخلفات الحيوانات المجترة فور إفرازها في مستودعات خاصة ، وخلطها بالماء مع مخلفات أخرى تصلح مادة أولية لانتاج الميثان ، بهدف توفير هذا الغاز كوقود من خلال عملية تخمر بسيطة . وقد نجح العلماء في مسعاهم ، وأطلقوا على الغاز اسم « البيوغاز » إشارة إلى مصدره الحيوي . وقد استحوذت هذه النتائج على اهتمام العلماء في كل من الهند وباكستان على وجه الخصوص . وهما ـ كما هو معروف ـ دولتان آسيويتان تفتقران إلى مصادر للطاقة . وقد استثمرت هذه المعارف العلمية لانتاج البيوغاز كوقود للمنازل ، من خلال « بيوتكنولوجيا » متواضعة للغاية ، إذ تجمع مخلفات الحيوانات في حفرة بجوار المنزل ، وتغلق بإحكام ، وتزود بين الحين والآخر بالماء والمخلفات العشبية الغنية بالسليولوز ، فيتولد البيوغاز الذي يمر مباشرة من خلال أنابيب موصلة الى المواقد داخل المنازل . ولولا هذه « التكنولوجيا » المتواضعة لعانت قطاعات كبيرة من الشعبين الهندي والباكستاني معاناة حقيقية من أجل الحصول على الوقود اللازم للطهي في المنازل .

حشرة مرض النوم

نجحت مؤخرا مجموعة من الباحثين في أفريقيا في السيطرة على وباء من أخطر أوبئتها التي ظلت تهدد الثروة الحيوانية فيها جيلا بعد جيل . وقصة السيطرة على هذا الوباء بجهود ذاتية محضة ومن خلال « تكنولوجيا » افريقية صرفة ، تستحق أن نطيل التوقف عندها بعض الشيء .

تنقل حشرة تسي تسي للأحياء الراقية عدوى تتسبب فيما يعرف بمرض النوم . والمسبب المباشر لهذا المرض هو بلازموديوم (حيوان وحيد الخلية) من قبيل البلازموديوم الذي تنقله أنواع من البعوض ، وتتسبب به مرض الملاريا . وتستوطن حشرة تسي تسي افريقيا عند خط الاستواء ، والأخطار التي تتهدد الانسان من مرض النوم ليست كبيرة ، إضافة إلى أن هناك الآن مجموعة من الأدوية الممتازة لعلاج الانسان المصاب . أما خطر هذا المرض على بعض الحيوانات فهو عظيم . إذ غالباً ما يفضي إلى نفوق هذه الحيوانات . ومن الجدير بالذكر أن الحيوانات ذات الأصل الافريقي تتحمل المرض ولا تموت بسببه . أما الحيوانات الدخيلة على افريقيا ـ أي التي لم تكن مستوطنة فيها أصلا ـ فهي التي تموت غالبا عند الإصابة ، ومن ضمن هذه الحيوانات البقر والخراف ، وهي تمثل المصدر الاساسي للحوم في غذاء البشر اليوم . كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن الثروة الحيوانية في افريقيا كان يمكن أن تضاهي في وفرتها ثروة الولايات المتحدة لولا هذا الوباء اللعين . ولدول أفريقيا المتاخمة لخط الاستواء تاريخ طويل مع حشرة تسي تسي ، فكم من حملة شنت ضد هذه الحشرة ، استخدم فيها كل جديد من مبيدات الحشرات ، لكنها جميعا باءت بالفشل ، بل وخلفت تأثيرات سيئة على البيئة التي تلوثت كثيرا ، ومازالت هذه الدول تعاني من آثار المبيد المعروف باسم (د . د . ت) المحظور استعماله اليوم وكان قد استخدم لمكافحة حشرة تسي تسي دون نجاح يذكر . وكانت مضادات الحشرات تذاب في زيت خاص وترش من الجو بالطائرات أو من على الأرض . وكانت الطريقتان محفوفتين بمشاكل عديدة ، حيث كان لابد من ضمان وصول رذاذ المبيد إلى كل حشرة على حدة . وهذا أمر كان يستحيل تحقيقه خاصة أن هذه الحشرة لاتتناول طعاما إلا مرة

واحدة كل عدة أيام ، والحشرات التي كانت تنجو من كل مبيد كانت تزداد حصانتها ضده ، وعند استخدام الطائرات كان لابد من الرش من ارتفاع لايتجاوز عشرات قليلة من الأمتار ، وذلك كي لاتبدد الريح رذاذ المبيد ، ولهذا الطيران المنخفض مخاطره ، كذلك كان للرش من على سطح الأرض مشاكله هو أيضا ، إذ لابد من رش الحشرة وهي ساكنة لاتطير ، وهي لاتسكن إلا أثناء الظهيرة الشديدة الحرارة ، حيث تحط على جذوع الأشجار في الجوانب الظليلة منها . ولكي تكون المقاومة مجدية كان على العامل أن يمارسها في جو خانق لايطاق طويلا ، ومن هنا فكر الباحثون في زيمبابوي بضرورة ابتكار أسلوب غير تقليدي لمقاومة حشرة تسي تسي طوال العام وتحت أية ظروف مناخية . وكانت نقطة الانطلاق للوصول إلى مثل هذا الأسلوب هي محاولة الرد على تساؤل بسيط : كيف تتعرف الحشرة على ضحيتها من الحيوانات ؟ لابد أن الضحية تفرز مادة مميزة لها تجذب الحشرة ، فلو أمكن التعرف على هذه المادة وإنتاجها صناعيا لأمكن جذب الحشرة بها إلى حيث يمكن القضاء عليها ، دون الحاجة إلى ملاحقتها بمبيدات الحشرات كما كان متبعا ، واقتضى الرد على هذا التساؤل البسيط إجراء مجموعة من الدراسات الحقلية أيدت صدق النظرية السابقة . كان من ضمن التجارب مثلا أن جمعوا أبقارا في كهف حفروه تحت سطح الأرض ، وغطوه كي لاترى الحشرة الحيوانات ، وتركوا فتحات ضيقة لتنفذ منها روائح الحيوانات إلى الخارج ، ولاحظوا أن الحشرات تتكدس عند الفتحات ، وأن أعداد الحشرات كانت تتناسب طرديا مع أعداد الأبقار في الحفرة ، كما لاحظوا أن الحشرات تتكدس عند أنف البقرة لاعند مؤخرتها فاستنتجوا من ذلك أن المادة التي تجذب الحشرات ربما كانت موجودة في الغازات التي تزفرها البقرة ، فجمعوا هذه الغازات وحللوها كيمائيا بأسلوب يعرف « بالكروماتوجرافيا » الغازية ، وتعرفوا على ثلاثة مكونات أساسية ، هي الخل وثاني أكسيد الكربون ومادة تعرف باسم اوكتانول . كما أثبتت هذه الدراسات الحقلية البسيطة أن لاشكل

الحيوان ولا عمره ولا جنسه لها أي دور في اجتذاب الحشرة ، إنما تجتذبها رائحة الاوكتانول والخل فحسب . كما أثبتت الدراسات أن الحشرة تخاف الإنسان ، وتهرب منه ، لذلك كان لابد لأية مصيدة يراد لها اصطياد هذه الحشرات أولا من أن تكون مشبعة بالاوكتانول والخل كطعم للذبابة ، وثانيا أن تحتوي على مضاد للحشرة فتاك يقتلها ، وثالثا لابد من ابتعاد العنصر البشري من جوار المصائد ، كي لايدفعها بعيدا عن الشراك . وقد صمم الدارسون بعد ذلك مصيدة من ثلاثة أجزاء ، مادتها قماش من نوع معين ، يشبع الجزء الأوسط منها بالاوكتانول والخل ومبيد الحشرات ، ثم تنصب مستقبلة اتجاه

الريح ، ونجحت هذه المصيدة البدائية نجاحا هائلا في اجتذاب حشرة تسي تسي من على بعد يبلغ نحو عشرة كيلو مترات لقتلها . وبقيت جميع الأبقار في المناطق التي بها مصائد في صحة وعافية ، ونشأت نتيجة لهذه الدراسات صناعة أولية في رودويسيا وفي كثير من الدول الافريقية الأخرى المناخة لها تنتج المصائد البدائية ، وقد أصبحت اليوم تستخدم منها عشرات الألوف ، وأثبتت أنها عظيمة الجدوى في حماية الأبقار والخراف في افريقيا من مرض النوم القاتل . □

■ قيل إن يوسف الصديق عندما أسند اليه فرعون ادارة خزائن الغلال في مصر كان يجوع ويأكل من خبز الشعير . فقيل له : « أتجوع وفي يدك خزائن الأرض ؟ » فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » .

واحة العربي

في الصميم :

ـ في العالم مأساتان اثنتان فقط ، إحداهما هي عدم حصول المرء على ما يشتهي ، والثانية هي الحصول عليه .

اوسكار وايلد

ـ قبل الزواج كان لي ست نظريات في موضوع تربية الأولاد ، والآن لي ستة أولاد ، وليس لي أي نظرية .

لورد روتشتر

ـ هناك طرق ثلاث لجلب الدمار والخراب : النساء ، والمقامرة ، واستدعاء الخبراء .

جورج بومبيدو

ـ لو كانت الصراحة هي القانون الأساسي في الزواج لامتلأ العالم بالعوانس .

ميشال اوديار

ـ لكثرة الامتحانات التي تقدمت إليها توصلت إلى قناعة بأن تفوق الفاحص الكبير سببه وجوده في الجهة المناسبة من الطاولة .

ادوار هريو

ظرفاء العرب

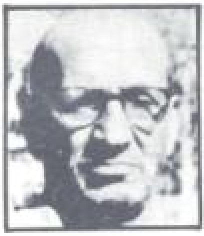

أحمد الصافي النجفي

شاعر ومتشاعر :

قدم أحد مدعي كتابة الشعر شعرا إلى الشاعر أحمد الصافي النجفي الذي قال له : هذا الشعر مكسور الوزن ، فقال له المتشاعر : إنك لا تفهم يا أستاذ ، لأن الشعر يجب أن يقرأه صاحبه ، حتى إذا كان قصيرا مد له « نَفَسه » ، وإذا كان طويلا قطع نَفَسه .

فقال النجفي : أدعو الله أن يكون شعرك طويلا دائما .

فسأله : لماذا ؟

فرد النجفي : حتى تقطع نَفَسك ؟

■■■

محمود وسلامة :

عرف عن « محمود حجازي » شقيق الشيخ « سلامة حجازي » أنه قليلا ما يصحو من سكره ، فأمر الشيخ سلامة بمنعه من دخول المسرح ما دام مخموراً ، ولما قابله بعد ذلك قال له : من أنت حتى تمنعني ؟ ألا تعلم أنني أشرف منك ؟

فأنا شقيق الشيخ سلامة حجازي ، أما أنت فشقيق رجل قلما يصحو من سكره .

■■■

قاموس الظرفاء :

* الشيء المؤقت : أي عمل تلتحق به الفتاة بانتظار الزواج .
* الحب من أول نظرة : أعظم شيء لتوفير الوقت .
* الخطوبة : الفرصة الأخيرة للرجل لكي ينجو قبل توقيع الحكم عليه بالسجن المؤبد .
* الزواج : إعلان الحرب .
* الطلاق : إعلان السلام .

من القلب

لا تخف :

حارس حديقة الحيوانات للسيدة صاحبة الكلب : انتبهي يا سيدتي ، فإن كلبك يتجه نحو الأسد .

ـ لا تخف ، فإنه لا يعض .

بريئة وليست بريئة :

السيدة في المحكمة : بريئة يا سيدي القاضي ، أقسم لك بأني بريئة .

القاضي : لكن أوصاف القاتلة تنطبق عليك تماما ، فهي جميلة وجذابة وخفيفة الدم .

السيدة : آه ، قد تكون انا يا سيدي .

لن تبيض :

السائق لعجوز أمام بيتها : إن دجاجتك لن تبيض بعد اليوم .

ـ لماذا ؟

ـ لقد دهستها .

يعرفه جيدا :

الأول : لماذا لم تحضر مراسيم دفنه ؟

الثاني : إنني أعرفه جيدا ، فهو لن يحضر مراسيم دفني .

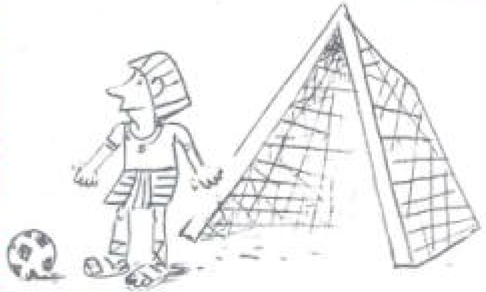

حارس مرمى فرعوني

ضحكات عالمية

نعم :

تغيب الروائي « جاك لندن » ذات ليلة عن بيته ، فانزعجت زوجته ، إلى درجة أنها أرسلت إلى خمسة من أصدقائه برقية تقول فيها : جاك لم يعد للبيت . هل قضى الليلة معك ؟

وبعد إرسال البرقيات بقليل وصل « جاك لندن » متأخرا ، وبعد ذلك بقليل وصلت ردود البرقيات الخمس التي أجابت كلها على استفسار الزوجة بكلمة « نعم » .

برقيات :

أرسل برناردشو برقية إلى « كورنيليا أوتس سكنير » بمناسبة افتتاح الموسم الثاني لعرض مسرحيتها (كانديرا) يقول فيها : « رائعة ، متفوقة » ، فردت عليه ببرقية قالت فيها : « غير جديرة بثنائك هذا » ، فرد عليها : « كنت أعني الرواية » ، فردت عليه « وأنا أيضا » .

جنازة :

أسس الكاتب الانجليزي (هـ . ج . ويلز) مع صديقه « هنلي » جريدة لم تصادف رواجا ، حيث لم يزد عدد المشتركين عن شخص واحد . وبينما كانا يطلان من نافذة مكتبهما ذات يوم رأيا موكب جنازة ، فقال ويلز لهنلي : أرجو ألا تكون هذه جنازة صديقنا اليتيم .

الدوار

قصة بقلم : دلال حاتم *

ثمانية عشر أسبوعا مرت وأنا في رقدتي هذه ، مكوم على نفسي فوق المقعد ، تحيط بي الوسائد من كل جهة ، حتى لا أنزلق مثل أخطبوط أخرج إلى اليابسة من الماء

ثمانية عشر أسبوعاً وأنا جالس في نفس المكان ، أنظر عبر النافذة إلى الشارع ، أراقب المارة والسيارات بعينين زائغتين . أحاول أن أفكر فلا أستطيع . وكيف يستطيع رجل أن يفكر وقد فقد

---

* كاتبة وقاصة من القطر العربي السوري .

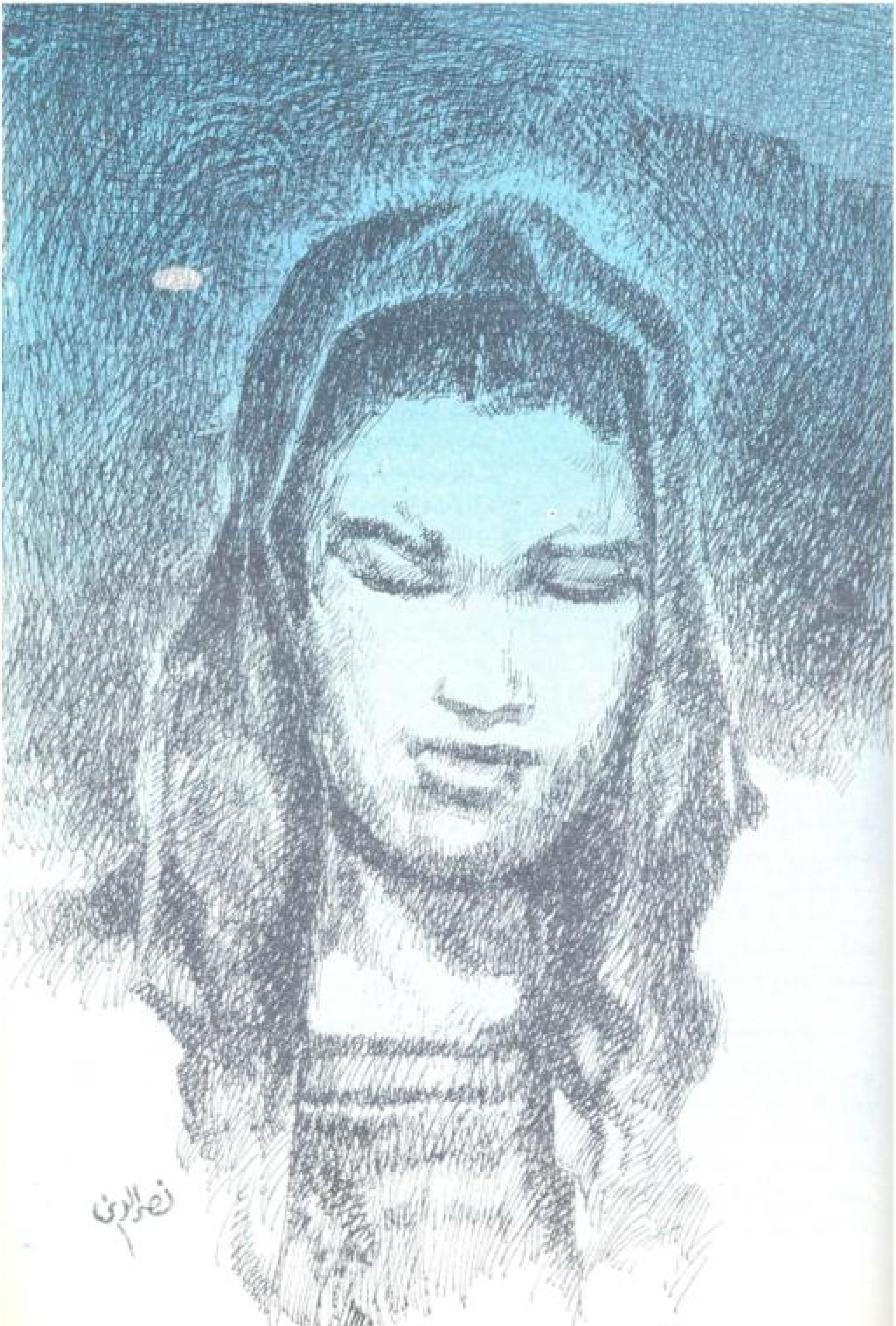

دماغه ؟ أعيش كأنني لا أعيش ، فالانسان يعيش إذا كان يتنفس ويأكل ، ويشرب ، ويحب ، ويكره ، ويقبل على الحياة ساعيا من أجل المستقبل أما أنا فلا أمارس شيئا من هذا ، أنام وأصحو ، بل أغمض عيني وأفتحهما في نفس المكان ، أنظر حولي فلا أرى إلا الجدران ، أحاول أن أسمع ضجيج أولادي فلا يتناهى إلي أي صوت ، إذا دخل أحدهم الغرفة لا يزيد إحساسي به عن الاحساس بشبح أو خيال . تدخل زوجتي الغرفة ، تضع وجهها مقابل وجهي ، وتتكلم بفمها ويديها ، تحاول أن تفهمني شيئا ، وعندما تفشل تنحدر دمعة من عينيها ، ويطبق الصمت علي في الغرفة ، أمضي ساعات وحيدا ثم تدخل زوجتي من جديد ، تحمل بيد حبة دواء وباليد الأخرى كأس ماء ، وتمسك رأسي بيدها وتسنده إلى صدرها ، وتدفع حبة الدواء في حلقي وتقرب كأس الماء .

يندلق جزء من الماء في حلقي ويتبعه الباقي لكن على ثيابي ، فتبرطم زوجتي ، وتتفوه بأشياء وهي تجفف الماء بمنشفة ، وقبل أن تخرج من الغرفة ترفع عينيها وتنظر إلى السقف ، ربما تدعو لي بالشفاء أو تدعو علي بالموت لأريح وأستريح ، تصفق الباب خلفها بعنف ، فلا أحرك ساكنا لأنني لا أسمع ، وتتكوم أطرافي وأعوم في ملكوت الصمت .

كيف حدث هذا ؟

قبل ثمانية عشر أسبوعا كنت مثل حصان بري ، أصحو مع الفجر لأغادر دفء الفراش ، وأسرع إلى السوق لأشتري ما أستطيع شراءه ، وأعود بما اشتريت إلى البيت .

أتناول لقمتين على الماشي ، وأكرع كأس الشاي دفعة واحدة ، وأسرع إلى الوظيفة وأظل منكبا على الأوراق حتى نهاية الدوام ، وأنا عائد إلى البيت ، أحمل معي ما لم أستطع حمله صباحا . أحد أفراد أسرتي في انتظاري ، أنظر بفرح إلى الأصابع التي تمتد إلى الطعام وتمسحه في لحظة ، وأستريح قليلا ثم أتجه إلى الباب .

تلحق بي زوجتي ، ترجوني كما تفعل كل يوم أن أنتبه وألا أتأخر ، تخبرني بعينيها : سأجعل الأولاد ينامون مبكرين ، فأضحك ، وأنزل إلى العمل الاضافي ، وأعود في آخر الليل محطما من الجلوس وراء المقود ، ومن مشاهدة زبائن آخر الليل ، وأضع حصتي من الغلة على (الكوموديتو) ، وأندس في الفراش أحاول أن أغفو ، فيملأ أنفي عبق بيتي وزوجتي تتظاهر بالنوم وتقول لي بلهجة تمثيلية : انتظرتك طويلا ، هل أسخن لك الطعام ؟ وأجيبها كما أفعل كل يوم : نامي لست جائعا . وأقاوم النوم قليلا ثم أغفو حتى الفجر لأصحو مسرعا إلى السوق من جديد .

في مطلع شبابي ، كانت لي أحلام واسعة ، أحيانا كنت أتصور نفسي ممثلا مرموقا أقف على خشبة المسرح ، وعيون النظارة تلاحق انفعالات وجهي وحركات يدي ، كنت أغمض عيني وأتصور نفسي أغني للمشاهدين وأسمع دوي تصفيقهم ، وأحيانا أتصور نفسي شاعرا أقف وراء الميكروفون وألهب عواطف المستمعين .

لم تأت أحلامي من الفراغ ، فقد كنت عضوا بارزا في فرقة المدرسة المسرحية ، وخطيبا في المناسبات الوطنية والقومية ، وكنت لا أمل القراءة ، وكانت أحلامي تكبر معي يوما بعد يوم .

وأنا أستلم شهادتي الجامعية خيل إلي أن العالم كله سيفتح ذراعيه لي ، فحملت أحلامي وانطلقت أبحث عن عمل ، بحثت كثيرا ، كابرت ، عاندت ، أخيرا وبعد نضال طويل استسلمت ، ووضعت أحلامي وشهادتي الجامعية جانبا ، وقبلت بوظيفة متواضعة على أساس الثانوية العامة ، اقتنعت أو أقنعت نفسي بمقولة والدي :

« شيء أفضل من لا شيء » .

ورغم حبي للانطلاق كنت سعيدا وأنا أضع يدي في أول قيد حديدي ، وتوالت القيود . لقد قاوم الحصان البري طويلا ثم استؤنس ، ولم يبق من ذلك الحصان البري إلا قدرته على الجري بلا حدود ، لقد انكفأت أحلامي على نفسها ، ذبلت وانزوت خلف الكتب التي علاها الغبار ، وهي تنتظر لحظة ود

أطلقها فيها من سجنها .

كيف حدث هذا ؟ كيف تحول الحصان البري إلى هلام يتكوم على بعضه ؟ أذكر ما حدث وكأنه حدث تواً . أفقت صباح يوم على برد يتسرب إلى ظهري ، فمددت يدي أبحث عن زوجتي فلم أجدها إلى جانبي . نظرت إلى الساعة ، كانت تشير إلى التاسعة ، وجلست في السرير مرتاعا على الرغم من أن اليوم يوم عطلة ، وأنزلت ساقي من السرير وبحثت عن خفي المنزلي ، ودسست رجلي في الخفين وحاولت أن أقف ، وأطلقت صرخة مدوية وسقطت على الأرض .

وحملني أهلي إلى الأطباء ، وداخوا بين العيادات ومختبرات التحليل وصور الأشعة . كشف على الأطباء من مختلف الاختصاصات ، صار لي عند كل واحد منهم إضبارة تحمل قصة حياتي منذ تكويني إلى اللحظة التي زرت فيها الطبيب . عشرات التحاليل للدم والبول ، ومنظار المعدة والأمعاء ، وصور إشعاعية للصدر ، وصور ملونة لجهاز البول ، وتصوير محوري طبقي من قمة الرأس إلى أسفل القدم ، لكن علتي التي أشكو منها لم تكتشفها التحاليل ولا صور الأشعة .

بدأ الأمر بأن تسلت مني عظامي ، تسلت أولا عظام فخذي ، ثم تسل مني عمودي الفقري ، كيف حدث هذا ، لا أدري ، كنت أنام وأصحو لأكتشف أن شيئا قد سرق مني ، تسلت عظامي عظمة عظمة ، كأن قوة رهيبة شفطتها ، ثم تسلت أمعائي ومعدتي ، وتوقفت عن تناول الطعام ، وصارت اللقمة تسقط مباشرة إلى أسفل جوفي ، وأسمع صوت ارتطامها بقاعه .

ثم تسللت من رءوس أصابعي أسلاك كثيرة حمراء وزرقاء ، ثخينة ورقيقة . صحت مستنجدا بالطبيب ، إنها شراييني وأوردتي ، قال الطبيب بهدوء : لا بأس لا بأس ، أحسست برغبة في البصق ، فبصقت رئتي ، وحاولت أن أبتلعهما من جديد ، وأعيدهما إلى مكانها فلم أستطع ، كانتا كبيرتين جدا ، فاستغربت كيف وسعها صدري طيلة هذه السنوات ؟

حاول الطبيب طمأنتي عندما سألته عن مرضي ، وفكر طويلا ، كأنه ينبش في ذاكرته بحثا عن اسم المرض ، فصحت به : أشعر بخواء عجيب ، فقد تحول جسدي كله إلى كيس من الجلد لا يحوي شيئا .

وقفز شيء بحجم الجوزة من فمي ، كان ذلك الشيء حنجرتي ، وفقدت القدرة على النطق ، وسمعت صوت الطبيب يقول لزوجتي :

أسف يا سيدتي ، إن زوجك مصاب بالخواء ، مرض نادر ، لكن لله الحمد أنه مرض غير معد ، ولا يصيب إلا أشخاصا مرهفين وشديدي الحساسية ، سأكتب لك اسم حبوب مهدئة ، إنها ليست علاجا ، لكنها تساعد على استقرار حالته ووقف التدهور .

ثمانية عشر أسبوعا وأنا عَلى هذه الحال ، لا أضحك ولا أبكي ، ولا أخرج ولا أحزن ولا أحب ولا أكره ، ولا أنام ولا أصحو ، ولا آكل ولا أشرب .

خواء من الخارج وخواء من الداخل ، شيء وحيد فقط ، صغير بحجم الذرة ، يقبع في مكان ما داخل جمجمتي الفارغة ، يساعدني على التماسك ويمنحني بصيصا خافتا من الأمل □

آمال يقلصها الزمن

● يقول جالز فريتش : في سن الثامنة عشرة يفكر المرء في إصلاح العالم ، وفي سن الثلاثين يفكر في إصلاح وطنه ، وفي الأربعين يفكر في إصلاح منطقته ، وفي الخمسين يفكر في إصلاح بلده ، أما في الستين فيفكر في إصلاح نفسه فقط .

لذة العفو

شعر: محمد مصطفى البسيوني *

لستَ مأمونًا على حفظ الهوى
بعد أنْ خُنْتَ عهودي مرَّتَيْنْ
مرةً كذَّبْتُ ظنّي ، عندما
كان ظنّي ويقيني بَيْنَ بَيْنْ
وأنا الآنَ يقيني ساطعٌ
رغم أنّي لم أُرِدْ غَبْنًا بِعَيْنْ
إنَّ قُربًا في خداعٍ ظالمٌ
عند شرعِ الحبّ ، خيرٌ منهُ بَيْنْ
أينَ مِنْ قلبي قلبٌ عابثٌ
أينَ منّي أنتَ ؟ بلْ أينَ وأينْ ؟
ليسَ مَنْ في عشقِهِ جَمُّ الغِنَى
مثلَ مَنْ في عشقِهِ صِفْرُ اليدَيْنْ
بيدَ أنّي لمْ يزلْ في خافقي
من هوى الأمسِ بقايا خفقتَيْنْ
فإذا عاهدْتَني ثالثةً
فتعلَّمْ مِنْ خصالي خصلتَيْنْ :
لذّةَ العفوِ ، وترويضَ الجوى
فافتحِ الصفحةَ ، واطْوِ الصفحتَيْنْ

* كاتب وشاعر من القطر المصري

الإيقاع

طاقة السحر.. وجسر العبور!

بقلم : خالد القشطيني

هناك شيء مشترك بين كل الشعوب والأمم ، سواء كانت متحضرة أو بدائية ، يتمثل في اشتراكها بالتعامل مع الإيقاع فنيا ، ومن ثم تأثيره عليها ، وإدخاله في الكثير من نشاطات حياتها . فهل مازال الأمر كما كان ؟ وما التغيرات التي دخلت في هذا المجال ؟

قلما نتصفح مجلة أدبية في هذه الأيام دون أن نجد مناقشة بشأن الشعر الحر والشعر العمودي : الوزن والقافية ، القديم والحديث ، وسرعان ما نجد المناقشة تتحول إلى ملاسنة ، ثم إلى مشاتمة . أيمكن لنا أن نناقش هذا الموضوع من زاوية العلم ، ونترك الشعر والشعراء جانبا إلى حين ؟

بتبسيط النقاش إلى أجزائه الأساسية نجد أنه يدور حول عنصر واحد هو الإيقاع ، إنه يتضمن الوزن والقافية ، وأكثر منها أيضا ، فهناك إيقاع في الأفكار والصيغ . وبأبسط معانيه يتحول إلى فكرة التكرار ، أو إعادة العنصر الفني (التفعيلة والقافية في الشعر ، الشكل الهندسي في التصوير ، الضربة في الموسيقا . الحركة في الرقص) بشكل حسابي منتظم ضمن أبعاد زمنية أو مكانية مقررة .

عنصر قديم

يعتبر الإيقاع أقدم عنصر فني اكتشفه الإنسان ، ونجد نماذج تشكيلية منه في رسوم إنسان العصر الجليدي في الكهوف ، في الأشكال المكررة للحيوان ، وفي الزخرفة القائمة على التكرار أيضا ، وذلك ضمن مسافات ، وفي أحجام متشابهة . ونجد نفس الشيء في رسوم المواكب لمصر القديمة . وإذا كان الإنسان القديم قد مارس أي موسيقا أو شعر ، فمن المؤكد أنه اعتمد فيهما على الإيقاع ، وهذا ما

تفعله القبائل المتوحشة في كل العالم ، وهذا ما نفعله في طفولتنا أيضا . وقد تحول الإيقاع بنمو الحضارة إلى التناظر ، وهو تطابق جانبين من العمل الواحد كصدر البيت الشعري وعجزه ، وجانب اليمين والشمال في العمارة . ووصل التناظر الايقاعي إلى روعته في معابد الإغريق وزخرفة العرب ، وظل الإيقاع يكون البنية الأساسية لكل الأعمال الفنية ، حتى عهد النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر .

وفي القرن الرابع ق . م ، شغل فلاسفة اليونان في معالجة موضوع الإيقاع فقسمه « ارستوكسنوس » إلى الايقاع الكلامي والنغمي والحركي . وتعرض أرسطو لعلاقة الإيقاع بالوزن دون أن يستطيع الفصل بينهما بوضوح .

فما الذي أعطى الإيقاع هذه الأهمية والشمول فجعل كل الشعوب تتمسك به : من الهنود الحمر والاسكيمو إلى الصينيين واليابانيين ، أيمكن أن نجد أصولا بيولوجية لهذا الشمول الفطري ؟

الظاهرة الأولى التي تواجهنا هي أنه أول نشاط فني يهز الطفل ، فتتهلل أساريره ، ويخلد إلى نوم رغيد ، بمجرد أن تضرب له الأم ضربات إيقاعية على السرير أو على جسمه أو على خشبة أو علبة فارغة ، الام البارعة هي الأم التي تضبط ايقاع ضرباتها فتنيم طفلها ، والام الخائبة هي الأم التي تسيء التوقيت فتقلق نومه . بعد أسابيع من الولادة ، يبتسم ويقهقه عندما تغني له أو تتلو عليه نتفة من قوافي الطفولة التي لا تعني الكثير ، لكنها تردد وزنا وقافية . فلماذا يفرح بها ؟

نلاحظ العلاقة بين الإيقاع الفني والنبض « الفسيولوجي » في عدة ظواهر ، فمن المعروف أن الاحتدام العاطفي والفرح الشديد والإثارة تؤدي إلى تسارع وعنف في ضربات القلب ، وعلى غرار ذلك نجد الشعراء والموسيقيين يتشبثون بإيقاع سريع وأوزان قصيرة :

حَامِلُ الهوىَ تَعِبُ   يَسْتخِفُّهُ الطَرَبُ

مثال واحد عابر . وبعكس ذلك تهبط ضربات القلب وتقل سرعتها في حالات الحزن والكآبة والغيبوبة والموت البطيء . وعبّر الموسيقي « ماهلر » خير تعبير عن ذلك (وكان يعاني من مرض قلب مميت) في خاتمة سمفونيته التاسعة التي مثل فيها اقتراب موته بتلك الضربات الطويلة البطيئة المتقطعة ، وانتهت حياة « ماهلر » بانتهاء كتابة السمفونية ، وتوفي قبل أن يسمعها . ومراثي الشعر العربي معروفة بأبياتها الطويلة البطيئة . وفي كل اللغات يتكلم الناس عن النبض الموسيقي وضربات النغم ، ويمكن أن نقول أن الحسابات الموسيقية وضربات الرقص هي في الواقع تطوير وتركيب لمسافات النبض القلبي .

في عالم البصر والفنون

لكن إذا صحت هذه العلاقة في عالم الأصوات ، فكيف يمكن أن نفسر ظاهرة الإيقاع في عالم البصر والفنون التشكيلية ؟ من الممكن تفسير ذلك بالرجوع إلى قدرة الإنسان على تحويل المرادفات الحسية من حاسة إلى أخرى ، وتحدث أبسط عمليات هذا التحويل بين عالمي الشعر والموسيقا ، عندما يغني المغنون القصيدة ، وينظم الشعراء النغم ، ويحول الرسامون القطعة الموسيقية إلى لوحة ، مثلما يلحن الموسيقيون نغما يصور منظرا أو لوحة أو قصة أو مسرحية . وفي هذه القدرة على التحويل ، يتحول الإيقاع الصوتي إلى إيقاع بصري . ومن الشائع أن نقول إن هذه موسيقا تصويرية ، وهذه صورة راقصة أو شعرية .

بيد أن الموضوع يتجاوز هذا النطاق الضيق ، ومن الطريف أن نلاحظ أن معظم نشاطات الإنسان التي يتوقف عليها بقاء النوع وتطوره نشاطات إيقاعية أو تتصل بالإيقاع ، ومن ذلك العملية الجنسية والتنفس والمشي والركض . ولما كان الصيد مهنة الإنسان الأولى ، فلابد أنها خلدت في لاشعور النوع البشري الأصوات الإيقاعية لوقع حوافر الخيل والغزلان والماشية ، إذ جلس الإنسان الأول يتقصها ، ويصغي إلى أصواتها التي تبشره بالأكل

والبقاء . وكثيرا ما استوحى الفنانون تلك الهواجس ، فامتزجت إيقاعاتها في أعمالهم كما فعل الموسيقي « شوبرت » عندما استقى « مارشاته » الشهيرة من أصوات خبب الخيل . وقد لحن كل الموسيقيين موسيقا المارش (السير) على أساس خطوات الجند في مسيراتهم ، وذلك بسرعات وتراكيب تلائم الحالة التي يريدها الملحن .

قوة سحرية

نمضي فنوسع دائرة البحث لننتقل إلى العالم الكوني « الكوزموزي » ، سرعان ما لاحظ الإنسان بعد عمليات الصيد والزرع ، وفي لحظات راحته وتأمله ، كيف يتحرك هذا الكون الذي يحيط بإيقاع منتظم ، كتناوب الليل والنهار ، وتناقص القمر وتزايده ، ومد البحر وجزره ، وتعاقب الفصول ، ودوران النجوم والأفلاك .

والنتيجة التي لابد أن نسلم بها هي أن الإيقاع جوهر أساسي من تركيبنا النفسي ، وحياتنا اليومية ، وتنظيمنا الاجتماعي ، وعالمنا الذي نعيش فيه ، ولهذا يحمل طاقات سحرية تهزنا بشكل قلما يهزنا به أي شيء آخر . واستغل الإنسان هذه القوة السحرية في أعماله الانتاجية فيما يسمى أزجالا وأغاني وموسيقا للعمل ، فالألحان والأشعار التي يرددها العاملون في تنظيم العملية بشكل إيقاعي ، وفي تخفيف وقع الإجهاد والتعب ، كأغاني عمال السفن الذين يرددون « هيلا هيا هيلا » في مصر و « هاي يو خيم » على ضفاف الفولغا .

واستخدم العرب هذه القوة السحرية للإيقاع تصويريا في زخرفتهم الإسلامية التي قامت على ايقاعات مختلفة السرعة والأحجام والأشكال الهندسية ، وفي مقابل ذلك تمسك العرب تمسكا صارما بالتنظيم الإيقاعي الهندسي للقصيدة التي اكتسبت قوتها السحرية من التكرار المغناطيسي لتفاعيلها وقوافيها . وكما قلنا سلفا ، ظل الإيقاع يشكل البنية الأساسية لكل الأعمال الفنية حتى عصر النهضة ، فباكتشاف الايطاليين لعلم المنظور اتضح أنه لايوجد شيئان متطابقان تماما أمام العين ، فالنخلة القريبة تبدو أكبر من النخلة البعيدة وأقوى لونا منها على الرغم من التساوي الحقيقي في الحجم واللون أيضا ، وعليه فإن تكرار الأشياء بشكل متشابه يناقض الطبيعة . وبذلك ترك الرسامون المنحى الزخرفي ، واتجهوا إلى دراسة تشريح الجسم الإنساني في وضعياته المعقدة ، وخرجوا إلينا بتلك اللوحات الخالدة التي تعتمد على تداخل الأجسام ومنظور الأشكال وامتدادها فيما نعرفه بالبعد الثالث ، أي العمق .

وبتقدم مسيرة العقل والعلم والاكتشافات الحديثة في ميادين الفيزياء والألوان والأصوات وعلم النفس وعلوم اللغات وفلسفة النقد اتجه الفنانون والأدباء إلى ميادين ذهنية ، بعيدا عن السحر الإيقاعي الذي يمثل في الواقع مرحلة بدائية وحيوانية من الوعي والتذوق ، وهذه هي المحنة التي تجابهها الآن ، وبالتخلي عن الإيقاع (وزنا أو قافية) نكون قد حرمنا أنفسنا من أقوى طاقة سحرية تهز مشاعرنا وغرائزنا ، وبحذف هذا العنصر يضيق الشاعر على نفسه مجال الحركة ، ويقلص منافذه إلى أبواب التصوير والبلاغة والبيان والبديع والحكمة والفلسفة .

الشعر العربي ، بل والأدب العربي عموما ، يعاني من هذه المشكلة العويصة ، مشكلة الانفصام بين اللغة الفصحى ، لغة الشعر ، واللغة الشعبية ، لغة الأكثرية من بدو وفلاحين وعمال وكسبة أميين . إن الإيقاع يعطي الشعراء جسرا للعبور به الى هذه القطاعات غير المثقفة باللغة الفصحى ، بالنظر للعمومية التي يتصف بها الإيقاع ، والتي أشرنا إليها . وبتخلي الشعراء عن هذا العنصر الأساسي يكونون قد نسفوا هذا الجسر في عملية أقل ما تقوله بحقها انها عملية انتحارية ، فالشعر يعاني من العزلة والهجران في كل الدول الحديثة ، وفي وطننا العربي الذي يجابه مشكلة الانفصام اللغوي ستكون العزلة كاملة . وبعد قرون من الاعتزاز الذي أولاه العرب لفن الشعر ـ ديوان العرب ـ سيواجه الشعر (غير العامي) موتا سريعا . □

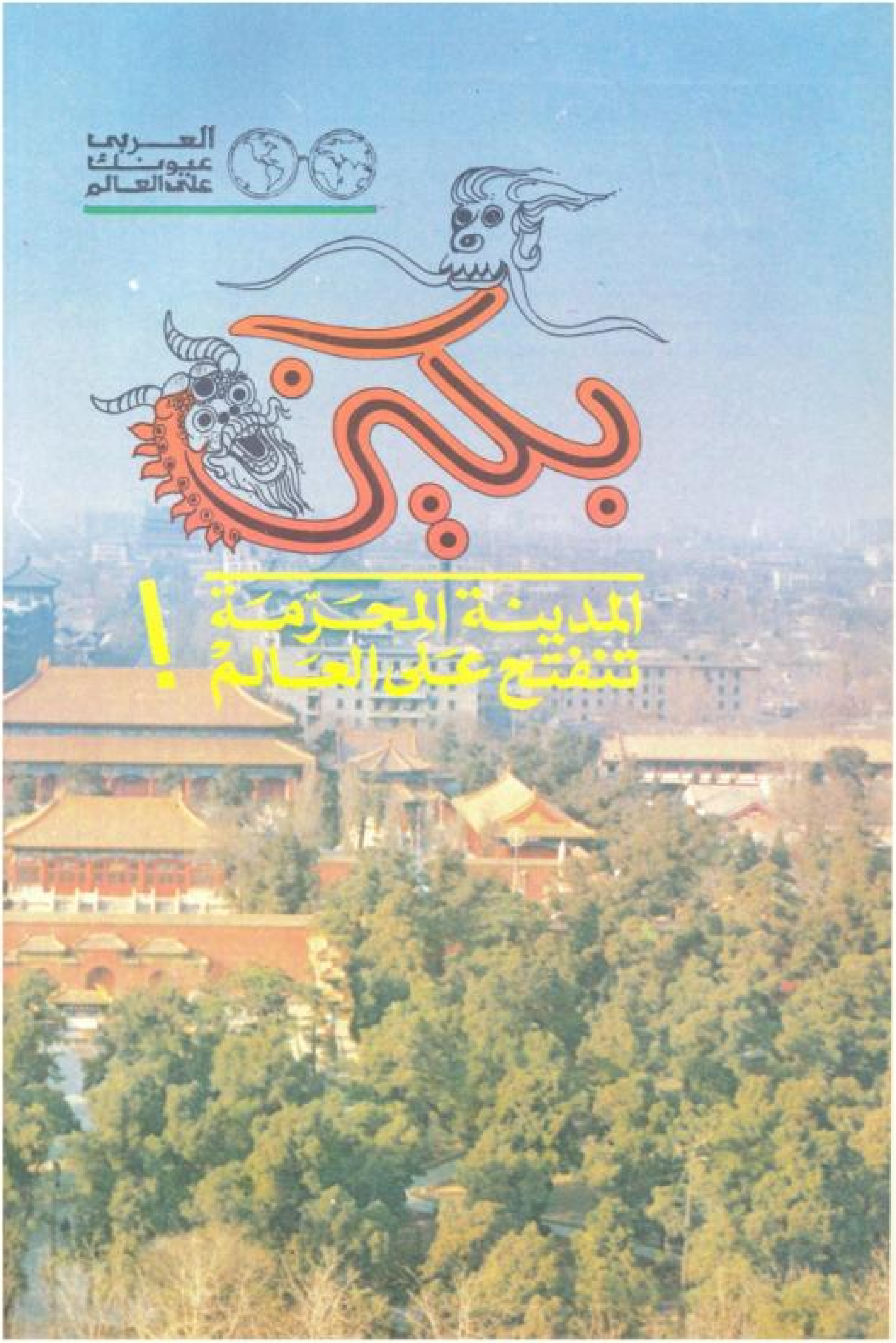
العربي
عيونك
على العالم
بكين
المدينة المحرمة
تنفتح على العالم!

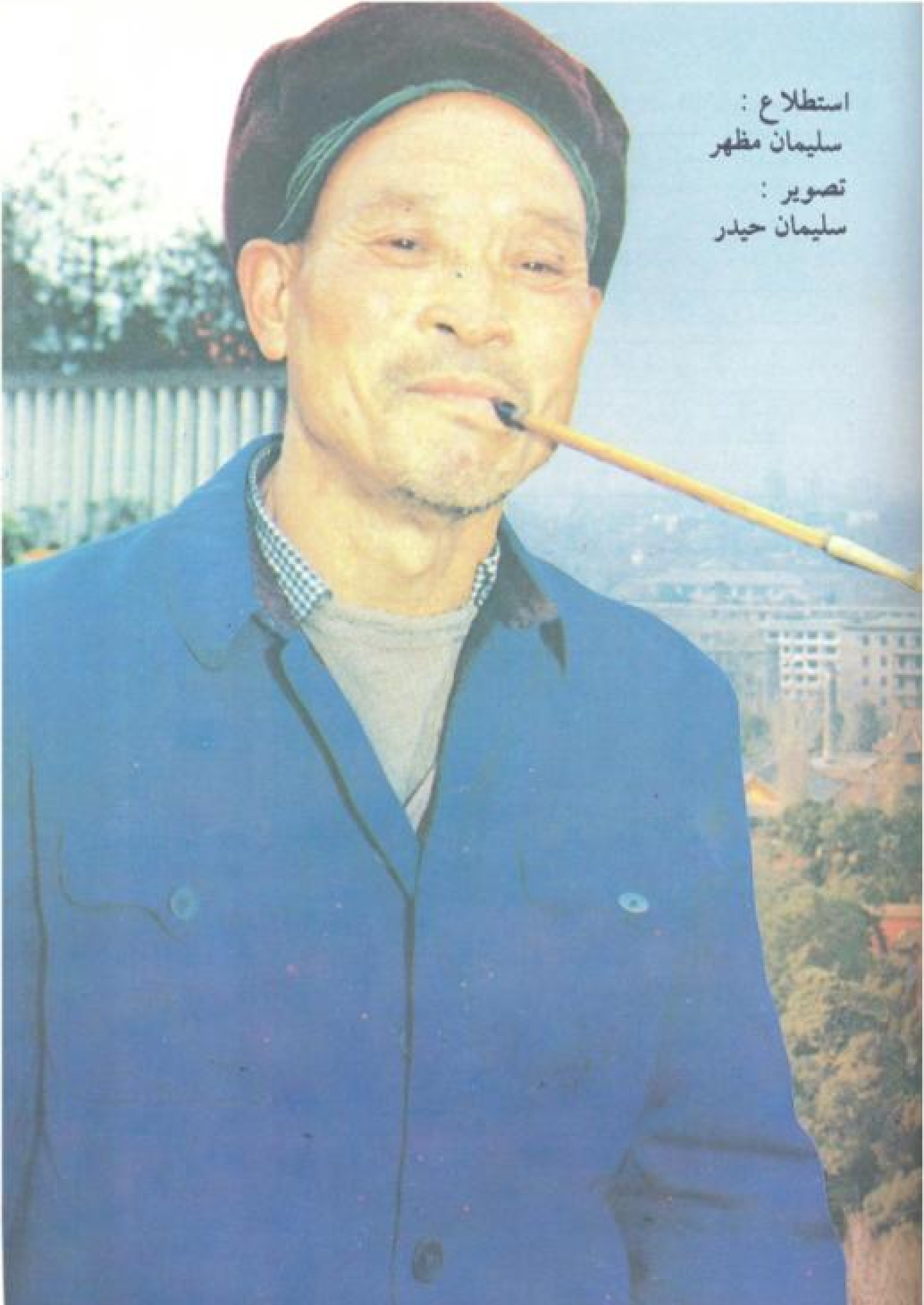

استطلاع :
سليمان مظهر
تصوير :
سليمان حيدر

في قلب بكين - عاصمة أكثر الدول ازدحاما بالسكان - ووراء ميدان « تيان آن من » . . تستلقي المدينة الامبراطورية التي كانت محرمة لمئات السنين . . ولكنها الان لم تعد محرمة بعد . . !

كل الأقدام أصبحت تجوس فيها ، من كل لون وجنس ، بلا هيبة ولا تقديس ، فقد أبيحت للجميع ، بعد أن كانت أقدام الاباطرة وزوجاتهم وأبنائهم هي وحدها التي تنطلق على طرقاتها ، وتخترق بوّاباتها ، وتستظل بجدرانها ، وتتفيأ بحدائقها ، ولا يخرج منها حيا من دخلها لتلبية حاجاتها ، وأداء مهامها ، وخدمة سكانها ، فمنذ لحظة دخوله واجتيازه أبوابها يكون القدر قد كتب عليه أن يبقى سجينا داخل أسوارها ، طالما ظل به رمق من حياة ، فلا يخرج منها إلا في كفن ، فالميت لا قدرة له على إذاعة سر من خفايا مايجري وراء الأسوار . . !

قبل أن تخترق أسوار الميدان المسمى « تيان آن من » في قلب بكين عاصمة ربع سكان العالم ، تجد نفسك في عمق الصورة كلها . . الصين باتساع ملايينها العشرة من الكيلومترات المربعة ، وبازدحام سكانها الألف والمائتين من ملايين البشر ، وبخضرة سهولها الفسيحة المنبسطة بلا حدود ، وبامتداد صحاريها المترامية بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، وبارتفاع جبالها المكسوة بالثلوج التي تتخللها الشلالات ، وبتلوى سورها العظيم الممتد على القمم بطول ٧٣٠٠ من الكيلومترات ، وبفيضان أنهارها الطويلة من البحر الأصفر إلى هوانج هو ويانجتسي ، وبتباين لغاتها بين الماندرين الصينية وألسنة ولهجات ست وخمسين من القوميات والمجتمعات القبلية ، وبمعالم تاريخها الممتد منذ « إنسان بكين » الذي عاش قبل ٥٠٠ ألف سنة ، إلى عصور الأباطرة ، وأسرهم الملكية التي حكمت طوال أربعة آلاف من السنين ، وبأصالة مدينتها الامبراطورية المحرمة وبواباتها الرئيسية التي يحمل الميدان الكبير اسمها .

في هذا الميدان تشهد تناسقا غريبا في مكان واحد وزمان واحد بين الأصالة والمعاصرة ، بين عمق التاريخ بكل أسراره وأحداثه ، وصورة الحاضر بكل تطلعاته وإنجازاته ، فهنا تقوم المنصة التي وقف عليها « ماوتسي تونج » معلنا قيام جمهورية الصين الشعبية ، وهنا تقبع قاعة ماو التذكارية وسط المدينة ، وإليها تنطلق الطوابير المصطفة للزيارة ، قادمة من مختلف مقاطعات الصين . ومن خلال الصفوف المتزاحمة تتمثل لك الاسرة ذات الطفل الواحد لتخفيف حدة الانفجار السكاني ، وتخترق مسيرتك زرافات الدراجات الهوائية ، وسيلة الانتقال الرئيسية لكل طوائف الشعب ، نساء ورجالا ، موظفين وعمالا وفلاحين . وأمام النصب التذكاري لابطال الشعب تتذكر مشاهد الملاحم التي خاضها الشعب الصيني ضد الاستعمار منذ حرب الافيون ، وضد الطغيان منذ حرب المقاومة الباسلة . وعلى شرفة العمود التذكاري لشواين لاي تتأمل رمز انطلاق شرارة الثورة الديمقراطية الجديدة ، وتظل حواليك ، فتشهد ملامح

الانجازات العمرانية والاقتصادية والعلمية ، ممثلة في المباني الحديثة لقاعة الشعب الكبرى ، ومتحف الثورة الصينية ، ومتحف التاريخ ، كما تجد نفسك وسط الآلاف من السائحين القادمين من كل دول العالم ، بعد أن فتحت الصين المتغلقة أبوابها على العالم . . !

باب السلام السماوي

تلك هي الصين الجديدة على ساحة ميدان « تيان آن من » حيث وقفنا نطل على البوابة الكبرى التي تقبع خلفها المدينة المحرمة . يرفرف فوقها العلم الأحمر بنجومه الخمس ، وتطل من فوق مدخلها الأوسط صورة كبيرة لماوتسي تونج ، في نفس المكان الذي أعلن فيه قيام جمهورية الصين الشعبية في أول اكتوبر عام ١٩٤٩ . قال لنا مرافقنا قاوبوتشي « واسمه العربي رشاد » أن تيان آن من كانت هي البوابة الرئيسية للسور الامبراطوري (تسي جين تشينج) ، وتعني « باب السلام السماوي » ، بنيت في اوائل القرن الخامس عشر ، ثم تعرضت بعد إنشائها للدمار والخراب على يد مجهول أشعل فيها النيران . وحين نقف أمامها ونتأملها بعد أن أعيد ترميمها عام ١٩٨٣ نجدها مع برجها ترتفع إلى أكثر من ٣٣ مترا ، وفي أسفلها خمسة معابر ، ذات جدران قانية لم يكن يمر من أوسطها سوى الامبراطور . . !

وأشار مرافقنا إلى الامتداد الواسع وهو يقول :

في الساحة المواجهة لبوابة « تيان آن من » تظاهر الطلاب والعمال ببكين يوم ٤ مايو ١٩١٩ ، مطلقين شرارة الثورة الديمقراطية الجديدة في الصين ضد حكم الاستعمار وأمراء الحروب ، وهي حركة شهيرة في تاريخ الصين المعاصرة ، كما سجل الميدان فصلا مجيدا عندما تقاطر عليه مليون من الجماهير ، تخليدا لذكرى شواين لاي ، وهم يتحدون عصابة الأربعة والثورة الثقافية الكبرى الباغية .

من العبودية الى الحرية

لن تستطيع أن تتصور حقيقة ما يجرى في الصين الشعبية من تطور وانجاز وتقدم يبرز أغلبه خلال السنوات العشر الماضية بعد الانفتاح على العالم ، إلا

ـ خريطة الصين الشعبية وموقع بكين العاصمة

إذا استعدت في ذاكرتك أحداث الثورة الثقافية الكبرى ، ومؤامرة عصابة الأربعة ، فقد كادت هذه الأحداث تقضي على كل الدعامات التي قامت عليها الإنجازات الأولى لحكومة الشعب ، منذ إعلان قيامها رسميا ، بقيادة ماوتسي تونج ، بعد أن خاض الشعب حرب التحرير ، سواء ضد حكومة الكومنتانج برئاسة شيان كاي تشيك ، أو ضد الاباطرة واليابانيين ، أو ضد الانجليز الذين شنوا على شعب الصين حرب الأفيون المدمرة التي بدأ معها تاريخ الصين الحديث ، فمنذ ذلك الوقت تعرضت البلاد لغزوات متتالية من الدول الاستعمارية ، واضطرت للخضوع تدريجيا ، وأصبحت بلدا شبه مستعمر وشبه إقطاعي ، وكبح الطغيان المزدوج للامبريالية والاقطاع نمو الاقتصاد والعلوم والثقافة في الصين . وبدأ الشعب ـ وقد شلت بلاده ووصلت أحواله إلى أسوأ ما يمكن أن تصل إليه ـ يخوض نضالا جديدا طويلا باسلا ضد اضطهاد الإقطاع ، وعدوان الغزاة ، حتى أطاحت ثورة عام ١٩١١ التي قادها « صن يات صن » بحكم أسرة تشينج (المانشو) ، وقامت جمهورية الصين . على أنه حتى مع قيام الجمهورية الأولى مرت بالبلاد فترة من الاضطرابات والانقسام في ظل أمراء الحرب الاقطاعيين . وحين قامت الثورة البلشفية في روسيا

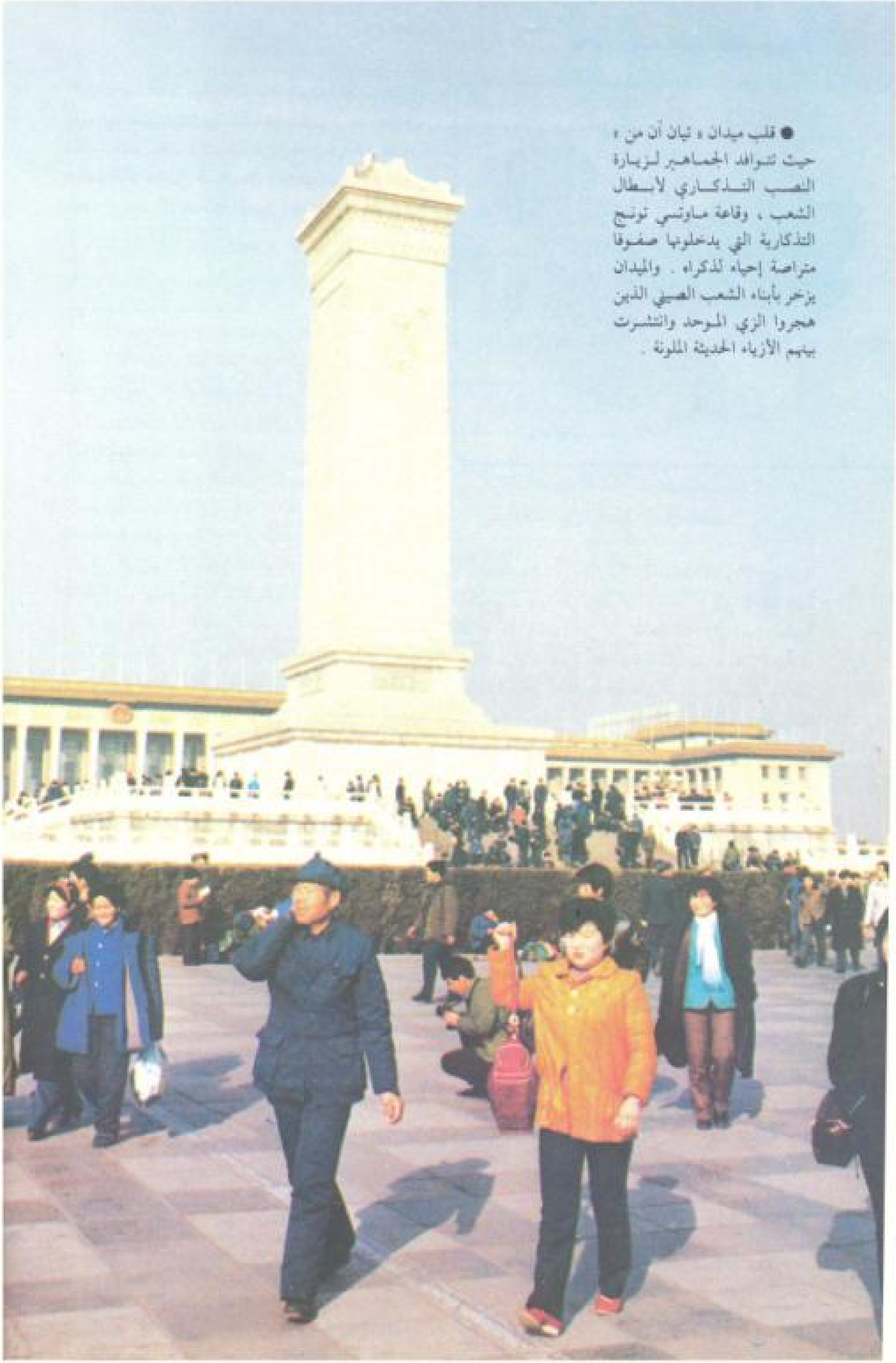

● قلب ميدان « تيان آن من »
حيث تتوافد الجماهير لزيارة
النصب التذكاري لأبطال
الشعب ، وقاعة ماوتسي تونج
التذكارية التي يدخلونها صفوفا
متراصة إحياء لذكراه . والميدان
يزخر بأبناء الشعب الصيني الذين
هجروا الزي الموحد وانتشرت
بينهم الأزياء الحديثة الملونة .

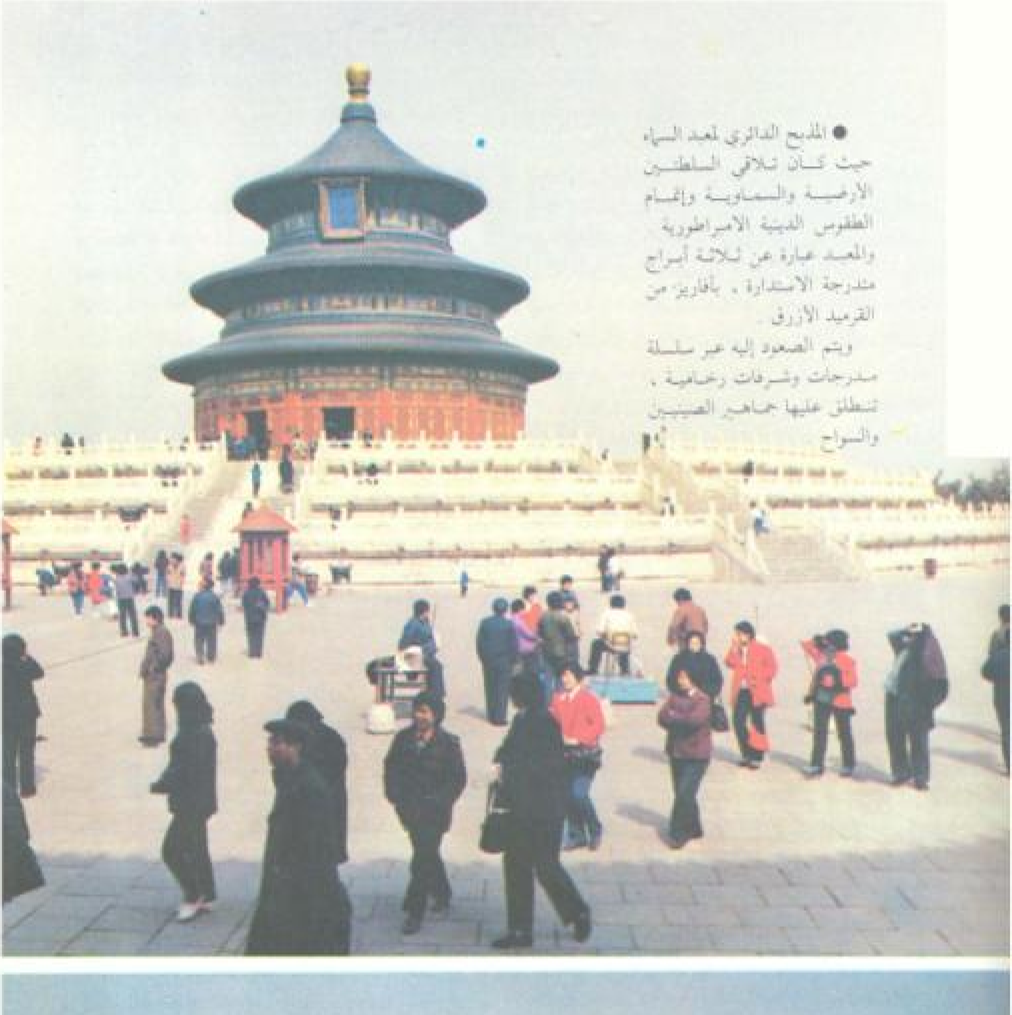

● المذبح الدائري لمعبد السماء حيث كان تلاقي السلطتين الأرضية والسماوية وإتمام الطقوس الدينية الامبراطورية والمعبد عبارة عن ثلاثة أبراج متدرجة الاستدارة ، بأفاريز من القرميد الأزرق .

ويتم الصعود إليه عبر سلسلة مدرجات وشرفات رخامية ، تتطلق عليها جماهير الصينيين والسواح

● باب السلام السماوي ومن خلفه المدينة المحرمة ، وهو يتصدر الآن ميدان « تيان آن من » حيث التناسق بين الأصالة والمعاصرة في بكين .

عام ١٩١٧ اعتنق عدد من المثقفين الصينيين الشيوعية ، وهبت حركة ٤ مايو ١٩١٩ دليلا على تصميم الشعب على النضال ضد الامبريالية والاقطاع . وتحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني وماوتسي تونج ناضل الشعب طوال ثلاثين عاما ، تخللتها عدة حروب ، وتكلل النضال بتأسيس جمهورية الصين الشعبية انتصارا للثورة الجديدة وبداية للاشتراكية في الصين .

هكذا لخص لنا « تشاوياتج » رئيس تحرير دار النشر للمعلومات العالمية أحداث التاريخ بكلمات سريعة موجزة في أول لقاء لنا في بكين .

الشعب .. على الطريق

من خلال الفنان النضال عاش الشعب حياته .

الشعب .. هو صاحب اليد الطولى في كل ما يجري في الصين ، سواء في عصور العبودية الأولى ، أو سنوات مواجهة الغزاة ، أو خلال ثورة الفلاحين لاسقاط الاباطرة والاقطاع ، أو على مدى مسيرة الاشتراكية بتحولاتها من حرب التحرير الى المسيرة الكبرى على طريق بناء المجتمع الجديد ، ثم الى الانغلاق للبحث عن التراث ، والى التحدى ضد انقلاب العصابات ، والى القضاء على حكم الفرد ، ثم الى التنمية والتحديث والانفتاح على العالم .

النزول الى الشعب ومتابعة حياة الناس في الشوارع والمصانع والحقول والأسواق والبيوت ، يفتح لنا الطريق الى معرفة حقيقة الصورة التي تحولت إليها الصين في عهدها الجديد ، بعد أن اتخذ قرار استراتيجي بتحويل بؤرات العمل الى التحديث الاشتراكي تمشيا مع سياسة تنادي « بتحرير عقولنا وتشغيل أدمغتنا والبحث عن الحقيقة في واقعنا والاتحاد يدا واحدة للتطلع الى المستقبل » .

زحام الملايين العشرة الذين يسكنون بكين وحدها وينطلقون في شوارعها وأسواقها شديد رهيب . ومع ذلك فلا تدافع بالأيدي والمناكب ، ولا ضوضاء تعلو وتنخفض ، ولا صخب بين الباعة والمشترين ، ولا معاكسات أو حركات مزرية من الشباب الى الشابات ، ولا تسابق بين السيارات أو اطلاق « للكلاكسات » ، ولا إلقاء للأوراق والأقذار على أرصفة الطرقات ..

الأسواق مليئة بالباعة والمشترين ، ولكن أصوات المساومة لا تكاد تسمع . ولا تكالب على شراء كميات كبيرة ، وعدد أفراد الأسرة عادة قليل تمشيا مع القانون،ولا حاجة لتخزين المشتريات ، وبخاصة أن الأغلبية من العمال والفلاحين والموظفين لا تعرف البذخ ولا تملك المبردات الكهربائية لحفظ الأطعمة ، ونادرا ما تجد امرأة أو رجلا يسير حاملا مجموعة من الاكياس المملوءة بالخضراوات أو الفاكهة أو المشتريات من أي نوع ، فكيس واحد صغير فيه الكفاية . وأغلب الأسر الصغيرة تفضل أن تحصل على الوجبات الجاهزة سواء ما يباع منها على العربات الصغيرة أو مطاعم الأرصفة . وليس هناك ما يمنع المقتدرين من تناول وجبتهم في مطاعم الانفتاح الاستهلاكي الواردة حديثا والتي بدأت تتناثر في شوارع المدينة لتقدم الهامبورجر والكوتشاكي والبيتزا . ولأن العمل في المصانع والمتاجر والمكاتب يستمر ثماني ساعات في اليوم يتخللها ساعة للغداء ، فلا تستغرب حين تشاهد الفتيات والفتيان وهم يسيرون في الشوارع ، وفي يد كل منهم صحن أو آنية مسطحة أو مقعرة ، يتناولون طعامهم المكون من الأرز المسلوق مع الحساء والخضراوات المغلية ، والذي يشترونه ، ويأكلونه بكل بساطة وبلا حرج ، من الباعة والمطاعم الشعبية المتناثرة على الأرصفة .

مطاعم المأكولات الخفيفة تتراص بجوار بعضها ، منها ما يقوم بالطبخ والتسخين فوق الماء المغلي أو في داخله ، ومنها ما يقوم بالشي « والقلي » . وهناك طعام يسمى « شياجياو » عبارة عن خبز محشو بالجمبري المفروم ، وأغلب الأطعمة تعامل بتوابل الفلفل الأحمر والأسود والزنجبيل ومعجون فول الصويا ولذلك هي حارة ولاذعة .

لا .. للزي الموحد .. !

في الشوارع والأسواق لن تجد أما تجر وراءها حشدا من الأطفال ، ولا أبا حائرا داخل متجر يبحث عن ملابس أو أحذية مختلفة المقاسات كما هو العهد في أغلب بلادنا النامية .

ولكنك مع هذا ستجد حركة البيع والشراء مستمرة في المحلات والمتاجر والأسواق المركزية التي لا تختلف في اتساعها وما تحتويه من معروضات عن

أي بلد غربي متقدم ، فالصينيون أصحاب ذوق رفيع ، يحبون الديكورات والزخارف والتحف والمقصوصات الملونة والطائرات الورقية واللوحات الجميلة ، يزينون بها جدران بيوتهم وأسقفها التي تدل منها الزخارف الملونة ، والتي يميل أغلبها الى اللون الاحمر ورسوم التنين والحيوانات الاسطورية .

ولا تستغرب الملابس والأزياء الحديثة التي يشتريها الناس ، رجالا ونساء شيبا وشبانا ، ويرتدونها في كل مكان ، فمع موجة التحديث والانفتاح وإلغاء قيود الانغلاق ، هجر الجميع الزي الموحد المكون من الحلة الزرقاء والجاكيت المغلق بالزراير حتى الرقبة الذي اشتهر به الصينيون خلال السنوات الاولى للبناء الاشتراكي والذي فرضته القيادة الحزبية مع بداية قيام الثورة تأكيدا للمساواة بين الأفراد وضغطا للاتفاق على الأزياء .

وفي جلسة دعانا إليها مرافقنا مع بعض أفراد الأسر الصينية . . قالت لنا سيدة الدار :

ـ مع التطور الأخير وزيادة مدخولاتنا كأفراد ، ارتفع مستوى الاستهلاك لدينا ، وتحسنت معيشتنا أيضا ، فقد حدث انخفاض ملموس في نسبة تكاليف الطعام ، وارتفاع مقابل في نسبة نفقات الملابس ولوازم المنزل وبعض الكماليات الاساسية . وقد حدثت زيادات في استهلاك ملابس الصوف والحرير ومنسوجات الالياف الكيماوية على حساب الملابس القطنية التي كانت اللباس السائد للمواطنين . كما تغيرت معدلات استهلاك اللوازم المنزلية لحساب اقتناء الدراجات وساعات اليد وماكينات الخياطة .

ونسأل : ولكن ماذا عما نتعارف على تسميته بالكماليات ؟

تقول إحدى السيدات : خلال السنوات الأخيرة اتجه الطلب في المدن الى الراديو والتلفزيون وهي كلها صناعات وطنية ، وكذلك الى الادوات الطويلة الدوام مثل الغسالة والثلاجة والمروحة الكهربائية والمسجل والكاميرا فضلا عن الأثاث ولوازم التجميل . ولاشك أنك لاحظت أننا نستخدم لوازم التجميل الآن في جلستنا رغم أنها كانت محظورة علينا من قبل .

ومرة أخرى نعود إلى بكين . . ومدينتها المحرمة . .

وهنا قد يحتاج الأمر إلى عودة متأنية الى الماضي البعيد في الصين . .

. . وندخل المدينة المحرمة

كان القصر الامبراطوري في بكين ـ المعروف باسم المدينة المحرمة في العصور الماضية ـ هو المقر الدائم لأباطرة أسرتي مينج وتشنج (المانشو) ، وهو أكبر البنايات المعمارية القديمة الموجودة في العالم من حيث الحجم والكمال .

كانت بداية إنشائه من ١٤٠٦ حتى ١٤٢٠م ، ومنذ ذلك العام حتى عام ١٩١١ حين سقط « بويى » آخر أباطرة المانشو أقام فيه ٢٤ امبراطورا ، مارسوا منه الحكم الأوتوقراطي ، والنفوذ الفردي على الصين . وطوال المسيرة الطويلة للقصر الامبراطوري كانت جهود عدد لا يحصى من الأيدي العاملة قد استغلت ، بالإضافة إلى موارد هائلة من المواد والأموال . تقول الوثائق إنه في عهد امبراطور واحد هو « يونج لي » سيق أكثر من ١٠٠ ألف من الفنيين ، وحوالي مليون من العمال للمشاركة في أعمال البناء !

يغطى القصر مساحة حوالي ٧٢٠ ألف متر مربع ، منها ١٥ ألف متر مربع للمباني وحدها . وله أربع بوابات في الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وتقف عند المدخل الرئيسي للمدينة الامبراطورية المحرمة فيخطر بالبال سؤال : لماذا هي محرمة ؟

ونسمع الإجابة من كبير محرري دار النشر « تشانج فوتشيانج » الذي كان بصحبتنا : المعتقد الصيني القديم يتصور أن العالم عبارة عن مربع ، تتوسطه دائرة هي الصين ، وبين المربع والدائرة تعيش شعوب من البرابرة والمتوحشين ، لا حول لهم إلا أن يكونوا تابعين للشعب الذي في داخل الدائرة .

وبتوسط هذه الدائرة مستطيل متناسق الترتيب هو العاصمة ، وفي داخل المستطيل سور داخلي يحيط بأرض مربعة ، هي المدينة الخارجية التي تضم بداخلها منطقة مستطيلة الشكل ، محيطها عشرون كيلومترا ، وهي المدينة الداخلية التي يقيم بها طبقات الشعب والأيدي العاملة .

● قصر التناسق الصوتي في قلب المدينة المحرمة . من هنا كان يشع السلطان المطلق للامبراطور « ابن السماء » على جميع أنحاء الكون . لكنه الآن أصبح مزارا ومتحفا بعد أن فقدت المدينة الامبراطورية حرمتها وفتحت أبوابها لكل الشعب .

العرش الذهبي (إلى أسفل) يتوسط قاعة القصر ، وتحيط به الأعمدة المزخرفة والمدرجات الرخامية ، وتزينه الأحجار الكريمة والنقوش الحيوانية والنباتية .

(إلى اليمين) ابتسامة لطفلة ، هي لوحة معبرة عن الاهتمام الأسري بصحة الطفل الوحيد للأسرة الواحدة .

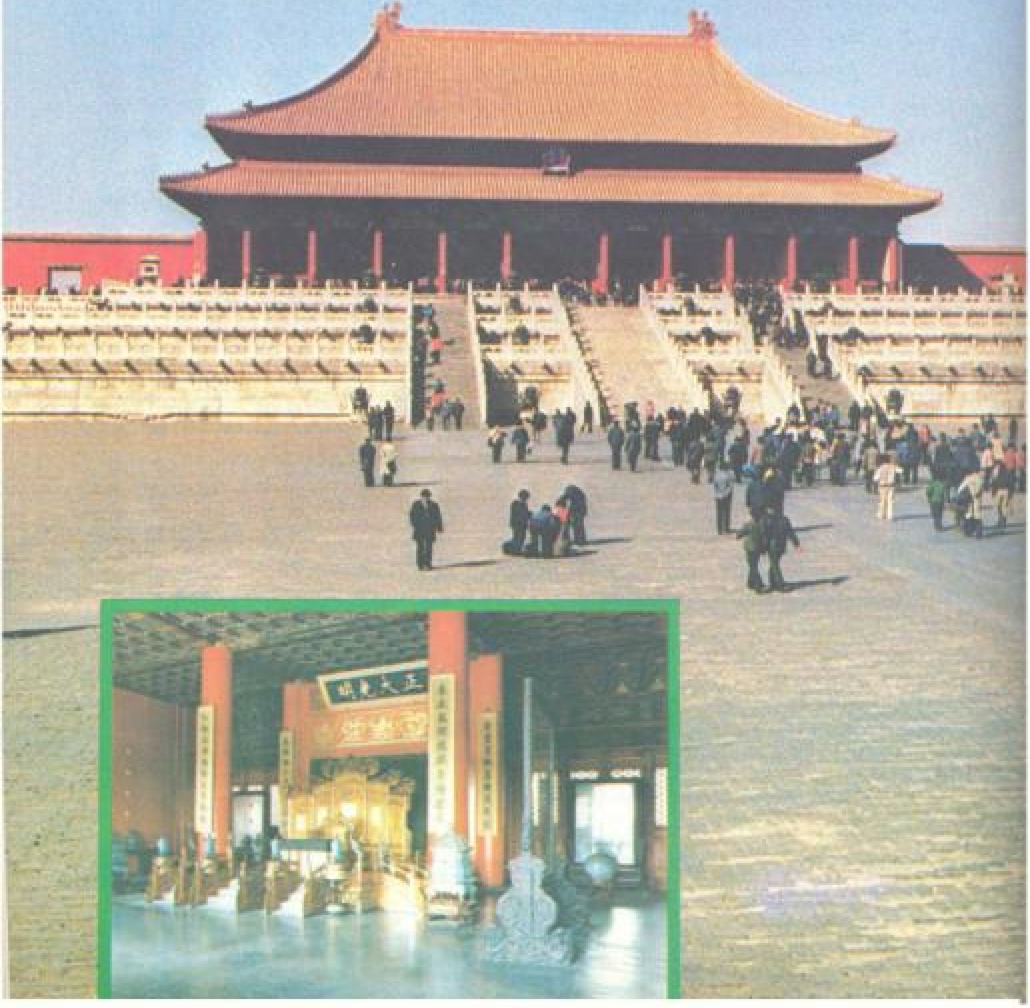

وتظل المدينة الداخلية من الداخل على المدينة الامبراطورية البالغ محيطها ٩ كيلو مترات ، وفي جوانبها الأربعة تقوم أبواب الأسوار في تناسق تام على جانبي المحور من الداخل ، حيث ترتفع أسوار عالية ، تفصل بينها وبين القصور الامبراطورية التي تعتبر كلها داخل نطاق المدينة المحرمة . وهذه المدينة المحرمة تتناثر فيها مجموعة من القاعات الكبيرة المنفصل بعضها عن بعض ، في تنيق متناغم الترتيب ، تسمى كلها القصر الامبراطوري ، وهذا القصر هو مركز القلب للمدينة المحرمة التي لا يدخلها إلا موظفو البلاط وعائلة الامبراطور وحاشيته وخدامه ! .

على هذا القصر الحرام تشرق الشمس لتغمره بالأشعة والنعم ، ومنه يشع السلطان المطلق للامبراطور « ابن السماء » على جميع أنحاء الكون ، فهو قلب الصين ، ومركز العالم كله ، وهو للأرض كلها بمثابة الشمس التي تحدد مسيرة الحياة . !

ذلك هو سر تسمية المدينة المحرمة التي مازال هيكلها محافظا على الشكل الذي كان عليه في عهد أسرة مينج ، ومايزال يحيط بها نفس الخندق المائي القديم بعرض خمسين مترا ، ويفصلها عن بقية أنحاء العاصمة بكين سور أرجواني اللون ، طوله أربعة آلاف متر ، وارتفاعه عشرة أمتار . . !

التناسق المصون

تعال بنا نتدلف الى المدينة المحرمة من نفس البوابة الرئيسية التي كان يدخل منها الامبراطور « باب السلام السماوي » ، المطل على ميدان « تيان آن مين » .

نحن الآن نسير برفقة الامبراطور وهو يخترق البوابة في طريق عودته الى قصره ، بعد تقديم الأضحيات والقرابين ، وحرق البخور في « هيكل السماء » . وكما علمنا من الحاشية فإن مباني القصر الامبراطوري تشتمل على ٨٠٠ قاعة ومقصورة وبوابة وهيكل ، ومالا يقل عن ٩ آلاف غرفة ، لا يمكن أن نزورها كلها ، لكننا نكتفي بزيارة بعضها .

ونواصل جولتنا مع الامبراطور ، ولا نكاد نخترق باب السلام السماوي حتى نجد أنفسنا في ساحة واسعة ، تؤدي الى « باب الظهيرة » ، المدخل الخاص للاباطرة . هنا ومع وصول الامبراطور تدق أجراس الظهر في أيام معينة ، ليعلن التقويم القمري والمراسيم الامبراطورية ، كما تعلن أحكام الإعدام لتنفيذها على المجرمين .

وعندما نترك خلفنا باب الظهيرة نمر فوق نهر المياه الذهبية ، عبر جسور خمسة مرمرية ، متجهين الى القصر الرسمي الكبير « قصر التناسق الأعلى » ، أرفع الأمكنة في المدينة المحرمة .

على جانبي الباب الذي نصعد إليه بدرج من المرمر يقف أسدان حارسان من البرونز المذهب ، بينما على جانبي الدرج تنانين محفورة ، تتلوى بين سحب وغيوم على جانبيها ثماني عشرة مبخرة ، تتدل ممثلة مقاطعات الصين في ذلك الوقت ، كما يقوم طائران من الكركي ، يمثلان الخلود ، مصنوعان من البرونز المذهب ، بالإضافة الى عدد من السلاحف والتنانين ، ومكيال حبوب يمثل العدل ، وساعة شمسية ترتبط بإعلان « التقويم القمري » .

العرش الامبراطوري

يتوسط قاعة قصر التناسق الأعلى عرش الامبراطور المزخرف المصنوع من الخشب المطلي باللاك المذهب ، وتزينه الأحجار الكريمة والزخارف والنقوش الحيوانية والنباتية ، وتحيط به ستة أعمدة ذهبية ، حفرت عليها تنانين تتلوى ، أما الأعمدة الجانبية وعددها ثمانية عشر فهي ذات لون أرجواني ، بينما السقف مطلي باللونين الأزرق والأخضر .

يقول لنا مرافقنا إن هذه القاعة كانت مخصصة لتتويج الأباطرة ، ولإقامة الاحتفالات التي يرأسها الامبراطور ، والتي يعلن في بعضها أسماء المرشحين للامتحان للوظائف العليا ، وكذلك أسماء القادة العسكريين الذين يقع عليهم الاختيار لقيادة الجيوش في المعارك . .

ونطل على ما أمامنا ، ونتأمل العرش ، ونتصور الامبراطور وهو يمارس من فوقه سلطانه .

الامبراطور يدخل الى القاعة وسط الموسيقا ودقات الطبول الاحتفالية ، ثم يجلس على العرش ليتلقى تحيات التبجيل ، ويستمع الى التقارير الرسمية من رجال البلاط ، ثم يتقدم القادة المدنيون

والعسكريون فيركعون أمامه ، وهم يهتفون ثلاثا « عاش الامبراطور » . وفي النهاية يهبط الامبراطور من فوق العرش ، ويعود الى قصر التناسق الأوسط وهو صورة طبق الأصل من القصر الأول . في قاعة التناسق الأوسط يقف الامبراطور داعيا الآلهة ، لتفيض عليه بمواسم زراعية وفيرة ، كما يبارك بيديه وعينيه المتطلعتين الى السماء محصول القمح للموسم الزراعي الجديد .

وننتقل الى القصر الثالث « التناسق المصون » ، إنه عبارة عن قاعة رئيسية لاستقبال السفراء الأجانب وأمراء المقاطعات ، تجرى فيها اختبارات المرشحين للمناصب العليا ، بعد أن يعلن الامبراطور أسماءهم في القصر الأول .

ونذهب الى المجموعة الخلفية من القصور ، إنها حرم مقدس ، لكنه لا يصطبغ بالشكل الرسمي الذي كانت عليه المجموعة الرسمية الأولى ، فهنا مقر السكن الامبراطوري .

قصر « الطهارة السماوية » هو مخدع الامبراطور ، مزخرف بأربع مباخر وسلحفاتين وطائر الفينيق .

أما « قصر الوحدة » فعبارة عن قاعة ، في وسطها عرش الامبراطورة ، بينما يضم قصر « الراحة الأرضية » مخدعها الذي يغلب اللون الأحمر على كل ما يحتويه .

المتحف والحديقة الامبراطورية

الآن بعد أن تحولت المدينة المحرمة الى متحف مفتوح للشعب والسياح يضم الكنوز الامبراطورية ، تتجول بين القاعات المليئة بمعروضات ، تزخر بالزخارف والجواهر والتحف واللوحات وأدوات الزينة والكتابة ، وتشتمل على أكثر من ٩٠٠ ألف قطعة وكنز أثري لمختلف عصور التاريخ الصيني ، بالاضافة الى ما تحتويه بعض القاعات التي تركت على حالها بأثاثها الأصلي .

أغلب التحف المعروضة الآن في المتحف الامبراطوري جلبت من مختلف المقاطعات الصينية ، بالإضافة الى ما تبقى من كنوز المدينة المحرمة المنهوبة ، لكنها تضم على أي حال مجموعات رائعة من التحف المصنوعة من اليشب متعدد الألوان ، والساعات المائية القديمة ، والآلات الميكانيكية ، والهدايا المقدمة من ملوك الغرب الى الأباطرة ، وكذلك مجموعات من التحف التقليدية معروضة في قاعة الكنوز الزاخرة بالمجوهرات الثمينة والذهبية والسيوف وتماثيل بوذا الزمردية والباجودات المطعمة بالأحجار الكريمة مع التحف البرونزية واليشبية بالإضافة الى بعض الأثاث والممتلكات والتحف الشخصية للأباطرة ورجال البلاط .

قبل أن نمضي من خلال بوابة « شن وو من » (باب العبقرية السماوية) حيث المدخل الشمالي للمدينة المحرمة وقفنا تطل على شجرة متهالكة ، أمامها لوحة عند تل الفحم تقول : (هنا شنق الامبراطور « زونج زين » آخر أباطرة أسرة منج نفسه ، بعد أن قتل كل أفراد أسرته ، حتى لا يقعوا في أيدي المانشو الذين كانوا قد اخترقوا أبواب المدينة . ومن نفس هذا الباب فرت « سي تشي » آخر امبراطورة من المانشو مع ابنها الامبراطور الصغير « جوانج تشو » ، قبيل انتصار ثورة التحرير وسقوط آخر الأباطرة عن عرشه في بكين) .

آخر العواصم الست

ونخرج من المدينة المحرمة أحياء ، بعد أن كان الذين يدخلونها من قبل لا يخرجون أبدا على مدى أكثر من خمسمائة عام .

ولا نكاد نغادر المكان حتى نشم نسمات الحاضر الجديد . .

بكين هي سادسة العواصم الست القديمة في الصين بعد شيان ونانكين ، ولويانج ، وكايفنج ، وهانجتشو ، يعود تاريخها الى ثلاثة آلاف سنة ، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد كانت عاصمة لدويلة « يان » في عهد الممالك المتحاربة ، وكان اسمها « جي » ، وظلت هذه المدينة تتمتع بأهمية كبيرة في شمال الصين أكثر من ألف سنة ، منذ قام الامبراطور « تشين هوانج » بتوحيد كل الصين عام ٢٢١ ق . م . وامتد ذلك طول عهود أسر هان وسوى وتانج ، وعندما جاء « كوبلاي خان » فأعاد توحيد الصين أطلق على العاصمة اسم « دادو » ، أي العاصمة الكبرى . وفي عام ١٣٦٨ صارت عاصمة لأسرة مينج ، حتى جاءت من منشوريا أسرة تشينج

● لا تستغرب حين تشاهد الصينيين من الجنسين ينطلقون بدراجاتهم الهوائية ، فهي وسيلة الانتقال الرئيسية . المهم أنك لا تسمع كلمة سخرية أو تأنيب أو تلمح نظرة إعجاب أو إطراء ، ولا تشهد معاكسة أو مزاحمة بين الدراجات ، فالكل جاد على الطريق إلى المصنع أو المتجر أو المكتب الحكومي .

« المانشو » ، فجعلتها عاصمة لها من ١٦٤٤ حتى ١٩١١م ، حين قامت الثورة الشعبية وسقط آخر أباطرة المانشو ليبدأ النظام الجمهوري الجديد بأول رؤسائه « صن يات صن » ، أبو الجمهورية ، ثم لتقوم بعد ذلك جمهورية الصين الشعبية ، ويعلن مولدها من أشهر ميادين بكين .

« تيان آن من » ليس وحده كل معالم بكين الحديثة ، فقد شهدنا خلال جولاتنا بين أحياء العاصمة ١٦ حيا حديث البناء ، لمختلف المهن ، فحي الضاحية الشرقية تتمركز فيه المصانع والمؤسسات الصناعية ، وفي الجزء الشرقي تقع منطقة السفارات الأجنبية .

وحي الضاحية الشمالية الغربية هو الحي التربوي الثقافي الذي تتجمع فيه معظم هيئات الأبحاث العلمية التابعة لأكاديمية العلوم الصينية ، وجامعة بكين ، وجامعة تشينجوا ، وجامعة الشعب الصيني ، ومعهد القوميات المركزي ، وغيرها من الجامعات والمعاهد .

وتنقسم المنطقة القريبة من المدينة القديمة الى ستة أحياء زاخرة بالأراضي المخضرة والجداول والخطوط

المساحة في أوائل التحرير) ، وبعد السبعينيات أخذت تظهر عمارات شاهقة متعددة الطوابق ، وهناك عمارات شاهقة ، تنتصب بين المساكن ذات الطابق الواحد ، من طراز الأبنية الصينية التقليدية هنا وهناك .

تركز الجهود على تطوير الصناعات والحرف التي تستهلك القليل من المياه والطاقة والمساحة ، ولا تلوث البيئة ، ومن ذلك صناعات الأطعمة والالكترونيات والطباعة والأجهزة الكهربائية المعدنية ، والمواد المعمارية الجديدة ، والآلات البصرية ، والغزل والنسيج والصناعة الخفيفة ، والفنون الجميلة ، وأعمال الحرف اليدوية التقليدية ، وأدخلت إصلاحات تقنية على صناعة التعدين والآلات الميكانيكية والبتروكيماويات . ولا شك أن أبرز الأمثلة التي شهدناها كانت عند زيارتنا الى المؤسسة العامة للحديد والصلب في بكين .

في مؤسسة الحديد والصلب

قالت « سو إيان اي » مديرة العلاقات الخارجية للمؤسسة : أن المصانع تنتج سنويا ثلاثة ملايين و ٢٥ ألف طن من الحديد الصلب . وقد تزايدت أرباحها خلال السنوات التسع الماضية منذ تأسيسها من ٢٩٩ مليون يوان (اليوان نصف دولار تقريبا) الى ١٣٤٥ مليون يوان ، واحتلت بذلك المركز الثالث بين المؤسسات الصناعية في الصين ، كما بلغت الأصول الثابتة ٢١٠٠ مليون يوان .

وخلال جولتنا بين ورش المصانع وأفرانها واصلت الحديث قائلة انه مع بدء تطبيق تجربة إصلاح البنية الاقتصادية ، وتحول المؤسسة من إدارة مركزية حكومية الى تطبيق نظام « مسئولية الانتاج بالتعاقد » بدأت المؤسسة عام ١٩٨١ في تحمل المسئولية تجاه الدولة ، حيث تقدم المؤسسة فوائد في صورة ضرائب بنسبة معينة من الأرباح ، مقابل تحمل مسئولية الانتاج بالتعاقد . أما بقية الأرباح فيخصص ٦٠٪ منها لتطوير الانتاج وتجديد الأجهزة والمعدات ، و ٢٠٪ لتطوير مرافق الخدمات للموظفين والعمال ، و ٢٠٪ مكافآت للموظفين والعمال مع نسب معينة للعلاوات والحوافز . وذلك يعني انه كلما ازداد الانتاج وتزايدت الأرباح تزايد

الحديدية والطرق الرئيسية ، بالإضافة الى عشرة أحياء سكنية حديثة البناء على أطراف المدينة ، وفي كل منها عدد من المساكن والمرافق المختلفة والمراكز الخاصة بالتجارة والثقافة والخدمات ، حتى تكون قائمة مستقلة بنفسها نسبيا .

في حوار دار خلال مأدبة شارك فيها أعضاء هيئة تحرير ورئيس دار النشر للمعلومات العالمية « تشولاى » خرجنا بحصيلة كبيرة من المعلومات .

فإجمالي مساحة المساكن والمباني المختلفة والحديثة أكثر من ٩٠ مليون متر مربع (أربعة أضعاف مجموع

رأس المال ، وازدادت الخدمات والحوافز للموظفين والعمال حسب إنتاجية كل منهم . وهكذا تغير الوضع السابق الذى كان يتمثل في مبدأ « الجميع يأكلون من قدر واحد » ، وأصبح هناك ربط بين الانتاج والأجر . وبالنسبة لمسئوليات الانتاج فالمؤسسة تتحملها بتعاقد تجاه الدولة وتوزع المسئوليات بالتعاقد بين المستويات المختلفة ، فالمصنع يتحمل مسئولية الانتاج بتعاقد تجاه المؤسسة ، والورشة تتعاقد مع المصنع ، والعامل يتعاقد مع الورشة ، وكل ذلك في سلسلة تعاقدات . أما إدارة المؤسسة فتقوم بها لجنة مندوبين ينتخبها الموظفون والعمال ، وتتم المشاركة في إدارة المصانع من خلالها ، وبذلك يكون العاملون هم سادة المؤسسة والمسئولين عن تطورها الذى اتجه أخيرا الى التقدم التقني المتميز في جميع أعمالها وأنشطتها . وقد استطاعت المؤسسة من خلال تطور انتاجها وزيادة أرباحها تطوير مرافق الخدمات والأنشطة ، فهى تبنى سنويا مائة ألف متر مربع من الشقق والعمارات لسكن العاملين ، كما أقامت مصنعا للمأكولات الجاهزة تباع بسعر التكلفة ، ودارا للثقافة والرعاية الصحية تضم مائة سرير .

سور الصين العظيم

عندما تذهب الى بكين فإن أول ما يشغلك هو سور الصين العظيم ، أو ما يسمى « تشانج شينج » ، وقد كان ذلك بعض هدفنا حين انطلقنا الى « موتيانيو » على مسافة سبعين كيلومترا شمال شرقي بكين . لم يكن وصولنا الى هناك يعني أننا سنشهد كل السور ، فذلك الجزء الذي سنزوره ليس أكثر من كيلومترات معدودة ، من ٧٣٠٠ كيلومتر هي طول السور الممتد من مصب نهر يالو في الشرق الى جبل كيليانشان في أقصى الغرب ، عبر قمم وأراض جبلية وعشبية وصحارى ، مخترقا ست مقاطعات في شمال الصين من غربها الى شرقها .

القسم الذي صعدنا إليه من السور انطلقنا اليه « بالتلفريك » ، وهى أول مرة يستخدم فيها المصعد الجبلي الكهربائي للصعود الى السور ، بعد أن تم ترميم هذا القسم وافتتاحه للزوار والسائحين في ابريل ١٩٨٦ . وبعد أن كان المزار الوحيد هو مركز « باتالنج » القائم على قمة جبل يرتفع أكثر من ألف متر فوق سطح البحر شمالي ممر « تشوبونج كوان » .

السور عند « موتيانيو » يتم الصعود اليه بدون (التلفريك) على ١٨٠ درجة من سلم اسمنتي صاعد على سفح الجبل الى القمة ، وهذه القمة تشكل جزءا من الحائط الاستراتيجي الدفاعي ، حيث يمتد السور الى ثلاثة اتجاهات ، وأبراج مراقبة تقوم على مواقع استراتيجية مهمة . هنا يمتد السور عبر المنحدرات الثعبانية الملتوية والقمم المتشابكة ، حيث تنتشر قلاع على نقاط استراتيجية ، كمراكز للمراقبة تفصل بين كل منها بضع مئات من الامتار . وتشير تلال صغيرة قرب مراكز المراقبة الى استخدام أنظمة إشارة خاصة لنقل المعلومات العسكرية ، حيث يتم إشعال النار على رءوس هذه التلال ، لنقل أخبار هجوم أية قوات معادية على بعد آلاف الأميال الى العاصمة في ساعات قليلة لاتخاذ الاجراءات المناسبة ، وهو انجاز عسكري ضخم في العصور الماضية .

أشار الزميل الصيني تشانج فوتشيانج الى احدى هذه المواقد وقال : يحكون أن الامبراطور « زويوانج » أراد أن يسلي محبوبته بإشعال النار على تل الاشارة في وقت لم يكن يتعرض فيه لأي هجوم ، ولم تكد نار الاشارة ترتفع حتى أسرع الأمراء مهرولين بقواتهم لرد الغزاة ، وحين وصلوا وعرفوا أن النار كانت لتسلية المحبوبة كتموا في أنفسهم غيظهم ، وعادوا الى مراكزهم ، وتكررت التسلية أكثر من مرة لارضاء محبوبة الامبراطور ، وتكرر اندفاع القوات في كل مرة . ولاحظ الغزاة ما كان يجري ، وحين استغلوا الفرصة واندفعوا للهجوم أشعلت نار الاشارة الحقيقية هذه المرة ، لكن المدافعين وقد تكررت الخدعة لم يأبهوا للاشارة ، فانفتح الطريق أمام القوات المهاجمة ، واخترقت الأسوار ، وقتلت الامبراطور ، وبدأ الزحف الى الداخل . . !

وثمة قصة أخرى جاءت في « كتاب الشعر » من قصيدة للشاعر « شي شنج » تحكي أن الفلاحين كانوا يساقون من حقولهم زرافات بالآلاف للمشاركة في بناء السور ، وكان بينهم فلاح ساقه الجنود أمامهم في غيبة زوجته التي لم تدر عنه شيئا قط ، وبعد شهور

من غيابه عرفت الفلاحة أن زوجها سيق للعمل في السور ، فغادرت دارها ، وراحت تدور باحثة عن زوجها بين عشرات الآلاف من الفلاحين الذين كانوا مسخرين للعمل ليل نهار . وقضت المرأة سبع سنوات تنادي زوجها وهي تواصل البحث وتستلقي كلما جاء الليل الى جوار السور مطلقة غناءها الحزين . وفوجئت ذات ليلة بالسور الذي كانت تستلقي بجواره ينشق عن ثغرة لم تكد تطل إليها حتى وجدت جثة زوجها الذي دفن تحت جوانب السور مثل آلاف الفلاحين الذين قضي عليهم أثناء البناء . واحتضنت المرأة جثة زوجها وهي تبكي وتنوح وتناديه باسمه ، ولم تغادر المكان قط . وكان الجنود كلما ساقوا الفلاحين والعمال لملء الثغرة وترميم السور عاد فانشق من جديد عن جثة رجلها الذي فقدته . وتتابعت السنين والحال لا يتغير ، حتى وجد الفلاحون المرأة ذات صباح ميتة بجانب الثغرة ، فدفنوها الى جوار زوجها . ومنذ ذلك الوقت لم ينشق السور في ذلك المكان قط ، وإن ظل الجنود يسمعون كل ليلة صوت نواح المرأة وغناءها الحزين .. !

كانت بداية السور في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، عندما كانت الدول المتحاربة بين ٤٧٥ و ٢٢١ ق . م . تبني أسوارا دفاعية ضمن حدودها .

وبعد توحيد الصين كان اول عمل قام به الامبراطور « شي هوينج دي » أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية (الهون والتتار) ، وذلك بأن استكمل الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ، ووصلها كلها بعضها ببعض وقد وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد موردا سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذي يعد رمزا لمجد الصين ، ودليلا على عظيم صبرها وقد تخلل السور في عدة أماكن منه أبواب ضخمة . وهو أضخم بناء أقامه الانسان في جميع عصور التاريخ . يقول الصينيون « إنه أهلك جيلا من الناس ، لكنه أنقذ كثيرا من الأجيال » .

معبد السماء

في طريق عودتنا من سور الصين العظيم مررنا بأحد أبرز المعالم التاريخية الأخرى في بكين ، معبد السماء الذي كانت له مكانته عند أباطرة مينج وتشينج ، هنا في معبد السماء ـ في كل من الانقلاب الشمسي الشتوي والربيعي ـ كان الامبراطور يحمل في احتفال طقوسي ضخم يبدأ في الثالثة صباحا ، ويحيط به الحرس الامبراطورى والمستشارون والأمراء والأحبار وعازفو البلاط ، ليقدم الصلوات من أجل موسم خير للحصاد الوفير ، داعيا لأسرته بالتوفيق والفلاح ، ومتمنيا لشعبه الرخاء . ويقرب الامبراطور القرابين للسماء ، منجزا وعده كرسول للآلهة في إدارة شئون الكون بالعدل والحق ، راجيا من السماء أن تكون في صفه لا في صف أعدائه .

يتجه الامبراطور في البداية إلى قاعة القبة السماوية ، ليقدم الصلوات والبخور يملأ المكان أمام الألواح المقدسة التي تمثل عناصر الكون السماوية : الشمس والقمر والنجوم والأمطار والرياح والرعد والبرق . وحول القاعة يقوم حائط الصدى السماوية : الهامس ، وهو عبارة عن جدار دائري سحري ، يردد صدى الصلوات المقدسة التي تجرى داخل الهيكل . وينتقل الامبراطور في محفته بعد ذلك جنوبا إلى الشرفة المرمرية (جسر الدرج الأحمر) الذي يقوم على أعمدة طويلة تعلوها أقواس منقوش عليها تماثيل التنين ، ومنها إلى المذبح الدائري (هونيك) في القاعة الوسطى التي تعلوها ثلاثة أبراج متدرجة الاستدارة ، أفاريزها من القرميد الأزرق ، متمركزة بأرقام فردية ، تتفق مع فكرة الكفارة واسترضاء الآلهة في المعتقد القديم .

وهنا على المنصة الوسطى تتلاقى السلطتان الأرضية والسماوية ويجري الاحتفال الرئيسي أمام الألواح المقدسة ، وتتم الطقوس ، ويذبح الامبراطور عجلا قربانا للآلهة ، وحين ينتهي الاحتفال المقدس يحمل الملك في طريقه إلى القصر الامبراطوري من خلال « باب السلام السماوي » .

المعالم الثقافية وأوبرا بكين

ما أكثر المعالم الحديثة في بكين ففي المجال الثقافي الحديث في بكين وجدنا أن المدينة تحولت إلى واحدة من المناطق المتقدمة في تطور التعليم والتربية والعلوم والثقافة والطب والصحة ، ويوجد فيها ٧٠ جامعة ومعهدا ، يبلغ عدد الدارسين فيها أكثر من عشرة آلاف في المتوسط سنويا . ويصل عدد معاهد وهيئات

● إحدى بوابات
مدينة بكين ، وعلى
صدرها رمز التنين
الأسطوري (فوق) كما
يبدو سور الصين العظيم
رمز المجد الصيني القديم
(أقصى اليسار) وهو يمتد
بطول ٧٣٠٠ كم ، عبر
قمم وأراض جبلية ،
مخترقا ست مقاطعات .
ويتم الصعود إلى إحدى
قممه في « موتيانيو »
بواسطة التلفريك
الكهربائي (إلى اليسار) .

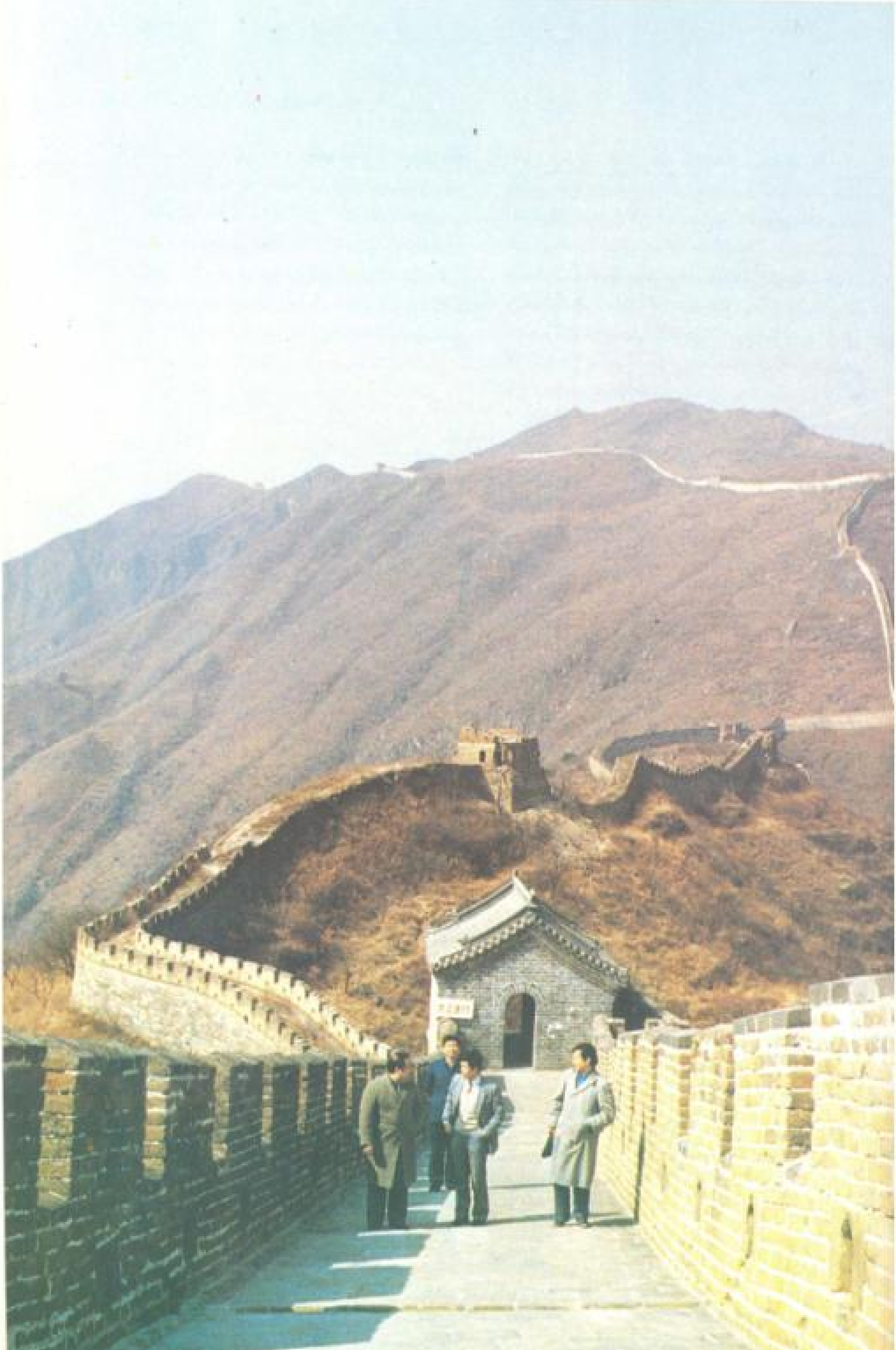

الأبحاث العلمية إلى ٤٠٠ وحدة أو يزيد ، وبها أكثر من عشرة آلاف من الباحثين والاختصاصيين .

والاوبرا عادة ما ترضى المشاعر التقليدية للصينيين المحبين للالوان والاصوات والتمثيل والرقص والاوكروبات . ولأن أدوار الممثلين كثيرا ما تتطلب منهم المهارة في تحريك أعضائهم فقد كانت كل حركة تؤدى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التي تعزف في خلال التمثيل . وكانت حركات اليدين تستخدم رمزا للكثير من الاعمال ، كما كانت تصحب الكثير من الاقوال . وكان لابد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف ما يقدمون في العرض . أبرز ما يرتبط بالأداء طلاء الوجوه بمختلف الالوان .

وحين كنا نتابع العرض لم نكن نفهم معنى الالوان التي طليت بها وجوه الممثلين ، وبخاصة بعد أن أصبحت النساء قاسما مشتركا في هذه العروض ، وشرح لنا مرافقنا ما تعنيه . فاللون الأحمر يرمز إلى الخير والعظمة والمجد . والازرق يرمز الى الشجاعة والعنف والنشاط . واللون الأبيض يمثل البراعة والحذق والمكر وهو الغالب على وجوه المهرجين أو المجرمين . أما الاسود فهو المثل للأمانة والاستقامة والعدل ويلون به وجه القاضي أو القائد . واللون البني يشير الى الشخصية القومية العنيدة . بينما الأصفر يدل على الذكاء ، ولكن مع التهور . ويدل اللون الاخضر على القوى الخارقة كالاشباح والشياطين ، بعكس اللون الذهبي الذي تطلى به وجوه من يمثلون الآلهة والملائكة والارواح الخيرة .

التمثيل بالبانتوميم مع الغناء الاوبرالي منتشر في أغلب العروض الصينية ، حيث لايحتاج الأمر إلى الديكورات المسرحية - بما في ذلك الاثاث - الا القليل . ويكتفى بالأزياء ذات الطبيعة والزخرفة الخاصة ، وتحريكها بالاسلوب الذي يتفق مع ما يعنيه المؤدي للعرض سواء بالنسبة للحركات أو الكلمات . كانت الممثلة الرئيسية في الاوبرا هي أشهر نجمة تحظى بشهرة عالية مرموقة . والزي الذي ترتديه يسمى « الاكمام المائية » وكل كم على الذراع سهل الحركة بالغ الاتساع ، يستخدم تحريكه للتعبير عن المشاعر والعواطف . والكم الحريري المزخرف طويل يمكن أن يصل إلى الارض عندما يتم فك نصفه الاضافي بمعرفة الممثلة الخبيرة في الوقت المطلوب للتعبير المقصود . فللتعبير عن الدهشة والصدمة تفرد الممثلة ذراعيها بقوة فتطير الاكمام الى الخلف قاصدة إظهار الانزعاج . وعندما يريد الممثل أن يعبر عن الخجل أو الارتباك فإنه يرفع أحد الكمين على وجهه وكأنه يختفي وراءه .

أما التصميم أو الشجاعة فيتم التعبير عنها بضرب الاكمام ضربة خاطفة حول المعصم ثم لف اليدين خلف الظهر . أما التعبير عن الخوف فيكون بأن يضع الممثل إحدى يديه فوق الأخرى بسرعة وتتابع بينما ترتجف الاكمام حول الكفين . . . !

الانفتاح على العالم

الانفتاح على العالم ليس فقط في فتح الباب للسائحين من كل مكان للتحرك بحرية في أنحاء الصين بلا عوائق ولا قيود ، ولا هو في عروض الأزياء الفرنسية والانجليزية على آخر الموضات والصرعات التي تقام في القاعات والفنادق ، ولا هو في التسهيلات التي تقوم بها القنصليات والسفارات الصينية في الخارج لمنح تأشيرات الدخول السياحية دون تأخير ولفترة زيارة تمتد إلى ثلاثة شهور ، ولا هو في ارتداء الرجال والنساء والشيب والشباب الأزياء الحديثة المنتشرة في العالم الغربي بدلا من الزي الازرق الموحد . وليس الانفتاح أيضا في حرية الرأي التي بدأت تسود في الاجتماعات وجلسات الشاي الخالي من السكر ، كما أن الانفتاح ليس أيضا في الاستعانة بالخبراء الأجانب القادمين من الشرق والغرب للعمل في مختلف المصانع والشركات والمؤسسات .

ولكن الانفتاح الرئيسي هو في فتح أبواب الاستثمار أمام أصحاب رؤوس الاموال للمشاركة في أعمال القطاع العام والقطاع الخاص على حد سواء ، وتنفيذ المشروعات الاقتصادية والصناعية والتجارية والاستهلاكية أيضا ، بالاضافة الى إقامة الفنادق وإدارتها ، بل والسماح لبعض هذه المنشآت بالقيام وحدها بالتنفيذ والادارة مقابل نسبة معينة من

الأرباح تحصل عليها الدولة . وهل أكثر من فنادق ضخمة تقام وتدار برموس أموال أجنبية تتعامل بالعملات الصعبة ولا يسمح لأبناء الشعب الصيني كبارا وصغارا بارتيادها ، إلا إذا كانوا يملكون الدولار أو البديل النقدي المصرفي الذي يستبدل الدولار بالنقد الصيني « يوان » ولكن بأوراق نقدية خاصة ليس لها شكل ولا لون ولا قيمة ما يقابلها من النقد الصيني الذي لايتعامل به غير الصينيين ، ولا يملكون استبداله بما يساويه من نقد مخصص للسياح والمستثمرين ؟ لقد جربنا ذلك مع مرافقينا الصينيين حين أرادوا تكريمنا بدعوتنا ونحن في الطريق الى المطار لتناول القهوة او العصير في فندق استثماري

كبير . وفوجئنا بهمسات بينهم وبين موظفي الاستقبال باللغة الصينية ، ثم أحسسنا بحرجهم الشديد وهم يذكرون لنا أن نقدهم لايصلح للتعامل به في الفندق ، ولابد من استخدام النقد الذي استبدلناه نحن حتى يسمح لنا جميعا بالجلوس في الكافيتريا . وكان هذا هو المفتاح الذي فهمنا منه أن « اليوان » الذي نستبدله من نوع آخر غير « اليوان » الصيني المحلي الذي يحصلون عليه ويتعاملون به . . !!

الاستثمارات الاجنبية

حول فتح الصين أبوابها على الخارج واستخدامها الاستثمار الاجنبي قال لنا « كي هو ايوان » نائب وزير الخارجية عندما التقينا به في مكتبه :

ـ استخدام الاستثمار الاجنبي على نحو معقول هو مبدأ استراتيجي طويل المدى لتطوير الاقتصاد الاشتراكي في الصين وتحديثه . وهناك طرق ووسائل كثيرة في هذه الناحية ، ولكنها تنقسم إلى نوعين كبيرين بشكل عام : النوع الاول يحتوي على جميع القروض التي قدمتها الينا حكومات البلدان الاجنبية والمؤسسات المالية الدولية والمصارف التجارية والكتل المالية ، والنوع الثاني يتمثل في اجتذاب الاستثمارات الأجنبية مباشرة ويشمل إقامة مؤسسات استثمارية مشتركة ومؤسسات التعاون الاداري ، والتعاون في تنمية الموارد الطبيعية والتجارة التعويضية ، وإقامة مؤسسات الاستثمار الشخصي للتجار الاجانب .

ونسأل نائب وزير الخارجية عن حقيقة ما تم تنفيذه من هذه الاستثمارات ذات التأثير في بناء التنمية الجديدة . . ويكون الجواب :

ـ قررت حكومة الصين عام ١٩٨٤ منذ أربع سنوات فتح أبواب ١٤ مدينة مينائية وساحلية للتبادل مع الخارج على طول الساحل الصيني الشرقي من بينها شنغهاي وشانتو وتشينجد او وكانتون وتشينزن .

هذه المدن من أقدم المدن المفتوحة عالميا ، وكان لبعضها مكانتها الرئيسية في تجارة الواردات والصادرات لكن المدن الأربع عشرة كلها أصبح لها كيانها الاقتصادي الواسع . كما أصبح لها الحق في السيادة بعد انفتاحها على الخارج ، وتعطى رجال الاعمال الأجانب الذين جاءوا للتمويل جميع التسهيلات ، ويمكن لهم أن يؤسسوا أي مؤسسة بأموال مشتركة ، وأي مؤسسة بإدارة تعاونية وأي مؤسسة مستقلة . وقد كان هدف الحكومة الصينية في إعداد سياسة الانفتاح تنسيق العمليات الاستثمارية بين المناطق الساحلية الشرقية المتطورة والمناطق الغربية المتخلفة للتعجيل بالنهضة الاقتصادية التي رسمتها بكين . .

ان الصين تنتهج سياسة تعديل البنية الاقتصادية في الداخل وسياسة الانفتاح الاقتصادي على الخارج ، لأن أي دولة عندما تريد تحقيق التحديث فلن يمكنها أن تحقق ذلك من خلال سياسة الانغلاق الذاتي . إننا نتعلم من خلال تجارب الانفتاح في بعض الدول الاخرى وكذلك من خلال تجارب بلادنا أن الانفتاح الاقتصادي لابد أن يأتي لنا ببعض العوامل السلبية ، ولكن موقفنا تجاه ذلك هو أولا مواصلة الانفتاح على الخارج ، وثانيا القيام بمزيد من التعديل للبنية الاقتصادية مع تمسكنا بالاتجاه الصحيح .

العلاقات العربية الصينية

ونسأل نائب الوزير : وماذا عن العلاقات الصينية مع الوطن العربي وخاصة أن الجانبين يواجهان قضيتين مهمتين هما : السلام والتنمية ؟

أجاب : ان الصين والعالم العربي كلاهما لقيا نفس المعاناة في التاريخ . والآن يواجهها نفس الموقف .

● حركات الأصابع والأكمام ظاهرة أساسية في الأوبرا الصينية ، لكل منها معنى وتعبير ، وهي تؤلف نصف ما يقدمه الممثلون في العرض ، بالإضافة إلى ارتباط الأداء بطلاء الوجوه بمختلف الألوان التي يرمز كل لون منها إلى معنى محدد يفهمه الجميع ، ماعدا الأغراب !!

ولذلك يجب علينا جميعا ان نبذل جهودنا لحل قضيتي السلام والتنمية في العالم ، وخاصة أن دول العالم الثالث والدول النامية تأمل من صميم قلوبها أن تبقى بلادها اقتصاديا في العصر الذي تتجدد التكنولوجيا فيه وتتطور يوما بعد يوم .

واود بهذه المناسبة ان انتهز الفرصة لمزيد من الحديث حول موضوع العلاقات بين الصين والدول العربية .. فهذه العلاقات تتطور بصورة موفقة ودائمة . ويمكننا ان نقسم مراحل تطور هذه العلاقات الى مراحل ثلاث : المرحلة الاولى في الخمسينيات عندما تجددت العلاقات بصورة أساسية في مواجهة الاستعمار . أما المرحلة الثانية فمع تحقيق استقلال الصين والدول العربية بدأ تعاون واسع في العلاقات بعد أن كانت تقتصر على العلاقات السياسية ، والمرحلة الثالثة والاخيرة هي أننا نبذل معا جهودا كبيرة لحماية السلام العالمي وإزالة النقاط الساخنة في العالم .. وفي نفس الوقت يجرى توسيع العلاقات في المجالات الاقتصادية بصورة أكبر وسياستنا الانفتاحية لاتقتصر على الدول المتقدمة فقط إنما على الدول النامية أيضا بما فيها الدول العربية ، ولذلك فنحن نرحب بالاصدقاء العرب وندعوهم للحضور والمشاركة في مشاريع الاستثمار .

ثم ماذا ؟

الجهود التي تبذل لاعادة بناء البنية الاقتصادية في الصين كبيرة بغير شك ، لكن الذين يعيشون داخل الصورة لهم رأي آخر ، فالتجارب الناجحة لاتغمض عينها عن الثغرات والسلبيات التي تتكشف أثناء المسيرة ولهذا فبعد أيام من حديث الوزير افتتح الاجتماع السنوي لمؤتمر الشعب الوطني (البرلمان وأعضاؤه ٢٩٠٠ مندوب) ، وواجهت الحكومة لأول مرة معارضة شديدة من الأعضاء،وهو مالم يكن يجرؤ عليه احد قط في عهد الانغلاق ، كما أن الحكومة نفسها أعلنت عن تغييرات جذرية شاملة بالجهاز الاداري الحكومي ، بهدف التخلص من العمالة الزائدة ، وانعدام الكفاءات وازدواج المسئوليات ، وتقدمت ببرنامج إصلاح واسع النطاق ، يستهدف تنظيم الحكومة ، والحد من دورها فيما يتعلق بشئون الحياة اليومية .

وقد أعلن سونج يانج مستشار شئون الدولة والذي قدم برنامج الاصلاح ، للبرلمان ، أن البرنامج الجديد يتضمن حل ١٤ وزارة ولجنة حكومية ، وتشكيل عشر وزارات جديدة ، للقيام بعمليات ومهام منظمة ، في إطار خطة منسقة ، وأكد أن برنامج الاصلاح لامفر منه لضمان نجاح أي تقدم على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، وذلك بعد أن ثبت - كما قال - عدم جدوى الأسلوب الرأسمالي للإصلاح .

وأعلن مستشار مجلس الدولة أن هذه التغييرات جاءت نتيجة تسع سنوات من محاولات الإصلاح الاقتصادي ، حيث ثبت أن العيوب في النظام الحكومي الحالي قد أصبحت واضحة ، وقد انعكست في الضعف الشديد للاقتصاد الذي شمل الطاقة والمواصلات والمواد الخام .

وأوضح المسئول الصيني أن وزارات السكك الحديدية والاتصالات والطيران قد ألغيت ، وحل محلها وزارة جديدة للمواصلات ، تشمل هذه النشاطات كلها . وكانت هذه الوزارات قد تعرضت لهجوم شديد في أعقاب سلسلة من الحوادث المروعة ، كما تم إلغاء وزارات الفحم والنفط والصناعات النووية ، وأنشئت وزارة جديدة للطاقة ، وكان مسئولو شركات النفط الغربية في الصين قد وصفوا مشكلة الطاقة بأنها نقطة سوداء في حياة الصين ، وقالوا إن العمل في المصانع متعطل بمعدل يوم كل خمسة أيام بسبب نقص الطاقة ، وذلك هو ما شهدناه بالفعل خلال زيارتنا لبعض المصانع الرئيسية في الصين ، ومنها مصنع « هوانجي » للآلات الالكترونية في مقاطعة شانسي ، حيث وجدنا قسم صناعة الثلاجات والأجهزة الالكترونية متوقفا ، وقال لنا مديره ونحن ندور بين قاعاته الخالية من العمال بأن التوقف بسبب ضعف الطاقة ، ولهذا فالعمل يتوقف ثلاثة أيام كل اسبوع ، ولكن الأجور تدفع كاملة للعمال ... !!

وهو أمر بغير شك مثير .. ولعل في ذلك بعض السر في مضي الحكومة في خطتها للاصلاح بعد ان اكتشفت العيوب في اعماقها .. وهو موقف تستحق عليه التحية لشجاعتها في العدول عن الخطأ وبداية الاصلاح الجديد □

هل نقول للعجز الجسماني وداعاً

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

تقوم « فلسفة » العلاج التأهيلي على مساعدة المرضى بأمراض عضوية أو نفسية ، أو من أصيبوا بكسور أو ضمور في أعضائهم جراء حوادث معينة ، الى محاولة اعادة سريان دورة الحياة العادية في أعضائهم أو نفوسهم ، قدر الامكان ، والوصول في ذلك الى أعلى قدر ممكن من الكفاءة .

فما هو هذا العلاج الذي يشترك فيه مجموعة من الاخصائيين ؟

ثورة العلم والتقنية التي نعيشها في هذا العصر قدمت بكل سخاء الأدوات القادرة للتغلب على ما يواجهه الانسان في حياته من حوادث وكوارث . وليس أشد إيلاما للانسان من أن يجد نفسه عاجزا عن الحركة ، مشلولا قعيدا ، بعد إصابته في حادثة ، أو مرض أدى الى فقد جزء من جسمه ، أو بتر أحد أعضائه ، إنها قاسية مؤلمة في نفس الوقت . إنه نفس الانسان الذي يملأ الدنيا حياة وحركة،وإشراقة الطموح تظلل أساريره ، فإذا هو قعيد الفراش ، وقد تقوضت كل آماله ، وانهارت

أحلامه ، إثر إصابته في حادث سيارة مجنونة ، أو مرض خطير استفحل في أحد أطرافه . لقد كان هذا الانسان يواجه الكارثة التي هوت فجأة على رأسه بالانزواء في الظل ، والاستسلام للحسرة والألم الممض وازدراد الحزن في هدوء ومرارة .

كان هناك سؤال مطروح باستمرار : هل يظل من فقد حاسة من حواسه أو طرفاً من أطرافه عاجزا طول عمره ؟ وجاءت الاجابة مما يعرف الآن بالمعالجة التأهيلية (Rehabilitation) ، كان هذا النوع من المعالجة ولأكثر من ربع قرن غير معروف إلا في البلاد المتقدمة ، بل إنه حتى اليوم لا تخصص كليات الطب في الدول النامية جزءا من الدراسة بها لهذا الفرع ، ولعل السبب في ذلك يعود الى تعدد الاخصائيين الذين يتولون مهمة هذه المعالجة ، فهي تتم بروح الفريق الواحد ، هذا بالاضافة الى أن الأبحاث لم تصل بعد الى نهايتها ، فما تزال الأجهزة التعويضية التي تستخدم بدلا عن العضو المريض أو المبتور قاصرة عن أن تحل محل الأعضاء الطبيعية الى حد ما ، ولعلها - تأكيدا ومهما تقدم العلم وابتكر - لن تصل الى كفاءة الأعضاء البشرية .

كانت المعالجة التأهيلية تعني في تعريفها مجموعة الخطوات اللازمة لمعالجة المصاب منذ إصابته في حادث حتى شفائه ، وكان هذا التعريف الذى تم وضعه في انجلترا منذ سنوات غير كاف ، فقد أضيف الى المصابين في حوادث،هؤلاء الذين ولدوا وهم معاقون ، وكذلك كبار السن من العجائز غير القادرين عضويا ، وكان لابد من وضع تعريف جديد لهذا الفرع من فروع المعالجة الطبية .

أما الآن فيمكن أن نقول إن المعالجة التأهيلية تهدف الى مساعدة الأشخاص ، لكي يصلوا الى أعلى قدر ممكن من الكفاءة ، حتى يتعايشوا مع الحياة التي تكتهم قواهم منها . والحياة التي نعنيها تتمثل في صورتها العضوية والنفسية والاجتماعية ، إذن فهذا تعريف أشمل وأعم ، وهو - دون شك - يتطلب معاونة عدة اختصاصيين ، فعمل الاختصاصي النفسي مع اختصاصي العلاج الطبيعي مع الجراح والاختصاصي الاجتماعي وغيرهم ، كل هؤلاء يعملون معا لكي يجتاز المريض الأزمة ، ويواجه المستقبل بروح مشرقة ، مفعمة بالأمل .

وهنا يبرز دور الاختصاصي النفسي الذي يتولى المصاب قبل المعالجة التأهيلية وبعدها وهو دور لا شك عظيم .

هؤلاء يعملون معا

إن عودة المصاب الذي أصبح معوقا الى حياته الطبيعية يحتاج - كما قلنا - الى فريق كامل من الاختصاصيين في مجالات شتى ، كلهم يعملون معا من أجل هدف واحد هو أن لا يتحول الى كم مهمل ، يعيش على هامش الحياة ، ويمكننا أن نعدد أفراد هذا الفريق :

١ - اختصاصي العلاج الطبيعي : يقوم بدور بالغ الأهمية في المحافظة على أعلى قدر ممكن من وظائف الأنسجة السليمة ، والأعضاء التي نجت من الاصابة ، ثم هو يهدف الى مساعدة المصاب ، لكي يستطيع الاعتماد على نفسه ، ويتكيف مع البيئة المحيطة به ، وهذا في الحقيقة يحتاج لما يمكن تسميته بإعادة التعليم الوظيفي لكل قدرات أعضائه وتحكمه فيها ، وهو قد يستخدم وسائل طبيعية أخرى تمكنه من تحقيق ذلك ، ومن هذه الوسائل الماء ، والبرودة ، والحرارة ، والتدليك ، واستخدام الكهرباء .

٢ - اختصاصي استخدام الأجهزة التعويضية : لقد تطورت الأجهزة المساعدة تطورا كبيرا ، وكان ذلك بفضل استخدام التقدم الكبير الذي حدث في استخدام الرقائق « الاليكترونية » وغيرها . والأجهزة التعويضية لا تقوم فقط بوظيفة العضو الذي فقد وظيفته بسبب البتر أو الشلل أو التشوه ، بل إنها تحافظ كذلك على المظهر الخارجي .

٣ - الاختصاصي الاجتماعي : إن دور الاختصاصي الاجتماعي لا يقل في أهميته عن دور الطبيب المعالج ، فالإصابة الخطيرة التي تترك آثارها على الحياة العائلية والاجتماعية تحتاج الى رعاية

اجتماعية مناسبة ، وهذا ضروري جدا لضمان نجاح المعالجة التأهيلية الطبية .

٤ ـ الاختصاصي النفسي : يبرز دور الاختصاصي النفسي مع هؤلاء الأشخاص الذين لا يتقبلون ببساطة استخدام الوسائل والأجهزة التعويضية المساعدة ، إذ يشرح لهؤلاء معنى كلمة عجز ، فالعجز يعني عدم مقدرة المرء على فعل شيء يريد أن يفعله،وهذه العبارة تعني أننا جميعا يمكن أن نكون مصابين بنوع ما من أنواع العجز .

يضاف الى هؤلاء ـ أيضا ـ اختصاصي أمراض البكم والصم ، وذلك لمساعدة المصابين بعجز في الكلام والسمع . وكانت أجهزة السمع الصناعية التي تستخدم فيها الوسائل « الالكترونية » قد استخدمت لأول مرة منذ ستين عاما ، أما القصور في عملية الكلام فإنه يحتاج الى تدريبات طويلة شاقة لمساعدة البكم على النطق ، وقد يحتاج الاختصاصي لبعض الأجهزة والأدوات التي تعاونه في ذلك .

بعد بتر الساق تلف بضمادات في شكل مخروطي حتى يتناسب ذلك مع الساق الصناعية .

وهكذا نرى أن الإصابة التي تؤدي الى عجز في عضو أو طرف ، سواء كان ساقا أو ذراعا تحتاج الى معاونة فريق كامل من الخبراء ، بيد أن هناك إصابات لا تحتاج لعمل كل هذا العدد من الاختصاصيين ، وهي في معظمها الإصابات المحدودة التي تصيب الجهاز العضلي والعظمي ، فهنا يكفي التدخل الطبي لمعالجة الأمر ، وذلك بمساعدة اختصاصي العلاج الطبيعي .

إصابات المخ والعمود الفقري

ليس هناك ما هو أغلى من الخلايا العصبية التي يتكون منها الجهاز العصبي المركزي الذي يتكون من المخ والنخاع الشوكي ، وإن هذه الخلايا إذا أصيبت بتلف أو مرض أدى الى موتها فإنها لا يمكن أن تعوض ، إن سر الوجود والحياة كله يكمن في هذه الخلايا العصبية ، من جميل صنع الخالق أن حفظت هذه الخلايا في صناديق عظيمة شديدة الصلابة ، فالمخ والنخاع الشوكي محاطان بغلاف

الكرسي المتحرك مرحلة من مراحل المعالجة التأهيلية .

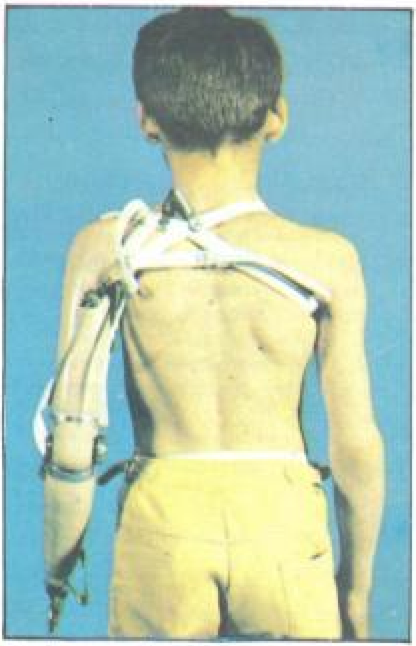

الذراع الصناعي يركب في المكان المناسب ويربط على الكتف والذراع السليم .

استخدام المياه الباردة والساخنة والتدليك كلها من وسائل العلاج الطبيعي .

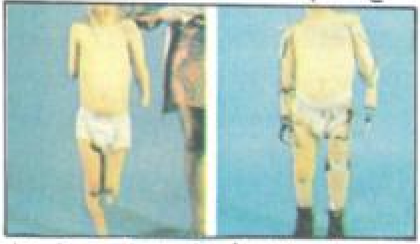

طفل مبتور اليد والذراع وأحد القدمين ، ثم وهو يقف دون مساعدة باستخدام الأجهزة التعويضية .

عظمي وسوائل وأغشية تحجبها كل ما يمكن أن يتعرضا له من صدمات وحوادث .

إلا أنه على الرغم من ذلك قد تتعرض هذه الأجزاء الثمينة من الجسم البشرى الى حوادث عارضة ، مثل حوادث السيارات وغيرها التى قد تتسبب في كسر في الجمجمة أو العمود الفقرى ، وقد يؤدي ذلك الى أعراض معظمها عبارة عن شلل وفقدان للاحساس وضمور الجلد ، وعدم التحكم في إخراج البول والبراز ، فهذه أو بعضها قد تنشأ من الحوادث التي تصيب المخ أو النخاع الشوكي ، وهي تتطلب بالضرورة تدخل الفريق الطبي النفسي الاجتماعي الذى ذكرنا أفراده من قبل .

إن المصاب يجب أن ينقل على الفور الى أقرب مركز طبي أو مستشفى ، حيث يعمد اختصاصي العلاج الطبيعي الى منع التقلص العضلي الذي يحدث عقب الحادثة ، بل ويحافظ ما استطاع على العضلات والأنسجة التي لم تصب ، ويعمل على تقويتها ، وبعد التدخل الجراحي المطلوب ، وشفاء المريض من أثر الجرح ، يبدأ عمل الاختصاصي الطبيعي مرة أخرى ، فهو يساعد المصاب على الحركة أولا بالجلوس على حافة السرير ، ثم بالاستعانة بالكرسي المتحرك ، وأخيرا يدرب هذا المصاب على المشي بالاستعانة بعكازين ، وقد يكون من الضروري كذلك معاونة هؤلاء المصابين على تنظيم عمل المثانة والمستقيم ، وقد يحتاج الأمر الى زرع أجهزة « الكترونية » في أجسامهم ، تتحكم فيها من الخارج مرسلات صغيرة الحجم ، توضع في جيوبهم ، وهي أشبه في عملها بأجهزة ضخ (الانسولين) لمرضى السكر التي تزرع في أجسام المصابين بمرض السكر ، ولا شك ـ إذن ـ أن إصابة المخ أو العمود الفقري

تنطوي على خطورة ، خاصة إذا كانت الإصابة في أعلى العمود الفقري ، وليس إذن من سياق المبالغة أن نقول إن ما يقرب من ٩٨٪ من حالات إصابة العمود الفقري في ربع القرن الماضي كانت تنتهي بالوفاة خلال سنة من الإصابة ، لكن هذا لا يحدث الآن ، ولعل الفضل في ذلك يعود ـ تحديدا ـ الى المعالجة التأهيلية التي تقدم لهؤلاء المرضى .

سيقان وأذرع صناعية

كما قلنا فإن الحوادث قد تؤدي الى إصابة المخ والنخاع الشوكي ، وهو ما يؤدي الى الشلل غالبا ، إلا أن الحوادث قد تؤدي الى بتر في أحد أطراف الجسم أيضا ، وقد يكون البتر نتيجة لقصور في الدورة الدموية بالطرف ، سواء كان ساقا أو ذراعا وفي هذه الحالة يكون من الضروري تركيب جهاز تعويض ، ليحل محل العضو المفقود .

وفي الحقيقة أن بقايا الطرف المفقود يجب أن تعامل معاملة خاصة ، حتى تتهيأ لاستقبال الجهاز التعويضي ، فتلف بضمادات ، حتى تأخذ في النهاية الشكل المخروطي ، وهذا من شأنه المحافظة على توزيع الضغط على الأنسجة الحية . وكذلك يجب المحافظة على العضلات التي نجت من الإصابة في الطرف المفقود حتى تعمل بصورة طبيعية، بل وتنمو كذلك نموا طبيعيا .

وعند تركيب الجهاز التعويضي فإن النتائج تختلف تبعا للعضو المبتور ومكان البتر ، فهؤلاء الذين فقدوا أذرعهم يمكنهم ممارسة واجباتهم بصورة طبيعية تقريبا وذلك أقل قليلا ممن فقدوا سيقانهم ، كذلك فإن البتر في أعلى الذراع ـ فوق مفصل الكوع ـ يعطي نتائج أقل إيجابية من البتر أسفل الذراع عند تركيب الجهاز التعويضي . والأجهزة التي تستخدم الآن بها خطاطيف ، تربط في الذراع والكتف المعاكس (السليم) للذراع المبتور ، وهذا الوضع يتيح للجهاز التعويضي القدرة على التحمل ومقاومة تغيرات الطقس . ويحمل هذا الجهاز التعويضي في نهايته خطاف قوي ، يمكن المرء من إنجاز عمله بدقة ومهارة ، ولهذه الأجهزة أطراف تصنع من البلاستيك ، وهي تشبه اليد البشرية تماما ، ذات شكل مقبول ، إضافة الى أنها مفيدة لهؤلاء الذين يعملون أعمالا كتابية لا تحتاج لمجهود عضلي .

وإذا انتقلنا لهؤلاء الذين فقدوا سيقانهم فإن الأمر يختلف قليلا ، وذلك لأن الساق تتحمل ضغط الجسم كله ، وبالتالي فالضرورة تحتم أن يكون الجهاز التعويضي مؤهلا لتحمل هذا الضغط .

ولعله من الغريب حقا أن نعرف أن أول من صنع السيقان الصناعية كان مساعدا لحلاق في فرنسا ، يدعى « امبروز باريه » ، وقد ولد في عام ١٥٠٩م بمدينة « ماين » الفرنسية ، وكان والده يعمل بعض الوقت خبازا ، وبعضه خادما ليسد رمق أسرته المعدمة ، بيد أن « امبروز » كان يتطلع لحياة طموحة ، يكتب فيها اسمه بمداد المجد والخلود ، فتعلم فن الجراحة ، وشغل منصب جراح عسكري في سنة ١٥٣٦ . وقد جذب انتباهه كثرة المصابين في المعارك الحربية ، حيث كانت تبتر سيقانهم التي مزقتها نيران المدافع ، وكان امبروز يعتقد ـ ومعه الحق ـ بأن القذائف والرصاص الذي يصيب الجندي ليس مسمما كما كان يعرف ، بل إن التسمم إذا ما حدث فإنه ناتج من عدم العناية بالجرح وتنظيفه كما ينبغي ، لذلك كان يوصي بتنظيف الجرح بالماء المغلي ، لا غسل الجروح بالزيت المغلي أو معالجتها بالكي كما كان يفعل الجراحون آنذاك .

والأمر الذي كان يؤرق « امبروز » حقا هو هذا العدد الكبير من هؤلاء الجنود الذين فقدوا سيقانهم في المعارك التي كانت تسود كل بلدان اوروبا في ذلك الوقت ، لذلك وضع امبروز نصب عينيه صنع سيقان صناعية ، تعين هؤلاء على السير دون اللجوء الى مساعدة . وهكذا ظهرت السيقان الصناعية أول مرة في العالم ، وقد كان هذا العمل الجليل سببا في تعيين « امبروز » طبيبا خاصا للملك « تشارلس التاسع » في عام ١٥٦٢م تكريما له وتشريفا .

ولقد عمد العلماء منذ ذلك التاريخ حتى اليوم الى تطوير هذه السيقان الصناعية ، بل نقول الأطراف

الصناعية ، سواء كانت أذرعا أو سيقانا ، وهي لا شك تحتاج الى مهارة خاصة . وتصنع هذه الأطراف من نوع من البلاستيك شديد النقاء ، غير قابل للتلوث ، إضافة الى متانته وخفة وزنه ، عن مثيله من الخشب أو المعدن .

ولقد أدى التقدم في صناعة الأطراف الصناعية الى درجة تمكن المصاب من استخدامها في القيام بجميع حركات الساق أو الذراع الطبيعية ، من قبض وانكماش ودوران وغير ذلك من الحركات ، بل إن خبراء صنع الأطراف قد فكروا في مدها بالطاقة أو القوة ، وقد استخدموا لذلك مادة « الكربون المؤكسد » المضغوط ، ثم عمدوا الى استخدام القوة المنبعثة من الطاقة (الهيدرولوكية) ، وقد يستخدم كلا النظامين معا في بعض الأجهزة . وقد أدى ذلك ـ دون شك ـ الى تطور هذه الأجهزة التعويضية تطورا كبيرا ، وعلى الرغم من أن مثل هذه التجارب تكلف مبالغ طائلة ، إلا أنها تعود في النهاية بالنفع على هؤلاء الذين كان قدرهم أن يفقدوا جزءا غاليا من أجسامهم .

وأخيرا

فإن الأجهزة التعويضية التي تهيء السبيل لحياة أفضل للمعاقين ، والتي كانت في الماضي باهظة الثمن ، لا يقدر على اقتنائها إلا الأثرياء ، قد أصبحت الآن رخيصة الى حد ما ، بل إنها تعطى مجانا في بعض الدول . وإذا كان حلم الإنسان أن يجد الآلة أو الجهاز الذي يستطيع أن يقوم مقام أحد أعضائه فإن الأبحاث والتجارب تعمل لتحقيق ذلك . يقول البروفيسور « جايلز بريندلي » وهو أحد الرواد في أبحاث وسائل مساعدة العجزة : إنه قد آن الأوان لجعل بعض الأجهزة التي تزرع في الجسم تعمل وتكف عن العمل دون الاعتماد على المريض ، ومن هذه الأجهزة الجهاز الذي يحرك الساق ، فمن الممكن التحكم في هذا الجهاز عن طريق إشارات تلتقط من المخ ، يتم تكبيرها . وهناك محاولات الآن لتزويد مكفوفي البصر بإبصار صناعي ، وتزويد الصم بسمع صناعي . وتهدف هذه المحاولات الى تحقيق ذلك عن طريق استخدام أجهزة إحساس الكترونية ، كخلية كهربائية ضوئية ، أو « ميكروفون » يتصل مباشرة بالأعصاب التي توصل الى المخ . ثم يستطرد بروفيسور بريندلي قائلا : « إن أول مرة تمت فيها مثل هذه المحاولة كانت في عام ١٩٦٧ ، عندما تم زرع جهاز في جسد إحدى الكفيفات لإثارة مناطق القدرة على الرؤية داخل المخ ، وقد استطاعت هذه السيدة رؤية بعض الأشكال نتيجة لذلك . . » . وإن ما قاله البروفيسور بريندلي ، ما هو إلا حلم سوف يتحول الى حقيقة واقعة خلال سنوات قادمة ، فلقد استطاع الإنسان أن يعيد الطرف الذي بتر في حادثة بعملية جراحية بعد استعمال « الميكروسكوب » الجراحي الذي يتيح للجراح ربط الشرايين والأعصاب الدقيقة ، وأوتار العضلات ، لكن من سوء الحظ أنه ليس كل حالة بتر قابلة لهذه العملية الجراحية المعقدة ، بحيث يتم إعادة زرع العضو نفسه في الجسم . فمثلا اذا هرست ساق شخص أو ذراعه تحت عجلات (مترو) أو سيارة فإنه من المستحيل إعادة زرع مثل هذه الساق أو تلك الذراع ، بل لابد لضمان نجاح هذه الجراحة أن يكون البتر قد تم بواسطة آلة حادة مثل المنشار الكهربائي ، بحيث يبدو العضو كأنه قد بتر بيد جراح . إذن هذه الجراحة لا تصلح لمن تمزقت أطرافهم في الحروب ، أو في حوادث الطرق ، والصناعة . بيد أن بارقة الأمل لهؤلاء تكمن في المعالجة التأهيلية التي تعنى في المقام الأول بصنع جهاز تعويضي لاصلاح ما فسد .

وهكذا يمضي العلم بالإنسان متجاوزا منحنيات الخطر التي تعترضه ، والتي يمكن أن تحطم حياته . وصدق سبحانه وتعالى إذ يقول في كتابه الكريم : « وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ » . □

وجهاً لوجه

علي فرزات و حسن محمد يوسف

○ أستاذي الأول في الرسم كان صباغاً..!

○ أول كاريكاتير أرسلته للنشر نزل بالصفحة الأولى من صحيفة الأيام

○ الشخوص التي تعايشني تفرض علي أسلوباً معيناً في الرسم

○ بدأت بالرسم "الأكاديمي" ثم حطمت النسب وأعدت بناءها

○ الكاريكاتير الذي يخاطب الناس بلغة الصمت أكثر رقياً وبلاغة

○ عندما أختار موضوعي أبحث عن المشكلة التي تشغل الناس

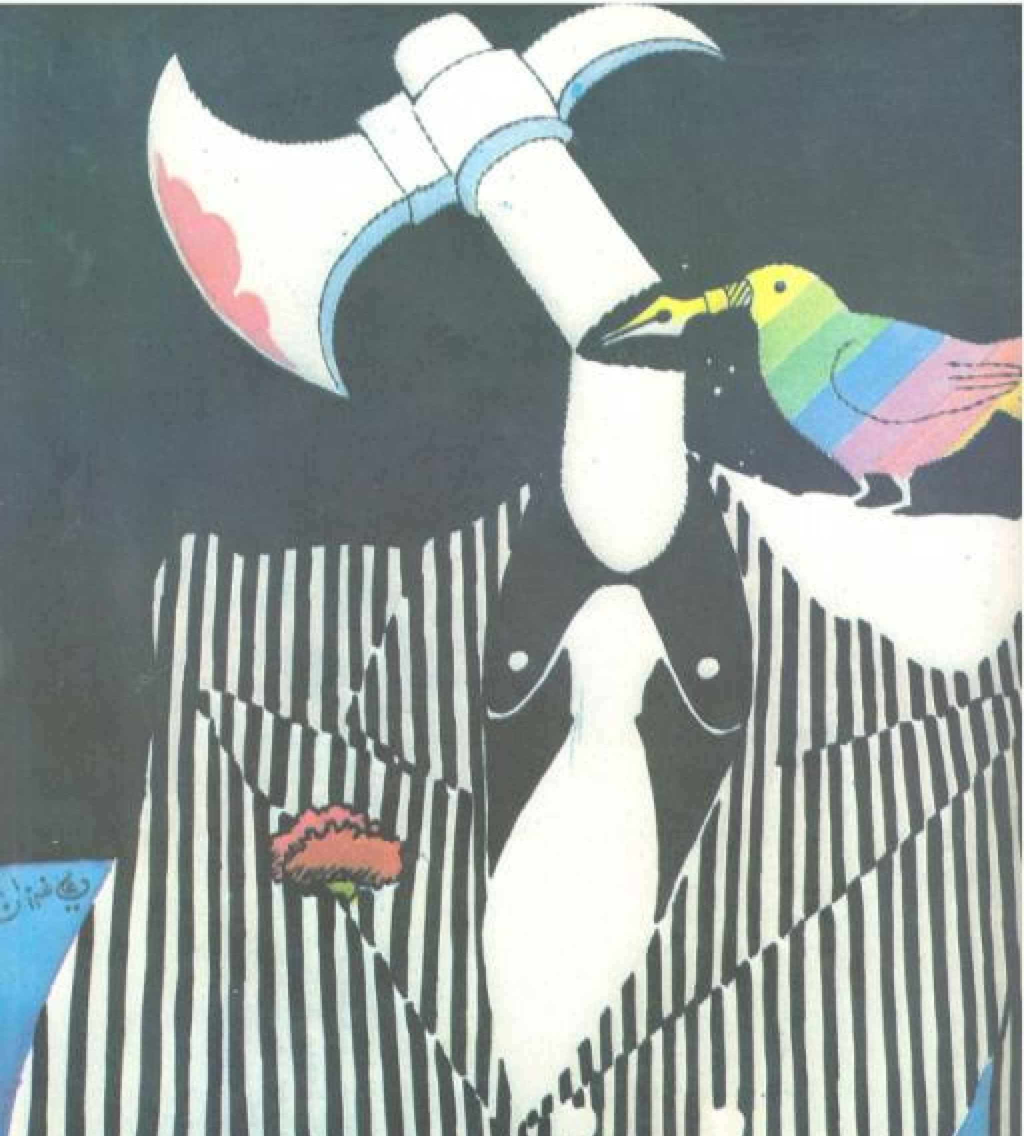

فنان « الكاريكاتير » حالة خاصة جدا .

فهو الأكثر حضورا على صفحات الجرائد والمجلات .

والأقرب إلى عين القارىء وعقله .

وهو ليس فنانا تشكيليا ، وليس كاتب رأي .

ومع ذلك فهو يجمع بين كل هذه الأشياء ، حس الفنان وأدواته ،

وموقف الكاتب ،

وسخرية خاصة ،

سخرية تصنع ابتسامة حتى على أشد الأشياء مرارة في حياتنا .

علي فرزات أشهر رسام « كاريكاتير » في القطر العربي السوري ،

وواحد من أشهر رسامي «الكاريكاتير» العرب ،

وهو رسام صاحب موقف ورأي .

وعبر مساهماته اليومية على قرائه عبر الصحف السورية والعربية الأخرى

قدم فرزات وما زال يقدم أعمالا فنية رائعة تعد إضافة متطورة للجيل الشاب

من رسامي « الكاريكاتير » العرب .

أجرى معه الحوار الكاتب السوري حسن يوسف .

للكاتب التركي الساخر عزيز نيسين رأي يقول فيه « أعتقد أن السخرية كانت بالنسبة لي وسيلة من وسائل الدفاع منذ طفولتي ، ففي الابتدائية والاعدادية كان محكوماً علي أن أنجح دوما ، بينما يفشل آخرون دوما ، وكنت صغيرا من حيث الحجم والسن بين كبار لهم شوارب ، لذا لم يكن امامي أي وسيلة للدفاع عن النفس سوى السخرية منهم ، وعندما تطورت العملية وأخذت شكلها المكتوب تحولت من عملية فردية إلى عملية اجتماعية طبقية ترمي للدفاع عن الفقراء بشكل عام » وسألنا رسام « الكاريكاتير » العربي علي فرزات :

كيف تشكلت نظرتك الساخرة للعالم ؟ وما هي أهم العوامل التي أسهمت في صياغتها ؟

● قال : منذ أن كنت طفلا صغيرا كنت ألاحظ الناس وأسجل في ذاكرتي المفارقات والمتناقضات التي تظهر بين كلامهم وسلوكهم الاجتماعي ، مثلا : عندما كان أقاربنا وأصدقاء ذوينا يأتون للسهر عندنا كنت أجلس على الهامش ، والصغار يجلسون دائما على الخطوط الخلفية في سهرات كهذه ، وكنت أرصد كل كلمة وكل حركة يقولها الكبار ، وعندما كنت أرجع بعض الحالات إلى أصولها الواقعية كنت

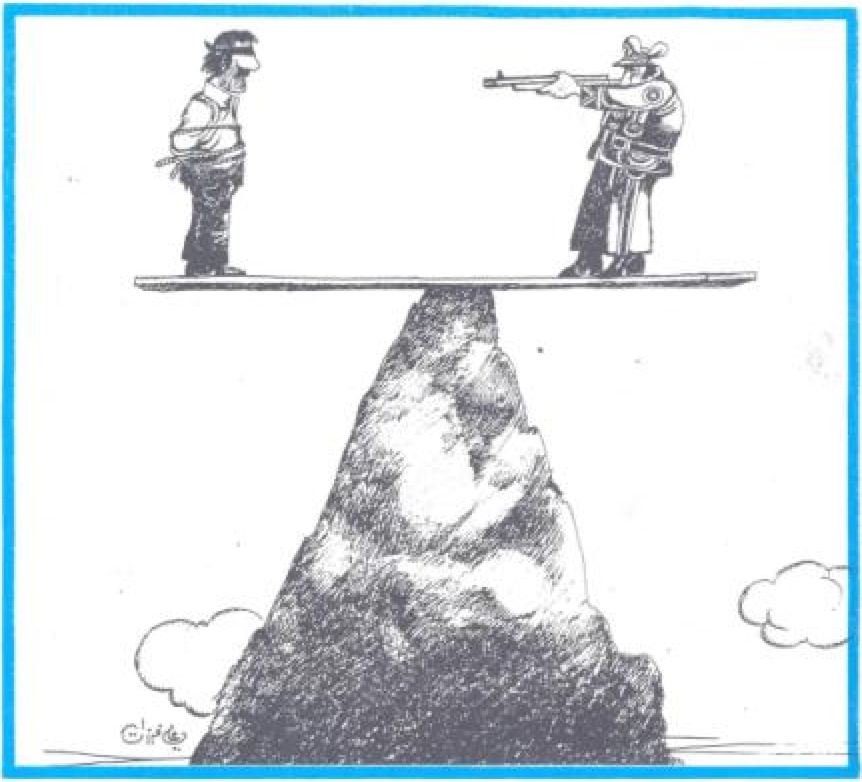

أكتشف التناقض بين القول والفعل ، كأن يقول أحد الموجودين في السهرة : « يجب على الأب أن يكون صديقاً لابنه ، يلبي له كل حاجاته ورغباته ، دون أن ينقص منها شيئاً » ، في حين أن ابنه صديقي ويحكي لي باستمرار عن الصفعات الرنانة التي يأكلها منه !

كانت « لماذا » تقودني

في البداية كنت ألتقط هذه الأمور بشكل فطري ، لكن الثقافة ساعدتني مع الزمن على اكتشاف عمق هذه الحالات وتلمس أسسها وتصنيفها في باب التناقض بين السلوك والفكر .

كنت أتساءل دائماً لماذا ؟ و« لماذا » هذه كانت تقودني لمزيد من المعرفة ، وتدفعني لمزيد من البحث ، وغالباً ماكنت أحلل موضوعاتي لأفهمها وأتمكن من رؤية بعض استطالاتها المستقبلية . إن أي عمل فكري يعتمد على الذاكرة ـ الأرشيف ـ ويقرأ الحاضر في علاقته بالماضي ليخرج من ذلك بتصورات جديدة حول المستقبل ، وهذه هي الآلية التي أتبعها في تحليل الأشياء .

● مالذي دفعك لاختيار « الكاريكاتير » وسيلة للتعبير بدلاً من القصة أو القصيدة أو اللوحة التشكيلية ؟

لم تعرض علي خيارات مختلفة لأقول إنني اخترت ، فكل ما هنالك هو أنني وجدت نفسي أرسم ، غير أني أذكر أثراً يرجع لطفولتي الأولى ، أيام ما قبل المدرسة ، فقد كنا نسكن في بيت حيطانه من الكلس ، وبين فترة وأخرى كان يجيء إلينا صباغ لتجديد لون البيت ، وكان ذلك الصباغ

فنانا إلى حد ما . إذ أنه كان يرسم وجها على الحائط من باب التسلية ، ثم يطمسه بالبياض . وكنت أنظر إلى ما يفعله باندهاش . كما أنظر الآن إلى لوحة لليوناردو دافنشي . وربما كنت أراه في ذلك الوقت أعظم من مايكل انجلو !

كان « يخربش » على الحائط وبغي ليتسلى وهو لايدري أن تحت السلم شخص صغير ـ هو أنا ـ ينظر إلى مايفعله باهتمام .

* ماذا لديك من ذلك الصباغ ؟

ـ أحيانا أذهب إلى مدينة حماة لأراه . فبيننا قرابة بعيدة . لكنه لايعرف لماذا أكن له هذا الاحترام ، فالوحيد الذي يعرف السبب حتى الآن هو أنا .

* هل تعتبره أحد أساتذة الطفولة ؟

إلى حد ما . بالنسبة لذلك السن أعتبره أستاذا ، فأنا ما أزال أذكر الوجه الذي كان يرسمه على الحائط حتى الآن . وأذكر أنه عندما انتهى من صبغ بيتنا أخذت مرة قطعة فحم من « المنقل » وكررت ذلك الوجه الذي رسمه على كل حيطان الحارة .

الطفل والانسان « والكاريكاتير »

* هل استخدمت هذه الموهبة في الدفاع عن النفس مثل عزيز نيسين ؟

طبعا استخدمتها في محيطي وعلاقاتي . مثلا ، عندما كنت أتخاصم مع أخي كنت أرسمه « كاريكاتيريا » . وكنت أرسم الاستاذ الذي يضربنا بالعصا وأوزع الرسم على الطلاب .

* أيهما أكثر قربا إلى روح الطفل برأيك ، الرسم « الكاريكاتيري » أم اللوحة التشكيلية ؟

ـ قرأت مرة بحثا يقول أن « الكاريكاتير » أقرب إلى نفوس الأطفال من الرسم العادي . مما يفسر أسباب تعلق الأطفال بأفلام الرسوم المتحركة والصور « الكاريكاتيرية » . فالفنان مهما بلغ من الموهبة وقوة التعبير لايستطيع أن يصل بفنه إلى مستوى الصورة الطبيعية التي يراها الطفل في الحياة .

أما رسام أفلام « الكرتون » ورسام « الكاريكاتير » فإنهما لايرسمان شيئا واقعيا . ولهذا يقبل الطفل عملهما .

* هل يمكن القول أن « الكاريكاتير » وسيلة يستخدمها على فرزات للدفاع عن الطفل في داخله ؟

ـ ممكن جدا أن تكون المسألة هكذا . لكن يضاف إليها الرغبة في الدفاع عن الانسان بكل مراحله .

* هل الواقع بالنسبة لك مايجري فقط أم مايمكن أن يجري أيضا ؟

ـ الفنان برأي مطالب بأن ينتقل من الخصوصية إلى العمومية ، لأنها هي الحالة المتقدمة في الفن .

* متى نشر أول « كاريكاتير » لك ؟

ـ نشر أول « كاريكاتير » لي وأنا في الصف الثالث الاعدادي في جريدة « الأيام » الدمشقية التي كان صاحبها ورئيس تحريرها المرحوم صفوح بابيل .

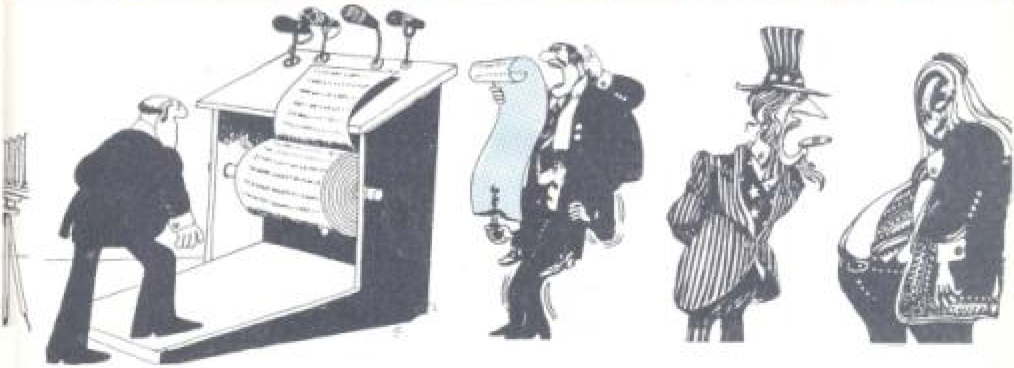

في محراب الرسم

● كيف تم نشر الرسم ، أعني ماهي الظروف التي أحاطت بعملية النشر ؟

ـ بعثت اول صورة « كاريكاتورية » الى جريدة « الأيام » الدمشقية وكانت تدور حول اتفاقية ايفيان بالجزائر واصرار الضباط الفرنسيين وعلى رأسهم الجنرال سالان ، قائد القوات آنذاك ، على البقاء في الجزائر على الرغم من معارضة الجنرال ديغول ، فرسمت « كاريكاتورا » استخدمت فيه حكاية من « ألف ليلة وليلة » حول ناس وصلوا إلى جزيرة في البحر بعد طول سفر ، فنزلوا عليها وأشعلوا النار فوقها ليطبخوا طعامهم فإذا بها تغوص بهم ، لأنها لم تكن جزيرة ، بل حوتا عملاقا . أخذت الحكاية وركبتها على موضوع سياسي ، فرسمت سالان وجماعته من الضباط على ظهر الجزيرة الحوت ، ورسمت ديغول يقول لسالان : « امش يا سالان الأرض تغوص » .

● كم كان عمرك آنذاك ؟

ـ خمسة عشر عاما . المفاجأة العاصفة كانت بعد ثلاثة أيام ، عندما اكتشفت أن الجريدة نشرت رسمي في صفحتها الأولى تحت « المانشيت » مباشرة ، والطريف في الأمر أن صاحب الجريدة المرحوم صفوح بابيل أرسل إلى خطابا مطبوعاً يخاطبني فيه بلغة التفخيم قائلا : « وإذا تكرمتم بالمجيء إلى دمشق فلسوف يكون من دواعي سعادتنا أن نهتم بكم ماديا ومعنويا ... الخ ... » ، لأنه لم يكن يعلم أني تلميذ مدرسة ! . .

● هل تحتفظ بذلك الكتاب ؟

ـ لا ، مع الأسف ، هناك أشياء كثيرة ضاعت مني أثناء تنقلاتنا الكثيرة في سورية ، فقد كان أبي موظفا في الدولة مديراً لأمانة السجل العقاري ، لذا عشنا حياة من التنقلات المستمرة . وهناك أشياء كثيرة عزيزة على نفسي ضاعت أثناء تلك التنقلات .

سحرني « برني »

● أعود بك إلى سؤال سابق بصيغة أخرى : من الواضح أن موهبة الرسم كانت موجودة لديك منذ البداية ، لكن من هم أصحاب الأيدي التي تركت بصماتها على شخصيتك إنسانا وفنانا ؟

ـ الانسان حالة ثقافية مستمرة متصلة مع الآخرين . هناك رسام يدعى « برني » كان ينشر رسومه « الكاريكاتورية » في الصحف المصرية : « الاثنين » ، و « المصور » ، و « الدنيا » ، ومع أنه كان فرنسيا إلا أنه كان ابنا أصيلا لواقع مصر وبيئتها ، بحيث لايمكن أن تشك ولو لحظة واحدة أنه غير مصري . هذا الرجل سحرني بخطوطه وأفكاره ، وجعلني أعشق « الكاريكاتير » من خلاله . كنت أحتفظ برسومه « الكاريكاتورية » وأجمعها ، وأحيانا كان أبي يقول لي : يابني ، صار لك ساعة وانت تحملق بالصورة . هل يعقل أنك لم تفهمها حتى الآن ؟ .

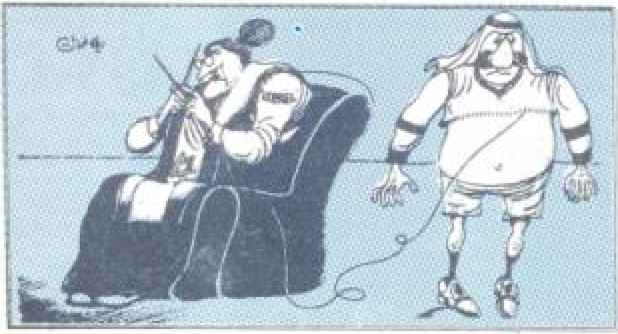

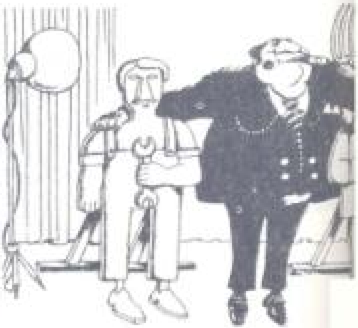

فكنت اجيبه : « لا ، يا أبي ، لقد فهمتها ، لكني لاأعرف سر تأثير هذا الرسام علي ! » .

كنت أتفرج كيف يرسم الخط ، والشكل ، والأنف ، والعين ، ولا أكتفي بمجرد مشاهدة الصورة ، بل كنت أقرأها وأحللها .

* كم كان عمرك في ذلك الوقت ؟ .

ـ اثنا عشر عاما .

* من غير « برتي » سحب ظله عليك ؟ .

ـ علاقتي بالفنان « برتي » أعتبرها أساسية ، فقد جعلت مني رساما ، وبعد ذلك تداخلت الأمور المكتسبة ، بحيث بات من الصعب تحديد مصادرها : الواقع ، المشاهدات ، والقراءات ، والأشخاص ، والحالات النفسية ، والممارسات ، والمطالعات ، والأحوال الاقتصادية والأوضاع السياسية والاجتماعية والانسانية ، كل هذه الأشياء تسهم في خلق منظومة غير مرئية من المعارف لدى الفنان ، يقوم خلالها بصياغة فكرته الخاصة التي تحتوي على عصارة كل هذه الأشياء ، إلا أن الابداع لايمكن ضبطه بقانون ، فقد يدفعك مشهد في الطريق لخلق رائعة أدبية أو لوحة فنية أو قصيدة شعرية .

الصدق وتمثل الواقع

* من خلال متابعتي لمسيرتك الطويلة في فن « الكاريكاتير » لاحظت أن خطوطك قد بدأت ناضجة تقريبا ، ولم تتغير كثيرا ، وافكارك قد تطورت ، أما أسلوبك فلم يتغير في جوهره ، مما يؤكد صحة القول الانكليزي الشائع : « الأسلوب هو الرجل » فما رأيك ؟ .

ـ ما أعرفه هو أنه يجب علي أن أكون صادقا مع نفسي ، أن أتمثل الواقع بدقة ودون تزاويق ، هذا من حيث المضمون،أما من حيث الشكل فأعتقد أن الشخوص التي تعايشني وأعبر عنها تفرض علي أسلوباً معيناً في الرسم ليس غريبا عن مضمونها ، فالشكل عندي يواكب المضمون باستمرار .

* درست فن الحفر في كلية الفنون الجميلة بدمشق ، كيف تنظر لعلاقة « الكاريكاتير » بالدراسة الاكاديمية ؟

ـ يجب على رسام « الكاريكاتير » أن يعرف المبادىء الأساسية في الرسم الأكاديمي ، فالكثير من الناس

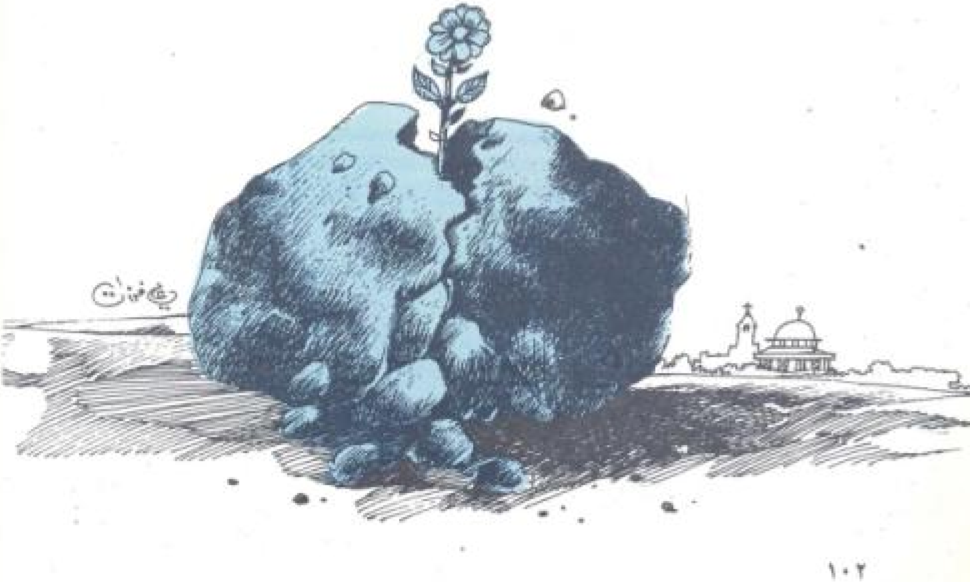

● وجها لوجه : علي فرزات

يتصورون أن عمل رسام « الكاريكاتير » يعتمد على تشويه الشكل عن طريق التقصير والتطويل والتضخيم والتصغير فقط . أما أنا فقد كنت في البداية أحاول أن أرسم الأشياء على طبيعتها كما هي في الواقع من وجهة نظر أكاديمية بحتة . لقناعتي بأن من يريد أن يكتب قصيدة حديثة ـ على سبيل المثال ـ يجب عليه أن يعرف قوانين الشعر التقليدي قبل ذلك . ولهذا تعلمت الرسم الاكاديمي أولاً ، ثم قمت بتحطيم النسب وأعدت بناءها من جديد بما يتناسب ورؤيتي للواقع .

صحيح إنني لا ألتزم بالتشريح والقواعد الاكاديمية في « الكاريكاتير » ، إلا أن هذه المعارف تفيدني كثيرا عندما أقوم بتحطيم النسب وإعادة بنائها ، لأنها تجعل المشاهد يرى الشخص حيا لا مجرد وسيلة جامدة تقوم بإيصال فكرة . وهكذا يسهم الشكل مع المضمون في إيصال فكرة العمل .

* الفكرة عندك لاتكون غالبا موجودة في شكل الشخص ولا في الحركة التي يقوم بها ، بل في الموقف الذي تسهم كل عناصر « الكاريكاتير » في إيصاله . وهذا يغريني بإطلاق صفة « كاريكاتير الموقف » على رسومك . ما رأيك ؟

ـ رأيي أن هذا صحيح ، ولهذا يتعاطف الناس أو ينفرون من الشخصيات التي أرسمها حسب موقفها من الفكرة .

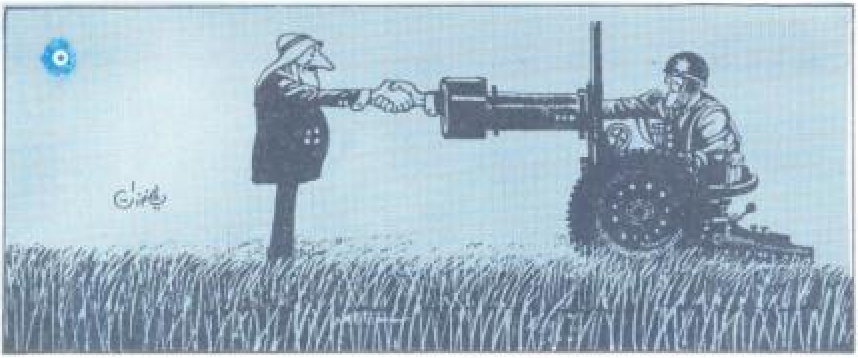

الرسم والكلام

* معظم فناني « الكاريكاتير » العرب يكثرون من استخدام الكلام في رسومهم وتحاول أنت إيصال رسالتك عبر الخط فقط . هل هذا مجرد اختيار فني أم أنه محاولة لتجاوز حدود الوطن العربي ؟

ـ هذا الشيء كان موضع حوار مستمر بيني وبين الشهيد ناجي العلي . فأنا أقول أن « الكاريكاتير » يخاطب الناس بلغة الصمت ، وأكثر وقعا من « الكاريكاتير » الذي يعتمد على الكلام المكتوب .

* الى أي حد تعاني أثناء انتقاء موضوعك من بين الكم الكبير من المشاكل والموضوعات التي يقذفك الواقع بها ؟

ـ الرسام الذي يعيش واقعه وبيئته يرى كل يوم مجموعات كبيرة من المفارقات والصور التي تحفزه للعمل ، وأنا شخصيا عندما أريد اختيار موضوع «الكاريكاتير» الذي أريد رسمه ، أبحث عن المشكلة التي تشغل الناس أكثر من غيرها . فأقوم بتصنيف الموضوعات على درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة ، لكن الظروف أحيانا تجعل الثالثة أولى والرابعة ثانية ، إلخ والاحتمالات مفتوحة باستمرار ..

* هل تعتقد أن الرسوم التي نشرت لك هي أفضل نتاجك أم أن ثمة رسوما أخرى أفضل لم تأخذ حقها في النشر لأسباب مختلفة ؟

ـ الواقع هو الذي يحدد « الأفضل » . « فالكاريكاتير » عندما يتزامن مع حدث واقعي حار تكون ترجمته لدى المشاهد اقوى لأنه يخاطب همه اليومي . وهناك رسوم كثيرة أعدت نشرها في مناسبات أخرى أكثر ملاءمة لها فكان وقعها أفضل بكثير من المرة الأولى ، لأنه يجب أن يكون « للكاريكاتير » بعده المستقبلي . صحيح أننا ننشر أعمالنا في جريدة عمرها يوم واحد ، لكن ليس مفروضا أن يكون عمر « الكاريكاتير » بعمر الجريدة . وليس مفروضا بك كفنان أن تأخذ حدثا يوميا آنيا تنتهي قيمته بعد ساعات .

كلام بين « الكواليس »

* للسؤال شق ثان حول الرسوم التي لم تأخذ حقها في النشر . ماذا عنها ؟

ـ أنا أرسم بشكل يومي تقريبا ، لكن « الكاريكاتير » لاينشر يوميا ، أحيانا يؤجل ، وأحيانا لايقبل نهائيا بسبب مناسبة أو حدث حاصل على الساحة ، وفي مثل هذه الحالات تنشر صورة أو عمل قديم لي . لكنني لاأترك الأمر عند هذا الحد ، بل اشكل هيئة دفاع وأقوم بدور المحامي لاقناع المعنيين ببراءة « الكاريكاتير » من الجرم المنسوب إليه ، فينشرونه أحيانا ، وفي أحيان أخرى يقتنعون بوجهة نظري لكنهم يبدون أسفهم لأن العين بصيرة واليد قصيرة . فإذا اقتنعت بتبريراتهم قبلتها ونعمت وإن لم أقتنع أبقى في البيت حتى ينشر « الكاريكاتير » ، وهذه حالة

استثنائية جدا لاتحصل إلا في حالات نادرة عندما يحتد النقاش ويكون الحق معي .

* هل تقوم بتعديل « الكاريكاتير » أحيانا بما يتناسب مع رغبات الادارة ؟

ـ أبدا ، لم يحدث يوما أن أعدت صياغة « كاريكاتير » رسمته سابقا ، على الاطلاق .

* من بين الرسوم التي لم تنشر لك ؟

ـ أتذكر رسماً عن خمسة مساجين في قبو ملفوفين بالشاش من أعالي رءوسهم إلى أخماص أقدامهم ، بينما رسام يحمل سطلا من الصباغ يرسم على وجه كل واحد منهم ابتسامة فوق الشاش ! هذا الكاريكاتير يمس الساحة العربية كلها ومن الصعب نشره .

ضريبة غير منتظمة

* بعض الناس يتوقعون من الكاتب أو الفنان الساخر أن يكون ساخرا في كل شيء حتى في مشيته . هل يصادفك أمثال هؤلاء كثيرا ؟

ـ هناك عدد كبير من الرسامين . في الصحف اللبنانية والمصرية والسورية جعلوا الناس يعتقدون ان « الكاريكاتير » هزل وتهريج .

* بعيدا عن المجاملة أعتقد أنك تعرف

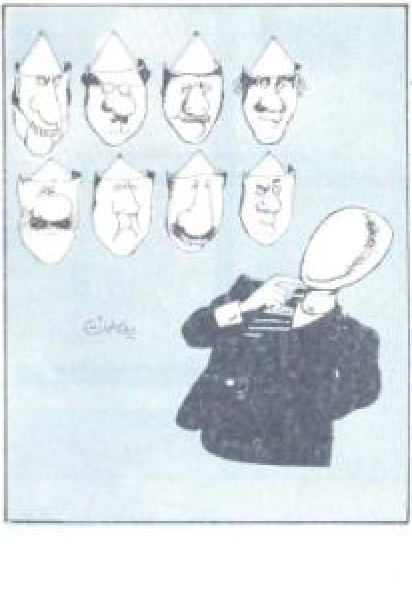

ماهو مطلوب منك كفنان : لكن هل أي حد يعرف زملاؤك رسامو « الكاريكاتير » العرب ما هو مطلوب منهم ، برأيك ؟ .

ـ هناك رسامون كثيرون في حقيقتهم مع الأسف مجرد منتفذين يسعون وراء اللقمة الطيبة والحياة المرفهة ، وهؤلاء أعتبرهم مجرد كم ولاأخاطبهم .

وهناك رسامون عرب لكنهم ينظرون إلى الوطن العربي كالمستشرقين ، يعيشون في أوروبا ، ويسكنون « الفيلات » الفخمة وينشرون رسومهم على ورق بلاستيكي فاخر . هؤلاء أيضا لاأخاطبهم ، فهم حتى عندما يحاولون طرح قضية ما بشكل جدي لايلقون قبولا من الناس لأنهم لاينتمون للناس ولايعيشون وسط المشكلة وصخبها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، بل يتفرجون عليها من خلال كوة سحرية .

أنا أتوجه لأصحاب المواقف الذين يعيشون حياتهم في حالة تشرد من مكان لآخر ، لأنهم يرفضون بيع ضمائرهم ولاينحنون لعواصف الاغراءات .

* ماذا تقول للفنانين العرب أصحاب المواقف ؟

ـ ليس لدي برنامج أو منهج مدروس أتوجه به إليهم ، لكن يمكننا أن ننطلق من أي مكان ومن أي شيء . فعندما تتوفر النية يمكن ايجاد الطريقة المناسبة ان كان في شكل اتحاد أو نقابة أو تجمع أو مجلة أو نشرة . . فحتى النشرة يمكن أن تهز . كما استطاع الحجر الذي لايعجب أحدا أن يهز ويفجع في الأرض المحتلة عندما وجد الارادة . لماذا ننظر إلى الامور كما لو أنه من المستحيل حلها إلا بوسائل خرافية ! يجب أن نعلم أن نشرة بسيطة كالحجر تستطيع أن تسحب البساط من تحت أقدام كثيرين . هذا تصور أولي أتركه لغيري كي يبلوره ويغنيه ، لكن لابد من إيجاد طريقة ما لوقف هذا النزيف باتجاه الإفناء !

فحتى الحشرات والحيوانات التي تسعى للبقاء تقوم بايجاد الوسائل المناسبة لذلك فما بالك بنا ونحن بشر ! □

يصدر في ١٥ يوليو ١٩٨٨

كتاب العربي

الكتاب العشرون

أندلسيات

بقلم

محمد عبد الله عنان

كتاب العربي مرآة العقل العربي

الفيلم الأمريكي

واللاساميّة الجديدة ضد العرب

بقلم : الدكتور جاك شاهين

من المعروف أن المجتمع الأمريكي قد تكون من مجموعات وأقليات من جميع شعوب الأرض ، وكانت بعض الأقليات فيه تنهال عليها السخرية والنقد والتشويهات المتعددة ، عبر وسائل الاعلام أو الأجهزة الثقافية من مسرح وسينما وغير ذلك .

لكن يبدو أن هذه التشويهات ، بفعل عوامل عديدة قد تحولت الآن لتنصب على « العرب » . والدراسة التالية ترسم ملامح شخصية العربي في عدد من الأفلام الأميركية .

يعرض فيلم « نحو الليل » الذي أنتج في عام ١٩٨٥ مجموعة من قطاع الطرق الإيرانيين ، والمشاهدون لهذا النوع من الناس ينظرون إليهم كعرب ، لأن بشرتهم سمراء ، وعملهم هو القتل والابتزاز ، وهي الصورة التي غرسها المخرجون في أذهان الناس للإنسان العربي . هم يقومون بسرقة الزمرد النفيس لحساب رئيسهم (شاهين برفيزي) ، وتكاد « ديانا » أن تكون إحدى ضحاياهم ، لولا أن تداركها وأنقذها منهم رجل غريب يدعى « إد أوكين » الذي يقوم بدوره جيف جولد بلوم ، ثم

نسمع ديانا تبوح بقصتها لإد ، وتخبره بأن صديقها حاسي قد قتلته العصابة في سبيل الحصول على أحجار الزمرد النفيسة التي قامت بتهريبها من أوروبا ، ويسألها إد عن الذين قاموا بقتل صديقها ، وتجيبه بأنها لا تعرفهم ، لكنهم جميعا من الإيرانيين العجم . والمشكلة هنا أن معظم الأمريكيين لا يفرقون بين الإيرانيين والعرب ، والصورة التي يحملونها في أذهانهم للطرفين هي صورة الأشخاص المخربين .

شاهين رئيس هذه العصابة ، قد جمع حوله بعض الصبية ، وحولهم الى جماعة من القتلة والمهرجين في نفس الوقت ، فتراهم يقتحمون إحدى البخوت ، ويداعبون فتاة شقراء عارية الصدر ، ويتناولون طعاما مكونا من لحم البقر المملح المجفف ، ويعاشرون النساء الرخيصات في إحدى الدكاكين المخصصة لبيع السلع النسوية بالتجزئة .

الأشخاص الأربعة الذين يستخدمهم شاهين سرا للقيام بأعمال النهب والسرقة يتصبون واقفين معا

● جاك وجوان يساعدان قديسا على العودة الى اعوانه البدو والقضاء على نظام ديكتاتوري في فيلم « جوهرة النيل »

كلما دخل شاهين عليهم أو خرج من عندهم ، ويقضون وقتهم في تكسير اللوز والجوز والبندق بكعوب مسدساتهم . لكنهم خطرون جدا ، ومستعدون دائما لارتكاب جرائم القتل ، إذ يرى أحدهم مثلا يطلق نيران مسدسه على أحد الكلاب المسالمة ، ثم على أحد الطيور الجميلة وهو داخل قفصه ، ثم يقومون بإغراق صديق ديانا في الماء ، وفي إحدى المرات يتبادلون إطلاق النار مع مجموعة أخرى من العرب أو الإيرانيين ، ويشوهون أجساد بعضهم بعضا بطلقات مسدساتهم . وينتهي الفيلم ولا يبقى منهم إلا واحد ، فقد عقله وداهمته نوبة هياج شديدة دفعته الى قتل نفسه .

صورة الشيطان

صورة العربي -الذي يضرب ويقتل دون رحمة- تقحم نفسها في العديد من الأفلام التي لا علاقة لها بالعرب من قريب أو من بعيد ، فكاتب السيناريو يدخل عليه سطرا يشمل تحقيرا للعرب ، أو يظهرهم وهم يلبسون الخواتم ذات الأحجار الكريمة التي نقشت عليها الرسوم البارزة دون مناسبة ، ففي فيلم يا الهي ! أيها الشيطان الذي أنتج في عام ١٩٨٤ يرى المشاهدون جورج بيرنز - الشيطان - يفخر بأن ياسر عرفات ماهو إلا أحد أتباعه .

وفي فيلم حريق سانت إلمو الذي أنتج عام ١٩٨٥ نرى المخرج يركز انتباه المشاهدين على مجموعة من خريجي الجامعة ، ففي إحدى الليالي تقوم إحدى الفتيات بالاتصال بصديقها وترجوه أن يسرع لإنقاذها من براثن « بعض العرب الذين احتجزوها في حجرة في أحد الفنادق ، وأرغموها على تعاطي الكوكائين » .

إن العرب في هذا الفيلم يقحمون بشكل عرضي في مناظره ويتم تصويرهم على أنهم من ذوي الميول الجنسية الشاذة ، وممن يروجون الكوكائين .

أما فيلم مسألة ليست صغيرة الذي أنتج في عام ١٩٨٥ فيعمل على تعزيز وتثبيت صورة الشيوخ العرب الذين يقومون بمطاردة الفتيات العذارى ، فنحن نرى أحد الشيوخ الشباب الذي يريد أن يعطي

من شأن مغنية مغمورة ، ويرفعها الى مراتب الشهرة . فيقوم بتعليق صورتها واسمها ورقم هاتفها على (١٧٥) سيارة من سيارات الأجرة . فماذا كانت النتيجة ؟ ! انهالت على المسكينة المكالمات الهاتفية ، وكانت كلها مكالمات قذرة داعرة . وفي ردها على إحدى هذه المكالمات نسمعها تقول لمحدثها : لا ، أنا لا أتكلم العربية ، كما لا أمارس ذلك العمل أيضا ، ثم نسمعها تحدث الشاب الذي يعمل على إشهارها ورفع منزلتها ، فتقول له : لقد أصبح رقم هاتفي معروفا لدى كل شخص يمارس الانحراف الجنسي على الساحل الغربي للولايات المتحدة الأميركية ، ثم تخبره أن أحد الشيوخ عرض عليها أن يلتقط لها صورة معه ومع زوجاته الثماني الأخريات ، وتنهي حديثها بالتعليق الساخر : « الحمد لله أنه لم يعرض على أن تشمل الصورة جماله أيضا » .

وفي فيلم القوة من إنتاج عام ١٩٨٦ يقوم أحد المشاهير بوسائل الاعلام (ريتشارد جير) بوضع الألحان الخاصة التي ترافق الحملات الدعائية السياسية مقابل مبلغ ٢٥ ألف دولار شهريا . ولما كان العرب يعرفون بأن « جير » هذا لا يتقيد بالقواعد الأخلاقية يحاولون اغراءه بالنقود التي يحصلون عليها من بيع نفطهم لاستغلال قدراته في التأثير على الانتخابات الأميركية ، ويقومون بمؤازرة أحد ملوك المال في أوهايو ، ومساعدته على الفوز بعضوية الكونجرس الأمريكي ، لا لشيء إلا لأنه يعارض استغلال الطاقة الشمسية للاستعاضة بها عن النفط .

ثم نرى أحد العرب يجري محادثة سرية مع أحد العاملين بالعلاقات العامة فنسمع العربي يقول : « إن أسعار النفط في هبوط مستمر ، وصرنا نسمع اليوم عن شيوخ من أعضاء في الكونجرس يتحدثون عن الاستعاضة عن النفط بالطاقة الشمسية وبطواحين الهواء . ويمضي قائلا : « إن انتخاباتكم مهمة لنا » . ويحاول رجل العلاقات العامة أن يفسر للشيخ حقيقة الوضع ، فيفهمه بأن المرشح الذي يدعمونه من اوهايو يعمل على المحافظة على مصالحه

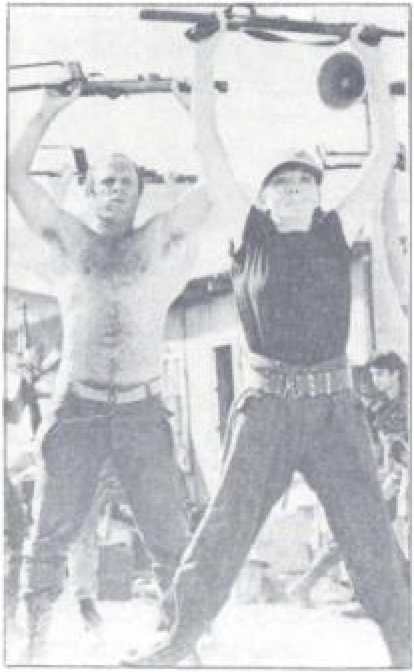

● جوليندي هون ، الفتاة الأميركية تحاول التأقلم مع حياة الصحراء في فيلم بروتوكول .

الخاصة ، لأنه أحد ملوك النفط ، ولا يلبث العربي أن يقول بلهجة مهددة : « أنا لا أريد لصاحب الجلالة أن ينزعج من إخفاق جديد في السياسة التي ينتهجها ، فإما أن يفوز مرشحكم أو مرشحنا ! ! .

« الفليبرز » والقنبلة النووية

وفي فيلم عودة الى المستقبل الذي أنتج عام ١٩٨٥ ، والذي بلغ المجموع الاجمالي لايراده (١٩٠) مليون دولار ، ونجح باجتذاب (٥٣) مليون مشاهد في عام ١٩٨٥ وحده ، يرينا هذا الفيلم ارهابيين ليبيين يقومون بشراء قطع غيار للعبة (الفليبرز) ، ظانين أنها ستساعدهم في صناعة قنبلة نووية ، وعندما يكتشفون أنهم وقعوا ضحايا للغش يقومون بقتل العالم الذي غشهم ، ويظهر الليبيان بأنهما دون مستوى البشر ، حيث يقود أحدهما شاحنة

مقفلة تستخدم لنقل السلع ، وكأنه حيوان أفلت من قفصه . ويشترك الاثنان في الصراخ وإطلاق الأصوات المزعجة المقززة الشبيهة بأصوات الخنازير .

ترى لماذا أقحم العرب في هذا الفيلم ؟ ! ولماذا عمد المخرج والمنتج معا الى ترسيخ الأسطورة القائلة بأن العرب يقومون بطرق غير شرعية بمحاولة الحصول على الأجهزة اللازمة لإنتاج القنابل الذرية من أميركا على الأخص ، مع أن من المعروف أن البلد الذي يمتلك الأسلحة الذرية في الشرق الأوسط هو « اسرائيل » ؟ !

وفي فيلم الحياة والموت في لوس انجيلوس من انتاج عام ١٩٨٥ ، نرى في بداية هذا الفيلم سيارة رئيس الجمهورية « الليموزين » السوداء ، يحيط بها الحرس وهي في طريقها الى فندق لوس انجيلوس . وفي الوقت الذي كان الرئيس ريجان يلقي خطابه ، يقوم بعض العملاء السريين بمراقبة الفندق ، فيشتبه أحدهم بأن عملا ما يجري فوق سطح الفندق ، وعندما يصعد الى هناك للتأكد يجد أن أحد الحراس قد قتل ، وبعد ذلك يكتشف وجود شاب عربي يحمل حزمة من أصابع الديناميت وقد شدها حول جسده ، ثم نسمع هذا الشباب العربي يصرخ بلهجته العربية التي تتقن هوليود صناعتها « الموت لاسرائيل وأميركا ولكل أعداء الاسلام » ، ثم يضيف : « إنني شهيد ، وسوف ألقي بنفسي عليكم وأفجر جسدي فيكم أنتم وكل أعداء الإسلام . ويقوم أحد العملاء السريين بجره بعيدا عن السطح قبل أن ينفجر مباشرة وهو يصرخ : « الله أكبر » .

إهانة من لص

وفي فيلم سائقي الخاص وهو من إنتاج عام ١٩٨٦ ، نرى إحدى النساء (كيسي ميدوز) تعمل سائقة ، وتقوم بحماية ركاب السيارة التي تقودها من أي أذى يلحق بهم ، لكنها تسمح لأحد اللصوص بالركوب في سيارة « الليموزين » التي تقودها ليقوم بخداع شخص عربي والسخرية منه . ونحن نرى هذا اللص المحتال وهو يقوم بتوجيه الإهانات للشيخ ، واطلاق التعليقات الساخرة عليه ، مثل : « صاحب الرأس المغطاة بالمنشفة » ، و « راكب الجمال » ، و « كوم من الزبالة » ، ويختم تعليقاته الساخرة بقوله : « إن الريح الذي تخرجه الجمال من مؤخراتها يجعلني أفقد السيطرة على أعصابي » . ونرى (كيسي) تسمع تعليقاته الساخرة وتضحك ، فهي تظن أن الشيخ سعيد بهذه التعليقات ويتسلى بسماعها ، ثم يقوم اللص بسلب محفظة نقود الشيخ وساعته الذهبية ، ولا نرى أي رد فعل من الشيخ غير التحديق في وجه اللص . وكأنه لا يفهم شيئا مما يجري حوله . وينصرف اللص ومعه حافظة نقود الشيخ المملوءة بأوراق النقود حيث يقوم بإنفاقها على بنات الهوى . ونحن نرى زبائن النوادي الليلية وهم يسخرون من محاولة العربي الظهور بمظهر البرود

■ جولدي هون كما تبدو في فيلم البروتوكول حين قرر الشيخ العربي الفاسد أن يضمها الى مجموعة زوجاته .

والوقار وتقليد الغربيين . وترى (كيسي) تستحسن عمل اللص ومسلكه الغربي ، فالذي يريد أن يقوله الفيلم يتلخص فيما يلي : « الشيوخ الصامتون لا يعرفون ما يفعلونه بالنقود ، ولذا فهم يستحقون ما يلاقونه من استخفاف وسلب ونهب » .

أما دور العربي الخبيث فنراه في فيلم شرلوك الصغير ، من انتاج عام ١٩٨٥ ، ويقوم بهذا الدور الدكتور موريابي ، وهو مولد من أب مصري وأم انجليزية ، ويتزعم مجموعة من المتعصبين الذين يريدون الانتقام للدمار الذي لحق بقرية مصرية ، لذا فهم يقتلون الناس بنادق النفخ بالفم التي تسبب الاصابة بالهلوسة ، ومع أن أفراد هذه المجموعة هم من أبناء الشوارع الانجليز الفقراء إلا أنهم يلبسون الملابس المصرية منذ قيامهم بتعذيب الشابات الانجليزيات وقتلهن داخل أحد الهياكل المصرية القديمة ، وهم يبدون للمتفرجين بأنهم من العرب .

كما يريناهذا الفيلم ، ولأول مرة في أفلام شرلوك حانة يرجع عهدها الى القرن التاسع عشر يديرها بعض العرب . وفي هذه الخمارة السيئة السمعة نرى امرأة بدينة تؤدي رقصة هز البطن على مرأى من رجال عرب أجلاف مسلحين بالخناجر .

إن العربي المولد الذي نراه في الفيلم من المؤمنين بالخرافات ، وهو غليظ القلب ، عديم الرحمة ، ومع أنه استاذ جامعي إلا أنه بعيد كل البعد عن المجتمع الانجليزي المتحضر ، إنه يعيش بعقلية العصور القديمة .

ماذا يقول السير آرثر كوناث دويل حول هذا الموضوع ؟

من (٢١) فيلما ثلاثة أفلام فقط من إنتاج عام ١٩٨٤ ، تقدم صورا متوازنة عن العرب واليهود ، فالعرب واليهود فيها يقدمون كشخصيات ذات أبعاد متعددة ، الفيلم الأول هو قارعة الطبل الصغيرة ١٩٨٤ ، وهو مليء بالعرب والاسرائيليين ذوي الأفكار الماكيافيلية الذين يؤمنون بانقطاع الصلة بين السياسة والأخلاق ، ولا يجدون بأسا في استعمال أية وسيلة مهما كانت غير أخلاقية أو غير قويمة لتحقيق الأهداف السياسية . يقول الكاتب إنه شعر منذ مشاهدته الأولى للفيلم بأنه متوازن في نظرته للعرب وللإسرائيليين ، لكن المتمعن في الفيلم سيرى أنه صور العرب أكثر شهوانية وشبقا من الاسرائيليين ، وأنهم ذو ثروات طائلة ، كما أظهرهم بأنهم قوم غير متحضرين ، فهم مثلا يحبون الموسيقا الصاخبة كموسيقا الروك اندرول الغربية ، وتظهر البنات الفلسطينيات في الفيلم بأنهن مولعات بالملابس الجميلة ، ويظهر حرصهن البالغ على التأكد من ان الثوب « ماركة غوتشي » ، ويحمل علامتها . ويتكرر هذا المنظر عدة مرات ، والفيلم يعمل على تثبيت فكرة ضعف النساء العربيات ، فهو يظهرهن بمظهر الساذجات اللاتي يسهل تدميرهن والقضاء عليهن ، فهن مثلا يعتقدن أن شيرلي (ديان كيتون) تقف الى جانبهن ، لكنها تخدعهن بسهولة وتوقعهن في الشرك وتسلمهن للإسرائيليين ، وتتسبب في موتهن .

ونحن نرى جوزيف (بيكر) ، وهو عميل اسرائيلي ، يرفض بعض الأعمال التي يقوم بها شعبه ويشمئز منها ، لكننا لا نرى شبيها لمثل هذا الشخص بين الفلسطينين العرب ، لا نرى الشخص الذي يشعر بالعذاب والألم كذلك الذي يشعر به جوزيف ، حتى يصرخ قائلا : « لم أعد أعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ » .

ماذا يوجد خلف الجدران ؟

أما الفيلم الذي حاز على لقب (أحسن فيلم أجنبي لعام ١٩٨٤) فهو فيلم خلف الجدران ، وهو فيلم اسرائيلي أنتجه الاسرائيليون في « اسرائيل » ، وقام بتوزيعه في الولايات المتحدة شركة وارنر . وهو من أكثر الأفلام قوة وأوضحها تعبيرا عن فكرة أن بإمكان العرب واليهود أن يعيشوا معا إذا تركتهم أنظمة الحكم في بلادهم وشأنهم . وفي المشهد الأخير نرى العربي الأسير (عصام) وقد عرض عليه أن يسمح له بالذهاب للعيش مع زوجته وابنه إذا أنهى حالة الاضراب عن الطعام في السجن ، ويشجعه

رفاقه في السجن من الاسرائيليين على قبول العرض ومغادرة المكان . لكن عصام هنا لا يظهر بصورة العربي الذي اعتادت هوليود أن تريه للمشاهدين ، فهو هنا يواجه صديقه « الاسرائيلي » يوري ، ويخص المستمع لحديثها بأن هناك رابطة إنسانية تربط بين الرجلين . ويفضل العربي البقاء في السجن على التخلي عن قرار اتخذه السجناء العرب بالإجماع .

يقول كيريتس ويلكي مراسل جريدة بوسطون جلوب : « قد يكون منتجو الأفلام في هوليود قد قاموا بتقديم هدية الى « اسرائيل » تتمثل في تمكينهم من تحويل المغامرات الى أفلام سينمائية ، لكن هؤلاء المنتجين كانوا يحملون فكرة ساذجة الى حد مريع عن المنطقة . وقد اختصروا كل التعقيدات والمشاكل الموجودة في الشرق الأوسط أو تجاهلوها وقصروها على مشاكل شبيهة بما تعالجه أفلام رعاة البقر والهنود الحمر .

بعض النقاد تغاضوا عن الصلة التي تربط بين هوليود و « اسرائيل » . ولا يملك المرء إلا أن يتساءل : كيف يتصرف هؤلاء لو أن الأمر اتخذ اتجاها عكسيا ؟ لنفترض مثلا أن منتجي الأفلام من السوريين . وقد قاموا بإنتاج أفلامهم في سوريا عن الإسرائيليين ، ووزعت الأدوار الاسرائيلية على ممثلين سوريين . ولنفترض أن السوريين قاموا أثناء تمثيلهم بتجريد الاسرائيليين من صفاتهم الإنسانية كما يفعل المنتجون الاسرائيليون لا الأمريكيون حين يمثلون أدوار العرب . فيجردونهم من كل الصفات الإنسانية . فهل سيسمح لمثل هذا الفيلم بالدخول الى أميركا ليعرض في دور السينما ؟ ألا يقوم عندئذ نقاد الأفلام وموظفو الحكومة . بل والجمهور أيضا بوصم الأفلام السورية باللاسامية . وأنها أفلام دعاية عربية ؟ .

الأفلام يمكن أن تكون وسائل إقناع ، وأن تستخدم لأغراض دعائية . كفيلم اليهودي التائه مثلا . فهذا الفيلم أنتج عام (١٩٤٠) فصور اليهود على أنهم من ذوي السمعة السيئة ، وأنهم فاسدون يقبلون الرشوة ويشترون بالمال ، ويقومون بأعمال التهديد والوعيد للوصول لأغراضهم . وفي هذا الصدد يعترف اروين ليسر في كتابه المعروف « السينما النازية » . بأن الدعاية « مجهود منظم لإقناع مجموعة من الناس بدعم أو تبني لرأي أو موقف أو قضية معينة » . ويقول في كتابه : « إن هتلر أراد أن يستغل الفيلم السينمائي لأغراض دعائية فقط . فقد قال وزير دعايته جوزيف جوبلز : (إننا مقتنعون بأن الأفلام من أحدث الوسائل العلمية المؤثرة في الناس) . وينصح مخرج الأفلام الألماني فريتز هيبلر مخرجي الأفلام الدعائية بقوله : « لا بد أن يعرف المشاهد من الذي يجب أن يحبه ومن الذي يجب أن يكرهه . فالفيلم الدعائي يخاطب العاطفة . لا الفكر . والذي يتولى الدعاية يبذل كل ما في وسعه لتحريك العواطف واستثارتها . وكل نجاح يحرزه في هذا المضمار يسهل عليه استمالة الناس نحو الهدف السياسي الذي يتوخاه » .

اليهودي المتجول

فيلم اليهودي المتجول وأفلام أخرى غيره ساعدت على إقناع بعض الألمان بأن واجبهم الوطني يقتضيهم تخليص بلادهم من اليهود . ففي هذا الفيلم نرى كيف يتسلل اليهود الى مراكز القوة والمال والنفوذ ، ثم يسيطرون على المجتمع الأوروبي . يقول العالم ريتشارد تيلور :

« بعد مشاهدة هذا الفيلم يشعر الواحد منا ، حتى ولو كان يهوديا بأنه معاد للسامية » .

فصورة العربي في أفلام هوليود ما بعد السبعينيات توازي في مفعولها الصورة التي كان يظهر فيها اليهودي في الأفلام الألمانية التي أنتجت قبل الحركة النازية . والفرق الوحيد بين الصورتين أن الأشخاص قد صاروا يلبسون الكوفية والعقال على رءوسهم بدلا من القلنسوة اليهودية ونجمة داود .

السينما الألمانية في الماضي كانت تقدم اليهود أكباش فداء في محرقة الدعاية الموجهة ضدهم . ورواد السينما كانوا يشاهدون « الشيطان اليهودي » على نفس الصورة التي يشاهدون بها « الشيطان العربي » الآن . ويتصورون أنه السبب الكامن وراء كل

المصائب والشرور والاختلال في التوازن الاقتصادي والحياة الثقافية في العالم .

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام قول هيلر بأن السينما لم تبلغ بعد تلك الدرجة السامية من البراءة ، فالأفلام السينمائية لها أيضا مضمونها السياسي ، سواء كان ذلك بوعي أو دون وعي ، ظاهرا أو خفيا ، فإذا كان بعض منتجي الأفلام يريدون إقناع المشاهد بأن العرب أشرار أفلا يحق لنا بعد ذلك تصنيف معظم تلك الأفلام بأنها أفلام دعائية ؟ !

« اليهودي » الجديد

يقول جيفري سانت جون معلق شبكة سي . بي . إس التلفازية حول هذا الموضوع : «من المحزن حقا أننا أصبحنا الآن ننظر الى العرب بنفس الطريقة التي كان ينظر بها العالم الغربي الى (اليهودي المتجول) قبل قرن من الزمان ، لقد أصبح العربي صورة طبق الأصل من ذلك اليهودي » . هذه الكلمات التي قالها جيفري سانت جون هي صدى لتلك التي قالها في تعليقه على نشرة الأخبار الصباحية يوم السادس عشر من اكتوبر عام ١٩٧٣ ، حين قال « إن تقديم صورة مكرورة في الغرب للعربي كرجل شرير أمر يروعنا ، ويذهلنا الى حد مفجع ما وصل اليه هذا التعصب الأعمى ، بل والعنصرية الرهيبة ضدهم » . فالصور النمطية التي نكررها عن شعب معين ، تسلب من هذا الشعب صفاته الانسانية وتجعله يبدو للمشاهدين كأنه مجموعة من الأفراد الذين يحملون نفس الصفات والطبيعة الشريرة . وان تقديم صورة العربي بهذه النمطية يمهد الطريق لممارسة الإبادة الجماعية ضدهم .

لقد نعمت معظم المجموعات العرقية بتخفيف السينما من تصويرها على نمط واحد ، ولم تعد الأدوار التي تسند لهذه المجموعات تصورها بطريقة يتعرف بها المشاهد على جنسيتهم من أشكالهم وتصرفاتهم ، فاختفت صورة الوغد الصيني « ذي الشوارب المدلاة الى الذقن » ، واليهودي الطماع الشره ، والاسباني الكسول ، والأسود المراوغ الذي يرقص وهو يمسح الأرض بقدميه ، والايطالي الذي ينتمي لعصابة إجرامية . والايرلندي السكير ، والمواطن الأميركي الأصلي الجلف الذي يحمل صفات الإنسان المتوحش . واليوم يرى مشاهدو السينما المجموعات العرقية والأقليات في صور أكثر واقعية ، تتناسب مع الدور الذي يسند إليهم في الفيلم ، وصورهم قد صارت أقرب الى الحقيقة منها الى الخيال .

واميركا من أكثر الدول تصديرا للأفلام ، ورواد السينما في أكثر من (١٣٠) بلدا يشاهدون الأفلام الأميركية التي تنتجها هوليود ، وهذه الأفلام تعرض أحيانا عن طريق أشرطة الفيديو الملونة ، وبعض أغانيها تسجل على اسطوانات ، كما أن بعض مناظرها يعاد عرضه أحيانا على شاشات التلفاز المتنقلة ، وموضوعاتها قد توحي لبعض الكتاب بالقصص . وقد تطورت أنظمة الاتصال والبث التلفازي فأصبحت بعض الأفلام تسجل في الفنادق وتستخدم للبث على القنوات الداخلية الخاصة المرئية المتلفزة التي تبث داخليا عبر الأجهزة التلسفازية المثبتة في غرف النزلاء . نذكر هنا من هذه الأفلام على سبيل المثال لا الحصر أفلام النسر الحديدي ، وقوة الدلتا ، وجوهرة النيل .

والجدير بالذكر هنا أن الأفلام التي تحمل صورة العربي كما تصوره هوليود تلقى أكبر تشجيع ، وتروجها شبكات التلفاز الحكومية والخاصة على حد سواء ، وبمرور الوقت يستطيع الفيلم الواحد الذي يظهر العربي بدور الانسان الفاسد الشرير ـ عن طريق انتقاله من مكان الى آخر باستخدام وسائل النقل الحديثة المختلفة ـ أن يصل الى عدد يتراوح بين (٥٠٠ ـ ١٠٠٠) مليون مشاهد ، وما أن تمضي بضع سنوات حتى يكون قد بلغ عدد مشاهدي هذا الفيلم بين (١٠ ـ ٢٠) بليون مشاهد .

الأنماط المكررة لشعب من الشعوب تعتبر رسائل بالغة القوة ، عظيمة المفعول ، والأفلام ليست مجرد وسائل للتسلية ، كما أن عملها لا يكون بناء إذا كان يقوم على تجريد الشعوب من إنسانيتها ، فقد آن الأوان للتخلي عن الصورة التي اعتادت هوليود أن تظهر العربي بها . □

وضّاح

شعر : جمال عبدالجبار علوش*

عَنْ جدّتِنا . . قالَتْ :
يُحكى أن زماناً مَرّ على الصحراءِ ،
يَبِسَت فيه ضروعُ الأرضِ ،
وَجفّتْ كلُّ عيونِ الماءِ ،
ومَشى الخوفُ ،
وَصَارَ الموتُ
نذيراً ، يَنْشَبُ فوق الرّملِ ،
وينعبُ في كل الأنحاءِ ،
ينبيءُ جهراً ، بالمأساةِ ،
وأن برحمِ الغيبِ تنامُ
ليالٍ قاسيةٍ عجفَاءْ !
لكنّ فتىً يُدعى « وضّاح »
كان الابنُ البكرُ لشيخِ القومِ ،
وكان شجاعاً
(في زمنِ الناسِ الجبناءِ) ،
لَمْ يَرْضَخْ للقدرِ المرّ ،
ولم يُقْعِدْهُ عن الترحالِ الصعبِ دعاء
قَالَ : سأمضي ،
فأنا أرفضُ أنْ يُدركَني الموتُ قعيداً ،
تقضي النخوةُ أن ألقاهُ ،
وأن أدعوه بألفِ رجاءِ
ومع الليلِ سَرى « وضّاحُ »

* شاعر من القطر العربي السوري - دير الزور

حمَلَ المطلقَ في عينيهِ ،
ولف رغابا في الاحناء
كان يغني طولَ الدربِ ،
وكان يقولُ :
سوف أعودُ
أعودُ
أعودُ .
ويمضي الصوتُ بلا أصداءِ
ومَضى عامٌ ،
تلاهُ ـ كما ذكرتْ لي الجدةُ ـ
عامُ رخاءٍ .
لبستْ فيه الخصبَ الأرضُ ،
ونَامَ السندسُ في الأوداءِ .
ابتهجَ الناسُ ،
ونسوا في غمراتِ السكرِ فتى الفتيانِ ،
نسوا وضّاح

إلاّ الأمَ
فكانتْ ترقبُ عودتَهُ في كلِّ صباحٍ
وتناجيهِ كلَّ مساءٍ
بدموعٍ صامتةٍ خرساءْ
تقولُ الجدةُ :
لكنّ الأسطورةَ تقولُ :
ما ماتَ فتى الفتيانِ ،
ولا ذهبَ الترحالُ هباءْ
إنّ الجسدَ الغضَّ تحولَ
خمسَ غماماتٍ بيضاءْ
صارَ الناسُ إذا ماوَلّى فصلُ الصيفِ
يرون غماماً
يأتي من ناحيةِ الشرقِ
يدور ، يدور ،
ولكنْ
لا يُسقِط ماءْ .

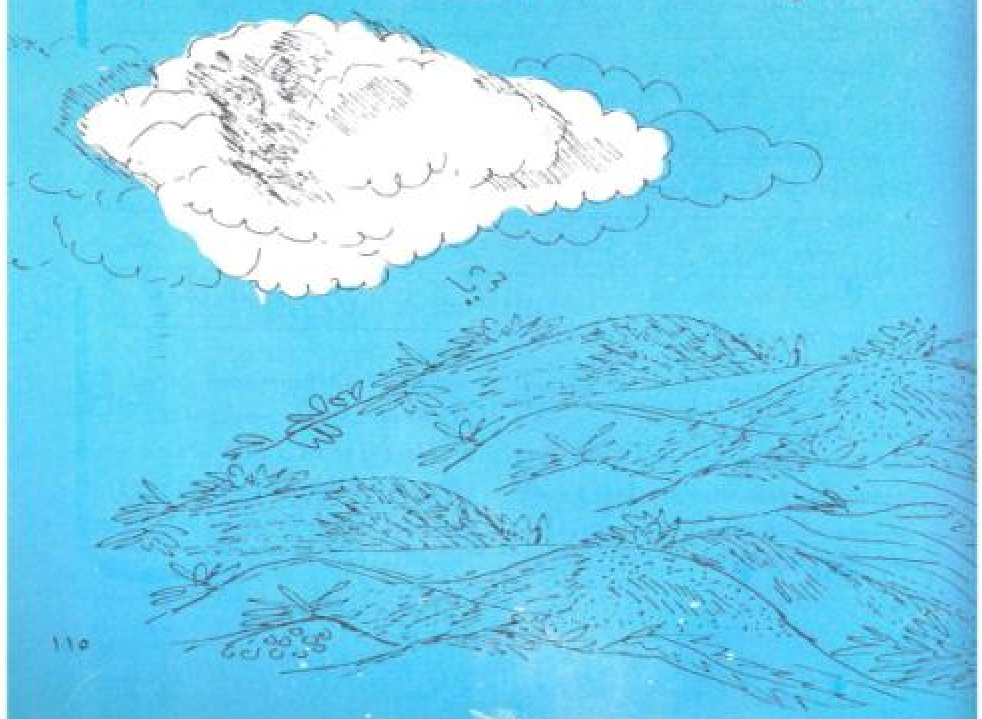

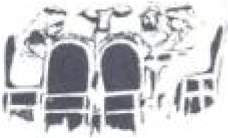

منتدى العربي

قضية

حرب النجوم
بين وليم جيمس وكلاوزفيتز

بقلم : ايهاب محمد مهدلي *

منذ إعلان الرئيس ريغان عن مشروعه « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ، المعروف إعلاميا بحرب النجوم ، والجدل حوله لم يتوقف داخل الولايات المتحدة وخارجها ، وعلى الأخص في القارة الأوروبية ، حيث تفاوتت ردود الفعل بين الرفض المطلق ، كما فعل الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه ، والرفض المبطن بتقديم مشاريع بديلة ، كما فعلت فرنسا المؤيدة من حلفاء أمريكا الأوروبيين . والكاتب يرد هذا الرفض إلى الاختلاف الفلسفي والعقيدي لمفهوم الحرب ما بين أمريكا وأوروبا .

في محاولة لتبرير المضي قدماً في برنامج حرب النجوم وجه الرئيس رونالد ريغان خطابا إلى الشعب الأمريكي والعالم ، جاء فيه نداء خاص إلى الهيئة العلمية التي اخترعت القنابل النووية ، يطلب منهم « أن يجدوا وسيلة تستطيع إيقاف الصواريخ المعادية في الفضاء ، وتدميرها قبل وصولها إلى الأرض » . أما السبب الذي قدمه الرئيس لتبرير مبادرته فكان « أن الولايات المتحدة لا تستطيع البقاء معتمدة في أمنها على قدرتها على ردع أي عدوان سوفيتي والرد عليه » . وأضاف : « لم يعد من

* كاتب وباحث من القطر المصري يدرس في هولندا

المقبول أن يكون المانع أمام اشتعال الحروب ليس حب السلام فقط ، وإنما معرفة الاتحاد السوفيتي بأنه إذا قام بقتل أناس من سكاننا فإننا قادرون على قتل نفس النسبة من سكانه وهذا الجنون هو الافناء النووي المتلازم » .

كانت تلك هي بداية مشروع حرب النجوم ، أو مبادرة الدفاع الاستراتيجية كما تعرف شعبيا ورسميا . وأثار المشروع منذ إعلانه جدلا واسعاً داخل الأوساط السياسية والعلمية الامريكية ، وتناوله بعض العلماء بالنقد وبعضهم بالتحبيذ ، كل حسب توجهاته العقائدية والسياسية . وكان من الطبيعي أن يعارض الاتحاد السوفيتي المشروع بحجة أن تحقيقه سيفتح الطريق نحو « عسكرة الفضاء » .

وبنقل سباق التسلح من الأرض إلى السماء . . وكان رد فعل حلفاء أمريكا في القارة الاوروبية يدعو للتعجب ويثير الحيرة ، فقد تقدمت فرنسا بمشروع « اوريكا » ، وقالت إنه يمثل بديلا معقولاً لحرب النجوم . وكانت المبادرة الفرنسية تهدف إلى متابعة الأبحاث العلمية في الفضاء ، وتطوير التقنية المعقدة في نفس الوقت ، فهي تتجنب عسكرة الفضاء ، وكان من الممكن تبرير السلوك الفرنسي سياسيا .

فالحكومات الفرنسية تسعى منذ عهد الجنرال ديغول إلى لعب دور متوازن بين أمريكا وروسيا ، بيد أننا وجدنا أكثر من عشر دول اوروبية تساهم في المشروع الفرنسي . فقد أخذت حكومة السيدة تاتشر التي تعرف بالتأييد لكل ما هو أمريكي الجانب الفرنسي ، وإن موقف أوروبا بشقيها الغربي والشرقي من حرب النجوم يكاد يكون متطابقا ، فهناك الرفض السوفيتي المطلق ، وهناك المعارضة البريطانية المبطنة ، والمعارضة الفرنسية النسبية .

إنني أعتقد أن الخلاف الامريكي الأوروبي حول حرب النجوم له تبريره وسنده في مفهوم الحرب في العالم القديم والقارة الجديدة ، لذلك سأبدأ بتعريف الحرب في القارة الاوروبية.

كلاوزفيتز ومفهوم الحرب :

تبنى معظم الدول الاوروبية نظرية الجنرال الألماني كلاوزفيتز ١٧٨٠ ـ ١٨٣١ ضمن كتابه الشهير عن الحرب الذي تناول فيه حروب نابليون بونابرت وغزواته ـ وعنوانه « إله الحرب » كما سماه كلاوزفيتز ـ بالنقد والتحليل والدراسة وخرج بنظريته عن الحرب الشاملة .

ولعب كتاب كلاوزفيتز دوراً كبيراً في تشكيل تفكير القادة العسكريين طيلة القرن (١٩) .

واذا كانت مكانته قد تدهورت بعد الحرب العالمية الأولى لبروز نظرية الحرب الصاعقة التي بشر بها الكابتن ليدل هارت ، فإن نفوذه قد عاد إلى الظهور مرة أخرى بشكل أقوى مما كان عليه بعد الحرب العالمية الثانية . ونظرة على الأسماء البارزة في عالم الاستراتيجية اليوم تقنعنا بأن الكلاوزفيتزيين يلعبون دورا هائلا في المؤسسات السياسية العسكرية الغربية . وكان أبرزهم في أوروبا المفكر الفرنسي ريمون آرون ، وفي أمريكا مكنمارا وكيسنجر .

ماذا قال كلاوزفيتز عن الحرب ؟ لقد عرّفها بأنها « متابعة السياسة بوسائل أخرى » ، وهذا يعني أن الوضع الطبيعي بين الدول هو السلام ، وهذا السلام قد يأخذ أشكالا مختلفة ، فقد يكون على هيئة وقف إطلاق النار ، أو هدنة ، أو مؤقتاً في معاهدة سلام ، أو اتفاقية تنظم العلاقات بين الدول . لكن الشذوذ في العلاقات بين الدول هو الحرب التي تعني « استخدام العنف بكل أشكاله » . وإن العنف المستخدم في الحرب هو العنف المادي بدرجة أساسية ، والعنف المعنوي بدرجة أقل ، لكن ما هو الفارق بين العنف المادي والعنف المعنوي ؟ يقصد علماء الاجتماع بالعنف المعنوي ذلك السلوك « العنيف » الذي تمارسه أغلبية في مجتمع ما تجاه الأقلية ، ويعني رجال القانون بالعنف المعنوي تلك العقوبة التي تصدرها المحكمة بحق الجاني ، فالقانون يعاقب المذنبين معنويا ، حينما يرسلهم إلى السجن ، والمجتمع يعاقب المجرم « معنويا » باضطهاده

والتشهير به . والعنف المعنوي في الحرب يأخذ عدة مظاهر ، أوضحها ما يأتي في وسائل إعلام دولة في حالة حرب ، فتارة تقوم وسائل الاعلام بتصوير العدو في صورة الهمجي المصاص للدماء ، وتارة أخرى تقلل من شأنه . أما العنف المادي فهو الذي يطغى في الحرب ، وهو الذي يقرر مصير المعركة ، لكن هذا العنف كما يقول كلاوزفيتز محكوم بالعلاقة بين المتحاربين ، فكل طرف يصنع قانون الآخر ، ، فبمقدار ما يستخدم كل طرف من سلاح يرد الخصم بنفس النوعية ، أي ، إذا استخدم طرف في الحرب الغازات السامة ، أو المواد الكيماوية ، أو غيرها من المواد الفتاكة الممنوعة فإن هذا يكون بمثابة إيذان للطرف الآخر للرد بنفس السلاح إن كان بحوزته .

ان الغرض من الحرب عند كلاوزفيتز هو ، فرض إرادة المنتصر على المهزوم ، ، وتنتهي الحرب ـ لا المعارك ـ حينما نجبر العدو على نزع سلاحه ، أو نفرض إرادتنا عليه بالكامل ، .

إذا شئت تبيان هذه المفاهيم عند الأوروبيين ، بتطبيقها على الواقع الملموس ، فيمكن الاستشهاد بالحرب العالمية الثانية ، حيث كانت عقيدة الزعيم النازي ادولف هتلر تنادي بسيادة الجنس الآري وتفوقه ، لكن المانيا ومفكريها لم يكونوا الوحيدين الذين يدعون لهذه النظرية ، فقد بدأت ارهاصاتها في فرنسا مع رينان في القرن التاسع عشر . وإذا لم يكن قد دافع هتلر لاثبات تفوق الشعب الالماني ، فماذا كان هدفه الحقيقي ؟ هل دخل الحرب من أجل استعادة هيبة المانيا التي خسرتها بعد الحرب العالمية الأولى في مؤتمر فرساي الشهير ؟ إن هدف هتلر الحقيقي كان توحيد القارة الاوروبية تحت قيادة المانيا وزعامته ، ولم يكن هتلر أول من سعى لهذه الغاية ، فقد سبقه ملك اسبانيا فيليب الثاني ، وسبقه نابليون بونابرت . وفي المرتين اللتين اقتربت فيهما أوروبا من الوحدة دخلت بريطانيا إلى الساحة ، ووجهت ضربات موجعة لحامل هذا الطموح ، لذلك حينما كشف هتلر عن نياته الحقيقية ، واحتل بولندا ، أعلنت بريطانيا الحرب على المانيا النازية ، ولم يكن دافع تشرشل وغيره من الانجليز الدفاع عن حقوق الانسان المنتهكة في المانيا ، كما لم يكن وراءه أصابع اليهود ـ كما يقول بعض العرب بدون سند من التاريخ ـ وإنما لمعرفته بمصير بريطانيا في حالة تحقق الوحدة الأوروبية على الطريقة النازية ، فإن وحدة أوروبا في دولة واحدة ، سواء باسم الكثلكة ، أو باسم المهمة المقدسة كما حاولت اسبانيا وفرنسا في السابق والمانيا النازية لاحقا ، يعني تحويل الجزر البريطانية إلى جزيرة روبنسن كروزو ، وتدمير امبراطورية الانجليز وراء البحار دون الاشتباك في معارك بحرية ، لذلك وقفت انجلترا ضد هتلر ، كما وقفت ضد فيليب الثاني في حرب الثلاثين عاماً ، وكما وقفت ضد نابليون في واترلو . انتهت الحرب العالمية الثانية بنزع سلاح المانيا ، وتقسيمها إلى دولتين ، وفرض المنتصرين إرادتهم بوضعهم نظامين سياسيين مختلفين في أرض كانت دولة واحدة .

كلاوزفيتز والدول الشيوعية :

إذا كنا قد عرضنا لمحة عن نظرية كلاوزفيتز وقلنا إنها تسيطر على عقلية الاستراتيجيين الغربيين فإن نفوذه في العالم الشيوعي لا يقل ، ان لم يكن يزيد . صحيح إن ماركس لم يكتب شيئا عن موضوع الحرب ، وترك هذه المهمة لمن تبعوه ، إلا أنه أشار في تعليقه على كتاب كلاوزفيتز بعبارة تحمل الاعجاب : ، كتاب رائع يفلسف الحرب بشكل ممتاز ، ، وكان هذا التقدير كافيا ليثمن الماركسيون أفكار كلاوزفيتز وحينما كتب لينين تعريفا للحرب قال : ، متابعة السياسة بوسائل (عنيفة) أخرى ، كما قال كلاوزفيتز ، وأضاف من عنده كلمة ، عنيفة ، ، ووضعها بين قوسين ، إذا شئت تلمس أثر كلاوزفيتز على العقيدة العسكرية الروسية فإن ذلك الأثر يبدو في اتخاذ الروس الموقف الدفاعي في حروبهم ، وتفوقهم في صناعة الأسلحة الدفاعية ، وذلك لأن كلاوزفيتز كان يعتقد في أفضلية موقف المدافع أمام المهاجم ، وكذلك ترى هذا الأثر في اتباع روسيا لسياسة غير عدوانية بشكل عام . ولتبيان أثر

كلاوزفيتز على تفكير الشيوعيين حتى في العصر النووي سأنقل ما كتبه الاستاذ محمد حسنين هيكل في حديثه مع الزعيم خروتشوف . فقد قال الأخير لهيكل : « إن الامبرياليين لا يفهمون أن قيام الحرب قد أصبح من المستحيلات ، ذلك أن الحرب لم تعد ممكنة لتحقيق أهداف السياسة ، وإن استحالة قيام حرب « نووية » لا يمثل نوعية السلام الذي نسعى اليه ، لكن بالامكان استغلال هذه الوضعية من أجل خلق ظروف ملائمة لبناء السلام » .

إن القارىء لكلام خروتشوف سيجد أفكار كلاوزفيتز في ثوب عصري . فالحرب أصبحت مستحيلة ، لأنها لن تحقق أهداف الساسة ، أي أن الحرب النووية لا يمكن أن تكون متابعة للسياسة بوسائل أخرى ، لذلك من الأفضل الدفاع عن التعايش السلمي والتفاوض بشأن نزع السلاح .

إذا كنت قد عرضت لكلاوزفيتز وأثره على التفكير الأوروبي فماذا عن مفهوم الحرب عند الامريكان ، وما صلة هذا كله بحرب النجوم ؟

وليم جيمس ومفهوم الحرب :

يمجد الفيلسوف وليم جيمس (١٨٤٠ ـ ١٩١٥) كثيراً من القيم الامريكية ، ولتقدير أهميته يكفي القول بأنه مفلسف النزعة البرجماتية التي تحكم السلوك الامريكي المتميز بالعملية والبعد عن العقائدية ، فإن مدخل الفيلسوف لموضوع الحرب إنساني نفسي ، وليس سياسياً عسكرياً كما هو الحال مع كلاوزفيتز . لأن الحرب تجد جذورها في الطبيعة غير السوية للانسان ، وحبه للعدوان ، واستمرار قيام الحروب نتيجة لسيادة التقاليد القديمة البالية ، ولأن الحرب قضية إنسانية ، ولأنه لا يمكن تغيير الطبيعة البشرية ، دعا وليم جيمس إلى توجيه الشباب إلى مخيمات العمل الجماعي ، لتفريغ طاقاتهم في الأعمال النافعة ، بدلا من الذهاب إلى الحرب للقيام بالتدمير . وهو يتفق مع هربرت سبنسر في أن الحرب تشيع في المجتمعات البدائية الاقطاعية ، وستختفي مع تقدم المجتمعات ديموقراطيا وتصنيعيا .

وإن مفهوم جيمس للحرب يتفق مع نفسية المهاجرين إلى العالم الجديد ، فهؤلاء قد تركوا أوطانهم بحثا عن الأمن والأمان ، واعتبروا امريكا بمثابة « جنة أرضية » ويمكن تلمس أثر هذا الفيلسوف فيما قاله الرئيس ويلسون عن قضية الحرب : « موضوع لا صلة لنا به ، ولا بأسبابه ، ولا يمكن أن يلمسنا » ، وهذه النزعة الانسانية الرومانسية في فهم الحرب قد قادت الولايات المتحدة لتكون واحدة من أشرس القوى الامبراطورية في التاريخ ، فكيف ذلك ؟ إن مفهوم جيمس ومن تبعوه قد جعل من الحرب شراً مطلقاً ، لا يجب المساومة بشأنه ، أنها ليست متابعة للسياسة ، كما هو الحال عند كلاوزفيتز ، وإنما الحرب تنفي السياسة ، وإذا اشتبكت الولايات المتحدة في حرب فإن السياسيين لا يلعبون أي دور في توجيهها ، ومن ينظر إلى صور الرئيس روزفلت أثناء مفاوضاته في يالطا وطهران فلن يجد معه أي سياسي ، ولا حتى وزير الدفاع ، أو الخارجية ـ لا يوجد شخص واحد في الألف يمكنه ذكر اسم وزير خارجية أمريكا أثناء الحرب ـ بل سيجد ضباطاً عسكريين فقط . ولأن الحرب شر لا تجب المساومة بشأنه ضربت أمريكا اليابان بالقنبلة النووية .. ! ودمرت برلين على سكانها .. ! وحولت فيتنام إلى أطلال ! . لكن نفوذ وليم جيمس ليس هو الوحيد الذي يحكم تفكير قادة أمريكا وشعبها ، فهناك الكلاوزفيتزيون الواقعيون أمثال ماكنمارا وهنري كيسنجر ، لكن نفوذ هؤلاء الواقعيين مرتبط بوجود رئيس واقعي ليوظفهم ، أما مع رئيس يبسط القضايا المعقدة مثل ريغان فإن لغة جيمس تظهر ، وتصبح ملموسة ماديا في مشروع مبادرة الدفاع الاستراتيجية التي ستؤدي في حال تحقيقها إلى اعتبار السلاح النووي مجرد « خردة » ، كما انها ستجعل من قيام حرب نووية أمراً مستحيلاً ، ليس لأنه لن يوجد منتصر ومهزوم كما يظن الكلاوزفيتزيون، وإنما لأن أمريكا ستمتلك سلاحا يمكنه أن ينهي الحرب قبل أن تبدأ .

ومنذ أن أعلن الرئيس ريغان عن مبادرة الدفاع الاستراتيجية انقسمت النخبة السياسية الامريكية

حوله ، وشكك كثير من العسكريين والعلماء في إمكانية تحقيقه ، لكن إصرار ريغان عليه سيستمر ، لأن منطلقه هو أن الحرب لا يمكن ، ولا يجب أن تكون متابعة للسياسة ، وهذه النظرية الريغانية قد تكون غير تاريخية ولا سياسية ، لكنها تجسد تفكيرا أمريكيا ، لا يتغير بين ليلة وضحاها .

تعقيب

على مقال :

الانفتاح العربي على الحضارات

قرأت ما جاء بالمقال القيم « الانفتاح العربي على الحضارات » للأستاذ الدكتور محمد عمارة المنشور بالعدد رقم ٣٥١ فبراير ١٩٨٨ ويسرني أن أعقب على هذا المقال على النحو التالي :

١ - جاء بمقال الدكتور محمد عمارة « الانفتاح العربي على الحضارات » ما نصه « إن ترجمة الفلسفة اليونانية والاهتمام بعقلانية أرسطو خاصة لم تكن عن رغبة في جعلها فلسفة الاسلام والمسلمين ، وإنما كانت استعانة بالعقلانية اليونانية الصريحة على هزيمة الغزو اليوناني كما تمثل في خليط الهلينية والغنوص . مؤكدا أن الترجمة العربية للتراث الفلسفي اليوناني مرجعها في المقام الأول الحاجة العملية ، والا فإنه إذا كانت المسألة « الترجمة » حماسة للعلم ورغبة خالصة في تحصيله فحسب عند المأمون لكان هوميروس وأصحاب المآسي من بين من ترجمت كتبهم . وهذه المقولة فيها متابعة من الدكتور عمارة لأستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي الذى أنكر على المسلمين ابتكارا جديدا في الفلسفة والفن ، وقد أفاد من كتابه « تراث اليونان في الحضارة الاسلامية » ونقل عنه آراء بكر وماسينيون دون نقد أو تمحيص . وإن كنا نرى ونؤكد أن أهم حادث في تكوين الفكر الفلسفي الاسلامي كان لقاؤه بالفلسفة اليونانية في بغداد أيام الخليفة المأمون في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . ولا بد من القول ابتداء أن الفلسفة

اليونانية التي تلقاها العرب لم تكن هي فلسفة أفلاطون وأرسطو فحسب . بل كانت ايضا تلك الفلسفة التي صيغت خلال عدة قرون على يد من واصلوا فلسفتها وشرحوها فكان هناك إلى جانب الفلسفة الافلاطونية وفلسفة أرسطو الفلسفة

الرواقية . والفيثاغورية . وقبل كل شيء الفلسفة الافلوطينية المحدثة التي أنشأها أفلوطين . فقد وصلت الفلسفة اليونانية إلى (الشرق) بطريقة أو بأخرى بعد فتوحات "الاسكندر للهند وفارس ، فأثرت في الفلسفة الاسلامية تأثيرا كبيرا . ذلك أن الموضوعات التي طرقها وبحثها المسلمون كانت هي التي أثارها وناقشها وعاشها اليونانيون . ونحن لا ننكر أن التفكير الفلسفي الاسلامي قد تأثر بالفلسفة اليونانية ، وأن الفلاسفة المسلمين أخذوا عن ارسطو

معظم آرائه ، وأنهم اعجبوا بأفلوطين كثيرا ، وتابعوه في عدة نواح ، ومن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه ويقتف أثر من تقدموه ؟ غير أننا نخطىء كل الخطأ إن ذهبنا كما يزعم رينان في قوله « بان ما يسمونه فلسفة عربية ليس إلا مجرد محاكاة وتقليد لأرسطو ، وضرب من التكرار لآراء وأفكار يونانية كتبت باللغة العربية هدفها حماية الاسلام من خصومه ، وان كنا نقرر بأن الفلسفة الاسلامية أتت بموضوعات جديدة كل الجدة ، وأن لها مميزاتها الخاصة ، ذلك لأن الثقافة الاسلامية نفذت اليها تيارات متعددة اجتمعت فيها وتفاعلت معها ، وفي هذا الاجتماع والتأمل ما يولد أفكارا جديدة ، ومن موضوعاتها المبتكرة كمشكلة الواحد والمتعدد ، والصلة بين الله ومخلوقاته التي كانت مثار جدل طويل بين المتكلمين ، ومحاولة التوفيق بين الوحي والعقل ، بين العقيدة والحكمة ، بين الدين والفلسفة ، وأن تبين للناس أن الوحي لا يناقض العقل ، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أمام الخصوم . وأن الدين إذا تآخى مع الفلسفة أصبح فلسفيا كما تصبح الفلسفة دينية . فالفلسفة وليدة البيئة التي نشأت فيها ، والظروف التي أحاطت بها ، وهي كما يبدو فلسفة دينية روحية . وجملة القول أن الفلسفة الاسلامية إن كانت تأثرت بالفلسفة اليونانية دون الفارسية أو الهندية فمرد ذلك أن تبادل الأفكار واستعارتها لا يستلزمان دائما استرقاقا وعبودية .

٢ ـ عرفنا أن الفكر الاسلامي لم يغلق نوافذه في مواجهة الفكر العالمي والانساني ، فهو فكر مفتوح قادر على التلقي لكل نزعات التطور والتغيير ، ولن يستطيع فكر أن يتوقف عن تلقي المؤثرات الأجنبية . غير أن قوة الفكر العربي الاسلامي وذاتيته الحية ، واستقلاله وتمكنه من قيامه على قاعدته الأساسية « القرآن وتعاليم الاسلام » ، جعله يستطيع أن يأخذ دون أن يفقد شخصيته أو ملامحه الأصلية . إن التوقف عن قبوله المؤثرات الأجنبية هو مظهر للعجز ! وقبول المؤثرات الأجنبية كاملة هو مظهر للنقص . ونحن لا نسقط فكرنا في إحدى رذيلتي العجز أو النقص . والواقع أن الفكر العربي لم يتعرض في تاريخه الطويل لمؤثر خارجي مثل المؤثرات الغربية ، ومع ذلك فقد ثبت لهذا المؤثر الجديد ، ولئن كان تأثيرا مختلفا من حيث الكم فإنه لم يختلف من حيث الكيف عما سبق أن تمرس به الفكر العربي الاسلامي في تاريخه الطويل . غير أن الاتصال بالفكر الاغريقي في التجربة الأولى كان صادرا عن رغبة استقلالية من الفكر العربي الاسلامي ، ولم تكن هناك ضغوط قوى ذات نفوذ تفرض عليه لونا بعينه ، ولذلك فقد نقل الفكر العربي الاسلامي علوم اليونان دون آدابهم وشعرهم ، وهو نفس الموقف الذي وقفه الفكر الغربي « الاوروبي » في عصر النهضة من الفكر العربي الاسلامي ، فقد اخذ المعارف ولم يأخذ العقائد والقيم ، بل نحاها وتخلص منها تماما . وهذه هي التفرقة بين فكر وفكر . ونحن نعرف أن الفكر الذي لا تصل اليه مؤثرات اجنبية يتعرض للجمود والتدهور ، ولكن يجب أن نكون قادرين على نقل هذه المؤثرات على قاعدة فكرنا وعقائده وأسسه . هذه اهم التحديات التي واجهت العرب ، وما زالت قائمة إلى اليوم ، وختاما نشكر الدكتور عمارة على مقاله وعلى ما هيأه لنا من مراجعة لمقولته « إن الفلسفة اليونانية ترجمت إلى العربية لأغراض عملية فقط » . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . □

محمد فؤاد محمد علي

■ هناك رجل يستعمل دائما كلمات صعبة لأنه كان يخاف انه إذا عرف الناس ما يتحدث عنه فإنهم سيعرفون انه لم يكن يعرف ما يتحدث عنه . (حكيم)

نموذج تعاون طبّي دولي خلاق

بقلم : الدكتور عباس الحميدي *

حتى منتصف القرن العشرين كان الجدري من أشد الأوبئة المعدية ، لكن البشرية بتعاونها استطاعت أن تقضي عليه ، وقد قدمت كل الدول بهذا التعاون نموذجا لو اقتدت به في مواجهة كل الأمراض الوبائية لجنبت البشرية خسائر هائلة تفقدها بسبب هذه الأوبئة .

من سمات العالم الثالث - وكذلك عالم الفقراء عموما - الأوبئة المتوطنة الواسعة الانتشار فيها مثل الجذام والملاريا والسل والأنيميا ، وغيرها .

وكلها تودي سنويا بأرواح الملايين ، ولا يزال الأمل يراود المرء بانتظار العلاج الذي يقضي عليها . وقد خرج من هذه المجموعة وباء الجدري تماما ، وأمكن للدول الصناعية أن تجتّث جذوره بالكامل منذ عشرات السنين .

في أكتوبر ١٩٧٧ ظهرت في إحدى موانيء الصومال إصابة بالجدري ، ثم عزل صاحبها البالغ من العمر ٢٣ عاما ، وتم تلقيح (تحصين) جميع المخالطين له في العمل والمنزل ، وكانت هذه آخر حالة إصابة بالجدري كوباء متوطن على مستوى

* استاذ بالمركز القومي للبحوث بالقاهرة .

العالم ، كما أنها كانت الأخيرة في سلسلة الاصابات التي امتدت زهاء ٦٠٠٠ عام راح ضحيتها آلاف الملايين من البشر .

بعد هذا الحدث بعامين تقريبا أعلنت منظمة الصحة العالمية في مايو سنة ١٩٨٠ خلو كوكبنا من هذا الوباء اللعين ، وفي نفس الوقت قفل أحد أبواب التنسيق الدولي للأنشطة الطبية (السياسية) الذي امتد عقدين من الزمان ، وتوج بذلك انتهاء أعمال هذا التنسيق . وربما يأتي اليوم الذي يأخذ فيه هذا الحدث نصيبه من الخلود مثل ما خلد تاريخ إنزال أول إنسان على القمر نتيجة لنشر أبحاث الفضاء من كلا الجانبين ، ولأول مرة في تاريخ البشرية يستطيع المرء أن يكون السيد على وباء متوطن .

لقد تأخر انصاف السير (ادوارد جنر) أول مخترع لمصل الجدري (التلقيح الحديث لوباء الجدري الذي تنبأ له منذ (١٩٣) عاما بالزوال).

وبمناسبة يوبيل العشرة أعوام على هذا الاقتحام الطبي العالمي التاريخي نالت منظمة الصحة العالمية جائزة نوبل للسلام عن عام ١٩٨٧ .

الجدري يتلاشى

حتى منتصف القرن العشرين كان الجدري من أشد الأوبئة المعدية على الأطلاق ، وحتى عام ١٩٦٧ وهو العام الذي بدأت فيه المنظمة برنامج القضاء على الجدري،بلغ عدد المصابين بالعدوى بين ١٠ - ١٥ مليون نفس ، مات منهم مليونان ، وأصيب مئات الآلاف بالعمى أو بعاهات مدى الحياة .

وكان العالم ينفق سنويا ما يقرب من ٣ مليارات (جنيه مصري) للقاح أو العلاج ، بينما لم يتعد جميع ما أنفق على حملات الجدري عشر هذا المبلغ خلال السنوات الاثنى عشرة (١٩٦٧ - ١٩٧٩) وقبل ذلك بسنوات لم يكن الجدري يلعب دوره الخطير كما كان منذ عشرات السنوات الماضية ، ففي المدن الصناعية لم يعد الوباء متوطنا منذ مدة ، فمثلا كانت آخر حالة في سويسرا ١٩٢٦ ، وفي فرنسا كانت آخر حالة بعد ذلك بعشر سنوات . وفي الحرب العالمية الأولى فقدت ايطاليا ٣٦٠٠٠ مواطن بسبب الجدري ، وبلغ عدد الحالات التي سجلت في أوائل الستينات في ٣١ دولة حوالي مليار حالة ، نصفها في الهند .

وطالما كان هذا الوباء متوطنا في بلد ما فإن تهديده لدول أخرى قائم ، وكان من نتائج تصريح ١٩٨٠ أن أوقفت الدول شروط التلقيح للمسافرين ، ومع ذلك ولمجرد التشاؤم فإن بعض البلاد تصر على التلقيح ، خاصة بين الجنود ، وتراه ضروريا خوفا من الحروب « البيولوجية » .

جاءت أول صرخة لاجتثاث الوباء سنة ١٩٥٨ من الاتحاد السوفيتي ، ففي اجتماع المنظمة العالمية للصحة قدم مندوب روسيا اقتراحا لهذا الغرض وأقر بالاجماع ، لكن تباطؤ بعض الدول - ربما لأسباب سياسية - لم يكفل لهذا الاقتراح سرعة التنفيذ إلا بعد عام ١٩٦٧ ، حيث دخلت الولايات المتحدة بثقلها الكامل في برنامج دولي للقضاء على الوباء .

كان برنامج اجتثاث الوباء من أروع الأمثلة على التعاون الدولي الذي لم يقدر له أن ينال ما يستحقه من التقدير والاعتبار كتعاون دولي خلاق في إسعاد البشرية - وعلى الأخص الدولتين الكبريين - إذ تقاسمت هاتان الدولتان العبء الأكبر للنفقات والأبحاث ندا لند ، وكان نصيب أمريكا في البرنامج - على الأخص أفريقيا - بينما نالت روسيا نصيبها في آسيا التي أمدتها بكميات كبيرة من المصل ، كذلك لم تبخل الدول الغنية الأخرى بالمساعدة ، فمتى ما ظهر أي وباء في أي بقعة من العالم سارعت الدول الغنية في الرقابة والوقاية من الوباء ، وهذا يكلفها الكثير .

إستراتيجية العمل

ومما ساعد على نجاح البرنامج تحديد موعد محدد له ، ورصد المبالغ اللازمة ، وكانت استراتيجية العمل باتجاهين :

١ - يتم تلقيح ٨٠٪ على الأقل من سكان المناطق الموبوءة (مكان توطن الوباء) ، ولم يقف الأمر عند

التلقيح فقط ، إنما سارت معه التوعية بالنظافة ، لكن هذا الاجراء الأخير لم يكن يتم ١٠٠٪ في أفريقيا حسب البرنامج الموضوع له .

٢ - إيجاد خطة (نظام - تعسس) - (مراقبة مشددة للغاية) لاحتواء أي انتشار جديد للمرض والكشف عنه ، ومع ذلك فإن مجرد الرقابة لم ينظر إليه على أنه واف بالغرض ، وكان على المنظمة أن تساعد الدول الموبوءة في عمل برنامج محلي مبني على أساس المعطيات المحلية المتوفرة .

ومن الأمور ذات الأهمية القصوى إيجاد نظام سهل كفيل بأن يبلّغ الأهالي في أقطار العالم الثالثة عن الوباء ، فالجدري من الأوبئة التي يمكن أن يتعرف عليها أي شخص في أماكن توطنه ، (فمثلا في الستينيات في الهند بلغت ضحاياه نصف عدد الضحايا على مستوى العالم) ، وفي أندونيسيا وأفريقيا كانت الحملات الصحية تغزو القرى والنجوع وتوضح للناس بالصور المرض ، وقد وصلت مكافأة الارشاد أو التبليغ عن أي حالة (١٠٠٠) دولار . وهنا يقرر بكل فخر فرانك فنر الرئيس السابق للجنة الدولية للاعلان الرسمي للتحرر من الجدري أن هذه المكافأة التي علم بها على الأقل ٩٠٪ من سكان المناطق المعنية لم تدفع ولا مرة واحدة .

وقد استمر نشاط هذا التعسس والأبحاث في كلّ البلاد التي استوطنها المرض مدة سنتين على الأقل بعد ظهور آخر حالة . ففي غرب أفريقيا قام خبراء المنظمة بفحص ٨ ملايين طفل من مختلف الأعمار ، وجاء تقريرهم ١٠٠٪ بعدم وجود أي أثر بين الأطفال في عمر المدارس ، وهذا دليل مؤكد على أن المرض لم يعد يظهر .

وإلى جانب الرقابة الصارمة التي اتخذت لتفي بالغرض فإن توفر الأمصال ذات الكفاءة العالية كان له أثر كبير ، ولذلك فالأمصال التي كانت تقدمها الدولة أو تنتجها قد خضعت لاختبار دقيق بما يطابق مواصفات المنظمة .

وتحسين الأمصال بعامة وما يتعلق بها من الاختراعات والابتكارات ، مثل التجفيف على البارد الذي يساعد إلى حد كبير في إنجاح البرنامج ، كما هو الحال في سويسرا - على سبيل المثال - حيث يوجد في هذه البلاد مصل عالي الكفاءة ، يتم الحصول عليه بطريقة التجفيف بالتبريد وباختبارات بكتريولوجية ، وله خاصية الثبات في درجات الحرارة الشائعة في المناطق الاستوائية . ولكي يكون أمر القضاء على الوباء سهلا اقتضى الأمر أحيانا التدخل السياسي على مستويات عالية لانجاح البرنامج كما جاء في التقرير المكون من ١٥٠٠ صفحة عن برنامج اللجنة المنوط بها هذا البرنامج : « كذلك كان هناك نقص في « الكادر » المتمرن بالاضافة إلى صعوبة أو رداءة المواصلات في بعض البلاد » .

الاحتياط لكل الاحتمالات :

بالاضافة إلى ما قامت به حملات البرنامج فإنها عملت على توفير عدد من المتخصصين في الأمراض المتوطنة ، بالاضافة إلى إجراء البحوث المتعلقة بالتشخيص المعملي . وقد لعب الدور الأكبر في هذا الخصوص المعملان المركزيان التابعان للمنظمة في كل من أتلانتا في الولايات المتحدة وفي موسكو ، وليس من قبيل المعجزات أن يتم البرنامج في الوقت المحدد له باليوم تقريبا .

وقبل الاعلان الرسمي عن التحرر من الوباء تكونت مجموعات من ٤٠ دولة للقيام بزيارات مدتها من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع لمناطق توطن المرض ، وأنيط بهذه المجموعات وضع تقرير عن زوال المرض نهائيا ، وعلى الأخص أن تتقصى اللجان بكل دقة وتتحرى تماما في البلاد التي لا يمكن الاعتماد على معلوماتها ١٠٠٪ على مستوى العالم ، وفي الصين - وهي ليست عضوا في المنظمة العالمية - فإن وزير الصحة أذاع هذا النبأ في حفل خصص لهذا الغرض .

وعلى الرغم من الفرحة التي عمت بإعلان القضاء

على أحد أوبئة العالم اللعينة فإن المعركة معه لم تنته بعد ، فللتأكد من أن لا يطل المرض مرة أخرى كان من الضروري إيجاد جهاز (مكتب تسجيل) لأي إشاعة عن المرض في أي بقعة من العالم ، حتى يمكن تقصي مصدر هذه الاشاعة ، وليس فقط الخبر ، والبحث عن مصدرها ، وقد أنشئت مكاتب في كل من أتلانتا وموسكو لهذا الغرض .

وما بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦ أمكن تسجيل ١٣١ حالة جدري تمت دراستها جيدا ، فقد خضعت كل حالة للفحص الفيروسي ، وفي أغلب الحالات كان هناك خلط بين الجدري الحقيقي والحصبة ومرض الجديري ، أو ربما كانت هناك بيانات غير صحيحة ولم يظهر فيها إطلاقا ما يدل على الاصابة بالجدري .

وزيادة في الاحتياط يوجد في كل من أتلانتا وموسكو خمسة ملايين عبوة من المصل ، وخلال ٢٤ ساعة يمكن أن يصل المصل إلى أي بقعة في العالم .

ويقدر المخزون منه بما يكفي لتلقيح ٢٥٠ مليون شخص .

ولمزيد الحيطة تكونت لجنة (Orthopox - Viruses) لدراسة فيروسات الجدري الحقيقي تابعة لمنظمة الصحة العالمية في سنة ١٩٨٠ م .

وأهم أغراض هذه المجموعة في الماضي والحاضر هو البحث ، ودراسة علاقة القرابة بين فيروسات الجدري والفيروسات الأخرى ، وفي نفس الوقت الاستعداد للفحص في المعمل للاحتمالات الناجمة عن الابلاغ عن أي حالة للجدري .

ويتركز انتباه الباحثين على الأخص في جدري القرود الذي يسببه فيروس قريب من فيروس الجدري ، وقد تم الابلاغ عن ٤٠٠ حالة جدري للقرود في زائير ما بين ١٩٧٠ ـ ١٩٨٦ .

وقد كان الفزع المبدئي ناتج عن الخلط بين بثرات الجدري وبثرات مرض آخر ينقله للانسان أحد الحيوانات القارضة الصغيرة . وقد ظل جدري القرود غير معروف إلى الوقت الذي تم فيه القضاء على الجدري الحقيقي ، وذلك بسبب التشابه الظاهري بينهما ، لكن سرعان ما ظهر فيما بعد أن الأمر يتعلق بأمراض حيوانية (Zoonosis) تظهر على فترات متقطعة ، وبالاتصال المباشر مع الحيوانات البرية . ومن الصعوبة بمكان انتقالها من إنسان لآخر .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات والضمانات فإن رجوع الوباء نظريا لا يمكن إغفاله وقد يخطر على البال أحد احتمالات المصادر الآتية :

١ ـ حوادث في المعامل .
٢ ـ الاستعمال المتعمد في الحروب « البيولوجية » .
٣ ـ ظهور المرض من أي مصدر طبيعي (احتياطي) أو من غفلة بشرية عن المرض .

في عام ١٩٧٨ ظهرت حالة عدوى معملية بالجدري ، إذ توفي أحد المصورين في برمنجهام ، بسبب عدوى ، تسربت من معمل الأبحاث ، ونتيجة لهذا الحادث تم اختزال عدد المعامل التي تجري فيها تربية سلالات فيروس مصل الجدري . وتوجد سبعة معامل وحيدة في العالم تتعامل طول العام مع فيروسات الجدري .

ومنذ سنة ١٩٨٣ أصبح الاعتراف الرسمي للمنظمة متوقفا على معملي أتلانتا وموسكو . ومنذ حوالي عام أوقف هذان المعملان عملهما في استزراع فيروس الجدري ، وفي نفس الوقت توجد مستحضرات بها حامض DNA الجدري ، وهذا المصدر الوراثي يمكن استعماله تحت ظروف معينة في المعامل .

إحتمالات العودة .. وأساليب المواجهة

لا يمكن الجزم ـ سواء علم المرء أم لم يعلم ـ بعدم وجود بعض المناطق في العالم التي بها فيروسات الجدري ، لذلك وحسب توصيات المنظمة العالمية للصحة يجب إعدام كل الزجاجات التي يوجد شك في

محتوياتها لدى معامل أو منتجي الأمصال . وفي هذا الصدد يبرز التساؤل المرعب . ألا وهو الاحتمال القائم باستعمال الجدري في الحروب البيولوجية .

إن هذا الخطر لا ينظر إليه بعامة على أنه أمر يهدد العالم . ذلك لأن عدوى الجدري تتفشى ببطء نسبيا . عندما يكون هناك تلامس مباشر بين شخصين . أحدهما معاف والآخر مريض فقط . وأن الاستعمال البعيد الاحتمال للجدري في أغراض الحرب ، البيولوجية ، أو الرعب إلى جانب ما يمكن أن يقوم به خبراء التشخيص والرقابة هو السبب الوحيد الذي يجعل فيروسات الجدري تحت أعين المتخصصين .

كما أن المصادر الأخرى التي يفكر فيها المرء لا تمثل شغلا شاغلا للمرء . فالانسان يعلم الآن أن العدوى لا تنتقل بواسطة الحيوانات . وهناك احتمال وجود الفيروس في جثث الموتى المطمورة في مناطق جليدية . وقد عثر أخيرا على فيروس الجدري في مومياء طفل في إيطاليا من القرن السادس عشر . وبالبحث اتضح أنها عديمة الحيوية . ومن الاحتمالات الأخرى الواردة هو تطوير جدري القرود إلى جدري حقيقي . غير أن الفرق بين DNA في كليهما ذو بون شاسع .

من أبدع ما يمكن أن يقال عن حملات القضاء على الجدري أن ملايين الفقراء المهملين وعلى الأخص في العالم الثالث أصبحوا غير مهددين بهذا الوباء . وهو أمر يفوق بكثير ما كان متخذا من إجراءات وقائية مكلفة . كما أن هذه الحملات استطاعت أن تضع ضوابط لهذا الوباء . وعلى سبيل المثال المساعدة في برامج الصحة والنظافة . ومساعدات الدول النامية في أنشطة التشخيص .

وقد خرجت دول العالم الثالث بنصيب وافر من الأبحاث كما يشهد بذلك (دونالد هندرسن) عميد مدرسة الصحة العامة في جامعة جون هوبكنز في بلتيمور بالولايات المتحدة . □

العُملات الصعبة لماذا هي صعبة ؟

● يعد الدولار الأمريكي والجنيه الاسترليني والين الياباني والمارك الألماني وغيرها كثير،من العملات الصعبة ، وذلك لأنه لا توجد قيود مفروضة على التعامل بهذه العملات واستبدالها بعملات أخرى خارج حدود بلادها ، وبذلك فإن كل عملة حرة هي عملة صعبة . ولتوضيح ذلك نقول إن العملات الحرة هي تلك العملات التي يتم التعامل بها رسميا في عمليات الاستيراد دون الحاجة إلى اتفاقيات نقدية خاصة . وفي الغالب يكون مركز العملة ثابتا في الأسواق نتيجة لمتانة مركز غطائها الذهبي أو الاقتصادي .

أما عندما تفرض قيود على التعامل بعملة بلد ما في الخارج فإنها تصبح غير حرة . وهذا الاجراء تضطر إليه كثير من الدول النامية ، لحماية نقدها من التدهور ، نتيجة لاختلال ميزان مدفوعاتها ، ولعوامل اقتصادية كثيرة أخرى .

والمعروف أن العملات الحرة أو الصعبة لها أسواق دولية ، أهمها في جنيف ونيويورك وسنغافورة وطوكيو ، ويتجدد سعر هذه العملات يوميا في هذه الأسواق ، فهي بين هبوط وصعود دائما، نتيجة عوامل اقتصادية أو دولية تؤثر في أسواق المال .

إعداد : يوسف زعبلاوي

ميزان جديد لقياس الحرارة

بلغ من كثرة المبتكرات والمنجزات العلمية والطبية في المدة الأخيرة ، أنه بات من العسير على المرء متابعتها ، مجرد متابعتها ، ناهيك بتفهمها والاحاطة بتفاصيلها .. ويعجب المرء بعد هذا لبعض الأدوات الطبية الحيوية .. كيف أغفلها التقدم العلمي فبقيت على حالها طوال قرون دون أي تغيير ، ولعل ميزان الحرارة الذي يقيسون به حرارة الجسم هو في طليعة تلك الأدوات ....

ذلك أن موازين الحرارة الحالية غير دقيقة ، فالميزان الزئبقي الذي يقيس الحرارة عبر الفم لا يصلح للأطفال من جهة ، ومعرض لاعطاء أرقام مبالغ فيها من جهة أخرى . فما أسهل من أن يحرك المرء لسانه أو يحكه بالميزان فيدفأ الميزان ، ويرتفع الزئبق فيه ارتفاعا مضللا .. وقل مثل ذلك في الميزان (وهو زئبقي أيضا) الذي يقيس الحرارة بوضعه تحت الإبط ، وهي الطريقة المفضلة في اليابان ، أو عبر الشرج وهي الطريقة المفضلة في فرنسا .. فالدقة غير متوافرة في كل هذه الطرق ، والازعاج قائم فيها كلها على كل حال .

من هنا كانت الأهمية التي يعلقها الكثيرون على ميزان الحرارة الجديد ، الذي ابتكره الدكتور نويل ابرنكراوس **Ehrenkrauz** في نيوجرسي بأمريكا ، ونشرت خبره شتى المجلات العلمية والطبية في شهر فبراير الماضي ...

وأهم ما يذكر عن هذا الميزان انه يقيس حرارة الجسم بواسطة البول وقوامه قصاصة مصنوعة من بلاستيك ومرقمة من ٩٦ - ١٠٤ درجة فهرنهيت ، وهي معدة لتوضع في البول مدة دقيقة واحدة ، لتعطيك درجة الحرارة المطلوبة بدقة متناهية تبلغ ٠,١٠/٢ من درجة الفهرنهيت الواحدة ، ذلك ان كل درجة مقسمة على القصاصة الى عشرة أقسام ... أو عشر نقاط .. وكل نقطة من هذه النقاط تحمل مادتين كيماويتين مختلفتين بنسب مختلفة ، احداهما الكلوروبنزين والثانية النيتروبنزين . وتحمل أيضا مادة صابغة تصبح زرقاء اللون متى ذابت المادتان ، الا أن احدى تلك النقاط تتأخر في تلونها باللون الأزرق ، وتلك هي النقطة التي تمثل درجة الحرارة المطلوبة .

وتجدر الاشارة الى مزايا أخرى يتميز بها هذا الميزان ، فهو يحدد ما اذا كانت المرأة حاملا أم لا ، ويحدد أيضا وقت اباضتها .

أضف الى ذلك أن القصاصة البلاستيكية معدة للاستعمال مرة واحدة .. وتطرح مع النفايات بعد استعمالها ...

كاميرات جديدة للتصوير بلا أفلام

يبدو الوصف مجازيا .. أو مستحيلا كالاستحمام بلا ماء مثلا . ولكن التقدم العلمي - لا سيما في مجال الالكترونيات - درج على مفاجأتنا بالابتكارات الخارقة في المدة الأخيرة .

أما البلد الذي طوّرت فيه الكاميرا الجديدة فاليابان كما قد يتوقع المرء . وأما الشركة التي قامت بتطويرها فليست سوى شركة كاسيو التي اشتهرت بساعاتها المتقنة ، الزهيدة الثمن .

على أن الكاميرا (واسمها مبدئيا هو VS - 101) فصغيرة ولا يكاد يبلغ وزنها كيلوجراما واحدا ... تعمل بالبطارية وفيها مخزن صغير توضع فيه الاسطوانة التي تعتمد عليها الكاميرا في عملها .

والاسطوانة معدة لالتقاط صور للعرض على شاشة التلفاز ، وهي صغيرة ولا يزيد طولها على بوصتين .. ومع ذلك فهي تكفي لالتقاط (٥٠) صورة ملونة وهي تسمح بمحو الصور غير الناجحة واستبدالها بصور أخرى تلتقط لتحل محلها ...

وتتميز الكاميرا الجديدة بسرعة كبيرة (shutter speed) تتراوح بين ١/٨ - ١/١٠٠٠ من الثانية الواحدة .. لا عجب اذن إن كانت الكاميرا قادرة على التقاط خمس صور متتالية في ثانية واحدة فقط .

وغني عن البيان أن الكاميرا هي التي تعالج صورها تلقائيا حتى تصبح جاهزة للعرض على شاشة التلفاز .

أضف الى ذلك كله ، انها معدة للوصل بجهاز يطبع الصورة على ورق . علماً بأن هذا الجهاز الطابع ما زال قيد التطوير لدى شركة كاسيو ثم انها معدة أيضا للوصل بجهاز « كمبيوتر » ، وبشبكات المعلومات والاتصالات بحيث يتسنى إرسال صورها الى جهات أخرى بعيدة ، وذلك في مستقبل غير بعيد .

■ ■ ■

عقار جديد يذيب الجلطات

لم تكد تمضي أسابيع قليلة على ظهور أدوية الجلطات والكولسترول الحديثة (لوفاستاتير) حتى ظهر عقار آخر جديد : الأمينز ويتميز هذا العقار بقدرته على اذابة الجلطة ، وبالتالي على إنقاذ الكثيرين من الموت بسبب النوبات القلبية .

ويمتاز مستحضر الأمينز هذا على ما سواه بامكانية تناوله في حقنة واحدة ، وامكانية بقائه في الدم لمدة أطول . وتدل الدراسة التي أجراها فريق من العلماء الانكليز على ان الأمينز يمكن تناوله بعد التعرض لنوبة قلبية . وأنه يحد من احتمالات التعرض لنوبة قلبية ثانية بنسبة ٥٠٪ .

ولا يخفى ان الجلطة تقف في مجرى الدم فتوقف سيره في الشرايين التاجية فلو تسنى لنا اذابة تلك الجلطة لأمكننا استبعاد خطر النوبة القلبية والابقاء على القلب حياً سليماً .

حذار إذا كبرت (الشامة) أو تغير لونها

سرطان القتامين (Malignant Melanoma) سرطان جلدي خطير ، كان موضع دراسة جادة أجراها مؤخرا علماء مركز السرطان ، بل علماء جامعة هذا المركز في بنسلفانيا ، ودلت تلك الدراسة على أن هذا المرض المعروف بقابليته للمعالجة والشفاء ، كثيرا ما يصبح عضالا وفتاكا تبعاً لما يلقاه من إهمال المصابين به والأطباء ، لا سيما عند بدء ظهوره على وجه التحديد ، أو لعله الجهل بأعراض المرض الأولى أكثر منه اللامبالاة .

وتبدأ تلك الأعراض بالتغيرات التي تطرأ على شامة في جسم المريض ، فقد يتغير لون الشامة وقد يتغير حجمها ، ويغفل المريض عن هذا وذالك ، ويمضي المرض في التفاقم حتى يعتري الخال أو الشامة ورم وانتفاخ ، أو تظهر قشرة قاسية على السطح ، أو يصاب بنزيف ، وعندها يصحو المريض ويراجع الطبيب ، ولكن بعد فوات الأوانْ ، وقد أصبح المرض عضالا ان لم نقل قتّالا . . .

وتدعو الدراسة الى التوعية . . . توعية الأطباء فضلا عن المرضى ، بمؤشرات سرطان القتامين المبكرة ، فما أسهل أن يعالج هذا السرطان الجلدي علاجا ناجحا ١٠٠٪ اذا اكتشف أمره وبوشر بمعالجته عند أول ظهوره ، هذا ما يؤكده الدكتور كاسيلث Cassileth العالم الذي أشرف على الدراسة المشار اليها .

■ ■ ■

المنزل الإلكتروني

منذ زمن وكتّاب الخيال العلمي يحدثوننا عن منزل المستقبل البعيد الذي يستطيع المرء ادارته والقيام بشتى الأعمال التي يتطلبها المنزل ، وذلك بالضغط على أزرار ، ودون بذل أي جهد ، ولعلهم لم يخطئوا الا في تصورهم أن المنزل الالكتروني هذا ما زال بعيد المنال .

ذلك أن اليابان وشركة ميتسوبيشي بالذات قد طورت الجهاز الكفيل بتحقيق المنزل الالكتروني ، ويعرضه في الأسواق ، وقوام الجهاز المذكور لوحة تذويت تحمل أزرارا عديدة . . ولا تزيد مساحتها على قدمين مربعين (١ × ٢) ، ففي الامكان اذن تعليقها على أي جدار . . . في المطبخ مثلا .

أما الأزرار فمتصلة بأجهزة تشمل شتى الأنشطة والأعمال التي لا تقوم للمنازل قائمة من دونها ، ومن تلك الأجهزة ما يختص بالأمن ، وأجهزة التحذير من اللصوص ، ومنها ما يتصل بالطاقة ، والكهرباء وتطبيقاتها ، ومنها ما يرتبط بأجهزة الاتصالات - تلفاز وهاتف الخ . . . ومنها ما يتحكم بأعمال المنزل وحديقته ، وبوسائل التسلية الخ . . .

أضف الى ذلك كله ، أنك غير مضطر للذهاب الى حيث توجد اللوحة للضغط على الزر الذي تريد الضغط عليه ، فسيكون بجانبك جهاز صغير للتحكم عن بعد بأزرار اللوحة جميعها ، بحيث تستطيع ان تعمل ما تريد ، وتحصل على ما تريد وأنت جالس في مقعدك .

وتجدر الاشارة الى أن فرع ميتسوبيشي في كاليفورنيا (شركة ميداما Medama) هو الذي طور جهاز المنزل الالكتروني .

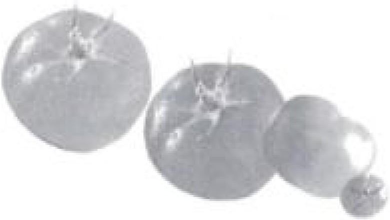

طماطم جديدة لكل الفصول

نجح العلماء في تطوير نوع جديد من الطماطم ، يتميز بمناعته ضد فيروس طالما فتك بثمار هذا النبات ، ويتميز هذا النوع الجديد أيضا بمقاومته لفيروس (التبغ الموزايك) الذي كثيرا ما يدمر محاصيل الطماطم ، ويقضي عليها .

والمهم في الأمر أن هذه النتائج لا تقف عند التجارب المخبرية ، فقد أجريت للنوع الجديد تجارب ميدانية على نطاق واسع سنة ١٩٨٧ ، وأثبتت تلك التجارب مناعته ضد الفيروس في كل الشجيرات المزروعة تقريبا . ٢٨٠ شجيرة أو أكثر ، ومعنى هذا أن مزارع الطماطم قادرة الآن على مضاعفة محاصيلها فيما لو أقبل الناس على زراعة النوع الجديد .

هذا وقد أثبتت التجارب الميدانية أيضا أن مناعة النوع الجديد ضد الفيروس لاتفقده شيئا من طعمه أو نكهته أو مزاياه المعروفة .

ويعود الفضل في تطوير هذا النوع إلى فريق من العلماء العاملين في جامعة واشنطن بإشراف البروفسور روجربيتشي **Beachy** ، أستاذ البيولوجيا فيها ، وقد تسنى لهم تخليق النوع الجديد بزرع جينة معينة فيه ، فمن شأن هذه الجينة أن تفرز بروتينا خاصا ، ومن شأن هذا البروتين أن يقي النبات من الفيروس ويحفظه .

■■■

أجرى علماء المناخ دراسة جادة لتراكم الثلوج الكثير في أوروبا وآسيا هذه السنة ، وتبين لهم من آثار ذلك على الأمطار والرياح الموسمية في آسيا وعلى المناخ في أمريكا الشمالية بعامة ، وكذلك على الظواهر المتصلة بتيار (إل نينو) ما لم يكن في الحسبان .

فمن شأن ذلك التراكم ، إذا هو تضاعف ضعفين ، أن يبقي على برودة اليابسة في القارتين الآسيوية والأوروبية مدة أطول ، ويؤدي بالتالي إلى تخلف الرياح

الموسمية وأمطارها ، وهي التي تبدأ غالبا في شهر يونية / حزيران ، ذلك أن الفارق في درجة الحرارة بين اليابسة الدافئة ومياه المحيطات الباردة هو المحرك الأول لتلك الرياح .

يقول تيم بارنت **TimP . Barnett** أحد العلماء المتخصصين في البحار الذين أجروا تلك الدراسة : « لو ازداد تراكم الثلوج أكثر مما ازداد حتى الآن لأدى ذلك ليس إلى الحد من الأمطار في جنوب شرق آسيا فحسب ، بل إلى الحد من الرياح التي تهب على بحر العرب ، وعلى المحيط الهندي (الاستوائي) أيضا ، وقد يؤدي تخلف الرياح الموسمية إلى ظهور (إل نينو) فجأة ، وعلى غير توقع » .

■ ■ ■

ثـــورة
زراعيـــة
على الأبـــواب

يبدو أن الهندسة (البيولوجية) توشك أن تفاجئنا بثورة خضراء ، تضمن للمحاصيل الوقاية من الآفات ، ومضاعفة العطاء ، وللبيئة الحماية المنشودة من التلف والتلوث ، ذلك أن العلماء العاملين في مختبرات منسانتو المعروفة نجحوا في تخليق بكتريا جديدة (**Pseudo FLourescens**) ، بل في تخليق خاصة معينة في تلك البكتريا ، فقد طورت تلك البكتريا بحيث يتغير لونها ، وتصبح زرقاء لدى ملامستها محلول (**X — GaL**) ، ومعنى هذا أن في الإمكان استعمال تلك البكتريا للأغراض التي خلّقت من أجلها ، ورشها على النباتات على نطاق واسع ، ما دام في إمكان اكتشاف أمرها ، إذا هي انتشرت من حيث لاندري ، ثم القضاء عليها إذا هي أساءت للبيئة من قريب أو من بعيد . فما أسهل ما تؤخذ عينات من التربة التي يشتبه بانتشار البكتريا فيها ، فاذا تلوثت العينة الواحدة باللون الأزرق لدى وضعها في محلول **X — GaL** كان ذلك دليلا على وجود البكتريا في المكان الذي أخذت من تربته العينة ، وما أسهل ما يستطيع المزارع تبعا لذلك القضاء على تلك البكتريا ، إذا هي ألحقت الأذى والضرر بالنباتات أو بالبيئة بالقدر الذي يستوجب التخلص منها .

وقد أجرت الشركة تجاربها الميدانية الواسعة النطاق في مدينة بلاكفيل ، في كاورلينا الجنوبية ، بالويات المتحدة الامريكية إذ قامت في الخريف الماضي برش القمح الشتوي بالبكتريا المخلّقة ، على أن الشركة لم تفعل ذلك إلا بعد الحصول على ترخيص وكالة البيئة **EPA** الصريح بإجراء تلك التجارب .

وتجدر الاشارة هنا إلى ما جرى بين وكالة البيئة وبين البروفسور جاري ستروبل ، وهو من علماء جامعة مونتانا ، فقد خلّق هذا العالم بكتريا جديدة ، ذات فوائد عظيمة ، ثم أقدم على إجراء تجاربه الميدانية على تلك البكتريا ، فحقن بها شجر الدردار على نطاق واسع .

على أن لتجارب شركة منسانتو وجها آخر، لا يقل أهمية عما ذكرنا، إن لم يكن أكثر أهمية ، فقد نجحت البكتريا التي خلّقتها (بسودو موماس فلورسنس) في اكساب القمح الشتوي المناعة المطلوبة ضد الصقيع ، ولعل هذه هي الخاصة الأساسية التي سعى إليها العلماء في تخليق البكتريا المذكورة ، بالمقارنة مع خاصة التلوث التي سبق الحديث عنها .

جيبوتي

حيرة اللسان والمكان!

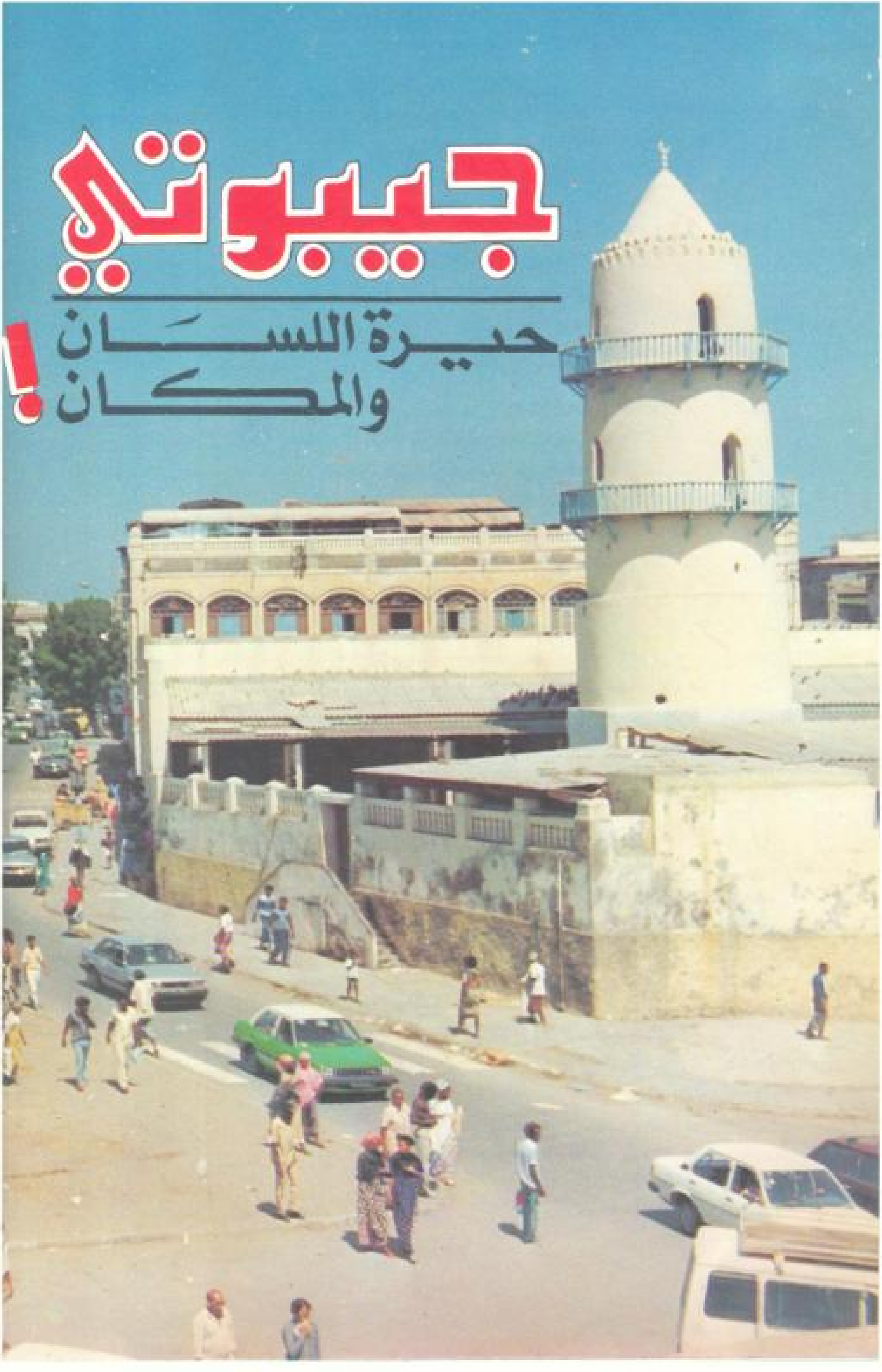

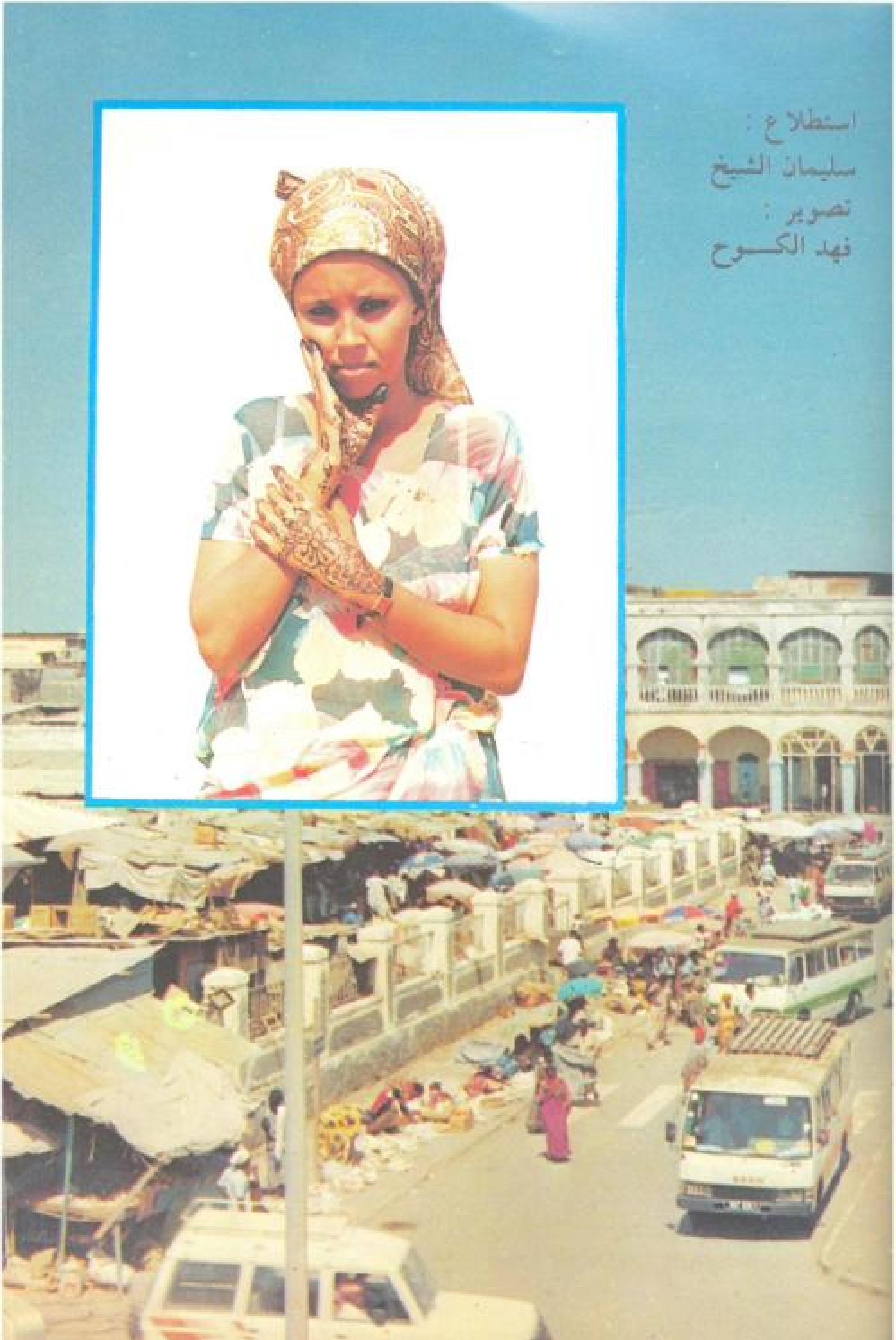

استطلاع :
سليمان الشيخ
تصوير :
فهد الكـــوح

الاستماع إلى إذاعة جمهورية جيبوتي ، أو مشاهدة تلفازها ، يبعثان على الحيرة ، ويتركان في النفس أسئلة ممزوجة بالدهشة ، فهي أطول نشرة أخبار يمكن مشاهدتها أو الاستماع إليها ، ليس بسبب كثرة مواد النشرة ، لكن بسبب تعدد اللغات التي تقرأ بها ! فهي تقرأ بأربع لغات :

الصومالية ، (لغة العيسى) والعفرية (إحدى لغات جمهورية أثيوبيا) والعربية ، ثم الفرنسية ، بل ويمكنك الاستماع إلى الفرنسية من خلال محطة إذاعة خاصة بها أيضا !

من هنا تنبع الدهشة ، والأسئلة : لماذا أربع لغات وليس لغة واحدة ؟ وما هي ظروف نشوء هذا الوضع ؟ وما الجديد بعد نيل الاستقلال ورفع العلم الوطني ؟

في الثامن من آيار «مايو» سنة ١٩٧٧ أجري استفتاء شعبي في جيبوتي جاءت نتيجته بتأييد ٩٨٪ من شعبها البالغ حوالي ربع مليون نسمة لذلك الاستقلال عن فرنسا التي استعمرتها اعتبارا من ١٨٤٢ م.

وقد تم إعلان الاستقلال بتاريخ ٢٧ حزيران (يونيو) سنة ١٩٧٧ م ، وتم رفع العلم الوطني الجيبوتي ، وأصبحت العضو ١٤٨ في منظمة الأمم المتحدة ، والعضو ٤٩ في منظمة الدول الافريقية ، والعضو ٢٢ في جامعة الدول العربية .

ونظرا لهذه المساحة المهمة استراتيجيا (تبلغ حوالي ٢٣ ألف كليومتر مربع) التي تقع على الساحل الشرقي الافريقي ، وعلى حافة البحر الأحمر وخليج عدن ، على رأس باب المندب من ناحية الغرب ، أي أنه إذا كان ميناء عدن يقع على الجانب الشرقي من باب المندب ، فإن جيبوتي تقع على الجانب الغربي منه ، لذا فإن موقعها المهم هو الذي لفت نظر القوى الاستعمارية التي التهب الصراع بينها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وخاصة الاستعمارين الانكليزي والفرنسي للسيطرة على المستعمرات ، وعلى محطات الوصول إليها .

وهذا الموقع بالذات إضافة إلى عوامل أخرى دفع القوتين المحيطتين بجيبوتي - أثيوبيا والصومال - إلى المطالبة بضمها اليها .

إلا أن نتيجة الاستفتاء في جيبوتي سنة ١٩٧٧ م أوقفت مطالبات الالحاق والضم ، ربما إلى حين !

وقد ترافق إعلان الاستقلال مع توقيع معاهدة بين فرنسا وجيبوتي ، بقي بموجبها حوالي ٤٥٠٠ جندي فرنسي في جيبوتي للحماية ، كما بقي ميناء جيبوتي المهم على صعيد المنطقة كلها مفتوحا امام قطع الأسطول الفرنسي ، وبقيت الشواطيء الجيبوتية الطويلة تحت الحماية الفرنسية أيضا .

جاء في كتاب « صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي » لصلاح الدين حافظ الصادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت سنة ١٩٨٢ :

« أما جيبوتي - اخر المستعمرات الفرنسية المستقلة - فهي لاتكاد تشكل دولة بالمعنى المفهوم .

لأنها تفتقر - رغم الاستقلال - لمقومات الدولة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا » .

صورة مقربة

بحر وصحراء ، هما ما كنا نراه كلما اقتربنا من المجال الجوي الجيبوتي . نقترب أكثر وتنخفض الطائرة ، فنرى تلالا وجبالا قليلة الارتفاع ، ترعاه . أو بنبت على بعضها بعض الأشجار القزمة قليلة الأوراق . نقترب أكثر فيظهر امتداد متربا ، وتلمع سطوح « الزينكو » أو الاسبست .

إنها جيبوتي ، المدينة الكبرى في الجمهورية ، والعاصمة التي يسكنها ويسكن حولها ما يزيد على نصف عدد السكان (تشير التقديرات الحديثة إلى أن عدد سكان الجمهورية قد وصل إلى حوالي ٤٠٠ ألف نسمة)

تنزل في مطارها المتواضع ، وبعد عشر دقائق فقط تكون في قلب العاصمة ، بعد أن ترى بعض المعالم ، شجر صحراوي يحاذي الطريق ، ويتعايش مع شجر نخيل قليل ، وبعض الزراعات المتواضعة ، ثم معسكر على يمين الطريق يحرسه حراس أجانب ، وضواحي الصفيح تحاذي جوانب أخرى من الطريق .

درجة حرارة ذلك اليوم وصلت إلى ٣٠ درجة سنتيغريد ، مع أن الزمن كان في الشهر الأول من هذا العام ، مع رطوبة مرتفعة .

تألف مباني قلب العاصمة بسرعة ، وهي لا ترتفع كثيرا عن طبقات أربع ، بيضاء مقببة ، ويبدو أن الفرنسيين عندما فكروا في بناء مدينة جيبوتي منذ مائة عام (تم تأسيس جيبوتي « العاصمة » سنة ١٨٨٧) لم يجدوا إلا اليمنيين في وجههم ، فبنوا مدينة على الطراز العربي كما تقول بعض المصادر .

إلا أن هذه المدينة ذات البيوت الحجرية القليلة ضاعت في بحر من أبنية صفيحية خشبية ، قامت على عجل ، وأحاطت بالمدينة القديمة ، أو أصبحت امتدادا لها . جاء في كتاب « جيبوتي على مفترق الطرق في العالم » للكاتبين البريطانيين (غراهام هانكوك ، وستيفن لويد) الصادر سنة ١٩٨٢ :

جيبوتي وجيرانها

« وهنالك بالطبع حاجة ملحة لتحسين الأحوال السكنية في مدينة جيبوتي . وقد وردت إشارة في تقرير حكومي إلى أن ما يقرب من ثلثي سكان جيبوتي يعيشون في مساكن رديئة » .

وجيبوتي من أكثر المدن ارتفاعا في الأسعار .

لايرتاد أسواقها الراقية إلا أغلبية من الفرنسيين وقلة من أبناء الطبقة العليا من الجيبوتيين . ومعظم أسواقها الراقية أو المتوسطة الحال مملوكة للعرب اليمنيين الذين إما أنهم أصبحوا مواطنين وحصلوا على الجنسية الجيبوتية منذ زمن بعيد ، أو أنهم من المقيمين الذين مددوا إقاماتهم وأصبحوا شبه مواطنين ويبعد الشاطىء الجيبوتي عن شاطىء اليمن الديمقراطية حوالي ساعة بالسفينة . وقد ذكر لنا محافظ مدينة أوبخ أو أوبوك » أنه يمكن رؤية الشاطىء اليمني بالعين المجردة إذا ما كان الطقس صافيا من « رأس سيان » الذي يبعد عن أوبوك حوالي ٦٠ كليو مترا .

الطرق الرئيسية في المدينة ممهدة بالقار ، أما الطرق الجانبية فإنها مازالت من تراب ، وبقالات الخضار عامرة بالفواكه والخضار الطازجة التي تصل بواسطة القطار - الشريان الرئيسي بين جيبوتي

● التناقض مجسداً : أحياء راقية ، وأخرى فقيرة في مدينة جيبوتي ، ولا يفصل بين الحيين إلا أمتار قليلة .

● يتحلق الباعة حول هذا المقهى الذي ترتاده أغلبية فرنسية « بين » و « الى البار » أحد أحياء جيبوتي ، طراز البناء غربي تماما فيه . والى أسفل تجمعة في عرض الخضراوات والفواكه ، وأغلبها مستوردة من أثيوبيا .

وأثيوبيا - وهو شريان أساسي للطرفين ، حيث تنقل بواسطته احتياجات جيبوتي من أثيوبيا ، وتستورد أثيوبيا وتصدر عن طريقه ، ثم عن طريق ميناء جيبوتي كثيرا من احتياجاتها ومنتجاتها .

الملابس وبعض الكماليات تصل من أوروبا وخاصة من فرنسا ، كما أن بضائع جنوب شرق آسيا متداولة بكثرة فيها ، وهناك نسبة كبيرة من البضائع يتم بيعها من قبل بائعين وبائعات ، بواسطة بسطات بسيطة أو بالتجوال بين الأسواق .

عندما اعتلينا سطح إحدى البنايات التي تشرف على ساحة محمود الحربي - أحد شهداء المطالبة بالاستقلال - في وسط مدينة جيبوتي ، وبدأ زميلي المصور بالتقاط صور لمعالم المدينة ، ظهر مسجدان بارزان بين المعالم ، هما أشهر مسجدين في المدينة ثم ظهر السوق المترب المكتظ بالناس والبضاعة ، ثم ظهر مجمع سيارات نقل الركاب إلى شتى أنحاء الجمهورية .

اليمنيون في جيبوتي

وفي غمرة اشتغالنا بالتقاط الصور جاءنا أحد سكان البناية فلم تخف ملامحه السمراء علينا ، كما لم نخف عليه ، كان يمنيا أصله من حضرموت ، لكنه أصبح مواطنا جيبوتيا ، لقد جاء جد جده منذ القديم إلى هنا فعاش وخلف

قال : إننا نخشى المصورين ، فربما التقطوا صورا تضر بمصلحة البلد ، لقد جاء اسرائيليون واستغلوا الصور ضد مصلحة البلاد .

- طمأناه وأبرزنا له هويتنا ، فانفرجت أساريره ، وانطلق يتحدث عن العلاقات العربية الأفريقية ، والهجرات القديمة التي ربما تعود إلى ماقبل الميلاد ، وذكر أن سيماء السكان في الساحل الافريقي لايمكن أن تشي بأنها افريقية خالصة ، إن بها تأثيرات عربية أكيدة وخاصة من عرب اليمن وعمان وغيرهما . وأضاف اننا نحن العرب نزيد على عشرين بالمائة من مواطني جيبوتي ، وستجد الكثيرين منا في شتى مجالات الحياة في التجارة والوظائف العامة وغير ذلك .

* هل مازلتم تزورون اليمن ؟

- إن بعض أفراد عائلتي مازالوا يزورون أقاربهم في اليمن ، وعاداتنا وتقاليدنا في بيوتنا مازالت عربية ثم علق : لاأنسى أن جيبوتي التحقت بالجامعة العربية .

* وهل القات مازال متداولا بينكم ؟

- توقف للحظات ثم أجاب : لاأشك أن للقات سيئات ، لكن فيه إيجابيات لجميع أفراد العائلة والمسامرة .

* يمكن أن تجتمعوا على أي شيء آخر ؟

- هي عادات وتقاليد ، و « التخزين » في جيبوتي مسموح ، والقات يأتي من الحبشة مع الخضراوات والفواكه

* ألا يكفي الفقر والبطالة ، ليضاف إليها حلف آخر في محاربة الجيبوتيين ، أعني القات ؟؟

- صحيح أن القات يستنزف كثيراً من ميزانية الأسر ، لكن ماذا نفعل بالعادات التي ترسخت منذ زمن طويل ؟

الحارس « كليمنصو »

عندما كانت الطائرة الصغيرة تقلنا من مدينة جيبوتي إلى مدينة أوبوخ أو (أو بوك) فان مياه البحر كانت هادئة ساكنة لايظهر فيها إلا بعض خطوط الموج ، ثم ظهرت فجأة سفينة كبيرة ، كأنها تتمخطر في بحر لم يظهر فيه إلا هي .

قال مرافقنا جلال الجيبوتي ، اليمني الأصل : إنها كليمنصو حاملة الطائرات الفرنسية الشهيرة ، إنها تجوب البحر في دورة تفتيشية معتادة ثم علق : لاأنسى أن هناك اتفاقية بين فرنسا وجيبوتي ، تمكن لفرنسا بها استعمال الموانىء الجيبوتية ، وتدريب جيشها وغير ذلك .

عندما عدنا إلى مدينة جيبوتي كانت « كليمنصو » وغيرها من قطع حربية بحرية قد سبقتنا بالوصول إلى الميناء ، وبدأ بحارتها بالتدفق على المدينة .

كان سيل السيارات الجيبوتية لاينقطع وهو ينقل الجنود الفرنسيين بلباسهم المدني من الميناء إلى أسواق المدينة ومطاعمها وباراتها وملاهيها وأسواقها

وبعض الصبية يتقافزون بينهم لبيع البطاقات أو الفستق السوداني وغير ذلك . إنهم يضخون أموالا كثيرة إلى اقتصاد جيبوتي . لكن هذا الضخ وغيره من أسباب قد جعل الأسعار في المدينة عالية جداً . (دخل الفرد في جيبوتي متدن جدا والبطالة منتشرة بكثرة) . ويمكن القول بأن السوق الجيبوتي لايغص بالجنود فقط ، بل هناك مئات العائلات الفرنسية التي تؤكد بأن الوجود الفرنسي لايقتصر على النواحي العسكرية فقط .

إن عشرات الطلبة والطالبات وغيرهم من المدرسين والموظفين الفرنسيين في شتى مجالات الحياة شاهدناهم يشاركون ويأخذون دورهم في عجلة الحياة الجيبوتية .

جاء في تصريح لوزير خارجية جيبوتي السيد مؤمن باهدون فرح قال فيه : « لقد قررنا بسبب العلاقات الطيبة بين بلدينا أن نطلب من فرنسا تدريب جيشنا الفتي الناشيء . وتريد حكومتنا الابقاء على علاقات التعاون مع فرنسا طالما ظل ذلك من مصلحة دولة جيبوتي الفتية الناشئة . وقد وقعنا في السابع والعشرين من يونيو سنة ١٩٧٧ على عدد من اتفاقيات التعاون مع فرنسا في ميادين كثيرة ، منها التعليم والجيش وانتداب الموظفين والمدربين بوجه خاص . ولا حاجة للقول بأن التعاون بيننا وبين فرنسا يمتد إلى كل الميادين » .

بوابة التسلل

سألت مرافقنا جلال : ألم تزل بوابة واسلاك مدينة جيبوتي موجودة ؟

أجاب : لقد أزالتها السلطات الرسمية منذ سنوات .

علقت : لكنني مازلت أرى الكثيرين من الأفراد يشكون البطالة والتسكع ، وبعضهم ينام على جوانب الطرق حيثما وجد ظلا أو مساحة فارغة .

وأرى بعضهم مقبوضا عليه من قبل رجال الشرطة ويساق إلى سياراتها .

أجاب جلال : على الرغم من وجود البوابة والاسلاك من قبل لمنع تسلل أبناء الريف أو غير الجيبوتيين إلى داخل المدينة فإن المتسللين كانوا ينجحون بالتسلل ويتكاثرون في المدينة . فهل تتوقع الآن بعد أن أزيلت البوابة أن لاينجح المتسللون في الوصول إلى قلب العاصمة ؟

ومع ذلك فإن الشرطة كما ترى جادة في محاربة الآفات ومنها وجود عناصر غريبة أو غير جيبوتية دخلت تسللا إلى المدينة (تفيد الاحصاءات الرسمية إلى أن ثلاثة أرباع سكان جمهورية جيبوتي يعيشون في المدن الآن . وأن نسبة الزيادة في المدن تصل إلى ٧,٥ في المائة سنويا ، في حين أن نسبة النمو العام للسكان في الجمهورية يصل إلى ٢,٧ في المائة ، وهذا أكبر دليل على أن الزيادة السكانية في المدن هي زيادة اصطناعية غير عادية ، تقوم على الهجرة من الريف ، أو التسلل من بلدان أخرى) .

● فما هي البلدان التي يتم التسلل منها ؟

ـ من خلال مشاهداتنا الصباحية اليومية التي كنا نلاحظها أثناء نقل المقبوض عليهم من الأسواق إلى سيارات الشرطة لاحظنا أنهم لايفترقون في كثير أو قليل عن أفراد آخرين من المواطنين أنفسهم ، فكيف يمكن معرفة هذا من ذلك ؟

ـ السيد علوان علوان العامل في القسم الثقافي « بالتلفزيون » قال لنا : إن اثيوبيا تحيط بجيبوتي من الشمال والغرب والجنوب الغربي ، في حين أن الصومال يحدها من الجنوب الشرقي ، وكلا البلدين له روابط تاريخية طويلة مع جيبوتي . وبعض القبائل في هذين البلدين لها امتدادات في جيبوتي .

إن السؤال عن الهوية ربما يحدد صفة معينة ، لكنه لايحدد الانتماء الحقيقي لهذا البلد أو ذاك . إن العفريين يعيشون في جيبوتي وفي اثيوبيا ، كما أن العيسى يعيشون في الصومال وجيبوتي ، وهم إخوة وأبناء عمومة ، فجاءت الحدود السياسية الحديثة لتفرق هذا عن ذاك ، ولاتنس أن الصومال كان يعتبر جيبوتي جزءاً منه ، واثيوبيا تعتبرها كذلك .

جاء في كتاب « صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي » لصلاح الدين حافظ عن سكان جيبوتي مايلي :

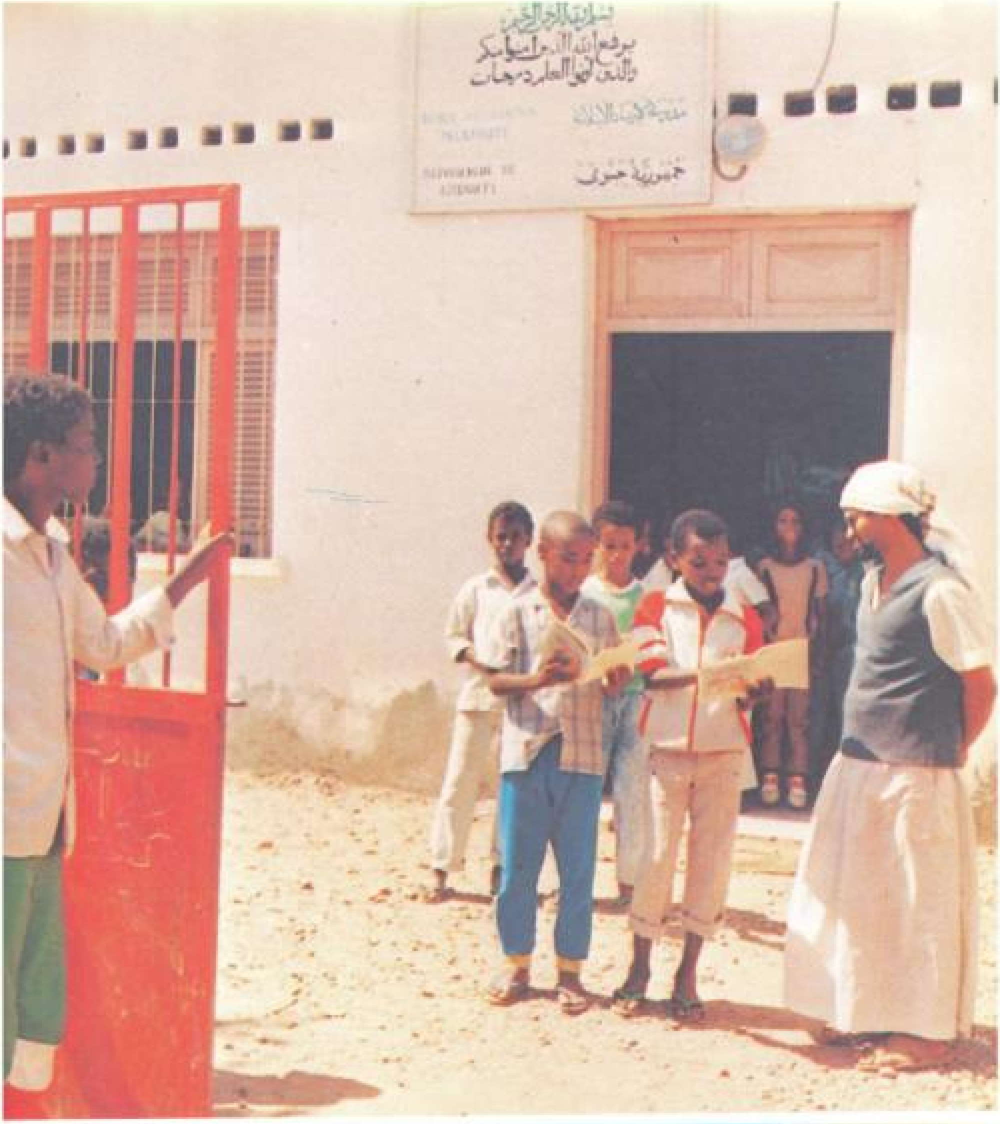

● على الرغم من تواضع مباني بعض المدارس فإن إقبال بنات جيبوتي وأبنائها كبير على العلم والتعليم ، مع أن معظم المواد ما زالت تدرس بالفرنسية .

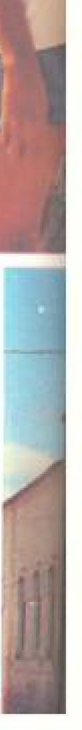

وزير التربية سليمان فرح لودون

الأمينة العامة لاتحاد نساء جيبوتي

« العفر وتضم قبيلتين هما « الاسايمرة » و « الادويامرة » ، ويشكلون ٤٠٪ من السكان . ويضيف « يعود أصل العفر تاريخيا إلى الهجرات السامية العربية الأولى التي خرجت من الجزيرة العربية واتجهت إلى الساحل الشرقي لأفريقيا . وقد اختلطت هذه الهجرات السامية مع العناصر المحلية وهي حامية . ونتج عن هذا المزيج البشري قبائل العفر الحالية الذين يسمون عادة « الدناكل » ، المنتشرون في القرن الافريقي بصفة عامة . والذين يرتبطون عاطفيا بقبائل كثيرة في اثيوبيا » .

وتصديقا لكلام الكاتب فإن السيد علوان وهو عفري ويتكلم العربية بطلاقة ذكر لنا أن معظم « العفر » يعتبرون اللغة العربية لغتهم الثانية ، وهم يتكلمونها ويفهمونها بشكل جديد ، كما أن ملامحهم فيها تأثيرات عربية واضحة ، ثم يضيف الكاتب :

« العيسى وتضم ٤ قبائل هي : العيسى ، الدرادو ، الايباك ، القارابوس ، وهم يشكلون ٦٠٪ من السكان ، ويرتبطون بشريا وتاريخيا بالقبائل الصومالية » .

ويبدو أن المؤلف نسي ذكر نسبة العرب بين السكان ، إذ أن جميع المصادر تشير إلى أن نسبتهم تزيد على ٢٠٪ من السكان .

بين أثيوبيا والصومال

ويذكر السيد صلاح الدين حافظ في كتابه معلومات تتعلق بالصراع الاثيوبي الصومالي حول جيبوتي ، جاء فيها :

« منذ أن أعلنت فرنسا اتجاهها لتصفية مستعمرتها في جيبوتي اشتعل الصراع السياسي بين الصومال وأثيوبيا ، كل منهما يدعي أحقيته المطلقة في جيبوتي ، وهو صراع تاريخي قديم . إذ إن الصومال تعتبر جيبوتي وخليج تاجورا الذي تطل عليه جزءا أساسيا من الوطن الصومالي بأقاليمه الخمسة ، وجيبوتي هي ذلك الاقليم الخامس الذي يجب أن يعود إلى الوطن الأم والصومال يستند في ذلك إلى أسس حضارية ودينية وتاريخية وعرقية قومية أيضا . فالتاريخ يقول إن كل الساحل الصومالي - بما فيه جيبوتي وأوجادين - جزء أساسي من الامتداد الجغرافي الطبيعي للصومال ، والقبائل التي تسكنه هي أيضا امتداد « عرقي » وبشري للقبائل الصومالية القديمة ، واللغة واللهجات متقاربة مترابطة كذلك .

ويضيف الكاتب : بينما الحبشة تصر من ناحيتها على أحقيتها في ضم جيبوتي إليها ، زاعمة أنها امتداد جغرافي وبشري لها ، وأن الامبراطورية - الحبشية - مارست نفوذها على هذا الساحل منذ أقدم العصور .

وخاصة منذ توسع الامبراطورية وتمددها الجغرافي على يد الامبراطور منليك ١٨٨١ ـ ١٩١٣ مؤسس أثيوبيا الحديثة .

ويذكر المؤلف بعدا دوليا للصراع فيقول :

« ولم يكن الصراع على جيبوتي صراعا محليا فحسب بين الصومال واثيوبيا ، بل كان صراعا دوليا بين القوتين العظميين الأساسيتين في القرن التاسع عشر ، وأعني بريطانيا وفرنسا . وقد كان لفرنسا قصب السبق في استعمار جيبوتي والسيطرة على خليج تاجورا من خلال مجموعة من الاتفاقيات التي عقدتها مع سلاطين المنطقة وشيوخها في أعوام (١٨٦٢ ، ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ ، ١٨٩٦ م) .

مشكلة اللغة

● ذكرنا أن جيبوتي قد انضمت إلى جامعة الدول العربية ، وأصبح رقمها ٢٢ بين دولها ، كما ذكرنا بأن الدولة تواجه مشكلة بالنسبة للغة ، إلى درجة استعمال اربع لغات في نشرات الأخبار ، فكيف تتوجه جيبوتي لترسيخ هويتها المعلنة ـ العربية ـ مع أن واقعها يسوده الاختلاط والتوزع ؟

ـ قال لنا السيد سليمان فرح لودون وزير التربية الوطنية : لاشك أن مشكلة اللغة هي مشكلة حقيقية كبيرة في جيبوتي ، إنها مشكلة في كل بيت ، إن إخوتي الذين بقوا في قريتنا يتكلمون العربية ويفهمونها لكنني أنا لا أكتبها ، وأفهمها قليلا ، وكان بودي أن يتم الحديث بيني وبينكم بالعربية مباشرة ، وأن يكون حالي كحال مدير مكتبي ـ عبدالرحمن حسن الذي درس بالقاهرة وتولى الترجمة بيننا وبين وزير التربية ـ أما بالنسبة لابني فإن المشكلة بالنسبة له آخذة في التقلص ، إنه يتعلم العربية في مدارس الحكومة ، صحيح أن العربية لم تصبح اللغة الأولى في المدارس ، لكنها ستصبح في يوم ما ، وبالتدريج وبمساعدات الأشقاء العرب يمكن معالجة مشكلة اللغة العربية في جيبوتي ، وجعلها لغة أساسية في البلاد »

قبل أن نمضي في حديثنا المتشعب عن التعليم وواقع حال اللغة العربية في جيبوتي فإنه يجدر بنا القاء الأضواء على واقع هذه اللغة قبل دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد وبعده .

الخلوة أو « الدكسى »

لقد نقل العرب المسلمون ماكان سائدا عندهم في نواحي التعليم إلى غيرهم من شعوب ، وكان دور الشيخ أو « الملا » والتعليم القرآني الذي يتولاه من الأدوار المهمة في هذا المجال ، وهو مازال سائدا في بعض القرى والنواحي الريفية ، ويطلق على المكان الذي يلتقي فيه الشيخ بتلاميذه « الخلوة » في بعض المناطق العربية خصوصا الأفريقية منها ، لكن هذا المكان يسمى « الدكسى » باللغة الصومالية ـ كانت تكتب لغتها بالحروف العربية ، لكنها اعتمدت على الحروف اللاتينية بعد الاستقلال ـ ومعنى « الدكسى » كما جاء في بحث الدكتور سيد حامد حريز المنشور في مجلة « البحوث والدراسات العربية » الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ العدد الحادي عشر ١٩٨٤ تحت اسم « المؤثرات العربية في شرق افريقيا » هو « المكان المحاط بسور » فما الذي سجله الدكتور سيد حريز عن التعليم في « الدكسى » ؟

« العلم » يعني العلوم الدينية وما يرتبط بها من فقه وصرف وتفسير .. الخ ، وعلى الرغم من أن الطابع الاسلامي قد هيمن على التعليم في شرق أفريقيا إلا أن العرب هم الذين نشروا هذا التعليم ، واللغة العربية كانت وسيلته الرئيسية ، وقد كان لهذا الأمر نتائج إيجابية وأخرى سلبية :

ـ أهم النتائج الايجابية إزالة الأمية وربط المجموعات الافريقية المختلفة بعضها ببعض ، ومهد الطريق لارتباط هذه المجموعات بالوطن العربي والعالم الاسلامي .

ـ أما عن سلبيات ارتباط التعليم بالطريقة السالفة الذكر في شرق افريقيا فهي أن المسلم قد أصبح يتقبل هذا التعليم برضا وامتنان ، ويرفض كل ماسواه ، فلقد وقر في أذهان العامة وبعض الخاصة أن العلم هو العلوم الدينية ومايرتبط بها وكان من نتائج هذه النظرة

التقوقع داخل هذا الاطار ومقاطعة التعليم الغربي الذي عرف طريقه إلى تلك المنطقة في عهد الاستعمار ، واعتبروا المدارس الجديدة التي فتحت في ظل هذا النظام الجديد كأنها امتداد للمدارس التبشيرية المسيحية .

التعليم بعد الاستقلال

المهم أن التعليم الحديث زمن الاستعمار تجمد وبقي على صورته القديمة ، إلا في حالات نادرة ، إما بفعل مقاومة الجيبوتيين وربطهم للتعليم بالتبشير ، وإما لأن المستعمر نفسه لم يرغب في إدخال التعليم الحديث إلى البلاد التي استعمرها ، أوعلى الأصح لم يتوسع في ذلك ، خوفا من مترتبات ذلك كالوعي الذي يمكن أن يزرعه التعليم آجلا أم عاجلا .

يقول وزير التربية الوطنية الجيبوتي سليمان فرح لودون :

كان عدد الطلاب في مدارس الحكومة الجيبوتية سنة ١٩٧٦ : ٨,٥٠٠ طالب وطالبة في المدارس الابتدائية و ٢٠٠٠ طالب وطالبة في المدارس الاعدادية والثانوية والتقنية ، نصفهم كان من الطلبة الأوروبيين ، وكان يوجد ثلاثة أطباء جيبوتيين ومهندسان وثلاثة أساتذة وطنيين فقط !

* والآن ما عدد الطلبة بعد مرور عشر سنوات على الاستقلال ؟ هكذا سألنا السيد وزير التربية فأجاب :

* تضم مدارس الحكومة ـ توجد مدارس غير حكومية ـ (٢٦,١٣٥) ألف طالب وطالبة للسنة الدراسية ٨٧ ـ ٨٨ في المدارس الابتدائية ، وفي مرحلة التعليم الاعدادي والثانوي (٦ سنوات ابتدائي + ٤ إعدادي + ٣ سنوات ثانوي) ، يوجد في المدارس الحكومية ٦٣٢٣ طالبا وطالبة (التعليم مشترك بين الفتيان والفتيات نظرا لشحة الموارد كما ذكر الوزير ، وذكر أيضا بأن الدراسة مجانية ، توفرها الدولة لجميع من يرغب فيها) . أما المدرسة المهنية الوحيدة في جيبوتي فإنها تحتوي على ١١٣٢ طالبا وطالبة ، وعلى أن أشير أنه يوجد الآن ٣٨٠ مدرسا جيبوتيا متخرجا في معهد المعلمين في المدارس الابتدائية ، و ١٠٩ متخرجين في الجامعة . ويتبين من هذا أن نقلة كبيرة حدثت في التعليم ، ونأمل المزيد من ذلك ، كما نأمل من إخواننا في الوطن العربي المساعدة في هذا الأمر وخاصة أننا أدخلنا اللغة العربية لغة أساسية ثانية في المدارس .

* كم عدد ساعات اللغة العربية التي يتعلمها الطلبة في المدارس ، وماهي جنسيات المدرسين الذين يدرسونها ؟

ـ لقد أصدرت حكومتنا قانونا ينص على تعليم اللغة العربية في جميع المدارس الحكومية الجيبوتية ، وحددها القانون بست ساعات في الأسبوع ، إلا أنه نظرا للنقص في المدرسين فإننا اضطررنا لتخصيص ٤ ساعات دراسية أسبوعيا في المدارس الابتدائية ، و ٥ ساعات في المدارس الاعدادية والثانوية ، إننا نبذل قصارى جهودنا في هذا المجال ، ومع أن بعض إخواننا نصحونا بتعريب كل مواد التعليم والادارات دفعة واحدة إلا أننا وجدنا أن الأمر صعب ، لذلك فإننا نسير بخطا تدريجية لتحقيق هذا الأمر ، ونأمل أن يساعدنا إخواننا العرب في هذا المجال ، وإذا ماكان طموحنا لايصل إلى إنشاء جامعة في الفترة القريبة فإن مانحتاجه هو وجود معاهد فنية أو أكاديمية في مرحلة وسطى بين الثانوية والجامعة .

أجوبة عن سؤال صعب !

وفي بحثنا عن أجوبة لسؤال يتعلق باللغة العربية في جيبوتي ومستقبلها وخاصة أن الطالب « العفري » أو « العيسوي » سيخرج من درس اللغة العربية ليتكلم مع زملائه وأهله وأقرانه بلغته أو باللغة الفرنسية ، إذ ان ما تواجهه اللغة العربية في جيبوتي يختلف عما واجهته على سبيل المثال في الجزائر ، فالطالب هناك كان يتعلم بالفرنسية في مدرسته ، لكنه كان يخرج ليتكلم مع أقرانه وأهله وناس حيه بلهجته الجزائرية العربية ، بعكس الطالب هنا في جيبوتي الذي يعيش وضعا مختلفا معكوسا ، مع فارق التشبيه ، فما الذي قاله المسؤولون عن المدارس العربية في جيبوتي ؟

ـ السيد علوان عبدالرحمن بن يحيى مدير مدرسة

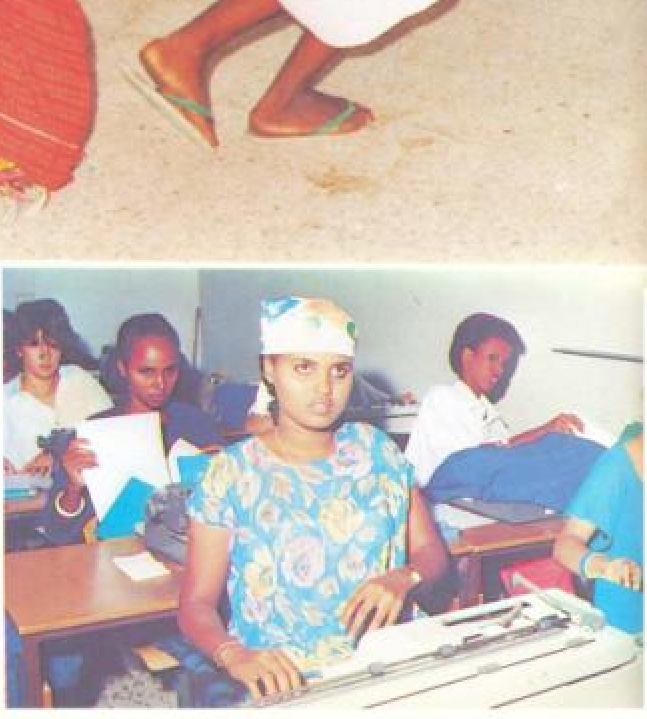

● رقصة شعبية يؤديها طلبة الكلية المهنية في مدينة جيبوتي .
و« أسفل » مجموعة من الفتيات يتدربن على درس الطباعة في الكلية المهنية .

النجاح الإسلامية قال لنا : لقد تأسست المدرسة سنة ١٩٣٥م ، وكان من مؤسسيها السيد/ علي كيش وأصله من الجمهورية العربية اليمنية ، ومجموعة أخرى من العرب في جيبوتي ، واستمر السيد/ كيش وغيره من التجار العرب يصرفون على المدرسة حتى الآن ، وكان منطلق الفكرة هو الغيرة على اللغة العربية ، والغيرة على الأجيال العربية في جيبوتي ، وكانت المدرسة مكونة من أربعة فصول ، أصبح فيها ستة فصول في بداية السبعينيات .

التعليم في المدرسة كان يتم بالعربية منذ أن أنشئت ، ويتم تدريس ٦ حصص في الأسبوع للغة الفرنسية وعدد الطلبة في المدرسة حوالي ٣٠٠ طالب ، في حين أن الطالبات يدرسن في الفترة المسائية ويصل عددهن إلى ٧٠ طالبة ومدة الدراسة ٦ سنوات فقط .

* كيف تنظر إلى مستقبل اللغة العربية في جيبوتي ؟

- إن وجود المدارس العربية ، ووجود العرب فيها ، وتدريس اللغة العربية في المدارس الحكومية حديثا يساعد على نشر اللغة العربية في البلاد ، وأرى أن الأمر يحتاج إلى صبر وإلى خطوات تدريجية في هذا المجال ، ويحتاج إلى مساعدة مستمرة من قبل الأقطار العربية .

إن المشكلة هنا تختلف عما كان سائدا في الجزائر ، وقد يفهم العربية أكثر من ٥٠٪ من الشعب في جيبوتي ، مع ذلك فإن توسيع نشر العربية يحتاج إلى جهود وصبر وخطوات تدريجية .

- الأستاذ عماد عبدالصاحب مدير المدرسة العراقية في جيبوتي علق قائلا :

لقد تم إنشاء المدرسة العراقية مع الأيام الأولى للاستقلال سنة ١٩٧٧ ، وهي مدرسة ابتدائية وإعدادية ، وعدد الطلاب والطالبات فيها الآن يصل إلى ١٢٠٠ ، يدرسون على فترتين صباحية ومسائية ، بمعدل خمس حصص في اليوم لكل فترة ، وفيها ٢٠ فصلا دراسيا ، ويستوعب الفصل حوالي ٥٠ طالبا ، والمدرسة معترف بها من قبل الحكومة ، ومن قبل الجامعة العربية ، ويدرس فيها ١٥ مدرسا عراقيا ، بينهم مدرس جيبوتي واحد يدرس الفرنسية ، والتعليم في المدرسة مجاني ، وتوزع الكتب والكراريس بصورة مجانية أيضا ، وتدرس الفرنسية والانكليزية كلغتين أجنبيتين ، وكل لغة يتراوح تدريسها بين ٤ ، ٦ ساعات في الأسبوع ، ويتم تدريس المواد الباقية باللغة العربية منذ دخول الطلاب للمدرسة .

* هل يمكن حل مشكلة اللغة العربية في بيئات لاتتكلمها في البيت والسوق وغيرها ؟

- قد تسهم المدارس العربية في حل هذه المشكلة ، لكنها لايمكن أن تحلها وحدها ، إن هذا الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، وإلى تضافر جهود عدة جهات ، وتوفير عدة وسائل وطرق .

أما السيد خالد ابراهيم السويلم ، الملحق الديني في سفارة المملكة العربية السعودية في جيبوتي فإنه قد ذكر لنا بعض المعلومات المتعلقة بالمعهد الاسلامي السعودي في جيبوتي ، وهو تابع لجامعة محمد بن سعود الاسلامية في المملكة ، فقال :

- لقد تم افتتاح المعهد سنة ١٩٨١ ، وهو واحد من خمسة معاهد لتعليم العربية لغير الناطقين بها ، وهي موجودة في موريتانيا ، واندونيسيا ، واليابان ، ورأس الخيمة ، والخامس في جيبوتي ، ويحتوي المعهد على ٤٠٠ طالب من الذكور فقط ، ويتم التعليم فيه لمواد الدين والاجتماع واللغة العربية والجغرافيا وغيرها ، لكن لايتم تعليم الكيمياء أو الفيزياء على سبيل المثال ، وكل المواد يتم تدريسها بالعربية ماعدا الفرنسية التي يخصص لها ٤ ساعات في الأسبوع ، وتبدأ الفصول اعتبارا من الأول متوسط إلى الثالث ثانوي .

* كيف يمكن نشر اللغة العربية في مجتمع لايتحدث أغلبه بها إلا في القضايا الدينية ؟

- إن الأمر يحتاج إلى وقت وإلى جهود وأموال ، إن الشعب في جيبوتي متشوق إلى تعلم العربية ، لغة القرآن الكريم ، وعلى الجهود الخيرة أن تتكاتف للتوسع في نشر هذه اللغة وتوطيد أركانها .

هذا ، ويمكن الاشارة إلى وجود عدة مؤسسات

خاصة أو مشتركة يتم تدريس العربية والمواد الدينية فيها للطلبة والطالبات . كالاتحاد الوطني لنساء جيبوتي ، وإدارة رعاية الطفولة ، ومعهد تدريب الشباب الوطني المهني .

وقد التقينا بالسيدة سعيدة حسن الأمينة العامة للاتحاد الوطني لنساء جيبوتي ، والسيدة خديجة جامع رئيسة اللجنة الثقافية في الاتحاد ، والسيدة زينب بخيت مسؤولة الشؤون الادارية للشؤون العربية في الاتحاد ، وقمنا بزيارة فرعي الاتحاد في مدينة جيبوتي ، وتابعنا بعض نشاطات الاتحاد ، مثل فصول تعليم النساء في فرع الاتحاد الكائن بالقرب من سوق المدينة الرئيسي ، والمشاغل الكائنة في فرع الاتحاد القائم خارج المدينة .

عن نشاطات الاتحاد ودوره ذكرت لنا السيدات : سعيدة ، وخديجة ، وزينب المعلومات التالية :

كان للاتحاد دوره زمن الاستعمار الفرنسي ، اعتبارا من سنة ١٩٥٦ ، بل لعب دورا سياسيا كفاحيا أيضا ، وطالب بالاستقلال والحرية كغيره من التنظيمات والمؤسسات .

وقد تم الإعلان رسميا عن قيام الاتحاد في ٣٠ نيسان ابريل سنة ١٩٧٧ ؛ أي مع الأيام الأولى للاستقلال ، وإذا كان دوره قبل الاستقلال قد انصب أساسا على المطالبة بالحرية والاستقلال فإنه اتجه الآن ليؤدي دوره في محاربة الجهل والتخلف ، لذلك فقد أنشأ فصولا لمحو الأمية باللغة العربية ، اعتبارا من سنة ١٩٧٧ ، ثم وضع خطة موسعة لتعليم العربية وأصول الدين اعتبارا من سنة ١٩٨٠ ، وافتتح فصولا منتظمة لذلك تعطي دروسا من الصف الأول ابتدائي حتى نهاية المرحلة الاعدادية ، واستعان ببعض المدرسات المصريات ، كما أسهمت بعض المدرسات الجيبوتيات في هذا الجهد .

ثروة كالنفط

قيل لنا إن الطبيعة في جيبوتي تحتوي على ثروة باطنية تماثل النفط في الأهمية ، فحسبنا أن ذلك ربما يعود إلى وجود بعض المعادن النادرة ، إلا أننا اكتشفنا أن هذه الثروة ماهي إلا مياه حارة ! .

○ فهل الأمر مهم إلى درجة وجود مشروعات حقيقية لاستغلال هذه الثروة ؟

في صبيحة يوم باكر من أيام الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني (يناير) انطلقت بنا سيارة من نوع « الجيب » من المعهد العالي للبحوث العلمية في إحدى ضواحي مدينة جيبوتي واتجهت بنا نحو الغرب .

وعندما ركبنا « الجيب » أدركت أن رحلتنا ستكون شاقة إلى حد ما ، وإلا كنا بقينا في السيارات العادية ، أخذت سيارة « الجيب » تنهب الطريق نهبا ، وكانت الصور تتوالى ، أشجار نخيل على الجهة اليسرى من الطريق ، وأصوات مضخات المياه التي تضخ الماء من الآبار مسموعة بوضوح ، وبعض الزراعات المحدودة ظهرت تحت أشجار النخيل ، كالخضراوات وغيرها ، وناعورتان تتقابلان خلف أسوار بعض المزارع (يمثل قطاع الخدمات حوالي ٨٠٪ من الدخل القومي ، في حين أن الزراعة والرعي وتربية الحيوانات وصيد الأسماك مع الصناعة تمثل ١٠ ٪ من الدخل القومي) .

على يمين الطريق يظهر مصنع الحليب والألبان الوحيد في جيبوتي واضحا وقد أنشيء بمساعدة الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية سنة ١٩٨٢ ثم يتوالى نهب الطريق فتظهر أحياء الصفيح واضحة على يمين الطريق ، إن مدى البصر لايدرك نهاية لها ، وربما يحتاج للصعود إلى مكان عال حتى يحدد أفق نهايتها

الطبيعة الجرداء بدأت تتضح تدريجيا ونحن نغادر « مدينة الصفيح » ، وعلى يمين الطريق ظهرت بعض المباني المدهونة بلون أصفر ، فجاء التعليق أنها بعض البيوت التي بنيت بتمويل من الكويت والإمارات العربية المتحدة؛ وبعد ذلك مساحة من طبيعة جرداء تبرز خلالها التلال والصخور والنباتات القزمة القليلة .

مازالت الطريق جيدة وممهدة تسير فيها السيارات على خطي الذهاب والإياب .

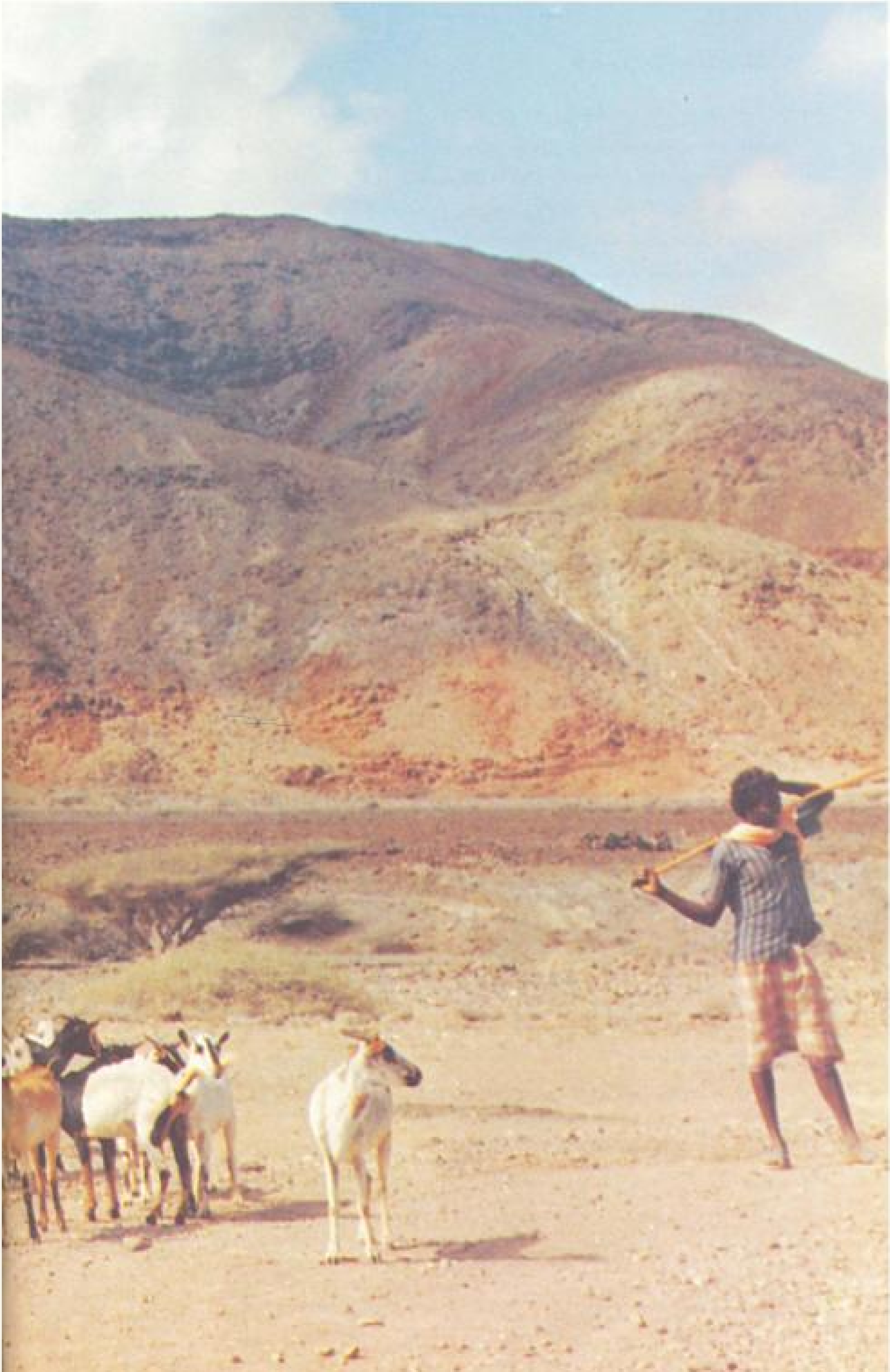

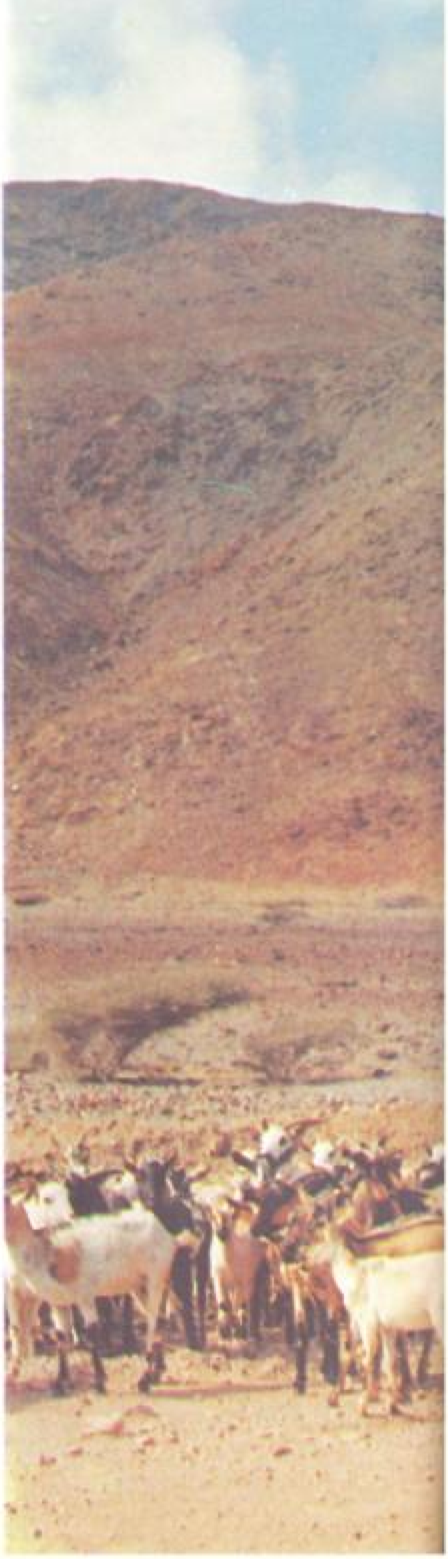

● يمثل الرعي مهنة الكثير من سكان جيبوتي .
لاحظ نحافة القطيع وعدم سمنته ومساحة الأراضي الزراعية محدودة في جمهورية جيبوتي ، وهذه إحدى مزارع شجر النخيل ، مع ناعورة بالقرب من العاصمة ، الى أعلى ، حفارات تبحث عن مياه ساخنة ، والنتائج إيجابية حتى الآن ، الى أسفل ،

يوالي رفيقا رحلتنا عبده محمد المهندس المسؤول عن مشروع المياه الجوفية الذي قام بسياقة « الجيب » ، والمهندس جلال محمد الدين محمد (باكستاني الأصل جيبوتي الجنسية) تزويدنا بالمعلومات ، والإجابة عن أسئلتنا النابعة من مشاهداتنا .

وتأخذ الطريق بالارتفاع تدريجيا ، ثم تمر من قلب قرية « ويعي » التي تبعد عن العاصمة ٣٥ كيلومترا ، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٤٠٠ متر ، ثم يظهر على يسار الطريق أحد المعسكرات ، جنود بيض السحنة على بابه ، ربما كان معسكرا فرنسيا ، ثم إشارة إلى بلدة (عرتا) على يمين الطريق ، وترتفع ٧١٠ أمتار عن سطح البحر .

وتتوالى المشاهد تباعا ، قطيع من الجمال مع رعاته ، وقطيع آخر من الماعز مع راعيه ، ثم صهاريج تخرج من طريق فرعي على اليمين ، قال المهندس عبده الجيبوتي الأصل : لقد حفرنا بئرا تفجرت المياه العذبة في هذه المنطقة ، وتتجه الصهاريج لتزويد العاملين في مشروعات المياه الجوفية بهذا الماء .

طريق الوحدة

أصبح الطريق أكثر ليونة وتمهيدا واتساعا حتى صوت إطارات السيارة اختلف ، وأصبح أكثر رقة ونعومة ، فعلق المهندس عبده : إنه طريق الوحدة .

* سألت : ماهي دلالة الوحدة هنا ؟

ـ بما أن الطريق تربط شمال البلاد بجنوبها لذلك فإنه أطلق عليها اسم الوحدة ، وهي عندما تصل أوبوك فإنها ستبلغ حوالي ٢٠٠ كيلومتر ، والعمل جار فيها الآن ، وقد تجاوز ما أنجز منها على ١٠٠ كيلومتر ، وتمر بالقرب من بحيرة عسل التي تجاورها المناطق التي تم اكتشاف المياه الجوفية الحارة فيها ، وقد مولت إنجاز الطريق المملكة العربية السعودية ، وتنفذها شركة يوغسلافية .

خفف السائق المهندس سرعته ، فقد برزت بعض الآلات والعمال الذين مازالوا يعملون في الطريق التي أخذت تحف بها التلال من الجانبين .

وزرقة البحر أخذت تظهر من بعيد على يمين الطريق ، أوقف المهندس السائق السيارة وعلق : تعالوا ، انظروا ، إنه منظر خلاب .

تقافزنا بين الصخور المسننة ووقفنا ننظر إلى عناق البحر باليابسة ، قال المهندس جلال : إنه خليج تاجورا ، لاحظ التلة المتقدمة في البحر عند رأس الخليج ، إن اسمها هو قبة الخراب ، وقد حدث بركان سنة ١٩٧٨ أطلق عليه اسم اردوكوبا ، واستمر نشطا مدة ثلاثة أيام .

أعلن المهندسان المرافقان بأن المهندس أنيس عبدالله الجيبوتي اليمني الأصل ، مدير المعهد العالي للبحوث العلمية والتقنية ينتظرنا قرب آبار المياه الحارة ، فدخلنا في طريق متعرجة بين التلال ، ثم واجهتنا آلات الحفر وبعض المواسير الكبيرة .

آبار وبحيرة اسمها عسل !

قال المهندس أنيس : لقد اكتشف الفرنسيون مياها حارة في بئر عسل رقم (١) سنة ١٩٧٥ ، لكنهم لم يحفروا عميقا ـ ١٠ أمتار فقط ـ وبقيت البئر دون استغلال ، وقد حفرنا بالقرب من هذه البئر بئرا أخرى بعمق يصل حوالي ١٥٠ مترا ، وتوصلنا إلى نتيجة إيجابية مرضية تماما ، ثم حفرنا بئر عسل (٢)

على بعد حوالي كيلومترين من البئر الاول فتوصلنا إلى وجود حرارة قوية دون ماء ، وتصل درجة الحرارة في هذا البئر إلى حوالي ٣٠٠ درجة سنتيجريد ، ويمكن تحويل هذه الحرارة إلى طاقة بكل سهولة .

* وغير ذلك ؟

ـ مازال الحفر مستمرا في آبار أخرى ، ومن المنتظر حصولنا على نتائج الحفر في البئر رقم ٥ خلال أسابيع قليلة ، ويقوم خبير من الأمم المتحدة هذا اليوم (١٩٨٨/١/٢٩) ليتابع نتائج الحفر ، إن تكلفة مشروع حفر الآبار تبلغ ٣٥ مليون دولار ، أسهمت عدة جهات بتمويلها منها الأمم المتحدة والصندوق العربي للمساعدات الاقتصادية ومنظمة الأوبك وغيرها .

● وهل من المنتظر أن تغطي الطاقة المكتشفة من الآبار احتياجات جيبوتي ؟

ـ ستغطيها وتزيد كثيرا مما يوفر دخلا مناسبا للبلاد .

غادرنا موقع الآبار ، وتوجهنا بسيارة « الجيب » نحو التلال الحجرية السوداء المدببة من خلال طريق مليئة بالحفر والصخور ، فعلق المهندس عبده : إن الطريق الموصلة لبحيرة عسل لم تمهد بعد، ثم بدأنا نصعد إلى تلة تشرف على البحيرة ، وقد أخذت الشمس تلسعنا بسياطها الحارة ، بينما السيارة ترتقي تلة عالية ، وفجأة ظهرت لنا البحيرة من الجهة اليسرى ، كما ظهر خليج تاجورا وقمة الخراب على الجهة اليمنى ، وارتقينا صخرة عالية ، وكان المنظر جميلا ، لاسيما أن نسمة رقيقة كانت تهب على الرغم من حرارة سياط الشمس .

وقد ذكر المهندس عبده أن بحيرة عسل تبعد حوالي ١١٠ كيلومترات عن مدينة جيبوتي ، وحوالي ١٥ كيلومترا عن قمة الخراب ، ومساحتها حوالي ٦٥ كيلومترا مربعاً ، وتنخفض ١٥٠ مترا عن سطح البحر ، وأن التبخر في البحيرة عال وخاصة أن الحرارة تتجاوز ٤٥ درجة ستيجرايد في فصل الصيف ، وينتج عن هذا التبخر تلال من الملح ، سيتم استغلالها تجاريا فيما بعد ، كما أن البحيرة تحتوي على مواد أخرى مثل المغنزيوم والبوتاسيوم ، وأنها تحتوي على صخور البيرليت وهي مادة عازلة تستعمل للتصفية والتنقية « فلتر » .

● هل يوجد دلالة لاسم عسل هنا ؟

ـ حسب معلوماتي لايوجد دلالة معينة للاسم .

● إذا كان بخار البحيرة عاليا فمن أين تعوض المياه التي تفقدها ؟

ـ إنها تعوض المفقود من المياه بمياه الأمطار وبالمياه التي تتسرب إليها عن طريق البحر .

● هل ترجح أن البحيرة كانت جزءا من البحر ، وخاصة أنها لاتبعد عنه كثيرا ؟

ـ ربما كانت كذلك في قديم الزمان .

حيرة اللسان والمكان !

قبل أن تغادر المنطقة سألت المهندس أنيس عبدالله :

● هل تحل طاقة المياه الحارة مشكلة جيبوتي الأخرى ، أعني مشكلة حيرة اللسان والمكان ؟

ـ التزم المهندس الصمت ، ونظر في عيني بحيرة كأنه لم يفهم السؤال.يقول صلاح الدين حافظ في كتاب « صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي » الذي صدر سنة ١٩٨٢ :

ان هناك ثلاثة احتمالات لمستقبل جيبوتي :

ـ « الاحتمال الأول : أن يتمكن الصومال من ضمها إلى أراضيه في وقت تساعده الملابسات الدولية على تحقيق هذا الضم الذي يستند إلى أسس تاريخية .

ـ الاحتمال الثاني : أن تتمكن اثيوبيا من غزوها والاستيلاء عليها وخاصة أن بعض زعماء العفر اعتبروا نتيجة الاستقلال في صالح العيسى أي في صالح الصومال .

ـ الاحتمال الثالث : أن تتفق القوتان العظميان ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ـ وكل منهما له مصالحه واستراتيجياته في القرن الأفريقي ـ على بقاء هذه الدولة في ظل وضع خاص ، وبالتالي تكبحان جماح أطراف الصراع المحلية المطالبة بجيبوتي » .

ان الوضع الخاص مازال مستمراً ، والمساعدة الفرنسية من خلال الوجود العسكري البحري والبري وغيره مازالت موجودة .

ويحلم البعض في جيبوتي بل ويخططون إلى تحويل جيبوتي إلى سنغافورة أو هونغ كونغ جديدة ، ويغذي هذا الاحتمال أن الدولتين الجارتين الصومال واثيوبيا سلمتا بالأمر الواقع ـ أي باستقلال جيبوتي ـ ربما إلى حين ؟ بل ووقعتا معاهدة للسلام بينهما في شهر ابريل من هذا العام ١٩٨٨ ، وفي مدينة جيبوتي بالذات □

شيكوريا

الكتان

النباتات الطبية والعطرية

في الوطن العربي

بقلم : الدكتور شكري ابراهيم سعد*

كان من نتيجة الزيادة الرهيبة في عدد سكان العالم ، وارتقاء الوعي الطبي والعلاجي بين الشعوب أن ازداد الطلب على العقاقير في العقود الأربعة الأخيرة التي تلت الحرب العالمية الثانية . فكيف تلبى الاحتياجات المتزايدة ؟ وما هي المصادر الأساسية ؟

* استاذ النباتات بكلية العلوم ، جامعة الاسكندرية

فنكا

بابونج

عرقسوس

هناك مصدران أساسيان للعقاقير ، أحدهما المركبات الكيميائية المشيدة التي انتشرت وتنوعت نتيجة للتطور العظيم في فروع الكيمياء ، والآخر المواد الفاعلة المستخلصة من النباتات الطبية البرية والبستانية . وهي تاريخيا أسبق من المصدر الأول . وتحمل في طياتها وصفاتها ما يجعل لها مميزات قد لا تتوافر في المصدر الأول .

لا بديل عن الأعشاب

اعتقد الكثيرون أن هذه الأدوية المصنعة سوف تحل محل النباتات الطبية المستعملة في الطب والطب الشعبي . وكان من المتوقع أن يتراجع المرض أمام هذه الثورة الكاسحة في علم العقاقير . لكن الذي حدث هو العكس تماما . فقد عرف الانسان الحديث أمراضا لم تكن معروفة أو منتشرة من قبل . بل دخل عصر الأمراض المزمنة . ويرجع ذلك إلى التقدم الرهيب في علم الكيمياء العضوية التي أدخلت مواد كيميائية في جميع مناحي الحياة ، ولوثت بيئة الانسان . وبالتالي أثرت على صحته وقوته . ومناعته في مقاومة الأمراض . كذلك فإن الأدوية المصنعة ما زال الكثير منها يفتقر إلى معلومات أوفى . وما زال البحث العلمي يحمل لنا الكثير من الآثار الجانبية الضارة لبعض الأدوية المصنعة . إما بسبب زيادة المعرفة عنها وإما لأنها مواد كيميائية مركزة . تم تحضيرها في المعمل تحت ظروف تفاعلات كيميائية قاسية . بينما أبت حكمة الخالق عز وجل إلا أن يجعل هذه المواد الفاعلة في النباتات بتركيزات مخففة سهلة . يمكن للجسم البشري التفاعل معها برفق في صورتها الطبيعية .

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » (٢٠ ـ لقمان)

وقد ثبت أن استخدامها قد يسبب آثارا جانبية ضارة ، كما أوصت المؤتمرات الدولية بالعودة إلى الطبيعة ، أي إلى النباتات الطبية ، والاهتمام بها بصفتها مصدر أمن لصناعة الأدوية .

ولقد قال أبو قراط منذ ٤٥٠٠ عام : « ليكن غذاؤك دواءك ، وعالجوا كل مريض بنبات أرضه ، فهي أجلب لشفائه » .

وفي أمريكا والدول الأوروبية بدأت توصيات هذه المؤتمرات تدخل مرحلة التنفيذ الفعلي ، وكانت الخطوة الأولى قيام فريق من العلماء بالبحث عن نباتات جديدة ، قد تكون مصدرا للدواء ، وكان من نتيجة ذلك اكتشاف نباتات جديدة ، لها فوائد طبية ، وأخرى إقتصادية لم تكن معروفة من قبل . كما تبحث هذه المجموعة من العلماء عن النباتات المذكورة في المراجع المكتوبة والمصورة ، وكذلك المحفوظة في المعشبات . فهناك ما لا يقل عن ١٨٠٠ معشبة منتشرة في الأمريكتين وأوروبا، تحتوي على ما يقرب من ١٧٥ مليون نبات ، تمثل ٢٥٠٠٠ نوع ، وعلى كل نموذج من هذه النباتات المجففة بيانات عن هذه النباتات من حيث اسمها العلمي وفصيلتها وجامعها وتاريخ جمعها ومكان انتشارها ، كل ذلك بجانب معلومات عن قيمتها الطبية والاقتصادية إن وجدت .

النباتات وأمراض السرطان

ومن ناحية أخرى هناك فريق من العلماء الأمريكيين يقومون بالبحث عن نباتات تحتوي على عناصر فاعلة ، لها القدرة على القضاء على الخلايا السرطانية وقد اتخذوا مركز أبحاثهم منطقة شرق أفريقيا ، واستطاعوا الكشف عن ما يزيد على ١٢٠٠ نوع من النباتات التي تنمو في هذه المنطقة ، ولها القدرة على القضاء على الخلايا السرطانية في حيوانات التجارب . وما نبات الفنكا **Vincas** وما استخلص من أنواعه المختلفة من عقاقير ، مثل **Vincristine** الذي يعالج سرطان الدم عند الأطفال ببعيد .

ولدى الأقطار العربية ـ لاتساع رقعتها واعتدال جوها ـ ثروة طبيعية وأخرى اقتصادية هائلة من الأعشاب الطبية والعطرية ، استخدمها قدماء المصريين والعرب من قديم الزمان ، ويشهد على ذلك ما دونه المصريون في برديـاتهم ، والعرب في مذكراتهم وموسوعاتهم عن النباتات الطبية ، وكذلك ما تحويه أسواق العطارين من الأعشاب والثمار والبذور التي يستخدمها العامة في علاج أمراضهم . وما يزال تجار العطارة يستخدمون موسوعة ابن سيناء وتذكرة داود وغيرهما من كتب علماء العرب لعلاج المرضى الذين ما يزالون يؤمنون بالعطار وذخيرته .

ولا يتسع المجال هنا لذكر فضل المصريين القدماء والعرب على الطب والعقاقير والتداوي بها ، والمصريون أول من استخدم زيت الحلبة لإزالة تجاعيد الوجه ، وزيت الخروع لعلاج الامساك ، ودهانا للشعر ، وأول من استخدم الخشخاش لعلاج التهاب الأمعاء ، وتسكين الآلام ، والنعناع والمر لعلاج القروح والالتهابات الجلدية والاضطرابات المعوية ، وقشر الرمان لطرد الديدان ، والحنظل لعلاج الاسهال وطرد الديدان .

كما أن العرب أول من أسس مذاخر الأدوية (صيدليات) في بغداد ، وهم أول من استخدم الكحول لإذابة المواد غير القابلة للذوبان في الماء ، وأول من استخدم السامكة والكافور وجوز القيء والقرنفل وحبة البركة في التداوي .

الأعشاب والأدوية الحديثة

لقد أثبتت الدراسات الحديثة العلاقة الوثيقة بين الوصفات الشعبية والأدوية الحديثة ، ومن أمثلة ذلك :

(١) الصبر **Aloesp** ويستعمل في الطب الشعبي مع زيت الزيتون لتقوية الشعر وعلاج سقوطه ، وحديثا توجد مستحضرات صيدلية مستخلصة من الصبر لنفس الأغراض .

(٢) ثمار الخلة البري **Ammi majus** تستعمل في الطب الشعبي لعلاج الأمراض الجلدية والبهاق . وفي الطب الحديث يستخدم الأمودين المستخلص منها

في نفس الأغراض .

(٣) ثمار الخلة البستاني **Ammi Visnaga** تستخدم في الطب الشعبي لادرار البول ، وتخفيف آلام المغص الكلوي ، ولانزال الحصى من الجهاز البولي . وفي الطب الحديث تستخدم مادة الخلين المستخلصة منها في نفس الأغراض السابقة ، وفي علاج الذبحة الصدرية .

(٤) السنامكي **Cassia acutifolia** تستخدم الثمار منه في الطب الشعبي مليّناً ، وفي الطب الحديث يستخدم النبات والجلد كوسيدات المفصولة منه لنفس الغرض .

(٥) العرقسوس **Glycirrhiza glabra** تستخدم ثماره في الطب الشعبي مليّناً وعلاجا لأمراض المعدة والجهاز التنفسي ، وفي الطب الحديث يستخدمون مادة الجليسرهيزين **Glycirrhizin** المستخلصة من النبات لنفس الأغراض .

(٦) الترمس **Lupinus termis** تستخدم بذوره في الطب الشعبي لعلاج التهاب الجلد وحب الشباب ومرض السكر ، وفي الطب الحديث تستخدم الحبوب لنفس الأغراض ، ولتخفيض نسبة السكر في الدم .

(٧) حبة البركة **Nigella Sativa** تستخدم في الطب الشعبي لعلاج الكحة والسعال وأمراض الصدر . واليوم يستخدم الطب الحديث مادة النيجلين **Nigelline** المستخلصة من البذور لنفس الأغراض .

وبجانب ذلك هناك وصفات شعبية كثيرة ثبت على مر العصور صلاحيتها وكفاءتها في علاج كثير من الأمراض الشائعة ، وما يزال يصفها العشابون وتجار العطارة لمرضاهم . هذه النباتات تحتاج إلى بحوث لمعرفة مكوناتها ، وفصل تلك العناصر ، وتجربتها . ومن أمثلة هذه الوصفات :

(١) الراوند والكركديه لعلاج ارتفاع ضغط الدم .

(٢) ورق الخبيزي وزهر البابونج لعلاج آلام الأسنان .

(٣) بذور الكرفس لادرار البول والتهاب الكلى .

(٤) الخروب لعلاج الاسهال .

(٥) الشيح لتنظيم ضربات القلب وتنشيط الدورة الدموية .

(٦) الدمسيسة لعلاج حصوة الكلى وتنشيط الكبد .

(٧) زيت النعناع والزهر لعلاج الدوخة .

(٨) الحيهان لتوسيع الشرايين وعلاج الربو .

وفي بعض الأقطار العربية نشطت الهيئات المتخصصة ، وبدأ الاهتمام بالنباتات الطبية والصحراوية المنتشرة في أراضيها بعمل خريطة نباتية للكساء الخضري ، وحصر مجموعة النباتات فيها وتصنيفها وكذلك إجراء البحوث الكيميائية عليها لتحديد المركبات ذات الفائدة الطبية فيها ، ومن ثم التوصية باستخدامها في صناعة الأدوية المحلية وكان من نتيجة ذلك تخليق مركبات طبية ذات فاعلية كبيرة منها :

١ ـ حامض الجليسرهزيك وفاعليته في سرعة شفاء القروح المعدية . وهو مستخلص من نبات العرقسوس ، وقد ثبت تأثيره على سرطان الدم ، وخاصيته المضادة للالتهابات ، ويقارب تأثيره تأثير الكورتيزون والهيدروكورتيزون .

٢ ـ الأمودين من الخلة البري . والخلين من الخلة البستاني .

٣ ـ السينارين من الخرشوف .

٤ ـ الألوين من الصبار .

٥ ـ الهيوسمين من السكران .

٦ ـ الداتورين من الداتورة .

٧ ـ الأتروبين من الأتروبا .

من أجل هذا قررت المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية تبني هذا الموضوع المهم . وذلك بحصر النباتات الطبية والعطرية التي تنمو برية أو بستانية في الوطن العربي ، ومحاولة الاستفادة منها ، وذلك بجمع المعلومات اللازمة ، ودراستها ، وعمل تقرير عنها

شوكران

الكاسيا

أجاف

اليوكالبتوس

حنظل

لعرضه على المجلس الأعلى للمنظمة لأخذ القرارات اللازمة ووضعها موضع التنفيذ .

من أجل ذلك أرسلت المنظمة الى جميع الاقطار العربية استبيانات للاجابة عليها ، ويشمل الاستبيان عددا من الأسئلة : منها أسماء النباتات الطبية والعطرية التي تنمو برية أو بستانية ، وأماكن وجودها في القطر العربي ، والمعامل والمعاهد المتخصصة التي تبحث عن النباتات الطبية ، وهل هناك جواهر فاعلة فصلت منها ، وهل يتم تصنيعها في القطر العربي أم تصدر إلى الخارج .

وقد تلقت المنظمة الاجابات عن هذه الأسئلة من بعض الأقطار العربية ، فكونت فريقا من العلماء ، تشرفت برئاسته ، لدراسة ما جاء في هذه الاجابات ، ووضع تقرير عنها لتقديمه إلى المجلس الأعلى للمنظمة . وقد اجتمع الفريق في الخرطوم حيث مقر المنظمة ، واستعرض أعضاء الفريق ما جاء في إجابات الأقطار التي استجابت لنداء المنظمة . ولكي يكون تقرير الفريق شاملا لجميع الأقطار العربية قدمت كتابي الذي أعددته في هذه الموضوع « النباتات الطبية والعطرية والسامة في الوطن العربي » وبعد قراءة ما جاء فيه من معلومات قرر الفريق طبع الكتاب على نفقة المنظمة ، مع إضافة ما جاء في تقرير الأقطار العربية ، وناشد الأعضاء توزيع هذا الكتاب على جميع الأقطار العربية ، لكي تسترشد به في تنمية هذه الثروة القومية ، والاستعانة بما يحوي من معلومات ، تساعدها على وضع سياسة دوائية واضحة المعالم ، نحو استزراع النباتات الطبية والعطرية في أراضيها واستخلاص منافعها وتسويقها وعمل حصر شامل للأبحاث التي أجريت على النباتات الطبية المحلية ، لتلقي الضوء على نتائجها ، ولتستكمل الأبحاث عليها للتعرف على فاعليتها ، وإمكانية الاستفادة منها في صناعة الدواء ، وبذلك تحقق سياسة الاكتفاء الذاتي في هذا المجال ، مما يوفر الدواء العربي بأسعار زهيدة للشعب العربي ، بعيدا عن الاحتكارات العالمية ، كما توفر أموالا كثيرة من العملات الأجنبية تلزمنا في الميادين الأخرى . □

رجلة

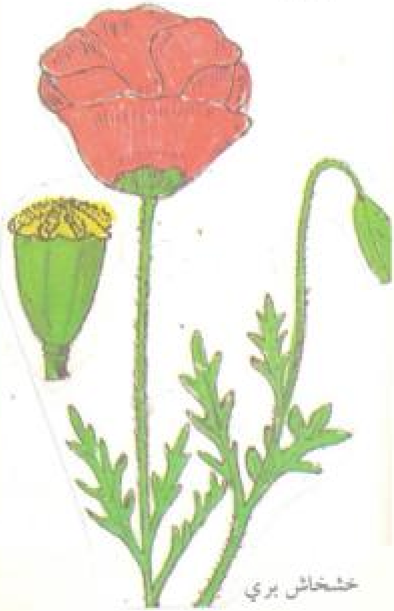
خشخاش بري

لقد قيل بأن الكفاح المسلح هو أعلى مراتب النضال

وقد جسد هذه المقولة قولا وعملا

المناضل الشعبي غومة المحمودي

أحد مشايخ الصحراء في ليبيا

في الخمسينيات من القرن المنصرم .

غومة المحمودي

مناضل من ليبيا

بقلم : الدكتور زهدي سمور

غومة المحمودي هو ابن الشيخ خليفة بن عون بن نوير ، زعيم قبيلة المحاميد الليبية ، ولد عام ١٧٩٥م ، وتعلم من أمر دينه ودنياه ماجعله فارسا شجاعا سديد الرأي ، وبعد وفاة والده نادى أعيان قبيلته بمحمد بن القاسم المحمودي ابن أخ الشيخ خليفة زعيما للقبيلة التي تقطن الجبل الأخضر في طرابلس الغرب لكبر سنه ، فأيد غومة ابن عمه ، ومد له يد العون والمساعدة ، فأثبت بهذا لأبناء عشيرته أن مابه من رجاحة العقل يعدل مافيه من الاندفاع والطموح ، وتلك هي روح الفروسية الحقة .

وكانت المشيخة قد آلت اليه وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، وذلك عقب وفاة محمد بن القاسم سنة ١٨٣١م . ولما أحس آلام شعبه في طول البلاد وعرضها ، أصبح زعيما تلتف حوله الجماهير ، وتبادر الى حمل السلاح ، كلما أطلق نفير الحرب الشريفة ، فتمت له السيطرة على الجبل ومنطقة الزاوية ، في حين كان زميله الشيخ عبدالجليل يحكم المنطقة الواقعة بين زلة وفزان ، وعلى باشا القرمانلي يبسط نفوذه على طرابلس الغرب ، وكان هؤلاء الزعماء مستقلين في مقاطعاتهم الخاصة .

وكان حب غومة لشعبه يدفعه إلى أن يحارب ، لكن حبه لشعبه كان يدفعه أيضا إلى أن يهادن ، فأول ماقام به عند توليه حكم قبيلته أن وطد علاقاته مع علي

باشا القرمانللي حاكم طرابلس الغرب حينذاك .

لكن الرياح تجري بما لاتشتهي السفن . فقد قامت السلطات التركية عام ١٨٣٥م بتنحية علي باشا القرمانللي عن طرابلس الغرب ، منهية بذلك حكم أسرة القرمانللي الذي دام أكثر من قرن وربع من الزمان . وحتى يضمن الاتراك لأنفسهم السيطرة على الساحل والمراكز الداخلية كان لابد لهم من القضاء على نزعة الطموح إلى الاستقلال ، والمقاومة العنيفة التي أبداها زعماء الدواخل ، من أمثال عبدالجليل ، وغومة المحمودي . ولم يكتب للسلطات التركية النجاح إلا بعد أن أمضت فترة تزيد على عشرين عاما - ١٨٣٥ - ١٨٥٨م - في مقارعة زعماء المناطق .

اعتقال غومة المحمودي

خلال هذه الفترة حاول الشيخ غومة أن يجنب شعبه سفك الدماء ، وأن يرفع عن كاهلهم الضرائب الباهظة ، وأن يعيش هو وشعبه بكرامة وسلام . فاتجه مع أعيان قبيلته للوالي التركي مصطفى نجيب الذي يقبض على الحكم في طرابلس ، لتقديم فروض الولاء والطاعة له ، غير أن هذا الوالي زج بالشيخ غومة في سجن القلعة المظلم ، بدعوى أنه شك في ولائه ، بخاصة أنه تربطه بعائلة القرمانللي صداقة وطيدة ، تجعله مهيئا للثورة ، لارجاع الحكم إليها متى ما تسنح الفرصة .

لكن أمر اعتقال الشيخ غومة لم يطل ، فقد قام الوالي التركي الجديد الذي خلف مصطفى نجيب باطلاق سراحه ، في محاولة لاصلاح أخطاء سلفه ، وأرسله إلى قبيلته معززا مكرما ، غير أن هذا الوالي الذي أطلق سراح غومة بالأمس ، أصبحت يده ملطخة بدماء أبناء شعبه الذي بات يرزح تحت وطأة الحديد والنار ، ويئن بين أيدي جباة الضرائب الذين يمتصون دم التاجر والمالك والراعي والفلاح ، دون وازع من دين أو ضمير ، مما دفع الشيخ غومة بأن يحمل سلاحه ، ويثور في وجه هذا الوالي ، وكل من

▲ غومة المحمودي ، أحد المجاهدين الذين ثاروا على الظلم ، والقتال دفاعا عن الأرض وشرف الوطن ضد المحتلين ، وقد كان نضاله حافزا ومثالا للمجاهدين في الأرض العربية في ليبيا .

يعقبه من الولاة الاتراك .

جرت معارك بين الشيخ غومة والولاة الاتراك ، وكان النصر دوما حليفه ، واستمر يطالب الولاة بأن يسهم العرب في إدارة شئون بلادهم ، وأن يخففوا من الضرائب التي أثقلت كاهل المواطنين وإلغاء الأسلوب المتبع في جبي الضرائب .

وجرب بعض الولاة إرضاء الشيخ غومة ، فاستجابوا لمطالبه ، ومنحوه الأمان ، وأسندوا إليه السلطة في بعض جوانب البلاد ، فأسهم في حكم البلاد بجانب الوالي المعين من السلطان ، لكنه لم يكن يرى في المنصب أبهة أو ترفا ، فالمنصب عنده مجرد وظيفة ، يخدم فيها المواطنين ، ويهيء لهم فيها أسباب الكرامة ، وكم أسرع إلى تركها كلما رأى أن وجوده لايحقق لأبناء أمته وبلده آمالهم ، وحمل السلاح وحكّمه بينه وبين الحاكم

نفي المناضل ورفاقه

وفي عام ١٨٤٢م ألقي القبض على الشيخ غومة ورفاقه العرب ، الذين كانوا يعملون معه في دارة الوالي التركي بطرابلس ، وأرسلوا الى استنبول ، ومنها إلى ولاية طربزين التركية على شاطىء البحر الأسود . وقد ساء قبيلة المحاميد نفي شيخهم ، بعد ذلك الأمان الذي منحه إياه الوالي ، فجاهروا بالعصيان ، وعمت الثورات البلاد ، مطالبة بإطلاق الشيخ غومة ورفاقه . وفي نفس الوقت وجه الشيخ غومة رسالة للسلطان عبدالمجيد سنة ١٨٥٢م ، تحدث فيها عن المظالم التي يرتكبها الولاة تجاه الشعب الليبي المسلم ، وعن المظالم التي تحيق بالناس ، من تقدير الضرائب ، وطريقة تحصيلها ، وأضاف بأن الأمور لن تستقيم إلا بتعيين وال عربي من أهل البلاد ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما طلب أن يكون الوالي حسن باشا القرمانلي ، ورسالته هذه إن دلت على شيء فإنما تدل على ماكان يتصف به من شجاعة وجرأة ، فهولا يطالب بإطلاق القرمانلي بل ماهو أبعد ، انه يحس بهموم مواطنيه ويعبر عن مطامحهم ويخطط لمستقبلهم .

الهروب من المنفى

ولما لم يجد الجواب على رسالته أخذ يفكر بالهرب من منفاه ، والعودة للبلاد ، ونجح في ذلك عام ١٨٥٥م ، حيث غادر تركيا إلى أوروبا ، ثم عبر البحر المتوسط نحو الجزائر ، ليستقر به المقام في تونس ، ومن تونس كتب إلى والي طرابلس التركي ، يطلب السماح له بالعودة إلى أرض الآباء ، لكن الوالي أهمله ، مما اضطره إلى دخول طرابلس مناديا لتحرير الجبل من الحكم التركي ، فالتفت حوله القبائل وآزرته بالمال والسلاح والأنفس ، فنظم أعوانه ، وقادهم إلى مركز الجبل الغربي ، وحاصر الحاكم في مقره ، وانتصر على قواته .

ومع هذا جمع مشايخ الجبل بعد المعركة مباشرة ، وأطلعهم على رغبته ، في أن يعيد للوالي ماغنمه من أسلحة ، مع رسالة يوضح له فيها أن مطالبه هي السلم ، ولاشيء غير السلم ، لكن الوالي رفض طلبه ، لأنه يرى فيه شقيا قاطع طريق ، ولذا جر عليه الحملة ، حتى أنهكه وأضعفه ، واضطره في النهاية إلى مغادرة وطنه إلى تونس وقلبه ينضح دما .

ويبدو أن أموره في تونس لم تكن على مايرام ، خصوصا بعد أن طلب باي تونس منه أن يترك جبهة الحدود ، ويرحل إلى قرب القيروان ، أو إلى مكان قريب من العاصمة (تونس) .

ولم يستجب غومة لذلك ، لأنه توقع مؤامرة تستهدف القضاء عليه ، غير أنه أجبر على ترك تونس بالقوة ، فعاد إلى وطنه مرة أخرى ، فتعقبته قوات والي طرابلس التركية التي تمكنت من قتله سنة ١٨٥٨م ، وإرسال رأسه إلى طرابلس الغرب ، وسار في الأمثال الشعبية الليبية منذ ذلك اليوم قولهم في من حقق شيئا صعب المنال (جاب رأس غومة) .

وتلك كانت خاتمة (الغربة) التي عاشها فارس الصحراء ، غومة المحمودي في وطنه الذي كان يحكمه ولاة غريبو الوجه واليد واللسان . □

عزم وعفا :

لما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي ـ وكان مصمما على قتله ـ شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن قتلته فلك نظراء ، وإن عفوت عنه فما لك نظير ، فعفا عنه » .

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- نزعة السرقة عند الأطفال
- المرأة والقوة المستمدة من الرجل

الطفل في جانب من تكوينه النفسي أناني .

ينظر الى الدنيا من خلال نفسه .

ويظن أنه محور الكون .

ولهذا فهو يلجأ الى أخذ مايروق له حتى لولم يكن ذلك الشيء خاصاً به .

والسرقة بهذا المعنى لها نفس أعراض القلق النفسي فهي اضطراب في السلوك

يصيب الأطفال نتيجة الاحساس بعدم الاستقرار وافتقاد الأمان . »

نزعة السرقة عند الأطفال

إعداد : طارق عبد الظاهر محمد ※

أسباب السرقة كثيرة وحالاتها متعددة عند الأطفال نذكر منها :

أن الطفل قد يلجأ الى السرقة بغرض لفت الأنظار اليه حتى ولو كان جزاؤه العقاب، فهذه طفلة وحيدة مرض أبوها مرضا خطيرا استدعى بقاء أمها بجوار فراشه طوال الوقت للعناية به . وقد كان الجو القاتم الذي يخيم على المنزل نظرا لشدة مرض الأب وانصراف الام لتمريضه سببا في حرمان الطفلة من متعة الحياة المرحة التي ينعم بها الأطفال .. حاولت الطفلة أن تجتذب التفات امها اليها بكل الوسائل ، كالدرجات الممتازة التي حصلت عليها مثلا . فلم تأبه أمها لذلك ، بل انها لم تأبه حتى بالصفر الذي نالته في إحدى المواد ، فاذا قالت الطفلة شيئا قوبل ما تقوله بالتأفف والضجر . والمسكينة تفضل ان تعاقب او توبخ ، ففي هذا اعتراف - على الأقل - بوجودها. وذات يوم تجرأت على سرقة بعض القروش من امها لتبتاع بها بعض الحلوى . لقد أرادت اشغال نفسها ، وتجاوز حالة الضجر التي داخلت احاسيسها . ولاشك أن حنان الام في السنوات الاولى من عمر الطفل أمر على قدر كبير من الأهمية لتربية طفل مستقر نفسيا وعاطفيا،ان العلاقة الحميمة بين الام وطفلها هي الأساس . وإن العلاقات الاسرية الاخرى مثل علاقة الطفل بأبيه أو اشقائه هي في مجموعها تشكل المحصلة لحياة نفسية مستقرة

※ كاتب من القطر المصري

في المستقبل .

وقد أثبت الدراسات أن السرقة تكثر بين الأطفال في العائلات التي تكثر فيها المشاكل بين الزوجين ، حيث ان هذه المشاكل تستنفد الوقت والجهد من الزوجين ، بحيث يكون اهتمامها بالأطفال قليلا ، وتكون الرعاية والتعليم محدودين . كما أن الطفل الذي ينشأ في جو من الخلافات الأسرية قد يشعر أنه سبب هذه المشاكل كما قد يكون كبش فداء للاسرة المضطربة .

إنه يعتقد أنه انسان سيء . لهذا فهو بسبب هذه المشاكل ، وهنا يقل عنده الوازع الذي يمنعه من ارتكاب مثل هذه الأفعال .

وقد يلجأ الطفل الى السرقة في الأسر التي تعودت فيها الأم على الاحتفاظ بكل شيء مغلق وبعيد عن متناول الطفل ، وهذه السرقات تعبر عن رغبة الطفل في الاستطلاع والمعرفة والوصول الى ما تحتويه هذه الخزانات المغلقة ، فاذا حدث وان سهت الام عن أحدها فانه يسرع الى العبث في محتوياتها لاشباع فضوله . فاذا عوقب على هذه الأفعال ، فقد يستمر في سرقة بعض الأشياء للانتقام من الام وقسوتها .

ومن الأطفال من يسرق للخروج من نطاق حياته الآلية المملة ، فهذا طفل مثالي ، إنه الأول في فرقته دائما ، اجتهد أبواه في دفعه الى الامام دفعا ، فكل يوم من ايامه له برنامجه الخاص ، بحيث لم يعد الصبي حرا في التصرف في ساعة واحدة من ساعاتها ! .

ومع ان والديه ليسا في بسطة من الرزق الا انها يتكبدان شططاً لمنحه اكبر قسط من التعليم والتهذيب ! فماذا حدث نتيجة لهذا الضغط المستمر على الطبيعة الانسانية ؟ لقد احس الطفل بقدر نفسه . فلماذا لايمنح نفسه من الحقوق مالايستطيع غيره الحصول عليه ؟ فمثلا ليس من حرج عليه في أن يسرق بعض الفاكهة من حديقة الجيران ثم تدرج نحو اتيان عمل أكبر هو السرقة من حافظة نقود امه .

وقد يلجأ الطفل الى السرقة كوسيلة لاثبات الذات ولتحقيق كيانه وسط زملائه ، وحب المراهق للظهور بمظهر جيد بين أصدقائه يكون دافعا للسرقة ايضا كما أن اعتقاده بأن السرقة تتيح له القيام بدور البطل المغامر يدفعه نحو السرقة لاشباع هذا الميل .

ماذا نفيد من ذلك ؟

للعالم الكبير ، باسكال ، قول مأثور هو ، أن للقلب معاذير لايعترف بها العقل ، فقلب الولد ينطوي على معاذير وأسباب دفينة في تلافيف نفسه يصعب علينا تخمينها واماطة اللثام عنها .

فأول ما يجب على الآباء عندما يكتشفون أن ولدهم ، يسرق ، هو أن يبذلوا جهدهم في محاولة فهم الأمور على حقيقتها ، واضعين جانبا المبادىء التي تواضع الناس عليها في تقدير السرقة والسارقين ، لان هذه المبادىء تنطبق على الكبار الراشدين وما ينطبق على هؤلاء لاينطبق على الصغار .

وكل حالة يجب أن تدرس على حدة ، وبمعزل عن غيرها .. فهناك أولاد يسرقون لأنهم ضحية ظروف سيئة قد تكون في عائلاتهم نفسها ، كما أن السرقة

عند فريق اخر قد تكون ناتجة عن علة مرضية .. ولو أن هذا نادر قليل .

الشعور بالاثم عند الاطفال

ومن المهم أن نبين هنا أن الولد إذا سرق فإنما يفعل ما يفعل وهو واع ومقدر لفعلته تمام التقدير عالم بأن مايأتيه أمر محظور .. ولكنه يكون دائما متشوقا للحصول على شيء حرم منه ، بل كثيراً ما يحس بجرمه ويدلل على هذا الاحساس بالصياح او البكاء . ذلك أن الشعور بالاثم عند الاطفال أكبر وأعظم مما نتصور !

كذلك فان طبيعة المسروق لها أهميتها أيضاً فاختلاس بعض الحلوى من أحد ادراج غرفة الطعام قد لايكون أكثر من عمل ينم عن الشراهة في حب الحلوى . ولكن علينا أن نعنى جيدا بالبحث عما إذا كانت السرقة قد تكررت ، لأن هذا التكرار مدلولات اخرى ، فالطفل الذي يضبط في أول مرة تتغير نظرته الى عمله اذا ما عاد الى السرقة ، أي تكرر « عودته » الى ارتكابها ! وكثيرا ما يرمز الشيء المسروق الى احساس معين مغلق تضطرم به نفس الطفل .

ماذا نحن صانعون ؟

اذا حانت مرحلة التفكير في العلاج ، كان علينا أن لا نجسم الأمور ، وان نفكر في تؤدة وأناة ، فليس من الميسور أن تنفذ الى أعماق نفس الصغير ، وتميط اللثام عن سرها الدفين ، لأنه هو نفسه أول من يعجز عن التعرف على الأسباب الحقيقية لأعماله ، ويجب علينا بصفة خاصة أن لانسأله عن تلك الأسباب . فاذا امكننا تقصيها او معرفتها او استنتاجها فلنحرص على ألا نحدثه في أمرها لأننا إن فعلنا ذلك فقد نمس الأوتار الحساسة ، الى أبعد حد في نفسه . وفي هذا خطر كبير . ولعل وجود هذه الحساسية المفرطة في نفس الصغير هو الذي يجعل تدخل المربين في هذه الناحية غير منتج ، بل كثيرا ما يأتي بنتائج عكسية ، ذلك أن الطفل الذي يسرق هو طفل تواق طموح ، فهو يتشوق الى الحصول على شيء يحبه ويتمناه ، فاذا تدخل المشرفون على تربيته تدخلا مشوبا بالسطحية والرعونة فانه يندفع لا الى الكذب مرة فحسب ، بل الى اعتياد الكذب . وقد يعمد الى اختلاق الأسباب والمعاذير التي لايمكن لعقل أن يتصورها أو يقتنع بها كان ينكر مثلا ويلح في انكاره لحقيقة مقطوع بها كوجود الشمس في رابعة النهار ، أما رد الفعل الذي كثيرا ما يصدر عن الآباء في تلك الأحوال فيتلخص فيما يأتي :

أولا : في ذلك الذعر الذي يصيبهم عندما يرون تلك الأعمال .. ثم تجسيمهم للأمور ، وتصورهم بأن ما وقع هو كارثة كبرى ـ هذا الذعر وهذا التهويل ليس إلا تصرفاً بالغ الضرر .

ثانيا : كثرة العقوبات ، فان مبدأ العقاب ليس سيئا في ذاته ، فالطفل يتقبل فكرة أنه يستحق عقوبة تتناسب مع الخطأ الذي ارتكبه ، ولكن لايجب أن نشتط في عقابه الى حد ظلمه ، والا فاننا نوقظ فيه تلك النوازع الداخلية التي حفزته الى السرقة .

ثالثا : قد تلجأ بعض الأمهات أو المدرسات الى العقوبات التي تذل كرامة الطفل كأن تجبر الطفل على الاعتراف بجرمه أمام مجلس الاسرة أو أمام تلاميذ الفصل او المدرسة .

وقد تلجأ الام أو المدرسة الى معايرة الطفل بالسرقة أو عقابه أمام زملائه ، ولو فعلت ذلك لعاد الى السرقة ثانية ، ذلك أن الطفل يصدق كل مايقال له . وهو يصب نفسه في « قالب » السمعة التي تشيعها عنه .. فليس أخطر من أن « نبلور » أخطاءه ونجسمها فنحولها بذلك من بخار ، الى مادة صلبة كأنها منحوتة من اديم الصخر .

والطفل عندما يرى الجميع ينظرون اليه كسارق ، يعتقد أن هذا الدور هو ما ينتظر أن يمارسه .

إن هذه الاساليب من شأنها أن تشحذ في الطفل رغبة الحصول على الشيء الذي يتحرق شوقا

للحصول عليه ، وتزيد في قلقه واضطرابه ، وتثير في نفسه المقاومة ثم العودة الى ارتكاب السرقة ثانية .

رابعا : قد يغفر الآباء للابناء أخطاءهم . بل أكثر من ذلك قد يمتدح الآباء الطريقة التي سرق بها الأبناء ماسرقوه ، بوصفهم « بالمهارة » مثلا وحينئذ تكون النتيجة أن يعتقد الابن أن كل شيء قد اصبح مباحا له .. وقد يتمادى الى حد الرغبة في استفزاز غضب والديه ليرى الى أي حد يستطيع استفزازهما ليجذب اليه الانظار ، وما ذلك الا نتيجة لاحساسه بأنه لاينال من ابويه شيئا من الرعاية .

وليس معنى ذلك أن نترك للابن الحبل على غاربه ، فان هذا يتساوى من حيث الخطورة مع بطشنا به .

نصائح عملية

أولا : علينا أن نشغل وقت الطفل ، بأن نترك له بعض الحرية في تنمية الاهتمام ببعض الهوايات ، كتكوين مجموعة من طوابع البريد او اللحاق باحدى فرق الكشافة أو توجيه اهتمام خاص بالالعاب الرياضية او المطالعة وقراءة القصص . وعلى العموم اذا تركناه يكثر من شواغله ونشاطاته في شتى النواحي ، واذا غذينا من جانبنا هذا النشاط وقويناه وتعهدناه بالتشجيع والتوجيه ، فان الصغير قد لايفكر في السرقة ، وان هو فعل فسيكون ما يفعله تافها ضئيلا ، ليس بذي بال .

ثانيا : علينا ان نتجنب الاندفاع الأهوج الى اشعاره بسوء ظننا فيه وتخوفنا منه وعدم ثقتنا في تصرفاته ، كأن نقفل جميع الادراج مثلا بالمفتاح .. وفي الوقت نفسه لا نسرف في الثقة به كأن نترك مبالغ كبيرة من النقود ملقاة هنا وهناك في متناول يده فان هذا اغراء له بالسرقة . فإذا وقعت السرقة فيجب أن لا تخفى عليه علمنا بها ولكن لا على أنها « سرقة » بل على أنها « خطأ » وقع لا اكثر ، فلا نحقد عليه او نذكره بما صنع بعد ذلك بل علينا أن نجعله يشعر بأنه مازال محتفظا بثقتنا به .

ثالثا : عليك أن تواجه الموقف على حقيقته ، وذلك بأن تتحدث اليه بصراحة فكلما كنت صريحا معه ازداد فهما لما تقول ، وكلما أحس براحة استراح واطمأن اليك .

وعليك افهامه حقوقه وواجباته . وأن هناك أشياء من حقه الحصول عليها وأشياء ليست من حقه ، ولا يجب أن تمتد يده اليها بالاضافة الى ارشاده الى الطريق الذي يجب أن يسلكه في المستقبل .

وينصح علماء الطب النفسي أن تروى له القصص المشوقة عن السرقة واللصوص وما يلقونه من عقاب ، وسوء معاملة ونهاية سيئة ، بينما يكون جزاء الامانة الشعور بالسعادة وتلقي المكافأة ورضا المجتمع وتقديره له .

انك تستطيع أن تتخذ معه بعض الاجراءات الشديدة حين يخطىء ، ولكن لاتفقد حنانك عليه ، وكل إجراء تتخذه معه يجب أن يكون مباشراً ، وأن تكون له مبرراته في عيني الولد نفسه ، وبعدئذ يجب قفل الموضوع نهائيا .

كما ينصح علماء النفس الاسرة بأن تحيط اطفالها بجو من الرعاية والحنان والاستقرار . ومكافأة الطفل على تصرفاته الأمينة مع نفسه ومع الآخرين .

كما يجب على المدرسين في المدارس الابتدائية الاهتمام بتوضيح مدى الاحترام والتقدير والمكافأة للاطفال الذين يصدر عنهم سلوك يدل على الامانة والصدق .

كذلك يجب على وسائل الاعلام التركيز على قصص الأمانة ، وتقدير هؤلاء الاشخاص والاهتمام بهم ، ولا يكون كل تركيزها على السرقة والنصب ، كذلك يجب الا تضع اللص في الافلام والتمثيليات في صورة محببة يتعاطف معها الأطفال ، ويحاولون تقليدها .

ومن المفيد تعليمهم القيم والمبادىء والمثل الاخلاقية .

ولنذكر على الدوام : أن التربية عمل يومي متواصل وليست أمرا هينا يسيراً . □

المرأة والقوة المستمدة من الرجل !

بقلم : الدكتورة علياء شكري

« القوة لها أشكال ووظائف ،

وفي نفس الوقت تنطلق من مصادر مختلفة ،

وواحد من مصادر قوة المرأة هو الرجل وعلاقتها به .

وبتلك القوة تحاول المرأة السيطرة أو تغيير السلوك ، وهذا ما نعرض له » .

تستطيع المرأة أن تستمد القوة من الرجل في كل مجتمع إنساني ، حتى تلك المجتمعات التي تكون مكانتها فيها منخفضة ، أو عندما يتعذر عليها ترجمة نشاطها الانتاجي وإنجازاتها إلى قوة .

وهذا النوع من القوة يكون محدودا عادة ، بحيث أنه قد يقتصر على قدرة المرأة على التحكم في حياة نساء أصغر منها سنا والتحكم في سلوكهن ، وقد يمكنها أحيانا التحكم إلى حد ما في حياة شبان من أسرتها والتحكم في سلوكهم ، إلا أنها لا تستطيع مع ذلك - على الرغم من تمتعها بهذا القسط من القوة المستمد من الرجل - أن تقرر شيئا عن حياتها ، أو تتخذ قرارات ، أو تبدي اختيارات دون موافقة رجال الأسرة ومساندتهم .

وتأخذ المرأة بعض قوتها من قوة الرجل ، من

خلال عوامل ومظاهر كثيرة ، أهمها قوة الإنجاب (خاصة انجاب الذكور) ، وقوة الزواج المبنية على الحب غير المتكافىء (الذي يفوق حب الزوج فيه حب الزوجة له) ، والقوة المبنية على المكانة الاجتماعية للوالد أو ثروته ، والقوة المبنية على المكانة الاجتماعية للزوج أو ثروته ، وأخيرا القوة المبنية على مكانة السيدات المسنات أو اللائي في خريف العمر ، وهي مكانة لا علاقة لها بالجنس .

تلك هي أهم عناصر معادلة قوة المرأة المستمدة من الرجل التي صاغتها كونستانتينا سافيليوس روتشيلد في دراستها عن قوة المرأة واستقلالها والتغير السكاني في العالم الثالث ، وهي دراسة نشرت عام ١٩٨٥ . وسنحاول فيما يلي أن نلقي مزيدا من الضوء على عناصر هذه المعادلة .

نحن جميعا نعرف أنه في المجتمعات التي تقوم على تدرج اجتماعي صارم على أساس النوع (ذكر / أنثى) ، وعلى أساس النظام الأبوي وخط الانتساب للأب ، نعرف أن المرأة تستمد قوتها من قدرتها على الانجاب ، خاصة إنجاب الذكور . فالإنجاب في الواقع هو أساس قوة المرأة في جميع الطبقات الاجتماعية ، وفي ظل جميع أنواع العلاقات الزوجية ، وتلك قوة تستطيع المرأة أن تتحكم بها ، لذلك لايوجد ما يحث المرأة على تحديد عدد ما تنجبه من أطفال ، حتى يصل عدد أبنائها الذكور إلى اثنين أو ثلاثة على الأقل ، تدعم بهم مركزها في الأسرة .

وهناك متغير آخر يخضع لتحكم المرأة بشكل جزئي ، لكنه فعال ، أعني به قوة الزواج المبنية على الحب غير المتكافىء ، حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن المرأة في الدول النامية التي لا تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة من خلال ارتباطها بأقربائها ، تستمد من الحب مكانة اجتماعية عندما تتزوج رجلا يحبها أكثر مما تحبه هي .

والواقع أن النساء يفضلن مثل هذا الزواج ، إذ يميل الزوج في هذه الحالة إلى التخلي عن وضعه المسيطر ، ويقبل أن يمنح القوة لزوجته ، وبذا تطمئن المرأة في ظل هذا الزواج إلى اهتمام الزوج بمشاعرها ، ويصبح باستطاعتها استخدام وسائل التأثير النفسي بنجاح ، مثل حرمان الزوج من الحب أو العطف ، أو حتى استخدام سلاح البكاء .. الخ .

علاقة قلقة

واضح من تحليل هذا المظهر من مظاهر قوة المرأة المستمدة من حب الزوج أن الموقف كله يعتمد بالأساس على حب الرجل للمرأة ، وهذه العاطفة وإن بدت خاضعة لتحكم المرأة إلى حد بعيد ، إلا أنها تجعل المرأة في حالة قلق دائم وعدم استقرار ، لأن ميزان العلاقة بينها وبين زوجها يصبح قلقا كل القلق ، ولا يمكنها الاعتماد عليه اعتمادا كاملا أو السيطرة عليه سيطرة مطلقة .

وعلى الرغم من كل ذلك فهذا المظهر من مظاهر قوة المرأة أحسن من غيره من المظاهر ، بالنظر إلى نقطة تحكم المرأة وسيطرتها عليه . فإذا تأملنا بقية الأسس الأخرى للقوة وجدناها تعتمد على الطبقة الاجتماعية للزوج أو الوالد أو كليهما ، أو على سن الزوجة ، لذلك لا يمكن التحكم في هذه الأسس أو تغييرها .

لكن الواضح على أي حال ـ إذا أسقطنا بعد تحكم المرأة في العلاقة ـ أن المرأة تستطيع أن تتخلص من قيود مكانتها الدنيا التي وضعت فيها إذا كانت مكانتها الاجتماعية (الموروثة عن والدها أو عن أي قريب ذكر آخر) عالية ، بحيث تعادل مكانتها المتواضعة التي يفرضها عليها نظام التدرج على أساس النوع القائم في المجتمع .

وفي مثل هذه الحالة تستطيع المرأة أن تحصل على القوة في مواجهة الرجل إذا كانت تتحكم في ميراث خاص معقول ، أو إذا كانت مكانة الوالد أو الاخوة واتصالاتهم تساعد الزوج في حياته العملية . وهكذا

ترجم النساء الموارد المستمدة من الأقارب الذكور إلى قوة في مواجهة الأزواج . ويجب أن نتنبه هنا إلى ملاحظة بعيدة الدلالة ، وهي أن درجة القوة تختلف حسب مدى انخفاض مكانة الأزواج عن مكانة الآباء أو الأقارب الذكور الآخرين للزوجة .

والملاحظ في العادة أيضا أن القوة المستمدة من صلات القرابة (بالآباء والإخوة والأعمام) تكون أكثر متانة من تلك المستمدة من روابط الزواج ، إذ أن روابط القرابة الاقتصادية والاجتماعية لا تنفصم ولا تزول .

ونجد كذلك في المجتمعات التي تعتمد فيها مكانة المرأة ـ أو ملكية الأرض ـ على إنجاب الأطفال ـ وبخاصة الذكور ـ يكون أساس هذه القوة ثابتا ، وفي الحالات التي تكون فيها مكانة الوالد الاجتماعية عالية وترتبط بسيطرة المرأة على الدخل (المتحصل من عائد الأرض أو من إيجارها . . . الخ) أو بمساهمتها مساهمة كبيرة في دخل الأسرة ، تستطيع المرأة أن تقرر طبيعة تقسيم العمل داخل الأسرة ، أو تعدل فيها تعديلات مهمة ، وذلك باستخدام مواردها الخاصة تلك في شراء بعض الخدمات أو دفع أجور أشخاص يقومون بتأديتها (خدم طول الوقت أو بعض الوقت) .

وفي حالات أخرى قد تتمكن المرأة بفضل المكانة العالية الموروثة من الإفلات من القيام ببعض المسئوليات المنزلية ، لأن باستطاعتها اسناد مثل هذه المهام إلى غيرها من أفراد الأسرة الإناث ، أي أنها قد لا تتخلص من تلك الأعمال المنزلية بالضرورة بتشغيل الخدم ، وإنما بتشغيل غيرها في أدائها ، وهذا أو ذاك تعبير جلي عن قوة المرأة ومكانتها داخل الأسرة .

المصالح المتبادلة

وعلاوة على ذلك تستطيع المرأة أن تستمد قوة من مكانة زوجها الاجتماعية ، تمكنها من السيطرة على سلوك أفراد الأسرة الآخرين ، خاصة إذا كانت مكانة الزوج الاجتماعية أعلى بكثير من أفراد الأسرة الآخرين من الذكور ، وفي هذه الحالة يكون أساس القوة أكثر ثباتا وأقل قيودا إذا كانت الروابط بين الزوج والزوجة مبنية على المصلحة (من حيث الموارد والخدمات المتبادلة) أو العاطفة أو الصحبة أكثر من قيامها على الحب أو الجاذبية الجنسية .

وتقودنا هذه الاعتبارات إلى الحديث عن نقطة قد تبدو في الظاهر بعيدة عن موضوعنا ، لكنها في الحقيقة انعكاس مباشر لبعد القوة ، أعني بها السلوك الإنجابي للمرأة كتعبير عن مدى قوتها وضعفها ، فهناك شواهد وفيرة من مجتمعات العالم الثالث على أن المرأة التي تتمتع بمكانة اجتماعية عالية (نتيجة حيازتها للقوة) تستخدم وسائل منع الحمل ، وذلك لأن لديها أسسا ومصادر كافية بديلة للقوة .

ففي المجتمعات الأبوية التي يبرز فيها التدرج الهرمي على أساس النوع مثلا لا يكون الانجاب أساسا مهما لقوة المرأة إذا استطاعت أن تستمد قوة كافية ومكانة عالية من ارتباطها بالرجل ، ففي استطاعة مثل هذه المرأة أن تترجم نشاطها الإنجابي إلى نفوذ اقتصادي ، فالمكانة الاجتماعية العالية في هذه الحالة تعادل التأثير السلبي للمكانة الجنسية المنخفضة ، فنساء الطبقة العليا والطبقة الوسطى غير نساء الطبقة الدنيا ، لا يضطررن إلى الاعتماد على الإنجاب ، وهو السند الجنسي الوحيد للمرأة ، للتقليل من قلة حيلتهن واغترابهن عن المجتمع .

بقيت نقطة أخيرة عن قوة المرأة ، ونعني بها قوة تلك الفئة من النساء المسنات أو اللاتي بلغن الأربعين أو نحوها أو تجاوزنها ، وهي مكانة ليست لها علاقة بالجنس ، أي كونهن إناثا بطبيعة الحال ، فقد أشرنا إلى أنه في المجتمعات التي يسيطر عليها الرجال سيطرة واضحة ، وحيث يسيطر عليها بالتالي نظام تدرج هرمي على أساس النوع تكون نسبة الرجال أعلى من نسبة النساء ، وذلك لأن متوسط أمد الحياة

المتوقع للمرأة يكون منخفضا عادة بسبب ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال وعند الولادة بسبب الظروف الصحية غير الملائمة ، وبسبب اهتمام عمليات التنشئة الاجتماعية برعاية الأطفال الذكور أكثر من الأطفال الإناث .

وتستطيع النساء في بعض المجتمعات أن يكتسبن مكانة وقوة عن طريق نشاطهن الانتاجي ، أما في المجتمعات الأبوية التقليدية فلا يمكن ترجمة مثل هذا النشاط إلى قوة إلا إذا سمح الرجل بذلك ، حتى ولو كانت مساهمة المرأة الإنتاجية في الأسرة (أو وحدة المعيشة) تساوي مساهمة الزوج أو تفوقها .

وحتى في هذه الحالات نجد أن الرجل هو الذي يتحكم في الأجور ، ويقرر متى تنخرط المرأة في العمل أو تتوقف عنه ، ويبسط الرجل قوته وسيطرته على المرأة عن طريق فرض النواهي والقيود عليها والتحكم في حياتها وفي ثمار علاقته معها .

لا قوة بلا استقلال اقتصادي

والخلاصة هي أن المرأة في تلك المجتمعات لا تستطيع أن تترجم عملها وما تكسبه منه إلى قوة ، والعجيب أننا كثيرا ما نجد في الواقع الحي أن المرأة العاملة تحصل على قدر من القوة والاستقلال أقل مما تتمتع به المرأة التي لا تعمل . وهي حالة نجدها على الأخص في الأسر التي يكون الرجال فيها ذوي دخول بسيطة ، ويعملون في مهن تافهة ، كما أوضحت ذلك بعض الدراسات التي أجريت على أسر يونانية من الطبقات العاملة وأصحاب الدخول المنخفضة ، وكذلك البيانات المستقاة من أسر من الطبقات العاملة وأصحاب الدخول المنخفضة من الأمريكيين السود ، وكذلك بين أسر بعض الشعوب الأفريقية التقليدية .

لكن عندما يكون للرجال قاعدة اقتصادية ثابتة تزداد ثقتهم في وضعهم المسيطر ،ولا يشعرون بأي تهديد من دخول زوجاتهم المرتفعة من العمل ، وفي هذه الحالات تصبح مساهمة النساء الاقتصادية موردا مهما قويا يضمن لهن قوة أكبر في عملية اتخاذ القرارات ، ويضمن لهن مساواة كبرى في تقسيم العمل من حيث مشاركة الرجل فيه والاستعانة بالخدم ، وحرية كبرى في ممارسة ضوابط على سلوكها الإنجابي .

أما في الدول النامية فكثيرا ما يحدث أن يجد الرجل صعوبة في تكوين قاعدة مالية قوية مناسبة ، لذا يضطر إلى التكيف مع الوضع الذي يجد نفسه فيه ، وذلك بطرق عديدة ، ففي المجتمعات الأبوية في جنوب شرق آسيا وجنوب أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط يفرض الرجال سيطرتهم على النساء . وأهم مظاهر هذه السيطرة تحكم الرجل في السلوك الإنجابي للمرأة ، ويكون نتيجة ذلك أن تظل الأسرة في تلك المجتمعات محافظة على استقرارها .

والمهم أن ننتبه هنا إلى أنه لما كانت فكرة سيطرة الرجل في هذه المجتمعات التي يبرز فيها التدرج الطبقي على أساس النوع (ذكر / أنثى) فكرة سائدة ، ويؤمن بها النساء والرجال على حد سواء ، فإن النساء لا يحاولن الاستقلال اقتصاديا عن الرجال ، وإنما هن يشاركن في الأنشطة الانتاجية نتيجة تخلف الطرف الآخر عن أداء واجبه ، فهن لم ينشأن اجتماعيا على فكرة الاستقلال أو الاستمتاع به ، أو على فكرة السيادة وحيازة القوة المبنية على نشاطهن الانتاجي .

كما نضيف أن افتقارهن إلى التعليم والمهارات ، وفرض التفرقة عليهن واستغلالهن يجعل من الصعب على نساء الطبقات العاملة والدنيا ـ بصفة خاصة ـ أن يترجمن وضعهن المكتسب في بناء الأسرة إلى قوة واستقلال ، بل إنهن يستمررن في البحث عن علاقة أكثر استمرارا ودواما مع رجل يحميهن ويسيطر عليهن . □

هو.. ..هي

قطيعـــة

سنة كاملة لم أر شقيقتي على الرغم من أننا نحيا في مدينة واحدة ، وبين بيتينا عشر دقائق سيراً على الأقدام ، لكن عناد الرجال يورث كفرا ، ويقطع رحما ، ويهدم علاقات .

أكبر شقيقتي بثلاث سنوات ، ولذا كنت دوما الأخت الكبرى واقعا ومعنى ، وكنت الصديقة في نفس الوقت . تزوجنا ، وسارت بنا الحياة ، وكنا نلتقي أسبوعيا كل مساء خميس ونهار جمعة ، وخلال الأسبوع زيارة خاطفة مني وزيارة منها ، ولم تكن ندري بأن الرجال يتراكم في نفوسهم الكثير . وفي الوقت الذي كانت فيه علاقتي بشقيقتي تزداد وتتوثق ، ومحبة الأبناء وتآلفهم في نمو كانت علاقات الرجال تخفت ، وكنت أسمع من زوجي ملاحظات لا تنتهي عن زوج شقيقتي : أخطأ في كذا ، وتصرف كيت ، وهذا الموقف ليس طيبا ، وتجاهل الذوق في هذا وذاك . وللعجب عندما كنت أحكي لشقيقتي ، كنت أسمع منها أيضا قدرا من الملاحظات عن زوجي ، فزوجها هي أيضا يعدد لها عقب كل لقاء ملاحظاته وانتقاداته ، وماذا تجاهل ، وماذا غمز . وهكذا تراكمت في النفوس صغائر ، إلى أن انفجر الموقف . تواعدنا على الزيارة ذات يوم ؛ وبسوء فهم مشترك ذهبنا نحن إليهم في نفس الوقت الذي أتوا فيه إلينا ، وانفجر الزوجان ، كأنهما كانا ينتظران سببا ، وأقسم كل منهما بألا يدخل بيت الآخر ، وألقى كل واحد منهما موعظة عن احترامه وعن كرامته ، وعن تجاهل الآخر له ، وكنا (شقيقتي وأنا) نتصور أن هذه الغضبة ستنتهي بعد أن يدرك الزوجان عنصر « الكوميديا » الكامن في الموقف ، لكن لأن الموقف لم يكن هو السبب ، ولأن النفوس كان بها الكثير لم يحدث الانفراج ، ولم تهدأ العاصفة ، بل أصر كل طرف على موقفه ، ورفض كل واحدمنهما أي محاولة للصلح . وبدأ زوجي يدعو أصدقاءه في أمسيات الخميس ، ويتفق على زيارات في نهار الجمعة ، كي لايترك لي فرصة لزيارة شقيقتي ، وكلما مرت الأسابيع تحول العناد إلى ضغينة . وحاولت كثيرا أن أستأذن زوجي في الذهاب ، لكنه صرخ في قائلا كرامتي من كرامة زوجتي ، ولا بد أن يبدأ زوج أختك بالاعتذار ثم نفكر بالأمر . وصارت قطيعة .

..هي

بلا حصانة

يظل ذلك أمرا محيرا : هل هناك حصانة لعلاقات إنسانية ؟ وهل هناك علاقات فوق كل المشاعر الانسانية ؟ في تقديري أن العلاقات الإنسانية لا تتمتع بحصانات نهائية ، فقد يكون هناك إبقاء على علاقات ما أو حرص على علاقات أخرى ، لكن أن نضفي من أنفسنا على علاقات ما هذه الحصانة فهذا يوقعنا في تهاونات وتنازلات في حقوقنا لا يقبل بها أحد .

وأعرف أن واحدة من أهم العلاقات الانسانية التي تعلو فوق هذه الاعتبارات علاقات الرحم والأبوة والبنوة والأخوة إلخ ، ويشهد الله أنني كثيرا ما طلبت من زوجتي أن تود شقيقتها ولا تقطع بينهما، وإنني عندما أقف موقفا ما فلأنني لست أخا ولا أبا ، ومن حقي أن أغضب لنفسي ولزوجتي ، وقلت كثيرا لزوجتي : مهما كانت مشاعرك ، ومهما كانت أحاسيسك نحو شقيقتك ، فالأمر يستدعي بين حين وآخر أن تقفي وتسجلي أنك تعترضين على شكل المعاملة .

إن علاقات الأخوة بها قدر من المساواة ، لا تسمح بأي نوع من أنواع ممارسة الفوقية ، وأخذت أعدد لها وأذكر لها ملاحظات شقيقتها عليها وتصرفاتها معها ، وانتقاداتها الدائمة لها ، وإحراجها المستمر لها أمام الأصدقاء ، وقلت لها لا تحسبيني أنني أفرح بهذا التقليل من شأنك ، إنه يؤلمني كما يؤلمك ، بل يؤلمني أكثر لأنني مسئول عنك ، ولكن زوجتي هداها الله تلوذ بطيبتها وتقول إن شقيقتها لا يمكن أن تقصد إساءة ، وأن كل ما تقوله وتفعله ما هو إلا سلوك فطري غير مقصود ، فهي في البداية والنهاية شقيقتها ، وحاولت كثيرا .

وعندما فاض الكيل ، ولم يعد هناك متسع للصبر ، حدث الخلاف بيني وبين زوجها ، وأعلم أنني ظهرت في صورة من يبحث عن سبب للخلاف ، لكن بيني وبين نفسي كنت أريد أن أسجل موقفا ، وأفتح بابا للعتاب ، وأن تعلن زوجتي بسلوك بسيط أنها غير راضية عن سلوك شقيقتها معها ، لكنني فوجئت أن الآخرين أيضا كانوا يترقبون فرصة كي يعلنوا القطيعة ، ويتمادوا في الخصام ، فلماذا يصبح قدرنا أن نسعى نحن ـ دوما ـ لمبادرات التصالح ؟ وثارت كرامتي وسقطت الحصانة وأعلنتها قطيعة ؟

هو ..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

من ملف الألبان :

« هلا قرأت هذه السطور قبل أن تتناول كوبا من الحليب »

حُمَّى مَالطا.. أو «البرُوسيلا»

إعداد : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

مجموعة من الجزر الصغيرة ذات الطبيعة الصخرية ، تقع وسط مياه البحر الأبيض المتوسط ، جنوب جزيرة صقلية ، سماها الرومان مليتا ، ومعناها جزر العسل ، ربما لانتشار أعشاش النحل بين شقوق الصخور ووفرة العسل الذي اشتهرت به هذه الجزر .

لقد تداول الناس هذا الاسم ممن استوطنوا هذه الجزر ، أو ممن حكموها بعد الرومان من عرب وفرنسيين وانجليز ، ومع كثرة تداولهم له حرفوه إلى لفظ مالطا .

غير أن طبيعة أرض الجزيرة الصخرية الجرداء قد حرمتها من وفرة النباتات وأزهارها ، مما دفع النحل إلى الهجرة والرحيل . فلم يبق عليها سوى قطعان الماعز القانعة بما قسم الله لها من الأعشاب . ومن هنا اشتهرت جزر مالطا (وأكبرها تسمى بجزيرة مالطا أيضا) بأغنامها ذات الحليب الوافر .

غير أن جزيرة مالطا قد تميزت أيضا إلى جانب أغنامها بحمى تصيب الناس بموجات الحمى بين حين وآخر ، وكانوا يسمونها حمى مالطا . وقد ظنوا أنها نوع من حمى التيفوئيد المصحوبة بآلام في المفاصل والعرق الغزير ، ولم يعرف أحد لها سرا ولا سببا .

غير أن طبيبا عسكريا انجليزيا يسمى دافيد بروس عنّ له أن يفحص طحال أربعة من ضحايا هذه الحمى الذين ماتوا بسببها عام ١٨٨٧ ، فوجد فيها شكلا من أشكال الميكروبات ، سماها مكورات مالطا .

كانت بريطانيا العظمى تحتل جزيرة مالطا في ذلك الحين ، وكانت تتخذ منها محطة رئيسية لأسطولها في البحر الابيض المتوسط ، لهذا كانت ترسل جنودها في إجازاتهم وجرحاها في حرب القرم إلى تلك الجزيرة ، لقضاء فترات من الراحة والاستجمام والنقاهة ، فكانت حمى مالطا تلاحقهم وتختلس منهم ما ذهبوا من أجله ، مما دفع بالحكومة البريطانية إلى إرسال بعثة طبية لتقصي الحقيقة ، وقد عثرت البعثة

الطبية على الميكروب الخبيث عام ١٩٠٤ في حليب الماعز ، كما وجدت في أجسامها أجساماً مضادة له ، وهي مما وجده بروس عام ١٨٨٧ في مرضاه ، وانتهت اللجنة الطبية إلى أن الماعز هي مصدر العدوى ، وأن حليبها الملوث هو وسيلة تلك العدوى ، إذ كان الناس يشربون حليب الماعز طازجا دون غلي لقناعتهم بفائدته .

في عام ١٨٩٧ ، أي عقب اكتشاف بروس لميكروباته المالطية عثر طبيب دانمركي يسمى بانج على ميكروبات تسبب الاجهاض للأبقار في الدنمارك ، لكن احدا لم يخطر على باله أن يقارن بين ميكروبات بروس وبانج ، حتى جاء عام ١٩١٨ حين اكتشف الاطباء أن هذه الميكروبات من عائلة واحدة ، وذات قرابة حميمة ، لهذا أطلقوا عليها اسم (البروسيللا) ، وفرقوا بينها باسم البروسيلا المالطية والبروسيلا المجهضة ، ثم اكتشف طبيب امريكي في اثلاثنا نوعا ثالثا يصيب الخنازير ، فسميت باسم بروسيلا الخنزير .

لقد اكتشف الأطباء أن الحمى المالطية ليست حكرا على جزيرة مالطا كما توهموا ، بل إن لها موقعا في كل بلد يقع حول سواحل البحر الابيض المتوسط ، لهذا فضل بعضهم أن يسمها بحمى البحر الابيض المتوسط ، أو الحمى المتموجة انطلاقا من صورتها المرضية ، حيث تهاجم الحمى ضحيتها في موجات بين حين وآخر ، لأنها تقع داخل خلايا الكبد ، وتنطلق منها حين تأتي لها الفرصة .

عدوى المرض :

البروسيلا مرض حيواني يصيب أساسا قطعان الماعز والأبقار والخنازير ويصيب أيضا الخيول والكلاب وغيرها من الحيوانات ، ويصل إلى الانسان مع الحليب غير المعقم ، أو من لمس الحيوانات أو إفرازاتها من بول أو دم أو مخاط ، وتعتبر البروسيلا مرضا مهنيا أيضا ، يشيع بين القصابين والأطباء البيطرين والمزارعين وعمال مزارع الحيوانات والرعاة ، لكن الانسان المصاب لا يعدي إنسانا آخر . ومدة حضانة هذا المرض قد تتراوح ما بين أسبوع وثلاثة أسابيع ، لكنها قد تطول شهورا قبل أن تظهر أعراضها .

الصورة المرضية :

للمرض صورتان أساسيتان هما :

١ ـ البروسيلا الحادة

٢ ـ البروسيلا المزمنة

يدخل الميكروب إلى جسم الانسان مع الحليب الملوث ، أو بملامسته لبقايا حيوان مصاب ، ثم يسري مع الدم ليعشش داخل خلايا الكبد والجهاز اللمفاوي ، ثم يعاني المصاب من حمى مفاجئة ، مع آلام في المفاصل ، وعرق غزير ، وإنهاك شديد ، وفقدان للشهية . وربما تظهر على المصاب « هلوسات » واختلاطات عقلية وآلام عامة .

وتستمر هذه الصورة أسبوعا أو اسبوعين ثم تزول تلقائيا .

وقد تعاود المريض هذه الصورة المرضية للحمى في موجات ، تستحق معها اسم الحمى المتموجة .

الوقاية والعلاج :

يتوفر لعلاج الحمى المالطية أو البروسيلا عقار « تتراسيكلين » ، و « استربتومايسين » ، لكن الوقاية من المرض أفضل وأسهل ، لأنها تتركز على تعقيم الحليب بأي صورة ، سواء كان بالغلي أو بالبسترة أو بالتعقيم بالحرارة العالية . غير أن الأطباء لا يفضلون البسترة أو الحرارة العالية الزائدة عن درجة الغليان ، لأن الغالبية من الناس تكتفي بفوران الحليب دون غليه توهما منهم أن الفوران هو الغليان ، دون أن يعلموا أن الفوران يتم في درجة

حرارة متدنية عن الغليان ، مما يتيح الفرصة لبعض الميكروبات أن تنجو من أثر الحرارة القاتلة لها عند الغليان .

ومن الواجب أن نؤكد على الحذر من تناول لحوم الحيوانات المريضة ، أو الاختلاط بها أو حتى مسها ، أو التعرض لافرازاتها ، وبخاصة من يعمل في مجال العناية بالحيوانات أو تربيتها أو علاجها ، كما يحدث في حالة إجهاض البقر مثلا .

التطعيم :

التطعيم ضد البروسيلا بالطعم ذي الميكروبات الحية المروضة أو الميكروبات الميتة يستعمل لاعطاء المناعة للماعز والأغنام والأبقار ، لكنه لا يصلح للانسان ، لشدة التفاعلات التي يحدثها . لكن الحيوان المريض يجب ذبحه دون أكله أو عزله ، ويجب أن يتم تطعيم الحيوان بصورة دورية سنوية .

ومن الجدير بالذكر أن نسبة الوفيات بمرض البروسيلا ضئيلة ، لا تتجاوز (٢٪) ، لكن مضاعفاته قد تكون خطيرة ، ومعجزة ، حيث قد تدمر العظام ، أو تصيب المخ بالتلف ، لهذا يصدق المثل القائل درهم وقاية خير من قنطار علاج ، والوقاية هنا عدم شرب الحليب الطازج دون تعقيم . □

بريد طبيب الأسرة

ردود سريعة

ـ أ . م . هـ ـ عمان ـ الأردن

ربما أفادتك استشارة طبيب متخصص في الأمراض النفسية .

م . م . ن ـ دمشق

مازلت صغيرة ، وأمامك متسع من الوقت حتى توقف زيادة الطول ، فلا داعي للقلق ، وإذا كان عندك شك فراجعي طبيبا متخصصا بالغدد الصم .

ـ ص . خ ـ دير الزور ـ سوريا

لقد كان استعمالك المازوت في غسل شعر رأسك خطأ كبيرا ، والأفضل لك هو مراجعة طبيب متخصص في الأمراض الجلدية في أقرب فرصة ممكنة ، واحذر أن تستمع إلى نصائح الجهلاء إطلاقا .

ـ مصطفى طارق ـ المغرب

لقد ظهر في الأسواق عقار لعلاج سقوط الشعر ، يدعى « مينو كسديل » ، والأفضل مراجعة طبيبك الاختصاصي في الأمراض الجلدية ليبين لك كيفية استعماله أو ينصحك بزراعة الشعر لدى اختصاصي أمراض التجميل .

ـ السيد/ ابراهيم عبدالكريم ـ حماة ـ سوريا

سنكتب عن مرض السكر تفصيلا بإذن الله في الأعداد القادمة من مجلة العربي .

ـ السيد/ س . ع . ص . ـ الاسكندرية

من الصعب تشخيص معاناتك دون فحص طبي شامل ، والأفضل لك هو استشارة طبيب اختصاصي في الأمراض الجلدية للكشف على حالتك .

ـ الأخت/ ح . ج ـ دمشق

من الأفضل استشارة طبيب اختصاصي في الغدد الصم ، لإجراء تقييم للتوازن الهرموني في الجسم ، وبخاصة الهرمونات الجنسية ، وعلاج أي خلل قد يكشف عنه التحليل في أقرب فرصة

مساحة ود ..

ولو كنت جميلاً

لماذا نكتب ؟ يبدو أن هذا السؤال سيظل يلح على كل من يمسك قلماً ويحترف الكتابة ! وتظل الإجابة تطارد خيالات الكتاب وضمائرهم

نحن نكتب - في تصوري - كي نزيد من فهم الناس للحياة والواقع ، ولكي نضفي معنى جميلاً على الحياة ، ولكي نسهم بكتاباتنا في توكيد معاني الصدق والعدل والحرية ، ولكي يزداد وعي الجميع بأهمية الحياة وقيمتها وغاياتها ودور الإنسان وإسهامه فيها .

ولا يخلو الأمر بين حين وآخر من إحباطات وأحزان وأسى ، لكن في السنوات الأخيرة زاد الإحباط والحزن ، حتى فاضت النفس ، واندفع التساؤل عن جدوى ما نكتب ، وهل يدفعنا الإحباط إلى أن نكف ونكسر أقلامنا ، ونبتلع كلماتنا وآراءنا ؟ في كل عام يصلني في البريد عدد من الدوريات والكتب السنوية لعديد من المنظمات الدولية والشعبية . وهذا العام وأنا أطالع فيها ازداد إحساسي بالإحباط والعبث . وتأكدت أن الأزمة ليست أزمة في وطننا العربي الكبير الذي يشهد تراجعات ومرارات يومية فاض بها القلب فقط ، لكنها أزمة تمتد لتشمل العالم كله ، فخمس سكان العالم يعيش بلا مأوى على الإطلاق ، وما زلنا نكتب !

وفي كل عام يموت نصف مليون امرأة خلال فترة الحمل من جراء الإهمال والفقر وسوء أحوال الحياة ، وما زلنا نكتب ! وفي كل عام يموت ٣٠٠ ألف طفل من السعال الديكي ، وما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين طفل يموتون بالتهابات أجهزة التنفس التي تبدأ بمجرد نزلة برد ، وملايين الأطفال يموتون أو يعاقون أو تتلف أدمغتهم بسبب سوء الرعاية وافتقاد الطعام .

كل هذا وما زلنا نكتب ! وكل يوم جديد يحمل إلينا خبراً عن قهر جديد ، واضطهاد جديد ، واعتقالات لسجناء رأي ، وإرهاب وفقد لشباب ينخرطون في غياهب التطرف وإلغاء العقل

صار كل صباح مليئاً بكل ما يوجع النفس ويؤلم الضمير ، وصار القلب حفرة مليئة بالندم والألم .

وينفجر السؤال : لماذا نستمر ؟ وما جدوى ما نفعل ؟ وإلى متى هذه الاحباطات التي لا تنتهي ؟!

لم يعد الأمر كما قال شاعرنا الرقيق ان المشكلة فينا ، وان الأمر قابل للحل فقط لو « كن جميلاً تر الوجود جميلاً » .

لقد صارت حياتنا أكثر تعقيداً ، ومراراتها أكثر وجعاً ، وضمائرنا أكثر إرهاقاً من كل ما نرى ونعرف ونسمع

وهنا يصبح التحدي : هل نستسلم لإحباطاتنا أم نواصل مؤمنين بأن قدرنا واختيارنا هو الانتباه لكل ما هو نبيل ، وأنه مهما كان قدر الألم فإن هناك معنى رائعاً وهو أننا ننتصر لقيمة وفكرة ، وأنه قد ننفق العمر ، كل العمر لكي نثقب الجدار ليمر النور للأجيال ، وليصبح - يوماً ما - حلمنا بعالم أكثر عدلاً ورحمة ممكناً ومتاحاً

محمود عبدالوهاب

جمال العربية

صفحـة لغـة

بقلم : الدكتور حسن عباس

أسـئلة وأجوبـة

وردنا سؤال من السيد عبد المعطي عبد الجواد من مدينة أسيوط/ ج . م . ع يقول فيه :

« تكاد كلما سمعنا عبارة ترد فيها كلمة « فقر » ترى أنها مشفوعة بكلمة « مدقع » ، ولم أسمع الكلمة الثانية إلا صفة للكلمة الأولى . فما معنى كلمة مدقع تحديدا ، وما سر التصاقها بالفقر » ؟

ـ فقر مدقع أي فقر شديد . و « مدقع » مشتقة من الدقع ، وتعني الالتصاق بالتراب . والدقعاء عامة التراب ، أو التراب الدقيق على وجه الأرض كما جاء في اللسان . والمُدْقع : الفقير الذي لصق بالتراب من شدة الفقر . وفي الحديث : لا تَحِلُّ المسألة إلا لذي فقرٍ مدقعٍ . أي شديد ملصق بالدقعاء .

ودقِع الرَّجل دقعا لصق بالدقعاء فقراً ، وقيل ذلاً . ودقِعَ دقعا وأدقع : افتقر .

ويلاحظ من كل ما تقدم أن الدقع أي الالتصاق بالتراب هو الدرجة الدنيا من درجات الارتفاع والحول والقدرة ، فإذا أخذ هذا المعنى المجازي للدلالة على الفقر قصد به شدته وضيقه وعسره الذي لا مزيد عليه . على أن التعبير عن هذه الحالة لا يقتصر على عبارة « الفقر المدقع » ، بل يجاوزها الى غيرها كالقول : افتقر فلان ، وأعوز ، فهو مفتقر ومعوز . وأعْدَمَ فهو معدم ، وأملق فهو مملق ، وعال فهو عائل أي فقير . ويقال ترب الرجل إذا لصق بالتراب من الفقر .

وفي رسالة من السيد حسن صلاح رضوان (الصالحية/ دمشق ـ سوريا) يقول فيها : يقال فيما يجري مجرى الأمثال عجنت فلانا وخبزته ، ونعني بذلك أننا نعرف من أمره الشيء الكثير . على أن هناك كلمة أخرى فصيحة هي « عجم » وتؤدي معنى مماثلا للأول . فما الصلة بين اللفظين ، وأيهما أسلم في الاستعمال ، وأكثر فصاحة ؟

ـ جاء في اللسان في معنى الفعل الأول : عجن الشيء يعجِنُه عجنا فهو معجون وعجين . واعتجنه : اعتمد عليه بجُمْعِه يغمزه . ولم يورد صاحب اللسان المعنى المجازي الذي ذكرته ، وهو المتداول بين الناس ، فهو معنى قد جاوز الدلالة على فعل العجن ـ أي الحركة اليدوية التي يتم بها عجن العجين ـ الى نتيجته .

فإن من يعجن لا تخفى عليه خافية من أمر عجينه لكثرة ما يعمل فيه من تقليب ، وما يبذل من جهد . والفعل فصيح ولا يقلل من فصاحته كثرة دورانه على ألسنة الناس .

أما الفعل عجم يعجم عجما وعجوما فله معان عديدة ، نود الوقوف عند بعضها ، وهو : عجم الشيء يعجمه : عضه ليعلم صلابته من خوره ، وقيل لأكه للأكل أو للخبرة . والعواجم : الأسنان . وعجمت عوده أي بلوت أمره وخبرت حاله . وتقول : ما عَجَمتْكَ عيني منذ كذا ، أي ما

أخذتك . وأعجمت الكتاب إعجاما كقولك سَبَرْتُه ، وامتحنته ، ورزته ، وبلوته .

يتضح من المعاني التي أوردناها للفعل « عجم » أن هناك صلة وثيقة بين بعض معاني هذا الفعل وبين المعنى المجازي الذي نقصد إليه عند قولنا « عجمت فلانا وخبزته » ، أي بلوت أمره . وهذا التماثل في المعنى يعززه تقارب في اللفظ ، فليس بين الفعلين عجن ، وعجم إلا اختلاف في حرفي النون والميم ، وهذا التصاقب بين اللفظ والمعنى هو مدار البحث في فصل عقده ابن جني بعنوان « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني . » في كتابه « الخصائص » .

أما عن أيها أسلم في الاستعمال وأكثر فصاحة ، فإن الفعل عجم هو الأسلم والأفصح ، لأن استعمال « عجن وخبز » بالمعنى المجازي الذي أشرنا إليه يكاد ينحصر في دائرة الأحاديث اليومية وقل أن تجده في لغة الكتابة والأدب .

وفي رسالة من السيد سلامة العتيلي/ شمال سيناء/ ج . م . ع يقول : « إنه في عدد ٢٨٩ من مجلة العربي الغراء جاء ذكر أن ابن حوقل هو مؤلف كتاب « المسالك والممالك » ، وفي مقالات ظهرت في أعداد أخرى من المجلة ذكر ابن خرداذبة بوصفه المؤلف الحقيقي للكتاب نفسه ، وقرأت في بعض المصادر الأخرى أن الاصطخري هو مؤلف هذا الكتاب . ارشدوني أيها الكرام الى صاحب هذا الكتاب » .

وبالرجوع الى المراجع التي تعنى بالمؤلفين وفي مقدمتها كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة ، وكتاب « إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون » لإسماعيل بن محمد بن مير سليم ، وغيرهما ، تبين لنا أن « المسالك والممالك » عنوان لأكثر من كتاب ، ولكل واحد من هذه الكتب مؤلف ، فهناك كتاب « المسالك والممالك » لأبي العباس أحمد بن محمد الطيب السرخسي ، وآخر بنفس العنوان لعلي بن عيسى ، وثالث لعلي بن حسين المسعودي ورابع لأبي القاسم محمد بن حوقل ، وخامس لأبي عبيد البكري ، وسادس لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة الخراساني وغيرهم ، ولم نعثر على كتاب بهذا العنوان للاصطخري .

هذه هي المرأة !

■ قال الفلاسفة والشعراء عن المرأة ما قالوا ، وأطلقوا العنان لتصوراتهم وتخيلاتهم في وصف طبيعتها كما بدت لهم فقالوا عنها :

« فيها من القمر استدارته ، ومن البحر عمقه ، ومن النجوم لمعانها ، ومن شعاع القمر حرارته ، ومن الندى قطراته ، ومن الريح تقلباتها وعدم ثباتها ، ومن النبات ارتجافه وارتعاشه ، ومن الورد لونه وعطره ، ومن الأزهار تحملها ، ومن الأوراق خفتها ، ومن الأغصان تمايلها ، ومن حفيف الأشجار حنينها وأنينها ، ومن النسيم لطفه ورقته ، ومن العسل طعمه وشهده ، ومن الذهب شعاعه ، ومن الماس قساوته ، ومن الحية حكمتها ، ومن الحرباء تلونها ، ومن الغزال شروده ، ومن المها عيونها ، ومن الأرنب خجله وحياؤه ، ومن الطاووس خيلاؤه وزهوه ، ومن الأسد شراسته وقوته ، ومن الزمن خيانته وغدره ، ومن الثعلب مكره وزوغانه ، ومن اليمامة نغمتها ، ومن العقرب لدغته ، ومن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها » .

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأنبياء

تباريح جريح

لجميل بثينة

اشتهر جميل بنسبته الى من أحب ، الى بثينة . أما اسمه على وجه التحقيق فهو جميل بن عبد الله بن مَعْمَر ، وهو وهي ـ أي بثينة ـ من بني عذرة ، من قبيلة قضاعة المنتسبين الى مَعَدّ من عرب الشمال . كانت أمه جُذامية من اليمن . وهو على أي حال غير جميل بن معمر الجمحي . وبنو عذرة الذين ينتسب إليهم هذان العاشقان اشتهروا بالعفة والطهر ، حتى غدا اسم قبيلتهم علما على نوع من الحب هو الذي يعرف بالحب العذري ، وهو حب يتصف بطهر القلب ونبل الغاية وصدق العاطفة .

لم تحدد السنة التي ولد فيها جميل . لكن بعض الروايات تذهب الى أن مولده كان في عام ٤٠ هـ ، في وادي القُرى شمال الحجاز ، بالقرب من المدينة ، وفيه تربى ونشأ . وقد أحب في مطلع شبابه أم الجُسير بنت حبأ ، ثم ما لبث أن أحب أختها بثينة . وكان أول ما علق بثينة أنه أقبل يوما بإبله حتى أوردها واديا يقال له « بغيض » ، فاضطجع ، وأرسل إبله مصعدة ، وأهل بثينة بذنب الوادي . فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين الماء ، فمرتا على فصال له بروك فنفرتهن بثينة ، وهي إذ ذاك جويرية صغيرة ، فسبها جميل فسبته ، فملُح إليه سبابها ، وأحبها وأقلع عن النسيب بأختها !! وقد استمد محقق الديوان هذه الرواية من مصادرها التراثية . وهناك رواية أخرى تُذكر في هذا الصدد لا يتسع المقام لذكرها .

ولما تعلق جميل ببثينة وشُغف بها حبا جعل يقول فيها الشعر ، ويقصدها في حيها فشكاه أهلُها الى مروان بن الحكم ، وقد كان واليا لمعاوية على المدينة ، وكان عامله على وادي القرى دَجاجةُ بن ربعي ، فهدد الأخير جميلا وتوعده فهرب وتزوجت بثينة رجلا من بني عذرة يقال له نُبيه بن الأسود العذري . لكن جميل لم يكف فظل يقول فيها الشعر ويزورها في حيها الى أن أهدر عامل بني أمية على وادي القرى دمه ، فخاف جميل وهجر الحجاز الى مصر ومرض فيها ومات سنة ٨٢ هـ ، وهو في الأربعينيات من عمره .

•

لقد أدخل الرواة على شعر جميل وسيرة حياته أشعارا وأخبارا متخيلة ، وأسرفوا في ذلك ، حتى ظن بعض المحققين أن ليس هناك على وجه اليقين شاعر يدعى جميلا . على أن البحث والتدقيق يفضيان الى القول بوجوده ، وإن داخل سيرته وأشعاره شيء من الشك والتلفيق .

أما شعر جميل فهو فصيح رقيق ، واضح المعنى ، مشبوب العاطفة . قال عنه عبد الرحمن بن الأزهر ، وهو من معاصريه : « هذا والله أشعر أهل الإسلام » . وقال عبد الرحمن بن حسان : « نعم والله وأشعر أهل الجاهلية ، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه » .

تباريح جريح

لقد فرحَ الواشونَ أنْ صرمتْ حبلي … بثينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البخلِ (١)
يقولونَ : مهلاً يا جميلُ ، وإنني … لأقسمُ ما لي عن بثينةَ من مَهْلِ (٢)
أحِلْماً ! فقبلَ اليومِ كانَ أوانُهُ … أم اخْشى فقبلَ اليومِ أوعدتُ بالقتلِ
إذا ما تراجعنا الذي كانَ بيننا … جرى الدمع من عيني بثينةَ بالكحلِ (٣)
ألا أيها البيتُ الذي حِيلَ دونَه … بنا أنتَ من بيتٍ وأهلُكَ من أهلِ (٤)
كلانا بكى أو كادَ يبكي صبابةً … الى إلفِهِ واستعجلتْ عبرةٌ قبلي (٥)
فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتُها … ولكنْ طِلابيها لِما فاتَ من عقلي (٦)
فإن وُجِدتْ نَعْلٌ بأرضٍ مَضلّةٍ … من الدهرِ يوماً فاعلمي أنها نعلي (٧)
فيا ويحَ نفسي حسبُ نفسي الذي بها … ويا ويحَ أهلي ما أصيبَ به أهلي
أجِدَّيَ لا ألقى بثينةَ مرةً … من الدهرِ إلاّ خائفاً أو على رَحْلِ (٨)
خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأيتُما … قتيلاً بكى من حبِّ قاتلِه قبْلي
أبِي أمُّ عمروٍ تعذلاني هُدِيتُما … وقد تيَّمتْ قلبي وهامَ بها عقلي (٩)
أبيتُ مع الهُلّاكِ ضيفاً لأهلِها … وأهلي قريبٌ موسرونَ ذوو فضلِ (١٠)
ولستُ على بذلِ الصفاءِ هويتُها … ولكن سبتني بالدلالِ مع البخلِ (١١)
أعاذلتي أكثرتِ جهلاً من العذلِ … على غيرِ شيءٍ من ملامي ولا عذلي
نأيتُ فلم يُحدِثْ ليَ النأيُ سلوةً … ولمْ ألفِ طُولاً عن خلّةٍ يُسلي (١٢)

---

(١) صرمت : قطعت . حبلي : مودتي

(٢) من مهل : من رفق أوسكون . الحلم : التعقل

(٣) إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا : إذا ما تداولنا في الذي كان بيننا

(٤) بنا أنت : نحن نفديك بأنفسنا

(٥) عبرة : دمعة

(٦) ولكن طلابيها : ولكنني أطلبها

(٧) الأرض المضلة : الأرض التي لا يهتدي السائر فيها .

(٨) على رحل : راكبا إما على سفر أو على أهبة الهرب .

(٩) تيمت : ذللت

(١٠) الهُلّاك : الفقراء الذين ينزلون بالناس طلبا لمعروفهم من سوء الحال .
والموسرون : الأثرياء

(١١) لم أنل منها صفاء ، لكنها اسرتني بدلالها (١٢) الطُّوْل : الغنية .

ـ أرضى من بثينة ـ

وإنّي لأرْضى مِنْ بُثَيْنَةَ بالذي   لو ابصرَهُ الواشي لقرّتْ بَلابِلُهْ(١٣)
بلا ، وبأنْ لا أستطيعَ ، وبالْمنى ،   وبالأملِ المرجُو قد خابَ آمِلُهْ
وبالنّظرةِ العجْلى ، وبالحوْلِ تنقضي   أواخِرُهُ لا نلتقي وأوائلُهْ

نكاد في الأبيات التي اخترناها نقع على كل الظروف المتقلبة التي يلم بها شاعر الحب العذري وتلم به . لقد أنفق جميل عمره ـ بعد أن تعرف الى بثينة وأحبها ـ في قول الشعر الذي يتحل به الأعذار ، ويدفع لوم اللائمين ، وعذل العاذلين ، فإذا أحبت بثينة رجلا آخر غيره ازداد بها تعلقا ، وتوجه إليها بعتاب رقيق ، حتى أورده حبه وأشعاره مورد التهلكة حين شكاه أهلها الى الحاكم ، فأهدر دمه . ولو تتبعنا الأبيات السابقة لألفيناها تروي قصة حب يؤرق جميلا ويشغل فكره ويملك عليه نفسه ، فالصلة بين المحبين لا تدوم على حال ، فهي في مد وجزر ، واقبال وادبار . فإذا بدا في الحبيبة جانب الصرم والقطع فرح الواشون ، وإذا سار فيها المحبّ على غير هدى من عقل هب المشفقون يسدون النصح ، ويشيرون بالتمهل .

وهما على حال من الشوق والقلق ، لا تُبقي للحبيبين إلا أن يراجعا ما كان بينهما ، وإن كانت تلك المراجعة مهيجة للذكرى ، باعثة على الأسى . كم كان يود لو أن يفدي بيتها بنفسه وأهلها بأهله !

وتبلغ الذكرى بالمحبين ذروتها ، ويفضيان الى يأس أو ما يشبه اليأس ، فيبكيان صبابة . أما هو فعذره في طلبها والسعي إليها أنها سلبت عقله ، بحيث لم تترك له سبيلا للرشاد . فإذا تعذر اللقاء ، وبرح الوجد بأهله هام في أرض مَضِلّة ، لا يهتدي فيها السائر سواء السبيل . ويعلن أن التيه في مثل تلك الأرض يعني الفناء ، وقد يعثر الجوابون ومرتادو القفار على نعل في يوم ما . فإن كان لهم ذلك ، فما تلك إلا نعل جميل بعد أن هام على وجهه وهلك .

إن حبا على هذا النحو لا يجر على صاحبه إلا الويل ، ولا يستتبع إلا حسرة الأهل . فيا أيها العاذلون كفوا الملام ! يقول جميل : لقد جربت النأي عنها ، لعل في ذلك بعض سلوى ، ولكن محاولتي ذهبت أدراج الرياح ، فلم أكُ سمعت من قبل أن البعد عن الخلان يُسلي ، لكنني على الرغم من كل العناء أبكيها وأنا قتيلها ، وقد كان جديرا بي أن أبكي نفسي وأندب حظها العاثر .

وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة يبدو الواشي وقد استحوذ على تفكير الشاعر ، لا ينازعه في تفكير جميل إلا القطب الآخر الذي تدور حوله كل تلك المشاعر المتّقدة التي تجعله يرضى من بثينة « بلا » ، « وبأن لا أستطيع » ، و« بالمنى » حتى ولو خاب رجاؤها . هل يُرضي الواشي هذا الاقتصاد في طلب الوصل فيكف عن سعيه في الوشاية بين المحبين ؟

والأبيات على قلتها حافلة بالمواقف التي يكابد فيها الشاعر ألوانا من العذاب ، وهي توحي بالكثير .

إنه شعر يبلغ الذروة في الجمال ، ولو توقفنا قليلا لاستجلاء بعض مظاهر هذا الجمال لتبدى لنا في الصدق ، فالشاعر يحرص على أن ينقل إلينا المواقف على علاتها ، لا يعنيه أن يبدو من خلالها غالبا أو مغلوبا ، قويا أو ضعيفا ، فيحملنا على الإصغاء ، وهو بصدقه لا يصور نفس الشاعر فحسب ، بل يوحي إلينا بأنه يعبر عن خلجات نفوسنا ، وما يعتمل فيها ، مما تعجز عن التعبير عنه .

وهو جميل لبساطته ، فلم يجتهد الشاعر في الغوص على المعاني واصطياد فرائدها ، بل هو يقتصر في المعنى على ما يصف الحالة الوجدانية التي ألقى نفسه عليها . □

(١٣) بلابلُه : هواجسه ووساوسه .

هواجس ليلية

لبائع مُحنّك !

قصة للكاتب الألماني : فالتر شميله
ترجمة : سمير مينا

أنا بائع بأحد المتاجر ، تعلمت في قسم الملابس الجاهزة للرجال ، ثم انتقلت إلى قسم السجاد والستائر « والديكور » . وأنا اليوم واحد من البائعين الذين تعينهم الإدارة للظروف الخاصة ، فقد يحدث أن تطلب الإدارة مني أن أنتقل إلى قسم اللعب أو قسم ملابس « التريكو » . وهم يطلقون علي هذه التسمية التي لا أكره تسمية مثلها في لغة البائعين : فهم يقولون إنني بائع محنك .

كنت سنوات عديدة بائعا كأي بائع ، بائعا عاديا : لا أكثر ولا أقل ، سلوكي سلوك حذر ، تعليمي عام متوسط ، لدي قدرة يسيرة على الفهم ، وأتحدث الانجليزية بعض الشيء ، أي أنني لا أستطيع سوى ما يستطيعه - تقريبا - كل الآخرين ، ومع ذلك فأنا اليوم بائع متميز .

كيف حدث هذا ؟ هل نافقت منافسة غير شريفة ؟ هل نافقت لدى رؤسائي ؟ ، كلا ، لم يحدث أي شيء من هذا ، بل على النقيض ، فلقد رفعوني إلى قمة السلم الوظيفي عندما لم أعد أهتم بهم ، وحينما لم تعد لوظيفتي أية أهمية بالنسبة لي .

وقفت ذات صباح خلف طاولة البيع وقد غمرني هذا الإحساس الرفيع ، وكان ذلك في قسم الأثاث ، كنت قد عزمت على أن أترك الأسوار وأخاطر بالهرب ، عالما أن هذا هو آخر أيامي كبائع في هذا المتجر ، وعاقدا النية على أن أرتكب أشد المحاذير التي تعرفها مهنتنا ، وهي أن أصارح العميل بالحقيقة ، وأن أمزق أمام عينيه كل تلك الأكاذيب المنسوجة من العبارات المحفوظة والتأكيدات المكررة ، وهو ما يميزنا كبائعين . كنت أشعر بحنين قوي إلى الحقيقة ، ولم أعد أريد إخفاء أي سر من الأسرار ، كنت أدرك أنهم سيلقبونني بخائن المتجر ، وكنت أعرف أن الإستقالة ستكون في جيبي عصر هذا اليوم .

وهكذا نهضت وأخذت أودع ما حولي . قلت لنفسي : لآخر مرة سوف تضايقك لافتة « باب خروج للطوارىء » . كنت في حالة نفسية طيبة ، وأخذت أرتب ورق « الكاربون » في دفتر الفواتير الخاص بي منتظرا أول عميل . كان رجلا يناهز الخمسين ، حياني قائلا :

● كاتب ومترجم من القطر العربي المصري .

- صباح الخير .

وأجبت بلطف ، فأنا أريد في كل الاحوال أن أظل لطيفا ، فاللطف والحقيقة لا يتعارضان .

وسألني العميل :

- ألديك مائدة يمكن فتحها ؟

فقلت له : أتعني مائدة قابلة للفتح والطي ؟

فأجابني : نعم ، وإذا كان ممكنا ، فأريد واحدة يمكن التحكم بارتفاعها .

- بالتأكيد ، أستطيع أن أريك شيئا كهذا ، لكن - بصراحة - أنا لا أثق كثيرا بمثل هذه الموائد ، لقد أعطتها الدعاية أكثر مما تستحق .

وسألني العميل : كيف ؟ إننا نرى أشباه هذه الموائد في كل مكان ، وأحسب أنها عملية إلى أبعد حد .

- قد يكون هذا صحيحا ، فليس لدي دراية بكل طرز الموائد القابلة للفتح والطي التي تنتجها المصانع ، فأنا لا أعرف إلا الطراز الذي نبيعه ، وهذا الطراز به عيوب تصميمية ، إنه لأمر مناف للحقيقة أن أكتم عنك هذا .

فرجع الرجل خطوة للوراء وسدد النظر إلي كأنني شيء تغيرت ملامحه فجأة ، لابد للإنسان أن يعيد النظر إليه .

وردد الرجل : عيوب تصميمية ؟

- أجل : غير ملحوظة على الإطلاق ، معقدة للغاية ، قد أخفتها التقنية الحديثة ، فهي ليست من البساطة لتظهر .

واتجهت إلى المائدة ، ووضعت قدمي على الدواسة ، يجب على المرء أن يضغط عليها بخفة إلى أسفل مثل « بدّال التعشيقة » ، لكنني بكل بساطة خطوت فوقها ، فإذا بقرص المائدة يرتفع إلى الوراء ويصطدم بمقدمة ذقن الرجل .

قلت له : متأسف ، لم يكن هذا قصدي .

وبالفعل لم يكن ليخطر لي على بال أن أسبب الرعب للعميل بأي حال من الأحوال ، لقد اقتحمت هذه اللحظة العجيبة محادثتنا بمحض الصدفة ، فسببت لي الفزع ، وضحك الرجل ، وارتسمت بعض علامات الارتياح على وجهه .

وقال لي : عظيم ، يجب أن تعيد الكرة مرة أخرى .

- « أرأيت ! . . حتى هذا من الممكن أن يحدث إذا عبث بها عابث بغير احتراس ، ولكن انظر إلى الخشب ، فهو من نوعية ليست ممتازة ، وخشب القشرة مُغرّى بطريقة سيئة » .

اذا سمحت لي أن أكلمك على انفراد ، فأنا أنصحك ألا تشتري هذه المائدة ، اذهب إلى أحد المتاجر المتخصصة فهناك طُرز أفضل .

وقال الرجل وقد كادت عيناه تنتدى من البهجة :

- رائع ، عظيم ، ثم سألني وهو يصافحني :

- ما اسمك ؟ ثم أضاف :

- لقد أعجبتني ، وطلب - لدهشتي الشديدة - هذا الطراز ، راجيا أن يصله فورا عن طريق عربات الخدمة السريعة .

وأجبته :

- بكل سرور ، أرجو أن يصلك اليوم ، لكن ربما لا يصلك إلا في الغد ، فنحن مثقلون بطلبات الشحن . وحتى هذه الصراحة لم تبد له إلا فكاهة . وحياني وانصرف .

لم يكد العميل يغلق باب المصعد وراءه حتى أتاني رئيس القسم وبدأ حديثا معي :

- اسمع ، لقد حضرت هذا المشهد ، كنت أقف بالخلف ، وسمعت على الرغم مني بعض ما قلته للعميل ، ومن الواضح أن تتوقع فصلك حالاً .

- واضح ، سأذهب في الثانية عشرة إلى قسم شئون الأفراد ، فلتوفر كل كلمة أخرى .

وانقضت ساعة ، وبدأت أتنسم هواء الحرية ، وشرعت أنظم أشيائي لتسليمها ، وإذا بنفر من الرجال يقتربون مني ويسألونني عن الموائد المتعددة الأغراض ، طالبين أن أعرض لهم واحدة .

- نعم ، لحظة من فضلكم .

ورفعت الألواح عن بعضها ، وأريتهم كيف تتحرك القوائم في المجرى إلى أن توقفها الأسطح العريضة ، وأشرت لهم أيضا إلى كل عيوب المائدة ،

وخطوت فوق البدال بقوة أكبر ، وحتى حينها لم أصب أحداً من الواقفين ، فإن دهشتهم كانت عظيمة للحركة الأمامية السريعة لقرص المائدة .

ولم تكن النتيجة في تلك المرة أيضا إلا الموافقة المصحوبة بالرضا على هذا التصميم ؛ أما حكمي الشخصي الواقعي على الخشب وقشرة الخشب فلم يستطع أن يغير من الأمر شيئا .

وقال أحدهم :

ـ لقد أتينا بناءً على توصية من السيد الدكتور « هنزلايت »

ـ أنا لا أعرف السيد الدكتور « هنزلايت » قلت لهم هذا لأنه مطابق للحقيقة .

ورد السيد الذي يدير دفة الحديث :

ـ السيد « هنزلايت » رأى عندك مائدة من هذا الطراز من قبل ، وقد اشتراها ، نريد أن نطلب منك خمسين مائدة من هذا الطراز ، والتوريد فورا ، إنها لتأثيث مقصف بأحد المصانع ، سيعُد أيضا لاقامة الاحتفالات الصغيرة .

كان هذا طلباً كبيراً يتعدى حدود امكانياتنا ، فلم يكن ما لدينا في المخازن من هذا الطراز ما يزيد على خمس ، لذا يجب أن تُبحث هذه الطلبية مع رئيس القسم ، وحدث هرج ومرج ، ووجهوا إلى نظرات خاصة ملؤها الاحترام .

وحينما ذهبت في الثانية عشرة إلى مكتب شئون الأفراد لم يكن هناك أي خبر عن استقالتي ، بل على العكس ، كانت هناك توجيهات بأن أستعد لمناقشة الادارة العامة في الاسبوع المقبل بخصوص مواصلتي للعمل .

فوجئت بأن الادارة العامة قد أعدت لي مشروع عقد ، فيه يتم رفع مرتبي الحالي إلى ثلاثة أمثاله ، وتتضاعف إجازتي ، ولي حرية اختيار مكان العمل بالمتجر ، مع الإبقاء على أسلوبي الجديد في البيع (هكذا كتبوا في نص العقد) ، وهو ما خصصوا له فقرة خاصة .

ماذا أفعل ؟ فكرت في زوجتي وأطفالي ، فوافقت ووقعت ، يالها من فرصة فريدة لرجل قرر أن يخوض تجربة الحق المطلق ، ثم يحول قراره إلى حيز التنفيذ ، وفوق هذا يستطيع إسعاد عائلته .

هذا هو ما حدث ، وأصبحت بائعا محنكا ، وكنت أعتقد أن ارتباطي بالحقيقة المطلقة سيجعلني شهيد هذا المتجر وخائن قوانينه ، ويصبح هذا الارتباط هو عالمي .

وتستطيع أن تتفكر كيف راودني في تلك الأثناء الشك في جدوى ما فعلته وما أفعله كل يوم بطريقة تكاد تكون آلية ، **أقول الحقيقة** ، وأعرض الأجزاء الخلفية غير المدهونة ، وقد أصبحتُ ظاهرة ، بل أصبحت لي مدرسة .

قال لي رئيس قسم الدراسات منذ فترة يسيرة وهو يودعني :

ـ أنت واحد من أكثر العقول عبقرية في الفرع .

وكثيرا ما أتناقش مع زوجتي حول هذا الشك فتقول لي :ـ

ـ ماذا تريد ؟ لقد هيأت لنا بمخاطرتك حياة أجمل . فأرد : أجل هذا صحيح .

ثم تردف : وماذا تستفيد الحقيقة عندما يتهاوى من يشهدون بها دون أن يشتهروا ودون أن يعرفهم أحد ؟ ألم يكثر كل العظماء الذين شهدوا بالحقيقة ، والذين نجلهم ونحتفل بهم ، ألم يكثروا جميعهم الحديث ، وهو ما جعلنا نتحدث عنهم ؟ لماذا تريد صنع شيء مغاير في متجرك ؟

وفي العادة فأنا أهز رأسي وأسكت ، لكنني في بعض الأحيان ، وبخاصة في الليل عندما أخلو بنفسي أتساءل : ألم أفسد كل شيء ؟ ألم أفسد المطلق عندما أدخلته في هذه اللعبة ، في هذا المتجر ، وقد خلطته بشخصي ؟ لكنني أفكر بعد ذلك وأقول : المطلق جسده هواء ، إنه لم يخلق لهذا المتجر .

وهكذا أؤرجح شكي جيئة وذهابا . وتمعنت في الأمر أكثر من مرة ، وسألت نفسي : أكنت سأسلك بطريقة غير شريفة إذا ظللت كما كنت : بائعا عاديا لا يملك أسلوبا خارقا في البيع ، بائعا كأي بائع ، له حجم مبيعات معقول ، وليس فيه ما يلفت النظر إليه ؟! □

الكلمات المتقاطعة

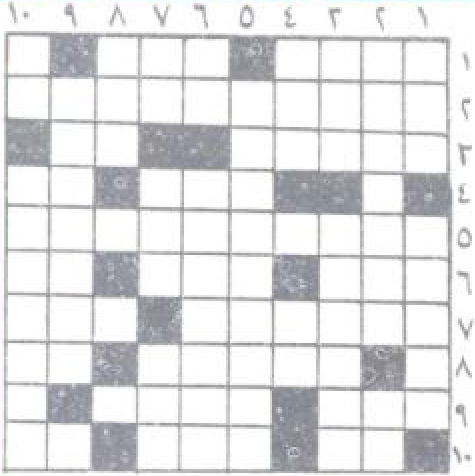

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ - حركة الدم في الجسم ، غلي بالنار .
٢ - من أكبر الكيميائيين العرب .
٣ - لغوي أو متعلق بالنطق واللغة ، نَزَل في مكان .
٤ - تحرك واضطرب بشدة ، قادم .
٥ - من أشهر كتب الكيميائي العربي جابر بن حيان حول السموم .
٦ - أقارب ، أصلح (الثوب) ، قمح
٧ - مصباحي ، عضو التنفس .
٨ - يتسع معطوفة ، بكى .
٩ - حرف مكرر ، مرض عصري ، وبيل .
١٠ - حرق للعلاج ، تنظر ، ثنى .

كلمات عمودية :

١ - طب لا يعتمد على أساس علمي ، عقار مسكن نقله الغرب عن الأجداد باسمه العربي .
٢ - حاولت التخفيف عنها ، (الشيء) طرح بعضه على بعض .
٣ - نشأ ، بيمارستان مشهور في دمشق في القديم
٤ - نهر مبعثرة ، كلمة تَعَجُّب .
٥ - مستشفى في لغة الأجداد .
٦ - شَرَع ، من كتب ابن زُهر ، أثر كثيرا في الطب الأوروبي بمعنى التسهيل .
٧ - حل معكوسة ، ملأ ، جعل (الفعل) متعديًا .
٨ - صديد .
٩ - اسم لكتاب جمع فيه الرازي ملاحظاته السريرية .
١٠ - عقار نقله الغرب عن العرب بحرفيته تقريبا .

حل مسابقة العدد الماضي يونيو ١٩٨٨

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ش	ب	هـ	ا	ل	ج	ز	ي	ر	هـ
٢	م	ض	ي	ق	■	ب	ا	ز	ل	ت
٣	ا	هـ	و	ا	ر	■	د	ي	■	و
٤	ل	ا	ع	ض	و	ي	■	ل	ا	ن
٥	ش	■	ي	■	ا	ل	ي	■	ل	■
٦	ر	م	■	م	س	ت	ن	ق	ع	ي
٧	ق	و	ا	ر	ب	■	ح	■	م	و
٨	ي	س	ق	ي	■	ا	و	ر	و	ن
٩	■	م	ر	ج	ع	ي	■	ع	د	ا
١٠	ب	ي	ن	ا	ل	ن	هـ	ر	ي	ن

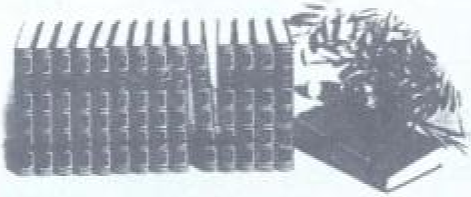

مكتبة العربي

كتاب الشهر

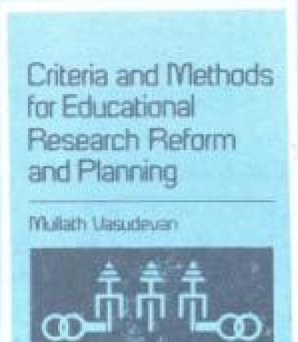

مناهج البحث والإصلاح والتخطيط

بقلم : مولات فاسوديفان / عرض وتحليل : ياسر الفهد

التربية والبحث والتخطيط ثلاثة مفاهيم مختلفة ، يجمع بينها ارتباطها الوثيق بالمجتمع وتقدمه وتحضره .

وهذا الكتاب محاولة لتحديد أطر للعلاقة فيما بينها من جهة ، والعلاقة بين كل منها وبين عملية بناء المجتمع وتطوره الحضاري من جهة أخرى .

يعد الكتاب الذي بين أيدينا والصادر حديثا باللغة الانكليزية ، في الولايات المتحدة ، على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنه يدور حول ثلاثة محاور رئيسة ، تشكل موضوعات الساعة في عالمنا التربوي الحديث . وهذه المحاور هي البحث والاصلاح والتخطيط ، وعلى الرغم من كون كل محور منها يمثل حقلاً مستقلاً ، ومملكة قائمة بنفسها ، إلا أن الحقول أو الممالك الثلاث في الوقت نفسه مترابطة ومتشابكة ، تشدّ بعضها إلى بعض خيوط متينة ، والأكثر من ذلك أن بالامكان صهرها جميعها في بوتقة واحدة ، هي بوتقة التخطيط التربوي . فالتخطيط يعتمد على نتائج التقويم والبحث ، وهو يهدف إلى طرح المقترحات والتوصيات بغية إدخال التجديد والاصلاح إلى النظم والمؤسسات التربوية ، وصولا إلى حل المشكلات وتحسين المردود وزيادة الانتاجية .

والسبب الثاني لأهمية الكتاب أن مؤلفه (مولات فاسوديفان) يعد من كبار المختصين العالميين في التخطيط التربوي ، وهو مرجع وثقة في هذا الباب ، وقد عمل مستشارا سنين طويلة ، في عدة مؤسسات دولية ، كاليونسكو ، ومنظمة التعاون والتطوير الاقتصادي ، والبنك الدولي ، ومنظمة العمل الدولية .

التخطيط التربوي

على الرغم من أن المؤلف يتناول التخطيط والبحث والاصلاح بوصفها عناصر مستقلة ، إلا أنه اعتبر التخطيط الوعاء الذي يضم هذه العناصر الثلاثة ، وهو يعرّف التخطيط بأنه « مجموعة من النشاطات المترابطة التي تحدد أهدافا للتطوير التربوي خلال فترة معينة من الزمن . وهذه النشاطات تجري ضمن سياق تخطيط التطوير العام الكلّي ، وفي إطار الضوابط والامكانات المالية المتاحة » . وتزداد أهمية التخطيط التربوي الشامل ازديادا مطردا في عصرنا الحاضر ، فقد غدا هذا التطوير يمثل اليوم جزءا من الفلسفة الاجتماعية لدى معظم أقطار العالم ، وأصبح يُنظر إليه بوصفه شرطا مسبقا أساسيا لكل توسع تعليمي متوازن ، واستثمار فعال للموارد التربوية ، وتهيئة مناسبة لليد العاملة الفنية . ويقارن فاسوديفان بين تخطيط الماضي وتخطيط الحاضر ، فبالأمس لم يكن العمل على تحقيق التطوير التربوي يتجلى في أكثر من إجراءات منفصلة غير مترابطة ، لا ترقى إلى مستوى التخطيط المنظم ، كما أن الاهتمام لم ينصب إلا على الناحية الكمية فحسب ، فكان هناك حرص على توفير أعداد أكبر من الأمكنة للطلاب ، ومن المعلمين والأبنية المدرسية والمعدات ، دون ايلاء النواحي الكيفية عناية مماثلة . وكان يُعتقد أن مستويات التعليم وطرائقه ومحتويات المناهج وأهليات المعلمين ، أمور لا تحتاج - على الأغلب - إلى تغيير .

أما الآن فقد اختلفت النظرة ، وبات الاهتمام بالتخطيط التربوي يتخذ أبعادا قومية شاملة ، وتمّ دمج الجوانب التعليمية والاقتصادية والاجتماعية لهذا التخطيط في كلّ واحد ، ولم يعد المخطط التربوي وحده المعني بالعملية ، بل أصبح المعلم نفسه والمختص الاقتصادي والمرشد المهني وغيرهم ، عناصر فيها أيضا . وبالاضافة إلى ذلك ظهر الاهتمام بالجانب النوعي في التربية ، وبرزت القناعة بأن تحقيق التغييرات والتجديدات والاصلاحات البنيوية يجب أن تأتي قبل توسيع النظام التربوي . وينتقل بنا الكتاب بعد ذلك إلى عملية التخطيط نفسها ، وهنا لابد من تحديد أهداف التعليم . وهذه الأهداف ليست تربوية فحسب ، وإنما اقتصادية أيضا . فقد أثبتت الدراسات أن التقدم الاقتصادي لا يعتمد على رأس المال والقوة العاملة والخبرة الفنية وحدها ، وإنما يعتمد كذلك على التربية . وهناك أهداف اجتماعية ، فالتعليم لا تقتصر أهدافه على التمكين من حيازة المعرفة والمهارات العقلية

واليدوية ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تطوير المواقف الاجتماعية والمساعدة على اكتساب القيم المدنية والأخلاقية . وبعد تحديد الأهداف يجب أن تتحول هذه الأهداف ، في نهاية المطاف ، إلى مشروعات وبرامج عمل ، ومن ثم إلى سياسات تربوية لتنفيذ هذه المشروعات والبرامج .

ويقدم المؤلف منظورا محددا لتقويم الوضع التربوي الراهن ، يقوم على سبر جوانب أساسية معينة في العملية التربوية التي يجرى تطبيقها ، ومن هذه الجوانب :

١ ـ بنية التعليم ومحتواه • فمثلا هل تكفي مدة التعليم الالزامي لتزويد الطلاب بتعليم أساسي كاف وسليم ؟ وهل المناهج في مختلف المستويات والفروع متوازنة بالنسبة لعدد الساعات المخصصة لكل مادة أو مجموعة من المواد ؟ وهل هي متكاملة تشكل كلا موحدا ؟

٢ ـ التعلم والنظام المدرسي : فمثلا هل عدد ساعات التعلم الذي يتلقاه الطالب مناسبة ؟ وهل هي أكثر أم أقل مما يلزم ، لكل اسبوع ، أو لكل سنة دراسية ؟ وإذا أجرينا إصلاحا في اللائحة المدرسية الحالية ، فهل يمكن أن يتمخض ذلك عن تحسين قدرة الطالب على امتصاص التعليم ؟

٣ ـ التعليم والمعلمون : فمثلا هل المعلمون مؤهلون بشكل كاف وعلى نحو مرض ؟ وهل تتماشى برامج تعليم المعلمين مع الأهداف التربوية المتغيرة ؟

٤ ـ استعمال الوسائل التقنية الحديثة : فمثلا هل يتم استخدام الوسائل التقنية الحديثة ، كالمذياع والتلفاز والتعلم المبرمج ، لتحل محل الطرق التقليدية في التعليم ، أو لمجرد مساعدتها وإغنائها ؟

٥ ـ البيئة التعليمية : فمثلا ما مدى ملاءمة الأبنية المدرسية والوسائل الترفيهية والأثاث والمعدات وحجوم الصفوف ؟ وهل تناسب حاجات الطلاب ؟

٦ ـ اختيار الطلاب وتقويمهم وارشادهم : فمثلا ما الطرائق المستخدمة في اختيار الطلاب لدورات معينة ، ولتقويم صلاحياتهم للترفيع ؟ وهل يتم تقديم النصائح الخاصة بفرص التوظيف في مهن معينة ، على أساس التحليل المنظم ، والمعلومات الخاصة بسوق العمل ؟

٧ ـ كفاية الأبنية التعليمية : فمثلا هل المؤسسات التعليمية والتدريبية ذات حجم مثالي ، ومشيدة في مواقع مناسبة ؟ وهل الأبنية المدرسية مصممة بطريقة اقتصادية ؟ وهل تستفيد عملية بنائها من التقدم التقني ؟

٨ ـ البحث والتطوير والنشر التربوي : فمثلا هل هناك برنامج للبحث ، ولابتداع نظم جديدة في التعلم ؟ وإلى أي حد تؤثر نتائج البحث في النظام التربوي بعامة ، وفي التدريس في الصفوف بخاصة ؟

ويضع المؤلف العناصر التالية في الدرجات الأولى من سلم التقويم ، ويولي تقصّيها أهمية خاصة : اقتصاديات التعليم ـ مؤهلات المعلم ـ المناهج ـ نسبة المعلمين إلى الطلاب ـ الهدر التربوي ـ الحجم المثالي للمدرسة .

قواسم مشتركة للتخطيط

وبعد التقويم والاطلاع على نتائج الأبحاث يتم في ضوء الامكانات المالية المتوافرة وضع خطط متوسطة المدى ، وبعيدة المدى ، ويجري تقديم مقترحات وتوصيات لتحقيق الاصلاح والتوسع التربويين . وتحتاج عملية التخطيط إلى تآزر جهود مجموعات كبيرة من المختصين الذين يمكن أن تكون أماكن أعمالهم في الوزارات أو الادارات أو المدارس تبعا لنوع التخطيط ، ولا بد كذلك من إشراك أو مناقشة ممثلين عن المعلمين وأرباب العمل واتحادات العمال والهيئات المهنية والآباء والطلاب والجمهور . ويبين الكتاب أنه ليس بالامكان ابتداع آلية أو بنية واحدة للتخطيط التربوي لجميع الدول ، بل إن على كل دولة أن تصمم نظامها التخطيطي الخاص بها ، الذي يلائم أوضاعها ، فما يصلح لدولة قد لا يصلح لأخرى ، وإن كانت هناك خطوط عامة كثيرة تشكل قواسم مشتركة في التخطيط لكل الدول، وبعد أن ينتهي فاسوديفان من شرح الخطوات السابقة ، يعود

كتاب الشهر

ليؤكد أهمية التخطيط التربوي ودوره في العصر الحديث ، فدون تخطيط تضطرب الأمور ، وتتفاقم الأزمات ، ويتدنى مردود التعليم ، فالتخطيط ضروري لمواجهة المشكلات التربوية الكثيرة ، ومنها الزيادة المستمرة في الطلب على التعليم ، وعدم قدرة الأمكنة المدرسية المتوافرة على استيعاب القادمين الجدد ، مع ملاحظة أن هناك حقولا في التدريب يزيد فيها عرض الأمكنة على الطلب ، ومنها مشكلة إعداد أفراد مؤهلين لسد حاجات سوق العمل أيضا . ومن التحديات الأخرى السماح للطالب بالحرية التامة في اختيار منهج الدراسة المناسب لاهتماماته ومقدراته وطموحاته المهنية ، ولا ننسى أيضا مشكلة توفير فرص تعليمية متكافئة لكل فرد في سن معينة .

ويبين فاسوديفان أن نجاح التخطيط التربوي الشامل لا يتوقف على قدرة المخططين فحسب ، وإنما على مقدار الموارد القومية التي يمكن تخصيصها لكل حقل من حقول التربية أيضا . وبالنسبة لعلاقة المخطط بالموضوع المالي هناك من يقول بأن المخطط ينبغي عدم إشغاله بالأمور المالية ، وأن مهمته تنحصر في دراسة الأوضاع التربوية ، وتقديم مقترحات لتحسينها ، وأن صانعي القرار هم الذين يتوجب عليهم توفير الأموال اللازمة ، لكن المؤلف يخالف هذا الرأي ، ففي اعتقاده أن على المخطط أن يخطط في حدود الامكانات المالية ، موازنا بين ما هو مطلوب وما هو متوافر فعلا ، بل عليه أن يدرس جدوى التكاليف وفاعليتها أيضا لمختلف المشروعات التربوية المقترحة في ضوء التخطيط .

وفي معرض الحديث عن النفقات المترتبة على عملية التخطيط يعرج الكتاب قليلا على موضوع تمويل التعليم وتكاليفه بصورة عامة ، ذاكرا من بين مصادر تمويله مخصصات الدولة ، والمساعدات الخاصة ، والضرائب التي تجبى (في بعض الدول) لصالح التعليم . أما المصاريف فتشمل مجالات عديدة ، بينها رواتب المعلمين والاداريين ، والأجور والعلاوات الخاصة ، وصيانة الأبنية ، وشراء المعدات ، ونفقات الرعاية ، ومصروفات الادارة المدرسية ، وغيرها .

الاصلاح التربوي

يقول المؤلف بأن الهدف الأساسي للتخطيط ، بالاضافة الى تحقيق التوسع التربوي المتوازن ، إدخال التجديد والاصلاح ، وهذا يعني إعادة بناء النظام التربوي ، وابتكار طرق جديدة في التعلم . وحتى يتحقق الاصلاح علينا أن نعرف أمورا كثيرة ، فمثلا ما الذي يجب تعليمه في المدارس ؟ وما طرق التدريس التي يستحسن تطبيقها ؟ وما المدة التي ينبغي إبقاء التلاميذ في المدرسة خلالها ، للحصول على كمية معينة من المعارف والمهارات والمقدرات ؟ وكيف نجعل التعليم متماشيا مع التغيرات الاجتماعية والعلمية والتقنية والصناعية ؟ . . . الخ .

ويفرق المؤلف بين التجديد والاصلاح ، مبينا أن التجديد لا يقود دائما إلى الاصلاح الفاعل ، فالتقنية الحديثة مثلا قد أفلحت في زيادة الانتاجية في جميع الحقول تقريبا ، باستثناء التعليم ، فالأفلام والتلفاز والكاسيت لم تستطع أن تحل محل التعليم ، ولم تخرج عن كونها مجرد وسائل مساعدة له .

ومن المشروعات التربوية التي يعدها الكتاب أنموذجا مثاليا للاصلاح (تفريد التعليم) . وهذا يعني إنشاء نظام جديد مرن يسمح للطالب بالانتساب إلى الدورة الدراسية التي تتناغم مع اهتماماته ، وتلائم مقدراته ، وتناسب سرعته في التعلم ، أي أن على المدارس أن تقدم مجموعة متنوعة من الدورات التي توفر خيارات تربوية ومهنية مناسبة ، وتتيح للطالب القدرة على التعلم بالقوة التي يستطيع التعلم بها ،

وهذا ما يحاول التعليم المبرمج أن يفعله اليوم أيضا ، ضمن حدود معينة .

ومن الاصلاحات المقترحة تعديل مدة الدراسة ، فمن المعلوم أن مدة الدراسة الابتدائية في معظم الأقطار ست سنوات ، لكن هناك طلابا موهوبين يستطيعون اجتياز هذه المرحلة خلال أربع سنوات فقط ، فلا بد والحال كذلك من إيجاد ترتيبات تسمح لهؤلاء بعدم الانتظار أكثر من المدة الدراسية الكافية بالنسبة لهم ، أي أن المهم في هذه الحالة أن يقتنع التلميذ السلطات المدرسية بأنه قد حصل على درجة كافية من المعارف والمؤهلات المرتبطة بإنهاء مرحلة دراسية معينة .

ويبين المؤلف أن بعض الدول بدأت فعلا في الافادة من بعض جوانب تفريد التعليم ، إلا أن التقدم في هذا المجال ما زال بطيئا ، وهناك أمور كثيرة تحتاج إلى دراسة ، منها على سبيل المثال دور الوسائل السمعية والبصرية والآلات الالكترونية في التعليم المفرد ، فلا بد من إجراء أبحاث حول ذلك قبل اقتراح سبل فاعلة للاصلاح .

البحث التربوي

يقول المؤلف بأن البحث التربوي وسيلة مهمة للتغيير ، ولرفع كفاية النظام التعليمي وانتاجيته ، بصورة مستمرة ، وهو لا يشكل نشاطا مفردا ، وإنما مجموعة من النشاطات المشتركة التي لا تهمّ الباحث وحده ، بل جميع المعنيين بالعملية التربوية كالمعلمين والمخططين والاداريين وصانعي السياسة التربوية ومهندسي الأبنية المدرسية ومنتجي المواد التعليمية والمختصين في تمويل التعليم وغيرهم . ويفرق الكتاب بين نوعين من البحث التربوي هما :

أ ـ البحث الأساسي : ويهدف إلى الحصول على المعرفة من أجل المعرفة ، وإلى دراسة الظواهر التربوية بتفرعاتها المختلفة ، دون الاهتمام بإمكانية استثمار النتائج استثمارا عمليا . ومن الأمثلة عليه بحث مفترض حول (قياس مدى إسهام التعليم في التطور الاقتصادي) .

ب ـ البحث التطبيقي : ويرمي إلى وضع أهداف تربوية معينة موضع التطبيق العملي . ومن الأمثلة عليه بحث مفترض حول (الحجم المثالي للمدرسة الشاملة في بيئة ما) .

ويواجه البحث التربوي صعوبتين أساسيتين أولاهما العقبة المالية ومدى قدرة الأموال المخصصة على تغطية نفقات البحث .

والصعوبة الثانية تتعلق بندرة « الكوادر » المدربة ، فالباحث التربوي يحتاج إلى مؤهلات ومهارات وخبرات عديدة في مجال تخصصه ، وكذلك إلى ثقافة واسعة .

ويتعرض الكتاب إلى تصنيف البحث التربوي مشيرا إلى أن مشكلات التربية متعددة جدا لدرجة يصعب معها حصرها ، ومع ذلك فإن المؤلف يطرح زهاء مائة سؤال ، وهو يعتقد أن الاجابة عن هذه الأسئلة تستلزم إجراء البحث . وتتركز الأسئلة حول : أ ـ بنية التعليم ومحتواه . ب ـ المردود المدرسي . جـ ـ تنظيم الصفوف . د ـ تقويم الطالب وترفيعه . هـ ـ الادارة التربوية . و ـ وضع أهداف للتربية . ز ـ تكاليف التعليم وعائداته الاقتصادية .

ومن جهة ثانية يختار فاسوديفان بعض العناوين المهمة والمحددة التي يرى أنها تستحق أن تكون مجالات بحث ، ومنها : أ ـ تفريد التعليم . ب ـ طرق جديدة للامتحانات . جـ ـ تحديث الارشاد المهني . د ـ قياس الكيف التربوي . هـ ـ الحجم المثالي للمدرسة . و ـ دور التقنية الحديثة في التعليم .

وهذه الموضوعات ذات صبغة عالمية تهم جميع الأقطار بشكل عام ، وتبقى هناك حاجات ومستلزمات خاصة للبحث والتطوير في كل قطر على حدة . وعلى المعنيين أن يحددوا أولويات البحث حسب أهميتها بالنسبة لقطر معين . ويدعو فاسوديفان إلى تحقيق تعاون دولي أوسع في مجال البحث التربوي على أسس عديدة ، منها اشتراك عدة دول في بحث واحد يهمها جميعا ، ومنها ضرورة تصدير واستيراد نتائج الأبحاث واستيرادها حتى تعم الفائدة منها ، ولا تبقى حبيسة جدران قطر واحد دون غيره . □

من المكتبة العربيّة

اللسانيات وأسسها المعرفيّة

تأليف : الدكتور عبدالسلام المسدي / عرض : أحمد محمد قدور

منذ وضع فرديناند دوسوسير أسس اللسانيات وهذا العلم يتطور ويجري إثراؤه بالعديد من الدراسات التي تضيف جديدا لهذا العلم المهم . وكتابنا العرب الذين أثروا المكتبة العربية بالدراسات المترجمة بدءوا أخيرا باقتحام هذا العلم تأليفا . وفيما يلي عرض لواحد من أهم الكتب العربية في هذا المجال .

ما من مبالغة في القول ، إن التقدم الذي أحرزته اللسانيات منذ مطلع هذا القرن قد امتدت آثاره إلى العلوم الإنسانية ، ليكون انطلاقة منهجية عميقة ، تغلغلت في أعماق التفكير الإنساني . ولقد بات معروفا أن اللسانيات لم تعمل على تحديث المناهج الدرسية في مجالها وما اتصل بها ، إنما عملت على بعث اختصاصات جديدة ، غدت تتبوأ مكانة العلوم المستقلة . من ذلك « الأسلوبية » و« السيمياء » ، إضافة إلى علوم أخرى طورتها تطويرا جذريا ، كعلوم الاتصال والأجناس « الأنثربولوجيا » والاعلام ونحوها . وهناك أيضا البنيوية التي انبثقت من العلم اللساني الذي أسسه فرديناند دوسوسير ليغدو بعدئذ من أهم المناهج الحديثة في عصرنا .

في نظرية اللسانيات

ويجيء في هذا السياق كتاب « اللسانيات وأسسها المعرفية » للدكتور عبد السلام المسدي ، وهو من الدارسين المعروفين بالجدية والمتابعة . وليس الكتاب الذي نعرضه ههنا كتابا يعرف باللسانيات أو بأعلامها او يقرب مفاهيمها للدارسين ، بل هو تأليف في « نظرية » اللسانيات باعتباره علما له أسسه المعرفية ، ولذلك فهو أقرب إلى البحث في الأصول « الابستمولوجيا » ، من غيره من ميادين البحث .

والحق أن هذا الكتاب فريد في توجهه ، لأنه أول بحث - فيما أقدر - ينحو هذا النحو النظري المتعمق باللسانيات وإشكالاتها المنهجية والمعرفية ، ولذلك يصح أن يكون نموذجا للسانيات العربية الحديثة في تفاعلها بين قطبي التراث والمعاصرة .

أما فصول الكتاب فهي ثمانية فصول قصيرة .

ففي الفصل الأول يقف المؤلف عند « إشكال» العلم المتمثل عندنا بما يدعى « عقبات البحث اللساني » ، وهي عقبات متعددة ، أهمها : مكانة علوم اللغة عند العرب واكتمالها مما أضفى عليها صفات التميز والتفوق ، فكان من نتيجة ذلك صعوبة الإقرار بالحاجة إلى العلوم اللغوية الأجنبية في هذا العصر ، كذلك ظن كثير من الدارسين العرب أن اللسانيات محصورة في مجال الصوتيات التي عرفت لدى العرب نضجاً مؤكدا ، فكان ذلك سببا لاعراض الدارسين عن اللسانيات لما للصوتيات العربية من مكانة ، ولقلة الاختلاف الذي قد يكون بين لغة وأخرى في هذا المجال ، وهناك من هذه العقبات أيضا ما عرف بالمعركة بين الوصفية والمعيارية ، ويرى المؤلف هنا أن كثيرا مما دار من مناقشات كان لا يتيح إمكانية تلاقي هذين المنهجين اللذين لا يتحتم أن يكونا نقيضين ، وإن غلب النظر

الوصفي على اللسانيات . كذلك أسهم سبب يتصل بدراسة اللهجات في إعاقة النهضة اللسانية العربية ، فاللسانيات تعنى - كما هو معروف - باللهجات وتتخذها أساسا للدرس ، لكن هذا التوجه لا يلائم العربية بما لها من دور حضاري وقومي ، ولذلك أثيرت الشكوك في مقاصد الدارسين من دراسة اللهجات العربية ، مما نفر من اللسانيات التي اتخذت مطية لغايات لم تكن خالصة لوجه العلم . وهناك أسباب أخرى هي أقل شأنا مما ذكر ، منها أن بعض الدارسين العرب يكتبون بلغة أجنبية ، بسبب التكوين اللغوي والثقافي ، وأن بعض الدارسين يرغب عن متابعة ما يكتبه الآخرون ، لا سيما ما كان مكتوبا باللغة العربية ، لأن طابعه تعليمي ، و أغلبه مكرور ، وأن الابداع النظري في اللسانيات قليل عندنا ، على حين أن الدراسات القطاعية في الصوتيات والنحو والصرف والمعجم والدلالة تشهد توسعا مطردا . ويتناول الفصل الثاني « موضوع العلم » من خلال اللغة بين المعيار والاستعمال ، ففي الجانب الذي يكون فيه النحاة وفقهاء اللغة والقدماء ومن يتابعهم،يظهر « المعيار » الذي أريد له أن يسيطر على اللغة ، إذ يتحكم بالاستعمال تقويما وتقييما .

بنية العلم

ثم يتحدث المؤلف في الفصل الثالث عن « بنية العلم » التي تتمثل في « الأنساق الدلالية » ، وهي الدلالة الطبيعية ، والدلالة المنطقية،والدلالة العرفية . فالدلالة الطبيعية تكون حين نقرن بين حقيقة ظاهرة بأخرى غائبة استنادا إلى سبب معلوم ، كأن يستدل الانسان بما يلاحظه من تكاثر الغيوم على أن المطر قادم ، وكما يستدل الطبيب من خلال ما يلاحظه من عوارض ظاهرة على نوع المرض الذي يشكو منه المريض .

أما الدلالة الثانية فهي خاصة بالمنطق الذي يتحول فيه الفكر من الحقائق الحاضرة إلى الحقائق الغائبة عن طريق السبل العقلية ، وأهم هذه السبل : البرهان

القاطع والقرائن الراجحة ـ الظنية ـ والاستدلال الرياضي . والدلالة الثالثة هي العرفية ، وهي ليست كما سبق من أنواع الدلالة القائمة على سبب وعلة ، أو تلك التي تستند إلى مسلك عقلي ، بل هي مواضعة يصطنعها الانسان ، فلا يتاح لغير العارف بها أن يلم بما تشير إليه ، لأنه لاموجب لاقتران العلامة بما وضعت له إلا المواضعة والاتفاق الاجتماعي .

ويتقدم المؤلف في الفصل الرابع إلى « حد العلم » ليدرس « مقومات الحدث اللغوي » بين العلامة والرمز . وأول ما يشار إليه ههنا أن منطلق الدرس يقوم على تقاطع اللسانيات والعلامية أو السيمياء ، إذ اطرد في كثير من البحوث الافتراض المنسوب إلى سوسير ، وهو الذي يذهب فيه إلى أن هناك علما يوشك أن ينبثق ليدرس العلامات جميعا ، كإشارات الصم البكم ، ونظام المآكل والعادات الاجتماعية ونحوها . أما اللغة فهي جزء من هذا العلم المفترض ، لأنها نظام من العلامات أيضا . لكن المؤلف يرى عكس هذا إذ ينطلق من تعريف للرمز والعلامة ينتهي منه إلى النتيجة المغايرة كما سنرى ، فالرمز يقوم على قرينة ، كدلالة السحاب على المطر ، واصفرار الوجه على المرض . والرمز أيضا يقوم مقام غيره ، أي أنه يتحول من الدلالة بذاته على ذاته ، إلى الدلالة بذاته على غيرذاته ، كالسيف الذي يغدو رمزا للقوة أو العدل .

وفي الفصل الخامس يحدد المؤلف « مراتب الظاهرة اللغوية » ، وتقوم هذه المراتب استنادا إلى الكليات الذهنية ، على الظاهرة العامة ، والظاهرة النوعية ، والظاهرة الفردية ، ويجري تطبيق هذا على اللغة ، فتكون الظاهرة اللغوية فردية « الكلام » ، ونوعية « اللسان » ، وعامة « اللغة » . وتجدر الاشارة إلى أن المؤلف ههنا يؤصل مفاهيم ترجع إلى سوسير أيضا ، وهذا ما يظهر في معظم الجوانب المنهجية ، فاللغة بحسب ما ذهب إليه المؤلف ظاهرة عامة ، تصدق على كل لسان من ألسنة البشر ، وهي مجموعة من الخصائص التي يرصدها اللساني من جماع الألسنة ، فتكون محل اشتراك بينها ، من ذلك أنها ـ أي اللغة ـ رابطة حضارية ثقافية وليست فعلا غريزيا ، وهي فعل نفساني وظاهرة اجتماعية ، كذلك هي ظاهرة من ظواهر العقل والادراك . أما اللسان فهو مجال لتحقيق الظاهرة اللغوية عبر مجموعة من القواعد المتواضع عليها ، لذلك عد اللسان خروجا باللغة من حيز القوة الى حيز الفعل واللسان هنا إما عربي أو أجنبي ، فلكل أمة لسانها ، ويختلف الكلام الذي يمثل الظاهرة الفردية في خصائصه عن اللسان ، لأن الكلام حدث فردي ، ينتج من مجموعة الصور المختزنة في الذاكرة الجماعية التي يمثلها اللسان ، فالانسان يختص بجانب مما يندرج تحت اللسان ، لأنه لايستخدم في كلامه كل رصيد معجمي أو تركيب نحوي أو بناء صرفي ، بل يستخدم قطاعا محدودا بحسب التكوين الثقافي والاختصاص المهني.

الزمانية والآنية

ويتحدث المؤلف في الفصل السادس عن « الزمانية والآنية » ، وهما المنهجان الأساسيان في الدرس اللساني ، فالزمانية منهج تدرس به الظواهر اللغوية عبر تطورها التاريخي ، وقد تقلب هذا المنهج بين غلبة المنزع التاريخي وسيطرة قوانين التطور المستخلصة من « داروين » صاحب « أصل الأنواع » . أما المنهج المقارن الذي استوى على يد « بوب » فقد بقي ضمن الاطار التاريخي الذي استوعب منازع شتى لم يكن أحدها يخرج على حدود ذلك الاطار . ونجد في الجهة المقابلة الآنية وهي منهج يعنى بدراسة الظواهر اللغوية وغيرها في حيز زمني محدد ، قد يكون يوما أو سنة أو قرنا . ومن الواضح أن هذا المنهج لا يتوقف عند التسلسل التاريخي قبلا وبعدا ، بل يركز اهتمامه في الظاهرة المدروسة من حيث البنية والنظام . ولقد أضاف « سوسير » بهذا المنهج إضافة كبرى ، ليس على صعيد اللسانيات فحسب ، بل على أصعدة أخرى كثيرة . كذلك كان هذا المنهج سببا لبزوغ البنيوية

التي عبر «سوسير» عن مبدئها ، وإن لم يكن قد صرح بها مصطلحا .

أما الفصل السابع فقد خصص «لتوظيف العلم» في مجال تعليم اللغات ، وما له من اتصال باللسانيات التطبيقية . ويتناول المؤلف ههنا قضية الاكتساب والتحصيل المعرفي من خلال الوجهتين التربوية واللغوية . وهو يرى في هذا الصدد أن من الضرورة بمكان أن يكون للساني مكان في إعداد برامج تعليم اللغات والكتب المقررة لذلك ، إضافة إلى المعلمين المحترفين وممثلي الادارات المعنية . ويشير المؤلف إلى عدد من المدارس اللسانية التي عنيت بإشكالية الاكتساب والتحصيل ، لا سيما المدرسة السلوكية ، ومدرسة اللسانيات التحويلية .

وفي الفصل الثامن ـ الأخير ـ يتحدث المؤلف عن «لغة العلم» من خلال «الوضع والحمل» . وهما من مفاهيم المناطقة . «فالموضوع» قد تكون مادته العلمية طبيعية أو عضوية أو صورية ، إذ من الممكن أن تكون حجارة أو خلية عصبية أو فكرة مجردة ، على حين أن (المحمول) يكون دوما خطابا لغويا . أما في حالنا هذه ونحن في هذا العلم اللساني فإن «الموضوع» هو خطاب لغوي . ولذلك يكون «المحمول» خطابا أنشيء على خطاب . وعلى هذا تكون اللغة الموضوعة هي النص في المحاورة الكلامية ، وفي الأدب والدين والتاريخ ، أما اللغة المحمولة فهي خطاب علم اللسان والأدب وعلم الدين وعلم التاريخ .

الوصفية والمعيارية

ولنا بعد هذا العرض الذي شمل البحث جملة أن نقف عند بعض ما أثاره المؤلف من مسائل تتطلب مزيدا من الكشف وتدقيقا في الموقف ، من ذلك أنه ورد في سياق الحديث عن عقبات اللساني العربي في الفصل الأول أن المعركة بين الوصفية والمعيارية أسهمت في إساءة الظن باللسانيات . والسبب في ذلك اطراد الظن بأنها تنحو نحوا وصفيا ينبذ كل موقف معياري ، والحق أن ما ذكره المؤلف هناك صحيح ، لكن قضية هذين المنهجين تتخذ في التطبيق أبعادا لها خطرها على العربية موضوع الدرس ، فليس كافيا في رأينا أن نقرر بأن هذين المنهجين ليسا ضدين كما فهم معظم الدارسين ، بل هما منهجان لا يقعان في وقت واحد ، فهما إذن يتناوبان ولا يتعارضان ، إنما ينبغي أن نتوقف مطولا عند المآل الذي يفضي إليه المنهج الوصفي في دراسة العربية الفصحى ، فالضوابط المعيارية تشكلت عندنا لحفظ العربية الفصحى من آثار التبدل الجذري ، فكان من ذلك حفظها ومنع تشعبها إلى لهجات متنافرة قد تتخذ صورة تشبه ما آلت إليه اللاتينية . والعربية عندنا ليست ميدانا محايدا تطبق عليه التقنيات الحديثة التي استخلصت من نتائج قد لا تكون صالحة دوما .

وإن ما نرتضيه ههنا ـ وهو ما نؤكده دوما ـ هو أن تطبيق المنهج الوصفي ينبغي أن يكون ضمن سياج معياري واسع لضمان توجيه النتائج لصالح العربية الفصحى لغة التراث والحضارة والحياة المتجددة ، فلا بأس إذن من الافادة من المنهج الوصفي الذي لا شك في مبلغ الحاجة إليه في بعض الحالات شريطة أن نضع في حسابنا أننا في درسنا للعربية أمام ظاهرة قد تكون فريدة إذا ما قورنت باللغات الأخرى ، وهي اتصال الأصول المتنامية داخليا في تطورية مستمرة حافظت على التوازن بين اتجاهي المحافظة والتجديد . وفي ضوء هذا التوجه يكون درس اللهجات القديمة موظفا ، وإن اتخذ الوصفية منهجا ، في رفد الفصحى وتفسير بعض ظواهرها وما يتصل باتجاهات التطور فيها .

وتبقى جوانب هذا البحث جميعا شاهدة على الجهد الموفق الذي بذله المؤلف الدكتور المسدي . وهو الذي أضاف بهذا المصنف إضافة لها أهميتها ، لأنها جاءت على هيئة التنظير الواعي الذي لم يقم على الاقتباس والتلخيص أو التبسيط والتعليم بل على تمثل المعطيات العلمية أجنبية وعربية ، ثم تقديمها في نسق جديد ، فيه من التفاعل المثمر بين التراث والمعاصرة ما يخطو باللسانيات إلى موقع العلم العربي . □

مكتبة العربي

مختـــارات

الكتاب : فتحية تختار موتها - قصص
المؤلفة : ليلى العثمان
الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت
عدد الصفحات : ٢٠٨ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٧

بعد روايتين تلتا مجموعاتها القصصية الثلاث . تعود الكاتبة الكويتية ليلى العثمان إلى عالمها الأثير ، عالم القصة القصيرة ، بعبارتها الصريحة وجملتها الجزئية وتصويرها الجميل الدقيق لحياة الكويت القديمة على وجه الخصوص .

في هذه المجموعة القصصية التي جاءت تحت عنوان « لا يصلح للحب » ، تأخذ ليلى العثمان من بحر ذكرياتها ، صور الحياة البسيطة لمجتمع بسيط هو مجتمع الكويت القديم ، برموزه التي تنشرها الكاتبة عبر قصصها على شكل عبارات كانت تستخدم في ذلك الزمن ، أو أسماء لأدوات كانت رائجة الاستخدام ، أو حوار يحمل معه عبق ذلك الماضي الذي لم يكن سعيدا دائماً .

■■

الكتاب / مذكرات كورت فالدهايم
ترجمة / عيسى بشارة
الناشر / دار الكرمل للنشر والتوزيع - عمان
عدد الصفحات / ٢٩٠ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

وضع الأمين العام السابق للأمم المتحدة والرئيس الحالي لجمهورية النمسا مذكراته قبل أن يصبح هدفا لحملة صهيونية شرسة ، استهدفت شخصه وماضيه ، لكنها لم تكن بعيدة عن حاضره السياسي حيث كان يستعد لخوض انتخابات الرئاسة في النمسا .

ومع أن هذه المذكرات لا تغطي الفترة التي استهدفتها الصهيونية ، وهي الفترة التي كان خلالها فالدهايم يقوم بمهام عمله كمترجم في يوغسلافيا . إلا أن عين القارىء لا تخطىء السبب الحقيقي الذي تحول فالدهايم من أجله إلى هدف للصهيونية ، ونعني بذلك تلك الفترة التي سبقت حرب اكتوبر ٧٣ العربية الاسرائيلية والتي أعلن فيها اعترافه بحقوق الشعب الفلسطيني ، وعام ١٩٧٥ حين اتخذت المنظمة الدولية قرارا يعتبر الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية .

■■

الكتاب / الفتى النهر . . والجنرال - شعر
المؤلف / ابراهيم نصر الله
الناشر / دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان - بيروت
عدد الصفحات / ٣٠٥ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

في كتابه الشعري السادس يجمع الشاعر الفلسطيني ابراهيم نصر الله مجموعة من قصائده « الحوارية » الطويلة التي كتبها أخيرا والتي يؤلف بينها الهم الفلسطيني باعتباره همّ شعب وهمّ فرد ، وهم ذات ترصد البطولة الفردية وتمجدها ، وتشهد في الوقت نفسه اخفاقاتها في التحول الى فعل شعبي عظيم .

ولعل ما يميز هذا الكتاب عن كتب الشاعر

الأخرى ، هو المدى الشعري الفسيح الذي يرسم عليه ابراهيم نصر الله صوره الشعرية الغنية ، وانثيالاته التي تملأ ببساطة وجمال هذا المدى الشعري .

يضاف إلى هذا كله تلك اللغة الشعرية الثرية ، وتلك المقدرة على تحويل كلام اليوم العادي الأليف الى شعر ايحائي جميل .

■ ■

الكتاب / الانسان ورموزه
المؤلف / كارل غوستاف يونغ
ترجمة / عبد الكريم ناصيف
الناشر / دار منارات للنشر ـ عمان
عدد الصفحات / ٣٠٤ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

* آخر كتاب لعالم النفس الشهير يونغ يخاطب فيه هذه المرة المثقف العادي وليس علماء النفس الكبار الذين كثيرا ما كان يلتقي بهم ويناقش أفكارهم ، ويطرح لهم بالمقابل أفكاره وآراءه .

وهذا الكتاب الذي حمل عنوانا فرعيا هو « سيكولوجيا العقل الباطن » هو تجميع لعدة مقالات قام بكتابتها بعض أنبغ تلاميذ يونغ ومعاونيه ، وجمعت ووجهت من قبل يونغ نفسه ، فيما قام العالم الشهير بكتابة أول فصول الكتاب وهو بعنوان « مقاربة العقل الباطن » .

والى جانب بحث يونغ الرئيسي ضم الكتاب مقالات عن الأساطير القديمة والانسان الحديث ، وعملية التفرد الرمزية في الفنون البصرية ، والرموز لدى تحليل الفرد ، وكتبت خاتمة الكتاب م ل فون فرانز التي أشرفت على استكمال الكتاب بعد وفاة يونغ أثناء عملية الاعداد .

■ ■

الكتاب / أوراق متناثرة
اعداد / الدكتور / رياض العلمي ـ الجزء الاول
الناشر / شركة المكتبات الكويتية ـ الكويت
عدد الصفحات / ٣٥٤ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

أوراق متناثرة هو الاسم الذي اختاره المؤلف لكتابه هذا ، والذي جمع فيه مجموعة من المقالات المتنوعة حول عدد من القضايا والشخصيات والأشياء التي نراها أو نسمع عنها أو نقرأ عنها .

وتتراوح هذه الأوراق بين تعريف بمرض عضوي أو بحقيقة علمية أو شخصية تاريخية ، أو اكتشاف علمي جديد .

وحتى ينظم المؤلف هذه الموضوعات المتنوعة ويجمعها بين دفتي كتابه هذا ، قسم الكتاب إلى ستة فصول عرض فيها لعجائب الطبيعة ونعمها ، وتراثنا المجيد ، واختراعات واكتشافات كوارث وأسماء لامعة وغيرها . □

كفى ما أحاط بالعنق

قال أبو عبيدة : سألت أبا نواس عن رأيه في رجل فقال : ثقيل الظل ، جامد النسيم ، فقلت : زد ، فقال : مظلم الهواء ، منتهن الفناء ، فقلت : زد ، فقال : غليظ الطبع ، بغيض الشكل ، قلت : زد ، قال : وهم الطلعة ، عسر القلعة ، فقلت : زد ، فقال : بارد الحركات قلت : خفف عنه ، قال : زدني سؤالا أزدك جوابا فقلت : كفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

العربي - العدد ٣٥٦ - يوليو ١٩٨٨

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٥٦

يوليـو ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت ، مسابقة العربي العدد يوليو) ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ أغسطس ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٥٦

١ أين توجد أقدم كنيسة في العالم ؟

- في سوريا .
- في روما .
- في الحبشة .

٢ ترى ما الفرق الأساسي بين الكنائس والكاتدرائيات والأديرة ؟

- لافرق بينها ، فكلها كنائس معدة لصلاة المسيحين .
- لافرق بين الكنائس والأديرة ، فهي معدة لصلاة المسيحين ، أما الكاتدرائيات فهي أماكن معدة للاحتفالات الدينية ، والرسمية .
- لافرق بين الكنائس والكاتدرائيات ، فهي معدة لصلاة المسيحين ، أما الأديرة فمعدة لسكن الرهبان والراهبات .

٣ اشتهرت مدينة (بيزا) الايطالية ببرج (بيزا) المائل ، واشتهرت بالكاتدرائية والمباني الملحقة بها أيضا ، وهي قائمة على مقربة من البرج المائل . ترى ما العلاقة بين الصرحين ؟

- البرج المائل ماهو إلا برج الأجراس الخاص بالكاتدرائية .
- لاعلاقة بينهما ، فالبرج سياحي ، والكاتدرائية دينية كما هو معروف .

٤ أين توجد أضخم كنيس (معبد يهودي) في العالم ؟

• في نيويورك .
• في القدس عند حائط المبكى .
• في لندن .

٥ ما هي أضخم الكاتدرائيات في العالم ؟
• كاتدرائية القديس لوجنا في نيويورك .
• كاتدرائية سانتا ماريا في اشبيلية .
• كاتدرائية باسيليكا القديس بطرس الجديدة في روما .

٦ ما هي أشهر كاتدرائية في أوروبا تميزت بالطراز القوطي وظفرت بمزيد من اهتمام مشاهير الكتاب من أمثال فيكتور هوجو ؟
• كاتدرائية نوتردام في باريس .
• كاتدرائية ميلانو .
• كاتدرائية كولون (كولن) في ألمانيا .

٧ السير الكسندر (رن) مهندس معماري انكليزي شهير ، عاش فيما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ترى ما هي أهم آثاره الهندسية ؟
• كاتدرائية سنت بول .
• ابراج كنيسة وستمنستر (أبي) .
• مدينة لندن كلها ، وذلك إثر الحريق الذي أتى عليها سنة ١٦٦٦ .

٨ أين يجري تتويج الملوك الانجليز ؟
• في كنيسة وستمنستر المعروفة باسم (أبي) .
• في كاتدرائية وستمنستر .
• في دير وستمنستر .

٩ من المعروف أن مايكل انجلو ، أحد عمالقة الفن في عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، قد ترك آثارا ولوحات فنية رائعة على سقف إحدى الكنائس في روما . ترى أي كنيسة تلك ؟
• كنسية سيستين في الفاتيكان .
• كنيسة القيامة ببيت المقدس .
• كاتدرائية ستنا ماريا في اشبيلية .

١٠ تختلف المقدسات باختلاف المذاهب والأديان ، فالهندوس مثلا يقدسون مياه نهر الجانجس ، والبوذيون يقدسون تماثيل بوذا الذهبية . فأي الفرق تقدس المرآة ، بل مرآة واحدة معينة ، وأين توجد هذه المرآة ؟

١١ (أيا صوفيا) متحف معروف في اسطمبول ، كان مسجدا في الماضي القريب ، وكنيسة في الماضي البعيد . ترى ما الاسم الذي أطلق على تلك الكنيسة ، على وجه الدقة ؟ وماذا يعني ذلك الاسم ؟

١٢ ماهي الكنيسة التي شيد بالقرب منها مسجد عمر رضي الله عنه في بيت المقدس ؟
ـ كنيسة القيامة .
ـ كنيسة المهد .
ـ كنيسة القديسة مريم .

حل مسابقة العدد ٣٥٣ ابريل ١٩٨٨

١ أطول آيات القرآن الكريم هي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة ، يبلغ عدد كلماتها (١٢٨) كلمة .

٢ سياسة اللاعنف التي اشتهر بها غاندي زعيم الهند الراحل لم تكن من ابتكاره أو ابتكار أعوانه وأتباعه ، بل كانت مقتبسة أو مستمدة من مذهب الجينيين ، فقوام معتقدات هذا المذهب تقديس الحياة

٣ أعياد رأس السنة : تقول أعياداً لأن المسيحيين وغير المسيحيين يحتفلون بها ، ولا علاقة لها بالدين المسيحي أو غير المسيحي ، وإنما بالوثنية ، فقد احتفل الوثنيون بمثل هذه الأعياد ، ثم سارت على منوالهم الامبراطورية الرومانية ، وسار على منوال هذه الامبراطورية شتى شعوب العالم .

٤ بلغ مجموعهم ٢٦٦ بابواً ، أولهم القديس بطرس ، حسب معتقدات الكنيسة الكاثوليكية .

٥ اسمها (مهابهارتا) أي (الملحمة العظيمة لأسرة بهارتا العظيمة) ، وقد استغرق نظم أبياتها البالغ عددها ١٠٠,٠٠٠ نحو أربعة قرون ، من سنة ٢٠٠ ق . م . إلى سنة ٢٠٠ م .
وهي أهم النصوص المقدسة في الديانة الهندوكية .

٦ يبلغ عدد الراهبات في الكنيسة الكاثوليكية نحو مليون راهبة ، وبالتحديد ٩٢٦,٣٣٥ (إحصاء ١٩٨٦) ، أما عدد الذكور من المنتظمين في سلك الرهبنة في الكنيسة الكاثوليكية فلا يكاد يبلغ نصف مليون راهب ، وهم مقسمون كالتالي : رهبان (٤٠٥,٩٥٩) ، أساقفة (٣١٠٢) ، كبار أساقفة (٧٣٠) ، وكاردينالات (١٤٦) .

٧ النرفانا حالة من السمو النفساني والأخلاقي ، يبلغها المرء في حياته الدنيا لو أراد ، فبلوغها يفترض القدرة على كسر الأغلال (أغلال كارما) التي تقيد كل إنسان ، وبذل الجهود للسير على صراط النبل المستقيم ، بمراحله الثمانية ، فالنرفانا تمثل إذن التحرر من طغيان الجسد .

٨ تقوم الزرادشتية على عبادة إلهين ، إله الخير الذي يسمونه (أهورا مزدا) أو (أورموزد) ، وإله الشر الذي يسمونه (انجرا ماينيو) أو (أهريمان) .
ويعتقد أصحاب هذه الديانة أن الالهين في صراع دائم ، وأن الغلبة ستكون لإله الخير في آخر الأمر .
وزرادشت أو زرائوسترا هو مؤسس الديانة الزرادشتية التي وجدت في القرن السادس عشر قبل الميلاد حسبما يؤكد أكثر المؤرخين .

٩ المورمون هم أتباع كنيسة يسوع المسيح لقديسي اليوم الأخير ، وهذا مذهب حديث أسسه جوزف سميث في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد بدأ حركته في بالميزا في ولاية نيويورك ، ثم انتقل إلى كير تلند في أوهايو ، حيث أسس المذهب ، لكن الصدام بينهم وبين جيرانهم أدى إلى مقتل زعيمهم سميث وأخيه سنة ١٨٤٦ ، فهاجر المورمون إلى غرب الولايات المتحدة ، إلى يوتاه ، حيث أسسوا مدينة سولت ليك سيتي .

١٠ ادعى اليهود انهم اضطهدوا في المانيا وفي غيرها من بلدان ، ولكنهم اوقعوا ظلمهم واضطهادهم على الفلسطينيين وعلى غيرهم من العرب ، بل واحتلوا اراضي الفلسطينيين وطردوهم منها .

١١ المذهب اللامي من المذاهب البوذية التي انتشرت في التبت حوالي سنة ٦٤٠ ميلادية ، إلا أن البوذيين يعتبرون هذا المذهب منحرفا عن عقيدتهم ، ومن مظاهر انحرافه اعتقاده بأن (اللاما) ليس بشرا عاديا ، حتى إذا مات راحوا يبحثون عن المولود الجديد الذي تتقمصه روح اللاما الميت . لا عجب إذن ان كثر رهبان هذا المذهب ، حتى بلغت نسبتهم ٢٥٪ من مجموع اللاميين ، لكن ذلك كله قد تغير اعتبارا من سنة ١٩٥٩ ، حين اجتاحت جيوش الصين بلاد التبت ، وانتهى بذلك حكم الدالاي لاما للبلاد .

١٢ جمع البخاري (٧٣٩٧) حديثا ، وجمع مسلم (٧٢٧٥) حديثا ، ولو استبعدنا المكرر لكان مجموع أحاديث مسلم (٤٠٠٠) حديث ، ومجموع أحاديث البخاري (٢٧٦٢) حديثا !

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٣ أبريل ١٩٨٨

١ ـ د . صبري أحمد عبد السلام / مركز تدريب أطباء الأسنان / دمنهور / مصر .
٢ ـ منجية بنت الهادي بالنور / مدنين ـ المعهد / تونس .
٣ ـ أحمد محمد نورفكي / المدينة المنورة / السعودية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ علي صالح اسماعيل الجميلي / محافظة الانبار / العراق
٢ ـ جاسر محمود أحمد نمر عبد الهادي / الفحاحيل / الكويت
٣ ـ مرام فلاح الطويل / عمان / الاردن
٤ ـ رانية عبد الله قباني / دمشق / سوريا
٥ ـ مازن محمد جابر / المعمورة / بيروت / لبنان
٦ ـ خالد علي أحمد / تعز / الجمهورية العربية اليمنية
٧ ـ عبد المطلب محمد نورفكي / بورسودان / السودان
٨ ـ خسرو اسماعيل / ستوكهولم / السويد

معركة بلا سلاح

منذ ما يقرب من نصف قرن كتب اللاعب الألماني الكبير سيجبرت تاراش يقول : « من الجنون أن يبدأ اللاعب دوره بجامبيت الملك » . وبعد أقل من ربع قرن دَحض الأمريكي بوبي فيشر (بطل العالم ٧٢ ـ ١٩٧٥) هذه الافتتاحية ، وأثبت فشلها ، أما اليوم فإن معظم أبطال العالم يستهينون بها ، ويعتبرونها أثرا بائدا من آثار عصور الطيش والتضحيات الرعناء ، ومع كل هذا الشجب والتنديد فإن هذه الافتتاحية العنيدة تأبى أن تختفي كلية من ميدان الصراع الدولي .

ويعتبر بوريس سباسكي الروسي سابقا والفرنسي حاليا (بطل العالم ٦٩ ـ ١٩٧٢) أكبر مناصر لهذه الافتتاحية في السنوات الثلاثين الماضية ، لكنه يندر أن يلجأ إليها في لعبه ، مما ينسي خصومه أنها واحدة من افتتاحياته المفضلة ، فيهملون الاستعداد لها في مبارياتهم معه ، وهو ما حصل فعلا في مباراته الأخيرة مع البطل الأمريكي الجنسية السوري الأصل ياسر السيروان في مونبيليه في فرنسا ، فقد استخدمها سباسكي ضده لتوجيه ضربة موجعة ، للحصول على نصر سريع .

ومن العسير معرفة السبب الذي حدا بياسر السيروان الذي يعرف جيدا الردود الصحيحة على هذه الافتتاحية التي تبدأ ب ٠٣ . . . . . . ز ٤ أن يختار دفاعا ضعيفا ، مثل ٠٣ . . . . . . ح ـ هـ ٧ وبعدها ٠٦ . . . . . . ح ـ ز ٣ ، والتي قابلها الأبيض ب ٠٧ جـ ٤ ! ، وربما يكون الأمل قد راود البطل الشاب أن يتحسن دوره في النقلة السابقة (ف ـ هـ ٧) ، لكن هذا الأمل سرعان ما تبدد عندما نقل سباسكي ملكه الى (و ٢) ، وهي نقلة بارعة ، كان يمكن أن تؤدي الى الفوز بالوزير لو تسرع الأسود بأخذ الحصان مجانا ، كما أن محاولة إيقاف تقدم (حـ ٤) بتقديم (حـ ٥) فاشلة ، لكونها تضعف درع بيادق الأسود ، وبخاصة بعد ٠٨ ف ـ و ٤ . وقد سار الدور كما يلي :

□ سباسكي	■ ياسر السيروان
١ ـ هـ ٤	هـ ٥
٢ ـ و ٤	هـ × و ٤
٣ ـ ح ـ و ٣	ح ـ هـ ٧ ؟
٤ ـ د ٤	د ٥
٥ ـ ح ـ جـ ٣	د × هـ ٤
٦ ـ ح × هـ ٤	ح ـ ز ٦
٧ ـ حـ ٤	و ـ هـ ٧
٨ ـ م ـ و ٢ !	
(فخ بديع)	ف ـ ز ٤
٩ ـ حـ ٥	ح ـ حـ ٤
١٠ ـ ف × و ٤	ح ـ جـ ٦

(ح ـ د ٧ كان يمكن أن تؤدى الى خسارة قطعة ، لكن النقلة البديلة كانت كارثة محققة) .

١١ ـ ف ـ ب ٥	ت ت (طويل)

١٢ ـ ف × جـ ٦	ب × جـ ٦
١٣ ـ و ـ د ٣	ح × و ٣
١٤ ـ ز × و ٣	ف ـ و ٥
١٥ ـ و ـ أ ٦ +	م ـ ب ٨
١٦ ـ ح ـ جـ ٥	ف ـ جـ ٨
١٧ ـ و × جـ ٦	ر × د ٤ (الشكل)

أفضل الردود ، لأن الأبيض يهدد بكش مات بنقل الرخ الى هـ ١ ثم هـ ٣ ثم ب ٣ +

١٨ ـ ر أ ـ هـ ١	ر × و ٤ (مضطرا)
١٩ ـ و ـ ب ٥ +	م ـ أ ٨
٢٠ ـ و ـ جـ ٦ +	م ـ ب ٨
٢١ ـ ر × هـ ٧	ف × هـ ٧
٢٢ ـ ر ـ د أ	ر ـ و ٦
٢٣ ـ ح ـ د ٧ +	ف × د ٧
٢٤ ـ و × د ٧	ر ـ د ٨
٢٥ ـ و ـ ب ٥ +	م ـ جـ ٨
٢٦ ـ ر × د ٨ +	ف × د ٨
٢٧ ـ و ـ أ ٤ (مناورة)	ز ٥
٢٨ ـ و × أ ٧	ر ـ و ٤
٢٩ ـ و ـ أ ٦ +	م ـ ب ٨
٣٠ ـ و ـ د ٣	ف ـ هـ ٧
٣١ ـ و × حـ ٧	ز ٤
٣٢ ـ م ـ ز ٣	يستسلم

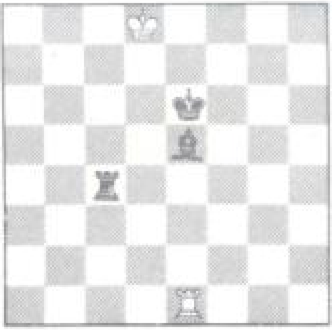

مسألة العدد يوليو ٨٨ رقم ٣٥٦

الأسود يلعب ويميت في ٣ نقلات أو يفوز بالدور

حل مسألة عدد مايو ٨٨ رقم العدد ٣٥٤

١ ـ و × ز ٦   ز × حـ ٦
٢ ـ ز ـ ز ٧ (مات)

الفـائزون في حـل مسـابقـة الشطرنج العدد ٣٥٣ (ابريل ١٩٨٨)

● الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . رضا بن محمد ـ صفاقس / تونس
٢ . محمد احمد عبد الرحمن ـ المنوفية / ج م ع
٣ . مصطفى المقطري ـ صنعاء / اليمن
٤ . سامي يوسف عبد الله ـ عمان / الأردن
٥ . فتحية الطيب البدوي ـ مناجدا / السودان

● الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . عبد الله الصوفي ـ صوفيا / بلغاريا
٢ . عبد المجيد الحوليلي ـ خريبغة / المغرب
٣ . أنصار أنور يوسف ـ كريتر / عدن
٤ . محمد الحسن محمد ـ الخرطوم / السودان
٥ . فوزي نور الدين ـ الداخلة / ج م ع

حوار القراء

العربي - ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت

لغة الحوار الحضاري

الحوار الحضاري في أي مجتمع من المجتمعات هو دليل صحي ، كذلك القبول بمبدأ الاختلاف فيما بين أفراده ، والتسليم به ، وقبولهم بمبدأ المجادلة بالتي هي أحسن ليفرض الأحسن من الآراء وجوده بلا عنف ولا إكراه ولا شقاق ، فعن طريق ذلك نستطيع أن نحصل على نتائج حضارية أكثر إشراقا وأكثر إيجابية من اتباع الأساليب التي لاتقوم على المحاكمة العلمية الهادئة .

إن مسؤولية الإعلام تكمن في إبراز هذا الجانب المنطقي من حياتنا المعاصرة ، إن أردنا أن نسير في هذه الحياة إلى الأمام وليس إلى الوراء أو الدوران في حلقة مفرغة في أحسن الأحوال . لكن ذلك لايعني تكريس هذا الاختلاف وجعله قدرا مقدورا .

طارق محمد جبر - الحدود الشمالية - المملكة العربية السعودية

■■■

الجديد في علاج أمراض السكر

أنا مصاب بمرض السكري ، وأصبح وضعي الآن يزداد سوءا بسبب هذا المرض ، وقد قرأت أخيرا خبرا أوردتموه في العدد ٣٥١ لشهر فبراير ١٩٨٨ (صفحة ١٦١) لاستعمال الأنسولين عن طريق الاستنشاق ، فهل لي بالحصول على عنوان المؤسسة التي ابتكرت هذه الطريقة أو تلك المادة المستعملة لهذا الغرض ؟

سهيل الميداني : المكتب العربي للتجارة والهندسة (دمشق)

العربي

عنوان الشركة المعنية لن يفيدك أبدا ، ذلك أن أسلوب تناول الأنسولين استنشاقا عن طريق الأنف مازال قيد التطوير .

وتجدر الاشارة هنا إلى أسلوب آخر لتناول الأنسولين - غير الحقن بالابر - والمقصود هنا ضغط الأنسولين عبر الجلد بواسطة جهاز ضغط خاص ، والجهاز الجديد نسبيا يدفع الهرمون إلى داخل الجسم دون أن يسبب للمريض أي إزعاج ، أي أنه يحقن الأنسولين دون أي وخز بالإبر ، ودون أي مضايقة . والجهاز المذكور صغير الحجم ، خفيف الوزن ، متوافر في الأسواق العالمية ، تصنعه كندا والولايات المتحدة وبريطانيا ودول أخرى كثيرة ، وأغلب الظن أنه متوافر في الأسواق السورية أيضا .

وثمة ميزة أخرى لجهاز ضغط الأنسولين المذكور ، وهي أنه يقوم بخلط أنواع الأنسولين المختلفة - العاجلة الأثر والآجلة - خلطا محكما للجرعة التي يحتاجها المريض وإعدادها إعدادا متقنا دقيقا إلى أبعد الحدود .

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

علم الاتصالات الكهربائية

السيد الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد ،

أبعث بتحيات نابعة من القلب لهذه المجلة الرائعة التي تزخر بكل ما يحتاجه العقل والوجدان العربي من علوم ومعرفة وتوجيه ، فمن موضوعات علمية إلى أخرى أدبية وغيرها فنية وكثير غيرها من الأبواب ، للتسلية والمتعة والفائدة .

وسؤالي هو : هل باستطاعتكم نشر مقالات كثيرة عن علم الاتصالات الكهربائية ، فالكهرباء هي مادة العصر ، ودونها لا يستطيع الإنسان أن يعيش ، فهذا هو عصر الاتصالات من تلفاز وهاتف وحاسوب (كمبيوتر) وبرق وبريد ، وما إلى ذلك من وسائل الاتصالات الكثيرة ، وأن تتناول هذه المقالات بعض التفصيل عن هذا العلم الواسع ، وعن وسائله وأجهزته المختلفة ؟

تقوم المجلة بنشر العديد من المواضيع العلمية في كل عدد ، كما تلاحظ ، وعلم اتصالات الكهرباء أحد فروع العلم التي تهتم بها المجلة ضمن سياستها لنقل كل ما هو حديث للقارىء العربي ، ليزداد معرفة وإدراكا بالتطور والتقدم ، والمجلة على استعداد لنشر كل ما هو جديد مفيد للقاريء في هذا المجال أو غيره .

■ ■ ■

أسعار بيع مطبوعات العربي والاشتراكات

وصلتنا رسائل عديدة من القراء الأعزاء ، يستوضحون فيها عن كيفية الاشتراك في مطبوعات مجلة العربي ، وعن طريقة تحصيل مبالغ الاشتراكات ، وكيفية احتساب تحويل العملة ، ويقولون بأن هذه المطبوعات تباع في أقطارهم بأسعار أعلى من السعر المنصوص عليه ضمن قائمة الأسعار في المجلة .

نود أن نوضح لكل من استفسر بأن جميع الاشتراكات الخاصة بمطبوعات « مجلة العربي » أو العربي الصغير أو كتاب « العربي » يتفق عليها مباشرة مع قسم الاشتراكات في المكتب بوزارة الاعلام ص . ب ـ ١٩٣ ـ الكويت ، وذلك بتحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام ، أما بخصوص الأسعار المرتفعة التي يطلبها بعض الباعة فإننا نود لفت انظار الجميع بأن السعر الرسمي هو السعر المنشور داخل المطبوعات ، أما غير ذلك فلا دخل للمجلة به ، ويعتمد على أمانة البائعين . وعلى العموم فإنه من الأفضل للقراء الأعزاء شراء المجلة مباشرة من دور التوزيع المنتشرة في جميع المناطق التي تصلها مطبوعاتنا .

حوار القراء

شؤون الرياضة

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد ،

أحب أولا أن أعبر لكم عن مدى ما أكنه لمجلتكم من حب وتمنيات بالتوفيق ومواصلة مشوارها الطويل الرائع شكلا وموضوعا ، من حيث طريقة الإعداد ، وحسن تنسيق المواد . ونظرة سريعة على أعوامها الطويلة ، سوف نجدها مليئة بالأحداث الجسام ، والأعوام الثلاثون في عمر مجلة ليست بالأمر البسيط ، ذلك أن « العربي » تعيش الأحداث وتعايشها ، وتؤثر فيها وتتأثر بها ، وهذا يعني أن هذه المجلة لو لم تكن معبرة عن شعبنا العربي ، تتحسس أهدافه ، فإنها لن تستطيع أن تواصل الصدور ، لكنها دائما متجددة متطورة . وقد أثار إعجابي تحليل الأستاذ عادل الشريف في عدد العربي ٣٥٢ مارس ١٩٨٨ ، حول « الألعاب الأولمبية لها تاريخ » ، وهو موضوع يستحق كل تقدير . وأحب أن أنوه أن هناك تناقضا في اهتماماتنا الرياضية ، حيث إن اهتمامنا في الوطن العربي ينصب على لعبة كرة القدم ويهمل بقية الألعاب ، لذلك فإننا نأمل من الكتاب أن يوافوا مجلتنا القراء « العربي » بكل ما يدور عربيا عن تلك الألعاب الشهيرة ، والكتابة عن بعض الرياضيين العرب البارزين في غير مجال كرة القدم ، ونأمل من « العربي » على الرغم من أنها مجلة ثقافية أن تلقي بعض الضوء على الأحداث الرياضية العربية .

يحيى السيد النجار

دمياط ـ جمهورية مصر العربية

العربي

نشكرك على رسالتك الرقيقة ، ونود أن نخبرك بأننا نولي جميع الموضوعات كل اهتمام ، وقد نشرت « العربي » في عدد شهر مارس ١٩٨٨ استطلاعا عن سيول حيث تنظم دورة الألعاب الأولمبية ١٩٨٨ ، أما تخصيص صفحات للحديث عن شؤون الرياضة العربية فإن طبيعة المجلة لاتسمح بذلك ، حيث إن هناك مجلات عربية متخصصة تقوم بهذا الدور .

■■■

معهد العالم العربي

القارىء سمير سعد الحميد من القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ يثني على الجهد الذي بذل في استطلاع معهد العالم العربي في باريس الذي نشرته المجلة في عدد فبراير ١٩٨٨ ، ويطلب تزويده بعنوان المعهد ، ونحن بدورنا نشكره على رسالته ، ونود أن نذكره بأن عنوان المعهد منشور ضمن الاستطلاع ، وهو : زاوية رصيف سان برنار بالدائرة الخامسة ، باريس .

مكتشفون ومخترعون

كانت هناك زاوية بعنوان « مكتشفون ومخترعون » ، لماذا لم نعد نحظى بشيء من هذا ؟!

عبد الكريم اليونسي ـ تادف ـ حلب

إن حرصنا على التنويع والتجديد هو الذي يحملنا على إيقاف باب من أبواب « العربي » واستحداث باب آخر ، ومن يدري فقد لا يمضي زمن طويل حتى نعود إلى الزاوية المذكورة ، على أن نتأكد أولا أن عودتنا هذه تصادف رغبة أكيدة لدى الكثيرين من قرائنا .

العربي

■■■

كيفية الحصول على "العربي" في مصر

كيف يمكن الحصول على مجلة « العربي » في مدينة نصر ، بجمهورية مصر العربية ؟

عبدالحليم عبد التواب
مدينة نصر : جمهورية مصر العربية

العربي

يتولى توزيع « العربي » بمدينة نصر وسائر المناطق بجمهورية مصر العربية مؤسسة الأهرام للتوزيع والنشر ، ويمكنك الاشتراك مباشرة عن طريق مكاتب المؤسسة المنتشرة في أنحاء الجمهورية .

■■■

اقتراحات متنوعة

يقترح القارىء محمد حماد برهوم من كلية التجارة جامعة القاهرة بجمهورية مصر العربية أن تقوم المجلة بجمع الاستطلاعات المصورة في كل عام ، وإصدارها في كتاب واحد تيسيرا للقراء الذين لا يستطيعون الحصول على المجلة بانتظام ، إضافة إلى أنه سيكون بمثابة موسوعة مصورة .

القارىء خيري نجاح من بغداد يقترح استحداث العديد من الأبواب في المجلة ، مثل « العربي بين السائل والمجيب » ، وصفحة لنشر التراث العلمي العربي والعالمي .

القارىء علي محمد الجمالي « ذمار » الجمهورية العربية اليمنية يقترح أن تقوم المجلة بعمل استطلاع عن اليمن في ظل التقدم المتواصل في جميع المجالات .

القارىء أحمد عبدالله العقرباوي ـ عمان ـ الأردن يثني على العدد ٣٥٣ لما احتواه من مواضيع متنوعة ، ويخص بذلك قصة « الذاكرة المثقوبة » للكاتب عبدالحميد بن هدوقة ، ويقترح أن تقوم المجلة بإصدار مجموعة قصص منشورة في « العربي » ، ضمن كتاب « العربي » الذي يصدر مؤقتا فصليا .

القارىء محمد نجيب عنبر ـ جامعة حلب ـ كلية العلوم ـ سوريا يقترح على المجلة أن تزيد من المواضيع العلمية وأن تقوم باستطلاع عن مدينة حلب ، مدينة الأدباء والعلماء في عصور النور العربية والاسلامية .

حوار القراء

القاريء أشرف محمد أحمد طيل من محافظة شمال سيناء مدينة العريش ـ جمهورية مصر العربية ـ يشيد بجهود المجلة في تعميق الروابط بين أبناء الوطن العربي ، ويود لو أن المجلة قامت بعمل استطلاع عن محافظة شمال سيناء بجمهورية مصر العربية .

القاريء أمقيما محمد ، من أغادير ـ بالمملكة المغربية يطالب بعمل استطلاع عن مدينة أغادير بالمملكة المغربية التي تمتاز بجمال الطبيعة واعتدال الطقس وموقعها الجغرافي المتميز .

القاريء غالب عبد الله القرني ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض ـ يرغب في اعطاء الموضوعات العلمية الزراعية في باب (طب وعلوم) مقداراً أكبر من الاهتمام ، كما يشكر المجلة على الاستطلاع الذي قامت به في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية .

والمجلة تود أن تبدي شكرها للقاريء على اهتمامه ، أما بخصوص نشر الموضوعات العلمية المتعلقة بالزراعة في المجلة فهي تخضع للالتزام بتنوع الموضوعات المنشورة وأهميتها ، والمجلة تحرص على نشر كل ما هو جديد وحديث في باب العلم والمعرفة . □

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

- تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .
- هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .
- ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام .

- تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني | نائب رئيس التحرير: د . سليمان ابراهيم العسكري

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

جائزة الكويت

تمشيا مع أهداف مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وتحقيقا لأغراضها في تدعيم الانتاج العلمي وتشجيع العلماء والباحثين ، تقوم المؤسسة بتخصيص جوائز في مجالات العلوم والآداب والفنون والتراث وذلك وفق برامجها السنوية . وتسجل المؤسسة من خلال هذه الجوائز اعترافها بالإنجازات الفكرية المتميزة التي تخدم التقدم العلمي وتساعد على النهوض بالمجهودات المبذولة لرفع المستوى الحضاري في مختلف الميادين .

وموضوعات جائزة الكويت لعام ١٩٨٨ في المجالات الخمسة هي كما يأتي :

١ ـ العلوم الأساسية : الكيمياء الحيوية Biochemistry

٢ ـ العلوم التطبيقية : لسانيات الحاسوب العربية وتطبيقاتها
Arabic Computational Linguistics and Applications

٣ ـ العلوم الاقتصادية والاجتماعية : اقتصاديات التعليم العالي في الوطن العربي
Economics Of Higher Education in the Arab World

٤ ـ الفنون والآداب : البلاغة العربية Arabic Rhetoric

٥ ـ التراث العلمي العربي والاسلامي : العلوم الجيولوجية والجغرافية في التراث العربي
Geology and Geography in Arab Heritage

وتخصص المؤسسة سنويا في كل مجال من المجالات المذكورة جائزتين مقدار كل منهما (١٠٠٠٠ د . ك .) عشرة آلاف دينار كويتي ، جائزة للواحد (أو أكثر) من أبناء دولة الكويت وأخرى للواحد (أو أكثر) من أبناء البلاد العربية الأخرى . كما تقدم المؤسسة مع الجائزة النقدية درع المؤسسة وشهادة تقديرية تبين مميزات الانتاج بصورة مختصرة .

ويتم منح جائزة الكويت وفق الشروط الآتية :

(١) يجب أن يكون الانتاج مبتكرا وذا أهمية بالغة بالنسبة الى الحقل المقدم فيه ومنشورا خلال السنوات العشر الماضية .

(٢) ألا يكون المرشح قد نال جائزة عن الانتاج المقدم من أية جهة أخرى .

(٣) تقبل المؤسسة طلبات المتقدمين وترشيحات الجامعات والهيئات العلمية كما يحق للأفراد الحاصلين على هذه الجائزة ترشيح من يرونه مؤهلا لنيلها . ولا تقبل ترشيحات الهيئات السياسية .

(٤) يتضمن الترشيح السجل العلمي للمرشح ونبذة مختصرة عن حياته وانتاجه ومبررات ترشيحه لنيل الجائزة .

(٥) لايعاد الانتاج المقدم الى مرسله سواء فاز المرشح أو لم يفز .

(٦) لاتقبل الاعتراضات على قرارات المؤسسة بشأن منح الجوائز .

(٧) على الفائز أن يقدم محاضرة عن الانتاج الذي نال الجائزة بسببه .

(٨) تقبل الترشيحات ابتداء من ١/٤/١٩٨٨ ولغاية ٣١/١٠/١٩٨٨ مشفوعة بأربع نسخ من الانتاج المقدم .

ترسل الترشيحات ، والاستفسارات بشأن الجائزة ، على العنوان الآتي :

السيد مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ص . ب . ٢٥٢٦٣ ـ الصفاة الكويت 13113

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يوليو ١٩٨٨ م

اقتصاديات الإسكان

تأليف: د. إسماعيل درة

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٢٧

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير : د. عبدالمحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة ، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره .

توجه المراسلات إلى : رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:

أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية.
ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية.
جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.

- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- الاشتراك السنوي بالمجلة

أ) داخل الكويت: ٢ د.ك للافراد ١٠ د.ك للمؤسسات
ب) الدول العربية: ٢,٥٠٠ د.ك للافراد ١٢,٠ د.ك للمؤسسات
جـ) الدول الاجنبية: ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي :
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت ، الرمز البريدي 72451

المقر: جامعة الكويت - الشويخ
هاتف: ٤٨١٦٨٧ ، ٤٨١٦٧٩٩ ، ٤٨١٦٨٣٤ ، ٤٨١٤٢٩٥

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها
جامعة
الكويت

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى : رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص.ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف : ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس : ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية : محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر : كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٤٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١ .
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء .

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٦ أول يوليو ١٩٨٨

العاصفة الرّعدية

تأليف : الكسندرا استروفسكي
ترجمة وتقديم : د. هاشم حمادي
مراجعة : د. فوزي عطية

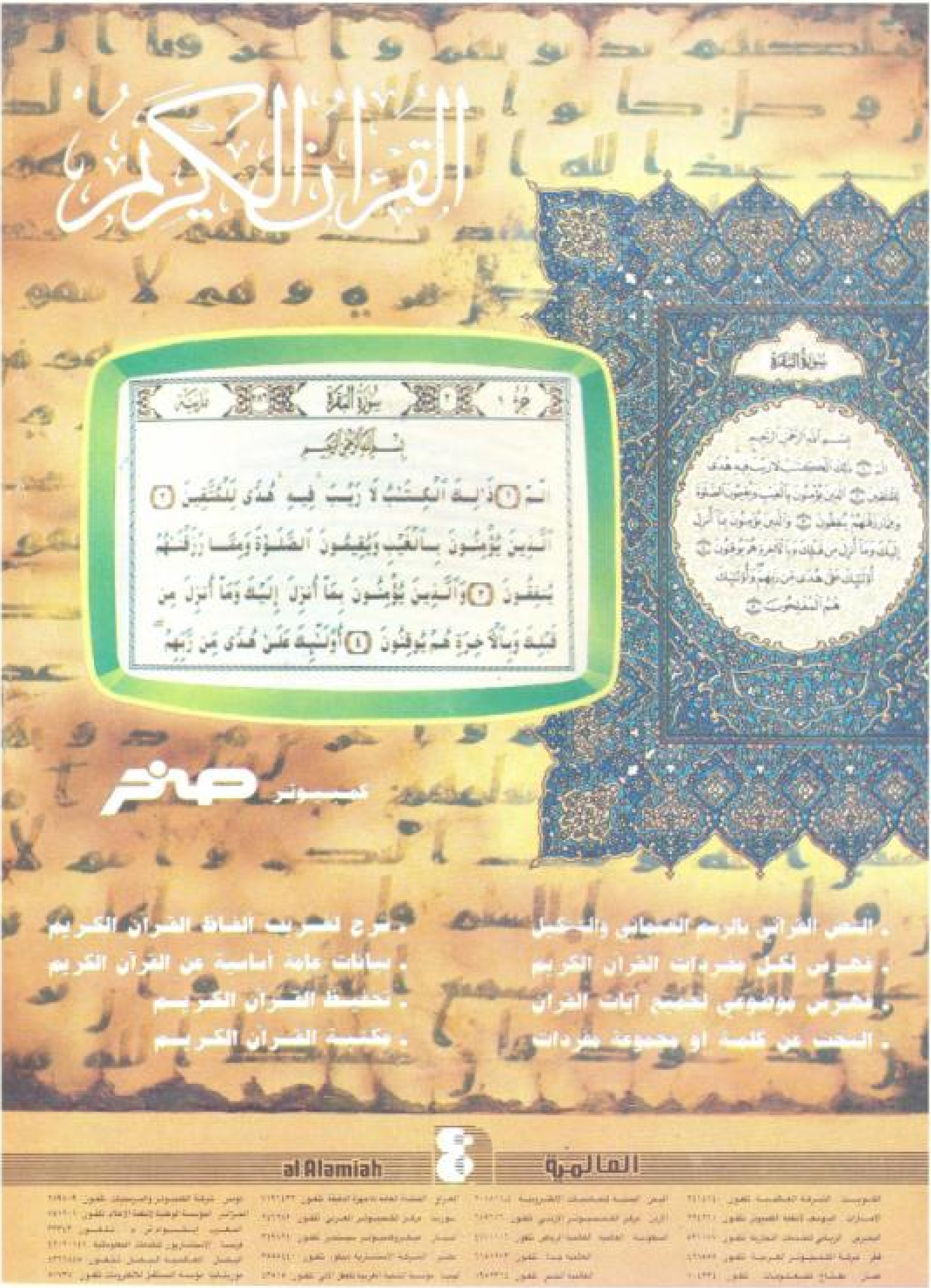

القرآن الكريم
كمبيوتر صخر
. فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
. فهرس موضوعي لجميع آيات القرآن
. البحث عن كلمة او مجموعة مفردات
. شرح لغريب ألفاظ القرآن الكريم
. بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
. تحفيظ القرآن الكريم
. مكتبة القرآن الكريم
al Alamiah
العالمية

ذو الحجة ١٤٠٨ هـ - أغسطس (آب) ١٩٨٨ م

العربي

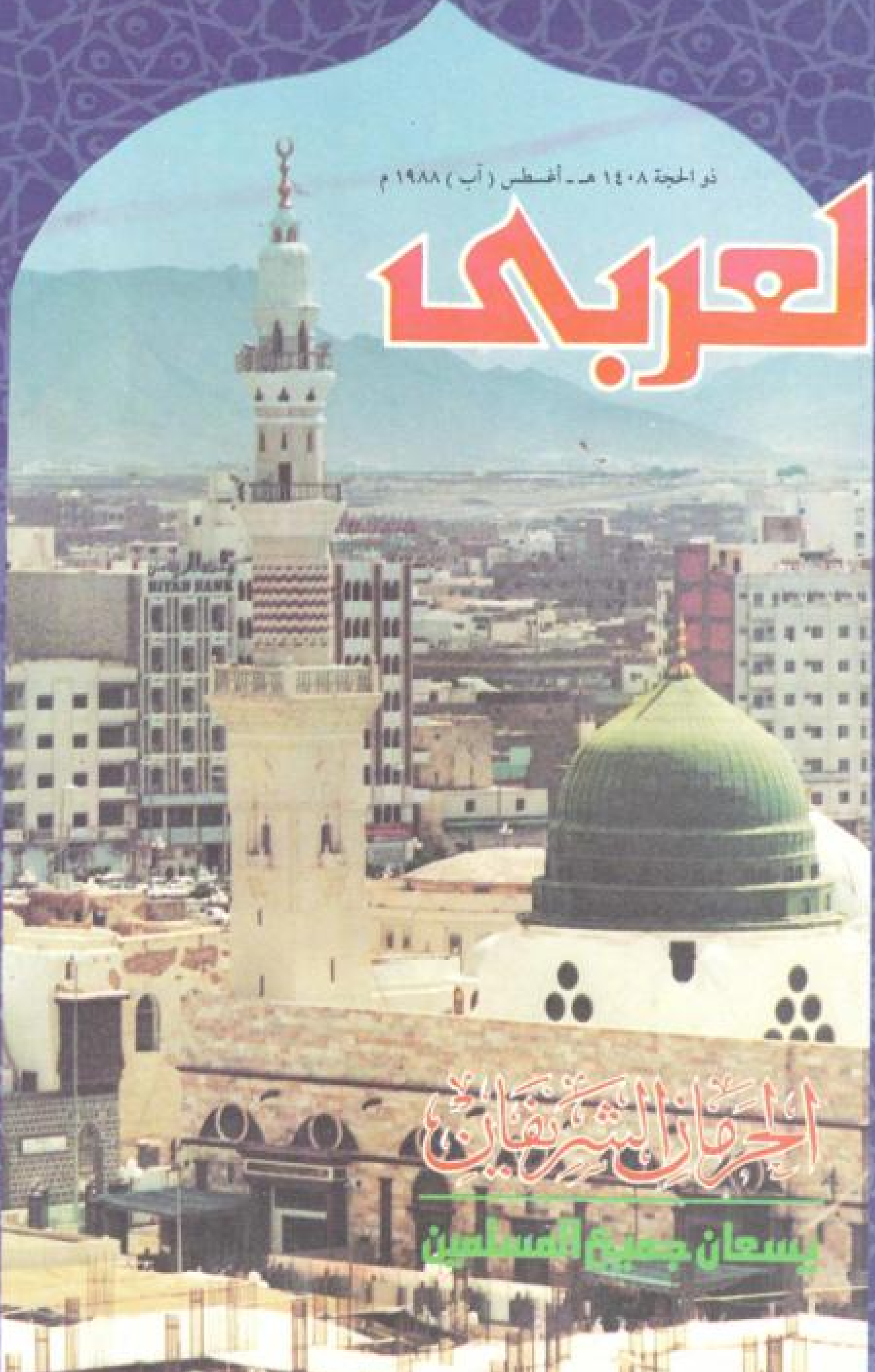

الحرمان الشريفان

يسعان جميع المسلمين

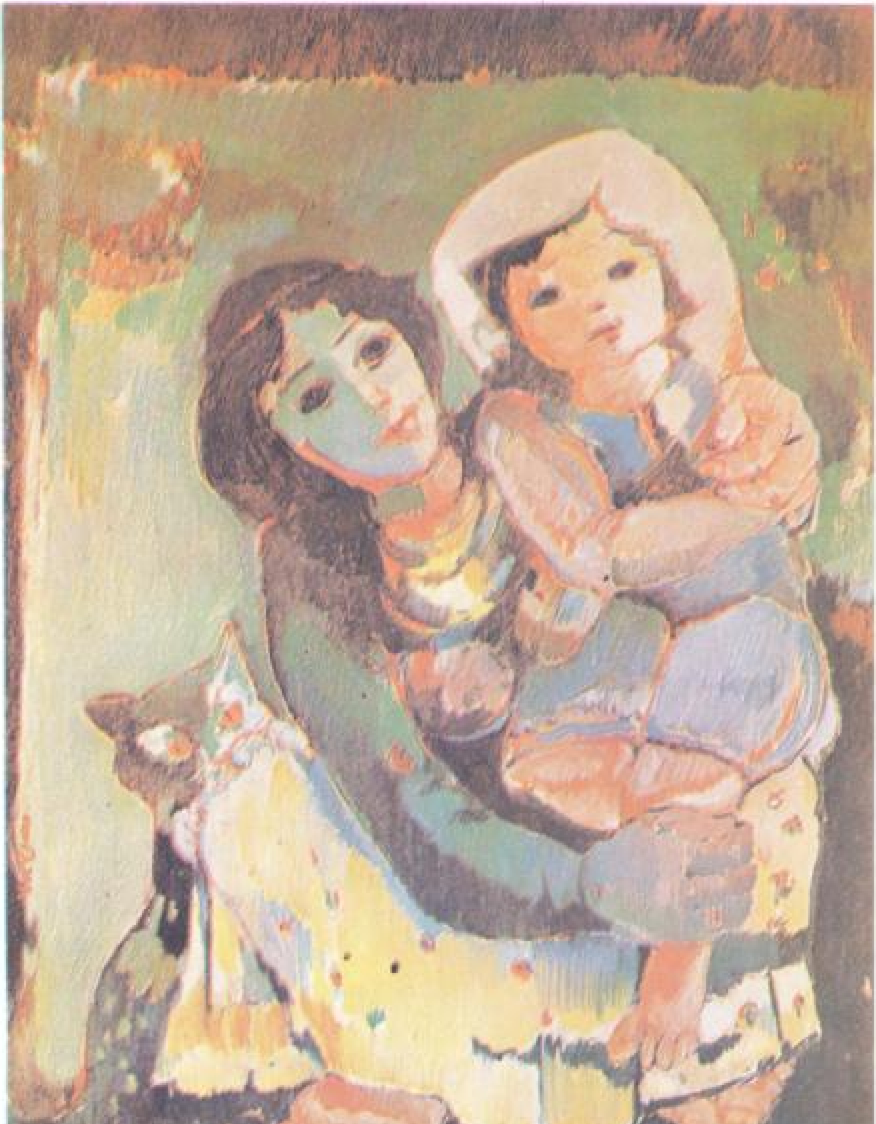

«عائلة»

للفنان السوري فائق دحدوح

العــدد ٣٥٧ السنة الحادية والثلاثون أغسطس ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 357 Aug. 1988, P.O.Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة
ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 ـ الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقيًا : "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

الاشتراكات
ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الإعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلسًا	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلسًا	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهمًا
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسًا	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشًا	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكًا
السودان ٢٠ قرشًا	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : للبيت رب يحميه
ـ د. محمد الرميحي ٨
■ أرقام : من يدفع أكثر ؟
ـ محمود المراغي ٤٠

عروبة وإسلام :

■ نموذج عربي في نظرية « الوحدة الطبيعية » .
ـ د. محمد جابر الأنصاري ١٨
■ حقيقة موقف الاسلام من الشعر
ـ د. مصطفى رجب ٢٣
■ الاسلام واشكالية الفكر الحضاري .
ـ د. محمد ابراهيم الفيومي ٤٩

استطلاعات مصورة :

■ الحرمان الشريفان يسعان جميع المسلمين .
ـ سليمان مظهر ٦٨
■ « تاخودكا » السوفيتية الصدفة التي انقذت امريكا !
ـ سليمان الشيخ ١٣٢
■ صرح للتدريب شعاره خدمة التنمية ورعاية
الشباب في الكويت .
ـ ريم الكيلاني ١٥٢

طب وعلوم :

■ قصة قرحتين : المعدة والاثنا عشر .
ـ د. صباح السامرائي ٣٦
■ حكايات طبية
ـ د. غسان حتاحت ٦٣
■ دون المناقير ماذا كانت ستفعل الطيور ؟
ـ عبدالرحمن الحريتاني ٨٨
■ الاتصال اللغوي عن طريق الجلد
ـ د. أحمد مختار عمر ١٠٦
■ « الكمبيوتر » في جيله الخامس .
ـ علي زين العابدين ١٢١
■ الجديد في العلم والطب .
ـ اعداد يوسف زعبلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٢٩

« تاخودكا » السوفيتية الصدفة التي انقذت أمريكا ! ص١٣٢

صرح للتدريب شعاره خدمة التنمية ورعاية الشباب في الكويت .... ص ١٥٢

أدب وفنون :

■ ستونوة للضياء الأخير ! (قصيدة)
- علي الجندي ٣٨
■ قراءة نقدية لكتاب : « ليلة القدر »
- أبو المعاطي أبو النجا ٤٢
■ الضحية (قصة مترجمة)
- الشريف خاطر ٥٣
■ حوار في باريس .. داء كل زمان !
- د. عبدالسلام العجيلي ٦٠
■ كوخ الهوى (قصيدة)
- د. عيسى درويش ٩٦
■ اللغة والبلبل (قصيدة)
- د. عبده بدوي ١١٢
■ الصرخة (قصة)
- قصي الشيخ عسكر ١١٣
■ جمال العربية :
- صفحة لغة : جابر والرتيلاء
- د. حسن عباس ١٧٦
- صفحة شعر : ومن الشعر ما أنصف
للشاعر عبدالشارق الجهني ١٧٨

منتدى العربي :

■ قضية : زحف العرب على المدينة ، خصائصه

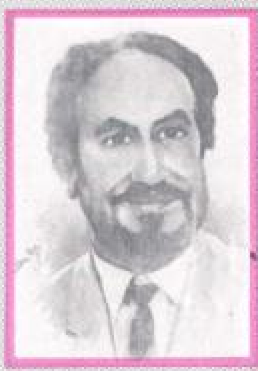

وجها لوجه :
د. سعد الدين
ابراهيم
.... ص ٩٧

المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

ومستقبله .
ـ د . مصطفى عمر التير ١١٦
■ تعقيب : قياس الغائب على الشاهد
ـ عمر بخشاري ١١٨

تربية وعلم نفس :

■ الفكاهة طب نفسي
ـ د . عبدالحميد يونس ٣٠

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ وجها لوجه : د . سعدالدين ابراهيم
ـ د . محمد حافظ دياب ٩٧
■ الاتجاه جنوبا نحو الابداع الأفريقي
ـ خالد عباس ١٠٢

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : رؤية سوفيتية في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية .
ـ د . نوفل نيوف ١٨٣
■ من المكتبة العربية : القدس والمدن الفلسطينية تحت الحكم العسكري الإسرائيلي .
ـ محمد بيومي ١٩٠
■ كتب (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٦
■ الكلمات المتقاطعة ١٨٢
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٤) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

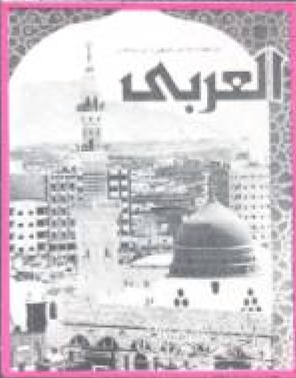

صورة الغلاف

انطلقت « العربي » لتتابع مراحل تنفيذ أكبر عمارة تجري في أرض الله الطيبة لاستيعاب جميع المسلمين الذين يأتون للحج ، من أركان الأرض الأربعة . فكان لابد من التوسعة الأضخم للحرمين الشريفين .

(طالع الاستطلاع ص ٦٨)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ خرجن من الشام وارتفع صوتهن في القاهرة
ـ شفيق العمروسي .. ١٦٢
■ عناد الطفل هل هو دليل ذكاء ؟
ـ د . نبيه الغبرة ١٦٧
■ هو . هي ١٧٠
■ طبيب الأسرة : التسمم الغذائي .. اجتهادات متباينة
ـ د . حسن فريد أبوغزالة ١٧٢
■ مساحة ود : هكذا تنتهي القصص
ـ صلاح حزين ١٧٥

عزيزي القارئ

في اجتماع هيئة تحرير العربي أول الصيف ، بدأنا نعد عدتنا لاستقبال السنة الجديدة ، وعادة نطرح في هذا الاجتماع قضايانا الرئيسية ، وقضايا الثقافة العربية ، وهموم القاريء ، وماذا نريد أن نقدم ، أو بالأحرى ماذا يتوقع منا القاريء أن نقدم له .

وكان هناك أربعة محاور رئيسية تعرضنا لها في هذا الاجتماع :

ـ الأول أن القاريء عموما يقرأ شيئا يحبه أو شيئا يحتاجه ، أي أن المقال أو الاستطلاع الذي يستهوي القاريء إنما هو ذلك الذي يجد فيه معلومة جديدة مشوقة ، فهو يقرؤه منفعة ومتعة . وكانت المعادلة الصعبة التي نذأب دائما للوصول إلى حل لها هي : كيف يمكن لنا في « العربي » أن نقدم لقارئنا مادة يحتاجها ، وفي نفس الوقت يحبها . ؟

وكما يقال فإن السؤال الصحيح هو نصف الإجابة ، وقد سألنا أنفسنا السؤال الصحيح .

ـ أما المحور الثاني الذي ناقشناه استعدادا للقادم من الأيام ، فهو قضية (المعلوماتية) ، فنحن نرى أن القاريء العربي لم يعد يهتم كثيراً بالرومانسية بمعناها الخيالي غير العلمي ، فنحن في عصر تقدمت فيه الشعوب نتيجة لاهتمامها بالمعلومات ، وتقديمها إلى أجيالها ، سواء كانت هذه المعلومات تقنية أو غير ذلك ، كمعلومات جديدة في التاريخ والاجتماع والسياسة ، أو في علوم الأحياء والطبيعة ، وقد جعلنا هدفنا أن نفعل ذلك .

ـ أما المحور الثالث الذي أخذ نقاشه منا وقتا طويلا فهو كيف يمكن لنا أن نشجع الأقلام الجديدة الواعدة ، فليس من شك أن هناك الكثيرين من الجيل الجديد ممن لديهم رغبة طموحة في المساهمة بالكتابة . و« للعربي » معاييرها في ذلك . وعندما استعرضنا مجموعة من أعدادنا السابقة وجدنا أننا قدمنا أقلاما جديدة واعدة دون التضحية بالمستوى العالي الذي تتوخاه العربي دائما .

ولكن الهدف مازال أمامنا ، وقد قمنا في السابق ، وسنقوم في المستقبل بنشر كل ما يصلنا من نتاج الجيل الجديد إن كان على مستوى ممتاز ، كالذي تحرص العربي على تقديمه لقرائها . وتلك أيضا قضية ليست بالهينة .

ـ أما المحور الرابع الذي كان مجال نقاشنا فهو الإخراج والطباعة . ويبذل قسم الاخراج في العربي جهدا مضاعفا بدأناه منذ شهور لتجديد شكل الإخراج ، كما أننا نزف إلى القاريء الكريم خبر حصولنا على مطابع جديدة ، بدأ بعضها العمل اعتبارا من هذا العدد .

وهكذا عزيزي القاريء نجد أن عملية إنتاج مجلة ثقافية لايمكن أن يكون عملية تلقائية ، فالمجلات كالبشر وكأي شيء حي آخر ، إن لم نعتن بها ونتابع عملها عن قرب فسيفوتها الكثير مما نحب أن نقدمه للقاريء .

ونحن بانتظار اقتراحاتك وآرائك نتمنى لك صيفا جميلا ، وقراءة ممتعة أيضا . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

«للبيت رب يحميه»

تهوي أفئدة المسلمين إلى المسجد الحرام ، الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، متمثلة في ذلك كل شعائر الحج ومعانيه الكبرى ، فالاحرام والطواف بالبيت العتيق والسعي والوقوف بعرفة هو تحرر للحجيج من زخرف الدنيا وزينتها ، حيث تتداخل طوائفهم وألوانهم ، أعمارهم وأجناسهم ، غنيهم وفقيرهم ، وقد طرحوا عنهم طوعا كل ما يذكرهم بالفرقة واختلاف الديار والأمصار متوجهين إلى ربهم المعبود الواحد الأحد ، في صعيد واحد تفرد به الاسلام ويستجيب له المسلمون في كل عام .

ان موسم الحج يذكرنا على مرور السنين بعظمة البيت العتيق الذي تهوي اليه أفئدة المؤمنين ، ملبين في نداء واحد :

لبيك اللهم لبيك .

ولقد درج المفكرون المسلمون على اختلاف اجتهاداتهم على التفريق بين التأدية الجسدية الظاهرية للحج : من إحرام وطواف وسعي والوقوف بعرفات ورمي الجمرات وتقديم الهدي ، وبين المضمون الروحي العظيم لاجتماع

المسلمين لتعظيم شعائر الله ، بما فيها من حكمة ودعوة الى الوحدة والحوار .
وقد أبدع حجة الاسلام الغزالي في بيان روح الحج عندما قال « ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا ، متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، خضوعا لجلاله واستكانة لعزته ، مع الاعتراف بتنزيهه عن ان يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم ، وأتمّ في اذعانهم وانقيادهم » .
هذه المعاني نجدها تتكرر لدى المتقدمين والمتأخرين من مفكري الاسلام المستنيرين ، وهي الاعتراف بأن الشكل الظاهري لأداء المناسك ما هو إلا طريقة تقودنا الى هدف أكبر وأسمى ، هدف ـ هو في كلماتنا الدارجة اليوم ـ إجتماعي وسياسي ، ثقافي وروحي .
إن مناسك الحج إقامة وارتحال ، وربط وحل ، وعقد وإبرام ، ووصل وهجر ، لا خضوع لعادة ولا إجابة لشهوة ، ولكنه اجتماع للمسلمين لاظهار قوتهم وجمع كلمتهم ضد الباطل كجموع ، وتذكيرهم كأفراد أو مجموعات صغيرة بضعفهم مهما بلغت منزلتهم الاقتصادية أو الاجتماعية .

الحج في التاريخ :

وعندما نقلّب صفحات الكتب ونتتبع تاريخ هذا البيت العتيق ـ المسجد الحرام بمكة ـ تتعدد لدينا الروايات ، فيتفق كثير من الباحثين على ان الجغرافي بطليموس ، يعد من أقدم من أشار إلى مكة وأوردها بالاسم « مكربا » ومن سرده يمكن الاستنتاج أنها كانت بلدة عامرة في القرن الثاني للميلاد ، يؤمها التجار والسابلة ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها كانت معروفة وموجودة قبل هذا التاريخ بزمن طويل .
ويعتقد بعض الدارسين أن نبع الماء زمزم هو السبب في نشوء هذا المركز القدسي التجاري . وتظل الروايات التاريخية تتوارد بكثرة حول تاريخ مكة ، جاء في بعضها أن أبانا آدم ـ بأمر من الله تعالى ـ قد بنى هذا البيت الحرام في وادي مكة ، وعلى تعاقب الأجيال والقرون كان موضعا مباركا يحج إليه الناس التماسا للرحمة والمغفرة ، وإن كان قد أتى عليه البلى وكاد يندثر فلم يبق من آثاره إلا أكمة ، كما جاء في الأخبار أن سيدنا ابراهيم عندما أراد أن يسكن زوجه الثانية هاجر وولده منها إسماعيل بعيداً عن زوجه الأولى سارة ، قادته الملائكة إلى نفس المكان الذي تقوم فيه آثار البيت العتيق ، وتوجه إلى ربه داعيا : « **رَبَّنا إني أسكنتُ مِنْ ذُرِيّتي بوادٍ غير ذي زرع عِندَ بيتِكَ المُحَرَّم** ،

حرّم الإسلام عادات أهل الحِلّ في الطواف عرايا فنزلت كلمة الله: "خذوا زينتكم عند كل مسجد"

رَبّنا ليُقيمُوا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً مِن النّاس تهْوِي إليهم وارزقهم من الثمراتِ لعلهم يشكرون » (٣٧ ـ ابراهيم) .

وعندما نفد الماء من هاجر ـ وبدأ طفلها يبكي من العطش ـ طفقت تبحث عن الماء وظلت تسعى بين الجبلين : الصفا والمروة سبع مرات حتى قارب ابنها الموت عطشا ، وأكرمها الله فنبع الماء من تحت قدمي الغلام وأخذت الأم تغرف بيديها وتقول : « زمّي يا مباركة زمّي » ومن هنا جاء اسم زمزم لهذا النبع في بطن الوادى .

وغنى عن الذكر أن مكة قد تحولت منذ زمن طويل الى مركز تجاري ، بل أكبر مركز تجاري في غرب الجزيرة العربية،واستقطب البيت الحرام تعظيم غالبية العرب ، فقد كانت في مركز وسط بين الرحلة الى اليمن السعيد في الجنوب ، وروابي الشام الخضراء في الشمال ، وقد خلد القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف كما وصف مكة بأنها أم القرى ولها مكانتها الدينية والتجارية وحولها أسواق حفظها لنا تاريخ الأدب العربي كعكاظ ومجنة وذى المجاز .

الحج ومواسم العرب في الجاهلية :

لقد استقطب البيت الحرام تعظيم غالبية العرب في الجاهلية . على الرغم من أنهم (بدواً وحضراً) كانوا يعظمون الأصنام التي وضعوها بفناء الكعبة لتكون شفعاءهم عند الله لتمثيل الأرباب ، فقد كانوا يعتبرون الكعبة أعظم وأكبر من هذه الأصنام .

ويؤكد القرآن الكريم حقيقة إقرار الجاهليين بإله أعظم للكعبة أسموه (الله) في حين كان لأربابهم مسميات مختلفة مثل « هبل واللات والعزى ومناة » فيقول جل شأنه :

« **وَلئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلقَهم ليقولُنّ اللهُ** » (٨٧ ـ الزخرف) .

كما يقول « **وَلئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنّ خَلَقَهُنّ العزيزُ العليمُ** » (٩ ـ الزخرف) .

كما تقول لنا كتب التاريخ إن الجاهليين كانوا يحجون البيت فيُحرمون ويطوفون بالبيت ، ويتمسحون بالحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة وقد أقر الاسلام بعض تلك الشعائر وهذّب ونقى بعضها الآخر ، بل حرّم بعض الشعائر التي تشق على النفس أو لا تتناسب والأخلاق الحميدة وليس في ظاهرها أو باطنها حكمة ترتجى .

يحدثنا الأزرقي في تاريخ مكة* عن أشكال الحج في الجاهلية ، فيعطينا صورة واضحة لاهتمام العرب بالبيت العتيق واحترامهم له فيقول :

إن العرب على دينين (مذهبين أو طريقتين) فهم « حِلة أو حمس » . وقبل الذهاب في تفاصيل طريقتيهما للحج نقول : إن الحُلة هم من يرى التحلل من الثياب والطواف في أول حجة يحجها عريانا ، الرجال بالنهار والنساء بالليل إلا إذا أعاره حمسي ثوبه طاف به وإلا طاف عريانا .

وهم يقولون لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ، وإن طاف الحلة في ثيابهم لم يحل لهم أن يلبسوها أبداً ولا ينتفعون بها ، وكانوا يطرحونها بعد الطواف فلا يمسها أحد حتى تبلى من الشمس والأمطار ووطء الأقدام . أما الحمس فتعني في اللغة « المتشددين في الدين » وكانت قريش حمسا وكذلك كثير من القبائل العربية ، وكانت قريش إذا أنكحوا عربيا امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو احمسي على دينهم . وكانت مناسكهم في الاحرام متشددة ، فهم بالاضافة إلى أمور أخرى لا يأكلون السمن ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون أو ينسجون الشعر والوبر ولا يستظلون به ، إنما يستظلون بالأدم (وهو الجلد المعد للخيام) ولا يأكلون شيئا من نبات

* أخبار مكة وما جاء فيها من آثار ، تأليف أبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة .

«الإنساء» وكيف استخدمه العرب في الجاهلية؟

الحرم ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم ، وإذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وكان من أهل المدر ـ أي أهل البيوت والقرى ـ نقب نقبا في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ويحرم على نفسه الدخول من الباب . فإن أرادوا بعض أمتعتهم وأطعمتهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطح ثم ينزلون في حجراتهم .

هذا الغلو قد أبطله الاسلام برسالته العظيمة بكلمات واضحة لها معان جليلة ، فقد قال عز وجل في ذلك : (**وَلَيْسَ البِرُّ بأن تَأْتُوا البيوتَ مِنْ ظهورها ولكنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا البيوتَ مِنْ أبوابها**) (**١٨٩ ـ البقرة**) كما حرم الله عز وجل عادات أهل الحل في الطواف بلا ملابس فقال في كتابه الكريم : « **خُذُوا زينتكم عند كلِّ مسجدٍ** » (**٣١ ـ الأعراف**) .

ومما يرويه لنا التاريخ أن كلا من الحلة والحمس من العرب كانوا يمارسون مناسك الحج باجتهادات مختلفة ، كما أن بعض العرب (خثعم وطيء) كانت لهم اجتهادات في مواقيت الحج ، تسمى في كتب التاريخ « النساءة » . والنساءة هي إبطال شهر من السنة (أي تجاهل هذا الشهر والعد من بعده) وكان النَّساء ينسأ سنة ويترك سنة ، وكان يتبع ذلك أن تحل الشهور المحرمة وتحرم الشهور التي ليست بمحرمة ، وتقول لنا المصادر : (إن ذلك من فعل إبليس ألقاه على ألسنتهم ورأوه حسنا) . وكان الإنساء يعلن بخطبة في فناء الكعبة فيقول الخطيب : إنني قد أنسأت العام ـ ويذكر شهرا ـ فيطرحونه من الشهور ولا يعتبرون به ، حتى يستدير الحج في كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذي ابتدءوا منه الإنساء ، ويحجون في الشهور كلها في كل شهر حجتين .

وكان العرب من الحلة والحمس يتقيدون بالأشهر الحرم لا يعتدون فيها على أحد حتى لو لقى أحدهم قاتل أبيه أو أخيه .

النساءة لخثعم وطيء أبطلها الاسلام عندما أنزل في محكم كتابه : « **إنما النَّسِيءُ زيادةٌ في الكفرِ يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً لِيُواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله** » (**٣٧ ـ التوبة**) .

كما حدد الاسلام المواقيت « **إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عندَ الله اثنا عشرَ شهراً في كتابِ الله يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ** » (**٣٦ ـ التوبة**) .

لقد أبقى الاسلام معظم تلك السنن والشعائر ولكنه طهرها ونقاها من أردان الجاهلية ، فلم يعد سبب السعي بين الصفا والمروة تعظيم الصنمين

اللذين كانا مقامين عليهما ، بل هو التذكير بسعي هاجر أم اسماعيل لهفة على وليدها وبحثا عن الماء في الصحراء المجدبة .

ولم يعد الحجر الأسود ومقام ابراهيم « أحجارا » وشعائر لذاتها ، بل لارتباطها ببناء البيت وبدء الطواف . كما نظم الاسلام هذه الشعائر بطريقة عقلانية ومتساوية فيما بين الحلة والحمس توحيدا للموقف الاسلامي .

الحج في الاسلام :

لقد حدد الاسلام الحج في أشهر معلومات ، ينفذ في وقت قصير يبدأ بعد الزوال من يوم عرفة ـ كما ذهب إليه الحنفية ومن تبعهم ـ إلى طلوع الفجر من يوم النحر وله وقت مديد أشار إليه قوله تعالى « **الحج أشهر معلومات** » (**١٩٧ ـ البقرة**) وهي عند أبي حنيفة شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، وعند الشافعية شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة بليلة النحر ، وعند مالك شوال وذو القعدة وذو الحجة بكامله .

واختلاف الفقهاء هو في حقيقته اختلاف في الفروع لا في الأصول ، إنما حكمة الحج للمسلم تبقى على مر الزمان حكمة خالدة . وفي كل مرة أقرأ ـ وكثير من المسلمين مثلي ـ أقول عندما أقرأ خطبة حجة الوداع لنبينا العظيم أتمثل بوضوح حكمة الاسلام في الحج وعظمة تسامحه ومبلغ عنايته بالانسان . ويستعيد المسلمون على مر العصور قوله صلوات الله عليه :

« أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، إنما النساء عندكم عوان (أي في حاجة إلى العون) لا يملكن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء .

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامريء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله .

سلسلة لا تنقطع من جهود أولي الأمر للتيسير على الحجيج

أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ذلك بعض ما قاله الرسول الكريم في اليوم المشهود في حجة الوداع ، فكان وصية للمسلمين في كل زمان ومكان .

وقد تتبع المسلمون ذاك التوجيه في حرمة البيت جيلا بعد جيل ، ولكن لم ترعو بعض فئاتهم في أوقات مختلفة عن الاخلال بذلك .

فقد زين الشيطان لبعض الناس قبل الاسلام وبعده انتهاك حرمة البيت ، فقد حاول كتابي هو أبرهة الحبشي هدم البيت وباءت محاولته بالفشل كما ذكرها القرآن . وبعض المسلمين انتهكوا حرمة البيت لأسباب مختلفة في أزمنة مختلفة ، فقد حوصر البيت وضرب بالمنجنيق مرتين في صدر الدولة الأموية .

أما أقسى امتحان امتحن فيه المسلمون تجاه الحج فهو عندما انتشرت دعوة القرامطة في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث ، ويحدثنا تاريخهم أنهم اعتقدوا اعتقادا أسوأ من جاهلي بأن شعائر الحج هي من قبيل عبادة الأصنام ، وعملوا على وقف الحجيج من المسلمين الذين يقصدون مكة في مواسم الحج ، بل وقام أحد زعمائهم (سليمان الجنابي) بغزو مكة وقتل الحجيج وسبي نسائهم في الحرم الشريف مرتين عام ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) وعام ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) . وقد ارتكبوا في الغارة الثانية ألوانا شتى من الحماقات ضد أبناء المدينة المقدسة والحجاج على حد سواء ، بل أضافوا إلى أعمالهم البربرية أنهم حملوا معهم الحجر الأسود إلى الأحساء وظل فيها قرابة عشرين سنة (تم رده سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م) .

ولقد أنقذ سبحانه وتعالى بيته من هذه الأعمال وعاد مطهّرا كما كان للطائفين والركع السجود .

أشكال من حملات الحج

ويحلو للمرء أن يطالع كيف كان المسلمون يعدون لرحلة الحج ويقارن بين الصعوبات التي كان يتجشمها الأجداد ملبين نداء ربهم في التجمع في البلد الحرام ، وبين ما عليه مناسك الحج اليوم من سهولة ويسر ، فقد أخذ أولو الأمر المسلمون في الاهتمام بتوسيع بيت الله وعمارته ، وقد عني التاريخ الاسلامي بذكر أولئك الذين اهتموا بهذه الأعمال تيسيرا للمسلمين . فيذكر المؤرخون أول ما يذكرون ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة

السابعة عشرة للهجرة عندما اشترى دورا حول المسجد الحرام وهدمها ووسع المسجد بها . وهناك سلسلة طويلة متصلة ممن اهتموا بالمسجد الذي يولي المسلمون وجوههم شطره خمس مرات في اليوم ، ويطوفون حول كعبته في العمرة والحج .

ولعل آخر أعمال كبرى لتوسيع أماكن مناسك الحج والاهتمام بالمسجد الحرام والمسجد النبوي ما تنشره « العربي » في هذا العدد الذي يدل على الاهتمام العميق من أولى الأمر بأماكن الشعائر الاسلامية .

ولقد وصف ابن بطوطة مكة المكرمة وعادات أهلها حوالى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) منتقدا مظهر الفرقة الذي كان يتبدى في ذلك الزمان ، وهو انتقاد له ما يبرره حيث أن الله قد أفاء على المسلمين بالوحدة ولم الشمل . ومما جاء في وصف ابن بطوطة قوله (ومن عادات أهل مكة أن يصلى أول الأئمة إمام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الأمر (وقتها) وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع ، والحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم تقابلها خشبتان على صفتها وقد عقدت على أرجل مجصصة . . . واذا صلى الشافعي صلى بعده إمام المالكية : في محراب قبالة الركن اليماني ، ويصلى إمام الحنبلية في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ثم يصلي إمام الحنفية قبالة الميزاب (مسيل الماء) المكرم تحت حطيم له هنالك ، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع ، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع . وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفته ، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي ، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي) .

ونرى من انتقاد ابن بطوطة لهذه المظاهر ما يعني أن المستنيرين من المسلمين لا يقرون هذا التعدد . ثم يصف ابن بطوطة ـ وصفا تسجيليا ـ صلاة الجمعة في المسجد الحرام ، كما يصف ما يلبسه خطيب الجمعة فيقول : إنه يلبس ثوبا أسود وعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود (قطيفة) ، وبين يديه أحد القومة في يده فرقعة (سوط) ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه مَنْ داخل المسجد وخارجه فيكون إعلاما بخروج الخطيب) .

ثم يصف عادات أهل مكة في استهلال الشهور واستقبالهم لعمرة رجب ، ويصف ما يجلبه أهل البلاد القريبة من مكة في عمرة رجب من

هكذا وصف ابن بطوطة عادات أهل مكة

(حبوب وسمن وعسل وزبيب ولوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها) .

وعند دخول رمضان يقول ابن بطوطة : (إذا أهلّ رمضان تضرب الدفوف والدبادب (الطبول) عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحُصُر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة وإشراقا . . ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارىء يصلي بجماعة ، فيرتج المسجد بأصوات القرّاء) .

عندما يقع في يديك كتاب في تاريخ دمشق* ألّفه أحمد البدري الحلاق الدمشقي في الربع الثالث من القرن الثامن عشر تقرأ فيه ذاك الوصف الجميل للحج الشامي ، فدمشق مركز يتجمع فيه الحجاج ليس من الشام وحدها بل من بلاد العجم وتركيا وتركستان ، وقد تولى والي الشام إمارة الحج كما ظهر بجانبه شخصية أخرى يدعى صاحبها (أمير الركب) وهو قائد الجند الذين يصحبون حملة الحج ، وقد جرت العادة كما يقول المؤلف أن يخرج أمير الحج للدورة (أي للتفتيش) قبل خروج محمل الحج بأشهر وذلك لاظهار سطوته حتى يخاف من تراوده نفسه بالتعرض لحملة الحج ، فلم يكن طريق الحج آمنا في كل العصور .

ونرى وصف حملة من حملات الحج في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (١٨٩٧) فيما يقوله رحالة بريطاني من « بريستول » هو عبدالله

* حوادث دمشق اليومية ـ جمعها أحمد البدري الحلاق ونقحها محمد سعيد القاسمي وحققها د . أحمد عزت عبدالكريم ـ طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٩ هـ .

وليامسون عشق حياة المسلمين وتديّن بدينهم وحج في قافلة من الزبير في جنوب العراق إلى مكة « لقد هز عبدالله وليامسون منظر القافلة التي يبلغ طولها ثلاثة أميال وهي تموج فوق رمال الصحراء ، كما أثاره صوت الطبول وأهازيج الحجاج ، والذي أعجب وليامسون ـ كما ذكر مؤرخه (ستانتون هوب) بعد ذلك* عدا المشهد العظيم ـ ذلك النظام العسكري للمسيرة فقد كان هناك حرس يركبون هجنا نجيبة سريعة يتقدمون الركب لانذاره عند شعورهم بأي خطر يتهدد الحجاج من رجال القبائل المعادية .

وبعيدا عن بطون الكتب ، ما زال بعض من يعيش بيننا يتذكر صعوبات رحلة الحج ـ حتى من الأماكن القريبة نسبيا كالكويت والاحساء والبصرة ـ فما بالك بحجاج قادمين من الهند وأندونيسيا أو تركيا على سبيل المثال ؟

وإن عدنا إلى الماضي القريب فإننا نجد أن « العربي » قد نشرت لأول مرة منذ تسع وعشرين سنة (يونيو **١٩٥٩**) استطلاعا مصورا عن مناسك الحج ، أردفته بآخر بعد ست سنوات تقريبا (ابريل **١٩٦٥**) . وعند القراءة لهذين الاستطلاعين مقارنة بما نراه من تسهيلات مناسك الحج اليوم ـ وهو تاريخ ليس بطويل في عمر الزمن ـ لا يستطيع الانسان أن يتخلص من الدهشة إزاء الأعداد الضخمة من المسلمين الذين تستقبلهم مكة اليوم ، يقيمون شعائرهم بكثير من اليسر .

وفي عصر يتميز بالحوار بين الأمم والشعوب المختلفة تتطور فيه التقنية في وسائل الاتصال في السلم والحرب على حد سواء ، لا يستطيع المسلم إلا أن يدعو من قلبه مؤكدا حكمة الحج الأبدية بأن تقام هذه الشعائر بعيدا عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول والشقاق والخصام ، فقد ذم الله في محكم تنزيله كل ذلك عندما قال وهو خير القائلين :

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة ـ ١٩٧) . □

محمد الرميحي

---

* الهارب إلى الله ـ قصة الحاج عبدالله وليامسون صدرت ترجمة له بالعربية سنة ١٩٧٤ .

نموذج عربي في نظرية

"الوحدة الطبيعية"

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

ظل المفكرون الوحدويون العرب ينظرون إلى فكرة « الوحدة الطبيعية الاقليمية » من خلال تجربتهم مع نظرية حزبية طرحها مفكر معارض للوحدة العربية هو أنطون سعادة ، ونادت بها سياسة أجنبية ، تحت شعار وحدة الهلال الخصيب ، وهي السياسة البريطانية . لكن هناك تجربة اخرى تستحق منا درسها وتمحيصها .

إن الفكر العربي الوحدوي قد قصر - في نظرنا - تقصيرا علميا واقعيا كبيرا عندما فاته درس التجربة الوحدوية العملية التي قادها وحققها الملك عبد العزيز آل سعود بين أربعة أقطار مترابطة جغرافيا من بلاد الجزيرة العربية ، هي نجد والأحساء والحجاز وعسير ، في إطار المملكة العربية السعودية التي أصبحت اليوم قطرا عربيا واحدا لجميع أبنائه بمختلف مناطقهم .

دروس من التجربة السعودية

إن المملكة العربية السعودية هي النموذج الوحدوي العربي الوحيد الذي استمر بنجاح في تاريخ العرب الحديث ، دون « نكسات انفصالية » . ولابد لأي مفكر وحدوي عربي أن يواجه هذه الحقيقة ، ويتأمل فيها ، ويدرسها لاستخراج دروسها وقوانينها الوحدوية ، أيا كانت وجهته السياسية أو الايديولوجية .

وأبرز هذه الدروس أن وحدة المملكة انطلقت من التلاصق الجغرافي والامتداد الاقليمي الطبيعي بين نجد والأحساء ، ثم بين نجد والحجاز ، ثم بين الحجاز وعسير ، حيث الوحدة الطبيعية الجغرافية تربط هذه الأقطار الأربعة في قلب الجزيرة العربية ، وحيث يمكن للسلطة المركزية الوحدوية في قاعدتها

المتوسطة ـ نجد ـ أن تتحرك عمليا تحت أي ظرف ، وفي امتداد جغرافي غير متقطع بمناطق لاتسيطر عليها لممارسة أي حسم وحدوي يتطلبه الموقف في أي منطقة من مناطق الكيان الوحدوي المتصل الحلقات فوق قاعدته الجغرافية المتناسقة الواحدة ، دون حواجز أو موانع قاهرة من عوامل طبيعية أو قوى معادية .

ولم يضيع الملك عبد العزيز جهده أو وقته في طرح مشروعات وحدوية نظرية أو مثالية ، بين قاعدته النجدية وبين أي بلد عربي بعيد عنه ، على الرغم من اهتمامه بإقامة علاقات وثيقة مع مختلف الأقطار العربية والإسلامية ، بعيدها وقريبها .

أما من حيث العمل الوحدوي فقد اتجه مباشرة إلى توحيد إمارات نجد أولا ، فلما ترسخت وحدة القاعدة النجدية المتوسطة في قلب جزيرة العرب سار على أساس القرب الجغرافي والتقارب الطبيعي أولا بأول (والأقربون أولا بالتوحيد) ، فبدأ بمنطقة الأحساء حيث هي الأقرب جغرافيا إلى نجد .

وكانت الأحساء التي هي الامتداد الشرقي للجزيرة العربية على شواطئ الخليج العربي مرشحة لأن تتجزأ إلى عدة إمارات ودويلات على غرار الإمارات الأخرى المجاورة لها في شرق الجزيرة والخليج ، غير أن توحيد الملك عبد العزيز لها مع نجد عصمها من ذلك المصير ، فلما اطمأن إلى سلامة جناحه الشرقي اتجه غربا إلى الحجاز ، حيث تحققت الوحدة بين أهم منطقتين في جزيرة العرب حينذاك ، وهما الحجاز ونجد (١٩٢٥) . ومن الامتداد الجغرافي المتواصل عبر الحجاز ، امتدت حركة التوحيد إلى عسير وصولا إلى الحواجز الجغرافية الطبيعية المتمثلة في الإقليم الجبلي لبلاد اليمن ، حيث فرضت الجغرافيا واقعا سياسيا آخر .

وهكذا توحدت أربع مناطق عربية شاسعة المساحة ، كانت كل منطقة منها معرضة للتجزئة إلى دويلات وكيانات متعددة بمقياس ظاهرة التجزئة العربية الحديثة في الأقطار والأقاليم العربية الأخرى . وهي تجزئة مازالت قائمة حتى يومنا هذا .

وبعد توحيد تلك المناطق العربية الأربع بأكثر من نصف قرن ، وبالإضافة إلى ما تعرضت له محاولات التوحيد الأخرى بين الأقطار العربية غير المتواصلة جغرافيا من تكسات انفصالية استطاعت الوحدة الطبيعية المستندة إلى وحدة الأرض في قلب الجزيرة العربية أن تتجنبها وتتجاوزها ، لتبقى النموذج الوحيد للوحدة العربية ـ الناجحة المستمرة ـ في تاريخ العرب الحديث .

عوامل أخرى

وبالطبع فإن أية حركة ناجحة في التاريخ لايمكن تفسير نجاحها بعامل واحد فقط ، وإذا كان عامل التقارب والجوار الجغرافي هو العامل « الطبيعي الواقعي » الذي انطلقت منه حركة الوحدة بقيادة الملك عبد العزيز ، فإن عوامل أساسية أخرى تضافرت مع ذلك العامل لإنجاز الهدف .

أبرز هذه العوامل عامل « الدفع العقيدي » المتمثل في حركة التوحيد التي كانت أولى حركات التجديد الديني في تاريخ الإسلام الحديث ، حيث تولدت من جرائها صحوة روحية وأخلاقية جديدة وحدت بين القبائل والمناطق ، ودفعتها لتجاوز حدودها الضيقة وكياناتها الضئيلة ، لتلتقي في كيان عقيدي ومعنوي أكبر وأرفع .

كما دفعت الفرد العربي في الجزيرة العربية إلى تقديم المزيد من التضحية والاستشهاد ، وتحمل الصعاب والتخلي عن الصغائر وعن طلب الدعة والتواكل .

ولولا هذه الحماسة الدينية والتطهرية الأخلاقية والتقشف والاحتشاد الاجتماعي لما أمكن تحقيق هذا المشروع الوحدوي الذي مثل تخطيا لكل أبعاد الواقع العربي الراكد في حينه .

أما العامل الثاني في تقديرنا بعد العامل العقيدي فهو عامل الواقعية الاجتماعية التي تمت على أساسها عملية التوحيد ، ونعني بذلك أنه روعيت الحقائق الاجتماعية والتاريخية لواقع المجتمع في الجزيرة العربية ، وفي كل منطقة من مناطقها الداخلة في

عملية التوحيد ، حيث راعى الملك عبد العزيز بعناية العلاقات والتوازنات بين الأسر والعشائر والقبائل والمناطق وأبقى الروابط المساعدة على الوحدة وعالج العوائق بحكمة وحذر وتريث . ولم يتم استيراد أي شكل اتحادي أو وحدوي خارجي من أية تجربة أجنبية لتطبيقه على الوحدة الجارية ، بل تم التدرج في بنائها لتوليد الشكل الوطني والقومي الذي يلائم خصوصيتها الذاتية .

وبالمقارنة فإن محاولات الوحدة العربية الأخرى التي لم تستمر كانت تنقصها بشكل ملحوظ هذه المراعاة المتبصرة للتكوينات والتشكلات الاجتماعية القائمة في مجتمعات الوحدة ، حيث تم إضفاء أردية عصرية عليها ، يبدو أنه لم يحن أوانها في سياق التطور الطبيعي لتلك المجتمعات ، الأمر الذي أدى إلى تصدعها وعودة التجزئة بينها لدى ظهور أول التحديات في مسيرتها .

وإذا كان عامل « الواقعية الاجتماعية » قد ساعد مناطق الجزيرة العربية التي وحدها الملك عبد العزيز على نمو الترابط الطبيعي فيما بينها ، فإن عامل « الواقعية السياسية » الذي تمثل في سياسته التوحيدية كان له دور مهم في تحقيق الخطوات الوحدوية واحدة بعد الأخرى ، في وقتها المناسب ، وبالأسلوب الملائم لها في كل حالة ، وبما يقي الوحدة الناشئة من ردود الفعل الدولية والإقليمية المعادية لها ، وبينما كانت الحماسة الدينية ترص الداخل كانت الواقعية السياسية تتعامل بحذر مع قوى الخارج .

فقد درس الملك عبد العزيز بعناية مخططات الدول الكبرى المؤثرة في المنطقة ، وعلى رأسها بريطانيا صاحبة النفوذ الأكبر فيها حينذاك ، وكانت السياسة البريطانية في ذلك الوقت لا تريد التورط في المناطق الداخلية من الجزيرة العربية ، لكنها لم تكن تريد بروز قوة عربية متحدة في ذلك الداخل ، تتحدى نفوذها في سواحل الخليج وجنوب الجزيرة على امتداد طريق الهند ، وقد أدرك الملك عبد العزيز هذه الحقيقة ، وتبين نقاط القوة والضعف في السياسة البريطانية ، ليحسن التعامل معها فيحقق ما يمكن تحقيقه ، ويؤجل ما يتطلب التأجيل دون أن يعرض الوحدة الناشئة في إطار مملكته إلى مواجهات غير مأمونة العواقب مع القوى الكبرى . وعلى الرغم من أنه قد أنجز توحيد الأحساء مع نجد عام ١٩١٣ ، مستفيدا من فرصة تخوف الانجليز من استمرار النفوذ التركي على سواحل الخليج قبيل الحرب العالمية الأولى ، إلا أنه لم يشرع في الخطوة الوحدوية التالية (باتجاه الحجاز) إلا في ١٩٢٤/ ١٩٢٥ عندما نضجت الظروف الموضوعية ـ الدولية والاقليمية ـ المساعدة على تحقيق ذلك . ثم انتظر سبع سنوات أخرى ، ليتم اعتراف الدول الكبرى بالواقع الجديد ، قبل أن يعلن رسميا في عام ١٩٣٢ قيام المملكة العربية السعودية بأقاليمها ومناطقها وحدودها التي نعرفها اليوم .

واقعية سياسية :

وباعتبار المساحات الجغرافية الشاسعة التي ضمها الملك عبد العزيز إلى مملكته المتحدة ، فقد كان ميسورا عليه ـ بالمقارنة النظرية ـ ضم بعض إمارات الخليج العربي أيضا إلى الكيان الجديد ، غير أن القوة البريطانية المسيطرة في المنطقة كانت قد رسمت « خطوطا حمراء » لا يمكن تجاوزها بالنسبة لمواقع خطوطها البحرية على امتداد الساحل ، وذلك ما أدركه ابن سعود في حينه ، فلم يتح للبريطانيين أية فرصة للاستفراد به ، وخاصة في ساحة المعارك البحرية ، وهو ما حدث في فترة تاريخية سابقة لمحمد علي الكبير في معارك الجزر اليونانية ، حيث تم تدمير الأسطول المصري ، وما حدث أيضا في منطقة الخليج العربي نفسها لأسطول عمان وأسطول القواسم في مواجهة القوة البريطانية البحرية الساحقة . وعلى الرغم من إدراك ابن سعود لتخوف البريطانيين من تنامي كيانه الوحدوي وعدائهم المبطن له ، وتشجيعهم ضمنا لمنافسيه ، إلا أنه أبقى « شعرة معاوية » مع الدولة البريطانية المجاورة له بنفوذها من كل جانب حينئذ ، في حين كان يخطط بالمقابل ـ وبنظرة تجديدية بمقاييس تلك الفترة ـ لإقامة علاقات اقتصادية ، وبالتالي سياسية ، مع الولايات

المتحدة ، القوة الجديدة القادمة على الساحة العالمية في ذلك الوقت التي كانت تعارض بعض جوانب السياسة البريطانية في المنطقة ، ولم تتورط في تناقضات ملموسة مع المصالح العربية حتى ذلك التاريخ .

ومن مؤشرات واقعيته السياسية على صعيد آخر أنه قرر عدم التورط في أي نزيف عسكري طويل الأمد في جبال اليمن ، حيث تبين محاذير ذلك ، فاعترف بالأمر الواقع بمرونة سياسية وفرت عليه الاستمرار في جبهة جديدة غير مأمونة العواقب ، وأدت إلى تفاهمه بمعاهدة صداقة مع إمام اليمن ، ليتفرغ بعدها إلى بناء كيانه الوحدوي من الداخل ، وذلك بعد أن أدرك بأنه قد وصل في عملية التوحيد إلى أقصى الحدود التي سمحت بها ظروف الجغرافيا والسياسة العربية والدولية في ذلك الحين . وهكذا على الرغم من بلائه في حروب الصحراء فإنه تجنب المواجهة البحرية مع بريطانيا في الخليج ، كما تجنب حرب الاستنزاف الجبلية في اليمن ، بقرار حاسم ، وهي الحرب التي استنزفت تركيا العثمانية من قبله ، وستستنزف مصر الناصرية من بعده .

وحدة الأرض

وباختصار فإن عبد العزيز ـ باستثمار هذه العوامل مجتمعة ـ قد نجح في إقامة أول وحدة عربية مستمرة ثابتة في تاريخ العرب الحديث . وبالرغم من أهمية العوامل الثلاثة التي ذكرناها ـ في حركته وشخصيته ـ فإن قاعدة وحدة الأرض وترابطها وتواصلها في إقليم جغرافي طبيعي واحد هي التي مثلت الضمانة المستمرة لنمو عملية التوحيد واستمرارها في عهده وبعد غيابه حتى يومنا هذا.*

وإذا أعدنا تتابع الأحداث الراهنة إلى خلفيتها التاريخية ، فإن ظاهرة مجلس التعاون الخليجي بحجمها وأبعادها الحالية ، تبدأ من تلك القاعدة الوحدوية التي أقامها عبد العزيز قبل نصف قرن ، فمحاولات دول الخليج العربي لاقامة رابطة سياسية فيا بينها لم تحقق النجاح المطلوب إلا عندما دخلت المملكة العربية السعودية كمركز ثقل فيها . وهكذا فالتوحيد يؤدي إلى مزيد منه ، كما أن التجزئة تؤدي إلى مزيد منها . ويبقى من القصور ألا يستوعب الفكر العربي الوحدوي هذه الظاهرة . والمطلوب من دراستها التمييز بين العام والخاص فيها ، بحيث يستفاد من دروسها وقوانينها العامة ، وتبقى مافيها من خصوصية تميزها عن غيرها ، وتميز غيرها عنها دون نقل أو تقليد .

والواقع أن فكرة « الوحدة الطبيعية » وإن ظلت ـ من الناحية النظرية ـ بعيدة عن الصدارة في الفكر العربي الوحدوي ، إلا أنها لم تستبعد منه تماما طالما ظلت مبرأة من دعوة التكتل الإقليمي المعادي للوحدة العربية .

يقول الدكتور عبد الرحمن البزاز في كتابه : الدولة الموحدة والدولة الاتحادية : « على أن دعوتنا إلى الاتحاد العربي الشامل لاتعني امتناع قيام تكتل أقوى بين أي جزأين من أجزاء الوطن العربي . (و) هناك أقاليم عربية متميزة ، فإقليم اليمن غير إقليم نجد ، وبلاد الشام غير المغرب ، وإن كانت هذه الأقاليم كلها أجزاء من الوطن العربي الكبير . »

وقد حصل التحول في مثل هذا الاتجاه الفكري من الصيغة الوحدوية (الاندماجية) إلى الصيغة الاتحادية (الفدرالية) مراعاة لهذه التمايزات في أقاليم الجغرافيا العربية . وإن لم يصل إلى حد التسليم بقيام وحدات إقليمية كل على حدة . في المدى القريب والمتوسط ، على أمل اتحادها في المدى

---

* لم يقتصر أثر غياب عامل الوحدة الجغرافية على فصم عرى الوحدة المصرية السورية فحسب . فالجدير بالملاحظة والمقارنة أيضا أن إقليمي باكستان ، على وحدة « العامل الروحي » بينهما تعرضا للانفصال لغياب القاعدة الجغرافية الواحدة ، ولوجود قوة معادية في المساحة الفاصلة بينهما . ولايبدو من تجارب التاريخ القومي أو الديني ، أن أي وحدة يمكن أن تستمر دون توافر القاعدة الجغرافية الواحدة لكيانها .

البعيد .

غير أن مفكرين عربا آخرين قد طرحوا في غمرة المد الوحدوي الشامل بديل الوحدات الجغرافية الطبيعية من منطلق إيمانهم بالوحدة الشاملة ، وباعتباره الأسلوب والمدخل العمل الأكثر حظا من النجاح للبدء بتحقيق الوحدة . ففي عام ١٩٥٧ قبل إعلان الوحدة المصرية السورية بأقل من عام دعا الأستاذ نبيه أمين فارس ، وهو مؤرخ وأستاذ جامعي عربي فلسطيني الأصل لبناني الجنسية ، إلى البدء بإقامة أربع وحدات عربية في الأقاليم الجغرافية العربية الأربعة تمهيدا لإقامة كيان « الدول العربية المتحدة » أو « الولايات العربية المتحدة » وقد ذكر بأنه دعا إلى الفكرة نفسها بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة عام ١٩٤٦ ، وأنه يعيد الدعوة إلى ذلك (١٩٥٧) تجنبا لمزيد من نكبات التجزئة العربية كما جاء في كتابه دراسات عربية .

أسلوب متدرج

ويبدو في وقتنا الحاضر أن منزع الوحدة الشمولية الايديولوجية لم يصمد للاختبار ، وأنه لم يبق في الساحة ـ في المدى المنظور على الأقل ـ غير أسلوب التقارب الإقليمي الواقعي المتدرج كما في تجربة مجلس التعاون الخليجي ، وفكرة المغرب الكبير ، ومشروع وحدة إقليم اليمن ، وإعادة التقارب بين شطري وادي النيل ، وهي تجارب إن تحققت وتنامت مرشحة لخلق تيار وحدوي جديد في الوطن العربي كله . وجدير بالملاحظة أن مصر التي رشحها الفكر الوحدوي قاعدة للوحدة العربية لن تفقد دورها في التصور الجديد ، بل ستبقى واسطة العقد بين المغرب الكبير ، وبين وحدات المشرق شماله وجنوبه ، وسيتعين عليها التقريب بين بضعة كيانات طبيعية كبيرة بدل محاولتها لم الشمل بين أكثر من عشرين كيانا مبعثرا .

وأيا كان الأمر فإن الصورة تتبلور لدينا هنا في الجزيرة العربية على النحو التالي من التصور النظري والعملي :

« إن الأمة العربية التي نجحت أصابع الشرق والغرب في تمزيق حلمها الكبير في الوحدة الشاملة ، قد بدأت تتجمع في حلقات منفصلة في البداية مترابطة في النهاية . ومجلس التعاون الخليجي واحد من حلقاتها ، ووادي النيل حلقة أخرى ، تتلوه حلقة المغرب العربي الكبير . ولو عطل المحاق السياسي ولادة الهلال الخصيب فإن سنة التطور وقوانين الطبيعة قد لا تحجبه طويلا . وهذه الحلقات المختلفة قد تترابط تدريجيا تحت حلقات أوسع من دائرة كل واحدة منها .

فحلقة الجزيرة العربية إذا نشأت ترتبط بحلقة مجلس التعاون بهمزة وصل هي المملكة العربية السعودية ، والمملكة أيضا حلقة وصل أو ارتباط مع حوض البحر الأحمر ووادي النيل وما يمتد جنوبه من دول عربية . ومهما حاولت الصهيونية العالمية وقف التطور التاريخي وتقطيع أوصال الأمة العربية فإن ظواهر الأمور تدل على أن نجاحها ـ إن تحقق ـ سيكون في التأجيل وليس في تعطيل الالتحام والتكوين »*

أخيرا ألا تستحق الفكرة على الصعيد العربي العام وفي كل الأقطار والأقاليم العربية شيئا من اهتمام المثقفين والمسئولين والمواطنين على الأقل من باب التأكد إن كانت جديرة بالمتابعة أو التعديل أو الاستبدال ؟

ومرة أخرى وليست أخيرة : يا وطني الكبير ، هل تسمع النفير ؟! □

* الدكتور أحمد زكي يماني : « العالم في القرن الحادي والعشرين ـ منطقة الخليج العربي » في : ندوة التصورات المستقبلية لجامعة الخليج العربي ، نشر مكتب التربية العربية ، ١٩٨٣ ، ص ٤٢ .

حقيقة موقف الإسلام من الشعر

بقلم : الدكتور مصطفى رجب

هناك مقولات تسربت في تراثنا العربي القديم دون تمحيص ، وتلقتها الأجيال المتعاقبة بشيء من التسليم مرجعه الى تقديس كل ما هو قديم متوارث ، والتحرز من الخوض فيه ، أو محاولة اختبار مدى صدقه .

من ذلك تلك الأكذوبة التي شاعت وذاعت وملأت كثيرا من مؤلفاتنا ، وهي أن الإسلام وقف من الشعر موقفا عدائيا ، وحدّ من انطلاق الشعراء ، واستند مروجو هذه الفرية الى عدة أسانيد من أهمها :

١ ـ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون » (الشعراء/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦) .

٢ ـ الحديث النبوى : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلىء شعرا »رواه أبو هريرة وذكره ابن رشيق القيرواني في العمدة .

وروت لنا كتب التراث أقوالا بلغت من الشهرة والذيوع حدًّا يكاد يصل بها الى نوع من التسليم منها :

١ ـ ما ذكره ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) منسوبا الى الأصمعي :

« ان الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » .

٢ ـ ما نسبه قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) الى « أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما » من إجماعهم على أن « أعذب الشعر أكذبه » .

٣ ـ تلك الروايات المتناثرة عن موقف الخلفاء الراشدين من الشعراء ، وأشهرها وأكثرها دورانا في كتب تاريخ الأدب ما روى من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه زجر حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر في مسجد الرسول (ص) ، وسجن الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر ، وأنذر النجاشي الحارثي بقطع لسانه حين هجا بني العجلان .

وسوف نناقش فيما يلي تلك المقولات السابقة :

وجوه في تأويل الآية الكريمة :

من المتواضع عليه بين علماء التفسير والفقهاء أن من المستقبح عزل آية من سياقها ، وتفسيرها بشكل حاسم ، يترتب عليه حكم ، بل إن القرآن يفسر بعضه بعضا ، كما أن من القواعد الثابتة في الإسلام أن السنة توضح عموم النص القرآني ، وأمثلة ذلك كثيرة منبثة في كتب التفسير والحديث والعلوم

الفقهية . ونكتفي بشاهد واحد هنا من شواهد كثيرة ذكرها العلامة الفقيه أبو محمد البطليوسي في كتابه « التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين » حيث قال ما معناه

« وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد ، وورد تمام الغرض في آية أخرى ، فقوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » (البقرة ـ ١٨٦) .

يشير الى عموم إجابة الله تعالى لكل من دعاه ، ثم قال في آية أخرى : « بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » (الأنعام ـ ٤١) .

فدل اشتراط المشيئة في هذه الآية الثانية على أنه مراد في الآية الأولى وبهذا الفهم ، إذا استعرضنا الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة الشعر أو الشاعر في القرآن يمكننا أن نستنتج أن الاهتمام الأساسي للقرآن هو نفي أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم شاعرا ، وذلك دفعا لتهمة كونه شاعرا التي اتهمه بها المشركون .

ولعل السبب الحقيقي لاهتمام القرآن بنفي الشعر عن الرسول هو ما كان قائما في أذهان العرب حينئذ من ارتباط بين الشعر والجن ، فقد آمن العرب إيمانا راسخا بأن لكل شاعر شيطانا ، يوحي إليه ما يقول ، فقال قائلهم :

إني وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

بل إننا نجد في القرآن ما يشير الى أن بعض العرب كانوا يعبدون الجن فذلك قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » (سبأ : ٤٠ ـ ٤١) .

ويمكننا أن نستدل على هذه الحقيقة ـ حقيقة عبادة بعض العرب للجن ـ الى جانب الآية الكريمة بدليل ثان هو قول عبد الله بن الحارث السهمي ، أحد شعراء المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة في بدء الدعوة الإسلامية حيث قال : يصف حال المهاجرين المضطربة بعد طردهم من مكة :

نفتهم عباد الجن من حر أرضهم
فأضحوا على أمر شديد البلابل

وقد كان من الشائع في ثقافة عرب الجاهلية ارتباط الشعراء والكهان بالجن والشياطين ، إذ كانت هاتان الطائفتان من الناس ، الشعراء والكهان ، على درجة عالية من البلاغة والفصاحة ، والقدرة على التأثير النفسي ، كما كان الشاعر أو الكاهن من النوعيات النادرة الوجود ، فقد نقلت إلينا كتب التراث أن القبيلة كانت تحتفل احتفالا كبيرا حين يولد فيها شاعر ، وليست الولادة هنا ولادة بيولوجية ، بل المقصود حين كانت تكتشف الموهبة عند فرد من أفرادها ، ذلك أن الشعر كان لسان العرب ، وكان وسيلتهم الإعلامية ، كما كان سلاحا من أسلحة الحياة البدوية . كل ذلك فضلا عما يتميز به الشاعر أو الكاهن من استعداد فطري في الطبع لمخالفة العادة بما تهيأ في طبعه من غرابة الأطوار ، ورهافة الحس ، والميل الى التأمل والشرود .

وحين جاء الرسول (ص) العرب بدعوته الجديدة ، كانوا قبل الجهر بها يلاحظون على محمد بن عبد الله (ص) مخالفته لعقائدهم الوثنية ، وميله الى العزلة ، وانقطاعه الدائم عن لهوهم وعبثهم ، وعكوفه المتصل على التأمل والوحدة في غار حراء . فلما فاجأهم بدعوته إياهم الى ترك ما كان يعبد آباؤهم ، وعبادة إله واحد ليس من جنس آلهتهم ، كان ذلك شديد الوقع على نفوسهم ، وكانت هذه صدمة خاطفة لعقائدهم ، فلم يملكوا إلا أن يتهموا محمدا بالمروق عن العادة ، ومجاوزة المألوف ، والتحدث بالأمور الغريبة التي يتحدث بها عادة الكهان أو الشعراء أو السحرة . وهذه الفئات الثلاث ترتبط بالجن والشياطين .

ولذلك كان نفي تهمة السحر والكهانة والشعر عن محمد (ص) وجها من وجوه إثبات النبوة ، ولنقرأ الآيات التي ورد فيها النفي على بعض الشعراء في سياقها العام ، ولنلاحظ أن سورة الشعراء سورة مكية :

هل أنبئكم على من تنزّلُ الشياطين ؟ . تنزّلُ على كُلِ أفاكٍ أثيم . يُلقون السمعَ وأكثرهم كاذبون ، والشعراءُ يتبعُهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كلِ وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لايفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكَروا الله كثيراً وانتصرُوا من بعد ما ظُلِمُوا وسيعلمُ الذين ظلَمُوا أيَّ منقلبٍ ينقلبون » .

(الشعراء/ ٢٢١ ـ ٢٢٧) .

فالسياق العام للآيات يدعو الى التشنيع بالكذب ، والتهمة الموجهة الى الشعراء أنفسهم في الآيات هي الكذب « يقولون ما لا يفعلون » ، وبذلك استحقوا التشبيه بمن ورد ذكره قبلهم من الكهنة أولياء الشياطين الذين تنزل عليهم الشياطين ، بعد أن تسمع الى الملأ الأعلى ، فتوحي إليهم بعض ما استمعت إليه على ما ذهب إليه الإمام الزمخشري .

وإذا نظرنا الى الآيات من منظور لغوي لم نبعد كثيرا عن هذا الفهم ، فليس بعيدا أن يكون قوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون) في موضع العطف بالواو من باب عطف الجمل ، أو أن تكون الواو للقطع والتقدير : وكذلك الشعراء يتبعهم الغاوون . وفي ظل هذين الاحتمالين يظل الربط بين الشعراء ومن قبلهم « كل أفاك أثيم » قائما في وجهين : الأول الكذب ، والثاني التلقي عن الشياطين .

ومن هنا يتضح لنا أن اهتمام القرآن الكريم بنفي الشعر عن الرسول (ص) كان مرجعه الى ما رسخ في أذهان عرب الجاهلية من علاقة ارتباط بين الشعر ـ كالكهانة والسحر ـ والشياطين ، ويتصل بهذا أن ماتوحي به الشياطين يغلب عليه الكذب والدجل ، وما يتفوه به الشعراء يغلب عليه التهويم والخيال ، وليس هذا شأن الأنبياء ، ولا شأن القرآن .

على أن للقضية جانبا آخر ، وهو أن القرآن ، وهو يشرع لحياة المسلمين ، ما كان لينهاهم عن فن هو من المباحات ، ولو صح ما استنتجه بعض المتحذلقين من فهم سقيم لمدلول هذه الآيات ، لأصبح الشعر حراما أو في حكم الحرام ، وهو ليس كذلك .

وجوه في مناقشة الحديث :

وأما الحديث النبوي الذي ذكره ابن رشيق القيرواني منسوبا الى أبي هريرة من قول الرسول (ص) : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعرا » ، فيمكن الرد عليه من وجوه منها .

الأول : أن هذا الحديث ذكر أمام السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : عن أبي هريرة رضي الله عنه : لم يحفظ (تعني أنه نسي نص الحديث الأصلي) ، وإنما قال (أي الرسول « ص ») « . . . . من أن يمتلىء شعرا هُجيت به » . وقد عرض الشيخ تاج الدين السبكي هذه المسألة في الجزء الأول من كتابه « طبقات الشافعية » .

الثاني : ما رواه ابن رشيق نفسه في كتابه « العمدة » بعد ذلك ، حيث أورد حديثين شريفين عن النبي أولهما : « الشعر كلام من كلام العرب ، جزل ، تتكلم به في بواديها ، وتسل الضغائن من بينها » . والثاني قوله (ص) : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » .

ولسنا نناقش أسانيد هذه الأحاديث الثلاثة ، فعلى الأقل لو افترضنا أنها على درجة متقاربة من حيث صحة السند ، فإن حديثين يغلبان حديثا ، وبخاصة أن السيدة عائشة قد صححته بما لا يجعله قيدا على عموم الشعر ، وإنما هو يقدح في الشعر الذي هجي به الرسول (ص) .

وحينئذ لا يكون هناك تناقض بين الأحاديث الثلاثة ، ويندفع الالتباس .

الثالث : الوجه الثالث والأهم أن الرسول (ص) كان طوال حياته مهتما بالشعر والشعراء ، ومواقفه العديدة التي فصلتها كتب التراث ولي سنذكر بعضها بعد قليل تشهد بذلك .

آراء النقاد القدامى :

وأما ما رواه ابن قتيبة منقولا عن الأصمعي من أن الشعر نكد يقوى في الشر ، ويلين ويضعف في الخير ، واستشهاده على رأيه ذلك بشعر حسان بن ثابت ، وما ذكره قدامة بن جعفر من إجماع أهل الفهم على أن « أعذب الشعر أكذبه » فيمكن الرد عليه من وجوه منها .

أولها : أن مثل هذه الأحكام العامة قيلت في البواكير الأولى التي شهدت مولد النقد الأدبي العربي ، وهي لا تعتمد على منهج ، بقدر ما تشير الى حكم انطباعي سريع .

ثانيها : أن حسان بن ثابت واحد من أبرز ثلاثة شعراء من الأنصار ، أحاطوا بالرسول (ص) ، وهم : حسان ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك . وقد أسلم حسان بن ثابت في سن متقدمة نسبيا ، فقد مر من عمره في الجاهلية نحو خمسين سنة ، لذلك لم يكن تطور شعره فجائيا أو خاطفا كما توهم بعض نقادنا القدامى .

بل لقد كان حسان أكثر الثلاثة الشعراء الأنصار استمساكا بتقاليد القصيدة الجاهلية من حيث المضمون على الأقل ، فقد استقر لدى الدارسين أنه كان أقدر الثلاثة في هجاء المشركين على تعييرهم بمثالبهم القَبَلِيّة ، وذكْر أيامهم في الجاهلية ، وقد يشاركه في هذا كعب بن مالك ، على حين كان عبد الله بن رواحة يعير المشركين بكفرهم . بل إن حسان بن ثابت لم يستطع التخلص من الفخر بقومه الخزرج ، حتى لقد فخر بهم أحيانا أمام الرسول نفسه .

كما أننا نجد لحسان نصا مدح فيه الرسول مطلعه :

عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خلاء

ففي هذه القصيدة وصف حسان مجلسا من مجالس الخمر فقال :

ونشربها فتتركنا ملوكا
وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون من احتمالات أن يكون نظم هذه القصيدة قد تم قبل تحريم الخمر ، أو أن نصفها الأول نظم في الجاهلية ، فإنها تبقى دليلا على أن حسان بن ثابت لم يتخل كثيرا عن مستواه الأول ، فضلا عن أنه أصلا لم يكن على مستوى كثير من كبار شعراء عصره كالنابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة .

الرسول والشعر :

للرسول (ص) مواقف عديدة ، تدل على ما في نفسه صلى الله عليه وسلم من ملكة عربية أصيلة ، تتذوق الشعر الجيد ، وتحتفي به ، وتحث على الإثابة عليه .

وأريد أن أقسم مواقفه تلك الى أقوال وأفعال ، فمن أقواله في شأن الشعر :

* إن من الشعر لحكمة ، أو لحكَماً .
* إعطاء الشعراء من بر الوالدين .
* لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين .
* الشعر كلام من كلام العرب جزل : تتكلم به في بواديها وتسل الضغائن من بينها .

وأما أفعاله :

فمنها تشجيعه لحسان بن ثابت في أكثر من مقام على قول الشعر في هجاء المشركين ، وأخباره شائعة في كتب الأدب ، ومنها ما جاء في كتاب « الإصابة » ، مما يوحي بأن الرسول كان قد وفد عليه وفد من بني تميم وعنده الصلصال بن الدلهمس فقال قيس بن عاصم : يا رسول الله عظنا عظة ننتفع بها ، فوعظهم موعظة حسنة ، فطلب قيس من الجالسين أن ينظموا موعظة الرسول شعرا ، فلم ينكر الرسول ذلك ، وأرسل الى حسان بن ثابت ، فقام الصلصال فقال : يا رسول الله قد حضرتني أبيات ، أحسبها توافق ما أراد قيس .

فقال الرسول (ص) هاتها ، فأنشد الصلصال :

تجنب خليطا من مقالك إنما
قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

ولابد بعد الموت من أن تعده
ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
وإن كنت مشغولا بشيء فلا تكنْ
بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولن يصحبَ الانسان من قبل موته
ومن بعده إلا الذي كان يفعل
ألا إنما الإنسان ضَيْفٌ لأهله
يقيم قليلا بينهم ثم يرحل

ومن مواقفه العملية كذلك مواقفه مع الشعراء الذين هجوه من الكفار ، فقد كان عفوه عن كعب بن زهير وعن سارية بن زنيم بسبب ما قالا من اعتذار في ثوب شعرى قشيب ، وما أشهر قصيدة كعب بن زهير التي اعتذر بها ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم أثرها لم يُفْدَ مكبول

ولما قتل النضر بن مالك ـ أو ابن الحارث ـ وبلغ الرسول رثاء أخته قتيلة له حيث قالت :

أمحمد ولأنت نسل نجيبةٍ
في قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة
وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته
بأعز ما يغلو لديك وينفق

تأثر الرسول الكريم وقال : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه (أي ما قتلته) .

وحين دخل النبي (ض) مكة للعمرة تقدم ابن رواحة بين يديه في البيت الحرام وهو يرتجز :

خلوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

قال عمر بن الخطاب : يا ابن رواحة ، أفي حرم الله ، وبين يدي رسول الله تقول هذا الشعر ؟ فقال الرسول : خل عنه يا عمر ، فو الذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل .

من ذلك كله نستنتج أن الأفكار الشائعة ، والأحكام العامة التي تتصل بالعلاقة بين الإسلام والشعر لا تصيب كبد الحقيقة ، بل إنها مجازفات منهجية ، وثرثرة لا تستند الى دليل ، وبخاصة إذا رجعنا الى ذلك الكم الهائل من شعر الصحابة والتابعين الذي ورد في ثنايا مصادر تراثنا الخالد . □

ما النعمة ؟

● قال الحجاج بن يوسف لخزيم الناعم : ما النعمة ؟ قال : الأمن ، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش ، قال : زدني ، قال : الصحة ، فإني رأيت المريض لا ينتفع بعيش ، قال له : زدني ، قال : الغنى ، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش . قال له : زدني ، قال : الشباب ، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش . قال له : زدني ، قال : ما أجد مزيدا .

وقال أبو يوسف : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الاسلام التي لا تتم نعمة إلا بها ، والثانية نعمة العافية التي لا تتم الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها .

سنونوة للضياء الأخير!

للشاعر : علي الجندي *

(هنا كلُّ شيءٍ واحدٌ متوحدٌ ،
وكلُّ وحيدٍ صامتٌ ، مُترهِّبُ
يصلي على سجادةِ الماءِ واقفاً
فتصليه شمسٌ بالرياح وتصلبُ . . .)
« تعال إلى هنا تجد النار والماء صنوين .
من كل صوب رفوف الحمائم تنهال بالقبلات
على العاصفة . . »
وماذا تَرومين قولي ؟
فإنّ السنين تولّي
وعشب البراري يولّي
وتورق أشجار بيتي اصفرارا
وتفتح في الأفق نافذة للتجلّي
ولكنها نافذة
وأتبع آثار حبي
ألاحقُ خطوات موتي .
فيحجبني عنك خوفي
ويبعده عن طريقي انتصاري على الخوف ،
لكنه يتظاهر بالبعد
يكمن ليس بعيدا
أمرّ به معرضا ،
فألمحه يتخفّى :
بصورتك الباردة .
تمدين نحوي جسور الخلاص
فأقطعها واحداً ، واحدا
وفي يده آخرها أتسمّر مرتعدا ،
فالنهاية إما جنون وإما الرصاص !
تعالي إليّ على مهل
فالطريق انزلاق ومحفوفة بالعقارب والأحجيات ،
وفي كل مترٍ تُرى لافتة ،
تشير إلى هدفٍ كاذبِ

* شاعر وكاتب من القطر السوري .

أو يؤدي إلى جنة باهتة
أو إلى ميتة ساكنة
ونتبعنا في الحقول الفراشات زاهية
فنقطفها كلمات ، عبارات حب ،
ونجعلها أغنيات للذين يعودون بعد ، قليل من
الموت ،
نحلّق في خفةٍ مثلها ونغني لها ،
فنحوم حول ابتساماتنا مثل قوس السحاب ،
فنبدو كأنا نعود إلى البدء ،
أو نتسلق برج الشباب ،
رواحا ، مجيئا ، صعودا ، صعودا ،
وإني نشوان ، نشوان ،
أنت : عزاء يباب
تعالي هنا حيث التقينا بنجوة
من الموت ، أو حيث انتهينا ، فإننا
بلا حشمة نقضي الصلاة على شفا
الجمال
فصلّي مثل اليوم إني
على العتبات السود أهذي وأشرب.
واختارتك الآلهة لكي تُغنّي بشريد يهيل في بادية
الشام وحيدا يبحثُ عن ظلٍ ،
يسأل عن واحة نوم واعدة فيها المحبوب ،
وضلّ ،
فما وجد الواحة أو ظلا أو طيرا أو إنسانا
فصليه وغطّيه ببردتك المزدانة بالأنجم حتى
يغفو ،
ودعيه لماشية الأرض لتوقظه بعد زمان ،
فلقد أسرف أيام العشق بحب الأحياء
وهاهو يكتشف صداقته للحجر الرنان
حتى الأشجار تخلت عنه
وأنت ؟

أنت شجيرته الباقية ، النائية ، الشائية
ثمار وحنان
داريه - بحق الجسد القدوس -
فأيام العمر تنوس ، تنوس
وآخر أنوار الأفق انطفأت
والمسرح خال
لكن الشارد والضلّيل العاشق باق
مابقيت جذوته تغل في قلب الأحزان
واحتر بنا يوم اللقاء ، انتهينا
قطعاً في بريدنا الممنوع
فاجأتنا النهاية ،
الآن صرنا
مثل طفلين منهكين من الحب ضاعا
في النهايات أو غبار الربيع
وجئت أخيرا بلا وردة من شعاع ،
ولا قبلة من نضار ،
أتيت كعوسجة ماحلة
أردتك قيثارة للخريف ستونوة في
الضياء الأخير
ولكن وجهك فاجأني مرهقا ، مرهقا ،
وما قلت كلمة حبٍ ولا حكمةً يستضاء بها ،
بل همست : وداعاً ، وسافرت في خيبتي ،
فابتهلت لنار المجوس التي انطفأت ،
وهتفت بحبٍ لأيامنا القاحلة ،
وثم صرخت كوحش جريح :
أيتها الراحلة ،
سلام عليك إذا مت أو عدت من آخر الموت ،
أو ودعتك العناقيد والطير والعائدون من
الحبّ ،
أنت : أميرة هذي الفيافي ولو كنت في وطنٍ مقتله

الفكاهة

طب نفسي

بقلم : الدكتور عبد الحميد يونس

تعودنا في حياتنا اليومية أن نفرق في جهودنا بين الجد والهزل ، على أساس العمل الذي يستهدف الفائدة المادية وما يمكن أن يؤثر في قيمة هذا الجهد ، لكننا إذا نظرنا إلى السلوك الإنساني المتكامل ، فإننا نجد أن للفكاهة والهزل أثرهما في صحة الإنسان ، أي أن لهما قيمة إيجابية تعين الفرد والجماعة على التخلص من المتاعب ، وتخليص المزاج من الكآبة أو الضيق .

الملمح الأول للفكاهة هو الضحك ، ومعظم الذين تأملوا في ظاهرة الضحك أدركوا العلاقة الوثقى بينه وبين الحياة ، حتى أصبح من المشهور القول بأن الإنسان حيوان ضاحك ، ذلك لأن هذه الحقيقة من أهم ما يفرق بين الانسان وبين الحيوان بصفة عامة .

والمهم في إدراك وظيفة الضحك هو التعرف على الحافز المباشر له ، يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتاب « جحا الضاحك المضحك » :

« هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والإعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المغرور وضحك المشنوع ، وضحك السذاجة وضحك البلاهة ،

وما يختاره الضاحك ، وما ينبعث منه على غير اضطرار ، بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الأحوال » .

شواهد من التاريخ

وتساير الفكاهة الحياة الإنسانية على اختلاف العصور والبيئات . والدارسون يجدون شواهد على هذه الحقيقة في الحضارات القديمة ، وفي حضارة العصور الوسطى ، وفي عصرنا الحديث . وكان من الطبيعي أن يعبر الإنسان عن الفكاهة بأكثر من نوع أدبي ، كالحكايات والتمثيليات والنوادر وما إليها . ومن أشهر الروائع الأدبية العالمية « الكوميديا » وهي المسرحية التي تستهدف التسلية والضحك . وقد نشأت الكوميديا من الطقوس التي كانت تمارس للاحتفال بالبهجة والسرور ، مثل الاحتفالات التي كانت تقام في أعياد الإله ديونيسيوس ببلاد اليونان . يضاف إلى ذلك غلبة الفكاهة على الاحتفالات المختلفة بالمراحل التي تدل على المناسبات الحيوية والاجتماعية ، مثل الاحتفال بالميلاد والزواج .

ودراسة التسلية والترفيه تؤكد بما لا يتطرق إليه الشك ، أنه قد كان لها شأن وأي شأن في حياة الإنسان منذ كان بدائيا ، إلى أن أخذ بأسباب الحضارة الصناعية الحديثة ، فأغلب ضروب التسلية والترفيه إنما تقوم على المشاهد الجماعية العامة ، بيد أن صوراً وأنماطا منها لا تستوعب كل فرد من أفراد المجتمع ، ذلك لأنها قد تتجه إلى بيئة اجتماعية دون بيئة ، أو إلى مرحلة من مراحل العمر دون غيرها .

ظاهرة الفراغ

كلما أحس المرء بالملل من رتابة العمل فإن أصدقاءه ينصحونه بالإقبال على أنشطة تستوعب التسلية والترفيه ، وهو ما يدفعنا إلى الاهتمام بظاهرة (الفراغ) ويُعرف هذا الفراغ بأنه الفترة أو الجهد أو الاهتمام خارج نطاق العمل الذي يقوم به المرء طلبا للعيش ، وسعيا وراء الرزق . وقد يبدو للمرء أن هذا الفراغ ضئيل الشأن في الحياة ، لكن الأمر على النقيض من هذا تماما ، فإن كيان كل جماعة تحدده صفة الفراغ فيها ، سواء كان محصورا في عدد قليل منها أو منتشراً بين سائر أفرادها .

من هنا اهتم الأطباء النفسيون بهذه الظاهرة ، وأدركوا وجوب التوازن في الحياة اليومية بين العمل والفراغ ، وهو ما يحفز على أن يبذل المرء بعض الجهد في اللهو ، بل وفي اللعب . وينبغي ألا يهون الإنسان من شأن اللهو واللعب ، إذ أن بعض علماء النفس يرون أن اللعب غريزة الغرائز ، ولا يزال الجدل قائما في موضوعه بين العلماء . ويرى بعض أن اللعب ركن أساسي في حياة الأطفال بعامة ، والكبار بخاصة . ويزداد الاهتمام باللعب عند الأطباء النفسيين في البيئات الصناعية التي استشعرت حاجتها إلى هذا اللعب لقيام العمل فيها على الرتابة والتكرار ، ولإرهاقه للعضلات والأعصاب ، ولافتقار الناس في مثل هذه البيئات إلى الاستجمام وتجديد القوى والملكات ، فعمدت إلى تدبير الفراغ . فأدى بها هذا كله إلى الدعوة لا إلى التوقف عن الجهد ، عند الفراغ من العمل ، بل إلى تحويل هذا الجهد إلى صورة أخرى ، تفي بما تتطلبه الحياة من استقامة الصحة والانتاج . ومواجهة أصول الحوافز النفسية ، على الإبداع الفني ، تؤكد لنا أن التسلية والترفيه كانا من أعرق هذه الحوافز . وما من مؤرخ للأدب الجاهلي يستطيع أن يغفل وظيفة السمر في تزجية أوقات الفراغ ، باعتبار أن ذلك من مقومات الحياة الإنسانية ، في تلك البيئة البدوية العريقة الأصيلة . وما أكثر الروايات التي احتفظت بتلك الأسمار الفقار التي تكشف عن الوسائل التي كان يلجأ إليها الأعراب لتزجية أوقات الفراغ ، وهي وسائل تجمع بين الإبداع والتذوق في الحياة البدوية . ومن تلك الأسمار حكايات العشاق ، ومغامرات الصعاليك ، وهي التي ظلت تروى في ربوع الوطن العربي ، والتي تطورت فيما بعد إلى أجناس أدبية لها مكانها البارز في التراث الأدبي العربي .

شروط الفكاهة

معظم أعراض الاكتئاب أو الملل أو الضيق من متاعب الحياة ، إنما تنشأ أو يغلب عليها التركيز على العمل أو التأثر بأحداث الحياة في أسرة الإنسان أو بيته ، وأول ما يوصف له للتخلص من ذلك هو اجتذابه إلى الفكاهة . ومن أول شروط هذه الفكاهة هو ألا يحبس نفسه ، بحيث يظل متأثرا بأعبائه الفردية ، وأن يقتنع بحيوية الفكاهة ، وأن يدرك أنها ليست مجرد تزجية فراغ ، وإنما هي جهد ، له جديته وتأثيره على الصحة النفسية للفرد والجماعة ، وهي متنوعة في درجة التأثير ، وفي وسيلة العرض ، وترتبط إلى حد كبير ، بإبداع الفن وتذوقه .

والفكاهة تيسر على المرء مواصلة العمل ، لأنها تجعل الابتسام مخلصًا له من التوتر ، ومن إرهاق الأعصاب . والإنسان الذي يعرف بالفكاهة يقبل عليه الناس ، وقلما يأنفون من مجلسه ، بل إن الكثيرين يسعون إليه ، لكي يتلقوا فكاهاته ، ومنهم من يحفظها ويرددها ، وبذلك يصبح بدوره منبعا للمرح والفكاهة . وأدبنا الشعبي يتسم بهذه الفكاهات القصار التي اصطلحنا على تسميتها « النكتة » ، وهي جنس أدبي ، يظهر طبيعة الذين يبدعونها أو يرددونها ، كما أنها تعد علاجاً نفسيا للتخفف من أعباء الحياة . وقد دفعني التخصص في الأدب الشعبي إلى معالجة « النكتة المصرية » ، فسجلت بعض الدراسات الخاصة بها ، وهي ـ كما قلت كثيرا ـ تتسم بالمرونة لأنها أدب شعبي ، قلما ينسب إلى مؤلف بعينه ، وقلما يثبت على صورة بعينها ، والنص فيها متغير أبدا ، متطور أبدا ، يناسب الطبقات والأحداث والمناسبات . وما من حادثة أو شيء تحاشته « النكتة المصرية » ، وما من كائن أو شخص سكتت عنه « النكتة المصرية » ، وهي فن عبقري جماعي الطابع ، يجعل شواهده ترقى على الفردية ، وتكاد تقترب من النوعية في الشمول والقياس والتطبيق ، حتى لكأنها الأمثال السائرة والحكم المأثورة . وأول ما يصنعه طبيب نفسي للاكتئاب والملل والرتابة في العمل هو أن يشجع المريض على أن يندمج في زمرة اشتهرت بالنكتة والمرح وتزجية الفراغ بترديد النوادر والفكاهات .

وقد تكون هذه الحكايات المرحة المعروفة بالنوادر أشبه بالتعليقات على موقف ، أو اختيار نمط سلوكي عجيب يستثير انتباه الأفراد والجماعات . إن هذه النوادر ليست مجرد حكاية تثير الضحك ، لكنها نقد اجتماعي ، يكشف عن ضروب من الشذوذ في الطبيعة البشرية ، وترديدها يعبر عن ضرورة المحافظة على الفطرة الإنسانية السوية ، والعلاقة الاجتماعية الإيجابية . ومتابعة هذا الجنس الأدبي في أدبنا العربي يجمع بين التعبير عن الخاصة وعن العامة على السواء . ومن أشهر هذا الضرب من الفكاهة ما اشتهر عن الحمقى والمغفلين والبخلاء . وتغلب على هذه الحكايات المفارقات التي يستحدثها الغباء أو البلادة أو الخدعة ، وهي خالية من التعقيد ، ولها محور رئيسي واحد . وهي تنزع إلى التجمع حول شخصية واحدة ، أو مجموعة محدودة من الناس .

ويذهب بعض الدارسين إلى أن هذه الحكايات المرحة ظلت تتردد على ألسنة الناس أربعة آلاف سنة أو تزيد ، وبلغ من انتشار بعضها أنه أصبح مشهورا ، مرددًا في جميع أنحاء العالم .

ومن أهم الشخصيات المحورية في هذه الحكايات المرحة جحا أو أبو الغصن جحا الفزاري . وهي شخصية بارزة في الأدب الشعبي ، اشتهرت في الوطن العربي ، واستطاعت أن تنفذ إلى آسيا وأفريقيا وأوروبا . ومن الضروري أن نسجل ، ونحن نتحدث عن الفكاهة ، أن هذا اللقب المشهور « جحا » معناه في اللغة العربية : « المتسرع في مشيه أو المهرول أو الذي لاتقوم حركته على التريث الذي يمليه التعقل » . وتقرن بعض الروايات هذه الشخصية بما يمكن أن يسمى بالعصر الذهبي ، وهو عصر هارون الرشيد .

والاهتمام بالفكاهة يدعونا إلى إبراز التناقض من ناحية ، ومقاومة الانحراف والتسلط من ناحية أخرى . والتخلص من الجمود الذي يربض على الحياة التي تدفع إلى الرتابة الجامدة وإلى الملل ،

يقتضي الإنسان التأمل في شخصية «جحا» والتي اتخذت موقفا من اثنين :

الأول : عدم الاكتراث بالظاهر من الأمور ، بحيث يكون «جحا» مجرد متفرج على الأحداث ، حتى لا يصبح ضحية للانفعالات التي تثمرها المواقف النفسية . والثاني هو الخروج من كل مأزق بالمجون ، كنزعة من نزعات التمرد على الواقع والهرب منه ، بالاستعلاء عليه . وتوصية الطبيب النفسي بالنزوع إلى الفكاهة لا يمكن أن تغفل «جحا» الذي استطاع بفلسفته أن يحول المأساة إلى ملهاة ، وأن يعين على التوازن في العلاقات والسلوك .

ولم تشأ الأمة العربية أن تجعل هذه الشخصية التي أبدعتها بعبقريتها سلبية أو منعزلة ، وإنما جعلتها شخصية رجل عادي من الناس ، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم ، عليه أن يسعى في سبيل العيش كما يسعى غيره ، ويختلف إلى الأسواق ، ويرحل إلى الأمصار ، ويلتقي بالحكام ، ويتحدث إلى العامة . وقد نفرت الأمة العربية أيضا من تصوير شخصيتها العربية في صورة الإنسان المنفرد بنفسه ، فجعلته رب أسرة له زوجة ، وبينه وبينها ما يكون بين الرجل وصاحبته من الأحداث والمواقف ، وله معها نوادر تجسم فلسفته الخاصة في الحياة ، بل تجسم مايريده الشعب العربي من ترسيب التجربة والنزوع إلى السمر ونقد الحياة الاجتماعية .

واتصلت حياة «جحا» فكان له ابن ينتشه بحكمته ، ويحاوره بفكاهته وسخريته ، وكأنما أراد أن تمتد حياته وفلسفته أجيالا متعاقبة . وليس ينبغي أن تؤخذ نوادره وأقواله مع امرأته مأخذ الفكاهة فحسب ، ذلك لأنها تنطوي على حكمة عملية ورمز فني ونقد اجتماعي .

ولم تقتصر الدروس التي قدمها «جحا» على علاقاته بالناس ، ولكنها ارتبطت أيضا بحماره الذي لم يكن يعامله معاملة الإنسان للحيوان الأعجم ، بل ارتقى به ، حتى جعل منه صديقا أو شبه صديق ، يتحدث إليه ، ويصب في أذنيه سخرياته اللاذعة من الحياة والأحياء . ولم يكن في صنيعه شذوذ أو انحراف ، لأن ارتباط العاملين في معاشهم على هذه الأنعام جعلهم يقدرون حياتها ويتعاطفون معها ويعرفون لها مكانها ، وهي علاقة تدل في ذاتها على إكبار الشعب العربي للحياة والأحياء . وهكذا أصبحت نوادر «جحا» ملامح نفسية واجتماعية وحيوية ، تجعل الفكاهة ليست مجرد مجون ، ولكنها درس يفيد منه المرء في كثير من مشكلاته ومواقفه .

واحتفل الأدب العربي بالنوادر ، واتخذها بعض الفحول من الكتاب موضوعا يستحق العناية به وعرضه على القراء ، وها هو الجاحظ يتخذ من «البخلاء» ونوادرهم موضوعا ، جعل له كتابا خاصا ، له أهميته وجاذبيته بين الدارسين والمتذوقين للأدب العربي . يقول الأستاذ طه الحاجري الذي عمل على تحقيق نص كتاب «البخلاء» للجاحظ إنه أدب واقعي لا أدب خيالي ، وهذه الواقعية تظهر في نواحيه المختلفة ، وأنه يعتمد على إبراز الصورة ، كما يراها الرائي ، وكما يرسمها المصور ، لا على الصورة الخيالية التي ينتزعها الخيال والتي يستعين بها الشعر من التشبيه والمجاز والاستعارة . ويضيف إلى ذلك أن تلك الواقعية لم تحل بينه وبين الخيال . وأسلوب الجاحظ ينبض بالفكاهة والسخرية ونقد بعض مظاهر الحياة الإنسانية .

ويعرض الجاحظ لشخصيات تصدر عن البخل ، كما يروي الكثير من النوادر عن البخلاء لتكون علاجا للأحياء من تلك العقد النفسية ، ولتثير فيهم الفكاهة ، ليزدادوا شعورا بالصحة عن طريق الفكاهة . وفي تاريخ الفن الحديث نماذج تدل على هذه الظاهرة . نجد طبيبا يشتهر بإبداع الشعر أكثر من العمل الطبي . ونجد من يهجر الطب إلى الأدب أو الفن ، ومع هذا كله فنحن نعترف بالمبدعين في مجالات الفنون والمتخصصين في الإبداع ، وروائعهم تعمل على الشفاء من العلل البدنية والنفسية على السواء . وحسبنا أن نورد شخصية واحدة من المتخصصين في الكوميديا ، ولا تزال

آثارها تتوسل بالفكاهة في علاج الكثير من الأعراض النفسية. وهذه الشخصية هي «موليير». وهو من أشهر مؤلفي الكوميديا في الأدب الفرنسي، بل في الأدب العالمي.

والحكم على الشخصيات والأحداث لا يستخلص من واقعها، وإنما يستخلص المذهب النفسي أو الفلسفة التي ينظر المرء بها إلى الحياة، فتجعله يميز بين المأساة والملهاة. والدارس لمسرحية البخيل لموليير يتساءل: هل بنيت كوميديا البخيل على موضوع تراجيدي؟ يقول جوته: «إن «البخيل» من بين جميع مسرحيات موليير التي تقضي فيها الرذيلة كلية على الرحمة التي تربط بين الأب وابنه تتميز بعظمة نادرة وهي تراجيدية إلى حد كبير». هذا صحيح لكنها ملهاة على كل حال[1]. ويغلب على الكثيرين أن يوازنوا بين التراجيديا والكوميديا، وأن يروا أن الكوميديا تأتي بعد التراجيديا في المكانة الفنية، بيد أن التحليل قد أوضح أن كل إبداع له مزاياه الخاصة به، ولذلك وجدنا بعض المبدعين للكوميديا أعظم ممن غلب على إبداعهم التعبير عن المأساوية في أدبهم التمثيلي. ويتضح ذلك في كوميديات موليير التي تستشف منها أنه كان يهدف إلى علاج مشكلات الإنسان، من ناحية، وإلى معاونة الإنسان على التخلص من القلق، وأن يمنحه السكينة والمواساة، من ناحية أخرى.

وجماهير المشاهدين والقراء يعرفون «الكوميديا» على أنها ضرب من الدراما يستهدف التسلية، وهي تختلف عن التراجيديا، من ناحية، والمهزلة من ناحية أخرى. وليست غايتها مجرد الإضحاك. وهناك التحام بين التراجيديا والكوميديا، حتى أننا نجد أن القرن العشرين شهد مايسمى بالكوميديا السوداء والعبثية، لكي تساير الاتجاهات الحديثة في الآداب العالمية.

وأبدعت العبقرية الفنية أسلوبا، يعتمد على الصورة والحركة، ويستغني عن الكلمة التي لها المقام الأول في اللغة الفنية بصفة عامة. وكان ذلك عندما ظهرت السينما الصامتة. والعالم كله يذكر «شارلي شابلن» الذي يثير الضحك في أفلامه، وهو انجليزي المولد، عاش في أمريكا، ولقد حظي بشهرة عالمية بتصويره شخصية البائس المشرد الذي يدفع المتفرج إلى الرثاء لحالته والتعاطف معه، ومع ذلك فإنه كان يبعث هذا المتفرج على الضحك بحركاته وخفة ظله.

ولم يكد يظهر على «الشاشة» حتى أصبح من أشهر الشخصيات في العالم، واستطاع أن يخرج أفلامه بنفسه. وعلى الرغم من ظهور السينما الناطقة فإنه ظل يستمتع بالتقدير والشهرة، حتى أن أفلامه الأولى ظلت تعد من الأعمال العظيمة المأثورة.

ولا تزال صورته بقبعته وسترته وسرواله وعصاه محفورة في ذاكرة المشاهدين في تلك المرحلة، بل إنها لا تزال تبعث على الفكاهة إلى الآن. وتأريخ الاتجاه الضاحك المضحك في التعبير الفني لا يمكن أن يغفل شارلي شابلن. والطبيب النفسي يذكره دائما، لأنه من أنجح الأدوية في العلاج من التشاؤم والقلق والاكتئاب.

واليوم نجد الفكاهة في جميع وسائل الاتصال المسموعة والمرئية، ثم إن التأثير العالمي جعل هذا الحافز مؤثرا في الشرق وفي الغرب جميعا، خصوصا لأن القدرة على الترجمة جعلت الروائع الفكاهية جذابة للقارئ والمشاهد والمستمع. بيد أن هناك حلقة واحدة تخفف من تأثير هذه الجهود وهي أن المرء كان مطالبا بأن يشارك في التخفف من الملل ومن الرتابة ومن التوتر، بالتعبير عن الذات، لا بمجرد التلقي والتذوق فحسب، بل بالتأمل، وتخيل أنماط فكاهية، تنم بطاقته على الخروج من الحوافز التي جعلته قلقا عبوسا مكتئبا، وأن يخلص من المكابدة لمواقفه المتأزمة، إلى الفرجة على نفسه وعلى من حوله، وبذلك تقوى فيه صفة الإنسانية، باعتبار أن كل امرئ هو في الحقيقة إنسان ضاحك. □

(١) تراث الإنسانية. د. علي درويش ص ٢٣٠ العدد ٣ المجلد الثاني

اقـرأ
في العدد القادم من

العربي

سبتمبر
١٩٨٨

السويد
بـلاد
الشمس
البـاردة!

د. حسن عباس

"الجينسنغ"
الوهـم
والحقيقـة!

سليمان الشيخ

حيوانات نـادرة
في الخليـج
العـربي

أنور الياسين

- الإسلام والاستقامة الفكرية — د. عبدالعزيز كامل
- وشرّ البليّة ما يضحك! — د. عبدالوهاب جودة
- ميخائيل نعيمة آخر رواد أدب المهجر — د. نادرة السراج
- من طرائف النقد والنقاد — عبدالرزاق البصير
- هل هي نهضة جديدة للخط العربي؟ — محمد سعيد الصكار
- حرب الظواهر الخارقة! — محمد حسن عبدربه
- العين الباصرة والأذن السامعة! — د. محمد عيسى صالحية
- آلة تسقط الذكور!! — د. نجوى القلعجي
- وجهاً لوجه: د. هشام جعيط وماجد السامرائي

واقرأ أيضاً للكتّاب

د. محمد الرميحي - د. عبدالرحمن زكي - محمد ابراهيم أبوسنة - مجدي نصيف
د. سهير جاد - د. عصام سامي الخالدي - محمد الفايز - يوسف الحلاق

قصة قرحتين!

المعدة والاثنا عشر

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

قرحة المعدة ليست أختا لقرحة الاثني عشر ، ولا إحدي بنات عمها ، فكل منها لها أصل ونسب مختلفان ، ولعل أهم ما يربط بينها هو رابطة الجوار التي نشأت عنها روابط وعلاقات أخرى .

إن أصل قرحة المعدة اضطراب في عمل المعصرة البوابية التي تسمح بمرور الطعام من المعدة إلى الاثني عشر ليس العكس ، ونتيجة لهذا الاضطراب يمر بعض الطعام في الطريق الممنوع ، فبعد اختلاطه بعصارات الصفراء والبنكرياس في الاثني عشر يعود إلي المعدة ، فتؤدي الصفراء « افرازات المرارة » إلى التهاب المعدة ، ويمهد هذا الالتهاب لنشوء القرحة .

أما أصل قرحة الاثنى عشر فهو زيادة إفراز حامض الهيدروكلوريك من بطانة المعدة ، ففي حين تحتوي المعدة في الأحوال الطبيعية على « بليون » خلية من الخلايا التي تفرز الحامض تحتوي معدةالمصاب على ضعف هذا العدد من الخلايا . وقد وجد أن المصابين بقرحة الاثنى عشر يتصفون بسرعة انتقال الطعام من المعدة الى الأمعاء ، أي أن المعدة سرعان ما تفرغ محتواها من الطعام ، فتخلو إلا من الحامض والخمائر الهاضمة . وكما هو معروف فإن إفراز الحامض يزداد عند وجود الطعام فى المعدة ، ويقل بعد ذلك ، أما لدى المصابين بقرحة الاثنى عشر فإن إفراز الحامض يستمر فترة طويلة .

ومعنى كل ذلك زيادة كمية الحامض الذي ينتقل بعضه إلى الاثنى عشر ، فيسبب التهابه ، ويمهد لحدوث القرحة فيه . ترى ما هي أسباب كل هذه الاضطرابات التى تؤدى إلى حدوث القرحة ؟

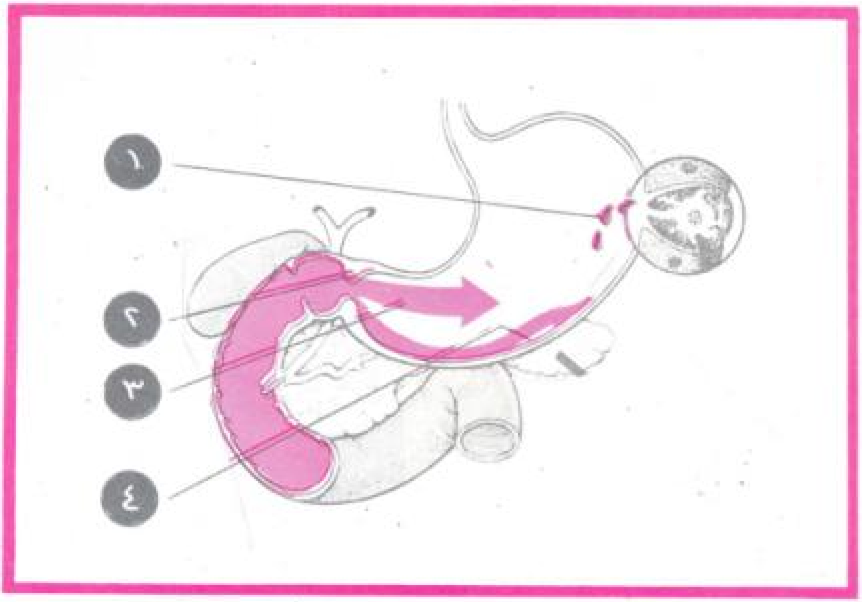

كيفية حدوث قرحة المعدة :

١ ـ لاتنشأ عن زيادة إفراز الحامض . ٢ ـ وإنما عن اضطراب العضرة البوابية .
٣ ـ فيؤدي هذا إلى رجوع بعض محتويات الاثني عشر إلى المعدة .
٤ ـ فتؤثر الصفراء على بطانة المعدة ، وتؤدي إلى التهابها ، ثم إلى القرحة .

« الاسبرين » هو المتهم الأول :

التوتر العصبي من العوامل التي تهيء الفرد للإصابة بالقرحة . فهو يؤدي إلى زيادة إفراز الحامض ، واحتقان بطانة المعدة . ولهذا يرى بعض الباحثين أن القرحة مرض من أمراض الحضارة التي جلبت لنا كل وسائل الراحة الجسمية ، وحرمتنا راحة البال وهدوء النفس . وقد أشارت دراسات طبية في الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أن قرحة الاثني عشر قد غدت أقل انتشارا في النصف الثاني من هذا القرن ، ويفسر بعض الباحثين هذه الظاهرة بأن الإنسان المتحضر قد استطاع مؤخرا أن يتكيف مع الحضارة ومشاكلها .

والمدخنون أكثر عرضة للإصابة بالقرحة التي تغدو لديهم أطول أمدا وأكثر احتمالا للعودة بعد الشفاء .

ومن بين العقاقير يعد « الاسبرين » المتهم الأول ، فهو يؤدي إلى التهاب حاد في بطانة المعدة ، فتناول هذا العقار فترة طويلة ، كما يفعل بعض المصابين بأمر المفاصل المزمنة ، يمهد لحدوث القرحة .

ولعل أهم الأسباب الوراثة . فالذين أصيب آباؤهم أو إخوانهم هم أكثر عرضة للإصابة . فقد يرث المرء من أبويه معدة لا تكاد تتوقف عن إفراز الحامض في الليل أو النهار .

بعد منتصف الليل :

ماذا يحدث لو أنك صببت محلولا حامضيا على جرح في مكان ما من الجسم ؟ سيزداد ألم الجرح ، وهذا مشابه لما يحدث لدى المصابين بقرحة الاثني عشر ، فهم يشعرون بألم البطن عند الجوع ، أي

مضادات الحموضة من أشهر العقاقير المضادة للقرحة ، وربما أكثرها فائدة .

عندما تكون المعدة خالية من الطعام ، وينتقل حامضها إلى القرحة فيهيجها ، ويسبب الألم ، ولهذا يوقظ الألم صاحبه من النوم ، ما بين الواحدة والثانية بعد منتصف الليل ، ففي هذا الوقت تخلو المعدة من الطعام .

ويزول الألم عند تناول الطعام ، لانه يختلط مع الحامض ويخفف آثاره على القرحة ، وغالبا ما يشعر المريض بالألم يوميا عدة أسابيع ، ثم يزول حتى دون علاج ، لكنه يداهم المريض مرة أخرى بعد سنة أو أكثر ، وتستمر هذه النوبات نحو عشرة أعوام ، ثم يزول نهائيا لدى كثير من المرضى .

ونفس هذه الأعراض يشعر بها مريض قرحة المعدة ، مع فرق رئيسي واحد ، وهو أن الألم قد يزداد بعد تناول الطعام ، وهذا يحدث لدى ٢٥٪ من المصابين بقرحة المعدة .

إن الأعراض ليست كافية لتشخيص القرحة ، ولا بد من وسائل تشخيص القرحة ، والتمييز بين نوعيها ، ولا بد من وسائل تشخيصية دقيقة ، ومن هذه الوسائل التصوير الشعاعي ، بعد أن يشرب المصاب كمية من محلول « الباريوم » الذي لا تخترقه الأشعة . والطريقة الأكثر دقة هي استعمال المنظار الداخلي ، وهو أنبوبة دقيقة تدخل عن طريق الفم إلى المعدة والاثني عشر ، فينظر الطبيب بعينيه في داخلها .

القرحة والطعام :

يري معظم الناس وبعض الأطباء ضرورة التزام مريض القرحة بقواعد غذائية صارمة ، فلا يتناول المخللات أو التوابل أو غير ذلك من الأغذية التى تضيف للطعام مذاقا يصعب الاستغناء عنه ، وتمتد قائمة التحريم لتشمل الشاي والقهوة والكاكاو ، غير أن البروفيسور « جيمس ل . اكورد » وهو طبيب أمريكي كبير متخصص بالطب الباطنى قد نشر مقالا فى مجلة (الطب الحديث) التي تصدر في فرنسا ، ذكر فيه أن المصابين بالقرحة يستطيعون أن يتناولوا أي طعام يشاءون ، إذ لا توجد مادة غذائية تسبب القرحة أو تهيجها ، لكن إذا لاحظ المرء - المصاب بالقرحة وغير المصاب - أن بعض الأغذية تسبب له اضطرابات هضمية فعليه الامتناع عنها .

ولقد أثبتت بعض الأبحاث أن تناول الفلفل والمعدة فارغة يؤدي إلى تورم بطانتها واحتقانها ، لكن هل يعني هذا أنه يسبب القرحة أو يؤذيها ؟ لا يوجد جواب أكيد .

والمشروبات الحاوية على الكافائين تحفز المعدة على إفراز المزيد من الحامض ، لكن لا يوجد ما يثبت أنها تسبب القرحة ، أو أن الامتناع عنها يساعد على الشفاء .

وكثيرا ما ينصح المصابون بتناول كميات كبيرة من الحليب ، وهذا من الأخطاء الشائعة ، ولسنا ننكر أن الحليب مادة قلوية ، تعادل حامض المعدة ، وتخفف آثاره على القرحة ، غير أن انخفاض حموضة المعدة يحفزها على إفراز كميات إضافية من الحامض ، ومعنى هذا أن الحليب يخفف حموضة المعدة أول الأمر ، ثم يزيدها بعد ذلك ، وبالاضافة إلى هذا فإن الحليب غني بالكالسيوم ، والإفراط فيه يمهد لتكوين حصى المجاري البولية ، ولهذا لا يجوز الإفراط فيه ، لكن يسمح بتناوله باعتدال .

شكراً للحضارة :

من أشهر العلاجات الطبية للقرحة وأوسعها انتشارا مضادات الحموضة ، وهي مركبات قلوية ، تعادل بعض الحامض الموجود في المعدة ، ويرى معظم الأطباء أنها تزيل ألم القرحة ، وتساعد على شفائها . وأفضل أنواعها وأكثرها استعمالا هي تلك التي لا يمتصها جهاز الهضم .

وهناك عقاقير أخري تقلل حامض المعدة عن طريق معادلته كما تفعل مضادات الحموضة ، بل عن طريق تقليل إفرازه من المعدة . وتسمى هذه العقاقير « مضادات الكولين » . وقد قامت بعض شركات الأدوية بإضافة المهدئات النفسية الى مضادات الكولين ، اعتمادا على فكرة أن التوترات النفسية تؤدي القرحة ، ومن هذه العقاقير « ليراكس » .

وأحدث عقار لعلاج القرحة يسمى تجاريا « تاغاميت » ، وهو عقار يكبح مستقبلات الهستامين ، فيمنع أثر أي مادة تحفز إفراز الحامض . ويري كثير من الأطباء أنه يساعد على شفاء قرحة الاثني عشر ، غير أن عيب هذا العقار أن التوقف عن تناوله قد يؤدي إلى عودة أعراض القرحة واشتدادها ، ولهذا يفضل الأطباء استعماله فترة طويلة بجرعات قليلة ، لمنع عودة أعراض القرحة .

فشكراً للحضارة الحاضرة التي وهبتنا أشهى المأكولات وألذها ، لولا أنها قد تنغصها علينا !! □

متى عرف الشعر الحر في اقطارنا العربية

صلاح عبد الصبور

نازك الملائكة

● يقول الشاعر المرحوم صلاح عبدالصبور في رده عن سؤال حول الشعر الحر وبداياته في مجلة الآداب اللبنانية :

« في أول هذا القرن كتب عبدالرحمن شكري شعرا طليقا من القافية ، سماه الشعر المرسل ، لم يلتزم فيه وزنا معينا ، كما لم يلتزم الشعر المرسل الانجليزي وزن الاياب .

وبعد الحرب العالمية الأولى ترجم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن الانجليزية مقاطع من شعر « كولوردج » بنفس الشكل ، وفي عام ١٩٣٧ أخرج لويس عوض ديوانه « بلوتو لاند » وفيه بعض أبيات تشير الى الشكل الحديث في الشعر ، وبعدها ترجم علي أحمد باكثير مسرحية روميو وجوليت .

أما أول محاولة جمعت بين الشعر والتجديد فكانت لنازك الملائكة في ديوانها شظايا ورماد ، وفي مصر كانت أول محاولة ـ حسب ما أعلم قصيدتي « العلامة » التي لم تنشر ، وتلتها قصيدة « أبي » ، ثم تلتها قصيدة « رسالة من أب مصري الى الرئيس ترومان » .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

مَن يَدفع أكثر ؟

لفترة طويلة كنا نقول : إن فيصل العلاقة بين الفقراء والأغنياء في العالم ، وبين الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة : هو أسعار الصادرات . وكنا نقول : إن العالم المتقدم قد استخدم قوته الاقتصادية ، وترابطه السياسي ، ليفرض أسعاره على الآخرين ، فظلت السلع الصناعية مرتفعة السعر ، وظلت الخامات والمواد الأولية التي يصدرها العالم النامي منخفضة السعر ، بل ظل تقسيم العمل الدولي على هذا النحو إلى حد كبير . فالشمال ينتج المواد المصنوعة ، والجنوب ينتج المواد الأولية ، فلما ازداد التقدم التقني وانتقلت بعده الصناعات الاستهلاكية الملوثة للبيئة إلى الجنوب تخصص الشمال في الصناعات الأكثر تقدما وتعقيدا ، وأخرها : الصناعات التي تمثل المعرفة التقنية فيها أكثر من نصف ثمنها ، مثل : « الكمبيوتر » .

وكانت لعبة السعر - كما كانت لعبة تقسيم العمل - أداتين للحفاظ على تلك الهوة الواسعة بين الشمال والجنوب . وكان التفسير واضحا ، فعندما يبيع الجنوب بأسعار رخيصة ، بل بأسعار تتراجع عام بعد عام ، فإن ذلك يعني : دخلا قوميا وعملات أجنبية أقل ، وبما يؤدي إليه ذلك بالنسبة للاستهلاك والتنمية وسعر العمل ، حتى بات إنسان العالم الثالث كأنه محكوم عليه بأن يقدم جهدا أكبر ، ويحصل على دخل ومستوى معيشة أقل . وفي بعض الأحيان كانت كل الظروف تتساوى : نوع الصناعة ونوع التقنية ونفس المهارات وعدد ساعات العمل ، لكن عائد تلك الساعة في الشمال يساوي عدة أضعاف عائدها في الجنوب .

هل تغير هذا الوضع ؟

لقد أعد البنك الدولي دراسة إحصائية حول « القضية الفيصل » ، وهي أسعار الصادرات ، وامتدت الدراسة عشرين عاما (١٩٦٥ - ١٩٨٦) ، وكان هناك العديد من المفاجآت .

لقد شهدت المجموعات الثلاث : النامية والنفطية والصناعية ، صعودا عاما في السبعينيات ، وهبوطا عاما في أسعار الصادرات ، خلال الثمانينيات . تضاعفت نسبة النمو في الأسعار بين الفترتين (٦٥ - ٧٣) و (٧٣ - ٨٠) ولكن بالنسبة للدول النفطية كانت نسبة النمو في الفترة الثانية أربعة أضعافها في الفترة الأولى فزادت أسعار صادراتها (٢٧ ٪) سنويا مقابل (٦,٧ ٪) سنويا في الفترة الأولى .

بدأ هبوط أسعار الصادرات في الدول الصناعية عام ١٩٨١ ، وتبعته أسعار الدول النامية والنفطية في العام التالي . وبينما استمر الهبوط عاما بعد آخر في هاتين المجموعتين الأخيرتين حتى عام ١٩٨٦ أخذت الدول الصناعية المبادرة مرة ثانية . فقفزت أسعار

صادراتها وفقا لتقدير البنك الدولي بنسبة (١٥,٣) بالمائة عام ١٩٨٦ ، مقارنة بالعام الذي سبقه ، على الرغم من أن دراسة البنك الدولي تقف عند ذلك العام ، الا أنه من المعروف أن أسعار النفط قد بدأت في تحسن نسبي بعد ذلك التاريخ أيضا وبما يشير للعلاقة الوثيقة بين الأسعار هنا وهناك .

بدراسة أرقام التدهور كانت أكثر المجموعات تعرضا لذلك هي دول النفط ، فجاء عاما (٨٢ و ٨٣) ليسجل كل منهما هبوطا يقترب من نسبة (٩) بالمائة ، وجاء العامان التاليان بنسبة هبوط ثابتة (٣,١) بالمائة ، ثم جاء التدهور الشديد عام ١٩٨٦ . وقدرته الدراسة في وقت مبكر بنسبة (٤٩,٥) بالمائة ، أي أن النفط قد هبط إلى نصف سعره في عام ١٩٨٦ ، وبالمقارنة بعام (١٩٨١) يكون قد انخفض إلى الثلث على وجه التقريب .

***

لانحتاج لتبيان الآثار التي أعقبت ذلك ، سواء بالنسبة للدول النامية أو الدول النفطية ، وإن كان الأثر أكثر وضوحا بالنسبة للدول النفطية التي حكمتها الصدمات في المرتين : زيادة السبعينيات التي جاءت على شكل طفرات ، وانخفاض (١٩٨٦) الذي شهد الهبوط إلى النصف . وفي المرة الأولى اختلفت الأنماط والأحجام في الاستهلاك والاستثمار والتعامل مع الخارج . وفي المرة الثانية كان من الصعب أن يتم التراجع عن كل ذلك ، لكن بات الأثر واضحا على أي حال على موازنات الحكومات وخطط الإنماء ، والقدرة على تشغيل اليد العاملة ، والقدرة على الاستيراد ، والاستثمار الخارجي .

لقد حدث الانقلاب وكان على الجميع التكيف .

***

يتضح من المقارنات أن الدول الصناعية أكثر قدرة على المبادرة ، وأقل تأثرا بالهزات ، ويتضح أن الدول النامية والنفطية - والأخيرة بدرجة أكبر - هي الأكثر تأثراً وبدرجة مخيفة . وبالتحليل يمكن القول أنه كلما زاد الاعتماد على السلعة الأولية ، وعلى محصول سلعي واحد ، كان المأزق أكبر . لذا فإن مخرج الدول النامية في التصنيع الذي شهد تزايدا في أسعاره باطراد من الستينيات إلى السبعينيات ، وظل كذلك خلال الثمانينيات ، باستثناء عام واحد ، بل إن الرقم التقديري لعام ١٩٨٦ يشير إلى تزايد نسبته (١٩٪) في أسعار السلع الصناعية المصدرة من الدول النامية .

الصناعة وتنوع الأنشطة هما المخرج إذن ، وليس الارتداد للوراء في دائرة الزراعة وحدها كما يقولون .

ويبقى السؤال الأم : هل يعني الصعود المشترك والهبوط المشترك في أسعار الصادرات نوعا من تصحيح العلاقة بين الشمال والجنوب ؟ والجواب : إن العكس هو الصحيح ، فهو تثبيت للعلاقات والمظالم القديمة ، فمازال البون شاسعا بين الاثنين ، بل إنه اتسع في العديد من السنوات ، وبما يشير إلى أن المركز في الشمال ، وهو الأقوى . □

كل من عليها فان :

نظر الوليد يوما في المرآة ، فأعجبه شكله ، فقال : أنا الملك الفتى ، وكانت جاريته حبابة حاضرة ، فقالت : أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ، غير أنه لا بقاء للانسان وكل من عليها فان .

قراءة نقدية لكتاب :

"ليلة القدر"

الرواية الفائزة بجائزة "جونكور" الفرنسية
من تأليف الكاتب المغربي "الطاهر بن جلون"

ترجمها عن الفرنسية محمد الشركي
بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

« هذه الرواية ـ من بعض الوجوه ـ رواية عن الحرية في مواجهة الاستبداد الذي قد يتخفى بالعديد من الأقنعة ، فيدفع الحرية بدورها لصنع أقنعتها الخاصة كذلك .

وهي أيضا رواية عن المستور الخفي في مواجهة الظاهر المعلن ، فحين يكون الاستبداد هو الأب أو الأخ أو الأخت الكبرى فسوف يكون لكل فرد في العائلة حياتان ، واحدة ظاهرة ، قد تكون هي الضلال أو الوهم ، وأخرى خفية ، قد تكون هي الحقيقة أو جزءاً منها . »

وهي ـ من هذا المنطلق أيضا ـ رواية عن الحقيقة في مواجهة الأوهام والمخاوف والأكاذيب التي قد تكون في ظل أي شكل من أشكال الاستبداد بديلا للحقيقة أو تعبيرا مشوها عنها !

بناء الرواية

يمتد بناء الرواية عبر ٢٢ فصلا ، مقدمة كلها على لسان البطلة (الراوية) ، ومن خلال حديثها نتعرف على شخصيات الرواية ، وهي أربع شخصيات رئيسة ، البطلة نفسها والأب ، والجلاسة (لقب لصاحبة الحمام) ، والقنصل اسم يحمل معنى التفخيم تطلقه الجلاسة على شقيقها الأصغر ، أما بقية الشخصيات فكلها شخصيات هامشية ، « فالعم » هو امتداد للأب أو أحد وجوهه ، وأم البطلة وشقيقاتها هي الوجوه السلبية للبطلة ، تتجسد فيها بعض الصور والمعاني العامة ، وتسهم في تطوير بعض الأحداث ، وهذا هو الإطار الخارجي العام

للبناء ، وفي داخل هذا الإطار علينا أن نلتمس ملامح البناء الداخلي للرواية ، وقد يلاحظ القارىء أن هناك مستويين لهذا البناء الداخلي : المستوى الأول هو ذلك التقابل الواضح بين شخصية الأب ، وهو والد البطلة ، وبين شخصية الجلاسة وهي شقيقة القنصل ، فكلتا الشخصيتين تجسدان نوعا خاصا من الاستبداد والتسلط . من ناحية أخرى هناك أيضا هذا التقابل بين شخصية البطلة وشخصية « القنصل » ، وكل واحد منهما كان ضحية لنوع من الاستبداد ، فالبطلة ضحية استبداد الأب ، والقنصل كان يعاني من استبداد أخته الكبرى ، وكل واحد منهما كان ينطوي على درجات من الوعي والرهافة والثقافة ، ونتيجة لذلك كان يحاول كل واحد منهما بطريقته أن يفك قيوده ، وأن يتلمس طريقه الخاص للحرية ، وللتعبير عن الذات ، وتحقيق استقلاله الفردي ، ومن هنا كان لقاؤهما الفريد والمأساوي في وقت واحد !

هذا هو المستوى الأول للبناء الداخلي ، وبتحرك أحداث الرواية سوف يلاحظ القارىء أن هذه الحركة تتم على عدة محاور ، تجسد المستوى الثاني الأكثر عمقا ، والأكثر خفاء ، لبناء الرواية . هذه المحاور هي الحرية في مواجهة الاستبداد ، وحركة هذا المحور من شأنها أن تخلق محورا آخر قوامه « المستور والخفي » في مواجهة « الظاهر والمعلن » ، وتكون النتيجة النهائية لهذا كله هي المحور الثالث « الحقيقة في مواجهة الأوهام والأكاذيب » !

عن شخصيات الرواية وأحداثها

في هذه الرواية توازن دقيق بين الأحداث والشخصيات ، فكلاهما يؤثر في الآخر بقدر ما يتأثر به ، فالشخصيات ثرية ومعقدة وذات مستويات متعددة ، ومن هنا فإن الأحداث على الرغم من بساطتها الظاهرة تكتسب أبعاد وأعماق الشخصيات التي تتفاعل معها . وسوف نتابع هذه الشخصيات بتوقيت ظهورها على مسرح الرواية ، وبترتيب فصول الرواية نفسها ، حيث يلعب الترتيب دوره المهم في بناء الرواية نفسها ، وفي الإفصاح عن دلالاتها .

الأب

تحدثنا البطلة عن أبيها (جميع أبطال الرواية بلا أسماء) في ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وهي الليلة التي ولدت هي فيها منذ عشرين عاما ، وهي الليلة التي شعر فيها الأب بدنو أجله ، فدعاها ليطلب منها أن تغفر له قبيل موته . يقول لها الأب في نبرة اعتراف حزينة :

« عشرون سنة من الكذب ، أنا الذي كنت أكذب ، أما أنت فلا دخل لك في الأمر » .

والمسألة أن الأب التاجر الثري في مدينة مراكش رزق بسبع بنات ، ولما كان مستعدا لأي شيء في الدنيا سوى أن يرثه أخوه الذي كان يدعوه « أخي الحقد » ، فقد أصر على أن يعلن أن ابنته الثامنة (بطلة روايتنا) ذكر ، ليمنع شقيقه من الميراث ، وهكذا عاشت بطلتنا عشرين عاما من حياتها تلبس ثياب الأولاد ، وتعيش حياتهم ، بل وصل الأمر إلى حد أن زوجها أبوها من ابنة عمها التي كانت شبه

بلهاء !

حتى والأب يدلي باعترافه لابنته في تلك الليلة كان يخاطبها مرة كصبي ومرة كفتاة ، كان من الصعب عليه أن يتحرر في لحظة موته من الجنون الذي عاشه وصدقه عشرين عاما ، كان يعتقد أنه باعترافه هذا يساعد الملائكة الذين ينزلون في تلك الليلة إلى الأرض لتنظيفها من الآثام . يقول لابنته : « أود أن أرحل نظيفا مغسولا من كل هذا العار الذي حملته بداخلي طوال شطر كبير من حياتي ! » .

هل يمكن حقا أن يرحل نظيفا ذلك الرجل الذي قالت عنه زوجته يوما لابنتها (البطلة) في إحدى لحظات قهرها وبؤسها :

« أي بنتي ! صلي معي لكي يكتب الله أن يمنحني شهرا أو شهرين من الحياة بعد موت أبيك ، أود أن أتمكن من إطلاق صرخة واحدة في غيابه غيابا مطلقا ، وسأعيش لكي لا أموت بهذه الصرخة ...؟ » .

الابنة

كان الأب هو أول من حدثنا عن طفولة ابنته ، وهو يعترف أمامها في ليلته الأخيرة ، كان يقول لها وهو يخاطبها باعتبارها ولدا : « كُنْتَ تتنكر في هيئة بنت ، ثم في هيئة ممرضة ، ثم في هيئة أم ، وحين أذكرك بأنك رجل صغير كنت تسخر مني » .

تقول البطلة : « أي غفران كان بإمكاني منحه إياه ؟ غفران القلب أم العقل أم اللامبالاة ؟ كان القلب قد غدا قاسيا جدا ، والعقل كان يمنعني من مغادرة سرير هذا الرجل المتفاوض مع الموت ، أما اللامبالاة فهي لا تعطي شيئا ، وتعطي كل شيء . »

وكان الأب هو الذي قال لها قبيل النزع الأخير :

« أنت الآن حرة ، غادري هذه الدار اللعينة ، دعي جمالك يقودك ، لم يعد هناك ما يبعث على الخشية ، سافري ولا تلتفتي إلى النكبة ... »

حقا يمكن للمرء أن يغادر المكان ، وهذا ما فعلته البطلة ، أخذت كل ما يشير إلى الأكذوبة ، الثياب والوثائق ، والأشياء ، ثم فتحت قبر أبيها ودفنتها إلى جواره ، حتى الشريط الذي كان يلف نهديها لكي لا يظهران فكته ولفته بإحكام حول عنق أبيها الميت حتى لا تعود إليه الحياة ، أما النسيان فهل يمكن أن تحصل عليه حتى لو سافرت إلى آخر الدنيا ؟

ميلاد جديد

كانت البطلة قد استردت حريتها بموت الأب ، لكن ماذا تعني الحرية بالنسبة لمن عاشت خيرة حياتها الأليمة والقاسية ؟؟ وماذا يمكن أن تفعل بمثل هذه الحرية ؟ كانت محاولة أن تنسى ، أن تدير ظهرها للماضي كله هي أول معنى للحرية تبحث عنه ، وكانت محاولة أن تعرف (بعد أن استردت شيئا من الإحساس بجسدها) معنى كونها امرأة ، وماذا يكون الرجل الحقيقي الذي عاشت وهمه مدة عشرين عاما هو ثاني خطوة على طريق الحرية .. !

ربما لهذا السبب لم يدركها الخوف من ذلك الرجل الملثم الذي سألها إلى أين تمضي وهي في طريق الغابة والشمس توشك على الغروب ، والغابة ملأى بالضباع المفترسة ؟؟ لم تجب على سؤاله ، لكنها سارت أمامه وكأنها تقول له : اتبعني .. !

وتبعها الرجل ، ثم توقف حين توقفت في مكان يصلح للقاء رجل وامرأة .. ! أكان هو الذي اغتصبها أم هي التي اغتصبته ، لو كان لامرأة أن تغتصب رجلا ؟ إنها لم تبصر حتى وجهه . !

وسوف يلاحظ القارىء أن أول رجلين عرفتهما البطلة بعد موت أبيها كانا ملثمين ، وبغض النظر عن كون الرجل الأول كان في الحلم والثاني في الحقيقة ، فإنه من اللافت للنظر أن يكون الرجلان ملثمين ، كأنهما قادمان من المجهول أو ذاهبان إليه !

الجلّاسة والقنصل

حادث الغابة هو الذي دفع البطلة إلى البحث عن حمّام في أول مدينة تمر بها ، وهناك التقت « بالجلّاسة » صاحبة الحمام ، وقد ثمنت الجلّاسة - وهي المرأة الخبيرة بالناس ، بأخبارهم وأسرارهم ، بظواهرهم وبواطنهم - هذه الهدية التي ساقها لها القدر ، وكان للقدر قصة أخرى قديمة مع الجلّاسة ،

فلقد دك زلزال « أكادير » البيت الذي كانت تعيش فيه مع أبويها ، وهربت هي من الدمار إلى هذه المدينة برفقة أخيها الصغير الذي كانت تدعوه القنصل ، وكان أعمى ، وهو كل ما تبقى لها ، ولم يكن زلزال « أكادير » أول ضربة من ضربات القدر في حياتها . فقبل الزلزال كانت قد ولدت بوجه لارواء فيه ، وحين جاء أخوها ليعيد البسمة إلى شفتي والديها ، سلبه القدر نور عينيه بعد إصابته بالحصبة ، وهكذا كان عليها أن تكون كل شيء في حياته ، لأنه لم يكن هناك أي شيء في حياتها سوى الحمام ، والقنصل ـ ! لقد كبر أخوها ، أصبح رجلا يحفّظ القرآن الكريم للأطفال ، ولم تعد تبهره حكاياتها العجيبة التي كانت تتيمه بها وهو طفل ، إنه يقرأ ويكتب بطريقة « بريل » ، ويلوح لها أنه يلوذ بعالم لاتعرف عنه شيئا فيما يقرؤه ويكتبه ، إنها تدرك على نحو غامض أنه لم يعد يربطه بها سوى حاجته إليها كأعمى ، وبدأت نوبات غضبه المفاجئة تهدد السلام الظاهري أو الوهمي الذي يسود حياتها ، إنها لاتريد أن تفقده ، لكنها باتت تدرك أن الحبال التي تمسكه بها تتهرأ ، وتوشك أن تنقطع ، فهل تستطيع هذه الفتاة ، الغريبة الوجلة المقطوعة ، الباحثة عن مأوى ، أن تكون هي بالضبط ما كانت تبحث عنه لتقوم بخدمة القنصل دون أن تسلبه منها ؟؟

البطلة بدورها ـ بعد رحلة هروبها من مدينتها ـ كانت في حاجة إلى مأوى ، وإلى عمل تقوم به ، لايسألها أصحابه من أنت ، ولا ماذا تريدين ؟ أكان ذلك عملا آخر من أعمال القدر الذي يهيمن على مصائر أبطال هذه الرواية منذ بدأت أحداثها تتحرك في ليلة السابع والعشرين من رمضان ؟!

الظاهر والباطن

في البدء تعاملت البطلة مع ظواهر هذا العالم الجديد الذي يبدو كأنها انزلقت إليه ، لاحظت أن الخلاسة التي ذكرتها فجتها الجافة في لحظة لقائها الأول معها بأبيها ، تصبح في البيت رقيقة لطيفة مع القنصل . كانت الخلاسة تذهب إلى فراش القنصل كل صباح ، توقظه من نومه بأغنية رقيقة ، وغالبا ما تحمل الزهور التي يسألها عن ألوانها ، ويتم ذلك في شبه طقس يومي يبين الجد والهزل . أين الحقيقة والوهم فيما تراه في هذا البيت الغريب ؟ لم تسأل نفسها هذا السؤال حين فاجأها القنصل ذات يوم (وهما يشربان الشاي الذي أعده بنفسه ليريها كم هو مدرب على خدمة نفسه) !؟ بسؤال آخر هو : لماذا يحمر وجهك ؟

وضعت يديها على وجنتيها فوجدتهما ساخنتين ، هذا الرجل مزود بحاسة غامضة ، تخبره بما يجري حوله ، ولم يكن ما خبرته هذه المرة وهما . ذات يوم سألها وكانت تحدثه عن الحرية :

ـ ماذا تعنين بالحرية ؟

ـ الحرية عندي هي عدم امتلاك أي شيء لكي لايمتلكني شيء .

ـ إنك تذكرينني بكلمة من « الزِّن » (في الأصل ليس للإنسان شيء) .

ـ غير أنه قد ثبت في ذهن الإنسان الحاجة إلى امتلاك دار وأطفال وسندات ومال ، وأنا بصدد تعلم ألا أمتلك شيئا !

ـ إن هذا التعطش للامتلاك عندنا ينم عن نقص هائل ، شيء ما أساسي ينقصنا ولا نعرفه !!

أكانت وهي المرأة التي ألغى أبوها كيانها كإمرأة من أجل الاحتفاظ بثروته بعد موته ، تحلم بأن تلقى بعد أيام من هروبها من ماضيها رجلا يبدو أنه يمتلك الدنيا بحواسه ، نفس الحواس التي عاشت كل حياتها الماضية تتعلم كيف تلغيها ؟ !

كانت تحدث نفسها عنه بعد أيام قائلة :

« لم يكن هذا الرجل الذي تعلمت غسل قدميه سيدي ، ولم أكن أمته ، كان قد صار مني قريباً ، كنت أنسى عماه ، وأتوجه إليه كما لو كان صديقا حميما منذ أمد طويل » .

حتى هذه اللحظة لم يكن هو على الأقل يعرف شيئا عن ماضيها ، ولم يكن يظهر رغبة في المعرفة ، كأنه قانع بهذه السعادة الهشة التي تنعم بها ونحن نتعامل مع ظواهر الأشياء والناس ، وقد حدثت له ذلك ، واعتبرته جزءا من طريقته في فهم الحرية . أما هي

فقد كانت ماتزال تكافح كوابيس الماضي ، حين وجدت نفسها وجها لوجه مع نوع جديد من كوابيس الحاضر ، فالقنصل هذه المرة هو الذي يطلب من شقيقته أن تخصص الحمام في ليلة قادمة لكي يذهب ثلاثتهم للاستحمام فيه ، وقبل أن يظهر أحد دهشته للطلب الغريب قال لأخته :

ـ لا تخش شيئا ، فأنا لن أكتشف عريكما !

ولم تجرؤ أخته على أن تقول له : ولكن الفتاة الغريبة سوف تكتشف عريك أنت !!

أما البطلة نفسها فقد بدا لها لأول مرة كأن رأيها غير مطلوب ، أهذا أيضا جزء من فهم القنصل للحرية ؟ !! كانت قد اكتشفت من قبل ألوانا من تسلط الجلاّسة على شقيقها تحت ستار الحنان الذي تغرقه فيه ، لكنها الآن تكتشف أن للقنصل أيضا أساليبه في التسلط ، أما أغرب اكتشاف تمر به في ذلك اليوم ، فقد كان هو اكتشاف رغبتها الخفية بالمشاركة في هذه التجربة في الحمام ، فتواطأت بصمتها ـ لأول مرة مع القنصل ـ في الوقت الذي كانت الأخت فيه تتوقع أن تعتمد على رفضها في رفض طلب القنصل الغريب !

مثلث الحب والجنون والموت

في ضباب الحمام وبخار الماء المتصاعد والضوء الخافت قدر للبطلة أن تكتشف الجزء الخفي من علاقة القنصل بالجلاّسة من خلال تسيدها لجسده في الحمام ، فهذا الرجل الناضج الشديد الذكاء والحساسية يرتد في حضن أخته الكبرى طفلا ينشد متعته الخاصة بطريقة ملتوية وبائسة ، لم يكن ما رأته هذه المرة حلما أو رؤيا ، بل كان حقيقة لم يقدرا على سترها هذه المرة ، وباتت تدرك على نحو ما أن طلب القنصل لها للمشاركة في طقس الحمام هو في صميمه دعوة لها للمشاركة في هذه اللعبة ، كان العالم الخفي في هذا البيت الذي يسكنه الاستبداد المقنع يكشف عن بعض أسراره ، كانت الجلاّسة نفسها ، وقد عجزت عن أن تحاصر البطلة في دور الخادمة هي التي بدأت تحدثها عن بعض هذه الأسرار : « كل هذا مرده إلى خطئي ، فلم أرفض له شيئا أبدا كنت أنفذ كل نزواته ، ومنذ وجودك هنا وهو يروم الاستغناء عني ، يود لو تأخذين مكاني ، لا ألومك ، لكن اعلمي بأنه شخص لايتوقع ، من الأفضل ألا تحبيه . . . »

كانت الجلاّسة بهذا الرجاء في ذروة ضعفها ، فهل كان غريبا أن تواصل الكشف عن أسرار علاقاتها الخفية بالقنصل ؟ فمن أجل ألا تأتي امرأة أخرى إلى البيت وتستولي على القنصل كانت الجلاّسة تقوده بنفسها إلى الماخور ، ليختار من يرغب فيها من النساء في ضوء وصفها لهن ؟ في البداية كانت التجربة تعذب الجلاّسة ، ثم أصبحت الجلاّسة تستمتع بها استمتاعا شاذا ، وها هي الآن تريد من البطلة أن تقوم عنها بهذا الدور ، أكانت تريد أن تحرقها بنار الغيرة أم كانت في قمة ضعفها لاتدري ماذا تقول ، أو ماذا تقترح ؟ أما البطلة التي كانت تشعر بأن مصيرها أصبح يرتبط ببيت المجانين هذا فقد وجدت في أعماقها ترحيبا بهذا الدور ، فعالم القنصل الظاهر والخفي يشدها إليه بقوة ، والأمور لن تكون أفضل في أي مكان آخر . أحيانا كانت تتصور أنها تشارك في لعبة مجنونة في عالم خيالي لايخلو من الخداع والخطر ، ودفعها هذا الشعور إلى أن تتولى بنفسها البحث عما قد يكون هناك من أسرار ، وقد وجدت في أدراج القنصل مسدسا صالحا للاستعمال ، وبجواره رصاصات صالحة للقتل ، ولم يكن ما رأته ينتمي إلى الخيال الذي طالما عاشت فيه ، ولا كانت الطريقة التي اتبعتها في الماخور بالتواطؤ مع صاحبته لكي تنام هي مع القنصل بدلا من نساء الماخور تنتمي إلى الخيال كذلك ، ألم يستند هو إلى أنه أعمى لكي تشاركه هو وأخته في الحمام ؟ إنها تلعب نفس لعبته وبلعبته هذه المرة فهي تستند لكونه أعمى فتنام معه بدلا من امرأة الماخور ! أكان القنصل وهو الذي يمتلك حاسة لايغيب عنها شيء يدرك خفايا هذه اللعبة ، ويشارك فيها بالتظاهر بأنه لايدرك ؟ كان ذلك هو عالم الظلام والخوف والستر الذي يفرض قواعده على من يعيش فيه ، أكان يمكن أن تستمر طويلا مثل هذه اللعبة ؟

أكـان يمكن أن تصير الجـلاّسة على هذه المرأة الغريبة وهي تراها تقترب من شقيقها روحا وجسدا في السر والعلن ، تقرأ لـه وتفكر معـه ، وتتجاوز حدود الخادمة التي أرادتها ؟ لقد عادت الابتسامة إلى وجه القنصل ، وعاد ينقر على الآلة الكاتبة ، لكن أين هي من هذا كله ؟ وكان لابد أن تبحث عن سر هذه المرأة المجهولة ، وكان من الطبيعي أن تصل إلى السـر ، وأن تعـود لتنتـزع البـطلة من أحضـان شقيقها ، لتصرخ فيه : أن هذه المرأة التي يأويها : رجل ، لص ، قاتلة ، كاذبة ... !

ولا يجد القنصل بدًا من أن يواجة شقيقتة بالطريقة الوحيدة التي تعمل لها ألف حساب ، يحاول أن يقتل نفسه ، من أجل يوم كهذا كان يشعر شعورا قويا بأنه سـوف يجيء . كـان يتدرب على القتـل ويحتفظ بأدواته ، وتنهـار الجلاّسة ، وترجـوه أن يكف ، تتوسل إليه ألا يؤذي نفسه ، فهي تعلم أن في ذلك نهايتهـا هي أيضا ، أكـان يمكن أن ينهـزم استبـداد الجلاّسة أمام تهديدات القنصل ؟ مؤقتا نعم ، وهكذا كان على البطلة أن تعيش تحت تهديـدات الجلاّسـة المحتملة ، حتى بعد أن اعترفت للقنصل بكل شيء عن ماضيها ، لم تعد تشعر بالطمأنينة ، ولعلها بدأت تدرك سر احتفـاظ القنصل بـأدوات القتل . كـان القنصل هو الذي يقول لها بعد اعترافها له : « لقد قضيت حيـاتي كلها وأنـا أتعود على فكرة الـرحيل الإرادي ، إنني أحمل موتي معي ، لاينبغي السـماح للزمن بأن يسأم منا ، فهنا نرتكب حماقات ، ونقوم بأمور لا تليق بذكائنا » .

وحين تسأله البطلة : أكـان تهديـده بقتل نفسـه جديا ؟

يقول : لا أعرف ، فالجدية على كـل حال ليست سوى شكل حاد من أشكال اللعب ، ثم يتحدث عن شقيقته بهذه النغمة التي تكشف عن طريقته في فهم البشر

« هي مجنونة بعض الشيء ، كانت شجاعة عندما ألقينا نفسينا بين عشية وضحاها معدمين ، وقد احتفظت منذ تلك الفترة بهيجانٍ داخلي ، لم يتمكن أي شيء من تهدئته ، بـإمكانها أن تكـون شريـرة وجائرة ، إن ما يمكن أن أؤاخذها عليه هو النقص في الأريحية ، تصـوري لقـد أفلحت في التحـرر من عـراقيـل العمى ، ولكنني أخفقت في التخلص من الحنان الذي تكنه لي أختي ... »

وكـانت هي تتحـدث إلى نفسهـا عن القنصـل قائلة :

« كنت سعيدة بأن يكون أول رجل أحب جسدي رجل أعمى ، كانت عيناه في أنامله ، ولقد رد لكل واحدة من حواسي حيويتها التي كـانت هاجعـة أو معاقة ، لم أعد ذلك الكائن الذي لم يكن جلده سوى قناع ، معد لخداع مجتمع قائم على النفاق ... » .

أكـان من الممكن أن تستمر تلك اللعبـة ، ذلك التفاهم الصامت الناطق بين القنصل والبطلة ؟

ذلك التعويض المتبادل لمعاقين عن طريق الجسد والعقل ؟! أن يكون الإنسان مدينا دون أن يدفع من كبريائه ، أن يكون قريبا من الآخر دون أن يفقد حقه في الاستغناء حتى العزلة ؟! أن تنبت له جذور جديدة دون أن يشعر بانه أسير لها .. ؟

ما أصعب نمط الحياة الذي كان يقترحه القنصل لنفسه وللبطلة ، هو نمط لايمكن للجلاّسة أن يكون لها دور فيه ، ولا تقبل أن تكون خارجه !

ما قبل النهاية

غابت الجلاّسة أياما ، ثم عادت هذه المرة ومعها عم البطلة الذي كان أبوها يدعوه « أخي الحقد » ، معها دليل إدانة في مستوى ما تكنه للبطلة من كراهية سوداء . إن الماضي لايختفي حتى لـو نجحنا بعض الوقت في نسيانه . كانت قد جربت كل شيء لكي تنسى ، وفي هـذه المرة كـان المـاضي رجلا يقف بالباب ، فلم تتردد لحظة في أن تـدخل إلى حجـرة القنصل وتأتي بمسدسه الذي لم يكن جزءا من الوهم وتطلق النار على عمها ، على الماضي !

النهاية والبداية

كان على البـطلة أن تقضي خمسة عشر عاما في السجن ، كان المجتمع الذى أسهم بجزء من تقاليده

وقيمه في وضع بداية هذه القصة هو الذي يصوغ بقوانينه نهايتها ، حاولت بجهد فردي خارق أن تقاوم هي والقنصل هذه الخمسة عشر عاما ، وكانت من قبل قد حاولت أن تنسى عشرين عاما ، فهل يمكن للبطلة التي لم تعش حياة حقيقية ، أو لم تتعلم كيف تعيش مثل هذه الحياة سوى شهور أن تقاوم كل هذا الزمن ؟ !

هذه الأعوام الخمسة عشر كانت في داخل السجن كافية جدا لكي تتحول البطلة (التي عرفت الحياة بالكاد في بيت المجانين) إلى نوع من المسخ ، وأن تتحول الحقائق المتصلة بحياتها إلى نوع من الخرافات ، وفي خارج السجن كانت كافية جدا لأن يتحول القنصل إلى ولي من أولياء الله ، أو إلى واحد من رواة القصة ، وكانت كافية أيضا لأن ترى البطلة ونرى معها في قصة المنسيين (وهم مجموعة من المتسولين دفع بهم إلى السجن لتخلو الشوارع منهم أثناء مرور زائر أجنبي كبير ، ثم نسوا في السجن حتى ماتوا) الوجه الآخر لاستبداد المجتمع ، وأن ترى البطلة ، وأن نرى معها في اعتداء شقيقاتها عليها في السجن مرة في الحقيقة ومرة في الوهم الوجه الأخير لاستبداد الماضي . . !

وأن ترى البطلة ، وأن نرى معها الينابيع التي يرتوي منها أي استبداد فردي لرجل مثل الأب ، ولامرأة مثل الجلاسة ، وأن نرى كم هو صعب أن نكتشف الحقيقة وسط كل هذه الضلالات والأكاذيب والأوهام ، وأن تكون هذه الرواية الفريدة قد أنجزت توازناتها الرائعة على جميع المحاور !!

نظرة شاملة

في الكثير من روايات العالم الثالث يعني الحديث عن الحرية في مواجهة الاستبداد ، حرية الشعب المقهور في مواجهة استبداد المستعمر تارة أو سلطة الدولة أو طبقة حاكمة تارة أخرى ، ويكون الحديث في الغالب بنغمة صاخبة عالية ، لكن هذه الرواية التي تنتمي بكاتبها وأحداثها وشخوصها الى المغرب العربي ، بالرغم من أن الرواية في الأصل كتبت باللغة الفرنسية ، وهو دولة من العالم الثالث اختارت أن تتحدث عن حرية أفراد في مواجهة استبداد أفراد ، ولم تنس أن تترك موجه الاستبداد الفردي تنداح في موجة استبداد المجتمع ، وتغرق فيها لتكشف العلاقة بين النهر والمنبع !

هذه سمة عامة أولى ، أما السمة الثانية فهي أن ايقاع الحركة الروائية في هذا العمل هو ايقاع الموج في دوائر متتابعة ، فثنائية الحرية في مواجهة الاستبداد وهي الموجة الرئيسية التي تنبثق عنها ثنائية الظاهر والباطن ، وهذه بدورها تصدر عنها ثنائية الوهم والحقيقة ، وهي دوائر متلاحقة كالموج ، تحدد سمات أي مجتمع يسوده الاستبداد والتسلط سواء في حياة الأفراد أو الجماعات .

في إطار هذه الثنائيات وبسببها تكتسب التقابلات في هذه الرواية دلالاتها الثرية والعميقة ، فالبطلة التي تركت وراء ظهرها كل ثروة أبيها لتسترد نعمة الاحساس بجسدها وحواسها باعتبارها أعظم ثروة تقابل القنصل الذي فقد (قبل أن يلتقي بها) نور عينيه ، وتدرب بسبب ذلك (وهو الرجل البالغ الذكاء) على أن يدرك الدنيا ويمتلكها بحواسه البصيرة المدربة ، ويكون هو ـ دون غيره ـ الأكثر قدرة على أن يعيد لجسدها الاحساس الحقيقي بنبض الحياة ، ولعقلها القدرة على إدراك ما في الدنيا من كنوز لا تستلب ولا تقتنى،والقدرة على تحمل أعباء العزلة والاستقلال .

هل يمكن أن نقول إن الكاتب قد تأثر من خلال ثقافته الفرنسية بهذا التفرد في رؤيته لمشكلة الحرية في مواجهة الاستبداد ، فبدأ من تسلط فرد وانتهى بتسلط دولة أو مجتمع ؟ . كما تأثر بهذه الثقافة في صوغ هذا البناء المحكم القائم على ايقاعات موجية ناعمة ومتداخلة . ! وإنه بهذا التأثر كان مثل بطل روايته القنصل (الذي جعل من عماه مؤهلا وليس عاهة) قد جعل من اشكالية التعبير عن التجربة الانسانية المغربية باللغة الفرنسية ومن خلال حساسية الثقافة الفرنسية مؤهلا وليس عاهة . □

الإسلام وإشكالية الفكر الحضاري

بقلم : الدكتور محمد ابراهيم الفيومي*

يوصف الإنسان في نظر مؤرخي الأديان : بأنه حيوان متدين . كما يوصف في نظر علماء الاجتماع : بأنه حيوان اجتماعي . فمثلما يوصف بالضرورة الدينية في حياته ، يوصف أيضا بالضرورة الاجتماعية فهل يصح القول ان الانسان هو : حيوان اجتماعي متدين .

الجدل الانساني في الميادين الفكرية ينازع المعنى الاجتماعي الذي يوصف به الانسان ، وينازع أيضا المعنى الديني الذي هو عليه الانسان ، فهناك من الفلاسفة الذين يشقون الرأي على أنصار النزعة الاجتماعية بالنزعة الفردية ، وهناك كذلك من المفكرين الذين ينفضون أيديهم عن القائلين بالفطرة الدينية ليزعموا في قولهم بأن الأصل في الانسان : النزعة الالحادية . ولا نظن أننا نتظر من دوائر الفكر الانساني الجدلي أكثر أو أقل مما هو عليه في الرأي والمذهب من الاختلاف ، فالخلاف سمة بارزة في تاريخ الفكر الانساني .

وليس بدعا أن نرى خلافا بين الذين يرون : أنه حيوان اجتماعي ، وبين الذين يرون : أنه حيوان متدين ، فحين يرى الاجتماعيون : أن الظاهرة الاجتماعية متغيرة من صنع الجماعة وتفرض نفسها على الفرد ، أي على الفرد أن يوافق أعراف الجماعة موافقة الزامية ولا يكاد يخالفها حتى يتعرض لقهر من الجماعة فالانسان في نظر علماء الاجتماع يوصف

* رئيس قسم الفلسفة والاجتماع - كلية الآداب - جامعة الملك قابوس - مسقط .

بالمتغيرات الاجتماعية وهذا ما عليه الفكر الحضاري . يرى علماء الأديان : أن الدين الإلهي ، غير الوضعي ، له خصائص منها أنه ثابت غير قابل للتغير ولا تصنعه الجماعة . فالانسان في نظر علماء الأديان يوصف بالثوابت الفطرية ، فاذا كانت الظاهرة الاجتماعية متغيرة ويوصف بها الانسان ، واذا كانت الظاهرة الدينية غير اجتماعية أي ليست من صنع الجماعة وهي ثابتة لا تتغير ويوصف بها الانسان ، فكيف يوصف بهما معا ؟ أي كيف يوصف بالثابت وبالمتغير ؟

بين الثابت والمتغير

وإذا كان من المفروض لدينا أن تقود الظاهرة (الثابتة) الظاهرة الاجتماعية (المتغيرة) فكيف يقود الثابت المتغير ؟

رأى علماء الاجتماع أنه من أجل ألا يقعوا في خلط كبير ـ ومن خلال دراسات لنماذج دينية ليس الاسلام من بينها ـ رفضوا كون الدين وحيا إلهيا ، كما رفضوا أنه ينطوي على قيم ثابتة ، وأخضعوا تفسيره على أنه ظاهرة ، وقدم « أوجست كونت » تفسيره للظاهرة الدينية : بأنها أحد مظاهر قانون الأحوال الثلاثة الذي يرى فيه : أن الفكرة الدينية تعد مرحلة من مراحل التطور العقلي للإنسانية .

ورأى علماء الاجتماع فيما بعد ، ووفق ظروف قاسية مر بها المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، بسبب هيمنة الكنيسة عليه ، أن ينقلوا معنى « إلهية الدين » الى « بشريته » ، أي أنه من وضع الجماعة البشرية ، وشاء لهم أن يضعوا قوانين تخدم معنى التطور الديني في حياة البشرية .

كما وجد علماء الاجتماع في المجتمع الأوروبي ما ينهض لهم حجة تقيم الدعوى على مناهضة الرأي القائل بقيادة الضرورة الدينية للضرورة الاجتماعية ، ووجدوا في الكنيسة مثالا سيئا حين تصدرت قيادة المجتمع الأوروبي ، فنبذها المجتمع ، وأصبحت هي ومرحلتها الزمنية مثالا حيويا على سوء القيادة الدينية لدى دوائر الفكر الفلسفي يشهرونه حين يريدون أن ينبهوا على سوء القيادة الدينية للمجتمع الانساني .

أما البوذية والهندوسية فهي في نظر الغرب : أقرب الى الخرافة ، واليهودية ديانة منغلقة وأتباعها قلة . وكانت تلك المواقف من نتائج الحركة العقلية في أوروبا .

التجربة الأوروبية

أما الإسلام فإن الغرب لم يدرسه حتى عصر النهضة ، وإنما عمم حكمه واعتبر شأنه شأن الأديان التي درسها أو أقل درجة منها .

نلاحظ أن الدين الذي تناوله الفكر الأوروبي إبان عصر النهضة لفظ عام أطلق من غير تخصيص على :

* الأديان الوضعية .
* الأديان السماوية باختلاف درجاتها .

والمعايب التي أخذها الفكر الأوروبي كانت مستوحاة حقيقة من الواقع الاجتماعي الذي عاش فيه وعاشته اوروبا .

وكان هذا الواقع خاضعا لحكم طبقة دينية أظهرت دينها كأنه مخدر للأمة .

وبدراسة الدين الذي كان سائدا في العصر الوسيط لاحظنا أنه مجموعة مزيجها فلسفة مشوهة واجتهادات كهنوتية في مجموعها تخدم أغراض الكهنة وأطماعهم الدنيوية ، ولما كان دينهم هو هذا المزيج الفكري الذي يخالف دين التوراة والانجيل ثار عليهم قديس ألماني « مارتن لوثر » .

فالثورة على الدين في أوروبا أشعلها رجل الدين نفسه .

ومن هنا نؤكد على أن الدين الاسلامي لم يكن مقصودا بالثورة عليه ابان النهضة الأوروبية ، إنما الذي كان مقصودا بالهجر والنبذ هو الدين الكهنوتي . والدين الكهنوتي ليس هو الدين النموذجي الإلهي ، إنما كان دينا مشوها ومحرفا ، ثار عليه الاسلام بالرد والنقد قبل أن تثور عليه أوروبا ، غير أن أوروبا كانت على غير علم كامل بنظام الاسلام أو بموقفه من الأديان السابقة عليه .

فإذا ثارت أوروبا على الكنيسة فليست بدعا في

ذلك ، إنما تعتبر انها ناصرت صوت الاسلام أخيرا حين اعتبرت المسيحية دينا منسوخا وأنها غير صالحة للتطبيق الاجتماعي .

أما الاسلام فلقد بنى الاسلام سنته الحياتية على العقل الانساني الذي يخطيء ويصيب ، دون العقل المعصوم الذي تقوم به المسيحية وبعض الأديان وتفوض اليه سلطة الرقابة والحكم في محاكم تفتيش لتصادر به حرية الفكر ، أو لفرض رقابة على الآراء والمعتقدات والأعمال .

كذلك لا يعرف الاسلام نظام الحكم الاستبدادي الذي يقف أمام الفكر فيمنعه من البحث الحر لمعرفة حقيقة جديدة أو يقف دون كشف تور جديد حائلا دون سعي العقل في عالم المجهول.ليس في الاسلام هذه السلطة سواء كانت كنسية أو طبقة دينية معصومة تمثل المركز الوحيد في تفسير الحقيقة السماوية وتلزم الانسان أن يخضع لها أو تفرض عليه فكرا معينا باسم « القوة الروحية » لتنظيم المجتمع .

آية ذلك على ما تذهب إليه : أن الخلافة الاسلامية اعتمدت على المبايعة الحرة ، واصطبغ بعض الجدل السياسي حولها بصبغة المصلحة الشخصية ، وبعضه بصبغة المصلحة الدينية ، دون أن يدعي الخليفة أنه يستمد شرعيته من مصدر إلهي ، أو أنه مفوض من أسرة دينية لها تقاليد القداسة الدينية ليستبد بمقاليد السياسة والحكم . لذلك إهتم الاسلام بأساسيات المعرفة منها : العقل الانساني . والتجربة : بدءا من ملاحظة أحوالنا الداخلية الى ملاحظة ماحولنا في الكون .

الدين وقضايا المجتمع

ولما كانت طبيعة القضايا الاجتماعية التي تجد لهم متنوعة ، فانهم اعتمدوا لحلها على مصادر متنوعة ، بدءا من القرآن الى الاجتهاد ، تنوعا استوجب منهم الاعتماد على العقل . أضف الى ذلك تأويلهم الذي كان يتم بشكل حر دون تقيد بمدرسة أو مذهب ، أو عبارات بلاغية أو كما يقول الأصوليون دون عبارات مبسوطة ، وكان غير كاف لديهم بل مرفوض أن ينتحلوا لاثبات صحة الرأي أن يستشهد ، أو يستأنس له برأي تاريخي قديم فقط دون التفكير فيه .

وكنا نرى من خلال اختلافهم ـ أي علماء أصول الفقه الاسلامي ـ حول تقرير تلك القواعد ، نقاشا حرا مستنيرا للغاية ، يتيح للعقل أن يتفهم مكانه من النص الإلهي وعلاقته به دون أن نرى مقالة تكفر هذا ، أو تلعن ذاك ، أو أن النقاش بدعة ، وإنما كانوا يقولون : « للمجتهد أجر إن أخطأ ، وأجران إن أصاب » وذلك هو حال الطبيعة الانسانية على ما هي عليه من غير ادعاء العصمة لها .

وساد المدارس جو هاديء من الحوار الفكري الخلاق المبدع ، كفل لها أن تباشر مسئوليتها نحو دينها ونحو مجتمعها ، من غير أن تنعزل عن دينها باسم المجتمع أو عن المجتمع باسم دينها ، فكان هدفها خلق مجتمع يحكمه طابع التوافق والانسجام بينه وبين القانون الإلهي ، فجاء إسهامها في فهمها التاريخي للأشياء ليس لاهوتيا صرفا ، إنما كانت عدة اعتبارات تحكم اختلافها منها : أن العالم ليس ثابتا ، وأنه في كل مظاهره في تبديل ونمو ، ومنها احترام اختلاف الأماكن ، أي فلا تسوى المدينة بالعراق ، فالأولى يحتج مالك بعملها ، والشافعي قد كان له بالمشرق ماكان من فقه ، ثم أحكمه بمصر فصار له مذهبان : جديد بمصر ، وقديم بالعراق .

كل ذلك كان منهم تقديرا لسير الحياة المتغيرة ووزنا لتدرجها المتطور .

بهذه الطرق المصنوعة دخل على الدين تيار إنساني ليرفع قيمة تعامل الانسان مع النص الإلهي وقيمته الخلقية والفكرية ، ويربط الدين بالمجتمع ومتغيراته ، ويؤازر مسلك العقل في فهم متن الاسلام الحياتية ، ويعزز مقاييسه التي تقرر الاجتهاد وتنتقد التقليد في الدين ، ويعايش بها المؤمن سنته الحياتية وسنته الدينية .

وأثبتت هذه الطرق المصنوعة والمتنوعة : أن كل ما أوحى الله به غير مناقض للعقل والحياة الاجتماعية المتغيرة . وفي النهاية كانت هذه الطرق بالنسبة للعقل مولدا جديدا له ، فقربت بينه وبين الدين ،

وحفظت عليه من أن تستهويه نظرة خاصة أو فكرة شخصية نزقة .

ممارسة عملية

وليست الفرق الإسلامية ومذاهبها إلا تعبيرا عن الممارسة العملية للمسلم ، وأنها ليست واحدة من حيث الفهم والتطبيق ، وبفضلها ظل الدين بجهود الفقهاء معبرا عن حاجات الانسان الدينية والاجتماعية في جميع مراحلها الزمنية والمكانية ، متآلفا مع ما يستجد من معارف ومشكلات ، ومع المتغيرات الحضارية ونظم الفكر والاجتماع ، لأن الفقهاء كانوا يرون أن واجبهم الأول يقتضيهم أن يعملوا على توافق النظام الاجتماعي مع مبادىء الدين ، وكان قسطا من النزاع شجر بينهم من محاولة مخلصة لتوضيح الرأي الصحيح ، من غير أن يجعلوا من نزاعهم حواجز تحجز بين آرائهم . ولقد وضحت نتائج كثيرة من الموضوعات الدينية بفضل مناقشتها في أماكن العلم العامة ، حتى أصبحوا يتداولون نقاشها في الميادين العامة . وذلك ليس خاصا بأمور الشريعة وليس ذلك فقط خاصا بالجانب التشريعي،انما أيضا كما كنا نلاحظ ان الجانب العقدي وهو خاص بعالم الغيب فإن له علاقة بالعقل التي يصفها الفكر الانساني بأنها علاقة مشوبة بحذر أو بتوتر . لماذا ؟ لأن تلك العلاقة ليست واضحة أمام العقول بمستوى واضح ، فبعضها يبني علاقته على الايمان بتلك العوالم الغيبية . ويوصف مثل هذا الموقف في عرف الفكر الانساني بأنه ينطوي على الاحترام الظاهر بينها . ومن حيث الحقيقة يوصف بأنه في حالة جمود مغلق أمام الدين ، وفي ذلك ـ وفق ما يرون ـ ما يجرح كبرياء العقل ، ويعتذر العقل عن ذلك بأن هذا الجانب لا عقلي ، وليس بالضرورة أن يسبر غوره ، إنما يكتفي معه بالايمان فقط . هنا تندرت بعض دوائر الفكر الانساني بالعقل الذي يؤمن باللامعقول وقالت : حينما تكون هناك أمور غير مفهوما لدى العقل ينبغي أن يلجأ الى الايمان للخروج من الحيرة ، وكان هذا التندر مدخلا سهلا للذين وصفوا عالم الغيب بالخرافة وحملوه مسئولية الجمود العقلي ، بينما هذا الجانب نفسه اعتبره أصحاب النوايا الطيبة مجالا جديدا للعقل ، تعرف عليه بعد أن كان محدودا بآفاق معينة وذلك بفضل الدين .

أما في الاسلام فإننا نراه يربط بين عالم الغيب والعقل ، ويشير على العقل أن يعمل الفكر في الكون وهو مليء بالأسرار التي تحفزه سعيا لاكتشاف معقولية الوجود ، مع رفض النزعة الشكّية التي تنتهي بالانسان الى عبثية الوجود . لذلك حرص مفكرو الاسلام على ابراز التفاعل بين جانبي الدين : المعقول منه ، واللامعقول ، حين قرروا وفق قواعد منهجية :

ان العقل لا يستطيع أن يعرف ما هو الله إلا من خلال الوجود الطبيعي وقوانينه التي تعين على الجزم بوجوده خارج أنفسنا وداخلها مثل قولهم : العالم متغير ـ وكل متغير حادثٌ .

وقولهم : إن العالم حادث نتيجة صارت بدورها مقدمة لقضية أخرى تقول : كل حادث لابد له من محدث ، وذلك المحدث هو الله ، من غير شرح أو تفصيل ، فإن هذه النتيجة ربطت بين الطبيعي وغير الطبيعي .

فهم الواقع

فمن خلال فهم العقل للواقع الطبيعي تبرز لنا نظم ومناهج نتخذها ضمانا للحقيقة ومعراجا لاثبات وجود الله . وحين بيّن الاسلام مشكلات عالم مابعد الطبيعة (اللامعقول) فما يبقى على المسلم إلا اعتناقها ، ثم يتفرغ لكل ما يجب فيه البحث والنظر ، وتصلح له المناهج العملية ، وفي ذلك تقدير للعقل ليعنى بمجالات الطبيعة وشئونها ، وهو ما يخص مجالات التجربة الانسانية وما يقع في إطار تاريخها . □

قصة من أفريقيا

الضحيّة

تأليف : جيمس نوجوجي
ترجمة : الشريف خاطر*

عندما قتل مستر ومسز جارستون في منزلهما بواسطة مجهولين ، حدثت ضجة كبيرة حول ذلك الموضوع . فقد نشر الحادث في الصفحات الأولى للجرائد اليومية ، كما أذيع بشكل هام في نشرة الاخبار بالمذياع . ربما كان ذلك يرجع الى أنهما اول اوروبيين من المستوطنين يقتلان في موجة العنف المتصاعدة التي انتشرت في جميع ارجاء المنطقة . ويقال ان هذا العنف له دوافع سياسية . وأينما ذهبت في الاسواق ، في محلات البقالة الهندية ، او اي دكان افريقية بعيدة ، فلا بد ان تسمع شيئا عن تلك الجريمة . كانت هناك مجموعة مختلفة من الاحتمالات والتأويلات والتفسيرات .

وهناك في بيت منعزل بعيد مبني فوق التل ، نوقش الموضوع باهتمام بالغ ، ذلك البيت الذي آلت ملكيته تماما الى « مسز هل » ، بعد وفاة زوجها في العالم الماضي اثر اصابته بحمى الملاريا عندما كان في زيارة لاوغندا ، وقد كان مستوطنا عجوزا محنكا ، منذ عصر المستكشفين الأول . اما ابنها الوحيد ، وكذلك ابنتها فكانا يتلقيان تعليمهما هناك ، « في الوطن » ، في انجلترا . ولكون مسز هل من المستوطنين الأول ، ولامتلاكها كثيرا من الاراضي أيضا ، بالاضافة الى مزرعة كبيرة للشاي . فقد كانت تلقى الكثير من الاحترام ، من بعض الناس . وان لم يكن الكل يحبها .

عندما حضرت مسز « سمايلز » ومسز « هاردي »

ولد جيمس نوجوجي في كينيا . حصل على الليسانس بمرتبة الشرف من جامعة ماكديري في كمبالا باوغندا . ونشر له العديد من القصص في المجلات الافريقية . كما قدمت له فرقة الناشيونال تيترا احدى مسرحياته . نشرت روايته الطويلة الاولى عام ١٩٦٥ وهي بعنوان : « لا تبك يا طفلي » .

* مدير عام الدراما بإذاعة البرنامج الثاني بالقاهرة .

الى بيتها منذ يومين لمناقشة جريمة القتل ، لم تبديا ارتياحا للطريقة المتساهلة التي تعامل بها مسز (هل) المواطنين الاصليين .

واكتسا وجهاهما بمسحة من الحزن واليقين الحزن لان شخصين اوروبيين « وليس مجرد مستر ومسز جارستون » قد قتلا ، واليقين لانه قد ظهر بجلاء وبما لا يدع مجالا للشك فساد وسوء نية هؤلاء المواطنين وكذلك نكرانهم للجميل . في حين ان « مسز هل » كانت تزعم دائما ان هؤلاء المواطنين من الممكن ان يتحضروا لو انهم فقط وجهوا الوجهة الصحيحة .

كانت « مسز سمايلز » امرأة في منتصف العمر ، نحيفة ، خشنة الطبع ، انفها شامخ ، شفتاها مزمومتان ، تذكرك بالمبشرين النشطين . وبالفعل كانت تعتقد انها كذلك في قرارة نفسها ، اذ اعتقدت انها وابناء جنسها ، قد خلقوا واحة من الحضارة والمدنية ، في بلد همجي يغص بالناس المتوحشين ، بل واعتبرت هدفها الأوحد ، هو ان تذكر المواطنين او غيرهم باستمرار ، بتلك الحقيقة ، حتى في طريقة مشيها ، وكلامها وكل علاقاتها العامة .

اما « مسز هاردي » فقد كانت افريقية من اصل الماني ، ولدت في جنوب افريقيا وهاجرت الى هنا منذ زمن بعيد . ليس لها آراء خاصة في اي شيء ، وغالبا ما تجد نفسها تتفق مع اي وجهة نظر تساند وجهات نظر زوجها ، او ابناء جنسها . وعلى سبيل المثال ، ما حدث في هذا اليوم ، عندما وجدت نفسها في اتفاق مع كل ما قالته « مسز سمايلز » . اما « مسز هل » فقد تمسكت بوجهة نظرها وراحت تؤكد كما كانت تفعل من قبل دائما ، ان المواطنين طيبو القلوب ، وكل ما نحتاجه هو معاملتهم برفق .

ـ « هذا كل ما يحتاجونه . ان تعاملهم برفق . وبالتالي سوف يعاملونك برفق . انظروا الى « خدمي » . كلهم يحبونني ويتوقون الى فعل اي شيء اطلبه منهم » .

كانت هذه هي فلسفتها التي تتسم بشيء من التساهل ، وعلى شيء من التحرر والتحضر .

وكانت تقوم بفعل اشياء لخدمها تتسم بالتحرر . فلم تكتف ببناء بعض المساكن من الطوب لهم ، بل اقامت ايضا مدرسة لاطفالهم . لا يهم اذا كان في المدرسة ما يكفي من المدرسين ام لا ، اذ ان الاطفال يدرسون نصف اليوم ويعملون في المزارع نصف اليوم الآخر ، وذلك يعدّ اكبر بكثير من قدرة المستوطنين الآخرين على فعله ، اذا كان لديهم الشجاعة ليفعلوا ذلك .

ـ « شيء فظيع . اوه ، تصرف فظيع » . هكذا اعلنت « مسز سمايلز » في عنف وغضب . ووافقت « مسز هاردي » . اما « مسز هل » فقد ظلت على موقفها .

ـ « كيف تسنى لهم ان يفعلوا ذلك ؟ لقد جلبنا لهم الحضارة . اوقفنا الرق والحروب القبلية . ألم يكونوا جميعا يحيون حياة بائسة همجية ؟ » هكذا تكلمت « مسز سمايلز » بكل ما لديها من فصاحة ، ثم اختتمت كلامها بهزة حزينة من رأسها وقالت :

ـ « قلت دائما ، إنهم لن يتحضروا ببساطة ، ليست لديهم القدرة على ذلك » .

ـ « يجب ان تتذرع بالصبر والحلم » . هكذا اقترحت « مسز هل » ، وكانت نبرتها تتسم باسلوب المبشرين أكثر مما تتسم به نبرة « مسز سمايلز » .

ـ « الحلم ! الصبر ! الى متى تتذرع بالحلم والصبر ؟ من كان اكثر حلما وصبرا من آل جارستون ؟ من كان اعطف وارق منهم ؟ ولك ان تفكري في كل المستوطنين الذين اصروا على التعامل بمثل هذا الاسلوب ! » .

ـ « حسن ، اليس المستوطنون هم الذين . . . » .

« من الذي قتل ؟ من » .

ـ « يجب ان يشنقوا جميعا . » اقترحت « مسز هاردي » ذلك . وكان صوتها يحمل نبرة الادانة .

ـ « ليس ذلك فحسب . فلك ان تتخيلي بشاعة ما حدث . فلقد ايقظها الخادم من النوم » .

ـ « صحيح ؟ » .

ـ « نعم . كان خادمهم هو الذي طرق باب غرفة

النوم وطلب منها ان يفتحا بسرعة . وقال ان هناك من يطاردونه . . . »

ـ « ربما يكون ذلك . . . »

ـ « كلا . . . كل شيء كان مرتبا . كانت خدعة . فحالما فتح الباب ، انهالت الطلقات مدوية . كل شيء ذكر في الجريدة »

واحست« مسز هال »بشيء من الذنب لانها لم تقرأ الجريدة .

كان الوقت وقت تقديم شاي المساء . واستأذنت « مسز هل » وذهبت الى جوار الباب ونادت بصوت رقيق عطوف .

« نيجوروجو ! نيجوروجو ! »

كان نيجوروجو هو خادم بيتها . كان طويلا ، عريض المنكبين ، في اواسط العمر ، التحق بخدمة « مسز هل » منذ اكثر من عشر سنوات . يرتدي سروالاً اخضر ويلف حول وسطه شريطا احمر ، ويضع فوق راسه طربوشا احمر . وكان قد ظهر في تلك اللحظة بجوار الباب ، ورفع حاجبيه في استفسار ـ وقد صدرت منه هذه الحركة مصحوبة بقولة « نعم يا سيدتي » « احضر الشاي » .

- « حاضر يا سيدتي » .

ثم اختفى بعد ان القى نظرة سريعة على كل السيدات الموجودات . واستؤنفت المناقشة التي كانت قد قطعت بحضور نجوروجو .

- « يبدو بريئاً جدا » قالت مسز هاردي .

- « نعم ، زهرة برية بريئة للغاية ، لكنها تخفي حية في ثناياها » . قالت مسز سمايلز ذلك مستشهدة بقول شكسبير .

- « لقد ظل في خدمتي عشر سنوات او اكثر . . مخلص جدا ، يحبني كثيرا جدا » هكذا قالت « مسز هل » دفاعا عن خادمها .

- « على اي الاحوال انا لا ارتاح اليه . لا ارتاح اليه ، لا ارتاح لوجهه » .

- « وانا كذلك » .

كان الشاي قد احضر . شربنه . وظللن يثرثرن حول الحادث ، وحول سلطات الامن والزعماء السياسيين لذلك الشعب الذين اصبحوا عناصر غير مرغوب فيها ، تشوه جمال ذلك البلد . لكن « مسز هل » من خلال ايمانها الشديد - وهذا ما جعل المسألة تتصاعد - اصرت على ان اولئك الزعماء انصاف المتعلمين الذين ذهبوا الى بريطانيا وتصوروا انهم تلقوا العلم ، لا يعرفون الرغبات الحقيقة لشعبهم . وبامكان المرء ان يكسب اعوانه بمعاملته الرقيقة لهم .

وما ان انصرفت كل من « مسز هاردي » و « مسز سمايلز » حتى اخذت « مسز هل » تفكر في الجريمة وفي ذلك النقاش . فشعرت بعدم الارتياح ، واحست لأول مرة انها تعيش في منطقة بعيدة نائية عن اي عون في حالة اذا ما هوجمت . لكن علمها بان لديها مسدسا أراحها بعض الشيء .

انتهى العشاء . وبذلك ينتهي عمل نجوروجو اليومي . خرج من منطقة الاضواء الى منطقة الظلال التي لا تحصى ، ثم اختفى في الظلام . كان يمشي متبعا المدق من منزل « مسز هل » الى حي الشغالة هناك في اسفل التل . حاول ان يصفّر لكي يبدد هذا السكون وتلك الوحدة المهيمنة عليه . لكنه لم يستطع وبدلا من ذلك سمع نعيب بومة .

توقف ، وظل متجمدا في مكانه ، ولم يستطع ان يتبين شيئا هناك في اسفل ، في حين استطاع ان يرى خلفه خيال بيت سيدته - ضخما مهيبا في الظلام كالمارد . نظر الى الخلف في ترو وبغضب ، واتضح له فجأة ، اثناء غضبه انه يتحدر الى سن الكهولة .

وود نجوروجو لو يصيح ويقول : « انت ايها البيت ! انت ! لقد عشت فيك طويلا . ما الذي عاد علي من جرائك ، سوى انني اصبحت على هذه الحال ؟ انها ارضي انا ! هكذا اراد ان يصيح بكل هذا الكلام ، بالاضافة الى اشياء اخرى ترسبت في اعماق قلبه منذ فترة طويلة . ولم يكن البيت يجيب عليه بالطبع . وهنا احسّ بحماقته ومضى في طريقه .

ونعبت البومة ثانية - مرة ومرتين .

فسّر نجوروجو ذلك ، بمثابة نذير شؤم لها : ومرة ثانية اشتعلت روح نجوروجو كلها بالغضب - ازاء كل اولئك ذوي البشرة البيضاء ، كل تلك الجماعات الاجنبية التي طردت ابناء الارض الحقيقيين من ارضهم . الم تكن هذه الارض ملكا لنا ؟ فكيف اذن ! استلبت منهم هذه الارض ؟

كان دائما يتذكر اباه عندما تتملكه تلك اللحظات من الغضب والمرارة . لقد مات اثناء النضال - النضال لإعادة بناء دور عبادتهم . حدث ذلك اثناء مذبحة نيروبي الشهيرة عندما اطلق البوليس الرصاص على الناس الآمنين الذين يطالبون بحقوقهم . وكان والده ضمن الناس الذين ماتوا . ومنذ ذلك الحين تحتم على نجوروجو ان يكافح من اجل الحياة - يتنقل في العمل هنا وهناك . في مزارع الاوروبيين قابل الكثير من الانماط - بعضها كان خشنا فظا ، والبعض الاخر كان لطيفا رقيقا ، لكنهم كلهم متغطرسون ، ولم يكونوا يعطونه الا مجرد راتب حقير ، كان كافيا جدا بالنسبة له من وجهة نظرهم .

ثم عمل اخيرا عند « آل هل » . وكان مجيئه للعمل عندهم بمجرد الصدفة البحتة ، اذ ان تلك الارض التي كانت من نصيب « مسز هل » ، هي

نفس الارض التي كان والده يقول له دائما انها تخص عائلته . لكن كيف احتلت الارض ؟ . . حدث ذلك عندما رحل ابوه وآخرون الى اقليم « مورانجا » أيام القحط . وعندما عادوا ، كانت الارض قد ولّت .

كان والده يقول له : « أترى هذه الشجرة الكبيرة ؟ تذكر ان هذه الأرض ارضك . كن صبورا ، ضع عينك على هؤلاء الأوروبيين ، سيأتي يوم يرحلون فيه وتعود الارض اليك » .

كان صغيرا حينذاك ـ ولم يستطع الصبي الصغير بعد وفاة والده ، وإزاء ظروف الحياة الصعبة ان يجعل هذه الوصايا حاضرة دائما في ذهنه ، لكنه عندما حضر الى هنا بالصدفة ـ ورأى الشجرة الكبيرة ـ تذكر كل ما قاله والده ، وعرف المكان كله . عرفه بدافع من قلبه واحساسه ، بل وعرف حدود الارض وابعادها .

لم يحبب نيجوروجو مسز هل ابدا ، بل وكان يستنكر اسلوب معاملتها اللطيف للعمال الذي يتمثل في الكثير الذي قدمته اليهم . لقد تعامل مع انماط قاسية من امثال « مسز هاردي » ، لكنه كان يعرف دائما كيف يوقفهن عند حدهن . لكن « مسز هل » واسلوب تعاملها المتحرر كان يجعله غير قادر على فعل اي شيء ضدها . كان يكره المستوطنين . وكان يكره اكثر ما يكره فيهم تلك المداهنة والرياء ، وكان يعلم ان « مسز هل » لا تخرج عن كونها واحدة منهم . كانت مثل كل الآخرين لكنها تختلف عنهم بما لديها من احساس ابوي تسيطر به على كل من يعمل عندها . وكان هذا الاحساس يجعلها تشعر بانها افضل من الآخرين . لكنها كانت سيئة . وانت لاتعرف ما هو موقفك حيالها .

وعلى حين فجأة ، صاح نيجوروجو « انا أكرههم ! انا اكرههم ! » . بعد ذلك كسته مسحة من الهدوء العابس . الليلة ، بأي حال من الاحوال ، يجب ان تموت « مسز هل » ـ وتدفع ثمن اسلوبها التحرري المصطنع ، وذلك الحنو الابوي . تدفع الثمن نيابة عن كل ابناء جنسها المستوطنين فهي مستوطنة قبل كل شيء آخر .

وصل الى حجرته . وكانت حجرات العمال الآخرين قد توقف تصاعد دخان طهي الاطعمة منها ، وكذلك تلاشت الاضواء في اغلبها . من المحتمل ان بعضهم قد نام بالفعل ـ او ذهب البعض الآخر لاحتساء البيرة . اشعل الفانوس وجلس على السرير . كانت الحجرة صغيرة جدا ـ لدرجة ان الانسان يستطيع ان يلمس اركانها لو انه فرد ذراعيه جانبا . وهنا في هذا المكان ، كان يتحتم عليه ان يعيش مع زوجتين وعدد من الاطفال ، وهذا ما حدث بالفعل لمدة تزيد على خمسة اعوام . منتهى الكرم . فلقد كانت « مسز هل » تعتقد تماما انها فعلت اكثر مما ينبغي لمجرد بناء هذه الغرف بالطوب .

« غرف رائعة أليس كذلك ؟ » كانت مغرمة جدا بالقاء هذا السؤال . وفي اي وقت يكون لديها زوار كانت تأخذهم الى حافة التل وتشير الى هذه البيوت .

ابتسم نيجوروجو ثانية في عبوس ، واخذ يفكر في انه قد حان الوقت لكي تدفع ثمن هذا التلذذ والاستماع بتقبل التهاني من اجل ما فعلت . كان يعرف ان لديه فأسا في حاجة الى ان تشحذ . كان عليه ان يثأر لموت ابيه ويسدد ضربة لأولئك الذين احتلوا ارض عائلته . وبناء على ذلك ، وكجزء من مهمته فقد اتضح انه لا بد ان يبعد زوجتيه واطفاله بعيدا عن ذلك المكان حتى لا يتعرضوا للمتاعب والاذى ، اذ قد يضطر هو الى الهرب بعد ان ينفذ مهمته .

سيأتي له اعضاء منظمة شباب التحرير (جيهي) في اي وقت ، ولا بد ان يقودهم الى البيت . ستكون خيانة . . . ولو ! لكن من الضروري ان يحدث ذلك .

وترامى اليه نعيب البومة عاليا هذه المرة . كان نذير شؤم ، فهي دائما تتنبأ بالموت ـ موت « مسز هل » . فكر فيها . فكر فيها . وطافت برأسه الذكريات . لقد عاش معها ومع زوجها لمدة تزيد على عشر سنوات . كانت تحب زوجها . وهو متأكد من ذلك . وقد اضناها الحزن عندما علمت بوفاته .

وفي تلك الفترة انشطرت حياتها واهتز كيانها لمجرد فكرة ان تعيش وحدها كمستوطنة في هذا المكان دون سند . لكن نيجوروجو كان نعم المعين لها حقيقة في مأساتها وفي مواصلة حياتها . ثم الاطفال ! الذين يعرفونه جيدا وتربوا على يديه مثل سائر الاطفال . مثل اطفاله تماما . كانوا يحبون والديهم ، ولقد كانت « مسز هل » رقيقة جدا معهم ، فكر فيهم الآن وهم في انجلترا ، ايفقدون الام مثلما فقدوا الاب ؟ .

ثم تبين له فجأة ، انه لا يستطيع الاقدام على تلك الفعلة . لم يستطع ان يبرر ذلك ، لكن « مسز هل » تجسدت امامه في هيئة امرأة ، زوجة ، على غرار زوجته نيجين ، او زوجته وامبو ، بل وكأم ، فوق كل اعتبار . كره نفسه لهذا التحول الذي اعتراه ، واحس بالضيق . وحاول جاهدا ان يغير من حالته النفسية ليعود الى حالته الاولى ، ولا يراها الا بمثابة مستوطنة . بمثابة مستوطنة ، وهذا امر سهل لان نيجوروجو كان يكره المستوطنين وكل الاوروبيين .

لو كان في استطاعته ان يراها على ذلك النحو ، (كواحدة من ضمن المستوطنين البيض) اذن لكان في امكانه ان يفعلها ، دون حيرة ، لكنه لم يفلح في ان يعود بنفسه الى تلك الحالة ، على اي الاحوال ، لاداعي الآن .

لم يحدث له من قبل ان فكر فيها على ذلك النحو . ابدا على الاطلاق حتى اليوم . رغم انه كان يعلم جيدا ، انها هي كما هي دائما ـ وستكون كذلك غدا ـ امرأة مداهنة تصطنع الحنان . في هذه اللحظة عرف انه مشتت الفكر ، وربما لن يستمر ذلك الوضع هكذا ، اذ بدت له المسألة في هذه اللحظة ، وكأنها شيء من الصعب تحقيقه ، ذلك ان عشر سنوات من العشرة لا يمكن اهدارها هكذا بسهولة ، رغم انها كانت بالنسبة له عشر سنوات من الألم والعار ، وتمنى فيما بينه وبين نفسه الا يكون هناك جور او ظلم في هذا العالم ، وبالتالي لن يكون هناك هذا التباين الكبير ، تلك التفرقة بين الابيض والاسود . ولما كان وُضع ابدا في ذلك الموقف الأليم .

لكن ماذا يتحتم عليه أن يفعل الآن ؟ هل يخون الرفاق ؟ . جلس حائرا غير قادر على اتخاذ القرار بالنسبة لهذا الموضوع . لو انه لم يفكر في الناحية الانسانية ! رغم ان كراهيته للمستوطنين البيض كانت راسخة في ذهنه .

لكن ان يقتل أماً لطفلين ، فان ذلك يبدو عملا مؤلما بالنسبة له لكي يفعله في حدود التفكير السوي .

خرج . وكانت الظلمة ما تزال تلفه ، ولا يكاد يرى اي شيء بوضوح . وبدت النجوم في اعلى ، وكأنها قلقة في انتظار قرار نيجوروجو . ثم ، كما لو ان نجمة هادئة كانت ترغمه على ان يبدأ السير عائدا الى بيت « مسز هل » . فقد قرر ان ينقذها . وربما بعد ذلك يمضي الى الغابة حيث يقضي بقية حياته مناضلا مع الرفاق . وبدا له هذا شيئا رائعا . وكانت بمثابة تعويضه عن خيانته لهم بخصوص « مسز هل » لم يكن هناك وقت ليضيعه . فلقد كان الوقت متأخرا ، ومن المحتمل ان يأتي الرفاق في اي وقت . وهكذا اندفع جريا وليس في ذهنه سوى هدف واحد ، وهو انقاذ « مسز هل » ، وفي الطريق سمع بضع خطوات ، فاندفع نحو شجيرة واستلقى خلفها ساكنا .

وانتظر في قلق وهو يكتم انفاسه حتى ابتعدت الخطوات . ومرة ثانية كره نفسه لتلك الخيانة التي يقوم بها . لكن كيف كان يتسنى له الا ان يصغي الى ذلك الصوت ، صوت الحقيقة الذي يخاطب كل الرجال والنساء من جميع الاجناس وفي كل وقت من الاوقات . وبدأ الجري ثانية عندما تلاشت اصوات الاقدام تماما . كان من الضروري ان يجري ، لانه لو حدث واكتشف الرفاق خيانته ، فلن يلقى سوى الموت ، لكن ذلك لم يكن يفكر فيه . كان يود الانتهاء من مهمته هذه باقصى سرعة .

اخيرا وصل وهو يلهث والعرق يتصبب منه الى بيت « مسز هل » ، ودق الباب صائحا « سيدتي . . . . سيدتي » .

لم تكن « مسز هل » قد ذهبت الى الفراش بعد . كانت جالسة ، والعديد من الافكار تدور في راسها خاصة بعد تلك المناقشة التي جرت بعد ظهر اليوم مع

المرأتين الاخريتين . واحست بعدم الارتياح اكثر مما كانت عليه ، فعندما انصرف نيجوروجو واصبحت وحيدة في البيت ، فكرت في سلامتها وامنها واخرجت مسدسها الذي كانت تعرف كيف تستعمله . فمن الافضل ان تكون مستعدة لأي خطر داهم . وانه لمن سوء الحظ ان مات زوجها الذي كان يملأ عليها البيت ويجنبها كل ذلك .

تنهدت وتنهدت عندما اخذت تسترجع ذكريات الايام الاولى لها في افريقيا ، حيث كانت هي وزوجها وآخرون يقومون بترويض همجية هذه المناطق ويطورون الكثير من سكانها . وبدأ الناس من أمثال نيجوروجو يعيشون في امن دون خوف من اشتعال حروب قبلية . لقد منحوهم الكثير ، ولذا يتحتم عليهم ان يقدموا الكثير من الشكر للاوروبيين .

كانت « مسز هل » لا تحب اولئك المشتغلين بالسياسة الذين يأتون ويشوشون افكار اولئك الناس المطيعين الذين يقومون بالعمل لديهم ، خاصة اذا عوملوا برفقة ولطف . كما انها لم تقبل تلك الجريمة التي راح ضحيتها آل جارستون .

كلا ! ترفضها وتكرهها . وعندما تذكرت الحقيقة بانها تعيش وحدها ، فكرت انه قد يكون من الافضل لها ان تنتقل الى نيروبي وتبقى هناك لفترة مع الاصدقاء ، لكن ماذا تفعل مع خدمها او اولادها كما تسميهم ؟ تحيرت . وفكرت في نيجوروجو الذي يبدو غائبا دائما . لديه زوجات كثيرات ؟ صاحب عائلة كبيرة ؟ كان شيئا غريبا لها انها عاشت معه طوال تلك الفترة الطويلة ، ولم تفكر في هذه الامور . كان ذلك مفاجأة بالنسبة لها . انها المرة الاولى التي فكرت فيه كإنسان صاحب عائلة . وقد كانت تراه دائما انه مجرد خادم . وكم كان مشينا بالنسبة لها ان تفكر في خادمها كوالد له عائلة . تنهدت . كانت هذه غلطة ، يجب ان تصحح في المستقبل .

بعد ذلك سمعت طرقة على الباب الخارجي وصوتا ينادي : « سيدتي ! سيدتي » . كان ذلك صوت نيجوروجو خادمها . وانتشر العرق على وجهها . لم تستطع ان تعي ما يقوله خادمها ، لان كل ملابسات حادث اغتيال آل جارستون تبدت امامها . هذه هي النهاية . نهاية المسيرة . اذن فقد قادهم نيجوروجو الى هنا ! ارتعدت واحست بالخوار .

لكنها فجأة استعادت رباطة جأشها وقوتها . كانت تعلم انها وحدها . وانهم من الممكن ان يقتحموا المنزل . كلا ! يجب ان تموت بشجاعة . وامسكت مسدسها بثبات اكثر في يدها ، وفتحت الباب واطلقت النار بسرعة . ثم انتابها حالة غثيان فلقد قتلت لاول مرة في حياتها . واحست بالوهن وسقطت على الارض وهي تصيح : « هيا ، تعالوا ، اقتلوني ! » . ولم تكن تدري في الحقيقة انها قتلت منقذها . مات نيجوروجو .

في اليوم التالي نشر الحادث بالصحف . امرأة واحدة تتصدى لعصابة واحدة تقتل واحدا منهم !

وتبتسم « مسز سمايلز » و« مسز هاردي » ، وهما تسرفان في تقديم التهنئة اليها .

ـ « لقد قلنا لك ، انهم كلهم اشرار » .

ـ « كلهم اشرار » .

هكذا علقت « مسز هاردي » بموافقة تامة ، في حين ظلت « مسز هل » صامتة . فما زالت كل ظروف وملابسات حادث قتل نيجوروجو تؤرقها . وكلما فكرت فيه ازدادت حيرتها ، واخذت تحملق في الفضاء لفترة . ثم اطلقت تنهيدة بطيئة مبهمة وقالت : « لا ادري . اوه . اعتقد انني لم افهم حقيقة نيجوروجو » .

ـ « لا تفهمين » .

ـ « اجل هذه هي الحقيقة . شيء يستحيل فهمه » .

وابتسمت مسز هاردي قائلة : « كلهم يجب ان يبادوا . . . . »

ووافقتها مسز هاردي قائلة : « اجل ، كلهم يجب ان يبادوا » .

من المحتمل ان لا أحد يعلم ابدا ان نيجوروجو كان ضحية ، ولا احد يعلم كذلك ابدا ان « مسز هل » احست بتأنيب ضمير لا حد له . □

حوار في باريس

.. داء كل زمان ..!

بقلم : الدكتور عبدالسلام العجيلى

لكل عصر آفاته . . . صحيح أن هناك حيثيات وظروفا موضوعية وذاتية وراء بروز أية آفة ولكنها مع ذلك تبقى داء .. بحاجة الى دواء ! وعصرنا الذي تسود فيه آفة الرشوة على سبيل المثال ، ليس هو العصر الوحيد الذي انتشرت فيه هذه الآفة . كما يذهب الكاتب في مقاله ، لكن البصير من يتعظ ويعالج !

في باريس التي زرتها بعد انقطاع طويل كان أصحابي ، من فرنسيين وعرب مقيمين في فرنسا ، يسألونني السؤال المعتاد : كيف الحال اليوم ؟ فأجيبهم إجابة لا تتغير : الحال اليوم أحسن . . . أحسن منه غدا !!

كنت أردد هذا الجواب باسما ، فيبتسم أصحابي كذلك . وكان يستمع إلى إجاباتي المتكررة هذه صديقي (م .) وهو عربي هجر موطنه وسكن العاصمة الفرنسية منذ سنوات . فقال لي ذات مرة ونحن جلوس في أحد مقاهي الحي اللاتيني تعليقا على ما يسمعه مني :

ـ تكاد تثيرني بردك الثابت هذا . لماذا أنت متشائم إلى هذه الدرجة ؟

قلت : أنا متشائم ! من قال لك ؟

أجاب : ترد على سائليك كأنك متيقن من أن الحال ستسوء في الغد ، غير منتظر أيّ خير من المستقبل . أليس هذا هو التشاؤم ؟

قلت : بل إنه التفاؤل بعينه .

قال : أنت تسخر مني .

أجبت : بالعكس . أن أقول إن الحال في الحاضر أحسن منه في الآتي يعني أنني راض عما أنا فيه اليوم أو ، على الأقل ، أني قانع به وأفضّله على ما يأتي . هذا هو التفاؤل . أما التشاؤم فهو ما أنتم فيه ، أنت وأمثالك من متبرمين لاتقنعون بما بين أيديكم . لا تؤاخذني إذا طلبت إليك أن تتطلع الى وجهي ثم تنظر إلى وجهك في المرآة : انت عابس كأنك متقزز أو متخوف مما يحيط بك . تنتظر الفرج من المقبل المجهول كأن اليوم القادم سيكون بلا علات .

قال : فلسفة لا أفهمها ولا أحسبك جادا في حديثك فيها . تقول إنك قانع أو راض عن الحال

اليوم كأنك لاترى الدنيا حولك .

قلت : مابها الدنيا ؟

أجاب : كما تراها . المشاكل والكوارث والحروب تعم الكون . الناس في ضيق والفساد في كل مكان . الرشوات مثلا . . .

أول من ارتشى

قلت مقاطعا : على رسلك . الرشوات مثلا . أمس كنت أتصفح كتاب أبي هلال العسكري عن الأوائل ، الأوائل في كل شيء ، فقرأت فيه تحت عنوان أول من ارتشى أن المغيرة بن شعبة كان يقول : « ربما عرق الدرهم في يدي لأدفعه إلى (يرفأ) غلام الخليفة . ليسهل اذني » وكان هذا الخليفة متزها عن الرشوة ولكن حاجبه (يرفأ) كان يقبل الدرهم رشوة . . .

قال صاحبي : ياسبحان الله ! كيف تساوي ما يجري اليوم بما جرى في الماضي ؟ كأنك لا تسمع بالمبالغ التي يدفعها في الزمن الحاضر الراشون ويقبضها المرتشون . هل تؤاخذ (يرفأ) على درهم أخذه من المغيرة بن شعبة ؟

قلت متضاحكا : ومن أنا حتى أؤاخذه ؟ سقت لك الحكاية لأدلك على أن الرشوة ، مثل غيرها مما تشكو منه ، داء قديم . ربما تغير اسمها اليوم فأصبحت تدعى عمولة ، أو ثمن فنجان قهوة ، أو هدية للمحروس ابن الذي بيده تسهيل الأمور ، ولكنها على كل حال داء قديم لا ينفع فيها أن تسخط على زمننا لإنتشارها فيه .

قال : لا أعرف بماذا أرد عليك .

قلت : عن المبالغ التي تدفع والطريقة التي تدفع بها أروي لك حكاية أخرى لأبصرك بمقدار قدم الداء . حكاية جرت أيام الخليفة المقتدر بالله العباسي .

قال : هات حكايتك . هل كان عنده كذلك حاجب يقنع بدرهم ليسهل الإذن بالدخول إليه ؟

قال هذا بلهجة حزينة زادت من سعة ابتسامتي ومن سخريتي من تشاؤمه ، فرحت أروي له تلك الحكاية عن زمان المقتدر .

وحكاية أخرى !

قلت :

ـ أنت تعرف ، أو لعلك لا تعرف ، أن ابن الفرات أبا الحسن علي بن محمد كان وزير المقتدر ، وأنه ولي الوزارة وفي نيته أن يكشف المظالم ويقسر الولاة على أن يسيروا في أمور الرعية على الطريق المستقيم . تقدم أحد قهرمانات قصور الخلافة إليه في ذات يوم وسأله ماذا يفعل بتاجر كبير يعرف بابن المقدسي عدل الدين ، لأنه عرض عليه – على ذلك القهرمان ـ رشوة كبيرة مقابل أن يكل إليه بناء قصر في ظاهر بغداد كان المقتدر أمر ببنائه لبعض جواريه ، والتاجر يأمل أن يفيد من القيام على بنائه مالا عظيما .

قال ابن الفرات للقهرمان : سيصحبك بعض الحرس إلى دار ابن المقدسي ، فاقبض عليه وأودعه حبس المطبق لننظر في أمره . إن ثبتت محاولته رشوتك صادرنا أمواله وربما أشرت على الخليفة بضرب عنقه .

قال (م) متسائلا : ضرب عنق في محاولة رشوة ؟

قلت : نعم كان ابن الفرات جادا ، فيما يبدو ، فيما نسميه اليوم تطهير مؤسسات الدولة من الفساد . حبس التاجر المتهم في المطبق في انتظار ما ينتهي إليه علم الوزير في تهمته . وكان صهر ابن المقدسي ، واسمه خالد بن سعيد ، صديقا لمؤنس الخادم قائد العسكر المرتزقة من الأتراك في دار الخلافة ، فطلبت إليه زوجته أن يكلم مؤنسا في أخيها . قال لها خالد : يا أختاه ، كل زيارة لمؤنس تكلفني آلافا من الدنانير أحملها اليه طرفا وهدايا ، فكيف وفي الأمر إنقاذ مسجون من حبس المطبق ؟ هل تضمنين أن يدفع أخوك ما يطلبه مؤنس في إطلاق سراحه ؟ لم يكن أمام أسرة التاجر المتهم غير أن تقبل . زار خالد بن سعيد مؤنسا حينذاك ، وزار مؤنس ابن الفرات ، وخرج ابن المقدسي من حبسه محتفظا برأسه على جسده وبماله في صناديقه . . . سوى ما دخل في صناديق مؤنس من ذلك المال . هذه هي حال الأيام التي تراها خيرا من أيامنا هذه ياعزيزي م . : سجن ابن المقدسي بتهمة محاولة رشوة ، وأفرج عنه برشوة محققة !

قال (م .) ، كأنه يريد التحقق من تفاصيل ما سمعه : وكم دفع التاجر لقاء إطلاق سراحه والابقاء على ممتلكاته ؟

قلت : لا أذكر قدر المبلغ الذي تورده الرواية في هذه الحكاية . ستون ألف دينار ، أو لعله ستمائة ألف دينار . ماذا يهمك من معرفة الرقم ؟

قال صاحبي ، وهو يجاريني بالابتسام هذه المرة : لأقارن بينه وبين مثيله في حكاية جرت في هذه الأيام تشبه حكايتك ، وإن لم يكن المبلغ المدفوع فيها بالدينار ، بل بالدولار .

وسكت قليلا قبل أن يعود الى عبوسه ويضيف : قل ماشئت ، فلن تفلح في إقناعي بأن حالنا اليوم جديرة بأن يرضى المرء بها أو يرتاح اليها . محاكماتك مغلوطة والنتائج التي تصل إليها بهذه المحاكمات غير صحيحة .

فعدت أنا إلى ابتسامتي المتهكمة لأرد عليه بقولي : هذا لأنك رجعي في تفكيرك .

صاح عندئذ كالمستنكر : وهذه تهمة جديدة ... أنا إذن رجعي ، وأنت تقدمي بطريقة تفكيرك هذه ! ؟

داء كل زمان

ضحكت لحدة لهجة صديقي في رده على جملتي الأخيرة ، وأدركت أني مسست منه الوتر الحساس الذي يثير غالبية الناس في هذا الزمن حين تنعتهم بما يشير إلى الرجعية . وأحببت أن أزيد في إثارته فقلت :

ـ إذا سمحت لي برهنت لك على صحة ما أقول .

فرد بانفعال : تبرهن على أني رجعي !

قلت : حلمك علي . إنك ترجع دوما إلى ما فات متزها إياه عن الشوائب ، وتقيس كل أمر بمقياس ما كان عليه في الزمن الغابر لتحكم بأن الحاضر بالغ السوء . تتساهل مع الماضين وتبرر أخطاءهم أو تهون أحجامها ، بينما لا تتساهل مع معاصريك ولا تبحث عن مبررات أخطائهم أو عن قيمتها بالنسبة إلى العوامل المحيطة بها .

قال ساخرا ، وبمرارة : وأنت يا عزيزي تقدمي لأنك مع الزمن المتقدم بكل سيئاته . كنا في التفاؤل والتشاؤم وأصبحنا في التقدمية والرجعية ...

قلت له : هون عليك . أردت أن ترى معي أن الفساد داء تشترك فيه كل الأزمان ، ولا حيلة لي ولك في القضاء عليه :

ومكلف الأشياء غير طباعها
متطلب في الماء جذوة نار

أولى لنا أن نتلقى أسواها ببرودة أعصاب ، وأن نبتسم ، لأن العبوس لا يفيد في شيء . في الواقع إني وإياك نرى الأمور رؤية واحدة ولكننا نختلف في تقديرها . في الكأس ماء إلى نصفها ، أنت تقول إن الكأس نصف فارغة بينما أقول إنها نصف ملأى . انه المثال الذي ضربه الأقدمون ليبينوا الفرق بين التشاؤم والتفاؤل .

هز (م) رأسه وقال : تفاؤلك هذا هو الذي جر علينا الوبال .

ابتسمت وأنا اسأله : جاء دورك في الاتهام ... أي ذنب تراه لي ؟

قال : أنت تدعو إلى القناعة والرضا بالواقع مهما كان فيه من مفاسد . اذا أفلحت في جر الآخرين إلى الايمان بما تقوله قتلت إرادة التغيير في نفوسهم .

كنت في الحقيقة أشاركه في كثير من قناعاته ، وما كان ترديدي لأقوالي عليه إلانوعا من المماحكة ورغبة مني ضاحكة في إثارته . قلت له وأنا أريد أن أنهي حوارنا بما يرضيه :

ـ تفاؤلي وتشاؤمك ، ورجعيتك وتقدميتي ، كلها ألفاظ لا تزيد من حجم الماء في الكأس التي ذكرتها ولا تنقصه . أما عن رضاي عن حالنا الحاضرة ، أو قناعتي بها ، فماذا أقول لك عن خلفياتها . أحسب أن المتنبي كان ينطق بلساني في تزييني للآخرين واقع الحال ، حين قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بدُّ

قلت هذا لصاحبي وودعته ، لأتركه في ذلك المقهى في الحي اللاتيني في باريس ، حيث يقيم مهاجرا ، ولأعود أنا في اليوم التالي إلى قواعدي في بلدي وإلى واقعي في وطني . □

حكايات طبية

مرضى أحببتهم

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

من الأمور الأساسية في الطب التي أؤمن بها إيمانا وثيقا أن العلاقة بين الطبيب والمريض ينبغي أن تكون بعيدة كل البعد عن العواطف التي إن دخلت في هذه العلاقة أساءت إليها أيما إساءة ، وقللت من فاعلية الطبيب ، وحولته من محترف بارع إلى إنسان تقوده مشاعره إلى ما قد لا يحقق بالضرورة خير المريض .

على أن الطبيب بشر قبل كل شيء ، ومهما حاول تجاهل الطبيعة البشرية ومعاندتها فهو في النهاية متأثر بها ، عاجز عن ان يغيرها ، وخير ما يأمل هو أن يكون أثرها السيء عليه ضئيلا يسيرا .

بين المرضى الذين عرفتهم خلال ممارسة زادت على عشرين عاما أذكر ثلاثة ، أحببتهم حباً لم أرده ، بصورة لم أكن أتوقعها ، وليس فيهم - كما سترون - ما يثير مشاعر الحب ، لكن أليس الحب أعمى ؟

الحب من النظرة الثانية :

كان لقائي مع أول هؤلاء المرضى في ليلة ليلاء ، مضى عليها الآن عشرون عاما ، وكنت حينذاك طبيبا تحت التمرين ، وكانت مناوبتي في غرفة الإسعاف عندما هبت علينا رائحة كريهة نفاذة قوية ، دفعتنا - أنا والممرضة والآذن - إلى أن نسد أنوفنا بأصابعنا ، وكما يتلو الرعد البرق تبع الرائحة أصحابها ، فإذا هم رجل وامرأة وطفل صغير لم يجاوز الثالثة من عمره ، وكان يبدو عليهم أنهم لا يعرفون الاستحمام إلا في المناسبات المهمة ، ولعله لم تحصل لديهم مناسبة مهمة منذ سنين ، وكان الطفل شاحبا ، ترابي اللون ، بين الموت والحياة ، وهو إلى الأول منهما أقرب ، يخرج الزبد من فمه كثيفا ، ويتنفس بحشرجة إن لم يخف منظرها ، وهو مخيف مريع ، فصوتها كفيل بإثارة الرعب في أعتى القلوب .

وتحاملت على نفسي على الرغم من الرائحة المقززة ، وحاولت ما استطعت مقاومة الشعور بالغثيان وقمت بفحص المريض ، وكان أهم ما استرعى انتباهي واهتمامي ضيق شديد في الحدقتين ، حتى ليكاد بؤبؤ العين أن يماثل رأس الدبوس ، ومن هنا كان التشخيص سريعا ، فالحالة على الأغلب تسمم بالفوليدول (وهو مركب كيميائي يستعمل مبيداً لبعض الآفات الزراعية) ، وكان ذلك الوقت موسم التسمم به إن جاز التعبير .

طلبت من الممرضة وكانت تبدو عليها المعاناة الشديدة من الغثيان أن تخلع ثياب الطفل ، وتلبسه ثيابا نظيفة من المستشفى ، بينما أخذت أسلا عبقة مادة الأتروبين . (وكان الدواء الوحيد المتوافر لهذه الحالة في تلك الأيام) ، وحقنته به في الوريد ، ثم ثنيت بعد دقائق بحقنة وريدية أخرى ، وأنا أراقب حدقة الطفل التي ما استجابت ولا توسعت ، وطلبنا من الأبوين الانصراف على أن يعودا في اليوم التالي ، بعد أن أفهمناهما أن الطفل بحاجة إلى البقاء في المستشفى ، وأنه على درجة من الخطورة غير قليلة ، ولو كنا أبقيناهما لمليهما لاسترحنا بالتأكيد ، فما كان لمريض مهما اقتضت حالته الاسعاف أن يعبر حاجز الرائحة المزعجة الذي أقامه الوالدان حول غرفة الاسعاف ، وكأنه سور عظيم !

واستمر اعطائي الحقن الوريدية لهذا الطفل كل عدة دقائق ، دون أن تتوسع الحدقتان ، وبلغ مقدار الأتروبين المعطى الجرعة المميتة ، بل تجاوزها ، وبقي الطفل على حاله ، على أن ذلك أكد لي التشخيص ، فلو لم يكن مصابا بالتسمم بالفوليدول لكان الأتروبين قضى عليه دون شك

وسهرت طوال تلك الليلة ـ يشهد الله ـ أعطي الطفل حقنا وريدية من الأتروبين بين اونة وأخرى ، حتى بدأت الحدقتان بالتوسع ، وبقيت أراقبهما كل نصف ساعة أو أقل من ذلك أو أكثر قليلا ، وكلما ضاقتا عدت فحقنت الطفل بالأتروبين ، حتى جاوز المقدار المحقون الجرعة المميتة عدة مرات

وعندما جاء الصباح بدأ الطفل يصحو ، ويطلب ـ بالطبع ـ رؤية والديه ، ويطلب أيضا الطعام والشراب

نسيت أن أذكر أن الغرفة التي وضع فيها الطفل على الرغم من احتوائها على ستة أسرة ، وعلى الرغم من كثرة حالات الاسعاف قد بقيت فارغة ، إلا من مريض واحد فاقد الوعي مصاب بالسبات ، فما رضي مريض أن يدخلها لشدة الرائحة الواخزة فيها التي تعودت عليها حتى لم أعد أحس بها ، وبدا لي الطفل على الرغم من ذلك كالوردة اليانعة والزهرة الناضرة ، وشعرت ان سهر الليلة الماضية لم يضيع هباء ، وأحسست كأني أحب ذلك الطفل حب الأم لوحيدها وكفى بذلك حبا

وبعد أن استقر وضع الطفل وشعرت بالاطمئنان عليه أخذت أجرجر قدمي باتجاه غرفتي في جناح الأطباء والنعاس يكاد يقتلني ، وكان يشاركني في تلك الغرفة زميلان ، ما إن دخلت عليهما حتى قفزا من فراشيهما وصاحا

ـ ما هذا الصباح العكر ؟ من أين لنك هذه الرائحة ؟

ونظرت إليهما ببراءة الأطفال وأنا أقول

ـ عن أي رائحة تتحدثان ؟ لعلكما كنتما تريان في المنام حلما مزعجا !

لو كان يبكي

أما المريض الثاني الذي لم أستطع نفسي من أن أشعر بالحب نحوه ، فكان طفلا يراوح عمره بين الرابعة والخامسة ، مصابا بالتلاسيميا أو فقر دم البحر الأبيض المتوسط ، وكان يحتاج إلى نقل الدم مرة كل أسبوعين أو ثلاثة ، وكان لونه الشاحب يجمع بين الأصفر والأخضر والبني ، في مزيج يتغير بين وقت وآخر حسب حالة الطفل ، وكانت ملامح وجهه وصفية لهذه الحالة ، فالجبهة أولية بارزة

وعظام الفك العلوي ضخمة ناتئة . ذلك أن النقي الذي يصنع الدم يكون ناشطا في هذه العظام فيؤدي إلى ضخامتها .

ومع أننا كنا نرى يوميا في المستشفى عدة أطفال مصابين بهذه الحالات ، إلا أن الصفة الخاصة بهذا الطفل هو أنه لم يكن يبكي مهما قمنا به من إجراءات مؤلمة ، من سحب الدم أو نقله إليه أو سوى ذلك ، بل كان يتقبل ذلك بوداعة واستسلام وقنوط . والحق أن هذا الطفل عندما يبكي يعطينا شيئا من الراحة النفسية ، فالبكاء هو آلية الدفاع لديه واستعمالها أمر طبيعي .

لذلك كنت كلما رأيت ذلك الطفل (وقد مات منذ سنوات) ، شعرت بغصة في حلقي ، وكنت أطلب من زملائي أن يقوموا بإجراءات نقل الدم إليه بدلا عني ، فقد كنت أشعر أنني عاجز عن القيام بذلك .

وما كنت لأستصعب هذا الأمر ، لو كان الطفل يبكي ، لكنه لم يكن يبكي قط .

إن رؤية رجل شديد قوي يبكي منظر مؤلم قاس ، لكن صدقوني ان رؤية طفل صغير في موضع يقتضي البكاء وهو لا يبكي أشد قسوة وإيلاما . سادتنا ـ نحن الأطباء ـ كي نعيش من تلك المآسي في صميمها ؟

الدواء الشافي :

أما المريض الثالث الذي أحببته فكان لقائي به بعد الأولين بسنوات ، وكنت وقتها أقضي الخدمة العسكرية الإلزامية ، بعد أن عدت من الاختصاص في أمريكا ـ وكنت مسؤولا عن قسم الأطفال في مستشفى عسكري كبير ، إلا أنه لم يكن مؤهلا للعناية بالحالات الشديدة ، وعندما جاءني مرة عسكري يحمل طفله ، وكان ذلك الطفل شاحبا شحوب الموتى ، مصابا بحمى شديدة ، يتنفس بصعوبة ، ويستعين بكل عضلة تساعده على التنفس ، فترى المسافات بين الأضلاع وفوق عظم القص وتحته تغور مع كل شهيق ، وترى جناحي الأنف ترقصان مع كل نفس . نصحت هذا الأب أن يراجع المستشفى الجامعي في تلك المدينة حيث الإمكانات متوافرة ، لكنه رفض بإصرار ، وقال إنه إن لم يقبل الطفل في المستشفى فسيعود به إلى البيت حتى لو كان الموت مآله . ولم أر بُداً من إدخال الطفل إلى المستشفى وقد هيأنا له خيمة أوكسجين بدائية ، ثم أجرينا له صورة شعاعية للصدر أظهرت وجود ذات رئة شديدة ، وتضخماً في القلب ، فكان أن عالجته بالمضادات الحيوية ، والديجتالس (وهو دواء مقو للقلب) إضافة إلى المدرات والسوائل الوريدية المقننة من حيث مقدارها والأملاح التي تحويها ، ونقلت له بحذر بعض الدم ، وذلك أنه عندما يكون فقر الدم شديدا فإن نقل الدم يجب أن يكون بكميات أقل منه لو كان فقر الدم خفيفا ، لأن القلب في الحالة الأولى يكون في وضعية معاوضة ويصعب عليه تحمل كميات كبيرة من الدم .

وغني عن البيان انني لم أنم نوما هانئا ليلتين أو ثلاثا ، ولم أكن أغادر المستشفى قط حتى استقر وضع الطفل ، وعند ذلك ذهبت مع بعض الزملاء إلى سهرة في نادي الضباط استغرقت سويعات قليلة .

في تلك الفترة جاء الأب لزيارة ابنه ، فرآه يسعل ، فطلبني ، فلم يجدني ، ولم يقنع بسواي من المناوبين ، فطلب طبيبا آخر من خارج المستشفى ـ وأنا دائما وأبدا أرحب بأن يستشير المريض وأهله من يريدون من الأطباء متى أرادوا .

وجاء الطبيب الآخر ولم يجد ما يفعله أو يضيفه ، ولا بد له من أن يضيف شيئا ، فوصف دواء مقشعا لا يقدم كثيرا ولا يؤخر .

وخرج المريض بصحة جيدة بعد أيام ، والطريف أن الأب والأهل مايزالون يعتقدون أن الدواء الذي وصفه الطبيب الآخر هو الذي أنقذ الطفل ، وخاصة ان هذا الطبيب قد تقاضى منهم أجرا غير قليل فكيف نوازن بين طبيب يأخذ الأجر الباهظ وطبيب الجيش المسكين ؟

إنني وإن كنت أعتقد أن من أسس الطب أن يبتعد الطبيب بعواطفه عن المرضى ، إلا أننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الشعور بالعطف والتعاطف □

ضحكات عربية

ابن الأديب

كان لأحد الأدباء ابن أحمق ، وكان مع ذلك كثير الكلام ، فقال له أبوه ذات يوم : يابني لو اختصرت كلامك إذا كنت لا تأتي بالصواب .

قال : نعم .

فأتاه يوماً فقال : من أين أقبلت ؟

قال : من سوق .

قال : لا تختصرها ها هنا ، زد الألف واللام .

قال : من سوقال .

قال : قدم الألف واللام .

قال : ألف لام سوق .

قال : ما عليك لو قلت من السوق ، فوالله ما أردت في اختصارك إلا تطويلا .

□□□

لكل داء دواء

دخل أبو علقمة النحوي على الطبيب فقال : إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطشت طشأة . فأصابني وجع بين الوابلة إلى دأية العنق ، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب فألمت له الشراسف فهل عندك دواء ؟

فقال له الطبيب : خذ خربقاً وشلفقاً وشبرقاً فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه بماء الماء .

فقال أبو علقمة : أعد عليّ ويحك ، فإنني لم أفهم منك .

فقال الطبيب : لعن الله أقلنا إفهاما لصاحبه ، وهل فهمت منك شيئا مما قلت ؟

أين وضعته ؟

لاحظ أحد تجار اللوحات الفنية بيكاسو يتأمل أحد لوحاته التي فرغ من رسمها وقد بدا عليه الانزعاج ، فقال له : ماذا هناك ؟ فقال بيكاسو : النهد ؟

- النهد ؟ - مابه النهد

- لقد نسيت أين وضعته

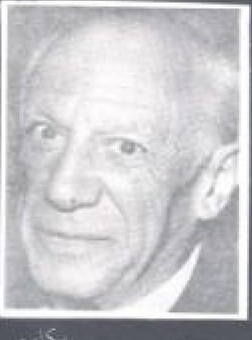

بيكاسو

المشاهد النائم

خلال عرض إحدى مسرحيات إميل أوجيه ، كان الكسندر دوماس الابن جالسا بجوار المؤلف عندما رأى أحد الحضور مستغرقا في النوم ، فقال له : هل هكذا تؤثر مسرحيتك في الناس ؟ ولم يجد المؤلف جواباً عن السؤال : إلا أنه بعد بضعة أسابيع عرض على نفس المسرح مسرحية لدوماس الابن . فلاحظ أوجيه أحد الحضور نائما فسارع الى دوماس قائلا : انظر . . انظر هناك مشاهد نائم ، فأجابه دوماس ببرود : أعرف ذلك . . إنه نفس الشخص الذي كان نائما في مسرحيتك فهو لم يستيقظ بعد .

□□□

موم وبرج ايفل

في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة بلوغ الروائي سومرست موم ٨٦ عاما قال : لا أحد يستطيع أن يتصور كم أكون سعيداً عندما أفكر أن طولي كان في يوم من الأيام بطول برج إيفل ، وعندما رأى الدهشة في عيون أصدقائه أردف قائلا : لم الدهشة ؟ لقد ولدت سنة ١٨٨٩ ، بعد أسبوع من وضع حجر الأساس في هذا البرج .

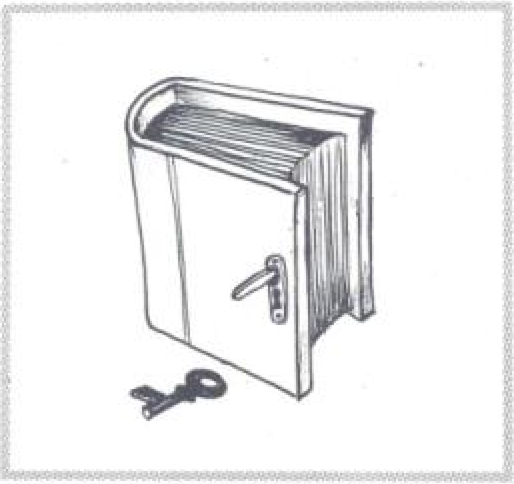

ضحك مقفي وموزون

عجيب غريب

عجب عجب هذا عجب
بقرة تمشي ولها ذنب
ولها في بزيها لبنٌ
يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر يرى
الكرم يرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح
أيضا ويرى فيه رطب
والمركب مع ما قد وسقت
في البحر بحبل تنسحب
والناقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب
لابد لهذا من سبب
حزر ، فزر ، ماذا السبب

التوسعة الأضخم فى التاريخ:

الحرمان الشريفان

يسعان جميع المسلمين

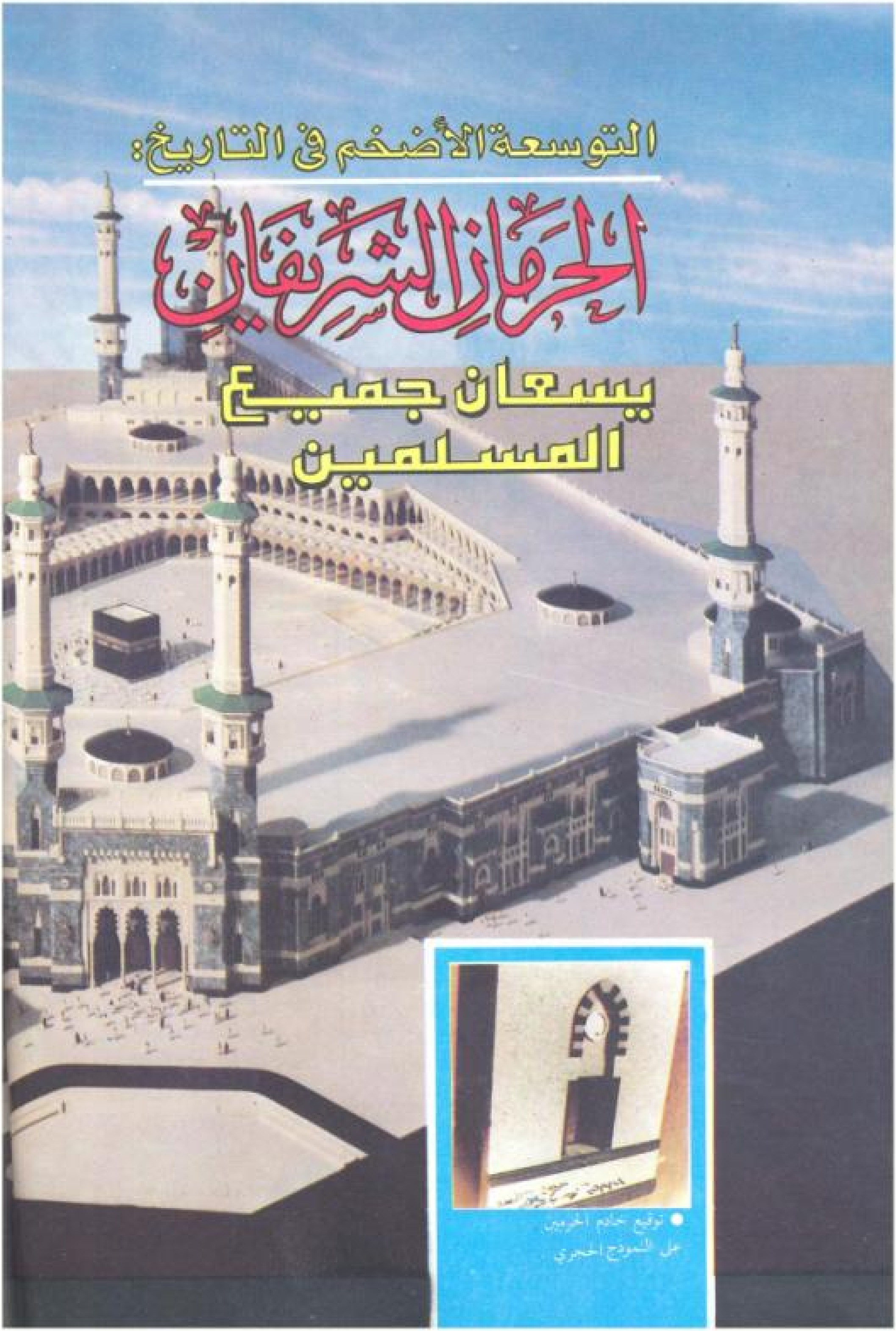

توقيع خادم الحرمين على النموذج الحجري

استطلاع : سليمان مظهر
تصـــوير : سليمان حيدر

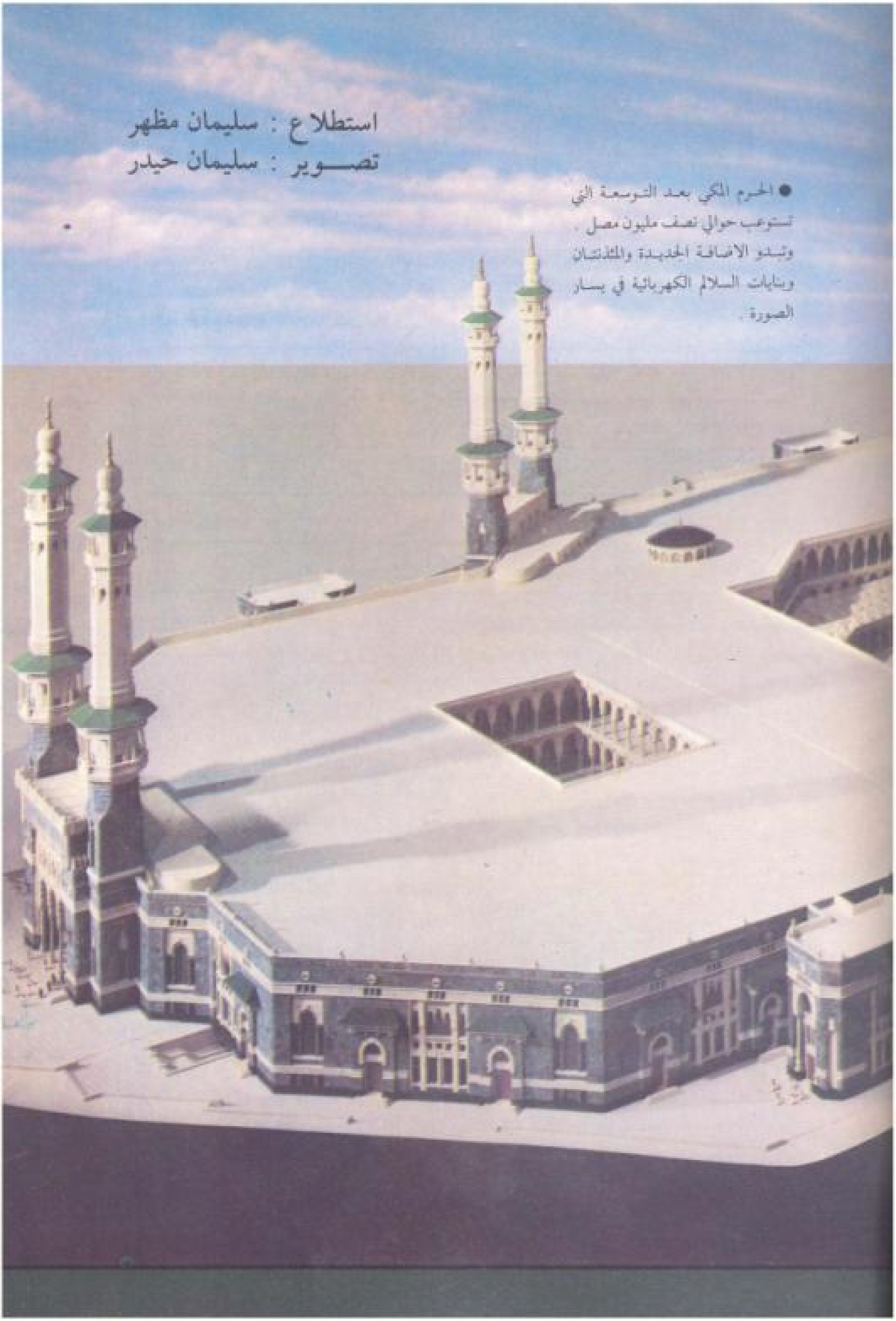

● الحرم المكي بعد التوسعة التي تستوعب حوالي نصف مليون مصل . وتبدو الاضافة الجديدة والمئذنتان وبنايات السلالم الكهربائية في يسار الصورة .

كانت المشكلة دائما . . في محدودية الزمان والمكان . . !

المواقيت مقيدة بأيام معدودات ، والشعائر محددة برقعة ومسافات . والحج في الاسلام عرفة ، والهدف شعائر بلا مشقة . والمسلمون يأتون من أركان الأرض الأربعة في حركة تتزايد عاما بعد عام ، فتضيق بهم ساحات المطاف والمسعى والمشاعر والصلاة . وبعد أن كان الحجاج يعدون بعشرات الآلاف أصبحت عدتهم بالملايين .

فكان لا بد من التوسعة الأضخم في التاريخ ، برعاية الملك فهد بن عبدالعزيز ، للحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة . . حيث انطلقت « العربي » تشهد وتسمع وتتابع مراحل تنفيذ أكبر عمارة تجرى في أرض الله الطيبة لاستيعاب جميع المسلمين الطائفين والقائمين والركع السجود .

في الحرم المكي

ما أروع أن تكون بعض هذا المشهد العظيم ، في بلاد تهوى إليها بالحب والشوق أفئدة المسلمين ، وتتضرع فيها القلوب المؤمنة الى الخالق العظيم أن يشمل برضاه خير أمة أخرجت للناس ، وأن يوحد كلمتها بعد شتات ، وينصرها بعد هزيمة ، ويعلي شأنها بعد ضعف ، ويوحد كلمتها بعد فرقة ، وأن يجمعها في الحق على البر والتقوى .

بين مكة والمدينة كان انطلاقنا لنتابع مشاهد أحدث عمارة وأضخم توسعة تجرى في الحرمين الشريفين .

وفي أم القرى وأم المدن ، نقف لنشهد التطور الجديد للساحة الكبرى أمام المسجد المبارك . المشهد الذي نراه أكثر اتساعا وأروع منظرا من كل ما طالما شهدناه من قبل على مدى سنوات عديدة متوالية* .

حركة البناء والعمران خارج المسجد الحرام وداخله مستمرة لا تتوقف ليل نهار ، وآلاف المهندسين والعمال يعملون في دأب وخشوع كأنهم في صلاة جامعة . إنهم يستكملون ما كانوا قد بدأوه تنفيذا لما أمر به خادم الحرمين لتوسيع المسجد الحرام وساحاته ، حتى يستطيع أن يستوعب ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الحجاج ومثلهم من المعتمرين والزائرين خلال السنوات القادمة . ولتحقيق هذا الهدف أصبحت هناك حالة طواريء واستنفار وتأهب يومي تستخدم خلالها كل وسائل التقنية الحديثة .

هذه الحالة التي تتزامن مع أحدث توسعة سعودية تجرى هذه الأيام ليست وليدة الساعة ، ولكن الصورة التي نشهدها أمامنا الآن إنما هي آخر مرحلة تم تنفيذها وإنجازها قبل أيام من موسم حج هذا العام . . ليبدأ بعدها ومع مطلع العام الهجري الجديد (١٤٠٩ هـ) تنفيذ المرحلة التالية من المشروع الضخم الذي يتضمن إضافة جزء جديد على المبنى الحالي للحرم يشمله سور جديد أكثر اتساعا ، ومئذنتان إضافيتان تنضمان الى المآذن الحالية البالغ عددها سبعة . .

* استطلاعات العربي عن مكة والمدينة : اعداد ١٦٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ .

كيف بدأت التوسعة الحديثة

نقطة البداية للتوسعة السعودية الأخيرة التي نقف عندها الآن ، بدأت مع ظهور الحاجة الماسة عام ١٣٩٩ هـ إلى إيجاد مساحات جديدة تؤدى فيها الصلاة ، بعد أن أصبح الحرم في أيام المواسم يضيق بالمصلين ، وتمتد صفوفهم عبر ساحات الحرم والطرقات المؤدية اليه ، حتى أصبح المصلون يشغلون جميع الأماكن المتاحة حول الحرم وبين البيوت والدكاكين والأسواق المحيطة بالمسجد . وبدا الحل المؤقت في نزع ملكيات المساكن والبيوت والمباني حول الحرم المكي للاستفادة منها في إيجاد مساحات خالية للاستفادة منها خاصة في المواسم ، مع إنشاء بعض المرافق لخدمة المصلين . وقد تم نزع ملكية منطقة السوق الصغير الواقعة في الجهة الغربية من الحرم ، ومساحتها حوالى ٣١٧٢٠ مترا مربعا .

وفي شهر رمضان عام ١٤٠٢ هـ قبل خمس سنوات ، تمت إزالة المنطقة وتسويتها ، وتم تخصيص ٢١ ألف متر مربع منها لصالح رواد بيت الله الحرام ، ثم فرشت المنطقة المضافة إلى ساحات الحرم بطبقة خرسانية ، وعمل بها ممرات وأعمدة للاضاءة ، وركبت عليها أجهزة صوتية متصلة بالأجهزة الأخرى للمسجد . ومنذ حج ذلك العام حققت ساحات السوق الصغير فائدة كبيرة للتوسعة على رواد البيت الحرام .

ومع ذلك فقد ظل الأمر يحتاج الى المزيد . .

تحسين سطح الحرم

يقول لنا المهندس أكرم من المؤسسة الكبيرة التي تتولى تنفيذ التوسعة ، أنه ذات يوم في عام ١٤٠٥ هـ كان خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز يتفقد الأعمال التي تجرى في المسجد الحرام . وحين صعد الى سطح الحرم لاحظ اتساع المساحة التي كانت تشغلها الكابلات والاشغالات الخشبية وبقايا أعمال المقاولات السابقة . وتساءل عن المساحة الكاملة للسطح وهل يمكن إخلاؤها من كل ما يشغلها مع تحسينها وتنظيفها وتبليطها . وحين عرف أن مساحة السطح تبلغ حوالى ٤٢ ألف متر مربع وأنها بعد تسويتها يمكن أن تستوعب حوالى ٩٠

ـ خريطة تبين موقع مكة المكرمة والمدينة المنورة .

ألفا من المصلين ، أصدر أمره على الفور بالبدء في مشروع تحسين سطح الحرم وإعداده للصلاة ، وتحسين طريقة الوصول اليه مباشرة من خارج الحرم الى الطابق الأول والسطح الذي يرتفع أكثر من ٢٥ مترا . .

ويضيف المهندس أكرم : ان الملك أمر بتبليط السطح برخام مبرد غير ناقل للحرارة . وقد استعرض بنفسه ثماني عينات من الرخام جلبت نماذجها من مختلف بلاد العالم ، وتمت تجربتها وتعريضها للحرارة حوالى ستة شهور حتى يمكن الاطمئنان الى عدم تأثرها بالحرارة . وبعد نجاح التجربة اختار بنفسه أكثرها تبريدا ليتم تبليط سطح المسجد بها ، ووقع على النموذج الذي اختاره بتوقيعه ، وهو التوقيع الذي شهدناه وقمنا بتصويره من النموذج المختار . .

وهكذا بدأ العمل في تحسين سطح الحرم في شهر المحرم ١٤٠٦ هـ واستفيد منه في أول رمضان ، حيث أضاف مكانا لتسعين ألفا أدوا شعائر صلاتهم بالسطح طوال شهر رمضان من هذا العام والعام الذي سبقه ، وتمكنوا من الوصول الى السطح عبر ثلاثة سلالم كهربائية ، لكل منها ٤ مسارات يتغير اتجاه حركتها من الصعود الى النزول حسب الحاجة .

ونصعد الى سطح الحرم مخترقين البنايات الثلاث المقامة متصلة الى جوار المسجد من الناحية الغربية ،

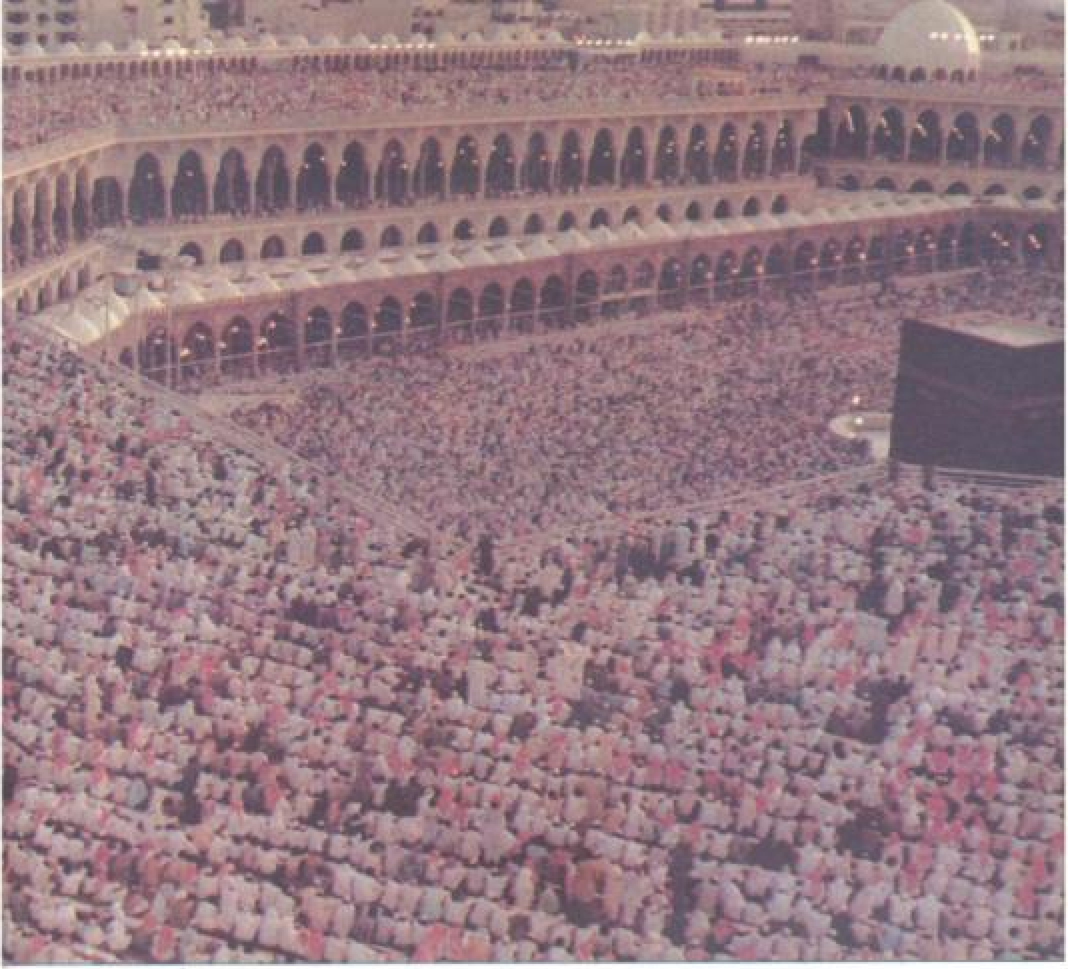

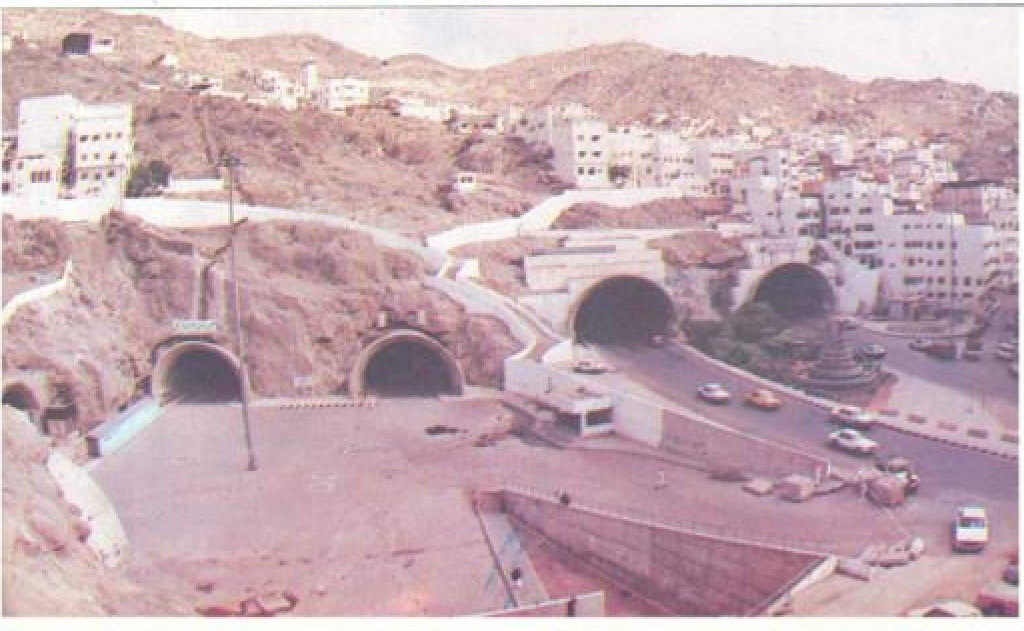

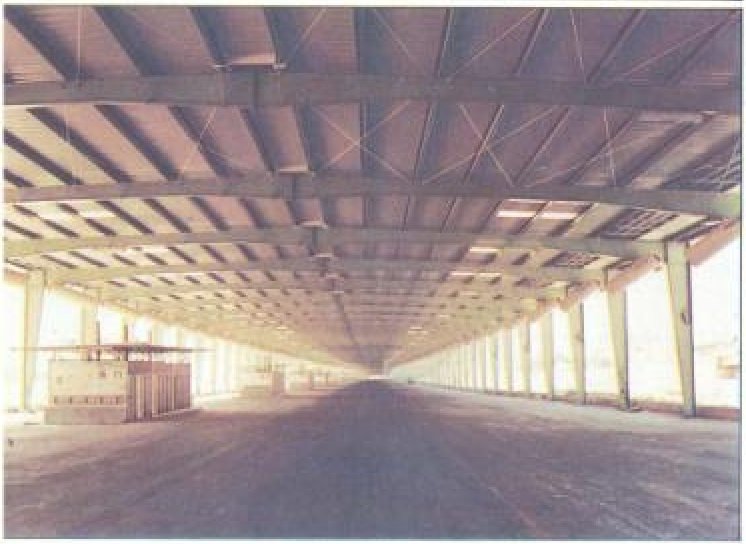

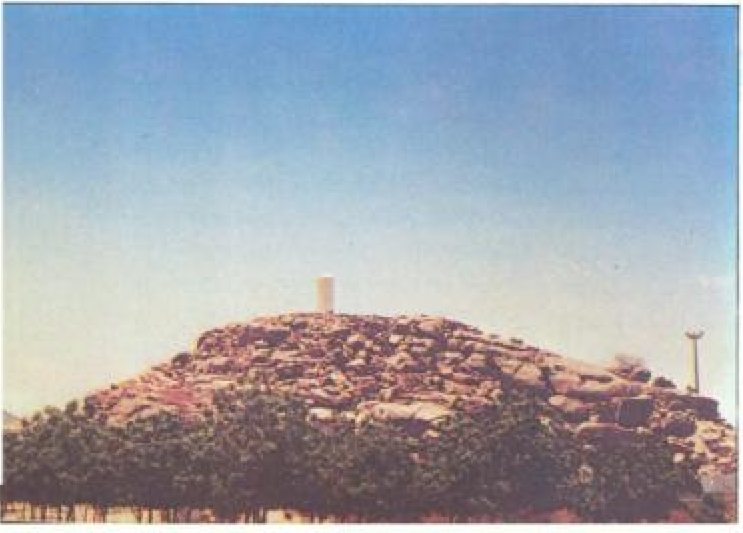

الصورة العليا لسطح الحرم بعد إعداده للصلاة والسفلى للانفاق الموصلة بين الحرم ومنى ... والى اليسار السلم الكهربائي الصاعد الى سطح الحرم (العليا) والوسطى لطريق المشاة المظلل لحماية الحجاج من الشمس .. والسفلى لجبل الرحمة في عرفة .

التي تؤدي مدرجاتها الكهربائية الى السطح . هذه البنايات بمساحتها الواسعة تستوعب هي أيضا حوالي ٢٥ ألف مصل .

ومن فوق السطح نطل ناحية التوسعات التي تمت في مكان السوق الصغير . ونتأمل الساحة الجديدة التي يفترش المصلون في زحام شديد أرضها المبلطة بالخرسانة والتي وضعت لها أهداف محددة تتلخص في تطويرها وتحسينها وفرشها بالرخام المقاوم للحرارة والسجاد ، الى جانب المظلات ودورات المياه وغيرها من الخدمات ، وذلك تمهيدا لتنفيذ المرحلة الجديدة من التوسعة مع بداية العام الهجري الجديد (الموافق ١٣ أغسطس ١٩٨٨) .

مبنى التوسعة الرئيسي

مشروع التوسعة الجديد الذي نطل عليه الآن في تصور لما سيكون عليه في المستقبل ، اطلعنا على تفاصيله التي يبدأ الآن تنفيذ مرحلتها الأخيرة ، وسيطلع الناس على هذه التوسعة خلال ثلاث سنوات أو أربع منذ اليوم وحتى مطالع العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري ، وبداية التسعينيات من القرن العشرين الميلادي .

استطاعت « العربي » الحصول على المخطط العمراني لمبنى التوسعة الرئيسي الذي سيضاف إلى مبنى الحرم الحالي . .

في البداية تتحدث الأرقام . . فالمساحة الحالية للحرم شاملة السطح تبلغ ١٩٣ ألف متر مربع تتسع لحوالي ٤٠٠ ألف مصل في وقت واحد . ومساحة أدوار مبنى التوسعة الجديدة من ناحية السوق الصغير بما في ذلك الطبقة الأرضية والأولى والسرداب تبلغ ٥٧ ألف متر مربع . يضاف اليها مساحة السطح الجديد لهذه الأدوار وتبلغ ١٩ ألف متر مربع . وبذلك تصبح مساحة أدوار التوسعة مع السطح ٧٦ ألف متر مربع . تتسع لحوالي ١٤٠ ألف مصل .

أما مساحة الساحات الخارجية المتبقية من جهة السوق الصغير وشرق المسعى ، فتبلغ ٤٠ ألف متر مربع تتسع لحوالي ٦٥ ألف مصل . فإذا أحصينا كل ذلك سنجد أن المساحة الشاملة للحرم بعد التوسعة تبلغ ٣٠٩ آلاف متر مربع تتسع لحوالي ٦٠٥ آلاف مصل في وقت واحد . .

يضم مبنى التوسعة الجديد مدخلا رئيسيا جديدا و ١٤ مدخلا عاديا ، بالاضافة الى مداخل المسجد الحرام الحالية البالغ عددها ٣ مداخل رئيسية و ٢٧ مدخلا عاديا . وقد روعي في التصميم إنشاء مدخلين جديدين للبدروم إضافة الى المداخل الأربعة الحالية .

ويتضمن مبنى التوسعة إقامة مئذنتين جديدتين بارتفاع ٨٩ مترا ، متشابهتين في تصميمها المعماري مع المآذن الحالية السبع التي ما تزال قائمة بعد أن أزيلت المآذن القديمة التي كانت تقع في وسط المطاف الحالي .

تصميمات التوسعة الجديدة تضمنت تحسين وتطوير الساحات المتبقية في أرض السوق التي تبلغ حوالي ٩ آلاف متر مربع . وسيتم تبليطها بالرخام الأبيض البارد . وسوف تستوعب هي أيضا حوالي ١٥ ألف مصل . أما الجهات الشرقية والشمالية والجنوبية للمسجد من جهة سوق الذهب والشامية والشبيكة القديمة ، فيتضمن التصميم تحسين وتبليط ساحاتها لادخالها في نطاق المسجد ، مما يوفر مساحة جديدة مقدارها حوالي ٣٠ ألف متر مربع تستوعب حوالي ٥٠ ألف مصل إضافي .

حركة المصلين والواجهات الخارجية

لتسهيل وصول أفواج المصلين الى سطح التوسعة في المواسم فستجرى إضافة مبنيين للسلالم المتحركة .

أحدهما في شمال مبنى التوسعة والآخر في جنوبه ، مساحة كل منها ٣٧٥ مترا مربعا ، ويحتوى على مجموعتين من السلالم المتحركة طاقة كل مجموعة منها ١٥ ألف شخص في الساعة . وقد صممت السلالم المتحركة بالاضافة الى الأدراج الثابتة للتخفيف عن المصلين ولا سيما كبار السن منهم دون عناء ، وبذلك يصبح إجمالي عدد مباني السلالم المتحركة خمسة مباني تنتشر حول محيط الحرم والتوسعة في العمارة الاضافية الجديدة ، وسيكون عدد الأعمدة بكل طابق ٤٩٢ عمودا قطر كل منها حوالى ٧٠ سنتيمترا للأعمدة المستديرة المربعة بارتفاع حوالى ٤ أمتار بالطابق الأرضي وخمسة أمتار بالطابق الأول . . ستكون كلها مكسوة بالموزايكو أو بالرخام . أما الواجهات الخارجية للتوسعة فيبلغ ارتفاعها ٢٣,٥ مترا ، محلاة

بالزخارف ومكسوة بالرخام والحجر الصناعي الذي اختاره الملك فهد ووقع على نماذج منه ، أما سطح التوسعة فسيلط بالرخام الأبيض البارد أسوة ببقية سطح المسجد تسهيلا على المصلين .

قال لنا أحد المهندسين القائمين بالتنفيذ ان تجهيزات الانارة بالتوسعة ستكون مشابهة لتجهيزات المسجد الحالية ، وتستخدم بها نفس العناصر من أنواع النجف والاضاءة بالمصابيح الفلورسنت في الكرانيش ووحدات الاضاءة المركبة على الأعمدة والجدران . وسوف تعطى هذه التجهيزات مستوى إضاءة مقاربا للمستوى الحالي . ويتم استخدام مكبرات للصوت معلقة على الجدران والأعمدة تغذيها أسلاك ممددة داخل مواسير مخفية سواء بالأعمدة أو بالسقوف والأرضيات .

لكي تبقى مباني الحرم المكي محتفظة برونقها ، فإن هناك العديد من المشروعات المرافقة للتوسعة اتفق عليها كأشغال الصيانة العامة والنظافة وخدمات السقيا والفرش والأعمال الكهربائية . كما أن هناك مشروعات أخرى تهدف الى تطوير الخدمات لرواد البيت الحرام ، منها تأمين المراوح الكهربائية وتركيب الساعات ، وتأمين السجاد واستبدال الدرج على صحن المطاف برخام مقاوم للحرارة ، وتجديد أبواب الحرام ، وإنشاء جسور المسعى ، وعمل الدرابزين الرخامي للمطاف ، وإنشاء مصعد بالصفا لكبار السن والعجزة ، وتأثيث مكتبة الحرم المكي الشريف .

الحرم بين المطاف والمسعى

ونطوف مع الطائفين حول الكعبة المشرفة ، ونسعى مع الساعين بين الصفا والمروة . .

أي روحانية تستغرق فيها وتحلق في سمائها وأنت أمام بيت الله المبارك ، حيث يشدك البصر الى المبنى الأصلي للمسجد الحرام ، والذي كانت عليه صورته في آخر توسعة سعودية سابقة كانت بدايتها في شعبان ١٣٧٥ هـ (ابريل ١٩٥٦ م) حين وضع الملك سعود بن عبدالعزيز حجر الأساس في حفل رسمي كبير وبدأ العمل تحت إشراف فيصل بن عبدالعزيز وكان وليا للعهد في ذلك الوقت .

الحرم بكل عظمته وأبهته يتلألأ بالنور وبالضياء تتوسطه الكعبة المشرفة بكل جلالها وهيبتها .

المسجد شاهق ضخم يصل ارتفاعه الى حوالي ٢٤ مترا تحيط به الساحات من كل جانب . الواجهة من الرخام المائل الى البياض والجدران والأعمدة والأرضية مغطاة بالرخام والمرمر في نظام هندسي متقن استطاع ان يحافظ على عمارة وطراز المسجد القديم وجعل التوسعة تبدو كإضافة وتكملة له ، بحيث تصبح المساحة الكلية ١٨٠ الف متر مربع . المصابيح الكهربائية الضخمة تجعل من الليل نهارا في كل انحاء المسجد . المسعى بين الصفا والمروة ضم الى المسجد الحرام ، بعد ان ألغى الطريق الذي كان يخترق المسعى وتحول الى ما وراء الصفا خارج حدود المسجد ويبدو المسعى بعد التوسعة وتجديد البناء يتكون من طابقين ، خصص الطابق الأرضي للسعي ، اما الطابق العلوي فقد خصص للصلاة وصار ملحقا بالمسجد الحرام .

التوسعة السعودية الأولى

كان المسجد الحرام قد ظل على توسعته العثمانية قرابة اربعة قرون على الرغم من الزيادة الهائلة في أعداد الحجاج . وكان لابد للمساحة المحدودة للمسجد أن تضيق عن استيعاب سكان مكة وما جاورها . واصبحت الحاجة ماسة للتوسعة وبخاصة ان المساكن كانت تحيط بالحرم احاطة السوار بالمعصم .

وابتدأت التوسعة السعودية الأولى للحرم الشريف عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) واستمرت مدة عشرين عاما على مراحل ، اهمها فتح الطرق الرئيسية حول الحرم ثم هدم المساكن الموجودة في المسعى . ثم بدأ العمل في الجانب الجنوبي الجديد من التوسعة المقابلة لمنطقة أجياد . وبعد اتمامه بدأ العمل في الجزء الغربي الذي يبتديء من باب الملك عبدالعزيز الى باب العمرة . وتم انشاء مساحة ضخمة تفصل الحرم عن مساكن السوق الصغير ومساحة اخرى امام باب الملك عبدالعزيز . ثم بني الجزء الشرقي من الحرم واكملت بقية الجوانب الأخرى من البناء الجديد . ثم رممت كل اجزاء توسعة العهد العثماني القديمة . واتصلت أرضياتها بأرضية التوسعة الجديدة لتعود كلها الى ساحة الكعبة

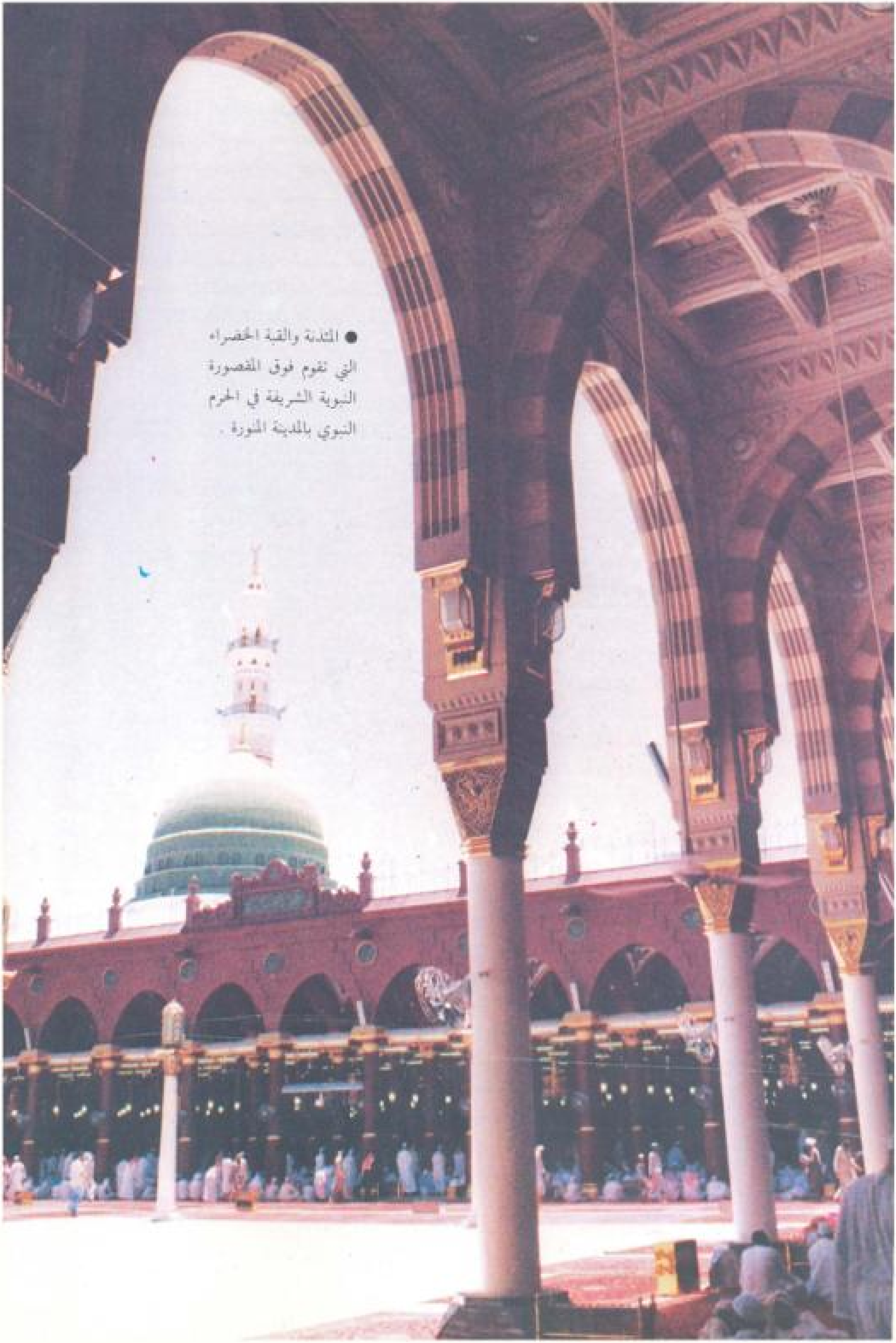

● المئذنة والقبة الخضراء التي تقوم فوق المقصورة النبوية الشريفة في الحرم النبوي بالمدينة المنورة .

التي اصبحت ترى من جميع الجهات نظرا لارتفاع مستوى التوسعة السعودية الأخيرة . وهكذا تمت اكبر توسعة شهدها التاريخ للحرم المكي الشريف بحيث اصبحت المساحة الكلية للمسجد حتى بداية العمل في التوسعة الجديدة في عهد الملك فهد تسع أكثر من ٣٠٠ الف شخص . . وهذه التوسعة التي يجري العمل فيها الآن جعلت المسجد معدا لاستقبال مليوني حاج كل عام ، مع الوضع في الاعتبار ان عدد الحجاج المتوقع خلال السنوات الأثنتي عشرة القادمة سيصل الى ثلاثة ملايين ونصف من الحجاج .

المشاعر المقدسة

عندما تكون التوسعة لمواجهة الزيادة المستمرة عاما بعد عام من زوار بيت الله وحجيجه والوافدين اليه ، فلا يمكن ان يقتصر الأمر على توسعة الحرم وحده ، فهناك روابط وثيقة وخاصة في موسم الحج مع مناطق اخرى ينتقل اليها الحجيج لاستكمال المناسك والمشاعر المقدسة . هناك منى والمزدلفة وعرفة . وهناك التوسعة في متطلبات الخدمات لتحقق للحجيج والزائرين الى جانب المتعة الروحانية أداء مناسكهم وزيارتهم بلا عناء ولا مشاكل .

ونشهد بأنفسنا كل هذا الذي يجري ونحن في صحبة المهندس عبدالعزيز غندورة مدير عام مشروعات تطوير منى ، ونسمع منه الكثير .

فما من شك ان الصعوبة الكبرى في مواسم الحج تبدو واضحة في أن الأعداد المتزايدة من الحجاج ، تتحرك فوق رقعة محدودة من الأرض وخلال فترة زمنية محددة تبدأ من التاسع من ذي الحجة ولا يمكن تقديم الأيام او تأخيرها حتى موعد النفرة من عرفة الى المشعر الحرام .

لمواجهة مشكلة الزمن والمكان المحددين كان لابد من بذل كل الطاقات بوسائل التقنية الحديثة ، لزيادة قدرة استيعاب المشاعر المقدسة ، وتيسير تحرك ونقل هذا الزخم الكبير من الحجاج . وكان الحل في التوسع في بناء الطرق والجسور والأنفاق للربط المباشر بطرق تصل ما بين منطقة الحرم المكي والمشاعر من خلال انفاق تخترقها السيارات القادمة من « منى محبس الجن » . وتم الربط والتنسيق بين الطرق الحالية التي تربط عرفات بمنى ، مع مراعاة المحافظة على طبيعة الجبال سواء في منطقة منى او خارجها .

وما نزال نخترق منطقة المشاعر المقدسة نرى ونشهد . لقد كان لطريق المشاة بين منطقة منى وبين المسجد الحرام نصيب كبير من الأنفاق ، حيث اصبحت المسافة بين الجمرة الكبرى والمسجد الحرام أربعة كيلومترات بدلا من سبعة كيلومترات يقطعها المشاة من الحجاج سيرا على الاقدام .

ويستمر طريق المشاة الذي يصل عرفة بالحرم الشريف مرورا بمزدلفة ومنى قاطعا مسافة ٢٥ كيلومترا بين الحرم وعرفة وقد تم تظليل أغلب هذا الطريق كمقدمة لتظليله كاملا حتى يقي الحجاج المشاة من غوائل الظروف الطبيعية وضربات الشمس . لم يقتصر العمل في المشاعر المقدسة على الطرق والجسور ، وانما تعداه الى تسوية هضبة منى التي كان يدخل في منطقتها الشرعية قبل سنوات بعض المجازر وبعض التلال وبعض مساكن الاهالي ، حيث كانت المنطقة الصالحة للسكن وما يتصل بها من خدمات تشكل ثلث المساحة الشرعية فقط . كما كانت الطرق قليلة ومنطقة الجمرات ضيقة لا تتجاوز ١٢ مترا . وهكذا كان لابد من تسوية سطح منى وتهذيب الجبال الجانبية بهدف توسيع المنطقة وحتى يمكن نصب أكبر كمية من الخيام على ارض منبسطة مستوية لا يجد الحاج فيها عناء . وقد تم تنفيذ ذلك لايواء أكبر عدد ممكن من الحجاج ، مع توفير الظل والماء والهواء ويجري استكمال تنفيذ مشروعات شبكات الطرق والكهرباء والماء والهاتف بحيث تخدم ثلاثة ملايين حاج .

وخلال جولتنا شهدنا كيف تم انشاء عدة خزانات للمياه في عرفة ومزدلفة ومنى ، تزيد سعة كل منها على مليون جالون ، فضلا عن الخزان الكبير الذي أقيم في حي أجياد بمكة المكرمة للغرض نفسه . ولتخفيف مشكلة العطش ولتوفير مياه الشرب العذبة المثلجة ، أقيم على بعد ٤٥كم شرقي مكة مصنع لتحلية مياه الآبار بطاقة ثمانية الاف متر مكعب في الساعة الواحدة ، وينتج ٢٢ مليون عبوة من المياه المثلجة في العام قابلة للزيادة . وبالاضافة الى انتاج الثلج بحالة جيدة ، وزعت ثلاجات المياه في كافة مناطق المشاعر ، وليس ذلك فحسب فطوال الطريق

كنا تشاهد ثلاجات المياه وبجوارها ١٤ الف دورة مياه استخدمت فيها أحدث وسائل التقنية حتى لا تفسد أرض المنطقة .

ولقد كان من المثير أن نشهد ذلك المبنى الكبير خزان المعيصم الذي كنا آخر من دخله بعد اتمامه ، وقبل أن يدفع اليه مليون طن من المياه استعدادا لموسم الحج القادم . قال لنا المهندس غندورة ونحن ننحدر داخل الخزان بعد تغطية قاعه بمادة لا تسمح بتسرب مياهه : ان مساحته تبلغ ٨٠٠ الف متر مربع ، وارتفاعه كما شهدنا من الداخل يبلغ ١٦ مترا ، أي بما يساوي ارتفاع عمارة من خمسة ادوار . اما الجديد في اسلوب انشائه فهو أن سقفه محمول من الداخل على ٨٨ عمودا فقط . بينما هو من الخارج محمول بكوابل معلقة في أبراج . ولو تم بأسلوب الانشاء العادي لتطلب اقامة ٨٨٠ عمودا .

المسجد النبوي يشمل كل «طيبة الحجاز»

بعد الحج والعمرة تفضل الزيارة للحرم النبوي الشريف الذي ظل عبر الف وأربعمائة سنة ونيف مقصد ملايين المسلمين الذين يشدون الرحال اليه خلال توجههم أو عودتهم من بيت الله العتيق في مكة المكرمة .

هنا ، في مركز القلب من «طيبة الطيبة» نقف الآن لنشهد صورة قدسية رائعة .

المشهد الذي نطلع عليه يؤكد حقيقة الانجاز الكبير الذي يجري في الحرم الشريف بحدوده الجديدة التي تمتد اليها التوسعة في آخر مراحلها التي تستوعب أكثر من نصف مليون من المصلين في وقت واحد .

تحدد الأرقام كل ذلك . . فالمشروع الذي تم تنفيذ الجزء الاكبر منه خلال العامين الماضيين ويستكمل خلال العامين القادمين يستهدف اضافة مبنى جديد الى مبنى المسجد الحالي يحيط ويتصل به من الشمال والشرق والغرب . واذا كانت مساحة الدور الأرضي الأصلية للمسجد في أقصى مراحل توسعاته السابقة تبلغ ١٦٥٠٠ متر مربع تستوعب ٢٨ الف مصل ، فان مساحة التوسعة الجديدة للدور الأرضي تبلغ حوالي ١٢ الف متر مربع تستوعب وحدها ١٣٧ الف مصل .

اما سطح التوسعة التي يشملها المشروع فسيستفاد منها للصلاة ، وهي بمساحة تصل الى ٦٧ الف متر مربع تستوعب ٩٠ ألف مصلٍ ضمن مساحة اجمالية تبلغ ١٦٥,٥٠٠ متر مربع يضاف اليها الساحات المخصصة للصلاة في محيط المسجد وخارج أسواره التي تستوعب وحدها ٢٥٠ مصليا . أي أن المجموع الكلي للمصلين في وقت واحد سيبلغ حوالي ٥٠٠ ألف مصل ،ويتجاوز ذلك بآلاف أخرى ووضع في التقدير أن بالامكان زيادة قدرة الأماكن المخصصة للصلاة بنسبة ٢٥٪ بسبب تقارب المصلين بعضهم الى بعض في أوقات الذروة وزحام المناسبات .

المساحة الحالية ١٨ ضعفا

تلك هي الصورة المستقبلية التي سيصبح عليها الحرم النبوي الشريف ، كما شهدناها ونحن نطل من فوق سطح المبنى الرئيسي للأمانة العامة للمدينة المنورة على المشروع المتكامل ، الذي يتوسطه المسجد بهيئته الحالية القائمة ، ومن حوله الأعمدة الخرسانية والساحات المغطاة التي تتجاوز تسعة اضعاف مساحته ، ومن خلفها ساحات أخرى مثلها لتصل كلها الى حوالي ١٨ ضعفا من المساحة الحالية للحرم الشريف .

وحدثنا المهندس عمر عبد الله القاضي أمين المدينة المنورة عن تفاصيل التوسعة ، بينما نستعرض معه بأبصارنا أضخم حركة للبناء والعمران حول الحرم ، ونتابع مئات العربات القلابة التي تواصل العمل ليل نهار وهي تنقل ناتج الحفر المستخرج من الارض ومن العمارات التي تم هدمها ، ونشهد حركة عشرات الأوناش الضخمة وهي تحمل الاسمنت والحديد ، ونسمع ضجيج آلات دق الأساسات وهي تهدر كالرعد ، وفي وسط كل ذلك يتحرك آلاف من العمال والمهندسين وهم يستكملون ماكانوا قد بدأوه ويواصلون العمل به طوال عامين يقول أمين المدينة المنورة :

وضع خادم الحرمين حجر الاساس للبدء في تنفيذ التوسعة في التاسع من صفر ١٤٠٥هـ . ووضع التخطيط الذي جرى تنفيذه منذ ذلك التاريخ بحيث يستوعب الحرم مساحة طيبة الطيبة على عهد الرسول ، وان يتمكن الملايين من الزائرين من السلام على سيد المرسلين عن قرب ، فيشعرون وهم في نطاق المسجد بقربهم من منبع الوحي .

من هنا سيكون المسجد محاطا بالساحات من جميع

جوانبه ومنفصلا عن أية عمارات أو مساكن أو متاجر أو خدمات . ويتم الوصول اليه عن طريق ثلاثة شوارع رئيسية هي شارع الملك عبد العزيز وشارع الملك فهد وشارع السلام . كما يحدد المنطقة المحيطة بالمسجد الشريف شارع الملك فيصل الدائري . وتقرر أن يكون للمسجد ٨٢ بابا لمواجهة زيادة الزائرين وبخاصة بعد توسعته ، وايجاد الساحات ومواقف السيارات والخدمات والمرافق اللازمة له ، وانشاء الطرق الحضرية المؤدية اليه . وقد روعي عند اعادة اعمار المنطقة المحيطة بالمسجد استكمال المظهر العام بما يلائم هذا الصرح الرائع من إنشاء أحياء نموذجية تؤسس فيها الفنادق والمساكن والمتاجر الحديثة والشوارع والميادين الفسيحة والمرافق العامة ، وتعكس في تصميمها التراث المعماري المتميز في المدينة المنورة . وسيكون للزوار السكن اللائق بهم حسب رغبة كل منهم وقدراته وامكاناته .

في الروضة المشرفة

ونتتبع تفاصيل التوسعة بالرؤية والمشاهدة والتصور ونحن نتنقل بين أبهاء الحرم الشريف والتوسعة القائمة والمقبلة « في طيبة الطيبة » .

نحن الآن وقوف في الروضة المشرفة بين منبر النبي وبيته .. وبين مصلاه ومقصورته حيث نقرأ نص حديث رسول الهدى : « مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

ونرفع البصر في خشوع ونحن نطل الى واجهة المقصورة النبوية .

في مواجهتنا جدار المقصورة المشرفة تنفتح في وسطها طاقة تتيح الاطلالة على مكان مرقد الرسول . وحولها ومن فوقها استخدم الفنان العربي الخط في كتابة سور من القرآن الكريم تعلوها الآية الكريمة من سورة الزمر « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

داخل هذه المقصورة ـ وعندما انتقل النبي الى الرفيق الأعلى ـ دفن في بيت عائشة ، وقد ووري الثرى الى جواره أبو بكر بعد عامين وثلاثة أشهر من موت الرسول . وبعد عشر سنين من وفاة ابي بكر دفن عمر بنفس الحجرة وهي على حالها . وفي ولاية عمر بن عبد العزيز أمر بزيادة المسجد وضم حجرات أزواج النبي . ودخلت الحجرة النبوية ليضمها المسجد عام ٨٨ هجرية حيث عني بها عناية فائقة وبنيت حوائط الغرفة النبوية نفسها بالحجارة المنحوتة البازلتية ، ولم يعمل بها أبواب وعمل حولها (النطاق المزور) بشكل غرفة ذات خمسة أضلاع غير متساوية . وكانت الحوائط الخارجية لاتصل الى سقف المسجد ، وعمل بها شباك خشبي ووضع أعلى سقف الحجرة الداخلية مشمع . وعندما أصابت المسجد النبوي صاعقة عام ٨٨٦هـ واشتعلت النار في أنحائه لم يسلم من الحريق سوى الحجرة النبوية والقبة بالصحن ، فوجه حاكم مصر الأشرف قايتباي المهندسين والصناع لتجديد المسجد وأقام قبة فوق الحجرة النبوية على رءوس الأعمدة بقاعدة مربعة مثمنة من أعلاها بالخشب .

وقد أمر السلطان سليم العثماني بعد ذلك بتشييد المحراب الذي نقف الآن بجواره وطعم بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب . ثم بنى السلطان محمود القبة ومع تجديد العمارة في عهد السلطان عبد المجيد شيدت القباب ذات النوافذ من الزجاج الملون المحاط بشبابيك من النحاس .

تلك هي الصورة التي مازالت المقصورة النبوية عليها . ومن ذخائر هداياها التي رحنا نطل اليها بعد أن ظلت باقية حتى اليوم ، تلك الأهلة الذهبية المرصعة بالجواهر ، وفي داخل كل هلال نجم ذهبي مرصع . وبين هذه الجواهر قطع من الماس تزن بضعة قراريط ولاتقدر بثمن ، وهي الذخائر المعلقة داخل الروضة الشريفة وفي روضة السيدة فاطمة الزهراء . أما القبة الخضراء التي تعلو المقصورة النبوية فقد جددت اكثر من مرة كان آخرها ما تبدو عليه صورتها اليوم .

طيبة الحجاز والحرم النبوي

على الرغم منا نبتعد عن الروضة والمقصورة النبوية الى بقية أنحاء المسجد . وتأخذ بنا ذكريات التاريخ ونحن نتأمل أبهاءه وصحنه وأعمدته وكل ماجرى فيه من توسعات في مختلف العصور منذ عهد الرسول حتى العهد السعودي ..

وهي كلها توسعات وامتدادات شرعية للمسجد النبوي قال لنا عنها أمين المدينة المنورة :

« لقد كان رسول الله يدرك أن الله لابد ناصر دينه

●هكذا ستبدو صورة المسجد النبوي بعد انتهاء التوسعة الجديدة وتقوم المآذن الجديدة إضافة الى الأربع الحالية ليصبح للمسجد عشر مآذن . . (والى اليمين) مشهد البقيع بأسواره الجديدة وفي اقصى اليمين من الصورة قبر الخليفة الثالث عثمان بن عفان . (والى اليسار) احدى ساحات التوسعة بأعمدتها القائمة وقد تم تظليلها وفرشها وإنارتها تمهيدا لاستكمالها .

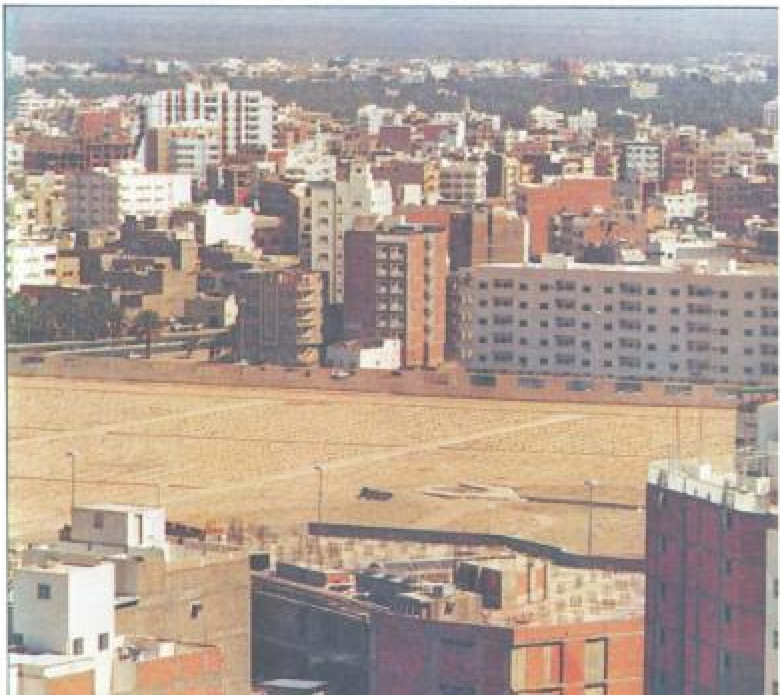

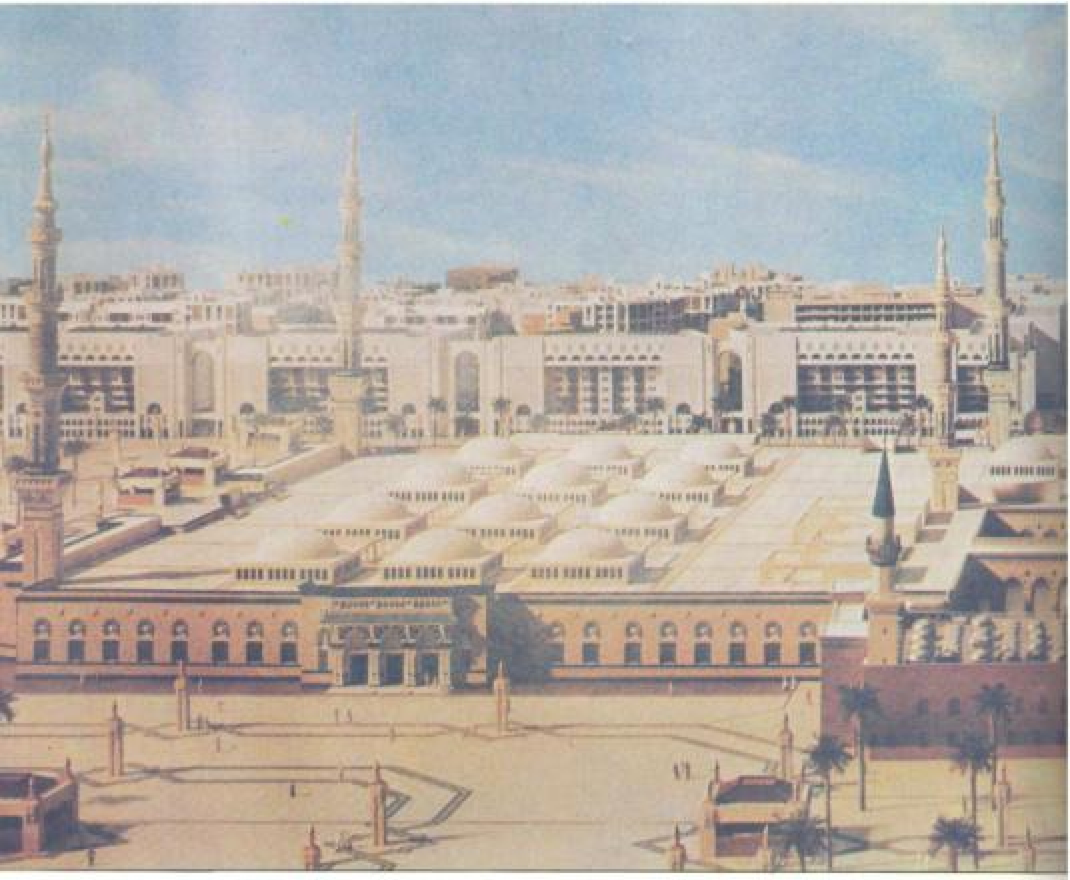

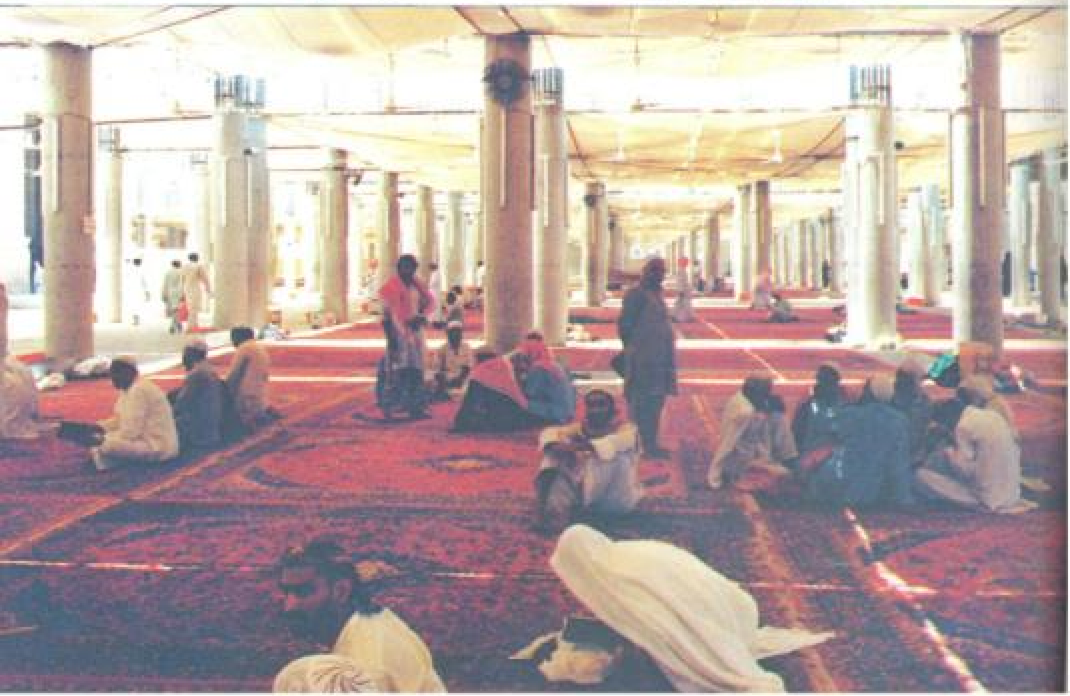

وأن المسجد لن يلبث أن يضيق بقاصديه . وأن المسلمين لابد سيوسعونه ويزيدون عليه . فقال ﷺ : (لو مد هذا المسجد الى صنعاء فهو مسجدي) وهكذا اتفق المسلمون على مر العصور على أن كل مايزداد من مسجد رسول الله فهو جزء منه » .

ونجلس في صحن المسجد الشريف نتذاكر هذه الحقيقة التي يطمئن اليها الناس مع كل توسعة تجري للمسجد وخاصة بعد أن بدأ يمتد ليشمل كل مساحة « طيبة الحجاز » . ونجد أنفسنا ونحن نواصل تقليب صفحات تاريخ المدينة المنورة حيث نقطة البداية لبناء بيت الرسول والمسجد النبوي الشريف . .

كان رسول الله يحمل الطوب اللبن والأحجار ويشارك بنفسه في البناء . وكان البيت يتألف من عدد من الغرف تحيط بفناء . وكانت جدرانه من اللبن وسقفه من الخوص وعمده من جذوع النخل . وكان هذا هو منزله ومسجده الذي تم بناؤه في نحو شهرين من العام الأول للهجرة عام ٦٢٢م ـ وقيل في ستة شهور ـ وفي الركن الجنوبي الشرقي لصحن المسجد ابتنى الرسول حجراته التي عاش فيها مع أزواجه من ذلك الحين . ولم يكن للغرف أبواب وانما أسدلت عليها ستر تحجب داخلها عن الخارج . وكان السقف منخفضا يمكن ملامسته برفع الذراع . وكانت الحوائط من أكسية من الشعر مربوطة في خشب عرعر (السرو) . وقد أقيم المبنى على هيئة مستطيل طوله ٧٠ ذراعا وعرضه ٣٠ ذراعا وانشىء الى جواره عريش مغطى بسعف النخيل .

وكان الفناء كبيرا نسبيا حيث بلغ مسطح المبنى كله حوالي ٢٦٨٣ مترا مربعا . وانتشرت حوله مساكن الصحابة والمهاجرين والأنصار . ولما اشتكى الصحابة من الحرارة ظلل سقف المسجد بالجريد والخوص . وغطى السطح بالطين بعد فترة كنتيجة لتسرب مياه الأمطار من خلال السقف ونزولها على المصلين . وكان ذلك في شتاء عام ٦٢٤م .

ولم يشتمل المسجد النبوي على مئذنة ولامحراب . اذ كان بلال في وقت الأذان يصعد الى سطح منزل لأسرة من بني النجار . وعندما شق القيام على رسول الله عمل له منبر من خشب الأثل يتكون من درجتين ومقعد حوالي عام ٦٣٠م (٨ ـ ٩هـ) وكان عرض المنبر ذراعا (نصف متر) وطوله ذراعين (حوالي متر) وارتفاعه ذراعين (حوالي متر) .

واستمر المسجد على حاله حتى وفاة الرسول في ١٢ ربيع أول عام ١١هـ (يونيو ٦٣٢م) ودفن حيث قبض في غرفة السيدة عائشة التي استمرت تعيش فيها واقامت حائطا بينها وبين القبر . واستمرت منازل الصحابة تحيط ببيت الرسول ومسجده وكان بينها دار أبي أيوب الانصاري ودار عثمان بن عفان من جهة الشرق ودار آل عمر بن الخطاب الى الجنوب وبجوارها من الغرب دار العباس عم الرسول ثم دار أبي بكر الصديق ويليه دار عبدالرحمن بن عوف . وقد استمرت هذه الدور منفصلة عن المسجد النبوي حتى أدخلت في الزيادة التي قام بها الخليفة المهدي العباسي وقدرت بحوالي ٢٤٥٠ مترا مربعا .

ونعود الى تأمل صحن المسجد بشكله القائم الآن قبل التوسعات السعودية الأولى والثانية . هذا الصحن الرئيسي الذي نجلس فيه والذي يغلب عليه الطراز المملوكي والعثماني بأعمدته ذات اللون الوردي والتيجان النحاسية والثريات الضخمة . سبق توسعته وإقامته وسبق تجديده خلال ولاية عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد بن عبد الملك الذي أمر باعادة البناء وبدأ الهدم في (صفر عام ٨٨هـ / يناير ٧٠٧م) وانتهى البناء الجديد في ٩١ هـ / ٧١٠م .

هذه العمارة والزيادة تعتبر علامة مميزة في تاريخ المسجد النبوي اذ أقيم فيه لأول مرة مآذن ومحراب وشرفات ، وعمل الأساس من الحجارة ، وأقيمت الجدران والأعمدة من قطع الحجارة المنحوتة التي ربطت مع بعضها بالحديد المغطى بالرصاص المصهور ، تحمل أعلاها جسورا خشبية ترتكز مباشرة على تيجان الأعمدة ، وتحمل الجسور سقفا خشبيا من خشب الساج ، وأقيمت الأعمدة على قواعد مربعة وتيجان مذهبة ، وكسى بدنها بطبقة بياض تلمع حتى تظهر وكأنها رخام ابيض .

وزخرفت الجدران الداخلية بالرخام والفسيفساء والذهب كما ذهبت أعتاب الأبواب ، وجعل للمسجد سقفان واحد فوق الآخر .

التوسعات المملوكية والعثمانية

ذلك هو الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك العمارة والترميم والتوسعات في عصر المماليك والعصر العثماني ، التي مازال هي الصورة الحالية لهذا القسم من أروقة المسجد الذي نجلس تحت سقفه وبين أعمدته الشاهقة .

كان أبرز هذه الأعمال ماقام به السلطان بيبرس بعد الحريق الاول الذي أصاب المسجد النبوي ، اثر وقوع زلزال في أعقاب الهجوم التتاري على بغداد . فقد تهدم المسجد وتلفت الأبواب والخزائن والنوافذ والكتب وكسوة الحجرة الشريفة والمنبر والمقاصير . ولم تسلم الا الحجرة النبوية والقبة في وسط الصحن والمخصصة لحفظ الذخائر ، وبقيت الأعمدة تتمايل مع الرياح بعد أن سقط السقف . وعمل الظاهر بيبرس حاكم مصر المملوكي على اعادة بناء المسجد على نفس الهيكل ، وأضيفت اليه مئذنة « عالية » كما أرسل بيبرس منبرا جديدا للمسجد وأقام مقصورة من الخشب .

واحتاج المسجد بعد ذلك لاصلاحات أخرى قام بها السلطان قايتباي قبل وبعد الحريق الثاني الذي شب في المسجد بسبب صاعقة أصابت المئذنة الجنوبية الشرقية الرئيسية في ١٣ رمضان ٨٨٦ هـ (٥ نوفمبر ١٤٨١م) فأعاد عمارة المسجد وتسقيفه وصنع له محرابا .

توالت الاصلاحات والاضافات في عهود السلاطين العثمانيين . وقد اهتم السلطان محمود الثاني باعادة بناء القبة التي بنيت في عهد قايتباي لحدوث تشققات بها فهدمها وأقام قبة جديدة غطيت بالرصاص ودهنت باللون الأخضر . وأجرى السلطان عبد المجيد اكبر عمارة للمسجد حيث أعيد بناؤه وتحدد شكله ومساحاته وتوسطه صحن يحيط به من جهة القبلة ١٢ رواقا وبالجهة الغربية ثلاثة أروقة وفي كل من الجهة الشرقية والشمالية رواقان ، وعملت الأعمدة من الرخام المزخرف المزين بماء الذهب . وحافظ المسجد على أبوابه الأربعة وأضيف اليها باب خامس هو الباب المجيدي الذي مايزال موجودا . واقيمت المئذنة المجيدية بدلا من المئذنة الخشبية . وزين الجدار القبلي بروائع من الخط العربي لآيات قرآنية كريمة كتبت بماء الذهب كما صنعت أبواب المسجد بصورة فنية بالغة الاتقان .

وبسبب الرخام الوردي الذي لبست به جدران المسجد وأعمدته ، أصبح يسمى كله بالمسجد الوردي ، وهو ذلك القسم من المسجد الذي نجلس فيه ونتأمل زخارفه وأعمدته ، ومن بعده امتدت التوسعات السعودية .

التوسعات السعودية

وننتقل من المسجد الوردي الى الاضافة السعودية للحرم النبوي .. نحن الآن بين التوسعات السعودية للمسجد النبوي التي بدأت في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في ١٢ شعبان ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) . وقد تمت المحافظة على التوسعة العثمانية مع اضافات عليها باستثناء بعض الأجزاء والمباني التي كانت متصلة بالمسجد النبوي مثل المدرسة المحمودية ومبنى ادارة العين الزرقاء وغيرها من المباني المحيطة بالحرم من الشمال والغرب والشرق التي ازيلت وأدخلت ضمن ساحة المسجد الغربي . والقسم العثماني من الحرم يضم الحجرة النبوية الشريفة وعليها القبة الخضراء كما يضم مصلى رسول الله والمنبر الشريف والروضة المطهرة والاسطوانات الأثرية وفيها المنارة الرئيسية ومنارة باب السلام ومصلى الرسول لبيت المقدس .

أضافت التوسعة التي أمر بها الملك عبد العزيز أبوابا جديدة تفضي الى بيت صلاة رائع يقوم على أعمدة فخمة من المرمر وكسيت الأرضية كلها بالمرمر . وبلغ عدد الأعمدة الجديدة ٢٣٢ عمودا . كما أنشئت لهذه الزيادة واجهة بديعة عرفت بواجهة الملك عبد العزيز ، تزينها مئذنتان ارتفاع كل منها ٧٥ مترا ، ونشهد خلال تحركنا في الاضافة السعودية الأولى أن عمارة المسجد نفسه قد أصبحت ذات أعمدة وأسقف يعادل ارتفاعها حوالى ضعف سقف العمارة العثمانية . وبلغ عدد الأعمدة المتصلة بجدار التوسعة ٤٧٤ عمودا مربعا . أما مجموع الأعمدة المربعة والمستديرة فقد وصل الى ٧٠٦ أعمدة موزعة على ١٤ رواقا منها خمسة أروقة شمالية وثلاثة شرقية ووسطى وغربية . وأما عدد النوافذ فيبلغ ٤٤ نافذة . كما نشهد في سقف الاضافة الجديدة عددا من المصابيح يبلغ ٢٤٥٧ مصباحا موزعة على الأعمدة ، وفي زوايا العقود ، بأشكال وتصاميم عربية أنيقة .

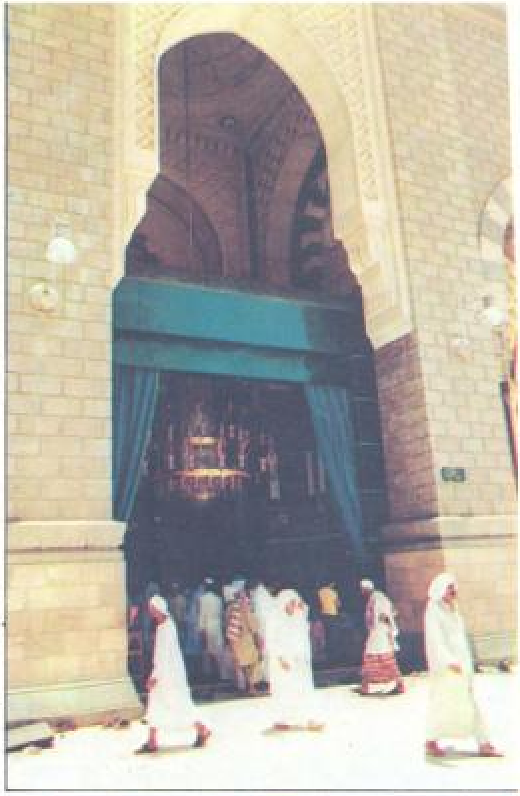

● العمل مستمر ليل نهار لانجاز التوسعة في المسجد النبوي حيث تنتصب الاعمدة الخرسانية الضخمة في الساحات الاضافية الجديدة (الى اليسار اعلى) . كما تبدو ساحة السيارات ثم المصلون في صحن المسجد الاصلي (الى اليسار) اما عدد ابواب الحرم فستصل الى ٨٢ بابا من بينها الأبواب الحالية التي يظهر منها الى اليمين باب الرحمة والباب المجيدي .

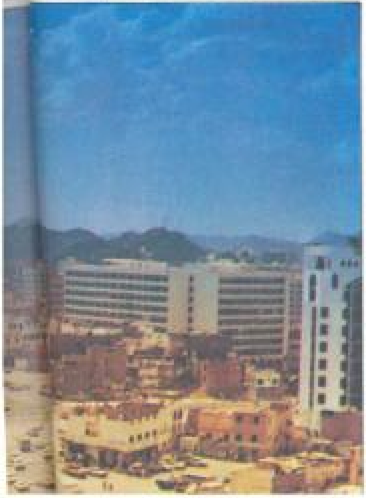

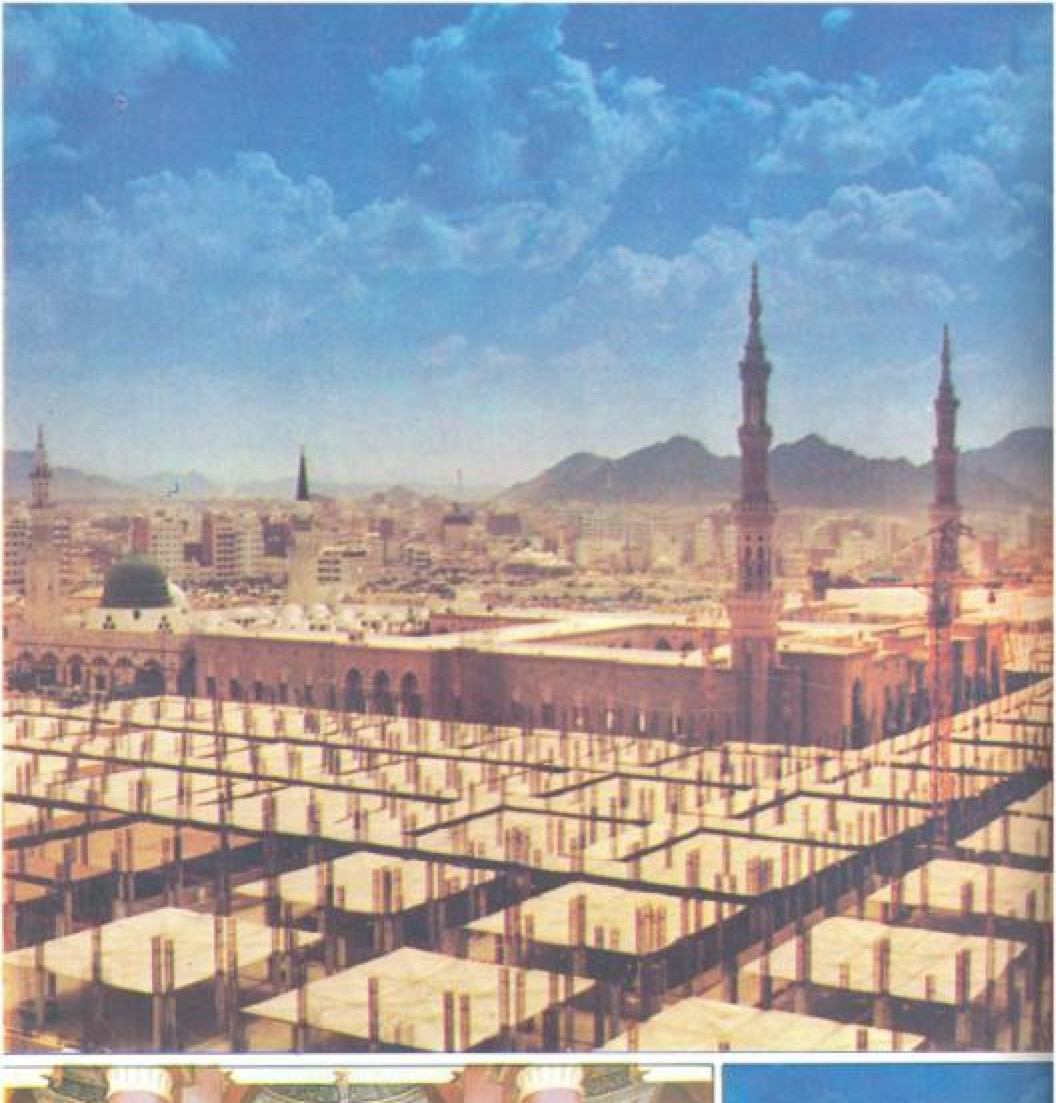

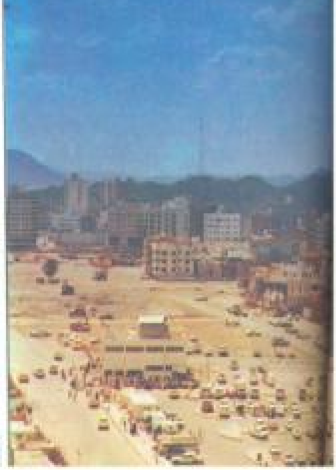

وعدد الأبواب الجديدة خمسة هي باب عبد العزيز الذي يقع بعد باب النساء ، وفي الجدار الشرقي وهو عبارة عن ثلاثة أبواب متجاورة واسعة تطل على شارع عبد العزيز . وباب عثمان بن عفان ويقع في ركن المسجد الشمال الشرقي . وباب المجيدي ويقع في وسط الجدار الشمالي الشرقي . وباب عمر بن الخطاب ويقع في ركن المسجد الشمالي الغربي . وباب سعود ويتوسط الجدار الغربي ويواجه باب عبد العزيز تماما من الغرب وهو عبارة عن ثلاثة أبواب واسعة ، تضاف هذه الأبواب الخمسة الى الأبواب الموجودة في العمارة المجيدية العثمانية وهي باب السلام وباب الرحمة وباب جبريل وباب النساء .

وقد استحدثت بوابة بثلاثة أبواب بين باب الرحمة وباب السلام ، وتم فتح ثلاثة منافذ في عمارة السلطان عبد المجيد منها منفذ خوخة ابي بكر . وهذه المنافذ تؤدي الى المسجد النبوي وقد سميت باب الصديق .

وننتقل الى التوسعة الجديدة التي تمت في عهد الملك فيصل ولم تتناول عمارة المسجد نفسه . نخرج من باب سعود لنجد أنفسنا وسط هذه الاضافة الجديدة خارج جدران المسجد النبوي من الجهة الغربية .

هذه التوسعة تم تنويرها وتبليطها وتظليلها لتوفير مساحات كافية لاستيعاب المصلين المتزايدين . اشتملت المرحلتان الأوليتان من هذه العملية نزع ملكيات ٣٥ الف متر مربع هدمت مبانيها وسويت بالأرض وأعدت لاستيعاب ما يزيد على ضعف عدد المصلين في المسجد وذلك عام ١٩٧٤ (١٣٩٤هـ) وشملت بعد ذلك نزع ملكيات ٥٥٥٠ مترا مربعا أضيفت الى المساحة السابقة . وفي العام التالي في عهد الملك خالد بدىء تنفيذ المرحلة الثالثة وهي ايجاد ميدان فسيح يتصل بشارع المناخة مساحته ٤٥ ألف متر مربع تضاف الى المساحات السابقة .

وقد حل هذا المشروع الكثير من الصعوبات وأتاح فرصة لطاقة استيعابية تبلغ ٢٨ ألف مصل جديد . وقد فرشت هذه المساحات بمظلات مؤقتة مع تبليطها بالرخام الثمين واضاءتها وتزويدها بالمراوح والمياه الباردة وقد أدخلت الأن لتصبح جزءا من التوسعة في شكلها الأخير .

أحدث التوسعات وأضخمها

ومرة أخرى نجد أنفسنا في وسط أكبر التوسعات وأضخمها ، توسعة الملك فهد بن عبد العزيز . وننتقل مع المصلين بين المساحات الواسعة التي تقوم على جوانبها الأعمدة الخرسانية التي أقيمت باستخدام نظام الخوازيق للأساسات بأنواع واقطار واطوال تتفق مع متطلبات حمولتها .

ونقف عند الأعمدة التي ستقوم عليها المآذن الجديدة . . هذه المآذن يبلغ عددها ستا ارتفاع كل منها ٩٢ مترا ، يضاف اليها ارتفاع الهلال ليصبح الارتفاع الاجمالي ٩٨ مترا أي بزيادة ٢٦ مترا عن ارتفاع المآذن الأربع الموجودة حاليا مما يجعل عدد مآذن الحرم النبوي عشر مآذن . .

وتحتوي التوسعة على سبعة مداخل رئيسية يتألف كل منها من سبع بوابات . وهناك مدخلان آخران من الناحية الجنوبية يتألف كل منهما من بوابتين وذلك بالاضافة الى ست من البوابات الجانبية وبذلك يصبح عدد البوابات ٥٩ بوابة ، يضاف اليها ثماني بوابات لمداخل السلالم المتحركة ومخارجها التي تخدم سطح المسجد الذي سيخصص للصلاة جنبا الى جنب مع ١٨ سلما داخليا فضلا عن سلالم الخدمات .

الخصائص المعمارية

في هذه المساحات الاضافية المغطاه بمظلات مؤقتة مربوطة بالأعمدة الخرسانية ، أدينا مع المصلين الصلاة . وجدنا الأرضية حتى الآن من الاسمنت مغطاة بالسجاد الثمين بنفس مستوى سجاد المسجد الداخلي وبينها ممرات لحركة المصلين . هذه الساحات سيتم تبليطها بالرخام الابيض المبرد كما ستزخرف الاعمدة والجدران بحيث تحقق التناسق مع نظيرتها بالتوسعة السعودية الاولى . والقصد من ذلك ابراز الجانب الجمالي في الفن المعماري الاسلامي ويشمل ذلك اعمال الحليات والزخارف والكرانيش لتجميل الحوائط والسقوف الداخلية والكمرات والمآذن واعمال الحديد المشغول كالمشربيات والشبابيك والدرابزينات والأبواب وتيجان الأعمدة وأعمال النجارة للأبواب واعمال التكسية بالرخام والحجر الصناعي للمداخل والواجهات الخارجية والاعمدة الداخلية . وقد شهدنا نماذج من كل هذه الاعمال

يجري تجربتها في الأعمدة الخرسانية القائمة .

قال لنا أحد المهندسين المصريين العاملين في التنفيذ ، ان الارتفاع الداخلي للطابق الارضي الذي صلينا فيه يبلغ ١٣ مترا بينما يبلغ ارتفاع الدور السفلي الذي خصص للخدمات حوالي اربعة أمتار . ويبلغ عدد الأعمدة (٢١٠٤) أعمدة بقطر ٦٤ سم والارتفاع من منسوب الطابق الارضي وحتى نقطة بداية القوس هو ٥,٥ أمتار . وتتباعد الأعمدة عن بعضها مسافة ستة امتار وبعضها يتباعد ١٨ مترا ليشكل أروقة وأفنية داخلية تنسجم مع الاطار العام للتوسعة وسيزود المسجد بسبع وعشرين قبة يتوافر لها خاصية الانزلاق فوق منسوب سطح التوسعة ، وتركب كل قبة منها على مساحة ١٨×١٨ مترا للحصول على عدد من الأفنية الداخلية . وتركب القبة على ارتفاع حوالي ٤ أمتار من منسوب سطح التوسعة وعلى ارتفاع حوالي ١٧ مترا من منسوب الطابق الأرضي ويتم اغلاقها وفتحها بطريقة كهربائية مما يتيح الاستفادة من التهوية الطبيعية في الفترات التي تسمح بها الأحوال الجوية .

ولمزيد من استيعاب المصلين في العقود القادمة روعي في التصميم امكانية بناء دور ثان فوق التوسعة مستقبلا ، بالاضافة الى تهيئة السطح وفرشه بالرخام المبرد لاستخدامه من قبل المصلين في فترة الحج وفي شهر رمضان المبارك .

ونسأل عن امكانيات تكييف مبنى التوسعة لراحة المصلين والزائرين . وتكون الاجابة عمليا بأن يطلب المهندس عمر عبد الله القاضي من مرافقنا أن يأخذنا الى محطة التكييف المركزي التي تنطلق اليها بعيدا عن الحرم مسافة تبلغ سبعة كيلومترات .

ويقول لنا أمين المدينة المنورة :

هناك تصميم لنظام مركزي لتلطيف الهواء يحافظ على الناحية الجمالية والمعمارية للمسجد ، ويتم ادخال فتحات خاصة ضمن تصميم قواعد الأعمدة بالتوسعة يتم من خلالها دفع الهواء البارد الى المبنى ليكون هذا اكبر مشروع تلطيف للهواء من نوعه في العالم .

ولتأمين تكييف الهواء بطريقة المياه الباردة يجري انشاء محطة التكييف المركزية على موقع مساحته ٧٠ الف متر مربع وبابعاد ٣٥٠ × ٢٠٠ متر وروعي في اقامته على هذه المسافة البعيدة إبعاد الضوضاء عن المسجد وتخفيض التكلفة المرتفعة لنزع الملكية خارج ساحة الحرم الجديدة .

الساحات الاضافية

تدور بنا السيارة حول المساحة الجديدة للحرم النبوي .. مساحة طيبة الطيبة .. وتنطلق الى بقية المساحات التي سيجري هدم مبانيها خلال الشهور القادمة .

الساحات الجديدة تدخل ضمن مشروع تطوير المنطقة المحيطة بالمسجد الشريف والخدمات العائدة لها وربطها بشكل لائق ببقية المدينة .

تشمل عناصر هذا التطوير ساحات الصلاة الاضافية المحيطة بالمسجد بعد توسعته الجديدة ، وكذلك تطوير الطرقات ومواقف السيارات تحت الأرض ، والمرافق التجارية والحكومية وغيرها من التسهيلات المعدة لخدمة زوار الحرم النبوي .

وتبلغ مساحة الساحات المحيطة ٢٣٥ الف متر مربع سوف تغطي بالرخام وفق أشكال هندسية اسلامية وبألوان مختلفة . وسوف يستعمل قسم كبير من هذه الساحات لصلاة أيام الجمع وفي المواسم . وتبلغ المساحة المخصصة للصلاة حوالي ١٣٥ الف متر مربع بامكانها استيعاب ٢٥٠ الف مصل . وتقع ضمن هذه الساحات مداخل للمواضيء وأماكن استراحة الزوار المتصلة بمواقف السيارات التي ستكون في دورين تحت الارض وتستوعب حوالي أربعة آلاف سيارة . وسوف تخصص الساحات للمشاة ولن يسمح بدخول السيارات اليها ، ويستثنى من ذلك سيارات الطواريء والنظافة والمواكب الرسمية . وسوف تحد الساحات أسوار وبوابات من كل جانب ، كما ستجري إضاءتها بواسطة مائة وعشرين عمودا رخاميا مزودا بوحدات اضاءة خاصة .

ان الذي يجري الآن في مكة المكرمة والمدينة المنورة انما يؤكد أن جميع المسلمين القادمين للحج والعمرة والزيارة سيجدون مكانا رحبا يؤدون فيه مشاعرهم المقدسة في أرض الله الطيبة حتى ولو تجاوز عددهم الملايين □

دون المناقير
ماذا كانت ستفعل
الطيور؟

المناقير تلك المقدمات الصلبة لرءوس الطيور .

هل هي مجرد زينة لتجميل الرءوس الصغيرة الطائرة ؟ -

أم أنها جزء أساسي من بنية الطير لا تكتمل دونه ؟

أم أن لها وظائف حياتية لا تستغني الطيور عنها ؟

محاولة من الكاتب للاجابة عن هذه الأسئلة .

اعداد : عبدالرحمن الحريتاني

منقار قويّ ومعقفة قوية لسيد الجوارح النسر الذهبي eagle . وفي الصورة العلوية الصغيرة طير باز gashawk يافع ينتزع أحشاء سنجاب رماديّ بمنقاره . وفي الصورة الصغيرة (تحت) البومة الرمادية الكبيرة تحمل بمنقارها قطعة من براز فرخها لترميها خارج العش . في البوميات المنقار قصير ومعقوف .

بط الشولر (نهري) له أسنان تشبه المشط على طول حواف منقاره الواسع ، تمكّنه من تصفية وترشيح النباتات الدقيقة والحيوانات من الماء. والصورة الصغيرة العلوية لطائر الزقزاق (رسول الغيث) ذي المنقار الأسود المستدق الرأس الذي يستخدمه كمسبار ليسحب به الدود والفراش من مخابئه

مناقير الطيور منوعة التركيب والقدر والحجم . وهي مناقير قوية ومعقوفة ، أو طويلة رفيعة منحنية ، أو تنتهي بشكل ملعقة ، أو قصيرة بخطاطيف وكلاّبات ، أو قرنية بصفائح ، أو طويلة حادة حفّارة أو ثاقبة ، أو ذات جيوب جلدية واسعة أو كالسيف المستدق الحاد ، أو سابرة جاسّة ماصّة ، أو مصفّية مرشّحة أو قصيرة ضعيفة .

مناقير تلتقط ، ومناقير تشق وتقطع وتمزق ، ومناقير تسبر وتجس ، ومناقير تحفر ، ومناقير تغز ، ومناقير تسوي . الطيور حوالي (١٠،٠٠٠) نوع تتجانس بشكل كبير ، وتنتشر في كل أنحاء العالم ، وتنتظم في (٢٨) رتبة موزعة على (١٧٠) فصيلة تحتوي كل منها على جنس أو عدة أجناس ، تنتسب للفقاريات ، وأهم ما يميزها وجود المناقير التي حلت

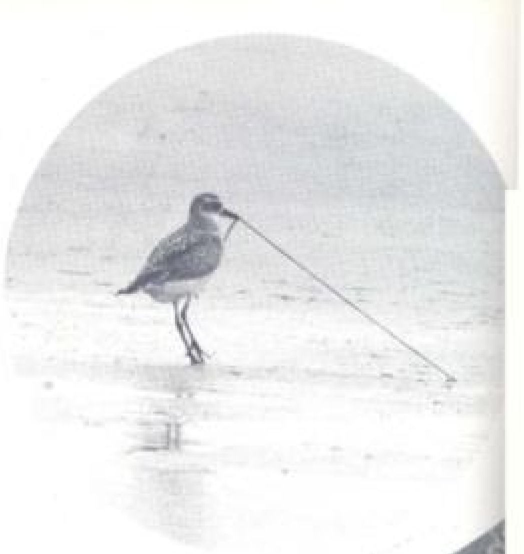

والشفقة ، وهذا هو حال الطيور دون مناقيرها .

فالأطراف الأمامية للطيور لا تستخدم لأي مهمة سوى الطيران ، أما المنقار فيقوم بجميع المهام والأعمال للطير ، تلك الأعمال التي تؤديها عند الثدييات والزواحف الأطراف الأمامية والأيدي ،

فمناقير الطيور هي الأيدي التي تبني الأعشاش وتجلب الطعام وتربّي الصغار ، وهي السلاح الذي تدافع به عن نفسها وعن بيتها ومقاطعاتها ، وهي المشط والفرشاة لتسوية الريش الناعم ، بعضها يكون كالسيف الحاد ، وبعضها كحراب ورماح وعَقاقيف وكلابات ، وبعضها يكون « كملازم » التثبيت و «كالكماشات » ، وبعضها ثاقب ماص كسّار ملتقط ، وبعضها يشقّ ويجرف وينبش وينحت وينقش ، وبعضها يصفّي ويرشّح ، وبعضها يعمل كالمناخل والمغارف والمجارف والمناجل والشوك ، وبعضها أعظم فعلاً ودقة من مباضع الأطباء الجرّاحين .

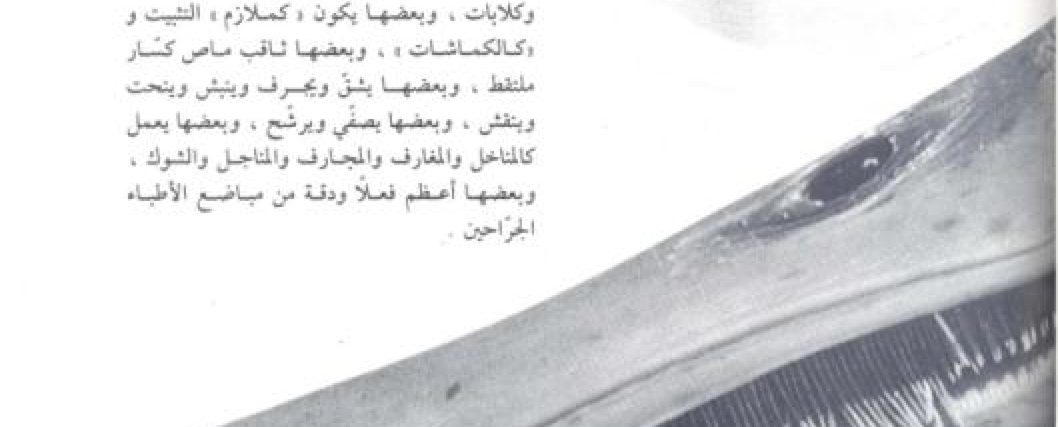

تستخدم الطيور مناقيرها لكافة شؤون حياتها ، ويمكننا القول أنه لولا المنقار لما عاش الطير ، فنقرات طير نقّار الخشب مثلا تعد رسائل منذرة لمنافسيه في موسم التزاوج ، والبوم يصلصل بمنقاره كنوع من التهديد ، واللقلق يطقطق في منقاره عندما يغضب أو يتحدى ، ويمكن أن يكون المنقار امتداداً لفكوك

محل الفكين القويين المجهزين بالأسنان الصلبة .

طائر بلا منقار

كتب عالم الطبيعة الشهير ويليام بيب مرة:أن أربط أيدي الانسان خلف ظهره ، ثم اطلب منه أن يعمل ويجهّز طعامه ويبني بيته ويدافع عن نفسه ، وينجز كل أعماله الحياتية ، إنه سيكون بوضع جدير بالرثاء

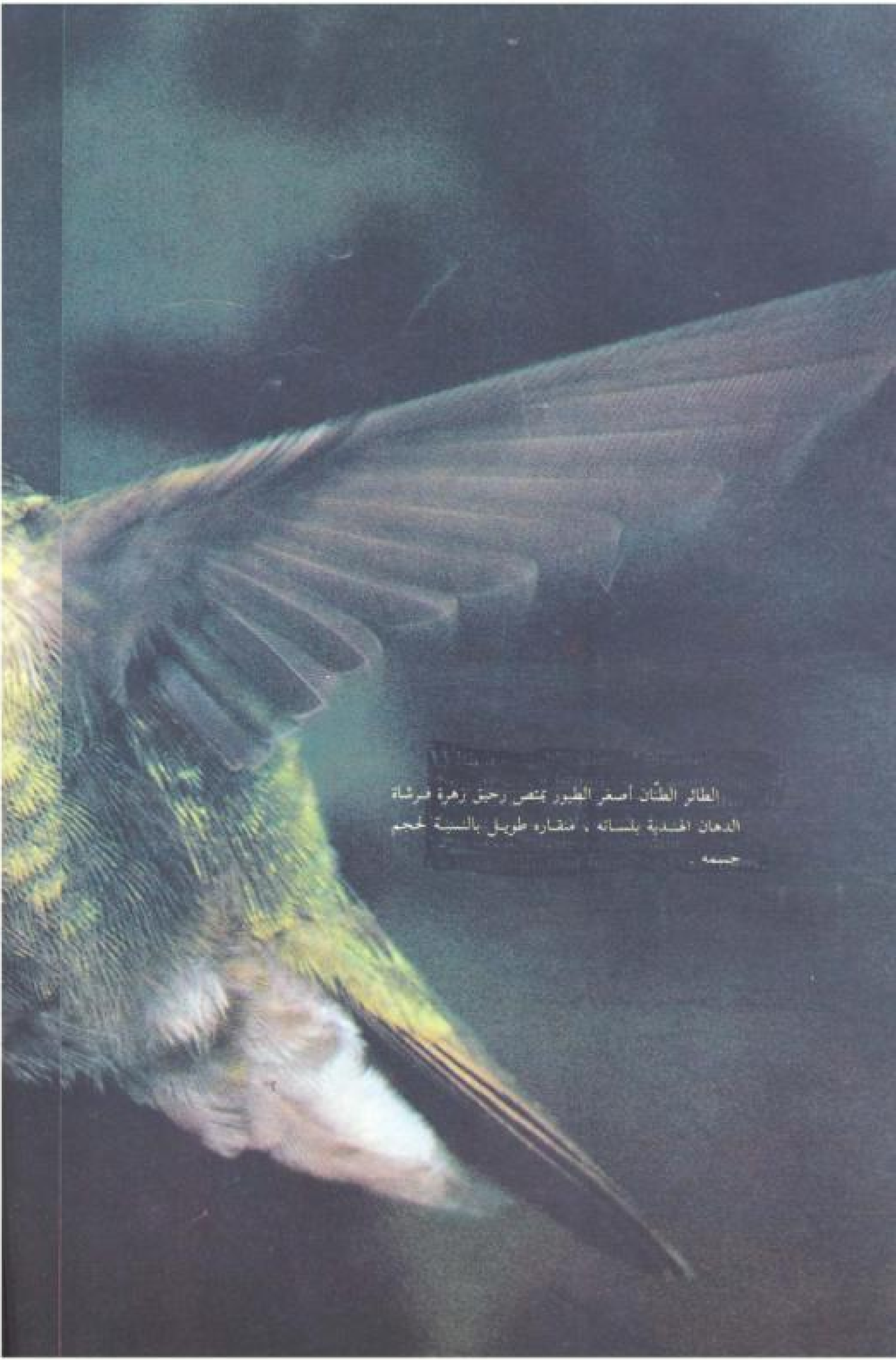

الطائر الطنّان أصغر الطيور يمتص رحيق زهرة فرشاة الدهان الهندية بلسانه ، منقاره طويل بالنسبة لحجم جسمه .

البجع البنيّ بدأ يبلع
السمكة التي يحتفظ بها
في جيب جلدي واسع
تحت الفك السفليّ
الذي تتحمّل معدته
مؤونة غذاء ثلاث
مرات أكثر من أي طير
وهذا الجيب الجلدي
يعمل كمكيّف هواء
في الطقس الحار .

الإنسان لكن دون أسنان ، أو كامتداد عظميّ خفيف للجمجمة ، والجلد الذي يغطي منقار الطير مكون من مادة الكيراتين وهو البروتين الليفي الذي يشكل الأساس الكيميائي لأنسجة الجسم القرنية كالأظافر والقرون والشعر ، وجفاف هذه المادة يشكل غلاف المنقار الخارجي اللامع الصقيل القاسي ، واذا بليت قمة أو أطراف أو حواف المنقار القاطعة ، فان الغلاف الكيراتيني يتجدّد باستمرار ليجدّد مضاءها .

وهذه حكمة إلهية بالغة لاستمرارية حياة الطيور المستمرة على الأرض وفي الهواء منذ (١٤٠) مليون عام ، وهو عمر أول هيكل مستحاثي وجد في أواخر العصر الجوراسي وأطلق عليه اسم (الاركيوبتركس archaeopteryx) بمعنى الجناح القديم ، وقد ترك أثره الشبيه بالزواحف في الطين ، وله ريش

واضح ، وهو على الأقل حتى الآن أقدم طير معروف اكتشفت آثاره المستحاثية على الأرضه، وقد عثر عليه في حجر اللاردواز في لانجنالتيم في بافاريا عام (١٨٦١) ، ولولا أثر الريش الواضح لصنّف من الزواحف ، وكانت له فكوك قوية مزودة بأسنان تمتد لتشكل بكل وضوح (المنقار) .

مناقير غريبة الأشكال

لقد ظهرت الطيور الحديثة مثل الطيور المغرّدة والطيور الغوّاصة آكلة الأسماك على الأرض منذ (٤٠) مليون عام ، وقد كانت لها مناقير مسنّنة صلدة تطورت فيما بعد إلى مناقير بدون أسنان ذات وزن خفيف ، وهذه المناقير العظمية الخفيفة مغطاة بجلد قرني .

وعلى العموم فإن مناقير الطيور وبمرور ملايين السنين تطورت من مختلف النواحي الممكنة ، رغم أن معظم الطيور مثل الغربان وأبو زريق الشبيه بالغراب والطيور السوداء عامة لها مناقير مستقيمة تكيفت مع أحوال التغذية العامة ، وطيور أخرى كثيرة تطورت مناقيرها بحسب تكيّفات فريدة .

ومن المناقير غير الطبيعية المنقار السيفي الطويل لطائر الأهينجا وطائر مالك الحزين ، اللذان يستخدماته في الطعن القويّ ، وكأنه رمح أو حربة ضد الأسماك والضفادع ، والمنقار الطويل الرفيع المنحني لأسفل ، لطائر البشروش ، (طائر مائي طويل العنق والرجلين) آكل القشريات ، والمنقار المميز ذو الجيب أو الكيس الجلدي الكبير تحت الفك السفلي الذي يستخدم كمخزن للغذاء الملتقط من الماء عند البجع (طائر مائي كبير) ، والمناقير المتصالبة لبعض الطيور التي تستخدم لفتح أكواز الصنوبر ،

والمناقير المخروطية للطيور فالقة البذور والعصفور الدوري ، والمنقار الناعم الطويل لطير دجاجة الأرض الذي تلتقط به دود الأرض ، والمنقار الذي ينتهي بشكل ملعقة لطائر اللقلق ، والمنقار بشكل حذاء لطائر أبو مركوب ، ومن المناقير الغريبة المنقار الضخم الملون لطائر الطوقان الأميركي الاستوائي ،

والمناقير المنحنية بنزول كبير وبخوذ قرنية كبيرة لطيور خط استواء العالم القديم ، ومنقار طير الزقزاق المعقوف الذي ينحني الجزء الخارجي منه بشدة إلى اليمين بتكيف جميل ليتمكن الطير من انتزاع الحشرات من تحت الأحجار على الشواطيء الصخرية .

وربما يكون أعجب المناقير مناقير الذكور والإناث المختلفة لطائر الهويا الأسود النيوزيلندي ، فللذكر الكبير منقار مستقيم تكيّف لينحت في الخشب المهتريء ، وللأنثى الصغيرة منقار منحن ورفيع ليمكّنها من سبر الشقوق في جذوع الأشجار ، والتقاط الحشرات التي يتعذّر على الذكر التقاطها بمنقاره المستقيم ، ولذلك فإنه لزاماً على الذكر والأنثى أن يجتمعا ليصطادا ويتغذيا معا على أرضيّة الغابة ، والتغذّي الزوجي التعاوني غير معروف في عالم الطيور ولا يوجد إلّا عند طير الهويا ، ومع الأسف الشديد فإن آخر مرة شوهد فيها زوج من طير الهويا كان عام ١٩٧٠ ، وباختفاء هذا الطير النادر اختفت أغرب صورة لمنقار طير على الأرض إلى الأبد . □

في الأسواق

كتاب العربي

العشرون

أندلسيات

بقلم محمد عبد الله عنان

كتاب العربي مرآة العقل العربي

كوخ الهوى

شعر : الدكتور عيسى درويش

فِي كُوخِنَا الشَّامِخِ عِنْدَ الْجَبَلْ
يُمْطِرُنَا الْغَيْمُ بِأَحْلَى الْقُبَلْ
حَصِيرُنَا فِيهِ بِسَاطُ الْمُنَى
وَالزَّيْتُ وَالْقِنْدِيلُ ضَوءُ الْأَمَلْ
فِيهِ عَرَفْنَا مِنْ طُقُوسِ الْهَوَى
مَا يَضْرِبُ الْعُشَّاقُ فِيهِ الْمَثَلْ
طَعَامُنَا فِيهِ نَبَاتُ الثَّرَى
وَخَمْرُنَا وَالْمَاءُ غَيْثٌ هَطَلْ
وَحُبُّنَا صَافٍ كَدَمْعِ النَّدَى
وَحُبُّنَا بَاقٍ بِوَجْهِ «الْأَزَلْ»
لَا يَعْرِفُ الْوَاشُونَ أَسْرَارَهُ
بِالْقَلْبِ مَحْفُورٌ وَبَيْنَ الْمُقَلْ

وجهاً لوجه

د. سعد الدين ابراهيم ● د. محمد حافظ دياب

- لا يكفي أن يكون عالم الاجتماع مُجرّد مراقبٍ محايد
- نحن بحاجة لصياغة نظرية بديلة لفهم المجتمع العربي
- قبول المشروعات البحثية المشتركة متروك لضمير الباحثين العرب
- الوضع المثالي هو القيام بأبحاث علمية اعتماداً على النفس
- العلاقة بين المثقف وصاحب القرار، ليست سهلة، لكنها ممكنة

منذ عودة الدكتور سعد الدين ابراهيم من الولايات المتحدة بعد حصوله على الدكتوراة في علم الاجتماع السياسي ونشاطه العلمي يندمج في نشاطه العام المتنوع على مستوى الوطن العربي ، من خلال المؤسسات البحثية كمركز دراسات الوحدة العربية ، ومنتدى الفكر العربي بعمان ، أو المنظمات العربية غير الحكومية ، مثل المنظمة العربية لحقوق الانسان ، والمجلس العربي للطفولة والتنمية .

هذا فضلا عن إسهاماته كأستاذ لعلم الاجتماع في الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

ومنذ صدور كتابه عن سوسيولوجية الصراع العربي الاسرائيلي وإنتاجه العلمي حول قضايا الوطن العربي في تزايد ، فله بالعربية « كيسنجر وصراع الشرق الأوسط » ، و « عروبة مصر » ، و « اتجاهات الرأي العام العربي نحو الوحدة » و « النظام الاجتماعي العربي الجديد » ، و « مصر تراجع نفسها » .

وله بالانجليزية : « المجتمع العربي يتحول » ، و « بدو المملكة العربية السعودية » ، و « التحضر في المغرب » .

ويحاوره الدكتور محمد حافظ دياب أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الآداب جامعة المنوفية بجمهورية مصر العربية .

● أريد أن أسجل ، قبل بدء هذا الحوار ، وجود إشكالية تتعلق بوضعك الأكاديمي ، كأستاذ لعلم الاجتماع ، وموقعك من جهة ثانية ، في مجرى العمل العربي العام .

فلقد أسهمت بالكتابة ، وشاركت كذلك في تخطيط عدد من المنظمات العربية الشعبية . كيف يمكن إذن تبيان هذه الإشكالية بالنسبة لك ؟ وهل تراها إشكالية ، أم ماذا ؟

- أظن أن دوري في الحياة العربية العامة هو امتداد لدوري كعالم اجتماع ، وهو كذلك امتداد أراه طبيعيا ، وعلى الأخص في مجتمعات العالم الثالث ، ومنها مجتمعنا العربي ، فعالم الاجتماع خصوصا في هذه المجتمعات شاهد وشريك في آليات تحول مجتمعه من المرحلة التقليدية و « الكولونيالية » إلى مرحلة الاستقلال وبناء الدولة الحديثة والتنمية الاقتصادية الاجتماعية . إنه بحكم تخصصه لا يمكن أن يظل بمعزل عن هذا التحول ، ولا يكفيه أن يكون مجرد مراقب محايد له . إن عليه كعالم اجتماع أن يعرف أكثر ، وكمواطن أن يكون مسؤولا ، بأن يوظف معرفته لتعميق فهم مجتمعه لذاته ، وتبصيره بالخيارات والبدائل المتاحة ، عبر عمليات التحول المجتمعي والعالمي الكبير التي تدور رحاها بوتيرة سريعة ومكثفة .

وما أقوم به في مجرى العمل العربي العام لا يتعدى الاسهام في بناء ما يطلق عليه منظمات ومؤسسات المجتمع المدني ، أي خلق تنظيمات وسيطة بين الفرد والدولة ، فقد قويت مؤسسة الدولة في الوطن العربي بمعدل أسرع من نمو التنظيمات التي يمكن للأفراد أن ينخرطوا فيها لموازنة قوة الدولة ومراقبتها ومحاسبتها ، وهذه صياغة أخرى لحقيقة غياب الديمقراطية . لقد حدثت تحولات كبرى عديدة في خارج الإطار الأكاديمي ، وهو الاهتمام بالاطلاع على التراث العربي الاسلامي والتراث الفكري الماركسي

واليساري .

وقد استغرقت عملية المزج التوفيقي بين هذه الينابيع الفكرية المتنوعة حوالي عشر سنوات بعد حصولي على الدكتوراة . وأقول إنها عملية مستمرة ، يغذيها التأمل الذاتي المعمق بالتلقي والهضم والاستيعاب وإعادة التركيب والتأليف التي أمارسها في أعمالي العلمية ، منذ ظهور كتابي عن سوسيولوجية الصراع العربي الاسرائيلي الذي ظهر بعد هزيمة ١٩٦٧ مباشرة ، شعرت أن أهم دور وواجب لعالم الاجتماع في الوطن العربي هو أن يقدم لمجتمعه رؤية موضوعية عن مشكلات الحاضر وتحدياته ، وأن يكشف له عن احتمالات المستقبل وإمكاناته ، وآفاقه . وهذا ما حاولته طوال العقدين الأخيرين ، في كل ما اعتقدت أنه مشكلات وتحديات كبرى تواجه وطننا العربي .

أجيال « سوسيولوجية » ثلاثة :

* بهذه المناسبة ، أين أنت الآن ، من الحركة « السوسيولوجية » الدائرة في الوطن العربي ؟ هل تعتبر نفسك جزءا من تيار ، من جيل ، أم تراك رؤية منفردة ؟

ـ إنني أعتبر نفسي جزءا من الحركة « السوسيولوجية » العربية في جيلها الثالث ، فالجيل الأول لهذه الحركة نشط في فترة ما بين الحربين ، وتركزت أعماله في تقديم علم الاجتماع للدوائر الأكاديمية ، كعلم جديد في منظومة العلوم الاجتماعية والانسانية التي ظهرت في الغرب منذ النصف الثاني من القرن الماضي .

حاول الجيل الأول أيضا التنقيب في التراث العربي الاسلامي بحثا عن بدايات أو إرهاصات فكرية لهذا العلم ، وهو ما يبدو في محاولات منصور فهمي وطه حسين لإعادة تقديم كتابات ابن خلدون ، على أنها البداية الحقيقية لعلم الاجتماع .

مجتمعنا العربي خلال العقود الأربعة السابقة شهد تحولات اقتصادية ، اجتماعية ، سكانية ، تعليمية . . . الخ) ، لكن لم يواكبها تحول نحو الديمقراطية .

من هنا كان لزاما على قطاع من المفكرين العرب أن يشروا ويعملوا على خلق تنظيمات جديدة للمجتمع المدني ، وأن يدعموا القائم منها بالفعل .

وقد أتيح ذلك بالنسبة لي ، حين أسهمت في تخطيط القوى البشرية في العراق والسعودية والسودان وتنميتها ، كما أتيحت لي فرصة المشاركة في تأسيس عدد من المنظمات العربية غير الحكومية وإدارتها ، مثل المنظمة العربية لحقوق الانسان ، ومركز دراسات الوحدة العربية ، ومنتدى الفكر العربي ، والمجلس العربي للطفولة والتنمية .

* إذا سمحت لي أبدأ بدورك الفكري . ما هي مكوناتك العلمية ؟ وتحديدا ، كيف لباحث « سوسيولوجي » أن يمارس فاعلياته في هذا الدور ؟

ـ تكويني العلمي لا يختلف في خطوطه العامة عن بقية أفراد جيلي من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ، فقد درست علم الاجتماع والعلوم الشقيقة له مثل علم النفس والانثربولوجيا والاقتصاد والفلسفة وبعض فروع القانون في جامعة القاهرة ، ثم واصلت دراساتي العليا للماجستير والدكتوراة في الولايات المتحدة بجامعتي كاليفورنيا وواشنطن .

وبينما كانت دراستي في قسم الاجتماع بجامعة القاهرة تنطوي على تلقي جرعات قوية من التقاليد الأوروبية عموما ـ الفرنسية والألمانية خصوصا ـ في علم الاجتماع ، على أيدي أساتذة مصريين درسوا في جامعات أوروبا فإن دراستي في الولايات المتحدة قد انطوت على مزيد من الإعداد المنهجي والميداني الكمي . ثم كانت اهتماماتي البحثية حول مشكلات مصر والوطن العربي والعالم الثالث مزيجا من هذين التقليدين الأكاديميين ، مع رافد فكري آخر قمت بتنميته .

أما الجيل الثاني فهو الذي نشط في العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية ، وقاد عملية تأسيس أقسام

مستقلة لعلم الاجتماع في الجامعات العربية ، بعدما كان تدريس هذا العلم يتم في أقسام الفلسفة وغيرها من أقسام الانسانيات الأخرى .

وقد توفرّ هذا الجيل على ترجمة الكتب المدرسية الجامعية وتأليفها لطلاب علم الاجتماع ، وكان من أعلامه في مصر د . علي وافي ، و د . عبدالعزيز عزت ، و د . مصطفى الخشاب ، و د . حسن سعفان ، و د . حسن الساعاتي ، و د . سيد عويس ، وفي العراق د . علي الوردي ، وفي سوريا د . عبدالكريم اليافي . وهذا هو الجيل الذي تتلمذت أنا وغيري على يديه في الجامعات العربية ، لنمثل بذلك الجيل الثالث من علماء الاجتماع العرب . ويمكن تحديد إسهامين أساسيين قام بهما جيلي ، أولهما نقد علم الاجتماع الغربي الحديث ، واستيضاح مواطن القوة والضعف فيه ، وتوسيع الإطار المعرفي لأدبيات العلم الاجتماعي ، بإدخال النتاجات الماركسية الكلاسيكية والجديدة في علم الاجتماع الأكاديمي بالجامعات العربية . والإسهام الثاني هو محاولة تشييد مدرسة عربية في علم الاجتماع ، بواسطة إجراء بحوث ودراسات مكتبية وميدانية على المجتمع العربي نفسه ، واختيار العديد من النظريات والمقولات الواردة لنا من علم الاجتماع الغربي (برافديه الوظيفي والماركسي) ، ومحاولة صياغة أطر نظرية بديلة لفهم المجتمع العربي في ضوء هذه البحوث والدراسات الميدانية . وأعتقد أن دوري وإنتاجي يقعان في هذه الإسهامة الثانية . أما مدى تفرد رؤيتي فهو أمر أترك للآخرين الحكم عليه .

خلق الوعي الموضوعي بالذات

* إنني لم أفضُ اليد بعد من هذا الموضوع ، فما زال شق آخر منه قائما ، وهو خاص بإمكانات علم الاجتماع أن يلعب دورا في تطور الوعي لدى المواطن العربي كخطوة على طريق الوعي الاجتماعي العام .

ـ إن علم الاجتماع في أبسط تعريفاته هو السعي المنهجي العلمي الدائم لفهم المجتمع بكل ظواهره ومؤسساته . ولأن المجتمع لا يكف عن التغير فإن هذا السعي المنهجي لا يتوقف . وفهم المجتمع لذاته هو تعبير آخر لوعي المجتمع بذاته ، فالمجتمع يمكن أن يوجد وأن يستمر دون فهمه لذاته ، أي دون وعيه بذاته .

وقد عاشت المجتمعات الانسانية آلاف السنين قبل ظهور علم الاجتماع كما عاش الأفراد قبل علم النفس ، وكما وجدت السلطة والحكومة والدولة سابقة لعلم السياسة ، والانتاج والتوزيع والاستهلاك قبل علم الاقتصاد . ويصدق ذلك على وجود الظواهر الطبيعية قبل ظهور العلوم الطبيعية .

وعلم الاجتماع مثل كل العلوم الأخرى ـ اجتماعية كانت أو طبيعية ـ يقدم فهما منضبطا لمجموعة الظواهر التي تشكل في مجموعها ما نسميه (المجتمع الانساني) أو (العمران البشري) ، لكنه يختلف عن العلوم الطبيعية في جانب أساسي ، هو أن الدارس يمثل جزءا من الظواهر المدروسة . من هنا أهميته في خلق الوعي الموضوعي بالذات ، وليس مجرد الوعي الذاتي . فهذا الأخير ـ الوعي الذاتي ـ يمكن أن يقوم به كل إنسان عاقل مفكر ، دون حاجة إلى الترسانة المنهجية لعلم الاجتماع ، أما الفهم الموضوعي للذات المجتمعية ، أي للمجتمع ككل ، فتلك مهمة هذا العلم وريادته ، وإن لم يكن له فيه حق الاحتكار .

مسألة ضمير

* إذا كان الأمر كذلك فما هو المدى الذي تراه صحيحا لما يطلق عليه (الأبحاث المشتركة) ؟ وهل ترى الأمر ذا جدوى في هذا المضمار ؟

ـ الأبحاث العلمية المشتركة شأنها مثل كل المشروعات المشتركة بين طرف وطني وآخر أجنبي ، تتوقف جدواها على السياق المجتمعي العام الذي تتم

فيه ، وعلى طبيعة السلطة في هذه الدولة العربية أو تلك . هذه هي الاعتبارات التي تحدد شروط العلاقة بين الطرفين الوطني والأجنبي ، والخاصة بتحديد أهداف البحث المشترك ومنهجيته ، والمعلومات التي يتم جمعها ، وطريقة تحليلها ، والاستفادة بها .

والقاعدة العامة هي ألا نلجأ للبحوث المشتركة ما دمنا قادرين على القيام بها بأنفسنا ، أي ما دامت تتوافر عندنا « الكوادر » العلمية ، والموارد المالية لتغطيتها . والأمر لا يختلف هنا عن مجهودات التنمية ، فالوضع المثالي هو القيام بهذه التنمية اعتمادا على النفس ، وهو ما يعرف « بالتنمية المستقلة » .

وعادة حينما تكون السلطة وطنية مستقلة ، وليست تابعة ، فإنها تحاول القيام بتنمية مستقلة . وفي هذا السياق الوطني المستقل تتم البحوث العلمية الاجتماعية وغيرها بشكل مستقل . قد يحدث بالطبع أن تكون السلطة الوطنية المستقلة في حاجة بين حين وآخر للاستعانة بمساعدة أجنبية اقتصادية أو بحثية ، وفي هذه الحالة تلجأ إلى المشروعات أو الأبحاث المشتركة ، لكنها هي التي تحدد شروطها . أما في حالة السلطة التابعة ، فهي عادة لا تضع هذه الشروط ، بل يفرضها الطرف الأجنبي .

مثال ذلك ما حدث في مصر ، حيث كانت النزعة العامة في عهد الرئيس عبد الناصر هي الاعتماد المستقل على الذات في كل شيء ، وحينما كانت تتم مشروعات مشتركة فإن الجانب المصري كان هو الذي يحدد شروطها ، أما في عهد الرئيس السادات فالأمر على خلاف ذلك . وعلى كل فإنه حتى في أشد حالات التبعية يبقى أمام الباحثين الوطنيين هامشا كبيرا من حرية الحركة ، لقبول الدخول في مشروعات بحثية مشتركة أو رفض ذلك ، تبعا لما يمليه عليهم ضميرهم الوطني والعلمي ، وتقديرهم للفائدة العامة التي ترجى منها .

بين المثقف وصاحب الأمر

● إن هذا يؤكد علاقة البحث العلمي بالسياسة ، سواء على صعيد السيادة أو التبعية ، فهل يمكن تصور أن الضجة التي أثارها كتابك (تجسير الفجوة) يندرج في مجرى هذه العلاقة ؟

ـ الضجة التي أثيرت حول كتاب (تجسير الفجوة بين المفكرين وأصحاب القرار) هي في جانب منها علامة صحة وحيوية للجماعة الثقافية العربية ، فلا يخفى أن هذا الكتاب الصغير الحجم قد طرح أفكارا واجتهادات غير تقليدية ، وجدها البعض جديرة بالتأمل والتدبر والتجريب ، ورآها آخرون ، أو اعتقدوا أنها محاولة لتدجين المثقف أو تبرير تعاونه مع السلطة .

والكتاب يُكرّس لمقولة أساسية هي أن لكل من المفكر والحاكم دورا في المجتمع ، وأنه على الرغم من اختلاف ـ وربما تناقض ـ الدورين ، إلا أن هذا الاختلاف أو التناقض لا ينبغي أن يظل دائما مدعاة لحروب إبادة متصلة بينهما ، تستنزفهما دون طائل ، وتهدر موارد المجتمع ومصالحه استتباعا . وقد اجتهدت أن أشير إلى المسالك البديلة لإدارة هذه العلاقة بشكل إبداعي بناء ، دون أن يتخلى أي منهما عن دوره المجتمعي .

والأمر ليس سهلا ، لكنه ممكن ، ولا ضرر من المحاولة على أية حال ، وخاصة أن حرب الإبادة قائمة بينهما في وطننا العربي منذ عقود ثلاثة على الأقل ، وكان حصادها مرا .

● سؤال أخير حول مشروعاتك المقبلة . ما هي ؟

ـ إنني أضع اللمسات الأخيرة على كتابين انتهيت من تأليفهما خلال السنوات الخمس الأخيرة ، أحدهما عن الأقليات في الوطن العربي ، والثاني عن مستقبل المجتمع والدولة في الوطن العربي . أما المشروعات البحثية التي في طور التنفيذ فتشمل دراسة عن التعليم في الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين ، ودراسة عن المؤسسات الاسلامية الجديدة في مصر هذا إلى جانب معاودة الكتابة الصحفية المنتظمة ، بعد انقطاع في العامين الأخيرين ، تفرغت فيهما للعمل كأمين عام لمنتدى الفكر العربي □

الإبداع الأفريقي

بقلم / خالد عباس

حين منح الشاعر المسرحي النيجيري « وولي شوينكا » جائزة نوبل عام ١٩٨٦ ، كان الأدب الافريقي قد قطع مسيرة قصيرة لكنها غنية نحو الابداع والأصالة . ولم يكن شوينكا غير اسم في قائمة طويلة من المبدعين الأفارقة الذين يتجه اليهم الكاتب جنوبا ليقدم بعضهم للقارىء العربي .

هذه قارة غنية بآدابها وفنونها . وليس يستغرب أن تكون هي أم البشرية في علم التاريخ والانثروبولوجيا، كما يقول ديفيد سن . نحن جزء من العالم الثالث الذي تعرض رغم حضاراته الأصيلة في عصرنا الحديث الى المعاملة وفق النظرات الاستعلائية التي تعود الى عصر أرسطو . ذلك الرجل الذي ميز بين اليونانيين وبين بقية الشعوب « البربرية » التي رآها في منزلة أدنى من الشعب اليوناني المتميز باستعداده العقلي والثقافي. وفي عصرنا هذا يرى بعض الأوروبيين أن الذكاء وراثي ، تتميز به شعوب على غيرها . هذا قول بعض من البيولوجيين ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع الغربيين ، ومنهم « فرنسيس جالتون » الذي أثار هذا الموضوع صراحة في كتابه « العبقرية

الروائية » . فهل نذهب مع الكاتب الذى ادعى بأن خط سير الحضارة متجه « نحو الجو البارد » منذ الدولة المصرية القديمة ، أي أن هناك صلة أساسية بين الحضارة العالية وبين درجة الحرارة المنخفضة كما ورد فقط في كتاب د . غسان زكي بدر في كتابه مقدمة في علم الاجتماع ؟ وإن كان ردّنا بالنفى ، فلماذا هذا التطلع دوما الى الاعلى نحو الشمال ، ولماذا هذا الهجر للجنوب ، أفكل جنوب منكوب ؟ أعود وأقول ، هذه قارة ثورة ، وأدب ، وحس لى ، ووعى فطرى بواقعها . يقول الشاعر معبرا عن وعيه بأساليب المستعمر وحملاته التبشيرية ، على لسان الافريقي :

جلبت لي صليبك ثم قذفت بي ،
لقد أصبح قلبي مليئا بالمرارة ،
أخبرتني أن أغمض عيني وأصلي ،
لكنك كنت تسرق أرضي .

هذا صوت الشاعر « دينس أوسادباى » ، الذى يصفه الاستاذ جمال محمد بأنه « شاعر نيجريا الرائد » ، وهو صاحب المجموعة الشعرية الشهيرة « الآن افريقيا تغنى » . ان الأدب الافريقي غنى بكل ما في الكلمة من معنى ، وموضوعاته افريقية أصيلة .

الأشياء تتداعى

« تشنوا اتشى » الروائى النيجيرى يركز على الصراع بين أسلوب الحياة الجديدة وبين المعتقد القديم . وفي وصف هذا الروائي الكبير للقرية والمدينة الافريقية صدق فني بيّن ، أفاد منه حتى الكتاب الكبار في كتابة أعمالهم الأدبية.لهذا الروائى روايات أربع أهمها « الأشياء تتداعى » (١٩٥٨) ، التى صور فيها قبائل « الايبو » بريشة الرسام البارع مثريا تصويره بخلفية الشعائر التقليدية ، واضعا الصراع بين المجتمع التقليدي وبين إدانة الاستعمار والرجل « الأبيض » أول همه . وهو يتميز بانجليزية واثقة ، ومهارة في انتقاء الكلمات ، وقدرة بارعة على الغوص في داخل الشخصيات وتحليلها .

وشهرته واسعة ليس في قارته فحسب ، بل وخارجها ايضا ، رغم محدودية كمه في الابداع الروائي . وللرجل فكره الموضوعى بعيدا عن الانفعالية ، يقول في حديث صحفي في أوائل السبعينات نقل عبدالعزيز صادق جزءا منه في كتابه « نافذة على إفريقيا الصديقة » .

« كان هناك من يعتقد أننا في إفريقيا قوم بلا ماض وبلا تاريخ ، وما فعلته في الأعوام الأخيرة ، وما أفعله الآن ، هو أن أقول لهؤلاء بطريقة مؤدبة مهذبة : نحن الافريقيين لنا الماضى والتاريخ ، فإليكم ماضينا وتاريخنا . وأعتقد أن كل كاتب في أفريقيا ملتزم بنفس هذا الموقف » .

إلى اى حد سوادك ؟ ؟ !

أما النيجرى وولي شونيكا الحاصل على جائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٦ ، فأهم موضوعاته هو الطالب في المدن الكبرى للبلاد المستعمرة . في إحدى قصائده الساخرة الهجائية « محادثة هاتفية » ، يصور لنا افريقياً يتصل بمالكة عقار إنجليزية ، فتسأله في الهاتف :

- إلى اى حد سوادك ؟
يرد : ألم أخطىء السمع .. ؟ !
فتقول : هل أنت فاتح أم حالك السواد ؟

في هذا التصوير الدرامى الحاد ، يلخص شونيكا موقفا كبيرا . وتظهر مقدرته في هذه القصيدة في وصفه واعتنائه بالتفاصيل الدقيقة من وصف كشك التليفون ، الى الشارع في الخارج ، الى مظهر المرأة عندما تتكلم . والجمل العصبية تكشف عن حدة الموقف عبر صوت الطالب والصوت الصادر عن الشفاه المطلية بالأحمر ، وتنفث دخانا من « بابب » السيجارة الطويل المطلية بالذهب .

ان أردنا أن نفهم شونيكا فعلينا ان نلم بحضارة اليوروبا (قبيلته) . قال عنه اللورد جونز ، وهو واحد من نقاد الأدب الإفريقي المعروفين ، « لم يستطع أى كاتب افريقى آخر أن يصل الى ما وصل إليه شونيكا من جعل العالم بأسره يرى الانسانية

بعيون افريقية » . هذا شيء من مبالغة ، لكن العبارة فيها الكثير من الحقيقة . وفي قصيدته « رقيات روحية » يصور لنا معاناة الافريقي في يومه وليله :

في البدء عليك أن تمشي بين من لاوجوه لهم ،
متعلة في الارض أقدامهم ،
ومرونة . .
الكرتيد في غرف انتظار التوليد الليلي .

تقول عنه « أونا ماكلين » في الملحق الأدبي للتايمز البريطانية في عرضها لخمس من مسرحياته « ان شوينكا يلمح الى أن الفنان بإدراكه العالي للأحداث ، وحسه تجاه المسئولية ، لن يفسر فقط الماضي للحاضر ، وإنما سوف يحمي إمكانيات المستقبل » . وهو يمزج في مسرحه الطقوس الافريقية والمعتقد التقليدي بما يحوي من حكم وأمثال شعبية ، ومادة تقليدية بالواقعية ، هادفا الى إثراء المسرح بمادته الافريقية الخصبة . ولشوينكا ميثولوجيته الخاصة به التي تلعب دورا مهما في أعماله ، وينطبق عليها قول الشاعر والمسرحي الايرلندي الكبير « ييتس » الذي حصل أيضا على جائزة نوبل ، ان الشاعر الحديث لابد أن يبتكر ميثولوجيا تحتضن أعماله كلها . ويقول « مارتن اسلن » ، الناقد المسرحي الانجليزي المعروف ان مسرحية شوينكا « رقصة الغابات » هي « حلم منتصف ليلة صيف افريقية » .

لاجوما وسنجور

ومن جنوب افريقيا برز « الكس لاجوما » المتوفى عام ١٩٨٥ والذي ترجمت أعماله الى العديد من اللغات ونشرت في أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفيتي ومصر . يقول شوينكا عن روايته الأولى « نزهة في الليل » (١٩٦٢)ان لاجوما قد توصل في صفحاتها التسعين الى ما ظل الكتاب الافريقيون يحاولون تحقيقه طوال سنوات بأكملها . اما الشاعر الموزامبيقي دوس سانتوس فيصور في شعره القوانين الجائرة التي كانت تمنع الموزامبيقي من مغادرة داره إلا بإذن مرور . وصور الشاعر دينيس بروتوس من جنوب افريقيا غارات البوليس تطارد رفاقه « السود » :

الاصوات تبدأ من جديد
صوت السرينة في الليل يعوى
الرعد على الباب
تزعق الأعصاب في الألم
لوجوه شقها الألم
الوعوعة التي بلا كلمات بلا انتهاء
تعرف فقط من هم غير أحرار .

عديد من المبدعين في افريقيا تصعب الاشارة اليهم هنا ، إلا في عبارات موجزة لاتغني ولا تسمن من جوع . فهذا « بيتر أبراهامز » من جنوب افريقيا

يتناول قضية القهر من قبل « البيض » ، والعنف البدني والارهاب البوليسي . وهذا « آموسي تيوتولا » ينهل من موضوعات مأخوذة من الأساطير ليعالج الواقع الافريقي في رواياته ، التي من أهمها « شريب نبيذ النخيل » . ونرى قضية الرجل الأسود العائد الى الوطن بعد إتمام دراسته في الخارج مطروحة في أعمال الروائي كامارا لي . وقضية الخادم الأسود عند « مونجو بيتي » . وغني عن التقديم ليوبولد سنجور ، الشاعر السنغالي الكبير ورئيس الجمهورية الذي أزاح عن كاهله هم السياسة في هدوء وصمت . بل ان الرئيس التنزاني جوليوس نيريري قد قام بترجمة بعض من روايات شكسبير الى اللغة السواحلية .

الأدب العظيم

ورغم مايزخر به الأدب الأفريقي من قضايا وطنية ودعوات تحريرية ، إلا أن هذا الأدب قد نجا في معظمه من مأزق الدعائية الفجة وعبر عن التزامه دون إهمال بالقيم الجمالية للأدب . يقول الكاتب الافريقي الكبير « ايس كيا مغاليل » ، من جنوب افريقيا ، الذي حصل على الدكتوراة في الأدب الابداعي من الولايات المتحدة عن روايته « الهائمون » : في الادب العظيم لا يمكن أن تنفصل الدعائية بسهولة عن موقف المؤلف والطريقة التي يقدم بها فنه . ففي رأيه أن كل كاتب ملتزم بشيء ما في فنه ليجمع بين القيمة الجمالية ونقد الحياة »

إن كتاب افريقيا ـ كما يقول مغاليل ـ لديهم حس بالالتزام ، فهم لايظهرون أي إشارة للفرار من أصولهم الافريقية تفضيلا للعالم الغربي ، ولايلجأون الى عوالم من « الفانتازيا » كمهرب من بيئاتهم الحقيقية . ويقول ، إنه بالاستثناء الواضح لرواية « الافريقي » لكاتبها وليم كونتون التي تعلن في جلاء عن القيم الافريقية ، لايوجد تقريبا أدب دعائي مباشر . بل يقول انه لم يحدث أن نهج كاتب إفريقي نهج أورويل وكراهيته العلانية في « مزرعة الحيوانات » و « ١٩٨٤ » .

هذا أدب نحتاج أن نقرأه ، ونقيمه نقديا لنتصل من خلاله الى الذات الافريقية الحقيقية ، والابداع الافريقي الثري اللامحدود . ذلك الابداع الذي تأثر به الغربيون ، فأصبح الفنان العالمي بيكاسو أكثر إبداعا وابتكارا من النحاتين الافريقيين الذين نقل عنهم . ليست هذه إشارة للتقليل من شأن هذا الفنان المبدع ، وإنما نحن في حاجة الى وضع الأمر موضعه الصحيح تجاه الابداع الافريقي . ونتمنى أن يتم ذلك من خلال النص الإفريقي والمصدر الإفريقي حتى لاتؤثر علينا عوامل أخرى غير الابداع مثل سلوكية الربح وايديولوجية التفوق عند الغرب كما يقول مغاليل . □

● حتى اللص عندما يضع المفتاح في ثقب الخزانة ليسرق يقول باسم الله .

(فولتير)

● ألست تحب الحياة ؟ إذن لا تبدد الوقت ، لأنه المادة التي صنعت منها الحياة .

(فرانكلين)

● تلك هي بهجة الحياة الحقيقية : أن تجند نفسك لمسعى تعتقد أنت أنه سام رفيع .

(برنارد شو)

● يبدو لنا عمل غيرنا دائما أسهل من عملنا ، وكلما أحسن القيام به بدا لنا أكثر سهولة .

(والت ديزني)

العربي - العدد ٣٥٧ - أغسطس ١٩٨٨م

الاتصال اللغوي عن طريق الجلد

بقلم : الدكتور أحمد مختار عمر *

ان أهم وظيفة للاتصال اللغوي هي تلقي أفكار الآخرين ومشاعرهم ، أو نقلها إليهم . ولا تقف وسائل الاتصال اللغوي عند حدود الألفاظ والكلمات ، فهناك وسائل كثيرة غير لفظية يستخدمها الانسان ، أو تصدر عنه ، بهدف نقل المعلومات او الأفكار أو المشاعر ، أو بهدف المساعدة على نقلها ، أو الدقة في التعبير عنها .

وتتعدد الوسائل غير اللفظية لتشمل الحركات الجسمية لكامل الجسم أو لعضو معين من أعضائه (مثل الرأس أو الوجه أو العين أو الكتف أو اليد مما يمكن ادراكه بحاسة البصر ، كما تشمل الامكانيات الصوتية (مثل علو الصوت ، ودرجته ، ومعدل سرعته ، وكميته ، وكيفيته . .) مما يمكن ادراكه بحاسة السمع . وتشمل أخيرا بعض الأنظمة غير المرئية أو المسموعة مثل اللمس والشم .

وكل وسيلة من هذه الوسائل نظام تواصل متكامل ، يمكن أن يؤدي وظيفته مستقلا عن غيره ، ومستقلا عن الوسيلة اللفظية ، كما يمكن أن يؤديها في صحبة وسيلة أخرى لتحقيق مستوى أعلى من الدقة أو الوضوح أو التأثير .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن نسبة ما تحمله الألفاظ في الحوار المباشر من معان لاتزيد على ٣٥٪ من مجموع الرسالة ، ولذا فقد أعطى الوسائل غير اللفظية ثقلا أعظم في أي حوار بين شخصين **'inter personal'** بل هناك من بالغ في تحديد هذا الثقل للوسائل غير اللفظية ، فرفع نسبته الى ٩٣٪ من التأثير الكلي للرسالة .

* استاذ علم اللغة - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

وتتفوق الوسائل غير اللفظية على نظيرتها اللفظية في أنها غالبا ما لاتقع تحت سيطرة المتصل أو تحكمه أو وعيه ، ولذا فهي عادة ماتكون صادقة خالية من الخداع أو التشويه أو التضليل . وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الأفراد يعتمدون ـ حين تتعارض الإشارات ـ على الإشارات غير اللفظية ، كما لو عقب شخص على كلامك بقوله : « رأيك واضح جدا عندي » ، ولكنه في نفس الوقت أخذ يصدد اشارات تدل على غير ذلك ، كأن أخذ يحك رأسه بقوة ، أو أبدت ملامح وجهه امارات الحيرة . فأنت عادة ماتعتمد على تعبيرات الوجه والإشارات غير اللفظية ، باعتبارها المؤشر الحقيقي للمعنى الذي يدور في ذهن سامعك .

كما تتفوق كذلك في المواقف العاطفية التي تعتمد على التأثير والايحاء ولما كانت طبيعية بعض المواقف الاتصالية عاطفية كان التعبير عنها بصورة غير مباشرة (عن طريق ابتسامة ، أو إيماءة أو تربيتة على الكتف ، أو نحو ذلك أفضل من التعبير عنها بصورة مباشرة . ومن أجل هذا يعتمد المعلنون على الإشارات غير اللفظية في التأثير على الناس ، والإيحاء اليهم بما يريدون .

أهمية اللمس في الاتصال اللغوي

يعد الجلد من أهم أعضاء الاحساس في التواصل بين الأشخاص . ومن العلماء من عد الجلد أهم هذه الأعضاء ، ولاغرابة في هذا فكثير من علماء الفسيولوجيا يعتبرون اللمس هو الحاسة الوحيدة التي يمكن أن ترد باقي الحواس اليها . فالسمع يبدأ بلمس موجات الصوت للأذن الداخلية . والتذوق يبدأ بلمس مادة ما لأعضاء الذوق . والرؤية تتم عن طريق ضوء يصل الى العين ، وهكذا .

ويمكن تصور القيمة التواصلية الهائلة للمس بتصور حالة هيلين كيلر التي تغلبت على صممها وفقد بصرها باستخدام حاسة اللمس . وقد استطاعت أن تتعلم أسماء الأشياء عن طريق ضغط الالفبائية اليدوية على راحة يدها . كما استطاعت أن تتعلم الكلام عن طريق وضع أصابعها على حنجرة أستاذتها آن سوليفان لتحس ذبذبات صوتها (لكنها على الرغم من تعلمها الكلام فقد كانت في حديثها العام تحتاج الى مترجم ، لأن صوتها لم يكن واضحا بدرجة كافية) . وأخيرا تعلمت القراءة والكتابة بطريقة برايل وهي نظام كتابي يعتمد على توزيع عدد من النقاط البارزة (من ١ ـ ٦) على شكل سداسي ، وتقرأ هذه الرموز عن طريق امرار الأصابع على النص .

وقد عبر بعضهم عن حالة هيلين كيلر قائلا : « كان من المشكوك فيه لو أنها فقدت حاسة اللمس ـ حتى لو كانت قد استعادت حاستي السمع والبصر ـ أن تحقق موهبتها وعزيمتها شأنا كهذا » .

وحتى عهد قريب لم يكن العلم يعرف شيئا ذا بال عما يمكن أن يقوم به الجلد من تواصل ، حتى توصل العلماء المهتمون بدراسة الجلد الى حقيقة أن مقدار ونوع التلامس الذي يتلقاه الحيوان والانسان حتى فترة بلوغه يملكان تأثيرا قويا على سلوكه ، لأن الدراسة أثبتت أن حاسة اللمس هي أم الحواس ، وأن أثرها يبدأ منذ تشكل الشخص جنينا في بطن أمه . ويكتسب الطفل كثيرا من معلوماته عن نفسه وعن العالم من حوله من خلال اللمس ، وبخاصة لمس المحيطين به والذين يقومون على رعايته وارضاعه وهدهدته . ونظرا لامكانات الجلد الاحساسية فان الخبرات التي يكتسبها الشخص عن طريق جلده تفوق مايمكن أن يتصوره الكثيرون منا . وقد أظهرت التجارب أن نضج الشخص العادي يتطلب قدرا مركزا من التلامس ، سواء كان في شكل مداعبة أو تربيت أو تقبيل أو حتى لمس مجرد . وهكذا انكشفت مغاليق الامكانيات الاتصالية للجلد ، وظهر أمام أعين الباحثين أن الجلد ليس أكثر الأعضاء حساسية فقط ، ولكنه كذلك وسيلتنا الأولى للاتصال .

الجلد كناقل للرسالة

كلنا يعلم أهمية المعلومات التي يمكن الوصول اليها عن طريق ملاحظة لون الجلد . فهناك تقسيم

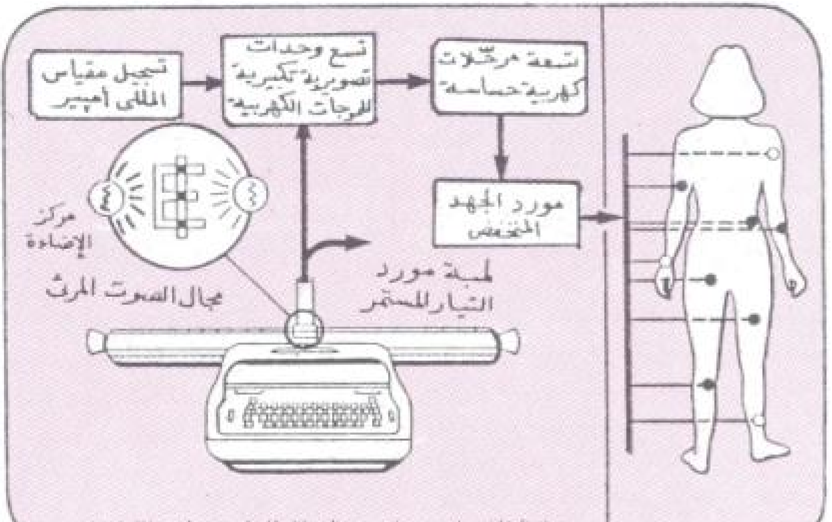

جهاز التغلب على صعوبات بث الرسائل للجلد عن طريق الذبذبات

للجنس البشري الى شعوب على أساس ألوان جلودها . ومن ذلك التقسيم العربي القديم للأجناس الى أسود (العرب) ، وأحمر (العجم) ، وأصفر (الروم) . وفي الحديث الشريف : « بعثت الى الأحمر والأسود » . كما أن هناك تغييرات تطرأ على لون الجلد في المواقف المختلفة كالاكتئاب أو الغيظ أو الخجل أو السرور أو الضعف . وقد ورد لذلك في التراثين الديني والشعبي نماذج كثيرة كقوله تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ، وقوله تعالى : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » وفي الحديث النبوي : « وكان ذلك الرجل مصفر اللحم » (من الاعياء والمرض) . وفي « ألف ليلة وليلة » : « فلما سمعت هذا الكلام اصفر لوني » (من الخجل) ، وفيها « أخذه الوجد والهيام واصفر لونه » (من الذبول والضعف) ، وفيها : « رد لونه واحمر وجهه » (من الصحة والقوة الجسمية) ، وفيها : « احمرت وجنتاه » (من الخجل) .

ولكن الشيء الطريف توصل العلماء بعد الدراسة المعملية التجريبية الى لغة يبث بها الجلد حديثه العاطفي . وقد توصلت الى ذلك بربارا براون بعد أن طرحت السؤال : هل يمكن أن يبث الجلد رسالة وينقل معنى ؟ وبعد أن ردت بالايجاب ذكرت أن كل ما تحتاجه لنستمع الى حديث الجلد عدد من الأقطاب الكهربائية ، تثبت في الجلد ، وآلة تسجيل خاصة . وسوف يقوم الجلد بالاخبار عن وجود الانفعال حين يوجد ، وعن درجة قوته ، والى أي مدى كان الشخص انفعاليا ، بل سيخبرنا كذلك متى لجأ الشخص الى الكذب . ويمكن أن ينوع الجلد من أشكال رسائله تبعا لتنوع قوة التيار الكهربائي الصادرة عنه . ويمكن عن طريق جهاز بسيط تحويل هذا التيار الكهربائي المتنوع الصادر عن الجلد الى تسجيلات كتابية مرئية .

الجلد كمستقبل للرسالة

لا أحد يجادل في أهلية الجلد للقيام بهذه الوظيفة نظرا لقدراته الاتصالية العجيبة . وقد أشار العلماء الى أن ما يكتسبه الانسان من خبرات عن طريق جلده أهم بكثير مما يتصور معظمنا ، ذلك أن الجلد الانساني يملك الملايين من نقاط الاستقبال والألياف

العصبية المهيأة لمعرفة مادة الشيء والإحساس بالضغط والحرارة والألم والوخز وغيرها .

ولكن الكثيرين لايتصورون الجلد كوسيلة استقبال متقدمة قادرة على فك مغاليق الأفكار والعواطف المتشابكة التي تصله من مصدر خارجي .

ويرجع الفضل في اكتشاف قدرات الجلد الاتصالية الى البحوث التي قام بها « فرانك جيلد هارد » وزملاؤه من « معمل الاتصالات الجلدية » في برنستون . وقد تبين لجيلد هارد وزملائه أنه لكي نصل الى استخدام فعال لامكانيات الاتصال عن طريق الجلد لابد من وضع وسيلة لارسال موجات كهربائية عبر الأعصاب الى أجزاء مختلفة من الجسم ، هذه الموجات الكهربائية ترمز الى الأفكار والانفعالات التي يمكن للجلد أن يفك رموزها .

الجلد كنظام اتصال مستقل

اذا كان معمل الاتصالات الجلدية في برنستون قد تعامل مع الجلد باعتبار قابليته لاستقبال الرسائل واستخدم وسائل ميكانيكية لبث هذه الرسائل اليه فان هناك فريقا من العلماء قادته ألما سميث سار بالبحث خطوة هامة الى الأمام حينما قام بدراسة كل من القدرات الارسالية والاستقبالية للجلد الانساني ، واعتبر الجلد نظاما اتصاليا بشريا مستقلا .

وقد بدأت ألما سميث دراستها بفرضية عامة تقول ان الاتصالات ذات المعاني العاطفية يمكن أن يقوم بها اللمس في غياب أي اشارات حسية أخرى ، بمعنى أنها رأت أن اللمس يمكن أن يوظف بفاعلية كنظام اتصالي مستقل .

ولاختبار صحة هذه الفرضية كان عليها أن تقوم بمهمة ذات شقين : أولهما أن تتوصل الى بعض الرسائل التي يمكن بثها عن طريق اللمس ، والآخر أن تبتكر منهجا عمليا لبث رسائل كهذه عن طريق اللمس ، وقد أوصلتها دراستها الاستطلاعية الى النتيجة الآتية : حينما يضع شخص يديه على يدي شخص آخر (حتى مع وجود عازل بينهما يمنع وصول أي مؤثرات أخرى) فانه يكون قادرا على توصيل عدد من الانفعالات أو المشاعر المختلفة . ثم قامت بعد هذا باختيار خمس منها رأت أنها أكثر قابلية للنقل عن طريق اللمس ، وهي : الشعور بالعزلة ـ الحنان ـ الخوف ـ الغضب ـ المزاح ـ وقد طلبت من أحد خبرائها المدربين أن يقوم بنقل هذه المشاعر الى عدد من الأشخاص ـ الواحد بعد الآخر ـ عن طريق اللمس باليد ، مع تغيير حركاتها . وقد قام الخبير بتوصيل يديه بيدي كل شخص ، وعن طريق الحركات المختلفة ليديه حاول أن يوصل هذه المشاعر (مع وضع عازل بينه وبين مستقبل الرسالة) .

من يلمس من ؟ وأين ؟

تختلف عادات الشعوب في نظرتها الى التلامس ، فبعضها يفرض حظرا عليه وبعضها يسمح به .

ويختلف البعض الثاني في درجة اعتماده على اللمس سواء مع النفس أو مع الغير ، فقد لاحظ « سيدني جورارد » حركات التلامس بين المتصاحبين في بعض المقاهي بعدد من المدن ، وجاءت نتائجه تشير الى وقوع الأعداد الآتية في الساعة الواحدة

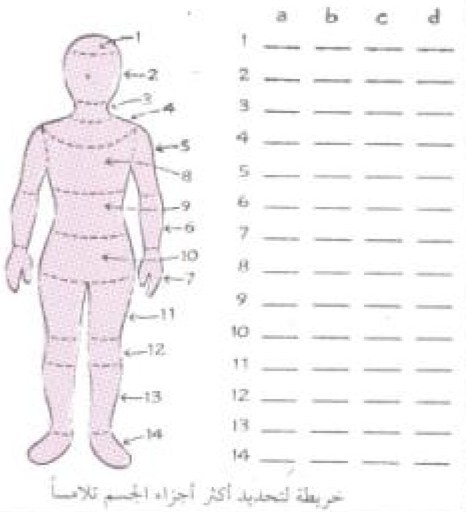

خريطة لتحديد أكثر أجزاء الجسم تلامساً

بورتوريكو ١٨٠مرة ، باريس ١١٠مرات فلوريدا مرتين ، لندن صفر .

كذلك أراد جورارد أن يعرف أي أجزاء الجسم تلمس غالبا ، فأجرى استبيانا على عدد من الطلاب ، يحوي خريطة لجسم الانسان تقسمه الى أربعة وعشرين قسماً . واقتصر في استبيان آخر على تقسيم الجسم الى أربعة عشر قسما .

وقد طلب الاستبيان من المجرب عليهم أن يحددوا جزء البدن الذي رأوا لمسه ، أو الذي لمس منهم ، أو الذي قاموا هم بلمسه خلال الاثني عشر شهرا الأخيرة ، وذلك بالنسبة لأربعة أنواع من الناس :

١ ـ الأم (رقم A في صفحة الاستبيان)

٢ ـ الأب (رقم B)

٣ ـ الصديق من نفس الجنس (رقم C)

٤ ـ الصديق من الجنس الآخر (رقم D)

وقد خرج من هذا الاستبيان بجملة من النتائج منها :

١ ـ تعرض الاناث للمس من كل الأشخاص أكثر من الذكور .

٢ ـ قام الأصدقاء مختلفو الجنس ، والأمهات بمعظم حالات اللمس .

٣ ـ لم يقم كثير من الآباء بلمس أكثر من أيدي الطرف الآخر .

٤ ـ تعرض الآباء والأمهات للمس قليل من النوع الحميم أو الودود .

٥ ـ قامت الأمهات بكثير من اللمس من النوع الحميم أو الودود مع الآخرين .

٦ ـ تحدث الرجال والنساء عن درجة أعلى من التلامس مع الوالدين والأصدقاء عن طريق الأيدي وعن درجة أقل من التلامس معهم عن طريق أجزاء أخرى من البدن .

٧ ـ قام الأصدقاء الذكور بلمسات كثيرة فوق منطقة الوسط .

٨ ـ تمت أقل درجات الاتصال اللمسي بين الأب والابنة .

٩ ـ هناك مناطق من الجسم اقتصر لمسها على العشاق أو الأزواج .

ويلخص مقدار اللمس لكل نوع الشكل الآتي :

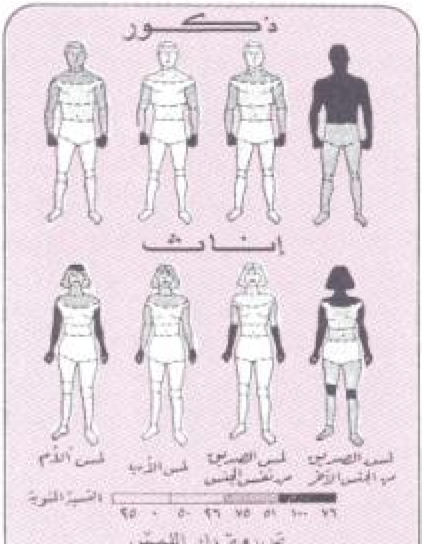

تحديد مقدار اللمس

وقد خرجت بعض الدراسات للسلوك اللمسي في الولايات المتحدة بنتائج أخرى منها :

١ ـ أن الأطفال يتلقون لمسات بين سن ١٤ شهرا وعامين تزيد على مايتلقونه في سن الرضاع .

٢ ـ أن الأطفال الاناث يتلقين لمسات عاطفية أكثر مما يتلقى الذكور وفي دراسات نشرت أوائل الثمانينات في الولايات المتحدة عن الاختلافات بين الجنسين في وسائل الاتصال غير اللفظية توصل الباحثون الى النتائج الآتية :

١ ـ خلال الأشهر القليلة الأولى لحياة الطفل يتلقى الذكور أنواعا من السلوك الجسدي (تلامس ـ حمل ـ أرجحة) أكثر مما يتلقى الاناث ولكن يتغير النموذج بعد الشهر السادس وينقلب الى الضد .

٢ ـ أكثر نماذج التلامس بالأيدي شيوعا بين البالغين عند تلاقيهم خارج المنزل هو نموذج أ = ذكر ـ أنثى (بنسبة ٤٢٪) ، يليه نموذج ب = أنثى ـ ذكر (٢٥٪) ، يليه نموذج ج = نفس الجنس ذكرا كان أو أنثى .

وقد أبدت كثير من التجارب والدراسات غلبة النموذج رقم (أ) . ومن ذلك ماثبت من مراقبة السلوك غير اللغوي للمسافرين والمودعين في المطارات من أن الذكور (والأكبر سنا) يميلون الى أن يبدأوا هم باللمس . وقد فسر ذلك بكون الرجال أكثر حرية في تصرفاتهم من النساء نتيجة فاعليتهم وايجابيتهم ومركزهم الاجتماعي ، وبأنه انعكاس للمقولبات الثقافية عن الرجال والنساء ودور كل في المجتمع ، وأخيرا بأنه نتيجة النظر الى اللمس على أنه عدوان جسدي ، وهو مايتوقع أن يحدث من الرجل أكثر من المرأة .

٣ ـ في دراسة تمت على أطفال ماقبل المدرسة تبين أن البنات يلمسن الأولاد أكثر . وهذا يؤكد أن ماقيل عن تقدم الرجل على المرأة في مجال اللمس لم يظهر في جميع الأبحاث بصورة مطردة ، وهو ما أكدته جدث هول في دراستها التي نشرتها عام ١٩٨٤ ، وعللته بأن ذوي المكانة العليا من الأفراد ربما لايحتاجون دائما الى اثبات منزلتهم ، أو قدرتهم على السيطرة على الآخرين ، وأن الأفراد من ذوي المكانة الدنيا هم الأحوج الى ذلك .

ولذا فان المرأة قد تبحث عن فرصة للملامسة لاثبات مكانتها ، وتعويض عدم تكافؤها في المركز مع الرجل . كما أنها ذكرت أن المادة العملية التي تحت أيدينا ليست كافية ـ حتى الآن ـ لتلقي ضوءا على نوعية الاختلافات في اللمس بين الرجال والنساء .

أنواع اللمس ومعانيه

ينظر الكثيرون الى التلامس بين الأفراد على أنه مرادف للتعلق والتقارب وعمق الصلة ، كما أنه قد يكون دليلا على الحب أو الرغبة الجنسية . ومع هذا فان مدلول الرسالة التي يستقبلها الجلد يختلف باختلاف عدد من المتغيرات مثل مدة اللمس ، ودرجة قوته ، والجزء الملموس ، والقصد من اللمس وطبيعة العلاقة بين المتلامسين ، والموقف الذي يتم فيه التلامس ، والمكان الذي يقع فيه (حفلة ـ مكان عمل ..) فوق هذا جنس المتلامسين .

وقد أجريت أكثر من تجربة على عدد من طلاب الجامعة (ذكورا واناثا ، متزوجين وغير متزوجين) سئل كل منهم أن يحدد ما تعنيه ملامسة صديق من الجنس الآخر لأحد عشر جزءا من أجزاء جسمه وكان أكثر المعاني اختيارا هو الحب وعمق العلاقة ، وتلاه الممازحة ، والزمالة ، واقتحام عزلة الشخص .

والى جانب هذا المعنى الأولي للمس توجد معان أخرى متعددة تختلف باختلاف طبيعة العلاقة بين المتلامسين :

١ ـ فالتلامس بين غريبين يعد من النوع العشوائي أو التصادفي ، وهو يتبعه عادة اعتذار صريح .

٢ ـ أما التلامس الوظيفي أو التخصصي فيقع حين أداء وظيفة أو مهنة معينة كملامسة الطبيب لمريضه حين الكشف عليه ، أو الحلاق لزبونه عند قص شعره .

٣ ـ وهناك النوع الاجتماعي التأدبي ، وذلك مثل المصافحة عند التلاقي ومثل تقبيل اليد في بعض المجتمعات .

٤ ـ أما النوع الصداقي أو الحميمي فمثل تلامس العشاق أو تعانقهم أو تقبيلهم الخد عند التحية أو التوديع .

ويدخل في ذلك مايفعله الطبيب ليكسب ثقة مريضه وصداقته من وضعه يده في يده ، أو يده على كتفه .

٥ ـ وهناك نوع من اللمس يتحد فيه اللامس والملموس وذلك حين يقوم الشخص بلمس جزء من جسمه .

وأخيرا : لعل أهم أنواع التلامس هو ذلك الذي يهدف الى خلق التواصل وكسر الحاجز النفسي ، وتعميق الصلة بين الأفراد . إن هذا النوع يلعب دورا في اعطاء التشجيع ، والتعبير عن الحب واظهار التأييد العاطفي ، ولذا يفضله الكثيرون على التواصل باللفظ أو بالنظر . □

اللغة .. والبلبل

شعر : الدكتور عبده بدوي

تابعتُ عطرك في صحراء أجدادي   وذرتُ حولك في صخرٍ وإنشادِ
ما زلتُ أذكر حرفاً فيه وسوسةٌ   من الجنان ، ومن تفاحها النادي
وفرحةٌ من مساحاتٍ مهدلةٍ   دارت بكلمة « بستان » على الوادي
وكيف صارت « غيوم » كلمة عطلت   وكيف أضحى « نخيلٌ » غنوة الحادي !
قد كنتِ دوحة بيانٍ أنبتت رجزاً   قُرب الحمام التي شدت بأوتاد
وكنتِ هودج عشقٍ فيه زلزلةٌ   فالحب رغم التأسي راسخٌ غادي
وكنتِ قصة فرسانٍ قد انهمروا   وأصبحوا والأماني عند ميعاد
حتى تدفق فيك الوحيُ مبتهجاً   فأصبح الكون - كلُّ الكون - في الضاد !

* *

الله يا فجرها فاضت قداسته   بالنور في « كعبة » ، بالشعر في « النادي »
لكم تمنيت لو كانت معلقتي   على « القباطي » بركنٍ مشرقٍ شادي
ففوق كل مكانٍ كنت لؤلؤةً   قد علقتها قريشٌ فوق أبراد
وقد غدوتِ أناقاتٍ ، وزركشةً   - وطارقٌ يبحر في بُعد أبعاد -
لما رأيتك بين العصر عابسةً   والشوك غطى مع البغضاء أمجادي
والصمت يوغل في أعماق عالمنا   ويجذب الشمس عن وردٍ وأحفاد
وللركاكة عُرسٌ صاخبٌ ثملٌ   وللفجاجة غُنمٌ واضحٌ بادي
قالت حروفك : لن أبقى بغير دمٍ   يجدد الخصب في خوفي وأورادي
فهومت كل أيامي بلا جزعٍ   على الفروع التي جفت كأعواد
واستجمعت فوق أشواك تجاذبها   لكي تضيء بإشراقٍ ، وإسعاد
قد كان يسم قلبي وهو في ألمٍ   وكنتِ أنتِ على وعدٍ بميلاد

* *

فهللي ملء هذا الكون ، وابتهجي   وغردي للأماني الخضر .. وارتادي !

الصرخة

قصة بقلم : قصى الشيخ عسكر

عندما سألته أمه عن التراب العالق بثوبه ، أجابها انه سقط على الارض وهو في طريقه الى البيت . لكنه بعد الظهر حاول الخروج من البيت ، فقد عاودته الرغبة ثانية . أحس بثقل يضغط على صدره ، وودّ لو يصرخ فيسمع صدى صرخته في الأفق المجاور .

اعادت امه سؤالها . آخر جواب قال : انه لايدرى . شكت أمه في الامر الى درجة انها حذرته ووبخته . الاطفال هم الذين يتمرغون بالتراب ، اما الكبار فلا يفعلونها الا اذا استثينا المجانين والحيوانات ، لكن هل يخطر ببالها شئ آخر من سوء الظن ، قد تفكر انه يقضي الوقت مع احدى الفتيات في البساتين ، ومع ذلك تعود ان ينتظر منها اى تعليل ، لاسيما انها لاتفصح عن اعماقها الا بعد فترة طويلة .

بادئ الأمر فكرت بامرأة يحبها . ليس هذا فحسب ، فهي تتطلع بلهفة الى يوم زواجه ، واى ام لاترغب ان ترى ابنها عريسا ، انتقل خيالها بين بنات الحارة لم تهتد الى واحدة ، فابنها لا يُعنى منذ المراهقة بالفتيات ، ثم ان المسألة بعيدة حسب ظنها عن الحب والزواج ، لو كان الامر كذلك فهو لن يتزوج بامرأة اغوته ، ستبرأ منه ، وتطرده من البيت ، ان هو همّ بمن تمنحه نفسها . اذا كان الامر كذلك فعليها ان توقفه عند حده .

قررت ان تتبعه حين خرج متسللا من البيت ترصدته بصبر وشوق ، كان على مسافة غير بعيدة منها . لم يلتفت كاللص ، بل سار بدربه . كأن الدنيا لاتعنيه ، يبحث عن شيء يخفيه في البستان بين الحشائش ، ثم بدأ يحفر ، وحين اقتنع بعمق الحفرة ، أمسك صدره وادلى رأسه فيها . ثم انتظر قليلا وعاد بعدئذ الى وضعه السابق وأهال التراب من جديد .

انسحبت والدته راكضة الى البيت ، واستغرقت في تفكير عميق . كانت خائفة الى درجة الإعياء . تصورت نفسها جاوزت عامها المائة ، وبدأ شلل ثقيل يدب بساقيها .

آخر ما تفكر به ان يكون ولدها قاتلا . اصطنعت النوم . تجاوزت عن سؤاله بينما كان القلق ينهش كيانها ، وصورة ميت في الارض تصرخ : ابنك قاتل !

من يدرى لعل ابنها يكون قاتلا لاكثر من انسان ؟ حين علا شخيره تسللت خارج البيت ، ثم اطلقت لساقيها العنان . قبضت على المعول وبدأت تهوي به على الارض ، وهي تتوقع ان ترى الميت . لكنها لم

تجد شيئا . كانت الحفرة خاوية ، وليست هناك خيبة امل تسعد صاحبها اكثر من خيبتها هي في موقف تحسد نفسها عليه !

تسللت خلفه عدة مرات ، وجدته يحفر ثم يضطجع على بطنه ، ورأسه في الحفرة ، يمسك فمه .

لم تصدق ظنونها ، واعتقدت ان به مساً من جنون . ثم فكرت بشيخ الحارة والاحجبة والسحر ، ثم خيل اليها ان ابنها يخفي شيئا ، ولم تصبر ، تجرأت وحكت للناس بعد ان تأكدت من براءته من القتل . قالوا لها : مسكينة انت . انت امرأة من اهل الله ولذلك يضحك عليك ، لابد انه يبحث عن كنز رآه في المنام ، واضاع مكانه في اليقظة ، وفي اليوم التالي حمل كل منهم معوله وخرج الى البستان ، حفروا طويلا حتى تعبوا . كانو يحلمون بالكنز والذهب ، وصندوق قديم مملوء بالنقود الاثرية .

اما الارض فلم تعد كما هي . اصبحت كالمنخل ، ثم استمر الناس يحفرون ، تجاوزوا على الليل ، فجمعوه بالنهار . حال الصمت صخبا ، والسكون حركة . قالت له امه : حاول ان تتذكر المكان . ثم سألته : هل تركت الكنز او اخذت منه في حلمك ؟ ان كنت اخذت شيئاً من النقود فستعثر عليه ، وقال له اهل القرية : ستوسع قريتنا اذا عثرنا على الكنز ، ستصبح جنة . ستبنى بيوتا فخمة ، ونزرع الورود على الشرفات . وتصبح أنت زعيمنا .

ربما ضجر ، فظل ساكناً ، ولعله خاف ، شعرت امه انه كف منذ انتشار الاشاعة عن الحفر . قالت له اطمئن . سيعطيك من يعثر على الكنز النصف لأنك حلمت به وستصبح الزعيم يا ولدي . في آخر مرة قفز من مكانه ، شعر بثقل يجثم على اضلاعه ، كاد يهشم صدره ، ويبدو ان امه فهمت من تعجله للخروج انه تذكر مكان الكنز ، وسيعود الى البيت منتصرا منسخ الثياب . تناول المعول وراح يحفر . اهتز جسده هزات عنيفة ، ثم انحنى على الأرض . اطل برأسه في الحفرة . اطلق اهة حبيسة ، ثم اهال التراب ثانية ، واستلقى على الارض كأنه تخلص من ثقل جثم على صدره سنين طويلة . وتجسد له هيئة كابوس كان يهدده في كل لحظة .

كان يرى تلك الصرخة في الاحلام كل ليلة . هناك شيء مرعب يثقل صدره لا يستطيع ان يتبين شكله بالضبط . أما في النهار فإنها تتحول الى ثقل يهصر اضلاعه ، فينسى كل ما حوله ، ويظل عاجزا عن تمييز الاشياء المحيطة به .

الآن يشعر بخفة في صدره ، كأنه ولد في تلك اللحظة ، وخلّف الهموم في رحم امه ! !

تذكر انه اثار اهل الحارة حين حفر ، لكنهم واصلوا وهم يرونه يعجز عن اكمال الحفر ، ويطلق حشرجة داخل الحفرة . امه تقف على رأسه وفي شفتيها ابتسامة باهته . كانت تظنه فعل شيئا خطراً ، على الرغم من انها رأته لايفعل اى شئ سوى ان يفتح فمه ويهيل التراب في الحفرة .

سألت : ماذا فعلت يا ولدي ؟

قال : دفنت اخر صرخة محبوسة في صدري !

لم تصدق امه ما قال ، وظنت ان به مساً من جنون ، ولم يصدق اهل الحارة الخبر أيضاً ، وعلقوا : أصيب عقله بلوثة حين نسي مكان الكنز في الحلم ، ولم يعد يتذكره المسكين . لقد كانت الصدمة اقوى منه . أما هو فقد عاد وحده خفيف الصدر ، والارض من حوله منخورة كالمنخل ! □

■ إذا كان الجمال هو الذي يثير الحب ، فإن الحنان هو الذي يصونه .
(بلزاك)

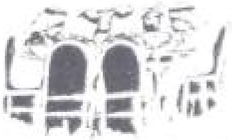

منتدى العربي

قضية

زحف العرب على المدينة «خصائصه ومستقبله»

بقلم : الدكتور عمر التير*

لعل المدينة من أهم المساهمات العربية في الحضارة العالمية . إذ تظهر الدراسات والبحوث الأثرية أن أول مدينة لها تاريخ قامت على أرض عربية . ثم إنه على أرض الوطن العربي ظهرت للمرة الأولى المعالم التقليدية للمدينة من مراكز العبادة ودوائر الحكومة والسوق والشوارع ومباني للسكن والمرافق ذات الأغراض العامة . ومع هذا عاش القسم الأكبر من العرب خلال معظم فترات تاريخهم الطويل خارج المدينة . ولم تحظ المدن حتى إبان ازدهار الحضارة العربية بنسبة سكان تزيد عن ٣٪ أو ٤٪ من مجموع السكان .

لكن الذي يلقي نظرة سريعة اليوم على الجداول الاحصائية التي تبين توزيع السكان في الوطن العربي يلاحظ أمرا ملفتا للنظر . إذ لو جمعنا كل العرب ، لوجدنا أن نصفهم تقريبا أصبح يقيم في مدن (عشرين ألف نسمة فما فوق) . وإذا أخذنا أجزاء الوطن العربي فرادى نجد أن نسبة سكان المدن قد تجاوزت في بعضها السبعين بالمائة كما هو الحال في لبنان والأردن والسعودية والعراق والجماهيرية الليبية . لا بل إن هذه النسبة تجاوزت ٨٥٪ في بعض الأجزاء كما هو الوضع في عدد من أقطار الخليج العربي . ثم هناك أقطار لا تتجاوز النسبة فيها الأربعين أو الخمسين بالمائة كما هو الحال في سورية ومصر وتونس والمغرب والجزائر . ولا تقل النسبة

* استاذ علم الاجتماع ـ بجامعة الفاتح / ليبيا

عن الثلاثين بالمائة إلا في السودان واليمن الشمالي وموريتانيا .

الريف في المدينة

ولا ينفرد الوطن العربي بالاتجاه نحو التمدين المتطرف إذ أصبح ذلك ظاهرة عالمية . ولكن لهذه الظاهرة في شكلها العربي خصائص تميزها أهمها : السرعة ، والتركيز على مدن محدودة ، وانتشار بعض خصائص الريف في المدينة . لقد تمت عملية التحول للاقامة من مستقرات حضرية كبيرة بسرعة فائقة قد لا يوجد لها مثيل في تاريخ التمدين . إذ كانت نسبة سكان مدن الوطن العربي لا تكاد تتجاوز في بداية الخمسينيات ربع المجموع العام للسكان . وارتفعت هذه النسبة إلى ما يقرب من ٥٠٪ خلال الثلاثين سنة الماضية . وإذا لم يحدث ما يؤثر على السير في هذا الاتجاه ، فإن هذه النسبة ستتجاوز ٦٠٪ قبل حلول القرن الحادي والعشرين .

وليس ضروريا الربط باطّراد بين الحضرية كنمط حياة والاقامة في المدينة . إذ يمكن وجود النمط الحضري في غير المدينة كما هو الحال في عدد من المجتمعات الغربية . لكن تعود العرب على الجمع بين هاتين الظاهرتين ، ولذلك تتجه السلطات لتركيز المؤسسات ذات الطبيعة الحضرية كالمصانع والمعاهد العلمية ودور الحكومة وإدارات المؤسسات وأماكن الترفيه والمستشفيات إلخ . . في المدن . كما تركز في المدينة غالبية الخدمات الرئيسية . ولذلك تكبر المدينة العربية باستمرار وخصوصا المدينة الرئيسية . فمدينة القاهرة التي لم يصل عدد سكانها في مطلع القرن الى مليون نسمة صارت الآن مدينة كبيرة يسكنها ما يزيد على عشرة ملايين نسمة ، ويتوقع الكثيرون أن يصل عدد هؤلاء قريبا إلى ١٤ مليون نسمة . ونفس الشيء يقال ولو بنسب مختلفة عن بغداد ودمشق والاسكندرية والدار البيضاء إلخ . . . بل إن مدنا كانت إلى عهد قريب صغيرة أو متوسطة لا يتجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة أصبحت مدناً كبيرة ، كعمان والرياض وطرابلس الغرب . وبمرور الوقت استقرت نسبة كبيرة من سكان كل إقليم في مدينة رئيسية أو مدينتين . وقد بلغت هذه النسبة في بعض الأحيان أكثر من ثلثي السكان .

لا يتوقع المرء أن تكون المدينة مكتفية ذاتيا في جميع المجالات وخصوصا الغذاء . لكن توجد في العالم مدن تنتج سلعا وتقدم خدمات لها قيمة أعلى بكثير من قيمة ما تستهلكه . إلا أن المدينة العربية الحديثة تستهلك أكثر مما تنتج ، لا ، بل إن المدينة العربية تنمو غالبا على حساب الأراضي الزراعية الجيدة ، إذ توجد غالبية المدن في أراض ومناطق ذات طبيعة أفضل نسبيا سواء من حيث نوع التربة أو كمية المياه . ولذلك عندما أخذت المدينة في التوسع فإنها التهمت المناطق المجاورة ، مما ساهم في انخفاض نسبة الأراضي التي تنتج الغذاء .

والهجرة من الريف هي المصدر الرئيسي لنمو المدينة العربية . وهي هجرة أسر بكاملها . لكن هذه الأسر لم تقطع العلاقة مع بيئتها الأصلية ، بل احتفظت حتى بالكثير من عاداتها الريفية . وتبدو ظاهرة تريف المدينة واضحة للعيان ، وتنعكس في اللباس ، وفي الغذاء ، وفي الأنشطة الاجتماعية ، وفي المحافظة على الحجم الكبير للأسرة ، وفي أنماط العلاقات المتصلة بمشاعر الأسر والقبائل والعشائر وعاداتها وتقاليدها .

المدن المليونية

لكن إلى متى ستستمر ظاهرة الزحف السكاني نحو المدينة ؟ وهل سيأتي اليوم الذي يترك العرب فيه غالبية أراضيهم دون سكان ؟ إذا استمر النمط الذي ساد السبعينيات والثمانينيات ، فإن الوطن العربي سيمتلىء بالمدن المليونية ، وستزدحم بعض هذه المدن بالسكان إلى درجة يصعب معها إيجاد حلول للمشكلات اليومية . وستهتم إدارات هذه المدن بالجري وراء الحلول للمشكلات التي تتفاقم ، مما يفوت الفرصة أمام تطوير برامج للرفع من مستوى الحياة في داخل المدينة . وتوجد في العالم اليوم مدن

تظهر فيها هذه الصورة واضحة . وتلتهم بعض هذه المدن غالبية ميزانية الدولة لتصرفها على إصلاح طرقاتها ومجاريها وشبكات مياهها وتوفير الوحدات السكنية إلخ . . . ومع ذلك يظل مستوى هذه الخدمات دون المتوسط . ولعل في مدينة جاكارتا مثالا جيدا لما نقول .

لكن هل بالامكان تغيير اتجاه حركة السكان بحيث تتحول من المدينة الكبيرة إلى خارجها ؟

تجارب متعددة يمكن الافادة من بعضها . فهناك وفي السنوات الأخيرة تجربة مدينة (فنوم بنه) في كمبوديا . فلقد قامت السلطات الرسمية (الخمير الحمر) بإخلاء هذه العاصمة من غالبية سكانها ، وتمت عملية الاخلاء بالقوة وبوسائل غير إنسانية ، فتشتت السكان في أنحاء البلاد ، ومات جزء كبير منهم . وقد لا يفيد هذا النموذج المجتمع العربي . لكن تقدم مدينة هوشي منه (سايجون سابقا) في فيتنام نموذجا آخر . إذ تفيد التقارير أن عدد سكان المدينة بلغ حوالي (٤٫٥) أربعة ملايين ونصف مليون نسمة في عام ١٩٧٥ وهي السنة التي توحد فيها شطرا فيتنام .

وضعت الادارة المحلية برنامجا لتخفيف الضغط السكاني على المدينة ، وذلك بالعمل على إنقاص عدد السكان بنسبة سنوية ثابتة . وبذلك انخفض عدد السكان خلال عشر سنوات إلى حوالي (٢٫٨) مليونين وثمانمائة ألف نسمة .

ولعل الوقت قد حان لكي يفكر العرب في الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى لاعادة توزيع السكان بما يحقق توازنا بين المدينة والريف ، وبضمن إعادة السكان لكل بقاع الوطن العربي بدلا مما جرى ويجري في العقود الأخيرة من تمدين متقوقع داخل مدن رئيسية على حساب سائر البقاع الأخرى . □

منتدى العربي

تعقيب

قياس الغائب على الشاهد

اطلعت على مقال للدكتور الطيب التيزيني يناقش فيه بعض أفكار الدكتور محمد عابد الجابري في العدد الممتاز رقم ٣٥٠ كانون الثاني « يناير » ١٩٨٨ . وأحب أن أعقب على ما جاء في مقاله . وتعقيبي هذا سيكون مزدوجا ، فهو من جهة يقدم طروحات الجابري كما وردت في كتبه ، ومن جهة ثانية يتضمن هذا التقديم ردا على أهم انتقادات د . الطيب التيزيني .

إن قراءة التراث العربي تشكل الهاجس الأكبر لمثقفي الوطن العربي حاليا ، وقراءة التراث هذه يتفق الجميع على ضرورتها وأهميتها ، لكن ما يقع الخلاف حوله هو الطريقة التي سنقرأ بها هذا التراث ، ثم تطرح مشكلة المنهج بحدة ، وتتسع شقة الخلاف . والمناهج التي يتعصب لها هذا الطرف أو ذاك هي في

كل الأحوال مناهج غربية ، يتم تطبيقها وتطويعها لدراسة التراث بهذا القدر من النجاح أو ذاك . وتعد دراسات كل من الجابري وحسين مروة والتيزيني من أبرز ما أنجز في هذا المجال . ويتميز الجابري من بين هؤلاء بطروحاته الجريئة التي تستدعي كثيرا من النقاش والأخذ والرد . فهو في دراسته للتراث يستخدم مفاهيم مثل مفهوم « النظام المعرفي » ، و « القطيعة الابيستيمولوجية » ، ومقولات مثل مقولة عصر التدوين الذي اعتبره الاطار المرجعي للفكر العربي .

١ ـ النظام المعرفي :

استعار الجابري هذا المصطلح من المفكر الفرنسي « ميشيل فوكو » الذي وظفه في بحثه « الأركيولوجي » للمعرفة . وقام الجابري بمواءمته مع موضوعه الذي يدرسه ، ألا وهو التراث العربي . والنظام المعرفي كما يعرفه الجابري هو « جملة من المفاهيم والمبادىء والاجراءات ، تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية » . والحديث عن البنية يستلزم الحديث عن ثوابت ومتغيرات ، فالذي يبقى ثابتا في هذه الثقافة العربية هو ما يشكل العقل العربي نفسه . والتساؤل عما تغير فيها يحيل إلى مشكل الزمن الثقافي ومشكلة التقدم في الفكر العربي . والجابري يقرر بعد دراسة متأنية بأن الزمن الثقافي العربي زمن راكد ، بعد أن يلاحظ تداخل الزمان ، والمكان فيه . « الشيء الذي يجعل وعينا التاريخي يقوم على التراكم ، وليس على التعاقب ، على الفوضى وليس على النظام » . وهو في تقريراته هذه لا ينفي تاريخية الفكر العربي ، كما ذهب إلى ذلك د . الطيب التيزيني ، بل هو يقوم باختيار استراتيجي ، تمليه معطيات الثقافة العربية . فإذا كان طموحنا أن نحقق حضورا فاعلا داخل الفكر العالمي فإنه « سيكون علينا أن ننظر إلى قضية التقدم في ماضي وحاضر الفكر العربي والثقافة العربية من خلال المظهر الوحدوي فيها » . وهذا لن يتأتى لنا إلا بـ « إبراز عيوب وحدة مضت من أجل بناء وحدة أفضل وأمتن » . فالهدف إذن واضح ، ويجيب تماما عن السؤال « التطبيقي » الذي طرحه د . الطيب التيزيني ، لكن بكيفية نظرية ، فليس من مهمة المفكرين اقتراح « طريقة للعمل » على المؤسسات السياسية والثقافية ، ثم إن العصر الجاهلي الذي تحدث عنه الجابري ليس هو العصر الجاهلي التاريخي ، بل العصر الجاهلي كما تمت استعادته في عصر التدوين ، فبنية العقل العربي تشكلت بترابط مع العصر الجاهلي « لكن لا العصر الجاهلي كما عاشه عرب ما قبل البعثة المحمدية ، بل العصر الجاهلي (. . .) بوصفه زمنا ثقافيا ، تمت استعادته ، وتم ترتيبه وتنظيمه في عصر التدوين » .

٢ ـ حضارة الفقه وحضارة الفلسفة :

إن المقارنة التي أقامها الجابري بين الحضارة العربية عبر أحد منتجاتها والحضارة اليونانية ليست مقارنة تفاضلية بقدر ما تندرج ضمن المقولة العربية : « بضدها تتميز الأشياء » ، فهو في هذا المجال أبعد ما يكون عن طروحات « رينان » ومقارناته بين عقلية سامية متخلفة وعقلية آرية متفوقة . فالقول بأن الحضارة الاسلامية حضارة فقه يرمي إلى إبراز أن المنهجية التي تؤسس الفقه الاسلامي ـ وهو أحد المنتجات الأصيلة للفكر العربي الاسلامي ـ والتي تعتمد « قياس الغائب على الشاهد » هي التي ستؤسس الفعل العقلي في مجالات أخرى متعددة ، ومنتجات أخرى لهذا العقل العربي ، مثل علوم النحو والبلاغة وعلم الكلام . فتقرير أن الحضارة الاسلامية حضارة فقه إذن لا ينفي وجود تفكير فلسفي أصيل ، بل هو من باب التركيز على العنصر المعتبر الأكثر تأثيرا في حضارة ما .

أما القول بأن الثقافة العربية « إعادة انتاج » لجانب مهم من الثقافة اليونانية فأظن بادىء ذي بدء بأنه حصل سوء تأويل لهذا المفهوم . فالذي فهم منها د . الطيب التيزيني هو الاستنساخ الكامل والمطابقة التامة ، وذلك لطرحه هذا التساؤل : « هل كانت الثقافة العربية هي ثقافة الشعب اليوناني ؟ » . إن

« إعادة الانتاج » ليست هي الاستنساخ ، لكنها تعني فيما تعنيه توظيف معارف ثقافة أخرى من أجل قراءة واقع ما ، أو إعطائه تأويلا مطابقا ، فإعادة الانتاج بهذا المعنى إبداع وتأصيل ، وليست استنساخا وتقليدا . ولعل المعنى يتضح أكثر إذا أتممنا الفكرة التي نقلها التيزيني من كتاب « تكوين العقل العربي » للجابري ، والتي تقول : « لم تكن في الواقع (الثقافة العربية) مجرد حلقة وصل بين الثقافة اليونانية والثقافة الأوروبية الحديثة ، بل لقد كانت بالفعل إعادة إنتاج للثقافة اليونانية،وكانت الثقافة الأوروبية الحديثة في بداية أمرها إعادة إنتاج للثقافة العربية الاسلامية » فهل نقول مع التيزيني : « هل كانت الثقافة الأوروبية الحديثة في بداية أمرها هي ثقافة الشعب العربي ؟! » . واضح إذن أن إعادة الانتاج قراءة وتأويل ، وليست نقلا حرفيا ، وهكذا ، فعندما يأخذ الفارابي مثلا المنظومة الميتافزيقية للفلسفة اليونانية فإنه لا يأخذها لذاتها ، بل لتوظيفها وفقا لمشاغله الايديولوجية التي تؤطر فكره ، وبالتالي فهو يمارس عملية الحذف والاقصاء وإبراز ما يلائم طبيعة موضوعه ، وهو يبدع فلسفة عربية إسلامية ، ولا يستنسخ الفلسفة اليونانية . وكذلك الطيب التيزيني نفسه عندما يوظف مقولات الفكر الماركسي لدراسة التراث العربي نقول : بأنه يعيد إنتاج الفكر الماركسي بما يلائم موضوعه الذي هو التراث العربي ، فهل معنى هذا أنه يقتات ثقافيا من الشعب الأوروبي ؟! .

٣ ـ القطيعة الايبستيمولوجية : لقد تعرض هذا المفهوم كذلك لسوء فهم واسع النطاق ، فما توحي به كلمة قطيعة في اللغة العربية هو الانفصال التام الكامل بين شيئين ، وانطلاقا من هذا الفهم يتم رفض هذا المفهوم من طرف إخواننا المشارقة بحدة ، وذلك عندما يوظفه الجابري للتمييز بين المنظومة الفكرية الرشدية والمنظومة الفكرية السينيوية (نسبة إلى ابن سينا) . والقطيعة ليست في الواقع هذا الانفصال التام ، بل هي تتناول الفعل العقلي . ونقول : بأن هناك قطيعة ايبستيمولوجية بين منظومتين فكريتين ، عندما يتم التفكير داخل إحداهما بطريقة تتجاوز معها الأخرى ، وتعيد تأسيسها تأسيسا مخالفا ومتميزا . ومفهوم القطيعة هو بطريقة أخرى يشابه مفهوم « الطفرة » في اللغة الجدلية . وهكذا ، فعندما نتحدث عن قطيعة ابن رشد مع ابن سينا فمعنى هذا أن ابن رشد فكر داخل إشكالية مختلفة عن إشكالية ابن سينا ، ووظف البرهان بفصله عن البيان عوض دمجهما ومحاولة التوفيق كما فعل ابن سينا والفارابي ، ولا يقتصر هذا على ابن رشد فحسب ، بل يشمل كذلك ظاهرية ابن حزم ، وموافقات الشاطبي ، ومفهوم القطيعة وظف أساسا من طرف باشلار واستعاره ألتوسير ليوظفه في العلوم الانسانية ، وهو مفهوم إجرائي محض ، بمعنى مساعد على التحليل .

وأخيرا فإن الجابري يحدد تعاملنا مع التراث في لحظتين : لحظة الفصل ثم لحظة الوصل ، ويشرح ذلك بأنه إذا كان لنا أن نتعامل مع تراثنا تعاملا علميا وواعيا فإنه يجب علينا أن نفصله عنا ، وذلك بفحصه ونقده نقدا علميا ، وعدم الاندماج فيه ، ونصله بنا بعد ذلك ، ويكون ذلك بأخذ اللحظات المضيئة فيه التي يمكن تطويرها لفهم حاضرنا ومستقبلنا . ويعتبر أن ما قام به الجابري حتى الآن في نقده للعقل العربي يندرج ضمن لحظة الفصل ، أما لحظة الوصل فتأتي بعد دراسته للعقل السياسي . ويضيف : « لقد ربطت « الاستقلال التاريخي » بالتحرر من « الآخر » ، أي الفكر الأوروبي ، ومن « التراث » معا ، التحرر منهما بمعنى امتلاكهما بعد فحص نقدي . إذن « فالاستقلال التاريخي للذات العربية » لا يتناقض مع تقدمنا على الفكر العالمي ، ولا على التراث ، بل يعني التعامل معهما تعاملا نقديا ، تكون الذات خلاله مالكة لزمام أمرها ، غير مندمجة في موضوعها ، بل تعمل على دمجه فيها » . هكذا يتبين لنا أن هدف الجابري ليس « رفض التراث » كما يقول د . التيزيني ، ولا النظر إليه في بعد واحد ، لكن فحصه فحصا نقديا . □

عمر نجاري

الكمبيوتر في جيله الخامس

بقلم : علي زين العابدين*

مع بداية الثمانينات أطلقت اليابان مشروعها لصناعة الجيل الخامس من الكمبيوتر ذلك الجيل الذي يطرح على البشرية كلها أسئلة جديدة ويثير قضايا تنتمي الى عالم الحلم .

لكنه حلم يستند الى واقع لاشك فيه .

فما هي الأبعاد الحضارية والسياسية لهذا الحدث التقني الهام ؟

شهد العام ١٩٤٦ ولادة أول حاسب الكتروني في العالم وذلك في جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان يعتمد في عمله على الصمامات الألكترونية واحتوى ذلك الحاسب المسمى (إنياك) ENIAC على ١٩٠٠٠ من هذه الصمامات ذات الفتائل المتوهجة ، ضمن أغلفة زجاجية مفرغة من الهواء ، وقد بلغ وزن هذا الحاسب مع لوحة المفاتيح اللازمة لبرمجته نحو ٢٠ طنا ، وانتشرت أجزاؤه على مساحة تزيد على ١٤٥ مترا مربعا ، وعرفت مثل هذه الحاسبات والنماذج المحسنة منها - من انتاج شركة IBM الأمريكية - فيما بعد بالحاسبات الألكترونية من الجيل الأول .

وقد تم فيما بعد وبفضل تطور تقنية أشباه الموصلات في الخمسينات استبدال تلك الصمامات الضخمة والباهظة التكلفة والبطيئة الأداء « بالترانزستور » الأصغر والأرخص والأسرع .

* مهندس كمبيوتر من القطر العربي السوري .

وسجل بذلك انطلاق الجيل الثاني من الحاسبات الألكترونية ، وذلك في أواخر الخمسينات .

أما الجيل الثالث فقد انطلق في عام ١٩٦٤ بانتاج شركة IBM لكمبيوتر 360 الذي اعتمد على تقنية الدارات المتكاملة القائمة على تجميع عدد كبير من « الترانزستورات » على رقاقة من المادة شبه الموصلة لتشكل دارة الكترونية معقدة ، تؤدي وظيفة منطقية أو حسابية أو تحكمية معينة .

وفي سياق تطور الدارات المتكاملة ظهرت عدة عائلات : الدارات ذات التكامل البسيط ، والدارات ذات التكامل المتوسط والدارات ذات التكامل الواسع وذات التكامل الواسع جدا وبظهور وتطور العائلتين الأخيرتين ، وكذلك بفضل تطور تقنية البرمجة ، ظهرت الحاسبات الألكترونية من الجيل الرابع في عام ١٩٧٢ .

ورغم التطورات المثيرة للاعجاب حقا لتقنية الكيان الفيزيائي للحاسب ولكيانه البرنامجي منذ عام ١٩٤٦ وحتى الآن فان الحاسبات المنتمية للأجيال الأربعة ظلت مقيدة بما يسمى نموذج فون نيومان ، وهو نموذج نظري لآلة حاسبة ذات ذاكرة تخزن فيها البيانات وفقا للبرنامج ، وذلك بتنفيذها لتعليمات البرنامج بشكل تتابعي وبدقة وسرعة كبيرتين ، وتعليمات البرنامج على شكل صيغ رقمية ، وتقوم هذه الآلة بمعالجة البيانات وفقا للبرنامج .

ان الحاسبات الألكترونية للأجيال الأربعة التي سنسميها بعد الآن بالحاسبات التقليدية أو آلات فون نيومان ، ليست في نهاية المطاف - ورغم انجازاتها العظيمة حقا في كل المجالات - سوى آلات صبورة وطؤوبة سريعة ودقيقة ، لكنها عديمة الذكاء وخالية من (روح) المبادرة والإبداع الخلاق كتلك التي يتمتع بها الإنسان .

ترى هل يمكن محاكاة وظائف الذكاء والإبداع البشري على نحو ما بواسطة الحاسبات الألكترونية ؟ بعبارة أخرى هل يمكن تحقيق ما يسمى بالذكاء الاصطناعي ؟ إن تحقيق ذلك عملياً سيسجل انطلاق الجيل الخامس من الحاسبات الألكترونية .

اطلاق المشروع الياباني

في شهر (نيسان) أبريل من عام ١٩٨٢ ، أعلن وزير الصناعة والتجارة الخارجية الياباني عن بدء الأبحاث والدراسات لإنجاز الحاسب العتيد من الجيل الخامس، وحدد عام ١٩٩٠ موعداً لتحقيق ذلك ، واضطلع بهذه المهمة معهد (ICOT) وهو تجمع لثماني شركات يابانية كبرى للألكترونيات . وقد خصصت لذلك ميزانية قدرها ٤٠٠ مليون دولار ، ويرمي المشروع الياباني لتحقيق ما يسمى (سوبر كومبيوتر) قادرا على إنجاز (١,٠٠٠,٠٠٠) إلى (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) عملية منطقية في الثانية أو عشرات الألوف من عمليات الاستدلال المنطقي . وحيث ان سرعة المعالجة التتابعية للبيانات قد بلغت حدودها القصوى فان الحل يكمن في تقنية المعالجة المتوازية التي تؤدي إلى اختصار هائل في الوقت ، وكذلك تقنية المعالجة الموزعة . وسيتطلب ذلك بناء معالجات الكترونية ذات درجة تكامل عالية جدا . ويتحدث اليابانيون عن « ميكرو معالج » يحتوي على (١٠) ملايين ترانزستور (مقابل بضع مئات الألوف من الترانزستورات في الوقت الحاضر) . وستستخدم على نطاق واسع الانجازات الكبرى لتقنية البصريات في نقل وتخزين وإظهار المعلومات ، بل ولربما في معالجتها أيضا ، وفي هذه الحالة ستصل سرعة المعالجة حدوداً مذهلة . وستشهد تقنيات البرمجة - بموازاة ذلك - تغييرات جذرية تهدف بدورها الى وضع برامج ذكية ، لا تقوم فقط بمجرد ترجمة ما يريده المبرمج في سلسلة من التعليمات بل تكون قادرة أيضا على صياغة برامج لمعالجة المواقف الجديدة التي تبرز في سياق تنفيذها .

فعاليات الحاسب الجديد

يضع العلماء اليابانيون أمام الحاسب الجديد مهمة القيام بالوظائف والفعاليات التالية :

فعالية الذكاء : التي تحاكي الذكاء البشري في مجال محدد أو في عدة مجالات من المعرفة .

فعالية الاحساس : التي تحاكي الحواس الانسانية كالسمع والبصر واللمس .. الخ .
فعالية التعبير : باللغة الطبيعية ، وبالوسائل الأخرى مما سيمكنه من إجراء حوار حقيقي مع الانسان .
امكانية ممارسة العديد من النشاطات بدل الانسان بما في ذلك النشاطات الراقية كتحصيل المعارف الجديدة وارتياد مجاهلها جنبا الى جنب مع الانسان .
القيام بوظيفة المستشار بالنسبة للانسان .
فعالية التكيف مع مختلف أنواع النشاط .
امكانية صياغة البرامج لنفسه أو لغيره من الحاسبات انطلاقا من متطلبات محدودة .
وظيفة التصحيح الذاتي والتعلم من الخطأ وعدم تكراره .

التسمية الدقيقة

لا يجد العلماء اليابانيون في تسمية « الحاسب الألكتروني » ، أو الكمبيوتر التسمية الدقيقة واللائقة بالمولود المرتقب من الجيل الخامس ، بل نجدهم يقترحون له تسمية أخرى هي أنظمة معالجة المعلومات المعرفية (KIPS) .

ولأن الأجيال الأربعة من الحاسبات الألكترونية قد صممت من أجل الحساب الرقمي ، وشرع فيما بعد باستعمالها تدريجياً من أجل معالجة الرموز ، فان كومبيوتر الجيل الخامس سيكون معالجاً للمعلومات أياً كانت بنيتها وصيغتها (اللغة البشرية ـ الصوت ـ الصورة ... الخ) لكن دون أن يصل بعد الى مستوى معالج عقلي ناضج وكامل ، طالما أن الذكاء الإصطناعي لم يصل الى مستوى الذكاء الإنساني .

حق الكمبيوتر في اتخاذ القرار !

ان تناول المسألة على النحو السابق يرصد الموضوع من وجهة نظر علم الاقتصاد السياسي ، ولعله من الطريف والمفيد ـ طالما أن الحديث عن المستقبل وليس الماضي ـ رصد الموضوع من وجهة نظر التقنية السياسية التي تطرح المسألة على نحو مختلف : من أي نسق اجتماعي وإنساني يجب الانطلاق لتعريف وتحديد الوظائف التي تتطلبها من التقنية ؟

ومن هذه النقطة بالذات بدأ العلماء والاخصائيون اليابانيون تقريرهم العام حول حاسبات الجيل الجديد ، وجاء في مقدمة التقرير : « في عام ١٩٩٠ ينتظر ادخال حاسبات الجيل الخامس الى الخدمة على نطاق واسع ، وحيث سيشيع استخدام الأنظمة المعالجة للمعلومات كحلقات مركزية في سائر مجالات النشاط الاجتماعي الذي سيشمل الاقتصاد والصناعة والفن والعلم والادارة والعلاقات الدولية والتربية والثقافة والحياة اليومية .. الخ » .

ويطرح العلماء اليابانيون بعد ذلك سؤالين أساسيين جديدين في مجال التقنية السياسية :

الأول : ما الاحتياجات الاجتماعية الجديدة التي يمكن تلبيتها بالتقنية الجديدة ؟

الثاني : ما النتائج الحاسمة التي ستترتب على ادخال هذا الطراز من الحاسبات ؟

هذان السؤالان ليسا مستقلين ذلك ان الاحتياجات الجديدة تظهر أو يمكن التكهن بها في أعقاب بروز هذه الحاسبات الى الوجود ، أو كما يقول « هاجيم كاراتسو » المستقبل ليس امتداداً للماضي بل هو مشروع ينبغي ابتداعه من جديد .

فما هي الاحتياجات الاجتماعية التي يتوقعها اليابانيون ؟

أولاً : نمو انتاجية العمل في المجالات ذات الانتاجية المحدودة في الوقت الحاضر ، كالعمل المكتبي ـ التصميم ـ الزراعة ـ الطب ـ التربية ـ الخدمات ـ الادارة الحكومية ... مما سيعني مد الثورة الصناعية الجديدة الى مجالات أخرى غير الصناعة بحد ذاتها واضفاء الصيغة المعلوماتية عليها (مَعْلَمَتها) .

إن التقنية الحديثة بمستواها الراهن أو مع بعض التحسينات الطفيفة كافية تقريباً لانجاز الأتمتة المرنة للصناعة التي تسمى أيضا (الأتمتة بقيادة معلوماتية) وذلك خلال السنوات العشر القادمة مما سيؤدي الى طفرة حادة في نمو انتاجية العمل في الصناعة ، وما لم تنم انتاجية العمل بشكل موازٍ في المجالات الأخرى

كتلك المشار اليها آنفا (العمل المكتبي - الخدمات - الطب . . الخ) فان ذلك سيؤدي الى تشوهات اجتماعية جديدة من جراء تشوه توزيع القوى العاملة على القطاعات الاقتصادية المختلفة . . . وهكذا تبرز ضرورة الحاسبات الألكترونية من الجيل الخامس وذكائها الاصطناعي كضرورة موضوعية ملحة لموازنة أثر العواقب الاجتماعية لاشاعة الأتمتة المرنة في الصناعة .

ثانياً : الحاجة الى المزيد من الاقتصاد في استهلاك المواد الأولية والطاقة .

ثالثاً : مواجهة مشكلات مجتمع ذي سكان متقدمين في السن من جراء ازدياد متوسط عمر الانسان وهذا يتطلب زيادة الانفاق الاجتماعي المترتب على ذلك ، كما سيتطلب نظاماً تربوياً (معلماً) لارشاد وتوجيه السكان عما في ذلك المسنين .

رابعاً : عدم ترك الحاسبات الجديدة للارتداد ضد الانسان والانسانية وذلك لكون هذه الحاسبات أدوات ذكية ، عليها التعايش مع الكائنات البشرية والخضوع لمصالحها وهنا يمكن التذكير بالشروط المعروفة باسم مبادىء اسيموف التي ينبغي برمجة عمل ونشاط الانسان الآلي على أساسها وهي :

أ - لا ينبغي للانسان الآلي أن يهدد بالخطر حياة الانسان أو أن تتعرض حياة الانسان للخطر من جراء نشاطه .

ب - على الانسان الآلي أن يطيع أوامر الانسان على أن لا تتعارض هذه مع الشرط «أ» .

ج - على الانسان الآلي أن يدافع عن ذاته على أن لا يتعارض ذلك مع الشرطين «أ»و«ب» .

وعلى غرار هذه المبادىء يمكن صياغة مبادىء مماثلة لبرمجة الحاسبات ذات الذكاء الاصطناعي :

أ - إن نظاماً للذكاء الاصطناعي يجب ألا يتقبل أو يضع حلاً لمشكلة ما بشكل يعرض للخطر حياة الانسان الآن أو في المستقبل . أو بشكل يتعارض مع مبادىء الحضارة الانسانية .

ب - إن نظاماً للذكاء الاصطناعي يجب ألا يجوز على حقوق سياسية كحق التصويت أو حق اتخاذ القرار السياسي بدون اشراف الانسان .

وليس في هذا الشرط أي نوع من المزاح أو الدعابة حيث أن أتمتة نظم الأسلحة النووية الاستراتيجية باستخدام أنظمة الذكاء الاصطناعي وهو أحد أهداف البرنامج الأمريكي « حرب النجوم » سيضع قرار شن الحرب النووية المدمرة في (ذمة) هذه الأنظمة (الذكية) التي قد لا تتورع عن الإقدام على مثل هذه الحماقة اما بوحي من (ذكائها) الاصطناعي أو نتيجة خلل في (تافه) يكون الأخير من نوعه !

ردّان على المشروع الياباني

أعقب اطلاق المشروع الياباني المموّل حكومياً - كما أسلفنا - تأسيس معهد خاص لانجاز الكومبيوتر من الجيل الخامس والمعروف اختصاراً باسم (ICOT) بادارة « كازوهيرو فوج » ، وهو معهد مستقل لكنه ممول من قبل ثماني شركات كبرى ، وعمد معهد ICOT الى اصدار مجلة متخصصة بالحاسب الجديد وفي الفترة من ٦ - ٨ نوفمبر - ١٩٨٤ عقد في طوكيو مؤتمر عالمي حول أنظمة الكومبيوتر من الجيل الخامس وبحث المؤتمر عدداً كبيراً من الموضوعات الهامة منها تلك المتعلقة بالتقنية والبرمجة ، وكذلك الموضوعات المتعلقة بتطبيقات الحاسب الجديد ، وآثار ذلك في المجال الاقتصادي والاجتماعي والتربوي وما الى ذلك . .

رد الفعل الأقوى على المشروع الياباني جاء من الولايات المتحدة وفيما بعد من بريطانيا وبلدان الجماعة الأوروبية الأخرى ففي الولايات المتحدة بدأت تظهر الكتب واعداد كاملة من المطبوعات الدورية للحاسب الجديد ، ويلاحظ أن العلماء الأمريكيين ينظرون بشيء من عدم الرضا إلى وتيرة وشكل تجديد تقنية القمة على النطاق الاجتماعي في بلادهم ، ذلك أن الكثيرين من هؤلاء يعتبرون ، أن المشروع الياباني يعتمد أساساً على نتائج الأبحاث التي جرت في الولايات المتحدة في السنوات العشرين

الأخيرة والمتضمنة أبحاثاً في الذكاء الاصطناعي » .

ولكن رد الفعل الأمريكي لم يتأخر كثيراً . فكما يلاحظ أحد الاخصائيين الأمريكيين « ان الصدمة المحتملة لهذا الجيل من الحاسبات وآثارها المتوقعة في أي قطاع للنشاط المهني أو الشخصي ستؤدي ـ شأن القليل من التقنيات التي اخترعتها البشرية خلال تاريخها الطويل ـ ستؤدي الى انعطاف حاسم في مسار تطور المجتمع البشري » .

وتقوم حكومة الولايات المتحدة الآن من خلال وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة للدفاع التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية « البنتاغون » بتمويل أبحاث بمبلغ مليار دولار خلال الفترة من ١٩٨٢ ـ ١٩٩٠ من أجل إنجاز الجيل الجديد من الحاسبات كما أن الوكالة المذكورة نفسها تمول بمليار دولار برنامجاً آخر من الأبحاث لتطوير الدارات الألكترونية ذات التكامل الواسع (VLSI) وذات التكامل فوق الواسع (ULSI) ذات السرعة الفائقة .

ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة كونت إحدى عشرة شركة كبرى هيئة للبحث بميزانية ٥٠ مليون دولار لعام ١٩٨٤ ولهذه الهيئة التي يبدو واضحا أنها نظيرة (ICOT) اليابانية ـ برنامج لانجاز الكومبيوتر الجديد خلال عشر سنوات . أضف الى ذلك الكونسورتيوم (SRC) الذي تشارك في صندوقه ٢٣ شركة في مجال الألكترونيات قد مول في عام ١٩٨٤ (بمبلغ ١٤ مليون دولار) فريقاً للبحث ضم ١٥٠ باحثا أساسياً من ٣٠ جامعة للغرض ذاته ، وأخيراً فان الدولة تمول أيضاً مجموعة من خمس جامعات في كارولينا الشمالية لاجراء أبحاث في مجال الألكترونيات الدقيقة بمبلغ ١٠ ملايين دولار سنوياً بمساهمة ١٥٪ من جانب الشركات الصناعية لمدة خمس سنوات . ولسائر هذه المنظمات يضاف اقتراح ربط الأبحاث المتعلقة بهذا المجال بواسطة شبكة حاسبات الكترونية واسعة لتأمين الاتصال وتعميم البيانات حول سير الأبحاث ونتائجها بين مختلف الأطراف المتباعدة للشبكة مما سيؤدي الى اختصار هائل في الوقت والجهد ، وزيادة درامية لانتاجية الأبحاث .

ويبدو جلياً أن الرد الأمريكي على المشروع الياباني كان ساحقاً ، مطلقاً بذلك سباقاً عالميا للوصول الى التقنية الجديدة التي تحتل مكانة بارزة في أحلام « البنتاغون » الأمريكي في تحقيق « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » (SDI) المعروف باسم « حرب النجوم » . بل إن الولايات المتحدة قد مارست الضغط والاغراء مؤخراً على حلفائها الغربيين واليابان واسرائيل لاشراكهم في برنامج « حرب النجوم » مما سيتيح لها استثمار نتائج أبحاث تلك البلدان لأغراضها الخاصة .

أما رد الفعل البريطاني فيتمثل في برنامج بقيمة ٥٠٠ مليون دولار لخمس سنوات لأبحاث في مختلف المجالات التقنية لتحقيق الكومبيوتر الجديد من الجيل الخامس .

كما أطلقت الجماعة الأوروبية لهذا الغرض برنامج ESPRIT (البرنامج الأوروبي للتقنية المعلوماتية) وهو ممول من حكومات دول الجماعة و١٣ شركة أوروبية كبرى بمبلغ يتجاوز ١,٥ مليار دولار لخمس سنوات . وكذلك فقد كلف « مجلس التعاضد الاقتصادي للبلدان الاشتراكية » ـ الكوميكون ـ كلف اللجنة الحكومية لتقنية الحساب الألكتروني » بالاشراف على الأبحاث المتعلقة بالجيل الجديد من الحاسبات حيث ستختص كل دولة من دول المجلس بالأبحاث المتعلقة بمجال محدد . كما نظم في مدينة « دريسدن » بجمهورية المانيا الديمقراطية مؤتمر مماثل لمؤتمر « طوكيو » حول الجيل الجديد من الحاسبات ، وذلك في نفس العام ١٩٨٤ .

حوار مع صديقي الكمبيوتر

من الصعب علينا الآن رصد مختلف الآثار الاجتماعية التي ستترتب على ادخال حاسبات الجيل الخامس في نطاق الاستخدام لارتباطها ـ كما أسلفنا ـ بطبيعة الأنظمة الاجتماعية المعنية وهو ما سنتجنب الدخول في متاهاته الآن مقتصرين على الاشارة الى هذه الآثار فيما يتعلق بالانسان ذاته رغم يقيننا بارتباط

الانسان الوثيق ببيئته الاجتماعية وهكذا يمكن التنبؤ بما يلي : (وهي تنبؤات تبعد كلياً عن التشاؤم كما سيلاحظ القارىء)

- تغيير جذري لمجمل النظام التربوي والتعليمي حيث سيغدو الحاسب الجديد (كتاباً) ذكياً ليس للقراءة فحسب بل وللحوار معه أيضاً ، مما سيسمح لكل تلميذ أن يتقدم في عملية التعليم بوتيرته الخاصة والمتناسبة مع ملكاته الفردية . إن أفضل المحاضرات في العالم ستكون متوافرة بفضل الكومبيوتر المترجم من لغة الى اخرى - التعليم بواسطة كومبيوتر خاص مرتبط بشبكة كومبيوتر ذكية متخصصة أو بعبارة أخرى التعليم بواسطة نظام خبير مزود ببنك للمعلومات والمعارف . ولن يلغي هذا الطراز من التعليم التواصل الانساني المباشر بين التلاميذ ، وبينهم وبين المربين لكن تغيرات ستطرأ دون شك على شكل هذا التواصل .

- تغيير طبيعة العمل البشري حيث سيعهد الى الانسان الآلي و(الأوتوماتون الذكي) بسائر أنواع العمل العضلي والأعمال القاسية والخطيرة أو الروتينية المملة . ومثل هذه التحولات ستطرأ أيضاً على العمل الذهني وذلك باحالة الأعمال الادارية الروتينية الى الكومبيوتر و« الأنظمة الخبيرة » التي ستساعد الانسان أيضاً في الأعمال ذات الصفة الابداعية والبحث العلمي والتصميم والتخطيط .. وغيرها فيما ستكون المهمة الأساسية للانسان ابتداع وبناء أنظمة معلوماتية جديدة بحاسبات ذكية ، وبكلمة فان الانسان سيمارس نشاطاً أرستوقراطياً ، علوياً ، معلوماتياً ، يتمثل في الحصول على المعرفة الجديدة باطراد محققاً بذلك شكلاً معلوماتياً متطوراً لجمهورية أفلاطون !

- سيتجه الانسان أكثر فأكثر نحو النشاط الابداعي والبحث عن الجديد فيما وراء الأنظمة الذكية ، وما لم يجد مثل هذا الجديد فان من شأنه أن يخترعه . وهذا البحث والقدرة الدائمة على الابداع سيؤمنان له دوام البقاء ، وسيكون ثمة أمل بأنه سيستطيع اكتشاف الأسرار الدفينة للكون والوجود .

- إن قسماً كبيراً من طاقة الابداع والخلق للانسان سيتجهان نحو الفن بجميع أشكاله وتجلياته ونحو إغناء ذاته روحياً ، وإيجاد أشكال جديدة لقضاء اوقات فراغه مع (أترابه) من الحاسبات الذكية والحميدة السجايا والخصال كما هو مأمول !

- ستغدو الحالة البيولوجية للانسان أكثر انضباطاً وأداء حيث ستغدو الأنظمة الطبية بحق أنظمة الحفاظ على الصحة وليس مجرد أنظمة للعلاج والاسعافات كما هو الحال الآن . فبفضل الحاسبات الحكيمة سيمكن متابعة مؤشرات الحالة الصحية لكل شخص موفرة للطبيب المعلومات التي تجمع عادة في أيامنا هذه بصعوبة بالغة .

- إن المهنة الجديدة التي ستنشأ في المستقبل بفضل الكومبيوتر الجديد ستكون (هندسة المعرفة) - التي ستهتم بصياغة الطرق لتمثيل المعارف وتحصيلها أوتوماتيكياً ، وبناء الأنظمة المعرفية سواء البسيطة منها أو ذات البنية الشبكية التي تتوزع فيها قواعد المعارف على الأطراف المترامية لشبكة حاسبات الكترونية مع (بروتوكول) معقد لتبادل ذكي للمعارف بين هذه الأطراف .

وإجمالاً يمكن التنبؤ بأن ظهور الحاسب الجديد كشكل لتجسيد الذكاء الاصطناعي سيؤدي لتغيير نظرة الانسان لذاته وستكون بالغة التأثير في الصدمة النفسية لبروز هذه الحاسبات الى الوجود ، وسيكون ثمة خياران أمام الانسان : اما القناعة باعتبار نفسه صنواً لمخلوقاته الذكية أو أن يعمد الى ايجاد وادخال خصائص جديدة على مادته الحية للمحافظة على تفوقه عليها .

لا يمكننا التنبؤ تحديداً برد فعل الانسان تجاه وسط يعج بالتقنية الذكية ، لكنه وعلى الأرجح سيعمل على تحديد نطاق هذا الوسط ، وعلى الأغلب ستساعده على ذلك اكتشافاته في مجال العلوم والبيولوجيا والهندسة البيولوجية خصوصاً ، وربما سيستطيع وقتها معرفة الحقيقة عن ذاته وسيكون مديناً بذلك ولاشك لهندسة الذكاء الاصطناعي ، لكن مغامرة المعرفة لعقل الانسان وأدواته الذكية لن تنتهي . □

الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

فيروس سرطان الثدي يكتشفه عالم عربي

نشرت مجلة لانست (Lanest) الطبية العلمية المعروفة في عددها الصادر في ٢ يناير ١٩٨٨ (صفحة ٥ ـ ٩) بحثا مهما مفصلا عن فيروس سرطان الثدي ، وعن النجاح الذي أحرزه فريق من علماء جامعة ليفربول في اكتشاف هذا الفيروس . وأقبلت الإذاعات الصوتية والمرئية على التحدث عن هذا الاكتشاف ، وتبعتها في ذلك شتى الصحف والمجلات . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الأهمية التي يعلقها الناس بعامة والأطباء بخاصة على الاكتشاف الذي يبشر بقرب التوصل إلى العلاج الناجح واللقاح الواقي فيما يختص بواحد من أخبث الأورام السرطانية التي عرفها الإنسان . فما هو فحوى ما نشرته مجلة لانست ؟؟ ومن هو صاحب الفضل في اكتشاف فيروس مرض الثدي ؟؟

اسم صاحب الاكتشاف هو الدكتور صميدي Sumidaie ، وهو عربي عراقي ، يعمل في قسم الجراحة في مستشفى جامعة ليفربول . وقد جرى اتصال بيننا وبين العالم العربي المغترب ، فعرفنا أن اسمه بالكامل هو إياد محمد خلف الصميدي ، وأن اختصاصه العام هو الجراحة ، وعلاج السرطان عامة ، وسرطان الثدي بالتحديد هو اختصاصه الدقيق . وقد باشر أبحاثه في الأسباب المؤدية للإصابة بسرطان الثدي منذ خمس سنوات . ونورد فيما يلي مقتطفات من الرسالة التي وافانا بها الدكتور إياد شارحا لنا اكتشافه بشيء من التفصيل .

يقول الدكتور إياد : يعتبر مرض سرطان الثدي في طليعة الأمراض السرطانية انتشارا ، فهو يصيب واحدة من كل ١٢ امرأة ، ثم إنه يزداد انتشارا في كل أنحاء العالم ، حتى في البلدان التي قلت فيها الإصابة به سابقا ، كبلدان الشرق الأوسط واليابان . أضف إلى ذلك أن سرطان الثدي قد يكون أشد فتكاً من سائر السرطانات التي تصيب النساء ، فاللواتي يمتن بسببه يشكلن ٢٠٪ من مجموع اللواتي يمتن بسبب السرطانات الأخرى .

ومنذ سنة ١٩٣٦ ـ وهي السنة التي اكتشف فيها الفيروس المسبب لسرطان الفئران ـ والعلماء ماضون في محاولاتهم لاكتشاف فيروس سرطان الثدي . وقد باءت محاولاتهم كلها بالفشل ، نظرا لأن الفيروس المذكور هو من الفيروسات التي تتحد بنواة الخلية ، بحيث تتعذر رؤيتها ، بل تستحيل .

الدكتور صميدي
صاحب الاكتشاف

وشاءت الصدفة أن يتسنى اكتشاف الفيروس الجديد في خلايا أو كريات الدم البيضاء المأخوذة من دم المصابات بسرطان الثدي ، وقد اتفق أن تركت تلك الخلايا أو الكريات مدة أطول من المدة المقررة لحضانتها ، وهكذا أمكن رصد الفيروس وتصويره بالمجهر الالكتروني، على الرغم من صغره المتناهي ، إذ لا يزيد حجمه على ٠,٠٠٠١ ـ ٠,٠٠٠١٢ ملم .

ومعنى هذا أن في الإمكان اكتشاف الفيروس بفحص بسيط للدم ، وذلك قبل ظهور الورم السرطاني بسنين ، الأمر الذي يمهد السبيل لاستحضار العلاج الناجع ، ويساعد الأطباء على معالجته معالجة مبكرة فاعلة ، وقد يساعد أيضا على إيجاد اللقاح المناسب لإكساب المناعة ضد هذا المرض ، فيجري التلقيح به على نطاق واسع ، ويتم بذلك إنقاذ الملايين من شر سرطان الثدي وبطشه .

■■■

مجهر انتقائي جديد

نشرت مجلة نتشر العلمية البريطانية في عددها الصادر في مطلع شهر ابريل الماضي خبر مجهر جديد ، اخترعه علماء امريكيون ، يتميز بأنه انتقائي ، يمكن مستعمله من التركيز على الميكروبات المتحركة وحدها ، في معزل عن كل التفاصيل غير المتحركة التي قد تكون حولها .

وقوام هذا « الميكروسكوب » مادة « كريستالية » هي تتنات الباريوم (barium titanate) التي تنفرد بخواص غريبة ، ويعتمد أيضا على رزمة من أشعة ليزر ، و لا تكاد هذه الرزمة تخترق الكريستال الذي ذكرنا حتى تلتقي برزمة ثانية (من أشعة ليزر) ، فيتكون « الهولوجرام » تلو « الهولوجرام » ، ومن شأن هذه « الهولوجرامات » أن تعمل كالمصفاة ، فتحجب الضوء القادم إلى الكريستال المنبعث من الجسم المتحرك أو الميكروب .

■■■

مجرة درب اللبانة موضع دراسة جديدة ضخمة

بدأ الفلكيون في فصل الربيع الماضي ـ وفي أمريكا أيضا ـ أضخم دراسة أجريت حتى الآن للمجرة التي تنتمي إليها درب اللبانة .

وستعتمد هذه الدراسة التي ستستغرق سنتين كاملتين على أقوى تلسكوبات الراديو في العالم ، كتلسكوب نيومكسيكو ، المعروف باسم (V.L.A.) ، وقوامه ٢٧ صحنا هوائيا (dish antenna) متحركا . وتغطي هذه الصحون التي تسير على سكك حديد نحوا من ٣٢ كيلومترا .

وتجدر الإشارة إلى أن أشعة الراديو تستطيع الانطلاق عبر الغيوم والغاز والغبار دون أن يقف في طريقها عائق ، وذلك بخلاف أشعة الضوء المرئي . ويعتقد العلماء أنهم سيكتشفون مئات الآلاف من الأجرام المولدة لأشعة الراديو ، وذلك في داخل أذرع المجرة اللولبية . أما هدفهم الرئيسي فهو اكتشاف بقايا الانفجارات النجمية أو النجوم الميتة (السوبرنوفا) .

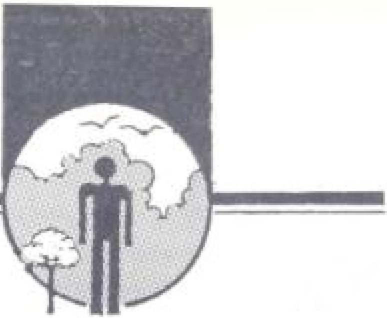

سلامة البشرية في سلامة البيئة

احذروا أجهزة الرطوبة !

يقبل الناس على اقتناء أجهزة الرطوبة (Hu,idifiers) وهي الأجهزة التي تشبع الرطوبة في جو الغرفة الذي غالبا ما يصاب بالجفاف نتيجة التدفئة المتواصلة التي يتعرض لها في فصل البرد ، ومما يذكر أن مالايقل عن نصف مليون أمريكي اشتروا مثل هذه الأجهزة في غضون السنة الماضية (١٩٨٧) وحدها .

ولا اعتراض على ذلك مادامت أجهزة الترطيب تخضع لتنظيف محكم ومستمر ، فقد أثبتت الدراسات أن ثمة كائنات دقيقة تظهر وتنمو في خزان الماء داخل تلك الأجهزة ، ومن شأن هذه الكائنات أن تصيب الناس الذين يستنشقونها بالأمراض ، ويصدق هذا خاصة على أولئك الذين يعانون من آفات الحساسية ، من هنا كانت النصيحة بالاقلاع عن استعمال تلك الأجهزة ، لاسيا ان استعمالها لايعود بفائدة حتى في الحالات التي لاتكون فيها الكائنات الدقيقة السالفة الذكر .

▪▪▪

٩٠٪ من الحيتان تموت !

كثر الحديث عن التلوث الذي تعرضت له مياه نهر « سانت لورانس » والبحيرات العظمى في أمريكا الشمالية ، وذلك بسبب النفايات الصناعية التي طالما ألقيت ومازالت تلقى في تلك المياه ، وقد دلت الاحصاءات (الكندية) مؤخرا على أن هذا التلوث قد يطش بحيتان تلك المياه إن لم نقل دمر حياتها تدميرا ، فقد كان مجموع تلك الحيتان (٥٠٠٠) سنة ١٩٠٠ ، ثم نقص بسبب صيد الحيتان الجائر حتى أصبح ١٢٠٠ في الخمسينيات ، حين سنت القوانين التي تحظر صيدها ، ثم نقص بسبب التلوث حتى أصبح (٤٥٠) حوتا في الوقت الحاضر .

وقد أجرى العلماء الفحوصات والتحاليل المناسبة لجثث الحيتان الميتة ، فوجدوا فائضا من محتويات حوالي (٣٠) ملوثا كيماويا في تلك الجثث ، نذكر من تلك الملوثات مادة د . د . ت ومادة (PCB) ، هذا فضلا عن الزئبق والكادميوم ومعادن أخرى .

▪▪▪

التلوث والتناسل

من المعروف أن الأمطار الحمضية تتلف المباني والصروح ، وتفتك بالأشجار وتحكم بالموت على البحيرات ، لكن أثر هذه الأمطار على الحياة الجنسية التناسلية في شتى الكائنات بقي غامضا حتى عكف العلماء الباحثون في جامعة ماساتشوستس في أمهرست بأمريكا على دراسة الحياة التناسلية في الذرة ، وعلى مدى

تأثرها بالأمطار الحمضية ، وباختصار فقد ثبت لهؤلاء الباحثين أن الأمطار المذكورة تدمر حياة الذرة التناسلية تدميرا .

فقد عرضوا طلع الذرة لمطر حمضي انجزوه في المختبر ، ففقد الطلع قدرته على الاخصاب (قدرته كلها بلا استثناء) وإذا كان هذا هو حال الذرة فهو بلا ريب حال أكثر النباتات الأخرى ، مع الفارق أن من شأن الأمطار الحمضية أن تكون أكثر بطشا بتلك النباتات منها بالذرة ، وذلك لما تتميز به الذرة من وفرة في غبار طلعها .

■ ■ ■

بكتريا مخلقة جديدة في مكامن النفط

من المعروف أن أقصى ما يستخرج من النفط في مكامنه يكاد لا يزيد على ثلث المخزون في تلك المكامن . ولطالما حاول العلماء استخراج الثلثين المتخلفين بشتى الطرق بلا جدوى ، أو بنجاح محدود ، ذلك أن النفط الخام المتبقي في المكامن غالبا ما يكون قطرات ضئيلة أو حبيسة في منافذ الصخر الشعرية . لا عجب إذن إن لجأ العلماء إلى البكتريا المخلقة بشتى أساليب الهندسة « البيولوجية » ، وعلى كثرة الطرق التي سلكوها أو الصنوف التي صنعوها في هذا الصدد ، فإن النجاح لم يحالفهم بالقدر المرضي حتى كان الإنجاز الذي حققه علماء استراليون (في كنبرا) في أواخر شهر مارس الماضي .

وكان قوام هذا الانجاز كان خليطا من بكتيريا ورمل وماء ، وكان الخليط مشويا بالفرن ، ومن شأن بكتيريا هذا الخليط أن تفرز مادة تشبه مادة التنظيف (detergent) ، ومن شأن هذه المادة أن تحطم التماسك الذي يشد قطرات النفط إلى الصخر وتحبسها في منافذه ، بحيث لا يلبث هذا النفط المتخلف أن يتحرر ثم يضخ إلى سطح الأرض ، ليجري استغلاله والانتفاع به . وغني عن البيان أن كميات النفط المتخلفة تقدر بملايين البلايين من البراميل .

■ ■ ■

وأخيرًا ري المزروعات "بالكمبيوتر"

لعل شبكات الري الرذاذية هي أهم المبتكرات الحديثة التي أفادت منها الزراعة في العقود الأخيرة ، وحسبك أنها أحالت بعض المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية إلى حقول معطاءة خضراء ، إلا أن هذه الشبكات الحديثة كلها دون استثناء تقف عند حد لا تتجاوزه ، فهي غير معدة لتحديد مدى عطش النبات تحديدا دقيقا ، بحيث يكون رشها لماء الري على أساس من الترشيد ، ويكون تقنينها لذلك الماء تقنينا غير عشوائي .

وليس معنى هذا أن المزارعين لم يبالوا بتحديد درجة عطش مزروعاتهم ولا بريها تبعا لمدى عطشها وحاجتها للماء ، فقد حرصوا على ذلك أشد الحرص في البلدان الأوروبية على أقل تقدير ، واعتمدوا في سبيل ذلك على تقارير رطوبة الجو ، أو على تقديرات الإشباع القائم في التربة ـ تربة حقولهم ـ ولكن هذه التقديرات وتلك التقارير عرضة للخطأ ، وتفتقر على كل حال إلى الدقة التي يستوجبها عصر « الالكترونيات » الذي نعيش فيه . لا عجب إذن إن كان هدر ماء الري بحكم « الشر الذي لا مفر منه » حتى في الحالات التي تم ري المزروعات فيها بواسطة الشبكات الرذاذية الحديثة ، ومعنى هذا أن الثمرة الطيبة التي تتيحها هذه الشبكات

بقيت بعيدة عن متناول المزارعين ، إلا ماجنوه منها بالصدفة ، ومن حيث لا يدرون .

لكن هذا الوضع القائم منذ اكتشاف الزراعة قبل ١٠,٠٠٠ سنة ما لبث أن تغير في المدة الأخيرة ، فقد نجح العلماء الفرنسيون في ابتكار جهاز « كمبيوتر » حساس ، يحدد بدقة درجة عطش النبات ، ومدى حاجته للماء .

ويعمل هذا الجهاز الذي يسمونه (بابستا . **Pepista**) بواسطة مجسات ، يوصلونها بالنبات مباشرة (بساقه أو زهره أو ثمره) ، وتستطيع هذه المجسات تحس أقل نقصان قد يطرأ على قطر الساق أو الثمرة ، (ما يعادل ١٨٠ ميكرون ، أو جزء من ألف مليمتر) ، فإذا سجل الجهاز النسبة التي يعتبرها المزارع دليلا على عطش النبات وجفافه ، التي يبرمج جهازه وفقها ، وإذا سجل الجهاز تلك النسبة في أكثر من شجرتين أو ثلاث أمر الجهاز شبكة الري (المتصلةبه) بمباشرة عملها ، وري المزروعات العطشى ، تلقائيا دون تدخل من مزارع أو غيره .

وتدل الدراسات التي أجروها مؤخرا في مطلع هذه السنة على أن جهاز (البابستا) يوفر الكثير من ماء الرى ، أي ما يقدر بحوالي ٢٠ ـ ٣٠٪ أو حوالي ٥٠٪ من ماء الري ، تبعا للأسلوب الذي درج المزارعون الأوربيون على اتباعه في تحديد عطش النبات ، وتقدير رطوبة التربة ، أو الرطوبة الجوية .

ومن طريف ما يذكر عن جهاز (البابستا) أنه يجري قياساته مرة كل دقيقة في حقول الخضروات ، ومرة واحدة في كل نصف ساعة في بساتين الفاكهة . ويمكن لجهاز (البابستا) أن يعمل مع شبكات الري جميعا حديثها وقديمها .

أما مجسات هذا الجهاز فتستطيع أربعة منها رصد العطش في ٣ هكتارات (٣٠ دونما) من الحقول أو البساتين ، وتتصل هذه المجسات « بكمبيوتر » (ميداني) ، يتصل بدوره « بالكمبيوتر » الرئيسي .

■ ■ ■

الطاقـــة الشـمسيـة.. إلى مـــتى ؟

كثر الحديث عن الطاقة الشمسية في السنوات الأخيرة ،وكثرت البشائر بأن عهد استغلال هذه الطاقة بتكاليف محتملة بات قريبا ، لكن هذا العهد ظل على قربه أو بعده ، وظلت الطاقة الشمسية بعيدة المنال ، بسبب تكاليفها الباهظة .

ويعزى ذلك إلى البطاريات الشمسية (photoroitaic) ، وهي الأساس الذي تقوم عليه أجهزة مختلفة ، تعمل بالطاقة الشمسية ، مثل الحاسبات ، فقد كانت البطاريات المذكورة محدودة الفاعلية ، وبالتالي باهظة الثمن ، ولم تبلغ نسبة فاعليتها العملية في مختلف الأجهزة التي اعتمدتها سوى ١٥٪ ، أي أقل من نصف فاعليتها المثالية البالغة ٣٢٫٣٪

على أن العلماء في « بالو ألتو » بكالفورنيا نجحوا مؤخرا (في أواخر شهر مارس الماضي) في مضاعفة فاعلية البطاريات الشمسية عمليا ، بحيث أصبحت ٢٨٪ أو أكثر من ذلك ، والظاهر أن التجارب العديدة التي أجروها قد شجعت شركة جورجيا للطاقة وغيرها في مد أولئك العلماء بالمبالغ التي يحتاجونها لاستكمال أبحاثهم .

العربي
عيونك
على العالم

"ناخودكا" السوفيتية..

الصّدفة التي أنقذت "أميركا"

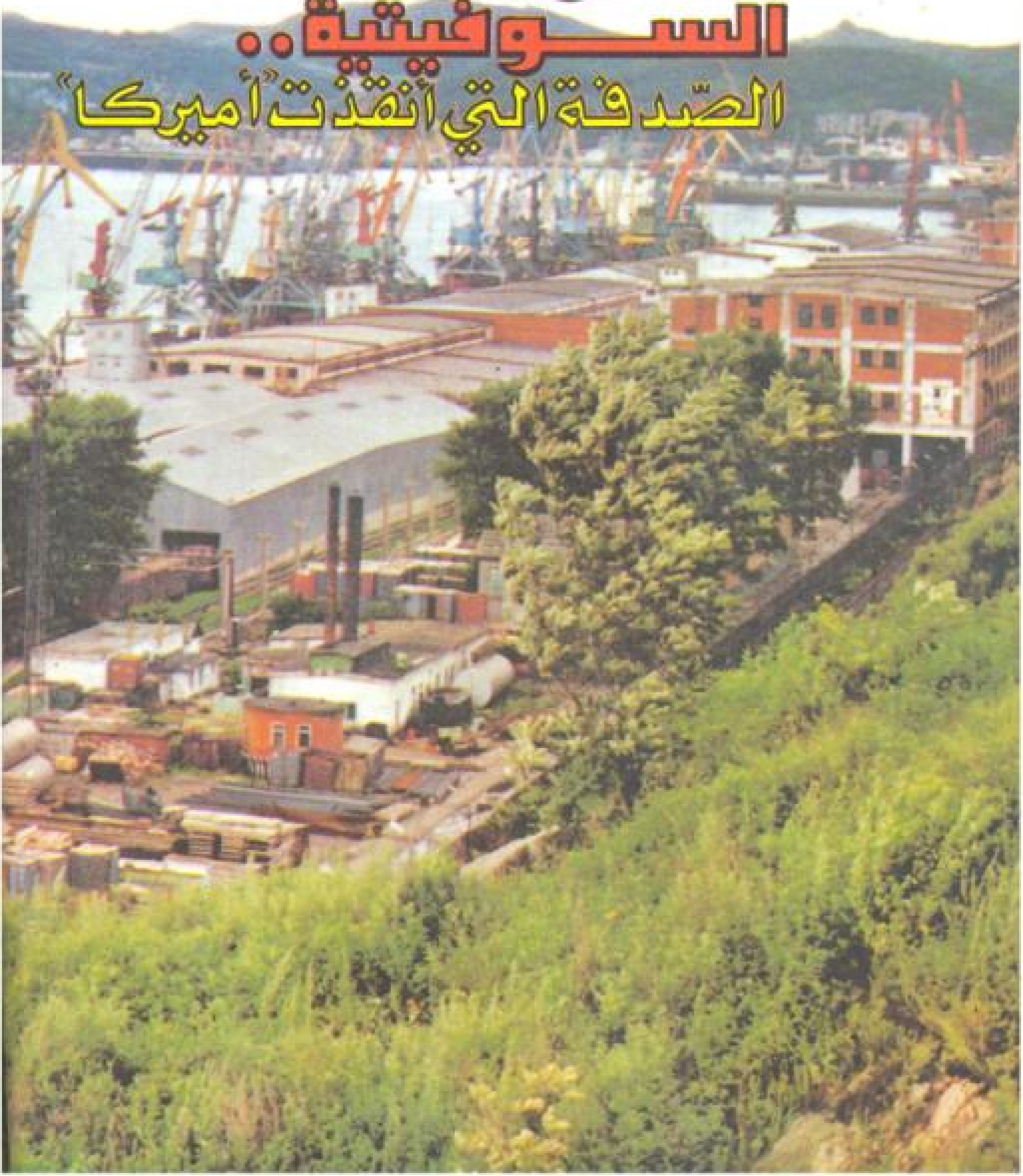

استطلاع : سليمان الشيخ
تصوير : طالب الحسيني

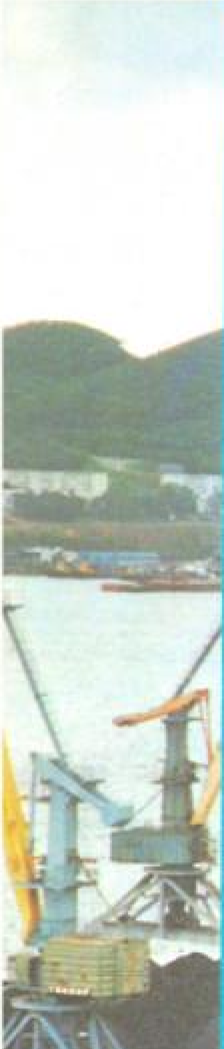

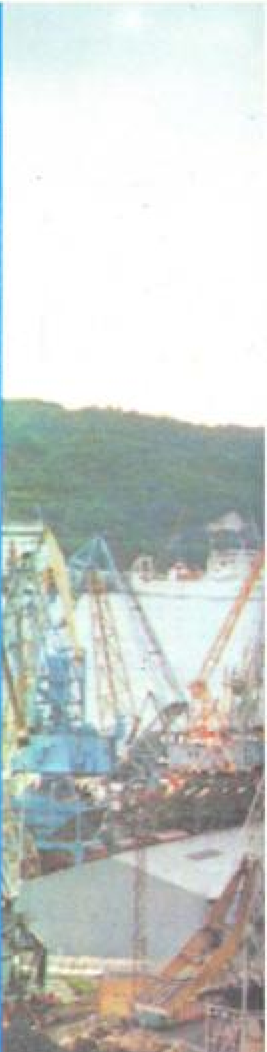

يعدونها كي تصبح أهم الموانىء في الشرق الأقصى السوفيتي ، ويعدونها أيضا كي تنافس قناة السويس ، وتستحوذ على تجارة « الترانزيت » بين دول الشرق الأقصى وأوروبا .

ومع أنها مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على مائة وخمسين ألفا إلا قليلا ، ولم تأخذ أهميتها والاهتمام بها إلا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فإنها أخذت تنافس أعرق موانىء المنطقة ، إلى درجة دفعت اليابان إلى المشاركة في بناء أحد موانئها .

إنها « ناخودكا » الميناء الذي أنقذ « أميركا » ذات يوم !!

وقد قطعت بعثة مجلة « العربي » ما يزيد على عشرة آلاف كيلومتر من مدينة موسكو للوصول إليها ، وركبت الطائرات والقطارات والسيارات لتنقل لك هذه الصورة الحية . فما هي « حكاية » هذه المدينة ؟

على شاطىء المحيط الهادىء ، وفي المنطقة التي تسمى « ماري تايم » إحدى مناطق الشرق الأقصى السوفيتي والتي تبلغ مساحتها ١٦٦ ألف كيلومتر مربع ، ويقطنها ما يزيد على مليوني نسمة ، والتي تتبع إداريا جمهورية روسيا الاتحادية ، تقع مدينة ناخودكا على خليج واسع طبيعي شمال شرق مدينة فيلاديفوستك ، العاصمة الادارية للمقاطعة . وهي تبعد عنها بحوالي ١٥٠ كيلومترا ، وتبعد عن حدود الصين الشعبية بما يزيد على ٢٥٠ كيلو مترا ، في حين أن أقرب جزيرة يابانية للمدينة يمكن الوصول إليها خلال ١٨ ساعة فقط بوساطة الباخرة .

هذا الموقع المهم لم يأخذ حظه من الالتفات والتوسع في تنميته إلا أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما وجد السوفيت ـ حسب ما أشار السيد أناتولي مراسل وكالة نوفوستي في مدينة فلاديفوستك الذي جاء خصيصا لمرافقتنا في مدينة ناخودكا ـ أن سفنهم في البحار الأوروبية كانت معرضة للملاحقة والضرب من قبل الأسطول الألماني إذا ما أرادت التوجه إلى أوروبا أو الولايات المتحدة الأميركية ـ كان التحالف ما زال قائما بين أميركا والسوفييت وغيرهما ضد دول المحور ـ ألمانيا وايطاليا واليابان ـ في تلك المرحلة ، أي مرحلة أربعينيات هذا القرن ، لذلك فقد تم الالتفات إلى مينائي فيلاديفوستك وناخودكا ، صحيح أن الخطر الياباني كان قائما ، ويمكن أن يمارس أسطوله نفس ممارسات الأسطول الألماني في البحار الأوروبية ، ومع ذلك فإن خطر الوصول إلى الولايات المتحدة الامريكية عن طريق المحيط الهادىء كان أقل مخاطرة .

هكذا نما الميناءان ، وأصبحا مينائين رئيسين في منطقة الشرق الأقصى .

«ناخودكا » و « أمريكا » !

إن التاريخ للمدينة بتلك المرحلة أمر مهم ، لكن كان للمدينة قبل ذلك تاريخ أيضا ، فما هو ؟ وما هي

حكاية « أميركا » مع المدينة ؟

لقد أجمعت المصادر التي التقينا بها في المدينة على أن كلمة « ناخودكا » باللغة الروسية تعني شيئا مهما وثمينا يتم اكتشافه صدفة .

فما الذي حدث حتى تم إطلاق الاسم على المكان ؟

قالت لنا السيدة رئيسة باوتوفا ، دليلة متحف مدينة « ناخودكا » عندما سألناها عن سر المكان والاسم :

ذات يوم من سنة ١٨٥٩ ثارت عاصفة هوجاء في المحيط الهادىء ، ومن سوء حظ السفينة التي كان يطلق عليها اسم « أميركا » أنها كانت في المحيط تسعى ، فاحتار قبطانها بما يفعل في وجه الرياح التي كانت تتقاذفه في شتى الاتجاهات . وبعد صراع مع الموج العاتي والرياح أدرك القبطان والبحارة أنهم مشرفون على الغرق ، وبدأوا يعدون الدقائق بانتظار النهاية ،إلا أن مصادفة جعلتهم يفيقون مما هم فيه وعليه ، فقد قذفتهم الأمواج إلى مكان وجدوا أن موجه غير ثائر كثيرا ، وأن الرياح قد قل عصفها فيه ، فأدركوا أنهم وصلوا إلى خليج محمي حماية طبيعية ، فعاودهم النشاط ، وتغلبت القوة على الضعف ، فجدفوا إلى اليابسة ، ونجوا . هكذا نجت « أميركا » في ذلك المكان الذي أصبح يُعرف « بناخودكا » فيما بعد . وبعد ذلك ارتاد المكان بعض المهاجرين الروس والاوكرانيين ، فاختلطوا ببعض البحارة الصينيين والكوريين الذين كانوا يرتادون المنطقة للصيد . وإذا ما كانت أغلبية سكان المدينة تتكون الآن من الروس والأوكرانيين والبيلوروس ، فإن أقلية بينهم ما زالت حتى الآن تتكون من الصينيين والكوريين وغيرهم .

صورة من منظر كبير

قبل أن تغرب الشمس ذات يوم من شهر أغسطس ـ آب ـ من العام الماضي ، انطلق بنا القطار من مدينة خباروفسك ، بعد أن وصلناها من قبل بالطائرة ، بعد رحلة استغرقت حوالي ١٠ ساعات من موسكو .

مضى القطار السريع متجها نحو الجنوب ، إلى شواطيء المحيط الهادىء ، غابات وجبال وسهول مكسوة ببساط أخضر كانت تحيط بنا ، حتى أبعد نقطة يمكن أن يراها النظر ، يقطع هذا التسلسل بين ساعة وأخرى بروز بعض القرى المتناثرة الصغيرة .

غرف القطار مجهزة بوسائل الراحة والنوم المناسبة . اهتزازات القطار بدأت تسرب النعاس إلى الجفون ، خاصة أن العتمة قد سيطرت على الأجواء المحيطة .

بين الحديث عن المنطقة والمطالعة في بعض الكتب والمصادر أمضينا رحلتنا مع مرافقنا الموسكوي ديمتري .

عندما كان القطار يطلق صفيره ويهتز اهتزازه المعتاد ، همس مرافقنا عندما كشفت بعض الأضواء مجرى نهر كبير كنا نمر فوقه بأنه نهر بيكين . وأضاف أننا نبعد الآن عن حدود منشوريا في الصين الشعبية حوالي خمسة كيلومترات فقط . مضى القطار في رحلته ، وتجاوزنا الأضواء والنهر ، وعادت العتمة تسيطر من جديد على الأجواء المحيطة بنا ، ولم يتوقف القطار في أي محطة .

كان هديره واهتزازاته وصفيره هي كل ما نسمعه أثناء صحونا ، وأحيانا كنا نسمع النداءات من « ميكرفون » داخلي تخص بعض العاملين في القطار .

صحونا على صوت أحدنا ، كان الفجر ببدايات نوره قد أدخل على العتمة لونه الخاص المميز ، فوزعنا الأنظار بين الضوء الزاحف لفرض نفسه على العتمة الآخذة بالانحسار ، وبين المدى الأخضر الذي لم تعانق عيوننا أي نهاية له حتى الأفق .

خيوط ذهبية بدأت تلمع على رءوس أشجار الأرز والصنوبر والباتولا وغيرها ، وبدأ الندى يلمع كأنه حبيبات معدن ثمين .

مشارف المدينة بدأت تلوح ، مزارع ومزروعات ، ودجاج وديوك ، ورجال ونساء بدءوا يبرزون بين الفينة والأخرى .

طرق وسيارات أصبحت بمحاذاة سكة القطار ، وبدأ المدى الأزرق يظهر من خلال أوراق الأشجار . كنا نقترب من المحيط ، وكانت المدينة

● لقد تم بناء عدة موانيء على شواطيء مدينة « ناخودكا » بعضها للصيد وبعضها الآخر للتجارة أو لنقل النفط وغير ذلك .

في الصور المنشورة مراحل معينة من صناعة علب السمك . وأحد الأسواق يمتليء بأنواع متعددة من سمك المحيط الهادي .

وفي الصورة العليا - يسار - مراقب مرصد مدينة ناخودكا يتابع رصد مواقع السفن والتسجيلات الخاصة بها .

تربض على شواطئه ، وتلقي مراسيها في مياهه . ها قد وصلنا في بداية النهار ، بعد أن أمضينا رحلة استغرقت حوالي ١٦ ساعة ، قطعنا خلالها حوالي ألف كيلومتر ، هي المسافة بين مدينتي خباروفسك وناخودكا .

جاء في كتاب « جغرافية الاتحاد السوفييتي » لستروييف ما يلي :

« وفي الغالب تمتد السلاسل الجبلية ـ في الشرق الأقصى السوفييتي ـ بمحاذاة شاطىء المحيط الهادىء ، ويقع بعضها غالبا بموازاة بعض ، وتنقسم بأودية طولية . والجبال تنحدر « عموديا » باتجاه البحار ، تاركة منطقة ضيقة من الشاطىء ، أو مكونة ساحلا منحدرا صخريا » .

هل كان الكتاب يصف حالة مدينة « ناخودكا » على الأخص ؟

يبدو أن حال المدينة كغيرها من حالات كثيرة في هذا الشرق الذي اسمه أقصى .

نزلنا في محطة قطار محاطة بغابة صغيرة وبساتين أشجار وورود ، وتبللت ملابسنا بالرذاذ الخفيف من المطر الصيفي المعتاد على مناطق تفصلها التلال العمودية بعضها عن بعض . وتذكرت يومها مدينتنا العربية عدن التي تفصل بين أحيائها الجبال والتلال العمودية الحادة الارتفاع ، مع فارق واضح هو أن الخضرة هنا في « ناخودكا » كانت قد توزعت ، بحيث كسرت حدة ارتفاع التلال والصخور وغطت رءوسها .

إن الفراغات السهلية بين الجبال والتلال الصخرية التي كانت تعانق البحر استغلها الإنسان ، فبنى بيوته عليها ، بل إن بعض هذه التلال تجاوزت شاطىء البحر وقذفت مراسيها وأوتادها في قلبه ، فظهرت بشكل جزر جبلية صخرية . والغريب أن الغيوم كانت تحط رحالها على تلك الجزر البحرية ولا تود مفارقتها ، وقد رصدت غيمة مساء يوم وصولنا وكانت قد احتلت إحدى قمم جزيرة جبلية بحرية ، لأكتشف في صباح اليوم التالي أنها ـ وربما غيرها ـ ما زالت تكسو نفس القمة .

في الميناء

إذا كانت أحياء المدينة موزعة على المنخفضات والسهول ، وعلى بعض التلال ، فإن ملاحظة أخرى أمكن مشاهدتها ، ربما تتوافق مع هذا التوزع ، إذ أننا شاهدنا عدة موانىء بحرية أيضا ، موزعة على شواطىء المدينة ، فأدركنا أن البحر شيء أساسي في حياتها ، لذلك فإنني لم أستغرب حينما قادنا مرافقونا إلى إحدى السفن في الساعات الأولى من وصولنا ، لمقابلة قبطانها داخل الميناء .

وبعد أن أطلعنا القبطان بيوتر بتشكونكين على أقسام السفينة ايليا كونفالوف التي صنعت سنة ١٩٨٦ ـ وبعض التفصيلات المتعلقة بها ، ذكر بأن السفينة تتبع مؤسسة صيد الأسماك الحكومية التي تأسست سنة ١٩٥٢ ، وكانت تملك في البداية سفنا صغيرة ، والآن أصبحت تملك سفنا كبيرة (يبلغ عدد أسطولها مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة تقريبا) إلى درجة أن تحضير السمك للتصدير يتم مباشرة في البحر ، وفي سفن ـ مصنع ـ خاصة لنقله إلى الأماكن المطلوبة .

وأضاف القبطان : لقد أصبحنا نملك سفنا تقوم مقام المصنع ، وهي في عرض البحر ، ومجال عملنا ـ في الصيد ـ هو المحيط الهادىء الذي لا تتجمد مياهه طيلة أيام السنة ، وهو منطقة واسعة جدا ، إذ أننا نصل في رحلات الصيد إلى قرب المياه الإقليمية النيوزلاندية ، وقرب جزر كوريل القريبةً من اليابان ، ونصل إلى المياه الإقليمية الأميركية حسب اتفاقنا مع إحدى الشركات الأمريكية . ونحن نصيد جميع أنواع الأسماك التي نصادفها ، ولا نتخصص بنوع واحد من السمك فقط . وتقوم مؤسسة البيع والتصدير بتصدير السمك مباشرة إلى عملائها . ويعمل في المؤسسة حوالي ١٤ ألف عامل في الساحل والبحر .

علقت : إن هذا الرقم كبير في مدينة صغيرة ؟

أجاب القبطان : لا تستغرب ذلك ، إن عمل معظم سكان المدينة يتوزع على مؤسسات يتعلق عملها بالبحر ، لذلك فإن مؤسستنا تقوم بتوفير

الحاجات الإنسانية للعاملين فيها بمساعدة الجهات الحكومية المختصة أيضا ، كبيوت السكن ، والاستراحات ، ودور الاستجمام ، ومعسكرات الراحة والعمل لأبناء العاملين فيها ، وغير ذلك من خدمات اجتماعية .

○ هل اطلعت على الأدب الذي كتب من واقع المعاناة في البحر ؟ أقصد « الشيخ والبحر » أو « موبي ديك » أو غيرهما ؟

ـ لقد اطلعت على هذا النوع من الأدب ، لكن تعليقي يتركز على أن بعض الأدب لا يعكس تجربيات الحياة تماما . ويمكنني القول من خلال تجربتي أن الحيتان لا تهاجم السفن أو الإنسان ، بل الإنسان هو الذي يهاجمها ، فتضطر للدفاع عن نفسها .

أكبر مصنع للعلب

لم نبتعد كثيرا عن السفينة والميناء ، بل وصلنا إلى أحد أطراف الميناء ، ثم توقفت السيارة التي تقلنا عند مبنى كبير ، فعرفونا على مسؤول الحزب في المكان .

قال لنا السيد فيتسلاف دومينكوف : إن المكان ما هو إلا مصنع خاص بعلب السمك ، وقد بني سنة ١٩٨٢ . وأثناء تطوافنا في المكان ذكر لنا أن المصنع يعتبر من أكبر المصانع في مجاله في الشرق الأقصى ، ويبلغ عدد العاملين فيه حوالي ٢٥٠٠ عامل وعاملة ، بينهم ١٧٠٠ عاملة ، وأن الإنتاج يصل إلى حوالي ٥٠٠ مليون علبة ، هذا بالاضافة لما يقوم به المصنع من صناعة الأكياس البلاستيكية الخاصة بالتعليب ، وصناعة الصناديق الكرتونية .

وأضاف : إن الصفيح الخاص بالعلب نستورده من جمهورية كازاخستان السوفيتية وجبال الأورال ، في حين أن مطبعة المصنع تتولى طباعة الأوراق الخاصة بأغلفة العلب ، ويتم مراعاة إدخال المواد كي لا تصدأ العلب ، أما الآلات الصانعة فهي متنوعة ، وكثير منها سوفيتي ، وبعضها سويسري وإيطالي .

سألت السيد فيتسلاف : هل بدأتم العمل حسب طريقة الربح والخسارة التي تتوافق مع الاتجاهات الاقتصادية الجديدة في الدولة ؟

فعلق قائلا : في الحقيقة إننا نخطط للسير حسب هذا الاتجاه ، اعتبارا من السنة القادمة ، ومع ذلك فإن مصنعنا يحقق أرباحا تصل إلى ٨٨ مليون روبل سنويا ، يصرف منها على تجديد الآلات وإعادة تدريب « الكوادر » . وتقديم خدمات اجتماعية للعاملين تصل إلى ٧١ مليون روبل ، فيتبقى منها حوالي ١٧ مليون روبل ربحا صافيا .

عندما صعدنا سطح المصنع لالتقاط بعض الصور ذكر السيد فيتسلاف أنه يوجد في ناخودكا أربعة موانيء هي :

ميناء لصيد السمك ، وميناء لتصدير الخشب ، وآخر لتصدير النفط ، وأخير تجاري . والميناءان الأخيران يبعدان عدة كيلومترات عن الميناءين الأولين .

سألت السيد فيتسلاف : كم عدد الحزبيين بين العاملين في المصنع ؟

أجاب : إنهم يصلون إلى حوالي ١٠٪ من بين العاملين ، هذا عدا أعضاء منظمة الشباب .

الأبراج والشعر !

ابتعدنا عن ميناء الصيد ، وسارت بنا السيارة حوالي نصف ساعة ، ثم بدأنا نصعد تلة تحف بالطريق الصاعد إليها أشجار الباتولا والصنوبر والأعشاب والنباتات من الجانبين ، ثم عاد البحر بأمواجه ومياهه يلمع أمام أنظارنا . وفجأة لاح لنا مبنى وسط هذا الجمال الموزع بين اليابسة والبحرْ ، ولقد كان مرصدا لتوجيه السفن .

كانت مساحة الخليج واسعة ومحمية فعلا من الجانبين ، فعلى يمين المكان ميناءا الصيد وتصدير الخشب ، وعلى اليسار ـ كما ذكر لنا السيد روبرت تيكونوف مدير المرصد ـ يقع الميناء التجاري الذي يطلق عليه اسم « فوستوشني »، أي الشرقي . كان منظراً فائق الجمال ، فمياه المحيط هادئة تلمع ، والتلال إما موشومة بالخضرة ، أو بأبنية متناسقة تحف بها الأشجار .

علقت : ها هو المحيط هادىء ، وها أنت في مكان يتمناه كل أديب ومفكر بهدوئه وجماله .

علق المدير : ربما لم يصادف ماجلان أثناء رحلته

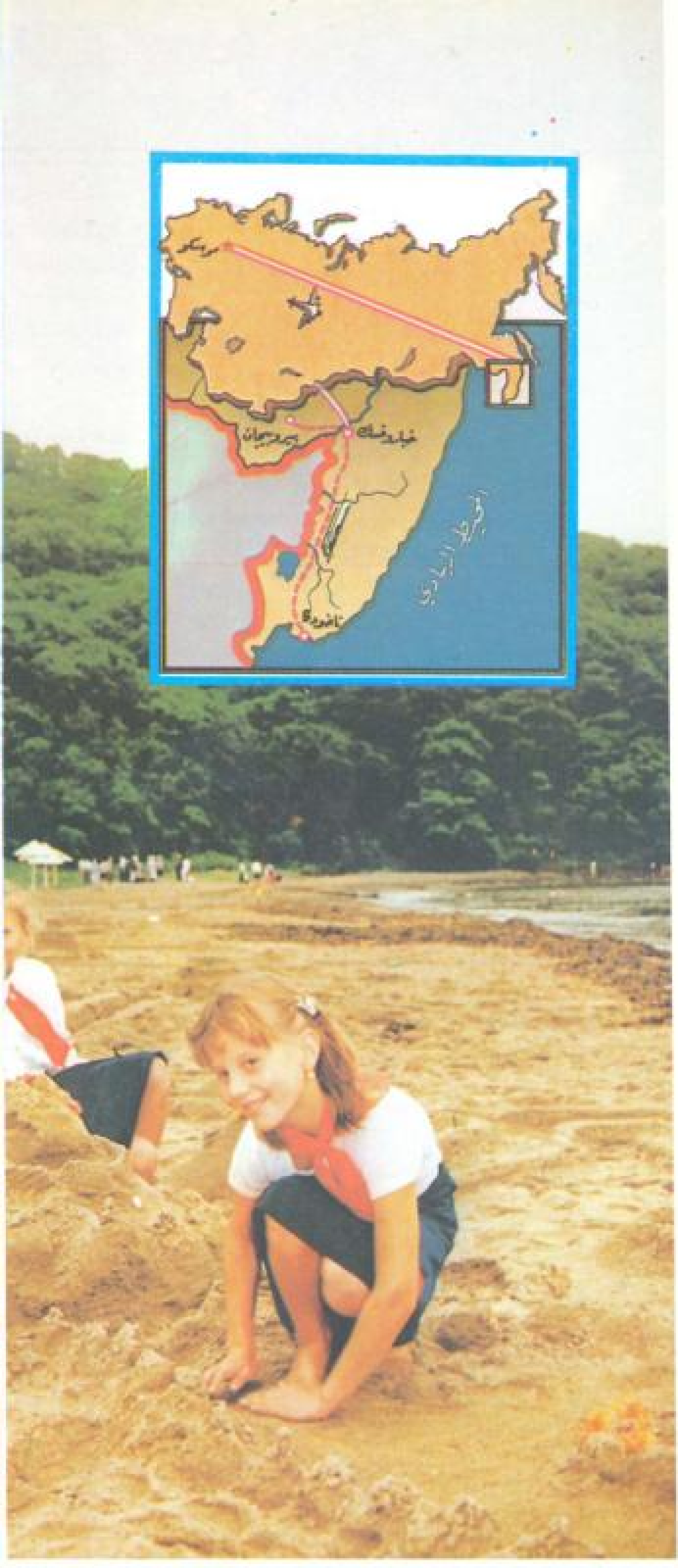
خباروفسك
بيروبيجان
ناخودكا
المحيط الهادي

● على شاطىء المحيط الهادي ، وبالقرب من الصين واليابان يقع ميناء ناخودكا السوفييتي . . والصور الثلاث لأطفال أحد المعسكرات وهم يمارسون هواياتهم .

في هذا المحيط أي صعوبات . فأطلق عليه لقب « الهادىء » لكنه كأي بحر له تقلباته وثوراته الموجاء . ونحن نسميه المحيط العظيم . لأنه أكبر المحيطات .

اما من ناحية هدوء المكان وجماله ، فإنه كذلك ، لكنك لفت نظري إلى شيء آخر : هل مثل هذا المكان هو ما يتمنى أن يعيش فيه الأديب والمفكر ؟

أجبت : إنني أعني أن ساعة الكتابة تحتاج إلى مثل هذا الهدوء ، وهذا الإطار الجميل .

علق : يبدو أن الاعتياد يقتل الاحساس بمكونات المكان وما يحيط به .

ثم أضاف بعد أن دخلنا إلى غرفة التوجيه والتحكم : ان مرصدنا أو برجنا هو واحد من ثلاثة أبراج في ناخودكا . والأجهزة المستعملة هنا متطورة جدا . ويعمل في المرصد ٩٢ عاملا وفنيا ومهندسا . إننا نستقبل حوالي ٣٥ ألف سفينة سنويا ، أي سفينة كل حوالي ربع ساعة . وأجهزة « الكمبيوتر » في غرفة التوجيه والتحكم تسجل مجمل المعلومات المتعلقة بكل سفينة . ويأتي معظم السفن من اليابان ، وسنغافورة ، والفلبين ، وماليزيا ، وبورما ، وقبرص ، وباكستان وغيرها .

وتقوم آلات التصوير المختصة بتصويرها وتسجيل المكالمات الخاصة بها إلخ . ويصدر من الميناء الشرقي حوالي ٢١ مليون طن من البضائع سنويا .

اليابان وفوستوشني

ثم انتقلنا إلى الميناء الشرقي نفسه ، كانت توجد على أرضه صفوف طويلة من السيارات الصغيرة ، والرافعات الضخمة توالي الصعود والنزول . وشاهدنا خشبا مكوما بعضه فوق بعض ، وكميات أخرى منه مطحونة .

قال لنا أحد موظفي الميناء : إن الميناء متخصص في استيراد البضائع وتصديرها ، وإن عمليات الشحن والتفريغ تتم بصورة « أتوماتيكية » . ويوجد في الميناء تسعة مراس يمكن بوساطتها خدمة تسع سفن دفعة واحدة . والميناء مجهز لاستقبال سفن تبلغ حولتها ١٠٠ ألف طن .

علقت : لا أرى أحدا في الميناء ، وأرى أن المواد تنقل بوساطة انابيب ضخمة إلى السفن مباشرة ؟

ـ أجاب الموظف : هل تصدق أن الميناء يدار بوساطة موظفة واحدة تجلس في غرفة التحكم المجهزة بآلات « الكمبيوتر » ؟ إن في الميناء أربع سفن الآن ، وهي تحمل بسيارات لادا وفولغا تمهيدا لتصديرها إلى الصين الشعبية ، وغيرها يشحن بالخشب المطحون ، أو بالرمل والحصى وغير ذلك .

علقت : تصدرون السيارات إلى الصين الشعبية على الرغم من الخلافات السياسية ؟

ـ أجاب الموظف : إن العلاقات التجارية ما زالت قائمة ، ربما قلت عما كانت عليه من قبل ، لكنها مستمرة في عدة مجالات . وأضاف : إن مواد كثيرة تصدر من الميناء ، وبعضها « ترانزيت » وأغلبها من اليابان واستراليا وغيرها من دول المنطقة . ويتم تصدير المواد عن طريق الحاويات من خلال خطوط سكة الحديد إلى أوروبا . ولا تستغرق هذه الرحلة إلا حوالي أسبوعين تقريبا ، وتقل تكاليفها حوالي ٣٠٪ عن تكاليف النقل بواسطة قناة السويس .

○ قلت : يقال إن اليابان قد ساهمت في تمويل بناء هذا الميناء !

ـ قال : حقا إنها ساهمت بتزويده بأحدث الآلات ، لأنه يسهل لها تسويق تجارتها إلى أوروبا ، وقد تم الانتهاء من بناء الميناء في حوالي منتصف السبعينات ، وما زال تطويره وتوسيعه مستمرين لتصل قدرته التصديرية إلى حوالي ٤٠ مليون طن سنويا ، وبذلك يصبح من أكبر موانىء المنطقة .

الحاجة إلى حكمة الشيوخ !

بعد أن أنهينا جولتنا في بعض مؤسسات المدينة ، فإن موعدا كان بانتظارنا في دار بلديتها لاستكمال بعض المعلومات عنها .

التقينا في الدار بالسيد الكسندر كوتوكوف نائب رئيس البلدية ، وتاتيانا اسيافا رئيسة اللجنة الحزبية ، وايلينا الماديفا مسؤولة الثقافة .

وأعمارهم كانت حوالي ٣٥ سنة .

فأكدوا بأن مدينتهم هي مدينة شابة من ناحية عمر إنشائها ، ومن ناحية عمر السكان فيها ، إذ أن معدل العمر لا يتجاوز ٢٦ سنة . وأنها تحتوي على عدة مصانع ومعامل تأتي في المكانة الثانية صناعيا بعد مدينة فلاديفوستك عاصمة المقاطعة ، وأكدوا على أن ٧٠٪ من سكان المدينة يعملون في مؤسسة صيد السمك أو في تصليح السفن ، وأن ٤٣٪ من نسبة الصيد البحري في الاتحاد السوفيتي تتم في منطقة الشرق الأقصى ، والباقي يعملون في البناء ، أو في الأمور الادارية والصناعات الخفيفة الأخرى ، أو في بعض الزراعات القليلة .

لذلك فإنه إضافة إلى ميناء صيد السمك ، فإنه يوجد في ناخودكا ميناء آخر لتصليح سفن الصيد ، وهو من أكبر موانيء التصليح في الشرق الأقصى ، كما أنه يوجد إضافة للميناء الشرقي التجاري ، ميناء آخر تجاري في قلب المدينة . وفي مجال البناء هناك عدة مؤسسات تعمل في هذا الإطار .

○ لقد أتخمنا بالمعلومات التي تتحدث عن الميناء ومؤسساته منذ وصولنا حتى الآن ، ألا يحدثنا أحد عن الجوانب الثقافية والاجتماعية ؟! هكذا علقت :

ـ أجابت السيدة ايلينا فاديفا :

نظرا لتوزع مدينتنا على عدة نقاط وتلال ، فإننا مضطرون لتوزيع مؤسساتنا الثقافية والرياضية والاجتماعية على هذه الأحياء . وأضافت : إن سكان المدينة شباب ناشطون ، لديهم حرص على تحصيل الثقافة وممارسة الرياضة ، ويوجد في المدينة ثلاثة ملاعب كبيرة و ١٨ ملعبا صغيرا ومسبح مسقوف ، وأكثر من ٥٠ قاعة رياضية ، و ٦٥ ملعبا لممارسة لعبة كرة الطائرة ، وهناك عدة فرق رياضية تشارك في ألعاب على مستوى الاتحاد السوفيتي كله .

ولنا علاقاتنا الدولية مع عدة دول صديقة وقريبة .

أما عن الجوانب الثقافية فإنه يوجد في المدينة ١٣٤ مؤسسة ثقافية ، كدور الثقافة والمكتبات العامة (٩٣ مكتبة) ، وخمس دور سينمائية ، ومتحف عام لتاريخ المدينة ، واستراحة ثقافية خاصة بالأطفال ، ودار للموسيقا ، ودور حضانة عديدة للأطفال ، وهناك نشاطات عديدة تتعلق بالأطفال .

أما بالنسبة للكبار فإن مدينتنا لا يوجد فيها فرق مسرحية محترفة ، لكن فيها الكثير من فرق الهواة ، وهي تقدم عروضها على مسارح بيوت الثقافة ، ونحن بصدد بناء دار خاصة للعروض المسرحية ، وتستضيف مدينتنا عشرات الفرق المسرحية أو فرق الرقص الشعبي من داخل الاتحاد السوفيتي ومن خارجه . ويوجد ٤ مدارس وكلية للفنون على مستوى الثانوي . كما أن المدارس والمعاهد الأخرى في المدينة هي على مستوى الثانوية ، ومن يرغب في متابعة تحصيله العلمي فعليه الالتحاق بالجامعة في فلاديفوستك . ويوجد كليتان على مستوى المتوسط للبحارة والملاحين .

وكيف تتعاملون مع الأطفال النابهين أو الأذكياء ؟

ـ إننا نوفر لهم رعاية خاصة ، ونوجههم الوجهة التي تتوافق مع مجالات تخصصهم في المعاهد والكليات الخاصة في مدينتنا ، أو المدن الأخرى التي تحتوي على تخصصاتهم .

أخيرا سألت السيدة تاتيانا اسيافا : كم عدد الحزبيين في المدينة ؟ فأجابت : يوجد في المدينة حوالي ١٠ آلاف حزبي ، وحوالي ٣٥ ألف عضو في الكومسمول (منظمة الشباب) .

وقد أبى السيد الكسندر حديثه معنا قائلا : على الرغم من أن انجازاتنا كثيرة في المدينة ، وعلى الرغم من الروح الشبابية الوثابة التي يتمتع بها سكانها ، فإننا نحس أحيانا بأنه تنقصنا حكمة الشيوخ !

الأصيل والجميل

طلبنا زيارة إحدى المؤسسات الثقافية فرافقتنا السيدة ايلينا إلى النادي الثقافي للبحارة والملاحين ، فوجدنا بناء ضخما مؤلفا من دورين ، يحتوي على عدة قاعات ، أهمها قاعة العروض الفنية ، وتتسع لـ ٧٠٠ فرد . تتقدم المبنى عواميد تذكرك بفخامة المباني السوفيتية أو الرومانية المعروفة .

قالت لنا السيدة لوبوفا كروتوفسكايا مديرة النادي :

● حي من أحياء «ناخودكا» يقع على حافة التلة وقريب من الغابة والمحيط - أعلى - نادي البحارة الثقافي في «ناخودكا» يجمع داخله نشاطات ثقافية متعددة منها الرقص الشعبي - الى اليسار -.

لقد تأسس النادي سنة ١٩٥٩ . وبناه المتطوعون من شباب المدينة . وبما أن أغلبية السكان يعملون بمؤسسات يتعلق عملها بالبحر ، لذلك فإن النادي هو أكبر نوادي المدينة ، والكثير من احتفالات المدينة تقام به ، وتتبع النادي حوالي ٣٢ فرقة فنية ، تقوم بنشاطات فنية مختلفة ، وبعض أعضاء الفرق متخرجون من كليات فنية متخصصة من مدن عديدة في الاتحاد السوفيتي ، بل إننا نتبنى بعض الموهوبين ، ونرسلهم إلى الكليات المتخصصة بشرط أن يعودوا إلى مدينتهم الأصلية للمساهمة في إنمائها وتطويرها .

وقدم لنا بعض أعضاء وعضوات فرقة الرقص الشعبي بعض عروضهم المميزة بملابسهم الزاهية التي تمثل الملابس الشعبية لبعض شعوب الاتحاد السوفيتي كالروس والأوكرانيين وغيرهم .

سألت السيدة لوبوفا : هل تحافظون على نفس الايقاعات الموسيقية الشعبية والملابس كما عرفتموها ، وكما انتقلت إليكم ؟

ـ أجابت : كل شيء قابل للمراجعة ، والمطلوب تقديم الفن المطور ، المتوافق مع روح العصر .

○ ألا يقضي ذلك على الأصيل من الفنون الشعبية ؟

ـ أجابت : ما هو أصيل وجيل لا يزول ، لكن لكل جيل نظرته وذوقه وإضافاته ، وهذا ما قصدته بالمطور المتوافق مع روح العصر .

مفاجأة بانتظارنا !

أغرق المطر الطريق في ذلك اليوم من أيام شهر آب ـ أغسطس ـ فضيع السائق الذي كان يسوق بعصبية وسرعة الطريق ، ولم يستدل على مكاتب الشركة التي كان يقصدها ، كنت أتمنى في قرارة نفسي أن يستمر تجوالنا في الطرق الغارقة بالمطر ، إنها فرصة فريدة لرؤية مطر حقيقي ، لكن في فصل الصيف . . !

جاء في كتاب « جغرافية الاتحاد السوفيتي» الوارد ذكره سابقا ما يلي :

« تنزل أكبر كمية من السقوط الجوية خلال العام (٨٠٠ ـ ١٠٠٠ مم) في المناطق الجنوبية (الاقليم البحري) وفي الجبال ، وعلى المنحدرات المتجهة نحو المحيط الهادي » . وهي المنطقة المعنية التي نتواجد فيها .

ويضيف المؤلف : « إن أكثر من نصف كمية السقوط الجوية السنوية تنزل في نهاية الصيف ، لذلك تحدث الفيضانات في أنهر الشرق الأقصى بالربيع ، وتكون شديدة بنهاية الصيف على الأخص أثناء فترة الأمطار الغزيرة » .

بعد أن دار السائق عدة دورات اكتشف المكان ، لكنه وصل إليه عن طريق مخالف لنظام المرور ، فسمع تقريعا من مرافقنا .

استقبلنا مضيفنا على باب المكان ، فقد تأخرنا عن موعدنا قليلا ، فخرج يستطلع الأمر .

كأنني سمعت كلمات ترحيبية باللغة العربية ، فاحترت واندهشت ، وتساءلت في نفسي : هل حقا ما سمعته هو كلمات بالعربية ؟ أم انني أتوهم ؟ أم أن « مرض الحنين » للغة الأم قد داخلني وتوطن بي ـ بعد هذا البعد والانقطاع ـ القليل نسبيا ـ ؟

○ انقطع سيل تساؤلاتي الصامتة ، وجاء اليقين بعد تشكك :

أهلا وسهلا ، ومرحبا بكم في « ناخودكا » قالها الرجل باللهجة المصرية العربية ، وأضاف بعد أن رأى الدهشة في عيوننا وعلى تعابير وجوهنا : لقد تعلمت قليلا من العربية ، إذ أنني بقيت في مصر مدة تزيد على ثلاث سنوات ، وتركتها منذ ١٨ سنة ، وهأنا أحاول تذكر ما تعلمته .

أهي مفاجأة لكم بأن تجدوا من يتكلم العربية في هذه المدينة في الشرق الأقصى السوفيتي ؟

أجبت : حقا إنها مفاجأة مدهشة .

أعاد الترحيب ، ثم قال : هل تصدقون أنكم من أوائل الصحافيين العرب الذين يصلون الى هذه المنطقة ؟ وتابع : أنا فلاديمير أرخبوف المدير العام لشركة « دالين بورت » إحدى فروع شركة « دالين تورك » ، ومقرها الرئيسي في ناخودكا أيضا وهي تتولى التجارة الخارجية في قسم من الاتحاد السوفيتي ، أي في سيبيريا الشرقية والشرق الأقصى السوفيتي ، وتتعامل الشركة مع بلدان محددة : مثل

اليابان ، وجمهورية الصين الشعبية ، وكوريا الشمالية . ونملك حق التجارة مع استراليا ، ونيوزيلندا ، ونأمل من خلال السياسة الاقتصادية الجديدة أن نتوسع بالتجارة مع بلدان أخرى مثل فيتنام ، وسنغافورة ، والفلبين ، وغيرها من بلدان الشرق الأقصى الآسيوي .

تابع السيد فلاديمير : إننا نقوم بالتجارة الخارجية مع البلدان التي ذكرتها لكم حسب طريقة « التوازن بالتبادل » ، أي أننا نشتري بضائع نحتاجها بنفس المقابل المادي الذي صدرنا به .

وقائمة المواد التي نصدرها تتضمن فحم الوقود ، والخشب ، وخامات الحديد ، والمواسير ، وخامات الورق القديمة ، وخامات النسيج ، وأغذية متعددة ، وعدة أنواع من المربى ، وجلود الغزلان وقرونها وغير ذلك .

أما المواد التي نستوردها فهي : مواد استهلاكية تصل إلى حوالي ٥٠٪ من المواد المستوردة ، أما الـ ٥٠٪ الباقية فإننا نستورد بها مواد تستعمل في الصناعة مثل البلدوزرات ، والرافعات ، والحافلات الكبيرة ، وآلات نشر الخشب ، والكهربائيات ، والآلات الطبية ، والمباني الجاهزة ، والأصباغ ، والحاسبات ، والملابس وبعض قطع الغيار .

وقد أنشئت الشركة سنة ١٩٦٥ ، وبدأنا نتعامل مع اليابان بحوالي ٢٥٠ ألف دولار ، في حين وصلت أسعار المواد التي نتعامل بها الآن إلى حوالي ١٠٠ مليون دولار .

ولولا النقص في بعض موادنا ، فإن تجارتنا يمكن لها أن تتوسع إلى بلدان جديدة ومن خلال مواد أخرى .

○ هل تعتبر أن ما تقومون به يتجاوز مركزية القرار إلى ما يسمى اللامركزية ؟

ـ أجاب : فعلا إن الأمر يمكن تسميته بـ « اللامركزية » ، فإن المركز يتعامل بكميات وبمبالغ أكبر من المواد والأموال التي نتعامل بها ، في حين أننا نتعامل بكميات وبمبالغ أقل . ويترك لنا حرية اتخاذ القرار في المجالات التي ذكرتها من قبل .

أرى أن لليابان حضورها الكثيف في المنطقة ، سياحة وتجارة وصناعة ، فما هو تعليقكم ؟

ـ إن ذلك غير خاف ، وليس من الأسرار التي لا يجب الحديث عنها .

إن اليابان قريبة جدا منا ، وهي بحاجة إلى تسويق موادها ونقلها إلى أوربا ، وميناء « ناخودكا » بموقعه الممتاز ، يمكن أن يخدمها في ذلك . لذلك فإنها ساهمت ببناء الميناء الشرقي مع السوفييت ، وهي تنقل موادها بالحاويات عبر سيبيريا والأورال ، ثم إلى الموانىء السوفيتية على البحر الأسود ، ثم تنقل إلى أوروبا بعد ذلك ، وهذا الطريق أقصر ثلاث مرات من الطريق الذي يعبر قناة السويس ، وأرخص بحوالي ٣٠٪ من ناحية التكاليف .

○ كيف تنظرون إلى السياسة الاقتصادية الجديدة ؟

ـ أجاب السيد فلاديمير : إننا نرى فيها زيادة في بروز الظواهر العملية التي تستجيب أكثر إلى حاجات الناس ، كما أنها تعطي دفعا لمؤسستنا كي تنشط في توسيع مجال عملها .

حضن الوطن

يشتهر الاتحاد السوفيتي بالكافيار الذي يستخرج من بعض أنواع السمك ، وهناك نوعان من الكافيار ، نوع لونه أسود ، وهو يستخرج من الأسماك التي تعيش في بحري قزوين وآزوف ، أما النوع الآخر فلونه أحمر ، وهو يستخرج من الأسماك التي تعيش في أنهار الشرق الأقصى السوفيتي وبحاره .

طلبت من السيد أناتولي مراسل وكالة نوفوستي في مدينة فلاديفوستك أن يرتب لنا زيارة لأحد المصانع التي يجهز فيها الكافيار ، فاعتذر بلباقة ، وأكد بأن إعداد الكافيار يتم بمزارع خاصة قريبة من مدينة ناخودكا . وتبرع زميلنا بإعطائنا المعلومات المطلوبة ، فقال :

إن سمك السلمون (لاسوس بالروسية) هو السمك الذي يستخرج منه الكافيار الأحمر ، وهناك

● أم وابنتها تتابعان ما حواه متحف « ناخودكا » من وثائق ومتروكات .

نوع آخر من السمك يستخرج منه الكافيار أيضا اسمه (كيتا) بالروسية ، وهو من أثمن الأسماك .

والكافيار ما هو إلا بيض السمك ، إذ أن هذا النوع من السمك يبدأ بالعودة من المحيط إلى الأنهار التي ولد فيها اعتبارا من منتصف شهر آب ـ أغسطس ـ حتى الأيام الأولى من شهر أيلول ـ سبتمبر ـ وتضع الأنثى بيضها ثم تموت ، في حين أن الذكر يعود إلى المحيط ، ليعود ثانية بعد فترة إلى مكان ولادته لتلقيح أنثاه ، لتبدأ حياة جديدة لهذا النوع من السمك .

لقد قرأت أن هذا النوع من السمك يعود إلى حيث ولد مهما كانت العقبات ، ومهما بعدت المسافة بين المكان الذي هو فيه وبين موطنه الأصلي ؟

ـ فعلا إن هذا السمك سمك غير عادي ، كأنه مبرمج لهذا الأمر ، أو أن في أجزائه بعض الأجهزة أو الحواس الاستشعارية التي تدله على مكان ولادته ، وهذا الأمر ما زال من الألغاز التي يحاول العلماء حلها والوصول إلى تفسير مقنع لها . إن « آلية » نمو هذا النوع من السمك تتم كالآتي : بعد ثلاثة أسابيع من وضع البيض يتحول إلى سمك صغير ، ثم يكمن فترة في مكان ولادته ، إلى أن يأتي الربيع ، فيغادر موطنه إلى البحار والمحيطات ، ويبتعد آلاف الكيلومترات ، لكنه بعد ثلاث سنوات تقريبا يعود إلى حيث ولد ، ربما بدافع غريزي ، مهما كانت العقبات أمامه ، بل حتى لو وضعت السدود أمامه ، وقد أجرى العلماء هذه التجربة ، فاستمر السمك في التحايل على العوائق ، وكانت النتيجة أن السمك إما أن يموت ، وإما أنه يخترقها ويعود إلى موطنه الأصلي . وعلى العموم فإن هذا السمك لا يعيش أكثر من أربع سنوات .

على حافة المحيط

بدأنا نتجه إلى شمال غرب المدينة . الطرق ممهدة لكنها دون قار ، وبقع المياه منتشرة في الطريق ، وما زال بلل المطر يغطي الأشجار والحشائش والتربة .

حذر مرافقنا السائق : خفف السرعة ، إننا معرضون للانزلاق .

أشجار الصنوبر والأرز والباتولا وغيرها تحف بالطريق من جانبيها ، في حين أن بيوتاً قليلة كانت موزعة كيفما اتفق بين التلال التي أخذنا نصعد إليها ،

وقد اختلطت رائحة عناق المطر بالتربة بروائح بعض الورود والأشجار ، فأنتجت جوا منعشا ، زادته انتعاشا أصوات الطيور وهي تشدو وتتقافز على أغصانها .

زُرقة السماء كانت مكسوة بغلالات من الغيم الأبيض ، لكن الجو كان لا يشير إلى أن مطرا سيهطل في تلك الساعات .

ما زلنا نسير بين تلال توطنت فيها أشجار الغابات ، فتكاثرت وتكاثفت .

سألت مرافقنا عن معنى الكلمات التي كتبت على اللوحة المثبتة على جانب الطريق . فأجاب : إنها تحذر من ممارسة الصيد وإطلاق النار .

○ واللوحة التي تليها ؟

ـ إنها تلفت أنظار المرتادين إلى أنه يوجد في الغابة

بعض الحيوانات المؤذية . بدأت السيارة بالنزول تدريجيا إلى منخفض ، لنكتشف فجأة أننا أصبحنا في منطقة رملية ، وأن المحيط لا يبعد إلا أمتار قليلة عن المكان الذي وصلناه .

التلال والغابات كانت تحاذي مياه البحر وتتعانق معها ، والبحر يهدر ، والأمواج تتلاحق ، وبعض هواة السباحة لم تمنعهم البرودة النسبية للمياه والطقس من ممارسة هوايتهم . وبعض الفتيات الصغيرات كن يبنين بيوتا وقلاعا من رمال على رمال ، ليأتي الموج فيهدم البيوت الرملية ، لتعاود الفتيات اللعبة من جديد . لفت نظري وجود بعض أوراق النباتات التي تشبه أوراق الملفوف على الشاطيء ، فذكر مرافقنا بأنها بعض نباتات المحيط التي يقذفها الموج ، بعد أن تكون قد اقتلعت في الأجواء العاصفة ، وهي تحتوي على مادة « الأيودين » ومواد أخرى . وإن السوفيت قد استنبتوها في مزارع خاصة ، وأخذوا يصدرونها بعد أن وجدوا أن اليابانيين يقبلون عليها ويستعملونها في غذائهم .

● بيض سمك « السلمون » يتحول الى وجبة شهية وغالية اسمها « الكافيار » .

لفت نظري أيضا أن لباسا موحدا كانت ترتديه الفتيات الصغيرات اللواتي كن على الشاطيء ، فأفاد مرافقنا بأن الغابة المحيطة بالمكان تحتوي على خمسة معسكرات للأطفال وللفتيات والفتيان ، وأننا سنتجه إلى أحد تلك المعسكرات لزيارتها والاطلاع على النشاطات التي يمارسها روادها .

معسكر ودعايات طريفة !

مررنا على معسكرين قبل أن نصل إلى المعسكر الذي نقصده . كان محاطا بسور من خشب ، وغرفه وقاعاته مكونة من بيوت خشبية جاهزة موزعة بين أشجار الغابة .

قال لنا السيد الكسندر المشرف على المعسكر : إن مساحته تصل إلى حوالي ٢٠ هكتارا ، وهو يحتوي على حوالي ٣٠٠ طالب وطالبة ، تتراوح أعمارهم بين ٧ سنوات إلى ١٤ سنة . يمضون في المعسكر حوالي ٢٤ يوماً . ويستقبل المعسكر ثلاث دفعات في السنة من الطلبة والطالبات . والمفروض أن يدفع المشترك بإحدى الدورات حوالي ٦٩ روبلا طيلة مدة الدورة ، إلا أن نقابة البحارة تدفع ٦٠ روبلا ، ويدفع الباقي أهل الطلبة . أقامت النقابة المعسكر سنة ١٩٥٣ ، ونظرا لأن النقابة تكافيء بعض عمالها الممتازين ، لذلك فإن أبناءهم ينضمون إلى المعسكر ـ نظير المكافأة ـ دون أن يدفعوا أي روبل ، ويعمل في المعسكر ٤٥ عاملاً وعاملة ومشرفاً ومشرفة ، ويتولون تنفيذ البرامج المعدة ، من نشاطات رياضية وثقافية ومسابقات الخ . ويخضع الطلبة والطالبات لفحص طبي دوري . ويقيم في المعسكر طبيبتان وممرضتان . ويستضيف المعسكر مجموعتان من الطلبة والطالبات اليابانيين من مدينتي مايتزورو وسابوروا . ويتعود الطلبة في المعسكر على النظام والترتيب ، ويمارسون نشاطات متعددة . ويشرف على كل مجال مشرفون متخصصون .

اصطحبنا المشرف على المعسكر لتفقد نشاطات الطلبة والطالبات . كانت مجموعة منهم تؤدي مشهدا مسرحيا ، وبعضهم يعملون بعض المشغولات

● القبطان بيوتر بتشكونكين

● السيد فلاديمير .

اليدوية ، أو يتمتعون بهواية القص واللصق .

ثم مررنا على المكتبة ، فذكرت المشرفة أنها تحتوي على كتب خاصة بأدب الأطفال والصبيان ، وكتب عن المهن المتعددة ، أو الخيال العلمي ، أو كتب عن البيئة والمناخ وغيرها .

التقينا بطلبة ينقلون بعض الملابس إلى مغسلة المعسكر ، فذكر المشرف أن كثيرا من الأعمال يؤديها الطلبة والطالبات ، كترتيب الغرف من الداخل أو الملاعب أو حتى خدمة أنفسهم في المطعم ، وغيرها من الأعمال . مررنا بساحة المعسكر ، فوجدنا علمي الاتحاد السوفيتي واليابان مرفوعين فيها ، فذكر المشرف أنه نظرا لوجود فرقتين يابانيتين فإن العلم الياباني مرفوع بجانب السوفيتي ، ويؤدي الطلبة والطالبات الأغاني الروسية واليابانية معا . وأضاف : لو أننا أعلمنا مسبقا بزيارتكم لعلمّنا طلبتنا بعض الأغاني العربية . ثم زرنا العيادة الطبية ، فوجدناها مزودة بالاحتياجات المناسبة .

وذكرت الطبيبة المشرفة أن معظم ما يعاني منه الطلبة هو الرشح والزكام فقط ، أما التسمم الغذائي أو الاسهال فإنها من الأمور النادرة وغير العادية ، كما أن الطلبة الذين يعانون من بعض المشاكل الاجتماعية والنفسية يخضعون لاشراف مشرفين اختصاصيين ، أو يحولون إلى معسكرات خاصة .

تناولنا طعام الغداء مع الطلبة والطالبات فوجدناهم يقومون بخدمة أنفسهم .

○ سألت المشرف : هل ينام الطلبة والطالبات في نفس قاعات النوم ؟

ـ أجاب المشرف ان غرف الطالبات منفصلة عن غرف الطلبة ، إلا أن النشاطات مشتركة .

قبل أن نغادر المعسكر سألت المشرف : يقال بأنكم تسوقون الطلبة والطالبات إلى هذه المعسكرات ، كي تزرعوا فيهم الأفكار الشيوعية ، على الرغم من ممانعة أهليهم ؟

ـ ضحك المشرف ضحكة عالية ، وعلق : إنها أطرف دعاية مضادة لنا . لماذا نتنزع الطلبة أو نسوقهم إلى هذه المعسكرات ؟ !

إن الأفكار التي نطرحها في هذا المعسكر أو في غيرها هي أفكار موجودة في المجتمع ، بل مطبقة فيه ، وهي متداولة في المدارس ، وفي جميع

الأماكن . ثم إنني لا أبوح بسر لو ذكرت لك بأنه تقدم لهذه الدورة ما يزيد على ألفي طالب وطالبة ، فاخترنا منهم ٣٠٠ فقط . وهكذا يحدث دائما في كل دورة وفي كل عام . فكيف يحصل الاجبار ، أو انتزاع الأطفال دون رغبة أهليهم ؟ إن أهليهم هم الذين يبذلون ما في وسعهم كي يلحقوا أولادهم في هذه المعسكرات . وأنهى حديثه معلقا : حقا إنها دعايات « طريفة » تلك التي تقال عنا !

علقت : إنها دعايات الذين لا يعرفون !

عدنا من زيارة المعسكر إلى المدينة ، وتوجهنا مباشرة لزيارة متحفها . السيدة رئيسة باتوفا دليلة المتحف تولت تعريفنا بمحتوياته التي كانت موزعة على دورين .

أكدت السيدة رئيسة أن تاريخ المدينة حديث ، وأنه لا يعود إلى أبعد من سنة ١٨٥٩ ، أي السنة التي اكتشفت فيها السفينة « أميركا » الخليج ، ثم تابعت خطوات نمو المدينة . وذكرت المشرفة حالها في بداية هذا القرن ، وأثناء الحربين العالميتين ، وخضوع المنطقة لليابانيين أثناء الحرب العالمية الأولى . كل ذلك عرضته لنا الدليلة بالصور الموثقة وبالوثائق والمستندات ، ثم ذكرت وضع المدينة أثناء الحرب العالمية الثانية ، والالتفات الجدي للمكان ، وتحويله من قرية إلى مدينة ، ووضع أساسات بناء ميناء أساسي فيها للتجارة مع الشرق الأقصى وأمريكا ، ودور المنطقة في مساعدة السلطة المركزية لمناهضة النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية .

ثم أضافت السيدة رئيسة : لقد كان عدد سكان المدينة ٣٠ ألفا في بداية الخمسينيات من هذا القرن ، وها هي قد جاوزت مائة وخمسين ألفاً اعتبارا من منتصف الثمانينيات ، وما زالت تنمو بشكل متسارع .

قبل أن نغادر المتحف أوصتنا السيدة رئيسة ذات الأصول التتارية قائلة : لا تنسوا زيارة تمثال المرأة الباكية وابنها ، فالتمثال يروي جانبا من تاريخ المدينة .

أشعلت كلماتها خيالي ، فطلبت من مرافقنا أن يرتب لنا زيارة التمثال ، فعلق : إن الوقت أصبح متأخرا ، ونخشى أن لا ننجح في ذلك ، وإن أمامنا سفر طويل .

قلت : دعنا نحاول حتى ولو لدقائق معدودات .

ضيع السائق الطريق ، فأعدنا السؤال عن كيفية الوصول إلى التمثال ، إلا أن السائق ضيع الطريق مرة ثانية .

عندها رافقنا متبرع وأوصلنا إلى طريق التمثال .

حكاية البحر في تمثال

الميناء والبحر كانا أمام التمثال ، وخلفه جزء من المدينة المقامة داخل غابة ، وهو مقام على ربوة جبلة ومنسقة تنسيقاً بديعاً . طوله كان يتجاوز المترين .

سيماء الحزن والكآبة تتملك الأم والطفل ، والمرأة تشد على طفلها ، كأنها تشعر بهاجس من فقدانه . وخلف التمثال كتلة من الرخام الأحمر ، في حين أن جسد المرأة والطفل ورداءيهما نحتا من رخام أسود ، والمنظر على الرغم من سيماء الحزن البادي على المرأة والطفل ، فإن فيه جمالاً فائقاً . وقد نحت التمثال الفنان اكيون نيكوف .

سألت مرافقنا : ما هي قصة هذا التمثال ؟

علق : لقد أقيم التمثال سنة ١٩٧٨ حزنا على السفينة « بوكسيتوجورسك » التي غرقت في المحيط الهادي إثر عاصفة هوجاء في ١٩ كانون الثاني - يناير - من سنة ١٩٦٥ ، وغرق بحارتها وعددهم ٢٤ . إنه يمثل الاصرار على انتظار الغائب عله يعود .

علقت : لكنه لن يعود !

أجاب المرافق : حقا لن يعود ، لكن في إقامة التمثال تخليداً لذكرى الغائبين .

عند ذلك هلت في ذهني المفارقة : كانت « ناخودكا » ميناء خلاص للسفينة « أميركا » ذات يوم ، إلا أن هياج موج المحيط غير مرهون بوقت أو زمان ، إنه يحمل في ثناياه تناقض الهدوء والعاصفة . وقد ثارت عاصفة أخرى لاحقاً ولم تستطع « ناخودكا » إنقاذ المركب الجديد ، فغرق بمن فيه في المحيط الذي اسمه « هادىء » !

إنه البحر ، المحيط الذي لا يؤمن له . □

صرح للتدريب

شعاره خدمة التنمية ورعاية الشباب في الكويت

استطلاع : ريم الكيلاني
تصوير : سليمان حيدر

لم تكن الأعمال الحرفية والمهنية جديدة على الكويت ، فلأبنائها خبرة عريقة في هذه الأعمال ، أوجدتها ظروف البيئة والعمل في البحر والتجارة ، لكن هذه الخبرة كادت تختفي بعد ظهور النفط ، حيث بدأت الحياة الاقتصادية تأخذ مسارا جديدا ، مما أوجد الحاجة لإيجاد ما يكفي من الخبرات الوطنية الجديدة .

فكيف واجهت الكويت هذا التحدي الكبير ؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها لإيجاد طاقات شبابية ، تلبي حاجة البلاد من الكفاءات الفنية المدربة في كل المجالات ؟ وما الصعوبات التي تقف في وجه هذه الجهود ؟ وما السبل التي تتخذها الدولة لتذليلها ؟

كانت البداية تلك المراكز المسائية التي أنشأتها الدولة لتعليم المواطنين شئون التجارة ، وقد كان الاقبال عليها كبيرا ، لذا اتجهت الدولة لانشاء المدارس والمعاهد والمراكز التي اهتمت بالتعليم الفني والمهني والتدريب ، مثل المدرسة الثانوية التجارية والكلية الصناعية ، ومعهد الاتصالات السلكية واللاسلكية ومركز الكهرباء والماء لاعداد العمالة الفنية اللازمة للمرحلة الجديدة من بناء البلاد .

في أوائل السبعينات جاءت الطفرة النفطية ، فواكبها نمو اقتصادي ، أدى إلى تسارع حركة التنمية في مختلف المجالات ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى تسارع مماثل في أعداد العمالة البشرية المدربة في مستويات أعلى ، مما حدا بوزارة التربية إلى إنشاء إدارة خاصة للتعليم الفني والمهني للاشراف على المدارس التي تتبعها ، ولإنشاء معاهد جديدة للتعليم الفني والمهني للطلاب من خريجي الثانوية العامة ، تعدهم خلال سنتين ليكونوا في مستوى العمالة الفنية الوسطى في المجالات التجارية والصناعية والتربوية . وهكذا تم إنشاء معهدي المعلمين والمعلمات عام ١٩٧٢ ، وتلاهما المعهد الصحي للبنات عام ١٩٧٤ ، فالمعهدان التجاريان للبنين والبنات عام ١٩٧٥ ، فمعهد الكويت للتكنولوجيا عام ١٩٧٦ .

ومن ناحية أخرى تطورت الجهود التي كانت تبذل أيضا في مجال التدريب . فأنشئت في الوقت نفسه تقريبا الإدارة المركزية للتدريب التي ألحقت بوزارة الشئون الاجتماعية والعمل . لتشرف على معهد الاتصالات السلكية واللاسلكية ، ومعهد الملاحة الجوية ، ومركز الكهرباء والماء . ومع زيادة حركة التنمية في البلاد في بداية الثمانينيات ظهر مؤشران مهمان ، المؤشر الأول يتعلق بسوق العمل في الكويت الذي بدأ يعتمد بالدرجة الأولى على تقنية عالية ، تحتاج إلى مستويات متطورة متنوعة من العمالة الفنية ، والمؤشر الثاني هو أن نسبة العمالة الوطنية إلى جملة قوة العمل في المهن المختلفة لاتزيد عن ٢١٪ ، وتتجه إلى الانخفاض . لذا كان لابد من دفعة جديدة في مجال إعداد القوى الوطنية من أبناء البلاد . لمواجهة هذا الموقف ، فأنشئت الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب عام ١٩٨٢ . حيث قامت الهيئة بضم قطاع التعليم التطبيقي بمعاهده التابعة لوزارة التربية ، وقطاع التدريب بمعاهده ومراكزه التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية

والعمل . لتتوحد الجهود وتتضافر من أجل الارتفاع بمستوى التعليم التطبيقي والتدريب ، من أجل زيادة نسبة العمالة الوطنية في جملة قوة العمل في الكويت .

بعد ما يزيد على خمس سنوات من إنشاء الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب : ماذا أنجزت الهيئة من المهام التي أنشئت من أجلها ؟ وهل ضاقت الفجوة بين نسبة العمالة الوطنية والعمالة الوافدة في سوق العمل ؟

تنمية وتدريب

إننا نعرف أن تنمية التعليم التطبيقي مرتبطة بخريجي الثانوية العامة ، أما التدريب فيختلف ، إذ لابد لمدخلاته أن تأتي من مصادر متعددة في سوق العمل ممن يحتاجون إلى تنمية مهاراتهم وقدراتهم ، وذلك دون التقيد بأي مؤهل دراسي أو بأي مرحلة عمرية .

والتدريب وسيلة إدارية فنية علمية عملية من شأنها الوصول بالأداء الإنساني في العمل إلى أقصى كفاءة ممكنة بالشكل والأسلوب اللذين يحققان الاستخدام في شتى مجالات العمل والانتاج والخدمات ، وإعادة توزيع القوى العاملة الوطنية ، لتحقيق الإستخدام الأمثل لها ، من خلال دراسة الأعمال والوظائف وتحليلها .

كانت هذه الأفكار تراودني وأنا في طريقي لزيارة الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب لاستيفاء المعلومات ، وزيارة قطاع التدريب ، وهو القطاع الذي نعنى باستطلاعه ، وقد كان في استقبالنا المهندس حمود المضف نائب المدير العام وقد بادرنا قائلا :

« إن ما تلاقيه الدورات التدريبية من نجاح قد جعل جهودنا تتضاعف ، لتزيد من اهتمامنا بحجم التدريب ونوعه ، حتى أصبحت خططنا طموحة ، تواكب معظم احتياجات قطاعات العمل المختلفة وتطلعاتها ، محاولين بذلك جعل القدرات الضخمة ينبوع ماء لا ينضب » . .

يضم قطاع التدريب بالهيئة ثلاثة أنواع من التدريب ، النوع الأول : التدريب الأساسي ، ويندرج في هذا النوع الدورات الخاصة .

والنوع الثاني : برامج التدريب للعاملين أثناء الخدمة .

أما النوع الثالث : فبرامج خدمة المجتمع .

وقد آثرنا بدء زيارتنا بجولة في مراكز التدريب التابعة لكلية الدراسات التكنولوجية ، وقد استجاب السيد المضف لرغبتنا ، فصحبنا في جولتنا ، حيث اطلعنا على هذه المراكز التي زودت جميعها بالمختبرات المجهزة وفق أحدث التصميمات العلمية ، إلى جانب الورش التي امتلأت بأدوات ومعدات تجعل المدرب والمتدرب قادرين على أداء العمل على الوجه المطلوب .

وكان الطلاب المتدربون يتابعون شرح المدرب على الجهاز الموجود أمامهم ، بينما وقفت مجموعة أخرى تستمع للشرح النظري ، وقد أسعدنا أن نرى الجيل الجديد من الفتيات وهن يتابعن دروسهن بجانب الفتيان مشتركين جميا في الدراسة والفحص والإصلاح والمتابعة .

التدريب الأساسي

أول أنواع التدريب وأكثرها أهمية هو التدريب الأساسي الذي يعتبر أحد المحاور الرئيسية لأنشطة قطاع التدريب ، وهو يهدف إلى إعداد « الكوادر » الفنية التي تدخل سوق العمل لأول مرة وتأهيلها ، وبذلك يحقق زيادة مستمرة في حجم القوى العاملة في البلاد كمّاً ونوعاً ، ويتمثل هذا النشاط في إقامة الدورات التدريبية المنظمة في مراكز التدريب المختلفة ، وتتسم هذه الدراسات بطول المدة ، حيث تتراوح مدتها بين سنة وسنتين ، متضمنة فترة التدريب الميداني بأماكن العمل . وتؤهل الدورات الخريج للعمل مباشرة لدى الجهة المستفيدة ، حيث يتم تعيينه على درجة وظيفة استثنائية .

وتتم دورات التدريب الأساسي في المراكز التالية : مركز الاتصالات السلكية واللاسلكية : ويتدرب فيه الطالب على كيفية صيانة أجهزة الاتصالات السلكية ، وتشغيلها ، تمهيدا للعمل في

● الطلاب المتدربون يتابعون باهتمام شرح أساتذتهم في أقسام الهيئة المختلفة ، فترى الفتيات يقمن بأعمال اللحام ، وتوصيل الدوائر الكهربائية ، بينما يتابع الطلاب شرحا تفصيليا لأعمال الميكانيكا ، الى جانب الشرح النظري والتدريب على الأجهزة

وزارة المواصلات أو في الإذاعة أو التلفاز بوزارة الإعلام ، كما يتخرج في هذا المركز فنيون متخصصون في مجالات الطيران ، مثل الإشراف على الحركة الأرضية للطائرات ، والحركة الجوية ، عند الإقلاع والهبوط ، إضافة إلى صيانة الأجهزة ، والمساعدات الملاحية ، وتوفير البيانات الضرورية لسلامة عملية الطيران . وقد كان الإقبال على هذا المركز كبيرا . وقد حاول أحد الطلبة المتدربين تفسير هذا الإقبال قائلا : « إن العمل في مجال الطيران ممتع جدا ، ويكاد يكون عملا رئيسيا هذا الذي نقوم به على مدرج المطار » .

أما المتدربون على أجهزة الاتصالات فقد كانوا جميعهم يضعون سماعات على آذانهم ويتابعون خطوطا وأصواتا خاصة على شاشة تلفازية أمامهم ، وبين فترة وأخرى يقوم طالب منهم بعلاج عطل يقع في الجهاز الموجود أمامه بمجرد اكتشافه لمكان الخلل .

انتقلنا بعد ذلك لزيارة مركز تدريب الكهرباء والماء الذي يتولى تدريب الكفاءات الفنية المتخصصة وتأهيلها في التشغيل والصيانة والمراقبة لمحطات توليد القوى الكهربائية وتقطير المياه ، وهذا المركز لايقل أهمية عن سابقه . وقد كان الطلاب يقفون حول المولدات والمحركات على شكل دائرة ، يستمعون لشرح أستاذهم ، ويتابعون كيفية تشغيل المولدات الكهربائية والمحركات وصيانتها .

أما مركز التدريب الصناعي فقد كان المحطة الأخيرة لجولتنا في كلية الدراسات التكنولوجية .

ولهذا المركز جهود ضخمة في تأهيل « الكوادر » الفنية الوطنية التي تحتاجها قطاعات العمل . وتنظم في هذا المركز دورات لمساعدي الفنيين في مجالات الخراطة واللحام وصيانة أجهزة التشغيل والقياس ، ودورات في التمديدات الكهربائية ، والديزل والسيارات . وفي إحدى ورش العمل التقينا بأحد المتدربين ، قال : « أحببت الأعمال اليدوية التي تتعلق بإصلاح العطب الكهربائي أو الكشف عن العطل في سيارة أو جهاز منذ الصغر . ولم تكن المدرسة تشبع لدى تلك الرغبات . وقد وجدت في هذه المراكز ضالتي . فبدأت أتعلم كيفية معالجة الأمور بطريقة عملية أفضل . »

وقالت طالبة كانت تتدرب على آلة اللحام : « لم تعد الأعمال اليدوية حرفة مقصورة على الرجال ، فأنا وزميلاتي نحرز نتائج متفوقة ، كما أننا لانجد صعوبة في التدريب على أي عمل يدوي . »

الدورات الخاصة

تمثل دورات التدريب الخاصة قناة رئيسية لأنشطة قطاع التدريب بالهيئة ، حيث يتم من خلالها تأهيل « الكوادر » الفنية المتخصصة لقطاعات ومجالات متنوعة ، ويشرف عليها قطاع التدريب الأساسي .

وقد كان لنا لقاء مع الأستاذ حسين العطار المسئول عن هذه الدورات . وقد تحدث عن فلسفة الدورات الخاصة ومفهومها قائلا : تنظم الدورات الخاصة بناء على طلب إحدى جهات العمل التي تريد لبعض العاملين فيها أن يحصلوا على خبرة أو مهارة جديدة من نوع خاص . لترفع من كفاءتهم المهنية . ويمكن أن تقام مرة واحدة أو عدة مرات خلال سنوات متتالية . ويلتحق بها متدربون جدد أو موظفون . ويقبل حملة الشهادة الثانوية العامة في هذه الدورات التي تستمر مدة سنتين كاملتين ، كما أن هناك دورات مدتها سنة واحدة ، تؤهل مستويين من المتدربين :

المستوى الأول للفنيين . كفني طوارىء طبية أو رسام هندسي . أما المستوى الثاني لمساعدي الفنيين فممن أكملوا المرحلة المتوسطة ، ويتخرج المتدرب ليعمل مساعداً في عيادة خارجية ، أو مراقب مبانٍ ، أو مشغل ماكينات بحرية .

وللاطلاع على أنشطة المتدربين هذه المرة كان علي أن أزور المستشفيات ، وهناك تابعت نشاطهم وهم يقومون بعملهم في الإسعافات ، وقد كان بعضهم يتدرب على كيفية نقل المريض إلى سيارة الإسعاف أو القيام بالإسعافات المناسبة للمريض حتى وصوله إلى المستشفى ، وذلك تمهيدا للعمل في مجال الطوارىء في المراكز الصحية وفي مستشفيات أو مستوصفات أو مجمعات صحية .

تنشيط الذاكرة

التدريب أثناء الخدمة هو ثالث أشكال التدريب وأكثرها قدرة على إدارة الأعمال الإنتاجية وتشغيلها ، وهو يختلف عن التدريب الأساسي في أنه نوع من التدريب التنشيطي للعاملين في أي مؤسسة من مؤسسات الدولة،ويمكن أن يقدم هذا التدريب أيضا للعاملين في الهيئة العامة نفسها . ويهدف إلى رفع كفاءة العاملين أثناء الخدمة وانتاجيتهم لمواجهة التطور الذي يحدث في الأجهزة والمعدات وأساليب العمل في هذه المؤسسات ، لأننا نعيش في عصر يشهد تطوراً مذهلا في العلوم والتقنية كل عام بل كل يوم .

وعن نتائج هذه الدورات ووقعها في سوق العمل قال السيد العطار : « يحقق هذا النوع من التدريب الواقعية بالتفاعل مع ظروف العمل ومجالاته وتطلعات أفراد القوى العاملة الوطنية ، الأمر الذي يكفل المساهمة الحقيقية في حل مشاكل العمل ، والارتفاع بمستوى الأداء والانتاج .

خدمة المجتمع

النوع الأخير من أنشطة قطاع التدريب الحية برامج خدمة المجتمع والتعليم المستمر التي تشمل المجالات التقنية والإنسانية والتجارية والصحية ومجال الفنون . وهي تتوجه إلى كل أفراد المجتمع لإثراء قدراتهم وتنميتها دون اعتبار للسن أو للمؤهل الدراسي . وقد التقينا بالسيد غلوم العطار مدير مكتب خدمة المجتمع والتعليم المستمر الذي حدثنا عن خصائص دورات خدمة المجتمع فقال : « تعمل هذه الدوارات على صقل مواهب الأفراد وتنمية قدراتهم وتطوير أساليب حياتهم وتعويدهم الاعتماد على النفس . وذلك بالتأكيد على المهارات اليدوية للفرد ورفع مستواه الاقتصادي ، مما يقلل من الاعتماد على العمالة الوافدة . وتقوم الهيئة بإصدار دليل دراسي يتضمن البرامج النظامية التي سيتم تنفيذها خلال التدريب الذي يشمل معظم احتياجات الأفراد ومتطلباتهم بالمجتمع ، متفاعلة مع البيئة المحيطة به . وتستغرق مدة كل برنامج شهرين . ويتم تنفيذ برامج خدمة المجتمع بالكليات والمراكز التدريبية التابعة للهيئة . حيث تتوافر هيئات تدريسية وأخرى تدريبية » . وقد طلبنا من السيد العطار القيام بجولة لمشاهدة الحلقات الدراسية المقامة حيث القاعات الدراسية المتعددة والورش والمختبرات المجهزة بأحدث المعدات والخامات .

مربط الفرس

تبقى الهيئة بكلياتها ومراكزها هي الجهاز الوطني الوحيد المسئول عن تحديد احتياجات سوق العمل من العمالة الفنية ، وإعداد هذه العمالة بالنوعيات والمستويات اللازمة لتلبية هذه الاحتياجات ، وتوشك هذه النقطة أن تكون مربط الفرس في سياسة الهيئة . فإلى أي مدى نجحت الهيئة في تحقيق هذا الهدف الوطني الكبير . أو على الأقل اقتربت من تحقيقه ؟

كان لابد لنا بعد هذه الجولة بين مراكز التدريب في الهيئة ومعاهدها والحوار مع المسئولين عن قطاعات التدريب بأنواعه المختلفة من العودة إلى المهندس حمود المضف للوصول إلى إجابات عن تساؤلاتنا حول هذه النقطة ، وحول أهم الصعوبات التي تواجه الهيئة وسياساتها لتذليل هذه الصعوبات . قال المهندس المضف : أثبتت الدراسات التي أجريت على بعض قطاعات العمل في الكويت أن هذه القطاعات تحتاج إلى حوالي ٣٣٧٠٠ من الأيدي العاملة ، بينما تنحصر قدرة الهيئة في تخريج ١٠٫٠٠٠ من العمالة الفنية الوسطى ، وهذا يشير إلى حجم التحدي الذي يواجه الهيئة . إذ أن قدرة الهيئة على سد النقص من احتياجات الدولة إلى العمالة الفنية الوسطى من أبناء البلاد ما تزال في حدود ٣٠ ٪ من هذه الاحتياجات .

وأضاف : « إن نظرة المجتمع للعمل اليدوي وللمهن التقنية سبب أساسي في عزوف الشباب الكويتي عن الإقبال على التعليم التقني والتدريب المهني . »

ولاشك أن مواجهة هذه الصعوبة والعمل على تغير النظرة الاجتماعية للتعليم التقني والتدريب

تحتاج إلى جهود مكثفة ، تشترك فيها كل مؤسسات الدولة ، لأن المشكلة وطنية بالدرجة الأولى . وتهم كل جهات العمل ، كما تهم الشباب نفسه ، وابتداء لابد من وجود حملة إعلامية مكثفة مستمرة لتعريف أفراد المجتمع بأهمية التعليم التطبيقي والتدريب المهني في تحقيق خطط التنمية الشاملة ونهضة المجتمع ، وإعطاء استقلال الدولة معناه الحقيقي .

تأتي بعد ذلك وسائل كثيرة ، منها : ترغيب الشباب الكويتي بالالتحاق بكليات الهيئة ومعاهدها ومراكزها من خلال رفع المكافآت التي تمنح لطلاب تلك الكليات ، ووضع سلم لأجور خريجي هذه المعاهد وتلك المراكز ، تتناسب مع حاجة البلد للتخصصات المختلفة ، وفتح مجالات النمو الدراسي والمهني أمام العناصر الممتازة من خريجي معاهد الهيئة ومراكزها ، والاهتمام ببرامج التعليم التطبيقي والتدريب الخاصة بالمرأة للمشاركة في مسيرة التنمية ضمن التخصصات التي تنسجم مع طبيعتها ، وأخيرا لابد من التعاون الوطيد من سوق العمل في التخطيط ، وحصر الاحتياجات ، لأنه المستفيد الوحيد من مخرجات التعليم التطبيقي والتدريب .

وهذه خطة التدريب للعام القادم التي أعدتها الهيئة لتعطي دلالة واضحة ومؤشراً للتطور والتوسع في أنشطة التدريب .

نوع نشاط التدريب	عدد التخصصات	عدد الدورات أو البرامج	عدد المتدربين أو المشاركين
التدريب الأساسي لاعداد «الكوادر» الجديدةوتدريبها	١٠٤	١١٤	٣٥٥٥
التدريب أثناء الخدمة لتطوير العاملين بالدولة	٤٦	٧٠	٨٤٠
برامج خدمة المجتمع لاعداد المواطن لمتطلبات الحياة العصرية	٣٦	٨١	٣٩٤٠
دورات تدريبية لتطوير العاملين بالهيئة	٣٠	٨٠	١٥٠
الاجمالي	٣١٦	٣٤٥	٩٤٨٥

إن قطاع التدريب يقوم حاليا بتحليل كل احتياجات الدولة من القوى العاملة المدربة تمهيداً لوضع خطة خمسية طموحة ، تؤكد على توفير « الكوادر » الفنية المطلوبة كمًّا ونوعاً ، وخاصة أن احتياجات سوق العمل من فئات العمالة الوسطى في تزايد مستمر .

وعن الخطط المستقبلية لإنشاء كليات أو مراكز جديدة في الهيئة قال المهندس المضف : « إن الأوضاع المالية لمنشآت الهيئة لاتتناسب ومتطلبات العملية التعليمية والتدريبية ولا تتفق وطموحات الهيئة ، وإن كانت مشاريعنا الانشائية المستقبلية ما تزال في مرحلة الدراسات الأولية ، مثل مشروع إنشاء كلية الدراسات التجارية ، وكلية العلوم الصحية ، ومشروع توسعة كلية الدراسات التكنولوجية ، ومركز تدريب الكهرباء والماء . ولم ينفذ من هذه المشاريع سوى مشروع واحد هو كلية العلوم الصحية للبنات التي ستبدأ الهيئة باستغلالها بطاقة استيعابية تبلغ ٥٠٠ طالبة » .

وتسير عملية تطوير الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب على قدم وساق ، لكي تصبح الهيئة مصنعا للرجال ودعما للتنمية الشاملة وطريقا لبناء مجتمع ، يتطور وينهض بجهود أبنائه القائمة على العلم والخبرة والقدرة على التعامل مع أحدث أجهزة العصر ومعداته . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- صفحات مجهولة من تاريخ الحركة النسائية

- عناد الطفل.. هل هو دليل ذكاء؟

صفحات مجهولة من تاريخ الحركة النسائية

خرجن من الشام وارتفع صوتهن في القاهرة

بقلم : شفيق العمروسي *

من الأفكار الشائعة حول النهضة النسائية العربية أنها بدأت بدعوات قاسم أمين ، لكن هذا المقال يكشف عن جانب آخر من عملية تحرر المرأة في الربع الأخير من القرن الماضي ، هو إسهام المرأة في تلك العملية . وهو ـ كما يرى الكاتب ـ إسهام سابق على دعوات قاسم أمين .

من الملفت للنظر أن أغلب الكتابات التي تعرضت للنهضة النسائية العربية ، تبدأ من عند قاسم أمين وكتابه « تحرير المرأة » (١٨٩٩) ، وان رجعت إلى الوراء قليلاً ، فإنها تكتفي بإشارات سريعة لرفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق .

وقد أدى هذا الموقف ـ الذي جعل من قاسم أمين طفرة فجائية ـ إلى اتجاهين في غاية الغرابة ، أولهما ذهب الى إغفال الارهاصات التي ظهرت ببلاد الشام ، ثم انتقلت الى مصر ، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر التي اضطلع بها نساء وفتيات ورجال ، في سبيل ما أطلق عليه وقتذاك « ترقية حال المرأة » ، أما الثاني ، فقد نظر إلى الكتاب وصاحبه نظرة شك ، بل وجعله البعض نتاج مؤامرة شارك فيها الشيخ محمد عبده والأميرة نازلي فاضل !

ولا يعني هذا أننا نغفل الدور الريادي الذي لعبه قاسم أمين (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨) ، أو الدفعة التي

* كاتب من القطر المصري

أعطتها باحثة البادية (١٨٨٦ ـ ١٩١٨) لقضية المرأة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي ، فقد كان لها الفضل في نقل هذه القضية من موضوع نقاش يدور داخل الصالونات الأدبية ، وعلى صفحات الصحف ، الى مسألة تهم ، ويتحدث ويتجادل بشأنها رجل الشارع ، ثم إن قاسم أمين بكتابيه « تحرير المرأة » ١٨٩٩ ، « والمرأة الجديدة » ١٩٠٠ ، استطاع أن يقفز بمشكلة المرأة قفزة هائلة إلى الأمام ، حين لم يتوقف فقط عند الوضع الرهيب للتخلف الذي كانت تحياه النساء في ذلك الوقت ، وانما مد بصره ليبحث في علاقة ذلك بالبناء الاجتماعي والنظام السياسي ، أو كما أوضح « هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية . . فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية ، والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية . . ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل والرجل في رق الحكومة . . وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية ، يتمتع الرجال بحريتهم السياسية . . فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا » . وقد مكنه هذا الفهم من تقديم تحليل نفذ إلى صميم البناء الاجتماعي ، مما أشعل موجة عارمة من الهجوم ضده .

بدايات تعليم البنات

وقد وجد الرجل الشرقي أمامه صورة مغايرة ، بل ومناقضة لصورة المرأة كما تعودها ، كما وجد أمامه علاقة بين الرجل والمرأة تختلف اختلافا جذريا عما اعتاده في علاقته مع زوجته أو قريباته . وقد كان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد لو بقي أمر الالتقاء أو الصدام محصوراً داخل دائرة أفراد الطبقة الحاكمة ، الا أننا نجد اهتمام محمد علي بالتعليم واعتماده على الخبرات الأجنبية في اقامة مؤسسة تعليمية جديدة ، ثم اهتمامه بإيفاد البعثات إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنمسا ، قد أدى هذا بشكل عام إلى تكوين طبقة جديدة من المتعلمين ، بدأت تبحث عن وسائل وشروط النهضة ، ولعلها بما

ـ قاسم أمين

رأته أو تعلمته في أوروبا ، أو بما تعلمته على أيدي الاجانب في مصر ومن خلال علاقاتها بهم أخذت تبحث أيضا عن النموذج الأنثوي المناسب للاقتران بالرجل المتعلم ، وقد كانت هذه إحدى القضايا التي أثارها فيما بعد قاسم أمين في كتابه « تحرير المرأة » والمهم هنا أن عملية المقارنة بين المجتمعين الأوروبي والمصري أو الشرقي بوجه عام شملت كل شيء ، وأن الاحساس بوجود فجوة بين المجتمعين امتد لكل شيء ، ولم يكن وضع المرأة بمنجاة من ذلك ، ويمكن القول أنه خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بدأ يتكون رأي عام ـ بين المتعلمين على الاقل ـ يدعو ولو بهدوء وعلى استحياء الى ضرورة تغيير حال المرأة ، ومن الطبيعي الا يظهر هذا الرأي بشكل واضح في ظل مجتمع كانت أغلبيته تنظر الى أي همسة للمرأة نظرة شك وارتياب ، ولهذا كان أقصى ما يمكن طرحه في ذلك الوقت هو حديث رفاعة الطهطاوي في كتابه « تخليص الابريز » ١٨٣٤ عن المرأة الفرنسية ومكانة الحب في المجتمع الباريسي ، والمساواة بين الجنسين ، أما أقصى ما يمكن الاقدام

عليه خلال تلك الفترة فهو تأسيس مدرسة لتعليم فن الولادة . وهي المدرسة التي أنشأها محمد علي ولم تجد لها تلميذات إلا السودانيات والحبشيات . وفي نفس العام الذي صدر فيه كتاب الطهطاوي السالف الذكر . أي ١٨٣٤ . افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات في بيروت . وكانت تتبع إرسالية تبشيرية أمريكية . ومن الملفت للنظر أنه بعد حوالي عشر سنوات افتتحت في القاهرة أول مدرسة لتعليم البنات . وكانت تتبع أيضا إحدى البعثات التبشيرية بشكل مطلق . وذلك لعدة اعتبارات . فهي قد ساهمت ـ على الأقل في تلك الفترة ـ بمد حركة النهضة والحركة الوطنية بكثير من قادتها وعناصرها . ثم إنها قد استفادت من المناخ العام الذي يسر لها التواجد والاتجاه نحو تعليم الفتيات (سماحة ابراهيم باشا ومحاولته تقليد والده في ارساء دعائم دولة حديثة ببلاد الشام أثناء حكمه لها من ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ . وفي مصر مساعدة سعيد باشا ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ على نشر التعليم الاجنبي وإكماله ومحاربته للتعليم الوطني) . وبجانب ذلك فقد أدى وجود هذه المدارس التبشيرية إلى دفع الأهالي إلى فتح مدارس خاصة للبنات . وفضلا عن ذلك كله فان وقائع التاريخ لا ينبغي إهمالها لمجرد عدم رضانا عنها . وإنما ينبغي أن نزيل التراب المتراكم عليها . ونعيد فحصها بموضوعية . لاشك أنها سوف تدفعنا الى فهم أكثر وضوحاً لواقعنا . خاصة وأن قضية المرأة العربية مازالت مطروحة للبحث . بل وما زالت بيننا أصوات تدعو لعودة الحريم !

والمهم في هذا كله أن الاتجاه نحو تعليم الفتيات أخذ يسير قدما . وبدأت حركة منافسة ـ وان كانت بطيئة ـ تظهر بين أهالي الشام ومصر وبين البعثات التبشيرية . ثم أيضا بين البعثات الأجنبية بعضها والبعض الآخر . فنجد أن السيدة جشم افت هانم . الزوجة الثالثة للخديو إسماعيل تنشيء المدرسة السيوفية للبنات ١٨٧٣ . وقد بدأت بحوالي مائتي تلميذة . تضاعف عددهن في العام التالي . ثم نجد

ـ هنا كوراني

ادارة الأوقاف تؤسس مدرسة القربية ١٨٧٤ . وحتى عام ١٨٧٥ وصل عدد التلميذات بالمدرستين إلى ٤٤٥ تلميذة . وفي نفس الفترة قام الاقباط في مصر بتأسيس مدرستين لتعليم الفتيات عام ١٨٧٦ .

ولكن الملاحظ أن عملية تعليم الفتيات اقتصرت على ما يخدم الرجل . ولم تخرج عما حدده أحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي . فالأول في كتابه « الساق على الساق » ١٨٥٢ لم يستطع التخلص من فكرة المرأة الادنى درجة من الرجل . ولكنه أباح لها تلقي بعض المعارف لكي يتمكن الرجل من التحدث معها . أما الطهطاوي فقد كتب « المرشد الأمين للبنات والبنين » ١٨٧٢ . وتحدث عن أهمية تعليم الفتاة . ولكنه حدده في أمرين . الأول يساعدها لكي تصبح زوجة صالحة . والثاني للقضاء على وقت الفراغ الذي هو مفسدة لها . ولكنه في ثنايا كتابه أعطى للتعليم أهمية أخطر حين جعله وسيلة تمكن المرأة من العمل لو اقتضاها الحال . ولا شك أن الطهطاوي كان أكثر اهتماما بقضية المرأة من الشدياق . إلا أنه ـ كما يبدو واضحا من كتابه ـ كان يحرص على عدم خدش الشعور العام .

وينبغي أن نشير هنا إلى أن مسألة تعليم الفتيات ظلت طوال تلك الفترة مقتصرة على الأسر المقربة من

ـ أنيسة شرتوني

ـ الكسندره افيرينوه

ـ باحثة البادية

العائلة الخديوية وأسر كبار الموظفين ، والأجانب المتمصرين ، ونفس الأمر تقريبا كان في بلاد الشام إذ اقتصر تعليم الفتيات على بنات الأسر الكبيرة والعائلات الحاكمة ، أما السواد الأعظم من فتيات الطبقة الوسطى والطبقات الشعبية ، فلم تكن لديهن أي حاجة للتفكير في التعليم ، اذ كيف يفكرن في مثل هذا الأمر بينما فتيان وشباب نفس الطبقة لم يعرف أغلبهم طريق المدرسة .

وبدأت المرأة تكتب عن قضيتها

وهكذا نجد أنفسنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمام طبقة جديدة من المتعلمين والمتعلمات ، وبالطبع مازال الحجاب موجودا ، وما زال هناك مجتمع للرجال وآخر للنساء ، إلا أن الجديد في الأمر أنه أصبح لدينا من النساء من تستطيع أن تفهم ما يعنيه حديث زوجها عن النهضة ، ومن تستطيع قراءة صحيفة أجنبية ، ثم أصبح هناك من يستطعن الآن الحديث عن دور المرأة في النهضة المرتقبة والأهم من ذلك كله أن نجد منهن من يمسكن بالقلم ويعبرن عن رغبة عارمة لرفع شأن المرأة .

ولقد كانت بداية العمل الصحفي للمرأة في بلاد الشام ، وكانت المقتطف في إصدارها الأول من بيروت عام ١٨٧٦ ـ قبل انتقالها إلى القاهرة ـ هي أول صحيفة تفتح صفحاتها لأقلام نسائية . ومن الطريف أن المجلة كانت تنشر مقالاتهن دون توقيع ، ولم يكن لهن الحق في التعبير عن أفكار نسائية ، بل وأحيانا كانت تنشر هذه المقالات تحت عنوان « ترجمات من بعض الصحف الأجنبية » . وقد كان من الممكن أن تتمخض هذه البداية عن حركة نسائية قوية لولا أن الظروف التي تعرضت لها بلاد الشام حينذاك من فتن طائفية وتقييد للحريات قد حالت دون ذلك ، ولهذا لم تشهد بلاد الشام حتى مجرد ظهور مجلة نسائية ، رغم وجود عدد كبير من الكاتبات ، ومن المعروف أنه حتى صدور مجلة العروس ١٩١٠ بدمشق ، والتي أصدرتها ماري عجمي ، لم يكن السلطان يسمح بإصدار أي مجلة أو صحيفة نسائية « لأن ذلك يعتبر خروجا عن الديانة والعادات الاجتماعية الاسلامية » . ولم ينج من هذا الحصار سوى الكاتبة الحلبية مريانا مراش حيث نشرت ديوانا من الشعر بعنوان « بنت فكر » ١٨٩٣ . أما السر في منحها رخصة هذا الديوان فيتلخص في أنها هنأت بشعرها السلطان عبد الحميد حين صار سلطانا ، وهنأت والدته ، كما مدحت مدحت باشا والي حلب .

وكانت ظروف بلاد الشام قد دفعت عدداً كبيراً من المفكرين ، خاصة بعد أحداث ١٨٦٠ الى الهجرة الى مصر حيث كان المناخ العام يتمتع بحرية نسبية ، وبالطبع شملت تلك الهجرة عائلات بأكملها ، وكان من بينهم من تلقت التعليم أو حصلت على إجازة دراسية ، وسرعان ما عرفت مصر أسماء كاتبات أمثال هند نوفل ، وزينب فواز ، وهنا كوراني وألكسندرة الخوري وغيرهن ، يكتبن في الصحف المختلفة ، ويصدرن صحفاً نسائية ، ويتحدثن عن دور المرأة في المجتمع .

الصحافة النسائية

كانت الصحافة هي أفضل وسيلة لمخاطبة الرأي العام قرب نهاية القرن التاسع عشر ، ولذلك ترتبط أسماء كل رواد النهضة ـ على اختلاف اتجاهاتهم ـ بأسماء الصحف ، ولذلك أيضا ، فمن الطبيعي أن تهتم الكاتبات لعرض قضيتهن بالكلمة المطبوعة .

ولهذا اقتصرت الدعوة على كتابة المقالات وإصدار الصحف ، بالاضافة الى ما كان يدور من أحاديث داخل الصالونات الأدبية . ففي أواخر القرن الماضي بدأت أكثر الصحف تفتح صفحاتها للأقلام النسائية مثلما نرى على صفحات المؤيد والنيل والأهالي والهلال والمقتطف وفرصة الأوقات في مصر ، وصحيفة لبنان في بلاد الشام ، إلا أن الخطوة الجريئة التي أقدمت عليها المرأة تمثلت في إصدارها لصحف نسائية خاصة ، ولهذا نجد أنه في نهاية هذا القرن تشهد مصر صدور أربع مجلات نسائية ، والملاحظ أن ثلاثا من هذه المجلات أصدرتها نساء (الفتاة ١٨٩٢ أصدرتها هند نوفل ، أنيس الجليس ١٨٩٨ أصدرتها ألكسندره دي أفرينوه ، العائلة ١٨٩٩ أصدرتها استير مويال) . أما الرابعة « مرآة الحسناء » ١٨٩٦ فقد أصدرها سليم سركيس تحت اسم مستعار هو مريم مظهر .

وسوف تزداد الصحف النسائية بشكل واضح حيث نجد أنه منذ بداية القرن التالي وحتى قبيل ثورة ١٩١٩ (الفترة من ١٩٠١ الى ١٩١٥) تصدر بالإضافة الى ما سبق اثنتا عشرة مجلة نسائية ، منها عشر مجلات تصدرها سيدات ، ومجلتان يصدرهما الرجال .

وقد شهدت الصحافة آنذاك عديداً من المعارك والمناقشات والتى كانت تدور في معظمها حول مسألة تعليم المرأة ، وصحيح أننا نجد كتابات عن الطلاق والمساواة بين الجنسين ، الا أنها غالبا ما كانت تعالج من منطلق قضية التعليم ، أما قضية الحجاب فلم يغامر أي قلم سواء من النساء ، أو الرجال من أنصارهن بالاقتراب منها ويبدو أن المرأة كانت تضع نصب عينيها ألا تخيف الرجل بمطالبها ، فقد كانت تتحرك في حمايته وبتشجيع منه ، ولهذا فقد كان التعليم هو الطريق لاستمالته ، فهي حين تطالب بالتعليم فإن ذلك لأجل توفير الزوجة المثالية ، وحتى حين تتحدث إحداهن عن الحب فهو لأجل أن يجد الرجل من تبادله الحب بشكل صحيح .

اتجاهات وتناقضات

والمتأمل لحركة المرأة في تلك الفترة يمكنه أن يتلمس تحركها في اتجاهين ، الأول ينحو باتجاه تقليد الغرب ، ويرى أن ترقية حال المرأة العربية أو الشرقية لن يكون إلا بأن تصبح مثل مثيلتها الغربية .

أما الاتجاه الثاني ، وهو اتجاه يمكن أن تمثله زينب فواز (١٨٦٠ ـ ١٩١٤) فقد رفض منطلق الاتجاه السابق ، واتجه إلى البحث عن التجديد من خلال تطوير الذات .

ولزينب فواز مواقف متعددة وآراء كثيرة ـ أدت بها إلى الدخول في معارك شتى ـ لم تتوقف عند قضية المرأة وإنما امتدت إلى القضية الوطنية ، فهي تعتبر من ناحية أول صوت نسائي يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، كما أنها من ناحية أخرى تمثل أول صوت نسائي يدعو الى مقاومة الاحتلال ، فكانت دعوتها النساء إلى مقاطعة البضائع الاجنبية ، ودعوتها الرجال الى تكوين الأحزاب لكي « تناضلوا مدافعين عما لكم من حقوق » . والأكثر من ذلك أن دعوتها كانت « راديكالية أكثر منها إصلاحية » . □

عناد الطفل ... هل هو دليل ذكاء ؟

بقلم : الدكتور نبيه الغبرة

شكوى الأم من عناد طفلها أمر طبيعي ، ولكن خلف هذا السلوك الطفولي محل الشكوى ـ تتكون شخصيه هي شخصية الطفل .

من الشكاوى التى نسمعها كثيرا ـ نحن اطباء الأطفال ـ والتى تدل على سلبية الطفل وعناده بشكل صريح قول الأم :

إن ابنى شديد العناد ، ولا ينفذ إلا ما يحلو له .

إن ابنى لا يسمع لى كلمة .

إن ابنى صعب المراس ، لم أترك وسيلة لجعله مطيعا ولكننى لم أفلح.ان ابنى مشاكس بطبعه ولا يفعل إلا عكس ما أطلبه منه .

لقد كان ابنى ملاكا لطيفا ودودا عندما كان صغيرا أما الآن فهو يعذبنى كثيرا .

كما نسمع شكاوى أخرى ، تعود أسبابها إلى سلبية الطفل وعناده ، ولكن الأم تظن أن السبب يكمن فى علة مجهولة منها قول الأم : إن ابنى يكاد يفقدنى عقلى . وعندما أخذه ليبول فإنه لايفعل ، بل ينتظر حتى أنهضه فيذهب ليبول خلف السرير ، أو فى إحدى زوايا البيت .

إن ابنى مصاب بقلة الشهية فهو يرفض أى طعام مهما كان لذيذاً، أو لا يريد إلا الرضاعة .

إن ابنى يرفض تناول الحليب نهائيا ، بل يرفض كل طعام أو شراب أبيض اللون .

وأمثال ذلك كثيرة .

فهل هذه الظاهرة طبيعية ؟ وما هى أسبابها ؟

يقول بعض علماء النفس إن الطفل عندما يدخل في مرحلة الطفولة الأولى ، ابتداء من السنة الثانية من العمر وحتى نهاية السنة الثالثة ـ وهي التي يسمونها باللغة الإنجليزية بمرحلة « الطفل المتعثر في مشيه » لأن الطفل يبدأ بالمشي المتعثر فيها ـ يصبح شديد الإعتداد بنفسه محبا الاستقلال بأموره . وإذا ماجابه تدخلا أو معارضة كان عدوانيا سلبيا لدرجة إصابته بسورات الغضب وإظهار العصبية الشديدة .

ما تعليل ذلك ؟ . حسبما يرى علماء النفس هؤلاء أن الطفل يشعر في هذه المرحلة بتفتح قدراته الجسمية والعقلية ، فقد أصبح قادراً على المشي والتنقل وقادرا على الاختيار والاستقصاء ، وبدأ يحسن التكلم والتعبير ، وأصبح يفهم الشيء الكثير عن محيطه وبيئته ، ويعقد صلات الصداقة مع أقرانه ، وهو يريد أن يثبت وجوده ، وأن يثبت أقدامه ، بل وأكثر من ذلك يريد أن يكون محط أنظار الجميع . وباختصار ، إنه يريد أن يتصرف كأي شخص آخر له اعتباره واحترامه وشخصيته المستقلة .

وهذا يعني أن سلبية الطفل وعناده دليل نمو شخصيته وازديادها قوة ومنعة لا دليل شذوذه وانحرافه . هي دليل صحة لا دليل مرض .

الطبيب والطفل

إن هذا التحول في طبيعة الطفل يلمسه الأطباء عمليا ، فالطفل الصغير يمكن وضعه على طاولة الفحص ، وفحصه بكل سهولة بل وإضحاكه ومداعبته ، أما عندما يكبر قليلا فإنه يمانع ويرفض ويبكي بشدة إن أرغم على شيء ما . لذا يضطر الطبيب إلى فحصه وهو في حضن أمه ، بكل لطف ومسايرة ، وبأقل قدر ممكن من الإزعاج حتى يتجاوز سن الثالثة ، فيعود الطبيب من جديد قادراً على إقناعه بالإضطجاع على طاولة الفحص أو بالأحرى إذا طلب ذلك منه فيستجيب وهكذا

فما هو الموقف الأمثل تجاه الطفل ؟

إن الطريقة الأقرب في المثالين والأكثر نجاحا والأجدى نفعا بالنسبة لكل من الأم والطفل ، بل والأسهل تطبيقا على المدى البعيد تتلخص بثلاث كلمات ، وضعها طبيب الأطفال النفسي (ليوكانر) هي : العاطفة والقبول والموافقة .

وهنا لابد من اظهار المحبة والعطف في معاملة الطفل فهو بحاجة إلى من يحبه ويعطف عليه حتى في سلبيته . وحتى عندما يشعر في أعماقه بضعفه وعجزه . ولا أدل على ذلك من أنه يصبح مطيعا متعاونا عند تجاوز هذه المرحلة من العمر .

كما أن الطفل بحاجة إلى الشعور بأنه مقبول ومرضي عنه . فهو بالأصل لايفعل ما يفعل إلا صدورا عن طبيعة الطفولة الساذجة العفوية .

ثم إن موافقة الطفل ، بل وتشجيعه باعتدال يجعل علاقاته وثقته واحترامه لأمه جيدة جداً . وهذا أدعى إلى الطاعة من أقرب طريق .

وهذه القواعد تمثل الحقيقة الكبيرة في تربية الأطفال ، وهي وجوب تفهم طبيعة الطفل ودوافعه ودرجات تطوره ومعاملته المعاملة المناسبة .

وهذا يقتضي من الأم أن تتحلى بالصبر والحلم وسعة الصدر وشدة التحمل ، وخاصة في هذه المرحلة من العمر . وأن تحافظ على هدوئها وأن تتكلم بصوت منخفض فهذا أجدى بكثير ، بل وأسهل وأيسر من اتباع الصراخ والغضب واللوم والتوبيخ وكثرة الأمر والنهي المتوارثة في كثير من الأحيان جيلا بعد جيل .

نصائح

وفيما يلي بعض النصائح العملية التي تساعد في التخفيف من سلبية الطفل وعناده .

١ ـ أن يربى الطفل من البدء تربية نظامية ، فيها تلبية حاجاته الجسمية والنفسية ولكن دون إيجاد عادات سيئة . فالطفل ما أسرع ما يتعود وما أصعب ان يترك ما تعود عليه .

فمثلا يجب ان ينام في سريره الخاص به من البدء لابجوار أمه تجنبا لمشكلات النوم فيما بعد .

وأن يرضع جنبا بجوع فقط لكي لاتصبح الرضاعة وسيلة تسلية تجنبا لشكلات الطعام ورفض الطفل ترك الرضاعة .

٢ ـ عند البدء بإطعام الطفل أطعمة إضافية ، يجب أن يقدم له الطعام بكل لطف وعفوية . وأن يترك ليتذوق الطعام ويحبه ويطلب المزيد منه . فلا يعطى إلا بقدر ما يطلب ويحب ، فهو يعلّم نفسه ، ويعود نفسه بنفسه . وكل طريقة تسلكها الأم لجعل ابنها يأكل المزيد ـ ومهما كانت ذكية بنظرها ـ تؤدي إلى رفض الطعام من قبل الطفل فتناول الطعام والإقبال عليه أمر طبيعي ويجب أن تتبع فيه الطريقة الطبيعية أيضا .

٣ ـ من أساليب مسايرة تطور الطفل ، تأمين الألعاب واللعب المناسبة لدرجة التطور وذلك حتى يفرغ الطفل نشاطه فيما يتفق وليعلم نفسه بنفسه ، وكذلك السماح للطفل بممارسة ما يحسنه من أشياء . فإن أراد أن يسقى نفسه بالكاس وهو ابن سبعة أو ثمانية أشهر ساعدناه.وإن أراد أن يحمل الشطائر وما شابه ليطعم نفسه وهو ابن سنة أو أقل سمحنا له ، وإن أراد ان يطعم نفسه بالملعقة عندما يقارب السنة والنصف لا نمنعه بحجة عدم معرفته ، أو الخوف من تلويث ثيابه ،ذلك لأن الطفل يجب أن يمارس ما يتعلمه من أعمال وقد يمتنع عن الطعام إن لم يسمح له بإطعام نفسه نظراً لسلبيته وعناده الذي ذكرنا .

٤ ـ عند تعليمه النظافة ـ التبول في المكان المخصص لذلك ـ يجب أن يعامل بلطف وأن لايوضع هناك إلا لبرهة وجيزة جدا ، وأن لايوضع بتاتا رغم إرادته . وبذلك يحلو له الجلوس . أما استعمال الغلظة والفظاظة فيثير السلبية وحب المشاكسة .

٥ ـ أن تخفف ما أمكن من الأوامر والنواهي والمراقبة والتدخل . وأن تعلم الطفل السلوك الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين وعدم التجاوز باللطف واللين والتدرج وبروح ظاهرة من المحبة ، وبالطبع لابد من الحزم والتماسك والثبات فيما تضع من حدود وإلا أصبح الطفل مائعا قلقا غير قادر على تحمل المسؤولية في المستقبل . لأن الطفل ـ كما يقول علماء النفس المحققون ـ بحاجة إلى الشعور بوجود من يحميه ، لا من بيئته ومحيطه فقط ، بل ومن تصرفاته الطائشة غير الناضجة . أي مع أن الطفل يقاوم سيطرة والديه عليه إلا أن هذه السيطرة تعطيه شعورا بالأمان بالإضافة إلى أن الوالدين يعطيان الطفل الأسوة الحسنة والنموذج الذي يجب أن يحتذى في مراقبة النفس وفي السلوك الصحيح .

٦ ـ عدم اللجوء إلى العنف والشدة فإن ذلك لايزيد الطفل إلا سلبية وعنادا ولنختم حديثنا بقول الرسول الكريم : ما كان الحلم في شيء إلا زانه . □

■ **لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .** علي بن أبي طالب

■ **اذا أراد الواحد منا ان يكون سعيدا فحسب فهذا أمر يمكن تحقيقه ، لكننا نريد أن نكون أسعد من غيرنا من الناس وهذا أمر عسير دائما ، لأننا نظن أن الآخرين أسعد مما هم في الواقع .** مونتسكو

■ **إن دموع المرأة ، أثقل من حجر الهرم .** ايفتوتشنكو

■ **إذا أردت أن تعمل ، فلابد أن تهدأ** ليونارد دافنشي

■ **انظر واعلم ، ثم اعمل .** جابر بن حيان

■ **لا حرية بدون ارادة** ديكارت

هو.. 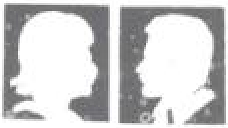 ..هي

حـــــزن

لا أدري ما الذي يحدث للرجال بعد الزواج ، وما الذي يصيب أفكارهم وسلوكياتهم . وهو أمر لم أكن لأصرح به لنفسي لو لم أسمع عدداً من صديقاتي يقلن عن أزواجهن الشيء نفسه تقريباً ، بل إن إحداهن ـ وكانت قد خرجت للتو من مشكلة مع زوجها كادت تؤدي إلى الطلاق ـ قالت إنها تكاد تحدد الساعة التي بدأ فيها سلوك زوجها بالتغير .

وبالنسبة لي ، أذكر أن سلوك زوجي بدأ في التغير بعد انقضاء ما يعرف بشهر العسل ، وعندها بدأت ألاحظ أن زوجي الذي كان أثناء فترة الخطبة يصر على اصطحابي الى الخارج حتى لو أدى اصراره الى فتح معركة كلامية مع شقيقي الأصغر المحافظ ، أصبح يتهرب من دعوتي للخروج معه ، وحين طلبت منه اصطحابي معه مرة قال ، إنه ذاهب إلى جلسة « رجالية » لا نساء فيها ، وإن هذا ربما يسبب إحراجا لي ولأصدقائه ، وفي مرة ثانية اعتذر عن اصطحابي معه عندما طلبت منه أنا ذلك . بقوله : إنه أصبح جاهزا للخروج ، وبأنني لو بدأت بارتداء ملابسي وتجهيز نفسي للخروج فإن هذا سيستغرق وقتا طويلا ، وفي مرة ثالثة قال بصراحة إنه ذاهب إلى المقهى ليسهر مع من يسميهم « بالشلة » ، وهم مجموعة أصدقائه في فترة ما قبل الزواج .

بالطبع لم أحاول أن أخلق مشكلة مع زوجي وأصر على الخروج معه ، ولم أكن لأبوح بهذا كله لأعز صديقاتي لو لم يكن هذا المسلك الجديد لزوجي قد تزامن مع تغيرات أخرى طرأت على شخصيته ، فقد أصبح أكثر عصبية من ذي قبل وهو الذي لم أسمعه يرفع صوته لأي سبب كان أيام الخطبة ، وبدأ يثور كلما حدثته في أمر ما من أمور المنزل ، وأصبح كثيرا ما يتركني وحدي أشاهد برامج التلفاز ، ويذهب هو إلى غرفة أخرى ليقرأ كتابا أو صحيفة .

كنت أتوقع أن يكون هناك تغير في نمط حياتنا بعد الزواج ، لكنني لم أكن أتصور أن هذا التغير سيبدأ بهذه السرعة ، وأن يكون على هذه الدرجة من الحدة . ولقد فكرت كثيرا في أن أنهي حياتي الزوجية قبل أن يكون هناك أطفال ، وقبل أن يكون الأوان قد فات ، فنحن في بداية حياتنا الزوجية نسبياً ، ولم يمض عام على زواجنا ، فإن كان لابد من اتخاذ اجراء حاسم فليكن الآن .

فاتحت بعض صديقاتي بالأمر ، لعلني أضع حداً لعذابي فازدادت حيرتي مع إجاباتهن المختلفة . قالت بعض صديقاتي إن هذا الأمر عادي في حياة كل زوجين ، حيث يعودان بعد اجتياز هذه الحالة إلى مزيد من فهم بعضهما بعضا ، وتستمر دورة الحياة الزوجية ، وقالت أخريات إن من الأفضل أن أحسم الأمر من الآن ، لأن الارتباط بالأطفال بعد ذلك سيكون عائقاً أمام أي محاولة للخلاص .

الألم ينهكني ، والعبرات تخنقني ، ومصير مئات النساء البائسات التعيسات في حياتهن الزوجية يتراءى أمامي وأنا أقف عاجزة عن فعل أي شيء .

..هي

حنين

لم تكن لدي شكوك في أن الحياة الزوجية شيء يختلف عن فترة الخطبة ، لكنني لم أتصور قط أن يكون حجم الاختلاف كبيراً إلى هذا الحد . وعلى الأقل فإنني لم أدرك أن الفترة التي ينتهي خلالها حلم الزواج والاستقرار والسعادة قصيرة إلى هذه الدرجة . وقبل ذلك كله فإنني لم أتوقع قط أن منغصات الحياة الزوجية ستكون على هذه الدرجة من الصغر والتفاهة .

زوجتي التي كانت في فترة الخطبة تنتظر اللحظة التي أقول فيها إننا سنخرج معا لتكون جاهزة خلال دقائق ، أصبحت الآن بطيئة الحركة والاستجابة ، لا إحساس لديها بالوقت والزمن الذي لم يعد متوافرا لي كما كان الأمر في فترة الخطبة ، حيث كنت أخصص جزءاً من وقتي لذلك ، أما الآن فإن الوقت يعني العمل والكسب ، فأمامنا حياة طويلة وأطفال ومستقبل لنا ولهم .

وعلى الرغم من كل ذلك فإنها تصر على الذهاب إلى أي مكان أذهب إليه دون أن تدرك أو تقدر أن هناك أماكن لا يمكنني اصطحابها إليها . وعندما أقول لها ذلك فإنها تشك في كلامي ، وتظن أن ما أقوله ليس أكثر من أعذار واهية ، أقصد بها التهرب من اصطحابها . والنتيجة ، أن زوجتي التي تزوجتها بعد قصة حب تعود الى أيام الدراسة الجامعية أصبحت حساسة ومتشككة . كل كلمة أقولها تعطيها تفسيراً مغايراً ، وكل مكان أذهب إليه دون أن اصطحبها لسبب أو لآخر تظن به الظنون ، وكل إجابة لي عن سؤالها « أين » تعتبرها إجابة مراوغة غير حقيقية .

وحتى لا أزيد الأمور تعقيداً ، فإنني أصبحت قليل الكلام ، أميل إلى العزلة مع كتاب أو مجلة في غرفة أخرى داخل المنزل ، وبدأت أميل إلى العودة للسهر مع « شلة » الاصدقاء الذين نشأت معهم الصداقة العميقة تربط بيننا ، بعضهم تزوج وبعضهم لم يتزوج بعد ، بعضهم سعيد في حياته الزوجية والبعض الآخر غير سعيد . منذ أيام حادثت أحد هؤلاء الأصدقاء الذي عرف بالحكمة والصبر قال لي إن أي زوجين يمران بلحظات كالتي أمر بها في مثل هذه الفترة من الزواج ، وهي الفترة التي تعقب أيام الزواج الأولى وتسبق الإنجاب ، فترة التعرف إلى الحياة الزوجية بوجهها الحقيقي ، فالزواج شراكة في الحياة بين اثنين لكل منهما طبائعه وعاداته وسلوكياته ، ولكل منهما مزاجه واهتماماته وأسلوبه وطريقته في النظر إلى الأمور ، ولأن من المستحيل توافق اثنين في كل هذه الأمور فإن الزواج حتى يستمر بحاجة إلى هدوء وصبر وحكمة وتحمل . وإن الفترة التي أمر بها هي التي تختبر فيها هذه التجربة من تجارب الحياة . قلت لصديقي :

- قلت إن الزواج سيستمر ولم تقل سينجح .

قال :

- حين يتعلق الأمر بالزواج فإن الاستمرار يكاد يعني النجاح .

هو ..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

التسمم الغذائي

... اجتهادات متباينة!

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

لا أعهد اصطلاحا هلامي المعنى والمحتوى كما هو عليه مصطلح التسمم الغذائي ، فالتسمم الغذائي أمره قديم ، وخبرة الإنسان به أيضا قديمة ، غير أن إدراك كنهه يتجدد دوما مع تجدد الأزمان والمعرفة ، حيث ذهب الناس في تعليله مذاهب شتى ، واجتهادات متباينة ، تتراوح ما بين الجهل والعلم ، فليس غريبا إذا سمعنا قائلا يقول : إنها أرواح شريرة ، أرادت الضرر بضحاياها ، أو أن آخر يقول : إنها الحيوانات السامة كالأفاعي والثعابين تنفث سمومها في الطعام المكشوف ، فيما قد نجد فريقا ثالثا يؤكد تآمر الأعداء ودسهم السم في طعام الضحايا .

لكن بعضا قد يرفض الدعاوى ليؤكد أن الطعام قد تحلل وفسد وتحول فيه الغذاء إلى سم ضار قتال .

هكذا تشعبت المذاهب فيما مضى ، واختلفت الآراء في تعليل ظاهرة التسمم الغذائي ، وما من مذهب منها كان صوابا ، ولا من رأي قد أصاب كبد الحقيقة ، حتى أصيب ستون رجلا في ألمانيا عقب اشتراكهم في التهام لحم ملوث ، أدى إلى وفاة أحدهم ، ومعاناة البقية ، لكنهم عندما حللوا محتوى أمعاء هؤلاء الضحايا وجدوا فيها ميكروبات تتطابق مع ما وجدوه في اللحم المشتبه في أمره ، مما حدا بطبيب ألماني يدعونه الدكتور جيرتنر ، عام ١٨٨٨ إلى الإشارة إلى التسمم الغذائي ، ووضعه في قالب من الوعي الصحيح والإدراك السليم .

يمكننا اعتبار القرن السابع عشر هو بداية الطريق التي انتهت الى بوابة العلم ، بفضل رهط من العلماء ، يتصدرهم لوفنهوك الهولندي رائد اكتشاف المجهر (الميكروسكوب) ، وباستير الفرنسي ، وكوخ الألماني ، وكلهم رواد علم الجراثيم والميكروبات .

بالمفهوم العام قد تذهب كلمة التسمم الغذائي بصاحبها الى أن يشمل كل طعام خالطته السموم الضارة لمن يتناولها ، وهذا المفهوم يمتد الى المواد الكيماوية والميكروبات والأطعمة السامة بطبيعة تركيبها ، والى الأمراض التي تصيب القناة الهضمية ، وهذا أمر قد يصعب حصره ، لهذا اقتصر مفهوم التسمم الغذائي على تلوث الأطعمة ببعض

الميكروبات أو سمومها ، واشتراكها في إحداث أعراض معينة متشابهة ، لا تعدو أن تكون تقيؤاً ، أو لعله شعور بالتقيؤ ، يسميه بعض (الغثيان) ، مع معاناة آلام في البطن مع الإسهال أو التقيؤ . وهذه الأعراض تداهم صاحبها فجأة خلال مدة وجيزة عقب تناوله طعاما ملوثا ، كما أنها تتميز باشتراك عدد من الأشخاص في تناول الطعام وفي معاناة نفس الأعراض في وقت متقارب ، ومع هذا مازال في زماننا من يتوهم أن التسمم الغذائي هو صورة من صور تحلل الطعام وتلفه لسبب أو لآخر ، لهذا تنطبع ملامح الصورة بتغيرات في لون الطعام أو رائحته أو طعمه ، وهذا أمر بعيد عن واقع الحقيقة ، حيث إن ما يعنيه المختصون بتسمم الطعام ليس سوى تلوث الأطعمة بأنواع محددة من الميكروبات أو سمومها التي تصل الى الطعام بطرق شتى ، حيث تتكاثر بفضل عوامل الحرارة والرطوبة المناسبتين ، دون أي تغيير في لون الطعام أو طعمه أو رائحته . ولو افترضنا أن ميكروبا واحدا قد توافرت له درجة حرارة مناسبة ـ وهي الأقرب الى درجة حرارة الانسان ـ فإنه سيتكاثر بسرعة تصل به الى مليونين من الميكروبات بعد سبع ساعات فقط ، ولو توافر له الجو المناسب مدة اثنتي عشرة ساعة فسيصل العدد الى سبعة ملايين ، وهكذا .

إن هذه الصورة تبدو رهيبة لو استمر الحال في التكاثر على هذا المنوال ، غير أن رحمة الله قد جعلت حدا لهذا التكاثر ، حيث ان الأحماض ونواتج تحلل الطعام وتكاثر الميكروبات تصبح بيئة غير مواتية لتكاثر الميكروبات وتوالدها ، مما يوقف العملية عند حد .

والغالبية من الناس على أي حال يحملون للميكروبات صورة مقيتة كريهة ، لا تتفق مع الحقيقة ، وهي صورة الضرر والأذى والمرض التي تحمل الظلم والجور ، لأن ما يضر في عالم الميكروبات الرحب لا يتجاوز نسبة ضئيلة ، فيما تقف النسبة الكبرى من الميكروبات على جانب الحياد بالنسبة للإنسان إن لم تكن في صالحه ، وتعمل لفائدته أيضا .

والواقع أن أغلب الضرر ينتج عن سموم الميكروبات التي تفرزها في الطعام خلال تكاثرها ، أو تنطلق من أجسامها عقب وفاتها ، لهذا فبعض التسمم الغذائي هو نتيجة التهام طعام ملوث بسموم الميكروبات ، كما هو الحال مع المكورات العنقودية ، وهي التي تلوث الطعام بسبب طباخ متدن في مستوى النظافة ، أو مصاب بعلة متقيحة في جلده ، أو أنه يمارس عادات صحية خاطئة ، حيث أن أمثال هذه المكورات العنقودية تعشش في الأنف وعلى الجلد وبين الشعر ، ومن هنا يصبح اللعب بالأنف أو حك الشعر أو هرش الجلد من أخطر مصادر التلوث ، وأسوأ العادات ، بل الأدهى من هذا أن سموم المكورات العنقودية هي مواد كيماوية مقاومة لفعل الحرارة ، ومن هنا يصبح تسخين الطعام لا أثر له ولا فعل في وقاية الناس من أثر السموم الفتاكة ، وهذا أمر يغيب عن بال الكثيرين ممن يتوهمون أن تسخين الطعام فيه وقاية وضمان .

ميكروبات أخرى تطلق سمومها إثر تحلل أجسامها داخل أمعاء الضحية ، ولهذا فلابد من تكاثرها أولا داخل قناة الهضم ، وهذا أمر يحتاج الى وقت أطول لإحداث الأثر الضار ، وظهور الأعراض ، فلا غرابة أن يعاني بعض أعراض التسمم بعد ساعات معدودات، كما هو الحال مع التلوث بالمكورات العنقودية التي يكون مصدرها غالبا الطعام .

بينما قد تتأخر أعراض التلوث بعصيات السالمونيلا أياما عديدة ، وهي التي يكون مصدرها حيوانياً غالبا أو إفرازات إنسان مريض ، أو حشرات قذرة . ومن هنا يربط الناس عادة بين التسمم وآخر طعام التهموه وهذا هو الخطأ .

من صور التسمم الأخرى صورة تلوث الأطعمة المعلبة الذي يعرف في الطب باسم البوتيوليزم أو التسمم الوشيقي ، وسببه ميكروبات ضارية متيعة

أمام الحرارة ، لأنها في الظروف القاسية تتحول الى طور التبذر ، وتعيش بمعزل عن الهواء في طيات الأطعمة المحفوظة والمعلبة ، وتفرز سمومها التي يعتبرها المختصون أقوى وأقسى السموم المعروفة في الطب ، لدرجة أن مقدار سم سنتمتر واحد منها قد يقتل ٢٠٠ مليون فأر دفعة واحدة .

لكن رحمة الله بعباده قد جعلت أمثال هذا التسمم الغذائي الذي ينال من الأعصاب ويشل قدرتها الى حد قتل ضحيتها أمرا نادر الحدوث في يومنا هذا ، بفضل عمليات التعقيم الحديثة وأساليب التصنيع النظيفة ، كما أن سموم البوتيوليزم سموم تتأثر بالحرارة على عكس سموم المكورات العنقودية ، لهذا فتسخين المعلبات أمر يحول بين المستهلك والضرر الفتاك للسموم .

إن أشكال التسمم الغذائي عديدة ، قد تختلط صورتها مع صور كثير من الأمراض المعدية الأخرى كالكوليرا والتيفوئيد والدستاريا ، غير أن أهل الاختصاص قد جرى الاتفاق فيما بينهم على تحديد ثمانية أنواع من التسمم الغذائي الميكروبي وهي :

١ ـ السالمونيلا : وهي عدوى ميكروبية ضررها ناتج عن تكاثرها داخل الأمعاء ، وانطلاق سمومها عند تحللها . والحشرات والفضلات والحيوانات المريضة أهم مصادرها . ولعل أهم مصادرها من الحيوانات هي الخنازير والفئران والبط . بالاضافة الى المرضى أو حاملي المرض من الطباخين .

٢ ـ المكورات العنقودية : وأثر هذه الميكروبات ينتج عن تراكم سمومها في الطعام على نحو ما ذكرنا سابقا .

٣ ـ المطثيات النقانقية : المعروفة باسم البوتيوليزم ، وهو ما عرضناه بشأن المعلبات والأغذية المحفوظة ، مما يؤدي الى إفراز سموم شديدة السمية ذات أثر عصبي قاتل .

٤ ـ المطثيات المعوية : وهي قريبة الشبه بسابقتها ، لكنها أخف منها وطأة ، وتفرز سمومها داخل أمعاء ضحيتها .

٥ ـ الضمات : وهذه ميكروبات من عائلات قريبة الشبه بميكروبات الكوليرا وما هي بالكوليرا ، لكن أثرها السمي ينتج عن عدواها وتكاثرها داخل قناة الهضم ، وهي شائعة جداً في اليابان وما جاورها من بلدان .

٦ ـ عصيات الأرز : وهي نوع من الميكروبات عصوية الشكل ، تفرز سمومها في الطعام ، لكنها سموم خفيفة نسبيا ، وتكثر أحداثها في بلدان الشرق التي تعتمد على الأرز في طعامها .

٧ ـ العصيات المعوية : ان هذه العصيات قد لا تؤذي لو توزعت بكميات قليلة في الأمعاء ، لكن تكاثرها على نحو وفير يؤدي الى أعراض التسمم . وسبيلها الى الطعام هو التلوث بالفضلات .

٨ ـ المكورات البحية : وهذه شبيهة للمكورات العنقودية ، لكنها تتشكل على صورة (المسباح) ، لا على صورة عنقود العنب ، وتفرز سمومها في الطعام على نحو ما تفرزه المكورات العنقودية ، وغالبا ما توجد في حلوق المرضى وأنوفهم .

إن التسمم الغذائي على نحو ما استعرضنا لابد له من وقت يمضي ما بين تلوث الطعام واستهلاكه ، لهذا فترك الطعام عقب طهيه مدة في العراء يوفر الفرصة المواتية لتلوثه ، وبخاصة في حالة وجود الحشرات ، أو وجود متداولي الأغذية من المرضى ذوي العادات الصحية السيئة .

وغلي الطعام بعد طهيه ليس ضمانا كافيا دائما لسلامته ، لكن حفظه في الثلاجة قد يعطل تكاثر الميكروب ، لكن الثلاجة قد لا تحمل للناس دائما أسباب الأمان الكامل ، ولهذا فالأفضل هو إعداد قدر كاف مناسب من الطعام واستهلاكه دون حاجة الى تركه للاستهلاك في وقت آخر .

ولا حاجة الى التأكيد على نظافة الطاهي ولا ما نطهيه ولا أواني الطهي فهي مصدر خطر كاف للتسمم الغذائي . □

مساحة ود ..

هكذا تنتهي القصص

محمد ، اسم بين ملايين الأسماء ، ليس له مايميزه عنها ، فهو ليس فناناً ، ولا أديباً ولا سياسياً معروفاً . كما أنه لاينتمي الى عائلة كبيرة تعطي الاسم المألوف مكانة عندما تضاف اليه . ولكن بالنسبة لي كان لمحمد مايميزه ، كان محمد أحد أذكى طلاب فصله الدراسي الذي كان فصلي أيضا . وحينما أتحدث عن ذكاء محمد في الفصل فإنني لا أقصد ذلك الذكاء المقتصر على حفظ الدروس والمذاكرة وتحصيل أعلى العلامات فحسب ، بل أقصد ذلك الذهن المتوقد ، والبديهة السريعة ، والذاكرة الحاضرة ، والتعليقات الموجزة ، وخفة الظل التي لاتختفي في أحلك اللحظات .

والى جانب ذلك كله ، كانت لدى محمد مقدرة خاصة جداً على رواية القصص التي يقرؤها ، أو يسمعها بتفاصيلها وشرح خلفياتها والتعليق عليها في الوقت نفسه . وكان له ولع خاص بمشاهدة الافلام السينمائية ، حيث كان يأتي بعدها الينا نحن - اصدقاءه - في باحة المدرسة ، ويبدأ بسرد أحداث الفيلم بحيوية وحماس ، ونحن نحيط به باهتمام ومتابعة لما يقول . وكان صديق لنا يقول دائما : «إذا روى لك محمد قصة فلا داعي لأن تقرأها فقد تجدها مملة بعده» لهذا فقد كنت اتوقع لمحمد أن يكون روائيا لامعاً في المستقبل ولم يكن هو يتحدث عن المستقبل كثيراً

في أحد الأيام ، لم يأت محمد الى المدرسة ، ظننا الامر في البداية غيابا لمرض عارض أو لسبب طارىء مايلبث أن يزول ، ليعود بعد ذلك محمد كما كان شعلة من نشاط لكن محمداً لم يعد . كان محمد أكبر اخوته الثمانية ، يعيلهم والد متعب فقير ، وحين اشتد عود محمد حدث مالم يكن من حدوثه بد ، ترك محمد المدرسة وذهب ليعمل حرفياً مع والده ويساعده على مواجهة الحياة القاسية .

بعد أن غادر محمد المدرسة بقي على اتصال بنا لكن الصلة بدأت تنتهي رويداً رويداً حتى تفرقت بنا السبل ، ولم أعد أرى محمداً لكنني بقيت أتابع أخباره . بعد فترة الدراسة واصل كثير من زملاء محمد دراستهم الجامعية على الرغم من أنهم كانوا أقل منه ذكاء وحضوراً وتفوقاً ، أما هو فظل حرفيا يعمل في نفس المكان الذي تركه له والده بعد وفاته . وربما مازال محمد متحدثا لبقاً وشخصية جذابة وجليساً ظريفا ، لكنه لم يصبح الروائي الذي تنبأنا بأنه سيكونه . لقد اختفت موهبة محمد في السرد والقول ليحل محلها الحس العملي للحرفي الناجح ، وانتهت قصة موهبة كان من الممكن أن تكون شيئا له قيمة في المستقبل ، انتهت بسبب ظروف حياتنا التي تتحكم بنا ، وتسير دون أن تتيح لنا فرصة للاختيار . ومن بعض الوجوه تكاد قصة محمد ان تكون واحدة من ملايين القصص التي انتهت على هذا النحو غير المتوقع . وكم من المواهب والعبقريات تاهت في زحمة الحياة القاسية دون أن ترى النور

هكذا تنتهي القصص ، وهكذا تبدأ .

صلاح حزين

العربي - العدد ٣٥٧ - أغسطس ١٩٨٨م

جمال العربية

□ صفحة لغة

بقلم : الدكتور حسن عباس

جابر والرتيلاء

ورد الينا من الدكتور عدنان الظاهر مقال بعنوان « رتيلاء جابر بن حيان » ، استهله بالتعريف بابن حيان ، ثم انصبّ بحثه اللغوي على كلمة « رتيلاء » التي تشير الى نوع من الافاعي السامة كان جابر بن حيان قد ذكرها في كتاب له .

في مخطوطة « من كتاب التجميع لابي موسى جابر بن حيان الصوفي الطوسي الازدي رحمه الله » يتطرق جابر لذكر السموم فيذكر بهذا الخصوص « نهشة الرتيلاء » .

ان وصف نوع من الافاعي السامة بالرتيلاء لابد ان يستوقف الباحث ، ويستوقفه طويلا ! فكلمة رتيلاء تصغير لرتلاء مثل حمراء وحميراء .

والرتلاء هي بالضبط Rattlesnake بالانجليزية ، حيث وردت ترجمتها الى العربية في قاموس المورد لمنير بعلبكي ، على نحو ما يلي :

« المجلجلة : ذات الجلجل او الجرس ، حية اذا سعت سمع لها صوت كصوت الجرس » . والاسم الغالب على هذا النوع من الافاعي هو الحية ذات الأجراس . وفي آخر ذنبها تكييف جلدي (وليس فقرات كما هو الشائع خطأ) تحركه دفاعا عن النفس او دفعا لأذى او لإرعاب عدو تتوقع منه مكروها .

والآن ماذا عن كلمة Rattle

يترجمها المورد كما يلي :

يخشخش ، يقعقع ، يصل ، يثرثر ، صليل ، ثرثرة ، جلبة ، لغط ... . ولهذه الاسباب يسمى الجحفل العسكري المدجج بالسلاح والآليات Rattle ، ويسمى هذا النوع من الحيات Rattlesnake .

هنا يمكن اثارة أكثر من نقطة جوهرية تتعلق بأصل كلمة Rattle فهل اخذها الانجليز عن العرب كما هي ، علما ان جابر بن حيان كان قد عاش في القرن الثاني الهجري ، ولا من مصدر يؤكد بداية استعمال الانجليز لهذه الكلمة في هذين الموضعين آنفي الذكر في مثل ذلك التاريخ المبكر . وليس من المعقول ان يكون جابر قد أخذ هذه الكلمة قبل اكثر من اثني عشر قرنا من مصادر انجليزية .

يؤكد المؤرخون ان مصادر جابر العلمية والفلسفية كانت فارسية ، او يونانية بالدرجة الاولى . كانت مصادره اليونانية مباشرة ، وكثيرة ، ومتنوعة حتى انه كان قد ألّف كتبا اسماها « مصححات فيثاغورس » ، و « مصححات سقراط » ، و « مصححات افلاطون » ، و « مصححات ارسطوطاليس » ، وسواهم من مشاهير فلاسفة اليونان . هل عرف جابر اللغة اليونانية ؟ وهل ترجم عنها شيئا ؟ المصادر المتوفرة لا تطرح هذا السؤال وبالتالي ليس له من جواب الآن .

اذن فطريق احتمال انتقال كلمة رتيلاء عن اليونانية الى العربية طريق مسدود .

اما مصادر جابر اليونانية غير المباشرة ، وخاصة ما يتعلق منها بالكيمياء والطب ، فلقد اتته عن طريق الاسكندرية في مصر . وفي الاسكندرية ترجمت لخالد بن يزيد كتب في الطب والكيمياء والنجوم . فهل ورد ذكر للرتيلاء في هذه الترجمات ؟ لسوء الحظ لم يصلنا شيء من تلك الكتب المترجمة ، وعليه فلا يمكن البت في هذا الامر .

بقي ـ فضلا عن الفارسية ـ مصدران من مصادر علم جابر هما راهب تتلمذ اصلا مع خالد بن يزيد على ماريتوس ، وشخص آخر يدعى حربي الحميري تعلم جابر منه اللغة الحميرية فضلا عن الكيمياء وكان يسميه استاذي الحميري .

فهل سمع جابر كلمة رتيلاء من هذين الرجلين او من احدهما ؟ ثم لماذا هي رتيلاء بالتصغير ؟ اليس في اللغة العربية نفسها من دليل يقطع ان الكلمة ذاتها عربية اصلا وفصلا ؟

١ ـ رتلاء ورتيلاء :

كل من يعرف الحية ذات الأجراس يعرف حية سامة قصيرة لا يتجاوز طول البالغ منها نصف المتر . ولعل هذا بالضبط هو السبب في تصغير اسم هذه الحية التي ان سعت احدثت جلبة كصلصلة جلاجل الاطفال واجراسها . وهي تكثر في ولاية كاليفورنيا الامريكية وترعب الناس صيفا ، فتحذر السلطات الناس منها ولا سيما الاطفال . في جلدها دوائر صفراء وبنية غامقة ، فاذا مشت احدثت حركتها ارتباكا في عين الرائي تضطرب معه الرؤية وتصعب المتابعة . قال جابر « نهشة الرتيلاء » ، وهذا الوصف شائع لعضة الافعى السامة . غير ان ابا الطيب المتنبي كان اكثر دقة في تعبيره عن ضربة أنياب الافعى السامة اذ قال في شعره :

وتلكزني الأفعى فيقتلها سمي

واللكز هو الضرب الموضعي الدقيق بآلة او بشيء مدبب الرأس ، الامر الذي ينطبق على شكل وتركيب انياب السم المدببة .

اذن فهي رتيلاء لانها قصيرة عادة ، وقد يكون منها الطويل .

٢ ـ الرتيلاء والرتلاء واللغة :

اذا كانت الحية الأنثى رتلاء أو رتيلاء فما وصف الحية الذكر ؟ ذكر الافعى هو الأرتل ، مثل بتراء ابتر ، سوداء اسود وهكذا .

وفي بعض محافظات العراق : الأرتل هو الشخص الذي لا يحسن نطق حرف الراء اذ يلتوي فيه لسانه ، فيتلعثم ويلغط ، وتخرج الكلمة مشوهة مهزوزة فيها صليل وثرثرة . وهذه كلها صفات لكلمة رتل Rattle كما وردت في قاموس المورد . فهل استعارت العرب سمة الشخص الارتل وطريقته في الكلام وتصويت حرف الراء بشكل خاص واطلقته على هذا الضرب من الافاعي لانها تؤدي بذنبها ، وهي تسعى ، ما يؤديه رجل في فمه وهو ينطق ؟ اميل الى هذا الاعتقاد .

فكلمة رتل Rattle التي كنا نسمعها في سنوات الحرب العالمية الثانية تطلق على طوابير الشاحنات والدروع البريطانية وهي تزحف مزمجرة على ارض العراق ما بين البصرة وبغداد . . . . . . هذه الكلمة اذن عربية الاصل ، لغة ، او صفة ، او معنى . لقد وظفها عالم فيلسوف قبل اكثر من اثنى عشر قرنا من الزمان دون ان يفطن لذلك احد حسب علمي . وهذه بضاعتنا ردت الينا . . . . ، كما قال عالم الآثار العراقي المرحوم طه باقر . □

■ ما أظلم من يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك . الشاعر جبران خليل جبران

جمال العربية

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الآباء

ومن الشعر ما أنصف

للشاعر : عبد الشارق الجهني

لا نكاد نعرف من أخبار هذا الشاعر سوى أنه جاهلي . فلم يرد له ذكر في كتب الادب ، وأغلب الظن أن ليس له من الشعر غير هذه القصيدة . وقد اختلف الرواة في اسمه ، كما اختلفوا في عدد الأبيات التي حفظوها له .

منهم من قال انه عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني ، وفي ذلك يقول المرزوقي في شرح ديوان حماسة ابي تمام نقلا عن المبهج : « الشارق اسم صنم لهم ، ولذلك قالوا عبدالشارق كقولهم عبدالعزى ، وكلاهما صنم . ومثله عبد يغوث وعبد ود ونحو ذلك . ويجوز ان يكون الشارق من قولهم عبدالشارق ، وهو قرن الشمس كقولهم : « لا اكلمك ما ذر شارق ، اي ما طلع قرن الشمس ، فقولهم ـ اذا ـ عبدالشارق كقولهم عبد شمس » . (ج ١ ص ٤٤) .

وقد سمي والده عبدالعزى كما كان شائعا في الجاهلية من نسبة اسماء بعض الناس الى الصنم المعروف « بالعزى » . ومن الرواة من تحرج من النسبة الى العزى بعد ظهور الاسلام وسيادته ، فسماه عبدالشارق بن عبدالعزيز ، على ان العزى والعزيز مشتقان من مصدر واحد هو « العزة » . اما قبيلته فهي جهينة كما ورد في نص القصيدة .

وردت القصيدة في حماسة ابي تمام وعدد ابياتها خمسة عشر بيتا في حين وردت في كتاب « الأشباه والنظائر » للخالديين وعدد ابياتها ستة عشر بيتا ـ وهو العدد الذي نُثبته ـ وكان ان زاد في تعدادها هذا البيت :

فـمـنْ يَـرنـا يَـقُـلْ سـبـلٌ اتىٌ

نُـكِـرّ عليـهـمْ وهـمْ عـلـيـنـا

قيلت القصيدة في اعقاب حرب نشبت بين قبيلتين : قبيلة جهينة التي ينتمي اليها الشاعر وقبيلة بُهثة كما ورد في البيت السادس . وقد تميزت بالعدل والانصاف في سرد الوقائع ، وخلت تماما من ذكر اسباب الحرب ، او مكان وقوعها .

نص القصيدة :

قال عبدُالشَّارق بنُ عَبدِالعُزّى الجُهَنيُّ (*)

ألا حُـيِّـيـتِ عَـنّـا يـا رُدَيْـنـا

نُحَيِّيـهـا ، وإنْ كَـرُمَتْ عَلَيـنـا (١)

رُدَيْـنَـةُ لَـوْ رَأَيْتِ غَـداةَ جِئْنـا

عَـلى أضمـاتِنـا وَقَـدِ اجْتَـوَيْنـا (٢)

فَـأَرْسَـلْـنـا أبـا عَـمْـرٍو رَبِيْـئـاً

فقـالَ : ألا أنْعِمـوا بـالقـومِ عَيْنـا (٣)

وَدَسُّوا فَارِساً مِنهُمْ عِشَاءً
فلم نَغْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
فَجَاؤُوا عَارِضاً بَرِداً وَجِئْنَا
كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وازِعَيْنَا [٤]
تَنَادَوْا : يَا لَبُهْثَةَ ، إِذْ رَأَوْنَا
فَقُلْنَا : أَحْسِنِي ضَرْباً جُهَيْنَا [٥]
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ
فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا [٦]
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً
أَنَخْنَا لِلْكَلاكِلِ فَارْتَمَيْنَا [٧]
فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْساً وَسَهْماً
مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
تَلأْلُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأُخْرى
إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا [٨]
فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ : سَيْلٌ أَتِيٌّ
نَكُرُّ عَلَيْهِمُ ، وَهُمُ عَلَيْنَا [٩]
شَدَدْنَا شَدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ
ثَلاثَةَ فِتْيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا [١٠]
وَشَدُّوا شَدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا
بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُوَيْنَا [١١]
وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ
وَكَانَ القَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا [١٢]
فَآبُوا بِالرِّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ
وَأُبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ انْحَنَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ
وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الكَلْمَى سَرَيْنَا [١٣]

ينصف الشاعر وهو بصدد الحديث عن معركة نشبت بين فريقين حين لا يضيف الى قومه مفاخر العرب كلها ، ويجرد اعداءه من كل فضل . واذا كان الإنصاف في زمن السلم يقتضي من الحكم نزاهة وعدلا ، فانه يقتضي منه في زمن الحرب ـ فضلا عما تقدم ـ قدرة خاصة على مغالبة النفس ، والسمو بها فوق الضغائن والأحقاد التي تنجلي عنها المعركة ويضيق عنها صدر المحارب . ولقد اتيح للشاعر من الحلم وسعة الصدر ما مكنه من اشاعة روح العدل والإنصاف في قصيدته التي نظن انها يتيمة .

لو تتبعنا المواقف التي انصف فيها الشاعر ، لوجدنا القصيدة حافلة بها حتى لا يكاد يخلو منها بيت واحد .

---

(١) في «الاشباه والنظائر» بخلت بدل كرمت . وقد وردت ردينا (بالألف) للتفخيم . نحييها : نودعها . كرمت : عزت .

(٢) اجتوى على وزن افتعل من الجوى ، وهو الألم والغضب . الاضمات : الغضب والحقد .

(٣) الربيء : المستطلع .

(٤) العارض : السحاب . الوازع : الناهي .

(٥) بُهثة وجهينة : قبيلتان متحاربتان .

(٦) ارعوى : عاد وثبت .

(٧) الكلاكل : الصدور .

(٨) المزنة : السحابة . الحَجْل والرَّدَيان : نوعان من السير .

(٩) سيلٌ اتيٌّ : سيل جارف .

(١٠) قينا : اسم رجل .

(١١) رموا جوينا : قتلوا جوينا اخ الشاعر .

(١٢) الحفاظ : الشجاعة .

(١٣) الصعيد : وجه الارض . الأحاح : العطش . خفَّت لنا الكلمى : ساعدتنا الطائفة المجروحة .

يستهل الشاعر قصيدته بالغزل جريا على عادة الشعراء الجاهليين ، ولكنه يقتصد فيه فيقول البيت ولا يردفه بآخر . فهو في شغل عن الغزل بتسجيل تجربة خلّفتها الحرب في نفسه . اقترب الجمعان ، وأوشكا على اللقاء . وارسل كل فريق منها عينا الى الفريق الآخر يرصد ويستطلع ، وعاد العينان ولم يمسسها سوء ، وتلك اولى بشائر الإنصاف في القصيدة . تلا ذلك هجوم الخصم وكأن رجاله ، حين انقضوا ، سحابا يمطر بردا ، فانتضى لهم قوم الشاعر كالسيل الجارف ، لا يسمعون نصحا ولا يردعهم وازع . لقد جرت العادة على ان يلوذ المتحاربون كل بعشيرته يستنجدها فتشيع عزيمة القتال في الجند ، وتبعث فيهم الحمية . استغاث فريق بقبيلة بهثة ، فاستغاث الفريق الآخر بقبيلة جهينة . . . . سواء بسواء !

بدأت المعركة بالنبال والسهام ، فلما فرغوا من ذلك كله ولم يدركوا وطراً ، (مشينا نحوهم ، ومشوا الينا) كل يطلب الثأر من عدوه . كانوا كسحابتين برقت الاولى فتبعتها الاخرى ببرق مماثل ، « فاذا ساروا نحونا سيرا هو كالحَجَل سرنا نحوهم سيرا اشبه بالرَّديان » .

والتقى الجمعان ، وشد كل منهما شدة كان من نتيجتها ان قتل قوم الشاعر ثلاثة ، وقتل الشاعر نفسه فارسا يدعى قينا . وشد الخصوم شدة مماثلة ، فقتلوا ثلاثة ، ورموا اخاه جوينا . والانصاف والعدل في هذه الابيات جلي واضح ، فقد تتبع الشاعر خطوات الجانبين ورصدها رصدا امينا . فالاصابات متماثلة ، فقد مات من كل فريق ثلاثة فتيان وفارس فضلا عن الجرحى الذين تصاعدت حشرجات صدورهم غيظا وحقدا وألما . ولو ان الجرحى من الجانبين خفوا الى السير ، لانفصل المتحاربون راجعين كل الى مضارب قومه ، ولكن آلام الجراح حالت بينهم وبين العودة المرجوة .

الجمال في القصيدة يأتيها من مصادر متعددة ، فهي تسرد قصة ، وذلك يكسبها تشويقا ، فليس أعلق بالنفس من القصص . فما بالك اذا تخلل القصيدة / القصة وصف معركة بكل ما يكتنفها من تهيؤ وتربص واقدام وطعن ونزال يخلف من الجرحى ـ فضلا عن القتل ـ اعدادا كبيرة لا يصدر عنها الا الحشرجة والأنين معبرة بها عن آلام ممضة !

اي صورة واقعية معبرة هذه التي رسمها لنا الشاعر بفن واقتدار ! فهل هذا هو كل ما قدمه ؟ كلا ، فالواقعية التي شاءت له تجربته الفنية الناضجة ألاّ يجاوزها تتسم بالوقار والهدوء ، فهو لم يقدم على تسجيل تجربة الحرب التي خاضها الا بعد ان هدأت مشاعره ، وتدبر ما جرى بعين العقل ، لا بعين الحماسة والعواطف المتطرفة . . . انها رصد للتجربة عن بعد ، وقد اعانه ذلك على انصاف قومه من خصومه وانصاف خصومه من نفسه وما قد تنطوي عليه من غلواء الهوى .

ويأتيها الجمال ايضا من الوحدة العضوية التي تتجلى فيها واضحة ، فهي تبدأ بموضوع ، وتنتهي به بعد ان توليه ما يستحق من الوصف الرصين الهادىء . ويأتيها ايضا من البساطة في العرض ، ومن وضوح الصور الفنية والبعد بها عن التعقيد ، كل ذلك بلغة فيها من الفصاحة بقدر ما فيها من الوضوح .

حفظ السر :

قال الوليد لأبيه : إن أمير المؤمنين أسر اليّ حديثا ولا أراه يطوى عنك أفلا أحدثك به ؟ قال : لا يابني ان من كتم السر كان الخيار له ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، فلا تكن مملوكا بعد أن كنت مالكا .

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

أغسطس ١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- شواطئ الكويت ملك للجميع
- هيام في السوق "قصة بالرسوم"
- تلمسان "مدينة الينابيع"
"مدن لها تاريخ"
- قاهر الصحراء
"مسلسل تاريخي"
- عجل العنزة "من أساطير الشعوب"
- ألف ليلة وليلة "حكاية مرجانة"

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٢٩

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

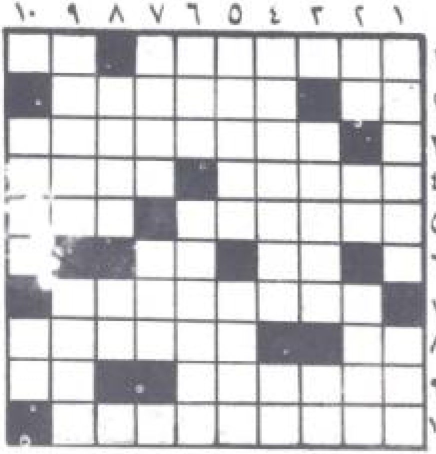

كلمات أفقية

١ - طبيب بريطاني اكتشف البنسلين ، غلا وصوّت
٢ - والد ، فيزيائي أمريكي اخترع المصباح الكهربائي
٣ - مخترع الهاتف
٤ - الشدة أو الوطأة ، ميوعة ناقصة
٥ - أخبروني ، ضاق
٦ - وحدة العملة في بلد صناعي ناهض ، حرف عطف .
٧ - مهندس بريطاني اخترع القاطرة الحديدية
٨ - تعِب ، رسمي في صيغة الجمع
٩ - امبراطور ياباني ، رش
١٠ - عالم سويدي اخترع الديناميت

كلمات رأسية

١ - فيزيائي انجليزي له مكتشفات خطيرة في الكهرباء ، عكسها نوع
٢ - جوهر الشيء ، دار ، سليل أو حفيد
٣ - يتعجّل غير مرتبة ، توقّف
٤ - فيزيائي ايطالي وأحد مخترعي اللاسلكي ، تجدها في قار
٥ - يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ردّد
٦ - قصْد أو عزم ، نبات عطري يعرف أيضاً بالأنيسون .
٧ - (المهام) ضخام ، علامة مميزة تحدث بالكي
٨ - لمعان خفيف ، كلمة تعجّب أو تهديد
٩ - صفة لطفل يأتي عن غير الولادة الطبيعيّة ، جائزة علمية تعرف باسم صاحبها
١٠ - سبّة أو شتيمة ، طأطأ رأسه

● حل مسابقة العدد الماضي يوليو ١٩٨٨

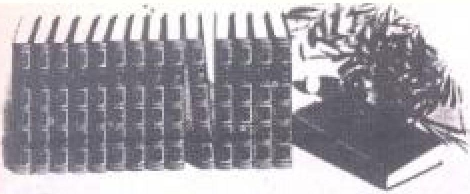

رؤية سوفيتية في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية

تأليف : سفيتلانا بروجوغينا

عـرض : الدكتور نوفل نيوف

الكتاب الذي بين أيدينا لا يعدو كونه عرضا مكثفا لوجهة النظر السوفيتية في إبداعات أدباء المغرب العربي الكبير المكتوبة باللغة الفرنسية .

لعل الجديد في الموضوع هو التفاتنا إلى جزء من « الغرب » لم يتح لنا الاطلاع على نظرته وقراءته لحضارتنا وثقافتنا وتاريخنا .

فالعربي المثقف يعرف كلا من مرغوليوث وماسينيون مثلما يعرف بروكلمان ومونتغمري واط وجاك بيرك وغيرهم ، دون أن يعرف من مستشرقي الضفة الأخرى من « الغرب » - أي شرقي أوروبا - إلا أسماء قليلة ، لكنه على أي حال نقص في معرفتنا بالآخر ، وبتصوراته عنا .

تعود الرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية بجذورها الزمنية إلى أربعينيات هذا القرن ، بعد أن كان الاستعمار الفرنسي قد كرس الأمية في أقطار المغرب ، وحاول القضاء على اللغة العربية خلال أكثر من مائة عام إبان وجوده في الجزائر مثلا .

كان للكتابة بالفرنسية جملة من الأسباب الموضوعية . وقد استطاع الكتاب المغاربة أن يستخدموا هذه اللغة لأغراض إيجابية لا حصر لها ، فقد أفادت منها شعوبهم في معركة التحرير ، وحولتها سلاحا فاعلا في تقرير مصيرها حينا ، وبناء ثقافتها ومجتمعها حينا آخر .

إن كون الفرنسية مرحلة عابرة في التاريخ الثقافي لأقطار المغرب العربي أمر يدركه الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية أكثر من سواهم ، لكن ذلك - كما يقول عبداللطيف اللعبي - لا يقلل من قيمة ذلك الأدب بأي شكل من الأشكال ، إنه اليوم عنصر بالغ الأهمية في بناء الصرح الثقافي المغربي الناهض . وهذا الأدب لا يتناقض - من وجهة نظر الباحثة بروجوغينا - مع الثقافة العربية في أقطار المغرب ، بل إنه جزء منها ، يمثل حصيلة الجمع بين ثقافتين مختلفتين في ظروف تاريخية معينة .

مرحلتان :

إذا كانت بروجوغينا تشير إلى اختلاف بيّن في مستوى ما ينشر هنا بالفرنسية خلال ١٩٦٢ - ١٩٧٩ ، وبخاصة ما يمثل شهادات حربية بثوب أدبي ، فإنها لا ترى في ذلك تراجعا لذلك الأدب ، بقدر ما ترجح أن يكون الأمر دليل عافية ، وبداية مرحلة جديدة من تطوره ، أي أنها في الواقع تقسم هذا الأدب تاريخيا إلى مرحلتين : - مرحلة حركة التحرر الوطني .

- مرحلة الاستقلال .

فلقد أثرت حركة التحرر على طبيعة الأجناس الأدبية ، كاتساع نطاق الرواية ، وشيوع النَّفَس البطولي ، وتحول الشعر الغنائي من شخصي إلى وطني ، وانتقال « الدراما » من مواكبة الحياة اليومية المعيشية إلى مكابدة القضايا الشعبية ، والغوص الجمالي في أعماقها .

ولقد بدأت تتكون حياة جديدة بعد الاستقلال ، حاملة معها إشكالاتها وتقاليدها الجديدة ، كتكون الوعي الذاتي القومي ، والسعي لتحرر الشخصية من آثار الاستعمار إبان الحرب ، وظهور علاقات اجتماعية جديدة ، وعثرات وسلبيات ، ثم رفض مخلفات الماضي الاستعماري الراسبة في المجتمع ، والبحث عن بطل جديد ، قادر على الهدم وممارسة البناء .

وهكذا أخذ موضوع الحب ألوانا وتجليات جديدة ، خاصة عند الكاتبة آسيا جبار التي انطلقت من روايتها « العطش » مقلدة الكاتبة الفرنسية فرانسوا ساغان ، ثم تطورت في « أبناء العالم الجديد » ، و« القبّرات الساذجة » . لقد خرج موضوع الحب من غلالة الحياء والاضطراب غازيا الرواية الغنائية ومشربا إياها ، إلا أن زوبعة من الجنس الفاضح أيضا قد ألمت ببعض أعمال الكتاب المغاربة وشكلت نقطة في تاريخها لم تكن من قبل .

السيرة « والاعتراف » :

أما رواية السيرة أو « السيرة الذاتية » أحيانا التي بدأ منها جميع الكتاب المغاربة تقريبا ، فإنها تبتعد اليوم عن أرصفة الحيادية والحنين ، وتصطبغ بصبغة اجتماعية واضحة ، وتتميز بالعمق النفسي ، والنظرة التاريخية . زد على ذلك أن أجناسا وأشكالا

أدبية جديدة تظهر اليوم في الأدب المكتوب بالفرنسية ، مثل الرواية الخيالية ، والرواية الرؤيا ، والرواية الفلسفية ، ثم رواية الاعتراف التي هي أقرب إلى الهلوسات والتداعيات ، ففيها يقدم الكاتب « عالما مريضا » عبر « وعي مريض » وفي ثوب رمزي مروع .

ويجدر بالتنويه أن بروجوغينا لا تتعامل مع ظاهرة الرواية المعنية في المغرب العربي من مواقع جامدة ، فهي تقرر أن الافادة من شعرية الرمزية والسريالية والرواية الجديدة (آلن روب ـ غرييه) ومدارس أخرى لا يلغي اتجاه هذه الرواية إلى الواقعية .

إن المطلع على الرواية المغربية الحديثة المكتوبة بالفرنسية يواجه مشكلة اختلاط الحدود الأسلوبية ، وتداخلا بين الأجناس الأدبية من جهة ، وبين مواضيع وحبكات مختلفة في إطار عمل أدبي واحد من جهة أخرى .

وتعزو المؤلفة ظهور هذه السمات إلى الترميز المتعمد ، أو إلى بحث الأدباء عن صيغ وطرق تعبيرية جديدة ، ميدانها محاولات التجريب والتميز . على أن الابتعاد عن الروح الفردية ، وعن العدمية سمة تميز الأدب الجزائري على وجه الخصوص .

لقد فاجأت « الموجة الجديدة » قراءها بسيل من طرق علم الجمال الطبيعي وأدواته الذي استوعبه ممثلوها على خير وجه . وبذلك جاءت الكتابة الملغزة عمدا ، وانفرط نسق الأحداث وتتابعها المنطقي التقليدي ، وجرى التعويل على خلط الأزمنة وتداخلها ، وعلى تقديم الوعي « الممزق » غير المنتظم . زد على ذلك تراكم التداعيات وبروز الأسلوب المحموم ، وإيقاع الجمل السريع ، والتنظيم الفوضوي المتعمد للحبكة ، وتعقيده الخارق .

إن هذه التقنيات الجديدة على الرواية المغربية نسبيا تنعكس بصفة خاصة وبدرجات متفاوتة في إبداع الشباب . وعلى الرغم من إثبات أكثرهم قدرته على استخدامها بنجاح فإن لهذه المسألة ـ برأي بروجوغينا ـ جوانب أخرى ، منها أن هذه الكتابة الجديدة تتطلب من القارىء جهدا فائقا لجمع خيوط العمل الفني وإدراكه ، كما تتطلب مستوى ثقافيا معينا . وذلك يضيق دائرة قراءة هذا الأدب ، خاصة إذا حسبنا حساب محدودية أولئك القراء في المنطقة حتى اليوم .

مدلول التجديد الفني :

وللحقيقة فإن هذه التقنيات والاجتهادات في ميدان الشكل الفني بغية « قول الحقيقة » و « تغيير العالم » لا تمثل في إبداعهم بديلا عن المهمة الرئيسية لأدبهم ، أي أنها ـ برأي المؤلفة ـ لا تصبح هدفا لذاتها ، أو استغراقا في الشكلانية لتدويخ القارىء .

لقد نشر أدباء المغرب بيانهم الأدبي في العدد الأول من مجلة « سوفل » سنة ١٩٦٦ ، حيث أعلنوا أن مهمتهم هي أن يكونوا « ديناميتا يتفجر في أعماق النزعة الإنسانية القديمة » ، وأنهم : إما أن « يطهروا كل شيء » ، وإما أن « يحطموا كل شيء » .

ضمن هذا السياق ، وفي ضوء الحرارة الاجتماعية في إبداعاتهم فإنه حتى طموحهم لتقويض اللغة الأدبية التقليدية لا ينبغي النظر إليه بوصفه طموحا لتدمير الجوهر التواصلي للأدب تدميرا واعيا مقصودا لذاته . إنه ـ في تحليل بروجوغينا ـ مجرد إدراك معمق للعالم عبر وعي حساس مرهف إزاء ظواهر العالم الخارجي . إذ على الرغم من فوضوية تيار الوعي ودورانه ، فإن الظواهر الاجتماعية وهواجس العالم الموضوعي لا تغيبان عن صفحات مؤلفاتهم ، ولا تذوبان في زوايا تقنياتها ، بل هي تبرز على نحو أكثر حدة وتألقا ومغناطيسية . هذه السمات مجتمعة هي ما يشكل وجه الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية خلال الستينيات والسبعينيات حسب رأي بروجوغينا .

وخلافا للنزعات الصوفية الغيبية في آداب الغرب ـ وبخاصة فرنسا ـ استطاع المغاربة أن يكرسوا أدبهم لقضية الإنسان في بلدانهم ، وأن

ينظروا إلى واقعهم «بأعين داخلية»، أفادت من أحدث النزعات وأكثرها تطرفا، دون الوقوع في مطبات تغيب القضايا الكبرى والتخفي وراء التجريد العابث.

على أن الباحثة تتفق مع بعض النقاد الغربيين الذين يصفون قسما من أدب الحرب المغربي بالضعف وتسيب الشكل نتيجة التأكيد الأحادي الجانب على إيجابية البطل، وذلك على حساب الفنية، حيث يكتفي هذا البطل بإلقاء المواعظ الثورية والخلقية، في حين كانت الحياة إبان الحرب أكثر تشابكا وتعقيدا من التبسيط الخطابي.

التيارات الأدبية:

أما التيارات الأدبية في المغرب العربي فتفرعها بروجوغينا إلى ثلاثة:

١ ـ الجيل القديم: وهو يمثل تيارا معتدلا، على الرغم مما يتخلل إنتاجه الفني من أنغام الخيبة المرة، واستنكار الواقع القائم. والكتاب الذين ينتمون إلى هذا التيار هم: إدريس شرايبي، ومحمد ديب، ومولود معمري وألبير ميمي.

٢ ـ التيار الراديكالي: يتميز بروح الاحتجاج والتمرد، ويتركز ممثلوه فيما تسميه «الموجة الجديدة» من الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية. ويقف على رأس هذا التيار مؤسسه الكاتب المغربي محمد خير الدين.

٣ ـ تيار التجديد: وقد تكون زمن «سنوات الجمر». وقوامه من الجزائريين: مراد بوربون، ونبيل فارس، ورشيد بوجدرة، ومن المغاربة: عبدالكبير الخطيبي، وعبد اللطيف اللعبي، والطاهر بن جلون، ثم من تونس: طيلي وآخرون غيرهم.

لم يكتف ممثلو هذا التيار بتجديد الموضوع والمضمون، بل تجاوزوا ذلك إلى تجديد الشكل الفني، والغوص بعيدا في البحث عن نوع متميز من الكتابة الأدبية، يستطيع التعبير عن عمليات التغير الجارية في مجتمع ما بعد الاستقلال.

الأجيال والصوت المشترك:

لئن كان الرعيل الأول من الأدباء المغاربة قد سعى لتمييز «جذور» الثقافة القومية عن الثقافة الغازية حاملة سلاح الدمج، ولئن كان هؤلاء الأوائل يواكبون أخطر قضايا مرحلة حروب التحرير، فإن كتاب الجيل الثاني يواجهون قضايا أخرى، طرحتها مرحلة ما بعد الاستعمار، ومرحلة الاستقلال والبناء الوطني. من هنا جاء أدب الاحتجاج الحاضر بصور مختلفة، بل ومتناقضة أحيانا في إبداع مختلف الأجيال.

إن صوت الاحتجاج هذا مسموع عند محمد ديب في روايات الستينيات، عبر مجازية وترميز كالحين مفعمين قتامة، حتى أن الواقع الجزائري لا يملك حضوره المباشر في روايتيه: «الجري على شاطيء موحش»، و«من يذكر البحر؟». فلقد غدت الرواية عنده هنا تكثيفا لإحساس المؤلف وأبطاله الذين يعيشون رافضين كلا العالمين ـ الغربي والشرقي ـ المناقضين للعالم المثالي، أي لعالم كان منتظرا، هو عالم الحلم المبتعد. إنهم يعيشون حالة وجودية من نوع خاص.

هذه الروح الناقدة تشع أيضا من سطور «المؤذن» للكاتب الجزائري الآخر مراد بوربون، ومن حكاية مولود معمري عن نبي يحذر قومه من خطر خيانة المثل التي سفكت في سبيلها الدماء، كيلا يقعوا من جديد في شبكة العبودية. تلك هي أنفاس

الحذر والخيبة ومرارة رفض الواقع المفارق للمنتظر .

ويقف رشيد بوجدرة ضد مخلفات الماضي ، خوفا من تلوث الحياة الجديدة وتسممها . وهو بذلك يتشابه مع ويتميز عن إدريس شرايبي وألبير ميمي اللذين يتعرضان لمخلفات الاقطاع القديمة وأثرها في الحياة الجديدة ، ويتميز عنهما في أن بوجدرة يبني رفضه على أرض اجتماعية سياسية أخرى ، وينطلق من أسس جمالية وطرق فنية وأسلوبية مغايرة . إن الرفض يأخذ طابعا أكثر حدة وشمولية في أعمال عبداللطيف اللعبي ، وعبدالكبير الخطيبي والطاهر ابن جلون ، فهؤلاء يركزون على « استنزاف الذاكرة » ، ونسيان الماضي البطولي في ظل الاستعمار الجديد . ونظرا لحضور النضال الاجتماعي في كتاباتهم بصورة فذة فإن الخطيبي يستنجد بـ « من العنف العظيم » استنجاد بوجدرة بـ « الزلزال الهائل » . وعبر ذلك كله يجري البحث الدائب عن بطل جديد .

نموذجـــــان :

١ ـ الخطيبي و« الرواية المغربية » :

تعطي الباحثة السوفيتية أهمية خاصة لكتاب الأديب وعالم الاجتماع المغربي الدكتور عبدالكبير الخطيبي الذي صدر عام ١٩٦٨ بعنوان « الرواية المغربية » ، إذ قد شكل هذا الكتاب بداية الخروج على احتكار الغرب للبحث في هذا الموضوع ، وكان أيضا علامة اهتمام بالغة من قبل المثقفين المغاربة بثقافتهم الوطنية . وتبدي بروجوغينا عدم اتفاقها مع الخطيبي في تصنيفه الرواية المغربية ، مثلما تعترض على اتخاذه الأديب الجزائري كاتب ياسين نموذجا للتعقيد المفضي إلى انعدام التواصل مع القاريء ، أي الى القطيعة الناتجة عن دعوى الحرية في فعل الكتابة . وإذا كان الخطيبي ينتقد رواية السيرة الذاتية المغربية بوصفها كانت تسجيلا لوقائع الطفولة ، وبعيدا عن الغوص في علاقات الإنسان والعالم فإن بروجوغينا تجد أن تجاوز تلك المآخذ كان من واجب الجيل اللاحق (بوجدرة ، وبوربون ، وفارس وابن جلون ، وخير الدين . .) . .

إن الخطيبي نفسه في روايته « الذاكرة الموشومة » (١٩٧١) يتناول أيضا مشاكل سبقه إليها أسلافه ، لكنه قاربها بوسائل فنية مناسبة لعصره ، فجاء خرقه للتقاليد متعمدا واعيا ، على الرغم من أنه كان يدرك أن مارسيل بروست وبعض كتاب « نثر التداعيات » قد اكتشفوا تلك الأدوات منذ زمن . ومع ذلك فإن رواية السيرة عند الخطيبي لم تكن عملية استحضار ووصف لصورة الحياة الماضية ، بقدر ما هي استكناه للعمق بواسطة ذاكرة متميزة .

لم تعد الرواية تدوينا للطفولة بإدراك طفل ، بل إنها الآن طفولة منظور إليها بعيني ناضج . لقد سقطت الحيادية في النظرة ، واتخذ الأمر مسارا جديدا آخر ، لذلك يلجأ الكاتب إلى تقنيات جديدة ، تقترب في ظاهرها من « الكولاج » الانطباعي ، فليس عند الخطيبي حدث بالمعنى المعروف ، بل ثمة وصف لحالة يستدعيها الحدث في الذاكرة ، وإن التفتيت المتعمد للمادة ليس إلا بناء مساعدا وتنظيما موهوما ، أما مركز الثقل فقائم في ذاكرة الكاتب التي لم تحتفظ إلا بذلك المغزى الوحيد الذي نضجت به ، والذي يجري من أجله السرد . وفي المحصلة يكتسب كل شيء هيئته المنطقية وتناسقه واكتماله . وإن الخطيبي لا يعارض « النهج الأثنوغرافي » لدى كل من فرعون ومعمري وديب . . وغيرهم ، بل هو يوسع هذا النهج ويغنيه . على أن نموذج السيرة عنده يميل بالتأكيد إلى نمط النثر السارتري ، وبخاصة « الكلمات » ، أكثر من ميله إلى تجربة الرواية المغربية . إن رواية السيرة عند الخطيبي ليست رواية « تربوية » ، وإنما هي رواية امتحان ، أي أنها لا تهتم بتنشئة الإنسان وبتكون شخصيته ، بل تنكب على متابعة مواجهته العقبات ، وطرق تغلبه عليها ، وإدراكه هدفه ورسالته ، ومكونات موقفه وسلوكه . كذلك نجد أن البطل عند الخطيبي واثق أن القضايا التي يطرحها هي قضايا جوهرية لكل إنسان . وعلى الرغم من النفحة الذاتية الغنائية ، بل وأحيانا النغمة

الاجتماعية المفرطة ، فإن المبدأ الملحمي يبقى حاضرا حضورا جوهريا في روايته المعنية « الذاكرة الموشومة » ، وعلى الرغم من الظلال التي يلقيها سارتر وبروست والسرياليون وأعلام الرواية التجريبية الجديدة على صنعة الرواية عند الخطيبي ، فإن « الذاكرة الموشومة » مفعمة بسمات قومية تاريخية محضة ، تشكل جزءا لا يتجزأ من تاريخ شعبه ، وبالتالي من شخصية العمل الروائي نفسه . إن الإفادة من « علم الجمال التمردي » و« الرفض الفوضوي » أمر وارد في رواية الخطيبي . ولكن الباحثة تؤكد أن ذلك كله لا يعدو أن يكون أصداء لتلك التيارات والتقنيات ، لا تؤثر البتة على أصالة هذه الرواية وخصوصيتها .

٢ ـ رشيد بوجدرة والوعي « القلق » :

تنظر الباحثة السوفيتية نيكيفيروفا في كتابها « الرواية الأفريقية » إلى بوجدرة بوصفه واحدا من أبرز أعلام الأدب الأفريقي عامة . ففي رواياته المكتوبة بلسان أبطال مثقفين ، يتجسد قرف بيولوجي عارم محسوس تجاه الركود والقسوة والنفاق في الحياة الأبوية التقليدية الراسخة الجذور .

وفي الفصل المخصص لرشيد بوجدرة (الكاتب الجزائري اللامع الذي انتقل الى الكتابة بالعربية خلال السنوات الأخيرة) تبدأ بروجوغينا من مجموعته « كيلا نحلم بعد » حيث الصوت السياسي الدعائي الواضح . وهي تشير إلى حضور الهم الاجتماعي المهيمن في شعره . على أنها تؤكد تأثير شعراء ثوريين مختلفين أيما اختلاف في أساليبهم التعبيرية (ماياكوفسكي ، وبول ايلوار ، ولوركا ..) على بوجدرة وشعراء جزائريين اخرين .

فمجموعة « كيلا نحلم بعد » ـ برأي بروجوغينا ـ لا تشي بالقطيعة مع الحلم ، بقدر ما تعني الدعوة إلى مغادرة الخمول والإقلاع عن التأمل السلبي ، بغية اقتحام حيز الفعل والتغيير . وإذا كانت هذه المجموعة تتميز بصوت دعائي صريح ، بعيداً عن الغموض والتعقيد المتعمد فإن السريالية ومفهوم « الروح الثورية » في العمل الفني سوف يجدان حضورهما الحقيقي في روايات بوجدرة من خلال سيول التداعيات وتدفق الصور غير المألوفة ، ولغزية الكتابة ، والإفراط في الرمزية . كل ذلك سيستخدمه بوجدرة في عالمه الروائي تعبيرا عن موقفه النقدي إزاء الواقع ، وعن رفضه الأشكال البالية المشوهة في صلب الظروف الاجتماعية السياسية الجديدة اليوم . إن العمق الفني وصدق المشاعر ينقذان بوجدرة ـ في رأي الباحثة ـ من أسر الخطابية والدعائية المجردة الباردة ، فنثره الفني الذي نما في ظروف الجزائر الجديدة يتميز كثيرا عن تجاربه الشعرية . وإن كان ينبثق منها ، ويستمر حاملا ما فيها من حرارة وجدانية وشحنة اجتماعية قوية . وعلى هذا يكون بوجدرة « مرآة الشريحة الراديكالية » ، وحامل سمات الوعي « القلق » والعاجز أيضا في نفس الوقت عن فهم كثير من قوانين العمليات التي رافقت مرحلة الاستقلال (تعني قوانينها الملبسة بالفوضى والتداخل والظلال) .

ترى بروجوغينا أن نقطة ضعف هذا الوعي تتمثل في تضخيم الشر وتهويل صورته ، في حين تكمن في رفضه المساومة والخضوع لواقع الحال . وهي تؤكد قناعتها بأن من حق الكاتب أن يصور العالم على النحو الذي تسمح به آفاقه الجمالية والأخلاقية ، وموقفه الاجتماعي .

بوجدرة : نقاط التقاطع

إن رواية بوجدرة « الإنكار » هي « مونولوج » حار مرعب أخاذ ، لم يكتب عن الجزائر قبلها أي

عمل يضاهيها . وهذا الاكبار الذي تبديه بروجوغينا لرواية « الإنكار » يجد سوغه الموضوعي في تحليلها الذكي النفاذ لها . فنحن من خلال هذه الرواية لا نتعرف على الجزائر الناهضة المستيقظة لتوها ، وهي تنفض عن نفسها مخلفات الاستعمار ، ولا على الشر الذي يختمر وينضج في أعماق نمط الحياة التقليدية ، وهو الشر الذي اعتمده الاستعمار في عرقلة نهضة الجزائر طويلا . ليس ذلك بالجانب الأثمن في هذه الرواية ، أي على الرغم من أن هذه الرواية سيرة إلى حد كبير ، إلا أنها تختلف عن مثيلاتها من روايات السيرة عند كل من فرعون وديب ومعمّري وبومهدي ، وهي أقرب الى رواية ادريس شرايبي « الماضي البسيط » . إن الرواية الرافضة عند المغاربة (شرايبي وميمي وآخرين) لم تمر دون اللجوء إلى وسائل تعبيرية تنتمي إلى المدرسة الطبيعية على الرغم من واقعيتها الحادة ، بل ربما بسببها أيضا ، إلا أنها منذ أواسط الستينيات أفادت من أشكال الكتابة الطليعية كذلك ، الأمر الذي تجلى بكل تألقه في رواية محمد خير الدين « أغادير » وغيرها ، ذلك أن « أغادير » تعتبر مرحلة جديدة في ميدان أدب الرفض والتمرد . ورواية بوجدرة هذه تشابه في ظاهرها روايات خير الدين على الأخص ، وإن تكن من ناحية الإشكالية المطروحة فيها مختلفة عنها اختلافا كبيراً .

إن اختيار بوجدرة إجراء السرد على لسان مريض ليس إلا اختياراً حراً واعياً لشكل معروف هو « تقديم عالم مريض عبر وعي مريض » على طريقة الطليعيين ، وإن استخدامه التداعي السيريالي لا يفقده الطريق في هذا العالم الموضوعي المشبع بالخصوصية المحلية والمشاكل الاجتماعية ، ولا يدفعه إلى الانجراف وراء المغريات « الفرويدية » ، وإرجاع القضايا الى غرائز مبهمة وعيوب خفية ، كما لا يوقعه ذلك التداعي السريالي في فخ وإضفاء صفة المطلق على الشر وقوته . إن التوتر الداخلي للوعي يكسب اللغة عند بوجدرة تضادا فائقا ، قوامه أسلوب محموم ، يتكون من جمل قصيرة ، مبتورة ، تتناوب بحدة مع سرد هادىء

لقد ذهب رشيد بوجدرة بعيدا في تقصياته الفنية ـ كما تستنتج بروجوغينا ـ وتجاوز طريقة الرؤية واستيفاء الواقع ، أي الطريقة التي سادت لدى الروائيين الجزائريين إبان الخمسينيات والستينيات ، باستثناء كاتب ياسين .

المشترك والخصوصي :

إن التغييرات المميزة للأدب المغربي المكتوب بالفرنسية تظهر أول ما تظهر في ميدان النثر الفني ، وليس في ميدان الشعر أو الدراما . ويتجلى ذلك بوضوح خاص في حقل الرواية التي تلعب في الأدب المذكور دورا رائدا . ومع الاعتراف بتمايز الظروف الوطنية ، وأنماط المعيشة لكل قطر من أقطار المغرب العربي ، وآثار ذلك على مسيرة آدابها ، فإن بروجوغينا تشير إلى عمليات متشابهة ، وسمات مشتركة ، لأدب مغربي مكتوب بالفرنسية له صفات الوحدة . فإذا كانت دائرة المشكلات هي منبع التباين والاختلاف ، فإن البنية الفنية للأعمال الأدبية هي التي تسمح بالحديث عن تشابه نمطي بين الظواهر الأدبية القائمة .

إن العلاقة بين الفرد والخلفية الاجتماعية التاريخية تقع في مركز اهتمام الكتّاب المغاربة من مختلف الأجيال . وإذا كانت حياة البطل الأدبي في الخمسينيات والستينيات تصوّر على خلفية الواقع الاجتماعي (ديب ، ومعمّري ، وفرعون ، وصفريوي . .) ، فإن هذا الواقع كان يعني للكاتب أكثر بكثير مما يعنيه له البطل نفسه المنبثق من ذلك الواقع المتكون فيه ، أي أن الواقع كان المرجع والموضوع المباشر للخلق الفني ، وكان ثمة تركيز خاص على الظروف التي تكوّن فيها الوعي القومي لشعوب المغرب ، غير أن العلاقة بين الفرد والواقع أخذت تتغير بالتدريج لصالح الفرد الذي يختار ويحدد طريقة مشاركته في مصير شعبه . وبعض الروايات التي صورت مرحلة الحرب الجزائرية (« الأفيون والعصا » لمولود معمّري ، وروايات مالك حداد ، ورضا فلكي ، وآسيا جبار) هي شهادة على بداية هذا التغيّر . □

القدس والمدن الفلسطينية تحت الحكم العسكرى الإسرائيلى

تأليف : روحي الخطيب/ عرض : محمود بيومي

وضع هذا الكتاب « روحي الخطيب » أمين القدس المبعد ، واغتنمت أمانة القدس فرصة انعقاد المؤتمر العام الرابع لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية بالقاهرة (٢١ ـ ٢٦ سبتمبر ١٩٨٦م) ، فقدمت للوفود المشاركة في المؤتمر هذا الكتاب الذي يروي مأساة المدن الفلسطينية بعامة ، والقدس الشريف بخاصة ، منذ عام ١٩٤٨م وحتى الآن .

يضم الكتاب عددا من الموضوعات التي توضح مسلسل التآمر والظلم والإرهاب الذي تمارسه سلطات الاحتلال العسكري « الاسرائيلي » ، والذي يستهدف تهويد فلسطين ، مدنا وقرى ومقدسات ، وتحويل البلاد إلى قاعدة للغرب في وسط الوطن العربي والعالم الإسلامي ، لتهدد أمنه واستقراره وتستنزف ثرواته .

ويهدف الكتاب ـ كما يقول مؤلفه ـ إلى تذكير الشعوب والحكومات العربية والإسلامية بواقع المدن الفلسطينية بعامة ، والقدس بخاصة ، التي تعاني من مآسي التآمر والاحتلال والإرهاب .

يقع الكتاب في ١٨٢ صفحة من الحجم المتوسط ، تحدث فيها المؤلف عن : المخططات الصهيونية والاستعمارية ضد فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة . ثم بين حال المدن الفلسطينية تحت الاحتلال العسكري

« الاسرائيلي » ، ومكانة القدس في الإسلام ، والقدس الشريف في ظل الاحتلال العسكري « الاسرائيلي » .

وانتقل المؤلف بعد ذلك لاستعراض المشروع « الاسرائيلي » لمدينة القدس الكبرى ، فوضع مراحل المشروع ، وسجل نصه ، ثم قدم الدراسات التحليلية للمشروع التي قامت بها نقابتا المهن الهندسية والقانونية العربية في القدس .

كما استعرض المؤلف الاعتداءات « الاسرائيلية » المتواصلة ضد الحرم القدسي الشريف ومسجدي الأقصى المبارك والصخرة المشرفة ، وأورد ما نشرته الصحف « الاسرائيلية » في سبيل تنفيذ مشروع القدس الكبرى ، والاستيطان « الاسرائيلي » في الأحياء الإسلامية داخل أسوار القدس ، والتخطيطات والإجراءات والاعتداءات « الاسرائيلية » المتواصلة ضد إسراء محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى ومسجد الصخرة وما حولها .

كما أورد المؤلف في كتابه مجموعة من الخرائط والجداول والبيانات الإحصائية والصور « الفوتوغرافية » باعتبارها من الوثائق المهمة الواجب عرضها في مجال كشف المخطط الصهيوني لتهويد فلسطين . وفي نهاية بحثه أفرد فصلا أكد فيه على أن مسلسل تهويد القدس ما زال مستمرا .

والكتاب في مجمله يعتبر بلاغا للرأي العام العالمي بعامة والرأي العام العربي والإسلامي بخاصة ، لإيقاظ الوعي العام وتنبيهه لحقائق ما يتعرض له الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني ، ورفض سياسة الأمر الواقع ، استنادا إلى أن جميع الشرائع تجمع على إزالة الأمر الواقع إذا كان مبنيا على ظلم وعدوان .

مراحل الغزو الصهيوني

يحدد المؤلف مراحل الغزو الصهيوني لفلسطين بثلاث مراحل :

* المرحلة الأولى : فيها تكرس إنشاء دولة

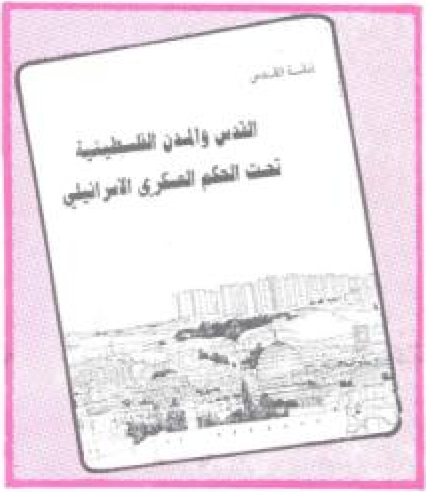

العدوان « الاسرائيلي » على أكثر من ٨٠٪ من مساحة فلسطين ، وتم خلالها طرد حوالي مليون عربي فلسطيني بالقوة من مدنهم وقراهم واغتصاب أملاكهم ومقدساتهم وعدم السماح بعودتهم أو إعادة أملاكهم إليهم خلافا للقرارات الدولية ، وقد تم تنفيذ هذه المرحلة في الفترة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٧ ميلادية .

* المرحلة الثانية : وقد تم خلالها احتلال باقي المدن والقرى الفلسطينية من قبل جيش الاحتلال « الاسرائيلي » بمساندة الغرب الاستعماري في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١ ميلادية ، حيث واصلت « اسرائيل » خلالها تنفيذ مخططاتها التي تستهدف تثبيت الاحتلال العسكري ، وتهويد المدن الفلسطينية ، مدينة وراء أخرى ، ومنطقة بعد منطقة .

وقد تميزت هذه المرحلة بإعلان ضم القدس إلى دولة الاحتلال ، وحل المجلس العربي الشرعي للمدينة المقدسة ، وإبعاد رئيس المجلس ، واغتصاب جميع أملاك القدس ووثائقها ، ومصادرة معظم الأراضي العربية المحيطة بها ، وهدم خمسة أحياء عربية ملاصقة للمسجد الأقصى ، وإنشاء حي

يهودي مكانها ، ثم إحراق المسجد الأقصى وتطويقه بالحفريات ، وإعلان ضم القدس سياسيا ، وجعلها عاصمة للكيان الصهيوني ، ومصادرة ما يقرب من ٣٠٪ من أراضي فلسطين ، وتطويق المدن الفلسطينية بالمستعمرات اليهودية ، وإغلاق الجامعات والمدارس العربية فترات زمنية متفاوتة ، ومنع تداول العديد من الكتب، واعتقال الفلسطينيين ، إضافة إلى غير ذلك من الاعتداءات الصهيونية .

* المرحلة الثالثة : حدد المؤلف بدايتها في أوائل عام ١٩٨٢ ميلادية ، وتتمثل في الممارسات الصهيونية لمصادرة المزيد من الأراضي العربية في فلسطين ، والاستيطان « الاسرائيلي » في المدن والقرى الفلسطينية ، والاعتداء الإجرامي على الحرم القدسي ومسجدي الأقصى المبارك والصخرة المشرفة ، وحل المجالس البلدية العربية ، وإحلال لجان بلدية برؤساء عسكريين « اسرائيليين » بديلا لها بالقوة ، وضد رغبة أهلها ، بغية تطبيق وتعميم « الحكم الإداري الاسرائيلي » وتعميمه في كل أنحاء الوطن الفلسطيني .

الاعتداء على المقدسات

تناول المؤلف الاعتداءات على المقدسات الإسلامية والأماكن المقدسة المسيحية التي تمارسها سلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين ، فقال : لم تخف سلطات الغزو وأجهزتها المختلفة وفي مقدمتهم رجال الدين والجيش ـ أطماعهم المتواصلة لوضع أيديهم على الحرم القدسي ، وتخطيطهم المتواصل لهدم المسجد الأقصى المبارك ومسجد الصخرة المشرفة وطمس معالمها وإقامة الهيكل على أنقاضها .

وعدد الاعتداءات على هذه المقدسات التي من أبرزها : مصادرة باب المغاربة المؤدي إلى الحرم الشريف ، وإقامة وحدة عسكرية فيه ، وتسهيل الدخول إليه لجميع اليهود ، وإقامة الصلوات اليهودية في ساحات الحرم ، ومصادرة أربعة أحياء عربية في الجهة الغربية المجاورة للمسجد الأقصى ، وإجلاء سكانها ، وهدم عقاراتهم ، وتوسيع « ساحة البراق » الذي يطلقون عليه اسم « حائط المبكى » ، وإقامة حفريات ـ غير شرعية ـ خلف الحائطين الغربي والجنوبي لتفريغ ما حول الحرم من عقارات إسلامية وطمس معالمها بعد إجلاء أهلها ، وإصدار فتوى « حاخامية » تبيح لليهود الصلاة في داخل الحرم القدسي الشريف ، والمحاولات المتكررة لنسف الحرم القدسي .

أما الاعتداءات على الأماكن المقدسة المسيحية فتتمثل في الضغوط الشديدة المتوالية على رجالات الطوائف المسيحية لإجبارهم على التنازل عن مساحات كبيرة من أراضيهم وعقاراتهم في القدس ، سواء بالبيع المباشر أو الإجارة الطويلة الأجل ، وتضييق الخناق على المسيحيين لإجبارهم على مغادرة البلاد . وأورد بيانا إحصائيا يؤكد به على ذلك ، وتضمن هذا البيان أن عدد الطائفة المسيحية في فلسطين عام ١٩٦٧ ميلادية كان ١٨٣٠٠ ، وتناقص هذا العدد عام ١٩٧٥ ميلادية فأصبح ١٢٧٦٠ ، ثم تناقص هذا العدد عام ١٩٨٥ ميلادية فأصبح ١٢٣٠٠ مسيحي .

وأكد المؤلف أن كنيسة القيامة ـ وهي أكبر وأقدم كنيسة مسيحية في القدس وفي العالم ـ قد تعرضت للاعتداء والسرقات المتكررة ، كما تعرض رجال الدين المسيحي للإرهاب والضرب والاعتقال ، وقد أعاد للأذهان ما تعرض له المطران إيلاريون كبوشي والمطران فاسيلوس .

المشروع « الاسرائيلي » للقدس الكبرى

لا يهدف مشروع « القدس الكبرى » إلى ضم مدينة القدس وتهويدها فحسب ، بل يهدف إلى ضم معظم قرى محافظتها العربية المحيطة بها ، ورام الله والبيرة من جهة ، وبيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور والقرى والمخيمات المحيطة بها من جهة أخرى .

وتشكل مساحة هذه المنطقة حوالي ٣٠٪ من

مساحة الضفة الغربية التي احتلتها سلطات الاحتلال العسكري الصهيوني في حزيران ١٩٦٧ ميلادية ، وذلك خطوة أولى لضم باقي المناطق المحتلة التي تشمل محافظتي نابلس والخليل من جهة ، وقطاع غزة من جهة أخرى ، إلى دولة العدوان « الاسرائيلي » ، كي تصبح قاعدة « لإسرائيل » الكبرى ، لتهدد أمن الأقطار العربية .

وقد مر هذا المشروع بعدة مراحل هي :

* احتلال القسم الغربي من القدس سنة ١٩٤٨ ميلادية .

* احتلال القسم الشرقي من القدس في ٧ يونيو ١٩٦٧، وهو القسم الذي كانت الأردن قد أنقذته عام ١٩٤٨ . ويضم المدينة القديمة داخل الأسوار ومعظم المقدسات الإسلامية والمسيحية وبعض الأحياء المحيطة بها شمالا وشرقا وجنوبا . وكانت مساحته حوالي ١٢ كيلو مترا مربعا وعدد سكانه حوالي ٨٠ ألفا .

* توسيع حدود القدس في ٢٨ يونيو ١٩٦٧ ميلادية بضم مناطق تبلغ مساحتها ٥٠ كيلو مترا مربعا ويبلغ عدد سكانها حوالي ٣٠ ألف عربي .

* الإعلان رسميا عن ضم هذه المناطق إلى بلدية القدس في نفس التاريخ . وقد عارض أهل القدس والفلسطينيون في الداخل والخارج وفي كل الأقطار العربية والإسلامية هذا الضم ، واتخذت الأمم المتحدة قرارات بعدم الاعتراف به ، واعتبرته باطلا ، وطالبت بإلغائه .

* حل مجلس أمانة القدس في ٢٩ يونيو ١٩٦٧ . ويقضي هذا الحل بضم أملاك الأمانة ومحتوياتها إلى بلدية الاحتلال ، وإبعاد أمينها - روحي الخطيب - في ٧ مارس ١٩٦٨ على الرغم من معارضة مجلس الأمانة والأقطار العربية والإسلامية .

* مصادرة الأراضي والعقارات العربية

* الكشف عن نوايا « اسرائيل » لتنفيذ مشروع القدس الكبرى وجعل القدس عاصمة « لاسرائيل » .

* ضم ٩ مدن عربية ، و٦٤ قرية عربية فلسطينية إلى مشروع القدس الكبرى .

* إقرار البرلمان « الاسرائيلي » بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٨٠ ميلادية قانونا يقضي بجعل القدس الموحدة عاصمة « لاسرائيل » إلى الأبد ، ومقرا لبرلمانهم ولرئيس دولتهم ولمحكمتهم العليا ، تحديا للقرارات الدولية ولمبادىء حقوق الإنسان .

وقد أورد المؤلف الدراسات الفلسطينية لمشروع القدس الكبرى ، فأثبتت الدراسات النتائج التالية :

* مساحة الأراضي المشمولة بالمشروع ٤٤٦٢٧٩ دونماً . والدونم يساوي ١٠٠٠ متر مربع .

* مساحة الأراضي المخصصة للإسكان العربي هي مناطق قاحلة ، تمثل ١٣٪ من مساحة أراضي المشروع .

* المساحة المخصصة للإسكان اليهودي تمثل ١٧٪ من أراضي المشروع .

* مساحة الأراضي الزراعية ضمن المشروع تبلغ ٥٩،٥٪ ، بينما تبلغ مساحة الأراضي المخصصة للحدائق العامة ٦،٥٪ من أراضي المشروع ، وتمثل الطرق والمساحات المخصصة لمطار القدس ٤٪ من مساحة أراضي المشروع .

أهداف المشروع

وحددت الدراسات الفلسطينية أهداف مشروع القدس الكبرى في : زيادة عدد السكان اليهود ، ليصبحوا ثلاثة أضعاف السكان العرب ، وتحديد مناطق زراعية بمساحات كبيرة من أجل التخطيط للنمو السكاني لليهود ، وإقامة شبكة طرق رئيسية تصل الجزء المحتل من فلسطين سنة ١٩٤٨ ميلادية بالأغوار على نهر الأردن لربط الشمال بالجنوب ، بهدف تهويد باقي المناطق الفلسطينية المحتلة ، ولزيادة إحكام السيطرة « الاسرائيلية » على الأرض ، وتمزيق أوصال الوجود الفلسطيني ، ومنع الشعب الفلسطيني من تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الداعية إلى إنشاء الدولة الفلسطينية ، واستكمالا لإحكام السيطرة « الاسرائيلية » على مصادر المياه ومصادر الطاقة . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب / حكايات من الزمن العربي
المؤلف / مصطفى نبيل
الناشر / دار الشروق ـ القاهرة
عدد الصفحات / ١٩٨ (قطع متوسط)
سنة النشر / ١٩٨٧

مؤلف الكتاب هو الزميل الصحفي مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة « الهلال » ، قدم في كتابه مزجا من الصحافة والثقافة والتاريخ . فإذا كانت الصحافة هي مهمة البحث عن المتاعب ، والركض وراء الأحداث والأخبار ، فالكاتب في كتابه يركض وراء التاريخ ، وعبر رحلات طويلة امتدت من المشرق العربي ، إلى المغرب العربي ، ومن أزمنة مختلفة يتابع المؤلف تفاصيل أحداث كثيرة في التاريخ ، يزيح النقاب عنها ، ويكشف أسرارها من خلال الوثائق والمخطوطات ، ويبدأ الكاتب بالركض وراء تفاصيل حياة الشريف الريسوني الذي بدأ حياته قاطع طريق ، ثم قائد ثورة الغزو الأجنبي لطنجة ، عنق زجاجة بلاد المغرب ، ثم كيف انتهت حياته أسيرا لدى عبدالكريم الخطابي جزاء تحالفه مع الأوروبيين . ومن الريسوني في المغرب إلى الأميرة العربية ابنة السلطان سعيد ـ سلطان عمان وزنجبار ـ التي دفعت ثمن حبها للمغامرة وانقياد روحها وتمردها . وقد استطاع الكاتب من خلال أسلوب رشيق شيق أن ينتقل من زمن إلى زمن ، ومن مكان إلى مكان . يربط فصول الكتاب ووقائعه خيط واحد ، هو حدوثها في زمن عربي كان الوطن كله يعيش في مرحلة انتقال من عصر إلى عصر .

الكتاب : طهران مصير الغرب
المؤلف : نذير فنصة
الناشر : جاك إراكل . مرسيليا ـ فرنسا
عدد الصفحات : ١٨١ (قطع متوسط)
سنة النشر : ١٩٨٨

عمل مؤلف الكتاب مستشارا للشئون العربية لشاه إيران ، وفي كتابه هذا قدم عرضا من خلال الوقائع التي عايشها لأسباب سقوط الشاه ، ويذهب المؤلف إلى أن الشاه نفسه هو الذي ساعد على إسقاطه ، فقد قطع خيوط الحوار مع كل القوى داخل إيران ، وخسر معركة التحديث والتطوير ، وفشل في كسب دعم الجماهير له .

ويقول المؤلف : إن هناك ايرانيين كثيرين اليوم يفتقدون الشاه ، ويأسفون لرحيله ، ولكنهم يوم أن رحل لم يكن لديهم أي دافع للقتال في سبيله .

ولا يعلق المؤلف الأخطاء على الشاه وحده ، بل وعبر وقائع كثيرة يشير إلى أن الغرب والإدارة الأمريكية « واسرائيل » قد لعبوا دورا ـ بالسلب والإيجاب ـ أسهم في سقوط الامبراطور .

الكتاب : المقاومة المدنية
المؤلف : د. عبد الهادي خلف
الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٨٣ (قطع متوسط)
سنة النشر : ١٩٨٨

ناقش الكتاب ظاهرة العمل الجماهيري ،

وأشكال استخدامه كأداة نضالية من أجل التغيير ، فقدم عرضا تحليليا للعنف واللاعنف ، ورفض الانحياز المسبق لأي شكل من أشكال النضال ، مبينا أن الوضع التاريخي هو الذي يحدد شكل النضال ، ففي وضع تاريخي معين يكون العنف بأشكاله هو الخيار الوحيد المتاح أمام قوى التحرر الوطني ، بينما يكون العنف نفسه في ظرف تاريخي آخر خيارا غير عقلاني ، بل وسبيلا إلى تدمير الذات . ثم عرض المؤلف للمدارس المختلفة في نظرية النزاع وأبحاث السلم ، ثم عرض لعدد من التجارب التاريخية لاستخدام العمل الجماهيري ، بدءا من النضال الهندي من أجل الاستقلال ، ونضال حركة الحقوق المدنية للسود الأمريكيين ، والحركة الجماهيرية العربية في السودان عامي ١٩٦٤ و ١٩٨٤ ، ودور الحركة الجماهيرية العربية في النضال ضد الاحتلال « الاسرائيلي » في لبنان وفلسطين . ثم عرض المؤلف عددا من الأطروحات السائدة في مجال البحث العلمي حول العمل الجماهيري والمقاومة المدنية ، وبخاصة فيما يتعلق بالاستراتيجية والتكنيك ومستلزمات بدء مقاومة مدنية ، وشروط استمرارها وانتصارها .

■■

الكتاب : اسرائيل وأمريكا اللاتينية .. البعد العسكري

المؤلف : بشارة بحبح

الناشر : مؤسسة الدراسات الفلسطينية

عدد الصفحات : ٢٣٣ (قطع متوسط)

سنة النشر : ١٩٨٧

يشكل هذا الكتاب دراسة مهمة غير مسبوقة ، مزودة بالوثائق والأرقام عن الروابط التي نشأت عن صفقات السلاح بين « اسرائيل » والعديد من دول أمريكا اللاتينية ، وكيف لجأت هذه الدول إلى « اسرائيل » كمورد سلاح ليس بسبب الحاجة التي أوجدتها النزاعات المحلية فقط ، ولا للأهمية السياسية التي تتسم بها قواتها المسلحة ، بل بسبب تصميم « اسرائيل » على ملاءمة صادراتها مع هذه المتطلبات (مثل أسلحة مقاومة التمرد) ، ولعدم فرض « اسرائيل » أية قيود على استخدام السلاح لأسباب خلقية أو سياسية . وقد قدم الكاتب تحليلا متزنا لدوافع الفاعلين في الساحة ، وتقويما انتقاديا للنتائج التي حققتها « اسرائيل » . وأظهر الكاتب اعتماد « اسرائيل » المستمر على الولايات المتحدة ، سواء بصورة سلبية من خلال ازدياد صادرات السلاح « الاسرائيلي » بعد أن علقت الإدارة الامريكية شحنات السلاح إلى الأنظمة القمعية في وقت سابق في السبعينيات ، ثم المساعدة الأمريكية بصورة إيجابية من خلال استعمال الولايات المتحدة « اسرائيل » كوكيل متمم لجهودها الخاصة . ثم قدم الكتاب عرضا للنتائج الاقتصادية والسياسية التي حصلت عليها « اسرائيل » من علاقتها العسكرية مع أمريكا اللاتينية .

■■

الكتاب : التغيير الاجتماعي والتنمية في دول الخليج العربية

المؤلف : د . رفعت ابراهيم بشير

الناشر : ذات السلاسل . الكويت

عدد الصفحات : ٢٤٣ ، قطع متوسط

سنة النشر : ١٩٨٧

يناقش المؤلف في كتابه قضية التغيير الاجتماعي والتنمية في دول الخليج العربية ، فيبدأ الكتاب بعرض للتغير الاجتماعي من خلال تعريف التغيير ، وعرض لنظرياته ، ثم استعراض لعوامل التغير الاجتماعي كفكرة نظرية بشكل عام ، ثم بشكل أكثر خصوصية في عرض لعوامل التغيير الاجتماعي في الوطن العربي ، وينتقل الباحث بعد أن يستوفي قضية التغيير الاجتماعي الى الحديث عن التنمية فيقدم استعراضا للمفاهيم الاساسية في التنمية ، ثم يناقش مجالات التغيير الاجتماعي والتنمية في دول الخليج العربي ويقوم بالربط بين نتائج عمليات التنمية وآثارها في دفع عجلة التغيير الاجتماعي ومجالات السكان والتعليم والمرأة . □

مسابقة العربي الثقافية

العـدد ٣٥٧
اغسطس ١٩٨٨

١ أين تقـع أعلى الجبـال في الـوطن العربي ؟
× في لبنان ـ × في المملكة المغربية ـ × في اليمن الشمالي

٢ أي الطيور التالية تستطيع الطيران والعيش على قمم شاهقة ، يبلغ ارتفاعها (٨٠٠٠) متر أو أكثر ؟
× النسور ـ × الأوز ـ × الطير الطنان .

٣ ترى أيها أضخم وأكبر مساحة :
الجبال الجليدية أم جبال اليابسة ؟

٤ أي سلاسل الجبال التالية تستأثر بأكبر عدد من القمم الشاهقة التي يزيد ارتفاعها على ٢٤٠٠٠ قدم ؟
× سلسلة جبال أطلس في شمال أفريقيا .
× سلسلة الجبال الفاصلة العظيمة في استراليا .
× سلسلة جبال هملايا .

٥ أين يقع جبل أفرست على وجه الدقة ؟
* على حدود التبت مع نيبال . * على حدود التبت مع الصين . * على حدود التبت مع الهند .

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥٧ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ سبتمبر ١٩٨٨

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـدد ٣٥٧

٦ سلاسل الجبال الثلاث المعروفة هي سلسلة جبال هملايا في آسيا ، وسلسلة جبال روكي في أمريكا الشمالية ، وسلسلة جبال الانديز في أمريكا الجنوبية يبلغ طول إحداها ، لا على التعيين (٦٠٠٠) كم ، والأخرى (٧٢٠٠) كم ، والأخيرة (٣٨٠٠) كم ، حدد لكل سلسلة منها طولها مما ذكر ؟

٧ قمة آدم وجبل آدم أين يقعان وأيها يفوق الآخر ارتفاعاً ؟

٨ تسلق الجبال هواية عنيفة ورياضة خطيرة لا ريب . ترى أين ظهرت هذه الرياضة أول ما ظهرت ؟ ومتى ؟

× في اليونان حينما ظهرت الألعاب الأولمبية في التاريخ القديم .

× في فرنسا إبان العصور الحديثة .

× في الأندلس أيام الحكم العربي .

٩ بعثة (ك ٢ k 2) هي بعثة أمريكية متخصصة بقياس علو الجبال ، أعلنت في السادس من شهر مارس الماضي (٦/٣/١٩٨٧) أن جبل أفرست لم يعد أعلى جبال العالم ، وتلك مرتبة استأثر بها جبل أفرست طيلة ١٣٥ عاماً مضت ، وأن جبلاً آخر غيره قد انتزع تلك المرتبة منه ، فأي جبل هذا ؟

١٠ ترى أين يكثر المسنون المعمرون ؟

× في البلدان الجبلية .

× في البلدان الساحلية .

× في بلدان الوديان .

١١ أي الجبال التالية تسكنه طائفة من الناس تقدس الشيطان ، إن لم نقل تعبده ؟

× جبل سنجار على الحدود بين سوريا والعراق .

× جبل أرارات في تركيا ، قرب حدود أرمينيا .

× جبل الكنيسة في لبنان .

١٢ درج القرويون في سويسرا على منع أطفالهم عن الصراخ والغناء ، لا سيما في فصل الربيع ـ لماذا ؟

× لئلا يؤدي صراخهم أو غنائهم إلى انهيارات ثلجية .

× حرصاً على الهدوء أو السكوت وقد فطر السويسريون على حبه .

حلّ مسابقة العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨

١

١,٧٣٪ هي النسبة التي بلغتها الزيادة السكانية في فترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، حسب آخر الاحصاءات ، وستصبح ١,٥٪ سنة ١٩٩٠ في تقدير العلماء ، ولو ذكرنا أن الزيادة السكانية في العالم ككل بلغت ٣٪ في فترة ١٩٥٨ - ١٩٦٢ لأدركنا أن تلك الزيادة آخذة في التقلص ، وأن شبح الانفجار السكاني آخذ في التواري .

٢

كينيا هي الدولة الأولى في العالم من حيث ارتفاع نسبة الزيادة السكانية ، فقد بلغت نسبة المواليد فيها ١ : ٥٥ نسمة لكل ألف من السكان في فترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) ، أي ما يعادل نحو ضعفي نسبة العالم ككل للفترة نفسها ، والبالغة ٢٩ نسمة لكل ألف من مجموع السكان .

٣

تبلغ الكثافة السكانية حدها الأدنى في جزيرة جرينلند أو كما يسمونها الآن « كالاليت نونات » ، إذ تبلغ مساحتها (٢,١٧٥,٠٠٠) كم٢ ، ويبلغ عدد سكانها (٥٣,٤٠٦) نسمة حسب آخر إحصاء (١٩٨٦) . ولو وزعنا المساحة على مجموع السكان لوجدنا أن نصيب الفرد الواحد من المساحة يبلغ (٤٠) كم٢ أو أكثر .

٤

بنجلادش هي الدولة الأولى في العالم من حيث كثافة السكان ، إذ تبلغ هذه الكثافة فيها ٧٢٧ نسمة لكل كيلومتر مربع من مساحتها ، ذلك أن عدد سكانها قد بلغ حسب إحصاء ١٩٨٦ (١٠٣,٢٠٠,٠٠٠) نسمة ، في حين تبلغ مساحتها ١٤٢,٧٧٥كم٢ .

٥

يبلغ طول الجدار القائم بين غرب برلين وشرقها ١٣٨٠ كم على وجه التحديد ، وقد كلفت أعمال بنائه ٧٠٠٠ مليون دولار ، بما في ذلك تكاليف صيانته منذ المباشرة في تشييده سنة ١٩٦١م . وقد نجح الجدار في وقف تيار الهجرة ، فالمهاجرون من ألمانيا الشرقية إلى الغربية قد بلغ مجموعهم ٢٠٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٦١ ، ولم يتجاوزوا (٣٠) مهاجراً سنة ١٩٨٥ . وقد بلغ عدد الذين قتلوا أثناء محاولاتهم الهجرة (١٨٤) نسمة ، وذلك منذ عام ١٩٦٢م .

٦

الصين هي الدولة الأولى من حيث طول حدودها وكثرة الدول التي تملك حدوداً مشتركة معها ، أما طول هذه الحدود فيبلغ ٢٤٠٠٠ كم ، وأما عدد الدول المتاخمة فثلاث عشرة دولة .

وتجدر الاشارة إلى أن كندا هي صاحبة أطول حدود متصلة في العالم ، إذ يبلغ طول حدودها (مع الولايات المتحدة) ٦٤١٦ كم ، بما في ذلك الحدود المائية عبر البحيرات .

٧

بلغ عدد سكان العالم سنة (١) ميلادية حوالي ٢٥٥ مليون نسمة ، وفقاً للحسابات والتقديرات الدقيقة التي أجراها المتخصصون من العلماء .

٨ يبلغ مجموع من عاش ومات من البشر على مدى الأربعين ألف سنة الماضية حوالي ٦٠,٠٠٠ مليون نسمة ، وذلك وفقاً للدراسات والأبحاث التي قام بها عالم الديمغرافيا (الجغرافيا البشرية) الفرنسي بيرابين **Pirapen** .

٩ سيبلغ مجموع سكان العالم بعد نحو قرن من الزمان (في سنة ٢٠٩٥م) بالتحديد (١٠,٥٠٠) مليون نسمة ، وسيبلغ في نهاية القرن الحالي (٦١٢٢) مليون نسمة ، وذلك خلافاً للتقديرات العلمية السابقة التي أنذرت بوقوع الانفجار السكاني في مطلع القرن الواحد والعشرين .

١٠ جزيرة (كالاليت نونات) هي كبرى جزر العالم مساحة ، فهذه هي جزيرة جرينلند نفسها ، وقد استبدلوا اسمها القديم هذا بالاسم الجديد : كالاليت نونات **Kalaallit nanaat** .

١١ يبلغ عدد الدول المستقلة ذات السيادة في العالم (١٧٠) دولة ، ولو أضفنا إليها المناطق التي تفتقر إلى السيادة وعددها ٥٩ منطقة لكان المجموع الكلي (٢٢٩) .

١٢ الفاتيكان هي صغرى دول العالم مساحة وعدد سكان ، فمساحتها لا تزيد على ٤٤ هكتاراً (١٠٨,٧ فدادين) ، وعدد سكانها لا يتجاوز ٧٥٠ نسمة وفق آخر الاحصاءات (١٩٨٦) ، أما (نورو) تلك الدولة الاستوائية القرية من سواحل المحيط الهادي فهي أصغر دولة تتبنى النظام الجمهوري في العالم ، وتبلغ مساحتها ٢١٢٩ هكتارا (٥٢٦٣ فدانا) .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨

الجائزة الأولى : محمود عبدالحميد الزعيم / المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية .

الجائزة الثانية : جودت أحمد الحمد / إربد ـ المملكة الأردنية الهاشمية .

الجائزة الثالثة : ياسين خضير علي محمود / بغداد ـ الجمهورية العراقية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ ماجور هومسي جين ـ قبرص
٢ ـ جيمي العريجي / زغرتا ـ لبنان الشمالي ـ الجمهورية اللبنانية .
٣ ـ عبدالغفار المحمد / حلب ـ الجمهورية العربية السورية .
٤ ـ عبدالحميد محمد زكي الدين ذالوحش / كفر سناط ـ غربية ـ جمهورية مصر العربية .
٥ ـ لحميري الهواري / الجزائر
٦ ـ توكتي ادريس / زنقة السعديين الجديدة ـ المغرب
٧ ـ فخر الدين حودة / صفاقس ـ تونس
٨ ـ حيدة محمد سيد أحمد / بورتسودان ـ السودان

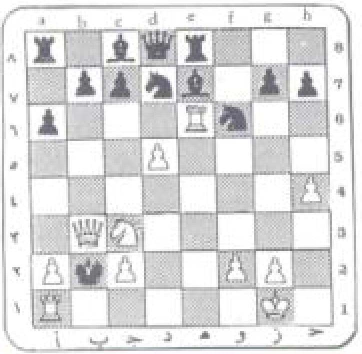

معركة بلاسلاح

من الأنشطة الشطرنجية البارزة التي جرَت مؤخراً في العاصمة اللبنانية باشراف الاتحاد اللبناني للشطرنج المباراة التي تعرف باسم « دورة أصحاب الكفاءات في الشطرنج » والتي أقيمت في مطلع شهر ابريل من العام الحالي . وقد شارك في هذه الدورة ٢٦ لاعباً من الذين احتلوا مراكز مرموقة في المباريات التي أقامها الاتحاد اللبناني للشطرنج في العامين الماضيين بالاضافة إلى ثمانية من الأبطال الدوليين من لبنان وفلسطين من بينهم بطل لبنان الحالي سمير سرسق واللاعب اللبناني المرموق أحمد نجار واللاعبان الفلسطينيان علاء الدين موسى ومحمود سعيد .

وقد تألفت الدورة المذكورة من ست جولات جرت وفق النظام السويسري وتميزت جميع جولات المباراة بالاثارة والتشويق والروح الرياضية الرفيعة بفضل حسن إدارتها وتنظيمها ، وقد فاز اللاعب الدولي اللبناني أحمد نجار بالمرتبة الأولى بهذه المباراة برصيد قدره خمس نقاط وتلاه اللاعبون هيثم عمر ورفيق بركات وسمير سرسق برصيد قدره أربع نقاط ونصف نقطة لكل منهم واحتل المرتبة الخامسة البطل الفلسطيني محمود سعيد برصيد قدره أربع نقاط ، وقام السيد محمد سكر رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج في الحفل الختامي للدورة بتقديم كأس الدورة الفضي للفائز الأول والميداليات الفضية للفائزين البارزين .

وقد تميزت الدورة كما أشرنا بالحماسة والاثارة والتشويق والجديّة في اللعب وحَفَلت بالعديد من المفاجآت المثيرة منها احتلال اللاعبين الشباب للمراتب الثلاث الأولى وتراجع بطل لبنان الحالي الذي جاء ترتيبه الرابع بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها أمام أحد أبطال فلسطين ، كما تراجع أيضاً البطل الفلسطيني الدولي علاء الدين موسى الذي جاء ترتيبه العاشر برصيد لا يزيد عن (٣،٥) ثلاث نقاط ونصف نقطة .

وقد حَفَلت المباراة التي تعتبر من أهم المباريات المقامة في لبنان حتى الآن واقواها بالأدوار الجميلة المدروسة المخططة الدالة على حسن الاعداد المسبق وجديته . والدور التالي من دفاع فيليدور والذي نقتطفه لكم من هذه المباراة بين بطل لبنان الحالي سمير سرسق ومواطنه أحمد نجار الفائز ببطولة الدورة ، يذكرنا هذا الدور بالأدوار المثيرة البراقة التي حفظها لنا أدب الشطرنج عن كبار اللاعبين من أبطال العالم الأفذاذ الأوائل ، وقد تميزت رحلة الموت للملك الأسود عبر الرقعة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار بالنقلات الذكية ، والتضحيات المخططة البديعة التي استدرجت الملك الطريد الى مربع الموت في أقصى الرقعة .

□ أحمد نجار	■ سمير سرسق
١ . هـ ٤	د ٦

٢ . د ٤	ح - و ٦
٣ . ح - جـ ٣	ح - د ٧
٤ . ح - و ٣	هـ ٥
٥ . ف - جـ ٤	ف - د ٧
٦ . ت	ت
٧ . و - هـ ٢	هـ × د ٤
٨ . ح × د ٤	أ ٦
٩ . ف - و ٤	ر - هـ ٨ ؟

خطأ يحسن الأبيض استغلاله

١٠ . ف × و ٧ + (رائعة)	م × و ٧ ؟

يلتهمه الأسود بجشع دون تفكير بالعواقب

١١ . ح - هـ ٦ !	م × هـ ٦ ؟
١٢ . و - جـ ٤ + !	(بداية المطاردة) د ٥
١٣ . هـ × د ٥ +	م - و ٥
١٤ . و - د ٣	م × و ٤
١٥ . جـ ٤	م - هـ ٥ (تفاديا للمات)
١٦ . ر و - هـ ١	م - د ٦
١٧ . ر - هـ ٦ +	م - جـ ٥
١٨ . ب ٤ + !	م × ب ٤ (مضطراً)
١٩ . و - د ٤ +	م - أ ٣
٢٠ . و - أ ٤ +	م - ب ٢
٢١ . و - ب ٣ + (الشكل)	يستسلم

لاضطراره لابتلاع آخر الطعوم المسمومة في طريقه الى مربع الموت في نهاية رحلته اليائسة .

مسألة العدد (٣٥٧)

أغسطس ١٩٨٨

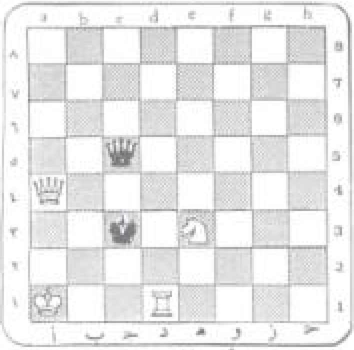

مات ٢

من اهداء القارىء
أمين سليمان ابراهيم (السعودية)

حل مسألة العدد (٣٥٥)

- يونيو ١٩٨٨

١ . و - ب ١	يلعب ما يشاء
٢ . و - هـ ٤ (أو)	و ١

الفائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٤ - مايو ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ - عبد الرزاق الخريشي - فاس / المغرب
٢ - أحمد سمير علي الضوي - القاهرة / ج م ع
٣ - علي سعيد محمد - الخرطوم / السودان
٤ - م . معاوية هلسة - الكرك / الأردن
٥ - تحسين علي صبيح - ميسان / العراق

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ - نسيم محمد حسني - الفروانية / الكويت
٢ - سيمون مرقص - بيروت / لبنان
٣ - أحمد عمر سالم - عدن / اليمن الديمقراطية
٤ - مالك عمار - صفاقس / تونس
٥ - بسام عقيل - حلب / سوريا

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

السينما الأمريكية وتشويه صورة العرب

ورد للمجلة مجموعة من الرسائل حول مقال الدكتور جاك شاهين (العربي كما تراه هوليود) المنشور في العدد ٣٥٣ . ومن ضمن من بعثوا بتلك الرسائل : حسن ابراهيم حسين الشيخ من المملكة الأردنية الهاشمية ، ومحمد بوزيدي من المغرب ، وسمير سلامة ابراهيم من مصر ، ومحمد عمار مراد من سوريا : ونختار الرسالة التالية منها : الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد ،

لقد قرأت في العدد ٣٥٣ - ابريل ١٩٨٨ مقالا مطولا بعنوان « العربي كما تراه هوليود » للدكتور جاك شاهين ، وقد كتب المقال بدقة وعناية ، وهذا يرجع إلى سعة اطلاع الكاتب على مجموعة كبيرة من أفلام هوليود التي تعكس تصور الأمريكيين مخرجين أو ممثلين أو مشاهدين عن الإنسان العربي ، وهذا يرجع إلى التوجه العام للإدارة الامريكية والإعلام الموجه الذي يقف وراءه اللوبي الصهيوني وتفرعاته .

ولعل الملفت للنظر في المقال طريقة تقديم الكاتب للأوصاف التي يصف بها المعنيين بالأمر في هوليود الإنسان العربي ، وهي « الجبن والشراسة والشبق والتخلف » ،إلا أني أود أن ألفت الانتباه إلى الدور المطلوب أن تقوم به المؤسسات العربية المسؤولة عن الأجهزة الإعلامية ، من حيث محاولة إثبات العكس بطريقة أو بأخرى ، أمام الجمهور والرأي العام العربي والأمريكي ، فقد ذكر د . شاهين ما يربو على ثلاثين فيلما موجهاً للرأي العام الأمريكي، يروي سلبيات المجتمع والإنسان العربي ، فهل يجرؤ أي جهاز سينمائي عربي أن يقدم فيلما واحدا يذكر الخصال الحميدة ومآثر العرب ، ويقدم بالمقابل سلبيات الغربي أو الأمريكي ، مثل وجود عصابات المافيا وتجارة الرقيق الأبيض ، وتفشي الأمراض الاجتماعية ، وانتشار المخدرات والاتجار بها ، والتفكك الأسري .

أما الشيء المهم الذي يجب أن يفهمه الإنسان العربي فهو أن « عدوك مرآتك الحقيقية » .

ختاما أود أن أقول إنه لمن دواعي الأسف أن إعلامنا العربي غير موجه إلا فيما

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

ندر ، وهناك الكثير من الأمور التي تسيء إلى العرب وصورتهم . وما التفكك الذي نحن عليه ، وحالة الخلاف بين الأشقاء العرب إلا أحد الأسباب التي جعلت الآخرين يستسهلون النيل منا .

المهندس : قاسم محمد عقل
العين ـ الإمارات العربية المتحدة

■ ■ ■

صرخة من سيناء

الأستاذ الدكتور محمد الرميحي رئيس التحرير ،

لا أكتمكم سرا أن العدد رقم ٣٥٤ (مايو ١٩٨٨) من مجلة العربي حرك في نفسي جذوة الغيرة المتقدة في أعماقي على أرض فلسطين الغالية ، التي سبق أن أشعلتها داخل كل عربي يؤمن بقضية الارض ، انتفاضة (بل ثورة) الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة ، والتي ما أظنها الا بركانا كان كامنا وآن له أن يثور وينطلق منه المارد ليحطم أمامه كل محاولات الكبت والاجهاض .

واسمحوا لي أن أعبر بكل الأمل من قلب أرض العبور والتحرير والنصر ، بصرخة متواضعة كتبتها بمداد من انفعالات قلب اختلج وهيج مابداخله عقب اطلاعي على العدد ٣٥٤ من مجلة العربي ، وأعتقد أنها تعبر عن تضامننا نحن شعب سيناء،بل شعب مصر كله كما تعودت كافة الشعوب العربية منه أن يتضامن مع الأشقاء في الأرض المحتلة .

وأكتب هذه الأبيات تحت عنوان « صرخه من قلب سيناء » .

لا ... لن نسلم أو نلين ... سنظل دوما صامدين
فأنا ككل اللاجئين .. بسلاحنا متحفزين
لنطهر الوطن السليب ... من الطغاة الغاصبين
سنعود حتما .. إننا ... سنعود في الفجر الجديد
فأبي هناك فقدته ... ولكم فقدنا من شهيد
والذكريات .. الذكريات تركتها ... والارض والبيت العتيد
أتضيع أرضي هكذا .. ... وتظل نهبا لليهود ؟
قسما لئن هانت حياتي ... لم تهن أرض الجدود

متبولي أحمد عبدالله محمد
بئر العبد ـ شمال سيناء

حوار القراء

ظاهرة الانتحار عند بعض المبدعين

لقد لفت نظري في العدد ٣٥٣ ابريل ١٩٨٨ مقال بعنوان« نزعات الانتحار عند المبدعين » للدكتور محمد جابر الأنصاري .

وقد حصر المقال حول الكاتب الياباني ميشيما والشاعر العربي خليل حاوي ، وتحدث عنهما طويلا ، وكأنهما جميع المبدعين ، ثم في نهاية المقال يقول : إن هناك حالات أخرى كثيرة لم يذكر منها سوى الكاتب الروسي ماياكوفسكي والناقد المصري أنور المعداوي ، أما بالنسبة للنساء فلم يذكر منهن امرأة واحدة بالقول واكتفى بأنهن أقل عرضة للانتحار ، وهذا القول عليه ملاحظة ، فهناك العديد من النساء قد انتحرن ، فهناك الممثلة الأمريكية المشهورة مارلين مونرو في أغسطس ١٩٦٢م ، وقد ترددت الشائعات الكثيرة حول سبب انتحارها ، فقيل بسبب فشلها في الزواج أكثر من مرة ، وقيل لعلاقتها العاطفية مع الرئيس الامريكي الراحل جون كنيدي أو مع أخيه روبرت ، وقيل إن هناك أسبابا نفسية . وفي عام ١٩٨٣ انتحرت رومي شنايدر وهي في قمة شهرتها ومجدها ، دون أن يعرف أحد السبب ، وفي إحدى صالات مونت كارلو انتحرت الفنانة اليانور دوز ، بعد أن خسرت مبالغ كبيرة على مائدة القمار .

كما انتحرت الممثلة الايطالية بيرا انجلين التي حققت شهرة عالمية في السينما الأمريكية ، وقد كانت لها علاقة عاطفية مع كبار النجوم ، مثل جيمس دين ، وكيرك دوجلاس ، وقد عادت إلى ايطاليا في نهاية الستينات ، وانتحرت هناك

ومن المبدعين الذين انتحروا الالماني هنري كلاسيتا ، وقد كان من أبرز الشعراء الرومانسيين ، وآرثر كوستلر وزوجته ، وكذلك فعل الموسيقي روبرت شوفان الذي ألقى بنفسه في نهر الراين ، كي يضع حدا لآلامه ، وكان ذلك في عام ١٨٥٤ ، أما من الأدباء فلعل أبرز المعاصرين هو الكاتب آرنست همنغواي الذي تثار حول موته الأقوال ، وهل كان موته برصاصة خاطئة من البندقية أم أنه انتحر .

وفي عام ١٩٧٧ انتحر بنفس طريقة ميشيما الكاتب الياباني ياسوناري كاواباتا الذي حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٨ .

كما أن الكاتب الفرنسي هنري دي مونترلان انتحر وهو في قمة شهرته وعطائه ، وعمره يناهز السادسة والسبعين ، بإطلاق النار على رأسه ، وبنفس الأسلوب انتحر في فرنسا الكاتب المعروف دريولا روسيل عام ١٩٤٥م . أما الأديب المصري محمد عليش فقد انتحر في سيارته ، وترك ثروة خصصها لإحدى الصفحات الأدبية بجريدة الأخبار المصرية .

القاريء عبدالسلام سالم عبدالله

حي الرشيدة فورقلر ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

موريتانيا عربية

كثيرا ما يسألني أصدقائي عن اللغة التي يتحدث بها سكان موريتانيا ، وأعرف أنهم ليسوا وحدهم الذين يرغبون في معرفة الإجابة عن مثل هذا السؤال ، ولهذا فقد فضلت أن يكون الجواب بواسطة مجلة العربي ، لأنها أولا تلقى الاهتمام البالغ من القراء ، وثانيا كوني أود أن أعلق على ما ذكره قارىء جزائري عن البربر والمغرب ، وذلك في العدد ٣١٥

يبلغ سكان موريتانيا حوالي (٣ ملايين نسمة) ، بينهم نصف مليون افريقي يسكنون في الجنوب الموريتاني المطل على نهر السنغال ، ويسكنون أيضا في المدن الصناعية مثل نواكشوط وأنواذيبو ، أما البقية فكلهم من العرب ، يتكلمون اللهجة (الحسانية) ، وهذه اللهجة دارجة أيضا بين سكان الصحراء المغربية ، والعرب الذين يسكنون الجنوب المغربي من الجزائر ومالي والنيجر والسنغال وكل أقطار افريقيا الغربية .

وهي لهجة قريبة إلى العربية مع بعض الألفاظ الدخيلة عليها

سيد ولدبابا ولد بشير

مدينة فر ـ الجمهورية الإسلامية الموريتانية

■■■

معركة بواتييه بين الحقيقة والخيال

● وردت رسائل عديدة تناقش بعض الأفكار التي وردت في المقال الذي نشر في رقم ٣٥١/ فبراير ١٩٨٨ ، للدكتور سلمان قطاية بعنوان « حقيقة معركة بواتييه » ، ونظرا لضيق المساحة ولأهمية الموضوع فإننا رأينا أن ننشر بعض ما ورد إلينا ، وهذا لا يعني عدم اكتراثنا بالبقية ، فلكل القراء الذين أرسلوا لنا كل محبة وتقدير .

الرسالة الأولى

لقد سعدت بإلقاء الضوء من مجلة « العربي » على معركة طواها النسيان ، وفي إحيائها ذكر للقادة العرب العظام ، وإني أعتقد أن هناك أسبابا عديدة كانت وراء هزيمة العرب في هذه المعركة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ عدم تجانس الجيش العربي الذي تكون من عرب وصقالبة وبربر .

٢ ـ وجود قائد بارع داهية هو « دوق اكتانيا » الذي قاتل العرب طويلا قبل أن يتحالف مرغما مع « شارل مارتيل » الذي استولى على املاكه لاحقا .

٣ ـ هذا الى جانب الجيش الكبير الذي تجمع حول « شارل مارتيل » من قبائل افريقية .

٤ ـ العوامل الجغرافية : فالعرب لم يتعودوا على الحرب في منطقة جبلية .

أحمد أقوعار

الدار البيضاء

المملكة المغربية

حوار القراء

الرسالة الثانية

● إن الحديث عن معركة بواتييه لابد أن يوضع في إطاره التاريخي ، فهناك ثلاث مراحل ، في المرحلة الأولى نلاحظ في المصادر التاريخية أن « بيان » صاحب البلاط السير « وفانجي » قد ارتبط بالمصاهرة مع أسقف مدينة « متيز » عام ٦٥٦ ، وفي المرحلة الثانية نلاحظ استفادة البينيون حين تركوا الملك للميروفانجيين ، واحتفظوا بالحجابة فقط ، وفي المرحلة الثالثة نلاحظ ظهور شخصية بارزة ، هي شخصية شارل مارتيل الملقب بالمطرقة ، هذه الشخصية التي عززت نفوذ الأسرة البينية ، وذلك بتحقيق انتصار على المسلمين في معركة بواتييه - بلاط الشهداء سنة ٧٣٣ ، وهي معركة جرت جنوب باريس ، بين القوات المسلمة بقيادة والي الأمويين بالأندلس عبدالرحمن الغافقي ، والقوات المسيحية بقيادة حاجب بلاط الميروفانجيين . ومن الملاحظ أن العديد من المؤرخين المعاصرين لها ، واللاحقين لها أيضا قد أعطوا لهذه المعركة أهمية بالغة جدا ، ومبالغا فيها أيضا ، كما يلاحظ أيضا أن المواجهة تميزت باختلاف أصول العناصر المتصارعة ، واختلافها أيضا في تقنيات الحرب ، ويتضح من المعركة أن بواتييه لم تكن المعركة الأولى بين المسلمين والمسيحيين ، ولم تكن هذه الهزيمة الأولى والأخيرة ، وأنها لم تكن عملية مؤطرا لها ايديولوجيا وعسكريا من طرف القيادة المركزية بدمشق ، كما أنها لم تكن معركة حاسمة ضد الوجود الإسلامي في الأندلس .

ياسر زكي السطري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء/ المملكة المغربية

■ ■ ■

● رئيس تحرير مجلة العربي

لاشك أن مجلة « العربي » الغراء هي المجلة الأولى لكل قاريء بالعربية في العالم ، فعلى صفحاتها تتزاحم الصور والكلمات ، وبين سطورها تتألق الثقافة والمعرفة . لي رجاء من المجلة الرائدة أن توجه دفة استطلاعاتها نحو الوطن العربي عامة ، وبلاد الشام خاصة مثل سوريا ولبنان والأردن ، ولا يخفى عليكم أن في بلاد الشام ما لا يعد ولا يحصى من الآثار التاريخية الشامخة منذ أقدم العصور ، والمناظر الطبيعية الخلابة التي تحيي النفس ، كما لا يخفى عليكم ما لقيمة هذه الاستطلاعات ودورها في الحث على النشاط الاقتصادي ، فضلا عن تعريف القاريء العربي بهذا الجزء الحي من وطنه العربي الكبير .

طلحة جوهر - حماة/ حيدبة/ سوريا

استطلاعات « العربي »

العربي

تشكرك على اهتمامك بقراءة المجلة ، والكلمات الرقيقة المعبرة عن شعور عربي صادق ، ونود أن نخبرك أن استطلاعات المجلة دائما في خدمة قرائنا ، وأنها تعمل على نشر كل جديد وجيد في الوطن العربي أولا ، وفي العالم المحيط بنا ثانيا ،

حتى يزداد إدراك القارىء ومعرفته بما يدور حوله ، ويتعرف على عادات وتقاليد وآثار وحضارات المجتمعات المتقدمة ، كما تحرص « العربي » على استطلاع أو أكثر في كل عدد ، فيه جولة في بقعة عزيزة من بقاع الوطن العربي ، حتى يلم قارىء المجلة بتاريخ هذا الوطن وحضارته ، أما بالنسبة للأقطار العربية في الشام فالمجلة تحرص على أن تنشر كل ما هو مناسب وجديد من هذه البقعة الغالية علينا وفق جدول وخطة زمنية ترسمها المجلة ، حتى يكون هناك تنوع في الاستطلاعات ، ويأخذ كل جزء من الوطن العربي حقه . ولعلك اطلعت على استطلاعاتنا التي نشرناها خلال الأعوام الماضية حتى العام الماضي عن سوريا ولبنان والاردن . وما زال في خطتنا المزيد .

■■■

ردود قصيرة

● القارىء حسين محمود السلوادي من أسوان / كوم امبو / سلوابحري / بجمهورية مصر العربية .

نحن في المجلة نرحب بكل ما ترسل إلينا من رسائل ، وعلى استعداد لنشرها إذا كانت تتمشى مع أهداف المجلة وسياستها .

● القارئان سامر وبلال درنيقة من طرابلس ـ لبنان يشيدان بجهود المجلة ، ويثنيان على الاستطلاعات التي قامت بها المجلة عن سيول وجنوب وشرق سيبيريا ، ويرغبان بقيام المجلة بعمل استطلاع عن استراليا .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .

• ميزانها الأساسي في اختيار المترجمات هو الجديد والهام .

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني | نائب رئيس التحرير: د. سليمان إبراهيم العسكري

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت
اغسطس ١٩٨٨ م

المدينة الإسلامية

تأليف

د. محمد عبد الستار عثمان

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٢٩
المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كليّة الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبدالمحسن مدعج المدعج

دوريّة علميّة محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علميّة تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربيّة والانجليزيّة شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يُمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره .

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص.ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة.
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية.
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥.
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي:
  - أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية
  - ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية
  - جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية.
- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم.
- الاشتراك السنوي بالمجلة
  - أ) داخل الكويت: ٢ د.ك للافراد ١٠ د.ك للمؤسسات
  - ب) الدول العربية ٢،٥٠٠ د.ك للافراد ١٢،٠ د.ك للمؤسسات
  - جـ) الدول الاجنبية: ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص.ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

للتلفون جامعة الكويت - الشويخ
هاتف: ٤٨١٦٨٨٧ ٤٨١٦٧٩٩ ٤٨١٦٨٥٤ ٤٨١٤٢٩٠

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها
جامعة
الكويت

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
الموزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف: ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧ - تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٦٧٨٩ ، ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على:

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة إلى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء.

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد.

من
المسرح
العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٧ أول أغسطس ١٩٨٨

الضوء يسطع في الظلام

تأليف: ليون تولستوي
ترجمة وتقديم: د. فوزي عطية
مراجعة: د. نادية إمام سلطان

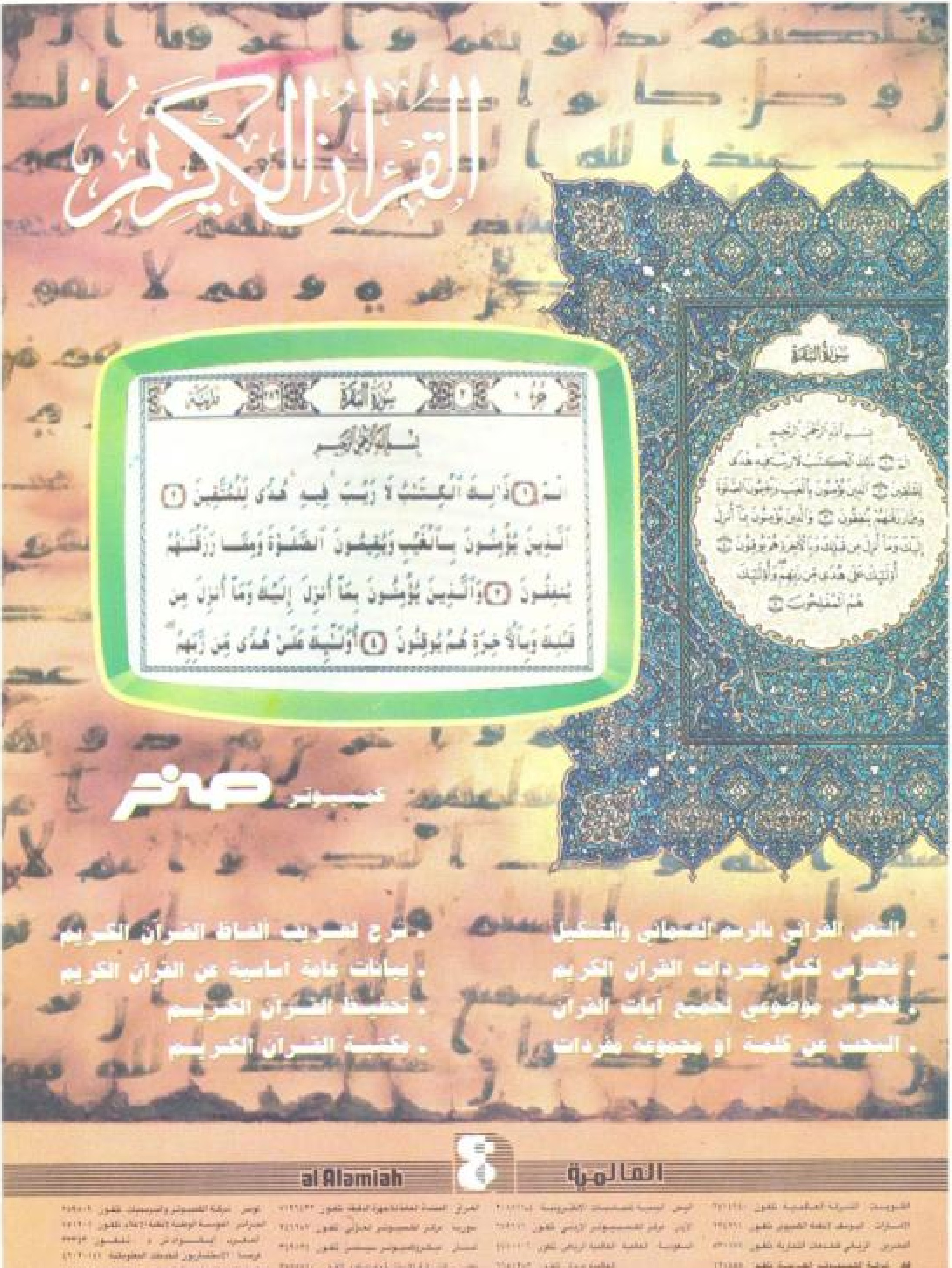
القرآن الكريم
صخر كمبيوتر
. النص القرآني بالرسم العثماني والتشكيل
. فهرس لكل مفردات القرآن الكريم
. فهرس موضوعي لجميع آيات القرآن
. البحث عن كلمة أو مجموعة مفردات
. شرح لتعريب ألفاظ القرآن الكريم
. بيانات عامة أساسية عن القرآن الكريم
. تحفيظ القرآن الكريم
. مكتبة القرآن الكريم
العالمية
al Alamiah

محرم ١٠٤٩ هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٨٨م

العربي

السويد..
بلاد الشمس الباردة

حيوانات نادرة
في الخليج العربي

لوحة من وحي الشرق
للفنان السعودي
خليل حسن خليل

العدد ٣٥٨ السنة الحادية والثلاثون سبتمبر ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 358 Sep. 1988, P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information - State Of
Kuwait.

عنوان المجلة
ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 ـ الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الإعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : بعد أهوال الحرب ، تنتعش آمال السلام ـ د. محمد الرميحي .. ٨
■ أرقام : الانسان وعلله المتراجع ـ محمود المراغي ٣٤

عروبة وإسلام :

■ مع اطلالة العام الهجري : الاسلام والاستقامة الفكرية .... ـ د. عبدالعزيز كامل ١٩

استطلاعات مصورة :

■ السويد بلاد الشمس الباردة ! .... ـ د. حسن عباس ٦٨
■ حيوانات نادرة في .. الخليج العربي ! .. ـ أنور الياسين ١٣٢
■ «الجينسنغ» الوهم .. والحقيقة ! ...... ـ سليمان الشيخ ١٥٠

طب وعلوم :

■ حرب الظواهر الخارقة ـ محمد حسن بيرقدار ٣٠
■ أثر الحركة على صحة الانسان ... ... ـ د. عصام سامي الخالدي ٣٦
■ الرحلات في عالم .. الحشرات .... ـ د. كارم غنيم ٥١
■ الجديد في العلم .. والطب ـ اعداد: يوسف زعبلاوي ١٢٦
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠
■ هل أصاب المناخ «جنون العصر»؟ .. ـ مجدي نصيف ١٥٨

أدب وفنون :

■ على حجر في الجحيم (قصيدة) ...... ـ محمد ابراهيم أبوسنة ٢٨
■ أمي نهضة جديدة .. للخط العربي ؟ .... ـ محمد سعيد الصكار ٤٢
■ في يوم بارد (قصة) .. ـ ملك حاج عبيد ٥٨
■ الحجارة الموسومة .. (قصيدة) ...... ـ محمد الفايز ٨٨

حيوانات نادرة في الخليج العربي
ص ١٣٢

سيدة القصر :
.. الجمال وصفقة الشيطان"
ص ٩٠

■ سيدة القصر .. الجمال
وصفقة الشيطان! .. ـ جمال قطب ٩٠
■ قراءة نقدية لكتاب :
«الحنان الصيفي» .. ـ د. حامد أبو أحمد ١٠٤
■ من طرائف النقد ..
والنقاد .... ـ عبد الرزاق البصير ١١١
■ طريق الخيول ....
(قصة مترجمة) ... ـ يوسف حلاق ١٢٢
■ أخاف عليك (قصيدة) ـ محمود مفلح ١٢٦
■ جمال العربية :
ـ صفحة لغة : ليس! .. ـ د. حسن عباس ١٧٦
ـ صفحة شعر : الجمال معادن للشاعر ....
عمرو بن معديكرب ١٧٨

منتدى العربي :

■ قضية : اطلاق العنان للقطاع الخاص ...
والمبادرات الفردية
ـ د. عبد الرحمن زكي ابراهيم ١١٦
■ تعقيب : التربية هي
الدواء لكل أدواء ..
المجتمع .... ـ د. أنور طاهر رضا ١١٩

وجها لوجه :
د. هشام جميط
.... ص ٩٧

المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

تربية وعلم نفس :

■ مواقف انسانية : وشر البلية ما يضحك ! ـ د . عبدالوهاب حومد ٢٤

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ ميخائيل نعيمة آخر رواد أدب المهجر . . ـ د . نادرة جميل السراج ٤٦
■ من التراث : صاحب الخبر ـ العين الباصرة والأذن السامعة . . . ـ د . محمد عيسى صالحية ٦٢
■ وجها لوجه : د . هشام جعيط ـ . . . . ماجد السامرائي ٩٧

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : الانتفاضة الفلسطينية في عيون يوغسلافية . . . . . . ـ د . جمال الدين سيد محمد ١٨٣
■ من المكتبة العربية
■ صاحب الأغاني . . . أبو الفرج الاصفهاني «الراوية» . . . . ـ د . سهير جاد ١٨٨
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٦
■ الكلمات المتقاطعة ١٨١
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٥) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢

صورة الغلاف

حسناء من السويد . . بلاد الشمس الباردة التي تمتلك تجربة في التقدم التقني والتطور الحضاري تضعها في مقدمة دول اوروبا من حيث الرفاه الاجتماعي .
(طالع الاستطلاع ص ٦٨)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ الفلسفة والطفل والوطن العربي ـ زياد القباني ١٠٠
■ آلة تسقط الذكور ـ د . نجوى قلعجي ١٦٦
■ هو . وهي ١٧٠
■ طبيب الاسرة : في البيت مصاب فاقد الوعي «الاغماء» ـ د . حسن فريد ابوغزالة ١٧٢
■ مساحة ود : الليل والنهار ـ أبو المعاطي أبو النجا ١٧٥

عزيزي القارئ

عندما تنقلب الشعارات إلى مقدسات يعاني الإنسان من هول ذلك ، ولقد كانت الحرب العراقية الايرانية في جزء منها تحول الشعارات إلى مقدسات ، وتصبح الدول أسيرة لشعاراتها .

وعندما تتسع الفجوة بين الشعار والواقع ، ينفجر الارهاب الأسود ، ولقد عانت الكويت من هذا الإرهاب الذي كان على رأسه محاولة آثمة للاعتداء على حياة أمير الكويت ، وسلسلة أخرى من الاعتداءات الإرهابية كان آخرها اختطاف الطائرة الجابرية وتعذيب ركابها وقتل اثنين منهم .

ولقد كانت الكويت دائما صادقة في موقفها الى جانب الحق والعدل ، مطالبة بوضع حد لهذه الحرب الدموية على جميع الأصعدة الدولية والعربية . ومع هذه الأزمة والتأزم لم تفقد الكويت إيمانها بعروبتها .

فقد رد الشيخ صباح الأحمد الجابر نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في الصيف الماضي على سؤال وجه إليه في برنامج « تلفزيوني » أمريكي ، إبان تصاعد الأزمة وفورتها ، كان السؤال يقول : إذا تصاعدت الأزمة أكثر وامامك جهازا هاتف ، واحد إلى موسكو وآخر إلى واشنطن .. أيهما ترفعه ؟ فرد أبو الدبلوماسية الكويتية : سأتصل بهاتف ثالث هو الجامعة العربية . وكان لذلك مغزاه العميق . فالعرب كما ترى الكويت أقوياء بتجمعهم ، ضعاف بفرقتهم .

لقد أبحرت سفينة الكويت ـ والحرب قائمة ضروس ـ بسلام في سياستها الخارجية وفي سياستها الداخلية على حد سواء . فلم تتأثر خططها التنموية الرئيسية وعنايتها بمواطنيها من جراء تلك الحرب . وإنما ازدادت صلابة في الاسراع بخطى التنمية والتعمير .

والآن وبعد أن ابتعد شبح القتال أخيرا ، وظهرت بوادر سلام وطمأنينة . تواصل الكويت سياستها في الحياد والتنمية وتعزيز العقل وإنمائه . داعية ـ كما كانت دائما ـ إلى حل الخلافات بالحوار . فقد كادت أطول حرب عرفها العالم في العصر الحديث أن تنتهي كما بدأت تماما .. مع اختلاف واحد .. هو أن العقل والحوار قد يأتيان بنتائج أفضل من الحرب والشقاق .

لقد احترم العالم موقف الكويت الصامد ضد الإرهاب .. ودفع الكويتيون لهذا الصمود ثمنا غاليا وعزيزا .. ولكنه ثمن مشرف من أجل حياة أفضل ، وكان لصوت الكويت المطالب بالسلام والتعايش .. الغلبة في نهاية المطاف . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

بعد أهوال الحرب
تنتعش آمال السلام

لا يستطيع كاتب يهتم بالشأن العام في منطقتنا أن يتجاهل حدثاً تاريخياً بالغ التأثير هو قبول إيران قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٩٨ الصادر في يوليو ١٩٨٧ ، بعد سنة من صدوره ، وبعد أن قبله العراق فور صدوره ، واحتمالات وضع حد لحرب دموية استمرت ثماني سنوات تقريبا بين دولتين جارتين مسلمتين ، وأثرت الحرب بينهما على قضايا هامة مصيرية في كلا البلدين وفي المنطقة ككل .

فالنتائج المحتملة لإحلال السلام لها تأثيرها على مجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في منطقة الخليج العربي على الأخص ، وأقطار الوطن العربي بشكل عام ، وهناك تداعيات إقليمية ودولية ، لا يستطيع أحد أن يرصدها على وجه الدقة واليقين في هذه المرحلة المبكرة ، ولكن يمكن الاشارة الى أهمها فقط والى ما هو بارز منها .

نموذج التعصب ضد روح العصر وبضاعة غير مرغوب فيها

لقد استقبل المهتمون بأمر المنطقة العربية ، والأقطار الاسلامية ومستقبلها ، احتمالات إحلال السلام بين العراق وإيران بكثير من الارتياح ، ولو أن ذلك سوف يأخذ وقتاً طويلا وجهدا دبلوماسياً جبارا ، إلا أن الخطوة الأولى باتجاه السلام على الأقل قد بدأت وهي القبول بوقف اطلاق النار ، وحقن دماء الآلاف من الشباب العربي والمسلم ، واستخدام طاقته في البناء والتعمير والتنمية .

إلا أن هناك دروساً بالغة الوضوح يمكن رصدها من خلال هذه الحرب المدمرة التي خلفت من القتلى - كما تقول المصادر المتحفظة - مليون قتيل ومليونين من الجرحى والمعوقين ، كما استنزفت مبالغ طائلة من الأموال قدرها البعض بألف بليون دولار ، كما خلفت مئات المدن والقرى المحروقة والمدمرة ، وملايين النساء الثكالى والأطفال الأيتام .

أقول إن هناك دروساً بالغة الأهمية يجب علينا أن نتذاكرها بعيداً عن الوضع الخاص وهو التحام جيشين ، إلى الوضع العام وهو تصادم فكرتين .

على رأس هذه الدروس فشل نموذج التعصب ، فهو ضد روح العصر وبضاعة غير مرغوب فيها . فلقد حاربت إيران حرباً « ايديولوجية » . اعتقدت خطأً لفترة أنها تستطيع أن تفرض على الآخرين طريقتها في شؤون الحكم وإدارة الدولة ، فالحرب لم تكن حرباً بين جيشين - كما يعتقد البعض لأول وهلة - إنما كانت حرباً في بعض جوانبها بين فكرتين مختلفتين للحكم والحكومة ، حكم مذهبي وحكم مدني حديث ، ولكن نشوبها ضد العراق كان فقط لأن سجل الخلاف الحدودي بين العراق وإيران سجل قديم ، استطاعت ايران أن تقدمه لجماهيرها تأسيساً على حسابات خاطئة تماماً .

من ضمن هذه الأخطاء اعتبار العروبة في وضع مضاد للاسلام ، مما أشاع مذهبية بغيضة كادت أن تنتشر في نسيج الشعب الواحد ، وسممت العلاقات الاجتماعية لدى شعوب أعلت المواطنة منذ زمن طويل على غيرها من الانتماءات الأخرى .

الوضع العام لهذه الحرب المدمرة هي الفكرة الخاطئة لايران - خاصة بعد سقوط الشاه في سنة ١٩٧٩ - عن العرب ودورهم في الاسلام ، ولعل هذه الفكرة الخاطئة جزء من تراث طويل تبناه الايرانيون ، وآن لهم الآن أن يعيدوا النظر فيه . فالعروبة والاسلام وجهان لعملة واحدة ، واعزاز

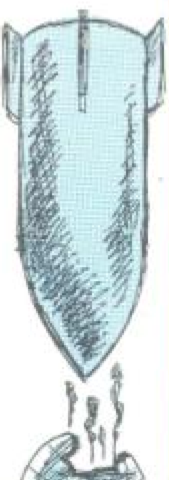

العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة وإعزاز الإسلام عزة للعرب

الاسلام عزة للعرب ، في الوقت الذي ينظر فيه المسلمون العرب للمسلمين غير العرب على أنهم قوة في دائرة حضارية واحدة تؤلف بينهم وتجمعهم على أكثر من صعيد في الاطار المشترك الأوسع ، دون النظر الى جنس ومذهب واجتهاد . أراد البعض في ايران إعلاء المذهبية ، ففشلت لدى العرب كل العرب باختلاف مذاهبهم ، إلا قلة تؤكد اتجاه الأغلبية . كما أن من الدروس الهامة ـ في الوضع العام ـ فشل أحلام بناء امبراطوريات في العصر الحديث تبين أنها ليست أكثر من مجرد أحلام . ويحدثني في هذا الموضوع أحد الكتاب الايرانيين الكبار لقيته مؤخراً في أوربا فيقول : اتعرف لماذا بدأ الاضطراب الهائل في الخليج في نهاية السبعينيات ؟ قلت : لماذا ؟

قال : لقد بدأ هذا الاضطراب الهائل في وقت ما عندما فكر شاه إيران أن يبني امبراطورية كبرى ، هي القوة الخامسة ـ كما اعتقد ـ بعد اليابان ، وقتها فرض الشاه برنامج تحديث مدني وعسكري ، والأخير بخاصة لم تكن الشعوب الايرانية قابلة له أو قادرة عليه ، وكلما أمعن الشاه في برنامجه هذا غير العقلاني ، كلما زادت مقاومة الشعوب الايرانية واغتربت عن واقعها الى أن حصل الانفجار .

ذكرني هذا الحديث بالحرب ـ وكان قبل أسابيع من قبول الايرانيين قرار مجلس الأمن ـ ولم استطع أن أمنع نفسي وقتها من المقارنة بين موقفين متناقضين في الظاهر موحدين في الجوهر ، وعندما اعلنت ايران قبول القرار رقص الايرانيون فرحاً في شوارع طهران فتأكدت لي هذه المقارنة .. إنه الاغتراب الذي فرض من جديد .

وقبل ذلك أشار كثير من المراقبين والمحللين وحتى الوسطاء الدوليين إلى أن هناك شعوراً قوياً لدى قطاعات كبيرة في إيران بالرغبة في إنهاء الحرب ، ولكن التعصب المبني على أفكار خاطئة لما يحتويه هذا العصر من حقائق ، أجّل قبول وقف الحرب ، مما أدى بالتالي الى مزيد من الضحايا .

هذا الدرس يعني أن التوسع بالقوة غير مقبول في المنطقة ولا على المستوى الدولي ، والأولى والأجدر بالنظر هو التعايش السلمي المبني على احترام حقوق الآخرين وصون كرامتهم الوطنية وسيادة أقطارهم في أراضيهم .

ذلك هو المدخل الحقيقي والوحيد والأوْلى لسلام دائم مبصر من حرب عمياء ، تطلقها العصبيات العنصرية والنعرات المذهبية والاستنزاف الحضاري الذي تجاوز خطره التضحيات المادية ليعطب جوهر الوحدة الاسلامية .

الوضـــع الخـــاص

ونصل من دروس الوضع العام الى دروس الوضع الخاص . فكما قلنا هناك تاريخ طويل من الخلاف الحدودي بين العراق وإيران ، قدمت فيه العراق دائما التنازلات الكثيرة من أجل الحفاظ من جهتها على علاقات إيجابية مع الجار ، وكان للبناء العسكري الايراني في السنوات الأخيرة من حكم الشاه وتدخله المستمر والمعروف في الشؤون الداخلية العراقية أثر في تقديم هذه التنازلات .

والحرب - برغم مآسيها الكبرى - أثبتت قضية هامة . . أن الشعوب تستطيع أن تدافع عن حقوقها حتى لو كان عدوها أكثر منها عدة وعتادا . لقد كان التخويف بالحرب والضغوط المصاحبة لذلك من قبل ايران - على الأقل فيما بعد الحرب العالمية الثانية - كانت تلك الضغوط تسبب قلقاً نفسياً لدى العراقيين ، ودخلوا في مفاوضات عديدة بحضور أطراف دولية أو مفاوضات مباشرة لحل الأوضاع المختلف عليها حدوديا ، وكلما وصلوا الى إتفاق فشل هذا الاتفاق لتغير سياسي في أحد البلدين أو لأن هذا الاتفاق غير منصف ومفروض على الطرف الآخر وهو دائماً بغداد .

فـــرق
كــبير
بـــين
الســـلام
المبصـــر
والحـــرب
العـــمياء

ويروي لنا الأستاذ / أمين هويدي وهو السفير الأسبق لمصر في بغداد جزءاً من هذه العلاقات المتوترة فيقول إن سفيري البلدين (العراق وإيران) لا يمكثان في العاصمتين إلا لفترات محدودة ، وسرعان ما يسحبان نتيجة إثارة أو غليان أحد نقاط الخلاف بين البلدين . ويروي حادثة شهدها بنفسه عندما استدعي بالصدفة لمقابلة رئيس الجمهورية العراقية وقتها (عبد السلام عارف) وكان الموعد السابق له هو مقابلة السفير الايراني .

ويسرد أمين هويدي بكلماته : (وفجأة فتح باب مكتب الرئيس وخرج منه السفير الايراني في اندفاع وهو لا يلوي على شيء مكفهر الوجه جاحظ العينين ، يتحدث إلى نفسه في انفعال وحنق ، وبعد فترة دخلت على الرئيس الذي كان بدوره بادي الانفعال وقد انتفخت أوداجه ، وبمجرد أن تبادلنا التحية أخبرني أنه طرد السفير الايراني من مكتبه ، لأنه جلب رسالة شفوية من الشاه مرماها التدخل في الشؤون الداخلية العراقية ! !

ويمكن لنا أن نسرد قبل هذا الحادث وبعده عشرات الأمثلة من محاولات التدخل الإيراني في شؤون العراق ، وكذلك من محاولات التدخل في الشئون الداخلية لبلدان عربية أخرى في الخليج .

لذلك فإن الخلافات العراقية / الايرانية في الشأن الخاص (قضايا الحدود والتدخل في الشؤون الداخلية) قضايا قديمة ضخمها التهديد الايراني المسلح . فلما وقعت الحرب خبر الإثنان قوة كل منهما على أرض الواقع ، فلم يعد بالإمكان أن يطلب طرف من الطرف الآخر تقديم تنازلات غير معقولة لمجرد التخويف بالقدرة العسكرية .

وقد يوصلنا هذا التحليل إلى قضية كانت محور أخذ ورد من جانب الطرف الإيراني حتى فترة قريبة هي : من بدأ الحرب ؟

ولعلنا نذكر في هذا الاطار ما نقل عن نابليون مرة أنه (إذا كانت الأمم تريد تجنب مبارزات المدفعية فعليها أن تقلع عن تبادل وخزات الإبر) والمعنى ذو دلالة ولا يحتاج إلى شرح : فالعلاقات بين الدول ـ كما علمنا التاريخ ـ لا تحدد بمن أطلق الطلقة الأولى ولكن الحرب أولها كلام ـ كما يقول المثل العربي .

ولم يكن ينقص الايرانيين كثير من الكلام وكثير من الفعل في التسع سنوات الماضية إن تجنبنا الحديث عما قبل ذلك . فقد أطلقت التهديدات تلو التهديدات ، وقامت بعض العناصر بأعمال إرهابية عديدة ، وتصاعدت الحرب فيما بعد لتشمل قطاعات واسعة ومناطق مختلفة وأناسا أبرياء . ولعله من المفيد التذكير هنا بأن أحد البنود التي يتضمنها قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) والقاضي بإنشاء لجنة تحقيق لمعرفة من بدأ الحرب . . هو في الأساس مطلب عراقي .

لقد تعثرت أكثر من مرة محادثات الحدود بين العراق وإيران . ولعل الأمل الآن ينتعش فتحسم هذه القضية بجانب قضايا أخرى مرة واحدة ولأمد يطول ، حتى يتفرغ الجميع للجهاد الأكبر في أكثر من جهة تتطلب صرف كل هذا الجهد وأكثر منه ، لوضع حلول إنسانية ومعيشية لجماهيرها .

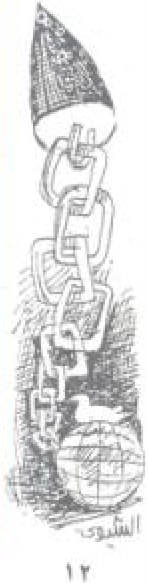

قرار وقف الحرب

يتساءل كثير من المحللين عن الأسباب التي أدت إلى قبول إيران بشكل مفاجىء قرار مجلس الأمن المتضمن مجموعة من الخطوات تقود الى سلام بين الطرفين المتحاربين . وتأتي التحليلات من كل جانب مؤيدة لوجهة النظر هذه أو تلك ، رابطة هذا القرار بجهود تلك الدولة الصغرى أو الكبرى كل حسب اجتهاده ومصالحه ، إلا أن حقيقة الموقف نابعة من

الحرب لم تكن حرباً بين جيشين .. ولكن بين فكرتين مختلفتين

مجموعة اعتبارات متداخلة من بينها « إرادة الحرب » و « إدارة الحرب » من الجانب العراقي .

فلقد كانت « إرادة الحرب » متوافرة ونابعة من قناعة وطنية بالدفاع عن الأرض أمام خصم متفوق بنسبة ثلاثة إلى واحد ، يستطيع أن يحشد على الجبهة أعداداً كبيرة من البشر .

وقد كانت « إدارة الحرب » عالية الكفاءة ، كما شهد بها أحد المتخصصين ، وقد نشر مقالاً ـ قبل التطورات الأخيرة ـ في مجلة الشؤون الخارجية في عدد الصيف[1] قال فيه « إن هدف إيران من الحرب سياسي ، هو إحتلال الأرض والتأثير المعنوي ، في الوقت الذي تحارب العراق فيه حرباً عسكرية ، وقد تبنت فكرة « الدفاع المتحرك » بجعل أعداد كبيرة من الايرانيين المهاجمين تدخل وتواجهُ بمقاومة قليلة من المدافعين الثابتين ، ثم يطوق المهاجمون عند دخولهم الأرض العراقية فيبادون أو يستسلمون .

إن الحرب العسكرية كي تنجح لا بد أن يكون لها هدف ذو شقين ، الأول تحطيم قوة الخصم العسكرية في الميدان ، والثاني تحطيم قوته الاقتصادية وقدرته على شن حرب . وثمن « سيجيل » بشكل عال قدرة العراقيين على « إنجاح أول حصار جوي إقتصادي في التاريخ » .

إلا أن « سيجيل » اعترف في تلك الدراسة بأن الايرانيين استطاعوا احتلال شبه جزيرة الفاو في فبراير سنة ١٩٨٦ بمساعدة الأمريكيين ، فقال إنه من خلال اعترافات (أولفر نورث) أصبحت تلك المساعدة في حكم المؤكد !

إذن فإرادة وإدارة الحرب كانت أحد المكونات الفاعلة بإتجاه قبول الايرانيين بقرار مجلس الأمن الذي راوغوا في قبوله لمدة عام تقريباً .

وقد قال البعض إن السرعة في تحرير العراق لأراضيه بدءاً من تحرير الفاو في ١٧ / ١٨ ابريل الماضي ثم مسلسل التراجع الإيراني هو الذي شهد بداية النهاية ، وقد يكون ذلك أحد المكونات الأخرى ، الا أن المراقب يمكن أن يرصد العد العكسي الايراني منذ فشلت المحاولات المتكررة للهجوم على البصرة في نهاية ١٩٨٦ . فقد فشلت عدة محاولات أكبرها الجهد الواسع الذي حضر له الايرانيون وسموه (كربلاء) في محاولة لحشد

(1) FOREIGN AFFAIRS (SUMMER 1988) THE IRAN IRAQ WAR : A military analysis-David Segal-.

الجهد المعنوي والمادي لاحتلال البصرة ، وكان الإعداد وقتها يجري لعقد مؤتمر القمة الاسلامي الخامس في الكويت . واعتقد الايرانيون خطأ ، أنهم باحتلال البصرة والقدوم الى المؤتمر الاسلامي منتصرين يحققون هدفهم الأعظم في نشر تصورهم للحكم والسلطة على بقية الدول الاسلامية ، وتأكيده بانتصارهم . إلا أن الفشل الذريع في تحقيق وصولهم الى المؤتمر ـ كما تمنوا ـ جعلهم يدركون أنهم غير قادرين على كسب الحرب ، وقتها أطلقوا بعض قواهم الارهابية هنا وهناك ، ولكن نتيجة الحرب كانت قد حسمت هناك .

التمزق الداخلي

ستظل ايران ـ مع الأسف ـ تعاني من تمزق داخلي شديد ، فبالنسبة لنا نحن العرب ، فإن ايران موحدة قائمة بحدودها الدولية متعاونة على الخير ، أفضل من إيران معادية تستفيد منها قوى تضمر للعرب والاسلام الشر ، وأفضل أيضاً من إيران ممزقة تتحدث بأصوات عديدة غير مفهومة . ولكن ظروف التمزق الداخلي ، أو على الأقل الخلافات الحادة ، ستظل في إيران لفترة قد تطول . فرجال الدين وعلاقاتهم بالسلطة ليست بالقضية الجديدة ، فحتى دستور ١٩٠٦ الايراني الذي صدر بعد صراع داخلي طويل مع « الأسرة القاجارية » حتى ذلك الدستور كان ينظم علاقة رجال الدين بالدولة ، صحيح أن هذه العلاقة اضمحلت ثم تلاشت فيما بعد ، إلا أنها كانت ـ نظرياً ـ موجودة .

ولكن علاقة رجال الدين بالسياسة والسلطة السياسية بعد ١٩٧٩ قد أخذت توجهاً آخر ، لم يحسم أو يقنن بشكل نهائي حتى الآن ، فهناك خلافات فيما يقرره مجلس الشورى المنتخب وبين ما تراه الهيئة الشرعية (لجنة المحافظة على الدستور) في قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وهناك قضية (المعصومية) التي أدخلت في القاموس السياسي الايراني ، وسيظل التخلص منها صعباً لفترة طويلة .

وبعد الانتخابات الأخيرة لمجلس الشورى والتي تمت على مرحلتين في ٨ ابريل (نيسان) و ١٣ مايو (آيار) من هذا العام ، وحملت إلى مقاعد المجلس مجموعة من (المتشددين) الذين يطالبون من جهة بإصلاحات أكثر جذرية في الداخل ، ومن جهة أخرى بمواصلة الحرب في الخارج ، إلى درجة إصدار قانون بعدم قانونية وقف الحرب !

الخاسر الأكبر في الخلافات العربية / العربية هو المواطن العربي

● بعد أهوال الحرب ، تنتعش آمال السلام

هذا النوع من التشدد سيجعل الصراع حتمياً بين الأجنحة المختلفة في طهران .

وليس بعيداً عن الأذهان أن هناك تيارين على الأقل على رأس السلطة الايرانية اليوم ، سيتفاقم الصراع بينهما في المستقبل .

على رأس أحدهما هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى ونائب القائد العام ، الذي يزرع شجرة في كل حديقة كما يقول معارضوه ـ كناية عن القدرة البراجماتية التي يتحلى بها ـ والبعض يقول أنها قدرة انتهازية .

وعلى رأس التيار الثاني حسين على منتظري الخلف المرتقب . ومع هذا وذاك أشخاص وقوى تؤيد أو تعارض ، بل قد تصدر منهم في بعض الأوقات إشارات مختلفة ومتناقضة في قضايا هامة ، كما حدث بعد إسقاط الطائرة الإيرانية في الخليج في مطلع يوليو الماضي .

هذا الصراع في رأس السلطة يعززه صراع آخر مع ضباط الجيش ، فقد صفى بعضهم بعد سقوط نظام الشاه ، وعندما قامت الحرب أخرج الآخرون من زنزانات الإعدام وأرسلوا الى الجبهة مباشرة . . وبعد سنة ١٩٨٢ عندما شعر النظام بقوته قام بتصفية الجزء الآخر ، ثم عاود الاستعانة بمن تبقى منهم أو رضي بالتعاون في الأشهر القليلة الأخيرة .

التمزق الداخلي يعكسه الوضع الاقتصادي اليائس الذي وصل إليه الاقتصاد الايراني ، فهناك قفزات جنونية في الأسعار ، وارتفاع في معدلات التضخم الى درجة لا تطاق ، وأصبح الحصول على أي من السلع الأساسية عذاباً يومياً لجماهير الشعب في بلاد ثلث سكانها أعمارهم أقل من الثلاثين عاماً (مجتمع شاب) يتزايدون بحوالي ٤٪ سنوياً ، أي أن الاثنين والخمسين مليوناً وهم سكان إيران الحاليون ، سيصبحون أكثر من مائة مليون بعد ثمانية عشر عاماً فقط (العقد الأول من القرن القادم) سنة ٢٠٠٦ مقسمين الى أعراق وثقافات مختلفة، عندما نعرف كل ذلك فسندرك أيضاً أنه إن لم تحل قضايا إيران الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فانها ستظل في حالة « أزمة » وتولج المنطقة معها في هذه « الأزمة » .

العودة إلى دائرة العقل

لعل تباشير انتهاء الحرب العراقية الايرانية تجعلنا نُعمل العقل في اتجاه آخر هو اتجاه الحوار العربي/العربي . فليس بخاف على أحد أن الحرب كانت مصدر ألم وتمزق في الصف العربي ، وكانت الاجتهادات تجاهها حادة في الاختلاف أول الأمر ، ثم ما لبثت أن تقاربت كثير من وجهات النظر العربية حول سلبيات هذه الحرب وخطورتها على الأمة العربية ، ولعل الكلمات الواضحة التي تضمنها بيان اجتماع القمة العربية الأخير في الجزائر في شهر يونيو (حزيران) الماضي حول هذه الحرب هي اللبنة الأساسية التي يمكن بناء تفاهم عربي حولها من حيث إدانتها لمبدأ احتلال أراضٍ عربية ، وضرورة الالتزام بالمساعدة العربية لأي دولة عربية تتعرض للعدوان ، وتأكيد أهمية التضامن والحوار البناء وصولاً إلى صيغ أكثر مناسبة للعصر والتحديات التي تواجه الأمة العربية . لا ينكر أحد « المرارة » لدى الأطراف المتضررة من هذه الحرب ، ولعلنا نستخدم كلمة « المرارة » للاضافة الى مخزون الحكمة التي تراكمت في سنوات الحرب ، فليس الوقت وقت فتح جروح جديدة ، كما أن الأعداء المشتركين سوف يحاولون وضع السكين في تلك الجروح زيادة في آلامها .

الحاجة إلى إعلاء العقل والتغاضي عن المرارة التي خلفتها الحرب

وفي الوقت الذي يشهد فيه العالم حواراً شاملاً لتقريب المصالح والاتفاق سلمياً على الخلافات ومحاولة حلها ، علينا نحن العرب في سنوات النضج بعد هذه الحرب المهلكة أن نتعظ بأفضل ما علمتنا ، فقد علمتنا من ضمن ما علمتنا أن الخاسر الأكبر في الخلافات العربية/ العربية هو العربي ،

علمتنا الحرب أن وفاق العرب هو الأمل.. وخلافهم هو التردي

المواطن العربي ، وأن الحروب الاقليمية تحتاج الى سلاح ومال نحن أحوج إليه من رهن أنفسنا وأجيالنا القادمة للدائنين . فقاعدة صناعة السلاح التي نشأت تحت ضغط الضرورة في العراق ، هي قاعدة يجب أن يبنى عليها لصالح الوطن العربي .

وهنا على امتداد الوطن العربي حوارات تجري ووفاق يتم ، فهناك في الشمال العربي الأفريقي توجهات مختلفة لوفاق واتفاق ، وهنا في المشرق العربي تجارب ناجحة . فلنستمد بعد وقف نزيف هذه الحرب لإعلاء العقل واحترامه وبدء الحوار العربي المرجو .

الحوار هو صيحة العصر ، والوفاق ظاهره ، وقد صمتت المدافع في افغانستان وأنجولا وفي أماكن أخرى من العالم ، بعد التغيرات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي والضغوط الاقتصادية المتنامية في الولايات المتحدة .

وإن لم نقم نحن كعرب بإدارة حوار ناجح بيننا متغاضين عن المرارة التي خلفتها الحرب سنقع لقمة سائغة لمصالح الآخرين ، وما أكثر طموحاتهم في منطقتنا .

لقد علمتنا الحرب ـ من بين ما علمتنا ـ أن أمن العرب واحد ، وحدودهم واحدة ، ووفاقهم هو الأصل والأمل ، وخلافهم هو التردي .

ولم تعد الخطط الدولية لغرض الهيمنة خافية ، فالمقال المشهور الذي وقعه سايروس فانس وهنري كيسنجر (وزيران أمريكيان أحدهما ديمقراطي والثاني جمهوري) ونشر في مطلع الصيف وضعا فيه الخطوط العريضة لتصور سياسة خارجية أمريكية عندما تتسلم الادارة الجديدة في يناير مقاليد السلطة في واشنطن . لقد قالا من ضمن ما قالاه : (انه لا يمكن للولايات المتحدة ولا للاتحاد السوفيتي كل بمفرده أن يقرر مصير قضايا كثيرة في العالم) إنهما يدعوان الى توازن المصالح .. وتوازن المصالح هذا لصالح الأقوى والأقدر ، فهل ندعو من جانبنا لتوازن مصالح عربي ؟

الخاسر الأكبر

لا يستطيع الواحد منا أن يترك أهم موضوع ـ ربما حدث أو سيحدث في هذا العقد ـ دون الاشارة الى أن الخاسر الأكبر ـ في استقرار السلام العادل في الخليج ، بجانب تجار السلاح والموت ـ إنما هو اسرائيل ، التي كانت دائماً توسع شقة الخلاف أينما كان بين العرب أنفسهم أو بينهم وبين جيرانهم كي تلهيهم عن مساندة حقوق إخوة لهم في الدين واللسان

والانسانية اغتصب حقهم علنا أمام العالم في وطن يضمهم ويحميهم ، وسوف تحاول اسرائيل ما وسعها التدخل المباشر أو غير المباشر لزعزعة الأمن من جديد وربما في أماكن أخرى غير متوقعة ، قد تكون هذه الأماكن جغرافية ، بمعنى أرض وحدود ، أو قد تكون اقتصادية أو سياسية بالسعي لتحالفات جديدة ، فهناك أطراف كانت وما زالت لها مصلحة في تعميق التمزق واستمراره .

مستقبل السلام في الخليج

لقد سالت دماء غزيرة من الجانبين المتحاربين . لذلك فإن أي مراقب واقعي سوف يفترض أن عدم الثقة سوف يبقى معنا لفترة ، ووقف إطلاق النار يختلف عن السلام ، والسلام يحتاج الى (قناعة) كي يقبل ويطور ، لذلك فإن المعركة الدبلوماسية ستكون حامية الوطيس أخذا بإعتبار كل الخلفيات التي ذكرناها ، ولكن السلام عندما يحل يجب أن يشمل كل أقطار الخليج بضفتيه العربية والايرانية .

فقد عانت هذه المنطقة على طريق الآلام والتضحيات ، إذ كانت هناك أحكام خاطئة وتقديرات جائرة تعدت البلدين المتحاربين ، وقد زاد كل ذلك قصر النظر وحماقة العقل الانساني ووفرة الآلام والمصائب ، ولقد آن الأوان لشعوب المنطقة التي تاقت لفرص السلام والأمن والتنمية أن تتوجه مباشرة نحو ذلك الاتجاه .

ولدول الخليج مصالح وحقوق معترف بها دولياً ، هذه المصالح والحقوق يجب أن تضمن : من حرية الملاحة في الخليج ، الى احترام سيادة كل دولة على حدودها ومواطنيها ، واحترام تجربة كل مجتمع اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية دون تدخل أو تهديد بتدخل .

علينا جميعاً أن نعيد تجميع عناصر القوة بتحكيم العقل والمصلحة والدين والجوار ووضعها في خدمة مواطنينا .

وذلك يحتاج إلى سنوات طويلة كي تحل الثقة محل الشك . وعلينا أن نبدأ ، فالخليج يحميه أبناؤه تحت إطار عريض من الفهم الصحيح بعدم التدخل في الشؤون الداخلية .

محمد الرميحي

مــع إطـــلالـــة
العـــام الهجـــري:

الإسلام والاستقامة الفكرية

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

مطلع العام الهجرى نقطة مراجعة على مسار الزمان ، نطالع فيها وثائق سفرنا فى رحلة الحياة وماتحمل من زاد . حتى الكتب والوثائق يراجعونها أحيانا فى مراحل الطريق .

آثرت أن أذكر كلمة الاستقامة ، فقد جاءت فى قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » (هود : ١١٢) ، وجاءت فى النصيحة النبوية الجامعة : « قل آمنت بالله ثم استقم » «من حديث رواه مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفى » وهى من دعائنا الدائم فى كل صلاة « اهدنا الصراط المستقيم » .

وحديثى هذا نوع من المراجعة الذاتية التى يمكن أن نقوم بها لأنفسنا ونماذج مما يقوم به الآخرون فى تراثنا وحضارتنا .

ولنحاول أن نضع هذه المراجعات فى منظورها العالمى . وهو منظور متغير مع ايقاعات التفاعل بين العالم الاسلامى وماحوله من الحضارات ، وبتوازى معه إيقاع داخلى بين أجزاء العالم الاسلامى ، يأخذ صورا متضادة من الحرب والسلام والتعاون والتخريب ، ثم تزداد الصورة تعقيدا حين تلقى القوى الخارجية بظلالها على أرض الاسلام ، وتتقاطع فيها الظلال والمسارات ، وتتدافع التيارات ، تحمل على غواربها أمواج الأحداث ، ويشتد التعقيد حين تتصل القوى العالمية بأطراف الصراع فوق أرض الاسلام ، تؤيد هذا حينا ، والآخر حينا ، فى خطة استنزاف رهيبة ، تمتص حيوية الأجيال الحاضرة ، وتورث الأجيال المقبلة ضعف الحياة وذبول الأمل .

فالمراجعات الفكرية بحر متلاطم ، سنحاول أن نرى فيه بعض النجوم وبعض الصخور ، وعلى الربان الماهر أن يستعين بوضوح الرؤية وحسن اختيار المسار وتجنب العقبات ليصل إلى غاية رحلته .

بعض النجوم :

لازلت اذكر في السبعينات سلسلة من المؤتمرات نظمتها جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية فى مدريد ، وكان لقاؤها في قرطبة : درة الأندلس ، حيث المسجد الجامع أحد روائع العمارة الاسلامية .

وكان اللقاء الأول عرضا متوازيا للاسلام والمسيحية ، يتولاه من كل جانب سبعة من الباحثين . وهدف الأسئلة ـ ... العرض ـ المزيد من معرفة ما عند الآخر ، مجرد المزيد من المعرفة . وكان

اللقاء الثاني عن الرسولين محمد وعيسى عليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام . وكان تكوين وفد مصر من باحثين مسلمين ومسيحيين ، وتولى بعض الباحثين المسلمين في الوفد عرض أخلاقيات الانجيل ، كما تولى زميل مسيحي عرض أخلاقيات القرآن . . لقد كان القرآن خُلق النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وسار التعاون خطوة أوسع استهدفت تنقية كتب التاريخ الاسلامي في اسبانيا مما تحمل من مطاعن في الاسلام ، بحيث يعرض فيها الاسلام عرضا موضوعيا كما يؤمن به أهله ، دون تجريح الرسول والرسالة ولا تشويه لمسار تاريخه .

ومن اسبانيا انتقل إلى فرنسا : فقد أصدرت الجمعية الفرنسية « الاسلام والغرب » دراسة في عام ١٩٨٤ عنوانها « صورة الاسلام في الكتب الدراسية الفرنسية » ، تناولت بالنقد والتوجيه أحد عشر كتابا في التاريخ مما يدرس في الصفين السادس والخامس .

وترجع فكرة التقرير إلى مؤتمر عن « الاسلام والغرب » شهدته مدينة جنيف فيما بين ٣ ، ٦ اكتوبر ١٩٧٩ . وكان من أهداف المؤتمر المساهمة في فهم أفضل متبادل بين الاسلام والغرب ، ومن هنا برزت أهمية الكتب الدراسية في تكوين هذا الفهم الأفضل .

وضمت لجنة مراجعة الكتب علماء في الدراسات الاسلامية والعربية وساسة ودبلوماسيين وشخصيات عايشت العرب والمسلمين مدة طويلة ، ومنهم مسيحيون ومسلمون ، ويجمع بينهم عمق الدراسة والرغبة في تكوين الصورة الأفضل المتبادلة .

وقصد التقرير ألا يسند نصا معينا إلى كتاب معين ، واكتفى بوضع النص بين حاصرتين ، فليس الهدف نقد كتاب أو كاتب بعينه ، وإنما النقد الموضوعي الذي يستهدف الصورة الأفضل والأصدق . من أجل ذلك رحب التقرير بمساهمة وزارة التربية الوطنية والأساتذة والطلبة وآبائهم والباحثين الذين تجتذبهم الثقافة الاسلامية ، والقراء المتفتحين على الثقافة العالمية ، والراغبين في معرفة مكانة الاسلام في تاريخ الحضارات . وبهذا يتسع أفق الرؤية وحوار الحضارات .

إن التاريخ - كما يذهب التقرير - علم إنساني يقوم على التجارب الانسانية المحسوسة ، ويستهدف موضوعية تقتضي تصحيح الأخطاء وتوضح المسار بإخلاص ، وإن الحضارة الاسلامية من أغنى الحضارات الروحية في العالم ، وإن مراجعة كتب التاريخ هي إحدى وسائل إيقاظ الضمير التاريخي للأجيال الجديدة .

نماذج من المراجعات :

كان تكوين هذه اللجنة عام ١٩٨٠ . وأمضت عامين في إعداد تقريرها ، ثم نشرت التقرير بعد عامين آخرين . ولنذكر نماذج من هذه المراجعات التي وردت في التقرير :

١ - إن الصلات بين الاسلام والغرب قديمة ومعقدة ، وترتبط بالحياة اليومية في مناحي متعددة . وخلال القرون المتعاقبة حدثت مواجهات حادة بين الاسلام والمسيحية ، وكان مع الصراع جهل وإساءة متبادلة ، ونشأت من هذا صور مشوهة عاشت على ماتغذيها به أحداث التاريخ .

٢ - إننا نعيش زمانا تقوم فيه كل جماعة بمحاولات دائبة في البحث عن الذات ، كما تحاول في نفس الوقت الانفتاح على الآخرين . وقد يبدو الاتجاهان متعارضين ، ولكن مسار الحياة يريد منهما أن يتوافقا ، ومن الخير أن يعرف كل فريق عن طريق الدراسة المتعة ماعند الآخر ، ومايتفق فيه معه ، وما يختلف فيه عنه ، ومايستطيع اقتباسه من الآخرين .

هذه خلاصة ماجاء في مقدمات ثلاث ، كتبها ثلاثة من أعضاء اللجنة هم : فرانسيس لامان ، وشارل بوسيه والسيدة هيلين أرفيلر رئيسة مجلس مديري جامعات باريس .

١ - وأول مايسجله التقرير أن الصفحات المخصصة للاسلام محدودة بالنسبة إلى حجم المنهج ،

ولايمكن أن تعطى صورة واضحة عن مسار الاسلام .

٢ ـ أن تقسيم المادة بين الصفين السادس والخامس يؤدى إلى مزيد من التفتيت .

٣ ـ أن المادة الاسلامية مبتورة عن جذورها فى الجزيرة العربية ، وتصورها ـ قبل الاسلام ـ كأنها الأرض المجهولة ، ثم تقف بالحضارة الاسلامية عند سقوط بغداد ، وقد يضاف العهد المملوكى . وتنص الكتب بعد هذا على أن « الغرب سيطر على الشرق » . ولنا أن نتساءل ـ ويتساءل معنا التقرير ـ عن ضياع مفهوم « الاستمرار » فى التاريخ الاسلامى ، ومفهوم « السببية التاريخية أيضا » ، ويبدو عرض الاسلام كأنه كتلة انحدرت فى التاريخ كأنها غارات الهون والوندال والمغول .

٤ ـ وفى عرض الاسلام ترد فى الكتب ألفاظ : العنف ، القسوة ، وأن المسلمين هم السبب فى سقوط الامبراطورية البيزنطية المسيحية ، كما أنهم السبب فى سقوط الامبراطورية الساسانية ، وأنهم ـ أى المسلمين ـ توسعوا على حساب هذه القوى الحضارية العالمية . فالنظرة أوربية المركز ، والتفكير بعقلية غربية . ودخول المسلمين إلى التاريخ ـ كما يصورونه ـ كان من الباب الأوربى . وقد نقد التقرير هذا الاتجاه فى النظر إلى الحضارة الاسلامية ، واستأنس ببحوث بعض أعضاء اللجنة كمحمد اركون وباقتباسات من كتاب آخرين كمكسيم رودنسون الذى يقول :

ليس هناك استشراق ولكن هناك منظومات علمية متخصصة تدرس مشكلات فى مجال الاجتماع والسكان واللغويات وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) . ولا مجال لعبارات مثل فرض العرب دينهم ولغتهم وعاداتهم وحتى تقويمهم (الهجرى) ، مما يبدو منه أن هذا الانتشار كان بالقهر وتحت وطأة الاضطرار ، وأن قبول الذميين الاسلام كان لأسباب اقتصادية كالتهرب من دفع الجزية . (بينما هى فى الاسلام تقابل ضريبة الدفاع) . وحتى الصفحات المشرقة تصورها بعض الكتب فى صورة كابية معتمة ، فالتسامح مع نصارى الشام كان لفائدة العرب ، وهو ثمرة سياسية مكيافيلية . ثم يضربون مثالا عنيفا عن علاقة الأتراك بالأرمن .

ويمضى التقرير فى نقد ماجاء فى الكتب الدراسية عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن القرآن الكريم ، وينتقل إلى محاولات عرض الاسلام المعاصر ، وكيف أن الأقطار العربية « مع تقدمها المحدود »ليست فى نظر أوربا إلا « موردة للنفط ولليد العاملة المهاجرة » ، ثم يعقب التقرير بأن عرض الحضارة الاسلامية بهذه الصورة إنما هو « تاريخ بلا تاريخ » ، تاريخ طارى معزول . فحتى فى ذروة الحضارة العربية يعرضونها كأنها قامت على أعمدة من الفكر اليونانى ، ثم انتقل المشعل الحضارى إلى الغرب ، وانتهى دور العرب والمسلمين . هذه النظرة إلى الاسلام كأنه ـ فى فترة من الزمان كان ـ أرض الغرائب والفكر القدرى السلبى الذى يبرر الفقر . وتبرزه بعض الفصول كأنه حضارة بائدة عاشت ـ تاريخيا ـ بين الحضارات القديمة والعالم المسيحى . وهى عندهم أحيانا « الامبراطورية العربية المجوز » ، ولم يبق منها إلا بعض الآثار المعمارية .

هذا بعض ما أوصى التقرير بإعادة النظر فيه ، واقترح توفير وقت للمراجعة والتصويب بين انجاز المادة العلمية وتقديم الكتاب للطبع .

معهد العالم العربى :

وهذه نقطة مضيئة أخرى انطلقت من فكرة طرحها الرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان فى عام ١٩٧٩ ، ولاقت ترحيبا من السفراء العرب ، ومساهمة من الحكومات العربية . وتم الافتتاح فى نوفمبر ١٩٨٧ . والمعهد مؤسسة ثقافية تهدف إلى تنمية العلاقات بين فرنسا والوطن العربى فى مجال الثقافة والفنون والآداب ، وبعث حركة أبحاث معمقة عن الوطن العربى حول قيمه الثقافية والفكرية والاجتماعية والتاريخية . وقد ساهمت الكويت فى

تكاليف الانشاء ، فضلا عن حصتها السنوية فى ميزانية التشغيل .

والآن : ماذا علينا ؟

وفى هذا الجزء من البحث وهذه المرحلة من المراجعة سأتبع منهج تقرير صورة الاسلام فى الكتب الدراسية الفرنسية ، فلا داعى لتحديد أسماء المؤلفين ، ولا أسماء الكتب ، ويكفى التركيز على الهدف الذى تشكله عدة مصادر من بينها المقولة الآتية :

إذا كان ميدان العلاقات الفكرية بين الاسلام والغرب يشهد هذه المراجعات أفلا يحق لنا ـ أو هو الأجدر بنا ـ أن نقوم بجهد مناظر على صعيد الفكر والمذاهب الاسلامية ؟ لقد أحس بعض علماء الغرب بمرارة ما اجترحه بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين فى حق الاسلام والحضارة الاسلامية ، وحاول بعضهم أن يفسر ذلك بالصراع الذى كان بين الحضارتين الاسلامية والأوربية المسيحية ، مما اقتضى ـ فى الغرب ـ تكوين صورة مشوهة عن الاسلام والرسالة والرسول لتكون « مبررا فكريا » لحرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه . هذا الجيش والحشد من المستشرقين والمبشرين والعسكريين ، وهذا الجهد الدائب فى جمع التراث الاسلامى ونقل ـ مااستطاعوا ـ من أصوله ومخطوطاته إلى جامعاتهم ومجامعهم وأديرتهم ، وعكفوا عليه دارسين ومشرّحين قبل أن يكونوا شارحين ، ليكونوا أقدر على السيطرة على العقل والأرض والبشر .

ونحن كمسلمين فينا من يقوم ببعض المسئولية فى هذا ، فلقد مرت على العالم الاسلامى ـ ولاتزال فى بعض أقطاره ـ دورات من العداوة أدت إلى إخراج حشد من الكتب المذهبية التى لم تكتف بتصوير مذهب معين ، وإنما حاولت تصوير الاسلام كله بلون معين ، بل محاولة توجيه القرآن والسنة النبوية وجهة معينة . واستطاع الغرب أن ينفذ من هذه الثغرات ، وأن يطعن الاسلام بأقلام أبنائه ، وأن يشكك حتى فى النص القرآنى الذى وعدنا الله بحفظه فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (الحجر : ٩) ، وفى السنة النبوية المطهرة بعد كل الجهود الجبارة التى بذلها علماء الحديث ، وهو جهد غير مسبوق ولا ملحوق فى أى حضارة والله أعلم . ثم جاء تصوير عهد الصحابة والخلافة الراشدة والعهدين الأموى والعباسى وعهد الدول اللاحقة بعد سقوط بغداد كأنه تاريخ التآمر والدماء واغتصاب الحقوق الشرعية لفريق من المسلمين ، واشتد هذا التدفق من التأليف المذهبى فى فترة الصراع بين الصفويين والعثمانيين .

وقد انبرى علماء من مذاهب كبرى يحاولون مراجعة مذاهبهم ، والكتب الكبيرة فيها . وأهل الدار أدرى بما فيها . ورأيت وقرأت فى هذا جهودا مشكورة ، ولقيت علماء من مذاهب شتى عندهم هذا الاتجاه ، ولهم هذا الانتاج الذى لازال محدود الانتشار تحت ضغوط وسيطرة قيادات فى المذاهب لاترضى بسماحة الاسلام واخوته السابغة التى تسع المسلمين جميعا ، ويأمن فيها من يقول : لا إله إلا الله . محمد رسول الله .

وهنا يأتى دور الجامعات الاسلامية ومجامع البحوث باعتبارها مراكز بحث متقدمة . ولكن لن تستطيع القيام بهذا إلا إذا تم الاتفاق على تأمين الباحث قبل أن يقول ، وعندما يقول ، وبعد ما يقول ، ولا تطلب من كل باحث أن تكون عنده شجاعة المغاوير ، وفدائية الشهداء . وإن خضوع الفكر العلمى للضغوط القومية والمذهبية قد أضر كثيرا بالوحدة الاسلامية .

وهذا الحديث لا ينادى بمصادرة هذه الكتب التى أفرزتها أرض الخصومة ، فلندعها على رفوف المكتبات ، ولكن ننادى بتنقية طبعات جديدة بالمراجعة ، ورفع الأشواك منها ، فإن هذا الغذاء المسموم يتراكم فى نفوس الأجيال الجديدة وهى غضة ، فتنشأ على الكراهية والحقد . وفى أكثر من حديث ولقاء تنادى المصلحون بخطورة التكوين الحاقد ، ومن ورائه جيل من المتفعين بالخصومات والتعصب . وإن الذين يتقاتلون بالسلاح تعرضوا

قبل هذا لشحن عقولهم بالكراهية والعنف . ومرة أخرى أشير إلى الأسلوب الذى استطاع به الغرب أن يتجاوز ـ إلى حد كبير ـ الصراعات المذهبية الدينية ، ليفرغ إلى قبول التحدى الحضارى والتفوق العلمى والتقنى ، وهو من أهم موازين وأسباب التقدم فى عالمنا المعاصر . ولا ينقصه عندهم إلا الميزان الأخلاقى ، وأصوله عندنا متوفرة والحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .

واللغة العربية لها دورها وحقها :

ومع العناية بالأفكار التى تود أن تسود بين المسلمين وتصل إليهم دون أن تصطدم بعقبة اللغة واللسان أو المكان أو المذهب فإن لغة القرآن ـ وهى العربية ـ لها حق وواجب الأداء . فمهما قيل عن الجهود المبذولة فى ترجمة معانى القرآن والأحاديث النبوية الشريفة فإن المحجوبين عن تدبر القرآن فى لغته العربية التى نزل بها الوحى يفوتهم خير كثير .

ولقد سار انتشار الاسلام واللغة العربية معا ، وكان فى إقبال الشعوب التى أسلمت على تعلم اللغة العربية ، وحبهم لهذا اللسان المبين ، ما دعاهم إلى المساهمة الايجابية فى الحضارة الاسلامية شرحا وتأليفا وإبداعا . ولقد أدرك الاستعمار هذا الرباط الوثيق بين اللسان العربى والاسلام فكان يحاربهما معا : إما عن طريق سيادة ألسنة أخرى أو تشجيع اللغات واللهجات المحلية لتزاحم العربية ، وبالتالى تبعد قطاعات كبيرة من المسلمين عن النص القرآنى قراءة وفهماً .

إن علينا أن نبذل جهودا مضاعفة فى نشر اللسان العربى ، ولننظر كمثال إلى جهود الناطقين بالانجليزية والفرنسية فى نشر لغاتهم ، فالثقافة من أمضى أسلحة الحياة وصدق الله العظيم :

« خلق الانسان علمه البيان » (الرحمن ٣ ـ ٤) .

وما أكرم أن يكون البيان بلغة القرآن .

ولنا مع العام الهجرى الجديد أمل فى :

- مراجعة التراث ليستقيم على نهج الموضوعية .
- إضافة إليه ليستقيم على نهج الاخاء والتعاون .
- مشاركة فى الابداع الحضارى تلتقى عليها الجهود .
- عناية باللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم .

أربع منارات على الطريق ، نذكرها وندعو الله قائلين : اهدنا الصراط المستقيم . . !

كلمات بليغة :

- من نماذج الكلمات البليغة التى أطلقها أصحابها ببساطة ، فمضت تشق طريقها الى القلوب والأسماع ، كلمة ابن السماك الأسدي أيام معاوية ، فلقد سألوه : كيف تركت الناس ؟ فقال : تركتهم بين مظلوم لاينتصف وظالم لاينتهي .
- لقي الحسين بن علي وهو في طريقه الى العراق الفرزدق فسأله عن الناس هناك فقال : « القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء » .
- شكا قوم الى المسيح عليه السلام ذنوبهم فقال : اتركوها تغفر لكم .

مر عمرو بن عبيد بسارق تقطع يده فقال : سارق السر [illegible]قطع يد سارق العلن !

- تحدث شبيب بن شبة عن خالد بن صفوان فقال : [illegible] له صديق في السر ولا عدو في العلانية .
- قيل للخليل بن أحمد : مالك تروي الشعر ولا تقوله : فقال : لأني كالمسن ، أشحذ ولا أقطع .

وشر البلية.. ما يضحك!

بقلم : الدكتور عبد الوهاب حومد

خلف كل الأيام القاسية مواقف تثير من الضحك قدر ما تدفع الى البكاء والأسى ، وكثير ما تتصاعد الأحداث لتبلغ قمة المفارقة حدا يفوق كل خيال . وإلا هل يصدق أحد أن وزيرا يمارس أعماله داخل زنزانة ؟ !

كانت ظاهرة يصعب على المتتبع لمسيرة الأوضاع السياسية أن يجد لها تعليلا مقنعا ، غير أن العارفين بما وراء الحجب كانوا يتحسسون أنفاس الذين يحركون الدمى . وحين يرفع المنع عن الوثائق السرية بمرور الزمن الذي تحدده وزارات الخارجية فسوف تهتك أسرار الأدوار التي مثلت على مسرح الأحداث ، خلال الخمسينيات والستينيات من هذا القرن القلق ، وتسلط عليها أنوار كاشفة ، تفضح « أبطالها » . وتحدد ما له . وما لقيصر

فقد كانت منطقتنا واقعة في مهب أعاصير عاتية ، تنقض عليها من حيث نعلم وما لا نعلم . وكنا ننام على إشاعة بلاغ رقم (١) لنصبح على صوت مذيع مع الفجر ، يخبرنا بأن « عهد الانحراف انتهى الى غير رجعة ، وأن عهد الحرية والرخاء وصيانة كرامة الإنسان قد بدأ » .

تبدأ بسهرة :

وكان ذلك إيذانا ببدء « مرحلة تاريخية » جديدة . كم كان عدد الانقلابات العسكرية في تلك الفترة ؟ لا أظن أن أحدا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال بدقة . لأن الانقلابات الداخلية التي لم تظهر على السطح أكثر عددا وأخطر أهدافا من تلك التي أبعدت سلطة وجاءت بسلطة .

ولماذا هذا التعاقب في الانقلابات ؟ هذا سر من أسرار التاريخ أيضا . يحتاج كشفه الى وثائق ودراسات معمقة . والذين يستسهلون الصعب ويقنعون بالظاهر يقولون إن السبب تزاحم على السلطة . بما لها من جاه معز ونفوذ وسطوة . أو رغبة في منع تطور حدث ليس في صالح « القضية القومية » .

وتلك أوهام مجردة . أذكر أني كنت في جلسة خاصة مع الرئيس جمال عبد الناصر . وكان أحد الوزراء العسكريين يتحدث عن اشتراكه في كل الانقلابات التي وقعت . وسأله الرئيس : « إذن أنت غاوي انقلاب » ! فأجاب الوزير الضابط : فعلا لا أعرف سببا واضحا لاشتراكي . كانوا يدعوننا الى سهرة ماجنة تمتد الى الساعة التي تلي منتصف الليل ، ثم يفاجئوننا بالطلب الذي تعودنا عليه . وهو التوجه الى دباباتنا للقيام بانقلاب . وضحك الرئيس من هذا الجواب الساذج . وهو الذكي الأديب العارف ببواطن الأمور . ومن منطلق تلك المعميات وقع في سورية خلال عام ١٩٤٩ وحده ـ وهو العام الذي تلا قيام دولة « اسرائيل » باستماتة لا مثيل لها من الغرب والشرق على السواء ـ ثلاثة انقلابات متسارعة . أولها انقلاب ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ . وقد جاء « ليقضي على التخبط والميوعة والفوضى والاستئثار والخذلان » في عهد « مليء بالمساوىء والمخازي من خيانات وسرقات وقضاء على الحريات الديمقراطية . . . » كما قال مذيع البلاغ (١) المذكور . والثاني قام على جثة صاحب الانقلاب الأول يوم ١٤ آب (أغسطس) من العام نفسه « لكي ينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها . وتخليص البلاد من الطاغية الذي استبد بها هو ورجال حكومته . وأخذ يتطاول هو وحاشيته على أموال الأمة ويبذرها بالإثم والباطل . ويعبث بالقوانين وحريات الأفراد » . كما جاء في بلاغه رقم (١) أيضا . ووقع الانقلاب الثالث على مرحلتين . الأولى وفيها تم الاستيلاء على السلطة المدنية يوم ١٩ كانون الأول (ديسمبر) . وكان « الهدف » من هذا الانقلاب الحفاظ على مصلحة البلاد أيضا « فقد ثبت لدى الجيش أن رئيس الأركان العامة وبعض محترفي السياسة في البلاد يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظامها الجمهوري . لذلك فقد اضطر الى أن يقصي هؤلاء المتآمرين . وليس له أية غاية أخرى » . كما جاء في البلاغ رقم (١) الذي أذيع مع تباشير الفجر في ذلك اليوم .

ولست في صدد كتابة التاريخ . لأن مؤرخا حياديا يصل الى الوثائق الدفينة يفعل ذلك خيرا مني . شريطة أن تكون الحقيقة التاريخية وحدها هي رائده . لكني أغترف من بئر الذاكرة حادثة معبرة أكتبها . لا لطرافتها . وإنما لمغزاها . لنوع من الشهادة المباشرة على تاريخ تلك المرحلة المتموجة التي كنت شاهدا عليها . منفعلا بها ومتأثرا .

من مكتب الرئيس الى الدبابة

وقد وقع صدام بين رئيس الجمهورية إذ ذاك وبين صاحب الانقلاب الثالث . لخلافهما على توجيه دفة السفينة . وسمع بعض رجال القصر صوت الرئيس الوقور يؤنب الضابط الكبير لإفهامه بأنه لن يكون له ستارة ، وأنه لن يكون أبدا أداة في يد « ابن حسن آغا » . وحدثني من سمع أن « ابن حسن آغا » هذا لم يرفع صوته على صوت الرئيس . وظل يحدثه بصوته الخفيض المعروف بألقاب الرئاسة وفخامتها . وخرج من عنده . لينقض في الليل على أعضاء الحكومة . وكنت واحدا منهم . وحين سمعت قرع المنزل في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ـ وهي الساعة التي يختارها في العادة الانقلابيون ـ أدركت أن ما كانت تسعى الحكومة الى الحيلولة دون وقوعه قد وقع . لترتمي البلاد مرة ثانية في أحضان المجهول والمغامرين .

وحين فتحت الباب سارع ضابط في ملابس مدنية ، وخلفه عدة أفراد من الشرطة العسكريين بالدخول ، حتى يحولوا بيني وبين إغلاق الباب في وجوههم ، ووجه الي الضابط « رجاء » بمرافقته ، لأن العقيد الانقلابي كان يريد أن يراني . وللأمانة فقد كان هذا الضابط على درجة عالية من المجاملة ، واعتذر بأنه جندي ينفذ أوامر رؤسائه ، وسمح لي بارتداء ملابسي في حضوره ، وكانت منة منه علي ، لأنني حين وصلت الى مقر الشرطة العسكرية شاهدت وزراء ونوابا اقتلعوا من فراشهم ، واقتيدوا « بيجاماتـ » ، وكان بعضهم حفاة الأقدام ، يرتجفون من شدة البرد في هذا الفصل القارس من السنة .

وحين دخلت السيارة المغلقة ، أدركت أن فيها شخصا اخر ، لم أتبينه في الظلمة ، ولم يتحدث الي ، لأنه كان في حالة وجوم مطلق ، وقد عرفته حين أنزلنا ، بعد أن طوفت بنا المركبة في شوارع تئن تحت وطأة الصقيع ، ولا يتردد في جنباتها إلا عواء بعض الكلاب الشاردة التي اذاها البرد أيضا . وفي المقر المتداعي الكئيب ، اكتمل اجتماع الشمل » ، وتيقن من كانت تساوره بعض الشكوك بأن ضربة جديدة وقعت على رأس الدستور . وقد بلغت روح النكتة اللاذعة بمخضرم من شيوخ الساسة أنه حين كان يريد أن يذهب الى قضاء حاجة طبيعية كان يستأذن الضابط بكلمة : دستور . وكان مألوفا من العهد العثماني أن يتم الاستئذان بهذه الكلمة . وقد عايشناها نحن في المدرسة الابتدائية ، ثم اندثر هذا الاستعمال مع الزمن .

وفي الصباح توجه الركب بكامل هيئته الى « نادي ضباط الطيران » ، وهو بناء صغير متواضع ، يقع في مواجهة سجن المزة العسكري ذي السمعة الشائنة ، لنقيم هناك بضعة أشهر . وقد كانت الحراسة في غاية الشدة ، غير أن الضابط وجنوده كانوا يخفون مودتهم وإنسانيتهم حين تسنح لهم فرصة منفردة . وكثيرا ما وقعت تصرفات من بعض المعتقلين في ساعات ضيق نفسي ، كانت تجد طريقها الى تسويات مهذبة ، غير أن أحد المعتقلين البارزين نال بصورة فجة من صاحب الانقلاب في حضور ضابط الحرس ، فخاف هذا على نفسه العاقبة إن لم يفعل شيئا ، ومع ذلك فقد تم تطويق الحادثة ، وساعتها عرفت أن هذا الضابط من طلابنا في كلية الحقوق ، الأمر الذي فسر كثيرا من تصرفاته اللبقة . وأحد هذه التصرفات أنه فاجأني ذات مساء ، وقد هدأت كل نأمة في المعتقل ، بدخول طفلي على دون أي سعي من قبلي ، وكانت مع طفلة معتقل اخر من أهل العلم قبل أن « ينحرف » الى السياسة ويصبح من « عملاء الاستعمار والرجعية » .

وقد تعلمنا من المعتقل ألا نطمح بغير ما هو ممكن ، وأن نتحكم في أعصابنا قدر استطاعتنا . وكنا عارفين بأن أي إفراج عنا لن يتم قبل أن تتوطد أركان النظام الجديد ، أو أن يقتلعه نظام اخر . وفي تلك الأيام لم نكن نعرف التعذيب أو نسمع عنه في معتقلاتنا . وقد تعودت أن أترقب كل مساء على النافذة المطلة على واد بين الجبال عودة راع بأغنامه وماعزه . وكان الكبش يقود القطيع على أنغام الجرس المعلق في عنقه . وأنات ناي الراعي تملأ جنبات البطاح الممتدة بين التلال شعرا وموسيقا ، تطلق للحنين أجنحة مبللة بأنفاس الندى وتموجات الغسق . وأظل في رفقته الحالة هذه حتى يبتلعه الأفق ويتلاشى رنين الجرس ، وكأني به ينشد مع الشاعر القديم .

لنا غنمٌ نسوقها ومِعزى
كأن قرون جِلّتها العصيُّ
فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً
وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ

في تلك الفترة زارنا صاحب الانقلاب مرتين ، وطال جلوسه معنا . وكان في كل مرة يعرب عن أسفه لاحتجازنا ، لكن الظروف الخارجية كانت تلجئه مكرها الى اتباع هذا السلوك السيء ، كما يقول . وأشهد أنه كان مثلا رائعا للمواطن النبيل ، فقد سهر على راحتنا ، وكريم إقامتنا بأكثر من الذي كنا نحلم به . كان لدينا مذياع [illegible] منه الى الأخبار ، وكنا نجلس في « صالون » كبير ، تقدم لنا فيه القهوة والشاي في كل ساعة [illegible] ، وكنا نتزاور في غرفنا ، ونتبادل إعارة الكتب التي كانوا يجيئوننا بها من بيوتنا ، حتى انني استطعت أن أؤلف

قسما كبيرا من أحد مؤلفاتي الجزائية . فقد كنا « مجرمين سياسيين » كما يفهمهم رجال القانون ، لكن الاعتقال يظلّ يعني السجن . والسجن يعني فقد الحرية . وقد اعتبر يوسف عليه السلام الإفراج عنه نعمة من الله حين قال : « وقدْ أحْسَنَ بي إذْ أخرجني من السجن » . ولو قدر الذين يزجون بالأبرياء في السجون ماذا تعني الحرية الإنسانية لما تركوا مظلوما وراء قضبان .

وزير داخل السجن

لقد فوجئت ذات صباح بدخول ضابط المعتقل علي وهو يبتسم ليزف الي بشرى زيارة لي ، وشعرت بشيء من القلق يسري في أوصالي . ترى ما هي طبيعة هذه الزيارة . ولماذا أنا على الأخص وبين المعتقلين من هو أحق . وأكفأ لمناقشة القضايا العامة . إن كان القصد تبادل الرأي في خروج البلاد من أزمتها ؟ لكن الصورة تبدلت فورا في ذهني حين وجدتني وجها لوجه مع مدير الجامعة وعميد كلية الحقوق . فقد جال في خاطري أنهما جاءا ليصطحباني الى الكرسي الذي أشغله في هذه الكلية ، بعد أن طال غيابي عن طلابي . ورجح قائد الانقلاب مصلحة القانون وتعليمه على اعتبارات السياسة . لكن ما جال في خاطري كان وهما . فحين قبض الثوار الفرنسيون على العالم الكيميائي الشهير لافوازيه بتهمة التآمر على سلامة الدولة . عرض عليهم زملاؤه من عارفي مقامه أمره . وألحوا للإبقاء على حياته حرمة للعلم والوطن . فأجابهم الثوار جوابا ، مايزال يرن في آذان التاريخ . بأن « الثورة ليست في حاجة الى علماء » .

واتضحت لي الغاية من هذه الزيارة الغريبة ، بعد التحية والمجاملة . فقد كانت عدة آلاف من الشهادات الجامعية في حاجة الى توقيع (وزير المعارف) على الأخص . وأنه لا توجد في البلاد حكومة . ولا يجوز أن يقوم بالتوقيع عليها نائب أو وكيل . وأن الذي حصل على شهادة الطب لا يستطيع أن يفتح عيادة بدونها . ولا يستطيع من حصل على شهادة الحقوق أن يترافع عن أحد قبل أن يبرزها الى النقابة المختصة .

وحيل بين الذين يريدون التخصص في بلاد أجنبية وبين التحاقهم بجامعاتهم الجديدة دون إبراز هذه الشهادة الصادقة المصدقة . اذن فالمطلوب مني أن أوافق على وضع توقيعي عليها بوصف سقط عني منذ صدور بلاغ عسكري بتكليف قائد الجيش بممارسة السلطة وإقالة الحكومة .

وحين أعربت عن شكوكي في سلامة هذا الاجراء من الناحية القانونية والأخلاقية ، لأنني لم أعد صاحب المنصب ، ثم إني في حالة فقد تام للحرية ، يترتب عليه فساد ما يتخذ من تصرفات عامة ، قالا إن ذلك تضحية في سبيل مصلحة الأبناء من الطلاب ، وكانا على حق . فطالما أن الدستور يتمرغ في الأوحال ، وأن الحريات العامة والفردية تحت الأقدام ، فإن التردد في حل مشكلات آلاف من رجال الغد لا يمكن أن يعني شيئا .

وأخذت أكداس الشهادات تتوارد ، كلما خرجت شهادات مستكملة مقومات حياتها دخلت أخرى ، حتى أنجزت « الواجب » . وبعدها أعيد إسدال الستار الحديدي . وعدت الى عالم السكون والقلق والتأمل والتحسب .

وكانت نكتة النكت هذه ذات معنى خاص على المستوى الشخصي والمستوى العام .

مهازل يضحك الجهلاء منها
ويبكي من مغبتها الحليم

ويبكي الحلماء حين تطاير أبطال النظام تحت كل كوكب ، كما تتطاير أوراق الخريف حين تعصف بها الرياح الجليدية . وأنهت رصاصة ثأر حياة الرجل الأول . وهو يحاول التخفي في أرض الله الواسعة . ذلك أن البلاد دخلت في دوامة التجاذب ذات اليمين وذات اليسار . ظنت أنها استقرت ، لكنها لم تستقر .

وحزنت على موته . فقد كنت قانعا بنظافة يده وصادق مشاعره القومية . لكن بريق السلطة ذهب ببصره ، لتغامر ذات ليلة . لكنه قذف بالدولة والديمقراطية ومشاعر المواطنين في عالم الظلمات . وأضاع من عمر الجيل سنوات كان مقدرا لها أن تكون سنوات بناء وتقدم .

ولا يجهل أحد المستفيد الحقيقي من شذوذ الأوضاع العامة وترديها . □

على حجر في الجحيم

شعر :
محمد ابراهيم أبوسنة

النوافذ مغلقة ،
والعيون التي تتحجر
فوق ملامحنا تثقب القلب ، حتى
تتفجر فينا ينابيع سوداء
هذي أعاصير تشحذ أسنانها
في مرايا الليالي التي
تحلس القرفصاء
على حجر في الجحيم .
الغمام القديم
راحل في السديم
وحدنا في خنادق هذا المساء الأليم ،
نتبادل هذي الصواعق
فوق القبور التي
حفرتها الأظافر
للحب نلقي بما قد تبقى لنا
من مرارة هذا الشراب المعتق
فوق الرمال ، ونلقي
بأيامنا للظلام البهيم .
لم يعد للورود التي سكنتها النجوم

عبر هذا الرحيل الطويل
على سفن من هشيم
لم يعد للنجوم
عبر هذا البريق الأخير
على خنجر يتغلغل
بين شغاف القلوب
وحتى الصميم
راحل أم مقيم ؟
كل هذا العذاب الذي
صار عش البلابل
أضحى غذاء السقيم
قد خسرنا رهان الحياة .
وها نحن نصرخ مثل المجانين
في تيه هذا الفراغ العقيم .
فاتنا حظنا منذ كنا
نراوغ هذي المقادير .
نسعى لنركض خارج
هذا المدار الأثيم .
لن تجيب الدموع نداءاتنا .

فالسعار الذي يعترينا
عتاه من جنون الخلائق
ملأ هذا المدى بالكلوم
غابة من هجوم .
وعذاب عظيم
لم نعد نستطيع الخروج
من الأمس لليوم .
لا نستطيع التحول إلى الغد .

شمس مثلجة فوقنا .
واحتمال وحيد يتيم
أن نظل هنا وحدنا .

نتقاسم هذي الصواعق
فوق القبور التي
حفرتها الأظافر للحب .

نشرب ما تبقى من الكأس .
نشعل هذا الجحيم .
ونبقى نحدق في اللانهاية .
نبكي رحيل الغمام القديم

حرب الظواهر الخارقة

بقلم : محمد حسن بيرقدار *

سمع الكثيرون عن بعض القدرات الخارقة التي يتميز بها البعض مثل رؤية شيء على بعد مئات الأميال ، وكسر الزجاج بتسليط النظرات الحادة اليه ، وغير ذلك .

لكن ما لم نعرفه بعد هو أن الدولتين العظيمتين تجريان بحوثا مكثفة لتوظيف هذه الظواهر في الصراع بينهما .

تنفق الولايات المتحدة عشرات ملايين الدولارات كل عام على برامج سرية غايتها دراسة الظواهر المتعلقة بالقدرات الانسانية الخارقة ، ومعرفة امكانيات استخدام قدرات العقل الانساني للقيام بعمليات تجسسية وحربية ، مثل القدرة على قراءة الملفات السرية من مسافات بعيدة جدا ، والقدرة على تحديد مواقع الغواصات النووية في أعماق البحار ، والقدرة على تفجير الصواريخ الموجهة أثناء تحليقها في الفضاء عن طريق استخدام القوة العقلية .

وتعاني الولايات المتحدة هذه الأيام مما تسميه « الفجوة » التي تفصل بينها وبين الاتحاد السوفييتي في حقل « الأسلحة النفسية » .

وقد كشفت الأدلة المتاحة مؤخرا أن الدول

* كاتب صحفي عربي - ديفون - بريطانيا

العظمى تقوم منذ عدة عقود بدراسات مستفيضة في « العلوم السرية » التي تهتم بالمفاهيم « الخارجة عن نطاق الادراك الحسي العادي » و « التخاطر » (اي اتصال عقل بآخر من مسافة بعيدة) ، و « الاستبصار » . أي القدرة على رؤية أشياء تقع خارج مجال البصر ، كأن يرى انسان في القاهرة ما يجري في البيت الأبيض و « السايكوكينيس » « اي تغيير حالة شيء عن طريق استخدام القوة العقلية مثل كسر الزجاج او صهر المعدن او تفجير صاروخ عن طريق استخدام القوة العقلية » .

علم أم شبه علم

استمر الجدل بين العلماء عدة قرون بخصوص « علم نفس الظواهر الخارقة » أو ما يسمى « باراسايكولوجي » . فقد اعتبر بعضهم أن هذا العلم مشروع ، وأن المهتمين به هم علماء جريئون يتمتعون برؤيا استثنائية . بينما اعتبره بعضهم الآخر « شبه علم » واتهموا المهتمين به بأنهم باحثون بسطاء التفكير واقعون في شرك خداع الذات .

وحين اكتشف هؤلاء ان وزارة الدفاع الاميركية ـ البنتاغون ـ مهتمة بعلم « الظواهر الخارقة » ارتفعت حرارة الجدل العلمي .

ويعتقد تشارلي روز عضو اللجنة المختارة لشؤون المخابرات في الكونغرس الاميركي أن احتمال وقوع حرب « الظواهر الخارقة » هو احتمال حقيقي . وقد يستدعي في يوم ما تبني برنامج (سريع) يشبه « برنامج مانهاتن » الذي ادى تبنيه الى تصنيع أول قنبلة ذرية في العالم . أما العالم مارسيللو تروتزي الذي يعمل في مركز ابحاث « الشذوذ العلمي » في ولاية ميتشيجان فيعتقد أن وزارة الدفاع الاميركية ستتخلى عن واجباتها اذا لم تهتم بهذه الأبحاث .

ولعل أفضل دراسة تفصيلية عن التجارب التي اجريت في حقل « الظواهر الخارقة » هي الدراسة التي أعدها العالمان « راسيل تارغ » و « كيث هارادي » التي نشرت مؤخرا في كتاب عنوانه « سباق العقل » . وهو السباق الذي يتوقع العالمان أن يرث سباق التسلح الحالي ويليه .

أما الدكتور « تارغ » فهو عالم فيزيائي متخصص بأشعة الليزر وعلم البصريات والموجات الكهرطيسية القصيرة المدى . وقد قضى عشرة اعوام قام خلالها بأبحاث مستفيضة في حقل « الظواهر الخارقة» لحساب وزارة الدفاع الاميركية البنتاغون ـ وأجهزة المخابرات الأميركية المختلفة . وقد كلفت تلك التجارب عشرات الملايين من الدولارات .

أما التجارب الرئيسية فقد تعلقت بما أسماه « تارغ » « الرؤية الثانية » التي يستطيع الأشخاص الذين وهبوا قدرات ذهنية خارقة بموجبها وصف اماكن بعيدة جدا لم يشاهدوها من قبل . وان يصفوا احداثا تجري في مكان آخر يبعد عنهم آلاف الاميال فعلى سبيل المثال قام الدكتور تارغ بتجربة شخصية على شخص موهوب موجود في كاليفورنيا عام ١٩٧٦ . فقد ذهب تارغ الى مكان يبعد مئات الاميال عن الموهوب ، تم اختياره قبل الشروع بالتجربة بدقائق ، دون علم الموهوب . وكانت مهمة الموهوب وصف مكان تارغ من تلك المسافة البعيدة . وقد كتب الموهوب على « كمبيوتر » وكالة « برنامج الدفاع للبحث المتطور » من مكانه في كاليفورنيا مايلي :

« أرى تقعرا اسمنتيا يشبه بركة ماء جافة ، يتوسطها عمود اسمنتي . وأرى سرب حمائم على يمين المشهد يطير فوق المنخفض الاسمنتي » .وقد صدق الموهوب . اذ أن المكان الذي وصفه من مسافة بعيدة كان البركة المركزية في حديقة « ساحة واشنطن » في مدينة نيويورك . والبركة كانت فارغة ويتوسطها عمود اسمنتي . كما أنها كانت محاطة بالحمائم أثناء التجربة .

أما الأمر الخطير والمذهل فقد كشفه العالم « رونالد ماكريه » في كتابه الذي نشر مؤخرا تحت عنوان « حروب العقل » . فقد ذكر ماكريه أنه تم استخدام الظواهر الخارقة لتقييم خطة كلفت (٤٠) مليار دولار اطلق عليها « لعبة الصدفة » تتعلق بصواريخ (ام ـ اكس) النووية . وتقضي تلك الخطة بتخزين

الصواريخ في مرابض سرية تحت الارض بشكل متنقل وغير ثابت . أي أن الصواريخ تنقل من موقع الى آخر باستمرار ، عبر أنفاق هائلة حفرت تحت الأرض لمنع السوفييت من تحديد مواقعها بدقة وبالتالي تدميرها .

وذكر العالم « ماكريه » نقلا عن مسئولة كبيرة في البيت الأبيض تدعى « باربارة هونيفر » متخصصة في حقل « الظواهر الخارقة » أن وزارة الدفاع الاميركية - البنتاغون - أجرت عدة تجارب استخدمت فيها أشخاصا يتمتعون بقدرات عقلية خارقة . أما دور هؤلاء الموهوبين فكان محاولة اكتشاف مخابىء صواريخ (ام . اكس) النووية مستخدمين قدراتهم الذهنية الخارقة .

وقد حزن خبراء وزارة الدفاع الأميركية حين تمكن هؤلاء الاشخاص من اكتشاف مواقع الصواريخ اذ قد عنى لهم ذلك تلقائيا أن السوفييت سيكشفون مخابىء تلك الصواريخ لا محالة ، لأنهم متقدمون أكثر بكثير من الأمريكيين في حقل الظواهر الخارقة . لهذا فقد استنتج خبراء وزارة الدفاع الاميركية أن مرابض الصواريخ عرضة للهجوم السوفييتي المعادي وبالتالي قرروا الغاء الخطة باكملها .

وذكر العالم « ماكريه » أن التجربة المذكورة هي حلقة من سلسلة تجارب تقوم بها وكالة المخابرات المركزية (سي . اي.ايه) والجيش ، والبحرية ، وسلاح الجو ، وسلاح المارنيز الاميركي ، ووكالة الفضاء (ناسا) ووكالة المخابرات الدفاعية (التابعة للبنتاغون) ودائرة التحقيق الفيدرالي (اف . بي . اي) وشعبة مكافحة المخدرات منذ أكثر من ثلاثين عاما . وذكر العالم « ماكريه » أن وزارة الدفاع الاميركية تنفق سنويا ستة ملايين دولار على التجارب المتعلقة بالظواهر الخارقة منذ اعوام طويلة .

وقد اعترف الجنرال المتقاعد دانييل غراهام رئيس وكالة المخابرات الدفاعية التابعة للبنتاغون أن المؤسسة العسكرية الاميركية أنفقت كميات كبيرة من الأموال على التجارب المتعلقة بالظواهر الخارقة وأن الانفاق والبحث ما زالا مستمرين .

أما وكالة المخابرات المركزية فتنفق على هذا النوع من التجارب عبر معاهد خاصة تمولها الوكالة لابقاء نفسها بعيدا عن الشبهات . واستشهد العالم ماكريه بمذكرة سرية للوكالة أكدت فيها أن التجارب يجب أن تستمر دون السماح لأية جهة بالتدخل او توجيه أية اسئلة بهذا الخصوص .

أما البنتاغون فهو يرفض استخدام اصطلاح « الظواهر الخارقة » حتى لايلفت النظر لأهميتها ، ويفضل استخدام تعبير غامض ومضلل وهو « أنظمة نقل المعلومات البيولوجية الغير مألوفة » .

ويخشى العلماء الضليعون في هذا النوع من البحث أن يتمكن الاتحاد السوفييتي من احراز « اختراق » في هذا المجال لأن ذلك سيؤدي حتما الى الغاء فاعلية القوات المسلحة الاميركية واصابتها بالشلل .

والجدير بالذكر أن الاتحاد السوفييتي كان أول دولة في العالم بدأت البحث الجدي في حقل « الظواهر الخارقة » ، وهناك أدلة تقول ان السوفييت لديهم مجموعة من الموهوبين الذين يتمتعون بقوى خارقة ، يندر وجودهم في اي مكان آخر بالعالم كما أن اسرائيل ضليعة في هذا الحقل وتقوم بتجارب منذ اوائل الستينات ، وتستخدم مجموعة من ذوي القدرات الخارقة الذين هاجروا اليها من الاتحاد السوفييتي في تلك الفترة وفي الفترات اللاحقة . ولعل ذلك هو أحد أهم اسباب التعاون الامني الوثيق بين الولايات المتحدة واسرائيل . فالولايات المتحدة تخشى حدوث تفوق سوفييتي في هذا الحقل ، وتحاول استخدام امكانياتها وامكانيات حلفائها لمنع حدوث تفوق كهذا . كما أن اسرائيل تستخدم « الموهوبين » لمعرفة مايجري في الجيوش العربية وفي أجهزة الامن والحكم العربية .

وذكر ماكريه أن المتخصصين في حقل « الظواهر الخارقة » العاملين في وكالة المخابرات المركزية

الاميركية زاروا مؤخرا أحد كبار المتخصصين في هذا المجال للحصول على معلومات عن امكانية التشويش على كمبيوترات وزارة الدفاع والمخابرات السوفيتية (كيه . جي . بي) واقتناص المعلومات منها .

وذكر ماكريه ان الرئيس الاميركي السابق جيمي كارتر استدعى في عام ١٩٧٦ عالما اسرائيليا يدعى « أوري جيللر » وهو عالم متخصص في حقل العلوم الذهنية للحصول منه على بعض المعلومات عما يجري في الاتحاد السوفييتي بهذا الخصوص ، وان جيللر اعلم الرئيس جيمي كارتر أن الاتحاد السوفييتي يقوم بفحص جميع الاطفال السوفييت بلا استثناء لاكتشاف الاطفال الذين يتمتعون بقوى ذهنية خارقة ، لعزلهم عن غيرهم ، وتطوير قدراتهم ، ثم استخدامهم لحساب المؤسسة العسكرية والأمنية السوفيتية في مرحلة لاحقة .

وذكر ماكريه أن الرئيس كارتر أمر في عام ١٩٧٧ باجراء مراجعة على اعلى المستويات لتقييم القدرات السوفيتية في حقل « الظواهر الخارقة » . وقد رفع المكلفون بالتحقيق تقريرا الى مكتب الرئيس في عام ١٩٧٨ ذكروا فيه أنهم لم يتمكنوا من العثور على أدلة قاطعة تؤكد وجود برنامج سوفييتي لدراسة الحرب الذهنية الخارقة على نطاق واسع . الا أن التقرير اكد أن السوفييت يتابعون البحث في هذا المجال باهتمام وجدية .

أبحاث في التخاطر

أما عن النشاط السوفييتي في هذا المجال ، كما ذكره العالم مارتن ايبون في كتابه الذي نشر في العام المنصرم تحت عنوان « الحرب الذهنية الخارقة » ان السوفييت اضطروا الى توسيع وتكثيف برنامج ابحاثهم في الحقل المذكور حين رفعت المخابرات السوفيتية (كيه . جي . بي) إلى الكرملين تقريرا سريا مفاده أن البحرية الاميركية قامت باجراء تجارب متقدمة في حقل « التخاطر » (اي اتصال عقل بعقل آخر لسرقة المعلومات المخزونة به من مسافة بعيدة وذون علم صاحبه) ، وان الهدف من وراء تلك التجارب هو اكتشاف موقع الغواصة النووية « نوتيليوس » (وهي أول غواصة نووية تصنع في العالم) اثناء إبحارها في عمق النهر الجليدي في منطقة القطب المتجمد الشمالي .

وذكر العالم « ماكريه » في كتابه أن السوفييت يتعاملون مع حقل « الظواهر الخارجة عن نطاق الادراك الحسي العادي » بمنتهى الجدية والاهتمام ، وأنهم أحرزوا نجاحا كبيرا في استخدام هذا العلم للسيطرة والتحكم بسلوك الانسان من مسافة بعيدة بطريقة « الريموت كنترول » .

وقد زار العالم « تارغ » الاتحاد السوفييتي وتحدث باستفاضة مع اعضاء أكاديمية العلوم السوفيتية ، وهي أعلى سلطة علمية في الاتحاد السوفييتي . وذكر تارغ أن السوفييت مهتمون جدا ، وعلى أعلى المستويات بموضوع القدرات العقلية الخارقة وبالظواهر الخارجة عن نطاق الادراك الحسي العادي ، وأنهم يقومون بتجارب مكثفة في تلك الحقول بهدف الاستفادة منها في المجال العسكري ، وانهم مهتمون بشكل خاص بحقل « الرؤية الثانية » (أي قدرة الموهوب على مشاهدة مايجري في مكان آخر يبعد عنه آلاف الاميال) ، وبحقل السيطرة والتحكم الذهني بسلوك الانسان عن طريق استخدام الظواهر العقلية الخارقة من مسافات بعيدة . وأكد « تارغ » أن السوفييت مهتمون بهذه الامور اكثر من اهتمام الولايات المتحدة بكثير . . . .

ويبقى السؤال الكبير : هل ستحقق نبوءة العالم راسيل تارغ والعالم كيث هارادي ؟ هل سيرث سباق العقل سباق التسلح الحالي ؟؟ هل سينتقل العالم من عصر الحروب التقليدية والنووية الى عصر « حروب العقل » كما تنبأ العالم الكبير « رونالد ماكريه » ؟؟ هل ستكون « حرب الظواهر الخارقة » سمة القرن الواحد والعشرين ؟

الزمن وحده سيجيب على هذه الاسئلة الغامضة والخطيرة . . . . □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الإنسان وعالمه المتراجع

على مر التاريخ كان باستطاعة الانسان أن يمد يده فينهل مما حوله كما يشاء ، فالهواء بلا حدود ، والأرض على امتداد البصر ، والماء يسقط ، أو ينساب ، أو ينفجر ملبيا الحاجة ، وإذا أصابه نقص كان الترحال دواء معروفا .

لكن التاريخ أيضا قلب كل المعادلات .

كان معدل النمو السكاني ـ وفقا لتقديرات صندوق الأمم المتحدة للسكان ـ (٢) بالمائة كل ألف سنة فيما قبل الميلاد .

الآن تتحقق نفس النسبة في عام واحد !

والآن أصبح واضحا ـ وفق أرقام لم تكن متاحة من قبل ـ أن الإنسان وعالمه يسيران في اتجاه عكسي !!

الناس والمدن والمداخن في تزايد مستمر .

والأرض والماء والهواء ومعظم الموارد الطبيعية في تناقص مستمر !

ولا حلول حاسمة حتى الآن ، تقلب المعادلة ، تعيد لها توازنها ، وتضمن المستقبل .

هذا التدفق :

وقضية الإنسان والموارد الطبيعية ، أو الانسان والبيئة ليست جديدة تماما ، لكن الأكيد أن رصد ما يجري بهذا القدر من الاهتمام ، وهذا القدر من الرغبة في إثارة الوعي بالقضية ، ومحاولة تجسيد كل شيء بالأرقام ، ابتداء من الزيادة السكانية إلى تناقص الهواء الصالح للتنفس ، كل ذلك جديد وقابل للتطوير ، حتى يمكن إعادة تشكيل العالم ، لأن بديل ذلك هو الفناء التدريجي ، أو الانتحار الجماعي ، وكأن الإنسان وقد هزم الطبيعة كثيرا على مر التاريخ قد عادت الطبيعة لتهزمه ، بعد أن تسلحت بخطاياه وما فعلت يداه .

في الطرف الأول للمعادلة تأتي قضية الزيادة السكانية : (١٥٠) طفلا جديدا كل دقيقة ، (٢٢٠) ألفا في كل يوم ، و (٨٠) مليونا كل سنة .

الرقم الحاكم في الوقت الراهن : ٥ مليارات نسمة يعيشون على سطح الكرة الأرضية ، لكنهم في عام (٢٠٠٠) يصبحون ستة مليارات ، أي أن هناك مليارا جديدا كل اثني عشر عاما . وفقا لبيانات صندوق الأمم المتحدة للسكان أن نصف سكان العالم عند نهاية القرن سوف يعيشون في المدن ، والتدفق الصناعي يسير بنفس المنوال ، إن لم يكن أسرع .

وإن الصورة تختلف في الشمال عن الجنوب ، حيث وصلت دول شمالية كثيرة إلى مجال التثبيت في السكان ، فلا زيادة أو نقصان ، واكتفت دول أخرى بمعدلات منخفضة للنمو . والنتيجة أن الدول الصناعية لا تضم أكثر من ربع سكان العالم ، لكن وعلى الجانب الآخر فإن استنزافها للموارد وتلويثها للبيئة يفوق في معظم الأحوال ما يجري في الجنوب .

إن ربع سكان العالم ـ وهم مواطنو هذه الدول ـ يستهلكون وحدهم ٧٥٪ من الطاقة في العالم و ٨٥٪

من الخشب و ٧٢٪ من الصلب .

وعندما نتحدث عن تغيير أساسي في البيئة والمناخ والهواء الصالح للحياة بالشمال تأتي هذه الأرقام التي ينتج عنها كل ما نعرفه من تآكل للون الأخضر وتزايد لغازات وإشعاعات ضارة .

ولكن الجنوب ليس بعيدا عن ذلك :

أولا ـ بتأثير الشمال .

ثانيا ـ بظروف الجنوب نفسه .

فالجنوب ـ وتحت تأثير أزمته الاقتصادية والغذائية ـ يبادل أخشابه وموارده الأولية بعملات الشمال الصعبة وما يصدره من سلع للجنوب ، وبما يمثل استنزافا كبيرا للموارد

ولكن ، في الوقت نفسه فإن ظروف الجنوب الخاصة تدفع إلى الشيء نفسه . إن مطبخ العالم الثالث ما زال يعتمد في معظمه على أشكال بدائية من الطاقة : الحطب وقشور الأشجار وأخشابها التي يجمعها الأطفال وتجمعها النساء ، وبما يهدد الغابات ويساعد على ظاهرة التصحر . وفقا للأرقام فإن (١,٣) مليار نسمة يتأثرون الآن بقلة الحطب ، وسوف يصبح الرقم ثلاثة مليارات مع نهاية القرن !

البيئة في الجنوب تتغير بسرعة . الأمطار تقل في العديد من المناطق . السحب من المياه الجوفية يزيد معدله عن تجدد هذه المياه ، حتى أصبحت كالنفط « موردا ناضبا » . الأرض تتناقص . الغابات الاستوائية تتقلص بمعدل (١١) مليار هكتار سنويا . التربة تتدهور : (٢٠) مليون هكتار من الأرض جنوب الصحراء في أمريكا تفسد كل عام بعد أن أصبح التصحر ظاهرة تنمو ، وتهدد ثلث مساحة العالم كله !

وأصبح حزام الجوع يضم (٧٣٠) مليون نسمة .

هل من سبيل ينجو به الإنسان ؟ هل من معاهدة لعدم الاعتداء يمكن إبرامها بين الإنسان والطبيعة ؟ هل من وسيلة للتعايش ؟

في الشمال تخرج المظاهرات وتتحرك الحكومات ، ويبرمون المعاهدات حفاظا على الهواء الخارجي الذي بدأ يترك بصماته على سطح الأرض .

في الجنوب يختلف الأمر ، تقول اللجنة العالمية للبيئة إن حماية البيئة في الدول النامية ، ووفق المعايير الأمريكية لعام ١٩٨٠ تكلف (٥,٥) مليارات من الدولارات سنويا ، وهذه المعايير لا تشمل ظروف الجفاف والتصحر ، وإنما برامج محدودة لبيئة صناعية لوثتها المداخن إلى حد كبير .

وفي حالتي الشمال والجنوب يصبح دور المنظمات الدولية ، ودور الحكومات دورا بارزا ، فعندما نتحدث عن الماء والهواء والأمطار والحرارة ، فإننا لا نتحدث عن قضايا قطرية ، وإنما هي قضايا عابرة للحدود بالضرورة . إنها النموذج الأمثل للتعاون الدولي وحقيقة أن الإنسان لا يعيش وحده ، ولكن . . ووفقا لأدبيات هذه المنظمات التي تعنى في الوقت الراهن بقضايا البيئة وقضية الموارد فإن نصف العلاج عند المرأة ، فالنساء ينتجن نصف الغذاء في البلدان النامية بشكل عام ، و ٧٥٪ منه في أفريقيا بالتحديد ، والمرأة هي مديرة الموارد ، تحدد حجم الأسرة ، أي نمو السكان ، وتحدد الاستهلاك المنزلي من الماء والنار ، ويقوم على أكتافها ـ في الأغلب الراجح ـ الاقتصاد الريفي .

ومع ذلك فالمرأة مشكلة ، والمطلوب تحسين تغذية المرأة ، لأن نصف نساء العالم الثالث ـ في سن الإنجاب ـ يعانين من فقر الدم !

القضية إذن متشابكة ، وتحتاج ثورة فكرية تتجاوز الجهود الراهنة ، سواء كانت جهودا دولية أو حكومية .

القضية حياة أو موت ، والسؤال والحال كذلك : هل تستمر أنماط الحياة والتقدم في الجنوب بنفس الوتيرة التي سارت عليها في الشمال ؟ هل يستمر التقدم الصناعي وأنماط الاستهلاك بشكل عام ، واستهلاك الطاقة بشكل خاص على نفس الوتيرة ؟

إن الإنسان لا بد أن يعيد النظر في نفسه وفي كثير من الأوليات والبديهيات ، وليس « كل من سار على الدرب وصل » ، فدرب الشمال محفوف بمخاطر الهاوية . □

أثر الحركة على صحة الإنسان

بقلم : الدكتور عصام سامى الخالدي *

« لو اعتنى كل انسان بصحته فإنه من الصعب أن يجد هذا الانسان طبيبا يعرف ما هو مفيد لصحته أكثر منه هو نفسه » .

يشير العالم الألماني مانفرد كتلختر في كتابه « سبعة مبادىء من أجل الحفاظ على الصحة » الى ان هناك سبع توصيات للشخص الذي يسعى الى صحة جيدة ، وهي أولا : أن يتنفس بشكل جيد ، وان يأكل ويشرب ويتحرك ، ويسترخي ، ويفكر ، وينتبه بشكل صحيح . ويقول عالم الفسيولوجيا السوفياتي « ارشافسكي » : « اني أضع مبادىء كتلختر في ترتيب آخر ، في الدرجة الأولى « النظام الحركي » ، وهو أن تكون لنا المقدرة على الحركة الصحيحة ، أما البقية ففي تدرج بالتسلسل فيما بعد ، فكلما زادت حركة الانسان نفد طاقة ناتجة عن الغذاء والشراب والتنفس ، وزادت حيويته البدنية والنفسية .

لقد قدر العلماء أهمية الحركة بالنسبة للانسان منذ العصور القديمة ، ولقد استخدم المؤرخ والطبيب اليوناني هيرودتس (٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م) التمرين البدني بنجاح في العلاج في كتابه « قانون الطب » وقام العالم العربي ابن سينا بتعميم تجربة الأطباء السابقين ، وقدم توصيات في استخدام الانسان للحركة والغذاء الصحيح من أجل الحفاظ على صحة جيدة .

قال الطبيب الفرنسي المعروف سيمون أندريه

* أخصائي تربية بدنية دارس بجامعات موسكو يعمل حاليا بمدينة رام الله بالأرض العربية المحتلة .

تيسو (في القرن الثامن عشر) : « يمكن أن تحل الحركة مكان أي وسيلة ، لكن كل الوسائل العلاجية في العالم لا تستطيع أن تحل مكان تأثير الحركة » .

هناك أمثلة عديدة : أناس أصيبوا بأمراض وبنكبات صحية ، لكنهم لم يفقدوا الأمل ، بل صارعوا هذه الأمراض ، واستخدموا التمارين البدنية من أجل الشفاء ، من هؤلاء نورمان كرر الذي ابتلي بأمراض خطيرة عديدة كعرق النساء والتهاب المفاصل وتليف عضلات الرقبة والعمود الفقري ، وأجريت له عملية جراحية كبيرة ، تم خلالها استئصال ثلثي معدته ، ثم تتوج ذلك كله بجلطة قلبية رهيبة من النوع الرديء فرضت عليه حياة أشبه بحياة الانسان الكسيح ، مدة خمس سنوات ، استطاع نورمان خلالها بمثابرة وتصميم نادرين ومن خلال برنامج رياضي وغذائي صارم وضعه لنفسه أن يعود انسانا معافى ، تتدفق الحياة الجياشة من جنباته .

ولقد كان صعود نورمان كرر سلم أعلى عمارة في العالم (ناطحة سحاب) وهي عمارة الامبيرستيت بنيويورك الذي يبلغ تعداد درجاته ١٨٦٠ درجة دون توقف خلال ٤٥ دقيقة أبرز ما أنجزه كانسان معتل القلب سقيم البنيان ، وبرهانا ساطعا لعظمة الرياضة كوسيلة علاجية .

هرقل السيرك مصاب

ومثال آخر للاعب السيرك السوفياتي فالنتين ديكول الذي كان يعتبر هرقل السيرك ، وقد أصيب في عموده الفقري إصابة جعلته يفقد القدرة على المشي ، لكنه بواسطة وعيه وقناعته بأن للتمرين البدني أثرا وفائدة استطاع بممارسته لتمارين القوة ان يقف على رجليه : بل وأصبح فيما بعد يعالج كثيرا من المقعدين والمصابين الذين فقدوا الأمل في إمكانية المشي خطوة واحدة .

من أجل الحفاظ على صحة جيدة يقترح العلماء أن يسير الشخص من ١٠ ـ ٣٠ ألف خطوة في اليوم ، أما غيرهم فيقترح أن يمارس الشخص التمارين البدنية من ٦ ـ ١٠ ساعات في الأسبوع ، ويقترح معهد الأبحاث للتربية البدنية في الاتحاد السوفيتي أن يمارس الناس ذوو الأعمار المختلفة الرياضة كالتالي :

- مرحلة ما قبل المدرسة من ٢١ ـ ٢٨ ساعة في الأسبوع
- مرحلة المدرسة من ١٤ ـ ٢١ ساعة
- طلاب الجامعة من ١٠ ـ ١٤ ساعة
- الذين يعملون في الأعمال البدنية ٦ ـ ١٠ ساعات

كما هو معروف أنه بعد الثلاثين يبدأ النشاط الحركي بالانخفاض ، كما يلاحظ تدني مستوى الصفات البدنية (القوة ـ التحمل ـ السرعة ـ وغيرها) ويقصر طول الجسم في سن ٤٠ ـ ٤٤ عاما ويزداد وزن الجسم نسبيا في سن ٢٥ ـ ٤٩ ويكون بينا أكثر في سن ٣٠ ـ ٣٩ عاما ، وفي هذا الوقت يزداد محيط القفص الصدري . ومع تقدم السن تصبح للجسم ميزة التأثر السريع بالنقص الحركي الذي يؤدي الى حدوث تغيرات وظيفية ومرفولوجية ، وتزداد التغيرات مع تقدم السن ، وكلما تقدم السن كلما كانت الحاجة لممارسة التمارين البدنية أكثر ، وكلما توجب زيادة الوقت المصروف فيها .

لقد أثبتت البحوث أنه في حالة اللاحركة تزداد نبضات القلب من ١٢ ـ ٢٠ دقة في الدقيقة ، وبعد ثلاثين يوما تصل الى ٢٦ ـ ٢٧ دقة في الدقيقة ، كما ينخفض استيعاب الجسم للاوكسجين بنسبة ٣٣٪ وتسوء عملية تهوية الرئتين ، وتضعف ديناميكية عمليات الهضم ، فيزداد اخراج الكالسيوم مع البول ، ويتراكم الفسفور في الجسم ، بحيث يساعد على ظهور الحصى في الكلى ، وانتقال العدوى الى المثانة ، والى الامساك ، واختلال تبادل المواد ، والى نقص الدم المشارك في الدورة الدموية ، ففي حالة اللاحركة الدائمة يجرى فيها ما يقارب ٥٥ ـ ٧٥٪ من الدم أما الباقي فإنه يبقى في الكبد بشكل احتياطي . كما أنه في حالة النقص الحركي الدائم قد تسوء الحالة

النفسية ، وتقل مقاومة الجسم للمؤثرات الخارجية ، كما تسوء عملية التبادل الحراري بين الجسم والوسط الخارجي .

دور التمارين

يعتبر التمرين وسيلة مهمة من أجل نمو صحيح للجهاز العظمي والجهاز العضلي (الجهاز الداعم الحركي) ، بفضل التمرين البدني تكتسب العظام قوة وثباتا أكثر ، ويزداد طولها وعرضها ، وذلك نتيجة لتضخم العظم الأصم الذي يعتبر عاملا مهما أثناء التوتر والاجهاد العضلي الكبير الذي يحتاج الى صلابة ميكانيكية عالية للعظام وفاعلية لجهاز المفاصل والروابط .

بفضل التمرين البدني يزداد وزن العضلات وحجمها عند الشخص فمثلا تشكل العضلات عند الانسان الرياضي ٤٠ ـ ٤٥٪ من وزن الجسم ، وبهذا تزداد قوة العضلات وتصبح أكثر اقتصادا في صرف الطاقة من العضلة غير المدربة كما يزيد احتواؤها على البروتينات التي بفضلها تزداد سرعة العضلات ومعدل انقباضها وتزداد مطاطيتها ، كما تتوسع شبكة الشعيرات الدموية بها ، حيث يتحسن امداد هذه العضلات بالدم بالاضافة الى ذلك فإن العضلة المدربة تستطيع الاستمرار في العمل فترة أطول ، أي أنها تملك ميزة المقاومة للتعب أكثر من العضلة غير المدربة .

تعمل التمارين البدنية على زيادة قوة العضلات التنفسية التي بفضلها تتكامل الحركات التنفسية (العضلات فيما بين الضلوع ، الحجاب الحاجز وغيرها) ، وهذا يساعد على زيادة عملية تهوية الرئتين ، فقد يصل معدل تهوية الرئتين أثناء العمل البدني (كالركض مثلا) الى ١٥٠ ـ ١٨٠ لترا من الهواء في الدقيقة ، كما تزداد السعة الحيوية العامة للرئتين (أكبر حجم للهواء يمكن تعبئته في الرئتين) ، فمثلا يلاحظ أن حجم الهواء عند ممارس التمارين البدنية يبلغ (٨ ـ ٩) لترات ، أما الذي لا يمارس التمارين البدنية فحجم الهواء لديه يبلغ (٣,٥ ـ ٥ لترات) ، وتصل سرعة التنفس في الدقيقة الواحدة أثناء النشاط البدني الى ٥٠ مرة ، وفي حالة الهدوء تكون هذه السرعة ١٢ ـ ١٤ مرة في الدقيقة عند الرياضيين ، أما عند غيرهم فهي ١٥ ـ ٢٠ مرة .

بفضل ممارسة التمارين البدنية يبلغ المتطلب الأقصى من الأوكسجين (وهو أكبر كمية من الأوكسجين التي يتطلبها الجسم في الدقيقة الواحدة أثناء النشاط العضلي الشديد) عند الشخص المتدرب حوالى ٥ ـ ٦ لترات ، أما عند من لا يمارس الرياضة فإنه لا يزيد عن ٣,٥ لترات ونصف لتر .

إن ابراز هذه الفوارق في الكثير من الدلائل بين الانسان الذي يمارس التمرين البدني والذي لا يمارسه ما هي الا محاولة لاعطائه فكرة واضحة عن فوائد التمارين البدنية وتأثيرها على الجسم .

في كتاب « التأمل في الصحة » يقول عالم الطب أموساف ن . م : « يدفع القلب ٤ لترات من الدم في الدقيقة الواحدة » ، وهذه الكمية كافية من أجل تأمين الأوكسيجين للجسم في حالة الهدوء ومن الممكن أن تدفع عضلة القلب ٢٠ لترا من الدم في الدقيقة الواحدة ، لكي تؤمن الأوكسيجين للعضلات التي تقوم بعمل بدني مضن ، وفي هذه الحالة تكون قد أشبعت هذه العضلات بالأوكسيجين ، وقامت بعملها على أكمل وجه ، ولكن لو افترضنا أن هذه العضلة لم تكن مؤهلة لدفع هذه الكمية من الدم ، بل مؤهلة فقط لأن تدفع ٦ لترات من الدم في الدقيقة كحد أقصى لها ، فماذا سيحدث في هذه الحالة إذا كان القلب مضطرا لأداء عمل يتطلب ٢٠ لترا من الدم في الدقيقة ؟ النتيجة واضحة ، وهي أنه في غضون عدة دقائق سوف تكون الأنسجة بحاجة ماسة إلى أوكسيجين ، اذ تقوم العضلات بأخذ كل الأوكسيجين من الدم ، وسوف يؤدي ذلك الى صداع أو أعراض أخرى . لنتصور أن انسانا بمقدور قلبه دفع ٢٠ لترا من الدم في الدقيقة ، وقد أصيب هذا الشخص بالتيفوئيد الطفحي ، حيث تصل درجة حرارة الجسم الى ٤٠

درجة مئوية ، كما يتضاعف احتياج الجسم للأوكسيجين وهنا يبرز تساؤل هو : هل سيتأثر القلب المتدرب من جراء ذلك ؟ بالطبع لا ، فإنه سيستطيع أن يصمد أمام حمل كهذا بأربعة أضعاف . ولكن ماذا سيحدث لهذا القلب الضعيف الذي بمقدوره أن يدفع فقط ٦ لترات من الدم في الدقيقة الواحدة كحد أقصى ؟ والجواب هو : ان أنسجته ستصاب تدريجيا بالموت ، حيث أنه ليس بمقدوره إعطاء حجم مضاعف من الدم ، وتكون النتيجة بأن ينفذ المرض بشكل أسرع الى الجسم .

الرياضة والعادات

ان الرياضي الذي يمارس نوعا معينا من الرياضة يكون هدفه بالاضافة الى تحسين الصحة ـ على الرغم من أن الكثيرين من الرياضيين لا يضعون هذا الهدف أمامهم ـ تحقيق الفوز الرياضي ، كما أنه خلال هذا النشاط الرياضي تنشأ علاقة بين الرياضيين وتعتبر هذه العلاقة أحد حوافز النشاط البدني .

أما بالنسبة للأشخاص الذين يمارسون الرياضة بغية تحسين الصحة فقط فمن الصعب أن تسميهم رياضيين ، لأن الرياضة تنسب في كثير من الأحوال الى النشاط التنافسي .

ويجب أن يفهم الانسان معنى التمارين الرياضية وأهميتها للجسم ، وان يتحول هذا الفهم لقناعات بوجوب الممارسة اليومية لهذه التمارين التي تصبح فيما بعد عادة لها أهمية أخلاقية ومعنوية واجتماعية .

ليس الوعي بهذه الأمور الا خطوة أولى ، لأن الثقافة بصفتها مجموعة من المعارف لا تكفي الا اذا تحولت الى قناعات ، ومن ثم الى ممارسة تتلاءم مع سلوك الانسان ومتطلباته الحياتية .

ليس المهم أن نضع أمامنا كلمة « كيف » : كيف أقلل وزني ؟ كيف أركض ؟ وذلك دون أن يكون هناك ظروف مهيأة لذلك ، فالامكانات المادية وطرق التمارين ووسائلها هما عاملان مهمان يعدان من الحوافز لأجل ممارسة التمرين البدني ، لكن الأهم من ذلك هو خلق ارادة قوية تهيىء النفس لذلك ، وإن كل انسان يسعى الى التكامل لا يستطيع الوصول اليه ما لم يكن سليما بدنيا ومتكاملا أيضا .

القلب عندما يتدرب !

وزن قلب الانسان (٢٥٠ ـ ٣٥٠) غراما ، ويدفع ٦٠ ـ ٨٠ مليليمترا من الدم في الشرايين في كل نبضة ، أي ما يقارب ٣٠٠ لتر في الساعة ، وألف لتر في اليوم ، وقد تصل الكمية التي يدفعها في اليوم الواحد الى ١٥٠٠ لتر عند الأشخاص الذين يعانون من النقص الحركي ، ومن تدني مستوى الاعداد البدني . ان عمل القلب بحاجة الى جهد كبير من أجل القيام بهذه المهمة ، وقد يزداد هذا الجهد عندما يقوم الشخص بإلقاء حمل كبير على عضلة قلبه من خلال الجهد البدني المضني المتواصل ، وبتناول الغذاء المليء بالدهون الزائد عن حاجة الجسم وبالتدخين ، فبإهمال تدريب هذه العضلة ونقص الأوكسيجين قد تكون النتيجة عدم استطاعة هذا الجهاز الصغير القيام بمهمته على أكمل وجه ، وإصابته بالأمراض المتعددة .

يدفع القلب المتدرب الذي يزيد بوزنه وبحجمه عن القلب غير المتدرب ما يقارب ٧ لترات من الدم في الدقيقة الواحدة الى الشرايين بينما يتراوح ما يدفعه القلب غير المتدرب من ٤ ـ ٥ لترات في الدقيقة الواحدة ، ويعود ذلك الى المستوى العالي لاعداد هذه العضلة عند الذين يمارسون التمارين البدنية التي تساعد على استيعاب كمية أكبر من الأوكسيجين . من المعروف أن متوسط نبضات القلب عند الانسان ٧٠ دقة في الدقيقة الواحدة في حالة الهدوء ، أي أن عضلة القلب تنقبض ٧٠ مرة في الدقيقة الواحدة ، دافعة كمية من الدم في الشرايين ، وكلما كانت هذه العضلة قوية زاد ضخها لهذه الكمية ، واستوعب الجسم كمية أكبر من الدم لتغذية أجزائه المختلفة ، كما أن دفع كمية كبيرة من الدم في النبضة الواحدة يساعد على انخفاض عدد هذه النبضات في الدقيقة الواحدة ، فقد تزيد عن ٧٠ دقة في الدقيقة عند الأشخاص الذين يعانون من النقص الحركي ، وتقل عند المتدربين الذين قد يصل النبض

عندهم الى ٥٠ ـ ٥٥ دقة في الدقيقة . وقد لوحظ أنه يصل عند بعض الرياضيين العالميين الى ٣٨ دقة في الدقيقة ، وهذا يعني أن القلب يقوم بدفع أكثر من سبع لترات من الدم في الدقيقة الواحدة ، وكلما كانت عضلة القلب أقوى دفعت أكثر من الدم في النبضة الواحدة ، وقلت سرعة النبض في الدقيقة .

يحسن التمرين البدني عمل القلب ويقويه ويساعد على امداده بالأوكسيجين ، فأثناء التمرين البدني قد يرتفع جريان الدم الى خمسة أضعاف جريانه في أوعية القلب ، كما أن حاجة عضلة القلب للأوكسيجين في حالة الهدوء مرتفعة جدا ، أما أثناء العمل البدني فإنها تزداد بزيادة سرعة جريان الدم في أوعية القلب . كما تطول فترة الانبساط (فترة استرخاء عضلة القلب) حيث يساعد هذا عضلة القلب على استيعاب مزيد من الأوكسيجين .

يتزايد جريان الدم أثناء النشاط البدني في الأوعية الدموية ، وتدل البحوث أنه في المليمتر المربع الواحد يبلغ عدد الشعيرات الدموية من ٣٠ ـ ٦٠ شعيرة دموية في حالة الهدوء ، وبفضل ممارسة التمارين البدنية يلاحظ وجود ٣٠ ألف شعيرة منتشرة في هذا المقطع الصغير (مليمتر مربع واحد) ، أي أن أكثر الشعيرات الدموية لا تساهم في الدورة الدموية ، وتبقى مجمدة أثناء حالة الهدوء . كما يزداد طول قطر الشعيرة الدموية بفضل ممارسة التمارين البدنية بمقدار الضعفين ، وتساهم هذه الشعيرات بقسط وافر في الدورة الدموية في إيصال الغذاء والأوكسيجين الى العضلة .

يتغير معدل جريان الدم في الأعضاء المختلفة أثناء التمرين البدني ، وحسب معطيات « شرر » فإن جريان الدم في حالة الهدوء في العضلات يساوي ٤ ملليمترات في الدقيقة لكل ١٠٠ غرام نسيج عضلي ، أما أثناء العمل الديناميكي الشديد فإنه يرتفع الى ١٠٠ ـ ١٥٠ ملليمترا في الدقيقة لكل ١٠٠ غرام من النسيج العضلي ، وبذلك يتضاعف جريان الدم في العضلات أثناء الحمل البدني الكبير ويصل الى ١٥ ـ ٢٠ ضعفا ، لكن لا تطرأ زيادة كبيرة في جريان الدم في الدماغ بل قد ينخفض في الدماغ أثناء الحمل البدني الشديد من ١٣٪ في الهدوء الى ٣٪ أثناء الحمل البدني الشديد . وتظهر ايجابية التمرين البدني على عمل الدماغ بعد التمرين ، أثناء مرحلة استعادة النشاط وتشكل الدورة الدموية في الأعضاء الداخلية (الكبد ، الكلى ، المسلك الهضمي) أثناء حالة الهدوء ٥٠٪ من حجم الدم الذي يدفعه القلب في الدقيقة الواحدة ، أما أثناء الحمل البدني الأقصى فقد تنخفض الدورة الدموية الى ٣٪ ـ ٤٪ من حجم الدم الذي يدفعه القلب في الدقيقة الواحدة وينخفض جريان الدم في الكبد أثناء الحمل البدني الشديد الى ٨٠٪ وفي الكلى الى ٣٠٪ ـ ٥٠٪ .

وسيلة وقاية

يؤدي نشاط العضلات الى توسع الأوعية الدموية وإلى انخفاض الدم الذي يؤدي الى انخفاض الحمل على القلب ، لذلك يعتبر التمرين البدني وسيلة وقائية علاجية للتصدي لمرض ضغط الدم العالي ، فأثناء التدريب المنتظم تزداد مرونة الأوعية الدموية التي كانت قد أصيبت بالتصلب من جراء التدخين والغذاء المليء « بالكولسترول » وغيره فتسمح للدم بالتنقل عبرها بطلاقة وبكمية أكبر ، وبهذا تكون قد خففت من زيادة الضغط على القلب .

إن الاصابة بمرض ضغط الدم العالي تحدث أكثر لدى الأشخاص الذين يعانون من النقص الحركي ، وان ضغط الدم الانقباضي (البستالي) عند الرياضيين أقل مما هو عند غير الرياضيين .

يرتفع ضغط الدم الانقباضي أثناء النشاط الحركي ، ففي الدقيقة الأولى والثانية في العمل المتزن يطرأ ارتفاع ملحوظ على ضغط الدم ، أما فيما بعد فإنه يأخذ موضع الثبات ، بعد التوقف المفاجيء عن العمل في الثواني الخمس أو العشر الأولى قد يطرأ هبوط في ضغط الدم الأساسي ، وقد يرتفع ليصل إلى مستوى الضغط الأساسي أو أكثر من ذلك ، أما ضغط الدم الأدنى (الانبساطي) فإنه ينخفض قليلا بواسطة التدريب المنتظم ، ويرتفع فقط أثناء الحمل البدني الشديد .

من آثار ممارسة التمرين البدني الايجابية على الجهاز الهضمي تنشيط عمل الكبد ، وتحسن وظائف غدد الافراز الداخلي ، مثل الدرقية ، والفوق كلوية التي تلعب دورا كبيرا في عملية النمو البدني (الطول) .

وللتمرين البدني أيضا تأثير كبير على مستوى السكر في الدم ، فقد يتطور مرض السكر عند الأشخاص الذين يمارسون التمارين البدنية فيصبح أقل بكثير مما هو عند الذين يعانون من النقص الحركي ، وبخاصة عند أصحاب المهن التي تعتمد على الجلوس الطويل ، فإن ذلك يؤدي إلى تزايد نسبة السكر في الدم وذلك بسبب عدم استهلاكه .

فالتمرين البدني المنتظم يستهلك كثيرا من « الجلوكوز » وأنواعا من السكر الأخرى لأجل إعطاء الطاقة ، كما يتحسن عمل الغدد التي تقوم بإفراز « الأنسولين » الذي يقوم بتحليل « الجلوكوز » .

ويتزايد تكاثف حامض « اللاكتيك » بفعل تأثير الحمل البدني في الدم الذي له علاقة مباشرة مع تعب العضلات ، فإذا تكاثف « اللاكتيك » يبطء فان ذلك سوف يؤدي الى تأخر بدء التعب ، بحيث يكون تحمل العضلة أكبر . ويزداد هذا الحامض في الدم عند الأشخاص الذين يمارسون التمارين البدنية بانتظام بنسبة أقل مما هو عند الذين لا يمارسونها بانتظام .

حماية للجهاز العصبي

ويساعد التمرين البدني في تكامل الجهاز العصبي الذي يتميز بمستوى عال من التكيف مع المتطلبات الجديدة للوسط الخارجي المتغير . وعندما تؤثر المؤثرات على الجسم خلال وقت طويل يتشكل ما يسمى (الحركة الديناميكية المبتذلة) حيث يبدأ الجسم بالاستجابة لرد الفعل المبتذل (المطبوع) الذي يعتبر عاملا ايجابيا لتأدية الشخص عملا كان قد تعود عليه بسهولة ، ودون صرف كبير للطاقة ، وتركيز للانتباه أفضل .

يلاحظ عند تعلم الشخص لحركة جديدة أنه يقوم بأدائها دون رشاقة ، لكنه تدريجيا مع تكراره لها يصبح تنفيذها أكثر سرعة ودقة وهنا يأتي دور التمرين البدني في أنه يساعد على اكتساب الحركات الجديدة بشكل أسرع ، وبرشاقة أكثر ، دون تعقيد في أداء هذه الحركات الصعبة . ونلاحظ دائما أن تعلم الانسان الرياضي لأداء حركة مهنية معينة يتم بسهولة ورشاقة .

إذ تعد الحركة الديناميكية المبتذلة أساسا فيسيولوجيا لنظام يومي أفضل لامتلاك مهارات حركية ، كما أنها تحمي الجهاز العصبي من التشوه الذي يؤدى إلى خلل في النشاط الطبيعي لأجهزة الجسم ، ويقلل من إمكانية المقاومة للأحمال البدنية والنفسية .

لقد أصبح الحمل كبيرا في وقتنا الحاضر على الجهاز العصبي بفعل حياة التمدن التي نعيشها (ضوضاء المدن ، طبيعة الأجهزة الحديثة) فقد زادت الطاقة العصبية أثناء العمل ، وقل صرف الطاقة البدنية ، وأصبح من الضروري حماية الجهاز العصبي من التوترات ، وهذا يتطلب اتباع نظام يومي منتظم ، وتنظيم العمل الذهني والبدني ، بالاضافة الى التمرين البدني الذي يعد وسيلة مهمة من أجل إزالة هذه التوترات العصبية ، وقد أصبح الكثير من أطباء الأمراض النفسية والعصبية يستخدمون التمارين البدنية وسيلة من الوسائل العلاجية للعديد من الأمراض ، وذلك بدل الحبوب المهدئة والعقاقير الأخرى أو إضافة اليها .

بفعل التمرين البدني تزداد السرعة والحركة للعمليات العصبية في الدماغ ، وتصبح عمليتا الصادر والوارد أكثر اتزانا ، كما أن الانتقال المكثف للاشارات العصبية من العضلات الى الدماغ يؤدي الى تنشيط الدماغ ، حيث يلاحظ هذا في فترة استعادة الشفاء ، فمثلا لو تدرب الشخص مساء فيلاحظ تمتعه بالصفاء الذهني والمقدرة العالية على التذكر في اليوم التالي . □

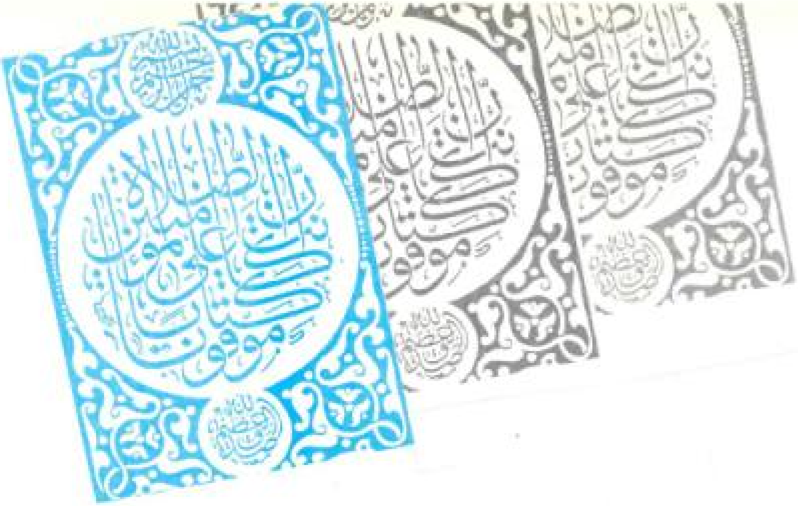

أهي نهضة جديدة للخط العربي ؟

بقلم : محمد سعيد الصكار*

لم يعد خافيا على أحد هذا الانتباه الواسع إلى أهمية الخط العربي ، وكونه الفن الأكثر أصالة وصفاء لهذه الأمة ، والأوسع انتشارا في الأرجاء التي كان لها حضور فيها ، حيث اقترن اسمه بالاسلام ، وسار معه أينما حل ، منذ نشأته إلى هذا الوقت .

تعرض الخط العربي - هذا الفن الجميل - إلى الركود لأسباب كثيرة ليس هنا مجال الحديث عنها ، لكنه لم يتعرض إلى الانقراض ، بل بقي محدود الآفاق ، محدود التأثير ، حتى سنوات الستينيات من هذا القرن العاصف .

ومع ما أفرزته نكبة حزيران من خيبة ومرارة أدت إلى إعادة استقراء لكل تركيبات الشخصية العربية ، كان للفن العربي عموما بحث في تركيب الذات ، ومحاولات في إعادة تقييم معطياتنا الفنية ، في ضوء الاستقراء العام للتاريخ الفني العربي ، بغية الوصول

* خطاط وفنان تشكيلي - من القطر العراقي - مرسمه الدائم بباريس

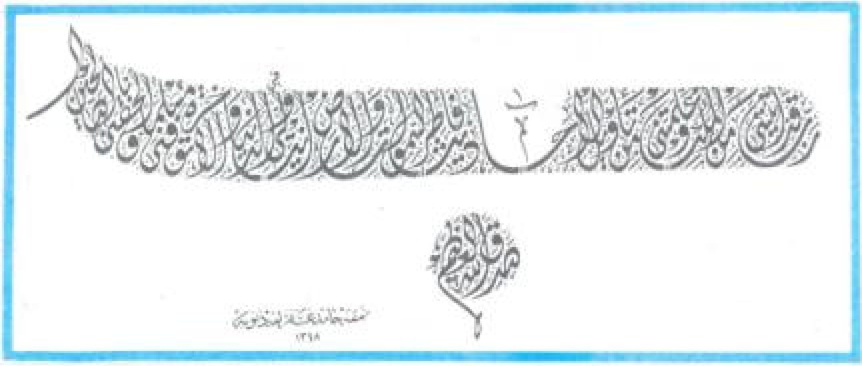

● لوحة بخط جلي الديواني لحامد الآمدي .

إلى الينابيع الأساسية التي سقت هذا الفن ، ووصلت به إلى زماننا ، وتلمس الامكانات التي تؤسس لفن معاصر ، يعكس الشخصية العربية الممتدة في التاريخ ، ويفتح للتغيرات المطلوبة آفاق الموجود والممكن ، وعدم الاكتفاء بمسايرة النهضة الفنية في الغرب .

وكان للخط العربي نصيب في هذا البحث ، بل ربما كان الأكثر حضورا من بين الينابيع التي بحث عنها .

وقد انعكس ذلك على أكثر من صورة ، فالخطاطون شرعوا في إشاعة فنهم جماهيريا ، بما أقاموه من معارض فنية ، والمؤلفون أشرعوا أقلامهم في الكتابة عنه ، تاريخا وتطبيقا ، والفنانون التشكيليون أدخلوه في لوحاتهم ونصبهم وخزفياتهم ، وعقدت له ندوات وأقيمت مهرجانات .

وإذا قسنا حركة الانتباه القائمة هذه الأيام بما كان عليه الخط قبل عشرين عاما نجد الفرق شاسعا ، والانتباه واسعا ، يحملنا على التأمل والتساؤل : أهي نهضة خطية جديدة، أم هي (مودة) نهضت وتغيب كما تغيب المودات الاخرى؟ وإذا كانت نهضة فما هي أسسها ومنطلقاتها وآفاقها وأهدافها ؟ وهل نستطيع أن نؤطرها بالمصطلحات التي تحدد بها أي نهضة أخرى ؟

إن التتبع الأمين والاستقراء الجاد لواقع الخط العربي في هذه الأيام لا يوحي بوجود نهضة حقيقية لهذا الفن ، على الرغم من كل ما أسلفنا الاشارة إليه ، وإنما يؤكد بشكل حاد على وجود انتباهة ، والانتباهة غير النهضة ، لكنها أحد شروطها . أما النهضة فما زال بيننا وبينها فاصل واضح ، لا يخفى على الناقد الواعي .

تقليد بلا منهج

فمن شروط النهضة التبصر بالأسس ، وتحليلها ونقدها ، واستصفاء الحيوي منها ، للانطلاق منه الى المدى المطلوب . وهذا التبصر غائب فيما نراه الآن ، لغياب عنصر أساسي في وجوده ، وهو النقد الخطي ، فدون منهج نقدي علمي لايمكن التحليل والاستصفاء ، وهذا النقد الخطي غائب تماما منذ نشأة الخط العربي الى الآن .

رب قائل يقول : اذن ماذا نسمي هذه المكتبة الحاشدة من المؤلفات الخطية ، وكيف نصنف مؤلفات الصولي وابن النديم والقلقشندي ومرتضى الزبيدي وعبدالرحمن بن الصائغ واحمد رضا وناجي زين الدين وكامل البابا وغيرهم ؟

وبأسف أجيب : إن ذلك ليس نقدا ، إنما هو تاريخ أحيانا ، وحكايات أحيانا أخرى ، وانطباعات تفتقر الى التفسير العلمي مرة ، وتناقل ساذج

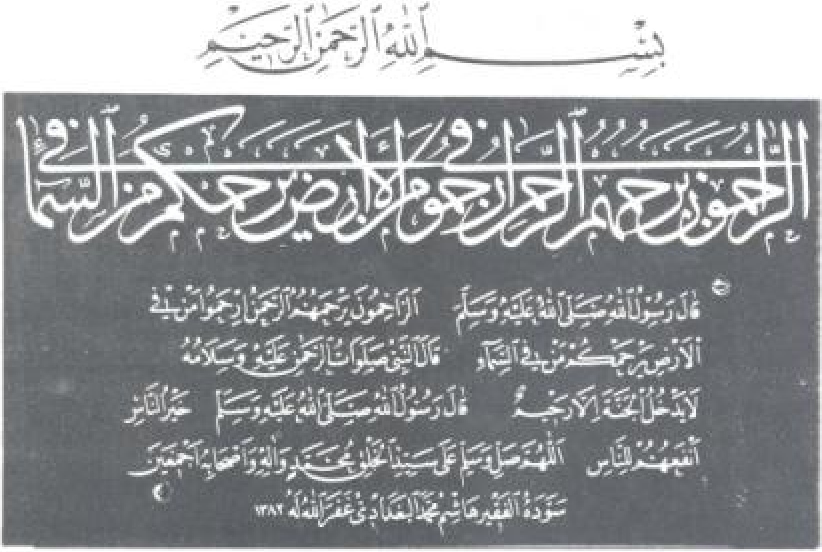

● لوحة بخطي الثلث والنسخ لهاشم محمد البغدادي

للمعلومات في اكثر المرات . والا فأين الكاتب الذي حلل جماليات الخط العربي ، وفسر العملية الخطية ، وواكب تفاعلاتها عند اي من الخطاطين الكبار عبر تاريخ الخط ؟ ومن منهم استطاع أن يكشف القيمة الفنية والروحية والأدائية للخط ، ويعطيها ابعادها الابداعية ، كما اعطى الجرجاني وابن سلام ومحمد مندور للشعر ، أو كما أعطى الخليل وسيبويه والفراء ومهدي المخزومي للغة ؟ لا أحد . وعلينا ألا نخجل من الاعتراف بذلك اذا كنا بصدد قيام نهضة .

أما منطلقات هذه النهضة فمازالت خامة عذراء ، وهي هذه الذخيرة العظيمة للأعمال الخطية التي تملأ الأرض ، ونحن نضيف اليها يوميا كما تقليديا لا أثر فيه للابداع ولا حرمة فيه للزمن .

ومن شروط النهضة ان تكون لها آفاق ، فإلى اي افق يرنو الخط العربي المعاصر ؟ وما الذي يريد قوله الخطاطون فيما ينتجون ؟ وانا اعني هنا الخطاطين العارفين بأصول الخط العربي معرفة جيدة ، تاريخا وقواعد واساليب وتطبيقا .

وأقول بأسف آخر : انني لم أستشرف افقا فيما قرأت وسمعت ورأيت ، وحجتي في ذلك هي خلو الآفاق الممكنة من حضور الخطاطين . فهذه هي الصحافة ، وهي ميدان رحب للتطبيق الخطي ، وأفق ممكن للنهضة ، وهي على ما نراه لا تعنى بجماليات الخط العربي عنايتها بالسرعة والوضوح وقلة التكاليف على حساب جمالية الخط .

وتلك هي دور النشر العربية ، الرسمية منها والأهلية ، خالية تماما من أي ذوق فني في خطوطها ، وهي افق آخر مغلق . يضاف الى ذلك المطابع التي تصدمنا كل يوم بخطوط تنسينا ان الخط العربي نبع في بلادنا . اما الشوارع العربية فلن تجد للخط العربي الفاتن المتنوع حضورا في لافتاتها وواجهات مخازنها ومؤسساتها . وليس ما تراه فيها الا حروف مرتجلة ، توحي دون شك بأن كاتبها لا يحسن اساليب الخط الفني ، ولا يعرف تاريخه ، وامكانات تطويره .

أما الأهداف ، فهي الوحيدة الواضحة ، لكنها غير متحققة بسبب غياب التخطيط المنهجي للنهضة

المرجوة .

لهذا كله أقول : إن هناك انتباهة ، وهي أحد شروط النهضة .

الخيال والابداع

إذا كنا نسعى فعلا إلى قيام نهضة خطية فعلينا أن نستثمر هذه الانتباهة ، وأن لا نخيب أمل الناس في امكان قيام النهضة ، وقد أصبحوا هم أكثر انتباها من الخطاطين أنفسهم ، فهم يحضرون المعارض ، ويتابعون النشاطات ، ويقتنون اللوحات ، ويطالبون في اشاعة الخط العربي على أوسع مدى .

وليس من حق الخطاطين أن يفرطوا بهذا الأمل ، وليس من حقهم أيضا الوقوف على رصيف التاريخ ، والتمسك المتعصب بالتفاصيل الصغيرة ، والحكايات الخيالية المتناقلة من فم لفم دون تمحيص ودونما معنى .

واذا كان الخطاطون الأصوليون متمسكين إلى هذا الحد بالتفاصيل الصغيرة ، والتقليد الحرفي لتراث السلف ، فتلك خصلة يحمد لهم جانب منها ، باعتبارها سببا في الحفاظ على صورة هذا الفن الجميل ، لكنها من الجانب الآخر يجب ألا تكون سببا في إعاقة الريادة ، وتعطيل الخيال ، ومحاربة التجديد ، وهي أمور جارية مع الأسف في واقع حياتنا ، على الرغم مما يقام وما يقال .

وما يقام من نشاط في ميدان الخط هذه الأيام يقوم على ثلاثة محاور أساسية :

أولها أن جل ما يعرض وينشر هو تقليد حرفي لقواعد وأساليب زمان غابر ، ولا رائحة فيه من زماننا ، ولا دلالة عليه .

وثانيها كون خطاطينا الأصوليين المتمسكين بتلك القواعد والأساليب يكابرون ، إذ يظنون أنهم يوازون كبار الأساتذة في تاريخ الخط ، كمصطفى راقم ومحمد شوقي ومحمد مؤنس وهاشم محمد وحامد الآمدي ومن في مستواهم . وإصرارهم على

● لوحة بخط الثلث المركب غير موقعة . وهناك لوحة مماثلة تماما بتوقيع (علي ١٢٨١) ، ولا يعرف من منهما الأسبق .

التقليد الحرفي إنما هو استهلاك لطاقاتهم الروحية دونما إضافة إلى تاريخ هذا الفن كما فعل الأسلاف المتنورون .

وثالثها أن أغلب دعاة التجديد ـ وهم قلة أصلا ـ يبدأون من حيث انتهى الآخرون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء المراجعة والدرس والتفهم ، والممارسة الفعلية لأنماط الخطوط العربية التقليدية ، والانطلاق منها .

وبقاء الأمر على حالته هذه لا يبشر بنهضة ولا بمستقبل مثير ، ما لم يكن هناك وعي وهدف للممارسة الخطية . وتلك مهمة الجيل الجديد من الخطاطين . وإلا فما جدوى المهرجانات التي تقام ، وشرطها الأساسي أن تكون الأعمال المشاركة فيها مبنية على قواعد وأساليب ، أقربها إلينا على مسافة قرنين من الزمان ؟ ! . □

ميخائيل نعيمة

آخر رُوّاد أدب المهجر

بقلم : الدكتورة نادرة جميل السرّاج*

في الثامن والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٨٨ توفي أديب لبنان الكبير المرحوم الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو لم يكن أديب لبنان فحسب ، بل كان أديب المهجر المتفرد ، وشاعره الرقيق المغرّد . وقد أصبح بعد عودته مدة تزيد على نصف القرن أديبا وفيلسوفا ومفكرا شرقيا من طراز خاص .

كان نعيمة الرجل الثاني في جمعية « الرابطة القلمية » . فما هي هذه الرابطة ؟ ومن هم أعضاؤها ؟ ومتى تأسست ؟ وكم من السنوات عاشت ، وعاش « عمّالها » ؟ وماذا كان تأثيرها في الشعر والشعراء في الأقطار العربية وفي المهاجر ؟

بيئته وطفولته :

ولد ميخائيل نعيمة في السابع عشر من اكتوبر عام ١٨٨٩ في قرية « بسكنتا » الواقعة على سفح جبل « صنّين » الذي يبعد حوالي ٤٥ كيلومترا عن مدينة بيروت ، ويحتضن القرية من جهاتها الثلاث ، تاركا

* استاذة الأدب العربي الحديث بجامع بجامعة وهران - الجزائر - سابقا

الجهة الرابعة مفتوحة تطل على « وادي الجماجم » ، ذلك الوادي الرهيب الذي أوحى لنعيمة ولزميل بسكنتي آخر من شعراء «الرابطة القلمية » ، هو رشيد أيوب ، بالكثير من القصائد والأفكار .

كان أهل « بسكنتا » يعملون في الأرض ، ولم يكن الدخل كافيا في كل الأوقات ، لذلك عرف « يوسف نعيمة » ، والد ميخائيل طريقه إلى العالم الجديد ، فوصل كاليفورنيا مع شقيقة له في عام ۱۸۹۰ ، عندما كان ميخائيل الطفل في شهره العاشر ، وكان له أخوان هما أديب وهيكل . لكن الأب « يوسف » لم يوفق في مهجره ، وعاد بعد ست سنوات وحده دون شقيقته التي توفيت هناك . كبر الفتى ميخائيل ، ودخل مدرسة القرية مع أخويه ، وأثبت تفوّقه منذ البداية ، آملا أن يحقق لأمه أمنية خاصة ، وهي أن يقصد الناس أولادها ليكتبوا لهم الرسائل إلى ذويهم في المهاجر ، فقد كفاها ما تحمّلته من مذلّة كلما شاءت أن تبعث برسالة إلى زوجها في كاليفورنيا . وهاهو ميخائيل الصغير يتطلع إلى أن يصبح موضع فخرها واعتزازها .

وما لبث ميخائيل أن دخل المدرسة الابتدائية الروسية في قريته ، وبرع في اللغة العربية ، خاصة بعد اطلاعه على كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجي ، وقد استفاد منه في إلقاء كلمة تأبين لأحد أقاربه الذي توفي في البرازيل ، فبدا في كلمته أكبر من سنّه .

في دار المعلمين الروسية :

إثر تفوقه في المدرسة الابتدائية اختير نعيمة ليتمّ تعليمه الثانوي في مدرسة المعلمين الروسية ، في مدينة « الناصرة » «في فلسطين » ، وفي ديسمبر من عام ۱۹۰۲ كان فتى الثانية عشرة في طريقه إلى بيروت ، ومنها في زورق صغير إلى مدينة « حيفا » على الشاطئ الفلسطيني ، ثم ممتطيا ظهر دابة إلى مدينة الناصرة في الجليل . يحكي نعيمة ذكريات تلك الأيام ، ويعبر عن أثر الشعور بالغربة في نفسه ، فيقول : « ولأول مرة أفهم معنى الغربة وأحسّها إحساسا ينفذ إلى الصميم ، فينكمش قلبي ، ويوشك هو الآخر أن يغدو غريبا عني ، فتقفز الدمعة إلى عيني ، وتكاد تطفر منها لولا حيائي من الناس ، وخشيتي أن أبدو في عيونهم ولدا ضعيفا ، من بعد أن كنت أراني رجلا يقتحم وحده المجهول ولا يبالي » .

ولا ينسى نعيمة أن يذكر فضل ذلك الفلسطيني الذي عطف عليه في ميناء حيفا ، واس‍ ‍افه في بيته ، ثم أمّن وصوله إلى مدينة الناصرة التي فيها المدرسة .

هناك أقبل نعيمة على العلم ، وأخذ يلتهم الكتب وما فيها من مقرّر وغير مقرّر . درس ألفية ابن مالك في النحو ، وكتاب الخليل في العروض ، وقرأ « كليلة ودمنة » وه مقدمة ابن خلدون » وأجاد اللغة الروسية ، وقرأ بها بعض قصص تشيكوف وتولستوي وغيرهما ، من عيون الأدب الروسي .

وكان في هذه المرحلة يميل إلى التأمل والصمت في بعض الأحيان . ومن ذكرياته هنا أنه تعرّف على زميل الصبا ثم رفيق الغربة في المهجر فيما بعد ، الشاعر الحمصي « نسيب عريضة » .

وفي غدواته وروحاته في مدينة الناصرة وما جاورها كان يتخيّل الماضي البعيد ، ويشم رائحة التاريخ ، وفي رحلاته مع المدرسة إلى أنحاء مختلفة في فلسطين ، مثل جبل الطور وبحيرة « طبريا » وغيرهما ، كان يعجب بالأماكن المقدسة والطبيعة الفلسطينية السمحة ، حتى ليشعر - على حد قوله - أنه « في دنيا من السحر والبركة » .

« سِمنّار » بولتافا :

في أواخر شهر سبتمبر عام ١٩٠٦ وصل ميخائيل نعيمة إلى مدينة « بولتافا » في ولاية « أوكرانيا » الروسية ، حيث سيصبح طالبا في « السّمنّار الروحي » الذي بعثته إليه « الجمعية الامبراطورية الفلسطينية » مكافأة له على تفوّقه في مدرسة الناصرة ، حيث كانت الجمعية تصرف عليه هناك أيضا . وفي السّمنّار الروحي اندمج الطالب النجيب في نواحي الحياة المختلفة ، وتفوّق في دراسته ،

وتفتحت له الحياة الثقافية بشتّى صورها ، فشاهد حفلات الأوبرا والباليه ، وأقبل على نظم الشعر باللغة الروسية متأثرا بخطى شاعرين روسيين هما « لرمونتوف » الذي أعجبه فيه وصفه لطبيعة جبال القوقاز ، مما أثار شوقه لقمم جبال لبنان فذكرها في منظوماته . أما الشاعر الروسي الثاني فهو « نيكيتين » الذي اطّلع نعيمة على يومياته ، فبدأ يقلده ويكتب يومياته هو أيضا ، وهي التي ضمن مختارات منها في الجزء الأول من سيرته الذاتية المسماة : « سبعون - حكاية عمر » .

وتعمق نعيمة في « السمنار » في قراءة كتابات تشيكوف القصصيّة ، وتطلّع بإعجاب إلى أفكار تولستوي ، خاصة في كتابه « الحرب والسلام » ، وأصبح تولستوي هو القائد والهادي لنعيمة في عالمه الروحي . ولم يهمل كتابات جوجول ومكسيم جوركي . كما ظهرت في هذه الفترة قصيدته المعروفة « النهر المتجمد » . وبدأ كتابة مسرحيته المعروفة أيضا « الآباء والبنون » التي تدور حول مشكلة الجيل القديم وموقفه من أفكار الجيل الجديد .

في ذكرياته عن هذه المرحلة لاينسى نعيمة فضل أستاذه الروسي « أفرامنكو » الذي كان يشجعه كثيرا ويشرف على تقويم منظوماته الشعرية . كذلك يذكر نعيمة أن صديقه « نسيب عريضة » قد بعث له جريدة عربية من نيويورك .

في العالم الجديد :

بعد انتهاء دراسته في السمنّار وحصوله على شهادته عاد نعيمة إلى لبنان ، وقضى في « بسكنتا » إجازة صيفيّة كانت مليئة بالتأمل والتذكر والتفكير في أحوال وطنه ، خاصة الأحوال التعليمية والثقافية ، ومقارنتها بما وصل إليه وما حصل عليه في روسيا من أنواع الثقافات المختلفة . وبعد أن كان ينوي السفر إلى باريس لدراسة الحقوق في جامعة السوربون ، غير موقفه واقتنع برأي أخيه أديب الذي صحبه معه إلى ولاية واشنطن في أمريكا . وبعد أن تعلّم اللغة الانجليزية وأتقنها التحق بجامعة « سياتل » ، حيث جدّ وكدّ حتى حصل على شهادتين ، الأولى في الآداب والثانية في الحقوق .

فجر الأمل بعد ليل اليأس :

أثناء دراسته في الجامعة وفي ابريل عام ١٩١٣ وصل إليه العدد الأول من مجلة « الفنون » التي كان يصدرها في نيويورك زميله القديم « نسيب عريضة » ، وكان يشاركه في تحريرها جبران خليل جبران وأمين الريحاني . وكان فرح نعيمة عظيما بهذه المجلة . وقد بعث بأول مقالاته إليها ، وكان موضوعها نقد رواية « الأجنحة المتكسرة » لجبران ، وقد جعل عنوان المقالة « فجر الأمل بعد ليل اليأس » ، حيث اعترف بأنه وجد في جمال أسلوبها فجر عصر أدبيّ جديد ، وفي صاحبها إمارات نبوغ لابدّ أن تتحقق ، هذا مع أنه قد بيّن ما في الرواية نفسها من نقص فنيّ .

وعندما أنهى نعيمة دراسته في واشنطن ارتحل إلى نيويورك ليساهم في تحرير « الفنون » وفي إدارتها ، لكن المجلة تعرضت لأزمات مالية متلاحقة حتى توقفت عن الصدور . وهنا تحول الأدباء والشعراء إلى جريدة « السائح » التي أسسها عبدالمسيح حداد منذ عام ١٩١٢ ، **وأصبحت ادارة « السائح » هي المنتدى الذي يجمع بين الزمرة الطامحة من الأدباء والأصدقاء .**

الرابطه القلمية :

في مساء العشرين من شهر ابريل عام ١٩٢٠ اجتمع هؤلاء الأدباء والشعراء وآخرون معهم في بيت عبد المسيح حدّاد ، وبادروا بتأسيس جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم « الرابطة القلميّة » ، وانتخبوا جبران خليل جبران « عميدا » لها ، وميخائيل نعيمة « مستشارا » لها ، وسمي بقية الأعضاء العاملين « عمّالا » . وقد جعلوا من اغراض هذه الرابطة بثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي ، وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوة فاعلة في حياة الأمة . وبعد فترة قصيرة صدرت

عن الرابطة « مجموعة الرابطة القلمية » ، حاوية قصائد ومقالات بأقلام « عمّال » الرابطة وأنصارها . وكان المستشار « نعيمة » قد وضع قانون الرابطة الذي أوضح فيه أن الأدب عندهم « ليس إلا رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه ، والأديب الذي يستحق أن يدعى أديبا هو من يزوّد رسوله من قلبه ولبّه » .

الغربال :

كان من أهم صفات أدب الرابطة القلمية التحرّر من القيود ، والصدق في التعبير والأداء . وقد أخذت كتاباتهم تقرأ وتنتشر في الشرق والغرب .

وأصدر نعيمة كتابه النقديّ « الغربال » الذي وضع مقدمته الشاعر الكاتب المعروف عباس محمود العقاد . وقد جعل نعيمة كتابه في قسمين : الأول يحوي مقالاته التي تعرف بالمقاييس الجديدة ، وتحديد منهج المؤلف في النقد ، وتصوير الواقع الأدبي الجاف ، والقسم الثاني تطبيق عمليّ لتلك المقاييس ، عن طريق نقد بعض الكتب والدواوين العربية وغير العربية التي صدرت في المهجر والوطن .

وهلّل المجددون في مصر من أصحاب مدرسة « الديوان » لهذه البارقة الجديدة التي لاحت في أفق الأدب والنقد ، ولم يكن غريبا أن عبّر العقاد عن ذلك بقوله : « شعرت وأنا أتابع قراءة هذه الصفحات بما تشعر به القافلة المتبتة في المفازة السحيقة إذا ارتفعت لها قافلة أخرى تنشد الغاية التي خرجت تنشدها وأوشكت أن ترتدّ عنها يائسة » .

وقد قال العقاد أيضا مبتهجا : « لو لم يكتب قلم (النعيميّ) هذه الآراء لوجب أن أكتبها أنا » .

أما نعيمة فقد تحدث عن رأيه في مؤلفاته في مقالة نشرتها له مجلة « الآداب » البيروتية في وقت لاحق فقال : « . . . وكتاب من هذا النوع يعيش أربعين حولا ولا يصاب بتصلّب الشرايين كتاب لا يحسن لمؤلفه أن يندم على تأليفه » .

أما أعداء التجديد في المشرق فلم تعجبهم مبادىء الرابطة القلمية ، وأخذوا يكيلون لها الاتهامات ، وفي هؤلاء يقول نعيمة في كتابه عن جبران : « فما كانت نقمتهم إلا لتزيدها قوة وحماسا واندفاعا ، ولتنميّ عدد أنصارها ومريديها ومقلّديها والمعجبين بها في كل قطر عربي . . » . وعرف في ذلك الوقت ما سمي بالبلاغة « الجبرانية » نسبة إلى أسلوب جبران عميد الرابطة نفسها .

عودة الغائب :

في ليلة العاشر من ابريل عام ١٩٣١ توفّي جبران خليل جبران ، وفي التاسع عشر من ابريل من العام التالي ١٩٣٢ استقلّ نعيمة الباخرة من ميناء نيويورك إلى بيروت .

استقبلت بسكنتا ابنها العائد استقبالا حارا ، وتوافد المهنئون بالسلامة من كل صوب ، وتبارت النوادي والجمعيات الأدبية في إقامة حفلات التكريم التي كان يحضر بعضها ويعتذر عن بعضها الآخر ، خاصة أنه كان بحاجة إلى الهدوء والسكينة والخلوات الزاهدة ، بعد ضجيج نيويورك وزحامها . يقول نعيم مفسرا أسباب ذلك ضمن كتابه المسمّى « صوت العالم » : « عدت وفي أذني ضجيج مدنيّات لا تحصى ، وفي رأسي براكين من الأفكار ، وفي قلبي حنين إلى عزلة أستطيع أن أغرق في صمتها وسكونها وجمالها ، فأطهّر أذني من الضجيج ، وأفرغ عن رأسي بما فيه من البراكين ، وأبرّد بعض ما في قلبي من الشوق والحنين . وكان « الشخروب* » كريما معي إلى أقصى حد ، فما ضنّ عليّ بالعزلة التي كنت أنشد ، بل فتح لي قلبه وذراعيه ، فرحت أمضي معظم نهاراتي في كهف من كهوفه ، فساعات للتأمل وغربلة الماضي وتعرية النفس وفتح كوى الروح لنور الله ، وساعات للتأليف ، وهل التأليف غير مكالمة الناس ؟ » .

* مكان كان يعتزل فيه الكاتب الناس كي يكتب ويتأمل .

غير أن نعيمة يذكر في كتابه المسمى « زاد المعاد » حفلة أقيمت له في المدرسة الابتدائية التي تلقى فيها علومه صغيرا ، فألقى هناك خطبة عنوانها : « صنين والدولار » يصور فيها آلام الغربة بالنسبة للمغتربين ولأهلهم في الوطن ، ويخاطب أبناء بلدته الحبيبة بقوله : « يا أبناء بسكنتا ، يا لحمي ويا دمي ، هي ذي وجوه أتراب صباي تطل عليّ من جدران هذه المدرسة ، وأصواتهم تتعالى في أذني ، وأشواقهم وأوجاعهم تزدحم في قلبي ، وبينهم من هم اليوم خلف ستار المحسوسات ، فألف رحمة عليهم ، وألف سلام على الذين ما برحوا يتنفسون بأنفاس هذه الأرض أينما كانوا » .

وكما قال نعيمة فقد كان « الشخروب » كريما ومعطاء ، فتوالت كتابات نعيمة ، وغزر إنتاجه وتنوّع ، ما بين المحاضرات والأحاديث الإذاعية ، والقصص والحكايات ، والمقالات المتعددة الجوانب ، وظهرت كتبه التي منها : « المراحل » ، و« البيادر » ، و « الأوثان » ، و « صوت العالم » ، و « النور والديجور » ، و « في مهب الريح » ، و « دروب » ، و « أبعد من موسكو ومن واشنطن » . وفي مجال القصة : « كان ما كان » ، و « أكابر » ، و « أبو بطة » ، و « مذكرات الأرقش » ، وكان قد بدأ كتابتها في المهجر عام ١٩١٧ .

أما كتابه « مرداد » فقد أعجب به كل من قرأه ، سواء في نسخته العربية أم الانجليزية . ومن هؤلاء مهراجا في الباكستان بعث إلى نعيمة رسالة إعجاب يقول فيها : « كنت أطالع كتبكم ، وما من يوم يمرّ إلا وأنتم في فكري . إن كل دقيقة أستغلّها في درس آرائكم تدنيني أقرب فأقرب من نفسي وتقصيني أبعد فأبعد عن أنانيتي . لقد قوّت مؤلفاتكم إيماني بالإنسان والإنسانية » .

وعن جبران ، حياته وأدبه وفنّه ، كتب نعيمة كتابه هذا بالعربية بعد عودته إلى لبنان ، ثم ترجمه إلى الانجليزية بعد سنوات ، وعنه يقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي : « إن كتاب ميخائيل نعيمة الأخير عن جبران يبدو كحدث عظيم في تاريخ الأدب العربي الحديث ، وفي الأدب نفسه ، وهو شائق بما فيه من تجسيد لشخصية البطل والمؤلف » .

وأخيرا لا آخرا فإن مجموعته الشعرية التي سماها « همس الجفون » تحوي كل ما أنتجه نعيمة شعرا عربيا ، أو مترجما عن منظوماته باللغتين الروسية والانجليزية ، وقد توقف فيه عند زمن مبكر من حياته النثرية ، واعترف هو نفسه بأنه كف عن نظم الشعر قبيل عودته من المهجر ، ووجد في الأسلوب النثري وعاء مطواعا يحتوي كل أفكاره وهواجسه وتأملاته . ولا بد أن نذكر أن نعيمة قد تأثر في نظم أشعاره أيضا بإنتاج المدرسة الرومانسية في انجلترا ، ومن أفرادها : شللي وكيتس ووردزورث وكولريدج ، كما تأثر فيها بعد ببعض كتابات الأمريكيين الشعرية والنثرية ، شأنه في ذلك شأن أعضاء الرابطة القلمية الذين لم يهملوا قراءة امرسن وأبيات والت ويتمان ولونجفلو وغيرهم □

خطاب قصير

كتب معاوية بن أبي سفيان الى أم المؤمنين عائشة يقول لها : اكتبي لي كتابا توصينني فيه ولا تكثري » .

فكتبت اليه تقول : من عائشة الى معاوية . سلام عليك ، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله الى الناس » والسلام عليك .

الرحلات في عالم الحشرات

بقلم : الدكتور كارم غنيم*

ان نشاطات الكائنات الحية وسلوكياتها بعجائبها وغرائبها تلتقطها عين الانسان العادية كأنها نشاطات فردية ، تلقائية ، لكن الباحثين والعلماء يكشفون من خلال دراستهم أنها محكومة بقوانين ، وعادات وأساليب غاية في الدقة والانضباط ، ورحلات الحشرات واحدة من عجائب هذا العالم المثير الذي يقودنا العلم لاكتشاف مجاهيله .

تعتبر الرحلات الجماعية شكلاً من الأنشطة الحياتية المهمة لدى الحيوانات ، حيث تتجمع أعداد غفيرة من الأفراد ، تنتظم في أسراب أو قطعان مهاجرة ، تترك أوطانها ، وتتجول في الأرض ، ويعينها في ذلك ما اكتسبته من خبرة سابقة بمعالم الطرق ، والسرعة في الحركة ، والقدرة على تحمل المشاق التي تواجهها .

وإنه لمن الجدير بالذكر أن الانتقال من مكان إلى آخر يُعَدُّ من أشهر عادات الحيوانات . وتجُولُ هذه الكائنات على سطح الأرض ، أو في الماء ، أو في الهواء ، ليس بالأمر العشوائي ، وإنما هو عملية محسوبة ومضبوطة . فقد يتحرك الحيوان من موطن إلى آخر ، ليقيم فيه ، فإذا ما دُرس تاريخ هذا الموطن وعلاقة الحيوان به ، وجد أنه نفس الموطن الذي وضع ـ أوْوُلدَ ـ فيه وترعرع في ربوعه ، وحينما تقوم الحيوانات برحلات هجرة برًا أوْ جوًا ، فإنها تخرج وقد بيّتت النيّة للعودة بتوقيتٍ محدد ، وتهتدي في طريق عودتها بعلامات وإشارات خاصة تنطبع في ذاكرتها خلال رحلة الذهاب ، وقد يتخذ الحيوان موطنيْن يتردَّدُ فيما بينهما خلال فصول السنة المختلفة ،

* عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية ـ كلية العلوم ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة

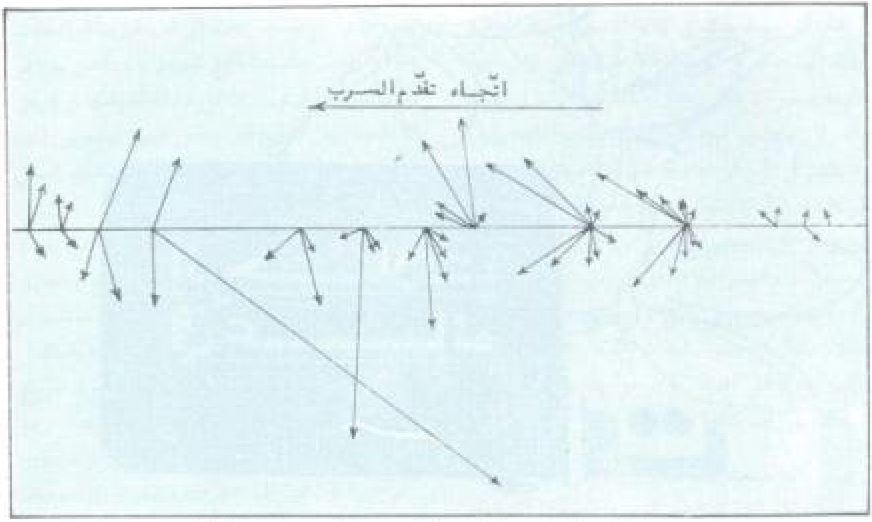

يوضح هذا الشكل العلاقة بين الاتجاه والمسار وسرعة الريح . (أ) الحالة التي تزيد فيها سرعة الهواء عن سرعة الريح . (ب) الحالة التي تزيد فيها سرعة الريح عن سرعة الهواء .

فأيائل البغل في بعض جبال روكي بأمريكا تقضي الصيف في المرتفعات العالية ، حيث يجود لها المرعى ، ولكن ما أن يبدأ الهطول الغزير للجليد في الخريف حتى تشرع الأيائل في العودة إلى مواطنها الشتوية التي قد تبعد عن مصايفها مسافة تتراوح بين ١٠ أميال ، و٦٠ ميلا . أما الطيور فإن هجرتها تبدأ من مواطن تزاوجها حين حلول المناخ البارد ، حيث تتجه إلى مشاتل للغذاء في المناطق الدافئة ، ثم تعود بعد مرور هذا الفصل من السنة إلى مواطن إقلاعها في رحلة الذهاب ، بينما تجد أن أنواعاً مختلفة من الأسماك تقوم بهذا النشاط من الانتشار - الرحلات والهجرة - منها أسماك السلمون وثعابين السمك . وأما هجرة الحشرات فتأخذ طابعاً خاصاً بها ، فـ الغالب تقوم الحشرات بهجرتها لاستعمار مواطن جديدة ، هروباً من ظروف صعبة حلت بها في المواطن الأصلية وقد يكون السلوك غريزياً ، إلا أن الأبحاث الحديثة تشير إلى وجود مؤثرات فسيولوجية تنظم القيام بهذا السلوك الانتشاري .

حالات خاصة للطيران

من الملاحظ أن الحشرات خلال أطوارها اليافعة تتميز بوجود حالة من تغلب نشاط الطيران على بقية الأنماط الأخرى من الأنشطة الحيوية لهذه الكائنات ، فيأخذ الطيران في هذه الفترة من الحياة نمطا خاصا هو « الهجرة » في سرب ، وقد يستغرق هذا الطيران - خصوصاً الذي يتم عقيب خروج الأطوار اليافعة من عذاريها (خادراتها) مباشرة - مابين أيام قليلة (كما في أغلب أنواع المن المجنح) أو ١٥ - ٣٠ ساعة فقط (كما في حشرة أسكيا) ، حيث تبلغ الحشرات خلال هذه الفترة من الطيران حالة النضج التناسلي ، فترمق الأرض بناظريها لتحديد موقع الهبوط ، وتهبط لتبني عشاً جديداً ، ولحظتها تبدو عليها مظاهر أهمها انحلال عضلات الأجنحة وسقوطها ، ثم تشرع الأفراد المرافقة لملكتها في بناء العش الجديد ، وهو الذي تفرخ فيه الملكة ملكات أخر لاكثار النوع .

بالاضافة إلى هذا النمط من الطيران تقوم

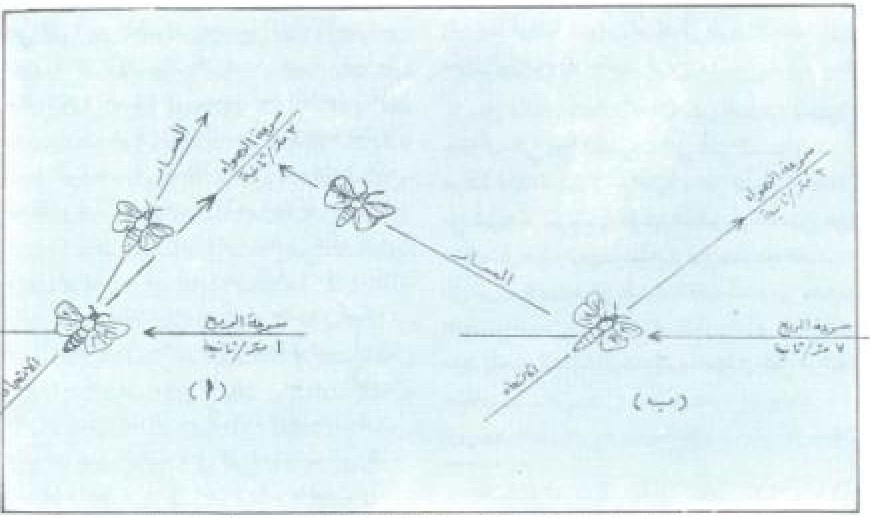

يوضح هذا الشكل الأوضاع المختلفة التي يتخذها أفراد الجراد في السرب . التخطيط المبين هو حصيلة عدد من الصور « الفوتوغرافية » المأخوذة للسرب على فترات متفرقة أثناء تقدمه . طول كل سهم مرسوم يتناسب مع عدد أفراد الجراد المتجهة تجاه ذلك السهم .

الحشرات بأنماط أخرى ، تأخذ شكل هجرة طويلة الأمد لاسيّما إذا كَمُنَتْ فترةً ثم خرجت من كمونها ، ومن الحشرات ما يهاجر إلى مواقع البيات الصيفي ، وهناك يتمّ نضجها التناسلي الذي على إثره تعود إلى مسقط رأسها ، وقد تهاجر بعض الحشرات على الرغم من أنها ناضجة تناسلياً ، كالجراد وبعض الفراشات والرعشات . وعموماً يجب ألاّ يغيب عن ذهن القارىء أن الغالبية العظمى من حالات الهجرة لاتحدث إلاّ خلال فترة الطور اليافع من الحشرة ، إذْ هو القادر على الطيران .

خط السيّر المتّبَع :

يتوقف اتجاه الرحلة أو الهجرة على سرعة الريح واتجاهها ، وللحشـــرات طبقة هوائية تزاول فيها النشاط الطيراني في يُسْرٍ وسهولة أكثر من الطبقات الجوية الأخرى ، وهذه الطبقة الهوائية الملائمة تُعْرَفُ بالطبقة القطرية أو « التخوم الهوائية » التي من خصائصها قلّة سرعة الريح نسبياً ، فإذا ارتفعنا في الجو إلى أعلى فإننا نجد الأحوال غير ميسورة لاشتداد سرعة الريح على سرعة الهواء فلا تستمتع الحشرات بطيرانها هناك ، بل تجرفها الريح العاصفة رغم أنفها ، ويتوقف حجم التخوم الهوائية المناسبة لطيران حشرةٍ ما على قدراتها في تعوّدها على الطيران عند سرعات هوائية متباينة ، كما تتوقف أيضاً على نظام الغطاء النباتي لسطح الأرض أسفل الحشرات المحلقة في الهواء ، وكذلك أيضا على سرعة الريح نفسها .

والشكل العام للتنظيم الحشري إبّان الطيران في رحلةٍ أو هجرةٍ ما يتوقف على كَوْنِ هذه الحشرات داخل نطاق التخوم الهوائية المناسبة أو خارجها :

(أ) إذا أقلع سرب من حشرة (أسكيـا) في فلوريدا للطيران المنخفض (١ ـ ٤ أمتار على سطح الأرض) فإنه يحلّق في مأمن من العواصف ، ثم يتجه شمالاً أو جنوباً ، على حسب نوع السلوك الذي بدا على الحشرة قبل إقلاعها مباشرة . في أثناء الطيران تحط الحشرات على الأزهار لتمتص رحيقها ، وبعد

مُضِيّ فترة من الطيران بتجمع أفراد الأسراب المتجاورة أكثر فأكثر ، لتشكّل أسرابًا كبيرة ، تبدأ بها رحلة الهجرة الحقيقية التي يتحدد خط اتجاهها ، على أساس زاوية سقوط أشعة الشمس ، أو هيئة سقوط الضوء المستقطب على منطقة وجود الحشرات في هذه اللحظة ، فتبدأ الأسراب في الهجرة بشكل منظم .

(ب) ليس معنى أن الحشرة تفضل الطيران في تخومها الهوائية أنها غير قادرة على الطيران في مناطق هوائية أعلى ، فلقد شوهدت أفراد حشرة (أسكيا) تطير في مناطق كالأرجنتين على ارتفاعات تصل أحيانا إلى ٥٠٠٠ قدم من سطح الأرض ، أماّ عن اتجاهها فكان هو نفس اتجاه الرياح السائدة في هذه المناطق ، وذلك هو نفس الوضع لدى كل الحشرات التي تقوم بالطيران والهجرة ، مثل الجراد والرعاشات والمنّ وغيرها . والأكثر من هذا أن تلك الحشرة المشار إليها استطاعت أفراد من أسرابها أن تطير في اتجاه مضاد للريح ، ووصلت سرعاتها ٨ ـ ١٠كم / ساعة .

أما في أسراب الجراد فإذا ما خرجت أفراد أحياناً عن تخومها الهوائية : فإنْ كان ذلك نهاراً أَسْلَمَتْ قيادها للريح العاصف ، على أنها ترصد علامات وإشارات أرضية لتهتدي بها عند عودتها إلى أسرابها بعد سكون الريح أما اذا حدث ذلك أثناء الليل فلا قدرة لهذه الأفراد الشاردة على رؤية علامات أو إشارات أرضية ، ومن ثَمّ تضلّ طريق العودة إلى مكان السرب بعد سكون الريح .

ومن الجدير بالذكر أن الباحثين اكتشفوا وجود حافز فيزيائي بعين الحشرات التي تلقي بنفسها في كتل هوائية عُلْيا تكتنفها رياح عاتية ، على ضمان السلامة من شرّ هذه الرياح ، ذلك الحافز أو العامل هو « الحمل الحراري » المنبعث من حرارة قشرة الأرض ، الصاعد إلى طبقات الهواء ، وهي حالة يقتصر وجودها على فترة النهار فقط ، أما في الليل فلا معين للحشرات إذا ألقت بنفسها عنوة في كتل هوائية عنيفة

العودة

رحلات العودة شائعة في الطيور أكثر منها في الحشرات ، فإذا قامت بها الحشرات فالعائدون هم أفراد الجيل الجديد فقط دون الآباء والأمهات ، ولعلّ أبو دقيق الملكي من أبرز الأمثلة على ذلك ، حيث ينشط ويتكاثر خلال شهور الصيف بالجزء الشمالي من أمريكا الشمالية وجنوبي كندا ، ولما كانت الأطوار اليافعة من هذه الحشرات لا يمكنها أن تعيش طويلا تحت درجات الحرارة المنخفضة ، وانعدام الرحيق في تلك المناطق شتاء فإنها تبدأ في الخريف ، وقبل حلول الشتاء القارس ، بالهجرة إلى الجنوب حول

● هذا المنظر المهيب الذي يشبه طائرة ضخمة تتقدم في طيرانها الهوائي ، ما هو إلا صورة مكبرة مقربة لأحد أفراد النحل .

خليج المكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا . وأثناء رحلتها الطويلة (التي قد تصل الى ٢٠٠٠ كم في المتوسط ، بمعدل قد يصل إلى ١٠٠ كم في اليوم أحيانا) تسرع باللجوء إلى أغصان الأشجار من وقت لآخر أثناء الليل ، حين تنخفض درجات الحرارة ، وربما تظل أياما لا تستأنف رحلتها الا إذا ارتفعت الحرارة عن ١٣ درجة مئوية . أما عن أحوالها في المهجر الجديد فهي إما أن تنشط وتتكاثر في الشتاء ، كما هو الحال في مناطق فلوريدا ! وحول خليج المكسيك حيث الحرارة المعتدلة ، وإما أن تَخْلُدَ إلى البيات الشتوي كما في ولاية كاليفورنيا ، حيث تَجْثُمُ في مجموعات متراحمة لا تطير إلا نادرا ، وإذا طارت ففي الأيام الدافئة ، حيث تتحرك لجمع الرحيق اللازم لغذائها ، وهنالك تتوقف تماما عن التزاوج والتكاثر . فإذا حلّ الربيع ، وارتفعت درجة الحرارة تبدأ أسراب الحشرات في الطيران عائدة إلى الشمال الذي جاءت منه ، وتستغرق هذه الرحلة حوالي شهرين .

رحلات البحث عن الغذاء :

أ:النمل : في الأحوال المناخية والبيئية الملائمة تعيش جماعة النمل في أعشاشها دون وجود أجنحة ، ومن أهم مظاهر حياتها قيامها بحملات تشنها على كائنات من حولها ، وهذا السلوك من العجب والغرابة لدرجة أن أساطير قديمة ثارت حوله لوحشيته في الهجوم والإغارة ، ولدقته في النظام وزحف الحشود ، وقدرات النمل في التصرف السريع مع ما يواجهه خلال المسير . من أبرز هذه الأنواع نمل في غابات البرازيل وبيرو وحول قناة بنما وكندا وفي مناطق من غابات أفريقيا . يخرج هذا النمل في جحافله الهجومية التي لايقل تعدادها عن ثلاثين ألف فرد ، وتسير جموعه في ركب قد يصل طوله إلى خمسة عشر مترا ، وعرضه يقرب من المترين ، وتقطع في اليوم الواحد مسافة تتراوح بين ١٠٠ ، ٢٠٠ متر ، وتمضيها في شَنّ غاراتها العدوانية على أعشاش النمل الأخرى ، والحيوانات التي تقابلها ، سواء كانت صغيرة الحجم كالعناكب مثلا أو كبيرة كالثدييات ، إلا أنها لا تخرب زرعاً ولا تحطم نباتاً . يتقدم الركب في نظام مدهش ، ففيه نقطة مركزية يتجمع فيها عدد كبير من الأفراد ، يحيطون بالملكة والذرية الصغيرة ، ومن حولهم أفراد حراسة أقوياء ، ومنْ حول هؤلاء بقية كب . أثناء التقدم تظهر أشكال من السلوك عجيبة ، منها أنه إذا ما ابتعد النمل عن معسكره الأصلي بمسافة ما ـ وغالبا ما تكون كبيرة ـ ينتشر أفراده بين أفرع الأشجار ويتخذوا مواقع استراتيجية تهجم منها على فرائس تراها أو تنتظرها لتقتنصها ، ومن هذه العجائب أيضا أن مسارات للمرور تخط في هذه المساحة من الأرض بين أفرع الأشجار ، وقد يغدو فيها النمل ويروح ، حتى لَيُحْدِثَ ارتباكاً في المرور ، كما هو الحال في المدن المزدحمة بالسكان . ويصل نشاط النمل إلى ذروته في الصباح الباكر ، ويقل نشاطه بعد الظهر ، ويخفت مع دخول الليل ، حيث تتجمع الأفراد ثم يتحرك ركبها لقضاء ليلها في معسكر خلوي مؤقت ، انتظاراً للصباح التالي لتستأنف نشاطها من جديد . ومن النمل ما يتخذ لنفسه في هذه الأرض الجديدة مواطن وأعشاشاً ، ومنه ما لا ينسى موطنه الأصلي ، فيعود إليه مع الغنائم التي اغتنمها من حملات إغارته على كائنات أخرى . ومن المثير للدهشة كذلك في سلوك النمل إبّان سير أسرابه في حملات الإغارة ، هو تصرفه أمام المنخفضات العميقة ، وذلك بإنشاء جسور معلقة ، يستخدم أجسامه في بنائها ، حيث تتشابك أرجل أفراده بعضها ببعض ، في أعداد ضخمة تسمح بعبور بقية أفراد السرب .

ب:النحل :

يعيش النحل في حياة اجتماعية كاملة ، كما هو الحال عند النمل . فالخلية تضم فئات مختلفة ، في مجتمع متعاون على أفضل ما يكون التعاون ، مترابط بأعظم عُرى الترابط ، كأنه البنيان المرصوص ، فالملكة صاحبة السلطان والسيادة ليست بمتسلطة ، بل يسري عليها نظام الخلية ، وتنطبق عليها قوانينها العامة ، إلا أن هذا لا يمنع وجود رعاية وعناية خاصة بها من عدد من النحل الشغال (العاملات) ، تلك

الفئة التي تنوّعت وظائفها ، وتعددت أعمالها ، فمنها مَنْ يُناط به عمليات النظافة العامة للخلية ، وإماطة الأذى عن أنحائها ، ومنها من يتحمل مشاق عمليات جلْب الغذاء لجميع أفراد المجتمع الذي تعيش فيه ، بالإضافة إلى الوصيفات اللاتي يحطن بالملكة. أضف إلى ذلك وجود عدد من الذكور في انتظار اللحظة الموعودة ، ساعة ترغب الملكة في التزاوج لإكثار الذرية ، وإنشاء خلايا نحل جديدة .

تذهب النحلات الشغالة في رحلات مشهورة لجمع الرحيق وحبوب اللقاح من أعضاء تأنيث الأزهار لتعود به إلى الخلية ، وفي هذه الرحلات تكون العادة خروج عدد محدد من « الطلائع » ، لاستكشاف مواقع الأزهار ، وتحديد كثافة الرحيق ، ومعلومات أخرى تهم النحل ، ثم تعود هذه الطلائع لتعطي بقية الأفراد من العاملات المعلومات المطلوبة ، (فتخرج) أعداد غفيرة منها منتظمة في سربٍ متجهة نحو مواقع الأزهار ، لتقوم بعمليات جماعية لجمع الغذاء المطلوب لها ولبقية أفراد مجتمعها هناك في الخلية .

وتختلف المسافات التي يمكن للشغالات أن تقطعها بعيدة عن الخلية ، فتصل أحيانا إلى أكثر من عشرة أميال ، حسب مواقع الحقول والبساتين حيث توجد الأزهار . ورحلات الشغالات تطرح على ذهن المرء المفكر كثيراً من الأسئلة والاستفسارات ، مَنْ الذي علّم شغالات النحل طريق العودة إلى خليتها ؟ وكيف تعوّد أنفسها على طريق الوصول إليها ؟ ولماذا تركت خلايا النحل التي تمُرّ عليها في طريق العودة دون أن تدخلها ؟

لقد أثبت بعض الباحثين أنّ النحل له المقدرة على الإلمام بمعالم الطريق التي يطير فيها ، وهذا هو السر في قدرته على العودة إلى الخلية بعد رحلة غذاء طويلة أو قصيرة . ومن التجارب الشيّقة في هذا المضمار أن جماعة من الباحثين أخذوا عدداً من النحل من خلية تقع على حافة بحيْرة متسعة ، ثم ميّزوا هذه الأفراد بوضع طلاءٍ على أجسامها لتسهيل عملية رصدها ، ونقلت هذه الأفراد في صندوق مسافة عدة أميال ، بعيداً عن البحيرة في منطقة مزروعة ممتدة على جانب شاطيء الماء ، ثم فُتِح الصندوق وأطلقت أفراد النحل ، وشوهدت عن كثب ، فوجدت أنها دارت في الهواء ، وفي النهاية وصلت إلى الخلية التي أخذت منها بجانب حافة البحيرة . وبالطبع فإنّ السبب هنا هو المعالم الأرضية من أعمدة وشجر ومبانٍ وغيرها .

ولتأكيد هذه النظرية قامت جماعة الباحثين بتكرار التجربة ، ولكن من خلية نحل بجوار نفس البحيرة في نهار ساطع الشمس ، وأبحروا عدة أميال داخل المياه فقط ، وفتحوا الصندوق وأطلقوا النحل ، ثم راقبوها من سطح المركب ، فإذا بها تطير وتدور في جميع الاتجاهات دون تحديد اتجاه معين ، ولم تتمكن من الوصول إلى الخلية التي أُخذت منها في بداية التجربة ، والسبب في ذلك هو أن صفحة الماء في البحيرة تخلو من علامات أو معالم مميزة ، كي تستطيع أفراد النحل اْلتقاطها وتمييزها .

ومن العلماء مَنْ أثبت أيضاً أنّ مِنْ قدرات أفراد النحل على تحديد طريق العودة في الرحلات استرشادها بموضع الشمس ، وأبسط تجربة توضح ذلك أنك لو أمسكت نحلة أثناء عودتها إلى خليتها وحَبَسْتَها في صندوق مدة زمنية ما ، كساعتينْ مثلاً ، ثم أطلقت سراحها بعد ذلك ، فإنها تطير بنفس الزاوية التي كانت تطير بها قبل إمساكها بالنسبة للشمس ، ولكن في غضون الفترة التي حُبِسَتْ فيها تكون الأرض قد دارت قليلاً ولم تَعُدْ الشمس في نفس الموضع بالنسبة للخلية ، ومن ثَمّ فالنحلة العائدة في هذه التجربة تنخدع ، وتفتقد تحديد مكان خليتها ، ولكن الذي حدث ويحدث هو أنّ النحلة العائدة لا يستمر طيرانها في الطريق الضال ، وإنما تَكُفّ عن ذلك في نقطةٍ معينة خلال رحلة العودة ، تلك النقطة تقع على مسافة تبلغ ما بين مكان الأزهار والمكان الذي كانت فيه الخلية .

أضف إلى هذا وذاك قُدُراتٍ أخرى على معرفة طريق العودة ، منها إفراز روائح خاصة تميّز أفراد المجتمع الواحد وقدرتها على الشم ، وكذلك الرّقص بأنواعه المختلفة . □

اقرأ في العدد القادم من

العربي

أكتوبر ١٩٨٨

من شيان إلى سشوان

مولود واحد يكفي!

سليمان مظهر

زنجبار .. أندلس أفريقيا والمجد الذي كان!

محمود عبدالوهاب

- الخدمة الإسرائيلية السرية ... أمين هويدي
- التعليم عن بعد عام ٢٠٠٠؟ .... د. محمد المصمودي
- الصدفة والعلم! .... د. محمد عبدالرحمن مرحبا
- من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين .. د. راشد المبارك
- عندما يحلم الجوعى .... د. محمد المنسي قنديل
- الوسواس القهري .... د. زكي حسن عزت
- آلام نسائية غامضة ...... د. علي مبارك
- السخرية السياسية العربية ... شريف الراس
- فكر السادة وثقافة التابعين .... د. مصطفى النشار

واقرأ أيضًا للكتاب

د. محمد الرميحي - بسام اسخيطة - منير نصيف - د. أحمد النعمان
د. محمد برادة - د. أمل المخزومي - أبو المعاطي أبو النجا - د. حامد طاهر

قصة قصيرة

في يوم بارد

بقلم : ملك حاج عبيد

قلت لسعيد والأولاد وأنا أودعهم على الباب :

ـ انتبهوا جيدا . فاليوم بارد .

وقفت خلف النافذة أراقبهم . سعيد بقامته المشوقة ورذاذ الثلج يتساقط عليه ، ورنا بجديلتها الفاحمة المتدلية على ظهرها من تحت القبعة ، وسامر بمشيته الكسلى وأمنيته الخبيئة بأن لايذهب اليوم إلى المدرسة .

لوحوا بأيديهم وهم يركبون السيارة ، وانطلقوا .

خمسة أشهر منذ أن جئنا إلى نيويورك . هل استطعت أن أعتاد على المدينة ؟ كلا ، لم أستطع ، سعيد غارق في العمل ، وغرقه هذا ينجيه من التفكير في الغربة التي يعيشها ، أو فلأقل إنه لايشعر بالغربة ، فهو الذي أراد الهجرة ، فقد قال لي عندما اعترضت على الفكرة :

ـ ماذا ستفعل ياليلى عندما يختنق الإنسان في بلده ؟ سيهاجر ولو أصبحت الهجرة إلى جهنم .

ـ لا أطيق مغادرة دمشق ياسعيد ، أرجوك سأعمل وأساعدك .

ضحك ساخرا :

ـ تلقين دروسا في الموسيقا ؟ وما الدخل الذي ستحصل عليه ؟ ومن يهتم بالموسيقا ؟ تكاليف الحياة أصبحت باهظة ، والدخل لا يكفي .

أسقط في يدي ، فأنا أعرف كل شيء ، لكن لايستطيع الإنسان إلا أن يتألم وهو يفارق بلده . أدور في البيت ، أشغل نفسي بالعمل ، لكن خيالي يسافر إلى دمشق ، يبحث عن وجوه الأهل والأصدقاء ، عن فنجان القهوة الصباحي عند الجارات .

يتساقط المطر ، يغسل الشجر ، تشكو البرد ، لكن أين برد دمشق من برد نيويورك ؟ انتبهت من شرودي على سماع نقر خفيف على الباب ، ثم توقف النقر ، فضحكت في سري وقلت : لعلها إحدى الجارات جاءت تسلم علي ، ثم عدلت عن قولي ، فقانون البلاد أن لايتزاور الجيران !

وواصلت عملي ، لكن النقر عاد مرة أخرى ، مما اضطرني لفتح الباب ، فرأيت قطة بيضاء صغيرة ، تموء وهي ترتجف من البرد ، وما أن رأت القطة الباب المفتوح حتى همّت بالدخول ، لكنني منعتها ، فأنا أخاف القطط والأمراض التي تنقلها ، وأغلقت الباب ، لكن خطر لي أنها قد تكون جائعة ، فوضعت لها بعض الحليب الساخن في كأس بلاستيكي ، وعدت إلى العمل .

بعد ساعة رن الجرس ، فاستغربت : أي سعد هذا أن يطرق بابنا دون سابق إنذار ؟ حتى المرات

● كاتبة من القطر العربي السوري ـ تعمل بالكويت

القليلة التي زارنا فيها شقيق سعيد كانت حسب موعد سابق ، فما الأمر ؟ فتحت الباب ، فرأيت سيدة شقراء طويلة القامة ، أنيقة ، تبدو في الأربعين من عمرها ، ابتسمت لي وهي تحييني ، ففرحت ، لعلها ستكسر القاعدة وتزورني ، ومن يدري ربما يتصل حبل الود بيننا ونصبح أصدقاء . رحبت بها بحرارة ، ودعوتها للدخول فاعتذرت بأدب ، وقالت :

ـ سيدتي لابد أن قطتك قد خرجت من البيت دون أن تحسي بها ، فطرقت عليك الباب لتدخليها ، مسكينة ، إنها ترتجف من البرد .

تراجعت الفرحة إلى داخلي ، لكنني أبيت أن اسحب الابتسامة ، فقلت لها :

ـ لقد أسرتني مشاعرك النبيلة ياسيدتي ، لكن القطة ليست لي .

ردت بدهشة :

ـ إنها تقف أمام بابك .

ـ نظرت الباب ، وأحسست أنها جائعة ، فوضعت لها كوب لبن .

نظرت إلى بشك وامتعاض ، واعتذرت ، ثم ذهبت .

دخلت المطبخ لأعد الطعام ، لكن ماكدت أبدأ حتى رن جرس الباب مرة أخرى ، فبلغت دهشتي مداها : ترى من الطارق ؟

وعندما فتحت الباب طالعني وجه رجل في الستين من عمره ، نظرت إليه مستغربة ، فقال :

ـ آسف يامدام على إزعاجك ، لكن يجب أن أنبهك إلى أن قطتك خارج المنزل ، والطقس بارد ، وأخشى أن تصاب بنزلة برد .

ـ شكرا سيدي على لطفك ، لكن القطة ليست لي ، وإنما رأيتها على بابي هذا الصباح .

همهم محتجا :

ـ من هذا الفظ الذي يترك قطته خارج البيت في مثل هذا اليوم ؟ !

ـ لا علم لي بذلك ياسيدي .

انصرف دون أن يحييني ، فشعرت بالإهانة ، وعدت إلى الداخل وأنا منزعجة . كدت أنهي الطبخ عندما سمعت الجرس يرن ، ولا أدري لماذا خطر لي أن أحدا قد جاء من دمشق ، فطرت إلى الباب .

وما أن فتحته حتى التقت عيني بعيني سيدة عجوز بادرتني دون تحية :

ـ مدام هذا لايجوز ، كيف تسمحين لنفسك أن تطردي قطتك المسكينة في يوم كهذا ؟

وضبطت أعصابي ، وقلت لها وأنا أكاد أنفجر من الداخل :

ـ سيدتي ، لماذا تسمحين لنفسك بأن تسيئي الظن بالناس ؟ لو كانت القطة لي ماتركتها خارجا ، لكنني لاأحب القطط ، فكيف لي أن أربيها في بيتي ؟!

ورمقتني بنظرة احتقار ، وأحسب أنني سمعتها تشتمني بصوت منخفض وتقول : متوحشون ، وتمنيت أن أصفق الباب خلفها بعنف ، لكنني وأدت هذه الرغبة ، وعدت إلى الداخل وأنا أشعر بالإحباط ، وحتى أخفي تعاستي أدرت المسجل ، فانساب صوت فيروز تغني « بحبك يالبنان ، ياوطني بحبك ، بشمالك بجنوبك ، بسهلك بحبك » ، وطفرت الدموع من عيني ، وهتفت : أحبك يالبنان ، يادمشق ، ياكل هذا الوطن ، واستغرقتني الأغنية حتى نسيت قصة القطة .

لكن للمرة الرابعة قرع الباب ووجدت نفسي أندفع إليه بغضب ، وصممت أن أشتم كل من تسول له نفسه أن يحدثني عن القطة .

فتحت الباب وأنا مستعدة للمشاجرة ، لكن رؤية رجل البوليس في الباب جمدتني ، وأحسست بقلبي

يغوص في داخلي :
ـ منزل السيد سعيد الدباغ ؟
وبصعوبة استطعت أن أومىء برأسي
ـ أنت المدام ؟
فأجبته وأنا أرتعش من رأسي إلى قدمي :
ـ نعم ، ماذا حدث ؟ هل وقع لزوجي حادث ؟ موت أم إصابة ؟ والأولاد ؟
وكأنني قد رأيته يحرك شفتيه ، وسمعت كلمات استطعت أن أتبين منها أن الجيران قدموا بلاغا ضدي ، لأنني طردت القطة من البيت .
أغمضت عيني ، ومن أعماق صدري أطلقت نفسا ، وتمتمت :
ـ حمداً لله .
وشددت قامتي ، ورسمت على شفتي ابتسامة ساخرة :
ـ سيدي ، إنني أفكر بأن أقدم شكوى ضد جيراني ، أتهمهم فيها بالازعاج من الصباح وحتى الآن فكأنهم لم يكن لهم من عمل إلا إزعاجي . ماذا أفعل لأثبت لك أن هذه القطة ليست لي ، ولم أرها من قبل ، وأنني أكره القطط ، فقد سببت لي في صغري مرضا ، عانيت منه كثيرا حتى شفيت ، لذلك لا أسمح لنفسي بأن ألمس قطة ، ولا أسمح لأي قطة مهما كانت جميلة ورائعة أن تتخطى باب منزلي . سيدي لقد جعلتم من هذه القطة قضية ، وهذا شيء مؤذ حقا . نظر إلي متأملا كأنه يقيس مقدار الصحة في كلامي ، ولما لم يستطع الحكم هز رأسه وانصرف ، كان جسدي ينتفض من الغضب ، ورأسي يضج بالأسئلة : هل هذه خطة لمضايقتنا ، وجعلنا نترك البناية ؟ لكن لماذا ؟
شعرت بقهر فظيع ، وبغربة قاتلة ، ربما يقبضون علي بتهمة القسوة ، وتنشر صورتي في الصحيفة تحت عنوان : امرأة عربية تطرد قطتها في يوم بارد .
لكن تفكيري لم يطل حتى رن الجرس للمرة الخامسة هذا اليوم ، ففكرت بعدم الرد ، لكن الرنين لم ينقطع ببلادة ، ففتحت الباب ، ورسمت على وجهي كل ما أستطيع من علامات البرود والاحتقار ، ففوجئت برؤية رجلي بوليس أمامي ، وبرقت في ذهني الفكرة : سيقبضان علي ، وأخرج من البناية مشيعة بنظرات الكراهية من الجيران .
ـ سيدتي ، لقد قلت إن القطة ليست لك ، نرجو أن توقعي على إقرار بأن لا علاقة لك بالقطة ، ولا حق لك بالمطالبة بها في المستقبل .
ردت إلي الروح ، فتنفست الصعداء ، وأخذت القلم منها ممتنة ، ووقعت الورقة وأنا أحمد الله أن الأزمة قد انتهت بهذا الشكل .
تهاويت على المقعد منهمكة : أي يوم تعيس هذا ؟ وأي حياة بائسة سأقضيها هنا ؟ لم يبق إلا أن يعلقوا لي المشنقة .
وتمنيت أن يعود سعيد بأقصى سرعة ، وتمنيت أن يأتي الأولاد لأتحدث إليهم ، لأقص عليهم القصة السخيفة المزعجة .
لاأدري كم من الوقت استغرق استلقائي على المقعد ، لكنني شعرت بأصوات تقترب من الباب وصوت القطة تموء .
مؤكد أن رنا وسامر قد عادا من المدرسة ، وربما خطر لهم أن يدخلا القطة إلى البيت ، فيثبت بعد التحقيق أن القطة لنا ، وأنني وقعت إقرارا كاذبا .
وفتحت الباب فرأيت رجلي بوليس جديدين يحملان قفصا ، فرشت في أسفله بطانية زهرية اللون وقد رقدت القطة فوقها .
والتقت عيني بعيونها ، فابتسما ، وأحسست في ابتسامتهما بسخرية ، ولاأدري لماذا تذكرت صورة جندي أمريكي يبتسم وهو يحمل سلة قد ملأها برءوس مقطوعة لثوار فيتناميين ، ورأيت الطائرات تغير على المخيمات ، ورأيت أطفالا يذبحون بالسكاكين ، وبلدوزرات تدوس على الأحياء والأشلاء .
ورأيت رجالا تحصدهم النيران ، ونساء يتساقطن فوق الأولاد ، ورأيت شبابا بعمر الزهور ، وأطفالا بنقاوة الياسمين يفتحون صدورهم العارية لرصاص المتمدنيين ، وأغلقت الباب بهدوء ، وبقلبي كان يشتعل الغضب . □

من التراث

صاحب الخبر

العين الباصرة والأذن السامعة

بقلم : الدكتور محمد عيسى صالحية

كنت أحسب أن صاحب البريد هو المتولي للأخبار في الدولة الإسلامية ، وأن ديوانه هو جهاز التحذير المبكر للفتن والثورات التي تتفاعل تحت الرماد في أطراف البلاد بين الحين والآخر ، حتى وقفت على عدد من النصوص المبذولة في بطون مصادر التراث تجعل من صنعة صاحب الأخبار غير متولي البريد ، فرسالة أبي يوسف القاضي لهارون الرشيد تورد : « بلغني من ولاتك على البريد والأخبار في النواحي - إلخ ، والمأمون العباسي أغضبه طيّ أصحاب البريد والأخبار أنباء الثورات التي عمت الدولة عندما عين موسى الرضا وليا لعهده ، وعياش بن القاسم ، متولي الجسرين ببغداد للمأمون ، وقد اختلف مع ابراهيم بن السندي بن شاهك ، حول أحقيته في عرض المجرمين وتأديبهم ، خاطب ابن السندي بقوله : « إنما أنت صاحب خبر تكتب بما تسمع وما ترى ، وليس لك أن تتكلم في مجلسي وأمري ونهيي ، فإن أسكت وإلا أمرت من يجر رجلك حتى يرمي بك في دجلة » ، فابن السندي كان صاحب خبر ، ليس له أن يمارس سلطات تنفيذية . وفي سيرة أحمد بن طولون تقف

تشير إلى أن صاحب الخبر قد أنهى إليه، مع أن ديوانه قد حفل بصاحب بريد.

تلك النصوص وغيرها، تجعلنا نذهب إلى أن طبيعة صنعة صاحب الخبر هي غير صنعة صاحب البريد، وإن اتفقت معها من حيث الاهتمام وهو السعي للحصول على الأخبار وعرضها على الخليفة، وتوكيدا للخصوصية الفارقة بين العملين، فقد حرص الخلفاء والسلاطين على تضمين أوامرهم ومراسيمهم تلك الخصوصية، حتى وإن جمع العملان لشخص واحد، فالأمر الصادر من شرف الدولة البويهي إلى الحسن بن محمد بن نصر رسم بأن يتولى الحسن ديوان الخبر والبريد، والمعتمد العباسي ولى ابن خرداذبة الجغرافي والمؤرخ المعروف، البريد والخبر بنواحي الجبل، وأبو الحسن البتي (ت ٣٠٤ هـ)، كان صاحب الخبر والبريد في الديوان النادري. وحين عرض صاحب آثار الأول وترتيب الدول للعملين، أورد شروطا خاصة بمتولي البريد، وأخرى لمتولي الأخبار، ادراكاً منه للفوارق المتعلقة بكل واحد منها.

ويبدو أن الحاكم كان يعنى باختيار صاحب الخبر عناية عظيمة، فيتوخى فيه الأمانة والفضيلة والفصاحة، ويكون حسن التأني، وفيه لطف توصل وتحيل، وعنده فكرة صالحة. وقد أوصى المأمون صاحب ما وراء باب مصر « أن يعمل بما يجب لله عليه، ولا يراقب أحدا غيره ».

فصاحب الخبر والحالة هذه شخص ينيط به الحاكم أن يرفع إليه خبر جميع ما تقع عليه عينه أو يصل إلى سمعه، ويكون للحاكم بمنزلة العيون الباصرة والآذان السامعة، في حين أن صاحب البريد يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر، وتلقي ما يرد، فالأول مكلف بتسقط الأخبار، والثاني ينصب رقيبا على أكابر العمال، وعلى أصحاب الأطراف في أرجاء الدولة.

وجرت عادة أصحاب الأخبار على تلقطها من ألسنة المجتازين وأبناء السبيل من المسافرين والأطفال والتجار، وعندهم ترسل وتلطف ودسائس من النساء والصبيان والغلمان والحراس والحمامات وأصحاب الحرف والبضائع.

لقد بالغ سلاطين بني العباس في ترتيب أصحاب

الأخبار على كل مصالح الدولة ، فقد جعلوا أصحاب أخبار على الوزراء وعلى الموظفين في الدواوين ، وحتى على ما في دار السلطان نفسه ، فقد قُرّر علناً مع كل وزير صاحب خبر من الثقات ينهي إلى السلطان ما يجري في مجلس الوزير ، فلا يحسن الوزير لأحد ولا يجتمع بأحد من الناس إلا بحضور ذلك الشخص ، كما رُتّب صاحب خبر القاضي والنائب وجميع الولاة والعمال ، وطُلِبَ إلى أصحاب الأخبار أن يحضروا مجالس الناس وولائمهم ومجالس الوعظ والأسواق ، حيث يجري في تلك الأماكن ما يوجب الاطلاع عليه ، ويكشفون أحوال العامة وأراجيفهم ، وما يشتهر في كل وقت من أقوالهم وأفعالهم ، « فالأراجيف مقدمة الكون » . وجاوزت الرغبة في الاطلاع على أخبار الرعية حدا ، جعل السلطان إذا سير أحدا في أشغاله سير معه آخر ليكون عينا على رفيقه ، فتتوافق الأخبار معهما أو تتخالف .

وتحفظ مصادرنا نماذج من انهماك الخلفاء والسلاطين في السعي للأخبار ، فقد قيل بأن المنصور العباسي قد فاق من سبقه في البحث عن الأخبار ، وهارون الرشيد سار على نهج المنصور في البحث عن أسرار رعيته ، والمأمون رتب له أصحاب أخبار في أرباع بغداد ، وعضد الدولة البويهي كان له أصحاب أخبار في كل مكان ، حتى أنه كان يقدم لمؤدبي الصبيان أرزاقا ، لكي يسألوا أولاد الجند عن أمور آبائهم .

ووصف الحاكم الفاطمي بأنه كان كثير الطلب لأخبار الناس ، وأما الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت ٦٢٢/ ١٢٢٥ م) ، فقد كان عظيم العناية بتسقط الأخبار ، حيث عين أصحاب أخبار له بالطرق ، وفي الأطراف ، يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها ، فأصبح لا يخفى عليه أكثر أمور رعيته . وحتى كبار الأمراء من كبار العمال كان لهم أصحاب أخبار في دار الخلافة . وإزاء هذا الوضع فإننا لا نستغرب وصول أبسط الأخبار للحاكم ، فصاحب خبر ديوان عضد الدولة ، رفع إليه ما فعله أبو الهيثم ، أحد العلماء ، وهو في ردهة الديوان ، ينتظر الأمر للمثول بين يدي عضد الدولة ، فقد رفع أبو الهيثم عمامته عن رأسه ، ووضعها بين يديه ، فاعتبر صاحب الخبر أن ذلك الفعل تحقير لعضد الدولة وجهل بالأدب ، فما كان من الأستادار (الخازن) إلا أن خرّق أبا الهيثم ، وشتمه ، وسجنه ، ولم يطلق سراح الرجل إلا بعد أن عرف عذره ، وأنه محرور الرأس ولا يستطيع ترك العمامة على رأسه .

وقد بلغ من قوة أصحاب البريد والأخبار وتسلطهم أن الدولة قد اختبطت في عهد المأمون وهو بمرو ، حتى خلع بنو العباس طاعته ، وبايعوا ابراهيم بن المهدي ، وثارت العلوية بالحجاز واليمن والعراق وطبرستان ، وحاربوا الحسن بن سهل ، وكسروه ، والأخبار مطوية عن المأمون بسبب تحكم الفضل بن سهل ، وأصحاب الأخبار والبريد به ، حتى تحيلت جارية له ، وأرسلت الخبر في بطانة خز ووشي ، فلما علم بذلك غضب لاخفاء الأخبار عنه ، وتنكر للفضل ، بل ورحل من العراق ، وأمر من وقته أصحاب البريد والأخبار أن يردوا عليه ولا يحجبوا عنه .

كان الخوف من استفحال أمر أصحاب الأخبار ، وإلحاق الضرر بالأبرياء ، يدفع العلماء والفقهاء إلى مداومة النظر في أمرهم ، والتدقيق في أخبارهم ، والدعوة لتفقد حالهم بين الحين والآخر ، ففي رسالة أبي يوسف القاضي إلى هارون الرشيد السالفة الذكر تعريض بأصحاب الأخبار ، وتنبيه إلى اختيار العدول والثقات ، بذكر : « بلغني من ولاتك على البريد والأخبار في النواحي تخليط كبير ، ومحاباة فيما يُحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية ، وإنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية ، وستروا أخبارهم ، وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا في الولاة والعمال مما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم وهذا مما ينبغي أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من كل أهل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار » .

وجاء في كتاب العهود اليونانية ، وهو من أمهات كتب الفلسفة السياسية عند العرب في القرن الثالث

الهجري (التاسع الميلادي) أن أصحاب الأخبار كانوا رقباء على العمال والقضاة ، حيث ينهون للسلطان ما وقفوا عليه من زلل العمال والقضاة ، وتجوزهم ، وما شجر بينهم وبين الرعية . وقد نبه صاحب العهود السلطان إلى الحذر ممن وكل بذلك ألا ينهي إلا ما يقوم بتصحيحه وبرهانه أو يلزم أحدا مؤونة فيه«فإن تعول الكذب أو أبطأ فليعاقبه عقوبة تردع سواه عن سلوك نهجه وتجنب استعماله في الأخبار . بل إن الفقهاء أفتوا بأن الأخبار لا تصح إلا بالعدول وبالبراهين المؤكدة ، وهذا ما رفضه ابراهيم بن السندي بن شاهك ، فقال : « ولو كانت الأخبار لا تصح عندي إلا بشاهدي عدل ما صح خبر ولا كتبت به ، ولكن مجيء الأخبار إن لم يحضرها أقوام على غير تواطؤ ولا تشاعر من كانوا وحيث كانوا ، وإنما يحضر الأخبار الأطفال والمرأة والمحتال والذمر وابن السبيل ، فإن كان أحب الأمرين إلى أمير المؤمنين ألا نكتب بخبر ولا نرفعه حتى يصح بالعدول ويصح بالبراهين ، فعلت ذلك ، وعلى أن لا يتهيأ ذلك في السنة إلا مرة أو مرتين » .

وعلى أي حال ، فإن السلاطين قد جعلوا اتصال صاحب الخبر بهم مباشرة ، فلا واسطة بين صاحب الخبر والسلطان ، لأن ذلك يوقف كثيرا من الأحوال ، ولا يسمح لأحد بالاطلاع على ما عنده ، ليكون الأمر للسلطان إن شاء أشاعه ، وإن شاء كتمه حسبما يراه . ففي مطالعة رواها ابن طيفور ، مفادها أن صاحب الخبر ببغداد قد أصاب رقاعا فيها شتم للسلطان وكلام قبيح وتهديد ووعيد ، وحار صاحب الخبر في رفعها أو طيها لما فيها من كلام السفهاء والجهلة ، فأنهى أمرها إلى السلطان ، وأنها محفوظة عند صاحب الخبر ، فإن كان السلطان يرغب في مطالعتها رفعها إليه ، فما كان من السلطان إلا أن أجاب : « هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر أصحاب اخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها ، فإنهم إذا فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولا عين » .

ومع الحرص والتأكيد على كل ما سلف ، فإن الدولة كانت توفر كل ما يحتاج إليه صاحب الخبر ، حتى يكون مُزاح العذر فيما يحتاج إليه من الخيل الجياد ، والنجب المنتخبة من الجمال ، لأنها أسرع من الخيل وأصبر على السير ، بل إن صاحب خبر البلاد البحرية زود بمراكب خفيفة سريعة ، لضمان سرعة وصول الأخبار ، وأجرى السلاطين على أصحاب الأخبار النفقات ، ووسعوا عليهم في العطايا ، وما ذلك إلا ليكفوا ما يحتاجون إليه من أتباع وأعوان ومراكب وطيور وغير ذلك ، وحتى يكونوا في نقلهم للأخبار محققين صادقين ، فإن الكذب في هذا العمل يؤدي إلى خلل عظيم لا يستدرك فارطه .

تلك صورة واقعية لجانب من حياة الناس في المجتمع الإسلامي ، فإن السعي لتحقيق العدالة يظل مسألة جوهرية وحيوية ، والتحوط من الظلم ومنع الأذى عن الأبرياء ، حتى إن تواطأ حايكوه اصطدم بخشية العلماء والفقهاء والقضاة وإصرارهم على ألا ترتفع فوق راية العدل والانصاف راية ، وحفظ الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وتلكم من دوام الدول واستقرار النعم . □

نعمة النفع ونعمة الدفع :

يتحدث القشيري عن نعم الله تعالى على عباده فيقول : اعلم أن نعم الله نوعان : نعمة نفع ، وهي التي أولانا إياها ، فنحن نراها ونعلمها ، ونعمة دفع ، وهي ما دفعه عنا من أنواع البلاء والآفات ، وهي نعمة مجهولة لأننا لانعلم منها إلا اليسير النادر ، وهي أتم من نعمة النفع لأن دفع الضرر مقدم على جلب المنافع ، ونعمة الله على عبده فيما يقبضه عنه في الدنيا أكثر وأوفر من نعمته عليه فيما يبسطه له منها ، لأن قربه منه بقدر بعده عن الدنيا .

ويقول أيضا : الشكر على نعم الدفع أتم من الشكر على نعم النفع ، ولا يعرف ذلك إلا موفق كيس .

واحة العربي

علامات

قال الجاحظ : سألني أحدهم كتاباً بتوصية إلى صديق لي ، فكتبت له رقعة قلت فيها : « كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك » . فرجع الرجل إليّ ، فقلت : كأنك قرأت الرقعة ؟ قال : نعم ، قلت : لا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص !

فقال : قطع الله يديك ورجليك ولعنك !

قلت : ما هذا ؟

قال : هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر أحداً .

ضحكات عربية

أشعب

مر أشعب على قوم يتناولون طعامهم فقال : سلام عليكم معشر اللئام ، فرفعوا أبصارهم قائلين : لا والله بل كرام .

فقال : اللهم اجعلهم من الصادقين ، واجعلني من الكاذبين . ثم مد يده في القصعة التي بين أيديهم وهو يقول : ماذا تأكلون ؟

فقالوا : نأكل سمًا !

فحشا فمه وازدرد وهو يقول : الحياة بعدكم حرام !

وأخذ يأكل حتى كاد يأتي على طعامهم ، فقالوا له : يا رجل هل عرفت أحداً منا ؟ فأشار أشعب بأصبعه إلى الطعام وقال : عرفت هذا .

ظرفاء العرب

■ أهدى ابراهيم المازني نسخة من كتابه إلى أحد أصدقائه ، وكان كلما التقيا يعتذر عن عدم قراءته . وذات يوم سأله المازني :

- هل كنت تسبح في النيل أمس ؟

- لماذا ؟

- لقد وجدت نسخة من كتابي فيه .

□□□

■ دُعي أحد رامي إلى وليمة ، فأعجب بطبق « الدولة » بغير لحم ، فانصرف إليه ، وترك بقية الأصناف ، فقال له صديق : كُل من الأصناف الأخرى ، فإنها أحسن ، هذه « دولة » كاذبة . فرد عليه رامي : ولكنني أصدقها

مــن القلـب

ضروري ؟

سأل الضابط المتطوع الجديد : أين تريد أن تخدم ؟

ـ في هيئة أركان الحرب .

ـ هل أنت مجنون ؟

ـ لماذا ؟ وهل ذلك ضروري ؟

شرط

الموظف لمديره : ألم تعدني بزيادة راتبي بعد مضي عام ؟

ـ نعم بشرط أن لا تغضبني .

ـ وهل أغضبتك في شيء ؟

ـ إنك تغضبني بطلبك هذا .

قافلة

شكا رجل لطبيبه أنه عندما يحاول النوم لا يرى أمام عينيه غير قافلة طويلة جداً من الجمال المحملة .

ـ وهل رأيت طبيبا نفسانيا ؟

ـ كلا ، جمالا محملة فقط .

قمر الليل

المعلم : متى يبدو القمر أجمل ما يكون ؟

التلميذ : في الليل .

في الصميم

■ عندما يكون المرء شابا فإن الوقت مبكر للزواج ، وعندما يصبح متقدما في السن يكون قد فات الأوان .

ديوجينس الكلبي

■ تعترف المرأة أنها على خطأ عندما تكون على صواب ، أكثر مما تعترف بأنها على خطأ عندما تكون مخطئة .

ستيفن ليكوك

■ لم أمارس من الرياضة سوى رياضة المشي على قدمي في جنازات أصدقائي الذين كانوا يمارسون الرياضة .

برناردشو

■ عندما يتزوج اثنان فانهما يصبحان واحداً ، لكن المشكلة تكمن في تقرير أيهما سيكون هذا الواحد .

هـ . ل . منكن

■ الفكر هو نقيض المال تماما ، فقدر ما يكون لنا منه نرانا نكتفي .

بول ماسون

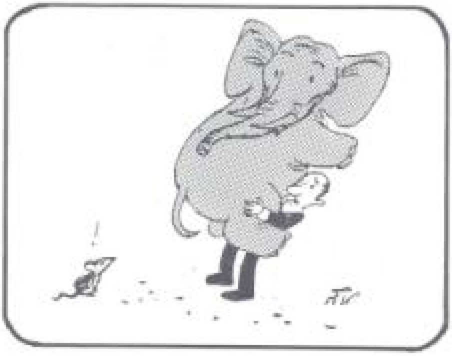

العربي
عيونك
على العالم

السويد

بلاد الشمس الباردة

استطلاع :
الدكتور حسن عباس
تصوير :
طالب الحسيني

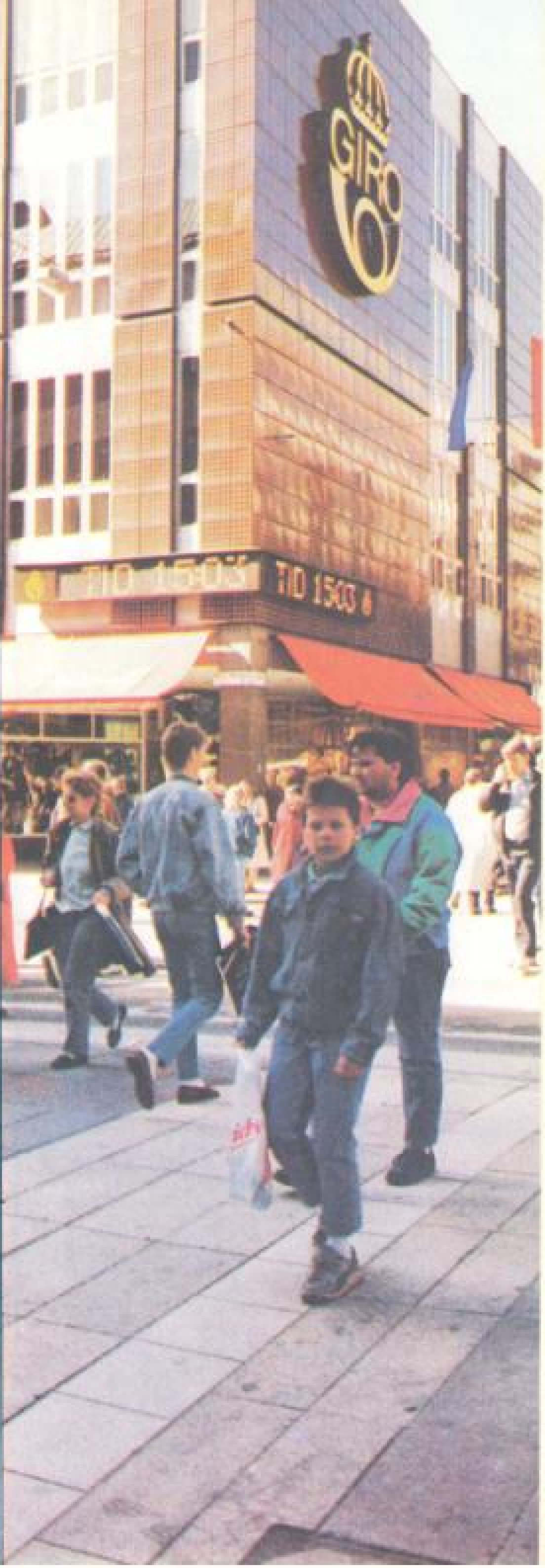

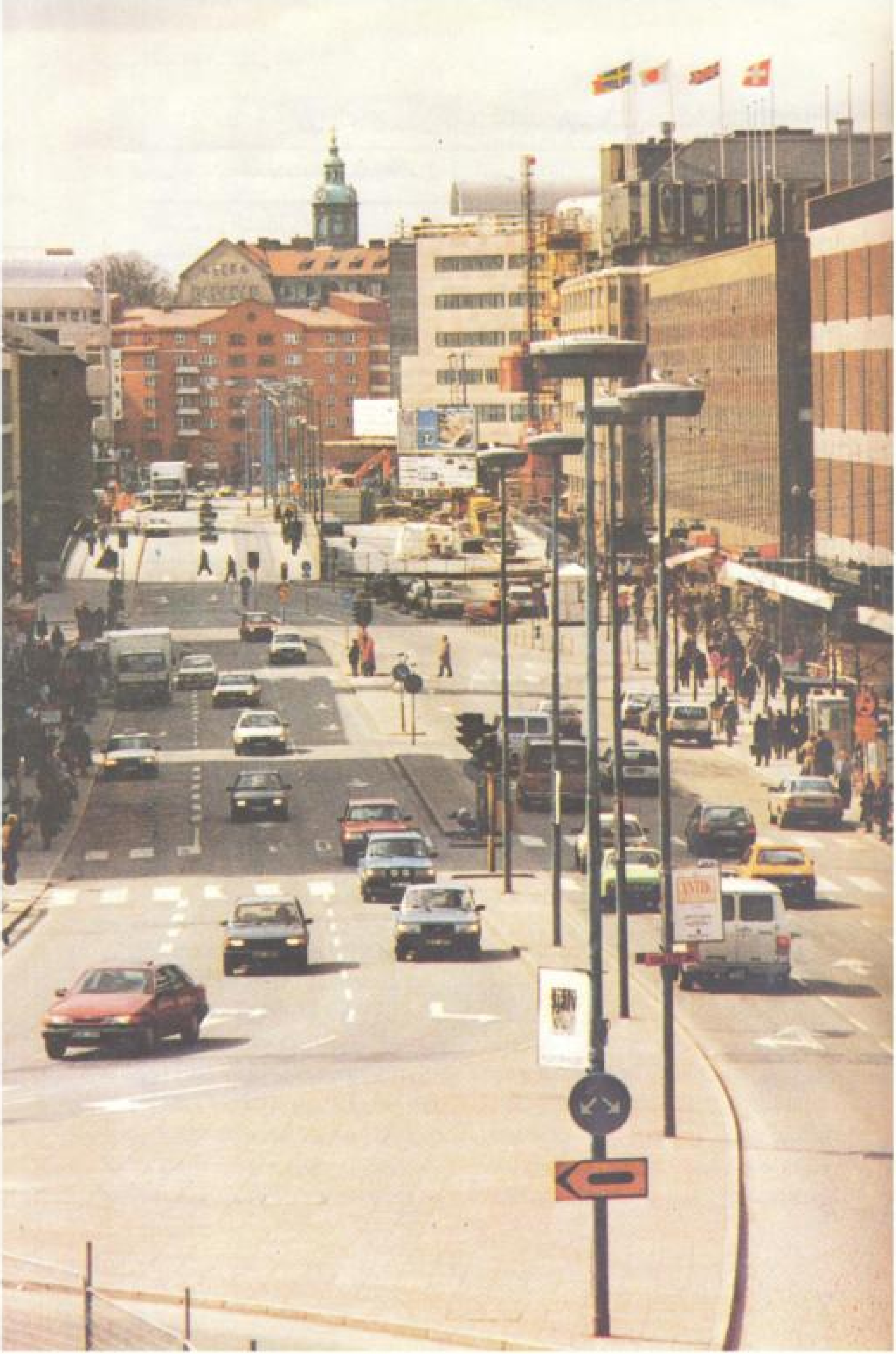

في كل عام وفي الثلاثين من ابريل تحديدا يقيم السويديون احتفالات تعم البلاد ، فتمتد من مدينة مالمو في أقصى الجنوب لتصل إلى أقصى بقعة مأهولة في الشمال !

إنه عرس الأعراس ، وعيد الأعياد ، ذلك هو مقدم الربيع !

عند غروب شمس ذلك اليوم ، أو بعد الغروب بقليل ، تضرم النار في أكوام الحطب التي يعمل الناس على جمعها في الأيام الأواخر من ابريل ، لحرقها في هذه المناسبة ، مناسبة انتهاء الشتاء الطويل ، بظلامه الكئيب الثقيل ، وبرده الشديد المتصل . وما أن تتأجج النيران ، وتبدد بنورها ظلمات الليل ، حتى ينطلق الناس بفرح مكبوت ، كان الشتاء بعبوسه وتجهمه يحول بينه وبين أن يرتسم على الوجوه .

في أوبسالا ـ تلك المدينة الجامعية العريقة ـ كما في غيرها من المدن الجامعية يحتشد آلاف من الطلبة الشباب وهم يرتدون قبعات بيضاء ، متخذين منها علامة على تبدل الفصول ، يحتشد هذا الجمع الكبير ليستمع إلى أغان تقليدية ترحب بمقدم الربيع ، وتعلن أن الشتاء قد ولى ، وأن الشمس والصيف قد عادا ليملآ الأرض دفئا وخضرة بعد غياب طويل ! .

تعليل طريف

قلت لمحدثي « بينجت بيستروم » وهو كاتب وصحفي من مقاطعة يمتلاند :

× بم تعلل طقوس الاحتفال التي رأيناها ؟

ـ لها جذور شعبية قديمة ، تجري الآن مجرى الأسطورة . كان أجدادنا من السويديين يعتقدون أن الأرواح الشريرة والجنيات والساحرات هن اللائي يحجبن ضوء الشمس ودفئها ، ويعملن على أن يمتد الظلام وتطول الليالي الباردة ، فهن لايستطعن ممارسة السحر في الأزقة والشوارع الضيقة إلا في مثل تلك الأجواء الكئيبة ! وما حرق أكوام الحطب التي رأيناها إلا تبديدا للظلام الذي يكتنف الشتاء وتسود فيه الساحرات ، وحرقا لأرواحهن الشريرة ، وإيذانا ببدء الربيع !

× ألا يعني ترديد هذه الحكاية أنكم تفسحون المجال للأسطورة لكي تبرر بعضا من أفعالكم ؟

ـ كلا ، فنحن نؤمن بالعلم ، وننكر الخرافة ، لكنك تعلم أن الحكايات الشعبية نوع من التاريخ الذي تحفظه الذاكرة الاجتماعية ، وهي تسير جنبا إلى جنب مع التاريخ الرسمي المدون ، تفسر العادات والتقاليد وكل ما يعزف عن تفسيره المؤرخون !

التجارب الرائدة

إن مظاهر الاحتفال والسعادة هي أول مايشد انتباه الزائر في بلد لم تطأ قدماه أرضها من قبل . على أن السويد تحفل بالكثير من المظاهر التى تشد الانتباه وتلفت النظر . حين قدمنا في اول زيارة تقوم بها « العربي » الى هذا البلد كانت تحدونا أكثر من رغبة ، ويحثنا فضول لاسبيل إلى تجاوزه وكف غلوائه ،

فالسويد عضو مهم في مجلس التعاون لدول الشمال الاسكندنافية ، ذلك وجه من أوجه اللقاء الوحدوي ، أو التعاون الإقليمي ، نجد له شبيها في وطننا العربي ممثلا بمجلس التعاون لدول الخليج العربية . وهي ذات تجربة رائدة في التقدم الصناعي والتطور الحضاري في هذا القرن ، وكلا التجربتين تغري بالاستطلاع والتقصي ، إذ لازال الناس في الوطن العربي - وهم يلتمسون سبل التقدم والوحدة - ينظرون بكثير من الإعجاب إلى تجارب أمم استطاعت أن تنفض عن كاهلها غبار التخلف ، وآثار القرون ، وترتدي زي العصر بكل مايزدان به هذا الزي من تقدم صناعي وتطور تقني ، وتخطيط علمي ، وتبلغ المدى المرموق في كل ذلك . وقد كنا نذكر الصين واليابان وكوريا حين يعوزنا ضرب المثل ، وماكنا نعلم أن السويد تقف جنبا إلى جنب مع هذه الدول في سرعة تقدمها ، فضلا عن أنها تتفوق عليها في كثير من منجزات الحضارة المعاصرة.

لم يكن اسم السويد يتردد بيننا إلا في مناسبات معينة لعل اشهرها مناسبة توزيع جوائز نوبل في العلوم والآداب في ديسمبر من كل عام . ولم نكن نعرف من رجالها الا افرادا قلائل كالكونت برنادوت الذي كان يعمل مراقبا للهدنة الدولية في فلسطين بعد انشاء الكيان الصهيوني وقد قتل غدرا في عام ١٩٤٨ ، والسكرتير العام السابق للامم المتحدة داغ همرشولد الذي اسقط الاستعماريون طائرته فوق ادغال الكونغو في عام ١٩٦١ ، والسفير جونار يارنج الذي كلفته الامم المتحدة القيام بدور الوسيط في الشرق الاوسط في اعقاب الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧ ، وقبل كل هؤلاء وبعدهم الكاتب المسرحي العبقري اوجست سترندبرج . ولنا عذرنا فيما كنا نجهله من اخبار السويد ، فهي بلد محايد ، لايقترب من الشئون الدولية الا في حدود ضيقة . وهي بلد بعيد ، يكاد يقترب من تخوم العالم عند قطبه الشمالي ، ثم هي بلد آمن مستقر ضمن حدوده وليس له أطماع إقليمية أو دولية ، ولا يخفى أن أكثر أسماء الدول ذكرا في نشرات الأخبار تلك التي تعاني

خارطة تبين السويد والاقطار والبحار المحيطة بها .

من قلق واضطراب داخليين ، أو تلك التي لها أطماع إقليمية أو دولية ! على أن السويد أخذت في عقدي الستينات والسبعينات تطل على العالم بوجه يمثل خير ما حققته حضارة هذا القرن من تقدم صناعي ، ورقي حضاري ، ورخاء اقتصادي ، وبخاصة في مجال رعاية الانسان ، واحترام آدميته ، والحفاظ على كرامته وحقوقه ، والارتفاع به الى مستوى من العيش لايدانيها فيه أكثر بلدان العالم تقدما .

عند التخوم الشمالية للعالم

تقع السويد في أقصى شمال أوروبا ، حتى أن الدائرة القطبية تخترق احدي مقاطعاتها الشمالية ، وهي مقاطعة لابلاند . وعلى الرغم من طول فصل الشتاء فيها وبرودته فإن السويد لاتعد من البلدان المتجمدة كما هو الحال في آيسلاندا مثلا ، ويعود الفضل في ذلك إلى التيارات الهوائية الدافئة التي تهب عليها من المحيط الأطلسي .

تغطي الغابات نصف مساحة السويد تقريبا ، وهي بلاد تكثر فيها الموارد المائية اذ يتوزع على أرضها ما لا يقل عن مائة الف بحيرة يتصل بعضها بالبعض

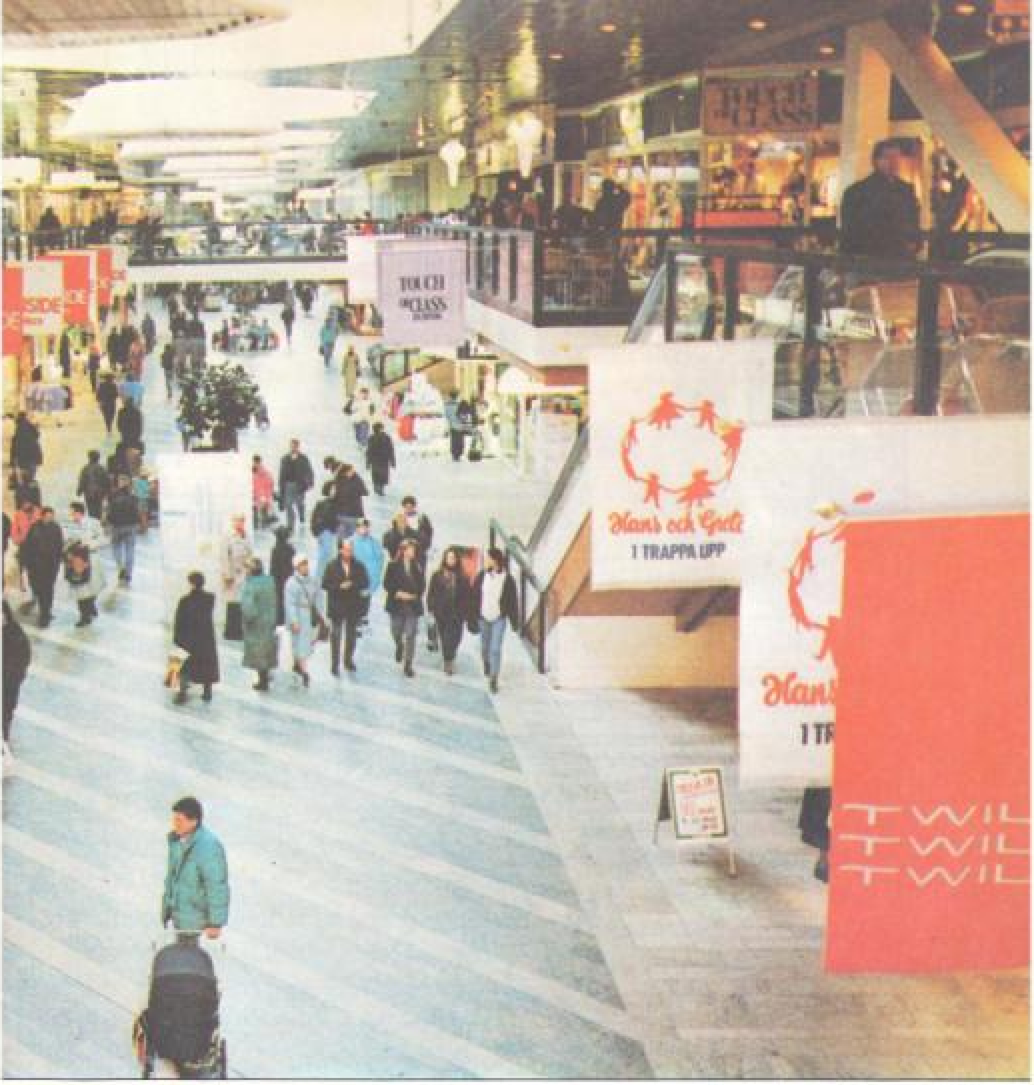

(أعلى - يمين) سوق « جالاريان » وهو من الأسواق المسقوفة في ستوكهولم ، حيث ينتقل الناس من محل تجاري إلى آخر وهم في أمن من الرياح الباردة والثلوج المتساقطة . (إلى اليسار) قنطرة تفضي إلى بعض أحياء مدينة ستوكهولم القديمة . (أسفل - يمين) سوق الخضراوات حيث تعرض الفواكه والخضراوات عرضا أنيقا منها المحلي ومنها المستورد . (أسفل - يسار) احد الشوارع الضيقة في ستوكهولم القديمة ، حيث تتقابل النوافذ وتضيق الشوارع .

Stor & Liten
Stor & Liten

الاخر بشبكة واسعة من القنوات ، فضلا عن أن في السويد أنهارا عديدة تغذيها مياه الثلوج الذائبة والقادمة من جبال المنطقة الشمالية الغربية .

واسطة العقد

والسويد واسطة العقد فيما يعرف بمجلس التعاون لدول الشمال الاسكندنافية ، اذ يليها من الغرب النرويج ومن الشرق خليج بوتنيا وفنلندا ، ومن الجنوب الدنمارك وبحر البلطيق . وتمتاز السويد بامتدادها طوليا فتبلغ المسافة بين شمالها وجنوبها حوالى ١٦٠٠ كم ، وهى في معظم اراضيها مطلة على البحر ، وذلك يعنى أن لها سواحل ممتدة تتناثر بالقرب منها آلاف الجزر . ويعنى أيضا أن مناخها ومعدل تساقط الثلوج يختلف باختلاف المكان قربا من الدائرة القطبية الشمالية أو بعدا عنها .

يبلغ عدد سكان السويد ثمانية ملايين ونصف المليون نسمة فيهم أقلية سكانية صغيرة لا يتجاوز تعدادها ١٥ الف نسمة تدعى اللاب وتقطن في شمال السويد ، وفيهم حوالى نصف مليون مهاجر جاءوا إلى السويد في الستينيات والسبعينيات طلبا لفرص العمل (١) ، على أن نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين من فنلندا وهم أناس لا يجدون صعوبة في التأقلم مع السويديين لعلاقات خاصة تربطهم ووشائج كثيرة مشتركة . أما الاكثرية السويدية من السكان فهم احفاد تلك القبائل الجرمانية التى استقرت في البلاد الاسكندنافية منذ آلاف السنين . واللغة السويدية ـ وهي فرع من اللغات الجرمانية ايضا ـ هي اللغة الوطنية التى يتكلم بها الناس هنا وهى اللغة الرسمية في التعليم ودوائر الدولة والمؤسسات .

السويد رابع دولة في اوروبا من حيث المساحة (٤٤٩٩٦٤ كم٢) تقريبا ، أما عدد سكانها فقليل نسبياً اذا ما قورن بمساحتها الواسعة وتستوعب المدن الرئيسية الثلاث حوالى نصف السكان وهذه المدن هي ستوكهولم وهى العاصمة والمركز التجاري المهم في شمال اوروبا . وجوتنبورج وهى مدينة صناعية ، ومالمو الواقعة في الجنوب .

لعل من الظواهر المناخية الفريدة التى يمتاز بها شمال السويد ظهور الشمس في منتصف الليل في النصف الثاني من حزيران/ يونيو بل ان الشمس لا تغيب في تلك الاصقاع لأسابيع عديدة من شهرى يونيو ويوليو . أما في الشتاء فقد تختفى الشمس ولا تراها الاعين لأشهر عديدة ايضا ، وان ظهر بصيص من الضوء عند منتصف النهار !

قلت للسيدة كارين نيما نسون التى رافقتني وزميل المصور في جولة زرنا خلالها بعض معالم ستوكهولم الجميلة ، وقد كان الهواء باردا ودرجات الحرارة تدنو لتقترب من الصفر :

× لاشك أن لمثل هذا الجو القاسى تأثيرا على الناس، على أمزجتهم وعلى عاداتهم ، وعلى طرائق عيشهم ؟

ـ نعم ، للمناخ مثل هذا التأثير الملحوظ على حياة الناس وأمزجتهم هنا ، ففي الأشهر الطويلة التى يسود فيها الشتاء البارد ، وتحتجب الشمس ، ترى الناس أكثر استعدادا للكآبة وسوء المزاج ، في حين تراهم على خير حال من السعادة والبشر حين تشرق الشمس ويسود الدفء ، لذلك تجد السويد تعيش أجمل أيامها في الصيف من كل عام . ولست أبالغ إن قلت لك إن بعضا من حالات الانتحار يعزى بعض أسبابها إلى كآبة الجو والمنظر في شتائنا الطويل .

× هل تعانون من تفاوت حاد في درجات الحرارة صيفا وشتاء ؟

ـ أجل ، فدرجات الحرارة تتراوح بين ٣٠ درجة مئوية صيفا و ٣٠ درجة تحت الصفر ، أو دون ذلك ، شتاء !

وأبدت السيدة نيمانسون رغبة في أن تضيف ملاحظة أخرى :

ـ أنت تدرك بطبيعة الحال أن المرء يتكيف مع البيئة التى يعيش فيها ، وهذا هو شأننا مع بيئتنا القاسية هذه ، لذلك لم يفتّ البرد عضدنا ، بل كنا قادرين على إقامة نهضتنا الحديثة في بلدنا على الرغم من كل شيء . ولقد أخذنا الحيطة ، وأعددنا العدة ، فما أن تدخل وتغلق الباب وراءك حتى تشعر بالدفء في

المنازل والمصانع والمدارس والمؤسسات والمتاجر ، بل إننا أممنا الأسواق المسقوفة التي تسمح بدخول الضوء دون سواه من العوامل الجوية .

ذهبت بنا السيدة تيمانسون إلى سوق طويل ذي سقوف يدعى « جالاريان » في قلب المدينة ، فيه عشرات المحلات التجارية الأنيقة التي تعج بالبضائع والناس ، وما هذا السوق إلا واحدا من أسواق عديدة شيدت على غراره ، هذا فضلا عن المؤسسات التجارية الكبرى التي تحتل الواحدة منها مبنى ضخما ، يتألف من عدة طوابق ، ويحتوي على كل شيء تقريبا ، مما يغني مرتاديه عن التجول في الشوارع المكشوفة ، والانتقال من محل إلى آخر .

والسويد لاتملك نفطاً ، لكنها تحتاج منه إلى كميات كبيرة لتوليد الطاقة وللصناعة ، وتحتاج إليه وقودا للسيارات وللتدفئة أيضا . ولو أقامت أنظمة التدفئة على حرق هذه المادة الغالية الثمن دون التفكير في وسائل أخرى لاستنفدت كثيراً من مواردها لذا لجأت إلى طريقة أخرى في التدفئة ، لا تجعلها تبدد من الوقود للتدفئة إلا القليل ، إنها طريقة العزل الحراري . نعم ، إن معظم الأبنية الضخمة التي تراها تأخذ بنظام العزل الحراري في التدفئة .

كنت استرق النظر بين الحين والآخر عبر نافذة السيارة الزجاجية المغلقة فأرى نوافذ مغلقة في ذلك اليوم البارد ، والمارة يسيرون على الأرصفة بخطى سريعة ، وهم يمشون منحنين إلى الأمام ، كأن أيد خفية تدفعهم إلى السير دفعا . الحركة دائبة مسرعة ، والملامح عابسة جادة ، حتى أغصان الأشجار تنحني ولا تشرئب وقد تجردت من أوراقها الخضراء .

لم أذهب إلى ايطاليا ولم أشاهد البندقية ، لكنني سمعت أنها تقوم على جزر صغيرة متناثرة وسط البحر . وهذا هو ما شاهدناه في ستوكهولم .

إن كل جسر فيها يربط جزيرة بأخرى ، فإن ستوكهولم تقوم على جزر ، منها الكبيرة التي تضم أحياء واسعة ، ومنها الصغيرة التي تتسع لمبنى واحد فقط . وليس البحر هو الذي يفصل بين هذه الجزر ، بل بحيرات ذات مياه عذبة وأخرى مالحة تتصل بالبحر ، أما عدد الجسور فهو أكثر من عشرين جسرا . وليست كل الجزر منبسطة ، فإن البعض منها يتكون من تل واحد أو أكثر،انها بندقية الشمال .

السنوات العجاف

إن من يقرأ في أدبيات السويد الاقتصادية يجد ان السنوات العجاف الممتدة من عام ١٨٦٠ وحتى عام ١٩١٠ قد شهدت ضائقة في الاقتصاد ، وفقرا في المعاش لامثيل لها،وإنها قد تسببت في نوعين من الهجرة :

هجرة من البلاد الى الخارج حيث جاوز المهاجرون مليون نسمة استقطبت الولايات المتحدة أكثرهم .

وهجرة من الريف الى المدن الرئيسية الثلاث ستوكهولم وجوتنبرج ومالمو . وقد ترتبت على هاتين الهجرتين نتائج خطيرة . فالمهاجرون دائما اناس قلقون تجاوز طموحاتهم حدود الممكن والمتاح في أوطانهم ، وهم فضلا عن ذلك قوة عمل قادرة ، لذلك فان هجرتهم خسارة لتلك الاوطان وتبديد لامكاناتها البشرية وطاقات العمل فيها . ثم ان انتقال المهاجرين من الريف الى المدن يضيف اعباء جديدة على تلك المدن ويفقد الريف قواه الانتاجية . يمكننا القول انه اذا وجد الفقر وجد التخلف ، فالعلاقة بينهما جدلية .

السؤال الذي يمكن ان نطرحه الآن هو : كيف استطاعت السويد في مدى نصف قرن تقريبا أن تردم الهوة السحيقة بين الفقر والتخلف ـ اللذين تميزت بها العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ـ وبين التقدم الحضاري الكبير والرفاهية الاقتصادية اللذين صارا سمة بارزة تمتاز بها السويد على كثير من بلدان العالم المعاصر ؟ الإجابة عن ذلك تكاد تكون متماثلة لدى كل من تتوجه اليه بالسؤال واليك ما يقوله رجل الاعمال الدكتور جيرو هينتج :

السويد كما تعلم بلد محايد ، وهي عضو في مجلس التعاون لدول الشمال الاسكندنافية . ولقد مضى على السويد أكثر من ١٧٠ عاما دون أن تدخل في

(أسفل إلى اليمين) مدينة ستوكهولم أشبه المدن الأوربية بمدينة البندقية في ايطاليا ، فهي تتكون من جزر منها الكبيرة ومنها الصغيرة ، لكن الفارق الوحيد هو أن جزر ستوكهولم محاطة بمياه البحيرات العذبة لا بمياه البحر كما هو الحال في البندقية . وهذا شارع جميل يطل على واحدة من البحيرات الكبيرة في المدينة . (أعلى إلى اليمين) يوم مشمس أجمل من كل الحالات ، فما أن تشرق الشمس حتى يغتنم الناس الفرصة ، فيجلسون حيثما تصل أشعتها للاستمتاع بشيء من الدفء . (في الوسط) المسرح الملكي في ستوكهولم (أعلى إلى اليسار) .

حرب ، وكان لذلك أثره الذي لا ينكر في الحفاظ على ثروات بلادنا وتجنبنا للدمار الذي أحاق بغيرنا . ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تصطلي بنار الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كنا نحن في منأى عن أخطارها ، وفي الوقت الذي كانت فيه مصانع أوروبا تلقى الدمار والخراب ، كانت مصانعنا تتطور وتزدهر ، لتلبي حاجات البلدان المتورطة في الحرب . فالحياد والسلام إذن عاملان رئيسيان من عوامل النهضة الشاملة التي أنجزناها .

الاختيار السليم

إن المفاضلة بين المجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي مفاضلة مغلوطة مضللة ، وليس من الحكمة ترجيح أحد المجتمعين على الآخر ، فخير البلدان هو ذلك البلد الذي يمتلك مقومات النهضة الزراعية والصناعية معا . أما إذا لم يكن يمتلكهما كليهما فعليه أن يدرك إمكانياته الحقيقية ، وأن يختار منها ما يتلاءم وبيئته بما فيها المناخ والموارد الطبيعية . أما نحن فقد اخترنا منذ وقت مبكر ، اخترنا أن نجعل من بلدنا بلدا صناعيا ، علما بأن ٢٥٪ من السكان كانوا يعملون في الزراعة في القرن الماضي ، وليس ذلك عزوفا عن الزراعة ، بل لأننا لا نملك من مقومات الزراعة ما يجعلنا نعول عليها في مستقبلنا ، فالثلوج تغطي مساحات واسعة من أراضينا ، وكذلك الغابات والبحيرات ، فلا يبقى من الأرض ما يتيح لنا أن نقيم عليه نهضة حقيقية ، في حين أن لدينا مقومات النهضة الصناعية .

كنا نعول على مادتين أوليتين أساسيتين تدخلان في بناء المصانع والمكائن إضافة إلى أهميتهما في انشاء البيوت السكنية هما : الحديد والخشب . ولقد ازدهرت صناعة الحديد والصلب والصناعات التي تقوم على منتجات الغابات في القرن الماضي ومطلع هذا القرن بفضل التقدم الذي طرأ على طرق الانتاج والأساليب الكيميائية المستخدمة في تحويل الالياف الخشبية الى عجينة ورقية .

ولايكفي توفر الموارد الطبيعية لإقامة حضارة صناعية بل ينقصها ما يمكننا أن نسميه عصب الصناعة أو عمودها الفقري وأعني به . . الطاقة . ليس في السويد نفط ، ولكنها تملك ثروة مائية هائلة . ان عددا كبيرا من الانهار يتدفق خلال الجبال في شمال غرب السويد مخترقا الغابات في طريقه شرقا الى بحر البلطيق . ولقد كان لهذه الانهار أهمية بالغة في تزويد السويد بالطاقة الكهربائية التي كان لها شأن كبير في التطور الصناعي .

وهناك عامل انساني ذو صلة بطبيعة الحياة في السويد لايقل تأثيره في التطور الذي شهده ذلك البلد عن العوامل المادية التي تقدم ذكرها ، الا وهو : السماحة والإيمان بالحرية ، وهما جوهر الديمقراطية . فالديمقراطية ليست شعارا ينادي به الدعاة ، بل هي ايمان عميق بحرية الانسان وكرامته في الفكر العام ، وفي السلوك الشخصي على السواء . . انه حر في علاقته بالآخر ، وبالمجتمع ، وبالدولة ـ ويمثل تلك السماحة في جانبها الاقتصادي التعايش الفريد بين نموذجين اقتصاديين مختلفين : الاشتراكية والرأسمالية . فالحزب الاشتراكي الديمقراطي يحكم البلاد منذ عام ١٩٣٢ إما بمفرده ، أو بالتحالف مع احزاب يسارية أخرى . على أن التعايش السلمي هو السمة المميزة لقوتي العمل والانتاج : الاشتراكيون والرأسماليون .

الصناعة بين الأمس واليوم

ان المقارنة بين بدايات الصناعة في السويد وبين ما هي عليه الآن تدلنا على أن مسار الصناعة قد اختلف في العقود التالية من القرن العشرين عما كان عليه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أو في مطلع هذا القرن . لقد ظهرت عدة صناعات منها ما يعتمد على اختراعات سويدية ومنها ما كان يعتمد على تعديلات طارئة عليها ، وذلك باستغلال التقنيات المتطورة . لقد أصبحت الشركات الهندسية هي التي تقوم بدور المحرك للاقتصاد السويدي وليست المناجم ومصانع الورق . ويضم هذا القطاع أعلى نسبة من الأيدي العاملة اذا ماقورنت بالقطاعات الصناعية الاخرى .

وهناك مجال الاستشارات والتصاميم لعمليات

الانتاج والانظمة الصناعية والطاقة ومشاريع البيئة .
ومما ينبغي ذكره ان القطاع الخاص يسيطر على حوالي ٩٠٪ من الصناعة في حين تسيطر الحكومة الاشتراكية والجمعيات التعاونية على ١٠٪ . ومن واجبات القطاع العام توفير المواصلات للناس والقسم الأعظم من حاجة البلاد للطاقة . وتشرف الحكومة على ادارة بنك واحد من بين كل البنوك الموجودة في السويد . ولم تحقق المشاريع والشركات الحكومية تطورها الا في بداية السبعينيات ويرجع السبب في ذلك الى أن اغلب المشاريع التي تملكها الحكومة كانت في الاصل من المشاريع غير المجزية اقتصاديا وقد اشترتها الحكومة اساسا لتلافي افلاسها وانقاذ عمالها من البطالة .

دور نقابات العمال

ويسود الهدوء سوق العمل في السويد حيث تبلغ اليد العاملة حوالي اربعة ملايين نسمة بين عامل وموظف ، وتقوم على تنظيم شئون العمل ورعاية مصالح العمال والإشراف على العلاقة القائمة بينهم وبين ارباب العمل شبكة واسعة من النقابات الاساسية . وتنخرط أكثر نقابات العمال في اتحاد نقابات العمال السويدي الذي يضم مليوني عضو ، اي حوالي ٩٠٪ من الطبقة العاملة في السويد ، وتعد نسبة الموظفين المنتسبين الى النقابات عالية أيضا اذ تصل الى ٨٥ بالمائة . وأكبر اتحاد لنقابات هذه الفئة هي المنظمة المركزية للموظفين التي تضم مليون منتسب تقريبا .

ان العلاقة بين الاطراف المعنية تحددها الاتفاقيات التي يتم التوصل اليها عن طريق المفاوضات عادة في أجواء هادئة نظامية . أما الاضرابات فهي من الاجراءات غير المألوفة في السويد ومن الجدير بالذكر أن المرأة تقف الى جانب الرجل في كل مجالات العمل تقريبا حتى أن نسبة النساء العاملات تصل الى ٤٥٪ من مجموع قوة العمل .

الرفاه الاجتماعي

إن سعادة الإنسان ورفع مستوى معيشته هما الغاية التي تسعى الى بلوغها كل دولة . وهما أيضا معيار النجاح أو الفشل ، فما الشوط الذي قطعته السويد المعاصرة في رفع مستوى معيشة ابنائها وتوفير العيش الكريم لهم ؟ تقول الارقام ان الدخل السنوي للعامل الصناعي في السويد يبلغ نحو ٧٥ الف كورونه أي (١٠٥٠٠) دولار تقريباً (الكورونه هي وحدة العملة السويدية وهي تعادل ٥٥ فلسا كويتيا) ولكن نسبة عالية من هذا الدخل تذهب لسداد ضريبة الدخل ، فليست الخدمات الجمة التي تقدمها الحكومة هبة ، بل هي المحصلة في هذا التعاون المشترك بين دافعي الضرائب والسلطة التنفيذية التي تتولى الانفاق على الخدمات .

تستقطع الضرائب نحو ٣٠٪ من دخل الأسرة السويدية التي تتألف عادة من زوج يعمل بدوام كامل وزوجة تعمل بدوام أو نصف دوام ، ومن طفل أو طفلين على أكبر تقدير . لكن القطاع العام يتولى الانفاق على كثير من الخدمات والضمانات الاجتماعية . ومن تلك الضمانات والخدمات ان الابوين يحق لهما التمتع باجازة مدتها سنة ، وبراتب كامل عندما يرزقان بطفل،وتجرى لهذا الطفل مخصصات ثابتة بغض النظر عن دخل أبويه حتى يبلغ سن السادسة عشرة من عمره واذا قرر إكمال دراسته بعد أن ينهي مرحلة التعليم الإلزامي يحصل على منحة دراسية .

يحق للكثير من الأسر الحصول على مخصصات للمساعدة في دفع إيجار السكن . وفي حالة المرض يحصل المريض على تعويض يعادل ٩٠٪ من دخله الأصلي . ويدفع القطاع العام أثمان الأدوية والتكاليف الطبية .

أما المتقاعدون والمسنون والعجزة فيحصلون على رواتب تقاعدية ، تزداد بشكل تلقائي لتواجه الارتفاع في مستوى المعيشة وأما المسنون وقد تركهم أولادهم فتوظف لهم البلديات موظفين يقومون على إدارة شئونهم المنزلية ، وتؤمن لهم وسائل انتقال خاصة . وهم مخيرون على أي حال ، فإما البقاء في منازلهم وإما الذهاب إلى دور رعاية العجزة .

التعليم مجاني في كل مراحله ، فضلا عن أن المدارس تقدم وجبة طعام مجانية لطلابها في كل أنحاء

على الرغم من أن السويد بلد محايد لم يشترك في حرب منذ ١٧٠ سنة، إلا أن بناء القوة والتدريب اليومي على أعمال الدفاع المدني من المهام التي تفرضها اليقظة والحيطة.

بعض رجال المطافيء يعملون على إطفاء حرائق محتملة، ورجال الإنقاذ يرفعون الأنقاض لإخلاء المصابين، ورجال الإسعاف يعملون على نقل الجرحى.

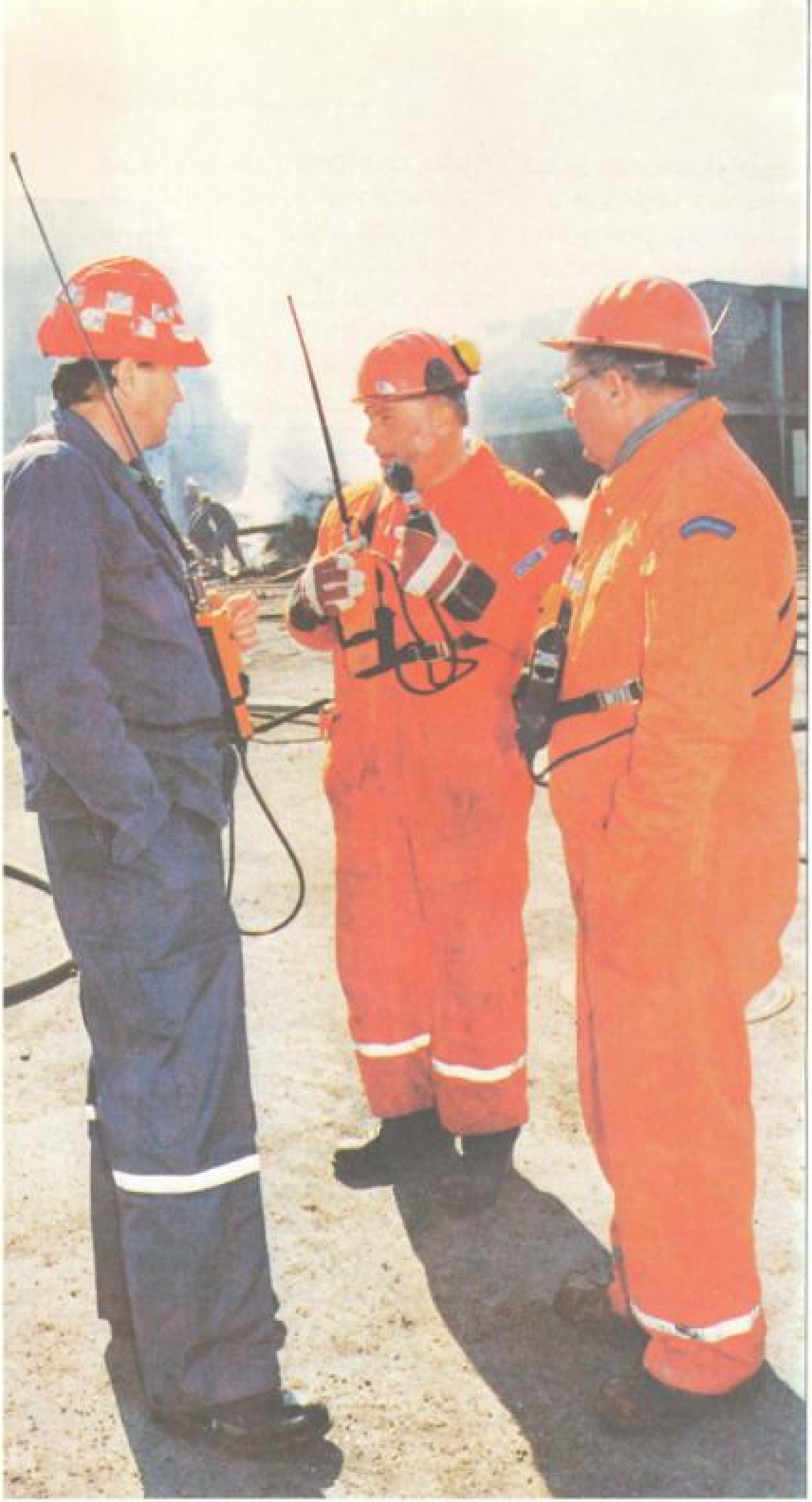

السويد . ويحق للطلبة في مراحل التعليم الجامعي الحصول على قروض بشروط سهلة ، لتساعدهم على مواجهة تكاليف العيش . ولعل من مستلزمات الرفاه اقتناء السيارات الخاصة ، ففي السويد أكثر من (٣) ملايين سيارة ، أي بواقع سيارة لكل اثنين ونصف من السكان على الرغم من أن السويد تستورد حاجتها من النفط من البلدان المصدرة له .

جزيرة الفرسان .. وسكانسن

في اليوم التالي كنا نتجه إلى الأحياء القديمة من مدينة ستوكهولم وهي التي تقوم على أرض جزيرة تدعى جزيرة الفرسان . يرجع تاريخ العمارة في هذه الجزيرة في معظمه الى قرون عديدة خلت . وفيها كنيسة قديمة ضخمة يرين عليها صمت الماضي ويكسوها جلال غابر . هذه الكنيسة هي كنيسة الفرسان ، ويرجع عهد بنائها الى القرن الثالث عشر الميلادي وعلى مقربة من تلك الكنيسة يقع القصر الملكي ، حيث يمارس الملك كارل غوستاف السادس عشر أعماله . يعد هذا القصر من أقدم القصور في أوربا .

إن الطواف في جزيرة الفرسان بأبنيتها وطرز العمارة القديمة السائدة فيها ينقل المرء إلى أجواء القرون الغابرة ، فالشوارع ضيقة ، والجدران سميكة ، والأرض مرصوفة بالحجارة .

من الأماكن الأخرى التي تنقل المرء إلى الماضي القريب والبعيد منطقة سكانسن ، وهي متحف فريد من نوعه . لقد شاهدنا متاحف عظيمة في ستوكهولم ، كمتحف العصور الوسطى ، ورأينا معرض الفايكنج في المتحف التاريخي ، لكن منطقة سكانسن تحتفظ بسحر غريب ، إنها بيوت قديمة ، بيوت سويدية الطراز ، مضت عليها سنون طويلة ، ولم تعد تلك المنازل صالحة للسكن ، فنقلت من أماكنها الأصلية في مختلف أنحاء السويد ، وجيء بها إلى سكانسن ، لذلك فإن المرء الذي يتجول بين هذه المنازل يصافح التاريخ ، ويشم عبقه ، فلقد وضع القديم جنبا إلى جنب مع الحديث المعاصر ، ففي المنطقة أيضا مبان حديثة مأهولة ، لكنها مقرات لسفارات البلدان الأجنبية في السويد .

في طريق عودتنا مررنا بدار الاوبرا الملكية وبالمسرح الدرامي الملكي الذي يقبع خلفه مطعم « اوبرا بارن » ، حيث كان في انتظارنا كارل ادوارد تيتزين وهو مثقف ورجل مسرح من العاملين في المسرح الدرامي الملكي .

حديث حول الادب

كان اللقاء مناسبة للحديث عن الحياة الثقافية وتطور المسرح بعد سترندبرج ، وعن الكتاب المسرحيين العرب .

* قلت : نكاد لانعرف أحداً من رجال الفكر والكتاب والأدباء السويديين باستثناء سترندبرج ، فهل تعاني الحياة الثقافية من جدب بعد هذا الكاتب العظيم ؟

ـ لايمكن لبلد أن ينجب عظيما ثم يصمت ، فقد ظهرت أسماء كبيرة بعد سترندبرج في ميادين مختلفة من الكتابة الأدبية كالشعر والرواية . أما في مجال الإبداع المسرحي فقد شهدت الحياة الثقافية نشاطا عظيما ، ومازالت أعمال سترندبرج تمثل على خشبات المسارح بكثرة . ففي هذه الأيام تعرض له المسارح مسرحيتين : العروس العذراء ، والمعلم اولوف . ولقد عاد إلى السويد المخرج السينمائي انجمار بيرجمان بعد أن أنجز أعمالا مهمة في السينما العالمية ، عاد ليعمل في المسرح كما كان قبل أن يتوجه إلى هوليود . من الأسماء الكبيرة التي ظهرت بعد سترندبرج اسم بار لاجركفيست ، وهو شاعر وروائي وكاتب مسرحي كبير ، وقد نال جائزة نوبل للآداب في الخمسينيات . وهناك كاتب مسرحي كبير آخر يدعى لارس نورين . على أن الكتاب السويديين الذين تخصصوا في الكتابة للمسرح قلة على أي حال ، لكننا نذكر منهم هجالمار سودربيرج ، ومؤرخ الفن راجنار جوزيفسون . أما في مجال التمثيل والاخراج فقد ظهرت أسماء لامعة ، لابد أنك سمعت باسم الممثلتين الكبيرتين جريتا جاربو وانجريد بيرجمان ، فقد تجلت موهبتاهما على خشبة المسرح الملكي للدراما . وقام المسرح الملكي في

الآونة الأخيرة برعاية ندوة عالمية دارت حول سترندبرج ، وقد حضر هذه الندوة مشاركون من مختلف أنحاء العالم . ويعد المخرج انجمار بيرجمان من أشهر المخرجين في السينما والمسرح على السواء ، وقد امتاز بقدرته على التقاط نوبات سترندبرج الدرامية بشكل دقيق ، بالاضافة الى الصبغة السويدية في أفلامه . لقد كان بيرجمان في يوم ما مديرا للمسرح الملكي .

● لفت إنتباهي أن المكتبات العامة لا تتيح لمن يرتادها القراءة فحسب ، بل تتيح له أشكالا أخرى من المتعة الثقافية .

ـ أجل ، بإمكانك أن تستمع للموسيقا في المكتبة ، أعني أن تضع السماعة على أذنيك وتسمع دون إزعاج للآخرين . ويمكنك أيضا أن تلعب الشطرنج في ركن خاص بلاعبي الشطرنج . لابد أنك مررت بدار الأوبرا الملكية وأنت قادم إلى هذا المكان ، فقد شهدت تلك الدار مولد بعض النجوم في هذا المجال ، مثل الفنانة جيني لند ، ومغني الأوبرا يوسي بيورلنج ، والمغنية بيرجيت نيلسون .

وهناك ظاهرة ثقافية لافتة للنظر هي إقامة الحلقات الدراسية حيث يشارك مليونان من الناس في كل عام في مختلف الحلقات الدراسية ، وتقدم الحكومة لهذه الحلقات الدعم المادي والمعنوي . وتدار هذه الحلقات الدراسية عادة من قبل جمعيات تعليمية تابعة للتنظيمات الشعبية .

برج ستوكهولم .. و متحف فاسا

بعد الوقت الممتع الذي استمعنا فيه إلى السيد تيتزين وهو يحدثنا عن أوجه الحياة الثقافية في السويد توجهنا إلى البرج وهو المنارة التي يمكن أن تشاهد من فوقها كل مدينة ستوكهولم .

يرتفع هذا البرج بمقدار ٥٠٨ أقدام عن سطح الأرض ، ويزوره أكثر من ثلاثمائة ألف زائر سنويا . وهو يتكون من ٣٤ طابقا ، تشغل معظمها إدارة المواصلات السلكية السويدية التي تستخدم البرج للبث الإذاعي : المسموع والمرئي . وفي أعلى البرج شرفة مزودة بأعداد من آلة الناظور وبفتحات خاصة للتصوير ، كما أن في البرج مصعدان سريعان . واستكمالاً لجولتنا هذه زرنا متحف فاسا ، وهو متحف بحري ، يتخذ من سفينة فاسا الحربية مقرا ، ولاتخلو قصة هذه السفينة من الغرابة ، فقد بنيت تلبية لرغبة الملك جوستاف ادولف الثاني ، وكان ذلك قبل تورط السويد في حرب الثلاثين عاما ، ولم تكد السفينة تبحر حتى غرقت على مقربة من ميناء ستوكهولم في عام ١٦٢٨ ، وبعد ٣٣٣ سنة اكتشفت السفينة وهي على عمق ثلاثين مترا ، وجد فيها أشرعة ملاحة ، ومدافع ، وهياكل عظمية بشرية ، وملابس ، ومعدات ، ومصكوكات نقدية ، وغير ذلك . ولقد تم اكتشافها وانتشالها في عام ١٩٦١ ، وتقرر منذ ذلك الحين أن تصبح بما تحتويه من نفائس متحفا يؤمه الناس . يبلغ طول السفينة ٦٢ مترا ، وتصل حمولتها إلى ١٣٠٠ طن . كان عتاد هذه السفينة يتكون من ٦٤ مدفعا برونزيا وتبلغ منطقة الشراع فيها ١٢٠٠ م^2 . يزور هذه السفينة ـ المتحف ـ مالا يقل عن نصف مليون زائر كل عام ، وهي معلم من معالم المدينة البارزه .

الطريق الى اوبسالا

اوبسالا مدينة جامعية صغيرة ظلت تحتفظ لنفسها بمكانة مرموقة بوصفها مركزا ثقافياً ودينياً مهماً منذ عهود الفايكنج الغابرة .

تبعد عن ستوكهولم حوالي ٧٠كم ، ويستغرق الوصول اليها بالقطار حوالي ٤٥ دقيقة . زرنا في هذه المدينة أكبر كاتدرائية شيدت في الشمال الاسكندنافي في القرن الثالث عشر ، وقلعة اوبسالا التي بنيت في عام ١٥٤٠ ، وكذلك الجامعة التي تعد من أقدم جامعات السويد وأعرقها . يرجع تاريخ انشاء الجامعة الى العصور الوسطى ، وفيها مكتبة تحتوي على الكثير من المخطوطات التي ترجع الى ذات الفترة . من تلك المخطوطات نسخة من الانجيل كتبت بالخط القوطي في عام ٥٢٥ م ، وهي اقدم نسخة مكتوبة بهذا الخط .

يرجع تاريخ انشاء مكتبة الجامعة الى عام

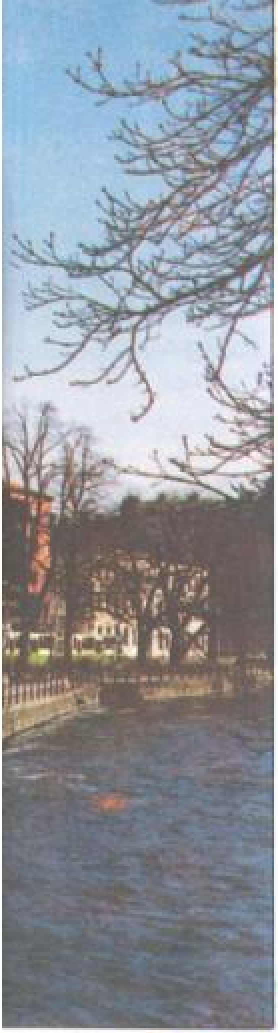

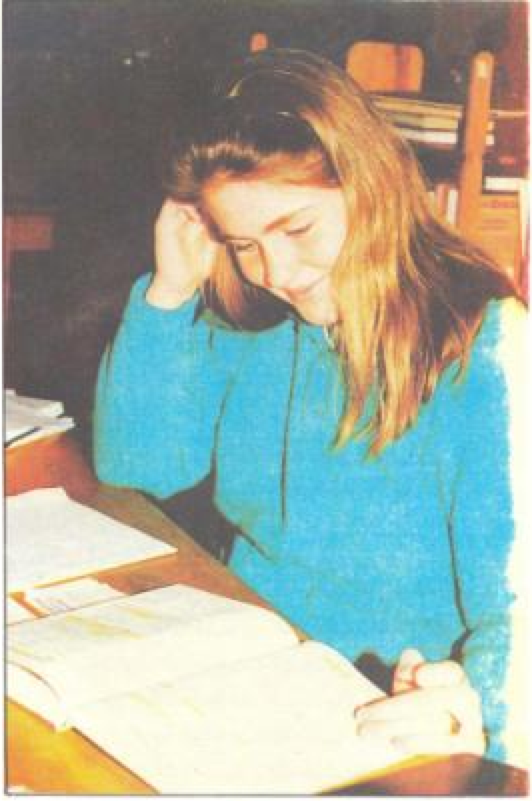

(أعلى - يسار) شارع في أوبسالا ، المدينة الجامعية العريقة ، يطل على نهر دافق (أعلى - يمين) فتاة جامعية تنتفع بالمراجع التي توفرها لها مكتبة جامعة أوبسالا الضخمة .

أسفل : الدكتور نور ديسيو مدير التصنيف والفهرسة يبحث عن كتاب ، ثم مبنى المكتبة الذي يقع على هضبة تطل منه على أرجاء المدينة ، يلي ذلك صورة لإحدى المخطوطات العربية أو الشرقية القديمة بعد أن استقر بها المقام في مكتبة جامعة أوبسالا .

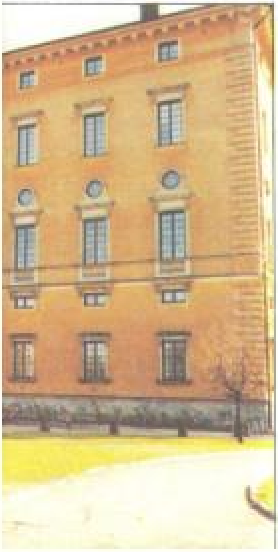

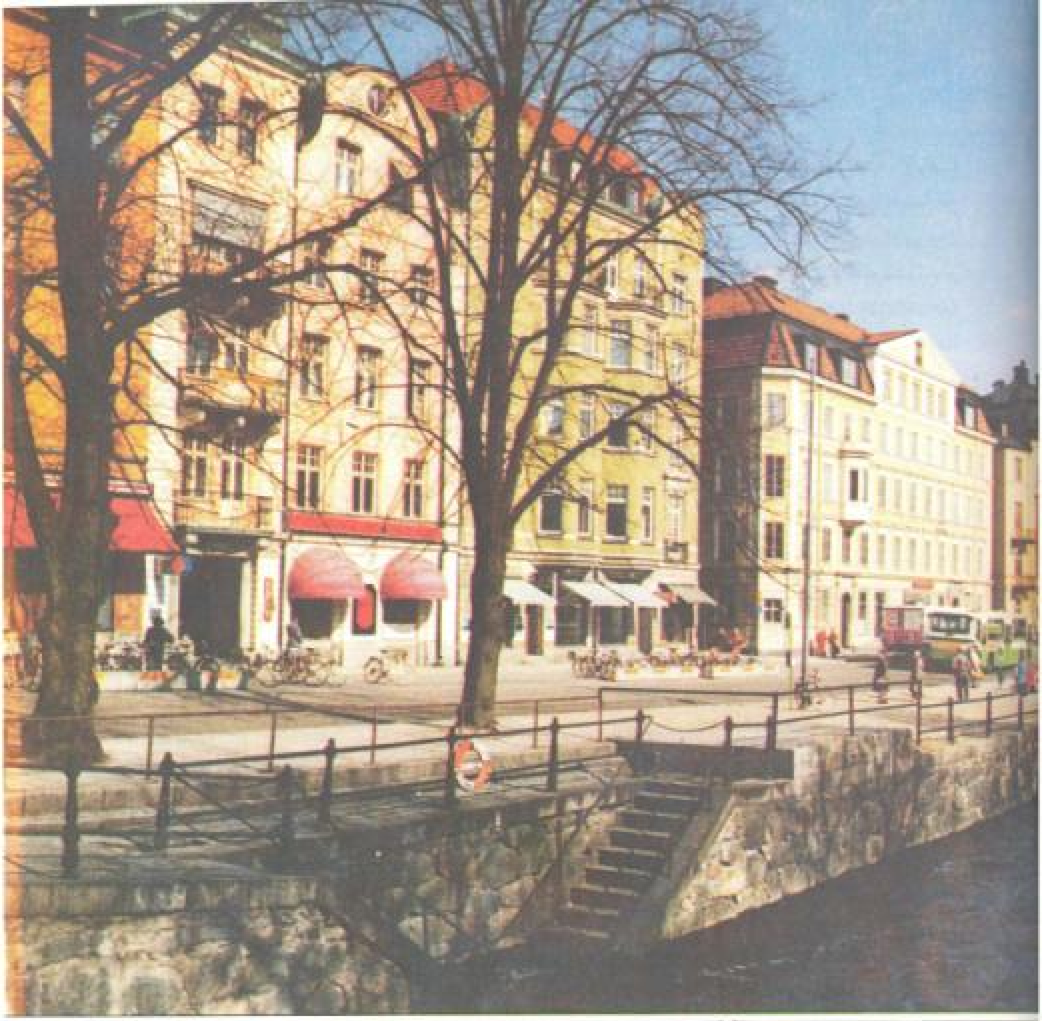

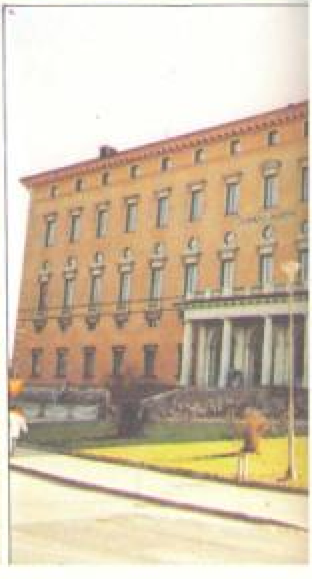

١٦٢٠ ، فهي اليوم أقدم وأكبر مكتبة في السويد . كانت اولى مقتنياتها من الكتب قد جاءتها هبة من الملك غوستافوس أدولفوس ، وهي هبة ضمت مجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات ، ثم صارت تتلقى سنويا مبلغا من المال لشراء الكتب . لم يكتف الملك بذلك ، بل امر بأن تذهب غنائم الجيش من الكتب الى تلك المكتبة ، وكان خير مثال على هذا الاجراء ان الجيش السويدي جاء بالانجيل الفضي من براغ عندما دخلها في عام ١٦٤٨ . وهذا الاجراء يوضح لنا كيف يمكن أن تستغل الحروب والسياسة والتجارة في جلب الآثار القديمة والمخطوطات النفيسة لتزدان بها المكتبات ودور الآثار والمتاحف في غير أوطانها .

مكتبة اوبسالا .. والتراث العربي

لايسع المرء أن يذهب الى اوبسالادون ان يسأل عن بعض من المخطوطات العربية التي كانت قد وجدت سبيلها الى أرفف مكتبة الجامعة .

قلت للدكتور هانز نورديسيو مدير قسم التصنيف والفهرسة في المكتبة :

* نحن نعلم أن اعداداً غير قليلة من المخطوطات العربية قد عبرت القفار والبحار ، واستقر بها المقام في مكتبة اوبسالا بعد رحلة طويلة .

ـ نعم ، وهذه المخطوطات موجودة ، والاطلاع عليها متاح لكل باحث ودارس .

* لاشك أنك تعرف كيف جاءت ؟

ـ اعرف على وجه اليقين اننا اشتريناها ولم نسرقها !

لقد ارتحل كثير من تراثنا ـ مخطوطات وآثار ـ الى عدد من المتاحف والمكتبات الاوربية في الوقت الذي كانت فيه أجزاء من الوطن العربي تخضع للاحتلال الأوربي . وكان شعار الاحتلال حيثما حل : فرق تسد . ومع الفرقة تسهل عمليات السلب والنهب .

ان لوصول المخطوطات العربية الى مكتبة اوبسالا قصة لاتخلو من طرائف وغرائب . يبدأ الفصل في تلك القصة برغبة أبداها اوسكار الثاني ملك السويد والنرويج في تأليف كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام يبين أساليب عيشهم ، وعاداتهم في الزواج والمأكل والمشرب ، وحروبهم ومعتقداتهم ، ورصد لذلك جائزة ، وألف لجنة تنظر فيا يقدم اليها من مؤلفات ضمت نخبة من كبار المستشرقين الاوربيين آنذاك ، ولاغرابة أن جعل الدكتور الكونت كارلو دي لندبرج كاتب اسرار تلك اللجنة ، فقد كان هذا الكونت هو الذي حث الملك على الاهتمام بتاريخ العرب والاسلام .

كان لندبرج ـ وهو سويدي ـ قد درس في ستوكهولم ، ثم في جامعةليبزج بالمانيا .

بدأت صلة لندبرج المباشرة بالوطن العربي عندما صار قنصلاً عاماً في الاسكندرية بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٣ ، « وخلال هذه الفترة جمع كميات كبيرة من المخطوطات من مصر والبلاد العربية » ، كما جاء في كتاب « تغريب التراث العربي » للدكتور محمد عيسى صالحية .

كان لندبرج قد تعلم التركية والعربية فضلاً عن عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ، وقد ألف وحقق ونشر عدداً من الكتب « أمثال أهل برّ الشام » ، و « قصص عربية جديدة » ، وشرح ديوان زهير بن أبي سلمة ، ووضع بحثاً في لهجة حوران ولغة عنزة . لكن الأهم من ذلك كله هو أن المستشرق نجح في حمل عشرات المخطوطات اليمنية « بالاضافة الى الحجارة الحميرية والآثار » بل « استطاع خلال جولاته وتنقلاته في البلاد العربية أن يحصل على أكثر من ألفي مخطوط » .

لو أردت الرد على الدكتور هانز نورد يسيو مدير قسم التصنيف والفهرسة في مكتبة جامعة اوبسالا لقلت : ان لندبرج لم يسرق تلك المخطوطات ، ولكنه اشتراها بثمن بخس مستفيدا من ظروف الاحتلال البريطاني اولاً ، ثم من العلاقات المتردية بين القبائل العربية التي أجججت نار الفتنة بينها سياسة « فرق تسد » التي اتبعتها بريطانيا في مستعمراتها .

اللغة العربية في السويد

ذكرنا أثناء الحديث عن الرفاه الاجتماعي ان التعليم المجاني حق مكتسب لكل المواطنين ، ولكننا دعينا لمشاهدة تجربة في التعليم قلما تتاح للأجانب في

البلدان الأخرى . فالطالب الأجنبي الذي يكتسب الجنسية السويدية أو الطلبة السويديون الذين ينحدرون من أصول أجنبية ، كل هؤلاء لهم الحق في تعلم لغاتهم الأصلية ، ليس على نفقتهم الخاصة ، أو في مدارس خاصة ، بل تكفل لهم هذا الحق مدارس الدولة الرسمية ،وعلى نفقتها ، فليس غريبا إذن ان تجد في اعضاء هيئة التدريس مدرسون فنلنديون يقومون بتعليم السويديين ذوي الأصل الفنلندي لغة بلادهم الأصلية : اللغة الفنلندية ، وليس غريبا أيضا أن تجد مدرسين عرباً يعلمون طلابا سويديين منحدرين من أصول عربية لغة بلادهم الأولى : اللغة العربية .

في مدرسة برونًا في ضواحي ستوكهولم تعرفنا إلى ثلاثة من المدرسين العرب هم : حسن بركات فلسطيني الأصل سويدي الجنسية ، والسيدة رجاء قمحاوي والآنسة تبريز حداد وهما سويديتان من أصل سوري .

يقول السيد بركات : بدأ الفنلنديون حملة من أجل تعليم أبنائهم لغة وطنهم الأم ، وقد شاركتهم المطالبة اقليات عرقية أخرى ، فاستجابت الجهات المعنية لتلك المطالب ، واصدرت القرارات التي تنص على هذا الحق ، حق الاجانب الحاصلين على الجنسية السويدية في تعليم ابنائهم لغة اوطانهم الاصلية في المدارس الحكومية ، وكان ذلك في عام ١٩٧٥ . ولقد أكدت تلك القرارات ذلك الحق حين أعطت تبريرا نفسيا له ، وهم يقولون في ذلك التبرير ان من حق هؤلاء الطلبة أن يأخذوا دروسا تعلمهم لغة أوطانهم الأولى ، على أن يقوم بتدريسها لهم معلمون جاءوا من تلك الاوطان فهم أدرى بلغتهم من سواهم ، فضلا عن أنهم اكثر قدرة على النطق السليم ، والغرض من ذلك هو الإبقاء على صلات القربى مع أسرهم وأهلهم في الأوطان الأولى ، فذلك أدعى للحفاظ على تراثهم الثقافي وأجدر ببعث الطمأنينة في نفوسهم .

يجب أن نقر لهم بهذا الحق ما دمنا نطالبهم بتعلم اللغة السويدية وهي لغة وطنهم الجديد .

● الدكتور جيرو هيننج وزوجته العربية الأصل السيدة مي

أما عن انطباعاتهم عن الحياة في السويد فقد تحدثوا باسهاب وحماسة .

تقول السيدة رجاء قمحاوي : لم يكن والداي سعيدين بمغادرتي سوريا بعد أن أنهيت الدراسة الثانوية ، وقدمت إلى السويد طلبا للعلم ، ولكنهما لم يعترضا على فكرة السفر . ولقد صادفتني في البداية صعوبات كالتي تصادف المغتربين عادة ، وبعد مدة بدأت بالتكيف مع طبيعة الحياة هنا ، وتزوجت من شاب فلسطيني واكتسبنا الجنسية السويدية .

أود ان أقول اننا نتمتع بكل حقوق المواطنة واننا سعداء بما حققناه .

السويديون طيبون للغاية ، وفيهم حياء لاتجده لدى كثير من الأوربيين . يكفي أن وجه الواحد منهم يحمرّ خجلا اذا أحس أنه تسبب للاخرين بشيء من الضيق أو الازعاج . وهم حياديون حتى في صلاتهم الشخصية بالاخرين أعني أنهم قد لا يبادرون بالمودة ولكنك ان بادرتهم بهااستجابوا واقبلوا عليك بمشاعر ودية صادقة .

وقالت الآنسة تبريز : السويديون منضبطون يحبون النظام ويلتزمون به عن طواعية . وهم شعب مثقف وأعني بذلك أنهم جاوزوا مرحلة التعليم الرسمي وبلغو مرحلة الثقافة الانسانية الشاملة . انهم يقبلون على تعلم اللغات الاجنبية اقبالا حسنا للرغبة في الاطلاع على ثقافات الشعوب الاخرى . لذلك لا يشقّ على الزائر أن يجد لغة يتكلم بها . فهم - أو معظمهم - يتقنون الالمانية والانجليزية والفرنسية . □

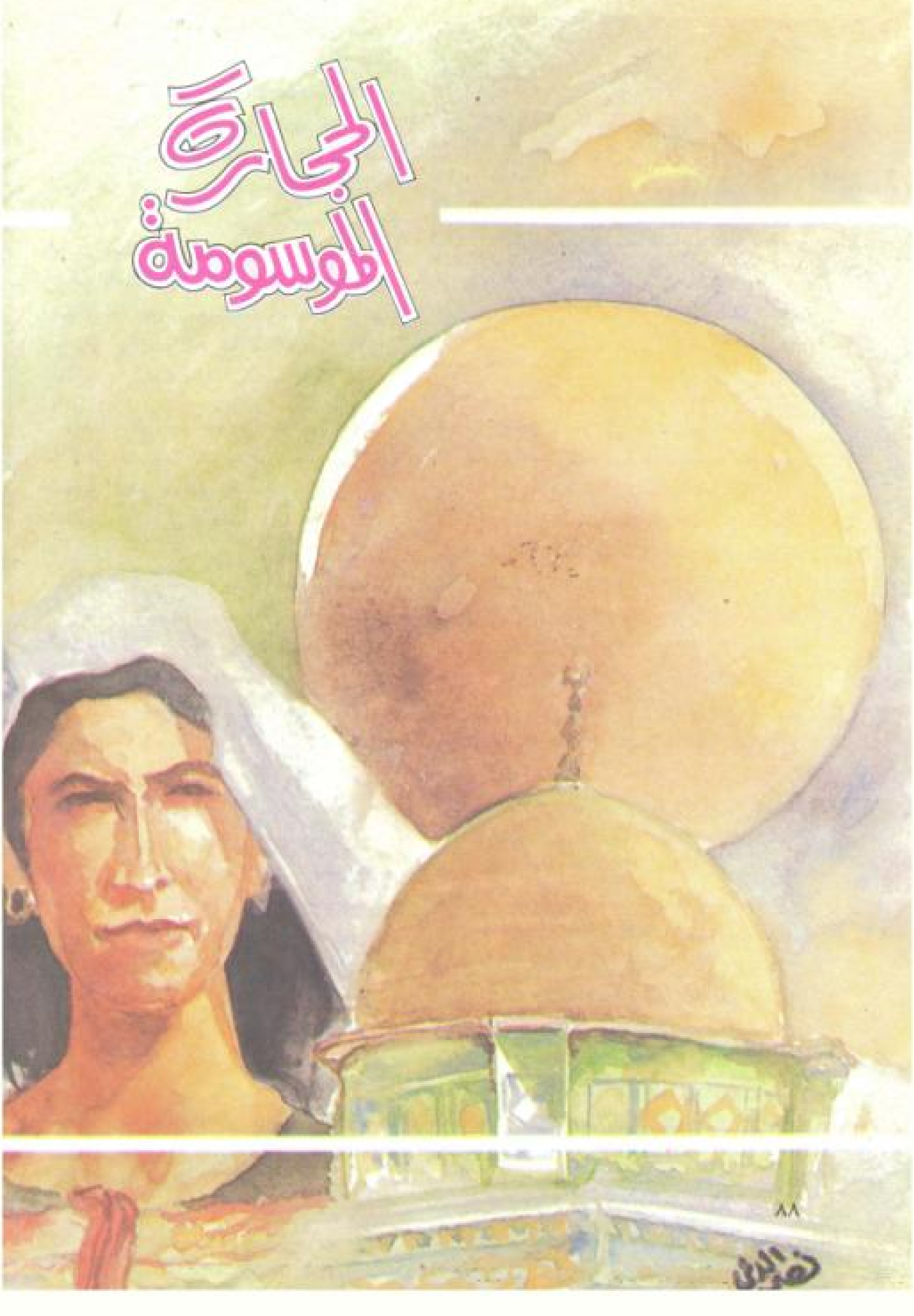
الحجارة
الموسومة

شعر : محمد الفايز

ياقدسُ إنَّ حياةَ الناسِ مُذْ وُجِدتْ
تَجَمَّعَ الشَّرُّ مِنْ شتّى تجاربِه
والشَّرُّ يأخذُ في شتّى مراحلِها
تُبْنَى القلاعُ لطاغٍ ثم يَهْدِمُها
قدْ حاصروا كلَّ شيءٍ في نقائضِه
وتستعيرين مِنْ ضِدٍ وسائلَهُ
كانوا على عهدِ موسى عاكفين على
صاروا ذريعةَ غزوٍ حشوةَ دُوَلْ
هيهاتَ ما دخلوها منذُ أنْ عرفُوا
لكنهم صنعوا منها شعائرهُم
إنْ يحرقوا القببَ الخضراءَ أوْ دخلتْ
فاللهُ قد خلقَ النيرانَ واشتعلتْ
لئنْ تَعَفَّنَ جسمٌ في رواسبِهِ
قدْ حاصرَ الصدأُ الموروثُ أسلحةً
حجارةٌ خلفَها موسومةٌ فيها
صارتْ حجارتُكِ الخضراءُ عاقلةً
ستمكثين مدارَ الفكرِ في زمنٍ
وما دخلتُكِ لكنّي مررتُ على
غزوٍ بسانَدهُ غزوٌ يجيءُ به
قالوا أتكتُبُ عنْ أرضٍ ولمْ ترَها ؟

غزوٌ يبرِّره مِنْ ظافرٍ ظفرُ
كما تجمَّعَ في المرجومةِ الحجرُ
أزياءهُ وله أزياؤهُ الأُخَرُ
طاغٍ جديدٌ تبنّى إفكَهُ نَفَرُ
وحرَّضُوا مِنْ لصوصِ الأرضِ فانتصرُوا
فتعثرين بهمْ أوْ أنهم عثروا
ضلالهم ثُمَّ هاموا بعدَما اندحرُوا
قدْ غرَّرتْهُمْ بدعواهم وما شعرُوا
عنِ الدخولِ ولا حجُّوا ولا اعتمرُوا
وما لديهم بها عِلْمٌ ولا خَبَرُ
من غيرِ أبوابِها الغيلانُ وانتشرُوا
بأمرِه وبها الأشياءُ تنصهرُ
فالأرضُ مِنْ بعضِها تنمو وتزدهرُ
مخزونةً وانتفضى أحجارُكِ القدرُ
من هيكلٍ نقشةٌ أو معبدٍ أثرُ
يُرمى بها صنمٌ أوْ يُقبَسُ الشَّرَرُ
دُكّتْ به هذهِ الأطيانُ والأُكَرُ
أُخرى بها منكِ هذا الغزوُ والتترُ
دمٌ خبيثٌ حواهُ هيكلٌ نخِرُ
فقلتُ في غيرِها الأشباحُ والصُّوَرُ

سيدة القصر..
الجمال وصفقة الشيطان

بقلم : جمال قطب

وقفزت فوق المثل والأخلاق ،

وتعالت على الطبقات الدنيا ، واتسعت دائرة طموحاتها ،

وهي لاتملك سوى جمالها ومفاتنها الجسدية المثيرة ،

حتى وصلت إلى قصر أحد النبلاء ،

واتخذت من بيته ومن اسمه الكبير منطلقا إلى البلاط الفرنسي ،

فوصلت ، وملكت ، وتحكمت ، واستبدت ،

وكانت النهاية . فما بعد القمة إلا الانهيار !

كالفراشات الهائمة بين خمائل الزهر والعطر والغدير كان الفنانون والشعراء والكتاب المبدعون في عهد الرومانسية ، والأطياف الوردية التي يسبح في أجوائها البلاط الفرنسي ، في القرن الثامن عشر ، وكانت أخطر القرارات المصيرية آنذاك تصاغ من المخادع المذهبة في قصور الترف والسرف والرفاهية والبذخ . وهكذا رأينا أن مقاليد الحكم لم تكن بيد الملك ووزرائه ومستشاريه ، وإنما كانت بيد سيدة البلاط ، سواء أكانت هذه السيدة محظية أم زوجة أو خليلة . تستمد نفوذها وسلطانها من جمالها وفتنتها ، وخبرتها في المغامرات ، والعبث بقلوب الرجال ، رجال القمة وقصور الحكم في العاصمة الفرنسية العريقة . تسابق الفنانون ـ على اختلاف تخصصاتهم ونزعاتهم ـ إلى استلهام صاحبات الجمال والدلال والنفوذ ، وانتعش هذا الحوار الإبداعي المتألق المثير ، وتحول إلى عطاء خالد رفيع ، ودارت عجلة الزمان ،ومضت رحلة الحياة ، واستقرت روائع الفنانين العظام في المتاحف ودواوين

اللقاء الأول بين لويس الخامس عشر
ومدام دي باري
(لوحة من فن الحفر الفرنسي)
رسمها نيكولاس بونيس عام ١٧٧١

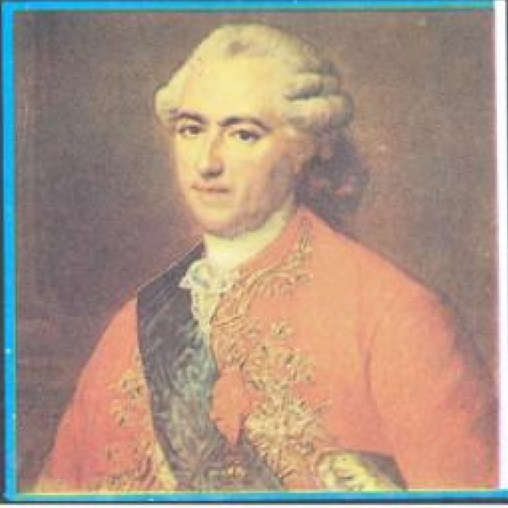

وحلمت القائنة بأن تعيد سابقتها مدام دي بمبادور .
(لوحة مدام دي بمبادور الشهيرة) من أعمال دي لاتور « متحف اللوفر » .

لويس الخامس عشر ، لوحة رسمها درويه في عام ١٧٧٣
« بمتحف فرساي » .

رائعة قصر فرساي
(مدام دي باري) .

التراث بين أصالة الموهبة وجلال العبقرية ، وتلألأت تلك الآيات الفنية ، لتبهر البصر والبصيرة وتزيدها الأيام رسوخا في وجدان البشر ، فلا تتمثل في خاطرنا غير صور الحسناوات الفاتنات ، تتدارسها قيمة فنية خالصة ، ويزيد من قيمتها اسم الفنان ، وبعد الزمان ، وعراقة المكان !

وفي عالم اليوم تتهافت الدنيا على اقتناء تلك اللوحات العبقرية ، حتى تصل أثمانها إلى أرقام فلكية عجيبة ، ويتساءل الناس : كيف ؟ ولماذا ؟ لكنها الحقيقة الماثلة أمامنا ، تؤكد أنها قطع من التراث والعطاء الإنساني ، كأسمى ما تجود به الطاقات البشرية عبر القرون .

وتزخر كتب التاريخ - وتاريخ الفن بوجه خاص - بالعديد من صور الفاتنات ، ويتبادلها الباحثون بالتحليل والتقييم . ومع هذه الأبحاث الفنية الخالصة لابد من استرجاع المعلومات التاريخية ، حتى يتأتى لنا أن نقرأ اللوحة ، كما نقرأ صفحة التاريخ .

الطموح والثمن

الكونت جان دي باري والحسناء التي حملت اسم عائلته النبيل ، تلك التي عرفت في التاريخ باسم (مدام دي باري) ، هما صنف واحد من المغامرين المقامرين الذين يلهثون للوصول إلى القمة من الأبواب الخلفية ، مرورا بالأعتاب التي تطؤها أقدام الساهرين والسامرين والمتاجرين في بيع العبث والمتعة للحجرات المغلقة . ومن عجب أن اسم (مدام دي باري) قد اقترن في التاريخ بعاهل البلاط الفرنسي لويس الخامس عشر . والزائر لقصر (فرساي) بباريس حاليا يشاهد ضمن تحفه ومزاراته المهمة جناح مدام دي باري ، وصورها ، وتماثيلها التي أصبحت جزءا لايتجزأ من تاريخ الدولة الفرنسية .

اسمها الأصلي : ماري جان بيكو ، وولدت نحو عام ١٧٤٦ م ، فليس لدى المؤرخين ما يثبت تاريخ ميلادها على وجه التحديد ، وهم لايكترثون بالروايات العديدة التي ذكرتها ماري عن نفسها وأصلها وحسبها ونسبها ، وكثيرا ما كانت تذكر سني عمرها بأرقام مختلفة في جلساتها ، كما كانت تتباهى بمغامراتها مع الوجهاء والمشاهير في عصرها .

نشأت ماري في بيئة متواضعة ، فقد كان أبوها موظفا صغيرا من جباة الضرائب ، كما كان ضعيف الذاكرة إلى حد أنساه أن يتزوج أمها زواجا شرعيا ! وشبت الفتاة بين الفقر والحرمان والتمزق العائلي ، وتفجرت أنوثتها سريعا بشكل جعلها موضع تطلعات الشباب في قريتها (فوكولور) . وقد أشعل الفقر والحرمان خيالها وطموحها ، فهجرت بلدتها إلى العاصمة باريس ، وهناك وجدت ما يرضي نزواتها ، ويحقق أحلامها ، وما يتفق مع ما تحظى به من جمال ومفاتن جسدية مثيرة . وكأي فتاة تقفز فوق المثل والأخلاق ، ولا تقيم لها وزنا ضاعت في قاع المدينة ، وما لبثت أن تعاظمت طموحاتها ، فتعالت على الطبقات الدنيا ، ووسعت دائرة مغامراتها الطائشة ، حتى وصلت إلى قصر أحد النبلاء من ذوي الأسماء الكبيرة ، إنه الكونت دي باري (وهو لقب نبيل ، لايحظى به إلا صفوة القوم الذين ينحدرون من الأسر ذات العراقة والأمجاد) .

صفقة الشيطان

كان الكونت دي باري يتخذ لنفسه بيتا في باريس ، يتناسب مع منزلة لقبه وعائلته . وقد فشل الكونت في حياته العملية ، وأخذ يعيش على ما بقي من تراث العائلة ، يتاجر في الصفقات المشبوهة ، ويضع نفسه في خدمة البلاط ورجاله وشئونه ، ما ظهر منها وما بطن . وقد أوصلته حالة الإفلاس التي يقاسيها إلى اصطياد المال بشتى الوسائل ، واقتناص الفرص لإرضاء الموسرين من علية القوم . وهيهات أن تتاح له الفرصة من سيد البلاط لويس الخامس عشر ، فهو يعاني من الوحدة بعد موت خليلته مدام دي بمبادور ، تلك الفاتنة التي حولت فرنسا إلى ضيعة ، تستثمرها لحسابها ، وهي في فراشها بقصر الحكم .

مدام دي باري . لفنانة البلاط الفرنسي الشهيرة فيجيه لوبران ،
التي تـألقت في عهد ماري انطوانيت بعد أن توطدت الصداقة بينهما .

وقد وجد الكونت العجوز ضالته المنشودة في تلك الفتاة الجامحة ماري جان بيكو ، فإن لديها من كنوز الفتنة ما تتفوق ، به على مدام دي بمبادور . فكيف لا يستغل هذه الفرصة السـاعة ؟ وكانت الفتاة الطموحة أسرع منه في سعيها إليه ، لتسلم له قيادها ، ولتتخذ من بيته شركا للصيد الثمين . ورسمت في مخيلتها ثروات فرنسا وهي في قبضتها ، وكيف تتربع على عرش الجاه والنفوذ والسلطان . ولقد أضحت ملء الأسماع والأبصار ، وأصبح كثيرون من رجال المجتمع الارستقراطي يتمنون أن يحظوا بصداقتها ورفقتها ، والجميع يثنون على مواهبها وجمالها وسحر لحاظها . وها هي ذي فرصتها الكبرى في القفز إلى قصر فرساي ، منطلقة من بيت هذا الكونت المغامر .

لكن شيئا ما ينقصها لتكتمل حلقات المخطط ، إنها بحاجة إلى اسم كبير يفتح أمامها بوابات القصر الملكي ، وهذا الاسم المنشود بيد الكونت العجوز ، فليتصرف ، وسيقتسمان معا أرباح الصفقة .

الزيارة

فوجئت أسرة الكونت (وهو عميدها ومدبر شئونها) بمقدمه إليها في الريف ، بعد طول غياب ، وقد اختلطت تجاعيد وجهه بحبات العرق ، ومظاهر العصبية والاضطراب ، وسرعان ما وقفوا منه على حقيقة أمر هذه الزيارة المفاجئة ، وبعد مناقشات ومحاورات أشار الكونت إلى شقيقه الشاب (وليم) بلهجة آمرة ، لكي يستعد فورا لاصطحابه إلى باريس ، وكانت الخطة كما يلي : يقيم (وليم) عدة ساعات في بيت شقيقه ، ويتم إعلان زواجه بماري جان بيكو ، ويوقع على عقد الزواج ، لكي يمنحها اللقب النبيل : الكونتيسة زوجة الكونت وليم دي باري ، ولتصبح هي : مدام دي باري ، ثم يعود وليم فورا إلى الريف بعد توقيعه على العقد ، ويترك لعميد العائلة التصرف ، ويترك ماري لباريس وللملك باريس . وستكون المحصلة المرتقبة جاها ومالا ، ينعم بها كل أفراد العائلة العريقة المفلسة !

وتم كل شيء كما خطط له الكونت . وكانت للعائلة التي ترضخ لأوامره مبرراتها ، فقد كان أفرادها على الرغم من عراقة أصولهم ، يفوقونه فشلا ، لكنهم يتباهون بأمجاد الماضي ، وقد نضبت مواردهم إلى حد العوز والغرق في الديون . وقد راقت الفكرة في أعينهم ، في وقت يبحث فيه لويس الخامس عشر عن محظية جميلة ، تأخذ مكان الراحلة الأسطورية مدام دي بمبادور . وأغلب الظن أن الكونت الكبير في وسعه ـ بمعونة شركائه من المنتفعين ـ أن يصلوا بماري إلى هذه المكانة ، وكل شيء له ثمن ، وأي ثمن !

وحدث ما توقعه شركاء الصفقة تماما ، وانهال

الذهب على خزائنهم الخاوية ، لكن هذا الذهب قد اختلط بدماء الضحايا ، وعرق الفقراء من أفراد الشعب الضائع البائس ، أولئك الذين أثقلت كواهلهم بالأتاوات والضرائب الباهظة . وامتثل لويس الخامس عشر لأطماع حسنائه اللعوب ، وانصاع لأوامرها . وأعادت مدام دي باري سيرة مدام دي بمبادور مرة أخرى ، فلقد تقربت وملكت وتحكمت واستبدت . لكن الجريمة لم تمر بلا تبعات ، فلم تفلت غادة القصر من العقاب في آخر المطاف ، فقد مات لويس عام ١٧٧٤ ، وبموته انزوت رفيقته في عزلة عن عيون الشعب المكدود الذي استنزفت دماءه . وعاشت الغانية في رعب وذعر ، تنتظر القصاص بين لحظة وأخرى . وطال بها الانتظار القاتل سنوات ، كأنها الموت البطيء .

تولى لويس السادس عشر حكم فرنسا مع زوجته ماري انطوانيت ، في فترة تزدحم بالاضطرابات والأحداث الجسام ، حتى هبت العاصفة التي اقتلعت كل الجذور ، فقد قامت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، حيث فتحت الملفات وراجعت الحساب ، واحتل اسم مدام دي باري رأس القائمة . وكانت آنذاك سادرة في غيها ، تلهو وتغامر وتقامر، بعد أن ظنت أن صفحة الماضي قد طويت ، وذابت تحت تراكمات السنين والأحداث .

وفي صباح السابع من ديسمبر عام ١٧٩٣ اقتيدت المغامرة الحسناء إلى المقصلة الرهيبة في الميدان العام ، وأمام الجموع الهادرة هوت السكين على رقبتها الجميلة لتنهي حياتها إلى الأبد ، ولتنتهي بموتها قصة واحدة من أجمل فاتنات التاريخ اللاتي ألهمن المبدعين والمؤرخين بسيل من الإبداعات العبقرية الخالدة . □

مختارات لطاغور

طاغور

- دع للموتى خلود الشهرة ، وللأحياء خلود الحب .
- نحن نحيا في هذا العالم عندما نحب .
- الحياة عبور بحر ، وهناك نلتقي جميعا في نفس المركب الضيق .
- قدنى الى وسط الكون لأملأ قلبى بالأغاني .
- القى ظلى على طريقى ، لأن لى مصباحا لم يوقد .
- الزيف هو الذي لا يمكن أن يكبر في الحقيقة ، لذلك يكبر بالقوة .
- الليل يرحل نحو النور ، والعمر نحو الموت .
- الرجل عقبة أمام نفسه .
- الضباب كالحب ، يلعب على قلوب التلال ، ويجلب مفاجآت من الجمال .
- لا أستطيع اختيار الأحسن ، ولكن الأحسن هو الذي يختارني .
- لا تتلقى أحواض الأنهار الجافة شكرا على ماضيها .
- قاسيت ويئست ، وعرفت الموت ، وانى مسرور . . انى من هذا العالم العظيم .

وجهاً لوجه

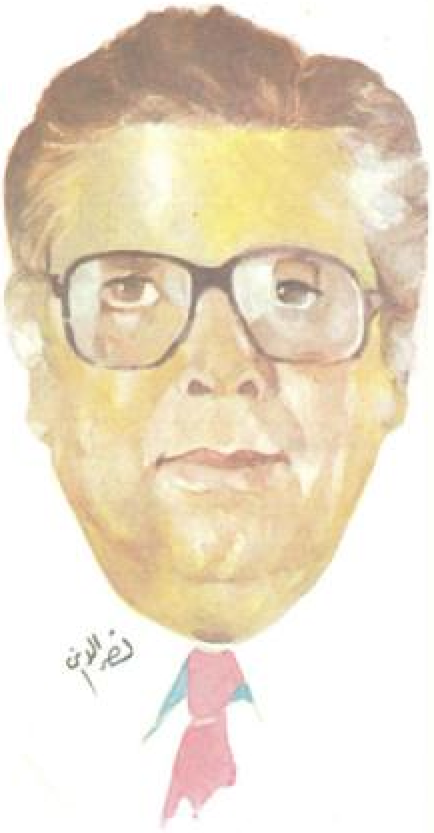

د. هشام جعيط و ماجد السامرائي

- جانب كبير من فكرنا العربي المعاصر ما زال مشغولاً بإعادة طرح الأسئلة القديمة .
- ليس من مهمة المفكر أن يقدم حلولاً جاهزة
- أطالب المفكر بإنتاج الوعي .
- صلة المفكرين بالجمهور وبسلطات القرار ضعيفة

ينتمي الدكتور هشام جعيط إلى جيل من الباحثين العرب المعاصرين الذين يعنيهم من التاريخ (العربي الإسلامي على وجه التحديد) حركاته الأساسية التي شكلت مدار الحياة فيه ، وحركت أحداثه بما كان لها من اتجاهات ، فهو في بحثه يتوجه إلى « حركة التاريخ » بما للفكر من توجهات فيه ، وتوجيه لبعض من مساراته

وهو إذ يكتب في التاريخ لايكتب من « موقع الراوي » ، إنما يتأمل في الحركات وما ينبثق عنها من « معان » ، فيرصد ويستجمع ويحلل ، ثم يستنتج . وغالبا ما تجيء استنتاجاته « أحكاما فكرية » ، تحاول أن تمتد بتواصلاتها إلى الحاضر ، فالتاريخ عند هشام جعيط يمثل « حالة تواصل » في حياة الأمة .

والذي يهم هشام جعيط في نطاق دراساته في حقل التاريخ هو أن يعطي هذا التاريخ حقه ـ كما يقول ـ لأنه يرى « أن التاريخ العربي تاريخ مظلوم » ، فهناك ابتعاد عن الماضي ، و « هذا القرن منغمس في حاضره » ، والإنسان فيه يرى أن حاضره ـ أي الحداثة ـ هو كل ما وجد في العالم ، بينما يرى الدكتور جعيط من زاوية النظر التي يطل منها على التاريخ والحاضر معا « أن هذا الماضي يلعب دورا في خلق النشأة الإنسانية » ، فالإنسانية عنده لم تأت من العدم ، والحداثة أتت بعد تطور كبير ، ومن هنا فهو يجد أن لهذا الماضي جاذبيته ، وهي جاذبية متأتية « من كونه دراسة للإنسانية » ، أما المقصود منه فهو « إعادة اكتساب ماضي الإنسانية » .

وقد أدار الحوار الزميل ماجد السامرائي ، وهو كاتب صحفي من العراق .

● تقدم نفسك باستمرار بوصفك مؤرخا ، في حين أن صورتك الفكرية في ذهن المثقف والقارىء العربي أنك « مفكر » يرتكز على التاريخ في دراساته الفكرية ، وهذا ما يحدونا إلى طلب تحديد أبعاد شخصيتك الثقافية ، كما تراها أنت .

ـ بالنسبة للقارىء الذي قرأ « أوروبا والإسلام » و « الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي » قد أظهر له بمظهر المفكر الذي يعتمد أساسا على التاريخ .

لكن هذا القارىء عندما يقرأ كتابي عن « الكوفة » سأظهر له إن شاء الله ، بمظهر المؤرخ أيضا .

عندما تقول : « المفكر الذي يرتكز على التاريخ » فلابد أن يكون مؤرخا ، وأن يثبت أنه « مؤرخ » وأن يقوم بعمل وضعي ، لكن في هذا العمل نوعا من « التفكير » ، فهو ليس بالتاريخ الآلي .

نحن نتكلم عن التراث ولكن لابد للمثقف العربي من أن يقوم هو أيضا بالتفكير بهذا التاريخ .

هاجس المعرفة

● إلا أن ما يبدو هو أن التاريخ يشغلك ، والدراسة التاريخية تستأثر باهتماماتك وجهودك العلمية ، وإن كان ذلك يتم من خلال نظرة جديدة ، ويبدو الآن من خلال بعض ما تكتب في هذه المجالات ، أن هناك مشكلات قائمة تراها في هذا التاريخ ، منعكسة بتأثيراتها على الحاضر .

ـ ممكن ، منذ بدأت دراستي التاريخية الاسلامية كان هاجسي دراسة الماضي العربي من الوجهة التاريخية ، لأني لم أكن مرتاحا لأغلب الدراسات التاريخية العربية المعاصرة أو الحديثة . وكان هاجسي أيضا « هاجسا معرفياً » ، فالتاريخ معرفة وعلم ، وهو إعادة اكتساب للروح البشرية القديمة ، ولكن هناك أيضا طريقة ، ومنهجا ، وبحثاً ، وعلما ومعرفة و « هاجسا معرفيا » كذلك يلعب دوره ، ويعطي المفكر ثقلا ووزنا وبعدا وعمقا (وهو ما أسميه « العمق التاريخي ») ، وإلا دار التفكير في فراغ .

وهناك ، من جانب ثان ، وجه آخر لشخصيتي هو : العمل التفكيري الذي قمت به . فهناك هواجس آنية . . . : هواجس تخص الحاضر ، والمستقبل استحوذت عليّ ، واهتممت بها وما أزال . وأنا أعتبر نفسي « مفكراً » ، بل لأقل : إنني إنسان يحاول التفكير في نفس الوقت الذي أنا فيه « مؤرخ مختص » ، وإن لم يستحوذ التاريخ عليّ تماما .

● دعنا نركز الحديث على شخصية المفكر ، فنسأل ونقول : حين تتأمل في الواقع الفكري العربي المعاصر أي ملامح ترتسم أمامك ، أو تتشكل في ذهنك عن هذا الفكر في مساره المتحقق فعليا ؟

ـ الفكر العربي المعاصر فكر يبحث عن نفسه أساسا ، وإن هذا « الفكر » ليس فكرا واحدا أحاديا ، بل هو فكر موزع على عدة تيارات وعلى عدة مناهج ، وقد يدخل الكثير في هذا الفكر ، فهناك الفلسفة ، وهناك علم الاجتماع ، وهناك الفكر السياسي ، لكن الذي أراه هو أن هذا الفكر العربي المعاصر لايمكن له ، من ناحية ، أن يكون غير ما هو عليه الآن ، بسبب الأوضاع السياسية العامة والاقتصادية والعالمية والتاريخية ، أي أنه « فكر اقليمي » قبل أي شيء آخر . فهو يهتم بحضارته الخاصة ، وبثقافته الخاصة ، وهو إلى حد ما لايوسع أفقه ليشمل مشاكل أهم وأعمق .

العمومية والعالمية

إن الاقتصادي العربي ـ مثلا ـ لايقوم بتقديم نظرية في الاقتصاد بعامة ، إنما يعمد إلى دراسة عينية للاقتصاد العربي ، أو للاقتصاد في قطر عربي .

وإذا وجدت إنسانا يتحكم في الفكر التاريخي فهو يتكلم عن الفكر التاريخي العربي ، ولا تجد شخصا يقدم نظرية في نقد الفكر التاريخي بعامة أو في نقد المنهجية التاريخية كما يفعل الغربيون .

وعندما تجد عالماً اجتماعياً عربيا فإنك تجده يتكلم في دراسة قطره ، أو الوطن العربي بعامة ، لكنه لايقوم بابداع منهجية جديدة عامة تخص علم الاجتماع ، بحيث تبدو العمومية (وأفضل « العمومية » هنا على « العالمية » لأنها فكرة مجردة من سمات الفكر العربي) .

● وما صلة هذا الفكر بالواقع العربي ؟

إنه ملتصق بواقعه كثيرا ، وهذه هي الناحية الأخرى ، لكن التصاقه هذا غالبا ما يأتي مفرطاً .

● حبذا لو توضح فكرتك هذه ماذا تعني بذلك ؟

ـ بما أن الفكر السياسي هو الفكر المسيطر على الواقع العربي ، فإن التفكير العربي متجه كثيرا وجهة سياسية ، وإن اتخذ بعدا أيديولوجيا ، مثلا : التفكير في الدين أو التفكير في القومية ، أو في مشكلات الواقع العربي نفسه ، فهو من هذه الوجهة مرتبط بالواقع العربي إلى حد كبير ، وقد غلبت على هذا الواقع السياسة والايديولوجيا ، وقد يكون هذا شيئا حتميا من الوجهة التاريخية في هذه الفترة التي نعيشها .

ومن هذه الوجهة أيضا هو فكر لايتسم بالعمومية . وهناك علماء مختصون يريدون في بعض الأحيان أن ينبذوا التقاليد الغربية ليعبروا عن عروبتهم بقوة ، لكنهم في الحقيقة ـ من الناحية المنهجية ـ يبقون إلى حد كبير أسرى « المنهجيات الغربية » ، فتجدهم يعتمدون على التحليل السياسي

الأمريكي ، أو على التحليل الماركسي ، ونادرا ما يقومون بجهد شخصي ، لا أقول لتكوين « منهجية جديدة » ، وإنما للإطلال على هذه « المنهجية الحديثة » ، لقد بقوا في موقف التلاميذ الصغار .

● إلى أي الأسباب تعزو هذا الوضع ؟

ـ أعزوه إلى عدم تفتحهم على الطرق الحديثة في الفكر وفي العلوم الاجتماعية ، إلا منذ عهد قريب .

● ألا تعتقد أن فكرة « النموذج » التي تتمركز عليها أذهاننا في ما تذهب إليه من تفكير ذات صلة مباشرة بذلك ؟ فدائما هناك « النموذج » الذي نراه أو يدركه تفكيرنا ، ودائما هناك « المحاكاة » ، أو « التقليد » من جانبنا .

ـ إنها محاكاة وتقليد دون استيعاب حقيقي وعميق للمنهجية . فلو كان هناك استيعاب حقيقي للمنهجية لاستقل الإنسان بفكره . وهذا ما نجده عند الغربيين . فالغربي يستوعب المنهجيات الموجودة في زمنه ، لكنه في الوقت نفسه يجدد ويبدع ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذا الفكر على الرغم من المسحة الحديثة التي تبدو عليه ، مايزال فكرا إقليميا إلى حد كبير .

الأسئلة القديمة الجديدة

● في هذا السياق لي ملاحظة ، فما يبدو هو أن جانبا كبيرا من فكرنا العربي المعاصر مايزال مشغولا بإعادة طرح الأسئلة القديمة ، وأقربها : أسئلة عصر اليقظة العربية ، وهي أسئلة تتركز على بعض المحاور ، مثل : كيف نواجه التخلف ؟ وكيف نواجه الغرب وما حمل إلينا من قيم غريبة ومغايرة لقيمنا وذاتيتنا الحضارية ؟ وكيف ننهض لنحقق التقدم والرقي ؟ إلى آخر هذه الأسئلة .

ـ صحيح ، صحيح أن فكرنا مايزال يتخبط في هذه الأفكار والمنهجيات ، ومعظم المفكرين اهتموا بذلك ، وكرروا المقولات نفسها ، وليس هناك إبداع حتى في مواجهة مثل هذه المشكلات التي تعنينا ، وليس هناك فيما نشأ حولها من أطروحات ما يسترعي الاهتمام .

● ربما يكون هناك عنصر كامن في طبيعة هذه الشخصية ، شخصية مفكر العصر العربي الحاضر التي تعيد طرح الأسئلة دون أن تقدم أجوبة أو مشروعات أجوبة .

ـ المشكلة أنه ليس هناك أجوبة ، أما الرأي العام فيعتقد أن على المفكر أن يقدم أجوبة محددة لمشاكل هي ليست مشاكل مادية ، وإنما هي مشاكل فكرية أو روحية أو حضارية ، وكأن هذه المشاكل ستحل بلائحة من الأجوبة ، وهذا غير ممكن ، وهو ليس من عمل المفكر .

● لكن هذا الدوران في إطار الأسئلة نفسها ، وعلى هذا المدى الزمني الممتد من أواسط القرن الماضي إلى اليوم ، يقف بنا عند إشكالية خاصة قد تتصل بنا كمجتمع ، أو أنها تتصل بما لنا من بنية فكرية تتمثل في تكوين المثقف أو المفكر العربي .

ـ أعتقد أن الزمان قد أتى على هذه الإشكاليات ، وإن كان يحسن بنا الآن أن نقوم بتقييم لمشاكلنا ، لكن من وجهة إنسانية أعمق ، فنحن كمفكرين مانزال نتخبط في مركبات . ليس عندنا ما يمكن أن نسميه « السكينة الداخلية » الواجبة للمفكر المتعمق وهناك مشاكل موضوعية كبيرة أيضا .

● هل من مثل على ذلك ؟

ـ الجمهور العربي المثقف ، إنه جمهور ليست لديه مطامح فكرية كبيرة ، إنه يطلب من « المثقف العضوي » أن يقوم بإعطاء مفاتيح لمشاكله

الداخلية ، أو لشهواته ومطامحه ، بينما أنا أعتقد أن رسالة المفكر ليست في هذه المشاكل ، لأن مشاكل الحاضر ستكون بعد حين مشاكل قديمة .

هناك مشاكل أعمق ، ليس من مهمة المفكر أن يقدم حلولا جاهزة لها .

● لكن يفترض أن يقدم ما يساعد على التفكير بهذه المشكلات ، والتوصل إلى مايمكن اعتباره حلولا لها أو خروجا منها .

- يساعد على التفكير ، لكنه في الوقت نفسه يجيب بصورة غير مباشرة أو عميقة ، أو بالتلميح إلى أعمق مطامح الفرد والجماعة ، وبصفة دائمة فالشاعر مثلا ليس إنسانا يأتي لك بقائمة أجوبة عن تساؤلات ، فهو بنفسه يتساءل وإن كان تساؤله يأتي عن طريق الفن .

● إنه يصدع برؤيته عن طريق الفن ، والشيء نفسه بالنسبة للفيلسوف ، أما بالنسبة للعالم أو المفكر أو الاجتماعي فهو يضيء الطريق ، لكنه دائما يمشي وراء قيم خالدة . لكن له أن يقترح .

- يقترح ، لكنه عندما يدخل ساحة الإعلام ، ساحة التفكير العام ، ساحة السياسة ، له أن يقترح حلولا ويخلق تيارا ، وهذا شيء نحبذه ، غير أن ما أعيبه على الفكر العربي هو وقوفه هذا الموقف : إنه يقترح اقتراحات تتغير بسرعة كبيرة !

● أي أنه لم يدخل مرحلة الصراع الفعلي ؟

- لا أقول لم يدخل مرحلة الصراع فحسب ، بل إنه لم يدخل مرحلة الجدية الفكرية التي تخلق حضارة ، أو أنها على الأقل تخلق وعيا عميقا .

إنتاج الأزمات

● بهذا المعنى : هل نستطيع القول إن المجتمع العربي يعيد إنتاج أزماته ، كما أن الفكر العربي يعيد طرح قضاياه الأساسية ؟

- كل مجتمع يعيد إنتاج قضاياه وهمومه ، بيد أن المشكلة هي أن الفكر العربي يعيد إنتاج مشاكله بصفة أكبر مما هي عليه في المجتمعات الأخرى . أعتقد أنه يدور في حلقة مفرغة ، وأن الفكر العربي لم يع استقلاليته ولا رسالته الحقيقية ، ولذلك أعتقد أنه في أزمة ، إنه يعيد المشاكل نفسها ، لكن بشيء من التقدم الذي لايمكن أن ننكره .

هناك أشخاص قاموا منذ عشرين سنة ، بأعمال عميقة في إعادة صياغة المشاكل وطرحها وإضاءة الطريق وتقديم الرؤى ، وهم في عدة أمور أعمق من الجيل القديم ، لكن الجيل القديم (جيل طه حسين) كان له صدى أكبر ، أما المفكر اليوم فليس له صدى كبير في الوطن العربي ، إنه لايقوم برسالته في إضاءة الطريق وفي القيادة ، لأن السياسي أخذ منه كل شيء ، وعلى الرغم من كوننا في فترة يظهر فيها السياسي مفلسا إلى حد كبير ، فالسياسي قد أراد خنق الفكر ، ونحن نعيش في فترة مجدبة الى حد ما . صحيح أن الوطن العربي يعيش مشاكله ويكررها بإفراط ، إلا أنه لايتجاوزها ولايجد لها حلولا أوسع .

ولكن الفكر في حقيقته لايقدم حلولا ، الفكر يغير الوعي فقط .

● وهذا قد يعني أن هناك نقصا ، أو خللا في البناء .

- لا ، ليس نقصا ، أعتقد أن هناك تطورا تاريخيا ، وهذا التطور وضعنا في مرحلة معينة من التاريخ .

هناك أولويات العمل على الفكر ، هناك أولوية السياسة على سواها ، هناك الكثير من المشاكل التي تسيطر على أفق الضمير العربي .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نحن لاننكر أن الفكر العربي مجهول في وطنه ، كما أنه مجهول في الخارج ، فالإنجازات الموجودة في الوطن العربي قيمة في بعض الأحيان من الوجهة الفكرية . وأنا أعتقد أن من أحسن ما قام به الفكر العربي - هناك في

الغرب من يعترف بهذا وإن كانوا قلة ـ ما يتركز على التفكير في بعض المشاكل التي تخص فلسفة المجتمع ، أو فلسفة التاريخ ، أو فلسفة الدين ، فقضايا مثل هذه موجودة في تراثنا ، وهي قضايا لاتقف عند حدود الوطن العربي وحده .

ولأعطيك مثلاً على هذا ، من فرنسا : لقد كتب « ريجيس دوبريه » كتابا بعنوان : (جدلية العقل السياسي) ، وهو كتاب لابأس به ، في مقدمة هذا الكتاب يذكر المؤلف عبدالله العروي وغيره ويقول : نحن في فرنسا اليوم ليس عندنا تفكير سياسي حقيقي يضاهي ما يقوم به العالم الثالث من مجهود (ولا يقول الوطن العربي فقط) . وأنا أعتقد أن هناك إفلاسا في الفكر السياسي في الغرب .

* وماذا نستنتج من هذا ؟

ـ إن همومنا وآلامنا وضيقنا النفسي في بعض الأحيان قد أنتجت نوعاً جيدا من التفكير ، بل وأقول : إن هذا النوع من التفكير ما يزال قليلا ، وهو ما يمكن أن أسميه « التفكير المستقل » الواعي ، المنصت لحاضره ، المتجه نحو المستقبل ، العارف بالماضي معرفة جيدة ، عن وعي منه بهذا الماضي الذي يعبر عن مسار شخصي .

* لكن هذا الفكر قليل .

ـ صحيح ، لأن الفكر الغالب علينا في كثير من الأحيان هو الفكر الأكاديمي المبتذل ، وحتى ما كان منه جيدا فهو ضيق الأفق .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هناك الفكر الايديولوجي المتسع أو المبتذل ولكنني أريد أن أقول هنا : في كثير من الأحيان هناك غربيون يقرءون كتبنا ، ويأخذون أفكارنا فيعيدون صياغتها ، فتسري ، ويسري مفعولها ، وهذا التوجه منهم مبني على أن الكاتب العربي غير معروف ، وأجهزة الإعلام لاتخدمه ، وأن هؤلاء المفكرين قلة ، وهم ضعاف في وضعيتهم الموضوعية ، ولذلك يمكن أخذ الأفكار منهم .

نموذج الفكر الجيد

* هذا الفكر الجيد الذي تشير إليه أين نجد نموذجه في حاضرنا ؟

ـ لايوجد نموذج ، فأنا أقول : « الفكر الجيد » كما أقول مثلا : « الرواية الجيدة » ، وأشير إلى وجودها في أمريكا اللاتينية ، فالرواية الجيدة في العالم اليوم موجودة في أمريكا اللاتينية ، إلا أن حظها ضعيف في أمريكا اللاتينية نفسها ، وهي تستهلك في أوروبا .

وكذلك الفكر العربي الجيد موجود ، لكنه موجود بقلة ، موجود في ميدان الفكر النقدي ، وفي ميدان الفكر الفلسفي العام ، وفي الفكر التاريخي الفلسفي ، وموجود في فلسفة المجتمع ، وفي فلسفة الثقافة .

* وهل له صفات خاصة في ذهنك ؟

ـ إنه الفكر المتزن ، الموضوعي ، المطلع ، الطموح .

وهناك فكر آخر أسميه « الفكر الخبير » ، وهو فكر الخبراء الموجودين بكثرة ، وهو فكر اختصاصي على النمط الأمريكي ، وهذا هو الفكر الطاغي .

* أفهم من هذا أنك تطالب الفكر ومن ثم المفكر بإنتاج الوعي .

ـ نعم ، وهذا هو الدور الحقيقي للفكر . أنا أطالب بإنتاج الوعي ، والوعي الجيد ، وليس لزوما أن يكون الوعي اليوم هو « وعي الأغلبية » ، لأن أقلية اليوم ستكون أغلبية الغد ، والوعي الجيد هو الذي يعيش على مساحة زمنية وفضائية واسعة .

مفارقات الواقع العربي

* الملاحظ أن هناك مفارقة غير عادية في حياتنا بوجه عام ، فإذا ما راقبنا الوعي ورصدنا توجهه وحركته (أعني وعينا الثقافي والفكري ، ووعينا بتاريخنا ، وبما لنا من طموحات تتحرك بهما ومن

خلالها) ، فإننا غالبا ما نجد هذا الوعي أكبر وأشمل مما يتحقق لنا على مستوى الواقع . وهذه مفارقة أحسبها جديرة بالتأمل .

ـ هذه مفارقة من جملة مفارقات الواقع العربي ، وهي ليست أهمها ، والحقيقة إذا أردت تلخيصا لأفكاري ، أقول : إن المفكر العربي يعيش اليوم حالة صراع ، ويقوم بمجهود ، إنما المشكلة الأساسية هي أن صلة المفكرين بالجمهور ضعيفة ، وصلتهم بسلطات القرار ضعيفة ، وإيمانهم بنبل الفكر في مجتمعاتنا ضعيف ، بحيث أن المفكر اليوم لا يعرف على وجه التحديد ما إذا كان يفكر لجمهور ضيق من المثقفين الجامعيين أم أنه يفكر لجمهور خارج مجتمعه ، فبعض المفكرين العرب يكتب للعالم خارج نطاق مجتمعه ولغته ، لكن الفكرة ، أو الصورة الغالبة اليوم بصفة عامة هي أن الفكر العربي يحتاج إلى أن يعترف به داخل المجتمع العربي ، كما يحتاج إلى الاهتمام ، فالكاتب محتاج إلى الجمهور .

أين يكمن القصور ؟

● في هذا الوضع ألا تجد أن القصور في الفكر العربي نفسه ، وليس في المتلقي ، لأن هذا الفكر لم يستطع أن يفرض نفسه ، لبعده عن اهتمامات هذا المتلقي ؟

ـ هو ليس في المتلقي بالتحديد ، بل في الوضع العام ، لأن هناك أغلبية عجيبة في الواقع العربي لاتقوم بالمجهود الفكري (المطالعة مثلا) . هناك عدم ربط بين التفكير الحي الخلاق وبين التعليم (الجامعي منه بشكل خاص) ، فأنت لاتجد اليوم نصوص المفكرين الأحياء الذين يحاولون تحديث العقل العربي في إطار ما يتداول من فكر في الجامعة (إلا عن طريق التحزبات السياسية) ، فنحن مانزال نقرأ في نصوص عفى عليها الزمن ، وكأنه فرض أن تكون بيننا وبين ما نقرأ من نصوص ، وفي نطاق الجامعة خصوصا مدة خمسين أو مائة سنة ، وهذا غير معقول .

إن السطحية هي الغالبة على أفق المجتمع العربي ، وهناك تقريبا طبقة واحدة فقط هي التي تقرأ ، وتتكون من فئات الشباب ، والاعلام من جانبه يلعب دورا كبيرا في الغاء الفكر ، بينما يمكن أن يقوم الإعلام بدور في إشعاع الفكر العربي المعاصر .

صحيح أن هناك ندوات تنظمها بعض المعاهد الموجودة الآن ، تتحدث عن المشكلات العميقة للفكر ، لكن حتى هذه الندوات تتحدث في غالب الأحيان عن المشكلات الآنية ، وكأنها ندوات صحفية ، فتكون في حقيقتها ندوات تعارف ، لا أكثر ، ليس فيها تعمق . أما الندوات التي يمكن أن تعقد حول التاريخ ، وحول الفلسفة ، والتي يمكن أن يتحقق من خلالها تلاقح الأفكار ، ويتم عبرها التعارف والحوار مع العالم الخارجي ، فإن المبادرات العربية قليلة جداً في هذا الميدان ، وهذا يرجع إلى أن المفكر العربي إنسان أعزل في واقعه العربي ، ليس له حول ولا قوة ، وليست لديه إمكانيات ، وهو ـ أساسا ـ تابع للنظم القائمة ، والنظم القائمة لاتهتم بالثقافة الواعية الخلاقة ، بل تهتم بالترشيد العام .

في الوطن العربي أشخاص يهتمون حقيقة بدفع البحث العلمي والبحث الفكري ولكنهم قلة قليلة .

● وفي ضوء هذا يمكن القول : إننا مجتمع ينتج التخلف ، وهو في الوقت نفسه ينتج الوعي .

ـ هذا صحيح ، صحيح جدا أنه ينتج التخلف وينتج الوعي ، ينتج الألم ، ومن الألم ينتج الإبداع (ولو أننا كثيرا ما نختبيء وراء كلمة « تخلف ») .

قد يظهر ، في بعض الأحيان ، كأنني أحتق على السياسيين . أنا لا أحتق على السياسيين ، فهم يلعبون دورهم في التاريخ المعاصر ، بل قد أنتقدهم ، لكن ليست هناك رحابة صدر ، ليس هناك وعي ، انهم يتكلمون عن « الوعي الحضاري » ، لكنك قليلا ما تجد رحابة صدر منهم مع المثقف بإعطائه إمكانية العمل مثلا . □

قراءة نقدية لكتاب

الحنان الصيفي

مجموعة قصصية

من تأليف : أحمد الشيخ

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

القصة القصيرة هي الشكل الأدبي الذي يجمع على نحو فريد بين خصائص الشعر وخصائص الدراما ، ويلاحظ كاتب هذا المقال أن القصاص احمد الشيخ دلف إلى عالم القصة عن طريق الشعر ، فكيف كانت رحلة الكاتب ؟ وبماذا يتميز فنه القصصي ؟

صدرت هذه المجموعة عن « مختارات فصول » بالهيئة العامة للكتاب في مارس عام ١٩٨٧ . وتعد المجموعة الخامسة للأديب أحمد الشيخ .

الملاحظة العابرة التي خرجنا بها من قراءتنا لهذه المجموعات الخمس هي أن أحمد الشيخ لم يتوقف أبدا عن محاولات التجريب في مجال القصة القصيرة ، إنه يحاول باستمرار أن يتجاوز تجاربه السابقة ، وأن ينوع في أساليبه وتقنياته ، ففي المجموعة الأولى « دائرة الانحناء » التي تضم القصص المكتوبة خلال الفترة من عام ٦٤ حتى عام ١٩٦٨ (منها قصة واحدة دون تاريخ هي « العجوز والصبي ») ، نجد الأديب الشاب أحمد الشيخ يقدم لنا تجارب ناضجة في القصة القصيرة ترتكز ارتكازا واضحا على التحليق الشاعري ، حتى نحس بأن جميع قصص هذه المجموعة عبارة عن تنويعات شاعرية أو تأملات على طريقة الشعر في البحث عن جوهر القضية لا مجرد رصد مكوناتها الواقعية . وإذا توقفنا قليلا عند عناوين هذه القصص (وعددها عشر) نجدها تنحو نحوا تجريديا خالصا في معظمها مثل « دائرة الانحناء » و« ذيول التحدي » و« كتلة الصمت » « ومربع الاشتهاء المباح » و« صيف الذباب » . وهناك ثلاث قصص فقط تحمل كل منها عنوانا مباشرا هي « العجوز والصبي » و« عنق الزجاجة » و« عبد العظيم أغا » . ولكن طريقة السرد في كل منها أيضا شاعرية ، وإن عثرنا فيها على مضمون نراه شاحبا ، لأن القصة تكاد تكون قصيدة شعرية في الموضوع الذي تعالجه ، ويعثر القارىء على كثير من الفقرات الموزونة وزنا شعريا سليما لا تختلف عن الشعر في شيء إلا في طريقة الكتابة ، مثل قوله في القصة

الأولى «دائرة الانحناء»: «عبثا ستفسر... ستقول كلاما مخطوطا أجوف. لو أنك تملك ثمن اللقمة، لتركتك تحكي لتثبت قصة إيمانك باللون الأخضر... لكن الأفضل ألا تبتذل الكلمات فالدائرة المغلقة تظل عليك كرصد أعمى» (ص١٢).

لقد دلف أحمد الشيخ إذن إلى القصة القصيرة عن طريق الشعر، لكنه كان منذ البداية واعيا بالأصول الفنية والعناصر والمكونات التي يتعامل معها، ولهذا قدم لنا في هذه المرحلة الأولى من حياته الأدبية قصصا ناضجة تمام النضوج، نجت من السقوط في هوة الصنعة والافتعال. إن القارىء لهذه المجموعة الأولى يدرك أن المؤلف الشاب لم يغامر بالكتابة إلا بعد أن اكتملت أدواته الفنية.

محاولات تجريبية

وقد استمر أحمد الشيخ في محاولاته التجريبية في كل ما قدم من قصص قصيرة حتى الآن. وليس في طاقة هذا المقال أن يتحمل دراسة التطور الفني في أعماله كلها، ومن ثم وجب الدخول إلى عالم مجموعته الأخيرة «الحنان الصيفي».

تضم هذه المجموعة ثماني قصص نشرت خلال عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤. وتختلف الطرق الفنية وأدوات التشكيل الجمالي المستخدمة في هذه القصص، ومن ثم رأينا تقسيمها إلى أربعة أقسام رئيسية هي:

١ ـ القسم الأول: يضم القصص التي تتناول موضوع «السفر»، وتطرحه كواقع معاصر كان له الكثير من الانعكاسات داخل المجتمع المصري خلال العقدين الأخيرين. وهذه القصص هي «الحنان الصيفي» و«كلاب السبخة» و«ليمتان».

ففي القصة الأولى «الحنان الصيفي» يكشف المؤلف عن الفروق الطبقية الجديدة من خلال الجمع بين صديقين أحدهما سافر وحلت مشاكله وهو في أعماقه سعيد بذلك كل السعادة، وحريص على السفر كل الحرص. لكنه عندما يعود في الصيف يتحدث مع صديقه الذي لم يسافر، عن غربته في تلك البلاد، ويشكو من ضياع السنوات بعيدا عن أرض الوطن، ويبدي ندمه على ما فات. وتظهر المقابلة بين الاثنين واضحة في السطور التالية (والرواية على لسان الصديق الذي لم يسافر): «في منتصف الليلة التالية زارني في شقتي، أبدى امتعاضه من سوء تهوية المكان، وتشكى من قذارة الحارة، قال إنه أوقف السيارة في الشارع الرئيسي عند سور الجامعة، وأنه يفضل الخروج معي لنشم الهواء النقي في مصر الجديدة... الخ» (ص١٨).

وفي قصة «ليمتان» تظهر مقابلة أخرى من هذا النوع، ولكن القصة تتضمن محورا آخر غاية في الأهمية، هو محاولة الطبقة الفقيرة الظهور بمظهر الطبقات الراقية.

ويحسن بنا أن نتوقف قليلا عند مضمون هذه القصة: وهنا نجد السفر أيضا يغير من حال عادل الدرملي، فيركب سيارة فاخرة، بينما صديقه عبدالونيس الذي لم يسافر ما زال يعيش في حارة بائسة ببولاق الدكرور. وعندما التقيا ودعا الدرملي صديقه وزوجته للذهاب إلى أحد الفنادق الراقية لتناول طعام الغداء حاولت الزوجة نادرة أن تقوم بدور لا يليق بها ولا بظروفها البائسة، مما جعل عبدالونيس يشعر بالخجل.

لكن تمثيلها للدور لم يطل ، فقد كشف الخال عندما قام عادل بتوصيلها وعبروا مزلقان بولاق الدكرور وجلسوا يشربون الشاي في شقة متواضعة وصلوا إليها عبر الأزقة والشوارع الضيقة .

أما القصة الثالثة ففيها حلم بالسفر لكن البطل « الشيخ عمران » لم يسافر وظل يلعب لعبة « كلاب السيجة » في قريته .

وبهذا نجد أن الإطار المرجعي لهذه القصص الثلاث هو الواقع بما يحمل من تحولات ومقابلات وأحلام وآمال . إنه واقع الغالبية العظمى من الشعب المصري خلال السنوات الأخيرة من كل الفئات وكل الأعمار . فقد كان السفر وما زال هو الحل الأمثل لغالبية أبناء الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين ومتعلمين .

قصة من نوع خاص

٢ ـ القسم الثاني يضم قصة واحدة ذات طابع فريد هي قصة « الشملولة » . والذي أثار دهشتي كقارىء في هذه القصة هو قدرة الكاتب على التصوير . ومن عاش في الريف فترة من حياته سوف يدرك أن أحمد الشيخ قد أجاد فن استخدام آلة التصوير أولا ثم حملها وأخذ يتنقل بها من ركن لركن داخل البيت الريفي في تلقائية وخفة حركة . تدور القصة على لسان صبية تدعى شوق ، تصف لنا ما الذي يحدث في البيت عندما تذهب إليه عمتهم فطوم « الشملولة » في ساعة مبكرة قبل الفجر ، وتبدأ مهمتها بدس يمينها إلى ما فوق الكوع في حلوق « الزلع » وتذوق بطرف لسانها طعم « المش » ، ثم تنتقل من مكان إلى آخر ، فتنظر في « براني » السمن وتلقى بنظرة خاطفة على مخزون الأرز ، وتتحسس « بناني » الحمام ، إلخ .

وهي في كل هذا حريصة كل الحرص على معاش أخيها . ومن منطلق هذا الحرص تنطلق أوامرها الكثيرة من أمثال :

ـ « ذكر الوز خاب . ادبحوه واطلقوا دكرين من البطن البدرية » ، ولا تملك زوجة الأخ المطيعة إلا أن ترد عليها :

« يندبح يا عمة . . حاضر » وهكذا دواليك .

ونعرف في نهاية القصة أن العمة شوق عاقر لم تنجب على الرغم من أنها بحثت كثيرا عن وصفات للحمل . ولعل بعض القراء أو النقاد الحريصين على المضمون يهمهم أن يعثروا لهذه القصة على مغزى اجتماعي أو أخلاقي أو يبحثوا فيها عن المستوى الرمزي الكامن وراء ظاهر النص ، لكني في مثل هذه القصة أفضل أن أستقبلها على طبيعتها ، وهي قطعة أدبية رائعة في أدب الوصف . ومن حسن الحظ أننا في القصة والرواية على الأخص لا يمكن أن نفرض على الكاتب أسلوبا بعينه ثم نحاكمه على أساسه ، إن حرية الكاتب الكاملة وحسه المرهف ، في رأيي ، هما جناحا عمله الفني ، والكاتب القدير هو الذي يدرك أين تنتهي حدود حريته . ومن ثم فإننا نؤمن إيمانا جازما بأن التعامل مع النص مباشرة ـ من جانب الناقد ـ يمكن أن يعصمه من العسف والتسلط وتحميل النص فوق طاقته . والوصف في هذه القصة يأتي إما على طريقة التصوير الدقيق لعناصر الحياة في بيت من بيوت الريف ، وإما على طريقة تقديم صورة محببة للألفة والود والمحبة داخل هذا البيت الريفي الذي يضم الزوج وزوجته والأولاد ، وتأتي العمة من خارج البيت فتزيده ألفة وحرصا ومودة ورحمة ، حتى أن الصبية الراوية (شوق) كانت تقاوم فرحتها عند قدوم العمة . وتظهر صورة الألفة في أعظم صورها عندما يعود الأخ أو رب البيت من الدكان ويجلس مع أخته يتبادلان أخبار الناس ، ويعلقان على ما قد جرى في « الكفر » من أحداث . . إلخ . وعندما توضع « الطبلية » وفوقها صينية العشاء الكبيرة ، يوضع أمامها صينية « الزفر » ويهمس الأب في تبسط : « فرقي على العيال يا فطوم » . تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع ، تبدأ به والبنات ، ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتها المألوفة للجميع : « اللي منابه صغير يقول » (ص٣٠) .

الألفة إذن هي سيدة الموقف في هذا البيت ، وكل العناصر داخلة متآلفة من ناس وحيوانات وطيور وجمادات بدءا من « زلعة المش » إلى ذكر البط إلى

المجول إلى الحمام إلى الطفلة شوق التي تنطير من الفرح عند قدوم عمتها إلى الأخ الذي يسعد بقدوم أخته والزوجة التي تطيعها طاعة عمياء ، والأسرة جميعها التي تتحلق حول صينية العشاء وتتصاع ع للعمة في حب وود وتآلف . لقد استطاع القاص أحمد الشيخ ان ينقل إلينا على الورق صورة أليفة محببة ، فكان مثل رسام قدير أمسك بريشته وقدم لنا هذه اللوحة الجميلة .

الحلم والواقع

أما القسم الثالث فيضم أيضا قصة « الزائرة » التي تجمع بين تقنية الحلم وبين التقاط بعض صور الواقع الأليم الذي يعيشه الفقراء . في هذه القصة نقابل شخصا يعاني من الفاقة والعوز ، يعيش مع أسرته المكونة من زوجته وبنته وولده ، وإذا بهم يفاجأون ذات صباح باكر بزائرة تدق عليهم الباب بعنف ، كانت تحمل لهم في سلتها طعاما من كل الأصناف . وقد توسم في وجهها أنها إحدى قريباته من أسرته المفككة المبعثرة . وفي هذه القصة لا ينسى المؤلف أيضا أن يقدم لنا بعضا من التحولات الفردية التي حدثت في البلد ، مثل حكاية الزائرة عن « ابن الجعلدي الذي لم يكن يمتلك من زمام أرض البلد قيراطا أو حتى سهما والذي لم يتعلم حرفا ولا صنعة ، لكنه خلال السنوات العشر الأخيرة قفز إلى مركز الصدارة وامتلك مطحنا ومزرعة للعجول ومنحلا كبيرا وبنى دارا بالأسمنت المسلح ، وركب سيارة فخمة ، وسوّر أرضا من أملاك عائلتنا ، وحولها إلى حديقة تفاح .. إلخ .. » (ص٦٤)

وقد علقت الزائرة على هذا بقولها : « إن البلد انقلب ميزانها وأن عاليها أصبح واطيها ، وواطيها صار عاليها بقدرة قادر » (ص٦٥) .

وعلى الرغم من أن هذه الكلمات تخص بلدا بعينه هي القرية التي ينتسب إليها صاحب الدار والزائرة إلا أنها تنسحب من الخاص إلى العام لتعبر عن الأوضاع في مصر كلها . وقد تكررت زيارتها لهم بسلتها الملأى بأصناف الطعام ، وعادة ما كانت تأتيهم في الأيام العصيبة . ثم طرأت فكرة سيطرت على عقل صاحب البيت ، هي أن يرفض الزيارة في المرات القادمة ، وكلف زوجته بأن تفعل ذلك في غيابه ، ولكن الذي حدث هو أن الزائرة جاءت هذه المرة دون سلة . وعندما ذهب لتوديعها ثم عاد إلى زوجته ظلا طوال الليل يتحدثان عن سر زيارتها لهم هذه المرة دون سلة . وبهذا نكتشف أن الزائرة وسلتها لم تكن إلا حلما من أحلام الفقراء . وتأتي الأجزاء الباقية من القصة فتصور بعض المواقف التي يعاني منها الفقراء ، مثل التزاحم في الحافلات والتعرض للسرقات وللضرب أحياناً ،ومثل قصة الرجل الفقير الذي حمل طفله الميت بين ذراعيه إلى المقبرة ليدفنه ولم يكن يملك أجرة الدفن ، فأسلم جثمان طفله لحارس القبور ، وتظاهر بأنه سوف يدفع ، ثم أسلم ساقيه للريح فرارا . وقد شبه الراوي حاله بحال هذا الرجل ، لأن طفلته الصغيرة كانت تموت أمامه وهو يتلفت حوله بحثا عن شيء يباع في منتصف الليل فلا يجد غير الفراش البائس ، وأكوام الكتب والأثاث القديم (ص٧٢) .

وقد استطاع أحمد الشيخ في هذه القصة أن يضفر الحلم بالواقع الأليم ، فجاء الحلم يمثل الوجه الآخر للحياة البائسة التي لا تجد لها تحققا إلا في حالة واحدة هي حالة الحلم . إن الزائرة وسلتها لا أساس لها في الواقع ، وإنما هما حلم سعيد يعز على التحقيق .

الواقعية الرمزية

والقسم الرابع يشمل القصص الثلاث الأخيرة ، وهي « فارس » و« المحروس الثاني » و« ابتلاع » . والقصة الأولى تتحدث عن الكسل في مكاتب الحكومة ودواوينها والشركات . ويمكن ان يظنها القارىء لأول وهلة واقعية ، لكنه سوف يجد نفسه مضطرا لقراءتها مرة اخرى وعندئذ سوف يكتشف الرمز الكامن خلف المستوى الظاهري ، والذي ينم عن الرموز في هذه القصة هو حالات الغموض او الأسرار التي تحيط ببعض احداثها . فالقصة لا تمضي في شكل واقعي ، وانما نجدها مغلفة بالأسرار والألغاز . ويبدو المؤلف حريصا على ان يقتطع من

الواقع بعض جزئياته المتعلقة بالمحسوبية والوساطة والكسل ، وبعد ان صبها في قالب تجريدي رمزي صاغها في شكل قصة واقعية . ومن هنا جاء اختلاط الواقع بالرمز في انسيابية متدفقة شفافة .

أما قصة « المحروس الثاني » فهي قصة رب عائلة (وعمدة) كان يحتضر ثم صحا على خلاف بين ولده وابنته « المحروس والمحروسة » . ويضاف إلى ذلك الخلاف المعروف بين أبناء عوف وأولاد شلبي . وتكاد تمضي القصة في نهج واقعي ، لكن الرمز يطل من آن لآخر من بعض المواقف التي تشير إلى ان المؤلف يقصد باحتضار الرجل هذا الوضع الذي تعيشه بلادنا في الوقت الراهن ، كما يرمز بخيانة المحروس إلى عملية الصلح مع العدو الاسرائيلي . ونقرأ عن المحروس : « الخلق بيقول إنه خد بنت شلبي وعقد عليها عند مأذون البندر وانت راقد يا كبير ، ويقولوا إنه حاش لها دار في البندر وبيصرف عليها من خيرك يا سيد الرجال » (ص٩٥) .

كما أن رب العائلة عندما صحا من احتضاره أشاعت عنه « المحروسة » أنه تحول « إلى ولي من أولياء الله الصالحين ، وأنه يخاطب في أمسياته الملائكة والأنبياء « وأهل الخطوة » ، ويتطاول عليهم بدلال عارف بالله متصل به مستند على يقين في رضاه » (ص٩٤) . وهكذا نجد عناصر الرمز متكاملة : الرجل الذي يحتضر ، وابنته المحروسة وابنه المحروس ، الأولى تحافظ عليه وعلى ميراثه ، والثاني يبدده لصالح المرأة التي تزوجها من عائلة أولاد شلبي المعادية لأولاد عوف . وبهذا نجد الفكرة في هذه القصة هي الغالبة على الرغم من الإطار الواقعي الذي صيغت فيه الحكاية .

ولعل الرمز أكثر وضوحا في قصة « الابتلاع » حيث نجد الولد الذي تخطى منتصف العام الرابع من عمره يسلب أخته الرضيعة رضاعتها « البيرونة » ويضع حلمتها في فمه ويمتص محتوياتها ثم يعيدها فارغة إلى جوار البنت النائمة التي لو فرض أنها كانت مستيقظة فسوف تعجز أيضا عن حماية رضاعتها . أما الأم فلا تهتم بعملية السلب هذه ، وتختم القصة بكلمة تشير إلى أن من يفرط في حق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن (ص١٠٧) .

وتربط القصة بين هذا التساهل من جانب الأم وبين تساهل الدولة مع الشركات الاستثمارية والمصارف الأجنبية والمشاريع الوهمية التي يؤسسها محتالون على مستوى عالمي بهدف سلب رصيدنا وتبييع ميراثنا (ص١٠٢) . إذن فعناصر الرمز في هذه القصة واضحة لا تخفى على أحد ، بل يمكن القول بأن المؤلف قد لجأ إلى الرمز المباشر الذي ينقصه الكثير من العمق ، ويؤدي في معظم الأحيان إلى تسطيح العمل الفني . ومن ثم فإني أرى أن هذه القصة هي أضعف قصص المجموعة من الناحية الفنية ، لأن الفن فيها أقرب إلى « الزعيق » منه إلى العمق والتكثيف والإيحاء .

طرق السّرد :

تتنوع طرق السرد في هذه المجموعة مثلما يحدث عادة في مجموعات أحمد الشيخ ، فتارة يكون السرد على لسان الشخص الأول ، والسارد هو أحد أبطال الحكاية ، مثل قصص « الختان الصيفي » و« فارس » و« الزائرة » ، وأحيانا يكون السرد على لسان الشخص الأول ، لكنه هذه المرة صبية دورها هامشيٌ في القصة ، أي أنها راوية أكثر من أي شيء آخر ، مثل الصبية شوق في قصة الشملولة . وأحيانا يأتي السرد بالطريقة التقليدية (ضمير الغائب أو الشخص الثالث المفرد) مثل قصة « وليمشان » . وقد يأتي السرد على لسان الشخص الثالث أيضا ، ولكن تتداخل الحوارات وتتشابك مثلما نرى في قصة « كلاب السيجة » . وقد نجح أحمد الشيخ في قصة « الابتلاع » في نقل القصة إلى أسلوب الخطاب أو « المتكلم ـ المخاطب » حيث يبدؤها هكذا : « عيبك الخطير أنك تحول كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول إضحاك الخلق معك . أنا لست ضد الضحك طبعا ، أنا ضد الضحك من غير سبب معقول . إلخ » (ص٩٧) . وأسلوب الخطاب هذا يتميز بالتلقائية والعفوية ، ويشرك القارىء في

الحدث . وفي هذا النوع من القصص نحس وكأن الكاتب لم يكن له إلا هدف واحد من وراء كل تقنياته ، وهو إلغاء المسافة بينه وبين القارىء ، حتى ليحس الأخير وكأنه أحد أبطال الرواية أو كأنه اشترك مع المؤلف في كتابة العمل . وقد قلنا فيما سبق أنها أضعف قصص المجموعة من الناحية الفنية (وقد فصلنا أسباب ذلك في مكانه) ولكن من حق المؤلف علينا أن نستدرك بأن طريقة السرد هذه قد حمت القصة من السقوط في الثرثرة والابتذال ، بل إنها منحتها ثوبا فنيا أضفى عليها الكثير من الجاذبية والرشاقة ، فجاءت طريقة أليفة محببة . إن رواية أحمد الشيخ في هذه القصة تخاطب شخصية أخرى لها دورها في القصة ، لكن القارىء يحس وكأن الرواية تخاطبه هو . ولنقرأ فقرة أخرى منها : « لم يكن مثل هذا الكشف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد . منذ البداية أعطيت لأنه لم يكن لديك غير الاستعداد الفطري للعطاء ، وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا في عراء العالم دون الاستناد على أحد فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبستك » (ص٩٨) .

« السخرية » في البناء الفني :

لعل من أهم ما في قصص أحمد الشيخ هو بناؤها الذي يجعل من السخرية عنصرا مهما في الكشف عن مواطن الخلل في المجتمع . وتأتي السخرية في العادة مغلفة بخفة الدم الشعبية المعروفة عن أبناء الطبقة الكادحة من المصريين ، وهم أبطال كل قصصه تقريبا . ولن نتتبع مواطن توظيف هذا العنصر المهم في كل قصص المجموعة ، وإنما سوف نكتفي بضرب مثال أو مثالين ، ونترك للقارىء مساحة واسعة كي يكتشف بنفسه . من أمثلة ذلك ما جاء في قصة « الزائرة » عن الولد الفحل في الحافلة ، وهذا المشهد يرد ضمن الأمثلة التي سبق أن ذكرنا أنها تمثل بعض الصور التي التقطها المؤلف من حياة الطبقات الكادحة . يحكي لنا بطل القصة (الذي كان يسعد بقدوم الزائرة كما رأينا) عن موقف حدث له أثناء ركوبه الحافلة حيث انحشر ولد « فحل » بجواره ، بينما يده الخالية تندس في جيب جاره من الناحية الأخرى . وتتطور القصة فنجد الولد « الفحل » الذي كان يحاول السرقة قد برع في تمثيل دور الضحية ، وألبس التهمة لصاحبنا ، ثم جره نحو الباب الخلفي وضربه « علقة محترمة » هكذا دون أي جريرة ارتكبها اللهم إلا حظه العاثر الذي جعل مكانه في الحافلة بجوار هذا الولد « الفحل » الحرامي .

ولا يقتصر الأمر على تضفير مثل هذه الحكاية في سياق القصة ، وإنما تظهر خفة الدم الشعبية هذه في كثير من المواقف نأخذ منها ، على سبيل المثال أيضا ، محاولة زوجة عبدالونيس في قصة « ولبمتان » الظهور بمظهر الطبقات الراقية ، وهو وضع يتناقض مع حالتها الواقعية ، مما يؤدي إلى حدوث نوع من المفارقة تثير الضحك . هذا ما حكاه لنا المؤلف (والسرد على لسان الشخص الثالث) بقوله : « بذلك كانت تثرثر السيدة البدينة ، وتحكي عن أحداث لم تكن ، ومشاريع لم يفكر فيها أحد ، وحين ادعت السيدة أن شقيقها ما زال يعيش في باريس لم يتمالك عبدالونيس نفسه ، وأفلتت من أنفه مقطوعة ، توحي بضحكة مكتومة ، جاهد في إخفائها لكنه لم ينجح » (ص٦٥) .

وهذا العنصر الساخر يمثل إحدى اللوازم في أعمال أحمد الشيخ ، ففي قصة « كشف المستور » من المجموعة السابقة يقدم لنا الكاتب بطريقة « المتكلم - المخاطبون» كما [illegible] بين شخص متعلم حالته فقر ، يخفي كبرياءه الزائفة خلف قناع شفاف ، وبين آخر لم يتعلم (أخيه) ، لكن حالته ميسورة وهو يحمد الله أنه لم يتعلم وإلا لكان مثل أخيه .

ويلتقط المؤلف جزئية من حياة الإثنين تجمع بينهما في موقف واحد ساخر عندما ذهب غير المتعلم مع أولاده إلى أخيه للزيارة . وتترك الراوي (غير المتعلم) يحكي لنا طرفا مما دار في هذه الزيارة . يقول : « نعود للموضوع ، قلت له : نخرج لقضاء سهرة في وسط البلد ، نتعشى في مطعم ، وندخل

سينا ، فهل هذا غلط ؟ (طيب واحد غرضه أن ينبسط يمكنن عليه ؟ . . قال الأستاذ المحترم . . تمشي في البيت ، افهموها ، المسألة لا تحتاج إلى تفسير ، المسألة مسألة فلوس . . . إلخ) (ص٦) .

الحوار واللغة

يجيد أحمد الشيخ أسلوب تضفير الحوار في سياق النص ، على نحو ما نقرأ في قصة « كلاب السيجة » التي يبدؤها بقوله : « أشاروا عليه بالسفر إلى تلك المدن البعيدة مؤكدين أنه سوف يتصلح حاله : فأنت لا تقل عنهم في شيء يا شيخ عمران » . (ص٤٣) .

وحتى في بعض النصوص التي يدور فيها الحوار بين شخصين يبدو هذا الحوار وكأنه امتداد من طرف واحد ، بحيث نجد أن الطرف الثاني حتى ولو لم يرد فسوف يمضي الحوار على شكل « منولوج » مسموع . وهذا من التقنيات الجديدة التي دخلت على فن القص في العالم كله ، وقد أضفت على الأسلوب كثيرا من السحر والرشاقة والألفة . وفي قصة « الشملولة » عندما يدور الحوار بين « الشملولة قطوم » وبين زوجة أخيها نجده مجرد أوامر من الأولى ، وكأنها تخاطب نفسها ، وطاعة عمياء من الثانية التي ترد دائما بجملة مثل « نعملها . . حاضر » أما مشاهد الحوار التقليدية من سؤال وجواب أو تواصل في الكلام فلا تظهر إلا نادرا في هذه المجموعة ، ذلك لأن الكاتب قد استعاض عنها بوسائل أخرى كالتي ذكرناها ، أو ترك العنان للذاكرة وتيار الوعي ينسجان ما يرد على خاطره من مواقف وأحداث وأفكار ، آخذ يربط بينها جميعا في أسلوب فني أخاذ ، وفي تقنيات طريقة مستحدثة .

أما اللغة في هذه المجموعة فبسيطة سهلة مباشرة حتى في مجموعة القصص التي ذكرنا أن فيها رمزية ، لأن الرمز فيها لا يرتكز على اللغة قدر ارتكازه على المضمون ، ولكن بساطة اللغة وسهولتها في أعمال أحمد الشيخ لا تعني أنها هينة أو أن من السهل تقليدها ، وإنما تنطبق عليها - بحق - المقولة المشهورة « السهل الممتنع » ، ذلك لأن براعة المؤلف لا تتمثل في بناء عالم فني قائم أساسا على اللغة ، وإنما تتمثل في صياغة نمط من العلاقات الجديدة والتجارب والأحداث والشخصيات في تقنيات فنية ناضجة متقدمة . إن المنطق الأساسي عند هذا المؤلف هو الواقع بما يحمل من تناقضات ومسخريات ومفارقات ، وحتى عندما يلجأ إلى التصوير مثلما رأينا في قصة « الشملولة » فإنه يحرص على التقاط كل العناصر والجزئيات الفاعلة في واقع الحياة من إنسان وحيوان وجماد ومشاعر وأفكار .

بعض الهنات :

وفي الختام نشير إلى بعض الهنات التي وردت عرضا في المجموعة . من ذلك المشهد قبل الأخير الذي ورد في قصة « الحنان الصيفي » عندما عرض الصديق العائد من السفر على صديقه الفقير أن يسأل له عمن يمكن أن يشتري سيارته ، وأنه سوف يعطيه في مقابل ذلك عمولة مناسبة ، فأبدى الآخر استياءه من هذا العرض ، وانتهى هذا المشهد بأن قام الأول بفتح باب سيارته وأنزل صديقه ملقوطا في مكان لا يعرفه ، ثم انطلق وتركه في حالة يرثى لها . ولو أن القصة ختمت بهذا المشهد لكان لا بأس بها ، ولكن الذي حدث هو أن الصديقين التقيا في العام التالي صدفة وتبادلا القبلات ثم تركا بقية الأصدقاء الذين كانوا مجتمعين في المقهى وقاما بجولة في السيارة على غرار ما كانا يفعلان في السنوات السابقة . وأنا أعترف - بصفتي قارئا - أني أحسست إحساسا قويا بأن هذا المشهد دخيل على سياق القصة ، وأن من الأفضل حذفه حتى يستقيم السياق حتى النهاية .

وربما يختلف معي المؤلف في ذلك ، وربما يختلف معي أيضا أي قارىء آخر ، ولكن لن يختلف أحد معي في أن أعبر عن إحساس شعرت به عند قراءتي هذا المشهد وما تلاه من خاتمة . □

مع طرائف

النقـــد والنقـــاد !

بقلم : عبدالرزاق البصير

لاشك أن هناك بعض الجوانب في حياة الأدباء تبقى خافية ، وبخاصة مايتعلق منها بالجانب الشخصي . إلا أن بعض الأدباء يتناولـون هذه الجـوانب من حياتهم . وهي لاتخلو من طـرائف وملح ، على الأخص إذا تناولها ناقد أو دارس ، يلقي الأضـواء عليها . وهـذه بعض الجـوانب من حيـاة الأديب المازني ، وعلاقته ببعض أدباء عصره .

شكر الله صنيع الدكتور محمد حسن عبدالله ، فقد كان معي كريماً وفياً إلى أبعد حدود الوفاء والكرم ، حيث جمعني بنخبة من الأدباء في ليلتين نابغتين . كان الوقت يمر فيهما سريعا كأنفاس الربيع . كان فيهم القصـاص والشـاعـر والأديب والنـاقـد والصحفي النابه . وقد تساقينا في هاتين الليلتين كؤوس أحاديث متشعبة ، تناولت شئوناً أدبية وسياسية واجتماعية . كـان فيهم الـدكتـور عبداللطيف عبدالحليم ، والقصاص عبدالعال الحمامصي ، ومحمود العزب ، وابن عمه الضاحك الساخر جلال العزب . ولست قادراً على أن ألم هنا بكل ما دار من حوار حول ما ذكرت من القضايا الفكرية ، كما أن ذاكرتي لم تستطع أن تلتقط ما شدا به جلال من زجل مصري طريف ، وكان الإخوة يزعمون أن شاعرنا الزجال يأخذ عليهم وقتهم فلا يتركهم ؛ وكل منهم يدعي أنه مظلوم ، لأن كلا منهم يريد أن يخفف عن نفسه . فيروي لنا شجونه وهمومه . والحق أن هموم أولئك الصفوة همومنا جميعا ، وهي تتركز حول الدعوة الى الحرية في التعبير . فما أحلى تلك الأحاديث وأعذبها . وقد اختاروا مكاناً بعيداً عن الرقباء ، وإنه ليطيب لي أن أقف قليلا حول بعض ما أهداني الدكتور عبداللطيف عبدالحليم من كتب . ذلك الأديب الذي ما يزال يزور بيت المرحوم عباس محمود العقاد مع رهط من إخوانه في كل جمعة يسافرون فيها الى أيام العقاد ، وهذا سلوك من هؤلاء الأدباء يدل على الوفاء في زمن قل فيه الوفاء . ويحسن بي أن أوضح بأن الحوار مع الدكتور عبداللطيف ليس بالأمر اليسير ، لا لأنه ضنين بمن يريد الحديث معه ، ولكن لأنه أديب واسع الاطلاع عميق الفكر ، فأنت إذا أردت أن تجري معه الحديث فإنك غير قادر على ذلك إلا بعد أن تقف على آثاره أو على بعض آثاره على الأقل . وينبغي أن يكون

وقوفك على هذه الآثار وقوف المتأني المتأمل ، ذلك أن من طبيعة أديبنا أن يتشعب في كتابته ، وإن أردت الدقة في التعبير فقل : إن من طبيعته أن يتفرد في آرائه ، وكمثال على ذلك نأخذ ما كتبه عن (المازني شاعرا) .

المازني شاعرا

فستجده عندما تتأمل في هذا الكتاب ينهج نهجا متميزا عن غيره ، إذ أنه لا يترجم للمازني كما جرت عادة المترجمين الذي يعنون بولادة من يترجمون لهم ووفاتهم وما يجري لهم بين الولادة والوفاة من أحداث شخصية وغير شخصية ، فنرى أديبنا الدكتور يقول : (أن يكون الحديث عن المازني صورة حياة خير من أن يكون ترجمة تتحرى فيها وقائع التاريخ وأحداث الوقائع ، وما الخير في ترجمة تعنى بذكر المولد والوفاة لشخصية ما ومراحلها التعليمية إن لم تعن بالمراحل الفنية والفكرية للشخصية المراد دراستها) .

وهكذا يأخذ الاستاذ في تقصي وصف المازني لنفسه وصفا يوضح سخطه على دمامة صورته على نحو قوله :

ما ذنب إخواني أرميهم
بصورة شنعاء تقذي العيون
لم ألق من بينهم واحدا
يعيرني رونقه والفتون

ضحكنا كثيرا حينما قرأنا هذين البيتين ، لأن المازني كان صريحا صراحة قلّ أن توجد عند غيره ، فهو يقول لقرائه : إن ضآلة حظه من الوسامة توجب عليه أن لا يجتمع مع أشقائه في الطريق ، فالفرق بينه وبينهم كبير . ولم يكن المازني مبالغا في هذا القول ، فإنك حين تنظر الى صورته يتضح صدقه في هذا الوصف .

ويرى أستاذنا المترجم أن في عناية المازني واهتمامه بابن الرومي مايشعرك أنه يتحدث عن نفسه ، فقد سلك ابن الرومي في نفس وصفه سلوك المازني حيث يقول ابن الرومي :

شغفت بالخرّد الحسان وما
يصلح وجهي إلا لذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا
يشهد يوما مساجد الجمع

وهذه نظرة نافذة من المترجم ، غير أنها يمكن أن تثير تساؤلا يقول : وأنت أيها الأستاذ لماذا تعاطفت مع المازني حتى ألفت فيه كتابا ، تحلل فيه شخصيته ، ومن المحقق أن الذي دفعك الى هذا الجهد هو إعجابك بأدب المازني ، وخفة ظله ، دون أن يكون بينكما أي شبه في الخلقة والجسد ؟

ومما يؤكد ما ذهبت اليه تفرد أديبنا المؤلف في ترجمته ما نراه من استقصاء لأمر قلّ أن يقف حوله مترجم ، ونعني به ابتلاء المازني بعاهة العرج ، فقد وقف طويلا حول هذا الأمر محللا ، ذاكرا كثيرا من شعره حول هذه العاهة ، بأسلوب رصين ، كقوله : « ويخيل إلينا أن هذه العاهة ـ لأنه أصيب بها بعد فترة من عمره ـ خلفت في نفسه مرارة ملحة أكثر من كونه قصيرا وهنان البنيان ، لأنه جاء إلى الدنيا بها ، على حين أن الضلع لاحق بها ، لذلك جاء ذكر هذا الضلع في شعره » .

وقد استشهد المؤلف بقصيدة للمازني منها :

سيقول اللعين قزم بلاقيك
بساق عرجاء ذات التواء
إن أكن قزمة فإن قواني
طوال جدا بغير التهاء
كل ذي عاهة ولا شك جبار
فحاذر من رجلي العرجاء
كان تيمور أعرج الساق فانظر
لمعاني العاهات والأدواء

بعد هذا يلتفت المؤلف إلى ملمح جسدي آخر وهو قوة بصره ، فقد أعطى الله المازني بصرا حادا يصوره بقوله : (وأنا قوي النظرة حادها ، وفي وسعي أن أحدق في قرص الشمس ، ولكني لم أستطع أن أحدق في وجه هذه الفتاة العجيبة . وهكذا ينتقل الاستاذ المؤلف من خاصية جسدية الى خاصية أخرى حتى يصل الى ما اعترى أديبنا المازني من مرض عندما

توهم أنه سقط في قبر خرب في ظلمة الليل ، وتوهم أن عظاماً نخرة تعلقت به ، فخرج بعد هذا الوهم بأعصاب مخبول ، فأصيب بمرض « النورستانيا » حسب قول المؤلف ، غير أني أخالفه في هذه النظرة ، فإن العجز عن تركيز الذهن والملل من جملة أعراض هذا المرض ، والمتتبعون لعطاء المازني يعرفون أنه من أقدر الناس على التعمق في الدراسة والبحث والوصول إلى استنتاجات صائبة لا يصل إليها القادرون على تركيز أذهانهم فيما يقرءون ويكتبون . أما أن أديبنا المرحوم المازني متشائم فذلك أمر لا شك فيه ، وتعود أسباب ذلك إلى أمور كثيرة ، أهمها في رأيي أنه نضو أمراض وأسقام .

بين الجد والهزل

ونحن نعلم جميعا أن من طبيعة المرض إذا طال في جسم صاحبه أورثه التشاؤم والضيق بالحياة فلا داعي إلى الاطالة في دراسة حالته التشاؤمية . كما أني لا أظن أن قراءة رواية (ارتزيباشيف) يمكن أن تحدث هزة عظمى في نفس أديب واسع الاطلاع ، مجرب للحياة كالمازني . حسب ما ذهب إليه أديبنا المترجم . قد يكون المازني أعجب بتلك الرواية لما تتصف به تلك الرواية من دقة في الوصف والتحليل الى حد جعله يتأثر بها في بعض ما كتب ، لكن الاعجاب شيء واهتزاز الأعصاب شيء آخر ، لأن ذلك يعني أنها أورثته انعطافا في حياته ، وهو أمر لا يحدث إلا للمبتدئين من الكتاب فيما أظن . أما أديبنا المازني فإنه من الكتاب المتمكنين الذين إذا جدوا حسبهم من العابسين ، وإذا هزلوا فإن كتاباتهم تضحك الثكلى !

ولست أشك أن أخانا المؤلف يعرف ذلك حق المعرفة ، فلقد قرأ جميع آثار المازني قراءة المتأمل المتمعن ، مما جعله يفهم قدرة المازني على الاضحاك وإشاعة المرح في نفس قارئه ، فمن ذا الذي ينسى أسلوبه في نقده للدكتور طه حسين حين أنكر وجود امرىء القيس حيث يقول ما معناه : إن لعميد الأدب العربي عدة أسماء : الشيخ طه حسين ، وطه الشيخ

المازني

حسين ، والدكتور طه حسين ، وطه أفندي ، فأيهم الشخص الحقيقي من هذه الأسماء ؟ كذلك نتذكر حديثه مع صاحب المقهى ، فقد جاءه يصحب زوجه الحامل مع ولديها الصغيرين ، وكان يريد أن يدعب ويشركهم ، فما هي إلا أن قال لصاحب المقهى : (أرجو أن تهتم بهؤلاء الأربعة ، فأجابه صاحب المقهى : ياسيدي إنهم ثلاثة ، امرأة وطفلان . قال المازني : والذي في بطنها أليس له حساب) .

ومهما يكن من شيء فإن المؤلف قد أعادني الى تلك الأيام البعيدة التي لقيت فيها المازني في آثاره ، وهي أيام محببة الى نفسي ، حيث كنت أقضي الساعات الطوال مع ذلك الأديب الفذ ، فلقد حدثنا الدكتور عبداللطيف عن رأي المازني في نفسه ، وهي رؤية تعني بأنه كان يحتقر ما يصدر عنه من عطاء ، فذكر من بعض ما ذكر قول المازني :

ويروعني يأسي وينزعني
أملي وأفرق من لقاء غد
ولرب جوهرة ظفرت بها
فنفضت منها كف مرتعد

ورجعت أنظر هل بها أثر
منها يظل يبض من جلدي

ومن قدر له أن يتابع المازني في آثاره يجده كثير الحديث عن نفسه ، ولكنه ليس حديث المباهاة والتفاخر ، وإنما حديث المتعمق في النفس البشرية . فالمازني يدرك أن الناس يتزاحمون على الطيبات ، فلنقرأ قوله : (واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها لم يرفعك الناس إليها ؛ بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضا ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها ، لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والانصاف مجالا للعمل) .

بين المازني والعقاد وشكري

وللمؤلف استطرادات محببة ، يتناول فيها ما تحدثه تربية البنات في نفوس الآباء ، فالمازني يظن (أن شعور الأب نحو ابنته حقيق أن يكون أصفى من شعوره نحو ابنه ، وأقول : إنه حقيق أن يكون كذلك ، لأني لست على يقين منه إذ لم أجربه ، فقد أبت المقادير أن تكون لي بنت أتملى بها وأنعم) .

وما أعذب تلك الرحلة التي دعانا إليها المؤلف ، تلك التي تناولت صلة المازني بالاستاذين شكري والعقاد ، وهي حقبة طويلة امتدت سبعاً وثلاثين سنة مليئة بالعطاء ، غير أن المؤلف كان مضطرا إلى اختزالها ، لأنه لو أراد أن يتبسط فيها لأصبح كتابه سفراً ضخماً في أكثر من جزء ، فنحن نعلم أن عطاء هؤلاء الأدباء كان عطاء متشعبا متناسقا حينا ومختلفا حينا آخر ، وهو بجملته غني ، فيه نفع كبير ، نأمل أن يتناوله المؤلف في كتاب آخر ، يروي لنا فيه فصوله بصورة مبسطة . وأظن أني محق اذا قلت : إن المؤلف هو القادر على تأليف مثل هذا الكتاب ، لأن فصوله متفرقة في صحف أو كتب أصبحت نادرة كالاكسير . وإذا قدر للمؤلف أن يستجيب لهذه الدعوة الصادقة فمن المؤكد أننا سنظفر بكتاب طريف نافع لا شك أن الناس سيقبلون عليه كل الاقبال .

ذلك أن المؤلف من الذين صحبوا المرحوم العقاد صحبة طويلة ، مكنته من أن يقف على تلك المعارك الأدبية التي دارت بين شكري والمازني والعقاد ، وأقصد من ذلك أن الاستاذ المؤلف مغرم بآثار أولئك الثلاثة ، معجب بهم أشد الاعجاب ، وهو محق في توجهه هذا ، لأن هؤلاء الأدباء الثلاثة من الذين أثروا أدبنا العربي الحديث .

ولكل من هؤلاء الأدباء أسلوبه الخاص ورؤياه التي تدفعه إلى التجديد والتطور ، والذي يهمنا الآن أننا مع المؤلف في إكباره له وإعجابه به ، ولكني مع ذلك أرى أن المؤلف كان عليه أن يذكر البراهين التي تدل على أصالة المازني ، وهي كثيرة تشيع في آثاره . فإن هذه هي الطريقة التي سار ويسير عليها الذين يريدون أن يتوصلوا إلى حكم من الأحكام . لكن المؤلف خالف هذه القاعدة حين قال : (المازني شاعر أصيل . نبدأ بالنتيجة قبل بيان الأسباب والعلل ، لأننا نعتمد على الشعور الصادق والبديهة النافذة في هذا الحكم ، ونعول عليها التعويل كل التعويل في مسائل الفن والأدب) . ولست في حاجة إلى القول بأن الشعور الصادق والبديهة النافذة عنصران ينبعان من العاطفة ، وهما عنصران يصلحان للحكم في تذوق آثار الأديب ، ولكنها لا يمكن أن يكونا حجة يعتمد عليها الناقد في أحكامه . ولا أستبعد أن التهجم الظالم الذي انصب من البعض على المازني هو الذي دفع صديقنا المؤلف الى نهج السبيل الذي أشرت اليه ، فقد بلغ من شدة بعض الخصوم أنهم أخرجوا المازني من حرم الفكر والأدب . وقد ذكر المؤلف نصوصاً مما قاله أولئك الخصوم ، وهي نصوص صريحة ، تدل على عدم الأمانة والانصاف .

وقد عقب المؤلف بما مؤداه أن تفنيدها إضاعة للوقت ، وليس من شك أن المؤلف محق في هذا الذي ذهب إليه . ومهما يكن من أمر فإن المؤلف ذكر بعض خواطر المرحوم المازني ، وهي تدل على تعمق في فهم قضية شغلت الأدباء القدامى مدة طويلة ، حتى ألفوا فيها الكتب ، ونعني بها السرقات في الأدب . يقول

المازني ـ رحمه الله : « ويحدث في بعض الأحيان أن يطفو على السطح خاطرة أو صورة أو خالجة أو نحو ذلك ونكون مما قرأ الانسان أو سمع ، ولكنه لا يدري ، لأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بالأقل ، أما الأكثر فتلقي به فيما وراء الوعي ، وإلقاؤه فيما وراء الوعي ليس معناه ضياعه ، فإنه يطفو لأسباب تخفى علينا ولا سلطان لنا نحن عليها » .

وفي تصوري أن هذه الفقرة القصيرة فقرة حاسمة في توارد خواطر الشعراء والكتاب .

توارد خواطر

وفي يقيني أن كل كاتب لابد وأن صادفته خواطر نشرها بين الناس ، ثم رآها عند غيره منشورة قبله أو بعده ، فهذا لا يسمى سرقة كما لا يخفى . وقد بحث هذه القضية كثير من الكتاب ، لهذا استغربت إطالة المؤلف في الحديث عن تأثر المازني (بتوماس هود) و (الشريف الرضي) ، وروايته نصوصاً من آثار بعض الأدباء ، ليثبت أن المازني قد تأثر بهؤلاء الأدباء ، وسيعقد فصلا عن تأثره بابن الرومي .

وعلى كل حال فإن هذه الصفحات مفيدة تزيد في ثقافة القارىء ، ومن يدري فلعل المؤلف كان يقصد ذلك . ولكني مع ذلك أرى أن توارد الخواطر أو التشابه بين ما جاء في شعر الشريف الرضي والمازني أمر يلفت النظر ، ولنأخذ مثالا على ذلك هذه الأبيات لكل من المازني والشريف الرضي .

يقول الشريف الرضي :

أحبك بالطبع البعيد من الحجى
واقلاك بالعقل البريء من الخبل

يقول المازني :

هويتك بالقلب البريء من الحجى
وإني بالعقل السليم هاجر

يقول الشريف الرضي :

في كل يوم أكر الطرف ملتقطا
وراء نجم من الأقران منصاع

يقول المازني :

ياشاعر النفس كم أبكاك مصرعها
لقد بكيت على خرقاء مضياع

والحق أن المؤلف كان قد تجرد عن انحيازه للمازني حيث نراه يقول : (يراعى أن ثمة تشبيهات في قوافي كل من هاتين القصيدتين مما يشعر أن المازني كان ينظم قصيدته وهو ممتلىء النفس بكلام الشريف الرضي أو على الأقل كان قد فرغ من قراءة قصيدة الشريف الرضي قبل نظمه قصيدته بقليل) .

وهكذا يمضي المؤلف في تتبع الذين تأثر بهم أديبنا المازني ، غير من أشرنا إليه ، وفي مقدمتهم ابن الرومي . فهو يلتقي مع هذا الشاعر في كثير من الأمور والصفات . فإن كلا من هذين الأديبين متشائم ، وأن كلا منهما نضو أسقام وأمراض . لهذا لا نجد غضاضة حين نرى المازني يعارض ابن الرومي في قصيدته النونية التي مطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان
فيهن نوعان تفاح ورمان

وهي قصيدة من مطولات هذا الشاعر ، بلغ عدد أبياتها (٢٣٥) بيتاً .

ويحسن بي أن أشير في هذه المناسبة أن شكري والعقاد والمازني هم الذين نفضوا غبار الاهمال عن ابن الرومي ، فقد تحدثوا عنه كثيرا ، وكان العقاد أكثرهم اهتماما به ، حيث ألف كتابا عن حياته وشعره . أما المازني فإنه كتب عنه مقالات كثيرة ، تدل على فهم دقيق لخصائص هذا الشاعر ، ضمها كتابه (حصاد الهشيم) . وقد تبسط المؤلف في هذه القضية ليؤكد أن ذلك لا يغض من أصالة ابن الرومي وتمكنه في الشعر والأدب .

وبعد فإن هذه إلمامة بسيطة ، تعد إشارة لدراسة الدكتور عبداللطيف عبدالحليم ، شملت عديدا من القضايا الأدبية ، مررت بها على عجل . ويعود سبب ذلك الى أني لم أرد بها إلا التشويق لقراءة هذا الكتاب . □

منتدى العربي

قضيــة

إطلاق العنان للقطاع الخاص والمبادرات الفردية

بقلم : الدكتور عبدالرحمن زكي ابراهيم *

« لم يزل الجدل قائما في أوساط الاقتصاديين والمشتغلين بقضايا التنمية حول دور القطاع الخاص وإسهامه في الاقتصاد الوطني لدول العالم الثالث . وهذا إسهام من كاتب متخصص يطرح أبعادا للقضية ، ويناقش مدى صدق مقولة أن القطاع الخاص ونشاطه هو سبيل العالم الثالث للنمو . »

يواجه العالم الرأسمالي أزمة اقتصادية جديدة تتمثل في تعايش البطالة مع التضخم في آن واحد . ولم تكن هذه الأزمة معروفة قبل بداية السبعينات من هذا القرن . وقد سميت هذه الأزمة بعد ذلك باسم « الركود التضخمي » Stag Flation . وهذا يعني أنه في الوقت الذي ينخفض فيه معدل نمو الطلب الكلي نتيجة لضعف الانفاق الاستثماري تمعن الأسعار في الارتفاع مع تزايد معدلات البطالة .

ونتيجة لهذه الأزمة التي قامت بهدم النظرية الكينزية راح الاقتصاديون الرأسماليون يضرعون إلى روح النظرية التقليدية ، يستلهمونها من جديد ،

* استاذ اقتصاد ـ وكيل كلية التجارة ـ جامعة الزقازيق .

لعلها تكون عونا في تقديم سبل العلاج . وهنا بدأت الدعوة إلى سياسة جديدة مفادها عودة الرأسمالية إلى أصولها الأولى ، أي إلى آليات السوق الحرة ، وعدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، وإلغاء القطاع العام ، وتخفيض الضرائب على الأرباح والدخول العالية ، وتقليص الانفاق الحكومي الموجه للرعاية الاجتماعية . وكل ما هو مطلوب من الدول أن تتحكم في عرض النقود حتى يمكن علاج مشكلة التضخم ، في حين يقوم القطاع الخاص بمعالجة مشكلة البطالة من خلال إطلاق يده في زيادة الأرباح إلى حدها الأقصى وتشغيل عوامل الانتاج .

تطبيقات عملية :

وقد دخلت هذه السياسة مجال التطبيق العملي لها حيث قامت الحكومات في الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوربا بتقليص تدخلها في الشئون الاقتصادية تاركة كل ذلك للقطاع الخاص وقوى السوق . وقد كان من نتائج هذه السياسة التغلب ـ مؤقتا ـ على مشكلة التضخم ، ولكن على حساب إيقاف النمو أو إبطائه وتفاقم مشكلة البطالة . أما على الصعيد العالمي فقد أدى ذلك إلى إغراق العالم بالديون التي راحت تغذيها حلقات رؤوس الأموال التي تخلقها وتتحكم فيها شبكات المصارف الدولية النشاط ، التي بدأت تتخطى الحدود السياسية للدول بشكل متزايد .

وحتى تتحقق تلك الأفكار الاقتصادية في دول العالم الثالث عقدت ندوة لهذا الغرض بالمركز الدولي للإدارة في جامعة « جورج تاون » بالعاصمة الأمريكية واشنطن في أوائل ديسمبر من العام الماضي . وقد شارك في هذه الندوة ممثلون عن مصر والأردن ونيجيريا وأندونيسيا وماليزيا والمكسيك وغيرها من الدول النامية . وكان هدف هذه الندوة توعية ممثلي هذه الدول بأهمية إطلاق العنان للنشاط الاقتصادي الخاص والمبادرات الفردية في دفع عجلة التنمية الاقتصادية وتحقيق الاستقرار الاقتصادي ، بحجة أنه ليس هناك من سبيل آخر لتنظيم المجتمع سوى إطلاق قوى السوق والعودة إلى مثالية النظام الرأسمالي في سنواته الأولى .

النظرية الاقتصادية والقطاع العام :

ولأن الكلام أتى من الغرب ولم يأت من الشرق فقد بدا حكمة تطرب لها الآذان ، وتصغي لها الأسماع والأفئدة ، حتى غدت تلك الأفكار الاقتصادية نموذجا يتطلع إليه الجميع ويلاحق بكل الإطراء ، وينصح أمثالنا بدراسة تلك السياسة والتعلم منها والاحتذاء بها ، وهنا نحن نجد أن مثقفينا الذين انبهروا بالغرب حينما تمرد على النظرية الكلاسيكية ودعا إلى تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وتطبيق الفلسفة الكنزية ، هم أنفسهم الآن يطلون علينا منبهرين بالغرب حينما ألقى بالنظرية الكلاسيكية في مضمار العمل الاقتصادي والتنموي في ظل دعوات الحريات الفردية ونظام السوق وتشجيع القطاع الخاص وقد وضعت هذه الدعوات ـ ذات التطرف الليبرالي ـ موضع التنفيذ في كثير من الدول النامية تحت ضغط العوامل الخارجية وما تستند إليه من قوى اجتماعية محلية . ففي هذه الدول يعاد النظر الآن في وضع القطاع العام في الاقتصاد القومي ، ليس بهدف علاج مشكلاته ودعم إمكاناته لتحقيق تنمية حقيقية ، بل بهدف الانتقال إلى نهج جديد مختلف ، ومرحلة مغايرة ، تستند إلى رؤية معينة ، مفادها أن القطاع العام غير كفء في تخصيص الموارد الاقتصادية وتوزيعها ، ومن ثم فإنه يجب تحجيم دوره بحيث يقتصر هذا الدور على القيام بالمشروعات التي يحجم القطاع الخاص عن تنفيذها . وعليه ففي ضوء هذه الرؤية تجري في عديد من الدول النامية عمليات تصفية واسعة النطاق لمنشآت القطاع العام من خلال بيع هذه المنشآت إلى القطاع الخاص ، وتصفية المشروعات الخاسرة ، والسماح لرأس المال الأجنبي بالمشاركة في ملكية المشروعات الناجحة .

بعض الانتقادات :

ويؤكد أنصار هذه السياسة على أن إطلاق العنان للقطاع الخاص وآليات السوق يؤديان الى حل المشاكل التي تشكل جوهر البحث الاقتصادي ، وهي مشاكل التخصيص والكفاءة والتوزيع ، لكن التجربة أثبتت عجز هذه السياسة عن حل المشاكل الاقتصادية حلا مرضيا ، فالإنتاج وفقا لآليات السوق لا يتم لخدمة أفراد المجتمع ، وإنما لخدمة القادرين منهم على دفع الأثمان ، وبالتالي نجد أن المنتجين يقومون بإنتاج ما يريده الأغنياء من الكماليات طالما كانوا مستعدين لدفع أثمان مشترياتهم ، بينما تظل الحاجات الأساسية دون إشباع نظرا لعدم قدرة المحتاجين إليها على دفع أثمانها . وهكذا لا يمكن أن تتحقق التنمية الحقيقية من خلال المبادرات الفردية ومن خلال آليات السوق ، فهذه الآليات لا تستجيب إلا للطلب الفعلي ، والطلب الفعلي يهزأ بالفقراء ولا يعبأ بهم أو بإشباع حاجاتهم الاستهلاكية . وعليه فإن هذه السياسة لا تحقق أفضل تخصيص ممكن لموارد المجتمع بين الأنشطة الاقتصادية المختلفة .

والحديث عن الاقتصاد في استخدام الموارد الانتاجية في ظل هذه السياسة يتجاهل حقيقة مهمة وهي أن الحرية الاقتصادية بغير تكافؤ الفرص تشجع على تركيز رأس المال في يد عدد صغير نسبيا من الأفراد . وبمضي الزمن تزداد درجة هذا التركيز ، وتضعف المنافسة ، وينشأ الاحتكار ، ومتى ساد الاحتكار سوق الانتاج فقد المنتجون كل حافز على تقليل التكاليف وعلى إنتاج ما يريده الأفراد بالكميات والصفات التي يطلبونها . ومن ناحية أخرى ينطوي الاحتكار على مساويء تعود على جمهور المستهلكين ، إذ أن الثمن في حالة الاحتكار يكون غالبا أعلى منه في حالة المنافسة . وهكذا فدون المنافسة لن يكون لدى المنتجين حافز على تقليل التكاليف ، ويكون المشروع الخاص في غنى عن إدخال التحسينات والتجديدات في عملية الإنتاج .

والقول بأن توزيع الدخول بين الأفراد يتناسب مع مجهود كل فرد في ظل آليات السوق قول تنقصه الحقيقة ، فتوزيع الدخول والثروات في ظل هذا النظام ينحرف كثيرا عن التوزيع المثالي ، فالكسب في هذا النظام لا يعكس المقدرة فحسب ، وإنما يعكس أيضا حسن الحظ وسوءه ودرجة ملكية عوامل الانتاج . فكم من شخص فاشل كسول يتمتع بدخل كبير نظرا لأنه يملك عوامل إنتاجية حصل عليها بطريق أو آخر ؟ !

غير أن هذا ليس كل ما في الأمر ، فإن ذوي الدخول الكبيرة قادرون على ادخار أجزاء كبيرة من دخولهم . ومن السهل على أصحاب هذه الدخول الكبيرة استثمار هذا الجزء المدخر بعائد من الربح . وهذا يؤدي إلى تأثير متراكم يعمل على زيادة الثروات الكبيرة زيادة مضطردة . وهذا ما يعرف بتراكم رأس المال . والغريب أنه لا توجد تلقائية في ظل هذه السياسة تعمل على تقليل التفاوت في الدخول ، بل إن الفعل الطبيعي للقوى الاقتصادية الحرة هو أن يزداد الغني غنى بتراكم رأس المال ، ويزداد الفقير فقرا لعجزه عن تملك عوامل الانتاج ، ونتيجة لاستغلال الطبقة الرأسمالية له . وهكذا تعمل آليات السوق بطريقة ضالة عمياء لا هدف لها من عدالة توزيع الثروة أو الدخل بين مختلف الأفراد والطبقات . □

■ لا يمكن للغة أن تعبر عن صفات القوة والجمال والشجاعة التي ينطوى عليها حب الأم .

(شاتمان)

تعقيب

التربية هي الدواء لكل أدواء المجتمع

قرأت في عدد مجلتنا العربي ٣٥٢ مارس ١٩٨٨ مقالا بقلم الدكتور سعيد اسماعيل علي بعنوان التربية : هل هي الدواء لكل أدواء المجتمع ؟ وقد شرع صاحب المقال بعرض تاريخي لأفكار فلسفية بدأها بأفلاطون وبروتوجوراس والسفسطائيين وسقراط وفخته ، وانتهى بها ببعض المحدثين من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

لقد خصص كاتب المقال مجالا واسعا لآراء هؤلاء وغيرهم ، حتى غطى أكثر من نصف المقال الذي يريد أن يجيب فيه عن سؤال طرحه في عنوان المقال.

أود أن أشير إلى بعض التطورات الأخيرة في ميدان التربية ، لكي أجلب انتباه الكاتب من النظر إلى الوراء إلى النظر إلى الأمام ، إلى المستقبل : يمكن حصر هذه التطورات في النقاط التالية :

١ ـ التطور من التعليم إلى التعلم : لقد كان المعلم سابقا مركزا ومصدرا لعملية التعليم ، ويتم التعليم بوجوده ، ويغيب بغيابه . لقد تغير مركز العمليات التربوية اليوم من المعلم إلى الطالب نفسه . ينبغي على الطالب أن يقوم بنشاطات معينة بنفسه لكي يأخذ التعلم طريقه . إن معلم اليوم قائد يخطط وينظم ويوجه ويوفر الخبرات الملائمة ، ويساعد على حصول التعلم بشكل أكثر ملاءمة ونجاحا للطالب .

٢ ـ التطور من البنية الجامدة الثابتة في البرامج التقليدية إلى بنية متحركة في البرامج الحديثة : لقد تقدمت العلوم في العصر الحديث ، ويطلق على مثل هذا التقدم مصطلح « الانفجار المعرفي » ، حيث يقال إن العلوم إنما تجدد نفسها في كل عشر سنوات ، وقد تعددت الاختصاصات ، وكثرت الأفكار حتى أن الإنسان بدأ يعيش في عصر تتغير فيه الأفكار ، بعد أن كانت الأفكار من عصر أفلاطون تظل تسود عصوراً طويلة تكفي لانقراض عددٍ من الأجيال .

إن طرائق التدريس المغلقة أصبحت غير قادرة على مجابهة مثل هذه التطورات التي حصلت في المجتمعات . لقد أضحى إفساح المجال للبدائل ضرورة حتمية تتطلب التأكيد على المجتمع وما فيه من مصادر لتكون مركزا لنشاط المتعلم . إن المتعلم اليوم هو الذي يحدد ما سيدرس من هذه المصادر .

٣ ـ التطور من النظر إلى الطالب على أنه جزء من جماعة إلى إدراكه على أنه فرد له إمكانياته وحاجاته وميوله الخاصة : لقد أعطت هذه النظرة مجالا لظهور أنواع مختلفة من التعليم الذاتي المستقل ، كالتعليم المبرمج وخطة كيلر والجامعة المفتوحة . إن التأكيد على ما يؤديه الطالب في هذا البرنامج الجديد أهم مما يقدم له المعلم . يختار الطالب طريقة خاصة من

التعلم ، ويعمل حسب سرعته الخاصة ووقت فراغه ، وينشغل بنشاطات مناسبة يميل إليها . وقد أدت هذه العملية إلى تحقيق نتائج باهرة في التعلم .

٤ - التطور من استخدام مواد الوسائل التعليمية في التدريس الجماعي إلى استخدامات موسعة وبأشكال جديدة في التعليم المبرمج : لقد استدعت هذه النظرة التعلم من خلال العمل من مصادر مختلفة وذلك للمبررات التالية :

أ - لظهور أساليب مختلفة من التعليم . يجد الطالب بعضا من أنواع التعليم أكثر فاعلية من غيرها ، وبذلك يكون توفير البدائل ضروريا لتحقيق فائدة لأكبر عدد من الطلاب .

ب - إن أنماطا من الوسائل التعليمية ومصادر التعلم الأخرى قد تكون أكثر ملائمة من غيرها في مادة دراسية معينة . لقد اختلفت المواد التعليمية في البرامج الجديدة وبشكل ملحوظ عن المواد التقليدية التي كان المدرس يتحكم فيها . لقد برزت عوامل أكثر أهمية ، منها صياغة الأهداف التربوية الخاصة ، وتكييف التدريس للأفراد والجماعات ، وطرائق التدريس المرنة ، وتنظيمها مع الخبرات المتوفرة .

يجب أن تؤخذ هذه التطورات بعين الاعتبار عندما يراد إيجاد الدواء لأدواء المجتمع في العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن الكاتب كان قد طرح سؤالا في عنوان مقاله عن كون التربية الدواء لكل أدواء المجتمع ، إلا أنه لم يجد في نفسه الجرأة الكافية أن يجيب عن هذا السؤال بالايجاب ، وبدلا من ذلك فقد بحث عن تبريرات متنوعة ، تساهم في خلق هذه الأدواء . والتربية وحدها لاتستطيع أن تحل مثل هذه الأدواء ، فإن التربية أولا ليست مسؤولية المؤسسات التعليمية المختلفة ، وإن الوقت الذي يقضيه الفرد في هذه المؤسسات قليل جدا ، وإنه يصعب تغيير الاتجاهات ، وإن التربية جزء من منظومة المجتمع ، إلى أن يصل في نهاية هذه التبريرات إلى استنتاج التوح على قبر التربية قائلا : إننا نظلم النظام التربوي كثيرا ، عندما نبالغ ونلقي على أكتافه العديد من المسؤوليات التي تشترك معه نظم أخرى في تحملها ، حتى إذا فشل انهلنا عليه بسياط النقد .

أجيب عن السؤال الذي طرحه الكاتب ، وخشي أن يجيب عنه ، فمال يمينا ويسارا : نعم إن التربية هي الدواء لكل أدواء المجتمع ، وبالتربية وحدها تنحل هذه الأدواء ، ولولاها لما انحل داء . لقد أضحت هذه المسألة بديهية في المجتمعات المتقدمة حتى استثمرت الأموال الطائلة في هذا المشروع الانساني الحساس ، ذلك لأن المشاريع الأخرى مهما كانت ، لا يمكن أن تنجح إلا بجهود التربية .

إن حلول مشاكل المجتمع وتنميته تكمن في عناصر ثلاثة ، هي :

الدافعية والمال والطاقة البشرية . والباحث وإن كان قد أشار إلى هذه العوامل ، إلا أنه لم يوضح العلاقة فيما بينها ، وأيا منها هو الأهم . يقصد بالدافعية شدة الرغبة الوطنية إلى التغيير والتطوير ، والاتجاه الذي ترغب فيه القيادة السياسية لتوجيه هذا التغيير نحوه . إن القيادة السياسية متى ما أرادت حلا لمشكلات المجتمع ، وتخليص المجتمع من ويلات التأخر ، فإنها يجب أن تكون جادة في إرادتها هذه ، وتندفع لها أيما اندفاع ، مصرة على الاستمرار في مواصلة جهودها في هذا الخصوص . وفيما يخص المال ينبغي النظر إلى حل المشكلات والتنمية كأي مشروع آخر ، ولابد أن تخصص رءوس الأموال اللازمة . وكلما ازدادت رءوس الأموال المخصصة من أجل مشروع ، واستخدمت هذه الأموال بكفاءة عالية ، كلما كان احتمال النجاح أكبر .

على أن العامل الأهم في هذه الثلاثية هو عامل الطاقة البشرية . ولاشك أن الإنسان أثمن رأسمال ، وأن التربية هي التي توجه الطاقة البشرية . ومهما كانت الدافعية في حل أدواء المجتمع ، ومهما كانت رءوس الأموال المخصصة ، فإن فاعلية أي نظام إنما تعتمد على التربية . تعتبر كفاءة العملية التربوية العنصر الأساس في حل أدواء المجتمع . □

الدكتور أنور طاهر رضا

جامعة التاسع من أيلول - ازمير

يصدر في
١٥ أكتوبر ١٩٨٨

كتاب العربي

الحادي والعشرون

ماذا في

العلم والطب من جديد؟

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

قصة مترجمة

طريق الخيول

للكاتب الأرمني : أغاسي ايغازيان*
ترجمة : يوسف حلاق

كانت الطريق تمتد بالجاهين ، في أحد طرفيها خان صاحب أغبر في بورجومي ، وفي طرفها الآخر خان في اخالتسيخ .

طريق قفقاسية متعرجة ، والنهر طورا عن يمينك وطورا عن شمالك ، والحوذي يوفان على مقعده ، وأمامه حصانان منكسا الرأسين . كنا ننزل من القطار ونبحث عن يوفان ، ونتوجه إلى اخالتسيخ ، إلى بيت جدي الظليل ، إلى الحديقة الصغيرة المضمخة بأريج الكرز والورود ذات الروائح النفاذة ، وإلى القبو البارد الذي تفوح منه رائحة السجق والتوابل والأدوات المنزلية النحاسية .

وهكذا كل عام : ما ان تبدأ العطلة الصيفية حتى نتوجه أنا وأبي وأمي أو أحد الأخالتسيخين ذوي الزنار الفضي إلى بيت جدي في « ابرزيروم » .

في الطريق كنت أقلب النظر بين النهر وحافتي الطريق ، وظهر الحوذي يوفان ، وأتابع حركاته ، وأصيخ السمع إلى فرقعة سوطه ، يستحث به حصانيه ، وكان يوفان يمزح ، ويطلق صوته في أغان مضحكة ، بغية إدخال البهجة على نفوسنا ، وكان يحب ترديد أغنية « سيمون والليمون » ، خاصة ، كاشفا بعد كل كلمتين منها عن صف فضي من الأسنان .

كنت أحاول تأمل الحصانين من وراء ظهر يوفان ، لكني لم أكن أتمكن من رؤية أكثر من نصف الحصان مرة عن يسار ظهر يوفان ، ومرة عن يمينه . وكانت قوائمها تتحرك في رتابة ، مثيرة الغبار ، وكان الغبار المثار الحائر لا يعرف أين يتوارى ، في الأعلى أم في الأسفل ، وكان يعلق بقوائمها محاولا تغيير ملامحها الواضحة وإذابتها .

كانت القوائم مشغولة بعملها ، تتحرك وتتعاقب صعودا وهبوطا وسط الغبار المثار في جد ونشاط ، وكان وقع الحوافر وحده ينبيء باستواء الطريق : « تسوك . . . تسوك . . . تسوك » .

كنت أعرف هذين الحصانين جيدا ، أحدهما كان مضحكا وحزينا ، وعاليا ذا قوائم طويلة ورقبة طويلة أيضا ، وكانت عيناه حزينتين ، تفيضان بالدمع أحيانا ، لكنه عندما كان يكشّر عن أسنانه ويرفع شفته العليا لم تكن عيناه تبدوان حزينتين .

● وكان يوفان يستحث الحصانين وهو يهوي بالسوط على ظهريها قائلا : - هيا يا كوركا ، هيا يا

* ولد الكاتب عام ١٩٢٥ في تبليسي عاصمة جمهورية جيورجيا السوفيتية ، وأنهى كلية الفنون والرياضة والآداب ، وعمل مخرجا ، وحاز على عدة جوائز أرمنية وجيورجية .

ماروسيا ، هيا يا حبيبتي ،

وكان الحصان الآخر ـ ماروسيا ـ فرسا رمادية اللون مرقطة قصيرة متعبة قليلا .

كان يوفان يجلسني إلى جانبه أحيانا ، فكانت الطبيعة المحيطة تتكشف أمام ناظري ، والطريق ينساب تحت قدمي ، وكوركا وماروسيا يبدوان أمام عيني مباشرة ، وكنت أتهلل ، وأرتجف ابتهاجا ، وتتزاحم في صدري رغبات غامضة ، ثم تروح في حلقة رقص وحشية متسارعة ، وكنت أحاول تهدئتها وإيقافها ، لخوفي من جماحها وخوفي من نقائها ، وخوفي من لا محدوديتها ، فلربما غابت فجأة وتحولت إلى شيء آخر ! كنت أشعر بها بشيء من الخوف ، محاولا صدها أو تأجيلها إلى « ما بعد » ، وكنت أعرف أن « ما بعد » هذه ما زالت في مكان ما أمامنا ، وأنها لا متناهية كالخلود ، وأن هذه الطريق تؤدي إلى « ما بعد » . وأن هذه الطريقة تنطوي بنفسها على السعادة . وكانت هذه السعادة تتراءى لي جوقة آلات نحاسية ، طبولا وقربا ، ولونا أحمر ، ورائحة قشرة صنوبر ، وأنفاس نهر ، وبيت الجد في « ايرزيروم » . والأهم أنها كانت تتراءى لي طريقا لا نهاية لها ، وتمضي فيه فلا ترى لها نهاية .

في المقدمة يعدو كوركا وماروسيا « دي ، دي » ، ويصرخ يوفان ، ويلسع ظهر كوركا بسوطه ، وتتكمش ماروسيا على نفسها ، تتحفز بانتظار اللسعة القادمة ، ويصبح جلدها أملس لامعا وقد انبسطت تغضناته . نظرة ماروسيا حزينة حقا الآن ، إنها تنظر إلى كوركا كيما تواسيه على الأرجح ، وكيما تحمل عنه بعضا من ألمه ، في حين أنها هي نفسها تتوقع لسعة السوط القادمة لتخفف وقعها ، لكن ها هو ذا يوفان يشد الزمام فإذا بماروسيا تستدير إلى اليسار ، ولا يعود بمقدورها النظر إلى كوركا .

رجوته هامسا : لا تضربها يا عم يوفان

لكنه لم يكن يسمعني . هوى بالسوط على ظهر ماروسيا وهو يتمطق بلسانه ، بدا لي أن ماروسيا كانت مسرورة ، فالضربة لم تكن بالقوة التي توقعتها ، والانتظار أصعب من الضربة نفسها .

وسألني يوفان : ماذا قلت ؟

ـ فهمست من جديد : لا تضربها .

ابتسمت عيناه المحمرتان :ـ

ـ حسناً سأضربها ضربا خفيفا .

يريد كوركا أن يلتفت إلي ، فهو قد سمع كل شيء ، بالطبع قد سمعه .

ويشد يوفان الزمام ، فيعود رأس كوركا إلى النظر أمامه . بدا لي أن يوفان لا يريد أن ينظر كوركا إليّ .

نو ـ و ـ و ـ !

ويعود الحصانان إلى عدوهما . وأخذت الأماكن الأليفة تتراءى لي ، عما قريب سأكون عند جدي .

قلت لكوركا : أسرع ، لا تزعل مني . وهمست له : قل لرفيقتك الا تزعل هي أيضا ، فما العمل إذا لم يكن هناك خطوط حديدية ؟ حين أصبح في يوم ما ملكا أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء ، سآمر بعدم السفر على الخيول .

كثيرا ما كان هذان الزوجان اللذان يعدوان أمامي فيبدوان لي مضحكين ، مضحكين وبائسين ، وعندما كنت أرى فيهما شيئا مضحكا كنت أشفق عليهما ، وحينما كنت أشفق عليهما كان الأمر يبدو لي مضحكا ، وكان يبدو لي مضحكا حبهما وإخلاصهما وطيبتهما ، وهذا الإحساس بأن الأمر مضحك كان فظيعا ، بل إني أصبحت أخاف وصار يودي أحيانا أن يبغضه ويخدعه ويرفسه ،ألا يحب أحد هذين الجوادين الآخر ، وأن يضحكا بصوت عال كالبشر ، وأن يخرج أحدهما لسانه للآخر ، ولي ، وليوفان ، إذ ذاك ربما لا يساورني الشعور بالخوف بهذه القوة ، لكنهما كانا أمينين مخلصين ، وكان يعودان متآلفين منسجمين كزوجين عاقلين ، وطيبين ، ولهذا كان كل شيء حولنا حزينا .

ـ ماذا ستفعل في أخالتسيخ يا عم يوفان ؟

ـ سنعود أدراجنا .

وسألته متعجبا : اليوم فورا ؟

أجاب يوفان : اليوم فورا

نظرت إلى الحصانين بذعر ثم سألته من جديد :

ـ « وفيما بعد » ؟

ـ ماذا « فيما بعد » ؟

ـ ماذا ستفعل « فيما بعد » ؟

ـ سنعود إلى إخالتسيخ من جديد .

ـ ولا شيء أكثر من هذا ؟

ـ ماذا تريد أكثر من هذا ؟ إنه خط سيرهما .

وأختلس النظر إلى الجوادين حتى لا يلاحظا نظرتي .

من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

يذهبان ، ويعودان ، ثم يذهبان من جديد ، وماذا بعد هذا ؟

أين الطريق ؟ الطريق اللامتناهي ، وكيف تعيشان دون طريق كهذا ؟ وأتوجه بالفكر إلى كوركا وأنا واثق أنه يسمعني : لماذا لا تهربان ؟ لماذا لا تحطمان رحليكما ؟ لماذا لا تكملان طريقكما ؟ هل تسمعني أنت يا كوركا ؟ خذ رفيقتك ولا تتوقف ، امض ، امض ، فالطريق طويل ، سعيد ، خيّر .

يريد كوركا أن يدير رأسه باتجاهي ، لكنه يخاف من يوفان ، أما أنا فكنت أنظر إليه بحيث لا يدرك يوفان ما أقول :

« اهربا لا تتوقفا ، إنك تسمعني يا كوركا ، يا صديقي الأدهم ، أتوسل إليك لا تخف ، فأنت تعدو بسرعة ، ولن يستطيع يوفان اللحاق بك أبدا ، أنت أقوى من يوفان ، اهرب ، لا تأبه به ، ما الذي يستطيع أن يفعله ؟ أيمكن العيش هكذا ؟ كيف تصبر ؟ من أجل أي شيء ؟ ألا ترى أن ليس لهذا الطريق آخر ؟

ينظر كوركا إلى ماروسيا ويحمحم

«لا بدَّ أنك تفهمي ، امضيا قبل أن ينتهي الطريق ، قبلا أن تظلا فيه إلى الأبد . »

وأنظر إلى يوفان خلسة :ـ

« إذا كنتما غير قادرين على الصبر فانحرفا الآن عن الطريق ، أمامنا بعد قليل مفترق طرق ، استديرا وامضيا إلى الغابة أو المرج ، ألا تريان سعة المكان ؟ امضيا ، وانتظراني ، فبعد شهر أعود إليكما ونمضي معا » .

ـ يوفان لا يرتاب في شيء ، إنه لا يسمع همسي ونجتاز المفترق ، كوركا وماروسيا يعدوان ، لكنهما مضطربان ، ينعقد البخار فوقهما : « لم تتمكنا ؟ لا بأس ، هناك مكان آخر مناسب ، انحرفا من هناك ، وأنا سأمضي على قدمي ، فلم يبق إلا القليل .

أمن المعقول أن تعودا أدراجكما إلى الوراء ، ثم إلى الوراء مرة أخرى ؟ »

هنا في المكان المناسب ، خرج يوفان من ذهوله فجأة :

- اي دي .

في المساء وصلنا بيت جدي غبرا متبلدين . حل يوفان الحصانين ، واقتادهما إلى خلف البيت حيث الحشائش . ومضيت إليهما .

- لم تتمكنا هذه المرة ؟ لا بأس ، في المرة القادمة انتظراني ، اصغيا إلي في صمت . وكان واضحا أن سرنا سيبقى بيننا .

وبعد شهرين عدت إلى الخان ، وانتظرت مع جدي يوفان بين العجلات والعربات المكسرة ، وكان يحيط بنا رجال يلبسون الطاقية والقفطان ويحملون خناجر . ووصل يوفان ، ولم يكن مشدودا إلى عربته إلا كوركا . وسألته :

لكن أين ماروسيا ؟

- نفقت .

- كيف ؟

- الفرس أضعف من الإنسان ، لا تتحمل .

● قلت في نفسي بحقد ، كأنك لا تدري لماذا نفقت » ودنوت من كوركا :-

- مرحبا ، هل نسيت اتفاقنا ، أم تراك ستعود إلى الصبر مرة أخرى ؟

وانطلقنا في الطريق ، ولم أعد الآن ألاحظ شيئا ، فقد كنت مشغولا بكوركا وحده . كنت أتحدث إليه ، وأشجعه :

« المكان مناسب هنا ، هيا انطلق » . كان يستمع إليّ ، وقد أراد أن ينحرف ويهرب ، لكن شيئا ما توتر فيه ، شعورا ما غامضا غبيا كبله . ولم أستطع أن أدرك ما السبب إذ لا شيء كان يعيقه ، لا شيء على الاطلاق .

« اهرب ، اهرب ، اهرب ، هيا الآن » ، لكن كوركا كان ينظر إليّ دون أن ينحرف عن طريقه .

عند وصولنا كنت محطما وحزينا ، وكنت أقول : « جبان ، حقير ، تافه ، تركض ورأسك إلى أسفل . مرة أخرى لم تستطع ؟ ما الصعب في الأمر ؟ جبان » . ثم نظرت إلى عينيه فأدركتني الشفقة عليه فقلت : « حسنا ، في المرة القادمة . »

وبعد عام التقينا بيوفان في السوق ،

وسأله والدي ماذا تفعل هنا يا يوفان ؟

وأجاب يوفان : لقد مدّوا خطاً حديديا ، والآن أعيش هنا . قفزت ، واختلط كل شيء في داخلي ، وغمرتني عواطف غريبة ، ورأيت الطريق اللامتناهي الذي يعبر المروج والغابات والفجاج وفكرت :

« إن الخط الحديدي مجرد ذريعة ، فلابد أن كوركا قد هرب »

وسألت بشماتة : أين هرب ؟

- أين كان بوسعه الهرب ؟

- في الطريق الطويل ، اللامتناهي .

- وابتسم يوفان : - كيف لحصان أن يهرب ؟

- لا أدري ، مع العربة أو دون ؟

- واعترض يوفان بثقة : لا

وسأله بحذر : وما الذي يفعله ؟

- أخذته إلى القرية ، إلى تسورخوت .

فقلت بنفس لم تعرف الطمأنينة : وماذا يفعل هناك ؟

- يروح ويجيء ،

- هل معنى يروح ويجيء ذهابا وإيابا ، إلى هناك وبالعكس ؟

- تماما .

- ونفس الطريق ؟

- لا ، الطريق أقصر ، سيكون أسهل على كوركا .

وقلت مستغرباً : - أسهل ؟ كيف سيكون أسهل !

على العكس سيكون أصعب عليه ، أصعب .

أتراه نسي كلماتي ، سأذهب إلى تسورخوت ، وأبحث عن كوركا ، وسأعيد عليه كل شيء من جديد ، سأقول له :

- اسمع يا كوركا . □

أخاف عليك !

شعر : محمود مفلح

تحدثني عن رحيل الينابيع
عن جرح « غرناطة » الكبرياء
كفى يا صديقي
بقلبي سهامك
إن سكوتك بعض العزاء
تعبتُ من الجري خلف التوابيت
والمشي في النوم
إني أتوق إلى صهوة أمتطيها
إلى قطرة من شعاع جديد
أكحل فيها عيون النساء
أصفي مياه البحيرات من عكر الخيل
دعني من الذكريات الثقيلة
لا تهزز النخل
أعلم أن الأفاعي تبيت على قمة « البرج »
والريح تعول في ردهات القصور
وأعلم أن الرجال تقايض بالسيف « بخت » النجاة
ولكن !!

أخاف عليك البراءة في زمن لا يسُن السكاكين
إلا لذبح طيور السماء

. . . .

أسائلك الآن ؟
هل كان « طارق » يلعب بالسيف
كي تنقش الثوب بالتبر . . . ؟
تقطف من ثمر العشق ولادة في المساء ! ؟
وتمنح من رغوة الخد مجدا   لأكثر عشاقها الأتقياء ؟
وهل كان طارق يستنزف الخيل ركضا
ليمطر عصر الخليفة خمرا
وتغدو المقاصل بعض حديث السكارى
ببرد الشتاء ؟
أعوذ بتصهال خيل الفتوح
ومن لقحوا الريح عدلا
أعوذ ببرق الصوارم في ليلة الزحف
بالغيث والسعفات العطاش .

الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

الزنـــك وجســـم الانســـان

ما أعجب جسم الإنسان ! فهو يحتاج إلى فيتامينات ، بحيث لايقوى على العيش دونها ، فلو حصل المرء على كل مايحتاجه من نشويات ودهنيات وبروتينات وحرم كل مايحتاجه من الفيتامينات ، لما بقي على قيد الحياة شهرا أو شهرين ، هذا على الرغم من أن المقادير التي يحتاجها من هذه الفيتامينات مقادير ضئيلة جداً ، وقل مثل ذلك أيضا في حاجته إلى المعادن أو الأملاح المعدنية ، لاسيما مايعرف بالخمسة الصغار وهي : النحاس والكوبالت والمنغنيز والموليب دينوم والزنك . فالمقادير التي يحتاجها جسم الإنسان من هذه الأملاح المعدنية لاتكاد تبلغ جراما واحدا في جملتها مجتمعة .

فالزنك الذي يستأثر بنصيب الأسد (من ذلك الجرام) لاتزيد حاجة الجسم منه على ٠,٠٩٦ من الجرام .

يتساءل المرء عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها الجسم من هذه الكمية الضئيلة ، وعن الأضرار التي يمكن أن تلحق به إذا لم يحصل على تلك الكمية على الأخص لا أقل ولا أكثر .

يلعب الزنك دورا حيويا في عمليات الأيض أو امتصاص الغذاء من الطعام بعد هضمه ، وهي عمليات حيوية لاغنى لمخلوق عنها . وماأسرع ماتختل تلك العمليات وتضطرب الطريقة التي يتعامل بها الجسم مع الأطعمة جميعا ، البروتينات والنشويات والدهنيات دون استثناء .

وتتضاعف الحاجة إلى الزنك عند المرأة الحامل . وقد دلت الدراسات التي أجريت في السنة الماضية في جامعة ردنج ببريطانيا على أن فقر الزنك في الحامل يؤدي إلى إصابة الجنين بآفات عديدة ، وإلى ولادة مولود ناقص الوزن ذي رأس صغير الحجم ، بطيء النمو . ولعل أخطر مانبهت إليه هذه الدراسات احتمال وجود صلات وثيقة بين نقص محتويات الزنك في الجسم وبين مرض الأيدز . وحسبك الشبه الكبير بينها ، فكلاهما يحد من فاعلية أجهزة المناعة أو يعطلها ، ويشتبه البروفسور سميث الذي أشرف على تلك الدراسات بوجود صلة وثيقة جدا بين فيروس الأيدز وفقر الزنك .

على أن تحديد نقص الزنك في الجسم ليس بالأمر الهين . وقد تعذر تحديده

بواسطة تحليل الدم أو تحليل شعر الرأس ، وبقيت الأمور على هذه الحال ، ومن ثم بقيت خطورة الزنك بعيدة عن الأذهان حتى تسنى للدكتور سميث ابتكار طريقة لتحديده وهي المضمضة بمحلول الزنك ، وهي الطريقة التي انتشرت مؤخرا في بريطانيا وأمريكا . فمن شأن النقص في محتويات الزنك أن يعبث بحاسة الذوق بقدر مايجد من مادة بولي بيتايد (Polypeptide) التي تعتمد عليها تلك الحاسة من أجل الانتقال من جهة إلى أخرى .

وتجدر الإشارة إلى أن الإدمان على الكحول يسبب نقصا في محتويات الزنك . وقُلْ مثل ذلك في التربة الزراعية التي أرهقتها الزراعة المكثفة أو الأسمدة الفسفاتية وغيرها .

ومن طريف مايذكر أن الممارسة الجنسية تفقد الجسم كل ماجمعه من الزنك طوال يوم كامل .

■■■

لقاح فعال ضد داء الكلب

يبدو أن التعاون الوثيق الذي قام بين فريقين من العلماء ، فريق فرنسي وآخر أمريكي ، الذي استهدف تطوير اللقاح المناسب ضد داء الكلب قد بدأ يعطي ثمرته الطيبة .

وقوام اللقاح جزء من فيروس داء الكلب ، يكفي لإثارة جهاز المناعة في الجسم ، بحيث يقوم هذا الجهاز بصنع الأجسام المضادة بالكمية المناسبة التي تكسب الوقاية دون أن تسبب الإصابة بالمرض .

والطريف أن التجارب الميدانية على هذا اللقاح تجري حاليا في الولايات المتحدة وأوروبا ، وتستهدف في كلتا الحالتين تجربة اللقاح على حيوانات برية ثبت للعلماء أنها الحامل أو الناقل الرئيسي لداء الكلب . وهي الثعالب في أوروبا ، والروكون (Raccoon) والظربان (Skunk) في الولايات المتحدة . أما الطريقة التي تلقح بها هذه الحيوانات بلقاح الكلب فهي بمزج طعام تلك الحيوانات باللقاح ، وبعد المزج تلقى أكياس الطعام الملقح من الطائرات في المواقع المناسبة ، فتقبل الحيوانات على أكل ذلك الطعام بما فيه من لقاح .

وتجدر الإشارة الى أن العلماء المتعاونين في صنع اللقاح وتجاربه هم علماء معهد « وستار » في فيلادلفيا ، وعلماء شركة « ترانسجين » الفرنسية ، وأن تطوير اللقاح قد تم وفق أحدث أساليب الهندسة الوراثية .

■■■

جهاز جديد لقياس حساسية الجلد

درج الأطباء على قياس حساسية الجلد إما بالضغط بالأصابع أو بالوخز بالدبوس أو بتعريض الجلد للحرارة والبرودة أو غير ذلك من الأساليب البدائية .

من هنا كان الترحيب الكبير الذي لقيه الجهاز الجديد (Issal Sensimeter) الذي طوره الدكتور لوري ليتينن (Laitinen) جراح الأعصاب في أوسبا في السويد .

يعتمد هذا الجهاز على قطب كهربائي Electrode مزدوج (Bipolar) وعلى أقراص من اللباد مشبعة بمحلول ملحي .

أما عمل الجهاز فيجري على مستويات ثلاثة ، يعني في أولها ببدايات الإدراك الحسي ، حين تبدأ الإثارة للألياف العصبية A-beta nerve fibre ، ويركز في مستواه الثاني على بداية الألم ، حيث يشعر المريض ببعض المضايقة ، ويعتمد في مستواه الثالث على زيادة حدة الألم ، وذلك لامتحان طاقة الإنسان على تحمله .

أما استعمالات هذا الجهاز فكثيرة ، نذكر منها تحديد مدى حساسية الجلد أو مدى فقدانها بسبب الحوادث والإصابات الدماغية أو الفقارية (Cerebral or Spinal) التي يتعرض لها الإنسان . ونذكر أيضا تحديد التلف الذي قد يرافق الآفات العصبية (Nerve lesions) وهو مايتعرض عليه جراحو الأيدي ، ناهيك عن التلف الذي يسببه مرض السكري للأعصاب (Diabetic neurophy) وهو واسع الانتشار ، كما معروف .

■■■

طبيب عربي يجري عملية جراحية رائدة

أجرى طبيب عربي مؤخرا (أواسط شهر مايو ١٩٨٨) عملية جراحية فريدة ، لعلها الأولى من نوعها في العالم ، وقد أجراها لفتى كويتي يبلغ من العمر ١٦ عاما ، كان قد تعرض لحادث سيارة أدى إلى تلف فقرتين من عموده الفقري وهما الفقرة الرابعة والخامسة العنقيتين على و... ، وترتب على ذلك الحادث أن فقد الفتى إحساسه في ذراعيه وساقيه على ...

أما الذي أجرى العملية فهو الطبيب المصري الدكتور شفيق جودة الزيات (٤٢ عاما) ، وقد كانت عملية زرع ، إذانتزع الجراح الفقرتين التالفتين ، وزرع مكانها فقرتين من فولاذ لايصدأ كانتا من تصميمه .

ومما يذكر أن الدكتور الزيات ، وهو زميل في كلية الجراحين الملكية في لندن ، قد أدلى بحديث إلى الصحفيين في البصرة أوضح فيه أنه أدخل الفقرتين الفولاذيتين عبر فتحة أحدثها في مقدمة العنق .

■■■

كعكة من خشب!

نجح علماء أمريكيون في تطوير مادة سليولوزية ليفية جديدة ، يمكن أن تدخل في صنع الخبز والمعجنات بنسبة ٥٠٪ دون أن تنال من الطعم ، ثم أنها قابلة للامتصاص والاندماج في العجين ، وتستطيع مساعدته على الانتفاخ . والأهم من ذلك كله هو أن المادة الجديدة خالية من الحريرات .

ولايخفى ماقصد إليه العلماء من ابتكار هذه المادة الغنية بالألياف ، فهي تجعل قش القمح ونفاية الذرة أكثر قابلية للهضم ، فتؤهلها لكي تصبح علفا مناسبا للحيوان . أضف إلى ذلك أن إقبال الإنسان على استعمالها ـ انظر الصورة ـ من شأنه أن يحد مما يعانيه من عسر الهضم أو يقضي على عسر الهضم ، ويكسب الإنسان وقاية من سرطان القولون .

أما كيفية صنع هذه المادة فقوامها المادة الكيماوية بروكسيد الهيدروجين التي يعالجون بها النفايات النباتية الغنية بالألياف ، كقشور البلوط والبتجر ، التي تعمل على تطرية جدران الخلايا في هذه النفايات . □

سلامة البشرية في سلامة البيئة

تعقيم الحليب بتعقيم أبقاره

نشرت مجلة نيوانجلند الطبية في أحد أعدادها الصادرة في شهر آيار الماضي (١٩٨٨) بحثا حيويا مهما للدكتورة « كارول تاكت » من كلية الطب في جامعة ماري لاند في بلتيمور في الولايات المتحدة ، أوضحت فيه كيف تمكنت من إكساب السياح مناعة ضد الإسهال الذي كثيرا ما يعانون منه إذا شربوا من حليب البقر في البلد الذي يزورونه ، وقد أمكنها ذلك لا بتلقيح السياح وإنما بتلقيح البقرات التي اختاروها لكي يجمع حليبها لأولئك السياح . وقد راعوا في اختيارهم هذا أن تكون تلك البقرات من الحوامل ، ذلك أن المناعة التي تكتسبها البقرة الحامل نتيجة التلقيح يكتسبها في الوقت نفسه الجنين الذي في بطنها ، أي أن الأجسام المضادة التي يصنعها جهاز المناعة في جسم البقرة لا تلبث أن تجد سبيلها إلى حليبها ، وتنتقل بالتالي إلى جنينها ، وهكذا يصبح حليب تلك البقرات معقما .

أما اللقاح الذي لقحت به البقرات في هذه التجارب فقد احتوى على أنواع مختلفة من البكتيريا التي تسبب الإسهال للسياح . وقد أجريت التجارب على عدد كاف من السياح (المتطوعين) فكان النجاح بنسبة ١٠٠٪ .

■ ■ ■

كانت نقمة فأصبحت نعمة

كانت النفايات البلاستيكية - ومازالت - مصدر تلوث كبير عنيد ، فهي ذات حجم كبير يمثل ٣٠٪ تقريبا مما تمتلىء به المزابل (في أمريكا على الأقل) ، والأهم من ذلك أنها لا تتحلل (Decomgae) أو تفسد كالنفايات الأخرى ، لاسيما نفايات الأطعمة . أضف إلى ذلك كله أن النفايات البلاستيكية في تكاثر ، ذلك أن الإقبال على استعمال القوارير البلاستيكية في تزايد ، ويصدق هذا خصوصا على صناعة المرطبات والمشروبات غير الروحية .

ولقد عمدت بعض الحكومات والشركات في أوروبا وآسيا أيضاً إلى تحويل هذه النفايات إلى ألياف صنعية Synthetic Fibres ، لكن الكميات التي يجري تحويلها على هذا النحو لا تعدو كونها جزءا يسيرا من المجموع .

من هنا كانت الماكينة التي ابتكرتها شركة بلجيكية من أجل معالجة تلك النفايات موضع اهتمام الكثيرين من المهتمين بحماية البيئة ، فمن شأن هذه الماكينة أن تخلط أنواعا متضاربة من النفايات البلاستيكية ، تشمل القاسي منها كقوارير الشامبو ، وكذلك الطري كأكياس البلاستيك ، ثم تعمل الماكينة على معالجة الخليط ، بحيث يتحول إلى نوع آخر من البلاستيك ، يمكن استعماله لأغراض

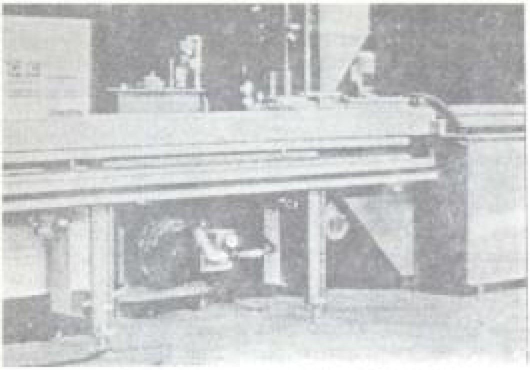

الماكينة التي تعالج النفايات فتصبح سلعا لها قيمة .

مقعد من نفايات البلاستيك يصلح للحدائق العامة .

كثيرة على نطاق واسع ، أوسع بكثير من نطاق استعمال الألياف الصناعية السالفة الذكر .

ونذكر من استعمالاته على سبيل المثال المقاعد التي تصلح للحدائق العامة والموائد المتنقلة التي يمكن استعمالها في النزهات ، وأجزاء مختلفة للسفن ، وأخرى للاستعمال على الطرق لأغراض المرور . هذا إلى جانب بعض السلع التي يمكن صنعها بأشكال مختلفة وأحجام متفاوتة يبلغ طولها ١٢ قدما كحد أقصى .

■ ■ ■

للوقاية من السرطان

الدكتورة تيريزا بونج ، البروفسورة المساعدة في مركز وسكونسن للعلوم الصحية ، قامت بدراسة مهمة ، تتحرى فيها أثر الطعام في الإصابة بالسرطان أو الوقاية منه .

وقد دلت تلك الدراسة على أن الإكثار من استهلاك الأطعمة المقلية التي تحتوى على ، الدهنيات الخانقة ، يزيد من احتمالات الإصابة بالسرطان . وتشمل هذه الأطعمة - فيما تشمل - سندويشات الهمبورغر .

كذلك دلت الدراسة على أن تنشئة الأطفال على وجبات غنية بزبدة الفستق السوداني وبالحليب والجبن تكسب الأولاد مناعة ووقاية . وهكذا ينبغي التمييز بين فئتين من الدهنيات ، دهنيات تساعد ، وأخرى تقي من الإصابة بالسرطان . وتحتل السلطة مكان الصدارة بين أطعمة هذه الفئة الواقية .

■ ■ ■

أكياس للقمامة جديدة

أكياس للنفايات جديدة،تختلف عن كل ما ألفناه،تتميز عن الأكياس السوداء التي شاع استعمالها في المدة الأخيرة . ذلك أن الأكياس الجديدة تؤثر في محتوياتها وكأنها آلة أو مختبر كيماوي ، فهي تحلل النفايات التي في داخلها ، وتحولها إلى بودرة بيضاء لدى تعرضها لضوء الشمس . على أنها لا تنجز مهمتها هذه على الفور ، بل تحتاج إلى مدة لا تقل عن بضعة أسابيع ، وقد تبلغ بضعة شهور .

وسر الأكياس الجديدة يكمن في المادة الكيماوية التي أشبعت بها ، فهذه المادة التي لم تحددها الشركة المنتجة كفيلة بجعل النفايات تتحلل تبعا لتعرضها لضوء الشمس ، ومعنى هذا أن الطقس عامل مهم ، قد يطيل المدة المطلوبة لتحلل النفايات ، وقد يقصرها .

حيوانات نادرة

في الخليج العربي !

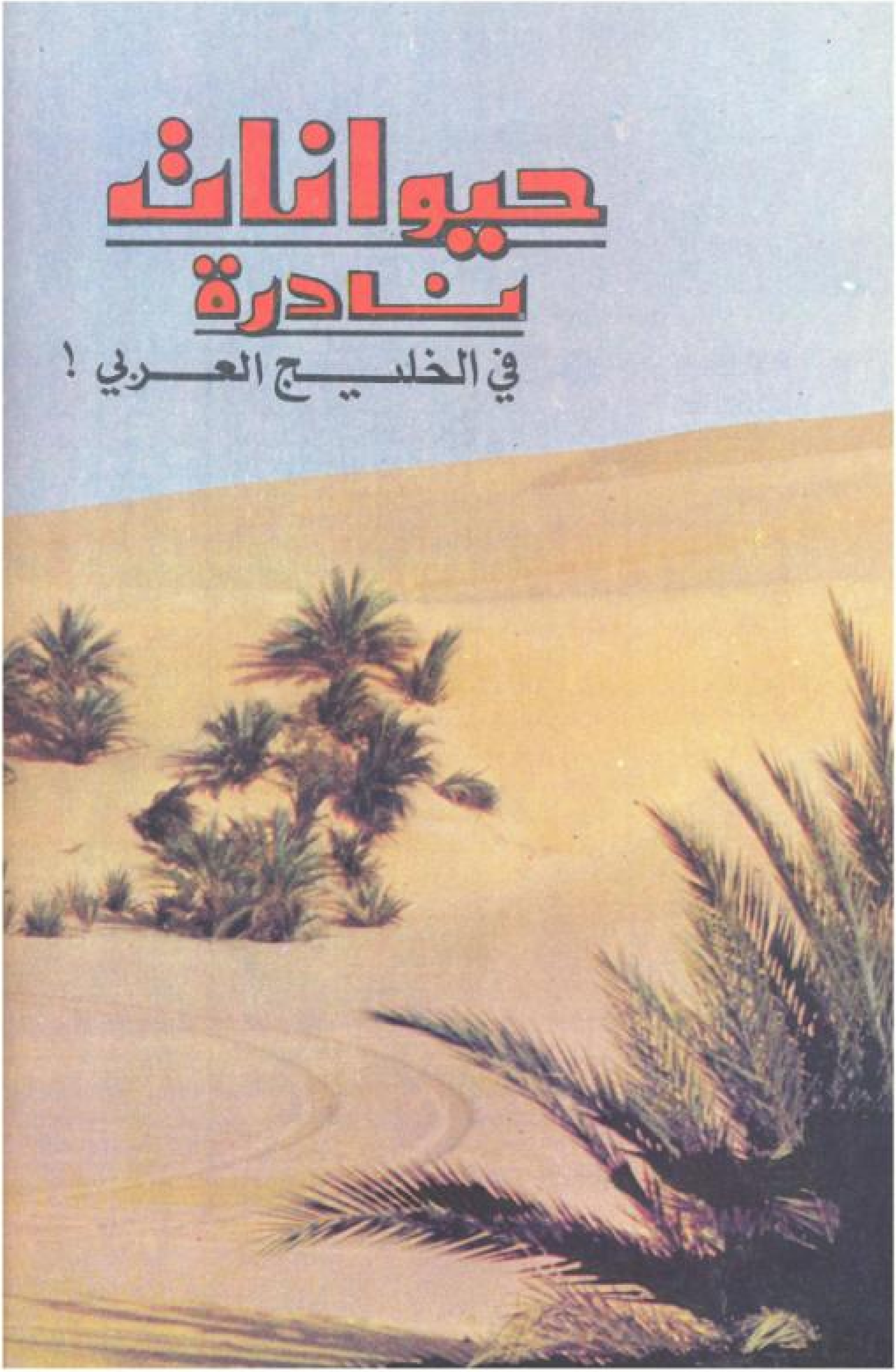

استطلاع :
أنور الياسين
تصوير :
طالب الحسيني

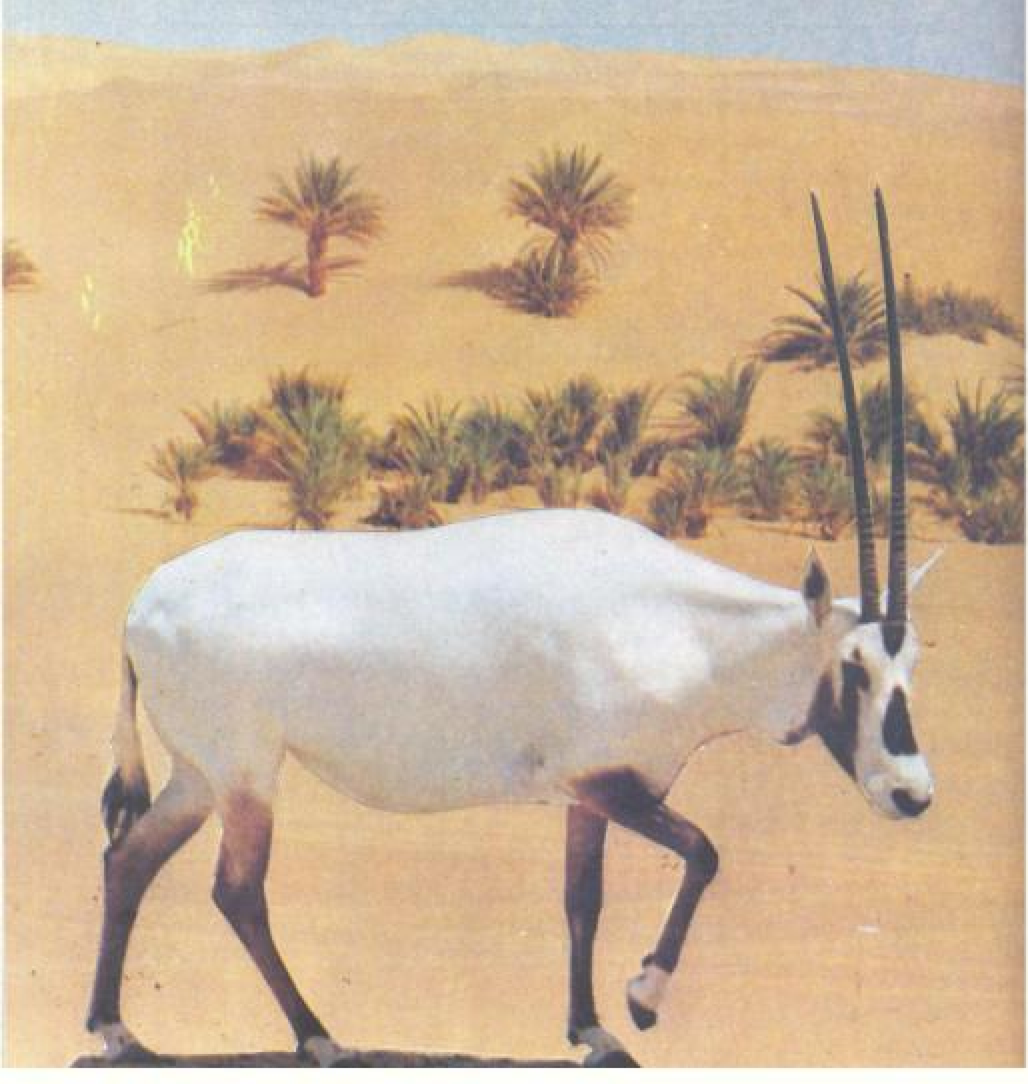

« نعم ، لقد زحف العمران والتحضر على مجتمعات الخليج كلها ، وتغيرت خريطة المدن ، وطبيعة الحياة ، والبيئة ، ولم يعد المجتمع كما كان منذ خمسين عاما ، صارت في الخليج مدن عصرية تحيا زمنا من الرفاهية والعمل لصالح أبنائها ، لكن مع ذلك مازالت في الخليج بقاع مضيئة تهتم بالحفاظ على ملامح البيئة الخليجية وثرواتها الطبيعية ، ومازالت في الخليج محميات للحفاظ على حيوانات البيئة النادرة من الانقراض » . « فكلما ازداد الإنسان تحضرا ازداد اهتمامه بالحيوان »

في ليلة صيف كان سفرنا من الكويت مع « بضع أوراق وكتب » . وفي الذاكرة تاريخ طويل عن جزيرة العرب . وعلى طرف اللسان أبيات شعر عن المكان العربي . والبيئة العربية .

محا البين ما أبقت عيون المها مني
فشبت ولم أقض اللبانة من سني .

فهل كان تغني الآباء بالصحراء العربية ورمالها ، وواحاتها وعيون مائها وحيواناتها تخيلا ووهما ؟ كلا . فقد كانت صحراء الجزيرة حيث تسكن القبائل العربية مرتعا للعديد من فصائل الحيوانات التي تلائمها البيئة الصحراوية الحارة . والتاريخ المكتوب يخبرنا عن رحلات الصيد والقنص التي كان يقوم بها أجدادنا العرب .

ولعل أشهر رحلة صيد في التاريخ العربي الإسلامي رحلةُ حمزة بن عبدالمطلب التي عندما عاد منها أخبرته قريش أن أبا جهل تعرض لابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام . فذهب وضرب أبا جهل وشج رأسه وأعلن إسلامه . وفي التاريخ المكتوب أن هاشما جد الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصطاد الحيوانات وينحر الإبل ويضعها على قمم الجبال ليطعم الوحوش وكواسر الطير (الصقور والنسور) .

ويحفل الشعر العربي بأبيات تغنَّى فيها الشعراء بالعيون . وبالصيد والقنص وبالحبيبة وبالطير .

ودار الزمان . وأصبحت الجزيرة العربية مدنا وعواصم . وطرقات وشوارع . ومبان ومطارات .

عن البقاع المضيئة التي تذكرنا بالبيئة العربية والتاريخ العربي كانت رحلتنا .

المكان والظروف

تقع صحراء الجزيرة العربية ضمن المنطقة الحارة الصحراوية والقليلة المياه . وبالتالي فهي في معظمها غير مزروعة . اللهم إلا بعض الواحات التي تزرع فيها نباتات تتلاءم مع البيئة الصحراوية . مثل أشجار النخيل والصبار وبعض العشب الصحراوي .

ولأن البيئة كلٌ متكامل فإنه يتوقف على طبيعة البيئة المناخية والنباتات التي بها نوعيةُ الحيوانات الموجودة فيها . ولذا فقد انتشرت في الجزيرة العربية الحيوانات الآكلة للعشب . وأشهرها الإبل والخيل والمها وبعض أنواع البقر .

وفي صراع الإنسان الطويل مع البيئة وعناصرها من أجل بقائه استطاع الإنسان عبر رحلته الطويلة ترويض الإبل والخيل .

يذهب بعض دارسي الأنثربولوجيا إلى أن الخيول كانت حيوانات غير مروَّضة في البداية . حتى أحس

الانسان بمدى حاجته لاستخدامها في التنقل ، ثم أدرك مزاياها في الخفة والسرعة ومرونة الحركة ، وأحس بحاجته لاستخدامها في القتال للدفاع عن نفسه هجوما أو هروبا من خطر .

ويذهب علماء الأنثربولوجيا وتاريخ الإنسان إلى أن الإنسان قد روّض الحيوانات التي يجني فائدة من بقائها دوما بجواره ، وقد يجد الإنسان فائدة في حيوانات أخرى ، لكنها ليست فائدة دائمة يومية ، وليست ذات اتصال وثيق بنشاطه الاقتصادي والإنتاجي ، لذلك روّض الخيول ، والإبل ، وفي مجتمعات الأنهار استبدل الإبل بالبقر والكلاب ، وهكذا ، ومن هنا يذهب بعض العلماء إلى أن الحيوانات الأليفة لم تكن أليفة فقط لمجرد تكوينها الفسيولوجي ، لكن ذلك نتيجة لتدخل الإنسان وتحكمه ووضعه لها في إطار وظيفي ، ويسوق هذا الفريق من العلماء دليلا منطقيا وعلميا فيقولون : إن الحفريات التي اكتشفت تثبت أن الانسان الأول كان أطول وأضخم من إنسان اليوم ، وأن البشر كلما انخرطوا في الأداء الوظيفي الاجتماعي تصغر أحجامهم وتضعف عضلاتهم ، وتقصر قاماتهم وتتضاءل قوة تحملهم،وقد روضت القبائل العربية التي استوطنت جزيرة العرب الإبل والخيل،وعلى الرغم من انتشار حيوان المها العربي فيها إلا أنه لم يكن ذا نفع مباشر في الحياة اليومية ، فترك يرتع في الصحراء مادة للصيد والقنص ، ووجبة شهية طيبة المذاق لمن يتحمل عبء الصيد ومخاطره .

رياضة أدت إلى الانقراض

ومع التطور الاجتماعي للجزيرة العربية واستقرار القبائل وازدهار حركة التجارة ، أصبح الصيد والقنص هواية أصحاب الثراء ، ينطلقون بخيولهم في أرجاء الصحراء ، يصطادون لمجرد المتعة في الصيد ، دون حاجة ملحّة للفريسة ، ثم تطور الأمر مع التطور التقني ودخول السيارة إلى مناطق الجزيرة العربية واستخدام الأسلحة النارية ، وأصبح الصيد أسهل وأيسر ، وانطلقت رياضة الصيد تطارد حيوانات الجزيرة العربية .

وكان العالم كله خصوصا بعد اكتشاف مناطق وسط أفريقيا وانتشار المطبوعات المصورة عن الحيوانات العربية النادرة وذلك في عشرينيات هذا القرن ، أقول كان العالم قد عرف رحلات الصيد المنظمة من أوربا والغرب بصفة عامة تجوب وسط أفريقيا وصحراء الجزيرة في هوس رياضي للصيد والقنص ، وتمتلىء صحف ومجلات ذلك الوقت بأخبار رحلات الصيد وأسماء أعضائها في هوس عالمي بهذه الرياضة .

ولم يستمر الأمر طويلا ، ففي أواسط الثلاثينيات وبعد الأزمة الاقتصادية الكبرى ظهرت جمعيات اجتماعية خيرية في أوربا وبعض بلدان إفريقيا تنادي بوضع ضوابط للصيد ، وعدم تركه حرا دون قيود حفاظا على الثروة الحيوانية،وبدأت تظهر في إفريقيا مناطق الغابات الطبيعية المفتوحة التي يُمنع الصيدُ في أجزاء منها ويُسمح به في مناطق أخرى وفق نظم محدودة وقواعد متبعة .

وبدأ العالم في الخمسين عاما الأخيرة يعرف مناطق الحفاظ على البيئة الطبيعية بشكلها وظروفها الفطرية وحيواناتها ، ويضع المنطقة تحت إشراف علمي كامل حفاظا عليها وحماية لها من الانقراض .

وإلى قطر والبحرين ـ حيث أشهر محميات حماية الحيوانات النادرة في الخليج العربي ـ دخلت بعثة « العربي » إلى هذا العالم المثير العجيب .

واحات للحماية

بينما اختار العالَمُ اسمَ الغابات الطبيعية كان الاختيارُ «العربي»أكثر مناسبة ودقة ، فلقد سمّاها « محميّات » ، أي الأماكن المحميّة . وتُطلق هذه التسمية على ذلك المكان المتسع الواقع بعيدا عن العمران والذي يتميز بوجود نباتات طبيعية فيه ، أو يُستزرع بالأشجار والعشب والنخيل ، وتتوافر فيه

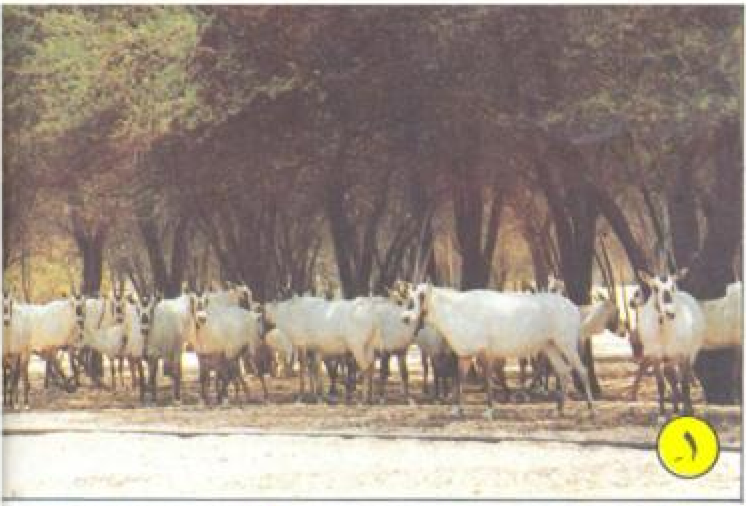

١ـ قطيع المها العربي (الـوضيحي) في محمية الشيحانية في قطر .

٢ـ قـطيع الـريم العـربي في محميـة الشيحانية في قطر .

٣ـ الغزال المنقط في محميـة العـرين بالبحرين .

٤ـ مهـا اليـسا في محميـة الـويـرة في قطر .

٤

أو بالقرب منه مصادر مياه دائمة .

في قطر توجد أكثرُ من محمية لحماية الحيوان ، وقد بدأ الفكرة المغفورُ له الشيخ جاسم بن حمد آل ثاني في عام ١٩٦٤ عندما قام بصيد عدد كبير من المها المتواجدة بصحراء الربع الخالي ، ونقلها إلى مزرعته ، وأولاها الرعاية والاهتمام ، حمايةً لها ، وقد حذا حذو المرحوم الشيخ جاسم عددٌ من المهتمين بالمها من البلاد ، فاصطادوا عددا منها وأقاموا محميات خاصة لحمايتها .

وفي عام ١٩٧٩ فتحت وزارة الزراعة محمية الشيحانية التي تقع على بعد حوالي ٤٥ كم من الدوحة العاصمة ، وتبلغ مساحتها حوالى ١٢ كيلو مترا مربعا .

في منتصف الطريق إلى محمية الشيحانية ، يبدو للقادم إليها من بعيد أنها تُطلُّ عليه من فوق تلّة تشرف على الطريق ، فتبدو كواحة وسط الصحراء ، وكلما اقتربت به السيارة اتضحت المعالمُ أكثر، فوق الهضبة أشجار سامقة خضراء يحيط بها سور أسمنتي مرتفع يخفي ما وراءه ، وعند البوابة يتسلم مسؤولو المحمية تصاريح الدخول ، وفور عبورك البوابة تشعر أنك انتقلت إلى عالم آخر : شلالات مياه ، وأشجار ، وحيواناتُ المها والريم تنطلق أحيانا من حولك .

بجوار البوابة مبنى أنيق صغير عبارة عن استراحة للزوار ، وتشرف هذه الاستراحة على المحمية كلها فالواقف بشرفتها يستطيع أن يرى منظرا عامًا للمحمية كلها .

يقول المهندس محمد قدرة المشرف العام على المحمية : إن في المحمية حيوانات المها العربية والريم (الغزال العربي) فقط ، وأن هذا يرجع إلى حرص إدارة المحمية على أن تكون مكوناتها من الحيوانات العربية الأصيلة ، فالغرض من إنشائها هو حماية هذه الأنواع النادرة التي تختص بها الجزيرة العربية ، وهي في طريقها إلى الانقراض إذا لم تكن في مناطقها الأصلية بصحراء الربع الخالي .

وقد بدأت المحمية عام ١٩٧٩ ، وفيها من المها العربي الآن مائة وخمسون تقريبا ، وقد كان فيها ٣٣ غزالا ، تكاثرت حتى أصبح عددها الآن حوالي ثلاثمائة وخمسين ، وقد فصلت الغزلان عن المها ، فلكلٍ قسمٌ خاص به ، وداخل كل قسم تقسيمٌ آخر إلى قطعان ، والقطيع يتكون من مجموعة من الإناث والذكور ، ويخصَّص لهم مرعى منفصل عن مرعى القطعان الأخرى ، وذلك كنوع من الحماية الطبية ، وتضييق احتمالاتِ الخطر في حالة انتشار وباء ـ لاقدرالله ـ أو مرض أحد أفراد القطيع ، فهذا التقسيم يتيح قدرا أكبر من السيطرة على الحالة الطارئة ويمنعها من التفشي ، والمراعي أرضُها رمليةٌ مفروشة بالصخر الصغير ، وأهمية الصخر أنه يقوم بتقليم أظلاف الحيوانات بطريقة طبيعية من جرّاء حركتها وسيرها فوقه ، كما تنتشر الأشجار في مناطق الرعي وقنوات المياه لتوفير البيئة الطبيعية ، وتُخصص لكل قطيع أماكنُ يوضع فيها الطعام ، وبحكم الاعتياد أصبحت القطعان تعرف مواقع الغذاء وتذهب إليه .

تضم المحمية فريقا من العاملين في مختلف التخصصات من بيطريين إلى زراعيين إلى باحثين إلى اختصاصيي تغذية ، بالإضافة إلى العمال الإداريين وعمال النظافة .

المحمية الثانية الأهم في قطر محميةُ « الوبرة » ، وهي محمية خاصة ، أنشأها المرحوم الشيخ محمد بن علي آل ثاني عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ على مساحة ٢٢ كيلومترا مربعا . وقد بدأت الفكرة خلال رحلات الصيد والقنص التي كان يقوم بها الشيخ ، فبدأ في إحضار ما يصطاده حيا إلى مزرعته التي حوّلها إلى محمية ، وهي تقع إلى غرب مدينة الدوحة بحوالي أربعين كيلومترا تقريبا . وبعد انتقال الشيخ محمد إلى رحمة الله أهملت المحمية فترة ، فمات كل ما فيها من حيوانات ، ثم بدأ نجلاه ، الشيخ خالد والشيخ حسن في إعادة الحياة إلى المحمية على أساس تنظيم علمي ، وتقنية متقدمة ، واستمرار في اتباع نهج والدهما في الاعتماد على القنص والصيد لتكوين المحمية .

وقد نجحا في تكوين محمية تضم الآن ما بين ٤٠ ـ

الشيخ حسن بن محمد آل ثاني

٥٤ نوعا وسلالة من أنواع الغزلان والمها والحيوانات العشبية ، منها سلالات نادرة تعيش في الأسر لأول مرة ، مثل الغزال السعودي الذي لا يوجد منه إلا اثنان فقط في حديقة خاصة في سنتياغو بأمريكا اللاتينية . ونظرا لكثرة عدد الحيوانات وتنوعها فإن نظام المحمية يضع القطعان المتماثلة فقط داخل مساحة مسورة بالأسلاك . وقد صُممت المحمية لتضاهي البيئة الطبيعية ، فأنشئت بها جبال وهضاب صناعية واستُزرع فيها نخيل وأشجار ، وتخضع المحمية لنظام طبي صارم ، ويشرف عليها طبيب بيطرى متخصص ، يقوم بالمرور اليومي الدقيق على كل الحيوانات الموجودة .

ولاتوجد فروق حادة بين المحميات بصفة عامة أو على الأقل في فكرتها الأساسية ، وكما في قطر فإن البحرين تشتهر أيضا بمحمية العرين ، الأمر الذي جعل قطر والبحرين أكثر شهرة بين أقطار الخليج العربي من حيث وجود المحميات الخاصة .

« العرين » و « المرخ »

ومحمية العرين في البحرين تقع في منطقة « المرخ » بالقرب من الساحل الغربي لجزيرة البحرين على بعد ٢٠ كيلومترا جنوبي المنامة . وهي منطقة تكثر فيها الكثبان الرملية وتنمو فيها شجيرة « المرخ » التي سميت المنطقة باسمها . وقد أحيطت المنطقة بسياج ، وزرعت فيها أشجار مختلفة لتوفر للحيوانات مأوى حقيقيا ، وحفرت فيها ثلاث آبار ارتوازية لري النباتات . وتحتل محمية العرين رقعة أرض مساحتها ٨ كيلومترات مربعة ، وتنقسم المحمية إلى قسمين هما الحديقة المفتوحة ، وهي مصممٌة لاستقبال الجمهور بحيث يتمكن الزوار من مشاهدة الحيوانات البرية مثل الظباء والغزلان والحمر الوحشية ، وتنتشر في أرجاء الحديقة المظلات النموذجية المصنوعة من سعف النخيل لكي تأوى إليها الحيواناتُ الصغيرة لتحمى نفسها من حرارة الشمس ، كما تتجه إليها الحيوانات الكبيرة لتجد غذاءها الذي يضعه هناك العاملون بالحديقة . أما القسم الثاني فهو المحمية نفسُها ، وهي ليست مفتوحة للزيارة ، لأنها تضم حيوانات نادرة تحتاج لرعاية خاصة ، وتوفير الظروف المثلى حتى تتناسل وتتكاثر . ومن الحيوانات التي تضمها المحمية المهاة العربية والماعز الجبلي والغزال العربي والوعل العربي وطير النعام وطير الحبارى . والحركة داخل المحمية ـ سواء الحديقة أو المحمية نفسها ـ تتم بواسطة عربات صغيرة في طرق دائرية محددة مسبقا ، بمواعيد محددة وذلك لعدم إزعاج الحيوانات .

وتنتشر داخل المحمية المستنقعاتُ والبحيرات الصناعية لكي تشرب الحيوانات ، وفي نفس الوقت يساعد وجودُ الماء على جلب أنواع كثيرة من الطيور البرية إلى المحمية . وقد تم غرس حوالي ٧٠٠٠٠ شجرة ، تمثل ٥٠ نوعا من الأشجار ، في منطقة كانت قاحلة يوما ، ويجرى ري كل شجرة على حدة بواسطة شبكة للري بالتقطير .

هذا العالم المثير

يظل عالم المحميات غريبا ومثيرا ، فالأمر لايقتصر على مجرد اختيار مكانٍ وبنائه واستزراع بعض الأشجار ، ففي جانب منه يتمّ ذلك عن الاهتمام المفرط والحب للحيوان ، وهذا لا يمكن أن يظل مجرد نوايا طيبة ، لأن الأمر يتطلب قدرا من المتابعة والقراءة وجمع المعلومات والسفر والترحال

١

٢

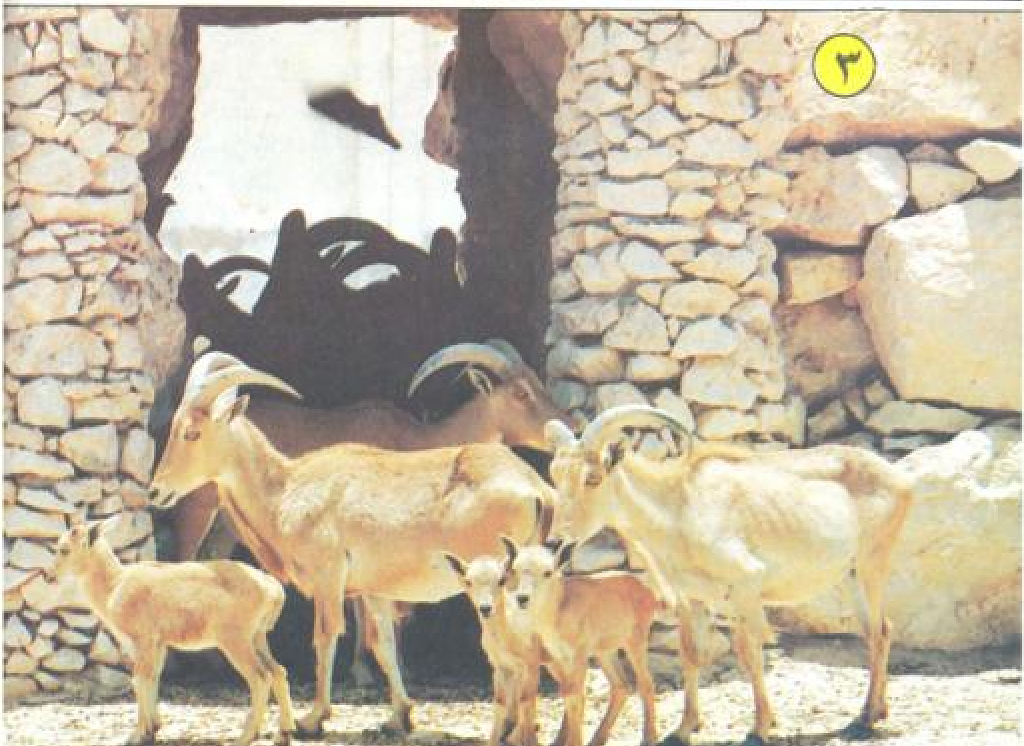
٣

١ـ غزال الدامة النادر جدا في محمية الوبرة

٢ـ غزال طومسون ـ في محمية العرين .

٣ـ الوعل الجبلي ـ في محمية الوبرة .

٤ـ الغزال اليمني (الصحراوي) في محمية الوبرة .

٥ـ غزال البيرة الذي تنفرد به محمية الوبرة ، وهو الوحيد الذي يعيش في الأسر .

٦ـ التلجاي أو (الثور الأزرق) في محمية العرين .

والاتصال بجمعيات الحيوانات العالمية ومراكز الأبحاث .

الشيخ حسن محمد آل ثاني صاحب محمية الوبرة في قطر يحكي لنا ويقول : «.. لديَّ أنواعٌ من الغزلان من جبال بربرة شمال الصومال ، لم يسبق لها أن خرجت من بيئتها ، وقبل أن نجلبها إلى المحمية قرأتُ عنها كلّ ماكتب وكل تجارب نقلها من بيئتها ، وفي تصوري أن هذا الغزال قد عاش هنا لهذا التشابه الموجود في البيئة بيننا وبين الصومال ، وهناك آراء علمية تقول : إن الجزيرة العربية وشرق أفريقيا كانا منطقة واحدة قبل الانفلاق الجغرافي العظيم الذي نجم عنه البحر الأحمر ، وفي الحقيقة أن اهتمامي بالمحمية ـ بعد وفاة والدي رحمه الله ـ دفعني لأن أقرأ عن أنواع الحيوانات وعاداتها وأسمائها ، ومن أطرف ما أجمعه الآن وأعكف على كتابته بحثٌ عن أسماء الحيوانات التي نقلها الأوربيون وترجموها وهي من أصل عربي ـ فمثلا في اللغة الانجليزية يسمي الغزال المجلوب من شمال الصومال بارا BARA وهي تحريف لكلمة «بعير» ، كما يسمي الصوماليون هذا النوع من الغزلان ، بينما نسميه نحن في اللغة العربية (بيرقع) ، والأفارقة لايستطيعون نطق القاف فينطقونه بالتخفيف فيتحول إلى حرف العين ثم يخفف الأوربيون الكلمة لصعوبة نطق حرف العين ، وكذلك الأداكس ، وهو أحد الحيوانات البرية التي لها علاقة بالمها العربية ، وكلمة أداكس بالانجليزية وهي آتية من كلمة «عداس» العربية ، وهو الاسم الذي يطلقه العرب على هذا النوع من الحيوانات .

وهناك عدة من الأسماء مثل الدامة والمصر والأيلن ، وكل أسمائها الأجنبية مشتقة من أصول التسمية العربية .

ويستمر الشيخ حسن بن محمد في حديثه فيقول : إن اهتمامي بالحيوان يدفعني إلى السفر بشكل مستمر للبحث عن مواطن أنواعه المختلفة وصيدها لجلبها إلى المحمية .

حيوانات الصحراء العربية

ولكن ما حيواناتُ الصحراوات العربية التي يمكننا أن نعدها من الحيوانات النادرة ؟ مدير محمية العرين في البحرين جاسم محمد الشيخ يعدِّد لنا هذه الحيوانات فيقول :

تشتهر الصحراء العربية بعدد من الحيوانات ، فضلا عن الحصان العربي الأصيل ، وهي حيوانات تتميز عن فصائل جنسها الموجودة في مناطق أخرى ، وهذه الحيوانات هي :

* المهاة العربية (الوضيحي) : تمتاز المهاة العربية بجمالها الرائع ، فجسمها أبيض وعيناها سوداوان تحيط بهما بقع سوداء ، ولها قرنان طويلان مستقيمان كالسيف ، وقد يصل في بعضها إلى ٧٥ سم ، وللذكر والأنثى نفس الحجم ، وللاثنين معا علامات سوداء غامقة على الوجه والسيقان ، ووطن المهاة الأصلي الصحراء العربية ، لكنها انقرضت الآن ، ولم يعد باقيا منها إلا ما هو موجود في المحميات ، وتتضح دلائل ملاءمتها للبيئة العربية عندما نعرف أن المهاة عند ولادتها تكون ذات لون بني فاتح وهو أقرب للون الرمل في الظل ، ويظل اللون يتحول تدريجيا إلى الأبيض كلما تقدم بالمهاة العمرُ .

* الأداكس : وهو من فصيلة المهاة ، ولونه أبيض يتبدل إلى البني في الشتاء ، له قرنان متموجان ، وأقدامه مسطحة تحفظه من أن يغوص في رمال الصحراء الناعمة ، يتحرك ببطء شديد ، وفي الجو الحار يحفر لنفسه حفرا يظل رابضا فيها طيلة النهار .

* الغزال العربي : يمتاز الغزال العربي بصغر جسمه وطول سيقانه ، مما يُكسبه سرعة الحركة ومرونة ورشاقة ، ولونه أحمر مائل إلى البني الغامق ، مع وجود خطوط داكنة على وجهه ، وبطنه بيضاء ، وذيله أسود ، وللذكر والأنثى قرون قصيرة مستقيمة ، لكن قرون الأنثى أصغر . وقد أصبح الغزال الآن نادرا اللهم إلا في المحميات فقط .

* الماعز الجبلي : يمتاز الماعز الجبلي الذي يستوطن

المهندس محمد قدرة

الجزيرة العربية بقرنين غليظين معقوفين إلى الخلف ، ويكتسي بفراء ذهبي خشن ، وقد تناقص الماعز الجبلي الموجود في المنطقة العربية في الثلاثين عاما الأخيرة بشكل حاد .

وبالإضافة إلى الحيوانات البرية هذه فإن المنطقة العربية ـ والحديث مازال لمدير محمية العرين بالبحرين ـ تمتاز بطائر كبير معروف في المنطقة العربية وهو طائر « الحبارى » ، فمنذ مئات السنين كان العرب يدرّبون صقورهم لصيده ، ويتمتعون بقنصه ، وهذه أول مرة يوضع فيها هذا الطائر في الأسر ، لأنه طائر شديد الحذر ، وذلك فإن هناك فريقا من العلماء يعكف على دراسة طباعه وعاداته ، ونحاول هنا أن نجعله يتكاثر ، وقد وضع بيضه في الأسر ـ لأول مرة ـ وهذه علامة إيجابية .

وتشترك حيوانات المنطقة العربية كلها التي ذكرناها في صفات مشتركة ، وهي أنها حيوانات عشبية ، تتحمل الحرّ ، وتستطيع البقاء فترات طويلة دون أن تشرب الماء .

الجمال والحب

لم يتغن شعراؤنا بالمهاة صدفة ، ولايشكل طارىء ، فالمهاة حيوان عربي ، له عالم شديد الإثارة وشديد الثراء بالمعاني ، وللأستاذ عباس العقاد كلمة شهيرة فقد كان يقول : « بين الحين والآخر أذهب إلى حديقة الحيوان وآخذ في مراقبة سلوك الحيوان . . . وأعود فأقرأ عنه ، وأكتشف التماثل المذهل بين بعض السلوك في الحيوان وما يماثله في بني الانسان . . » .

في قطر تولي محمية الشيحانية المها اهتماما خاصا وشديدا ، فسألنا واستمعنا إلى الحديث عن صفات هذا الحيوان الذي دخل الأدب العربي ، وردد اسمه الكثيرون وأطلق بعضنا اسمه على بعض بناتنا تيمنا بجماله ، يقول لنا ـ باستفاضة ـ د . ماجد الكواري مدير الإدارة البيطرية والمزارع في وزارة الزراعة والصناعة في قطر : المها اسمٌ لحيوان يطلق على فصيلة من الماشية تسمّى ذكورُها الثيران ، وإناثها النعاج ، وصغارها الجآذر أو الفراق أو الطلاء . ويعيش المها عمره الطبيعي بين (٢٠ ـ ٢٥) عاما ، وتزن المهاة البالغة ١١٠ ـ ١٥٠ كيلوجراما ، ويبلغ طولها ١٩٠ ـ ٢٠٠ سم وارتفاعها حتى منطقة الكتف ٩٠ ـ ١٢٠ سم ، وطولُ قرنيها ٧٠ ـ ٧٥ سم ، وقرناها مستقيمان لولبيان تحيط بها حلقات قرنية ، ونهايتاهما حادتان جدا مما يعطيها قدرا كبيرا من القوة والصلابة ومقاومة الانحناء أو الكسر ، وتستعملها المهاة للدفاع عن نفسها ضد أعدائها ، فتستطيع التغلب بها على الذئاب والضباع وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى . ولايستطيع الإنسان التقدم من المهاة إلا إذا أمسك بقرنيها بشدة ليتفادى خطرهما .

وتصل الأنثى إلى سن البلوغ في عامين ونصف إلى ثلاثة أعوام ، وتلد بعد حمل مدتهُ (٢٤٠ ـ ٢٦٠) يوما ، وتلقح مرة أخرى بعد الولادة مباشرة بأربعة أيام الى سبعة أيام ، وأثناء فترة التزاوج يحيط الذكرُ ـ قائدُ القطيع ـ الأنثى بحراسته الشديدة والدفاع عنها حتى الموت لمنع أي حيوان آخر من الاقتراب منها ،

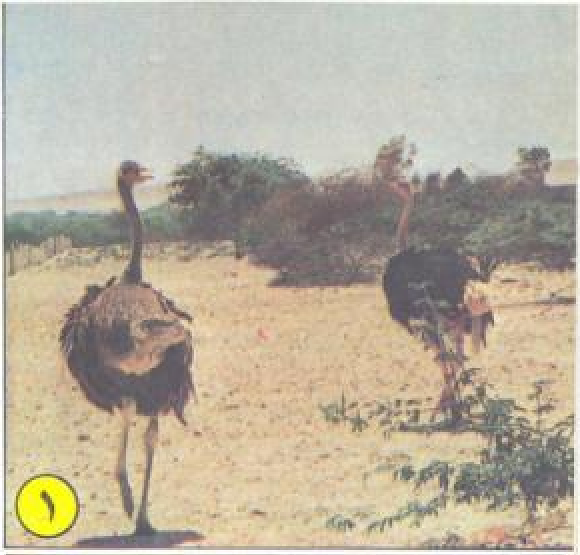

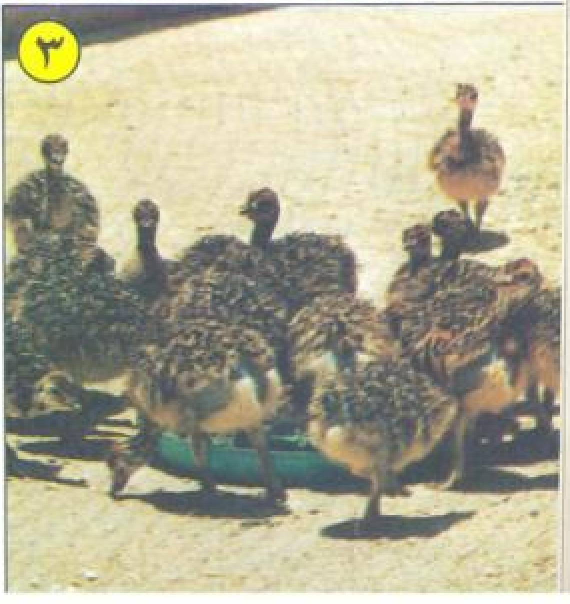

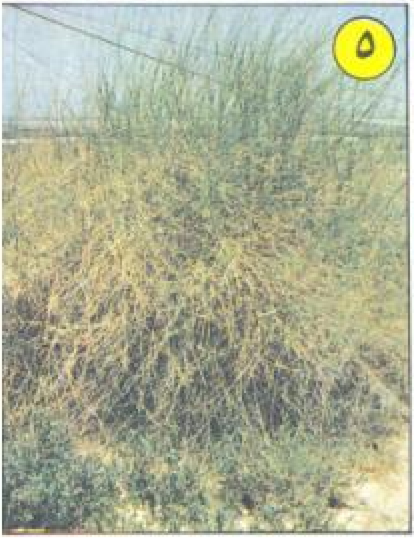

١ـ زوج من النعام في محمية العرين .
٢ـ بيض النعام في محمية العرين .
٣ـ أفراخ النعام في محمية العرين .
٤ـ طير الحبارى في محمية العرين
٥ـ شجيرة المر في محمية العرين .

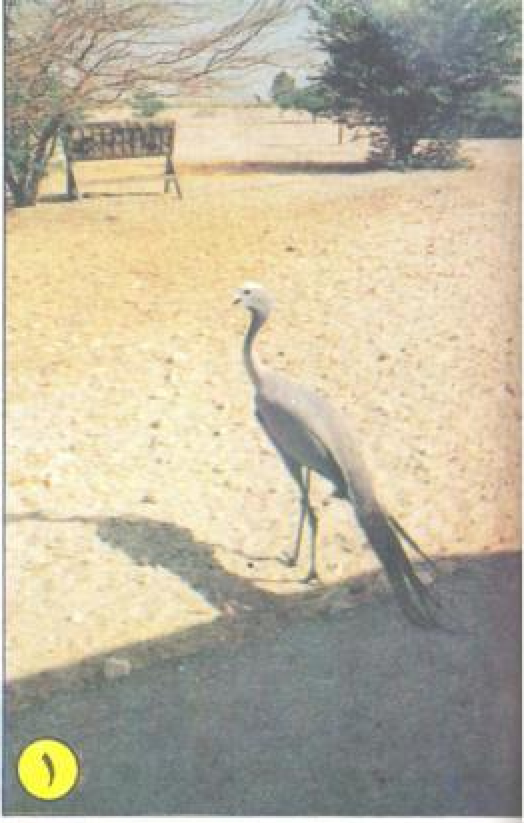

١ـ أحد الطيور النادرة في محمية العرين .
٢ـ الكركي المتوج في محمية العرين .
٣ـ طائر الوز في محمية العرين .

حتى ولو كان صغيرها الرضيع ، وهنا تحدث المأساة ، فدائما يريد الرضيع أن يقترب من أمه للرضاعة ، فيهجم عليه الذكر ويرفعه بقرنيه ويلقي به بعيدا ، ويتكرر هذا مرتين ، ولكن في ثالث مرة يصل الغيظ ذروته عند الذكر فيهجم عليه ، ويشق بقرنيه بطنَ الرضيع ويُلقي به بعيدا . فإذا كان الرضيع ذكرا كان أقدر على تحمل البُعد عن أمه فترة التزاوج ، فلا يقترب من أمه إلا مرة واحدة يوميا أمّا إذا كان الرضيع أنثى فإنها دائمة الالتصاق بأمها فيقتلها الذكر غالبا غَيْرة منه على أنثاه التي يريدها له وحده أثناء فترة التزاوج ، ومن هنا كانت ذكور المها أوفر من إناثها .

البقاء للأقوى

مازالت طبائع المها وعالمها أكثر من مدهشة ، ويستطرد الدكتور ماجد الكواري في حديثه فيقول :

السيادة في قطيع المها للذكور ، والذكر القوي هو الذي يقود القطيع ، ويقوم بعملية التزاوج للإناث ، وهو الذي يقوم بحراسة القطيع ، ويضرب ويطرد باقي الذكور الأقل قوة وحيوية ، بل يصل الأمر إلى أن يمنعها من تناول الغذاء مع باقي القطيع ، وبعد أن يتقدم به السن ينافسه ذكر آخر في سن الشباب فتقوم معركة بين القديم والجديد ، وتحسم المعركة لصالح الذكر الأكثر شبابا ، وحيوية ، وهكذا تستمر معارك السيادة ، وحينما تحدث معركة بين ذكرين لاتقتصر عليهما فقط ، لكن تشترك معهما أمُّ كلٍ منهما ، إذ تقف الأم إلى جانب ابنها ، وعندما يتغلب الذكر الأقوى فإن المغلوب يرقد على الأرض معلنا تسليمه بالهزيمة ، ويستمر الذكر الأقوى في الوقوف بجواره ، ويستمر المهزوم في الرقاد دلالة على الخضوع والهزيمة .

وتسهم الأم بدور آخر ، فعندما يتعرض القطيع للخطر فإن أكبر الأمهات سنا وأكبر الذكور سنا يسيران في مقدمة القطيع دليلين ، ويتبعهما باقي القطيع حتى الذكر القوي ، وذلك تسليما لكبار السن بالخبرة والقدرة على الإرشاد .

ولأنَّ منطق القوة هو السائد ، فإن الأنثى في وقت التزاوج لاتقف إلا لأقوى الذكور وترفض ـ مطلقا ـ أيَّ ذكر سواه .

القتال ونبل الموت

القتال عند المها له تقاليد ، فعندما يتعرض القطيع لمشاغبات يقوم أفراد القطيع بإثارة الذكر القوي لكي يتقدم إلى مصدر الخطر ويقاتله ، وعندما يستقر رأي الذكر على الهجوم فإنه يخفض رأسه ويوجه قرنيه تجاه من يريد أن يهاجمه ، ويستطيع الذكر في هذه الحالة أن يخترق بقرنيه بابا من الخشب القوي سمكه ٣٠ سم ، وفي حالة الكر والفر فإن المهاة تستطيع أن تركض مسافة ٦٠ كم بسرعة تزيد عن ١٠٠ كم في الساعة على الرمال دون أن تؤثر طبيعة الأرض على معدل سرعتها ، وحين يصل بها التعب مداه فإنها تقف وتستجمع قوتها وتهاجم مطاردها ، وإذا جرحت المهاة أثناء القتال فمعنى ذلك أنها لم تستسلم أبدا ، فهي في هذه الحالة تقاتل حتى الموت .

والمها حيوان نبيل وأكثر ما يتجلى نُبله في موقفين : الأول رفضه الطعام وامتناعه عن تناوله في الأسر ، والموقف الثاني عند الموت ، فعندما تشعر المهاة باقتراب الأجل فإنها تذهب إلى ركن بعيد عن القطيع ، بعد أن تطوف وتدور حول أفراده كلهم ، كأنها تقدم التحية قبل الوداع ، ثم تذهب إلى ركن بعيد وتستند على كومة من الرمال أو جدار أو أي شيء قائم ، وترفع رأسها معتدلة كما لو كانت نائمة ، وتستقبل الموت بنبل حقيقي وشموخ حزين .

الخيل والصيد

قبل أن نغادر قطر ، وبعد أن زرنا المحمية ، لم يكن ممكنا إلا أن نزور نادي سباق الفروسية ، وهو

الشلالات الصناعية في محمية الشيحانية في قطر .

نادٍ أنشأته الحكومة لتضم إليه كلّ المهتمين بالخيول ، وتقدم لهم الرعاية المثلى ولهذا الحيوان العربي الأشهر . في النادي حوالي ٥٠٠ حصان ، كلها من الخيول العربية الأصيلة ، وهي ثروة طائلة لاتقدر بثمن ، وتحافظ إدارة النادي ـ من خلال خبراء وعلماء متخصّصين ـ على سلامة سلالات الخيول وأنسابها ، وتقدم لهم الرعاية الكاملة ، وينظم النادي موسما رياضيا يضم سباقات للخيول العربية وأخرى للخيول المهجنة ، كما أن هناك رياضة اجتياز الحواجز والموانع .

وإذا كانت المحميات لحماية الحيوانات الأكثر ندرة ـ إذ المها العربي لا يتجاوز عدد الموجود منه في العالم أكثر من ٤٠٠ رأس ـ فإن الأمر يختلف مع الخيول ، فالخيول موجودة في كل مكان ، والحصان العربي ينتشر في مواقع كثيرة من العالم ، ولايوجد ناد فيه حصان عربي دون أن يُعلن عنه ويعتز به ، لأنه يعد بحق سيدَ الخيول لجماله وسرعته ونقاء سلالته ، ولكنْ يندر أن يوجد في العالم « اصطبل » واحد فيه هذا العدد من الخيول العربية الأصيلة .

ولذلك فان النادي مزود بعيادة بيطرية شاملة ، وقد روعي في تصميمه استخدام أحدث التقنيات ، وكل ما في هذا النادي تحت الإشراف العلمي ، حتى الطعام ومواعيده ، والاستحمام ، ودرجة تكييف الهواء .

مركز سلمان للصقور

في البحرين وداخل محمية « العرين » زرنا مركز سلمان للصقور ، وهو عبارة عن مركز لعلاج بعض الأمراض التي تصيب الصقور ، كما أنه يساعد على تنظيم النسل بالنسبة لهذا النوع النادر من الطيور ،

ويشرف على المركز الدكتور جيمي ساموز ، وهو متخصص في علاج الصقور ، ويساعده فريق طبي متخصص . يقول د . جيمي : إن هذا المركز

١ـ الحصان العربي الأصيل في نادي الصيد والفروسية في قطر .

٢ـ الجمال الأصيل الذي يتمتع به الحصان العربي الأصيل .

٣ـ ملامح الوجه الجميل الذي يتميز به الحصان العربي الأصيل .

٤ـ الأداكس (أبو عدس) في محمية العرين بالبحرين .

٥ـ البقر الصحراوى (الأدكس) في محمية الوبرة في قطر .

المتخصص يكاد يكون فريدا من نوعه في منطقة الخليج ، ومرضاه من صقور أقطار الخليج العربي ، وبالمركز أول وحدة في العالم للعلاج بالليزر ، ويتم استخدام الليزر في علاج بعض الأمراض والفيروسات التي تصيب عيون الصقور ومناقيرها نتيجة لبعض الأمراض التي تنتشر في مواسم القنص ، كما أن بعض مالكي الصقور يقومون بعلاج صقورهم بالعلاج الشعبي والمعروف بالطب العربي أو بالكيّ ، وهذا يؤثر على سير علاج الطير ، الا أن المركز قد نجح بشكل جيد في لفت انتباه مالكي الصقور إلى أهمية العلاج وفقا لأسلوب علمي رفيع المستوى . ويُعِد المركزُ للنشر قريبا كتيًبا علميا متخصصا عن نتائج استخدامه لأشعة الليزر في العلاج ، كما يوجد بالمركز وحدة لعلاج عيون الصقور وغرفة عمليات .

ويقوم المركز بالإضافة إلى تقديم العلاج بتقديم المعلومات العلمية لتنوير أصحاب الصقور في منطقة الخليج ، وبيان أهمية استخدام الأسلوب العلمي في العلاج ، خصوصا وأن بعض أصحاب الصقور يلجأون إلى أساليب العلاج القديم مثل الكي التي لا تأتي بنتائج إيجابية ، بل قد تؤدي إلى تفاقم الحالة المرضية ، مما يزيد من صعوبة العلاج بعد ذلك .

واحات مضيئة

في طريق العودة وقفنا كثيرا في محمية العرين ، وفي حديقتها أخذنا نشاهد الحيوانات المختلفة الأصول ، ففي الحديقة حيوانات عديدة غير عربية الأصل ، وطيور جميلة ، ونادرة ، إنها حديقة متكاملة ، وعند البوابة أدركنا أننا عدنا إلى عالم الإنسان ، هذا الإنسان الذي يمنح مساحات من الاهتمام والرعاية لحيوانات نادرة ، قبل أن تتحول إلى ذكرى وتاريخ ، ووسط مظاهر العمران المختلفة في الطريق إلى المطار ثبت لنا أنه كلما ازداد الإنسان تحضرا ازداد اهتمامه بالحيوان ، وهذه تجربة لإيجاد واحات لتحمي جزءا من أجمل حيوانات الكون من الانقراض . □

"الجينسنغ"

الوهم والحقيقة ؟!

استطلاع : سليمان الشيخ

النبتة التي تعرف باسم « الجينسنغ » ليست جديدة في قاموس سكان الصين وكوريا والشرق الأقصى السوفيتي ، إنها معروفة منذ آلاف السنين ، ومعروفة خصائصها وتأثيراتها .

لكن القديم يمكن أن يتم تجديده وتلميعه أحيانا بواسطة الدعاية ، وإضفاء قدرات وإمكانات وإيحاءات قد لاتستند على حقائق فعلية .

فما هي الحقيقة في هذا المجال ، وخاصة أنه قد أتيحت لبعثة مجلة « العربي » زيارة بعض المناطق التي ينمو فيها « الجينسنغ » الحقيقي ، والآخر المستنبت من نباتات قريبة الشبه بالحقيقي ؟!

في الغابة المحمية القائمة بالقرب من معهد الغابات في مدينة خباروفسك بالشرق الأقصى السوفيتي ، كنا نستمع لشرح السيد الكسندر شينجاوز ، رئيس المختبر في المعهد ، عن أشجار الغابة وأنواعها وخصائص كل شجرة ، فلفت نظرنا أن مجموعة من الزوار كانوا يتحلقون حول نبتة من نباتات الغابة ، طولها يتجاوز نصف المتر قليلا ، تستظل بشجرة من أشجار الصنوبر ، أوراقها خضراء يانعة ، تشبه أوراق شجر البرتقال حجما وشكلا .

كان من الواضح أن مجموعة الزوار يبدون اهتماما غير عادي بهذه النبتة ، إذ أن وقفتهم طالت حولها ،

وكانوا يستعرضون كل جزء فيها ، في حين أن دليلهم كان يفيض بالشرح والأجوبة عن الأسئلة .

* سألت السيد الكسندر : ماهو سر الاهتمام بتلك النبتة ؟ ولماذا اختاروها من بين نباتات الغابة ؟

- ابتسم السيد الكسندر وأجاب : إنها نبتة « الانتركوك » التي تشبه نبتة « الجينسنغ » في بعض خواصها ، وهي تستنبت أحيانا ، وهناك مزارع لهذا النوع من النبات ، ولقد تم استنباتها في الشرق الأقصى السوفيتي ، ويستخلص « الجينسنغ » بكثرة منها .

* هل تملك هذه النبتة نفس خصائص « الجينسنغ » الطبيعي ؟

- أجاب السيد الكسندر : إن فيها بعض الخصائص وليس كلها ، ونظرا لكم الاستنبات الكثير من هذه النبتة فإن جمع محصولها الوفير يمكن أن يعوض نقص بعض الخصائص ، ويجعله موازيا إلى حد ما للخصائص الطبيعية لنبات « الجينسنغ » الذي ينبت بشكل طبيعي في بعض المناطق .

ذاكرة وحقائق :

عندما استمعت إلى بعض الشروح عن نبتة « الجينسنغ » ، ورأيت تحلق بعض الزوار حولها ، فإن ذاكرتي استدعت بعض المعلومات حول هذه النبتة وما هو شائع حولها .

وأول ما هو شائع أن فيها خصائص لمعالجة بعض الأمراض وتحصين الجسم ضد الكثير منها ، ومعالجة بعض حالات العجز الجنسي .

وعندما ذكرت ذلك لمحدثنا اقترح أن نلتقي بالبروفسور اناتولي كونستيتينوف رئيس قسم الكيمياء البيولوجية في معهد خباروفسك الطبي .

جاء الرجل يحمل إناء زجاجيا فيه بعض الجذور ، يميل لونها إلى البني الفاتح . قال : إنها جذور « الجينسنغ » الحقيقي ، وقد حصلت على شهادة الدكتوراة من خلال تحضيري رسالة عن « الجينسنغ » والنباتات الأخرى الشبيهة بها في بداية الستينات .

سألت : ماهي « قصة » هذه النبتة التي يثار حولها الكثير من الكلام ؟ وهل تحتوي فعلا على خواص طبية كثيرة ؟

- أجاب البروفسور : لقد عرف الصينيون هذه النبتة ، وعرفوا بعض خصائصها منذ آلاف السنين ، وكان بعض أباطرتهم يستعملونها لأغراض طبية عديدة . صحيح أن اكتشافها جاء عرضيا من غير قصد ، وخاصة ان جذور ما هو طبيعي منها يشبه تكوين الإنسان ، وقد أثار هذا الشكل خيال الإنسان ، وحرك فيه مكامن الخرافة والأسطورة ، خاصة أن الأساطير كانت تنتشر في ذلك الزمن وكذلك الخرافات .

وهكذا أضفى الإنسان عليها في تلك الأزمان قدرات خارقة ، كالقول بأنها تشفي جميع الأمراض ، وأن فيها خصائص يمكنها أن تزيد قدرات الإنسان الجنسية وغيرها . وقد أطلقوا عليها اسم « جذر الانسان » أو « جذر الحياة » ، نظرا لاعتقادهم بوجود قدرات فيها ، يمكنها أن تعالج كل مشاكل الإنسان الطبية .

مناخ خاص :

* لماذا لا يوجد النبات الطبيعي إلا في أماكن محددة ؟

- يبدو أن هذا النبات كان منتشرا كثيرا في أزمان جيولوجية سابقة على زماننا ، لكن لم يبق منه إلا القليل الآن ، وحتى هذا القليل فإنه لا ينمو ولا يعيش إلا تحت حماية نباتات وأشجار أخرى ، لذلك فإن بعضه يوجد في الغابات الكثيفة تحت الأشجار العالية كالصنوبر والأرز والباتولا وغيرها . ويحتاج إلى مناخ خاص تتوافر فيه الرطوبة ، كغابات التايغا . والشرق الأقصى إجمالا ، خصوصا في مناطق الشرق الأقصى السوفيتي ، وشمال كوريا الشمالية ، ومنشوريا في الصين .

جاء في كتاب « جغرافية الاتحاد السوفيتي » لستروييف ما يلي :

« ونحو الجنوب من ٥١ درجة خط العرض الشمالي تبدأ منطقة غابات أشجار الشرق الأقصى

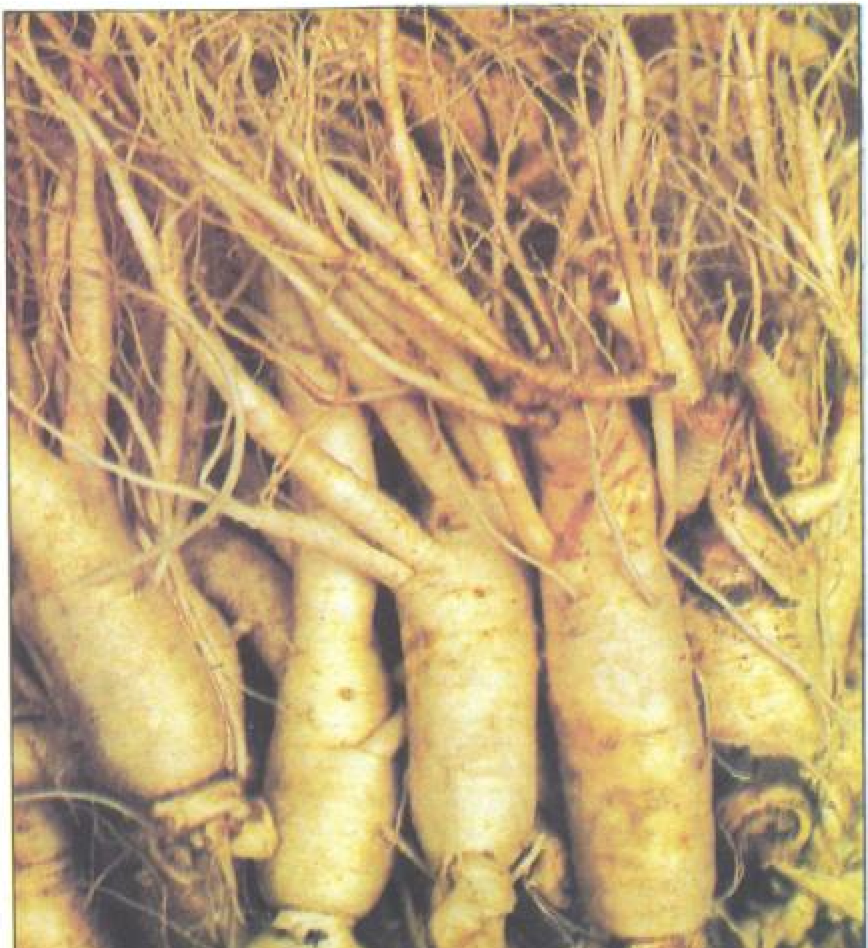

جذور « الجينسنغ » الحقيقي .. حقاً أنها تشبه شكل الإنسان غير المكتمل .

عريضة الأوراق ، وتمتاز هذه الغابات بتشكيلة متنوعة من أصناف الأشجار الخشبية التي تثير الاستغراب ، إن ثروة عالم النبات تفسر بالمناخ الرطب وبقايا الأنواع القديمة » .

عندما دخلنا الغابة المحمية التي تبعد حوالي ٢٥ كيلومترا عن خباروفسك كانت تغص بأشجار الأرز والباتولا والصنوبر وغيرها ، وكانت الأشجار كثيفة ، قائمة على تلال متفرقة ، إلا أن الرطوبة كانت مرتفعة إلى درجة أن عرقنا بدأ يسح على أبداننا على الرغم من سقوط المطر في ذلك الوقت .

○ سألت « البروفسور » : ما هي آلية نمو هذا النوع من النبات ؟

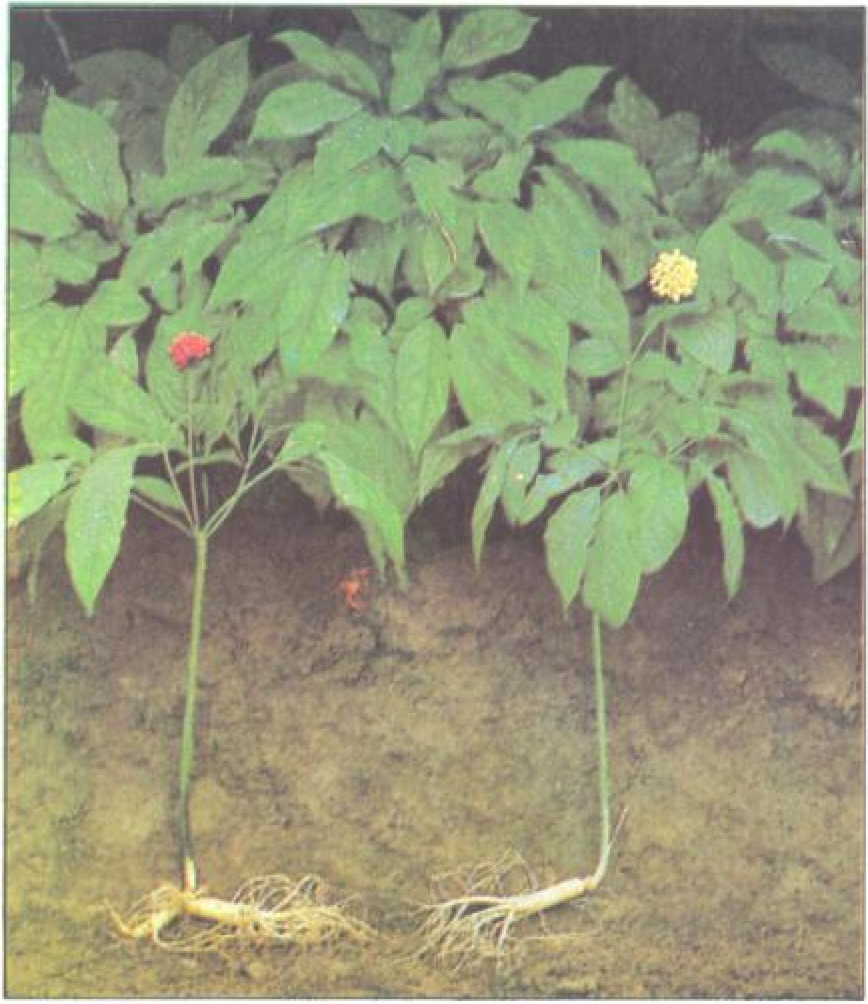

النبتة كاملة بأوراقها وساقها وجذرها .

ـ كما ذكرت لك إنه ينمو بشكل طبيعي تحت غيره من الأشجار ، أي يحتاج إلى ظل ورطوبة دائمين كي ينمو ، ونموه بطيء .

● هل يمكن القول انه نبات يعيش على حساب غيره ، أي يحمل صفات طفيلية انتهازية ؟

ـ لنقل : إنه ذو حساسية خاصة ، ويحتاج الى بيئة خاصة للنمو ، وهو ان نما فإن قسما منه يكمن عشرات من السنين ، ثم تأتيه الصحوة ، فيعاود نموه ، وبعضه يصل عمره الى حوالى ٣٠٠ سنة . وهو نبات قصير ، طول ساقه الطبيعي ما بين ١٥سم إلى ٤٥سم ، في حين أن طول ساق المستنبت منه يتراوح بين ٦٠ و ٩٠ سم ، وثمرته التي تشبه ثمرة

العليق أو الكمثرى الحمراء تقع على الأرض ، أو يأخذها الناس ، أو تحملها الطيور فيتم استنباتها من جديد . وهذه البذور لا تفيد إلا في الاستنبات ، في حين أن الجذور التي تشبه الفجل الأبيض هي التي يستفاد منها في تحضير الأدوية والسوائل التي تفيد الإنسان صحيا .

جاء في الأدبيات الكورية ما يلي :ـ

« ينتمي نبات « الجينسنغ » إلى فصائل النباتات ذات الجذور التي تعمر طويلا ، وتنمو تلقائيا في جوانب الوديان شديدة الانحدار ، وسفوح الجبال الظليلة ، وعندما تبدأ النبتة في النضوج تنبت منها خمس أوراق ملتفة بعضها على بعض ، فوق ساق واحدة ، وينبت من وسطها في الربيع عنقود واحد ، يحمل ثماراً أشبه ما تكون بالعليق الأحمر » .

كل الفائدة بالجذور :

* إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن الاستفادة من الجذور ، وما هي الطريقة المتبعة في ذلك ؟

ـ أجاب البروفسور : هناك طريقة قديمة اتبعها الصينيون ، تعتمد على غلي الجذور في سكر مذاب بالماء ، وبعد الغلي فإنهم يسحقون الجذور ، ويحولونها إلى مسحوق . والمقصود باستعمال السكر هنا هو امتصاص الخواص الموجودة بالجذور .

وهناك طريقة أخرى تعتمد على استخلاص الخصائص بواسطة الكحول عن طريق الغلي أيضا ، ثم تحضير المستخلص كشراب . وطريقة أخرى بواسطة التخمير . وحديثا فإن مصانع خاصة قد أنيمت لاستخلاص جذور « الجينسنغ » الطبيعي والمستنبت .

الجينسنغ كما تحدث عنه علماء العرب والمسلمين

ابن سينا

إذا كنا قد أشرنا إلى أن الصينيين قد عرفوا « الجينسنغ » وبعض خصائصه منذ آلاف السنين فإن هذه النبتة ـ أو ربما ما يشبهها ـ قد عرفها علماء العرب والمسلمين منذ قديم الزمان أيضاً .

وقد جاء في كتاب « القانون » لابن سينا هذا التعريف « باليبروح » أو اللقاح : « أصل اللقاح البري ، هو أصل كل لقاح شبيه بصورة الناس . فلهذا يسمى يبروح . فإن اليبروح اسم صنم طبيعي ، أي لنبات ، وهو في صورة الناس ، سواء كان معنى هذا الاسم موجودا أو غير موجود . . . . وهو صنفان ، أحدهما يعرف بالأنثى ، ولونه إلى السواد ، أي الخسي ، إلا أنه أدق منه وأصغر ، وهو زهم ، ثقيل الرائحة ، منبسط على وجه الأرض ، وعند الورق ثمر بالتفاح أو أصغر ، طيب الرائحة ، وفيه حب شبيه بحب الكمثرى ، وله أصول ـ جذور ـ صالحة العظم اثنان أو

● كيف يتم استعمال شراب الجذور ؟ وما هو الضرر من استعمال كمية كبيرة زائدة عن المعدل ؟

ـ إن الخطورة تكمن في أن من يعاني من بعض الأمراض ، كأمراض القلب ، أو الضغط الزائد ، يمكن أن تزيد حالته سوءا ، في حين أن الإنسان العادي يشعر بنشاط وحضور ذهني زائدين . وتناول السائل أو الشراب يقوم على أخذ بعض النقاط ضمن برنامج أسبوعي منظم ، كأي سائل طبي آخر .

● هل يمكن القول بأن مستخلص « الجينسنغ » هو مادة طبية يمكنها علاج أمراض محددة ؟

ـ من خلال تجاربي واطلاعي فإن المادة المستخلصة من « الجينسنغ » لا تستعمل كعلاج طبي لمرض محدد . وكل ما في الأمر أن مستخلصات الجينسنغ تفيد في توفير لياقة بدنية مناسبة ، وتزيد في حيوية الجسم ، وخاصة قبل العمليات الجراحية وبعدها ، أي أنه يساعد على التكيف ، ويساعد الجسم على مقاومة بعض الصعوبات التي يتعرض لها ، كما أنه يوفر طاقة ذهنية نشطة ، تقترب من عمل الكافيين التي تحتويها القهوة ، لكن دون مضار الكافيين وتأثيراته الجانبية ، كزيادة ضغط الدم .

وقد جاء في الأدبيات الصينية أنهم أجروا تجربة على شابين لهما نفس العمر والمواصفات ، فتناول أحدهما شراب الجينسنغ الحقيقي ، في حين أن الآخر تناول شرابا آخر ، وقد تسابقوا لقطع مسافة معينة ، كانت نتيجتها وصول الأول ، دون أن تظهر عليه مظاهر الإرهاق والتعب ، في حين أن الشاب وصل مرهقا متعبا .

ثلاثة ، متصل بعضها ببعض ، ظاهرها أسود ، وباطنها أبيض ، وعليها قشر غليظ ، وله ساق .

والصنف الثاني هو صنف الذكر من اللفاح ، ومن الناس من يسميه موريون ، وهو أبيض ، أملس ، كبير ، عريض شبيه بورق السلق ، ولفاحه ضعف لفاح الأول ، وله أصل شبيه بأصل الأنثى ـ أي صورة الأنثى ـ » .

« وقد زعم بعض الناس أن من اللفاح جنسا آخر ، ينبت في أماكن ظليلة ، له ورق شبيه بورق اللفاح الأبيض » .

ومن الاستعمالات التي ذكرها ابن سينا للشراب المستخلص من هذا النبات يمكن الاشارة إلى :

« ويسقى منه من يحتاج أن يكوى ، أو يختن ، أو يبط ، فإنه إذا شربه لم يحس بالألم » .

وأرى أن ماذكره إبن سينا في هذا المجال يتوافق تماما مع استعمالات « الجينسنغ » الحديثة ، خاصة ماذكره البروفسور كونستنتيوف من استعماله قبل إجراء العمليات وبعدها .

وجاء في كتاب « تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب » لداود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ مايلي :

« يبروح سريانية ، معناه عاوزروح ، وهو نبت ورقه كورق التين ، لكنه أدق ، وله زهر أبيض يخلف كالزيتونة ، ويطول نحو ذراع ، فإذا قلع عن أصله وجدت إنسانين معتنقين .... ويزعمون أن من قلعه مات لوقته ، وليس كذلك ، وهذا النبات غريب عجيب ، تبقى قوته ستين سنة ، مالم يقطع رأسه أولا فيفسد سريعا .... وجلة مايقال فيه أن كل عضو منه ينفع في أمراض كل عضو يقابله في الإنسان » .

« وغلط من جعله اللفاح ، غير أن هذا الاسم يطلق على كل نبت ذي صورة إنسانية وإن لم تكتمل » .

السيد شينجاوز يشرح خصائص نبات « الأتركوك » .

زوار الغابة يتناقشون حول نبات « الجينسغ » « والأتركوك » .

البروفسور كونستنتينوف يشرح خصائص « الجينسنغ » .

● إذن هو لا يعالج أمراضا محددة ، بل يساعد الجسم على المقاومة ؟

ـ هو ذلك بالضبط .

النبتة والقدرات الجنسية :

● ما علاقة « الجينسنغ » بمعالجة القدرات الجنسية ، وإعطائها دفعا مضاعفا ؟

ـ إن بعض الأوساط تروج لهذا الأمر ، لكن الخصائص العلمية تفيد بأنه ما دام « الجينسنغ » يساعد في تنشيط القدرات الجسدية كلها ، فإن القدرات الجنسية جزء من هذا الكل ، ولا يوجد ما هو خاص أو خصوصي في هذا المجال .

إن الجينسنغ للإنسان مثل المهماز للحصان ، يحفزه ، لكنه سيعود إلى حدوده العادية بعد حين .

إن من يستعمل « الجينسنغ » تشيخ قواه بسرعة ، وخاصة الجنسية ، لأنه يتم استعمالها بشكل زائد عن الحد ، أو بصورة مضاعفة ، وكل شيء يزيد عن حده ينقص ، لذلك فإن الشيخوخة تأتي مبكرة . وإنني أنصح بالاعتدال في هذا المجال ، وأرى أن من لا يسرف في حياته بتناول الطعام ، ولم يتعرض للأمراض ، ولم يسرف في استعمال قواه الجنسية وغير ذلك ، فإنه يمكن أن يحافظ على لياقته البدنية حتى سن الشيخوخة . إن الأمر يمكن أن يستمر بشكل عادي وطبيعي ، وتستمر كل قوى جسم الإنسان وأعضائه بممارسة دورها حتى عمر متقدم دون أدوية أو منشطات إذا ما اتبع الاعتدال في كل شيء .

إشكالية لغة !

● هناك خصوصية تتعلق بالجينسنغ في بلادنا ومن خلال لغتنا إذ أن المقطع الأول من الاسم يجسد كلمة « الجنس » بصورة واضحة مكشوفة ، وأرى أن هذا المدخل هو الذي تدخل بواسطته بعض الشركات لترويج هذه البضاعة ، فما هو رأيك وتعليقك على هذا الأمر ؟

ـ كما ذكرت لك لا توجد خصوصية معينة للجينسنغ في هذا المجال ، وكل ما في الأمر أنه يساعد على تكيف الجسم وتوفير حيوية آنية مضاعفة للجسد بكامله ، أما ما تروج له الشركات والأوساط التجارية فإنه يخرج عن نطاق العلم ، ليدخل في مجالات التسويق والتجارة ، وهذه أمور تتكشف بعد التجربة والتجربة في هذا المجال أكبر برهان .

عزيزي القارىء : هذه حصيلة ما استطعنا جمعه عن هذه النبتة التي تسمى « الجينسنغ » . فهل وصل إليك ما هو حقيقي وما هو مزور أو من جنس الأوهام في هذا المجال ؟ □

الفتنة

● قال قس بن ساعدة الايادي :

« إذا رأيت حربا ، جبانها يجرؤ ، وشجاعها يجبن ، وخسيس المحتد يتحكم فيها بكريم المحتد ، ففر منها إلى رابية ، وترقب الأحداث ترى أن في الأمر خيانة .

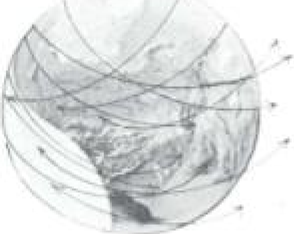

ظواهر مناخية

جديـــــدة

على العـــالم

تغير من مناخه التقليدى

هـــل أصـــاب المنـــاخ جنون العصر؟

بقلم : مجدى نصيف

مناخ العالم تغير في السنوات العشر الأخيرة تغيرا ملحوظا ، ففي عام ١٩٨٦ اجتاحت العالم موجة من البرد والصقيع والثلوج . وذكرت تقارير علمية « أن هذه أسوأ موجة برد تشهدها أوروبا منذ مئة عام ».

وقد ظهرت موجات من الحرارة الشديدة في مصر كما ظهرت مثل هذه الموجات من الجفاف في عدد من بلدان أفريقيا وسببت مجاعات متتالية في شرقي القارة وغربها ، وقللت من انسياب المياة الى النيل .

فهل أصاب المناخ « جنون » العصر ؟ أم أن الطبيعة غضبت من « تلاعب » بني البشر بالبيئة ؟ فماذا يقول علماء الأرصاد ؟

يقوم علماء الأرصاد باسترجاع تاريخ مناخ العالم ، والعوامل التي أثرت فيه بشكل واضح . واتخذوا من هذه الدراسات العلمية مفتاحا للتوصل الى تفسير ما يحدث الآن للمناخ ، وعلى وجه الخصوص في العقد الأخير من هذا القرن .

ماذا وجد العلماء عندما قاموا بنبش تاريخ مناخ العالم ؟

يقول العلماء إن المزارعين في نيوانجلاند ، اشتكوا من أن عام ١٨١٦م كان « عاما دون صيف » . ووجد العلماء أن هذا العام أيضا كان من أسوأ الأعوام التى شهدتها أوربا من حيث انتاجها الزراعى ، ذلك أن الصقيع الذى اجتاح القارة في شهرى يونيه ويوليه أتلف المحاصيل الزراعية ، مما شل قطاعات اقتصادية بأكملها .

ويستشهد علماء الأرصاد بلوحات الفنان البريطاني الشهير « تيرنر » المعروفة باسم « غروب تيرنر » التي تصور سماء تلمع لمعانا غريبا . ويعتقد علماء الأرصاد الآن أنها كانت من وحي « السحب والغيوم التي تولدت في طبقات الجو العليا ، بسبب اندلاع بركان جبل تامبورا بأندونيسيا عام ١٨١٥م . فقد اندفعت سحابة بركانية على أثر الانفجار البركاني الكبير ، توزعت هذه السحابة البركانية على جميع انحاء العالم ، فكان هذا كافيا لأن يسبب اختلاف الجو في أوربا الى درجة تحول الصيف الى شتاء . وتسببت السحابة في حجب أشعة الشمس بشكل أدى الى انخفاض الحرارة عدة درجات في العامين التاليين » .

فهل كان الانفجار البركاني في أندونيسيا وراء الأزمة الغذائية في أوربا عام ١٩١٦ ؟ وهل كان أيضا وراء « عام دون صيف » حدث في « نيوانجلاند » ؟ من الواضح أنه كانت هناك علاقة ، وإن كان لابد من وجود سبب آخر مصاحب .

طبقات الجو العليا

تشير الدلائل العلمية كذلك ، إلى أن تيارات الهواء الجارية في طبقات الجو العليا ، قد تغير اتجاهها بدرجة كبيرة في ذلك العام ايضا .

وهذه التيارات هي التي تحرك العواصف على الكرة الأرضية ، وهي التي تؤثر - بالتالي - على المناخ . ولقد غيرت هذه التيارات اتجاهها بدرجة كبيرة ، فدفعت الهواء بعنف ، من المنطقة المتجمدة الشمالية الى « نيوانجلاند » ، وربما نحو أوربا أيضا .

ويطلق علماء الأرصاد الجوية ، على هذه الظاهرة ، اسم « التبريد البركاني » .

فهل ساعد « التبريد البركاني » على هبوب الرياح بشكل غير طبيعي ، وانخفاض درجة الحرارة الذي حدث آنذاك ؟

علماء الأرصاد مقتنعون بأن التغيرات الكبيرة التي تحدث في المناخ ، تحدث بسبب الانفجارات البركانية ، وجاء هذا الاقتناع نتيجة دراسات مكثفة على انفجار البراكين . ورغم حدوث أكثر من انفجار بركان كبير في المائة وخمسين عاما الأخيرة ، الا أن واحداً منها لم يكن في حجم « بركان الشيشون » بالمكسيك الذى انفجر في ربيع عام ١٨٦٢م . كان هذا الانفجار أحد « هبات الطبيعة » لعلماء الأرصاد ، حيث أنه بعد انفجار البركان ، تولدت سحابة ضخمة ، أخذت تجوب العالم من خط الاستواء الى خط عرض ٣٠ درجة شمالا « فحجبت ما بين ٥٪ الى ١٠٪ من ضوء الشمس الذى يسقط بشدة على المناطق الاستوائية . وانتشرت الغيوم البركانية شمالا وجنوبا ، فقطعت الجزء الأكبر من نصف الكرة الشمالي ، واتجهت أيضا نحو نصفها الجنوبي .

تقدم علم الأرصاد

تطورت أدوات الرصد الجوى ، حيث تستخدم الآن الطائرات والأقمار الصناعية ، وشبكات للرصد تستخدم أحدث المعدات في جميع أنحاء العالم .

وعلماء المناخ والأرصاد الذين أخذوا في دراسة « الشيشون » لم يستخدموا كل هذه الأجهزة الحديثة بطبيعة الحال ، وإن كانوا قد درسوه دراسة مستفيضة ، وسرعان ما بدأت تحدث ظاهرة أخرى جذبت انتباههم . فلقد كان من المعروف آنذاك أن درجة حرارة سطح الأرض في المنطقة الشرقية من خط الاستواء في المحيط الهادىء ، ترتفع في فترة معينة من السنة ، فتختفي المياه الباردة من سواحل البيرو والأكوادور ، وتتأثر بذلك أحوال صيادى الأسماك هناك . وفي نفس الوقت ترتفع درجة الحرارة في غرب أمريكا اللاتينية بصورة ملفتة ، فيشتد هطول الأمطار ، وقد أطلق أهالي البلاد اسم « النينو » على هذه الظاهرة وترتبط بهذه الظاهرة أيضا مجموعة أخرى من الظواهر المصاحبة ، تمتد عبر المحيط الهادىء ، تضم ظواهر مناخية تصحبها تغيرات في أنماط هبوب الرياح .

ولهذا اتهم العلماء « النينو » بأنه هو المتسبب في القحط الذى أصاب استراليا ، وفي الأمطار الغزيرة التى تصحبها موجة حارة في قارة أمريكا اللاتينية .

. . . وظاهرة « التذبذب الجنوبي »

ومن الظواهر المثيرة الأخرى ، تلك الظاهرة المعروفة باسم « التذبذب الجنوبي » . وهي ظاهرة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للدول النامية .

تشير المعلومات التى تم جمعها وتحليلها بالكومبيوتر إلى أن درجة حرارة المحيط في المنطقة الاستوائية هي المصدر الرئيسي للرطوبة والطاقة ، وهذه تحرك التيارات الجوية بدورها ، مما يؤثر على مناخ المنطقة حول خط الاستواء وخطوط العرض الوسطى ، وذلك بالتأثير على موقع وكثافة تيار الهواء في طبقات الجو العليا . ولأن هذا ما يحرك العواصف ، ويساعد في انقسام المناطق الى دافئة وباردة في نصف الكرة الشمالي ، فإن أى ظاهرة ـ بسبب كل هذه التغييرات ـ هي ظاهرة تستحق البحث والدراسة .

وهذا ما حدث بالضبط إذ ركز العلماء على هذه الظاهرة .

تطور « النينو » تحت سمع وبصر العلماء . بدأ في بداية عام ١٩٨٢م في أواسط المحيط الهادىء ، ثم نما ليصبح أكبر وأطول ظاهرة من نوعها سجلها علماء تاريخ المناخ والأرصاد . واستخدمت في متابعة الظاهرة : أقمار صناعية وطائرات وسفن .

لم يطل انتظار العلماء ، ففي منتصف عام ١٩٨٣م ، ارتفعت درجة الحرارة في المحيط بشكل لم يسبق له مثيل ، وأصبحت هناك شواذ مناخية واضحة للعيان : عبرت التيارات الهوائية العليا شواطىء الولايات المتحدة الأمريكية مسببة أمطاراً غزيرة في كاليفورنيا . ورغم أن درجات الحرارة في الولايات المتحدة كانت معتدلة ، إلا أن أمطار فصل الربيع كانت غزيرة . وسجلت الأرصاد الجوية في بعض الأجزاء الوسطى من الولايات المتحدة أبرد درجات للحرارة . أما في الولايات الأمريكية الجنوبية الشرقية وما يعرف بحزام الذرة ، فقد كان الصيف قائظ الحرارة ، مما أتلف ما قيمته بلايين الدولارات من محصول الذرة وفول الصويا والمحاصيل الصيفية الأخرى . وفي نفس الوقت شهد صيف عام ١٩٨٣م موجة شديدة للحرارة في غرب أوروبا .

وتتلائم هذه الظروف المناخية الشاذة ، تماما مع الأنماط المتغيرة من تيارات الهواء العليا التى سجلت في ذلك العام .

ضحية ألاعيب الطبيعة

ولسوء الحظ وقع العلماء ضحية لإحدى ألاعيب الطبيعة . فإن كانت قد منحتهم ما قد يكون بحق اكبر انفجار بركاني ، وأكبر « ظاهرة نينو » في هذا القرن ، إلا أن المؤكد أن عام ١٩٨٣م شهد أكبر نسبة ترسيب على الشاطىء الغربي للولايات المتحدة ، في فصل الشتاء . ولا شك أن هذا يرتبط بالواقع الجنوبي للتيارات الهوائية العليا .

فهل كان اختلاف أنماط التيارات العليا بسبب « النينو » ؟

واذا كانت درجات الحرارة في الربيع ، كذلك ، أقل بكثير من معدلها الطبيعي ، فهل كان هذا انتاجا « للشيشون » أم نتيجة آثار البركان المكسيكي ؟

يؤيد كل افتراض من هذين مجموعة من العلماء ، وكل مجموعة تقدم عددا من البراهين والدراسات . وحقيقة الأمر أن الأمر مازال مبكرا للحكم على آثار هذين الحدثين اللذين وقعا عام ١٩٨٣ والمسألة أن كلاهذين كانا من الضخامة بحيث يمكن أن يعزى لأى منها ذلك الانحراف الشديد الذى حدث في المناخ . والتوصل الى الحقيقة سيساعدنا على التنبؤ بمجريات المستقبل المناخية . فمعرفة الحقيقة ستؤدى الى اطلاق التحذير اللازم للفلاحين ومنتجي المواد الغذائية والماء والطاقة . لكن لسوء الحظ تم الحدثان معا ، مما دفع العلماء الى إظهار قدر أكبر من الحيطة في توقعاتهم . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- الفلسفة والطفل والوطن العربي
- آلة تسقط الذكور !
- في البيت مُصاب فاقد الوعي «الإغماء»

الفلسفة والطفل والوطن العربي

بقلم : زياد القباني*

من السؤال بدأت الفلسفة ، وبالسؤال تطورت . وليس هناك من يطرح أسئلة أكثر من الأطفال ، فهل يمكن إدراج أسئلتهم ضمن إطار الفلسفة ؟

« الفلسفة والطفل والوطن العربي » عنوان الموضوع الذي نحن بصدده ، ونصف هذا العنوان ليس من اختراع كاتب هذه السطور ، إنما هو عنوان كتاب علمي فلسفي ، صدر في لندن بالانكليزية ، لمؤلف وعالم فلسفي معروف هو ج . ماتيوز . إن الاستغراب رد فعل طبيعي لدى الإنسان عندما يجد كلمة « فلسفة » تجاور كلمة « طفل » ، وسوف يزداد الاستغراب مع وجود كلمة « الوطن العربي » إلى جوارهما ، ولدى التأكد من أن الحديث سيدور حول الأطفال في عمر يتراوح بين ستة ونصف حتى العاشرة ، وحول الفلسفة بمعناها العلمي الذي يستخدمه الكبار .

السذاجة المشروعة

وبالمناسبة فإن التفلسف عند الأطفال ، كما يعتقد بعض العلماء ، ظاهرة عادية وطبيعية ، إذ أن خواص انفتاح التفكير على عملية اكتشاف العالم المحيط من قبل الأطفال تتشابه إلى حد كبير بخواص الفكر الفلسفي الجدي . وانطلاقا من هذه الفكرة ، وبالارتباط معها ، يؤكد الأستاذ ماتيوز بأن الفلسفة ليست سوى « السذاجة المشروعة » ، أي أنها تقوم ، كنسق اجتماعي ، بتشجيع طرح الأسئلة ، خصوصا تلك الأسئلة الجوهرية ، العميقة في مدلولاتها إلى ذلك الحد الذي يبدو فيه أن محاولات إيجاد الجواب على هذه الأسئلة هو ضرب من السذاجة . يقول الأستاذ ماتيوز : إن « المجتمع يحتاج إلى سقراط عاري القدمين لكي يطرح الأسئلة البسيطة والمعقدة في نفس الوقت ، كما هي الحال في الأسئلة التي يطرحها الأطفال على الكبار ، ولكي يجبر الناس على إعادة النظر والتفكير في كل ما يقبلون به دون تفكير » . إن سذاجة الأطفال وبساطتهم وانفتاحهم على معرفة العالم المحيط بهم لا تحتاج إلى تثقيف وتعليم خاص ، ولذلك من الممكن كما يقول البرفسور ماتيوز أن نتوقع أن تصبح التفلسف واحدا من

---

* باحث وكاتب من القطر العربي السوري

المظاهر الطبيعية للطفولة . وفي الحقيقة أن هذا هو ما تؤكد عليه كل المواد المعروضة في هذا الكتاب المثير للدهشة .

يبدأ التفلسف عادة بالشك بأكثر الظواهر اعتيادية وبديهية بالنسبة للإنسان ، وغالبا ما يقود هذا الشك ليس إلى معرفة هذه الظواهر وكشفها على حقيقتها وبالتالي إلى إلغاء الشك الحاصل والوصول إلى اليقين الراسخ المريح للنفس البشرية ، بل إلى زيادة حدة هذا الشك وتعقيده أكثر فأكثر . ويذكر هاوي الاطلاع على الفلسفة الفكرة الشهيرة التي قال بها الفيلسوف الانكليزي المعروف برتراند راسل : « إذا كانت الفلسفة عاجزة عن الإجابة عن كل تلك الأسئلة التي ترغب في الحصول على جواب لها ، فإنها على كل حال قادرة ، في الحد الأدنى ، على طرح الأسئلة التي تكشف عن الشيء الجديد ، غير المعروف سابقا ، أو الشيء المستتر ، المختبىء في الجوانب الاعتيادية من الحياة اليومية المعتادة . إن عملية امتلاك الطفل للعالم المحيط به ليست تقليدا أعمى ، بل هي عملية جدية ، تستحوذ على مجمل نشاط الطفل . وكما لاحظنا من خلال مطالعة الكتاب الممتع فإن المؤلف يركز انتباهه على عملية صياغة الأسئلة لدى الأطفال ، كيف ولماذا يسأل الطفل حول هذه النقطة المحددة ؟ أما الأجوبة التي يتفوه بها الكبار والصغار فلم تهمه كثيرا ، ونادرا ما أتى على ذكرها في كتابه . لكن الاستاذ ماتيوز يقوم في تلك الحالات ، أي عندما يتصدى لتحليل الأجوبة ، بالتأكيد على نسبية هذه الأجوبة وقابليتها للبحث العلمي اللاحق ، ولا يحاول أن يحلل عملية التفكير عند الأطفال ، أو يتناولها من « الأعلى » ، أي من موقع « فلسفة الكبار » ، بل على العكس ، فهو ينطلق من خصائص التفكير عند الأطفال ، هذا التفكير الذي يشكل هنا ذات المعرفة .

بداية التفلسف

يبدأ التفلسف عند الأطفال ، كما يؤكد الأستاذ ماتيوز ، من التعجب والدهشة بكل ما يحيط بهم ، ثم يستمر عبر مختلف الألعاب العقلية التي يحبها الأطفال ، مثل « لعبة المفاهيم » . ويعالج المؤلف بعض الأشكال الملموسة من « الألعاب العقلية » عند الأطفال . فمثلا عن سؤال حول ما إذا كان من الممكن للإنسان أن ينسى اسمه ، يأتي جواب العقل السليم (عند الكبار) بأن هذا أمر غير ممكن ، لكن أحد الأطفال (من الذين عرفهم المؤلف وأجرى عليهم دراساته) يسأل : « لكن ماذا يحدث إذا نسي الإنسان اسمه ؟ » ، ويتقدم بالجواب طفل آخر قائلا : « في هذه الحالة من الممكن له أن يسأل أخاه ، لكن ماذا يحدث إذا نسي الأخ أيضا اسم أخيه ؟ . . . . وماذا لو . . . . وماذا إذا . . . . . .
يفتح هذا السؤال أمام الفيلسوف الصغير مجالا واسعا للعمليات الذهنية الحرة واللعب بالإمكانيات المختلفة . وعلى أساس الأمثلة الأخرى الواردة في الكتاب يمكن للباحث أن يرى أن العقل المتفلسف عند الطفل يسعى ليس إلى إغلاق المسألة كما يفعل العقل السليم عند الكبار ، وإنما إلى فتحها أكثر ، وذلك عبر وضعه للأسئلة الجديدة التي تجر

بدورها إلى حقول جديدة ، ومتناقضة ، غير معروفة سابقا . ولذلك يصعب برأينا أن لاتتفق مع المؤلف عندما يلاحظ بأن « الآباء والمعلمين الذين غالبا ما يرفضون هذه اللعبة (الفلسفية) مع الأطفال يقومون في الواقع بافقار حياتهم العقلية نفسها من جهة ، ويفقرون علاقاتهم مع الأطفال من جهة أخرى ، ويقتلون روح البحث العلمي المستقل التي يمكن أن تكون قد بدأت بالتكون عند الأطفال » لكن هل من الممكن أن نقبل فكرة المؤلف القائلة : بأن « الفلسفة يمكن أن تكون لعبة بحد ذاتها » ؟

اللعب والفلسفة

إن الألعاب العقلية والتفكير الفلسفي كلحظات في التطور الفردي ليست هدفا بحد ذاتها ، بل وسيلة يستخدمها الانسان لمعرفة العالم المحيط به الموجود فعليا ، فالعالم المحيط بنا ليس نقطة انطلاق فقط في عملية المعرفة ، بل وهدف لها ، ولذلك فإن اللعبة أيضا تبدو وسيلة من وسائل معرفة العالم ، وكذلك فإن فلسفة الأطفال تبدو ليس لعبة عقلية منغلقة على ذاتها ، بل وسيلة للمعرفة النشيطة التي يحققها الإنسان في العالم المحيط به ، وفي ذاته كجزء من هذا العالم . ولا يستطيع الاستاذ ماثيوز ـ مثله في ذلك مثل كل باحث جاد في حقل الحياة الذهنية عند الأطفال ـ أن يتجاوز تراث العالم السويسري الشهير ج . بياجيه الذي قال بتطور الذهن على مراحل . وبالفعل ففي أعمال ج . بياجيه يوجد ما يتعلق بشكل مباشر بحقل التفكير الفلسفي عند الأطفال ، ففي أحد أوائل أعماله المبكرة يتكلم ج . بياجيه حول « الميول الدائمة التي تتخلل الأقوال العفوية التلقائية التي يتفوه بها الأطفال حول ظواهر الطبيعة والتفكير وطبيعة الأشياء » ، وبغض النظر عن الملاحظات التي يمكن أن يتوجه بها المرء إلى نظرات ج . بياجيه وأفكاره فإنه على كل حال كان قد استخدم « فلسفة الأطفال » ، وذلك كما يؤكد على ذلك البروفسور ماثيوز الذي يبدو له أن طريقة تعامل ج . بياجيه مع التفلسف عند الأطفال لا تنسجم أبدا مع هذا التفلسف ، بوصفه خاصاً بالأطفال . فالطفل جون الذي يبلغ من العمر فقط ست سنوات ، يبدأ بالتفكير حول الحياة والموت ، وذلك بعد موت كلبه ، ويتعمق بالفكر والتأمل ، وذلك حول تفرده في الوجود . فهو يمتلك فكريا كل شيء مما يملكه : الكتب والألعاب والألبسة والمجلات وغيرها ، وفي نفس الوقت فهو يفكر بأن لديه يدين ، وقدمين ، ورأساً . . . . إلخ ، ويتساءل جون : « أي من اقسام جسدي يمكن اعتباره أنا ؟ » وهذا سؤال محير جدا ، يتناول مسألة أصالة الإنسان : فما هي الأعضاء التي يمكن أن يفقدها فرد من الناس على أن يبقى محتفظا بأصالته ، أي أن يبقى هذا الفرد هو نفسه ؟

خوف الكبار

إن محاولات أن يلهو الصغار دون الاستغراق في مثل هذه الأفكار والأسئلة حول الموت تخفي وراءها الخوف العميق ، خوف الكبار أنفسهم من التفكير بهذه المسائل . وباختصار لابد من الانتباه إلى أن المؤلف يعالج ظاهرة التفلسف عند الأطفال الانكليز والأوروبيين عموما ، منطلقا من نوع التفلسف الذي يتوافق مع التقاليد الفلسفية العقلانية الأوروبية . لكن ماذا عن الطفل العربي ؟ كيف يطرح الطفل العربي أسئلته الفلسفية الأولى ؟ من يهتم بذلك من العلماء والفلاسفة العرب ؟ ما هي الدراسات العلمية التي تمت حول هذا الموضوع ؟ وكيف نتعامل نحن الكبار العرب مع الأطفال العرب ؟ وهل ترتبط هذه القضايا بمستقبل الوطن العربي وازدهاره ؟ وكيف ؟ كل واحد منا كان طفلا صغيرا في الماضي ، ويستطيع أن يتذكر كيف كان يطرح الأسئلة الأولى ، وكيف كانت الأجوبة ، وبعضنا قد وجد العناية والتفهم مع الأجوبة المقبولة

متطفيا ، وهؤلاء قلة معدودة ، والأكثرية كانت تجد تجاهلا وتمعاً وعدم احترام ، وربما اعتبرت مرتكبة كذبا أبيض كما يقال . إن الطفل العربي اليوم هوذلك الإنسان العربي الكبير في القرن الواحد والعشرين ، والطفل العربي الذي لا يجد العناية اللازمة له من الكبار ، لن يستطيع بعد عدة عقود أن يعطي ما سوف يكون مطلوبا منه . لقد استرعى انتباهي في العدد ٣٣٥ من العربي ، بعض الأفكار التي طرحها د . هشام جعيط في كتابه حول « الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي » ، وكذلك أفكار د . راشد المبارك في مقالته « دعوة الى قراءة في دفاتر مهجورة » . وهنا لانريد أن نناقش تلك الأفكار الواردة في المقالتين ، التي قد نختلف معها بهذه النسبة أو تلك ، علما بأننا نتفق مع الدكتور محمد الرميحي تماما بأنها أفكار « تستحق الوقوف عندها » ، وإنما نريد أن نؤكد على أهمية الأسئلة المطروحة وحيويتها في المقالتين المذكورتين . فالأولى تربط بشكل واضح ومن خلال عنوانها بين الشخصية والمصير واستراتيجية المستقبل ، وفي هذا الربط تساؤل عن صحته .

والثانية تعترف بحالة العجز والضعف الشديدين اللذين يعاني منها العالم الإسلامي والمجتمع العربي كجزء منه ، وتركز على مرض أساسي خطير ، ألا وهو أنظمة الحكم الاستبدادية المطلقة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي ، وتطرح الأسئلة الجادة حول كيف حدث أن تغلبت هذه « الديكتاتوريات » الشريرة على أغلبية المسلمين ؟ إن الشيء الذي نود إضافته هنا يتلخص بالتأكيد على حقيقة علمية حول العلاقة القوية بين التربية التي يتلقاها الطفل ومجمل الظروف التي يعيش فيها منذ الأشهر الأولى بعد ولادته ، سواء كان في الأسرة أم في المجتمع بشكل عام ، وبين الطريقة التي سيتعامل بها هذا الطفل مع الواقع ومع نفسه والآخرين بعد أن يصبح شابا أو شابة ، أي أن الحديث هنا يدور حول الجيل بكامله ، وطريقته في التعامل مع الأحداث المهمة ، كالخطر الصهيوني ، وخطر الحرب النووية ، وخطر تلوث البيئة ، وخطر الأمية والجوع إلخ . . . .

جيل للمستقبل

ليس لدينا الآن حلول سريعة وتلقائية للمشاكل في كل المجتمعات الإنسانية على اختلافها ، لكن مع هذا يمكننا أن نؤكد بأن التعامل الصحيح من قبل الآباء والمعلمين ، ومن قبل كل الكبار مع الأطفال اليوم بشكل أحد الطرق الرئيسية لتربية جيل جديد ، يستطيع أن ينهض في القرن القادم بالحمل الثقيل جدا الذي سيرثه عنا . وهنا لابد لنا من لفت نظر القارىء الكريم إلى الأبحاث والدراسات النفسية التي أجريت في الثمانينيات في العديد من المدارس الابتدائية الأمريكية ، فقد تم القيام بتدريس مادة الفلسفة التي حوت على مبادىء مبسطة في علم المنطق وعلم الأخلاق ، وذلك على أساس الأمثلة الواقعية المأخوذة من حياة الأطفال أنفسهم ، أما البرنامج التفصيلي فقد أعده معهد التعليم الفلسفي للأطفال ، وقد بينت نتائج البحث الذي أجري على ٢٠٠ تلميذ (من الصف الخامس حتى الصف الثامن) أن إجراء هذا الدرس بمعدل(٢٫٥) حصتين ونصف حصة في الأسبوع قد ترافق مع تحسن ملحوظ في درجة استيعاب الأطفال في مواد اللغة والرياضيات . وفي الاتحاد السوفيتي أيضا يتم البحث الآن ، ومنذ فترة ، عن طرق مناسبة لإدخال الفلسفة في بنية المعرفة عند الأطفال .

ولا يسعنا الآن إلا أن نتساءل : ألا يجدر بنا أن نلعب مع أطفالنا ألعابا فكرية فلسفية ؟ أليس اللعب مع الأطفال بكل أشكاله ممتع ومفيد للكبار كما للصغار ؟ إذا كنتم لاتدركون الجواب الصحيح فما عليكم إلا أن تجربوا اللعب مع أطفالكم ، وسترون بأنفسكم ! □

آلة تسقط الذكور!

بقلم : الدكتورة نجوى قلعجي*

كما للقضاء ملفات للطب ملفات وأحكام ، وتحتل المرأة الصدارة فيها ، لها قصص السحر والخيال ، ولها المآسي والدموع . يمتلكها الرجل بصداق ، فتصبح له قطعة ثمينة يختزنها ويمسح الغبار عنها . تراه يزور الطبيب بين فترة وأخرى ليجعلها في صحة جيدة وآلة إنجاب مستمرة ، وعندما تصيبها صائبة يبذل الجهد لتستعيد نشاطها بأسرع من المستطاع ، فهي آلة فعالة لايضاهيها في سوق الاختراعات الحديثة منازع ، تعمل ليل نهار بالانجاب وغيره ، وويل لها لو طرأ عليها خلل في الانجاب ، وويل لها من نفسها ومن الرجل . إنها آلة طرأ عليها خلل ما ، فهي تسقط الذكور وتبقي الإناث ، وتلك علة العلل التي لا يقف الرجل أمامها صامتا .

بين كوم من المرضى تدخل إحدى النسوة وقد تنفخت وجناها واحمرت عيناها ، لابد أنها قد بكت حتى جفت مقلتاها . أسألها فلا تجيب .

وتتطوع للكلام نسوة أخريات مرافقات وغيرهن ، ممن يطيب لهن سماع القصص وترديدها بالفضول النسوي المعتاد : مسكينة هذه المرأة ، طلقها زوجها اليوم ، لأنها تسقط الذكور وتبقي الإناث .

التفت إلى المرأة اهدىء من روعها ، فلسنا هنا لمحاكمة زوج جاهل ، وإنما لمشورة طبية ، فإن كان في الطب باب تسلل منه لننتشلك من ورطتك فبها ونعمت ، حبذا . المرأة المسكينة مازالت تبكي ، ولقد كررت سرد القصة مرات ومرات قبل مجيء دورها للكشف ، وتلقت التعليمات المعتادة التي تتطوع النسوة دوما لتقديمها مجانا ، منهن من يفترض الحلول والدواء ، ومنهن من يستشهدن بقصص مماثلة ، ومنهن من يفترض اسم طبيب آخر له باع في الميدان ، والمرأة تبكي وما زالت ، ولم تهدأ ثورتها .

* كاتبة وطبيبة نسائية من القطر العربي السوري

نظرت إليها طويلا لأستشف بعضا من ملامح شخصيتها ، وجهها من الوجوه المألوفة ، لامرأة عادية الذكاء محدودة التفكير ، فهي كما يبدو آلة من تلك الآلات ، امتلكها الرجل ليتمم بوجبات شهية من الجنس والأطفال الذكور بوجه خاص .

وبأنفاس متقطعة لاهثة صارت تقول : إني أمينة ، ألا تذكريني ؟ زرتك في العيادة منذ سنوات ، واسمي في الدفتر لديك .

إنها إحدى « الأمينات » اللواتي يراجعن العيادات النسائية يوميا ، وكلهن سواء ، وهي واحدة منهن ، وجوه يومية مألوفة خلت من كل تعبير يشير إلى أنها تعيش في هذا العصر الذي قفزت فيه المرأة قفزات واسعة .

إنها في عالمها الخاص ، عالم الانجاب فقط ، تبحث عنه لتحقق ذاتها أمام ولي نعمتها الرجل ومجتمعه .

تقص القصة المعتادة : سنوات زواج عشر !! - وتقولها باستحياء - لم انجب خلالها سوى ابنتين والزوج المسكين صابر ، حرمته من الخلفة ، تنقل من طبيب إلى آخر . ما أن أبلغ بضعة أشهر من الحمل إلا ويدب بي المرض والآلام ويسقط الذكر . ما كان هناك هم لو كانت تلك الثمرات المهدورة إناثا ، لقد هدرت بضعة ذكور والزوج ما زال صابرا ، الى أن ضج الأهل ، ودارت عليه الدوائر لتصب اللوم والازدراء على زوج دون (خلف) ودون محاولة لإصلاح ما هدرته ، فالحل الأمثل الزواج من أخرى ، فتزوج ، لكنه ما استطاع أن يشترط في الأخرى انجاب الذكور ، لأنه ما زالت لديه ذرة من إيمان ليقول بين الحين والآخر : كله من الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . لكن ليس لديه قدرة للإنفاق على زوجتين في وقت واحد ، فأصبح الطلاق هو الحل : تعالي أيتها المرأة ، ضمي الملاءة عليك ، نحن ذاهبان إلى المحكمة للطلاق . أمينة ككل أمينات البلد ما زالت طوع بنانه . ألم

بسيط حز في نفسها ممزوجا بشفقة ، فما زال في نفسها شفقة على رجل دون خلف . أقرت المتهمة بذنبها ، ووقع القاضي وثيقة الطلاق أمام امرأة بالغة راشدة . بحث القاضي بين قوانينه فرأى أنه يجوز الطلاق في حال موافقة الزوجة ، والزوجة قد أقرت بتهمتها . وقاضي مقوده القانون يناور يمينا ويناور شمالا ويعود إلى قانونه . ومع كل انسانيته التي وضعها لم يسمح قانونه بأكثر من بضعة شروط تكون سندا للمرأة في حياتها . أبرز محامي أمينة فجأة وثيقة تثبت أنها حامل ، إنها حامل إذن . وحاول الحاكم مرة أخرى أن يقنع الرجل بالتريث فرفض الرجل ، رفض أن يتحمل مشقة الانتظار واللهفة ، فهو يريد أن يطلق كل شيء . ولم يكلفه ذلك أكثر من بضعة مئات من الليرات قدمها نفقة للمرأة مع شرط مهم أن يبقى للزوجة حق المطالبة بمصاريف العلاج أثناء الحمل ، تقر وثيقة الطلاق ذلك ، معالجة تحت إشراف طبي ،

الدكتور مأمون مشرف على الحمل ، وولادة مجانية في مستشفى حكومي . حكم عادل من محكمة الرجال وقانون الرجال .

وتتأبط أمينة صك الطلاق ، صابرة على الحكم ، ولإيمانها العميق تظنه حكم الله فيها . والحياة هي الأمل ، فلكل أمله وحلمه ، حتى أمينة لها آمالها وأحلامها ، وهذا آخر سهم في عالم الأمل ، فلم لا تطلقه ، خاصة أن الحاكم قد منّ عليها بمعالجة على نفقة الزوج ؟؟ فلتحاول أن تبحث عن ذكر يعيد لها أنوثتها وكرامتها المهدورة أمام زوجها وامام المحكمة وأمام الجميع .

وتجيء إلينا لتتابع مراقبة الحمل ، لعل وعسى وأمام الطب نضع قصتها ،وحسب علمي إنه ليست هناك حالات تموت فيها الذكور وتبقى الإناث فلنجعلها قضية طبية جديدة لنشبعها درسا ، فقد نوفق في أن ننتشل أمينة مما أصابها من حرمان وشقاء .

رحلة في عالم الأمل :

وتتابع أمينة رحلتها في عالم الأمل ، وقد أضحت زيارتها الطبية كل حياتها ، تنسج الأحلام خيوطها حولها : ماذا لو تحقق الحلم وعدت إلى بيت الزوجية معززة مكرمة مرفوعة الرأس ؟! إبتدأ الجنين بالحركة ، وتلك أول بادرة من بوادر الحياة ، وصارت تتحسس أمينة جنينها ولا تصدق ، وتزور طبيبها فيطمئنها وينطلق المسمع الالكتروني ليعلن بدقات قلب الجنين بدء حياة مخلوق جديد ، وتتوسل أمينة ، وتضج بالرجاء والدعاء : قل لي بربك يا مأمون أهي دقات ذكر أم أنثى ؟ تقول ذلك دون تكلف فقد أصبحت جزءا من العيادة ، وجزءا من حياتنا ، كيف لا وقد أقرت المحكمة ذلك ؟ قال الطبيب : لا بد أن تكون تلك الدقات بشدتها لذكر يمارس رجولته مبكراً . وتقول أمينة من القلب وهي تحمل معها مأساة العمر : يا ليت . . يا ليت .

والجنين يتابع مسيرته مع هذه الاحتياطات المشددة والأدوية المتنوعة ، وأمينة تراقب حركات جنينها ولا تصدق !

القصة تقترب من النهاية ، والطب سيقول كلمته ، وفي الطب النسائي لا يعنينا سوى إنقاذ الجنين سواء كان ذكرا أم أنثى .

أدخلت أمينة إلى المستشفى للمراقبة الصحية وانتظار المجهول . وقرر الطب أنه لابد من انتشال هذا الجنين قبل أن تخنقه آلام المخاض بعملية قيصرية . وجهز كل شيء على ساحة غرفة العمليات ، لطاقم الغرفة على أهبة الاستعداد ، بينهم من تعاطف مع أمينة ، ومنهم من يقوم بواجب يومي لأمينة وغيرها . تمتمت المرأة ببضع كلمات ، التقطت منها كلمة « صبي » ، وغابت في عالم التخدير .

صمت قاتل رافق ضربة مبضع الجراح وهيمن على الغرفة ، كل غرق في تفكير ولهفة ، ونظرات الجميع المترقبة تتطلع إلى الجراح لتستمد منه التعليمات ، وسادت لغة الإشارة غرفة العمليات كالعادة ، خاصة أن الكمامات الطبية قد كممت الأفواه ، فهمدت الأنفاس إلا بضع زفرات يطلقها الجراح عندما تقفز إلى وجهه قطرات من دم جامح ، فينظر في وجه مساعدته بنظرات قاسية وكأنه يقول : أين ملاقطك أيتها المساعدة ،لتمد يد المساعدة فتنظف ساحة أشبه ما تكون بساحة حرب انطلقت فيها أسلحة الجراح ؟!

الهدوء مستتب ، سوى همسات هنا وهناك ، والجميع بانتظار الجنين ، تلك القدرة الإلهية الهائلة ، وبضربة مبضع حاسمة لا بد منها لانتشال الجنين تنطلق الصرخة الأولى . ولا أظن الجراح في وضع يمكنه من البحث عن ذكر أو أنثى . إنه فقط بانتظار هذا اللحن الجميل عندما تطلقه حنجرة جديدة ، فهو أعذب لحن يشجي الطبيب النسائي ويطربه ،

لحن ينسى معه آلام المهنة كلها .

وينبعث هذا اللحن عاليا في الغرفة ، وتتلقف الممرضة الجنين ، وتحتضنه ، وتصيح : ذكر . . . ذكر . ويلتقط الخبر بعض فينقله إلى من ينتظر في الخارج ، ليكون له سبق زف خبر ولادة الذكر . أتم الجراح عمليه بهدوء بعد أن أطربه اللحن . وصار يتمتم بألحانه . وتدور عندئذ قصص ونوادر بعد أن اطمأن البال على سير العملية .

أمينة مازالت في غيبوبة التخدير . قصة صغيرة تكتمها عن أمينة ، وهي أنه أثناء الجراحة استدعى الأمر نقل دم إضافي ، وتم الاتصال بالزوج ليمنح زوجة تحت رحمة القدر دما إضافيا ، فرفض ثانية وبعنف ، فاندفعت ممرضة ودمها مطابق فقدمته لإنسانة مجهولة . بضع ساعات دامية وتستعيد أنفاسها الطبيعية مرة أخرى . ليس من حولها كثير ، فاقرباؤها قلة . وقد استطاعت أن تستشف نظرات فرح حولها . وتظن أن ألم العملية قد منعها من التعبير ، لكنها لم تقل أكثر من « الحمد الله ، الحمد الله » .

أمينة إلى ما شاء الله :

مرت ساعات وما زالت أمينة تجد الشعور نفسه ، الذكر إلى جانبها ، ومازالت هي هي ، أمينة نفسها . هل سيغير هذا الذكر دنياها ؟؟ هل سيجعل الحياة جنة من حولها ؟ وكيف يستطيع ذلك ؟؟ الأهل والجيران والصحبة يقدمون التهاني ، ويذهب كل إلى حاله ، وهي ستبقى أمينة إلى ما شاء الله .

الذكر لن يقدم ولن يؤخر . وفجأة تذكر الزوج ، أين الزوج الآن ؟ هل نقل أحد إليه الخبر ؟؟ نعم يا أمينة ، وقد جاء في اليوم التالي ، ونظر إلى ابنه في لفة ، ولا تكتمك أنه حاول أن يخطفه بحجة أنه ابنه وخلفه وهو أحق الجميع به . إذن جاء إلى المستشفى ولم يكلف نفسه مشقة الزيارة ؟! أنجبت الذكر ومازالت أمينة أمام الرجل وأمام الجميع .

الطبيب والممرضات ينظرن الآن إلى نظرة خاطفة سريعة كأي مريضة أخرى ، وأنا هنا ما زلت مشلولة التفكير والإرادة ، وآلام العملية تنخر بجسدي .

صحت أمينة على صوت العقل ، فقد وجدت أخيرا أن الذي أنجبته لم يحقق ثورة ولن يحقق ذلك ، ولن يخلق مجتمعا سليما . ستثبت للجميع أنها إنسانة قبل أن تكون أم محمد .

ولكن ماذا في يدها ؟ وخطرت فكرة : ماذا لو تبحث عن عمل في هذا المستشفى الذي مد لها يد الحب ، وبعث فيها حياتين ؟ وتسأل بعضا من العاملات فيه : هل لي يمكن مكانا للعمل ؟ إنني أطبخ جيدا ، لكني لا أعرف القراءة ، لكنني أستطيع أن أتعلم ، فدورات التعليم لمحو الأمية قد ملأت الدنيا . وتقول العاملة : حلال عليك يا أمينة ، العمل للمرأة هو سلاحها ، وتعمل كل امرأة ضمن طاقاتها ، وسيحقق العمل وجودك ، ويجعل للحياة معنى لديك ، ويملاء فراغ عمرك ، ويكون ما تبقى لك من سنوات تقضينها بكرامتك وعزتك .

نعم سأعمل ، والزوج الذي حلمت بالعودة إليه لن يكون له دور في حياتي الآن ، سأعود إلى ترميم ما هدر من كياني ، سأعود امرأة جديدة مكافحة ، وسيصبح للحياة معنى آخر ، والذكر أرعاه بعيني وقلبي ، فلينتظر الزوج ريثما ألملم أشتاتي لأعود إليه مرة أخرى أمينة جديدة ، تقود ثورة ، وتعلم كل أمينات البلد أن الحقوق تؤخذ ولا تعطى ، سأقود ثورة ، وأحمل مشعلا يكون عنوانا لحياة أفضل للمرأة . □

■ الزواج كتاب : الفصل الأوّل نظمناه شعرا ، أما بقية الفصول فقد كتبناها نثرا .

شين كنان

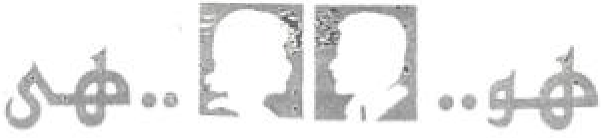

لم يعد يحبني

في السنة الأولى من حياتنا الزوجية كنا نختلف كثيرا ، ونتشاجر أحيانا . وتغلبني دموعي دائما ، ولكن ذلك كله كان ينتهي بنفس السرعة التي يبدأ بها . ويهدأ الغضب ، وتتحول الكلمات الطائشة إلى عتاب رقيق ناعم ، يبدؤه زوجي غالبا ، وتومض الابتسامة في عينين ماتزالان مبللتين بالدموع !!

كان أبي يهدىء مخاوفي قائلا :

يا ابنتي ، يحتاج أي زوجين إلى بعض الوقت ليعرف كل منهما طباع الآخر ويتكيف معها ، ثم تمضي الحياة الزوجية في طريقها الطبيعي !

هل ما نحن فيه الآن هو الحياة الزوجية الطبيعية التي يتحدث عنها أبي ؟ هل أجرؤ على أن أقول لأبي : إنني أتحسر على أيام الخصام والصلح ؟ ففي تلك الأيام كان الخصام كما كان الصلح يعني أن كل واحد منا يشعر بالآخر ، ويهتم بما يصدر عنه !!

أما الآن. فماذا أقول ؟ زوجي الذي يبدو أنه فهم طباعي جيدا أصبح يتجنب كل ما يغضبني ، بل يبادر إلى تلبية كل ما أطلبه دون مناقشة . . ! ولكنني أشعر أنه لا يفعل ذلك عن اقتناع أوحب ، إنه يفعل ذلك ليسكتني فقط ، ليتجنب شجاري معه .

أنا أعرف الحب لأنني مازلت أحب زوجي . والحب هو الاهتمام . وبينما أهتم بكل صغيرة وكبيرة تصدر عن زوجي فإنه يبدو غير مهتم بي على الإطلاق ، بل أكاد أقول إنه يضيق باهتمامي الزائد به .

يقول لي أبي :

يجب أن تفهمي زوجك أكثر ، والاهتمام لاتعبر عنه الكلمات وحدها ، بل تعبر عنه التصرفات والمواقف ، والحياة ليست كلها حبا وغراما !

ولكني واثقة من أن أبي هو الذي لا يفهم هذا الرجل ، فزوجي الذي يبدو كأعمى حين ألبس « فستانا » جديدا أو أغير تسريحة شعري أو لون صبغته ، والذي يصاب بالخرس حين أحكي له شيئا حدث لي أثناء غيبته ، هو نفسه الذي يتحول إلى متحدث لماح في أي جلسة تضمنا مع الأصدقاء وزوجاتهم ، إنه فجأة يصبح روح الجلسة بملاحظاته الذكية ، وبتعليقاته المرحة التي أوقعتني يوما في حبه . وأكتشف أنه مثلي ، تقع له في غيبتي أشياء كثيرة مثيرة ، تستحق الرواية ، لكنه ـ اللئيم ـ لا يهتم بحكايتها إلا في مثل هذه الجلسات !

زوجي الذي ينسى في المساء ما أطلبه منه في الصباح ، يتذكر كل كلمة قالها الأصدقاء وبخاصة الصديقات أثناء الزيارات ، ويتنبه إلى المعاني الظاهرة والخفية للكلمات ، ويصحح لي أخطائي فيما أحكيه عن الجلسة ، ولا ينسى موعدا برد زيارة بعد شهور في زحمة مشاغله . ماذا يكون معنى هذا كله ؟ ! إن لم يكن معناه أن زوجي لم يعد يحبني !

هي..

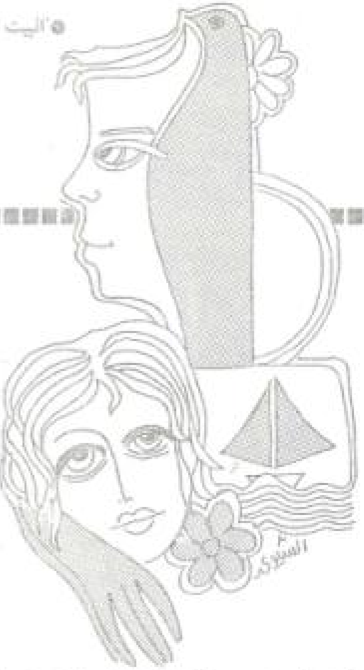

طريق مسدود

قد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنني لا أنسى أبدا اليوم الذي رأيت فيه زوجتي لأول مرة ، يومئذ قلت لنفسي : هذه الفتاة لن تهرم أبدا ، وجه طفولي يضج بالبراءة والحيوية ، وبعد الزواج كانت ابتسامة زوجتي تزداد سحرا حين تتألق في عينيها الدامعتين إثر شجار عابر أو خلاف صغير ، لم أكن أكترث كثيرا بخلافاتي المتكررة معها في بداية حياتنا الزوجية ، كنت أدرك أنها صغيرة السن والتجربة ، وعندئذ أدرك الآن أني وقعت في أسر طفولتها الساحرة ، والناس جميعا يقعون في أسر الطفولة ، ويتسامحون مع أخطائها ، ويقدمون المساعدة ، وأحيانا يرضخون لابتزازاتها البريئة ، وربما كان أخطر شيء اكتشفته بعد الزواج هو أن زوجتي نفسها قد وقعت في أسر طفولتها ، ويبدو أنها افتتنت بهذه المرحلة ، وتريد أن تبقى طفلة الى الأبد ، فهي تهرع إلى أبيها كلما واجهتها مشكلة ، وهي تقاوم رغبتي - وأكاد أقول رغبتها - في أن تنجب أطفالا ، وتحتال لتأجيل الإنجاب لتبقى الطفلة الجميلة المدللة عند الجميع . كيف أقنع زوجتي بأن سحر الطفولة يكمن في كونها مجرد مرحلة ، وأن هناك سحرا أبقى وأعمق تأثيرا وهو سحر النضج ، وأن الحب ليس شيئا مثل الجواهر يمكن أن يضعها الإنسان في صندوق ويتركه ثم يعود إليه بعد سنين، ليجد الجواهر كما تركها دائمة التألق والبريق ؟ فالحب كالحياة ، مالم يتجدد من خلال التفاعل والنمو فإنه يذوي ويذبل ويتجمد ، كيف أقنع زوجتي بأنه لا اختلاف الرأي أو الطباع يقتلان الحب ، بل يقتله الجمود والثبات ؟ فحين يتلقى الإنسان نفس الإجابات حين تختلف الأسئلة ، ونفس ردود الفعل حتى حين تتطور المواقف ، وحين تبكي الزوجة عندما لا يستحق الأمر فإن ما يوجد آنذاك هو الإحباط الذي يولد الجمود وفقدان الاهتمام . زوجتي تصرخ في وجهي بأنني لم أعد أحبها .

وأحيانا أظن أنني سأصل إلى هذه الحالة ، لو أنها واصلت صراخها وواصلت إصرارها على ضرورة تقديم الأدلة والبراهين على حبي لها لكي تتغير هي .

أشعر أن زوجتي تسير في طريق مسدود ، فمن يملك أن يقدم برهانا على الحب ، فالحب يوجد ، وحين يوجد لا يحتاج لأي برهان !

هو..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

في البيت مصاب فاقد الوعي

"الإغماء"

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

يرى العلماء أن الحياة لا تستقيم إلا إذا استقر التوازن بين البيئة الخارجية للكائن الحي وبيئته الداخلية أو تركيبه الداخلي ، وأي خلل ينتاب هذا التوازن يكون على حساب الكائن الأضعف أو الأصغر . ومن هنا كان لا بد أن يستجيب الكائن الحي لمطالب البيئة التي تحيط به ، ويتعامل معه ، وأن يتأقلم مع احتياجاتها ، حتى لا يصيبه الهلاك أو الدمار والتلف والأذى .

هذه العلاقة القائمة بين الكائنات وما حولها يقوم عليها جهاز مختص وينظمها ، يعرف بالجهاز العصبي ، يتولى أمر نقل الرسائل المختلفة بين الطرفين ، مما يعرف بالأحاسيس والإشارات العصبية ، ويقف على قمة الهرم العصبي في موقع القيادة منه جهاز عصبي مركزي هو المخ والنخاع الشوكي يتخذان من الأعصاب جهازاً للاستقبال والإرسال فإذا فشل الجهاز العصبي في هذه المهمة الحيوية الحياتية أصيب الكائن الحي بالعزلة ، وهذا ما يعرف باسم فقدانُ الوعي والإدراك . والإنسان إذ يقف على قمة الهرم في تركيب الكائنات الحية تنتابه حالات من فقدان الوعي بصورة أو بأخرى ، لسبب أو لآخر .

ففي الإنسان شبكة عصبية واسعة ، تقوم على تنظيم شؤونه ، أساسها الوحدات العصبية الصغيرة التي يطلقون عليها اسم « النيورون » ، تعرف في اللغة العربية باسم العصبة أو العصبون ، وتتركب الوحدة من خلية عصبية ، لها زوائد « Dendrites » تربطها بجاراتها من الخلايا العصبية الأخرى ، كما أن لها محوراً عصبياً يسمونه « الأكسون » أو المحور ، وهو زائدة طويلة ، كأنه سلك كهربائي ينقل للخلية الإشارات العصبية والإحساس . ومن مجموع هذه المحاور العصبية للخلايا ذات الاهتمام المشترك يقوم العصب .

إن جهاز الإنسان العصبي يتكون من آلاف الملايين من هذه الوحدات العصبية ، وقد يتجاوز تعدادها عشرة آلاف مليون ، تتركز في الجهاز العصبي المركزي داخل الجمجمة والسلسلة

الفقارية . وقد تعجز هذه الوحدات العصبية عن أداء واجبها بسبب تلف أو عطب يصيبها ، أو خلل يعتري وظيفتها لشح يطرأ على ترويتها الدموية ، أو اختلال ينال من تركيب الدم ومحتواه ، أو لاضطراب في ردود الفعل العصبية ، وهي منهج عمل المخ والجهاز العصبي ، فيصاب بشكل أو بآخر بعطل من الأعطال التي تعرف بفقدان الوعي .

وفقدان الوعي أشكال شتى منه :

فقدان الوعي طويل المدى : ويعرف بالغيبوبة Coma ، وهذا الفقدان ربما كان أخطر الدرجات ، لأنه يعبر عن تلف عضوي للجهاز العصبي أو عطل وظيفي فيه ، وهذان أمران لا بد فيهما من استشارة طبية ، وإشراف طبيب مختص ، وربما احتاج الأمران إلى الرعاية داخل المستشفى أو المصح .

ومن فقدان الوعي:فقدان جزئي يسميه البعض الذهول Stupor ، وهو صورة من صور الضعف في الاستجابة العصبية والأحاسيس ، مما يحتاج إلى رفع درجة التنبيه ، حتى تكتمل الدائرة العصبية ، ويتولد رد الفعل لدى المصاب الذي يكون في درجة من الوعي والإدراك والإحساس أدنى بكثير من المستوى العادي للإنسان الطبيعي ، أما الإغماء الذي نحن بصدده فهو أخف درجات اللاوعي أو فقدان الوعي ، ويميزونه عن الدرجات الأخرى بأنه غياب وعي مؤقت ، قصير المدى ، ويكون بسبب أحد عوامل ثلاثة : ـ

أولها : شح التروية الدموية للجهاز العصبي المركزي وبخاصة مراكز الوعي .

وثانيها : اضطراب في تركيبات الدم الكيماوية الحيوية .

وثالثها : خلل يعتري نشاط الجهاز العصبي .

ولعل أول الأسباب هو الأهم والأكثر شيوعا في تبرير الإغماء ، حيث أن النسيج العصبي يتميز بنهم كبير إلى الأوكسيجين ، وأي شح فيه يصيبه بعطل مؤقت ، فإذا طال الشح فربما أصابه بعطب يصل إلى حد الموت .

أشكال من الإغماء

(١) الإغماء الشائع : ـ

بعضهم يحلو له أن يسميه الإغماء الحميد ، على عكس الخبيث ، حيث يحمل لصاحبه مخاطر ضئيلة ، وسببه رد فعل عصبي يؤدي إلى توسع في أوعية الدم الطرفية ، مما يدفع إلى تجمع قدر كبير من الدم في الأطراف على حساب رصيد المخ ، ومن ثم إلى عجز عن تلبية حاجة النسيج العصبي إلى الأوكسيجين ، ولهذا لا غرابة أن تعلم أنه غالبا ما يحدث والمصاب قائم على قدميه ، وقلما أو ربما يستحيل حدوثه وصاحبه مستلق على ظهره .

إن هذا الشكل من الإغماء يصاحب سماع أخبار سيئة ، أو رؤية مناظر ذات انطباع كريه مؤلم لدى المصاب ، ترتبط بتجاربه وتربيته وثقافته وعاداته ، كما يحدث عند رؤية الدم مثلا أو رؤية قتيل أو مصاب أو عملية جراحية أو ربما مجرد رؤية منظر أو وخز إبرة .

وأحيانا يكون الجو الحار الذي يسبب توسع البساط الدموي في الأطراف ، فيتدفق الدم إلى جلد الساقين والذراعين والبدن ، فيما يقل في الرأس وغيرها .

عند ذلك يشعر المصاب بالغثيان والدوار ، ويتصبب منه العرق البارد ، ويحس بضعف عام ، وربما أصيب بالقيء أو بالرغبة فيه على الأقل .

والناظر إلى المصاب يراه شاحب الوجه ، مصفر الجلد ، وقد تصبب منه العرق ، وتصدر عنه حركات لا إرادية ، وتتسع حدقة عينيه ويصبح نبضه سريعا ضعيفا .

بعدها ينتهي الأمر بسقوط المصاب على الأرض فاقدا للوعي ، وقد يثير السقوط شعورا انفعاليا لكنه في الواقع يصبح هو العلاج التلقائي للإغماء الشائع ، لأن الدم يعود إلى التدفق بوفرة في أنسجة المخ ،

فيصحو المصاب ويفيق بعد فترة وجيزة على الرغم من أن الإغماء الشائع لا يحدث للإنسان وهو مستلق على ظهره ، إلا أن هناك حالات مستثناة قد يكون الأمر فيها على عكس هذه الصورة ، وهذا ما يحدث مع المرأة الحامل التي قد تغيب عن الوعي وهي مستلقية بينما تفيق وهي واقفة ، وكذلك شأن المتبرع بالدم الذي يشعر أحيانا بالدوار والإغماء وهو مستلق على ظهره عند التبرع ، غير أن هذا أمر يعود إلى رد فعل نفسي ، وليس لخلل وظيفي ، لأن الإغماء يداهم المتبرع قبل أن يستنزف منه دمه أو ربما قبل أن تنغرز الإبرة في وريده أصلا .

إن إسعاف المصاب في مثل هذا الإغماء لا يعدو أن يكون بمجرد رقاده على ظهره ، وخفض الرأس عن مستوى القدمين مع بعض كلمات من التشجيع فقط .

(٢) إغماء الجيب السباتي

في الشريان السباتي الذي يعبر الرقبة ليغذي الرأس يقع جيب يسمى « الجيب السباتي » في موضع قبل تفرعه إلى الشريان السباتي الخارجي والشريان السباتي الداخلي .

هذا الجيب يتزود بمستقبلات عصبية في جداره ، حساسة لضغط الدم داخل الشريان ، فإذا ما زادت حساسية المستقبلات العصبية أو إذا ما داهم تصلب الشرايين جدار الشريان والجيب فإن أي مساس بهذا الجيب يولد ردة فعل عصبية تؤدي إلى الإغماء بسبب هبوط مفاجيء في ضغط الدم .

إن هذا الأمر قد يحدث مع حركة تدليك خفيفة (مساج) لدى بعضهم أو قد تحدث لكبار السن الحريصين على ارتداء القمصان ذات الياقات الضيقة المنشاة إذا ما أداروا رؤوسهم عند التفاتة مفاجئة . ومن هنا كانت النصيحة لكبار السن أن لا يرتدوا الياقات الضيقة المنشاة .

إن هواة الرياضة وبخاصة المصارعة المعروفة باسم « الكاراتيه » ، بالإضافة إلى رجال العصابات أو الجنود الفدائيين يعرفون أن ضربة على الرقبة الخصم بجانب اليد تؤدي إلى طرحه أرضا فيغمى عليه ، وهذا هو إغماء الجيب السباتي .

(٣) إغماء الوقوف المفاجيء

من المألوف أن يشكو بعض من الدوار عند النهوض المفاجيء من السرير ، بل ربما يصل إلى حد الإغماء، وهذا أمر يتكرر حدوثه مع الذين يتعاطون عقاقير علاج ضغط الدم المرتفع ، ومع مرض فقر الدم ، أو مرض القلب ، إذ تظهر عليهم أعراض مماثلة لأعراض الإغماء الشائع .

(٤) إغماء مرضى القلب

مرضى القلب معرضون للإغماء لأسباب شتى ، سواء بسبب خثرة في صمامات القلب أو بسبب ثقب في حاجز القلب .

(٥) إغماء مرضى الصدر :

مرضى الصدر عرضة للإغماء أيضا ، وذلك لاحتمال عجز الدم عن تروية المخ وتزويده بالقدر الكافي من الاوكسيجين .

(٦) إغماء البوال

قد يصاب إنسان ما بدوار وغثيان عقب التبول ليلا ، مما يظنونه نوعاً من إغماء الوقوف ، وما هو إلا إغماء سببه تفريغ المثانة ، وحدوث ردة فعل عصبية ، كما أن هذا الشعور ينتاب المريض إذا أفرغت مثانته أو أفرغ سائل من صدره أو بطنه

(٧) الإغماء المزيف

بعض الناس قد يستجدي عطف الآخرين أو يلجأ إلى الهروب من موقف محرج باصطناع الإغماء .

لكن التفريق بين الإغماء الحقيقي والمزيف سهل جداً ، حيث لا صفرة في الوجه ولا شحوب ولا عرق يتصبب من الجلد ، كما أن المصاب لا يفيق من إغمائه بوقوعه أرضا ، ويقاوم فتح عينيه عند الكشف عليه ، بل يداوم على التظاهر بفقدان الوعي ما دام هناك حضور من الناس . □

مساحة ود..

الليل والنهار

أعشق الليل ، لا أتحدث عن المساء والسهرة ، ولكني أتحدث عن الليل بعد أن يستغرق الصغار في أحلامهم ، وينتظم تنفس الكبار في نوم عميق ، بعد أن تهجع الطيور في أعشاشها والحشرات في جحورها ، وتكاد تسمع صوت النبات وهو ينمو ويتنفس !

آنذاك تشعر كأن النجوم والكواكب تقترب أكثر من الأرض ، وأن أطراف الأشجار العالية في الأماكن البعيدة التي لا تراها قد تلامس النجوم هناك !

آنذاك تشعر أن الكون يسترد وحدته العظمى ، وأن المسافات الهائلة بين الكائنات وأنواع المخلوقات تتلاشى . فالأرض والسماء والنبات والحيوان والإنسان جميعا يخضعون لإيقاع الليل الذي يلفهم في وحدة عظمى من الظلام والسكون ، حتى الزمن تذوب فيه الحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فتسمع في وضوح رنين ضحكات تلاشت منذ سنين بعيدة ، وتسفر في قلب الظلام وجوه كنت تعتقد أنك نسيت ملامحها ، تهمس لك بكلمات كانت هي كل ما ترجوه من دنياك في ذلك الماضي البعيد !! وتعجب كيف انتهت أحزانك على فراق من أحببت ؟! كيف نسيت فقد الأم والأب الغاليين ؟ ويتسرب إليك يقين عذب بأنهما لا يمكن أن يكونا بعيدين في هذا الكون المتقارب المتآلف المنسجم ، وأنهما لن يعجزا أبدا عن فهم أن ما حدث منك لم يكن عقوقا أو نسيانا ، ربما كان النهار هو السبب ، هما يدركان ذلك دون ريب ، فالنهار الذي يلتهم الأحياء في حركته الصاخبة ، يلتهم الموتى كذلك ، ويلتهم كل ما هو رقيق وبناء وحالم !

في الليل تكتشف قدرتك اللا محدودة على أن تكون رقيقا متسامحا متفاهما ، متجاوزا حدود ذاتك ، قادرا على أن تعيش بعض الوقت في عالم إنسان آخر !

وتأتي لحظة في الليل يمكنك أن ترى فيها بوضوح كيف حدث الالتباس ، ومتى بدأ الخطأ والزيغ ؟ ويدرك الرجال الأذكياء ذوو البصائر كيف أنهم لم يخدعوا سوى أنفسهم ، وقد يكتمون ضحكاتهم (حتى لا يوقظوا من بجوارهم) حين يكتشفون أنهم كانوا على هذا القدر من الحماقة !

في مثل تلك اللحظة قد يدرك الرجال العظام بشاعة ما فعلوه في النهار باسم المحافظة على القانون والنظام والحرية والعدالة !

في مثل تلك اللحظة ينادي الرجال العظام وهم يتقلبون في فراشهم بين اليقظة والنوم أمهاتهم اللواتي مضى على موتهن عشرات السنين ، ولكن لا أحد يرد النداء .

وتمتلىء يقينا بأنه في لحظات مثل هذه كانت البداية لكل الأشياء والنوايا والأفكار العظيمة والطيبة التي تصنع حقائق النهار العلية ، ودائما كان الليل والنهار يتناوبان إلى جوار صناعة الزمن صناعة الأحلام والحقائق . . . !

ولكنك قد تمتلىء بالرعب حين تتذكر أن النهار الآن يزحف على الليل ، يقتطع من ساعاته وسكونه وصفائه ، يسلم إليه رجالا ونساء مكدودين من العمل والخوف والحماقة ، فينامون أحياء كالموتى ، وحين يستيقظون على ضجة النهار فإنهم لا يتذكرون حتى أحلامهم !

أبو المعاطى أبو النجا

جمال العربية

□ صفحة لغة

بقلم : الدكتور حسن عباس

ليس !

هل أتاك حديث « ليس » ؟ إنها واحدة من الكلمات التي تحفل بالدلالات المختلفة والوظائف المتعددة ، فهي اسم وفعل وحرف ، وهي صفة مدح وصفة ذم في آن معا ، وهي كلمة بسيطة ومركبة أيضا ، وهي من الأضداد ، إذ تحمل معنى الوجود كما تحمل معنى العدم .

أما « ليس » الاسم فمعناها : لزوم البيت والمكث فيه دون الخروج منه ، وهي لذلك إثبات لانفي . والليس : الشدة . تقول : « إبل ليس على الحوض » إذا أقامت عليه فلم تبرحه . وتقول : « رجل أَلْيَس » وتعني بها الرجل الذي لايبرح بيته ، وقد أطلق بعض الأعراب هذه الصفة على الديوث الذي لايغار ، والكلمة في الحالين ذم ، لكنها تعني المدح أيضا : فالليْس معناها الشجاعة ، والصفة منها « أَلْيَس » بمعنى شجاع . وفلان « أليس » تعني حسن الخلق ! وإذا عدنا إلى قاعدة « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » التي قال بها ابن جني وجدنا أن « الَّليس » و « الليث » متقاربتان لفظا فلا اختلاف بينهما إلا في الحرف الأخير في كليهما ، وهما في الوقت نفسه متقاربتان في المعنى ، بل متحدتان ، فالليس والليث تعنيان الشدة والقوة ، أو الشديد القوي . وقد سمي الأسد ليثاً لشدته وقوة بأسه .

والَّليَس ـ محركة ـ الشجاعة والشدة كما جاء في تاج العروس . وهو أَلْيَس ، أي شجاع بيّن الشجاعة ، من قوم لِيس ، أي من قوم يتصفون بالشجاعة .

وقد ورد في معاجم اللغة قول العرب للشجاع : هو أَهْيَس أَلْيَس ، وقد كانت في الأصل أَهْوَس أَلْوَس ، فلما ازدوج الكلام قلبوا الواو ياء فقالوا : أَهْيَس . وقد تستعمل للذم فيقصدون بالأهْيَس الكثير الأكل ، وبالأَلْيَس القُعَدَة الذي لايبرح بيته .

وليس للنفي : قال سيبويه في الكتاب : وليس كلمة ينفى بها ما في الحال . وهي فعل ماض ولكنه ناقص . وقد قيل في أصله إنه على وزن فَعِل كفرح ، سكنت ياؤه استثقالا .

وقال ابن سيده : أصلها ليس « بكسر الياء » فسكنت استثقالا ، ولم تقلب الياء أيضا لأنها لاتتصرف ، فليس لها مستقبل ولا اسم فاعل ولا مصدر ولا اشتقاق . ولما لم تتصرف تصرف أخواتها جعلت بمنزلة ماليس من الفعل نحو : ليت . وقد استدل على أنها فعل ـ على الرغم من أنها لاتتصرف تصرف الأفعال ـ من قبولها بعض لوازم الفعل مثل قولهم : لست ولستما ولستم ، فإن إضافة الضمائر المتصلة من خصائص الأفعال .

توقف الأزهري عند مسألة تصريفها فقال : وقد صرفوا ليس تصريف الفعل الماضي ، فثنوا وجمعوا وأنثوا فقالوا ليس وليسا وليسوا وليست المرأة ولسن ، ولم يصرفوها في المستقبل . قالوا لست أفعل ، ولسنا نفعل . ولقد جعلتها العرب من عوامل الأفعال نحو

كان وأخواتها ، حيث ترفع الاسم وتنصب الخبر ، إلا أن « الباء » تدخل في خبرها دون أخواتها . تقول : ليس الرجل بمستق أخاه اللئيم ، فالباء لتعدية الفعل وتأكيد النفي ، كما جاء في اللسان . ولك ألا تدخل عليها الباء لأن المؤكد يمكن الاستغناء عنه ، ولأن من الأفعال ما يتعدى بحرف جر مرة ، وبغير حرف جر مرة أخرى كقولك : اشتقتك واشتقت إليك .

ومن خصائص ليس ألا يجوز تقديم خبرها عليها كما جاز في أخواتها . يصح أن تقول : محسنا كان زيد . ولا يصح أن تقول محسنا ليس زيد . قيل في أصل ليس أنها تتكون من : (لا أيس) طرحت الهمزة وألصقت اللام بالياء ، وهذا ما قاله الخليل والفراء . وقد عزز الفراء مذهبه بقوله : والدليل على ذلك قولهم (أي العرب) : ائتني به من حيث أيس وليس ، أي من حيث هو ولا هو . وكذلك قولهم : جيء به من أيس وليس . وقد عقب الدكتور ابراهيم السامرائي على هذا التفسير بقوله : ربما كان معنى الأيس معروفا عند الفلاسفة ، فقد استعملها الكندي الفيلسوف في « الرسالة الأولى » في مصطلح « الأيسِيَّة » وهي الوجود ضد « اللَّيسِيَّة » وهي العدم . ومن طبيعة تكوينهامن (لا) و (أيس) نعرف أن ليس مركبة لا بسيطة ، وهي على ذلك ليست فعلا ، لكنها حين ركبت هذا التركيب المتداخل أشبهت الفعل في قبول لوازمه . (النحو العربي نقد وبناء) .

وليس حرف استثناء ، وقد قال بذلك ابن سيدة وغيره . تقول : أتى القوم ليس زيدا أي ليس الآتي زيدا . ولك أن تقول : جاءني القوم ليسك ، وتقديره إلا أنت . يقول ابن منظور : والعرب تستثني بليس فتقول : قام القوم ليس أخاك وليس أخويك ، وقام النسوة ليس هندا ، وقام القوم ليسي وليسني وليس إياي ، إلا أن المضمر أحسن ، وبذلك قال الكسائي أيضا . □

ـ قالت العرب : « حلي الرجال الادب ، وحلي النساء الذهب . الأدب خير من الذهب . شخص بلا أدب كجسد بلا روح ! » .

ـ قال أبو الطيب المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم　فلا تقنع بما دون النجوم .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى　وحظك موفور ، وعرضك صينٌ

لسانك لاتذكر به عورة امرىء　فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك معايبا　فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسالم من اعتدى　وفارق ولكن بالتي هي أحسن

(شاعر)

الجمال معادن

للشاعر عمرو بن معد يكرب

في نسب عمرو بن معد يكرب خلاف واضطراب تكشف عنها كتب : الأغاني ، والاصابة ، والاستيعاب ، وغيرها ، ولو شئنا الإيجاز لقلنا : هو أبو ثور ، عمرو بن معد يكرب الزبيدي من اليمن . وفي تفسير اسمه يقول ابن الأعرابي : قالوا معد يكرب لأنه عدا الفساد . والكرب : الفساد . ويضيف البغدادي في « الخزانة » إلى ذلك قوله : معدي اشتقاقه مثل اشتقاق معدان ، ويزيد عليه بأنه يجوز أن يكون من العدوان ، فقلبت الواو ياء لما بني على مفعل . و (كرب) يجوز أن يكون من الكرب الذي هو أشد الغم . قال ابن جني : فسره ثعلب أنه عداه الكرب ، أي تجاوزه وانصرف عنه .

عرف عن عمرو أنه فارس مشهور صاحب غارات في الجاهلية والاسلام . قيل إنه وفد على النبي ﷺ في سنة تسع أو في سنة عشر للهجرة في وفد زبيد فأسلم ، وأقام في المدينة ، ثم عاد إلى قومه مسلما مطيعا ، كما ورد في كتاب « الإصابة » ، وكان عليهم آنذاك فروة بن مسيك ، لكنه ارتد عن الإسلام مع المرتدين بعد وفاة الرسول .

عاد إلى الاسلام بعد معركة بينه وبين خالد بن سعيد . قيل إنه جيء به إلى أبي بكر فقال له : أما تستحي كل يوم مهزوما أو مأسورا ؟ لو عززت هذا الدين لرفعك الله . قال : لأجرَمَ ، لأقبلن ولا أعود . فأطلقه أبو بكر . وعندما تولى الخلافة عمر بعثه مقاتلا في معركة القادسية فكان له جهاد مشهود .

اختلف الرواة في كيفية موته ، كما اختلفوا في نسبه ، فقيل إنه مات عطشا في حرب القادسية ، أوقتل فيها ، وقد بلغ من العمر مائة وعشرين عاما ، أو مائة وخمسين عاما ، وكلا الروايتين لاتخلوان من المبالغة والبعد عن الدقة ، إذ كيف يتسنى لرجل في مثل هذه السن أن يخوض معارك ضارية كتلك التي خاضها المقاتلون في القادسية ؟! بل نكاد نشك في صحة الرواية التي ذهبت به إلى الشام أيضا ، وكان قد جاوز المائة من العمر ، يعزز شكنا هذا اضطراب الأخبار التي تحدثت عنه ، سواء منها الأخبار الخاصة باسمه ونسبه أو تلك المتصلة بكيفية وفاته وسنين العمر التي بلغها ، على أن الروايات جميعا تشيد بمناقبه وتصفه بالشجاعة والفروسية ، وهي صفات تميل إلى قبولها والأخذ بها لأنها تتفق والمعاني التي يتحدث عنها في قصيدته ، بل ونميل إلى الأخذ بتفسير المرزوقي لبيت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب،

لَـيْسَ الجَـمَــالُ بِمِئْزَرٍ   فـاعـلَمْ وإنْ رُدِّيتَ بُـرْدَا (١)
إنَّ الجَـمَـالَ مَـعَـادِنٌ   ومَـنَـاقِبُ أوْرَثْـنَ مَجْـدَا (٢)
أعْـدَدْتُ لِلحَدَثَـانِ سَـا   بِـغَـةً وعَـدَّاءً عَلَنْـدَى (٣)
نَهْداً وذَا شُـطَبٍ يَـقُـدُّ   الْـبَيْضَ والأبْـدانَ قَـدَّا (٤)
وعَـلِمْـتُ أنّي يَـوْمَ ذا   كَ مُنَـازِلٌ كَـعْبـاً ونَهْدَا (٥)
قَـوْمٌ إذَا لَبِسُـوا الحَـدِيدَ   تَنَمَّـرُوا حَـلَقـاً وقِـدَّا
كُـلُّ امرِىءٍ يَجْـرِي إلى   يَـومِ الهِيَاجِ بِمَـا اسْتَعَدَّا (٦)
لَمَّـا رَأيـتُ نِـسَـاءَنَـا   يَفْحَصْنَ بِـالمَعْـزَاءِ شَـدَّا (٧)
وَبَـدَتْ لَمِيسُ كَـأنَّهَا   بَـدْرُ السَّـمَاءِ إذَا تَبَـدَّى (٨)
نَـازَلْـتُ كَبْـشَـهُـمُ وَلَمْ   أرَ مِنْ نِـزَالِ الكَبْشِ بُـدَّا (٩)
هُمْ يَـنْـذُرُونَ دَمِي وأَنْـذُرُ   إنْ لَـقِـيـتُ بِـأنْ أشُـدَّا
كَـمْ مِنْ أخٍ لِي صَـالِـحٍ   بَـوَّأْتُـهُ بِـيَـدَيَّ لَحْـدَا (١٠)
مَـا إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْتُ   ولا يَـرُدُّ بُـكَـايَ زَنْـدَا (١١)
ألْـبَـسْـتُـهُ أثْـوَابَـهُ   وخُلِقْتُ يَـوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا (١٢)
أُغْـنِي غَنَـاءَ الـذَّاهِـبِـينَ   أُعَـدُّ لِـلأعْـدَاءِ عَـدَّا (١٣)
ذَهَـبَ الـذِينَ أُحِبُّـهُـمْ   وبَقِيتُ مِثْلَ السَّـيْفِ فَـرْدَا (١٤)

يفاجئنا الشاعر في مطلع القصيدة بعزمه على نفي قيم سائدة ترى أن جمال المرء يتبدى فيما يرتديه من ثياب . فإذا فرغ من ذلك ، فلا بد له أن يأتي بمعايير جمالية أو خلقية جديدة ، وذلك ما فعله يقينا . إنه يرى أن الجمال الحق كامن في معدن المرء ونبل محتده ، بل هو باد في الأفعال الكريمة ، وفي جلائل الأعمال التي تورث مجدا للإنسان وشرفا .

وليس هذا الانقلاب في القيم بلا نموذج أو مثال يحتذى ، إنه كامن في الشاعر نفسه ، لذلك تراه وقد أخذ يشيد بمآثره ومناقبه وهو الفارس المقدام الذي يتحلى بالشجاعة والجلد ، فهما خير عنده من أن يردى بردا أو بردين كما كان العربي يفعل إمعانا منه في حب

---

(١) المئزر : الرداء . البرد : الرداء   (٢) المناقب : الخصال الحميدة . المجد : الشرف والرفعة .
(٣) الحدثان : الحوادث أو نوائب الدهر . السابغة : الدرع الواسعة عدّاءً : فرسا-عَلَنْدى: ضخما ، شديدا .
(٤) نهدا : فرسا غليظا . ذا شطب : سيفا ذا طرائق يقد : يقطع ، اي يقطع البيض والدروع قطعا .
(٥) تنمروا تشبهوا بالنمر . القد : الجلد ، وهو شبه الدرع .   (٦) الهياج : الحرب .
(٧) المعزاء : الارض ذات الحجارة . يفحصن : يتركن أثرا من شدة العدو لخوفهن من أن تشن الغارة ويقعن سبايا .
(٨) بدت : كشفت عن وجهها تشبها بالاماء وتجنبا للوقوع في السبي . تبدى : ظهر   (٩) كبش الكتيبة : رئيسها .
(١٠) بوأته : أنزلته . اللحد : القبر .   (١١) الجزع : الحزن الهين القريب . الهلع : الحزن الشديد مع قلة صبر .
(١٢) ألبسته أثوابه : كفنته . جلدا : صبورا .
(١٣) أعد للاعداء عدا : يعدني الاعداء بأكثر من فارس . وكان عمرو يعد بألف فارس .   (١٤) فردا : وحيدا .

الظهور بمظهر الكريم ذي المنزلة الاجتماعية المرموقة .

أما الجمال عنده فليس أدل عليه من هذه المآثر والمناقب التي يتغنى بها . إنه على أهبة الاستعداد دائما . فلقد أعد للحوادث العدة التي يدفع بها صروف الدهر ، ومن تلك أن لديه درعا واسعة ، وفرسا ضخمة شديدة ، وفي يده سيف ذو شطب ، يهوي به على عدوه فيقطع الدروع والأبدان قطعا . وما كل هذا الاستعداد إلا تحسبا ليوم يجد فيه أن لابد من منازلة الأعداء وخوض الحرب معهم . أما الفضيلة التي يتجلى عنها هذا الموقف فهي بعد نظر الشاعر وحسن التنبؤ بما يحدث والاعداد للحوادث وملاقاتها بما يرد مصائبها . إن به من الفطنة واليقظة ما يحول بينه وبين أن يفاجأ ويؤخذ على حين غرة !

هذا ديدنه هو وديدن قومه . فهم إذا لبسوا الدروع ذات الحلقات غدوا أكثر شبها بالنمر في مظهره وجرأته . ولا عجب في أن يلبسوا الحديد وأن يصبحوا كالنمور . فكل امرىء يذهب إلى الحرب لملاقاة عدوه بما أعد لمثل ذلك اللقاء . فحسن الاستعداد والخطة هما اللذان يحسمان الموقف ، ويقرران نتيجة المعركة . وإذا أنشبت الحرب أظفارها ، ورأى نساء قبيلته - وهن عرضه وعنوان شرفه - يجرين في الأرض الصلبة ذات الحجارة ، فيترك جريهن - لشدته - آثارا في تلك الأرض على صلابتها (وما ذلك إلا خوفا من الغارة ومن الوقوع في أيدي الأعداء سبايا) حين رأى ذلك ورأى لميس الجميلة وقد كشفت عن وجهها [1] وكأنه بدر السماء . عندئذ قصد الفارس المحارب رئيس الأعداء . فهو لا يرضى بأقل منه خصما .

وتدور رحى الحرب . ويتذر الأعداء بأن يسفكوا دم الفارس عمرو ، وهو من جانبه يشد شدا ، ويقدم إقداما . ولا يأبه بنذرهم . ففيه من القدرة والاعتداد بالنفس ما يجعل منه فارسا محاربا . على أن هذا الفارس الشاعر المعتد بشجاعته . يتحلى بفضيلة أخرى هي الجلد والصبر على المكاره . فكم من مرة اضطر إلى دفن أخ له ورفيق سلاح ، فقام على تجهيزه وإيداعه القبر بنفسه . وفي ذلك ما فيه من الألم الموجع . لكنه وهو يضطلع بهذه المهمة الصعبة لايفزع ولا يجزع ، بل يظل متماسكا صابرا . فتلك جبلته التي خلق عليها .

هذه - إذن - هي مقومات الجمال التي يقترحها الشاعر بديلا لما هو سائد بين الناس . إنهم يظنون أن الجمال يأتي به مئزر أو برد أو رداء . وحقيقة الأمر أن الجمال مواقف ومناقب ومآثر تؤثر عن الرجل ، وجلد وصبر على المكاره ، وشجاعة تصون الأهل والعرض .

هذا عن الجمال الذي تحض عليه القصيدة من حيث هو قيمة أو فضيلة خلقية . أما عن الجمال الذي تحفل به من حيث هي عمل فني . فهو يتبدى لنا في قدرة الشاعر على تكثيف التجربة . فلقد استطاع في عدد يسير من الأبيات أن ينقل لنا بعضا من سيرة حياة . ويصف لنا مناقب حميدة ، ويضع مقومات جديدة لمعنى الجمال الذي يعشقه . وكانت الصور الشعرية التي استعان بها لاحداث التأثير - على قلتها - تغني جو القصيدة العام . فهذا فرس غليظ شديد ، ودرع من حديد حتى إذا لبسوها غدوا كالنمور قوة وبأسا . وتأتي صفات الجلد والصبر واحتمال المكاره لتضيف إلى مظاهر القوة مظهرا اخر . وعلى الرغم من أن الشاعر معني بوصف مناقبه وتأثره فإن القصيدة حسنة الوقع ، إذ أن التلويح بالقوة والاعتداد بها لهما ما يبررهما . فالشاعر لم يخض غمار الحرب إلا دفعا للعدوان ، ودفاعا عن الشرف . أما لغة القصيدة فلولا بعض كلمات بَعُدَ بها العهد لحسبتها حديثة معاصرة وقد أفاد من القافية التي تنتهي بالدال والألف في تأكيد المعنى لما ينطوي عليه لفظها من قوة . □

---

(١) جرت العادة على أن تغطي النساء الحرائر وجوههن ، وأن تسفر الإماء والجواري . وعندما تسفر الحرة عن وجهها تشبها بالإماء تقصد من ذلك اجتناب الأسر .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

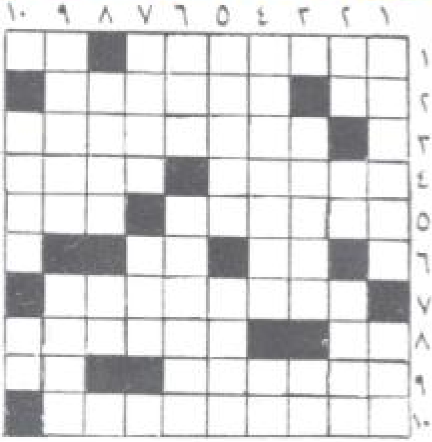

كلمات أفقية :

١ . زهر من الزنبقيات أصفر اللون .
٢ . تجدها في نبات عشبي يعرف بقرن الغزال . شبيهة بالبق .
٣ . أظهر الزهد . نبات عشبي معترش .
٤ . شديد أو وخيم . تجدها في قات .
٥ . من عبدة الأوثان . ما كان في أصل سوق الزرع .
٦ . نجعل منه سهلا أو بسيطا . طرق دبنة .
٧ . ضرب من البطيخ حلو المذاق .
٨ . شجر شوكي يضرب بصعوبته المثل . نبات منافس لقصب السكر .
٩ . نبات يؤكل يعرف أحيانا بالكرنب .
١٠ . نبات من فصيلة الباذنجانيات يؤكل نيئا ومطبوخا . نبات من التوابل شبيه بالشومر .

كلمات عمودية :

١ . شجر زينة ذو أوراق قلبية وزهر أصفر عطر . نبات هندي تصنع من أليافه الحبال .
٢ . استقرار .
٣ . نبات لذيذ الطعم يستعمل في التوابل . وقت أو أجل .
٤ . بقل زراعي حمي أبيض يؤكل مطبوخا أو مقليا . من البروج .
٥ . تألم . سهل الكسر . لاذ بالفرار .
٦ . سلل مبعثرة . قبيح الشكل .
٧ . أحرف متوطة اثنان منها في قمر . طوفان مبعثرة .
٨ . سال لعابه كالطفل . مكثن واستقرر .
٩ . راقب متبوعة بحرف علة . من أشجار الشوارع .
١٠ . نبات هو الأصل في صناعة السكر يزرع في البلاد الحارة وبخاصة في مصر .

حل مسابقة العدد الماضي أغسطس ١٩٨٨)

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

سبتمبر

١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- سياحة في رحاب المتحف العلمي
- سر الكلمات "قصة عربية"
- همام .. في "الإتحاد قوة"
  "مسلسل بالرسوم"
- من سرق مقبرة الملك
  "مسلسل تاريخي"
- الناس الفقراء "قصة عالمية"
- ألف ليلة وليلة "حكاية مصورة"

إضافة للأبواب الثابتة

- إسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
  لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٣٠

مكتبة العربي

كتاب الشهر

الانتفاضة الفلسطينية في عيون يوغسلافية

Zlatko DIZDAREVIĆ   Hido BIŠČEVIĆ

VRIJEME ODLUKE

Palestinski ustanak, Izrael i Arapi

تأليف : زلاتكو ديزداريفيتش وهيدو بيشتشيفيتش

عرض وتحليل : الدكتور جمال الدين سيد محمد

يرى المؤلفان أن موجة الانتفاضة الشعبية في الأراضي العربية المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) قد لفتت بشكل سريع ومفاجىء ، أنظار العالم أجمع إلى تلك المنطقة التي غابت عن الذاكرة مدة طويلة .

لقد سعى الجيش الصهيوني معززا بقرارات حكومته وبتشجيع جزء كبير من الرأي العام لديه بكل الوسائل وأساليب القوة المتاحة ـ الى اطفاء النار التي أخذ فيها يقوض ببطء الدعائم التي تقوم عليها الدولة الصهيونية . وحاولت القيادة السياسية في « اسرائيل » ايجاد السبل والوسائل المناسبة لقمع تلك الانتفاضة الشعبية التي أبرزت بشكل جلي جوهر الأزمة التي مضى على نشوئها أربعون سنة من وجود الدولة الصهيونية ، وعشرون سنة من احتلال الضفة الغربية لنهر الاردن وقطاع غزة .

واعترفت القيادة السياسية الصهيونية ، بالرغم من استخدامها لجميع ألوان الأسلحة وأساليب القهر والقمع ، أنها غير قادرة على القضاء على الانتفاضة الشعبية الفلسطينية ، وأن كثيرا من عواقبها ، بما في ذلك اشتعال رغبات الانتقام لدى المستوطنين اليهود في الأراضي المحتلة ، تهدد باندلاع حرب أهلية داخل الدولة الصهيونية التي انقسمت على نفسها الى جهتين تختلف سياساتها وأخلاقها .

حد فاصل

وقد تابع المؤلفان منذ سنوات عديدة تطور القضية الفلسطينية بجوانبها المختلفة في ميادين القتال ، وفي قاعات المؤتمرات وصالات الاجتماعات ، كما أنهما قاما بزيارة للأراضي المحتلة وللدولة الصهيونية . ويمكنهما بناء على ذلك أن يقررا أنه لن يعود أي شيء في هذه المنطقة على الاطلاق الى وضعه السابق قبل الانتفاضة،فلا يمكن أن تظل الدولة الصهيونية والأراضي المحتلة على نفس الحال بعد أحداث الانتفاضة الفلسطينية التي وقعت وأدت الى تغيير جذري في النظرة النفسية والسياسية تجاه الأراضي المحتلة ، ورفعت ـ من ناحية أخرى ـ درجة الوعي الذاتي لدى الفلسطينيين وأيقظت كبرياءهم القومي . وبذلك نقلت جوهر الصراع لأول مرة بهذه الأبعاد الضخمة الى الأرض التي نشأ عليها .

ويؤكد المؤلفان بما لايدع مجالا للشك أن أي تحليل سياسي جاد في الوقت الحالي سيثبت ان الدولة الصهيونية لايمكنها أن توقف الانتفاضة الجارفة دون أن تحدث تعديلا جذريا في نظرتها السياسية تجاه الاحتلال . وهذه الحقيقة نفسها تثير لأول مرة في تاريخ الدولة الصهيونية تحولات ضخمة ، واستقطابا للقوى السياسية وللرأي العام ، وتبرز على السطح المشكلات النفسية والاخلاقية الكامنة . ولقد أدى كل هذا الى اثارة مناقشات حادة داخل الدولة الصهيونية بشأن المستقبل ، وهي مناقشات مصيرية لم تخضها « اسرائيل » مع نفسها من قبل .

والانتفاضة الفلسطينية تعني في الوقت نفسه لحظة صدق لكل الأطراف المشتركة في مشكلة الشرق الأوسط منذ عشرات السنين ، فهي تضع أمام المشتركين في هذه الدوامة من الصراعات والحروب مخرجين لاثالث لهما : المخرج الموصل الى العدالة والسلام ، والمخرج المؤدي الى جحيم جديد سيودي بكل هذا الجزء من العالم الى هاوية سحيقة .

ويرى المؤلفان أن الانتفاضة قد أظهرت القيمة الحقيقية لكل خطة سلام مطروحة على الساحة في الوقت الحالي ، ومقدار صلاحيتها في اطفاء النيران ، وأثبتت أكثر من أي وقت مضى أنه لايمكن لأي فكرة من الأفكار الحالية لحل المشكلة أن تتحمل الاختبار القاسي للتاريخ . ولم يعد من الممكن النظر الى أي شيء في ظل الأضواء الحالية ولايمكن كذلك الحفاظ على الحالة الراهنة . وهكذا غيرت الانتفاضة المنظور الشامل لبحث القضية الفلسطينية التي أثبتت أنها الجوهر والأساس في أي حل للأزمة في الشرق

الأوسط . وبالفعل أكدت الانتفاضة أنه قد حان الوقت لاتخاذ القرار في الجانبين الفلسطيني والاسرائيلي .

مشاهد حية

وخلال زيارة المؤلفين للأراضي المحتلة ، وفي أثناء طوافهما بالمدن والمعسكرات وسماعهما لما يقوله الفلسطينيون ومشاهدتهما لما يرتكبه الاسرائيليون وما يرد به الفلسطينيون تمكنا من أن يطلعا بنفسيهما على أبعاد الانتفاضة الفلسطينية ، وأهميتها ، وتنظيمها الفريد ، ومن دقة تنفيذ بعض عناصرها الاستراتيجية ، ومن حسن اختيار توقيتها ، والتنسيق الجيد بين عناصرها ، وتأثيرها المحسوب على بعض قطاعات الحياة الاقتصادية والسياسية داخل الدولة الصهيونية . كل ذلك يؤكد أن الأمر يتعلق بحقبة تاريخية حاسمة في نضال الشعب الفلسطيني من أجل استرداد حقوقه المشروعة. ويتمتع الفصل الذي تحدث فيه المؤلفان عن مشاهداتهما في الأراضي العربية وعن تصوراتهما وتجاربهما وعن الاحداث التي صادفتهما خلال تلك الزيارة بأكبر قدر من الصدق والاقناع والتأثير المباشر على القاريء اليوغسلافي . وهو حديث واقعي مؤثر نابع من مصادره الأساسية ، ومن أفواه المشتركين في الصفوف الأولى للانتفاضة ، وهو كذلك حديث تسجيلي ملتزم ، حافل بالملاحظات والاستنتاجات يجعلنا نتأكد من أن الثورة التقنية والعلمية في مجال المعلومات والاتصالات والالكترونيات قد حولت الكرة الأرضية الكبيرة الى قرية صغيرة يمكن التعرف فيها على كل شيء في نفس وقت حدوثه ، ومن أن التاريخ الحديث للبشرية يشهد سباقا عنيفا بين الحدث والاعلام .

ويستنتج المؤلفان أن اللحظة الراهنة للانتفاضة تدعو الى بحث الجوانب الثلاثة للكفاح الفلسطيني المشروع من أجل التحرير القومي ، وهي تدفع كذلك الى القيام بتحليل سياسي للأبعاد الثلاثة الحاسمة للتاريخ الفلسطيني منذ صدور قرار تقسيم فلسطين وحتى وقتنا الحالي . والحقيقة أن الأمر يتعلق بثلاث جبهات قامت علاقاتها المشتركة بتحديد المصير الفلسطيني،وهي التي ستحسم في المستقبل أسلوب حل القضية الفلسطينية .

وتشكل الضلع الأول في هذا المثلث الجبهة الاسرائيلية بكل أبعادها وتاريخها : ابتداء من سعي اليهود في القرن الماضي الى الاستيطان في أرض فلسطين ، ومرورا بجميع القرارات التي صدرت في فترة ما بين الحربين ، وبالأحداث التي وقعت آنذاك ، وانتهاء بصدور القرار المشئوم بتقسيم فلسطين ، وبالمعارك التي تلت الحرب وحددت تحديدا نهائيا حاسما العلاقات بين الفلسطينيين والاسرائيليين وشكلها الراهن .

ويتألف الضلع الثاني من الجبهة العربية التي تشكل ذلك المجال الجغرافي والسياسي الذي كان له تأثيره على المصير الفلسطيني منذ نشوب أول حرب عربية اسرائيلية بعد صدور قرار تقسيم فلسطين . وتدخل أيضا في اطار الجبهة العربية سلسلة الخلافات العربية الفلسطينية ، وكذلك التقارب والتصالح بين العرب والفلسطينيين مع وجود اختلافات واضحة في المصالح والأهداف .

والجبهة الفلسطينية تمثل الضلع الثالث للمثلث ، وفيها يعد مصير النضال الفلسطيني انعكاسا للنضوج القومي خلال فترة طويلة من السعي للحصول على الاستقلال والحرية . وتحوم فوق هذه الجبهة الخلافات والصراعات السياسية والعقائدية ، ثم يأتي التنسيق بين صفوف منظمة التحرير الفلسطينية مع تباين وجهات النظر في بعض الفترات .

حقبة جديدة

وبعد قيام الانتفاضة برزت الأبعاد الثلاثة لهذا الصراع بشكل جلي . فقد أدت الانتفاضة الى تولي الفلسطينيين قيادة مصيرهم بأيديهم ، وهذا يعني بدء حقبة جديدة على الجبهة الفلسطينية ، وأدى هذا بالتالي الى حدوث تغيرات جوهرية على الجبهة الفلسطينية تتمثل في التركيز على الحصول على

كتاب الشهر

الاستقلال ، والحق فى تقرير المصير وتكوين الدولة الفلسطينية .

وتعنى الانتفاضة من ناحية أخرى بداية حقبة جديدة على الجبهة الاسرائيلية لأنها أثارت مسألة التحولات الداخلية فى الدولة الصهيونية ، ووضعت « اسرائيل » أمام مفترق طرق مصيرى لابد أن تتخذ فيه قرارا بشأن مستقبلها . وأثارت الانتفاضة كذلك امكانية التفكير فى طراز جديد من العلاقات بين الفلسطينيين والاسرائيليين .

وأثبت التاريخ أن هذه الجوانب الثلاثة للقضية الفلسطينية تمثل عناصر حاسمة فى أزمة الشرق الأوسط . ويعد المثلث المكون من العرب و « اسرائيل » والفلسطينيين المجال السياسى والجغرافى الوحيد الذى يمكن فى اطاره العثور على حل لهذه القضية . وهو فى نفس الوقت مجال القيام بمناورات مشتركة بين العناصر الثلاثة للقضية ، وتتوقف فرص الحل على مدى تفاعلها .

ويعتقد المؤلفان ـ وفقا للأحداث الراهنة ـ أن هناك أربعة نماذج للعلاقات المشتركة بين العناصر الثلاثة : الدولة الفلسطينية المستقلة ، الاتحاد الكونفدرالى الأردنى الفلسطينى ، الاتحاد الكونفدرالى الفلسطينى الاسرائيلى ، أو استمرار الوضع الحالى . وبالرغم من ذلك فمن العسير افتراض امكانية استمرار الوضع الحالى لفترة طويلة خاصة بعد اندلاع الانتفاضة بالأراضى المحتلة ، دون أن يكون لذلك رد فعل عكسى على الأضلاع الثلاثة للمثلث المذكور .

ويمثل هذا الكتاب اليوغسلافى عن الانتفاضة الفلسطينية انعكاسا للرغبة فى التحدث عن هذا الجزء الحساس من العالم باسلوب يشرك القارىء معه فى الحوار ويقدم له نظرة نقدية فيما يتعلق بكل العناصر الجوهرية للصورة التى تتألف من عدة عناصر متباينة . ومن هنا يحتوى الكتاب على أسلوبين مختلفين فى الكتابة ، أحدهما يسجل التحقيقات الصحفية من « اسرائيل » والضفة الغربية وقطاع غزة ، والآخر يناقش ويحلل الأحداث والاتجاهات الحاسمة على الصعيدين التاريخى والسياسى ، وبدون بحثها ودراستها لايمكن اصدار الحكم على الأحداث الراهنة .

الانتفاضة بعيون يوغسلافية

وهذا الكتاب الذى يعرض لنا الانتفاضة الفلسطينية بعيون يوغسلافية يعد محاولة جادة من جانب المؤلفين المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط لأن يقدما للرأى العام اليوغسلافى صورة شاملة تتسم بالجلاء والموضوعية الشديدة عن الانتفاضة الفلسطينية بالأراضى المحتلة ، وهى صورة غير متواجدة على الدوام فيما سجلته الصحافة اليوغسلافية عنها ، ذلك ان الكتابة عن الانتفاضة فى الصحف اليوغسلافية اصطبغت ـ فى كثير من الاحوال ـ بوجهات نظر مختلفة وبمصالح متباينة ويعترف المؤلفان بأنهما لايتفقان مع بعض وجهات النظر التى عرضتها بعض الصحف اليوغسلافية فيما يتعلق بالانتفاضة الفلسطينية .

ويسعى المؤلفان بهذا الكتاب الجديد الذى صدر فى شهر أبريل من ١٩٨٨ الى أن يسدا النقص الموجود فى المكتبة اليوغسلافية فيما يتعلق بالموضوعات المرتبط بمنطقة الشرق الأوسط وبالقضية الفلسطينية .

وهكذا جاء أول كتاب يوغسلافى يتحدث عن المرحلة الجديدة للكفاح الفلسطينى من أجل اقامة دولته

المستقلة انه كتاب يناضل من أجل حصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة ، ولكنه لاينكر حقوق الطرف الآخر فى الحياة . والكتاب يعكس فى آخر الأمر قناعة المؤلفين بأن تقدير الكفاح الفلسطيني والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني يعد فى الوقت الحالي قضية كل آدمي شريف فى هذا العالم .

ويشمل الكتاب اليوغسلافى عن الانتفاضة الفلسطينية ستة فصول هى : من المأساة الى الأمل ، ثلاث جبهات لنفس التاريخ ، الظل المديد للاحتلال ، يوميات الانتفاضة ، الحرب الموجهة ضد خطط السلام ، تأريخ التعذيب .

ويقع الكتاب فى ٢١٣ صفحة من القطع المتوسط ، وهو مدعم بالصور العادية والملونة التى تصور بشاعة أساليب القمع الاسرائيلية للانتفاضة الشعبية الفلسطينية .

وانى لأعجب أشد العجب من عدم اهتمام أى من دور النشر العربية وعدم اقدامها باسرع مايمكن على ترجمة هذا الكتاب الذى يناصر القضية الفلسطينية بكل ما أوتى من بيان ، ويكشف بالأدلة الدامغة أفظع أساليب القهر والقمع التى استخدمها الاسرائيليون ضد الفلسطينيين الأبرياء من نساء وأطفال .

المؤلفان :

□ زلاتكو ديزداريفيتش معلق سياسى يوغسلافى بقسم السياسة الخارجية بصحيفة « أوسلوبوجيني » التى تعد من أشهر الصحف اليومية القومية ، وهى تصدر فى سرايفو عاصمة منطقة البوسنة والهرسك بيوغسلافيا .

وهو يؤرخ منذ فترة طويلة الأحداث المثيرة بمنطقة الشرق الأوسط ، بل ويعد شاهدا على أحداثها التى هزت العالم فى العقد الأخير . وعمل مراسلا لصحيفته فى لبنان والأردن وليبيا وتونس والجزائر وسوريا والكويت و « اسرائيل » وقبرص . هذا بالاضافة الى انه عمل مراسلا دائما لصحيفته بالقاهرة لمدة أربع سنوات .

□ هيدو يشنشيفيتش يعمل معلقا سياسيا بقسم الشئون الخارجية بصحيفة « فيسنيك » التى تصدر فى زغرب عاصمة كرواتيا بيوغسلافيا . ويعد فى السنوات الأخيرة من أفضل الصحفيين الشباب المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط .

وقد شهد فترة الأزمات فى لبنان وتابع تطور العلاقات بين الدول العربية ، وكتب عن الأحوال فى « اسرائيل » وعن الحرب العراقية الايرانية وعن الأحداث التى وقعت داخل الحركة الفلسطينية . وأعد عن هذه الموضوعات عدة دراسات وكتب تم نشرها فى يوغسلافيا . □

شر النساء !

سئل أعرابي عن شر النساء فقال : شرهن النحيفة الجسم ، القليلة اللحم ، السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة ، تضحك من غير عجب ، وتبكي من غير سبب ، وتدعو على زوجها بالحرب ، عرقوبها حديد ، منتفخة الوريد ، كلامها وعيد ، وصوتها شديد ، تدفن الحسنات ، وتفشي السيئات ، تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ، ليس في قلبها عليه رأفة ، ولا عليها منه مخافة ، إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت ، تبكي وهي ظالمة ، وتشهد وهي غائبة ، تدلي لسانها بالزور ، وسال دمعها بالفجور ، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور .

من المكتبة العربية

صاحب الأغاني..

أبو الفرج الأصفهاني «الراوية»

تأليف : الدكتور محمد أحمد خلف الله / عرض : الدكتورة سهير جاد *

على الرغم من الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإن شهرة مؤلفه بقيت متواضعة يكتنفها بعض الغموض . فمن هو صاحب الأغاني ؟ وكيف أنجز هذا العمل العظيم ؟

هذا الكتاب الذي صدر منذ عشرين عاما ، يكتسب جدته الدائمة لما يثيره من قضايا فكرية حول شخصية يعتبرها بعض الباحثين من أعظم الشخصيات في القرن الرابع الهجري ، وقف أمامها الباحثون حيارى لغموضها ولقلة مايدور حولها من أخبار ، حتى لقد أعلن المجمع اللغوي عن جائزة مقدارها مائتان من الجنيهات (في الستينات) لمن يقدم بحثا عن هذه الشخصية . ولعله من العجب أن أحداً لم يقدم بحثا ولم ينل الجائزة إنسان .

هذه الشخصيات الإخبارية التي خصص لها د . محمد أحمد خلف الله بحثه ، تكاد تكون ـ كما يقول في خاتمة البحث ـ أعظم شخصية اخبارية في القرن الرابع الهجري . يقول عنها ابن خلدون في مقدمته :

« وقد ألف أبو الفرج الاصفهاني ، وهو ماهو ، كتابه في الأغاني ، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي

* كاتبة من القطر المصري ـ دكتوراة في الاعلام

سلفت لهم من كل فن فيما نعلمه . وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنّى له بها »

ما الراوية ؟ !

ونبدأ مع المؤلف من المبتدأ ، ذلك أن دراسة أبي الفرج الراوية تقتضي أن نعرف أولا وقبل كل شيء : ما الراوية ؟

قال الجوهري : رويت الحديث والشعر رواية ، فأنا راو في الماء والشعر من قوم رواة . ورويته الشعر ترويه أي حملته على روايته وأرويته أيضا . وتقول : أنشد القصيدة ياهذا ، ولا تقل : اروها إلا أن تأمره بروايتها أي استظهارها .

فالنقل من المعاني الأولى لهذه المادة ، بمعنى نقل الأنباء والآراء أو النقل بمعناه الواسع الشامل ، والنقل الدقيق يبدأ بالتحمل ، أي بجمع الراوي للأنباء والآراء أو للمرويات من طرقها المختلفة وأساليبها المتنوعة . والراوي بعد التحمل يقابل ويصحح المرويات . يقابل ماسمعه فدونه ، على ما عند غيره من الأقران ممن أخذ معه عن الشيخ ، أو يصحح ماسمعه على الشيخ نفسه أو على نسخته ، وهذا ما تصح تسميته بتصحيح النقل أو تصحيح السماع .

وعلى الراوي أن يحتفظ بالمرويات كما أخذها عن الشيخ من غير تغيير أو تبديل فيها ، وذلك بحفظها عن ظهر قلب ووعيها في الذاكرة . وقد يضم إلى ذلك تدوينها في كتاب ، وذلك من حين التحمل إلى حين الأداء . ومن هنا يشترطون في الراوية القدرة على الضبط ، وإلا تطرق الخلل إلى المرويات

أما الأداء فهو نقل المرويات مع تبليغها إلى غيره بأي طريقة من طرق النقل والتبليغ ، وذلك قد يكون بالكتابة إليه ، أو الاملاء عليه بالمحادثة الشفهية ، أوما شاكل ذلك من طرق للنقل وللتبليغ .

وأساس الرواية عند رواة الحديث إنما هو الصحة في النقل والتأكد من أن الحديث قد ورد حقا عن رسول الله .

وعلى هذا الأساس أيضا يمضى رواة الشعر واللغة .

حياة أبي الفرج الأصفهاني

ولد أبو الفرج سنة اربع وثمانين ومائتين . ذلك هو الحد المتفق عليه ، وتوفي أبو الفرج سنة نيف وستين وثلاثمائة فيما يقول ابن النديم ، أو سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فيما يذكر ابن النعيم . أو يوم الأربعاء لأربع عشرة خلون من ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فيما يروى عن ابن أبي الفوارس . وهذا هو الأمر المختلف فيه .

ويرسم المؤلف صورة لأبي الفرج الراوية ، في إطارات من الحدود الزمانية والمكانية ، ويوضح الدور الذي لعبته « اصبهان » في حياة أبي الفرج ، ذلك أن كثيرين من أسرته كانوا ينتسبون إلى هذه البلدة ، ومنهم جده وعمه وعم أبيه وابن عمه ، إن نسبة أبي الفرج إليها إنما كانت عن طريق الوراثة ، حيث لم يثبت للمؤلف أنها كانت عن طريق المولد .

يقول المؤلف : « هذا الدور الذي لعبته اصبهان في حياة أسرة الأب غير واضح الحدود أو بين المعالم ، ولن نستطيع أن نقول أكثر من أن هذه البلدة كانت من المواطن التي استقر فيها بعض الأمويين من نسل الخلفاء عند اضمحلال هذه الدولة وبعد انحلالها ، وأنها أيضا كانت من المواطن التي لأهلها تعلق بالأمويين ومحبة لهم » .

سر من رأى

والدور الذي لعبته « سر من رأى » أوضح وأبين من ذلك الذي لعبته اصبهان ، وبجيئه الوضوح والبيان من أمرين : الأول : أن النصوص التي تثبت هذا المقام ، وتوضح أشياء من حياة الأسرة ومنزلتها الاجتماعية كثيرة ودالة . والثاني : أن هذه المدينة لم تكن مقام أسرة ابيه فحسب ، وإنما كانت مقام أسرة أمه أيضا ، بل كانت مقام كثيرين من الذين ينتسبون إلى الوزارة والكتابة ولهم أثر في حياة أبي الفرج أوفي حياة الأسرتين .

وتمتاز الكوفة عن كل من اصبهان « وسر من رأى » بأمور :

تمتاز أولا بأن إقامة أبي الفرج بها ثابتة ، ولقد نص هو نفسه على ذلك .

وتمتاز ثانيا بأنها مدينة النشأة والتربية الأولى .

يضاف إلى ذلك أن الكتاب الذي أخرجه أبو الفرج للناس ولم يبلغ الثلاثين من العمر وهو مقاتل الطالبيين إنما يقوم على الثقافة الكوفية ، ويأخذ فيه أبوالفرج عن الشيوخ الكوفيين .

أبو الفرج في بغداد :

وحياة ابي الفرج الطالب ببغداد أكثر وضوحا وأقل خفاء . لقد كان همه الأول والأخير تقييد العلم ، تقييد ما يمليه الأساتذة على الطلاب ، وتقييد مايدفع به الشيخ إلى الطلاب من كتب يحملونهم إياها ليبلغوها عنهم إلى غيرهم ، وتقييد كل ماطرق سمعه ولو عن شيخ ، وكل مايقع تحت بصره من مكتوب ، حتى لو كان هذا المكتوب غير مسمى الصانع على حد تعبيره هو ، ومن هنا أوتِيَ الحرص على التقييد كان أبو الفرج من الرواة الممتازين ، ولم يكن من العلماء التابعين كما يقول المؤلف أيضا : « ولعله من هنا أيضا أعرض التاريخ عن أبي الفرج أو كاد ، ولولا أن قيض الله له ذلك النساخ الذي أراد أن يأكل الخبز من وراء كتاب الأغاني في ذلك الوقت الذي ذهبت فيه الأحداث بالكثير من الكتب التي اعتمد عليها أبو الفرج عند التقييد والتدوين لما شاع ذكره وعلاصيته » .

والمواد العلمية التي كان أبو الفرج يتعلمها قد ذكرها القدماء في إجمال حينما صوروا ثقافة أبي الفرج ، فقد قال عنه الخطيب : « وكان عالما بأيام الناس والأنساب والسيرة ، وكان شاعرا محسنا ، والغالب عليه رواية الأخبار والآداب» ، وقال عنه التنوخي : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني . كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب مالم أرقط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخرى ، منها اللغة والنحو والسير والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا ، مثل علم الجوارح والبيطرة ، ونتف من الطب والنجوم والأشربة .

الحياة الفنية عند أبي الفرج :

العناصر الثقافية التي تتكون منها الحياة الفنية عند أبي الفرج كما شخّصها المؤلف هي :

(أ) الأخبار الفنية للغناء العربي ، وما يتبع ذلك من أحاديث عن المذاهب والأجناس ، وعن بعض النظريات النقدية التي تكشف عن ميول أبي الفرج الفنية ، وعن مذهبه في الغناء .

(ب) الاخبار الفنية للشعر والشعراء ، وما يتبعها من أحاديث عن المذاهب الأدبية ، وعن ميول أبي الفرج .

(ج) الفن الشعري .

(د) الفن النثري ، لا سيما القصص أو الأخبار .

والعنصر الأول هو أقوى هذه العناصر وأكثرها وضوحا في حياة أبي الفرج الفنية ، بل هو العنصر المتحكم في حياة العنصر الثاني أو في حياة الشعر والشعراء ، وليس أدل على ذلك من أن أبا الفرج قد أهمل الشعراء الذين لم يجد لهم من الأشعار ماغنى فيه ، فأساس الاختيار عنده أن يكون للشاعر شعر غني فيه حتى يترجم له ، ثم هو في ذكره للشعر الذي غنى فيه إنما يهتم به من حيث هو أصوات ، فيذكر هذه الأصوات كما غنيت ، حتى لو غير المغنون الشعر لتستقيم لهم القسم والتجزئة ، وحتى لو كان الشعر لأكثر من شاعر .

وغلبة هذا الشعر الغنائي واضحة كل الوضوح مما ترك أبو الفرج فيه من كتب . فقد كتب في هذه الأخبار الفنية للغناء والمغنين ، كما كتب الأنغام والعلل ، ومن ذلك كتابه « الأغاني الكبير » الذي يقول عنه ابن خلدون : « وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني ، وهو ما هو ، كتابه في « الأغاني » ، جمع فيه من أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد ،

فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيا نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنَّى له بها » . ومنه كتاب مجرد الأغاني ، وقد أشار إليه أبو الفرج في مقدمة كتابه « الأغاني الكبير » .

أما ما كتبه في الصنعة الغنائية أو في علل الغناء فإنه يدل على دقة وعمق . ومن ذلك هذا النص الذي ينقد فيه المرويات نقدا فنيا قائما على خبرة بالصناعة وبصور بها ، وهو : وذكر عبيد الله أن صانع هذا الصوت الذي كنى عنه فعل ذلك وتلطف له حتى بالنغم العشر في هذا متوالية من أولها إلى آخرها ، وأتى بها في الصوت الذي بعده متفرقة على غير توالي إلا أنها كلها فيه . وذكر أن ذلك الصوت أحسن مسموعا وأحلى . وحكى ذلك أيضا عنه يحيى بن علي بن يحيى في كتاب « النغم » . وإذ فرغت من حكاية ما ذكره وحكاه عبيد الله في نسبة هذا الصوت فقد ينبغي ألا أجري الأمر فيه على التقليد دون القول الصحيح فيا ذكره وحكاه ، والذي وصفه من جهة النغم العشر متوالية في صوت واحد محال لاحقيقة له ، ولا يمكن أحد بتة أن يفعله ، وأنا أبيّن العلة في ذلك على تقريب إذ كان استقصاء شرحها طويلا ، وقد ذكرته في رسالة إلى بعض اخواني في علل النغم ، وشرحت هناك العلة في أن قسم الغناء قسمين وجعل على مجريين،الوسطى والبنصر دون غيرهما ، حتى لا تدخل واحدة منهما على صاحبتها في مجراها قرب مخرج الصوت ، إذا كان على الوسطى منه ، واذا كان على البنصر وشبهه به ، فإذا أراد مريد الحاق هذا بهذا لم يمكنه بتة على وجه ولاسبب ، ولا يوجد في استطاعة حيوان أن يتلو أحديهما بالأخرى ، ولا إذا اتبعت إحداهما بالأخرى في ناي أوآلة من آلات الزمر تفصلت إحداهما من الأخرى ، وإنما قلت النغم في غناء الأوائل لأنهم قسموا قسمين بين هاتين الأصبعين فوجدوها إذا دخلت إحداهما مع الأخرى في طريقتها لم يمكن ذلك إلا بعد أن يفصل بينها بنغم أخرى

للسبابة ، والخنصر يدخل بينهما حتى تتباعد المسافة بينهما ، ثم لايكون ذلك الغناء ملاحة ولا طيباً للمضادة في المجريين ، فتركوه ولم يستعملوه ، فإن صح لعبيد الله عمل في النغم العشرة في صوت فلعله صح له في الصوت الذي ذكر أنه فرقها فيه . فأما المتوالية على ما ذكره ههنا فمحال ، ولست أقدر في هذا الموضع على شرح أكثر من هذا . وهو في الرسالة التي ذكرتها مشروح .

ويعلل ابن خلدون هذا الاهتمام بما يشعر بأن الغناء إنما قام من أجل تعلم الأدب والعناية بالشعر وذلك حيث يقول : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتّاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة » .

ولعل أكبر مظهر لهذا الاهتمام هو هذه الكثرة الكاثرة من الكتب التي ألفت في الغناء وهي الكتب

التي نقل عنها أبو الفرج كثيرا ، وأشار إليها صاحب الفهرست . ولعل أهمها ما اختاره المغنون الثلاثة من الأصوات المائة المختارة للرشيد ، وما اختاره اسحاق للواثق .

والشعر العربي إنما اختير في كتاب الأغاني على أساس من الغناء ، فهو أصوات غنائية قبل كل شيء وبعد كل شيء . ومن هنا كانت تغير ألفاظ الشاعر أحيانا ، كما كان المغنون يجمعون بين أشعار لشعراء مختلفين .

كما كان يختار أيضا على أساس من الفكاهة والدعابة لأن معه أخبارا يقصد بها إلى الهزل أو إلى الإمتاع والمؤانسة ، وتكون هذه المقاصد هي المتحكمة في الاختيار .

نعم إن هناك من الأخبار ماهو جاد كأخبار الحروب وأخبار الأحكام النقدية والخصومات الأدبية ، تلك التي قد تمثل مذهب الشاعر أورأي النقاد فيه ، ولكن حتى هذه لاتدل على أكثر من سعة الاطلاع عند أبي الفرج .

هل أبو الفرج من الرواة ؟

أبو الفرج شخصية متميزة لها مسلكها الخاص في ايراد المرويات ، وهو مسلك يشعرنا بالمذهب الذي كان يعتنقه أبو الفرج ، ويرينا في غير لبس إن كان أبو الفرج يجري على مذهب الرواة أو يذهب مذهب المؤرخين .

وأبو الفرج واضح الدلالة في أنه كان يجري على مذهب الرواة . وأول مايطالعنا من هذه الدلالات أن أبا الفرج كان يحرص حرصا شديدا على ألا يفوته أي شيء مما يعرفه الناس ، فهو حريص على جمع كل ما قيل حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب ، وليس ذلك من مذاهب المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على الوقوف على الحقيقة وذكر ما يعتقدون أنه الحق .

على أن الخبر التالي يدلنا دلالة قوية على مدى عناية أبي الفرج بالجمع والاستقصاء ومدى إفادته من هذه العناية في النقد ، وفي تصحيح الأخبار . يقول أبو الفرج : « وذكر يحيى بن علي بن يحيى عن اسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط وقد التمسناه في شعر كل أعشى ذكر في شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواة لأحد منهم ، ووجدناه في شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيدة ، وقد أثبتناها بعقب أخباره ليوقف على صحة ما ذكرناه إذ كان الغلط إذا وقع من مثل هذه الجهة احتيج إلى إيضاح الحجة على ما خالفه والدلالة على الصواب فيه » . وهو قول لايحتاج إلى تفسير أوبيان .

ويذكر المؤلف من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة حرصاً على ايراد الخبر والقصة كما وصلته حتى ولو كان المعنى فاسدا أو الخبر مختلطا غير صحيح الضبط ، وذلك هو الأمر الذي توضحه النصوص التالية :

١ ـ جاء في الأغاني بعد رواية أبي الفرج لخبر من الأخبار ، وأحسب أن هذا الخبر مصنوع ولكن هكذا أخبرنا به ابن أبي الأزهر » .

٢ ـ وجاء : « قال مؤلف هذا الكتاب : وهذا الخبر عندي مصنوع وشعره مضعف يدل على ذلك ولكني ذكرته كما وقع إلي » .

وأساس الترتيب عند أبي الفرج في كتاب الأغاني ليس الزمن وليست الأسماء مرتبة ترتيبا أبجديا أو مرتبة حسب القبائل أو البلدان ، بل ليس أساسه الأشخاص على الإطلاق .

إن ترتيب الكتاب أن يقوم على الأصوات ، الأصوات الثلاثة ، والاصوات المائة وأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم أغاني المشهورين من المغنين والمغنيات .

أساس التقسيم ليس الأشخاص وإنما هو الأصوات ، وهو أساس ليس من صنع أبي الفرج وإنما قام به غيره ، وبخاصة في الأجزاء الأولى من الكتاب،تلك التي تخبر عن الأصوات الثلاثة المختارة ، والأصوات المائة المختارة ، والأصوات التي تجمع النغم العشرة المشتملة على سائر نغم

الأغاني والملاهي والأرمال الثلاثة المختارة . ومدن معبد وهي سبعة أصوات . والسبعة التي جعلت بإزائها من صنعة ابن سريج . وأغاني الخلفاء وأولادهم . وما اعتبر من صدور الغناء وأوائله مما يعتقد أبو الفرج أنه لا يحسن تقديم غيره أمامه .

وكان على أبي الفرج أن يجري في إيراد المرويات على طريقة ليست من صنعه أيضا . فكان عليه أن يجري على تلك الطريقة التي رسمها اسحاق الموصلي في كتابه الذي بعث به علي بن هشام والذي أورد صاحب الأغاني صوته عند ترجمته لاسحاق .

شهرة كتاب الأغاني

يقول المؤلف إن كتاب الأغاني لم ينل حظه الفائق من الشهرة إلابعد أن فقدت المكتبة العربية كثيرا من الكتب وكثيراً من المرويات التي اعتمد عليها أبو الفرج . كما كان في عصره من الأدباء الذين يحسنون السمر ويجيدون قص الأخبار ولاشيء وراء هذا .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الصلة بين أبي الفرج وسيف الدولة الحمداني تقوم على إهدائه إياه كتاب الأغاني . فقد جعل كتابه إلى سيف الدولة الذي أعطاه ألف دينار واعتذر إليه . وحينما بلغ الصاحب بن عباد هذا الصنيع علق عليه بما يؤذن بلوم سيف الدولة لأنه قصر في حق أبي الفرج لأن الكتاب يستأهل أضعافها . وينقل ياقوت عن أبي القاسم عبدالعزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة أنه قال : وقال أبو محمد المهلبي : سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب ؟ فقال في خمسين سنة . قال : وانه كتبه مرة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة .

وهناك قول آخر بأن الصاحب بن عباد هو الذي ألف له الأصبهاني كتاب الأغاني .

وكما تبين من حياة أبي الفرج أنه فارق الحياة وقد بلغ الثمانين عاما ، وهي حياة أهلته ليؤدي رسالته في كتاب الأغاني الذي يقول في مقدمته مؤكدا على أنه راعى في اختياره : (... ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن إذ ليس لكل الأغاني خبر ولا في كل ماله خبر فائدة ولا لكل مافيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع) .

ويبدو أن خلطاء أبي الفرج كانوا يتيحون له حياة السمر واللهو التي لم ترق لذوي الجد من الأدباء ، تحدث أبو القاسم عبد الله بن عبدالرحيم الأصفهاني في كتابه « إيضاح المشكل » عن المتنبي قال : « فلما حصل المتنبي ببغداد نزل ربض حيد فركب إلى المهلبي فأذن له فدخل وجلس إلى جانبه وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الأغاني .. وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل وإنما صده فأسمعه من تماديه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه . وكان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة جادا مجدا فخرج » .

وقد يفسر ذلك الأمر اختلاف الطبائع ، ولكنه يفسر أمرا آخر ، في ضوء التفسير الإعلامي للأدب . ذلك ان كتاب الأغاني يؤدي وظيفة الإمتاع والمؤانسة وهي من الوظائف الاعلامية التي تشمل في مقابل « الإمتاع والترفيه » « التثقيف والتنشئة الاجتماعية » . فكتاب الأغاني يقوم في عصره بوظيفة الترفيه والإمتاع التي يقوم بها التلفاز في عصرنا . ولحسن الحظ أن مؤلفه كان يميل نحو رواية الأخبار ، ولذلك تلقى ألوانا مختلفة من العلوم ، وامتاز وتفوق في رواية الأخبار . وهو ميل موروث كما يتضح من دراسة أسرته على النحو المفصل في الكتاب .

وتفسير وظيفة الإمتاع والمؤانسة في العصور القديمة ذلك الميل إلى قص الغرائب ورواية الشاذ من الأخبار . ولقد كان أبو الفرج يقص ألوانا من القصص تتمثل فيها هذه الغرابة ، لأنها تستثير الخيال وترضي العقلية التي تميل إلى الغريب .

والأخبار التي تركها أبو الفرج ألوان : منها النسب ، ومنها أخبار الاضطهادات أو القتل السياسي ، ومنها أخبار الوقائع والحروب وأيام العرب ثم أخبار الغناء وأخبار الشعراء والمغنين . وهنا قد يختلط الهزل بالجد ، ويقوم الاختيار على أساس من الفكاهة والدعابة . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : شفا عمرو قسطاط السلطان صلاح الدين الأيوبي .
المؤلف : الدكتور ابراهيم فريد الدر .
الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت .
عدد الصفحات : ٢٣١ قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨

« شفا عمرو » قرية فلسطينية عريقة ، منحها موقعها دورا مميزا في التاريخ كله منذ أيام الكنعانيين وحتى الآن ، ورغم ذلك فقد تجاهلتها الكتابات التي كتبت عن فلسطين جغرافيا ، وتاريخيا ، والمؤلف كما يقول عاشق « شفا عمرو » .. مقدر لأهميتها التاريخية والجغرافية ، فحولها ربض الناصر صلاح الدين الأيوبي مواجها ريتشارد قلب الأسد ، وعنها قال نابليون بونابرت « لابد من احتلال شفا عمرو للتحكم في وسط فلسطين .. » وعبر دراسة شاملة يقدم المؤلف القرية ـ التاريخ ـ جغرافيا .. وسكانيا واجتماعيا واقتصاديا وتاريخيا ... في عرض كامل علمي دقيق .

■ ■

الكتاب : طه حسين والسياسة .
المؤلف : مصطفى عبدالغني .
الناشر : دار المستقبل العربي . القاهرة .
عدد الصفحات : ٢٨١ قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٦

لم يشهد تاريخ الأدب الحديث كاتبا أثير حوله مثلما أثير حول طه حسين .. تأييدا وهجوما .. وقد يكون السبب في هذا أن طه حسين كان مفكرا ومجددا وأسهم في معترك السياسة مرتديا مسوحها حين شارك في دروس الأدب ، ومرتديا مسوح الأستاذ الجامعي حين شارك في السياسة ـ وفي كلا الحالين فقد اكتوى بنار السياسة والسياسيين ـ وعن تاريخ طه حسين وعلاقته بالأحزاب السياسية والقصر الملكي في مصر وعلاقاته السياسية يقدم الكاتب عرضا أمينا لتاريخ طه حسين السياسي ، ويطرح محاولة جادة لقراءة أعماله وفق مواقفه السياسية .. مضيفا بذلك اسهاما جديداً حول طه حسين وتاريخه .

■ ■

الكتاب : المرشد في التمريض النفسي
المؤلف : محمد سعيد شرف
الناشر : مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ـ الكويت
عدد الصفحات : ١٦٦ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

من خلال خبرة المؤلف وعمله في مجال التمريض النفسي ، يقدم دليلا عمليا للمرضى في مجال الطب النفسي ، ومن حيث تعريفه بأهمية دوره ، والمطلوب منه في حالات الأمراض المختلفة ، مع عرض علمي مبسط للاعراض والظواهر السريرية لكل حالة مرضية وكيفية التعامل معها .

■ ■

الكتاب : صفحات من تاريخ العراق المعاصر .
المؤلف : دكتور كمال مظهر أحمد .
الناشر : مكتبة البدليسي ـ بغداد .
عدد الصفحات : ١٩٦ ، قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٧ .

مجموعة دراسات تاريخية يقدم فيها المؤلف تحليلا اجتماعيا وتاريخيا لبعض الموضوعات في التاريخ العراقي المعاصر ، فيقدم دراسة حول الإقطاع في العراق ودراسة أخرى عن العراق في سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٣ . ودراسة عن بكر صدقي والمسألة الكردية ، ودراسة عن البرجوازية وسبل التعامل معها ، ودراستين عن ثورة العشرين إحداهما ملاحظات عامة على الثورة والثانية عن تاريخ صحافة الثورة . وأخيرا دراسة عن انتفاضة يناير ١٩٤٨ خصائصها وظروفها .

■■

الكتاب : القنصل الفخري .

المؤلف : جراهام جرين،ترجمة عطا عبدالوهاب .

الناشر : سلسلة المائة كتاب ، وزارة الثقافة والاعلام - بغداد .

عدد الصفحات : ٣٤٠ ، قطع متوسط

سنة النشر : ١٩٨٦

رواية جديدة للكاتب جراهام جرين تقدم لقراء العربية لأول مرة . بعد روايتيه الشهيرتين « القوة والمجد » ، و « كبد الحقيقة » . تدور أحداثها في مدينة صغيرة في الأرجنتين بالقرب من الحدود الملتهبة لدولة أمريكية لاتينية . . ويقع حادث اختطاف قنصل فخري لاحدى الدول الأوروبية العريقة ، ولأن الرجل مجرد قنصل فخري فلا أحد يهتم بتلبية مطالب الخاطفين . . ووسط أحداث الاختطاف يدور حوار - هو سمة الرواية كلها - بين طبيب وقس مطرود من الكنيسة وشاعر . . ويقدم المؤلف من خلال الحوار أفكارا شديدة الجرأة يتناول فيها الدين والكنيسة والنضال والعنف والحب . . من خلال نسج لعالم أسطوري يمتلىء بالمفردات المدهشة .

رواية القنصل الفخري أعاد المؤلف كتابتها سبع مرات قبل أن يدفع بها للنشر .

■■

الكتاب : الحنين الى الأوطان .

المؤلف : محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي .

تحقيق : الدكتور جليل العطية .

الناشر : عالم الكتب - بيروت .

عدد الصفحات : ١٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

سنة الطبع : ١٩٨٧

الحنين الى الأوطان لمحمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي ، كتاب طريف ، يثير شؤون وشجون المغتربين عن ديارهم ، ويضم مختارات مما قيل في الحنين الى الأوطان والبقاع ، ويتجاوز الانسان . . فيخص حنين الابل في باب . وابن المرزبان مؤلف عاش ببغداد في النصف الثاني من القرن الثالث والثلث الأول من القرن الرابع الهجريين .

وهو ثاني أثر يصل إلينا من الكتب التي ألفها العرب في الحنين ، وأثبت المحقق في تقديمه للكتاب أن رسالة الحنين الى الاوطان التي نشرت منسوبة الى الجاحظ ليست له بل لمؤلف آخر معاصر للجاحظ يدعى موسى بن عيسى الكروي،الحنين الى الأوطان» جزء من موسوعة أدبية تتألف من ١٢ جزءا وعد المحقق بنشرها ، وعنوانها « المنتهى في الكمال » . للدكتور العطية مساهمات جادة في نشر النصوص التراثية منها تحقيقه ديوان ليلى الأخيلية (بالمشاركة) ، درج الغرر للمطوعي ، ديوان الميكالي ، الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصبهاني ،من كتاب الأمثال لابي زيد الانصاري ، الوحوش للأصمعي وغير ذلك .□

■ المجد هو العطر الفواح الذي يتخلف بعد العمل العظيم — فولتير

العربي - العدد ٣٥٨ - سبتمبر ١٩٨٨ م

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٥٨
سبتمبر ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت ، مسابقة العربي العدد ٣٥٨ ، . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ أكتوبر ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٥٨

١

وزائرتي كأن بها حياء
فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها
فتوسعه بأنواع السقام

من الشاعر ؟ وما الذي يلغز به في هذه الأبيات ؟

٢

« تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت . وبعض الناس طول الوقت ، ولكنك لاتستطيع أن تخدع كل الناس طول الوقت » .

× كونفوشيوس × بوذا × ابراهام لنكولن

٣

قطار طوله ميل واحد ، انطلق بريد تقطع مسافة ٨ أميال ، بين محطة (أ) ومحطة (ب) ، وقد وصل أحد الركاب محطة (أ) متأخرا بعض الوقت ، فاضطر إلى صعود القطار من مؤخرته أو بابه الخلفي ، فيما كان القطار قد بدأ تحركه ، ولم يجلس هذا الراكب ، بل تابع سيره داخل القطار حتى وصل الى مقدمته ، حيث توجد القاطرة ، وذلك لدى وصول القطار إلى محطة (ب) . فما هي المسافة التي قطعها هذا الراكب ماشيا ؟ وما هي المسافة التي قطعها راكبا ؟

٤ ترى في أي البلدان تتوقع الالتقاء ببعض أفراد شعب الماوري ؟

٥ قوام العلم الأمريكي خطوط بيضاء وحمراء ، عددها ١٣ خطا ، ونجوم في الزاوية اليسرى العليا ، وعددها ٥٠ نجما ، وترمز هذه النجوم إلى الولايات التي تتكون منها الجمهورية ، كما يعرف الجميع . فما الذي ترمز إليه الخطوط الثلاثة عشر ؟

٦ أخوان أحدهما نشط يستطيع حرث الحقل في ساعتين ونصف ساعة ، بينما الآخر يحتاج إلى (٥) ساعات لحرثه . فلو تعاون الأخوان وعملا معا في آن واحد فكم ساعة يحتاجانها لإنجاز مهمة حرث الحقل ؟

٧ من المعروف أن بركان فيزوف القريب من خليج نابولي في ايطاليا ثار في التاريخ القديم - سنة ٧٩ق . م . بالتحديد ، ومن المعروف أيضا أن ثورته هذه أدت إلى طمر مدينة بومبي ، والقضاء على (٢٠٠٠) نسمة من سكانها ، لكن ثورة البركان تلك طمرت مدينة أخرى غير بومبي وأصغر منها . ماسم المدينة ؟

٨ ما هو أضخم صروح العالم المبنية جسورا كانت أم سدودا أم أسوارا أم عمارات ؟

٩ صفراء من غير علل
مركوزة مثل الأسل
كأنها عمر الفتى
والنار فيها كالأجل

شاعر يلغز في شمعة . فمن هو الشاعر ؟

١٠ اضحك يضحك العالم معك ، ابك تبك وحدك ؟
عبارة شاعت وانتشرت ، ورددتها الصحافة في كل زمان ومكان . ترى من هو قائل هذه العبارة ؟

١١ حكى الحارث بن همام قال : شَتَوْتُ بالكرج لدين أقتضيه ، وأرب أقضيه ، فبلوت من شتائها الكالح وصرها النافح .
عبارة مقتطفة من مقامات الحريري . ترى من أي مقامة اقتطفت ؟

١٢ نظر الرجل إلى صورة رجل آخر كانت في يده فتنهد وقال : توفي أبي دون أن يترك لي إخوة أو أخوات ، فكان هذا الرجل ابنه الوحيد الذي أنجبه قبل موته . فمن هو صاحب الصورة إذن ؟

العربي - العدد ٣٥٨ - سبتمبر ١٩٨٨ م

حلّ مسابقة العدد ٣٥٥

يونيو ١٩٨٨

١

أقيمت أول مئذنة في الاسلام في الجامع الأموي الذي أنشأه الوليد بن عبدالملك سنة (٧٠٨ - ٧١٤). ذلك أن المآذن لم تعرف قبل ذلك. ويذكر عن بلال مؤذن الرسول أنه كان يقف على سطح منزل مرتفع بجانب المسجد حين كان ينادي للصلاة.

وتجدر الاشارة هنا إلى مئذنة مسجد القيروان، وقد تم إنشاء المسجد والمئذنة بأمر الخليفة هشام سنة (٧٢٤ - ٧٢٨)، ولعل هذه المئذنة هي أقدم المآذن القائمة حاليا.

٢

المسجد الأقصى هو الذي بني أولا، فهو ثاني مسجد بني بعد المسجد الحرام. وقد جدد أكثر من مرة، ومن الذين جددوه عبدالملك بن مروان. (راجع الموسوعة الميسرة، الجزء الثاني، صفحة ١٦٩٦).

٣

جامع السلطان حسن هو الأقدم عهدا، والأكبر مساحة، فقد بني سنة ١٣٥٦ م وتبلغ مساحته ٧٩٠٦ م²، أما جامع السلطان أحمد الأول فقد بني سنة (١٦٠٩ - ١٦١٦)، وتبلغ مساحته نحو ٤٦٠٨ م².

٤

مئذنتا جامع السلطان حسن في استانبول مرتفعتان لا ريب، ويبلغ ارتفاع كبراهما ٨٢ مترا، أما مآذن المسجد الجديد في ماليزيا (في شاه علم في سلانجور) فيبلغ ارتفاعها ١٣٧,٤ مترا.

٥

لا فرق بينها، فالمئذنة والصومعة وكذلك المنارة واحد (راجع الموسوعة الميسرة، والمنجد مادة مئذنة).

تقول الموسوعة: «أقيمت أول المآذن في الاسلام في المسجد الأموي بدمشق، وكانت تسمى صومعة أو منارة أو مئذنة» (الجزء الثاني، صفحة ١٨٠٠).

٦

قبة الصخرة أنشأها عبدالملك بن مروان سنة (٦٩١م) فوق الصخرة المقدسة في بيت المقدس، وكان القصد من بنائها أن يحج الناس إليها بدلا من مكة التي كانت تحت حكم عبدالله بن الزبير منافس الأمويين آنذاك.

٧

طبعا عبدالرحمن الداخل، ما دام إنشاؤه يعود إلى سنة ٧٨٥ م، على أن عبدالرحمن الثاني أضاف بدوره إلى جامع قرطبة، وكان ذلك سنة ٨٢٣ م. وظل الجامع موضع إضافة وزيادة، حتى بلغت مساحته في النهاية ٢١٨٧٥ مترا مربعا.

٨

الاسم محرف أو مخفف. فالاسم الأصلي هو جامع القيروانيين، وقد أنشىء في الجهة الغربية من مدينة فاس، حيث كان يسكن المهاجرون القيروانيون. من هنا كانت التسمية

الأصلية (جامع القيروانيين) التي ما لبثت أن خففت حتى أصبحت (جامع القيرويين) . ويعود إنشاؤه إلى ما قبل ١٠٠٠ عام ، إلى سنة ٨٥٩ م بالتحديد .

٩ الجمع بين الجامعين لا يخلو من تضليل ، فالجامع الأموي مسجد كما هو معروف ، أما جامع التواريخ فكتاب أو مخطوط كتب سنة ١٣١٤ للوزير رشيد الدين . ومن طريف ما يذكر أن جامع التواريخ يشمل صوراً من حياة بوذا ، وأخرى ورد ذكرها في الانجيل ، هذا فضلا عن الصور المأخوذة من السيرة النبوية الشريفة ، وتلك المأخوذة من تاريخ الصين .

١٠ شاه جهان امبراطور المغول من سنة ١٦٢٨ إلى ١٦٥٨ ، توفي سنة ١٦٦٦ ، وهو من أحفاد تيمور لنك ، وهو باني تاج محل كما هو معروف . ثار عليه أبناؤه في سنيه الأخيرة ، وخلفه ابنه اورنجريب الذي خلعه عن العرش وسجنه بقية حياته .

١١ إنه جامع المتوكل في سامراء في العراق ، وقد تم بناؤه في سنة (٨٤٢ - ٨٥٢ م) ، وبلغت مساحته ٩,٢١ فدادين (٣,٧٢ هكتارات) وبعداه ٢٣٨,٩ × ١٥٦ متراً .

١٢ جامع الزيتونة وجامع القرويين كالأزهر ، مركزان للصلاة ولتحصيل العلم . وقد بنى الأول عبدالله بن الحجاب في تونس سنة ٧٣٢ ، وأصبح جامعة في القرن الثالث عشر . أما جامع القرويين فبني في سنة ٨٥٩ ، بالأموال التي تبرعت بها السيدة فاطمة بنت محمد بن عبدالله الفهري القيرواني .

الفائزون في مسابقة
العدد ٣٥٥
يونيو ١٩٨٨

الجائزة الاولى : رياض حجازي - حلب - جامعة حلب / الجمهورية العربية السورية .
الجائزة الثانية : عبدالرزاق حمادي الجزار - بغداد / الجمهورية العراقية .
الجائزة الثالثة : طوبى محمود - الدار البيضاء / المغرب .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - فتحية عبدالقادر محمود - الزرقاء / الاردن .
٢ - عبدالمنعم العجمي - الصفاة / الكويت .
٣ - سعيد خميس سالم العبرى - ولاية بهلاء / سلطنة عمان .
٤ - احمد عبد العظيم ابو العز - الدمام / المملكة العربية السعودية .
٥ - زينب صادق الشبيبي - ابوظبي / دولة الامارات العربية المتحدة .
٦ - سلوى محمد خير - ودمدني السودان .
٧ - سهير ابراهيم محمد عياد - بورسعيد / جمهورية مصر العربية .
٨ - لطفي عون - الحي الرابع - المنستير / الجمهورية التونسية .

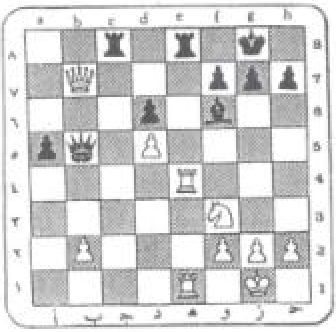

معركة بلا سلاح

كثيرا ما يكتب لنا قراؤنا من محبي هذه اللعبة النبيلة عن أدوار شطرنجية بديعة ، أو تجارب مثيرة مرّت بهم فهزتهم إلى الأعماق ، وملأت صدورهم بالبهجة والحبور . وقد عبّر الطبيب اللاعب تاراش عن مثل هذا الشعور الطاغي بالبهجة بقوله : « الشطرنج كالحب والموسيقا يستطيع أن يجعل الرجال سعداء » .

ويرغب بعض هؤلاء القراء أن يشاركهم إخوتهم من قراء العربي بهذه المتعة والفائدة . ونحن نرحب بكل ما يقدمه لنا قراؤنا من عشاق هذه اللعبة .

ومن هؤلاء القراء الذين كتبوا إلينا الصديق بو دياب بو جمعة من مدينة تازة في المغرب الشقيق ، وقد قدّم للدور الذي أرسله لنا بقوله :

« أبعث إليكم بأحد الأدوار الجميلة التي أرجو أن يشاركني بها إخوتي من قراء العربي وقد جرى في سنة ١٩٢٠ بالولايات المتحدة الأمريكية بين اللاعب الأمريكي آدامز والشاب المكسيكي طور (١٦ سنة) ، وقد انهزم الأخير في هذا الدور . والطريف في الأمر أن الشاب المكسيكي أصبح فيما بعد بطلا دوليا ، وتوالت انتصاراته ، الأمر الذي حدا بأحد الصحفيين أن يسأله عن أجمل دور عاشه خلال مسيرته الشطرنجية ، فلم يتردد في اختيار الدور التالي الذي أرجو أن تتيحوا لقرائكم مشاركتي به » .

وقد خلد البطل كاميل سينيكا هذا الدور في كتابه « الشطرنج » ، من سلسلة كتاب الجيب الفرنسية الصادر عام ١٩٧٤ .

□ آدامز (أمريكي)	■ طور (مكسيكي)
١ . هـ ٤	هـ ٥
٢ . ح - و ٣	د ٦
٣ . د ٤	هـ × د ٤
٤ . و × د ٤	ح - جـ ٦
٥ . ف - ب ٥ (لشلّ الحصان)	ف - د ٧
٦ . ف × جـ ٦	ف × جـ ٦
٧ . ح - جـ ٣	ح - و ٦
٨ . ت (قصير)	ف - هـ ٧
٩ . ح - د ٥ ! (بديعة)	ف × د ٥
١٠ . هـ × د ٥ (لاحتلال العمود)	ت
١١ . ف - ز ٥	جـ ٦
١٢ . حـ ٤	جـ × د ٥
١٣ . جـ × د ٥	ر - هـ ٨
١٤ . ر (و) - هـ ١	أ ٥
١٥ . ر - هـ ٢ ! (رائعة)	ر - جـ ٨
١٦ . و (أ) - هـ ١	و - د ٧
١٧ . ف × و ٦ !! (تمهيدا للهجوم)	ف × و ٦
١٨ . و - ز ٤ !! (تضحية مذهلة)	و - ب ٥
١٩ . و - جـ ٤ (مطاردة مثيرة)	و - د ٧ (مضطرا)
٢٠ . و - جـ ٧ !! (متابعا مطاردته)	و - ب ٥

٢١ . أ ٤ | و × أ ٤
٢٢ . ر ـ هـ ٤ | و ـ ب ٥
٢٣ . و × ب ٧ (الشكل) يستسلم لعجزه عن حماية الرخ في هـ ٨ (دور بديع حقاً)

والدور القصير التالي من مباراة (سويفت) في بلجيكا وقد جرى في شهر ابريل من العام الفائت .

□ لارسن (بريطاني)	كورشنوي (سويسري)
١ . جـ ٤	ح ـ و ٦
٢ . ز ٣	جـ ٦
٣ . ح ـ و ٣	د ٥
٤ . ب ٣	و ـ ب ٦
٥ . ف ـ ز ٢	هـ ٥ ! (فخ)
٦ . ت (قصير)	هـ ٤ !
٧ . ح ـ هـ ١ (مضطرا)	جـ ٥ ! (بديعة)
٨ . ح ـ جـ ٣	هـ ٤ !!
٩ . د ٤	جـ × ز ٣
١٠ . و × ز ٣	و ـ أ هـ (للاستدراج)
١١ . و ـ جـ ٢	ف ـ ب ٤ !
١٢ . ف ـ ب ٢	ف ـ هـ ٦ !
١٣ . جـ × د ٥	ح × د ٥
١٤ . ح × د ٥	جـ × د ٥
١٥ . أ ٣ ؟	ف ـ د ٢
١٦ . و ـ د ١	ف ـ هـ ٣ +
١٧ . م ـ حـ ١	و ـ جـ ٧ !

يستسلم بعد سلسلة من الأخطاء الشنيعة .

مسألة العدد (٣٥٨)
سبتمبر ١٩٨٨م

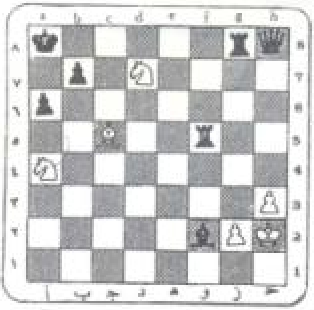

مات ٤

من إهداء القاريء
مختار محمد الشمالي (حمص)

حل مسألة العدد (٣٥٦)
يوليو ١٩٨٨

١	ر ـ ب ٨
٢ . م ـ جـ ٨	ر ـ ب ٨

ثم مات أو يضحي الأبيض بالرخ

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج للعدد ٣٥٥ يونيو ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ عبدالقادر عبدالله مسلي عدن/ اليمن الديمقراطية .
٢ ـ وردشان عباسي دمشق/ سوريا
٣ ـ د . أحمد حسن ثابت أسيوط/ ج م ع
٤ ـ سعيد سالم حارب الظاهرة/ عمان
٥ ـ فتحي حماد حولي/ الكويت

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ ليث حسن الشمخي النجف/ العراق
٢ ـ البازي أسعد تطوان/ المغرب
٣ ـ عامر يوسف عبدالله عمان/ الأردن
٤ ـ نسرين علي النسيمي الخالدية/ الكويت
٥ ـ فخري بن رمضان نابل/ تونس

حوار القراء

العربي ـ ص.ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الكويت

البيريسترويكا

السيد الدكتور رئيس التحرير ،

أنا أحد قراء مجلة العربي القيمة ، مجلة كل القراء العرب والمثقفين ، نبع الثقافة الإنسانية والثقافة العربية الأصيلة والمعاصرة التي تشهد صفحاتها أجمل ما يسطره الكتاب والمفكرون العرب في مجال الفكر والعلم والأدب والفنون وعلى الأخص استطلاعات العربي لدول العالم . وفي عدد ٣٥٥/ حزيران ١٩٨٨ نال إعجابي مقال رئيس التحرير د . محمد الرميحي حول فلسفة « البيريسترويكا » أو إعادة البناء والتجديد . وهو حدث تاريخي مهم ، ليس للاتحاد السوفييتي فقط ، بل للعالم كله ، لما لهذه السياسة الجديدة من أثر على مجمل العلاقات الدولية من أجل تعزيز السلام والطمأنينة في العالم ، ومن أجل بقاء النوع البشري ضد الدمار النووي والحرب وتلوث البيئة والفقر والجوع ، وضد سياسة النهب التي تنتهجها الدول الاستعمارية الغربية في حق دول العالم الثالث . وإن العرض الموضوعي المختصر لهذه السياسة الجديدة التي تفضل الدكتور بتقديمها خصوصا بعد زيارته للاتحاد السوفييتي واتصاله بالاوساط الثقافية والأكاديمية قد أعطى صورة حية للقراء العرب عما يدور داخل الاتحاد السوفييتي ، يختلف عما كانت تنشره الصحافة الغربية وبعض الصحفيين والكتاب العرب المقلدين أو المرددين لما تنشره الصحافة الأمريكية والغربية .

نحن سعداء بهذا التوجه الموضوعي الذي ينشد الحقيقة والصراحة والصدق في تناول القضايا المعاصرة التي يواجهها عالمنا المعاصر عبر صفحات مجلة العربي الذائعة الصيت ، متمنيا لها مزيداً من التقدم في مواضيعها المتنوعة من خلال النقد والحوار والمناقشة الجادة والفكر الجديد الذي يواكب عصر التقدم والعلم .

احمد العلي

حماة ـ سوريا

■■■

جمعية الجنوب والخليج العربي

الأخ الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

لقد طالعت في العدد ٣٥٣ نيسان (ابريل) ١٩٨٨ ، استطلاع جمعية الجنوب والخليج العربي ، شمعة وضاءة في طريق الخير ، وهذا الاستطلاع يعد منارا لطريق الخير ، وأساسا راسخا من أسس الرقي الاجتماعي والتطور الحضاري الذي عملت من أجله وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في الكويت . فمزيدا من

على هذه الصفحات .. ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

المساعدة والدفع في طريق الخير لهؤلاء الشبان ، وأشكر الدور العظيم الذي ساهمت به مجلة العربي في ابراز الدور الإنساني والتربوي الذي يدعم مساعي الخير الحديثة التي قدمتها ومازالت تقدمها هذه الجمعية ، وأشكر كل من ساهم في إبراز أو بالأحرى بتسليط الأضواء على هذا النحو من منهجية تقديم العون العلمي وكل المساعي الخيرة لأبناء الجنوب الذين هم بأمس الحاجة الى هذا النوع من الدفع في عجلة الخير والعلم في آن واحد .

الدكتور حكم المأمون
دمشق ـ الجمهورية السورية

صاحب الأغاني

الدكتور رئيس التحرير المحترم ،

يطيب لي أن أبعث بجزيل الشكر وبالغ التقدير لكل العاملين على إصدار « مجلة العربي » التي تحمل إلينا منابع الفكر وأصول العلم والمعرفة .

ففي كل شهر تطل علينا مجلتكم الرائدة الرائعة ، تحمل بين طياتها أجمل المعاني ، وخلاصة العلوم، وفرائد الأدب ، وكل ما هو جديد في شتى بقاع الأرض عن أحدث الاكتشافات العلمية الحديثة .

لقد طالعت في « حوار القراء » عدد رقم ٣٥٣ ابريل ١٩٨٨ طلب أحد القراء نبذة عن كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني الذي ينتهي نسبه إلى عبدمناف الأموي القرشي . وقد ولد سنة أربع وثمانين ومائتين هجرية وتوفى في ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، فكان عمره نحو اثنين وسبعين سنة ، وكان أبو الفرج الاصفهاني عالما بأيام الناس والإنسان والسير ، وكان شاعرا محسنا ، والغالب عليه رواية الأخبار والآداب . وله مصنفات كثيرة . وكان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والأحاديث المسندة والنسب والآثار ما لم يجاره فيه أحد أو يكون أحفظ منه ، ولقد كان يحفظ دون ذلك من الطب والنجوم والنحو واللغة والخرافات وآلة المنادمة ، مثل علم الجوارح والبيطرة والأشربة . أما مؤلفاته فهي كتاب « الأغاني الكبير » ، « ومقاتل الطالبين » ، « وأخبار الإماء والشعراء والحانات والديارات ، والقيان ، وآداب الغرباء ، ونسب بني عبدشمس ، والتعديل والانتصاف في مآثر العرب ، وجهرة النسب ، وأيام العرب ، وكتاب الغلمان المغنين » .

حوار القراء

وقد قال ابن خلدون عن كتاب الأغاني : لعمري إنه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلم .

محسن محمد الأنور شفيق
حلوان ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية

■■■

القرآن الكريم والاعجاز العلمي

أتابع بشغف أعداد مجلة « العربي » التي تصدر كل شهر ، حيث تحتوي في كل شهر على وجبة ثقافية متنوعة ، تفيد القارىء المثقف الواعي والعادي في الوطن العربي الكبير من المحيط الى الخليج ، وتشدني موضوعاتها ، وخاصة ما يتعلق بأمور الثقافة وإنعاش العقل العربي ، وأود أن أشير الى ملاحظة مهمة وهي ان كثيرا من أبناء الوطن العربي يودون لو تقوم المجلة بنشر أبحاث عن القرآن الكريم والاعجاز العلمي فيه .

القارئة : ماجدة شيخ العرب
الصديق ـ دولة قطر

العربي

ـ نشكرك على رسالتك ، ونود أن نطمئنك على أن المجلة تعمل دائما على نشر كل ما هو مفيد ومثمر وجديد في موضوع الاعجاز القرآني وغيره من موضوعات متعلقة بأمور البحث الديني ، ولو تابعت الكتابات التي تقدمها المجلة لوجدت أننا نغطي هذا الجانب بما لا يخل بتوازن الموضوعات ، وبخاصة كتابات حسين أحمد أمين عن البيان في أسباب نزول القرآن ، والمقالات التي يكتبها الدكتور عبدالعزيز كامل ، والدكتور احمد كمال ابو المجد ، ومحمد عمارة ، وغيرهم . والمجلة ترحب بكل ما يرد اليها من مقالات بهذا الشأن .

■■■

التقاليد والتقليد

إن مناقشة موضوع التقاليد شيء جيد ، فهذا الموضوع عبارة عن مناقشة تراث شعب أو حضارة أو منهجها ، اعتمد في وقت من الأوقات على العادات السائدة في ذلك العصر ، فرأينا أن من التقاليد التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا ، ونعتز بها ، ونفتخر أن أجدادنا ورثونا إياها ، تلك الطبائع الجيدة التي كانت تعتمد على مروءة الشخص وكرمه وعقله وشجاعته ، ونصرته للمظلوم ، والوقوف في وجه الظالم . ولقد كانت هناك عادات أخرى سيئة ، تلاشت بظهور الاسلام ، فقد جاء منهج الاسلام ولم يقم على محاربة التقاليد الحسنة الجيدة النافعة للمجتمع ، فخيركم في الجاهلية خيركم في الاسلام ، لكنه حارب التقاليد السيئة ، ونظرا لفلسفة الدين الرائعة للحقائق الاجتماعية السائدة تمسك الناس حتى يومنا هذا بهذه الأمور

الحسنة . لكننا مع شديد الأسف نرى أن بعضا من المسلمين بدءوا يقلدون الغرب بصرعاتهم ونزواتهم ، ويدعون أن هذا هو التقدم . ونحن نقول : إن التقدم هو تقدم العلم ، لا تقدم السلب والقتل ، فالذي يقلده شبابنا من الصرعات الغربية المنبوذة في المجتمع الغربي نفسه ، مثل تقليد بعض العصابات المعروفة بإطلاق أفرادها لشعورهم ، وهم من يطلق عليهم اسم (الباكي) ، وهؤلاء الأشخاص غير مرغوب فيهم في مجتمعهم على الأخص ومن كل الطبقات . والشيء المخجل أن نرى أن بعض هؤلاء المقلدين يتفاخرون بتقليدهم لهذه الزمر المنبوذة بطريقة تناولها لطعامها ولباسها ، بل وحتى بطريقة تعاملها مع الآخرين ،وقد لمست ذلك من خلال مشاهدات عديدة لمجموعات تقلد أولئك في بعض المناطق العربية التي زرتها . إن الحقيقة القاسية هي ما نشاهده من هذه الصرعات التي يحاول شبابنا تقليدها دون إدراك مدى خطورتها ، وعاقبة استفحالها بين أفراد مجتمعنا . وهذه الظاهرة تتطلب مواجهة وتفهما من الأسرة ووسائل الاعلام ومناهج التربية . لإرشاد هؤلاء الشباب الى طريق التقليد المفيد كأن يقلدوا الآخرين بمناهجهم العلمية المتقدمة . ووسائل التطور المادية المعروفة . تقليدا يساهم في توسيع المدارك والمعارف العلمية ويسهل عليهم هضمها حتى تعود الفائدة عليهم وعلى أبناء الأمة العربية كافة .

القارىء : عبدالقادر أيوب

حلب ـ الجمهورية العربية السورية

■■■

اقتــــراح للمناقشة

أود أن أطرح على الأستاذ فهمي هويدي قضية ، ربما يكون لها صدى في باب « للمناقشة » ، على اعتبار أنه من الكتاب الاسلاميين المعاصرين الذين يسهمون بقضايا الاسلام والعصر ، ولعله يعطينا فكرة عامة شاملة عن الغاية من ترك المحرمات التي نهى عنها القرآن الكريم . وما هي الغاية من اجتناب المحرمات ، خصوصا إذا كانت النظرة إليها من زاوية علمية .

القارىء علي هادي سعيد منصور

تريم محافظة حضرموت

■■■

قــواعــد النـشـر في المجـلـة

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

الرجاء التفضل بتزويدي بشروط النشر بمجلتكم الغراء .

د . طلعت مراد بدر

جامعة ناصر ـ قسم الفلسفة

طرابلس ـ ليبيا

العربي

ترحب المجلة بجميع الإخوة الذين لديهم الرغبة في النشر بالمجلة ، وتدعو كل من لديه إنتاج للنشر أن يبادر بإرساله إليها ، فهي منكم وإليكم . أما بخصوص قواعد النشر الخاصة بالمجلة ، فهي تتمثل في أن يكون الموضوع المرسل خاصا

حوار القراء

بالعربي فقط ، لم يسبق نشره أو إرساله إلى أي جهة نشر أخرى ، كما يفترض أن يراعي الكاتب طبيعة المجلة الثقافية ، وأن يلتزم بأصول النشر وقواعده ، وأن يكون المقال في حدود ألف كلمة ، كما أن المواد المرسلة تعرض على لجنة فنية متخصصة ، تحدد مدى صلاحية المقال للنشر ، والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

■■■

حول مقال ثلاثة مشاريع أوروبية

نشرت العربي مقالا للاستاذ سعد شعبان في عدد مايو ١٩٨٨ بعنوان « ثلاثة مشاريع أوربية لغزو الفضاء » ، وقد وردت بعض المعلومات فجذبت انتباهي لعدم دقتها ، وأود الاشارة إليها ، فقد جاء في المقال : أن اريان (٥) هو تطوير للطرازات القائمة حاليا التي كان آخرها اريان (٣) ، والواقع أن اريان (٥) هو تطوير لاريان (٤) الذي هو آخر طرازات الصاروخ الأوربي ، وقد بدأ بتطويره منذ عام ١٩٨٢ ، وهو جاهز للاطلاق منذ عام ١٩٨٦ . وكان من المفروض أن يطلق في نهاية اكتوبر ١٩٨٦ بمهمة جديدة ، إلا أن الفشل الذي أصاب اريان (٢) عند إطلاقه في ٣١ مارس ١٩٨٦ في محاولة لايصال القمر « انتلسات » إلى مداره أدى إلى التريث في ادخال اريان (٤) للخدمة . أضف إلى ذلك أن طول اريان (٥) هو ٥٢ مترا ، وليس ٤٢ مترا كما ورد في المقال ، وهو بذلك أقصر من العملاق اريان (٤) وطوله ٥٨,٤ مترا .

طاهر سكر القيسي ـ هولندا

■■■

ردود قصيرة

● القاريء علي مجبل المضحي من محافظة الرقة بسوريا ، يود لو قامت المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة والتعريف به .

● القاريء سمير سلامة ابراهيم من الاسكندرية بجمهورية مصر العربية يقول : إنه قد أدهشني استطلاع ربع الكيلاني في عدد ابريل ١٩٨٨ ، عدد رقم ٣٥٣ عن جمعية الجنوب والخليج العربي « شمعة وضاءة في طريق الخير » .

وهذه احدى منجزات الكويت الكثيرة ، ومن الأعمال الانسانية التي تقوم بها الجمعية في خدمة الانسان العربي ، وأتمنى أن تضم الجمعية تحت مظلاتها جميع أبناء الوطن العربي .

● القاريء علي حسين الحدادي ، من الطائف ، بالمملكة العربية السعودية ، يسأل : هل من الممكن القيام باستطلاع عن دولة ماليزيا الاسلامية وسنغافورة ؟

● القاريء محمد بوزيدي من مراكش ، المملكة المغربية ، يود لو ان المجلة قامت بعمل استطلاعات عن بعض البلدان الافريقية ، وبخاصة تلك التي تضم

عددا لا بأس به من المسلمين الذين لا تتوافر المعلومات الدقيقة عن أساليب حياتهم وتقاليد معيشتهم . ونحب أن نقول للقارىء العزيز : إن المجلة قد قامت بعمل استطلاعات عن القارة السمراء ، تجدها في الأعداد الأخيرة للمجلة ، وهناك الكثير في خطة الاستطلاعات ستجدها في القريب العاجل .

* القارىء صادق عبدالباقي من العراق يقترح أن يوضع باب خاص بمجالات علم الفضاء وأسراره ، لما فيه من فوائد ومعرفة ، كما يود لو أن المجلة قامت باستطلاع عن محافظة النجف بالجمهورية العراقية .

* القارىء مختار بن محمد ، نواكشوط ، جمهورية موريتانيا الاسلامية ، يقول : إنه يكتب الينا معبرا عن الرغبة العارمة لدى كل الموريتانيين واهتمامهم بتوافر مجلة « العربي » ، ورغبتهم في وجود موزع معتمد يقوم بتوزيعها ، وهم معجبون بالدور الريادي الذي تقوم العربي به في نشر الثقافة والمعرفة .

ونحن بدورنا نعلن للقارىء العزيز وكل القراء الذين لا تصلهم المجلة أن الصعوبة في التوزيع ، وأن هناك تفهما ورغبة شديدة من كل المسؤولين في الدولة لوصول المجلة لكل القراء بالسعر والوقت المناسبين . وسوف تزول في الأشهر القادمة مثل هذه العقبات بفضل تضافر جميع الجهود . وما هدف المجلة سوى التواصل القومي والوطني بين جميع أبناء الوطن العربي ، واتساع آفاق المعرفة والعلم والتقدم لأبناء الأمة العربية .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

* تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .
* هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .
* ميزانها الأساسي في اختيار المترجمات هو الجديد والهام .

* تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير: د . سليمان ابراهيم العسكري

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت
سبتمبر ١٩٨٨ م

الموسيقا الأندلسية المغربية
فنون الأداء

تأليف
عبد العزيز بن عبد الجليل

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٢٨

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص.ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية والعلمية
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي
  أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية
  ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية
  جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية
- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد عن ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم
- الاشتراك السنوي بالمجلة
  أ) داخل الكويت ٣ د.ك للأفراد ١٢ د.ك للمؤسسات
  ب) الدول العربية [illegible] د.ك للأفراد [illegible] د.ك للمؤسسات
  جـ) الدول الاجنبية [illegible] دولاراً للأفراد [illegible] دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص.ب: ١٧٠٧٣ ، الخالدية - الكويت ، الرمز البريدي 72451

تلفون جامعة الكويت - الشويخ
هاتف [illegible]

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها
جامعة
الكويت

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
للوزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية ـ جامعة الكويت ص.ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت ـ هاتف: ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧-٢٥٤٩٣٨٧ ـ تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب ـ مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ ـ هاتف ٨١٧٦٨٩ ـ ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على:

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء.

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد.

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢٢٨ أول سبتمبر ١٩٨٨

سيدة الفجر

تأليف : اليخاندور كاسونا
ترجمة وتقديم : محمد العشيري
مراجعة : د. صلاح فضل

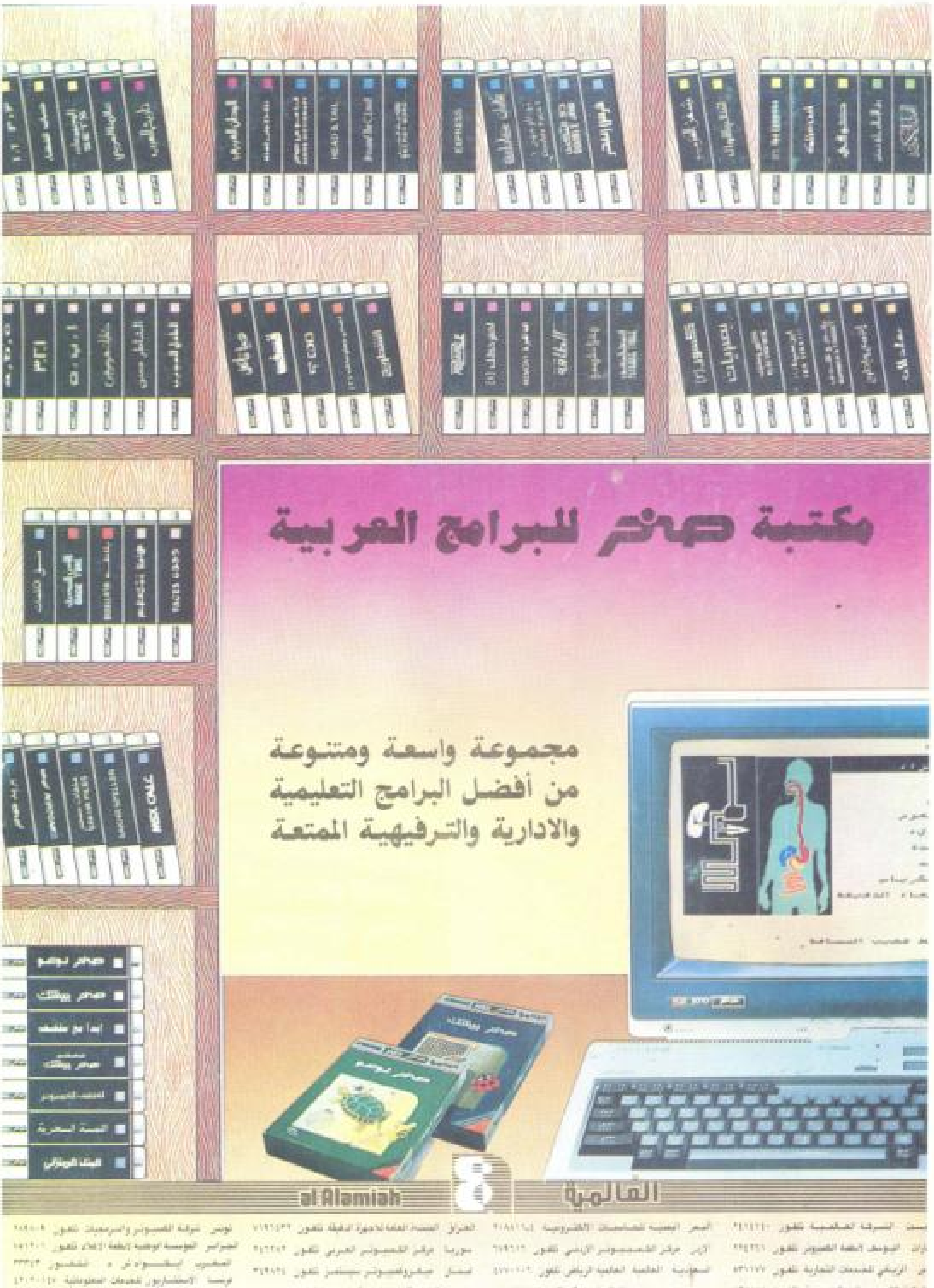

مكتبة صخر للبرامج العربية
مجموعة واسعة ومتنوعة
من أفضل البرامج التعليمية
والادارية والترفيهية الممتعة
al Alamiah
العالمية

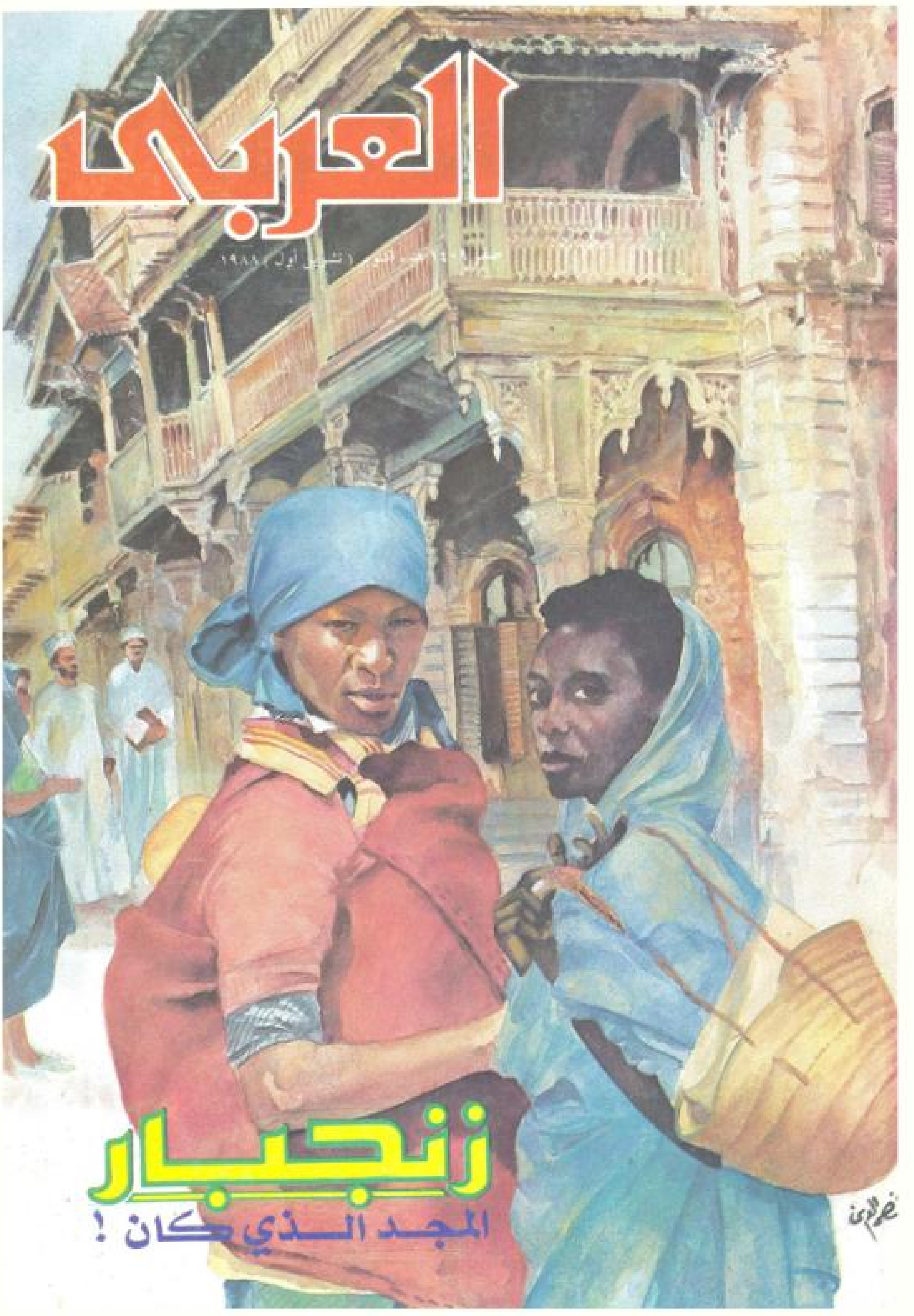
العربي
زنجبار
المجد الذي كان!

اليخوت الطويلة: الكلاسيكيات تحمّل وثبات.

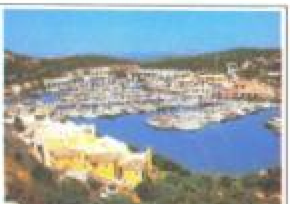

ساعات رولكس صبماريز مكفولة ضدّ الماء حتى عمق ٣٠٠ متر. وهي من الذهب عيار ١٨ قيراطاً، أو من الفولاذ والذهب.

قيادة يخت "مكسي" طويل حلم يراود جميع أصحاب اليخوت من الفئة الممتازة. فمهمة الربان تتطلب تنفيذ مناورات الملاحة بدقة لا تتعدى قيد شعرة. وما ذلك بعمل سهل، فكل ما يتعلق باليخت الطويل له شأن كبير.

وقيادة يخت طويل بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة لا تثير الإعجاب فحسب، بل انها محفوفة بالمخاطر. فالجنّو وحدها تزن ٢٥٠ باوندا، والحمل الذي تتعرض له المعدات، كل بمفردها، انما يبلغ حدّاً هائلاً. فلا غرابة، أن تنهار تحت تأثير الإجهاد فيتأذى بعض أفراد طاقم اليخت.

سرعة البديهة مقترنة مع روح العمل الجماعي أمران حيويان لقيادة هذه اليخوت العملاقة عند السباق.

ومهما كان لسباق الزوارق الطويلة من إعتبار، فإنه لا يفوق مكانة سباق اليخوت الطويلة "ايكانيا" لبطولة العالم عندما بلغ أوجه في المرحلة الثانية وانتهى بجائزة كأس رولكس التي منحت في "بورتو سيرفو"، سردينيا.

تصميم كلاسيكي يعمل ضمن نطاق دقيق من القدرة والتحمّل... وهي ميزات يعطيها المشتركون في سباق اليخوت الطويلة حق قدرها، وكذلك صانعو ساعة كلاسيكية دقيقة رولكس من جنيف.

ROLEX

رولكس

العدد ٣٥٩ السنة الحادية والثلاثون أكتوبر ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 ـ الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقيًا : "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فاكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI

Issue No. 359 Oct. 1988, P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الإعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت	٢٥٠ فلسًا	تونس	٤٠٠ مليم	سوريا	١٠ ليرات
العراق	٢٥٠ فلسًا	الجزائر	٤ دنانير	الإمارات	٥ دراهم
الأردن	٢٠٠ فلس	السعودية	٥ ريالات	المغرب	٣ دراهم
البحرين	٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي	٣ ريالات	ليبيا	٣٥٠ درهمًا
اليمن الجنوبي	٢٥٠ فلسًا	قطر	٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني	
مصر	٣٠ قرشًا	سلطنة عمان	ربع ريال	فرنسا	١٥ فرنكًا
السودان	٢٠ قرشًا	لبنان	١٥ ليرة	أميركا	دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : مستقبل المشاهدة وثورة الترفيه
- د . محمد الرميحي ٨
■ الخدمة « الاسرائيلية » السرية !
- أمين هويدي ١٨

عروبة واسلام :

■ البيان في أسباب نزول القرآن
- حسين أحمد أمين ٣٦
■ من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين
- د . راشد المبارك ١١٤

استطلاعات مصورة :

■ من شيان إلى سشوان مولود واحد يكفي !
- سليمان مظهر ٦٨
■ زنجبار أندلس افريقيا !
- محمود عبدالوهاب ١٣٢

طب وعلوم :

■ لحوم صناعية من الأوراق النباتية
- فوزي عبدالقادر الفيشاوي ٣٢
■ الصدفة والعلم !
- د . محمد عبدالرحمن ٥٦
■ أمراض نسائية غامضة : آلام الحوض عند المرأة
- د . علي مبارك ١٠٤
■ الجديد في العلم والطب
- إعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٨
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠
■ خطأ الحساب وتدمير العالم
- بسام اسخيطة ١٥٢

أدب وفنون :

■ الوقت والطائر الفلسطيني (قصيدة)
- محمد محمد السناطي ٢٤
■ قراءة نقدية لكتاب : «وسمية تخرج من البحر»
- سمر روحي الفيصل ٣٩
■ حديث حزين مع رسام أعمى
- د . أحمد النعمان ٩٠

حديث حزين مع رسام أعمى ص ٩٠

من شيان إلى سشوان مولود واحد يكفي !

ص ٦٨

■ **القصيدة**

- احمد بلحاج آية وارهام ٩٦

■ **الاحتفال القديم (قصة)**

- ترجمة : محمد برادة ١٤٨

■ **جمال العربية :**

- صفحة لغة : جذب .. لا شجب
- د . حسن عباس ١٧٦
- صفحة شعر : هكذا غنى الآباء : ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل . للطغرائي .. ١٧٨

منتدى العربي :

■ **قضية : فكر السادة وثقافة التابعين**

- د . مصطفى النشار ١٠٩

■ **تعقيب : كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم ؟**

- حيدر عمر ١١٢

تربية وعلم نفس :

■ **التعليم عن بُعد .. لتعميم التربية في سنة ٢٠٠٠**

- د . مصطفى المصمودي ٤٣

■ **الوسواس القهري له علاج !**

- د . درى حسن عزت ٦٢

وجها لوجه

توفيق يوسف عواد

.... ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة نتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

فلسفة

■ لماذا نكتب ؟
ـ د . حامد الطاهر ٢٦

تاريخ وتراث واشخاص :

■ عندما يحلم الجياع
ـ د . محمد المنسي قنديل ٤٩
■ وجها لوجه : توفيق يوسف عواد
ـ جهاد فاضل ٩٧
■ ايزادورا الفراشة الحزينة الراقصة
ـ منير نصيف ١٢٢

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : لا تسأل عن السعر !
ـ د . ياسر سليمان ١٨١
■ من المكتبة العربية : السخرية السياسية العربية
ـ شريف الراس ١٨٨
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٦
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٦) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢
■ الكلمات المتقاطعة ٢٠٧

صورة الغلاف

زنجبار .. بر الزنج .. عاصمة الممالك العربية في أفريقيا أقام العرب هناك حضارة زاهرة ولكنها لم تدم طويلا ، وما زالت بصماتهم هناك في كل نواحي الحياة .

(طالع الاستطلاع ص ١٣٢)

مجلة الأسرة والمجتمع

■ الرضاعة واليوجا
ـ د . أمل علي المخزومي ١٦٢
■ الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة .
ـ يعقوب الشاروني ... ١٦٦
■ هوبي ١٧٠
■ طبيب الأسرة : طهي الطعام في حساب الربح والخسارة .
ـ د . حسن فريد أبوغزالة ١٧٢
■ مساحة ود : عودة لأيام الصبا
ـ صلاح حزين ١٧٥

عزيزي القارئ

لقد أصبح أحد هموم العمل الصحفي الثقافي العربي هو « السرقات الأدبية » ، ولقد كانت هذه القضية قضية القضايا في الأعمال الأدبية والثقافية منذ فترة طويلة ، ولا تخلو منها مطبوعة ثقافية في عالم اليوم ، لكن بعضنا نحن العرب قد أضاف إليها فنونا جديدة . منها مثلا أن يرسل الكاتب عمله الثقافي إلى أكثر من مجلة دون أن يعلم أحدا بذلك ، وعندما يظهر مثل هذا العمل في أكثر من وسيلة نشر تتوالى عشرات الرسائل من القراء الأعزاء تنبه هذه المطبوعة أو تلك لما تم اقترافه ، ونحن كعاملين في هذا المجال لا يمكن لنا انسانيا أن نحصر كل ما يكتب بالعربية حتى نتجنب التكرار . ويبقى الأمر متروكا لضمير الكاتبة أو الكاتب صاحب العمل ، ويبدو أن البعض قد أصبح ينقصه هذا الضمير !

وآخر الطرق التي اكتشفناها في « العربي » تتمثل في أن ينقل أحد الكتاب موضوعا كتبه منذ سنوات لمجلة أخرى ، ثم يحور فيه بعض التحوير ويرسله إلينا ، وسواء اكتشفنا الأمر أو نبهنا إليه القراء الاعزاء فان الكاتب عند مواجهته بذلك يبادر الى انتحال أعذار وحجج أكثرها شيوعا ضعف الذاكرة وداء النسيان !.

ما نريد أن نقوله تعليقا على مثل هذه التصرفات أنها تفتقر الى الوازع الشخصي الأخلاقي ، وتستهين بعقول الآخرين ، وأنها مهما تخفت فإنه سيتم كشفها إن عاجلا أو آجلا !

ولقد كانت لنا قاعدة ما زلنا نتبعها في معالجتنا لهذا الأمر وهي أن نشعر الكاتب الذي نتأكد من إتيانه مثل هذا التصرف ، بعدم رغبتنا في التعاون معه . ثم نرسل نسخة من المستندات التي توصلنا اليها إلى المجلات الزميلة كي تأخذ حذرها . وباعتقادنا أنه لا يوجد أي سبب يجعل إنسانا يحمل شرف الكلمة والقلم لأن يتحايل بهذه الطريقة إلا لضعف وخلل في ذاته .

فلو كتب للمجلة أو المطبوعة بأن مقاله أو مادته الابداعية قد نشرت من قبل في مجلة محدودة التوزيع ويريد أن يعيد نشرها في مجلة واسعة الانتشار لكان ذلك أكثر احتراما ، وأقرب إلى الفهم ، ويصبح الأمر بعد ذلك قابلا للاتفاق أو الاختلاف ، وللقبول أو الرفض ، ولكن أن يستغل الانسان ثقة الآخرين ويغفل الاشارة إلى سبق النشر أو تكرار الارسال إلى أكثر من جهة ، فان ذلك أقرب إلى خيانة الأمانة !

وفي تقديرنا أنه ليس هناك دواء ناجع لمثل هذا الأمر - على ما يبدو - إلا بنشر وقائع واسماء لردع كل من يأتي بمثل هذا العمل أمام الملأ ، وقد اتخذنا قراراً بذلك في مجلة « العربي » ، ونرجو أن تسايرنا فيه بقية المجلات العربية الأخرى .

وكل ما نرجوه هو أن ترتقي الكتابة العربية من حيث المضمون ، ومن حيث السلوك إلى أفضل وأرقى مستوى ، مدركين أن الشكل والأسلوب هما تعبير عن المضمون ، ولا يستقيم أبدا الظل والعود أعوج . « ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

مستقبل المشاهدة وثورة الترفيه

أكثر من ندوة علمية حضرتها فى السنتين الاخيرتين كان موضوعها واحداً هو مستقبل (التلفزيون) وتأثيراته على الانسان في كوكبنا .

قد لا يستطيع بعضنا أن يتخيل الآثار الضخمة المترتبة على وجود هذا الجهاز الصغير الذى يقبع فى غاية البراءة فى أحد أركان المنزل ! إلا أن ماشاهدته وسمعته من بحوث تجعلنى أقول إن هناك ثورة بالمعنى الحقيقى ، وعلى المستوى العالمى ، تقودها أجهزة الاتصال الجماهيري وعلى الأخص (التلفزيون) ، هذه الثورة تتداخل فى نسيج المجتمع ككل اقتصاديا وسياسياً وتقنياً ، وهى ليست خاصة بمجتمع دون آخر ، إنها عالمية يقود التأثير فيها قوى عالمية أيضاً .

الإشكالية الأولى التى تصدمنا من البداية ، أن تطور هذا الجهاز (التلفزيون) غير قابل للتوقعات المعقولة فى المدى المتوسط ، فقد قفز

قفزات متلاحقة من التطور تجعل أياً منا ـ مهما خصب خياله ـ يقف عاجزاً عن توقع ماسيحدث في المستقبل .

لقد أصبح تصور مستقبل الاتصال الجماهيرى فيه مخاطرة بذاته . « جريفس » أحد مخرجى السينما الصامتة قال فى العشرينيات من هذا القرن : (إننى أعتقد أنه بعد مائة عام من الآن سوف نشاهد عرضاً للأفلام السينمائية في الطائرات) كان يتحدث فى سنة ١٩٢٥ ، لذلك فإن توقعه كان يفترض أن يحدث فى سنة ٢٠٢٥ .

وفى سنة ١٩٣٥ عندما بدأت التجارب الاولى على (التلفزيون) صدر كتيب فى بريطانيا بعنوان (ماذا نفعل بالإذاعة البريطانية ؟) ، فى ذلك الكتيب توقع أن يستخدم التلفزيون في المنازل التى بها عدة حجرات ، ولن يستخدمه أكثر من ١٠٪ من السكان بشكل دائم .

وفى سنة ١٩٧٦ ـ قبل اثنتى عشرة سنة خلت ـ كتبت (مؤسسة التلفزيون المستقلة البريطانية) لإحدى لجان البرلمان البريطانى التى تدرس مستقبل التلفزيون فى بريطانيا . كتبت تقول : (ان الفيديو لن يهتم به إلا عدد قليل من الناس الذين يقدرون على الاختيار ويستطيعون دفع ثمن ذلك الاختيار) .

لقد كانت كل تلك التوقعات السابقة خاطئة تماماً .

لقد شاهد العالم عروضاً سينمائية في الطائرات قبل أن تمضى ستون عاماً على توقع جريفس المذكور .

وبعد خمسين عاماً فقط (في سنة ١٩٨٥) كان عدد مشاهدى التلفزيون بليونين ونصف بليون من الناس فى مائة واثنين وستين بلداً في العالم ، وفى بريطانيا وحدها فإن ٩٨٪ من المنازل توجد بها أجهزة تلفزيون ، ونصفها على الأقل بها أكثر من جهاز .

تلك بعض الأمثلة على خطورة التوقعات فى مثل هذا المجال السريع التطور : الاتصال الجماهيرى ، أو الاعلام ، أو بالتحديد التلفزيون .

الصنـدوق العجيـب :

لو عدنا من العام إلى الخاص فهل سألت نفسك كم ساعة تشاهد فيها برامج التلفزيون فى اليوم الواحد ؟

فى حقيقة الأمر ، مهما كان عملك أو مستواك الثقافى أو دخلك المادى فأنت فى بعض الوقت أسير هذا الجهاز الأخاذ .

قد يطول هذا الوقت أو يقصر ، قد تحب أو لاتحب هذا البرنامج أو ذاك ، ولكنك بالتأكيد فى وقت ما تجلس أمام هذا الجهاز .

فى البلدان التى توجد بها إحصائيات نعرف على وجه اليقين متوسط الساعات التى يقضيها المواطن أمام التلفزيون ، ففى اليابان يشاهد المواطن اليابانى التلفزيون مدة ثمانى ساعات فى المتوسط ، وفى الولايات المتحدة أربع ساعات ، وفى بريطانيا خمس ساعات .

فى إحدى الدراسات أن البريطانيين يقضون أمام هذا (الصندوق) وقتاً أطول مما يقضونه فى أى نشاط آخر عدا العمل والنوم !

وإذا استمر هذا التوجه فإن ساعات مشاهدة التلفزيون فى كثير من دول العالم سوف تزيد عن ساعات العمل . ويتحدث الآن بعض الكتاب ـ بجانب الحديث عن الإدمان على المخدرات أو الادمان على الكحول ـ عن ظاهرة اجتماعية جديدة هى « الادمان التلفزيونى » .

باختصار . . هذا الجهاز الصغير ـ القوى الأثر ـ بالمعنى المجازى ، يضع جدول أعمال الشعوب اليوم . . !

ومثل أى اجتماع تذهب إليه فأنت تناقش فقط الأعمال ، وبالتالى فإن من يضع جدول الاعمال يتحكم في مسيرة النقاش وفى نتائجه أيضا ، كذلك فإن التلفزيون هو الذى يضع جدول الأعمال للشعب .

كيف يكون هذا الجهاز مؤثراً بهذه القوة ؟ يقول البعض ـ عن حق أو عن غير حق ـ إن التلفزيون أرجع الانسان الى محيطه الطبيعى ، بعد أن أبعدته الكلمة المطبوعة (الجريدة والمجلة والكتاب) عن ذلك المحيط ، وجعلته يستخدم حاسة النظر فقط .

فى مشاهدة التلفزيون يستخدم الانسان جميع حواسه ، ويتصالح مع محيطه ، ويتحرر من القيود التى تفرضها عليه طبيعة الوسيلة المطبوعة . هكذا يقول البعض ، بينما يتخوف غيرهم من وجود هذا الجهاز فى دولته ، لخطورته .

أذكر أن أحد الهنود المتخصصين فى وسائل الإعلام رد على انتقاد البعض للدولة الهندية بأن أجهزة التلفزيون بها قليلة نسبياً فقال : « أنا سعيد بأن تكون نسبة مشاهدى التلفزيون فى الهند بهذا الحجم (وقتها ذكر رقم ٧٪ فقط) لأن الرسالة الاعلامية غير جاهزة » وهو يعنى أن محتوى مايبثه التلفزيون الهندى أو غيره فى العالم الثالث هو محتوى مستورد وغير منتج محلياً ، فالأفضل ـ من وجهة نظره ـ ألا يشاهد كثيرون من مواطنيه هذا المحتوى المستورد . . !

ـ ثـورة التقنيـــة :

البسطاء والسذج فقط سوف يغامرون بإعطاء تصورات لمستقبل هذه الصناعة ، والمخاوف التي يبديها البعض ـ خاصة في العالم الثالث ـ أمام تطور هذا الجهاز ، يجب أن تزداد إذا عرفنا سرعة التطور في التقنية . . . Hard Ware وفي البرامج Soft Ware .

وأكثر من ذلك ـ لأول مرة في تاريخ الانسان ـ تقود التقنية حاجات البشر وتخلق حاجات جديدة ، بدلاً من أن يكون العكس . وكان السائد قبل انقضاء ثُلث هذا القرن ، أن الحاجات الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية هي التي تقود تطور التقنية .

في موضوع التلفزيون وما يشابهه من أجهزة ، نحن مواجهون بتطورات قد تغير حتى سلوك البشر .

على سبيل المثال فإن المعروف أن القنوات الهوائية الخاصة للبث التلفزيوني محدودة ، وهي موزعة عالمياً من خلال اتفاقيات دولية ، لذلك فإن هذه الصناعة تطور ما يسمى « بالتلفزيون السلكي » .Cable T.V ، هذه التقنية الحديثة وتطوراتها تستطيع أن تحمل الى منزلك أكثر من عشرين محطة ـ أي أن خيارك في المشاهدة يتسع بشكل كبير . واليوم هناك مئات المحطات للتلفزيون السلكي في كل من الولايات المتحدة واليابان وكندا وبلاد أخرى ، وهناك معركة سياسية دائرة في بريطانيا حول هذا الموضوع الآن . هل ندخل التلفزيون السلكي على نطاق واسع أم لا ؟ .

خطورة هذه التقنية الجديدة بجانب القنوات الكثيرة التي يمكن للمشاهد الحصول عليها ـ وتعددها غير المحدود ، أن المشاهد يستطيع أن يقوم بنشاط تبادلي كما يسمى ، فليس باستطاعته استقبال الرسالة التلفزيونية فقط ، بل إرسال رسالة إلى المحطة ، أي أن هناك إمكانية مشاركة المواطن وهو جالس مستريح على مقعد في صالون منزله .

نتائج هذه الإمكانية غير متخيلة وآثارها غير محدودة ، على المجتمع والعلاقات السياسية وحتى التجارة والمضاربة .

فيستطيع المشاهد مثلاً أن يدلي برأيه في موضوع سياسي (هذه الطريقة مستخدمة الكترونياً الآن حتى في المحطات الهوائية لعدد محدود من الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول الشمال) .

"الزنابير" تهدد الإنتاج الاعلامي المحلي في دول العالم الثالث !

ويستطيع المشاهد أن يطلب وجبة صغيرة من مطعم أو استئجار سيارة . . الخ من الأعمال ، وقد ظهر الآن مفهوم (التبضع التلفزيونى) نتيجة لتطور هذا النوع من التقنية .

أما التقنية الجديدة الأكثر أهمية ، فهي البث بواسطة الأقمار الصناعية . فمن كان يتصور أن ما جاء في مقال آرثر كلارك البريطانى الذى ظهر في مجلة عالم الراديو سنة ١٩٤٥ ـ بينما الصواريخ الألمانية V 2 تتساقط على لندن ـ يمكن أن يتحقق ؟ فقد قال كلارك في هذا المقال :

« لو أن هذه الصواريخ تطلق أقمارا صناعية على ارتفاع محدد فى الفضاء فإن مسار طيرانهم يمكن أن يبقى على نفس البعد في كل الوقت حول الكرة الأرضية . ومثل هذه الأقمار يمكن أن ترسل إشارات راديو » .

لقد كان ذلك المقال هو الفكرة الأولى للأقمار الصناعية التى أصبحت لاتستخدم اليوم لإرسال إشارات الراديو فقط ، بل المكالمات الهاتفية أيضاً ، وكذلك الإرسال التلفزيونى ، والذى يتجاوز ببساطة الحدود الاقليمية ، فلم يعد هناك بعد الأقمار الصناعية التلفزيونية عزلة حدودية أو ثقافية .

أصبحت الأقمار الصناعية اليوم كالزنابير ، تطوف حول الأرض ، وترسل أشكالاً من الرسائل دون أن تعبأ بأى مظهر من مظاهر التغير أو سوء الأحوال الجوية . فإن كنت تحت « آثار أقدام » هذا القمر أو ذاك ولديك أجهزة الاستقبال اللازمة ، فلن تنجو من تأثيره .

الأقمار الصناعية نفسها تطورت من حيث غزارة إرسالها وصغر الأجهزة اللاقطة لإشاراتها .

فأنت لاتحتاج الى صحن كبير للاستقبال ، يربض كالجمل أمام منزلك أو على سطحه ، فقد أصبحت صحون الالتقاط هذه صغيرة ورخيصة ، وأصبح من المتوقع في بداية التسعينيات (وهى ليست بعيدة منا) ، أن تستطيع شراء جهاز استقبال تضعه فى حديقة منزلك أو على سطحه أو فى شرفته، لا يكون أكبر بكثير من طبق خزفى متوسط الحجم فى منزلك (ليس أكبر من حجم قطة صغيرة) ، وتستطيع فوق ذلك أن تغير اتجاهه من قمر صناعى الى آخر فى غاية السهولة .

لقد كانت المشكلة في استخدام البث التلفزيونى من الأقمار الصناعية الى وقت متأخر هي مشكلة التمويل ، ولكن الاعلان حل هذه المشكلة . بما أن التوجه الى الانفتاح الاقتصادى هو كما يتصور البعض الحكمة السائدة

أو التي ستسود في المستقبل القريب . . فإن السباق الاعلانى لن يتوقف ، والتلفزيون هو المكان الأفضل والأنسب الذى يعشقه الاعلان . ونحن فى المنطقة العربية لن نكون بعيداً عن هجوم (الزنابير) . . الأقمار الصناعية .

التطور التقنى الثالث هو « الفيديو كاسيت » الذى كان أهم علامة مميزة له هو انخفاض ثمنه خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة الى أكثر من ٧٥٪ ، وكذلك انخفاض ثمن أشرطته الجديدة أو المسجلة بأكثر من ذلك بكثير ، وقد تفوق (الفيديو دسك الجديد) على (الفيديو كاسيت القديم) وهذا التطور الأخير يمكنك من استخدام اسطوانة كالاسطوانات التقليدية ، لكنها تبث لك برنامجك المفضل فى سهولة ويسر أكثر من (الفيديو) التقليدى ، فأنت تستطيع أن تبدأ المشاهدة من أى مكان على هذه الاسطوانة - بدلاً من الانتظار الطويل نسبياً - فى لف الشريط التقليدى . إشكالية (الفيديو كاسيت) هذا أنك - حتى الآن - لاتستطيع أن تسجل عليه ، يمكنك فقط أن تشترى البرنامج الذى يعجبك ، أما إمكانياته الأخرى فهى رائعة ، صورة واضحة وصوت عالى النقاوة ، وسطح الدسك يعمل بالليزر فلا يتعرض للتلف . إنما أعظم إنجازات هذه التقنية هى فى مجال التدريب الصناعى والتعليم ، فأنت تستطيع أن تدير اسطوانة فيديو دسك ، عليها برامج « كيف تعتنى بسيارتك ؟ » أو « كيف تتذوق الفنون أو تتعلم اللغات ؟ » . واستخدام الفيديو دسك فى التعليم والتدريب يفتح آفاقاً جديدة .

سيتغير الجمل الى قطة فى غضون سنوات قليلة!

قـــوة التجـــاهـــل :

بقيت قطعة تقنية جديدة لها قوة كبيرة ، هي ذلك الجهاز الصغير (الريموت كنترول) الذى هو على هيئة قطعة تحملها فى يدك وأنت أمام جهاز التلفزيون ، وتغير بها المحطات بإشارة من أصبعك . هذه القطعة أعطت المشاهدين الحرية فيما يشاهدون ، إنها أعظم جهاز يثير خوف المعلنين ، فالمشاهد إذا بدا له أن الاعلان أو حتى البرنامج الذى يعرض على الشاشة لا يعجبه ، يستطيع أن ينتقل - فى لحظة - من محطة الى أخرى . صحيح أن المشاهد كان يمكنه أن يغير القناة دون هذه القطعة السحرية ، لكنه سوف يتجشم عناء التحرك الى مكان الجهاز والقيام والعودة والجلوس من جديد . وقد يتكاسل للقيام بكل ذلك ليغير البرنامج لبضع ثوانٍ لكنه لن يهتم إذا كان يستطيع تغيير القناة بضغطة من أصبعه فقط . . !

واستخدام جهاز التحكم عن بعد أصبح شائعاً ، وهو مع (جهاز الفيديو) يمكن أن يمحو تأثير الاعلان فى البرنامج المسجل . لذلك لجأت بعض شركات الاعلان الى أن يكون لإعلاناتهم تأثيرها إذا مرت أمام عيني المشاهد بسرعة تبلغ عشرة أضعاف سرعتها العادية !

عصـر المعلومـات والشـركـات الـدولـيـة :

البعض يعتقد أن ثورة التقنية فى الاتصال أو الثورة التى يقودها الترفيه هى أهم من الثورة الزراعية فى القرن الثامن عشر ، وأهم من الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، إنها ثورة الاتصال التى يمكن أن تؤدى الى مكاتب من غير أوراق ، وموظفين غير ثابتين ، بل الثورة التى سوف تؤدى الى إسقاط شيء اسمه مكان العمل ، ففى الوقت الذى تستطيع فيه أن تتصل بالآخرين ، تشاهدهم وتتحدث إليهم ، وتعقد اتفاقات معهم . . فلماذا تغادر مكانك ؟

خطورة عصر المعلومات وثورة التقنية فى الاتصالات على عالمنا الثالث ، هى خطورة تفوق الحدس والتصور ، فالتقنية التلفزيونية العالية سوف تأتى فى أثرها شركات عابرة للقارات ، شركات دولية .

هناك شكوى حتى فى الدول المتقدمة من احتكار مؤسسات قليلة لما يشاهده الجمهور ويستمع إليه ويقرؤه ، فهناك فى الولايات المتحدة حوالى ٥٠ مؤسسة تسيطر على كل ما تسمعه أمريكا وتشاهده وتقرؤه ، وفى

الشركات الدولية تشكل عقول المواطنين بعيداً عن سلطات الدول !

بريطانيا حتى الآن هناك مؤسستان للتلفزيون فقط ، (حكومية ومستقلة) و ٣٥٪ من برامج تلك المحطات ـ فى المتوسط ـ امريكية . .

وإن كان هناك تعددية نسبية فى مجال الصحافة في الغرب فإن الاذاعة والتلفزيون معظمها محتكر ، ولم تسمح بريطانيا مثلا بتعددية نسبية فى محطات الاذاعة إلا بعد هجوم (إذاعات القراصنة) فى السبعينيات ، التى كانت تبث برامجها ، من سفن عائمة فى المياه الدولية ، الى المستمع البريطانى .

الشركات الدولية التى يمكن أن تحتكر البث التلفزيونى العالى التكلفة سوف تعمل كى تحصل على أكبر عدد من المشاهدين حول العالم . وإذا كان الانتاج التلفزيونى المحلى ـ فى دول العالم الثالث ، وكذلك فى الأقطار العربية ـ قليلا في الوقت الحالى ، فسوف يتضاءل أكثر عندما تسيطر على الأجواء تلك « الزنابير » من الأقمار الصناعية المملوكة للشركات الدولية ، وسوف يفتح المشاهد تلفزيونه فى كندا أو الهند ويشاهد نفس البرامج .

فى حقيقة الأمر لن يكون هناك حصانة ثقافية ، كما أن الفروق السلوكية بين الشعوب والثقافات المختلفة سوف يدمرها (البث التلفزيونى العالمى) .

فبرامج مثل (دلاس) و (داينستى) و (ملفات روكفورد) و (الفريق الأول : اى تيم) و (استعراض كوزبى) و (كوينزى) و

ثورة الاتصالات الجديدة تفتح باب عصر "الاستلاب الثقافي"

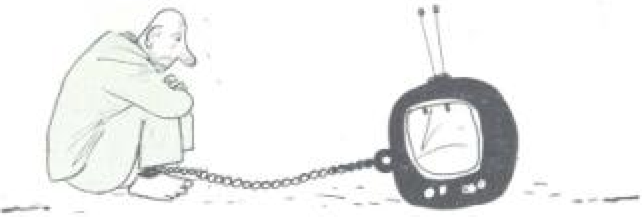

(كوجاك) و (كولومبو) من بين عشرات البرامج التى سوف تصبح مألوفة لدى أطفالنا وجيلنا الجديد . سوف تتصاعد وتيرة الاستلاب الثقافى ، وسوف تجعلنا تلك الشركات التلفزيونية الضخمة نفقد دوراً أكثر من ذلك ، محتقرين لثقافاتنا المحلية ، وذلك أسوأ شيء يمكن أن يقع .

يقول أحد الكتاب تعليقاً على ذلك : (إن الثقافة الامريكية فى القرن الواحد والعشرين ستصبح هى السائدة كما كانت ثقافة الرومان سائدة فى القرن الأول) .

ما هي الآثار المحتملة لكل ذلك ؟

يذكر عن أنديرا غاندى أنها قالت مرة : (نحن نعرف أن الله قد خلق الأرض ومن عليها ، ولكن من يحدد العناوين الرئيسية ؟) .

أى أن هناك آثاراً عميقة تترتب على صناع الاتصال ، وبتعبير آخر أن وسائل الاتصال ـ وعلى رأسها التلفزيون ـ تصبح السبب بشكل مباشر أو غير مباشر لكل تغير يحدث فى الرأى العام . تدفق المعلومات من التلفزيون الذى يشاغل معظم الحواس الانسانية ، يؤدى الى تغير تصرف الأشخاص أو تأكيده . لقد قيل فى الستينيات أن أمريكا خسرت حرب فيتنام لأن أخبار تلك الحرب وأهوالها انتقلت الى غرف الجلوس فى بيوت المواطنين الامريكيين .

ولانستطيع أن نعرف النتائج التى كان يمكن أن تصل إليها الانسانية ـ مثلاً ـ لو كانت عدسات التلفزيون ترصد الانفجار النووى على هيروشيما وناجازاكي وتسجل بالصور الملونة عذاب آلاف المدنيين لحظة الانفجار !

وفى القاهرة فى رمضان الماضى تشبعت شبكة التليفونات بالمكالمات الى درجة عطلت مصالح الناس الحيوية ، وذلك لأن التلفزيون يطلب من المستمعين الاجابة بالهاتف عن برنامج مسابقات !

عصر التلفزيون أثر حتى على الانتخابات فى أكبر دولة غربية ـ

نحن نعرف أن الله خلق الأرض ومن عليها ولكن مَن يحدد العناوين الرئيسية في وسائل الاتصال الحديثة ؟

الولايات المتحدة ـ فأصبح أهم شخصين بعد المرشحين ونائبيهما هما رجل التزيين (المكياج) الذى يعد المرشح للظهور فى التلفزيون ، و (صانع الجمل الرنانة) كاتب خطابات المرشح ، كى تترك أكبر أثر على مشاهدى التلفزيون . وقد حول التلفزيون مبدأ « حرية الكلام » الى مبدأ جديد هو « حرية التضليل » .

ألم أقل منذ البداية أن آثار هذا الصندوق العجيب غير محدودة ، ولو أردت أن أسرد آثاره بالتفصيل لربما احتجت الى كتاب .

الثقافة الأميركية في القرن الواحد والعشرين ستصبح هي السائدة كما كانت ثقافة الرومان سائدة في القرن الأول

محبوب ليس له أصدقاء :

قد يبدو كلاماً متناقضاً أن هناك محبوباً دون أصدقاء، ولكنه التلفزيون . فالسياسيون والصحفيون والمحامون والشرطة ورجال الدين والأكاديميون وبعضهم يعمل فى الصناعة التلفزيونية نجدهم غالباً متذمرين مما يعرضه التلفزيون . وإن ذلك دليل على أهمية تأثيره فى الناس من جهة ، والأهمية التى تضعها مجموعات الضغط الاجتماعية للحصول على نصيب أوفر من الحيز التلفزيونى. فالسياسيون ـ إن لم يستخدموا التلفزيون لزيادة نفوذهم ـ فنفوذ التلفزيون يقلل منه ، والاكاديميون يعتقدون أن برامج الترويح أكثر من اللازم ، ورجال الدين يعتقدون أن البرامج الدينية أقل من اللازم . . !

والشرطة يعتقدون أن مشاهد العنف فى التلفزيون هى التى تزيد من نسبة الجريمة فى المجتمع .

ولكن هذا كله يعنى أن هذا الجهاز مركب سياسي اجتماعى تقنى معقد ، ومن يتحمل على المستوى المحلى مسئولية ما يعرض أو ما لا يعرض فيه ، يتحمل النقد العلنى أو السرى أيضاً .

ولكن أليس ما طرحناه من تقنية جديدة سوف يسلب القرار من القطر لصالح شركات عالمية ، فى عصر سمته تخطى الحواجز والحدود فى ميدان الاتصال ؟

ترى ماذا أعددنا لذلك ؟ ورياح ثورة الاتصال تهب وتهدد كل المجتمعات النامية بالتغيير ؟

بوابة عصر جديد تطل علينا . .

فهل نحن مستعدون . . وكل آت قريب ؟

محمد الرميحي

الخدمة "الإسرائيلية" السرية

بقلم : أمين هويدي

من أدوات الحرب النفسية التي تستخدمها« اسرائيل » في الحرب مع العرب قوة أجهزة مخابراتها ، مع أن فشل هذه الأجهزة في العديد من العمليات قد يفوق نجاحها في بعضها الآخر ، ولكن الاخراج الذكي للعمليات الناجحة ـ بالإضافة إلى عوامل أخرى ـ أعطى هذه الأجهزة صورتها القوية . فمتى نشأت هذه الاجهزة ؟ وكيف تعمل ؟

يتميز العمل في الخدمة السرية عموما بأنه « صراع عقول متضادة » وليس « صراع قوى متضادة » ، فالقدرة على إعمال العقل والخداع والتدبير المحكم ، ثم الإقدام على التنفيذ بجسارة لا تعرف التردد مع القدرة على مرونة القرار ليتناسب مع الظروف المتغيرة ، هي أسس العمل في عالم المخابرات .

فسياسة الدول تتم على مستويين : السياسة العلنية أو المكشوفة ، والسياسة الخفية أو المستورة ، وهذه هي السياسة الحقيقية للدولة ، فما يقال شيء ، وما يتم شيء آخر ، سواء كان ذلك بين الأصدقاء أو الأعداء .

ونظرا للظروف الاستراتيجية الصعبة التي وضعت « اسرائيل » نفسها فيها ، فإنها ركزت على إنشاء جهاز استخبارات ذي كفاءة جيدة ، وسخرت له كل الإمكانيات ، وجندت له كثيرا من الكفاءات والخبرات ، ولذلك يمكن اعتباره أحد الأسلحة الاستراتيجية للدولة ، يعمل جنبا إلى جنب مع القوات الجوية والقوات البحرية وجيش الدفاع « الاسرائيلي » (زاحال) ككل .

نشأة جهاز المخابرات الإسرائيلي

وقد نشأ جهاز المخابرات « الاسرائيلي » قبل نشوء الدولة ، شأنه في ذلك شأن الأحزاب ، والجيش الذي تمثل في ذلك الوقت في عصابات متعددة ، مثل عصابة « ليهي » و « شترن » و « ليومي » و « الهاجاناه » التي كان عمودها الفقري اللواء اليهودي الذي عمل مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية .

وكان الجهاز يعمل في أول نشأته في حضن الوكالة اليهودية ، وبتمويل وتوجيه منها ، ثم بعد أن نشأت « الهاجاناه » عمل كجزء منها . وبذلك تكونت « الهاجاناه » في ذلك الوقت من « الهاجاناه »

كوحدات مقاتلة ضد العرب وقوات الانتداب ومن « البالماخ » ، والتي خصصت للقيام بالعمليات الخاصة والتخريب ثم جهاز المخابرات كالشاي والموساد . « والشاي » اختصار لكلمة شيروت ايدوت ، والموساد اختصار لكلمة « موساد ليتا فياكديم ميوشاريم » ، أي خدمة المعلومات أو خدمة المخابرات . وكان واجب المخابرات في فترة ما قبل الدولة ينحصر في :

* الحصول على معلومات عن العرب بوجه عام ، وعرب فلسطين بوجه خاص ، وكذلك قوات الانتداب البريطانية .

* تهريب اليهود من أوروبا والأقطار العربية في حركة الهجرة غير الشرعية ، وكذلك أموالهم وثرواتهم .

* تهريب السلاح إلى داخل « فلسطين » ، ووضعه في مخازن متفرقة لاستخدامه وقت الحاجة .

وقد اكتشفت أول شبكة جاسوسية يهودية فوق أرض فلسطين عام ١٩٠٧م ، وقت الحكم التركي ، وكانت الشبكة تعمل في خدمة المخابرات البريطانية ، ثم اكتشفت شبكة أخرى عام ١٩١٧ ، وكانت قد نظمت نفسها عام ١٩١٤ عند بداية الحرب العالمية الأولى ، تحت رئاسة « هارون اهرونسون » وابنته الجميلة « سارة » في مستعمرة زخارون يعقوب وعتليت لجمع معلومات عن القوات التركية والالمانية لصالح القوات البريطانية ، وكانت إحدى وسائل نقل المعلومات اقتراب الغواصات البريطانية بالقرب من السواحل الفلسطينية ، لتقلها بعد ذلك إلى الاسكندرية والقاهرة حيث يوجد مركز القوات البريطانية . وكان من أهم ما حققته هذه الشبكة سرقة أسرار صناعة غاز الخردل ، وبعض الأسلحة الألمانية وإعطائها للبريطانيين .

ومن أهم الشخصيات التي عملت في أجهزة المخابرات « الاسرائيلية » ، « ريفين شيلوه » و « تيدي كوليك » رئيس بلدية القدس الحالي تحت ستار عمله مدير مكتب رئيس الوزراء ، و « ابا ايبان » تحت ستار عمله نائبا لرئيس الوزراء . ومما يذكر فإن ايبان كان من أشهر رجال الجاسوسية البريطانية (MI6) ، وكذلك بنيامين جيبلي ، ويهوشفاط هاركابي ، وحاييم هرتزوج ، ومائير عميت ، واهارون باريف .

تنظيم جهاز الخدمة السرية « الاسرائيلية »

هناك تضارب في تفاصيل تنظيم أجهزة الخدمة السرية « الاسرائيلية » في أغلب المراجع التي تتحدث عن هذا الموضوع ، مما يجعل من الصعب الوصول بدقة إلى تفاصيل تنظيم هذه الأجهزة ، ويرجع ذلك إلى رغبة « اسرائيل » في إضفاء السرية على أجهزة مخابراتها من جانب ، وإلى الطبيعة النفسية للشعب « الاسرائيلي » من جانب آخر ، إذ يميل في حياته إلى أن يعيش حائرا بين الشك واليقين ، وبذلك فهو يوقع المتعاملين معه في حيرة مماثلة . ولنأخذ مثلا مشكلة الحدود ، فقد رأى بن غوريون عند إنشاء الدولة أن لا تحدد لها حدود كباقي الدول ، حتى يترك للغير تحديد حدود « اسرائيل » بأبعد نقطة يمكن لجيش « الدفاع » الاسرائيلي أن يصل إليها ويثبت أقدامه فيها . ويدور الآن خلاف عن طبيعة هذه الحدود ، وكيف تتداخل الحدود السياسية في الحدود الآمنة ؟ وهل تكون الحدود داخل الخط الأخضر أم تندفع شرقا لتشمل (الضفة الغربية وغزة) (يهودا والسامرة) والضفة الشمالية ، أي جنوب لبنان ؟! .

ومن هو اليهودي ؟ هل هو المولود لأبوين يهوديين أم من أم يهودية ؟ والخلاف على الأعياد اليهودية . . ؟ وهل « اسرائيل » دولة نووية أم هي دولة غير نووية ؟! وغير هذا كثير . . !!

وعلى أي حال فلتبسيط الموضوع فإن أي نشاط مخابرات يشمل المجالات الآتية :

مجال الحصول على معلومات من الأعداء والأصدقاء وعنهم على حد سواء .

مجال الحيلولة دون حصول الغير على معلومات .

مجال حماية أفراد الدولة ومنشآتها والعمل ضد الجواسيس .

مجال العمليات الخاصة أو الأعمال القذرة للمخابرات .

تنظيم عام الخدمة « الاسرائيلية » السرية

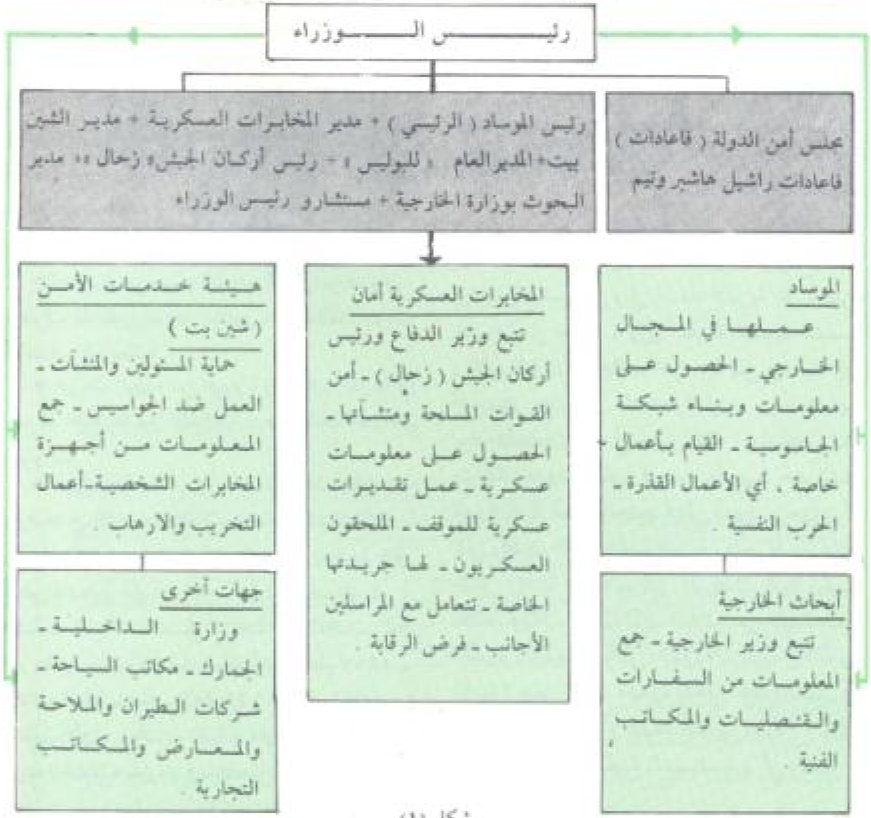

شكل (١)

الشكل رقم (١) يوضح التنظيم العام للخدمة « الاسرائيلية » السرية ، وهناك عدة ملاحظات تفصيلية عن هذا التنظيم :

* لتعدد الأجهزة التي تعمل في مجال المخابرات ، شكل مجلس أمن الدولة من رؤساء هذه الأجهزة ومستشاري رئيس الوزراء لأعمال الاستخبارات ، ويسمى هذا المجلس « فاعادات » ، والكلمة اختصار للاسم الحقيقي وهو « فاعادات راشيل هاشيروتيم » ، ويرأس هذا المجلس رئيس الموساد وسمي حينئذ « مومنيه »، وهو يتبع رئيس الوزراء .

* المخابرات العسكرية « أمان » مسئولة عن القطاع الحربي في الداخل والخارج ، وهناك تنافس بين كل من رئيس « الموساد » و « أمان » ، وقد ارتفع قدر جهاز « أمان » بعد حرب ١٩٦٧ ، وأصبحت تقديراته تجد اهتماما خاصا من المسئولين ، إلا أنه أصيب بضربة حقيقية في حرب ١٩٧٣ ، إذ أنه - على الرغم من كل الشواهد المعاكسة - كان يصر إلى آخر لحظة بأن العرب لن يعلنوا حربا ضد « اسرائيل » ، بينما كانت « الموساد » تؤكد أن الحرب قائمة . وقد أفاضت « لجنة أجرانات » - المشكّلة للتحقيق في أسباب عدم استعداد الجيش « زاحال » في الساعات الأولى من قيام حرب رمضان - في هذا الموضوع .

ومن الملاحظ أن الملحقين العسكريين الذين يعملون في واشنطن أو لندن يعينون في مراكز كبرى ، إما في الخدمة السرية أو في الجيش « الاسرائيلي » .

● الموساد تعمل في المجال الخارجي ، وهي التي تقابل المخابرات المركزية الأمريكية أو البريطانية ، وهي التي تقوم بالأعمال القذرة ، مثل القتل والخطف والعمليات الإيجابية الأخرى ، كما تقوم بإنشاء شبكات التجسس في كل أنحاء العالم . والشكل رقم (٢) يوضح تنظيما تفصيليا لجهاز الموساد ، نقلا عن وثائق أخذت أثناء احتلال السفارة الأمريكية في طهران في ١٤/١١/١٩٧٩ ، وقام بتهريبها صحفيون ثلاثة هم « راندى جودمان » و « تيري تايلور » و « ويليام دوري » إلى جريدة « واشنطن بوست » التي نشرتها على حلقات عام ١٩٨٢ على مدى أسبوع كامل .

● هيئة خدمات الامن أو « شين بت » ، عملها في الداخل لحماية المسؤولين والمنشآت ، مثل المطارات والموانىء والمصانع الاستراتيجية ومصادر الطاقة ، كما تقوم بمقاومة الإرهاب وأعمال التخريب عن طريق ثلاثة أفرع : الفرع العربي ، وفرع أوروبا الشرقية ، وفرع ضد الإرهاب ، واسمه « ريشود » ، وكذلك فمن أهم واجباتها الرئيسية مقاومة التجسس عن طريق جهاز « شاباك » ، وهو اختصار لكلمة « Sheruth Bitachou| **Klali** » ، والشين بت عموما تقابل جهاز (FBI) الأمريكي أو جهاز (M15) البريطاني .

وفي وزارة الخارجية « الاسرائيلية » ، يوجد قسم أبحاث الخارجية ، وهو يقوم أساسا بإجراء التحليلات السياسية على أساس المعلومات التي يتلقاها من كل أجهزة المخابرات ، ويعتمد أساسا في الحصول على معلومات من تقارير السفارات « الاسرائيلية » ، والقنصليات ، والمكاتب الفنية في الخارج ، ومن السفارات الأجنبية في « اسرائيل » .

كيف يعمل جهاز المخابرات . . ؟

هناك عاملان مهمان يسهلان عمل أجهزة الاستخبارات « الاسرائيلية » في مجال المعلومات والتجنيد :

أ ـ العامل الأول هو انتشار اليهودية في كل بلدان العالم ، ويهود الكتلة الشرقية لهم أهمية خاصة في هذا المجال ، إذ يمكن عن طريقهم قيام « الموساد » بإمداد الدول الغربية بمعلومات تفصيلية عما يجري في تلك الدول ، ولكن من جانب آخر فإن إدارة مكافحة الجاسوسية « الشاباك » تضع في اعتبارها أنه يمكن لهؤلاء اليهود القادمين من دول الكتلة الشرقية التجسس على « اسرائيل » ، ولذلك فهناك فرع لمراقبة يهود الكتلة الشرقية ، لمحاولة تحطيم أي شبكات تجسس يمكن تصديرها إليها بين وقت وآخر .

تنظيم جهاز الموساد

شكل (٢)

المصدر : ترجمة مجدي ناصيف من الوثائق السرية للمخابرات المركزية الأمريكية ـ المخابرات الاسرائيلية ـ دار المروج للطباعة والتوزيع والنشر بيروت ـ ١٩٨٥

ب ـ العامل الثاني هو التعاون المتبادل مع مخابرات الكتلة الغربية بوجه عام ، والمخابرات المركزية بوجه خاص ، في مجال الحصول على معلومات ، أو بالعمليات المشتركة ، فهي تحصل من الولايات المتحدة على معلومات عن طريق طائرات الاستطلاع والأقمار الصناعية للتجسس والتنصت والاستطلاع الالكتروني والتسمع على الترددات العربية ، وهي بالتالي تمد الولايات المتحدة بمعلومات عن دول الكتلة الشرقية ، وعن الأقطار العربية ، خاصة تلك التي تستورد سلاحها من الكتلة الشرقية . وفي هذا المجال تدعي « اسرائيل » أنها توفر للولايات المتحدة بلايين الدولارات من ميزانية الأبحاث والتطوير عن طريق إمدادها بنماذج من الأسلحة الشرقية لفحصها ، مثل إمداد الولايات المتحدة بنموذج كامل لطائرات ميج[٢١] التي طار بها الطيار العراقي « منيرفا » في عملية ناجحة للموساد بعد التأثير عليه بواسطة إحدى الجاسوسات ، ومثل إمداد الولايات المتحدة بالرادار الذي استولت علية القوات « الاسرائيلية » من موقعه في « جبل عتاقة » غرب قناة السويس أثناء حرب الاستنزاف ، علاوة على الدبابات والصواريخ والمدافع والهاونات وغيرها من الأسلحة التي تستولي عليها في حروبها مع العرب .

وتعمل أجهزة الخدمة السرية عن طريق ما يسمى « الواجهات » لتستتر خلفها لممارسة نشاطها ، مثل السفارات والقنصليات والشركات والمكاتب التجارية ومكاتب السياحة والطيران والملاحة ، ومن أمثلة هذه الواجهات :

شركة سوليل بونيه للمقاولات ، وشركة زيم للملاحة ، وشركة العال للطيران ، وشركة انكودا للمواد الزراعية والحيوانية ، وشركة زيفيت للاستشارات الهندسية ، وشركة يوهافيث لصيد الأسماك ، وشركة شن أفيون للتجارة في المواد الاستهلاكية ، وشركة ديزنجوف للتصدير والاستيراد ، وشركة فيدرمان للمقاولات . . إلخ .

والموساد ـ ومجال عملها بالخارج كما ذكرنا ـ تحاول إنشاء مكاتب واجهات مختلفة في أكبر عدد من البلدان ، للحصول على المعلومات التي تريدها ، وهي تسعى لتجنيد عملائها في البلاد المختلفة ، تبعا لأسبقيتها ، عن طريق أن يكون العميل من نفس البلد الذي سينشط فيه ، أو عن طريق طرف ثالث .

مراحل التجنيد

وتمر عملية التجنيد بأربعة مراحل :

١ ـ مرحلة الفرز والاختيار : والغرض من هذه العملية انتقاء المرشحين كعملاء ، بناء على ما يراه المتخصصون في هذه العملية ، ويسمون « الفرازون » ، وواجبهم الاحتكاك بالأماكن العامة كالنوادي والمطاعم والملاهي ، لمراقبة الموجودين من الرجال والنساء . ويمكن أن تقوم « واجهاتهم » في البلاد المختلفة بهذا العمل مباشرة أو عن طريق طرف ثالث .

٢ ـ مرحلة الاقتراب وتنمية العلاقات وبناء الدوافع : إذا أثبتت المراقبة الدقيقة « للفريسة » أنه صالح للقيام بالواجب يتم الاقتراب منه بواسطة آخرين متفرغين لهذا العمل ، وتحتاج مرحلة الاقتراب وتنمية العلاقات إلى صبر وجسارة لإجراء مزيد من التعارف ، والوقوف على نواحي الضعف التي يمكن استغلالها ، وتنمية الدافع حسب التعامل ، وقد يكون الدافع مثلا الاشتراك في عقيدة معنية ، كمكافحة الشيوعيين ، أو العمل من أجل حقوق الإنسان ، أو الميل للخمر والنساء ، أو لعب الميسر ، أو الحاجة إلى المال . وقد يكتشف العميل أنه يعمل في إحدى الشبكات « الاسرائيلية » للتجسس بعد فوات الأوان ، وبعد التورط بطريقة تجعل طريق العودة محاطا بالمخاطرة .

٣ ـ مرحلة تدريب العميل : بعد السيطرة الكاملة على العميل ـ حتى ولو كانت سيطرة ناعمة غير محسوسة ـ ينال قسطاً من التدريب على كيفية الاتصال مع الآخرين ، واستخدام اللاسلكي و « الشيفرة » والكتابة بالحبر السري . . إلخ ، وبعد أن يصبح على درجة يمكن أن يعتمد عليه فيها يقوم بزيارة البلد

الذي سيعمل فيه أكثر من مرة ، زيارات سياحية ، وعلى فترات .

٤ ـ مرحلة التشغيل : يبدأ العميل في العمل بتوجيه من المركز الذي سيخصص لذلك ، وأصعب إجراء في هذه المرحلة هو التمويل والاتصال .

الأعمال القذرة

أما عن العمليات الإيجابية التي تقوم بها « الموساد » مما يدخل في الأعمال القذرة من أعمال الاستخبارات مثل القتل والإرهاب والاختطاف والتدبير فإنها تعتمد على الآتي : ـ

١ ـ معلومات تفصيلية عن مسرح العملية ، والأشخاص ، وعاداتهم ، والمنشآت وحالتها . ومن المعتاد القيام بالعملية ضد الأغراض المكشوفة ، مثل الأشخاص المهمين الذين لا يهتمون بتأمين أنفسهم (مثل حادث مقتل خليل الوزير في تونس) ، أو المنشآت غير المدافع عنها ، مثل المفاعل الذرى « الأوزاريك » في بغداد ، أو سرقة الوثائق غير المؤمنة .

٢ ـ التخطيط الجيد مع مراعاة التفصيلات غير المتوقعة ، مع ترك الحرية لقائد العملية في التعديلات التي يقتضيها الموقف . ويمكن الاستعانة بالخرائط ذات المقياس الكبير ، والنماذج المجسمة لمسرح العملية ، حتى يعرف القائمون بالتنفيذ واجباتهم بالتفصيل .

٣ ـ التنفيذ ويشترط أن يتم بواسطة أقل عدد من الأفراد ، وفي سرعة خاطفة ، مع تجنب الاشتباك بقدر الإمكان . وعادة ما يحتفظون بخطط جاهزة ضد أغراض مختلفة « تحت القفل والمفتاح » لتنفيذها بسرعة عند الحاجة .

وعلينا أن نلاحظ أنه إن كانت أجهزة الخدمة السرية « الاسرائيلية » قد حققت بعض الأعمال الناجحة فإن هذا لا يرجع فقط إلى مستواها الجيد ، لكن يرجع إلى تهاون وتواكل الأجهزة التي تواجهها أيضا .

ثم علينا أن نلاحظ أن هذه الأجهزة قد عجزت في كثير من الأحيان عن تحقيق واجباتها ، مما عرض « اسرائيل » لمواقف صعبة كانت ، تودي بها ، فقد عجزت هذه الأجهزة عن توقع الهجوم العربي في حرب رمضان ، مما جعل مستقبل « اسرائيل » كله في كفة الميزان في الأيام الأولى من الحرب ، كما أخفقت في معرفة « النار المتأججة تحت الرماد » قبل انفجار الانتفاضة ، وهو ما نسميه ـ إن أردنا الدقة ـ الحرب السابعة ، ثم أخفقت هذه الأجهزة أيضا في مواجهة كثير من العمليات الإيجابية الناجحة التي قامت بها أجهزة الاستخبارات العربية في كثير من المجالات . □

---

* كن هادئا تعمر طويلا ، فالغضب جنون مؤقت ، تحكم فيه قبل أن يستبد هو بك ! .

(بل كارينجي)

* لكي تتجنب النقد لا تفعل شيئا ، ولا تقل شيئا ، ولا تكن شيئا .

(البرت هابارد)

* جنب كرامتك اللئام ، فإنك ان أحسنت اليهم لم يشكروا ، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا .

(الثعالبي)

* الوطن قبل الروح لأنه مقر راحتك .

(مثل حبشي)

الوقت والطائر الفلسطيني

شعر : محمد محمد السنباطي*

(إلى روح الشهيد صاحب الطائرة الشراعية)

الوقتُ ليس للعيونِ الذابلةِ ،
وليس للقدودِ الناحلةِ ،
يقالُ إن - في السنينَ القاحلةِ -
سواعدَ الرجالِ
تكونُ للنضالِ

***

يا سيدي الوطن
لو كنت في الكفنِ
وصحتَ بي : « تعالَ »
هَبَبْتُ من تَوِّي
خَرَجْتُ من قَبْوِي وليداً
وَيَداك القَابِلَة !!

***

مِنْ لؤلؤٍ مدامعُ الصفصافِ
مِن عزةٍ مواجعُ الضفَافِ
يقال - دائماً يقال - إنَّ مَنْ يخافُ
يسيرُ - ليس في الأطراف إنما -
في بؤرةِ القافلةِ !

***

ويطلقُ الرصاصَ في الجموعِ
ليحصدَ السيقانَ
والقنابلَ المسيلةِ الدموعَ
والدخانَ .
لا تبتئسْ يا صورةَ الإنسانِ
ليستْ إصابتي بالقاتلةَ

● شاعر من القطر العربي المصري

وطائرٍ مِنَ الشمالِ خَطَّ حاملاً مَعَاوِلَه
لم يرصدِ الذئابُ خَطَّ سيرِهِ
ألقى مَشَاعِلَه
أصابَ نصفَ « دسته » بالموتِ ،
ثم ذابَ في رصاصةٍ ليست مماثلةً

***

الوقتُ ليس للدموعِ الهاطلةِ ،
وليس للأماني المجاملةِ .
يقال إن ـ في السنين القاحلةِ ـ
خيرَ الحقولِ من يعطي سَنَابِلَه .

لماذا نكتب ؟

بقلم : الدكتور حامد طاهر*

الكتابة مهنة ، وهذا لايتناقض أيضا مع أنها فن ، ويخطيء من لا يتصورها على هذا النحو ، لأنه ـ من ناحية ـ يتجاهل الوسائل الضرورية التي تجعل منه كاتبا جيدا ، لأن أي مهنة تحتاج إلى أدوات وتدريب ومحاكاة وتطوير وإبداع . ومن ناحية أخرى فإنه غالبا ما يضيع وقت القراء فيما لا طائل منه ، خاصة عندما يفتقد الهدف الذي يسعى إليه .

كون الكتابة مهنة يتضمن سؤالا أوليا ، وينبغي أن يطرحه على نفسه كل من يمسك بالقلم ، ويتصدى لنشر ما يكتبه على الناس ، وهو : لماذا أكتب ؟

من المعروف أن الاجابة عن هذا السؤال الذي ربما يبدو بسيطا تختلف من كاتب إلى آخر ، بل ربما تختلف لدى الكاتب الواحد في زمانين مختلفين ، لكنها على الرغم من اختلافها وتنوعها تؤكد حقيقة أساسية هي أن مهنة الكتابة تصدر ـ دائما ـ عن دافع معين ، كما أنها تهدف إلى غاية محددة ، وكلا الأمرين يعطيان لها قيمتها السامية ، ويضفيان عليها الطابع الانساني الشامل .

أغراض التأليف

من الرائع أن أسلافنا من الكتاب المسلمين قد حددوا على المستوى الفني لعملية التأليف نفسها سبعة أغراض لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها حسب تعبير حاجي خليفة صاحب الكتاب الشهير «كشف الظنون» وهذه السبعة هي :

ـ اختراع جديد ، وإتمام ناقص ، وشرح غامض ، واختصار طويل ، وجمع متفرق ، وترتيب مختلط ، تصحيح خطأ .

ومن المؤسف أن نقرر أن «مجموعة» هذه الأغراض السبعة قد اختفت أو اختلطت في ثقافتنا

* أستاذ الفلسفة الاسلامية المساعد في جامعة القاهرة والمعار حاليا لجامعة قطر .

العربية المعاصرة ، ولاشك في أن أحد أسباب الضمور الذي تعاني منه هذه الثقافة إنما يرجع إلى « غياب » الغرض المحدد لعملية التأليف نفسها .

ولكي نستعيد هذا الغرض الغائب لن نلجأ - هنا - إلى طريقة حاجي خليفة ، لأنها طريقة قياسية ، تعتمد على وضع قوانين عامة ، ثم تسعى لتطبيقها على الواقع ، وإنما نختار الطريقة الاستقرائية التي تقوم على تتبع أغراض المؤلفين المعاصرين ، سعيا إلى استخلاص مثل هذه القوانين .

لكن تنفيذ هذه الطريقة الاستقرائية لا يتيسر لباحث ، مهما كانت قدراته ومدى اتساع اتصاله بالمؤلفين ، إنما يتطلب مؤسسة ثقافية ، أو على الأقل « مجلة ثقافية » ، ذات انتشار واسع في الوطن العربي ، يجرى فيها طرح السؤال « لماذا أكتب ؟ » على كل المؤلفين العرب ، سواء كانوا مبدعين أو دارسين ، على أن يتم إرسال الاجابات (مختصرة ، دقيقة ، واضحة) خلال وقت محدد .

ثم تجرى بعد ذلك عملية فحص هذه الاجابات ، وتصنيفها في قوائم متميزة ، بحيث يضم كل صنف منها إلى مثيله ، ويظل المفرد وحده ، تمهيدا لنشرها على القراء .

وأنا على ثقة من أن محصلة الاجابات عن ذلك السؤال البسيط ، أو الذي يبدو كذلك ، ستكون لحظة مهمة في حياتنا الثقافية كلها ، لأنها سوف تحدد لنا الأساس أو الأسس التي يدور حولها الانتاج الفكري لكتابنا ومثقفينا .

لعلّ من يسأل . .

ما الداعي لهذا العمل حاليا بالنسبة للكتاب العرب على الأخص ؟ ونجيب بأننا نعيش مرحلة حرجة ، من مراحل تطورنا كأمة لها كيان متميز ،

وقد تعرضنا خلال فترة طويلة لضروب من التبعية لمستعمر أجنبي ، وما كاد هذا المستعمر يرحل عن بلادنا حتى أصبحت لنا رؤانا المستقلة ، ووجهات نظرنا الخاصة للأمور . ولما كان الوضع الثقافي هو المرآة التي تعكس أفكار المجتمع وانفعالاته فقد راحت تصطرع فيه أفكارنا . وآراؤنا ووجهات نظرنا ، بالاضافة إلى آمالنا لبناء مستقبل أفضل . وإعادة صياغة الحاضر على أسس جديدة .

ومما لا شك فيه أن الأصوات كثيرة ، ووجهات النظر بعضها متقارب ، وأكثرها متباعد إلى حد التناقض ، وقد لا يكون هذا شراً كله ، لأن الشر الحقيقي إنما يكمن في اختلاط الأصوات ، واضطرابها ، إلى الحد الذي يكاد ينعدم فيه التميز الواضح بينها . وهذا ما نشاهده على الساحة الثقافية في الوقت الحاضر .

ولنأخذ مثالا :

« الطريق إلى النهضة العربية والاسلامية الذي يؤدي بنا إلى القرن الواحد والعشرين : »

هناك من يتبنى الفكر الغربي ، ويعتبره الطريق الأمثل وربما الوحيد للنهضة ، وهناك من يؤمن بأن الحل الاسلامي هو المنقذ الوحيد لجميع مشكلاتنا الراهنة ، وهناك من يحاول المزج بين هذين الطرفين ، دون أن يكون قد نجح حتى الآن في بيان ما يقصده من ذلك ، وهناك من يرى في الفكر الاشتراكي السبيل إلى إصلاح الخلل ، وضمان مستقبل أفضل ، وهناك من يساير الواقع كما هو ، دون أن يتبنى موقفاً من المواقف السابقة ، ومع ذلك فإن هذا في حد ذاته موقف .

وقد استخلصت هذه « الاتجاهات » الأساسية حول هذه القضية المهمة من معظم الانتاج الفكري الذي دار حولها ، والذي تابعته عن قرب في الآونة الأخيرة .

فإذا جئنا إلى الأشخاص وجدنا ما يلي :

هناك بعض المفكرين العرب يعلنون عن مواقفهم بصراحة كاملة ، وبوضوح لا يترك بعده موضعا للبلبلة .

لكن هناك آخرين يقفون في معسكر ،وينادون بشعارات معسكر آخر ، مما يثير الشك في قيمة ما يعلنون .

وأخيرا هناك الكتاب الذين لا يفصحون تماما عما

يريدون ، إما خوفا على أنفسهم ، أو على مكاسبهم .

ويوجد بين هؤلاء جميعا الهادفون والمتحمسون ، الصادقون والمنتفعون ، والنتيجة أن القارىء العربي المعاصر يعيش عصرا ثقافيا مختلط المعالم ، وهذا على عكس ما يحدث عادة في الثقافات الأجنبية ، حيث الأمور بصفة عامة أكثر وضوحا ، والحدود الفاصلة بين الألوان أكثر تميزا .

نموذج من الثقافة الفرنسية

ومن أجل الوصول إلى تحديد الأهداف الأساسية في المجال الثقافي والأدبي قام الباحث شارل بريبان في كتاب له بالفرنسية عنوانه « مهنة الكاتب » باستقراء إجابات كبار الكتاب الفرنسيين عن سؤال « لماذا أكتب ؟ »

ولم يكن من الضروري توجيه السؤال على النحو الذي نقترحه نحن في هذا المقال ، وإنما اكتفى هذا الباحث الجيد باستقصاء تلك الاجابات من مؤلفات أصحابها ، القدامى والمحدثين .

ومن المعروف أن معظم المؤلفين يشير إلى الدافع وراء كتابته بسرعة أحيانا ، وبتفصيل أكثر في أحيان أخرى ، في ثنايا عرضه لموضوع معين ، أو في مقدمة كتاب ، أو حتى في خطاب خاص إلى صديق ، وهذا ما أتاح للباحث الفرنسي أن يجمع حشدا هائلا من الاجابات عن سؤاله .

والجدير بالذكر أن هذه الاجابات تكاد تغطي الثقافة الفرنسية كلها ، وبخاصة في مجال الأدب ، منذ مولدها حتى العصر الحديث .

لهذا وجدت من المفيد أن أترجم بعض مختارات ، ذات دلالة معينة ، من هذه الاجابات ، على أن أقتصر على المشاهير ، دون أن أحصرهم بطبيعة الحال .

ويلاحظ أننا سوف نتجول في رحلة مفيدة ، مليئة بالمتنوعات والمتناقضات معا ، لكن الغرض الأساسي ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا ، وهو أننا نسعى إلى تحديد دوافع الكتاب ، أو بتعبير آخر : مواقفهم من مهنة الكتابة الجليلة التي يمارسونها ويتصدون بها إلى القيادة الفكرية لأممهم .

يقول « مونتاني » الذي أيقظ الفكر الفرنسي كله :

« إنني أكتب لأعرف نفسي » .

ويقول في موضع آخر :

لأرسم نفسي بنفسي ! .

أما « بوالو » صاحب الكتاب الشهير « فن الشعر » فيصرح بأنه إنما يكتب من أجل المجد :

« اعمل من أجل المجد ، ولا تجعل الكسب الأحمق قط موضوعا لاهتمامك . فالجريمة أن يتحول العقل النبيل إلى الاستفادة من عمله »

لكن بوالو يعود فينصح الكاتب قائلا :

« لا تقدم للقارىء سوى ما يمتعه » .

وإلى هذا الهدف أيضا نجد « لافونتين » صاحب « خرافات الحيوان » الشهيرة يشير وكأنما يشكو من الأوضاع السائدة في عصره :

« في فرنسا لا يقدرون سوى ما يمتع ، وهذه هي القاعدة الكبرى ، وهي تقريبا الوحيدة ! » .

ومن الطبيعي أن يتفق « موليير » الكاتب الساخر مع هذا الهدف ، فهو يقول :

« إن قاعدة القواعد كلها هي الامتاع »

أما « راسين » كاتب المآسي الكلاسيكية فإنه ينوع الهدف من الكتابة ، حين يجعل :

« القاعدة الأساسية هي الامتاع أو التأثير »

ويصرح « فولتير » ملهم الثورة الفرنسية بأن :

« الكتاب المعقول هو الذي يعلم شيئا »

ومع ذلك فإنه لا يحصر هدف الكاتب كله في التعليم :

« فما أشقى الكاتب الذي يريد أن يعلم دائما ! . إن فن الاملال ينحصر في قول كل شيء »

ويتمثل الهدف عند « مدام دي ستايل » في تسجيل التجربة الانسانية لدى جيل ما ، من أجل خدمة الأجيال اللاحقة ، تقول :

« إن المسافر الذي تلقيه العاصفة فوق شاطىء غير مأهول يسجل على الصخور أسماء الأطعمة التي

اكتشفها ، ويشير إلى المصادر التي استخدمها ضد الموت ، لكي تكون هذه العلاقات مفيدة ذات يوم لمن يتعرضون لنفس مصيره ، وكذلك نحن الذين أتينا بالمصادفة في عصر ثورة ، ندين للأجيال القادمة بالمعرفة العميقة لأسرار النفس البشرية والمسالك غير المتوقعة التي تستخدمها الطبيعة المحافظة لتساعدنا بواسطتها على الوجود »

أسئلة حائرة

ويفضل الشاعر ، « دي فيني » عدة أهداف للكتابة ، في مذكرات شاعر حين يقول :

« أنا لا أعرف لماذا أكتب ؟ هل للمجد بعد الموت ؟ لا يبدو هذا هدفا محتملا ، أم هل للمجد في الحياة الدنيا ؟ وهذا ليس أكثر احتمالا ، أم للمال ؟ إن المؤلفات مهما تكاثرت فلن أعود منها بطائل ، لكنني أحس بالحاجة لكي أقول للمجتمع أفكارا توجد في داخلي ، وتريد أن تخرج » .

ويعتبر « ستاندال » النجاح في مهنة الكتابة نوعا من لعبة الحظ التي قد تأتي بكل شيء ، كما أنها قد لا تأتي بأي شيء !

يقول بصدد الحديث عن كتابه الشهير « الأحمر والأسود » : « وهكذا بعد سنوات دفعتني عبارات شاتوبريان وسالفان الغزيرة والأنيقة إلى كتابة « الأحمر والأسود » بأسلوب ممزق ، وكانت حماقة كبرى ،لأنه بعد عشرين عاما من الذي كان يفكر في هذا التقليد المشوّه لهذين السيدين ؟ أما أنا فقد سحبت ورقة « اليانصيب » ، وكانت جائزتي الكبرى هي أنني أصبحت مؤلفاتي مقروءة في عام ١٩٣٥ م » .

ومقابل « ضربة الحظ العشوائية » تجد « بلزاك » يصرح بأن مهمة الكاتب تنحصر في البحث الواعي الدءوب عما أغفله مؤرخو الحضارات القديمة ، في مصر وفارس وبلاد اليونان وروما من تفصيلات ذات دلالة أخلاقية عميقة .

وهكذا ينحصر هدف الكاتب في أن يستخرج تلك الأخلاقيات المختبئة في التاريخ ، ثم يلقي عليها الضوء لأبناء جيله ، عن طريق وضعها في إطار قصصي أو روائي جذاب .

ومع ذلك فإن بلزاك يرفع شعار « الفن للفن » بكل صراحة عندما يقول :

« ينبغي على كل إنسان موهوب بعمله ، أو مفطور على الابداع ألا ينسى أبدا أن ينمي الفن من أجل الفن نفسه ، ولا يطلب مسرات أخرى ، سوى ما يعطيه الفن عينه ، ولا كنوزا أخرى إلا ما يكشف عنها الفن نفسه في محرابي الصمت والوحدة .

وأخيرا على الفنان الكبير أن يطرح تفوقه عندما يدخل إلى هذا العالم ، ولا يتولى بنفسه مهمة الدفاع ، لأنه بالاضافة إلى الزمن المسيطر يوجد فوقنا جميعا ما هو أقوى .

ويختلف « اناتول فرانس » مع رأي بلزاك السابق ، فهو يرى أن الكتابة نوع من المشاركة الحقيقية في الحياة الاجتماعية والسياسية ، إن لم تكن بديلا عنها ، فهو يرى أنه يكتب ليعمل ويؤثر ويصبح فعالا في البيئة المحيطة به . يقول عن أحد أبطاله (الصحفيين) :

« كان وايز يشعر دائما أنه رئيس دولة ، وأنه خلق ليحكم شعبا ، وأنا لا أقول عنه ذلك لألومه ، بل على العكس ، إنني أعتقد أن مثل هذا الشعور ضروري لأن يكتب الانسان كما ينبغي ، وأن أي صحفي يفتقده فإنما يفتقد عِرق الكاتب ، وليست الصفحة المكتوبة جيدا إلا فعلا جيد التنفيذ .

ومع التدقيق العميق في مهنة الأداب نجد أن الذين نجحوا فيها إنما هم أولئك الذين مارسوها بحماسة واندفاع ، وعدم قدرة على الدخول في العمل السياسي والاستمرار فيه . انظر إلى ريتز ، وسان سيمون ، وشاتوبريان . وقد أصبحت لدينا الآن عادة جيدة ، وهي عندما يموت كاتب نمتدحه بأنه لم يكن سوى كاتب ، تماما كما نمتدح شخصا مقطوع الذراع بأنه ليس لديه الا ذراع واحدة !»

أسباب معقولة لكتابة الشعر

وفيما يتعلق بكتابة الشعر ، يذكر « ليون بول فارج » ثلاثة أسباب ، تبدو في نظرنا كلها معقولة ،

حين يقول :

« إننا نكتب الشعر ، لأننا نحتاج إلى تحقيق النظام في فوضى المشاعر ، ولأن لدينا أذنا موسيقية ، ولأننا نجيد اللغة الفرنسية » .

أما « أندريه جيد » فهو يريد أن يحقق للأجيال اللاحقة نوعا من المشاركة في التجربة الانسانية التي مرت به ، والتي يعتقد أنها متشابهة على الرغم من اختلافات الزمان والمكان يقول :

« إنني أكتب لمراهق ، فيما بعد ، شبيه بي ، في سن السادسة عشرة ، لكنه أكثر مني حرية ، وانطلاقا واكتمالا لعله يجد في كتاباتي هنا إجابة عن حيرته المترددة ، لكن ماذا سيكون سؤاله ؟ » .

لهذا فإننا لا نعجب كثيرا عندما نجد لدى « أندريه جيد » رغبة في خلود الفنان بعد الموت ، عن طريق فنه ، وهي نفس الفكرة التي آمن بها « مارسيل بروست » ، وسجلها على نحو رائع في نهاية سباعيته الشهيرة « بحثا عن الزمن المفقود » عندما يقول :

« إن الأسباب التي تدفعني للكتابة متعددة ، وأهمها فيما يبدو لي هو أكثرها سرية ، وربما كان هو وضع شيء بمنجاة من الموت ، وهذا ما يجعلني أبحث في كتاباتي من بين كل الخواص على تلك الخاصية التي لا يؤثر فيها الزمن كثيرا ، والتي تصمد أمام الصدمات العارضة ، إنه لكي يكون المرء مؤثرا لا بد أن يكون مخلصا » .

مواقف متباينة

كذلك من الغريب أيضا أن نجد الكاتب الفرنسي الكبير « بول فاليري » الذي شارك بقوة وفاعلية في إثراء الحركة الثقافية والنقدية في فرنسا خلال النصف الأول من القرن العشرين ، نجده يصرح بأن الدافع وراء الكتابة إنما هو « الاحساس بالضعف » !

ويتمثل هدف الأديب عند الشاعر الكبير « بول كلوديل » في نزعة إنسانية شاملة ، وتمد للقارىء يدا حانية في جفاف الحياة من حوله ، يقول :

« دعني أغني لأعمال الرجال ، وليجد كل إنسان في أشعاري الأشياء التي يعرفها ، كما يشعر الانسان بالفرح عندما يتعرف من بعيد على منزله ، ومحطة القطار ، ومبنى البلدية !

وهذا الانسان بقبعته البسيطة الذي يمتد المكان حوله إلى ما لا نهاية . وماذا يفيد الكاتب إذا لم يلق بالاً لهذه الأشياء سواء كانت أشياءه هو ، أو محل أحذية ، أو الانسانية كلها » .

أما رائد السريالية في فرنسا « أندريه بريتون » فإنه يقول :

« كل ما أريده هو أن نسكت عندما نتوقف عن الاحساس » ، ومعنى هذا ببساطة أن الأديب السريالي ينبغي أن يعمل وهو في حالة نشاط وجداني متوتر ، فإذا ما خفّت حدة هذا النشاط وبدأ صوت العقل والمنطق ، وجب عليه أن يلقي القلم من يده !

ولا شك في هذه العبارة المركزة أنها تلخص اتجاها فكريا بأكمله .

وأخيرا نلتقي « بسارتر زعيم الوجودية الفرنسية الذي ينفي في كتابه (ما الأدب ؟) إمكانية أن يكتب الأديب لنفسه (معارضا بذلك فلوبير) قائلا :

« إن الكتابة للنفس تعتمد على قراءة ضمنية من الأديب نفسه لما يكتبه ، وبذلك فنحن أمام شخصين فاعلين للعمل الأدبي الذي لا يمكن أن يرى النور إلا بواسطتهما .

والنتيجة أن الكتابة عمل إبداعي ، لا يتم إلا في إطار المجتمع ، ومن خلال تفاعل كامل مع شتى المواقف التي تعرض للشخص فيه » .

وبعد هذا الاستعراض السريع لتلك الاجابات المختلفة والمتنافرة عن مهمة الكتابة ، والهدف من العمل الأدبي لا يمكن القول بأننا أصبحنا قادرين تماما على تكوين حكم موحد على دوافع الأدب الفرنسي ، لأن مثل هذا الحكم بحاجة إلى تحليل أكثر عمقا ، ومقارنة أوسع شمولا ، لكن ما يكفي الآن إنما هو الامساك ببعض الخيوط التي تمتد مباشرة إلى أهم اتجاهات ذلك الأدب ، والوقوف من ذلك على حقيقة مهمة ، هي أن سؤال « لماذا أكتب ؟ » كان حاضرا دون استثناء على ما يبدو في أذهان أولئك الأدباء الكبار ، وهذا ما قصدت إليه ـ أساسا ـ من وراء هذا المقال . □

العربي

نوفمبر ١٩٨٨

اقرأ في العدد القادم من

بعد ربع قرن من الثورة

ردفان

العودة الى "الجهاد الأكبر"!

سليمان الشيخ

تايلند

"أرض الأحرار" تبيع كل شيء حتى الانسان!

سليمان مظهر

- الاسلام بين الاخاء والدماء!
  د. عبدالعزيز كامل
- مأزق الابداع الأدبي..
  غالب هلسا
- أبوجعل.. خنفساء عُبِدَت!
  د. رمسيس الحوطي
- الكوكايين.. شمبانيا المخدرات!
  د. جمال الدين سرحي
- البداري.. والحادثة التي أسقطت الباشا
  صلاح عيسى
- عصور انسانية عرفت القلق
  د. عبدالستار ابراهيم
- وجهاً لوجه: د. علي الوردي و د. جليل العطية

واقرأ أيضاً للكتاب:

د. محمد الرميحي - د. سمير رضوان - د. علي شلش - د. محمد علي الفرا
د. زينب عبدالعزيز - د. بهاء الدين محمود - د. صباح السامرائي - محمد عمارة

وجبة علمية خفيفة

لحوم صناعية من الأوراق النباتية

بقلم : فوزي عبد القادر الفيشاوي

حينما ننظر حولنا الى تلك الاحجام الهائلة من المخلفات الزراعية لايسعنا إلا أن نتساءل في دهشة : ترى أليس من الأجدى محاولة الافادة منها بشكل عملي ؟ ألا يمكن تحويل هذه المخلفات (المشكلة) في حد ذاتها إلى حلول مهمة لمشاكلنا الغذائية . . ؟

حينما وقف عالم التغذية الشهير في معمله أمام جمع من زائريه ليشرح لهم طرقه الحديثة في انتاج لحوم البقر ، نظر عبر النافذة إلى تلك المساحات

الشاسعة من حقول البرسيم التي تمتد على مدى البصر ، ثم استطرد يقول : إنني أستطيع تحويل هذا

البرسيم وتلك الحشائش الخضراء الكثيفة إلى مئات الاطنان من لحوم البقر والغنم والماعز والدجاج والغزلان بعد ساعة واحدة .

وسكت العالم هنيهة ، ووجم الزوار برهة ، وقد علت وجوههم علامات تدل على الدهشة حينا والاستنكار حينا آخر ، وبدا لهم أن محدثهم ربما لايعي ما يقول ، فأين هي تلك الحيوانات التي ستتكفل بأكل هذه المراعي الواسعة لتحول ما تأكله إلى لحم خلال ساعة واحدة ، كما يزعم هذا الرجل ؟ . . وحتى لايترك صاحبنا زائريه نهبا للهواجس استطرد قائلا : أرجو يا سادة ألا تنزعجوا مما أقول ، وحتى لاتساوركم الظنون عليكم بمشاهدة

هذا العرض القصير ، وأشار الى شاشة بيضاء معلقة على الجدار ، ثم ضغط إحدى الازرار فظهر جانب من أحد مصانع الاغذية الملحقة بالمزرعة ، وقد بدت شاحنات ضخمة محملة بالبرسيم والحشائش الخضراء ، وهي تدخل أحد أقسام المصنع . وبسرعة ضغط عالمنا الهمام زرا آخر لتظهر المرحلة الاخيرة من التصنيع ، حيث بدت خطوط انتاج متعددة أحدها للسجق (البرسيمي) ، وآخر همبورجر (ورق السبانخ) ، وثالث لشرائح لحم (ورق الباميا) ، ورابع خرجت منه عبوات « لنشون » (ورق الشجر) ، وخامس ، وسادس .. الخ . ووسط مظاهر الدهشة والتعجب البادية على الوجوه تقدم صاحبنا قدما زائريه لتذوق هذه الاطعمة ، ولشدة إعجابهم صاح أحدهم ، وهو رجل وقور . حقا إنها لذيذة ، لذيذة جدا ، وتشبه في طعمها اللحم المحمر ، وربما تكون ألذ مع كأس من عصير البرسيم . وقهقه الحاضرون سعادة ، بينما راح صاحبنا يطلعهم على سر هذا الدجاج وهو ليس بدجاج وهذه اللحوم وهي ليست بلحوم .. !

إحالة حيوانات اللحم إلى التقاعد

ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تصبح فيه حيوانات اللحم ، بجاموسها وأبقارها وعجولها ، مجرد ذكرى أو تاريخ مثلها تتذكر بأسى أو بغير أسى - لاأدري - ديناصورات العصور الغابرة ، فلعل العلماء قد أعادوا النظر في الكيفية التي تستغل بها المخلفات الورقية للنبات والتي طالما استخدمها الانسان علفا لحيواناته على الرغم مما يعيبها من انخفاض في قدرتها التحويلية ، حيث لاتستفيد من تغذية الحيوانات في زيادة لحومها الا بنسبة ضئيلة لاتتعدى ١٠٪ من غذائها المأكول ، مما يمثل إسرافا لاداعي له على الاطلاق ، وطالما يمكن استخراج تلك البروتينات النباتية مباشرة من مصادرها ووضعها على مائدة المستهلكين في صورة أغذية ، عالية في قيمتها الغذائية .

ويعد ذلك - بحق - طفرة في تقنية التعامل مع المخلفات النباتية التي تقع في مركز الصدارة منها أوراق النباتات الخضراء ، لكن ماذا يعني ذلك حقا ؟

إنه ببساطة نذير باقتراب موعد إصدار قرار بإحالة هذه الحيوانات الكسولة الى التقاعد ، أو على أحسن الاحوال ومع استعمال قواعد الرأفة في التعامل معها ، فسوف يتم تقليص دورها في تغذية الانسان .

ولعل بعض الناس قد لايحلو له ذلك ، فيصيح في تحد : كيف يا هذا ؟ نحن نعلم أن آكلات العشب فقط وحدها القادرة على استخلاص الفائدة الكبرى من الاوراق النباتية ، أما الانسان وبقية الحيوانات غير المجترة فهي لاتملك الطريقة اللازمة لكسر جدار الخلية النباتية واستخلاص البروتين ، ولهذا فان فائدة الأوراق النباتية تقتصر بالنسبة للانسان على الاملاح المعدنية والفيتامينات وبعض الاحماض الامينية البروتينية الموجودة في صورة حرة ، هذا بالاضافة الى أنه من الناحية « الاكلينيكية » ، فان استهلاك أوراق النبات محدود بكمية المخثثات والمادة الليفية التي تتحملها أمعاء الانسان ، ناهيك - يا سيدي - عما أثبتته الدراسات الحديثة عن وجود عديد من المركبات غير المرغوب فيها ، ذات التأثير السام في معظم الأوراق النباتية ، مثل مركبات تسمى فينولات وقلويدات وسابونين وجلوكوسيدات ومثبطات نمو واحماض أمينية غير بروتينية سامة وغيرها .. !

ومع احترامنا الشديد لكل الحقائق العلمية السالفة الذكر ، فإن القضية سوف تحسم على وجه آخر ، ذاك أن تزاحم الانسان والحيوان على نفس رقعة الارض ، مع احتمالات تناقص المخزون العالمي من الغذاء التقليدي ، كل ذلك سوف يحسم القضية في النهاية لصالح الانسان ، خاصة أن وسائل التقنية الحديثة في تصنيع الغذاء قد مكنت الانسان من حل تلك المشكلات السابقة ، حيث يسرت التقنيات الحديثة عمليات استخراج بروتين الاوراق النباتية والحشائش الخضراء في صورة مركزات عالية القيمة ، خالية من الالياف والمركبات السامة . ومن

هنا لم يعد ثمة تخوف يستدعي المماطلة في الايغال بقوة الى ذلك العالم الجديد ، عالم بروتينات أوراق النبات الخضراء .

أطباق شهية من البروتينات الورقية

نحن الآن في جولة داخل واحد من مصانع البروتينات الورقية المنتشرة في بعض الدول كاليابان والولايات المتحدة الامريكية والبرازيل وغيرها ، حيث تشاهد عن بعد شاحنات ضخمة محملة بالكثير من المخلفات الورقية والحشائش الخضراء والبرسيم وأوراق فول الصويا أو البطاطا والكاسافا وأوراق القلقاس والبامية ، وكل ماشئت من المخلفات الورقية التي تحتوي على نسبة من البروتين تتراوح بين ٢٥٪ - ٣٠٪ .

في قسم آخر من المصنع تجري عمليات الغسيل ، ويليها طحن الأوراق الغضة وعصرها بطرق آلية للحصول على عصير الأوراق الأخضر ، ثم يعرض العصير لمعاملة حرارية تصل إلى ٧٥°م، ثم يمرر إلى جهاز للطرد المركزي يدور بسرعات هائلة ، ليفصل أول منتج بروتيني أخضر اللون ، يحتوي على ٥٠٪ بروتينا ، أما الجزء السائل المتبقي فله حكاية ، حيث يعامل بمحلول حامضي تضبط درجة حموضته (P H) على (٤) ، وهنا تشاهد عجبا ، حيث يترسب بسرعة بروتين ناصع البياض ، يجري فصله بالطرد المركزي أيضا ليعطينا منتجاً بروتينيا يحتوي على ٩٠٪ بروتينا . كم هو غني هذا المنتج البروتيني !

والآن ، نحن في مرحلة تقنية عالية ، إنها مرحلة تشكيل هذه البروتينات لتصبح كاللحوم التي تعودنا عليها . فهل تريد شرائح لحم محمرة ، أو سجقا ، أو (لنشون) أو همبرجر ؟ كل ذلك سهل وميسر ، فهناك تخلط هذه البروتينات مع دهن حيواني وبعض مكسبات الطعم واللون والرائحة الخاصة بلحم الدجاج أو الابقار - وإن شئت فطعم الغزال - مع نسبة من الماء لتصبح كالعجينة ، تدخل في جهاز عجيب يسمى « اكسترودر » ليتم تشكيل هذه العجينة على هيئة خيوط رفيعة طويلة مشابهة لالياف اللحم الطبيعي ، ثم تستكمل عمليات « غزل ونسج » الخيوط البروتينية داخل نفس الجهاز ، حيث يجري تجميع تلك الخيوط في حزم أشبه بعضلة اللحم . وقد تشكل على هيئة شرائح أو أجزاء دجاج ، ليسهل تقطيعها والتعامل معها . صدقني لن تفرق بينها وبين الطعم الطبيعي ، وإن كنت من خبراء التحكيم ، وإن كنت من أمهر الطهاة . . . !

وقد تمكنت كثير من شركات الاغذية في العالم من انتاج صور متعددة لمثل هذه اللحوم الصناعية التي تشبه في طعمها لحم البقر والدواجن والاسماك ، ويمكن تعليبها أو تجميدها أو تجفيفها ، وبإمكانك تناولها مباشرة ، فقد أجريت لها عمليات الطهي المناسبة أثناء اعدادها .

والمدهش حقا أن إنتاج الكيلوغرام الواحد من هذه البروتينات الورقية المركزة يكلف جنيها استرلينيا واحدا ، بالمقارنة مع تكلفة كيلوغرام اللحم التقليدي الذي يحتوي على ٢٠٪ من البروتين وهي جنيهان ونصف جنيه استرليني .

ولم تقتصر هذه التقنية الجديدة على دول العالم المتقدم ، فقد شملت عددا من الدول النامية مثل باكستان والهند ونيجيريا والبرازيل ومصر وغيرها ، وتعتبر الهند من أكثر دول العالم الثالث تقدما في مجال استخدامات البروتين لتغذية الانسان ، ففي المؤتمر الدولي الأول لبروتين ورق الشجر الذي انعقد في أوائل عام ١٩٨٣ في « أورانج باد » بالهند كانت وجبات إفطار المؤتمرين نوعا جديدا من « البسكويت » الاخضر المصنوع من بروتين ورق البرسيم ؛ ولم ينس العلماء - في نهاية مؤتمرهم - أن يثنوا على هذا « البسكويت » (البرسيمي) اللذيذ .

تفاءل فلديك الأوراق

حينما نجح عالم الزراعة والتغذية الشهير « جورج واشنطن كارفر » في انتاج أكثر من ٣٠٠ منتج من الفول السوداني ومخلفاته ، علاوة على أكثر من ١٧٠ منتجا من مخلفات البطاطا ومئات أخرى من المنتجات كلها من المخلفات الزراعية ، وحينما تحلق حوله كوكبة من تلامذته النابهين ، همس لهم : « ابحثوا

عن استعمالات لهذه المخلفات الزراعية ، واعلموا أن بها أسرارا لن تفهمها مالم تتعلم كيف تنسجم معها .. » هكذا كانت كلمات الرجل الذي قال عنه الرئيس الامريكي « روزفلت » « إنني لأعتبر نفسي موفقا أعظم التوفيق إذ اجتمعت به يوما ، وتحدثت اليه ، إن الانسانية بأسرها مدينة لمكتشفاته التي كانت مثار الدهشة ومدعاة العجب » .

وهكذا ؛ فإذا أردت أن تتساءل ـ حقا ـ حول مستقبل الغذاء في العالم فانظر الى تلك الاحجام الهائلة من المخلفات الزراعية ، وتساءل عما يمكن عمله بكل هذه المقادير ؟

وحينما تساءل العلماء عما يمكن عمله بالمخلفات الورقية للنبات كانت النتيجة عشرات من المنتجات البروتينية عالية القيمة الحيوية . ففي معامل التحليل كانت الشهادة الأولى لجودة تلك البروتينات ، حينما أكدت غناها في مجموعة من الاحماض الأمينية الضرورية مثل الليسين والتربتوفان ، وهي الاحماض المحدودة في الحبوب كالذرة والقمح وغيرها ، ولاشك أن لتلك هذه الاشارات أهميتها في تعضيد دور بروتينات الأوراق كإضافة غذائية لأنواع الدقيق والعجائن الغذائية ومنتجات المخابز المختلفة لتعويض النقص فيها ورفع قيمتها الحيوية .

ولم تقل نتائج تغذية الحيوان ـ في أهميتها ـ عن نتائج المعامل ، فقد جرت تجارب تغذية على الدواجن ، لتؤكد دور البروتينات الورقية في زيادة معدلات النمو ، كما أمكن استبدالها بنصف « كازين » علف العجول الرضيعة بكفاءة عالية .

وإذا كنا قد اتفقنا على أن الانسان هو الهدف الرئيسي لابحاث البروتينات الجديدة ، فإن هناك كثيرا من تجارب التغذية التي أجريت على الانسان في عدد من الدول ، وشملت الاعمار المختلفة ، ومن هذه التجارب تلك التي أجريت عام ١٩٦٢ على مجموعة من الاطفال المصابين بسوء التغذية في جامايكا حيث جهزت لهم وجبات احتوت على لبن فقط ، وأخرى احتوت على لبن مع بروتين الأوراق بنسبة (١ : ١) ، وقد بينت النتائج أن وجبات بروتين الورق كانت متكافئة تماما في قيمتها الغذائية مع الوجبات المحتوية على لبن فقط.وفي دراسة شيقة نشرتها مجلة لايف **Life** عام ١٩٧٣ تبين أن إضافة ١٠ جرامات من بروتين الأوراق الى وجبات الاطفال النيجيريين المصابين بمرض «الكواشيوركور» (نقص البروتين) مدة ١٠ أيام فقط ، يؤدي الى تحسن واضح في صحتهم العامة وتيقظهم الذهني .

وهناك تجارب مماثلة أجريت على الاطفال ، أجراها عالم التغذية الامريكي « نورمان بيري » جاءت مؤكدة على دورها في تحسين الحالة الصحية ، بل وسجلت إقبال هؤلاء الاطفال على وجبات البروتينات الورقية ، ومثل هذه النتائج أكدتها دراسات العلماء في مدينة ايبادان بنيجيريا ، حيث أقبلت ربات البيوت بشكل واضح على منتجات البروتينات الورقية . وتجارب أخرى كثيرة كلها تؤكد أننا أمام مصدر بروتيني جديد ، يدعو للتفاؤل.

وبعد

لاشك أن هناك تغيرات مهمة على الجبهة العلمية والصناعية، تستجمع قواها ، وهناك مجوم تقني بعد ، سيبدل الانماط الغذائية والاستهلاكية لمجتمعات العالم المتحضر منها والنامي ، مادته هي بروتينات أوراق النبات الخضراء . هكذا يتوقع العلماء وهكذا يؤكد د . ملتون بيلز وزملاؤه في الجامعة التقنية بولاية تكساس . الكل يتوقع أن موعدنا قريب جدا مع بروتينات أوراق البرسيم الحجازي أو الاجزاء الخضرية للبنجر وأوراق الشجر بل حتى أوراق التبغ ، حيث تذكر الدراسات أن في الولايات المتحدة الامريكية فقط حوالي ٢١ مليون طن من البقايا النباتية كل عام وهي تحتوي على أكثر من ٤٠٠ ألف طن من البروتين ، ينتظر استخلاصها والاستفادة منها .

ويرى علماء التغذية أن بروتينات الأوراق لاتعد مصدرا مهما لأغذية المستقبل فقط ، بل إن المستقبل يبدو الآن وقفا على البروتين المستخلص من أوراق النبات ! □

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا) الفتح (١ ـ ٣) .

عن قتادة ، عن أنس ، قال : أنزلت هذه السورة على النبي (ص) عند مرجعه من الحديبية ، نزلت وأصحابه يخالطون الحزن ، وقد حيل بينهم وبين أداء العمرة التي خرجوا من المدينة من أجلها .

أبرم صلح الحديبية بين النبي وقريش في ذي القعدة من العام السادس الهجري . وكانت النقطتان الرئيسيتان في اتفاقها وضع الحرب بينهما مدة عشر سنوات ، تكون تجارة قريش خلالها آمنة من هجمات المسلمين ، ويكون للرسول فيها حق العمل في حرية من أجل نشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية . وقد أثار الاتفاق استياء أصحاب النبي الذين اعتبروه تنازلا منه غير مفهوم وليس له ما يبرره ، والواقع أن غالبية الحاضرين من المسلمين كرهوا الصلح واستنكروه ، وخاصة أنه قد جاء بعد أيام قليلة من بيعة الرضوان التي أبدوا جميعا فيها حماسا بالغا للقتال . وقد كانوا خرجوا من المدينة لا يشكون في الفتح لرؤيا النبي أنه حلق رأسه وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة وعرّف مع المعرّفين . فلما رأوا الصلح وقد نص على عودتهم ذلك العام دون أداء العمرة ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون » (الواقدي) . وكان أبو بكر بعد ذلك يقول : « ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية . ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون ، والله تعالى لا يعجل كعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد الله » .

وكان عمر بن الخطاب من أشد الكارهين لما اشتمل عليه الصلح من شروط ، فلما تم الاتفاق ودعا النبي علي بن أبي طالب لكتابة الكتاب وثب عمر إلى النبي وقال : « ألست برسول الله ؟ . قال : بلى » قال : ألسنا بالمسلمين ؟ » قال : بلى » قال ألسنا على الحق ؟ قال : « بلى » . قال : أليس عدونا على الباطل ؟ » قال :بلى» ، قال عمر : فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ قال النبي : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني » . فعاد عمر يقول : « أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به وأنك ستأخذ مفتاح الكعبة ؟ هذا هَدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نحن » ! قال محمد : « قلت لكم في سفركم هذا »؟ قال عمر : لا . قال النبي : أما إنكم ستدخلونه ، وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسي ورءوسكم ببطن مكة » . بيد أن عمر ظل يردّد الكلام على النبي ويصيح : « علام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ والنبي يكرر قوله : « أنا رسول الله ولن يضيعني » . وأخيرا صاح أبو عبيدة بن الجراح بعمر : « ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما

يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان واتّهم رأيك » . فالتفت النبي إلى عمر كأنما قصد أن يذكره بفراره عنه يوم أحد : « أنسيتم يوم أحد إذ تُصعِدون ولا تلْوُون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟ » .

غير أن عمر لم يقتنع ومضى إلى أبي بكر يكرر سؤاله : « ألسنا بمسلمين ؟ ألسنا على الحق ؟ » فقال له أبو بكر : « يا عمر الزم أمره فإني أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به . ودع عنك ما ترى يا عمر » . وكان عمر يقول عن ذلك اليوم فيما بعد : « ما أصابني قط شيء مثل ذلك اليوم . لقد ارتبت ارتيابا لم أرتبه منذ أسلمت إلا يومئذ ، وراجعت النبي مراجعة ما راجعته مثلها قط . والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي : لو وجدت مائة رجل على مثل رأيي يخرجون عنهم رغبة عن القضية لخرجت . وإني لأذكر ما صنعت خاليا فيكون أكبر همي . ثم جعل الله عاقبة الصلح خيرا ، وأسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله إلى يوم الحديبية . وكان رسول الله أعلم » .

ثم أذّن محمد بالرحيل فارتحلوا . وسار عمر إلى جوار النبي يكلمه فلا يجيبه النبي بكلمة . فحزن عمر ، وحرك بعيره بعيدا وهو يخشى أن ينزل فيه قرآن لما كان منه . وإذ هو يسير مهموما مع الناس ، والناس قد خالطهم الحزن والكآبة ، إذ مناد ينادي : يا عمر بن الخطاب هلم إلى رسول الله . فأقبل عمر مسرعا حتى انتهى إلى النبي . فقال له النبي وهو يبتسم : « أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ! » . وسمع الناس قوله فجعلوا يتصايحون : « أنزل على رسول الله قرآن ! » . وركضوا حتى توافوا عند النبي ، فشرع يتلو عليهم سورة الفتح :

« إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . . »

ومع ذلك فما أدرك المسلمون إلا بعد مدة أن النبي بإبرامه صلح الحديبية الذي كرهوه ، إنما قام بحركة سياسية باهرة ، وحقق نصرا كبيرا زاد مركزه السياسي قوة على قوة . والواقع أن ما أبداه في الحديبية من ضبط للنفس واستعداد لقبول ما رأى فيه بعض إذلالاً بصدد مسائل غير ذات أهمية كبيرة من أجل الوصول إلى الهدف الضخم ، لدليل على كفاءة خارقة وقدرات ذهنية هائلة ، وتصميم قوي على أن يحتفظ دائما في يده بزمام الموقف حتى لو اضطره ذلك الموقف إلى بعض التنازل . فما مرت الأيام حتى بدت واضحة للجميع وفي متناول الأيدي ، ثمار حكمته.

لقد حقق صلح الحديبية كل ما كان يرجوه وقت خروجه من المدينة لأداء العمرة ، وفوق ما كان يرجوه ، وكان ذلك دون أن تفقد قريش ماء وجهها . بات أهل مكة يعترفون بذلك المهاجر الذي ازدروه طويلا واحتقروا شأنه ندًا لهم مستقلا يعقدون المعاهدات معه . وقد تركت فخامة مسيرته وكثرة هَدْي المسلمين وتوقير أصحابه إياه أثراً عميقا في نفوس أهل مكة ، بحيث بدأت قريش ترى أنه ليس في صالحها الاستمرار في معاداة ابنها ، وخاصة بعد أن أبدى الاسلام من التوقير للكعبة والاحترام للحج ما ضيّق من مجال الخلاف مع هذا الدين الجديد .

وقد أتاح وضع الحرب الفرصة والوقت أمام النبي لنشر الدين بين القبائل العربية الأخرى ، أو الدخول على الأقل معها في محالفات وعلاقات ودية ، مما عزز قوته ومكنه في النهاية من فرض إرادته على مكة.

على أي الأحوال فقد استقرت هدنة دامت نحو سنتين فشا الاسلام خلالها في كل ناحية من نواحي العرب حتى دخل فيه عدد أكبر من عدد معتنقيه منذ بدء الدعوة ، منهم بعض صناديد قريش كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد . والدليل على ذلك أن النبي خرج إلى الحديبية في نحو ألف وخمسمائة من المسلمين . فلما خرج بعد ذلك بعامين لفتح مكة ، كان جنده نحوا من عشرة آلاف رجل .

يصدر في ١٥ أكتوبر ١٩٨٨

كتاب العربي

الحادي والعشرون

ماذا في

العلم والطب من جديد؟

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

قــراءة نقــديــة في كتاب :

وسمية تخرج من البحر

روايــة من تأليف : ليلى العثمان

بقلم / سمر روحي الفيصل *

يحلل الناقد العناصر الرومانتيكية في رواية « وسمية تخرج من البحر » . ويرى أن هذه العناصر ليست قاصرة على هذه الرواية بل انها موجودة أيضا في الرواية السابقة عليها « المرأة والقطة » للكاتبة فهل تعني هذه الظاهرة نوعا من الردة إلى الخطاب الرومنتيكي ، وقبل أن نصل الى إجابة عن سؤال الناقد ندعوك لقراءة هذا المقال . .

تتعدد قراءات النص الواحد ، وتتباين في أحايين كثيرة تبعا للقارىء ، ولطبيعة النص المقروء . واذا كانت حقائق النص الأدبي كحقائق النقد احتمالية دائما ، فان القراءة التحليلية للنص الأدبي تهدف الى الكشف عن طبيعة الخطاب الكامن في هذا النص ، والخروج منها بخطاب نقدي لايدعي الاستئثار بالحقيقة ، ولا يرى شيئا خارج ما يضمه النص المقروء .

أما النص المقروء هنا فهو رواية « وسمية تخرج من البحر » الصادرة عام ١٩٨٦ . ولليلى العثمان ، صاحبة هذا النص ، رواية أخرى هي « المرأة والقطة » صدرت عام ١٩٨٥ . وقد يلاحظ القارىء أن طبيعة الخطاب في الرواية الأولى لاتختلف في جوهرها عن طبيعة الخطاب في الرواية الثانية ، ولهذا السبب سمح لقراءة « وسمية تخرج من البحر » بالامتداد الى « المرأة والقطة » ليستمد من هذا النص ما يجعل القراءة أكثر دلالة على طبيعة الخطاب الروائي عند ليلى العثمان . وعلى الرغم من أن هناك ما يغري الباحث بالتماس مصداقية الخطاب الأدبي في الروايتين من النصوص القصصية التي نشرتها الكاتبة ، بدءاً من مجموعتها الاولى « امرأة في إناء » (١٩٧٦) وانتهاء بمجموعتها الأخيرة « فتحية تختار موتها » (١٩٨٧) ، إلا أن ذلك يتجاوز حدود هذه المقالة وهدفها .

الخطاب الأدبي الذي وجهته « ليلى العثمان » الى القارىء عبر روايتها « وسمية تخرج من البحر »

* كاتب وناقد من القطر العربي السوري

خطاب « رومنتيكي » . فهي تقدم للقارىء حكاية حب بين فقير اسمه « عبدالله » وغنية اسمها « وسمية » جمعتهما الطفولة بلهوها البريء وأيامها الجميلة ، ثم حالت العادات والتقاليد دون لقائهما بعد بلوغهما مبلغ الشباب ، فبقي كل منهما يرنو الى الآخر وإن لم يره . وحين نجح « عبدالله » في أن يلتقي وسمية على شاطىء البحر في الليل فاجأهما أحد حراس الشاطىء ، فهربت « وسمية » لتختبيء في البحر خوف الفضيحة ، وبقي « عبدالله » وحده على الشاطىء . ولما ابتعد الحارس هرع عبدالله الى البحر ليعيد وسمية ، فاكتشف أنها غرقت وأنه لامفر له من أن يبقيها في البحر لئلا يفتضح أمر خروجها من منزلها ليلاً . ثم عاد الى منزله وقص على أمه ماجرى لوسمية ، فذهبت أمه الى أم وسمية ولفقتا معاً حكاية ذهاب وسمية مع أمها وأم عبدالله الى الشاطىء مساء ليغسلن الثياب ، فابتلع البحر « وسمية » دون أن تتمكن المرأتان الأخريان من إنقاذها أو العثور على جثتها . وقد نجحت الحكاية الملفقة في اقناع الناس حين أعلنت أمامهم صباح اليوم التالي ، لان والد وسمية وأخاها مسافران ، ولأن أم عبدالله اعتادت عون أم وسمية في العمل لقاء أجر معلوم .

عناصر رومانتيكية :

يشير التلخيص السابق لموضوع « وسمية تخرج من البحر » الى عنصرين رومانتيكيين هما : الحب البريء الذي جمع بين قلبين أحكمت أواصر الألفة بينهما خلال الطفولة . والقدر الذي اغتال الحب في أول لقاء جمع بين الحبيبين . وهناك مسوغ روائي لهذين العنصرين هو عادات المجتمع الكويتي قبل النفط التي كانت تمنع الحب وتعزل المراهقين والمراهقات إذا كانوا من طبقات اجتماعية مختلفة كما هي حال عبدالله الفقير ووسمية الغنية . ويضيف القول الفني للخطاب الروائي عنصرا رومنتيكيا ثالثا هو انطلاق السرد من الحاضر ـ حاضر مرحلة النفط ـ الى الماضي في نوع من الحنين اليه . ويرسخ هذا العنصر تغير البيئة حول عبدالله (تبدل الأحياء والمنازل والمجتمع بعامة وتهدم منزل وسمية بخاصة) ، وتعس زوجته التي بنى بها بعد أن فقد وسمية بسنوات . كما يضيف القول الفني عنصرا رومنتيكيا رابعا هو ذلك الهيام بالبحر ، وقد كان هذا الهيام مشتركا بين وسمية وعبدالله ، وهو ـ في الحاضر ـ مقصور على عبدالله وحده ، لأن زوجته لاتحب البحر ولا ترغب في أن يعمل زوجها صيادا فيه ويترك وظيفته في الحكومة من أجله .

إن عناصر الخطاب السابقة تدعو كما هو واضح الى المحافظة على حقوق القلب ، ورفعها فوق القوانين التي استنّها المجتمع ، سواء اكانت عادات وتقاليد أم تفاوتا اجتماعياً بين الفقراء والاغنياء ، كما تدعو الى العودة الى الطبيعة ، بل الهيام بها ، وتتفنن في وصف جمال البحر وفائدته ، وتكاد تشخصه وتحاوره وتراه الحبيب الوحيد الذي لايغار من أن يشاركه في الحب حبيب ثان . وقبل ذلك كله تغلب عناصر الخطاب الادبي السمة العاطفية عند الانسان وتضعها قبل الإرادة والعقل ، وتراها الهادي في دروب الحياة ، وتكاد تربط الحكاية كلها بها . وهذا كله مشترك بين الرومنتيكيين ، شائع في الخطاب الأدبي لديهم ، غير أن ليلى العثمان لا تكتفي به ، وإنما تضيف اليه سمات أخرى ليست منه وإن كانت معروفة في الساحة الأدبية العربية وغيرها . فهي لا ترفض الحاضر (أو المدنية) جملةً وتفصيلاً ، وإنما ترفض الحاضر الذي يتخلى عن الماضي ، ولا تحن الى الماضي تمجيدا له أو هرباً من الحاضر القائم ، وإنما تنظر اليه نظرة انتقادية ترسخ ما فيه من تعاون وألفة وحب بين الناس ، وتستنكر ما بلي من عاداته وتقاليده فاذا هجر الحاضر البحر ونفر منه فقد هجر شيئا مفيداً ، واذا تمكن الماضي من قمع العلاقات العاطفية وتقييدها فقد كبت مشاعر انسانية لابد لها من التحقق سراً أو علانية ، وهذا النزوع الانتقادى حقن الخطاب الرومنتيكي بشيات واقعية ، لكنه لم يكن من القوة بحيث يجعل الطبيعة الرومنتيكية لهذا الخطاب تقترب من الواقعية ، وتبتعد عن جعل الذات موضوع الخطاب والمؤثر في عناصره .

الخطاب في رواية « المرأة والقطة » رومنتيكي أيضا ، لكن هناك تغليبا لعنصري الحب والمشاعر الانسانية على العناصر الرومنتيكية الاخرى . أما المشاعر الانسانية فتتجلى في العلاقة بين سالم وقطته دانة ، فقد ألفها ورعاها وأحبها لكن عمته قصمت ظهر هذه المشاعر ورمت بدانة في المرحاض فماتت . وأما الحب فقد تجسد في علاقة سالم بزوجه حصة ، وقد قضت عمته على الحب حين خنقت حصة بالحبل . وهكذا كان سالم في الرواية تعبيراً عن حقوق القلب ، في حين كانت عمته تعبيرا عن القدر الذي يغتال الحب دون أن يتمكن أحد من تقديم مسوغ مقنع لمصائبه التي تترى على رؤوس البشر .

لكن العمة تمثل - من جانب آخر - عنصراً رومنتيكياً ثالثاً هو الميل الى الشاذ في المجتمع . إذ أنها امرأة شريرة . وليس هناك ارتباط بين كونها عانسا وكونها شريرة ، ولم تسع الرواية الى قرنهما معا ، وانما سعت الى ابراز الجانب الشرير في شخصيتها . فهي لاتهدأ إذا لم تنغص حياة أخيها وابنه سالم ، واذا لم تقدهما الى الأمر الذي ترغب فيه .

مواجهة دون صراع

وقد وضعت ليلى العثمان العمة الشريرة في مواجهة براءة سالم ونقائه الداخلي ، ولكنها لم توقد شرارة الصراع بينهما وإنما تركت العمة تدمر ابن اخيها ، وتركت القارىء يتعاطف مع مشاعر هذا الفتى وحبه . وقبل ذلك كله اختارت الماضي (ما قبل مرحلة النفط في الكويت) زمنا للرواية لكن اختيارها لم يكن حنينا الى الماضى ، وإنما كان انتقادا للشر المتأصل في بعض أفراده ، وترسيخا للحب الذي أعلته بعض آخر ، وكأنها تقابل الشر بالحب لتعلي من قيمة الثاني وتحرض القارىء على إزالة الأول من النفس البشرية . وربما كان ذلك مسوغاً لقيادتها السياق الروائي باتجاه انتصار الشر على الحب في صورة نجاح العمة في القضاء على دانة وحصة دون أن يعاقبها أحد على أفعالها الشريرة . بل أن سالما اتهم بقتل حصة ، واودع السجن ثم مشفى الأمراض العصبية .

واذا كان الخطاب الرومنتيكي في « المرأة والقطة » أكثر تنوعا وحركة ، فان الخطاب في « وسمية تخرج من البحر » أكثر عمقا وأقرب الى التأثير في وجدان القارىء . ومهما يكن أمر تعدد العناصر الرومنتيكية وعمقها فان الخطاب النقدى معني ببيان تأثيرهما في بناء النص . وأول ما يطالعنا في هذا الشأن تأثير الخطاب الرومنتيكي في بناء الشخصية . فقد رسمت الشخصية في الروايتين كلتيهما على أنها احادية الجانب ، لا تملك غير الحب (أو الشر في حالة عمة سالم) شاغلا في الحياة ، وهي في الروايتين نقية بريئة ، تحب أمها وتكاد تقدسها ، كما أنها معزولة

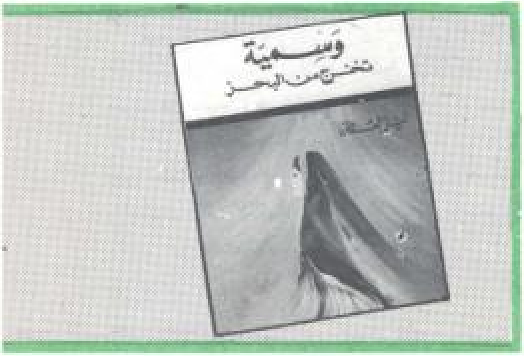

عن المجتمع ، ليس لها عمل تقتات منه أو أصدقاء تركن اليهم أو هموم تؤرقها وشجون تقلقها . لاشيء في الشخصية الرئيسة غير الحب تتحدث عنه طوال النص . ولا تختلف الشخصيات الثانوية والهامشية عن هذا الأمر . فأم عبدالله لا تعرف غير العمل ، وأم وسمية لا تعرف غير الحنان ، وعمة سالم لا تعرف غير الشر ، وأبو سالم لايعرف غير الخضوع لأخته . . وعلى الرغم من أن هناك في الروايتين شخصيات أخرى غير البطل وحبيبته ، إلا أن هذه الشخصيات الأحادية الجانب أيضا ليس لها (ما عدا عمة سالم في المرأة والقطة) أثر يذكر في سياق الرواية .

شخصيات أحادية

إن الخطاب الرومنتيكي في روايتي ليلى العثمان لم ينتج شخصية رومنتيكية أحادية الجانب وحسب ،

وإنما جنح بالنص الى القصة ، ورسم له بناء واحداً يبدأ دائما بالحاضر ثم يتركه عائداً الى الماضي ليسرد الحكاية التي تمت فيه . ويستند في أثناء السرد ، الى ضمير المتكلم (الرؤية مع ، بحسب مصطلح تودوروف) بغية استعادة ما تحتويه ذاكرة البطل ، وكي تسوغ نجواه الذاتية . كما يستند الى ضمير الغائب (الضمير الثالث) في التعليق وسرد ما يتعلق بالشخصيات الاخرى . وللخطاب الرومنتيكي تأثير آخر هو دفع النص بعيداً عن الحياة الاجتماعية في تنوعها وغناها وتعقدها ، إضافة الى أن هذا الخطاب جعل القارىء سلبيا يتلقى الحكاية المغلقة ، وعليه أن يقتنع بالتفسير الذى تقدمه للحدث . أما توفير الفرصة لهذا القارىء ليرى في احدى الشخصيات ما يعرفه عن نفسه أو في غيره ، وأن يشارك في الانحياز الى رأي أو يناهض اتجاها أو يلجأ الى التأويل بعيدا عن هيمنة السارد الواحد الذى يوهم بأنه حامل « ايديولوجية » الكاتبة ، فذلك كله أمر يتلامح في روايتي ليلى العثمان دون أن يخالط نسيجها .

سمة ذاتية

في « وسمية تخرج من البحر » كما في أي عمل حكائي صيغ تنهض بفعل الحكي وبالقائم به ، ومن ثم تؤطر العرض ، أي تقدم النص الروائي كما يطالعه القارىء . أما الحكي فهو القصة ، وأما القائم به فهو الراوي ، وأما المحكي له فهو القارىء . ويفترض أن يكون الخطاب هو مضمون الحكي أو الرسالة التي ينقلها الراوى الى القارىء . ولأن الخطاب في « وسمية تخرج من البحر » رومنتيكي يمر عبر قصة الحب بين عبدالله ووسمية ، وهي قصة ذاتية تمس البطلين وتتصل بهما وحدهما ، فقد اتسم السارد لهذه القصة بالسمة الذاتية نفسها . وقد اختفى هذا السارد الراوى خلف شخصية البطل عبدالله ، وراح يسرد ما يعرفه وما تراه عيناه مستعملا ضمير المتكلم . ومن ثم سردت القصة من وجهة نظر واحدة ، هي وجهة نظر عبدالله . أما وسمية وأمها ومريوم الدلالة (ام عبدالله) فلا نعرف عنهن إلا ما يخبرنا به عبدالله . وسبق القول ان عبدالله لايقيم علاقات اجتماعية في الرواية ، وليس له عمل يقتات منه ، وإن تفكيره متصرف طوال النص الى وسمية ، بل إنه التقى وسمية بعد أن غادرا مرحلة الطفولة مرة واحدة ليس غير . لهذا كله كان من البديهي أن يعتمد بناء هذه الشخصية الرومنتيكية على شيئين : « التجوى الذاتية » ، « والوصف » . وكان البديهي أيضا أن يتسم السرد الذى يقدم هذين الشيئين بالسمة الذاتية ، وبالاعتماد على المنظور النفسي الداخلي . ويصعب على الباحث العثور على مقطع من مقاطع التجوى الذاتية أو الوصف الداخلي والخارجي للمكان والمشاعر والأفكار والشخصيات بعيدا عن المنظور النفسي الداخلي ، أي من خلال إدراك عبدالله لما يراه ويحيط به ويفكر فيه .

ولعل براعة ليلى العثمان في رسم الشخصية الروائية تتجلى في قدرتها على تقديم سلسلة من الوصف الذاتي ، وسيل من التجوى الذاتية ، يشعر القارىء معهما أنه قريب من الشخصية الروائية ، يعرف أدق مشاعرها وأفكارها . غير أنه يرى البحر بعين عبدالله ، كما يرى أمه وزوجه ووسمية وأمها بعينه أيضا ، فيضطر أن يحب ما يعرضه عبدالله محبوبا ويكره ما يعرضه مكروها . وعلى الرغم من أن هذا كله ينم عن قدرة ليلى العثمان على تجسيد شخصية عبدالله أمام القارىء إلا أنه في الوقت نفسه ليس العمل الملائم للنص الروائي .

فالقارىء نفسه لايرى من عبدالله غير جانب واحد هو الحب ، ولا يرى من الشخصيات الاخرى الا ما يتصل بهذا الحب . أما المجتمع فغائب ما عدا اشارات الى التفاوت الطبقي بين عبدالله ووسمية . ومن ثم لا يتابع القارىء صراعا ، ولا يلاحظ توترا في الحوادث ، وإنما يتابع قصة حب رائعة يغتالها القدر المفضل لدى الرومنتيكيين لانه يقدم لهم حلولا لخواتيم رواياتهم ، وللمشكلات النابعة من المآزق الاجتماعية . وهذه الردة الى الخطاب الرومنتيكي في النثر القصصي العربي بدأت تتضح في هذه الأيام فهل لذلك دلالة ما ؟ □

التعليم عن بُعد.. لتعميم التربية في سنة ٢٠٠٠

بقلم : الدكتور مصطفى المصمودي

إن الدفع الكبير لنشر التعليم الذي تشهده الإنسانية في مختلف أنحاء العالم أدى إلى إقبال على المؤسسات التربوية لم يشهد له التاريخ مثيلا ، فهل تظل قاعات الدرس قادرة على استيعاب الأعداد الكبيرة من الطلبة أم أنه أن لنا أن نفكر في طرق أخرى للتعليم ؟

اكتظت المدارس والمعاهد بالتلاميذ ، وتجاوز إقبال الطلبة على الجامعات طاقاتها في الاستيعاب ، وأصبح الحديث عن نشر برامج العلم والتأهيل عبر الشاشة الصغيرة سائرا على كل لسان ، واشتهرت عبارة الجامعة المفتوحة ، ذلك أنه لا يمكن لأحد أن ينكر في الظرف الراهن ما لوسائل الاتصال من دور فاعل في العمل الإنمائي الشامل .

ويكفي أن نستكشف المجال الذي شملته الدراسات لكي ندرك بعض المظاهر العامة لهذه المسألة . وقد يتضح من خلال التجارب والبحوث التي أجريت بصفة منفصلة في بعض البلدان ، أن هناك عدداً لا يستهان به من البيانات التي يمكن أن نستخلص منها عبرا كثيرة .

الناس ووسائل الاعلام

نحن نلاحظ التزايد المطرد للأفراد الذين يخصصون جزءا كبيرا من أوقات فراغهم لقراءة الصحف والمجلات والاستماع للإذاعة والمسجلات الصوتية ولمشاهدة التلفاز على وجه الخصوص .

ويقضي الأطفال في بعض البلدان أمام شاشة التلفاز وقتا أطول من الوقت الذي يقضونه في المدرسة . وقد اتضح من دراسة أجريت باستراليا أن الطفل في هذا البلد يقضي ٢٠٠٠ ساعة أمام التلفاز قبل أن يلتحق بالمدرسة ، أي ما يعادل سنتين دراسيتين .

وتكشف الدراسة نفسها عن أن المواطن الاسترالي يمضي ما يعادل سبع سنوات من حياته في الاستفادة من وسائل الاتصال ، وقد بينت دراسات أخرى أن الزمن المخصص للتلفاز في البلدان المصنعة يتراوح بين ٥٨ و ١٩٠ دقيقة في اليوم .

ومن جهة أخرى أثبتت البحوث التي أجريت بأوربا تأثير التلفاز على سلوك الأفراد ، وبخاصة الشبان ، وبينت في الوقت نفسه أنه إذا كانت وسائل الاتصال تدعم الاستعدادات الثابتة لدى الكهل ، فإنه ليس بمقدورها إحداث الأثر نفسه في بعض الميادين لدى الطفل ، إذ تتضح عنده بعض التصورات والميول والعادات أكثر من غيرها .

ولقد أكدت هذه الدراسات أنه إذا كان تأثير المحتوى العاطفي يدوم وقتا طويلا ويتجاوز أحيانا ثلاثة أسابيع ، فإن قدرة الاستبقاء لدى نفس الطفل بالنسبة للبرامج ذات المحتوى العلمي لا تكتسب نفس الأهمية .

لذلك فالمشكلة الأولى التي تتطلب مزيداً من العمق في البحث ، هي دراسة العلاقات القائمة بين المدرسة ووسائل الاتصال الجماهيرية وآفاق تطورها ، فالآراء ليست دائما متطابقة .

ثم إنه لا بد من الاعتراف بالفوارق القائمة بين مفهومي التثقيف عن طريق البرامج التلفازية العادية والتربية عن بعد من خلال وسائل الاتصال الحديثة بما فيها الحاسوب والقمر الصناعي .

مزايا المدرسة وحدودها

إنه بالإمكان إبراز هذه المزايا واستجلاء حدود تأثير المدرسة النظامية من خلال أعمال اللجان الكثيرة التي انكبت على دراسة الموضوع .

وقد كانت اللجنة الدولية التي كلفتها منظمة اليونسكو بدراسة مستقبل التربية ، في مقدمة المهتمين بهذا الموضوع (اليونسكو ١٩٧٢ - ١٩٧٤) ، وهي تعترف بأننا « لا نعرف ما تحدثه وسائل الاتصال في حياة الإنسان من تحولات لفرط معايشتها له إلا القليل الغامض . ونحن لم نقوّم حق التقويم ما غيره الجيل الثاني والجيل الثالث للتلفاز من أحوالنا ، كما اننا لم نستطع حتى الآن تصور الأوضاع التي ستنتج عن وسائل الاتصال في سباقها مع المستقبل » .

وتؤكد اللجنة « أن النتائج تثبت إمكانية تنمية ذكاء الطفل في ما قبل المدرسة بفضل التلفاز » . ويبين هنري د . كاسلير في دراسة معدة لهذه اللجنة « أن المربين المحترفين يعيشون - بحكم العادة - وسط أفكار تنتمي إلى محيطهم الخاص ، ويحققونها بأنفسهم ، وهكذا فإنهم ينزعون إلى تصور عملية التربية وتوجيهها كما لو كانت وسائل الاتصال غير موجودة ولم يكن لها أي مفعول جوهري في تبليغ المعرفة ، أو كما لو كانت لا تؤثر تأثيرا عميقا في أنماط تعبير الشبان والكهول وأشكال مساهمتهم » .

ويضيف المؤلف قائلا : « إن هذا التجاهل لأجهزة الإعلام هو نتيجة النزعة الحالية المتمثلة في إعداد المعلمين لدنيا الماضي عوضاً عن منحهم القدرة على العيش في عالم يتطور بسرعة وعلى التحكم في هذه السرعة . » ، وبناء على ذلك يرى المؤلف في خاتمة تحليله « أن إحدى مهام التربية هي تنمية استعدادات التلميذ ليدرك حقيقة الإطار الذي يتقلب فيه ، وتؤدي ضمنه وسائل الإعلام دورا مهما » ، كما

يعتبر من الجوهري بالنسبة للتربية بالمفهوم العصري أن يكون المتعلم قادرا على التعبير عن أفكاره بكل الوسائل التي في متناول يده .

بين التربية ووسائل الاعلام

تقوم بين الاتصال والتربية علاقة متبادلة ما تنفك تزداد نموا . هذا ما أكدته اللجنة الدولية التي كلفت بدراسة مشاكل الاتصال (اليونسكو ١٩٧٧ - ١٩٨٠) ، وذلك يعود - حسب رأي هذه اللجنة - للأسباب التالية : -

- تأكيد دور وسائل الإعلام في التوعية وصقل الفكر المهني ، وهو عمل يندرج في إطار التنمية الشاملة .

- اتجاه المدرسة في كل المجتمعات إلى التخلي عن قسط من امتيازها التربوي ، مما يستوجب ضرورة مراجعة وظائف المدرسة ، وتقسيم المهام بين المدرسة النظامية ووسائل الاتصال .

- ان أهم مظهر للترابط بين الاتصال والتربية يتمثل - حسب تقرير هذه اللجنة - في التدرب على حسن استعمال وسائل الاتصال من أجل تلافي المخاطر التي قد تنجم عن انبهار الإنسان بالجهاز التقني .

أما الخبراء الذين شاركوا في الملتقى الدولي حول تدريب الجمهور على استغلال وسائل الاتصال في مجال التربية (اليونسكو ١٩٨٢) فهم يرون أن المدرسة لا تدرب الشبان - بالقدر الكافي - على مواجهة الحياة والمشاكل اليومية ، وأن وسائل الاتصال قد تجاوزتها لأنها تضمن للتلاميذ محيطا تنسجم أشكاله ومحتوياته في إطار أقرب للواقع من تصورات المدرسة وفحوى برامجها . ومن ثم جاءت ضرورة التفكير في هذا الموضوع وضبط برنامج عمل للوصول بالمدرسة إلى مزيد من التفتح على قنوات الإعلام والاتصال ، والحيلولة دون إهمال المعارف الغزيرة المتنوعة وتجاهلها . وينبغي حسب رأي هؤلاء الخبراء أن يتمثل دور المدرسة في تبني برامج طريقة متقاربة مع ما تقدمه وسائل الاتصال ، متماشية في آن واحد مع مناهج البحث العلمي .

وقد أولت لجنة اليكسو للإعلام (١٩٨٣ - ١٩٨٦) عناية جيدة بالعلاقة القائمة بين وسائل الإعلام والتربية ، كما خصصت ضمن ٩٠ توصية اختتمت بها تقريرها جملة من المقترحات المتصلة بذلك ، نذكر منها على الأخص :-

- دعوة وسائل الإعلام ومؤسسات التربية إلى إقامة تنسيق بينها مبني على خطة شاملة وبرامج تنفيذية بما يحقق تكامل عمل كل منها مع عمل الأخرى ، ودعوة المؤسسات التربوية والتعليمية إلى المزيد من الاستفادة من إمكانيات وسائل الإعلام واستخدامها في إنجاح العمل التربوي .

وقد توصلت كل هذه اللجان إلى استنتاجات مماثلة ملخصها أن التربية تتجاوز حدود الاتصال وتقل عنها في نفس الوقت ، فعندما ينخفض المستوى التربوي ، تتضاءل قدرة وسائل الإعلام في التأهيل والتثقيف ، وعندما يرتفع مستوى التربية المدرسية يتسع المردود الإعلامي . وهذا الترابط المتين يدعو إلى إيجاد درجة من التكامل حتى تكون العلاقة مثمرة وإيجابية إلى أبعد حد ممكن .

وهكذا تعود إلى المدرسة وظيفة علمية تتمثل في تلقين المعارف والنظريات في حين تبقى لأجهزة الإعلام المواد المرتكزة على الصور والرسوم ومختلف أنماط الاتصال المادي .

وخلاصة القول أن التربية في البلدان النامية يجب أن تكون متجهة نحو عالم الغد ، مساهمة في تحقيق التنمية في نطاق سياسة رشيدة . وأن التقنيات المتطورة هي عنصر حتمي لذلك ، وإن كان من الواجب الوعي العميق بمحاسن هذه التقنيات ومساوئها المحتملة ، وذلك قبل استخدامها .

التأثيرات السلبية

إن التنمية الشاملة لا يجوز أن تأتي على حساب القيم الحضارية الموروثة ولا الهوية الثقافية الوطنية ، إلا أن الملاءمة بين هذين الخيارين لن تتحقق

بسهولة ، إذ ليس من المؤكد اليوم أن أجهزة الإذاعة والتلفزة قادرة على وضع مقومات التربية الوطنية والاجتماعية في مقدمة أهدافها ، كما أن التربية الأصيلة لن تتحقق بسهولة طالما واصلت البلدان العظمى فرض تأثيرها الإعلامي على الساحة الدولية ، وتهاونت في مساندة البلدان الصغيرة على خلق الظروف الملائمة لبلوغ المستوى الإنمائي المتكامل .

وحين تسعى البرامج التربوية في مستوى المدارس النظامية إلى غرس الروح الوطنية وحماية المقومات الحضارية للأمة ، تنساق وسائل الإعلام القومية من خلال البرامج الثقافية المستوردة إلى تكريس قيم وعادات دخيلة تهدد ـ على الأمد الطويل ـ الأمن الثقافي الذي تستمد منه الشعوب مناعتها .

وتكون النتيجة في نهاية المطاف : انتماء المواطن العربي أو الافريقي انتماء وهميا للمجموعة العالمية ، وابتعاده عن مجموعته وظروف حياته المحلية .

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر فإنه لا مفر من استعمال وسائل الإعلام والاتصال في مجال التعليم بالبلاد النامية ، واسناد دور تربوي مهم اليها .

ذلك أن نسبة الذين يقبلون على المدارس ما زالت ضئيلة بالمقارنة مع عدد السكان الذين هم في سن الدراسة ، كما أنه ليس هناك ما يدل على إمكانية توفير العدد الكافي من المدارس والمعاهد والجامعات لمواجهة تدفق الشباب عليها في نهاية هذا القرن . إن التلفزة ستكون هي الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الشباب والكهول ، من ثم لا بد من تحديد سياسة إعلامية متماسكة مع الأهداف الوطنية في مجالات التربية والتعليم العالي والتأهيل المهني .

إمكانات وسائل الاتصال وفوائدها

إن وظيفة وسائل الإعلام في مجالات التعليم والتأهيل هي توضيح الحقائق العلمية ، وجعل العقل البشري قادراً على الاستفادة من تطبيقاتها في نشاطه اليومي ، فيصبح العلم هكذا مقوما من مقومات الحياة ، ومنطلقا للتغيير نحو المستقبل الأفضل .

ودور الأجهزة الإعلامية التقليدية والحديثة لا يقتصر على التربية الوطنية والاجتماعية ، وتلقين التاريخ والجغرافيا ، أو المساعدة على اكتشاف العلوم من خلال برامج التسلية والترفيه ، وإنما ينبغي أن يتسع في المستقبل لكل برامج التعليم في مختلف مراحله ، وبخاصة في المرحلة العليا ، من خلال ما يسمى برامج التربية عن بعد أو الجامعة المفتوحة .

وقد بدأت التجارب في البلدان المصنعة وأتت بنتائج طيبة جداً .

كانت برامج التعليم عن بعد في بدايتها معدة للتأهيل المهني والتعليم العالي ، وكانت موجهة للمعاقين الذين لا يقدرون على التنقل من المعاهد وإليها أو للذين يشتغلون بالنهار ويريدون تحسين مستواهم الفكري فيصرفون أوقات فراغهم في متابعة الدروس عن بعد . وتقدم هذه الدروس في ظروف مختلفة . ففي اسبانيا وبريطانيا والمانيا الغربية ، هنالك مراكز مختصة تنفرد بتنظيمها ، أما في فرنسا فإن الجامعات في مختلف الجهات لها الحق في استحداث فروع لتوجيه برامجها من خلال وسائل الاتصال الحديثة مثل التلفاز (التليماتيك Telematique) وقد بلغ عددها ٢٢ فرعا من مجموع ٧٥ جامعة ، وتساعد على ذلك بعض المؤسسات الاقتصادية الكبرى .

وقد تضاعف عدد المتفعين بهذه الدروس خلال عشر سنوات ماضية فبلغ في سنة ١٩٨٧ حوالي ٤٠ ألف تلميذ وطالب ، وكان جلهم في مجالات التقنية والحسابات والتصرف .

وقد كتب جيرار كورتوا في جريدة لوموند الصادرة بتاريخ ٤/٢/٨٨ أن هذا العدد ضئيل جدا إذ لا يمثل أكثر من ٢٪ من مجموع الطلبة بفرنسا الذين يقدر عددهم حاليا (٩٦٠) ألف طالب .

ويرى هذا الخبير أن التطور سيكون سريعا ، وأن بقية الجامعات ستضطر لفتح فروع خاصة بها .

وتقول السيدة باروس إن هناك تخوفا من الأساتذة الجامعيين ، لأن هذا النظام التربوي الجديد يقطع العلاقة بين الطالب والأستاذ ، وينتهي في خاتمة المطاف بتفريغ قاعات التدريس .

وتبين الدراسات أن نجاح هذا النظام يتوقف على عدة شروط منها :

- تنظيم لقاءات دورية بين المربين والطلبة ، ثم الطلبة وحدهم ، نظرا لفوائد للاتصال ، وقد يكون ذلك مباشرا أو من خلال الندوات التلفازية .

- الإكثار من البرامج المتلائمة تربوياً مع وسائل الاتصال وحسب اختصاصها (اشرطة فيديو - تسجيلات الخ) مع التخفيض من المحاضرات المطبوعة على الأوراق والمرسلة عبر البريد العادي .

وتتجه العناية في مختلف بلاد أوربا وفي نطاق تنسيق محكم بين المؤسسات المختصة مثل Saturn & Pace & comett إلى تنظيم إنتاج البرامج التربوية الملائمة وتبادل المعلومات وتدريب المربين على مباشرة مهامهم بأساليب تختلف تماما عن الطرق التقليدية . فالخبير التربوي يصبح منتجا للبرامج التربوية ، والمعلم مرشدا ومنشطا تلفازيا .

والتربية عن بعد هي في نظر هؤلاء الحل المثالي لفض مشكل الانقطاع عن الدراسة وتوفير المرافق التربوية الكاملة أمام الملايين من الطلبة الذين سيبلغون سن الدخول للتعليم العالي في نهاية هذا القرن .

التربية عن بعد وآفاقها في الوطن العربي

إن من واجبنا الاهتمام بهذا الموضوع الكبير والإعداد لتبني برامج مماثلة استنادا إلى الطاقات والإمكانات الإعلامية المتوافرة ، فالمؤسسة العربية لنقل المعلومات (URSIT) مؤهلة في مجال اختصاصها لتدعيم التعليم عن بعد بنقل ما يمكن نقله من معطيات تربوية بين مختلف الأقطار العربية ، كما أن شبكات المعلومات الموجودة في جامعة الدول العربية واليكسو مطالبتان بالإسهام في ذلك ، كذلك يهيء عربسات إمكانات واسعة ، سواء في مجال الاتصالات العامة كالهاتف والتلكس والبرق ونقل المعلومات من خلال الصور والوثائق والصحف facimile أو في توصيل التعليم النظامي بمراحله المختلفة إلى مجموعات السكان في مختلف المناطق لمحو الأمية وتعليم الكبار والتدريب التقني في مختلف المجالات ونقل المحاضرات الجامعية .

إلا أن استخدام القمر الصناعي العربي من أجل الأغراض الإعلامية والتربوية والثقافية والانمائية بصفة عامة أمر يتطلب التنسيق بين هيئات عديدة على المستوى الوطني وعلى المستوى الإقليمي ، ويستدعي تحديد التزامات مختلفة ، ووضع جدول زمني محدد ، ويحتاج إلى معلومات وبيانات منتظمة من مصادر شتى ، ويتطلب حصرا واقعيا للمشكلات والاحتياجات الإعلامية بصفة خاصة ، والانمائية بصفة عامة .

لقد عرضت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على وزراء الإعلام في اجتماعهم الأخير بتونس وثيقة تتضمن أهم الإنجازات التي يمكن المبادرة بها من أجل توظيف القمر الصناعي العربي في خدمة التربية والعلوم وهي :

* التخطيط لإنتاج حلقات تلفازية تعليمية موجهة إلى الطلبة العرب ، تتناول القضايا الإساسية في مناهج المواد المختلفة ، وتصلح للعرض من خلال الشبكة الفضائية العربية التي قد يتم تنفيذها من خلال إدارات التلفاز التربوي أو في منظمة اليكسو على الأخص .

* التخطيط لإنتاج سلسلة من البرامج التلفازية التعليمية الموجهة إلى المعلمين في الوطن العربي .

* إعداد ندوات عن طريق الاتصالات الفضائية تكون أطرافها في أكثر من قطر عربي في الوقت نفسه ، وتعالج عددا من الموضوعات الأساسية □

* إنتاج برامج تلفازية في مجالات تبسيط العلوم والتقنية ، بهدف استغلال التقنيات الحديثة في بث برامج الثقافة العلمية لأكبر عدد ممكن من المواطنين في الوطن العربي ورفع مستوى الوعي العلمي والتقني .

* استخدام القمر الصناعي العربي في التعامل مع البيانات وتداولها عبر قاعدة معطيات المنظمة العربية (اليكسو) وقواعد المعلومات في الوطن العربي ،

وتحديد المتطلبات الفنية المناسبة لذلك ، وتدريب القوى البشرية تحقيقا لكفاية استخدامها في هذا المجال .

إن المدرسين وجميع الذين يشاركون في العمل التربوي لا يمكنهم إنكار ما لوسائل الاتصال من صفات تربوية ، فعليهم أن يستفيدوا منها .

وهذا يفترض أن يتدرب المعلم على استخدام وسائل الاتصال لإثراء تعليمه ، وتيسير تنقل التلميذ من الوسط المدرسي إلى الحياة العصرية ، فالمهم هو أن نحسن تربية الجماهير بأقل ما يمكن من الوسائل والتكاليف ، وبما يستطاع من الفاعلية والشمول .

لذلك فإن الأمر يتعلق بالاستعانة بالتقنية العصرية مع ملازمة الحذر وتوخي الوضوح حتى لا تسيطر علينا هذه التقنية أو نقع في هفوات الاستلاب الحضاري .

النتيجة المنطقية

إن النتيجة المنطقية التي يمكن أن نستخلصها من هذا التحليل تتمثل في ضرورة مواصلة التعمق في التفكير ، وإيجاد الملاءمة بين المدرسة ووسائل الاتصال ، مع الاهتمام المتواصل بالتقدم ، وتحسين الظروف الإنسانية ، والعناية باهتمامات بلادنا النامية التي هي أشد حاجة من غيرها إلى العلم والمعرفة ، حتى نتدارك التأخير ، وننتصر على التخلف الذي ما زلنا نتخبط في حبائله .

وستكون سنة ٢٠٠٠ الموعد الحاسم لطرح هذه الاختيارات الأساسية والإعلان عن إنشاء الجامعة المفتوحة من خلال الشبكة الفضائية العربية .

فلا بد من الإعداد لهذا الموعد في كل أرجاء الوطن العربي ، يوم يصبح هناك ثلاثة ملايين من الطلبة وعشرة ملايين من المنقطعين عن التعليم في المرحلة الثانية . □

قاسم أمين

* من حق الحياة علينا أن نؤمن بالاستقامة قبل أن نبدأ العمل ، فما أثمر كفاح زاملته الخطايا .

(د . عبدالرزاق السنهوري)

* تكلم بما تعتقد ، وليكن كلامك مطابقا لما في نفسك .

(شكسبير)

* الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ، ولا يمل ، ولا يعاتبك اذا جفوته ، ولا يفشى سرك .

(ابن الطقطقى)

* الرجل العظيم هو أنفع الناس للناس .

(لطفى السيد)

أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل .

(قاسم أمين)

عندما يحلم الجياع

قراءة في تغريبة بني هلال

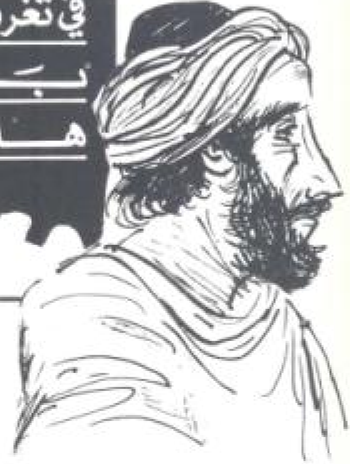

بقلم : الدكتور محمد المنسي قنديل

لا يزال بنو هلال يركضون فوق تضاريس الوجه العربي ، يعبرون من سنوات القحط إلى سنوات الحرب دون أن يصلوا إلى لحظات السكينة ، يبحثون عن أرض لا تجدب ، وآبار لا تنضب ، ومراع دائمة الخضرة . باختصار يبحثون عن حلم مستحيل وسط البيداء العربية .

ما الذي منح الحياة لهذه التغريبة طيلة هذه السنين ؟

كيف تحولت إحدى ملاحم الحرب والقتال إلى زاد يسكن في وجدان الناس المسالمين ، سواء أكانوا رعيانا في الجبال أو فلاحين على ضفاف الأنهار تمنحهم السلوى والأمل ؟

كيف تداخلت أشعار الحرب مع أغاني الحصاد ، واختلط وقع سنابك الخيل مع ضربات الفؤوس ؟

لماذا بقي أبو زيد الهلالي ، ودياب بن غانم ، والجازية ، والسلطان حسن ، والقاضي بدير ، ومرعي ، وسعدة ، والزناتي خليفة ، على قيد الحياة على الرغم من انتهاء أعمارهم الافتراضية ؟ ولماذا بقيت غربتهم مستمرة ؟

حلم الأرض

سمعت بتغريبة بني هلال لأول مرة من أفواه بعض ورثتها الحقيقيين . كنت أعمل طبيبا صغيرا في إحدى قرى صعيد مصر ، قرية معزولة على بحر اليوسف ، لا يصلها بالمدينة إلا طريق وعر متقطع ، ولا ينير ليلها إلا ذبالات المشاعل المرتجفة . وكان الليل معلم القرى ، وباعث الرعب في أوصالها ، يطبق عليها فيحولها إلى كتلة مظلمة ، يخفت فيها صوت البشر ، ويعلو صوت الذئاب . كنت أضيق بصمت الوحدة الصحية ، فأسعى في دروب القرية الضيقة ، يتقدمني الممرض وهو يحمل مصباح الغاز إلى حيث يجتمع الرجال فوق إحدى المصاطب أو

داخل قاعة من القاعات . في هذه الليلة كان هناك شاعر نصف أعمى ، نصف أصم ، يعزف على ربابة لها وتر واحد ، يحاول بواسطته أن يستحضر ملحمة بني هلال بكل ما فيها من صخب ورقة وعنف ووحشية وعذوبة . ولم تكن مهمة المغني صعبة ، فكل ما فعله هو أنه أحدث ثقبا صغيرا في وعي الفلاحين المحدقين به . ومن هذا الثقب انسال كل شيء من أعماقهم . كانت « التغريبة » متأججة بالحياة في داخلهم ، واكتسبت على مر الأيام والسنين نوعا من الحياة الذاتية ، وأصبح لها كيانها المحسوس . كانوا جميعا ـ وهم الذين لا يجيدون القراءة ولا الكتابة ـ يحفظون الأشعار وتفاصيل الوقائع وأسماء الفرسان ومعالم البلدان ، كأنما بنو هلال قد أودعوهم سرهم الخاص في لحظة ما . كانوا بمختلف طبقاتهم قد نهضوا في ظلام الليل يؤدون أدوارهم بدقة . الأجراء هم وقود الحرب ، والمزارعون هم الفرسان . والأعيان هم الحكام والأمراء . وظل وتر الربابة الوحيد مثل الصوت الصارخ في البرية يرثي حلم العدل والبحث عن أرض ، والرغبة في الأمان .

كان من الطبيعي أن تمتد رحلة بني هلال عبر الترع والجسور ، ويصبح الفلاحون هم ورثتها ، فقد كان حلمهم هو الأرض الخصبة ، وعلى الرغم، من أن أبطال التغريبة كانوا من الفرسان إلا أنهم يتشاركون مع الفلاحين في نفس الحلم ، ويهربون مثلهم من نفس المخاوف ، مخاوف الجوع والإملاق ، وليس أكثر من الفلاح من عرف قسوتها ، لا بسبب الجفاف ونضوب الأنهار ، وتقلب الطبيعة فقط ، لكن بسبب سلب الولاة والجباة ، وحصول الفلاح على الأرض هو أشد أحلامه عسرا ، فالأرض لا تستقبله إلا أجيرا أو منهوبا ، ونادرا ما تستقبله مالكا . كان فارس الملك يركب الجواد ويركض به إلى حافة الأفق ، ويمتلك كل الأرض التي يقطعها الجواد في المسافة من مشرق الشمس حتى مغربها . وجاء بنو هلال ليحققوا هذه الأمنية المستحيلة ، ساروا من مشرق الأرض العربية حتى مغربها ، وقاتلوا كل فرسان الملك السابقين .

في كل مكان مروا به كان حاكم المكان يصر على منعهم من الراحة ، ويطالبهم بعشر ما معهم من مال وجمال وخيل ونساء ، تماما كما يفعل الجباة مع الفلاحين حين يصرون على تحصيل الضريبة في الزمن الضنك ، ويسلبونهم محاصيلهم وحيواناتهم الضرورية . كان الفلاح ـ في الواقع ـ يحاول التحايل على هذا العسف ، يخبيء المحصول ، ويهرب الحيوانات ، ويتظاهر بالضعف والذلة ، لكنه ـ في زمن الحلم ـ مع بني هلال يواجه هذا الابتزاز بالقوة ، يرفض منطق الحاكم الظالم ، ويشرع سيفه ، ويبدأ حربه ، ويقتل الحاكم الظالم ، ويولي بدلا منه الذي يعده بأن يكون عادلا ، ولا يخرج الأمر عن مجرد الوعد .

وعلى طول المسيرة تتكرر المدن الخيالية ، ويتكرر الحكام ، ويبدو ظاهريا أن هذا تكرار في المكان ، لكنه في حقيقة الأمر امتداد في الزمان ، يحكي قصة كل الحكام الذين صمدوا ووعدوا وأخلفوا واستولوا على أعشار أرزاق الناس ، إنه كابوس النهب وافتقاد العدل . وحتى سيوف بني هلال ليست لها القدرة على رتق الأحلام . وبذا فإن حياتهم فوق هذه الأرض هي تغريبة طويلة ، ما دام هناك حكام ، سواء كانوا غرباء عنهم أو منهم ، فإنهم يتصرفون وفق منطق كل الحكام .

ربما مست السيرة نفوس الفلاحين لهذا السبب ، لكن المثير للدهشة أنها مست أيضا كل أوتار النفس العربية ، كل الذين يمارسون الزرع والقلع والصيد والرعي ، ربما لأنها تحمل شيئا مشتركا في حياة كل هؤلاء ، أو أنها اعتمدت على واقعة حقيقية تمثل شيئا مهما في وجدان الناس العربية .

تبدأ الرحلة من بلاد نجد التي أصابها الجفاف ، وهدفها تونس الخضراء ، لإنقاذ أولاد السلطان الأسرى بها ، لكن بني هلال بدلا من أن يسلكوا طريقا مختصرا عبر مصر ـ عكس طريق الحج المعروف ـ إذا بهم يواصلون الرحيل شمالا إلى العراق ، ثم إلى دمشق ، قبل أن ينحدروا إلى

فلسطين وبيت المقدس ، وقبل أن يدخلوا مصر . وهم بذلك يسيرون على نفس خطوات الفتح العربي الإسلامي ، كأنما يعيدون تمثيل نفس الحادثة التي غيرت وجه المنطقة . يقومون بفتح آخر ، يحمل السيوف العادلة ، ويعيد سيطرة القبائل العربية الأكثر نقاء وجوعا على القبائل الشمالية المتخمة ، الأقل نقاء . وهم يعيدون أيضا تمثيل نفس الأعداء السابقين ، العجم والروم ، يعيدونهم إلى المنطقة مرة أخرى ليحاربوهم وينتصروا عليهم ، رحلة خرافية ، وسط مدن خيالية ، ضد ملوك لم يوجدوا ، لكنها تضرب جذورها في جغرافيا الواقع ، وتعيد تركيب جزيئات التاريخ . ألا يكفي هذا مبررا حتى تجد النفس العربية شيئا من ذاتها في رحلة بني هلال .. ؟

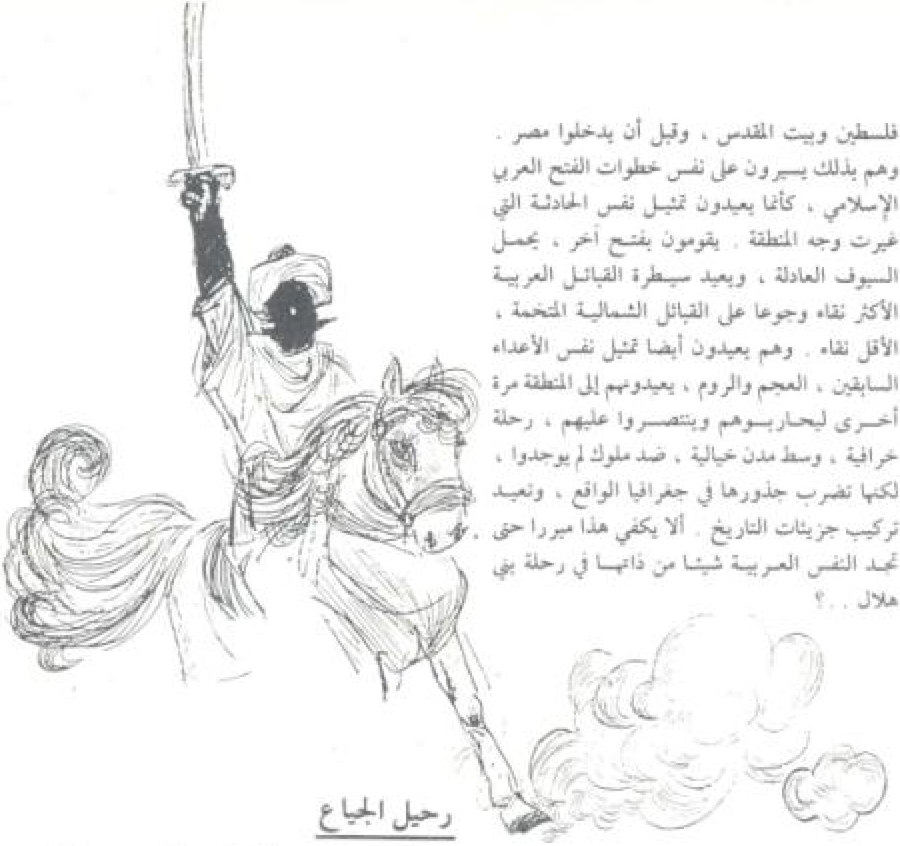

إنها ليست ملحمة البطل الفرد ، لكنها تحمل ملامح أبطال كل السير الشعبية الأخرى ، أو بالأحرى ملامح كل جماع الأمة العربية ، فأبو زيد يحمل سواد عنترة ، وخفة علي الزيبق ، ودياب يحمل بطش بيبرس ، وفروسية حمزة البهلوان ، والجازية فيها جمال وشهوة كل نساء السير العربية . أخذ الهلالية كل الصفات التي حددها الخيال الشعبي لأبطاله ، وأضافت إليها لمسة آسرة من الواقعية الإنسانية . أبطال يتحاربون ويموتون على أرض الواقع ، لا سحر ، لا خرافة ، لا أفعال خارقة للعادة ، استبدلت كل هذا بالعقيدة الشعبية التي يؤمن بها الجميع ، وهي « المقدر والمكتوب » المصير الذي لا يفلت منه حي .

هل تكفي هذه الأسباب حتى تبقى على السيرة حيويتها ، أم أن هناك أسبابا أخرى تكمن في بنية السيرة نفسها ؟

رحيل الجياع

بدأت تغريبة بني هلال داخل أرضهم بعد أن غير الجدب كل المعالم القديمة ، وطالت مدة المجاعة ، حتى اضطروا للتفكير بصورة مختلفة . لقد أرادوا أن يكسروا الدورة الصحراوية القاسية التي تبادل بين مواسم الجوع والشبع ، أرادوا أن يرحلوا حيث لا مواسم ، وكان عليهم أن يتحركوا مثل قبضة اليد الواحدة ، على الرغم من كل الخلافات المحتدمة في داخلها . اختاروا فارسهم أبا زيد كي يقوم بمهمة الدليل الذي يكتشف لهم مكان الأرض المناسبة ، لكن أبا زيد الذي كان يعاني من عقده الخاصة ـ سببها على الأرجح لونه الأسود والشك في صحة نسبه ـ يعتقد أن القبيلة تريد التخلص منه ، ويرفض الرحيل قبل أن يأخذ أولاد السلطان حسن الثلاثة معه .

استغرقت رحلة الاستكشاف خمسين يوما ، وعاد أبو زيد وحيدا لا يحمل معه إلا وصفا للأرض

الحلم ، تونس الخضراء ، لكن أين أولاد السلطان الثلاثة يحيى ومرعي ويونس ؟ لقد وقعوا في أسر حاكم تونس « الزناتي خليفة » ، أسرهم جميعا ، وأوشك أن يقتلهم لولا أن تدخلت ابنته « سعدى » وأقنعت والدها أن يطلق العبد « أبا زيد » ، حتى يذهب ويأتي بفدية الأمراء . لقد خدعت سعدى أباها للمرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة . كانت قد قرأت الرمل وعرفت أن قدرها هو الوقوع في غرام مرعي ، وقدر أبيها هو الموت على يد بني هلال الذي سيقبلون على تونس كالجراد .

تصبح تونس هي هدف بني هلال . تجمع قواها وتستنفر كل بطونها ، يقودهم الأمير حسن بن سرحان ، وأبو زيد الهلالي ، ودياب بن غانم ، والقاضي بدير بن فايد . بل وأرسلوا أيضا يستدعون « الجازية » أخت السلطان حسن البارعة الجمال الصائبة المشورة ، فتركت زوجها أمير مكة وأولادها ولحقت بهم .

تبدأ سنوات حرب بني هلال ، في كل مكان يهبطون إليه هناك . حاكم ظالم يقف في وجههم ، لا يمنحهم إذن العبور ، ولا فرصة الراحة ، يفرض عليهم معركة يحاولون عبثا أن يتجنبوها . ويدفع بنو هلال ثمن كل خطوة من خطوات رحلتهم بالدم . يأتي ملوك العجم والروم ، وحتى ملوك الجاهلية القديمة ، يستيقظون من الماضي ، يحملون كل رموز المظالم ، ثم يكتسحهم طوفان بني هلال . حاكم واحد تبعهم هو ورجاله ، هو الخفاجي بن عامر الذي وقع في غرام الجازية التي لا سبيل لقلبها إلا الموت . وسوف تصبح « الجازية » باستمرار مثل هيلانة طروادة ، الجميع يتمنونها ولا يحصلون إلا على الدمار .

ثم تبدأ مشاكل بني هلال الحقيقية حتى أسوار تونس المنيعة ، فالزناتي خليفة مولود من تزاوج بين أنسية وجان مستعص على الموت ، قدره فقط أن يموت على يد دياب بن غانم ، لكن الصراع الخفي داخل بني هلال قد أصبح عاليا . غرته الممالك التي دانت والانتصارات التي تحققت ، واعتداد دياب بنفسه ، وطمعه في عرش السلطان . وكانت الخطة التي دبرتها الجازية هي الانتصار بدونه ، وإبعاد دياب عن مكان المعركة بحجة رعاية الأنعام ، أو « البوش » . وأدرك دياب منذ البداية أنهم يحاولون إبعاده ، لكنه فضل أن يطيع ويبتعد حتى يشعروا بمدى افتقارهم إليه .

ولابد أن الأقدار التي حبت بني هلال طويلا قد قررت أن تعاقبهم . أصيب أبو زيد بلدغة ثعبان ورقد عاجزا ، وبدأ الزناتي يهاجمهم بضراوة وقد أمن الموت . قطع تسعين رأسا من فرسانهم وعلقها على الأسوار . وأخذ بنو هلال يترنحون تحت ضربات الهزيمة الوشيكة . حتى بعد أن تسللت سعدى وأعطت الترياق لأبي زيد لم يفد رجوعه إلى القتال في تحويل دفة المعركة . مقدور أن الزناتي لا يموت إلا على يد دياب ، ودياب بعيد ، وأبو زيد والسلطان لا يستطيعان التراجع والإقرار بالهزيمة . ويبدأ أفراد القبيلة يرسلون لدياب أن يعود وهو يرفض . لم يكن يقبل أقل من التسليم والاعتراف بالعجز من الذين أبعدوه . وتحت وطأة الهزائم سافر غانم والد دياب يحمل إليه رسالتين مزيفتين على لساني السلطان وأبي زيد . وقبل العودة أخيرا .

أدرك الزناتي أن نهايته قد حانت ، وأن قدره يركض تحت الأسوار ، يتحداه ويطلب منازلته أغلق أبواب المدينة واحتفظ بالمفاتيح وجلس يرتجف . قفز دياب فوق الخندق بجواده ، وأنذر الجميع أنه سوف يقفز فوق أسوار المدينة . وذهبت سعدى بدوافعها الغريزية الغامضة تحث أباها على الخروج ، وتواصل خداعه بحلم مزيف ونبوءة كاذبة عن انتصاره . وكانت مهانة الزناتي قد بلغت مداها ، ولم يبق أمامه إلا أن ينهض ويخرج ، وينقذ شرفه كفارس وكملك بالموت . خاض معركته الأخيرة البائسة وهو يعرف نتيجتها سلفا . وسقطت تونس ، حلم الهلالية الأخضر .

هل استكان بنو هلال ؟ هل وصلوا إلى أرضهم الموعودة ؟

لقد حانت لحظة تصفية الحسابات المؤجلة ،

واستيقظت التناقضات والصراعات التي كانت غافية . وضع دياب يده على تونس بلا حساب ، وجلس على عرش الزناتي ، وضم سعدى إلى حريمه على الرغم من أنفها وأنف مرعي وأنف السلطان حسن . وعندما أصر السلطان على استردادها تحداه وقتلها . فاحتال السلطان حتى أدخله السجن ليذل فيه روح الفارس المقاتل ، لكن دياب استطاع أن يفلت ويذبح السلطان دون رحمة . ونهض أبو زيد كي ينال ثأر السلطان ، لكن لحظة من التردد القاتل أرقت روحه . إن أبا زيد لم يكن فارسا خالصا ، كان يحمل في داخله إحساس الناس البسطاء الذين يذهبون دائما وقودا للحرب ، وكان يدرك أن بني هلال قد حاربوا أكثر مما ينبغي . إن حرب الأهل هي أمر أنواع الحروب ، لذا قرر أن يعفوا وأن يتصالح وأن يمد يده إلى دياب ، لكن دياب الذي بدأ رحلة الدم لم يكن يستطيع التراجع . كان موقنا أن أبا زيد هو العقبة الباقية أمامه حتى يصبح حاكماً مطلقاً ، لذلك انتهز رحلة للصيد وقتل أبا زيد غدراً . أصبح دياب هو فارس الملك الأوحد الذي أخذ كل الأراضي التي ركضت خيول بني هلال في سهولها ، كل ثمن الدم وميراث الجوع وأحلام العدل ولحظات السكينة والراحة . واضطرت الجازية أن تأخذ أولاد أخيها الأيتام وأن ترحل بعيدا ، وأن تسهر عليهم حتى يكبروا ويشبوا وتزداد قوتهم ويصبحوا قادرين على أخذ الثأر من دياب . بدأت دورة الحكام ، واحد يأتي ، ويصعد ، ويتحول إلى طاغية ، حتى يأتي من يخلص الناس من شره ، ولا تتوقف الدورة ، فلا الظلم ينتهي ولا العدل يجيء .

مرة أخرى تتمثل السيرة إحدى الحوادث التاريخية الكبرى ، ومثلما تمثلتها في رحلة المكان تمثلت امتدادها في الزمان ، فهي تحكي قصة الدولة العربية الكبرى في صعودها وازدهارها ، ثم في تحللها وانهيارها . تتبدل الوقائع ، وتتغير الأسماء ، ويبقى الجوهر كما هو ، فالراوي لا يقف عند الانتصار النهائي لبني هلال ليقول : « عاشوا في سرور وانشراح حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات » ، لأنه يدرك بمعرفته التاريخية لوقائع الأيام أن النصر حلم قصير الأجل ، وأن الفرقة مثل السوس الذي ينخر في عظام الأمة . لقد بدأت بذرة الهلالية في التكون في القرن الرابع الهجري ، وسط واقع عربي مؤلم . هناك خليفة عباسي في بغداد ، وفاطمي في مصر ، وألف خارجي ، وشيعي ، وألف سبب للفرقة والتناحر .

ولم يكن الراوي الذي يمتلك حس الشعب قادرا على خداع نفسه ، ولم يغمض عينيه عن النبرة المأساوية التي تربض في ثنايا المقدر والمكتوب .

ولعل في بنية السيرة بهذا الشكل سبب آخر من أسباب بقائها . فهي لا تبتعد عن الواقع ، بل تعيد بناءه بكل ما فيه من بهاء الحلم وفجيعة السقوط ، تحمل النبوءة والنذير بأن وحدة الأمة العربية هي خلاصها ، وفرقتها هي الانهيار الأكيد .

صورة جانبية

لكن ماذا عن الواقع النفسي للسيرة . سلوك الأبطال ، ردود أفعالهم ، مركبات نقصهم ، وعوامل قوتهم ؟ وكيف استطاع الوجدان الشعبي أن يخلق هذه الشخصيات المركبة التي تخالف ما اتفق عليه العقل البدائي من تصوره للشخصيات ذات الجانب الأحادي ؟

شخصيات السيرة هي أيضا ثمرة تجربة الشعب العربي . ومع كل رواية يبرز أحد الأبطال كأنما تحمل كل شخصية ملمحا نفسيا وعرقيا لكل جماعة عربية . في مصر يبرز أبو زيد وهو يأخذ طابع ابن البلد الشجاع المرح البسيط . وفي ليبيا تسود رواية دياب بكل ما فيه من فروسية وصرامة ومطامع . وفي تونس تثير الجازية شهوة الأنثى وقوة المرأة التي تخوض القتال بكل أسلحة الفتنة والإغواء . كل جماعة تعيد تشكيل الشخصية وفق حاجتها النفسية ، وتقنن سلوك البطل ، كما تريده بالضبط .

في البداية يقف أبو زيد الهلالي سلامة ، الفارس المثالي ، أشهر شخصيات الملحمة . الذي لم يكن يستحق المصير الذي آل إليه . ولعل موته هو الذي يعطي الملحمة التي طالما تغنت بالانتصارات تلك

النبرة من التشاؤم . أبوه هو رزق وأمه خضرة الشريفة ، ولا أحد يدري لماذا جاء المولود ذو الحسب والنسب أسود اللون ، لم يكن أحد يدري حينذاك ما نعرفه الآن عن الطفرة الوراثية ، لكن الشائعات أحاطت بسلوك الأم ، وهو الأمر الذي ترفضه المخيلة الشعبية ، وتصر على لصق كلمة الشريفة باسمها .

ويورد الراوي مبررا آخر بأنها رأت أحد الغربان وهو يتصارع وينتصر فتمنت أن يكون ابنها مثله . أيا كان السبب فقد قضى أبو زيد طفولة تعيسة في أرض ليست أرضه وأهل ليسوا أهله ، وهو الأمر الذي يحدث دائما لكل أبطال الأساطير . لكن هذا اللون وهذه النشأة هي التي أعطت لأبي زيد مكانته الخاصة ، فهو يمثل الحلقة الوسطى بين العبيد والسادة ، يحقق ذلك التمازج المستحيل بين الدماء الزرقاء ودماء العامة . وهو يتصرف دائما على هذا الأساس ، يترك السيف ويهبط من فوق الجواد ، ليدخل شوارع المدن المعادية متنكرا على هيئة شاعر جوال أو مهرج أو عبد مجلوب أو حتى جارية ، يستثمر كل جذور الفكاهة والحيل لدى الحس الشعبي أو ما يطلق عليه اسم « الملاعيب » ، لذلك فهو حميم الصلة بالوجدان الشعبي ، إنه يعلو بهم ، بلوبهم الـداكن ، وذكائهم المحدود ، إلى آفاق يستطيعون فيها مغالبة السادة . وأبو زيد لم يخرج للقتال إلا لأنه كان جائعا ، ولم ينس ذلك أبدا ، فلم يصب بالتخمة ، ولم يطمع في غنيمة غيره . وعندما عرضت الجازية نفسها للزواج منه لم يأبه بذلك ، على الرغم من أن هذا الأمر يمنحه شرف مصاهرة الملوك ، لكنه يرفض متمسكا بزوجته القديمة . إنه فارس مثالي كما قلنا ، حاول أن يبقى على نفس مثاليته حتى بعد أن ولى الزمن وتغيرت الظروف . وبعد أن حكم جياع نجد مشرق الأرض ومغربها ، وأشرع دياب أظافره الملوثة بالدم حاول أن يتصرف التصرف الشعبي المألوف ، وهو أن الصلح خير . فإذا بهذا الخير يكلفه حياته . وحتى قتله جاء بطريقة « الملاعيب » . لقد فهم دياب شخصيته وتلاعب به ، وعندما كانا يشتركان في رحلة الصيد صرخ فيه : خذها من دياب ، والتفت أبو زيد مفزوعا ، فوجد دياب يمد له يده وفيها سنبلة من القمح ، أي عذوبة في تلك الإشارة لجائع سابق ، وأي وعيد تخفي تحتها ، لقد ظل دياب يكررها ثلاث مرات ، وأبو زيد يلتفت ضاحكا ، ثم هوى على رأسه بالدبوس في المرة الرابعة محطما رأسه الذي طالما دوخ الأعداء ، ومات فارس « الملاعيب » بملعوب لا يتفق مع مواهبه .

أما دياب بن غانم فقد كان متناسقا مع نفسه حتى النهاية ، وهو يتحول من فارس إلى حاكم ، ومن حاكم إلى طاغية . تزوج أبوه عشر نساء جميلات دون أن ينجب منهن ، ثم اضطر في النهاية لأن يتزوج أشد النساء دمامة في القبيلة ، حتى أنه لم يجرؤ على النظر في وجهها وهو يدخل بها . ولم يبق على عشرتها إلا إكراما لذلك الولد الوحيد الذي يحمل اسمه . وقد أعطى هذا لدياب إحساسا بالتفرد منذ طفولته ، وولد التفرد في داخله طاقة من العناد والرغبة القاسية في الحصول على ما يريد ، وعدم نسيان الإساءة . وكان يدرك أنه صمام الأمان لبني هلال ، ويتعمد أن يدخل ميدان القتال متأخرا ، عندما يحسون بحاجتهم الماسة إليه . ومنذ خطوات التغريبة الأولى وهو يسعى للعرش . زوج أخته للسلطان حسن ، وسعى لكي يتزوج من الجازية ، لكنها رفضته ، فلم ينس لها ذلك ، وقتلها دون أي تردد في مبارزة غير متكافئة . وبعد أن قتل الزناتي أدرك أنه يريد كل شيء ، العرش وسعدى وتونس ومشرق الأرض ومغربها ، وفي سبيل هذه الغاية قتل كل من حاول مقاومته . كان حاكما واقعيا ، لا يعترف بأي مثاليات ولا ذكريات قديمة ، ولا حرمة لرفاق السلاح ، وكانت مشكلته الحقيقية هي الزمن . لقد وصل إلى العرش بعد أن كبر في السن ، ولم يعد يستطيع الاعتماد على قوة شكيمته كفارس ، ولذا لجأ إلى زرع الخوف والرعب في نفوس الرعية حتى يشل قدرتها . كان يحمل في داخله دمامة أمه ، فرأى أن إصلاح هذا الكون الدميم لا يتأتى إلا بإسالة المزيد من الدماء . وكان موته استمرارا لدورة الدم التي بدأها .

تبقى الجازية ، ويا لها من امرأة ، جميلة المنظر ،

لطيفة المحضر ، بديعة الجمال،، عديمة المثال في الحسن والكمال ، والقد والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق ، لا في الغرب ولا في الشرق . وكل هذه الصفات تمثلت في امرأة واحدة ، كانت تمتلك القدرة - في زمن الجواري - على تغيير مسار حياتها . تركت زوجها حاكم مكة كي تلحق بقومها في تغريبتهم الطويلة ، ولم تفصح عن عواطفها الدفينة إلا بعد أن أخذت التغريبة أقصى مداها . وعندما رحلت زوجة أبي زيد مغضبة انتهزت الجازية الفرصة أخيرا وعرضت نفسها للزواج بأبي زيد . ولابد أنها انتظرت طويلا ، وربما لم تقم بالتغريبة فعليا إلا من أجل هذه الفرصة . كان هذا هو عشقها الخفي الذي لم يجعلها تجرؤ هي ولا حتى راوي السيرة على البوح به ، كان من الصعب عليها وهي أخت السلطان ، وزوجة الأمير ، أن تتزوج فارسا أسود اللون ، **مشكوكاً** في نسبه ، وهي وسط قومها في أرض نجد ، وسط التقاليد القبلية الصارمة . لكن التقاليد ضاعت في بلاد الغربة ، وولدت سنوات الحرب تقاليد جديدة ، يسود فيها الأقوى . وقد وجدت فيها الجازية الفرصة للتعبير عن عواطفها الجياشة ، لكن المنطق الأخلاقي كان أقوى منها ، فرفضها أبو زيد ، وظل هذا سببا من أسباب تعاستها . كل الرجال الذين رغبوا فيها رفضتهم ، والرجل الوحيد الذي رغبت فيه رفضها . ويبرز دور الجازية قويا بعد أن يموت الفرسان على يد دياب ، فهي التي ترعى الأيتام ، وتهرب بهم بعيدا ، وتعود بهم بعد أن اشتد عودهم ، وتهزم دياب حتى بعد أن ماتت .

تبقى الشخصية اللغز ، شخصية سعدى بنت الزناتي خليفة .

يقول دياب وهو يطعنها : « إن من تخون أباها تخون أي شيء » ، وكان محقا ، وعلى الرغم من هذا تصفها السيرة بأنها « من أجل البنات ، لطيفة الذات ، قد اتصفت بالأنس والمحاسن ، وشاع ذكرها في كل الأماكن ، تحير الأدباء ، وتنادم الملوك والأمراء ، ذات أدب وفضل ، ومعرفة بضرب الرمل . . » . كل هذه الصفات الجميلة كانت تغلف ذاتا مخادعة ، تصل بها إلى حد الخيانة . عشقت مرعي قبل أن تراه ، وعرفت نهاية أبيها قبل أن يخرج بنو هلال من أرضهم ، وأطاعت غريزتها ضد واجبها البنوي ، فخادعت أباها ، وجلبت الموت لقومها ، والسقوط لمدينتها . ساعدت على نفاذ سهم المقدر ، ولم تجن من عشقها وخداعها سوى العار والموت .

كيف رسمت السيرة حدود هذه الشخصية البالغة الرقة والجمال في الظاهر ، البالغة القسوة في الداخل . . ؟

هل أحلت غريزة المرأة العاشقة مكان المرأة الطفلة ؟ وهل يصلح هذا مبررا في سيرة يحكمها مثل هذا المنطق الأخلاقي الصارم ؟ هل استبدلت عاطفة البنوة ، أم أن هذه نظرة الراوي المتخلفة للمرأة التي يسكنها الشيطان والتي هي محور الشر في العالم ؟

أم لعلنا نقفز إلى أدوات التحليل النفسي فنقول : إن قتل الأب هنا هو ثورة على السيطرة الأبوية المطلقة ، وقتل الحاكم المطلق ، بكل ما يحمله من رموز الكبت والقمع والانسحاق ، لعله تعبير عن عقد الطفولة المركبة التي تكونت داخل هذا المخلوق الرقيق المسمى « سعدى » .

السيرة لا تقدم جوابا محددا ، وتترك الأبعاد مفتوحة ، حتى تضفي كل جماعة صفاتها النفسية على هذه الشخصية اللغز .

من أين يأتي الجراد . . ؟

« بعيد الإسلام انتشرت قبلة بني هلال مثل سحابة من الجراد . . . . »

هكذا يصفهم ابن خلدون ، لكن بني هلال لم يكونوا جرادا يحمل الشر المطلق ، أو الجوع النهم ، لقد كان يحدوهم شوق طاغ للعدل المفتقد . أرادوا أن يقيموا توازنا بين الجوع والتخمة ، لعلهم يصلون إلى حافة الشبع الإنساني فوق الأرض العربية .

وما زلنا حتى الآن في حاجة لمن يقيم لنا هذا التوازن الحرج . فمن أين يخرج بنو هلال هذه المرة ؟ □

العربي ـ العدد ٣٥٩ ـ اكتوبر ١٩٨٨ م

الصدفة والعلم

بقلم : الدكتور محمد عبدالرحمن*

يحلو لبعض الناس أحيانا أن يصوروا الاكتشافات العلمية الكبرى على أنها نتائج صدف حدثت فكان الاكتشاف ، وأن ما لم نكتشفه بعد تتكفل به الصدفة ، فهل الأمر بهذه البساطة ؟ !

هذا المقال نقض لمثل هذه المقولات عبر حقائق العلم والتاريخ .

يعطي بعض الناس الصدفة دورا كبيرا في الاكتشافات العلمية ، بحيث تطغى على المجهود البشري في تلك الاكتشافات ، فالذي تسبب في اكتشاف البخار رجل ـ مجرد رجل ـ كان بالصدفة يغلي ماء في إناء مغلق ، ومن حركة الغطاء استنتج أن للبخار قوة ، ومن هنا بدأ استخدام البخار بكل ما ترتب على ذلك من قاطرات وآلات بخارية وتطوير في استخدامات البخار ، وغير ذلك كثير . وبينما كان هناك رجل يستحم شاهد قطعة « فلين » تطفو على سطح الماء ، فعرف قانون الطفو، فالأشياء الخفيفة تطفو على سطح الماء ، بينما تغوص الأشياء الثقيلة . وباكتشاف قانون الطفو أمكن تطوير صناعة السفن وحساب الغاطس وغير ذلك كثير أيضا . أما الجاذبية الأرضية فاكتشافها كان وليد الصدفة أيضا ، حينما سقطت تفاحة على رأس نيوتن فعرف من ذلك الجاذبية الأرضية . وكذلك اكتشاف البنسلين ودور الصدفة فيه . وغير ذلك كثير . لكن ماذا يترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك منطقيا ألا نتعب أنفسنا أو نجهد عقولنا ، فنحن محكوم علينا أن ما لا نعرفه اليوم هو غيب عنا ، وهذا الغيب مقسم إلى أقسام ، قسم منه غيب عن فرد ولكنه معلوم لفرد آخر ، وهذا ليس غيبا . وقسم آخر هو غيب بالنسبة لزمن ما ، فما يكتشف الآن كان بالضرورة غيبا بالنسبة لمن عاشوا فيما مضى . وهذا القسم من الغيب يدخل تحت عباءته كل ما يكتشفه العلماء فهم يكتشفونه حينما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا الجزء من الغيب أن يكتشف .

إلى هنا ليس ثمة مشكلة ، ولكن تبدأ المشكلة بعد ذلك ، فقليل من الغيب المرهون بزمن ما ، يعرف عن طريق البحث أو السبب والنتيجة ، ويتوصل إليه العلماء خلال قيامهم بربط الأسباب بالنتائج ، أما معظم هذا الغيب الذي هو العلم والاكتشافات العلمية فهو يتم مصادفة ككل الحالات التي ذكرناها .

لماذا ؟

مرة أخرى ماذا يترتب على ذلك ؟

يترتب عليه من ناحية أن علينا أن ننتظر الصدفة ، فلو كانت أقدارنا تسمح لنا بالكشف أو الاكتشافات لتم ذلك في حينه ، ويترتب عليه من ناحية أخرى سؤال مهم هو :

* استاذ الكيمياء غير العضوية ، بكلية العلوم ، جامعة الاسكندرية

طالما أن معظم الاكتشافات العلمية التي غيرت العالم وأثرت فيه ، قد تمت بالصدفة ، إذن فلماذا تمت جميعها في دول الغرب ؟ ولماذا اختارت الصدفة أولئك العلماء الغربيين ، من أرسطو حتى هؤلاء الذين حصلوا على جوائز نوبل في العالم المنصرم ؟!.

هذا السؤال وغيره يبدو لنا أكثر أهمية وأعظم خطورة لعدد من الأسباب، منها :

أولا : نحن كأمة عربية أو كعالم إسلامي نعاني معاناة شديدة من تخلف حقيقي ، شئنا هذا أم أبيناه. ويجب بالضرورة على كل فرد منا أن يدفع شبح التخلف وأن يزيل أسبابه بكل ما أوتي من قوة .

ثانيا : ترتيبا على السبب الأول فإن الأمة العربية والعالم الإسلامي يعتمدان على الغرب ، في كل ما لديهما من علوم وتقنيات ، من آلات وأجهزة ، من مصانع وأدوية ، ومن كل ما هو نتاج العلم التجريبي على وجه العموم . إذن فنحن عالة حقا على كل منتجات الحضارة الغربية والعلم الغربي ، فإلى متى نظل هكذا ؟

ثالثا : ليس هناك شك أو جدال في أن الرافد الحقيقي الأول - إن كان ثمة رافد آخر - للتقدم الآن هو العلم ، والعلم التجريبي على وجه التحديد ، فالذين صعدوا إلى القمر لم يصعدوا إليه بمهمهمات غير مفهومة أو بتمتمات على شفاه طية .

يترتب على ذلك أن كل من يهمه مصلحة الأمة العربية والعالم الإسلامي وصالحهما لا بد أن يبحث عن سبب التقدم أو أسبابه إن كان ثمة أسباب أخرى وليعمل على تنمية تلك الأسباب والتوعية بها .

رابعا : إن الأمة العربية والعالم الإسلامي إذا كانا يريدان بحق أن ينهضا مما هما فيه من عثرة ، وأن يصحوا من تخلفهما فليس إلا أن يعتمدا على نفسيهما ، إذ لا يوجد أمام هذه أو ذاك أي بديل آخر ، اللهم إلا إذا كان المزيد من التخلف هو المطلوب . لذلك أيضا يصبح من غير المفهوم أن ينظر إلى الاكتشافات العلمية بمثل تلك النظرة الداعية إلى تكريس ما نحن فيه من تخلف وجهالة ولا مبالاة .

لكل تلك الأسباب وغيرها يصبح السؤال الذي طرحناه غاية في الأهمية ، لذلك كان الواجب يقتضي على من أخبرنا أن الصدفة هي التي تلعب الدور الرئيسي في الاكتشافات العلمية أن يفسر لنا تلك الحقيقة البسيطة وهي أن جميع الاكتشافات العلمية تمت على أيدي علماء الغرب وحدهم ، فعصر البخار بدأ عندهم بصرف النظر عن السبب وليس في هذا

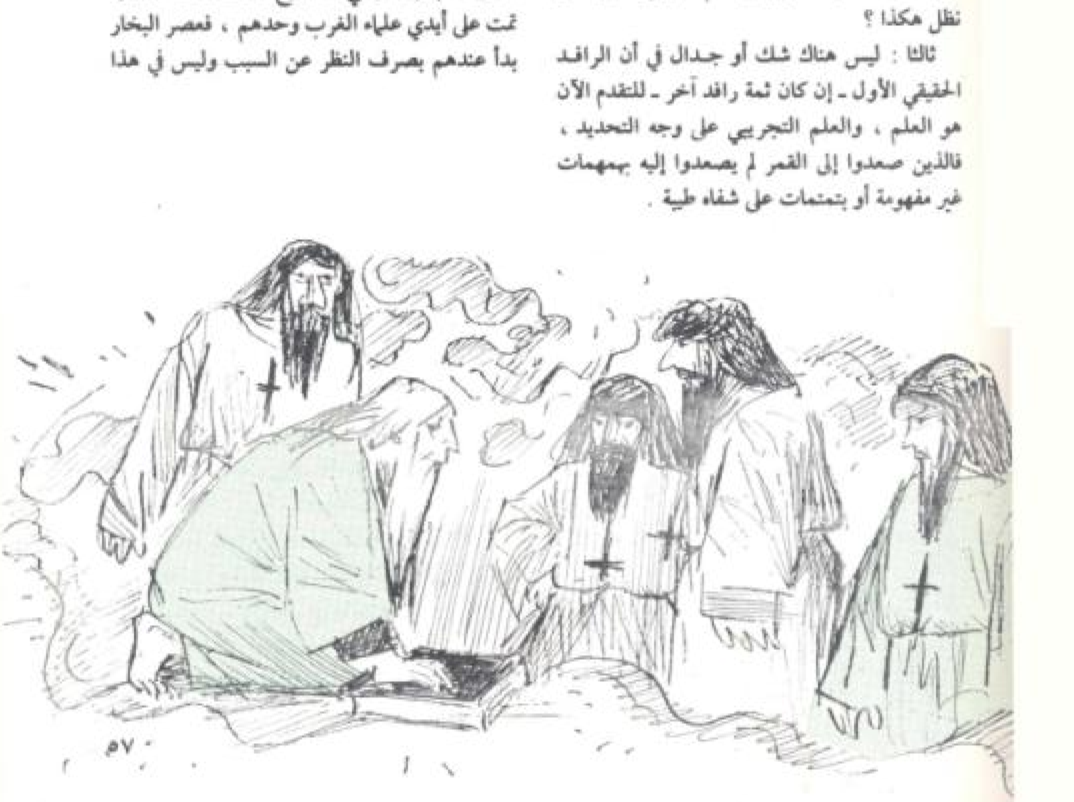

شك ، كما أن عصر الفضاء وارسال أول إنسان إلى القمر تم عندهم كذلك ، مثل جميع الاكتشافات الهائلة في مجالات الفلك والطب ، وفي الكيمياء كما في الطبيعة أو الفيزياء ، وفي هندسة الوراثة كما في الحاسبات الآلية ، بل وكل ما هو مذهل وعظيم في جميع الحالات والمجالات ، فلماذا كان اكتشاف كل ذلك وقفاً عليهم وحدهم ؟ ! لماذا لم يصادف كشف من تلك الاكتشافات الهائلة ، أو كشف أصغر ، واحد ـ أحد الآحاد ـ من أبناء العالم التعيس ، المدعو بالعالم الثالث ؟ ! لماذا لم نكتشف حتى الآن من خلال ما نقرأه أو نعرفه نظرية علمية قبل أن يكتشفها الآخرون ؟ ولماذا يهلل بعضنا بعد كل اكتشاف ويقولون إن هذا الاكتشاف أو ذاك موجود عندنا بحذافيره في كتابنا الأول ؟ إذن فلماذا لم نكتشفه قبل ذلك ؟ وهل لو قلنا بعد اكتشاف النظرية الذرية أنها موجودة في القرآن الكريم ومعروفة وليس هناك جديد فقد جاء في القرآن « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، نقول هل لو قلنا ذلك نكون قد أدينا خدمة للإسلام ؟ أم أثبتنا سذاجة الذين يقولون بذلك ؟ وهل الإسلام كتاب في علم الطبيعة أو الكيمياء حتى ننتظر منه بعض ما تقول الكيمياء أو الطبيعة أم أن الأمر يختلف عن ذلك بكثير ؟

إنه من الإخلال الكبير بمعاني الأشياء ، وتبسيطها إلى حد بعيد أن يقال إن الصدفة هي التي قادت وتقود إلى معظم الاكتشافات العلمية . كما أنه ليس مفهوما بأي حال تلك السخرية اللاذعة وذلك الاستخفاف الشديد بالعلم التجريبي !!

وحتى نتأكد من أن الصدفة لا تأتي هكذا خبط عشواء ، وإلا لكانت تلك الصدفة قد صادفت واحدا ، واحداً فقط من بين الملايين الذين يعيشون في دول العالم الثالث . فلا أحد ينكر أن عددا لا يحصر من البشر ، ربما ملايين الملايين منذ وجد الإنسان على الأرض وحتى لحظة اكتشاف نيوتن للجاذبية الأرضية ، قد سقط أمام كل منهم تفاحة أو قطعة حجر ، من أعلى شجرة أو من أعلى جبل ، فالأمر سيان . كما أن عددا لا حصر له من البشر قد رأى بأم عينيه أنه لو قذف حجرا إلى أعلى لارتدّ الحجر مرة أخرى إلى الأرض ، ولو كان الأمر أمر صدفة لاستطاع واحد من أولئك الملايين إن لم يكن أكثر من واحد أن يتوصل بسهولة إلى قانون الجاذبية الأرضية ، فلا شك أن واحدا من هؤلاء الملايين في مستوى ذكاء ، إن لم يكن أذكى من اسحق نيوتن ، ومع هذا لم يكتشف تلك الجاذبية أحد قبله على الرغم من كل الأعمال التي قدمها ارسطو وجاليليو والبيروني وغيرهم . اذن فلماذا يكون المكتشف اسحق نيوتن وليس غيره ؟

حتى نجيب على ذلك السؤال ، دعنا نرى بإيجاز ما قام به نيوتن من بحوث ، وكيف كانت حياته كلها مرتبطة بدراساته وعلومه وبحوثه التي لم يقف بها فقط عند قانون الجاذبية ، لكنه بدون منازع كان صاحب الفضل الكبير في علوم « الميكانيكا » ، بل وفي بداية السببية كلها .

إجابات أمينة

لقد قدمت أعمال نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) إجابات أمينة ومتكاملة للأسئلة التي أثارها ارسطو ، كما أن تلك الأعمال تمثل واحدا من أعظم المساهمات التي قام بها شخص ما حتى تفهم البشرية ذلك الكون . لقد طور صورة للكون على أنه عالم دقيق غاية في الإحكام ، يسير بطيئا بآلية متقنة كساعة غاية في النظام خاضعا لقوانين في منتهى الدقة والوضوح .

إن نيوتن الذي ولد بعد عام واحد من وفاة جاليليو ، قد استمر على خطاه ، وتابع أعماله في عديد من الاتجاهات المهمة ، خصوصا بالنسبة « للميكانيكا » . ومثل جاليليو كان أعظم علماء عصره بلا منازع ، فقد قام بمساهمات مهمة في الرياضيات والضوئيات وظاهرة الموجات كما ساهم في « الميكانيكا » والفلك ، وتكفي واحدة فقط من مساهماته تلك لتبوئه مكانته العظيمة التي احتلها في التاريخ .

لقد بدأ اهتمام نيوتن بالآلات التجريبية منذ طفولته ، حيث أبدى مقدرة فائقة على صنع نماذج أصلية لطواحين الهواء ، وساعات الماء ، والساعات

الشمسية . ونظرا لقدراته الفذة فقد استطاع الالتحاق بجامعة كمبردج حيث أظهر مقدرة غير عادية في الرياضيات .

لقد تأكد الآن أنه قضى الفترة من عام ١٦٦٠ - بعد أن أنهى دراسته الجامعية - حتى عام ١٦٦٧ في صياغة نظريات ذات الحدين في الرياضيات ، وتطوير حساب التفاضل والتكامل ، ودراسة التحليل الطيفي للضوء الأبيض ، كما بدأ دراسة « الميكانيكا » والجاذبية . وفي عام ١٦٦٧ عاد إلى كمبردج محاضراً في جامعتها . وفي عام ١٦٦٩ شغل منصب الاستاذية فيها لعلم الرياضيات . وفي عام ١٦٨٧ نشر أهم أعمال « المبادىء الرياضية في فلسفة الطبيعة » أو باختصار «« المبادىء » أو « برنسيبا » . وهذه « المبادىء » تمثل واحدا من أعظم ما أنجزه العقل البشري . وعلى الرغم من ذلك فقد قال نيوتن عن نفسه : إذا كان بإمكاني أن أرى بعيدا فذلك لأنني أقف على أكتاف العمالقة . حقا لقد كانت أعمال نيوتن امتداداً لمن سبقوه مثل ارسطو ، وكبلر وجاليليو ، كما استفاد من أفكار كل من بيكون وديكارت وهوك .

إذن لقد كان اهتمام نيوتن الأساسي ومنذ البداية منصبا على دراسة الحركة وقوانينها ، وهكذا قدم للبشرية القانون الأول للحركة ، وهو ينص على أن « كل جسم يحتفظ بحالته من سكون أو حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية » .

هذا القانون يعرف أيضا بقانون القصور الذاتي ، وحتى نعرف دور هذا القانون أو القصور الذاتي دعنا نتعرف على حركة سفينة الفضاء في الفضاء الخارجي . فلو عدنا إلى كيفيةوصول رواد الفضاء إلى القمر ، سنجد أن سفينة الفضاء التي تنقلهم تنطلق من قاعدة الإطلاق حتى تأخذ مدارا حول الأرض ، وبعد ذلك - بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام - تطلق الآلات الصاروخية عدة دقائق حتى تخرج من المجال الأرضي وتبدأ في الاتجاه ناحية القمر .

وبمجرد أن تصل إلى السرعة والاتجاه المناسبين ، يتم إغلاق الآلات الصاروخية من هنا يتمكن رواد الفضاء أن « يبحروا » مدة ثلاثة أيام ويقطعوا خلالها ٢٤٠,٠٠٠ ميل إلى أن يصلوا إلى مكان مناسب من القمر . أحيانا وليس غالبا ، فإن على الرواد أن يطلقوا آلاتهم الصاروخية دقائق قليلة عند نقطة منتصف المسافة تقريبا ، ليس بهدف تغيير السرعة ، ولكن لتصحيح الاتجاه . المهم هنا أن الرحلة تستخدم القصور الذاتي (أو هذا القانون الأول لنيوتن) لتحرك مركبتهم بسرعة كبيرة منتظمة (حوالي ٣٠٠٠ ميل في الساعة) . إن القصور الذاتي كما اكتشفه نيوتن يقوم بعمله أو بدوره خير قيام ، لأنه لا توجد مقاومة تؤثر على المركبة في الفضاء .

ثم قدم للبشرية القانون الثاني للحركة حيث « معدل التغير في كمية حركة الجسم تتناسب تناسبا طرديا مع مقدار القوة المؤثرة عليه ويكون في اتجاهها » ، ولعل هذا من أكثر القوانين التي يستخدمها العلماء والمهندسون في حساباتهم .

كما كان للقانون الثالث للحركة وهو الذي ينص على « أن لكل فعل رد فعل مساوله في القوة ومضاد له في الاتجاه » تطبيقات كثيرة منها الطائرة النفاثة .

يضاف إلى ذلك قانون بقاء المادة ، ثم قانون بقاء كمية الحركة ، فجميع تلك القوانين قدمها أو اكتشفها نيوتن ، ولعلها جميعا لم تدخل في اكتشافها الصدفة ، أي صدفة ، فلم تكن في حاجة إلى سقوط تفاحة حتى يتم اكتشافها .

قصة غير حقيقية

لقد اعتبر نيوتن أن الأجسام الساقطة تسارع ناحية الأرض لأن الأرض تجذب تلك الأجسام . لقد قيل إن الفكرة الأساسية لقانون الجاذبية قد استنبطها نيوتن من سقوط تفاحة على رأسه ، غير أن هذه القصة غير صحيحة ، وليست بالتأكيد قصة حقيقية ، ولكن نيوتن سجل أنه بينما كان يفكر في كيفية « إمكانية » وصول الجاذبية إلى أعلى تفاحة على الشجرة وجذبها إلى أسفل ، بدأ يندهش لأول مرة ، من المدى الذي يمكن أن تمتد إليه الجاذبية .

ولقد كان يعرف أن الجاذبية الأرضية تصل حتى

إلى أعلى من الجبال ، ومنها استنتج أن تأثير الجاذبية يمتد إلى الفضاء . أخيرا فقد كان يتساءل إذا ما كانت الجاذبية الأرضية تمتد إلى القمر في مداره الذي يسير فيه ، بعد ذلك تحقق من أن القمر أيضا « يسقط » ناحية الأرض ، لأن سرعته تتغير دائما (في الاتجاه) حيث يكون اتجاه التسارع عموديا على حركته الدائرية وبالتالي يشير إلى الأرض في مركز مدار القمر .

لأن هذه القوة تغير اتجاه القمر فهي القوة الجاذبية المركزية . وكذلك فإن الكواكب تسقط ناحية الشمس لأن اتجاهات تسارعها في مداراتها البيضاوية تشير ناحية الشمس ، وطالما أن التسارع يمكن أن يوجد فقط حيث توجد قوة مؤثرة فإن الشمس لا بد أن تجذب الكواكب . لهذا فقد استنتج نيوتن أن نفس نوع القوة ـ قوة الجاذبية ـ لا بد أن تكون موجودة خلال الكون بأسره .

واضح إذن مما سبق أن الأمر ليس بسيطا إلى حد أن يستنتج نيوتن كل تلك القوانين من مجرد سقوط تفاحة على رأسه ، إن هذا القول تبسيط مخل بالمجهود العظيم والعمل الرائع والتفكير العبقري الذي قام به نيوتن . وهو تبسيط ساذج مخل بكل ما يقدمه البحث العلمي من معرفة واكتشافات ، ولو سقطت ملايين التفاحات على رأس شخص لا يهتم بحركة الأجسام ولا تؤرقه تلك المشكلة ، فلن يرى في سقوط التفاحات أكثر من طعام يلتهمه سعيدا مع خالص شكره للرزاق رب العالمين .

وعلى الرغم من معرفة عدد لا بأس به من البشر بموضوع الجاذبية الأرضية ، وعلى الرغم من التقدم العلمي الهائل ، فإنك لو سألت فردا لا يعرف الجاذبية أو لم يسمع عنها ، فلن يستطيع الربط بين سقوط الأشياء وبين الجاذبية . وقديما كان أرسطو يقسم الأشياء إلى عناصرها الأربعة كما يقول : الماء والتراب والهواء والنار ، وكانت تلك العناصر هي التي تتكون منها جميع الأشياء ، وكان يعتبر أن الأشياء التي تتكون من العنصرين الأولين ـ التراب والماء ـ تنتهي حركتها إلى الأرض حيث الأرض هي المكان الطبيعي لها ، كما أن النار والهواء يرتفعان طبيعيا إلى أعلى ، أي أنهما يميلان إلى الصعود إلى السماء ، حيث المكان الطبيعي لسكونها . إذن فقد فسر ارسطو حركة الأجسام عند تحررها ـ كالتفاحة مثلا عندما تنضج فتسقط ـ على أنها نتيجة لرغبة الأشياء في أن تكون أكثر كمالا ، كما اعتقد أن الطين والماء يكونان أكثر كمالا كلما تحركا إلى أسفل ناحية المكان الطبيعي لسكونها .

وقفة للتساؤل

عند هذه النقطة لا بد أن نقف قليلا ونتساءل :ـ

لو أن نيوتن لم يتوصل إلى قانون الجاذبية ، فهل كان هناك من سيكتشفه بعد ذلك ؟ والإجابة على هذا السؤال هي نعم بالتأكيد ، وحتى لو لم يكن هناك اسحق نيوتن ، فلا بد أن يوجد من يتابع أعمال ارسطو وجاليليو وكبلر وغيرهم حتى يتوصل إلى تلك القوانين ، كما كان هناك من تابع أعمال نيوتن وتوصل إلى كل مانعرفه اليوم من قوانين الفيزياء والرياضة ، وعلى الرغم من ذلك فلا بد من التأكد من شيء جوهري وأساسي وهو أن هؤلاء جميعا جعلوا مهتهم وهمهم تلك الموضوعات التي أبدعوا فيها وانصرفوا معها عن كل شيء آخر ، فتوصلوا إلى ما توصلوا إليه من ابداعات وابتكارات وليس الأمر فقط لأنهم عباقرة أو أذكياء ولكن لأنهم بكل تفكيرهم وعقولهم ووجدانهم قد اعتبروا موضوعاتهم ـ موضوعات فقط ـ هي كل همومهم واهتمامهم . ولو أن رجلا عبقريا مثل باستير سقطت على رأسه ملايين التفاحات لما اهتم بها ولا توصل لقوانين الحركة والجاذبية . وليس ذلك ناتج عن قصور في الفهم أو نقص في العبقرية ، ولكن لسبب هو غاية في البساطة ، وهو أن جميع اهتمامات باستير وكل فكره كان مشغولا وموجها لموضوع آخر لا علاقة له بحركة الأجسام أو تجاذبها . ونفس الشيء ينطبق على نيوتن نفسه ، فما كان ليكتشف الميكروبات ، لأن ذلك كان موضوعاً خارج تفكيره وبعيدا عن مرمى غاياته .

من الواضح إذن أن كلمة الصدفة في العلم ليس لها معنى . وكان يمكن أن يكون لها معنى في حالة واحدة وهي أن يكتشف لنا رجل لا يعرف الكيمياء ، مثلا قانونا في الكيمياء . هنا يمكن أن نقول إن الصدفة هي التي لعبت دورا وليس لذلك الرجل دور . أما أن يكون المكتشف قد أفنى عمره في البحث عن موضوع ما يشغل كل فكره واهتمامه ، ثم يقال بعد ذلك إن الصدفة لعبت دورها الأساسي ، وكأن هذا الباحث ليس له فضل ، فهو استخفاف أكثر من ساذج أو مخل بقيمة العلم والبحث العلمي .

إغلاق العين وإغلاق القلب

والحق أن هذا الاستخفاف يثير عددا غير محدود من الأسئلة ، فحيث يكون المجتمع متخلفا يصبح من الضروري بمكان على كل الذين يأخذون الصدارة فيه ، أن يكون رائدهم تقدم ذلك المجتمع .

والسؤال الآن ما هي عوامل تقدم المجتمعات في وقتنا الحاضر ؟ لا نقاش بأن العلم - العلم التجريبي - بكل ما له من جلال هو المصدر الأساسي إن لم يكن الوحيد لتقدم أي مجتمع . والذين لا يرون ذلك عليهم أن يتخلوا لحظة واحدة عن استخدام النتائج الحاسمة للعلم . فحتى أحاديثهم في وسائل الإعلام مدينة - من ألفها إلى يائها - للعلم . إن دور العقائد هو توجيه الغاية للنتائج التي يقدمها العلم ، فالعلم يقدم حقيقة ما أو يصنع آلة ما من خلال تطبيقاته ، وبعدها وقبلها يكون الدور المهم للعقائد والأديان وللفلسفة والاجتماع في توجيه تلك الحقيقة العلمية أو التقنية لخير البشرية ، وفي الاتجاه الذي يخدم الانسانية ، ويعلي شأن الانسان ، ويعطيه مزيدا من الرفاهية ، ويؤكد على إنسانية الانسان ، كما يقطع دابر فكر الغاب وقانونه . وعلى سبيل المثال فعود الثقاب هو نتاج علمي ، لكن عود الثقاب يمكن أن يدمر بيتا أو مصنعا أو قرية ، وفي نفس الوقت يمكن للمرء أن يشعل به موقدا لإنضاج الطعام . وهنا يكون للعلم دوره في إنتاج الحقيقة العلمية أو المنتج العلمي ، أيا كان هذا المنتج ، فهو في النهاية حقيقة علمية ثابتة ، ينكرها من ينكرها لكن ذلك لن يغير من قيمتها شيئا . وكما قيل فإن من يغمض عينيه عن النور يضر عينيه ولا يضر النور ، ومن يقفل قلبه عن الحق يضير قلبه ولا يضير الحق . فنتائج العلم وتطبيقاته لا يمكن أن تنكر ولا تحتاج إلى من يعترف بها ، فالكل يعتمد عليها اعتمادا كليا حتى أولئك الذين ينكرونها . نعم قد تبدأ المشكلة في الهدف الذي تستخدم من أجله . وهنا يكون دور العقائد والأديان في تهذيب الإنسان ، وفي إعلاء إنسانيته ، وفي الدفاع عن قيمه كإنسان ، ومن ثم تحديد الهدف الذي يكون على الدوام من أجل الإنسان ومن أجل رشده وسعادته .

لا أحد يريد للعلم أن يصبح معبودا جديدا ولا إلها للعصر ، ولكن الاستخفاف بالعلم ونتائجه التي يعيشها أي فرد في هذا العالم الآن يفقد الذين يستخفون به مصداقيتهم ويعري كلماتهم . وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الخاسر في النهاية لن يكون العلم بحال .

ونحب أن نذكّر فعسى أن تنفع الذكرى ، فذات يوم بعيد أن اكتشف جاليليو أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وليست هي مركز الكون كما قال أرسطو من قبله ، وكما ترى الكنيسة استنادا إلى ارسطو . وحين أعلن جاليليو ذلك وأثبته مؤكدا ما ذهب إليه كوبرنيكوس كان للكنيسة موقف آخر . ولعل العالم يدرك الآن مدى ما تعرض له جاليليو من إهانة وسجن وقهر وقسوة ، ناهيك عن أنه أجبر على أن يعلن على الملأ راكعا على ركبتيه ما يلي : -

« أنا جاليليو لكوني الآن في السبعين من عمري ، ولكوني سجينا راكعا على ركبتي أمام رفعة مقاماتكم ، ولما كان الانجيل المقدس أمام عيني وألمسه بيدي فإنني أشجب وألعن وأحتقر ما قيل وكتب من خطأ وبدعة حول حركة الأرض » .

ومع هذا فلم يصح غير الصحيح ، ولم يخسر جاليليو ، كما لم يخسر العلم ولكن خسرت الكنيسة . □

الوسواس القهري له علاج

بقلم : الدكتور دري حسن عزت

الوسواس معروف منذ القدم ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم وجاء في وصفه بأنه الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . وحالات الوسواس ليست نادرة الانتشار ، فهي تنتشر بين الناس بشكل عام بمعدل حوالي واحد في الألف . وهناك من يعانون من أعراض الوسواس وهم لا يعرفون طبيعة هذه الأعراض ، وهل هي مرض أم غير ذلك ؟ ويعانون في صمت وتخف دون أن يتلقوا أي علاج . فما الوسواس ؟ وما تعريفه العلمي ؟

يظهر الوسواس كفكرة أو صورة ذهنية متخيلة أو دافع داخلي مثل الهاتف أو كحركة بدنية سلوكية ، تفرض نفسها على المريض ، وهو يعرف انها غير عقلانية وليست منطقية ويحاول إزاحتها عن دائرة الشعور ،ويقاوم سيطرتها عليه ، لكنها تعاوده وتفرض نفسها عليه ، ويتكرر هذا مرارا ، فينشأ صراع نفسي بين عمليتي الفرض والمقاومة ، مما يؤدي بالمريض إلى حالة من التوتر والقلق وعدم الاستقرار أو إلى نوبات حادة من الاكتئاب .

وليست كل المظاهر الوسواسية مرضية ، فبعض الأطفال عندما يسيرون على أرض مرصوفة بالبلاط يشعرون أنهم مرغمون على تفادي ملامسة أقدامهم خطوط مربعات البلاط ، وإذا لامست قدم أحدهم الخط ، أعاد الخطوة بحيث يتفادى ذلك . وبعض آخر من الأطفال عندما يسير بجانب سور من الأسوار الحديدية فإنه يعدها برتابة ، وعندما يصل إلى رقم معين يشعر أنه مرغم بأن يلمسه بيده ، ثم يبدأ العد من جديد ملامسا العمود الذي يقابل الرقم المعين . يكرر هذا السلوك طوال سيره بجانب السور .

والأمثلة على مثل هذه الظواهر الوسواسية عند الأطفال كثيرة ، لكنها تعد في حدود ما هو طبيعي . ومثل هذا السلوك يتلاشى تلقائيا عندما يصل الطفل إلى سن البلوغ ، لكن الأعراض الوسواسية المرضية تبدأ غالبا بالظهور في سن المراهقة أو بعدها بقليل .

وتنقسم أعراض الوسواس إلى ثلاث مجموعات :- الأفكار الوسواسية ، والدوافع الوسواسية ، والأفعال الوسواسية القهرية .

١ ـ الأفكار

تكون هذه الأفكار غالبا ذات طبيعة غير سارة ، تثير الاضطراب والتشكك . أفكار تتولد فجأة في ذهن المريض تدور حول طبيعة الكون ونشأة الحياة ، وعما هو خطأ أو صواب ، أو حلال وحرام ، أو أسئلة ليس من ورائها جدوى ، وليست لها إجابات شافية ، أسئلة مثل : ما سبب زرقة لون السماء ؟ وهل أنا حي حقيقة ؟ وما هو الدليل ؟ .

تساؤلات لانهاية لها عن الجنس والأمراض التناسلية ، أو عن طبيعة الأشياء ، أو الهدف من وراء أعمال معينة . هذه الأفكار يعي المريض بوضوح عدم منطقيتها ، ويزيحها عن ذهنه ، ويطردها بإرادته من وعيه . لكن سرعان ما ترد ثانية فارضة نفسها عليه ، مما يسبب له ضيقا شديدا ، ويفقده راحة البال ، ويصعب عليه التفكير فيما يريده ، أو التركيز على ما يهدف إليه ، ويصبح مشتتا لايتخذ قرارا ولا يبت في موضوع .

وأحيانا تتحول الأفكار إلى صور ذهنية متخيلة ، تتراءى للمريض بوضوح كأنها حية . هذه الصور

الذهنية تكون غالبا غريبة ومزعجة ، مما لا يصح تصورها ولا يجوز تخيلها ، وهي تدخل في دائرة المحرمات ، يطردها المريض من ذهنه ويستعيذ بالله من إلحاحها ، لكنها تعاود الظهور ، مما يوقعه فيها لمختلف الصراعات .

٢ ـ الدوافع

تأتي هذه الأفكار على هيئة دافع داخلي ، أو قوة داخلية يشعر بها المريض ، تدفعه إلى القيام بأعمال معينة ، تكون ذات طبيعة عدوانية غالبا ، والعدوانية هنا إما تجاه الذات أو تجاه الآخرين .

فبعض الناس عندما يرى سيارة أو عربة متحركة مسرعة في اتجاهه يشعر برغبة في إلقاء نفسه أمامها . وبعضهم عندما يطل من فوق أماكن مرتفعة يشعر برغبة ملحة بإلقاء نفسه وكأن الأرض تجذبه إليها بشدة . وعندما يكون بعضهم الآخر في أماكن يسود فيها السكون والرهبة ، أو تحيط بها القداسة والجدية ، مثل أماكن العبادة أو قاعات المحاضرات أو الاجتماعات ، يشعر برغبة ملحة في الصياح بصوت عال بألفاظ بذيئة أو أن يسب بفاحش القول . وتتملك بعض الناس رغبة في الاعتداء على الآخرين ممن يكونون قريبين منهم ، كإيذائهم بآلة حادة ، أو إلحاق الأذى بالأطفال حديثي الولادة ممن لاحول لهم ولا قوة .

مثل هذه الدوافع والرغبات الوسواسية نادرا ما يتحقق تنفيذها فعلا ، لكنها تظل تلح على المريض وتقلقه ، وهو يداوم على تفاديها وطرد إغراء القيام بها .

٣ ـ الأفعال

هي التعبير الحركي ، أو المحصلة السلوكية للمخاوف الوسواسية ، فمن عنده الخوف الوسواسي من التلوث بالقاذورات أو الجراثيم ، يعبر عن ذلك بالاغتسال المتكرر حتى تتقرح يداه .

وهذا النوع من وسواس النظافة يصيب النساء أكثر من الرجال .

والخوف الوسواسي من التلوث بالقاذورات يمكن

أن يتعدى الذات ، وينسحب على الأطفال ، فتجد الأم تغسل يديها أو جسمها ثم تنتقل إلى أطفالها لتنظفهم ، وعندما تنتهي تشعر أنها قد تلوثت من جديد فتعاود الاغتسال ، ثم تكرر ذلك على أطفالها ، وهكذا يتكرر هذا الأمر معظم الوقت حتى أنها تتوقف عن القيام بأي عمل آخر مفيد أو تكمل سائر واجباتها المنزلية . ومثل هؤلاء الأشخاص تضطرب حياتهم ويسببون إزعاجاً كبيرا لأسرهم .

ومن الأمثلة الأخرى للأفعال القهرية ، هؤلاء الذين يعانون من وسواس التأكد ، فهم بعد إغلاقهم أبواب منازلهم ونوافذها يقومون مرات للتأكد من إحكام إغلاقها ، على الرغم من تأكدهم بأنفسهم من ذلك من قبل . كذلك هؤلاء الذين لايكفون عن مراجعة دفاترهم للتأكد مما هو مدون فيها .

ومن يعاني من وسواس الدقة يعد أوراق النقد مرات ومرات للتأكد من دقة عده ، وتجده مشغولا بالتدقيق وبالتأكد حتى ليعجز عن الإنجاز الفعلي إن كان عملة في الصرافة أو في « البنوك » .

وقد سمي هذا النوع من الوسواس « القهري » لأن المريض على الرغم من مقاومته القيام بهذه الأعمال إلا أن الإلحاح المرضي على تنفيذها يغلب عليه ، ويجد نفسه مقهورا مرغما على أدائها .

ليست شخصية مرضية دائما :

الشخصية الوسواسية هي إحدى أنماط الشخصيات الإنسانية ولها سماتها المميزة لها ، وأصحاب هذه الشخصية يحبون النظام والترتيب ، ويتمسكون بالإجراءات الرتيبة ، ويستاءون من التغيير ، وغالبا ما يأخذون أنفسهم بالحزم والصرامة في المعايير الأخلاقية ، والأعراف الاجتماعية ، ومسائل الضمير ، ويقدسون الواجب ، ويتمسكون بما يعتقدون أنه حق ، ويجادلون في ذلك ، ويضحون في سبيله ، كما أنهم يمارسون كبح النزوات ، ويقاومون الإغراء ، ويعتنقون الآراء المحافظة ،

وهم دائمو التوتر مشدودو الأعصاب لايسترخون بسهولة

هذه الشخصية بصفاتها المميزة ليست شخصية مريضة دائما ، بل ان صفاتها تؤهلها للعمل بكفاءة في مهن معينة ، كالوظائف في المكاتب وتدقيق الحسابات في الشركات أو المصارف ، إذ تقبل على العمل ، ولا تتبرم من كثرته ، وتصبوا إلى الكمال في تأدية الواجب ، لكنها في بعض الأحيان إذا جوبهت بضغوط بيئية زائدة تظهر عليها بعض الأعراض الوسواسية ، لكن هذه الأعراض غالبا ما تكون ذات طبيعة مؤقتة ، تزول بزوال السبب الخارجي .

أسباب الوسواس القهري :

هناك من يؤمن بأهمية عامل الوراثة كمسبب أساسي ، وهناك من يرجع تأثير عوامل البيئة الخارجية . وفي رأيي أن عامل الوراثة يلعب دورا هامشيا في موضوع الوسواس ، وأن الظروف المحيطة بالشخص لها تأثير كبير على نمو شخصيته وتطورها ، وعلى اكتسابه العادات التي يثبت عليها في الكبر . وأعتقد أن الأعراض الوسواسية يتعلمها

الأبناء في محيط الأسرة من أحد الوالدين على أنها سلوك طبيعي .

ولاشك أن صاحب الشخصية الوسواسية سيربي أولاده على صفاتها ، فيكتسبون هذه الصفات بواسطة آليات التعلم المختلفة التي يتعلم بواسطتها الإنسان باستمرار منذ طفولته كل ما يستطيع استيعابه عن بيئته . كذلك ثبت أن التربية القاسية من جانب الوالدين ـ لاسيما من الأب ـ التي تتسم بالتزمت والجمود والقهر والكبح والقمع والتقريع وإلزام الطفل بمعايير صارمة في السلوك والأخلاقيات غالبا ما يعجز عن فهمها في المراحل الأولية من نموه ، أقول إن هذه الأساليب التربوية ذات الأفق الضيق والأثر الفاسد هي التي تلعب دورا كبيرا في ظهور الأعراض الوسواسية عندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة أو بعدها بقليل .

وأرى أن استيعاب هذه المعلومة المهمة يساعدنا على عمل الكثير نحو وقاية أبنائنا من مرض الوسواس القهري (وربما غيره أيضا من الأمراض النفسية) ، إذ أنهم في حاجة إلى اللين والتسامح والارشاد بالحسنى في أسلوب تربيتهم ، كما يحتاجون للتفهم والتعاطف والمساندة والقدوة الحسنة التي تكون أمامهم مثلا للاقتداء ، وتمثل صفاتها السوية واكتسابها .

العلاج :

كثير من الأعراض الوسواسية تصاحب مرض الاكتئاب النفسي ، وتعد جزءاً من أعراضه الأصيلة ، كما أن معاناة أعراض الوسواس فترة طويلة تسبب حالات من الاكتئاب ، لذا وجد أن استعمال بعض أنواع العقاقير المضادة للاكتئاب تساعد كثيرا في حالات الوسواس .

كذلك ينتج عن عملية المقاومة المستمرة من جانب المريض ضد الالحاح المتكرر للخواطر الوسواسية توتر عصبي شديد ، وحالات من القلق النفسي ، وهنا يوجد مجال كبير لإعطاء المريض المهدئات النفسية الخفيفة فترات قصيرة . وكما أن معظم حالات الوسواس تعاني من حالتي التوتر العصبي والاكتئاب النفسي ، فيفضل وصف عقار من كل من المجموعتين معا فذلك يؤدى الى نتائج أفضل .

وفي جميع الحالات يحتاج المرضى إلى تلقي العلاج النفسي المناسب بأي أسلوب من أساليبه المعروفة سواء الفردية أو الجماعية . وفي بعض الأحيان يكون للعلاج السلوكي نتائج فاعلة .

فمن يعانون من وسواس التلوث بالأقذار يمكن استخدام آليتين أو أكثر من آليات العلاج السلوكي معهم ، فمثلا بآلية إزالة الحساسية تجاه التلوث يعرض المريض تدريجيا لمصادر التلوث المختلفة حتى يتأقلم معها ويتدرب على ألا يهابها فيزول عنه الخوف الوسواسي منها ، وبآلية الاغراق يعرض المريض لهذه المصادر فجأة ليدرك بنفسه عمليا أنه لا يوجد مخاطر حقيقية لهذا التعرض .

وممن يعانون من الأفكار الوسواسية أو الصور الذهنية يطلب المعالج أن يستحضر المريض في ذهنه وبإرادته هذه الأفكار والصور ، وفجأة يصيح المعالج بصوت عال منفر « توقف » ، فتتوقف الأفكار وتتلاشى الصور ، ويستطيع المريض بعد ذلك أن يتدرب بنفسه على ذلك بأن يهمس لنفسه إذا راودته هذه الأعراض بأن « يتوقف » ، وتزول عنه .

والأساس النظري لهذا الأسلوب العلاجي هو التعلم الايجابي لمجابهة الأعراض فبدل أن يظل يقاوم الأفكار والصور دون طائل يجعلها تحت سيطرته ويطردها هو بإرادته بالأسلوب الذي تعلمه .

وأخيرا فإنني أود التأكيد على أن أعراض الوسواس ليست دائمة أو مستمرة ، فهي تظهر في نوبات حادة لها انحسار مهما قويت أو طالت ، وهذه النوبات الحادة لها علاجاتها المناسبة العديدة ، ويمكن بواسطتها السيطرة عليها ، وربما الشفاء منها إذا ما تم الوصول إلى حقيقة أسبابها وظروف نشأتها . □

واحة العربي

في الصميم

* إن أصعب مشكلة تواجه الطبيب هي محاولته معرفة نوع الطعام الذي يفضله المريض لكي يمنعه من تناوله .

د . اندريه سويدان

* منح (الديك) بعضا من أسوأ العيوب الرجالية : الغطرسة والميل الى تعدد الزوجات ، وتلك العادة السيئة التي ترمي الى افهام الناس الذين يودون النوم انه قد استيقظ .

آن ماري كاريير

مــن القلــب

■ قال الأب لابنته الوحيدة : أريد أن اخبرك بأن جارنا طلب يدك لابنه الشاب ، وأنا وافقت .

فتظاهرت الابنة بالحزن وقالت : ولكن ياوالدي . . كيف أترك والدتي وحدها ؟

فقال : خذيها معك .

■ الاول (متفاخراً) : ألا تعرف من يكون أبي ؟

الثاني : لماذا ؟ ألا تعرفه أنت ؟

■ العم : وحتى ترى إلى أي مدى يصل طموح الانسان ، فقد كنت في مثل سنك أعمل مساعدا في حانوت بقال بأجر بسيط جدا جدا ، ولم تمض ست سنوات حتى ادخرت من المال ما يكفي لشراء المحل الذي كنت اعمل فيه ، فلماذا لا تفعل مثلي ؟

الشاب : إن الأمور صعبة في هذه الايام ، لان البقالين يستخدمون الآن آلة لتسجيل البيع والشراء .

■ قال الزوج لرجل البوليس : إنني هنا من حوالي ساعة ، أنتظر زوجتي ولم تأت بعد ، فهل لك أن تطردني ؟

ضحكات عربية

لعن الله العجلة

روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها أرسلت تابعا بدويا ذات يوم ليأتيها بقبس من نار للدار . وبينما البدوي يلتمس القبس شاهد قافلة تسير الى مصر . فمضى معها ومكث بها عاما ، ثم حن لمألفه واهله فعاد . وخلال مروره بطرق المدينة ، تذكر القبس عندما رأى ناراً على مبعدة ، فعدا اليها ، فتعثر ووقع على الأرض ثم نهض وهو يقول لعن الله العجلة .

وصية !!

أوصت اعرابية ابنتها عند زواجها فقالت :

اقلعي زُج رمحه ، فإن أقر فاقلعي سنانه ، فان أقر فاكسرى العظام بسيفه ، فان أقر فاقطعي اللحم على ترسه ، فان أقر فضعي الأكاف (البردعة) على ظهره ، فانما هو حمار .

نصب !!

عندما ذكر يوسف وهبي أحد الفنانين بتنفيذ وعد قطعه على نفسه رد الفنان : لا تخف يااستاذ يوسف ، لقد جعلت هذه المسألة نصب عيني فقال له يوسف وهبي : أنا خفت أن تكون قد جعلتها (نصب) فقط .

أخيرا

قال الكاتب الذى لا ينضب معين كتبه وهو يقدم كتابه الى الفريد كابو: تفضل ياسيدى . . آخر كتبي . . .

الأخير : حسنا ـ حسنا جداً .

ضحكات عالمية

كتابات غير مقروءة

قال الروائي المسرحي روبير دوفلر لأحد أصدقاءه : نظرا لرداءة خطي فإن الكثيرين من أصدقائي لا يستطيعون قراءة كتاباتي عندما تكون مكتوبة بخط يدى .

فقال له صديقه : ولكن صديقك الصحافي فلان خطه أسوأ من خطك بكثير .

فقال دوفلر : بالنسبة له ليست مشكلة فكتاباته لا تقرأ حتى بعد طباعتها .

مؤامرة

قال أحد الشعراء المغمورين وعديمي الموهبة لاوسكار وايلد: أنا أعتقد أن هناك مؤامرة صمت تحاك ضدى ، ماذا تنصحني أن افعل ؟

فأجابه وايلد : انضم الى المتآمرين .

اوسكار وايلد

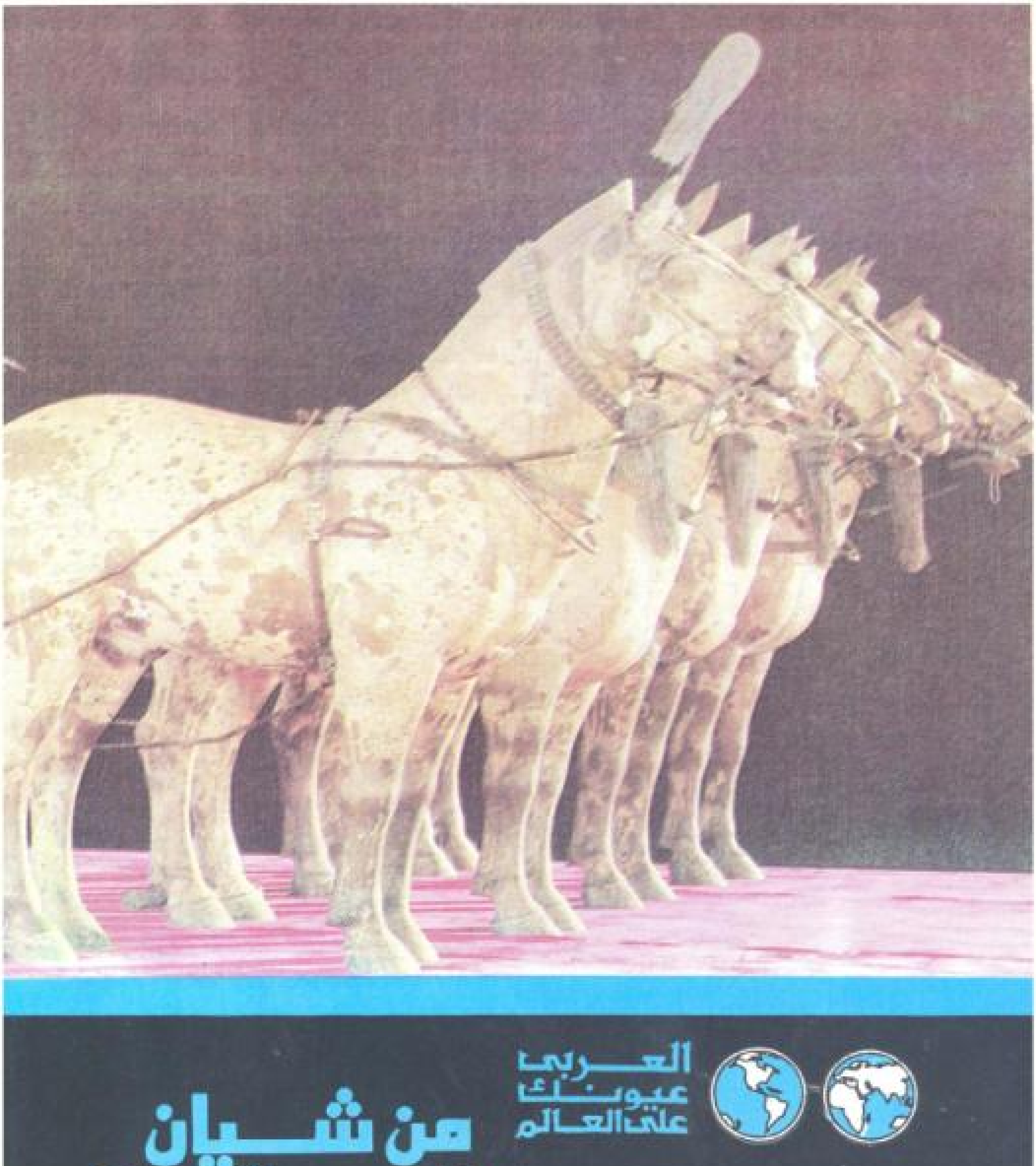

العربي
عيونك على العالم

من شيان إلى ستشوان

مولود واحد يكفي!

استطلاع : سليمان مظهر / تصوير : سليمان حيدر

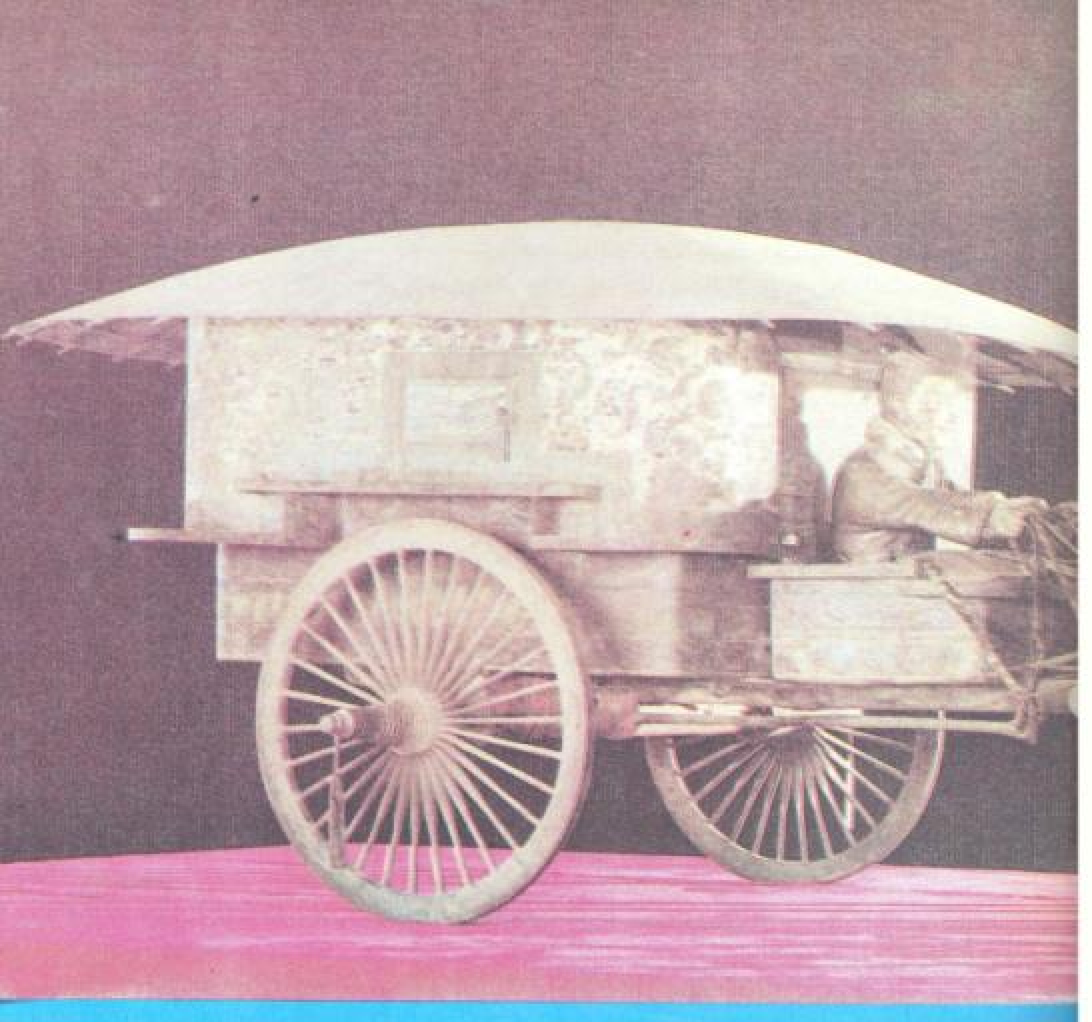

هل شهدتم من قبل جيشا يبعث حيا ، ويخرج من باطن الارض بمشاته وفرسانه وقادته وسلاحه وعرباته ، بعد أن ووري الثرى قبل أكثر من ألفين من السنين ؟!

هكذا قال لنا « شيانج بن » نائب رئيس مقاطعة شانسي في الصين وهو يتبسم .. ثم أضاف : سترون هذا البعث الجديد للجيش وهو ينفض عن نفسه تراب الزمن في « شيان » أول عاصمة في الصين ، وهو بعث قد يبدو لكم غريبا . ولكن هذا الجيش الخارج حيا من الظلمات بتعداد رجاله الذي يتجاوز ثمانية آلاف محارب ليس غريبا بالنسبة لنا . فشعبنا الكبير الذي يتجاوز تعداده ألف مليون نسمة بعث حيا بعد ان كان غارقا في ظلمات عصور الأباطرة والاقطاعيين والمستعمرين والمجرمين والخونة ايضا ، إذ أهالوا عليه تراب السخرة والعبودية والجوع والجهل والأفيون ، لهذا فنحن نرى أن نهوض الشعب الصيني وانطلاقه الجديد هو البعث الحقيقي !

في مدينة «شيان» نحاول متابعة اسطورة البعث .. فمثل الفراعنة في مصر القديمة، بنى الاباطرة الصينيون لأنفسهم قبورا ضخمة، كانت غرف الدفن فيها تبدو وكأنها قصور تحت الأرض، وكانوا يدفنون معهم كنوزهم وكل ما يحتاجون اليه من أدوات وأطعمة ووسائل التسلية وتماثيل رجالهم والمقربين اليهم، بما يتفق مع عقيدة الصينيين القدماء، الذين كانوا يعتقدون ان الآباء والأسلاف يعيشون احياء بعد موتهم، ويعيشون في مملكة غير محددة وغير واضحة، وانهم يتمتعون في تلك المملكة بكل ما كانوا يتمتعون به في الدنيا..

ولعل ذلك هو ماجعل البلاد مليئة بما لا يحصى من القبور الهرمية الضخمة للاسلاف، وبخاصة الاباطرة الذين كانت قبورهم المحفورة تحت الأرض تمتد في مساحة عدة مئات من الامتار المربعة تغطيها تلال هرمية ترتفع الى اكثر من مائة متر.

وكما كان كشف قبر توت عنخ امون وكنوزه في مصر إحدى عجائب العالم، فقد كان لكشف قبر الامبراطور شي هوانج تي اول اباطرة اسرة تشين في شرق شيان في عام ١٩٧٤ نفس الأثر المثير، اذ لقي اهتماما كبيرا في العالم، ودخلت مكتشفاته بخطوات ثابتة طابور عجائب العالم السبع كعجيبة ثامنة! فمن بطن هذا القبر خرج الى الحياة فيلق امبراطوري كامل يضم ثمانية آلاف محارب بين مشاة وفرسان، يسيرون في طوابير منتظمة، متدرعين بالسلاح والخوذ والدروع، وهو المشهد الذي وقفنا أمامه نتأمله في شبه ذهول!

جيش يخرج من القبر

على عمق لا يقل عن عشرين مترا تمتد أمامنا ساحة تنقسم الى ثلاثة اقسام، اتساعها ٢٠ الف متر مربع تضم ما يقرب من ٨ آلاف تمثال من الفخار تمثل المحاربين و ٦٠٠ من الخيول الصلصالية و ١٢٥ عربة حربية مصنوعة من الخشب. ونشعر أننا أمام جحفل عرمرم من جيش أسرة تشين يسير في مهابة مثيرا عجاجة هائلة وسط الميدان. في المقدمة ٢٠٤ من حملة الأقواس في صفوف ثلاثة يتوسطهم ضباط يحملون السيوف، ويتبع هذه الصفوف ٣٨ طابورا من المشاة لابسي الدروع، تتخللها ٣٨ عربة حربية تجرها مائة واربعون من الخيول.

الجيش مرتب في نظام الاستعداد لخوض معركة. ففي القسم الأول جناح الجيش الايمن وقوامه المشاة المعززون بالعربات الحربية، والجزء الثاني هو جناحه الأيسر المؤلف من العربات المسنودة بالفرسان والمشاة، والقسم الثالث هو مقر القيادة تتوسطه عربة القائد، ويفصل بين القسمين الثاني والثالث شبه مخزن لا يحتوي على شيء، وهو سر مايزال مجهولا.

عندما نطيل التأمل في رجال الفيلق الامبراطوري نجد أن الضباط والمشاة وحملة الاقواس والفرسان وسائقي العربات كلهم ذوو قامات متساوية بطول ١,٨ مترا مثل طول الانسان العادي. وتماثيل العساكر والخيول لا تتميز بالضخامة الهائلة فحسب، وإنما ايضا بدقة النحت الذي يصور على الوجوه الامزجة المتباينة والطباع المتفاوتة والعيون المحدقة والقامات المنتصبة والوجوه المفعمة بالقوة والذكاء والثقة، وهم في هذا كله ذوو أعمار مختلفة، فمنهم المحاربون المتمرسون ومنهم الشبان الذين بلغوا اشدهم ومنهم الفتيان الأغرار. اما الخيول فتبدو شديدة المراس قوية بصهواتها الصلبة ورؤوسها المرفوعة وصدورها الرحبة مع متانة قوائمها وطول قاماتها يصل الى مترين ومعدل ارتفاعها متر ونصف متر.

أما الاسلحة والدروع والسهام والسيوف والأقواس والمجانيق فتبدو في هيئة راقية الى حد بعيد، يدل على ذلك ما يقرب من عشرة آلاف من تلك الاسلحة التي يحملها عساكر الفيلق، وهي تضم آلات القتال الطويلة والقصيرة وآلات الرمي البعيد. وما تزال بعض سيوف الضباط مصقولة كأنها حديثة السبك مع انها مطمورة منذ الفي سنة.

ويشير الاثري يوان زونجي الى احد هذه السيوف ويقول لنا: لقد اظهرت الدراسات ان تلك الاسلحة مسبوكة من النحاس الممزوج بالقصدير وغيره من المعادن الثلاثة عشر، كما ان السيوف والانصال مطلية بمعدن الكروم وتعلوها طبقة من مادة تحصنها من الصدأ، وهذه الطريقة من الوقاية لم تعرفها الدول الاوروبية والأمريكية الا في العصر الحديث.

العربة الامبراطورية :

يأخذنا مرافقنا الى قسم جانبي على يسار القاعة الكبرى لضريح الامبراطور تشين . في وسط القاعة وداخل مقصورة زجاجية كبيرة تنتصب مركبة ملكية واربع خيول وسائق امامها لافتة تقول انها احدى مركبتين عثر عليهما في بقعة تبعد عشرين مترا غرب ضريح الامبراطور في ديسمبر ١٩٨٠ ، وكانت المركبتان ركاما من كسرات النحاس ، وكانت الخيول البرونزية الثماني قد تفككت اطرافها ، وتزن المركبتان ٣٥٠٠ كيلوجرام . وبعد سنتين ونصف سنة من الترميم تمت اعادة تركيب احدى المركبتين وخيوطها الاربع والسائق الى الوضع الأصلي .

اما عن تاريخها فيقول لنا مرافقنا : قام الامبراطور تشين هوانج تي بعد ان وحد الصين بخمس رحلات في البلاد قطع فيها آلاف الاميال ليفرض هيبة سلطانه على الناس . . وكان يسافر في موكب عظيم تتوسطه مركبته المذهبة التي تسير بين صفوف من الركبات تتقدمها عربات القيادة وتجري في مؤخرتها ٨١ عربة حماية مغطاة بفراء النمور باستثناء آخر اثنتين منها إذ تعلق عليها ذيول الفهود . وقد مات الامبراطور في احدى هذه الرحلات ببلدة شاتشنغ . ويمكنكم ان تكونوا فكرة عن المركبات الامبراطورية التي كان يستقلها في جولاته من هذه المركبة التي عثر عليها في الضريح .

ونقف امام العربة الامبراطورية نتأملها ، فالمركبة وخيوطها مزينة بالفضة او الذهب الابيض تتكون من ٧٤٧ قطعة ذهبية و ٨١٧ فضية ، وللمركبة عريش ومقصورتان احداهما صغيرة في المقدمة للسائق والثانية في الخلف للامبراطور ، والاخيرة عبارة عن ظلة مستديرة ارضيتها مربعة ، وتبدو كأنها حجرة فخمة بجدرانها المزدانة من الداخل بالتصاميم الرائعة ، ومن خارجها بالمنحوتات البارزة ، وفي المقصورة اربع نوافذ وباب يقفل « بسقاطة » ، اما السائق فتبدو عليه امارات الهناء والرزانة ووجهه مستدير ممتلىء يبدو محدقا الى الامام وقد مد يديه كأنه يمسك بالعنان ، واما الخيول البرونزية فقد صيغت بدقة متناهية وبدت لنا كأنها ماتزال حية بالتجاعيد حول افواهها المفتوحة والشعر في اعرافها كأنه شعرها الطبيعي .

خريطة تبين موقع مقاطعتي شنشي وسيشوان وعاصمتيهما شيان وتشنجدو .

هذا هو الشيطان

قصة الكشف عن تلك الآثار يرويها لنا مرافقنا بانج دونج من مكتب الشئون الخارجية بمقاطعة شانسي ونحن نتجه لنشهد ماهو متاح للمشاهدة من ضريح الامبراطور تشين .

في مارس من عام ١٩٧٤ كان الفلاح بانج يري بان من قرية شيانج التابعة لكومونة يانتشاي يحفر بئرا في غابة شرق الضريح . وفجأة ضرب فأسه برأس صلب لم يكد يزيح عنه التراب حتى كاد يسقط على الارض من الذهول . لقد كان امامه جندي بكامل هيئته ولباسه وعيناه مفتوحتان كأنهما تنظران اليه في قوة . وعندما افاق من ذهوله استخرج تمثال الجندي وهو ينادي رفاقه ويهتف : هذا هو الشيطان . . هذا هو الشيطان . . وتكاثر الجميع حوله وربطوا الجندي وعلقوه من ساقيه في غصن شجرة كبيرة ، وراحوا يتناوبون ضربه بالسياط باعتباره رمزا للشر . واستمر ضرب التمثال عدة ايام حتى بلغت القصة مسامع المسئولين وذهب احد الاثريين ليكتشف حقيقة التمثال . فأوقف عملية الضرب وفك قيوده ، واحيط المكان بسور خشبي وبدأ الاثريون عمليات التنقيب حيث تم فهم كشف الموقع كله . وشهدت السنوات العشر ١٩٧٤ و ١٩٨٣ كثيرا من الجهود التي انتهت بترميم مايربو على الف من اولئك الجنود

جانب من فرقة الفرسان في الفيلق الامبراطورى وتبدو دقة النحت في وجوه الفرسان وخيولهم .. العيون محدقة والقامات منتصبة والوجوه مفعمة بالقوة والذكاء والخيول شديدة المراس بصهواتها الصلبة ورؤوسها المشرعة وصدورها الرحبة .

طابور المشاة .. بينهم الشبان الذين بلغوا أشدهم
وبينهم الفتيان الأغرار . والصف الاول لضباط الفرقة في
أزيائهم وسيوفهم المصقولة كأنها حديثة السبك .

والخيول واعادتهم الى هيئتهم الاصلية . وشيد في مكان القسم الأول من الساحة متحف كبير ضم التماثيل التي تم ترميمها في مواقفها وصفوفها المتراصة حتى اصبحت تبدو للمشاهدين وكأن الفيلق في ميدان المعركة .

ونصل الى ضريح الامبراطور بعد ان درنا حول الجبل خلف متحف الفيلق الامبراطوري . امر تشين هوانج تي ببناء الضريح منذ اليوم الأول من حكمه حين اعتلى العرش وهو في الثالثة عشرة ، ولم يكتمل البناء الا بعد ست وثلاثين سنة من العمل والجهد الشاق وضحى من اجله الآلاف بحياتهم . واذ تأمل مشهد الضريح والتل الهرمي الكبير الذي يعلوه نعرف من مرافقنا ان ارتفاعه في الايام الأولى من انجازه كان ١١٥ مترا بمحيط ٢,٥ كم وكان يضم في داخل اسواره المزدوجة صفوفا من المباني الفاخرة . لكن بقاياه التي كشفت عنها الحفريات التي تراها امامنا لا يزيد ارتفاعها عن ٤٥ مترا اي اقل من الثلث ، بينما اتسع المحيط كثيرا عما كان عليه فبلغ كل جانب من الجوانب الاربعة ٧ كيلو مترات لتصبح المساحة كلها حوالي ٥٦ كم٢ . وتقول السجلات التاريخية ان غرفة الدفن نفسها غائرة بعمق ٦٩٣ مترا حيث سخرت صخور القاع لتكون الاساس المعزز بالنحاس الذي قامت عليه القصور والقاعات معتمدة على الأعمدة الثمانية ، وفي سقف القبة شمس وقمر ونجوم من الدرر .

قال لنا تشين زيانج ليانج مدير مكتب الشئون الخارجية بمقاطعة شانسي : هذا هو الامبراطور تشين الذي أسس أول دولة إقطاعية موحدة مركزية في تاريخ الصين وأحاطها بالسور العظيم الذي شهدتموه في أول رحلتكم ، وكانت دولته تضم ٢٠ مليون نسمة ، جند ثلاثة ملايين منهم في الخدمة العسكرية ، وسخر ٧٠٠ الف في تشييد قصوره و ٧٥٠ الفاً آخرين في بناء ضريحه . وازدحمت المساحات التي تقوم عليها قصوره ومقبرته بجثث آلاف الموتى من هؤلاء البنائين ، ورزح الشعب المسكين طوال عهده تحت الضرائب والعقوبات الشديدة والسخرة . فضاق الشعب ذرعا وراح يتحين الفرص للوثوب وما أن مات حتى انتفض الفلاحون في حركة بعث وأجهزوا على حكم أسرته .

وختم تشين زيانج ليانج كلامه قائلا : « إذا كنا نعتز بتاريخنا القديم إلا أن حركة البعث تؤكد أن الشعب مهما رزح تحت عبء السخرة والطغيان فلابد أن يقوم من جديد ، تماما كما بعث شعب الصين في السنوات الاخيرة بعد أن أزاح عن كاهله ظلمات وقيود العبودية والاحتكار والاستعمار . فهكذا قام شعب الصين الجديد .

الملكية التعاونية بعد العبودية :

تتبعنا تطور المسيرة من خلال ما سمعناه أثناء اللقاء مع « تشانج بن » نائب رئيس مقاطعة سانشي الذى قال : « كان لابد للعبودية والاقطاع أن يجدا في النهاية من ينتصر عليهما ، ولهذا فحين قامت الجمهورية الشعبية أمضت السنوات الاولى في النهوض بالاقتصاد ، واستولت على كل المؤسسات الرأسمالية وحولتها الى مؤسسات اشتراكية تملكها الدولة . وتبع ذلك إلغاء الاقطاع والملكية الاقطاعية وأخذت الارض من ملاك الاراضى ، ووزعت على الفلاحين الفقراء ، وعلى من لا أرض لهم ، وبذلت في الوقت نفسه جهود كبيرة لتحسين الاقتصاد الذى مزقته الحروب وخلفته الصين القديمة . وقد تحقق بعد ذلك رقم قياسي في الانتاج الزراعى والصناعى شرعت الصين على أساسه في البناء الاقتصادى في ظل تخطيط دقيق . فاتخذت خطوات لتأسيس الملكية العامة لوسائل الانتاج في ظل الاشتراكية ، وانتظمت تعاونيات المنتجين الزراعيين على أساس تطوعي ، وتحولت المؤسسات الصناعية التى كان يديرها الرأسماليون لتصبح مؤسسات مشتركه بين الدولة والافراد ، وازدهر البناء الاقتصادى بشكل واسع في السنوات اللاحقة بفضل الجهود الملموسة التى بذلها الشعب كله »

هذه الصورة الجديدة شهدناها عندما زرنا محافظة كوانجهان حيث تجرى أبرز صورة تعاونية للمجتمع الفلاحي في الصين .

الانتاج الزراعي ودور المرأة

بينما كنا نتجول مع نائب رئيس مجلس المحافظة التعاونية السيد/ شي بين المزارع والبيوت الريفية

قال لنا ان محافظة جوانجهان اتخذت كبداية لاصلاح البنية الاقتصادية في الريف الصيني ، حيث بدأت تجربة جديدة للاصلاح منذ عام ١٩٧٩ بتحويل هيكل الانتاج من الفيالق الانتاجية كوحدة اساسية الى نظام تعاقد بين الفلاحين والمجالس المحلية ، وفي عام ١٩٨١ بدأت المرحلة الثانية وهي التعاقد بين اسر الفلاحين والحكومة . وعندما اتضح نجاح التجربة بدأت المرحلة الثالثة الاخيرة وهى إدارة الانتاج على أساس طابقين : الطابق الجماعي والطابق الفردى .

فما هى حكاية هذا التقسيم النوعى ؟ كانت الملكية في الريف من قبل تنقسم الى ثلاثة أنواع : ملكية عامة وملكية جماعية وملكية فردية . ومن خلال المرحلتين الاولى والثانية لاصلاح البنية الاقتصادية تم التحول الى الملكية التعاونية ، أى تنفيذ سياسة التعاقد بين الفلاحين والحكومة بربط مسئولية الانتاج بأرباح الانتاج . لتنفيذ ذلك تمت تعبئة حماس الفلاحين للانتاج الزراعى وإصلاح الهياكل الانتاجية ، وشهد الاقتصاد الريفى تطورا سريعا نسبيا في السنوات الماضية . ولم يقتصر الأمر على المنتجات الزراعية فقد بدأ ٦٠٪ من الفلاحين يدخلون مجال الانتاج الصناعى والأعمال اليدوية والمنتجات الشعبية الريفية . والآن تعد الارض والمواد الانتاجية الكبيرة ملكية تعاونية ، والفلاحون يستأجرون الاراضى والوسائل والمواد الانتاجية من خلال الجمعية التعاونية . وحين لا يستطيع أى عدد من الفلاحين القيام وحدهم بعملية الانتاج فإن الجمعية التعاونية تقدم لهم الخدمات الانتاجية المختلفة ، وهذا يعنى تنفيذ نظام إدارة الطابقين ، أى الفردية والتعاونية ، على أساس الملكية العامة ، ومن خلال ذلك يمكن أن يظهر الدور الجاد للجمعية التعاونية في الانتاج ، وبالتالى تظهر حماسة الفلاحين بما يؤدى الى التطور الزراعى كما وكيفا ، أما نظام التسويق فانه بالنسبة لبعض المنتجات الضرورية لحياة الشعب مثل الحبوب الغذائية والقطن والزيت فإن الدولة تحدد الاهداف والنسب المعينة للفلاحين ، الذين عليهم أن يبيعوا هذه الكمية المحددة للدولة سنويا ، أما مايزيد عن تلك النسبة فيترك للفلاحين الذين أنتجوها زائدة عن الحاجة أن يبيعوها كما يشاءون ، لكن حسب قانون الاسعار . ويستطيع الفلاح ان يحصل على بعض المواد الانتاجية كالبذور والاسمدة من جمعيات الائتمان للحصول على الاموال اللازمة للشراء ، كما أنه في بداية كل سنة زراعية تعطى القروض مقدما باحتساب نسبة من الانتاج المتوقع . وبعد أن يتم الحصاد وبيع المنتجات للجمعيات تخصم قيمة القروض الزراعية التي حصل عليها الفلاحون .

الصورة الواضحة التى خرجنا بها هى أن « الميكنة » الزراعية استعادت قوة الدفع بعد تطبيق نظام المسئولية الأسرية في الزراعة ، وارتفعت نسبة الانتاج بشكل بارز ، وبخاصة بعد أن بدأ نظام رى الاراضى وحصادها آليا وسجل رقما قياسيا جديدا .

وقال لنا نائب رئيس مقاطعة سشوان ان الفلاحين يقومون الآن بشراء مزيد من الآلات الزراعية بسبب انتقال عدد أكبر منهم للعمل في الصناعات الريفية والمشروعات غير الزراعية الاخرى ، وبسبب تركيز قطع الاراضى الزراعية المتعاقد على زراعتها مع الأسر الفردية التي تعمل من خلال النظام التعاوني .

وقد شهدنا بأنفسنا في المزارع والأراضى الزراعية كيف تؤدى المرأة دورا كبيرا حيث تقوم بالحرث والزرع والرى والحصاد ، ولاحظنا أننا لم نكن نمر بأى حقل إلا ونجد المرأة هى التى تعمل ، بينما الرجال يجلسون على مقاهى الشاى يتسامرون ، وقد اطمأنوا الى الجهد الكبير الذى تبذله نساؤهم في رعاية الحقول والاهتمام بالمزيد من الانتاج ، وهو أمر بغير شك يدعو الى الانتباه . . !

عام التنين

صورة أخرى جديدة شهدناها حين انتقلنا الى شنجدو عاصمة مقاطعة سشوان حيث قطاع كبير من الشعب الصينى .

سشوان مثلها مثل بقية مقاطعات الصين ومدنها كانت في ذلك الوقت تعيش « عام التنين » . والتنين - كما تذكر الأساطير الصينية القديمة - يعنى السعد والخير ، ويعيش في السماء كما في الماء ، وهو ليس مفزعا وحشيا ينقض على الناس ليلتهمهم كما قد يخطر على البال ، وهو خمسة أنواع رئيسية : أولها التنين الامبراطوري ، رمز الامبراطور الذى شهدناه في المدينة المحرمة ، وله خمسة مخالب في القدم الواحدة ،

بعكس سائر التنانين ذات المخالب الاربعة . وثانيها التنين السماوي حارس منازل الآلهة . وثالثها التنين الذي يوجه الرياح والامطار ويروي الحقول ويتسبب في بعض الأحيان بالفيضان ، لكن عن غير عمد . ورابعها التنين الارضي الذي ينظف الانهار ، ويعمق البحار ، ويمد يد العون الى البشر ، ليساعدهم في التحكم في مياه الفيضان . أما خامس التنانين فهو حارس الكنوز المحافظ عليها ، وهو قد يصبح شرسا بشعا إذا لم يكن الطارق هو صاحب الكنز نفسه .

ذلك هو التنين ، وهذا العام هو « عام التنين » الذي احتفل الصينيون ببدئه في النصف الثاني من فبراير الماضي .

عن سر عام التنين قال لنا « جيو شيانج » بمكتب الشئون الخارجية : جاء ذكر عام التنين في دليل صيني ، تم تأليفه منذ حوالى ألف سنة ، يحدد للفلاحين أنسب موعد للبذار والحصاد وأيام الزفاف والجنازات . ويتحدث الدليل عن عام التنين فيصفه بأنه « سنة عمياء » بلا ربيع ، ذلك أن العام الذي يسبقه وهو « عام الأرنب » الذي انتهى في ١٧ فبراير الماضي حسب التقويم القمري - تمخض عن توأمين ، أو ربيعين ، مما يجعل العام الذي يليه بلا ربيع . . !

وإذا كان الصينيون قد ساروا على طريق جديد لايؤمن بديانات السماء ، فإنهم مازالوا في أعماقهم أسرى الاساطير . وهم يلجأون الى التقويم لاستشارة حساباته الفلكية والجوية التي تم تسجيلها خلال مئات السنين . والاساطير تقول إن الزواج في سنة تضم ربيعين يثمر سعادة وهناء ، بينما الارتباط في عام أعمى يعد من سوء الطالع ، وهي تحذر من أن الذين يتزوجون في عام التنين سيصابون بالتعاسة ، ومن اضطر الى الزواج في ذلك العام فإن عليه أن يتخذ كل الاحتياطات ، لان زواجه مغامرة غير مأمونة العواقب !!

ولان الكثيرين من الشباب أرادوا أن يتفادوا مغامرة الزواج في عام التنين ، فقد تسارعوا خلال عام الارنب للحصول على تراخيص الزواج الحكومية ، وكانوا يصطفون خلال الاسابيع الاخيرة التي سبقت ١٧ فبراير الماضي في طوابير طويلة أمام مكاتب التصاريح ، حتى ينهوا إجراءات الزواج ، ولا يضطرون للانتظار حتى ينتهي عام التنين !

ولاشك أن ازدياد عدد الزيجات خلال العام الماضي قد زاد من قلق المسؤولين عن تخطيط الاسرة ، الذين يخوضون صراعا ضاريا للسيطرة على النمو السكاني . فازدياد حالات الزواج معناها زيادة جديدة في عدد المواليد ، وبخاصة في العامين القادمين . ويزيد من ذلك القلق أكثر أن هناك اعتقادا آخر بأن الاطفال الذين يولدون أو تحمل أمهاتهم في عام التنين يتمتعون بالصحة الجيدة والقوة والذكاء والقدرة على العمل الجاد ، وهو أمر يتوقع معه ارتفاع آخر في معدل المواليد ، مما يقض مضاجع الساسة المهمومين بتحديد النسل ، خاصة أن الاحصائيات أكدت أن العام الماضي وحده قد شهد زيادة في عدد السكان بواقع خمسة عشر مليون نسمة ، وهي زيادة أكثر مما استهدفته السلطات .

وكل ماتخشاه الصين وتعمل له ألف حساب هوالمزيد من الانفجار السكاني .

وياله من انفجار في دولة تضم بين جنباتها ربع سكان العالم !! وهو أمر كان أمامنا أن نفكر فيه طويلا خلال جولتنا بين مقاطعات الصين ولقاءاتنا مع الشعب في المدن والقرى والطرقات .

حوار مثير

في شوارع لندن وباريس وروما تستطيع أن تلتقي دائما برسامين وفنانين هواة ، يرسم أحدهم وجهك في دقيقة ، ويقلد آخر لوحة فنان شهير في نصف ساعة ، ويستوحي ثالث منظرا طبيعيا يقدمه لك بالالوان في أقل من ذلك . . !

هنا في بعض مدن الصين ، حيث تذوق الفن والابداع في الرسم والتلوين هواية محببة وبخاصة عند الشباب ، تستطيع أن تسير في الشوارع الحديثة الممتدة بالقرب من الفنادق التي ينزل بها السياح والاجانب ، فتجد معارض ومتاحف جدارية مفتوحة في الهواء الطلق ، وقد علقت اللوحات الطولية على الجدران كل منها بطول أكثر من ثلاثة أمتار وعرض أكثر من متر ، رسمها أو قلدها هواة محترفون . ويمكنك أن تساوم بالطبع وتنجح في الحصول على اللوحة بأقل من نصف الثمن المعروض ، حين يكون معك مرافق يتحدث معهم بلغتهم ويتبادل معهم الهمس ، ليؤكد لك بعد ذلك

التنين هو الرمز البارز لمسيرة الحياة في الصين .. ورسومه محفورة على الجدران والأسوار كما في الصورة العليا ..
بينما الأبناء في المدارس يتدربون في جدية منذ الصغر .

أنه نجح في إقناعهم بتخفيض أجر اللوحة بأقل من سعر التكلفة لأنك صديقه أو ضيفه . . وأنه هو الذي سيدفع ثمن اللوحة . . !

وكانت تلك متعتنا لأننا ـ وزميل المصور ـ من هواة الفن واقتناء اللوحات الملونة لاسيما المناظر الصينية التقليدية . . وكان أبرز هذه المتاحف المفتوحة في الشارع الرئيسي بسيشوان على طول رصيف الفندق الكبير الذي نزلنا به .

ولكن . . ليست هذه هي الحكاية . . فالاهم هو أنه قد أتيحت لنا فرصة خلال هذه الجولة المسائية ـ وليس معنا مرافق أو مترجم ـ لان نلتقي بشابين اقتربا منا وراحا يساومان من أجلنا ويجيبان على أسئلتنا بالانجليزيه . وبعد أن تمت الصفقه طلبا منا أن يصحبانا في الطريق ، ليس فقط للشرح والترجمة ، ولكن لانهما يستمتعان بالحديث بالانجليزية ، التي يدرسانها في الجامعة ويتمنيان أن يجدا من يتبادلا معه الحديث والحوار ، لان اتقان اللغة يحتاج الى ممارسة . وبدت لنا فرصة كنا تمناها . . فقد كنا نريد أن نجلس مع أبناء الشعب نتحدث ونتحاور بعيدا عن الرسميات والرسميين . فقلنا لهما إن الحوار يمكن أن يتم بطريقة مشوقة أكثر لو جلسنا مع عدد من الاصدقاء لتبادل الحديث دون أن يكون مجرد حوار على الطريق ، ورحبا بالفكرة . . ودعانا أحدهما إلى بيت أسرته لقضاء السهرة . . كانت الجلسة ممتعة حقا ، فيها من الصراحة ماكنا نتمناه ، وبخاصة أنها ضمت الى جانب رب الدار وزوجته أباه وأمه وشقيقته الطالبة في الجامعة .

نساء للبيع

المجاملات في أي حوار تكون بداية لابد منها ، خصوصا أن الصينيين يحبون عادة من يمتدح جمال بلادهم ويتذاكر حضارة أسلافهم ، ويشيد بجهود أجدادهم وإبداعات أبنائهم وبناتهم ، وهنا . . تطل الصراحة بعد انفتاح باب الحوار على مصراعيه .

كانت بداية الحديث ماقرأناه في صحيفة « ديزنهاي » الصينية التي نشرت أن أسواقا لبيع الفتيات قد انتشرت أخيرا الى حد كبير في جهات كثيرة من قرى الصين ، وأن كثيرا من الرجال يشترون الفتيات للزواج منهن وخاصة القرويات ، بسبب هجرة عدد كبير من الفتيات الى المدن . وذكر الخبر أن متوسط سعر الزوجة يساوي مابين ٨٠٠ و ١٠٠٠ يوان (حوالى ٤٠٠ دولار) .

هنا . . انفتح القمقم . . وانفجرت الطالبة الجامعية غاضبة :

ـ هل عاد عهد العبودية والرق ؟ ألم يكف المرأة الصينية ماعانت طوال قرون منذ أكثر من ألفي سنة ، حين كان المجتمع المغلق بتقاليده يرفع من شأن الرجل ويحط من قدر المرأة ، مما جعلها تعاني من مرارة الحياة وبؤسها وتعاستها ؟

ودخلت الام وهي تسير ببطء حاملة أواني الشاي . وحين سمعت ماتقوله ابنتها تدخلت مقاطعة :

ـ الواقع أن المرأة العاملة لم يكن لها أي حق أو مكانة في شتى المجالات بما في ذلك الاجتماعية والعائلية .

وأشارت الام البدينة الى قدميها الصغيرتين اللتين لاتكادان تحملانها للسير بشكل طبيعي :

ـ لقد كانوا الى عهد قريب يضعون أقدامنا ونحن أطفال داخل أحذية حديدية حتى تظل صغيرة جدا . لقد كانوا يدعون أن ذلك أحد مظاهر الجمال ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يقصدون أن تعجز المرأة عن السير الطبيعي على قدمين قادرتين على حمل جسدها حتى في الطرقات ، وتظل حبيسة جدران الدار تعمل وتشقى كخادمة في خدمة السادة طوال الليل والنهار . وكانت البنات عبئا على الاباء لأنهم يصبرون على تربيتهن ولاينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن حين يكبرن الى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكبرون لأسر غير أسرهم . وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للامهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لان هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول ، بل لقد كان محرما على النساء أن يخرجن لتقريب القربان الى الآباء والاسلاف والأبشع من ذلك أنه إذا ولد للاسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب في إعالتهن تركتهن في الحقول . ليقضي عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية دون أن يشعر الاهل بشيء من وخز الضمير . . !

قال الاب العجوز :

ـ لاتنس ان الاسلاف نجحوا ـ من خلال حرصهم على عزل البنات في البيوت دون الاولاد ـ في غرس فضيلة العفة عند الفتاة نجاحا كبيرا ، حتى أن بعض البنات كن في بعض الاحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث إذا مسهن رجل بالمصادفة .

وتساءل : ولكن هذه العزلة لم تكن تفتح الطريق أمام الفتاة للزواج بمن تتمنى أو تحب .

قال رب الأسرة : لم يكن للزواج صلة كبيرة بالحب ، فالغرض من الزواج هو ربط زوجين صحيحين أحدهما بالآخر لكي تنشأ أسرة كبيرة . وهذا الرباط لايصح أن يترك لحكم العواطف القائمة على غير أساس من العقل . ولهذا فلم يكن الزوج الذي تختاره الاسرة لابنتها يستطيع رؤيتها حتى تزف إليه ويسمح له برفع النقاب عن وجهها . ولذلك كانت البنت تدرب على أن تكون رهن إشارة والديها في اختيار زوجها ، وأن تكون حبيسة مطيعة في وقت واحد .

وترد الام وهي تكتم غيظا يكاد ينفجر :

ـ كان الزوج يأخذ زوجته لتعيش معه في بيت أبيه وأمه ، حيث تكدح كدحا في خدمة زوجها وأمه ، حتى يحين الوقت الذي يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، بينما الفتاة من الجيل الجديد تختار الزوج الذي تريد وهي تخرج وتعمل ولا يحول شيء أبدا دونها وهي بالتالي لن تقبل العودة الى الرق والعبودية كما يقول الخبر الذي تتحدثون عنه إلا اذا كانت مرغمة . . فلتحمدي ربك يا ابنتي أنك تعيشين في هذا الجيل ولا تثوري عليه . .

المرأة الجديدة

واستردت الفتاة هدوءها وقالت موجهة الينا الحديث :

ـ لست أنكر أبدا أن الفتاة الصينية تتمتع الآن بحرية كاملة مع التزامها بالجد في تصرفاتها واختياراتها . وأن مكانة المرأة قد تغيرت بشكل جذري ، فهي لم تصبح من أسياد الدولة فحسب ، بل أصبحت قوة مهمة في قضية البناء الاشتراكي في ظل المبادىء الجديدة التي تنص على المساواة بين الرجل والمرأة في فرص العمل والانتاج .

قلت موجها الحديث الى سيدة الدار في ثقة واضحة :

ـ الحقيقة أننا التقينا خلال زياراتنا لمواقع الانتاج والمصانع والمكاتب والشركات بمديرات ومهندسات وعالمات وخبيرات في مختلف المجالات . ولا يمكن أن يكون ذلك قد حدث إلا لان النساء يتمتعن الآن بنفس ما للرجل من حقوق . التقينا بالمرأة نائبة للمدير في مصنع الحديد والصلب ومديرة للعلاقات العامة في بكين ،والتقيناها مهندسة ومديرة للتشغيل في مصنع الالكترونيات في شانسي ، وقابلناها طبيبة ونائبة لرئيس العلاج بالوخز بالابر في المركز الطبي بشيان . . ووجدناها مديرة ومشرفة على المركز العلمي والطبي لحماية البندا . كما شهدناها في اجتماع البرلمان (المجلس الشعبي المنتخب) في اجتماعه الاخير الذي اتخذت فيه الكثير من اجراءات الاصلاح وكشف الفساد ومحاربة البيروقراطية ، فكان لها دور كبير في المناقشات الجادة من خلال ٦٣٥ نائبة يمثلن ٢٥٪ من مجمل عدد نواب الشعب .

وسكت قليلا قبل أن أضيف وكأن الحديث مازال مستمرا :

ـ ولكننا في الحقيقة لم نلتق بالمرأة في المدينة كأم ذات أطفال ترعاهم وتحنو عليهم وتستشعر معهم الدفء والأمومة .

قالت الفتاة وكأنها تنبهت الى شيء :

ـ تلك في الواقع هي القضية . وأقولها بصراحة . . أليس من حقي كأنثى أن اتمتع بالأمومة كما يجب أن تكون ، وأن أرضي عواطفي ومشاعر الحنان للابناء ، بينما أنا محرومة من أن أنجب أكثر من طفل حسب القرارات والقوانين ؟ إنني أقولها صادقة أنني ضد هذا التحريم والتحديد .

والتفتت اليها سيدة الدار وقالت في هدوء :

ـ سأقول لك شيئا . . فأنا زوجة ، ولا توجد امرأة في العالم لاتحمل في أعماقها شوقا كبيرا لممارسة الامومة ، فهي تتمنى أن يكون لها مجموعة أطفال ، وعلى الاقل ولد وبنت ، من هنا فإنني لا استطيع أن أنكر ـ ومثلي كثيرات ـ أننا نستشعر قسوة القيود حين نضطر للاكتفاء بمولود واحد ، كما أننا نتلهف الى البقاء في البيت لرعاية أطفالنا وملاعبتهم وإغراقهم بعواطفنا ، ولكننا مع ذلك نكبت الامر في أنفسنا

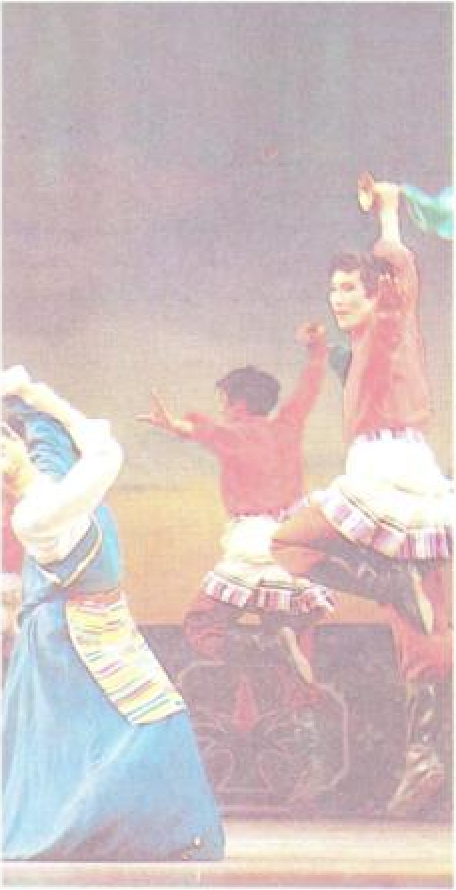

● رقصتان شعبيتان .. الأولى رقصة القيثار ذى الأوتار الثلاثة لقومية باى تقدم في المناسبات المحلية .. والثانية رقصة « الفرح والنشاط » التى تجسد سعادة التبتيين بوفرة الحصاد .. والى اليسار طالبة وطالب من قومية « التبت » ومعهما طالبة وطالب من قومية « اليي » وفي خلفية الصورة يبدو مبنى معهد القوميات .

تمتاز فتيات القوميات المختلفة بأزيائهن التقليدية التي يمكن من خلالها التمييز بين كل قومية من قوميات الصين البالغ عددها ٥٦ قومية . . وهكذا وقفت فتاة « القاوشان » في زيها في الحديقة الامبراطورية .

لاننا ندرك أن الاستسلام للطبيعة في هذا المجال يمكن أن يعود على بلادنا بكارثة . . فكان لابد لنا أن نتقبل التحكم في الانجاب وتحديد النسل من أجل صالح بلادنا ، وكفى ما أصابها من التخمة في عدد السكان .

مولود واحد يكفي

كان ذلك في الواقع هو الحقيقة التي تعمل لها الدولة في الصين ألف حساب . . والصورة مثيرة . .

فهل يمكن أن تتصور نفسك مسئولا عن ألف ومائتي مليون انسان . . يكون عليك أن توفر لهم الطعام والاعاشة والاسكان والانتقال والعلاج والرعاية الصحية والتعليمية ؟ هل تستطيع أن تضمن لهذا الجمع الحاشد مختلف إمكانات الحياة أربعا وعشرين ساعة ، نهارا وراء نهار ، وليلا وراء ليل ، وشهرا وراء شهر ، وعاما وراء عام ؟ ! أي عبقرية يمكن أن تفعل ذلك ؟ وأي إنسان يمكن أن يصارع الحياة بكل أثقالها ومشكلاتها وهو مجرد فرد ضمن مئات الملايين من الناس ؟

أسئلة لايستطيع أن يجيبك عنها الا من خاض بالفعل هذه التجربة ، وحمل فوق أكتافه مسئولية السيطرة على الانفجار السكاني ، وتطبيق تنظيم النسل لهذا الزخم الكبير . واحد من هؤلاء المسؤولين وجدنا عنده الاجابة ، إنه هان يونج يان نائب رئيس مقاطعة سشوان التي يبلغ عدد سكانها ١٥٠ مليون نسمة ، (عدد سكان الوطن العربي تقريبا) ، وكانت إجابة المسئول عن أكبر مقاطعة في الصين تقول :

خلال المدة من سنة ١٩٤٩ حتى نهاية عام ١٩٨٥ بينت الاحصائيات أن عدد سكان الصين ارتفع من ٤٥٠ مليون نسمة الى ١١٠٠ مليون نسمة ، بمعدل يقترب من ٢٪ في العام الواحد ، لكن تتبع مسيرة هذا المعدل يبين أن الجهود التي بذلت للسيطرة السكانية منذ السنوات الأولى للتحرير قد تدرج في الهبوط من حوالى ٣٪ إلى ٢,٥٪ في سنة ١٩٧٠ حتى بلغ ١,٠٤٪ في عام ١٩٧٩ .

وكان هناك إدراك على مختلف المستويات في أوائل السبعينيات أن المشكلة السكانية تزيد من تفاقم معضلات البناء الاقتصادي على نحو خطير ، مما جعل السيطرة على السكان مدار اهتمام خطة الدولة . وقد أنشئت مراكز خاصة لقيادة الجهود في تخطيط الأسرة ، وأقيمت الدورات الدراسية في كل مكان لرفع وعي القادة والعاملين في التخطيط الاسري ، كما وضعت الأهداف الأصلية والخطوط المرشدة والسياسات المتعلقة بذلك ، ويشكل التخطيط السكاني اليوم جزءا لايتجزأ من الدولة .

وفي عام ١٩٨٠ حدد قانون الزواج أن على الزوجين واجب ممارسة تخطيط الاسرة ، لتشجيع الزواج المتأخر ، وتأجيل الانجاب .

لكن هل كانت المقارنات مجدية ومقنعة لشعب يتمسك بالتقاليد التي تؤمن بالانجاب المبكر ، وأن المزيد من الابناء يزيد من البركات ، وأن الذكر أفضل من الأنثى كما هو الحال في المجتمعات الزراعية التقليدية ؟

الرد يقول :

التغلب على هذه الافكار جزء حيوي من الجهود التثقيفية والدعائية ، والأرقام مقنعة باستمرار ، فقد أظهرت النتائج في احدى التعاونيات بمحافظة شيفانج بمقاطعة سيشوان أن العائلات المكونة من ثلاثة أفراد أو أقل (طفل وعاملين) يصل دخل الفرد فيها إلى ٤٠٠ (يوان) ، ونصيب الفرد من الحبوب ٤٠٠ كجم ، بينما الدخل والاستهلاك للعائلات المكونة من خمسة أفراد أو أكثر (عاملين وطفلين وشخص كبير نسبيا) يصلان إلى ٢٠٠ (يوان) للفرد ، وحوالي ٣٥٠ كجم من الحبوب ، وأن العائلات التي تضم ثلاثة أطفال أو أكثر كانت تستدين بنسبة تصل الى ٨٦٪ . وهذه المقارنات يستوعبها أهالي الريف بسهولة ويسر .

حوافز للاقناع

في مجال متابعة المولود الواحد لابد أن نتساءل : أليست هناك حوافز اقتصادية إضافية للإقناع العملي ؟ وعرفنا الحقيقة ، فقد وضعت الحوافز الاقتصادية لإنجاب طفل واحد ، لتكون أكثر جاذبية وفائدة . هناك نوعان من الحوافز المالية : ففي المناطق المدنية تقدم للعائلات ذات الطفل الواحد إعانات الرعاية الاجتماعية ، وتتراوح بين ٣٠ و ٦٠ يوانا ، وهذا يتوقف على مكان الإقامة ، وفي الأرياف تختلف باختلاف مناطق العمل . وفي كلا

المنطقتين تقدم العلاوات لكل طفل إلى أن يصل إلى العاشرة أو الرابعة عشرة من العمر .

أما الأمهات اللاتي يتعهدن بإنجاب طفل واحد فتمنح الواحدة منهن إجازة ولادة ، تصل إلى ستة شهور ، زيادة عن المعتاد ، براتب كامل مدفوع ، إذا كانت في جمعية تعاونية . وفي كثير من المناطق تقدم الأولوية للطفل الواحد في دور الحضانة ، وفي الرعاية الطبية ومجال العمل . وبالنسبة للعائلات المدنية ذات الطفل الواحد تقيم في مسكن بنفس مساحة العائلات ذات الطفلين . وفي الأرياف تعطى العائلات ذات الطفل الواحد أرضا لبناء بيت ، وقطعة أرض خاصة مساوية لما لدى الأسر ذات الطفلين .

وقد حددت كثير من الجماعات الريفية نظام التقاعد ، وأقامت لذوي الدخل المتوسط بيوتا مريحة لكبار السن ، إذا لم يكن لهم أطفال . وهناك جماعات غيرها تضمن لمن ليس لهم أطفال أو لهم طفل واحد أن يتمتعوا بمستوى حياة طيبة . وتقدم الدولة حيثما كان ذلك ضروريا مساعدة مناسبة للجماعات الريفية . ولقد تطوعت ١٤ مليون امرأة متزوجة بالتعهد بإنجاب طفل واحد ويضمن الزوجان بتنفيذ هذا التعهد التمتع بالامتيازات الخاصة من الحكومة في العلاج والتموين والمعاش الإضافي وما إلى ذلك . وقد بلغ عدد الأزواج الذين تعهدوا بإنجاب طفل واحد في بعض المقاطعات بين ٨٠٪ و ٩٠٪ من مجموع عدد الأزواج .

السؤال المثير هو : كيف يستطيع الزوجان التحكم في الا نجاب وتحديد النسل بما لايزيد عن طفل واحد ؟

الاجابة الصريحة التي سمعناها واكدها لنا رئيس الجمعية التعاونية بمقاطعة كوانجهان الريفية أن السيطرة الفعالة تعتمد على تقديم النصائح التقنية والتوجيه حول استخدام وسائل منع الحمل وضمان تقديمها بحيث تكون مضمونة لمن هن في سن الحمل . وتتبنى الصين استخدام موانع حمل فعالة ، تتحل بميزات خاصة تعتمد على الظروف الجسدية والاختيار الفردي ، وتقدم الدولة وسائل منع الحمل بالمجان ، كما يجري الاجهاض الاختياري وعمليات التعقيم الاختيارية . وتمنح البنات اللاتي يقمن بالإجهاض أو بعملية التعقيم مدة للراحة بعد العملية مدفوعة الأجر .

والواقع أن سياسة الولد الواحد تحل الكثير من المشكلات بالنسبة لدولة مثل الصين التي مازالت تواجه مشكلة زيادة السكان الخطيرة ، ويعتبر تحديد نمو السكان بحيث لا يتجاوز ١٢٠٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن مهمة شاقة ، وذلك لأن عدد الشباب والنشء يمثل نسبة عالية جدا من مجموع السكان ، فقد ولد خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة فقط حوالي ٤٢٨ مليون وليد ، بلغ قسم كبير منهم عمر الزواج ويتوقع أن ينجبوا في السنوات الاثنى عشرة الباقية من هذا القرن ، ولاشك أن تلك التوقعات الرهيبة هي التي جعلت الحكومة الصينية تتخذ سياسة الولد الواحد ، وتتحكم بصرامة في الولد الثاني ، وتمنع البتة الولادة الثالثة . ولاننسى ان الحكومة تشجع على ممارسة عملية التعقيم الصناعي . وأكثر من ذلك فإن الاطباء والقادة في المقاطعات يبدأون عادة بقبول عملية التعقيم قبل الجماهير مما يزيل مخاوف الناس .

على الرغم من كل ذلك هناك استثناءات تراعي احتياجات المجتمع ، فالأسرة في المدينة يمكن أن يسمح لها بإنجاب طفل آخر إذا كان الابن الأول معوقا . وفي المناطق الريفية يسمح بإنجاب ابن ذكر إذا كان المولود الأول أنثى . أما في المناطق التي تعيش فيها القوميات القبلية مثل منغوليا الداخلية أو التبت والبيى التى لا يتجاوز عددها ٦٪ من السكان فتتاح للزوجين فرصة الإنجاب دون معوقات ، بإعتبار أنهم أقليات ، وأن حياتهم الشاقة تقوم في الغالب على الرعي والزراعة في المناطق الجبلية البعيدة عن المدينة ، مما يجعلهم يحتاجون إلى كثير من الأبناء ، غير أن هذا ينطبق فقط على القوميات التي لا يتجاوز عدد أفرادها عشرة ملايين نسمة .

الاقليات القومية :

كانت فرصة ذهبية ونحن في شنجدو أن نتعرف على الاقليات القومية الصينية من خلال زيارتنا لمعهد القوميات . فهذه المقاطعة الواقعة في جنوب غرب الصين تضم حوالى ٣٠ قوميةمن بين ٥٦ قومية هي مجموع القوميات التي يضمها الشعب الصيني

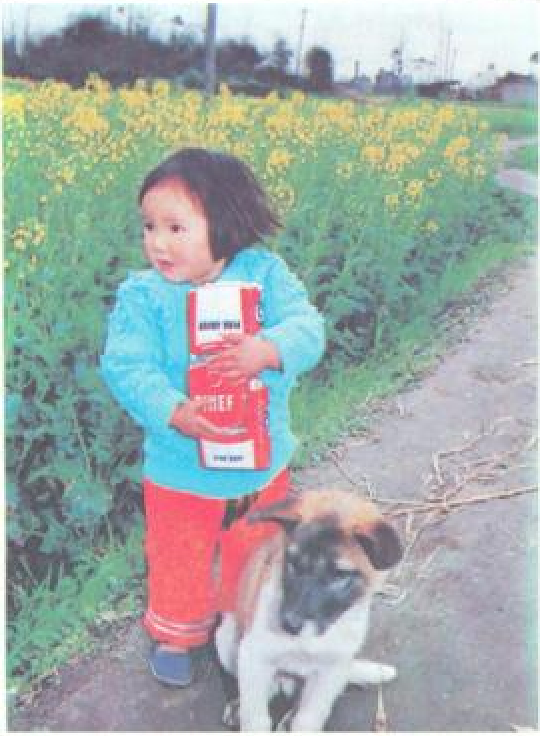

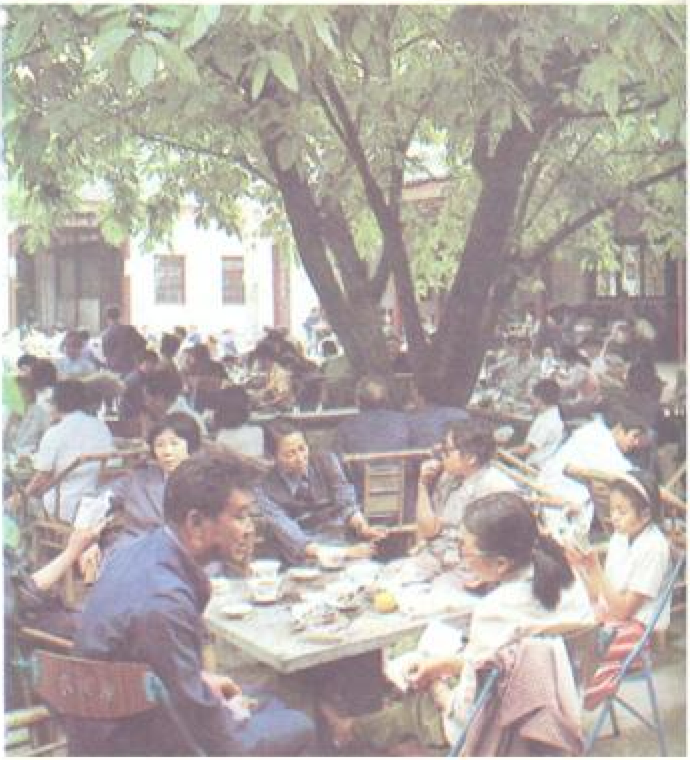

مولود واحد يكفي .. وهكذا رضي الأب بابنته الوحيدة يتنزهان معا في الحدائق والمتنزهات .. وعندما يأتي المساء يذهب لقضاء السهرة مع زوجته في المقهى الشعبي .. أما في المناطق الريفية (على الصفحة المقابلة) فالمرأة تعمل في الحقل تحرث وتعزق الأرض .. والأم في بيتها الريفي تعد الطعام .. بينما الصغيرة تلعب وحيدة مع كلبها الصغيرة .

المعهد الذى زرناه والتقينا بمديره وعدد من أساتذته وطلابه يدرس فيه حوالى ٢٧٠٠ طالب وطالبة جاءوا من ٣٠ قومية ، بما فيهم دارسون من قوميات التبت وبى ومياويوتان وتشبانج وشوى . . في هذا المعهد يتم إعداد كوادر من الاقليات القومية للمساعدة في البناء الاقتصادى في المناطق التى يعيشون فيها ، وهو واحد من اربعة معاهد مماثلة في مدن اخرى . وعرفنا من مدير معهد جنوب غرب الصين أنه قد تأسس في أول يونيو ١٩٥١ وتخرج فيه اكثر من ٢٠ الف طالب وطالبة تولوا بعد تخرجهم مناصب مختلفة على مستوى المقاطعة ومستوى الولاية ومستوى المحافظة ، وأصبح منهم خبراء في مختلف مجالات العلوم ، وحصل عدد منهم على درجة الدكتوراة في بعثات أرسلوا بها الى بعض الدول الاجنبية .

ونتعرف خلال لقائنا مع الطلاب والطالبات من القوميات المختلفه على كثير من العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية في مناطق تواجدهم ، بعد أن استعرضنا صورا منها خلال عروض قدموها لنا في المعهد ، كما تعرفنا على ألوان أخرى منها في المهرجان التقليدى للقوميات الذى جرى في شنجدو .

عدد ابناء الأقليات القومية يبلغ حوالى ٧٠ مليون نسمة ، بينما الاغلبية العظمى من سكان الصين تتشكل من قومية الهان ، وبذلك فإن نسبة الاقليات تشكل حوالى ٧٪ من العدد الاجمالى للسكان . واكبر الاقليات القومية هى قومية تشوانج (١٣ مليون نسمة) وأصغرها هى قومية هيجة (١٤٠٠ نسمة) وبينها ١٥ أقلية قومية يتجاوز عدد أبنائها مليون نسمة . وعلى الرغم من أن هذه الاقليات القومية لاتشكل إلا نسبة ضئيلة بالنسبة للمجموع الكلى لسكان الصين ، إلا أنها تنتشر فوق مساحة تزيد على ٦٠٪ من مساحة البلاد حيث تتوافر المصادر الطبيعية مثل المعادن والغابات والمنتجات الزراعية والحيوانية . واذا كانت هذه الاقليات تتكاتف كلها مع أبناء قومية الهان الرئيسية لبناء الحضارة الجديدة للصين الشعبية وبنائها الاشتراكى ، إلا أنهم كانوا في الصين يعانون من التمييز القومى والاضطهاد العنصرى مما جعلهم متخلفين في السياسة والاقتصاد والثقافة . ولهذا فقد كان لابد للنظام الجديد أن يوجه سياسته للاهتمام بالاقليات القومية ، والتأكيد على المساواة والتضامن الوطنى ، وممارسة الحكم الذاتى الاقليمى القومى ، وإعداد الكوادر والفنيين من أبناء هذه الاقليات أيضا ، وتطوير الاقتصاد والثقافة في المناطق التى يقطنونها .

الفنون والعادات

عن الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد ومظاهر الثقافة تتبعنا بعضها من خلال أحاديث الطلاب والطالبات الذين التقينا بهم في المعهد من مختلف القوميات .

الصورة الثقافية العامة يؤكدها الاهتمام بفنون التراث الثقافى الصينى العريق . وقد ثبت من تصاميم الأوانى الفخارية الملونة التى ترجع الى اكثر من خمسة آلاف سنة أن الرقص الصينى كان أبرز مشاهد هذا التراث ، حيث تبدى براعة الراقصات والراقصين المصحوبة بالنغمات الموسيقية الجميلة ، مع أداء متعدد الالوان متألق الرونق والبهاء مازال الكثير منها يعتبر رقصات قومية شعبية تقدم حتى الآن في العروض والمهرجانات والاحتفالات التقليدية .

معظم أهالى الاقليات القومية بارعون في الغناء والرقص . ويغلب أن يقيموا مهرجانات الرقص الشعبية في الاعياد القومية واحتفالات الزواج والمناسبات السعيدة . فعند قوم التبت يحتفلون احتفالا كبيرا في عيد « التطلع الى الثمار اليانعة » وقوم « يى » يحتفلون « بعيد المشاعل » ولدى كل قومية مسمى لاعيادها مثل « مهرجان الرقص » عند قوم « جينغبوه » و « سوق مارس » عند قومية باى و « عيد رش الماء » عند قومية داى . وفي كل مهرجان من تلك المهرجانات يشارك في العرض المئات من الناس كبارا وصغارا ، رجالا ونساء ، في الرقص التعبيرى القومى .

شهدنا رقصة المنغوليين في المهرجان التقليدى للقوميات . الرقصة تستمد حركاتها من الفروسية بتعبير رائع عن الشهامة والشجاعة أما رقصات الداى والبى والياو فيتغنون في رشاقة مع التلويح بالايدى وتنويع الخطوات المتسقة . بينما الرقص الويغورى يتميز بجماله الخاص المتمثل في الدوران السريع المتغير وتحريك العنق تحريكا يبعث على البهجة

والطرب . ويبهر الرقص الكورى المشاهدين بخفته ورشاقته بينما رقص التبت يتميز بروعته وسهولة أدائه .

هذا الرقص الجميل الذى تزاوله القوميات لم يعرف مرقصا ولا مسرحا ، فالناس يمارسونه في بيوتهم ومواطنهم . وفي عام ١٩٥٢ انشئت « الفرقة المركزية للغناء والرقص القوميين » وبدأت تتعهد جمع رقصات القوميات الصينية ودراستها . وتبع ذلك تأسيس منظمات فنية محلية للغناء والرقص القوميين في المقاطعات والمناطق الذاتية الحكم والولايات والمحافظات ، وبتركز أبناء القوميات حيث تنظم الدوائر الحكومية المعينه بين فترة واخرى مهرجانات للرقص القومى . ومع تحسين الرقصات الشعبية وتهذيبها والاهتمام بها ابتدع الفنانون المبدعون ألوانا من الرقص التعبيرى الذي يصور أمورا شتى تحمل أشكالا متباينة من الحياة الاجتماعية لمختلف القوميات .

حرير دود القز :

في مصنع الحرير شهدنا كيف تتم صناعته وتسيجه وتلوينه . قالت لنا المشرفة على التشغيل ان الصين تنتج وحدها نصف كمية الانتاج العالمى . ويعمل اكثر من عشرة ملايين شخص في تربية الديدان وصناعة النسيج . في داخل المصنع لافتات تعلن أنه لايحق للعاملين في تربية الدود التدخين ولا يسمح للنساء بالتجمل بمساحيق التجميل ولا اكل الثوم أو المواد شديدة الرائحة ، ولايسمح بدخول معامل تربية الديدان الا بأقدام وأحذية نظيفة جدا . فالاعتقاد هو أن الدود يهلك من شم الدخان ، ورائحة الخل كما أنه يضج من صوت الرعد ودق الطست والهاون ، وهو لايطيق رائحة الحائض والجنب من النساء فيمنعن من الدخول حتى يتطهرن .

وقد نجح الصينيون طوال قرون بالاحتفاظ بسر انتاج الحرير وتربية ديدان القز . وأصدر الاباطرة قرارات بتعذيب كل من تراوده نفسه أو تغريه عروض الأجانب بافشاء السر حتى الموت . لكن سر الحرير ذاع مع بدء انهيار الامبراطورية وذلك حين نجح عدد من القساوسة المبعوثين من قبل الامبراطور جستنيان باخراج بعض شرانق الدود في عصيهم المجوفة . واحتل الحرير في العصور الوسطى مركزا مهما في جميع عمليات التبادل التجاري . وساهم المسلمون مساهمة فعالة في إدخاله الى الوطن العربي والدول الاوربية التي كانت على صلات تجارية مع المسلمين .

وفي شيان أول عاصمة ملكية في مقاطعة شانسي وقفنا نشهد أول طريق الحرير القديم الذى كان ينطلق من المدينة عبر البقاع المقفرة مخترقا الجبال والصحارى في آسيا الصغرى لينتهي في تركيا او لبنان . ومن هناك كانت القوافل ـ التى بدأت بحمل الحرير ثم تجاوزتها الى بضائع أخرى شرقية كثيرة ـ تعبر البحر الأبيض المتوسط الى اوربا . وكان اروع ماتحمله هذه القوافل المنسوجات الحريرية الصينية ذات الرسوم الزاهية التى لقيت الاعجاب الكبير بالحضارة الصينية في نقوش الاوربيين .

بين الجد والاستهانة :

إن الانتاج المتباين الذى شهدنا أمثلته في الصين يؤكد أن الانسان الصيني الجديد يستطيع أن يصنع المعجزات كلما جد في العمل وأخلص في سبيله .

ولكن هذا كله لا يمنع من أن هذه الجدية التي يشتهر بها الصينيون في أعمالهم يقابلها في كثير من الأحيان إهمال واستهانة من بعضهم . وقد أثار استغرابنا ماقرأناه في صحيفة الشعب الصينية وهى تعترف بأن ٣٠ مليون موظف لا يفعلون شيئا أثناء وقت العمل سوى لعب الورق والشطرنج ومشاهدة التلفاز او الاشتراك في سباق الدراجات . وقد أدى مثل هذا الاهمال الى ان بدأت الشركات الحكومية في طرد أعداد كبيرة من عمالها غير المنتجين على الرغم من أن هناك نقاشا علنيا حول مشكلة البطالة الحساسة في البلاد . وبسبب مثل هذه الاستهانة من بعضهم كما عبرت عن ذلك نائبات الشعب في المجلس الوطني ، اضطرت تسعون شركة حكومية الى فصل ثلاثة آلاف عامل من وظائفهم في مدينة شنغهاى وحدها ونقلوا الى وظائف أخرى مختلفه بحيث يتقاضون مرتبات أقل بنسبة ٦٠٪ عن المرتب الذى كانوا يتقاضونه في وظائفهم الاولى ، وهم يعتبرون ذلك نوعا من إعطاء العبرة للعاملين حتى يزداد إنتاجهم مادام الاجر يجب أن يكون على قدر العمل . □

في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها

في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها

ابوظبي ودبي. القاهرة (الجيزة والجزيرة وهليوبوليس) والاسكندرية والاقصر والغردقة ورحلات الاقصر - اسوان عبر نهر النيل. المنامة، البحرين

في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها
في شيراتون، اجمل اللحظات ابسطها

في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها.

مَن لا يعَرف الصّقـر ... يشويـه

وَصَـل ذات يوم الى شيرَاتون ضيفٌ يَصْطحبُ معَه رَفيقًا مُجنحًا ، وَهوصَقـرٌ عزيـزٌ على صَاحبـه وَثمين جدًا . وَقـد استقبلنا ضيفنَا وَصقـره الجَميل بكل رَحَابْ ووفرنَا لهُمَا في غرفتهـمَا كُل اسَاليب الراحَة المُمكنَة لأننا نعرف مَعنى المثل الخليـجي القائِـل "مَن لا يعَرف الصّقـر ، يشويـه".

وقبـل أن يحين مَوعـد الغـذاء بقليـل ، إستقل الموظف المشـرف على الخدمَـة سيَارة اجـرة الى السّوق المحَلي حَيث انـتقى حَمَامتين سَمينتين وَعَاد بهمَا الى الفنـدق لذبحهـمَا وتقديمهـمَا طازجتين للصَقـر الجَائع .

وبالطبـع ، وَجَـد ضيفنَـا في معَاملَة شيراتون متعة واختلافًا يجعلا فعـلًا قولنا أن "في شيرَاتون ، أجْمَل اللحظات أبسَطهَا" حقيقَة لاتنكر. بَل أن الصَقـر بَدا في صحَـة مُمتازة ممَا شجَع صَاحبـه السعيـد على البقـاء لمدة اسبوع إضافي للتمتع بخدمَاتنا الفريـدة .

في كل أنحاء العَالم ، نفتخر في شيرَاتون بترحيبنا بكل مسَافـر وَكل غريـبٍ يَبحث عَن الخـدمَة المتميزة وَالضيافة الأصيلَة.

Sheraton
The hospitality people of
ITT

بصرة وبغداد. الرياض والطائف والمدينة المنورة. دمشق. الحمامات. الدوحة. الكويت. صنعاء. مسقط. الحقوق محفوظة لشيراتون كوربوريشن ١٩٨٨.

© 1988 THE SHERATON CORPORATION

في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها.

في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها. في شيراتون، أجمل اللحظات أبسطها.

حديث حزين !! مع رسام أعمى !

بقلم : الدكتور أحمد النعمان

بوريس ريبجنكوف رسام سوفيتي ، ولد في نهاية القرن الماضي ، ومازال يعيش ويرسم حتى الآن .

الا أنه في السنوات الخمس الأخيرة فقد البصر ، ومع ذلك فان عطاءه الفني لم يتوقف !

مع أن « رأسمال » الفنان التشكيلي هو حاسته البصرية ، فكيف استمر بالعطاء ، وهل يمكن للبصيرة أن تسد جوانب الفقد والخسارة للبصر ؟

ليست هذه حكاية من نسج الخيال ، لقد حدث ذلك في موسكو ، مع بداية الثمانينات ، حيث كان الضوء ينحسر تدريجيا عن عيني بوريس ريبجنكوف وقد داهمته « جيوش » الظلام ، وفقد النظر تدريجيا ، وأصابه العمى تماما مع بداية عام ١٩٨٣ ، وبدأت المأساة ، وبدأ الصراع مع الحياة ، ومن جديد كان « هاملت » يردد السؤال : أكون أو لا أكون ؟؟

وكان أخيرا انتصار بوريس ريبجنكوف ، فكان « هاملت » من جديد !

العمى في موطن فيودوروف !

كان ذلك عام ١٩٨٢ ، اذ جلس بوريس ريبجنكوف على كرسي أمام طبيب العيون ذي الشهرة العالمية فيودوروف ، وبعد دقائق فقط ، أصدر فيودوروف كلمته الأخيرة :

« لا قراءة ، أو كتابة ، أو رسم بعد اليوم ، عليك أن تنسى الابداع مرة ، وإلى الأبد » .

هكذا كان الحكم : عقوبة قصوى ، فما يبقى للفنان الرسام إن هو فقد النظر ؟ لقد قالها البروفيسور فيودوروف بهذه القسوة ، وكأنما ليؤكد من جديد بأنه طبيب وليس قسيسا يخفف آلام الآخرين بالكلمة الرقيقة والموعظة الحسنة .

عام ١٨٩٩ ؟

ولد بوريس ريبجنكوف أواخر عام ١٨٩٩ ، في آخر عام للقرن التاسع عشر ، قرن الأدب الكلاسيكي العظيم .

ومنذ الطفولة تتلمذ على أيدي أساتذة وفنانين معروفين ، أمثال الكساندر دريفين ، ولوبوف بابوفا ، والكساندر شيفجنكو . وكان هؤلاء من الرسامين المعروفين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وما أن أصبح عمره (١٦ - ١٧) سنة حتى أصبح هو أيضا معروفا ، وجذب إليه انتباه نقاد الفن التشكيلي آنذاك .

ولقد اخترت من بواكير أعماله الأولى لوحة « المساء الذهبي » (زيت ١٩٢٤) ، لنرى من خلال هذه اللوحة على الأخص مدى التقنية « الأكاديمية » والشعور الواقعي باللون والظل والنور ، هذه العناصر التي ستحدد مسيرة الفنان قبل أن يفقد النظر وبعد ذلك .

تجربة تجريدية :

إن بوريس ريبجنكوف فنان واقعي ، مجبول على حب الطبيعة ، بكل ما فيها من « هارموني » تناسق الألوان ، وصراع الظل والنور ، غير أن موجة « الفن الحديث » التي اجتاحت روسيا في بداية العشرينات وتزعمها كل من كاندينسكي وماليفيج شملت كل الفنانين آنذاك ، فجرب بوريس الشاب آنذاك نفسه في لوحة تجريدية واحدة ، ولقد رأيتها في مرسمه اثناء اجراء هذا اللقاء معه ، وهي عبارة عن هياكل عمارة .

ولما شاهد هذه اللوحة « كازيمير ماليفيج » وكان آنذاك يبحث في « مختبره الفني » في مسألة (المربع) قال لبوريس :

« إن في هذه اللوحة جاذبية أرضية كبيرة » .

كان ذلك الحديث في العشرينات ، وقد صدق ماليفيج ، فبوريس ريبجنكوف ملتصق بالأرض ، ولا يمكن أن يصبح فنانا تجريديا ، ولم يكن يدري آنذاك لا الفنان التجريدي الكبير ماليفيج ، ولا الفنان الواقعي ريبجنكوف ، بأن « هذه الجاذبية الأرضية الكبيرة » هي التي ستساعد الفنان المنكوب بفقدان البصر بأن يقف على رجليه من جديد على أرضية الواقع ، واقع الفن وواقع المصير معا !

٦٥ عاما أخرى

كان حديث « الجاذبية الأرضية » عام ١٩٢٣ ، ومرت السنون ، سنون من السعادة والعطاء والانتاج الغزير ، كانت خلالها عينا الفنان تبحثان تحت أشعة الشمس عن الجميل والأجمل في الطبيعة ، وكانت فرشاته خلالها تعطي تفسيرات انطباعية « للظل والنور » ، وبالتالي لجوهر الألوان ، وكان الفنان ينتقي من آلاف درجات الظل والنور درجة واحدة يسجلها في لوحته ، كانت عيناه كأي فنان تشكيلي أصيل ، هما الحكم بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون ، كانت عيناه تجدان ما خلف الأشياء شيئا جديدا هو اللوحة ، وتنتقيان من الواقع كنوزا لا تراها ملايين الأعين ، أعين الناس الآخرين .

كانت تلك سنوات السعادة والفرح والعطاء ، ومرت بالفنان سنوات عجاف أيضا ، سنوات الحرب الوطنية العظمى . وقد عمل فنانا ومراسلا في الجبهة ، وعاش حصار لينينجراد (بألف ليلة وليلة) ، ومن جديد كانت عيناه هما الحكم بين

● لوحة « موسكو في العشرينات » رسمها وهو فاقد البصر عام ١٩٨٥ .

● لوحة « ماما في حصار لينينجراد » عام ١٩٨٧ .

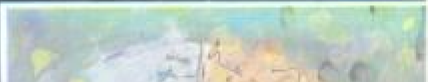

● لوحة « البونشكه » رسمها في نهاية عام ١٩٨٧ .

● لوحة « المساء الذهبى »
زيت ـ رسمها الفنان فى عام ١٩٢٤ .

● لوحة من سلسلة « طفولتى » من اللوحات الأولى التى رسمها وهو أعمى عام ١٩٨٤ .

الحرية والعبودية ، بين الخير والشر ، وأخيرا حدثت المأساة عام ١٩٨٣ .

العلم وبصر الفنان :

لقد استمر الأطباء تباعا بمحاولة إنقاذ بصر الفنان الذي أصبح يتردى تدريجيا . قالوا له : توقف مؤقتا عن الرسم والقراءة والكتابة . وقالوا له أيضا نحاول عمل كل ما في وسعنا ، لكن ثمة أشياء ما تزال مستعصية على العلم . وأخيرا قال له طبيب العيون فيودوروف ما كتبناه في بداية الحديث .

فيودوروف الذي أعاد النظر لآلاف آلاف العيون هو أيضا كان عاجزا عن أن يفعل أي شيء للفنان غير عبارته الأخيرة : « عليك أن تنسى الابداع مرة ، وإلى الأبد » .

المعجزة :

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ سألته برقة وهدوء لكي لا أفتح جرحه المندمل ، فقال لي :

ـ كان الحكم قاسيا للغاية ، فإلى جانب فقدان البصر شعرت بأني أفقد الأمل ، الأمل في الحياة . كان بيتهوفن لا يسمع ، لكن لم يعقه ذلك عن كتابة النوتات الموسيقية ، غير أني أعمى ، فكيف أرسم ؟

* وكيف عدت إلى الرسم ؟

ـ كنت أرسم في الحلم ، كنت أرسم دائما ، وكان ذلك ربما تعبيرا عن شعوري الباطني بأني يجب أن أواصل الرسم ، وكنت أجد في ذلك متعة وسعادة وراحة ، وعندما أستيقظ لا أجد لوحة ، ولا ضوءا ولا نورا ، هكذا كان الحال كل يوم فترة طويلة .

* وماذا بعد ذلك ؟؟

ـ بعد ذلك أخذت أفكر في البحث عن منفذ « إلى النور » ، إلى عالم الألوان من جديد ، وقلت لنفسي إننا نرى الأحلام بغير عيوننا ، نرى الأشياء بحواس أخرى ، فلماذا لا أرسم بتلك الحواس التي أرى فيها الأحلام ؟؟

* فكرة جيلة ، أو نظرية قد لا يقف المنطق ضدها ، لكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟؟

إن زوجة الفنان اولغا تسفيكوفا (الصديقة والانسانة) ورفيقة دربه الشاق الطويل كانت على نقيض موقف العالم الدكتور فيودوروف ، قالت له :

ـ « إن لديك رؤيا أخرى رائعة ، ذاكرة الرؤيا الاعتيادية ، كما أن بيديك مدربتان إلى حد (الآرتيستيزم) يجب أن تبقى فنانا ، حاول أن ترسم ، حاول ، وبماذا ستخاطر ؟؟ وماذا ستفقد في نهاية المطاف أكثر مما فقدت ؟ » ، ويقول لي الفنان نفسه :

ـ كان قولها ـ الذي رددته أكثر من مرة ـ أشبه بالوحي الذي بعث فيّ الأمل من جديد .

* لقد كاد الفشل أن يبدد أحلامه ، أحلام يقظته ومنامه ، غير أن هذا الفنان ليس من أولئك الذين يفقدون الأمل دون قتال حتى الرمق الأخير ، حتى ولو لم يكن أمامه سوى بصيص منفذ صغير من أزمته الخانقة .

موقفان من الحياة :

يقف الفنان الآن أمام الاختيار الصعب (أن يترك الابداع مرة وإلى الأبد) فهكذا يقول العلم ، أم (يواصل الرسم وهو أعمى) وهكذا تقول زوجته أولغا . وتحرك المارد الجبار في نفسه (حب الفن والارادة التي لم يكتشفها العلم بعد ؟) .

وكان الاختيار الأصعب : مواصلة الابداع ، ومعنى ذلك أن يرى بلا عيون ، أو أن يحلم باليقظة لا بالمنام .

وكان الفن صديقا وقت الضيق ، الفن الذي عايشه وعاش في صاحبه لم يتركه وحيدا فريسة للقدر .

وأتذكر هنا رواية الكاتب (الكساندر غرين) حيث يقول بطله في « الأشرعة الحمراء » : (لقد فهمت حقيقة بسيطة ، لا تحتاج إلى أي عبقرية ، وهي أن أفعل المعجزات بيدي فقط) ، وإذا كان البطل في الأدب يأتي من الواقع إلى الكتاب فهذه المرة يحدث العكس ، فمن « الأشرعة الحمراء » يخرج البطل إلى الحياة ، ليصنع المعجزات بيديه فقط ، متجسدا في الرسام الأعمى بوريس ريبجنكوف .

يلتفت صوبي ، غير أنه كأي أعمى لا ينظر إلى عيوني ، وكأنه هنا أو كما خيل إلي يجري اتصالا مباشرا مع أفكاري ، ويقول :

ـ في نوفمبر عام ١٩٨٣ أخذت بيدي القلم والفرشاة وبدأت « اللعبة العمياء » . في هذه اللحظة نسيت كل شيء حتى محدثي الفنان ، منتقلا إلى عهد الطفولة ، حيث كنا نلعب لعبة (شد العيون) للامساك بمن يضربك وأنت لا ترى أحدا ، بل تشعر بالجميع !!!

كان الضحك والسعادة والفرح يغمر كل الأطفال بمن فيهم معصوب العينين ، إذ كان الاخفاق مدعاة للسعادة والضحك .

وأرهف السمع إلى الرسام فهو يقول :

ـ كانت اللوحة في الذاكرة ، وبقي الأصعب ، وهو كيف سأنقلها إلى الورق ، إلى اللوحة (الفارغة ، الفاغرة فمها بشكل مخيف ؟) وفي الفكر تعاملت مع الموضوع ، النسب والمادة التي سأرسم بها ، والتقنية ، والألوان ، واستمرت هذه المعاناة أياما وليالي طوالا ، واختلطت فيها رؤية المنام بتصورات الواقع .

وبعد أن هضمت في داخلي كل شيء مسكت بالقلم وبدأت التنفيذ ، وشعرت بخوف الجندي قبيل دخول المعركة . وكيف لا أخاف وأنا سأدخلها بلا سلاح ؟ فأنا فاقد النظر ؟

شعرت بأن ألما تتزايد وطأته في رأسي ، وتحول الألم وأنا أمارس الرسم (الأعمى) إلى صداع في النصف الأيسر من رأسي ، فاستعجلت العمل كي أنسى الصداع ، واستمرت حالة (الابداع المنهك) هذه عدة ساعات ، ووضعت القلم جانبا ، وصرخت أولغا :

ـ « لقد اجتزت الاختبار في التخطيط ، عليك أن ترسم بالألوان » .

ويواصل الفنان الحديث هذه المرة عن الرسم بالألوان :

ـ منذ عشرات السنين كنت أضع الألوان على (الباليت) ، (لوح لخلط الأصباغ وانتقاء الألوان) ، ليس أكثر من عشرة ، أضعها بنفس الترتيب في محلاتها الدائمة ، والآن أيضا لم أشعر بصعوبة ذلك وأنا أعمى ، لكن الأصعب كان علي أن أستدعي ذاكرة الأصابع ، والحديث عن ذلك سهل ، لكن العمل أصعب بكثير . وبدأت الرسم بالألوان ، وها هي لوحاتي كما ترى .

* وهل أنت مستمر بالرسم ؟

ـ لا ، بالطبع قال الأطباء عليك بالراحة بين لوحة وأخرى ، فإن الصداع هو نتيجة حصر التفكير والتركيز والتكثيف بما فوق طاقتك لعمل الدماغ وخلايا الذاكرة .

طاقة الابداع بلا ضفاف :

لقد قرأت في تاريخ الفن أشياء كثيرة ، تدعو إلى الدهشة والاعجاب ، لكني لم أجد ما يشابه هذه الظاهرة الفريدة ، ظاهرة أن ترسم بلا عيون ، حاولت أن أجد السر في مرسم بوريس ريبجنكوف ، ودققت في لوحاته ، واطلعت على كل أعماله المتبقية لديه ، ابتداء بالتخطيطات « الاكاديمية » عندما كان تلميذا قبل ثورة اكتوبر ، وانتهاء بآخر أعماله في النصف الثاني من العقد الثامن ، بعد أن فقد البصر ، وأخيرا فقد اهتديت إلى السر ، إنها طاقة الابداع التي خلقت داخل الفنان قوة الارادة ، الارادة التي قادته في النهاية إلى التغلب على الحاجز النفسي ، وليقف وجها لوجه أمام مصيره القاسي ، بعد أن فقد أهم أسلحته في « القتال » (النظر) . كان مع الفنان الأعمى رفيق عمره الذي لا يخون ، وهو (الفن) ، الفن الذي يعرف صاحبه منذ عشرات السنين ، فقدم له العون اللازم في الأيام الحرجة ، أيام المحن القاسية ، وكأنما كان ذلك اعترافا بالجميل .

وأخيرا توصلت إلى مسألة أخرى ، ليست أقل أهمية من كل ما تقدم ، ألا وهي أن الفن عند بوريس ريبجنكوف هو أقوى من حكم العلم الصارم القاسي ، وهو النقيض أو البديل لذلك حين عزت البدائل . □

القصيدة

بقلم : أحمد بلحاج آية وارهام

هل أرى وجهها كانبلاق الندى ... حين تغزل روحي لها موعدا ؟
هي تأكل من جسدي كلما ... أينع الليل ، وازورّ عنه الصدى
خضرة نبضها وهج عطرها ... وأنا الشوق مدّ إليها اليدا
صاعد في سناها انشطاري وفي ... مقلتي عطش يستفز المدى
كم ينابيع أسرارها أسرجت ... في فؤادي السكينة والسؤددا
وصلها النفي يدمي ازدهائي إذا ... شبّ في صحوة الروح أو عربدا
لم يكن زهوها وردة للرضا ... أو لهيبا يفجّر صقع الجدا
هي خاصرة للجنون التوت ... في مياهي وضاءت كطبع الردى
أوقد الجرح بوحه مبتهلا ... علها تصطفي شمسه معبدا
علها تكشط الحزن عنه فقد ... مل هذا الدجا سيدا أدردا
كيف أنقل زهر افتتاني إلى ... نجمة قد رأت في دمي عسجدا ؟ !
كيف أزرع ألوانها حلما ... في اليباس الذي يأنف الموردا ؟ !
مات في خافقي طائر والرؤى ... غربة عانقت شجرا أجردا
كيف تخفي القصيدة أوقاتها ... عن دمائي ووقتي بها استنجدا ؟ !
ساهر في تفاصيلها القلب مذ ... صوتها كان لي في السرى فرقدا
أيها الوقت هل التقى وجهها ... أم يد الصمت تحفر لي مرقدا ؟

* كاتب وشاعر من القطر المغربي ـ مراكش

وجهاً لوجه

توفيق يوسف عوّاد و جهاد فاضل

- إنني أحب الكلمة ، أما كيف أكتب فكما أحب المرأة!
- كتبت قصصي الأولى بلا وعي تام لأصول هذا النوع بالذات
- أبو الفرج الأصفهاني - في نظري - قاص من الدرجة الأولى
- الفن كاذب في جوهره مهما ادعى الصدق
- لست من أنصار الشعر الجماهيري ، الشعر أرستقراطي من النخبة للنخبة
- شعراء العرب العذريون كذابون!

احتفلت الأوساط الأدبية في لبنان بمرور خمس وسبعين سنة على ولادة الكاتب اللبناني الكبير توفيق يوسف عواد ، وبمرور خمسين سنة على صدور مجموعته القصصية الأولى « الصبي الأعرج » .

توفيق يوسف عواد ، قاص ، وروائي ، وشاعر ، له العديد من الكتب منها في مجال القصة : الصبي الأعرج ، قميص الصوف ، العذارى ، مطار الصقيع . وفي الرواية : الرغيف ، طواحين بيروت . وفي الشعر : قوافل الزمان . وله كتب أخرى سجل فيها أحداثا وخواطر أدبية ، منها : غبار الأيام ، فرسان الكلام . وآخر ما صدر له كتابه « حصاد العمر » الذي يضم بعضا من سيرته الذاتية ، وفيه يمزج الكاتب القصة بالمسرح ، وبالشعر ، وقد كتبه على سمتٍ فريد لم تعرفه كتب السيرة ، فهو ينطلق فيه من ازدواجية الانسان ، من الصراع بين « الأنا » و « الأنا الداخلية » مستعيراً أسطورة شق وسطيح التراثية المعروفة .

ترجمت بعض كتب توفيق يوسف عواد إلى عدة لغات أجنبية منها : الإنكليزية ، والألمانية ، والروسية ، واختارت منظمة الأونسكو روايته « طواحين بيروت » في سلسلة آثار الكتاب الأكثر تمثيلا لعصرهم .

وفيما يلي حوار مع توفيق يوسف عواد أجراه « للعربي » في بيروت جهاد فاضل .

● أستاذ عواد : لماذا تكتب ؟ وكيف تكتب ؟ لماذا كتبت « الصبي الأعرج » ؟ ، وما الظروف التي أحاطت بكتابتك لها قبل نصف قرن ؟

ـ أكتب لأنني أحب الكلمة ، أمّا كيف أكتب فكما أحب المرأة ، والكلمة عندي امرأة . سل العصفور لماذا يغرد ؟ ، أو الضفدع لماذا ينقنق ؟ ، أو سل الريح لماذا تهبّ ؟ ، أو البركان لماذا يثور ؟ ، وكيف ؟ وهو الأصح بالنسبة إليّ .

« الصبي الأعرج » هو الكتاب الأول الذي ظهر لي سنة ١٩٣٦ ، نشرت محتوياته أو نشر معظمها في مجلة « المكشوف » ، وكانت في ذلك العهد تجمع حولها نخبة من الكتّاب والشعراء ، صاحبها فؤاد حبيش ، لم يكن أديبا كبيرا ، ولكنه كان مولعا بالأدب وعشيرا للأدباء ، وكان قادرا على خلق جوّ لهم في « المكشوف » لم يوفره أحد سواه : انفتاحا ، واندفاعا ، وتشجيعا على النشر ، وكان من الثائرين على القديم ، إذ كان الأدب في لبنان وفي سائر البلدان العربية تقليدا أعمى لهذا القديم ، همّه الألفاظ المنمقة والقوافي الرنانة . كان الأدب في جملته بعيدا عن الحياة وكأنه يعيش على هامشها ، فإذا كتب أحدهم في القصة مثلا أو في الرواية فكتابته سرد تاريخي جاف أو وعظ أخلاقي بارد . مع بعض الترجمات ، غثها وسمينها ، عن الآداب الأوروبية وخصوصا الفرنسية .

والدي وأبو الفرج الأصفهاني

● هل كان لديك وعي ـ وأنت تكتب « الصبي الأعرج » ومن بعدها « قميص الصوف » و « الرغيف » ـ بأنك نوعاً أدبياً جديداً ؟ هل اطلعت على أعمال ميخائيل نعيمة في هذا الباب أو أعمال غيره ؟

ـ كتبتُ قصصي الأولى بلا وعي تام بأصول هذا النوع بالذات ، كتبتُها هكذا عفوا ، أو لعله الوعي الباطني المتحدر إليّ من الدم ، كان والدي محدثا من الطبقة الأولى ، وقد أتيح لي في « حصاد العمر » أن أشير إلى تأثيره فيّ من هذه الناحية ، كانت مجالسه في بيته وعند الآخرين محلاة دائماً بحديث يستقطب الاهتمام ، فالعيون كلها شاخصة إليه ، والآذان مشدودة إلى سماعه ، إذا روى خبرا أو نادرة أو نكتة فحفّر وتنزيل في الموضوع الذي يعالجه المجلس ، متدفق في السرد ، صائغ في اختيار الكلمات ، خبير في توزيع الأضواء والظلال على شخصياته ، لماح في الوصف ، لذاع في التعليق ، يسوق الحادثة حتا ويحبس لها الأنفاس في الصدور ، حتى إذا انتهت أضاء مغزاها على شرر عينيه إضاءة الأسهم النارية » . كلماته ما تزال ترنّ في أذني ، وشرر عينيه ما يزال يضيء لي الطريق . ومنذ الصغر انكببت على القراءة ، وفي يقيني أنني سأصبح يوماً ما كاتبا وشاعرا . ولعلك تذكر ـ مادمنا في حديث « حصاد العمر » ـ الصراع الذي حصل بين « شق » و « سطيح » ، أعني بين « الأنا » و « الأنا » في داخلي ، عندما طلبت من ابي أن يهدي إليّ في العيد قلم « الكونكلان » جدّ « الباركر » ، فأهدى إليّ بدلا منه حذاء جديداً . « صحيح أن سطيح وضع حذاءه الجديد اللماع إلى جانبه في الفراش ، ولكن « شق » بات أشقى ليلة في حياته وظلّ اللحاف يعلو ويهبط وهو يجهش بالبكاء حتى الصباح » . .

نعود إلى القصة والرواية ، تأثرت كذلك بأبي الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » ، كنت مولعا في صباي باثنين : الأدب العربي القديم ، والأدب العربي الحديث الآتي إلينا من « الرابطة القلمية » في نيويورك : جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ، إيليا أبو ماضي ، نسيب عريضة . على أنني كنت أجد لذة لا توصف في قراءة « الأغاني » ، وكان سحرها يطغى عندي على الأدب الحديث على الرغم مما كنت أجد فيه من نبض الحياة وطلاوة التعبير ، ولعلي كنت أستمتع بأخبارها ونوادرها لما اتصفت به من مزايا القصة ، وهي الأقرب إلى نفسي من سائر الأنواع الأدبية . أبو الفرج في نظري قاصّ من الطبقة الأولى ، في براعة سرده ، ووصفه وإيجازه ، قد يعترض بعضهم بأنه لم يمارس القصة كصنيع فنّي له أصوله وأهدافه ، ولم يفكر إلا بالخبر أو النادرة ، أنا لا أفرق بين هذا وذاك .

أما « الرابطة القلمية » فكان تأثري بمستشارها ميخائيل نعيمة كبيرا ، أحببت منه « الغربال » في النقد ، وفي الشعر حفظت أكثر قصائده عن ظهر قلب ، قصصه ، قرأت منها آنذاك « العاقر » و « ساعة الكوكو » وغيرهما . وأنا ، مع إجلالي لنعيمة ، أعتقد أنه أجاد في عدة أنواع كتب فيها ، إلا أنه في القصة ـ ما سبق له فيها وما لحق ـ لم يبلغ المستوى الذي بلغه في سواها .

في ذلك العهد قرأت أيضا بعض قصص محمود تيمور وأخيه محمد تيمور ، وقرأت لابراهيم عبد القادر المازني « صندوق الدنيا » ، وعلى أثر قراءته كتبتُ من هنا ، من بحر صاف ، إلى « السياسة الأسبوعية » في القاهرة ـ وكانت لسان حال الأدباء في الوطن العربي ـ مقالا تصديت فيه لنقده ، ولست أدري كيف تجوتُ من سخريته ، وكان سيدا في الساخرين . وجهت اليه رسالة مفتوحة مخاطبا إياه هكذا : « أخي ابراهيم » ! إن يقدم يافع في الثامنة عشرة على الكتابة إلى أديب كبير كالمازني ، وهو في أوج الشهرة ، وإن يتصدّى لنقده وإسداء النصح له ، فجرأة أقف عندها اليوم بكثير من الدهشة ، وأطلب لها من المازني ـ في قبره ـ العفو والمغفرة .

زينة . . حَبَلَ بها غضبي

* يلحظ القارىء أن جميع أبطال رواياتك ثائرون ، بم تفسر هذه الظاهرة ؟

ـ لهذه الظاهرة أسباب عديدة ، شخصية وأدبية . شخصية : لكوني نشأت في أجواء الحرب العالمية الأولى ، وهي الحرب التي عرف فيها لبنان الجوع والعذاب والقهر والظلم ، منذ ذلك الوقت نبتت لي أظافر زُرق محددة ، هي التي أمسكتُ بها القلم فيا

بعد وكتبت « الرغيف » بأبيها وأمها ثورة سامي عاصم ، أحد أبطال الرواية الذي قضى حياته ينظم القصائد ويدبّج المقالات داعيا إلى الحرية والاستقلال ، ثار في النتيجة على نفسه : « ماذا أعمل في هذه المغارة » ؟ (حيث كان مختبئا) وهل القصائد والمقالات قادرة على كسر نير الأتراك ؟! وبعد القبض عليه وسوقه إلى الديوان العرفي هرب من السجن ملتحقا بالثورة العربية . أما زينة ، البطلة الأخرى في « الرغيف » فمِنْ بنات غضبي . حبل بها غضبي افتقادا للرجال وشماتة بهم .

انقطاع ثم عودة

* قيل الكثير عن فراغ ما في سيرتكم الأدبية ، كتبت ثم تركت الكتابة وانصرفت إلى العمل الدبلوماسي ، ثم فجأة عدت إليها ولكن بعد انقطاع حير الكثيرين وقدموا له تفسيرات شتى ، فما تفسيرك أنت ؟

- حياتي الأدبية تنقسم إلى مرحلتين كما أشرتَ في سؤالك . الاولى تمتد من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٤ وفيها صدر لي : « الصبي الأعرج » و « قميص الصوف » و « الرغيف » و « العذارى » (وقد أجريت على « العذارى » فيما بعد تعديلا) ، ثم انقطعت عن الكتابة قرابة عشرين سنة ، وعدت إليها في « السائح والترجمان » الصادر سنة ١٩٦٢ ، ثم تلاه « طواحين بيروت » ، و « قوافل الزمان » ، و « مطار الصقيع » و « حصاد العمر » . لم أكتب في فترة الانقطاع في تلك السنوات العجاف ، إلا بعض القطع الصغيرة في جريدة « الحياة » بإمضاء « عبده » وفي غيرها من الصحف ، أنحو فيها نحو « النهاريّات » التي شرعت بكتابتها سنة ١٩٣٣ بإمضاء « حماد » في « النهار » عندما كنت سكرتيرا للتحرير فيها ، وهي عبارة عن خواطر أدبية ، اجتماعية ، سياسية ، وأحيانا شعرية ، وقد اخترت طائفة من هذه القطع وضمّنتها كتابي « غبار الأيام » .

* لماذا انقطعت عن الكتابة ؟

- لا للإغراءات التي قدمتها لي الوظيفة كما ظن بعض الزملاء ، ومنهم الزميل العزيز سهيل إدريس ، أصدر كتابا بعنوان « أصابعنا التي تحترق » ، وكتب دون أن يسميني ودون أن يسمي سواي ، كتَبَ وعتَبَ متسائلا لماذا انقطعنا عن الكتابة ؟ وزعم أنني انقطعت لانصرافي إلى ترف الحياة الدبلوماسية . . . ومضى في ذلك بعيداً ، قلت له أنت مخطىء ، فالواقع أنني انقطعت عن الكتابة قبل أن أدخل الوظيفة بسنتين أو أكثر ، وكان انقطاعي زهدا حقيقيا بالأدب وبالفنون إطلاقا ، وبعده جاءني صديق آخر هو سعيد فريحة . سألني في حوار طويل عريض ، صارخ وساخر معا ، أين توفيق يوسف عواد الذي ملأ دنيانا الأدبية ؟ قلت : عمّن تسأل ؟ عن المرحوم ؟ الكاتب فلان مات منذ زمن ، قلتها مخلصا كل الاخلاص ، موقنا - بيني وبين نفسي - أنني أعطيت كل ما عندي ، وقد دخل في روعي أنني انتهيت ، أما كيف عدت إلى الكتابة سنة ١٩٦٣ فلست أدري . كالبركان - قلتها لك في مستهل هذا الحديث - أو كالحب . للكتابة عندي مواسم كمواسم البراكين والحب ، تثور وتهدأ . أنا لم أكن يوما من الأدباء المتهنين الذين يجلسون في ساعة معينة في النهار أو الليل ، إلى الطاولة ، فيأخذون ورقة وقلما ثم يحكون رؤوسهم : ماذا نكتب اليوم ؟ الكتابة عندي لا تأتي من حك الرأس .

الكلمة كالمرأة

- هناك وَلَهٌ ونوع من القداسة في تعاملك مع الكلمة . كتاب القصة والرواية يكتبون عادة بلا مبالاة ، دون التنبه لفنيّة الكلمة وموسيقا الجملة كيف تنظر إلى الكلمة ؟

- الكلمة عندي امرأة كما قلت لك ، وأنا أعاملها كما أعامل المرأة سواء بسواء ، أحب الكلمة ، أراودها عن نفسها ، أقلبها متلمسا مواطن الجمال فيها ، أنظر إلى شكلها وكأنّ كلّ حرف من الأحرف

التي تتألف منها عضو له ملامح خاصة وأصغي إلى جرسها ، أتشمم ما علق بها من أنفاس الذين عركوها خلال العصور من كتاب وشعراء ، وهي كالمرأة ، لعبة يحلو لي أن أدعها ترقص على الموسيقا المتأتية منها ومن جوقتها ، أي من الكلمات التي تتألف منها الجملة ، هذا في الشعر وفي النثر معا

ولكن حذار ! حذار من الوقوع في فخ الكلمة ، من انقلاب الآية بينها وبين الشاعر أو الكاتب ، فهي أيضا كالمرأة ذات سلطان وذات إغراء ودهاء ، وكثيرا ما يطيب لها أن تجعل منه لعبتها ، تتحكم به بدل أن يتحكم بها . فإذا خضع لها واستسلم ركبته في النتيجة ، وأدت به إلى الحذلقة وهي من أخطر المزالق ، مثالُ الشاعر ـ الرجل في تعامله مع الكلمة ـ المرأة : المتنبي ، ومثاله في النثر : الجاحظ .

حصاد العمر

● إلى أي درجة بُحْتَ في اعترافاتك في «حصاد العمر» ؟ وماذا بقي في النفس ؟

ـ لو كنت أريد أن أعطي أكثر مما أعطيت في «حصاد العمر» وفي سائر كتبي لفعلت . تريد مني الآن أن أكشف لك عن أشياء مخبوءة ؟ ما الداعي إلى ذلك وما الفائدة منه ؟ الفنّ اختيار . تجنيب لأشياء وإثبات لأشياء . تضخيم لأشياء وتقليص لأشياء أخرى . الفن ليس أخذاً للأشياء كما هي ، بل هو تسوية لها وإبرازها في شكل جميل في «حصاد العمر» وفي سواه من كتبي فتحت للقارىء أبواباً ، فعليه أن يدخل منها إلى ما شاء من مخارم حياتي . اسأله ـ على كل حال ـ الرفق وألا يظنّ بي ما لا يظنّه بنفسه .

زعم روسو ، قبلي وقبل الكثيرين عندما كتب «الاعترافات» ، أنه قال فيها كل شيء ، ولكني بعد أن قرأت كتابه ـ قرأته في الثامنة عشرة ، وعدت إليه في الأربعين ـ وجدت أن الفن هو الطاغي عليه ، والفن كاذب في جوهره مهما ادعى الصدق . ليس الفنان متهما مطلوبا منه أن يُقسم على الانجيل أو القرآن على قول الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة . ولا تنس ، ياسيدي أن الانسان يعيش في الكذب ، في كثير من الكذب ، لا في الكتابة فقط بل في حياته العادية ، الكذب ملحُ خبزنا اليومي . في الشعر ، خصوصا كثير من التكاذب بين الشاعر والكلمات ، كالتكاذب بين الرجل والمرأة في الحب :

«تقولين في الوصل ما لستُ قائلا
وأسمعُ منها ما يحيّر ذاتي
أصدّق ما تملي عليّ فهل ترى
تصدق ما أملي أنا كلماتي»

أحبك حتى يسيل الدم

● ألاحظ من قراءتي لآثارك نثرا وشعرا اهتماما بالغا بالمرأة ، المرأة أخذت حيزا كبيرا من هذه الآثار ، وفي حياتك أيضا ، كيف تعاملت مع المرأة ؟ هل نظرت إليها من حيث هي حس وجسد ، أم أن هناك أبعادا أخرى استرعت انتباهك ؟ الملذات الروحية مثلا .

ـ المرأة هي الحياة ، وأنا رجل يتهالك على الحياة . المرأة عندي أنثى قبل كل شيء آخر . الطبيعة البشرية ، بل الطبيعة كلها تقوم في كائناتها الحية على الجاذب الحسي ، والملذات الروحية ملازمة عندي للملذات الجسدية . المرأة جسد وروح لا ينفصلان . والعلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة ، أي الحب ، علاقة جسدية وروحية معا . أمّا إذا كنت تعني الحب الأفلاطوني والحب العذري فأنا غريب عنهما . أنا أسخر من الحب الأفلاطوني ولا أؤمن بالحب العذري إلا أن يكون قسرا . شعراء العرب العذريون كذابون .

أدخلُ هنا في بعض التفاصيل وأقدم اليك مثالين : في قصيدتي «وراء الحب» ، التي مطلعها : «أحبك حتى يسيل الدم» ، وقصيدتي «أسطورة الصدفة» التي مطلعها «تسكنين لياليّ عارية كالشمس» ، ما يلقي كثيرا من الضوء على نظرتي إلى المرأة وبالتالي إلى الحب . في الاولى أغني ملذات الحب الجسدية . أبني لعشتروت هيكلا عابقاً ببخور الشهوة . ولكني لا أعلي أبراجه إلا لأهدمه في النتيجة على رأسها :

« أحبك حتى أراك بناء
يهدم أو وثنا يرجم
وحتى أعافك شيئا حقيرا
فما فيك حسن ولا مغنم
ويبقى لروحي فم يتلمس
ما لا يمل ولا يتخم »

وفي القصيدة الأخرى أغني الملذات الروحية إذا شئت . التفاح المستحيل ، « التفاح الذي بلا خطيئة » . تفاح الأفلاطونيين والعذريين . على أني ، هنا وهناك ، لا أصف إلا جوعي الذي ليس له شبع ، وعطشي الذي أريد له ارتواء وهو لا يرتوي . أنا أسعى إلى ضالتي المنشودة . إلى « ما يهديني إلى قرار حنيني » . إلى « ذلك الشيء » الذي يسعى اليه النحّات في « السائح والترجمان » . لا يجده في هذه المرأة ولا في تلك ، لعله واجده في أخرى . فينتقل إلى الأخرى . حتى إذا أحرجه السائح صاح به : « أما قلت لك إني أحب حتى الخيانة » .

الشعر كلمات .. كلمات

● كتبت نثرا وكتبت شعرا . وقصائد متفرقة .. فما الذي صرفك الى القصة والرواية ؟

ـ الأدباء معظمهم ـ تقريباً ـ يبدأون بالشعر ، تكاد لا تستثني منهم أحداً . كيف ملتُ نحو القصة ؟ لست أدري . ولعل شيطاني في القصة والرواية أقوى من شيطاني في الشعر ! نظمت الشعر وأنا في الرابعة عشرة ، ثم لم ألبث بعد مزاولتي القصة والرواية أن تركته إلا بعض قصائد من وقت لآخر هي التي يضمها « حصاد العمر » ، وفي الستين عدت إليه في « قوافل الزمان » وكأنني أثأر من تركي إياه ، إذ انصرفت الى النظم على مدى أربعة أشهر ، كل يوم قصيدة أو اثنتان أو ثلاثة . ولم أكتب في هذه الفترة حرفا في النثر . والقصائدُ المشارُ اليها ، وكلٌ منها ذات بيتين ، عبارة عن خواطر مبعثرة ، « أسهم نارية » ، مواقف تجاه الكون ، وعلى قارئها أن يقرأ ما بين السطور ، وأن يكون عارفا بأسرار الكلمات ، فلكل كلمة سرُّها ، كما لكل امرأة سرُّها .

« وذات سحر على سر أعاشرها
جنية من بنات الليل رقطاء
يغى بها القوم تأتيهم على كره
حتى أتتني ولانت فهي عذراء »

الكلمة في الشعر يجب أن تعود عذراء على الرغم من مرور آلاف السنين عليها وتكرارها ملايين المرات ، وهذا هو الفرق بين المجدِّد والمقلد . الكلمة تحت قلم المقلد موس تفوح بالنتن مهما طلاها بالمساحيق .

والشعر كلمات كما يقول فرلين ، تأليف بين كلمات . جاءه صديق ذات يوم وقال له : أريد أن أنظم قصيدة ولكني أبحث عن موضوع . فأجابه فرلين : ومن قال لك إن الشعر موضوع ؟ الشعر كلمات ـ كلمات ـ وبالكلمات ينتقل الشاعر الى دنيا غير الدنيا التي يعيشها كل يوم . الى العلاقة الحميمة بينه وبين نفسه ، بينه وبين الكون ، بينه وبين الله ، بينه وبين الحياة والموت .

أنا لست من أنصار الشعر الموجه الى الجمهور ، الشعر أرستقراطي ، وهو من النخبة الى النخبة ، قد تعثر في القصيدة الموجهة الى الجمهور على بيت أو بيتين من الشعر ، أما ما سوى ذلك فنثر أكثر منه شعراً . حتى القصائد غير الموجهة الى الجمهور لا يمكن أن يكون كل بيت فيها شعراً ، ففي بعض أبياتها نثر . لماذا ؟ هذا عائد الى الطبيعة البشرية . لا تستطيع الطبيعة البشرية أن تركز التركيز التام على شيء ،والشاعر لا يستطيع أن يحتفظ بالجو الشعري على مدى عشرين أو ثلاثين أو خمسين بيتا من قصيدة □

ـ إن السعادة في الحكمة ، ولا سعيد في الدنيا الا العاقل الحكيم . (أرسطو)

أمراض نسائية غامضة :

آلام الحوض عند المرأة

بقلم : الدكتور علي مبارك

هناك كثير من الحالات المرضية الطارئة التي تحدث عند المرأة ، والتي يحار في تشخيصها ، وطريقة علاجها كل من الطبيب الجراح والطبيب الباطني ، واختصاصي الأمراض النسائية . فكل ينظر للحالة من خلال تخصصه ، والأمثلة كثيرة ، منها « آلام الحوض عند المرأة » التي تعتبر من الأمراض النسائية الغامضة . فما هي أسبابها وما علاجها ؟

إن الأمراض النسائية الغامضة تُكوّن الغالبية العظمى من أسباب تردد السيدات على عيادات الأمراض النسائية ، كما جاء في تقرير للطبيب البريطاني (ن . موريس) المنشور في أحد أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٥٨ . وقبل ذلك كان الدكتور (هـ . تيلور) قد صرح (في عام ١٩٥٧) بعدم الاطمئنان من جانبه لكل الاجراءات العلاجية لمثل هذه الحالات ، وأكد أن التسرع الذي يقود بعض الجراحين لعلاج هذه الحالات بالجراحة إنما هو خطأ كبير يرتكبه هؤلاء . وقد تأكد قوله هذا بعد ذلك بسنوات عندما دخل التنظير البطني حيز الممارسة الطبية،وشاع استعماله في مثل هذه الحالات فأدى إلى تقليص الأعداد الكبيرة التي كانت تعالج بالجراحة . ففي إحصائية الدكتور (ب . جيلبرانت) في بريطانيا أوضح أن ٣٧٪ فقط من هذه الحالات قد ثبت أن أسبابها في الحوض ، أما الحالات الباقية فلم يعثر لها على سبب للآلام في الحوض . وأيد ذلك الطبيبان (مورفي) و (ج . فليونجر) من استراليا ، وإن كانت تعزى إلى بعض عوامل نفسية في ٨٤٪ من الحالات كما جاء في دراسة أخرى للباحثين (دوللي ، وجوميري) نشرت في عدد آخر من أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٧٧ . ولقد أثارت هذه الدراسات اهتمام الأطراف الأخرى .

العوامل النفسية لا تكفي

إلا أن السؤال عن سبب الألم بقي دون جواب ، إذ لم يعثر أي من الباحثين عن هذه العوامل النفسية التي تشبه في كثير من الحالات الآلام الناتجة عن أعراض عضوية طارئة حادة . وراح بعض الأطباء مثل (هـ . تايلور ، س . دانكون) يفسرون هذه الظاهرة بأنها ناتجة عن احتقان حاد في الأوعية الدموية بأنسجة الحوض،لكن هذا التفسير لم يتفق مع آراء

الباحثين الآخرين لعدم توفر الأدلة العلمية على وجود تلك العوامل النفسية ، على الرغم من أن المؤتمر الرابع والعشرين لأمراض النساء والولادة المنعقد في بريطانيا قد أكد هذه الظاهرة .

وقد شملت هذه الأسباب النفسية أيضا ٨٩٪ من حالات الأطفال الذين يحولون إلى المستشفى بأعراض آلام أسفل البطن (كما جاء في دراسة للدكتور (دودج) نشرت في أحد أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٧٧) ، ويبدو من التحليل النفسي لهؤلاء المريضات أن شكاواهن هذه ما هي إلا لجلب انتباه الآخرين وكسب عطفهم لإمرار بعض الرغبات . وهذه الظاهرة تنتشر بين النساء أكثر من الرجال بنسبة (٢ : ١) ، وغالبية النساء في هذه الدراسات يتصفن بالانطواء والعصبية وعدم القدرة على تكوين صداقات اجتماعية أو التمكن من حل المشاكل الجنسية المختلفة . وهذا النوع من النساء يتأثر بسهولة من التوترات النفسية التي تنعكس بشكوى آلام الحوض ، مما يضطر الطبيب الجراح لإجراء عملية جراحية استكشافية بفتح البطن ويخرج منها بإزالة الزائدة الدودية غير الملتهبة في كثير من الأحيان .

والسؤال المطروح لدى غالبية الأوساط الطبية هو : لماذا لم ينجح معظم العلاج لآلام الحوض لدى النساء ؟ . وقد يكون الجواب أنه في الحالات التي لا يجد الطبيب سببا عضويا لشكوى المريضة ، ويعوزه التفسير المقنع لاستفسار المريضة عن أي سبب عضوي لآلامها ، يلجأ في آخر المطاف للأسباب النفسية مبررا فشله في علاج ناجح . ولهذا لجأ الكثير من الأطباء للعلاج بالتحليل النفسي ، والتركيز على استنباط الأسباب النفسية ، وتحليلها ، وتفنيدها مع المريضة . ففي دراسة عشوائية قام بها مجموعة من أطباء مستشفى (سانت ماري) بلندن عام ١٩٨١ على مجموعة من السيدات وجد أن هذا النوع من العلاج قد قلل إلى حد كبير من نوبات آلام الحوض التي يشكين منها . وقد أثبتت هذه الدراسات أن العلاج الجراحي غير مقنع في مثل هذه الحالات ، ما لم يثبت أن سبب الآلام في الحوض مرض عضوي يحتاج إلى عملية جراحية لاستئصاله . ثم قدمت نفس المجموعة دراسة أخرى نشرت في عدد آخر من المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٨٦ تذكّر الأطباء الذين تصادفهم حالات آلام الحوض أن يضعوا في اعتبارهم حالات معينة قسموها إلى سبع مجموعات .

الأولى تتعلق بالحالات التي لها علاقة بمشاكل الحمل كالاجهاض ، والحمل خارج الرحم ، ووجود بعض أورام ليفية ، وآلام غامضة في الرحم نفسه .

والثانية تتعلق بمضاعفات الدورة الشهرية كعسر الطمث ، وبعض الآلام المتعلقة بوقت حصول التبويض .

والثالثة تتعلق بالالتهابات المزمنة في الحوض .

والرابعة بأعراض المسالك البولية كالتهاب المثانة ، وحصاة المسالك البولية .

والخامسة بأعراض الأمعاء الغليظة من تقرحات ، إلى تنوءات ، أو أورام سرطانية .

والسادسة بالأعراض المتعلقة بالأجهزة التناسلية كالتواء بعض الألياف والأكياس وسقوط الرحم وجدران المهبل وأمثالها .

أما القسم الأخير فهو المتعلق بأعراض الجهاز الهيكلي كانزلاق الغضروف أو إحدى الفقرات .

الأسباب المحتملة

بعد هذا العرض المفصل لآراء مختلف الأطباء في آلام الحوض استعرض الأسباب المحتملة في كل الحالات . وقبلها أود أن ألقي نظرة تشريحية على حوض المرأة ومحتوياته .

فالحوض هيكل عظمي مكون من التحام عدة عظمات متناظرة الشكل تكون غلافا عظميا يحيط بفراغ تملؤه الأجهزة التناسلية الداخلية وبعض المسالك البولية والهضمية .

فالرحم عضو عضلي مكانه وسط الحوض ، مائل إلى الأمام حيث يتصل به البوقان (قناتا فالوب) من الجانبين فيؤديان إلى المبيضين المتواجدين في جانبي الرحم . وأمام الرحم المثانة البولية ، وخلفه إلى

الشمال قليلا يوجد المستقيم ، وتشغل الفراغات فيه بعض لفائف الأمعاء الدقيقة والقولون .

ومن هذه الصورة التشريحية يتبين لنا أن التقسيمات السبعة المذكورة أعلاه قد شملت كل هذه الأعضاء وأنسجتها . ومن هذه الأعضاء والأجهزة ينتقل الألم بواسطة مجموعة من الأوتار العصبية المتشابكة إما إلى النخاع الشوكي أو يتجاوزه إلى المراكز العصبية العليا . وقد تتمثل هذه المجموعات العصبية في مساحات معينة من الجسم أو الجلد بحيث يظهر فيها بعض الاحساس بالألم التابع من أحد الأعضاء الداخلية . ويستطيع الطبيب أن يعرف موطن الألم عندما تشير السيدة إلى مكان الاحساس به خارجيا ، فمثلا عندما تضع السيدة راحة يدها على البطن أسفل السرة في الوسط قد يدرك الطبيب أن مصدر الألم هو الرحم ، أما إذا كانت الاشارة إلى جانبي أسفل البطن فقد يكون مصدر الألم البوقان والمبيضان وهكذا .

والألم بكل أنواعه إحساس غير مريح ، وفي كثير من الأحيان يصعب على المريضة وصفه بدقة ، ومع ذلك بالامكان تقسيم آلام الحوض عند السيدات إلى قسمين :

آلام الحوض الحادة :

هذه أكثر وضوحا في صورتها وفي تشخيصها ، وغالبا ما تكون حالات طارئة ، تحتاج إلى انتباه وتركيز من الطبيب المعالج الذي يجب عليه أن يستعرض جميع ما ذكر من حالات الأقسام السبعة المذكورة أعلاه ، بغرض التشخيص التفريقي ، حتى يتمكن من إيجاد السبب الأساسي لهذه الآلام الحادة .

ويجب أن يضع في اعتباره أن من الحالات الحادة ما يحمل خطورة عالية تهدد حياة المريضة ، فيحتاج إلى قرار سريع وإجراء جراحي عاجل . والحالات الحادة عند النساء لا تقتصر أسبابها على إصابات الأجهزة التناسلية فقط ، وإنما تتعداها إلى الأعضاء ، والأحشاء ، والأنسجة الموجودة ضمن الحوض كما ذكرنا . وباستعراض بسيط لمختلف مسببات هذه الآلام الحادة ندرك مقدار الصعوبة التي يواجهها

ـ الهيكل العظمي للحوض ومكان الرحم والانابيب فيه وكذلك بعض الاربطة الليفية .

ـ وضع الرحم الطبيعي والوضع المائل للخلف .

الطبيب الفاحص للوصول إلى التشخيص الصحيح . وبعودة أخرى لاستعراض المجموعات السبعة نركز على الحالات ذات الخطورة العالية ، مثل احتمالات الحمل خارج الرحم الذي يعرّض المريضة لخطر الوفاة بسبب غزارة النزيف الدموي الداخلي ، ما لم يعجل الطبيب المعالج بإجراء عملية جراحية طارئة لاستئصال السبب ، وتعويض كمية الدم المفقودة . وبدرجة أقل من الخطورة تعامل حالات الاجهاض ، وحالات التواء أكياس المبايض ، والأورام الليفية .

وتتدرج الحالات الحادة إلى الأقل خطورة مثل الالتهابات المتعفنة ، وانفجار بعض أنواع التكيسات الدموية ، أو تجمعات قيحية في الأعضاء أو حتى تسرب بعض سوائل الطمث من التجويف الرحمي إلى فسحة الحوض البوقيي . وبالمقارنة هناك حالات مشابهة في خطورتها ليست لها علاقة بالأعضاء التناسلية ، كالتهاب الزائدة الدودية ، وانسداد الأمعاء والتوائها أو انفجار وعاء دموي في الغشاء الصفاقي . كما أن حصاة الحالب المتحركة ، وبعض التهابات المسالك البولية أيضا تسبب آلاما حادة ، ولكنها لا تشكل خطورة على المريضة .

إن معظم الحالات الحادة تنتهي فورا إلى تدخل جراحي عاجل لفتح التجويف البطني ، والتأكد من التشخيص ، وإجراء ما يلزم ، وفي حالة غموض التشخيص تفتح البطن للاستكشاف ، ثم يعمل اللازم بعد العثور على السبب المباشر ، ويحدث كثيرا أن يفتح الطبيب الجراح البطن لتشخيص معين كالحمل خارج الرحم ، ثم يفاجأ بوجود حالة أخرى كالتهاب الزائدة الدودية ، أو انفجار وعاء دموي ، أو غيرها . وحديثا يستعمل في كل المراكز الطبية المنظار البطني لتنظير تجويف الحوض ، والتأكد من التشخيص قبل اللجوء الى فتح البطن .

آلام الحوض المزمنة :

إذا كانت الأعراض الحادة كما شرحت سهلة التشخيص ، ومن ثم العلاج الفوري الفاعل ، فإن المشكلة غير ذلك في الحالات المزمنة ، فهذه الحالات تشكل الجزء الغامض والصعب من كل جوانبه : مسبباته ، ووصفه ، وتشخيصه ، وعلاجه ، مما يخلق إشكالات جمة للطبيب المعالج ، فكثيرا ما يجد نفسه أمام لا شيء عدا شكوى المريضة ، ويحار في إيجاد الجواب المقنع لتساؤلاتها وشكواها . وهذه الآلام أكثر شيوعا عند النساء من الرجال الذين يندر أن تحدث عندهم هذه الحالات .

ولتحديد أسبابها يمكننا - للتبسيط - تقسيم هذه الآلام حسب ترددها ، وزمن حدوثها ، إذا اعتبرنا مواعيد الدورة الشهرية مؤشرات زمنية ثابتة عند المرأة ، فمنها ما يكون متقطعا بتردد ثابت ، وعلى سبيل المثال الآلام التي تحدث في منتصف الدورة الشهرية مع انطلاقة البويضة من المبيض ، وقد يسهل على الطبيب تشخيصها من مجرد وصف المريضة لها ، وزمن حدوثها . وسببها هو تسرب كميات من الدم ، والسوائل الأخرى المحيطة بالبويضة إلى الحوض مما يهيج الأنسجة فيه .

ونوع آخر من الآلام يصاحب نزول الحيض في اليوم الأول ، ويسمى « عسر الطمث » ، ويتميز بآلام انقباضية شديدة تشمل أسفل البطن ، وتمتد إلى أسفل الظهر ، ومرة أخرى يسهل على الطبيب تشخيصها من الوصف زمن حدوثها ، إلا أن نوعا آخر منها يبدأ قبل نزول الحيض بأيام ، ويختلف طبيعته عن الأول ، فهو يسبب آلاما ثقيلة غير محددة الموقع تشعر بها المريضة في الحوض كله .

هذه الحالات من الآلام المزمنة في الحوض قد تمثل النوع المتميز والسهل ، أما القسم الآخر فهو الذي يحدث بتوقيت غير منتظم ، وليست للآلام علاقة متزامنة مع الدورة الشهرية ، فمثلا السيدة المصابة بالتهاب الحوض المزمن لا تستطيع إعطاء صورة واضحة عن نوعية الآلام ، كما أنها لا تستطيع تحديد مكانها ، كما في حالات الآلام الحادة ، سوى أنها تذكر شعورا بآلام ثقيلة في منطقة العجان (المهبل) عند الملامسة الجنسية ، وهذه الآلام قد تكون نتيجة وجود أورام معينة في الحوض أو تكيسات قيحية ، وربما يكون الرحم مائلا إلى الخلف بخلاف وضعه الطبيعي المائل إلى الأمام .

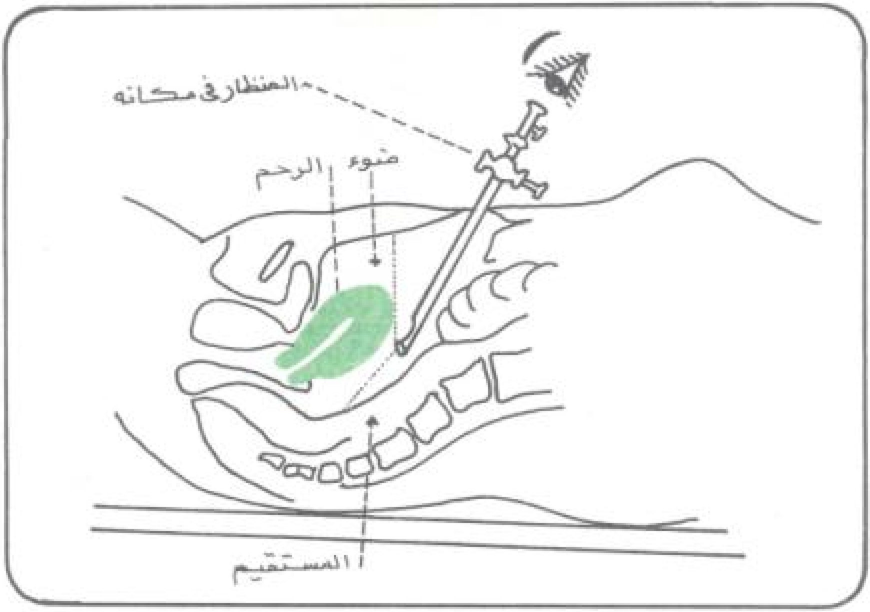

ـ طريقة التنظير البطني .

التصاق الأعضاء ووضع الرحم

ربما يواجه الطبيب ظاهرة التصاق الأعضاء بعضها ببعض نتيجة التهابات حادة سابقة في الحوض ، مما يصعب معها التصرف . إن من أبغض المضاعفات لدى الجراح هي تكوّن هذه الالتصاقات ، وبخاصة بين الأمعاء الدقيقة والأعضاء التناسلية ، مثل المبيضين ، والرحم ، والبوقين . ويجب التروي في اعتبار هذه الالتصاقات سببا أساسيا للالام ، لأنها قد لا تكون كذلك ، ولن ينفع قطع هذه الالتصاقات طالما أصبح السبب مزمنا في الأنسجة . أما إذا وجد أن الرحم مائل إلى أي جهة من الجهات ـ غير الأمامية ـ فيلجأ إلى إجراء جراحي لاصلاح وضعه ، وإعادته لطبيعته . وهذه الحالة تسبب في أكثر الأحيان آلاما في أسفل المنطقة القطنية من الظهر ، وتشكو السيدة أيضا من آلام عميقة أثناء الملامسة الجنسية . كما أن الطبيب الحاذق قد يستنبط من خلال الكشف المهبلي اليدوي ـ بتحريك الرحم إلى الجانبين ـ أن شعور السيدة بالألم قد يكون سببه تمزقات سابقة بأربطة الرحم ـ وهي أنسجة ليفية وترية قوية ـ من جراء صعوبة في حالات ولادة سابقة . ولا يمكن التأكد من هذه الظاهرة بمجرد الكشف المهبلي ، إذ قد يتطلب متابعة باستعمال التنظير البطني لاستكشاف الحوض وبخاصة هذه الأربطة ، ومع ذلك فلا يوجد علاج فاعل لمثل هذه الحالات سوى المسكنات . ولا يعتقد كثير من الأطباء بأن العلاج بالموجات الحرارية ناجح كذلك . وعلى ذكر مضاعفات حالات الولادة الصعبة والعسرة تذكر منها الكثير ، فتعدد حالات الولادة أكثر من أربع مرات دون أن تترك السيدة فترات معقولة بين الحمل والآخر ، قد يؤدي إلى ارتخاء الرحم وسقوطه .

وهناك حالات أخرى تجري فيها عملية استئصال الرحم . لشكوى مزمنة في الحوض . فإن الشكوى

والآلام غير المتميزة ستبقى مصدر ازعاج للمريضة ، وبعض الأحيان يتضخم الميضان المتروكان دون استئصال في مثل هذه العملية ، مما يسبب آلاما شديدة في الحوض قد تحتاج إلى عملية فتح بطن ثانية لاستئصال المبيضين .

وقبل أن ننتهي من هذا الجانب من أسباب آلام الحوض لا بد من الاشارة إلى بعض السيدات اللواتي يضعن لولب منع الحمل ، فبعضهن يتعرضن إلى نوبات من آلام الحوض في أوقات مختلفة ، بسبب تقلصات عضلات الرحم الرافض لوجود جسم غريب بداخله ، وقد تكون هناك أسباب غير مباشرة قبلها - كالتي سبق ذكرها - ولا تهدأ هذه الآلام إلا بإخراج هذا اللولب من جوف الرحم لتبحث السيدة عن وسيلة أخرى لمنع الحمل .

إلى هنا تكون الأسباب المؤدية إلى الآلام المزمنة في الحوض متعلقة بأعضاء الجهاز التناسلي ، ولكن هناك حالات تكون أسباب الآلام فيها غير متعلقة بها ، فهي ليست حالات نسائية ، إلا أن مكان الشعور بها يعطي هذا الانطباع ، وقد تراجع المريضة عيادة الجراحة العامة أو الطبيب الباطني أو طبيب الأمراض النسائية ، وقد يتداخل العلاج بين هذه التخصصات . إذن ما حالات آلام الحوض غير المتعلقة بالأعضاء التناسلية وما أسبابها ؟

أسباب أخرى

أوضحت في البداية تشريح الأعضاء الموجودة في فراغ الحوض ، ومنها الأمعاء الدقيقة ، والمستقيم والقولون ، هذا بالاضافة إلى أن هيكل الحوض يتعرض إلى ضغط كبير من الجسم كنقطة ارتكاز ومفاصل . وهذا الوضع قد يكون مصدرا لآلام مقلقة في الحوض ، وقد تختلط آلام الحوض المزمنة هذه بآلام أسفل الظهر التي تشكل عبئا آخر ، سواء على المريضة نفسها أو على الطبيب المعالج ، وقد يصعب أحيانا التفريق بين هاتين الحالتين . ولهذا نعود مرة أخرى لاستعراض بعض الأسباب ، كالاحتقان الحاصل في أنسجة الحوض الرخوة ، أو حدوث نوع من الدوالي فيها ، على الرغم من أن الدلائل على حدوثها غير أكيدة . إن تعليل هذه الحالات بالأسباب النفسية قطعا أشبه ما يكون « بشماعة » يعلق عليها بعض الأطباء عجزهم عن إيجاد سبب عضوي مباشر لآلام الحوض هذه . ففي دراسة أجريت عام ١٩٧٠ ونشرت في المجلة الدولية للطب النفسي ، على مجموعة من السيدات اللواتي يشتكين من آلام مزمنة في الحوض ، وجد أن الاضطرابات والصدمات العاطفية لمدة طويلة ، والمصحوبة بنوع من فقدان العلاقات الاجتماعية ، أدت إلى حدوث حالات من الاكتئاب العميق ، والقلق النفسي ، وبعض نوبات من الهستيريا ، بالاضافة إلى التردد المستمر على عيادات الأمراض النسائية للشكوى من آلام الحوض المزمنة . وقد تركز علاجهن على جلسات متكررة للتحليل النفسي ، ومن ثم الانتهاء إلى العلاج النفسي ، مما يخفض إلى حد كبير من شكاواهن من آلام الحوض .

ويختلف الحال في علاج الحالات المتسببة عن أمراض عضوية ، فعدا عن العملية الجراحية للاستئصال التي يجب أن تجري بعد التأكد التام من التشخيص ، هناك طرق أخرى تستعمل فيها العقاقير المسكنة والمهدئة ، بل حتى المنومة أحيانا . تذهب بعض المراكز إلى استعمال علاج الوخز بالابر الصينية لاعتقادهم في فاعليتها لشفاء كثير من الأمراض ، منها آلام الحوض المزمنة ، اعتمادا على ما يذكر من أنها تؤدي إلى افرازات مختلفة من المواد الكيماوية والهرمونية في الجسم ، تساهم في تسكين هذه الآلام ، لكن بعض المراكز الأخرى لا تعتقد بذلك مطلقا بل تعد هذا النوع من العلاج ذا تأثير نفسي فقط .

هكذا نأتي إلى خلاصة القول بأن الآلام المزمنة في الحوض عند السيدات ، قد تعد من الأمراض الغامضة التي قد لا يهتدي الطبيب إلى سبب مباشر لها ، فيحار في اختيار طريقة العلاج المؤثرة ، فيلجأ إلى طرق مختلفة تنحصر بين الجراحة وبين أساليب التنويم المغناطيسي ، وقد لا يجد الطريقة الفاعلة أبدا وتبقى السيدة « زبونة » مزمنة لعيادات الأمراض النسائية . □

منتدى العربي

قضية

فكر السادة وثقافة التابعين

بقلم : الدكتور مصطفى النشار

لم يزل الخلاف دائرا حول « إلى أي مدى نأخذ عن الغرب ، وبأي قدر نتمسك بالثقافة العربية » وبين الاتهام بالتغريب أو المواجهة بعدم قدرة الثقافة العربية على مسايرة التطور العصري الذي نعيشه .

حول هذه القضية وجذورها وأبعادها يثور الخلاف والنقاش ، ويناقش الكاتب هذه الأفكار .

لقد قر في أذهاننا منذ مطلع العصر الحديث أننا لكي نلحق بركب الحضارة لابد أن نساير الغرب ، سواء مسايرة تامة أو نحاول التوفيق بين ما ننقله عنه من مناهج وفلسفات وبين عناصر تراثنا الفكري الإسلامي الأصيل . ولست أشك في مدى إخلاص دعاة ذلك ، فهم حاملوا مشاعلنا ومن أناروا أمامنا طريق التقدم في وقت كانت فيه حلقة الإظلام والتعتيم علينا محكمة ، ومازلنا إلى اليوم نؤمن بأهمية أن نتبعهم وأن نبدد ماتبقى أمام أعيننا من غشاوة وقتامة حتى نرى أنفسنا بصورة أفضل ، ومن ثم نرى الغرب في صورته الحقيقية

وكل ما سأحاوله هنا هو أن أستكشف أعماقا أبعد لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا .

فمنذ أن ظهرت على وجه الأرض أمة اليونان واستطاعت بذكاء شديد أن تبلور فكرها الخاص من خلال ماجمعته من فكر حضارات الأمم السابقة لها والتي كانت آنذاك في طور تفسخها وانهيارها ، منذ ذلك التاريخ قدم اليونانيون أنفسهم للعالم على أنهم هم المبدعون للفلسفة والعلم والآداب والفنون ، فمنهم كان هوميروس وهزيود من الشعراء ، ومنهم كان طاليس وفيثاغورس وبارمنيدس وبروتاجوراس وديمقريطس وسقراط وافلاطون من الفلاسفة ، ومنهم كان ايسخولوس وسوفوكليس ويوربيدس من كتاب المسرح . . الخ . ومن ثم فقد تصوروا ، بل وعاشوا مقتنعين بأنهم هم سادة العالم وأحراره ، وأن مَنْ عداهم من شعوب وأمم وقبائل ليسوا إلا

برابرة وعبيداً ، فهم - أي اليونانيون - وحدهم من يصلحون للتأمل والفكر والقيادة السياسية والعسكرية ، ومن عداهم من أمم الشرق لايصلحون إلا للرق والعبودية . وقد تناسوا آنذاك أن منهم من كان أجيراً ومرتزقا عند ملوك مصر القديمة ، ولم يكن ذلك بالتاريخ البعيد ، فقد كان آخر عهدهم بذلك في عصر الدولة الحديثة وعصر ابسماتيك الاول مؤسس الأسرة الصاوية في عام ٦٦٤ قبل الميلاد .

ولقد كان لفيلسوفهم وعالمهم أرسطو فضل ترسيخ تلك الصورة على أنها إعجاز يوناني غير مسبوق في ميادين الحضارة كافة . وقدم منطقه على أنه كما بدا له أحيانا ولتلاميذه وشراحه دائما هو المنطق العام لضبط الفكر الإنساني .

كما قدم فلسفته على أنها الفلسفة التي يجب أن يعتنقها كل البشر ، وقدم علمه على أنه العلم الذي يجب أن يتفهمه ويبرهن عليه ويستكمله ويسير على نهجه كل العلماء .

العقل والسيف

وإن كانت تلك المعجزة الفكرية قد اكتملت لدى ارسطو نظريا ، فإن تلميذه الاسكندر الأكبر قد فرضها واقعا ملموسا بانتصاراته العسكرية التي جعلت امبراطوريته تمتد من شواطيء البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصين والهند . وعلى الرغم مما يقال من حلو الكلام عن عظمة الاسكندر بأن خلقه كان الدعوة إلى الاخاء والمساواة بين بني البشر ، وأن دينه كان التوحيد ، وأن هدفه كان صهر الحضارتين الشرقية والغربية وتكوين دولة عالمية واحدة ، على الرغم من كل ذلك فقد كان الاسكندر يحمل نفس عنصرية اليوناني الفكرية التي فاقت أحيانا عنصرية أستاذه ، فقد كان بفضل ذلك التفوق الفكري للأمة اليونانية والحفاظ على كل ما حققه من مجد سياسي وعسكري ، فهذا هو الاسكندر يكتب رسالة لأرسطو - نشرها بلوتارخ في الجزء الثاني من كتابه « السير » - يقول له فيها : « إنك لم تحسن صنعا بنشرك كتبك في نظريات الخطابة ، إذ ما الذي بقي لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أتيحت تلك الأشياء التي تخصصنا في معرفتها للجميع ؟ إني أؤكد لك أنني أوثر أن أمتاز على الآخرين بمعرفة ماهو ممتاز بكل اتساع في قوتي وامتداد لسلطاني » .

ولعلنا قد أدركنا من هذه الكلمات المباشرة للاسكندر أنه لم يكن يستهدف - كما هو شائع - نشر الفكر اليوناني في الشرق بقدر ما استهدف التعرف على هؤلاء « البرابرة » وضمهم إلى دولته ، وليقضي على ما بقي في حوزتهم من تميز فكري ، ولا ضير في أن يتشكل أحيانا تشكلا « تكتيكيا » بعاداتهم وتقاليدهم ، فيرتدي ملابسهم أحيانا ، ويتقرب إلى آلهتهم أحيانا أخرى ، ولاضير في أن يتزوج منهم ، ويوصي قواده بالزواج منهم أيضا . لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد ، هي تأكيد سيادة الجنس اليوناني الغربي فكرا وعقيدة .

ولشد ما أعجب بعرب الجزيرة العربية العظماء الذين أنار الدين الجديد عقولهم وحرر أخلاقهم وجدد هممهم ، فحملوا لواء حضارة فتية جديدة ، أساسها الإيمان الحق بإله واحد ، وبالأخوة والمساواة العالمية (فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) ، ولم يكن ذلك مجرد إيمان نظري بشريعة إلهية ، بل عاشوها حياة حقيقية وسلوكا لا يعرف التشكيل الكاذب ولا النفاق ولا الخبث . وسرعان ما سادوا العالم قولا وعملا بقوة الإيمان قبل قوة السلاح ، واشتقوا لأنفسهم طريقا حضاريا جديدا ، وأصبح العصر عصرهم ، فالفكر فكرهم ، والعلم التجريبي علمهم ، والمجتمع السياسي الحق أساس دولتهم الكبرى ، وأخلاق القرآن حياتهم .

وسرعان ما أقبلوا على فكر هؤلاء الإغريق فنقلوه ثم شرحوه وفهموه فهضموه وبعد الشراح ظهر المبدعون ، ففي الفلسفة ظهر الغزالي بعد الفارابي وابن سينا ، وظهر ابن خلدون بعد ابن رشد ، وفي العلم ظهر جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وغيرهم . ووجد رجال الفقه والقانون الذين نقلت أوربا تشريعاتهم وقوانينهم .. ووجد رجال السياسة الأفذاذ كعمر بن الخطاب

ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما ، ووجد العسكريون العباقرة كخالد بن الوليد وطارق بن زياد .. الخ . وكذلك كان الشأن في مختلف العلوم والفنون والآداب .

عصر الإزدهار الإسلامي

وإن كان الحال في العصر الوسيط قد تغير من جانبنا وصار المسلمون بحق هم سادة العصر ومعلميه دون تعال ودون عنصرية ، فإن الغربيين ظلوا على عنصريتهم وعنجهيتهم القديمة ، فقد نقلوا عن الإسلاميين مانقلوا ، وأنكروا ، وأخذوا منهم ما أخذوا ولم يظهروا لذلك أثرا ، فإن أردت أن تبحث عن اسم أحد التجريبيين العرب في مؤلفات فرنسيس بيكون فلن تجد ، وإن حاولت أن تبحث عن اسم أبي العلاء المعري في كوميديا دانتي الإلهية فلن تجده ، وإن تصورت أنك يمكن أن تجد اعترافا بالتأثير من جانب أي قانوني أو سياسي غربي ، أو لدى أي عالم فيلسوف فأنت واهم !!! فهم لايعترفون لأحد بأي فضل ، ولايذكرون غيرهم إلا حينما يكون وسيطا كابن سينا وابن رشد ينقلون من خلاله فكر أسلافهم .

لقد تصوروا أنهم صانعوا عصر النهضة الأوربية الغربية بإبداعاتهم هم فقط وببعض ما أحيوه من أفكار أسلافهم من اليونانيين ، وأنهم لم يستفيدوا شيئا من المسلمين أو من الشرق ، اللهم إلا بعض شروح لارسطو أو لجالينوس ، وإضافات طفيفة لابن حيان وابن الهيثم ، وقد ظلوا في نظر أنفسهم هم سادة الفكر وقادة العالم إلى التنوير والانتقال من عصر الظلام ـ العصر الوسيط كما ينظرون إليه ـ إلى عصر العلم التجريبي والفلسفة العقلانية الحديثة . وليست الحضارة الغربية بكل مظاهرها إلا سليلة للحضارة الغربية القديمة (الحضارة اليونانية) .

وشيئا فشيئا ، وكما فعل أجدادهم ، طمسوا الحقيقة الناصعة ، حقيقة العصر الإسلامي الوسيط المبدع الرائد ، وجعلوها باهتة قاتمة . ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالم أنهم صانعو مجد الإنسان الحديث وحدهم ، وأنهم يملكون من بين بني البشر قدر البشرية كلها ، فلابد أن ينصاع العالم لهم وأن تسلمهم البشرية قيادها . إنهم ما يزالون السادة وماعداهم من التابعين ، إنهم يملكون وحدهم الفكر والابداع ، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربي زائف .

وقد تحقق لهم ما أرادوا إلى حد كبير ، فلم يعد الشرقي شرقيا بأصالته ، ولا العربي عربيا بعروبته ، ولا المسلم إسلاميا في إسلامه ، لأن كلا فقد الارتباط بجذوره ، وأصبح كريشة عالقة بالهواء تدفع بها رياح التغريب إلى أي اتجاه تشاء . فالجميع قد رضي لنفسه الاتباع بدلا من الابداع ، حينما رضي لنفسه الثقافة بدلا من الفكر ، والمدنية بدلا من الحضارة .

وبدأ عصر التبعية

وقد برع الغربيون بمؤسساتهم ومستشرقيهم في غزونا ثقافيا بعد أن غزونا عسكريا واقتصاديا ، وبعدما تيقنوا أن ذلك الغزو الثقافي هو أشد أنواع الغزو فتكا وأطولها أمدا . نجحوا في غزونا بكل وسائل دعاياتهم ، واعتمدوا في ذلك ليس على فكرتهم عنا فحسب ـ وهي فكرة أساسها أنهم المبدعون ونحن التابعون ـ بل على فكرتنا نحن عن أنفسنا ، وهي لم تعد مختلفة عن الأولى ، لأنه قد قرّ في أذهاننا ـ كما قلت في البداية ـ أنه لامفر من أن نتبع الغرب إن أردنا أن نتقدم .

وعلى ذلك فقد أصبحنا نقبل منهم كل شيء دون رؤية وتدبر ، فإن ظهر هناك أديب من الدرجة العاشرة وأعطوه جائزة نوبل لأسباب سياسية أو ما شابه ذلك نقلنا كل أعماله وقلدناه ، وإن ظهر هناك مذهب فلسفي جديد سارعنا إلى ترجمته وأصبح « موضة » نتمثلها ونقيم أنفسنا بمقدار ما نقلنا عنه أو بمقدار ما استطعنا تمثله منه ، أو بمقدار استطاعتنا التشدق بمصطلحاته الافرنجية .

ولا يظنن أحد أنني من دعاة الانعزال ، ورفض كل ماهو غربي ، فهذا أبعد ما يكون عن قصدي الآن ، بل كل ما في الأمر أنني أردت أن أدلل على أننا لانقيم أنفسنا إلا بما نتمثله من الغرب وبمعايير

الغرب . وفي هذا يكمن الداء ، داء التبعية .

وهو داء لو تعلمون خطير ، ونتائجه أكثر خطورة ، فنحن لم نعد ننظر لأنفسنا على أننا أهل للإبداع ، بل أصبحنا ننظر لأنفسنا على أننا عاجزون عن مجاراة الغربيين في كل شيء ، فما بالك بالخروج عليهم .

إن المفكر المبدع إن ظهر في مجتمعنا حاربناه ، ولم نعطه فرصة النمو والإبداع في حرية واستقلال عن النموذج الغربي ، بل واتهمناه بالتخلف والنكوص .

وإن ظهر لدينا عالم فقد اتهمناه بأنه ربما سرق من الغرب ، وضيقنا عليه الخناق حتى يهجرنا إلى حيث يجد كل الرعاية في الغرب ، فيصبح إنتاجه ملكا لهم ، ويصدر باسمهم ، وأحيانا ما يغطيء الكثيرون ويتصورون أنه القدر ، فقد كتب علينا في ظل هذا التقدم العلمي الرهيب للغرب أن نظل تابعين لا مبدعين .

ولكن الحق أننا قد حملنا القدر ما لا ذنب له فيه ، وما أشفقنا على أنفسنا من حمله . إن رحلة الألف ميل كما يقال تبدأ دائما بخطوة . وأول الخطى هي أن ننفض عن أنفسنا غبار التبعية بعد أن نخرجه من أدمغتنا وأوصالنا ، وهنا يجب أن يكون دور المفكر الرائد المستقل الذي إن درس الفكر الغربي لا يتشكل به ولا يلبس عباءته ، دور العالم المرتبط ببيئته العاشق لها الذي إن اطلع على النظريات الغربية أو درس في جامعات الغرب عاد إلى تلك البيئة ليستخرج منها أقصى امكانياتها ويعيد تشكيلها من جديد إن كان ذلك ممكنا ، دور الأديب الذي إن اطلع على أدب الغرب لاينبهر بأشكاله أو بمضامينه ، بل يكون انبهاره بما تزخر به بيئته الشعبية الأصيلة من موضوعات ومضامين قل أن يوجد مثيلها في العالم . . إلخ .

فهل نحن فاعلون أم سنظل ندور وندور في تلك الدائرة المفرغة التي أرغمنا على دخولها أو أدخلنا أنفسنا فيها ؟! □

منتدى العربي

تعقيب

كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم ؟

في العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨ من مجلة (العربي) تحدث الدكتور عبدالكريم أبو شويرب في مقاله « كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم » عن أسباب صعوبة التعلم فردها إلى الطفل نفسه في صحته الجسدية والنفسية وذكائه وشخصيته ، وإلى المدرسة والمنزل ، ثم خلص إلى الحديث عن دور المعلم والطبيب في العلاج .

لا شك في أن الدكتور عبدالكريم قد أورد معلومات قيّمة في هذا المجال ، يجب على المربي الالمام الجيد بها إذا كان يريد لعمله التربوي أن يعطي نتائجه

الجيدة ، ولكنني أريد أن أضيف : من الطفلُ بطيءُ التعلّم ؟ وهل يختلف هذا عن الطفل « المتخلف دراسيا » ؟

إن البطء في التعلم هو الأساس الذي يعتمده عدد من المربين في الدلالة على فئة من الأطفال ينخفض ذكاؤهم قليلا عن المتوسط ، وهذا يعني أن الطفل بطيء التعلم هو الذي يكون ذكاؤه أقل من المتوسط ، دون أن يكون معاقاً عقلياً بالضرورة ، أما الطفل المتخلف فهو الطفل المقصّر تقصيراً ملحوظاً في تحصيله المدرسي بالنسبة للمستوى المنتظر من طفل متوسط في مثل عمره ، والتأخر المؤقت البسيط (كالتأخر في امتحان الأسبوع مثلاً) لا يقوم دليلاً على وجود تخلّف .

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلاف بين الباحثين في مقدار الدرجة التي يجب أن يبلغها التقصير ليكون ملحوظاً وذا دلالة ، وليوصفَ صاحبهُ بالتخلف ، فإن الاتجاه السائد يقول : « تطلق كلمة التخلف بمعناها الاصطلاحي على أولئك الذين لا يستطيعون ـ وهم في منتصف السنة الدراسية ـ أن يقوموا بالعمل المطلوب من الصف الذي يقع دونهم مباشرة » ، وعلى هذا يوصف ابن السنة الثامنة بالتخلف حين لا يستطيع أن ينجح نجاح المتوسط من أبناء السنة السابعة في أسئلة يتضمنها اختبار للتحصيل لأبناء السابعة .

فكلمة التخلف المدرسي إذن تشير إلى فئة من الأطفال من مستوى معين ومنخفض في التحصيل ، ولا تعنى فى الأصل فئة من الأطفال يوصف أفرادها بهذا الوصف بناء على مستوى الذكاء لديهم . ويكون التخلف على شكلين رئيسين :

١ ـ التخلف العام : وهو التخلف الظاهر عند التلميذ بالنسبة لكل المواد الدراسية . وهنا نستطيع أن نميز بين فئتين : فئة يكون مستوى ذكاء أفرادها دون المتوسط وفي حدود ما يسمى بالبليد المتوسط أو البليد (وفق تصنيف المتخلفين حسب درجة الانخفاض في الذكاء) ، وفئة يكون مستوى ذكاء أفرادها متوسطاً ، أو أعلى منه بقليل ، والفئة الأولى هي الغالبة .

٢ ـ التخلف الخاص : وهو التقصير الملحوظ في عدد قليل من الموضوعات الدراسية ، كأن يكون التخلف في الرياضيات مثلا « دون سائر المواد ، ويمكن أن نميز هنا بين فئتين أيضا » فئة مَنْ يكون ذكاؤهم دون المتوسط وفي حدود البليد المتوسط أو البليد ، وفئة مَنْ يكون ذكاؤهم متوسطا « أو أعلى من ذلك بقليل ، والفئة الأولى هي الغالبة أيضاً » .

يتبين مما تقدم أن إطار الاستناد في دلالة اصطلاح (التخلف) هو غير إطار الاستناد في دلالة اصطلاح (البطء في التعلم) ، ولكن واقع الحال أنّ أكثر ما يحدث لبطيء التعلم أن يكون متخلفاً ، وأن بعض المربين يؤثر عدم استعماله كلمة (التخلف) في الحديث عن الطفل المقصّر ، ويفضل استعمال كلمة (البطء في التعلم) للاشارة إلى أن سير الطفل في تعلّمه أقل سرعة من سير المتوسط . . ومهما كانت نقاط الانطلاق في الاصطلاحين فالغالب أننا لا نكون أمام فئتين متميزتين ، وأن الطفل بطيء التعلم لا يستطيع أن ينافس المتوسط في ذكائه ، فإذا فعل ، كانت الغلبة للمتوسط في أكثر الحالات وفي ما لا يقل عن ٧٥٪ منها . ولكن هذا ـ قطعاً ـ لا يعني أن هؤلاء الأطفال سيكونون فاشلين في الحياة ولا يتقدمون في التعلم ، ولهذا فإن التربويين الموضوعيين لا يقيمون خطّاً واضحاً وثابتاً بناء على نتائج اختبارات الذكاء للتفريق بين المتخلف أو البطيء التعلّم من جهة والسويّ من جهة أخرى ، لأنه يمكن إعداد طرق تعليمية معينة يستطيع الطفل البطيء التعلم أو المتخلف من خلالها تعلّم العديد من الموضوعات المدرسية كالقراءة والكتابة والحساب والرسم والموسيقا ، كما يستطيع القيام بأداء معظم الأعمال التي يؤديها الأطفال الأسوياء دون ضغط أو تردد ، ويجب في هذه الحالة أن يكون عدد التلاميذ في الصف الواحد قليلاً ، كما يجب تأهيل المعلمين الذين يمارسون تعليم هذا النوع من الأطفال بحيث يُلمّون بالتقنيات المخصصة لمساعدتهم . □

حيدر عمر
سوريا ـ عفرين

من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين

بقلم : الدكتور راشد المبارك

حرية التفكير والإبداع من أهم الشروط والقواعد التي تبنى عليها الحضارات ، ومحاصرة الفكر أو تهديده أو قمعه يؤدي إلى خمود جذوة الإبداع والابتكار لدى الشعوب ، ومن ثم يفضي إلى التخلف الذي تدفع الأجيال القادمة ثمنه .

هاتان النتيجتان المهمتان استنتجهما الكاتب من خلال دراسته لماضي الأمة الاسلامية وحاضرها ، بإبداعاتها الفكرية والعلمية ، وهما تستوجبان الاهتمام والمناقشة .

إن البحث في التاريخ الفكري للمسلمين ، أي الحديث عن الفكر مقيدا بنسبته إلى مفكري المسلمين ، أولئك النفر الذين صاغوا التاريخ العقلي والحضاري فيما وصل إلينا من تراث ، موضوع ينطوي على قدر كبير من التعقيد والتشعب ، يتعذر معه الأمل في رسم صورة كافية الدلالة على طبيعته في رقعة صغيرة أو وقفة قصيرة كهذه ، وكل ما يطمع فيه - في هذه الوقفة - هو إلقاء نظرة على بعض الشواهد الشاخصة في ذلك المسار التي تمثل نقطا على منحنى ليست كافية لرسمه لكنها تكفي للدلالة على ميل ذلك المنحنى واتجاهه .

والمقصود بالجذوة هنا هو عنفوان الفكر في استشرافه الذكي للمقاصد والغايات ، والتعامل مع الأحداث ، واتخاذ المواقف ، وفي الكشف عن قوانين الكون وسننه ، وفي فهم روح النص وبواعثه ، والنفاذ عند الاقتضاء من منطوق النص وظاهره إلى مفهومه ومراميه . وعلى ذلك يكون الخمود هو مغايرة ما تقدم أو التناقض معه .

وما نعنيه بالفكر هو القدرة على الاستفادة القصوى من طاقة العقل لتجلية ما يستكن من المدركات ، أخذاً في الاعتبار أن العقل هو ملكة التحليل والتعليل المميزة بين الخطأ والصواب .

الفكر صانع للحدث :

تعريف الفكر بالمفهوم السابق قد لا ينطبق على التعريف المعجمي له انطباقا تاما فقد جاء في اللسان :

الفكر : إعمال الخاطر . وقال في الصحاح : الفكر التأمل . وعرف قاموس اكسفورد الفكر بالنشاط العقلي أو قوة التعليل . كما عرفه قاموس وبستر Webster بأنه القدرة على التفكير . لكنه يتفق مع

مفهومه من منظور فلسفي أشار إليه ديكارت عندما جعله دالا على الوجود (أنا أفكر إذن أنا موجود) ، ونظرية ديكارت التي تبدو مبالغة في تقدير أثر الفكر ليست سوى صياغة مختشدة للحقيقة القائلة ان الفكر صانع للحدث وسابق عليه، وأن الحدث كان جنينا تمخض عنه الفكر . والعلاقة بين الحدث والفكر هي أن الأول يصنع بوقوعه إثارة وتحريضا للثاني لتوسيع دائرة عمله . والأحداث الصانعة لتاريخ البشر جاءت نتيجة لأمرين : مدد نزل من السماء ، أو فكر نبت من الأرض حوّل الإيمان بالأول والاقتناع بالثاني وهو المدد أو الفكر من عالم المخيلة إلى حيز الواقع ، أي من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل .

وباستثناء الأحداث الكونية ـ ومنها النبوات ـ فإن جميع المذاهب والدعوات والعقائد والقوانين والفروض والنظريات وعمليات الهدم المادي والبشري في التاريخ عمل من أعمال الفكر ، وليس من الممكن أن يكون للبشر حضارة ، بل أن يكون لهم تاريخ ، دون فكر صاغ هندسة الحدث أو وضع بذرته ، فهو بذلك الراسم لمسار التاريخ في وهاده وقممه .

الفكر لا يتعامل إلا مع نفسه :

خارج نطاق النظرية النسبية يعرف الرياضيون الزمن بأنه المتغير المطلق ، أي المتغير الذي لا يعتمد في تغيره على سواه ، ويجعل هيجل الحرية ماهية العقل ، وهو يعني بذلك استقلال العقل التام . وإذا كان الرأي الأخير يسقط أثر الخبرة والتجربة في التأثير على مواقف العقل وتوسيع دائرة عمله . فإن الفكر بالتعريف السابق ـ وهو غاية ما يصل إليه العقل من استقلال ـ هو الأقرب إلى أن يكون المتغير المطلق ، لذلك فهو أظهر الأشياء في مختبر الإدراك ، إذ لا يمكن إثباته أو نفيه ولا مجاملته أو تجريحه إلا بوسيلة فكرية ، بل إن مشروع إخضاع الفكر للمختبر هو عمل من أعمال الفكر أو صورة من صوره ، أي أنه مشروع فكري ، إلا أن كون الفكر كذلك لم يمنحه حصانة من الوقوع في الخطأ ، ذلك أن الفكر قد يستهويه الضلال أحيانا أو يغويه ، لكنه حين يصنع ذلك أو يقع فيه يخرج من نطاق الفكر الكلي ويقع في حيز الفكر الجزئي للفرد أو الجماعة ، ومع ذلك فإن لهذا الفكر الجزئي حضورا ومشاركة في صنع الحدث وصياغة التاريخ . ولعل هذه الحقيقة هي بعض المآخذ على مقولة هيجل أن العقل يحكم العالم .

وسواء جاءت هذه النظرة انعكاسا أو تأثرا بقوانين نيوتن في الحركة أو لم تكن كذلك ، فإن الخطأ ليس في اعتبار أن العقل ـ وهو أصل الفكر ومنشؤه ـ قوة تؤثر في التاريخ وقد تصنعه ، لكن الخطأ في القول أن التاريخ يتخذ مساراً عقلانيا ملتزما باشتراط العقل ومطالبه ، ذلك أنه يلزم من المعطيات قدر أكبر ، ومن صحبة التاريخ مدى أطول ، لكي يمكن القول ان المحصلة النهائية لاتجاه الحركة في مسار التاريخ تتخذ مسارا عقليا . ومع ما تقدم من أن الفكر قد يخطيء أو يضل فإنه من المؤكد كذلك أن لا سبيل لمحاسبة الفكر أو تقويمه إلا بالفكر نفسه ، وإذا كان الفكر ـ أي الجزئي منه ـ يقع في الخطأ في بعض الحالات فهو الوحيد الناقد لهذا الخطأ المصحح له في كل الحالات . إن الفكر ناقد نفسه ، إنه يرفض التعامل مع وسيلة غير فكرية ، فالترغيب والترهيب ليسا مما يدخل في دائرة التعامل معه أو المعالجة له ، وكما أن « القلب لا يدخل في ولاية الفقيه » كما يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله فإن الفكر لا يخضع لعصا المؤدب . ولعل البشر لم يعرفوا في تاريخهم محاولة عقيمة أو مشاعر غير متحضرة أو جهدا مهدورا أشد أو أفجع أو أكثر تبددا من مشاعر أو محاولة أو جهد من يسعى لخنق الفكر أو الحجر عليه أو مصادرته أو فرض الفكر المضاد عن طريق سوط الجلاد أو عصا المؤدب ، إنه ليس قارئا للتاريخ ذلك الذي يظن أنه يمكن التعامل مع الفكر لتأكيده أو الدفاع عنه أو إسقاطه بوسيلة غير فكرية ، لذلك فإن من أكثر الأشياء جدارة بالدراسة والتأمل تلك الظاهرة الفريدة في التاريخ الحديث المتمثلة في أمرين :

الأول : أن واقعا قام على فكر جاء هادما ما قبله ، لم يجد وسيلة لحماية نفسه إلا بحبس الفكر المغاير أو تجريمه أو الحجر عليه بكل الوسائل والأشكال المانعة لتداوله أو تسربه ، ومنها الستار الحديدي والأسلاك الشائكة والمدافع المنصوبة على الأبراج ، على أن هذا الواقع الممثل لأعنف مقاومة للفكر ، والخوف منه ، والعجز عن مواجهته ، قدم أقوى دلالة على قدرة

الفكر واختراقه وتخطيه للعوائق واستعصائه على الاضطهاد .

الثاني : أن النظرية الجدلية التي قال بها هيجل وتأثر بها ، وأصلها الفكر الماركسي ، لم تجد شاهدا على صحتها أقوى من الواقع الشيوعي نفسه ، فمما تعنيه النظرية الجدلية أو تتضمنه أن المذاهب والنظريات والأفكار التي يمكن أن تقوض واقعا قد تقادم تؤول إلى الشيخوخة والهرم بعد أن تفرغ ما تحمل من شحنة بناء أو هدم ، وتتحول إلى حطام يعوق الحركة ، وتحول بما أعطت لنفسها أو كسبته من قداسة دون النقد والتقويم وتصير مانعا من التطور والقدرة على التعامل مع الظروف والمعطيات الجديدة التي قدم تجيء وليدة للمذهب الجديد نفسه ، فإذا اصطدمت بالفكر الرافض الذي لا يحكمه انسياب التيار اضطرت في محاولة لحماية نفسها إلى مواجهته بالقسر والإكراه . والتاريخ لا يحتفظ بأمثلة كثيرة على أن نظرية أو مذهبا استشعر أصحابه تضوب عطائه منذ لحظة ولادته فاضطروا لحمايته وفرضه بالإكراه كما حدث للنظرية الماركسية .

عود على بدء :

في محاولة البحث عن الجذوة والخمود أو مواقع الضعف والقوة في فكر المسلمين تبدو للباحث ظواهر جديرة بالتأمل لما لها من صلة بطبيعة الموضوع وأبعاده .

الظاهرة الأولى : هي أن مادة فكر لم تكن ذات تكرر ، بل ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي شعره ونثره . ومع الإدراك التام أن عدم ورود هذه المادة لفظا لا يعني انتفاء ورود مدلولها أو إعمال هذا المدلول ، إلا أن ذلك لا يكفي لإسقاط الدلالة في تلك الظاهرة أو استشكالها ، مادامت اللغة هي وعاء الفكر مكتوبا أو ملفوظا .

الظاهرة الثانية : تكرر ملفت للنظر لمادة فكر بلفظه أو بمعناه في القرآن ، حيث وردت هذه المادة بصيغة الماضي أو المضارع في نحو ثمانية عشر موضعا ، وجاءت الدعوة إلى النظر بمعنى الفكر والتأمل في أكثر من أربعة وثلاثين موضعا .

الظاهرة الثالثة : تكرر وصف أعلام المسلمين ـ في العصور المتأخرة نسبيا ـ بالفقيه والأديب واللغوي والكاتب والشاعر والمؤرخ والطبيب والحافظ ، أي وصف كل فرد بما ظهر من صفاته وغلب عليه . ولم يحدث أن وصف شخص بصفة المفكر .

الظاهرة الرابعة : وجود آلاف من الكتب التي وضعت في الفقه واللغة والحديث والعقائد والكلام والفلسفة والتصوف والعلوم الطبيعية ، وكلها من أعمال الفكر ، إلا أنه لم يعرف شيء ذو بال من المؤلفات وضع لمعالجة الفكر من حيث هو فكر أو عن تاريخه (من الواضح أن ذلك لا يشمل العصر الحديث) .

الظاهرة الخامسة : وضع مصنفات عديدة عرفت باسم الطبقات ، مثل طبقات الفقهاء والكتاب والوزراء والأطباء والمحدثين والشعراء والحفاظ ، ولم يعرف مؤلف كتب عن طبقة ذوي الفكر . ولا أظنه يبطل صحة الاستشكال في الظاهرة الثالثة والخامسة أن الفكر صيغة مشتركة وملازمة لكل الأعلام ومن ألف عنهم من الطبقات، ذلك أن كثيرا من أولئك الأعلام ومن سلكوا في طبقات تجمعهم صفة أو صفات أخرى مشتركة مثل الحكمة أو الفقه أو الشعر أو الفلسفة ، فلم يمنع ذلك أفراد كل طبقة بما غلب عليها وتميزت فيه ، والمقصود هنا هو التميز في الفكر لا القدر المشترك منه . ومع ذلك فإننا نرى أنه إذا كانت الظاهرة الثانية واضحة الدلالة على غايتها فإننا لا نعتقد صواب استنتاج تصور قاطع الدلالة من الظواهر الأخرى ، ولكنها ظواهر جديرة بالتأمل لمن يريد دراسة التاريخ الفكري للمسلمين لمعرفة مواطن الضعف والقوة في الماضي استفادة منها في الحاضر .

قبسات من الجذوة :

يظهر العنفوان الفكري للمسلمين في مجالين متميزين .

الأول : تعامل مع الأحداث والظروف يحسن إدراك الحاضر ، كما يستشرف آفاق المستقبل واحتمالاته ، أدى هذا التعامل إلى حفظ كيان الدولة وامتداده وتطوره أو أثر في هذا الحفظ والامتداد .

الثاني : حسن تمثل لما جاء به الإسلام وتفاعل معه أثمر الموروث الفكري والحضاري فيما وصل إلينا من تراث .

ففي المجال الأول يستطيع الباحث رسم خريطة بينة المعالم لهذا المجال من مواقف للمسلمين في فجر الإسلام وضحاه منها :

ـ موقف أبي بكر عند وفاة الرسول (ص) وهو الموقف الذي تضعف فيه العزائم وتضل فيه الأحلام ، وموقفه من مانعي الزكاة متفردا بهذا الرأي وإصراره عليه ، وموقفه في انفاذه لجيش أسامة إلى خارج الجزيرة والمدينة محاطة بالمرتدين .

ـ مواقف عمر من إيقاف حد القطع في سنة الرمادة ومن تقسيم أرض السواد ومن المؤلفة قلوبهم وفي امتناعه عن الصلاة في كنيسة القيامة وفي تدوينه للدواوين .

ـ تعريب عبدالملك للدواوين وسكه للنقود .

ـ مضمون رسالة الرشيد إلى ملك الروم وهي أقصر رسالة عدد كلمات وأبلغها معنى .

ـ استجابة المعتصم لنداء المرأة المأسورة في عمورية . ومظهر الانفعال والارادة المغلف لهاتين الحادثتين لا يجوز أن يحجب عنا البذرة الفكرية المستجنة فيهما ، فالعاطفة والإرادة هنا ليستا سوى المؤثر الذي نقل الحدث من مجال الفكر إلى حيز الواقع ، فهما موقف من وجود وليستا إحداثا له .

وفي المجال الثاني يمكن للمرء رسم صورة تدل عليه من الأمور التالية ؛

١ ـ توجه جماعي إلى إيقاظ العقل ـ من حيث هو مناط التكليف ـ في قراءته لكتاب الكون وفهم نواميسه ، وفي فهم النص فهما يستصحب الظروف والبواعث والغايات .

٢ ـ اخلاص للحق سقط معه وبسببه كل إيثار للانتصار للذات أو التعصب للرأي .

٣ ـ سمو في العقل والخلق انتفى معه اتهام الناس في بواعثهم ونياتهم فيما يصلون إليه من رأي قام على اجتهاد .

٤ ـ رحابة أفق اتسعت للعديد من الأفراد والجماعات وإن اختلفوا في رؤيتهم وتفسيرهم للأحداث والنصوص .

ـ اعمال العقل :

جاء تأصيل هذا الأمر وتأكيده في القرآن بصورة ملفتة للنظر كما تقدم في صدر هذا البحث وجاء عمل النبي في مواقف كثيرة دالا على ذلك كإعجابه (ص) بفهم معاذ بن جبل عندما أراد بعثه إلى اليمن . وفيما كثير من الصحابة في حياة الرسول وارشاده للمخطيء منهم وتأييده للمصيب . ولم يعرف أنه كف أحدا من أصحابه عن ذلك .

كما تمثل فهم الصدر الأول لذلك واتباعهم له في أمور منها :

ـ نشوء المدارس المتعددة في الفقه والعقائد والحديث والفلسفة وعلم الكلام ، ومحاولة معرفة السنن الكونية وأسرار المادة بدراستها . وما اشتملت عليه دراسة الفقه من ثروة فكرية أصلت مناهج الاستدلال والاستنباط والرأي والقياس والاستصحاب والاستحسان . وفي هذا الجانب يحسن لفت النظر إلى ذلك المدرك اللطيف الذي لا يخلو من مغزى في تسمية علم مصدري التشريع واستنباط الأحكام منها بالفقه ، والفقه بالشيء غاية ما يصل إليه الإدراك المتأني في فهمه بعد الإحاطة بما يتعلق به .

الإخلاص للحق :

بلغ المسلمون الأوائل من الإخلاص للحق والشغف به أفقا تلاشى فيه أي أثر للتعصب للرأي ، أو تغليب الانتصار للذات ، وصارت « الحكمة ضالة المؤمن » قانونا أخلاقيا في التعامل مع الأشخاص والآراء والاجتهادات . وتمثل الأئمة الأربعة لذلك نموذجاً من دروس الأخلاق سواء في موقف أحدهم من الآخر مع اختلافهم فيما يصلون إليه أم في إلحاحهم على الناس بعدم الأخذ باجتهادهم ما لم يتبين للآخذ وجه الحق فيه .

كما شف عما تقدم موقف مالك في منعه لأبي جعفر المنصور من حمل الناس على الموطأ ، وموقف الإمام أحمد من الأئمة الثلاثة ، واستقلال الشافعي بمذهب خالف فيه مالكا وقد كان تلميذا له في كثير مما وصل إليه ، ولم ير الأول أو الثاني في ذلك ما يخل بما بينهما من اجلال ، ولم تمنع الحسن الأشعري أربعون عاما من الأخذ بمذهب المعتزلة والجدال عنه من رجوعه عن ذلك المذهب بعد أن تبين له وجه الخطأ فيه . ومما يدل على ذلك المستوى العقلي والخلقي ما يجتمع في المسجد الواحد كجامع البصرة وما يماثله من المساجد في حواضر البلاد الإسلامية من حلقات تمثل المذاهب

المختلفة في الرأي والاجتهاد ، وما حمله أبو جعفر المنصور وهو الخليفة السني الفقيه من اجلال لعمرو ابن عبيد المعتزلي ورثائه له بعد وفاته . ولم يعرف خليفة رثى شخصا غيره . وقد اتسع هذا الأفق ليشمل المخالف في الدين والاعتقاد . قال خلف بن المثنى ما معناه شهدنا نفرا في البصرة يجتمعون لا يعرف مثلهم علما ونباهة : الخليل بن أحمد (سني) والحميري الشاعر (شيعي) وسفيان بن مجاشع (خارجي) وصالح بن عبدالقدوس (شاك متحير) وابن نظير المتكلم (نصراني) وابن رأس الجالوت (يهودي) ، وكانوا يجتمعون ويتحدثون في مودة لا تعرف منهم هذا الاختلاف الشديد في الديانات . ولم يعرف أن أحدا ممن يقتدي برأيه في عصرهم رأى في ذلك خروجا على الدين أو ترخصا فيه ، بل لعلهم رأوا في ذلك فهما لقوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ، وهذه الآية من سورة الممتحنة وهي مدنية نزلت قبل الفتح بزمن يسير أي بعد أن أعز الله الإسلام ، كما رأوا فيه تأسيا بعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) في استضافته وفد نصارى الحبشة ، وإنزاله لوفد نصارى نجران في المسجد ، وفي معالجته الكريمة لقضية حاطب بن بلتعة ، وتغليبه لحسن الظن على سيئة في مسألة تعتبر خيانة عظمى بلغة هذا العصر .

بعد ذلك سيجد المرء من المتعذر أن يعزو إلى الصدفة ظهور الشخصيات المتميزة في العلوم التجريبية والبحتة في هذا العصر أو مجيئهم ثمرة له . وأن يكون لمجالات المعرفة المختلفة في الطب وعلم النبات والحيوان والسياسة والأخلاق حظ غير قليل من الاهتمام .

من رماد الخمود :

الصورة التي تبينا اشراقها فيما سبق من صفحات ، تلاها كثير من رماد الخمود سببه قصور نظر ضاق معه مجال الرؤية ، وتعصب للرأي صنع كثيرا من البغضاء ومنع الاستفادة من الرأي المخالف مهما كان حظه من الصواب ، وتقليد بلا بصيرة أصاب ملكات العقل والفكر بما يشبه الشلل .

فلقد أدى قصور النظر إلى ضيق في مجال الفهم والإدراك تعذر بسببه التفريق بين الثوابت والمتغيرات واختلطت قداسة النص لدى كثير من الناس ببشرية التفسير لذلك النص وإدراك مرماه ، واعتبر رأي الشيخ أو المتبوع في تفسير نص ما أو فهمه هو الأمر الوحيد الممكن والمحتمل والأكمل لمدلول ذلك النص ، وصار أي منفذ آخر للاجتهاد في التفسير والاستنتاج خروجا عن الإجماع أو نوعا من الابتداع ، وخفي في ضباب هذا الفهم إدراك أن هذا التوجه يجعل ما وصل إليه الأقدمون ـ مع التقدير له ووجوب الاهتداء به والاستفادة منه ـ في فهم النص وتفسير الحدث هو الصورة المثلى والممكنة لعطاء الإسلام ومعالجته للمشكلات والأحداث ، كما خفي أن ذلك مخالفة لما دعى إليه السلف فيما أثر عنهم من أقوال وأفعال تقدم بعض الأمثلة عليها .

وازدحم تاريخ المسلمين بعد انحسار الموجة الأولى بصور من التعصب للرأي سدت منافذ الرؤية لأي جانب من جوانب الحق يكون عليه الطرف الآخر ، وصارت كل فئة تعيش في أسوار محصنة عن اختراق الآراء الأخرى أو نفاذها . مارس هذا التعصب وتحمس له الأفراد والجماعات ، ولقد مورس في مجال النظرية إلى حد قال معه أحد الفقهاء : « كل آية أو حديث تخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ » ينسب هذا القول لأبي الحسن الكرخي من فقهاء الأحناف ، ومورس في مجال التطبيق إلى حد أن المعتزلة أرادت فرض مذهبها على مخالفيها بقوة السلطان . وأثمر هذا المناخ صداما بلغ حد الاقتتال بين أصحاب المذاهب التي تجمعهم الأصول ، ولحق أذى كثير بأئمة فضلاء بسبب آرائهم الفقهية المتعلقة بالفروع . يحفل التاريخ بصور المصادمات بين أصحاب المذاهب وحتى من ليس بينهم اختلاف إلا في اليسير من الفروع مثل مصادمات الشافعية والحنابلة . وقد حوصر الإمام الطبري ورمي منزله بالحجارة حتى صارت أكواما حول بيته ، وأبطل بعض أتباع مذهب الصلاة بإمامة تابع لمذهب آخر .

التقليد

لعله لم يعرف تاريخ المسلمين شيئا أوصلهم إلى ما هم عليه إلى وقتنا الحاضر مثل التقليد بلا بصيرة

والاتباع بلا مساءلة ، وليس المقصود بالتقليد هنا أن يستفيد المرء ممن هو أكثر منه علما وأوسع دراية ، وأن ينتفع برأي من سبق فيما يأخذ ويدع ، ولكن التقليد المذموم هو ذلك الموقف الذي يتعطل معه العقل فلا يعمل والفكر فلا يستشكل ويجعل جهل المسلم بأوامر دينه ومواهبه وكأنه مطلب يجب أن يؤصل ، وكف العقل عن فهم وتدبر ما جاء به قانونا عاما لابد أن يسود ، فيصبح الفرد عالة على سواه حتى في معرفة الفروض من عباداته والضروري من معاملاته ، فلا غرو أن تكون نتيجة ذلك هي اندفاع التابع في أحكامه ومواقفه بعامل عزم القصور الذاتي لا بتوجيه العقل البصير . وكان لهذا الاندفاع نتيجة أخرى لعلها أخطر ما اجتنه بذرته من انبات ، فقد تحول التقليد بالتتابع من تقصير أو قصور يقع فيه فرد أو أفراد إلى عرف تأخذ به أمة صاغ مسارها الجماعي وحدد مجالات ما تهتم به وتتطلع إليه .

ولقد صرف هذا التتابع الذي حكمه قانون الاندفاع كل اهتمام الأمة أو جل هذا الاهتمام إلى وجهتين : الأولى : فن صناعة الكلام . والثانية : الإغراق في مسائل من الفروع كتبت فيها مئات المؤلفات من المتون والشروح والحواشي والمطولات والمختصرات والتعليق .

صناعة الكلام :

لم يكن عرب الجاهلية أوفر الناس حظا في المعارف الفلسفية أو الاجتماعية أو العلمية ، لكنهم كانوا يشعرون بتفوقهم في جانب واحد هو صناعة الكلمة . استنفدوا جهدهم النفسي والفكري في إجادتهم لها ، والتفوق فيها ، والمباهاة بها . وكانت تقام الأعراس وتنحر الجزر إذا ظهر في القبيلة أحد المتفوقين في هذه الصناعة ، كما تقام الأسواق في الفترات المختلفة من الزمان والمواقع المختلفة من المكان لعرض ذلك الانتاج للاستعلاء به والانتصار ، وعلقت نماذج منه في أقدس محل يتوجهون إليه بتعبدهم . وإذا كان ذلك مفهوما في العصر الجاهلي للأسباب السابقة فإنه سيبقى غير مبرر ولا مفهوم أن يستمر هذا التوجه بنفس الدرجة من الاهتمام والممارسة في الدولة الإسلامية ، حيث فتح الإسلام للعقل والقلب آفاقا جديدة لم تفتح من قبل ، وامتزج المسلمون بامتداد دولتهم بثقافات شعوب أخرى وحضاراتها لولا سيطرة نزعة الاتباع بلا اشتراط والتقليد بلا مساءلة . وإذا كان لا يجوز التفريط في هذا الموروث أو إهماله فإنه يجب كذلك أن يكون الحرص عليه لكونه وعاء ومظهرا لفكر الأمة ، وتعبيرا عن شخصيتها النفسية والعاطفية ، لا لأنه الوعاء والمحتوى والمظهر والجوهر والوسيلة والغاية ، ولكن ذلك هو ما حدث لدى كثير من الناس حيث صار هو القصيدة التي ألهت بني تغلب عن كل مكرمة .

لقد وقف عقل الفرد العربي « بقفا نبك » وقوفا طال به حتى أصابه بما يشبه الشلل المعجز عن الحركة إلى الآفاق الأخرى من المعرفة والابتكار ، واحتلت « قفا نبك » وأخواتها في عقل الفرد وإحساسه ومشاعره مكانة تقرب من القداسة ، وصارت قراءة هذه المعلقات ـ وما يماثلها ـ وحفظها وشرحها والتعليق عليها واستنباط معجزاتها البلاغية هي أهم ما يقدم للذهن من غذاء . وأصبح على كل فرد أن يدجن أو يروض مداركه وإحساسه وتذوقه لكي يدرك ويشعر ويتبين السمو الحضاري والعقلي والبياني في مثل : « . . . تقول وقد مال الغبيط بنا معا : . عقرت بعيري . . . . » ، ومثل « فظل العذارى يرتمين بلحمها .·. وشحم . . . . » .

لقد تحول فن صناعة الكلمة إلى حقل مغناطيسي هائل جذب إليه الفكر والوجدان ، ورأى الناس فيه أبعد ما يتطلعون إليه من آفاق ، وتوجه لإجادته والتفوق فيه معظم طاقات العقل ووظائفه ، وأصبح هو الوثيقة التي يجتاز بها كل الحدود والمواقع والحصون إلى صدور المجالس وعطاء السلاطين وكراسي الوزارة ، ونتج عن ذلك أن كتب في هذا الجانب أثقل ما تنوء به المكتبة العربية من أحمال ، وأن يكون أضخم الكتب التي عرفها تاريخ التأليف كتاب « صبح الأعشى في فن صناعة الانشا » . وقد بلغ هذا الحقل المغناطيسي الجاذب من القوة حدا لم يسلم من التأثر به رجل مثل الجاحظ في عنفوانه العقلي ، وهو الذي قيل عنه أن كتبه تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، حيث يظهر هذا التأثر في مثل قوله : « . . . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف ،

ولليونان فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق بكي اللسان غير موصوف بالبيان . وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » (البيان والتبيين) . وما نظن أنه سيغرب عن ذهن الجاحظ ـ لولا شدة تأثير ذلك الحقل الجاذب ـ أن السبب الذي فضل به العرب هو إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح . ولعل ذلك يفسر أن العرب ترجموا ونقلوا عن اليونان مالهم في الفلسفة والمنطق والهندسة والطب والفلك ولكن لم يعرف أنهم اهتموا بنقل أثر واحد في صناعة الكلام .

في مثل هذا الجو المشحون بالكلف بالكلمة والمبالغة في الانصراف إليها تستوقف المرء ظاهرة أخرى هي أن ما وجه لتجلية الإعجاز البلاغي في القرآن من ذلك الجهد نصيب غير موفور . وسيبقى من الأشياء الجديرة بالدراسة والتحليل أنه لم يكتب في مدى ثلاثة عشر قرنا عن الإعجاز البياني في القرآن ، وهو المعجزة الأولى فيه ، سوى عدد قليل من الكتب ، لا يبلغ أصابع اليد الواحدة ، على حين كتبت المئات في فروع الفقه ومعالجة الحديث وطرقه واسناده وتاريخ رجاله ونقد هؤلاء الرجال ، أي ما يعرف بالجرح والتعديل ، مع أن الداعي إلى الأول أوجب ، والحاجة إليه أشد بسبب عجز الخلف الذي باعد بينهم وبين السليقة اللغوية حاجزا الزمن والامتزاج بالأمم الأخرى ، فلم يكن لدى الكثير منهم ملكة فطرية تمكن من إدراك أسرار البيان الذي كان مناط الإعجاز . ولعلنا نجد فيما كتبه بعض المتأخرين مثل سيد قطب رحمه الله عن التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن ، وما يوفق إليه الشيخ متولي شعراوي من لفتات ظاهرة الدلالة على الإعجاز فيما تكشف عنه الكلمة والجملة القرآنية ما لا نجد مثله في أكثر ما كتبه القدماء من المفسرين .

الإغراق في الفروع :

إذا كانت صناعة الكلام قد شغلت مساحة كبيرة من اهتمام الأمة ونشاطها العقلي فإن مساحة أخرى مساوية أو مماثلة شغلتها ظاهرة أخرى تتجلى في أمرين :

أ ـ إغراق شديد في مسائل شكلية من فروع الفقه لا يتفق ما صرف إليها من جهد مع شموخ الإسلام وسمو مقاصده .

ب ـ صرف كثير من جهد العقل ونشاطه لوضع مسائل وحلول قامت على افتراض احتمالات لا يمكن أن تقع أو تصورات يتعذر أن تحدث وجاء بعضها ثمرة لخيال مريض حيث بلغ حدا من الإسفاف يأباه وقار العقل وسمو الوجدان .

النتائج والمقدمات :

إذا كان قصور النظرة والتعصب للرأي أديا إلى النتيجة الحتمية لهما من انقسام المسلمين إلى فرق تعادي كل واحدة الأخرى ، وتفترض فيها سوء القصد والباعث ، وتحمل كل فئة شحنات متفاوتة من التوجس والحذر والريبة تجاه الفئات الأخرى سدت أي منفذ للحوار ومطارحة الحجة لجعل ما يتفق عليه رباطا بين الأمة يجب أن يحرص عليه ويقدر ، وما يختلف فيه رأيا تجتهد فيه الأفهام فتعذر .

فإن الاندفاع الجماعي إلى المتابعة بلا روية قد صرف الاهتمام والتوجه عن فروع من المعرفة ، ومجالات لعمل العقل وعطائه جديرة بأن تولى أكثر مما أعطيت من اهتمام . إن الواضح من الإسلام أنه إطلاق للعقل لا حجر عليه ، وإعمال له لا تعطيل لوظائفه ، فقد جاء القرآن دعوة إلى قراءة كتاب الكون ، وتأمل أسراره وسننه ، وحث الفرد إلى التأمل داخل نفسه وخارجها ، للوصول إلى تعامل أفضل مع بني جنسه ، وفهم أتم لوحدات الكون وطبيعة المادة ، ولكن الاندفاع إلى الوجهتين السابقتين ، وشدهما للنصيب الأكبر من اهتمام الفرد والجماعة أسفر عن انحسار واضح في الجوانب الأخرى ، وتكونت نظرة دونية إلى من يشغل نفسه بمجال من المعرفة غير الوجهتين السابقتين ، وانعكست هذه النظرة إلى واقع وممارسة . فليس من المصادفة أن رجلا مثل سيف الدولة الذي يهب المئات والآلاف من الدنانير لقصيدة تقال يرى أن أربعة دراهم في اليوم كافية لمطالب الفارابي ، وأن يعاني

الكندي ظروفا ألجأته إلى اعتزال الناس،وأن يقضي الحسن بن الهيثم بقية عمره كاسبا قوته من نسخ الكتب . ولعلنا نجد في ذلك المناخ التفسير لحقيقة كئيبة وهي أن ما وجه من جهد إلى المجالات الأخرى التي لا تدخل في صناعة الكلمة مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، لا يتناسب مع ما تقتضيه طبيعة هذه المجالات . وأن نرى العلوم التجريبية والنظرية تكاد تبتدىء وتنتهي بالأوائل من واضعيها ، وأن يكون كتاب أبي يوسف في الخراج أهم ما وضع في بابه . لقد ابتدأت الكيمياء وانتهت - أو كادت - بجابر بن حيان ، ولم يعرف عمل وازى عطاء الخوارزمي في الجبر ، ولم يتقدم علم البصريات تقدما يذكر بعد ابن الهيثم . إن ما توصل إليه جابر وكشفه في الكيمياء مثل تحضير حامضي الكبريت والأزوت . ووصوله إلى الترسيب بالتبادل الأيوني ، وتنبهه إلى مدرك النسب المحددة أو المضاعفة « الذي سماه الميزان » ، وتأصيل الخوارزمي لعلم الجبر والاستفادة منه بالتطبيق ، وما أثبته ابن الهيثم من تعليل الإبصار وانتقال الضوء واتخاذه مسارا مستقيما يمكن أن يكون كل ذلك حجرا ضخما تنداح عنه دوائر واسعة لو ألقي هذا الحجر في وسط من طبيعته مرونة الحركة والامتداد . إلا أن المناخ السابق عمل عمله ، فضاقت هذه الدوائر بدل أن تتسع ، واضمحل أكثرها بقانون التداخل مع غيرها من الأمواج . وقد صور هذا الواقع أحد الأعلام المشتغلين بهذه الجوانب من المعرفة بقوله : « . . . إن هذا العلم ، أي الفلسفة - والعلوم الطبيعية جزء منها في ذلك الوقت - أندر من الكبريت الأحمر ، ومن ظفر بشيء لم يكلم الناس إلا رمزا فإن الملة قد منعت من الخوض فيه ، ولا تظن أحدا من الأندلس كتب فيه شيئا فيه كفاية ، فقد قطعوا أعمارهم في علوم أخرى ولم يقدروا على أكثر من ذلك . . . » (قصة حي ابن يقظان لابن طفيل) .

لقد أدى ذلك الحقل المغناطيسي الجاذب إلى ما حل بالمعارف الأخرى من ركود ، وصار كثير من الناس يرى الاشتغال بها إهدارا للجهد ، وظن بعضهم في الكيمياء نوعا من الشعوذة أو السحر ، وسلك المؤرخ الذهبي في طبقاته المشتغلين بالكيمياء في سلك المتجمين والسحرة والمشعوذين . وتحدث ابن خلدون في مقدمته عن جابر بن حيان بقوله : « . . . ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وأكثر الكلام فيها (يعني السحر) ، وفي صناعة السيما وهي من توابعها ، لأن إحالة الأجسام من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية . . . . » .

وما كان لابن خلدون أن يقع في هذه الركاكة العقلية لو جاء بعد جابر من وسع دائرة عمله ، واستفاد مما حضر من مواد بالتطبيق . لقد وقع ابن خلدون ، ومن قبله في ذلك ، لأنه لم يقدر لقيمة الكشوف الكبرى التي وصل إليها أولئك المتفوقون أن تعرف ولمنهجهم التجريبي أن يبعث إلا بعد قرون من الزمان حيث كتب فرانسيس بيكون كتابيه New Atlantis والأرجانون الجديد ، وقام لافوزييه بتحليل بعض المركبات ، ووجه دالتون النظر إلى قانون النسب المضاعفة والبناء الذري للمادة . وبعد أن بعثت أعمال ابن الهيثم في الضوء في تحليل نيوتن لمركباته وكشف هنجنز الطبيعة الموجية له . □

الحياء المؤمن

في رأي علماء الشريعة أن الحياء عبارة عن خلق باعث على ترك القبيح . يقول الزمخشري : إنه انكسار وتغير يعتري الانسان من تخوف ما يعاب به أو يذم . ويقول الجرجاني : إنه انقباض النفس من شيء ، وتركه حذرا من اللوم فيه ، وهو نوعان : نفساني وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة بين الناس ، وإيماني هو أن يمتنع المؤمن عن فعل المعاصي خوفا من الله تعالى .

ايزادورا
الفراشة الحزينة الراقصة

بقلم : منير نصيف

كان قلبها يحترق ، وكانت تبكي ، ولكن لم ير أحد الدموع التي كانت تمتليء بها عيناها القرمزيتان الواسعتان ، فقد كانت تبكي وحدها بعيدا عن الناس ، حتى إذا جاءت اللحظة التي تقف فيها على المسرح ، سارعت تجفف آثار الألم الذي يعتصر قلبها ، ووقفت أمام الجمهور تبتسم وترقص مع احزانها . إنها ايزادورا دانكان الفنانة التي دخلت التاريخ . فمن هي هذه المرأة ، وما قصتها ، ولماذا نعود إليها الآن ؟!

في باريس صفقوا لها ، وفي ميونخ تغنوا بفنها الجديد ، وفي موسكو رشحوها لأكبر جائزة في الدولة ، ولكن عندما عادت إلى بلدها في امريكا وقفت تواجه حملة شرسة لم تحتملها ، فأسرعت تلملم حطام قلبها الذي أدمته المأساة التي عاشتها وأرادت أن تهرب منها ، وحزمت أمرها ، وتركت الأرض التي أنجبتها ، وبكت ، ولكن الجميع في هذه المرة رأوا دموعها ، لأنها لم تستطع أن تخفيها . ورحلت ايزادورا عن الأرض التي أنجبتها ، ولم تنظر وراءها .

ومنذ بضعة أشهر مضت ، ولأول مرة منذ رحيل ايزادورا عن هذا العالم قبل أكثر من ستين عاما قرأ العالم حكاية ايزادورا كما رواها التلميذ الذي تعلم في مدرسة ايزادورا ثم أصبح أستاذاً بعد ذلك بسنوات طويلة ، ولكنه لم ينس أن يسجل صورة الفنانة التي تأثر بها في مذكراته الخاصة التي ظلت نائمة في درج مكتبه القديم . ولم يكن هذا الرجل سوى سير فردريك اشتون مدير معهد الباليه الملكي بكوفنت جاردن .

طفولة تعسة !

في مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية ولدت ايزادورا ، في أواخر القرن التاسع عشر ، في عام ١٨٧٨ ، وكانت أصغر اخواتها . كانت ، كما كتبت هي فيما بعد ، تحمل في رأسها الصغير ذاكرة قوية تختزن الصور التي كانت تمر بها في هذه السن المبكرة من حياتها على الأرض وسط أسرة فقيرة تعسة

ماذا كانت ترى ، وأي تجربة تلك التي مرت بها في سنوات حياتها الأولى ؟ صاحب العمارة التي تسكن فيها أسرتها يطرق الباب بعنف طالباً ايجار الشقة

الذي تأخرت والدتها عن دفعه ! ثم تلك الرحلات التي كانت الأسرة الصغيرة تقوم بها في ظلام الليل .

- إلى أين نحن ذاهبون يا أمي ؟

- إلى بيت لا يعرف أحد عنه شيئا .

وتستقر الأسرة في البيت الجديد ، أو الشقة التي انتقلت إليها سراً ، وتمضي بضعة أشهر ، حتى إذا تراكم الايجار ، وعجزت الأم عن دفعه ، حزمت أمرها وتسللت هي وأطفالها إلى شقة أخرى في حي آخر ، وهكذا !

ولكن السؤال الذي كان يحيرها ، والذي لم تستطع أن تجد له جوابا ،هو : أين أبي ، فقد كانوا يشفقون عليها من الصدمة إذا عرفت الحقيقة ، فقد كانت ايزادورا ماتزال طفلة .

النغم الحزين

أين ذهب أبوها ؟ لقد هجر أسرته قبل أن تصل هي إلى الدنيا التي قست عليها ، بنفس القدر الذي أصبحت فيه معها سخية ولكن لفترة قصيرة ، وعادت بعدها لتغرق في آلامها وأحزانها .

ووقفت الأم وحدها ترعى أسرتها الصغيرة ، فهؤلاء الأطفال لابد أن يعيشوا ، ولكن كيف ، راحت تفكر بسرعة ، وتعمل بسرعة أكثر ، إنها تعشق الموسيقا ، فلماذا لاتجمع أطفال الحي وتعلمهم كيف يعزفون نغم الحياة ؟ وكانت الأم هي أول مدرسة تعلمت فيها ايزادورا اللحن الذي رقصت على أنغامه ، بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد كان لحناً جميلا في بداية رحلتها مع الحياة عندما كبرت وأصبحت فتاة رائعة الجمال !

ولكن دروس الموسيقا وحدها لم تكن تكفي نفقات الأسرة ، فاضطرت الأم أن تتجه إلى حياكة الملابس للأطفال ، وكانت ايزادورا الصغيرة واخواتها يحملنها إلى الأصدقاء والجيران ، ويعدن في نهاية اليوم بما جمعن من أثمانها !

ثم كانت المفاجأة عندما دخلت الأم يوما ،

ايزادورا ترقص
مع احزانها . .
فراشة حزينة . .
ولكن بلا دموع !

فوجدت ايزادورا أو « دوريتا » ، كما كانت تناديها ، ترقص وحدها لقد أعجبتها احدى المقطوعات التي كانت تعزفها أمها ، فراحت ترقص ، وكانت ترقص وحدها بلا موسيقا ، وكانت رقصاتها من تصميمها هي على الأنغام التي امتلأت بها أذناها الصغيرتان .

ووقفت الأم بدهشة ترقب ابنتها الصغيرة ، وهي تغني ، وترقص ، ثم تتوقف لترد تحية « الجماهير » الذين امتلأت بهم الغرفة الصغيرة .

- أين هم ، إنني لا أرى أحدا غيرك ؟

- انهم في كل مكان يا أمي ؛ غدا سوف أصبح راقصة كبيرة !

فلما بلغت العاشرة ، فوجئت الأم يوما بصغيرتها « دوريتا » وقد تركت مدرستها وجمعت حولها الأطفال الصغار الذين كانت امها تعلمهم الموسيقا لتعلمهم هي فن رقص الباليه !

أشواك الحياة

وبدأت الطفلة تكبر ، وأصبحت فتاة جميلة ، وشاهدها أحد المنتجين السينمائيين وهي ترقص بمدينة شيكاغو الأمريكية ، فقدم لها عرضاً للعمل معه ، ووافقت على العرض .

سافرت لإتمام لقائها الأول بالمنتج ، ولكنها أدركت على الفور أنها ابتعدت عن الطريق الذي بدأت تسير فيه ، فتركت التمثيل ، وعادت إلى حلمها الصغير الذي كبر معها ، وراحت تمشي في الطريق الطويل الذي امتلأ بالأشواك . كان وخز الشوك قاسيا ، وكانت تتألم ، ولكنها صمدت . وكان الجمهور وحده هو الذي يبكي وهو يراها تتألم .

مع رودان

لقد فشلت ايزادورا في السينما ، ولكنها نجحت على المسرح . وفي باريس بعد أن تركت أحزانها وراءها ، وحملت حقيبة ملابسها الصغيرة ، ورحلت عن البلد الذي ذاقت فيه مرارة الحرمان ، جلس الفنان الكبير رودان يرسم أول لوحة لها ، بعد أن شاهدها ترقص . وكتب يقول : « لقد أخذت ايزادورا عن الطبيعة قوة ، ولكنها ليست موهبة تلك التي أضفاها عليها كل ما هو جميل ورائع من حولها ، بل إنها العبقرية التي تتمتع بها ، والتي انطلقت من داخلها ، فجعلت منها أجمل وأعظم راقصة بالية » .

ولكن حياتها الخاصة المضطربة ما لبثت أن أضفت غيوما وسحبا سوداء على النجاح الذي حققته الراقصة الجميلة ، فقد وجدت ايزادورا نفسها عاجزة تماما عن الجمع بين عواطفها وعملها الفني . ولكنها كانت تعلم أيضا أنها لا تستطيع أن تعيش دون حب ، ولا أن تستمر في ممارسة هذا الفن الذي تعلمته إلا إذا أحست بأن قلبها قد خفق بالحب .

وفي بودابست في عام ١٩٠٢ أحبها ممثل مجري ، وخفق قلبها بحب هذا الطارق الجديد ، ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أنها لا تستطيع أن تهجر الرقص ، كما أراد هو ، لتتفرغ للزواج وحده ! وقررت ايزادور أن تهرب من حبها ، ومن بودابست المدينة التي أحبتها وخفق فيها قلبها لأول مرة . ولكن إلى أين تذهب ؟ وتوقفت قليلا وهي تجمع حطام القلب الذي جرحه هذا الطارق الغريب ، ثم ما لبثت أن حملت بقايا ملابسها الجميلة التي صنعتها بيديها وانطلقت إلى بلغاريا . ولم تكن تدري حتى هذه اللحظة أنها على موعد مع حب جديد ، ففي العاصمة صوفيا التقت بالأمير فرديناند . وقال وهو يمد إليها يده مصافحا بعد أن جلس في مقصورته يرقبها وهي ترقص : ليس عندي أجمل وأثمن من الفيلا التي أمتلكها على شواطىء ايطاليا ، إنها ملكك منذ هذه اللحظة ! وقبلت ايزادورا الهدية ، وأثارت علاقة الأمير براقصة الباليه فضيحة في البلاط الملكي !

وسافرت إلى ايطاليا ، وعاشت في الفيلا الأنيقة التي تشرف على البحر بضعة أسابيع ، ولكنها ما لبثت أن ملت الحياة هناك .

الطفل الأول

وتركت ايطاليا ورحلت إلى برلين في المانيا ، وراحت ترقص وترقص ، ولكنها في هذه المرة لم تصبح حديث الناس فحسب ، بل أصبحت أماً لأول

ايزادورا .. أو المرأة التي تنتمي إلى العالم كله !

طفل أنجبته من الرجل الذي مد إليها يده طالبا الزواج منها . وكتبت بعد ذلك بسنوات تصف مشاعرها تجاه هذا الرجل الذي أصبح أبا لطفلها « ديردر » ، قالت : لقد رأيته من قبل ، رأيته كثيرا في أحلامي ، رأيته وأنا أرقص على المسرح . لقد كان يختلف عن كل الذين التقيت بهم وعرفتهم ، فقد كان شابا بسيطا لا يملك سوى مرتبه الصغير . لقد أحسست وأنا أتحدث إليه أنه ينتمي إلى نفس المدرسة التي تخرجت فيها ، وهو أيضا لم يكمل تعليمه ، فقد كانت هوايته الوحيدة هي صناعة « الديكور » على المسرح الذي أحبه ، دون أن يفكر مرة واحدة في أن يقف عليه ليقول شيئا . لقد كان عمله كله يجري قبل أن ترفع الستارة !

وكان الشاب المحظوظ هو جوردون كريج ، والد « ديردر » الذي وضعته في عام ١٩٠٦ . وفي مدينة ميونيخ وصلت ايزادورا إلى القمة .

وجمعت ثروة ، وتوقع الجميع أن يروها في محلات المجوهرات الثمينة والملابس الفاخرة والفراء النادرة التي امتلأت بها اسواق ميونيخ . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وقد فوجئوا بها وهي تبني مدرسة في ألمانيا ، ثم وهي تتبنى عشرين طفلا من أبناء الفقراء الذين أدخلتهم مدرستها وراحت تعلمهم الفن الذي أعطته كل حياتها . وكانت تقول : « إنني أريد لهؤلاء الأطفال عندما يكبروا أن يصبحوا أساتذة في إدراك معنى الحياة ، وأن يتعلموا كيف ينشرون الحب والجمال فوق هذه الأرض الحزينة !

كلهن ايزادورا

وعاشت ايزادورا سنين من أجل تحقيق الهدف الذي شيدت له هذه المدرسة ، حتى وهي بعيدة عنها ، ولقد كانت مدرستها والأطفال الصغار الذين تحتضنهم ، هم كل شيء في حياتها ، فكانت تجمع المال وترسله إلى المدرسة ، وعندما كبر الأطفال وبلغت الفتيات منهم مبلغ النساء أصبحت كل واحدة منهن ايزادورا أخرى ، وأصبحت الفرقة التي تكونت منهن تحمل اسم « عشاق ايزا » ، وفي بريطانيا بل في أوربا كلها من اقصاها إلى أقصاها ، وفي الاتحاد السوفيتي بعد ثورة أكتوبر وقف الألوف يصفقون لعشاق ايزا ، أو عشاق الباليه .

وجاءت ايزادورا إلى موسكو ، جاءت كما تجيء العاصفة التي تجتاح كل شيء أمامها ، وكان صيتها قد سبقها إليها منذ سنوات . أما هي فقد كانت تعلم أن روسيا هي مهد الباليه « الكلاسيكي » . وعلى أكبر مسارح موسكو ، وفي ملابسها البسيطة الجميلة راحت تعرض رقصاتها بصحبة موسيقا شوبان وبتهوفن وجلاك . وجاءت راقصات روسيا الشهيرات ، وفي مقدمتهن « انا بافلونا » ، التي قالت بعد أن رأتها ترقص : « إنها أول راقصة باليه ترقص الموسيقا ، ولا ترقص على أنغام الموسيقا ! » ، وعندما طلبوا منها أن تشرح لهم ما ذهبت إليه في هذا الوصف الجديد قالت : « لقد نجحت ايزادورا في أن تجعل النغم يرقص مع خطواتها وحركاتها على المسرح ! » .

ويقسو القدر

وتركت موسكو وعادت إلى ألمانيا مرة أخرى ، ولكنها في هذه المرة لم تعد تمضي ساعات نهارها وحدها ، كما كانت تفعل بعد أن ألحقت ابنها الصغير

بالمدرسة ، فقد التقت بالرجل الذي أصبح الزوج الثاني في حياتها ، التي كانت ترفض أن يشاركها فيها أحد بعد أن أصبحت أما لعشرين فتاة وشابا ، أعطتهم كل ما تعلمته من تجارب الحياة الحلوة التي عاشتها بعيدا عن الجانب المظلم منها . وأنجبت ايزا من زوجها الثاني طفلا سمته « باتريك » . ولأول مرة أحست ايزدورا بالسعادة التي كانت تحلم بها ،

وهو إحساس بدأت تعيش معه منذ اللحظة التي غادرت فيها المستشفى الذي وضعت فيه طفلها الثاني ، وهي تصعد درجات سلم القصر الذي أعده لها زوجها الثري « باريس سنجر » ، وارث مصانع

« ماكينات » الحياكة . ولم تكن أبهة القصر هي سر سعادتها ، ولكنه ذلك الشعور الذي احتواها وهي ترى مظاهر الثراء من حولها ، لأنها لن تصبح في حاجة بعد اليوم لجمع المال من الناس للانفاق على

مدرستها ، وعلى أطفالها الصغار والكبار . وعاشت ايزادورا في هذه السعادة ثلاث سنوات ، ثم جاء اليوم الذي غرقت فيه في بحر من الأحزان . كان يوما

جميلا من أيام الربيع عندما صمم زوجها سنجر على أن يصطحبها هي وطفليها الصغيرين وأطفالها الكبار إلى الريفيرا الفرنسية لقضاء عطلة وسط زهور

الربيع ، ووقف الزوج يقول وهو يحاول إقناعها بقبول دعوته : « أريد أن أراك ترقصين وسط زهور باريس ، أريد أن أستمتع معك بنغم الحياة » وذهبوا جميعا معه ، وبعد يوم من وصولها إلى باريس طلبت من المربية الالمانية التي كانت تعنى بأطفالها أن تأخذ « ديردر » و « باتريك » إلى فرساي ! ، فذهبوا في سيارتها الخاصة التي أهداها إليها زوجها ، ولكن السيارة تعطلت في الطريق عند منحنى صغير بالقرب

من نهر السين ، ونزل السائق وفتح غطاء المحرك ليحاول إصلاح العطب ، وفجأة بدأت السيارة تتحرك ، فلقد نسي السائق أن يشد كابح السيارة اليدوي ، ومضت السيارة في طريقها مسرعة على الطريق المنحدر ، ثم سقطت في مياه النهر وبداخلها المربية والطفلان الصغيران ، فضاعت كل الآمال

والأحلام للأم التي أسعدت الملايين وقضت كل عمرها تبحث عن السعادة حتى وجدتها ثم ابتلعتها مياه السين !

جنازة أحلامها

وفي مساء ذلك اليوم الحزين عندما حملوا إليها طفليها وقف المئات من طلبة الفن وطالباته يحملون باقات الزهور البيضاء ، وعندما سارت ايزادورا في جنازة حلمها القصير وقفت تتلفت حولها وتقول ،

وقد زاغت عيناها بين الألوف ، الذين جاءوا يشاركونها مأساة قلبها الذي عصره الحزن والألم : « اريد أن أبدو أكثر شجاعة ، لا بأس من الحزن في داخلي ، فلن يراه أحد ما دمت قادرة على أن أحبس دموعي . إنني أحاول أن أجعل من الموت أيضا شيئا جميلا . أريد أن أساعد كل أم فقدت طفلها في هذا العالم الحزين ! » .

واحترقت ايزادورا

ولكنها كانت في داخلها قد انتهت ، فلقد احترقت ايزادورا حزنا على رحيل طفليها ، وبدأت رحلة أخرى ، ولكنها هذه المرة كانت بلا هدف . لم تترك

مدينة واحدة في الشرق أو الغرب لم تزرها ، ولكنها لم تعد ترقص ، فلقد ماتت « الفراشة » التي امتلأت صفحات الكتب بفنها . ثم قامت الحرب العالمية

الأولى ، وفجأة وجدت ايزادورا نفسها تقف عند كل شارع ، في كل مكان ، وسط كل حطام ، تتبعث منه موسيقا المارسيليز ـ نشيد الثورة الفرنسية ـ والنشيد الوطني الفرنسي . وفي ابريل من عام ١٩١٩ ، وعلى مسرح « المتروكاديرو » في باريس ولأول مرة بعد

المأساة التي كانت تعيش معها كل لحظات حياتها وجدت « ايزادورا » نفسها ترقص وترقص ، وكانت ترتدي فستانا أحمر من لون الدماء ، ولقد كانت حركاتها على المسرح ترجمة حية لما تحمله في داخلها من مشاعر وأحاسيس حزينة ، ولكنها مع هذا لم تبك . لقدوقفت بعد أن انتهى دورها على المسرح ترقب المتفرجين وهم يجففون دموعهم .

الشاعر المجنون

ومرت بضع سنوات ، وتزوجت ايزادورا للمرة الثالثة . وكان الرجل الذي اقتحم عالمها الحزين في هذه المرة هو الشاعر الروسي « سيرجي إيسنين » ، وكان يصغرها بأكثر من خمسة عشر عاما . كان سيرجي نجما في الاتحاد السوفيتي ، يكفي أن تقع عليه الأنظار في أي مكان لتلتف حوله جماهير المعجبين بشعره . ولكنه ما كاد يتزوج ايزادورا ويظهر معها في الأماكن العامة حتى أحس بأنها قد سرقت منه كل الأضواء . وبدأ يحقد عليها ، فلم يكن يتصور أن رقص الباليه يمكن أن يدفع وراءه تلك القصائد الرائعة التي كان يتغنى بها الشعب الروسي قبل أن يلتقي بايزادورا . أما هي فقد قالت يوما عندما حارت في تفسير أسباب غيرته وحقده : « كنت أظن أنني تزوجت رجلا اشتراكيا ، ثم اكتشفت أنه ما زال يعيش رأسمالية القياصرة ! ».

الوداع يا حبيبتي

كان الشاعر سيرجي قد بدأ يضع بيده التفاصيل الأخيرة للخطة التي رسمها للتخلص من حياته . وفي فندق « انجلتير » بمدينة لينتغراد ، وفي نفس الغرفة التي أمضى فيها شهر العسل مع المرأة التي أحبها ، مع ايزادورا ، شنق سيرجي نفسه ، ولم ينس أن يقطع شرايين معصمه ، قبل أن ينفذ حكم الإعدام في الشاعر العاشق المجنون سيرجي ايسنين . وعندما اقتحموا غرفته قرأوا آخر قصيدة كتبها ، وكانت أقصر وأروع قصيدة كتبها في حياته . قال في مطلعها : « الوداع يا صديقتي الحبية ، الوداع ، أنت ما زلت في قلبي ، وستعيشين فيه بعد أن يتوقف . إلى اللقاء يا حبيبتي » ، وكانت القصيدة مكتوبة بالدم الذي نزف من شرايينه . أما الصديقة التي كان يعنيها فلم تكن سوى ايزادورا التي سولت له نفسه يوما أن يقتلها !

لقد كان يحبها إلى درجة العبادة ، وقد ترك لها الثروة التي جمعها من قصائده التي امتلأت بها خمسة مجلدات ، وكانت ثروة تزيد على ثلاثمائة ألف روبل . وكانت هي في حاجة إلى كل روبل منها ، فقد أصبحت فقيرة . وكانت كل ثروتها هي تلك الثياب التي كانت تكتنف جسمها وهي ترقص على المسرح ، ومع هذا فقد رفضت أن تأخذ روبلا واحدا من الثروة التي أعلنت المحاكم السوفيتية أنها من حقها . وراحت تبيع ثيابها وتعيش من ثمنها . ثم اكتشفت أن أم سيرجي وشقيقته يعشن في بلد لا تبعد كثيرا عن لينتغراد ، التي شهدت مولد حبها للشاعر الكبير ونهايته ، وعلمت أنهن يعشن في فقر مدقع ، ولا يملكن من حطام الدنيا شيئا أكثر من ذكريات الأيام الحلوة التي كن يعشن فيها مع سيرجي ومع قصائده التي تغنى بها الناس . فتنازلت عن الثروة التي تركها زوجها لأمه وشقيقته . وكتبت لهن تقول : « لقد علمتني حياة سيرجي ما الحياة ! أنا قانعة بما أخذته منه قبل رحيله ، أما هذا المال فأنتن أحق به مني ، يكفيني أن أعيش مع الكلمات التي خطها بدمه قبل أن يذهب . فقد اكتشفت معها أنني فقدت الرجل الوحيد الذي أحبني » ، وحزمت ما تبقى لها من أشياء صغيرة تحمل بعض الذكريات ، وتركت لينتغراد إلى مدينة نيس في فرنسا . وقد ماتت هناك في صيف عام ١٩٢٧ ، في نفس المكان الذي نبت فيه مجدها . □

البيع والصبر : باع رجل ضيعة ، فقال للمشتري : أما والله لقد أخذتها ثقيلة المؤونة ، قليلة المضغة ، فقال : وأنت والله أخذتها بطيئة الاجتماع سريعة التفرق ، واشترى رجل من رجل دارا . فقال : له المشتري : « لو صبرت لاشتريت منك الذراع بعشرة ، فقال وأنت لو صبرت بعتك الذراع بدرهم » .

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

لا تكثر من أكل القرنبيط ؟

يبدو أن زهرة القرنبيط توشك أن تصبح معيناً للتغذية لا ينضب ، فقد كانت موضع أبحاث وتجارب مكثفة في كل من جامعة كورنل ومحطة التجارب الزراعية في جنيف في ولاية نيويورك ، واستهدف بعض تلك التجارب مضاعفة ما تحتويه الزهرة من مادة الكاروتين ، وذلك بواسطة أساليب التلقيح الزراعي . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت زهرة غنية جداً بالكاروتين ، أغنى من الزهرة التقليدية بهذه المادة المغذية بنحو مائة مرة . وغني عن البيان أن الكاروتين لا يلبث أن يتحول إلى فيتامين « أ » لدى دخوله الجسم .

ومن طريف ما يذكر أن الزهرة الجديدة ذات لون برتقالي ، وهي قليلة السعرات الحرارية ، وغنية جدا بالألياف التي ينصح بها الأطباء للجهاز الهضمي . أضف إلى ذلك كله احتفاظ الزهرة الجديدة بما عرف عنها من غنى بالفتامين ج « vit . c » والبوتاسيوم والحديد ، هذا إلى جانب كونها عضواً في أسرة الملفوف « الكرنب » وبالتالي عامل كبح طبيعي للسرطان .

■■■

الهندسة الوراثية والأمراض العصبية المستعصية

اكتشف فريق من علماء البيولوجيا ـ زوج وزوجة ـ العاملين في جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو الجينة التي تحكم مجال فاعلية البوتاسيوم في جسم الإنسان ، وهي الفاعلية التي تسهم في حدة إشارات الأعصاب واستمرارها في جسم الإنسان وأمثاله من المخلوقات .

والطريف أن العالمين كانا يبحثان عن جينة أخرى ، تسبب الرجفة للذباب الرجاف ، لكنهما عثرا على جنية البوتاسيوم بمحض الصدفة . ومضى العالمان يبحثان عن هذه الجينة المهمة في مخلوقات أخرى غير الذباب ، وأعلى منه في سلم الكائنات . وقد وجداها في الفئران ،الأمر الذي يجعل وجودها في جسم الانسان مرجحاً . ولا يخفى ما يترتب على اكتشاف هذه الجينة في أجسامنا ، فهو باب يُفضي إلى التحكم في عدد من الآفات العصبية التي يعاني منها البشر ، ولربما الشفاء منها أيضاً وذلك عن طريق التنسيق أو « التوضيب » الجيني **Genetic regulation** وقد تشمل تلك الآفات فيما تشمل الصرع والشلل وما إلى ذلك

واسطة جديدة لمنع الحمل

أقرت وكالة الغذاء والدواء في واشنطن واسطة جديدة من وسائل منع الحمل ، وكان ذلك في أواخر شهر مايو الماضي (١٩٨٨) .

أما الواسطة الجديدة فهي مبدأ عمل القبعة العنقية « **Cervical Cap** » كما يسمونها ، وعملها لا يتعدى العرقلة أو منع المنويات من الوصول إلى الرحم ، فهي من المطاط أو البلاستيك ، وتبلغ ١,٥ بوصة ، وهي معدة لكي تشفط فتلبس عنق الرحم بإحكام . فالقبعة العنقية إذن تشبه إلى حد كبير الغشاء أو الحجاب الحاجز ، فهو غشاء من مطاط رقيق ، بعرض ٣ بوصات ، ذو حافة مرنة ، يوضع بين عظمة العانة « **pubic** » وجدار الفرج ، إلا أنه يكتسب الإحكام بفعل الشد لا المص ، ويتخذ شكل القبعة بعد تركيبه ، وتستوي الواسطتان أيضا في الاعتماد على مادة كيماوية مضادة للمنويات « **Spermicide** » وفي الحاجة إلى طبيب أو قابلة لوضع القبعة أو الحجاب في المكان المناسب .

ويؤكد الكثيرون أن القبعة العنقية تتميز عن وسائل منع الحمل القديمة وكذلك عن الغشاء الحاجب .

■ ■ ■

عقار الاكيوتين بين التشجيع والتحذير

سبق أن تحدثنا في هذا الباب عن عقار الاكيوتين **Acutane** وعن فاعليته العجيبة في معالجة حب الشباب المزمن . كان ذلك قبل نحو خمس سنوات ، وعقب إقرار العقار وترخيص إنتاجه وبيعه من قبل السلطات المعنية العليا في أمريكا ، أي وكالة الغذاء والدواء **F . D . A** . والعقار من صنع شركة لاروش السويسرية العالمية .

وقد فوجئنا في مطلع شهر مايو ١٩٨٨ بأخبار تطعن في سلامة العقار ، وتنسب إليه آثاراً جانبية خطيرة ، فقد أكد تقرير سري لا يرقى الشك إلى نزاهته أن الاكيوتين يؤدي إلى الإصابة بعاهات وراثية مستعصية ، وأن مثل هذه العاهات - كتلف المخ مثلا - قد تصيب الأجنة إذا تناولت العقار الأمهات أثناء حملهن بتلك الأجنة ، ويؤكد التقرير الذى أعده الباحثون المتخصصون في وكالة الغذاء والدواء السالفة الذكر أن عدد المواليد الذين أصيبوا بمثل تلك العاهات نتيجة لتناول الأمهات للاكيوتين أثناء فترة الحمل قد بلغ حوالي ٩٠٠ - ١٣٠٠ مولود .

وجاء تعليق شركة لاروش على ذلك التقرير مؤكداً ما أورده التقرير إلى حد كبير ، فقد أقرت من حيث المبدأ لم تخالفه إلا في الأرقام ، فالمواليد الذين أصيبوا بعاهات وراثية بسبب الاكيوتين لايزيد عددهم على الستين ، وذلك وفق الاحصاءات التي أجرتها الشركة بطرقها الخاصة .

والجدير بالذكر أن الاكيوتين واسع الانتشار ، وقد جاوز عدد الذين يستعملونه نصف مليون نسمة ، أكثرهم من النساء . □

أشجار عملاقة يستنبتونها في الأنابيب

أخيرا وصلت الهندسة البيولوجية ـ الجراحة الجينية ـ إلى الأحراج والأشجار العملاقة ، وأصبحت هذه الأشجار تستنبت داخل أنابيب الاختبار .

على أن هذا الاستنبات ليس كل ما في الأسلوب الجديد الذي طوره البروفسور دون دورزان من جامعة كاليفورنيا ، ولا هو أهم ما في ذلك الأسلوب الجديد ، فقد نجح العالم المذكور في أواسط الصيف الماضي في تطبيق قاعدة الإخصاب التلقائي ـ أو التفصيص ـ (Cloning) على الأشجار العملاقة القاسية ، ونجح أيضا في إجراء عمليات الجراحة الجينية على تلك الأشجار ، وذلك من أجل تهجينها ، وتخليق خصائص جديدة ، إن لم نقل صنوفا من الشجر جديدة ، ثم عمد إلى استنبات هذه الصنوف والفصائل داخل القوارير ، وذلك بقصد إنتاجها على أوسع نطاق ممكن ، وفي أقصر مدة ممكنة .

وهكذا أصبح في الإمكان شراء شتلات شجر مقاوم للأمراض والحشرات ، أو شجر تزيد في بنيته نسبة السليولوز ، وفق ما تتطلبه صناعة الورق ، أو شجر تقل فيه تلك النسبة لصالح الثمار ، وذلك من أجل مضاعفة محصول الفواكه ، أو شجر لا تمتد سيقانه وترتفع بحيث يضطر المزارع إلى تسلق السلالم لقطف ثماره .

وتجدر الإشارة إلى أن التفصيص هو الأسلوب العلمي الجديد الذي حل محل أسلوب زراعة البذور في التربة ، أو الزراعة بمعناها التقليدي ، وهو الأسلوب المفضل ، ذلك أن زراعة البذور غير مضمونة النتائج ، فما أكثر ما زرع الفلاح ثم فشل في جني ما زرع لسبب أو لآخر ، كذلك قد تتغير خصائص النبات الذي تزرع بذوره في التربة من حيث لا يدري المزارع ، هذا إلى جانب التفاوت في المحصول ، فقد تكون كميته كبيرة هذه السنة ، ثم تتقلص في السنة القادمة لأسباب قد لا يستطيع المزارع التحكم فيها . وهذه المآخذ جميعها تؤخذ على أسلوب زراعة البذور في التربة وليست على التفصيص ، الأسلوب العلمي الجديد .

على أن أسلوب التفصيص هذا ليس جديدا بالقدر الذي يبدو لأول وهلة ، فهو أقدم من تجارب البرفسور دورزان ومنجزاته ، ويعود بنا إلى سنوات عديدة خلت ، وإلى بلاد أخرى غير الولايات المتحدة الامريكية ، إلى البلدان الاسكندنافية ونيوزيلندة وكندا ، حيث ظهر التفصيص ، وظهر رواده قبل عدة سنوات ، ويشهد على ذلك المشاتل الضخمة المتخصصة في بيع شتلات شجر الزينة ، أو مشاتل شجر السليولوز ، أو غير ذلك ، وهي مشاتل معروفة ظهرت في تلك البلدان قبل ظهورها في الولايات المتحدة ، واكتسبت شهرة واسعة قبل نجاح البروفسور دورزان فيما نجح فيه .

نخلص من هذا إلى القول بأن تهجين الأشجار وتخليق صفات وخصائص

نموذج من المناطق الحارة

جديدة فيها ، وفق أساليب الهندسة البيولوجية ، أو الجراحة الجينية ، هو أهم ما تميزت به منجزات البروفسور دوورزان . وغني عن البيان أن التهجين ليس جديدا في عالم النبات ، فقد عرفه المزارعون في شتى البلدان منذ قرون ، لكنهم طبقوه بالأسلوب التقليدي ، أسلوب التطعيم ، وهو أسلوب يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الهندسة البيولوجية في التهجين ، فحسبك أن الأسلوب القديم قد لا يعطي نتائجه قبل مضي ٢٠ سنة أو أكثر ، وهو يفتقر إلى الإحاطة والدقة والتحكم التي يتميز بها الأسلوب الجديد .

■■■

وعي بيئي شعبي ورسمي

● ظواهر غريبة لاحظها أهل المنطقة ، فهذه ضفدعة مشوهة ، لها ٩ أرجل ، وهذه طفلة ولدت بلا عيون ، والمصابون بمرض اللوكيميا ـ سرطان الدم ـ ازداد عددهم بنسبة تلفت النظر . تلك هي بعض الملاحظات التي روعت سكان المنطقة المحيطة بمصنع سيكويا ، وهو مصنع وقود يقوم بتحويل اليورانيوم المكثف إلى أجزاء تستعمل وقودا لمحطات توليد الطاقة النووية ، وقد تدخل في صناعة القنابل النووية أيضا .

على أن هذا المصنع كان موضع شبهة منذ سنة ١٩٨٦ حين مات أحد عماله بسبب تسرب الغاز السام (Uranium hexaflouride) . وحسبك أن الشركة التي تملكه Kerr — mc Gee في أوكلاهوما تملك مصنعا آخر يشبهه ، وقد تسمم ٧٣ عاملا من عمال ذلك المصنع سنة ١٩٧٤ .

لا عجب إذن أن اتهم أهل المنطقة مصنع سيكويا ، واعتبروه المسؤول عن الظواهر الغريبة التي لاحظوها في أواخر السنة الماضية (١٩٨٧) ، فقد درج المصنع طوال السنوات العشر الأخيرة على تحويل الماء المشع Radio active Wastewater (أو Raffinate) إلى سماد ، ورشه على حقول تملكها شركة (كرماجي) . ولو ذكرنا أن محصول تلك الحقول من التبن قد بيع إلى مزارعي المنطقة على نطاق واسع ، وقدم علفا لكثير من دوابهم لوضعنا أصبعنا على صلة الوصل بين السبب ـ وهو السماد المشع الملوث ـ وبين النتائج التي تمثلت في الظواهر الغريبة التي روعت سكان المنطقة .

ويؤكد الكثيرون أن السماد الذي رشت به حقول الشركة تسرب بطريقة أو بأخرى إلى المياه الجوفية ، ومياه نهر اركانساس القريب من الحدود القائمة بين هذه الولاية وولاية أوكلاهوما .

وتدافع الشركة عن نفسها ، فقد حصلت ١٩٨٠ على موافقة معهد السرطان (NCR) على صنع السماد من ماء الرافينات المشع ، وحصلت كذلك على موافقة وكالة البيئة الأمريكية (EPA) ، ووزارة الزراعة . وأبدت الشركة استعدادها على كل حال لإجراء التغييرات التي تستوجبها حماية البيئة .

وما أسرع ما وجه الاتهام إلى هذه الهيئات الحكومية المعنية ، فلولا اللامبالاة التي غلبت عليها حيال قضية سماد سيكويا لما مضى المصنع في إنتاج هذا السماد ، ولما تعرضت البيئة لما هي في غنى عنه من تسمم وتلوث ذري .

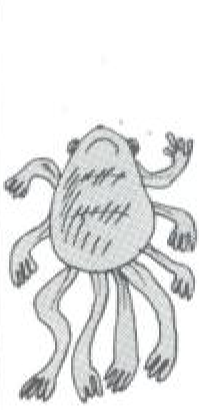

زنجبار

أندلس أفريقيا!

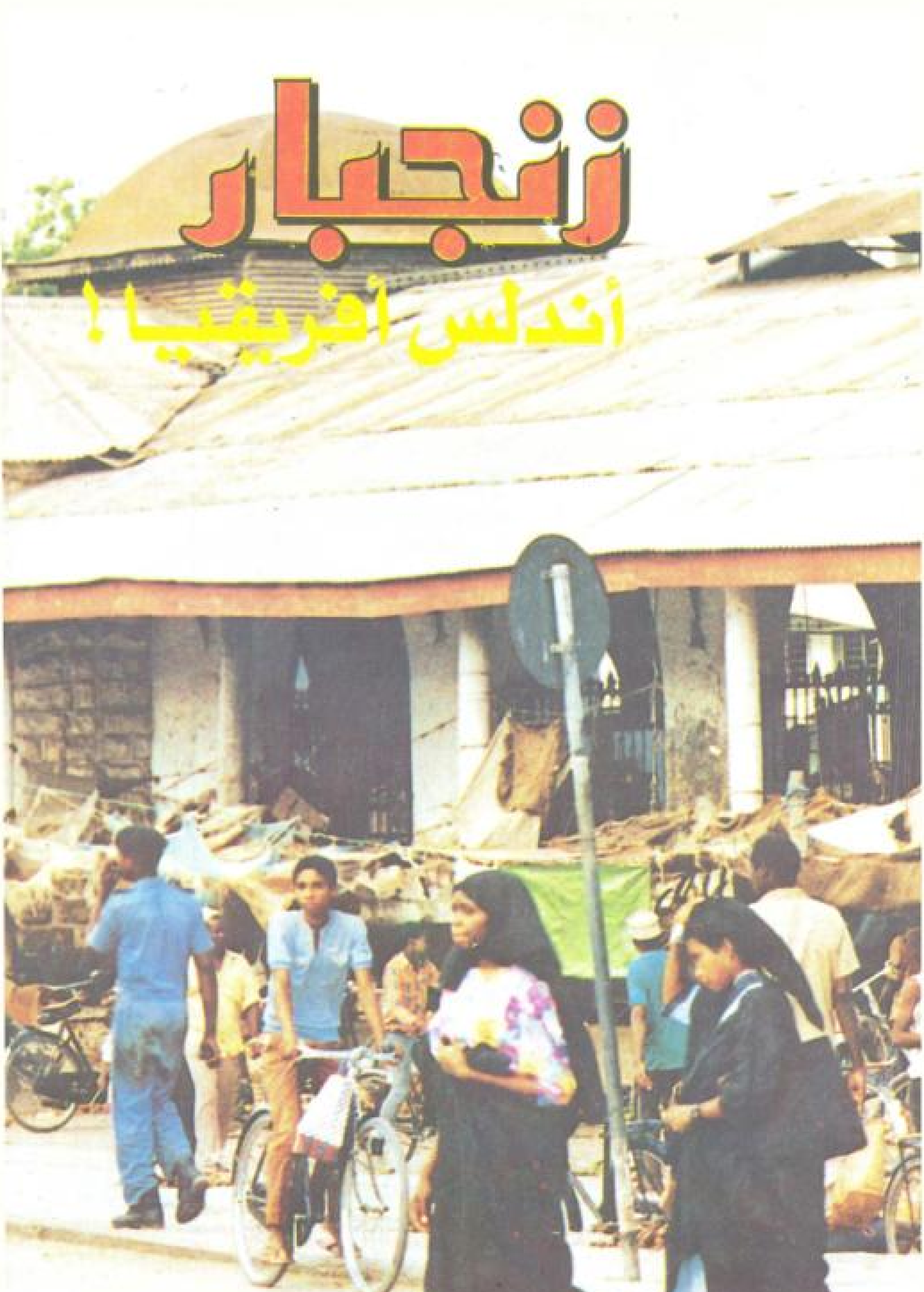

استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : طالب الحسيني

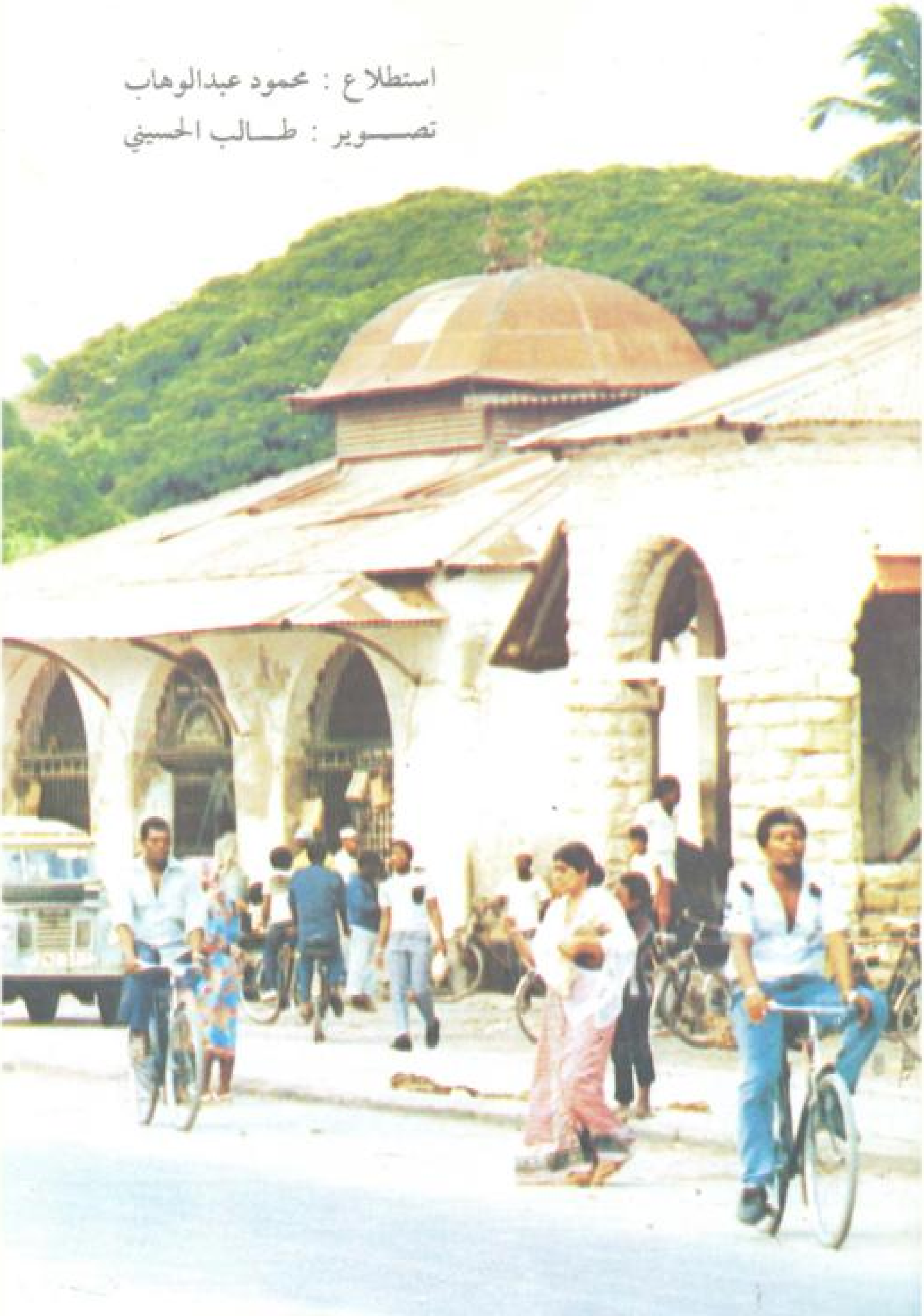

« كان الزقاق شديد الضيق ، وفجأة انعطف إلى ميدان واسع ، يتفرع منه عدد من الأزقة . في قلب الميدان جلس رجل وضع حوله مجموعة مقاعد خشبية ، وموقداً لصنع القهوة العربية ، وحوله جلس الرجال . ألقينا السلام بالعربية ، فهب رجل عجوز واقفا واحتضنني بشدة ، وظل يربت على كتفي ، وأجلسني بجواره ، وطلب لي القهوة ، وأخذ يسألني : هل أنت من عمان ؟ قلت : لست من هناك ياشيخي . سألني : هل زرتها ؟ قلت له : نعم وعندما حاولت أن أسأله عن اسمه وصناعته وأحواله ظل يقاطعني بإلحاح صبي ، ويطلب مني شيئا واحدا ، أن أصف له عمان ، بشوارعها ، ومبانيها ، ونخيلها . وأغمض عينيه وهو يستمع إلي ، وعلى خديه سالت دمعتان ، وتمتم : ربي لا تمتني قبل أن أرى وطني . وفاضت مشاعره .

حتى قبل أن تهبط الطائرة في مطار زنجبار كان قلبي يخفق بشدة ، فلم تكن مشاعري محايدة أبدا تجاه هذه الجزيرة الرائعة الجمال الفقيرة .

زنجبار مملكة العرب القديمة ومفتاح الشاطىء الشرقي لأفريقيا ، زنجبار حيث اللسان عربي ، والتاريخ عربي ، والتراث الحضاري عربي ، والحكم عربي حتى قبل ٢٤ عاما فقط قد مضت .

عشرون دقيقة قطعتها الطائرة من دار السلام عاصمة تنزانيا لتصل بنا إلى زنجبار ، وعلى الرغم من أننا قد حصلنا على تأشيرة دخول لدولة تنزانيا في مطار دار السلام الدولي ، واجتزنا إجراءات الحجر الصحي ، إلا أننا فوجئنا عند وصولنا زنجبار بأننا نعيد إجراءات الدخول والحجر الصحي مرة ثانية ، وكأننا ننتقل من بلد إلى بلد ، ولسنا داخل دولة واحدة .

فور خروجنا من المطار واجهتنا لوحة مكتوب عليها (مرحبا بكم في زنجبار) بالعربية والانجليزية والسواحلية . وبين التاريخ القديم وإجراءات الدخول التي تكررت والأسطر العربية تتلخص الرحلة وتاريخ الجزيرة التي كانت موطنا عربيا ثم ضاعت .

بـر الزنج

تقع جزيرة زنجبار سياسيا ضمن إطار دولة تنزانيا ، أما جغرافيا فهي تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وتبلغ مساحتها حوالي ١٦٠٠ كم مربع ، وعدد سكانها حوالي ٣٠٠ ألف نسمة .

وزنجبار في اللغة كلمة عربية محرفة عن كلمة « بر الزنج » وتجمع الكتابات التاريخية والآثار أن العرب ـ وتحديدا العمانيين ـ قد بسطوا سيطرتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا منذ القرن الأول الميلادي ، فقد امتد نشاط العرب التجاري إلى ساحل افريقيا الشرقي حتى الهند ، وأقاموا المدن الزاهرة ، وكانت الموانىء المنتشرة على طول الساحل محطات ومرافىء للسفن العربية التي تخترق المحيط في طريقها إلى الهند .

ويدلل المؤرخون على ذلك بأن عمان عندما

استعصت على بني أمية ، فوض عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي في بسط نفوذ بني أمية على عمان ، وبعد جولات طويلة أرسل الحجاج جيشا عرمرما فآثر سلطانا عمان سليمان وسعيد ابنا عبدالجلندى أن ينقذا أهلهما وجيشهما، فأخذا أهلهما ومن تبعهما من قومهما إلى أرض الزنج (زنجبار) .

ويقول المؤرخ الدكتور عبدالمنعم عامر إنه : « يستحيل منطقا أن يخرج سلطانا عمان من بلدهما إلى بلد لا يعرفان به ، ولكن المنطقي أنهما ينتقلان إلى أرض بها وجود عماني كثيف يأمنان فيها على حياتهما ودينهما ، وإذا كانت هذه الواقعة في القرن السابع الميلادي فمعنى ذلك أن هناك تاريخا يمتد إلى زمن لايقل عن ثلاثمائة ، وقد يبلغ خمسمائة عام إذا استندنا إلى الآثار الموجودة » . وقد خضعت زنجبار تاريخياًلسلطنة حكام عمان ، سواء عندما حكمها اليعاربة أو آل بوسعيد . وكان سلطان عمان يمتد إلى ممباسا وماليندي ومقديشيو وأسمرة ومدن كثيرة حتى وسط افريقيا . وقد ظلت سيطرة العمانيين على زنجبار وساحل شرق أفريقياقرابة ألف عام ، وكانت ممالك شرق افريقيا كثيرة الثراء والازدهار . ويقدر « وندل فيليب » استنادا إلى وثائق أوربية أن إنتاج الذهب الذي كان يقدمه ساحل شرق افريقيا قارب نصف مليون جنيه استرليني سنويا في وقت ما من زمن الوجود العماني ، بالاضافة إلى عائدات بيع المحصولات الرئيسية كجوز الطيب وجوز الهند والقرنفل والقصب ، وبجانب هذين المصدرين المهمين كانت هناك تجارة الرقيق .

ولم تنقطع السيطرة العمانية على زنجبار وشرق أفريقيا إلا فترات قصيرة عانت فيها مناطق النفوذ العماني من رحلات الاستكشاف البرتغالية ثم من الاستعمار البرتغالي ، إلى أن طرد الامام سلطان بن سيف البرتغاليين من عمان ثم بعد ذلك من ساحل شرق افريقيا .

لؤلؤة المملكة

كان النظام المستقر أن زنجبار وساحل افريقيا الشرقي تابعان لسلطان عمان الذي كان يحكم من

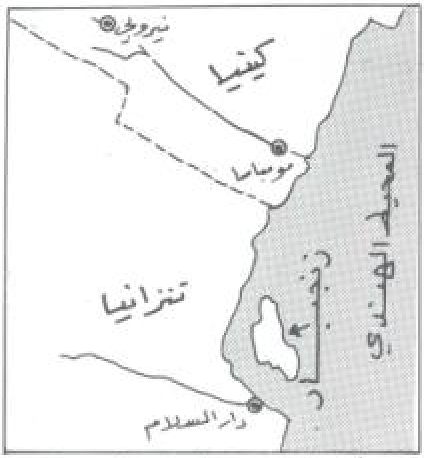

● خريطة زنجبار .. جزيرة في مواجهة الساحل الشرقي لأفريقيا .. الطريق الى وسط أفريقيا ، ومن هنا كانت اهميتها الجغرافية .

عمان ، ويفوض ولاة على زنجبار وبقية ممالك الساحل مقابل ضريبة سنوية . وفي عام ١٨٢٨ ميلادية قام السلطان سعيد بن سلطان بزيارة إلى جزيرة زنجبار ، وعندما وصل إليها استهواه جمالها وطيب مناخها مقارنة بهجير عمان ، فجعل من الجزيرة مقره الرسمي وعاصمة لمملكة يحكم منها عمان وساحل افريقيا ، وأصبحت زنجبار منذ ذلك التاريخ عاصمة لمملكة عمان . وسرعان ما تعاظمت وتكثفت هجرات العمانيين إلى الجزيرة ملتحقين بسلطانهم . وإلى السلطان سعيد يعود الفضل لأنه أول من زرع شجر القرنفل في الجزيرة على الرغم من معارضة الأهالي ، لتصبح زنجبار اليوم أكبر مصدر للقرنفل في العالم كله .

وقد ازدهرت زنجبار منذ ذلك الحين ، فمهدت الطرق ، وأقيمت القصور والمنازل والدور والمساجد ، وأصبحت نقطة التقاء أشراف الساحل الشرقي الافريقي والعمانيين ، فالكل يذهب إلى عاصمة المملكة ومقر السلطان ولؤلؤة الممالك ، وتضاءلت بجانبها المدن الأخرى الزاهرة مثل ممباسا وماليندي وكلوه . وهذا ما كان .

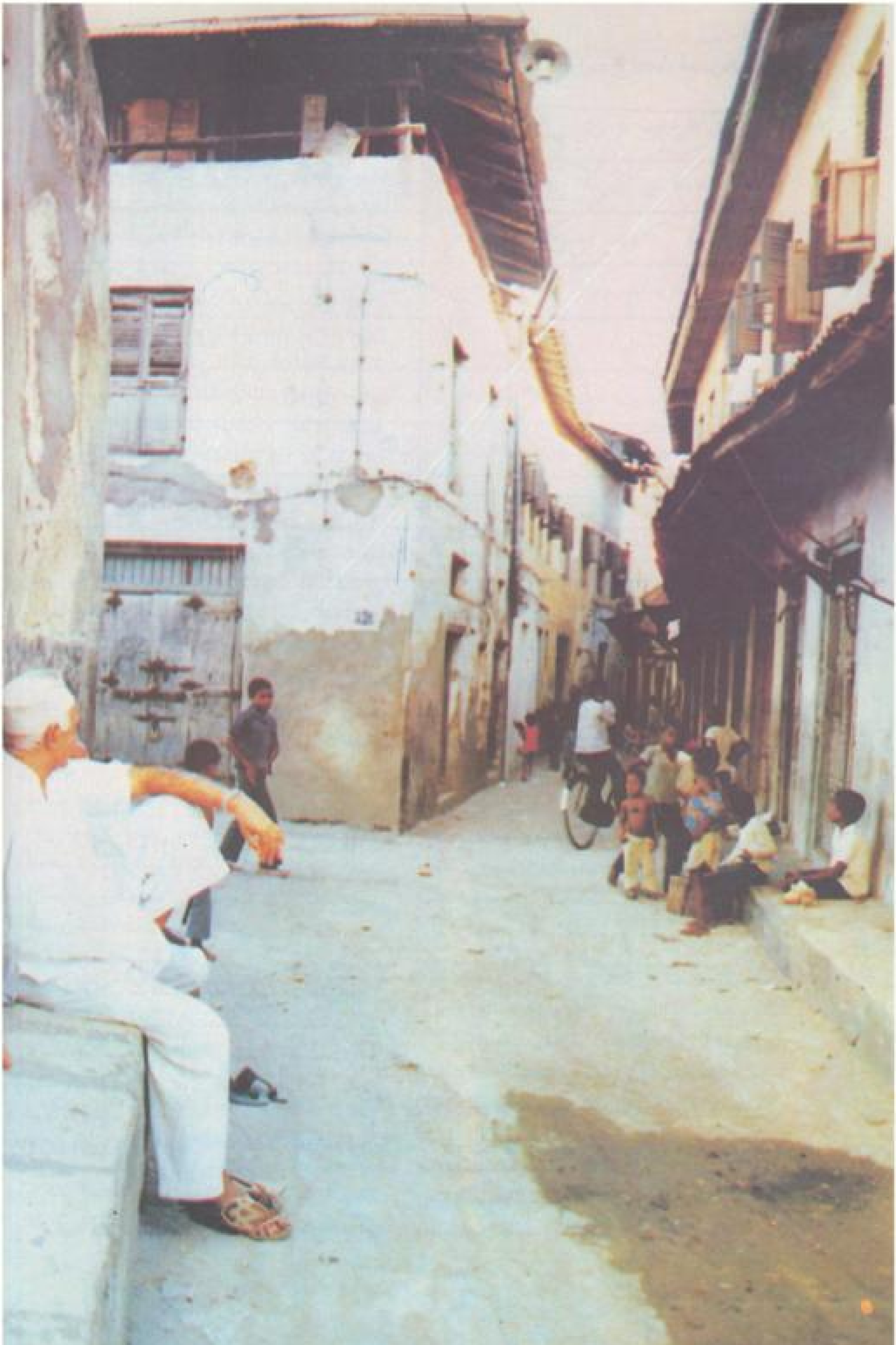

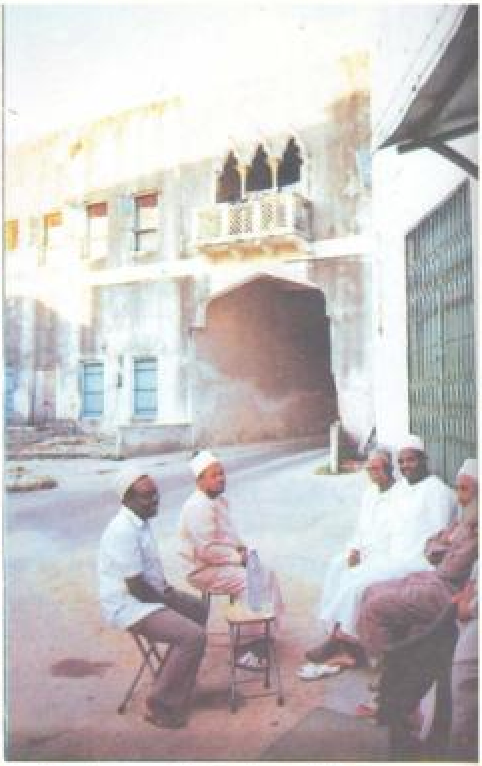

● السلوك الاجتماعي تعبير عن الثقافة السائدة .. وفي زنجبار .. في الشوارع الضيقة والأزقة .. يخرج الناس وقت الأصيل للجلوس أمام البيوت أو في الساحات المتسعة .. وتبدأ جلسات السمر والثرثرة ولعب « الدومينو » وتتوزع دوائر الجلسات شيوخاً وشباباً وفتيات .

الشوارع الحانية

الطريق من المطار إلى قلب المدينة رائع الجمال ، أشجار جوز الهند السامقة الرفيعة على الجانبين ، وخلفها تختبيء أشجار القرنفل بزهورها الحمراء . سائق السيارة يرتدي الإزار العماني ، والطاقية العمانية . اقلنا إلى فندق « بواني » ، وكلمة بواني لفظة افريقية لكلمة عماني . عاملة الاستقبال تتصف بالبشاشة . عندما نظرت في جوازات سفرنا تهلل وجهها : عرب ومسلمون ؟ قلنا : نعم . وحاولت أن أحدثها بالعربية ، فلم تعرف إلا كلمة « سلام عليكم » . قالت بأن اسمها « رحمة » ، وهي لا تعرف إن كان أهلها عربا خالصين أم خليطا من العرب والأفارقة . انطلقنا إلى شوارع المدينة ، المدينة مصممة على نهج المدن العربية القديمة ، شوارع رئيسية بينها مناطق سكنية ، أي أن هناك شارعا رئيسيا عاما يوازيه شارع آخر ، وبين الشارعين كتلة من العمارة ، وعندما تدخل الى أي كتلة من هذه الكتل تفاجأ بالحي العربي القديم يختفي خلف الشارع الرئيسي . أزقة شديدة الضيق ، والبيوت متلاصقة ، وطراز العمارة عربي إسلامي ، به بعض اللمسات الهندسية التي اكتسبها العرب من الهند . فوق واجهات البيوت القديمة عبارات باللغة العربية ، تراكم عليها الغبار ، أجهدنا عيوننا لنقرأ عبارات منها مثل لا إله إلا الله ، بني هذا البيت العامر في سنة كذا ، وتواريخ هجرية (افرنكية) . أمام نواصي الأزقة يتجمع السكان في ساعة الأصيل على مقاعد خشبية ومنضدة صغيرة عليها موقد لصنع القهوة ، وفي الشرفات تجلس النساء اللواتي يتوارين عند رؤية غريب عن الحي أو عندما يلمع ضوء آلة التصوير .

بين الناس جلسنا ، وسمعنا ، وتعذبنا بهذا العشق والحنين إلى الوطن والذكريات .

عذابات العشق

لغة الناس السائدة هي اللغة السواحلية ، وهي مزيج من لغات افريقية قديمة واللغة العربية . ويقدر بعض علماء اللغة أن ٧٠٪ من اللغة السواحلية من أصل عربي .

والألفاظ العربية التي نفهمها من اللغة كثيرة ، مثل حكومة ، ووزارة ، « وساتني سانيا » ، وهي نطق محرف لجملة « أحسنت صنيعا » ، وهكذا ، وعلى الرغم من ذلك فمازالت اللغة العربية موجودة والناس تتحدث بها ، وهم ينطقونها بالفصحى ، ولكنهم لطول عهدهم بها يبذلون جهدا ومشقة في الحديث .

الشيخ سليمان بن سعيد يقول : أعمل تاجرا للقماش ، وأعرف أن أصولي كلها عربية ، وأجدادي من عمان ، ومازلت أحافظ على سلامة سلالتي ، ففي عائلتنا لا يتم الزواج إلا من أصول عربية ، وقد ظل هذا التقليد موجودا عندما كان لدينا حلم بالعودة ، وعندما كان إحساسنا بأننا عرب ، ولكن الأجيال الجديدة في العائلة لم تحافظ على هذا التقليد ، انني أحلم بأن أزور عمان يوما ، وأحصي شجر النخيل فيها ، وأشم ترابها ، وأزور رستاق ونزوى ومسقط ، وأنشر في الصحف السيارة شجرة العائلة لأجتمع بعائلتي وأحفادها ، ويكمل الله فضله فيتوفاني هناك ، وأغمض عيني وأتوسد ذلك التراب الحبيب .

الحاج جمعة سالم المغيري : أنا عماني بكل جذوري ، وكل عائلتي مازالت هناك ، ولي أخ في عمان طبيب ، يعمل مستشارا بوزارة الصحة في عمان ، وهو الدكتور محمد سالم المغيري ، وأخ ثان هو وزير للتجارة والصناعة في حكومة زنجبار ، وقد عملت فترة طويلة قاضيا في زنجبار ، وتدرجت في سلك القضاء حتى أصبحت كبيرا للقضاة ، حتى ساعة إحالتي إلى التقاعد ، وقد زرت عمان مرة واحدة ، ومازال حنيني إليها لايقاوم ، يعذبني ولكن المشكلة أن لي هنا عائلة وأهلا ، وعمرا وذكريات وعملا ، عمرا بأكمله ، فالشوارع هذه قد شهدت صباي ، وهذه المقاهي تعرفني ، والمساجد هنا تشهد أرضها على سجودي وقيامي ، بل حتى أشجار القرنفل وجوز الهند ، سبعون عاما باولدي قد

قضيتها هنا ، وهناك لي أخ وجذور ، ولا أعرف أي الخيطين أقوى ، وأي القلبين أكثر خفقاناً .

الحاجة فاطمة تجلس على باب بيتها ، وتغطي رأسها ، وترتدي نظارة طبية ، وتفتح مصحفا وتقرأ فيه . قالت بجهد وهي تتكلم : يا ولدي لم يبق إلا كتاب الله والصلاة ، بعد ثمانين عاما عشتها وأنا عربية ، أما الآن فلا شيء يمنحني إحساسا بهذا إلا القرآن . وانصرفت عنا .

يوم عمل في الجزيرة

تنتشر القرى الصغيرة ، وهي تجمعات سكانية حول مزارع مكثفة على طول الجزيرة ، والتجمع المدني الرئيسي في قلب الجزيرة على المحيط هو بمثابة ما نسميه ـ نحن بالعاصمة ـ ، ونشاط السكان الرئيسي هو الزراعة والصيد ، وفي قلب العاصمة يتركز النشاط التجاري . يبدأ يوم العمل في الصباح الباكر ، فتمتلىء الشوارع بالناس الذين يخرجون من فجاج الأزقة التي تصب في الشوارع الرئيسية .

ويتصدر الحي التجاري مبنى قديم للسوق نصف مهدم ، تباع فيه الخضراوات واللحم والسمك ويطل المبنى على شارع رئيسي يؤدي من جهة منه إلى طريق المطار ، ومن جهة أخرى إلى القلعة القديمة والميناء المشرف على المحيط ، وخلف مبنى السوق تنتشر مجموعة من الأزقة المتداخلة التي يربط بينها عدد من الميادين ، كل مجموعة من الأزقة ـ أربعة أو ستة أو ثمانية ـ تصب في ميدان ومنه إلى زقاق أوسع قليلا ثم يصب هذا في ميدان آخر يتفرع منه عدد من الأزقة ، وهكذا تتوالى الطرق والأزقة ، وخلف مبنى السوق مجموعة أزقة بالحي التجاري ، فيه عدد من المحلات للعطارة والأقمشة وزينة النساء والأدوات الكهربائية (مذياع ـ مسجل ـ ساعة) ، وتتوالى المحلات التي تعرض معروضاتها على الواجهة وفوق الرصيف ، والأزقة شديدة الزحام بالمارة وعربات اليد الخشبية التي تنتقل عليها البضائع .

تفتح الدكاكين أبوابها من السابعة صباحاً حتى الظهيرة ، حيث يذهب أصحابها إلى صلاة الظهر والغداء ثم القيلولة ثم تفتح مرة ثانية في الساعة الثالثة حتى صلاة المغرب في السادسة .

بعد السادسة يبدأ الناس في الخروج من بيوتهم لتبادل الزيارات العائلية أو النزهة ، ويصحبون أبناءهم وينطلقون إلى الساحل وعلى الحشائش الحديثة الممتدة يجلسون ، وخلفهم مبنى القلعة القديمة التي بناها البرتغاليون عندما احتلوا الجزيرة . وخلف مبنى القلعة تطل مداخل الجزيرة المعمارية ، أقواس وبوابات حجرية تختبىء خلفها الجزيرة .

في الحديقة يفترش الرجال والنساء الأرض ، وينطلق الأطفال يلعبون حولهم ، وفي الممرات يحتشد باعة القصب والمانجو ، وشرائح جوز الهند المقلية بالزيت ، والذرة المشوية والسلطعون والسمك المشوي ، وباعة الحلوى المحلية الأقرب إلى الحلويات العمانية الشهيرة .

الطريق إلى القرى الصغيرة المحيطة بالعاصمة نزهة رائعة ، شريط ضيق من القار يخترق غابات كثيفة من أشجار جوز الهند « النارجيل » والقرنفل ، ويعبق الطريق بروائح زهر القرنفل ، والزهور البرية . الرجال حول المزارع يعتنون بالشجر ، أو يقطعون ألياف شجر « النارجيل » ليستخرجوا الزيت من ثمرته ، أو يطهرون الأرض من الأعشاب التي تنمو تلقائيا حول الشجر . عند المغيب يعود الفلاحون إلى بيوتهم حيث يتناولون وجبتهم الرئيسية الساخنة ، ثم يتجمعون أمام البيوت والأكواخ في أحاديث السمر . في المدينة عند التاسعة يبدأ الناس في الحركة باتجاه منازلهم ، وفي العاشرة مساء تخلو الطرق من الناس ، ويعم الهدوء الجزيرة الساحرة

داخل البيت

لم نستطع التهرب من الحاحهم بدعوتنا لتناول بعض الأشربة في بيوتهم . كانت فرحة البسطاء من الناس وبخاصة كبار السن أقوى من أن نردها أو أن نخذلها ، ذهبنا مع الحاج سليمان بن سعيد إلى بيته ، البيت قديم ، عمره يجاوز مائتي عام . يفتح الباب الرئيسي عن باحة بها دورة مياه وغرفة ، ثم سلم في

● مظاهر مختلفة للحياة ، الصورة اليمنى العليا لامرأة في قرية تدق أمام الكوخ اعواد الملوخية ، وبجوارها أمام السوق الرئيسي الثمار التقليدية قصب السكر ، النارجيل وعملية تنزيل يشارك فيها عدد من المواطنين أكبر مما تستحق العملية ، والى اليسار لقطة من داخل المتحف تصور تطور وسيلة نقل حكام الجزيرة .. كان مقعداً يحمله العبيد ، ثم مقعداً تسحبه الخيل !

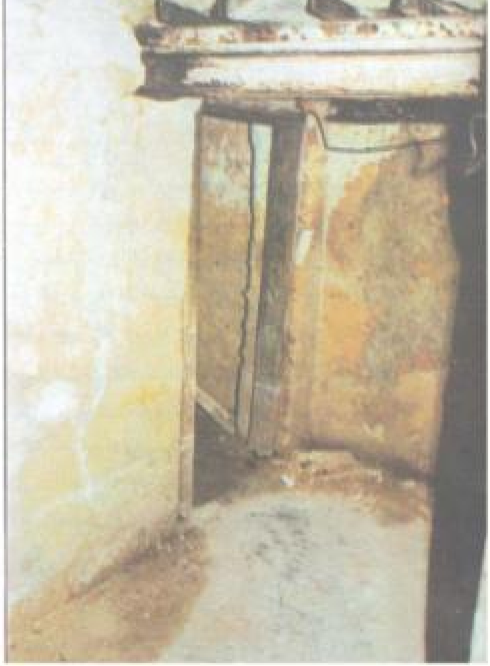

● رغم سنين عمرها التي تجاوزت السبعين تجلس هذه السيدة العجوز تقرأ القرآن الكريم باللغة العربية الصورة اليمنى العليا ، وبجوارها لقطة لصانع القهوة العربية ، ثم صورة لاحدى الألعاب الشعبية التي تنتشر أيضاً في وطننا العربي ، وأخيراً الصورة اليمنى القبو الذي كان يحجز به العبيد تمهيداً لبيعهم .

مواجهة الباب يصعد إلى الدور العلوي ، وقبل انتهاء الانحناءة قبل الأخيرة جذب الرجل حبلا مربوطا بيد خشبية معلقة على باب الشقة العلوي ، فدقت اليد الخشبية على الباب . قال لنا الشيخ جمعة : إن هذه طريقة لكي يدرك أهل البيت أن معه ضيوفا .

دخلنا البيت ، وجلسنا في غرفة الاستقبال . وعندما أعدت كريمته الشراب وقفت خلف الباب وصفقت بيدها ، فخرج الشيخ ليأخذه منها .

حكى لنا الشيخ سليمان عن طقوس الزواج فقال : عندما يستقر رأي الشاب على فتاة بعينها ، يشاور أهله ، وعندما يوافقون ـ والآن أصبحت موافقة الأهل شكلية ـ يذهب أهل العريس إلى أهل العروس للخطبة وقد جرت العادة أن ستمهل أهل الفتاة الخاطبين فترة حتى يردوا عليهم ، وبعد رد الأهل يتم الاتفاق على « الشبكة » والمهر ، ويحدد موعد للاحتفال ، وعند دعوة الناس يسير والد الشاب مع ابنه يطوفان بالتجمعات والأهل ، وبعد أن يلقي والد الشاب التحية يقول لهم : هذا ولدي فلان ، وقد خطبنا له كريمة فلان ، وقد دفعت له مهرا مقداره كذا ، والحفل يوم كذا ، ويسعدنا حضوركم . ونفس التقليد يقوم به والد الفتاة الذي يصطحب معه العريس وشقيق العروس الأكبر ويطوف معهما بتجمعات أصدقائه وأهله وأقاربه ، ويزيد على مقولة والد العريس قوله : إنه منذ هذا اليوم قد صار العريس أخا لابني (شقيق العروس) . وعلى الرغم من خروج المرأة للعمل وإلى السوق إلا أنها مازالت تحتفظ بحيائها ، فلا تتحدث في الطريق مع أحد ، وإذا مرت على تجمع من الرجال لزمت السير بجوار الحائط ، ووجهت بصرها إلى الأرض . وعندما كانت بعض النساء يلمحن زميلي المصور وهو يحاول تصويرهن عن بعد كن يبادرن إلى إخفاء وجوههن والانصراف من المكان ، وظللنا نحسب أن تصوير النساء مشكلة حتى وقعت لنا المشكلة الكبرى .

معتقلان في مركز الشرطة

كنا في طريق عودتنا من خارج المدينة ، واستهوى زميلي المصور منظر أشجار جوز الهند السامقة وبينها مسافات تكاد تكون محسوبة ، ومن خلال هذه المسافات يبدو خط الأفق صافيا جميلا . استوقفنا السيارة ، وهبط زميلي يلتقط صورته ، وجلست أسجل ملاحظات عن المكان والصورة وتاريخها . وفجأة وقفت سيارة « جيب » عسكرية ، قفز منها ثلاثة جنود من الشرطة العسكرية وأحاطوا بنا ، وزميلي واقف وبيده آلة التصوير وأنا جالس على تلة مرتفعة أدون ملاحظات . هبط من السيارة عقيد بزيه الرسمي وأخبرنا بأننا قيد الاعتقال لأننا نصور موقعا عسكريا !! .

أمضينا ساعات طويلة في قسم الشرطة بين تحقيقات ، وطبع للفيلم ، وأسئلة . وفي النهاية اقتنع قائد القسم ـ لأننا فقط مسلمون عرب ـ لا يمكن أن نكون جواسيس فأطلقونا .

كيف ضاعت

حتى صباح يوم السبت ١١ يناير عام ١٩٦٤ ، كانت زنجبار جزيرة عربية مستقلة ، يحكمها السلطان جمشيد بن عبدالله بوسعيد ، أحد أحفاد السلطان سعيد بن سلطان ، وفي مساء السبت عاد الناس إلى بيوتهم ، والهدوء يلف الجزيرة ، ومرت الساعات الأولى من الليل رطبة شتائية ، وبعد منتصف الليل شق هدوء الجزيرة صوت رصاص ، ولم يستمر كثيرا ، وقد ظن الذين لم يكونوا قد استسلموا للنوم أن جنديا طائشا أطلق بعض طلقات من بندقيته . وكلما مضى من الليل وقت ازداد الجو رطوبة وبرودة وثقلا ، وما هي إلا ساعة بعد انتصاف الليل حتى اجتاحت الأحياء والدور فرق من الجنود ، فنهبوا البيوت ، وشرعوا في قتل السكان واستباحوا النساء ، وسقط ما يزيد على عشرين ألف قتيل ، وفي رواية أخرى قد بلغ عدد القتلى خمسين ألفا . وما أن أصبح الصباح ، صباح يوم الأحد ١٢ يناير ١٩٦٤ ، إلا وزنجبار ، بر الزنج ، لؤلؤة الممالك ، مقر

سلطنة الحكام العرب ، لم تعد زنجبار العربية !

فقد كانت طلقات الرصاص عملية اجتياح لمراكز الشرطة واستيلاء عليها من قبل الجنود ذوي الأصول الافريقية ، وعملية حصار لمقر الحكم . انقلاب دموي كامل تم معظمه بالسلاح الأبيض ، في أكثر الانقلابات وحشية في قرننا العشرين ! .

ولا تكفي وقائع الانقلاب لتقدم لنا إجابة عن أسباب ضياع زنجبار ، والتساؤل عن الأسباب سوف يدفعنا إلى الابحار قليلا في بحار السياسة والتاريخ .

كان استقرار السلطان سعيد بن سلطان في زنجبار متوافقا مع بدء إحساس الغرب بأهمية موقع زنجبار الاستراتيجي ، في ظل قواعده البحرية التقليدية ، من حيث كونها موقع مواجهة مع ساحل افريقيا الشرقي القريب من الهند ومن ساحل الخليج العربي . وكانت الكشوف الجغرافية من قبل ولفنجستون وستانلي وغيرها في افريقيا سببا كافيا لكي يلتهب خيال أوربا بالطمع في افريقيا بعامة وزنجبار بوجه خاص . يذكر لنا التاريخ المكتوب أن هناك صراعا بريطانيا المانيا دار حول زنجبار وانتهى بتوقيع اتفاقية تحديد مناطق نفوذ ، وأن هناك صراعا ابطاليا فرنسيا بريطانيا أمريكيا ، إلا أن امريكا كانت أسبق الجميع حين وقعت معاهدة صداقة مع زنجبار عام ١٨٢٣ ، وحظيت امريكا بموجبها على امتياز الدولة الأحق بالرعاية . وفي عام ١٨٣٩ وقعت بريطانيا معاهدة مع زنجبار ، اشترطت فيها على السلطان تحريم الرقيق ، وتعهد السلطان بتحريم هذه التجارة في كل ممتلكاته ، وتعيين وكيل بريطاني لممتلكات السلطان للالتزام بالتحريم ، كما أعطت المعاهدة للسفن البريطانية الحق في تفتيش السفن ومصادرة أي سفن تمارس هذه التجارة . وتحت هذا الستار وبمعاونة مكتب شركة الهند الشرقية بدأت الأصابع البريطانية تتدخل في المنطقة لضمان سيطرتها عليها ، خاصة أن البريطانيين لم يكونوا في ذلك الوقت يملكون إلا طريق الحيلة . فثراء السلطان سعيد كان بلا حدود ، وفي قصره كان يعيش ألف شخص للخدمة ، ودخله من تجارة العبيد وحدها كان قرابة ٨٠ ألف جنيه استرليني في العام بأسعار ذلك الزمان .

ومن حيث القوة العسكرية كان السلطان سعيد يملك أسطولا بحريا قويا ، يتكون من خمسة وسبعين سفينة في كل سفينة ٥٦ مدفعا ، وكما يقول وندل فيليب في كتابه تاريخ عمان عندما يتحدث عن تلك الفترة من خلال الوثائق البريطانية ان السلطان سعيد كان يستطيع أن يحقق لنفسه التفوق البحري في المحيط ، فهو صاحب أقوى أسطول موجود في المنطقة الواقعة بين رأس الرجاء الصالح حتى اليابان ، والثابت تاريخيا أيضا أنه أهدى فرقاطة بحرية مسلحة إلى ملك بريطانيا ، وفرقاطة أخرى إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

صراع الاخوة

بعد وفاة السلطان سعيد بن سلطان في ١٩ اكتوبر ١٨٥٦ م ، ثار الشقاق بين اثنين من أشقائه كاد أن يؤدي الى حرب أهلية دامية ، وكالعادة استعان أحد الاخوين بالبريطانيين ، فشكل البريطانيون لجنة تحكيم يرأسها اللورد « كاننج » المندوب السامي في الهند ، فقسم الامبراطورية إلى جزأين أساسيين ، هما عمان وقد جعلها من نصيب السلطان ثويني بن سعيد ، وزنجبار وجعلها من نصيب السلطان ماجد . ومنذ ذلك التاريخ انفصلت زنجبار عن عمان . وداخل زنجبار ثار خلاف وشقاق ، فقد حاول شقيق ماجد أن يغتاله في مؤامرة شاركه فيها بعض أفراد العائلة ، فاستعان السلطان ماجد بالبريطانيين ، فتولوا حمايته بالقوة المسلحة . وحكم على برغش شقيق السلطان بالنفي إلى الهند . واستمر الموقف بنزاعات وشقاقات ، وانتهز البريطانيون الفرصة ليبسطوا أيديهم أكثر على الجزيرة ، حتى جاء مؤتمر بروكسل ، وفيه قسمت افريقيا بين القوى المتصارعة ، وكان من ضمن ما قسم زنجبار . وفي نوفمبر ١٨٨٦ م قسمت الجزيرة بين بريطانيا وفرنسا والمانيا .

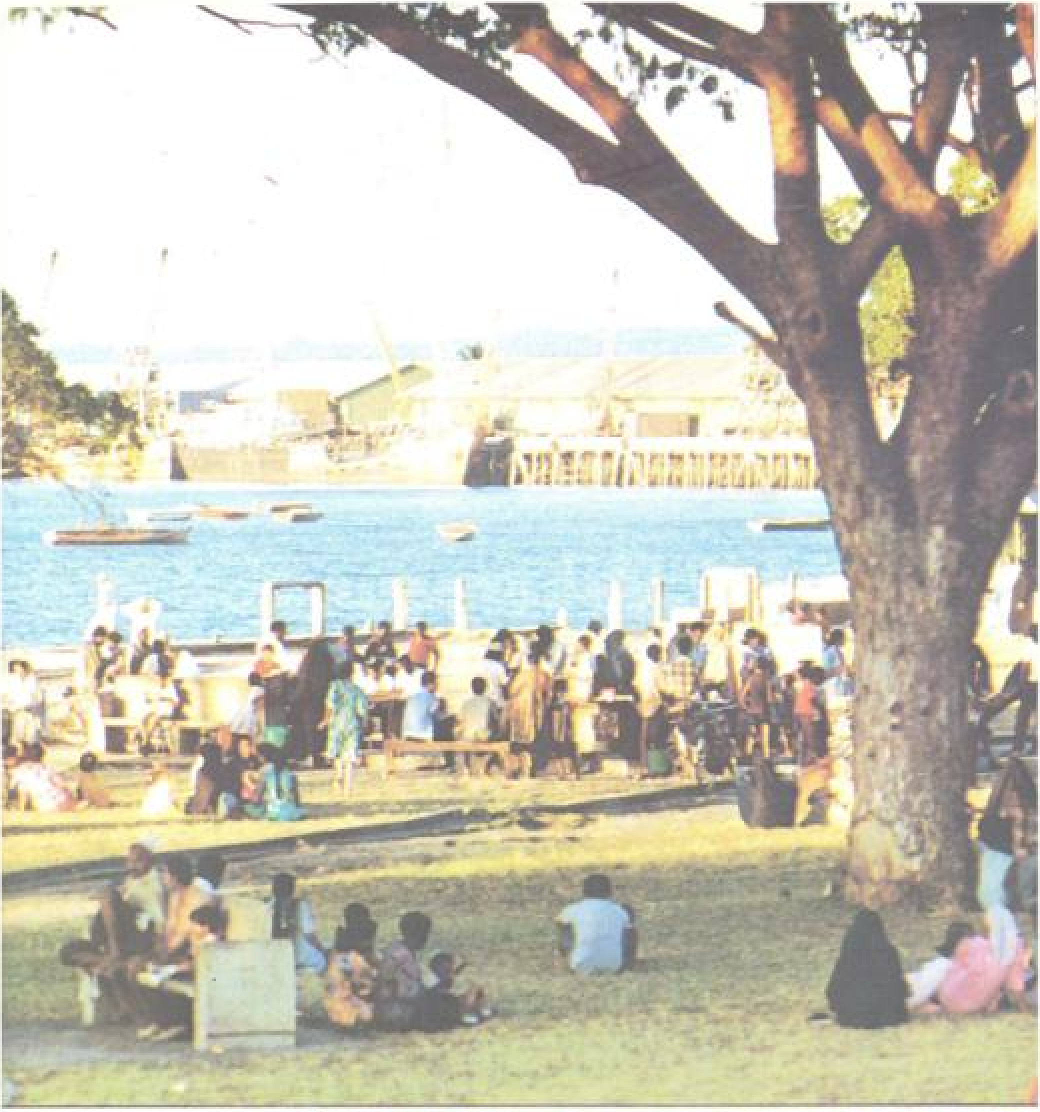

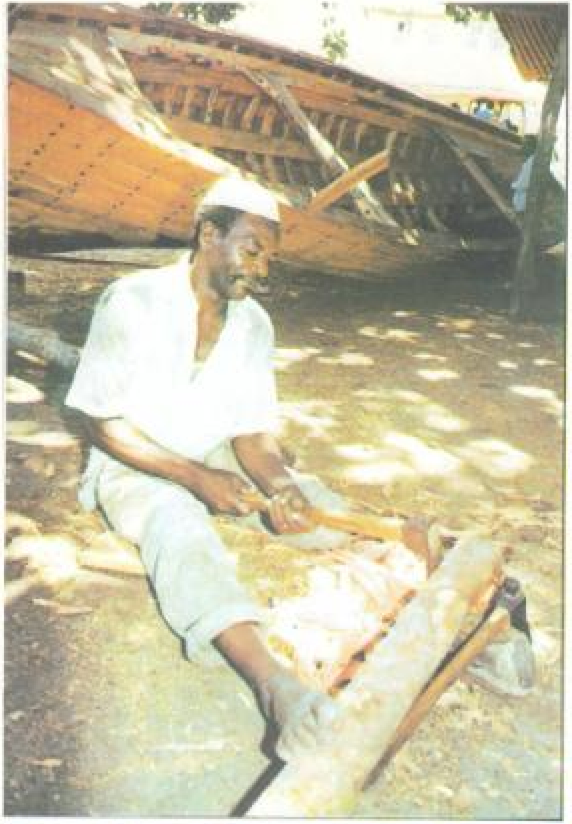

● حول الميناء تدور الحياة ، الحديقة العامة ونزهة المواطنين مصطحبين نساءهم وأطفالهم ، والباعة الجائلون الذين يبيعون الذرة المشوية والموز وجوز الهند ، وصانع قوارب الصيد من جذوع الشجر (الصورة العليا الى اليسار) وفي أقصى اليمين منصة بيع في السوق والى اليسار سيدتان جالستان في الحديقة الملامح عربية وطريقة الحجاب والزى عربية .

● في هذا البيت كان يحجز العبيد تمهيدا لنقلهم عبر السفن وقد إشترته بعثات التبشير المسيحية لتحتفظ به شاهداً على هذه المرحلة .

وتعاظم الصراع بعد ذلك ، وتوالى بشكل سريع ، وتعاقب على حكم زنجبار ولاة لم يدم حكم بعضهم عامين ، وعرفت الجزيرة الانقلابات والحروب ، وفرض البريطانيون سلطتهم على الجزيرة ، حتى أنهم عزلوا حاكما من حكامها بالقوة المسلحة لينصبوا آخر ، وهكذا .

وخلال ذلك نشطت الجمعيات التبشيرية ، وشجعت بريطانيا توافد الأفارقة من الساحل الافريقي إلى الجزيرة ، وتدريجيا بدأ البريطانيون في تكوين قوى سياسية وطنية لهم داخل الجزيرة ، وفي نفس الوقت عملوا على إذكاء حدة التفرقة بين العرب والأفارقة ، والتمييز بين ما هو عربي وما هو افريقي ، وصبر البريطانيون طويلا وزرعوا كثيرا ، وكان لابد أن يثمر الزرع الذي زرعوه .

الأميرة العاشقة

اسهمت زنجبار بوضعها هذا وتاريخها في إثراء الكتابات عن افريقيا بعامة ، وعن أحوال زنجبار وتاريخها بخاصة ، وأطرف ما كتب عن هذه الفترة مذكرات الأميرة سالمة بنت السلطان سعيد بن سلطان التي عاونت أخيها برغش عندما تمرد على السلطان ماجد وحاول اغتياله في الحرب التي نشبت بينهما وتدخل فيها الانجليز لصالح ماجد ، وحكموا على برغش بالنفي إلى الهند ، ففي أثناء نفي برغش تصالحت الأميرة سالمة مع أخيها ، ولما عفا السلطان عن برغش وعاد إلى زنجبار لم يغفر لسالمة تصالحها مع أخيها السلطان ، وظلت حياتها في زنجبار قلقة ، فقد كانت صغرى أبناء السلطان سعيد ، وبالتالي فهي أصغر أخواتها ، ويبدو أن وضعها هذا قد هيأها للدخول في مغامرة ، فأحبت رجلا المانيا ، وهربت معه إلى المانيا ، وعاشت هناك ، ومن البعد كتبت مذكراتها تصف أيام المجد والقصور ، والمربيات وركوب الخيل ، والثروة ، وعز المملكة الذي كان .

تقع زنجبار الآن سياسيا ضمن تنزانيا ، وقد ظهرت تنزانيا ككيان سياسي عقب استقلال تنجانيقا في ٩ ديسمبر ١٩٦١ م وخروجها من تحت الوصاية البريطانية ، بينما حصلت زنجبار على استقلالها من بريطانيا في ديسمبر ١٩٦٣ ، وخلال هذين العامين بين استقلال تنجانيقا وزنجبار كانت بريطانيا قد هيأت المسرح لما حدث بعد استقلال زنجبار بشهر ونصف فقط ، حيث جرت وقائع الانقلاب الدموي الذي خلع به سلطان زنجبار وفر إلى الخارج . وفي ٢٦ ابريل ١٩٦٤ أي بعد الانقلاب بأربعة أشهر أعلن قيام الوحدة بين تنجانيقا وزنجبار ، وأصبح اسم الدولة الجديدة تنزانيا ، واختيرت دار السلام عاصمة لها ، ونص اتفاق الوحدة ثم الدستور على أن يتولى الرئاسة جوليوس نيريري ، وأن يليه في الرئاسة حاكم زنجبار . وتشكلت حكومة محلية لزنجبار وفوضت في بعض الصلاحيات المحلية التي من خلالها حاولت الادارة في زنجبار أن تحتفظ لنفسها بهوية مستقلة نسبيا ، إلا أن التاريخ لا ينسى ، وقد ظلت الوظائف الادارية العليا والإشرافية وبخاصة في الشرطة والجيش في أيدي الافارقة ذوي الأصول غير العربية ، ولكن هذا الاتجاه بدأ يقل تدريجيا بعد ضعف النعرات العرقية واستقرار الأحوال بالدولة الجديدة .

وقد انعكست آثار الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها تنزانيا كلها على زنجبار ، حيث انخفض مستوى المعيشة ، وأصبح الفقر لا تخطئه عين ، والغلاء يزداد كل يوم ، وسعر العملة ينخفض في كل عام عن العام الذي قبله . لقد زارت « العربي » « تنزانيا » في منتصف عام ١٩٨٥ ، وحينذاك كان سعر الصرف الرسمي ١٧٠٠ شلن لكل مائة دولار ، بينما كان في السوق السوداء ١٢ ألف شلن لكل مائة دولار ، وبعد ثلاثة أعوام تقريبا في زيارتنا هذه أصبح سعر الصرف ٤٧٠٠ شلن للمائة دولار تساوي في السوق السوداء عشرين ألف شلن . وعلامات الأزمة الاقتصادية في تنزانيا كثيرة ، فوفق أرقام البنك الدولي يبلغ اجمالي الدين الخارجي حتى نهاية ١٩٨٦ قرابة ٣٦٠٩ ملايين دولار ، ويبلغ متوسط دخل الفرد من الناتج القومي ٢٩٠ دولارا سنويا ، ويبلغ معدل التضخم سنويا ١٩,٦٪ .

كان موعدا سفرنا من زنجبار الخامسة والنصف صباحا ، لنصل إلى دار السلام في السادسة ، ونغادرها في الثامنة والنصف متجهين إلى عاصمة افريقية أخرى . وذهبنا إلى المطار في الرابعة والنصف فجرا ، وفوجئنا أن الطائرة لم تأت من دار السلام ، وعلينا الانتظار حتى طائرة الساعة العاشرة والنصف ، وملأنا المطار صراخا ، ولم يستمع إلينا أحد . في العاشرة والنصف لم تأت الطائرة أيضا ، وقالوا لنا : عودوا في الثالثة والثلث . لكن الطائرة لم تأت أيضا . وعندما سألنا موظفا توسمنا فيه الاجابة قال لنا : إن الطائرة عندما لا تمتلىء بالركاب من دار السلام فإنها لا تطير . ولم نغادر زنجبار إلا في السادسة والنصف مساء ، لنصل دار السلام في السابعة ، ونقطع بعد ذلك ١٤ ساعة بالسيارة في طريق يخترق مواطن القبائل ، والليل الافريقي يحيط بنا ، لكي نصل إلى الحدود ونجتازها برا ، لنلحق بطائرتنا التي ضاعت علينا بسبب الطيران الفريد .

حدود الزمان والمكان

كانت السيارة تنهب بنا الطرق ، والليل يجثم على المكان ، وزميلي المصور يرفض أن يستريح ويتركني متيقظا وحيدا مع سائق لا نعرفه ، في بلد فقير ، وخيالي كان يتجاوز المكان الذي نحن فيه ، ويتجاوز حدود الزمان ، ويعود إلى البلاد التي تركناها ، كما تركنا قبل ذلك بلادا كثيرة ، لا نذكر منها إلا الأندلس ، على الرغم من أن التاريخ العربي يمتلىء بأندلسيات كثيرة .

ويلح على وجداني دفء قلوب الشيوخ العجائز ، وأتذكر دموع عيونهم وهم يذوبون شوقا وحنانا إلى كل ما هو عربي ، ويسألونني عن بلاد العرب ، وعن طرقاتها ، وشوارعها ، ومبانيها ، وعدد نخيلها ، وزهورها البرية ، وصحراواتها ، وتفيض مشاعري والسيارة تنهب بنا الطريق ويلفنا الليل الافريقي . □

قصة مترجمة

الاحتفال القديم

بقلم : دانييل بولانجي

ترجمة : الدكتور محمد برادة

يعد دانييل بولانجي Daniel Boulanger المولود سنة ١٩٢٢ م بمثابة عميد للقصة القصيرة في فرنسا . نشر عدة مجاميع قصصية ، ونال جوائز كثيرة ، أهمها جائزة القصة سنة ١٩٦٣ عن مجموعته « أعراس الشحرور » ، وجائزة سانت بوف سنة ١٩٦٦ عن « طريق الدوران » . وإلى جانب كتاباته القصصية نشر بولانجي روايات ودواوين شعر ، وكتب عدة « سيناريوهات » .

تمتاز قصص بولانجي بتنوع الفضاءات ، ودقة الملاحظة ، وتوظيف اليومي المألوف في نسج بنيات قصصية مشوقة .

في هذه القصة « الاحتفال القديم » التي ترجمناها من مجموعته :

« حديقة أرميد » (١٩٦٩) ينطلق الكاتب من مشهد معتاد ، فيولد حدثا طريفا يعلو على الواقعي المحدود ، فالطفل في المقبرة يكتشف بحسه وذكائه عالم الموت وتصرفات الكبار في اللحظات المأتمية . إنه لايكتفي بما خططته الأم من وراء مرافقتها له إلى المقبرة بدلا من الحديقة ، لأن غريزة اللعب والطفولة تتمرد على تخطيطات الكبار العقلانية . واللعب عنده هو أصل كل شيء ، حتى عندما يتعلق الأمر بالموت . لكن وراء الحدث المكون لبنية القصة هناك اللمسة العمقية التي يجعلنا الكاتب من خلالها نطل على نفسية الأم وعلاقتها بزوجها . وهكذا تمتزج الروح اللعبية بالبعد الإنساني من خلال صنعة قصصية ناضجة ، يمكن أن نعدها بحق امتداداً للحس المرهف الذي تميزت به قصص جي دو موباسان .

أمهات شابات كثيرات يهملن حديقة لوكسمبورغ الموجودة على بعد خمس دقائق من بيوتهن ، ويؤثرن مقبرة مونبارناس ذات الإطار الطبيعي الأقل ضجيجا الواقعة على نفس البعد . ولولا ذريتهن لما خرجن قط من السرير ، هن الرخوات ، ولاستسلمن للراحة إلى الأبد ، فالمقبرة هي عنصر حيويتهن ، وبفضلهن تعرف الممرات المأتمية الضحكة الطرية والقفزات المرحة ، وقصور الرمال وأغاني اللعب والحلقات .

ألا يكون في ذلك حكمة لا واعية ؟ أليس درسا ثمينا أن نلقى طفلا يتعلم القراءة وهو يتهجى أسماء الراحلين منقوشة على شاهدة قبر ، فيحس بالفرح أحيانا عندما يكتشف اسمه منقوشا ويهرع إلى أمه ليعلن لها عن اكتشافه ؟

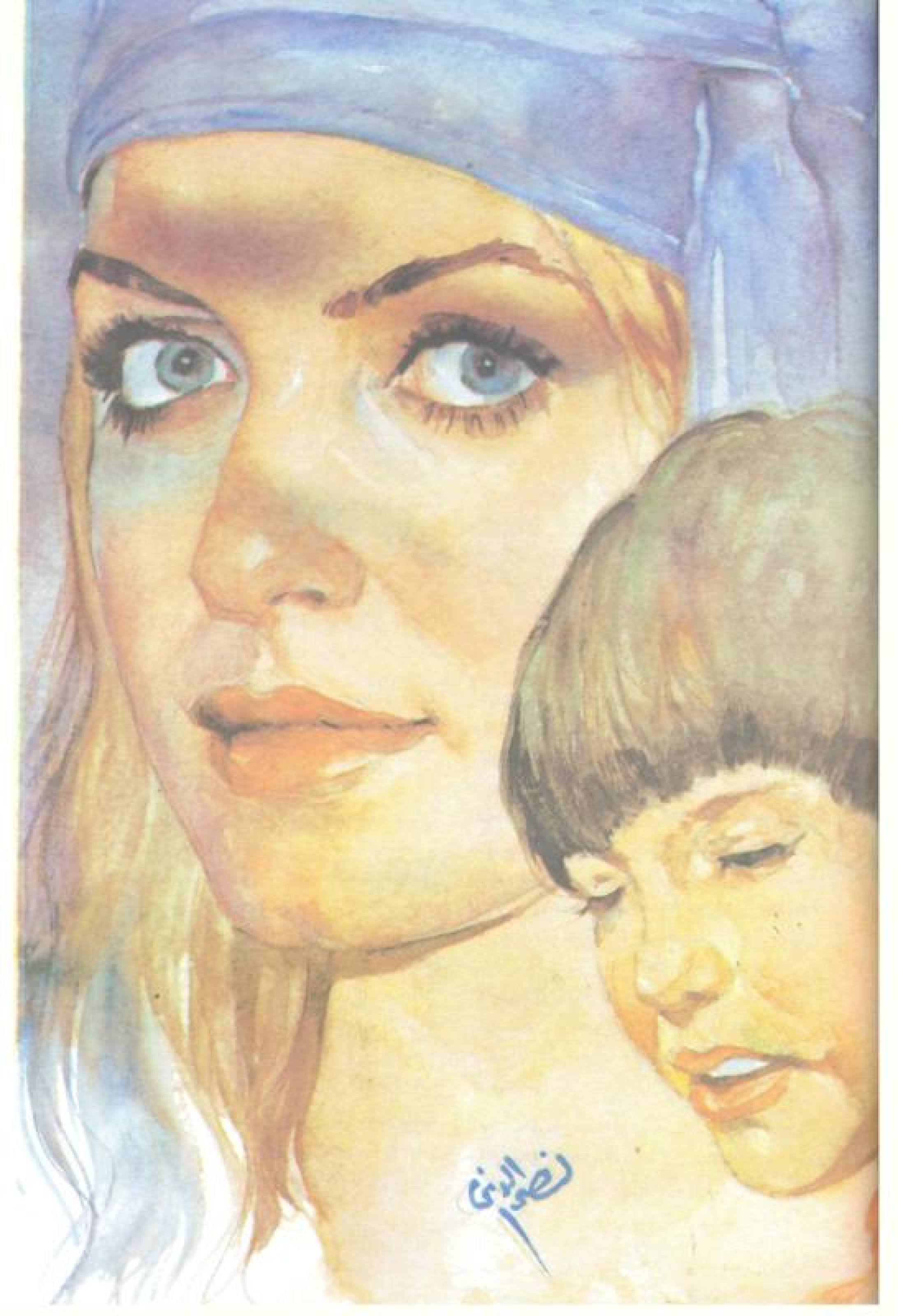

كانت الأم تنادي دون جدوى ، صغيرها الواقف وسط الممر حاملا لعبة في مثل حجمه مسحورا بالموكب البطيء المتحرك وراء سيارة تسير ببطء وتبدو متعبة على وشك التوقف عند كل دورة تتمها عجلاتها . اضطرت الأم إلى أن تتحرك لتمسك يد ميخائيل وتعود به إلى الكرسي حيث الزرد الذي تنسجه قد انسلت منه ـ في غمرة عجلتها ـ الابرة الطويلة .

ـ لماذا عددهم أكثر من أمس ؟

ـ لأنه ميت مشهور .

ـ هل بقدر ما يكون الإنسان معروفا يكون الورد كثيرا ؟

ـ لكل الموتى ورد يا عزيزي ، وليست الكمية هي ما يهم .

ـ وأنا متى سأموت ؟

ـ أنت لم تزل في سنتك الخامسة ، ولك كل الوقت لتفكر في ذلك .

لكن سرت رعشة في جسد الام وهي تتلقف جملتها الأخيرة ، فمنذ فترة أخذ الصغير يزعجها بأسئلة لم يسبق لأحد أن أجاب عنها بما يرضي . كانت تلاحظ مواربة طفلها الذي توقف فجأة عن اللعب وظهر أنه مستسلم التفكير . وعندما كانت تنظر إليه والعينين في العينين ، لم تكن تجد سوى حدقة واسعة ، والصورة مدهشة ، ثابته كئيبة . كانت تقول في نفسها ربما يجب تغيير الحديث ، ولكن غدا سيكون آخر يوم في عطلة الربيع ، وبعد غد سيعود ميخائيل إلى دار الحضانة ، وسنفكر في أيام الخميس المقبلة . كانت قد وقفت عند مرور الموكب ، وكان ميخائيل قد اختلط ـ دون أن تنتبه أمه ـ بالقامات الطويلة المسربلة بالسواد التي تخطو محنية الرأس . نادته ، لعله انتقل كالمعتاد إلى الآثار والكنائس الصغيرة ليقوم بلعبته الأثيرة المتمثلة في أن يسوق فوق هذه المتاهة سيارة خيالية ، إلا أنها لم تسمع «بامبون ، بامبون» وهو الصوت الذي كان يصيح به أثناء جولاته .

ونادت : ميخائيل . وكانت تحبس صوتها تأدبا ، لكنها اضطرت لعدم رؤيته يعود إلى أن تصرخ وتبدأ في البحث عنه ونادت مرة أخرى : ميخائيل . لكن الطفل لم يكن يسمع شيئا ، وقد سحره كل هؤلاء الناس ومعظمهم يبكون . وبالقرب من القبر المفتوح كانت هناك كومة من الباقات البيضاء لم يسبق له أن رأى مثلها .

وسألته بصوت رقيق سيدة لم يكن يبصر وجهها المغيب وراء اللثام : ماذا تفعل هنا ؟ يجب ان تذهب باصغيري.وقالت له امرأة اخرى : أين امك ؟ فأجاب ميخائيل ببساطة : إنها في المقبرة .

انتاب المرأة الاولى نحيب فنظر إليها ميخائيل عن قرب من تحت اللثام قبل أن تمتد يد رجل ضخمة لتأخذه .

قال الرجل : « أيها الصغير أنت الذي كنت تلعب منذ قليل في الممر ؟ »

قال ميخائيل : لا ، لم أكن ألعب .

ـ يجب أن تعود ، اذهب ، اذهب

ثم جره الرجل إلى آخر صف وتركه ، وارتفع صوت منغم وراء الجماعة ، وأخذ يقذف كلمات متقطعة ، غير مفهومة رتيبة ، تتخللها فراغات وانحدارات مثل من يتأوه في نوبة حمى .

تسلل ميخائيل مرة أخرى إلى الصف الأول في اللحظة التي كان فيها القسيس يرش الماء المقدس على التابوت الموضوع على حاملين . ثم تهاوت امرأة فأنهضها رجال وأسندوها ، وترك أحدهم قبعته تنزلق من يده ، وفجأة أحس ميخائيل بنفسه مرفوعا ، وما كاد يصرخ حتى عرف أن أمه هي التي رفعته . قالت له بصوت خافت : ستحرم علينا الدخول الى المقبرة بتصرفاتك هذه،إنهم في منتهى اللطف حين يسمحون لنا بالبقاء في الممرات . يجب عليك ألا تتبع الناس ، هذا ممنوع ، فهم لايأتون إلى هنا ليمزحوا .

ـ قال ميخائيل لماذا ؟ ، ثم أضاف : هناك سيدة سقطت على الأرض .

فقالت له : « لنذهب هذا كل ما سنربحه »

عادا إلى البيت قبل الوقت المعتاد ، وفي المساء عندما رجع الأب من عمله قال له ميخائيل : « لقد نبتت لحيتك ، ونحن قد استمتعنا جيدا في المقبرة ». قال الأب لسيسيل : لقد قلت لك من قبل بأنني لا أريد ذلك ، إنه ليس حسنا لا بالنسبة للصغير و لا بالنسبة لك .

ـ لو أنه كان يتصرف بحكمة لما كان هناك مكان أكثر هدوءا . ثم إلى جانب ذلك يوجد على بعد خطوتين أشجار وأطيار ، ولا سيارة تمر .

قال ميخائيل : بلى ، هناك سيارة كل يوم ، وسيارة اليوم كانت مغطاة بورود بيضاء ، بل كانت هناك امرأة وقعت على الأرض .

قال الاب بغموض : أرأيت ! لنكف عن الحديث في هذا الموضوع . لقد حان وقت الفيلم في التلفاز « رجل الرمل الطيب » اعطني يا ميخائيل قبلتين زيادة .

انصرفت سيسيل لتنيم ابنها ، ولكن عندما أراد الزوج أن يأخذ كلمة ـ وهما على انفراد ـ استبقته قائلة :

« إن الأمر ليس كئيبا كما تتصور ، ولو حاولت أن تقضي يوم أحد معنا ، فإنك ستفهم ما أقول خصوصا أنه يتحتم أن تمحو من ذهنه الزوار . خلال أيام الاسبوع تكون المقبرة فارغة وأحس نفسي مرتاحة ، وميخائيل يتعلم فيها حروفه أفضل من تعلمها في كتاب ، وسيعرف سريعا ما يجب عليه أن يتعلق به . وأنت أيضا يا جاك تعيش وتمرح وسط الأموات .

ـ أنا ؟

ـ نعم ، أنت ، ككل الناس ، فالشارع مليء بهم .

ـ أنا أرى الناس كما سيكونون وكما سأكون .

ثم أخذت سيسيل تبكي فجأة وبغزارة ، مثلما يحدث لها بمجرد معاكسة زوجها لها عن طريق رفع صوته .

قال لها وهو يمسد شعرها : « حسنا ، إنني لم أكن أريد أن أضايقك ، وإذا كنت تظنين أن ميخائيل لن يتألم من ذلك فلا بأس » .

على أن جاك قد وجد زوجته متغيرة عما كانت عليه ، فهي أكثر حديثا وأكثر حيوية ، وفي تلك الليلة كانت سيسيل ملاطفة أكثر من المعتاد .

وتساءل جاك عما إذا لم تكن تضمه بدافع من الخوف أكثر من دافع الرغبة ، وقد ظلت تمسكه به مدة طويلة حتى حان وقت النوم .

في اليوم الأخير من العطلة أخذت سيسيل ميخائيل إلى حديقة لوكسمبورغ ، وعند جذع الشجرة كان أولاد مسلحون بالمجارف والعصي يحفرون حفرة لدفن طائر ، وكان ميخائيل ينظر إلى الاحتفال المأتمي . اختفت الجثة الصغيرة ذات الجفن الأصفر تحت التراب مصحوبة بزهور ممنوعة قطفها الأولاد خلسة . كان أكبر ولد في « العصابة » يرتل أيضا أنشودة رتيبة غير مفهومة ، ثم استدار نحو بنت كانت رموشها ترف ولا تفلح في أن تبكي .

: « الطائر مات ، عاش الطائر » قال ولد آخر .

هل عندك أسرة أنت ؟ اجاب ميخائيل : نعم

ـ « إذن ، ستدفع حصتك لشراء الاكليل ، كل واحد يدفع ما يقدر عليه »

جرى ميخائيل نحو أمه التي كانت تحلم فوق كرسي وقال لها : ساحتاج إلى نقود . وكانت الام المأخوذة بالمفاجأة تحملق في اليد الممدودة والعينين المأساويتين :

ـ لتشترى العصرونية ؟

قال ميخائيل : من اجل الميت .

ـ لكن أي ميت ؟

قال ميخائيل : مثل ما في حديقتنا الأولى ، ولكن ليس هناك اسم لأن الطائر لايتكلم .

ـ آه ، دفنتم طائرا ؟

ـ نعم والنقود لكي نشتري له اكليلا .

ـ قالت سيسيل وهي مسرورة بالحدث : ليست معي نقود لكن يمكنك هذا المساء أن تطلب ذلك من والدك .

جرى ميخائيل ليعلن النبأ للاولاد الآخرين الذين استمعوا إليه وقد أحاطوا به ، ثم سرعان ما طردوه من حلقتهم . □

خطأ الحساب وتدمير العالم

حرب النجوم و«الكمبيوتر» والاستقرار الاستراتيجي

بقلم : بسام اسخيطة *

منذ انتخب ريجان رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ، وسعيه ـ مع إدارته ـ لتأكيد تفوق أمريكا وسيطرتها على دول العالم بكل الوسائل والأساليب لم يتوقف ، ومنها خطته المشهورة بحرب النجوم المثيرة للجدل وللمشاكل السياسية والفنية كمشكلة زمن ووسائل اتخاذ قرار بتوجيه الضربة المضادة ـ التي يعالجها هذا المقال ـ حيث يكفي خطأ واحد فيها لتدمير العالم كله .

تقوم خطة « حرب النجوم » في الأساس ، على مفهوم تنسيق مكونات الأنظمة المضادة للصواريخ بالعمق . وأعني بالتنسيق وضع هذه المنظومات على انساق أو مراحل مختلفة واحدا بعد الآخر ، بحيث تكون قادرة على اعتراض الصواريخ البالستية العابرة للقارات وهي تطير في مراحل الطيران المختلفة .

والخطة تنص على وجود أربع مراحل اعتراض .

١ ـ الصاروخ وهو في مرحلة الطيران الفعال .

٢ ـ مرحلة انفصال الرؤوس القتالية للصواريخ .

٣ ـ الرؤوس القتالية وهي في مرحلة طيرانها الوسطى .

٤ ـ الرؤوس القتالية في مرحلة الطيران الأخيرة .

يجب أن تتم مطابقة عمل مختلف انساق مكونات الأنظمة المضادة للصواريخ وقيادتها بواسطة « أنظمة القيادة الدنيا » التي تتألف من « كمبيوترات » كثيرة ، تنفذ المهام الدنيا التالية : جمع المعلومات الجديدة عن الصواريخ البالستية المنطلقة ، وتحليلها الأولي ، وتصحيحها ، وحساب « مسارات الصواريخ » والرؤوس القتالية المنفصلة عن هذه الصواريخ ،

* كاتب وباحث في الشئون العسكرية ، ومدير تحرير مجلة الاستراتيجيا العسكرية السورية .

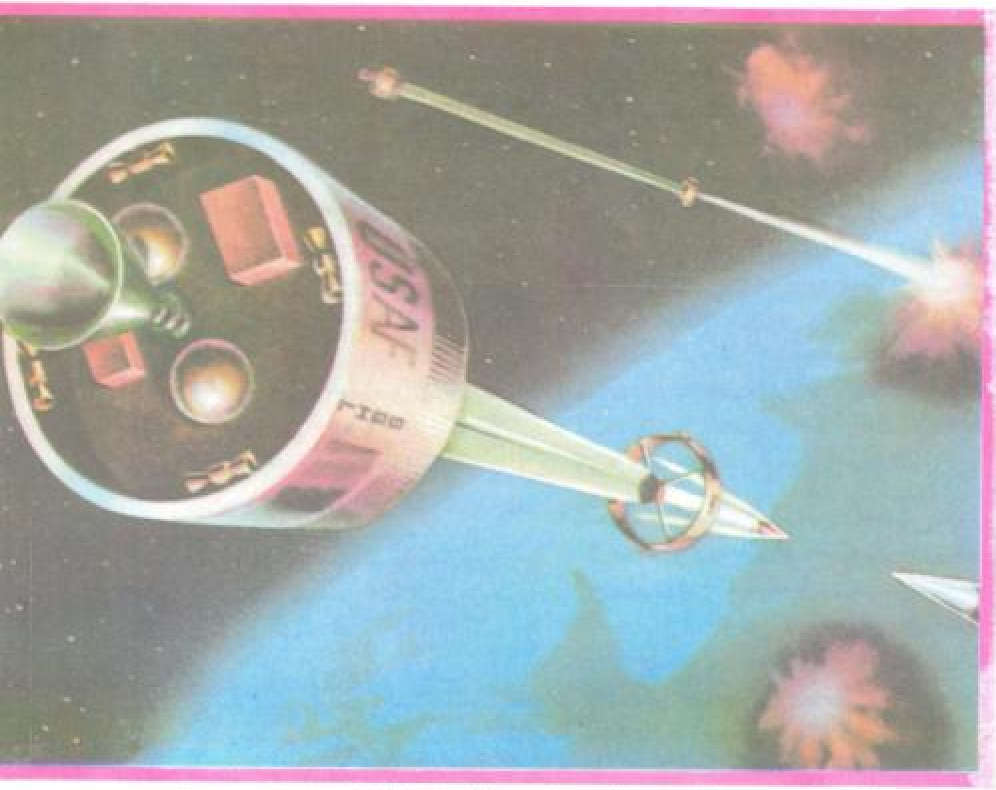

● ـ محطة فضائية مزودة بمدفع كهرومغناطيسي ، إحدى المنظومات المضادة للصواريخ ، وبخاصة الباليستية ، العابرة للقارات ، والأهداف الفضائية والجوية . هذا المدفع قادر على إطلاق قذائف وزنها ٢٥ كغ ، بسرعة ٣٥ كم في الثانية ، إلى مسافة ٥٠٠٠ كم .

وتوجيه الأسلحة الليزرية ، وأسلحة الحزم « المدافع الكهرمغناطيسية » ، وطائرات اعتراض الصواريخ المزودة بالصواريخ المضادة للصواريخ ، وإخراج الصواريخ ذات الرؤوس القتالية غير النووية التي تتوجه ذاتيا ، واختيار لحظة تدمير الهدف في نسق الدفاع المطلوب ، وتصحيح المعطيات حسب درجات التدمير ومستوياته ، وتكرير العملية أو العمليات .

أثناء ذلك يجب مطابقة المعلومات المتلقاة بصورة مباشرة من مرسلات المحطات القتالية ، مع المعلومات المتعلقة بالموقف الاستراتيجي العام ، ولكن هذه المطابقة غير ممكنة إلا في حالة وجود معلومات عن الحالة الاستراتيجية الجارية والحالية في إحدى مكونات الأنظمة الدنيا التي تُعلن باستمرار وتُستكمل من المصادر الذاتية أو غيرها من المصادر التي يمكن أن تكون غير ملائمة لمرسلات المحطات القتالية .

ولا يمكن دون ربط المعلومات المتوفرة عن انطلاق الصاروخ الباليستي المعادي بالسياق العام للموقف الاستراتيجي تمييز اطلاق الصواريخ الباليستية عن أنشطة العدو الأخرى ، مثل : إطلاق الصواريخ الحاملة للأقمار الصناعية ، واطلاق صواريخ للتنبؤ

بالأحوال الجوية بصورة ناجعة ، وغيرها ، لذلك يتعين إدخال جميع مكونات الموقف الاستراتيجي مبرمجا على لغة الكمبيوتر في أنظمة للقيادة القتالية الأرضية ، فيتحول مباشرة إلى تركيبات معقدة ، ضمن عناصر الذكاء الصناعي .

لقد أصبحت هذه الحقائق معروفة في أيامنا هذه لدى جميع العاملين في « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » أو « حرب النجوم » ، ولذلك فقد سُخّنتْ حدة المناقشات على ضوء هذه المتطلبات ، وبخاصة لكل ما يتعلق بأنظمة للقيادة الدنيا ، وأعني بذلك « كمبيوترات » الذكاء الصناعي التي مازالت حتى الآن قيد التصميم في الولايات المتحدة الامريكية ، وما يتعلق بكل ذلك من مشكلات كثيرة .

النسق الأول والأسئلة الحرجة

تتوقف فعالية المنظومات المضادة للصواريخ برأي السيد ج . فلتشر ـ رئيس لجنة البيت الأبيض ، لحرب النجوم ، المُشكّلة عام ١٩٨٣ـ بكاملها على النسق الأول : فهو الذي يتمتع بأهمية حرجة ـ كما يقولون في لغة العلم الحديث ـ لعمل المنظومة كلها وقيامها بوظيفتها . يوافقه في الرأي عمليا جميع أنصار برنامج حرب النجوم والعاملين فيه .

حيث تتوفر في النسق الأول ميزات ثلاث :

الأولى : أن الصواريخ الباليستية وهي في مرحلة طيرانها الأول تدمر مع ما تحمله هذه الصواريخ من رؤوس قتالية ، إذ يرتفع عدد الأهداف في القطاع الأوسط من مسار طيران الصاروخ عشرات المرات بل حتى مئات المرات .

وتتلخص الميزة الثانية بسهولة كشف اطلاق الصاروخ الباليستي ومتابعة الصاروخ في المرحلة الدنيا من مسار طيران الصاروخ الباليستي بفضل الأشعة تحت الحمراء الهائلة التي تنطلق من عادم محرك الصاروخ ، بينما يتعذر ذلك كثيرا بعد انفصال الرؤوس القتالية من جسم الصاروخ .

والميزة الثالثة : تنبثق عن كبر أبعاد الصاروخ بالمقارنة مع الرؤوس القتالية ، مما يسهل مهام تدمير الصاروخ الباليستي العابر للقارات .

ومن المفترض أن النسق الأول إذا لم يعمل بفعالية ، تصبح إمكانات الأنساق الأخرى ، أو التالية في اعتراض الصواريخ والأهداف ضعيفة جدا ، لذلك تذكر الوثائق الأمريكية الرسمية ضرورة تدمير الصواريخ والأهداف بنسبة ٩٠٪ ، في مرحلة الإطلاق الأولى من أجل تأمين « القدرة الحيوية » للمنظومة كلها .

أكد الجنرال ج . ابراهسون مدير منظمة تنفيذ « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » أن تشكيل منظومة الأسلحة ، وتأمين استخدامها في النسق الأول باعتبارها من أهم مستويات المنظومات المضادة للصواريخ في برنامج البحوث والتصميم الخاص بمبادرة الدفاع الاستراتيجي يولى عناية كبرى .

إلا أن العاملين في برامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ومعظم الاختصاصيين الأمريكيين يعترفون أن فعالية عمل المنظومات المضادة للصواريخ في النسق الأول ستتوقف على عناصر زمنية كما بينت « لجنة فليتشر » . لقد بينت الوثائق الامريكية الرسمية أن مرحلة الإنطلاق الأولى للصاروخ الباليستي العابر للقارات تستغرق ٤ ـ ٥ دقائق إذا أدخلت تحسينات هائلة على هذه الصواريخ ، ويمكن تخفيض هذه المدة إلى ١٨٠ ثانية ، إلا أن أحد كبار الاختصاصيين في شركة أمريكية كبرى تقوم بتصميم هذه الصواريخ وإنتاجها قد أكد أن هذه المرحلة ستخفض إلى ٥٠ ثانية فقط .

لذلك يطرح عدد كبير من الاختصاصيين الأمريكيين المعادين لهذه المبادرة « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » السؤال التالي : كيف سيمكن اتخاذ قرار خلال عدة عشرات من الثواني ؟ وكيف سيمكن تحريك المنظومات المضادة لهذه الصواريخ وتشغيلها وهي قابعة في نسقها الفضائي خلال عدة ثوان دون إجراء بعض التحضيرات الأولية ؟ وهل سيكون الوقت كافيا لاتخاذ القرار من قبل الإنسان ، أم أن كل شيء سيقرر بصورة « اوتوماتيكية » ؟ وإلى أي مدى ستكون منظومة القيادة المؤتمتة للأعمال القتالية

ناجعة ؟ وكم سيؤثر ذلك على الاستقرار الاستراتيجي ؟

حسابات الزمن وقرار الضربة المضادة

لنتوقف بادي ذي بدء عند عمليات اتخاذ القرار من قبل القيادة السياسية للولايات المتحدة الامريكية ، لاستخدام الأسلحة النووية حسب تصورات العلماء الامريكيين ردا على تسلم معلومات عن قيام العدو باطلاق صواريخ بالستية عابرة للقارات حاملة للرؤوس النووية .

ذكرت المعلومات التي تنشرها إدارة الرئيس ريغن ـ صاحب المبادرة ـ أن معالجة المعلومات الواردة عن انطلاق الصاروخ يحتاج إلى عدة دقائق إلى حين اتخاذ رئيس الولايات المتحدة قرار توجيه الضربة المضادة .

ولكن الخبراء الامريكيين قد أكدوا أن معالجة المعلومات الواردة من الاقمار الصناعية الخاصة بالإنذار عن الهجوم الصاروخي وإرسالها يستغرق دقيقتين على الأقل .

سلطت الصحافة الأمريكية الضوء على آليات اتخاذ القرار المتعلق « بالضربة المضادة » ، بعد تلقي المعلومات من الأقمار الصناعية ، ومن محطات الرادار الأمامية : تعطى دقيقة للتحقق منها عبر الإدارة المركزية الموحدة للدفاع الجوي الفضائي من أمريكا الشمالية « نوراد » ، ولا تعد المعلومات الواردة موثوقة إلا إذا أيدها نسقان من أنساق الإنذار ومحطات الرادار ، ثم تعطى دقيقة للتحقق من صحة عمل المنظومة ، ثم تمر ٣٠ ثانية . وينقل الضابط المناوب صورة الموقف إلى قائد « نوراد » أو إلى نائبه إذا كان غائبا ، فيرفع الأخير تقريره إلى مقر القيادة القومي في واشنطن ، لإيصال هذه المعلومات إلى رئيس الولايات المتحدة ليقوم باتخاذ القرار المناسب .

ويرى الخبراء أن الاجراءات المذكورة يجب أن تتطابق مع شرطين أساسيين على الأقل : أولا : يعد القرار على أساس حسابات الزمن اللازم لإطلاق الصواريخ العابرة للقارات ، لذلك يؤخذ في الحساب زمن طيران الصواريخ البالستية العابرة للقارات وهو ٢٥ ـ ٣٠ دقيقة ، وزمن طيران الصواريخ المنطلقة من الغواصات الذرية وهو ٨ ـ ١٢ دقيقة . ثانيا : عندما تكون الصواريخ البالستية في القطاع الفعال (أي القطاع الابتدائي) يجب على رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، أو نائبه اتخاذ القرار بنفسه (عامل بشري) لتجنب الخطأ الذي يقع فيه « الكمبيوتر » .

ولكن مثل هذه الاجراءات لا تتجاوب مع متطلبات الموقف بعد نشر جميع المنظومات المضادة للصواريخ التي تعتبها « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ، اللهم ما عدا حالة تكون فيها الولايات المتحدة قد عقدت العزم على أن تكون هي المبادرة أولا بتوجيه الضربة الأولى .

وتتبنى مجموعة الاختصاصيين في واشنطن مفهوما للضربة المضادة ، يقوم على « سيناريو » زيادة فعالية النسق الأول ضد منظومات الصواريخ ، لاتستغرق فيه عملية اتخاذ القرار كلها أكثر من ثانية واحدة ، ولكن ذلك يعني بالضرورة أن عملية اتخاذ القرار كلها يجب أن تكون مؤتمتة .

لهذا فقد بين اتحاد العلماء الامريكيين في هذا الصدد قائلا : يمكن حل مشكلة اتخاذ قرارات متسلسلة أكثر تعقيدا خلال ثانية واحدة ، في حالة واحدة فقط هي عدم مشاركة الإنسان في هذه العملية .

ومن رأي الخبراء أيضا أن تحوّل سلسلة إجراءات اتخاذ القرار على الأنظمة المؤتمتة يتوقف على إمكانات المجموعة القتالية على الصمود أمام التدابير المضادة التي يقوم بها الجانب الآخر ، أو العدو بالتحديد .

حيرة الإدارة الامريكية

بين هذا وذاك تقف إدارة الرئيس ريغن وانصارها في وضع شديد الحساسية والدقة ، أو في (حيص بيص) كما يقول شاعرنا الكبير أبو العلاء المعري ، فالاعتراف بضرورة مشاركة الإنسان في عملية اتخاذ القرار يعني الاعتراف بوجود نوايا توجيه الضربة الأولى ضد الاتحاد السوفييتي و « اقتناص » الصواريخ الاستراتيجية بواسطة المنظومات المضادة

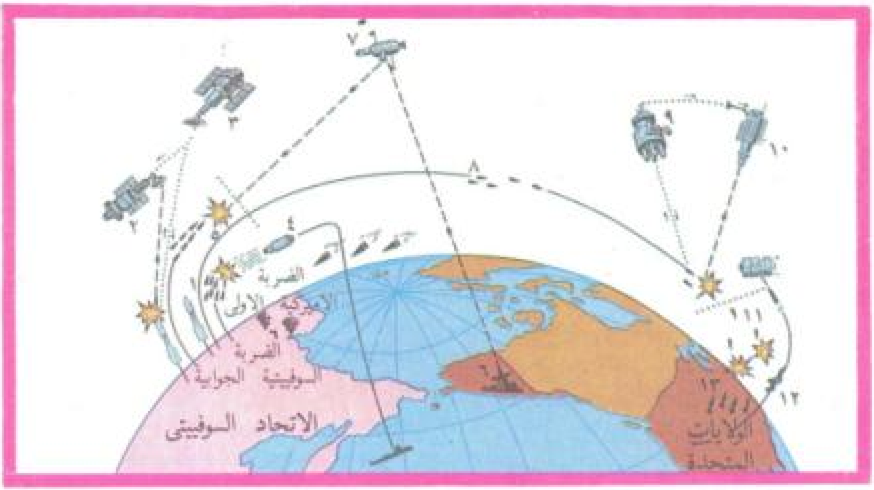

● ـ مخطط المنظومة الأمريكية المتعددة الأنساق المضادة للصواريخ المرابطة في الفضاء:

١ ـ القطاع الفعال من محرك باليستي عابر للقارات
٢ ـ محطة فضائية قتالية .٣ ـ قمر صناعي للانذار المكبر .
٤ ـ صاروخ ليزر رونتجني أطلق من غواصة ذرية .
٥ ـ انقسام الرؤوس القتالية للصاروخ الباليستي .
٦ ـ جهاز ليزر للطاقة .
٧ ـ مرآة ليزرية لعكس الأشعة الليزرية .
٨ ـ القسم الوسطي من محارك الرؤوس القتالية .
٩ ـ قمر صناعي للدلالة على الهدف .
١٠ ـ سفينة فضائية مع مشرّع .
١١ ـ القطاع النهائي من محرك الرؤوس القتالية .
١٢ ـ مجموعة صواريخ الاعتراض .
١٣ ـ صواريخ مضادة للصواريخ قريبة المدى لبعيدة المدى .

للصواريخ ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الموافقة على خطط تحويل عملية اتخاذ القرار على النظام (المؤتمت) الكامل يلاقي موجة من المعارضة السياسية العارمة لقرنهم إياها بمفهوم « الاطلاق بمجرد الكشف » ، أي إطلاق الصواريخ الامريكية مباشرة بعد وصول اشارة انطلاق الصواريخ المعادية .

لذلك يرى الاختصاصيون أن طرائق اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة يعني أنهم قد عملوا حساباتهم على أساس إطلاق المنظومات المضادة للصواريخ ، مع اطلاق الصواريخ الاستراتيجية الامريكية ضد الاتحاد السوفييتي .

إن اختيار إدارة الولايات المتحدة الامريكية للطريق الثاني ، طريق اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة ، يعني وضع حد للمشاركة في النقاش الدائر حول هذه المشكلة .

صرح السيد ج . كيورت المستشار السابق للرئيس ريغن للشؤون العلمية والتقنية فقال : إني أؤيد بكل قوة فكرة الأتمتة الكاملة لعملية اتخاذ القرار ، على اساس أن تلك الفترة القصيرة من الزمن ومقدارها **٢٤٠ ثانية** ـ هي قطاع الطيران الابتدائي للصاروخ الباليستي العابر للقارات ـ غير كافية لاتخاذ القرار اللازم من قبل الإنسان . وقال مساعد وزير الدفاع السابق ر . بيرل : « إن قضية مشاركة رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، أو غيره ، في اتخاذ القرار قد أصبحت ثانوية » .

مشكلات عويصة ومعقدة

وضعت مسألة اختيار طريقة الأتمتة مشكلات ومسائل جديدة أمام العلماء والمصممين ، من أكثرها صعوبة : التعرف الصحيح على الهدف ، أي على الصاروخ المنطلق ، وتمييزه عن الأهداف الكاذبة .

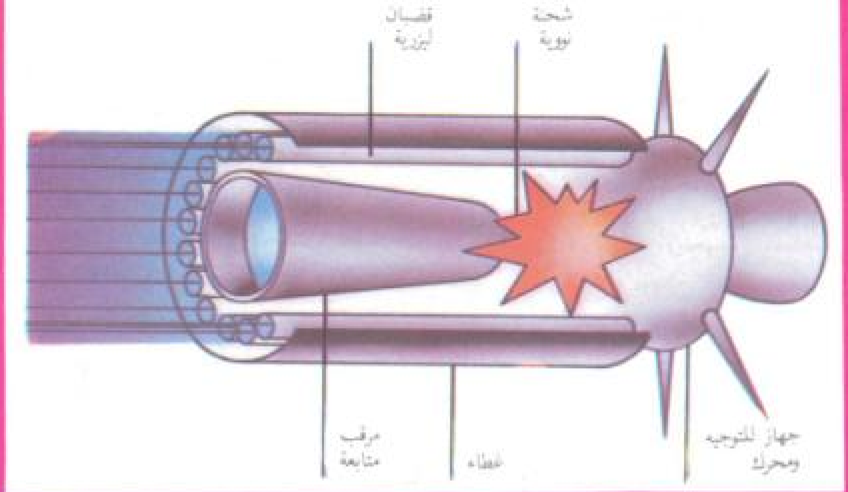

● ـ مخطط ليزر « رونتيجي » ذي حشوة نووية ، مخصص لتدمير الصواريخ البالستية في المحرك الفعال الابتدائي ، وهوجزء من منظومات النسق الأول . ويتولد الإشعاع الرونتيجي من تفجير الحشوة النووية .

وعن التشويشات الطبيعية ، والصناعية .

ولا يتأمّن ذلك بالتحقق من هوية الصاروخ أو الهدف حسب دلالة واحدة مثل السرعة ، والأبعاد ، وحرارة العادم ، بل حسب مجموعة من الدلالات ، لذلك فإن الإشارات التي ترسلها المرسلات ، ستعالج في الوقت نفسه أو مع ظهور تقييم مظاهر الصاروخ .

لكن من المعروف أن وسائط الحماية الموجودة ، والتشويش الالكتروني ، تؤثر حتما على منظومة المتابعة ، وتتولد أوضاع تكون فيها عدة أقنية من أقنية معالجة المعطيات معطلة ، ولا تعمل أو تعطي إشارات متناقضة .

تنجم عن ذلك مسائل معقدة ، محيرة ، مثل : ماذا يتعين عمله لاتخاذ قرار تدمير الصاروخ ، أو الهدف ؟ وهل سيكفي عدم عمل أحد أقنية منظومة التعرف على الهدف أو الصاروخ لإلغاء قرار تدمير ذلك الهدف أو الصاروخ ؟ أليس ممكنا توقف قناتين أو أكثر ؟

لو أدخلنا في حسابنا ما بلغته وسائط التشويش الالكتروني « الحرب الالكترونية » من مستويات رفيعة فإن ذلك يوجب إدخال هذه المستويات في صلب تصميم المنظومات المضادة للصواريخ ، وإلا فماذا سيكون الأمر ؟

إن انخفاض عتبة عمل منظومة التعرف على الصواريخ أو الأهداف تجعل المنظومة تتجاوب مع إشارات ليس لها علاقة بانطلاق الصواريخ المعادية .

وتأتي الأخطاء الأخرى من خطأ أو أخطاء البرمجة ، ونعني بذلك برمجة « الكمبيوترات » . وأخطاء البرمجة لايمكن تلافيها مهما كانت دقيقة .

في الآونة الأخيرة تعالت أصوات نقاش حاد حول « سلاح الطاقة الموجهة » ، ومشكلات تأمين محطات الطاقة الموجهة بالطاقة نفسها ، وهي من منظومات الدفاع ضد الصواريخ ، علما بأن الطاقة الموجهة تحتاج إلى كميات هائلة من الطاقة

أخطاء البرمجة وتدمير العالم

بالنسبة لأخطاء البرمجة تضرب المثل بما حدث لبرنامج قيادة السفينة الفضائية « جيميني ـ ٥ » ، فقد تبين أنه لم تدخل في الحساب حركة الأرض بالنسبة للشمس ، فنجم عن ذلك انحراف السفينة عند الهبوط عن مكان هبوطها المحدد مائة ميل (١٦٠ كم) .

وقد ذكر الباحث الاميركي غ . لين : لايجب القيام بدراسة مسبقة لطبيعة الأخطاء ، ولا لأعدادها التي وقعت في مرحلة التخطيط ، ولا في مرحلة التصميم . ولا يمكن تدارك عدم الوقوع في هذه الاخطاء إلا إذا كشفت قبل وقت كاف من الزمن أو بصورة مسبقة . إنه لا يوجد غير طريقتين حقيقتين لتقدير نجاح البرامج . الطريقة الأولى تحليلية ، وذلك بالتحقق من صحة البرامج بالطرق الرياضية ، ومقارنة نتائج الحسابات حسب معايير موضوعة سابقا . ولكن من عيوبها عدم قدرتها على ضمان صحة عمل البرنامج ، عندما تأتي إشارات غير متوقعة ، ولا متنبأ بها .

الطريقة الثانية وهي أكثر أهمية ، وهي « التحقق التجريبي » ، ولا يمكن تجريب المنظومات المضادة للصواريخ في شروط قريبة جدا من الواقع ، والسبب ليس في الكلفة الهائلة لهذه التجارب فحسب ، بل إن الاتحاد السوفييتي سيشك كثيرا في براءة هذه الكثرة الهائلة من الصواريخ التي يجري تجريبها ، وسيرى أنها ضربة أولى موجهة اليه عن طريق الخدعة بالادعاء أنها تجريبية .

ويولي الاختصاصيون في الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بمسائل البرمجة ، وتأمين البرامج « للكمبيوترات » الخاصة بقيادة المنظومات المضادة للصواريخ . وهم في هذا يهتمون بمشكلتين : الأولى مهمة تلافي الأخطاء الملاحظة بعد البرمجة ، والثانية تنظيم المعالجة .

المهمة الأولى تتعلق باسطوانة البرنامج المحسوب لمعالجة المعلومات خلال مدة زمنية حقيقة ، يمكن أن تعمل هذه الاسطوانة مع نوع من « الكمبيوترات » ولا تعمل مع نوع آخر ، حتى ولو كان الاختلاف بسيطا ، كما أن الخطأ الذي حدث مرة قد لايتكرر لمعرفة كنهه وتلافيه ، وهذا ما يحدث غالبا ، فيتعين وضع البرنامج مرة أخرى ، وعندئذ تكون نسبة ارتكاب خطأ جديد في البرمجة تتراوح بين ١٥ ـ ٥٠٪ .

أما المهمة الثانية المتعلقة بتنظيم المعالجة فقد بين الباحثون الامريكيون أنه من أجل تحقيق مشاريع إعداد برامج « للكمبيوترات » العائدة لمبادرة الدفاع الاستراتيجي ، يتطلب عمل ٣٠٠ ألف شخص في السنة ، أي ثلاثة الآف اختصاصي يعملون خلال مدة ١٠ سنوات . وهذه المدة الطويلة سيعتورها تبديل العاملين في المشاريع البرمجة لأسباب مختلفة كالوفاة والمرض والانتقال إلى أماكن جديدة ، وتبديل أنواع العمل ، وغيرها من الأسباب وهذا قد يؤثر بصورة سلبية على البرمجة كلها ، إذ سيقوم عدة أشخاص بوضع برنامج واحد ، ولكل إنسان أسلوبه وخبراته وطاقاته ، فقد يهتم أحدهم بنوع من التفاصيل ، بينما لا يهتم آخر بها ، وقد تكون لبعض الأمور أهميتها ولا تكون للأخرى ، وقد يتفهم بعضهم بعض الأسلحة وخواصها ، بينما يستعصي ذلك على آخرين .

عموما تتلخص المشكلة ليس في وجود أو عدم وجود الخطأ في برنامج المنظومة ، ولكن في احتمالات وجود أخطاء مسموح بها كُمُونيا من بين ملايين الاحتمالات . مسألة وجود « مجاهيل في المجهولات » ، أي عن تلك الأخطاء المستترة التي تبقى كامنة دون إمكان التنبؤ بها . لذلك نجد عددا كبيرا من الاختصاصيين في حرب النجوم ، يميلون إلى الاعتقاد أن إيجاد أنظمة تحتية للقيادة ناجحة تماما أمر قليل الاحتمال ، واحتمالات الخطأ في عمل المنظومات المضادة للصواريخ ، وفي تفاقم النتائج العارضة الناجمة عنها عالية جدا .

إدارة ريغن تصر

يورد رجال إدارة الرئيس ريغن ثلاث « حجج » أو « براهين » لتبرير مستقبل التحول إلى عمليات

اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة ، وأن ذلك التحول لن يكون مدعاة لنشوب الحرب النووية ، بسبب أخطاء ناجمة عن « الكمبيوتر » .

أولا : إستغلال إمكانات « المعجزة التكتيكية » . ولكن يبقى الأمر كما قلنا سابقا ، فالصعوبة الرئيسية ليست في نجاح « الكمبيوتر » ، بل في نجاح البرامج ، أي في حدوث أخطاء خواريزمية .

ثانيا : بدء المواجهة النووية ، ربما يكون نتيجة توترات طويلة الأمد ، مما يضع القيادة الامريكية في وضع « الجاهزية » لاتخاذ التدابير في الوقت المناسب ، وبالتالي « القرارات » . ولكن الخبراء الامريكيين يعترفون أن هذا « السيناريو » « المفترض » ليس إلا واحد من « سيناريوهات » كثيرة ستكون رهينة « الكمبيوترات » العسكرية .

ثالثا : ان بدء عمل المنظومات المضادة للصواريخ لن يؤدي إلى تدمير الصاروخ أو الصواريخ مباشرة لدى العدو ، بعد ظهور إشارات خاطئة من « الكمبيوتر » .

مع اعتبار العوامل الجغرافية ، وشكل الأرض ، يمكن أن تعمل منظومات النسق الأول المضادة للصواريخ من الفضاء ، لذلك يتصور الاختصاصيون وجود نوعين من المجموعات الضاربة في المستقبل : (١) ما يسمى بمجموعات الاطلاق المفاجىء . (٢) المحطات القتالية المزودة بأسلحة ضاربة موجودة في وضع المناوبة الثابتة ، في مدارات منخفضة حول الأرض ، بالإضافة إلى استخدام المرايا المرابطة في الفضاء للأسلحة الليزرية ، وتسديدها إلى صواريخ العدو .

. تولي الولايات المتحدة الامريكية اهتماما كبيرا بسلاح الليزر الرونتيجني الذي يطلق من الغواصات الذرية ، المرابطة قرب السواحل المعادية ، وذلك بهدف تقليص المسافة بين الوسائط المضادة للصواريخ الأمريكية ومناطق انطلاق الصواريخ السوفيتية ، بما لا يقل عن ١٢٠٠ كم ، مما يحتاج على الأقل إلى ١٢٠ ثانية لاستخدام منظومة الليزر منذ بدء انطلاق الصاروخ أو الصواريخ الباليستية العابرة للقارات .

فوق كل ذلك لا تستطيع الغواصات بقوة خصائصها التكتيكية إطلاق جميع المنظومات المضادة للصواريخ دفعة واحدة ، بل بالتتابع ، مع المحافظة على فواصل زمنية بين كل إطلاق وآخر ، لأن الغواصة لاتتحمل من حيث بنيتها قوة انطلاق الصواريخ دفعة واحدة . وهذا سبب من أسباب عدم إمكان استخدام جميع المنظومات المضادة في النسق الأول ، كما ادعى الخبراء ، اللهم إلا إذا وجهت الولايات المتحدة الضربة الأولى ، ثم ادخرت النسق الأول للضربات المضادة .

هل يجدي الإنذار ؟

ذكر الجنرال **ابراهامسون** أن تنشيط المنظومات للصواريخ ، بما في ذلك تشغيل « الكمبيوترات » ، لن يحدث إلا في مرحلة الأزمة ، فقال : في لحظة نشوب الأزمة يستطيع رئيس الولايات المتحدة الامريكية اتخاذ القرار بصورة مسبقة ، وينذر الروس قائلا لهم : « انني أشغل الجزء المهم من المنظومة بصورة ممتازة » . وهذا يعني أن التشغيل سوف يكون « اوتوماتيكيا » ، اعتمادا منه على أن مثل هذا التدبير سيقلص التوتر ، ويخفض من حدته .

إن الموقف الاستراتيجي السائد في العالم على الرغم من معاهدة واشنطن لإزالة الصواريخ المتوسطة المدى ، وعلى الرغم من محادثات جنيف الحالية ، وعلى الرغم من اتفاقات قمة موسكو مازال كما هو و « حرب النجوم » مازالت على حالها ، لم تمتد إليها المحادثات ، لإصرار الجانب الامريكي على عدم المساس بها في أي محادثات ، وهي تحمل في طياتها - شاء أنصار حرب النجوم أو لم يشاءوا - أخطار نشوب حرب نووية بالصدفة أو بالخطأ ، أو بالتعمد ، بالأسباب جميعها ، إذ تزداد المجاهيل الرياضية - إن صح هذا التعبير بلغة الرياضيين - والأمر يبقى دوما في رغبة الامريكيين في التفوق بلا حدود على عدوهم مهما كان الثمن . وحرب النجوم تفتح لهم أبواب التفوق على مصاريعها ، وتخل بالتوازن الاستراتيجي ، وتهدد العالم بالخطر النووي ، وبعدم الاستقرار الدولي . □

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

أكتوبر ١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- مراسم حرة للأطفال في الكويت.
- همام "مسلسل بالألوان".
- دومة الجندل. "مدن لها تاريخ".
- زرقاء اليمامة "مسلسل تاريخي".
- حكاية من ألف ليلة وليلة.
- توتة وكيكو وزيكو.

إضافة للأبواب الثابتة

- إسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٣١

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ الرضاعة واليوجا

■ الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة

الرضاعة واليوجا

بقلم : الدكتورة أمل علي المخزومي

يتفق الأطباء وعلماء التربية على أهمية الرضاعة الطبيعية للوليد والأم معا .. ولكن ، هل من طريقة ترضع بها الأم وليدها دون انفعال أو توتر نفسي ، لتوفر للطفل جوا نفسيا ملائما ؟

انتشرت رياضة اليوجا في أوربا في الآونة الأخيرة ، بعد أن كانت محصورة في الهند . وسبب ذلك هو اندفاع الاوربيين وراء الرشاقة والتخلص من التوترات النفسية عن طريق الاسترخاء المصاحب لتلك الرياضة ، واعتقد أن المرضعة في أمس الحاجة الى ممارسة تلك الرياضة لفوائدها الكثيرة خاصة أثناء الرضاعة ، ولأن بعض الأمهات من ذوات الولادة الحديثة ليست لديهن فكرة واضحة عن متطلبات فترة ما بعد الولادة ، وهل يرضعن أطفالهن بالطريقة الطبيعية أم بالطريقة الاصطناعية ؟ .

والرضاعة الطبيعية تساعد على تقلص الرحم ، ويعتمد التقلص على نوعية الجلسة عند الإرضاع وأحسنها هي الجلسة التي تشبه جلسة اليوجا ، وسنأتي على شرحها . كما تساعد الرضاعة الطبيعية على ازالة التوتر ، وكهربائية الجسم الحاصلة لدى الام ، وذلك من خلال تبادل النظرات بين الام والرضيع أثناء الرضاعة ، وما يرافقها من دفء وحنان خلال حضن الأم لرضيعها وضمه الى صدرها . اضافة الى التخلص من الحليب المتراكم في الثدى الذى إن لم يرضعه الطفل بسبب مشاكل لا حصر لها من آلام وقيح . كما توفر طريقة الرضاعة الطبيعية الجهد الذى تبذله الام في اعداد وجبات الحليب للرضيع .

كذلك تساعد الرضاعة الطبيعية الرضيع على اكتساب المناعة ضد الأمراض المختلفة لاسيما الاسهال . كما أن تركيز نسب المواد الموجودة في حليب الام ينتظم حسب نمو الرضيع . وتكون افرازات الثدى في الأيام الثلاثة الاولى غنية بالاملاح والبروتينات وقليلة الدسم ، ويطلق عليها (الكولستروم) . ويتحول هذا الكولستروم في اليوم الثالث او الرابع الى لبن عادى ، ويفرز بصورة منتظمة ، وتقدر كمية اللبن التي تفرزها الام من ١ - ٣ لترات يوميا . يساعد الكولسترم الناتج من افرازات الثدى الوليد على تنظيف جهازه الهضمي ، اضافة للمواد الغذائية السهلة الامتصاص الموجودة في ذلك الكولسترم . كما أن وجبة الإرضاع جاهزة في محل نظيف وبحرارة حسب الحاجة ، ويعتبر تدفق الحليب من ثدى الأم عند جوع رضيعها بمثابة الساعة المنبهة للإرضاع ، وتحدث تلك الحالات وان كانت الأم بعيدة عن رضيعها ، كأن تكون في العمل او تمارس نشاطا معينا .

تهيء الرضاعة الطبيعية الجو النفسي للرضيع وذلك من خلال التفاعل النفسي والاجتماعي بينه وبين أمه مما يسبغ عليه الراحة والاطمئنان . كما نلاحظ نظرات الرضيع لامه التي تنم عن السعادة ، مع اللعب بيديه ورجليه عندما يشعر بالاطمئنان الكامل . ولا ننسى تجارب هارلو على القردة التي بينت بان القرد يفضل الرضاعة من الأم الطبيعية ، وان غابت فانه يفضل الأم الإصطناعية الناعمة ، وان غابت الاثنتان فانه يلجأ للام السلكية . ويدل هذا على ان لدفء وحنان الام أثرا في استجابة الرضيع الايجابية . لان الرضاعة ليست مجرد اشباع حاجة بيولوجية وانما هي موقف يعتمد على التفاعل الاجتماعي النفسي الحاصل بين الأم ورضيعها . وينعكس سلوك الأم الدال على الإسترخاء والاطمئنان على استجابة الطفل . كما أن خبرة الرضاعة السليمة تزيد من ثقة الطفل بنفسه وبمجتمعه .

رياضة نفسية

واليوجا نوع من الرياضة الذهنية والنفسية تساعد على ترويض النفس ، وتحمل كلمة يوجا في اللغة السنكريتية معنى الاتحاد مع الروح ، كما أنها مشتقة من كلمة « يوك » التي تعني وصل او ربط . وتعتبر اليوجا نوعا من العقائد الدينية العريقة التي انتشرت في الهند .

واليوجا كانت عدة أنواع في القديم ، ولكنها انحصرت في الأونة الاخيرة في ستة انواع تقريبا ،منها ما يتعامل مع الخوارق السحرية ، ومنها ما يستهدف القوى والقدرات المعينة ، ومنها ما يتناول الفضائل والواجبات ، ومنها ما ينصب على قيم الحياة اليومية والطقوس المنزلية ، ومنها ما يركز على التصرفات المناسبة التي تختص بوسائل التهيؤ للممارسة ، واخيرا يوجا الملوك التي تسعى تعليماتها الاخلاقية والعقلية الى إبراز فضائل الانسان .

ولليوجا فوائد اخلاقية اضافة للفوائد الصحية والنفسية . يدعي أصحابها بان ممارستها تؤدي الى تطوير الفضائل الاخلاقية للشخص ، لان هناك نوعا من اليوجا يساعد الفرد على التمسك بالعفة ، فعن طريق استرخاء التفكير ، يمكن كبت الرغبات واخمادها ، كرغبة الامتلاك أو الاغتصاب او السرقة . كما أن هناك تمارين تعمل على إسكات اللسان عن القيل والقال ونقل الشائعات والاكاذيب .

اما فائدة اليوجا من الناحية الصحية فانها تفيد الجسم من قمة الراس الى اخمص القدمين ، فهي تساعد العضلات على النمو والمرونة وشدها ، كما انها تعمل على تزويد الدم بالاوكسجين ، ومساعدته على التخلص من غاز ثاني اوكسيد الكربون . اضافة الى انها تساعد على توزيع الدم على انحاء الجسم فتمكن القلب من التخلص من الشحوم المتراكمة . وتساعد جلسة اليوجا على راحة العمود الفقري والاطراف والاحشاء الداخلية كالمعدة والمجاري البولية والكلى ، وعلى راحة المفاصل ، كما تساعد الجهاز العصبي على العمل بشكله الطبيعي ، والرئتين على اخذ كميات الاوكسجين المطلوبة .

ولكل وضع من اوضاع رياضة اليوجا منافع معينة ، فالرياضة التي تعتمد الوقوف على الرأس تساعد في علاج التغضنات والتجاعيد ، كما انها تساعد على تحسين السمع وغسل الدماغ وتقوية البصر .

تتدرج اليوجا في حلقات متتابعة من السهل الى الصعب ، والهدف من ذلك اعداد الفرد للوصول الى

مرحلة التفوق العقلي . ويستطيع الفرد ممارسة اليوجا في كل مكان وزمان وبدون شروط . وتبدأ بفترة خمس دقائق ثم تزيد الى عشر دقائق ، تزاد فترة الجلسات ما استطاع الفرد إلى ذلك سبيلا . وعليه أن يرتدي ملابس مريحة ، وغير ضيقة كي تساعد الدورة الدموية على العمل بالشكل المطلوب .

يوجا للمرضعة

تستطيع المرضعة أن تمارس « دهارانا » وهو اسم يطلق على المرحلة السادسة من مراحل اليوجا التي تتضمن الاسترخاء والتركيز ، وتعتبر مفتاحاً للعمليات العقلية . وكلمة « دهارانا » مشتقة من الكلمة التي تعني « امساك » التي يقصد بها بأن هناك قبضة قوية وحازمة تمسك العقل ، ويلعب عامل التركيز دورا مهما في ذلك . ويستعمل اصحاب اليوجا اصطلاحات لوصف الموقف بـ « التوجه الوحيد » ويقصد به الانقطاع عن مصادر الحس من خلال التركيز على فكرة واحدة أو على شيء واحد بحيث يتوصل العقل في استبعاد الأشياء الأخرى .

يجلس اليوجي في هذا النوع من الرياضة على بعد مترين تقريبا من العلامة التي يضعها لغرض تركيز النظر عليها كأن تكون على حائط خالٍ من المشتتات للإنتباه كالألوان والصور والاشكال ، او على غصن معين من اغصان شجرة محددة . ويصل اليوجي الى مرحلة النجاح عندما يجد جميع الاشياء من حول تلك النقطة قد اختفت ، وان بؤرة شعوره اصبحت في النقطة الدقيقة التي وضعها امام عينيه .

إن اكثر الأوضاع شيوعا في هذه الرياضة ، هو وضع القرفصاء ، مع استقرار اليدين المرتختين على الركبتين ، وتستطيع الام المرضعة ان تمارس تلك الرياضة اثناء إرضاعها لطفلها ، بحيث تتخذ وضع اليوجي في جلسته وتحتضن طفلها . وتركز النظر في نقطة معينة في وجه رضيعها ، وما احلى هذا التركيز بوجه طفل يشع براءة مما يسبغ على نفس الأم الراحة والتأمل . اضافة الى أن جلسة الأم في حالة ارضاعها لطفلها في الظروف الاعتيادية تشبه الى حد ما جلسة اليوجي ، الا انها تخلو من تلك النظرة التأملية . وتكون الفائدة مزدوجة حين يكون ارضاع الطفل بالطريقة الطبيعية من ناحية وممارسة اليوجا بمنافعها العديدة من ناحية اخرى .

ويعتمد ذلك التأمل لدى المرضعة على شخصيتها ، إذ أن الوسائل المساعدة على التأمل تنفع جميع الافراد ، وان اختلفوا فانما يختلفون في نسبة النفع ، وذلك لوجود الفروق الفردية بين الافراد من حيث مواقفهم ، وقدراتهم ، وميولهم ، وانماطهم الحياتية والنشاطات التي يقومون بها ، ومقومات بنيتهم الاسرية ، وخلفياتهم الاجتماعية والدينية والثقافية ، اضافة الى خبراتهم المختلفة في مجال الحياة .

وقد تصاب الأم بالتوتر وزيادة كهربائية الجسم . نتيجة للارهاق والتعب الذي يصاحب عملية الولادة وما يتبعها من ليال مفعمة بالسهر للعناية بالوليد . ونعلم بان كهربائية الجسم تزداد كلما ازدادت المثيرات التي يتعرض لها الفرد مما يتطلب منه الاستجابة لتلك المثيرات ، وتتباين تلك الاستجابات تبعا لقوة المثيرات وضعفها ، وتبعا للفروق الفردية . وتكون الوالدة في تلك الحالة في موقف مفعم بالمثيرات القوية التي تتطلب منها الاستجابات المستمرة مما يؤدي بالتالي إلى زيادة كهربائية الجسم الذي بدوره يزيد من توترها وصعوبة تكيفها لتلك المواقف ، فيظهر التعب والارهاق عليها أو تنتابها بعض الصراعات النفسية .

وتشعر اكثر النساء بالكآبة بعد الولادة نتيجة للتغييرات الهرمونية السريعة التي تحصل بعد الولادة . اضافة الى شعور الام بالتعب والسهر من جراء عملية الولادة ، وما يتبعها من عناية بالوليد . ويتعذر على الأم المصابة بالكآبة العناية بنفسها وبوليدها ، وهذا النوع من الكآبة يشبه المرض ، ويبدأ عادة في الشهر الأول من الولادة . كما يتعذر على الام تقبل دورها كأم ، وقد تشعر

بالعدوانية نحو طفلها احيانا ، او تجهش بالبكاء احيانا اخرى ، أو تشعر بالذنب دون سبب معين . كما ان هناك امهات يتناولن طعامهن دون شهية . وتستطيع الام ان تعالج نفسها بممارسة رياضة اليوجا قبل استفحال المرض ، ثم تقريب الرضيع اليها شيئا فشيئا وبعدها تستطيع ممارسة اليوجا في فترات الرضاعة مما يبدد الكآبة .

طفلك أولا

قد تلجأ الامهات الى أساليب خاطئة في الرضاعة ، دون أن يدركن عواقبها كأن ترضع الأم طفلها كلما بكى بينما قد يكون لبكاء الطفل سبب آخر غير الجوع .

وقد تترك اخريات الطفل يبكي جائعا ، والواحدة منهن منهمكة في الأعمال المنزلية أو التحدث بالهاتف أو مع الضيوف وما اليها من اهتمامات ، ولا تعلم الاضرار الناجمة عن هذا البكاء ، كأن تمتلىء معدة الطفل بالهواء الذي كثيرا ما يسبب الإسهال بعد اخذ وجبة الطعام .

وربما تسحب الام ثديها من فم طفلها قبل أن يشبع ، مما يودي به أن يكون قلقا على ثدي امه . وعند الارضاع نجده يغرس اظافره بالثدي او يعضه . وتستجيب الام لهذا الموقف بسحب الثدي أو معاقبة الطفل . وهذا الموقف يدعم اسلوب العض لديه ، وتتكون حلقة مفرغة بحيث يؤدي الى فقدان التفاعل الاجتماعي والنفسي بين الام والرضيع . قد تقضي الام على تلك الظاهرة بممارسة اليوجا .

وأثبتت الدراسات ان صعوبات الإرضاع لدى الامهات العصابيات أكثر من صعوباتها لدى الامهات غير العصابيات . لان الام العصابية تستعمل القسوة والعصبية في ارضاع طفلها ومن ثم فإن رياضة اليوجا ترخي الاعصاب وتريح الام .

ولعله من المناسب أن توصى الأم بما يجب اتباعه في ارضاع طفلها كأن لا تطعمه بغرفة النوم ، وانما يستحسن ان تذهب به الى غرفة اخرى مجاورة ، كذلك عليها اخذ راحة ونوم هادىء بعيداً عن الضوضاء ، وان كان في الامكان ، بوضع الطفل في مكان اخر بعيد عن غرفة نومها ليتسنى لها اخذ حاجتها من النوم ، وعلى الزوج أن يتعاون مع زوجته في العناية بالطفل ، وان يراقب حاجة الطفل خاصة ان كان الطفل غير هادىء أو يطلب من أي شخص قريب للأم ، مساعدتها على العناية بالطفل .

وعلى الأم ان تقاسم زوجها أو من هو اقرب الناس اليها همومها ، كي يعاونها على اجتياز تلك المرحلة .

وعلى الأم ان تكون اثناء رضاعها لطفلها هادئة مسترخية معتدلة بدون تدليل زائد ولا قسوة أو عصبية . وممارسة اليوجا تساعد على ذلك كثيرا .

كذلك يستحسن أن تضع الام جدولا زمنيا لإرضاع طفلها ، وإذا كانت حلمة ثدي الأم صغيرة فعليها ان تعمل اللازم لجعلها تتمدد بعض الشيء كي يستطيع الرضيع أن يمسك بها بين شفتيه بسهولة وقت الارضاع .

أما إذا كانت الأم تعاني من تدفق الحليب أحيانا ، فيجب اخراج كمية من الحليب من الثدي قبل الإرضاع ، ويكون اخراج الحليب بالماصة الكابسة أو بواسطة اليد . وهذه الحالة لا تحدث إلا في الأيام الأولى بعد الولادة ، وتعتدل كمية الحليب بعدها .

وقد يحدث تشقق لحلمة الثدي احيانا من جراء مص الطفل لها ، أو عضها . وقد لا تجفف الأم حلمة الثدي احيانا بعد كل رضعة مما يؤدي الى تراكم الحليب وجفافه . اذا كانت الحالة مزعجة للام وتسبب آلاما ، عليها استشارة الطبيب .

وقد تشعر الأم بتورم في بعض أجزاء الثدي من جراء تجمد الحليب احيانا ، وقد تشعر ام اخرى بخروج القيح مع الحليب احيانا ، فعلى الام في هذه الحالة ان تغمر الثدي في ماء حار ، وستشعر بعدها بالراحة . اما ان لم تنفع تلك الطريقة فعليها استشارة الطبيب ليصف علاجا مضادا لتلك الحالة . وان لم ينفع العلاج يلجأ الطبيب الى اجراء عملية جراحية لاستخراج الحليب المتجمد . □

الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة

بقلم : يعقوب الشاروني *

على امتداد الوطن العربي ، أصبح الراشدون من آباء وأمهات مدرسين ومربين ، يدركون أكثر من ذي قبل ، مطالب الأطفال واحتياجاتهم الفكرية والعقلية والعاطفية . وأقوى دليل على هذا ، ذلك الازدياد الكبير في مبيعات كتب الأطفال في الوطن العربي . وهي كتب أصبح البعض يعتبرها سلعة رائجة لا يهتم فيها بجودة المضمون ، قدر اهتمامه بإبهار الشكل ، أو بقدرتها على جذب اهتمام الصغار .

التغير في النظرة إلى مرحلة الطفولة ، وإن كان تغيراً محدودا ، حمل عديدا من دور النشر على أن تقدم للأطفال ألوانا مختلفة من الكتب والمجلات ، فيها مترجم كثير ، أو مؤلف بغير خبرة كافية . وأدب الأطفال في اللغة العربية الذي كان إلى ما قبل ربع قرن يمر بأزمة وجود ، أصبح الآن يمر بأزمة جودة . أو بعبارة أخرى صارت أزمة الكم التي كان يعاني منها أدب الأطفال ، أزمة في الكيف . فقد توسعت الكتابة للأطفال ، وكثر هواتها والمستفيدون منها . وكثير من هذه الكتابات تتم في غيبة النقد ، وفي غيبة الرقابة الوطنية ، فتجيء أدبا تعوزه من ناحية مقومات الأدب الناجح ، على الرغم من وجود الكتب التي تضمه على رفوف الكثير من مكتبات المدارس الحكومية ، أو بين أيدي الأطفال . وتعوزه من ناحية أخرى تلبية الاحتياجات القومية والفكرية والنفسية والعلمية التي تسعى المجتمعات العربية إلى توفيرها لأطفالها .

ولما كانت الخبرة الناضجة بالكتابة للأطفال نادرة وقليلة في الوطن العربي ، فقد لجأ عدد كبير من الناشرين إلى البحث عن كتب ومجلات الأطفال

* رئيس المركز القومي لثقافة الطفل - مصر

الرائجة في العالم الغربي ، يترجمونها ، ويقدمونها بنفس رسومها إلى أطفالنا ، بغير إدراك لما تحتوى عليه من قيم تربوية غير ملائمة لنا ، أو مرفوضة حتى في البلاد التي تصدر فيها تلك المطبوعات .

ونستعرض فيما يلي بعض القضايا التي تثيرها بعض مطبوعات الأطفال المترجمة ، التي تجد رواجاً بين قطاعات كبيرة من أطفالنا العرب .

الرجل الخارق والخيال العلمي :

تعتمد معظم روائع أدب الأطفال على الخيال ، فالخيال هو أثمن هبة أعطتها الطبيعة للأطفال ، وهو خيال أوسع من خيال الراشدين وأخصب ، لذلك يحرص من يكتبون للأطفال على توسيع آفاق هذا الخيال وتنميته .

وقصص الخيال العلمي في مقدمة ما يثير خيال الأطفال ، وينمى قدراتهم العقلية ، فأهم قضايا التثقيف تدور حول البحث في كيفية تهيئة الفرص ، ليكون في وسع العقل أن يصطنع روابط ، ويستخرج نتائج ، من مجرد سماع حقائق متفرقة .

ويتخذ أدب الخيال العلمي موضوعه من الظواهر العلمية ، وتوقعاتها المقبلة ، والتنبؤ بها ، وانعكاسات ذلك على عالم المستقبل ومصير الانسان . إن العالم الألماني « هرمان أوبرت » ، عندما قرأ في سنة ١٩٠٦ رواية « جول فيرن » : « من الأرض إلى القمر » ، أثار خياله ما في القصة من صور عن عالم الفضاء ، بصواريخه وكواكبه وقذائفه المتدفقة نحو المجاهل البعيدة ، فتساءل ذلك العالم الصغير : « هل يمكن أن يحدث هذا ؟ » فأجابته أمه : « كل الأعمال الكبيرة تبدأ بالأحلام ، ثم يسعى الناس لتحقيقها » . ومنذ ذلك الوقت ، أخذ هرمان يفكر في المدفع الذي أطلق قذيفة « جول فيرن » نحو القمر بسرعة أحد عشر كيلومترا في الثانية ، وظل يفكر في كيفية التخلص من الجاذبية الأرضية ، وفي الكيفية التي يمكن أن يصنع بها هذه القذيفة . وظلت هذه القضية تشغله ست عشرة سنة ، طلع بعدها على العالم بمخطوطة في علم الفضاء ، كانت الخطوة الأولى في إطلاق أول الأقمار الصناعية حول الأرض سنة ١٩٥٧ .

كذلك فإن شخصيات قصص الرجل الخارق للطبيعة ، مثل قصص « سوبرمان » ، « والرجل الأخضر » ، « وباتمان » وغيرها ، تلجأ إلى تبسيط الشخصيات ، بحيث تجعل بعضها ممثلاً للخير المطلق ، وبعضها ممثلا للشر المطلق . على الرغم من مخالفة هذا لطبيعة البشر ، مما يؤدى إلى فهم الأطفال لمجتمعهم ، والمجتمعات الأخرى فهماً خاطئا ، ويستثير لديهم دوافع التعصب والعدوان . ففي كل إنسان جانب طيب وجانب خبيث ، ولا بد أن يساعد الأدب على أن يفهم الأطفال دوافع الانسان وأسباب سلوكه ، وذلك بطريقة مبسطة ، تناسب مراحل الطفولة التي توجه اليها ما تكتب .

إن كثيراً من هذه القصص تدور حول سلسلة متصلة من حوادث العنف الجنونية ، قبل أن ينتصر البطل الذي يأخذ بناصية المظلومين في القصة . هذا في حين أنه ينبغي أن يكون سلوك أشخاص القصة من بدايتها إلى نهايتها سلوكا سوياً لا شذوذ فيه ، لأن الأطفال يتأثرون بالقدوة المتمثلة في أحداث القصة ومواقفها المختلفة ، أكثر كثيرا مما يتأثرون بعبارة تدين الأفعال الخاطئة ، ولا تقال إلا في نهاية القصة .

كما أن هذا النوع من القصص يؤكد قيماً معادية لكل ما قامت عليه نظم الدول المتمدينة الحديثة : فمن القيم التي يجب أن تشيع في نفوس الأطفال ، احترام القانون ، وترك مهمة محاكمة المخطىء والحكم عليه وتنفيذ الحكم ، للقضاء ولسلطات الأمن . فعندما يكون الطفل صغيرا ، تطلب منه أن يحتكم لوالديه فيما ينشأ من نزاع بينه وبين إخوته أو أبناء الجيران . وفي المدرسة نطلب إليه أن يلجأ في تلك الحالات الى هيئة التدريس أو مدير المدرسة . وعندما يلتحق بعمل ، لا بد أن يلجأ لرؤسائه فيما يثور بينه وبين زملائه من نزاع أو خلاف وإلا استحق العقاب . وفي الحياة اليومية ، لا بد أن يلجأ

إلى سلطات الأمن أو إلى سلطة القضاء ، للفصل فيما ينشأ بينه وبين الآخرين من نزاع .

لكن كثيرا من قصص الرجل الخارق للطبيعة ، تجعل البطل هو الذي يحدد ما هو الخير وما هو الشر ، وتتركه يحكم بنفسه على الآخرين وبمعياره الشخصي . ثم ينفذ بنفسه ما ينتهي إليه من أحكام ، حتى لو كانت الحكم بالاعدام ! وبهذا تلغى هذه القصص كل ما قدمته الحضارة من نظام للدولة ، يخضع فيه كل شخص للقانون الذي سنّته الجماعة ، حتى لا يُترك الأمر فوضى لوجهات النظر الشخصية التي تُروِّجُ لها وتُغلّبها مثل هذه القصص التي تعطى ذلك الفرد المتفوق الذي يُفترض أن يتمثل به الطفل كل سلطات الشرطة والقضاء وأجهزة تنفيذ الأحكام !!

ازدراء الأجناس الملونة :

من بين القصص التي تنشرها الكتب والمجلات المترجمة ، عن دور نشر أجنبية ، تلك القصص التي تتضمن ازدراء الأجناس الملونة ، أو احتقار الحياة الانسانية والاستهانة بها ، مثل قصص الغرب الأمريكي التي تدور حول إبادة الهنود الحمر ، أو قصص طرزان التي تؤكد تفوق الرجل الأبيض .

إن قصص الغرب الأمريكي التي كثيرا ما تقدمها القصص المصورة المسلسلة في كتب ومجلات الأطفال ، تؤكد لدى أطفالنا شعوراً قويا بتفوق الرجل الأبيض ، وبتفاهة حياة سكان أمريكا الأصليين ، وبأن من حق الرجل الأبيض أن يقتلهم كما يقتل الحيوانات المتوحشة ، لا يمنعه من هذا أنهم أصحاب الأرض الأصليون .

وهذه صورة تُروِّج لها حاليا بعض الأفلام المغرضة في الغرب ، وفي أمريكا خاصة . إنهم يريدون أن يضعوا في وعي أطفال العالم أن العرب وأهل فلسطين خاصة ، هم هنود حمر في هذه المنطقة ! وهم بذلك يقيمون مشابهة مفتعلة ، تجعل مجتمع الغرب يتقبل عمليات إبادة وقتل العرب والفلسطينيين .

وهذه قضية يجب التنبيه إليها ومحاربتها ، ليس على مستوى الوطن العربي فقط ، بل على مستوى العالم كله ، لأنها أصبحت إحدى الوسائل الأساسية في الحرب النفسية والدعائية ضد المنطقة العربية كلها . ويكفى أن نرى الصورة البشعة التي ترسمها كتب الأطفال الصادرة في « اسرائيل » عن الانسان العربي ، وأن نتذكر ذلك النداء المعادى لكل قيم الحضارة والانسانية الذي انتشر منذ سنوات على صفحات كل صحف ومجلات أمريكا ، والذي يقول بغير خجل ولا حياء : « ادفع دولاراً ، تقتل عربيا » .

ومثل هذه الصورة نجدها أيضا في قصص طرزان التي يلجأ فيها هذا العملاق الأبيض إلى استعداء الحيوانات على أهل أفريقيا السود ، تقتل منهم من يرى أنهم أصبحوا أعداء له .

ويقول تقرير اليونسكو ، إن هذه القصص : « تصور الزنوج أنهم يسلكون سلوك الحيوانات ، ويبدو البيض دائما أرفع منهم وأسمى كما أن الشعور العنصري واضح فيها جدا » .

ويقرأ أطفالنا تلك القصص ، ويتحمسون لمواقف يرون فيها طرزان يستدعي أصدقاءه من الفيلة والقرود ، لتهجم على قرى أهل البلاد الأصليين ، فتحطم بيوتهم ، وتهدم أكواخهم ، وتدوسهم بأرجلها ، كل هذا لارضاء نزعات تلك الشخصية التي تتصرف بعضلاتها وغرائزها ، بدل أن تتصرف بعقلها وحكمتها . .

الأطفال والعنف :

ولعل من أخطر ما يقابلنا في كتب الأطفال ومجلاتهم المترجمة ، تلك القصص التي تمجد العنف كوسيلة لحل المشاكل ، والتي تجعل القوة البدنية هي العامل الأقوى في حسم مختلف المواقف . وهو أمر نجده في كثير من قصص المغامرات وقصص الجاسوسية ، وأيضا في قصص سوبرمان وطرزان .

وفي هذا يقول مؤتمر اليونسكو الذي عُقد في

مارس سنة ١٩٥٢ بإيطاليا ، لبحث موضوع الرقابة على صحف الأطفال :

« نظرا لما لاحظه المؤتمر على صحف الأطفال من تصويرها الحياة لقرائها ، على أنها سلسلة طويلة من الفخاخ المؤذية التي يجب عليهم أن يكافحوا لتفاديها ، ومن الكفاح الدائم « للانتقام » للأرامل واليتامى ومن إليهم ، فإنها تناشد هذه الصحف الحد من عنف موضوعاتها ، وأن تفضل عليها الموضوعات الهادئة المتزنة » .

إن هذه القصص تؤدي إلى تصوير العنف تصويراً مبهرا أمام الأطفال ، وكأنما فيه حل لكل المشاكل ، في حين أن تاريخ الحضارة هو تاريخ إحلال العقل محل القوة . وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل طرزان الذي تربى بين الحيوانات ، والذي لا يعرف وسيلة لحل ما يواجهه من مشكلات إلا القوة البدنية وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل سوبرمان ، الذي يتغلب على كل من يقف في طريقه عن طريق القتل ، عندما نقدم للأطفال مثل هذه القصص في **الكتب والمجلات والتلفاز ، فان الأطفال** سيُسْقطون من سلوكهم كل ما قدمه لنا تاريخ الحضارة من وجوب استخدام العقل في حل المشكلات بدلاً من القوة .

إن مثل هذه القصص تتناقى مع أهم أهداف التربية السلوكية للأطفال . فأول ما نهتم بغرسه في أطفالنا ، هو تدريبهم على مواجهة المشكلات وحلها بنجاح ، عن طريق استخدام العقل ، مع استبعاد القوة البدنية بشكل شبه كامل .

ان « الأوديسا » عندما تحكى قصة « أوليس » مع « السيكلوب » ذي العين الواحدة ، تبين كيف استطاع الانسان الضعيف بجسمه ، القوى بعقله ، أن يتغلب على ابن الآلهة القوى بجسمه ، الضعيف في عقله . ومن غير المقبول أن يُعلّم اليونان القدماء أبناءهم ، منذ ثلاثة آلاف سنة ، الاعتماد على العقل واستبعاد القوة لحل المشكلات ، ثم نأتي نحن ، في نهاية القرن العشرين ، لنقص على أطفالنا قصص الجاسوسية ، ومغامرات العنف وطرزان وسوبرمان ، فنلغي بها كل انجازات الحضارة من فكر وحكمة ، عندما نؤكد بما نترجمه لأطفالنا من تلك القصص ، أن القوة هي الوسيلة الحاسمة لحل المشكلات التي تواجه الانسان !!

المنافسة حتى الموت :

ومن بين القصص التي تترجم لأطفالنا ، تلك القصص التي تدور حول المنافسة بين طرفين ، وتجعل الصراع حتى الموت هو الوسيلة الوحيدة لانهاء التنافس بين الأطراف المتنازعة .

ان هذه القصص تُقدَّم إلى أطفالنا بأسلوب فيه كثير من الفكاهة ، كما تُقدَّم عادة بأسلوب « الكومكس » أو الرسوم المسلسلة . وأوضح مثال لها القصص التي تدور حول شخصيات الكارتون « توم وجيري » .

ان الموضوع الرئيسي المتكرر فيها هو ما يدبره كل طرف للطرف الآخر من أساليب للأذى !! وإذا كنا نضحك ونحن نقرأ هذه القصص ونشاهد رسومها ، فإن الطفل الذي يطالعها أسبوعا بعد أسبوع في مجلته ، أو يقرأها في كتبه التي يشتريها لنفسه أو نشتريها له ، سيتركز في وعيه نمط خاطىء من السلوك ، من السهل تقليده والتمثل به ، لما فيه من تنمية للاحساس بالتفوق على الآخرين ، برغم ما يسببه لهؤلاء الآخرين من أذى وأضرار .

إن كثيرا من قصص الأطفال المترجمة ، بل إن أكثر قصص الأطفال المترجمة رواجاً ، انما هي تعبير عن أوضاع مجتمعات تختلف كثيرا في أهدافها عن مجتمعنا . ولا بد أن ننتبه لما تتضمنه هذه القصص من أخطار ، على الرغم **مما فيها** من سهولة وجاذبية وتشويق لأطفالنا .

إن المواد المترجمة للأطفال لا بد أن تخضع لتدقيق حاسم شديد ، حتى لا تفسد كثيرا مما نريد أن نغرسه وننميه في أطفالنا . □

هو.. هي

تستحِقّ أنْ تُعاش

لم أنظر يوما إلى الفقر باعتباره عيباً أو خطيئة ، بل ربما كنت في بعض الأحيان أبالغ واعتبره ميزة تدفع الإنسان نحو العمل بجد واخلاص وتفان حتى يتمكن من تجاوز فقره والنجاح في الحياة والعمل . ومن أجل هذا كان اعجابي بزوجي ، وموافقتي على الزواج منه على الرغم من فقره ، وعلى الرغم من الأعباء الثقيلة التي كان ينوء تحتها . فقد كان عليه أن يعيل نفسه وعائلته الكبيرة العدد . وعندما تزوجنا لم أطلب منه شيئا إذاعرفت أنه فوق طاقته ، ولم أطالبه بالتوقف عن مساعدة اخوته بعد أن أحيل والده إلى التقاعد ، بل اقتسمت أعباء حياتنا معه حتى شب اخوته ، وحملوا عنه العبء ، وتزوجوا ومضى كل منهم إلى سبيله . أما نحن فقد تحسنت أحوالنا المعيشية ، وسددنا جميع التزاماتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين . وعندها فقط بدأت الخلافات تدب بيننا بحيث أحالت البيت إلى جحيم أكثر من مرة .

إن مشكلة زوجي هو أنه تخطى الفقر عمليا ، لكنه لم يتخطاه نفسيا . فهو على الرغم من كل ما حققه في حياته التي لم تكن سهلة أبدا ، إلا أنه بقي أسير خوف مجهول من فقره القديم ، ولأنني أعلم علم اليقين أن زوجي ليس بخيلا ولا فقيرا ، وأنه أضاع أجمل سنوات عمره وهو يعمل من أجل عائلته ومن أجلنا ، فانني أحار في فهم ذلك الرفض المستمر لفكرة الاستمتاع بالحياة ، والسفر ، والتعرف على أماكن جديدة ، واكتشاف انماط حياة مختلفة .

وعندما أقول بأن الحياة ليست شقاء فحسب ، وليست عملا فقط ، وإن لنفسك عليك حقا ، وإن لأبنائك عليك حقا ، وأن حقهم في عيش حياة تتناسب وقدراتهم المادية ، دون الاضرار بهذه القدرات أو بالقيم التي نحملها ، فانه يثور ويبدأ بحديث لاينتهي عن أن الحياة لا أمان لها ، وأن من الواجب أن نحتاط لتقلبات الدهر التي لا ترحم .

وقد أثر هذا على أولادنا الذين ضاقوا ذرعا بسلوك والدهم الذي يحترمونه كثيرا ، ويقدرون تضحياته غير أنهم لا يقتنعون بما يقول ولا يفهمون حديثه المتكرر عن ضمانات المستقبل لهم ومن أجلهم ، في الوقت الذي يحرمهم من أن يستمتعوا بحياتهم مثل غيرهم من الأصدقاء والأقارب والجيران . والأدهى من ذلك ، أنه يعتقد أنني أحرض الأولاد عليه وأستميلهم الى جانبي ، وربما كان زوجي على حق في بعض تحفظاته ، لكن الأولاد هم أيضا على حق ، وإن كان من الصحيح أن الزمن لا يدوم لأحد فان من الصحيح أن نستمتع بحياتنا أيضا وألا ننسى نصيبنا من الدنيا . □

هي..

دنيـا زوال

لا أكاد أصدق ما يحدث لي هذه الأيام ، ويخيل إلي في بعض الأحيان أنه يحدث لشخص آخر غيري ، لأحد زملاء الدراسة أو لأحد أقربائي أو لأحد جيراننا الكثيرين ، ومع ذلك فإنني لا أجرؤ على البوح بهذا الذي يحدث لأحد ، لأنه ليس شيئا جديا أو مهما أو خطيرا ، بل هو أمر عائلي شديد الخصوصية .

المسألة ببساطة أنني نشأت في عائلة فقيرة ، ولأنني أكبر إخوتي فقد وقعت عليّ بعض أعباء الوالد إلى جانب أعبائي كأخ أكبر . لذا كان علي أن أبذل جهداً مضاعفا في كل شيء في الدراسة حين كنت طالبا ، وفي العمل حتى أساهم بما يليق بي كأخ كبير في إعالة إخوتي الصغار . لذا فقد كانت حياتي عملا مستمرا لا مكان فيه للراحة أو النزهة أو السفر ، واليوم ، وقد أصبحت أحوالي المادية على ما يرام ، وضمنت أن أبنائي لن يلاقوا الصعاب التي لقيتها في حياتي ، وأن اخوتي قد نضجوا وتزوجوا فيماعدا واحداً يعيش خارج الوطن من أجل استكمال تحصيله العلمي ، بدأت اسمع من زوجتي كلاما غريبا لم أكن أسمعه من قبل .

إنها لا تتوقف عن طلبات الخروج للنزهة أو للزيارة أو لحضور الحفلات ، وما أن يأتي فصل الصيف حتى تبدأ اقتراحاتها بالسفر إلى هذه الدولة الأوربية أو تلك أسوة بأصدقائنا الذين ما أن يعودوا من الخارج حتى يبدأوا بالتخطيط للرحلة المقبلة . وحجتها في ذلك أن هؤلاء لا يملكون من المال أكثر مما نملك ، وأن من حق الأطفال أن يكونوا أنداداً للأطفال الآخرين . وعندما أقول لها ألا شيء مضمون في هذه الحياة ، وأن الزمن غادر لا أمان له ، وأن من الأفضل لنا أن نضمن ما بأيدينا حتى لا نفاجأ بيوم نفقد فيه ما جمعناه بعرقنا وجهدنا وكدنا ، تشيح بوجهها غير مكترثة بما أقول ، وتبدأ باستحضار حججها التي لا تنتهي حول ضرورة التمتع بالحياة الفانية الزائلة .

إن أكثر ما يؤرقني هو أن أبناءنا يميلون إلى صف زوجتي حين تثار هذه القضية ، مما يجعلني أشعر وكأن تعبي وشقائي ، والعذاب الذي لقيته خلال حياتي قد أفضى إلى عدم ، وأنني في سبيلي الى أن أخسر زوجتي وأبنائي بعد أن خسرت أجمل سنوات عمري وشبابي في العمل من أجلهم . وعندما أحاول أن أوضح لهم ولزوجتي أن ما أدخره من مال هو لهم في نهاية الأمر، وأن احداً لا يضمن عمره وزمنه ، فانهم يصمتون ويدعون لأعينهم وحركاتهم المحرجة أن تقول أن هذا الكلام غير مقنع ، وأنه مادام هناك مجال للاستمتاع بالحياة ورؤية العالم ، وتوسيع الآفاق فلم لا نفعل ، وعندها ألوذ بالصمت وأجتر ألمي ولا أقول شيئا ، فإنهم حقا لا يعلمون ..!.

هو ..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

طَهْيُ الطعَام في حساب الربح والخسارة

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

لاخلاف إطلاقاً على أن طهي الطعام فن بشري مجرد لايمارسه سوى الإنسان وحده بين سائر الأحياء والمخلوقات جميعاً .

وإذا كان عمر اكتشاف الانسان للنار واستعماله لها لايتعدى النصف مليون عام فلا شك أن طهي الأطعمة قد بدأ بعد هذا التاريخ ، وبصورة عفوية ساقتها الصدفة ، وقبلها كان الانسان والمخلوقات الأخرى شبه الآدمية تعتمد في تغذيتها على الطعام النيء سواء منه ماكان فاكهة أو كان لحم حيوان نافق ، لهذا فطهي الطعام ليس ضرورة بشرية ولا هو بالعمل الغريزي الذي لاتستقيم حياة الانسان وصحته إلا به ، وإلا كان الجنس البشرى قد انقرض قبل أن يعثر الانسان للنار على وظيفة ومهمة .

ربما كان طهي الطعام بالنار قد غير من مذاق الطعام ونكهته وسهولة التهامه ، مما اغرى البشر أن يستغلوا اكتشافهم ويطوروه ويرتبطوا به لدرجة أن أصبح ظاهرة انسانية في كل مكان وزمان .

لن يختلف القوم في يومنا هذا على مزايا ثلاث للطهي كانت في صالح الانسان :

أولا : إن الطهي يقتل الأحياء الدقيقة الضارة من ميكروبات وفيروسات وطفيليات مما يلوث الطعام الطازج ، غير أن هذا لايمنع من تلوث الطعام مرة أخرى عقب الطهي .

ثانيا : إن الطهي يعطي للطعام مذاقاً ونكهة خاصة محببة للانسان لاتتوفر للطعام النيء .

ثالثا : إن الطهي على وجه العموم يسهل عملية الهضم في كثير من مراحلها وخاصة عمليات المضغ .

غير أن هذه الأمور التى يعتبرها البعض بديهية بحاجة إلى المراجعة والدرس ، وهى عرضة للجدل العلمي على ضوء ما استجد من أبحاث واكتشافات في حقل الغذاء والتغذية ، حتى يمكن توفير الفائدة القصوى من الطهي مع الاقلال ما أمكن من الخسارة التى تلحق بالطعام يغرمها الانسان ثمناً لاغراءات الطهي الظاهرية .

أثر الطهى على هضم الطعام :

قد يبدو غريبا ومثيراً للدهشة والاستغراب قول الخبراء إن هضم الطعام النيء في درجة حرارة ٣٧

مئوية ، وهى درجة حرارة جوف الانسان يوفر فرصة الاستفادة من كثير من عناصر الطعام بأكثر مما يوفره طهى الطعام على درجة حرارة عالية توفرها النار .

فالحرارة العالية في تقدير علماء التغذية تؤدى مثلا إلى تخثر زلاليات اللحم ، وهذا يجعلها أقل قابلية لتأثير الخمائر الهاضمة التى تفرزها المعدة والأمعاء وأكثر مقاومة لمفعول هذه الخمائر . فاللحوم على ماتعلم تحوى من الزلاليات مايتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ بالمئة من وزنها .

إن تأثير حرارة الطهى تتركز على الألياف الرابطة في أنسجة اللحوم والمعروفة علمياً باسم الكولاجين إذ تحولها الحرارة الى جيلاتين ، وهذا هو سر ليونة اللحم وسهولة هضمه بعد الطهى .

لكن الأنسجة المطاطة التى تتركب منها الأربطة والأوتار هى غير قابلة للهضم أصلا سواء كانت نيئة أو مطهية غير قابلة للذوبان في العادة .

والمعروف أن الفواكه والخضروات تؤكل نيئة في كثير من الأحيان وقد تؤكل مطبوخة أيضاً .

أما الحبوب والجذور وكثير من الخضروات الورقية فإنها على الأغلب بحاجة إلى طهى حتى يمكن التهامها وهضمها ، وحيث أن أغلب الخلايا في أنسجة النبات محاطة بجدار خشبي سليولوزى فإن من الصعب تحطيم هذه الخلايا عن طريق المضغ في الفم أو العجن في المعدة ، وعليه يكون من الصعب أن تخترق الخمائر والعصائر الهاضمة هذه الجدران لتصل إلى محتوى الخلايا ، وهنا تعمل حرارة الطهي على اطلاق محتوى الخلايا من خلال الانتفاخ الذى يحدث عادة في المواد النشوية وما إليها مما يحطم الجدران الخشبية ، ويؤدى إلى انطلاق المحتويات الغذائية لتكون في متناول العصائر الهاضمة بعد أن كانت حبيسة معزولة داخل جدار الخلية الخشبي .

أثر الطهى على الزلاليات

حرارة الطهى لها عدة تأثيرات على جزيئات الزلاليات (البروتين) والدهنيات والنشويات .

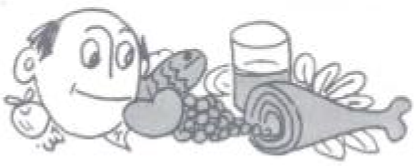

غير أن هذه التأثيرات التى قد تكون في صالح سهولة الهضم قد تكون أيضا على حساب القيمة الغذائية لهذه العناصر ، بل وربما تصل في بعض الأحيان إلى تغيير طبيعتها لتصبح مواد ضارة للجسم بدل أن تكون مفيدة .

فالزلاليات التى تتركب من أحماض أمينية قد تتحد بفعل حرارة الطهي ببعض السكريات المختزلة لتعطي نواتج بنية اللون ذات طعم ونكهة جديدة ، لكن الأهم أن هذه النواتج تصبح أكثر مقاومة لفعل العصائر الهاضمة ومن ثم يصبح الطعام أقل قدرا في قيمته الغذائية عنه قبل الطهى ، وهذا مايحدث على وجه الخصوص مع الحامض الأمينى المسمى (لايزين)

أما الدهنيات فإن الحرارة الزائدة تعمل على تحللها إلى مركباتها الأصلية وهى الجلسرين والأحماض الدهنية ، وهذا مايحدث عند استعمال الدهون في القلي مدة طويلة ، وهو مايشبه إلى حد كبير عملية التزنخ التى تصيب الدهنيات عند خزنها مدة طويلة في جو حار ، وهذا الأمر قد يؤدى الى سميتها وضررها على الأنسجة المخاطية للقناة الهضمية بسبب تأثير الأحماض الدهنية عليها ناهيك بطعمها المنفر اللاسع .

من هنا تكون النصيحة بعدم الاسراف في تكرار استعمال الزيوت عند القلى عدة مرات أو استعمالها زمناً طويلا .

الفيتامينات والأملاح :

يقسم خبراء التغذية الفيتامينات إلى نوعين :

أولها الفيتامينات التى تذوب في الدهون وهى فيتامين أ وفيتامين د .

وثانيها الفيتامينات التي تذوب في الماء وهي فيتامين ب المركب وفيتامين ج .

ويعتبر الطهي أحد عوامل فقدان الفيتامينات التي تذوب في الماء ، فيما تعتبر الفيتامينات التي تذوب في الدهون أكثر ثباتاً وأكثر مقاومة لتأثير الحرارة . إن الخسارة في أمر الفيتامينات ترتكز على أمرين :

١ ـ ذوبان الفيتامينات في الماء ثم طرح هذا الماء المشبع بالفيتامينات الذائبة والتخلص منه .

٢ ـ مفعول الحرارة المدمر لبعض أنواع الفيتامينات الحساسة للحرارة .

ومن أشهر الأمثلة على الأمر الأول مايحدث عند غسل الأرز أو طهيه مما يسبب نقصاً فادحاً لفيتامين ب المعروف باسم الثيامين الذي يصاب به عدة ضحايا في بلدان شرق آسيا ، يعانون من مرض يعرف باسم البرى برى .

أما المثل على تأثير الحرارة المدمر فهو خسارة فيتامين ج المعروف باسم حامض الاسكوربيك فيتسبب عن نقصانه مرض الاسقربوط .

من الملاحظ ان اللحوم تخسر من وزنها عند الطهي ما بين ١٠ الى ٤٠ بالمئة ، وتتركز الخسارة على الماء المشبع بما ذاب فيه من فيتامينات وأملاح ناهيك عن فعل الحرارة المدمر أيضا للفيتامينات .

وعلى الرغم من ان الفيتامينات التي تذوب في الدهون من أمثال فيتامين أ وفيتامين د تتمتع بمقاومة لفعل الحرارة المدمر إلا أنها عرضة لمفعول التأكسد المدمر إذا ماتعرضت للهواء والحرارة معاً ، لهذا فإن استعمال المقلاة المسطحة في قلي الأطعمة يوفر جواً مناسباً لأكسدة الفيتامينات التي تذوب في الدهون ومن ثم اتلافها وتدميرها .

ولعل أكثر الفيتامينات عرضة لهذا الدمار هي فيتامين ب أو الثيامين وحامض الفوليك وهي التي تشتهر بوفرتها في اللحوم وقد تصل نسبة التدمير إلى حوالى ٥٠ بالمئة من محتوى الطعام .

أما اكثر الفيتامينات عرضة للتدمير والضياع في المطبخ فهو فيتامين ج أو حامض الاسكوربيك لأنه سريع التأكسد والتلف بسبب عدة عوامل منها ارتفاع درجة الحرارة ، وزيادة قلوية الوسط الموجود فيه ، كما يعمل النحاس على الاسراع في هذه العملية خاصة إذا ما تعرض الطعام للهواء والاكسجين بوفرة .

فمن المعروف علمياً أن أنسجة النباتات تحوى خميرة خاصة يسمونها « الأنزيم » المؤكسد لحامض الاسكوربيك ولكن هذه الخميرة بعيدة عن التماس بفيتامين ج في حال الأنسجة السليمة ، ولكن هرس الفواكه أو تفتيت الأوراق يؤدى الى تدمير الخلايا ومن ثم يعطى الفرصة إلى انطلاق الأنزيم المدمر وتماسه مع حامض الاسكوربيك أو فيتامين ج . ومن هنا يكون التدمير ، وعليه يجب الحرص على شراء وتناول الفواكه والخضروات الطازجة السليمة وتحاشي القديمة منها والتالفة دون اعتبار لأسعارها الرخيصة ، واغراءات البائعين .

ولقد لوحظ أن مفعول الأنزيم المؤكسد لحامض الاسكوربيك يتوقف تأثيره عند درجة حرارة ٦٠ مئوية وما فوقها ، لهذا فإن التأثير المدمر لهذه الخميرة على فيتامين ج يمكن تلافيه عند الطبخ بغلى الماء أولا قبل وضع الطعام حتى ترتفع درجة حرارته إلى مافوق ٦٠ مئوية ، كما تطرد الحرارة جميع الهواء والاكسجين الذائب في الماء مع تغطية إناء الطبخ ليكون بمعزل عن الهواء الخارجى ، وبهذا تمنع عملية الأكسدة ، ونبطل مفعول الخميرة المدمرة هذا وينصح بعدم استعمال الأوانى النحاسية في عمليات الطهي ، أو استعمال بيكربونات الصودا التى تؤدى الى قلوية الطعام ، وهى التى تدمر فيتامين ج .

إن خبراء الطهي والتغذية يرون أن أوانى الطبخ ذات البخار المضغوط توفر جواً أفضل للاحتفاظ بالقيمة الغذائية للطعام لانها تختزل زمن الطهي أولا وتمنع تلامس الطعام مع الهواء ثانيا ، وبهذا فهى توفر ٨٠ بالمئة من القيمة الغذائية فيما لاتوفر الأوانى العادية أكثر من ٥٠ بالمئة على أفضل وجه إن لم يكن أقل من هذا بكثير . □

عـــودة لأيّام الصِّبَا

منذ أيام عرض التلفاز فلما سينمائياً عربياً قديما . لم يكن الفيلم ملونا ، بل كان باللونين الأبيض والأسود ، ولم تكن قصة الفيلم مترابطة ، كما لم يكن موضوعه جدّيا ، بل كان أقرب إلى السذاجة . باختصار كان ذلك الفيلم شأنه شأن سائر أفلام ذلك الزمان الذى يعود إلى نحو ثلاثين سنة خلت ، فلماً ساذجاً وبسيطاً ومتواضع القيمة الفنية ، ومع ذلك فقد وجدت نفسي منهمكا في متابعة أحداث الفيلم ومشاهده ، فقد أعاد لى ذكريات صباي الجميلة ، وإعجابي الساذج بممثلي ذلك الزمان الذين كنت أراهم أبطالا نضرين شجعاناً أقوياء كأبطال الأساطير ، وكنت أنظر باعجاب بالغ إلى جمال الممثلات اللواتي أصبحن هذه الأيام يمثلن أدوار الأم الطيبة أو الجدة العجوز .

ومع تتابع أحداث الفيلم التي لم تكن غريبة علي ، وجدت نفسي أذهب في رحلة داخل نفسي . رحلة شاهدت فيها نفسى الصغيرة الطموحة المليئة بالأحلام والآمال والإقبال على حياة لم تكن اظهرت لي سوى وجهها الجميل الواعد . وشاهدت أصدقائى - فتيان ذلك الزمان - الحالمين بمستقبل باسم ، وحياة يشكلونها بأصابعهم الغضة وخيالاتهم التي لا تعرف الحدود .

وشاهدت صوراً غير مترابطة لجو عائلي حميم هو جو عائلتي فى ذلك الزمان ، وسمعت حوارات صامتة تدور بين والدى وأخي الأكبر المولع بالسياسة والأدب والفن .

ولم أعد إلى عالمي الحقيقي ثانية إلا بعد انتهاء الفيلم . لم أكن بائساً ، أو حزينا ، لكنني لم أشعر بالسعادة أيضا ، فقد أعادني ذلك الفيلم الذى ينتمي إلى زمن بعيد نسبيا إلى ذلك الزمن الذي هو زمني ، وبفضله عشت للحظات حياة كنت أظنها انتهت إلى غير رجعة ، لكننى عشتها بتفاصيل لم أذكرها طوال حياتي المليئة بالعمل والعرق والكفاح ، وكنت أظنها انتهت إلى غير رجعة .

وطاف فى ذهني سؤال عن سر الحياة ، وسر الحزن ، وسر الفرح ، وسر السعادة ، وعن مجموعة الأسرار الصغيرة التي تجعل الحياة حياة حقيقية ، وسؤال آخر عن تلك الأعمال الفنية التي لا تأخذ قيمتها من فنيتها العالية فحسب ، بل من زمنها الذى تعيده بكل ما فيه من فرح وحزن وسعادة وبؤس هو فى النهاية زمننا وحياتنا .

صلاح حزين

بقلم : الدكتور حسن عباس

جَدَبَ.. لا شَجَبَ

كان للصحافة منذ وجدت دور مهم في نقل الخبر الى القارىء ، وبث التعليق على نحو يجعله على صلة دائمة بما يدور حوله في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع وما الى ذلك من شئون الحياة ، ولسنا هنا بصدد تعداد فوائد الصحافة وذكر منافعها والا ضاق عن غايتنا المجال ، على أن في الصحافة - على فضلها واهميتها - مثالب سوف نقف عند واحدة منها وهي :

أخذ بعض الاخبار أو التعليقات ، أو المصطلحات على علاتها دون البحث عن اصولها ومصادرها ، أو عن وجه الصحة أو الدقة في ايرادها . ولعل هذه الصفة في الصحافة هي التى سوغت للكثيرين من العامة وخاصتهم وصف بعض ما يرد فيها مما لا تسيغه عقول الناس ، ولا يتفق وطبيعة الاشياء كما يعرفونها بقولهم « كلام جرائد » .

نود في هذا المقام أن نقف عند مثالين مما تُتهم به الصحف من تفريط وبعد عن الدقة . فلقد اشاعت كلمة « شجب » بمعنى أدان ، أو « اعلن غضبه على كذا . . » .

تقول الصحافة : « اعلن متحدث رسمي شجبه للموقف الفلاني أو التصريح الذى ادلى به فلان ، أو المعاهدة الفلانية »

فما وجه الصواب في مثل هذه العبارة وما وجه الخطأ ؟

لنرجع الى مصادر اللغة لتتبين المعاني التى توردها تلك المصادر لكلمة « شجب » .

جاء في لسان العرب : شَجَبَ ، بالفتح ، يَشْجُبُ ، بالضم،شُجُوبا ، وشَجِبَ بالكسر يَشْجب شَجَبا ، فهو شاجِبٌ وشَجِبٌ: اى حَزِنَ أو هَلَكَ . وشجبه الله ، يشجبه شجبا أي أهلكه ، يتعدى ولا يتعدى .

يقال : ما له شجبه الله أي اهلكه . وشجبه يشجبه شجبا : أي حَزَنَه ، وَشَجَبَهُ : شَغَلَهُ وفي الحديث : الناس ثلاثة : شاجبٌ ، وغانمٌ، وسالمٌ . فالشاجب الذى يتكلم بالرَّديء ، وقيل : الناطق بالخنا ، المعين على الظلم ، والغانم الذى يتكلم بالخير ، وينهى عن المنكر فيغنم ، والسالم : الساكت .

وجاء في التهذيب : قال ابو عبيد : الشاجِبُ الهالِكُ الآثمُ . قال : وشَجَبَ الرَّجلُ يشجب شُجُوباً إذا عَطِبَ وهَلَكَ في دين أو دنيا . وفي لغة : شَجِبَ يَشْجَبُ شَجَباً ، وهو اجود اللغتين قاله الكسائي . وامرأة شجوب : ذاتُ همٌ قلبُها متعلق به .

والشَّجَبُ : العَنَتُ يصيبُ الانسان من مرض أو قتال .

قال الأصمعي : يقال انك لتشجبني عن حاجتي ، أي تجذبني عنها ، ومنه يقال : هو يشْجب اللجام أي

يجدبه والشجب : الهمُّ والحَزَنُ . وأشجَبَه الامرُ ، فشَجِبَ لـه شجبا : حَـزِنَ . وشَجَبَ الشيءُ ، يَشجُبُ شَجْبـاً وشجـوبـا : ذَهَـبَ . وشجب الغـرابُ ، يشجب شجيبـا : نعق بـالبـين .

والشجاب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليهـا الثيـاب وتنشـر ، والجمـع شُجُبٌ . والمشجب كالشجاب وهو عيدان يُضَمُّ رؤوسهـا ويفرّج بين قوائمها ، وتوضع عليها الثياب . وتشاجب الامر : اختلط ، وقد ورد هذا في « المقاييس » لابن فارس الذى قال الشين والجيم والباء كلمتان تدل احداهما على تداخل ، والاخرى تدل على ذهاب وبطلان .

الاولى قول العرب : تشاجب الامر اذا اختلط ودخل بعضه في بعض ، قالوا : ومنه اشتقاق المشجب وهى خشبات متداخلة مـوثقـة تنصب وتنشـر عليهـا الثياب . . . ويقال الشجاب ، السداد . هـذه هى المعانى التى وقعنا عليها لكلمة « شجب » فـأين منها ذلك المعنى الذى يرمى اليه الفعل على النحو الذى يورده به رجال الصحافة ؟

اننا نذهب الى مـا ذهب اليه الـدكتور مصطفى جواد حين قال : جميع معاني هذه المادة لا تفيد معنى العيب والاستقباح . فقولهم « شجب المعاهدة » لا يخرج عن ان يعنى سدها أو احزنها ، أو اهلكها او شغلها » ، فضلا عن ان الشاجب هو المتكلم بالكلام الـرديء،المعين عـلى الظلم ، مـع ان عيب الانسان معاهدة قد يدل على إصلاح وإرشاد وإحقاق حق كما قد يدل عـلى خطأ ، فهـو بحسب مقصد القـائل ، وليس ذلك بالمراد وانما المراد العيب وحده ، ولذلك وجب ان يقال : جدب المعاهدة يجدبها جدبا .

والجـدب هـو العيب . وجـدب الشيء يجـدبـه جدبا : عابه وذمه .

وفي الحديث : جدب لنا عمر السَّمَرَ بعد عتمةٍ ، أي عابهُ وذمَّهُ،وكل عائب فهو جادب والى ذلك يشير ذو الرمة حين يقول :

فيـالَـكَ من خـدٍ أسيـلٍ ، ومنـطقٍ
رخيـمٍ ، ومِنْ خَـلْقٍ تعـلّلَ جـادبهُ

وهو يعنى أنّ الراغب في ذمه والنيل منه،لا يجد فيه عيبا يعيبه ، فيتعلل بالباطل ، وبالشيء يقولـه ، وليس بعيب . والجادب : العائب .

ومن جنايات الصحافة انها اشاعت كلمة « دكتاتور » والنسبة اليها دكتاتورى وهي كلمة اجنبية لاتينية الأصل . ولسنا نرى في استعمالها وإشاعتها أي مبرر ، فهي كلمة قـديمة ـ كما لاحظ الدكتـور مصطفى جواد ـ يرجع استعمالها في الدولة الرومانية الى الحقب التى كانَ يتولى فيها امر الحكم جبابرة يمكن أن تسند إليهم مهامُ الحكم « اسنادا وقتيا لاتزيد مدته على ستة أشهر يكون في اثنائها غير مسئول عن تبعة أعماله ، وله أن يفعل ما يشاء مما يراه جالبا للمنفعة العامة » .ولو ان الكلمة حديثة لقلنا إن ضرورات العلم والتقنية الحديثين تلجئنا الى اقتباسها لافتقار اللغة العربية الى صنو لها أو نظير ، ولكن الكلمة قديمة وفي لغتنا ما يفيد معناها افادة تامة . فالدكتاتور هو الجبّار ، والنسبة الى هذه الكلمة جبّاريّ . لننظر في المعاني التي يوردها صاحب اللسان وغيره .

الجبار : الله عز اسمه ، القاهر خلقه على ما اراد من امر ونهى . قال الازهرى:جعل جبارا في صفة الله تعالى أو في صفة العباد من الاجبار وهو القهر والإكراه . . والجبّار : المتكبّر الذى لا يرى لاحد عليه حقا . والجبّار من الملوك : العاتي ، وقيل كل عات جبار وجبير . وقلب جبّار : لاتدخله الرحمة ، وقلب جبار ايضا : ذو كبر لا يقبل موعظة ، ورجل جبار : مسلط قاهر . قال الله عز وجل : وما انت عليهم بجبار ، أي بمسلط فتقهرهم على الاسلام . والجبار الذى يقتل على الغضب ، والجبار : القتال في غير حق . اليس في كل هذه المعاني التي تحفل بها كلمة « جبار » غنى عن كلمة دكتاتور ومعانيها ؟!□

ـ بلوت رعيتي بالكرم وبالسيف ، فكان الكرم فيها أنجع (المأمون)

جمال العربية

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الآباء

مَا أضيقَ العَيشَ لوَلاَ فسحَةُ الأمَل!

لِلطغرَائي

الطغرائي هو ابو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد . عرف بأكثر من لقب ، ومن القابه المنشيء ، الاستاذ ، العميد ، الاصبهاني وغير ذلك ولكن « الطغرائي » هو اللقب الذي عرف به أكثر من سواه . ولد في عام ٤٥٣ هـ في « جَيّ » باصبهان لاسرة يرجع نسبها إلى أبي الأسود الدؤلي . « فهو على هذا عربي الأصل ، وليس فارسيا كما هو الشائع ، وكما جزم المؤلفون المحدثون دون ان يستقصوا في البحث » .

على حد تعبير الدكتور علي جواد الطاهر محقق ديوان الطغرائي ، والباحث في شعره وآخر شرّاح لاميته التي عرفت « بلامية العجم » . وقد ورد نسبه متصلا بأبي الأسود الدؤلي لدى كل من ابي الفدا ، وابن الوردي ، والبارزي في مختصره لوفيات الاعيان .

وقد يوصف ايضا بالليثي ، و « ان الليث ودؤل من بني بكر بن عبد مناف ، وينظر القلقشندي ومعجم القبائل العربية لعمر رضا كحالة » .

واصبهان التي ينتسب الشاعر اليها مدينة كبيرة في بلاد الفرس قصدها العرب بعد الفتح واستوطنوها لجمال طبيعتها واعتدال هوائها وخصوبة تربتها . اما « جَيّ » فهي «اجمل ما في اصبهان » . فليس غريبا ـ اذن ـ ان يكون الطغرائي اصبهاني المولد والنشأة ، عربي الأصل والنسب ، فقد سبقه في ذلك صاحب الأغاني : أبو الفرج « الأصبهاني » وهو ـ كما لا يخفى ـ عربي يتصل نسبه بالبيت الاموي .

عاش الطغرائي نابها فطنا ، وقد أنس في نفسه القدرة على شغل أجل المناصب فطمح اليها « وانخرط في سلك الكتاب ، يتقرب من المتنفذين والوزراء ، كمعين الملك ، ونظام الملك ودلف الى السلاطين (السلاجقة) ، فخدم ملكشاه ، ثم ولده محمدا » .

على ان صلته الوثيقة بمعين الملك ـ وهو حامي الطغرائي وسنده ـ كانت سببا في طمأنينته وفي الآمال الكبار التي ظل يمنى النفس بها . وما أن تحل بمعين الملك النكبة ، فيعزل من منصبه ، ويودع السجن حتى ترى وفاء الطغرائي صادقا ، فقد وقف الى جانبه ، وأنصفه في عدد من قصائده ، فعدد مآثره ، وذكر فضله على الكثيرين .

اشتد الصراع على السلطة بعد وفاة ملكشاه ، وكان قطبا هذا الصراع ولديه : بركياق ومحمد . اما الطغرائي فقد لزم جانب الاخير . وفي عام ٥٠٤ هـ حظي بمنصب جيد حين صار نائبا في ديوان الطغراء ، ثم اصبح الصدر الأعظم في هذا الديوان بعد وفاة الامير العميد الذي شغل المنصب سنة ٥٠٥ هـ . على ان هذه السنة حملت من المفاجآت ما لم يسر الطغرائي ، فقد عزل من منصبه وهو ببغداد ، فثقلت عليه الاقامة فيها ، ونظم قصيدتين تصوران محنته هما خير ما قال . والقصيدتان هما لامية مشهورة وبائية لا تقل عنها . اما اللامية فهذه مقتطفات منها :ـ

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرعٌ
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل
فيمَ الإقامة بالزوراء لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناءٍ عن الأهل صفرُ الكف منفرد
كالسيف عُرّيَ متناه عن الخلل
فلا صديقَ إليه مشتكى حزني
ولا أنيسَ إليه منتهى جذلي
طال اغترابيَ حتى حنّ راحلتي
ورحلها وقرى العسالة الذُبل
أريدُ بسطة كفّ أستعينُ بها
على قضاء حقوق للعلا قبلي
والدهرُ يعكسُ آمالي ويقنعني
من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل
حُبُّ السلامة يثني همّ صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحتَ إليه فاتخذْ نفقاً
في الأرض أو سُلّماً في الجوّ واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمينَ على
رُكوبها واقتنع منهنّ بالبلل
إنّ العلا حدّثتني وهيَ صادقةٌ
فيما تحدّثُ أنّ العزّ في النُقل
لو أنّ في شرفِ المأوى بلوغَ مُنًى
لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحمل
أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعاً
والحظُّ عنيَ بالجهّال في شُغُل
لعلهُ إنْ بدا فضلي ونقصُهُمُ
لعينه نامَ عنهم أو تنبّهَ لي
أعلّلُ النفس بالآمال أرقبُها
ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمل
لم أرضَ بالعيش والأيامُ مقبلةٌ
فكيفَ أرضى وقد ولّت على عجل
غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتها
فصُنتُها عن رخيصِ القدرِ مُبتذل
وعادةُ النصل أنْ يُزهى بجوهره
وليسَ يعملُ إلا في يديْ بطل
تقدّمتني أناسٌ كانَ شوطُهُمُ
وراء خطويَ إذ أمشي على مَهَل
هذا جزاءُ امرىءٍ أقرانُهُ درجوا
مِن قبلهِ فتمنّى فُسحةَ الأجل
وإنْ علانيَ مَن دوني فلا عجبٌ
لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحل
فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضجرٍ
في حادثِ الدهرِ ما يغني عن الحِيَل
أعدى عدُوّكَ أدنى مَن وثقتَ به
فحاذرِ الناسَ واصحبْهُمْ على دَخَل
وإنما رَجُلُ الدُنيا وواحدُها
مَن لا يعوّلُ في الدنيا على رَجُل
وحُسنُ ظنّكَ بالأيام مَعجزةٌ
فظُنَّ شراً وكنْ منها على وجل
غاضَ الوفاء وفاضَ الغدرُ وانفرجتْ
مسافةُ الخُلفِ بينَ القول والعمل
وشانَ صدقَكَ عندَ الناس كذبُهمُ
وهلْ يطابقُ معوجٌّ بمعتدل
يا وارداً سُؤرَ عيشٍ كلّهُ كدرٌ
أنفقتَ صفوَكَ في أيامِكَ الأُوَل
فيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحرِ تركبُهُ
وأنتَ يكفيكَ منهُ مصّةُ الوَشَل
مُلكُ القناعةِ لا يُخشى عليهِ ولا
يُحتاجُ فيه إلى الأنصار والخَوَل
ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها
فهلْ سمعتَ بظلٍّ غيرِ منتقل
ويا خبيراً على الأسرار مُطّلعاً
اصمتْ ففي الصمتِ منجاةٌ من الزلل
قد رشّحوكَ لأمرٍ لو فطنتَ لهُ
فاربأْ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَل

يخلق الطموح لدى بعض من يركبون صهوته شعورا بالعزة ، واعتدادا بالنفس ، وكبرياء تأنف الخضوع . وتعظم هذه الأوصاف في نفس صاحبها

اذا لم يفز بالمراد ولم يبلغ الغاية . أنظر الى المتنبي وهو الطامح الأكبر تجده يقول بيتا في مدح من تلجئه الحاجة الى مدحه ، ويقول ابياتا في مدح نفسه والفخر بشعره وأدبه . ولم يشذ الطغرائي عن ذلك ، فقد كان طامحا يرى في نفسه من القدرة والعلم والادب والبلاغة والفصاحة ما يؤهله لبلوغ ما يطلب لها : رفعة ، وسؤددا . فاذا خاب ظنه في الدنيا والناس ، وأغلق اليأس في وجهه منافذ الرجاء ، فزع الى الشعر يودعه سرّه ، ويبثه شكواه .

على ان القصيدة تحفل بغير ذلك من عواطف جامحة حينا ، هادئة رصينة حينا آخر . ويكثر هذا التعاقب بين الوان متباينة من العواطف حتى نظن انه يفقدها تسلسلها المنطقي ، ولكنه - على اي حال - يبقى على وحدتها النفسية . ذلك ان ما اصاب الشاعر من غدر الناس والزمان أفقده التوازن لبعض الوقت ، فصار يضرب خبط عشواء . فاذا فاء الى شيء من الطمأنينة ، وعاوده الفكر المتأمل الهاديء ، لاذ بالعقل ، واستظل بظله فكان له من ذلك اللواذ وقفات حكيمة صاغها شعرا ، فجرت مجرى المثل لشدة تمثلها لتجربة الشاعر الانسان .

استهل القصيدة بالفخر ، فهو ذو فضل ورأي أصيل ، يزدان بهما اذا فقد ما كان يزدان به من قبل (المنصب الرسمي) . انه كالشمس لا يغير من جوهرها أن تكون في الضحى او أن تكون قرب المغيب . ولكنه - وهو يجاور نفسه - يستدرك ، فبعد ان جعل من فخره عزاء وسلوى ، تنبه الى واقع الحال بعد عزله . ما جدوى الاقامة في بغداد بعد الذي كان ؟ لقد بعد به العهد عن الاهل والأصدقاء ، فإليهم - دون غيرهم - يشتكي حزنه ، وهم - دون غيرهم - يشاطرونه أفراحه . ثم يصحو من حلم اليقظة وينحى العواطف التي تبعث الشجن جانبا ، ويهديه العقل والطموح معا الى القول ان حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ، ويغري بالكسل . فهل هذا هو ديدنه ؟ ألم ينفق العمر في طلب العلى ؟ بلى ، ولقد افضت اليه العلى بحكمة ترى ان العز قرين الترحال ، فليرحل اذن ! ان له في ارتحال الشمس كل يوم أسوة حسنة .

مثل هذا الجدل الذي يعمد الى المنطق يستفتيه في تفسير الظواهر لا يصمد طويلا ، فالنفس مضطربة ، والاحزان تملؤها ، فاذا جنحت الى السكينة ساعة ، عادت الى التبرم والشكوى ساعة اخرى ، وما ذلك الا لعظم المصيبة . لقد فقد بعزله السلطان والجاه والمكانة المرموقة ، فليندب الحظ ، ويلقي عليه من اللوم ما يشاء .

على ان اشد ما يؤلمه ان الحظ شغل عنه بالجهلة ، يعطيهم ما يشاؤن ويتزهم المكانة العظيمة في حين ينحيه عنها وهو العالم الفاضل الاديب ! ويلوح في افق النفس بعض الفرج : ما اضيق العيش لولا فسحة الامل ! وتعاوده الأنفة وكبرياء الطموح . لن يستكين ! كلا ، بل يدفع هذا القدر العاتي دفعا ، وله من تجارب الماضي ما يشد به ازره . لم يكن يرضى بأيام كان له فيها مجد وسؤدد ، فكيف يرضى الآن وقد عركته الأيام ، وعمقت من تجربته وخبرته ؟ ظل دائما يحفظ لنفسه قدرها وفي ذلك عزاء . انه سيف مصقول ذو معدن أصيل ، ولكن السيوف لا تنبيء عن مضائها الا في أيدي الابطال ! فمن أين له بالبطل الذي يظهر مضاءه وأصالة معدنه ؟ قد يجد عزاء في كل ما جال بخاطره من افكار ، ولكنه لا يغفر لذوي السلطان ولا للحظ ، ان يتقدمه اناس دونه علما وفضلا . وتهدأ الثورة قليلا ، ويهتدي الى حكمة التأسي بالصبر ، فالايام دول ولا بد من تغير الحال . على ان الذي لا يمكن احتماله هو غدر الناس ولؤمهم ، فليعلنها عليهم حربا . ان « اعدى عدوك من وثقت به » ، ولا عجب فقد « غاض الوفاء ، وفاض الغدر . . . » ، مثل هؤلاء الناس ينبغي للمرء ان يعتزلهم وينأى بنفسه عن شرورهم .

القصيدة حافلة بهذا اللون من القلق المبدع ، وهي تصوير صادق لتجربة عاشها الشاعر بكل خلجات نفسه ، وصورها على خير ما يكون التصوير : عواطف متقدة وثورة جامحة ، وهدوء عاقل ، وحزن وقور ، وحكمة بالغة .□

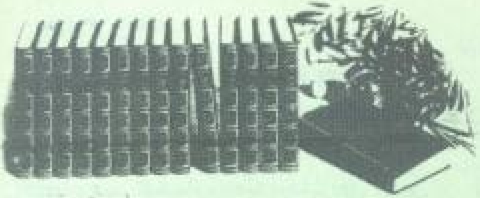

مكتبة العربي

كتاب الشهر

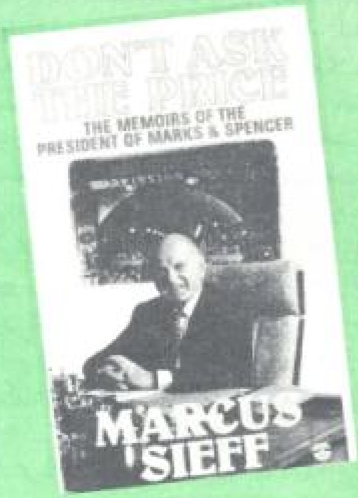

لا تسأل عن السعر!

تأليف : ماركوس سيف
عرض وتحليل :
الدكتور ياسر سليمان *

يسجل هذا الكتاب الذي صدر حديثاً في بريطانيا السيرة الذاتية «لماركوس سيف»، الرئيس المتقاعد لمحلات «ماركس وسبنسر» التي تنتشر في كافة المدن البريطانية، بالاضافة لانتشارها في كندا وبعض أقطار أوروبا الغربية، كفرنسا وألمانيا مثلا. وهذه المحلات معروفة لدى الكثير من العرب، وخاصة أولئك الذين يزورون بريطانيا بهدف الدراسة أو العلاج، أو الاقامة، أو السياحة أو غيرها من الأغراض. فما هي ملامح هذه السيرة؟

* أستاذ بكلية سان سلفاتور جامعة سانت أندروز - اسكتلندا

ينصب الاهتمام في هذا الكتاب على أمرين رئيسيين . الأول ، تاريخ محلات « ماركس وسبنسر » منذ نشأتها في مطلع هذا القرن في مدينة مانشستر في انجلترا وحتى يومنا هذا . والثاني ، هو العلاقة الحميمة التي ربطت أصحاب هذه المحلات بالمسألة اليهودية قبل قيام اسرائيل ، والتي مازالت تربطهم بهذه الدولة منذ قيامها وحتى أيامنا هذه . لقد قامت هذه العلاقة على أكتاف عائلة « ماركوس سيف » بحكم انتمائها الصهيوني أولا ، وديانتها اليهودية ثانيا ، كما يعترف صاحب هذه السيرة الذاتية في أكثر من مكان في مذكراته ، فمثلا نراه يقول : « ولم تكن عائلة « ماركس » دينية النزعة . . . لكن الحركة الصهيونية كانت عند كلتا العائلتين (اللتين أنشأتا محلات ماركس وسبنسر) أمرا آخر . أما أنا فقد كنت على علم بوجود هذه الحركة قبل أن تتشكل عندي فكرة تذكر عن الديانة اليهودية ومعناها . وإلى حد كبير تطور هذا الاتجاه لدى كلتا العائلتين نظرا للعلاقة التي كانت تربط والدي و « سيمون » (شريكه في العمل) منذ شبابهما المبكر مع الدكتور « وايزمان » ونظرا للدور الذي لعباه في الحصول على وعد بلفور ، وتأسيس الوطن القومي اليهودي »

سنركز اهتمامنا في هذا العرض على الأمر الثاني ، السابق ذكره ، وضمن هذا الاطار ، سنسلط الأضواء على الدور الذي لعبه « ماركوس سيف » وعائلته ، من طرفي والده ووالدته ، في قيام اسرائيل وفي دعمها منذ تاريخه ، فكما يقول صاحب هذه السيرة الذاتية « كانت مساعدة ودعم الوطن القومي اليهودي في فلسطين أولا ، ومن ثم دولة اسرائيل ، هدفا هاما من أهداف حياتي » (ص ٢٦) . كما سنسلط الأضواء ضمن نفس الاطار على كثير من المغالطات المتعلقة بالنزاع العربي الاسرائيلي التي تواجهها في أكثر من موضع في هذه السيرة الذاتية التي لاقت رواجا بين القراء في بريطانيا . فالكتاب الذي بين أيدينا وصل في هذا البلد الى المركز الأول بين الكتب غير القصصية من حيث عدد النسخ التي نفذت منه ، وظل بين الكتب العشرة الأكثر رواجا في بريطانيا حتى منتصف هذا العام تقريباً .

مسحور بوايزمان

تعود العلاقة بين عائلة « ماركوس سيف » والحركة الصهيونية الى مطلع هذا القرن ، حيث كان والد ماركوس سيف عضوا بارزا في الحركة الصهيونية في بريطانيا . وشاركه هذا الانتماء عمه « سايمون » شريك والده في العمل . ومن العوامل التي زادت العلاقة عمقا والتزاما التقاء هذين الرجلين مع وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية في النصف الأول من هذا القرن ، والذي كان يعمل مدرسا للكيمياء في جامعة مانشستر . وقد وصف ماركوس سيف هذا اللقاء بقوله : « أصبح وايزمان معبودي الأول منذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها ، فقد أخذت استمع اليه كالمسحور » ، ويصف ماركوس سيف الأثر الذي تركه هذا اللقاء على والده كالتالي : « ومنذ لقائه الأول مع وايزمان ، حول مائدة العشاء مع بعض الأصدقاء ، أخذ والدي يجمع له الأموال على مستوى لم يفعله من قبل (للحركة الصهيونية) وبنجاح عظيم . وأصبح والدي سكرتير وايزمان غير الدائم دون أن يتقاضى راتباً وبالاضافة إلى جمع الأموال لدعم الحركة الصهيونية ، أدرك والد ماركوس سيف وعمه سايمون أهمية الإعلام في كسب الرأي العام البريطاني . فأنشأ « مجلة فلسطين » بالتعاون مع قريب لهما كان يعمل صحفيا في « جريدة الجارديان » الصادرة في مانشستر ، أما الهدف الرئيسي لهذه المجلة التي كانت تنطق باسم « لجنة

فلسطين البريطانية ، فقد كان ايصال آراء الصهاينة البريطانيين الى مسامع الحكومة البريطانية .

وتوطدت العلاقة بين وايزمان ووالد ماركوس سيف على مدى الأيام ، بل أصبحت من القوة بحيث طلب وايزمان منه أن يصحبه الى لندن ليقابلا بلفور الذي كان يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى . وعندما تكللت مساعي وايزمان بالنجاح ، وذلك بحصوله على وعد بلفور من الحكومة البريطانية ، تم بعدها تشكيل « الهيئة الصهيونية » التي كلفت بزيارة فلسطين من أجل تحديد أنجع الطرق لتطبيق وعد بلفور . وقد ضمت هذه الهيئة في عضويتها وايزمان نفسه الذى طلب من والد ماركوس سيف أن يرافقه الى فلسطين كمساعد خاص له ، كما اصطحبه معه الى مؤتمر السلام في فرساى سنة ١٩١٩ ، الذى تم فيه منح بريطانيا مسؤولية الانتداب على فلسطين ، وإلى مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ حيث تمت الموافقة على صك الانتداب وعلى تصريح وعد بلفور .

وقد سار ماركوس سيف على خطوات أبيه ، فكما يقول في مذكراته « كنت أحد تلامذة وايزمان الأوائل » . الا أن دور ماركوس سيف في دعم الحركة الصهيونية والتفاني في خدمتها اختلف عن دور والده بعض الشيء ، وذلك نظرا لاختلاف الظروف التاريخية التي احاطت بهذه الحركة عبر سنى نشأتها ونموها . فبينما اقتصر مجهود والد « ماركوس سيف » على تقديم الدعم المادي والمعنوي للحركة الصهيونية ، تجاوز مجهود ابنه ذلك الى حد المشاركة الفعلية في حرب عام ١٩٤٨ ، التي كانت نتيجتها تثبيت أقدام اسرائيل في المنطقة العربية . ففي النصف الثاني من شهر(مايو)أيار عام ١٩٤٨ غادر « ماركوس سيف » انجلترا الى فلسطين تلبية لنداء شخصي وجهه اليه « بن غوريون » الذى كان قد أعلن ميلاد الدولة الجديدة قبل ذلك بأيام قليلة . وقد أوكل « بن غوريون » الى « ماركوس سيف » مسؤولية الاشراف على مهام النقل والامدادات ، مستفيدا بذلك من خبرة هذا الأخير التي اكتسبها في هذا المجال عندما كان يعمل ضابطا في الجيش البريطاني في شمال أفريقيا ومصر خلال الحرب العالمية الثانية . كما أنه أوكل اليه مهام أخرى قام بها بتفان والتزام حتى تاريخ مغادرته فلسطين المحتلة في عام ١٩٥١ .

ولم يتوان « ماركوس سيف » عن اتباع أية وسيلة لتحقيق مهماته . فنراه يسرد في كتابه كيف احتال مرة على مراقبي هيئة الأمم المتحدة بادخال شحنة من الأسلحة الى فلسطين المحتلة خلال فترة الهدنة الأولى في شهرى(يونيو)حزيران و(يوليو)تموز عام ١٩٤٨ . هذا ما يقوله « ماركوس سيف » عن هذه الحادثة : « عينت الأمم المتحدة مراقبين على طول الساحل خلال فترة الهدنة وذلك لأنه لم يكن مسموحا لكلا الطرفين (اليهود والعرب) الحصول على أسلحة اضافية في حينها . وبالطبع لم يخلق هذا الحظر مشكلة للعرب الذين أدخلوا الأسلحة الى فلسطين عبر حدودهم معها ، أما اسرائيل فقد كان البحر منفذها الوحيد . وعندما ثبت الرأى على تفريغ شحنة من مدافع الميدان (لحساب اسرائيل) بالقرب من تنانيا (شمال تل أبيب) ، أقمت حفلة في بيتنا في تلموند لمراقبي الأمم المتحدة في منطقة تنانيا ، دعوت اليها مجموعة من الفتيات الاسرائيليات الفاتنات الجمال وطلبت منهن أن يعملن ما بوسعهن على ألا تنتهي الحفلة قبل الساعة الثالثة صباحا ، حيث تكون مهمة تفريغ شحنة مدافع الميدان قد تمت عندها . لقد حصل هذا فعلا . »

وبالعمل لصالح اسرائيل خلال حرب عام ١٩٤٨ يكون « ماركوس سيف » قد ضرب بالقانون البريطاني عرض الحائط . فالقانون البريطاني لا يسمح لضباطه الاحتياط بالانضمام الى قوات أية دولة أخرى لا تعترف بها بريطانيا رسميا . ولذا لم يكن يحق لماركوس سيف أن يعمل في صف القوات الاسرائيلية نظرا لكونه ضابط احتياط في الجيش

البريطاني ، ونظرا لأن بريطانيا لم تكن قد اعترفت باسرائيل رسميا بعد في عام ١٩٤٨ .

بريطانيون في الجانبين

يثير « ماركوس سيف » هذه المسألة في مذكراته ، الا أنه يحاول تبرير تصرفه من منطلقين . الأول ، هو أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يعملون في جيوش عربية . والثاني ، هو أنه لم ينضم رسميا الى القوات الاسرائيلية وذلك لأنه لم يوقع أية وثيقة تثبت ذلك . ولا يخفى طبعا بأن هذين المنطلقين ليسا إلاّ مبررين واهيين . فالضباط البريطانيون الذين كانوا يعملون في الجيوش العربية في حينه فعلوا ذلك إمّا بتكليف من حكوماتهم الرسمية أو بموافقة ضمنية منها إذا لم يكونوا ضباطا أو ضباط احتياط في الجيش البريطاني ، كما أن الجيوش التي كانوا يعملون فيها كانت جيوشا لدول تربطها ببريطانيا علاقات اعتراف

متبادلة رسمية . وكل هذا لا ينطبق على « ماركوس سيف » من جهة ، أو على الجيش الأسرائيلي من جهة أخرى . أما المنطلق الثاني فهو ليس إلاّ نوعا من الحذلقة التي ترمي الى الالتزام بنص القانون على حساب جوهره ومحتواه .

ليس هدفنا الأساسي مما قلناه في الفقرة السابقة بيان عدم شرعية مشاركة « ماركوس سيف » في حرب عام ١٩٤٨ لصالح اسرائيل ، بل الاشارة الى قضية أخطر وأعمق ، ألا وهي مسألة الإنتماء الصهيوني . هل ينتمي الصهيوني الملتزم بصهيونيته الى بلده أولا - سواء كانت بريطانيا أم أمريكا مثلا - والى اسرائيل ثانيا ؟ أم العكس ؟

لا شك عندنا بأن الصهيوني الملتزم ينتمي الى اسرائيل أولا ثم الى بلد مواطنته ثانيا . ولا شك عندنا أيضا بأن هذا ينطبق على « ماركوس سيف » ، على الرغم من وجود « المؤشرات » التي قد يعتبرها البعض دليلا على خطأ رأينا ، كرفض هذا الرجل الاستقرار في اسرائيل مثلا . فهذا الرفض تابع من اعتبارين . الأول ، هو مصلحة ماركوس سيف الاقتصادية المتمثلة بمحلات « ماركس وسبنسر » ، والمتعلقة أيضا باستمرار نجاح هذه المحلات . أما الاعتبار الثاني فيتمثل بقناعة ماركوس سيف بأن استقراره خارج اسرائيل أكثر فائدة لها من استقراره فيها ، وخاصة من الناحية السياسية . فمثلا عندما طلب « بن غوريون » من « ماركوس سيف » أن يستقر في اسرائيل ، اعتذر عن عدم تلبية هذا الطلب ، قائلا : « أعتقد بأني أكون أكثر فائدة لاسرائيل عن طريق مواكبة التطورات التي تجري فيها ، وشرح هذه التطورات لزعمائنا في (بريطانيا) ، كما أني أنوى مزاولة عملي في « ماركس وسبنسر » محافظا في نفس الوقت على علاقاتي الحميمة مع اسرائيل » .

كما أننا نرى أن انتماء « ماركوس سيف » لاسرائيل بالدرجة الأولى ، يفسر عزوفه عام ١٩٧٤ عن قبول منصب سفير بريطانيا في اسرائيل الذي عرضه عليه « كالاهان » وزير خارجية بريطانيا حينئذ . أما السبب الذي أبداه ماركوس سيف لعزوفه هذا ، فهو علاقاته الحميمة مع اسرائيل ، الأمر الذي سيجعل البعض يعتقد بعدم صلاحيته كسفير لأنه لا يستطيع في نظرهم الا أن يقدم مصالح اسرائيل على مصالح بريطانيا ، حتى لو تصرف بعكس هذا . وفي رأينا أن السبب الحقيقي لعزوف « ماركوس سيف » عن قبول منصب سفير بريطانيا في اسرائيل يعود إلى إدراكه بأن قبوله لهذا المنصب سيكون بمثابة عملية « تحنيث » سياسي له ، حيث سيكون مضطرا بحكم طبيعة

منصبه ، والالتزامات المترتبة على هذا المنصب أن يرعى مصالح بريطانيا في اسرائيل بدلا من تكريس طاقاته لرعاية مصالح اسرائيل في بريطانيا . فلو كان انتماء « ماركوس سيف » لبريطانيا أولا لما برر موقفه بالشكل الذي عرضناه ، مع اعترافنا بأن هذا التبرير يدل على حنكة سياسية بارعة قابل صاحبها بها غارة شنها عليه السياسي المحنك « جيمس كالاهان » والذي كان بلا شك يهدف الى تقوية مركز بريطانيا في اسرائيل عن طريق استخدام تأثير « ماركوس سيف » هناك على الصعيدين الرسمي والشعبي . فلو قبل « ماركوس سيف » عرض « كالاهان » لما استطاع أن يستمر في خدمة اسرائيل بالشكل الذي نذر نفسه له .

وقد ترجم « ماركوس سيف » انتماءه لاسرائيل أيضا عن طريق المساعدات الاقتصادية والتقنية التي قدمتها ومازالت تقدمها محلات « ماركس وسبنسر » لاسرائيل في مجالات عدة ، أهمها الزراعة وصناعة النسيج . فمحلات « ماركس وسبنسر » هي أكبر مسوقي المنتوجات الزراعية الاسرائيلية في بريطانيا ، سواء في ميدان الحمضيات والفواكه الأخرى ، أو في مجال الخضراوات . كما أن هذه المحلات ساعدت على تطوير صناعة النسيج في اسرائيل وعلى توفير فرص عمل لعدد كبير من العمال الاسرائيليين وذلك عن طريق استيرادها لكميات كبيرة من الملابس المصنوعة هناك . فاسرائيل هي أكبر مزود خارج بريطانيا يمد محلات « ماركس وسبنسر » بالبضائع .

كما قدمت عائلة « ماركوس سيف » مساعدات طائلة لاسرائيل في مجال البحث العلمي . فمعهد وايزمان للعلوم تطور عن « معهد دانيال سيف للبحث العلمي » الذي تم انشاؤه في النصف الأول من هذا القرن على نفقة والد « ماركوس سيف » تخليدا لذكرى ابنه دانيال الذي توفي في صغره . وقد سار « ماركوس سيف » على خطوات والده في دعمه « لمعهد وايزمن » وذلك عن طريق التبرع له مباشرة أو جمع التبرعات له من أصدقائه الأثرياء في العالم . واعترافا بخدمات « ماركوس سيف » لهذا المعهد تم انتخابه رئيسا له في السبعينيات من هذا القرن .

المغالطات المتعمدة :

يحتوي الكتاب الذي بين أيدينا على عدد كبير من المغالطات المتعمدة مما يجعله في رأينا وثيقة تهدف إلى الدعاية لاسرائيل والحركة الصهيونية . ومصدر الكثير من هذه المغالطات اقتصاد الكاتب في ذكر الحقيقة . فبينما يسجل الكاتب الواقعة التاريخية الصحيحة بأن العرب رفضوا قرار التقسيم في سنة ١٩٤٧ ، مقارنا ذلك بقبول زعماء الصهاينة لهذا القرار ، نراه لا يذكر الضغوط التي وضعتها أمريكا على بعض الدول الصغيرة الأعضاء في الأمم المتحدة لتأييد مشروع هذا القرار بهدف خدمة الحركة الصهيونية . كما نراه لا يذكر بأن رفض العرب لهذا القرار تبرره عدالة قضيتهم تاريخيا وسكانيا ، خاصة وأن مشروع القرار أعطى الحركة الصهيونية جزءاً من فلسطين لا يتناسب في حجمه مع تعداد اليهود فيها ، هذا بالاضافة الى كون هذا الجزء يمثل اغنى أراضي فلسطين زراعيا . وأنه يزيد على الجزء المخصص للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم بنحو الثلث .

ويجانب الكاتب الحقيقة عندما لا يذكر قراءه بأن اسرائيل تآمرت مع كل من فرنسا وبريطانيا في شن هجومها على مصر في حرب السويس ، وبأن مصر لم يكن في نيتها الهجوم على اسرائيل في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ ، كما صرح بذلك عبدالناصر عدة مرات في حينه . ويبتعد الكاتب عن الحقيقة عندما يذكر بأن عشرات الألاف من الفلسطينيين تركوا ديارهم ، دون أن يشير الى دور الصهاينة الذين استعملوا كافة الوسائل المتاحة لهم لتحقيق هذا الهدف ، كما أثبتت دراسة أخيرة أجراها باحث اسرائيلي واعتمد في نتائجها على وثائق رسمية اسرائيلية .

ومن المغالطات الأخرى التي يعج بها الكتاب

كتاب الشهر

الاشارة الى بعض الممارسات الارهابية التي قامت بها العصابات الاجرامية في فلسطين بشكل يقلل من هويتها الارهابية أو يجردها منها ، مستخدما في ذلك أسلوب اللعب بالكلمات . فمذبحة دير ياسين تكاد تفقد صفتها الإجرامية والإرهابية عندما يصفها « ماركوس سيف » بالشكل التالي : « وفي التاسع من نيسان عام ١٩٤٨ هاجمت الأرغون ، التي كانت في حينه جماعة ارهابية ، قرية دير ياسين العربية ، حيث قتلت عددا من النساء والأطفال والرجال أيضا » .

أما عملية نسف فندق الملك داود ، وغيرها من العمليات الإرهابية الأخرى ، فإنها تتجرد من صفتها الإرهابية عندما يصفها « ماركوس سيف » كما يلي : « كان (مناحيم بيجن) يقود حملة الأرغون المتعنتة جدا ضد الحكم البريطاني في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ، كما قام بعدد كبير من العمليات المتطرفة ، التي حاول بن غوريون وزملاؤه إيقافها ، ولكن بلا نجاح » .

ويستعمل « ماركوس سيف » في سيرته الذاتية أسلوب الإيماء والإيحاء في دس مغالطاته إلى عالم القارىء غير المتنبه . فالمشكلة الفلسطينية تصبح مشكلة لاجئين فلسطينيين خلقتها الحكومات العربية التي رفضت توطين الفلسطينيين في بلادها عندما يقارنها « ماركوس سيف » مع هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة ، ومساعي اسرائيل الجادة لتوطينهم فيها . وفلسطين تتمثل للقارىء بلادا جرداء قاحلة قبل وصول الصهاينة إليها . ويصف « ماركوس سيف » الأرض التي أقام والداه عليها مزرعة في الثلاثينات من هذا القرن : « يعود تاريخ هذه المزرعة الى منتصف الثلاثينيات عندما اشترى والدي أرضا على بعد خمسة عشر ميلا شمال تل أبيب بالقرب من قرية تدعى تلموند . . . كانت هذه الأرض رملا في معظمها . . . وعندما وجد والداي مصدرا للماء فيها ، حوّلا تربتها الرملية إلى تربة من الدرجة الأولى وطوّراها كمزارع حمضيات . فماركوس سيف هنا يحاول تكريس دعوى الصهيونية الباطلة بأن فلسطين كانت صحراء قاحلة قبل قدوم الصهاينة اليها ، وبأن الصهاينة هم الذين حولوها الى حديقة مزهرة . وبالمثل يجرد المسيحيين الفلسطينيين من هويتهم العربية عندما يقول صاحب هذه السيرة الذاتية : « لا يوجد مكان في الشرق الأوسط أكثر أمنا من القدس اليوم ، حيث يعيش اليهود والعرب والمسيحيون معا في سلام » ، ويخالف ماركوس سيف الحقيقة بشكل سافر عندما يقول بأن الضفة الغربية ، بما في ذلك القدس القديمة ، كانت محتلة من قبل الأردن فيما بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٦٧م . وما هدف هذه المقولة إلا الإيحاء للقارىء العربي غير المطلع بأن الإحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية لا يختلف في جوهره عن الوضع الذي كان قائما فيها قبل عام ١٩٦٧م ، خاصة من الناحية القانونية . ويترتب على هذه المقولة طبعا مغالطات أخرى لا مجال لشرحها هنا ، بل يكفي أن نذكر الهدف منها ، ألا وهو تبرير الإحتلال الإسرائيلي لهذا الجزء من فلسطين على اعتبار أنه كان محتلا سابقا .

ويدوس على الحقيقة بلا رحمة عندما يعزو تطرف بيجن وتمكنه من السلطة في اسرائيل الى حالة التطرف التي أصابت المجتمع الإسرائيلي نظرا للضغوط التي وضعها « كارتر » على هذه الدولة لقبول مبدأ السلام مقابل الأرض ، وبهذا يتناسى « ماركوس سيف » تاريخ بيجن الإرهابي المتطرف ، والتحول الديموغرافي الذي أصاب البنية الهيكلية للمجتمع الإسرائيلي نظرا لازدياد عدد اليهود الشرقيين فيها .

أما هدف « ماركوس سيف » من ادعائه هذا فهو إقناع القارئ الغربي بعدم جدوى وضع أية ضغوط على إسرائيل لأن هذا يزيدها تطرفا لا اعتدالا .

كرة السلام

ويستهتر « ماركوس سيف » بالحقيقة عندما يشيد بجهود إسرائيل للوصول الى السلام في الشرق الأوسط ويقابلها بتعنت العرب المزعوم . ويمثل موقفه هذا قوله : « وفي هذه الفترة التي أكتب فيها مذكراتي تقف « كرة السلام » في منتصف الملعب العربي . وللأسف هناك شُحّةٌ في الأدلة التي توحي بأن العرب على استعداد للإمساك بها » . كما يؤيد

ماركوس سيف موقف اسرائيل بعدم التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية لعدة أسباب ، أهمها عدم قبول المنظمة بقراري ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين يطالبان بضرورة الإعتراف بإسرائيل ، وبحقها في العيش ضمن حدود آمنة ، ودعوة هذه المنظمة إلى « تدمير دولة اسرائيل » . ولا يذكر الكاتب طبعا استعداد منظمة التحرير الفلسطينية لقبول كافة قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين ، بما في ذلك قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ . أما سبب عدم قبول منظمة التحرير بهذين القرارين دون غيرهما من القرارات فمنبعه طبعا أن مشكلة فلسطين في هذين القرارين تعتبر مشكلة لاجئين ، لا مشكلة حق تقرير مصير . ولو أتيحت الفرصة لحكم موضوعي أن يمارس التحكيم في « لعبة السلام » في الشرق الأوسط لكان حكمه بأن كرة السلام راسخة في منتصف الملعب الإسرائيلي ، وأن اسرائيل لا تنوي تحريكها على الإطلاق .

فشامير ، زعيم حزب الليكود ورئيس وزراء اسرائيل حاليا ، يرفض رفضا باتا قبول مبدأ الأرض مقابل السلام ، بل سمعناه يقول في مقابلة له في مارس/ آذار الماضي على التلفاز البريطاني بأن اسرائيل ستدوس على الفلسطينيين كما لو كانوا « جنادب » . فما رأي « ماركوس سيف » الصادق بهذا التصريح وبغيره يا ترى ؟ وهل تذكره هذه التصريحات بتصريحات النازية ضد اليهود في النصف الأول من هذا القرن ؟ □

■ **من رفع نفسه فوق قدرها ، صارت محجوبة عن نيل كمالها .** الفارابي

■ **تاريخ الفن هو تاريخ تحرر الانسان .** اندريه مالرو

■ **إن أردت السلم فتأهب للحرب .** مثل لاتيني

■ **أمة تثبت في جهادها لأخذ الحق ساعة ، خير لها من الحياة في الذل الى قيام الساعة .** جمال الدين الافغاني

■ **لا تعد فضائل الشخص خيرا ، نظرا لما تعود به من نتائج على صاحبها ذاته ، بل بالنسبة الى ما ننتظر من نتائجها علينا وعلى المجتمع .** نيتشة

■ **الانسان الحر مالك نفسه تماما ، ومملوك لقومه تماما .** عبد الرحمن الكواكبي

■ **ليست الأنانية أن يعيش المرء كما يهوى .. بل ان يطالب الآخرين ان يعيشوا كما يريد هو أن يعيش .** اوسكار وايلد

■ **لا أحب الحديث مع الناس والذين يوافقونني على كل شيء أقوله ، فقد تجد متعة بعض الوقت في مداعبة صدى صوتك برهة قصيرة . ولكنك سرعان ما تشعر بالملل** توماس كارليل

من المكتبة العربيّة

السخرية السياسية العربيّة

بقلم : شريف الراس

من حسن الحظ أن هذا الكتاب ، الصادر باللغة الانكليزية أساسا ، قد ترجم إلى العربية ، ذلك أن القاريء الأوربي قد لايصاب بالاكتئاب إذا غابت عنه البسمة أو السخرية أو النكتة يوما أويومين ، بينما أصبحت هذه الأمور بالنسبة للقاريء العربي - وفي هذا الزمن على وجه التحديد - ضرورة حياتية ، كالهواء والشمس والماء ، بل إن « البسمة » اليوم تشبه غاز الأوكسجين في غرفة إنعاش الإنسان العربي .

مع أن المؤلف ، وهو الاستاذ خالد القشطيني الكاتب العربي المقيم في بريطانيا منذ ربع قرن ، لم يؤلف كتابه الطريف لهذا الغرض ، وإنما كتبه وهو متوجه توجها معاكسا تماما ، إنه يريد أن يخاطب أبناء الغرب ، ولذلك ألفه باللغة الانجليزية ، وغرضه أن يصحح تصورات أبناء الغرب عن طبيعة الإنسان العربي ، كأنه يريد أن يقول للأوربيين : نحن العرب قوم ساخرون أيضا ، ونضحك أحيانا .

يقول الاستاذ خالد : لقد ألفت هذا الكتاب بالانجليزية (لشعوري بعظم ثروتنا الأدبية في ميدان الفكاهة والظرف ، وجهل الغربيين التام تقريبا لهذه الثروة) خصوصا أن هؤلاء الغربيين (يعتبرون الفكاهة وروح النكتة جزءا أساسيا من الحضارة والفن والأدب ، ودليلا على النضوج وسماحة الخلق والميل إلى السلام ، والقدرة على التفاهم العقلاني ، وبرهانا على الثقة بالنفس . وعندما يقول الغربيون إن العرب لايتصفون بروح النكتة وليس لهم أدب فكاهي أو مسرح كوميدي يضعون العرب في إطار سياسي كريه . وعليه فإن إبراز هذا الجانب من الشخصية العربية والتراث العربي أهم في رأيي من ترجمة المتنبي وابن رشد أو ابن بطوطة إلى اللغات الأوربية) .

لكنني منذ أن وقعت على عنوان الكتاب ، كنت أتساءل : « هل يمكن ترجمة النكتة السياسية العربية ؟ » ، ذلك أن معظم النكات السياسية مسبوكة بصيغ عامية ، وبمفردات محلية جدا ، بحيث تغطي الكلمة الواحدة أحيانا خلفيات طويلة عريضة من المصطلحات الاجتماعية واللغوية المحلية . ولنأخذ مثلا الواقعة التالية :

« الترجمة الصعبة »

في فترة الإنتداب الفرنسي على سورية (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) كانت المحاكم العسكرية فرنسية ، وكان على القاضي الفرنسي أن يتحاور مع المتهم السوري بواسطة مترجم . وذات مرة اقتيد إلى المحكمة شاب حلبي ، متهم باغتيال ضابط فرنسي ، وحين سأله القاضي الفرنسي : « لم قتلت الضابط ؟ » سمع منه جوابا لم يتمكن المترجم من ترجمته ، بل إن المترجم لم يتمالك نفسه وانفجر بالضحك ، ذلك أن الشاب الحلبي الظريف أجاب : « ورحمة نابليون مالي خبر » .

فكيف نترجم تعبير « ورحمة نابليون » لقاض فرنسي ؟

لنأخذ مثلا الشاعر الشعبي العراقي الشهير الملاعبود الكرخي (١٨٦١ ـ ١٩٤٦ م) الذي يقول عنه المؤلف بحق إنه (كان وطنيا متحمسا من زاوية قومية صرفة ، وفي إطار شعره الشعبي يمكن أن يعد من أعظم شعراء الهجاء في التاريخ العربي . ولا عجب أن تأتي فكاهته السياسية وسخريته اللاذعة المريرة منظومة بقصائد . ويستشهد العراقيون بأشعاره كما يستشهد الانكليز بشكسبير . وكلماته شريفة كانت أو سليطة تأتي كالطلقة من ماسورة البندقية) .

ومع ذلك فإن المؤلف ـ وله العذر في ذلك ـ لم يستطع أن يعرض للقاريء أكثر من صفحة واحدة عن سخرية هذا الشاعر اللاذعة ونقده المرير ، ذلك أن فهم اشعار الكرخي العامية يصعب على القاريء العربي غير العراقي ، فكيف على القاريء الغربي ؟

إذن فالمؤلف قد تعرض للمحنة التي أشرت إليها ، عندما حاول « تلخيص » سخرية الملاعبود الكرخي أو التعريف بأمثاله من الشعراء الشعبيين المعاصرين بمقطع قصير أو صفحة واحدة من صفحات كتابه الكبير مع أن سخرية الكرخي السياسية اللاذعة والمريرة والجارحة قد ملأت حتى الآن خمسة دواوين من سلسلة الكتب التي كانت محور حياته العاصفة على مدى ٧٤ عاما .

وللمؤلف العذر كما قلنا .

لأني وأنا قاريء عربي لم أستطع أن أفهم سطرا من دواوين الكرخي الخمسة ، فكيف الحال بالقاريء الغربي ؟

فإذا تركنا هذه المسألة و « تورطنا بقراءة النسخة من هذا الكتاب البديع وجدنا أن الدكتور كمال اليازجي الذي نقل الكتاب إلى العربية ورد بضاعتنا إلينا ، قد أسعدنا بنص أدبي رفيع هو الغاية في الجمال والكمال ، لذلك فإنني استخدمت كلمة « تورطنا » للتعبير عن حالة القاريء الذي يمسك الكتاب بتلابيبه فلا يتركه إلا بعد أن ينجز قراءته ، فهذا الكتاب ـ على اغراءات محتواه وطرافة موضوعه ، وفكاهة شواهده وتعليقاته ـ يمتاز بفضائل تزيد من شد القاريء إليه ، منها بلاغة البيان ، ونصاعة الأسلوب ، وسلامة النص من الأخطاء اللغوية والمطبعية ، وجمال العرض ، والدقة العلمية في نقل نصوص الشواهد المختارة من كتب التراث العربي القديم . وهي نصوص أعتقد أن المؤلف بذل جهودا ضخمة في اختيارها وتجميعها من مضامين مئات الكتب القديمة ، ليعطي بعدا تاريخيا لنظريته التي أراد أن يؤكد فيها للغربيين أن العرب ليسوا أمة تجهم وبكاء ، وأن هذه الصورة السوداء ظالمة ومتجنية وغير موضوعية .

خصائص الظرف العربي

لذلك فإنه يخصص الفصل الأول من كتابه للتعريف ، بخصائص الظرف العربي ، بعد أن يمهد لذلك ، بجولة في فلسفة الضحك ، مؤكدا أن (الظرف العربي حقل جديد ـ نسبيا ـ من حقول البحث ، قلما فطن له العرب المعاصرون . والظفر بمادة تصلح للتقييم والتحليل يفرض على الباحث القيام بغربلة مجموعة ضخمة من النكات والنوادر والحكايات والأشعار التهكمية المنثورة في كثير من المؤلفات والمجاميع) .

وبعد أن يقدم لنا عرضا جميلا لتاريخ الظرف والظرفاء عند العرب منذ عصر الجاهلية حتى أيامنا ، وفصلا آخر عن « الظرف السياسي في تاريخ العرب » يخلص إلى استنتاج طريف يقول فيه :

(والذي يبدو أن ظرفاء العرب قد طابت لهم الدعابات التي تعرّي الحكام وتنفي الخوف من نفوس الناقمين عليهم بتعرية الحاكم عن هويته ، ومواجهته مجردا عن هيبته . وقد بلغني مؤخرا حادث من هذا النوع عن الملك فيصل منشيء العراق الحديث ورئيس وزرائه الشهير نوري السعيد ، وكان فيصل قد وصل حديثا إلى العراق وماله قليل ، فسأل السعيد : كيف يقضي العراقيون أوقات فراغهم فأجابه : أحب تسلية لديهم النزهة بقارب في النهر ، فأبدى الملك رغبة في هذه المتعة ، فانسلا ليلا متنكرين إلى حيث الملاح دعبول ليأخذهما بقاربه في نزهة نهرية . وكان دعبول كسائر زملائه الملاحين يشرب الخمرة ويحتفظ بزجاجة منها في القارب . ولكي يظهر لضيفه الكرم البغدادي قدم زجاجة « العرق » للملك ليرتشف منها جرعة ، والملك كعربي لم يرفض الضيافة ، لكنه كمسلم اكتفى بلمس فوهة القنينة بشفتيه ، لكن نوري السعيد جرع منها جرعة كبيرة ، وأعادها إلى الملاح . وأخذ دعبول بعد ذلك يسلي ضيفيه بالأحاديث المعتادة التي لاتخرج عن نطاق التذمر من الحكومة وقذف الوزراء واقتراح سبل الإصلاح . وفي نهاية النزهة سأل نوري السعيد الملاح دعبول :

ـ تدري احنا منو ؟

ـ لا والله أفندي .

ـ أنا رئيس وزراء العراق .

وأسرع الملك فيصل إلى القول :

ـ وأنا ملك العراق .

فقال الملاح دعبول : ماشاء الله ، إنت شربت جرعة وشفت نفسك رئيس وزراء ، وهذا شرب نصف جرعة وشاف نفسه ملك ! يه يه يه .. بالله انزلوا .

وفي اليوم التالي أراد نوري السعيد أن يوفر لجلالته مزيدا من المتعة ، فأرسل في طلب دعبول ، وأخذ في محادثته ، فسأله : هل من جديد في الحركة على النهر ؟ فقال دعبول : لا .. باشا .. بس البارحة جاءني شقيان اثنان (وروى حكايتها معه كما راق له) ، فأظهر نوري السعيد غضبه وأمر الحرس بالبحث عن الشقيين ، فقال دعبول :

ـ لاتشغل بالك باشا ، مايستحقون أي تعب ، اثنين دايخين الواحد منهم ما يسوى اربع فلوس) .

نكات النحويين

ويلاحظ المؤلف خلال استعراضه مقومات الظرف السياسي في تاريخ العرب أن (النكات الكثيرة التي انطلقت عن الأصول النحوية ،والحذلقة اللغوية ، كونت فرعا من الظرف قائما بنفسه . رووا عن نحوي كان على ظهر سفينة فسمع الملاح يلحن في كلامه فصاح به : ألم تتعلم النحو ؟ فأجابه : لا ، فقال له النحوي : أضعت نصف عمرك .

وبعد قليل هاج البحر وسقط النحوي في الماء وأخذ يصيح مستنجدا . فقال له الملاح : ألم تتعلم السباحة ؟ قال : لا . فقال له الملاح : أضعت كل عمرك) .

كما يلاحظ ملاحظة ثانية أكثر أهمية ودقة ، وهي أن (المفهوم الغربي للظرف والدعابة ، والسخرية والملهاة ، فضلا عن المحاكاة الهزلية - لايطابق تماما المفهوم العربي للفكاهة والمزاح والهزل والظرف وليس ثمة إجماع على مضامين التعابير الغربية . وأنا لن أحاول أن أحدد التعابير العربية ، لكنني أرى أن التقصير الفاضح في الجانب العربي هو الملهاة . فالمسرح أصلح مكان لانطلاق الافكار الفنية بالدعابة ولتفاعلها . ولقد أصاب برغسون حين قال : « إن الأمة الفكهة هي بحكم الضرورة أمة تهوى المسرح » . إن تطور المسرح متصل اتصالا وثيقا بالديمقراطية وقبول التعددية وإطلاق حرية النقاش والرد ، واحترام آراء الآخرين ، والإيمان بأهمية العمل الجماعي . هذه هي علة ازدهار المسرح في بلاد اليونان وأوربا الغربية وديار الانكلوسكسون).

الظرف الصحافي

فإذا انتقل القاريء إلى الفصل الثالث المخصص للحديث عن « الظرف الصحافي في عصر الانبعاث » فسوف يلاحظ أهل بيته أن وتيرة ضحكاته قد تصاعدت وتسارعت ، وأن رنين ضحكاته وجلجلتها - وهو ماض في القراءة - أصبح مسموعا لدى الجيران . لأن المراجع المتوفرة ، وهي الصحف المصرية والسورية واللبنانية وصحف المهاجرين العرب ، كثيرة وغنية بالشواهد والطرائف والوقائع التي ما تزال قريبة العهد ، ولدى القاريء خلفية فكرية عنها ، لذلك فإن « مفعولها » في إثارة الضحك لديه سهل وسريع .

خذ مثلا هذا التعليق الذي نشرته مجلة روز اليوسف القاهرية في ٢٢ مايو (أيار) ١٩٢٧ حول إعلان صغير في إحدى الصحف عن مكافأة تمنحها سيدة انجليزية لمن يعثر على كلبتها الضائعة « لولو » جاء فيه :

(خمسة عشر جنيها تدفع من أجل كلبة ضعيفة . إذن فكم جنيها ستدفع من اجل كلبة متمتعة بالصحة التامة موردة الخدين ، كحلاء العينين ، ثقيلة الردفين ، بارزة النهدين ، ذات خصر نحيل ، وذيل قصير !!

وهذه الكلبة المحبوبة المعززة من صاحبتها لماذا تتوه يا أولاد الحلال ؟ ! . تقول عنها صاحبتها إنها ضعيفة ، إذن لعل مرضها أعياها وأعيا نطس الأطباء فسئمت الحياة وألقت بنفسها في نهر النيل .

وإذا صدق ظني فلعل صاحبتها ترسل هذه الخمسة عشر جنيها إلى ملجأ أبناء السبيل ، على روح المبكي على شبابها لولو ، فتدخل الفرح إلى قلوب عشرات الأطفال الصغار المساكين .

خمسة عشر جنيها تدفع من أجل كلبة ! وفي البلد مئات وألوف من الأطفال يتضورون جوعا ! اللهم ازل غضبك وسخطك) .

ويعلق المؤلف على هذا « المقتطف » قائلا :

(لقد كان مقدار الجائزة كبيرا لايمكن لكاتب مثل هذا العمود الهزلي في هذه المجلة أن يحلم بمثله عن أتعاب شهر كامل) .

جحا الحاضر أبدا

وبوجه عام يحمد للمؤلف حسن اختياره للشواهد . فهو - أمام الكم الهائل مما تجمع لديه من النكات اللاذعة والتعليقات الساخرة - يعرف كيف يقدم النماذج التي تشعرك بأنها « جديدة » . من ذلك مثلا أنه يختار من تراث حكايات جحا العديدة هذه النادرة :

(ذات مرة رافق جحا الوالي إلى الحمام ، فسأله الوالي وليس عليه إلا المنشفة :

- كم تقدر أنني أساوي يا جحا ؟

- خمسين دينارا

- تبا لك، إن منشفتي هذه وحدها تساوي هذا المبلغ .

- أعلم ذلك ، وعليه بنيت تقديري)

وهذا نموذج آخر من « التراث المحكي » لا المكتوب ، عن رأي الناس بالعسكر :

(قيل : إن رجلا راكباً في سيارة النقل العام « الباص » وطأ سهواً على قدم أحدهم وبقي واقفا عليها .

وعندما فرغ صبر الرجل سأل المتجني عليه :

تسمح تقول لي حضرتك ضابط ؟

ـ لا

ـ أبوك ضابط ؟

ـ لا

ـ أنت متجوز بنت ضابط ؟

ـ لا

ـ مافيش عندك واحد ضابط في الجيش ؟

ـ لا أبداً .

فانهال عليه الرجل ضرباً ولكماً وهو يقول : أمال انت واقف على رجلي كده ليه ؟) . ومن النوادر المحكية لا المكتوبة التي تعطي هذا الكتاب ميزة انفراده عن كتب النقل ، هذه النادرة :

(قيل : إن وزيرا عربيا كان يشترك في جنازة زعيم سوفياتي ، فدهش عندما رأى المحزونين بعد الدفن يجتمعون على كأس فودكا ، وسأل سفير بلاده في موسكو ـ وهو عسكري سابق ـ عن تفسير لهذه الظاهرة ، فقال له السفير : العادة في روسيا أنهم يشربون الفودكا على صحة المتوفى) .

« نوع الفكاهة »

ويلاحظ المؤلف أن النكتة العربية ، بعد التقدم الهائل في وسائل الاتصال بين الثقافات ، لم تعد محصورة ضمن الشروط المحلية . (فمن الملاحظ أن العرب اقتبسوا الكثير من نكاتهم في غضون الثلاثينيات والأربعينيات ، من شعوب أوربا ، في حين أنهم اتجهوا في اقتباسهم ، في أثناء السبعينيات والثمانينيات نحو دول أوربا الشرقية . وهذا الواقع لا ينبيء فقط بنشوء علاقة جديدة لهم بالدول الاشتراكية ، بل يشعر كذلك بنفورهم من التطبيقات التي جرت باسم النظام غير الليبرالي . إن نوع الفكاهة التي يرويها رجل دليل صالح على أخلاقه ومزاجه وظروفه الخاصة . وهذا الواقع الفردي يصدق كذلك بالنسبة إلى الأمة جمعاء) .

وعلى ذكر المقارنة بين الأوضاع في فترة الثلاثينيات ، وما آلت اليه في فترة الثمانينيات ، يعرض المؤلف واقعة تفضح مدى ما كانت عليه الأوضاع من دكتاتورية في زمن « الأنظمة الرجعية المبادة » ، وهي واقعة الأشعار السليطة التي كان يؤلفها بيرم التونسي ضد الملك فؤاد ، والتي بلغت في تعريضها بالأسرة المالكة في مصر حد فضح قضايا غاية في الحساسية ، منها أن الملك فؤاد تزوج من زوجته وهي حبلى ، وأن الملك فاروق ولد بعد هذا الزواج باربعة أشهر فقط . وانتشرت القصيدة على كل لسان فما كان من النظام الدكتاتوري الظالم إلا أن اعتقل الشاعر وطرده من مصر . (!!)

« اعلام الظرف »

وبشكل عام فإن كتاب « السخرية السياسية العربية » الذي يتضمن فصولا طريفة أخرى عن أعلام الظرف في عصر الانبعاث ، وعصر التهكم والخيبة ، وعصر ناصر الذهبي وصدمة النكسة ، يجعلك تشعر بأن حال الأدباء الساخرين العرب في العصر الحديث يشبه حال الصحفي المصري المرحوم إمام العبد ، فقد وصف هذا الرجل بأنه القصاب الذي احترف الصحافة ، فكانت الكلاب تتبعه فصار هو يتبع الكلاب .

ثم يؤكد ذلك عندما يتحدث عن أحد أشهر أعلام الأدب الساخر في عصر الانبعاث فيقول : (عاش الشيخ عبد العزيز البشري في زمن كان فيه الأدباء أحراراً في العيش ـ نسبيا ـ كما يحلو لهم . فنشأت في عدد من العواصم العربية حلقات تضم الأدباء ، يطلقون فيها النكات ، ويناقشون السياسية ،

ويتداولون في أحكام اللغة ، ففي بغداد كان ملتقى النخبة من الأدباء المقهى السويسري والمقهى البرازيلي ومقهى الزهاوي . وكانت حانة انجلو ملتقى ظرفاء القاهرة ، مثل البشري وعلى ابراهيم وفكري أباظة . وكذلك كانت حانة اللواء ومقهى المتاتية لرجال العلم والأدب . وكان لهم في بيروت ودمشق مقاهي عجرم والقزاز والبرازيل يجتمعون فيها لأغراض مماثلة . لكن سرعان ما هبت رياح التغيير على الشرق الأوسط ، فإذا المنافقون وقوى البطش يحلون محل الأدباء والظرفاء ، وإذا أناشيد النفاق تنطلق منها بدلا من ألحان الطرب) .

أخيرا فإن هذا الكتاب الذي كان غرض مؤلفه تعريف القراء الغربيين بالوجه الساخر والضاحك في حياتنا ـ وقد أصاب الهدف ـ قد جاءت ترجمته العربية لتكون بمثابة الفصل الناقص من كتاب تاريخ العرب الحديث ، أو بمثابة الوجه الثاني ـ أعني الشعبي والحقيقي ـ للوجه الرسمي للتاريخ ، فهو يكشف عن الصورة التحتية لحياتنا العربية منذ بداية عصر الانبعاث ، أو منذ أن أصدر ابراهيم المويلحي صحيفته الهزلية « مصباح الشرق » في عام ١٩٠٦ ؛ فحدثنا عن « سراي » الحكومة ، وذكر أنها اشتملت على مكاتب لرئيس التشريفات وللكاتب الأول والأغا الأول والجاسوس الأول . ويستدرك أن المكتب الأخير ألغي فيما بعد ، ووزعت مهام الجاسوسية على سائر المكاتب الأخرى ، فكان رئيس كل منها جاسوسا وله جماعة من المخبرين .

وفي مقال آخر له يذكر أن الرجال في البلدان الأخرى يحرزون التقدم والترقي بتحصيل العلم ، وإظهار الشجاعة ، وقهر العقبات ، أما في الآستانة فالطريق إلى هذا الهدف أسهل وأقصر . ذلك أنهم يظفرون بالثروة ويحرزون المجد بمجرد تلفيق تهمة يلصقونها برجل بريء ، وقد اعتاد السلطان الإصغاء ، في كل صباح ، إلى تقرير من جواسيسه عن مؤامرة تحاك ضد شخصه المعظم . فاذا لم يبلغه مثل هذا التقرير اعتقد أن الأسوأ قد وقع ، وأن المتآمرين قد خدعوا الجواسيس وفاقوهم دهاء . وعند ذلك يقع فريسة الرعب إلى أن يأتيه الخلاص من خبر اكتشاف مؤامرة فيعود إليه روعه .

مآخذ نقدية

هل لنا من مآخذ على كتاب « السخرية السياسية العربية » ما دمنا نقرؤه من زاوية نقدية ؟

الجواب : نعم ، فالمؤلف عندما يتحدث ، وبشيء من الإسهاب في الفصول الأخيرة من الكتاب ، عن « الوضع » الساخر في أيامنا ، ويعرض نماذج جميلة وممتازة لناثر مثل زكريا تامر ، وشاعر مثل أحمد فؤاد نجم ، يترك الصورة مليئة بالثغرات لعدم تناوله كتابا ساخرين معاصرين ممتازين ، أمثال مصطفى أمين ، ومحمود السعدني ، وأحمد رجب ، وغيرهم ، من مصر ، وأمثال أحمد المعلمي ، وأحمد الشامي وغيرهما من اليمن ، وحسيب كيالي من سورية ، وابراهيم سلامة من لبنان ، وداود الفرحان من العراق ، وشعراء وأدباء كثيرين جدا في أقطار مغربنا العربي ، ممن لا نعرف حتى اسماءهم . وكان صدور هذا الكتاب فرصة فريدة للتعريف بهم .

أم أننا في تأكيدنا على هذا المأخذ أو التقصير ، نحمل المؤلف فوق طاقته ، ونطلب منه كتابا آخر يرسم فيه الصورة الكاملة لوقائع التاريخ غير الرسمي للزمن العربي المعاصر ؟ ! □

. بين العقلاء والمجانين فاصل أدق من نسيج العنكبوت . (جبران خليل جبران)

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب/ التغير الحضاري في مجتمع إفريقي
المؤلف/ د. محيي الدين صابر
الناشر/ المكتبة العصرية ـ بيروت
عدد الصفحات/ ٦٣٦ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٧

بهذا الكتاب يعود د. محيي الدين صابر الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى ميدان تخصصه الأصيل، وهو علم الاجتماع، فيقدم أول دراسة باللغة العربية عن قبائل نيام نيام ومشروعات توطينها.

الكتاب عبارة عن دراسة أنثربولوجية، تمت وفق المنهج الأنثربولوجي ذلك الذي يقوم على دراسة المجتمعات المحلية بأسلوب الاتصال المباشر، والمعايشة المشاركة، والملاحظة الداخلية للمجتمع، وكما يقول المؤلف فإنه اعتمد بشكل أعمق على الملاحظة المشاركة، فشارك القبائل معيشتهم وتزوج منهم وعمل بينهم، واقام اقامة كاملة كأحد أبناء القبيلة، لم تفته مناسبة ولم يترك فرصة إلا وانتهزها لجمع المعلومات ومعايشة الواقع في محاولة لرصده وفهمه.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، خصص الكاتب القسم الأول منه الى طرح الاطار النظرى للبحث، وفي القسم الثاني يتناول أصول الحضارة الزاندية «نيام نيام»، فيناقش البناء الاجتماعي والسياسي عند الازاندي، والبناء الفكري والديني والنظام السحري عند الازاندي، وشئون الحياة والموت، والنظام الجمالي ثم البناء الاقتصادي وأخيرا المناشط الاقتصادية، وفي القسم الثالث من الكتاب يتعرض الكاتب لمشروع التطوير الحضاري في مجتمع القبائل، فيعرض لقطاعات المشروع زراعيا وصناعيا وخدمات، ثم يقوم خلال فصل كامل بتقويم المشروع وبعد ذلك يعرض عوامل التغيير الحضاري في ذلك المجتمع، وأخيرا يناقش الكاتب مشروعات التوطين والتنمية كعوامل للتغيير الحضاري.

■■

الكتاب/ في العربية السعيدة
المؤلف/ د. محمد عبدالقادر بافقيه
الناشر/ مركز الدراسات والبحوث اليمني ـ صنعاء
عدد الصفحات/ ١٨١ قطع متوسط
سنة النشر/ ١٩٨٧

يتناول المؤرخ اليمني المعروف في كتابه هذا من خلال ثماني دراسات قصيرة، بعض القضايا التاريخية، ويلقي الضوء على بعض الزوايا الغامضة في تاريخ اليمن السعيد، فيتناول في بحثه الأول علاقة عرب الشمال (العدنانيون) بعرب الجنوب (القحطانيون)، وهي العلاقة التي لم تدرس بعمق كاف من قبل المهتمين بالتاريخ العربي عامة، وتاريخ اليمن خاصة، وفي البحث الثاني يتناول من خلال محاولات تفسير لقب ملوك حمير (بني تبع) تاريخ تطور مملكتهم بدءا من مملكة سبأ إلى ما انتهت إليه في

النهاية ، وأصبحت تضم سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة" وأعرابهم طود وتهامة" ، ومن مملكة حمير ينتقل الكاتب في بحث آخر لمحاولة قراءة النقوش الخاصة بينوجرة وبنو ذرانح ، ثم يناقش الكاتب في دراسة أخرى خلفية الأحداث التي أدت إلى سقوط حكم الأحباش في اليمن قبيل الإسلام ، وهكذا يخصص المؤلف دراسته التي تضمنها الكتاب إلى قضايا تكثر فيها الكتابات ، فيتناول بعد ذلك مملكة نزار واقليم البحرين ، ثم دراسة عن الهمداني والثامنة ، ودراسة عن هموم عدى بن وداع قراءة لقصيدة جاهلية ، وأخيرا الحنفاء العرب قبل الاسلام في مشروع إطار تاريخي .

■■

الكتاب/ المشروعات العربية المشتركة ، الواقع والآفاق
المؤلف/ د. سميح مسعود برقاوى
الناشر/ مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت
عدد الصفحات/ ١٧٩ ، قطع صغير
سنة النشر/ ١٩٨٨

يأتي هذا الكتاب ضمن السلسلة التي ينشرها مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان سلسلة الثقافة القومية ، وهو الكتاب رقم ١٧ في السلسلة التي تهدف إلى تناول القضايا الشائعة والمثارة اليوم في حياتنا الفكرية ، حول موضوع القومية العربية والوحدة العربية .

وعند تناول المؤلف لقضية المشروعات العربية المشتركة ، فإنه بدأ في الفصل الأول بتقديم المعنى المقصود بالمشروعات العربية المشتركة ، ومبرراتها وأهميتها ، ثم تطرق إلى واقع المشروعات العربية المشتركة من حيث عددها ، ورؤس الأموال المدفوعة فيها ، ثم التوزيع الهيكلي لهذه المشروعات ، والأطراف المساهمة في انشائها .

وبعد أن يلم القارىء بواقع الحال العربي في هذا المجال ، ينتقل به المؤلف في فصل كامل الى الحديث عن دور المشروعات العربية المشتركة وأهميتها في العمل الاقتصادي العربي ، ثم يناقش الكاتب بعد ذلك معوقات المشروعات العربية المشتركة ، ويختم دراسته بفصل عن مستقبل المشروعات العربية المشتركة والحلول الممكنة لمعوقاتها . وتضمن الكتاب ملحقا احصائيا فيه بيانات عن عينة مختارة من المشروعات العربية المشتركة ، والمشروعات العربية الدولية المشتركة من حيث اسم المشروع ومقره ، وتاريخ التأسيس ، ورأس المال المدفوع .

■■

الكتاب/ أزمة القصيدة العربية - مشروع تساؤل
المؤلف/ د. عبدالعزيز المقالح
الناشر/ دار الآداب - بيروت
عدد الصفحات/ ٢٠٨ قطع متوسط
سنة النشر/ ١٩٨٥

يناقش هذا الكتاب قضية الخلاف بين الشعر التقليدي والشعر الحديث ، ومن خلال عرض منطقي يطرح الكاتب أفكارا وتساؤلات شديدة الثراء ، فيقول في معرض رصد القضية وجذورها إن الأزمة بالنسبة للشعر ليست سوى أزمة موقف من الجديد ، وأزمة خوف من التغيير الحقيقي في بنية الكلمة ، وقد جاء ذلك الموقف مستنداً الى المعايير السلفية الضيقة والعاجزة عن تكوين مفهوم علمي للشعر ولبقية فنون التعبير ، وليس أدل على ذلك من أن النقاد التقليديين يتهمون شعراء القصيدة المعاصرة بالتهالك على الشكلية ، وينسون أن دفاعهم المبالغ فيه عن الشعر التقليدي هو اسراف في الدفاع عن الشكلية . ثم يتعرض الكاتب بعد ذلك الى طرح اشكالية الجديد والأجد في القصيدة العربية ، والخلاف بينها ، ويختم الكاتب كتابه بفصل كامل يخصصه لمناقشة منطق الأزمة في القصيدة البيئية العربية . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٥٩

أكتوبر ١٩٨٨م

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت ، مسابقة العربي العدد ٣٥٩ ، واخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ نوفمبر ١٩٨٨

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٥٩

١

ما يخفض المرء عُدْمُهُ ويُتْمُه اذا رفعه دينه وعمله ، ولا يرفعه ماله وأهله اذا خفضه فجوره وجهله .

حكمة مقتطفة من كتاب أطواق الذهب في المواعظ والخطب .. ترى من هو مؤلف هذا الكتاب ؟

٢

ضرب أخماس لأسداس ..

مثل شائع .. ترى ما الذي قصد اليه العرب من ضرب هذا المثل ؟

* وصف الخبيث الماكر .
* وصف الأمين الحريص .

٣

بزاقة مضت في تسلق جدار طوله ٣٠ قدما وراحت تتقدم ٣ اقدام نهارا وتتأخر قدمين ليلا . ترى كم يوما احتاجت البزاقة لبلوغ أعلى الجدار ؟

٤

قالت له احدى المعجبات : تصور أية ثمرة طيبة مدهشة نجنيها فيما لو اقترنت عبقريتك بجمالي ، فرد عليها الأديب الساخر : ولكن ماذا لو اجتمع قبحي وغباؤك ! ؟

فمن هو هذا الأديب الساخر ؟

٥

بستان مثلث الشكل ، زرعوه شجرا ست شجرات لكل ضلع من أضلاعه

الثلاثة وشجرة واحدة في كل زاوية من زواياه الثلاث . .

ترى ما هو مجموع الشجر المزروع في هذا البستان ؟

٦ « مستر واطسون تعال الي أنا أريدك » عبارة لا حكمة فيها ولا عبرة . . ولكنها ذات خطورة بالغة ، فهي اول عبارة انتقلت من قائلها الى سامعها بالهاتف . . فمن هو قائل هذه العبارة ؟

٧ يردد الهولنديون ذكر الرجل الهولندي الطائر فهم يطلقون الاسم على كثير من منشآتهم العمرانية والاقتصادية وكثيرا ما يستعملونه مجازا لوصف رحال أو بحار ضل السبيل . . ترى من هو الرجل الهولندي الطائر هذا ؟؟

٨ ترى في أي المدن تتوقع ركوب الجندول ؟

٩ يذكر التاريخ حادثة غريبة وقعت لاحدى السفن سنة ١٨٧٢ وذلك في عرض المحيط الاطلسي غير بعيدة عن ساحل البرتغال ، فقد عثر على السفينة فجأة وقد فقدت ملاحيها وقارب نجاتها وبعض معداتها ولم يتمكن أحد من حل لغز هذه السفينة حتى الان . . فأي سفينة تلك .

- * التيتانيك * ماري سلست
  * كوين ماري

١٠ لعبت النار دورا مهما جدا في تاريخ الحضارة . . ترى من اكتشف النار وأين ومتى ؟

١١ خاطب الشاب المرأة قائلا : « اعتقد اننا أقرباء ، ولكني لا أستطيع تحديد صلة القرابة بيننا نظرا لغيابي الطويل في امريكا » .

فابتسمت المرأة وقالت : « المسألة بسيطة وحسبك أن تعرف أن أمك كانت ابنة أمي الوحيدة » .

ترى ما وجه القرابة بين الاثنين ؟

١٢ وما شيء حشاه فيه داء
وأوله وآخره سواء
اذا مازال آخره فجمع
يكون الحد فيه والمضاء
وان أهملت أوله فصل
له بالرفع والنصب اعتناء

أبيات تلغز بالخمرة . . فمن هو قائلها ؟ □

العربي - العدد ٣٥٩ - اكتوبر ١٩٨٨ م

حلّ مسابقة العدد ٣٥٦ يوليو ١٩٨٨

١ توجد أقدم كنيسة في العالم في سوريا ، في قلعة الصالحية الواقعة الى الشرق ، والكنيسة هي أقدم الكنائس القائمة حاليا في العالم كله ، وقد مضى على انشائها أكثر من ١٧٥٠ عاما اذ بنيت سنة ٢٣٢ م ، على انها لم تبن لتكون كنيسة بل بيتا للسكن ثم حولت الى كنيسة .

٢ الكنائس والكاتدرئيات صنوان فهي معدة لاقامة الصلاة عند المسيحيين بيد أن الكاتدرائيات يرعاها أسقف ، أما الأديرة فهي سكن للرهبان والراهبات .

٣ برج بيزا المائل ليس الا برج الأجراس الخاص بكاتدرائية بيزا وان فاقت شهرته شهرتها وذلك بسبب ظاهرة ميلانه وهي ظاهرة عجيبة لا ريب .
وتجدر الاشارة الى أن الكاتدرائية وملحقاتها قد بنيت فيما بين سنة ١٠٥٣ - ١٢٧٢ وتعد آية من آيات فن الرومانسك وهو فن معروف في اوروبا .

٤ أضخم كنيس قائم في الولايات المتحدة الامريكية ، يعرف باسم معبد عمانويل ويقع على التقاطع بين الشارع الخامس وشارع رقم ٦٥ ويبلغ بعداه ٧٢ ,٤٥ مترا × ٧٧,١١ مترا ، وقد اكتمل بناؤه سنة ١٩٢٩ .

٥ أضخم الكاتدرئيات في العالم هي كاتدرائية القديس يوحنا في نيويورك أو الكاتدرائية غير المكتملة كما يسميها أهل نيويورك اذ تبلغ مساحتها ١١٢٤٠ مترا مربعا فهي إذن أكبر من كاتدرائية سانتا ماريا التي تبلغ مساحتها ١٠٥٤١ مترا مربعا

٦ كاتدرائية نوتردام في باريس هي بلا ريب أشهر الكاتدرائيات الأوربية التي بنيت بالطراز القوطي ، وهي أيضا من أقدمها ويعود بناؤها الى سنة ١١٦٣ - ١٢٤٠م وهي كذلك أكبر مساحة (تبلغ مساحتها ٤٢٧×١٥٧ قدانا) ، وزادها شهرة اهتمام فيكتور هوجو وأمثاله من مشاهير الكتاب بها وغني عن البيان ان للكاتب الفرنسي الشهير هذا قصة بعنوان (نوتردام) .

٧ السير الكسندر رن (wren) (١٦٣٢ - ١٧٢٣) هو بلا ريب في طليعة المهندسين المعماريين الانكليز في العصور الحديثة وكاتدرائية القديس بولس (سنت بول) هي بلا ريب أهم آثاره المعمارية كلها .

٨ وستمنستر آبي ، كنيسة مهمة في لندن ، وضريح قومي ، تعتبر من أجمل المباني ذات الطراز القوطي في انكلترا انشئت بين ١٢٤٥ - ١٥٢٨ على أنقاض كنائس أخرى قديمة إنها الكنيسة التي توج فيها ملوك انجلترا كلهم اعتبارا من وليم

الأول وهي الكنيسة التي دفن فيها الكثيرون منهم .

٩ كنيسة سيستين في الفاتيكان هي التي تزين سقفها لوحات مايكل أنجلو الخصبة الرائعة بناها البابا سكستوس الرابع سنة ١٤٧٣ - ١٤٨١ والجدير بالذكر أن هذه الكنيسة هي المكان الذي تجتمع فيه جميع الكردينالات المقدسة .

١٠ تعزى القداسة الفائقة التي تتميز بها كنيسة القيامة الى الاعتقاد بأن بناءها يجمع بين مكانين مقدسين المكان الذي صلب فيه المسيح حسب المعتقدات المسيحية والمكان المجاور الذي دفن فيه حسب المعتقدات المسيحية أيضا .

١١ اتباع الديانة الشنطوية في اليابان هم الذين يقدسون المرآة الموجودة في أيز (ise) فهم يعتقدون أن آلهة الشمس نفسها اميتاراسو **Ametarasa** قد نظرت في هذه المرآة عقب خلق الكون مباشرة . لا عجب اذن إن أقبل الملايين من أهل اليابان وغيرهم على زيارة هذه المرآة سنويا .

١٢ الاسم هو « هاجيا صوفيا » وهو يوناني ومعناه الحكمة المقدسة .

وتجدر الاشارة الى ان كنيسة هاجيا صوفيا هذه كنيسة أرثوذكسية بناها يوشينان سنة ٥٣٢ - ٥٣٧ وقد حولت الى مسجد بعد الفتح العثماني سنة ١٤٥٣ اما الآن فهي متحف للفنون وبخاصة البيزنطية ويعتبر المبنى نموذجا رائعا للفن المعماري البيزنطي .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٦ يوليو ١٩٨٨

الجائزة الاولى : محمد مصطفى السمري/ الاسكندرية - جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثانية : النور محمد الحسن/ جامعة الخرطوم - جمهورية السودان .

الجائزة الثالثة : ابراهيم جمال ابراهيم احمد الجزار/ كلية الهندسة - دولة الكويت .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - نزار سليم كيخيا/ المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية .

٢ - احمد عارف الفاني/ بيروت - لبنان .

٣ - وربقي محمد/ حي البريك - حريكة - المملكة المغربية .

٤ - نهلة صلاح/ ولاية البويرة - الجمهورية الجزائرية .

٥ - سعود عزيز محمد/ البصرة - المعقل - الجمهورية العراقية .

٦ - طه محمود عمرين/ دوما - ص . ب (١٨٥) الجمهورية العربية السورية .

٧ - محمد فال بن محمد الطالب الشافع/ نواكشوط - موريتانيا .

٨ - حنا التون قيناق /راوريبرو - السويد

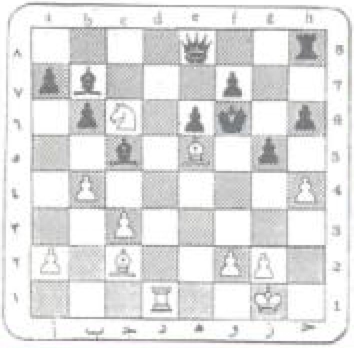

معركة بلاسلاح

يتمتع جورج كولتا نوسكي الرئيس السابق للاتحاد الأمريكي للشطرنج بموهبة نادرة في اللعب بالاستدبار ، وهو ضرب من اللعب ، يجلس فيه اللاعب وظهره إلى الرقعة معلناً نقلاته لخصومه عن طريق الرموز . وقد برع أجدادنا العرب في هذا الضرب من اللعب ، وتركوا لنا فيه مآثر خالدة (انظر عدد اكتوبر ٨٤) . واللعب بالاستدبار (العمياني) يسبب لممارسيه إرهاقاً ذهنياً بالغاً مما حدا بالسلطات الشطرنجية السوفييتية إلى منع كبار اللاعبين السوفييت من ممارسته حرصاً على صحتهم العقلية ، غير أن بعض اللاعبين يتخذون من نجاح كولتا نوسكي في اللعب بالاستدبار حجة لتفنيد هذه المزاعم ، فها هو كولتا نوسكي في الثانية والثمانين من عمره ومازال لاعباً وكاتباً ومديراً شطرنجيا ممتازا .

وقد حل هذا اللاعب الفذ بطولة العالم للعب بالاستدبار لعام ١٩٣٧ ، حيث لعب ٣٤ دوراً فاز في ٢٤ منها وتعادل في الباقي . ومن المهارات العجيبة التي يتميز بها كولتا نوسكي ما يعرف بجولة الفرس ، وهي أحجية يقوم اللاعب فيها بنقل الفرس بحيث يلمس كل مربع من مربعات الرقعة مرة واحدة فقط ، ويعود في نهاية الجولة عادة إلى المربع الذي انطلق منه في النقلة ٦٤ . وتبلغ دقة كولتا نوسكي ومهارته في تنفيذ هذه الجولة حدّاً يجعله يقيم عروضاً عامة يحضرها مئات المشاهدين ، يملأ مربعات الرقعة فيها بأسماء وأماكن وأرقام يختارها الحاضرون ، يقضي بعدها من ثلاث إلى أربع دقائق في حفظ الرقعة واختزان الأماكن والأرقام والأسماء في ذاكرته المدهشة ، ثم يقوم بتنفيذ الرحلة الغريبة بالقفز بالحصان من مكان إلى آخر ومن رقم إلى آخر الى أن يختتم الجولة وسط حيرة المشاهدين واستغرابهم .

وقد بلغت ثقته بنفسه مرة أن قام بهذه الجولة المدهشة أمام جمهور غفير على رقعة تمتلىء بالأرقام العشوائية لم يرها منذ عام مضى . أما كيف استطاع كولتا نوسكي اكتساب هذه المهارة العجيبة فهو يقول بأنه كان يرسم الرقعة فوق رأسه في غرفة نومه ، ويقضي وقت فراغه في استذكارها وتنمية قوى الاستبصار لديه .

ويفضل كولتا نوسكي في لعبه بالاستدبار الافتتاحيات التقليدية كافتتاحية الأفراس الأربعة وافتتاحية « روي لوبيز » ولكنه يميل إلى افتتاحية بيدق الوزير المعروفة بافتتاحية كول colle التي تنسب إلى اكبر لاعبي موطنه الأصلي بلجيكا كما في الدور التالي (كزويك ١٩٣٧) .

	□ كولتا نوسكي	■ السير هيو ولبول
١	د ٤	ح - و ٦
٢	ح - و ٣	هـ ٦
٣	هـ ٣	د ٥
٤	ف - د ٣	ح ١ - د ٧
٥	ح ١ - د ٢	ف - د ٦

النقلات التقليدية لافتتاحية كول

٦ .	هـ ٤	د × هـ ٤
٧ .	ح × هـ ٤	ح × هـ ٤
٨ .	ف × هـ ٤	ح ـ و ٦
٩ .	ف ـ د ٣	ت (نقلة متسرّعة)
١٠ .	ت	حـ ٦
١١ .	و ـ هـ ٢	ف ـ د ٧
١٢ .	ح ـ هـ ٥	جـ ٥
١٣ .	د × جـ ٥	ف × جـ ٥

١٤ . ر ـ د ١ لتسمير الفيل واقتناصه بعد ف ـ ب ٥

١٤ .	....	و ـ هـ ٧ (تفادياً للفخ)
١٥ .	ف ـ و ٤	رو ـ د ٨
١٦ .	و ـ و ٣	ف ـ جـ ٨
١٧ .	جـ ٣	ز ٤ ؟ (رديئة)
١٨ .	ف ـ ز ٣	م ـ ز ٧
١٩ .	حـ ٤ (تمهيداً للهجوم)	ر ـ حـ ٨
٢٠ .	ف ـ جـ ٢	ب ٦
٢١ .	ح ـ جـ ٦ ! (بديعة)	ف ـ ب ٧
٢٢ .	ب ٤	ر × د ١ +
٢٣ .	ر × د ١	و ـ هـ ٨

لمضاعفة التهديد على الحصان ومن ثمّ اقتناصه

٢٤ . و × و ٦ + تضحية يعتبرها المبصرون من كبار اللاعبين فتحاً فما بالك بمن يلعب مستدبراً وأمامه ثلاثون لاعباً !

٢٤ .	....	م × و ٦
٢٥ .	ف ـ هـ ٥ (مات) الشكل أعلاه	

مسألة العدد (٣٥٩)

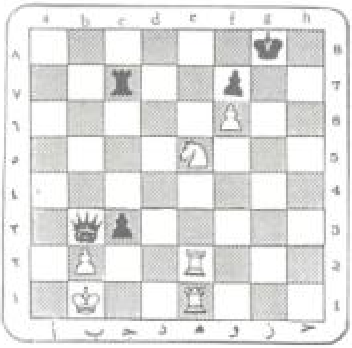

مات ٤

من اهداء القارىء
عماد دحدوح (دمشق)

حل مسألة العدد ٣٥٧
اغسطس ١٩٨٨

الحل :
١ . م ـ أ ٢ يلعب ما شاء
ثم مات

الفائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٦ (يوليو ١٩٨٨)

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ عبدالمجيد الحوليلي/ خريبكة/ المغرب
٢ ـ ناصر عبدالرحمن حمودة/ بورسعيد/ مصر
٣ ـ محمد عمر معاشر/ عدن/ اليمن الديمقراطية
٤ ـ مقداد محمود الزعاترة/ عمان/ الاردن
٥ ـ هنادي سعيد عثمان الرمحي/ الوكرة / قطر

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ أحمد كمال الكرم/ حماة/ سوريا
٢ ـ ابن ايوب محمد بن حمو/ غرداية/ الجزائر
٣ ـ عثمان أحمد محمد الحوري/ مناقذا/ السودان
٤ ـ يونس التليلي/ القصرين/ تونس
٥ ـ ساهر مهدي الراشد/ البصرة/ العراق

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت

زعامة الأدب تنتقل الى الكويت

الأستاذ / الدكتور رئيس التحرير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

باديء ذي بدء نهنئكم والعاملين معكم على تقدم مجلتنا المتميزة وتطورها من حسن الى أحسن متمنين لها كل تقدم وازدهار .

لقد ظهرت في الآونة الأخيرة موجة احتجاب بعض المجلات الفكرية الجادة والخلاقة مثل مجلة (الأمة) وكذلك مجلة (الدوحة) القطريتين ، وقد سبق ذلك بأعوام احتجاب مجلة (المسلمون) ثم عادت صحيفة (أسبوعية) تتمنى لها الاستمرار ولغيرها . وإن أسباب التوقف المفاجيء كانت مالية بحتة ، حيث أن وارداتها لا تغطي جزءا يسيرا من تكاليف إصدارها . وغير خاف عليكم أن احتجاب مجلة فكرية جادة يساوي قفل مدرسة علمية ، بل في حقيقة الأمر يمثل مأساة فكرية لجيل تنتصر فيه المجلات الهابطة وتحتجب المجلات التي تعنى بالفكر والمعرفة والقيم .

الأستاذ/ الدكتور رئيس التحرير

إني أجد نفسي في قلق على مجلتنا النيرة (العربي) مجلة كل العرب ، بل كل من نطق العربية في أرجاء المعمورة على الرغم من أنها شهرية وذات معارف متعددة ننتظرها بفارغ الصبر كل شهر ، قلق أن تتعثر في المستقبل القريب بسبب ضآلة العائد المادي وكثرة النفقات ، وارتفاع أسعار الورق على المستوى العالمي على الرغم من محاولتها الجادة الصامدة أمام كل التحديات ورغبتها الأكيدة في الحرص على الاستمرار بهمة الرجال المخلصين في أن تكون في متناول كل أبناء العرب ، ولتكون حلقة اتصال دائم بين أبناء الأمة العربية ، ومن وراء كل ذلك وزارة الاعلام الكويتية ، أعانها الله .

إني أتصور أن الأمن المالي سيتحقق إذا قامت المجلة برفع سعر البيع والاشتراكات بحيث يكون سعر البيع مساويا للتكلفة بدل من البيع بالسعر الرمزي كما هي عليه الحال الآن .

إن للمجلة حظا وافرا من محبة القراء وثقتهم يجعل الطلب عليها في ازدياد حتى إن رفعت السعر ، والمجلة مستمرة في العطاء منذ فترة طويلة دون أي تغير في سعرها ، وهي غزيرة العطاء منذ صدورها لأول مرة وهي الآن أقوى وأغزر في المادة والاخراج وفي نوعية الورق الذي تصدر به ، وإن قراء المجلة لن يبخلوا على

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

مجلتكم الرفيعة المستوى بدفع السعر الجديد ، على الرغم من أننا نعلم أن الفكر والأدب لا يقاس بالثمن أو بمبدأ الكسب والخسارة ، لتبقى مجلة العربي حية على مدى الأزمان ولتبقى الكويت رائدة في ذلك حماها الله .

في الأربعينيات أطلق طه حسين عبارته المشهورة « زعامة الأدب تنتقل من القاهرة إلى بيروت » وفي الثمانينيات تردد هذه العبارة مع شيء من التغيير ليصبح منطوقها « زعامة الأدب تنتقل إلى الكويت » . ونرى إن شاء الله في القريب العاجل هذه العبارة وهي أكثر شمولا لتكون « زعامة الفكر والأدب تنتقل إلى دول مجلس التعاون الخليجي » لما لها من الاهتمام والامكانيات والسبل لتهيئة ذلك المناخ المطلوب .

القاريء حسن عبدالرحمن بيكلي
جدة ـ المملكة العربية السعودية

نشكرك على رسالتك الصادقة ونطمئنك بأن الجميع في الكويت يولون مجلة العربي كل اهتمام ويوفرون لها كل الامكانيات ، وان وزارة الاعلام ماضية كالسابق في دعم المجلة والحرص على أن تظهر في أحسن صورة خدمة للأمة العربية بكل أقطارها .

■ ■ ■

حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتهيئة الظروف للانتفاضة

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير
تحية طيبة ،

قرأت في العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨ من المجلة الملف الفلسطيني،وبين هذا الملف وافتتاحية العدد يظهر مدى الجهد الذي بذل لتغطية انتفاضة الشعب العربي في فلسطين المحتلة ،**وهو جهد تشكرون عليه** ،ولكن في مقالة : « من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء » تحدث الكاتب الدكتور شفيق الغبرا عن بدايات الاستعمار الاستيطاني « الاسرائيلي » اليهودي للأرض العربية الفلسطينية ، وتحدث عن الجرائم والمجازر التي ارتكبتها « اسرائيل » تجاه الشعب الفلسطيني ، ثم أتى الدكتور شفيق على ذكر حرب ١٩٦٧ التي سيطرت فيها « اسرائيل » على الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس ، ثم انتقل فجأة بالحديث عن هذه النكسة إلى

حوار القراء

غزو الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢ ، ولكن المدهش هو لماذا لم يأت الدكتور الغيرا على ذكر حرب تشرين التحريرية (أكتوبر ١٩٧٣) التي استرجع فيها العرب بعض الأرض العربية المغتصبة مثل أجزاء من الجولان والقنيطرة وسيناء ، فلقد كانت أبرز الأحداث التاريخية التي تمت في تاريخ العرب الحديث نظرا لمنعكساتها ونتائجها على كل الأصعدة والمجالات . وكان من أهم نتائج هذه الحرب على الصعيد العسكري تأكيد قدرة الانسان العربي وجدارته القتالية وإمكاناته في استخدام أعقد وسائل الصراع المسلح ، وكذلك تحقيق المفاجأة التامة للعدو « الاسرائيلي » من الناحية الاستراتيجية على الجبهتين السورية والمصرية باتخاذ قرار الحرب وتوجيه ضربتين متزامنتين في الجولان وسيناء .

أما على الصعيد الداخلي فقد استعاد الشعب ثقته بنفسه وبإمكاناته وقدراته ، وتعززت ثقته بقواته المسلحة ، وتعزز الشعور بأن الأمة العربية قادرة ليس على المواجهة فحسب وإنما على تحرير كل التراب العربي .

وعلى الصعيد « الاسرائيلي » الداخلي اهتزت الصورة التي خلقتها « اسرائيل » في نفوس سكانها بأن الجيش « الاسرائيلي » لا يقهر .

أما على الصعيد الفلسطيني فلوحظ ازدياد نشاط العمل الفدائي داخل الأرض الفلسطينية المحتلة واتسامه بطابع جديد وهو المواجهة المباشرة ، وكذلك اكتساب القضية الفلسطينية اعترافا عالميا واسعا .

وعلى الصعيد العربي أبرزت الحرب أهمية الوحدة العربية في الصراع مع العدو الصهيوني ، وأكدت أهمية التضامن العربي ، وأبرزت الحرب أهمية النفط العربي في المعركة .

القارىء محمد بحري
رابطة التربية ـ حماة ـ سوريا

■ ■ ■

«تشجيع النشء»

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة ،

لماذا لا تأخذ المجلة على عاتقها مسؤولية تشجيع الشباب من الناشئة في رحاب الأدب ، سواء في الشعر أو القصة أو الدراسة الأدبية ، فنحن نلاحظ أن كل الذين ينشرون هم من كبار الكتاب والباحثين .

القارئة
آمال السيد عيسى السيد أحمد
توبلين ـ البحرين

العربي

تشكرك على رسالتك ، ونود أن نوضح أن المجلة كانت دائما سباقة إلى تشجيع المواهب الشابة ،وتنشر لهم ، وقد برز عدد منهم من خلال النشر في « العربي » ، وهذا فخر للمجلة أن ترى كثيرا ممن بدءوا الكتابة فيها قد أصبحوا من المشاهير في الوطن العربي ، والقضية تعتمد فقط على مدى صلاحية الموضوع المرسل للنشر وأصالته ، ومدى ملاءمته مع سياسة المجلة وأهدافها .

■■■

"شحنات الصوديوم والبوتاسيوم"

السيد الدكتور رئيس التحرير

بعد التحية ،

في العدد ٣٥٤ ـ مايو ـ ١٩٨٨ وفي مقال « كهربائية الجسم والأمراض النفسية » ، وبالتحديد في صفحة ١٤٧ كانت هناك معلومة ليست دقيقة ، أردت أن ألفت نظركم ونظر القراء إليها . فالكاتب يقول : « يحيط بالخلية العصبية غشاء يتكون من مواد كيماوية مختلفة في نوعها ونسبها ويحتوي الجزء الخارجي من الغشاء على كمية عالية من البوتاسيوم وكمية منخفضة من الصوديوم وتكون الشحنات موجبة في الحالتين وتكون المواد من داخل الخلية على العكس من ذلك ، أي أن يكون تركيز البوتاسيوم منخفضا ، وتركيز الصوديوم عاليا ، كما أنها يحملان شحنات سالبة » .

والملاحظ أن الكاتب أتى بمعلومة غير دقيقة وهي أن البوتاسيوم والصوديوم لهما شحنات موجبة في خارج الخلية وشحنات سالبة في داخل الخلية ، وهذا خطأ ، لأن شحنات البوتاسيوم والصوديوم موجبة سواء كانت داخل الخلية أوخارجها ، أما فرق الجهد بين داخل الخلية وخارجها فإنه ينشأ نتيجة الاختلاف في تركيز أيونات الصوديوم والبوتاسيوم أساسا ، وكذلك اختلاف معامل نفاذية غشاء الخلية لكل منها ، والمعادلات التي تحسب هذا الفرق من الجهد في استرخاء الخلية وهي ثابتة علميا منذ عام ١٩٤٣ ، بحيث يكون دائما داخل الخلية أقل جهدا من خارجها بحوالي ٨٠ ميللي فولت ($\frac{٨}{١٠٠٠}$ من الفولت) ، ولذلك يبقى دائما داخل الخلية سالبا بالنسبة لخارجها بنفس الكمية ، ولقد أثبتت ذلك التجارب المعملية الكثيرة .

د . محمد ابراهيم العدوي

قسم الاتصالات ـ كلية الهندسة والتكنولوجيا

جامعة حلوان ـ حلوان ـ القاهرة

العربي

وردت للمجلة أيضا رسالة من القارىء وليد طه الجمعية ـ كلية الطب الجامعة الأردنية ـ المملكة الأردنية الهاشمية تحمل نفس الملاحظات والمعلومات الواردة في الرسالة السابقة . ونحن نشكر كل من كتب في هذا الموضوع . وكما تعلمون أن المساحة المخصصة لا تسمح بنشر جميع الرسائل الواردة ، ونرحب بأي ملاحظات في المستقبل .

حوار القراء

ردود قصيرة

- القارىء مختار عبدالرحيم مختار - بركة الحاج - القاهرة - يود لو أن المجلة أعطت اهتماما بالطفل العربي. ونقول له: إننا نصدر منذ أكثر من سنتين ونصف سنة مجلة متخصصة للطفل العربي تسمى (العربي الصغير)، وسوف تلاحظ إعلانها ضمن صفحات المجلة. ويمكنك اقتنائها من أي موزع في القاهرة، كما أن المجلة تنشر المواضيع المتخصصة التي تعنى بالأطفال على صفحاتها.

- القارئة فاتن البدوي - دمشق - سوريا - أهنئكم على المجهود الكبير الذي تقدمونه في «العربي». وعندي اقتراح، وهو أن تقوموا بعمل استطلاع عن أحياء دمشق القديمة والبيوت العربية القديمة الآخذة بالزوال مع تقدم العمران.

- القارىء بسام دبابعة - جامعة اليرموك - المملكة الأردنية الهاشمية - يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن جامعة اليرموك وعن مدينتي البتراء وجرش التاريخيتين. كما يود معرفة كيفية الحصول على أعداد مجلة «العربي» من المكتب الفني بوزارة الاعلام الكويتية. نقول: إن المجلة قامت بعمل الاستطلاعات التي يقترحها في أعداد سابقة، ولا يوجد ما يمنع أن تقوم المجلة مرة أخرى بعمل مثل هذه الاستطلاعات. أما بالنسبة للحصول على أعداد «العربي» السابقة فما عليك إلا الكتابة الى المكتب الفني مباشرة بما تريد. □

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

• تعتمد فيما تنشر على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية.

• هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة.

• ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام.

• تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

رئيس التحرير
أحمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير
د. سليمان إبراهيم العسكري

الكلمات المتقاطعة

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
				■						٢
	■							■		٣
	■				■					٤
	■					■				٥
			■				■			٦
					■					٧
■		■						■		٨
									■	٩
	■							■		١٠

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ ـ بحار ورائد عربي يقال انه أرشد فاسكودي غاما إلى طريق الهند .

٢ ـ بلد عربي خليجي ، وظهر

٣ ـ رائد برتغالي اكتشف مضيقاً عرف باسمه .

٤ ـ ظاهر وواضح ، يأتي بعد الضيق .

٥ ـ يتركه النهر على جوانبه عند الفيضان ، الاسم الثاني لمضيق بين البحر الأحمر وخليج عدن .

٦ ـ كلمة تعجب ، استمع ، يد مثنوة .

٧ ـ مسقط رأس الرحالة العربي ابن بطوطة ، سُمر مثناه .

٨ ـ تنتظم شئوننا وتترتّب .

٩ ـ مقاطعة في شمال غربي الهند تتبع ولاية راجستان .

١٠ ـ من مشاهير الرواد الانجليز الذين جابوا أفريقيا الوسطى .

كلمات عمودية :

١ ـ رحالة عربي طاف العالم المعروف في ٢٩ عاماً ، الحرف الثاني في الأبجدية .

٢ ـ حرفان متشابهان ، صادق ومستقيم .

٣ ـ مصنوع من صخر ثمين ، تشابه كلمتين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى .

٤ ـ ملاح برتغالي اكتشف رأس الرجاء الصالح ، ثرت وفقدت أعصابي .

٥ ـ مخدر طبي ، رشف الشيء رشفاً رقيقاً ، من المحرمات في الاسلام .

٦ ـ رائد بريطاني معروف تجول في افريقيا .

٧ ـ مورد في صيغة الجمع ، مُبلّل .

٨ ـ رحالة عربي أندلسي قام برحلات كبرى وصفها في كتاب يعرف باسمه ، أعني أو أقصد .

٩ ـ اجتهاد ، غامق أو مائل الى السّواد .

١٠ ـ جمهورية سوفيتية وطد العرب فيها حكمهم في القرن الثامن ، صاح متألماً .

حل مسابقة العدد الماضي سبتمبر ١٩٨٨م

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ق	■	ر	ف	س	ا	ق	ب	ن	ر	١
س	ر	ا	ق	■	ن	ر	ق	■	ه	٢
ب	ا	ل	ب	ل	■	ن	د	ه	ر	٣
ا	ق	■	■	ل	ق	ب	ه	■	ق	٤
ل	ن	ا	ن	س	■	ق	ن	ت	و	٥
س	و	ق	ط	■	ه	ط	س	ب	ن	٦
ق	■	م	ا	ح	ع	■	■	ا	■	٧
ر	د	ن	و	س	■	د	ا	ن	ق	٨
■	ل	■	ق	و	ن	ل	م	■	ن	٩
ق	ن	س	■	ه	ر	د	د	ن	ب	١٠

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أكتوبر ١٩٨٨ م

التنبؤ الوراثي

تأليف

د. زولت هارسنياي و ريتشارد هتون

ترجمة : د. مصطفى فهمي

مراجعة : د. مختار الظواهري

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٠

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبدالمحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات إلى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب ص ب ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. بدر جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي
  أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية
  ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية
  جـ) سلسلة كتب ووثائق الخليج والجزيرة العربية
- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم
- الاشتراك السنوي بالمجلة
  أ) داخل الكويت [illegible] د.ك للافراد [illegible] د.ك للمؤسسات
  ب) الدول العربية [illegible] د.ك للافراد [illegible] د.ك للمؤسسات
  جـ) الدول الاجنبية [illegible] دولارا للافراد [illegible] دولارا للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:
ص. ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

مقر جامعة الكويت - الشويخ
هاتف: ٤٨١٦٨٨٧
[illegible]
[illegible]
[illegible]

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

مجلة فصلية أكاديمية
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول
العلوم الاجتماعية

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
للوزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى: رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص.ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف: ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧-٢٥٤٩٣٨٧ تلكس: ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية: محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر: كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٦٦٨٩ ، ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الاكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارىء

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد.

من
المسرح
العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٩ أول أكتوبر ١٩٨٨

منحنى خطر

تأليف: ج. ب. بريستلي
ترجمة وتقديم: د. زينب شيرازي
مراجعة: د. طه محمود طه

صخر

للتعليم العربي في كل مكان

العلم في الصغر كالنقش في الحجر

al Alamiah العالمية

الكويت : الشركة العالمية تلفون
الإمارات : اليوسف للكمبيوتر تلفون
البحرين : الزياني للخدمات التجارية تلفون
قطر : شركة الكمبيوتر العربية تلفون
عمان : مفتاح المعلومات تلفون

اليمن : اليمنية للحاسبات الالكترونية
الأردن : مركز الكمبيوتر الأردني تلفون
السعودية : العالمية العالمية الرياض تلفون
العالمية جدة تلفون
العالمية الخبر تلفون

العراق : المنشأة العامة للأجهزة الدقيقة تلفون
سوريا : مركز الكمبيوتر العربي تلفون
لبنان : ميكروكمبيوتر سنتر تلفون
مصر : الشركة الاستشارية (بيكو) تلفون
ليبيا : مؤسسة التنمية العربية للعقل الآلي تلفون

تونس : شركة الكمبيوتر والبرمجيات تلفون
الجزائر : المؤسسة الوطنية الإعلام تلفون
المغرب : إيكوام ش م تلفون
فرنسا : الإستشاريون للخدمات المعلوماتية
موريتانيا : مؤسسة المستقبل للالكترونات تلفون

العربي

ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ م

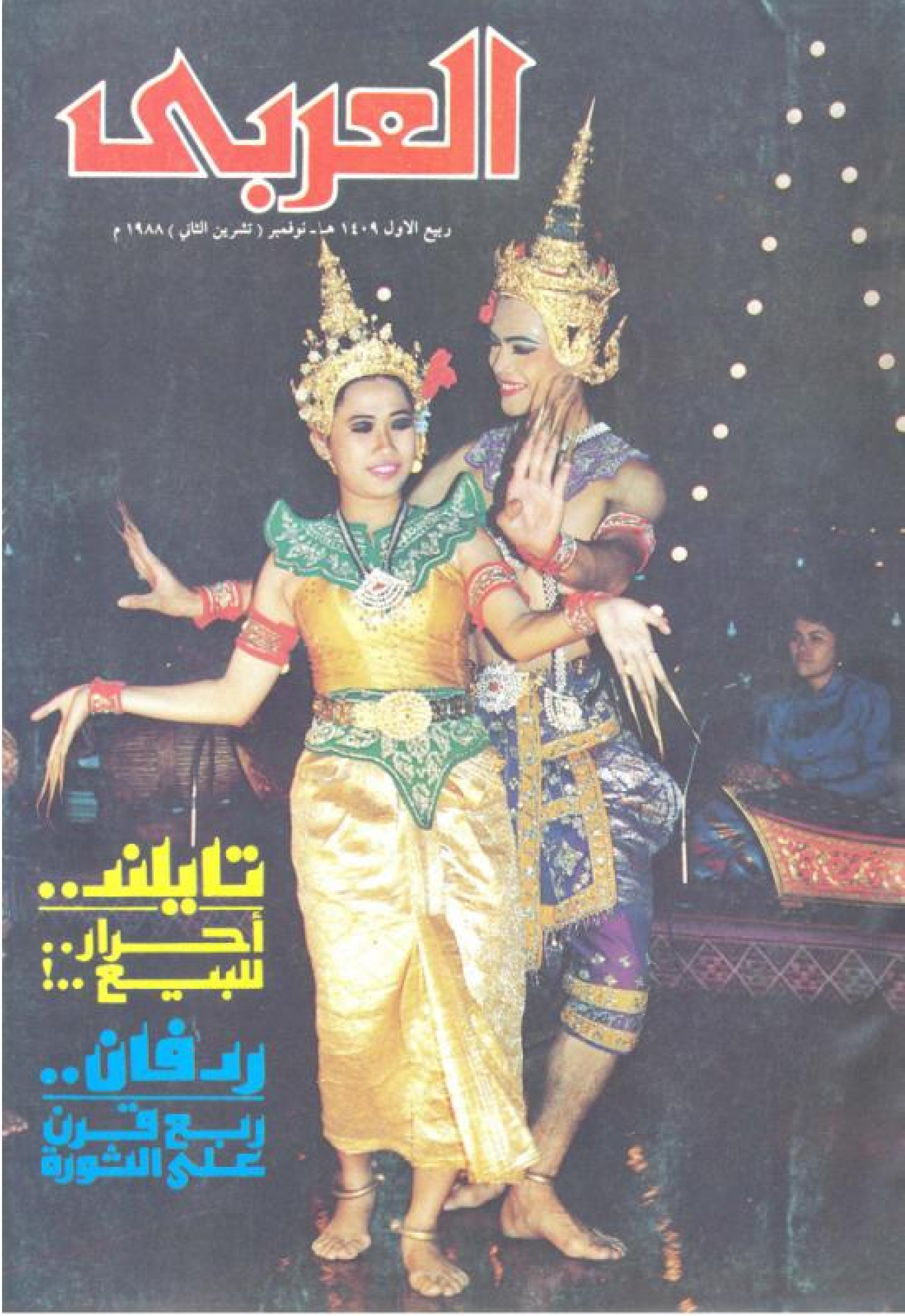

تايلند..
أحرار.. للبيع..!

ردفان..
ربع قرن على الثورة

منذ حضارة بلاد ما بين النهرين، كانت رياضة الصقور، ولا تزال حتى يومنا هذا، رياضة النبلاء.

الصقر طائر قوي، أنيق وسريع الحركة، يُروّض ويُعلّم خصيصاً فنّ الصيد. هذا الترويض والتعليم يتمّ على يدي أخصائيين لمدّة طويلة تدوم أكثر من ثلاثين يوماً. العناية عينها هي التي بها تصنع كل ساعة رولكس.

حتى اليوم لا تزال رولكس تصنع من قطعة معدن واحدة وتُنحت يدويّاً، سواء من الذهب الخالص أو الفولاذ أو الاثنين معاً.

كل ساعة تمرّ إفراديّاً بمجموعة تجارب قاسية قبل أن تعطى شهادة الكرونومتر السويسريّة الرسميّة.

جمال رولكس غنيّ عن التعريف وقيمتها تدوم وتدوم لسنوات وسنوات طويلة جدّاً.

مجموعة ساعات رولكس رائعة ومتكاملة لترضي أصحاب الذوق الرفيع.

رولكس والصقر رمز الدقة والأناقة.

ساعة ديورور داي - ديت من الذهب الأبيض والأحمر والأصفر مرصّعة بالماس.

ROLEX

رولكس

العدد ٣٦٠ السنة الحادية والثلاثون نوفمبر ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.4404IKT
تلفون فكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI

Issue No. 360 Nov. 1988, P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى: قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الإعلام ـ ص.ب: ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

العربي ـ العدد ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ م

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : تعلم كيف تفاوض !
ـ د . محمد الرميحي ٨
■ يا عرب ! الزراعة .. الزراعة
ـ د . سمير رضوان ٢٣
■ أرقام : الفقر في عيون الأغنياء
ـ محمود المراغي ٣٢

عروبة وإسلام :

■ الإسلام بين الإخاء والدماء
ـ د . عبد العزيز كامل ١٨

استطلاعات مصورة :

■ بعد ربع قرن على الثورة : ردفان .. العودة إلى الجهاد الأكبر
ـ سليمان الشيخ ٦٨
■ تايلند .. أرض الأحرار تبيع كل شيء ، حتى الانسان !
ـ سليمان مظهر ١٣٢

طب وعلوم :

■ الكوكايين شمبانيا المخدرات
ـ د . جمال الدين موسى ٤٠
■ أبو جهل ... خنفساء عبدت !
ـ د . وسمية الحوطي ٩٢
■ الجديد في العلم والطب
ـ إعداد : يوسف زعبلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠

أدب وفنون :

■ حنين (قصيدة)
ـ د . عبد الحميد محمود ٣٠
■ حكايات في الأدب والفن والتاريخ
ـ د . عبد الحميد يونس ٤٦
■ سر اللغز (قصة مترجمة)
ـ ابراهيم احمد الشنطي ٨٨
■ قراءة نقدية لكتاب : « المرتجى والمؤجل »
ـ صلاح حزين ١٠٤

■ الكوكايين شمبانيا المخدرات ص ٤٠

■ ردفان .. العودة إلى الجهاد الأكبر ص ٦٨

■ أجنحة الروح (قصة)
- محمد سمارة ١٢١

■ البحث عن الزمن المفقود
- د . زينب عبد العزيز ١٥٨

■ جمال العربية :
- صفحة لغة : دعس ، ودهس
- د . حسن عباس ١٧٦
- صفحة شعر : هكذا غنى الأباء : « مرحى غيلان » للشاعر بدر شاكر السياب ... ١٧٨

■ قصيدتان
- زهور دكسن ١٨١

منتدى العربي :

■ قضية : مأزق الإبداع الأدبي ، أو الروح الأسيرة
- غالب هلسا ١١٦

تربية وعلم نفس :

■ عصور إنسانية عرفت القلق
- د . عبد الستار ابراهيم ١١٠

وجها لوجه :
د . علي الوردي
.... ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

[illegible]

■ [illegible]
- د. علي [illegible] ٣٤

■ في المعرفة الجغرافية عند العرب في العصور الوسطى
- د. محمد علي نصر .... [illegible]

■ مصرع [illegible] الفارابي
- صلاح عيسى ٤٦

■ وجهاً لوجه : د. علي أومليل
- د. خليل [illegible] ٩٠

■ أسوار القاهرة القديمة
- د. قاسم عبده قاسم ١٤٢

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : الطاقة اليوم وغداً : الحياة مع المجهول
- بهاء الدين محمود ١٨٣

■ من المكتبة العربية : بنية العقل العربي
- رافع عبد الرحمن ١٨٩

■ مكتبة العربي : مختارات ١٩٤

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٦
■ مسابقة العربي الثقافية ١٩٦
■ حل مسابقة العدد (٣٥٧) ١٩٨
■ معركة بلا سلاح : الشطرنج ٢٠٠
■ حوار القراء ٢٠٢
■ الكلمات المتقاطعة ٢٠٧

صورة الغلاف

بيع الأطفال أصبح تجارة رائجة في بلد يتاجر في كل شيء .. حتى الانسان .. رغم جهود حكومة تايلاند لوقفها ..

[طالع الاستطلاع ص ١٣٢]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ الطفح الجلدي الحاد لدى الأطفال
- د. صباح السامرائي ١٦٢

■ أصوات مميزة يحدثها جسم الانسان
- د. عامر خالد ١٦٦

■ هو - هي ١٧٠

■ طبيب الأسرة : في البيت حامل مريضة بالسكر
- د. حسن فريد أبوغزالة ١٧٢

■ مساحة ود : الاستثناء والقاعدة
- أبو المعاطي أبو النجا ١٧٥

بين رحلتين

خلال ثلاثة أشهر فقط قامت الكويت بتحرك دولي واسع ، كان مظهره رحلتين رسميتين للقيادة السياسية الكويتية ، رحلة الشيخ سعد العبدالله الصباح ولي العهد رئيس مجلس الوزراء إلى واشنطن ، وقد كانت سابقة في الزمن ، وكانت رحلة عمل هدفها الرئيسي الشأن الكويتي والعربي ، وعندما التقى فيها رجل السياسة الكويتي الواسع الإدراك بالقيادات السياسية الامريكية أظهرت المحادثات المتعددة قدرة الكويت المستقلة على الإبحار في خضم السياسة الاقليمية المتلاطمة آنذاك ، وأكدت على الثوابت المحلية والعربية والدولية .

وكان لتلك الرحلة صداها ونتائجها ، ليس كسبا للكويت جغرافيا فقط ، بل كسب لكويت التاريخ التي ظلت ـ ومازالت ـ مستقلة في اتخاذ قرارات عظيمة الشأن بعيدة النظر . وكان لأهل السياسة في واشنطن أن يروا ويسمعوا ثم يقتنعوا بأن بلدا كالكويت كانت ـ ومازالت ـ بلاد مبادىء في الداخل والخارج .

وكانت الزيارة الثانية رحلة ميمونة قام بها أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح إلى مقر الامم المتحدة ، وقد تحدث فيها إلى أعضائها الذين يمثلون كل البشرية باسم المسلمين جميعا ، كرئيس لمنظمة المؤتمر الإسلامي . تحدث إليهم باسم الحق والعدل ، ووضع النقاط على الحروف في ثماني قضايا رئيسية تهم العرب والمسلمين ، والعالم أجمع ، وهي مشكلات العالم الثالث الاقتصادية والاجتماعية ، وحقوق الانسان ، والحرب العراقية الايرانية وذيولها ، والانتفاضة الفلسطينية ، بل القضية الفلسطينية برمتها ، ثم لبنان ، وأفغانستان ، والوفاق الافريقي ، ثم التفرقة العنصرية ، وهذه قضايا يشغل بها عصرنا بأكمله .

وفي عالم يسوده الحوار والانفراج ، وبشر تهددهم الحروب والمجاعات والسيول ، يرتفع صوت الكويت ـ كما كان دائما ـ داعيا إلى الحكمة والعدل ، مؤمنا كما قال سمو أميرها ، بالوحدة الانسانية الكبرى وبحقوق الانسان لأنه محور التقدم وغايته .

بقي أن نذكر أن الرحلتين قد تمتا على متن الطائرة (الجابرية) التي تعرضت للارهاب الأسود من قبل ، علامة ومغزى عميقان للمواجهة بين العدالة والأمن والأمان ، وبين التيار المضاد لحركة التاريخ والسلم .

وإنه لموقف لا مساومة فيه ، ولا تنازل عنه .

وتبقى الرحلتان من الرحلات الميمونة التاريخية المهمة في مسيرة الكويت الصاعدة نحو تحقيق تقدمها ورفاهة شعبها ، بهمم الرجال المخلصين الدءوبين على فعل الخير وتسجيل دروس القدوة والفخار . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

تعلّم كيف تفاوض !

يروى أن « محمد علي » ، والي مصر الشهير ، قد أمر بترجمة جملة من الكتب إلى العربية ، منها كتاب ميكافيلي الشهير «الأمير» (صدر ١٥١٣م) الذي يعالج فيه حيل الحكم والسياسة . وتقول الرواية : إنه بعد قراءة بعض فصوله المترجمة أمر محمد علي بوقف الترجمة ، لماذا ؟

لأنه على حد تعبيره ـ حسب ما جاء في الرواية ـ يعرف من الحيل أكثر مما يعرف هذا الأمير الأوربي !

لكن ظل « كتاب الأمير » يلاقي قبولاً لدى قراء كثيرين على مدى العصور ، خاصة من يهتم منهم بالإدارة والسياسة .

لقد سبق أحد الكتاب العرب المجهولين تقريباً ذلك الأمير الأوربي في وضع مخطوطة كان عنوانها : « رقائق الحلل في دقائق الحيل »[1] ، وقد ظلت تلك المخطوطة مئات السنين مجهولة إلى أن قام بتحقيقها أوربي ،

(١) طبع أخيرا بالعربية بعنوان « السياسة والحيلة عند العرب » تحقيق رينيه خوام ، قامت بنشره مكتبة الساقي ـ لندن ١٩٨٨ .

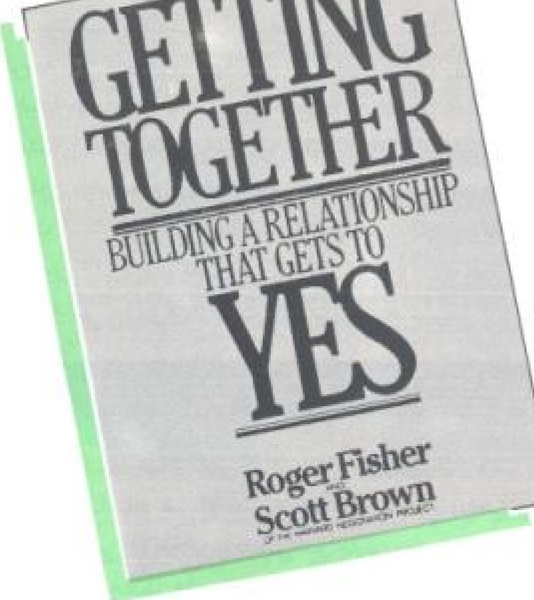

وترجمت إلى عدة لغات أوربية . هذه المخطوطة تناقش أيضاً الحيل السياسية ، لكن عند العرب .

هذه النوعية من الكتابات كانت وما زالت تشد الانتباه ، ويقبل عليها القراء . ولا عجب أن يكون الكتاب الذي بين أيدينا عن « المفاوضات : مداخلها وحيلها » قد بيعت منه حتى الآن مئات الآلاف من النسخ . عنوان الكتاب الفرعي هو « كيف تبني علاقات تؤدي بك إلى الوصول إلى كلمة نعم ؟ » .

كاتبا هذا الكتاب لهما تجارب في مثل هذا النوع من الموضوعات ، بل لقد اشتركا في تدريس مادة التفاوض ، وساهما في لعبة التفاوض التي تجريها بعض المؤسسات الأمريكية لاختبار موضوع تفاوضي معين .

محور الكتاب ـ كما قلت ـ هو : كيف تقوم بعمليات تفاوضية ناجحة ، ويرتكز ذلك على القدرة والامكانية لكيفية إقامة « علاقات جيدة » مع الأطراف الأخرى . بناء هذه العلاقات ـ كما يرى الكاتبان ـ هو حجر الزاوية الذي لا يستغنى عنه في إنجاح أي تفاوض ، سواء أكان هذا التفاوض بين خصمين فردين ، أو زوجين ، أو ضمن العائلة والجيران ، أو ـ وهذا هو الأهم ـ بين الدول !

يعترف الكاتبان أن الدافع الرئيسي لكتابة الكتاب هو عندما فكرا بالطريقة التي يتمكنان فيها كرجلين أكاديميين أن يساهما في تقوية العلاقات السوفيتية الأمريكية ، ليس بالدخول في القضايا الفنية كنزع السلاح أو الحد من انتشار الأسلحة النووية أو حقوق الانسان ، من القضايا التي تشغل الدولتين العظميين ، ولكن من خلال تصور طرق للتفاوض وتحليل عمليات التفاوض تحليلاً علمياً ، ولم يقتصر الكاتبان على أمثلة مأخوذة من تجارب بين الدولتين العظميين ، ولكنهما ضربا أمثلة خاصة وشخصية ودولية كثيرة للتدليل على أهمية الخطوات التي يقترحانها .

العلاقات الجيدة

إن كنت صغيراً أو كبيراً ، غنياً أو فقيراً ، روسياً أو سيلانياً ، فلنا كلنا « علاقات » مع الآخرين ، علاقات في اللعب ، في العمل ، في الجيرة . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يعتمدون على الآخرين ، نحن جميعا يعتمد بعضنا على بعض من خلال (علاقات ما) لو فكرنا لحظة في إلغاء تلك العلاقات فلن يكون لنا عائلة أو أصدقاء ، بل ولا عملاء ، ولا أحد يكتب لنا رسالة أو يلقانا على عشاء ، بل ولا حتى حكومة . . !

إذن فالعلاقات قائمة دائماً ، ولكن بعض العلاقات ناجح وبعضها فاشل ، نحن جميعاً نعرف أشخاصاً نرتاح لمعاشرتهم ، نأمن جانبهم ، نحدثهم في مشاكلنا ، وآخرين نتهيب منهم ، نتجنبهم ، ونخفي عنهم خصوصياتنا . . !

ولكن هل توجد طريقة لإصلاح موقفنا مع من لا نرتاح لهم ، أي في العلاقة السلبية ؟

لا توجد في الحقيقة طريقة ناجحة لإيجاد علاقات إيجابية دائماً تجعلنا نبحر في خضم الحياة بسعادة وبلا مشاكل ، فهناك ظروف خارجية لا نستطيع أن نتحكم فيها ، وهناك حد أعلى نسيطر فيه على أنفسنا من أجل بناء علاقة ناجحة ، لا توجد فيها خلافات ، أما الاختلاف فهو من طبع البشر ، سواء الاختلاف الفردي أو الجماعي أو الدولي .

وكثيراً ما يواجه بعضنا بسؤال حاسم :

ما هي أفضل الطرق لتجنب الخلاف ، في العمل ، أو في المنزل ، أو في المجتمع ، أو بين دولة وأخرى ؟

هل أستسلم لوجهة نظر الاخرين ورغباتهم ، وأكنس المشكلات كلها تحت السجادة - كما يقال - وأنتظر مرور الزمن ليحل هذه المشكلة أو تلك ، أم أواجه المشكلة حتى لو أدت الى علاقات رديئة مع الآخرين ؟

كثيرون يميلون إلى الحل الأول السهل تحت تأثير افتراض خاطيء ، هو أن تجنب الخلافات هو طريق ناجح لبناء علاقات جيدة !

فهل أخاطر بالعلاقة لأحصل على ما أريد ، أم أضحي بمصالحي من أجل إنقاذ العلاقة مع الآخرين وعدم تعريضها للخطر ! ؟

الافتراض هنا أن هناك علاقة (تبادلية) بين المصالح المشروعة والعلاقة الجيدة .

وذاك افتراض خاطيء ، كما يقول الكاتبان .

فهم خاطئ

إذا كان المتفق عليه أن للناس مصالح وقيماً ورغبات ، وأن هذه المصالح متعارضة ، بين أفراد أو مجموعات دينية أو عرقية ، أو حكومات ، فلا بد أن نواجه اختلافاً وتعارضاً في المصالح ، فكيف يحل هذا التعارض ؟

هناك سلسلة من الخطوات يقترحها الكاتبان ، على رأسها فصل موضوع (العلاقات) عن (القضايا المختلف عليها) . فمن السهل خلط العلاقات بالمصالح ، كقول شخص : إن لدي (علاقة) طيبة مع رئيسي في العمل ، فهو يمنحني (علاوة) كل عام !

إن أردنا أن نحسّن النتائج فعلينا أن نحسّن في طريقة الأداء

واضح هنا أن (العلاقة الجيدة) و (العلاوة) مرتبطتان في ذهن المتكلم . أو كالقول بأن العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان سيئة نظراً للفائض التجاري بينهما الذي يميل لمصلحة اليابان .

من هذين المثالين وغيرهما ، كثيراً ما يختلط موضوع (العلاقة) مع (المصالح) . وينصح الكاتبان أن نفكر بشكل مستقل (بالعلاقات) ، أي بموضوع العلاقة وليس بنتيجتها ، فالعملية والنتيجة مختلفتان ، صحيح أنهما متصلتان ، أي أن الواحدة منهما تؤثر في الأخرى ، ولكنهما ليستا عملية واحدة .

مثال ذلك فصل من الفصول الدراسية . (فعملية) التعليم تعتمد على المحاضرات ، التمرينات ، المناقشات ومن ثم الامتحانات . هذه (العملية) مختلفة عن (موضوع) الدرس نفسه ، سواء أكان رياضيات أو كيمياء أو تاريخاً أو لغة ، لكن (العملية) و (الموضوع) متصلان ، فالطريقة التي نعلم بها الموضوع تؤثر على تعلم التلاميذ ، فإن أردنا أن نحسن في النتائج فعلينا أن نحسن في الطريقة ، (في العملية) التي نقوم بها .

مثال آخر في الإدارة : فمهما كان انتاج الادارة التي نعمل بها ـ مجلة ثقافية شهرية أم انتاج أجهزة تلفزيون ـ فإننا نحتاج إلى فصل عملية الادارة ، من اتخاذ قرارات وتعامل مع موظفين مثلا ، عن نتائج تلك الادارة ، فكلما كانت الادارة جيدة كان الانتاج جيداً ، فإن فشلنا في التفكير بأن (العلاقة) منفصلة عن الهدف ، غاص الهدف في التفاصيل وضاع .

وهكذا هي المفاوضات ، يجب أن تفصل (موضوع المفاوضات) عن (العلاقات السياسية) .

المشكلة أن معظم الناس عندما يفكرون في (علاقة) يفكرون في النتائج . فصاحب المؤسسة يفكر في الأرباح وعدد الزبائن ، ويفشل أثناء ذلك في النظر بطريقة تعامل مؤسسته مع الناس ، وكيف يمكن تطوير هذا التعامل ، وفشله في هذا الأمر يقود إلى فشل المؤسسة .

البعض يستبدل (العلاقة) (بالمصلحة) ويجعل نجاح العلاقة أو فشلها متوقفاً على الموافقة أو الرفض في مسائل جوهرية ، فأنا أصر ـ مثلا ـ على أنك إما أن توافق معي على موضوع ما ، وبالتالي تكون بيننا (علاقات جيدة) ، أو أن أستسلم لك في موضوعات جوهرية حرصاً على تطوير

(علاقة جيدة) معك . وكلتا الفكرتين خاطئتان ، فهما تسدان الطريق أمام علاقة صحية يمكن أن تحل مشكلات قد تظهر لاحقاً .

في العلاقات الدولية نجد هذا الخطأ يتكرر ، فالولايات المتحدة تقول : لا علاقات جيدة مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ مثلاً ـ إلا بعد اعترافها « باسرائيل » ، وذلك استسلام لمنطق غير مقبول .

هناك حلقة أخرى من حلقات التفاوض الناجح يشير اليها الكاتبان ، وهي ألا تحاول أن (تشتري) علاقة أفضل بتقديم (تنازلات) تعتقد أنها جوهرية ، فالبعض يعتقد أن تقديم مثل هذه التنازلات كهدية يمكن أن يبتاع علاقات طيبة . وذلك خطأ فادح ، فالعلاقات الطيبة ليست للبيع ، وهذا النوع من الشراء لن يمكننا من بناء علاقات جيدة ولا يمكننا من حل مشكلات جديدة في المستقبل . في العلاقات الشخصية نرى كيف يؤدي ذلك الى مآس ، فالزوجة التي تعطي الزوج كل شيء من أجل بناء علاقة جيدة في معظم الأوقات تفقد استقرار بيتها . . وكذلك الأب الذي يعطي ابنه كل شيء من أجل بناء علاقة جيدة معه ، ينتهي به الأمر بفقدان ولده لسبب أو لآخر .

والتنازل ربما يقلل من الخلاف والشجار لوقت ما ، وربما يؤخر ظهور المشاكل ، ولكنه يفقد الآخر إمكانية تطوير قدراته لبناء طريقة جيدة لحل مشاكله ومواجهتها ، فبدون هذه القدرة ستغدو العلاقة ضعيفة أمام أي مشكلة تظهر في المستقبل .

نصيحة للزوجة ألا تعطي زوجها كل شيء حتى لا تفقد استقرار بيتها !

في العلاقات الدولية أثبت التاريخ مرة تلو أخرى خطورة بناء علاقة عن طريق الإرضاء ، فشمبرلين قد اعتقد أنه اشترى السلام عندما استسلم لهتلر في ميونخ عام ١٩٣٨م ، وستالين نفسه اعتقد هذا الاعتقاد عندما وقع اتفاقية مع هتلر . محاولة (شراء) علاقة هي بالضبط مثل الخضوع للابتزاز ، فكلما دفعت للمبتزين ، زادت احتمالات الدفع في المستقبل .

استراتيجية التفاوض

في معظم الأوقات نحن ندخل في علاقة مع الآخرين ، دون استراتيجية محددة وواضحة ، خاصة في قواعد التعامل . نحن ربما نستجيب كرد فعل لما يقوم به الآخرون ، أو تغمرنا العواطف فيضيع المنطق ، ونعامل الأمور على طريقة « أحب وأكره » ، ويمنعنا ذلك من اتخاذ استراتيجية عقلانية محددة لعمليات التفاوض . وفي بعض الأوقات تكون لنا استراتيجية في كيفية تحسين العلاقة دون أن نعي أنها استراتيجية فقيرة ومحدودة .

إن أردنا وضع استراتيجية ، لتحسين العلاقات مع الآخرين أو بناء علاقات جيدة على المستوى الاجتماعي أو الدولي ، فهناك خطوات محددة يمكن اعتمادها بهذا الخصوص :

علينا أن نبتعد عن خطأين شائعين : الخطأ الأول أن نتجاهل التصورات والأماني والتوقعات الوطنية ، فنحن كثيراً ما ننسى أن الآخرين ينظرون الى الأمور بشكل مختلف عن نظرتنا إليها .

والخطأ الثاني أننا نحاول أن نبني علاقة عن طريق تصور خاطيء هو أن الآخرين سوف يتبعون قيادتنا ، أو نتبع قيادتهم .

وكلا المنظورين خاطئان .

في الحالة الأولى : إن فشلنا في التكهن كيف يرى العالم بشكل مختلف القضايا التي نعدها مهمة ، فإن لدينا بالتأكيد صورة خاطئة عن أنفسنا وعن الآخرين ، إذا لم نفهم اختلاف الآخرين في النظر إلى قضايانا ، فإن عدم الفهم هذا سوف يؤثر في قدرتنا على حل المشكلات .

طبيعي جداً أن الناس يهتمون بالأشياء القريبة منهم والمهمة لديهم ، فموت صديق عزيز أهم وأكبر لدينا من وفاة المئات في تصادم قطارين في قارة بعيدة . وقضية فلسطين مثلا أوضح وأهم بالنسبة لنا - نحن العرب - من قضية نيكاراجوا التي تبدو بعيدة وغامضة لدى كثيرين منا . وبناء

في العلاقات الدولية أثبت التاريخ خطورة بناء علاقة عن طريق «الإرضاء»

كلما دفعت للمبتزين زادت احتمالات الدفع في المستقبل!

استراتيجية للعلاقات جيدة هو في الاعتراف بأن الناس تنظر الى القضايا والمشكلات من زوايا مختلفة كما أن أولوياتها لديهم تختلف ، فمنظور قائد العمال لمشكلات عمالية ملحة يختلف عن منظور صاحب العمل ، وهكذا .

وكذلك في العلاقات الدولية ، فالبلاد المختلفة لها ثقافات مختلفة ومصالح مختلفة وقيم مختلفة ، وبالتالي تنظر الى الأمور بشكل مختلف .

الخطأ في الحالة الثانية هو الاعتماد على (التبادلية) لبناء علاقات ناجحة ، مثل أن نتوقع من الآخرين أن يقتفوا اثر قيادتنا في موضوع ، أو أن نقتفي اثر قيادتهم . وخطورة (التبادلية) هذه تكمن في أنها قائمة على فكرة (افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك) ، لكن هذه القاعدة ليست حقيقة ، فإنك إن امتنعت عن انتقادي في العلن لن يردعني ذلك عن انتقادك والتشهير بك في الخفاء ، وعلى المستوى الدولي : إن لم أردعك بالحرب قد تقوم أنت بشن الحرب عليّ ، وهكذا .

العلاقات على طريقة «أحبُّ وأكرهُ» تغمرها العواطف فيضيع المنطق السوي

من ضمن قواعد الاستراتيجية الناجحة في بناء علاقة جيدة ، يعرض الكاتبان خمس قواعد هي :

١ - استقلالية في عدم الموافقة ، فكلما كانت خلافاتك مع الآخرين جادة وحقيقية ، احتجت الى طريقة جيدة للتفاعل معها ، أي أن تكون مستقلاً في اتخاذ قرارك بقول : لا .

٢ - استقلالية في التنازلات ، أي لا تتنازل عن مصالحك الحيوية ولا تطلب من الآخرين التنازل عن مصالحهم الحيوية .

٣ - زاوية النظر الأخرى : ان تأخذ بعين الاعتبار كيف ينظر الآخرون الى الأمور ، مثل ما تأخذ في الاعتبار نظرتك أنت الى الأمور .

٤ - استقلالية في التبادل : لا تنتظر من الآخرين أن يقدموا مثالاً في التنازل ، ولا يجب أن تفترض أن مثالك في التنازل سوف يُتبع بالضرورة .

٥ - استقلالية المواقف : أن نكون منفتحين وقابلين للاقتناع في أمور عقلانية واضحة مستعدين لإعادة النظر فيمن هو بجانبنا ومن هو بجانب غيرنا .

من خلال هذه النقاط الخمس نستطيع أن نبني استراتيجية واضحة لإقامة علاقة مع الآخرين جيدة ومتوازنة .

وقضايا أخرى

تبقى مجموعة من القضايا الأخرى التي يشير اليها الكاتبان لإكمال مسرح التفاوض ، قد لا يتسع المقام لسردها جميعاً ولكن بعضها ملفت للنظر . فالكاتبان مثلاً يدعوان لموازنة العقل بالعاطفة ، فالعاطفة تثير سلسلة من الأشياء الايجابية ، كالحب والاعجاب والاحترام ، وأشياء سلبية أخرى كالخوف والكراهية والغضب . وتدخّل العواطف في التفاوض قد يعطل قدرتنا على التعامل الناجح مع الاختلافات واتخاذ القرار العقلاني الذي يحتاج الى توازن . بعض الناس تغمرهم العاطفة بسهولة ، وكلما كانت عاطفتنا غامرة (سلبية أو ايجابية) أثرت في حكمنا . فالعاطفة قد تدفعنا لتقديم تنازلات قد نأسف عليها في المستقبل ، أو لتشدد يؤدي الى النتيجة نفسها .

كذلك يدعو الكاتبان الى التفهم ، فنحن لو اتخذنا موقفاً عقلانياً في مشكلة ، فإن المشكلة ربما لا تحل لأننا - أنا وأنت - (لا نفهمها) . وقد

تكون المشكلة نفسها موجودة بسبب وجود سوء فهم ، أو لغياب المعلومات الصحيحة ، لذلك فنحن لا نستطيع أن نحل خلافاتنا دون أن نفهمها ، والفهم الخاطيء أحد أهم عناصر زيادة المشكلات وتفاقمها وعدم القدرة على حلها . والتاريخ حافل بقصص عدم الفهم التي أضرت بالعلاقات الدولية . لعل أهمها ما أثاره جورباتشوف في كتابه (البيروسترويكا) عندما ذكر قصة خروشوف في الأمم المتحدة في أوائل الستينيات حين ضرب بحذائه الطاولة - في فورة غضب شديد - وقال (سوف نقبر العالم الرأسمالي) وتناولت وسائل الاعلام الغربية كلمة (نقبر) على أنها تهديد بحرب نووية ، وكانت فهماً خاطئاً ، إذ أن المعنى المراد - في الثقافة السوفيتية - لهذا التعبير هو أن نظامنا سوف يعيش أطول من النظام الرأسمالي .

عدم الفهم يأتي نتيجة مجموعة كبيرة من المدخلات ، منها عدم فهم الحديث ، أو عدم ادراك ما يُسمع ، أو الأخذ بمعلومات غير دقيقة .

واذا كان هناك اختلاف في اللغة والعادات والقيم فإن هامش عدم الفهم يكبر ويزداد .

ومن الطريف أن عدم الفهم لا يضع الأشخاص والدول وحدها في مأزق ، بل الشركات التجارية أيضاً . يقول الكاتبان : إن شركة جنرال موتورز انزلت سيارة جديدة في السوق الاسبانية سمتها « شفروليت انموفيل » ولم تعلم الشركة إلا بعد حين أن « انموفيل » ، بالأسبانية تعني : لا تمش !! .

● ● ●

والكتاب في النهاية من الكتب المثيرة للخيال في تحديد طريقة التفاوض والحث بشدة على التفاهم الدولي في عصر أصبح الحوار سمته الرئيسية ، ولكنه أيضاً يقرر شيئاً مهماً هو « ألا نجاح للتفاوض من موقف الضعف » ! .

وقد يلحق هذا الكتاب في الانتشار والذيوع كتاب « الأمير » لميكافيلي ، أو كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » ، ولكنه بالتأكيد أكثر عصرية . . ! □

محمد الرميحي

الإسلام بين الإخاء والدماء

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

حاول غيرنا من أصحاب الأديان أن يقيم فوق أخاديد الصراع القديمة جسورا من الإخاء والتعايش ، ونجحوا في ذلك . وما زالت أخاديد الصراع الاسلامية تحتاج الى جسور الإخاء .

لنبدأ بنماذج مما بين المسيحية واليهودية في القرن العشرين ، وقد اقتربنا من خواتيمه ، ونقارن بين هذا وبين ما كان بينهم من قديم . ولعل أبرز إنجازات الفكر المسيحي فيه ، إن لم يكن أبرزها جميعا ، أعمال :

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

بدأت فكرته عام ١٩٦١ ونشرت قراراته في عام ١٩٦٥ . وصدرت له ترجمة عربية في مصر ، وبعدها بثلاث سنوات صدرت ترجمة عربية ثانية من بيروت « ١٩٦٩ » ، وهي التي أمامي الآن عند كتابة هذا المقال .

وتهمنا هنا نصوص جاءت في الجزء الثاني تحت عنوان « تصريح في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية » (ص . ٣٨١-٣٩٥) .

النص الأول عن الاسلام ، والثاني عن اليهودية . ولكن لنقف قليلا عند مدخل القسم الثاني من التصريح وعنوانه « الأفكار الرئيسية » . يقول :«لم يسبق لأي من المجامع المسكونية أن تطرق إلى علاقة الكنيسة بسائر الديانات . وإن حدثت محاولات في هذا المعنى ، فلقد ظلت فردية ، دون أن تؤدي الى نتائج عملية جماعية . ثم تأتي إشارة الى أمانة السر الخاصة التي أنشئت في الفاتيكان عام ١٩٦٤ ، والى وثائق أخرى تدعو الى الحوار مع كل المؤمنين وذوي الارادة الصالحة ، كل ذلك هو بداية لفجر جديد في العلاقات التي يجب أن تنمو بين الكنيسة والديانات الأخرى القائمة في العالم » .

فهنا تأكيد على أن هذا « نهج جديد » في تاريخ الكنيسة . وهو « نهج نابع من سلطة مركزية » أحست بالمتغيرات التي يمر بها العالم . وتجاوبت معها .

وعرض القسم الثاني بعد هذا للمقطع الخاص بالاسلام ، وبين العقائد المشتركة بين الاسلام والمسيحية من ناحية الايمان ومن ناحية الأخلاق ـ وسنذكر النص بعد قليل ـ ثم انتقل الى القضية المحورية في التصريح وهي « قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح » ويذكر أن الكنيسة عمدت قبل المجمع الى نزع كل قول من كتبها الطقسية يكون منافيا للحقيقة التاريخية والكتابية فيما يتعلق باليهود .

وهذا ما دفعها أيضا الى أن تعالج في « المجمع » قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح . ماذا تعني هذه التبرئة التي كان لها صدى كبير في الأوساط المسيحية ، وخاصة في الأوساط العربية ، نظرا لما بين هذه الأوساط واسرائيل من نزاع وعداء ؟.

فهناك تعديلات طرأت على الكتب الطقسية رفعت منها ماكان يراه اليهود إساءة لهم وهي نصوص ظلت الكنائس ترددها قرنا بعد قرن ، وكان لها أثرها في رسم صورة اليهودي في العالم المسيحي وهو يسمعها في كنائسه .

والآن فلننظر الى النصوص :

عن الاسلام :

« وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضا الى المسلمين الذين يعبدون الاله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والارض المكلم البشر .. وانهم يُجلّون يسوع كنبي ، وإن لم يعترفوا به كإله . ويكرمون أمه العذراء .. وعلاوة على ذلك إنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت ، ويعتبرون أيضا الحياة الاخلاقية ، ويؤدون العبادة لله لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم .

وإذا كانت قد نشأت ، على مر القرون ، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين ، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي ، وينصرفوا بإخلاص الى التفاهم المتبادل ، ويصرفوا ويعززوا سوية العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس . »

هذا أبرز ما جاء في هذا المقطع من التصريح ، وقد جاءت من بعده ـ على المستوى العملي ـ خطوط متقاطعة أبرزها :

خط يستهدف الحوار واللقاء والمزيد من الفهم ، ومهدت له الفاتيكان باصدار كتب عن أصول الحوار ،منها كتاب خاص بالاسلام . وقامت الأمانة المختصة بالشئون الإسلامية بالاتصال بالدول والمؤسسات الاسلامية لإجراء الحوار ، وكان بعضه في عواصم اسلامية ، وبعضه في عواصم في اوربا والعالم الجديد ، ومازال بعض ذلك مستمرا ، كما أن الحوار مستمر مع مجلس الكنائس العالمي الذي ينظم الكنائس البروتستانتية على الصعيد العالمي ، ويجرى المجلس حواره مع الأديان الكبرى في العالم ، وله كتبه ومطبوعاته الدورية كالفاتيكان .

خط تبشيري يعمل في قلب العالم الاسلامي وفي أطرافه وبخاصة في مناطق الفقر والحاجة ، ومدخله المدرسة والمستشفى وتعليم الحرف اليدوية ، ثم فتح أبواب التعليم الأرقى لمن يقبلون العلم والتبشير معا .. ولهذا الخط خططه العالمية ، ومنها خطط محددة للعالم الاسلامي ، وللأديان الكبرى الأخرى .

وعن اليهودية

يقول التصريح « وبما أن للمسيحيين ولليهود تراثا روحيا مشتركا وساميا يريد هذا المجمع المقدس أن يوحى بالمعرفة والاعتبار المتبادلين وأن يعززهما بين الاثنين ، ويحصل ذلك خصوصا بالدروس الكتابية واللاهوتية وبالحوار الأخوى .

وإن تكن سلطات اليهود وأتباعها هي التي حرضت على قتل المسيح « راجع يوحنا ١٩/٦ » لا يمكن مع ذلك أن يعزى ما اقترف أثناء آلامه ، الى كل اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك دونما تمييز ، ولا الى يهود اليوم . وان تكن الكنيسة شعب الله الجديد ، يجب مع ذلك ألا ينظر الى اليهود كمن رذلهم الله ولعنهم ، كما لو كان ذلك ناتجا من الكتب المقدسة . فليحرص الجميع اذا في التعليم المسيحي وفي الوعظ بكلام الله على ألا يعلموا شيئا لا يتلاءم مع الحقيقة الانجيلية ومع روح المسيح »

ثم يضيف المقطع تأكيدا يتعلق باللاسامية ، هذا المصطلح الذى حاول اليهود إشاعته ، كأنّ أى اضطهاد أو عداوة لفرد منهم لأي عمل قام ، إنما هي عداوة لأبناء سام بن نوح .. وكأنهم وحدهم الذين انحدروا من ذريته .. !! ولكن هذا موضوع آخر .

تذكر المقطع التالي ونكتفي به :

« علاوة على ذلك ان الكنيسة التي تشجب الاضطهادات كلها ضد الناس أيا كانوا تتأسف للبغضاء وللاضطهادات ولكل مظاهر مقاومة السامية التي استهدفت اليهود في أي زمن كان ، وأيا كان مقترفوها . والكنيسة لا تدفعها الى ذلك الدوافع السياسية ، بل محبة الانجيل الدينية متذكرة التراث المشترك مع اليهود »

كان هذا التصريح نقطة تحول خطيرة في تاريخ العلاقات بين اليهودية والمسيحية . وكان من بعده اصرار من اليهود ، واستقصاء لرفع أي مذمة لهم في أي كتاب ديني أو صلاة من صلوات القوم في كنائسهم ، وامتدت هذه الرقابة والمراجعة الى الكثير من آفاق الحياة العامة .

سطور من إنجيل متى :

ولكن ماذا كان موقف اليهود من المسيح عليه السلام كما تذكره الأناجيل ؟ نقرأ سطورا من إنجيل متى :

« وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه » « ١٦ : ٥٩ »

« ودبر هؤلاء جريمتهم وحركوا الجمع ليطالب بقتل المسيح على الرغم من ان بيلاطس كان يعلم أنه بريء ، ولما أصروا على أن يطلق أسيرا آخر هو باراباس « وكان الوالي معتادا أن يطلق لهم أسيرا واحدا في عيدهم » أخذ بيلاطس ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا إني بريء من دم هذا البار . أبصروا أنتم . فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا . حينئذ أطلق لهم باراباس . وأما يسوع فجلده ـ ليُصْلَب » « ٢٧ : ٢٤ ـ ٢٦ »

نظرة إسلامية :

ونحن ـ المسلمين ـ نؤمن بقول الله تعالى عن علاقة اليهود بعيسى عليه السلام وأمه الطاهرة التي ضربها الله مثلا كريما في كتابه « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . مالهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما » « النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨ » . هذا بعد أن أدانهم الله في الآية قبل ذلك : بنقض الميثاق ، والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق .

نحن ـ المسلمين ـ نؤمن بطهارة مريم ونبوة عيسى ، ونقرأ في كتاب الله قوله عن النصارى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » « المائدة : ٨٢ ـ ٨٣ » .

نحن ـ المسلمين ـ فتحنا أرضنا وقلوبنا لكل صاحب دين اضطهده قومه لخلاف مذهبي أو اضطهده أهل دين آخر ، ووصل أهل الكتاب في ديار الاسلام الى مناصب رفيعة ، وعاملهم المسلمون كمواطنين لهم حقوق المواطنة الكاملة مع حرية العبادة كما تنص على ذلك آيات القرآن والاحاديث الشريفة ، وكما وضحته كتب الفقه الاسلامي . .

نحن ، بعد هذا كله ، تنصب علينا العداوات من العالم الغربي ويتعاون هناك بعض أهله من يهود ومسيحيين . . . .

كيف استطاع العقل اليهودي أن يصل الى تحقيق هذه الاهداف ؟ مع أن اليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالاسلام ، ولا تؤمن بنبوة عيسى ولا طهارة مريم البتول ؟

الواقع أن المعابر أقيمت في العالم الغربي بين اليهودية والمسيحية على الرغم من كل الأحقاد والثارات والنصوص الواضحة في الأناجيل على دور اليهود وقت قيام المسيحية ، هذا فضلا عن المعابر بين المذاهب المسيحية ، ثم بين المسيحية والعالم من حولها .

والواقع أن المعابر ضعيفة ومتقطعة بيننا وبين

أنفسنا قبل أن تكون بيننا وبين غيرنا .

ولقد حاولنا الحوار مع العالم المسيحي ، وكانت - ولا تزال - هناك جهود مبذولة في هذا السبيل ، ولكن هذا الحديث الطويل الذى أسوقه اليوم يستهدف :

الحوار بين المسلمين :

صحيح أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم لقوا ربهم شهداء : عمر بن الخطاب قتله فيروز أبو لؤلؤة وهو من سبايا حروب الفرس وهو غلام المغيرة بن شعبة ، وكانت له صلته في المدينة بالهرمزان . وكان من ملوك الفرس ، ثم أقام في المدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد . . ولما تكاثر الصحابة على القاتل ليمسكوا به ، أصاب عددا منهم بجراح ، ثم طعن نفسه طعنة قاتلة لما أيقن بوقوعه في أيديهم .

عثمان بن عفان قتله ثائرون عليه من أبناء المدينة ومن البصرة والكوفة ومصر . ولم يحاكم من أجله أحد . وانفتح بمصرعه باب الفتنة .

علي بن أبي طالب قتله عبدالرحمن بن ملجم في مؤامرة ثلاثية . ونجا من القتل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص . ولم يقتل بالخليفة الرابع أحد إلا قاتله .

فإذا أحصينا من وقع عليهم حكم القتل في استشهاد الخلفاء الثلاثة ، كانوا رجلين . . لا أكثر . . !

ولكن شلال الدم انحدر بعد هذا عنيفا من عام ٦٠هـ ولم يهدأ نسبيا إلا بعد ربع قرن شهد أشد مامرّ على الاسلام من المآسي بأيدى أبنائه :

- في الخط الأموى كان الخلفاء بعد معاوية : يزيد ومعاوية الثاني ومروان بن الحكم وعبدالملك بن مروان .
- وفي خط أهل البيت وبني هاشم كان الحسن ثم الحسين بن علي
- وفي خط قريش كان عبدالله بن الزبير

وكانت أبرز المآسي :

- استشهاد الحسين والكثير من أهل بيته في كربلاء عام ٦١هـ
- انتهاك حرمة المدينة المنورة واستباحتها عام ٦٣هـ بعد موقعة الحرة .
- حصار مكة عام ٦٤هـ ورمي البلد الحرام بالمنجنيق.
- الحصار الثاني لمكة عام ٧٢هـ ورميها مرة ثانية بالمنجنيق واستشهاد عبدالله بن الزبير .

أضف الى هذا الصراعات بين الخلفاء وبعض القادة أو فيما بين القادة كما حدث بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالرحمن بن الأشعث . ومن قبل ذلك ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي باسم محمد بن الحنفية « ابن الامام علي كرم الله وجهه » . . هذا إلى ثورات الخوارج . .

ولك أن تنظر ، وإن كنت لا تستطيع أن تحصي ، كم سال فيها من دماء ، مضافة الى ما أريق منذ الفتنة الكبرى في عهد عثمان .

طريق الإخاء بعد الدماء :

يستوقفني تعقيب الشيخ محمد الخضرى على مصرع سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في كتابه « تاريخ الامم الاسلامية : الدولة الاموية » ٢ : ٤٦ .

« ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا : خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته ، بعضهم سيىء القصد ، والبعض الآخر تابع لهم ، ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ، ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ، ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم . ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده ، أو تبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل كل همه أن يتعلم ويفهم ، لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » .

في مصارع الخلفاء الراشدين الثلاثة أو في مصارع الطالبين « وقد أفرد لهم أبو الفرج الاصفهاني كتابا برأسه يحمل هذا الاسم تقطر صفحاته دما » .

من نحاسب الآن ؟ وهل يحمل كل المسلمين ، أو كل

أهل مذهب بعينه عقاب جريمة حدثت من حاكم أو قائد ؟ وهل يحمل أبناؤهم من بعدهم ذنب السابقين ، دون ان يشارك الأبناء في هذه الدماء أو يرضوا عنها ؟ من تحاسب الآن على هذه المصارع العزيزة على قلوبنا جميعا ؟ ألسنا في حاجة الى تبرئة الأجيال اللاحقة من جريرة دماء أريقت في أجيال سابقة ، ولم يرض عن هذه الجرائم أهل ذلك العصر ؟ ولمصلحة من تزرع الأحقاد القديمة في النفوس الغضة الجديدة ؟ إننا في حاجة الى « نهج جديد » يدرس الماضي لما فيه من عبرة ، ويتوقى المزالق التي أوقعتنا فيها الصراعات السياسية ، وتنازع السلطان ، ورؤية كل فريق أنه كان أحق بالأمر من غيره .

نحن بحاجة حقيقية إلى تبرئة الأجيال الجديدة أولا من هذه المآسي ومد جسور الاخاء فوق أخاديد الدماء .

أين بنو أمية الآن ؟ وبعضهم مسئول عن هذه الدماء ؟ تماما كمسئولية فيروز أبي لؤلؤة وعبدالرحمن ابن ملجم ، ويزيد بن معاوية ، وقادته الذين انتهكوا حرمة المدينة ومكة ، ومسئولية أي قائد قاد جنوده الى معركة خاسرة ، دون ان يستعد لها . ولكن هذه كلها أجيال مضت وحسابها عند الله تعالى .

فكيف نتخذ مما حدث « أمصالا » تقي بها نكسات الفتنة وأوبئتها ، وقد أخذت تنتشر مع الصحوة الاسلامية المعاصرة ؟

ثم لو تركنا هذه الدماء القديمة ، لوجدنا دماء جديدة وثارات بين بعض الحكومات والأنشطة الاسلامية ، تكاد أن تكون تجسيدا لبعض الصراعات القديمة ، حين يظن كل فريق أنه يمتلك الحق . وأن غيره على الباطل . ويبدأ العدوان بين حاكم ومحكوم أو بين جار وجار . وأحيانا ترتدى الثارات القديمة ثيابا جديدة . وكأنك تشهد ـ من جديد ـ صراعا مذهبيا أو نزاعا على سلطان باسم الدين بين الأمويين والعباسيين وأهل البيت والخوارج في محيط من الملل والأهواء والنحل .

وقد تنتهي الصراعات العنيفة الى حين ، وتضع الحروب أوزارها . ولكن إذا لم نحاول وقت الهدنة أن نعيد النظر في تبرئة الأجيال الجديدة من وزر الجرائم القديمة ، وإذا لم نحاول تربية الأبناء على الإخاء والحب ، وإذا تركنا توجيه الشباب خاضعا لأسلوب الحقد والكراهية، فإن بذور الحقد تعود الى تثبيت جذورها في القلوب والعقول وتمد سوقها وفروعها ، وتسعى الى إيقاد الحروب والصراعات ، متى استعادت قوتها واستطاعت التعبير عن نفسها .

وهذه كلمة الى علماء المذاهب الاسلامية ، ودعوة الى إعادة النظر ، في مناهج التاريخ الاسلامي والتربية الاسلامية ، دعوة الى جامعاتنا ومجامعنا ، أن تتعاون جميعا على تأكيد ركائز ثلاث :

- تبرئة الأجيال اللاحقة من دماء الأجيال السابقة .
- دراسة هذه المآسي لتأكيد ضرورة الإخاء وأخطار الصراع والأحقاد ، وتطهير أرض الاسلام وعقول أبنائه من تلك الالغام الفكرية .
- دعم الجهود المشتركة الجامعة بين المذاهب الاسلامية لبناء حاضر الاسلام ومستقبله ، بناء يقوم على سماحة العقيدة ومتطلبات العصر . ونحن في ذكريات المولد النبوى الشريف « ١٤٠٩هـ » نتذكر حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، عسى أن يكون لنا على طريق الاخاء نورا :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

« رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهم أجمعين » □

■ ليس حب الشباب متعمقا في قلوبهم ، وإنما في عيونهم . (شكسبير)

يا عرب !
الزراعة.. الزراعة

بقلم : الدكتور سمير رضوان

سوف يضع القرن القادم على عاتق الأمة العربية مسئولية جسيمة ، لابديل أمامها عن حملها . اذ سوف يتحتم عليها أن تعتمد على جهودها الذاتية في انتاج غذائها . وما من سبيل الى تحقيق هذا الهدف الأمن من خلال استراتيجية زراعية عربية مشتركة ، ينبغي أن يخطط لها من الآن .

● الزراعة المحمية وسيلة جديدة من وسائل تطوير الثروة الزراعية وتنميتها .

أردت بعنوان هذه المقالة أن أحاكي صرخة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ياسارية بالجبل .. الجبل » اذ بينما كان الخليفة - رضوان الله عليه - قائما يخطب في المسلمين ، تراءى له أن جيش الاسلام الذي كان ساعتئذ يخوض احدى معاركه الجهادية ، أو شك عدوه أن يطوقه ، وأن يحكم الحصار حوله . كما تراءى له ألا مفر لجيش الاسلام من الهزيمة المحققة سوى أن يلوذ بجبل في موقع المعركة ، ليحتمي به ، ويروى أن الفاروق قطع موضوع خطبته فجأة ، وصرخ مناديا قائد جيشه على بعد آلاف الأميال : «ياسارية ، الجبل ، الجبل» ثم استأنف الفاروق خطبته ، وكأن هذه الصرخة لم تصدر عنه ، وتعجب المسلمون من أمر الخليفة ، ولما سألوا قائد الجيش بعد أن عاد منتصرا ، أقر بأنه ما أن تبين صعوبة موقف الجيش في المعركة حتى خيل اليه أنه يسمع صراخ عمر فيه أن اعتصم بالجبل ، ففعل . ويرى علماء النفس المعاصرون أن هذه الواقعة لاتفهم الا على ضوء ماكان معهودا عن الفاروق - رضوان الله عليه - من قوة حاسة لديه ، تعرف اليوم باسم حاسة التخاطر أو الاحساس على البعد (تلباثي) .

وليس المواطن العربي المعاصر بحاجة لأي قدر من حاسة التخاطر ، كيما يستبين بها أخطارا عظيمة محدقة بأمته ، فالمواطن العادي يرى هذه الأخطار في كل لحظة ، ويحسها ، ويسمع بها ، ويتعايش معها ، حتى أصبحت جزءاً من حياته اليومية . ومع ذلك فلا خير في من رأى خطرا محدقا بأهله ولم يصرخ فيهم محذرا ، ومقالتي هذه صرخة مخلصة ، أتعشم أن يكون صداها في النفوس أعمق من مجرد اكتشاف شرف مشابهتها في اللفظ لصرخة الفاروق وما أعظمه من شرف .

لعل من اغرب المقولات التي ترددت اثناء العقود الاخيرة مقولة أن الاستعمار الغربي قد فرض علينا أن نبقى دولا زراعية ، وحال بيننا وبين النهضة الصناعية ، وعلى الرغم من أن هذه المقولة تحمل في طياتها مغالطة واضحة ، حيث توحي لسامعها أن الزراعة مرتبطة بالتخلف ، فقد شاعت بيننا ، وأوشكت أن تصبح دعوة لمجافاة الزراعة . وفي

اعتقادي أن هذه المقولة غير المسئولة قد أسهمت - على الأقل من الناحية النفسية - في اهمال الزراعة .

وليس هناك مايمكن أن يضع أمة أمام أحد الخيارين : الزراعة أم الصناعة ؟ فليس ثمة مايحول دون العمل في المجالين معا ، ولاتكون النهضة الا بهما معا . وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة في ذهني فقد طرحت هذا الاختيار على نفسي عامدا ، وربما كان ذلك لكي أستقطب اهتمام القارىء معي في قضية ، يعلم يقينا مثلي أنها مهمة ، لكن قد يغيب عنه أنها سوف تصبح في غضون القرن القادم قضية « أن نكون أو لا نكون » كأمة مستقلة .

لو كان لابد من الاختيار فلست اتردد لحظة في ان الزراعة تأتي اولا . لقد ولجنا باب القرن العشرين أمة مقطعة الاوصال ، وعبرناه غارقين في مشاكل وخلافات ألهتنا تماما عن فهم طبيعة العصر وصراعاته . وليس تشاؤما أو مبالغة أن نقول : إن هذا القرن قد تقضىّ الا أقله ، بيد أن أمة العرب لم تحياه ، فهي لم تتكلم لغته ، ولم تشارك في بناء التقدم فيه ، لأسباب لامجال لذكرها هنا . وتقتضي الشجاعة أن نعترف بأننا نقبل على القرن الواحد والعشرين ونحن أكثر تمزقا من ذي قبل ، وأقل فهما للغة التقدم ، نحن نقبل على قرن تنتظرنا الأخطار فيه فاغرة أفواهها ، ومتربصة بنا ، ومالم تعد عدتنا لمواجهة هذه المخاطر ، فلن يكون قصارى الأمر أننا سوف نضيع هذا القرن كما ضيعنا سابقه ، بل ان القرن القادم هو الذي سوف يضيعنا ، لاقدر الله . لقد علمتنا تجربة القرن العشرين أن من لاينتج غذاءه لايملك قراره في يد ، كما علمتنا هذه التجربة ، أن الطاقة والغذاء سلاحان فتاكان اذا استخدما في الصراعات الدولية . كذلك علمتنا تجربة القرن العشرين أن التلوث البيئي قد اسودت سحبه في سماوات الغرب الصناعي الزراعي ، وأغرقت أمطاره الحقول ، ومن ثم فلابد لنهر التلوث من أن يشق طريقه صوب العالم الثالث . ولسنا في حاجة الى كثير من التفكير كي نتوقع أن هذه القضايا الساخنة سوف تلتهب في القرن القادم لتحرق في ضرامها كل أمة لاتعد عدتها لمجابهتها من الآن . من أجل هذا كانت صرختي : « ياعرب ! الزراعة ، الزراعة » .

الغذاء والاستقلال :

تستورد الامة العربية من الخارج معظم ماتحتاجه شعوبها من غذاء . فليس يخفى على أحد أن مصر مثلا - وهي كبرى الأقطار العربية قاطبة - لاتنتج الا رغيفا واحدا من بين كل أربعة أرغفة يستهلكها المواطن المصري . والغريب أننا ألفنا هذه الحقيقة المذهلة ، وأصبحنا نتعايش معها دون أن تثير فينا أي احساس بالرعب أو الخوف . فمعنى هذا الوضع

ببساطة هو أن غول المجاعة مقيم بيننا ، ينتظر أوامر مصدري الغذاء لكي يفتك بنا في أي لحظة . ومايصدق على مصر يصدق على جميع الأقطار العربية بلا استثناء ، وان يكن بدرجات متفاوتة .

ودعونا نعيد قراءة بعض عناوين الصحف في الأشهر الأخيرة التي مرت عليها عيوننا مرورا سريعا ، دون أن نكلف عقولنا مشقة التدقيق في معانيها . ولقد اخترت عينة عشوائية من عناوين بعض الصحف الكويتية : ٤٥ دولة تحتاج الى ٩ ملايين طن من الحبوب ، ٢٥ مليار دولار حجم الواردات الغذائية العربية ، ٤٥ مليار دولار قيمة الواردات الغذائية للعالم العربي عام ٢٠٠٠ ، دول الخليج العربية ومشكلة الأمن الغذائي ٣٠ مليار دولار « فاتورة » مستوردات الغذاء «٣٥٪ من العرب يعانون من مشكلة الغذاء » ولكي تصبح الصورة أكثر وضوحا أسجل هنا ملخص بعض البحوث التي نوقشت في مؤتمر الاقتصاديين العرب الذي عقد مؤخرا في الكويت كما أوردته صحيفة « الوطن » الكويتية في عددها الصادر برقم ٤٦٧٧ .

تقول الأرقام : ان الاستثمارات في مجال الزراعة للأمة العربية تراوحت خلال العقدين الأخيرين بين ٩٪ الى ١٣،٨٪ فقط من مجمل الاستثمارات العربية الكلية ، كما يتضح أن هذه النسبة في تناقص مستمر منذ ١٩٧٠ حتى الآن . والأدهى من ذلك هو أن معدل تنفيذ هذه الاستثمارات المتواضعة الحجم لم يتجاوز أبدا ٤٥٪ فقط . هذه هي الصورة اليوم ، فكيف تراها ستصبح في القرن القادم ؟ سوف يزداد اقبالنا ـ بل واقبال جميع شعوب العالم الثالث ـ على استيراد الغذاء ، كنتيجة منطقية لازدياد أعداد السكان . وأغلب الظن أن انتاج الغذاء في بلادنا ـ بل وعلى مستوى العالم ـ سوف لايحقق زيادة ملحوظة ، ذلك انه لم يتراجع في كثير من مناطق العالم ، بسبب الجفاف ، واغتيال الأراضي الزراعية ، والتصحر ، وغيرها من المشاكل الحادة . وسوف يصل العالم الى وضع تعد الدولة فيه أنها محظوظة لمجرد عثورها على من يصدر لها المواد الغذائية . وينبغي ألا ننسى أن عالما كعالم القرن القادم سوف تقترن فيه ـ بالضرورة ـ الشروط السياسية من قبل مصدري الغذاء بكل صفقة بيع وشراء ، ولن يكون هناك محل لكلمة الاستقلال في الدول المستوردة الا في معاجم اللغة .

الخطر الأكبر الذي يتربص بالدول المستوردة للغذاء ومن ضمنها الأقطار العربية ، يكمن في أن معظم الدول المنتجة للغذاء ـ خاصة الحبوب ـ سوف تصبح في القرن القادم زاهدة ـ الى حد كبير ـ في بيعه ، لأنها سوف تحتاج الى كل ماتنتجه أو معظمه . ومن المتوقع أن ينشأ هذا الوضع الجديد بعد أن يشح انتاج النفط على مستوى العالم ، وهو أمر متوقع خلال القرن القادم . وبعد نضوب النفط كمصدر للطاقة اللازمة كوقود للسيارات على وجه الخصوص لن يتبقى أمام العالم الصناعي الا أن ينتج مايسمى « بالبيوكحول » كبديل للنفط وقد أنجزت الدراسات التقنية على هذا الموضوع في هذه الدول ، ونتائجها

● كل الأيدي ـ بما فيها الأيدي الناعمة ـ يمكنها أن تساهم في التنمية الزراعية .

محفوظة بعناية في انتظار التنفيذ . سوف يتجون « البيوكحول » من خلال عمليات التخمر الصناعي لمحاصيل زراعية غنية بالنشا أو السكر كالحبوب والبطاطس والعنب وقصب السكر والبنجر وما اليها . وتدل الدراسات المحفوظة على أن العالم سوف يخصص مالايقل عن خمس الرقعة الزراعية على سطح الأرض من أجل انتاج « البيوكحول » فقط ، وعندئذ سوف يخيّر العالم الصناعي نفسه بين أن يستثمر انتاجه الزراعي من أجل انتاج الوقود لسيارات شعوبه وبين أن يبيعه غذاء للأمة العربية مثلا . ولا أحسب أن فينا ـ نحن العرب ـ من يختلف على القرار الذي نؤمن أن هذه الدول سوف لاتتردد لحظة في اتخاذه .

الغذاء والتلوث :

ولن تقتصر مشاكل مستوردي الغذاء في القرن القادم على قلة المعروض منه ، بل سوف تنشأ أيضا

● ضحكة من القلب .
فالمحصول وفير .

مشاكل حادة ، تتعلق بنوعية هذا القليل المعروض ، ومدى ملاءمته للاستهلاك الآدمي . ولايخفى على أحد مقدار مابلغه التلوث البيئي ، خاصة في الدول المتقدمة التي تنتج الحبوب والغذاء . ويخطىء من يتصور أن التلوث في هذه الدول النائية لايعنينا كثيرا .

فهو سوف يصبح أقرب الينا مما نتصور ، فتلوث البيئة هناك يعني ـ بالضرورة ـ تلوث الانتاج الزراعي النباتي والحيواني الذي نستورده نحن منهم .

فاذا كانت سحب التلوث قد انعقدت هناك ، وهطلت أمطاره ، وتجمعت في أراضيهم ، فطوفان التلوث لن يلبث أن يشق نهرا جبارا مليئا بالمعلبات والحبوب واللحوم ليصب في بلادنا نحن . وقراءة سريعة لعينة عشوائية من عناوين بعض صحف الغرب تكفي لايضاح حجم مشكلة التلوث هناك . وقد أخذت هذه العناوين من بعض الصحف الألمانية الغربية : « نفايات سامة ملقاة على قارعة الطريق » أحدث صيحة : «نفايات بها سيانيد » ، هل تسرب اللبن المحظور المحتوي على هرمونات الى الأسواق في الخفاء ؟ ، « اهمال في تخزين النفايات المشعة » . ومشاكل التلوث التي تثار يوميا في دول الغرب المتقدمة لاتنتهي . لم ينس أحد بعد ـ فيما أتعشم ـ كارثة تشيرنوبيل وماخلفته من آثار رهيبة لن تنتهي سريعا . وهناك قضية شغلت الرأي العام الالماني الغربي في الصيف الماضي ، تتعلق بخمسة آلاف طن من اللبن المجفف الذي ثبت أنه ملوث بالاشعاع ، وظل هذا اللبن مشحونا في قطار يتجول بين ولايات المانيا المختلفة ، حيث تأبى كل ولاية منها تفريغه فيها من أجل تنقيته . ولا يعلم الا الله الى أين انتهى هذا اللبن المشع الآن . أخشى ما أخشاه أن أحد مستوردي العالم الثالث من ذوي الضمائر الخربة قد تطوع بحل هذه المشكلة لهم ، وأصبح اللبن الآن في أجواف الأطفال من أبناء العالم الثالث . وهناك قضية أخرى شغلت غرب أوربا في العام الماضي ، عرفت باسم « فضيحة سانيا الاشعاع النووي » ، وقد جرت هذه الفضيحة شركات صناعية كبرى الى

فقص الابهام ، مثل « نيوكم » و « ترانس نيكليار » وغيرهما . وتعمل هذه الشركات في العادة على استعادة المواد المشعة من النفايات النووية المستخدمة في الطب والبحث العلمي وما الى ذلك . وتردد أن رشاوي كبيرة قد دفعت لهذه الشركات كي تسرب مواد مشعة تصلح لانتاج الأسلحة النووية لدول أجنبية بصورة غير مشروعة ، كما أن هذه الشركات قد اتهمت بالاهمال في تخزين هذه المواد المشعة ، وفي التعامل معها أثناء شحنها ، مما عرض البيئة للتلوث . ومسألة تخزين النفايات المشعة في الدول الصناعية مشكلة ملحة في حد ذاتها ، تعقد من أجلها الصفقات المشبوهة على المستوى الدولي ، كما تسعى الدول الغنية باستمرار لاستغلال الدول الفقيرة لتخزين هذه النفايات في أراضيها ، بعد أن تغريها بأموالها .

ومايعنينا هنا هو أن نذكر القارىء بأن المادة المشعة يتسرب منها الاشعاع ببطء شديد . ومن ثم فالزمن اللازم لتخزين النفايات النووية لكي تفقد اشعاعها تماما وتصبح آمنة من الناحية البيئية يمتد مئات الألوف من السنين ، ومعنى ذلك أن مثل هذه النفايات المختزنة هي في الواقع مصدر مزمن لتلوث التربة هناك ، بل وأيضا لتلوث المياه الجوفية ، ومن ثم المحاصيل الزراعية التي مصيرها أن تصدر الينا . فان لم يكن التلوث بالاشعاع ، فهناك التلوث بقائمة لاتنتهي من المواد الكيميائية الضارة التي تشبعت بها البيئة في هذه الدول الصناعية ، وينبغي أن نعلم أن هناك مواطنين أمريكيين وأوربيين ممن يتصفون بالوعي البيئي الراقي ، يرفضون اليوم أن يتناولوا غذاء مما تطرحه الأسواق في بلادهم ، بل هم يهجرون المدن ويسعون الى أحضان الطبيعة في الأماكن النائية ، ليزرعوا ، ولينتجوا غذاء غير ملوث هناك يقتاتون به .

وهذا هو الحل :

لن تتمكن الامة العربية في القرن القادم من حماية استقلال أقطارها ، ولامن امتلاك زمامها بيديها ، مالم تتمكن من انتاج غذائها بجهودها الذاتية .

ولابديل أمامها سوى أن تنجح في هذا التحدي ، وهي قادرة على النجاح اذا قدرت المخاطر المنتظرة حق قدرها . فهل تغنينا أموال الدنيا شيئا اذا نحن سعينا لشراء غذاء لايريد البائع - أو قل لايستطيع - بيعه لنا ؟ ولن تنجح الأمة العربية في هذا التحدي الصعب الا من خلال استراتيجية زراعية متكاملة ، يخطط لها الخبراء من الآن قبل الغد . ولن تجدي كثيرا جهود الأقطار العربية منعزلة بعضها عن بعض فكل قطر منها يملك بعض المقومات اللازمة لتحقيق هذا الحلم القومي ، لكن لايملك أي منها جميع المقومات دفعة واحدة . وتقوم الزراعة الناجحة كما هو معروف على التربة الزراعية ، ومياه الري ، والأيدي العاملة ، والخبرة ورأس المال . أماالتربة الزراعية فمتوفرة في قطرين عربيين هما السودان والعراق ، ففيهما مئات الملايين من الأفدنة الصالحة للزراعة التي لاتنقصها الا الفلاحة . أما المياه فهناك النيل ، وهناك دجلة والفرات ، وهناك بحيرات من المياه الجوفية العذبة ، ينبغي أن تسعى الاستراتيجية العربية للكشف عنها ، وأظن أن أعداء الامة العربية كانوا أفطن منها الى امكاناتها الزراعية المعطلة ، فحاولوا دائما ضرب الأمة في امكاناتها » أما الأيدي العاملة والخبرة فأعتقد أن مصر وأقطارا أخرى غيرها كفيلة بتوفيرهما . أما الأموال فيكفي رأس المال العربي من عائد النفط اغترابا ، وأظنه يحن الى أن يجند نفسه لشرف انقاذ الأمة العربية من الهلاك اذا هو رأى أمامه استراتيجية جادة مدروسة باتقان فمثل هذه الاستراتيجية ضمان أكيد لازدهاره على أي حال ، ولايدعي أحد أن النجاح في هذا التحدي أمر سهل المنال من قبل اخوة عرف تاريخهم الحديث من الخلاف أكثر مما عرف من الوفاق . وأعترف أن هذه أماني حسان . فهل ياترى لم يتبق للمواطن العادي في وطننا العربي ، في هذا الزمن الصعب ، سوى الأماني ؟ لست متشائما الى حد الظن أن يوما سوف يأتي تصبح فيه حتى أمانينا ترفا فارغا . وعلى العموم مازال من الضروري لنا أن نبقي على أمانينا ، وألا نفرط فيها أبدا . □

اقرأ في العربي ديسمبر ١٩٨٨

استطلاعات ملونة

جورجيا السوفيتية.. الولاء قديم!
سليمان الشيخ

المرأة الطوارقية بين العراقة والأصالة
د. بثينة شعبان

متطوعون حتى تصبح حياتنا ممكنة!
محمود عبد الوهاب

- الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة — د. رضوان السيد
- طه حسين في ميزان النقد — د. أحمد علبي
- "إسرائيل" تتجسس في الفضاء! — سعد شعبان
- الموشحات والقدود حلبية أم حمصية؟ — د. عمر موسى باشا
- المرأة في قواعد النحو والصرف — محمد حسن الصوري
- الأنيق في "المناجنيق" — جمال الغيطاني
- القهوة التي نشربها في قفص الاتهام! — د. سامي عزيز

وجهاً لوجه
د. رمزي زكي و علي عثمان

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي • د. رمسيس عبد العليم • د. علي صبري فرغلي • صلاح عيسى
حسب الله يحيى • د. ماريا ميلاجروس • علي أبو شادي • يوسف عبد العزيز

حنين

شعر:
الدكتور عبدالحميد محمود*

دمى إلى دمى يحنّ
تركت من دمى على الرمال زهرة
فصارت الشموسُ فوقَها ندى
وصارت الرمالُ حولَها مياه
فأورقتْ
وأورقتْ
وباحَ عطرُها بروْعةِ الحياة
وأذّنَ الحَمامْ
فراحتْ الصقورُ فى تسبيحةٍ طويلة
وغابتْ الصخورُ فى الصلاة

* *

مسافرٌ
وكلما مددتُ خطوتى
تمددت علىَ المدى الرمالْ
فأضربُ الرمالَ أضربُ الرمالْ
لكنّ خطوةَ الفتى لم تُخرج المياه
فأستديرُ مُتعبا
وبين دمعة . . .
. . . وزفرة
يهلّ عطرُكِ الندى

* شاعر وكاتب من القطر المصري

فتنبض الحياةُ في العروقْ
وتنطق المياه في الشقوقْ
وأستديرُ للمسير من جديد
للبعيدِ
للبعيدْ
دمى إلى دمى يحنّ

* *

هذى خيامُهم على مشارف الزمنْ
ونكهةُ التاريخ في إبريق قهوةٍ يدورُ بينهم
ناديتُهم
من فوق نخلةٍ على ضفاف كوثر
بسيرُ مجهَدا إلى نهاية المدى
دُعيتُ أم دعوتهم
وحين فاض تنور اللقا
أدرْتُ وجهي للأمام بيتنا
فلم أجد على مشارف السماء
غيرَ الربى الصفراء
ناديتُ نخلَنا فلم يُجبْ
ناديت . . سيفَنا فلم يُجبْ
مُضيِّعٌ صراخُنا هباءْ

فالمبتدى صحراء
والمنتهى صحراء

* *

النارُ فوقَ قشرة الأمان
من لفحة الشموس
لا بل إنها من لفحة النفوس
واشتهاءِ الصولجان .
فلْنضربْ الرمال .
لعلّ حين تبزغُ المياه . . .
. . تنطفى النيرانْ
دمى إلى دمى يحنّ
جمعتُ فوق هودجي مباخري
وسبحتى
وبَسْملاتِ سجْدتى
والسيفَ والدروع
وعطرَ أمّتى
لعلّنى إذا فرشتها على المدى
تجمعتْ هناك زهرةْ
تدورُ حولها المياه
وتصبحُ الشموسُ فوقها ندى

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الفقر في عيون الأغنياء

لفترة غير قصيرة كان العالم فخورا أنه يتخلص تدريجيا من عار الفقر ، فالجوعى يشبعون ، والعرايا يلبسون ، ومن لا مأوى لهم يسكنون ، ويجدون العلاج والغذاء والتعليم .

كانت أدبيات التنمية وإحصاءات النمو ترصد كلها زيادة في الدخل والانتاج والاستهلاك ، كما كانت تسجل تراجعا في نسب الوفيات ، لكن في السنوات الأخيرة أصبح الاتجاه عكسيا ، وجاء آخر تقرير عن التنمية في العالم يقول : « نعم ، الفاقة تتزايد » .

لم يستطع البنك الدولي - وهو صاحب التقرير الصادر في صيف ١٩٨٨ - أن يحصي عدد الفقراء ، لكنه - وهو المؤسسة التي تضم أغنياء العالم - لم يستطع أيضا أن يتجاهل ظاهرة الفقر .

في مناسبات سابقة كانت منظمات الأمم المتحدة قد سجلت ما يشير إلى تراجع الدخل في عديد من البلدان ، وفي دراسات عدة جرى رصد الشرائح التي تعيش تحت خط الفقر .

الجديد هو ما يقوله البنك بأن الفاقة تتزايد ، وأن مؤشرات ذلك واضحة .

في حقبة الثمانينيات ، وفي كثير من بلدان العالم تباطأ معدل النمو الاقتصادي ، وسجلت بعض البلدان نموا سالبا ، أي أن الدخل كان يتناقص عاما بعد عام ، وفي التفاصيل كان سكان الريف يحصلون على عائد أقل لمحاصيلهم ، وكانت الأجور الحقيقية - تحت مطرقة التضخم - تتراجع قيمتها ، وكانت البطالة - حيث لا أجر ولا دخل - تنتشر نتيجة للركود في المشروعات .

وكانت موارد الحكومات تدخل دائرة الفقر أيضا ، وتعجز عن أن تخصص قدرا مناسبا للخدمات ، وكان معظم هذه المؤشرات مالية أو نقدية .

الغذاء والصحة - الحياة والموت

على الجانب الآخر كانت هناك المؤشرات المادية المباشرة . الفقراء لا يأخذون كفايتهم من الغذاء الذي بات جزء كبير منه في العالم الثالث مستورداً . لذا سجلت الأرقام أنه بين عامي (١٩٧٠ - ١٩٨٠) زاد عدد الذين يعانون من نقص التغذية في البلدان النامية - باستثناء الصين - من (٦٥٠) مليون شخص إلى (٧٣٠) مليونا . وفي دراسة أخرى جرت حول (٣٥) بلدا ناميا اتضح أن (٢١) بلدا منها قد تراجع فيها نصيب الفرد من السعرات الحرارية ، وذلك إذا قارنا بين ما كان يحصل عليه الفرد عام ١٩٦٥ و ١٩٨٥ .

الصحة وجه آخر للفقر والثراء ، والتعليم وجه ثالث ، ونصيب الفرد من السكن الصحي والماء النقي والكهرباء وأدوات العصر كلها مؤشرات لا تخطىء حول القدرة الاقتصادية .

وقد تراجع نصيب الفرد في الصحة والتعليم في البلدان النامية المنخفضة الدخل بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٢ . وتشير دراسات البنك الدولي أنه في بحث حول بلدان نامية اتضح أن حصة الفرد من الأطباء تتراجع . وفي بحث آخر حول (١٢) بلدا افريقيا ـ جنوب الصحراء ـ اتضح أن نسبة الملتحقين بالتعليم الابتدائي تقل عن ذي قبل ، وعلى عكس الاتجاه التاريخي الذي يشير إلى أننا نعيش عصر التعليم .

هناك إذن ـ ولأسباب اقتصادية ـ نقص في الغذاء ، ونقص في الرعاية الطبية ، ومن الطبيعي أن يكون لذلك انعكاسه على نسبة الوفيات ومتوسطات الأعمار .

ومرة أخرى ـ وعكس الاتجاه التاريخي ـ تسجل الدراسات أنه من (١٩٦٩ ـ ١٩٨٣) انخفض متوسط العمر المتوقع في تسع بلدان افريقية جنوب الصحراء . وكذلك في النصف الاول من الثمانينات زادت الوفيات بين الأطفال ، نتيجة لسوء التغذية وقلة الرعاية الصحية في عديد من البلدان ، ووصلت النسبة إلى الضعف في بعض البلاد مثل زامبيا .

وكل هذه المؤشرات تتجمع لتقول : الفقر يتزايد ، ومن يعيشون تحت خط الفقر في بلدان كثيرة تتضاعف أعدادهم .

لكنهم لا يفسرون

يذيع البنك الدولى هذه الأرقام ، لكنه لا يتحدث عن الأسباب : هل هى الظروف الطبيعية : الفيضانات والجفاف والتصحر وفساد الهواء من حولنا ؟ هل هي الظروف الاقتصادية التي أعقبت زيادة أسعار النفط ، وزيادة أسعار السلع الصناعية ، ونقص أسعار الخامات التي ينتجها العالم الثالث ؟ هل هي الديون التي أثقلت كاهل الفقراء ، فأصبح همهم الأول أن يسددوا شيئا مما فات ، حتى يستمروا في الاقتراض ، ويواجهوا ما هو آت ؟ هل هي الإدارة السيئة في البلدان النامية ـ سواء كانت الإدارة السياسية أو الإدارة الاقتصادية وإدارة الموارد ـ أو أن الأمر غير ذلك ، ويتعلق باستغلال العالم الأول للعالم الثالث ، وهو استغلال يبدأ بتحكمه في الأسعار العالمية ، ويمتد لإلقائه بالنفايات النووية السامة إلى بحار وأراضي العالم الفقير ، وكأنها قد أصبحت مزبلة العالم ؟

البنك الدولي لا يقدم ردا واضحا ، لكنه يطلب من الجميع التكيف مع الظروف ، ويضع بالتعاون مع صندوق النقد الدولي السياسات اللازمة لذلك . ويروح ضحيتها في العادة الفقراء أيضا !

ومن الطبيعي ـ أو هكذا نفترض ـ أن يكون للعالم الثالث تفسيره للأزمة ، واجتهاده للحل .

من الطبيعي أن نقول إن كل الأسباب السابقة صحيحة ، لكن ليس من الطبيعي أن نأخذ موقف المراقب ، أو المترقب ، أو التلميذ البليد في فصول المؤسسات الدولية .

نعم ، هناك ظروف طبيعية ، لكنها ليست كل شيء ، وبعضها يمكن مقاومته ، مثل التصحر ، وفساد الجو .

ونعم ، هناك ظروف دولية ومحلية ، لكن المهم كيف نواجه هذه الظروف ؟

المطلوب : نمط آخر من التفكير ، نمط آخر من الحياة والاستهلاك والإنتاج ، المطلوب نمط آخر من السياسات الاقتصادية والاجتماعية .

المطلوب : عالم ثالث مستقل ، يتفاعل مع الآخرين ، لكنه لا يقع أسيراً لما يقررون .

وبالأمس ، كان خير العالم تجرى قسمته دون عدل ، وكان الثراء لدول الاستعمار ، والفقر والتخلف لدول الجنوب التي داستها أقدام الرجل الأبيض .

أما اليوم فإن هذا الخير نفسه تجري قسمته بنفس القدر من الظلم الإنساني ، لكن تحت ثياب جديدة ، فالمعرفة أغلى من المادة الأولية ، والخبير أهم من الآلة ، وسوق السلاح أهم من سوق الخبز ، وساعة عمل لرجل في الشمال تفوق قيمتها عدة ساعات عمل لرجل جنوبي ، حتى لو أنتج الشيء نفسه بالجودة نفسها ! □

جبران بين أبناء جيله

بقلم / الدكتور علي شلش

في عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، ولدت كوكبة من المبدعين والمفكرين كان لهم دور عظيم الأهمية في النهضة الفكرية والأدبية العربية المعاصرة ، وما تزال نتائجها تتفاعل مع مكونات واقعنا بعد رحيلهم جميعا .
من بين هؤلاء ، برز جبران خليل جبران بابداعاته في اللغتين العربية والانجليزية .
فأين هو منهم ؟

ولد جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) في عقد الثمانينيات من القرن الماضي وهو عقد قد شهد مولد جمهرة من الشعراء والأدباء العرب ، عاصروا جبران ، وكان لهم واياه دور مرموق في نهضة الأدب العربي الحديث وتوجيهه نحو دروبه المعاصرة . ومع أن جبران نفسه لم يكن منعزلا عن معاصريه فمن المهم والمفيد أن ندرس أدبه داخل اطار المعاصرة الذي جمع بينه وبين هؤلاء ، لنرى إلى أي مدى اختلف عنهم أو أضاف إليهم ، وكيف نظروا إلى كتاباته ، وصدى ذلك عنده .

وإذا كان معظم البارزين من معاصري جبران ولدوا في مصر ، فبعضهم ولدوا في لبنان وسورية .
أما الذين ولدوا في مصر فيأتي على رأسهم :
مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) واحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وعبدالرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) واحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) وطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) وعباس العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٣) وابراهيم عبدالقادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) .

وأما الذين ولدوا فى لبنان وسورية فيأتى على رأسهم :

أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) وبشارة الخورى أو « الأخطل الصغير » (١٨٨٥ - ١٩٦٨) ونسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦) ورشيد سليم الخورى أو « الشاعر القروى » (١٨٨٧ - ١٩٨٦) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وايليا أبو ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) .

ومن الملاحظ أن اثنين من هؤلاء ولدا على اطراف الثمانينيات ، وهما الريحانى والمازنى ، أما الباقون فولدوا على مدارها . ومن الملاحظ أيضا أن ابداع الأدب ، شعرا ونثرا شغلهم جميعا . ومنهم أربعة زاملوا جبران فى أمريكا الشمالية ، وهم الريحانى وعريضة ونعيمة وأبو ماضى . والثلاثة الأخرون ساهموا معه فى تأسيس « الرابطة القلمية » فى نيويورك عام ١٩٢٠ . ومن هؤلاء وأولئك أيضا واحد شاركه فى تجربة الاغتراب ولكن عن بعد ، وهو الشاعر القروى الذي عاش فى امريكا الجنوبية . بل إن ثلاثة منهم كانوا أكثر قربا من القدماء فى الشعر وأقل اقبالا على التجديد ، وهم الرافعي والأخطل الصغير والقروى ، ومع ذلك كانت روح المعاصرة ترفرف على انتاجهم بشكل عام ، وتربط بينهم فى سعيهم المشترك نحو مواكبة العصر ، والإحساس بمؤولية الكلمة وتبعة الأديب .

فإلى أي مدى - إذن - اختلف جبران عنهم ؟

جيل الإستمرار والتجديد

من المعروف أن عقد الثمانينيات شهد بداية التغلغل الأوروبي الرسمي عن طريق الغزو أيضا . فقد سقطت تونس فى أيدى الفرنسيين عام ١٨٨١ ، وسقطت مصر فى أيدى الانجليز فى العام التالى . وكان معنى هذا ازدهار الصلة الثقافية بين العرب وأوروبا ، بالاكراه أو بالاختيار . وفى هذا الاطار كان جيل جبران مطالبا بالمحافظة على الهوية العربية من ناحية ، والاستمرار فى الأخذ من الثقافة الغربية من ناحية أخرى ، لا سيما فى مجال الأنواع والأشكال الأدبية التي لم يطورها العرب ، مثل الرواية والمسرحية والمقالة والنقد ، فضلا عن المضى فى العطاء والابداع .

نجح جبران وأبناء جيله هؤلاء فى تحقيق هذه المعادلة الصعبة بوجه عام . فاستطاعوا أن يحافظوا على الهوية العربية فيا يبدعون ، وأن يطوروا الأساليب الشعرية ، وان ينضجوا تجارب الجيل الأسبق - مثل المويلحى والمنفلوطي فى المقالة والرواية والقصة القصيرة . لكن جبران نفسه لم يصل إلى ما وصل إليه بعض أبناء جيله فى القصة والرواية والشعر بشكل خاص ، لا فى الكم ولا فى الكيف كما ستوضح بعد قليل .

إذا كان معاصرو جبران هؤلاء قد تميزوا بتنوع الأنواع والأشكال الأدبية فى الشعر والنثر ، فقد تميزوا أيضا بعمق الصلة التى ربطت معظمهم بالآداب الأوروبية . لكن جبران والريحانى ونعيمة تميزوا بأنهم كتبوا بلغة غير لغتهم ، ثم تميز جبران نفسه على زميليه باتساع تجربته إلى حد القسمة العادلة تقريبا بين ما كتبه بالعربية (ثمانية كتب) وما كتبه بالانجليزية (ثمانية أخرى) . وإذا كانت المؤثرات الأوروبية قد ظهرت بوضوح فى انتاج أبناء جيله - باستثناء الرافعي والخورى والقروى - فقد ضم اليها جبران مؤثرات أخرى من الفلسفة البوذية والشعر الأمريكى ، فضلا عن الكتاب المقدس بعهديه .

ومن الطبيعى أن يتفاوت جبران ومعاصروه فى الأخذ من الثقافة الأوروبية ، والتجريب داخل مجال الأنواع والأشكال التى تركها قدماؤنا دون تطوير ، بل داخل مجال الشعر الذى لم يكونوا فى حاجة إلى العنف فى تطويره بمقدار ما كانوا يريدونه على مستوى عصرهم شكلا وموضوعا ، ولذلك تفاوتت حصيلة اجتهاداتهم النظرية والتطبيقية على السواء .

وبينما نجح محمد حسين هيكل فى تقديم نموذج ناضج فنيا من الرواية قبيل الحرب العالمية الاولى ، وهو روايته « زينب » ، نجح ميخائيل نعيمة ايضا فى

تقديم نماذج ناضجة مماثلة في القصة القصيرة جمعها في مجموعته « كان ما كان » التي ظهرت عام ١٩٣٧ ، وان كان نشر بعضها في نيويورك في الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٥ . وبينما كان هيكل ونعيمة رائدين في هذا المجال القصصي ، لا نجد في محاولات جبران القصصية ما يرقى من الناحية الفنية إلى صنيع زميليه . وبينما جرب معظم معاصري جبران الكتابة في النقد ونظرية الأدب وتاريخه لم يقترب هو من هذا المجال . وفي الوقت الذي كتب فيه بعضهم ألوانا من أدب الرحلات والسيرة العامة والذاتية لم يدخل هو مثل هذه المجالات . وإذا كان قد جرب كتابة الدراما التمثيلية فلم تكن حصيلة ما كتبه فيها تضارع في نضجها الفني حصيلة زميله نعيمه منها . ولذلك تظل أهم الأشكال والأنواع الأدبية التي شارك فيها معاصريه هي القصيدة منثورة أو منظومة ، والمقالة .

لقد كتب الجميع الشعر باستثناء ثلاثة ، هم هيكل والزيات وأحمد أمين ، وكتب الجميع المقالة الأدبية باستثناء ثلاثة ايضا هم الخوري والقروي وأبو ماضي . لكن ظل الجميع ـ بغير استثناء ـ يولون الشعر جل عنايتهم . ومع ذلك يمكن أن نلاحظ مستويين واضحين في القصيدة عند من كتبوها منهم : مستوى يلتزم بنموذج القدماء ويضم طه حسين في شعره القليل غير المجموع ، كما يضم الرافعي والاخطل الصغير والقروى . ومستوى آخر يتطلع الى نموذج عصرى حتى وهو يستخدم بحور القدماء ، ويضم جبران والريحاني ونعيمة والعقاد وشكرى والمازني وأبا ماضي وعريضة . وهذا المستوى يشكل أغلبية أبناء الجيل ، كما هو واضح . وفيه حرص اصحابه على الدعوة النظرية إلى التجديد مع تقديم تطبيقاتها العملية باستثناء جبران وأبي ماضي وعريضة الذين كانوا أقل زملائهم تشريعا للشعر وسنا لقوانين الابداع . وكان جبران أقلهم في المعاصرة مع الشكل باستثناء شعره المنثور الذى خرج فيه نهائيا على نظام العروض والقوافي . بل إن ما جمع من قصائده السائرة على هذا النظام الموروث يقل عما جمع لكل من زملائه باستثناء الريحاني الذى استقر على الشعر المنثور . وبينما لا تزيد مغامرة جبران في الأشكال الموروثة على المقطوعات والتنويع في القوافي ، نجد بعض زملائه من أصحاب المستوى الأخير يتوسعون في إرسال القافية مثل عبدالرحمن شكرى ، أو التقطيع داخل الأبيات مثل نسيب عريضة .

وكان أصحاب هذا المستوى المتطلع إلى نموذج عصرى للقصيدة يطلبون من الشاعر أن يحرص على الوحدة العضوية والفنية في القصيدة ، وأن يصور وجدانه ويترجم مشاعره ، لا أن يحاكي أو يتكلف .

وكانوا يطلبون من هذا وذاك المنطق والتحليل والنقد العميق ، مثلما فعل العقاد والمازني ونعيمة الذين كانوا أكثر زملائهم تنظيرا وتشريعا . لكن جبران كان مختلفا ، فلم يكن ناقدا ولا عارفا بالمنطق والتحليل ، وإنما كان يقول ما يحسه بطريقة أقرب إلى الخيال والتهويم ، مع أنه لم يخرج على ما قاله زملاؤه من أصحاب المنطق والتحليل .

لنتوقف هنا عند مثال يوضح ما نقوله ، وليكن المثال حول مفهوم اصحاب هذا المستوى ـ ومنهم جبران ـ للشعر . لقد قال العقاد « إن الشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق » وقال طه حسين « إن الشعر كلام مقيد بالوزن والقافية يقصد الى الجمال الفني » وقال المازني « إن الشعر خاطر لايزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجا ويصيب متنفسا » قال نعيمة « إن الشعر لغة النفس » ، ومع أن هذه الأقوال ليست كل ما قاله هؤلاء عن الشعر ، فهي تتميز بالمنطق وتتسربل بالوضوح ، على نقيض قول جبران « إن الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها ، أشباح مسكنها النفس ، وغذاؤها القلب ، ومشربها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب ، نبذه أولى » .

ومع ذلك لم يختلف هذا التعريف المموه بالخيال مع تلك التعريفات المنطقية الواضحة التي يتمم أحدها الآخر

شاعر النثر

لكن جبران لم يكتب شعره على طريقة العقاد وطه حسين والمازنى ونعيمة وحدها ، وما كتبه على هذه الطريقة التقليدية ـ إذا صح أن نسميها كذلك من حيث الشكل ـ قليل كما أشرنا ، وهو قليل تفوق عليه ـ كما وكيفا ـ الكثير الذى كتبه العقاد والمازنى وشكرى وأبوماضي على وجه التخصيص . ومع ذلك عوض جبران هذا القليل بالكثير من النثر الذى كان أقرب إلى الشعر فى الروح والخيال والصور ، وإن كان غير موزون أو مقفى . وهذه حال ابن جيله مصطفى صادق الرافعى أيضا الذى كتب شعرا اكثر مما كتب جبران ، ولكن نثره يظل أفضل من شعره لا سيما فى ثلاثيته : رسائل الأحزان ، السحاب الأحمر ، أوراق الورد . وعلى الرغم من هذا يظل جبران أيضا شاعر النثر بين زملائه ومعاصريه . ومن هذه الناحية تفوق على الرافعى الذى يبدو أنه تأثر به فى ثلاثيته المذكورة . فقد انتجها بعد اشتهار جبران فى العربية ، كما تفوق على زميل مهجره أمين الريحانى الذى نشر شعرا منثورا فى مجلة « الهلال » منذ ١٩٠٥ ، أى فى نفس الوقت تقريبا الذى ظهر فيه أول اعمال جبران بعنوان « الموسيقا » وليس من الغريب أن يكون نثره فى هذا المقال المطول وما تلاه من أعمال من أهم المؤثرات ـ بعد ذلك ـ فى تطور ما سمي « قصيدة النثر » فى أدبنا المعاصر .

بم يتميز نثر جبران الشعرى أو شعره المنثور ؟

لعل أبرز خواص هذا النثر أنه أشبه برشاش الصور إذا صح أن تحل الصور محل الرصاص . فهو يرش علينا الصور فى اندفاع لا يوهنه إلا احساسه بانتهاء مهمة الرش ، ولا يوقفه إلا سكون الانفعال الذي يحركه . وهذه فقرة من « الموسيقا » يخاطبها جبران بقوله :

« يا ابنة النفس والمحبة . يا إناء مرارة الغرام وحلاوته . يا أخيلة القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة . يالسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشعر ، ومنظمة عقود الأوزان . يا موحدة الأفكار مع تنف الكلام ، مؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال . يا خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالي الأخيلة . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين . يا أيتها التموجات الأثيرية الحاملة أشباح النفس ، ويابحر الرقة واللطف إلى امواجك نسلم أنفسنا ، وفى أعماقك نستودع قلوبنا ، فاحمليها إلى ما وراء المادة ، وأرينا ما تكنه عوالم الغيب » .

فى هذا المقال المبكر من النثر الجبرانى يتمثل رشاش الصور . وتنهمر هذه الصور علينا غير تاركة لنا فرصة التأمل فيما تحمله من أفكار . ومع أن أكثر الصور غير محسوس ، فثمة شيء ما يربط بينها ، ويعوضنا عن رتابة أدوات النداء وضعف الايقاع ، هو وحدة الانفعال والعاطفة . لكن هذه الوحدة لا تغنى ـ على المدى الطويل ـ عن الفكر الشاحب هنا ، ولا عن الثرثرة.وتلك هى مشكلة النثر الجبرانى فى النهاية ، لاسيما فيما كتبه بالعربية . فما اكثر ما نواجه فيه من تكرار واستطراد ، ولف ودوران ، وما أقل ما نخرج منه بزاد فكرى معمر . ومع ذلك فهو نثر يتميز بالسيولة أيضا ، كما يتميز بشحنات عاطفية قوية ، وخيال واسع ، وجمال مغر ، بغير كدح ولا نحت . لكن أليست هذه كلها خصائص بعض نثر طه حسين أيضا لا سيما فى كتابه « على هامش السيرة » ؟

بقي على رومانتيكيته

لم تطل حياة جبران مثلما طالت حياة معظم أبناء جيله . ولم تمكنه حياته القصيرة نسبيا من التجريب فى أنواع أخرى من الأدب مثل السيرة والسيرة الذاتية اللتين جربهما العقاد وطه حسين وميخائيل نعيمة ، ولا فكر فى تدوين أسفاره وكتابة رحلاته مثلما فعل أمين الريحانى . ولا كانت قدراته الثقافية والعقلية تؤهله لكتابة النقد . ولم ينفرد من بين أبناء جيله

هؤلاء إلا بالرسم والانقطاع تقريبا عن الكتابة بالعربية بعد عام ١٩٢٠ .

غير أن من أهم الملامح الفنية العامة في أدب جبران ومعاصريه ذلك المزاج الرومانتيكي الذي وحد بينهم - في مرحلة الشباب بصفة خاصة - وطبع كتاباتهم المبكرة بالعديد من الخصائص الرومانتيكية الأوروبية ، وعلى رأسها التمرد ، والعاطفة ، والخيال ، والحزن ، والشعور بالغربة ، والميل إلى الفطرة والطبيعة ، واتخاذ المرأة حبيبة ملهمة . ولكن معظم زملائه مالبثوا أن تحولوا - شيئا فشيئا - إلى العقلانية والوضوح ، ومالوا إلى الصياغة الكلاسيكية ، وبقي هو على رومانتيكيته ، وزاد عليها شيئا من الرمزية ، وقاوم كلاسيكية التعبير وعقلانيته حتى النهاية . ولهذا كان من أكثر ابناء جيله جذبا للشباب ، كما حدث في الثلاثينيات حين ألهم كثيرين من شعراء جماعة أبولو ، وأثر في بواكير أعمالهم .

هل أخذ بنصيحة العقاد ؟

كيف نظر معاصروه وأبناء جيله إلى أدبه ؟ تفاوتت هذه النظرة - على أي حال - لكنها لم تخف الاعجاب العام بكتاباته . فشاعر مثل ايليا أبي ماضي أزعجته شكوى جبران شبه الدائمة من الغربة والناس والزمان فقال فيه قصيدة جميلة منها :

أيهذا الشاكي وما بك داء
كيف تغدو ، إذا غدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض نفس
تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى
أن ترى فوقها الندى اكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظن الحياة عبئا ثقيلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا
ايهذا الشاكي وما بك داء
كن جميلا تر الوجود جميلا

شاعر آخر مثل نسيب عريضة لم يدع فرصة دون الثناء على شعر جبران ونثره في مقدماته لأعماله التي نشرها له بمجلته « الفنون » في نيويورك . كذلك فعل ميخائيل نعيمة الذي كتب عنه أول مقال في حياته عام ١٩١٣ . ثم تلاه بمقالين في كتابه « الغربال » عام ١٩٢٣ . وعده « ثورة قبل كل شيء .. ثورة بحد ذاته » ووصفه بأنه صاحب مفهومية جديدة عن الجمال في التنسيق والبيان . وتنبأ لأدبه بتقديس الذكر وطول العمر ، لانه « ثورة زعزعت اركان حصوننا الأدبية المتداعية ، وجاءتنا بمقاييس جديدة للجمال في البيان » على حد تعبيره .

ومع ذلك لم يثبت نعيمة على هذه الآراء المجاملة طويلا . فعندما قدم الطبعة التي ضمت أعمال جبران العربية عام ١٩٤٩ بدأ في إعادة النظر في أحكامه السابقة ، واضاف ملاحظات سلبية على كتابات جبران . ومن هذه الملاحظات أن الحياة لم تُعد جبران لفن القصة ، فلم يبدع فيه أو يحلق ، وأنه ما دان يوما بقوة الواقع وحقيقته . ودان كل حياته بحقيقة الخيال وسلطانه ، وأن مقطوعات الشعر المنثور والمثل والموعظة كانت « الأقرب إلى ذوقه ومزاجه وفطرته الفنية من كل ما عداها من ضروب الأدب » وأن فكره بسيط ، لم يقو إلا في كتاباته الانجليزية .

لم يكن معاصرو جبران في مصر في حاجة إلى مجاملته على أي حال . ولكن مما يلفت الانتباه أن هيكل وطه حسين والمازني والعقاد أجمعوا في وقت متقارب على الإعجاب بكتابات جبران وموهبته وخياله واستقلال روحه ، وتجديده ، ثم أخذوا عليه في الوقت نفسه تساهله في اللغة وأصولها إلى حد الركاكة والضعف والخطأ . وكان العقاد أولهم وأوضحهم في بيان هذا الموقف . فقد كتب مقالا عام ١٩١٩ في نقد قصيدة « المواكب » التي قدمها نسيب عريضة بأنها نموذج للشعر الصحيح . وانكر العقاد هذا الحكم ، وإن اعترف بأن « ناظمها يفكر تفكير شاعر » على حد قوله . ثم أخذ على القصيدة ما وقعت فيه من الخطأ اللغوي ، وضعف التركيب ،

وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية . وذكر جبران بأنه « إذا كان يحترس من الوقوع في مثل هذا الخطأ لو كتب باحدى اللغات الغربية ، فالاحتراس في الكتابة العربية أولى » ، ومع ذلك أشار العقاد إلى أنه « أمرأ في القصيدة « أبياتا من أصدق الشعر وأحكمه » ثم اختتم نقده ناصحا بقوله « عندنا أنه لو طرق باب الشعر المنثور لكان ذلك أفسح مجالا لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون . وحبذا لو أقل من المعاني الرمزية ، فإنها بقية من بقايا ابهام الكهان الأقدمين ، لايقبلها في العصور الحديثة إلا اشباه أتباع الكهان فيما تصرم من العصور » .

ويبدو أن جبران أخذ بالشطر الأول من نصيحة العقاد ، فلم يكرر تجربته مع الشعر الموزون ، وانصرف إلى الشعر المنثور حتى بعد انصرافه عن الكتابة بالعربية في العام التالي . وقد اتفق حكم نعيمة هنا مع حكم العقاد بعد ٢٠ عاما حول قرب الشعر المنثور إلى ذوق جبران ومزاجه وسليقته .

التعالي على النقد

غير أن جبران ـ كما ذكر نعيمة في سيرته التي كتبها له بعد وفاته ـ كان يسعى وراء المدح ، وينفر من النقد والقدح ، وهذا ما يفسر ضيقه الشديد ـ في بعض كتاباته ـ بما كان يكتبه عنه معاصروه . وكثيرا ما كان هذا الضيق يتحول إلى عناد وغضب أعمى ، لينفس عنه بالتعالي على النقد والملاحظات السلبية .

ومن أشهر مقالاته في هذا الصدد مقاله « لكم لغتكم ولي لغتي » ، ومقاله « نحن وأنتم » وإذا كان المقال الأول واضح المرمى في عنوانه ، فقد جاء في المقال الآخر قوله في الرد على لوم ابي ماضي وزملائه : « نحن ابناء الكآبة ، والكآبة غيوم تمطر العالم خيرا ومعرفة وانتم اولاد المسرات . ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح ، وتبددها العناصر » وفي مقال ثالث بعنوان « الشاعر » قال في مستهله : « أنا غريب في هذا العالم » وقال في ختامه : « أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ، وأنثر ما تنظمه . ولهذا أنا غريب ، وسأبقى غريبا حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني » .

وفي هذه المقالات الثلاث ـ بصفة خاصة ـ يكمن سر جبران ، ويعشش جوهر رؤيته ، ويتضح مفتاح عالمه . ويتكون هذا المفتاح نفسه من ثلاث مفردات اشبه بالأعمدة ، وهي : التمرد والتحدي والتعالي ؛ فهو يتمرد أولا على ما لا يروق له أو يخالفه ، ثم يتحداه ، لكنه يتعالى عليه في النهاية ويتجاوزه .

وكأن الأمر دورة ثلاثية المراحل في تفكيره وابداعه على الرغم من بعض الاستثناءات القليلة التي تؤكد هذا النمط ولا تنقضه . وقد كان التمرد والتحدي خاصيتين بارزتين في فكر بعض أبناء جيل جبران ، لا سيما طه حسين . ومع ذلك كان طه حسين يزيد عليهما المواجهة بدل التعالي . ويبدو أن التعالي أو الهروب ، كان صعب التحقيق داخل الوطن العربي ، حيث الاشتباك اليومي مع الحياة والبشر والأفكار والصراعات ، أما في المهجر فكان أمرا لا مفر منه أمام المغترب الذي تفصله آلاف الأميال عن وطنه ، وكان التعويض عنه يتم عن طريق الحنين والتعبير عن الشوق إلى الوطن ، أو ذكر الوطن كلما ألمت به نازلة من النوازل .

نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن جبران لم يختلف كثيرا في كتاباته العربية ، شعرا أو نثرا ، عن معاصريه وأبناء جيله . وإذا كان هؤلاء تميزوا بتنوع الأشكال الادبية والإجادة في هذه الاشكال ، فقد تميز هو بالشعر المنثور وأجاد فيه . وإذا كانوا قد واصلوا رحلتهم مع الكتابة العربية فقد خلطها هو بالرسم والتصوير الزيتي ، ثم قطعها ، واتجه نحو الكتابة بالانجليزية التي لا نستطيع ادخالها في مجال المقارنة بينه وبينهم ومع أن أبناء جيله رحبوا بكتاباته وأثنوا على موهبته ، بوجه عام ، فهم لم يغفروا له التهاون في حق اللغة والتعبير ، مما كان مثار غضبه وتعاليه□

الكوكايين

شمبانيا المخدرات

بقلم : الدكتور جمال الدين موسى *

الكوكايين من المخدرات التي بدأت في الانتشار مؤخرا في أماكن مختلفة من العالم . وعلى الرغم من أنه من العقاقير القديمة التي عرفها الانسان منذ عهد بعيد ، إلا أن الاهتمام الحديث به قد يعود الى الثمن الخيالي لهذا السم الأبيض الذي أصبح يغري عصابات المهربين على تهريبه وترويجه ، والكاتب يناقش بالتفصيل موضوع الكوكايين وأثره على الانسان .

لن نتناول في حديثنا هنا عن الكوكايين ، الصراعات الدامية المختلفة التي تجري في ساحات التهريب ، أو كيفية مكافحة هذا المخدر الذي تحرم التشريعات المدنية والدينية حيازته أو استخدامه أو ترويجه أو تعاطيه ، ولكننا سنعرض لأثره كمخدر على هذا المخلوق الذي ميزه الله على سائر المخلوقات ، وحباه بالعقل الذي يميز بين الخير والشر وبين الصالح والطالح .. الانسان .. !

وبداية ، قد يتساءل القاريء : ما هي العلاقة التي تربط الكوكايين بالشمبانيا ؟

والإجابة ببساطة : إنه إذا كانت الشمبانيا بين الخمور هي من أغلاها وأبهظها ثمنا ، فان الكوكايين بين المخدرات هو أيضا من أغلاها وافدحها ثمنا ، وهو السبب في أن الكوكايين يطلق عليه اسم مخدر الرجل الغني ، وفي بعض الأحيان يعرف باسم شمبانيا المخدرات .

والكوكايين منتج طبيعي نباتي يستخرج من أوراق شجرة الكوكا .

وهذه الشجرة موطنها الأصلي في أمريكا الجنوبية ، خاصة في بيرو وبوليفيا حيث تتواجد في الوديان الدافئة التي ترتفع فوق سطح البحر مدى خمسة آلاف قدم .

وفي الأحوال الملائمة فان النبات يعطي محصولا أربع أو خمس مرات في العام الواحد ، وذلك على

* استاذ بكلية العلوم ـ جامعة عين شمس .

الأفيون يصبح هيروين

مدى ٤٠ سنة متعاقبة . . .

والكوكايين من أقدم العقاقير ، وقد عرفه هنود الأنكا ، السكان الأصليون لامريكا الجنوبية فكانوا يقومون بمضغ أوراق الكوكا في الفم لعدة ساعات للاستحلاب فتمدهم بالمادة الفعالة وهي الكوكايين التي تنشط جهازهم العصبي ، ويكون لها تأثير مخدر على المعدة فلا يشعرون بالجوع . .

قرابين للآلهة :

وكان هنود الانكا يقصرون استخدام أوراق الكوكا على النبلاء ورجال الدين وذوي المكانة المرموقة الجليلة بين الناس ، وكانت الأوراق تقدم قرابين للآلهة ، وتمضغ في الفم خلال العبادات ، وتوضع في أفواه الموتى لضمان الترحيب بالمتوفين في العالم الآخر طبقا لمعتقداتهم .

وبعد الغزو الاسباني لبيرو منع تعاطي الكوكا ، وحرم استخدامها واستعمالها لفترة من الزمن. ولكن لم يلبث الإسبان أن اكتشفوا أنهم هم الخاسرون في عملية التحريم المشار اليها إذ وجدوا أن الهنود ـ وهم السكان الأصليون في بيرو ـ يمكن استغلالهم في القيام باعمال أكثر مع تناول وجبات أقل من الطعام إذا ما سمح لهم بتعاطي الكوكا ، ومضغ أوراق هذا النبات خلال قيامهم بالعمل .

وهكذا بدأ صرف جراية يومية من أوراق الكوكا لكل عامل ، واستمر اتباع هذا التقليد حتى أصبح عادة سارية متبعة .

وقد يتساءل القارىء : وما فائدة هذا الكيس الثاني الذي يحوي رمادا نباتيا ، والاجابة على ذلك أنه لكى تمضغ أوراق الكوكا تغمس الأوراق في

قدر ضئيل من الرماد النباتي ، فتتحول في الفم الى قطعة يسهل مضغها ويستمر المضغ لعدة ساعات ويستمر الاستحلاب ويستمر الشعور بأثر المخدر وتأثيره . . .

فرويد والكوكايين :

وقد عرفت اوروبا نبات الكوكا في القرن السادس عشر لكنه ظل في طي النسيان حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر حين بدأ الاهتمام به .

ففي عام ١٨٨٤ بدأ سيجموند فرويد سلسلة من التجارب على النبات ، ونشر عديدا من التقارير عن نبات الكوكا وعن الكوكايين .

ولسيجموند فرويد قصة مع الكوكايين . .

لقد كان سيجموند فرويد مدمن أفيون وكان يريد أن يتخلص من أسر هذا المخدر ومن طغيانه ومن جبروته ، وان يقلع عن تعاطيه ، وظن للوهلة الاولى أنه يمكن أن يجد ضالته في الكوكايين للخلاص من أسر الأفيون والفكاك منه .

بدأ فرويد يتعاطى الكوكايين ، وكان من المتحمسين له في بادىء الامر، بل إنه أطلق عليه اسم « العقار السحري » وادعى أن له قدرة علاجية، وانه يمكنه أن يخلص المدمن من ادمان الافيون والمورفين ومن أعراض الهبوط والتعب الشديد .

ولكنه لم يلبث أن وجد في نهاية الامر وبعد التجربة أنه واهم، وانه كان يسعى الى سراب ، وانه عاش اكذوبة كبرى فاعترف في نهاية الأمر بأخطار الكوكايين ، وبأنه فشل كعلاج لحالة ادمان الافيون . .

كوكا كولا بالكوكايين . . . . !

وكان للكوكايين في أمريكا في نفس الفترة ، أي خلال القرن التاسع عشر قبول عند الجمهور ، وشيوع ورواج كعلاج لكثير من الآلام ، وكان يُضمَّن في كثير من الوصفات الطبية . وكان أكثر استخداماته وأعمها وأكثرها شيوعا استخدامه في مشروب الكوكا كولا الأصلي الذي كانت تدخل في تركيبه مواد نكهة مستخلصة من أوراق الكوكا .

ولكن لم تلبث الحكومة الأمريكية أن أصيبت بالفزع من تفاقم عدد الامريكيين الذين تكونت لديهم عادة تعاطي الكوكايين فمنعت استخدام العقار . وفي عام ١٩٠٦ عدلت لائحة الأغذية والعقاقير الامريكية لتتضمن بندا يمنع استخدام الكوكايين . وبعد ذلك بثماني سنوات أي في عام ١٩١٤ صدر تشريع هاريسون الذي بمقتضاه تم تضمين الكوكايين في قائمة المخدرات .

ومنذئذ أصبح احراز الكوكايين يواجه نفس العقوبات التي تطبق على احراز المخدرات الاخرى كالافيون والهيروين والمورفين .

وفي الأربعين سنة التالية قل الاقبال على تعاطي الكوكايين وخف الطلب عليه .

عود على بدء :

ولكن حدث خلال السبعينيات في القرن العشرين أن عاد الكوكايين الى شارع الاستهلاك ، وأصبح من أكثر المخدرات شيوعا . وكانت الظواهر التي تدل على ذلك هي كثرة كمية الكوكايين التي تضبطها أجهزة مكافحة التهريب والتقارير الطبية عن أحوال المدمنين ومتعاطي المخدرات ونوعية المخدر .

واليوم فان الكوكايين يباع بأسعار فادحة باهظة لأنه نادر باهظ الثمن،فقد أصبح يطلق عليه كما أسلفنا شامبانيا المخدرات . كما يعرف هذا المخدر في أوساط التهريب والمخدرات باسم « مخدر الرجل الغني » وإن ندرته وشبكة توزيعه المعقدة تضاف جميعاً الى سعره الباهظ .

ويأتي الكوكايين في ثلاثة أشكال ، الشكل الصخري ثم الشكل القشري أي في صورة قشور ، أما الشكل الشائع فهو البودرة .

وغالبا ما يتم اضافة مواد أخرى تصنع في المعمل . ومن هذه المواد مادة البروكين ، ومادة البنزوكين ومادة السيد . . .

ويكون الكوكايين النقي في صورة مسحوق بلوري أبيض أشبه بالسكر ومن هنا كانت تسميته بالجليد .

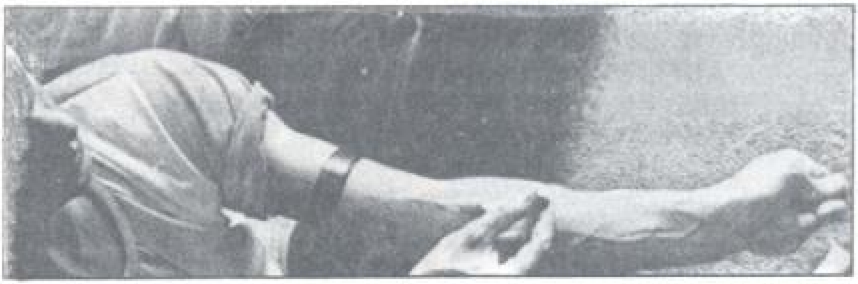

المخدرات بواسطة الحقن ، النوع الأكثر شيوعا

آثار الكوكايين على من يتعاطاه :

إن الكوكايين مخدر فائق القوة يمكنه أن يحدث تغييرا واضحا في الحالة « السيكوفسيولوجية » لمن يتعاطاه ، أي في حالته النفسية وفي وظائف أعضاء جسمه ، وهو بطبيعة الحال تغيير وتأثير الى الأسوأ .

وخلال التاريخ كانت أوراق الكوكا وهو النبات الذي يستخرج منه الكوكايين كما أسلفنا ، تستخدم كأحد المعطيات الطبيعية للطاقة ، فقدرة النبات على تقليل الاحساس بالجوع والتعب وحفز النشاط العضلي كانت شيئا معروفا،وهو تأثير يعتقد البعض أنه يرجع الى ما يصاحب تعاطى الكوكايين من زيادة الحامضية في الدم وتنشيط عملية تحويل المواد الكربوهيدراتية في الجسم الى الطاقة . .

ومع ذلك فان البحوث التي أجريت في هذا الصدد لم تصل الى علاقة مباشرة توضح أثر الكوكايين على أعصاب الحركة والعضلات .

إن الكوكايين كعقار مخدر ينتج عنه أثران مختلفان وغير متصلان . أما الأثر الأول فهو أنه يعمل كمخدر موضعي فيتسبب في ايقاف توصيل الاشارات الكهربائية والنبضات في الألياف العصبية لفترة قد تتراوح بين عشرين دقيقة الى أربعين دقيقة ، وذلك لقدرته على التدخل في حركة ايونات الصوديوم خلال الخلية العصبية .

أما الأثر الثاني أو الفعل الثاني فهو أنه منبه ومنشط قوي للجهاز العصبي المركزي ، وهذا التأثير على الجهاز العصبي المركزي هو الذي يخلق الانتعاش الوقتي والشعور بالاثارة ، ويمثل الحافز الأساسي والدافع الرئيسي لتعاطي مخدر الكوكايين .

الآثار العضوية والجرعة المميتة !!!

واذا نظرنا الى أثر الكوكايين على المتعاطي من الناحية الفسيولوجية أي من ناحية وظائف أعضاء الجسم ، فاننا نجد أن له أثراً سيئا جداً بل شديد السوء .

إن الكوكايين يسبب زيادة في سرعة التنفس وسرعة النبض ، وعدم انتظام دقات القلب ، وانقباض الأوعية الدموية وانكماشها ، وارتفاع ضغط الدم ، وارتفاعاً في درجة حرارة الجسم ، وتصبب العرق ، واتساع انسان العين وانبساطه وتمدده ، وارتعاش اليدين ورجفة الساقين .

ونظرا لأن مفعول الكوكايين قصير الأجل فان تعاطى المخدر يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد ، وبذا يمكن أن تصل الكمية التي يتعاطاها الفرد في مجموعها الى عشرة جرامات في اليوم الواحد .

وجرعة الكوكايين المميتة أي التي تؤدي الى الموت هي جرام وربع تقريبا من المخدر ، وذلك اذا تم تعاطي الكمية كلها مرة واحدة ، والموت في هذه الحالة يرجع سببه الى القصور الشديد في عملية التنفس .

مراهق يدخن الكوكايين

القلق والهلوسة ومرض العظمة الكاذبة :

غالبا ما يؤدي تعاطي كميات كبيرة من الكوكايين وتأصل عادة تعاطيه الى القلق والهلوسة والأرق والسهاد ، والى الشعور الكاذب بالقوة والتفوق ، وإن هذا الشعور بالقوة وهذه الهلوسات الحسية والسمعية والبصرية التي يؤدي اليها الافراط في تعاطي الكوكايين تكون نتيجتها أن يصاب المتعاطون لهذا السم وخاصة من يتعاطونه عن طريق الحقن بمرض يطلق عليه اسم مرض « العظمة الكاذبة » .

إنهم يصبحون غير اجتماعيين وخطرين على من حولهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، ويتواجدون في رحابه . إن قدرتهم في الحكم على الأشياء وتقديراتهم تختل، كما تحدث في بصيرتهم ، وإدراكهم الحسي تغيرات سريعة الى الأسوأ .

إن شخصيات المتعاطين للكوكايين تهتز بشدة ، ويبرز الى السطح كل ما لديهم من صور الكبت وكل المخزون والمدفون في حنايا نفوسهم من طباع مكبوتة ممنوعة لا يرضى عنها المجتمع .

اما من ناحية السلوك الاجتماعي والسلوك مع الأقران والزملاء ، فإنه يتميز بالعدوانية والتهجم كما تتصف تصرفاتهم بعدم الثبات والخلل ويستولي عليهم الفزع والهلع لغير ما سبب معقول .

وفي النهاية يكون الشعور العام لمتعاطي الكوكايين هو انقباض النفس والقلق والاضطراب والكآبة والركود النفسي وانحطاط الروح المعنوية .

أعمال العنف :

إن الكوكايين عقار شديد السمية وخاصة على المخ الذي يصبح من تأثير هذا السم مزدحما بالأوهام والترهات ، فمتعاطي الكوكايين ينشأ لديه شعور بأن الحشرات تزحف على جسمه ، وبأن الناس يتحدثون عنه ، وبأنه مراقب من الجميع ، وأن هناك عيونا ترصد حركاته وتحركاته وتتعقب خطواته ، بل يعتقد أن هناك من يدبر لقتله .

وعادة ما يحمل مدمن الكوكايين سلاحا ، وتحت تأثير الوهم الذي يملأ رأسه ويسيطر عليه يصبح قادرا على استخدامه . وان التقارير الطبية وتقارير رجال الامن ومكافحة المخدرات توضح وتتضمن الكثير من أعمال العنف التي ارتكبها ويرتكبها المتعاطون للكوكايين وخاصة من يفرطون في تعاطيه .

الكوكايين والادمان :

والآن نأتي الى نقطة هامة والى سؤال مهم مطروح . .

هل يسبب الكوكايين الإدمان لدى متعاطيه ؟؟

هل يسبب الكوكايين الاعتماد الطبيعي على المخدر ؟؟

وفي الإجابة على هذا نقول إنه على الرغم من أن

المتعاطي للكوكايين يتكون لديه اعتماد نفسي قوي على الكوكايين إلا أن استخدام العقار لا ينتج عنه اعتماد طبيعي كما يحدث في حالة من يتعاطون الأفيون والهيروين والمورفين ، ولا يتعرض المتعاطي لأعراض جانبية خاصة لدى الامتناع عن تعاطيه .

ومعنى الادمان،أي الاعتماد الطبيعي على المخدر أن المدمن يصبح أسيرا للمخدر فلا يمكنه أن يستغني عنه ، أو يعيش بدونه ، واذا لم يجده وإذا لم يتعاطاه يتعرض لآلام مبرحة وأعراض مفجعة تؤدي به الى الموت . .

ونظرا الى سرعة تمثيل الكوكايين في الجسم فان كميات كبيرة منه يمكن تعاطيها في وقت قصير نسبياً ، وليس هذا دليلا أو اشارة الى الاعتماد الطبيعي على المخدر وعلى الرغم مما يبدو من أن تعاطى الكوكايين لا ينجم عنه اعتماد طبيعي ، إلا أن هذا المخدر يتميز باتجاه قوي من جانب المتعاطين للاستمرارية في استخدامه وتعاطيه ، فهو يتسبب في ايجاد مستوى عال من الاعتماد النفسي لدى المتعاطي ، وعادة ما ينتج عنه نوع من أنواع الافراط المدمر . .

وهذه الصورة غالبا ما يصعب فهمها حيث أن كثيراً من الذين لا يسرفون في تعاطي المخدر ويتعاطونه بين حين وحين يقررون أنه لا تتكون لديهم عادة الإدمان . ومع ذلك فهناك تقارير لا حصر لها عن الافراط في استخدام الكوكايين . ما هو التفسير اذن ؟؟

الذي يحدث أنه بعد تعاطي العقار بفترة قصيرة تنتج حالة من فقدان الحساسية في فراغ الفم ، وغالبا شعور بأن اللسان غير موجود،ويتبع ذلك احساس بالدفء في الجسم كله ثم إحساس بدرجة عالية من الإثارة . ويشعر المتعاطي بأنه قوي مبتهج يمكنه أن يقوم بأي عمل وأن يفعل أي شيء ، ويتقلص شعوره بالتعب كما ينتابه شعور بالقوة والغنى .

هذا الاحساس بالابتهاج والفرحة يستمر من حوالي خمس وأربعين دقيقة الى ساعتين تبعا لنوعية الكوكايين الذي يتم تعاطيه . وعندما تضمحل الآثار الاولى للمخدر تبدأ آثار الهبوط والكآبة والتعب والانقباض النفسي في الظهور على المتعاطي . ويتسبب الصداع والشعور بعدم الراحة والركود النفسي في رغبة قوية في الصعود مرة أخرى الى قمة البهجة . . .

وبذلك وعلى الرغم من أنه لا ينشأ اعتماد فسيولوجي على المخدر إلا أنه ليس من الصعب أن تدرك الرغبة في استمرارية التعاطي للمخدر التي توضحها هذه الصورة التحليلية والتي جاءت في احدى الدراسات النفسية التي نشرتها المجلة الأمريكية لعلم النفس .

معالجة التسمم بالكوكايين :

إن معالجة التسمم بالكوكايين تتم على أساس وصف العلاج المناسب لحالة المريض . فالقلق الزائد من تأثير تعاطى العقار يمكن علاجه بإعطاء المريض المهدئات مثل الفاليوم .

وفي حالة تعاطي الجرعات الزائدة وما تسببه من آثار صعبة قاسية مؤلمة ، وضيق شديد في التنفس يعالج المريض في المستشفى الخاص مع عناية مركزة من ناحية التنفس . وبعد العلاج العضوي يتم العلاج النفسي . . . □

□ المعرفة تؤدى إلى الصداقة ، والحقيقة تؤدى إلى النور .

(جوليوكورى)

□ لاقيام للفن الحقيقى إلا إذا كان بشيرا بحياة أفضل يتمتع بها جميع البشر .

(فاجنر)

فاجنر

حكايات..
في الأدب والفن والتاريخ

بقلم : الدكتور عبدالحميد يونس

يعد الدكتور عبدالحميد يونس الذي فقدناه منذ شهرين واحدا من رواد الادب الشعبي ، وأول من أدخل دراسة علم الفلكلور وفق مناهج البحث العلمي في الجامعات المصرية والعربية الأخرى . ولقد خلف للمكتبة العربية عددا من الكتب والدراسات عن الحكايات والفنون الشعبية ، بالإضافة إلى موسوعة الأدب والفنون الشعبية .

و « العربي » التي كانت واحدة من المجلات العربية التي تلقت انتاجه ، تنشر آخر مقالاته لها ، عن حكايات في الأدب والفن والتاريخ .

لايزال الذهب هو المعيار الأساسي في وسيلة التعامل بين الناس في المجال الاقتصادي ، وهو الركيزة الأساسية لقدرة دولة ، او مجتمع على التعامل في المجال الدولي . ولا يقوم ذلك على حصيلة التجربة الانسانية الواقعية في المجال الحضاري ، وإنما يقوم أولا وقبل كل شيء ، على ارتباطه ، منذ أقدم العصور ، بالاساطير . ومن الضروري أن نفيد من الدراسات الميثولوجية الحديثة التي لا تعد الأسطورة مجرد خرافة ، ولكنها كانت المرحلة الاولى في الفكر الانساني ، وهي التي فسر بها الانسان مظاهر الحياة والطبيعة والكون ، ولذلك وجدنا ان الذهب ارتبط ، منذ القدم ، ارتباطا وثيقا بالعقائد الدينية ، ومايتصل بها من طقوس .

وكان الذهب من أقدس مافي الارض من معادن ، ولذلك نجد مكانته في تراث الشعوب ، على اختلاف أوطانها ، ومعتقداتها ، ومراحل ثقافتها ، ومن الشواهد على ذلك أن بعض القبائل ، في جزر الهند الغربية وامريكا الوسطى ، تعتقد أن للذهب روحا ، ولذلك فرضوا على انفسهم كثيرا من المحظورات ، حتى لا تغضب عليهم تلك الروح . وسجل بعض الدارسين أن العاملين في مناجم الذهب في بعض المناطق يحرصون على تلاوة دعاء خاص قبل استخراج هذا المعدن النفيس . ومن المعتقدات السائدة قديما أن الشمس هي التي وهبت الذهب لونه الجميل ، وبريقه الخلاب ، ومن ثم فإنه يستمد بريقه من نور الشمس ، ويعد مصدرا للحياة والخصب والنماء .

وسجل المؤرخون أن الذهب لم يكن مجرد معدن نفيس ، له قداسته ، ولكنه كان عنصرا حيا عند الفراعنة ، ومن هنا ساد الاعتقاد بأن الذهب هو سائل الشمس المضيء ، الذي يجري في عروقهم . وبالغوا في استعمال الذهب ، لأنهم رأوا أن عودة الحياة اليهم بعد الموت وخلودهم يقتضي إعداد الوسائل المادية التي تحقق لهم هذا الهدف .

ومن أهم الأساطير القديمة ، التي تدل على ارتباط الذهب بالحياة ، أسطورة ميداس ملك فريجيا بآسيا الصغرى ، فقد كان هذا الملك يعشق الذهب اكثر من أي شيء آخر ، وكان يقتنيه ، ويختزنه في الطابق الاسفل من قصره ، ولقد اعتاد ان يقضي ساعات طويلة كل يوم ، يتطلع فيها الى ذهبه ، ويتغزل فيه ، كما يتغزل العاشق في محبوبته .

وتسجل الأسطورة أن ميداس تمنى أن تمنحه الآلهة القدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب ، وتحققت أمنيته ، وفرح عندما وجد أن كل شيء يلمسه في قصره يتحول إلى ذهب . وما لبث أن اكتشف أن طعامه وشرابه قد تحولا الى ذهب خالص ، وأدرك أنه سوف يموت لا محالة وكانت المفاجأة الكبرى عندما زارته ابنته ، تشكو إليه أن ازهار الحديقة كلها قد صارت ذهبا . ولما انحنى عليها ليسري عنها ويقبلها تحولت إلى تمثال بارد من الذهب . وتقول الاسطورة إن الملك ميداس استطاع أن يتخلص من هذه اللعنة باستحمامه في مياه ينبوع يقع عند مصب احد الانهار . وحمل معه بعض الماء وصبه على ابنته ، فعادت اليها الحياة ، وادرك الملك ميداس أن هناك اشياء أثمن بكثير من الذهب .

الامارات البغدادية

اتسعت رقعة العالم الاسلامي ، وازدهرت حضارته ، واشتهر كثير من عواصمه ومدنه ، بيد ان بغداد اتخذت لها مكانا بارزا بين هذه العواصم ، حتى اصبحت في مخيلة المسلمين والعرب رمزا للصقل الحضاري في قمة تاريخنا الوسيط . وكلما تذكرنا العصر الذهبي ، وجدنا بغداد هي التي ترمز إلى تلك المرحلة المزدهرة. ومن اسم هذه المدينة وجدنا لفظا يعبر عن الفخر بانتساب الانسان اليها ، وفي معاجمنا لفظ تبغدد فلان أي انتسب الى بغداد وتشبه بأهلها ، وعليه زها وتكبر ، لأن الانتساب الى هذه المدينة ظل مزية ، يفاخر بها صاحبها ، ويتصور أنه ارقى وأصقل من الناحية الحضارية ، التي جعلت بغداد هي المعلم الأول في العصر الذهبي في الوطن العربي والعالم الاسلامي .

والدارسون احتفلوا بعراقة هذه المدينة واصولها . وأطلق الخليفة العباسي المنصور على المدينة التي أنشأها اسم مدينة السلام تيمنا بجنة الخلد ، وكان هذا هو الاسم الرسمي ، الذي يكتب به في الوثائق والسكة والاوزان ، إلخ . واستعملت من الاسم صيغ مختلفة ، وبخاصة بغدان ، وتسميات مثل مدينة ابي جعفر ، ومدينة المنصور ،ومدينة الخلفاء والزوراء . والاقتناع بأن بغداد هي قصبة العصر الذهبي هو الذي دفع الخليفة المنصور إلى أن يشيد قصرا على نهر دجلة ، تحيط به بساتين فسيحة ، وأطلق عليه اسم قصر الخلد تيمنا بجنة الخلد ، ودفع الخليفة هارون الرشيد أيضا إلى تشييد قصر الرصافة . واتسعت رقعة بغداد بسرعة ، فكثرت مبانيها ونشطت فيها الحركة التجارية ، وازدادت ثروة وسكانا ، وتكالب الناس على السكنى في شرقي بغداد ، إذ اجتذبتهم هبات المهدي ، ثم عطايا البرامكة الذين كان لهم حي خاص في بغداد .

وتغنى الشعراء ـ وهم لا يزالون يتغنون إلى الآن ـ بجمال بغداد ، ووصفوها بأنها جنة الله في أرضه . وقد اشتهرت ببساتينها الرائعة وريفها النضير ، وقصورها الفخمة الشامخة المزينة بزخارف فاخرة على الابواب وفي القاعات ورياشها البديعة الثمينة .

وأصبحت بغداد مدينة دولية ، لأن سكانها كانوا أخلاطا من شتى الامم والالوان والنحل ، ممن وفدوا إليها من أجل العمل والتجارة ومن الجنـدين والارقاء ، أو ممن جاءوا لممارسة مهن أخرى ، واستمرت بغداد من اعظم مراكـز الفن والعلم والادب على مدى التاريخ ، وأدى ذلك ، إلى أن يحتفل بها التراث الشعبي ، وأن نجد ذكرها في هذا التراث على اختلاف مجالاتـه . والدارسـون المتخصصون استطاعوا ، وهم يحللون « الف ليلة وليلة » ، أن يضعـوا أصابعهم عـلى الامـارات البغدادية في الكثير من تلك الليالي ، وأن يجدوا القصاص الشعبي يتخذ من الخليفة هارون الرشيد بطلا ممتازا ، يتجاوز الواقع التاريخي إلى الخيال الشعبي .

الرشيد في الخيال الشعبي

يذكر الزركلي في معجم « الأعلام » أن هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ) (٧٦٦ - ٨٠٩م) ابن محمد المهدي ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر : خامس خلفاء الدولة العباسية في العـراق ، واشهرهم . ولد بالري ، لما كان ابوه اميرا عليها وعلى خراسان ، ونشأ في دار الخلافة ببغداد ، وولاه ابوه غزو الروم في القسطنطينية ، فصالحته الملكة ايريني وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث بها الى خزانة الخليفة في كل عام . وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ ، فقام باعبائها ، وازدهرت الدولة في ايامه . واتصلت المودة بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان ، فكانا يتهاديان التحف . وكان الرشيد عالما بالادب ، وأخبار العرب ، والحديث ، والفقه ، فصيحا ، له شعر ، وله محاضرات مع علماء عصره ، شجاعا كثير الغزوات ، يلقب بجبار بني العباس ، حازما كريما متواضعا ، يحج سنة ويغزو سنة ، لم ير خليفة أجود منه ، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والندماء . وكان يطوف أكثر الليالي متنكرا . قال ابن دحية : « وفي ايامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في ديارهم » . وهو أول خليفة لعب بالكرة

والصولجان . له وقائع كثيرة مع ملوك الروم ، ولم تزل جزيتهم تحمل إليه من القسطنطينية طوال حياته . وهو صاحب وقعة البرامكة ، وهم من اصل فارسي ، وكانوا قد استولوا على شؤون الدولة ، فقلق من تحكمهم ، فأوقع بهم في ليلة واحدة . واخباره كثيرة جدا . ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام

توفي في سناباد من قرى طوسي ، وبها قبره . وأهم ملامح شخصية هارون الرشيد إحساسه بالملك ، فقد ولد في قمة الكيان الاجتماعي ، وولد أميرا ، وقدر عليه أن يكون مجاهدا في سبيل الدولة ، ووليا للعهد ، ثم خليفة للمسلمين . ومع أنه من بني العباس الذين قضوا على البيت الاموي ، فقد ورث تقاليد الملك . وكان المحيط الذي يدرج فيه ، إنما يصدر عن ذلك الصراع التقليدي بين الأخوة ، وما يمكن أن ينشب من خصومات بين الاعمام وأبناء اخوتهم . ولا فرق هناك بين ملك اقترب من القيصرية في دمشق ، وآخر كادت تظلله الكروية

في بغداد ، كلاهما شرف موروث ، يتناحر عليه أبناء الأسرة الواحدة ، ويتحارب دونه الاخوة وبنو الاعمام . ولقد أفاد هارون من هذا الجو . تاظره أخوه ابن أمه وأبيه ، واحتمل خوفه وحرصه ، ووجد النصراء الذين يمكنون له ، حتى انقادت له المقادير ، وكان التحول من الاسم «هارون» إلى اللقب «الرشيد» بمثابة التحول من الخلافة إلى الملك، وجمعت شخصيته ، بصورة متناقضة حينا ومتكاملة احيانا أخلاقيات شيخ القبيلة ، والخليفة الرشيد والملك الذي يستند إلى الحق الالهي والشرف الوراثي .

وإذا كان الوجدان الشعبي قد انتخب هارون الرشيد دون غيره ، فذلك لما أدركه فيه من الفضائل التي اراد تجسيمها وتصعيد الافراد إليها . ومهما اختلف أصحاب المذاهب حول شخصة وفعاله ، فإنه كان نموذجا يصلح للانتخاب والتمثيل . ولقد اختلف في الحكم عليه بعض ، فوجدنا من ينقده ويجرحه ، ولكنه علم ، سجلت عليه فضائل الفكر العربي والحضارة الاسلامية . كان بمثابة القمة من التاريخ الاسلامي ، وكان الممثل لما أسهم به العرب والمسلمون في بناء حضارة الانسان ،وكان الشرق في ايامه هو الذي انتهى إليه السلطان . ومن هنا اقترن اسم الرشيد بالشرق وسحره وفتنته . واختيار هذا اللقب كان له اثره في الحكم على سلوك هذا الخليفة ، واشتهاره بغلبة الحكمة والتعقل والاتزان . وظلت هذه الشخصية محفورة في ذاكرة الشعب العربي ، يتخذها نموذجا في السلوك، كما يجعلها مثالاً للانسان العربي ، وأسبغ الشعب عليه ما يطمح إليه من حكمة وعدالة ومجد . والرشيد من أهم الروائع التي لاتزال حية ومؤثرة في المأثورات الشعبية .

الأدب والشخصية العربية

تلك مجرد التفاتة إلى مسار الحضارة في الشرق الاسلامي ، وهذه الالتفاتة فيها من سعة الأفق ما يستوعب جانبا من التقدم الانساني الزاهر ، ومساحة كبيرة من العالم الانساني في فجر العصور الوسطى .

والمؤرخون يضعون أصابعهم على التقدم الفكري في مجال الفلسفة والفكر ، وهو على قدر كبير من الوضوح . بيد أن الشخصية العربية إنما تبرز ملامحها في الأدب ، بصفة عامة ، وفي الشعر ، بصفة خاصة . وللشعر العربي أصالته في الاحتفال بالجانب الموسيقي للكلمة ، ولذلك يجمع مؤرخو الأدب على أن اللغة العربية هي أولى اللغات التي كانت تصر على اعتبار القافية الصحيحة عنصرا أساسيا في صوغ الشعر . كانت كل قصيدة من قصائده لابد أن تبدأ بالبكاء لفراق محبوب أثارت ذكراه نظرة إلى مابقي بعده من أطلال ودمن .

ولما رحل الشعر العربي إلى المدن ، ثبتت دعائم الحب أكثر من قبل ، واكتسب الشعر رقة جديدة ، حلت محل صراحة البادية في إظهار الحب ، كما حلت محل القصائد الشعرية المطولة مقطوعات غنائية قصيرة ، يعبر فيها الشاعر عن عواطفه ، ويظهر فيها شخصيته .

ونجد في الشعر الشعبي ما يشبه الطفرة التي أثمرت جنسا أدبيا في مجال الغناء وهو الموال . ونحن جميعا نعلم أن الموال ضرب من الأغاني الشعبية . وتقول الرواية إن هذا النوع من الشعر ابتكره أهالي

واسط ،ولكن أهالي بغداد هم الذين طوروه . ويقال إن هارون الرشيد لما نكب البرامكة حرم البكاء عليهم أو رثاءهم ، ولكن الوفاء حمل جارية لجعفر على أن تنظم في كل يوم مرثية لمولاها ، وكانت في نهاية كل موشح تصيح « ياموالبا » . ومن هنا أطلق اسم موالبا على هذا النوع من الشعر . والموال سمي من الموالبا .

وتطور الموال ، وانقسم إلى ضربين ، هما الموال الأحمر ، ويتناول موضوعات الحرب ، والموال الأخضر ، ويتناول موضوعات الحب . وفي جميع الحالات يجب أن يكون الموال باللهجة العامية الدارجة .

جحا . . والألغاز والأحاجي

هناك شخصية عربية بارزة ، ظهرت في عصر هارون الرشيد ، وهي شخصية جحا . وبلغ من عالمية هذه الشخصية أن العلماء كثيرا مايخلطون بين شخصيتين قوميتين : بين جحا العربي الذي ينسب إلى قبيلة فزارة ، والذي قيل إنه عاش في عصر هارون الرشيد ، والذي أثرت عنه أقوال أصبحت على ألسنة الناس أمثالا سائرة ، والذي اشتهر بمواقف وتصرفات ، سجلت على انها من النوادر والملح .

وبين جحا الرومي الذي قيل إن اسمه نصر الدين خوجة ، وعاش في عصر السلاجقة . ومن اليسير أن يضع الدارس خطا فاصلا بين هاتين الشخصيتين . ونحن نعلم أن جحا العربي يحتفظ في جميع أقواله وتصرفاته بمقومات المزاح العربي ، وانه معروف في البيئات العربية كلها بالاسم نفسه ، لا يصيبه من التحريف إلا قليل ، يتمثل به المتعلمون وغير المتعلمين في الحواضر والبوادي على السواء .

ومن اهم أجناس الأدب الشعبي « الألغاز والأحاجي » ، ومن روائعها ماورد في « ألف ليلة وليلة » ،وهي أيضا فيما يذكر الرواة ، وفيما تسجل الحكايات رائعة عالمية . هي حكاية تودد الجارية . وتروى الحكاية أنها كانت جارية لتاجر ضاع ماله ، فطلبت منه أن يعرضها على هارون الرشيد ليشتريها ، لأنها تجمع بين الجمال والذكاء ، وقبل الخليفة أن يشتريها بالثمن الغالي الذي طلبه اذا ثبت

له صحة ما ادعاه من رجاحة عقلها ،وتعدد مواهبها . وقام باختبارها نفر من العلماء، فأجابت على جميع ما وجهوه إليها من اسئلة في علوم الدين والنجوم والطب واللغة ، واستطاعت أن تحل جميع الأحاجي التى طرحت عليها ، وأظهرت براعة تامة في لعبتي الشطرنج والنرد ، وأبدت مهارة فائقة في العزف على العود . ثم وجهت إليهم بدورها أسئلة كثيرة ، عجزوا عن الرد عليها . وعند ذلك طلب منها الخليفة أن تتمنى عليه ، فتمنت أن يردها لسيدها ، ففعل ، وخلع عليها خلعة ،واتخذ سيدها نديما له .

ومهما ردد الباحث في غلبة الاختيار والمغالاة فيما سجل ،أو روي عن أسطورة العصر الذهبي ، كما شخصها هارون الرشيد فان الاهتمام بالتراث الشعبي الحي المتطور ، وبالعراقة فيما يحتفظ به الشعب في ذاكرته من معرفة وفن وأدب يستتبع بالضرورة أن نضيف إلى التاريخ ، بمنهجه التقليدي ، ما يهر الشعب العربي من ناحية ، والعالم من ناحية أخرى ، وما جعل هذه الأسطورة تتسم بالسحر والروعة . وتثبت في الوقت نفسه تبادل التأثر والتأثير بين مختلف القوميات والعصور .□

آفاق المعرفة الجغرافية عند العرب في العصور الوسطى

بقلم : الدكتور محمد علي الفرا

إن من يطلع على التراث الجغرافي العربي يدرك الاتساع الكبير لأفق المعرفة الجغرافية بشكل لم يسبق له مثيل . وقد ظلت الجغرافية العربية مصدراً مهماً لا يستغنى عنه لكل من يريد البحث والاطلاع ، عن مناطق العالم وبلدانه وأقطاره ، لأنها حوت معلومات وبيانات غزيرة ، جديدة ، شاملة عن مناطق لم تكن معروفة عند اليونان والرومان .

ولاشك في أن الفتوحات الإسلامية ، والأنشطة التجارية ، والرحلات الجغرافية كانت من أهم العوامل التي أسهمت بشكل رئيسي في إثراء الجغرافية الإقليمية العربية واتساع أفقها . وقد بلغت الفتوحات أوجها في عصر الدولة الأموية ، حتى أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من الصحراء الكبرى والسودان في افريقية جنوبا حتى حدود فرنسا شمالا ، والمحيط الأطلسي غربا إلى حدود الصين شرقا .

وقد نشطت الحركة التجارية ، فتاجر العرب مع الأقطار الأفريقية الواقعة على سواحلها الشرقية والغربية ، وكذلك مع البلدان الأسيوية حتى مدينة « كانتون » . وقد أنشأ العرب المراكز والموانىء التجارية ، مثل ميناء « قلا » في شبه جزيرة الملايو (ماليزيا حالياً) ، وميناء الديبل عند مصب نهر السند ، بالقرب من كراتشي الحالية . أما موانىء الخليج العربي فأهمها : مسقط وصحار وسيراف .

أما فيما يختص بالرحلات الجغرافية وحركات الارتياد فقد نشط الرحالة العرب في كل الاتجاهات في آسيا وأفريقية وأوروبا . وسنعرض في هذه المقالة لأهم الرحلات العربية في القارة الأسيوية .

آسيا تستحوذ اهتمام الجغرافيين

لقد اهتم الرحالة العرب بالشرق في المقام الأول ، وبخاصة وسط القارة الأسيوية وشمالها وشرقها ، كالهند والصين وبلاد التتار ، وبناء عليه كان العرب أول من قدر الحجم الحقيقي للقارة

الآسيوية ، وكانوا أيضا أول من زار من الشعوب المتحضرة أراضي سيبيريا فيما وراء نهر الخانج (الكنج).

وتذكر كتب التراث بأن هناك نفرا من التجار والرحالة والجغرافيين الذين تجولوا في مناطق واسعة من القارة الآسيوية ، وأمدونا بمعلومات نظرية ، وبيانات وافية عن طبيعة تلك المناطق ومعالمها الجغرافية ومظاهرها الطبيعية ، وحياة سكانها ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وأعمالهم وأنشطتهم ، وغير ذلك من معلومات مفيدة . وكان من أهم هذه الرحلات تلك التي قام بها « سلام الترجمان » بتكليف من الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ ـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) للكشف عن أقاليم عديدة شمالي الدولة الإسلامية ، وبصفة خاصة للبحث عن يأجوج ومأجوج ، وسد ذي القرنين الوارد ذكره في القرآن الكريم . وقد تعرض هذه الرحلة بالدراسة والتحليل نفر من المستشرقين : أمثال « باير » و « اشبرنجر » و « مينورسكي » و « توماشك » و « فاسيليف » و « كراتشكوفسكي » ، كما ذكرها « بيزلي » في كتابه « فجر الجغرافية الحديثة » و « بيكر » في كتابه « تاريخ الارتياد والكشف الجغرافي » . ومن الجغرافيين العرب الذين أشاروا إليها : ابن خرداذبة ، وابن رسته ، وياقوت الحموي وغيرهم .

وعلى أي حال فإن « سلام الترجمان » غادر بغداد متجها صوب أرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا حاليا) ، وعبر القوقاز ، ووصل بحر الخزر (قزوين حاليا) ، وطاف حوله ، وزار بحيرة « بلكاش » ، وسار مع نهر الفولجا ، وكشف قسما كبيرا من جبال « أورال » وسلاسل « التاي » ، غربي منغوليا ، ثم عاد إلى العراق عبر بخاري وخراسان .

وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع الميلادي بلغ اتصال العرب بالصين أوجه ، وبخاصة عشية ثورة ٨٧٨م ، فقد قام كل من « سليمان التاجر » و « أبي زيد السيرافي » و « ابن وهب القرشي » بزيارة للصين ، وقد جاء ذكرها في كتب الأدب الجغرافي العربي ، ففي سنة ٢٣٧هـ - ٨٥١م أبحر سليمان التاجر من منطقة « سيراف » على الساحل الإيراني للخليج العربي إلى ساحل مليبار بالهند (الساحل الغربي) . فسيلان (سريلانكا حاليا) . فخليج البنغال حتى جزر « نيكوبار » . ومنها إلى « قلا » ، فمضيق ملقا ، فساحل « صابجون » (هوشي منه حاليا) . فجزيرة « هينان » حتى وصل خانفو (كانتون) .

ويبدو أن أبا زيد السيرافي قام برحلة مماثلة . ويذكر لنا سليمان التاجر وصفا للسواحل والبحار المختلفة والمدن والموانئ وسكانها ، ومحاصيل البلدان ، والسلع التجارية لتلك الجهات ، والمسالك فيما بينها ، ويطلعنا على علاقة العرب بالتجار الصينيين والأجانب على طول الخط التجاري الممتد من الخليج العربي والبصرة غربا حتى البحر الأصفر وخانفو شرقا .

ويروي أبو زيد السيرافي رحلة صديقه ابن وهب الذي يعود نسبه إلى قريش ، ووصوله إلى الصين ، وزيارته لبلاط امبراطورها ، ومثوله بين يديه ، وحواره معه عن العرب والمسلمين ونبيهم وأحوالهم قبل الإسلام وبعده ، وحواره معه عن ملوك ذلك الزمان وأممه وشعوبه . وقد سجل أبو الفداء في كتابه المسمى « تقويم البلدان » ذلك الحوار المثير بين ابن وهب وامبراطور الصين .

لقد غادر ابن وهب البصرة على إثر ثورة الزنج المشهورة في عام ٢٥٧هـ إلى سيراف ومنها إلى الصين .

وتسجل لنا هذه الرحلات معلومات كثيرة ومثيرة عن الصين والجزر الواقعة في البحار التي عبرتها تلك الرحلات ، ومن أهم هذه المعلومات ما يتعلق بوصف العادات والمعتقدات الدينية ، والحياة الاجتماعية والسياسية لأهل الهند والصين ، وملابسهم وفنونهم ، وإقبالهم على شرب الشاي ، ومنقوع الأرز ، ووصف لشجرة الشاي ، وما يفرض عليهم من ضرائب ، مثل ضريبة الرؤوس ، وشهرة بلادهم بصنع الخزف الصيني ، وعادة حرق

كل امرأة يتوفى عنها زوجها ، وتعذيبهم لأنفسهم ، ونظام الطبقات الذي يقسم المجتمع إلى منبوذين وغير منبوذين .

رحلة ابن خرداذبـة

وعلاوة على الرحالة سابقي الذكر ، فإن الجغرافي الشهير « أبا القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه » الفارسي الأصل المتوفى في عام ٣٠٠هـ - ٩١٢م كان أول جغرافي قدم للجغرافية العربية معلومات جديدة وقيمة عن مناطق واسعة في القارة الأسيوية ، وذلك بحكم عمله في البريد إبان حكم الخليفة العباسي المعتمد ، وكان والده من قبل واليا على طبرستان جنوب بحر قزوين .

ويصف لنا « ابن خرداذبة » في كتابه « المسالك والممالك » بالتفصيل الطريق البحري من عدن ، ومواني، الخليج العربي حتى البحر الأصفر بالصين ، حيث يصف ميناء « خانفو » العظيم ، وحاصلات الصين ، وأنهارها . وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن بلاد تقع خارج الصين ، مثل « كوريا » وجزر « الواق واق » التي من الجائز أن تكون هي جزر اليابان ، بينما يعتقد بعض بأنها زنجبار . وكذلك أورد معلومات مثيرة عن جزر المحيط الهندي ، مثل « سيلان » التي كانوا يسمونها « سرنديب » ، وسجل لنا ما شاهده وسمعه من الغرائب والعجائب ، مثل الأسماك الطائرة ، والحيتان التي يبلغ طولها مئات القامات ، ووحيد القرن والفيل . وتحدث عن البوذيين وعاداتهم ومعتقداتهم . وقد تخلل ذلك كثير من الخرافات التي تقلل من قيمة الكتاب .

لكن أكثر الطرق أهمية من حيث الوصف الطريق الممتد من بغداد إلى وسط آسيا ، وقد أعطانا « ابن خرداذبة » معلومات مهمة عن الأمم والشعوب الأسيوية التي تقطن تلك المناطق ، كالأتراك والتتار والمغول والقبائل التي تعيش في البلاد الممتدة بين الصين وبحر قزوين مثل القرغيز . وقال بأن هذه الجهات تشتهر بالمسك . وبذلك يكون « ابن خرداذبة » أول جغرافي في العالم كتب عن المظاهر الطبيعية والبشرية للشرق الأقصى ووسط آسيا ، فالجغرافيون اليونان والرومان لم تتعد معلوماتهم وسط آسيا حتى حدود الهند الغربية ، أي إقليم السند .

ومن الذين زودونا بمعلومات جغرافية قيمة عن وسط آسيا في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الميلاديين نذكر « الجيهاني » ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر ، وينتسب إلى « جيهان » في بلاد ماوراء النهر ، وكان وزيراً في بلاط السامانيين . ويصف « الجيهاني » بصفة خاصة سكان « هندستان » بشكل مفصل .

ومن الجغرافيين الرحالة الذين ساهموا في اتساع أفق الجغرافية العربية نذكر « الاصطخري » الذي تكلم في كتابه المشهور « المسالك والممالك » أو « كتاب الأقاليم » عن التركستان والسهوب الأوروبية . هذا وقد أمدنا معاصره « ابن حوقل » في كتابه « صورة الأرض » بمعلومات قيمة عن إقليم سمرقند ، ونهر سيحون ، والمنطقة الممتدة من جبال طوروس حتى هضبة البامير ، ويصف بإعجاب شديد إقليم « الصُغد » الذي يقع جنوب شرق بحر « آرال » وهو يستغرق - كما يقول - مسيرة ثمانية أيام ، ويتميز بحدائق وبساتين وحقول الذرة ، وأنهاره وخزاناته ونافوراته ، وقراه ومساكنه .

ولعل المسعودي كان أكثر الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن مناطق واسعة في آسيا ، وبخاصة الأراضي الممتدة من فرغانة حتى بحر قزوين وبحر آرال . وقد اعتمد في معظم كتاباته عن تلك المناطق على رحلاته ومشاهداته لمعالم تلك المناطق وأحوالها وأوضاعها .

رحلة ابن فضلان إلى روسيا

ربما كان من أهم الرحلات العربية إثارة في القارة الأسيوية تلك التي قام بها « ابن فضلان » ، وسجلها في مؤلفه الذي أطلق عليه اسم « الرسالة » . ففي عام ٣٠٩هـ - ٩٢١م أرسل الخليفة العباسي المقتدر بالله سفارة إلى الروس ، وكان يطلق عليها اسم

« البلغار » وهم يسكنون على ضفاف نهر الفولجا ، وكانوا قد دخلوا حديثاً في الإسلام ، ولذلك طلبوا من الخليفة أن يرسل لهم من يفقههم في الدين . وقد ضم الوفد « أحمد بن فضلان » الذي قام بتسجيل خط السير ابتداء ببغداد ومروراً بهمدان والري ونيسابور ومرو وبخارى ، ثم بمحاذاة نهر جيحون (أموداريا حالياً) إلى خوارزم عند بحر أرال الذي كان يطلق عليه اسم بحيرة خوارزم . ثم عبر « ابن فضلان » هضبة « اوست أورت » بين بحري قزوين وأرال حتى حوض نهر الفولجا .

وترجع أهمية رسالة ابن فضلان لأنها تعطينا أول صورة يمكن الاعتماد عليها عن روسيا في العصور الوسطى . لقد استطاع « ابن فضلان » أن يصف لنا بدقة ـ من واقع اهتمامه وإحساسه الجيد ـ الاستبس الواسعة التي قطعها أثناء الرحلة ، وقال عن سكانها بأنهم أكثر خلق الله جهلاً ، وهم على عكس جيرانهم من البلغار ، فقد ظلوا على الوثنية ، وهم سفاكون للدماء ، مولعون بالحروب ، سرعان ما تنشب بينهم الحروب والنزعات الدموية ، وتتفشى فيهم السرقة ، ويكثر القتل ، حتى أصبح عادة شائعة عندهم . وفي عرفهم أن الحكم النهائي للقوة ، فاذا احتكموا إلى ملكهم ولم يقتنعوا بحكمه يطلب منهم المبارزة بالسيوف . ومنذ ولادتهم يتدربون على القتال ، فحينما يولد الطفل يضع والده سيفاً في يده قائلاً له : هذا السيف لك ، فبه تستطيع أن تنتصر لنفسك .

ووصف ابن فضلان طقوس الوفاة عندهم ، فقال بأن الروس ـ سواء كانوا فقراء أو أغنياء ـ يحرقون موتاهم . وقد جرت العادة أن يموت الرجل بمحض إرادته حالما تموت زوجته . هذا وقد انكب بعض المستشرقين الروس على دراسة المؤلفات العربية عن البلاد التي تقع حالياً في جنوب الاتحاد السوفييتي ، وبخاصة المستشرقين « فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد » مؤلف كتاب « تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي » الذي ترجمه إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، ونشره المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت سنة ١٩٨١ .

ابن بطوطة وحديثه عن الهنود

ولعل رحلة ابن بطوطة وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي ـ نسبة إلى لواته إحدى قبائل البربر ـ (٧٠٤ ـ ٧٧٩هـ = ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧م) كانت أكثر الرحلات شمولاً ، لأنها زودتنا بمعلومات قيمة ، وبيانات غزيرة عن أقطار آسيوية كثيرة . وقد روى ابن بطوطة مشاهداته وملاحظاته وانطباعاته في كتابه المسمى « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » الذي يعرف برحلة ابن بطوطة .

بدأ ابن بطوطة رحلته قاصداً الحج ، فهو يقول : « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤م) معتمداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام » لكن ابن بطوطة ما لبث أن انساق بحبه إلى الأسفار والتجوال في أقطار العالم المعروف في أيامه ، فتجول في مصر والشام ، وشبه جزيرة العرب ، وشرق أفريقية ، وآسيا الصغرى ، والبلاد التي تسمى اليوم « جنوب الاتحاد السوفييتي » ، والهند ، والصين ، والأندلس ، والسودان . وقد استغرقت رحلات ابن بطوطة زهاء تسع وعشرين سنة . وكان أكبر رحالة عرفه التاريخ آنذاك ، حتى قيل بأنه قطع ما يزيد على مائة وخمسة وسبعين ألف ميل ، مما جعله أكبر منافس للرحالة البندقي « ماركوبولو » الذي كان معاصراً له .

وقد انكب كثير من الدارسين والباحثين في الشرق والغرب على دراسة رحلات ابن بطوطة لما حوته من معلومات وبيانات قيمة ، وحقائق جغرافية مهمة عن سكان الأقطار التي زارها ، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، ونظم الحكم عندهم . لقد وصف ابن بطوطة سكان الهند والصين وشعوب وسط آسيا وجزر المحيط الهندي . وكان أميناً في سرد أقواله ، وقد تميزت رواياته بالطرافة ، وبخاصة حينما يصف أخلاق الشعوب وعاداتها وتقاليدها الغريبة ، مثل عادة إقدام المرأة في الهند على حرق نفسها اذا مات زوجها . وفي ذلك يقول :

« ولما تعاهدت النسوة الثلاث [ممن فقدن أزواجهن] على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، وتأتي إليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيت كل واحدة منهن بفرس ،

فركبته وهي متزينة متعطرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ! وتضحك لهم ».

ويصف ابن بطوطة بعد ذلك عملية الإحراق فيقول :

« . . . وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب ، وفي كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تخللها الشمس ، فكان ذلك الموضع بقعة من جهنم أعاذنا الله منها . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلي ، فتصدقن به ، وأُتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصب عليها زيت الجلجلان [حب السمسم] فزاد في اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر إليها . فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم : أبالنار تخوفونني ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضُربت الأطبال والأنفار والأبواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخُشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج ».

بعض أحوال أهل الصين

وقد حرص ابن بطوطة على وصف أهل البلاد التي زارها . نقتطف هنا شيئاً من وصفه لأهل الصين ، ليقف القارىء الكريم على أسلوبه ومنهجه :

« وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تتري من ذرية تنكيز خان . وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون ،

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها في أسواقهم ، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس .

وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة ، وعليه جبة قطن خشنة .

وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ، ويقولون هو الرِّجل الثالثة . والحرير عندهم كثير جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منه ، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة ، ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير .

وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار مما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ، ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتماً ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه السَّتي ، وهو بمعنى المكارمي بمصر ، ويسمون القطعة الواحدة منها بَرْكالة » . □

حكايات من دفتر الوطن

مصرع مأمور البداري

بقلم : صلاح عيسى*

« في تاريخ كل وطن . . وفي ثنايا دفاتره . . توجد قصص وحكايات أبطالها مغمورون لم يسمع بهم أحد . . أو أسقط الاعلام أسماءهم من ذاكرة شعوبهم عن عمد . . فليس مطلوبا أن يحفظ الناس قصص أناس عاديين مثلهم لايتمتعون بأي فوارق أو معجزات ولكنهم وقفوا ضد الظلم والقهر والقمع . . في دفاتر الوطن أحداث يومية انتصر فيها افراد من عامة الشعب للحق والكرامة والكبرياء . . وهذه صفحة من دفاتر الوطن . . واقعة من تاريخ مصر الحديث . . وعلى الرغم من ان وقائعها ملأت الدنيا ، الا أن المؤرخين والاعلاميين أغفلوا ذكرها كثيرا . على الرغم من أن ذيولها ووقائعها تفوق كل ما يتصور الخيال » .

لم يكن الشيخ « جعيدى حسين عبدالحق » يتخيل حين رزق بأكبر أبنائه ، « أحمد » ـ في عام ١٩٠٨ ـ أن يوما سوف يأتي ، تتشبك فيه خيوط هذا الابن ، بخيوط « اسماعيل صدقي باشا » ـ رئيس وزراء مصر ووزير الداخلية ورئيس « حزب الشعب » ـ وتتداخل قصته البسيطة مع الرواية الضخمة التي كان الباشا الديكتاتور يمثلها على مسرح السياسة المصرية ، والعالمية !

أسباب كثيرة كانت تحول دون هذا الاشتباك بين الرجلين ، ليس التفاوت الطبقي الشاسع سوى واحد منها ، لكنه أساس معظمها . فقد سبق « اسماعيل صدقي » « أحمد جعيدى » في الوجود ، بأكثر من ثلاثين عاما ، وكان الأول قد ولد عام ١٨٧٥ في الاسكندرية ، وهي مدينة ـ كانت آنذاك ـ نصف أوروبية

* كاتب وصحافي من القطر المصري

معمارا وسكانا وسلوكا اجتماعيا ، وولد الثاني في « البداري » إحدى المدن الصغيرة التابعة لمحافظة اسيوط في منتصف الجنوب ، حيث الحياة أكثر جهامة ، وأصعب بما لايقاس ، فشتان بين الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط ، وتلك المدينة الصغيرة التي كانت قريتين كبيرتين ، تلاحمت حدودهما ، فأصبحتا مشروع مدينة .

كان محتما إذن على كل من الرجلين بحكم المنشأ أن يختط طريقاً موازيا لطريق الآخر في الحياة ، وألا يصطدم أحدهما بالآخر ، فبعكس أسرة « جعيدى » التي لم يسبق لأحد منها أن اقترب من السادة ، أو احتك بهم كانت أسرة « اسماعيل صدقى » تحتفظ بذكريات عن علاقات الود التي جمعتها بعدد من ولاة الأسرة العلوية التي تتوارث عرش مصر .. فقد كان والده « احمد شكرى باشا » من كبار رجال الحكومة في عهد « الخديوى اسماعيل » وابنه « الخديوى توفيق » .. وكانت والدته « فاطمة هانم » ، كريمة « محمد سيد احمد باشا » رئيس ديوان الأمير « محمد سعيد باشا » - ابن الأمير محمد على الكبير - وثالث ولاة الأسرة العلوية - وحين ارسل الأمير أول بعثة تعليمية الى فرنسا للتخصص في العلوم السياسية ، كان طبيعيا أن تضم زوج ابنة رئيس ديوانه الذي عاد من البعثة ، ليتقلب في وظائف الحكومة ، حتى شغل منصب وكيل وزارة الداخلية في السنوات العشر الأخيرة من عمره ، قبل أن تدركه الوفاة في عام ١٨٩٥ ..

وكان منطقيا أن يجد « اسماعيل صدقى » الفرصة ميسرة ليتعلم ويترقى فالتحق بالمدارس الفرنسية بمصر وانتقل منها وهو في سن مبكرة للالتحاق « بمدرسة الحقوق » - معمل تفريخ الوزراء ورجال الادارة في ذلك العهد - وما أن انهى دراسته العالية ، حتى بدأ رحلة سريعة للصعود إلى المناصب العليا ، وقد بدأها وكيلا للنائب العام ، ثم عمل مدة عشر سنوات متواصلة سكرتيراً إداريا لمجلس بلدية الاسكندرية ، ورئيسا لقسم القضايا بها !

الصعود

وفي العام الذي رزق فيه الشيخ « جعيدى عبدالحق » بابنه « احمد » - ١٩٠٨ - كان « اسماعيل صدقى » في الثالثة والثلاثين من عمره . وكانت اقدامه قد رسخت في الطريق الى القمة ، فأصبح - وهو ما زال في مقتبل رجولته - سكرتيرا عاما لوزارة الداخلية : أهم الوزارات المصرية ، ثم قفز في عام ١٩١٤ فأصبح وزيرا للزراعة ، ثم للاوقاف . وفي ٢٠ مايو عام ١٩١٥ تخلى عن الحقائب الوزارية ، عقب فضيحة اخلاقية ، مع ابنة أحد زملائه الوزراء ، كان لها دوى أي دوى في ظلام الحرب الاولى !

وانتهت الحرب ، فظهر « اسماعيل صدقى » على خريطة « الوفد المصرى » الذي شكل آنذاك ليطالب باستقلال مصر ، ثمنا لما قدمته للحلفاء في الحرب من معونة وتأييد ، وكانت البداية مذكرة عن ديون مصر ، كلفه « الوفد » بكتابتها ، كواحد من المشتغلين بشئون المال والاقتصاد ثم اقترح بعض اعضاء « الوفد » ضمه الى عضويته ، فعارض « سعد زغلول » ، وقال إن وضع « اسماعيل صدقى » في القيادة يعطى مثلا سيئا للناس ، لانه خرج من الوزارة بفضيحة اخلاقية مدوية ، ثم اضطر « سعد زغلول » للخضوع لرأى زملائه ، فانضم « صدقي » الى « الوفد » ، وكان أحد الباشوات الأربعة الذين نفوا الى مالطة - بين ٨ مارس (آذار) و٧ ابريل (نيسان) ١٩١٩ - سافروا بعدها الى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح .. وهناك كشف عن نوعه ، فهو - كما يقول في مذكراته - لا يميل الى تحكيم العواطف ، ولا يثق كثيرا بما يسمى بالشعب ، لذلك كان من أوائل الذين دعوا الى التعامل مع الأمر الواقع . وبمجرد أن اعترف مؤتمر الصلح - في معاهدات فرساى - بالحماية البريطانية على مصر ، طالب « اسماعيل صدقي » بأن يتجه « الوفد » للتفاهم مع انجلترا . وأن يقبل التفاوض مع « لجنة ملنر » ، وهى لجنة تحقيق كانت بريطانيا قد اعلنت عن تشكيلها للاستماع إلى أسباب شكاوى المصريين التي ادت الى ثورتهم ، ولوضع نظام للحكم الذاتى في اطار استمرار الحماية البريطانية على مصر . وفي ٢٤ يوليو ١٩١٩ فصله « الوفد » هو زميله « محمود ابو النصر » ، فعاد الى مصر ، وخفتت الأضواء التي لمعت حوله كواحد من قادة الحركة الوطنية ، وانضم الى جناح « المعتدلين » من ساسة ذلك الزمان ، وفي عام ١٩٢٢ نجح مع زميله « عبدالخالق ثروت » في استصدار تصريح ٢٨ فبراير الذي ألغى الحماية البريطانية ، ومنح مصر استقلالا ذاتيا مقيدا بعدم التصرف بعيدا عن بريطانيا في أربع مسائل أساسية هي السودان والديون ، والامتيازات الاجنبية ، وحقوق الأقليات .

وهكذا غرس « اسماعيل صدقى » نفسه على خريطة

السياسة المصرية ، كواحد من المتساهلين الذين يرون التشدد في الوطنية مغالاة لتلك الحشود الكبيرة من « الغوغاء » التي لم يكن ـ بحكم تربيته في وسط ارستقراطي شبه أجنبي ـ يكن لها كبير احترام ، فهي تتحرك ـ في رأيه ـ بغرائزها لا بعقلها ، وبعواطفها وليس بمنطقها .

باشا تحت الطلب

وفي عام ١٩٢٥ أثبت « اسماعيل صدقي » انه سياسي موهوب في بعض المهام ، فهو قادر على البطش بخصومه ، وعلى اسكاتهم ، يملك جلدا على المقاومة ، ولا يستنكف في صراعه السياسي من شيء ، فحين قضت الظروف السياسية التي اعقبت مقتل « السير لي ستاك » ـ سردار الجيش المصري وحاكم السودان ـ بإقالة الوزارة الدستورية الأولى التي كان يرأسها « سعد زغلول » وحل مجلس النواب الأول ـ وكانت أغلبيته وفدية ـ وتطلب الانقلاب الدستوري الذي تلا ذلك ، وزيرا للداخلية ، يستطيع شل مقاومة « الوفد » ، وسيطرته المطلقة على الشارع المصري ، وقادر ـ وهو الأهم ـ على اجراء انتخابات مضمون سلفا أنها لن تعيد « سعد زغلول » وانصاره من الافندية المتشددين الغوغائيين إلى الحكم ، حتى يستريح الانجليز ، ويستريح القصر من شغبه وتشدده ، هنالك تقدم « اسماعيل صدقي باشا » ليبرز مواهبه الممتازة فاستخدم كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة ، ووضع كل الخطط التي استخدمت فيما بعد لتقنين عملية تزوير أي انتخابات ، فتلاعب في القوانين ، وأمر بتزوير كشوف الناخبين ، ومحاولة شراء ضمائر انصار « سعد زغلول » بالمال ورسم خريطة لتوزيع قوات الأمن حول لجان الانتخابات التي تضم أنصارا له ، طبقا لعدد هؤلاء الانصار . كانت المعركة صراعا بين مكر « اسماعيل صدقي » ودهائه السياسي ، ومكر هذه الجموع من الدهماء والصعاليك الذين يسمون بالشعب .

وانتهت المعركة بهزيمة « صدقي » هزيمة منكرة : تظاهر كثيرون من انصار « سعد زغلول » انهم يؤيدون الحكومة ، فانضموا الى حزبها ، واستفادوا من امكانياتها ، وحين فازوا بمقاعد مجلس النواب ، كشفوا عن وجههم الحقيقي ، وانتخبوا « سعد زغلول » رئيسا لمجلسهم ، واسقطوا مرشح الحكومة ، وهكذا خدع الدهماء « صدقي » للمرة الثانية فكشف عن وجهه « الديمقراطي » بلا حياء وعلى الرغم من أن الدستور يحظر حل مجلس النواب لنفس السبب مرتين ، فقد استصدر قرارا بحل المجلس الجديد وشارك في الحكم بلا برلمان ، سواء كان مزورا أو غير مزور ، واستبدل البرلمان بمواكب من المؤيدين ، كان يأمر حكام الأقاليم ، ومديري الأمن بحشدهم في الشوارع ، أو في الطرق العمومية ، ليهتفوا للحكومة ، ويعلنوا تأييدهم لها . وهي مواكب كانت تضم عادة فريقاً من المتشردين ، والمسجونين ، والخفراء ، ومن اكرههم رجال الشرطة بالوعيد أو بالاغراء ، على الخروج والهتاف .

كان « اسماعيل صدقي » قد انتهى الى أن الديمقراطية ، هي مجرد تمثيلية ، وأن الشعب هو زحام من العقول الفارغة التي تتميز بالغباء ، وأن يداً باطشة كفيلة بأن تحركه حيث تريد ، وأن توقفه عند الحد الذي تريد ، وفي صيف ذلك العام ، وضع « اسماعيل صدقي » بصمته الثانية الكبيرة على طابع السلطة في مصر ، حين أعاد إحياء احد اساليب الحكم التي كانت شائعة في العصور الوسطى ، والتي طبقها المحتلون في محاولتهم لاخماد الثورة ، وهو « العقوبات الجماعية » . .

قص شوارب الرجال

ففي قرية « إخطاب » ـ احدى قرى وسط الدلتا ـ طبق الملازم « احمد فريد التهامي » ـ ملاحظ نقطة الشرطة ـ التعليمات التي أصدرها وزير الداخلية « صدقي باشا » ، فطلب من أهالي القرية أن يحتشدوا جميعا ، لتحية فريق من وزراء العهد ، كانوا سيمرون بظاهر القرية ، في طريقهم الى عاصمة الاقليم لافتتاح بعض المشروعات . . وكانت « إخطاب » وما يجاورها من القرى ، من مناطق نفوذ « محمود الاتربي باشا » أحد انصار « سعد زغلول » وكان إكراههم على الخروج لتحية وزراء الانقلاب ، ورفع لافتات تحمل عبارة تعيش ((وزارة جلالة الملك)) ، هو نوع من الاذلال المقصود ، تعمده ملاحظ النقطة ، فأشرف بنفسه على التنبيه على أهالي القرية بالخروج لتحية الحكومة !

وخرج أهالي « إخطاب » الى الطريق الزراعي بلافتاتهم وحميرهم . ووقفوا ينتظرون مرور موكب الوزراء ، وقبل دقائق من مروره ، علق الأهالي اللافتات على حميرهم ، ثم بدأوا يتسربون بخفة الى الحقول المحيطة بالطريق الزراعي ، وعبر الموكب . ودهش الوزراء ،

● صورة من الزمن السعيد تجمع بين سعد زغلول واسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل .. الباشاوات الأربع الذين نفوا إلى مالطة في مارس ١٩١٩ .

حين لم يجدوا بشراً يستقبلونهم ، بل وجدوا صفا من « الحمير » يحمل كل منها لافتة تقول « تعيش حكومة جلالة الملك » .. بينما كانت ضحكات مكتومة تتصاعد من أهالى « إخطاب » المختفين في الحقول !

واستشاط « صدقى » غضبا .. وأمر بتأديب القرية الشاقية وإلا تمرد الفلاحون ورفضوا الاشتراك في مواكب التأييد المرتبة ، فقاد ملاحظ الشرطة « أحمد فريد التهامى » حملة تأديبية من ٢٠ جنديا مسلحا ، أمرت بفرض حظر التجول على القرية ، وضرب كل من يغادر منزله واعتقاله ، وتعرض ٣٠٠ من الفلاحين لضرب مبرح ، أثبتَ الطب الشرعى - فيما بعد - آثاره على أجساد مائة منهم .. وجمع ملاحظ الشرطة عشرات الرجال وأمر جنوده بأن يقُصّوا شواربهم بمقصات الحمير على مشهد من نسائهم ، وأجبر كل منهم تحت الضرب بالسياط على أن يختار لنفسه اسم امرأة ، ثم يجيب النداء حين ينادى بهذا الاسم على مسمع من الناس .. وأكرههم على أن يمرغوا أنفسهم في الوحل . ومنع أذان الفجر حتى لا يكون ذلك دعوة لكسر قرار حظر التجول . وامتد « العقاب الجماعى » من « اخطاب » إلى قرى تجاورها من مناطق نفوذ « محمود الأتربي باشا » .

وأثارت العودة الى هذه الطريقة من طرق ممارسة السلطة ثائرة الجميع ، فقد كانت مصر - من الناحية الشكلية المحضة - بلدا دستوريا ، ينص دستوره على أنه لا عقوبة دون قانون ، ويشدد على أن « العقوبة شخصية » لا تتعدى شخص من يرتكب الجريمة إلى أقربائه أو أهل قريته ، أو حتى المنتمين لطائفته أو جماعته السياسية .

وهكذا فشل « صدقى » في أن يتكتم على الفضيحة ، أو يحول دون محاكمة « احمد فريد التهامى » ، فعاقبته محكمة جنايات المنصورة بالسجن مع الاشغال الشاقة مدة خمس سنوات . وقضت على آخرين من رجال الشرطة بعقوبات أخف . وقالت في حيثيات حكمها الذى صدر في ١٥ يناير ١٩٣٠ - اي بعد خمس سنوات من وقوع الحادث : إن « صدقى » قد استخدم السلطة التنفيذية آلة عذاب وانتقام وإكراه وتعذيب ، واستعرض الحكم القضائى آثار ذلك ، فقال « إنه متى انتهكت الحرمات على هذه الصورة ، لم يَقُم للنظام في أمة قائمة .. وأن في هذه الاعمال الشنعاء احتقار للشعب بتمامه وتعويد للناس على الاستخفاف بسلطة القانون » .

تمرد الفتى أحمد

وربما في تلك السنة نفسها التي فشل فيها « صدقي » في تزوير الانتخابات ، وانتقل الى الحكم بالتعذيب والعقوبات الجماعية .. بدا للشيخ « جعيدي حسين » أن حياة ابنه « أحمد » الدراسية لا تعدُ بمستقبل مشرق ، فقد أثبت الفتى المولود في « البداري » تمرده على قيود الدراسة ، وكشف عن أنه شغوف بالحياة لا بالكتب ..

وكان أبوه قد اختار له « مدرسة الفنون والصنائع » في أسيوط ، ولم يكن هدفه الوحيد من ذلك أن يجد ابنه عملا أرقى من الفلاحة ، بل كان يطمح لأن يكون أحد أبنائه « افنديا » من المتعلمين .. وكان للتعليم - آنذاك - بريق يخطف عيون كثيرين من أعيان الريف ، ويدعم مكانتهم ، ويعلو بثرائهم .. ويضيف الى جاههم .. ومع أن « الفنون والصنائع » كانت مدرسة متوسطة تخرج عمالا مهرة .. الا أن الفلاحين كانوا يمنحون خريجيها لقب « المهندس » .. على سبيل الجهل .. والكرم . لكن أكبر الأبناء خيب آماله .. وبدأ يتعثر في دراسته .. ثم ما لبث أن غادر المدرسة دون أن يفوز بشهادتها أو حتى علومها .. ليجد نفسه يعيش في « البداري » كمن رقص على السلم .. ذلك أنه لم يعد طالبا .. ولم يصبح أفنديا أو موظفا ، كما أنه لم يتعلم أن يكون فلاحا .

ولم تكن « البداري » هي أكثر قرى المركز التي تحمل اسمه أهلية لأن تشغل مكانة المركز - أو العاصمة - اذ لم تكن أكثرها تقدما أو حضارة ، أو اتصالا بما يتبعها من قرى ، ولم يكن مستواها يختلف كثيرا عن مستوى القرى التابعة لها .. فالبندر وقراه ، هو أحد مراكز « محافظة أسيوط » الواقعة شرق النيل ، حيث يسود الفقر والجدب والتخلف ، بعكس المراكز الواقعة غرب النيل التي كانت في وضع اقتصادي واجتماعي افضل نسبيا ، حيث توجد الطرق ومزارع قصب السكر ومصانعه ، لذلك كانت « البداري » ، بندرا بلا خدمات ، ومدينة بلا مرافق ، فلا منازل للسكنى بالايجار ، ولا مطاعم ولا فنادق .

وكانت سنوات الدراسة في « أسيوط » ، قد كشفت أمام « أحمد جعيدي » عالماً من المباهج المحرمة التي تعود عليها فأحبها .. فبدت « البداري » - حين عاد ليقيم فيها - سجنا لا يعد بتسلية ، ولا يرفه عن نفس ، ولا تجد فيه صاحباً يغري بالصداقة ، بين هؤلاء الفلاحين الذين لم يعودوا انداداً له .. فاتخذ من زميل له في مثل ظروفه هو « حسن عاشور » صاحبا وصديقا ورفيقا في جولات التسكع ، ومغامرات الليل ، وعاشا في القرية نموذجا لعاطلين ليسا في حاجة ملحة الى العمل ، يمارسان ألوانا من « الشقاوة » ، لم تكن جميعها محظورة قانونا أو عرفا ، لكنها يمكن أن توقعه تحت طائلة القانون في أي ظرف !

واحد من تلك القوانين التي كان يمكن أن تطول شقاوة « أحمد جعيدي » ، هو قانون « المشبوهين والمتشردين » ، وهو قانون يجيز للسلطة الادارية - اي الشرطة - أن تضع الذين لا عمل معروف لهم ، ولا مورد رزق محدد ، تحت رقابتها فيكون من حق الشرطة أن تأمرهم بالمبيت في دورها ، من مغرب الشمس إلى مشرقها ، واحتجازهم كاجراء وقائي .

وبالقطع فان « أحمد جعيدي » الذي كان قد هجر المدرسة ليمارس البطالة لم يهتم بهذا القانون حين صدر ، ولم يهتم بقانون آخر ، اصدره بلديانه وسيد « البداري » وما يحيط بها ، « محمد محمود باشا » عام ١٩٢٩ ، هو قانون « حماية الموظفين » الذي يمنع رفع دعاوى الجنح على المو[illegible] رجال الضبط إلا عن طريق النيابة العمومية ، وهو قانون صدر ليطمئن الذين يتجاوزون اختصاصاتهم القانونية من الموظفين ، بأنهم لن يحاكموا دون إذن رؤسائهم ، بعد أن سلب من المواطنين حق اللجوء الى القضاء مباشرة لاختصام هؤلاء الموظفين ..

ولم يكن للبداري اهتمام كبير بالسياسة وشئونها وأحوالها ، وكانت أوضاعها الخاصة قد اقتضت أن تتوزع السلطة المحلية فيها بين الحزبين الكبيرين اللذين كانا يتداولان السلطة آنذاك ، فاصبح لها عمدتان .. أحدهما يمثل « الأحرار الدستوريين » وينتمي لعائلة « همام » ، والآخر يمثل « الوفديين » وينتمي لعائلة « نصار » .. ومع ذلك فقد كانت بعيدة الى حد ما ، عن الصراع الحزبي الذي كان مضطرما في تلك السنوات ، بين « حزب الوفد » - صاحب الأغلبية الشعبية - وبين عدد من أحزاب الأقليات السياسية على صلة وثيقة بدار المندوب السامي البريطاني ، أو بالقصر الملكي ، أو بالاثنين ، تبذل جهدها لاقصاء « الوفد » عن الساحة السياسية . كان الارتباط بين القضية الديمقراطية .. أي حق الأمة في أن تحكم نفسها بنفسها ، وبين القضية الوطنية ، أي تحرير إرادتها من كل تدخل أجنبي ، قد وصل إلى مداه .. وخلال السنوات العشر التي تلت إصدار دستور ١٩٢٣ أدرك

المحللون أن الانتخابات الحرة تأتي إلى الحكم بحكومات متشددة مع الاحتلال ، ترفض تسليم البضاعة ، وتصر على ما كانت تسميه « الاستقلال التام » ، فقرروا مساندة كل انقلاب دستوري ، يبعد هؤلاء المتطرفين عن مقاعد الوزراء والنواب !

ثلاثون شهراً من القهر

ذلك صراع لم يكن فيه « أحمد جعيدي » متحازا ، ولم يكن مستقلا ، فقد كان يجهله جملة وتفصيلا ، لكن « اسماعيل صدقي » كان يعرفه جيدا ، ومع أنه كان يقف موضعيا حيث تقف أحزاب الاقلية المكروهة من الشعب ، فقد اختار أن يظل مستقلا عن الاحزاب ، ربما لانه كان شديد الثقة في مواهبه ، والاغترار بقوته وذكائه ، مما جعله لا يقبل أن يكون فردا في جماعة ، ولعله ـ وهذا هو الأرجح ـ رأى أن المعركة مستعرة ، وأن احتمال الخسارة فيها وارد ، فآثر أن يكون « ورقة اللعب » التي تصلح لكي تحل محل كل ورقة اخرى !

وهكذا جاءته الفرصة التي كان ينتظرها : ضاق الانجليز بوزارة « مصطفى النحاس » الثالثة ، لانه رفض توقيع مشروع المعاهدة التي كان قد توصل اليها خلال مفاوضاته مع وزير خارجيتهم « هندرسن » ، بسبب تشدده في موضوع السودان ، وتوقع « الأحرار الدستوريون »، كما يقول د . هيكل في مذكراته : ان ترحل الوزارة ، شأنها شأن كل وزارة تتولى المفاوضة ولا تصل فيها الى نتيجة . فبدأوا يدسون لها الدسائس ، وبدأ رجال القصر يعطلون توقيع المراسيم التي ترفعها للتوقيع ، وانتهى الأمر بأن أجبرت الوزارة على الاستقالة . . . لكن الثمرة لم تقع في يد « الاحرار الدستوريين » . . كان الذين يلعبون بخيوط السياسة المصرية ، قد قرروا المراهنة هذه المرة ، على « ورقة اللعب » التي لم تجرب بعد . المجازف الجسور ، والقوى القادر على ادخال الغوغاء الى الشقوق : « اسماعيل صدقي » !

حتى أول ديسمبر (كانون الاول) ١٩٣٢ ، كان « اسماعيل صدقي باشا » قد بلغ ذروة النجاح !

ثلاثون شهرا توشك أن تنقضي على النظام الذي أنشأه ، فوق أنقاض دستور ١٩٢٣ ، وأسس به دستورا جديدا ، واصطنع له حزبا حصل ـ بالتزوير ـ على اغلبية في البرلمان ، وصحيفة يومية تنطق باسمه ، وتحمل ـ أيضا ـ اسمه ، ومجلس وزراء يرأسه هو لأنه زعيم لحزب الاغلبية البرلمانية : « حزب الشعب » . .

وليس مهما ـ في موازين النجاح كما كان يراها « اسماعيل صدقي » ـ أن المصريين قد تدافعوا جميعا يتصدون لنظامه منذ اللحظة الاولى ، ويقاومونه

● اسماعيل صدقي باشا .

● الشاعر حافظ ابراهيم .

بالتظاهرات الطلابية والعمالية ، وبمشاغبات الفلاحين ومقالات الصحف وسخريات الشعراء وائتلاف الاحزاب المعارضة ، وحتى بالقنابل والرصاص ، فالرجل لم يكن ممن يعنيهم رضاء الناس عنهم ، فايمانه الثابت الذي لم تزعزعه الحوادث ، أن الشعب طفل قاصر جاهل ، تجمعه زلّة ، وتفرقه عصا ، فهو ـ عنده ـ ليس أكثر من زحام من الغوغاء يحركه مهيِّجون محترفون ، إذا تصدى لهم بعصا السلطة الغليظة ، وأرهبهم بسياطها وحشودها ، تمشي على رأس الأفعى فسكن جسدها ، واستنامت لما يريده لها من صلاح الأحوال واستقامة الامور .

ألا يحق له أن يشعر بالفخر والرضى ، بعد أن نجح اخيرا في البرهنة على صحة نظريته عن الشعب ، فقد خمدت المقاومة أو كادت . . دون أن تتطلب سوى بعض الاجراءات « العنيفة » ، وكان أهونها فرض الغرامات الباهظة على عمد ـ مختاري ـ القرى اللذين استقالوا من مناصبهم جماعة إثر جماعة ، احتجاجا على الغاء دستور ١٩٢٣ ، واصدار دستور جديد يعلي سلطة الحكومة على سلطة الامة ، حتى اضطر كثيرون منهم لرهن أو بيع ممتلكاتهم ليسددوا الغرامة ، وكف الباقون عن الشغب وعن الاستقالات السببية .

أما الصحف المشاغبة التي اطلقت على دستور « صدقي » وصف دستور الحكومة ، وتمسكت بوصف دستور ١٩٢٣ ـ الذي الغاه ـ بانه « دستور الامة » وروجت للمصطلحين حتى اصبحا على كل لسان في مصر ، فقد عطلها وسحب رخص اصدارها ، وتعقب كل صحيفة أخرى تتخذها ستارا للتحايل على قرار التعطيل ، فسحب رخصها هي أيضا !

ودعا عليك الله

ثلاثون شهرا ونظام « صدقي » باق رغم المقاومة ، مستمر على الرغم من محاولات اغتيال صاحبه ومؤسسه : بلطة حادة مرة ، ومسدس سريع الطلقات مرتين ، وبقنابل وضعت مرة في فناء داره ، واستهدفت نسف القطار الذي يستقله مرة أخرى ، فضلا عن الرصاص الذي أطلق على « محمد توفيق رفعت » ـ رئيس مجلس النواب ـ والقنابل التي ألقيت على الكثير من دور الحكومة ، والمقرات التابعة لدار المندوب السامي البريطاني ، وعلى دار « محمد علام باشا » ، وكيل مجلس النواب ، ووكيل حزب الشعب الحاكم ، والرجل الثاني في الحزب والحكومة بعد صدقي . .

ثلاثون شهرا و « صدقي » يرزح على قلب مصر ، على الرغم من مقاومة المقاومين ، ودعاء الداعين ، وأهاجي الشعراء والمتكلمين :

استقبل شاعر النيل « حافظ ابراهيم » ذلك العام ـ ١٩٣٢ ـ بميمية في هجاء « صدقي » ، كانت من أواخر قصائده ، لذلك ضاعت ، ولم يبق منها سوى ابيات قليلة منها :

قد مرَّ عام يا سعاد وعام
وابن الكنانة . . في حماه يضام
صبّوا البلاء على العباد فنصفهم
يجبي البلاد . . ونصفهم حُكّام
اشكوا الى قصر الدوبارة ما جنى
« صدقي » الوزير . . وما جنى « علاّم »

وبقي منها ـ ايضا ـ قوله مخاطبا « صدقي باشا » :

ودعا عليك الله في محرابه
الشيخ والقسيس والحاخام
لاهم احيي ضميره ليذوقها
غصصا وتنسف نفسه الآلام

وحين كان الناس يتبادلون سراً نسخ قصيدة « حافظ ابراهيم » ، والشاعر الكبير يخشى أن يصل نبأ القصيدة الى الطاغية ، ليفصله من عمله في « دار الكتب » ، لم يكن يتوقع أن ينهار « صدقي » قبل نهاية العام نفسه ، ولم يتح له أن يعيش ليرى انهياره ، فقد رحل الشاعر الكبير بعد دعائه على « صدقي » بشهور قليلة !

كيف ينهار نظام لا يسنده القصر الملكي فحسب ، بل ويتغاضى المندوب السامي البريطاني في مصر ، « السير برسي لورين » عن التدخل في شأنه ، معلنا أنه من أمور السياسة الداخلية المصرية التي تحرص بريطانيا العظمى على عدم التدخل فيها ، صونا لاستقلال مصر ، طالما أنها لا تمس أحد التحفظات الأربع التي وردت في تصريح ٢٨ فبراير (شباط) من عام ١٩٢٢ . ولأن المندوب السامي البريطاني ـ أيا كان اسمه ـ لم يتعفف يوما عن التدخل في شئون مصر الداخلية بصرف النظر عن استقلال تصريح فبراير ، فإن هذا الحياد الظاهري المزيف كان مظهراً لتأييد باطني ودعم غير منكور ، تقدمه الحكومة البريطانية لصدقي ودستوره ونظامه ، آملة أن يصمد ويقوى ، ليستتب النظام في مصر ، ويتمدد شبح المتهورين من الوفديين ، ويختفي في الشقوق شرور البغضاء ضد

● السيد برسي لورين المندوب السامي البريطاني ١٩٣٢ م .

انجلترا ، ليتقدم الحكماء والعقلاء ـ بقيادة « صدقي » ـ ويصل البُلدان إلى تسوية للمشاكل بينهما . . وكان الرضا البريطاني على « صدقي » قد صعد إلى ذروته في خريف عام ١٩٣٢ . . بعد أن التقى في « جنيف » مع وزير الخارجية البريطاني السير « جون سيمون » الذي أعرب لصدقي عن سروره بالتعرف عليه ، وألمح إلى أن تقارير « السير برسي لورين » ، تمدح في صفاته كرجل اداري صاحب الفضل في توطيد النظام في مصر واضاف :

ـ إن بريطانيا تعرف الآن الرجل الذي تتعامل معه . . ويسرها أن ترى امضاءكم على اتفاقية تنهي المشاكل بين البلدين !

في تلك الشهور من صيف وخريف ١٩٣٢ كان « صدقي » قد وصل إلى ذروة المجد ، وكان « احمد جميدي عبدالحق » يرتدي بدلة الاعدام الحمراء ، ويعيش في زنزانة منفردة بسجن اسيوط في انتظار بت محكمة النقض في الطعن الذي قدمه محاموه ضد الحكم . . ولم يكن كبير الامل في أنه سيغير من وضعه !

أما صدقي ، فان الظروف الحزبية كانت تتهيأ لمصلحته . . فقد سرب المندوب السامي البريطاني خبراً لأحزاب المعارضة ، بأن حكومته مستعدة للتفاوض مع حكومة مصرية قومية تضم كل الأحزاب ، على أن تتم المفاوضة على الأسس التي انتهت اليها مفاوضات « النحاس/ هندرسن » ، وأنها سوف تشير في هذه الحالة على الملك بأن يعيد دستور ١٩٢٣ . . ومع أن المشروع في البدايةقد أزعج « صدقي باشا » إلاّ أن الفكرة سرعان ما أثارت خلافا بين المتحالفين على معارضته ، فقبلها « الأحرار الدستوريون » ،وثمانية من قادة « الوفد » ، بينما رفضها « النحاس » ، وانتهى الخلاف بفصل المعارضين الثمانية ، وبانشقاق في صفوف « الوفد » . . وفي جبهة المعارضة ضد « صدقي » !

كان « صدقي » قد وصل إلى قمة المجد . .

وكان قضاؤه « احمد جميدي عبدالحق » الذي يجد في أثره « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

طغاة بلا قلب

كانت « البداري » قد أصبحت منفى لأسوأ الموظفين في الجهاز الحكومي ، هؤلاء الذين يريد رؤساؤهم فصلهم أو نفيهم أو تأديبهم ، فيصدّرونهم إليها ليتحالفوا مع الفقر والجدب والظلام على تحويل حياة أهلها إلى جحيم ، وينفّسوا مشاعر الغيظ والقهر وعقد السلطة في أبدانهم النحيلة ، المكشوفة دون دفاع !

ولم يكن اليكباشي « يوسف الشافعي » ـ مأمور « البداري » ـ يختلف عن كثيرين من زملائه ضباط الشرطة الذين يتولون مثل منصبه ، ويتوزعون على خريطة مصر في تلك السنوات . . كان ـ كمعظمهم ـ يملك احساسا عاليا بالتفوق والتعالي ـ وربما الازدراء ـ على هؤلاء الفلاحين الذين كان يحكمهم ، ويتصرف ـ دون حساب ـ في القسم الأكبر من شئون حياتهم . . إنه لم يكن ـ فحسب ـ ابنا للزيجة القرنسية لأحد أعيان الدقهلية ، بل كان ايضا ضابطا كبيرا في جهاز الشرطة الذي يسود أفراده ، إحساس بأنهم السلطة الثابتة والدائمة في الوطن . . فالوزراء يأتون ويذهبون . . والأحزاب تحكم ثم تقال حكوماتها أو تستقيل . . والمحافظون ومن في حُكمهم من المديرين في الاقاليم ـ يغيرون ويتبدلون . . أما الثابت والدائم ، بعد ـ أو مع ـ الملك ، فهم تلك الشبكة من مأموري الشرطة وضباطها التي تنتشر

كخيوط العنكبوت فوق خريطة الوطن .

كانت سلطة « مأمور البداري » تتجاوز نطاق « بندره » ـ أي مدينة « البداري » ، لتشمل أيضا نطاق « مركز البداري » ، أي القرى التابعة له . . ولم تكن هذه السلطة قاصرة على حفظ النظام والأمن ، وصيانة الضبط والربط ، وغيرها من الأعمال الشرطية المحضة ، كمطاردة اللصوص والقتلة وتجار المخدرات ، والتفتيش على السلاح غير المرخص ، والبحث عن الغائبين والهاربين من تنفيذ الأحكام القضائية ، بل كانت تمتد بلا انتهاء ـ لتجعل من « مأمورية الشرطة » ، حكومة مستقلة أو شبه مستقلة ، تنوب عن كل الوزارات في الاشراف على أداء مهامها في هذا المكان النائي من الصعيد .

وكان العهد قد طبع الكل بطابعه ، فأعطى الاذن لحكام الاقاليم في أن يكونوا مثله ، طغاة بلا قلب وبلا ضمير ، لا يعتصمون بخلق ، ولا يخافون من حساب ، ولا يقيمون وزنا لدستور أو قانون . . ولم لا ؟ ، وهم الأداة الباطشة التي استخدمتها حكومة « صدقي » في تزوير الانتخابات من أولها إلى آخرها . . وكلّفتها بمطاردة خصومها السياسيين في أرزاقهم وموارد معاشهم ، وإجبارهم على الذل والاستكانة والكفّ عن المعارضة والاحتجاج . . بل وكافأتهم على هذا العسف وذاك التنكيل ، فطلبت لمن تميزوا في التزوير ، وتفوقوا في التلفيق ألقاب « الباشوية » ، « والبيكوية » . . ثم إن هناك القانون الذي يحميهم من القضاء ، ويسلب المواطنين حق رفع الدعاوى ضدهم إلا عن طريق النيابة العمومية !

وكان « يوسف الشافعي » ـ كوزبره « اسماعيل صدقي » ـ حريصا على أن يبدو أمام الجميع نموذجا للحاكم المخيف الذي يرهبه الجميع ، ويعملون له ألف حساب ، ويعترفون بأنه السلطة الوحيدة في البندر والمركز . وكان من ذلك النوع الذي يؤمن بأن السلطة هيبة وسُمْعة وثقة بالنفس وجسارة لا تتردد ولا تهتم بعرف أو قانون . . وكان مما يثيره فيخرجه عن طوره ، أن يرى فلاحا « شايف نفسه » ـ أي معتزاً بها ـ أو « مِعْجبانيا » ـ أي يختال واثقا من نفسه ، إذْ كان من رأيه أن من أصول الضبط والربط أن يظهر الجميع إمارات الخضوع والتوقير ، ويعتقد أن الاعتداد بالنفس ، أو التخايل بها ، قد يوحي بأن هناك من لا يخاف الشرطة ، أو لا يحترم هيبة الحكومة . .

البداية

ومن سوء حظ « أحمد جعيدي » أنه لم يكن يستطيع إلاّ أن يكون « مِعْجبانيا » ، فهو الندى متعلم ، قضى عامين بأسيوط ، فاختلط بأهلها وطاف بمقاهيها ومباغيها وعرف أن الدنيا أوسع حدوداً وآفاقا من « البداري » . إنه الأعور الذي لا بد أن يكون ملكا في بلد من العميان ، هم هؤلاء الفلاحين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ولم يذهبوا إلى « اسيوط » . كان لا بد أن يكون معجبانيا ، ليغطي فشله في الدراسة ، وهكذا اندفع يجوب شوارع القرية ويتسكع في أنحائها ، حرصاً على مظهره ، يتنقل من المقاهي والغرز ، وتلتف حوله شلة من أصدقاء الفراغ والشباب ، كان أقربهم إليه صديقه « حسن عاشور » أو « حسونة » .

ولم يكن ممكنا ألا يلفت سلوك « أحمد جعيدي » ذاك نظر « الشافعي الندى » ، فقد كانت شلة الافندية العاطلين موضوع شبهاته وشبهات أهل القرية ، كلما وقعت سرقة ، صحيح أنهم من أسرٍ مستورة ، ولكنهم شبان طائشون ، ولا بد أن مواردهم تقصر عن إشباع أمزجتهم الفاسدة . . وكان العمدة « محمد همّام » هو الذي عقد الصلة بين الاثنين وأتاح لهما اللقاء . . فلما كاد يلي العمودية ـ في بداية عهد « صدقي » ـ أحنق دس اسم « أحمد جعيدي » وصديقه « حسن عاشور » بين الذين يرشحهم للخضوع لقانون المشبوهين والمتشردين باعتبارهما عاطلين وبلا عمل معروف .

استدعى المأمور الشابين ، فوجدهما من النوع « المِعْجباني » الذي يستفز غضبه . . فهما يطيلان شعر رأسيهما ، ويترك كل منهما خصلة من شعره تتدلى على جبهته من تحت الطاقية . ثم إن طريقتهما في الوقوف أمامه ، وأسلوبهما في الرد على اسئلته قد برهن له على أنهما في حاجة إلى مزيد من التأديب ، يخضعهما لهيبة الحكومة ، ويجعلهما يدوران في فلكها المغناطيسي ، وهكذا أمر بضربهما وقص شاربيهما بمقص الحمير ، وادراج اسميهما ضمن الذين تراقبهم الشرطة ، لأنهما من مشبوهي « البداري » . . وبذلك ارتفع عدد المشبوهين المقيدين في دائرة البندر إلى ٣٦ مشبوها . .

كان وضع « أحمد جعيدي » و « حسونة » على قائمة المشبوهين يعني اخضاعهما لمراقبة الشرطة ، فلا يغادر كل منهما داره بعد الغروب ، ولا يغادر البلدة دون اخطار وإذن من « المأمور » وإلاّ جاز له القبض عليهما وتكليفهما

بالبيت في مقر الشرطة ، ومن حق المأمور أن يقبض عليها ويحتجزهما في حالة وقوع أي جريمة في المدينة ، دون أن يستأذن النيابة ، وحين كانا يهربان من المراقبة ، كانا يقادان إلى مبنى المركز ، ليتولى الكونستابل « أحمد خالد الجرجرسي » - تحت اشراف المأمور - عملية التأديب ، فيضربان بالسياط ومؤخرات البنادق ، ويجبر كل منها على أن يقول : أنا مَرَه .. ويختار المأمور لها اسماء نسائية ، فيطلق على « حسونة » اسم « حُسْنَة » ، ويربطان في مرابط الخيل .. يوضع امامها التبن ، ويؤمران بأكله ومضغه ، ويمتطي الجنود ظهريها كما لو كانا فرسين ، ثم توضع عصوان في دبريها (!!)

كانت أشكال التعذيب التي يمارسها المأمور ومعاونوه ، تنتمي إلى النوع نفسه الذي مارسته الادارة من قبل ، ومن بعد : خلط الأنواع والأجناس ، بتحويل الانسان إلى حيوان ، والذكر إلى أنثى ، والهدف هو تحطيم اعتداد المتمردين بأنفسهم ، وكسر شوكتهم ، والانتقاص من كرامتهم أمام من قد يفتنون بهذا الاعتداد ، وخاصة في الصعيد الذي تسود فيه مفاهيم خاصة للرجولة ، تجعل حتى الدموع أو الشكوى أو الأنين من علامات الأنوثة التي لا تليق بالرجل ..

القصاص

وقع مأمور « البداري » في المحظور ، واستنفد احتمال الناس على الصبر ، وآن أن يدفع الثمن : قرر « أحمد جعيدي عبدالحق » أن يثأر لكرامته المهدورة ،ورجولته المهيضة ، وأن يثبت للناس أنه لم يسكت على الاهانة ، ولم يرض بالاذلال ، فقرر انهاء حياة المأمور .. وفاتح صديقه « حسونة » في المشروع ، فوافقه عليه .. وقضيا عدة أيام يراقبان « الهدف » ، حتى عرفا أن المأمور تعود أن يخرج بعد غروب كل يوم للتنزه مع صديقه « فهيم افندي نصيف » - مهندس الري - وأنه لا يصطحب معه حراسة ، بل ولا يحمل سلاحا .. كان يتوهم أنه غرس هيبته في كل القلوب ، وأن أحداً لن يجسر على التعرض له ، فالكل خائفون ومستذلون ومهانون !

السبت ١٩ مارس ١٩٣٢

غادر « البكباشي (العقيد) يوسف الشافعي » - مأمور البداري - منزل صديقه المهندس « فهيم نصيف » بعد الغروب .. ليتنزها على الاقدام .. وسارا يتجاذبان أطراف الحديث ، إلى أن بلغا دار المدرسة الابتدائية بالبلدة ، فأصبحا في مرمى نيران بندقيتين مشرعتين للثأر ، تستتران وراء دغل من البوص .. وانطلق وابل من الرصاص يشق ظلام الليل بوهجه ، ويخدش صمته بأزيزه !

وبقلب بارد تماما تقدم « احمد جعيدي » و « حسونه » من مكمنيهما بين عيدان البوص ، إلى حيث سقطت الجثتين ، فوجدا مهندس الري ما يزال على قيد الحياة ، ولكن ذلك لا يعنيهما ، اذ لم يكن هو الهدف المطلوب .

وعندما اطمأنا الى أن المأمور قد فارق الحياة ، غادرا مكان الحادث مسرعينْ ، وعاد كل منهما الى بيته ، وأبدل ملابسه ، وجلس يتناول العشاء مع اسرته .. وكأن شيئا لم يكن ! .. وكانا ما يزالان حول طبلية العشاء ، حين اندلعت الزغاريد تشق اجواء الفضاء ، من كل بيوت « البداريْ » ، وحين خرجا يستطلعان الخبر ، كان الناس يتبادلون التهاني وكل منهم يقول للآخر :

- مبروك « الشافعي افندي » قُتِل ! .. وانقلبت الدنيا !

فهمت الدولة معنى الرصاصات التي اطلقت على مأمور « البداري » والزغاريد التي انطلقت في شوارع المدينة - عقب شيوع الخبر - فهما صحيحا ، فالرصاصات تتوجه اليها ، والقتيل هو « النظام » وليس « يوسف الشافعي » والزغاريد تلعلع تشفيا فيها .. وتحذيرا لها .. طال رصاص المستذَلين المهانين صدر أعمدة النظام الحقيقية ، وقطع أحد أذرعته الضاربة .. وأنذر الآخرين ، بأن يلتزموا بالقانون ، ويمارسوا سلطاتهم وفقا له ، وأن يكونوا هيئة نظامية تتبع حكومة نظامية ، وإلا فالجزاء من جنس العمل .. وكان الصمت على ما حدث في « البداري » يعني أن يقاوم الناس محاولة « صدقي » لادخالهم الى الشقوق !

« من هذه النقطة ، بدأت الخيوط تتشابك بين اسماعيل صدقي باشا وبين أحمد جعيدي حسين عبدالحق .. فلم تظل طرق حياة كل منهما متوازية .. لا تلتقي أبدا .. فتقاطعت، وتداخلت وامتزجت .

ولم تصبح القضية بعدئذ مجرد قضية قتل بل صارت قضية وطن ، أثارت وفجرت وهزت وأسمعت ، ولذا فالقصة لم تنته ولكنها بدأت .. فصل جديد من دفاتر الوطن ستقرؤه معا في رحلة أخرى . ◻

واحة العربي

في الصميم

ـ النساء لايصدقن كل ما نرويه لهن ، لكن هذا لايمنعهن من روايته للآخرين .

« جان كلود باسكال »

ـ الفقر جريمة والدليل أن عقابه الأشغال الشاقة .

« مارسيل جوهاندو »

ـ منحنا الله الذاكرة لكي نتمكن من شم عبير الورود في شهر « ديسمبر » .

« أوسكار وايلد »

ظرفاء العرب

إلى أين ؟

نجيب الريحاني

كان نجيب الريحاني يسير مهرولا في طريقه إلى المسرح ، فحاول أحد المارة أن يستوقفه ، فقال : أرجوك ياعم ، إلى أين يذهب هذا الشارع ؟

فقال الريحاني وهو مستمر في سيره : « طول عمري أعرف هذا الشارع ثابتاً ولا يذهب إلى أي مكان » .

ضحكات عربية

بعير باثنين

شرد لهبنقة القيسي بعير ، فجعل بعيرين لمن دل عليه . فقيل له : أتجعل بعيرين في بعير ؟ فقال : إنكم لاتعرفون فرحة من وجد ضالته .

لو . إذا

قال أحدهم لآخر : لومت أنا ماكنت تفعل ؟ قال : كنت أكفنك وأدفنك . قال : فاكسني الساعة ما تكفنني به . وإذا مت فادفني عريانا .

الخبير

سأل أبو عون رجلا في مسألة ، فقال له : على الخبير بها سقطت .

لقد سألت عنها أبي ، فقال لي : سألت عنها جدك ، فقال : لا أدري .

الضحك موزون ومقفى

تهوى خلافي

إن التي عذبتني في محبتها
كلُّ العذاب فما أبقتْ ولا تركتْ
عاتبتُها فبكتْ ، فاستعبرتْ جزعاً
مني ، فلما رأتني باكياً ضحكتْ
فعدتُ أضحكُ سروراً بضحكتها
مني فلما رأتني قد ضحكتُ بكتْ
تهوى خلافي كما خُثَّتْ براكبها
يوماً قلوصٌ* فلمّا حثَّها بركتْ

* قلوص : الناقة الشابة .

قاموس الظرفاء

الخط : جندي مجهول ينسب إليه الناس الأخطاء التي يقعون فيها .
المتفائل : هو الذي يترك محرك سيارته يعمل وهو ينتظر زوجته عند دخولها أحد المتاجر لشراء بعض الحاجيات .
النصيحة : هدية رخيصة .

ضحكات عالمية

وأنا كذلك

أرادت إحدى الممثلات أن تدعو برنارد شو بطريقة مبتكرة ، فكتبت إليه : « سأكون في منزلي في الساعة السابعة مساء يوم السبت القادم » ، فرد عليها « أنا كذلك » .

* * *

وأنا كذلك أيضا

دعي الموسيقي الفرنسي سان صان إلى سهرة طلب فيها من فتاة أن تغني تكريما له مقطعا من أوبرا شمشون ودليلة ، فتقدمت منه وقالت بصوت خافت :
- لكم أنا خائفة ياسيدي .
فقال لها : وأنا كذلك .

* * *

أعرف ذلك

في الجلسة التي تعرّف بها الصحافي اوريليان شول بالفيلسوف فيكتور كوازان قال الثاني للأول :
- أنا ياسيد شول لاأحب الظرف والذكاء . فأجابه شول على الفور :
- أعرف ذلك ،لقد قرأت مؤلفاتك .

بعد ربع قرن على الثورة
ردفان..
العودة
إلى
"الجهاد"
الأكبر
!

استطلاع :
سليمان الشيخ
تصوير :
فهد الكوح

معظم مساحة مديرية ردفان في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تتكون من جبال ، وجبالها مسننة وعرة ، نادرة الاشجار ، مع ذلك فإنها احتضنت المجموعات الاولى التي أعلنت الثورة على الانكليز ، بعد أن استعمروا البلاد منذ عام ١٨٣٩م وجعلوا ميناء عدن محطة مهمة تزودهم بالوقود والغذاء لمواصلة رحلتهم إلى مستعمراتهم في الهند أو العكس .

في مثل هذه الأيام منذ ربع قرن مضى ، انطلقت الرصاصات الاولى للثورة على الانكليز من قمم جبال ردفان ، فكيف هي حياة الناس الآن ، بعد مضي هذا الزمن ؟ وما هي ذكريات الرعيل الذى واجه غطرسة المستعمرين ودباباتهم ، وطيراتهم ، وأسلحتهم المتقدمة ، وهو لا يملك إلا اسلحة الايمان بقضيته . . والاصرار على تحرير بلاده . . ويضع بنادق قديمة ؟ !

قبل الدخول في تفصيلات عن الزمن الذي كان، ووقائع الحاضر ، فإنه يجدر بنا تسجيل مجموعة من الحقائق عن المنطقة .

ـ إن مديرية ردفان تتبع الآن محافظة لحج ، أي المحافظة الثانية كما كانت تسمى من قبل ، وهي تقع شمال مدينة عدن . وتبعد عنها حوالي مائة كيلومتر ، وعندما وصلناها فإننا اكتشفنا أنه لا يوجد قرية أو بلدة ، أو جبل محدد اسمه ردفان . . بل إنه اسم يطلق على منطقة بأكملها بما فيها من جبال ووديان وقرى وسهول ، وأعلى ارتفاع سُجل لإحدى قمم جبالها وصل الى ١٨٦٢ متراً .

ـ يبلغ عدد سكان المنطقة حوالي مائة ألف نسمة ، وكان يغلب عليهم الطابع القبلي وأهم القبائل التي تسكنها هي : القطيبي ، العبدلي ، البكري ، الحجيلي ، الضنبري ، وغيرها .

وقد كانت هذه القبائل تتنافس وتتنازع فيما بينها ، ونتج عن ذلك مع غيره من أسباب حرمان المنطقة من كثير من مظاهر التقدم .

مع ذلك فإن هذه المنطقة نفسها كانت مهد الثورة التي انطلقت في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٦٣ !

ـ إن منطقة ردفان لا تحاذى حدود الشطر الشمالي من القطر اليمني ، الذي قامت فيه ثورة ضد الملكية في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأصبح يمثل سنداً حقيقياً لأي عمل ثورى في الجنوب ، وتفصل ردفان عن حدود اليمن الشمالي مناطق وأراضى الضالع والعلوى والحواشب من ناحية الغرب ، كما ويفصلها الحالمين والشعيب والمفلحي شمالاً ، وكلها مناطق جبلية وعرة . مع ذلك فإن الثورة انطلقت من منطقة ردفان بالذات وليس من غيرها !

ـ عند قيام الثورة في اليمن الشمالي سنة ١٩٦٢ وتعرضها لبعض المؤامرات والمواجهات ، فإن آلاف الافراد انطلقوا من جنوب اليمن للمشاركة في حماية الثورة في الشمال والدفاع عنها ، وكان من بينهم المئات من ابناء ردفان الذين « تسللوا » سيراً على الاقدام وقطعوا مئات الكيلومترات من خلال الجبال الوعرة . وقد لعبت القوات المصرية دوراً مهماً في حماية ثورة الشمال . ومساعدة الثورة في الجنوب .

ـ لقد كان بين أفراد النواة الاولى التي أشعلت فتيل الثورة في منطقة ردفان مجموعة من الشبان الذين عملوا في الكويت ، وسكنوا في منطقة « عشيرج » التى تحول اسمها الى الدوحة الآن ، وشاركوا في رصف الطرق والعمل في شركات النفط ، ومارسوا بعض الاعمال الاخرى ، وقد عايشوا النهضة في الكويت وتشربوا الأجواء الثورية التى كانت تسود المنطقة العربية كلها ، وتأسيس نواة الدولة الوحدوية الحديثة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ .

وقد انتظم الكثير منهم في حركة القوميين العرب وغيرها من تنظيمات وأخذ بعضهم يعود الى المنطقة ويسهم بجهوده في توفير الأرضية المناسبة لانطلاق الثورة .

هذه بعض الحقائق التي تتعلق بالمنطقة وأبنائها . . فكيف هى الآن ؟ وما هى حكايتها مع « الجهاد الأكبر » ؟

أرض الجبال العالية

تغادر عدن ونتجه شمالاً فنمر على ضواحي خور مكسر ، والمنصورة ، والشيخ عثمان .. نرى جمالاً تجر عربات .. فيستهوى المنظر زميلي المصور ويأخذ بالتقاط الصور المناسبة ! ثم نمر بدار سعد .. القرية التي تفصل بين محافظتي عدن ولحج ، ثم نصل الى الحوطة عاصمة محافظة لحج ، فنجد مزارع وبساتين حمضيات وموز ونخيل وخضراوات تحيط بالبلدة ، قيل لنا إن بعضها يسقى بواسطة الآبار ، وبعضها يسقى من وادي تبن الذي كان جافاً ويشكو الظمأ كغيره من الصحارى المحيطة به (في شهر يناير - كانون الثاني) ثم نمر بالقرب من قرية الشقعة يليها قرية العند ، وبعدها نصل الى مفرق الطريق الذي يتجه الى « كرش » حيث نقطة الحدود بين شطرى اليمن .

بدأ ارتفاع التلال يتزايد تدريجياً ، الطريق ممهدة ويمكن السير فيها على خطين .. بعض شجيرات الأثل ، والراك - تستعمل أعوادها كمساويك - والسومر وغيرها تظهر على حواف الطريق .. بدأ الطريق ينحصر بين التلال المتقابلة .

قال مرافقنا هذا المكان يسمى « سيلة بله » وهذه بعض الفجاج والمغارات التي كان الثوار يتحصنون فيها في بعض الأحيان . لقد كانت الطريق ضيقة من قبل وكان يمكن التحكم بها من خلال بعض المواقع في هذه التلال .

بدأت الجبال بقممها الشاهقة تظهر وتسد أفق النظر ، هبات منعشة من الهواء بدأت تتسرب بين الفينة والأخرى ، بعض غيوم بيضاء وسوداء لاحت على وجه السماء ، وطبيعة الجبال الصخرية المديبة بدأت تبرز بين تلال كثيرة .

تخفف سرعة السيارة عند حاجز لرجال الشرطة ، ثم نمر بين مجموعة من الدكاكين ، ألمح مجموعة من الرجال يمضغون القات .. ثم يعلق مرافقنا :

إن زراعة القات وتعاطيه مسموح بهما في هذه المناطق لأنها هي التي تزرعه ، لكن المناطق التي مررنا بها من قبل فإن تعاطي القات مقنن فيها ليومين في الأسبوع (الخميس والجمعة فقط) .

ثم استدرك : نسيت أن أذكر بأننا نمر الآن من قلب قرية الملاح ، وهي كما يقال عنها مشهورة بنسائها ورجالها الملاح .

- موقع مديرية ردفان في محافظة لحج بجمهورية اليمن الديموقراطية .

ثم مررنا بقرية الرويد ، وشعب الديوان .. ثم جدعة .. فالحمراء ، وكلها قرى صغيرة عدد بيوتها قليل ربما لا يصل الى خمسين بيتاً .

سألت : أين ردفان ؟

أجاب مرافقنا : هي كل هذه المنطقة التي نحن فيها .

علقت : ألا يوجد مكان معين يسمى بهذا الاسم ؟

أجاب : بل هي المنطقة كلها .

بيوت القرى موزعة على رؤوس الجبال والتلال ، هكذا دأب اليمني على بناء بيته ، إنه يبحث عن ما يمكنه أن يوفر له الحماية ، وكشف تحركات أعدائه وما يحيط به .

في الحبيلين

نصل الى مشارف بلدة .. أبنية بيضاء تحتل جانباً من الطريق ثم ندخلها ، معظم بيوتها مبنية من طابق أو طابقين ، ولا يوجد ما هو ضخم أو كبير هنا ، الطريق الرئيسي « مسفلت » وما عداه ما زال على حاله من تراب .

قال مرافقنا : إنها بلدة الحبيلين عاصمة المديرية ، ويصل عدد سكانها الى حوالى ١٨ الف نسمة ، والحبيل هو الأرض المنبسطة كما ترون ، والحبيلين هو

١

٢

٣

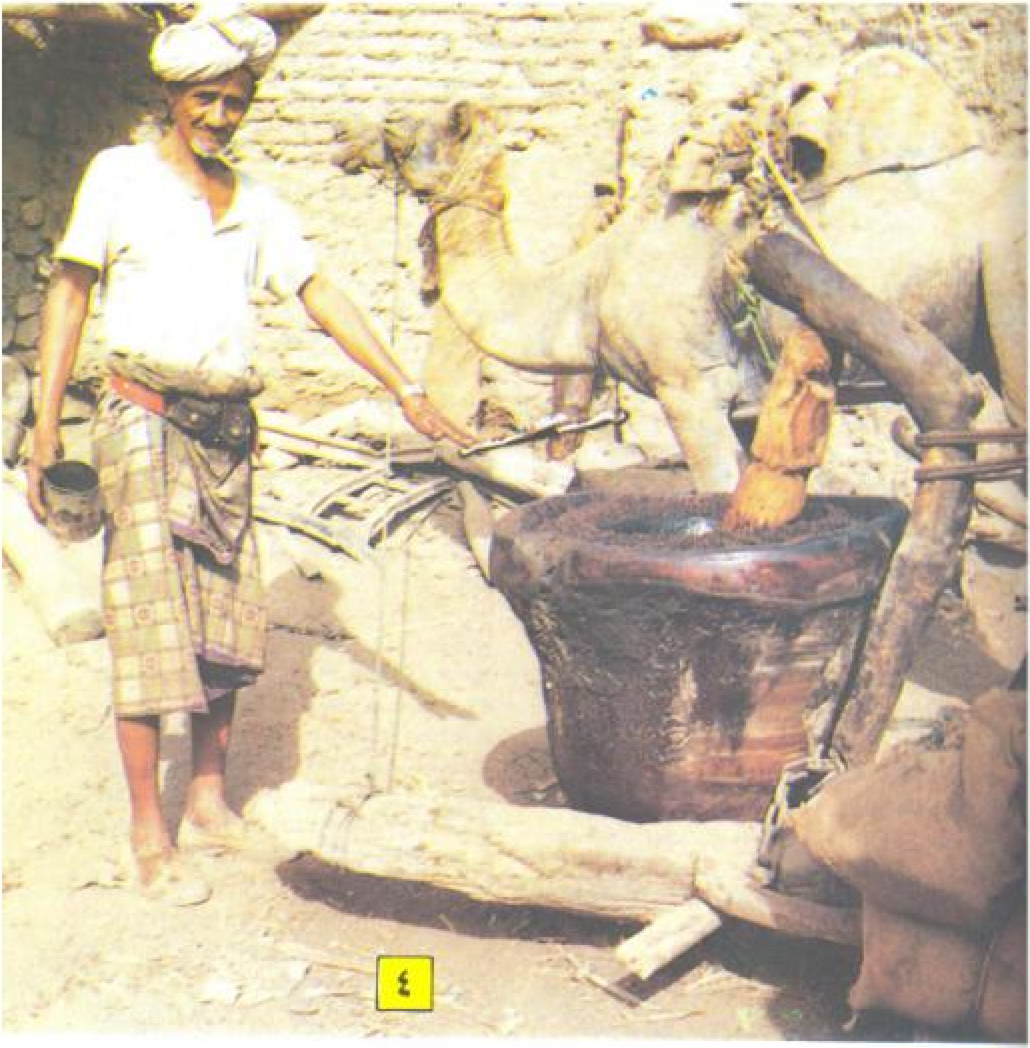

١ ـ متحف ردفان يحاكي الجبال التي تحيط به .

٢ ـ من أسلحة الثورة في متحف ردفان .

٣ ـ وأيضا سد سبأ في ردفان !

٤ ـ السمسم عندما يدرس في الحبلين .

٥ ـ بدون تعليق .. انه المصرف أو « البنك » .

مثل جبيل ، تقع البلدة في سهل تحيطه الوديان والتلال ، بعض الاشجار والزراعات القليلة تظهر بين الوديان ، محطة بنزين ومقاهي ومطاعم ودكاكين متواضعة تحاذي الطريق .

وصلنا الى بناء مكون من ثلاثة أدوار .. ربما هو اعلى بناء في البلدة ، استقبلنا مضيفونا على باب احدى شقق البناء التي تستعمل كمكتب ومضافة لاعضاء الحزب وزوار المنطقة .

ارتحنا قليلا واستأنفنا الحديث عن المنطقة وأوضاعها والمستجدات فيها ، والذكريات ، ذكريات من شاركوا في الثورة وخاضوا غمارها ..

وفد الى البيت قائد صالح حسين رئيس المكتب التنفيذي لمجلس الشعب المحلي في مديرية ردفان والسيد سلام أحمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية والسيد قاسم ثابت سعيد سكرتير المكتب التنفيذي لمجلس الشعب المحلي ... ومسؤول الحزب في المديرية ، ونائبه وأفراد آخرون .

السيد/ قائد من مواليد سنة ١٩٣٩ ، شارك في الثورة منذ بدايتها وكان راعياً ثم انضم الى الرعيل الذي عمل في الكويت ، وتنظم هناك في حركة القوميين العرب ، والتقى بعلي عنتر أحد القادة التاريخيين للثورة .. وعاد واياه مع مجموعة من أبناء ردفان والضالع في نهاية الخمسينيات ، وتزودوا بالسلاح من شمال الوطن .. وعادوا الى قراهم في الجنوب وبدأوا مع غيرهم بالعمل السري وعقد المصالحات بين القبائل المتنافرة والمتنازعة .

علق أحد الحاضرين دعنا نعرفك بالمكان .. ثم نصل الى الناس والتاريخ .

لقد تم ضم ردفان بالقوة الى إمارة الضالع في الخمسينيات ولذلك فإن التمردات والثورات قامت لهذا السبب أو لأسباب عديدة أخرى أهمها وجود المستعمر الانكليزي ووجود مظالم كثيرة ، لذلك فإن المستعمر بنى معسكراً ومطاراً على هذه الأرض أي أرض هذا المبنى وما يحيط به ، كي يواجه التمردات .

لقد كان المعسكر يستوعب ١٣ ألفاً من جنود العدو ، أي إنه كان المعسكر الثاني بعد معسكرات عدن من حيث كبر المساحة وعدد أفراد جنوده .

إن منطقتنا كما ترى جبلية والمساحات السهلية أو القابلة للزراعة فيها قليلة ربما لا تزيد على ١٥٪ من مساحة المنطقة التي تصل الى حوالى ٢٥٠٠ كيلومتر مربع ، تحتوي على حوالى ١٣٥ قرية ، ربما لا يصل عدد أفراد بعض القرى الى ٢٠ أو ٣٠ فرداً ، وبالرغم من ان المساحة القابلة للزراعة قليلة ، إلا أن فلاحينا استطاعوا استثمارها واثبات الحبوب والخضراوات فيها ، واستصلحوا بعض التلال والجبال من خلال المدرجات التي اقاموها عليها ، هكذا فإن حياتنا متقشفة تعتمد على بعض الزراعات التي تقيم أود الناس وأود الماشية التي يملكونها ..

ولأننا قبائل .. ولأن بعض العنعنات والمشاكل كانت تقوم بيننا في بعض الأحيان ، لذلك فإن السلاح كان دائم الحضور بين أيدي الأفراد ، وكانت توجه هذه البنادق أحيانا الى غير العدو الحقيقي ، أي المستعمر ..

مجلس شعب محلي

● لقد ذكرتم أن السيد/ قائد صالح حسين هو رئيس المكتب التنفيذي في مجلس الشعب المحلي .. هل تعطوننا فكرة عن كيفية قيام هذا المجلس ؟

- لقد صدر قرار عن مجلس الشعب الأعلى في مارس سنة ١٩٨٧ بإنشاء مجلس محلي في ردفان وسيؤن .

وفعلا فإن ترتيبات اجراء انتخابات في المنطقة قد تم اتخاذها بين (٢٥ و ٢٧ نوفمبر ١٩٨٧) وتم ترشيح ٤٣ مرشحا كان المطلوب انتخاب ٣٠ عضواً من بينهم ، وترك للمرشح حرية الاتصال بالناس والاعلان ، وطبع برنامجه وصوره ، ويمكن أن تشاهد بقايا ذلك على حيطان بعض الدكاكين في السوق (رأيت ذلك في اليوم التالي) .

● هل كان المرشحون جميعهم من الحزب (الحزب الاشتراكي اليمني هو الحزب الوحيد في اليمن الديمقراطية بعد أن اندمجت فيه ثلاثة تنظيمات)

- سمعت أكثر من صوت ينفي ذلك ثم جاء التوضيح لا .. إن الأمر ليس كذلك ، إن القانون (قانون قيام المجلس) فصّل في هذا الامر .. وجاء فيه ان عدد الحزبيين يجب أن يكون ١٣ نائبا في حين أن عدد غير الحزبيين يجب أن يكون ١٧ نائبا . وقد تم انتخاب مكتب تنفيذي من بين الثلاثين نائبا ، ورئيس المكتب يصبح عضواً في مجلس الشعب الأعلى في المحافظة .

● سألت : هل تم تعميم هذه التجربة في بقية المحافظات ؟

سمعت جواباً : إن الامر ما زال في طور التجربة ، وربما يلي ذلك خطوات أوسع في بقية المحافظات .

من يحضر السوق يتسوق

توجهنا الى سوق البلدة ، صور بعض المرشحين ما زالت معلقة على بعض الحيطان تحاذيها بعض الشعارات والتعاميم الحزبية ، طريق السوق ممهدة لكنها من تراب ، والحوانيت متواضعة البناء ، ومتواضعة في المواد التي تعرضها ، حوانيت الخضراوات تحاذي حوانيت اخرى تبيع القهوة والهيل والحبوب (قمح ، سمسم ، عدس ، برغل ، شعير ، ذرة ، الخ) ثم تليها حوانيت اخرى تبيع بعض الحلويات وغيرها .

وبعض الحوانيت كانت تتكون من جزأين ، جزء تتم الصناعة فيه ، وآخر للعرض والبيع ، منها الحلاوة المطبوخة ، أو حلاوة اللبن أو السمسمية والمضروب والكعك وغير ذلك .

لفت نظرنا مجموعة من الشبان كانوا يتراكضون ويتبعون احدى السيارات (وانيت) وصلت السيارة الى مكان كان قد تجمع حوله مجموعة من الرجال والشبان . بدأت اللفائف والحزم الخضراء تتناقل بين الأيدي . لحظات ولم يبق منها أية حزمة ، لقد تم كل شيء بسرعة غريبة . . . انه القات يقبلون عليه كأنه ترياق الحياة !

تابعنا جولتنا في السوق . . عجوز تشوي أكواز الذرة الشامية على حطب وتبيعها ، مكتبة صغيرة معروضها قليل من كتب وصحف كانت موجودة في قلب السوق . . طالبنا صاحبها بزيادة كمية اعداده العربي التي تصله وذكر أنها تباع في نفس ساعة وصولها .

نسمع هديراً فنقترب ، كان صوت آلات مطحنة تطحن القمح والذرة والدخن ثم تحاذيها معصرة خاصة بالسمسم . . السيد/ محسن صالح حسن ذكر لنا انه اقام المعصرة منذ بداية السبعينات ، وهو يعصر السمسم ويبيعه كطحينة للناس أو يأتي اليه الناس بمحصولهم ويدرسه لهم (يعتبر السمسم احد محاصيل مزارع البلدة والقرى المحيطة بها) .

وطريقة الدرس ما زالت بدائية يقوم بها جمل تربط رقبته بلجام يكون موصولاً بثقل خشبي ويوضع السمسم تحت الثقل ومن خلال دورات الجمل المتواصلة يندرس السمسم ويسيل زيته لينتقل الى الوعاء المطلوب .

● سألت السيد/ احمد جابر صالح صاحب احدى المطاحن القائمة منذ ١٣ سنة :

● هل تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ أجاب : لم يكن في البلاد (يقصد ردفان) أية مدارس زمن الانكليز الا محاولات بعض الشيوخ (شيوخ الدين) ولذلك فإنني لم اتعلم في تلك الايام لكن بعد انتصار الثورة فإنني التحقت بمدارس محو الامية سنة ١٩٧٥ وحصلت على ما فاتني ، إنني أقرأ الصحيفة الان ، واكتب الرسائل وغير ذلك .

السيد/ محمد صلاح صاحب مطحنة قريبة من المطحنة السابقة ذكر لنا ان الحوانيت والمطاحن مملوكة للافراد ، ويدفعون ضرائب للدولة عليها .

لكل بضاعة سوق

على بُعد امتار قليلة من سوق الخضراوات والحبوب . . كان سوق آخر يتم فيه البيع والشراء ويغص بالناس والحيوانات ، إنه سوق بيع المواشي (بقر ، غنم ، ماعز) إنه يقام ايام الأحد والثلاثاء والاربعاء ولا يقتصر على المشاركين من أبناء البلدة أو أبناء المديرية بل يشارك فيه آخرون من مديريات اخرى ، وبعضهم يبيع ماشيته ويشتري بثمنها حبوباً أو غيرها .

ذكر لنا مأمور الضرائب السيد/ أحمد هيثم إنهم يتقاضون ٣٪ ضريبة من البائع و ٢٪ من المشتري ، وذكر إنهم أربعة موظفين يعملون في السوق مأموري ضرائب كما وذكر أن معدل سعر الخروف يصل الى حوالي ١٥ ديناراً فيما يتراوح سعر البقرة بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، وذكر ان البقر الذي له سنام كالجمل هو من الفصائل المألوفة في ردفان ، كما وأكد انه لم يصادف احداً يتهرب من دفع الضريبة المقررة عليه .

السيد/ ناصر احمد ثابت ، كان يتزنر بزنار ويعلق جنبيته (خنجر معقوف) فيه قال : أنا أعمل دلالاً في السوق ، وأعمل بنفس الوقت سكرتيراً لاتحاد الفلاحين في البلدة ، وذكر : نحن همزة وصل بين البائع والمشتري ، ونتقاضى ديناراً على كل رأس يباع .

لفت نظره الى بعض العجائز اللواتي يشاركن في البيع والشراء . . . فذكر :

إن أغلب رعاة الماشية هن من النساء ، في حين ان الزوج يعمل في الأرض أو في أحد الاعمال الحكومية .

في طريقها للتطور والنمو

تابعنا جولتنا في البلدة . . صوت ماكينات « بوابير » المطاحن وآبار الماء تسمع بوضوح ، بيوت

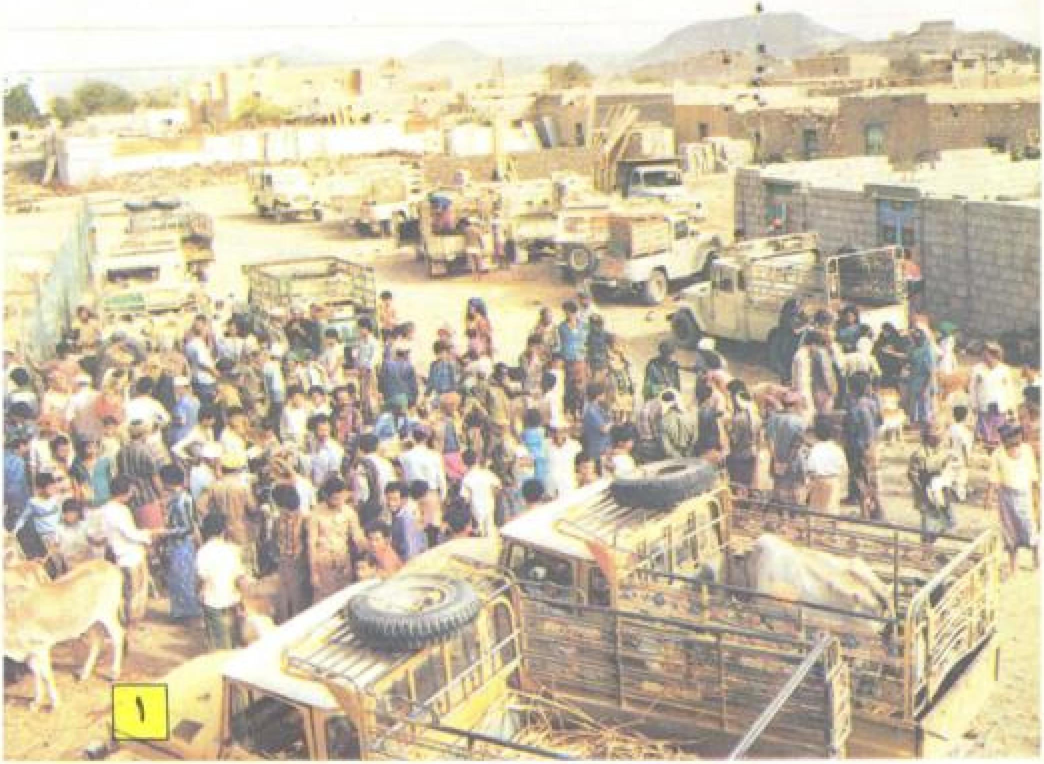

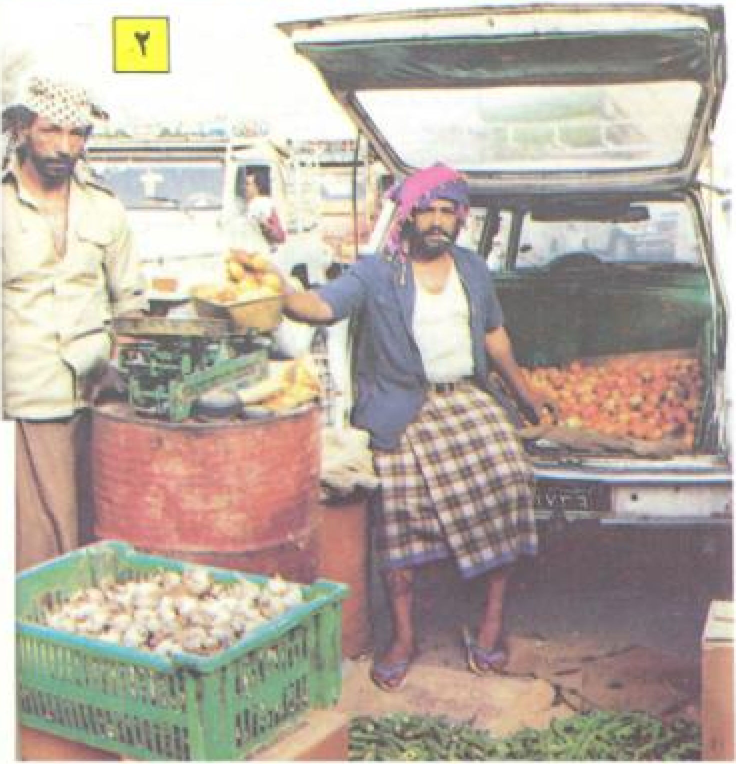

١ ـ سوق بيع المواشي له أيامه وقوانينه في الجبلين .

٢ ـ بائع خضار على سيارة متنقلة . . لم ينس عادة مضغ القات .

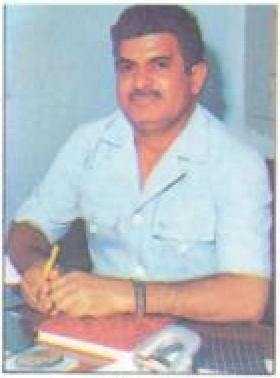

السيد قائد صالح حسين

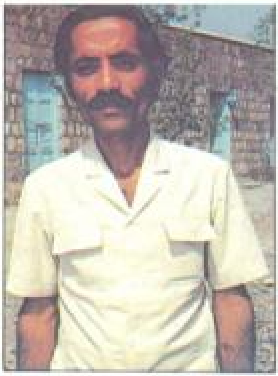

السيد سلام احمد علي

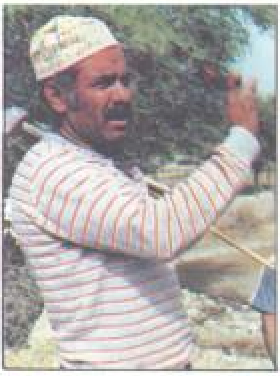

السيد مهدي علي مثنى

القرية موزعة على مساحات متباعدة متفرقة والتنقل بينها يتم بواسطة الحمير أو مشياً على الاقدام أو بالسيارات . لاحظت بعض البيوت المتشابهة تتألف من دور واحد ، ومدهونة باللون الاصفر تحاذى الطريق العام . . قال مرافقونا :

انها بيوت بنتها الحكومة وعددها ٢٤ بيتاً يدفع ساكنها مبلغاً شهرياً كقسط من ثمنها وبعد السداد تصبح ملكية خاصة (ربما بعد ١٥ أو ٢٠ سنة) .

● وبقية البيوت ؟

ـ انها ملكية خاصة بناها الناس وسكنوها .

● أرى بيتاً واسعاً على تلة . . انه يشبه « الفيلا » لمن هذا البيت ؟

ـ انه مقر الحزب ، فيه مكتبة وقاعة محاضرات تستعمل احياناً للعروض المسرحية .

● على ذكر العروض المسرحية . . هل هناك مبنى خاص للعروض المسرحية او دار للسينما ؟

ـ لا يوجد دار خاصة بالعروض المسرحية ، انما يمكن أن يتم ذلك في قاعات المدارس ، ولا يوجد دار خاصة للعروض السينمائية انما تعرض الوحدات السينمائية المتنقلة بعض الافلام الوثائقية ، وتزورنا أحيانا بعض الفرق المسرحية من الحوطة أو من عدن ، ويوجد في البلدة نادٍ رياضي واحد وهو في نفس الوقت نادٍ ثقافي .

● أرى مبنى واسعاً بالقرب من « الفيلا » ، وألاحظ تمثالا عليه فماذا يكون ؟

ـ انه متحف ردفان . . متحف الثورة ، وقد تم افتتاحه في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٧٨م . انتقلنا اليه . المبنى واسع فيه خمسة اجنحة وصالة خارجية تعرض وثائق تتعلق بإنطلاق الثورة سنة ١٩٦٣ وما تلاها من احداث ، في اعلى المكان ينتصب نصب رجل يحمل بيده بندقية ويتمنطق بحزام رصاص ويلبس الملابس اليمنية التقليدية (المئزر أي الفوطة ، ومشدة ـ ربطة على الرأس تسمى « كشيدة » أيضاً) .

على يسار المكان كانت مروحة طائرة معروضة وموضوعة على الارض . علق مرافقنا : انها مروحة طائرة « بيرفل » صغيرة كانت جاثمة مع غيرها في المطار الصغير الذى اقامه الانكليز على ارض البلدة ، وهى طائرة قاذفة الا أن الثوار تسللوا الى المطار ، ووضعوا لغماً تحت الطائرة فتفجر فيها في احد ايام سنة ١٩٦٥ .

سلسلة من المعارك والشهداء

على الحوائط الخارجية للمبنى تم تسجيل اسماء الشهداء من ابناء المنطقة الذين شاركوا في الانتفاضات والمعارك ضد الانكليز وضد حكم الامام في الشمال الذي كان يضم بعض المناطق الجنوبية الى سلطانه في بعض الاحيان ، من بينها ردفان والضالع وغيرها ، وضد الاتراك قبل ذلك . يتوالى تنقلنا بين اللوحات التي تحتوي على اسماء الشهداء بينهم (١٣) شهيدا سقطوا في الدفاع عن ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ التي قامت في شمال اليمن ، ثم اسماء شهداء معركة الحمراء وشهداء معارك حرب التحرير .

قاعات المتحف كانت تحتوى على وثائق الثورات والأسلحة التى استعملت فيها ، والأسلحة الفردية لبعض القادة ، بينهم راجع بن غالب لبوزة اول شهيد لمعارك التحرير في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، ثم ملابسهم وبعض اللوحات الفنية التى رسمها فنانون تشكيليون واهدوها للمتحف .

● سألت : لقد تكرر اسم الحمراء كثيراً فهل تأخذوننا اليها ؟

ـ جاءت الاجابة . . إنها ليست بعيدة من هنا ، خمس دقائق بالسيارة ونكون فيها .

● هل هي قرية ؟

ـ لقد كانت وما زالت ، وفيها او بالقرب منها قامت معركة الحمراء .تراب الطريق الممهدة ابيض

خرجنا من بلدة الحبيلين ودخلنا في واد تحفه الاشجار واعواد القصب . . ثم وصلنا الى بضعة بيوت وبعدها واجهتنا عدة شواهد بيضاء قيل لنا : انها شواهد شهداء معركة الحمراء التي قامت سنة ١٩٤٠ جاء في كتاب « صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية في ردفان » الذي اشرف على كتابته سعيد صالح سالم احد قادة جبهة ردفان ، عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني ما يلي :

كان مركزا « الحمراء » و « سنيك » هما اول مركزين اقامهما الاستعمار في منطقة ردفان وذلك في «اكتوبر» تشرين أول سنة ١٩٤٠، وعندما عرف ابناء ردفان بوجود المركزين ووجود قوة عسكرية فيهما دعوا جميع أبناء ردفان الى عقد لقاء موسع في « سوق الثلوث » في وادي مسك ، وقد حضر هذا الاجتماع الموسع مجاميع كبيرة من ابناء ردفان ممثلين لمختلف القبائل ، واتخذ قرار في هذا اللقاء الكبير يقضي بالقيام بهجوم على المركز الاستعماري . وفي ليلة ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ قام أبناء ردفان بشن هجوم كبير على الجنود المتمركزين في هذين الموقعين ، وكانت معركة حامية استخدمت فيها مختلف الاسلحة ، بما في ذلك السلاح الابيض ، وتم تصفية كافة الجنود المتمركزين حيث قتل وجرح منهم العديد من الجنود وهرب الباقون واستشهد العديد من ابناء ردفان (بلغوا ١٢ شهيدا) .

● سألت مرافقنا : ما هي حكاية مجموعة الشواهد القائمة على يسار الداخل الى البلدة ؟

ـ انهم شهداء الحركة الاخيرة ١٩٨٦ (الصراع الداخلي) من ابناء ردفان وقد بلغوا حوالي مائة وخمسين شهيدا . قرأنا الفاتحة على ارواح الشهداء جميعهم وتوجهنا الى بعض الأراضي المستصلحة التي تقع خلف قرية الحمراء . جاءنا عامل في مشروع استصلاح الاراضي فعرفونا عليه ، إنه احمد مقبل .

شاعر وثائر شارك في الثورة التي انطلقت سنة ١٩٦٣ قال : عمري ٦٧ سنة وشاركت في الثورة وانطلق يقول شعرا من تأليفه :

تعزم وتتوكل بساعة مرضية
ومن عزم فيها نجا من كل شر
الارض هذي كلها جمهورية
يا ساري الليلة على ضو القمر
ردفان ـ ملص (نار) مش نارها طافية
ونحن (نهاجم) عالدولة (الاستعمارية) كما ساد الصقر

تابع احمد مقبل القاء شعره الشعبي وانتقل من الشعر الوطني الى شعر الغزل ومما جاء في احدى غزلياته . .

عيونه مثل الصواريخ عابرة القارات
والانف مثل الألف وجنات مثل الجنيها ،
الصدر بستان فيه فواكه الجنات
وكعوب مثل الليم ظاهر وأيضا بيا

سدود وجسور

جسور وسدود صغيرة تظهر في الطريق ، وبعض زراعات الذرة ، المياه تتدفق من أحد الآبار ، وصبية يغتسلون ويتقاذفون بالماء، تله عالية على يمين الطريق تبرز فجأة،قال مرافقونا إنها جبل جمل . . توجد فيها آثار قديمة ،وقلعة في أعلى المكان من الجبل .

● سألت : إن الوادي كما تقولون اسمه وادي سبأ . . فهل له علاقة بالآثار التي وجدت وتعود الى زمن مملكة سبأ ؟

ـ اجابوا . . ربما كان ذلك .

● سألت :هل جاءت بعثات أثرية للتنقيب عن الآثار في هذا الجبل ؟

ـ نظروا في وجوه بعضهم البعض واجابوا لا ندري !

● ومشروع وادي سبأ متى بدأ العمل به . . وماذا تحقق منه ؟

ـ اجابوا : لقد بدأ استصلاح الاراضي في هذه المنطقة اعتبارا من سنة ١٩٧٣ وهو مشروع سوفيتي يمني مشترك وتم استصلاح ٧٥٠ هكتارا وزعت على الفلاحين بواقع ٥ الى ٨ فدادين للاسرة الواحدة ، وبقيت مجموعة من الهكتارات تقوم باستغلالها التعاونية الزراعية وهي تخضع لاشراف الدولة ولخطة وزارة الزراعة من ناحية نوعية ما يزرع فيها .

واشهر المزروعات التي تزرع في المنطقة الذرة الشامية ، الدخن ، الأعلاف ، البرسيم ، والبطاطا والبصل والبطيخ والفلفل والبامية والبندورة والقطن وغيرها .

● هل يمكن اعتبار مساحة الارض من ٥ الى ٨ هكتار هي سقف الملكية الخاصة للأرض في هذه المنطقة ؟

ـ اجابوا : من المعروف أن الاراضي ليست متشابهة من حيث الخصوبة أو وفرة المياه فيها ، أو قربها من المراكز المهمة ، لذلك فإن حيازة الملكيات

الخاصة تختلف بين ارض وأخرى ، مع ذلك فإن سقف الملكية الخاصة في منطقتنا هو الرقم المذكور .

مسيرة التعليم

عدنا الى البلدة فألقيت نظرة الى جوار المبنى الذي نقيم فيه ، فوجدت مدرسة كبيرة مدهونة مبانيها باللون الاصفر ، يليها مبان اخرى كبيرة ايضا ، قال لنا السيد/ سلام احمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية إن المباني القريبة من مكان اقامتنا ما هي الا المدرسة الثانوية الوحيدة في المديرية ودار المعلمين فيها . وأضاف إنها هدية من الشعب الكويتي الى شقيقه الشعب اليمني ، وقد تم تشغيلها اعتبارا من السنة الدراسية ٧٩ ـ ٨٠ ، وهي تستوعب حوالى ٧٥٠ طالباً وطالبة ويدرس فيها الآن ٦١٦ وبينهم ١٦ طالبة ، في حين أن دار المعلمين الملحقة بها تم تشغيلها اعتباراً من السنة الدراسية ٨٢ ـ ٨٣م وتستوعب حوالي ٢٠٠ طالب يدرس فيها الآن ١٦١ بينهم ٣٢ طالبة والدراسة فيها لأربع سنوات تبدأ بعد الانتهاء من مرحلة التعليم المتوسط .

● هل التعليم مجاني كالتطبيب وغيره من خدمات اجتماعية ؟

ـ ان التعليم مجاني كغيره من الخدمات الاجتماعية ، وحتى الكتب والوسائل التعليمية فإنها تقدم بالمجان ، وما على الطالب إلا ان يحضر معه حقيبته والدفاتر والاقلام .

● هل يمكن اعطاءنا فكرة عن مسيرة التعليم في المديرية ؟

ـ لاشك أنه توجد بعض النواقص الآن ، وهذا ربما يعود الى قلة الامكانات ، لكن وضعنا الان أفضل مئات المرات مما كنا عليه قبل انطلاق الثورة ، لقد كانت أمية المرأة ١٠٠٪ في الماضي ، وحظ الرجل لم يكن أفضل كثيراً ، فقد كانت نسبة اميته حوالى ٩٩٪ ، أما نسبة الامية فقد انخفضت الى حوالى ٣٠٪ في هذه المرحلة .

● ألاحظ أن نسبة اقبال الفتيات على التعليم قليلة قياساً بالفتيان ؟

ـ إن ذلك يعود لأسباب اجتماعية واقتصادية .. بينها التقاليد ، وبينها اعتماد بعض العائلات على الفتيات في العمل بالحقول أو في البيت ، وبينها بُعد بعض القرى عن مراكز التعليم (التعليم الثانوى الزامي للفتاة في المدينة في حين أن الريف له خصوصيته) .

في وادي المصراح

في صباح اليوم التالي كان زملاؤنا في القيادة المحلية قد جهزوا « جيبا » خاصا لمهمتنا ، فانطلق بنا .. في قلب وادي المصراح ، أشجار العلب والدوم والزعرور تحيط بالطريق المملوءة حصى ورمالاً داخل الوادي ، بعض البيوت تلوح على جانبي الطريق وهوائيات اجهزة التلفاز تظهر فيها على أعلى مكان . بعض زراعات الذرة الصفراء تظهر في مكان قريب ، على بُعد يظهر راكب لحمار يطلق لصوت غنائه العنان ، فتاة تظهر بين الاشجار غطاء رأسها يغطي نصف شعرها صوت «مواتير» المياه يتردد بين فترة وأخرى ، حقل من شجر « الباباي » يظهر على جانب الطريق .. عاملان يوجهان المياه نحو الحوض المطلوب .

برز بجانب الطريق عامل يضع « معوله » على كتفه .. سلمنا عليه وقدم لنا بعض حبات الزعرور التي كان يحملها ابنه .. قال :

أنا مهدي علي مثنى من منطقة بحيبر بجانب الحبيلين ومن مواليد سنة ١٩٤١ واعمل كأجير في الحقول .

● هل شاركت في حمل السلاح ضد المستعمر البريطاني ؟

ـ ستجد في طريقك العشرات من الاشخاص الذين شاركوا في الثورة ، انكم في البلاد التي انطلقت منها الثورة وانا كفرد شاركت في الثورة طبعاً .

نمر على حقل مليء بنبات القات ، عاملان كانا يغرسان ويسقيان بعض النباتات ، وامرأة من بعيد تنكش جانبا منه .

ذكر مرافقنا راشد مساعد امين عام الحزب في المنطقة أنهم « يأرسون » بعض النباتات ؟

سألت : ما معنى الكلمة ؟

قال : إن لهجتنا في هذه المنطقة تحول الغين الى ألف .. فهم يغرسون ولكننا في لهجتنا نقولها « يأرسون » .

علقت : انها لهجة من لهجات العرب .

عسل وتجارة

بدأ الوادي يضيق وتكاثفت الاشجار فظهرت جرة ماء بالقرب من شجرة كثيفة من شجر الدوم ، لقد كانت كسبيل ماء عذب للعابرين ، ذكر مرافقنا إن شجر الدوم هو الانسب لتربية مناحل العسل عليه .. ، وعسله نقي وطيب . طلبنا شراء عدة كيلوات منه ، إلا ان صاحب البيت كان غير موجود

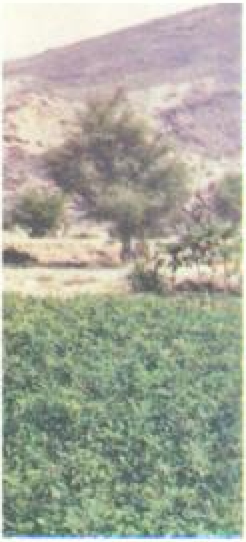

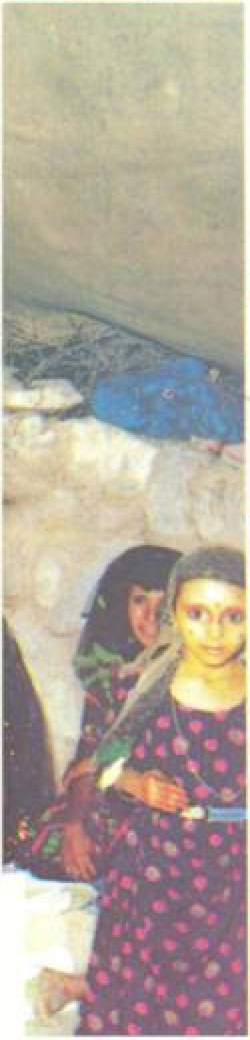

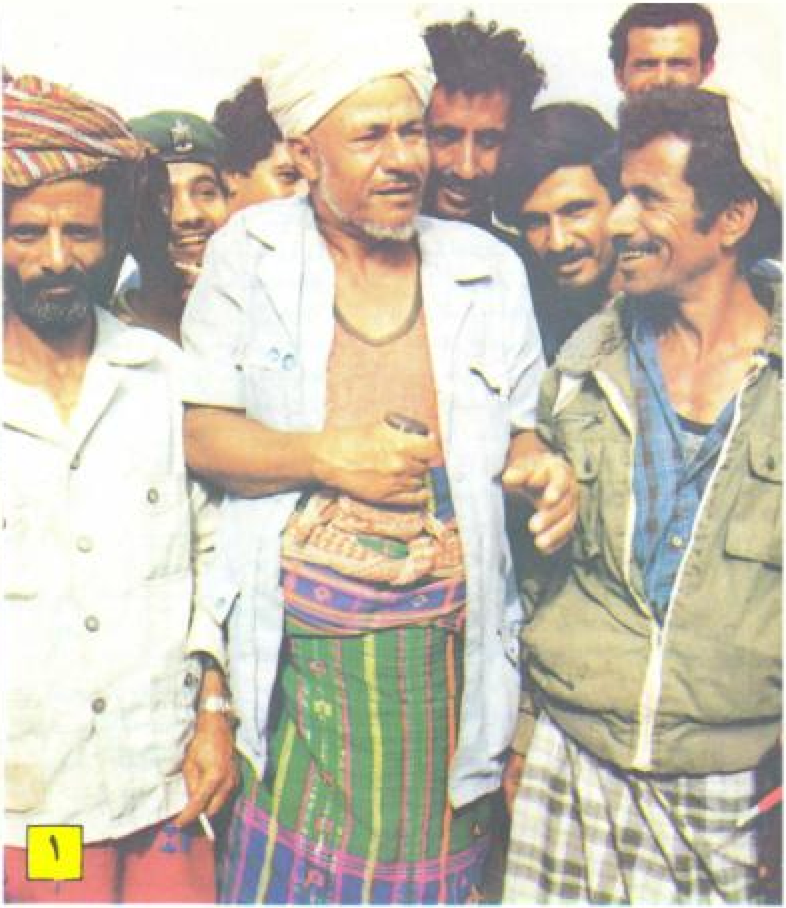

١

٢

١ ـ زي تقليدي .. وحوار لايخلو من طرافة في السوق .

٢ ـ رقص شعبي يمني مميز في عرس بحبيل جبر .

٣ ـ انه نبات القات في السهول النادرة التي تحاذي جبال ردفان .

٤ ـ افتداء العريس بكبش .. عادة من عادات القرى في جبال ردفان .

فضاعت علينا فرصة رؤية مناحل النحل وتصويرها .

وعلى ذكر العسل والنحل فإننا قبل مغادرتنا لبلدة الحبيلين ذهبنا الى السوق للتزود ببعض الكيلوات من العسل ، فدخلنا في مساومة مع أحد البائعين الذى اصر على أخذ مبلغ يزيد دينارين عما أعطانا إياه جاره ، الا ان نفاذ الكمية من عند جاره الجأنا الى الشراء منه .. ناقشه مرافقنا راشد ولفت نظره لغلاء السعر .. وأن جيرانه قد باعوه لنا بأقل مما يطلب ، مع ذلك فإنه أصر على ما يطلب .

علق راشد : لقد عدت لتوك من المسجد يارجل .. ومع ذلك تصر على رفع السعر اكثر مما يفعل جيرانك !

علق الرجل الستيني : إنها التجارة ، أنا حر في تحديد سعر ما أملك وانت حُر في أن تشترى أو لا تشترى !

صخرية ووعرة .. لكنها بلادنا !

تابعنا سيرنا في الوادى الذى اخذت بعض أحواض الماء تظهر فيه..مما يعنى أن علينا النزول من السيارة لنسير على أقدامنا .

سرنا عدة أمتار .. لنجد مجموعة من الرجال يبنون بيتاً على حافة الوادى استقبلونا بترحاب (هكذا كان دأب من قابلناهم في الطريق) وبدأ قاسم صالح مالك البيت يحدثنا عن نفسه ... فقال : أنا لست من مواليد الحبيلين أو المصراح ، بل أنا من عُقبية إحدى قرى جبال ردفان ، لكنني أملك هذه الأرض ، وها أنا ابني فيها هذه الدار ، ونحن من بلاد واحدة وقبيلة واحدة .

● لكن طبيعة الأرض صخرية ووعرة .

أجاب : ومتى كانت ارض ردفان غير ذلك .. مع ذلك فهي بلادنا .

ظهرت بعض البيوت على الجانب الآخر من الجبل فسألت مرافقنا عنها .

علق راشد : هل تصدق أن تلك البيوت العشرة هي لقريتين منفصلتين هما الصلب ، والقريع ، هكذا هي قرانا موزعة ومتباعدة وطبيعة الوصول اليها صعبة .

● هل وصلتها خدمات الكهرباء ؟

ـ لم تصلها بعد .. إن الكثير من قرانا تعاني من هذا الأمر ، وبعضها يعاني من عدم وصول مياه الشفة اليه ، فيلجأ الى الآبار للتزود بالمياه .

● سألت السيد قاسم صالح : هل شاركت في حمل السلاح ضد الانكليز ؟

ـ أجاب : بل حملته ضد الأمراء السابقين .. وضد الانكليز أيضاً ، وذهبت مع المجموعات التى انطلقت من هذه البلاد وغيرها للدفاع عن ثورة الشمال ، وهناك تدربنا وخضنا بعض المعارك ، وعندما عُدنا طلب شيخ المنطقة محمود حسن تسليم انفسنا واسلحتنا ، ودفع غرامة مالية ، فرفضنا ذلك .

جاء في كتاب « النجم الاحمر فوق اليمن »للدكتور احمد عطية المصرى ما يلى : « وكانت الأسباب الحقيقية لثورة ابناء ردفان في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ هي استمرار أوضاع الاستغلال والطغيان الاستعمارى السلاطيني ، أما السبب المباشر ، فهو ضغط الانجليز على أبناء المنطقة لتسليم سلاحهم عند عودتهم من الشمال ، وضم ردفان الى سلطة أمير الضالع المتعاون مع الاستعمار » .

ويضيف السيد قاسم .. لقد كان راجح بن غالب لبوزة مع المجموعات التى ذهبت الى شمال الوطن ، وشهدوا هناك قيام الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى (أعلنت في اغسطس سنة ١٩٦٣ من خلال اندماج سبعة تنظيمات) .

وعندما عدنا من الشمال واجهنا الشيخ محمود حسن بمطالبه الجائرة ، فتجمعنا وحملنا السلاح وانطلقنا الى الجبال .

● هل كانت هناك تنظيمات تعمل داخل البلاد قبل وبعد عودتكم الى ردفان ؟

ـ أعتقد أن الأمر كان يتم بسرية ، وربما كانت حركة القوميين العرب قد نشطت في ذلك الوقت من خلال إنشاء بعض الخلايا السرية .

البدوي والمعركة الاولى

حضر شاب وبيده ماعون مليء باللبن ويطفو على وجهه الفلفل الاحمر المطحون،عرفنا السيد قاسم على الشاب فقال : إنه ابنى ثابت

عندما عرف الشاب اننا محررون من مجلة « العربي » فإنه زاد من ترحيبه لنا وذكر أنه يتابعها .. بل وعندما دقق في ملامحي فإنه ذكر إسمي .. وعلق : لقد قرأت مواجهتك مع شاعر الجبال العالية في داغستان رسول حمزاتوف إن جباله تشبه جبالنا وعندما يكتب عن جباله فإنني أجد ان اشياء كثيرة مشتركة بيننا .. وأضاف أنني جندي في الجيش ، وها أنا مازلت في هذا العمل منذ ٤ سنوات بعد أن تخرجت من الثانوية العامة .

تابع السيد قاسم رواية ذكرياته عن ايام الثورة .. فقال: إن هذا الجبل جبل البدوى، شهد المعركة الاولى في مسيرة الثورة سنة ١٩٦٣ ولو ملكتم رؤية حادة فإنكم يمكن أن تروا النصب الذى أقيم للشهيد راجح بن غالب لبوزة أول شهيد للثورة، ويمكن أن تروا القبه البيضاء، قبة مزار الشيخ أحمد البدوى.

لم تظهر لنا الا نقاط بيضاء صغيرة على قمة الجبل .. فحاول زميلي توجيه «آلة التصوير» لالتقاط الصورة .. فلم يظهر امامه إلا الجبل.

قلت: لقد قررنا الصعود الى حيث نصب الشهيد الاول للثورة.

بان التعجب على وجوه مرافقينا ومُضيفينا .. وعلقوا: ان الصعود الى هناك والنزول سيستغرق منكم حوالى خمس ساعات، والجبل كما ترون ليس هيناً، فيه الصخور الحادة .. والشعاب الصعبة والاشواك ومفاجآت قد لا تقدرونها.

أجبنا أنا وزميلي المصور: لقد قر قرارنا بالصعود مهما كانت الصعاب.

سمعنا تعليقاً: إن الامر أصعب مما تتصورون، انكم تخوضون مغامرة غير مأمونة العواقب، ننصحكم بالاكتفاء بتصوير الجبل والوادي .. وهذا يكفي، ان كثيراً من الصحافيين الذين جاءوا قبلكم أخذوا المعلومات في الحبيلين وعادوا ولم يتجاوزوها.

علقنا: ان عملنا في «العربي» يقوم على المساواة بين الكلمة والصورة.

تخلى عنا مرافقونا .. وتركونا للشاب ثابت الذى تبرع بمرافقتنا مع مرافقنا العدنى سعيد محمد راشد.

لم يحمل ثابت معه إلا ابريق ماء، ثم كان وداع على أمل اللقاء مع مرافقينا الردفانيين في الوادى المقابل للجبل من الناحية الاخرى .. بعد خمس ساعات (كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة صباحاً).

رحلة الصعود

بدأنا بالسير نشطاء يدفعنا التحدى والشوق للوصول الى المكان المطلوب. تكررت محاولاتنا للنفاذ من خلال الشعاب والصخور بين هبوط وصعود .. وجدنا آثار أقدام كثيرة تولت تمهيد شبه طريق.

ثغاء الماعز كان يرافقنا وكان يظهر بعضها على الجوانب المائلة من الجبل .. ربما كان ثغاؤها احتجاجا على الغرباء الذين اقتحموا «عرينها»، بعض النباتات كانت تظهر في الشق الطولى الذى كان يمتد من رأس الجبل حتى اسفله، ويبدو أن الماء هو الذى ساهم في شق المنحدر وكون طريقه الخاص.

بدأ العرق ينز من أجسامنا .. وبدأ التعب يظهر علينا خصوصا نحن القادمين من الكويت. البلاد الصحراوية التى قلما يوجد بها جبال.

خفت على دفتر ملاحظاتي من بلل العرق، فخلعت قميصي ووضعته فيه .. وتابعنا المسير بعد استراحة دقائق معدودة.

تابع نظرى شقوق الصخور .. والتواءات الشعاب علّي أرى ما يزحف أو يقفز من حيات أو حيوانات غريبة، فلم أر إلا الماعز، ولم أسمع إلا صوت ثغاءها، وصدى أصوات بشرية تأتى من بعيد بعيد .. أو صدى أصواتنا التى بدأنا نطلقها كنوع من التخفيف على مشاق ماأخذ يصادفنا.

حاصرني مرافقنا العدني سعيد بعد أن تدحرجت عدة مرات، لكن بدون وقوع، وأصبح يمسك بي، ثم تبعه ثابت، استكثرت ذلك ووجهتهم نحو زميل المصور الذي كان يباريهم قفزاً وتخطياً للصخور الحادة .. أصر سعيد على ملازمتى تماماً فلعنت سُمنتى .. وتابعنا المسير.

غطى الغيم على اشعة الشمس الحارقة، فأعطانا دفعاً لمواصلة رحلتنا بأقل ما يمكن من الجهد والعنت.

شقوق هنا .. صخر حاد هناك. هذا الصخر ابيض، ذاك اسود وآخر برتقالي أو بني .. تذكرت المواويل والحداء .. وجبالاً واراض حلمت وأحلم فيها منذ الصغر .. تذكرت «الأوف» الممدودة بامتداد سنوات القهر الذى يتوزع هنا أو هناك في الجسد العربي .. خرجت «الأوف» كأنها ليست مني، فتوزع صداها بين الشعاب والصخور. وحسبت أنها كانت في أبهى صورها اللحنية.

سمعت إطراء ومطالبة بالمزيد، فانتبهت لما أنا فيه فطلبت الماء الذى أصبح أكثر من ضروري للحال الذي نحن فيه.

ارتقينا صخرة عالية .. فبان الجبل المقابل فعلق مرافقنا: من رأس ذلك الجبل أطلقت دانات المدافع الانكليزية على الثوار.

تابعنا المسير بعد أن أخذ الجهد منا ما أخذ (اتكلم عن نفسي) تمعنت بثابت كان عرقه قليل ولم يظهر التعب عليه بشكل واضح .. التفت اليّ وعلق: اعرف ما تفكر به .. نحن أبناء جبال وقد سرت في

ـ سبيل ماء .. في وادي المصراح بالقرب من الحبيلين

هذا الطريق آلاف المرات نهاراً وليلاً فلا تستغرب حالتي .
سألت : وأنت ياسعيد ؟ علق : وأنا أيضاً!!انا ابن الجبال ، بانت حجارة مصفوفة فوق بعضها البعض على رأس منحدر من الصخور .. سمعت تعليقاً : ذلك هو المكان .
ضاعفنا جهدنا بالرغم من بوابات مسام العرق التي انفتحت وبللت ملابسنا . نظرنا في ساعاتنا لقد وصلنا المكان خلال ساعتين وربع وليس نصف .. ففرحنا لهذه النتيجة ..

طول النصب المكون من حجارة الجبل المصفوفة فوق بعضها البعض حوالي متر ونصف دهنت بلون أبيض وكُتب عليها بدهان أحمر نصب الشهيد راجح ابن غالب لبوزة . استشهد في ١٤/١٠/١٩٦٣ ، يلي النصب شق في الجبل يكون نصف مغارة ، لقد كان محمياً حماية طبيعية واضحة ، وقد اختاره الثوار ليكمنوا فيه ، ويبدو أن الثائر راجح خرج للاستكشاف أو لأي غرض آخر فرصدته المراصد الانكليزية على الجبل المقابل فتم قصفه .. وأصيب فعلاً واستشهد،فاعتبر يوم استشهاده هو اليوم الأول لانطلاق الثورة الحديثة في اليمن الديمقراطية ، قرأنا الفاتحة على روح أول شهيد للثورة ، وتحولت انظارنا ترصد تفاصيل محتويات المكان .
ثم تابعنا المسير الى مزار البدوي .

البدوي .. من يكون ؟

وصلنا الى رأس الجبل ، لم نعد ندخل في تعاريج والتواءات الشعاب ، بل أصبحنا نسير في طريق مستوية الى حد ما .. بانت القبة واضحة بيضاء تلمع تحت خيوط الشمس .. حثنا المسير اليها ، حقل خال من الزراعة محاط بعدة اشجار من الزعرور ، بعض الحبات كانت قد تساقطت بعد أن نضجت ، أسكتنا جانباً من جوعنا من بعض حبيباتها ، لاح بيت بجانب مقام البدوي .. دخلنا المقام فوجدنا جدثا كتب عليه الشيخ احمد بدوي .. وبقايا شمع ، ولا شيء غير ذلك ، كان يوجد في الخارج بقايا عظام وجلود وبركة ماء صغيرة ،سألت ثابت: ما هي حكاية الشيخ البدوي ؟
علق : ان المقام كما قرأت هو للشيخ أحمد البدوي ، وما اعرفه أن بعض الناس يأتون هنا للتبرك وقراءة القرآن ، ويجتمع بعضهم في أيام محددة فينحرون الذبائح ويقدمونها نذوراً ثم أضاف ربما كان شيخاً صوفياً .. وله اتباعه وأنصاره .
علقت : ما أعرفه أن هناك شيخاً آخر للصوفية اسمه البدوي أيضاً في مصر .

ـ حوار البائع والمشتري .. فمن هو الغالب .. ومن هو المغلوب ؟!

قال : ربما كان لكل بلد شيخه ، او ربما كان هو نفسه وعاش هنا وهناك .

مررنا من جانب البيت، خرجت امرأة منه وتمعنتنا ، ثم قالت بضع كلمات فهمت منها « فزعتمونا » كدليل على أن مرتادي المكان قلائل .. مررنا بالقرب من بيت مهدم ولاح على بعد عدة أمتار منه بيت آخر خرج منه رجل مسن عندما رآنا ، رحب بنا وأصر على استقبالنا في بيته .. فاعتذرنا إلا انه كرر الطلب عدة مرات . سألناه عن اسمه وعمله .. وكيف يعيش في هذا الجبل الوعر ؟ ..

قال : انا طالب محمد العدوي وعمري حوالي ٦٥ سنة ، نعم لقد ساهمت بقسطي في الثورة .. ولذلك فإن الطيران البريطاني قصف بيتي الذي مررتم به قبل لحظات ، فابتنيت هذا البيت ، اننا نعيش على بعض الزراعات في الحقول محدودة المساحة كما ترون ، ونزرعها حبوبا ولنا ماشية نرعاها ونعيش على بعض خيراتها .

● سألت الشيخ : ماهي حكاية الشيخ البدوي ومقامه ؟

ـ لقد سُمي كل هذا الجبل باسم الشيخ .. وهو رجل دين له مريدوه الذين يأتون في اوقات معينة لقراءة القرآن والدعاء ، وإقامة طقوس معينة لا أعرفها .

على بعد عدة امتار من بيت السيد طالب برزت صخرة كبيرة فيها شق مستطيل الشكل .

● سألت : وما هي حكاية تلك الصخرة .. والشق الذي فيها ؟

ـ علق السيد طالب : يقال ان مُحدث هذا الشق في هذه الصخرة هو سيف الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه .. اذ انه عندما جاء الى هنا واعترضته هذه الصخرة فإنه شقها بسيفه .

علقت : لكن ياشيخنا ان المصادر التاريخية لا تذكر بأن الامام قد جاء الى اليمن والى ردفان بالذات ؟

علق : هكذا يقولون .. وهكذا سمعت ، جاء ابن ابنه باللبن الممزوج بالفلفل الاحمر المطحون ، فشربنا وشكرناه وحاول الرجل استضافتنا في بيته فاعتذرنا وبدأنا بالنزول .

النزول الأصعب !

اعتقدنا ان الصعود هو الأصعب في الرحلة ، لكننا اكتشفنا إن النزول ليس سهلاً أيضا ، إن الصخور في هذا الجانب من الجبل كانت أكثر حدة وتعرجات ، ولا يوجد ممر إلا ان يتدلى الانسان ويستعمل يديه ورجليه حتى يمر والأهم هو استعمال عقله ، لأن اي خطأ غير محسوب أو سرعة أوقفزة غير

خطوية فإنها تودي بالانسان الى التحطم بين الصخور .

وصلنا بعد ساعتين ونصف من مسيرنا من رأس الجبل . . كان الانهاك قد اصابنا ، لكننا مع ذلك حققنا ما كنا نصبو اليه ، تعانقنا مع زملائنا الذين كانوا بانتظارنا ، لقد أحضروا لنا غداء جاء في ساعات المساء من بعض البيوت القريبة من المكان . . وكان أشهى طعام لأنه جاء بعد جوع وتعب حقيقيين . .

عُرس في حبيل جبر

كان موعدنا في اليوم التالي هو زيارة قرية حبيل جبر وحضور عرس أحد شبانها والوقوف على مظاهر العادات والتقاليد في هذا المجال .

للوصول الى حبيل جبر مضينا في الطريق المؤدي الى منطقة يافع ثم صادفتنا قرية الربوة على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من بلدة الحبيلين ، بعض المزارعين يعملون في حقولهم وبعض الصبية يتشاقون في احدى الساحات ، ثم مررنا بالقرب من قرى الثقيفة وخيران ثم قرية حبيل جبر على مبعدة حوالى ١٥ كيلومتر من الحبيلين ، الطريق بينها ممهدة ومسفلتة بشكل جيد ، والتلال والجبال تحف بالطريق من جانبيه .

نشاهد وحدة لتوفير الطاقة الكهربائية بوساطة أشعة الشمس ، ثم ندخل الى يمين الطريق الرئيسي في طريق ترابية كثيرة المطبات ، نسير حوالى ربع ساعة بالسيارة ثم نصل قرب خيمة كبيرة مليئة بالرجال والشبان ومضاءة بالكهرباء عن طريق مولد .

يستقبلنا افراد من أهل العريس ، ثم ندخل الخيمة ، ونسلم على الجميع . فرشت الخيمة بالبسط والحصر والفرشات ، نجلس بين الرجال فنلاحظ أن أغلبية الرجال والشبان يخزنون القات ، ويضعون حزمه الخضراء التي تشبه أوراقها أوراق نبتة الملوخية أمامهم أو بجانبهم مرفوقة بزجاجات المشروبات الغازية او « ترامس » الشاي . زيارتنا كانت مساء يوم الخميس . القات كما أفهمنا بعض الاخوان « والسكاير » يأتي بها كل فرد يحضر للمشاركة ، في حين أن اهل العريس يوفرون الشاي والمشروبات الغازية والأكل .

الخيمة كبيرة ومليئة بما يزيد على مائة رجل وشاب . . أصوات أغاني النساء وزغاريدهن تسمع من مكان قريب ، مفصول عن الرجال . استجابة لطلبنا فإن بعض الرجال بدأوا بممارسة الرقص الشعبي على صوت المزمار والطبل وغنوا أغنية :

مـرحـبـاً بـك يـاعـريـس
مـرحباً بضيوف أجونا « جاؤنا »

بعضهم كان يحمل « جنبيات » ، وبعضهم بدونها ، عندما تحدثنا وجلسنا بين الرجال فإن بعض الشبان أفهمونا بأنهم غير راضين بأن يقتصر نصيب حبيل جبر من استطلاع ردفان في مجلة العربي على تسجيل وقائع العُرس فقط ، إذ ان حبيل جبر كما أفادوا شاركت مشاركة اساسية في الثورة . علقت اننا بحاجة الى من يعطينا فكرة عن العادات السائدة بالنسبة للزواج في المنطقة ، وتفسير بعض العادات والتقاليد . . فتبرع مجموعة منهم وجلسوا بجانبنا واخذوا بالرد على استفساراتنا . . وقد جاء فيما ذكروه :

ـ يتم وضع الحناء على كفي ورجلي وشعر العروس يوم الاربعاء من قبل صديقاتها وقريباتها وهي في بيتها .

ـ في حين أن قريبات العريس يتولين وضع الحناء على يدي ورجلي العريس يوم الخميس (اى الليلة التي كنا فيها في البلدة) .

● سألت : وهل العريس ، يتحنى ، أيضاً .

ـ أجابوا : نعم إن ذلك يحصل وستشهده بنفسك الليلة .

● وبعد ذلك ؟

ـ يذهب العريس مع أهله وأصحابه فيحضرون العروس مساء يوم الجمعة وتأتي معها بعض قريباتها ويتم هذا الامر بالسيارة في هذه الأيام ، في حين انه كان يتم من قبل بواسطة الجمال أو الخيول ، يرافق ذلك الأغاني والرقص والأهازيج ، ويبقى العريس مع عروسته وسط أهله وخلانه لمدة زمنية وسط مظاهر الفرحة والغناء ، ثم ينفض سامر العرس ويدخل العريس والعروس الى غرفتها الخاصة أخيراً .

ويأتي أهل العروس في صباح اليوم التالي الى بيت أهل العريس ومعهم الهدايا العينية ، فيتابعون أفراحهم وأهازيجهم ورقصاتهم المشتركة مع أهل العريس ، ويبقون حتى المساء ثم يعودون الى بيوتهم بعد ذلك .

● هل من فكرة عن اجراءات الخطبة والأيام التي تسبق الزواج ؟

ـ كأي بلد اسلامي فإن كتب الكتاب أي العقد يتم عند القاضي ، ويشترط موافقة الفتاة على الزواج ، ويمكن أن يأخذ والد العروس مبلغاً من مهر العروس (يصل المهر احياناً الى مائة دينار) . والبعض يصرفونه على تجهيز العروس ويقدم العريس أيضا « شبكة » مكونة من ساعة وخاتم ، وكان المهر يُدفع من قبل بصورة عينية ، كأن يتم الاتفاق على تقاضي مجموعة من البقر أو الخراف او الماعز ، أما الآن فإن قانون الاسرة حدد ٢٠٠٠ درهم كحد أقصى للمهر . ويقوم العريس بكسوة عروسه ويمكن للمقتدر أن يزودها ببعض قطع الذهب . وأحيانا يتولى ذلك والد العروس إن كان مقتدراً .

● ما هو حال الزواج بامرأة ثانية .. حسب قانون الاسرة الان ؟

ـ كان الامر متروكاً حسب رغبة الزوج من قبل ، اما الان فإن الامر يجب أن يتم بعد موافقة الزوجة الاولى ، ونعتقد أن كل أب أو أخ لا يحب لابنته أو اخته بأن تعيش مع « ضرة » .

● هل يتلقى العريس او العروس بعض المساعدات المالية من اصدقائهما ؟

ـ إن هذه العادة يقال لها « الرفد » في بلادنا ، وهي مازالت قائمة حتى الان .

● هل عادة « الخطف » مازالت قائمة في بلادكم ؟

ـ بعد انتصار الثورة وسن قانون الاسرة ، فإن المنطقة لم تشهد أية حالة خطف أبداً .

● لقد رأيت أن بعض الرجال يقبلون أيدي بعضهم البعض .. فماذا يعني ذلك ؟

ـ ان ذلك يتم في الأعياد والاعراس والمناسبات السعيدة أو حتى في الأيام العادية ولا يوجد اي دلالة إلا دلالة الاحترام والشوق ويمكن ان يتم ذلك بين رجل وامرأة أيضا .

● أرى بعض الاشخاص اذا ما قرفصوا للحديث مع اشخاص آخرين فإنهم يربطون ظهورهم الى ارجلهم برباط خاص فماذا يعني ذلك ؟

ـ ان هذه العادة تسمى عندنا « باحية » ، والقصد منها حماية الظهر وتوفير الحال المناسب والوضع المناسب لحديث ربما يطول .

● والقات كيف تنظرون اليه ودوره ؟

ـ ان تعاطي القات هو احد العادات الاجتماعية المنتشرة في البلاد ، صحيح إنه يمثل عبأ مادياً ، وأحياناً صحياً ، ومع ذلك فإن القوانين حدت من تعاطيه .

فداء للعريس

دعانا بعض الرجال الى حيث كان العريس بين شقيقاته وقريباته استعدادا لمراسم الحناء ويتم ذلك بعد منتصف الليل يترافق ذلك مع الاغاني والرقص والموسيقا .

اسم العريس عادل ، وهو طالب في كلية الطيران ، كان يجلس بين قريباته ومظاهر الخجل بادية عليه .. أصوات الزغاريد والموسيقا تطغى على الاصوات البشرية جاء شقيق العريس بتيس ماعز وأداره عدة مرات فوق رأس العريس ثم تم ذبحه مباشرة ، وعندما سألنا عن معنى ذلك ؟

ـ أجاب : إن ذلك هو من صلب العادات ، والقصد هو أن يكون التيس أو الكبش فداء للعريس . بعد ذلك تأخذ شقيقة او قريبة للعريس بتحنية يديه ورجليه ويبقى العريس بين قريباته فيما الرجال يبقون في الخيمة ويخزنون ـ القات ـ ويسمعون الموسيقا والغناء ، وبعضهم يرقص الرقص الشعبي المميز .

تبارك للعريس وأهله بعرسهم ، ونودع الرجال .. كان الليل يوشك ان ينتصف فتوجهنا الى الخيلين لنغادرها في الصباح .

أفقنا على اصوات الديوك وهي تبشر بصباح وليد اختلطت فيه أصوات الحيوانات بالديوك بأصوات ماكينات الطحن والماء ، بدأنا نعد انفسنا لمغادرة المكان بعد أن ودعنا وشكرنا جميع الذين وفروا لنا زيارة موفقة .

عندما نادى المنادي

عندما اقتربنا من مشارف البلدة تمعنت في المكان فوجدت يافطة كتب عليها هذين البيتين :

ردفان نادى أن افدو
وأن أحيل الصعب سهلا
فحملت رأسي في يدي
كي لاتصير الكف رجلا

كان الشعر هو من ابداع الشاعر اليمني عبد الله البردوني ، أعدت قراءة البيتين عدة مرات ، ومسحت نظرات عيناي المكان والبيوت والجبال والسهول والبشر ، وكل مااستطاعت الوصول اليه ثم تنهدت .. وقلت : وداعاً ردفان .. وداعاً أيتها البلاد التي اشعلت فتيل ثورة الاستقلال ، وها أنت في حمأة « الجهاد » الأكبر ، لصنع الحياة الأفضل ، والتغلب على صعوباتها . □

قصـــــة قصــــيرة

بقلم : بيســــشوار كويرالا
ترجمة : ابراهيم احمد الشنطي

كانت « تشوندرا كوماري » قلقة منزعجة وهي في طريقها إلى بيت صديقتها « اندرامايا » ، وما أن فتحت الصديقة الباب لها حتى ألقت تشوندرا بنفسها بين ذراعيها حزينة مستسلمة

أخذتها اندرامايا إلى أريكة قريبة ، وأجلستها عليها ثم سألتها متعجبة : تشوندرا ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة ؟ ماذا حدث لك يا عزيزتي ؟ ولماذا أنت مضطربة إلى هذا الحد ؟

أخذت تشوندرا نفسا عميقا ، ورفعت عينيها الدامعتين نحو صديقتها قائلة : « آه يا صديقتي العزيزة ، لقد مررت بتجربة مثيرة نغصت علي عيشي ، ومنعتني من زيارتك طول الاسبوعين الماضيين . أرجو المعذرة يا عزيزتي ، فقد كنت في دوامة ظلت تلف بي طول هذه المدة حتى أصبت بدوار شديد كما ترين حالتي . »

أمسكت اندرامايا بيد صديقتها تشوندرا وصارت تربت عليها وتهدىء خاطرها وتطلب منها أن تفصح عما بها لعلها تستطيع مساعدتها .

هدأت تشوندرا قليلا ، ثم أكملت : لا أدري كيف أبدأ حكايتي ؟ ومن أين ؟ سامحيني يا عزيزتي إذا كنت غير متسلسلة أو غير متماسكة ، لا تتعجليني واستمعي لي حتى النهاية ، وسوف أقول لك كل شيء ، كل شيء .

اعتدلت تشوندرا في جلستها بجانب صديقتها وتنهدت بحسرة ثم قالت : قبل مدة جاء إلينا شاب واستأجر غرفة في منزلنا . لقد جاء إلى « كاثمندو » في عمل يستغرق أسبوعين . لا تسأليني كيف حدث كل هذا خلال أسبوعين فقط . كيف لي ان اخبرك وأصف لك شخصيته ؟ كان من الممكن أن يكون ريحا قوية أو عاصفة ، نعم ، كان غير عادي ! اجتذب زوجي إليه فأحبه واطمأن إليه بسرعة ، وصار الشاب يزورنا في غرفتنا المجاورة لغرفته . حتى أنني قلت لزوجي ذات مرة : « ما هذا ، إنه

● بيشوار براساد كويرالا ، كان من أبرز السياسيين في مملكة نيبال . مدافعا عنيدا عن الحرية والديموقراطية في الهملايا . وكان إلى جانب ذلك ، كاتب قصة ، وربما كان هذا من الأسباب التي أعانته على تحمل وحدة السجن لسنوات طويلة . وهذه القصة كتبها في أيام محنته التي امتدت نحو ثمانية أعوام في سجن كاثمندو .

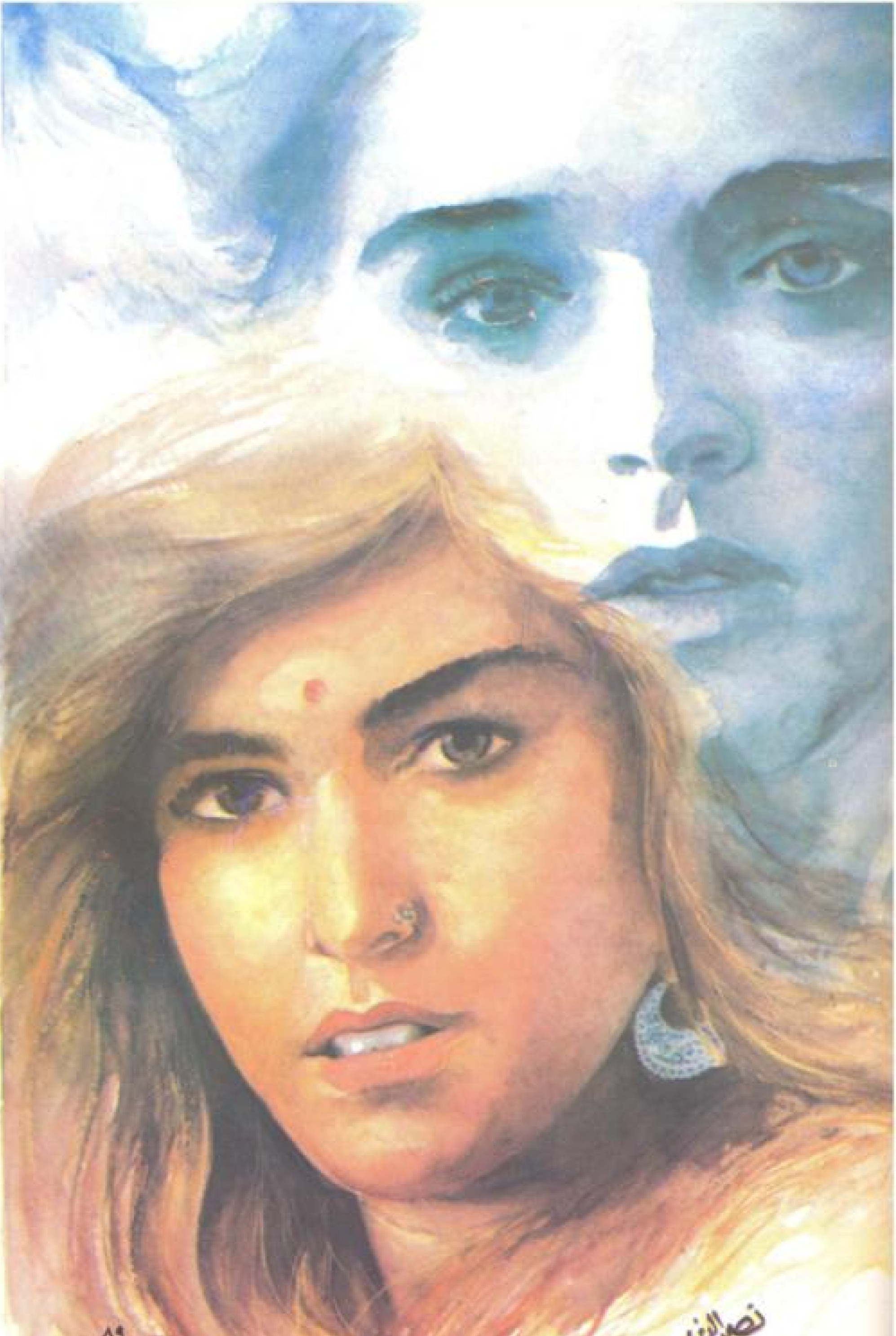
۸۹

يدخل حجرتنا بدون كلفة ؟ إني أشعر بارتباك ، كما إني لا أحب نظرة هذا الرجل نحوي ! »

لم يصغ زوجي اليّ ، وفي ذلك اليوم نفسه بدأت تجربتي المثيرة هذه !

كان بين غرفتنا وغرفة الشاب فاصل خشبي . وفي تلك الليلة ، في العاشرة ، لم يستطع زوجي النوم ، وكان هناك نور في غرفة الشاب ، فقام زوجي إليه ليسمر معه قليلا ، ولأمر ما لا أدري ما هو وضعت أذني على الفاصل الخشبي في محاولة لمعرفة ما يتحدثان عنه . أرادا التدخين ، فصاح زوجي يناديني ـ من غرفة الشاب ـ لأحضر لهم علبة السجاير . ظن الشاب أنني ربما أكون نائمة فقال : « سأذهب وأحضرها بنفسي . »

امتلأت بالخوف ، لم يكن لدي الوقت لأتظاهر بأنني غارقة في النوم . ولما دخل الشاب وسأل : « أين علبة السجاير ؟ » تناولتها من تحت الوسادة ومددتها نحوه بشيء من القلق .

اه يا عزيزتي ، لا أدري لماذا كانت يدي ترتجف ، رآها وبدلا من أن يأخذ العلبة تناول يدي المرتجفة بين يديه ، ما أغباني ! قلت له في الحال : « ماهذا ؟ ما الذي تفعله ؟ ماذا لو رآنا ؟! »

بدا وكأن هذه الكلمة أثارته فقال بجرأة : « من فضلك ، اعطني قبلة ! » ارتبكت ، وبجهد كبير قلت متوسلة : « أرجوك اتركني ، أتوسل إليك ، ليس الآن من فضلك ، في وقت آخر » . كنت مضطرة لذلك حتى يتركني .

وقف كتمثال لحظة من الزمن ثم ابتسم قائلا : « لا بأس . » وترك الغرفة .

عاد إلى غرفته ، وأخذ هو وزوجي في الحديث والتدخين . كنت أرتجف من البرد ، ولما عاد زوجي إلي سألته : « متى سيرحل ؟ »

أجاب زوجي « لماذا تسألين ؟ »

قلت لزوجي دون ان ابصّره بالعواقب . « إنه يبدو شريرا . »

سألني وقد أخذه الشك . « كيف ؟ »

حاولت تهدئة الموقف ، بقدر الإمكان ، فقلت :

« ألا ترى أنه يدخل غرفتنا ونحن معا بدون استئذان ، شيء مريب حقا ، كان هنا قبل لحظة ليأخذ علبة السجائر ! »

هدأت نفس زوجي ، وقال : « أنت امرأة كثيرة الشك ! كل الذي يريده أن يكون قريبا منا فقط ، فأخذت أنت تشكين في سلوكه ! »

في اليوم التالي كنت نازلة على السلم الخشبي ، ومعي جرة صغيرة أريد احضار بعض الماء لزوجي ، فوجدت الشاب صاعدا على السلم ، فاعترضني ، وقد مد كلتا يديه ، وهو يقول : « والآن أريد قبلتي ، ألم تعديني بها الليلة الماضية ؟ » فأجبته بارتباك : « هل تريد تفويض بيتي ؟ »

تساءل مندهشا « تفويض بيتك ! » وأضاف : « بتفوض بيتك بمجرد قبلة ، ماذا تقولين ؟ »

ـ «اسمح لي ، لقد تأخرت ، يجب أن أحضر الماء لزوجي ، من فضلك ! »

ـ « لن يأخذ الأمر طويلا ، أليس كذلك !؟ إنها قبلة فقط »

ـ فجأة شعرت نحوه بكراهية شديدة وقلت له محذرة :

ـ « أرجوك خلِّ سبيلي ، أم تراك تريدني أن أصرخ !؟ »

بدا واضحا أنه أصيب بدهشة كبيرة فقال مستفسرا :

ـ « هل أنت غاضبة ؟ »

شعرت وكأني قد سحقت ، وسمعت نفسي أقول مهمهمة :

ـ « ليس الآن ، في وقت آخر ! » ونزلت نحوه .

لوجه الحق ، ياعزيزتي ، اعترف بأنه على الرغم من وقاحته ، لم يحاول إجباري ، فبمجرد أن قلت « في وقت آخر » تركني أمضي في حال سبيلي .

تخيلي يا عزيزتي لو أنه أجبرني على أخذ ما كان يرجوه مني باصرار ؟ وللحق ، مرة اخرى ، اعترف بأنني تأثرت بهذا الأسلوب من تصرفه . لدرجة انني لا أستطيع وصفه اطلاقا بأنه شخص سيء .

بعد ذلك بيومين ، وبينما كان زوجي خارج المنزل

لبعض شأنه . كان جارنا الشاب يكتب في غرفته . لا أدري ماذا كنت أفعل من ناحيتي ، أروح وأجيء بين غرفة نومنا والمطبخ ، مارة بغرفته التي تقع بينهما . كان علي أن افعل ذلك مرات عديدة ، وأنت تعرفين يا عزيزتي كيف تكون حال المرأة وهي مشغولة في بيتها ، تلاقت أعيننا مصادفة ، فتوقف عن الكتابة حالا وسألني : « هل انت جاهزة الآن ؟ »

لم أرد عليه ، عدت إلى حجرتي وألقيت بنفسي على الفراش ، شعرت بارتخاء مفاجيء في قوتي ، لم أدر لماذا أحسست بأنني أريد أن أكتب رسالة . وبيد مرتجفة كتبت على قصاصة من الورق « سمعت بأنك ستغادرنا قريبا ، فلماذا تهتم بقبلة ، مجرد قبلة ؟ ثم ماذا هناك في القبلة ؟ »

قذفت بتلك القصاصة في غرفته . ومع انه لم يكن هناك أي داع للنوم ، اغمضت عينيّ وبقيت مضطجعة في الفراش . كان قلبي يخفق بسرعة ، وكان حلقي جافا .

ثم فجأة تغيرت حالته تغيرا كاملا . بقي في غرفته مع كتبه لم يتحرك ، كان سلوكه مثيرا للسخط ، وليس للغضب فقط . وصرخ قلبي في جوفي محنقا : « وأي حق له ؟ وكيف يجرؤ ؟ » لكنه ظل منشغلا في كتبه ، مكبأ عليها بشكل عجيب ، وبدون أن يتأثر بشيء مما حوله .

مرة أو مرتين تجرأت على دخول غرفته ، كان يرفع عينيه عن الكتاب ، ينظر إليّ نظرة مبهمة ثم يعاود المطالعة . لقد أغضبني سلوكه هذا كثيرا ، ملأني بالعار والاحتقار ، وكأنه ينزع إلى اذلالي .

وذات يوم ، وجدته مشغولاً كعادته في كتبه ودراسته . دخلت عليه غرفته ، نظر إليّ ببرود كما لو كنت تمثالا جامدا ، وعاد إلى مطالعته . انقضضت على الكتاب بين يديه ، اختطفته من فوق الطاولة ، ورحت أمزقه وأرميه قصاصات . دهش للأمر وأخذ يردد : ما الذي تفعلين ؟ ما الذي تفعلين ؟

كنت أمزق الكتاب وأنا ابكي وأقول : « خذ هذا ، وهذا ، وهذا ، أيها الشرير ، الوغد ، المخادع المحتال . »

وعدت إلى غرفتي ، وأخذت أبكي وأبكي ، وأقذف باللعنات لأصبها عليه من فوق الفاصل الخشبي ، لقد بكيت كثيرا ، كثيرا جدا حتى شعرت بأنني أخذت أنهار ، وأنني لا أقدر على التنفس .

دخل إلى غرفتي ، نظر إلي مندهشا وهو يقول : « ما الذي حدث لك ؟ أخبريني ، أرجوك »

وبكل ما بقي لدي من قوة صرخت في وجهه مشيرة باصبعي إلى الباب : « اخرج من هنا » أدار ظهره وترك الغرفة ، وعدت أبكي بمرارة لوقت طويل ، طويل جدا .

عندما عاد زوجي للبيت في ذلك اليوم سألته : متى سيغادر هذا الشاب الغرفة بجوارنا ؟ أرجوك ، اطلب منه أن يترك المنزل .

سألني زوجي إن كان قد أساء التصرف معي ، ولكن ماذا عساي أن اقول له يا عزيزتي اندراماليا ؟ أجبته ببساطة : « إنك تطيل البقاء خارج المنزل ، فأشعر بالحرج وأنا فيه مع رجل غريب ! »

في تلك الليلة شعرت بحب جارف نحو زوجي ، بحب دافيء جديد . غمر جوانحي وحواسي ، لم أشعر بمثله من قبل ، كانت تجربة عجيبة ، معجزة ، أحسست بعدها بسعادة تامة .

وحتى أكون صادقة معك ، ياعزيزتي ، أقول بأن حبي لزوجي قد بدأ فعلا في تلك الليلة . أما من ناحية الشاب ، فأنا لا اشعر بأي كراهية الآن نحوه ، وبصراحة فإنني شاكرة له . لقد غادرنا هذا اليوم ، وطول الوقت وأنا قلقة مرتبكة ، زوجي في الخارج ، وفي قلبي فراغ كبير .

إنني محتارة جدا الآن يا عزيزتي ، وهناك سؤال يدور في خاطري . كيف أصف ذلك الشاب الغريب ؟ هل كان حسنا أم سيئا ؟ إنه لغز محير ، وهذا ما يقلقني ! ؟

هنا توقفت تشوندرا كوماري عن الحديث ونظرت مستطلعة الى وجه مضيفتها اندراماليا التي كانت تنصت لها بدهشة وتعجب ، وفي خاطرها كذلك سؤال يتردد : « حسن ، ولماذا بعد كل ما حدث ، لا تزال تشوندرا قلقة ؟ » □

أبو جعل ..

خنفساء عُبِدَتْ !

بقلم : الدكتورة وسمية الحوطي

لم تحظ حشرة باهتمام الانسان مثل حشرة الخنفساء ، فقد استخدمها في أساطيره ودياناته القديمة ، والمصريون القدماء ألهوّا أبو جعل (الجعران) وعبدوه ، وبعض الشعوب تتفاءل بالخنفساء كمجلبة للحظ السعيد .

قال شارلز دارون :

« كلما سمعت باصطياد خنفساء شعرت بدنو الحرب وتناهى الى مسمعي صوت هرولة الفرسان على خيولهم ، استجابة لصوت البوق الذي يعلن بدء المعركة » .

تعتبر الخنافس من أكثر فصائل الحشرات عددا ، فهي تفوق الفراشات والنمل والنحل والذباب ، فهناك حوالي ٣٠٠,٠٠٠ نوع من الخنافس في مقابل ٤,٥٠٠ نوع من الثدييات التي ينتسب اليها الانسان . وسبب شيوع الخنافس تواجدها في جميع أنواع البيئات مثل الغابات والحقول والصحارى والكهوف والبيئات المائية العذبة والمالحة والبحرية وكذلك تناولها لأنواع مختلفة من الغذاء ، فمنها النباتية والحيوانية والمتطفلة والمفترسة .

الخنافس والأسطورة

عرف الانسان الخنافس منذ قديم الأزل ، وارتبطت بمخيلته عن طريقين ، أولها مباشر وهو

● أساور من الذهب من احد القبور الفرعونية ، مرسوم على الأساور خنفساء الروث والشمس بين يديها ، ومحاطة بالثعابين من الجانبين .
صورة (١)

● بعض الكنوز الذهبية التي وجدت في قبر توت عنخ آمون ، وتظهر فيها خنفساء الروث مع حيوانات أخرى مثل البابون (نوع من القردة).
صورة (٢)

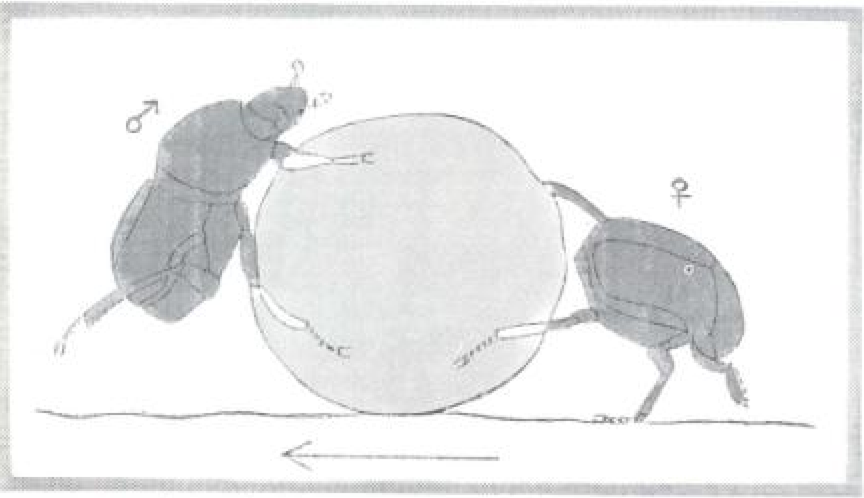

● ذكر وأنثى خنفساء السكراب يتعاونان على دحرجة كرة الروث ، لاحظ الأنثى على اليمين تدفع ، والذكر على الشمال يتعلق .

تأثيرها كآفات زراعية تأكل غذائه ، وتعيث فسادا في أثاثه وسجاده واستخداماتها في مجالات الطب الشعبي كمراهم لازالة كثير من الاعتلالات الجسدية والأمراض الجلدية كالبثور .

وثانيهما غير مباشر وذلك من خلال الفولكلور والأساطير القديمة التي دخلت الخنفساء في مكوناتها ، ولعل أساطير مصر القديمة الفرعونية منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد خير نموذج لذلك ، فقد اهتم فراعنة مصر بخنفساء السكراب (أبو جعل) حيث رأوها تمثل نسخة مصغرة جدا للحياة حولهم ، لقد علموا أن خنفساء السكراب تدحرج أمامها كرة كبيرة من الروث تدفنها تحت الأرض ، وبعد ذلك ، وفي كل سنة تظهر خنافس كثيرة في العدد تمشي على الارض وتشبه الأم التي دفنت تحتها الروث ، ولقد رأى الفراعنة اله الشمس « خبري » على هيئة خنفساء السكراب الكبيرة يدحرج الشمس بين يديه في طبقات السماء العليا أثناء حلول الليل ، ثم يعيد دحرجتها مرة ثانية حتى تشرق في صباح اليوم التالي ، فخنفساء الروث لديهم دلالة على اعادة الحياة والخلود بعد الموت ، لذلك وضعت منحوتات على شكل تلك الخنفساء في مقابر السلالات الفرعونية لضمان خلود أرواحهم بعد الموت . كما استخدمت خنفساء « الروث » كرمز في الكتابة الهيروغليفية (اللغة المصرية القديمة) لتعني لديهم « يصبح » فمثلا وجدت نسخة من تلك الكتابة على قبر اخناتون ، وتعني كما هو ظاهر في الرسم المصاحب للمقال « يصبح ـ شمس ـ جميل » . كما استعملت خنافس السكراب في عمل الأساور الذهبية في عهد الفراعنة ، وقد وجدت كثير من هذه الكنوز في مقبرة توت عنخ آمون كما هو واضح في الصورة رقم (١ ، ٢) .

كما يؤمن الجنود الرومان ايمانا راسخا بمقدرة تلك الخنافس على حمايتهم أثناء الحروب ، لذلك يلبسونها كتعويذات قبل البدء في أي معركة حربية ، كما تأخذ الخنافس مكانة مرموقة في أساطير أمريكا اللاتينية ، حيث تعتقد احدى قبائل جنوب أمريكا بأن هناك خنفساء خلقت العالم بأرضه وسمائه ، وخلقت الرجال والنساء من حبات جمعتها من تربة الأرض . وفي أوروبا العصور الوسطى ، دخلت الخنافس الفولكلور الشعبي ، حيث يرى بعض الأوروبيين

أن خنافس شبيهة بخنافس السكراب تجلب الشقاء وسوء الطالع،وبمجرد قتل تلك الخنفساء تحل العواصف والأعاصير التي تدمر الأرض وماعليها ، ولكن يمكن للفلاح أن ينقذ نفسه وبيته ومحصوله من تلك العواصف بمجرد أن يقوم بمساعدة خنفساء تحبو على ظهرها بضعف في مزرعته ، ويعتقد الأيرلنديون بأن الخنافس يمكن أن تقتل بمجرد النظر ، أو أن تكون سببا لحلول اللعنة بمجرد رفع ذيلها ، وبعض الخنافس لديهم تسبب الحرائق التي تأتي على اليابس والأخضر ، لأنها تطير على سقف المنزل حاملة بين فكيها قطعة من الفحم المشتعل لترميها على ذلك المنزل ، ليحترق بمن فيه ، لذلك يستعملوا رأس وفكوك هذه الخنافس كتعويذة تجلب الحظ السعيد في البيت . ولاتزال هذه القلائد تباع في اسطنبول الى وقتنا الحاضر ، وفي استراليا والمانيا الغربية والسويد ترى الخنافس كساحرات قرينات للشيطان .

مجلبة للحظ السعيد

وليس كل الخنافس لها سمعة شريرة ، فهناك بعض الخنافس التي تجلب الحظ السعيد وتكون مصاحبة للسيدة العذراء عند المسيحيين وليس للشيطان مثل خنفساء الدعسوقة ، وهي خنفساء صغيرة مستديرة برتقالية اللون مرقطة الجناحين باللون الأسود احيانا ، تقول الأم الانجليزية عندما تضع طفلها في المهد لينام ، « يادعسوقه يادعسوقه طيري الى بيتك يادعسوقة ان بيتك مضطرمة فيه النار وأولادك ستحترق يادعسوقه » . ومنشأ هذه الاغنية أن الفلاح الانجليزي يحرق محصوله بعد الحصاد وتكون الدعسوقة ويرقاتها (اولادها) مازالوا على تلك المحاصيل . يتفاءل الناس بالدعسوقة خصوصا عندما تحط عليهم ، وتسمى في بعض المناطق بخنفساء الرب ، وفي ايطاليا براعية الرب ، وفي الهند براعية أندرا،والتسميتان الأخريتان تبينان مدى العلاقة بين الدعسوقة وحشرة المن ، فحشرة المن هي التي وفرت لبني اسرائيل وهم في التيه ـ كما ورد في سورة البقرة آية ٥٧ ـ الندوة العسلية وهي مادة سكرية تفرزها حشرة المن على الاشجار ، وعندما تكثر حشرات المن تكثر معها الدعسوقة لأن الأخيرة تفترس الأولى ، فكأن الخراف ترعى الكلا والعشب ، والدعسوقة ترى المن وتتغذى عليه والمن من الرب كما ورد في الآيات .

خنفسة الجيون وحصن الداء

وفي الكويت ، هناك أنواع مختلفة من الخنافس منها « الجبون » وهي خنافس سوداء ذات ارجل طويلة تراها تجري في الصحراء بسرعة كبيرة ، وكان اولاد الكويت قديما يصطادونها وكل واحد منهم يصبغ جبونه بلون معين ثم يضعون خط على الأرض تقف عليه الخنافس،ويبدأ السباق بينهم والذي يفوز جبونه يأخذ الجائزة . وفي الكويت أيضا « حصن الداب » وهي الخنفساء الكبيرة السوداء المنقطة بالأبيض وتسمى في بعض الأحيان بخنفساء الدومينو ، كما توجد « ام زيد » وهي حشرة سوداء لها خطوط بيضاء كان الأطفال يغنون لها « أم زيد فتحي جناحك » ويلمسونها فتطير بعد أن تخرج جناحها الأبيض . والأم الكويتية عندما تريد لطفلها ان ينام تقص عليه قصة الخنفساء الجميلة التي زارت المدينة ، وطلبها كثير من الخطاب الذين كانت تردهم بدلال،وتقول القصة « خنيفسه خنيفسه شنوا جابك على درب المدينة تتجسنا » فترد الخنفساء « انا الشمعة وانا اللمعة وانا سراج البيت ليلة الجمعة » .

يسمى الكويتيون الخنفساء بالخنيفسية وهو تصغير لاسم الخنفساء ، ويعتقد الكويتيون ان من يلمس الخنفساء يشم رائحة كريهة تنبعث منها ، ولذلك فهم لا يلمسونها ويبعدونها عن مجالسهم ، ويلتقطونها بالملقط او بالعصا ، اما منشأ أنها الشمعة التي تضيء البيت ليلة الجمعة فلأن العلماء أثبتوا أن كثيرا من الخنافس الليلية تضيء اثناء الليل ، وهذه طريقة للتخاطب والتفاهم بين تلك الخنافس .

ويستعمل الكويتيون يرقات الخنافس لصيد الطيور ، وتسمى « الغي » والجمع « غياي » وتوضع في الفخاخ حية ليراها الطير تتحرك لينقض عليها وتطبق عليه المصيدة حينئذ .

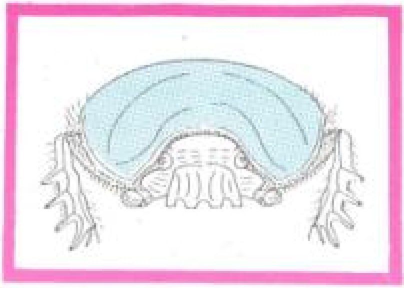

● رأس خنفساء السكراب من الأمام لتوضيح الرأس والأرجل المسننة .

● الحفر التي تجهزها خنافس السكراب لدفن البيض في الروث الذي تجمعه (البيض باللون الأسود والروث باللون المنقط) .

خنفساء أبو جعل :

كما أسلفنا من قبل ، فخنفساء أبو جعل تقوم بتكوير الروث أو براز الانسان ثم تدفنه في أنفاق تعدها تحت الارض لتكون سمادا طبيعيا فيما بعد .

والاسم الشائع لخنفساء أبو جعل هو خنفساء السكراب التي تشتهر بجمع السكراب أو الروث وهي البقايا على شكل كرة تقوم بدحرجتها لمسافات قد تطول لتدفنها في الأرض وتتغذى عليها اليرقات عندما تفقس من البيض .

عندما تصل الخنفساء الى روث الحيوانات تأخذ منه غرفة بمساعدة رأسها وأرجلها الامامية المسننة ثم تكور الروث بأرجلها الوسطى والخلفية على هيئة كرة قد تصل في حجمها الى حجم التفاحة وهي تقوم بتكويره على هذا الشكل حتى تسهل دحرجته لمسافات طويلة لتدفنه في الحفرة التي تقوم بحفرها تحت الارض ، واذا كانت الحفرة غير بعيدة عن الروث فلا تجعله على شكل كرة ، ولكنها تحمله على دفعات صغيرة .

عندما تنتهي الأنثى من تكوير الروث تقوم بحمله بين الارجل الخلفية مع رأسها الى أسفل ، فحركة الأرجل الخلفية تدحرج الروث أما الأرجل الامامية فتستعمل للمشي ، وعندما تكون الأرض غير مستوية تكون عملية المشي كسباق الماراثون من حيث الجهد الذي تبذله الحشرة . وفي بعض الحالات تتعاون حشرتان في هذا العمل كما في الصورة ، وتكون الخنفساء الثانية منجذبة لرائحة الروث الذي جلبته الاولى وقد تكون الخنفساء الثانية هي الذكر الذي قد يساعد الانثى في حمل ودحرجة الروث بالارجل الخلفية ، أما الذكر فيكون رأسه الى الأعلى ويدحرج الروث بأرجله الامامية ، وفي هذه الحالة قد تتدحرج كرة الروث في حلقة مستديرة وليس للأمام ، وقد لاتساعد الخنفساء الثانية ولكن تؤخذ الدحرجة أو المساعدة كفرصة للعب حيث تقفز الى الأعلى وتكون عبئا اضافيا على الخنفساء الأولى .

وعندما يصل الروث الى الحفرة ـ التي عادة ماتكون في مكان ظليل ـ تكمن فيه خنفساء الروث بعد غلق الباب عليه ، ويتعاون أحيانا الذكر والانثى من أبو جعل بعمل تلك الحفرة ، فتحفر الانثى خندقا بعمق ١٨ بوصة ـ ٢ قدم وتخصص غرفا خاصة لتربية البيض ، ويقوم الذكر بمناولة الروث للأنثى التي تقوم بدورها بعجنه وتقطيعه على شكل كتل صغيرة الحجم على شكل النقانق تضعها في غرف التربية ، وتضع كل قطعة في حجرة مستقلة ثم تقوم بوضع بيضة واحدة مع كل قطعة ، ثم تغطى البيض بالروث ويبقى الأبوان مع البيض حتى يفقس الى يرقات ، ويكون دورهما حينئذ مقتصرا على اصلاح ما يتعرض للتلف في حفرتهم ومنع ظهور الفطر على الروث بتنظيفه □

وجهاً لوجه

د. علي الوردي ⊝ د. جليل العطية

- للأعراف الشعبية سطوة على العقول ؟
- "الطبيعة البشرية" من أعقد الموضوعات وأصعبها ؟
- العقل البشري .. عقل متحيز ؟
- الانسان ـ بوجه عام ـ "أنوي" وليس أنانيا .
- دعوة الى الغاء ثلاثة أرباع النحو العربي !!

الدكتور علي الوردي مفكر وعالم اجتماع بارز ، بدأ نشاطه الفكري منذ بواكير الثلاثينيات ، ولايزال حتى اليوم يواصل الابداع والتبشير بنظرياته التي تعتمد على تحليل بنية المجتمع العربي عامة والعراقي خاصة ، تقوم فلسفته على التبسيط والموضوعية ، فقد أولع منذ صغره بعلم النفس الاجتماعي ، وهويرى أن علم الاجتماع مازال عاجزا عن فهم طبيعة الانسان على حقيقتها .

تثير كتابات الوردي جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والاجتماعية ، وقد صدر له تسعة مؤلفات أهمها « لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث » ويقع في ثمانية أجزاء ولم يتم بعد ، وقد وجدت هذه الكتب رواجا شعبيا كبيرا ، وترجم بعضها الى الألمانية والانجليزية والاسبانية والفارسية والبولونية وغيرها .

هو شخصية مثيرة للجدل ، يكفي أن نشير الى صدور اثني عشر كتاباً في الرد على آرائه وتحليلاته ، وهذا أمر نادر !

تذكرك شخصيته المتواضعة وتألقه وروحه الشابة بأبي حيان التوحيدي وغيره ممن عاشوا في أزهى عصور الحضارة العربية !

وهو يحمل على كتفيه اليوم هموم خمسة وسبعين عاماً ، وقد أدار هذا الحوار معه الدكتور جليل العطية .

- منذ نحو عشر سنوات وأنت غائب عن المسرح الفكري ، وقد قيل الكثير عن أسباب هذا الغياب ، وعلمت أخيراً أنك عاكف منذ أمد بعيد على تأليف كتاب جديد يتناول « طبيعة البشر » ولمعرفتي بهمتك وصبرك على التأليف ، فإنني استغرب أن يتأخر كتابك الجديد ، الذي يتشوق له كثير من قرائك والمعجبين بك .. فهل لك أن تبين لنا أسباب هذا التأخير ؟

● لا أكتمك أني أعمل في تأليف هذا الكتاب منذ أكثر من خمس سنوات ، هناك سببان لتأخير صدوره ، أولها كبر سني وضعف صحتي ، بحيث أصبحت لا أقوى على العمل أكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم ، أما السبب الثاني فهو صعوبة موضوعه ، ولا يخفى عليك أن طبيعة البشر هي من أصعب المواضيع النفسية والاجتماعية ، إن لم تكن أصعبها جميعا ، فهي موضوع متشعب ومعقد الى أبعد الحدود ، والواقع أني كلما توغلت في دراسته شعرت بأني لا أزال في أول الطريق ، وكلما بحثت في جانب منه ظهرت أمامي جوانب أخرى تحتاج الى بحث .

ظهرت في موضوع الطبيعة البشرية نظريات متعددة ، كما نشرت فيه دراسات لا تحصى ، وأعترف لك أني أشعر بالعجز تجاه تلك النظريات والدراسات ، فهي في غاية الصعوبة ، بل من المستحيل استيعابها كلها ، أضف الى ذلك أنها قد تتعارض وتتناقض ، وهذا يقف الباحث حائرا لا يدري ماذا يأخذ منها وماذا يترك .

كذلك يجب أن لا ننسى أن العلوم التي تبحث في الطبيعة البشرية ، كعلم النفس وعلم الاجتماع ، هي من العلوم الحديثة جداً ، فهي لم تأخذ بالمنهج العلمي إلا منذ قرن واحد أو أكثر قليلاً ، ويمكن القول إن هذه العلوم مازالت تحت التأسيس ، وذلك لما فيها من نظريات ودراسات مختلفة أو متعارضة .

حاولت قدر جهدي أن أدرس النظريات المختلفة في هذا الموضوع ، ولكن طاقتي محدودة ، كما أن اتصالي بالأوساط العلمية في الخارج محدود كذلك .

إن الذي دفعني الى الاستمرار في دراسة الطبيعة البشرية هو ما انتشر بيننا من مفاهيم مغلوطة حول هذه الطبيعة ، وهي المفاهيم التي ورثناها في

الماضي ، وأضرت بنا كثيرا من الناحية النفسية والاجتماعية ، ولا يزال الكثيرون منا ـ من المثقفين والعوام ـ يتداولون هذه المفاهيم ويتأثرون بها في علاقاتهم الاجتماعية ، دون أن يدركوا مبلغ الخطأ فيها أو فداحة الضرر الناتج عنها .

نماذج من الأخطاء

ـ هل لك أن تقدم لنا نماذج من تلك المفاهيم المغلوطة والضارة وأنت تعلم بأن جيلنا يعيش ظروفا مختلفة ، وبالتالي فإنه يعيش بعقلية أخرى وقيم مختلفة ، فما رأيك ؟

● لا يتسع المجال هنا لتعداد تلك المفاهيم ، وقد يكفي أن أذكر اثنين منها على سبيل المثال :

أحد هذين المفهومين هو الذي نسميه « العقلانية » ونعني به اعتبار الانسان حيوانا عاقلاً ، وأنه يجري في تفكيره وسلوكه حسبما يقضي العقل الواعي والمنطق السليم .

فإذا أردنا اقناع انسان بتبديل رأي له أو عقيدة ، فليس علينا إلا أن نقدم له الدليل العقلي الواضح الذي سيقتنع به حالا فيغير رأيه أو عقيدته ! أما إذا لم يفعل ذلك فهو لابد أن يكون متعصباً أو معانداً أو مغرضاً ، وهو في هذه الحالة يستحق العقاب أو التوبيخ .

أما المفهوم الثاني ، فهو الذي يتمثل في المبدأ القائل « من جد وجد » ومعناه أن كل انسان قادر على أن يصل الى ما يطمح إليه من نجاح أو عظمة ، بمجرد أن يبذل الجهد ويسعى ويناضل ، فالطريق مفتوح أمامه حسبما جاءت به الأمثال المأثورة نحو « كل من سار على الدرب وصل » و « كل من جال نال » و « من طلب العلا سهر الليالي » و « وهم الرجال تزعزع الجبال » وغيرها .

العقل البشري متحيز

ـ اسمح لي أن أخالفك في هذين المفهومين : فالعقلانية هي السمة التي تميز الانسان الواعي ، أما مبدأ « من جد وجد » فهو يعني أن على الفرد ـ خاصة الذي ينحدر من الطبقة العاملة أو المحدودة الدخل ـ أن يعمل لكي يتبوأ مكانته في المجتمع ، ولدينا شواهد كثيرة تؤكد أن أبناء فقراء تسلقوا أعلى مراتب المجد والسلطة . .

● إن النظرة الحديثة تعتبر العقل البشري أنه متحيز ومحدود بطبيعته ، وهذه النظرة على النقيض من النظرة الفلسفية القديمة التي كانت تثق بالعقل ثقة مطلقة وتبالغ في تمجيده وتقديره .

نحن لا ننكر أن العقل جهاز عظيم ، وهبه الله للإنسان وهو أهم ما يميزه عن الحيوان ، ولكننا إذ نعترف بذلك يجب أن لا ننسى أن العقل له حدود يقف عندها ، فهو عظيم في نطاق تلك الحدود ، وهو عاجز مشلول اذا خرج منها .

انتشرت بيننا أقاويل عديدة حول العقل وتمجيده ، وهي أقاويل ورثناها من الماضي ، وقد اتسع نطاق تداولها حتى وصلت الى العوام ، فأنت لا تكاد تتحدث الى أحد من العامة حتى تراه يشير الى مخه ويقول : « الله بأي شيء عرفناه ؟ بالعقل » ! أو يقول « الله أعطانا عقلا لكي نميز به الأمور ، أو ما يشبه ذلك » .

إن هذا الإنسان البسيط لا يدري أنه عرف الله لأنه نشأ في بيئة اجتماعية تعبد الله ، سبحانه وتعالى ، ولو أنه كان قد نشأ في بيئة تعبد الأوثان لعبدها مثل غيره من أبناء بيئته ، وهذا لا يصدق على العوام فقط بل يصدق على كثير من المثقفين أيضاً !

إن الإنسان حين يفكر يتصور أنه يجري في تفكيره حسبما يقضي به المنطق السليم ، وأنه حر مختار في تفكيره لا تأثير لأي مؤثر آخر عليه ، فهو لا يدري أن هناك عوامل لا شعورية متعددة تلعب دورها في تفكيره .

إذا تجادل اثنان حول رأي من الآراء ، فمن النادر أن ينتهي الجدال بينهما الى اتفاق ، فالدليل الذي هو قوي واضح في نظر أحدهما قد يكون واهيا أو غامضا أو غير معقول في نظر الآخر ، فكل منهما ينظر في

الأمور من خلال الإطار الذي وضعته العوامل اللاشعورية حول تفكيره ، فأنت تقول عن دليلك الواضح أنه كالشمس في رابعة النهار ، ولكنك لا تدري أن خصمك قد يكون أعمى أو هو في غرفة مظلمة ، أو أن إطاره الفكري جعله ينظر نحو جهة ليس فيها شمس ، وفي مصداق ما ورد في القرآن في قوله تعالى : « إنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور » أو قوله تعالى : « أكثرهم لا يعقلون » . المائدة (١٠٣)

علينا أن نضع ذلك أمام أعيننا عندما نريد أن نتعامل مع الناس ، أو نحاول اقناعهم برأي من الآراء . فإن الذي يتعامل مع الناس بوصفهم عقلاء كثيراً ما يفشل في حياته ، وهو عند فشله قد يلوم الناس على ما فعلوه به ، ولكنه أجدر باللوم منهم .

التراث

ـ أنت تقول أن هناك عوامل لا شعورية تؤثر في تفكير الإنسان من حيث لا يدري بها ، فما هي هذه العوامل ، وكيف يؤثر كل واحد منها في التفكير البشري ؟

• العوامل اللاشعورية المؤثرة في تفكير الإنسان متعددة أذكر أهمها :

التراثية ، وأعني بها ما يدل عليه مصطلح (Culture) المعروف في علم الاجتماع ، أي مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والأعراف والتقنيات والحرف الموجودة في مجتمع معين التي يتميز بها كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى ، فلكل مجتمع تراثه الخاص به ، كما أن لكل فرد شخصيته الخاصة به ، فالإنسان ينشأ منذ طفولته الباكرة في تراث معين ، واذا ظل في كبره قابعا فيه ، فإن تفكيره يكون مصبوبا في قوالبه التقليدية ، فالقبيح قد يكون في نظره حسنا ، والحسن قبيحا تبعا لتراثه وقيمه التي نشأ فيها ، فنحن قد نرى في بعض المجتمعات معتقدات أو تقاليد مستهجنة في نظرنا أو غير معقولة ، ولكنها صالحة ومعقولة في نظر الذين نشأوا فيها .

يقول العالم الاجتماعي سمنر في كتابه « الأعراف الشعبية » إن الأعراف الشعبية تستطيع أن تجعل أي شيء حسناً وأي شيء قبيحاً ، وهذا هو أحد النواميس الاجتماعية التي يجب أن يعرفها كل من يريد معاشرة الناس والتعامل معهم .

يروى عن الاسكيمو الذين يسكنون بالقرب من القطب الشمالي أن من تقاليدهم التراثية أن الضيف الذي ينزل في بيت أحدهم يجب أن ينام مع زوجة المضيف في فراش واحد !

إن هذه عادة اجتماعية نشأ عليها الفرد من هؤلاء القوم ، فلا يجد فيها منقصة أو عاراً ، ولكنها في نظر البدوي أمر لا يمكن تصديقه ، فالبدوي كما هو معروف من أكثر الناس إهتماماً بعفة المرأة وصيانتها ، وقد اعتاد أن يقتل المرأة التي تحوم الشبهة حول سلوكها ، وهو لذلك لا يستطيع أن يصدق ما يقال له عن تقاليد الاسكيمو حول المرأة ، إنه لا يدري أنه لو كان قد تربى وفق تراث الاسكيمو لغضب من الضيف الذي يرفض النوم مع زوجته !

المصلحة الخاصة . . والعاطفة

الانسان اذا كانت لديه مصلحة خاصة في أمر من الأمور أصبح عقله متحيزا نحو ذلك الأمر من حيث يدري أو لا يدري ، وهذا هو ما نلاحظه واضحا في قاعات المحاكم ، فالشخص الذي لديه قضية معروضة أمام احدى المحاكم يكون تفكيره منصبا على نجاح تلك القضية ، وهو يأتي في سبيل ذلك بمختلف الأدلة والبراهين التي تؤيد دعواه ، فإذا أصدر القاضي حكمه في مصلحة صاحب القضية صار في نظره أعظم القضاة في الدنيا وأكثرهم عدلا ونزاهة ! أما إذا أصدر القاضي حكمه بخلاف ذلك فإنه ينقلب حالا الى أسوأ قاضي .

ومن الممكن أن نقول عن العاطفة مثلما قلناه عن المصلحة الخاصة من حيث تأثيرها في تفكير الإنسان ، وكثيرا ما تتوحد المصلحة والعاطفة في الإنسان فتجعله يرى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، فالإنسان يحب الذي يساعده في أمر من الأمور أو يحسن اليه ، ولكنه لا يكاد يراه قد نافسه في

المهنة أو المكانة الاجتماعية حتى يبدل نظرته اليه من الحب الى الكراهية ، وعندها تتحول محاسنه الى مساويء بعدما كانت عيوبه قد تحولت الى محاسن ، يقول الامام الشافعي في بيت له من الشعر مشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

التجارب المنسية والأنوية

قد تمر بالإنسان تجربة مؤلمة أو سارة تجاه أمر من الأمور ، ثم ينسى الحادثة ، ولكن ذكراها تبقى كامنة في لاشعوره ، فإذا رأى شخصا أو شيئا يذكره بتلك الحادثة شعر بالبغض أو الحب له ، وكثيرا ما يؤثر ذلك على تفكير الإنسان تجاه الآراء أو المباديء أو الاتجاهات الثقافية أو السياسية .

أما الأنوية : فهي شعور الإنسان بذاته ـ أي بالأنا ـ تجاه الآخرين ، فالأنا محور الشخصية البشرية ، وكل إنسان يسعى دائما نحو رفع مكانة « الأنا » في نظر مجتمعه ، وهو قد يدوس في بعض الأحيان على مصلحته أو عاطفته من أجل الأنا ، وأنت تستطيع أن تجعل منه صديقا مخلصا إذا أجزلت له الاحترام والمديح ، كما تستطيع أن تجعل منه عدوا لدودا إذا احتقرته أو أهنته .

وللمعرفة دور مهم ، فالإنسان يكذب الأمور أو يصدق بها حسبما تملي عليه معلوماته التي يملكها تجاه تلك الأمور ، خذ ـ مثلا ـ الأمي الذي يعيش في قرية بدائية منعزلة ، فهو يرى الأرض مسطحة ، والشمس تدور حولها ، ومن المستحيل أن تقنعه بخلاف ذلك ، وهو قد يعدك مجنونا أو جاهلا لأنك في نظره تنكر بديهية من البديهيات العقلية التي لا يجوز الشك فيها ، وهذا لا ينطبق على الأمي البدائي فقط ، بل هو يشمل أيضا البشر جميعا حتى العلماء منهم ! إذا نظرنا الى الأمر نظرة نسبية . فكثيرا ما وجدنا العلماء في القرن الماضي يعتبرون بعض الأمور مستحيلة ، ثم أصبحت في هذا القرن ممكنة .

الذكاء . . . الجنون

الذكاء على درجات متفاوتة في الأفراد ـ كما هو معروف ـ فهناك المتفوقون في ذكائهم ، والمتخلفون فيه ، والمتوسطون ، ولا حاجة بنا الى القول أن الذكي يفهم الأمور بشكل يختلف فيه عن الغبي .

وكثيرا ما يشعر المتفوق في ذكائه بأنه غريب بين الناس ، أو أنه غير قادر على إقناع غيره بصواب رأي من الآراء ، وهو قد يجلب نقمة الناس عليه لاختلافه عنهم في التفكير ، وهم قد يحتقرونه أو ينبذونه .

وما يقال عن درجات الذكاء يقال عن درجات الجنون ، فالناس كلهم مجانين ! إنما هم يتفاوتون فيما بينهم في درجة جنونهم ، فليس في البشر عاقل كل العقل ، أو مجنون كل الجنون ، وأكثر الناس لديهم من الجنون درجة ضعيفة ، وفي مقدورهم ترويضها والسيطرة عليها .

أما الذين نسميهم « مجانين » فهم الذين بلغ بهم الجنون درجة قوية بحيث لا يستطيعون السيطرة عليها ، وهذا يؤدي بنا الى القول إن الكثيرين من الذين نحسبهم عقلاء هم ليسوا عقلاء تماما ، فكل واحد منهم لابد أن يكون في عقله شيء من الخلل الذي يجعله يفهم الأمور بخلاف ما يفهمه الآخرون قليلا أو كثيرا .

يجب أن نضع هذه العوامل أمام بصرنا عندما نريد التعامل مع الناس أو مجادلتهم .

فأنت حين تريد أن تقنع شخصا بصحة رأي من الآراء لا يكفي أن تقدم له الدليل العقلي في ذلك ، بل يجب أن تتسلل الى تفكيره عن طريق هذه العوامل ، بعضها أو كلها ، ومعنى هذا أنك يجب أن تتسلل اليه عن طريق تراثه أو مصلحته أو عاطفته وأنويته أو غيرها ، فالدليل لا يكون مقنعا إلا إذا كان منسجما معها على وجه من الوجوه ، ويجب أن لا تنسى أن هذه العوامل قد تكون متعارضة في بعض الأفراد ، وليست هي في تناسق دائم ، وهذه ثغرة يمكن التسلل منها الى داخل تفكير الإنسان .

الأنوية والأنا !

ـ يلاحظ أنك تكثر في بعض دراساتك وأحاديثك من ذكر « الأنوية » ، وهذا المصطلح غير معروف في الوطن العربي ، فهل جاءت نسبته من « الأنا ؟ » نعرف أن

النظرية الحديثة لدراسة طبيعة الانسان تذهب الى اعتبار « الأنا » محور الشخصية البشرية .. في هذه الحالة كيف تحلل الفرق بين « الأنا » و « والأنانية » ؟ !

* « الأنوية » « كالأنانية » منسوبة الى الأنا ، ولكن هناك فرقا بينهما في المعنى ، فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو أنها هي التي تجعل الإنسان يهتم بمصلحته ، ولا يهتم بمصلحة الآخرين ، أما « الأنوية » فهي تعطي معنى آخر ، اذ هي تعني شعور الإنسان بذاته ـ أي الأنا ـ تجاه الآخرين ، وهذا الشعور يجعل الإنسان في دأب متواصل نحو رفع مكانة الأنا في نظر المجتمع .

إن الإنسان بوجه عام « أنوي » وليس أنانيا ، ونحن لا ننكر وجود أفراد غير أسوياء ، تظهر فيهم الأنانية ، ولكن هؤلاء قلة قياسا الى غيرهم من الناس ، فالإنسان السوي في الواقع كثيرا ما يخدم الآخرين ، ويضحي من أجلهم بغية نيل تقديرهم ، أي بقصد رفع مكانته في نظرهم ، وبعبارة أخرى : إن الإنسان يجد من مصلحته أن يخدم مصلحة الآخرين ، فهو فرد في مجتمع ، يسعى دائما الى رفع مكانته في نظر الآخرين ، وهو يشعر بالسعادة في ذلك ، وكلما ازداد ارتفاع مكانته ازدادت بذلك سعادته .

إن النظرية الحديثة في طبيعة الإنسان هي أن « الأنا » محور الشخصية البشرية ، ويؤسفني أن أقول أن هذه النظرية لم تعرف في اللغة العربية إلا في نطاق محدود ، ولايزال الكثيرون من الكتاب العرب واقفين تحت تأثير مرحلة فرويد ويونغ وأدلر ولم يتجاوزوها ، هذا مع العلم أن نظريات هؤلاء أصبحت من النظريات العتيقة التي عفا عليها الزمن .

ـ ماذا تقصد بقولك إن « الأنا » محور الشخصية البشرية ؟ هل هذا يعني « أننا نرجسيون » بالطبيعة ؟ هل « الأنا » يكتسبها الفرد من أفراد المجتمع أم أنها تنشأ لديه منذ الطفولة .. وهل كانت « الأنوية » معروفة قديما ؟

* إن الإنسان بوجه عام يركز معظم تفكيره حول « الأنا » ، وكيف ينظر الناس اليه ، وهو يشعر بالغبطة حين يرى الناس يقدرونه ويعجبون به ، كما يشعر بالامتعاض حين يرى الناس يحتقرونه أو ينظرون اليه باشمئزاز أو إهمال ، وقد يصح أن أقول إن معظم نشاط الإنسان في حياته يدور حول هذه النقطة ، فهو يسعى دائما من أجل أن يكون موضع فخار لا موضع عار !

يقول المثل البدوي القديم « النار ولا العار » ، ومازال هذا المثل منتشرا وقوى الأثر في المجتمع البدوي حتى الآن ، ومعناه أن البدوي يُفضل دخول النار في الآخرة على كسب العار في الدنيا ، فالعار لا يمكن أن يحتمله البدوي في حياته على أي حال ، والواقع أن هذا ليس هو شأن البدوي وحده بل هو يشمل الناس جميعا على درجات متفاوتة .

إن الأنوية تظهر في الإنسان منذ طفولته الباكرة ، ومن علامات ظهورها في الطفل أنه يبتهج ويبدو عليه الزهو حين نمدحه ، كما يبدو عليه الإمتعاض حين نذمه ، ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه إذا قام به ونشجعه عليه .

والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال ، فنحن لا نكاد نمدح طفلا آخر بحضوره ، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك له ، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه ، وقد يبكي دون أن نعرف السبب الذي دفعه الى ذلك .

إن تجاهلنا « للأنوية » في الطفل كثيراً ما يؤدي الى تكوين العقد النفسية فيه ، فقد اعتاد الناس في مجتمعنا على مداعبة الطفل الصغير أمام أطفال آخرين أكبر منه ، إننا لا ندرك مبلغ الألم العميق الذي يشعر به الطفل من جراء ذلك ، إن أفراد العائلة كثيراً ما يفرحون بولادة طفل جديد لهم ، فيلتفون حوله ويضحكون له في حضور إخوته الذين هم أكبر منه ، غافلين عما يحدثه ذلك من أثر سيء في نفوسهم ، إن الطفل الجديد لم تتكون « أنويته » بعد ، وهو اذن لا يقدر اهتمامهم به ، بينما يشعر الأطفال الآخرون

بالغيرة منه ، وربما انتهزوا الفرصة فيما بعد للإساءة اليه انتقاما منه من حيث لا يقصدون أو لا يشعرون .

كانت التربية القديمة غافلة عن وجود « الأنوية » في الطفل ، فقد كانت تعتمد على العصا في تأديبه من جهة ، وعلى الموعظة الخطابية من الجهة الأخرى . . كان الأطفال عندنا يلعبون في الأزقة ، حيث تنشأ « أنويتهم » على أساس التفاخر بالقيم « الزقاقية » في الغلبة والإعتداء والسرقة ، كنا نتركهم ينشأون على هذا النمط ، ثم نأخذ بتوجيه مواعظنا الرتانة اليهم .

وهذا هو من عوامل نشوء الشخصية المزدوجة في البعض منهم ، أما « النرجسية » فإنها حُب الذات وهي شيء آخر .

يمكن إلغاء ثلاثة أرباع النحو !

- الحريصون على سلامة اللغة العربية ودعاة التشدد في استخدامها ، يتهمونك بضعف الأسلوب ، وقلة العناية بقواعد اللغة ، وخاصة النحو والإملاء ، وما أشبه ، والمعروف أنك نشأت في مدينة دينية تكثر فيها المدارس التقليدية التي تدرس فيها مختلف العلوم ومنها العربية ونحوها وصرفها . . فلم ابتعدت وخالفت ، وما هو تصورك لوظيفة اللغة ؟

● إن اللغة في مفهومها الحضاري الحديث وسيلة لا غاية ، ولعلني لا أغالي اذا قلت إن الذين يسعون لتجميد لغتهم ، وإبقائها على نحو ما كانت عليه قديما ، إنما هم يسيئون الى أمتهم من حيث لا يشعرون .

قال لي أحد المتحررين من الذين درسوا النحو دراسة مستفيضة : إن ثلاثة أرباع القواعد النحوية التي تدرس في مدارسنا يمكن أن تلغى دون أن يؤدي ذلك الى أي ضرر .

ومن الجدير بالذكر أن هذه القواعد الكثيرة التي تدرس في مدارسنا ، لم تنشأ نشوءا طبيعيا ، فالكثير منها قد اختلقها النحاة في العهد العباسي تحت تأثير المنطق الاغريقي وعوامل أخرى ، فأخرجوها بذلك عن السليقة الفطرية التي كان العرب الأولون يجرون عليها ، وبعبارة أخرى : إن العرب الأولين لم يكونوا يعرفون هذه القواعد المعقدة أو يتبعونها في أحاديثهم اليومية ، فهي قواعد غير طبيعية ، وليس من المعقول أنهم كانوا يعرفونها في الوقت الذي كانوا يتكلمون فيه على فطرتهم من غير تكلف وتصنع ، ولكن النحويين جاءوا بعدهم فصاروا يتنافسون في تطوير القواعد النحوية وتزويقها ، حيث صار ذلك حرفة لهم يرتزقون منها ويتباهون بها .

نستطيع أن نشبه القواعد النحوية التي طورها النحويون بالقواعد الفقهية التي طورها الفقهاء . . فنحن نعرف أن النبي (ص) جاء بتعاليم قليلة في شأن الطهارة والوضوء والصلاة والصوم والحج وغيرها ، ولكن الفقهاء جاءوا فطوروا تلك التعاليم وعقدوها بحيث أصبح من الصعب على الإنسان اتباعها بحذافيرها ، ومن يريد اتباعها حرفيا قد يصاب بداء « الوسواس » الذي لا يرجى شفاؤه ، ومن يقرأ المجلدات الضخمة التي كتبها الفقهاء في موضوع الطهارة وحدها يجد بحراً بلا نهاية . . وهذا هو الذي ثار عليه الشيخ محمد عبده في مصر والسيد محسن الأمين في الشام .

لقد دعوت دائما الى وجوب تقليص القواعد النحوية في لغتنا وتبسيطها ، وقد عانيت من هذه الدعوة ما عانيت ، وها أنا في أواخر عمري لا أبالي بما قالوا ويقولون ، وعزائي في ذلك قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (١٧) الرعد . □

● ان الكثير الذي ربحه العالم بالعقل ، لا يوازي ما خسره بسبب العقل أيضا .

(براتراند رسل)

« المرتجى والمؤجّل »

رواية من تأليف الكاتب العراقي غائب طعمة فرمان

بقلم : صلاح حزين

لا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ الرواية العراقية ـ تقريبا ـ هو تاريخ روايات غائب طعمة فرمان ، فمنذ أن كتب عمله الأول « النخلة والجيران » حتى روايته الأخيرة « المرتجى والمؤجل » وهو يسيطر على المشهد الروائي العراقي ، ليس من حيث تصويره الفذ للحياة البغدادية الشعبية في تحولاتها منذ الأربعينيات حسب ، بل من حيث إسهامه المتصل في تحويل هذه الحياة بملامحها الأساسية وتجلياتها المختلفة إلى موضوعات روائية لها ذلك السحر الذي يضفيه المؤلف على عوالمها وشخوصها ومسار أحداثها .

إن قارئ غائب يدهش مرتين ، مرة لأنه شاهد قطعة من بغداد الحقيقية تعود إليه نابضة بالحياة بشوارعها وأزقتها وأناسها ، ومرة لأن هذا البعث لقطعة الحياة القديمة أخذ شكلا آخر ومضمونا آخر ، واتخذ أبطال قصصه مسارات حكمها منطق جديد يمت إلى عالم الأدب المسرح وليس إلى عالم الحقيقة التي بقيت هناك في رحم الزمان الحقيقي للأحداث .

هكذا كانت روايته الأولى « النخلة والجيران » التي بعثت إلى الحياة تلك القطعة الحميمة والحاسمة من تاريخ العراق الحديث ، ونعني بها فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث يدخل الجنود الانكليز وجنود المستعمرات البريطانية ليبعثوا في سكان أحياء بغداد الشعبية ليس كراهية المستعمر حسب ، بل يبعثوا أيضا ذلك الحلم الجارف بالثراء السريع ، والتخلص من حياة الفقر والكد والتعب . فيبيع الحاج أحمد طوله (زريبة البهائم) ، وتتحول سليمة الخبازة التي تقيم في الحوش الملاصق للطولة إلى بيع الصمون (الخبز الافرنجي) ، ويتشرد مرهون السايس ، وحمودة العربنجي ، وتهرب تماضر من زواج لا تقبله ، ويتحول حسين ابن زوج سليمة الخبازة إلى بلطجي للحي بعد معركة

يتغلب فيها على البلطجي القديم ، وتكتمل دورة التغيير الاجتماعي الذي طرأ على العراق في تلك الفترة من التاريخ بانسحاق هذه الفئات الهامشية التي أعماها بريق الثراء الخادع عن رؤية واقعها البائس . وخلال الرواية تتوالى الأحداث على خلفية الوجود الانكليزي ، ليس عبر الجنود والمعسكرات فقط ، بل من خلال تلك الحالة التي يثيرونها في حياة شريحة من سكان بغداد الحالمين بالثراء . وفي « خمسة أصوات » يختار غائب بغداد ما قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث ترتسم صورة الرواية على ألسنة خمسة من شخصيات الرواية الأساسية الذين يشكلون عبر أصواتهم صورة العراق المضطربة قبيل الثورة ، ومن خلال هذه الأصوات ترتسم صورة الفساد والفقر والتخلف والعفونة .

وفي « المخاض » و « القربان » و « ظلال على النافذة » - وهي أهم رواياته قبل « المرتجى والمؤجل » - يتابع غائب رصده لتحولات الحياة الاجتماعية العراقية ، وهو رصد لا يهمل أبسط التفاصيل ، بل إن صورة التحولات الحقيقية تبدو أكثر ما تبدو في تلك التفاصيل اليومية البسيطة التي لم تغب عن غائب في غربته عن وطنه منذ أكثر من ثلاثين عاما .

أشياء الوطن الجميلة

من بين أعماله الأخرى تذكرنا رواية « المرتجى والمؤجل » برواية « خمسة أصوات » ، فالروايتان تنتميان إلى ما يسمى رواية الشخصيات . إذ كما في « خمسة أصوات » ينهض الحدث الروائي في « المرتجى والمؤجل » ، من خلال عدد من الشخصيات أيضا ، ولكن مقابل الخلفية القاتمة للفقر والفساد والانحلال والتهرؤ في « خمسة أصوات » تشكل الأصوات في « المرتجى والمؤجل » بنية الرواية على خلفية من الضجر والقلق والوحدة والحنين إلى أشياء الوطن الجميلة الحميمة . « فالمرتجى والمؤجل » هي أول رواية يكتبها غائب عن الغربة ، وليس عن قلب بغداد الشعبية ، ولكن - وهذه هي المفارقة - تظل بغداد بأحيائها وأزقتها ومعمارها وشخوصها وشطها ونخيلها حاضرة في الرواية كشأنها دائما ، وإن كان حضورها هنا على ألسنة المغتربين وفي أذهانهم ، وفي زيارات الأقارب القادمين من هناك ، وفي أشرطة التسجيل ، وفي الأغنيات ، وفي الليمون الحامض الذي يأتي مع زائرة من العراق فتحمل معها « رائحة الجنوب الريانة » وفي « كرزات مشكلة من

الموصل ، وحبة خضرة ، وسيبي » تعيد إلى ذهن المغترب حاضرة حية ، « أمسيات الشتاء الحلوة حين تقبع قرب المدفأة النفطية كالجرذ في اسطوانات أم الكلب صوت سيده » ، وكذلك في أناشيد الدراسة الأولى التي تستعاد في غربة تلف خريف العمر بقوة طاغية آسرة لا فكاك من لحنها المميز ذي الايقاع الطفلي البسيط .

عبر أكثر من شكل من أشكال القص يأخذنا غائب إلى عالم المغتربين العراقيين الذين وجدوا أنفسهم بعيدين عن وطنهم الذين غادروه لسبب أو لآخر ، دون أن يكون في استطاعتهم الانتماء إلى

عالم الغربة ، فهم وإن غادروا وطنهم إلا أن وطنهم لم يغادرهم . أما مكان الاغتراب فهو بساطة شديدة ليس وطنهم ، وحياة الغربة ليست إلا « انتظاراً لشيء سيحدث دون أن نعرفه على وجه التحديد . الحياة هنا لا تنمو ، بل تستطيل أياما وليالي مؤرقة مملة مملوءة بالكوابيس » هكذا يصف يحيى سليم المغترب القديم أيامه في « المدينة الحجرية الجادة أكثر من اللازم » مستلها حكمة صديقه ثابت حسين الذي حضر إلى المدينة لعلاج ابنه من إصابة في رأسه ، فيلتقي صديقه الحميم القديم ، وفي هذه الغربة المؤرقة يبدأ بينهما حديث الوطن الذي هو حديث الذكريات والهزائم وخيبات الأمل والمعارك الخاسرة ، لكنه أيضا حديث الطفولة الأولى ، وحديث سنوات التكوين وسنوات العشق الأول والتفتح على حياة ما لبثت أن أسلمته للغربة ، ليجد نفسه دون أن يدري يواصل فشله وهزائمه وخيبات أمله ومعاركه الخاسرة ، ويقضي أيامه في ضجر وملل « مترجماً منزويا بين الأوراق والكتب المفتوحة والقواميس » .

ويحيى سليم واحد من مجموعة المغتربين في تلك المدينة الحجرية التي لا يذكرها غائب بالاسم ، حيث يلتقي هؤلاء « الخرفان » ، كما يسميهم يحيى ، بينهم طالب الدراسات العليا الذي أدمن الدراسة صالح جميل ، وزميله في الدراسات العليا والغربة والفشل أيضا علوان شاكر ، وبينهم الرسام مظهر ، وحازم ذلك المغترب الغريب الأطوار الذي لا يكف عن إقامة الحفلات الوداعية التي يزعم بعدها أنه سيعود إلى الوطن ، لكنه يعدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة . ولكن من بين أصدقاء الغربة هؤلاء الذين يخففون وطأة غربتهم تلك بالشراب والثرثرة على المقاهي وفي المطاعم والحانات ، هناك تلك العلاقة الخاصة التي تربط يحيى سليم بالقادم من أرض الوطن لعلاج ابنه المعطوب ثابت حسين . وخلال لقاءاتهما وحواراتهما التي تستمر طيلة الرواية يقلب الاثنان صفحات كتاب الغربة ، ليكتشفا أن نص الغربة المكتوب على وجه كل صفحة من صفحات الكتاب يحمل على الوجه الآخر نص الوطن ، فالعلاقة بينهما هي شكل آخر من أشكال العلاقة بين الوطن والغربة ، بين اليأس والأمل ، بين الضجر من الحياة والتحايل من أجل استمرارها ، بين التمسك بها واستنفاد فرصها والاستفادة من احتمالاتها المتعددة .

وعلى الرغم من البساطة الظاهرة في بنية « المرتجى والمؤجل » إلا أن القارىء ما يلبث أن يكتشف أن هذه البنية أكثر تعقيدا مما تبدو لأول وهلة ، إذ يقدم غائب شخصياته الروائية ، التي تتحدث وتتواجه وتتحاور وتسكر وتتعارك مثرية أحداث الرواية ، عبر ثلاثة من أشكال السرد الروائي ، الأول هو قصة الفيلم الذي يرويه ثابت حسين لابنه ، وهو يشكل جزءا مهما من بناء الرواية ، والثاني هو تلك الاعترافات المكتوبة بخط يحيى سليم التي يتركها لدى صديقه ثابت حسين ليقرأها ، وتشكل هذه الاعترافات المكتوبة جزءا آخر ليس بالضرورة مكملا للجزء الأول ، لكنه جزء أساسي من البنيان الروائي على أي حال ، أما الشكل الثالث فهو شكل السرد الروائي بضمير الغائب ، وهذه الأشكال الثلاثة تتداخل وتتقاطع وتتضافر لتقيم معمار الرواية ، لكن حتى داخل الشكل الواحد من أشكال السرد المذكورة هناك مستويات للقص ، ففي مستهل الرواية نبدأ مع ضمير المتكلم : « أحدثك يا حسان عن أناس من بلادك ، رحلوا طلبا للعلم أو للرزق أو هروبا من ظروف قاسية ، وقالوا ما هي إلا أعوام ، ونعود موفوري الصحة والعلم . ولكن الغربة استطالت ، فراحوا ينسجون على منوالها قصصا لهم وحكايات ، واقعين في حبائل الانتظار » . وينتهي الفصل الأول والراوي هو المتكلم الذي لا نعرف هويته ولا هوية ابنه . وفي الفصل الثاني يتحول المتكلم نفسه إلى موضوع الرواية ، لكنه هنا أيضا مجرد رجل بلا اسم ، يروي لابنه الذي نعرف أنه مريض جاء للعلاج في هذه المدينة المجهولة الاسم قصة فلم تدور أحداثه حول يحيى سليم وأصدقائه

« الخرفان » ، ولا نعرف اسم الرجل ، ونكتشف علاقاته ولا نتعرف على أصدقائه « الخرفان » إلا في الفصل الثالث من الرواية . على هذا النحو من التدرج العفوي تتبدى لنا الشخوص والأحداث لتتضافر بعد ذلك أشكال السرد الأخرى في نسج أحداث الرواية حتى نهايتها .

الأصدقاء المرايا

عبر أشكال القص العديدة هذه تبدو الصورة المركبة للعلاقة بين يحيى سليم وثابت حسين هيكلا للرواية تتمحور حوله الأحداث ، وتتحرك الشخوص ، وتقيم علاقاتها وحواراتها . فيحيى وثابت الصديقان الحميمان القديمان مرآتان لبعضهما بعضا، كل منهما مرآة للآخر، لكنهما مثل غيرهما من الأصدقاء المرايا ، يكشفان لبعضهما بعضا أعماق نفسيهما ، ليبدو الواحد منهما أمام الآخر عريانا يحاول أن يغطي عريه بكلمات جميلة منمقة ، لكن دون جدوى ، وكلما أمعن أحدهما النظر في الآخر وجد ذاته هناك في أعماق صديقه ، ولا يتوقف إمعان النظر ، وتستمر الصداقة التي يقدمها غائب على أنها في أحد وجوهها نوع من التنافس الخفي ، وربما نوع حميم من الكراهية التي تتبدى كلما احتدم النقاش بين الصديقين الغريمين .

ففي مستهل الرواية يعمد ثابت إلى رواية قصة فلم لابنه الراقد على سرير المرض ، ليبعث فيه الاهتمام بالحياة بتفاصيلها الصغيرة ، لتنشيط فكره وذاكرته ، فيجد نفسه يتلو على ابنه قصة صديقه يحيى سليم مع مطلقته التي احتفظت بابنها ، فنشأ الطفل وهو لا يعرف والده ، وعندما يلتقي الاثنان يخاطبه ابنه على أنه عمه وليس أباه . وبروايته تلك لقصة الفلم انما كان يروي حلقة من مسلسل فشل صديقه المغترب يحيى سليم ، وهذا ما يؤلم الأخير ، فيقول حين يعلم أن صديقه القديم قد حكى قصته لابنه المريض .

« كأنك موكل دائماً بنشر هزائمي .

قال ثابت متراجعا :

في البداية أردت أن أقص عليه حكايات الذين استطابوا الحياة في الغربة ، ثم وجدت نفسي أنفرد بأخبارك وجملتك بطل فيلم .

لم يبد الغضب أو الضيق على يحيى ، لكنه ضحك ضحكة مهشمة ، وهم أن يقول شيئا ، إذ حرك صدره إلى الأمام ثم ارتد في اللحظة التالية ، واتكأ على المقعد كالمنهار قائلا :

لم تجد شيئا آخر مسليا تقصه عليه ؟ »

هذا المشهد الذي يفجر السكون الذي تكلس بفعل الغربة تحت السطح الوديع ليحيى سليم هو واحد من سلسلة من المواجهات الكاشفة التي تنشأ وكأنما بتدبير قدري لتقول ليحيى سليم كم هو فاشل ، وتقنعه بأنه كان دائما كذلك ، لكن هذا الفشل الذي يمكن ليحيى سليم السيطرة عليه واحتواءه بينه وبين نفسه ، يتحول إلى فعل مفضوح عندما يكون ثابت حسين هناك . ومع ذلك فإن يحيى سليم يجد نفسه مساقا وكأنما بقوة قدرية إلى ثابت حسين مرة بعد أخرى ، ليرى نفسه المشروخة في وجه صديقه الذي تحول إلى قرين له منذ ذلك اليوم الذي لا ينسى ، يوم تعاركهما الذي هو نفس يوم ارتباطهما بتلك الصداقة الطويلة المضنية التي تحمل في ثناياها الاطمئنان والحب والإعجاب ، كما تحمل النفور والغيرة والحسد ، وربما نوعا من الكراهية الخفية التي تتيه في شبكة الخيوط المتداخلة لتلك العلاقة المعقدة ، وهو يوم يذكره أيضا ثابت حسين في إحدى ليالي سهاده في المدينة الحجرية ، فيبتسم حين يذكر « يوم أن تشاجر مع يحيى سليم . كانت هذه الصورة راسخة في ذهنه كلما استعاد صفحات من طفولته الباهتة ، في ليالي سهاده ، صورة فتى نحيل متوسط القامة ، له عادة إحوال عينيه عند الغضب ، وفي الظروف الحرجة ، ولم تكن هيئته توحي بأنه معارك : احديداب خفيف في الظهر ، تقوس ملحوظ في الذراعين ، وذلك الحول في ساعة الغضب والشدة » .

ينفر الطفل يحيى من ثابت ، ويتوعد بعراكه ، أما ثابت فقد كان مجبرا على الدخول في تلك المعركة

التي لم يختزها . وبعد الدرس الأخير تقابل الخصيان الصغيران بين رهط من التلاميذ الذين تحلقوا حولهما . «كان يحيى سليم يسير في جانب من الطريق ، وثابت حسين في الجانب الآخر . نزل الأول من الرصيف . ونزل الثاني . تقدم هذا وتقدم ذاك . وعندما كانا على بعد خطوتين رأى ثابت عيني صاحبه تحولان ، فعرف أنه في غاية الغضب . وحصل ضرب طائش عجول غير موفق ، بعضه كالرقص في الهواء . ولم ينته إلا بعد أن أنهك الطرفان وتوقفا عن القتال من تلقاء نفسيهما يأسا من عاجزة الأنصار لهما . وأسفرت المعركة عن خدوش وكدمات ، دون أن يشعر أحدهما أنه أشفى غليله من صاحبه . والغريب أنهما صارا ، بعد هذا الحادث ، صديقين قريبين » .

الكراهية الحميمة

إن غائب يقول هنا إن صداقة ثابت ويحيى منذ ذلك اليوم الفاصل ، وحتى أيام اللقاء في الغربة كانت استمرارا للمعركة التي لم يكن فيها منتصر بينهما ، والتي لم يشف أي منهما غليله من صاحبه خلالها . إنها استمرار للصراع الخفي ، غير المسبب ، وغير المبرر بين يحيى وثابت ، لكنه اتخذ شكل الصداقة اللدودة ، أو الكراهية الحميمة بين الاثنين ، صداقة اندلعت بين يحيى وثابت بعد أن فشلا في إنهاء معركتهما الجسدية بانتصار أحدهما . وحين يبدأ ثابت قراءة أوراق كان قد تركها عنده يحيى سليم يفاجئه العنوان الذي كتب بخط يد صديقه «الفروسية المهزومة» ، وبعد تردد يقرأ ثابت «إيه أيها الشبح الذي يطاردني» . ويسترسل ثابت في ذكرياته القديمة ، ويتذكر صاحبه وهو يقول له : «هل قرأت قصة اسمها الشبيه لديستوفسكي ؟ اقرأها ، وستفهم ، الأصل والشبيه كلاهما تتلاطمه أمواج السياسة . فآثر أحدهما البقاء في العراق ، ورمت الآخر إحدى الأمواج العاتية ، فألقته خارج الوطن ، يتلمس موردا للرزق» . ويتساءل ثابت : «ما هذه ؟ قصة أم اعترافات ؟ أم زفرة كانت مخنوقة في الصدر ، لم يجد صاحبها بدا من أن ينفثها وإلا خنقته فروسيته ، ولا فرق أن تكون مهزومة أو موهومة» . وخلال قراءته للأوراق يكتشف ثابت أنها بالفعل زفرات تحكي قصص فشل يحيى التي لم تنته . فشل في العمل ، وفشل في اللعب ، وفشل في الحصول على امرأة ، وفشل في الخطبة ، وفشل في الزواج ، وفشل في الحب ، ثم فشل يصل حدود العبث عندما يتعرف على امرأة ويدعوها إلى مطعم ، فتفشل المرأة في التآلف مع المكان ، وتسرف في الشراب قبل أن تعلن له أن هذا المطعم هو المكان الذي أقيمت فيه حفلة الزفاف مع زوجها الراحل .

فشل الغربة

لكن فشل يحيى الأكبر هو في الاستسلام لفكرة الغربة ، وفي رفض أن يكون لحياته مردود ، فهو في النهاية رجل بلا تاريخ ، بعكس ثابت الذي يستند إلى تاريخ ، والذي يحاول أن يقنع يحيى أن «لا تاريخ يمكن أن يكتب خارج الوطن» . هذا النوع من الفشل هو الذي يخشاه يحيى . وحين لا يجد غضاضة في ذكر قصص فشله في أوراقه أو في أحاديثه العابرة على المقهى أو على الهاتف مع ثابت فإن فشل الغربة هو الذي يحول الحوار إلى مواجهة بين الصديقين القديمين والتي يعلن فيها ثابت أنه «ضد المشاريع الطويلة خارج الوطن» ، ويطالبه بأن «يكون لحياته مردودها» ، ويزداد الحول في عيني صديقه لينفجر قائلا :

«كنت أبغض أولئك الذين يشعرونني بأنهم متفوقون علي ، وأنت كنت تبدو كذلك . كنت متفوقا علي بسهومك الطويل ، بصمتك القاتل ، وحتى بضعفك الجسدي الذي كنت تبدو وكأنك تتحدى به إنسانا عملاقا مثلي ، بينما تربيت أنا كإنسان مؤهل لأن يقوم بمعجزات .. لم تبق لي علاقة بها إلا في الانتظار» .

غير أن فشل يحيى ما هو إلا الوجه الآخر لفشل ثابت ، وإن كان فشل يحيى أكثر صخبا ، فإن فشل

ثابت أكثر إيلاما . وأكثر غورا في داخله ، وأكثر الصد[illegible] . وهو فشل لا يوجهه بعصبية موتورة إلى صديقه ، كما يفعل يحيى ، بل يأتي على شكل حوار داخلي ، ومناجاة وهمس حزين للنفس ، فثابت الذي فشل في السياسة ، وخرج من تجربته السياسية مدمى القلب والفؤاد ، ملقى في ركن قطار سائر للموت ، يكتفي بأن يكون له من هذه التجربة تاريخ ، وحين يخلو إلى نفسه بعد إحدى المواجهات مع صديقه ومرآته يحيى يكتشف أن حياته لا تقل خواء وفشلا عن حياة صديقه ، فيقول لنفسه : لا ، لا تسرف في إدانتك لصديقك ، ولتصويره بالصورة المعاكسة لك ، فتثبت بذلك صحة نظريته في الأصل والشبيه (أينا الأصل وأينا الشبيه ؟) ، تلك هي المشكلة . تعظه بأن يكون لحياته مردود . وأنت هل لحياتك مردود ؟ . وفي إحدى المواجهات يصرخ ثابت لصديقه : « ليس هناك شيء مضمون غير أن تشرق الشمس كل صباح » ليصل الفشل لدى ثابت إلى لحظة عدمية ، ربما لم يصل إلى مثلها يحيى سليم ، وفي حوار مع ابنه الراقد طريح الفراش يقول له : « جدك سماني ثابتا ، على أمل أن أكون ثابتا في حياتي ، وقد حاولت منذ أن وعيت على نفسي ، ولا أعرف هل وفقت في ذلك أم لا . ولكن هذه المحاولة كلفتني كثيرا » . فهل هناك أكبر من فشل يحيى سوى فشل صديقه وغريمه ثابت ؟

المشاريع المؤجلة

وتمضي المواجهة بين الاثنين ، لتستهلك فصول الرواية ، وينجح يحيى في واحدة من تجاربه ، وهي ـ للمفارقة ـ تجربة مواجهة الموت ، حيث يموت والد زوج إحدى صديقاته ، فيضطر إلى الذهاب معها لتجهيز الميت ، ويفعل ذلك بنجاح تقريبي كما يقول لنفسه متذكرا صديقه الحاضر أبدا ، أما ثابت فيخبره « البروفسور » المشرف على علاج ابنه أن باستطاعته العودة إلى وطنه مطمئنا وإلى أنه سيعيش ما كتب له من العمر . ويغادر ثابت المدينة الحجرية ، ويبقى فيها يحيى الذي يقول بأسى : « سأفتقده ، سأفتقده . . سيسافر » ويقرر ألا يفعل شيئا ، بل أن ينام حتى ما بعد الصباح ، مثل صالح جميل وبقية أصدقاء الغربة أو الخرفان الذين تركهم ثابت أفلاكا تدور حول نفسها . ويقول يحيى : « من موقعه هناك يستطيع أن يفعل شيئا ، أما هنا فماذا أستطيع أن أفعل ؟ كلنا مشاريع مؤجلة » .

« المرتجى والمؤجل » رواية عن الغربة ، رواية حنين ، والحنين هنا هو ذلك الشعور الغامض الذي يجمع الحزن والأسى والفرح والحنان والرضا المستسلم لقدر الغربة الذي لا مرد له ، ومكونات الحنين هذه هي في الوقت نفسه مكونات هذه الرواية التي لا مبالغة في القول بأنها واحدة من أجمل روايات الحنين .□

مصطفى كامل

□ احذر من تأمن ، فإنك حذر ممن تخاف .

(الجاحظ)

□ الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهبه في القلوب ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه .

(مصطفى كامل)

□ لايمكن لقوة تحت الارض أن تستعبد عقل الانسان وروحه .

(محمد علي جنة)

عصور إنسانية عرفت القلق

بقلم : الدكتور عبد الستار ابراهيم

يتسم عصرنا الراهن بعدد من الظواهر التي لها تأثيرها الواضح على الصحة النفسية للإنسان ، فالانتقال السريع من وضع إلى آخر بتأثير التقدم التقني الهائل وتطبيقاته ، وعوامل أخرى أدى ببعض البشر إلى الاضطراب النفسي الذي وصل إلى حد المرض . ومن الشائع أن حالات القلق هي نتاج هذا العصر وحده ، مع أنها كانت شائعة منذ فجر التاريخ حتى الآن .

يحلو لكثير من الفلاسفة والشعراء والأدباء أن يصفوا عصرنا هذا بأنه عصر القلق ، لكن الحقائق التاريخية تبين لنا أن القلق شعور قد عرفه الأقدمون كما عرفناه . كذلك اختبر الأقدمون المخاوف المرضية وعانوا منها كما نعاني نحن .

فمفهوم القلق إذن ليس شيئا جديدا من صنع علماء النفس المعاصرين . وما يرتبط بالقلق من مفاهيم كالجزع والخوف والهم والتوجس أشياء سادت أفكار الناس ، وسيطرت على مشاعرهم ، في مختلف عصورهم الحضارية . وحاولوا ـ مثلنا ـ أن يفسروها وأن يجدوا طرقاً لعلاجها . ويؤكد لنا علماء التاريخ أن الكتابات الهيروغليفية التي تركها

المصريون القدامى قد أشارت إلى القلق وشرحته . وأن فكرة الخلود التي ملكت عقول الفراعنة ودفعتهم لبناء الأهرامات والمعابد المهيبة قد قامت على هذا الشعور الأبدي بالقلق من الموت والخوف من الفناء .

وفي العصور الوسطى كان القلق

وفي العصور الوسطى تجد الفيلسوف العربي علاء بن حزم القرطبي يؤكد أن القلق حقيقة أبدية ، ويعامله ـ كعلماء النفس المعاصرين ـ على أنه شرط أساسي من شروط الوجود الإنساني . ويبدو أن العرب لم يكتفوا بوصف القلق وشرحه ، بل اهتموا أيضا بعلاجه .

وقد تفوق الطبيب الفيلسوف « ابن سينا » على غيره من الأطباء في الشرق والغرب عندما تنبه إلى ما يتركه القلق والانفعالات على الجسم ووظائفه من تغيرات .

وللفخر الدين الرازي محاولات مماثلة لتعريف القلق ووصفه وما يتركه من آثار على النفس والسلوك ، ضمنها في كثير من كتبه ، خاصة كتابه المعروف « المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات » .

وفي سنة ١٦٢١ م صدر كتاب « تحليل الحداد » لبيرتون في أوروبا وفيه تحدث عن القلق بإسهاب، ووصفه كما يصفه علماء النفس المرضى المعاصرون من حيث ما يتركه من آثار على النفس والبدن

كذلك يكشف لنا تاريخ الطب النفسي عن حقائق تبين أن القلق لم يميز بين العظماء والصعاليك . وهناك ما يثبت أن حياة كثير من العظماء والمشاهير لم تنج من مشاعر القلق وضراوته . فالقيصر « أغسطس » كان يجزع من الظلام ، ولم يكن يجرؤ على البقاء في مكان مظلم بمفرده .

الصفوة المعاصرة والقلق

ويسجل لنا رونالد فيف ، وهو طبيب نفسي معاصر معروف ، بسبب اكتشافه لعقار (الليثيوم) المعروف بتأثيره الايجابي في علاج حالات التقلب الانفعالي ، أن الرئيس الأمريكي « تيودور روزفلت » كان فضلا عن إصابته بمرض الهوس والاكتئاب يعاني من حالات شديدة من القلق ، فكان لا ينام إلا لماما ، ويغرق نفسه في اتصالات هاتفية دائمة ، وكتابات تافهة مستمرة . كان يبدو أنها محاولة منه لتجنب مشاعر القلق الحادة والاكتئاب الداخلي المتأصل فيه منذ الصبا .

والكاتب الايطالي « ماترونى » كان يخاف أن يغادر منزله بمفرده خوفا من الإغماء ، ولهذا كان يحمل معه زجاجة « خل » صغيرة ، يتنقل بها إذا ما كانت هناك ضرورة لخروجه . ومن المعروف عن الشاعر العربي « ابن الرومي » أنه كان مسرفا في تشاؤمه وتخوفه لدرجة المرض ، وأنه كان يرفض أن يخرج من داره إذا ما تلمس أي علامة من علامات التطير . ويصف لنا طه حسين أن أبا العلاء المعري قد سجن نفسه في منزله هروبا من الناس ، لدرجة أنه لقب برهين المحبسين : العمى البصري ، والخوف من الناس .

ومن الغريب أن « سجموند فرويد » الذي يعتبر من أكثر العلماء اهتماما بوصف القلق وعلاجه ، قد عانى أيضا من أعراض القلق ، بما في ذلك الخوف الشديد من السفر عندما كان في الثلاثينيات .

والخلاصة أن القلق يمكن أن نراه كما كان يراه الفيلسوف العربي « ابن حزم » على أنه حقيقة أبدية ، وأنه حدث ويحدث في مختلف الأوقات والعصور ، ويصيب الناس على مختلف ألوانهم ومذاهبهم .

الوضع المعاصر للقلق :

تتفاوت المجتمعات الإنسانية المعاصرة فيما بينها من حيث درجة التصنيع والتمدن . وهناك زعم يشيع بين بعض علماء الاجتماع ، يرى أن المجتمعات الصناعية أكثر استهدافا للقلق والاضطرابات الانفعالية من المجتمعات النامية ، بسبب ما يثيره التقدم الحضاري من ضغوط نفسية .

إن نتائج البحوث التي أجراها العلماء الغربيون ، ونتائج البحوث في الأقطار العربية تتناقض مع الزعم الشائع بأن القلق ظاهرة تخص المجتمعات

الصناعية .

وتعد دراسة العالم الانجليزي الامريكي المعروف « كاتل » وزملائه من أهم الدراسات التي أجريت لمقارنة مستويات القلق بين ستة مجتمعات إنسانية ، تتفاوت فيما بينها ، من حيث مستوى التحضر والتقدم الصناعي ، هي : الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا وبولندا والهند .

لقد كان من المتوقع أن يصل مستوى القلق في المجتمعات الأنجلو امريكية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أعلى درجاته ، وذلك انطلاقا من التصور التقليدي بأن المجتمعات الغربية تتميز بالتنافس ، والنشاط الشديد ، والايقاع السريع ، وبالتالي تعمل على إثارة القلق والتوتر ، إلا أن النتائج سارت على عكس هذا التوقع ، وترتبت المجتمعات الستة من حيث ارتفاع مستوى القلق على النحو الآتي : بولندا ـ الهند ـ ايطاليا ـ فرنسا ـ بريطانيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية . أي أن بولندا كانت من أكثر المجتمعات الستة ارتفاعا في مستوى القلق ، والولايات المتحدة من أقلها ، ولهذا نجد أن « كاتل » ينصح بأن ننظر للقلق والعصابية على أنهما :

١ ـ يتزايدان في المجتمعات النامية ، والمجتمعات الفقيرة أكثر من المجتمعات المتقدمة ، بسبب الضغوط التي تخلقها ظروف التكيف لواقع اقتصادي قاس .

٢ ـ ان المجتمعات التي تتجه فيها النظم الاجتماعية والسياسية نحو التسلط ، تعمل على كف تلقائية الأفراد ، وتحد من نموهم النفسي والفردي ، ويصحب ذلك شيوع في المظاهر العصابية والتوتر النفسي والقلق .

٣ ـ يتزايد القلق في المجتمعات التي يتجه أفرادها نحو الخضوع الشديد والمجاراة ، ويتضاءل في المجتمعات التي تشجع على المناقشة والتعبير الحر .

ونعتقد ـ من جانبنا ـ أن هذه التفسيرات صحيحة بناء على ما تجمع لنا من نتائج في دراسة الشخصية في المجتمعات العربية .

المجتمعات العربية والقلق

تعد المجتمعات العربية في عرف أهل السياسة والاجتماع من المجتمعات النامية ، أي المجتمعات التي لم تبلغ بعد شأن المجتمعات الغربية من حيث التقدم المادي الصناعي والتعقد الحضاري . وقد أشرنا إلى أن البعض قد يظن نتيجة لهذا بأن القلق والاضطراب النفسي لا يشيع في الأقطار العربية بكثرة ، لبساطة هذه المجتمعات من ناحية ، ولأنها ليست في مستوى التعقد الحضارى الغربي من ناحية أخرى . ولقد قمت شخصياً ـ خلال الزيارات المتعددة لكثير من أقطار الوطن العربي ـ بإجراء عدد من الدراسات عن شيوع القلق في مصر ، والسعودية ، وليبيا ، والكويت . وقد أمكن لنا خلال هذه الدراسات من الإجابة عن عدد متنوع من الأسئلة في هذا الموضوع منها :

ـ هل نحن فعلا أقل قلقا ، وأقل تعرضا للاضطرابات النفسية المرتبطة بالقلق ؟

ـ ما هي أنواع القلق الشائعة بيننا ؟ وما هي مصادر الاضطراب فينا ؟

ـ ما هي جوانب التشابه والاختلاف بيننا وبين غيرنا من المجتمعات الأخرى فيما يتعلق بمظاهر القلق وأشكاله ؟

وكانت نتائج هذه الدراسات في المجتمعات العربية كما يلي :

في مصر ـ مثلا ـ تبين لنا في دراسة أجريناها على ثلاث مجموعات من الطلاب في أمريكا وبريطانيا ومصر أن نسبة القلق ومستويات العصاب تزداد بين المصريين ، يتلوهم الامريكيون ، ثم الانجليز . بعبارة أخرى عبر أفراد العينة المصرية أكثر من أفراد العينتين الإنجليزية والأمريكية عن علامات دالة على التقلب الانفعالي ، والتطرف والانزعاج ، فضلا عن تزايد المشكلات المرتبطة بصعوبات في النوم ، والمعاناة من الأرق ، وخفقان القلب ، والتنميل ، والآلام العضلية . وكلها مظاهر يراها العلماء معبرة عن القلق وتميز المتسمين بالعصاب .

وإذا كان القلق في الدول الغربية يأخذ شكل

الصراع الداخلي والتعبير عن مشاعر الضغط ، والهروب إلى العقاقير والخمور ، والعجز عن الحسم والتوجس،فانه يظهر لدى المصريين ـ كما تبين دراسة اخرى ـ بصورة مختلفة : شكاوى جسمية ، وآلام في المفاصل ، وآلام في الظهر ، وخفقان القلب ، وتعب سريع ، وتنميل ، وضيق « النفس » .

ان الشخص القلق في مصر عادة ما يشكو ـ من الآلام والمظاهر الجسمية المرتبطة بالقلق . ويوضح لنا « راك » أن الشكاوى الجسمية تكون هي الطابع الغالب على المرضى بالاكتئاب والقلق في المجتمعات النامية كالهند والباكستان وجنوب شرقي آسيا . ونتائج دراستنا المصرية تؤيد ذلك ، وتثبت أن المصرى بسبب عدم اتاحة الخدمات النفسية من جهة ، والخجل من التعبير عن الاضطراب النفسي من جهة أخرى ، سيتجنب الشكاوى ذات الطابع النفسي المرتبطة بالقلق مثل الخوف والذنب والتوجس ، وسيكتفي بالتعبير عن الألم الجسماني بمظاهره المختلفة .

وإذا صح ما يقال من أن المخاوف العصابية تنتشر بنسبة تتراوح بين ٣٠٪ و٣٥٪ من أفراد المجتمع في الدول الصناعية ، فإن دراساتنا تبين أن انتشاره في المجتمعات العربية يصل إلى نفس النسبة ، أو أعلى من ذلك بكثير في بعض الأعراض المحددة . ويتأكد ذلك في دراسة قمنا بها في ليبيا عن انتشار مظاهر القلق الاجتماعي في عدم الثقة بالنفس في مواجهة الآخرين ، أو الخوف من التعبير عن الانفعالات والحاجات النفسية عند التعامل مع أفراد المجتمع والأسرة ، فتبين لنا أن ما يقرب من ٥٢٪ من أفراد العينة الليبية عبروا عن مشكلات متعلقة بانخفاض الثقة بالنفس ، وتأكيد الذات .

التغيرات الاجتماعية والقلق

أما في المملكة العربية السعودية فإن النتائج التي توصلت إليها كانت بالتعاون مع « الزميل الدكتور عبدالله النافع » وقد اعتمدت على دراسة ٢٨٠ طالبا بجامعة الملك سعود بالرياض . كان هدفنا من هذه الدراسة أن تحدد أنواع المخاوف وحالات القلق والاكتئاب الشائعة بين طلاب هذه الجامعة ، وإلى أي مدى يرتبط ظهور هذه الاضطرابات بالتغيرات الاجتماعية الشديدة التي يمر بها المجتمع السعودي . وتعطي النتائج صورة مماثلة لدراستنا المصرية والليبية : فمن ناحية الاضطرابات الدالة على القلق والعصابية عبر ٥٢٪ من أفراد العينة السعودية عن العجز عن التركيز جيدا في موضوع واحد ، وذكر ٥٣٪ منهم بأنهم يعانون من الخجل ، و ٤٦٪ قالوا إن ..ن الصعب عليهم المحافظة على الانتباه لموضوع واحد دون التجول الفكري والسرحان ، و ٤٢٪ عانوا من الرعشة والانتفاض عندما استثارهم أحد ، بينما عبر ٣٥٪ عن مخاوف مرضية مرتبطة بالحيوانات ، و ٣٣٪ عن مشكلات ومخاوف متعلقة بالدراسة والمستقبل .

أما من ناحية الاكتئاب ، وهو من أحد الأعراض التي تصاحب في أحيان كثيرة حالات القلق ، فلم تختلف نتائج دراستنا للطلاب السعوديين عن نتائج الدراسات السعودية للمرضى السعوديين التي تبين أن حالات الاكتئاب تفوق مثيلاتها في الغرب . أما بين الطلاب فقد عبرت نسبة مرتفعة منهم عن لوم النفس عندما تسوء الأمور (٦٤٪) ، وأنهم يشعرون بالعجز (٥٢٪) ، وأن شهيتهم للطعام ضعيفة (٤٩٪) ، وأن المجتمع لا يبالي بهم (٤٥٪) ، وأن حياتهم لا تثير اهتمامهم (٤٢٪) ، وأنهم يعانون من صعوبات متعلقة بالنوم (٣٨٪) ، وأنهم فقدوا شعورهم ببهجة الحياة وملذاتها (٣٣٪) .

وفي الكويت درس الباحثون مدى شيوع القلق ، وعدم الاستقرار الانفعالي (غالي،١٩٠).وتبين هذه الدراسات أيضا أن حظ الكويتيين لا يقل عن حظ غيرهم من أفراد المجتمع العربي من حيث شيوع المظاهر الدالة على القلق والتوتر النفسي . وقد ازداد شيوع العصاب بينهم أكثر من الانجليز .

وتكشف المقارنة بين الذكور والإناث في المجتمعات العربية عن نتائج أخرى تثير الاهتمام ،

وتستدعي ضرورة تنبهنا لمصادر الخطر ، ففي كل الدراسات التي قمنا بها تبين دائما أن الإناث أكثر تعرضا للقلق وللتوتر النفسي من الذكور ، كما أنهن أكثر ميلا لتطرف الانفعالات والتقلب الوجداني والاكتئاب من زملائهن الذكور العرب . هذا الارتفاع الملحوظ في مستويات القلق بين الإناث العربيات مقارنة بالذكور العرب وجدناه في دراستنا المصرية والليبية ، ووجده الدكتور غالي في العينات الكويتية ، ووجده « أهلاوات » في الأردن في مقارنة الأطفال الأردنيين الذكور بالإناث . ونتائجنا العربية في هذا الصدد لا تختلف عن كثير من الدراسات العالمية الأخرى التي بينت أن الإناث دائما يرتفعن عن الذكور في مستويات التوتر النفسي والقلق ، ربما نتيجة للتوتر البيئي والضغط الاجتماعي الشديد على المرأة بسبب الأدوار المختلفة ومتطلبات التوافق لواقع اجتماعي يتعارض مع التلقائية والتعبير عن المشاعر بحرية .

الخلاصة :

إن النتائج تبين في عمومها أن القلق والتوترات النفسية ترتفع في المجتمعات العربية أو تتعادل ـ في أحسن الأحوال ـ مع درجة شيوعها في المجتمعات الصناعية . وتثبت أن هناك أنماطا من القلق تنتشر أكثر من الأنماط الأخرى في المجتمعات العربية .

إن مجتمعاتنا العربية تعيش فيما يبدو في فترة حادة من فترات الشد بين تيارات متعارضة ، يدفع بعضها للمحافظة والتقبل لما هو سائد أو ما كان سائدا من القيم والاتجاهات ، ويدفع بعضها الآخر للتطلع نحو النماذج الحضارية الغربية بتركيزها الشديد على الاستهلاك المادي والثروة . ومن شأن هذا الشد أن يستثير تطلعات متضاربة تثير كثيرا من جوانب القلق وعدم الاستقرار في شخصيات أفراد هذا المجتمع .

ويمكن القول بأن العلاقات الاجتماعية في الأقطار العربية تدفع للخضوع الشديد والمجاراة على المستويات الاجتماعية المختلفة ، بدءا من الأسرة بتشجيعها على التقبل الأعمى لسلطة الأبوين ، والمدرسة بتشجيعها للسلطة المدرسية ، والعمل بتشجيعه على الخضوع للنظام الهرمي الذي يجلس على قمته مدير العمل أو الرئيس ، وانتهاء بالنظم الاجتماعية والسياسة العامة التي تأخذ غالبا وصفا معارضا لحرية التعبير والتلقائية . ومن شأن هذه الضغوط وهذا التسلط أن يستثير كثيرا من جوانب الصراع النفسي والقلق .

ومهما كان السبب فإن من الضروري مواجهة الاضطرابات النفسية وما تشيعه من نتائج سلبية بين الأفراد والنظم الاجتماعية في داخل هذا الوطن .

فمن هذه النتائج يجب أن نقلق ، ومن هذه النتائج يجب أن ننطلق بجدية نحو الإصلاح والتوجيه التربوي والصحي . وقلقنا من هذه النتائج مثال جيد للقلق المحمود الذي يدفع لمواجهة الخطر والتحفز الذكي لما تطرحه الحياة من مشكلات . □

□ العبقرية هي القدرة على تحمل المشاق .

(كارليل)

□ الحرية تنمو في أحضان العلم ، كما يتسلق النبات الجديد على العصى الخشبية .

(روجيه جارودي)

□ إذا ابتسم المهزوم فقد المنتصر لذة النصر ! (شكسبير)

روجيه جارودي

في الأسواق

كتاب العربي

الحادي والعشرون

ماذا في

العلم والطب من جديد؟

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

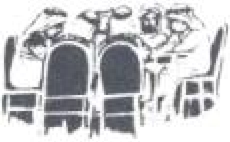

منتدى العربي

قضية

مأزق الإبداع الأدبي: أو «الروح الأسيرة»

بقلم : غالب هلسا*

كيف يرى الأديب الواقع من حوله ؟ ما العوائق التي قد تزيف رؤيته ، أو تحد من أن تكون رؤيته مبدعة ؟ أحد هذه العوائق ما يدعوه الكاتب « الروح الأسيرة » . فماذا يعني بهذا المصطلح الذي يستعيره من علم الاجتماع ليشخص به سمة في موقف المبدع ؟ .

بين الأديب والواقع حواجز تمنع الرؤية أو تحدها . وأعجب العجب أن أيا من علم الجمال ، أو علم النقد لم يطرح هذه المسألة البالغة الأهمية الا بشكل عابر . علمان آخران طرحاها - وفي سياق آخر مختلف - وهما علم الاجتماع وعلم النفس .

تتجسد هذه العوائق التي تقف بين الأديب والواقع في مجموعة من المسائل ، نذكر منها : العلاقات التي يقيمها الأديب بين الواقع والأخلاق ، بين الأدب والفكرة ، بين العمل الفني والسياسة ، وأخيرا - وهو موضوع بحثنا - اشكالية الروح الأسيرة .

* روائي وناقد عربي من القطر الأردني . . .

الـروح الأسيرة

« الروح الأسيرة » مصطلح في علم الاجتماع تم اطلاقه على حالة من حالات المثقفين في الشرق عندما يتفاعلون مع الحضارة الغربية . وهي حالة اضطراب وعنانة في الوعي لأنه لم يتم استيعاب الأفكار والرؤى الغربية بشكل جدلي وخلاق ، أي أنه تكوّن انفصام عميق بين الأفكار الواردة بكل بهرجها وبكل الدعم الحضاري الذي يسندها وبين الحياة الواقعية بتخلفها واستنادها الى منظومة متخلفة من القيم .

يصف أحد علماء الاجتماع الـروح الأسيرة بقوله :

« تعتبر الانتقائية ، التوليفية (التلفيقية) وغياب النظرة النقدية الابداعيـة للوعي ، والاغتراب (أو على الأصح الغربة) عن القضايا الفعلية للمجتمع السمات الرئيسية للروح الأسيرة ، وشكلت هـذه الحالة الناجمة عن النقل المتعسف الميكانيكي لأنظمة التعليم الأوروبي ومناهجه الى الـواقـع الأفـرو ـ آسيوي احدى العقبات الجدية على طريق التطور السليم للمسيرة الثقافية .

سوف نرى في هـذا البحث أن تعليـل الـروح الأسيـرة لا يقتصر عـلى التفاعـل غير المتكـافيء مع المجتمع الغربي ، ونرى أيضا أن العنانة الابـداعية التي يعيشهـا المبدع العـربي تعود أيضـا الى تسرب ايديولوجية المجتمع الأبوي الى مجالات لن تنفتح دون الغاء ، أو على الأقل تعقيل هـذه الأيديـولوجيـة الكابحة للابداع .

وإذا مـا نقلنا مفهوم الروح الأسيـرة الى مجـال الابداع الأدبي ، وخاصة القصة القصيرة والرواية ، فاننا سنجد الكثير من الأفكار الجديدة التي ستساهم في إغنام المفهوم الوارد في علم الاجتماع .

فكيف يتجلى هذا المفهوم في الابداع الأدبي ؟

ظل لأديب آخر !

بداية كل أديب أن يكون ظلاً لأديب آخر . إن تأثرات دستويفسكي بجوجول استمرت حتى آخر حياته . ولا يقتصر هذا التأثير على استعارة الشكل الأدبي من الأديب المعلم ، ولا على الرؤية ، بل يمتد الى استعارة الشخصيات أو السياق الذي تتدرج فيه الأحداث وتتسلسل .

هذا أمر طبيعي ومفهوم . ولكن ذلك لا يعني أن ذلك الأديب يتسم بامتلاك الروح الأسيرة ، إلا في حالات معينة ستكون موضوع حديثنا .

تبعية الأديب لأديب آخر ضرورة حيوية لتمكين الكاتب الناشيء من امتلاك الشكل الفني . بداية الامتلاك تكون تقليداً أو اتباعا ، يليها مرحلة ابتداع الشكل الفني الخاص بالكاتب نفسه ، يجب ان نشير هنا الى ان استعارة الشكل الفني تشكل حاجزا بين الأديب والواقع . فالحياة لا تمنح نفسها الا عبر اطر ذهنية واخلاقية مشحونة بمجموعة من القيم .

التجـاوز الأول للأديب يتم من خـلال استعارة الشكل الأدبي من آخرين سبقوه ، فمن خلال عملية الاستعارة هذه تتخلخل أو قد تسقط الأطر القديمة يعود ذلك ـ في مجال الرواية على الأقل ـ الى انه منذ نشأة هذا النوع الأدبي وهو يرتبط بمجموعة من القيم والمفاهيم المعارضـة ، أو حتى المناقضـة للمفـاهيم السائدة،كان ذلك يظهر بوضوح سـواء في الشكل الروائي أو في مضمونه الفكري .

منذ نشأة الرواية وبناؤها الفني يقوم على افتراض وجود عالمين : عالم ظاهري وعالم سري . وكان العالم السري بقيمه ومفاهيمه هـو العالم الحقيقي . كـان ذلـك ، بالـطبع ، تعبيـرا عن نشوء البـورجوازيـة الأوروبيـة في قلب المجتمـع الاقـطاعي ، اي قيـام منظومتين متعارضتين في قلب البلد ، احدهما تحكم والأخرى تحلم بالسلطة .

لهذا ، فمنذ البداية ، والشكـل الروائي يحمـل مضمونه الفكري والأخلاقي المتجاوز : هنالك قيم سرية حقيقية واخرى ظاهريـة زائفة . لهـذا يمكن القول ان استعارة الشكل الأدبي هي خطوة اولى نحو النفاذ الى حقيقة الواقع . ولكن الابداع ، بالـطبع يفترض ان يمتلك الأديب شكله ورؤيته الخـاصتين

به . هنا ، فقط ، يمكننا ان نتحدث عن الأديب المبدع .

من هنا ، ومما تقدم ، نستطيع تعريف الابداع بأنه يبتديء بتقمص الشكل الأدبي ، ورؤية الواقع من خلاله ، ويصبح ابداعا حقيقيا عندما تكون للأديب رؤيته وشكله الخاصان به ، أي عندما يستطيع تطويع الأشكال المستعارة للتعبير عن الواقع . من هنا نستطيع ان ندرك اهمية ما قال (فوكنر) من أنه أصبح كاتبا بحق عندما تبين له أنه يستطيع أن يكتب عن قريته ولا يتوقف أبدا .

متى نكتب عن قريتنا ؟

مأزق المبدع العربي أنه لا يستطيع أن يكتب عن قريته ، وأنا هنا أتحدث عن المشرق العربي . مازلنا نستعير الاشكال الابداعية الغربية ومضامينها . وهذا ما سنفصل الحديث عنه بعد قليل بمثال بالغ الوضوح يستند الى رواية « قدر يلهو » للروائي السوري المعروف شكيب الجابري .

كتبت هذه الرواية كتابة اولى عام ١٩٣٨ ، ثم اعاد المؤلف كتابتها في عام ١٩٨٠ ، ولذا وضع على الغلاف عبارة « صياغة جديدة » وقد اخترنا هذه الرواية ليس لقيمتها الفنية ، وهي قيمة متدنية ، بل لأنها مثال تدليلي فائق الوضوح للروح الأسيرة من اتجاهين : اتجاه التكوين النفسي الذي ثبت هذه الروح ، واتجاه « النقل الميكانيكي المتعسف » للأشكال الأوروبية الغربية . هنا تصبح الروح الأسيرة تكوينا اجتماعيا ـ نفسيا راسخا يصعب تجاوزه أو التخلص منه .

كيف يتعامل الرجل العربي ، وارث تقاليد وقيم المجتمع الأبوي مع المرأة الأوروبية المتحررة ؟

ما يفعله المؤلف هنا هو أن يخلق ـ أو بالأصح يختلق ـ الظروف التي تجعل المرأة الأوروبية امرأة من نساء الحريم .

تبدأ الرواية بلقائه بفتاة المانية في احدى مدن المانيا ، وكانت : « الريح تنفخ قارصة ، ورذاذ المطر يطاير على غير هدى ، ويرشني باسراب من لآلئه الندية . . . يلتقيها فيندفع في ثرثرة عاطفية لا نهائية :

« احب شيء الي أن انطلق في الليل الكبير .
تحت شلالات المطر .
في دوامة الزوابع ،
عبر دهاليز الظلام ،
يقود خطاي فحيح افاعي البرق ،
ويملأ سمعي هزيم معامع الكون الهائج » .

يقول هذا لفتاة « ظهر الكلال على ذراعيها ، توقعتا بغير حول على جانبيها » . ونكتشف انه مضى على الفتاة ثلاثة ايام لم تنم ، ولم تأكل شيئا ، وان الراوي حين صادفها كانت ذاهبة لتنتحر . الراوي ، اذا انقذها من الموت جوعا ، ومن الموت انتحارا ، ومن التشرد ، فهي لهذا تقول له دون تردد :

ـ « . . انه الواقع . . ألم أقل لك اني قد ولدت من جديد منذ لقيتك ؟ . . منذ لقيتك » .

الواقع أن المؤلف هنا قال أكثر مما ينبغي . أراد القول أن المرأة المتحررة قد ماتت وولدت بدلا منها امرأة الحريم . تلك المرأة التي تدين بحياتها ووجودها نفسه للرجل . فها هي الفتاة تجد من ينقذها من الموت ويطعمها ويؤويها في بيته . فعليها ان تدفع المقابل ، أن تبيع حريتها وروحها له .

والراوي يتصرف ، دون شعور بالذنب أو إدانة من المؤلف . وكأنه يمتلك روح الفتاة . فهي الخادمة التي تعنى ببيته وطعامه ، وهي التي تمنحه جسدها كلما رغب في ذلك . وعندما يشتهي امرأة اخرى فعليها ان تتسكع في الشوارع حتى ينتهي . وعلى الرغم من هذا كله فهو من تحب طيلة حياتها حتى آخر لحظة من أجله تقبل اي شيء .

هل هي هذه الفتاة النموذجية التي يفرزها المجتمع الأوروبي ؟ بالطبع لا . اذا من الذي أفرزها ؟

لقد أفرزها المؤلف نفسه ، فهو لم ير اوروبا الحقيقية ، بل رأى فيها نفسها ،قيم ومفاهيم المجتمع الأبوي . وبهذا تصبح تجربة الحياة في اوروبا اعادة انتاج لمفاهيم شرقية وليست تجربة معاشة .

ومن هنا نستطيع ان نكتشف الجذر الحقيقي لظاهرة الروح الأسيرة . ان مفاهيم وقيم المجتمع الأبوي تقف حائلا بين الأديب ومعرفة الواقع . ولهذا هو لا يصوغ معايشته للواقع بل يصوغ الأفكار التي يحملها عن الواقع ، ويفرضها عليه . هنا يتوقف الابداع حيث تصاب القدرة على فهم واقع جديد وتجارب جديدة بالعنانة، فلا يفعل الأديب شيئا سوى اعادة انتاج مفاهيمه .

أما الجانب الآخر من المسألة فهو استعارة الأشكال الأدبية وتطبيقها بشكل ميكانيكي متعسف ، وهو السمة المثالية للروح الأسيرة . وهذا ما تطرحه علينا هذه الرواية بوضوح .

سيطرة « سيدة الكاميليا » !

تنقطع علاقة الراوي بالفتاة لأسباب غير مقنعة . ولكن الراوي أصبح حلم حياتها . فما تكاد تنتهي الحرب العالمية حتى تذهب للبحث عنه . كل ما تعرفه عنه انه طبيب في دمشق . فكيف تصل اليه وهي الفتاة الالمانية ذات الروح العملية ؟

انها تذهب الى بيروت لتصبح راقصة ومغنية في احد ملاهيها . تذهب الى بيروت تأكيدا لقولها في قصيدتها التي تبث فيها الراوي حبها : « اني ذهبت ـ واني نظرت ـ فشيء منك يا حبيبي ـ وفي الفؤاد حسرة ـ آه ـ هل من معين ! » .

وبعد مضي سنتين يلتقيها الراوي في الملهى البيروتي ، تتعرف عليه ويتعرف عليها . تكشف له أنها جاءت الى بيروت وعملت في ذلك الملهى حتى تلتقي به . فيتزوجان . ولكن الفتاة مصابة بالسل فتموت في النهاية .

إننا أمام اسئلة لن تستطيع الرواية وحدها ان تجيب عليها . فهل اضمن الوسائل للاتصال بطبيب في دمشق ان ترقص وتغني الفتاة في احد ملاهي بيروت لمدة سنتين ؟

إن الرواية لا تقول لنا ، لماذا لم تذهب الفتاة رأسا الى دمشق ، وتتصل بالطبيب ؟ هناك وسائل عديدة ومضمونة للوصول اليه : الاستعانة بدليل الهاتف ، سؤال نقابة الأطباء او وزارة الصحة عنه ، الدخول الى عيادة اي طبيب وسؤاله عنه الخ . . فلماذا لم تلجأ الى هذه الوسائل ؟

ثم ما الذي جعل الطبيب يتزوجها وهي مصابة بالسل ، وعلى شفا الموت ، في حين انه رفض الزواج بها وهي صحيحة معافاة ؟

لن نجد في الرواية نفسها اجوبة على هذه الاسئلة . الاجابة نجدها في رواية اخرى . نعني بها رواية « سيدة الكاميليا » لالكسندر دوماس (الصغير) . الحكاية فيها ان فتى من عائلة ارستقراطية احب محظية ، وعاش معها ، فاعترضت عائلته بقوة . كما شعرت المرأة بورطته وبأن علاقتها به سوف تسيء الى مستقبله ، فتتظاهر انها تحب رجلا آخر . في النهاية يوافق اهله على زواجه بها ، ويذهب هو ووالده الى بيتها ليعلنا النبأ ، فيكتشف انها ، ـ بسبب اصابتها بالسل ـ تعيش آخر لحظات حياتها .

ان سيطرة هذا النموذج من الرواية على الأدب العربي جعلتها مثلا يحتذى . من هذا فقط نستطيع الاجابة على الاسئلة التي طرحناها منذ قليل . فلماذا اختارت المرأة ان ترى حبيبها من خلال عملها في ملاهي بيروت ؟

السبب يعود الى ان النموذج العربي للفتاة التي تحب شابا ، وتموت من اجله تكون عادة راقصة في ملهى ليلي ـ لهذا السبب تم اختلاق العمل في الملهى كوسيلة للاتصال بحبيبها .

أما عن السبب الذي جعل الراوي يتزوجها وهي محكوم عليها بالموت فهو اعادة انتاج للفتاة ، كما تظهر في الافلام المصرية التي تضحي بنفسها من اجل مستقبل حبيبها .

وبكلمة مختصرة ان منطق هذا الجزء الأخير من الرواية يجب ان يحال الى النسخة العربية من « سيدة الكاميليا » حتى يتسنى لنا فهمه . اي ان الشكل الفني ومضمونه هو الذي يعيد انتاج الواقع ، لا العكس ، ويصبح مصير الشخصيات ، وتكوينها النفسي والاجتماعي، وكذلك منطق الأحداث محددا بالشكل

والقيم والمفاهيم المستعارة .

هل نستطيع اقامة علاقة منطقية بين محاولة الكاتب اعادة صياغة المجتمع الاوروبي وفقا لمفاهيم المجتمع الأبوي ، وبين اعادة صياغة المجتمع العربي وفقا لقيم شكل اجنبي مستعار ؟

إن الربط بين الموقفين يتم حين نتأمل في علاقة الشكل الأجنبي بالرواية . لقد وضع المؤلف ايلزا ـ منذ لقائه الأول معها ، في سياق النص العربي لسيدة الكاميليا ، وهي ترجمة المنفلوطي لها تحت عنوان « العبرات » جاء في الرواية :

« حين بلغت ايلزا هذا الحد من حديثها كنت اقلب في خيالي صفحات للمنفلوطي . . . »

ان وضع الفتاة منذ اللحظة الأولى في اطار « العبرات » أنبأ ، كما اتضح فيما بعد ، بأن هنالك سلطة تتحكم في رؤية الكاتب ، وتفرض عليه طاعتها ، الى حد الغاء الواقع الخارجي . ان هذه الرؤية المتصلبة ، الطاغية ، هي سلطة المجتمع الأبوي . ان تجاوز هذه السلطة لا يعني الضياع فقط ، بل يعني ايضا اثارة مشاعر القلق والخوف والاحباط الخ . .

ان الشكل المستعار يأخذ بالنسبة للمبدع العربي ، خاصة في المشرق ، طابع السلطة الأبوية . من هنا نستطيع ان نكتشف الجذور الحقيقية للروح الأسيرة .

هنالك سؤال لم نجب عليه بعد ، وهو : ما الذي جعل السلطة الأبوية عائقا للابداع ؟

المومس الفاضلة !

قبل أن اجيب على هذا السؤال اود أن أرد على اعتراض متوقع ، وهو انني اخترت رواية غير ناجحة فنيا ، وحكمت من خلالها على الابداع العربي . ان هذا ـ كما قد يقول الاعتراض المتوقع ـ يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي الجاد والمنطقي .

لقد اخترت بالفعل هذه الرواية ، رغم معرفتي بقيمتها الفنية لأنها تشير بوضوح شديد الى القضايا التي طرحتها ، ولكن هذا لا يعني ان الابداع العربي مبرأ من هذه المعطيات . فمنذ عام ١٩٢٧ كتب يحيى حقي يشكو من طغيان المومس الفاضلة على القصة والرواية في عصره ، وتساءل : ألا توجد نماذج نسائية اخرى في مجتمعنا ؟ وكبر دور المومس الفاضلة في ادبنا وفي افلامنا حتى كاد ان يلغي كل النساء الأخريات ، أو يهمشهن على أقل تقدير .

ويصح القول نفسه حتى على كبار روائيينا . فرواية نجيب محفوظ « اللص والكلاب » تقوم على علاقة اللص الشريف بالمومس الفاضلة . وهما شخصيتان مستعارتان من الأدب الغربي . كما ان حنامينه لا يقترب من المومس في أدبه حتى يرفعها الى مستوى القداسة . هذه امثلة قليلة ، يمكن التوسع فيها كثيرا ، ولكنها تثبت اننا لم نختر رواية تشكل شذوذا عن القاعدة .

نعود الآن لسؤالنا حول السبب الذي جعل سلطة المجتمع الأبوي عائقا عن الابداع . الرواية خاصة ، ومنذ نشأتها الأولى ، كانت نتاج بزوغ الفرد . والفرد ، كنمط متمايز عن مطلقات الروح الجمعية ، لم يتشكل تماما في مشرقنا العربي وفي المرات القليلة التي ينشأ فيها نمط انسان متمايز عن الروح الجمعي فإن الأمر ينتهي به الى التصفية الجسدية ، او الروحية .

ولكن علينا ان نحدد العلاقة بين سلطة المجتمع الأبوي ونشوء الفرد .

فمنذ عصر النهضة حتى بداية القرن العشرين نشأت الفردية ثم ألغاها المجتمع الاستهلاكي .

يترافق نشوء الفرد بوعي الانسان بجسده . الأدب الذي يبدعه الانسان المتسم بالفردية يتصف بشعور حاد بالجسد . وأول ما تفعله سلطة المجتمع الأبوي ان تقمع احساس الطفل بجسده ، يبلغ ذلك حدا من القوة ، أن تصبح استعادة الانسان الاحساس بجسده معناها الدخول في حالة هستيرية .

نتوقف هنا حتى لا يطول الحديث طولا مفرطا . ويكفينا هنا أن نقرر أن سلطة المجتمع الأبوي هي التي تقمع قدرة العقل العربي ، والأديب العربي على الابداع . □

قصـــة

أجنحة الرّوع

بقلم : محمد سمارة

كانت القنابل تأتي الى المدينة كغربان مذعورة ، تنفجر في مكان ما ، فترتفع سحابة غبارية مالبثت أن تتلاشى ، ولبرهة يعم السكون ، ولم يكن البيت الذي استأجرت إحدى غرفه ـ بعد قصف بيتنا القديم ـ يعرف ضوضاء البيوت الآهلة . فباستثناء الدوي الذي يحدثه انفجار القنابل ، كان البيت صامتا كمغارة ، وكانت غرفه الثلاث تتوزع في حوش دائري قديم . أسكن أنا إحداها ويسكن صاحب البيت العجوز الاخرى ، أما الثالثة فهي عبارة عن مخزن مهجور . كنت أرى الرجل دائم الحركة في حوش البيت كسلطان مخلوع ، يجلجل بقبقابه الخشبي متفقدا شؤون البيت أو صاعدا الى السطح يرعى مجموعة من الطيور ترفرف في الحوش الصامت . وفي المساء يفاجئني بجلسته المعتادة أمام غرفته التي تحاذي غرفتي ، مفترشا بطانية مطوية بضع طيات ، متسربلا بأخرى ، تتهدل حول كتفين عجفاوين ، حانيا هامته ، مستغرقا بالنظر في كتاب أو يستمع إلى المذياع أو يعبث بشيء ما . وكنت أغادر الى الجبهة وأعود ولايزال الرجل يتحرك نافخا من سيجارته قبضة دخانية كثيفة مغمغما بشيء ما . أنا وهو دائما كائنان متوحدان ، ولم يكن ثمة مايربطنا غير التحية المقتضبة . لكن ثمة ما كنت أحجسه في عينيه وهو يرقبني من طرف خفي ، فأقرأ في وجهه رغبة دفينة لمحادثتي .

قلت له ذات مساء : أنا ضجر ، أود أن أتجاذب معك أطراف الحديث ، تهلل وجه الرجل ، وحاول

أن ينهض لمصافحتي قال : على الرحب والسعة ، اجلس . شيء رائع أن أتحدث الى رجل أشم في ثيابه رائحة البارود .

وضحك عن أسنان صدئة وأردف : مع أنه يدخل في رئتي كل يوم .

قلت : هل تعني البارود ؟

ـ آه . . ومن سواه ؟ أما القنابل فيا للمضحك ، ثلاث قنابل سقطت قرب المستشفى التعليمي وأخرى قرب مدرسة الزبير دون أن تنفجر . لو كنت هناك لرفستها بقدمي كخفافيش عمياء ، أحيانا أتساءل وأنا أراها تأتي في المساء مضيئة كعين فسفورية : ترى ما الذي تقوله هذه الكتلة الحديدية اللعينة ؟

ذات يوم قرأت قصيدة عن قنبلة تتحدث مع نفسها وهي تثقب صدر الريح وقلت : أحقا أن القنابل تتحدث ؟ يا للعجب ! كيف استطاع خيال الشاعر أن يجمح كفرس ، ويصنع هذا العالم الغريب ؟ فحين اقرأ قصيدة جيلة يخيل اليّ أن صاحبها أمسك الفرشاة ـ لاالقلم ـ ورسم لوحة فيها دهشة وانبهار كخيط من الضوء . إنه الضوء الذي يسقط على الغابة الموحشة ، فيضيء بقعة صغيرة هي أقرب الى الفيروز فأقول هو ضوء الروح لاغير .

وتمنيت أن أكتب شعرا ، وقلت ما الذي يملكه الشعراء غير بياض الروح الباهر ؟ وعندما أمسكت القلم ارتعشت الاصابع وسقط القلم فبكيت .

أحنى الرجل رأسا متعبة وتخيلته ينكمش تحت الغطاء ويختفي . قلت :

ـ وهل يهمك أن تكون شاعرا ؟

ـ ليس تماما . ربما هي حالة من الانبهار الوقتي ، لكن لماذا ارتعشت الاصابع في الوقت الذي استسلمت الافكار لرأسي ، إن الافكار تأتي هادئة كصبية خجول ، تطرق الباب فإن لم تجد من يشرع لها الابواب ، ولت هاربة . فهل تطرق الباب ثانية ؟

أدركت أني أمام رجل يزدحم بالافكار ، لم أدر بم اجيب ، غير أنني قلت :

ـ لكنك في صحة جيدة ، أراك تتحرك في حوش البيت كغزال بري .

اغتصب ابتسامة باردة :

ـ هل قلت غزالا بريا ؟ ما أجمل ذلك ، كلام يصلح لموضوع مدرسي ، لكن ماضير أن يمتلك الغزال رأسا بحجم رأس الديناصور ؟

وضحك عن تواجذ مصفرة وخدين هرمين وأردف : هل رأيت غزالا بريا ؟

ـ مرة واحدة في الجبهة ، رأيته يسقط بفعل رصاصة طائشة فهرعت إليه ، وضمدت جراحه وتركته يهرب .

ابتسم الرجل وضرب على ساقه بكف معروقة :

ـ ذلك ما فعلته أنا بالضبط ، كنت ـ في شبابي ـ أطارد الثعالب والضباع والدببة . وكاد عنقي في إحدى المرات يدق بسبب ثعلب عاندني . لكنني في النهاية اصطدته ، وجلست تحت الشجرة أعالج جراحه ، ثم تركته وانصرفت .

ـ وهل كنت تتسلى ؟

ـ لاأدري ، ربما هي حالة من العناد الانساني الغامض لاتلبث أن تغادر الرأس كقبضة من الدخان .

ـ يبدو أنك كنت صيادا في وقت ما .

ـ أوه . . هي واحدة من هوايات كثيرة . هل رأيت الحواة اذ يلعبون بعدة أشياء في الهواء ! حسنا كنت متعدد الهوايات شغوفا بذلك الجنون الانساني ـ كما أسميه ـ حتى أنني تصورت أنه سيعيش في الرأس مهما تقادم الزمن .

لكن الاختناق الذي اصاب الرئتين تركني مقطوع الانفاس لاأطلب أكثر من نسمة هواء تملأ الرئة المتعبة . ثم وجدت نفسي أتقل على أحلامي المضحكة وأرميها في البحر ألا تراني بهذه الجلسة المضحكة أشبه المومياء المحنطة .

ـ كلا إنك تتسلى بالقراءة وال . . .

ـ عجيب ، في هذا الجو الشتائي والقنابل تهبط كالفاكهة المسمومة .

ضحك وهو يسحب من جيبه شيئا بحجم الاصبع ، دسه في أنفه وسحب نفسا كالشهقة قلت :

ـ قد يضرك البرد .

توقف بصره على وجهي ، ومضت فترة قبل أن تطرف عيناه ويمد يده الى سيجارته المطفأة قال هامسا :

ـ تقول يضرني البرد ، البرد ، هه ، والقنابل التي تسمعها الان ألا تضرني هي الأخرى ؟ عجيب ، رجل مثلي خاض حروبا ومظاهرات قديمة هل يخشى البرد ؟ علمتني الحياة أن الحرب دمل في الخاصرة ، وما عليك إلا أن تضع المراهم وأوراق الخروع ليصبح الدمل سهل الازالة ، وهل الحرب غير تجربة يحتملها الرجال ليمدوا الرصاصة عن القلب ؟

ونظر في وجهي متأملا :

ـ هل أنت في اجازة الآن ؟

ـ ثلاثة أيام .

ـ أراك دائما في غرفتك ، ألا تقرف من الجلوس على سريرك ؟

ـ أين أذهب ؟ انتهى كل شيء ، أمي وأبي وثلاث أخوات .

ـ يا الهي . ما الذي حدث ؟

ـ تحول كل شيء الى كومة عظام بسبب قذيفة سوداء .

ـ يا الهي

ـ وهرعت أتلفت كمجنون في كل اتجاه ، وساعدني العشرات من الناس ، وأخرجنا الجثث الخمس أشلاء ممزقة .

ـ يا الهي

ـ وفي الجبهة كاد رأسي يتدحرج بين قدمي ، بل كاد يتناثر كنتف صغيرة من اللحم لا تمسكها اليد ، وكنت أنجو في كل مرة باعجوبة ، وفي احدى المرات كنت أمسك الانفاس حين وجدت نفسي محاصرا ، وكنت أقول هي موتة واحدة هبها لمن تعشق ، واجعل لجسدك اجنحة تنطلق في الفضاء ، وكنت أضحك من نكتة الاسر ، ثم صرت في الآخر أبكي ، وأقول هي حالة من الموت المجاني أن تجد نفسك في الاسر بينما الوطن ينتظرك ، وفي النهاية أخذني عشق القراءة ـ في وقت الاستراحة ـ لاسيما كتب الفلسفة ، فهل تصدق ذلك ؟

ـ أصدق ، وهل القراءة غير نتاج تلاقح العقل الانساني مع أنفاس الحياة ، علمتني الحياة أن الوجع الذي لا تمسكه اليد سرعان ما يتلاشى كقبضة من الدخان في حالة اضاءة بقعة صغيرة داخل النفس الانسانية . ما هي تلك البقعة الصغيرة ؟ليتني علمت ، في شبابي قرأت في الطب والادب والفلسفة والتاريخ والكيمياء القديمة ، خليط متناقض ، وكنت أحمل دفترا كبيرا أدون فيه ما يخطر في البال ، كان مليئا بالخطوط الجغرافية والمعادلات وبالكلمات التي أود حفرها في الرأس ، كنت أيامها عاشقا للسفر والترحال بشكل جنوني ، تركت زوجة شابة وطفلا في الثانية وقطعت الكرة الارضية مثلما أقطع الطريق الى رأس الشارع ، زرت القطبين الشمالي والجنوبي ، طفت في بلاد الثلج ، ورأيت الدببة البيضاء وهي تتمطى على الجليد كقطع من الاسفنج ، ونمت في غيب افريقيا نصف عار حتى اسود جلدي وذاب رأسي ، واشتغلت مع بعض القبائل البدائية في جني الصمغ من الاشجار ، وتعلمت بعض الكلمات من عشرين لغة ، لكنني وبعد كل هذا التجوال اكتشفت عبث الاستمرار في لعبة مضحكة بينما الوطن يضرب في الصدر كالمسمار . قرأت مرة أن الوجع قد يلد النقيض : شيئا أقرب الى الاحساس الاثيري الهادىء ، ذلك عجيب ، لكني اصدق والا كيف يطوف الفرح الابيض على شفتي الجندي لحظة استشهاده . لقد أخبرني أحد المقاتلين أن رفيقه همس له قبل استشهاده أنه يشعر بخدر لذيذ غامض يتمنى لو يدوم ، وظل وجهه يحتفظ بابتسامة سحرية ما برحت مضيئة في رأس الصديق كمصباح ، يومها توقفت أمام العبارة التي تقول كان سعيدا حد الموت ، فحين عدت الى الوطن ـ بعد غيبة سنوات ـ على ظهر إحدى البواخر وجدت نفسي فوق مياه شط العرب ، ألقيت بجسدي في الماء ، ورحت أسبح كسمكة نهرية ، وضحك الركاب وأدركوا أنهم أمام حالة فريدة ، وقالوا : لقد كنت طوال الرحلة تمتطي ظهر الماء فما الذي حدث ؟ ولم أخبرهم ما طعم الماء في شط

العـرب ، وخرجت من المـاء مبلولا ، ضـاحكـا ، فلثمت أول ما لثمت وجه زوجتي التي قالت ضاحكة كنت أعـرف أنـك ستعـود أيهـا الـدرويش ، لكن المسكينة ماتت بعد سنوات قبل أن ترى الابن الذي صار مقاتلا .

توقف الـرجـل عن الحـديث أشعـل سيجـارة جديدة ، وناولني أخرى ، وأرهفنا السـمع الى صوت انفجار قريب ، وعلق الرجل انها القنبلة الثـانيـة ، فأين عـاها تكون الثالثة ؟

نفض رماد سيجارتـه في منفضة معدنيـة صغيرة ورسم على وجهه الأجعد ابتسامة واهنة وقال : في بداية الحرب كان سعيد في الخامسة عشر من عمره ، كان يصعد الى الـسطح مساء ويرقب العيون الحديدية اللامعة ويهتف من فوق : هذه قذيفتهم ، يالـلولـد الذكي ، صارت له الخبرة في معرفة مصدر القنبلة من صدى الانفجار ، وكان يمضي جل نهاره على الـسطح مع مجموعة من الطيـور البيض اشتراهـا من سوق الجمعـة ، وصنـع لهـا قفصا جميلا من الخيـزران ، وعندما التحق بالجبهة ظلت الـطيور تهـدل بغيابـه بـطريقة شجيـة . وكان في كـل اجازة ينـدفـع الى أحضاني لدى الباب معانقـا ، وما يلبث أن يسحب ذراعيه ويندفع ثانية الى الـسطح ولا يهبط الا بعـد المغيب ، وكنت أعجب لهذا العشق « الكرنفالي » ، وكان يجيب على دهشتي : هل ثمة أجمل من أن تغفو بين أنغام لاتصنعها الانامل البشرية ؟

وفوجئت به مرة نائما بينما الطيور ترفرف حواليه وعلى خوذته وكتفيه ، كان متعبا حين دهمته الاغفاءة فهل رأيت شيئا كهذا : جنديا بكامل ثياب المعركة ينام مع الطيور ، وغمرني احساس بالنشوة وأنا أرى ولدي يرسم في نومته لوحة ، يالقوة الشعر والفرشاة أن تصنعا مثلها ، حسنا هل أخبرتك أنه كان يكتب الشعر أيضا ؟

لقد أسمعني ذات ليلة قصيدة رقيقة ، وعندما سـألته عنهـا ، أجاب عـلى خجل أنـه مؤلفها وأنـه مواظب على كتابة الشعر منذ وجد نفسه وجها لوجه مع الموت ، ياللروعة ولدي يكتب الشعر فيقدر على مالم يقدر عليه أبوه . ، فيمنحني احساسا افتقدته حين أمسكت القلم لاكتب الشعر ، وأخبرني أنه يكتب المـذكـرات أيضـا ، يقتنص الكلمـات في وقت الاستراحة ويمنحها ضوء الروح فتتحول الى كـائن كالطير يرفرف في فضاء المعركة ، أخبرني بذلك وهو ينظف رشاشه فنهضت مقبلا ، فيا للولد الاسمر ، ونشـر بعضها في صحيفـة محلية ، وعنـدما قـرأتها بكيت ، وتذكرت ما كتبته وأنا في مثل سنه ، وقلت يا لسخف ما كنت أنا أكتبه . وكان يبعث الرسائل من

الجبهة في كل شهر بانتظام ، رسالتين في الشهر ويذيلهما دائما بأسئلة طريفة عن ذقني التي يجب الا أهمل حلاقتها ، والطيور التي يحذرني من رغبة طارئة تصيبني فأشوي واحدا منها . أو يقول ضاحكا : هل تود كتابة الشعر يا أبي ؟ تعال هنا ، وانظر كيف تصنع الشعر بأسنان البندقية .

جاءني يوما وقد ومضت في رأسه فكرة عجيبة ، قرر أن يأخذ معه طيرين الى الجبهة فهو سيجد لها هناك ملجأ أمينا ، وفعلا أخذ الطيرين وغاب ثلاثة شهور دونما اجازة ، وفي اليوم الاول من الشهر الرابع عاد أحد الطيرين وحيدا ، وحط على قفصه بسكون وما لبث أن هبط الى الداخل ، وانكمش في الزاوية يهدل بصوت كالطعنة ، وبعد أيام جاءوا بولدي شهيدا ، ووجدت نفسي أبوح باسرار روحي للجدران ، وتنازعتني رغبة خفية لأبحث عن مذكراته ، وإذ عثرت عليها تلمستها بخشوع ، فادهشتني النفس المضيئة في كل سطر ، وكدت أصرخ مع نفسي إنها البقعة المضيئة في الغابة الموحشة . إنه الضوء الذي يسقط في الظلمة فتمسكه المشاعر ونبضات القلب ، وبلا أدنى تردد خطوت الى حيث كنت أحتفظ بمذكراتي في صندوق قديم ، أمسكتها ورحت أمزقها صفحة صفحة والقي بها في كل مكان ، فأين ما كتبته أنا مما كتبه ولدي في لهيب النار ؟ وبعد أسبوع قُرِعَ الباب ووقفت أمامي فتاة شابة لم أكن رأيتها من قبل ، وقدمت لي مرتبكة رزمة من الرسائل ، وقالت بخجل هادىء : إنها من سعيد ، كان يراسلني منذ شهور . وتضرج وجهها بحمرة التفاح ، وأردفت كالبكاء : هل تراني قادرة على الاحتفاظ بها وهي تميتني كل يوم .

توقف كل شيء في رأسي مرة واحدة ، وجدتني مصابا بدوار كأنني سمكة خرجت من الماء ، ماذا يعني أن أجد نفسي محاصرا بقصة تلهب الرأس وتنفجر في الداخل كقنبلة موقوتة ؟ كيف يستيقظ المخبوء في النفس الانسانية على موضوع صغير يتلخص في بضع كلمات ؟ وهل الحياة ـ يا للحياة العظيمة ـ سوى كتاب ببضع كلمات ؟ وأيقنت أنا الجندي الذي أمضى في الحرب ثلاث سنوات ، أن الاشياء العظيمة هي ما يتلخص بأصغر المفردات ، والا بم أوجز السنوات الثلاث التي أمضيتها محاربا بينما الموت والحياة يسيران جنبا الى جنب توأم لايفترقان ؟ وأنا في الخندق أحاول ابعاد شبح الموت والخراب بأظافري ، وبقيت في غرفتي ـ مستيقظا ـ منشغلا باستعادة عبارات الرجل العجوز وربط أجزائها من جديد ، أحاول في آخر الليل هضمها على مهل ، ماذا يعني الليل ؟ إنه الدوي والانهيار الذي يعقبه صمت مقلق حين تستيقظ صباحا لترى البيت الذي كان بجوارك قد أصبح فراغا مجرد هياكل طابوقية ، ونثارا من اللحم والدم ، وأصواتا كانت تحاورك ذات يوم ، فلقد عودتنا الكتل النارية اللاهبة أن لاموعد للموت القادم . وهل كنت أتوقع وأنا أعود من الجبهة الى بيتنا القديم ، هل كنت أتوقع أن كتلة لامرئية ستتجه الى البيت فيستحيل كل شيء الى دخان ؟ في الواقع أن ثمة شيئا أبيض ، ربما هو فيض من ضباب لاأعرف ماهيته غلف رأسي فلم أعد أرى شيئا ، لكنني استطعت أن أميز عشرة أذرع لخمسة أجساد بخمسين أصبعا تبرز من باطن الارض كعروق لاهبة وتمسك السماء .

وفي الجبهة ظل الفيض الضبابي يغلف رأسي وأنا أحدق الى الأمام قابضا على رشاشي بأسناني ، وأهمس بغضب مكتوم : لن تنفجر قنبلة أخرى ، لن أرى الشوارع تمتلىء بالحفر السود ، لن تقف البيوت على هياكل طابوقية . وكان الرجل العجوز عالما جديدا أطل عليه إذ يأخذني التعب والدوي فنتحاور ، ويمتد الحوار ، وتساءلت لماذا لم يلتق الرأسان من قبل وقد مضى على وجودي معه شهران ؟ وكان ولده الغائب وفتاته البصرية ثالثنا في الحديث ، كائنان يتوسطان جلستنا ويتحركان في فضاء الحوش كضباب سحري أزرق ، وكانت القنابل تتخلل الحديث ، وفي الجبهة أسرق الوقت لأقرأ رسالة وصلتني من الرجل فأتشرب الكلمات ببطء هادىء ، فها هو يحدثني عن الطيور وعن آخر كلام قرأه ، ويعيد لي مقاطع من قصيدة كتبها

سعيد ، ويسألني رأيي في طبع ما كتبه ذلك الشاعر الصغير ، وقال في نهاية رسالته إن الفتاة البصرية قد جاءته ثانية فأذهله قدومها المفاجىء قالت انها تريد استعادة رسائل سعيد ، واعترفت حزينة أنها نادمة اذ أعادتها أول مرة ، فهي أحق بها حتى لو كانت نزيفا في القلب .

وأعطاها الرجل الرسائل فاحتضنتها بحرص وغادرته دون أن يعرف من تكون . وفي رسالة لاحقة كتب لي أن الفتاة جاءته مرة ثالثة وطلبت أن ترى طيور سعيد لطالما حدثها سعيد عنها ، ودخلت الفتاة البيت ، وصعدت الى السطح ، واطعمت الطيور وداعبتها بمرح ، ثم خرجت وهي أكثر مرحا .

وقال الرجل في ذيل الرسالة : في اجازتك القادمة سأضع بين يديك مذكرات سعيد ، لقد أخرجتها من مخبئها ونفضت عنها تراب الزمن ، أنا واثق أنك ستجد فيها شيئا قربما الهمتك ـ على الاقل ـ أن تكتب المذكرات .

وفي الاجازة كنت أجلس في البيت وبين يدي مذكرات سعيد ، مبهورا بالخط الجميل والكلمات التي تشبه حبات اللؤلؤ ، وفيها يقول : أنا حائر أمام هاجس الشعر ، إنه يطوقني كالقيد حتى وأنا في مواجهة العدو ، إنه السيد المطاع وأنا العبد ، ولكن لماذا أعبد ذلك السيد الجميل ؟

ويقول في مكان آخر : لقد علمتني الحرب أن الشهداء لايقدمون التحية لأحد ، إن الآخرين هم الذين يلقون التحية ، إذاًعلى القرن الحادي والعشرين أن يرفع قبعته بمجرد أن يقترب من قبري .

وفي صفحة أخرى : حبيبي . ليس الحب أن ينظر بعضنا الى بعض ، وإنما أن ننظر سوية في اتجاه واحد .

ويختتم إحدى الصفحات قائلا : لقد قرأت هذا الاسبوع ثلاثة كتب مرة واحدة ، فتعلمت الكثير ، وأدركت أننا نتعلم من احتكاك الافكار في الهواء الطلق ، ولكن لماذا تريد الرصاصة أن تقتل هذه الافكار ؟

اعترف أنني التهمت المذكرات ، قرأتها كلمة كلمة ، وأيقنت أن ذلك المقاتل كان يمتلك موهبة التحرك في جميع الاتجاهات بطريقة مدهشة . وإلا كيف وجد الوقت للحرب والحب والكتابة ، وتمنيت لو أقرأ ما كتبه لابيه ولحبيبته ، تمنيت أن اقرأ كل ما خطه الرأس المضيء ، وهممت أن أطلب الى الرجل ذلك غير أنني ترددت ووجدت قدمي تقوداني ذات يوم الى السطح حيث الطيور والفضاء الابيض والشط الذي لاح عن بعد كبيرا وهادرا ، أصغيت الى الهديل الذي يلمس القلب فكيف لم أر الطيور من قبل وهي فوق رأسي دائما ؟

تقدمت مراقبا حركاتها الهادئة ، وعيونها الخرزية اللامعة ، وغمرتني نشوة أثيرية وأنا أرى أفراخا زغبية تصوصو في الزاوية ، وفي الزاوية الاخرى ثمة بيض على كومة من قش ينتظر التفقيس . مددت يدي ولمست مداعبا الاجنحة اللحمية والزغب الاصفر الناعم . ومضت فترة من الوقت لا أعلم مداها حين دهمتني الاغفاءة . لمس النعاس جفني كنسمة هادئة ، فاتكأت بين اليقظة والمنام على القفص ورفرفت الطيور حولي ، شعرت بخفق أجنحتها وبهواء منعش يلمس وجهي ، ولم انتبه إلا على دوي انفجار قنبلة سقطت على المدينة ، وانهار شيء ما ، وارتفعت سحابة غبارية ، ولبرهة انفجرت قنبلة أخرى ، ورفرفت الطيور مذعورة ، وحطت على القفص من جديد . كنت لاهيا عن كل ماعدا الطيور ، متكئا على القفص ، تسحبني الاغفاءة الهادئة ، ولم أكن أكترث أن تأتي القنبلة السوداء المذعورة . □

ـ قيل لعمر رضي الله عنه : ما العاجز ؟ فقال : من عجز عن سياسة نفسه .

الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

بيض دجاج خالٍ من الكولسترول

استمع المؤتمر السنوي الذي عقده اتحاد الجمعيات الامريكية للبيولوجيا التجريبية في لاس فيجاس في الولايات المتحدة ، وذلك في اوائل شهر مايو من السنة الحالية (١٩٨٨) استمع الى بحثين علميين هامين ، تناول أحدهما بيض الدجاج المعدل الذي نجحوا في تطويره حيث يستطيع المرء تناوله دون أن يخشى من ارتفاع نسبة الكولسترول في دمه ، وركز البحث الثاني على الكيماويات الغذائية الكفيلة بخفض نسبة الكولسترول في الدم .

وذكر البحث الأول فيما ذكر أن التجارب التي أجريت في جامعة يوتاه قامت أساسا على ادخال زيت السمك في الطعام الذي قدم الى الدجاج موضع التجربة ، وبعد ثمانية اسابيع من هذه التغذية قدم بيض الدجاج المذكور الى ١٢ رجلا ، وأثبتت الفحوص انخفاض ضغط الدم ونقصان نسبة الكولسترول في دم أولئك الرجال جميعا . أما رائحة السمك ونكهته التي غلبت على ذلك البيض فليس من الصعب التخلص منها ، ففي الامكان القضاء على رائحة زيت السمك الذي يعطى الى الدجاج بالمعالجة المعروفة بـ (Deodorization) . وذكر البحث الثاني أن زيت احد التوابل الشائعة في تايلند كفيل بخفض نسبة الكولسترول في الدم ، والزيت المذكور هو زيت عشبة يسمونها حشيش الليمون (Lemongrass) وقد صنعوا منه كبسولات بتركيز ١٤٠ ملغراما ، وأعطوا هذه الكبسولات (واحدة في اليوم) لجماعة من الذين يعانون ارتفاعا غير سوي في نسبة الكولسترول ، فهبطت هذه النسبة بمعدل ١٠٪ أو يزيد في أكثر من ثلث تلك الجماعة .

■ ■ ■

حذار تدفئة الرضع

نشرت المجلة الطبية البريطانية في أحد أعدادها الصادرة في شهر يونيه الماضي بحثا خطيرا حول تدفئة الأطفال الرضع ، واعتمد البحث على قصة طفل يبلغ من العمر أربعة شهور اضطر أهله لادخاله المستشفى ثم مالبث أن مات ، واحتار الأطباء في سبب الوفاة ، واعتقدوا في بادىء الامر أن الطفل تعرض لجلطة لسبب أو الآخر ، وأن تلك الجلطة هي التي أدت الى موته .

وما أسرع ماتبين للأطباء أن سبب وفاة الطفل انما كان التدفئة البالغة ، فقد

درجت امه على وضعه في السرير المتنقل (Carrrycot) وعمدت الى لفه بغطاءين من صوف بحيث تجاوزت درجة حرارته الأربعين مئوية ، وارتفعت أحيانا الى ٤٢ درجة أو يزيد ، وهي الدرجة التي كان عليها حين دخل المستشفى .

من هنا جاء تحذير الأطباء للامهات بألا يضعن ثقتهن العمياء في التدفئة ، وأن يحرصن على قياس حرارة أطفالهن بالميزان عند الاشتباه بارتفاع تلك الحرارة أكثر مما ينبغي ، والتحذير موجه لسكان المناطق الباردة الذين يخشون على أطفالهم الموت من شدة البرودة ، فما بالك في سكان المناطق الدافئة والحارة ؟ فهم يخشون على أطفالهم من البرد وكأنهم من سكان الأصقاع الباردة ، والأولى بهم أن يكونوا أشد حذرا من التدفئة وهي مقترنة بحرارة الطقس في بلادهم .

● ● ●

طائرة الهليكوبتر متخلفة نسبيا

شهد شهر يناير الماضي استكمال أعمال الانشاء في مجمع لأنفاق الريح ، ويعد أضخم مجمع لهذه الأنفاق في العالم كله ، وذلك في مركز « آمس » لأبحاث « ناسا » في كاليفورنيا .

والغاية من هذه الأنفاق انما هي اجراء التجارب على نماذج الطائرات بدلا من اجرائها على الطائرات نفسها في أعالي الجو ، ويكون ذلك باطلاق الطائرة الأنموذج في نفق الريح حيث تتعرض لتيارات هوائية موجهة ، وفيما يمضي المهندس في مراقبة الطائرات الأنموذج على شاشة التلفاز ، يمضي جهاز « الكمبيوتر » في فحص الهواء المحيط بالأنموذج ، ويتحسس مواطن الضعف والقوة فيه ، لكي يصار الى اجراء التعديلات المناسبة ان كان ثمة حاجة لمثل تلك التعديلات .

ويغطي النفق الأكبر في المجمع رقعة واسعة تبلغ مساحتها ١٢ فدانا وتعمل في محطته ٦ محركات ضخمة تحتاج الى ١٠٠ ميجاواط ، أي مايكفي لاضاءة ٧٠٠٠ منزل ، أما مراوحه العملاقة فتستطيع أن تشفط في الثانية الواحدة (٦٣) طنا من الهواء وذلك عبر محطة تجميع تبلغ مساحتها مثل مساحة ملعب لكرة القدم .

ومع أن هذا النفق يستطيع أن يستوعب طائرة بوينغ (٧٣٧) الا أن التجارب التي تجرى فيه تجرى في الغالب على طائرة الهليكوبتر التي مازالت متخلفة بالمقارنة مع الطائرات ذات الأجنحة الثابتة ، وذلك حسبما يؤكد الخبراء . والغريب أن النفق لا يعد صالحا لاجراء التجارب على الطائرات المقاتلة النفاثة ولا على تلك المصممة للانطلاق الى الفضاء ، هذا على الرغم من السرعة الفائقة التي يبلغها الهواء في داخله ، وهي لاتقل عن ١١٥ ميلا في الساعة،والى جانب النفق الأكبر الذي ذكرناه يشمل المجمع عشرة أنفاق أخرى أصغر حجما ومعدة لاجراء التجارب على نماذج الطائرات كما سبقت الاشارة .

والجدير بالذكر أن أنفاق المجمع كلها محجوزة لصالح الشركة التي تصنع الطائرات ، ولصالح جهات أخرى حكومية أو غير حكومية ، على مدى السنتين القادمتين ، وعلى نحو متواصل .

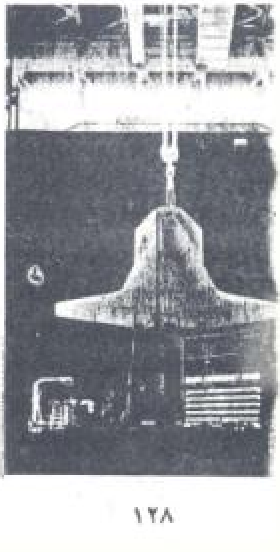

براءات بحيوانات جديدة مخلقة

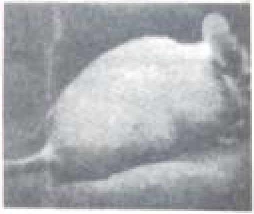

من المعروف أن الاختراعات تسجل ، وبراءاتها تمنح في الحالات التي تكون المبتكرات فيها سلعا أو منتجات أو أساليب ، وقد أضيفت الى هذه وتلك في المدة الاخيرة المبتكرات التي تمخضت عنها الهندسة البيولوجية في مجال النبات ، ومجال الحشرات ، فحصلت شركات شتى على براءات تشمل أشجارا طورتها أو بكتيريا خلقتها ، الا أن هذه البراءات حظرت حظرا تاما فيما يتصل بالحيوانات المخلقة كالأرانب والدجاج والخيول والثيران وما الى ذلك حتى كان شهر ابريل الماضي ١٩٨٨ فقد خرجت دائرة الاختراعات والبراءات الامريكية على هذه القاعدة ، ومنحت جامعة هارفرد الشهيرة براءة اختراع على فأر جديد نجح في تخليقه علماء تلك الجامعة . .

وتتميز الفئران الجديدة بقابلية فائقة للاصابة بسرطان الثدي وقد تميزت مواليدها بمثل تلك القابلية مع الفارق أن قابلية هذه المواليد وراثية ، وهذا هو بيت القصيد .

اذ أن مايسعى اليه علماء جامعة هارفرد هو المقارنة بين العوامل الوراثية كالقابلية التي ذكرنا والعوامل البيئية ،ابل وتحديدالتفاعل بين الفئتين من العوامل في حالات الاصابة بسرطان الثدي ، الأمر الذي يؤدي الى مزيد من الدقة والاحكام في تشخيص سرطان الثدي في بني الانسان ، وبالتالي في معالجته . وما أسرع ما أقدمت جامعة هارفرد على حصر حق انتاج أو تخليق الفئران الجديدة في شركة دي بونت الشهيرة ، ولكن البراءة التي ظفرت بها جامعة هارفرد لم تمر بسلام ، فقد أثارت موجة غضب واحتجاج ترددت أصداؤها في طول البلاد وعرضها ، وبلغت الموجة ذروتها في الكونجرس الأمريكي ، وقد سارع الى فرض حظر شامل على منح البراءات على الحيوانات المخلّقة كلها دون استثناء ، وذلك ريثما يتسنى له استكمال التدقيق في المشاكل والمخاطر المترتبة على تخليق الحيوانات أصلا ، فالحيوان المخلّق قد يسلك خارج جدران المختبر سلوكا مغايرا لسلوكه داخلها ، فيصبح بمثابة المستر هايد بعد أن كان كالدكتور جيكل ويتسبب ـ بالتالي ـ بأضرار للانسانية ككل ، تفوق كل المنافع التي قصد اليها العلماء من تخلّيقه .

ولو أطلق العنان لتخليق الحيوانات دون قيد أو شرط لوجد بين الشركات الصناعية الجشعة من لايعبأ بالأضرار التي يمكن أن تترتب على ماتخلق منها ، مادامت تضمن للشركات ماتسعى اليه من ارباح .

ويرد انصار الاستمرار في تخليق الحيوانات وفي منح البراءات على مثل الفأر الذي خلقته جامعة هارفرد ، ويؤكدون أن الحظر الذي فرضه الكونجرس الأمريكي خطأ كبير ، ولامعنى له الا شل التقدم العلمي في أمريكا وافساح المجال لليابان وغيرها للمنافسة ، ولربما السبق أيضا في مجال حيوي بالغ الخطورة ، وهم يطالبون برفع الحظر المشار اليه دون تأخير . □

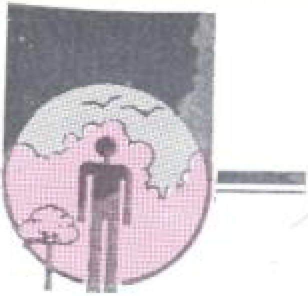

سلامة البيئة

صيد السمك بالسنارة يهدد الثروة السمكية

قد لايكون صيد السمك بالسنارة هواية واسعة الانتشار في بلادنا لكنه كذلك في أمريكا دون أدنى ريب ، فقد بلغ عدد الذين يمارسون هذه الهواية ٥٤ مليون نسمة في الولايات المتحدة وحدها ، تراهم وقد انتشروا على ضفاف الأنهار وشواطىء البحيرات والخلجان ، وترى أنهم يتغيرون ويتبدلون بأسرع مما فعلوا في الماضي حين كان الصياد يقضي ساعات بطولها في مكان واحد قبل أن يعود الى بيته يجر أذيال الفشل ، أو يحمل ماسمحت له الصدفة بصيده ، كثيرا كان أم قليلا .

على أن صيد السمك بالسنارة دخل مؤخرا العصر « الالكتروني » ولم يعد يعتمد على الصدفة كما كان في عصور ماقبل التاريخ . لقد دخل العصر « الالكتروني » من أوسع أبوابه وذلك تبعا للأجهزة المتمقة العديدة التي ابتكرتها التقنية الحديثة لصالح هذه الهواية .

نذكر من تلك الأجهزة ساعة حرارة الأعماق التي توجه الصياد الى بقاع في أعماق البحر ذات برودة فائقة نسبيا لاتلبث أن تجتذب السمك اليها في أيام الصيف الحارة ، ونذكر أيضا ساعات أخرى تساعد على تحديد الحموضة فتوجه الصياد الى مواطنها حيث يتجمع السمك طلبا للغذاء ، ونذكر كذلك الأجهزة التي تتحرى مواطن الضوء وتقرر أي الالوان أكثر جذبا للأسماك في ذلك اليوم ، وفي تلك المواطن على الأخص ، فتعمد الى الافادة منه . وتبقى الأجهزة الأبعث على العجب ، والأكثر رواجا بين الصيادين ، تلك التي تعتمد سبر الأعماق أساسا لاكتشاف الأسماك . . وقوام هذه الأجهزة صندوق تحكم يرسل نبضات « الكترونية » الى محول مركب على مقدمة القارب (أو مؤخرته) ولايلبث هذا المحول أن يحول تلك النبضات الى موجات صوتية عالية الذبذبة ، ثم يرسل هذه الموجات الى أسفل حتى اذا ارتطمت الموجة بالقاع أو بالسمكة ارتدت من حيث أتت ، ويلتقط المحول هذه الأصداء ويرسلها الى صندوق التحكم ، وتظهر النتائج على ورق وتدل الخطوط المتواصلة على قاع البحر . وتدل الأقواس أو ما اليها على الأسماك ، ويمثل عمق القوس طول السمكة الموجودة وقد لايزيد طول هذه السمكة على ١,٥ بوصة ، ومع ذلك فان بعض أجهزة السبر هذه تستطيع تحديد موقعها بضبط ودقة . . كما أن بعض هذه الأجهزة يحدث صوتا مميزا لدى العثور على السمكة ، وبعضها الآخر يعطي ألوانا مختلفة ، ترمز الى صفوف السمك المختلفة فالأحمر للدولفين مثلا ، والأخضر للسلمون وهكذا . بقي أن نذكر بأن هذه الأجهزة التي نقلت هواية صيد السمك من العصور الحجرية الى القرن العشرين دفعة واحدة باتت تهدد الثروة السمكية في المناطق التي انتشر استعمالها فيها .

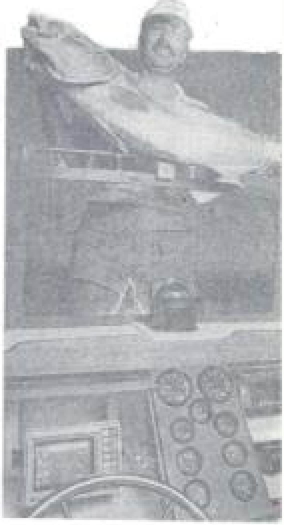

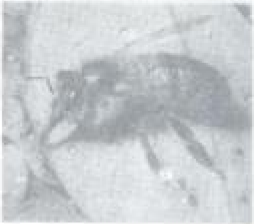

النحل القاتل ثانية

ثمة تشابه بين منطقة الشرق الأوسط وبين قارة أمريكا الشمالية ، فالاولى يهددها الجراد الصحراوي بينما الثانية يهددها النحل القاتل الفتاك .

وتعود قصة هذا النحل المتوحش الى ماقبل ثلاثين عاما سنة ١٩٥٧ بالتحديد ، حين استوردت البرازيل أسرابا من ذلك النحل من بعض البلدان الافريقية ، واتفق لبعض هذه الأسراب أن أفلتت ، فمضت تهاجر الى الشمال بسرعة تزيد على ٣٠٠ ميل في السنة ، وراحت تتكاثر وتزداد أثناء تقدمها في أمريكا الوسطى فأمريكا الشمالية حتى أصبحت حشودها تقدر بالملايين .

والغريب أن سم هذا النحل ليس أشد فتكا من سم النحل المسالم لكن الفرق بين الصنفين انما هو بالروح العدوانية التي يتميز بها النحل القاتل ، فهو لايكاد يشعر بخطر يتهدد خلاياه حتى يقدم على مهاجمة ذلك الخطر حيوانا كان أم انسانا ، وتمضي حشوده في الانقضاض على ذلك الانسان أو الحيوان ، والمضي في لسعه حتى تضمن استبعاد خطره ، وكثيرا ما ينتهي ذلك بالموت ، وتؤكد الاحصاءات أن الذين ماتوا بسبب لسع النحل القاتل منذ سنة ١٩٥٧ حتى الان يعدون بالمئات . ومن طريف مايذكر أن صفارات الانذار في مدينة «بوستون في تكساس أطلقت صفيرها في شهر مايو الماضي بسبب ظهور أسراب كبيرة من النحل قدمت الى الولاية عبر حدودها الجنوبية ، وعم الهرج والمرج ولاية تكساس ، وانطلقت فرق المكافحة لتقوم بالمهمة التي أعدت نفسها لها منذ سنوات ، ومالبث التكساسيون أن اكتشفوا خطأهم ، فقد كانت الأسراب التي اجتاحت حدود ولايتهم الجنوبية أسراب نحل مسالم وليس القاتل .

ومهما يكن فان الاجراءات التي اتخذها الأمريكيون لمكافحة النحل القاتل كثيرة ومتنوعة ومحكمة بحيث يستبعد المرء امكانية وصول النحل الى حدود المكسيك ـ تكساس ، ناهيك بتخطيها . من تلك الاجراءات شافطات تلقط النحل من الجو (على ارتفاع نحو ٣٠٠٠ قدم) ثم تقذفه الى ممرات معدة للقضاء عليه .

■■■

عودة الى التخوّف من الانفجار السكاني

تبلغ نسبة الزيادة السكانية في العالم ككل ١,٧٪ في السنة ، وهذه نسبة تفوق توقعات علماءالديمغرافيا جميعا ، ومعنى هذا أن مجموع سكان العالم سيصبح بعد عشر سنوات ستة آلاف مليون نسمة ، علما بأنه يبلغ حاليا (شهر مايو ١٩٨٨) ٥,١ مليار نسمة ، وأنه سيتضاعف ضعفين في غضون ٤٠ عاما . والجدير بالذكر أن الزيادة السكانية لاتزيد على ٠,٦٪ سنويا في البلدان المتقدمة ، وهي لاتقل عن ٢,١٪ سنويا في البلدان المتخلفة ، فنسبة زيادة المواليد لم تهبط في البلدان الفقيرة كما توقع خبراء الامم المتحدة ولعلها توشك على الارتفاع في بعض تلك البلدان لاسيما الافريقية ، منها ، قبل أن تأخذ سبيلها الى الهبوط وحسبك أن نصف عدد الافريقيين تقريبا يبلغون من العمر أقل من ١٥ سنة ، وسيبلغون مرحلة الانجاب عما قريب . ومعنى هذا أن القول بأن عهد التكاثر أو الزيادة السكانية الفائقة قد انتهى ، قول بعيد عن حقيقة الواقع .

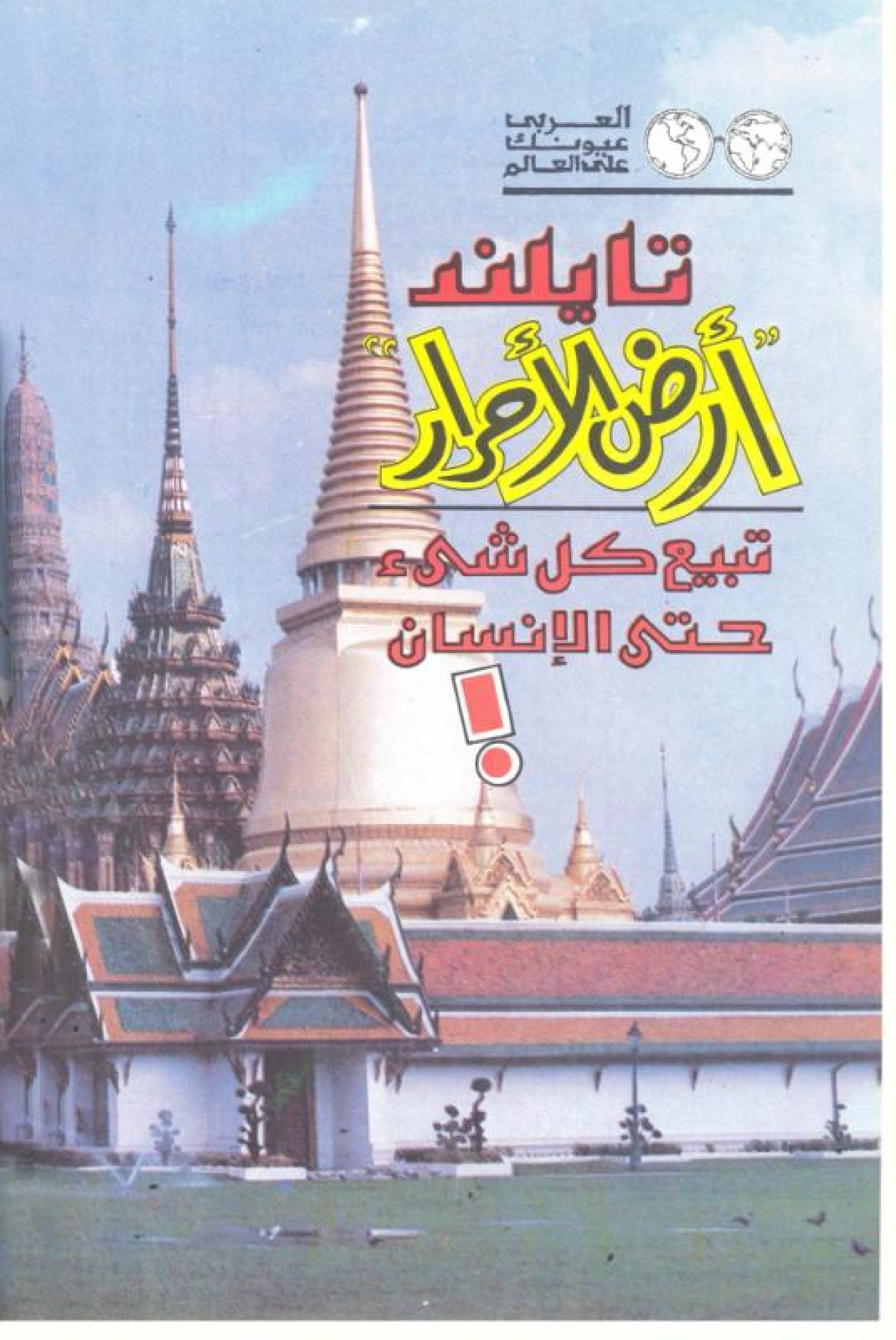
العربي
عيونك
على العالم
تايلند
"أرض الأحرار"
تبيع كل شيء
حتى الإنسان
!

استطلاع :
سلیمان مظہر
تصویر :
سلیمان حیدر

« ألا أونا » « ألا دوي » . . هل من مزايد ؟ هل من يدفع اكثر ؟ انظروا اليه . . إنه صبي رائع قادر على صنع كل شيء . من يزيد على الدولارات العشرة ؟ لا أحد . . لا أحد ؟ . . إذن « ألا ترى » . . !

ويرسو المزاد على الصغير ، ويمد المشتري يده ليسوق الصبي أمامه بعد أن يدفع الثمن ، تماما كما يساق آلاف مثله يتم بيعهم كل أسبوع في سوق الرقيق بالعاصمة بانجوك ، وفي مختلف مدن وقرى تايلند . . وكلهم تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة . . !

سوق النخاسة القديم الجديد لا يتوقف أبداً رغم جهود الحكومة التايلندية لوقفه ، وزبائنه يتزايدون كل يوم ، وبيع الاطفال أصبح تجارة رائجة مثل كل أعمال البيع والشراء في البلد الذي يتاجر في كل شيء حتى الانسان . والسماسرة بارعون في إقناع الأهالي المعوزين الفقراء ـ وخاصة في مناطق الشمال الشرقي ـ ببيع أبنائهم ليتيحوا لهم حياة أفضل . . ! والمشترون ، وخاصة السواح والزوار ، يتسابقون الى الشراء والمساومة ودفع الرشاوي للحصول على عمال أو خدم أو عبيد ، دون وازع من ضمير يمنعهم من أن يحرموا الأبناء من آبائهم لينطلقوا بهم إلى بلادهم فرحين كأنهم قد فازوا بصفقة العمر ، وهم الذين يدعون أن انسان بلادهم قد بلغ أعلى مراحل التطور والتقدم والمدنية !

ومع ذلك فإن الاطفال الذين يباعون للملاك والسادة من أهل البلاد ، قد يكونون أسعد حظاً ، فهم على الأقل يستطيعون أن يتمتعوا برضا المالك الجديد إذا أثبتوا أنهم ـ خدماً وعبيداً وعمالاً ـ قادرون على تحمل العمل المستمر دون توقف أو حدود ، مستعدون لتحمل أقصى الاهانات وأقسى المعاملات . . . فعندئذ يسمح لهم السيد برؤية ذويهم وأهليهم مرة كل بضع سنوات . . !

مدينة الملائكة

مع ذلك فالشعب التايلندي يبتسم دائما . . وهو يسمي عاصمته بانجوك . . « مدينة الملائكة » . والملائكة فيما يتصور التايلنديون الحديثون هم الرهبان البوذيون الذين ينطلقون من المعابد في أثوابهم الزعفرانية ورءوسهم المحلوقة ، حاملين صحافاً فارغة ليملأها لهم الناس ، إنهم يطرقون الأبواب صامتين ، ينتظرون أن تملأ تلك الأواني بقليل من الأرز أو بعض الفاكهة ، وحين لا تمتلىء الصحاف في الوقت المناسب ، فإن الرهبان الكبار يتوقفون في ورع وتأمل بانتظار من يحضر من المتبرعين بالطعام والهدايا . ويأتي المتبرعون بصحبة أطفالهم أحياناً ويقدمون الأرز الساخن والمأكولات الأخرى لتقديمها للرهبان المنتظرين . وبعد بزوغ الشمس بساعة يعود الجميع الى معابدهم لتناول وجبة طعامهم الأولى ، ويتركون ما يتبقى لوجبة ما قبل الظهر ثم لا يأكلون بعد ذلك بقية النهار .

هؤلاء الرهبان هم « الملائكة المحدثون » . أما الملائكة الذين انتسب اليهم اسم المدينة وهو « كرانجثب » ، فهم خدم الآلهة . والاسم مستمد من اللغة السنسكريتية لغة البلاط الملكي . وكلمة « ثب » معناها الملائكة التي تخدم الآلهة في الطقوس البراهمية القديمة . وقد استبقيت هذه الآلهة والملائكة لتتبع العقيدة البوذية ولكنها ليست ضرورية لها ، وقد قبل بوذا نفسه وجود هذا التقليد ولم يغيره ، ولكنه لم يعترف به . . . !

بانجوك أو « كرانجثب » كانت قبل مئات السنين مجرد نقطة حصينة على منحنى النهر لحماية العاصمة السابقة « أيوثايا » . وتعني كلمة بانجوك نفسها المكان الذي ينمو فيه الزيتون البري .

وقد استمدت « أيوثايا » اسمها من « أيودايا » المدينة الخرافية في شمالي الهند التي شن منها الإله راما حملته لغزو سيلان التي كانت تسمى عند الرحالة العرب « سرنديب » وهي الآن سريلانكا . وقد

ظلت بانجوك على حالها وعرفت هكذا لدى التجار الاوربيين . ولكن أيوثايا سقطت في أيدي البورميين بعد حصار طويل في منتصف القرن الثاني عشر ، وقد دمرت تدميراً تاماً . ونقل السكان الأسرى الى بورما تمشياً مع تقاليد تلك الأيام ، ولكن جزءاً من جيش « تاي » بقيادة الجنرال نصف الصيني « تاك سين » هرب قبل سقوط المدينة . ولجأ تاك سين الى الشرق بالقرب من كمبوديا ، وحشد جيشاً هزم به البورميين وطردهم من البلاد فلم يعودوا إليها ثانية

وأصبح تاك سين ملكاً ، واتخذ من « تونبيوري » عاصمة له عبر نهر تشاوتايا أمام بانجوك . وبعد السنوات الأولى من حكمه استطاع أن يوقف البورميين من ناحية والكمبوديين من الناحية الأخرى . إلا أنه أصيب في أخريات أيامه بالخبل وبدأ يتخيل نفسه إلهاً . وحينئذ خلفه قائده جنرال شاكري وتولى الحكم ، فنقل العاصمة الى بانجوك عام ١٧٨٢ ونصب نفسه ملكاً ، وأقام قصره الكبير الذي أصبح مركزاً للعاصمة الجديدة ، إذ جاء الأهالي فأقاموا حوله بيوتهم التي ظلت تتزايد حتى أصبحت مدينة كبيرة رائعة . أما الملك تاك سين فقد قتله الملك الجديد على الطريقة الملكية التالية : حوكم وهو موضوع داخل « جوال » ، وضرب بهراوات من خشب الصندل حتى لا يسكب دمه الملكي على الأرض إذا ذبح أو جرح . وفيما بعد أطلق على « شاكري » أول ملوك الأسرة الملكية الحالية لقب « راما » ، وتبعه خلفاؤه في حمل نفس اللقب حتى الملك الحالي « بهوميبول ادبوليدبج » الذي اتخذ اسم « راما التاسع » وذلك تبركاً بإسم الإله « راما » الذي تشهد تفاصيل قصته المأخوذة عن « رامايانا » على لوحات متتابعة مرسومة على جدران المدخل الشرقي لمجموعة القصر الملكي الكبير ومعبده الرئيسي . . وهي القصة التي انتهت بانتصار راما على ملك الشياطين « رافانا » بمساعدة القرد « هانومان »

أرض الاحرار

إذا كان للعاصمة قصة فان لتايلند نفسها قصة أخرى . فهذ الاسم لم يطلق عليها إلا في عام ١٩٣٩ قبل خمسين عاماً فقط ، حين قرر المسئولون تحويل

● خريطة تبين موقع تايلند والدول المحيطة بها

اسمها الاصلي من « سيام » الى « موانج تاي » التي تعني باللغة السيامية « أرض الأحرار » ومن ثم أصبح الاسم الرسمي للمملكة يتكون من شقين هما « تاي » و « لاند » . وسيام (أو تايلند) إحدى الدول التي تشكل شبه جزيرة الهند الصينية في جنوب شرقي آسيا والتي تضم فيتنام وكمبوديا ولاوس وبورما وماليزيا ، وهي كلها تشترك في الحدود مع تايلند ماعدا فيتنام .

بدأ اتصال سيام بأوروبا عن طريق البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر ، وعن طريق التجار الهولنديين والانجليز والفرنسيين بعد ذلك بقرن ، وقد سعى الفرنسيون الى مزيد من التوسع في سيام ولكن مجازفتهم في سيام انتهت بكارثة .

المهم هنا أنه مع توالي أحداث التاريخ استطاع ملوك أسرة شاكري وأولهم راما الأول عام ١٧٨٢ وتاسعهم الملك بهو ميبول راما التاسع الحالي - أن يقيموا حضارة جديدة للبلاد ، وكان أبرز عصورها في فترة حكم راما الخامس (١٨٦٨ - ١٩١٠) وهي تعتبر فترة تغيير جذري واتجاهاً نحو أعلى مستويات التقدم . أما الفترة المهمة الثانية فهي فترة تغيير نظام

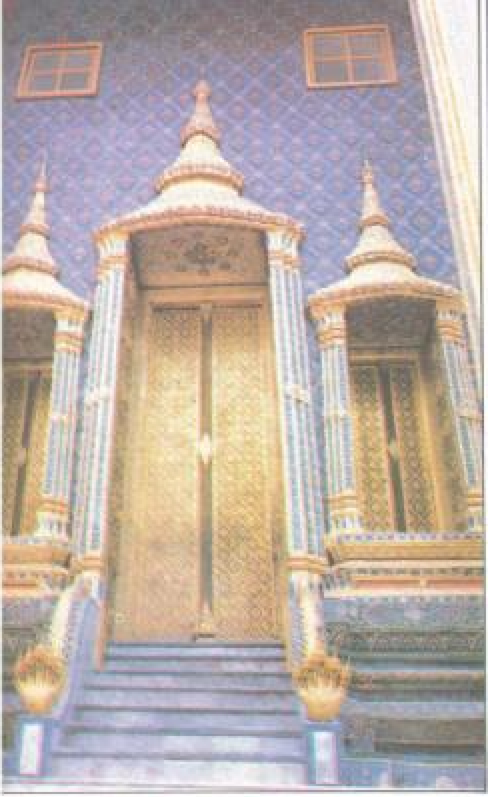

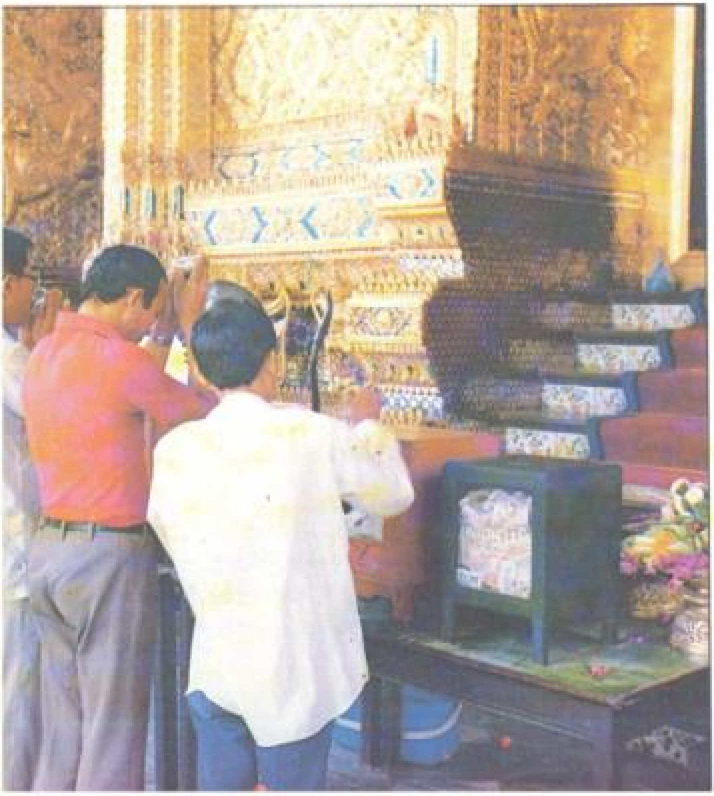

ثلاثة مشاهد لا تستطيع أن تراها إلا إذا دخلت القصر الملكي الكبير وأنت في ملابس تتميز بالحشمة .. الأولى لمدخل «معبد زمردة بوذا» على جانبيه تمثالان لحارسين أسطوريين .. والثانية لمدخل جناح الاستقبال الملكي بزخارفه التقليدية التي تمثل الفن الهندسي التائي القديم ... والثالثة لأتباع بوذا يتعبدون ويقدمون الولاء والتبجيل للتمثال الذهبي .

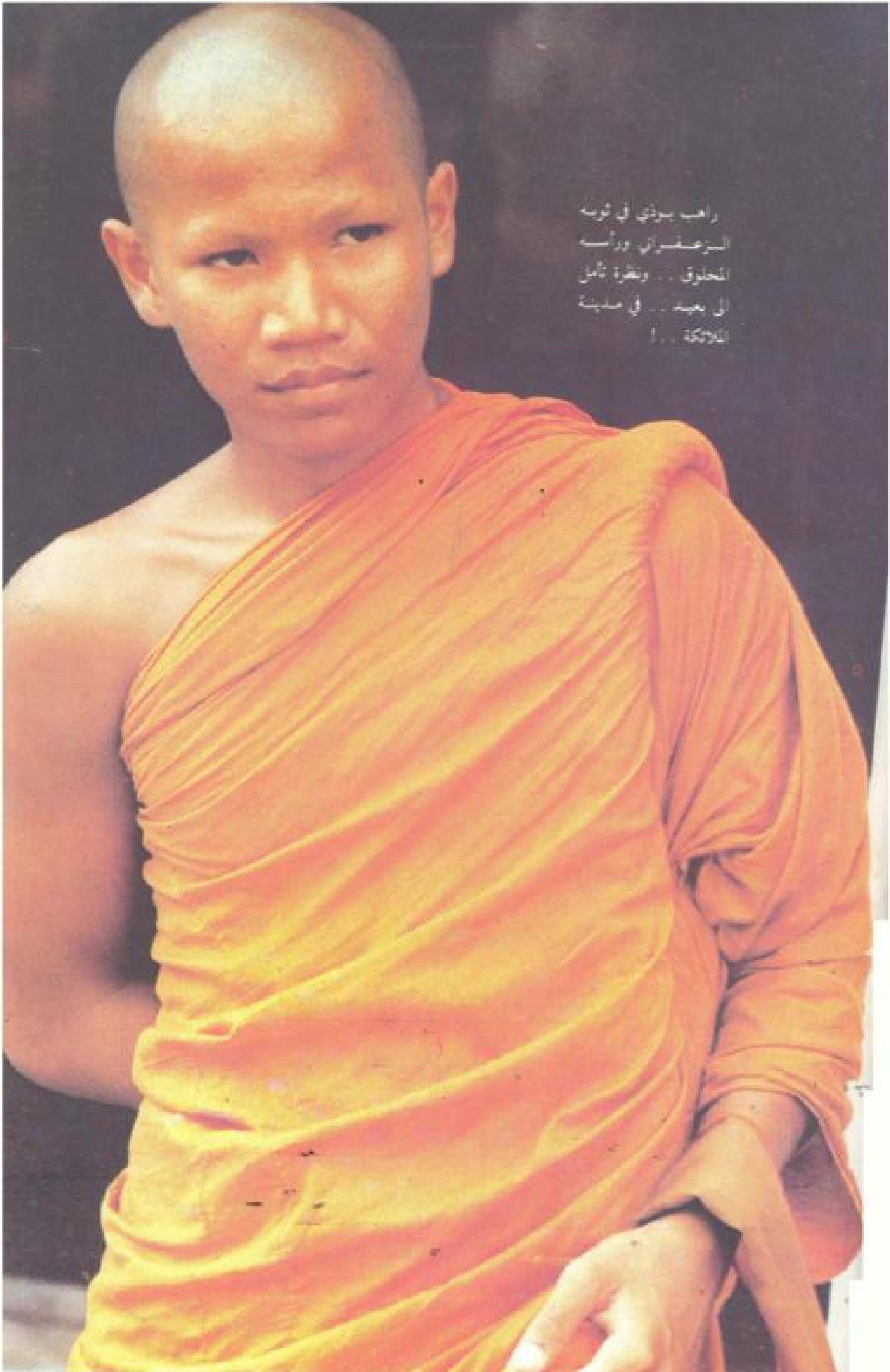

راهب بوذي في ثوبه الزعفراني ورأسه المحلوق .. ونظرة تأمل الى بعيد .. في مدينة الملائكة ..!

الحكم من نظام ملكي مطلق الى نظام ديمقراطي في عام ١٩٣٢ في عهد الملك السابع حين قام بتغيير النظام جماعة أرادوا الحصول على نظام ديمقراطي أيده الملك نفسه وقبل ذلك التغيير بالتسليم ، ووقع على الدستور المؤقت في يونيو ١٩٣٢ ، وهو تاريخ بداية نظام الحكم الديمقراطي في مملكة تايلند ، حيث أصبح الملك يملك ولا يحكم ، وإن ظل يتمتع بقدسية واحترام كبيرين بإعتباره مازال تجسيداً لبوذا المستقبل في أنظار الشعب ، الذي تدين أغلبيته بالبوذية بنسبة ٩٣٪ من عدد السكان البالغ ٥١ مليون نسمة بينما يمثل المسلمون نسبة ٤٪ والمسيحيون نسبة ٢,٦٪ والباقي من الهندوكيين .

القصر الكبير

زيارة بانجوك تبدأ دائما من قلب المدينة حيث ساحة القصر الملكي الكبير والمعابد البوذية المحيطة به التي تعرف باسم « وات » .

القصر آية في الفن التقليدي التايلندي ، أقامه الجنرال فايا شاكري (راما الاول) عام ١٧٨٣ على الضفة الشرقية لنهر « تشاونايا » على مساحة ٢١٨ ألف متر مربع ، وأحاطه بجدران أربعة ضخمة طولها ١٩٠٠ متر ، تضم بداخلها مقر إقامة الملك وجناح الحريم والمكاتب الرسمية للحكم ورجال البلاط ، بالاضافة الى المعابد الملكية وأهمها معبد بوذا الزمردي (زمردة بوذا) .

حين وقفنا نتأمل القصر الكبير بعد أن اجتزنا البوابة المزدوجة ، تذكرنا تلك الصورة الباذخة التي شهدناها في فيلم « أنا وملك سيام » ، ودار بنا الزمن في عودة سريعة لتتابع « يول برينر » يدور بين زوجات الملك الاربعين وأبنائه المائة وهو يؤدي دور الملك مونجكوت (راما الرابع) في أيامه الأخيرة عام ١٨٦٨ ، قبل أن يموت تاركا الحكم لابنه الملك شولا لونجكورن الذي حكم من بعده أربعين سنة على عرش مملكة سيام .

في ذلك الوقت كان الملك يحكم حكما مطلقا باعتبار أن الملوك هم « بوذا المستقبل » الذين حققوا بسموهم الخلاص لأنفسهم وللبشرية عامة ! وكما يحكمون على الارض فإنهم يحكمون في السماء بحالتهم المقدسة . وهم يسيرون في ذلك جريا على مذهب « الملك الإله » الذي يحكم من فوق عرشه بالقصر الملكي .

قال لنا مرافقنا ونحن نجتاز باب القصر الحديدي :

في هذا القصر شهدت سيام مسيرة الاصلاح التي وضع أسسها راما الرابع ، الذي كان من الحكمة بحيث فطن إلى الحاجة للاصلاح مع تمتعه بالحكم المطلق . وكان حصيفاً بحيث استخدم المعونة الأجنبية بنجاح دون أن يتورط في الحكم الاستعماري الذي يقترن عادة بوجود المستشارين الأجانب .

كان الملك « مونجكورت » قد بدأ حياته راهباً لمدة سبعة وعشرين عاماً قبل أن يرتقي العرش ، ودرس اللغة الانجليزية على يد المبشرين الامريكيين واللاتينية والرياضيات والفلك على يد الاسقف باليجوا . وقد عمل بهذه العقلية المتطورة على وضع خطوط الإصلاح ، كما لقي خليفته ابنه « شولا لونجكورن » مساعدة جدية فعالة في المهمة الاصلاحية الكبيرة التي اضطلع بها ، وصبغ البلاد بالصبغة العصرية مع احتفاظه بالاستقلال ، وقام بتغيير النظام الاداري القديم ، وأنشأ الوزارات والادارات ، ووضع أسس التربية والتعليم بإقامة المدارس ، كما أقام المستشفيات والمشاريع العامة ووضع القوانين التي تساير العصر الحديث . وقد ألغى راما الخامس الرق والسخرة في البلاد ، وألغى عادة الركوع والسجود أمامه تخفيفاً على الأجانب ، كما حرم تقليد الانبطاح على الأرض أمام الملك .

وتتذكر ما قالته المعلمة « أنا » في مذكراتها « عندما كان الشخص مهما بلغ مركزه يمثل أمام الملك . . فإنه ما يكاد يراه حتى ينبطح أمامه ويرفع يديه ملتصقتين فوق رأسه ويميل بجسمه إلى الأمام ثم يجلس وساقاه من خلفه ويبدأ في الكلام فيقول : إني ذرة من التراب تحت قدميك المقدستين . . وإني طوع أمرك أتلقى أوامرك ايها السيد المقدس . أما الموظفون والحاشية فيزحفون بجوار الزائرين ورءوسهم محنية ويقدمون لهم الطعام وهم راكعون ، ولا يستثنى من ذلك زوجات الملك وأبناؤه » . وقد انتهى كل ذلك بصورة معقولة في عهد راما الخامس .

الآن . . تدخل القصر الملكي دون أن تزحف أو تركع أو تنبطح على الأرض . الشرط الوحيد الذي

يطلب من الزائرين هو أن يكونوا في أزياء محتشمة وملابس محترمة كاملة وأن يمتنعوا عن التدخين وإثارة الضجيج فالقصر ما يزال له قدسيته بالرغم من أن الملك الحالي بوميبول قد انتقل منه الى قصر آخر في أعقاب توليه الملك بعد مقتل أخيه الأكبر الملك أناندا عام ١٩٤٦ بشكل مأساوي لم يعرف معه هل كان الحادث مصادفة أم انتحاراً أم جريمة قتل . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد القصر مقراً لإقامة الملك ، واكتفى بأن تقام فيه بعض الاحتفالات الرسمية التي يحضرها الملك ، أو ليتلقى أوراق اعتماد سفراء الدول .

ويسمح لنا فقط بدخول جناح الاستقبال الملكي الذي أنشأه الملك راما الخامس ، وخصص قاعاته لإحياء الذكرى السنوية لملوك أسرة شاكري . الجناح يمثل مزيجاً من الفن الهندسي التايلندي والغربي ، والأسقف تتميز بالطراز الفني التائي بينما الجدران وزخارفها تتفق مع الطراز الفيكتوري الانجليزي . وفي وسط كل قاعة عمود يحمل صندوقاً ذهبياً يحتفظ فيه برماد ملوك شاكري السابقين ، أما القاعات الرئيسية فتضم بالإضافة إلى لوحات لأبرز الفنانين العالميين صوراً زيتية ملونة لملوك أسرة شاكري وصوراً لرؤساء وملوك الدول الذين استقبلهم الملك راما الخامس والتقى بهم في رحلاته خلال عهده الذي استمر حوالي أربعين سنة . ويتوسط المبنى الرئيسي قاعة العرش حيث يستقبل الملك سفراء الدول الأجنبية وهو جالس على عرشه الذهبي الذي تظلله تسع مظلات بيضاء مزخرفة صنعت خصيصاً للملك شولا لونجكورن . الى الغرب من جناح الاستقبال الملكي يقوم الجناح الأقدم الذي أنشأه أول ملوك شاكري عام ١٧٨٩ . المبنى نموذج رائع للفن التقليدي السيامي بأفاريزه الأربعة الخارجية التي يعلو بعضها البعض فوق تسع طبقات متراكبة أسطحها موشاة بالذهب مشكلة على هيئة الأفعى الملكية . أما الشرفة الخارجية فيتوسطها العرش الذي كان يجلس عليه الملك راما الاول خلال الاستقبالات الرسمية المفتوحة .

في القسم الخلفي من الجناح الملكي يوجد باب يقود الى الأقسام الممنوعة . ويضم جناح الحريم مقر إقامة زوجات الملك . ولم يكن يسمح لغير الملك باجتياز هذا الباب الذي يخفي وراءه حدائق وأشجاراً ومقاصير رائعة الجمال . وحتى الآن فليس متاحاً لأحد زيارة جناح الحريم الخالي إلا مرة واحدة في السنة حين يستقبل الملك الدبلوماسيين الأجانب في احتفال للزهور بمناسبة ذكرى مولده .

زمردة بوذا

وتنتقل الى المعبد الملكي الرسمي ـ معبد وات براكيو ـ أو معبد بوذا الزمردي حيث يؤدي الملك طقوس عباداته . المعبد بشكل قصراً منيفا تحيط به جدران عالية مثل أديرة التيبت البوذية ، يستقر فيه تمثال بوذا الزمردي أو « زمردة بوذا » . المشهد داخل المعبد مثير غريب . . .

تمثال زمردة بوذا أحضر الى بانجوك بعد سلسلة من المغامرات الاعجازية ، وهو أشهر تمثال من نوعه في الوقت الحالي والقسم به معناه أقدس قسم . والتمثال نفسه صغير مصنوع من قطعة واحدة من حجر الزمرد (اليشبي) وهو مستقر في مؤخرة المعبد ، وقد ركب فوق قاعدة ذهبية عالية تحيط به تماثيل ذهبية لبوذا وهو واقف ، في حين تمثل المظلات الصغيرة التي وضعت إحداها فوق الأخرى مع صغر حجم كل طبقة علوية عن الطبقات السفلى . وأمام المظلات توجد أشجار ذهبية وفضية صغيرة في علب زجاجية مقدمة من أمراء لاوس تكريما لملوك تاي ، أما هدايا الاسر الحاكمة الاخرى التذكارية فهي متناثرة بلا نظام هنا وهناك .

على إطارات نوافذ المعبد الداخلية تتابع قصة حياة بوذا منذ مولده حتى صعوده الى (النيرفانا) وهو السمو الأعظم . وهو الذي يرمز اليه تمثال بوذا في وضع اللوتس ، على حين تشير يده الأخرى إلى الأرض ، وزهرة اللوتس هي أجمل الزهور تفتح بتلاتها فوق الماء وتعني النقاء التابع من العالم المادي . ويجلس بوذا على عرش من اللوتس وعلى وجهه تعبير الرصانة والرحمة والسلام .

المعابد والرهبان

ليس معبد بوذا الزمردي إلا واحداً من حوالي ثلاثمائة معبد موجودة في بانجوك . ومن خلال مشاهدتنا لكثير من المعابد لاحظنا أن مبانيها الرئيسية عبارة عن أسقف من ثلاث أو أربع طبقات متراكبة ،

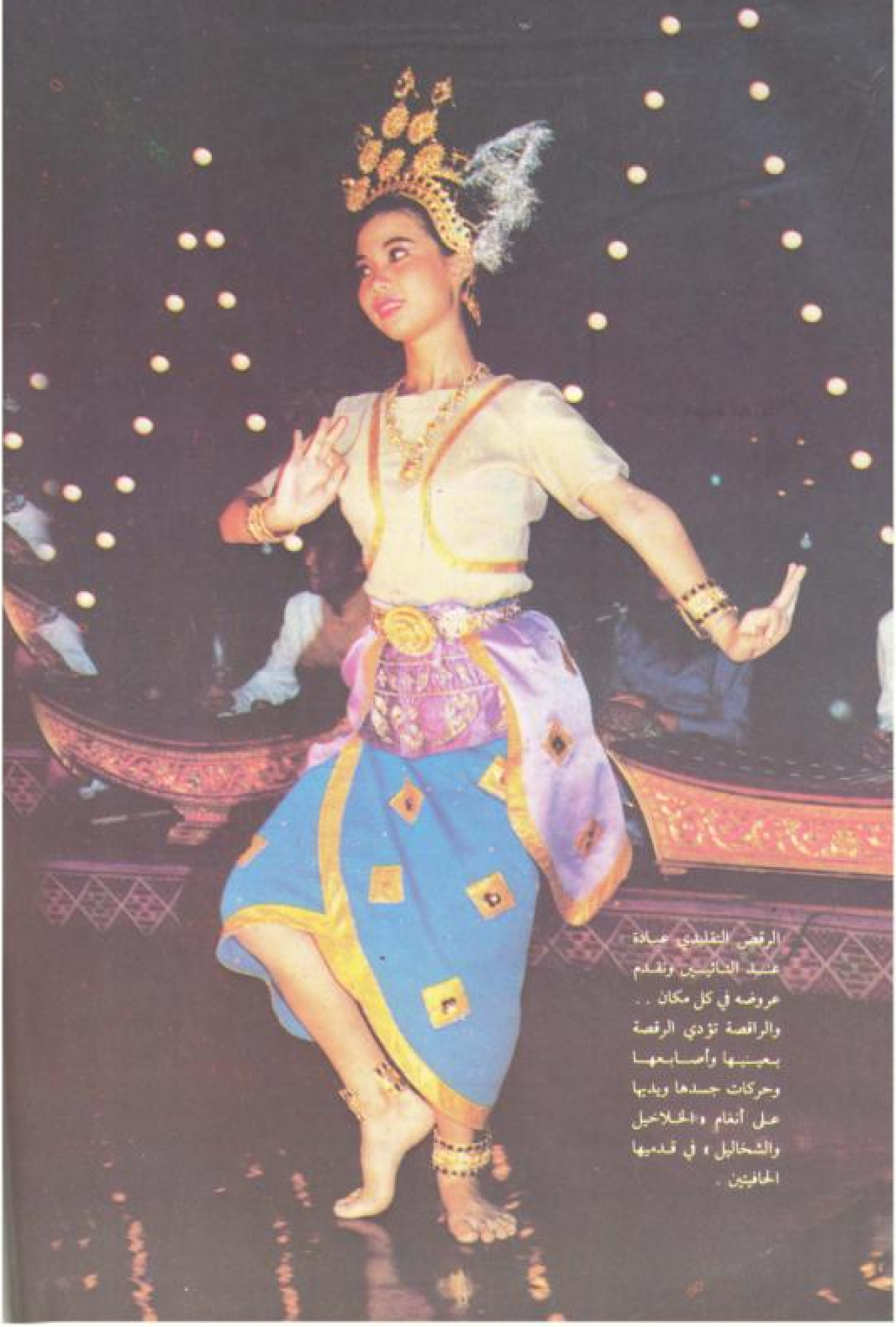

الرقص التقليدي عبادة
عند التايلنديين وتقدم
عروضه في كل مكان ..
والراقصة تؤدي الرقصة
بعينيها وأصابعها
وحركات جسدها ويديها
على أنغام «الخلاخيل
والشخاليل» في قدميها
الحافيتين .

وأفاريز أسطحها الموشاة بالذهب مشكلة على هيئة تاجا وهي الافعى الملكية ، في حين تتولى تماثيل الاسود حراسة مدخل المعبد .

وتنتمي الروعة الخارجية والفخامة التي تتصف بها أبنية المعابد وزخارفها إلى عالم خيالي . . ففي أحد الجوانب نشهد تمثال « الجارودا » الذهبي الذي يرمز الى أسطورة فشنو وهو نصف رجل ونصف طائر . وفي الجانب الآخر نرى تماثيل عمالقة ارتفاعها لا يقل عن ثمانية أمتار مطلية بألوان زاهية لها وجوه عابسة متوحشة وأنيابها بارزة . ويرتفع برج ذهبي رئيسي في الهواء على أبراج موشاة بالذهب مدرجة تضيق كلما ازداد الارتفاع ، في حين تقرع نواقيس المعبد مع حركة الهواء . .

في « وات أرون » أي معبد الفجر نلاحظ أنه ذو طابع معماري تقليدي بأبراجه المدرجة المرتفعة ، وارتفاع أعلى أبراجه لا يقل عن ثمانين متراً . أما « وات بو » وهو معبد بوذا المضطجع فنجد تمثاله ضخماً من الطوب والاسمنت المسلح ومغطى بطبقة من الذهب ويبلغ طوله ١٥٠ مترا وارتفاعه نحو ٤٠ قدما . ونلاحظ أن زخارف المعبد الرخامية صنعت على شكل أشخاص ومناظر من أسطورة رامايانا . وكنا نرى الصبية الصغار وهم منهمكون في إعداد دهانات من أوراق الأرز والزيت يبيعونها بسعر رخيص للزائرين الذين تشغلهم تماثيل الحراس الصينيين ، والاسود وغيرها من الوحوش في مختلف جوانب المعبد .

وفي « وات بنكاما بوتت » وهو معبد الملك شولا لانجكورن نعرف أنه بني في السنوات الأولى من هذا القرن . وهو مهيب المنظر مشيد من المرمر الأبيض وأسقفه مصنوعة من البلاط المزجج . . ونجد تماثيل لبعض الفنانين داكنة اللون مركبة على أفاريز الأسطح ، وقد وضعها البناءون الصينيون الذين لم يستطيعوا مقاومة الاغراء بإضافة ما يدل على إسهامهم في العمل ، على حين تنسجم النوافذ المزخرفة باللونين الذهبي والأحمر مع المرمر الأبيض الذي يزين الجدران .

ولا نستطيع أن نتجاوز معبد « وات سوتات » الذي كان يستخدم ملاذاً للناس عند ضرب المدافع لبانجوك خلال الحرب الاخيرة . . فالمثير هنا أن وراء جدران المعبد تقام مهرجانات للالعاب السحرية والبهلوانية في موسم أعياد الحصاد التقليدية ، وتجري الألعاب من حول تماثيل بوذا الرائعة المتناثرة بمختلف الأحجام والمواد ، بينما الرهبان الدارسون يروحون ويجيئون وهم يتذاكرون القواعد والتعليمات التي يبلغ مجموعها أكثر من مائتين ، وأهمها « الفقر والعزوبة وعدم استخدام العنف » . . ويقول لنا مرافقنا أن هؤلاء الدارسين من الرهبان يدركون أن كل راهب يستطيع العودة الى العالم إذا شاء حيث لا كهنوت أو كنيسة بالمعنى المفهوم في المسيحية . . وكل رجل يلقى تشجيعاً ليصبح راهباً لمدة ثلاثة أشهر عادة ولمرة واحدة على الأقل في أثناء حياته ، ويكون ذلك عادة في شبابه قبل أن يتزوج . وتمنح الحكومة والقوات المسلحة رجالها أجازة بمرتب ليدخلوا « الدير » حيث يحظى الرهبان الدارسون بإحترام كبير ويعرفون بإسم « بهارا » وهو تعبير يدل على الانتهاء للملكية أو التقديس .

ويضيف مرافقنا : هناك رهبان أشرار وآخرون أخيار بالطبع ، بين ذلك العدد الكبير الذي يتجاوز ربع مليون ، يقيمون في حوالي ٢١ ألف دير قائمة في تايلند وبعض الرهبان كسالى وبعضهم الآخر يشترك في التآمر وإن كانوا ليسوا رهباناً سياسيين كالحال في بورما وسيرلانكا . وهناك فريق منهم جهلاء يؤمنون بالخرافات ويملأون عقول الناس بالمخاوف غير العادية حول الأرواح والأشباح . وهم يستغلون المعتقدات الشعبية بأن البلاد مملوءة بأشباح القتلى أو الذين افترستهم الحيوانات الضارية أو النساء اللاتي أسلمن الروح وهن يلدن ، أو الرجال الذين ماتوا بعيداً عن الوطن . . وكذلك ضحايا الكوليرا والأمراض المميتة . . وهذه الاشباح الشريرة يصعب إرضاؤها . وهم يتصورون أن بعض الأرواح أو ما تحدثه من خدوش يمكن أن تسبب المرض الذي يكون مميتا في بعض الاحيان (ويجري الآن إبادة هذه الأرواح بإستخدام مادة ال د . د . ت) وتقود بعض الأرواح المسافرين الى طريق الحيوانات الضارية ، أو تستدرجهم الى المهاوي ، وبعضها تسحر الرجال الشديدي الحساسية بجمالها الأخاذ ثم تفتك بهم فيما بعد ، والبعض الثاني يقتل ويصيب بالمرض كل من يسرق نفائس الكهوف أو المعابد . كما أن هناك فريقا

ثالثا يخيف الاطفال في الظلام . وقد لاحظنا أنه في معظم البيوت هياكل مبنية على شكل معابد صغيرة مطلية بالالوان الزاهية ومركبة على عمود وبداخله تمثال منحوت لاله وحوله تماثيل من الجص لجياد أو ماشية أو عبيد وهبوا للاله مقابل خدمات أو أمنيات تحققت ، تحيطها الزهور وأعواد البخور والفاكهة والأرز . ومع أن سكان بانجوك لا ينظرون الى هذه الهياكل نظرة جدية إلا انهم ما زالوا يتبعون هذا التقليد وذلك لتجنب المجازفة بإغضاب الآلهة والارواح . . !

المدينة ذات المائة وجه

الجولة في شوارع بانجوك لا تخلو من متعة مادمت تعرف أنك تتجول في المدينة ذات المائة وجه الزاخرة بالمتناقضات .

في البداية ، نقف عند حجر الأساس لمدينة بانجوك بالقرب من مبنى وزارة الدفاع ، الحجر عبارة عن عمود قائم داخل نصب على هيئة هيكل يسمى « لاكموانج » أقامه الملك راما الأول عند تأسيسه لعاصمته الجديدة . تدخل الى الهيكل وسط زحام من الزائرين الذين جاءوا يغمرون النصب بالأزهار والورود وقرابين الارز والطعام والفواكه ، وهم يشعلون الشموع والبخور وباقي مستلزمات الطقوس البوذية . والاعتقاد السائد بين هؤلاء هو أن من يزور هذا الهيكل تتحقق له رغباته وأمنياته ، وبخاصة الفوز بجائزة اليانصيب الوطني أو على الأقل الانعام بالانجاب على الزوجة العقيم . وينفتح الهيكل على غرفة جانبية تقدم فيها عروض موسيقية تقليدية راقصة تؤديها فرق شعبية أو رسمية يستأجرها من تحققت لهم أمنياتهم فيجيئون لتقديم الشكر لروح « لاكموانج » . ولا نكاد نغادر الهيكل حتى نفاجأ بمجموعات من الأطفال تحمل أقفاصا بها عصافير ملونة للبيع ، ولكن المشترى لا يدفع الثمن مقابل الحصول على الطائر ، إنما لفتح باب القفص وإطلاق العصفور في الجو بين تهليل الناس وإظهارهم البهجة بتحرير الطائر السجين حسب المعتقد البوذي !

غير بعيد من النصب التأسيسي نجد أنفسنا وسط السوق الكبير الفسيح المسمى « سانام لوانج » . في هذا السوق تستطيع أن تشتري أي شيء يخطر على بالك . خليط غريب من البضائع رخيصة الثمن . . ملابس وبلوزات وجينزات أمريكية وهدايا وعطور وحقائب من جلد الثعبان وأجهزة تسجيل ، كلها تباع على عربات يد أو مفروشة على الأرصفة . الى جانب ذلك تجد باعة الأرز الحار والتوابل ، بجوار بائعة البط والدجاج والفئران الملونة ، جنبا الى جنب مع باعة السيوف والسكاكين والأواني المنزلية . وغير بعيد منهم تجد بائعة القطط السيامية الشهيرة تحيط بها السائحات المغرمات بهذا النوع للفرجة أو للشراء ، وتطل الى حلقات من الشباب تصيح وتهتف فإذا بهم يتحلقون لمشاهدة مباراة في الملاكمة بالأرجل أو قتال للديوك او الأسماك أو الصراصير . . !

الشوارع المحيطة بالسوق تضم المراكز التجارية النشطة المتخمة بالبضائع المعروضة بشكل أكثر تشويقاً ، وأغلبها يبيع الأوعية الفضية والحلي وعلب السجائر الفضية والمجوهرات والتحف التقليدية التايلندية وجلود التماسيح وأنياب الفيلة والتماثيل المصنوعة من خشب الساج . في شارع تشادفونين أطول وأقدم شارع في المدينة ـ وكان من قبل طريقاً للفيلة ـ نشهد خليطاً عجيباً من الدكاكين ذات الشرفات الصفراء والبيضاء تبرز منها مظلات مصنوعة من التيل أو القماش القطني ، تحمل إعلانات ذهبية اللون . هذه المظلات تفصل الحوانيت عن المنازل التي تعلوها في الطابق العلوي ، وتتخلل محلات البضائع حوانيت للحائكين الذين يفصلون ملابسك فورا وحسب الطلب وبأرخص الاسعار . وتتناثر المطاعم والنوادي الليلية وهي في أغلبها صينية الى جانب حوانيت العقاقير المصنوع بعضها من طحين قرون الخرتيت والثعابين والضفادع المجففة والأعشاب البرية والمساحيق الغريبة والسموم الخطرة التي تصرف بدون تذكرة طبية مثلها مثل الأدوية المقلدة بلا تصريح .

بين القديم والحديث

الصورة البارزة أن حركة التطور واسعة في المدينة . فكلما زرت بانجوك بين فترة وأخرى على مدى سنوات ، تستطيع أن تشهد تغيرات كبيرة في معالمها ومبانيها وتطورها . والذي شهدناه في بانجوك قبل سنوات أحسسنا كأنه قد اختفى في الأيام

الأخيرة ، حيث تبدلت الصورة وبخاصة من ناحية العمران . كانت المعابد البوذية أبرز المعالم المميزة ترتفع بأبراجها الجميلة المزخرفة وأفاريزها المذهبة ويمكن مشاهدتها من أي مكان . هذه المعابد وأبراجها أخذت تختفي عن العيون وراء المباني الخرسانية والأبراج العمرانية بجدرانها الزجاجية التي ازداد عددها في السنوات الأخيرة . فالنمو الاقتصادي السريع وانخفاض أسعار الفائدة وعدم الاستقرار في سوق الأوراق المالية المحلية وانهيار العديد من المشروعات الاستثمارية شجع رجال الأعمال حديثي الثراء على الاتجاه الى الاستثمار العقاري ، وانتشرت المباني الحديثة بسرعة مذهلة .

ولكن هذا العمران الحديث إذا كان واضحا في وسط المدينة بالمباني العصرية العالية والطرقات المرصوفة الواسعة ، إلا أن المدينة القديمة وشوارعها الخلفية تبدو في صورة مناقضة تماماً . فالطرقات في أغلبها غير ممهدة ، والمرصوف منها مليء بالفجوات والحفر ، والبيوت مقامة من خشب الساج الذي كان ذات يوم جميلاً بزخارفه ، ولكنه أصبح الآن كئيب المنظر متآكلا مع مر الزمن . وأغلب البيوت وخاصة المطلة على القنوات وجوانب الأنهار وحول خطوط السكك الحديدية والطرقات التجارية مقامة على أعمدة ترتفع حوالي مترين من الأرض ومسقفة بأعواد البامبو وأوراق الشجر وسعف النخيل الجاف . وعند مداخل البيوت درجات غير زوجية العدد لمنع الأرواح الشريرة من دخول المنزل . ويؤدي السلم الى الشرفة أو الى الطرق الرئيسية مباشرة . وتجلس النساء والاطفال عند مدخل المنزل أطول فترة من النهار للمراقبة والانتظار ، بينما تعيش الخنازير والدجاج تحت المنزل ، أما البيوت الأخرى فترتفع فوق قوائم من الاسمنت المسلح أو الطين .

هنا في هذه الأحياء الفقيرة تماما كما في القرى تتم التجارة في كل شيء . . الملابس القديمة والأحذية العسكرية البالية والأواني المستهلكة ، جنبا الى جنب مع المنتجات التقليدية والملابس المطرزة والأقمشة ذات الألوان الصارخة ، ثم أنواع الفاكهة والخضراوات والأرز المطبوخ . ومن هنا أيضا يخرج الاطفال المشردون والهائمون على وجوههم يعرضون خدماتهم في الشوارع التي يرتادها السياح ويبيعونهم عطورات الياسمين والزهور ، وينطلق بعضهم الآخر مع السماسرة الذين يسوقونهم إلى سوق الرقيق حيث يباع الإنسان بأبخس الأثمان . . !

حمى المنافسة

اللافت للنظر في بانجوك أن الصينيين أو التائيين من ذوي الأصل الصيني يكادون يشكلون أكثر من نصف سكان المدينة . بل إن جميع سكان منطقة الاعمال تقريبا من الصينيين . والواقع أن عدد الصينيين في تايلند يزيد عن عدد الذين نجدهم في أي دولة اخرى في جنوب شرق آسيا . وهم إلى جانب الهجرات المتتالية التي انطلقوا خلالها من الصين الأم الى هذه المناطق ، كان الطلب يزداد عليهم في مجالات البناء والإنشاء وكعمال للموانيء وزراع للارز ومضاربه ، كما اشتد الطلب أيضاً على زملائهم عمال الطرق وعمال المتاجر والمكاتب نظراً للنقص المستمر في العمال التائيين المتخصصين ، لأن هؤلاء يفضلون الاستمرار في الفلاحة على الاعمال الاخرى . ولكن مع ظهور القومية التائية خلال الخمسين سنة الماضية ، اتخذت الاجراءات الحازمة ضد الصينيين الوافدين وضد التعليم الصيني ، وأغلقت مدارسهم الثانوية وقيد تعليم اللغة الصينية في المدرسة الأولية ، واستبعد الصينيون من بعض الاعمال التي خصصت للتائيين الاصليين مثل أعمال صناعة الطلاء والعمل في الغابات وبيع الفحم الحجري وقص الشعر وقيادة مركبات الساملور وسيارات الاجرة والاوتوبيس ومن زراعة الارز وصناعة الملح . كما حرم على الصينيين منافسة التائيين في صناعة مذابح بوذا وتصنيع الأوعية التي يستخدمها الرهبان .

ومع ذلك فإن الصينيين أو التائيين ذوي الأصول الصينية هم الأكثر بروزا في شوارع وأسواق بانجوك . وهم يقومون بمعظم عمليات البيع من شارع لآخر بأسعار رخيصة . ومع ذلك فإن التائيين يعملون على منافستهم وخاصة في ميدان بيع الأطعمة الخفيفة ومستحضرات اللحوم والتمر هندي المحلى بالسكر وجوز الهند والكعك والموز المقلي وعجة البيض وغيرها .

وبمناسبة الطعام فإن كلمتي الأرز والطعام مترادفتان عند التائيين . وكما يقولون من خلال ترديد

في حديقة الزهور تقدم ألوان متباينة من الفنون التقليدية التائية ... أبرزها عروض الرقص التي تمثل مختلف القوميات التي يتشكل منها سكان تايلند كما تبدو في الصورة الاولى ... أما الصورة الثانية فلعرض الفيلة وهي تتنافس وتثبت قدرتها في المصارعة وحمل الأثقال وتحطيم الحواجز .. بينما الصورة الثالثة لرقصة البامبو التي يمارسونها خلال أعياد الحصاد .

الشوارع واسعة في مدينة الملائكة ، حيث تتداخل السيارات وتتسابق بغير روية أو حذر من جانب سائقيها ..

ومع هذا فإن مسلة « تمثال النصر » في وسط الميدان الرئيسي تذكر الجميع بالانتصار على القوات الفرنسية في الهند الصينية عام ١٩٤١ .

الأفكار البوذية « إن سعادة الناس تتوقف على أربع مواد : منزل يسكنون فيه ، وثياب يرتدونها ، وأدوية يعالجون بها عند المرض .. وطعام يأكلونه ليتمكنوا من مواجهة المواد الثلاث السابقة وأبرزه الارز » .

فالارز هو الطعام الأساسي . ولهذا يحرص الفلاحون على زراعته كمحصول رئيسي . والى جانب الأرز هناك أطعمة عادية مساعدة أبرزها السمك الى جانب صلصة الشيلاي وهي فاكهة ساخنة والجرجير والموز .. أما الفاكهة الأخرى فهي إما غالية جدا أو غير موجودة في متناول الفقراء . وتضيف صلصة السمك التي يسمونها « نام بلا » قوة وطعما للغذاء التافه بالنسبة للتايلين ، بينما الصينيون شرهون وبالاخص بالنسبة للحوم وأنواع كثيرة من السمك التي لا يستسيغها التايليون .

جندول البندقية

كل هذه الصور من حياة الناس لخصتها لنا جولة نهرية في بانجوك . ففي قارب يشبه جندول البندقية قمنا مع الصباح الباكر بجولتنا النهرية . الصورة مثيرة حقاً . عشرات الآلاف من السكان يمارسون حياتهم في القوارب والمنازل العائمة أو المنازل المحمولة على قوائم على طول شواطيء الأنهار والقنوات . وتشكل الأنهار وروافدها شبكة من الطرق المائية الصالحة للملاحة طوال العام . وعلى جوانب الشوارع المائية تقوم البيوت كما يتصل بعضها بالبعض بقناطر خشبية مقوسة . ووقفنا عند سوق صغير عند أحد أركان النهر واشترينا من البائعة العجوز موزاً مقلياً جربناه فوجدناه لذيذ الطعم . وكان هدفنا أن نصور المرأة بقبعتها المصنوعة من القش . والغريب أنها رفضت أن تأخذ ثمن الموز المقلي بإعتبار أنها قانعة بأن صورتها ستنتشر في العالم كله وتكون دعاية تجذب السائحين لقاربها بالاضافة الى نشوتها بفلاشات آلات التصوير .. بينما جاراتها في القوارب الاخرى كن يطلبن البقشيش مقابل السماح بالتصوير .

على امتداد شواطيء القنوات كانت القوارب مختلفة الأشكال والالوان والمظلات أيضا تصطف وفي كل قارب امرأة تعرض ما لديها من بضاعة ، فواكه وخضراوات وأدوات منزلية ، بينما القنوات الرئيسية والانهار تتسع لجميع أنواع اللنشات وقوارب الركاب و « السامبنس » التي تسير بالمجاديف وهي محملة بالفحم الحجري أو المواد المنزلية أو الفاكهة . وغالباً ما تطل الخضرة على جوانب القنوات فتكسبها منظراً رائعاً لأن الأشجار والحشائش توجد عادة حيثما يوجد الماء ، على حين تؤدي القناطر الخشبية الضيقة الى المنازل على الجانب الآخر .

مزرعة الافاعي

ونواصل جولتنا بين معالم بانجوك ..

على مدخل مزرعة الأفاعي الواقعة في شارع الملك راما الرابع في نطاق معهد باستير ، نجد مجموعة من النساء جالسات في انتظار خروج أزواجهن أو أخواتهن من المبنى الذي تقع فيه المزرعة . ونسأل إحداهن عن سبب الانتظار فتقول أنها ترفض مشاهدة الثعابين والحيات وهي تنفث السموم . وتقول أخرى أنها تخشى أن تلدغها الكوبرا فتموت كما ماتت الملكة كليوباترا منتحرة . وتقول ثالثة : من يدري فربما ثارت الأفاعي لتقذف سمومها التي يسبب بعضها الصمم ويتسبب بعضها الاخر في سقوط شعر الملسوع .. فماذا أفعل لو سقط شعري خلال ثوانٍ إذا لدغتني إحدى الحيات ذات الرأسين ؟!

يقول لنا مرافقنا ونحن في مزرعة الأفاعي أن الحكومة لم تقم هذه المزرعة وتهتم بها ليشاهدها السياح . ولكن الهدف الرئيسي منها هو تربية الافاعي والحيات للحصول على سمومها التي تستخرج من أنيابها وفق طريقة معينة ، ثم تعالج لتصبح أمصالا ولقاحات تستعمل في مجالات عديدة ويرسل أغلبها الى المناطق الريفية حيث حقول الارز التي تكثر فيها لدغات الأفاعي والثعابين . مزرعة الأفاعي تحتل مساحة تقع أسفل مجموعة كبيرة من أشجار الظل الضخمة ، حيث حفرت ثلاث حفر واسعة عميقة تضم مئات من الأفاعي السامة . وأبرز أنواع الأفاعي الموجودة في المزرعة « ملكة الكوبرا » التي يزيد طول بعضها عن أربعة أمتار ، بالاضافة الى أنواع أخرى من حيات الكوبرا والافاعي المتسلقة العصارة والحيات الخبيثة . وتستخرج السموم من

الأفعى بطريقة كانت لافتة لأنظارنا ، فقد أحضرت الافاعي « لحلبها » ، كما يقولـون بواسطة اثنين من العاملين المدربين ، ينزلان الى الحفرة وكأنها يذهبان للجلوس على مقهى للتسلية ، يلتقطان الأفعى من النوع المطلوب استخلاص سمه . ويمسك أحد الرجلين بكأس زجاجي فيقربه من فم الافعى أسفل النابين ، بينما يمسك الآخر برأس الافعى ويضغط على الجيوب السمية خلف العينين ، فعندئذ يخرج من النابين سائل أصفر يسيل داخل الكوب الزجاجي هو الذي يتم تحويله بعد ذلك الى مصل مضاد للدغات الأفاعي . المهمة في الحقيقة ليست سهلة . ويقول لنا أحد العاملين أن أحد ملوك الكوبرا ثار في أحد المرات لكثرة ما استخلص من سمه واستطاع أن يلدغ أحد العمال الذي أمكن إنقاذه من الموت بإعجوبة . أما كيف تتم المحافظة على المصل فإن السم فور استخراجه تحقن به جياد مخصصة لذلك من حظيرة قريبة من المزرعة . وعندما يجرى السم في دماء الجياد يتم الحصول على دمها بشكل دوري بعد أن تختبر فعاليتها . وبعد أن يتم التأكد من مدى فعالية السم المطلوب يجري فصل السم من دم الحصان ويتم تجفيفه وتجميده وإرساله الى المستشفيات المخصصة لعلاج لدغات الافاعي .

حديقة الزهور

على جانب نهر تاشان على مسافة ٣٢ كم بالسيارة الى الغرب من بانجوك نزور حديقة الزهور . الحديقة أقامها على نمط ديزني لاند أحد كبار محافظي العاصمة . تغطى الحديقة مساحة تفوق ٢٠٠ الف متر مربع ، وهي مليئة بالورود والزهور ، ويتوسطها فندق حديث مقام على الطريقة التقليدية التايلندية يضم حوض سباحة وملاعب للجولف وساحة للتجديف وتسهيلات للانزلاق على الماء ، بالاضافة الى قرية تقليدية تقدم فيها بعد ظهر كل يوم عروض الفلولكور التقليدية للسياح تتميز بالجمال وحسن الاداء .

مما يثير الانتباه في العرض التقليدي عرض « التاكرو » وهو نوع من الألعاب تشترك فيه مجاميع من الصغار والكبار يصطفون في حلقة دائرية ويتقاذفون فيما بينهم كرة يجب ألا تسقط على الأرض ويسمح لكل من اللاعبين أن يستقبلها بأي جزء من جسمه أو رأسه أو قدمه ولكن دون استخدام يديه .

ولكن العرض العنيف الذي يشد الانتباه هو عرض الملاكمة التايلندية ، فليس هناك ضربات ممنوعة إطلاقاً ، ويستخدم الملاكم قبضته ويوجه لكمته الى قمة رأس خصمه او على مناطق منخفضة تحت البطن ، كما يمكن استخدام الرأس للنطح والأرجل للرفس . . والحلبة تشبه حلبات الملاكمة العادية ، والملاكمون حفاة نحاف الاجسام ذوو مستوى عالٍ جداً من اللياقة البدنية . وفي البداية يحيون الجماهير بالانحناء أمامهم بكل احترام ثم ينسحب كل ملاكم الى زاويته وهو يتمتم بدعاء ديني ، ثم يركعان ويسجدان بحيث يمس رأس الملاكم الارض ويكرران ذلك في الاتجاهات الأربعة . بعد ذلك تبدأ تمرينات الإحماء ، كل ملاكم في زاويته يلاكم أو يرفس خصماً وهمياً . وبعد أن تعزف فرقة موسيقية مقطوعة صغيرة تبدأ المباراة ، ويشهد المتفرجون حركات غاية في الرشاقة والسرعة في الهجوم والدفاع والرد على الضربات بقسوة ووحشية . وتأتي الضربة القاضية عندما يتمكن أحد الملاكمين من رفس خصمه في مكان حساس فيسقطه أرضا ويتابعه بالضربات على رقبته بكعب قدمه الحافية . ويظل الخصم المهزوم فاقداً وعيه لعدة دقائق . هذه اللعبة ذات شعبية كبيرة خاصة في الريف حيث أنها الوسيلة الممتعة لقضاء سهرة جميلة بعديوم شاق من العمل في الحقول . !

هناك عرض آخر مثير يسمونه « لوتشينج تشا » . فيتم نصب أربع أرجوحات بإرتفاع حوالي خمسة عشر متراً ، وكل أرجوحة عبارة عن عمود من الخشب موضوع بشكل أفقي ومعلق من وسطه بحيث يتأرجح صعوداً وهبوطاً كالميزان . ويشترك في اللعبة ثمانية رجال فيجلس كل لاعبين في أرجوحة كل منهما عند أحد طرفيها . وعلى هؤلاء اللاعبين أن يرتفعوا في الهواء وأن يلتقطوا محفظة مملوءة بالنقود معلقة فوق رءوسهم بخيط وقضيب من الخيزران . وعلى اللاعب عند ارتفاعه الى أعلى أن يستخدم أسنانه فقط في اقتلاع المحفظة من مكانها لتكون له لا ينازعه فيها أحد . وبالطبع يتعرض اللاعبون لخطر السقوط من ارتفاع كبير . وإذا سقط أحد اللاعبين

البندقية الجديدة (الى أعلى) . . بطرقها المائية التي تخترق المدينة وقوارب الخضراوات والفاكهة وبائعاتها من النساء (والى اليمين) يبدو مبنى معهد باستير حيث مزرعة الأفاعي وسمومها . . التي ترفض النساء الدخول اليها (والى اليسار) مسجد بانكوك ومئذنته أمام مقر المركز الاسلامي . . والمسئول عن الشئون الثقافية يتابع كتب التفسير والحديث في المكتبة الرئيسية للمركز . .

من طرف العمود فإن اللاعب الآخر على العمود نفسه يفقد توازنه ويسقط أرضاً . هذه اللعبة ترتبط بموسم حصاد الأرز .

العرض في حديقة الزهور يستمر أكثر من ساعتين تتخلله رقصات تقليدية تمثل مختلف القوميات التي يتشكل منها سكان تايلند . وأبدع هذه العروض مشاهد حفلات الزواج التقليدي . ومع نهاية العرض نتجه الى حيث تقوم الفيلة بعرض آخر تثبت فيه قدرتها على حمل الأثقال على ظهرها ، ومقدرتها على جر هذه الاثقال وقلع الأشجار وتحطيم بعض الحواجز . وهذا العرض يعتبر بسيطاً الى جانب ما يجري في سباقات الفيلة حيث يشترك في السباق عشرة من الفيلة في المباراة ، ويقف على ظهر كل فيل سائسه وقد أمسك حبلا في يد وسوطاً في اليد الاخرى . ومع بدء السباق تجري الفيلة في تثاقل ثم تسرع في جريها تحت ضربات السياط التي تثيرها فتجعلها تقتتل مع بعضها البعض ، ويحاول كل فيل إسقاط الفيل المجاور له ويطيح به أرضا مستخدماً خرطومه للاخلال بتوازنه . ويتم في النهاية توزيع الجوائز على الفائزين من السياس . كما نشاهد القردة وهي تقطف جوز الهند من الاشجار وعادة ما تكون قد دربت بشكل جيد على ذلك بتقليد صاحبها ، فعندما يقذف المدرب القرد بجوزة هند من على الأرض يفعل القرد ذلك ولكن من فوق الشجر . .

عروض فنية رائعة أخرى نشهدها في مختلف الفنادق والملاهي في بانجوك . لا يخلو فندق من الفنادق الكبيرة من قاعة رئيسية تقدم فيها الرقصات التقليدية والموسيقا ومباريات الملاكمة بالأرجل . وأبرز هذه العروض تقدم في المطاعم الكبيرة وبخاصة مطعم شهير يعد من أكبر مطاعم العالم بمساحته الممتدة على أربعة هكتارات ويبلغ عدد مقاعده ثلاثة آلاف مقعد موزعة في أرجائه الواسعة بين أحواض الزهور والمساقط المائية والأشجار المورقة ، ويقوم على خدمة الرواد عمال وعاملات يتحركون على زلاقات لسرعة إحضار الطلبات .

أثار استغرابنا في احدى زوايا الحديقة الرئيسية زحام شديد لم نكد نقترب منه حتى عرفنا أن المشاهدين يتابعون مسابقة قتال الأسماك ، حيث ترتفع أصوات المراهنين والمضاربين تماما كما شهدنا من قبل في حلبات صراع الديوك . حلبة قتال الاسماك تقوم حول مائدة يبلغ طولها ستة أمتار يتحلق حولها المتفرجون وقد جلسوا على مقاعد منخفضة . على المائدة عدة أوان زجاجية مخروطية الشكل ، في كل آنية منها وضعت سمكة صغيرة من النوع الصيني ذي الذيل المشرشر المشهور بروحه العدوانية وحبه للقتال . وعندما تبدأ المباراة يقوم الحكم باغتراف سمكة من آنيتها بأداة تشبه الملعقة الكبيرة ويسقطها في الآنية التي تسبح فيها سمكة أخرى من نفس النوع .

وفي لحظة يضطرب الماء وتنقض كل من السمكتين على منافستها تريد عضها وانتزاع زعانفها ، وكلما استمر القتال وبدء الاجهاد على السمكتين توقفتا هدنة مؤقتة ليعود القتال بعدها أشد عنفا بينها الصيحات والتصفيق يرتفع من المشاهدين . ولا يقل زمن المعركة المستعرة عن خمس دقائق وتنتهي بموت احدى السمكتين . وعندما تهبط السمكة المهزومة الى القاع تتابعها المنتصرة وتقتلع زعانفها وذيلها ثم تبدأ في نهش لحمها ، وتكافأ السمكة المنتصرة بإطعامها ببعض الديدان يقدمها لها صاحبها بعد أن يكون قد فاز بالرهان .

المسلمون بين مد وجزر

كل هذه الجولات لا تغني عن لقاء مع المسلمين في بانجوك . ونبدأ اللقاء مع الإمام المسئول عن الشئون الدينية شافعي عبدالقادر في مقر المركز الاسلامي الذي يحدثنا عن مسيرة الاسلام في تايلند ونشاط المركز في بانجوك في نشر الثقافة الاسلامية وتعليم الطلاب والطالبات وخاصة انهم في الايام الاخيرة بدأوا يتعلمون لغة القرآن والتفسير السليم . بدأ الدين الاسلامي انتشاره أولا في شبه جزيرة الملايو ثم جاء الى بلاد سيام عن طريق التجار العرب الذين جاءوا للتجارة ونشر الاسلام معاً ، وفي عهد دولة « ايوتيا » حوالي عام ١٥٩٠ جاء تاجر مسلم اسمه الشيخ أحمد واستوطن البلاد وأقام مركزاً للتجارة في مدينة أيوديا حيث تمتع بتكريم الملك له بمنصب المسؤول العالي (وهو منصب رئيس الوزراء) ويعتبر الشيخ أحمد الجد الاول لبعض عائلات تايلندية الان .

أما المسلمون في جنوب تايلند فهم مواطنون

أصليون ولم يتصل نسبهم الى التجار أو الاجانب الذين هاجروا اليها . ويثبت التاريخ أنهم مواطنون محليون مقيمون في هذه البقعة قبل الميلاد وبعدة سنوات ، وأقاموا دولتهم باسم « مملكة لانكاشوكا » ، وفي سنة ١٦٧٥ أقاموا دولتهم الجديدة باسم « مملكة سري ويشاي » ، واستمرت الدولة صاحبة نفوذ إسلامي قوى حتى أوائل القرن التاسع حيث غرست الديانة الاسلامية جذورها داخل مملكة فطاني التي أسسها « برياتوانكو »الذي عالجه طبيب مسلم اسمه الشيخ سعيد من مرض ممیت أصيب به وكان شرطه لمواصلة العلاج هو أن يعتنق الملك الاسلام بعد شفائه .

ونكث الملك ثلاث مرات عن وعده بعد الشفاء ، فكان المرض يعاوده ثانية حتى شفي تماماً في المرة الثالثة . فأسلم هو وزوجته وأولاده وبناته وتبعه شعبه في اعتناق الاسلام ، وأصبحت مملكة فطاني مملكة إسلامية منذ ذلك الوقت ، وتوسعت حتى شملت الولايات الجنوبية كلها وهي « جالا ، وفطاني ، وناريتواسي ، وستول » .

يؤكد الشيخ شافعي أن عدد المسلمين في تايلند يبلغ حوالى مليون نسمة ثلاثة أرباعهم في مناطق الجنوب . ويقول إنهم يتمتعون بمساواة كاملة وبحرية مكفولة في ممارسة شئونهم الدينية والسياسية والتعليمية ويمارس عدد كبير منهم المناصب الهامة في مختلف المحافظات . إن في بانجوك وحدها حوالى ٢٠٠ مسجد من بين حوالى ٢٠٠٠ مسجد في تايلند كلها تدعم إقامتها الحكومة وبعض الدول الاسلامية التي تقدم منحاً دراسية كثيرة لأبناء المسلمين ولكن هناك حاجة الى المزيد من المعونات .

ولكننا نقرأ ونسمع أشياء أخرى ، من المسلمين أنفسهم ، سواء في مناطق الجنوب أو ممن زاروهم وتحدثوا اليهم ، فعدد المسلمين يتجاوز خمسة ملايين نسمة منهم أربعة ملايين في الجنوب وحده ولكنهم يلقون أسوأ المعاملات وبخاصة بعد أن أعلنت تايلند عام ١٩٠٢ ـ بعد حروب وغزوات ضد فطاني استمرت ٤٦ سنة ـ ضم فطاني واعتبارها جزءاً من المملكة ، وألغيت جميع حقوق سيادة السلاطين الفطانيين المسلمين وآخرهم تنكو عبدالقادر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت فطاني منطقة تابعة لمملكة تايلند الكبرى . وحكمت الولايات الفطانية بشكل مباشر وعينت الحكومة حكاما بوذيين يحكمون الجنوب المسلم . وبعد أحداث ١٩٣٢ ازداد الموقف سوءاً وفرضت عليها يد من حديد وأهملت مصالح الشعب ، ولجأت الدولة الى استخدام سياسة الدمج ، وعوقت مشاريع التنمية وبرامج تطوير الثقافة الاسلامية . وأدى كل ذلك الى قيام حركة الكفاح الشعبي من أجل الاستقلال بقيادة أحد علماء فطاني « حاج سولونج تؤمينا » وحدثت اشتباكات خلال عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٨ وقبض على الزعيم المجاهد وزملائه ، وهاجمت القوات التايلندية قرية « دوسون بور » وقتلت أربعمائة من الرجال والنساء ، وأحرقت مساكنهم ، وشردت ٢٥ عائلة في قرية بلوكر ، وأغلقت المدارس الاسلامية وقبض على بعض المسئولين فيها . وخلال السنوات التالية ازداد التعسف ضد المسلمين ، ومنع الشعب الفطاني من استخدام اللغة الملاوية مع وجوب التعامل باللغة التايلندية ، وجرى تهجير عدد كبير من البوذيين من الشمال وتوطينهم في الجنوب . وكان أغلب هؤلاء من الجنود الذين خاضوا حرب فيتنام .

قال لنا أحد شباب المسلمين : في عام ١٩٧٥ قامت فرقة من المشاة البحرية بالقبض على خمسة أفراد من طلبة المدارس الاسلامية وأجبروهم على الركوع أمام تمثال بوذا ، ولما أبوا قتلوهم ورموهم في النهر ، وقام أهالي فطاني بمظاهرات شعبية ضخمة استمرت ٤٤ يوماً احتجاجاً على تلك الجريمة ، وطلباً للعدالة والحرية . واضطرت الحكومة لبذل الوعود ولكن أخلفتها فيما بعد . ولكن الاضطهاد استمر حتى بلغ عدد الضحايا من المسلمين الأبرياء الذين قتلتهم القوات التايلندية ٣٦ ألف ضحية ، وبلغ عدد المهاجرين الفطانيين الذين لجأوا الى ماليزيا وحدها حوالى ٥٠ ألف شخص .

يقول محدثنا : برغم كل ما يقولون في النشرات الاعلامية عن المعاملة الطيبة والمساواة التي يتمتع بها المسلمون ، الا أن الاضطهاد ما زال يحيط بالشعب الفطاني ، ولا يمكن لهذا الشعب المسلم أن يقبل مواصلة العيش بلا معنى في وطن أجدادهم ، وهم يفتقرون الى الاستقلال والحرية ، في بلاد تستعمرهم وتسمى نفسها « أرض الأحرار » . □

أسواق القاهرة القديمة

د . قاسم عبده قاسم *

التسوق متعة للكثيرين ، والأسواق ملتقى اجتماعي يمكن التعرف من تكويناتها على الملامح الاجتماعية للشعوب ، وهذه رحلة سريعة ، ومشوقة ، لأسواق القاهرة في الحقبة المملوكية ، تثير مقارنة ممتعة فيما كان وما هو كائن ، وتفصح عن ملامح الحياة اليومية والاجتماعية للمصريين في عصر المماليك .

شهدت مصر مع بداية عصر سلاطين المماليك نموا سكانيا كبيرا . ويمكن تفسير ذلك النمو السكاني في ضوء حقيقة مؤداها أن القرن الأول في حكم سلاطين المماليك كان يمثل فترة سلام واستقرار الى حد كبير . ففي عصر المماليك البحرية الذي يمثل خط الصعود في تاريخ سلطنة المماليك ، كان النظام السياسي راسخا ، وكانت القوة العسكرية للدولة توفر لها الهيبة في الخارج .

ومنذ بداية ذلك العصر الزاخر بالاحداث تمكنت مصر من صد الهجوم التتاري الشرس قبل أن تستطيع هذه الجحافل الظالمة المدمرة اختراق الحدود المصرية . وكان معنى هذا نجاة جماهير المصريين من المذابح المرعبة التي اقترنت بغزوات التتار وبعبارة اخرى احتفظت مصر بمعدل ثابت للنمو السكاني .

كذلك فان غزوات التتار دفعت بالكثيرين من سكان العراق والشام الى الهجرة والاستقرار في مصر . ومن الغرب جاءت هجرات اخرى ، اقل عدداً ، بسبب الظروف السياسية في بلاد المغرب الاسلامي ، وتدهور الموقف العسكري في الاندلس . كما تشير مصادر تلك الفترة الى بعض الهجرات المغولية والكردية والتركمانية الى مصر .

هذه الهجرات كان لها تأثيرها ، بطبيعة الحال ، على معدل النمو السكاني وتدور تقديرات الباحثين لعدد السكان في مصر كلها آنذاك حول الثلاثة ملايين نسمة ، بينما يقدر عدد سكان القاهرة فقط ستمائة ألف نسمة في الفترة نفسها . وقد ذكر المقريزي أن عدد قرى مصر آنذاك كان حوالي الفين وخمسمائة قرية ، فاذا افترضنا ان عدد سكان القرية كان يتراوح بين الف وخمسمائة والفين من السكان لبدا لنا الامر معقولا .

ابهى ما يشاهد في القاهرة :

على اية حال ، فان النمو السكاني انعكست نتائجه واضحة في أسواق البلاد المصرية عامة ، والقاهرة خاصة . وتميزت هذه الأسواق بكثرة عددها من ناحية ، ووفرة البضائع والحركة والنشاط فيها من ناحية اخرى .

والواقع الذي تكشف عنه مصادرنا التاريخية يبين لنا أن أسواق القاهرة في عصر سلاطين المماليك عرفت نوعا من التخصص في نوع البضاعة التي

* استاذ التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الزقازيق .

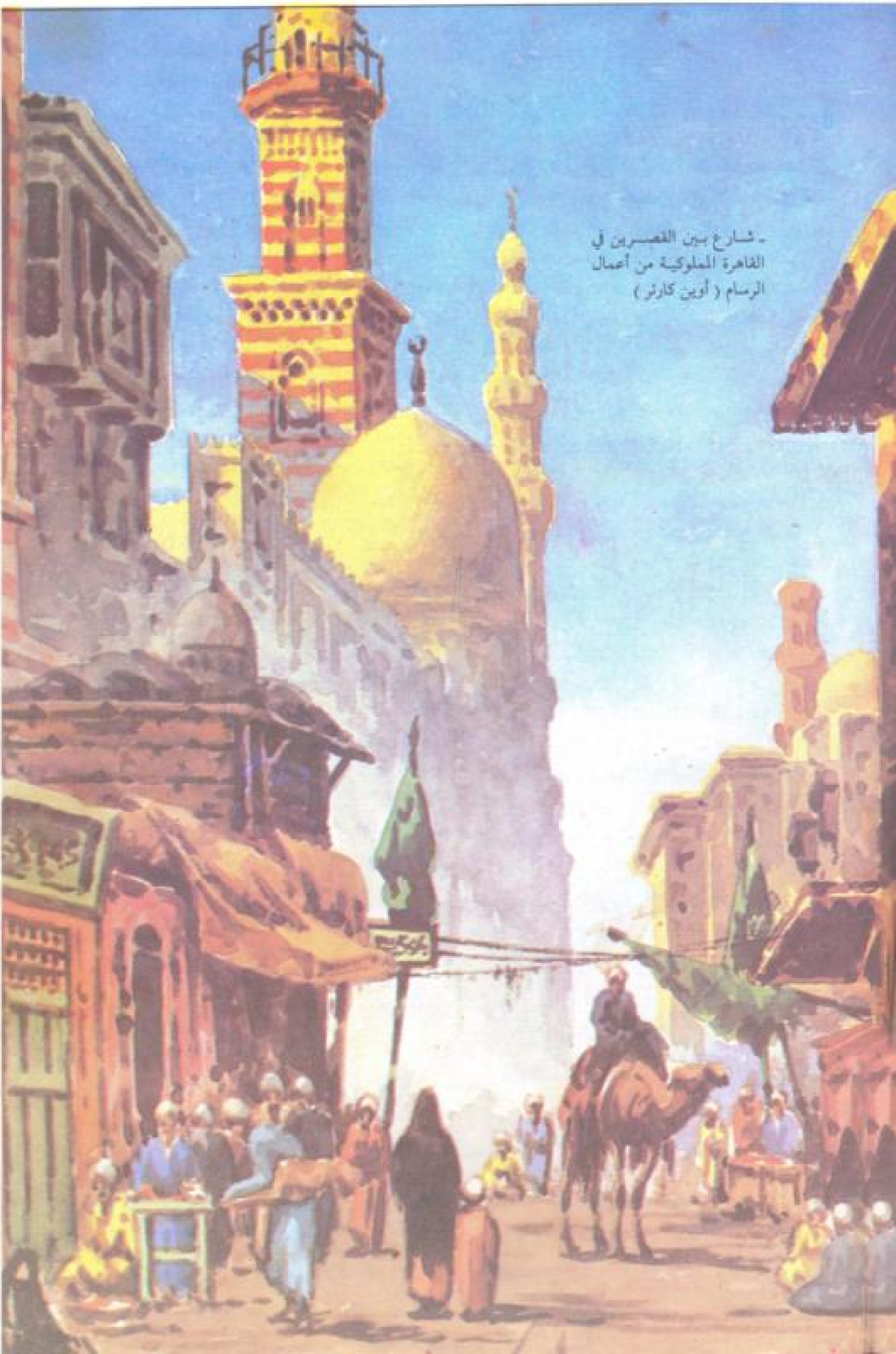

ـ شارع بين القصرين في
القاهرة المملوكية من أعمال
الرسام (أوين كارتر)

يبيعها كل سوق . وهو ما يبدو متسقا مع طبيعة الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك . فقد كان التقسيم الاداري لسكان القاهرة تقسيما يقوم على أساس النشاط الاقتصادي للسكان الى حد بعيد ، اذ كان أبناء كل طائفة حرفية يسكنون حيا ، عرف في عصر المماليك بالحارة ، ينسب اليهم : مثل حارة المغربلين ، والصنادقية . . وغيرهم .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة في جميع انحاء العاصمة ، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وقد لفت انتباه الرحالة الاسباني « بيروتافور » ، الذي زار مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، هذا الرواج الذي تعكسه أسواق القاهرة فقال : « إن أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء في القاهرة سوقها الذي تعرض فيه اكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند . . . » .

تخصص الاسواق :

وكان سوق باب الفتوح واحدا من أشهر أسواق القاهرة ، إذ كان الناس يقصدونه « . . من أقطار الأرض لشراء انواع اللحم الضأن والبقر وشراء أصناف الخضراوات » كما يذكر المقريزي . كذلك عدد لنا المؤرخ ابن الصيرفي اصناف اللحوم والجبن التي كان المصريون يستهلكونها ، ويبدو من عددها الكبير مدى حال الرفاهية التي عاش المصريون في ظلها في بداية ذلك العصر .

أما الطيور والدواجن فكانت تباع في « سوق الدجاجين » الذي كانت تباع به طيور الزينة ايضا . كذلك كان بالقاهرة سوق مركزي للفاكهة هو « دار التفاح » او « دار الفاكهة » التي كانت الفاكهة المنتجة محليا والمستوردة من بلاد الشام ترد اليها ، لكي يتم توزيعها بعد ذلك على أسواق الأحياء والضواحي .

اما أسواق الملابس ولوازمها . فقد تنوعت أسماؤها حسب تخصصها . « سوق الشرابشيين » . مثلا تخصص في بيع ملابس الامراء والوزراء والقضاة . وكان تجار هذا السوق يشترون الخلع والتشاريف من الصناع ويبيعونها لديوان الخاص السلطاني ولدواوين الامراء . كذلك تخصص « سوق الخواصيين » في بيع الحوائص ، او الاحزمة التي كان الفرسان يلفونها حول خصورهم لوضع اسلحتهم فيها . وكانت هناك اسواق للفقراء مثل « سوق الخلعيين » الذي كانت تباع فيه الملابس المستعملة .

وفي القاهرة كانت هناك اسواق خاصة بلوازم القتال مثل « سوق السلاح » الذي تم انشاؤه في العصر الايوبي وكان قريبا منه « سوق المهامزيين » الذي كانت حوانيته تبيع المهاميز المستخدمة في الركوب ، و« سوق اللجميين » الذي كانت تباع فيه المعدات الجلدية مثل اللجام ، وكان مجاورا للسوقين السابقين وكان به عدد من صناع السروج وغيرها .

وكان هناك عدد من أسواق لوازم السفر في القاهرة آنذاك ، مثل « سوق المرحلين » الذي كان يزدهر ايام موسم الحج . وكانت تباع به ادوات تجهيز الجمال التي كانت وسيلة المواصلات البرية الوحيدة للمسافات الطويلة . وكان هذا السوق من الضخامة بحيث كان يمكن تجهيز مائة جمل في يوم واحد منه . وكان هناك سوق مشابه هو « سوق المحايريين » الذي كانت تباع فيه المحاير التي كان الناس يسافرون فيها الى الحجاز وبيت المقدس .

أما الأسواق التي كانت تباع بها حاجات الناس اليومية فكثيرة متنوعة . ومن أهمها « سوق الصنادقيين » الذي كانت تباع به شتى انواع الاثاث المنزلي مثل الصناديق والخزائن والأسرة . كذلك كان « سوق الشماعين » من الأسواق التي اتخذها القاهريون مكانا للنزهة المسائية على ضوء الشموع الكثيرة التي كانت تتوهج في أرجاء السوق الذي كانت حوانيته تظل مفتوحة الى ما بعد منتصف الليل .

وللأمكنة أسواقها :

ومن الملاحظ أن التطور السكاني لمدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك كان يقتضي حدوث تغيرات نوعية ومكانية ، بحيث تندثر بعض الأسواق القديمة وتنشأ أسواق جديدة ، كما ينبغي أن نلاحظ أن اسماء الأسواق لم تكن على الدوام مشتقة من نوع نشاط

السوق ، بل كانت هناك أسواق اشتقت اسماؤها من أماكن وجودها ، مثل « سوق جامع ابن طولون » ، و « سوق الخانقاه » ، و « سوق حارة برجوان » كما كان لبعض الأسواق أسماء اشتقت من اسماء بعض الجاليات التي سكنت القاهرة في ذلك الزمان : مثل « سويقة العراقيين » ، و « سويقة المغاربة » و « سويقة اليهود » . وقد حملت بعض الأسواق أسماء اشخاص مثل : « سويقة معتوق » و « سويقة ابن العجمية » و « سوق وردان » التي تنسب الى وردان مولى عمرو بن العاص وقد ذكرها المؤرخ « ابن دقماق » ضمن أسواق الفسطاط . وكانت لبعض الأسواق اسماء ريفية مثل « سوق البراغيث » ، و « سوق لحاف » ، و « سوق العياطين » .

ويبدو من كلام ابن دقماق والمقريزي عن أسواق عصر سلاطين المماليك أن هذه الأسواق كانت تقام في أماكن تسمح للسوق بمنافذ متعددة بحيث يسهل على رواد السوق الدخول والخروج . كما يتضح أيضا انه كانت لبعض الأسواق في القاهرة مخازن خاصة بها . وقد عرفت اسواق القاهرة ايضا نظام الصيارفة الذين كانت مهمتهم استبدال العملات وتغييرها لرواد الاسواق .

أسواق ارباب المقاعد :

والى جانب الاسواق التي انتشرت في ارجاء القاهرة عرف القاهريون الباعة الجائلين الذين كان بعضهم يفترش الارض في السوق ببضاعته ، على حين كان بعضهم الآخر يتجول بما يحمله من بضائع في شوارع القاهرة وأزقتها .

أما الباعة الذين كانوا يفترشون أرض الأسواق ببضاعتهم فقد عرفتهم مصادر تلك الفترة باسم « أرباب المقاعد » وكان اولئك يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكهة والخضراوات ، او الخواتم والاساور وغيرها من زينة النساء . ففي سوق السلاح كان اولئك الباعة من ارباب المقاعد يفترشون الارض امام حوانيت السوق ، فاذا اقبل الليل أشعلوا المشاعل التي تضفي على المكان جوا بديعا كان يغري الناس باتخاذ هذا المكان متنزها في امسيات الصيف . وفي القصبة ـ الشارع التجاري الرئيسي في القاهرة آنذاك ـ كان « أرباب المقاعد » يجلسون على امتداد الشارع » . . باطباق الخبز واصناف المعايش . . » على حد تعبير المقريزي .

وقد وجد بالقاهرة سوق باكمله لبيع ادوات الزينة النسائية ، وهو « سوق القفيصات » الذي كان الباعة يجلسون فيه ، تجاه القبة المنصورية ، وأمامهم تحوت عليها أقفاص صغيرة (قفيصات) من الحديد ، وقد شبكت عليها الخواتم والفصوص وأساور النساء وخلاخيلهن ، وما الى ذلك . وكان اولئك الباعة يستأجرون الارض التي يجلسون عليها ببضاعتهم من المشرف على البيمارستان (المستشفى) المنصوري الذي كان هذا السوق من أوقافه .

ويبدو من كلام المؤرخ « تقي الدين المقريزي » أن المنافسة كانت تشتد بين الباعة من « أصحاب المقاعد » الذين يفترشون أرض الاسواق من ناحية ، واصحاب الحوانيت من ناحية اخرى وكانت تتصاعد احيانا الى حد الاشتباك الذي يوجب تدخل الدولة .

أما النوع الثاني من الباعة الجائلين ، فكانوا يطوفون شوارع القاهرة وأزقتها (وهو مايزال من الامور المعتادة في القاهرة حتى اليوم) ، وكان هؤلاء ينادون على بضاعتهم باصوات عالية ، وبأغنيات وأهازيج في بعض الاحيان ، ويطوفون الاماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج اليهم النسوة من بيوتهن للشراء . كذلك كان بائعو الاقمشة والدلالات يدخلن البيوت لعرض البضائع على ربات البيوت .

مرآة لحياة القاهرة الاجتماعية :

وكان من الطبيعي أن تخضع الأسواق لرقابة الدولة التي اتخذت عدة اشكال ، منها وجود الموظفين المسئولين عن رقابة الاسواق ، ومنها الضرائب التي كانت تفرض على ارباب السوق ، كما كانت تتدخل الدولة من آن لآخر لتنظيم الأسواق وتخطيطها .

من ناحية اخرى ، ارتبطت أسواق القاهرة بالكثير من عادات المصريين وتقاليدهم كما كانت

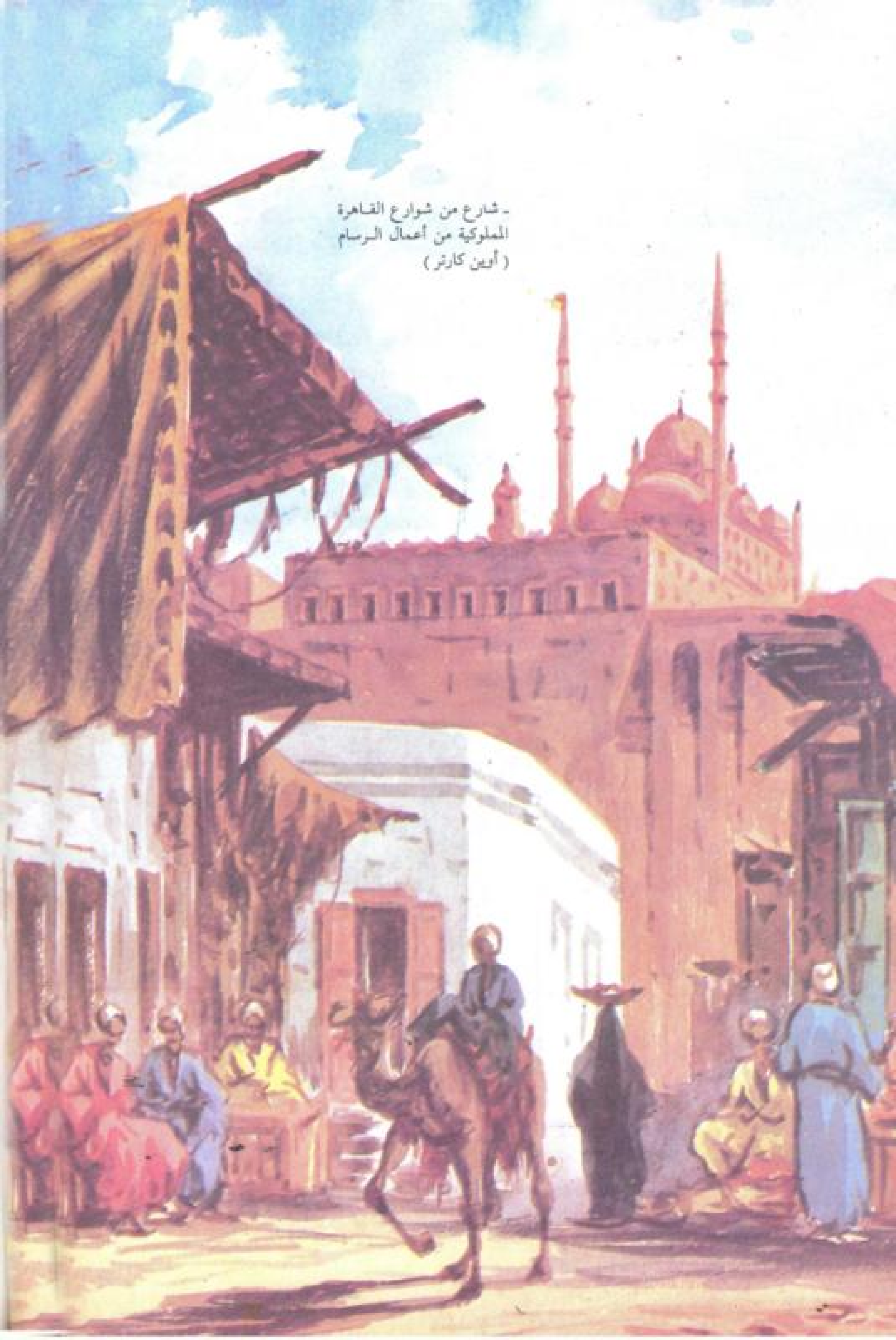

ـ شارع من شوارع القاهرة
المملوكية من أعمال الرسام
(أوين كارتر)

تعبيرا عن جوانب هامة من الحياة اليومية في المجتمع القاهري آنذاك .

ففي داخل كل سوق من هذه الأسواق كانت تقام مجموعة من الحوانيت ، بيد ان صغر مساحة الحانوت كان يستدعي بناء مصطبة امام كل حانوت يجلس البائع عليها لمساومة المشترين ، او لتبادل الحديث مع زواره . ولذلك كانت الأسواق القاهرية من أهم مراكز الاخبار وصياغة الراي العام تجاه الاحداث الجارية .

وفي ذلك العصر جرت العادة ـ عموما ـ على أن تشتري النساء حاجاتها من الأسواق ، وغالبا ما كانت النساء تمثل غالبية رواد الأسواق في بعض المواسم التي اعتاد المصريون الاحتفال بها . والجدير بالذكر أن بعض المعاصرين لتلك الحقبة كانوا يرون في خروج النساء الى الاسواق أمرا منكرا ، وكثيرا ما ثارت المناقشات في الدوائر الحاكمة ، بحضور الفقهاء والقضاة لمنع النساء من ارتياد الأسواق ، خصوصا في اوقات الازمات الاقتصادية والأوبئة .

ومن مظاهر ارتباط الاسواق بعادات القاهريين وتقاليدهم الاجتماعية ، « سوق الحلاويين » الذي كانت تباع به التماثيل من السكر والتي اعتاد القاهريون (والمصريون عامة) أن يشتروها لاطفالهم في مواسم اول رجب ، ونصف شعبان ، وعيد الفطر ، كذلك كان الناس يهدون هذه الحلوى لاصهارهم ، وخاصة اذا كانت المصاهرة حديثة او اذا لم يكن الرجل قد دخل بعروسه بعد . كما أن « سوق الشماعين » ارتبطت بالاحتفالات القاهرية بليالي شهر رمضان ، كما كانت تتلألأ بالاضواء في عيد غطاس النصارى .

وتكشف دراسة الأسواق ايضا عن أنه لم يكن من عادة القاهريين ـ بشكل عام ـ أن يعدوا الطعام في بيوتهم . بل إن العامة كانوا يتناولون الطعام خارج منازلهم التي كانت متواضعة للغاية ، وانتشرت في القاهرة آلاف المطاعم التي تحدث عنها الأجانب الذين زاروا القاهرة في ذلك العصر . وقد عرفت القاهرة نوعين من المطاعم ، اولها « المطابخ » التي كان الناس يتناولون فيها الطعام الجاهز وحوانيت « الشرائحية » التي كان سكان القاهرة من الشرائح الاجتماعية المتوسطة يرسلون اليهم مايريدون طهيه من لحوم وخضراوات وغيرها ، ويقوم « الشرائحية » بطهيها بعد خلطها بالتوابل ، ثم ترسل مع الصبيان في قدور مغطاة الى المنازل لقاء أجر معروف .

تدهور الأسواق المملوكية :

هذه الصورة الزاهية للحياة في القاهرة كما تعكسها حركة الأسواق خلال الشطر الاول من عصر سلاطين المماليك لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور التي عانى منها المجتمع المصري في اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

والواقع أن هبوط معدل النمو السكاني ثم تدهور أعداد السكان في مصر منذ منتصف هذا القرن بسبب « الوباء الكبير » او « الموت الاسود » (الذي انتشر في ارجاء العالم المعروف آنذاك) كان من أهم أسباب تقلص الأسواق القاهرية من حيث عددها وحركة البيع والشراء فيها . كما أن زيادة النظام الاقطاعي العسكري الذي قامت عليه بنية الدولة ، كان من أهم عوامل التدهور الاقتصادي الذي ترك آثاره الوبيلة على حركة الأسواق .

والواقع أننا لا نستطيع أن نحصر العوامل التي أدت الى تدهور أسواق القاهرة في عصر سلاطين المماليك في اطار واحد بعينه ، سياسيا كان ام اقتصاديا ، واجتماعيا كان ام طبيعيا . فالحقيقة أن هذه العوامل كلها تداخلت وتشابكت في حركتها بحيث يصعب تحديد دور كل منها ، وعلى ايه حال ، فان تدهور الأسواق في القاهرة كان واحدا من المؤشرات العديدة على أن دولة سلاطين المماليك قد بدأت رحلتها الطويلة نحو الغروب . □

في ذكرى مرور ٧٥ عاماً على رواية

«البحث عن الزمن المفقود»

للأديب الفرنسي مارسيل بروست

بقلم الدكتورة : زينب عبدالعزيز

في تاريخ الابداع الروائي العالمي تنتصب ملحمة « البحث عن الزمن المفقود » رائعة مارسيل بروست كواحدة من أهم الأعمال التي تركت تأثيرات ضخمة في المسار الروائي الحديث .

ولذلك يهتم بها المبدعون ونقاد الأدب ومؤرخوه والمتذوقون له .

في الثاني عشر من شهر نوفمبر عام ١٩١٣ اعلنت جريدة « لى طان » الفرنسية عن ظهور رواية « عند ناحية سوان » لدى دار نشر برنارد جراسيه إلا أن كاتب المقال لم يذكر أن كافة دور النشر الأخرى كانت قد رفضت هذه الرواية !

ولم يدر بخلد رافضي ذلك النص أنه سيصبح من أهم روايات القرن العشرين ، بل حجر الأساس الذى قامت عليه الرواية الحديثة في فرنسا .

لذلك يعد مارسيل بروست واحدا من أهم الكتاب الذين مازالت آثارهم تمتد على مجريات الرواية الحديثة ومسارها حتى يومنا هذا ، بفضل ما أضافه في مجال التعبير والحلم وتوارد الخواطر .

وتتلخص أهمية المكانة التي يحتلها في أنه استطاع أن يفرض على القارىء عالما خياليا أكثر واقعية من الواقع، وتعبيراً جديداً عن الزمن التجميعى في ذهن الانسان .

سنوات النضوج :

تعد أهم فترات حياة بروست الإجتماعية وأعنفها صراعا تلك السنوات التى واكبت قضية الإفراج عن ألفريد درايفوس ، ذلك الضابط الفرنسى اليهودى الأصل الذي حوكم وسجن خمسة أعوام ثم أفرج عنه بفضل حملة اعلامية سياسية ودينية صاخبة ، شغلت الرأى العام الفرنسى وقسمته حتى التمزق . .

وكان مارسيل بروست قد انضم مؤيدا لهذه الحملة فيما بين عامى ١٨٩٨ و ١٨٩٩ ، ثم سافر إلى فينيسيا ليدرس مذاهب القيم الجمالية هناك . وما أن عاد من ايطاليا حتى بدأت أحزانه بوفاة والده ، وتوغلت الأحزان اكثر بوفاة والدته ـ تلك الأم التى سألوه ذات يوم ، وكان في الثالثة عشرة من عمره : « ماهو ابشع شىء يمكن أن يحدث لك وتعده قمة البؤس ؟ » فقال مندفعا : « أن أفقد أمى ! » .

الإنعزال والعمل :

ويفقدانه أمه ومعايشته لأبشع مايمكن أن يحدث له تبددت آماله وأحاط نفسه بستار من العزلة لتنصهر آلامه في بوتقة ذلك البؤس . انعزل ليكتب ويعبر عن جحيم الحياة ، ذلك الجحيم الذي ترتبط فيه الكوميديا الإنسانية العامة بالمأساة الذاتية لكل فرد ، واستكان الى عالم الذكريات والذكرى ليكتب ملحمته المعروفة باسمها الشامل : « البحث عن الزمن المفقود ، وهي ملحمة تقع في سبعة أجزاء ، لكل منها عنوانها الفرعي المستقل .

إنعزل بروست في غرفة مكتبه المبطنة بالفلين ، لتحجب عنه ضوضاء العالم الخارجي ، وليتمكن من الإستماع الى نبضات أصداء ذلك الزمن الضائع الذي حاول التعبير عنه ، ولا تحيط به سوى حشرجة أنفاسه وهي تنتزع رشفات الحياة ، وقد زادت حدة اصابته بالربو . ولقد شبه غرفته هذه بسفينة نوح التي « سمحت له برؤية العالم وفهمه بفضل غلقها المحكم والسواد الدامس المحيط بها » - على حد قوله .

وفي عام ١٩١٩ حصل على جائزة جونكور الأدبية عن الجزء الذى يحمل عنوان : « في ظل الفتيات المزدهرات » . بينما اشتدت وطأة المرض عليه ، وفي الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢ خبت أنفاسه وانطفأت بينما ارتسمت على محياه عطور تلك الزهور التي أجاد التعبير عن عبيرها الأثيري . انتقل تاركا مخطوطات ثلاثة أجزاء من ملحمته تم طبعها تباعا .

ملحمة « البحث عن الزمن المفقود » :

تتضمن هذه الملحمة أو هذه المجموعة الروائية سبعة أجزاء هي :

■ « عند ناحية سوان » (١٩١٣) : ويحكى فيها المؤلف ذكريات الطفولة التي تبادرت الى ذهنه بينما كان يغمس قطعة من الكعك الجاف في قدح من الشاي ، ومن خلال توارد الخواطر هذه قام بتقديم أفراد اسرته أو شخصيات الرواية بالإضافة الى أولى خطواته في كل من عالم الأدب وعالم الحب . .

■ « في ظل الفتيات المزدهرات » (١٩١٨) ويعبر الأديب في هذا الجزء عن المجال الفني والموسيقي والأدبي من خلال مجتمع الأرستقراطية الفرنسية وتحذلق طبقة البورجوازية .

■ « ناحية جيرمانت » (١٩٢٠) : يتعرض الأديب في هذا الجزء للمجال العاطفي والنفوذ الاجتماعي لتلك الشخصيات .

■ « سودوم وجومور » (١٩٢٢) : وهنا يتوغل الأديب اكثر في أعماق شخصياته ليعكس اخلاقيات ذلك المجتمع وما ينطوي عليه من فساد وانحراف وشذوذ .

■ « السجينة » (١٩٢٣) : يتناول الاديب في هذا الجزء مشاعر الغيرة التي تدفع حامليها الى تصرفات غير سوية حتى تأتي عليها .

■ « الهاربة » (١٩٢٥) : ويتضمن هذا الجزء اراء الكاتب في قضية الموت وآثاره عبر ملكة عالم النسيان .

■ « العثور على الزمن المفقود » (١٩٢٧) : اما في هذا الجزء الأخير من الملحمة فيبوح الكاتب بآرائه الأساسية حول التناقض وصراع الاضداد وخلاصة فكره عن الفن الذى يمثل الخلاص الحقيقي من تفاعيل الزمن ، فالفن - في نظره - هو « الشيء الوحيد الصادق في هذا الوجود واللحظات التي تبلورها الذاكرة عبر الزمان والمكان ، تمثل أصدق ماعشناه » .

تمثل هذه الملحمة تاريخ حقبة معينة من حياة المجتمع الفرنسي وتاريخ ذاكرة كاتبها ، فهي تعكس في آن واحد العالم الخارجي برمة أحداثه وأصداء تلك الأحداث في أعماق راويها ، وإن كان البطل الحقيقي فيها هو الزمن الذى يمتد ويتنوع التعبير عنه طوال هذا النص من جزيئات دقيقة الى مالا نهاية الدهر . . ذلك الزمن الذى يحاصر الإنسان ويطارده ضاغطا وجوده في لحظات محدودة مابين مشرق ومغيب !

وتعتمد فكرة البناء الدرامي لهذه الرواية الطويلة على قاعدة اللبنة الأولى في البناء الضخم وعلى أهمية تلك اللبنة التي تلتف حولها بقية اللبنات بترتيب معماري بارع ، متماسك ، قائم على الترابط وكثيرا

ماشبهه الأديب نفسه ببناء الكاتدرائية التي ترتفع بنيانها الشاهق حتى القمة ، بفضل عدة دعامات أساسية،تمثلها هو في صراع مشاعر الإنسان والموت والذاكرة عبر الزمن . .

لذلك أجمع النقاد على أن بروست ليس واحداً من أساتذة الفلسفة العامة فحسب ، وإنما واحد من اكبر فلاسفة علم الحياة ، اذ يكشف عن سعة درايته بأعماق الانسان وبغياهب تلك الغابة المتداخلة المشاعر ، معتمدا على ديناميكية صراع الاضداد .

وتكمن عظمة مارسيل بروست في تشييد هذا البناء الدرامي الضخم في تعبيره عن عملية تحويل أحداث الحياة الاجتماعية والذاتية الى خلاصة فهو يقوم

ببلورة وتخليد تلك اللحظات التي افلتت من طغيان الزمن والنسيان .

المجتمع والشخصيات :

وسواء كان البناء موسيقيا كالسمفونية أو معماريا كالكاتدرائية فان ترابط العمل وتجانسه يبدو مذهلا ، ويرجع هذا الترابط الى قوة الخيال ، والى شدة الملاحظة التي يربط بها اختيارات توارد الخواطر ، إلا أن المناخ العام الذي تدور فيه أحداث هذه الملحمة يقتصر على شريحة اجتماعية معينة ، أما الطبقات الدنيا أو الكادحون فهم غير ممثلين إلا من خلال طبقة الحاشية أو الخدم الذين يقومون بخدمة هذه الارستقراطية .

ورغم الزيف الذي يتألق به بريق ذلك المجتمع والذي اجاد الكاتب التعبير عنه فهو يجعل الكاتب اشبه مايكون بالتأثيريين القائلين بألا قيمة للموضوع مهما كان تافهاً إلا بفضل الضوء الذي يسلط عليه وبالأسلوب الذي يعالج به .

أما الشخصيات فهي تتسم بذلك التواجد الدائم الذي لا ينسى ، انها شخصيات مستقلة الوضوح والتميز ، حتى الشخصيات الثانوية منها فهي مصورة بنفس التركيز والبلورة . وذلك ليس من خلال وضعها الاجتماعي فحسب وانما من خلال مختلف مكوناتها النفسية عبر الزمان المكان .

الذاكرة والزمن :

ويعتمد المؤلف في كتابته على بلورة لحظة زمنية معينة ، ولتلك اللحظة التي مضت واستكانت أهمية كبرى ، والانسان الذي يستطيع إحياءها من جديد ومعايشة أبعادها في لحظة أخرى يصبح في نفس ذلك الوقت خارج الزمن الذي يعيش فيه بالفعل ، لذلك يفرق بين الذاكرة العادية التقليدية في الحياة اليومية ، والذاكرة الإنفعالية التي تلتقط تلك اللحظات القابعة في استكانة ، والتي يمثل الكشف عنها نفس تأثير الهزات الأرضية التي تشق سطح الكرة الأرضية ، فتلوح مقتنيات العالم الزمنية التي تمثل خلاصة صادقة لما عاشه الإنسان .

وهنا يتبلور مفهوم الأديب بين الزمن الواقعي الذي تدور فيه الأحداث في الحياة اليومية ـ وقد تستغرق السنين،وذلك الزمن الخاطف كالومضات الذي يستغرقه استرجاع معايشتها في الذاكرة .

في عام ١٩٢٣ كتب الأديب الفرنسي بول فاليري في مقال بعنوان : « تحية الى مارسيل بروست » يقول : « يمكننا أن تفتح روايته في أي جزء نشاء ونستمتع بالقراءة إذ أن حيويتها لاتعتمد على ماسبق من نص ، وإنما تكمن في حيوية نسيج النص نفسه الذي يمكننا أن نقرأه من أي مكان » . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ أصوات مميزة يحدثها جسم الانسان

■ الطفح الجلدي الحادّ لدى الأطفال

الطفح الجلدي الحادّ لدى الأطفال

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

مع تقدم العلوم الطبية قد نكتشف أن كثيرا من الأمراض هي أقل خطورة مما نظن ، وأن الأمر أبسط مما نعتقد ، إلا أننا مع ذلك نزداد إيمانا بتلك النصيحة الطبية الثمينة « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

أربعة أمراض شائعة بين الأطفال تعد السبب الرئيسي لظهور الطفح الجلدي الحاد وهي : الحصبة ، والحصبة الألمانية ، والحُماق أو جديري الماء ، والحمى القرمزية . وأول ثلاثة من هذه الأمراض تنشأ عن غزو « الحمات » للجسم ؛ والحمات - جمع حمة أي فيروس - كائنات صغيرة جدا ، لا ترى إلا بالمجهر الالكتروني ، أما رابع هذه الأمراض - الحمى القرمزية - فينشأ عن الإصابة بنوع من الجراثيم أي « البكتيريا » ، يسمى بالمُكَورات السُبحية المقيحة . وعلى الرغم من عدم خطورة الطفح الجلدي فانه يثير التوجس في نفوس الأباء والأمهات وكأنه جرس انذار يدوي في آذانهم : « إن وراء الأكمة ماوراءها » ! جميع هذه الأمراض معدية تنتقل من الشخص المصاب إلى الشخص السليم بالتلامس أو استعمال أدوات مشتركة ، أو مع الرذاذ المتطاير من فم المريض وأنفه « أثناء الكلام أو السعال مثلا » . ونتحدث في السطور التالية عن كل مرض من هذه الأمراض بصورة موجزة . .

الحصبة

بعد فترة حضانة تبلغ نحو عشرة أيام ، تظهر أعراض المرض بهيئة سعال والتهاب في اللوزتين أو الأذن الوسطى . كما تلتهب ملتحمة العين ، ويبدو الطفل عكر المزاج كثير البكاء . ومن العلامات الخاصة بالحصبة التي تظهر قبل الطفح الجلدي وتساعد كثيراً في التشخيص ، بقع بيض صغار في بطانة الفم تستطيع رؤيتها في اللثة والجزء الأمامي من

يبدأ طفح الحصبة بالظهور خلف الأذنين ، ثم ينتشر الى الوجه

يتركز الطفح الجلدي الناشئ عن الحماق أو جديري الماء في الجذع

بطانة الفم . وخير مكان لرؤيتها بوضوح هو بطانة الخد قرب الرحى العلوية الثانية .

ويعتقد أن هذه البقع تنشأ عن نخر أو تلف بعض خلايا بطانة الفم ، وتسمى « بقع كوبلك » نسبة إلى الطبيب الأمريكي « هنري كوبلك » « ١٨٥٨ - ١٩٢٧م » الذي وصفها وذكر أهميتها التشخيصية .

بعد ذلك يظهر الطفح الجلدي ، وأول ظهوره يكون خلف الأذنين ، ثم ينتشر في الوجه (صورة رقم ١) ، ثم ينتشر في الجذع خاصة الظهر . ويكون لون الطفح أحمر غامقا ، ويستمر نحو خمسة أيام ثم يزول . وفي العادة يزول المرض تلقائيا ، غير أنه في بعض الحالات يؤدي إلى ظهور مضاعفات كذات الرئة القصبية ، والخانوق « croup » ، والإسهال ، وفي حالات نادرة يؤدي إلى التهاب الدماغ .

ولا ضرورة لاستعمال المضادات الحيوية ، لأن المرض ينشأ عن الحمات وهي كائنات لا تؤثر فيها المضادات الحيوية » ، وقد نلجأ إلى هذه المضادات عند ظهور مضاعفات جرثومية ، ويستعمل لهذا الغرض المضاد الحيوي « ارثرومايسين » . أما الوقاية فممكنة باستعمال اللقاح الذي يتكون من حمات الحصبة الحية المضعفة ، ويعطى جرعة واحدة تحت الجلد في مطلع السنة الثانية من عمر الطفل . ومن الجدير بالذكر أن الأطفال الذين يولدون لأمهات أصبن سابقا بالحصبة يكونون محصنين ضدها على

مدى ٦ ـ ٩ شهور بعد الولادة ، وذلك نتيجة لانتقال الأضداد « Antibodies » من الأم للطفل عبر السخد « placenta » .

الحصبة الألمانية

لم يكن هذا المرض يثير أي اهتمام لدى الأطباء حتى عام ١٩٤١ حينما اكتشف الدكتور « ن . م . غريغ « N.M.Gregg » في استراليا ظاهرة مرعبة ؛ فلقد وجد أن اصابة النساء الحوامل بهذا المرض في الشهور الأربعة الأولى من الحمل تؤدي إلى ظهور مضاعفات خطيرة على الأطفال . ومن هذه المضاعفات ؛ العمى ، الصمم ، تشوهات القلب ، وغيرها . وقد يموت الجنين داخل الرحم أو يولد ميتا فيريح ويستريح ، أما إذا أصيبت الحامل بعد الشهر الرابع من الحمل فليس هناك خطر داهم .

إن أعراض المرض تظهر بعد فترة حضانة تتراوح ما بين ٢ ـ ٣ أسابيع ، وتكون بهيئة التهاب في البلعوم وفي ملتحمة العين ، وتتضخم الغدد اللمفاوية في أسفل المنطقة القفوية من الرأس ، ولا وجود لبقع كوبلك . ثم يظهر الطفح الجلدي الذي يكون أفتح لونا من طفح الحصبة . ومن مضاعفات الحصبة الألمانية التهاب المفاصل وهو شائع لدى البالغين وأقل شيوعا لدى الأطفال ، وقد يستمر هذا الالتهاب فترة طويلة أكبر من فترة أعراض ومضاعفات المرض الأخرى ، وقد يعاود المصاب مرة اخرى بعد عدة شهور من الشفاء ، وأكثر المفاصل عرضة للالتهاب هي مفاصل اليدين والقدمين . إن بعض حالات الحصبة الالمانية لايرافقها ظهور طفح جلدي ، لهذا يجب أن نضع هذا المرض في الحسبان عند شكوى أي شخص ـ خاصة الاطفال والبالغين ـ من مفاصله دون سبب ظاهر ، ومن المضاعفات الأخرى النادرة قلة الصفيحات والتهاب الدماغ .

إن هذا المرض لايحتاج أي علاج إلا عند ظهور مضاعفات ، وإذا وجدت الحامل مصابة في وقت مبكر من الحمل وجب الاجهاض .

ولابد من التأكيد على أهمية وقاية النساء من هذا المرض ، وذلك باللقاح المكون من الحمات الحية المضعفة ، ويجب إعطاء هذا اللقاح لجميع الفتيات في عمر ١٢ ـ ١٣ عاما . إن الفترة الوقائية التي يمنحها اللقاح غير معروفة على وجه التحديد ، ولهذا يجب اعطاء اللقاح لكل امرأة لا تحمل أضداد المرض ـ حتى إن كانت قد اعطيت اللقاح سابقا ـ ، وذلك بعد الولادة شريطة ألا تحمل مرة أخرى إلا بعد أكثر من ثلاثة شهور من اعطاء اللقاح .

الحماق أو جديري الماء

فترة الحضانة كفترة حضانة الحصبة الألمانية ، بعدها تظهر الأعراض بهيئة حمّى وألم في البلعوم والبطن ، ويكون ألم البطن في بعض الحالات شديدا يشبه الألم الناشيء عن التهاب الزائدة الدودية . بعد يوم واحد من هذه الأعراض يظهر الطفح الجلدي بهيئة بقع حمراء في وسطها حويصلات صغيرة تحوي سائلا كالماء « وقد يتقيح هذا السائل فيغدو عكرا » ، ثم يتحول الطفح إلى قشور بعد جفافه ، وفي العادة يكون الطفح مركزي الانتشار ، أي يظهر على الجذع أكثر من الأطراف « صورة رقم (٢) » إن الطفح يظهر على دفعات واحدة تلو الأخرى ، ولهذا ترى مختلف مراحله لدى المريض « البقع والحويصلات ، والقشور » .

ومن المعروف أن هذا المرض يكون شديدا حينما يصيب البالغين ، وقد يؤدي إلى بعض المضاعفات كغزو الجراثيم للطفح ، وذات الرئة . وفي حالات نادرة يؤدي إلى التهاب الدماغ فيؤثر بشكل خاص على « المخيخ » المسؤول عن توازن الجسم ، ولهذا

تضطرب حركة المريض ويختل توازنه ، أما لدى الأطفال فقلما ترافقه أية مضاعفات إلا إذا كان الطفل ناقص المناعة « نتيجة للاصابة باللوكيميا أو ابيضاض الدم ، أو غير ذلك من الأمراض السرطانية ، أو نقص المناعة المكتسبة . الايدز » ففي هذه الحالات يكون المرض عنيفا قاتلا .

ولا ضرورة للوقاية من هذا المرض ، إلا في حالة كون الشخص ناقص المناعة ، وعندئذ يعطى « الكلوبيولين البشري » المضاد للمرض .

أما العلاج فهو علاج تخفيفي « أي علاج أعراض المرض » ، وينصح ـ لهذا الغرض ـ بالاستحمام يوميا بماء يحوي مواد مطهرة لمنع تقيح الطفح الجلدي أو غزوه من قبل الجراثيم ، ويفضل دلك الجلد بالمحاليل الملطفة علاجا للحكة ، وإذا كانت الحكة شديدة مسببة اضطراب النوم فيجب اعطاء المصاب العقاقير المضادة لها .

الحمى القرمزية

بعد فترة حضانة تتراوح ما بين ١ ـ ٥ أيام تظهر أعراض المرض بهيئة ألم عند البلع نتيجة لالتهاب اللوزتين ، كما ترتفع حرارة الجسم . وفي اليوم التالي يظهر الطفح الجلدي بهيئة احمرار يشمل الجذع والأطراف ولا يظهر على الوجه ، ويتصف هذا الطفح بشحوب اللون عند الضغط عليه بالأصابع . ومن علاماته الأخرى شحوب حول الفم نتيجة احتقان الوجنتين بسبب الحمى ، وبعد أربعة أيام يبدأ الطفح بالتوسّف « Desquamation » ، أي أنه ينسلخ بصورة طبقة رقيقة ، ويكون اللسان مكسوا بطبقة رقيقة بيضاء .

وقد يؤدي هذا المرض إلى التهاب الأذن الوسطى ، وخراج حول اللوزتين وأحيانا يؤدي إلى الحمى الرثوية والتهاب كبيبات الكلية . وعلى الرغم من عدم وجود وسيلة فعالة تقي من الحمى القرمزية ، فإنها سهلة العلاج بالمضاد الحيوي المعروف « بنسلين » . .

وإذا تركنا المضاعفات النادرة جانبا ، فإن الحمى القرمزية تعد من الأمراض البسيطة ، عكس ما كان ينظر إليها في السابق حينما كان المريض ينقل بسيارة اسعاف « سوداء » إلى مستشفيات معزولة ، وتمنع زيارته منعا باتا ، ولا داعي لكل هذا العناء يا أطباء الماضي عليكم رحمة الله !!□

* أحسن المصلحين ، هم الذين يبدأون بأنفسهم .

(برنارد شو)

* أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل في حق الحياة سواء .

(أحمد شوقي)

* الرجل الذي لا يعرف نواحي القوة هدف سهل للمرأة التي تعرف نواحي الضعف فيه .

(شارلي شابلن)

* لا ينبغي أن تقول كل ما تعرف ، ولكن ينبغي أن تعرف كل ما تقول .

(كلوديوس)

شارلي شابلن

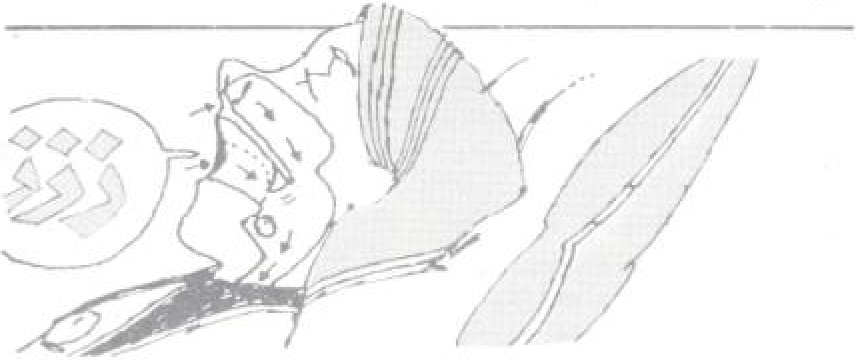

أصوات محيرة
يحدثها جسم الانسان

اعداد : د . عامر خالد*

من منا لا يضايقه سماع الأصوات العالية التي تصدر من نائم معه في نفس الغرفة ، أو يزعجه عطاس ملازم له ولا يملك رده بالسيطرة الذاتية أو العلاج . إن السعال وزقزقة البطن وطقطقة عظام الجسم ، كلها أصوات تصدر عن جسم الانسان فما سببها . . ؟ وهل لها علاج . . ؟

كل أجسام بني الانسان تصدر أصواتا مختلفة ، ومتنوعة المصدر والنغمة من حيث تنظيمها إراديا أو لا إراديا ، فمنها ما يكون مصدره الحبال الصوتية للتعبير وتوضيح ما يجول في الذهن من أفكار ، ومنها ما يكون هضم الغذاء سببه ، ومنها ما يدلل على أن شيئا ما اخترق حجابات الجسم الدفاعية عبر الأنف أو الحنجرة ، ورغم عدم سيطرة الجسم على مختلف هذه الأصوات ، إلا أنه احيانا تكون له معرفة بقرب حدوثها ، ولن نتطرق في موضوعنا إلى كيفية حدوث الكلام البشري ـ لأنها باتت معروفة للجميع ـ ولا لتأثير العوامل المرضية على هذه الأصوات .

السعال :

عند دخول أشياء معينة الى الحنجرة ، كدقائق الغبار ، أو سماكة من اللعاب ، أو قطعة من الغذاء ، فإنها تدخل خطأ للمجرى التنفسي ، فيحدث صوت وحركة معينان يسعى بها الجسم

* مدرس بكلية طب الاسنان ـ جامعة بغداد

للتخلص منها وطردها وهما ما يعرفان لنا بالسعال .

وهو عملية مفيدة للجسم ، يقوم بها لتنقية وتصفية القصبات الهوائية والمجاري التنفسية تماما كالتي تجريها عندما تنفخ في انبوب مطاطي لتنظيف داخله ، كذلك يزيل من داخل القصبات ما علق بها من لعاب سميك او فتات غذاء ، إلا أنه في حالات الاصابة الخمجية Infection ، لا يزيلها ، ولهذا تستمر حينذاك نوبات السعال ، وقد تتألم منها عضلات المعدة والصدر ، ويصبح اللجوء الى استعمال العقاقير الطبية لعلاج المتسبب وازالته أمرا ضروريا وطبيعيا .

وعموما فان السعال يحدث بصورة واحدة . فبعدما تستنشق الهواء ليصل رئتيك وتنغلق المجاري التنفسية ، وتتقلص عضلات الصدر والبطن استعدادا لدفعه بقوة ، فان الهواء يندفع من الرئة وبقوة هائلة محدثة « انفجارا » هو السعال ، نتيجة لمروره السريع والقوي عبر الحبال الصوتية في الحنجرة ، وتعتمد قوة صوت السعال على كمية ما اندفع من هواء ، وعلى حالة الحبال الصوتية مريضة كانت أو متعافية .

العطاس :

ان العطاس يشبه السعال في أوجه كثيرة ، إلا أنه أكثر منه علوا ، ويكمن مصدره في الأنف ، نتيجة لتخرشه بمادة معينة ، كدخول دقائق من الغبار اليه ، او استنشاق روائح معينة ، أو زيادة الافراز المخاطي بفعل عامل مرضي .

وتتم عملية العطاس بسحب كمية من الهواء عبر الحبال الصوتية وهو ما نسمعه من صوت بشكل (آآه) ، بينما تأتي تكملة العطس (تشو) عند خروج الهواء مندفعا عبر الانف والفم ، وقد قاس العلماء سرعة اندفاع الهواء في العطسة الواحدة فكانت مئة ميل في الساعة .

ويختلف الناس في طرق عطسهم ، فمنهم من يعطس عبر الأنف ، وآخرون عبر أفواههم ويختلفون في الأصوات التي يصدرونها ، فمنهم من يعطس مدويا ، وآخر بنعومة واضحة . ويختلفون أيضا في عددها ، فمنهم من يعطس عطسة مفردة ، وآخرون مزدوجة ، وغيرهم بشكل نوبة من العطاس ، كل ذلك حسب ما تعود عليه بنو الإنسان .

الشخير :

يعد الشخير من الأصوات المألوفة في مضاجعنا ، ولا أحسبنا نجونا منه ، فجميعنا يشخر حتى الرضيع منا ، في أحيان معينة ، وهو يحدث أثناء النوم ، عندما يعمد النائم الى التنفس عبر الفم ، ونتيجة اهتزاز الحبال الصوتية ، اثناء مرور الهواء وخروجه خلال عملية التنفس ، يساعدها في ذلك سقف الفم الرخو والمرن وأحيانا الشفاه والخدود ، حيث تكون عضلات هذه الأجزاء جميعاً مرتخية ومنبسطة في حالة

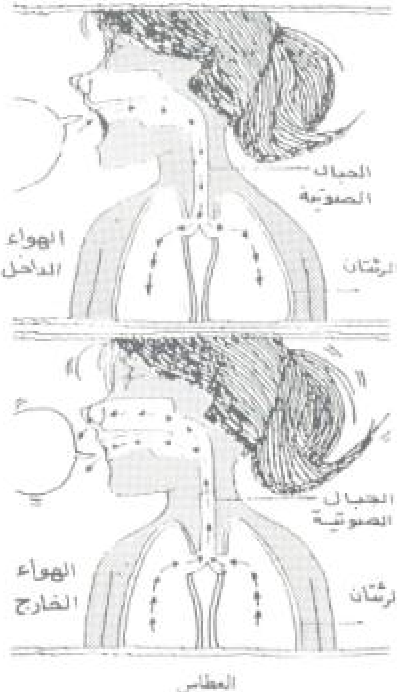

العطاس

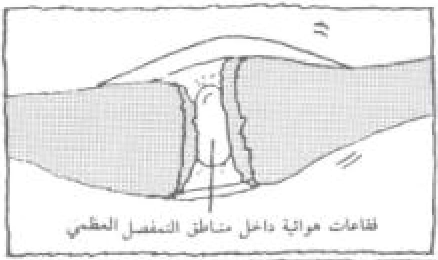

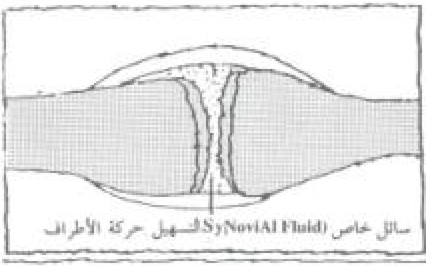

للعظام أصوات أيضا

النوم ، مما يسهل تحريكها بمرور الهواء عبرها .

ويختلف الناس في شخيرهم ، فمنهم من يشخر دوما ، ومنهم من يشخر عندما يصاب بانغلاق في الأنف ، فيجبر على التنفس عبر الفم ، ويختلفون أيضا فيما يصدرون من نغمات صوتية ، إلا أن الأصوات الصادرة جميعا تعتمد على مقدار الهواء المتحرك وعلى وضع النائم في فراشه ، فأعلى الأصوات هي تلك التي تنتج عند النوم على الظهر نتيجة ازدياد عدد الأجزاء المرتخية والمتحركة .

التثاؤب :

يحدث التثاؤب عادة عندما نكون متعبين أو ضجرين أو عندما يلم بنا الجوع او بفعل انعكاسي نتيجة تثاؤب من يجاورنا . ولم يتوصل العلماء الى المعرفة الكاملة والمفصلة لأسرار هذه العملية ، وإلى فعل « العدوى » الكامن فيها حتى الآن ، ويعتقد أنها تحدث نتيجة حاجة الجسم الى كميات اكبر من غاز الاكسجين ، فالتثاؤب الاعلى يجلب للجسم كمية أكبر من الأوكسجين ، وتسهم في اداء هذه العملية عضلات الوجه والحنجرة والخدود ، وأحيانا عضلات الجفون فيتسبب من ذلك ذرف دموع قليلة نتيجة الضغط على الغدد الدمعية القريبة .

الزغطة :

تحدث الزغطة لجميع بني الانسان ، نتيجة اختلال في توافق حركة الحجاب الحاجز المستمرة ، التي عبرها تتم العمليات التنفسية ، لسبب لم يستطع العلماء كشفه . فعند تقلص الحجاب يندفع الهواء نحو الرئتين عبر المجاري التنفسية ، الا انه عند تشنج الحجاب الحاجز ولو لهنيهة لا تزيد عن أجزاء من الثانية ، فان عملية أخرى تحدث ، إذ يصطدم الهواء الخارج من الرئة بلسان المزمار - وهو امتداد عضلي يحكم مجرى القصبة الهوائية - مانعا الهواء من المرور للخارج ومحدثاً صوت « هيك » المعروف للزغطة يعود بعدها الحجاب لوضعه الطبيعي ، إلا أنه سرعان ما يعاود التشنج ، تتكرر العملية حتى زوالها مسببة الازعاج لصاحبها .

ولم يعرف للآن سبب تشنج الحجاب الحاجز هذا ، إلا أنه يعتقد أنه ناتج عن تناول سريع للغذاء ، او نتيجة للضحك بصوت عال ، او لإصابة الحجاب بندبة .

أصوات العظام :

وللعظام أصوات أيضا ، مصدرها المفاصل عادة ، وبالأخص مفاصل الساعد والقدم والساق والأصابع ، وهي تحدث عادة باحدى طريقتين ، الاولى : وتتم بفعل الأنسجة الرابطة للعظام ، وتتموضع عند مناطق التمفصل العظمي ، وتحدث الأصوات نتيجة سحب هذه الانسجة ، وارتطامها بالقريب منها من تراكيب . فسحب أصبع مثلا يعني انزلاق أليافه الرابطة ، أو عظامه واصطدامها بعظام اليد ، محدثة صوتا خاصا يشبه (الطقطقة) .

والطريقة الثانية : وتحدث عند ليّ الأصابع أو الأطراف بقوة وبزوايا كبيرة ، وتكون أصواتاً ملحوظة تعرف (بالطرقعة) ، وهي تحدث نتيجة (انفجار) فقاعات هوائية داخل مناطق التمفصل العظمي .

فمن المعروف أن جميع المفاصل المتحركة في الجسم تحتوي على سائل خاص(synovial fluid) لتسهيل عملية انزلاق ، وحركة الأطراف المتمفصلة بشكل سهل وناعم ، وتتواجد في هذا السائل عادة فقاعات هوائية دقيقة جداً ، ونتيجة لحركة المفصل الدائبة فإنها تبقى دقيقة وثابتة في مكمنها ، إلا انه عند ابتعاد عظمتين عن بعضهما بالسحب تخرج الفقاعات الى ما تُرك وكبر من فراغ بينهما ، وتتحد مع بعضها مكونة فقاعة واحدة ، تكبر تدريجيا الى أن تنفجر محدثة صوت « الطرقعة » كما يعرفه الناس ، ويحتاج الهواء المنفجر الى مدة من الزمن كي يذوب ثانية في السائل المفصلي ليعود فقاعات دقيقة ، قدّرها العلماء بحوالي عشرين دقيقة ، لذلك يكون حدوث الصوت لمرة واحدة في الأغلب طول تلك المدة .

أصوات قناة الهضم :

ولقناة الهضم ـ بأجزائها المختلفة والمتعددة ـ أصوات خاصة بها تبدأ بصوت عملية « التجشؤ » ERUCTATION ، التي مصدرها المعدة والأمعاء ، والتي تبدأ بتشكيل فقاعات هوائية دقيقة داخل المعدة ، نتيجة اندفاع الهواء مع هضم الغذاء ، فنحن عندما نأكل تدفع مع ما نتناول من غذاء أو شراب عبر الفم كميات من الهواء ، وقد تزيد أحيانا عن مقدار ما نتناوله من غذاء ، وبشكل هواء حر او هواء يدخل في تركيب المواد المتناولة ، وعند وصول هذه الفقاعات الى المعدة ، فانها تتمركز في الطبقات العليا من المعدة ، وبازديادها يزداد الضغط الجوي للهواء داخل المعدة عن خارجها ، مما يؤدي الى اندفاعه من المعدة الى خارج الجسم ، وعبر المريء والفم محدثا صوتا عند مروره بنهاية المريء .

ويكون إما عاليا أو خافتا حسبما تعود عليه الفرد ، وقد يزيد من ظهور هذه الأصوات تناول أغذية معينة ، تعين على حدوثها كسوائل الصودا وغيرها .

وتعد عملية التجشؤ هذه مهمة للفرد ، للتخلص من الهواء المعيق لعملية الهضم ، وخاصة للأطفال الرضع الذين يصبح لزاما على امهاتهم وضعهم عموديا لفترة من الزمن بعد الرضاعة ودون إنامتهم ، كي يسهل حدوث هذه العملية ، وإلا أدت إنامته أفقيا الى انغلاق الممر المؤدي من المعدة الى المريء بسوائل المعدة عند منطقة اتصال الأخيرين ، وهذا يؤدي الى تراكم الهواء في المعدة ، مسببا الآلام وعدم الراحة للرضيع .

ويختلف الناس في اعتباراتهم لهذه العملية ، فمنهم من يعتبرها إثما يجب الاعتذار عنه ، ومنهم من يعتبرها مديحا لما تم تناوله من غذاء .

تعد المعدة من أقوى التراكيب المفصلية في الجسم الإنساني ، فبفضل قوتها المفصلية تلك ، تستطيع هضم وسحق أصلب غذاء نتناوله ، ودفعه باتجاه الأمعاء وهي مستمرة في عملها هذا وحركتها تلك ، سواء كانت تحتوي على الغذاء أو بدونه ، وفي الحالة الأخيرة ، ولوجود كميات من السوائل الهاضمة والعصارات ، وكمية أكبر من الهواء فإنها تدور داخل المعدة ، أثناء حركتها الماضغة ، مصدرة أصواتا تعرف للعامة « بالقرقرة » ، وأحيانا « زقزقة البطن » ، وأحيانا قد يكون مصدرها الأمعاء ، وليس المعدة ، وبنفس الأسلوب ، بقي أن تعرف أن هذه الأصوات لا تصدر في حالة الجوع فقط بل في كل الأوقات .

ـ والرياح "FIATUS" نوع آخر من أصوات الجهاز الهضمي ، وهو ناتج من ابتلاع كميات من الهواء ومرورها عبر قناة الهضم ، وازديادها كما ونوعا بفعل امتزاجها مع ما ينتج من غازات أثناء عمليات التمثيل الغذائي ، ويصدر الصوت نتيجة سرعة مرورها عبر فتحة المخرج القوية التكوين . □

هو .. هي

هل يموت الحب ؟

لم أشغل نفسي يوما بالتفكير بالثنائيات الكثيرة التي تملأ حياتنا ، كنت أعتقد أن الحب والكراهية من هذه الثنائيات الكثيرة المختلفة . شأنها شأن الليل والنهار ، والنور والظلام ، والعقل والجنون ، والنجاح والفشل ، لم أفكر كثيرا في تلك الثنائيات حتى اكتشفت بعد تأمل معذب أنه قد يكون هناك ظلام في النهار ، وأن الليل حين يجثم فإنه يحمل في رحمه شيئاً من النهار ، وأن النجاح رهن بالفشل ، وأن نقيض العقل قد لا يكون الجنون بل العاطفة ، أما الحب فليس عكسه الكراهية بل العدم ، الموت ، موت الحب ، انتهاؤه ووصوله مرحلة لايكون فيها سوى ذكرى على الرغم من أن الرجل الذي كان هو العاشق مازال يعيش وفي نفس المنزل مع المرأة التي أحبها ، معي أنا ، وتلك هي قضيتي التي لا أجرؤ على البوح بها إلا لنفسي .

لقد مضى على زواجي أكثر من خمسة عشر عاماً ، تزوجت عن حب لم أتصور يوماً أنه سينتهي ، وخلال سنوات الزواج الخمس عشرة هذه تغلبنا ـ زوجي وأنا ـ على كثير من الصعاب والعقبات التي اعترضتنا ، واستطعنا أن نعطي لحياتنا معنى من خلال نجاح زوجي في عمله ، ومن خلال دوري في دفعه إلى هذا النجاح ، وتضحيتي بالكثير من أجله ، وهي تضحية بدأت مع بداية قصتنا معاً ثم زواجنا . فقد كان والداي رافضين للزواج في البداية ، إلا أنهما نزلا عند إصراري وتم الزواج ، وانتهت مشاكلنا مع عائلتي لتبدأ مع الحياة التي انطلقنا فيها من الصفر ، ولم يكن سهلاً أن يبدأ اثنان معركة الحياة من الصفر .

وانتصرنا في معركة الحياة ونجحنا ، زوجي وأنا ، في تحدي الحياة ، لكنني انتبهت فجأة لأجد نفسي وحيدة بعيدة عن زوجي الذي كان يتابع معركته مع الحياة ، ومع كل نجاح له كنت أشعر أن حبه لي لم يعد كما كان ، فأبتعد منزوية في ركن ذاتي ، أراقب نجاحه بإعجاب لكن دون حماس ، بتقدير ولكن دون شغف .

ففي غمرة الحياة كان حبنا الذي مضى يتحول إلى عدم ، سهرات الأصدقاء واجبات اجتماعية جافة ، نزهتنا تفتقد البريق القديم ، وهدايا زوجي التي يحضرها لي بين حين وآخر خالية من تلك اللمسة الحميمة القديمة .

إن حبنا القديم لم يتحول إلى كراهية ، وكثيرا ماتمنيت لو أنه أصبح كذلك ، إذن لفعلت شيئاً ، لوجدت مشكلة أحلها ، ولقابلت الكراهية بكراهية أكبر ، أو بحب أكبر ربما ، ولانتصرت عليها . الكراهية ليست نقيض الحب ، بل هي عاطفة مثله ، وربما كانت إحدى صوره ، لقد تحول حبنا إلى عدم ، عدم أراقبه وهو يتشكل أمام عيني ، وأرى حبنا وهو يموت . فهل يموت الحب ؟

.. هي

ليسَ بالحبِّ وحدَه

سألتني زوجتي مرة عن نقيض الحب ، فقلت لها إنه الحياة ، وعندما انتبهت إلى وجه زوجتي وهي تستمع إلى الإجابة شبه ذاهلة أضفت موضحاً : إنني أعني الحياة بمشاغلها ومشاكلها وشؤونها ومتطلباتها التي لاتنتهي . ولم أفكر بعد ذلك كثيراً بسؤالها المفاجيء ذاك ، لكنني بدأت أنتبه إلى شيء ما ، غريب في سلوك زوجتي ، فهي لم تعد تقبل على سهراتنا العائلية مع أصدقائنا القدماء منهم والجدد ، ولم تعد تتحمس للخروج إلى أماكن التنزه العامة ، أو للقاء بعض صديقاتها القديمات ، ولم تعد تستقبل الهدايا التي أقدمها لها في المناسبات العزيزة عليها كعيد زواجنا وعيد ميلادها بنفس الحرارة التي كانت تستقبلها بها في السابق .

لكن سؤال زوجتي عن الحب ونقيضه عاد إلى ذهني بقوة ، عندما استمرت حالة السهوم والتقوقع والبرود العاطفي الذي لاحظته عليها فما معنى أن تسأل زوجة زوجها مثل هذا السؤال بعد خمس عشرة سنة من الزواج ، وبعد قصة حب طويلة لم تخل من توترات بيني وبين أهلها ، كانت هي خلالها وعلى الدوام في جانبي حتى لو أغضب ذلك أهلها ؟ وما معنى أن تسأل زوجة زوجها مثل هذا السؤال بعد الصمود والنجاح في اختبار الحياة القاسي الذي لايرحم المحبين ، ولايقدم للمكافحين معاملة خاصة ؟

إن مشكلة زوجتي هي أننا لم نستطع تجاوز مرحلة الحب في حياتنا ، فالحب في ظني مرحلة من مراحل الحياة ليس أكثر ، إنه يعطى الإنسان قوة في معاركه الكثيرة التي يخوضها في الحياة ، التي تحتاج إلى العمل أكثر مما تحتاج إلى الحب ، الحب يعطى الحياة معنى ، لكن الحياة ليست حبا فقط ، بل هي قبل كل شيء آخر معركة يجب أن نخوضها ونكسبها ، وهي تحد يجب أن نقبله وننجح فيه ، وما الحب سوى دافع وحافز من حوافز عديدة من أجل النجاح في معركة الحياة الصعبة .

هذه بعض من خلاصات عديدة توصلت إليها بيني وبين نفسي ، بعد أن اكتشفت مقدار الأسى الذى يحتويه سؤال زوجتي ، فقد كانت هي وليس غيرها وراء نجاحي ، ووراء وصولي إلى ما أنا ـ نحن ـ عليه ، وقبل ذلك كانت هي وليس غيرها من ضحى بالكثير من أجل إنجاح زواجنا . وبيني وبين نفسي فقط أدرك كم هي الحياة جافة دون حب ، وأدرك كم أن زوجتي حزينة لما وصلنا إليه من نجاح يفتقد حرارة العاطفة وجفاف الروح ، الحياة هي النقيض الحقيقي للحب . الحياة بمشاغلها ومشاكلها وسرعة إيقاعها . إنها حقيقة قاسية حزينة مرعبة دون شك ، لكن ليس بالحب وحده يحيا الإنسان .

هو ..

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

في البيت حامل مريضة بالسكر

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

مرض السكر أمره قديم شائع ، لهذا نجد له في تاريخ الطب عند كل الشعوب ذكراً وإشارة ، فالاغريق مثلا سموه الديابيطس ، وتعني بلغتهم الناقورة ، ويبدو أن ابن سينا لم يجد لها بديلا عربيا فقال : « الديانيطس » (أبدل الباء بالنون) أما الهنود فسموا مرض السكر قديما «« بول العسل » لما فيه من حلاوة الطعم وتكالب الذباب عليه .

غير أن مرض السكر لم يلزم حدوده العتيقة ، بل استشرى وانتشر ، وقد ساعده على هذا اكتشاف علاج الأنسولين الذى أعطى الفرصة لمريض السكر أن يعيش طويلا حياة طبيعية منتجة ، وأن ينجب خلالها من بعده أجيالا تحمل بذور وراثة المرض في خلايا أجسامها ، وبهذا أصبح مرضى السكر يعيشون طويلا ويتكاثرون .

كان هذا عقب عام١٩٢١ بعد أن توصل العالمان الكنديان بانتنج وبست إلى استخلاص الأنسولين من بنكرياس الحيوانات وحقنه في أجسام المصابين .

وقبل ذلك التاريخ كان مرض السكر وبالا على صاحبه ، لايمهله سوى سنوات معدودات يعيشها المصاب في معاناة وشقاء وهو يذوى وينحل يوما بعد يوم . وربما كانت المرأة الحامل أكثر الفئات المصابة معاناة وأكثرها شقاء وأتعسها مصيرا وأوخمها نتيجة ، وربما كانت نسبة مرض السكر بين النساء عموما في عصرنا هذا لاتتعدى خمسة بين كل ألف منهن . لكنها ترتفع إلى حدود ١٢٠ بين كل ألف في أحوال الحمل .

قديما كانت الغيبوبة تلاحق ثلث النساء الحوامل المريضات . وكانت الوفاة بانتظار ٤٠٪ - ٥٠٪ من الأمهات والمواليد ، غير أن الصورة في عصر الأنسولين تبدلت وتغيرت . وأمكن للطب أن يقلم أظفار وحش السكر . وأن يكبح جماح سطوته .

لكن الحمل عامل مثير لمرض السكر . فقد قيل إن المشيمة تطلق هرمونا أقرب مايكون شبها بهرمون النمو الذى تطلقه الغدة النخامية ، ومن شأن هذا الهرمون المشيمى أن يعارض مفعول هرمون الأنسولين ، لهذا قد يظهر لدى الحوامل السكر في البول على الرغم من سلامتهن الظاهرية قبل الحمل ، وماهذا إلا لضعف كامن في البنكرياس عندهن ، عجز معه عن مواجهة هذا التحدى الجديد ، ولهذا يعتبر الحمل عند النساء عاملا مثيرا للسكر وعبئا على البنكرياس يكشف ضعفه الموروث الكامن إذا ماكان لدى المرأة الاستعداد وكانت تحمل بذرة المرض .

أثر مرض السكر على الحمل والحامل والجنين

العناية بالمرأة الحامل المصابة بمرض السكر يجب أن يحتل مرتبة العناية القصوى قبل أن تحمل ، إذا كان لها تاريخ مرضي سابق ، أوتكون العناية فور ظهور علامات السكر أثناء فترة الحمل المتميزة بالعطش الشديد وكثرة مرات التبول ، ووجود السكر في البول عند التحليل .

وهنا لامكان لعلاج الحامل إلا بحقن الأنسولين فقط ، ولا موضع للأقراص إطلاقا . وحقن الانسولين التى تؤخذ تحت الجلد أنواع شتى ، يختار منها الطبيب المعالج مايناسب المريضة حسب حالتها ، لكن أبرزها نوعان أحدهما الانسولين السريع المفعول العاجل الأثر ،وثانيها البطىء المفعول الآجل الأثر .

ولعل السائد المفضل هو مزج النوعين في حقنة واحدة بنسب يقررها الطبيب المعالج لتحقن بهما مرتين يوميا ، الأولى قبل الافطار ،والثانية قبل العشاء بنصف ساعة على الأقل أو ساعة على الأكثر

غير أن اتجاها جديدا في الطب يميل إلى حقن المريضة بأربع جرعات :

الأولى : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل الإفطار .

الثانية : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل الغذاء .

الثالثة : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل العشاء .

الرابعة : حقنة من أنسولين بطىء المفعول قبل النوم .

وقد قيل في تبرير هذا أنه يكفل لهرمون الأنسولين مستوى في الدم يقارب مستواه الطبيعي عند الناس الاسوياء .

فبهذا الأسلوب قد تتفادى المضاعفات الخطيرة التى تتربص بالنساء الحوامل المريضات بالسكر المهملات للعناية بأمور العلاج والوقاية . وهذه المضاعفات غالباً ما تتركز في إحدى الصور التالية .

أولا : حدوث تشوهات خلقية للجنين ، وتلك احتمالات قائمة لأسباب شتى في كل الأحوال ، غير أنها في حال مرض السكر قد تصل إلى ثلاثة أضعاف المعدلات المعتادة .

ثانيا : ولادة طفل كبير الحجم زائد الوزن ، وسبب هذه الظاهرة كما يعللها الأطباء هو تسرب سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) من دم الأم الحامل إلى دم جنينها ، مما يثير بنكرياس الجنين وينبه إفرازه

هرمون الأنسولين ، فيزداد الجنين حجما ووزنا . ولو اعتبرنا أن معدل وزن المولود الطبيعي ثلاثة كيلوغرامات ونصف كيلوغرام لوجدنا أن وزن مولود مريضة السكر يتجاوز أربعة كيلوغرامات ، وهذا أمر قد يتطلب ولادة مبكرة قبل أوانها ، أو ربما إجراء عملية توليد قيصرية لتعسر الولادة الطبيعية .

ثالثا : حدوث الالتهابات : تؤكد الاحصاءات أن الحوامل المريضات بالسكر هن أكثر عرضة من الحوامل الطبيعيات للاصابة بالالتهابات عامة وحدوث الالتهابات الكلوية لديهن على الأخص ، وربما التهابات الفرج والمهبل ، وهذا أمر يفرض على هؤلاء الحوامل أن يبذلن أقصى جهودهن في الحرص على النظافة والمراجعة الطبية والالتزام بقواعد الصحة والعلاج .

رابعا : ارتفاع ضغط الدم في الأحمال أمر مألوف ، وهو معاناة الحوامل من ارتفاع ضغط دمهن ، غير أن مريضات السكر أكثر عرضة لهذه المعاناة ، وهذا أمر يتطلب موالاة الاستشارة الطبية وقياس ضغط الدم على وجه الخصوص .

خامسا : الإصابة بتسمم الحمل : تسمم الحمل وتلك ظاهرة تصيب الحوامل ، وتتميز بحدوث قيء واستسقاء وارتفاع ضغط الدم ، وتلك معاناة فيها خطر شديد عليهن ، مما يوجب رعايتهن في المستشفى والحوامل المريضات بالسكر أكثر تعرضا للاصابة بهذه الظاهرة المرضية .

مراجعة الطبيب :

مراجعة الطبيب بالنسبة لمريضة السكر أمر واجب كل أسبوعين عقب المراجعة الأولية الشاملة ، إلى أن يمضي على الحمل ٢٨ أسبوعا ، وبعد ذلك تكون المراجعة أسبوعيا حتى يوم الولادة .

ولادة الحامل :

الحمل الطبيعي للمرأة السوية يكتمل في الأسبوع الأربعين ، غير أن المريضة بالسكر قد تحتاج إلى ولادة مبكرة . وعلى أي حال فالأصلح إدخال الحامل المريضة في أسبوع الحمل الخامس والثلاثين ليتم توليدها في الأسبوع الثامن والثلاثين إذا ماوجب ذلك في تقدير الطبيب المعالج ، غير أن هذا أمر يمكن تفاديه ، كما يمكن تفادي العملية القيصرية أيضا إذا ماتمت السيطرة على الحالة المرضية والتزمت المرأة بالعلاج بصورة سليمة دقيقة .

الاب المريض بالسكر :

الاب المريض بالسكر قد يورث الاستعداد للإصابة بالمرض لبعض أبنائه ، لكن دوره في فترة الحمل معدوم لاموقع له إطلاقا ، فالأثر كله في هذه الفترة الحرجة للأم المريضة بالسكر .

أما عن الأم المريضة وتوريثها المرض لأبنائها فهناك احتمال قائم بنسبة واحد بين كل مائة ، بينما لاتتعدى نسبة هذا الاحتمال عند النساء السويات الطبيعيات واحد بين كل ألف ولادة فقط . □

ألف درهم لمدرس الطفل

احتفل الامام أبو حنيفة بولده يوم حفظ سورة الفاتحة ، وأعطى معلمه ألف درهم ، فاستكثر المعلم هذا المبلغ من المال ، لأنه لم يعلم الطفل من القرآن سوى سورة الفاتحة ، فقال له أبو حنيفة : لاتستحقر ما علمت ولدي ، ولو كان معنا أكثر من ذلك لدفعنا اليك تعظيما للقرآن .

مساحة ود..

الاستثناء والقاعدة

قبل أن تحل لحظة الرحيل بأيام يشعر بظلها الكئيب يمتد إلى كل شيء . تمتد يد ذات أصابع نحاسية باردة ، فتقبض على صدره ، يتراخى كل شيء من حوله ، وعوده لابنته الصغرى بأن يذهب معها وحدها إلى مدينة الملاهي لتنفرد به بعض الوقت ، رغبته في أن يكمل مع ابنه الذي على وشك التخرج حديثا مابدأه منذ أسبوع ولم يكمله ! حماسه لأن يوضح لابنته الكبرى بأن ما يريده بالتحديد هو أن تسيطر على حماسها وتلقائيتها لا أن تفقدهما !!

وتمتد الظلال الكئيبة إلى من حوله ، فيكفون فجأة عن تذكيره بوعوده . يتعاملون مع لحظة سفره حين تقترب بصورة طبيعية ، وكأنها لاتختلف في شيء عن لحظات خروجهم للعمل كل يوم ، مع أن عمله في قطر آخر ، مع أن يوم عمله يمتد أحيانا عاما أو بعض عام ! يشعر بأن كل ما يفعلونه من أجل أن تمضي هذه اللحظة كشيء طبيعي أو غير طبيعي ، وأنهم بهذا يكشفون عن قلقهم أكثر مما يخفونه !

وفجأة يتذكر لحظة لقائه بهم التي لم يمض عليها سوى أسابيع ، إجازته كانت تحفل بأشياء غير طبيعية أيضا على الرغم من الفرح الطفولي الذي يغرق فيه الجميع ، على الرغم من عناق الأيدي والوجوه ، يدرك في قلب هذه اللحظة أن الفرح كالحزن ، كلاهما يستر أجزاء من الحقيقة ، وأنه في حاجة إلى بعض الوقت ، ليلتقي حقا بأولاده ،ليعرف أحزانهم المستورة ، ومخاوفهم الكامنة ، ويتسمع نبض تساؤلاتهم الحائرة !! ولايكاد يبدأ التواصل حتى تأزف ساعة الرحيل . منذ أكثر من اثني عشر عاما وهو يعيش هذه اللحظات ، يعيش تكرر هذه اللحظات . في البداية كان يتعامل معها كلحظات استثنائية ، يغالبها بقوة استثنائية ، وبكلمات حكيمة عن ضرورة التعايش بين ما هو طبيعي وماهو ضروري ، بين حاجة أبنائه إلى وجوده بينهم وبين حاجتهم إلى عمله بعيدا عنهم أيضا ، وهاهو الآن يرى الاستثناء يصبح قاعدة ، والضروري يطغى على الطبيعي ، والكلمات الحكيمة تفسح مكانها لصمت أكثر حكمة !

الآن يشعر بأن للزمان صلابة تفوق صلابة المكان ، وإذا كان الإنسان قدينجح في اختراق جاذبية المكان فإنه ما يزال عاجزا عن تغيير عاداته التي يصنعها الزمان ، وانت لاتروى القصة كاملة لمن لايمكنه أن يكون بجوارك في ساعة الجد ، ولم يعد يبصر في وضوح ما الذي يختبيء وراء الصمت الأكثر حكمة ، هل هو الاتفاق الكامل أم التواطؤ الكامل ؟ هل هو الخوف على مشاعره أم الخوف منها ،من أن يضعف الممثل عن أداء دوره ، فيتوقف العرض قبل وقته الذي لايجرؤ أحد على تحديده !! لايجرؤ أو لايريد ؟ حتى هو نفسه لايملك إجابة لهذا السؤال ، فبعض ما يخيفه بشأن مايجري في داخل أولاده ويستره صمتهم الأكثر حكمة ، شعوره ببعض مايجري في داخله ، ويهرب منه بالصمت نفسه !! قبل أن يحل الصمت ، كان يحدثهم عما كتبه « ألفن توفلر » عن صدمة المستقبل ، عما يمكن أن يحل بمعنى الأسرة والصداقة والحب ، فهل هذا الصمت جزء من هذه الصدمة بعد أن أصبح المستقبل حاضرا والاستثناء قاعدة ؟ ! □

أبو المعاطي أبو النجا

بقلم : الدكتور حسن عباس

دَعَسَ ، وَدَهَسَ

كنا قد أشرنا في العدد الماضي إلى بعض من جناية الصحافة على اللغة ، وهي جناية لا نظن أنها تقصد قصدا ، بل تأتي عرضا ، يكون السبب فيها تعجل العاملين في الصحافة ، وجهل بعضهم بقواعد اللغة وأساليبها ، وبالفصيح من كلام العرب . يخطر لأحدهم استعمال كلمة للدلالة على حدث ، فيأخذ الكلمة دون أن يتحقق من صدق مدلولها أو مطابقتها للحالة التي يريد وصفها ، فإذا لم تكن مطابقة عثرنا على فعل مثل « دهس » للدلالة على حادث لا يمكن له أن يوصف بالدهس ، وإلا اختلف المعنى اختلافا بينا . دعنا نبحث فيما تعنيه كلمة « دهس » في مصادر اللغة ، ثم نبحث في معاني الأفعال الصحيحة البديلة التي يمكن لها أن تعبر عن هذا الحادث تعبيرا صحيحا .

جاء في اللسان : دهس : الليث : الدهسة لون كلون الرمال والوان المعزى .

ابن سيده : الدهسةُ لون يعلوه أدنى سواد يكون في الرمال والمعز . ورمل أدهسَ بينُ الدهس ، والدهاس من الرمل : ما كان كذلك ، لا ينبت شجرا ، وتغيب فيه القوائم . وقيل : هو كل لين سهل لا يبلغ أن يكون رملا ، وليس بتراب ولا طين ، وقال الأصمعي : الدهاس كل لين جدا .

وقيل الدهس : الأرض السهلة يثقل فيها المشي . وقيل : هي التي لا يغلب عليها لون الأرض ولا لون النبات . وأدهس القوم: ساروا في الدهس ، أوعثوا ساروا في الوعث ، والدهساء من الضأن التي على لون الدهس ، والدهساء من المعز كالصدآء (أي السوداء المشربة حمرة) ، إلا أنها أقل منها حمرة ، والدهس والدهاس مثل اللَّبث واللباث : المكان السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولا طين . وفي الحديث : « أقبل من الحديبية فنزل دهاسا من الأرض . ومنه حديث دريد بن الصمّة ، لا حَزْنٌ ضَرِس ولا سَهْلٌ دَهِس . ورجل دهاس الخلق أي سهل الخلق دمثه

هذه هي دلالات كلمة « دهس » ، وهي إما أنها تشير إلى لون معين ، وإما إلى صفة في الأرض ، وهي اللين والسهولة ، فأين هذه المعاني من دلالة الحادث الذي يذهب ضحيته إنسان نتيجة ارتطام جسده بسيارة ؟

إن هناك أفعالا أخرى تبين دلالة الحادث ، وتصفه وصفا صحيحا مقاربا . ومن هذه الأفعال : داس.جاء في اللسان في معنى هذا الفعل : داس الناس الحب وأداسوه : درسوه ، عن أبي حنيفة . وفي حديث أم زرع : « ودائِسٍ ومُنَقٍ » : الدائس

الذي يدوس الطعام ويدقّه ليخرج الحب منه ، وهو الـديـاس ، وقلبت الـواو يـاء لكسـرة الـدال . والدوائس : البقر العوامل في الدوس . يقال ألقوا الدوائس في بيدرهم ، والـدوس شدة وطء الشيء بـالأقدام حتى يتفتت كما يتفت قصب السنابل ، فيصير تبناً ، ومن هذا يقال طريق مدروس أي كثر عليه الوطء بالأقدام ـ والخيل تدوس القتلى بحوافرها إذا وطئتهم .

يتضح من المعاني التي يدور حولها الفعل « داس » أنه أولى بأن يدخل لغة الكتابة ، ويشيع فيها كما هو شائع في لغة الحديث . ولا ينال شيوعه في لغة الحديث من فصاحته شيئا .

وهناك فعل آخر يؤدي المعنى نفسه : وهـو الفعل : دعس . وقد جاء في معنى هذا الفعل : دَعَسَ : وَطأ وَطأً شديدا . فالدعس : شدة الوطء ، ودعست الإبل الطريق تدعسه دعسا : وطئته وطأً شديدا . وطريق دَعْس ومدعاس ومدعوس : دعسته القوائم ووطئته وكثرت فيه الآثار . والمدعوس من الأرضين : الذي قد كثر به الناس ، ورعاه المال حتى أفسده ، وكثرت فيه آثاره . والمدعاس : الطريق الذي لَيّنَتْهُ المارة . يقول الدكتور مصطفى جواد في « قل ولا تقل » : وإذا وطئت السيارة الإنسان وطأً شديدا قتلته أو كسرت بعض أعضائه فصار عَابِهاً : أي ذا عاهة .

ومما يضحك في استعمالهم « دهسه » بمعنى داسه ، ودعسه ، أنه لو حسبنا أن « دهس » موجود وأنه متعد ، أو أنه موجود وعديناه بالهمزة وقلنا : « دَهسته السيارة أو أدهسته إدهاساً » لكان ذلك بمعنى « لينته وأزالت خشونته » ، فانظر بعد ذلك كيف يكون تليين الإنسان وإزالة خشونته . فهل يحق بعد هذا لأولئك المتحذلقين اتهام اللغويين بالتحذلق وهم يعمدون إلى ما لا وجود لمعناه في لغة العرب ؟!

والأمر متصل ، والإساءة إلى اللغة العربية قائمة متجددة ، ومن الأمثلة القريبة العهد على ذلك محاولة البعض إشاعة كلمات أجنبية ـ عن جهل أو فساد ذوق ـ وإلحاقها بلغة الكتابة ، فضلا عن الرطن بها في لغة الحديث الثقيلة السمجة . ومن تلك الكلمات ـ وهي كثيرة ـ كلمة « كونفرنس » الأعجمية . فقد وردت في عنوان رئيس في إحدى الصحف ، ثم جاءت في سياق الحديث التفصيلي ، دون أن توضع بين هلالين ، بل دون أن يكون لاستعمالها ضرورة ملحة أو غير ملحة . قيل : « اجتمع الكونفرنس التاسع عشر للحزب . . . . . . » وقيل : « وفي جلسة أمس من جلسات الكونفرنس التاسع عشر . . » !

وكلمة « كونفرنس » انجليزية تعني : مؤتمر أو اجتماع ، وكلا المعنيين يفيدان في اللفظين اللقاء الحاشد الذي يقصد به تدارس قضية أو قضايا عامة أو خاصة ، وهما كلمتان عربيتان فصيحتان ، يعرفهما كل العرب على اختلاف حظوظهم من التعليم . فما الذي جعل كاتب الخبر يشيح بوجهه عنهما ويعمد إلى كلمة أعجمية لا يعرف معناها عدد كبير من قراء جريدته ؟ هل هي الرغبة في التظاهر بمعرفة لغة أجنبية ؟ أم هو الداء العضال الذي أصاب بعض المثقفين أو أدعياء الثقافة ممن يرطنون بلغة لا هي عربية ولا هي أعجمية ؟□

الصحبة والأصحاب :

قيل لابراهيم بن أدهم : لم لا تصاحب الناس ؟ قال : « إن صاحبت من هو دوني آذاني بجهله ، وإن صاحبت من هو فوقي آذاني بكبريائه ، وإن صاحبت من هو مثلي آذاني بحسده » .

جمال العربية

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الآباء

مرحى غيلان

للشاعر بدر شاكر السياب

بدر شاكر السياب واحد من رواد الشعر العربي المعاصر ، خرج ـ وآخرون غيره ـ على عمود الشعر ، وهجر القصيدة التقليدية في جانب كبير من شعره، وشق لنفسه ـ متأثرا بالشعر الانجليزي ـ طريقا يتمثل فيما يعرف الآن بالشعر الحديث ، على اختلاف في تحديد المدى الذي توحي به هذه التسمية . على أننا نعني بها حركة الشعر الحر الذي خرج على شكل القصيدة العربية الموروثة ، في ثورة عارمة ، ما زالت أصداؤها تتردد منذ الأربعينات حتى يومنا هذا . أما السياب نفسه فيرجع إسهامه في تلك الثورة إلى عام ١٩٤٦ ، حين نظم قصيدة « هل كان حبا ؟ » ، حيث عُدّت واحدة من التجارب الرائدة في هذا المجال .

ولد السياب في عام ١٩٢٦ في قرية تدعى جيكور في جنوب العراق . وهي قرية كانت خاملة الذكر ، شأنها في ذلك شأن كثير من القرى المنسية في الريف العربي ، ولكنها بعد ولادة السياب ونبوغ شاعريته غدت من أكثر القرى العربية ذكرا في أوساط المثقفين بعامة ، وقراء شعر السياب بخاصة ، ذلك أنه اتخذ منها رمزا غنيا للريف مثقلا بالدلالات والإيحاء . لقد عانى بدر من حياة اليتم إثر وفاة والدته في عام ١٩٣٢ ، ولم يكن قد جاوز السادسة من عمره ، فعهدته جدته لأمه ، وقامت على تربيته .

دخل أكثر من مدرسة ابتدائية في جنوب العراق . وفي عام ١٩٣٨ التحق بمدرسة البصرة الثانوية . وكانت جدته هي التي ترعى شؤونه . وما أن فرغ من دراسته الثانوية في عام ١٩٤٣ حتى التحق بدار المعلمين العالية في بغداد ، وكانت كلية جامعية مرموقة في ذلك الوقت ، ولم تكن جامعة بغداد قد أسست . لم يبتعد السياب عن أحداث العراق المهمة التي عاصرها ، فقد قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١ ، فأيدها وتأثر برجالها ، وعندما أخفقت وأعدم عدد من قادتها رثاهم بدر . على أن دراسته في دار المعلمين العالية قد فتحت أمامه ـ وهو المحب للثقافة والمعرفة ـ آفاقا واسعة . التحق أول الأمر بقسم اللغة العربية وآدابها ، ثم ما لبث أن تحول عن دراسة الأدب العربي إلى دراسة الأدب الانجليزي ، وفي القسم الأخير عرف السياب الشاعرين الانجليزيين ت اس . اليوت ، وأديث سيتويل ، وقد قدر لهذين الشاعرين أن يتركا أثرا على شعر السياب لا يستهان به .

لقد فصل السياب من دار المعلمين العالية في عام ١٩٤٦ بعد أن تزعم حركة إضراب في الكلية وقفت

في وجه قرار إداري يقضي بإضافة سنة رابعة إلى عدد سنوات الدراسة فيها ، ولم يقتصر نشاطه العام على ذلك ، بل كان يسهم مع أقرانه من الشباب الثائر في المظاهرات التي كانت تعم بغداد استنكارا للصهيونية وأعمالها في فلسطين قبيل قيام « اسرائيل » وللسياسة الاستعمارية الانجليزية في العراق . وكان من جراء ذلك أن دخل السجن في بلدة بعقوبة القريبة من بغداد .

ثم أعيد إلى دار المعلمين في خريف عام ١٩٤٦ ، وقد تخرج فيها ليعمل مدرسا للغة الانجليزية في إحدى المدارس الثانوية في غرب العراق . ولكنه ظل على ولائه للحركة الوطنية ، يستجيب لدواعيها ، ويشارك في أحداثها ما وسعه الجهد ، فاضطر بسبب نشاطه للفرار إلى البصرة ، ومنها إلى إيران ، وفي عام ١٩٥٣ جاء الكويت ، وعمل في شركة الكهرباء ، ثم عاد إلى بغداد ، وعمل في الصحافة . وقد توفي السياب في المستشفى الأميري بالكويت إثر مرض عضال ، ظل يؤرقه طيلة ثلاث سنوات . وقد خلف من الدواوين : « أزهار ذابلة » ، « والمعبد الغريق » ، « ومنزل الأقنان » ، و « أنشودة المطر » ، و « شناشيل ابنة الجلبي واقبال » .

مرحى غيلان

ـ « بابا ... بابا ... »
ينساب صوتُكَ في الظلام ، إليّ ، كالمطر الغضير ،
ينساب من خلل النُعاس وأنت ترقد في السرير .
من أيِّ رؤيا جاء ؟ أي سماوةٍ ؟ أيُّ انطلاقٍ ؟
... وأظلّ أسبح في رشاشٍ منه ، أسبح في عبير ،
فكأنَّ أوديةَ العراقِ
فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي : كلُّ وادِ
وهبتْه عشتار الأزاهر والثمار . كأنّ روحي
في تربةِ الظلماءِ حبةُ حنطة وصداكَ ماءْ .
أعلنتِ بعثي يا سماءْ .
هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءْ .

« بابا ... » كأنّ يد المسيح
فيها ، كأنّ جماجم الموتى تُبرعمُ في الضريحِ
تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلّ ريحِ .

« بابا .... بابا .... »
أنا في قرار بُوَيْبَ أرقد ، في فراشٍ من رمالِهْ ،
من طينه المعطور ، والدمُ من عروقي في زلاله
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ .
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليل ...
على المياه ، أنثُّ في الورقاتِ روحي والثمارِ
والماء يهمس بالخرير ، يصلُّ حولي بالمحار
وأنا بُوَيْبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

« بابا .... بابا .... »
يا سُلّم الأنغام ، أيّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ ؟
« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارك .
يا سُلّمَ الدم والزمان : من المياه الى السماءِ
غيلانُ يصعد فيه نحوي ، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان ، ثُمّ ، يدي وتحتضنان خدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي .

« بابا .... بابا .... »
جيكور من شفتيك تولد ، من دمائكَ ، في دمائي
فتحيل أعمدةَ المدينة
أشجار توت في الربيع . ومن شوارعها الحزينة
تتفجّرُ الأنهار ، أسمع من شوارعها الحزينة
وَرَقَ البراعِم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباح
والنُسْغَ في الشجرات يهمس ، والسنابلَ في الرياح
تعِدُ الرّحى بطعامهنّ .
كأن أوردة السماءِ
تتنفّسُ الدمَ في عروقي والكواكبَ في دمائي .
يا ظلِّيَ المتد حين أموت ، يا ميلاد عمري من جديدِ :
الأرضُ ; يا قفصا من الدم والأظافر والحديد
حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا .. كظلٍّ ،
كيدٍ بلا عَصَبٍ ، كهيكل ميتٍ ، كضُحى الجليد ،
النور والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ
عشتار فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوارعها ويهتف : يا نيامُ
هبّوا ، فقد وُلِدَ الظلامْ .
وأنا المسيح ، أنا السلامْ .
والنار تصرخ : ياورود تفتحي ، وُلِدَ الربيعْ
وأنا الفرات ، ويا شموعْ
رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والحُباب وبالشحوب .
والشمس تعْول في الدروب :
بردانة أنا والسماء تتوه بالسُحُب الجليد .
« بابا . . . . بابا . . . . . »
من أيّ شمس جاء دفؤك أيّ نجم في السماء ؟
يَسَلُ للقفص الحديد ، فيورقُ الغدُ في دمائي ؟

أول ما توحي به هذه القصيدة هو أنها قصيدة مناسبة ، فقد نظمها الشاعر بعد أن رزق طفلا أسماه غيلان ، وهذا صحيح ، ولكنها ليست ككل قصائد المناسبات من حيث دلالاتها ورموزها والأساطير التي تحفل بها . إنها قصيدة انتصار الحياة على الموت ، والبعث على الفناء ، والتجدد على الزوال . لقد بدأت شأنا خاصا ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى شأن عام . فغيلان ، ذلك الطفل الذي لم يكن يلفظ غير كلمة « بابا » ، صار ـ عبر سلسلة من التداعيات ـ رمزا لبعث الحياة وتجددها .

والطفل والمطر في القصيدة شيئان متطابقان ، كلاهما يحمل البشرى ، هذا يبشر باستمرار النوع ، وذاك يبعث في بذور الأرض القدرة على التولد والتجدد والخصب والنماء ، بل إن روح الشاعر الإنسان قد تحولت في التربة المظلمة إلى حبة حنطة ، يفعل فيها المطر ما يفعله صوت غيلان في أبيه : تفتح جديد ، وتوكيد لديمومة الحياة . ولطالما صارع الإنسان الفناء والعدم ، فيأتي الميلاد الجديد كأنه يد المسيح التي تحمل للإنسان الشفاء من علته الأزلية . ويوغل الشاعر في الحلم ، فيرى نفسه راقدا في قاع نهر بويب ، هناك حيث يتم الاتحاد بالطبيعة ، فيختلط دمه بالماء الذي يهب الحياة لكل أعراق النخيل ، بل يتحد المعقول باللامعقول بالاسطورة ، حين يرى الشاعر في نفسه بعلا يخطر على المياه في الجليل . على هذا النحو تجلّى فرح الشاعر بالميلاد ، فقد رأى فيه بعثه وخلوده ، ورأى فيه انتصار الإنسان على الفناء .

كان للميلاد هذا الأثر في السياب ، وقد استدعى كل هذه التداعيات . فما هو الأثر الذي تركه في جيكور القرية ؟

ولدت جيكور من جديد من شفتي غيلان ، وتحولت أعمدة المدينة إلى أشجار توت مورقة ، وتفجرت من شوارعها الحزينة أنهار تشيع الحياة في الجدب ، فإذا بأوراق البراعم تهمس وهي تكبر أو تمص ندى الصباح ، ويعلو صوت السنابل في الريح وهي تعد الرحى بالطعام . إذا صار الحال بعد الميلاد على النحو الذي تقدم فكيف كان حال الأرض قبل الميلاد ؟ الأرض قفص من أظافر ودم وحديد ، فيها المسيح معلّق كالظل ، لا هو حي ولا هو ميت ، انه كهيكل فاقد للحياة ، وفيها تتداخل حدود النور والظلام ، فتغدوان متاهة . والموت ـ لا الحياة ـ هو الذي يجوب الشوارع ويهتف : « هبوا ، فقد ولد الظلام » ، والنار تزعم أنها هي الفرات ، وتعلن عن ميلاد الربيع ، والصقيع يملأ الأرض جمودا ، حتى أن الشمس تعول في الدروب قائلة : بردانة أنا والسماء تتوه بالسحب الجليد ! فأين واقع الأرض هذا من حلم الشاعر الجميل؟وما المعنى الذي تحمله النقائض في القصيدة ؟ يجيب الدكتور إحسان عباس في كتابه عن السياب بأن صورة النقيضين في دفء وبرد كما رسمها الشاعر « تتصل بوجود تموز وبعل والمسيح أو عدم وجودهم ، فعند غيابهم يصبح الكون في قبضة الأضداد الذين يتحلون غير حقيقتهم ، حتى ليدّعي الموت أنه المسيح والسلام ، وتدّعي النار أنها الماء الذي يسقي الورود لتتفتح ، والشموع ترش ضريح بعل بالشحوب بدلا من الماء ، والشمس ، مصدر الدفء ، تقفقف من البرد ، وعشتار مصدر الخصب تصبح رمزا للعقم لأن « بعل » غائب عنها . إن انتصار جيكور كان عودة لبعل وتموز والمسيح ، للخصب والدفء والسلام ، كان بعثا للدفء الذي يستطيع أن يطرد قشعريرة الأرض ، وزمهرير الجو الجليدي ، وكان ذلك كله معناه الخلود الذي لا ينتقص منه الموت الجميل أي شيء» . □

قصيدتان

بقلم : زهور دكسن

١ التسامح

أيّ جدوى ؟
ألمُّ شراعي وأترك صاريتي وأسامح
تأخذني الريح بالمدركاتِ ، وأعلم أنّ التحمُّلَ همٌ . .
وأنّ التجمّل وهم وأدرك بالمعجزات احتمالي . .
وتمضي النهاراتُ تلو الليالي ، أردُّ انكساراتها حين أقوى . .
وحين أنوء تردُّ انكساري
وما بين . . هلاّ أسامحُ ؟
ما بين . . أنّى أسامحُ ؟

ينأى شراعُ القرار !

٢ يا أرحم الراحمين

أتقيّلُ باسمك وَعْثَ السفرْ
في ظلام المفاوز . . في حدرات الحُفَرْ
وباسمك يا بارئي أتقرّى الأمانْ
على عسف هذا الزمانْ
أحاور ذاتيَ ، أقاومُ حدّ الترقُّع ، كلُّ قرارٍ مُدانْ
أمدُّ اليقينَ
معابر . . . للضفتين
وباسمكَ أقفل راجعةً . .
من لهاث المواسم . . . للموت
يا أرحم الراحمين .

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

نوفمبر
١٩٨٨

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- النادي العلمي في الكويت.
- همام "مسلسل بالألوان".
- مراكش
  "مدن لها تاريخ".
- ابن الهيثم
  "مسلسل تاريخي".
- حكاية من ألف ليلة وليلة.
- استطلاع عن الرسوم المتحركة.

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
  لأخيك الصغير واختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٣٢

مكتبة العربي

كتاب الشهر

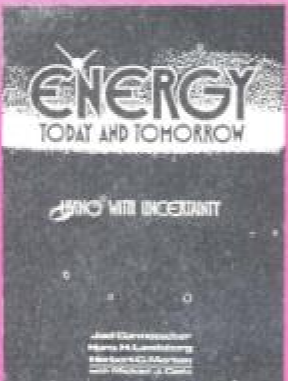

الطاقة اليوم وغدًا

الحياة مع المجهول

تأليف : جول دارمستدر وآخرون

عرض : بهاء الدين محمود عبد الحميد

يعرض هذا الكتاب لقضية من أهم القضايا الحيوية التي تشغل العالم في الآونة الأخيرة ، وهي قضية الطاقة ، ذات الجوانب المتعددة ، اذ ترتبط الطاقة ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية لكل البشر ، كما ترتبط كذلك بمقدرات كثير من الدول والحكومات ، ومن ثم أضحت الطاقة اوراقا للعب على موائد السياسة . وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف ان يضع الصورة كاملة امام القارىء ،ليستكشف بنفسه أبعاد هذه القضية الحيوية .

يبدأ المؤلف كتابه الصادر في الولايات المتحدة عام ١٩٨٤ بالحديث عن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بين العرب « واسرائيل » ، تلك الحرب التي حدت بكثير من الأقطار العربية المنتجة للنفط الى حظر تصديره الى الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا ، وكانت تلك عاصفة مفاجئة لم يتوقع حدوثها الأصدقاء والأعداء . بيد أن العاصفة هدأت وكادت الأمور تعود الى طبيعتها ، وقد فند المؤلف كثيرا من الأسباب التي دعت كثيرا من الدول الصناعية الكبرى الى الاهتمام بالبحث عن بدائل جديدة للطاقة ، ومن هذه الأسباب زيادة الطلب على النفط الخام على الرغم من الارتفاع المتزايد في الانتاج العالمي منه (فقد تزايد اجمالي الانتاج العالمي من النفط من ٣٫٨ ثلاثة بلايين وثمانية أعشار البليون برميل عام ١٩٥٠ الى ٢٠٫٤ بليون برميل عام ١٩٦٥) وقد بين المؤلف أن الصراع العربي « الاسرائيلي » عام ١٩٧٣ كان من أهم العوامل الرئيسية التي قلبت ميزان الأسعار في سوق النفط رأسا على عقب ، كما أثر هذا الصراع على الاقتصاد العالمي بشكل واضح .

وتحت عنوان هامشي هو : « تحديات وحقائق » يتحدث المؤلف عن الظروف السياسية التي طرأت على منطقة الشرق الأوسط بعد نشوب الحرب العراقية الايرانية ، فيورد حقائق مهمة ، هي أن منطقة الشرق الأوسط تعد من أهم المناطق التي سيظل يعتمد عليها العالم أمدا طويلا في امداده بالنفط ، وذلك لجودة خاماته ، كما يورد المؤلف حقيقة أخرى هي أننا لانستطيع ـ حتى الآن ـ أن نحد من التكاليف المطردة الارتفاع في استخراج مصادر الطاقة واستخدامها ، ثم يورد حقيقة أخرى هي أننا لا يجب أن نتجاهل التأثيرات السيئة لاستخدامات الطاقة على البيئة ، كما أنه من الصعب التعامل التام مع هذه التأثيرات ، ثم يذكر المؤلف حقيقة أخيرة هي أننا يجب أن نتوقع حدوث كثير من المفاجآت والصدمات العنيفة في ميدان الطاقة ، وأكبر برهان على تلك الحقيقة هي تلك الأسعار الخيالية التي وصلت اليها أسعار النفط الخام إبان حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بين العرب « واسرائيل » .

ولايخفي المؤلف اعتقاده بأن منطقة الشرق الأوسط وقد شهدت مفاجآت وتغيرات أسعار النفط عام ١٩٧٣ لن تشهد بعد ذلك مثل هذه التغيرات مرة أخرى .

من الانتاج الى الاستخدام

ويتحدث عن الطاقة من مرحلة الانتاج حتى مرحلة الاستخدام ، فيذكر الفحم مثالا على ذلك ، فاحتراق الفحم يولد طاقة بخارية تستطيع أن تدير « توربينا » يولد الكهرباء وهكذا .

ثم يقارن بين الدول في مجال استخدام الطاقة المختلفة ، ثم يتحدث عن الارتفاع المتزايد في استخدام هذه الطاقات المختلفة ، وعن العلاقة بين استخدام الطاقة والاقتصاد ، ثم يتحدث عن العلاقة بين استخدام الطاقة وبين اجمالي الانتاج القومي لكل دولة من دول العالم ، اذ تضاعف كل منها ، وذلك نتيجة لاستحداث الكثير من الصناعات والخدمات الجديدة التي تستخدم فيها الطاقة على نطاق واسع ، مثل كهربة المصانع وآلاتها ، واستخدام مصادر الطاقة في الميكنة الزراعية الحديثة ، واستخدام الديزل في السكك الحديدية . وعلى هذا نستطيع أن نتبين ذلك التحول

الجلي في استخدام الطاقة على مدى العصور السابقة من استخدام الخشب الى الفحم الى النفط الى الغاز الطبيعي الى آخر هذه التحولات والاكتشافات التي تمخض عنها العقل البشري خلال العصور السابقة حتى وقتنا الحالي .

في حديثه عن الفحم يذكر أن جودة الفحم تتوقف على نسبة احتوائه على عنصر الكبريت ، كما تتوقف على القيمة الحرارية التي تتولد عنه عند احتراقه ، ولذا نجد أنه كلما زادت كمية الكبريت في الفحم الخام قلت جودته ، ويعد الفحم الذي تنتجه معظم الدول الغربية ذا قيمة حرارية أقل من مثيله في سائر دول العالم ، ثم يتحدث المؤلف عن استخدامات الفحم على المستوى العالمي ، وبخاصة في مجال انتاج الحديد من خاماته الأولية ، تلك الصناعة التي مازال يقف فيها الفحم وقفة العملاق .

ثم يتحدث عن النفط ، فيذكر أن الاحتياطي العالمي منه يقدر حتى الآن بنحو ٦٥٠ بليون برميل ، أما الاحتياطي منه في المناطق التي لم تكتشف بعد من العالم فيقدر بنحو ضعف هذا الرقم . وفي أوائل الثمانينيات أعلن العلماء أنه اذا ما ظل استهلاك العالم للنفط على ماهو عليه الآن فان جملة الاحتياطي العالمي منه لن تكفي العالم أكثر من ثلاثين عاما ، ولذا قال بعضهم : ان عصر النفط قد أوشك على الانتهاء ، لكن تلك المقولة لم تدم طويلا بعد الاكتشافات النفطية الهائلة في بحر الشمال والمكسيك ، اذ يبلغ معدل الانتاج اليومي لهاتين المنطقتين مايقرب من خمسة ملايين برميل .

ويتناول الغاز الطبيعي الذي يتم اكتشافه منفردا في بعض الأحيان ، أو يتم اكتشافه مع النفط في أحيان أخرى ،وتكمن أهمية هذا الغاز في امكانية نقله عبر الأنابيب بسهولة ويسر ، ثم يتحدث عن تناقص احتياطي الولايات المتحدة من الغاز الطبيعي بصورة مطردة ، بيد أن البحث الدائب عن هذا الغاز في شتى أنحاء الولايات المتحدة على أعماق تتجاوز ١٥,٠٠٠ قدم أو أكثر من ذلك ربما يجعل هذا النقص المطرد أمرا بعيد الحدوث .

النفط الصخري

ويتحدث المؤلف أيضا عن اليورانيوم ، فيذكر أنه على الرغم من اكتشاف هذا العنصر منذ فترة طويلة الا أن استخداماته قد ظلت محدودة مدة كبيرة ، وعلى نطاق ضيق ، حتى أتى عصر الذرة في عام ١٩٤٢ ، حين أجرى العلماء أول تفاعلات انشطارية للذرة في جامعة شيكاغو ، فمنذ ذلك الحين اعتقد العلماء أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة لحل مشاكل الطاقة ، اذ يستطيع الطن الواحد من اليورانيوم توليد طاقة تعادل مايتولد من احتراق ٣٥٠٠ طن من الفحم . وتعتبر الولايات المتحدة وكندا في طليعة الدول التي تمتلك أكبر احتياطي من هذه المادة المهمة ، ويليهما في ذلك جنوب افريقيا ، وأستراليا ، وزامبيا ، والبرازيل . وقد استدعت حاجة الدول الكبرى الى اليورانيوم لاستخدامه في الأغراض العسكرية والسلمية الى زيادة الطلب عليه ، وأدت تلك الحاجة بدولة مثل الولايات المتحدة الى الجد للكشف عن وجوده لأنه عنصر استراتيجي،حتى اكتشف في العديد من المناطق مثل جبال روكي . وفي موضع آخر يتحدث المؤلف عن البدائل الأخرى التي يحاول العلماء استحداثها في الآونة الأخيرة للوقوف بحزم أمام العقبات التي أوجدها منتجو الطاقة السائلة مثل النفط ، ومن هذه البدائل النفط الصخري . ويوجد هذا النوع من النفط في أنحاء عديدة على سطح الكرة الأرضية ، ويقدر عدد الأماكن التي يوجد بها هذا النوع من النفط مايقرب من مائة وخمسين مرة قدر الأماكن التي يوجد بها النفط العادي ، كما تفوق تكلفة استخراج البرميل الواحد من هذا النوع مايقرب من ٢٥ سنتا أكثر من تكلفة استخراج البرميل الواحد من النفط العادي ، ومن ثم فقد تأخر هذا النوع في دخول مجال المنافسة مع النفط

العادي ، الا بعد التحولات المفاجئة التي حدثت في الأونة الأخيرة في أسعار النفط العالمية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن رمال القار التي تستخدم وقودا بعد فصل الهيدروكربونات منها بطريقة علمية معقدة ، وتتركز هذه المادة الجديدة في كندا والولايات المتحدة وفنزويلا وزائير وغيرها . ويتناول في حديثه الزيت الثقيل وهو نوع من النفط ذو لزوجة كبيرة لايمكن من استخراجه بسهولة ويسر من الآبار التي يكتشف فيها ، ومن ثم يصعب نقله عبر الأنابيب مثل زيت النفط العادي ، ولذا يحتاج الى ضخ بخار ساخن لدفعه من أماكن وجوده في باطن الأرض . أما عن مصادر الطاقة الجديدة والمستحدثة فانها تشمل العديد من المواد يذكر المؤلف منها : البيوماس والطاقة الشمسية . ويقصد بالبيوماس تلك المادة الجديدة التي استطاع العلماء انتاجها من المواد العضوية ، مثل بقايا الأشجار ، ومخلفات الغابات ، وقصب السكر ، وقشر الأرز ، وهي بديل الطاقة المستقبلي لمواجهة التزايد المطرد في أسعار النفط .

طاقة الريح

تعد الطاقة الشمسية من أرخص الطاقات المتاحة ، ويمكن تحويلها الى طاقة حرارية مباشرة ، لاستخدامها في أغراض عديدة ، مثل توليد الكهرباء بالخلايا الشمسية ، وقد أجريت أول تجربة لتوليد الكهرباء من الشمس عام ١٩٥٨ في الولايات المتحدة الامريكية . وتمتاز هذه الطريقة بعدم اعتمادها على وجود التوربينات أو المولدات أو المساقط المائية ، لكن برزت في الأفق مشكلتان رئيسيتان في توليد الكهرباء بهذه الطريقة وهما أن الخلايا الشمسية التي يقع على عاتقها دور التجميع لأشعة الشمس لا تزال حتى الآن باهظة التكاليف ، كما أنها لاتحول كل أشعة الشمس التي تسقط عليها الى طاقة كهربية . ويحاول العلماء جاهدين انتاج خلايا شمسية أقل تكلفة وأكثر جودة إذ لاتستطيع أكفأ خلية شمسية - حتى الآن - تحويل أكثر من ٢٠٪ من الأشعة الشمسية الساقطة عليها الى طاقة كهربية . ثم يتحدث المؤلف بعد ذلك عن طاقة الرياح واستخداماتها ، كما يتحدث عن الطاقة الجيوحرارية ، وهي الطاقة المتولدة عن البراكين التي تستخدم منذ أكثر من ثمانين عاما لتوليد الكهرباء في ايطاليا ، كما توجد مراكز عديدة للاستفادة من تلك الطاقة في كل من الولايات المتحدة ، ونيوزيلاندا ، وأيسلندا ، واليابان ، والمكسيك .

وينهي المؤلف فصله الثالث فيذكر أحدث الاتجاهات في مجال انتاج الطاقة ، كإنتاج مادة البيوماس من المخلفات العضوية على نطاق واسع . وقد خطت البرازيل خطوات جادة في هذا المجال ، فأنتجت الجازولين بنجاح من تخمر قصب السكر . ثم يبدأ المؤلف بالحديث عن البحث والتطور لتوسيع مجال الطاقة .

فيؤكد على أهمية البحث العلمي في شتى مجالات الحياة الانسانية ، ومن ثم فإن علماء الطاقة مازالوا يبحثون ويحللون لايجاد مصادر جديدة للطاقة ، وهم يضعون نصب أعينهم تحقيق أقل تكلفة ممكنة لانتاج الطاقة التي تتزايد باطراد ، ثم يؤكد المؤلف على ضرورة دعم الدول والحكومات للبحث العلمي ، ليحقق أهدافه المرجوة ، ففي فترة السبعينات (١٩٧٠ - ١٩٨٠) تزايد الاهتمام بالبحث عن بدائل أخرى للنفط لكبح جماح تزايد الأسعار المفاجيء ، ومن ثم أنتج العلماء الكثير من البدائل التي ورد ذكرها في الكتاب .

كما يحاول العلماء إنتاج أكفأ الأنواع من الخلايا الشمسية وأرخصها . يقول بعض العلماء : (اذا كانت الطاقة الشمسية غير مكلفة متاحة دون مقابل فلماذا يظل استغلال هذه الطاقة باهظا الى هذا الحد ؟) . ويأمل المؤلف أن يستطيع البحث العلمي حل هذه المعادلة الصعبة في القريب العاجل ، وذلك بالتعاون مع الأجهزة الحكومية في شتى الدول المعنية بمجال انتاج الطاقة الشمسية واستخداماتها .

سوق الطاقة

ويتناول المؤلف بالبحث مفهوم (سوق الطاقة) ، ودوره الفاعل في اقتصاديات الكثير من الدول ، وبخاصة الدول المنتجة لمصادر الطاقة المختلفة .

ثم يتحدث المؤلف عن منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) وتأثيرها المباشر على أسعار النفط العالمية ، ويقرر حقيقة مهمة ، وهي أن دول الأوبك تسيطر الآن بطريقة مباشرة على ٨٠٪ من حقول النفط الموجودة في أراضيها ، وذلك بعد التأميم الذي تم انجازه في معظم أراضي كبرى الدول المنتجة للنفط ، ولنأخذ مثالا على ذلك المملكة العربية السعودية التي أنشأت الشركة العربية الامريكية للبترول ، تلك الشركة التي تضم كبريات شركات النفط الأمريكية ، ويملك السعوديون القرار في تحديد عدد البراميل التي يجب انتاجها في اليوم الواحد ، كما يحددون أسعار بيع هذه الكميات بأنفسهم.وهكذا نجد أن دول الأوبك استطاعت في الآونة الأخيرة أن تقرر مصائرها بأيديها ، أما في مجال صناعة الفحم فيذكر المؤلف أن هذه الصناعة عادة تتأثر بأسعار النفط العالمية ، كما تتأثر كذلك بالتوزيع الجغرافي لأماكن الانتاج ، اذ يعد الفحم من مصادر الطاقة التي تحتاج الى وسائل عديدة لنقله من أماكن الانتاج الى مناطق استخدامه . ويضيف المؤلف أن الاهتمام بالفحم قد قل في الآونة الأخيرة في عديد من مناطق العالم ، وذلك لقلة الاهتمام بالمناجم الأرضية لأخطارها العديدة ، لكن الانسان مازال يحاول أن يفي باحتياجاته من الفحم على الرغم من خطورة استخراجه ، لاستخدامه في عديد من الصناعات المهمة التي لابديل عن الفحم فيها ، مثل صناعة الحديد والصلب . ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن الطاقة الكهربية ، فيقرر أن استهلاك الكهرباء قد تزايد بدرجة كبيرة في شتى أنحاء العالم ، وقد ارتفعت تكلفة الحصول على تلك الطاقة المهمة بصورة مطردة ، أما عن الطاقة النووية فيذكر المؤلف أنه على الرغم من أن هذه الطاقة حديثة نسبيا اذا ماقورنت بأنواع الطاقات الأخرى ، فانها مازال أكثر الطاقات تكلفة حتى الآن ، كما أنها مازال تحمل في جنباتها كثيرا من الأخطار المحتمل وقوعها بين حين وآخر ، ولذا فإن شيوع استخدامها لم يعد حتى الآن شيئا مقبولا الا في أغراض محددة ، ومن ثم يقترح المؤلف على العلماء وضع استراتيجيات عديدة ، تضمن أقل التكاليف وأكثر السبل أمانا في استخدام هذه الطاقة التي استحدثها البشر في القرن الحالي .

الانحلال البيئي

في الباب السادس يتحدث المؤلف عن الطاقة والبيئة وتلوث البيئة في ثلاث نقاط :

أولها : أنه من الصعب ، بل ليس من الضروري ، أن نزيل مصادر التلوث الناتجة عن استخدامات الطاقة ، فالنظام البيئي الطبيعي جدير بامتصاص معظم هذه الملوثات .

ثانيا : أننا لانستطيع-حتى الآن - تحديد خطورة التلوث البيئي ، لكننا نستطيع أن نلمح بعضا من (الانحلال البيئي) فقط مثل الهواء الملوث أو الماء الملوث أو البحيرات التي تغيرت طبيعتها المائية من الجيد الى الأسوأ وهكذا . ويضيف المؤلف قائلا : اني لا أريد أن أؤكد أن الكثير من الملوثات البيئية الخطيرة ربما توجد في البيئة المحيطة بنا دون أن نلمح لها أثرا يدل على وجودها .

ثالثا : يجب ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة مهمة هي أن التلوث البيئي في هذا العالم قد تزايد بسبب بسيط جدا هو أن التخلص من المواد الملوثة الى البيئة المحيطة بنا يعتبر أقل تكلفة من معالجة هذه الملوثات قبل صرفها ، ومن ثم فكثير من المصانع يلجأ الى التخلص من مخلفاتها الى البيئة المحيطة ، فتزيد تلوثها بدلا من معالجة هذه النواتج والمخلفات. وفي حديث المؤلف عن الفحم يذكر أن علماء البيئة يتوقعون زيادة درجة حرارة سطح الأرض ثلاث أو أربع درجات مئوية في منتصف القرن الحادي والعشرين المقبل ، وذلك نتيجة طبيعية لتزايد احتراق الفحم المستخدم في الحصول على الطاقة ، وبالتالي سوف يتزايد سمك غاز ثاني اكسيد الكربون في الجو ، فتمنع هذه الطبقة نفاذ الحرارة من سطح الأرض الى الفضاء الخارجي ، فتزيد تبعا لذلك درجة حرارة سطح الأرض ، وفي حديثه عن النفط يذكر أن أكثر من ٦٠٪ من جملة الانتاج العالمي من النفط يتم نقله عبر البحار والمحيطات ، لذا فإن أخطار تلوث هذه البحار ليست صعبة الحدوث ، ولاينبغي أن نتناسى ذلك التلوث الرهيب الذي أحدثته ناقلة النفط آموكو كاديز عام ١٩٧٨ في القنال الانجليزي .

وينتقل المؤلف الى الحديث عن الطاقة النووية فيذكر أن الجدل مازال قائما حول هذه الطاقة أكثر من أي نوع من أنواع الطاقات الأخرى ، ولعلنا نذكر حادثة المفاعل النووي في (جزيرة ثرى مايل) في ٢٨ مارس ١٩٧٩ ، وقد بينت هذه الحادثة أننا مازلنا لانعلم كثيرا عن الأخطار المحتملة داخل العديد من المفاعلات النووية ، ولذا يجب علينا توحيد الجهود الدولية لمواجهة مثل هذه الأخطار . ولقد تصور كثير من العلماء قبل هذا الحادث أن الطاقة النووية ينتظرها مستقبل وردي ، وظلوا يحلمون بهذا حتى غطى الضباب تلك الأحلام والآمال الوردية ، بعد وقوع هذا الحادث . وهكذا يمضي المؤلف محللا ومقارنا بين طاقة وأخرى ، ومدى ماتحمله من أخطار وكوارث للبشرية .

الطاقة في عالم غير مستقر

في الباب الأخير من الكتاب وعنوانه : « الطاقة في عالم غير مستقر » يتحدث المؤلف عن الصدمات العنيفة التي منيت بها أسواق الطاقة خلال فترة السبعينيات ، وبخاصة بين عامي ٧٣ - ١٩٧٤ ، وكذلك بين عامي ٧٩ - ١٩٨٠ ، تلك الصدمات التي أدت الى ازدياد معدلات البطالة ومديونيات عديد من دول العالم الثالث ، وفي حديثه عن السياسات الدولية للنفط يقرر المؤلف أن استخدام سلاح النفط كأوراق للعب على موائد السياسة لم يكن بالشيء الجديد ، حتى قبل قيام منظمة الأوبك عام ١٩٦٠ ، لكن ظهور هذا الشكل من اللعب السياسي لم يأخذ وضعا ذا أهمية كبيرة الا ابان حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب و « اسرائيل » ، وأكبر دليل على ذلك أن الأعضاء العرب في منظمة الأوبك لم يستطيعوا أن يعيدوا فرض نفس الحظر النفطي السابق حينما غزت « اسرائيل » الأراضي اللبنانية عام ١٩٨٢ ، وعلى الرغم من كل هذا يحذر المؤلف من يرددون في الدول الغربية المقولة السخيفة : (ماذا سيفعل العرب بالنفط ؟ هل سيشربونه ؟ فليشربوه ان استطاعوا !) . ويعقب المؤلف على هذه المقولة بقوله : ان سقوط شاه ايران ونشوب حرب الخليج ليسا الا حدثين تمخضت عنهما الأيام في تلك المنطقة المهمة من العالم ، ومن يدري لعل الغد يحمل في جعبته موجة جديدة كفيلة بقلب أسواق النفط العالمية رأسا على عقب ، وحينئذ يندم المتفوهون بهذه المقولة حين لاينفع الندم . □

بنية العقل العربي

تاليف : الدكتور محمد عابد الجابري / عرض : رافع عبدالرحمن

منذ صدور كتابه الشهير « نحن والتراث » والمفكر محمد عابد الجابري يثير جدلاً واسعا في مجال الدراسات التراثية ، وهو جدل اتسع وتشعب مع مشروع الجابري الكبير في « نقد العقل العربي » وفيما يلي عرض للجزء الثاني من هذا المشروع .

« بنية العقل العربي » هو الجزء الثاني من مشروع تراثي كبير عنوانه « نقد العقل العربي » للدكتور محمد عابد الجابري ، وكان المؤلف قد سلط الضوء في الجزء الأول - « تكوين العقل العربي » - على تشكل العقل العربي ومكوناته ، وانتهى إلى التمييز بين ثلاثة نظم معرفية : البيان والعرفان والبرهان .

وفي هذا الجزء يحلل الجابري هذه النظم المعرفية ، مسلطا الضوء على كيان العقل العربي من داخله ، محدداً العوائق « الابيستيمولوجية » التي تعوقه من داخله .

يقوم الجابري بمهمته هذه متسلحاً بمعرفة واسعة بتراثنا الفكري ، بمنهجية حديثة ، ومزايا عديدة يلمسها القارىء . ونأمل أن يكون هذا العرض للكتاب دعوة لقراءته أو إعادة لقراءته .

البيــــان

للوصول إلى تحديد أهم السلطات المرجعية التي تقود التفكير في الحقل البياني العربي ، بل في العقل البياني ، يسعى المؤلف في مدخل القسم الأول من الكتاب إلى التعريف بالكيفية التي انتقل بها « البيان » كنظام معرفي ، من حالة اللاوعي إلى حالة الوعي .

يقرأ ماجاء في « لسان العرب » مادة (ب . ي . ن) ويخلص إلى أن البيان في إطاره اللغوي يفيد الفصل والانفصال ، والظهور والاظهار .

وينتقل إلى الأبحاث البيانية ، فيرصد جانبين أساسيين في « البيان » كما حدده الشافعي : « أصول » تتشعب عنها فروع ، و « قوانين » وقواعد لتفسير الخطاب ، ومن قراءته شروط إنتاج الخطاب البياني عند الجاحظ يخلص إلى أنها تتلخص في تحقيق التوافق والانسجام في اللفظ والمعنى .

ويجد عند ابن وهب نظرية في المعرفة ، يحتل فيها « الخبر » مركزاً رئيسياً أوليا يوازن « النظر » إن لم يكن أقوى منه ، وذلك على مستوى اكتساب المعرفة .

ويصل الجابري من كل ذلك إلى أن أزواجا من المفاهيم تشكل العناصر الرئيسية في البنية العامة للنظرية البيانية في المعرفة العربية ، وهذه الأزواج هي : اللفظ والمعنى ، الأصل والفرع ، الخبر والقياس .

ويخلص من تحليله لإشكالية اللفظ والمعنى إلى أن التعامل معها قد رسّخ لدى البيانيين النظرة التي تتعامل مع اللفظ والمعنى ، وكأن لكل منها كيانه الخاص ، وقد نتج عن ذلك الفصل بين اللغة والفكر . وان البيانيين نظروا إلى النص كألفاظ وعبارات لغوية ونظام خطاب ، ولم ينظروا إليه كمعان ومقاصد ، ومن نتائج ذلك على العقل البياني ونتاجه المعرفي مايلي :

في مجال النحو خلط النحاة بين النحو والمنطق ، وجعلوا كثيرا من القواعد النحوية قواعد للفكر ، فصارت اللغة وعاء يؤطر الفكر ضمن قوالب ومقولات لغوية .

وفي مجال الفقه أهمل الفقهاء مقاصد الشريعة ، وأصبحت « مقاصد اللغة » هي المتحكمة ، وكان لابد أن يتوقف التشريع ، مما جعل انغلاق باب الاجتهاد نتيجة حتمية .

وفي علم الكلام أدى الانسياق مع متاهات إشكالية اللفظ والمعنى والخضوع لمنطقها إلى خنق العقل وتحجيم دوره .

أما في مجال البلاغة فقد صار المعيار البلاغي واحدا ثابتا وهو التزام طريقة القدماء في الشكل والمضمون ، وعندما استنفد المضمون امكانيات الاستعادة والاجترار صارت السلطة كلها للشكل ، للفظ ، والمحسنات اللفظية .

وفي تحليله لزوجية الأصل والفرع يشير الجابري إلى أن الشافعي حدد أصول الفقه في أربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وجاء الأصوليون من بعده فصنفوها إلى : النص (القرآن والسنة) والاجماع والقياس ، ويلاحظ أن لعملية التعبير عن القرآن والسنة معا بـ « النص » أهمية عظيمة جداً على الصعيد « الابيستيمولوجي » ، لأنها حولت الأصول الأربعة من أصول للفقه وحده إلى أصول يمكن أخذها في صورتها المجردة (نص ، اجماع ، قياس) ، وتأسيس أنواع من المعارف عليها .

ويؤكد أن عملية التفكير في العقل البياني محكومة دوما بـ « أصل » ، فالمعرفة العقلية في الحقل البياني تقوم كلها إما انطلاقا من أصل « الاستنباط » ، وإما انتهاء إلى أصل « القياس » ، وإما بتوجيه من أصل « ضوابط منهجية » .

ويتناول « نظرية الخبر » البيانية ، فيجد أن السلطة التي تؤسس خبر الآحاد وخبر التواتر هي سلطة « إجماع الصحابة » فما الذي يؤسس سلطة « الاجماع » ؟ إنها « سلطة السلف » ، سلطة الماضي . (فكان الاستبداد الذي عانى منه العقل البياني استبدادين : استبداد الحكام بالسياسة ، واستبداد السلف بالمعرفة) .

ويحلل المؤلف القياس البياني وإشكالية التحليل مبينا أن هذا القياس لايعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين أو اكثر ، بل يعني إضافة أمر إلى آخر بنوع من المساواة ، فهو مقايسة ومقاربة بين أصل وفرع ، بين شاهد وغائب . وأن القائس لايصدر حكما من عنده ، بل يمدد حكم الأصل إلى الفرع اعتمادا على مايجد من شبه يبرر القياس ، والحكم الذي يصدره المجتهد يقوم على الظن لا على اليقين .

ومن دراسته لمبحث العلة يستنتج أن الاستدلال في العلوم البيانية الاستدلالية واقع تحت وطأة إشكالية تبرير الأحكام ، وأن التعليل في الفقه وعلم الكلام

والنحو إنما يقوم على الجواز لا على الوجوب ، ووظيفته لاتتعدى المقاربة ، وأن اللزوم البياني يقوم في أحسن الأحوال على الترجيح ، ولا علاقة له بالضرورة المنطقية .

العرفـــان

أما العرفان كفعل معرفي فهو ،ما يسميه أصحابه « الكشف » أو « العيان » وكحقل معرفي هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأساطير تتلون بلون الدين الذي تقوم على هامشه ، لتقدم له مايعتقد العرفانيون أنه « الحقيقة » الكامنة وراء ظاهر نصوصه .

ويلقي المؤلف الضوء على الموقف العرفاني الذي كان دائما موقف هروب من العالم إلى عالم « العقل المستقيل » كلما اشتدت وطأة الواقع على الفرد الذي لايعرف كيف يتجاوز فرديته .

ثم يتناول العرفان في بيئته الإسلامية على محورين رئيسين يتمثلان في الزوجين (الظاهر والباطن ، النبوة والولاية) ، ويخصص فصلين لقراءة تحليلية نقدية تتركز على المنهج أساسا في المحور الأول وعلى الرؤية في الثاني .

يحتل الزوج (الظاهر والباطن) في الحقل المعرفي العرفاني موقعا يماثل الموقع الذي يحتله الزوج (اللفظ والمعنى) في الحقل المعرفي البياني ، وقد تم توظيف ذلك الزوج على ثلاثة مستويات : مستوى تأويل الخطاب ، ومستوى اتجاه ، ومستوى التنظيم الاجتماعي . والجابري يعنى بالمستويين الأول والثاني ، فيتناولها بالتشريح ، ومما يبينه أن « الحقيقة » العرفانية ليست عامة كلية ، بل ذاتية ظرفية ، تخص الشخص الواحد ، وإذا كانت هذه «الحقيقة» خاطرا يخطر بالنفس لمناسبة فإن العلاقة بينها وبين المناسبة التي تثيرها ليست علاقة ضرورية ولا حتى منتظمة .

ثم يضع « الكشف » موضع المساءلة ، ويقرر أن العرفانيين يعتمدون المماثلة في تأويل الخطاب القرآني ، المماثلة بين معان وآراء جاهزة لديهم وبين المعنى الظاهر الذي تعطيه عبارة النص . ويبين أن القياس العرفاني قياس دون جامع ، دون حد أوسط ، دون رقابة عقلية ، إنه انزلاق بالمماثلة بوصفها مشابهة في العلاقة بين بنيتين إلى المطابقة بينهما بصورة تجعل الواحدة منهما مرآة للاخرى .

والجابري يحلل نظرية النبوة والولاية عند الشيعة « اثنا عشرية واسماعيلية » ، بعد أن يلفت انتباه القارىء إلى أن الزوج (النبوة والولاية) في الفكر العرفاني يماثل ويوازن الزوج (الأصل والفرع) في الفكر البياني ، لكن اتجاه الفكر هنا يكون بالعكس ، فالولاية هي الأصل ، والنبوة هي الفرع .

ويجد النظرية المذكورة تعرض رؤية متكاملة للكون والإنسان ، منسوجة حول محورين رئيسين: شخصية الإمام وقصة المبدأ والمعاد شخصية الإمام محور لنظرية في المعرفة ، وقصة المبدأ والمعاد إطار لنظرية في الوجود : الطبيعي والروحاني ، والنظريتان تقومان بإلغاء العقل وإحلال عرفان الإمام محله .

ويقدم الجابري في خاتمة القسم الثاني من الكتاب خلاصات تجمع شتات ملاحظاته :

فالعرفانية الهرمسية هي البنية الأم للفكر العرفاني

في الإسلام ، والتأويل العرفاني للقرآن هو تضمين ألفاظ القرآن أفكارا مستقاة من الموروث العرفاني القديم . وقد كرس العرفانيون الإسلاميون في الحقل المعرفي العربي الإسلامي لا عقلانية صميمة ، على صعيد المنهج وعلى صعيد الرؤية .

و « الكشف » العرفاني هو أدنى درجات الفاعلية العقلية ، والعرفانيون يوظفون الأساطير توظيفا دينيا ، فيجعلون الحقيقة وراء « الشريعة » و « الباطن » وراء « الظاهر » ، والحقيقة عندهم ليست الحقيقة الدينية أو العلمية أو الفلسفية ، بل هي الرؤية السحرية للعالم التي تكرسها الأسطورة .

البرهان :

البرهان يعتمد قوى الإنسان المعرفية الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية ، وحدها دون غيرها في اكتساب المعرفة بالكون لتشيد رؤية للعالم ، يكون فيها من التماسك والانسجام مايلبي طموح العقل إلى إضفاء الوحدة والنظام على شتات الظواهر .

وقد تأسس البيان والعرفان باعتماد القرآن والحديث أولا وقبل كل شيء ، أما بالنسبة للبرهان فالأمر يختلف تماماً ، فمن جهة أولى يتعلق الأمر بمنهج في التفكير ، وبتصور للعالم ، يختلفان تماما عن المنهج والتصور اللذين تم إرساؤهما في الثقافة العربية الإسلامية بمعطياتها الخاصة : اللغة والدين ، ومن جهة ثانية يتعلق الأمر بعالم من المعرفة يكفي نفسه بنفسه ، وتأسس بوسائله الخاصة التي هي العقل ومايضعه من أصول .

إذن فتأسيس البرهان داخل الثقافة العربية الإسلامية سيكون عبارة عن ترتيب معين للعلاقة بينه وبين « البيان » فقط ، وهذا ماحصل فعلا .

في مدخل هذا القسم يقدم الجابري صورة مجملة عن « البرهان » الأرسطي منهجاً ورؤية ، مبرزاً مايميزه عن كل من « البيان » و « العرفان » ، ومبرزاً الاتجاه العام في الفكر الأرسطي . ثم يحدد مهمته في هذا القسم : (سيكون علينا أن نتبين كيف تمت تبيئة هذا النظام المعرفي « البرهاني » في الثقافة العربية التي كان لها نظامها الخاص ، مع بيان الكيفية التي تم بها ترتيب العلاقة بين النظامين من جهة ، كما سيكون علينا ، من جهة أخرى ، رصد التعديلات التي سيتعرض لها هذا النظام المعرفي البرهاني ، سواء على صعيد المنهج أو على صعيد الرؤية من خلال عملية التبيئة تلك) .

وينتهي في الفصل الأول إلى أن البرهان كمنهج قد انتهى به الأمر في الثقافة العربية الإسلامية إلى أن أصبح مع الغزالي مجرد آلة ذهنية شكلية يراد منها أن تحل محل آلة ذهنية شكلية أخرى هي آلة الاستدلال بالشاهد على الغائب ، مما أفقده وظيفته الأصلية التي أرادها له أرسطو ، وظيفة « التحليل » و « البرهان » .

وفي الفصل الثاني يبين الجابري من خلال قراءة مدهشة لـ « السينوية » أن البرهان كرؤية قد انتهى به الأمر مع ابن سينا إلى الانخراط في إشكاليات المتكلمين من جهة ، وتبني منتجات « العقل المستقيل » من جهة ثانية ، مما أفقد الرؤية البرهانية الأرسطية طابعها العقلاني « العلمي » .

(لقد تداخل هذا الموروث الأرسطي المفكك مع الخليط الهرمسي المقوم للعرفانيات الإسلامية ، مع الموروث البياني الذي كان قد توقف عن النمو بعد أن استنفد كل امكانياته . تداخلت هذه النظم المعرفية بعد أن انحلت . فاختلطت المفاهيم ، واشتبكت المسائل ، وتصادمت الرؤى والاستشرافات داخل الثقافة العربية الإسلامية ، مما جعل الحاجة إلى إعادة التأسيس والبنية ضرورة ملحة) .

تفكك النظم :

إذا كان الغزالي يجسم لحظة الأزمة في الثقافة العربية الإسلامية ، فإن ابن رشد يجسم لحظة التجديد ، وإذا كانت لحظة الغزالي تجد نقطة بدئها في ابن سينا فإن لحظة ابن رشد تجد نقطة انطلاقتها في ابن حزم .

(وإذا كان البيان قد وجد مستقبله انطلاقا ، من لحظة الغزالي في « طريقة المتأخرين » التي نضجت مع

الـرازي ، واتخذت قـالبهـا النهـائي المتكلس مع الايجي . فإن الطموح إلى إعادة تأسيـس البيان بصورة يتجاوز بها أزمته الداخلية قد ظهر قبل الغزالي مع ابن حزم ، ليبلغ قمته على مستوى أصول الدين مع ابن رشد وخطابه الجديد حول « مناهج الأدلة » ، وعلى مستوى أصول الفقه مع الشاطبي وخطابه الجديد ، كل الجدة ، حول « مقاصد الشريعة » كان هذا في المغرب والأندلس ، أما في المشرق العربي فقد ناضل من أجل إعادة تأسيـس البيان تأسيـسا سلفيا جديدا ، باستلهام ابن رشد خاصة ، الفقيه الحنبلي الشهير ابن تيمية) .

يعرض الجابري في الفصل الأول من هذا القسم صورة اجمالية عن عملية التداخل كما تمت في علم الكلام خاصة ، مشيرا إلى أن التداخل إنما حصل على ساحة البيان ، الساحة التي أصبحت منذ لحظة الغزالي تمثل « العقل العربي » الذي انتهى إلينا عبر « طريقة المتأخرين » وروافدها وامتداداتها ، والذي ظل منذ لحظة الغزالي ومازال مسرحا لصراع المقولات واختلاط المفاهيم .

ويبين أن انهيارا أصاب العقل والمعرفة نتيجة « طريقة المتأخرين » إذ تم النزول بالعلم الطبيعي الأرسطي إلى مستوى الفيزياء الكلامية ، وصارت كل فاعلية العقل أن يحفظ ويتذكر ، لا أن يفكر ويستدل .

وفي الفصل الثاني يتناول الجابري المشروع الثقافي الأندلسي ، مبرزا جوانب من تراثنا الفكري والاجتهادي ، مؤكدا أنها ماتبقى من تراثنا قابلا لأن تنتظم فيه في عملية التجديد والتحديث المطلوبة ، إنه يدعو إلى استعادة نقدية ابن حزم وعقلانية ابن رشد واصولية الشاطبي وتاريخية ابن خلدون .

وفي خاتمة عامة للكتاب بعنوان (من أجل « عصر تدوين » جديد) يحصر أهم سلطات المرجعية التراثية في ثلاث : سلطة اللفظ ، سلطة الأصل بقسميها (سلطة القياس وسلطة السلف) ، سلطة التجويز) .

ويؤكد أنه (بالانتظام الواعي في فكر ابن حزم والشاطبي من أجل ممارسة التجديد في تراثنا الفقهي ، وفي إطار معارك فكرية جادة ، يفتح المجال لزعزعة ثلاث من السلطات التي تحكم العقل العربي لا شعوريا : سلطة اللفظ ، وسلطة السلف ، وسلطة القياس) .

أما سلطة التجويز فيلتمس سبيلا لزعزعتها لدى ابن رشد في الانطلاق من النظام والترتيب اللذين في العالم بوصفهما تجليات للحكمة والعناية الإلهيتين ودليلا عليهما ، وبالتالي دليلا على وجود الله ، ثم يضيف إلى ذلك مفهوم « طبائع العمران » الخلدوني .

إن الجابري الذي أوضح أن العقل العربي قد تكوّن أساسا من خلال التعامل مع النص ، يرى أن الشيء الذي يجب أن يكون موضوعا للفحص والنقد هو ذلك المسلك الذي سلكه الأقدمون في فهم النصوص ، و (شبكة الآثار التي خلفتها فينا سيرورتنا العامة الطويلة منذ « انبثاق » العقل العربي ، أي منذ « عصر التدوين ») . وهو يرى أن الحاجة تدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى تدشين « عصر تدوين » جديد ، تكون نقطة البداية فيه نقد السلاح ، نقد العقل العربي . □

□ أكثر الناس قلقا في السجن ، هو السجان .

(برنارد شو)

□ ما من شيء يثير الشجاعة في الشعب العظيم كاستهدافه للمخاطر .

(نابليون)

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : التطور العمراني في الكويت
المؤلف : د . ابراهيم ماجد الشاهين
الناشر : سلسلة دراسات في التخطيط والعمارة
عدد الصفحات : ١٢٣ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

خلال سنوات التحضر الكبرى التي شهدتها الكويت تم تنفيذ كثير من المشروعات العمرانية الضخمة ، وقد تمت هذه المشروعات وفق القواعد والنظم الغربية . وللمؤلف وجهة نظر يعرضها في كتابه من خلال التركيز على هوية العمارة في الكويت ، وخصائصها وملاءمتها للبيئة ، وكيف أن الشكل المعماري لمدينة ما هو الا تعبير عن ظروفها وثقافتها الاجتماعية وظروفها الطبيعية . ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب ، الباب الأول يختص بوضع الأسس العامة ، والبحث عن جذور العمارة المحلية ، والباب الثاني يتضمن اقتراحا بتخطيط منطقة داخل المدينة القديمة وتصميمها ، وتطبيق الأسس المحلية للعمارة والتخطيط ، مع استخدام التقنية الحديثة ، وفي الباب الثالث الأخير اقتراح باتباع أسلوب جديد للتنمية العمرانية .

■■■

الكتاب : الفنان التشكيلي بدر جاسم القطامي .
الموزع : الربيعان للنشر والتوزيع
عدد الصفحات : ٥٠ صفحة قطع كبير
سنة النشر : ١٩٨٨

كتاب جديد من نوعه في المكتبة العربية ، يضم صورا « فوتوغرافية » لأعمال فنان تشكيلي ، ترصد تطوره ومراحل أعماله المختلفة . والفنان بدر القطامي من أهم الفنانين التشكيليين في الكويت ومنطقة الخليج العربي . وبادرة تقديم أعماله في كتاب تتيح له الانتشار بين قاعدة أكثر اتساعا من رواد معارضه ، وتتيح للقارىء العربي الرؤية والاستمتاع وهو جالس في مكتبته .

■■■

الكتاب : وحدة العرب في الشعر العربي
المؤلف : عبد اللطيف شرارة
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية ـ سلسلة الثقافة القومية
عدد الصفحات : ٤٥٦ قطع صغير
سنة النشر : ١٩٨٨

يقدم الكاتب في هذا الكتاب دراسة أدبية ، ونصوصاً شعرية للتدليل على وجود الشعور بالوحدة العربية في الثقافة العربية منذ أقدم العصور وتعاظمه ، وعلى الرغم من أن الثقافة تنمو مع الزمن وتتكون وتتكامل وتتطور وتضيف وتعدل حسب الظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإن الثقافة العربية ظلت تحتفظ داخلها بهذه النزعة الواضحة نحو وحدة العرب ، وقد كان الشعر أبا للفنون العربية ، وأحد أدوات التعبير عن الثقافة العربية ومضمونها ، ومن خلاله ووفق نصوصه كانت الوحدة هي الهم والهاجس والحلم والأمل والخلاص .

الكتاب : السياسة والحيلة عند العرب
تحقيق: رنيه خوام
الناشر : دار الساقي ـ لندن
عدد الصفحات : ٢٣٤ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

هذا الكتاب إعادة نشر للمخطوطة العربية المجهولة المؤلف المسماة « رقائق الحلل في دقائق الحيل » ، وهي مخطوطة مكونة من ١٥٢ ورقة ، يعود استنساخها إلى عام ١٠٦١ هـ/١٦٥١ م ، وهي موجودة في المكتبة الوطنية بباريس . وقد قام المؤلف ـ المجهول ـ في مخطوطته بجمع طرائف الحيل ونوادرها ، وقد عكف على جمعها من بطون كتب معاصريه وسابقيه ، باذلا جهدا ضخما في القراءة والتجميع ، وقد قسم المؤلف كتابه إلى عدة أبواب ، اختص كل باب بحيل طائفة أو فئة من الناس ، بدءا من حيل الملائكة والجن ، وحيل الأنبياء والملوك والسلاطين ، والوزراء والقضاة والفقهاء والأطباء والنساء .

وقد بذل محقق الكتاب ـ رنيه خوام ـ جهدا واضحا في نقل المخطوطة ، ثم عنونتها ، ووضع العناوين المناسبة لها ، ومقارنة الحكايات على ما هو متاح من كتب .

■ ■ ■

الكتاب : الاثراء الثقافي للأطفال
المؤلف : د . كافية رمضان ، و د . فيولا البيلاوي
الناشر : سلسلة الدراسة العلمية لثقافة الطفل / مطابع حكومة الكويت .
عدد الصفحات : ٢٨٤ قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٧

هذا الكتاب إضافة مهمة في مجال تربية الطفل ، قامت بها المؤلفتان في محاولتها لوضع استراتيجية لتنمية ثقافة الطفل في الخليج العربي . وقد تناول الكتاب في جزء منه الاطار النظري لمفهوم الاستراتيجية وأساسياتها ، وضرورة التكامل بين الاستراتيجيات المختلفة في القطاعات المتباينة في المجتمع ، ثم تعرض لمفهوم الاثراء الثقافي للطفل ومراكزه ووسائطه ، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن بناء استراتيجية تنمية ثقافة الطفل العربي ، بدءا من واقع ثقافته الحالي إلى مقومات بناء الاستراتيجية في أهدافها ومبادئها وخططها .

■ ■ ■

الكتاب : الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد القيسي
المؤلف : محمد القيسي
الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
عدد الصفحات : ٦٤٣
سنة النشر : ١٩٨٧ .

يضم الكتاب الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد القيسي ، بدءا من ديوانه الأول « راية في الريح ١٩٦٨ » ، حتى « منازل في الأفق » الصادر في ١٩٨٥ . والقيسي واحد من الأصوات الشعرية الشديدة التمايز في وطننا العربي ، وعلامة جديدة بعد مرحلة رجال الحرس القديم وفرسان الساحة الإعلامية الآن ، وهو شاعر صاحب رؤية وموقف ، وله قاموسه الشعري الخاص به جدا ، وهو شاعر لم يكن الشعر بالنسبة له ترفا أو لعبا بالكلمات ، ولا وظيفة ونجومية ، لكنه كان همًّا وأداة وحيدة في مواجهة مناخ القسوة والظلام وغياب العدالة .

أربعة

قال عثمان بن عفان : وجدت الخير مجموعا في أربعة : التحبب الى الله بالنوافل ، والصبر على أحكام الله ، والرضا بتقدير الله ، والحياء من نظر الله عز وجل .

العربي - العدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ م

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٠
نوفمبر ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٠ » ، واخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٠

١

جبل افرست في غنى عن التعريف ، ترى ما الأسم الذي يطلقه على هذا الجبل سكان المنطقة الواقعة على الحدود بين نيبال والتبت . علما بأن الاسم (افرست) هو الذي أطلقه عليه الانكليز ، واشتهر به الجبل خارج المنطقة ؟

٢

أي الجبال التالية يحظى بأكبر عدد من المتسلقين سنويا ؟

* جبل فوجي (او فوجياما) في اليابان .
* كلمنجارو في تانزانيا .
* جبل ماك كنلي في الاسكا .

٣

ترى لو قسنا ارتفاع الجبال اعتبارا من مركز الكرة الأرضية - في باطن الارض - فأي جبال العالم يكون أعلاها ؟

* افرست * موناكيا * كمبرازو في الأنديز

٤

ترى كم عدد الذين نجحوا في بلوغ قمة جبل افرست من جمهور المتسلقين الذين حاولوا بلوغها ؟ وكم عدد الذين فشلوا في بلوغها لأنهم ماتوا اثناء المحاولة ؟

* ١٣٠ متسلقا بلغوا القمة و(٥٠) متسلقا ماتوا .
* ٥٠ متسلقا بلغوا القمة و (٥٠)

متسلقا ماتوا .

* ١٥ متسلقا بلغوا القمة و(٢٥) متسلقا ماتوا .

٥ اى الجبال التالية يمكن أن نسميه جبل الرجال أو الذكور المحظور صعوده على الإناث ، ولا يسمح بزيارته للنساء ولا حتى لإناث الحيوان . .

* جبل أتوش في مقدونيا في اليونان .
* جبل اوليمبوس قرب اثينا في اليونان .
* جبل أرارات في تركيا .

٦ من المعروف أن الجبال لاتتكون بين عشية وضحاها ، وانما تحتاج الى ملايين السنين لكى تظهر فوق سطح الأرض على أن هذه القاعدة ليست بلا استثناء ، فهناك صنف من الجبال لايحتاج لظهوره الى زمن طويل ، وقد يتكون فجأة ويظهر بين عشية وضحاها . ترى أى صنف هذا ؟

* الجبال البركانية * الجبال الجليدية * الجبال المرجانية

٧ أيها أكبر سنا أو أقدم عهدا . . الجبال المرتفعة أم الجبال المنخفضة ؟

٨ أى الجبال التالية يمكن أن نسميه جبل المراصد !

* جبل موناكيا في هواى * جبل افرست * جبل الكنيسة

٩ من المسلم به أن حرارة الجو تنخفض في أعالى الجبال عما هى عليه على سفوحها ، ولو كنت من متسلقى الجبال لشعرت بانخفاضها أثناء صعود الجبل ، ترى كم درجة تهبط حرارة الجو بالمتوسط في كل ١٠٠٠ متر من الارتفاع .

* درجة مئوية واحدة * ٣ درجات مئوية * ٥ درجات مئوية

١٠ لعلك لاتدرى أن لك أوزانا مختلفة لا وزنا واحداً ، فوزنك على مستوى سطح البحر يختلف عن وزنك على قمة جبل يقع في القطب الجنوبي ، ووزنك في هذين الموقعين يختلف كذلك عن وزنك على قمة جبل آخر يبلغ نفس الارتفاع ، ولكنه يقع على خط الاستواء ، ففى أى هذه المواقع الثلاثة يكون وزنك أكثر وفي أيها يكون أقل ؟

١١ اى الجبلين التاليين اكثر ارتفاعا من الآخر جبل حرمون أم جبل الشيخ ؟

١٢ ماهو أعلى جبل في اوروبا .

* الجبل الأبيض في سلسلة جبال الالب .
* جبل البروز في جبال القفقاس .

حلّ مسابقة العدد ٣٥٧ أغسطس ١٩٨٨

١ إنها جبال أطلس التى تقع في المملكة المغربية والجزائر وتونس ايضا . وهى تبلغ من الارتفاع فى أعلى قممها ١٣٦٦٤ قدما .

٢ الأوز ، ولطالما شاهدوه يطير ويحلق على قمم يزيد ارتفاعها على ٨٨٠٠ متر وذلك فى الهند وفى بلدة دهرادان على الأخص . أما النسور فقد وجدوها متجمدة على ارتفاع ٨٠٠٠ متر على سفوح جبل افرست الجنوبية .

٣ تبلغ الجبال الجليدية من الضخامة أكثر مما تبلغه جبال اليابسة . وقد بلغت مساحة أضخم جبل جليدى - وهو الذى اكتشفوه سنة ١٩٥٦ في جنوب المحيط الهادى - (٣١٠٠٠) كم^{2} ، أي مايزيد على مساحة بلجيكا .

٤ سلسلة جبال همالايا تستأثر بأكثر القمم الشاهقة فى العالم ، تلك التى يتجاوز ارتفاعها ٢٤٠٠٠ قدم ، فمن مجموع ١٠٩ قمة فى العالم ككل تستأثر جبال همالايا ب ٩٦ قمة ، ولا عجب إن سميت هذه الجبال بهذا الإسم السنكريتى المكون من لفظين (هِمْ) وتعنى الثلوج ، و(لا يا) وتعنى موطن ، اذن همالايا موطن الثلوج .

٥ يقع جبل افرست على الحدود بين التبت ونيبال ، وتجدر الإشارة إلى أنه سمى بهذا الاسم نسبة إلى السير جورج افرست (١٧٩٠ - ١٨٦٦) الانكليزي الذي شغل منصب كبير المساحين فى الهند .

٦ تبلغ أطوال سلاسل الجبال الثلاثة كالتالى ، سلسلة جبال الأنديز ٧٢٠٠كم ، وهى أطول سلاسل الجبال في العالم بلا نزاع ، وسلسلة جبال روكى ٦٠٠٠ كم ، وسلسلة جبال همالايا ٣٨٠٠ كم . على أن سلسلة همالايا هذه تتميز بارتفاعها وبكثرة القمم الشاهقة فيها وإن لم تتميز بطولها .

٧ تقع قمة آدم فى جزيرة سيلان على بعد نحو ٤٥ ميلا من كولمبو ، ويقع جبل آدم في جزر فوكلاند فى أقصى جنوب المحيط الهادى ، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل ٢٣١٥ قدما . أى أقل من نحو ثلث ارتفاع قمة آدم البالغ ٧٣٦٠ قدما .

٨ أول رجل تسلق الجبال في التاريخ رجل فرنسى اسمه « انطوان دى فيل » كان ذلك سنة ١٤٩٢ وبأمر من الملك شارلز الثامن ، أما الجبل الذى تسلقه فكان جبل (ايجويل) الواقع قرب مدينة جريتوبل والبالغ ارتفاعه (٢٠٩٧) مترا .

وتجدر الاشارة إلى أن الجبل الأبيض أعلى جبال الالب قد تأخر تسلقه

حتى سنة ١٧٨٦ ، وقد قام بتسلقه عالم الجيولوجيا جاك بالمات والطبيب ميشيل بكارد في آن واحد معا .

٩ إنه جبل (ك٢ k 2) الذى قامت البعثة الأمريكية بقياسه في ربيع عام ١٩٨٧ ، فسميت بعثة ك٢ نسبة إليه ، ويعرف هذا الجبل باسم آخر هو شوجورى ، وقد سموه سابقا جولدن اوستن . يقع في باكستان ويبلغ ارتفاعه الذى جرى قياسه من قبل البعثة بأحدث الأجهزة وبالاعتماد على الأقمار الصناعية ما بين ٢٩٠٦٤ - ٢٩٢٢٨ قدما ، علما بأن ارتفاع افرست لا يزيد على ٢٩٠٢٩ قدما وذلك وفق آخر قياس له سنة ١٩٧٣ .

١٠ في البلدان الجبلية يزيد عدد المسنين المعمرين على عددهم في سائر البلدان الواقعة على السواحل أو في السهول أو في الوديان .

١١ جبل سنجار ، وهو يقع على الحدود بين العراق وسوريا ، ويمتد من الغرب إلى الشرق ، ويبلغ ارتفاع أعلى قممه ١٤٦٠ مترا ، ويسكن هذا الجبل فيمن يسكنه ملة تولى الشيطان مزيدا من احترامها أو تقديسها ، هم لا يطيقون سماع أحد يلعن الشيطان وإذا اتفق وأن سمعوه تشاجروا معه أو ولوا الأدبار .

١٢ غناء الأطفال ، ناهيك عن صراخهم قد يتسبب بانهيارات ثلجية هائلة . ويعرف السويسريون ذلك حق المعرفة ، من ثم كان حظر الغناء والصراخ على أطفالهم وحرصهم على المحافظة على السكون ما أمكن .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٧ أغسطس ١٩٨٨

الجائزة الأولى : المنصف السالمي / القيروان / الجمهورية التونسية .
الجائزة الثانية : مازن أمين / كفر سوسة / دمشق / الجمهورية العربية السورية .
الجائزة الثالثة : محمد قاسم حمودة البنا / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - آسيا علي سليمان / القاهرة / جمهورية مصر العربية .
٢ - رشا محمد عبدالرحمن مجذوب / الخرطوم / جمهورية السودان الديمقراطية .
٣ - مجد مروان جبل / مدرسة أم حبيبة المتوسطة للبنات / دولة الكويت .
٤ - فتحية عبدالقادر صالح / إربد / المملكة الأردنية الهاشمية .
٥ - أحمد عارف الفاني / بيروت / الجمهورية اللبنانية .
٦ - صالح صبري حمزة / واسط / الجمهورية العراقية .
٧ - أقلوس العربي / حي البطحاء / الدار البيضاء / المملكة المغربية .
٨ - عبدالله خميس سالم العبري / محلة الخطوة / سلطنة عمان .

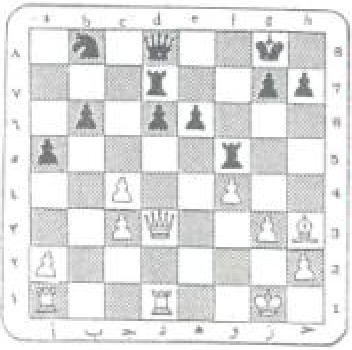

معركة بلا سلاح

من المباريات الشطرنجية الكبرى التي اقيمت في العام الماضي دورة ليتغراد الدولية في الشطرنج والتي امتدت من الثاني والعشرين من شهر مايو إلى السابع من شهر يونيو . وقد أجريت الدورة التي شارك فيها ثلاثة عشر استاذاً دولياً كبيراً وفق طريقة الدوري من جولة واحدة . وصنّفت الدورة وفق لوائح الاتحاد الدولي للشطرنج في الفئة ١٤ ، مما يجعلها واحدة من أكبر مباريات العام المنصرم وأكثرها إثارة وتشويقاً .

وقد حفلت هذه الدورة بالمفاجآت غير المتوقعة ، ولعل أغربها فوز اللاعب السوفيتي الكبير رافائيل فاجانيان بالمركز الأول على الرغم من مشاركة العديد من أبطال العالم الذين يتقدمون عليه في هذه الدورة ، ومنهم على سبيل المثال البطلان السوفيتيان اندريه سوكولوف وآرتور يوسوبوف اللذان يحتلان المركزين الثالث والرابع بعد بطل العالم الحالي جاري كاسباروف وبطل العالم الأسبق أناتولي كاربوف واللذان جاءت نتائجهما في هذه الدورة مخيبة لتوقعات جميع المعلقين والمحللين الحاضرين في المباراة ، إذ جاء أولهما في المرتبة السابعة بعد أن منى بثلاث هزائم متلاحقة . وجاء ثانيهما الذي لم يحقق سوى انتصار واحد في الجولات الاثنى عشر التي لعبها في المرتبة الثامنة برصيد للأول قدره ست نقاط وللثاني قدره ٥ , ٥ نقطة فقط .

ويعتبر البطل رافائيل فاجانيان الفائز في هذه الدورة من أبرز اللاعبين السوفييت المعاصرين ، وهو من أصل أرمني ويحتل حالياً المركز الأول بين اللاعبين الأرمن بعد وفاة بطل العالم الأسبق تيجران بتروسيان (١٩٦٣ - ١٩٦٩) . وقد حقق فاجانيان في هذه الدورة أربعة انتصارات وتعادل في ثمان من المباريات فاصبح رصيده ثمان نقاط .

والجدير بالذكر أن فاجانيان وكاربوف من مواليد نفس السنة وقد شاركه بطولة العالم للناشئين في عام ١٩٦٩ . واحتل المركز الأول بلا منازع في بطولة هاستنجز البريطانية في عام ١٩٨٣ بعد أن تفوق على أقرب منافسيه بنقطتين ونصف النقطة . كما أنه احتل المرتبة الأولى كذلك في مباراة بييل بين المناطق عام ١٩٨٥ التي شارك فيها ١٨ من كبار أساتذة العالم الكبار .

وقد لعب فاجانيان في مطلع عام ١٩٨٦ المباراة نصف النهائية للتأهيل لملاقاة بطل العالم أمام مواطنه اندريه سوكولوف (٢٧ سنة) ومني فيها بأربع هزائم متلاحقة مما يجعل من انتصاره الحالي على سوكولوف رداً لاعتباره بعد تلك الهزيمة النكراء . والدور التالي من الافتتاحية المعروفة باسم « هدجزهوج » بينه وبين البطل البريطاني « هوبنر » مثال على أسلوبه الهجومي المتميز :

□ ر . فاجانيان	■ ر . هوبنر
١ . ح - و ٣	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	جـ ٥

٣ . ز ٣ — ب ٦
٤ . ف - ز ٢ — ف - ب ٧

تعرف النقلتان الأخيرتان بالفيانشيتو وتهدفان للسيطرة على الوسط عن بعد .

٥ . ت — هـ ٦
٦ . ح - جـ ٣ — ف - هـ ٧
٧ . د ٤ — جـ × د ٤
٨ . و × د ٤ — د ٦
٩ . ف - ز ٥ — أ ٦
١٠ . ف × و ٦ — ف × و ٦
١١ . و - د ٣ — ت
١٢ . ر و - د ١ — ف - هـ ٧
١٣ . ح - ز ٥ ! (بديعة) ف × ز ٥ (مضطراً)
١٤ . ف × ب ٧ — ر - أ ٧
١٥ . ف - هـ ٤ — و ٥
١٦ . ف - ز ٢ — ر - د ٧
١٧ . و ٤ — ف - و ٦
١٨ . هـ ٤ — ف × ج ٣
١٩ . ب × ج ٣ — أ ٥ (لماذا ؟)
٢٠ . هـ × و ٥ — ر × و ٥ (خطأ فاحش)
٢١ . ف - جـ ٣ — يستسلم (أنظر الشكل)

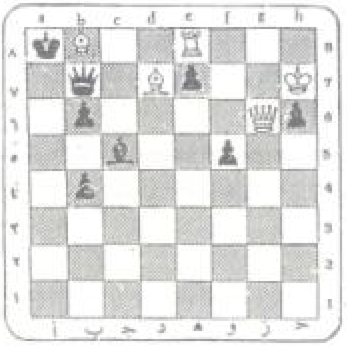

مسألة العدد رقم (٣٦٠) نوفمبر ٨٨

مات (٣)

مهداة من القاريء واتيس يعقوبيان (حلب)

حل مسألة عدد رقم ٣٥٨

سبتمبر ٨٨

١ . ح (أ) - ب ٦ + م - أ٧
٢ . ح - جـ٨ + م - أ٨
٣ . ح (د) - ب٦ + م - ب٨
٤ . ف - د٥ + مات

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٧ (أغسطس ١٩٨٨)

* الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١- محمد فتحي الشرقاوي / شبين الكوم / ج م ع
٢- أحمد خالد الحسين / دمشق / سوريا
٣- عدنان سعيد الجيش / الخالدية / الكويت
٤- محمد علي صالح / الأنبار / العراق
٥- فينانة توفيق العبد / عمان / الأردن

* الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١- ثامر منير / الشعبية / الكويت
٢- فاطمة الكوش / فاس / المغرب
٣- محمد عبدالرحمن بن مالك / حضرموت / اليمن الديمقراطية
٤- رضوان بن جاعة / صفاقس / تونس
٥- محمد صالح حسن قوجقار / جدة / السعودية

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

الموصلات الكهربائية

نشرت « العربي » في العدد ٣٥٣ (ابريل ١٩٨٨) مقالا للدكتور سعود عياش بعنوان « الموصّلات الكهربائية الفائقة تخرج من الصقيع » . وقد تلقينا رسالة من السيد (ايلاف عبدالكريم المصري) ضمّنها نص حديث اذاعي حول نفس الموضوع ، أذيع في أواخر عام ١٩٨٧ من اذاعة المانيا باللغة العربية من كولون (المانيا الاتحادية) وطرح السيد المصري الملاحظات التالية في رسالته :

(١) أنه بالمقارنة بين الحديث الاذاعي ومقال الدكتور عياش تجد إما تقاربا يكاد يكون حرفيا أو تباعدا رهيبا ، مما يحمل على الاعتقاد بأن يكون الدكتور عياش قد قام بالاقتباس من الحديث الاذاعي الألماني .

(٢) مدى دقة وصحة المعلومات الواردة في مقالة الدكتور عياش ، وبخاصة فيما يتعلق بتحقق ظاهرة الموصلية الفائقة على درجة ٢٤٠ كلفن (٣٣ درجة تحت الصفر المئوي) ، ويتساءل إن كانت مثل هذه القفزة الكبيرة قد حصلت حقا .

(٣) طلب نشر مقال حول العناصر نصف الناقلة (الاسم الشائع في معظم الأدبيات العلمية العربية والمعاجم هو أشباه الموصلات) المستخدمة في صناعة الأجهزة الالكترونية .

العربي

نشكركم على رسالتكم وما حوته من مشاعر طيبة ، ونشكر لكم جهودكم في استنساخ نص الحديث الاذاعي المشار اليه . وردا على ملاحظاتكم نذكر ما يلي :

(١) استلمت « العربي » مقال الدكتور عياش في أكتوبر ١٩٨٧ ، أي قبل شهرين أو أكثر من إذاعة الحديث العلمي في إذاعة المانيا ، وهذا لا يترك مجالا للاعتقاد أو الشك بأن يكون مقال الدكتور عياش قد تضمن مقتبسات من الحديث الاذاعي الذي تشير إليه . ومن الواضح أن مقال الدكتور عياش كتب قبل ظهور نتائج جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٨٧ التي منحت للباحثين مولر وبدنورز لجهودهما في مجال الموصلية الفائقة ، بينما كتب الحديث الاذاعي عقب الاعلان عن النتائج .

(٢) هناك دون شك عدد من الحقائق والمعلومات العلمية والتاريخية المتشابهة قد وردت في مقال الدكتور عياش والحديث الاذاعي ، والأمر هنا لا يتجاوز حدود أن الكاتبين قد استعانا بنفس الحقائق والمعلومات . وإذا أتيح لك الاطلاع على أي

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

من المقالات الأخرى المنشورة ذات الطابع التعريفي بهذه الظاهرة العلمية الجديدة فستجد نفس الحقائق والمعلومات تتكرر بصورة أو بأخرى .

(٣) أما فيما يتعلق بدقة وصحة المعلومات الخاصة بدرجة الحرارة التي تحققت عندها ظاهرة الموصلية الفائقة فقد ورد في مقال الدكتور عياش « ثم جاء التطور المثير في مارس ١٩٨٧ حين أعلن عن تطوير مادة تحتفظ بظاهرة الموصلية الفائقة حتى درجة ٩٤ كلفن ، ثم توالت أخبار الاكتشافات والتطورات المثيرة ، وجاءت أنباء غير مؤكدة عن تحقيق الظاهرة عند درجة ٢٤٠ كلفن ، أو ٣٣ تحت الصفر المئوي » . وعلى الرغم من أن أنباء تحقيق الظاهرة لم تكن قد تحققت إلا أن الأخبار التي توالت فيما بعد تعد أكثر إثارة . نحيلك هنا على تقريرين نشرا في نفس الدورية العلمية « سيتفيك اميركان » (تصدر المجلة مترجمة للعربية باسم « مجلة العلوم » عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي) ، ففي عدد أكتوبر ١٩٨٧ ورد في إحدى المراجعات العلمية في النسخة الانجليزية ما يشير إلى تحقيق بعض سمات الموصلية الفائقة في إحدى المواد المطورة عند ٣٢٥ درجة كلفن أو ٥٢ درجة مئوية فوق الصفر ، وفي فبراير ١٩٨٨ ورد في نفس المجلة أن بعض سمات الموصلية الفائقة قد اكتشفت في إحدى المواد عند ٥٠٠ درجة كلفن ، أو ٢٢٧ درجة مئوية . .

(٤) نأمل أن تتمكن من تحقيق رغبتك في نشر مقال حول أشباه الموصلات في أحد الأعداد القادمة .

■■■

لماذا احتل نابليون مصر؟

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

في العدد / ٣٥٣ / ابريل ١٩٨٨ من مجلة العربي :

نفى الدكتور سعد مصلوح عند نقده كتاب « رسالة في الطريق الى ثقافتنا » للعلامة محمود محمد شاكر أن يكون لغزو نابليون لمصر أي علاقة بالكنيسة والصليبيين ، ورده إلى الصراع الدنيوى الجشع ،

يقول الدكتور مصلوح ص ٤٦ : « . . . ويستبين من ذلك أن نابليون لم يكن رسول الكنيسة والصليبيين إلى مصر بالأصالة ، ولكنه الصراع الدنيوي الجشع ، وأحلام التسلط والغزو ، وغطرسة المستعمر وغروره » .

ومعلوم أن نابليون بعد احتلاله مصر زحف إلى فلسطين لغزوها أيضا ، وحاصر

حوار القراء

مدينة عكا شهرين كاملين ، لكنه فشل في تحطيم أسوارها المنيعة ، ورد على أعقابه ينفض غبار الذل والانكسار عن جبينه .

وهذه الحقيقة ـ مع أهميتها ـ أهملها الدكتور مصلوح ، ولم يلتفت اليها البتة . ولعل السبب في تركها ظنّه بأن احتلال مصر ومحاولة احتلال فلسطين أمران لا علاقة لأحدهما بالآخر . ومهما يكن السبب فإنني أعتقد أن محاولة احتلال نابليون لفلسطين جزء من مؤامرة خطيرة حيكت خيوطها في فرنسا بين نابليون واليهود .

ولن نلقي القول جزافا بغير دليل ، بل سأنقل نصّ وعد نابليون لليهود الذي ألقاه في أثناء حصاره لمدينة عكا ، ولعله يؤيد ما نقول ، وهذا هو نص الوعد : (إنّ العناية الإلهية أرسلتني الى هنا على رأس جيشي هذا ، وقد جعلت هذه العناية الالهية نشر العدل وتحقيقه مطلبي ، وتكفلت بظفري المستمر ، وجعلت من القدس مقري العام . وبعد قليل سوف تجعل مقري في دمشق ، وسوف أكون جارا لبلد داود)

يتبين لنا من هذا الوعد أنّ نابليون لم يأت إلى مصر لجشع وطمع دنيوي كما قال الدكتور مصلوح ، إنما جاء ـ لونجح ـ ليجعل مقرّه في دمشق ، وليكون مجاورا لبلد داود ، ومعيدا لمجد أجدادهم الذين كانت ممالكهم تشرف أسبرطة وروما !! لكن العناية الالهية ردته خائبا ، وجعلت حلمه هشيما تذروه الرياح .

أحمد محمد الفاضل
معهد الفتح الاسلامي
دمشق ـ سوريا

■■■

استطلاعات عربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

لولا ما ألمسه من رحابة صدر المجلة أمام ما يوجه اليها من ملاحظات فنية وغير فنية لما بعثت بهذه السطور ، فأنا واحد من قرائكم ، أعشق هذه المجلة وأتابعها بشغف ، ومن هذا المنطلق آمل تقبل اقتراحي . أو تصويب وجهة نظري فيه ، فأنا أتابع العربي منذ ثلاث سنوات ، واستطلاعات المجلة معظمها محلية وعالمية ، وقلما تهتم بالمدن العربية وعاداتها ، والأماكن الأثرية بها،ومعرفة القراء بالتطورات فيها .

القارىء : رابح كمال حمودة
دمياط ـ جمهورية مصر العربية

العربي

ـ نشكرك على رسالتك ، ونود أن نطمئنك بأن المجلة حريصة جدا على أن يتضمن كل عدد منها استطلاعا ينقل للقارىء الصورة الحقيقية عن قطر عربي شقيق . والتنويع في الاستطلاعات أيضا مهم حتى يعطي الجميع على اختلاف أذواقهم ومشاربهم بعض ما يحبون على الأقل .

"العربي" في العراق

وصلت للمجلة رسالة لطيفة من القارىء الدكتور فاضل حسن أحمد من قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة صلاح الدين بأربيل بالجمهورية العراقية، يتساءل عن سر اختفاء مجلة «العربي» بسرعة من المكتبات في أنحاء القطر، ولكونها مجلته الأولى المفضلة يطالب بزيادة كمية المرسل منها إلى العراق. ونود الافادة بأن المجلة ستعود إلى ما كانت عليه وبالكمية التي تكفي لتكون بين يدي الجميع إن شاء الله في أقرب فرصة ممكنة. وهذا وعد من المجلة.

■■■

أعداد زائدة من "العربي" للأهداء

القارىء زين السيد علي الرفاعي من محافظة الدقهلية ـ مركز دكرنس ـ ميت مجاهد بجمهورية مصر العربية، لديه مجموعة من أعداد العربي زائدة عن حاجته، ويرغب في إهدائها لمن تنقصه هذه الأعداد، وهي ١٥٢، ١٥٨، ١٦٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٠، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٥.

ويمكن لمن يود الحصول على عدد منها أو أكثر مراسلة القارىء على عنوانه مباشرة. وشكرا للقارىء زين السيد علي الرفاعي.

■■■

اقتراحات

● القارىء محمد خفاجي ـ الوجه القبلي ـ محافظة قنا ـ فرشوط ـ جمهورية مصر العربية يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن محافظات صعيد مصر، مثل محافظة قنا، وأسوان، وسوهاج.

● القارىء: عبدالحكم الجوبي من صنعاء بالجمهورية العربية اليمنية،

يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن الجمهورية العربية اليمنية لتعريف القراء على النهضة الشاملة التي تشهدها اليمن في جميع المجالات، وأن يتم تناول شخصية، (محمد محمود الزبيدي) في باب (تاريخ وتراث وأشخاص) بصفته ثائرا عربيا قضى حياته في النضال والجهاد.

● القارىء: شاكر العمار ـ جامعة دمشق ـ سوريا.

يقترح فتح باب يسمح للقراء بطرح الأسئلة العلمية في المجلة في مختلف العلوم كالطب والعلوم والأدب وغير ذلك.

■■■

"العربي" في أفريقيا

إن ما يميز استطلاعات «العربي» اظهارها الوجه الآخر للمنطقة المعنية وإنصافها، والكشف عن جمالها المدفون. وقد حدثني صديق فقال: إنه لم يكن يعلم عن كينيا شيئا سوى نيروبي ووحيد القرن، حتى قرأ عنها في «العربي». فقلت له: صبرا وسوف يأتي المزيد عن قارة أفريقيا السوداء. إن شاء الله.

القارىء: محمد ثاني عبدالكريم
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

حوار القراء

ردود قصيرة

تصلنا بين فترة وأخرى رسائل من القراء الأعزاء ، يطلبون تزويدهم بطوابع البريد التي تصل المجلة ، ومنهم القارىء هشام علي الطوخي من محافظة كفر الشيخ ـ جمهورية مصر العربية ، والقارىء الرايس عبدالرزاق من القنيطرة ـ بالمملكة المغربية .

ونحن نأسف لعدم تمكننا من تلبية رغبتهم نظرا للصعوبات الفنية في ذلك .

* القارىء بسار علي شعبان ـ وادي العيون ـ حماة ـ سوريا ، يطلب من المجلة نشر مقال عن ظاهرة الأطباق الطائرة أو الأجسام الطائرة المجهولة الهوية .

* القارىء أمين سلمان ـ بيروت ـ لبنان ـ يحمد الله أنه منذ بداية صدور « العربي » وهو مستمر على قراءتها ، وأنه لاحظ تطور المجلة في الأعداد الأخيرة من حيث النوعية والأبواب الثابتة وغير الثابته : لكم جزيل الشكر .

* القارىء عامر أبو زيد ـ الخرطوم ـ السودان . يشكو من قلة الأعداد التي تصل إلى السودان ، وأن السعر الذي تباع به غير السعر الموجود على المجلة ، ونحن نقول : إننا نعمل الآن على زيادة كمية نسخ « العربي » التي ترسل إلى السودان ، أما السعر الرسمي فهو الموجود على المجلة .

تشكر القارئة عشرة سلطان محمد ـ شبرا ـ القاهرة ـ على اقتراحها ، ونود الافادة بأننا نعمل به ، ولكن في بعض الأحيان يتحتم نشر مثل هذه الرسائل .

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

- تعتمد فيما تنشره على الترجمة من مختلف الدوريات العالمية .
- هدفها إقامة الصلة بين الفكر العربي وبين الأجواء المتطورة للثقافة العالمية المعاصرة .
- ميزانها الأساسي في إختيار المترجمات هو الجديد والهام .
- تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

رئيس التحرير
أحمد مشاري العدواني

نائب رئيس التحرير
د . سليمان إبراهيم العسكري

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

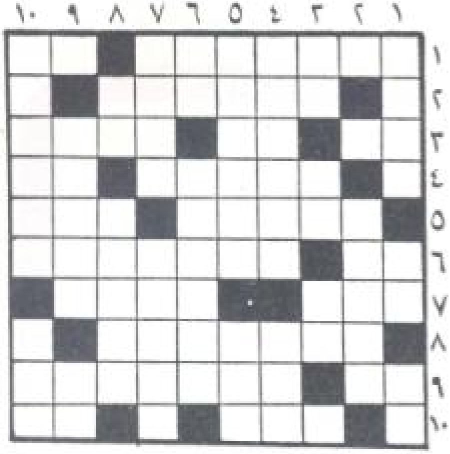

كلمات أفقية

١ . من أئمة النحو واللغة ، مَسّ باليد .

٢ . غاز نادر خفيف تنفخ به المناطيد .

٣ . ثُنِي ، كلمة تحدث صوتاً انفجارياً ، حيوان لبون تتخذ من جلده الفراء .

٤ . مخفيات ، ثارَ وَهاج .

٥ . نقلة مزدوجة لإبعاد الملك عن الأخطار في لعبة الشطرنج ، جاهل بالقراءة والكتابة .

٦ . قائد قرطاجي اجتاز جبال الألب .

٧ . شجريكثر قرب الماء ، أمة في صيغة الجمع .

٨ . النور والضياء .

٩ . تاهَ ، الجبل تتصاعد منه الحمم .

١٠ . ملح يستخدم في الصباغ ، الاسم الأول لأدبية لبنانية مشهورة .

كلمات رأسية

١ . أبديّ أو خالد ، تجدها في شاعَ ، جَمَعَ .

٢ . صورة مصورة تصنع تشبيهاً لخلق الله .

٣ . كهل منقوصة،صَرَع أو قَلَب ، حرفان متشابهان .

٤ . أعلم النحويين وامام مذهب البصرة ، حرف تفتح به الأبجدية مكرر .

٥ . قبائل من الهنود الحمر استوطنت أمريكا الوسطى ، تدخل .

٦ . أعني ، وصف للتيار الكهربائي غير المتصل .

٧ . يتأكد ، يجادل ويتنازع .

٨ . من نعم الله التي كفر بها بنو اسرائيل ، أعلن موافقتي وتأييدي .

٩ . رَعاع الناس ، صلّى بالناس إماماً .

١٠ . ماء عذب ، من الألوان الداكنة .

● حل مسابقة العدد الماضي ـ اكتوبر ١٩٨٨ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ا	ح	م	د	ب	ن	م	ا	ج	د
٢	ب	ح	ر	ي	ن	■	و	ب	د	ا
٣	ن	■	م	ا	ح	ل	ا	ن	■	ع
٤	ب	ا	ر	ز	■	ف	ر	ج	■	س
٥	ط	م	ط	■	م	ن	د	ب	■	ت
٦	و	ي	■	ا	ص	غ	■	ق	د	ا
٧	ط	ن	ج	ه	■	س	م	ر	ا	ن
٨	لا	■	ن	ت	ر	ت	ب	■	ك	■
٩	■	ر	ا	ج	ب	و	ت	ا	ن	ا
١٠	ب	■	س	ت	ا	ن	ن	ي	■	ن

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

نوفمبر ١٩٨٨ م

مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام

تأليف
د. أحمد سليم السعيدان

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣١

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب • جامعة الكويت

رئيس هيئة التحرير: د. عبد المحسن مدعج المدعج

دورية علمية محكمة، تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية تدخل ضمن تخصصات كلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والانجليزية شرط ألا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ
- أن يمثل البحث إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه الخاص وألا يكون قد سبق نشره.

توجه المراسلات الى: رئيس هيئة تحرير حوليات كلية الآداب

صندوق بريد: ١٧٣٧٠ الخالدية - الرمز البريدي: ٧٢٤٥٤ الكويت

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. محمد جاسم اليعقوب

- مجلة علمية فصلية محكمة تصدر ٤ مرات في السنة
- تعنى بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والعلمية
- صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥
- تقوم المجلة باصدار ما يأتي
  أ) مجموعة من المنشورات المتخصصة عن منطقة الخليج والجزيرة العربية
  ب) مجموعة من الاصدارات الخاصة والمتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية
  جـ) سلسلة كتب وثائق الخليج والجزيرة العربية
- عقد الندوات التي تهم المنطقة او المساهمة فيها واصدارها في كتب
- يغطي توزيعها ما يزيد على ٣٠ دولة في جميع انحاء العالم
- الاشتراك السنوي بالمجلة
  أ) داخل الكويت ٣ د.ك للافراد ١٦ د.ك للمؤسسات
  ب) الدول العربية ٣,٥٠٠ د.ك للافراد ١٦,٠ د.ك للمؤسسات
  جـ) الدول الاجنبية ١٥ دولاراً للافراد ٤٠ دولاراً للمؤسسات

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير على العنوان الآتي:

ص. ب: ١٧٠٧٣ - الخالدية - الكويت - الرمز البريدي 72451

مقر جامعة الكويت - الشويخ

هاتف: [illegible]

ربيع الآخر ١٤٠٩ هـ - ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٨

العربي

طه حسين في ميزان النقد

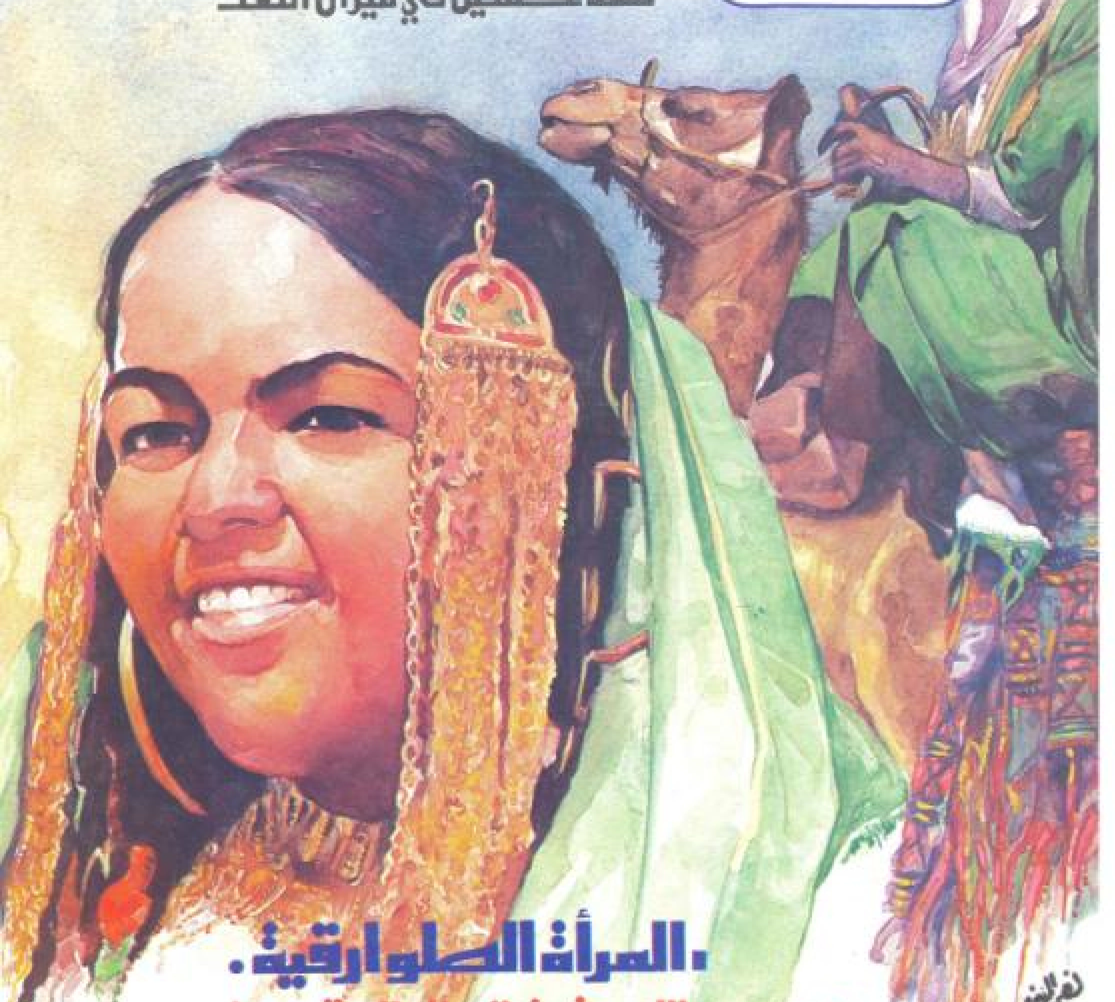

• المرأة الطوارقية •

• جورجيا السوفيتية .. الولاء قديم!

• ما بعد مصرع مأمور البداري!

لاتزال هذه الساعة محفوظة في متحف ساعات رولكس
في جنيف وهي تعرف باسم "هلال كامل من اللآلئ"
وهي من عصر النهضة.
الحركة من و. ج أبجون - لندن والزخرفة من جنيف
وهذه واحدة من مجموعة هانز ويلزدورف
مؤسس شركة ساعات رولكس
رولكس
والوَقت من ذهَب.
ساعة رولكس داي ديت ذاتية الملء
من الذهب عيار ١٨ قيراطاً.
مع سوار بشكل لحائي.
ساعة رولكس ديت جست
ذاتية الملء متوسطة الحجم
من الذهب عيار ١٨ قيراطاً.
ROLEX
رولكس

العدد ٣٦١ السنة الحادية والثلاثون ديسمبر ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" - الكويت - تلكس MITR.44041KT
تلفون فاكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI

Issue No. 361 Dec. 1988. P.O. Box. 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أوشيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران

محتويات العدد

قضايا عامة :

■ حديث الشهر : عن الحب والحرام يسألون . . ؟
ـ د . محمد الرميحي ٨
■ أرقام : نساء ورجال
ـ محمود المراغي ٣٦

عروبة وإسلام :

■ الثقافة الإسلامية وتحديات العصر
ـ د . رضوان السيد ١٨
■ البيان في أسباب نزول القرآن
ـ حسين أحمد أمين ١١٤

استطلاعات مصورة :

■ جورجيا السوفيتية .. الولاء قديم
ـ سليمان الشيخ ٦٨
■ مشروع استزراع الأسماك في الكويت . خطوة نحو الاكتفاء الذاتي
ـ ريم الكيلاني ٩٠
■ الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة : متطوعون لكي تصبح حياتنا ممكنة !
ـ محمود عبد الوهاب ١٣٢

طب وعلوم :

■ صحة البشر وتحديات الغد
ـ د . رمسيس عبد العليم جمعة ٣١
■ «إسرائيل» تتجسس في الفضاء
ـ سعد شعبان ٥٥
■ حكايات طبية
ـ د . غسان حتاحت ٦٠
■ القهوة التي تشربها في قفص الاتهام
ـ د . سامي عزيز ١٠٥
■ الجديد في العلم والطب
ـ إعداد : يوسف زعلاوي ١٢٧
■ سلامة البشرية في سلامة البيئة ١٣٠

أدب وفنون :

■ قصيدتان
ـ يوسف عبد العزيز ٢٤
■ طه حسين في ميزان النقد العلمي
ـ د . أحمد عُلبي ٢٦
■ الموشحات والقدود .. حلبية أم حمصية ؟
ـ د . عمر موسى باشا ٣٩

جورجيا السوفيتية ... الولاء قديم ... ص٦٨

مشروع استزراع الاسماك في الكويت خطوة نحو الاكتفاء الذاتي

مشروع استزراع الاسماك في الكويت خطوة نحو الاكتفاء الذاتي .... ص ٩٠

■ طفولة (قصيدة)
ـ جمال القصاص ٤٣

■ الغريب (قصة)
ـ حسب الله يحيى ٦٢

■ إلى غابة للمجنون الجميل (قصيدة)
ـ عزت الطيري ٨٨

■ جمال العربية *
ـ صفحة لغة : ابواب في النحو لانفع فيها
ـ د . حسن عباس ١١٠
ـ صفحة شعر : وقفات جريئة أمام الموت .. ١١٢

■ قراءة نقدية لكتاب : سعد نديم رائد السينما التسجيلية
ـ علي ابو شادي ١٢١

■ الوردة العميقة (قصيدة)
ـ محمد علي شمس الدين ١٦٨

منتدى العربي :

■ قضية : المرأة في قواعد النحو والصرف
ـ محمد حسن الصوري ١١٦

وجها لوجه :
د . رمزي زكي
...... ص ٩٧

المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

■ تعقيب : الثقافة العربية وقداسة التراث ! بين الجابري والتيزيني
- ابراهيم بن صالح ١٢٠

تاريخ وتراث وأشخاص :

■ ما بعد مصرع مأمور البداري
- صلاح عيسى ٤٥
■ وجها لوجه : د. رمزي زكي
- علي عتمان ٩٧
■ الآثار الاسلامية في شمال اسبانيا
- د. ماريا ميلا جروس ١٤٤

مكتبة العربي :

■ كتاب الشهر : الذكاء الاصطناعي الواقع والمنشود
- د. علي صبري فرغلي ١٦٩
■ من المكتبة العربية : الأبيق في « المناجنيق »
- جمال الغيطاني ١٧٤
■ مكتبة العربي (مختارات) ١٨٠

أبواب ثابتة :

■ عزيزي القارىء ٧
■ واحة العربي ٦٦
■ الكلمات المتقاطعة ١٦٧
■ مسابقة العربي الثقافية ١٨٢
■ حل مسابقة العدد (٣٥٨) ١٨٤
■ معركة بلا سلاح (الشطرنج) ١٨٦
■ حوار القراء ١٨٨
■ الفهرس العام لسنة ١٩٨٨
- اعداد : صلاح صادق ١٩١

صورة الغلاف

المرأة الطوارقية بالجزائر تتمتع عن غيرها بمكانة متميزة داخل قبيلة الطوارق ولها حقوقها التي تحسدها عليها اكثر المجتمعات تقدما .

[طالع التفاصيل ص ١٥٠]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ المرأة الطوارقية : العراقة والاصالة ١٥٠
■ هو .. هي ١٦٢
■ طبيب الأسرة : البيض في ميزان التغذية
- د. حسن فريد أبوغزالة ١٦٤
■ مساحة ود : ألفة !
- سليمان الشيخ ١٦٦

عزيزي القارئ

إن الخلفية الحضارية التي أرساها العرب والمسلمون من قبل لا يمكن إلا أن تنتج ثماراً يانعة . هكذا نفهم حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للأدب في هذا العام ، ومنح الجائزة مهما قيل فيه ، ومهما كانت دوافعه ، فإن ذلك لا يمنع من القول بأن محفوظ وأدبه قيمة وقمة أدبية وفكرية عالية المستوى .

ويمكن الاشارة أيضاً ، ما دمنا في صدد ايراد إشارات التفات الغرب لآدابنا وفنوننا ، إلى حصول المبدع العربي المغربي الطاهر بن جلون على جائزة « الغونكور » الفرنسية ، في مطلع هذا العام وهي جائزة رفيعة ، نالها عن روايته الأخيرة « الليلة العظيمة » ، وقد ترجمت للعربية باسم « ليلة القدر » .

كما أن منح السيدة فيروز ، صاحبة الصوت الذهبي ، وسام الاستحقاق الفرنسي من قبل وزير الثقافة الفرنسي ، ما هو إلا اعتراف أيضاً بقيمة وجمال ما تؤديه هذه السيدة التي لم تتورع عن الرد بلغة عربية بسيطة شاكرة ما أسبغ عليها الوزير الفرنسي من تقريظ .

إن الأسماء السابقة ، ولنقل القمم ، ليست إلا نماذج لما هو متوافر في حياتنا الابداعية ، وفي كل مجال ونشاط في حياتنا يمكن الاشارة الى عشرات الأسماء المبدعة الخلاقة التي تصل الى المستوى العالمي ، دون ادعاء أو غرور . وقد كانت « العربي » من الواثقين بقيمة أدبنا المعاصر ، فقد نوهت في حديث نشر في مايو من العام الماضي عن ترشيح نجيب محفوظ لجائزة نوبل .

ومن محاسن الصدف أن يأتي هذا الفرح الثقافي العربي في وقت تدخل فيه مجلة « العربي » عامها الثاني والثلاثين ، حاملة جهداً ثقافيا واضحاً على أكتافها لخدمة هذه الأمة .

ومن بين ما قامت به « العربي » على سبيل المثال وليس الحصر ، تلك الزيارات والاستطلاعات الفريدة من نوعها ، والتي وصلت إلى مناطق في العالم بعيدة وجديدة ، لم تصل إليها أي مطبوعة عربية من قبل .

وفي رسالة وصلتنا من مُتابع في الولايات المتحدة الامريكية ذكر فيها أنه يغبط « العربي » على وصولها الى سيبيريا ، لأن مطبوعة أخرى تصدر منذ مائة عام ، وهي « المجلة القومية الجغرافية » الامريكية ، لم تستطع الوصول إلى تلك المنطقة . ذلك مثال ، وهناك مثال آخر تجسد بصدور كتاب في دولة الإمارات العربية المتحدة ، احتوى على ما نشرته « العربي » من استطلاعات عن ذلك القطر العربي ، فجاء الكتاب وثيقة تاريخية إنسانية .

وفي موسكو ، فإن وكالة نوفوستي للصحافة تعد كتاباً يحتوي على ما نشرته « العربي » من استطلاعات عن الاتحاد السوفيتي في السنوات الأخيرة .

كما تشارك « العربي » في معارض للصور كثيرة ، تعرض فيها ما التقطه مصوروها من صور ولقطات فريدة ، ومن المعلوم أن « العربي » تصدر مجلة متخصصة للاطفال ، هي مجلة « العربي الصغير » الشهرية التي يقرؤها الآن حوالي مائة ألف طفل ، وتصدر أيضا كتاباً فصلياً يتلقاه المثقفون العرب في كل أقطارهم بحفاوة وترحاب . كل ذلك جهد ثقافي تقدمه الكويت لخدمة الثقافة العربية وهو جهد غير ممنون ؟!

هذا بعض ما أحببنا لفت نظرك اليه ـ عزيزي القارىء ـ وهمنا دائماً وأبدا نشر ثقافتنا وتأصيلها .

وكل عام والمبدعون العرب وأنت عزيزي القارىء بخير ، وأمتنا بخير . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

عن الحب والحرام
يسألون!

لو سألك سائل : ما هي أهم المبتكرات الصحفية في القرن العشرين ؟ لربما أجبت بسلسلة طويلة أو قصيرة عن أهم تلك المبتكرات التي تراها والتي قد تبدأ بالتقنية الطباعية الفائقة ، وتنتهي ربما بسرعة التوزيع والوصول الى القاريء . إلا أن السؤال نفسه سوف أجيب عنه بالآتي :

إن أهم مبتكرات الصحافة في القرن العشرين هو عمود المشاكل ، أو صفحة اسألوني أو مشكلتك لها حل ، أو قلوب حائرة ، ومهما اختلفت تسمية ذاك العمود أو تلك الصفحة فإن هدفها واحد وهو الاجابة عن مشكلات القراء .

تلك أهم مبتكرات الصحافة في القرن العشرين في نظري ، وهي كذلك أهم ما يقرأ في الصحف من الغالبية العظمى من القراء ، ذاك الباب

لماذا يتجشم الإنسان عناء الكتابة إلى الغرباء؟

المكون من عشرات الاسئلة الصادرة إما من قلوب حزينة ، أو عقول حائرة ، أو ضمائر بدأت تصحو .

هذه الرسائل توجه يوميا الى محرري تلك الزوايا لشرح مشكلات خاصة أو أسرية ، ثم يطلب كاتبها المعونة والارشاد ، هؤلاء المحررون في المقابل أناس غرباء تماماً عن مرسلي تلك الرسائل ، ومع ذلك يكتب لهم المرسل أدق خصوصياته ، وتصل هذه الرسائل تباعا بأسماء وعناوين واضحة أو مستعارة أو مغفلة ، ولكنها تستمر في الوصول ، لأن مثل هذا الباب شعبي وقراءه كثيرون ، لذلك يحرص كثيرٌ من الصحف والمجلات على وجوده في صفحاتها من أجل زيادة التوزيع تحقيقاً للقانون الاجتماعي العام الصحيح حتى الآن ، وهو أن الناس تحب أن تطلع على مشاكل غيرها ، هكذا يقول لك الناشر في معظم الأوقات .

ولكن هذه النصائح التي تطلب بإلحاح ، تكشف لمن يأخذها مأخذ الجد ، عن مشكلات أخلاقية وقيمية ونفسية يعيشها المجتمع ، وهي بالغة الأهمية لذلك الانسان الذي تجشم عناء الكتابة لشخص غريب عنه .

كشف الأسرار الشخصية للغرباء :

ربما اعتقد بعضٌ أن مشكلات القراء في صحيفة أو مجلة هي لزيادة التوزيع ، واعتقد آخرون أنها ربما للتسلية وإضاعة الوقت ، أو لاثارة الابتسام أو الضحك ، وربما اعتقد بعضٌ أنها مشكلاتٌ تافهة ، ولكنها في الحقيقة تقول مالا يمكن قوله ، وتكشف مالا يحبذ كشفه ، وعند تجميعها وتحليلها يمكن أن تكشف لنا الواقع النفسي والعاطفي لآلاف من البشر يشاركوننا المجتمع نفسه ، نعيش متجاورين معهم أو نعمل معهم تحت سقف واحد ، بل قد يكون بعضهم أحد أفراد عائلتنا القريبين !

حين يشرع أناس في كشف أسرار حياتهم الشخصية ـ مهما كانت محدودة ـ لآخرين لا يعرفونهم ، فإن ذلك يعني أن هؤلاء الناس لم يجدوا من يلجأون اليه ويحفظ سرهم في محيطهم الأقرب كالعائلة والأقارب والاصدقاء أو الأساتذة ، فتضع بنت الثامنة عشرة مشكلتها على ورق وفي رسالة غفل من التوقيع ، ثم يتولى ساعي البريد توصيلها ، وبعده يشرع مسئول صفحة المشكلات في تقديم حلول لمشكلات تعانيها ...

لقد قلت : فتاة في الثامنة عشرة ، وأضيف : وقد تكون سيدة في

رسائل القراء نافذة للإطلال على مشكلات المجتمع

الأربعين أو فتى يافعا أو رجلا عجوزا ، لا فرق بين كبير وصغير ، عالي الثقافة أو متدنيها .

قد يقول بعضٌ إنّ جزءاً من هذه المشاكل التي نقرؤها في الصحف قصصٌ قد اخترعها الكاتب المشرف على تلك الصفحة ودبجها بطريقته ، وقد لا يستطيع أحد أن ينكر هذا الاحتمال ، ولكن بعد أن قلنا ذاك نرى أن الدراسات العلمية التي تمت على مثل هذا النوع من الرسائل والزوايا الصحفية في الغرب تثبت لنا بما لا يتطرق إليه الشك أن الناس يكتبون مشاكلهم للغرباء انطلاقاً من احتياجهم الحقيقي لسماع رأي ونصيحة في المشكلة التي يواجهونها . واحد من الكتاب الغربيين المعروفين الذي تخصص في الرد عن مثل تلك الرسائل سنوات طويلة أحصى اثنتى عشرة ألف رسالة في المتوسط ترد للمجلة الاسبوعية التي يعمل بها .

وعندما نحول أنظارنا الى الوطن العربي نجد أن هناك أسماء محترمة لها سمعة راسخة ، تتناول الرد عن مثل تلك الرسائل ، وهذا يكفي لكي يبعد الشك الذي يساورنا بأن معظم أمثال هؤلاء الكتاب لن يلجأوا إلى مثل هذه الحيلة لكتابة قضايا مزورة . ودليل آخر يجعلنا شبه متأكدين من صحة تلك الرسائل ، وهو ذاك التنوع الكبير في المشكلات المعروضة ، الذي يفوق في حقيقته المرة أكثر الخيالات جوحاً وتطرفاً .

تحليل مثل هذه الرسائل وتنميطها ودراستها دراسة عميقة مستفيضة ، يمكن أن يظهر لنا أزمة القيم العربية المعاصرة ، وبين ما هو على السطح وما هو مختف خلف الجدران العالية . ويمكن أن يظهر لنا أيضاً إشكالية العلاقات الاجتماعية وتطورها بين جيل وآخر ، وبين منطقة عربية وأخرى . ولكن معظم الناس يكتبون إلى محرري تلك الصفحات في الدرجة الأولى عن الحب والجنس ، وفي الدرجة الثانية عن الصحة ، ثم تأتي مشكلات التكيف ومشكلات الوظيفة والزملاء في العمل ، الى آخر الهموم المتنوعة تنوع الحياة الاجتماعية نفسها .

أصوات تشق السكون :

تعالوا نقرأ بعض العينات المنشورة باختصار :

« أنا كما يراني الناس في الخارج فتاة عادية في التاسعة عشرة ، مرحة ، منطلقة ، أحببت منذ ثلاث سنوات وكان حباً أكبر من عمري . كان هو في الثلاثين . وقد علمني كل شيء ، كنت كتاباً مقفلا موضوعاً على

الرف فجاء هو وفتحه وقرأ كل سطر فيه . . كنا شبه مخطوبين أمام الناس وشبه متزوجين أمام أنفسنا ، ولكنه في آخر لحظة هجرني الى غير رجعة وقال : إنه لا يستطيع أن يعصى والدته ، فقد اختارت له ابنة أختها اليتيمة وخطبتها له . . المشكلة أنني حامل . . » !!

ونقرأ :

« أنا شاب في الثالثة والعشرين ، تبدأ مشكلتي بعد حصولي على الثانوية العامة ، كان أملي أن أدخل كلية علمية ولكن درجاتي ألقت بي إلى إحدى الكليات النظرية بعيداً عن مدينتي ، فانتقلت إلى المدينة الجديدة وشاركني في سكني زميل من بلدي .

وفي الاسبوع الأول من إقامتنا رأيت زميلي يدخل البيت ومعه مجموعة من الشباب الذين لا أعرفهم وبعد فترة بدءوا يتعاطون المشروبات ويدخنون المحرمات . وتشاجرت معه . حاولت أن أطرد أصدقاءه فلم أوفق ، فغضبت ، وأغلقت باب حجرتي علي ، وجلست أغلي من الغيظ . ثم مرت ساعة وبدأت أسمع الاصوات المنبعثة من حجرته ، وقمت بعد ذلك وأنا أتصبب عرقاً وطرقت الباب ثم دخلت وطالبت بنصيبي . ومنذ ذلك اليوم تغيرت حياتي » .

ونقرأ :

« نحن عائلة تتكون من اثنى عشر فرداً ، وحالتنا المادية جيدة . وقد تزوجت ثلاث أخوات وأخ ، وانفصلوا عنا . كنا نحيا حياة سعيدة ، ولكن

القدر حرمنا من هذه السعادة ، فقد تغير والدي فجأة ، وتزوج أخرى ، ووالدتي قد عاشت معه عِشرة دامت خمسا وعشرين عاماً ، تحملت خلالها كثيراً من العذاب ومشقة الفقر ، وبعد أن كون الثروة ذهب فتزوج فتاة في سن أصغر بناته ، وأصبح والدي يقضي معظم أوقاته مع زوجته الجديدة . وهناك شيء أخطر من هذا هو أن زوجة والدي قد انجبت طفلة في الوقت الذي شارف هو على الخامسة والستين ، وصحته كما علمت من والدتي لا تسمح بالانجاب . فهل نعد هذه البنت طفلة شرعية لوالدي ؟ وهل يمكن للطب أن ينجح ليساعد رجلا مثله في استعادة قدرته ، بعد كل هذه السنوات ، أم أن ما حدث كان بدافع الطمع في المال » ؟! .

ونقرأ :

« نحن أسرة متوسطة الحال ، الأب يعمل ، ونحن ندرس ، والأخ الأكبر في المرحلة الجامعية ، محبوب من كل الاسرة ، فهو صاحب عقل راجح وتفكير سليم ، يهتم بكل أفراد الأسرة . وذات يوم انفردت بي والدتي ، وأعلمتني بأمر نزل كالصاعقة علي ، كانت أمي تتكلم والدمع ينهمر من عينيها ، ذلك أن أخي الأكبر بدأ يتصرف بشكل شاذ غريب ، فقد بدأ يضايق شقيقاته ، وعندما يختلي بإحداهن يضمها أو يدعها تنوء تحت وطأة جسمه ، متحججاً بأنه يمازحها . أمي واخواتي ساورهن الشك في تصرفاته . أمي تريد أن تخبر والدي ، لكنها في عذاب دائم ، فإن صدق والدي طرده من المنزل ، وان لم يصدق قد يتمادى . أرجو منك أن تأتيني بالحل . . . » .

ونقرأ . .

« أنا شاب في الثامنة عشرة من عمري ، أعيش مع أخوين وأخت مع والدنا ووالدتنا عيشة سعيدة ، يخدمنا مجموعة كبيرة من الخدم في البيت . ذات مرة في عطلة نهاية الاسبوع حضرت مبكراً من رحلة مع أصدقائي ، وكان المنزل خالياً الا من بعض الخدم ، ودخلت الحمام لأغتسل قبل أن تحضر العائلة ، ودخلت الخادمة علي في الحمام ، ولم أتمالك نفسي أمام اغرائها ، فقمت بارتكاب فعل خاطيء غير متعمد ، أصبح بعد ذلك متعمدا ومخططا له . . . »

تلك عينة لبعض القصص المنتقاة والمختصرة أيضا ، المنشورة متناثرة في صحفنا ومجلاتنا العربية ، ومن قراءتي مجموعة أخرى من هذه المواضيع التي نشرت في كتب كثيرة متوافرة في مكتباتنا أجد أن القضايا الاجتماعية

في عرض المشكلات تبدو القضايا الاجتماعية عالية الصدى

التي تتكرر كثيراً في مثل هذه الشكاوى شديدة الصدى ، منها على سبيل المثال لا الحصر الاغتصاب ، وبخاصة الاغتصاب المصاحب لأوضاع اجتماعية لايطالها القانون ، كصغر سن المغتصبة ، وعلاقات القربى بين المجني عليها والجاني ، والظروف التي يتم فيها هذا الفعل الشائن في الغالب هو خوف المعتدى عليها من البوح بما حدث . وهناك المشكلات التقليدية ، كزوج الأم المتسلط ، وفي بعض الأحيان الخارج عن كل سلوك بشري سوي ، أو زوجة الأب المتسلطة ، وهناك وجود الخدم في الأسرة ، والمشكلات السلوكية الناتجة عن ذلك ، خاصة في بعض المجتمعات العربية الميسورة اقتصادياً ، ثم مشكلات الزواج من خارج البيئة أو المجتمع ، كأن يتزوج شخص أجنبية ، أو تتزوج فتاة عربية أجنبيا .

ليست المشكلات الاجتماعية والسلوكية بحد ذاتها جديدة ، فهي قديمة قدم قصة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف ، الا أن انتشارها في الصحف والمجلات هو الجديد .

فأمام رغبة الافراد للتحكم في حياتهم والسعي للاستغلال في عالم استطاع بالصدفة أو بالتهديد أو بالجهل ، حرمانهم من ذلك الاستقلال ، تظهر المشاكل الاجتماعية التي لا يطالها القانون بوضع الحلول لها ، ولا توجد في المجتمع ميكانيكية واضحة ومعترف بها لحل مثل هذه المشاكل ، فيلجأ من يقع فيها للكتابة الى الغرباء ، ليس لايجاد حلول تنقذهم من مشكلاتهم ، وإنما قد يكون فقط لفض مكنون القلب ، والتعبير عن مشاعر حبيسة مخنوقة تحت الضلوع .

الشكوى العامة من نقص العدل الاجتماعي :

في عالم النشر العربي هناك كتابات كثيرة ، جمع مؤلفوها ما وصل اليهم من رسائل وردودهم عنها في كتب ، وقد نشرت هذه الكتب أكثر من مرة ، وأعتقد أنه بسبب الاقبال الشعبي على هذا النوع من القراءة نشرت هذه الكتب المرة تلو الأخرى ، حيث تجد من يشتريها في سوق القراء . لقد وقعت في يدي مثل هذه الكتب التي سجل عليها الطبعة الخامسة ، بل السابعة ، وهذا دليل ، إن صح ما كتبه الناشر ، على ذلك الدافع الخفي للاطلاع على مشاكل الآخرين ورواج مثل هذه الكتب بين فئة كبيرة من القراء ، وأحسب أن معظمهم من المراهقين .

ماذا وراء الشكاوى التي يرسلها الناس إلى ضريح الإمام الشافعي؟

لا يتسع المجال لذكر كل الكُتب ، والكُتاب الذين تناولوا هذا الموضوع ، ولكن هناك كاتبين عربيين لكتابيهما في هذا الموضوع دلالة خاصة ، أحدهما هو الدكتور سيد عويس من مصر أمد الله في عمره ، وثانيهما هو المرحوم عبد الله النوري ، وهو شيخ علم جليل من الكويت ، انتقل إلى رحمة الله .

الدكتور سيد عويس أصدر كتاباً في منتصف الستينيات (١٩٦٥)* وكان من المفترض أن يكون لهذا الكتاب صدى عظيم في دراستنا الاجتماعية العربية ، ولكن مع الأسف لم يحظ بذلك ، ففي مرحلة التحول الاجتماعي في مصر أصدر استاذ الاجتماع هذا دراسته الواقعية عن بعض ملامح المجتمع المصري ، وهو تحليل اجتماعي لظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الامام الشافعي في القاهرة عن طريق البريد ، ولقد سعى الكاتب إلى الحصول على تلك الرسائل التي يحملها سعاة البريد من كل مكان في مصر إلى ضريح الامام في القاهرة . وعلى الرغم من أن بعضها قد عبثت بها الأيدي - كما جرب هو نفسه - الا أنه من خلال ما حصل عليه من تلك الرسائل وبعد تحليلها ، وجد أن هناك العشرات من الناس يشكون الى الامام الشافعي عما ألم بهم من مكروه في حياتهم اليومية ، ومما يواجهونه من عنت وظلم ، بل ويطلبون من الامام الشافعي قضاء بعض حاجاتهم التي استحال قضاؤها بالطرق التي يعرفونها .

لقد كان قصد الكاتب من دراسته كشف مصادر جديدة من الجرائم غير المنظورة أي أن هناك جرائم لا يستطيع المجني عليه أن يشكو فيها الجاني لسبب قهر السلطة ، أو المكانة الاجتماعية للفاعل ، أو الخوف ، أو الاعتقاد بعدم الحزم من جانب المسئولين ، فيلجأ الى الورقة والقلم ويشكو ذوي المكانة العالية أو ابناءهم أو ذويهم . ونقرأ هذا المثال على هذا النوع من الشكوى : « اعتدى علي (فلان) ، وهددني بالضرب ، فأنا أزرع فدانين من الأرض ، وقد فرض علي أتاوة مع رجاله ، ويوجه بعض الناس كي يسرقوا غلة الأرض ، ويأخذوا كفايتهم منها في الحرام ، ويدعون أنهم من عائلات كبيرة . . . »

لقد حلل الكاتب مائة وستة وثلاثين خطاباً وصلت إلى ضريح الامام الشافعي يشكو فيها أصحابها من قضايا شخصية ، أو حاجة لا يستطيعون

* من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الإمام الشافعي - القاهرة - دار مطابع الشعب ١٩٦٥

دفع ضررها إلا من خلال الكتابة ، بل إن بعضهم قد طلب في هذه الرسائل مسح « اسرائيل » من الوجود ! كما قدم بعضهم طلبات شخصية يريدها أن تتحقق .

أما الشيخ عبد الله النوري فقد جمع ما جاءه من رسائل في* عدة كتب ، يطلب مرسلوها النصح والارشاد ، ليس فقط في المسائل الأسرية ، ولكن في المسائل الفقهية أيضاً . وفي الوقت الذي يعترف فيه الشيخ المرحوم النوري بأن بعض الرسائل (ربما لا أساس لها لأنها مختلقة) لا يساور أحد الشك بأن هذه الرسائل حتى لو كانت مختلقة قد وصلت إلى الكاتب ، وأن بعض مرسليها قد طلبوا الاجابات الشخصية المباشرة في البريد لمشاكلهم ، لذلك فإن المادة التي بين أيدينا في كتب الشيخ النوري مادة حقيقية ، لا يتطرق إليها الاختلاق من جانب مؤلف الكتاب على الأقل .

فهذه رسالة يقول صاحبها أنه اكتشف أنه تزوج ابنة أخته دون أن يعلم إلا متأخراً ، وذاك آخر يصف حالته منذ الطفولة إلى الرجولة وهو مصاب « بهواية السرقة » ، وذاك السجين الذي سجن خطأ وتقبل العقوبة على أساس أنه لا بد قد ارتكب ذنباً لا يعرفه فجازاه الله بهذه السجن ! أما معظم الرسائل التي نشرها الشيخ النوري فتقع ضمن رسائل الناس الذين يسألون عما غمض عليهم من دينهم الاسلامي ، وفي كثير منها ما يدعونا الى التفكير في اعادة تثقيف الناس في شؤون دينهم .

ضربنا هذين المثالين دون أن نتجاوز الى عشرات الكتب وعشرات الكتاب الذي تناولوا وما زالوا يتناولون مثل هذه الموضوعات يومياً ، الأمر الذي يقودنا الى القول بأن هذه الظاهرة ـ وهي الكتابة الى غرباء في مشكلات أسرية وخاصة ومعيشية ودينية أو التعبير عن شكوى من نقص في العدالة يظن كتابها أنها قد أغفلت ـ منتشرة ، ولها أبعاد اجتماعية ونفسية تتجاوز بضعة أسطر يكتبها المُرسلون .

على الرغم من أهمية الموضوع وحيويته ، وعلى الرغم من أن كثيراً من القراء ربما يبدأ قراءة جريدته أو مجلته التي تنشر مثل هذه الموضوعات بقراءة باب المشاكل أو الاسئلة ، على الرغم من كل ذلك فإن كثيرين منا لا يأخذون هذه القضية أو الظاهرة على محمل الجد الذي يجب أن تؤخذ عليه ، فنرى كثيراً من وسائل الاعلام تنوط هذا الباب لأشخاص قليلي

---

* احدها « من غريب ما سألوني » ـ الكويت ١٩٧٩ ـ من منشورات جريدة القبس

الخبرة لا يعرفون القيمة النفسية والمعنوية للخطابات التي تصلهم ، كما أنهم لا يستطيعون أن يقدموا نتيجة لضعف مستواهم المهني والثقافي إلا الكلام العام المعسول لا أكثر ، وذلك ضعف في التواصل الانساني ، لم نتنبه إليه حتى الآن في مجتمعنا العربي ، الذي يتغير بسرعة ، ويتجه من مجتمع بسيط صغير الى مجتمع معقد متشابك . إن معظم هذه الرسائل التي يطلب مرسلوها بإلحاح نصائح روحية وأخلاقية هي تعبيرات حقيقية عن صراع حقيقي يعاني منه الأفراد ، وتجبر الجاد ممن يطلع على هذه الرسائل أو يتعامل معها على اختبار القيم التي يعيش فيها ، فإن لم يكن على قدرة حقيقية للتفاعل مع تلك الرسائل بالعمق والحرارة والانفعال التي يستشعرها نفس الشخص الذي يخوض تجربة مباشرة ، تصبح القضية ممارسة إنسانية بالغة السوء .

وعندما يفقد الانسان العلاقة الحميمة مع أهله أو معلميه أو اصدقائه ، تلك العلاقة التي تجعله يلجأ إليهم عندما تصادفه مشكلة ، فإنه يلجأ الى الآخرين . وفي المجتمعات التي تشهد تحولا اجتماعيا أكبر تجد قاعدة مرسلي تلك الرسائل التي تحتاج الى نصح وارشاد تكبر وتزداد .

دوافــع الكتـابـة :

ليس من السهل البحث عن أسباب واضحة ومباشرة تجعل أيا من المرأة أو المراهق أو الشاب يكتب رسالة لغريب عنه يستعين به في حل مشكلة خاصة به ، فإن ذلك خاضع لقيم ومعايير المجتمع الذي يعيش فيه كل من المرسل والمرسل اليه ، إلا ان تفشي هذه الظاهرة يجعلنا نتساءل عن تلك

القيم السائدة في المجتمع ، وهل هي قيم واحدة أم أن هناك مستويين من القيم الاجتماعية أحدهما ظاهر والآخر باطن .

بادىء ذي بدء لا يستطيع الانسان أن ينسجم مع جماعة ، ولا أن ينسجم الأفراد بعضهم مع بعض إن لم يتوافقوا ويتآلفوا ، وهذا التوافق لن يحدث ما لم يكن بينهم اتفاق عام على قيم اجتماعية مشتركة . ولأن المجتمع حين يقر طائفة معينة من قواعد السلوك فإنه يكون قد حدد ـ من وجهة نظره ـ ما هو الصواب وما هو الخطأ ، ما هو سليم وما هو غير سليم ، ما هو صحيح وما هو باطل ، ما هو مستحب وما هو مستهجن . ويتعرض من ينتهك هذه القيم لتوقيع الجزاءات الاجتماعية عليه بنوعيها المتصل بالثواب والمتصل بالعقاب القانوني أو الاجتماعي ، ولكن الثواب والعقاب هنا ليس مادياً في معظمه ، بل بعضه معنوي ، ولكنه قهري في الوقت نفسه . وهناك في الوقت عينه فروق قد تكون جوهرية أو جانبية في قيم جماعة عن أخرى ، وهناك فروق أيضاً في طريقة غرس القيم الاجتماعية بين شعب وآخر ، إلا أن الملاحظ أن تلك الرسائل التي تصل الى الأبواب الدائمة التي تعالج المشاكل في الصحف والمجلات ، في كثير منها ابتعاد عن القيم الثابتة في المجتمع ، هذا الابتعاد يظهر بدرجات متفاوتة ، وجوهره هو مشكلات تكيف مع القيم الاجتماعية السائدة .

والأسئلة التي يجب أن يطرحها من يتصدى لدراسة مثل هذا الموضوع بشكل أعمق وأوسع هي أولاً : هل المشكلة في السلوك نفسه المتجاوز للقيم المتفق عليها ؟ ثانيا : إن كان ذلك صحيحاً فهل هناك معوقات في طريقة غرس القيم لدى الأفراد ، أطفالاً في العائلة أو مراهقين في المدرسة أو شباناً في المجتمع بتأثيراته المختلفة الاعلامية والسلوكية ؟ ثالثا : بمنظور آخر ، هل المشكلة هي أن تلك القيم لم تعد تناسب العصر ، ولا بد من تغير معظمها حتى ينسجم الباطن والظاهر ؟

أسئلة ليست الاجابة عنها سهلة ، وحتى نصل الى إجابات وافية ستظل رسائل القراء تصل الى من يهمهم الأمر ، تحمل قضايا الاغتصاب والادمان والحب الفاشل ، وقضايا الاعتداء والميراث والظلم الواقع على الأفراد ومشاكل الأسرة والأولاد والجيران والأقارب ، رسائل تشكو من خلل في السلوك الانساني وتبحث عن الحكمة الضائعة ، ولكنها تبقى مشكلات تجد حلولها على الورق بينما تتفاقم في واقع الحال لتخلف لنا بشرا تعساء . ■

محمد الرميحي

هناك مستويان من القيم الاجتماعية أحدهما ظاهر والآخر باطن

العربي ـ العدد ٣٦١ ـ ديسمبر ١٩٨٨

الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة

بقلم : الدكتور رضوان السيد

منذ بداية الصدام العنيف والمتواصل بين أوروبا الاستعمارية المعتمدة على الانجازات التقنية المبهرة للحضارة الغربية بآفاقها الفلسفية والعلمية وبين دول العالم الثالث ـ ومن بينها دول العالم الاسلامي ـ من قرنين خليا ، والعقل الاسلامي مازال يبحث عن إجابات وحلول للأسئلة والاشكاليات التي فرضها هذا الصدام المحتوم مستندا على تراث غني ومتعدد المجالات .

فالى أي مدى نجحت الصفوة الاسلامية في تجاوز دائرة البحث والحوار . . ؟

مثّل أحمد فارس الشدياق في نقده الجذري لأوروبا وتجربتها النهضوية نشازا وسط الاندفاع الاسلامي الشامل في الشرق الاسلاميّ كله منذ مطالع القرن التاسع عشر للتلاقي مع الغرب بأشكال مختلفة . فقد كانت هناك حركات اسلامية بالهند ، كما كان هناك السنوسيون ، ثم المهديون والعرابيون ـ ما يزالون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يواجهون الغرب عسكريا ـ ثم ان البيئة الثقافية والسياسية التي أسهم في صنعها جمال الدين الأفغاني في شتى انحاء العالم الاسلامي ، كانت تواجه الغرب في السياسة والثقافة والاجتماع بطرح بدائل تنظيمية . لكن هذه الحركات جميعا كانت تواجه الغرب على أرضيته هو ، وبمنظوره هو . وتمثّل عبارة خير الدين التونسي في هذا المجال الفلسفة السائدة آنذاك لكيفية التعامل مع الغرب الزاحف . فقد اعتبر خير الدين تقدّم الغرب سيلاً لا يمكن دفعه . لذلك كان المطلوب اذا أريد للمسلمين أن يبقوا : الانضمام الى مجرى هذا السيل ، والمشاركة فيه بدلا

من اضاعة الوقت والجهد والحياة في التصدّي لنموذجه. الغرب كان قد أصبح بالنسبة لرجالات الثقافة والسياسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بل وقبل ذلك: التقدّم والحضارة ـ ليس له فقط بل لسائر البشر ـ. صحيح أنّ ذاك الغرب كان عدوانيا تجاه الاسلام والمسلمين، لكن مواجهته لم تكن ممكنة أو فعّالة الاّ بأساليبه هو، وبنهجه هو. وقد سيطرت مسلّمتان اثنتان على عقول كلّ المثقفين والسياسيين المسلمين آنذاك: المسلّمة القائلة ان الغرب هو التقدم والحضارة، والمسلّمة الناتجة عن ذلك والقائلة بأنّ الوسيلة المتبقية للتعامل معه ايجابا أو سلبا تكون بأن يتخذ المسلمون من هذه الحضارة الجديدة أداة للحاق بركبه، وسلاحا ماضيا لمواجهته عندما يتعذر التواصل أو الحوار.

الفكر الاسلامي يواجه الغرب

انطلاقاً من هاتين المسلّمتين جرت إعادة النظر في الثقافة الاسلامية الموروثة، كما جرت إعادة ترتيب مسائلها وأولوياتها. فلم يكن معنى التسليم للغرب بالحضارة والتقدم والغلبة، والانطلاق للتعلّم منه وتقليده اسقاط الاسلام وثقافته من الحساب، بل محاولة بيان التوافق بين القيم الأساسية للإسلام وقيم التقدم الجديد الأساسية. ففي مجال السياسة ونظم الحكم جرت المماثلة بين الشورى الاسلامية، والديمقراطية الغربية. وفي مجال العلوم التطبيقية البحتة جرى التركيز على الازدهار العلمي في عصور الاسلام الزاهرة، ومدى ما أفادته أوروبا من الازدهار الاسلامي في عصورها الوسطى. وبعد هذا وذلك فان الاسلام يملك نظاما أخلاقيا صارما ونظيفا يتميز على المنظومات الأخلاقية الغربية الرجراجة. وهكذا فان الاسلام يملك مقومات للتقدم تمثّل أحسن ما يملكه الغرب الحضاريّ المتقدم، وبمفاهيمه هو للحضارة والتقدم. أمّا سبب تخلّف المسلمين، وتقدم الغربيين، فيعود الى أنّ المسلمين أهملوا الأخذ بالقيم والمبادىء العظيمة التي يتضمنها دينهم، وما عليهم إلا أن يعودوا للتمسك بما أهملوه فيصلح حالهم، ويعلو شأنهم، وتستقيم أمورهم.

وكان لهذه الصورة عن الغرب والاسلام وجهان آخران يتعلقان برؤية الغرب للاسلام، ورؤية المسلمين لتاريخ التقدم الغربي، فقد كان الاستشراق في بدايات ازدهاره، وكانت رؤاه للاسلام والمشرق قد بدأت تبرز وتتكامل. ولم تكن تلك الرؤى على ما يرغبه رجالات النخب الاسلامية فنشأ أدب دفاعيّ عن الاسلام يردُّ على الغربيين أفكارهم السلبية تجاهه وتجاه المسلمين. وهكذا ظهرت مؤلّفات في الدفاع عن فكرة القَدَر في الاسلام، وكتابات في ايضاح موقف الاسلام من الرّق والرقيق، وجدليات في ايضاح عدم الارتباط بين تخلّف المسلمين وقيم الاسلام الخالدة. في هذا السياق تأتي ردود جمال الدين على الدهريين والتطوريين، وردود محمد عبده على هانوتو ورينان وفرح جبران، ومؤلّفات أحمد شفيق وأحمد فتحي زغلول وقاسم أمين في مسائل الرق والتقدم والمرأة، وشذرات حسين الجسر والكواكبي والعظم ورشيد رضا في ايضاح موقف الاسلام من قضايا الحكم والفلسفة والعلم والتقدم.

إنّ مؤدّى ذلك كلّه في مجال الفكر الاسلامي حتى نهايات الحرب العالمية الأولى أنّ الاسلام داعية حضارة وتقدم مماثلين لحضارة اوروبا تماما. وليست هناك مشكلة بين المسلمين والغرب الاّ في المجال السياسي ـ العسكري المتمثّل في استعمار الأوروبيين للمسلمين. فاذا خرج العسكريون الغربيون من ديار المسلمين، فان المسلمين سيطبّقون الحضارة الغربية بكل جوانبها في ديارهم لأنها هي في الحقيقة مقتضى الاسلام، وجوهره الحقيقي.

إعادة تشكيل العالم الاسلامي

وبدت عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته البيئة الثقافية والسياسية الصالحة لتطبيق هذه الرؤى والافكار دونما تناقضات فكرية ظاهرة. فقد سقط الشكل التقليدي الباقي للكيان الاسلامي الشامل بسقوط الدولة العثمانية، ثم سقط الرمز

الأيديولوجي التاريخي بالغاء الخلافة رسميا على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ . وترافق ذلك مع سواد فكرة الرئيس الأمريكي وودرو ولسون عن التشكيلات القومية على المستوى العالمي بالدعوة الى حقّ الشعوب في تقرير مصيرها . فبدأت أجزاء الامبراطورية العثمانية السابقة ، تحت رعاية الغرب ، تتشكّل دولا وطنية وقومية ، أو تناضل من أجل ذلك في مواجهة المحتلين الغربيين ظاهرا ، وفي توافق مع النظام الدولي الجديد في الحقيقة . كانت حدود قديمة تمحيا ، وطوائف ومجموعات بشرية تتلبّس لبوسا قوميا بحدود جديدة . دعوات لانشاء قوميات وأمم وشعوب تتماهى مع حدود ، وتنظيمات داخلية لهذه المستجدات قائمة على مواثيق ودساتير ومعاهدات وقوانين ، مثلها الأعلى في الحالتين (القومية والدستورية) من فرنسا أو سويسرا أو انجلترا أو خليط من ذلك كلّه . إنّ هذا التماهي السياسي التامّ مع الغرب وبه ساوقته حركة فكرية ضخمة لتحديث الاسلام وتأنيسه ، وابراز قابليته للتطابق مع السياسات الجديدة والثقافات الوافدة .

البحث عن التطابق

وكان القرن التاسع عشر قد شهد تساؤلات (ظلّت جانبية على اي حال) حول امكانية تطبيق النموذج الحضاري الغربي في ديار المسلمين وحيواتهم . أما وقد صارت الحضارة الغربية دولا ونظما ومؤسسات لدينا بعد الحرب الأولى ، فان هذه التساؤلات اختفت تماما تقريبا ، وازدادت محاولات ابراز الاسلام متماهيا مع الحضارة الغربية في كل شيء . جرت مقارنات بين نظام الخلافة والملكية الدستورية ، فاذا لا فرق بين الاثنين . وكثرت المؤلفات المتحدثة عن الديمقراطية في الاسلام . كما جرت مقارنات بين الشريعة الاسلامية ، والقانون الروماني وقانون نابليون ، فاذا هذه الشريعة متطابقة مع ذلك كلّه الى حدّ بعيد . ولم يمكن انكار الاختلافات أو الفروق أحيانا فقيل انها موجودة لكن الاسلام قابل للتطور والتجديد فلا ضير في أن تتجاوز النقاط العالقة من قبيل الاجتهاد والتجديد والعصرنة مما يثبت المقولة القائلة : إن الاسلام صالح لكلّ زمان ومكان . أما الجهاد الذى بدأ التحديثيون الاسلاميون منذ مطالع القرن يقولون إنه حرب دفاعية ، فقد صار كذلك في كلّ الكتابات ، وظهرت مؤلّفات تعد الفقه الاسلامي أول منظومة عرفت القانون الدولي ، ودعت اليه ، واعترفت به .

ولكي يكون واضحا تماما ما أعنيه باستئناس الاسلام وتغريبه والايمان بعالمية الحضارة الغربية لدى النخب العربية والاسلامية يمكن التعرض هنا لبعض ظواهر التشكّل الفكرى والاقليمي العربي والاسلامي في الأربعينيات وما بعد . فقد قامت جامعة الدول العربية باعتبارها منظمة للتعاون الاقليمي بين دول متقاربة قوميا وجغرافيا ، ولم تقم باعتبارها خطوة ، نحو الوحدة الاسلامية أو بديلا وخلفا للخلافة الاسلامية . وناضل المسلمون بالهند طويلا في اطار الرابطة الاسلامية لانشاء دولة خاصة بهم ، فلمّا قامت كانت وما تزال أدنى الى الدولة القومية منها الى الاطار الاسلامي الجامع . وهذه الخلفية القومية لباكستان كانت سببا مهما بين أسباب انقسامها مرة ثانية بخروج البنغاليين منها أو اخراجهم وانشاء دولة بنغلادش . وهكذا فإنه في منتصف الخمسينيات كانت الثقافة الاسلامية بفضل النخب الاسلامية المثقفة التي ناضلت طوال قرن من الزمان ، قد صارت جزءا من الثقافة العالمية الحديثة ، وفي أسوأ الحالات جزءا من المجال الثقافي السائد في العالم الثالث ، وهو مجال - في أحسن حالاته - يشكّل حديقة خلفية لحضارة الغرب وثقافته .

بداية التمايز والإنفصال

قال أبو الأعلى المودودى في الاربعينيات إن الاسلام متميز دينا ، ومستقلٌ ، وناسخٌ شريعةً ، وفريدٌ حضارةً . إنه لا مجال لإنشاء نظام مزيج في شبه القارة الهندية . فإمّا أن يعود المسلمون فيسيطروا على الهند ، وإمّا أن ينشئوا دولة خاصة بهم . إنّ الله

سبحانه وتعالى يقول : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . فالمسألة تعود الى الأصل : من هو الحاكم ؟ من هو المسيطر ؟ من هو صاحب النموذج ؟ من هو صاحب القرار ؟ إمّا أن يكون الله ، وذلك هو نظام الله ونظام الاسلام والايمان ، وإمّا أن يكون حكم الطاغوت ، ونظام الطاغوت ، ونظام الفسق والضلال والكفر . إنّ الاسلام - في نظر المودودي - جاء ناسخا لما قبله وما بعده ومهيمنا عليه . وله إحدى حالتين : إمّا أن يتمكن في الأرض ويسيطر ، وإمّا أن يتأسّس ويسود في بقعة وعليها ، ويتحفز للانطلاق والاستيعاب والسيطرة ، ولا وسط بينهما . إن الاسلام ليس ديمقراطيًا ، وليس ليبراليا ، وليس ثيوموقراطيا ، وليس دستوريا ، وليس قوميا ، إنه الاسلام وحسب ، وعلى المسلمين أن يقرروا : إمّا أن يكونوا مسلمين خلّصا لا يشركون بالله شيئا ، وإمّا أن يجيبوا عن مواجهة العالم بخصوصية اسلامهم ، ومقتضى ايمانهم فيكونوا بين بين ، لا هم بالمسلمين المخلصين ، ولا هم بالفجّار الطاغوتيين . إنّ الطاغوت كلّه في حضارة العصر ، في حضارة الغرب التي استولت بفتونها وفتونها على الانسان هناك واستعبدته .

كان أبو الأعلى المودودي يكتب بالأوردية ، ولم تترجم مؤلفاته الى الانجليزية الاّ في أواخر الاربعينيات ، وربما عرف سيّد قطب بعضها آنذاك عندما كان في الولايات المتحدة . لكنها ترجمت الى العربية جميعا في النصف الثاني من الخمسينيات ، والستينيات . بيد أنّ هذا التصدّي الشامل للحضارة الغربية باسم الاسلام لم يبدأ في المجال الثقافي العربي الاسلامي الاّ بعد عقدين من الزمان . فكما عرف المثقفون الاسلاميون العرب المودوديّ في الخمسينيات ، عرفوا بالقاهرة وسورية المناضل الايرانيّ نوّاب صفوي الذي كان قد بدأ في الأربعينيات بمواجهة الغرب والمتغربين بالعنف والاغتيال والحرب الشعبية . كما عرفوا في سورية والقاهرة والأردن أبا الحسن الندوي الاسلاميّ الهنديّ الأصل الذي كان يدعو لثقافة اسلامية خالصة وشاملة لا تحبّذ العنف ، لكنها تريد الاستيلاء على السلطة بأيّ أسلوب لمواجهة ليبرالية الغرب التي كان يعدها بالنسبة للمسلمين سمّا في الدسم . رأى الندوي في كتاب له صدر عام ١٩٥٧ بالعربية أنّ هناك « فكرة غربية » هي في سبيلها للسيطرة على العالم ومن ضمنه العالم الاسلاميّ ، ولا بدّ من قيام « فكرة اسلامية » تواجه تلك الفكرة الغربية المستعلية والمسيطرة والزاحفة . وفي تلك الحقبة المأزقية صدر كتابا هاملتون جب وولفريد كانتويل سميث : الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، والاسلام في العالم المعاصر ، وهما كتابان يسجّلان قلقا متزايدا من جانب الاستشراق الغربي على مصائر تحديث الاسلام ، والتجربة الغربية في المشرق الاسلامي .

مخاوف وشكوك متبادلة

وما كانت مخاوف جب وسميث استقراءً لكتابات المسلمين أو اتجاهات جماهيرهم ، بل لمصائر النظم السياسية التي قامت في العالم الاسلامي مع نهايات الحرب العالمية الثانية . فقد عصفت بكل محاولات التطويع والتغريب ، المذابح ضد المسلمين على يد الهندوس بين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ، وقيام الدولة الصهيونية على أرض فلسطين وتهجير وسحق مئات الألوف من أبناء الشعب الفلسطيني ، واشتداد الحرب الباردة بين الجبّارين التي عادت فانفجرت صراعا مسلّحا في الحرب الكورية بالهند الصينية .

أمّا المثقفون المسلمون ، ومن بينهم عرب كثيرون سبق أن أسهموا في نشر كتابات وأفكار عن ليبرالية الاسلام ، ومساوقته لحضارة العصر ، فقد انصرفوا لانشاء اتجاه نقديّ لنظم العصر وحضارته ، وابراز تميّز الاسلام عليه وعليها . وكان الزاد الثقافي لهذه الموجة التي بدأت في النصف الثاني من الخمسينيات ، واستشرت في النصف الأول من الستينيات كتابات غربية ظهرت ابّان الحرب العالمية الثانية تنعى على تلك الحضارة ماديتها ولا انسانيتها وآليتها التي تسببت في حربين عالميتين ضروسين أفنتا عشرات الملايين من البشر ، ونشرتا البؤس في كلّ انحاء العالم ، وانتجتا في النهاية القنبلة الذرية التي تتهدد البشرية كلها كما

ظهر من مأساتي هيروشيما وناكازاكي . ثم ازدادت الكتابات الاسلامية تخصيصا فحملت حملات شعواء على المادية والرأسمالية ، فالمادية والماركسية ، فاذا العالم الغربي المعاصر تسوده أيديولوجيتان ضدّ الانسان . وكان الأخطر من ذلك في نظر كتّاب مثل محمد البهي ومحمد الغزالي والمودودي أنّ هاتين الأيديولوجيتين تبلورتا في نظم حاكمة قبضت على مصائر الاكثرية الساحقة من سكّان العالم ، وراحت تسومها العبودية والاستغلال الدموي باسم الليبرالية الرأسمالية تارة ، وباسم الماركسية طورا . وقد اعتمدت الكتابات الاسلامية الناقضة للرأسمالية والماركسية في البداية على كتابات غربية ظهرت في سياق الصراع في الحرب الباردة بين الجبّارين . ثم تطور الأمر لدى النخبة الاسلامية الى وضع نموذج اسلامي أيديولوجي وسياسي يواجه النماذج والحضارات والنظم الأخرى قديمها وحديثها . فقد قام الاسلام في عالم القرن السابع الميلادي الذي كانت تسوده امبراطوريتان ضخمتان وماديتا التوجه : الامبراطورية البيزنطية ، والامبراطورية الفارسية ، فصنع الاسلام للعالم نموذجا جديدا باسم الله سحق الامبراطورية الفارسية وناضل قرونا طويلة حتى سحق الامبراطورية الأخرى خالقا بذلك زمانا ومكانا جديدين خرج فيها الانسان من عبودية العباد الى عبادة ربّ العباد . وهذه هي مهمة الاسلام اليوم : أن يبرز نموذجه الالهيّ المتفرّد فتقوم حضارة بديلة لا شرقية ولا غربية .

الرفض الشامل

وجاء كتاب سيّد قطب عام ١٩٦٤ : معالم في الطريق ـ فاصلا بين عهدين بعدة معان في مجال مواجهة الثقافة الاسلامية للتحديات المعاصرة . اتكأ سيد قطب على التراث النقدي للكتّاب الاسلاميين في الأربعينيات والخمسينيات وبخاصة المودودي والندوي ليقول شيئا محدّدا في الثقافة والسياسة انطلاقا من فكرة « حاكمية الله » التي جعلها العمود الفقري للنموذج الاسلامي ، ولخصوصية الاسلام .

فالحكم على كلّ ما يجري في ديار المسلمين وعلى أرضهم في نظر سيّد قطب ينطلق من سؤال أساسي : من الذي يحكم في الفكر والثقافة ، وفي السياسة والدولة : الله أي شرعه ، أم الطاغوت اي قوانينه ورجالاته ونظمه ؟! كلّ ما عدا الاسلام جاهلية وضلال وطاغوت ، هكذا يقول القرآن ، وهكذا يقول الرسول ، وهكذا تقول مجريات الصراعات الاسلامية مع الضلال الداخلي والعدوان الخارجي عبر التاريخ . جيلة ونموذجية هي المحاولات الاسلامية الثقافية في الخمسينيات لوضع معالم نموذج اسلامي حضاري في مواجهة حضارة العصر الضالة . لكن هذه الحضارة الضالّة لم تعد أمرا خارجيا مهدّدا بل تبلورت في طرائق للعيش ، والتفكير ونظما سياسية مسيطرة داخل ديار المسلمين وعلى أرضهم . إنّ النضال الثقافي والسياسي ينبغي أن يتحوّلا من التصارع مع العدو الخارجي المجهول الى المواجهة مع الداخل الطاغوتي المهيمن . فلا إسلام في الداخل الاسلامي إن لم يكن مهيمنا في الثقافة والسياسة . لذلك على الاسلاميين المخلصين مهما كان عددهم قليلا أن يتوحّدوا في تنظيم طليعي يضرب الطاغوت السياسي في الداخل ليعود شرع الله فيحكم على أرض الاسلام التاريخية ، وبعد ذلك فان لكلّ حادث حديثا . ويتابع سيّد قطب قائلا إنّ كثيرين من المتحذلقين والحاكمين سيسألون الاسلاميين عن برامجهم الثقافية والسياسية ، وهؤلاء جميعا نقول إنّ برنامجنا الهيّ قرآنيّ نبويّ ، ولقد وصلتم جميعا الى التسلط علينا بلا برامج ولا فلسفات إلاّ الطغيان والطاغوت . سنصل الى السلطة وعندما نصل ستعرفون برنامجنا وفلسفتنا للحكم .

ثلاث مراحل للمواجهة

مرت مواجهة الثقافة الاسلامية للتحديات الحديثة اذن بثلاث مراحل خلال قرن من الزمان . سادت المرحلة الاولى أفكار حول تحديث الاسلام وتجديده للمشاركة في حضارة العصر التي تتضمن سلبيات كثيرة لكنها لا ترفض كلّها لأنها انسانية الجوهر ،

وتلتقي مع الاسلام أو يلتقي الاسلام معها في أساسيات كثيرة . إنّ على المسلمين بمقتضى هذه المقولة أن يأخذوا أحسن ما في حضارة العصر مما لا يتناقض مع دينهم وتراثهم وحضارتهم . ومن هنا جاءت الكتابات الاسلامية التي تؤكد وقوف الاسلام مع المدنية والعلم ، وقيم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والاشتراكية .

وكانت المرحلة الثانية نقدية هدمية بنائية ، تبرز خيبة أمل المسلمين بالعصر وحضارته ، وتعرض نموذجا حضاريا اسلاميا خاصا في شتى نواحي الاجتماع والسياسة. فالاسلام لا يقر الصراعات القومية والطبقية ، وليس ديمقراطيا أو اشتراكيا ، لكنه يقدّم للعالم نموذجا متفرّدا في الاجتماع والسياسة يتجاوز مادية الحضارة المعاصرة وشرورها .

ثم كانت المرحلة الثالثة التي ما زلنا نعيش منتجاتها الثقافية ، وهي تتميز بتسييس شديد للاسلام ، وتتجاوز به كونه أيديولوجية للنضال كما في المرحلة الأولى الى اصطناعه أيديولوجية للوصول الى السلطة بعد أن أثبت النضال الحضارى والثقافي أنه غير مجد وغير فعّال . انه لاحاجة للكلام الكثير عن النموذج الحضاريّ الاسلامي المتفرّد مادام باقيا كلاما في الهواء كما قال بعض الاسلاميين الايرانيين والمصريين والتونسيين . على المسلمين أن يواجهوا الغرب كله بادئين باخراجه من ديارهم ثقافة وسياسية واجتماعا وبالقوة .

كان رجالات المرحلة الاولى في المواجهة والتحدى نخبا شاركت في انشاء الجامعات ، ووضع الدساتير للدول الجديدة ، وناضلت من أجل الاستقلال على الطريقة الغربية . أماّ رجالات المرحلة الثانية فكانت أكثريتهم الساحقة قد صارت خارج السلطة في أقطار العالم الاسلامي ، لكنهم كانوا شديدي التشبّع والمعرفة بالنظم الغربية من جهة ، وبالاسلام التاريخي من جهة ثانية . وقد رأوا أن الصراع صراع حضاريّ او كما عبّر عنه مالك بن نبي : صراع للافكار والنماذج . أماّ رجالات المرحلة الثالثة التي ما تزال مستمرة فهم من متوسطي الثقافة بالمعنيين الاسلامي والغربي ، ولهذا فان غالبية كتاباتهم لا تحمل سمات ثقافية بارزة بل هي بمثابة مناشير داعية للثورة والجهاد وتدمير البنى السائدة .

إنّ الكتابات الاسلامية المعاصرة لا تطرح مشكلات وتحديات ، عارضةً حلولا أو مشاريع حلول ، بل ترى أن المطلوب الاقلال من الكلام والتنظير ، والانصراف للعمل من أجل ضرب الطاغوت الغربي في الداخل والخارج . وفي ظلّ هذه المقولة نجح الاسلاميون الايرانيون في اسقاط الملكية الشاهنشاهية ، والوصول للسلطة محققين بذلك آمال المودودى وسيّد قطب في اقامة نظام اسلاميّ تحكمه شريعة الله ، ويعتمد مبدأ : لا شرقية ولا غربية في الداخل والخارج . لكن هذا النظام الاسلامي لم يقم تنظيمات داخلية متميزة عن تلك السائدة في الغرب . ثم انّ النتيجة الوحيدة لاستقلاليته عن الشرق والغرب في السياسة الخارجية توريطه في حرب ضروس مع بلد اسلامي آخر هو العراق ، كانت رحاها تدور مغرقة النظامين في بحر من دماء المسلمين من جهة ، وفي تبعية متزايدة للنظام الدولي من جهة ثانية .□

برنارد شو

■ الحاكم الذي يريد أن يدمر حريات أي شعب ، يستطيع ان يفعل ذلك بسهولة عندما ينشر بين أفراد الشعب الهبات والمنح والعطايا .

بلوتارك

■ الادراك السليم شيء فطري . . والقدر الكافي منه هو العبقرية

برنارد شو

قصيدتان

شعر : يوسف عبدالعزيز

القسطـــل (١)

(مهداة إلى روح الشهيد الفلسطيني عبدالقادر الحسيني)

حِصانٌ على قِمّةٍ عاليهْ
سَيَصْهَلُ بَعْدَ قليلٍ فتَنْكَسِرُ الشَّمسُ
نَسرٌ مِن القمحِ سَوفَ يهزُّ جَناحَيهِ
حِينَ يَطيرُ
فتملأ برميلنا بالطَّحِينِ
أساوِرُ مِنْ زَعْترٍ
بَيْنَ أيدي الصُّخورِ
وبُرجُ كَواكبَ
وقَدْ تَلْعَبُ الرِّيحُ بالقلبِ
حِينَ تَراهُ
فَيسقطُ قَلْبكَ بين يدي الأميرِ
المُحارِبُ
أميرٍ بمرتينةٍ و (سلحلك) (٢)
وَصَدرٍ بلا أوسِمهْ
وَتَنظرُ حَوْلَكَ
فَيزْحَفُ الرَّملُ أشقرَ مِثْلَ بطونِ
العذارى
وَيَلْتمِعُ البَحرُ في الغربِ
مِثْلَ خَناجرَ في ساحةِ الرَّقصِ
أهذي وأتبعُهُ
ثمّ أهذي
وأشْرَبُ صُورَتَهُ كالنبيذِ المُقدسِ
كانَ الأميرُ المُحارِبُ
يلْوي بِكفيهِ عُنُقَ الحديدِ الذي يتقدمُ
والطّائراتُ تُغيرُ عليهِ
فَينفضُ سُتْرتَهُ مِنْ رَمادِ القنابِلِ
أهذي وأتبعُهُ
ثمّ أهذي
فَيخْلعُ بَابَ الترابِ وَينْهَضُ
متشحاً بالعلَمِ
قِبابٌ على القِمّةِ العَاليةِ
تتلألأُ مِثْلَ قلائدَ مِنْ فضّةٍ
فوقَ صدرِ السَّماءِ
حريرُ دَمٍ في الحقولِ
عينُ صَقرٍ تُراقِبُ

بَيت

بَيْتٌ على ماءِ السَّماءِ
يَطفو كَريشةِ طائرٍ .

(١) القسطل : هي القرية التي استشهد فيها القائد الفلسطيني عبدالقادر الحسيني ، وتقع إلى الشمال من مدينة القدس .

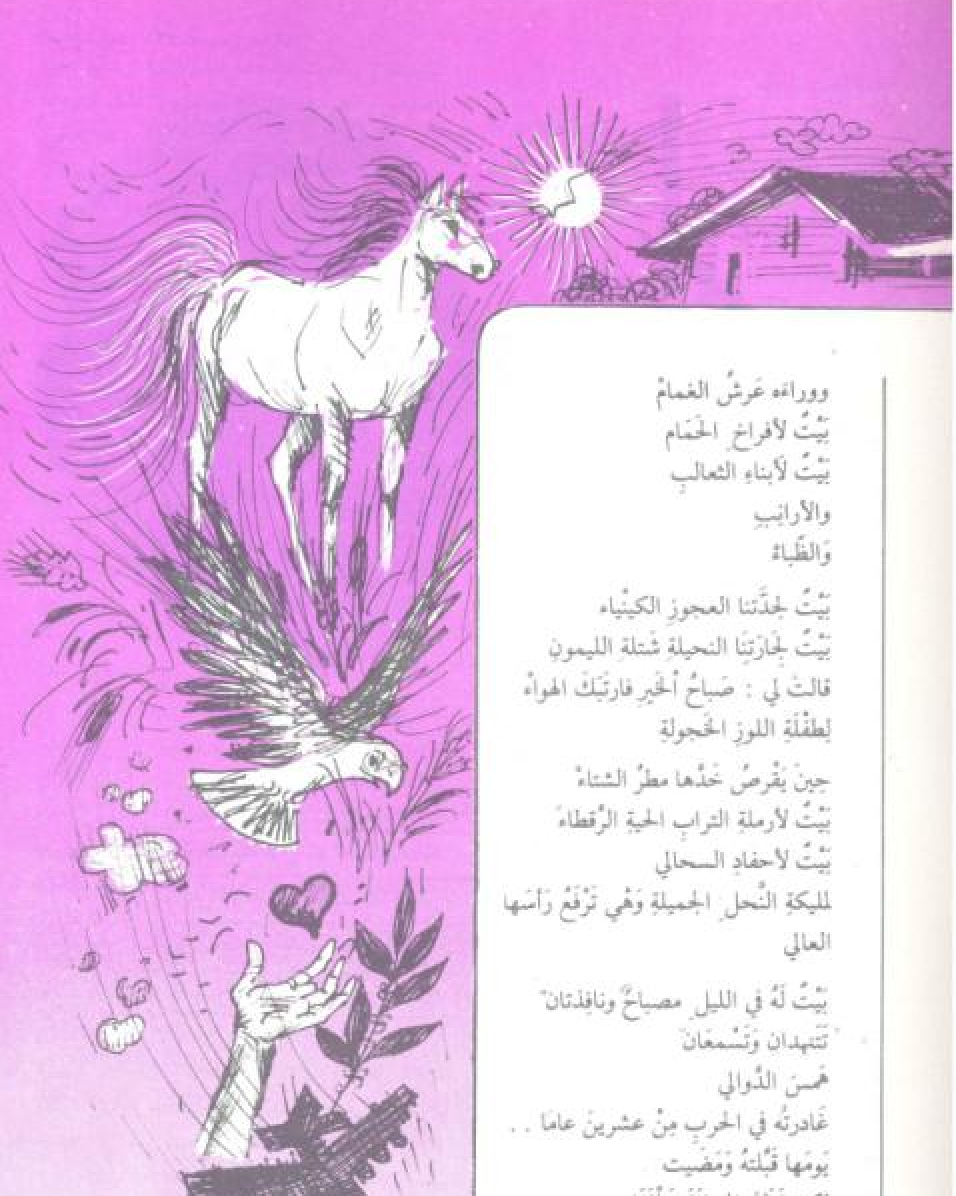

ووراءه عَرشُ الغمامْ
بَيتٌ لأفراخِ الحَمام
بَيتٌ لأبناءِ الثعالبِ
والأرانبِ
وَالظِّباءْ

بَيتٌ لجدَّتنا العجوزِ الكِبْياء
بَيتٌ لجارَتِنا النحيلة شَتلة الليمونِ
قالتْ لي : صَباحُ الخيرِ فارتَبَكَ الهواءْ
لِطفلَةِ اللوزِ الخَجولةِ

حِينَ يَقْرصُ خَدَّها مطرُ الشتاءْ
بَيتٌ لأرملةِ الترابِ الحيةِ الرَّقطاءْ
بَيتٌ لأحفادِ السحالي
لمليكةِ النَّحلِ الجميلةِ وَهي تَرْفعُ رَأسها العالي

بَيتٌ لَهُ في الليلِ مصباحٌ ونافذتانْ
تتنهدانِ وَتَسمعانْ
هَمسَ الدَّوالي
غَادرتُه في الحربِ مِنْ عشرينَ عاماً . .
يومها قَبَّلتُه وَمَضَيت
لكنه قطعَ المسافةَ خَلفَنا
حتى (أريحا)
وَظَل يَمشي حَافياً للجسْر

(٢) السلحلك : هو حزام الرصاص الذي يتوشح به المحارب وهي كلمة تركية .

طه حسين في ميزان النقد العلميّ

بقلم : الدكتور أحمد علبي

من بين رواد النهضة العربية المعاصرة في الفكر والأدب ، يبرز طه حسين بخصوبته ، وتنوع إسهاماته ، وعمق تأثيره ، وكذلك باختلاف الرأى حوله ما بين الاعجاب المفرط به أو شدة الخصومة له ، وكلا الموقفين يتناقض مع المنهج العلمي الذي يجب أن يحكم رؤ يتنا لتراثنا ، وواقعنا ، ومستقبلنا . وهذه مقاربة تسعى لرؤ ية علمية لطه حسين ودوره .

هذا رجل وُجّهت إليه سهام الطعن دائماً ، والطريف أن أحد المصّنفين وضع كتاباً ضخماً ومجلداً في نحو سبعمائة صفحة من الحجم الكبير ، وقد حشد فيه مجموعة من الردود التي انهالت على عميد الأدب العربي شتماً ، وتجريحاً ، وتلفيقاً . وختم عمله بأن ادّعى أن طه مات ، وأن آراءه ماتت معه ! فإن كان الأمر حقاً على هذا المنوال ، فلماذا تجشّم هذا المصّنف عناء إعداد هذا المؤلف الواسع ؟ هل ليبعث الـمَيْت من رقدة العدم الذي يدّعيه له ، أم ليقرأ على روحه الفاتحة تأدّباً وترحّماً ؟ الواقع أن طه حسين أضحى جزءاً حيّاً من تاريخنا الثقافي ، ثم إن الكثير من آرائه ما زال ناصعاً فاعلاً . وذلك لأن هذه الآراء المستمرة هي أجوبة على اسئلة ما انفك العقل العربي يطرحها على نفسه . إنها أزمة مجتمع يعاني موانع وكوابح ضاغطة ، بحيث إن الفكر يجد نفسه مكبّلاً ، يمشي بين الألغام في ميادين معيّنة ، تبدو شبه محرّمة . وما هكذا ينمو الفكر ويبدع .

إسلاميّات طه

فهنا يتجلى فضل طه وريادته ، فهو وَسْط سيادة الركود والتقليد والغيبيات عمد إلى كتابة إسلاميّاته ، وذلك بنَفَس جديد ، وبأسلوب متلقح بالعلم والجرأة . والحق أن هذا الأسلوب يبدو تجديداً في البيئة العربية ، في حين أن المستشرقين الذين درسوا الحضارة الإسلامية قطعوا أشواطاً في فهم هذه الحضارة على هدى المنهج والتحقيق والموضوعية ، والمحبة أيضاً ، إذ كيف تحفل بتراث إسلامي هذا الاحتفال الشائق كله إذا لم تكن متعاطفاً معه ، مشغوفاً ؟ ولا عبرة ببعض الضّالين المغرضين ، فهؤلاء نعثر عليهم في صفوف المستشرقين ، كما نجدهم بين ظَهْرانينا . فالعلم واحد حيثما وجد ، كما أن التزييف هو هو حيثما نبت . ومع هذا فطه يبدو جسوراً ، لأنه يواجه رأياً عاماً خامداً ، مستسلماً . في حين أن المستشرقين كتبوا أبحاثهم في جو طليق ، مشبع بالعَلْمانية والديمقراطية ، حيث لا محرّمات ولا تهويل ولا إثارة . إن مَنْ يقرأ الردود التي انصبّت على رأس طه ، وتولّدت عن إسلاميّاته ، يدرك أيّ جو خانق كان طه يعاصر . فهو جو يضيق بأيّ اجتهاد أو تفسير أو تعليل ، كما يدمج بين العقيدة الدينية والتاريخ الإسلامي ، بحيث يسبغ على هذا التاريخ هالة قدسيّة لا تتفق والطبيعة الإنسانية للحاكمين الذين توالَوْا على مسرحه المضطرب .

لقد ترك لنا طه حسين نوعين متميزين من الكتب الإسلامية . هناك الكتاب القيّم بأجزائه الثلاثة وهو « على هامش السيرة » (١٩٣٣ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣) ، وهناك « الوعد الحق » (١٩٥٠) . وهذان العملان يدخلان في صِنْف الرواية التاريخية . فطه فيها لا يدرس ويحلل ويعلل ، وإنما يسوق الأحداث في قالَب قَصَصي جيل . ولهذا وجب النظر إليها من هذه الزاوية الروائية التي أملت على طه أن يأخذ بما لم يأخذ به في بقية كُتُبه الإسلامية ، لأن العمل القَصَصي يقوم على التشويق والمتعة ، وللخيال فيه نصيب ، وترفده الأسطورة بالوهج الأخّاذ . وبالتالي فإن ما تنبذه في الدراسة العلمية المتشددة ، حيث تتفحّص المرويّات وتُخضعها للتحقيق والتشكيك والنقد الصارم ، تتقبله ، وربما تسعى اليه في الصنيع القَصَصي ، لأنه يسعفك على أن تنسج الحبكة الروائية الجذّابة . التاريخ هنا ، مادة خاضعة لضرورات الفن ، وللصياغة الأدبية . في حين أن التاريخ كعلم ، شيء آخر تماماً . لذا ينبغي التفريق بين هذين النوعين : الرواية التاريخية والتاريخ لدى طه حسين ، لأن الخلط بينهما يؤدي بنا الى أن نؤاخذ طه على آراء أملتها عليه الضرورة الفنية ، ولو لا ذلك لكان له منها موقف مغاير . وفي السياق التاريخي العلمي كتب طه « الفتنة الكبرى » ، بجزءيه : عثمان (١٩٤٧) ، وعلي وبنوه (١٩٥٣) . وله أيضاً « مرآة الإسلام » (١٩٥٩) ، و « الشيخان » (١٩٦٠) . وهذا الرصيد الإسلامي عند طه ، المتشعب الى شِقّين ، يرمي فوق عاتق الباحث جهداً مضاعفاً . فهو يدعوه من جهة إلى دراسة الرواية التاريخية ، في ضوء ما عرف الأدب العربي الحديث من نتاج يدخل في هذا النوع الأدبي . ثم يتوجب عليه من جهة أخرى ، أن يلتفت إلى السيرة النبويّة ، وكيف وقف عندها الكتّاب بأقلامهم ، بحيث تتبين مزايا عمل طه في « على هامش السيرة » . ولا يساورنا ريب أنه من الكتب الباقية في تراث هذا الرائد العربي الجليل ، وكثيرون جداً هم الذين قرءوه واستمتعوا به ، وكثيرون جداً هم الذين سيقرأونه في المستقبل ويستمتعون به . أما الشِقّ الثاني في رصيد طه الإسلامي فيتطلب جهداً آخر نقدياً ، دراسياً ، مختلفاً ، لأننا هنا ننتقل الى حِضْن علم كان وما برح يثير الجدل حولَ منهجيته وهو التاريخ .

في ميدان التاريخ

في ميدان التاريخ اصطدم طه حسين بوضع ما زلنا نعاني من آثاره ، وإن كان حالنا مغايراً طبعاً لحاله . يكفي أن نذكر تدليلاً على الجو العام السائد عهد ذاك ، أن طه عندما شرع في تدريس التاريخ اليوناني ، عقب عودته من فرنسا ، جوبه بالاستهجان باديء الأمر ، فهذه المادة الجديدة

مرفوضة ، لأنها غير معروفة وغير مألوفة في المحيط التعليمي ! ألم يكن الأدب نفسه مستنكراً في أروقة الأزهر ؟ فكيف يكون الموقف من طه وهو ينقل المعركة الى عُقْر التاريخ الإسلامي ، ويلقي أنواراً مستحدثة عليه ، تخرج به عن النمط المكرور ؟ لقد كان قميناً بأن تنصبّ على رأسه التُهَم ، وأن تساق إليه النعوت المتنوعة ، لأن الفئة المحافظة تعتبر أن هذا التاريخ حكَراً عليها ، وهي صاحبة الوصاية والقيمة على كتابته . يكفي طه فخراً أنه أراد مقاربة التاريخ الإسلامي بواسطة المنهج ، آخذاً من القُدامى قواعد الشك القائمة على التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب والترجيح والإسقاط ، وآخذاً من المحدثين الأساليب العلمية الغربية التي طبّقوها على تواريخهم ، ولا حَرَج في نظره من الإفادة منها والاعتبار . فهناك ابن خلدون كما أن هناك ديكارت ، وكلاهما نافع مجد في العملية التحقيقية والتقييمية . وهناك أيضاً ماركس ودوركايم وفرويد . وطه فيما نرى لم يقف عند منهج لا يعدوه . لقد تلقّح بالمناهج ، وعند أمثاله يكون التأثر حراً ، يندمج فيه الذاتي بالموضوعي ، ويحدث التجاذب والتفاعل ما بين ثقافته الخاصة والثقافة الجديدة التي يحتك بها . طه حسين عندما كتب في التاريخ الإسلامي أراد أن يعالجه معالجة إنسانية ينهض بها دارس وعالِم ، لا أن يصدر في هذه المحاولة عن مؤمن يأخذه الهوى والرهبة والخشوع . إن تفاسيره في الغالب تغوص في لجّة الصراعات الاجتماعية ، فهذه الصراعات هي عِماد التاريخ ومحرّكه .

طه والسياسة

وكان من مظاهر تميّز طه كمثقف عربي ، أنه كان حيم الارتباط بما يجري في بلده . وإنّ غرقه إبّان بعض مراحل حياته في السياسة خلال ظروف عصيبة مرت بها مصر ، هو في نظره واجب لا محيص عنه ، لأن الحياد في هذه الظروف إثم وجُبْن ونفاق . وبالتالي كانت السياسة جزءاً من موقف طه العام . ولقد عرف دائماً الالتزام الحزبي على نحو حر بعض الشيء ، وانخرط في صفوف الأحزاب المصرية الفاعلة فعلاً فكرياً أو سياسياً . لم يضع طه خطاً وهمياً مفتعَلاً زائفاً بين الأدب والسياسة . فهذا الزَّيْف المصطنع يتبدّى عند عدد غفير من المثقفين العرب باباً خلفياً للهروب والتنصّل من المسؤولية الاجتماعية . لم يكن طه سياسياً محترفاً ، وإنما كانت السياسة له كما هي لكل مواطن واعٍ ، الوجبة اليومية والارتباط الذي يعلو الى مرتبة الواجب والى مغزى الوطنية ، فكيف اذا كان أديباً نابهاً ومفكراً ساخطاً ؟ لم يكن ارتباط طه بالاحزاب ارتباطاً طبقياً مصلحياً كما تقتضي طبيعة الأمور ، بل إنه وجد فيها منابر يعلن من فوقها أفكاره التجديدية التي قد تتفق إلى هذا الحد أو ذاك مع الحزب المعني . « حزب الأمة » الذي عرفه طه في بواكير حياته وهو في نحو العشرين من عمره ، كان رجعياً محافظاً ، في حين أن طه ابن بيئة شعبية أمْيَل الى الفقر ، وظل طوال حياته صاحب هوى شعبي . لكن حزب الأمة كان يضم أرستقراطية فكرية عصرية متميزة ، يقف على رأسها أحمد لطفي السيّد . « الحزب الوطني » الذي اقترب منه طه ونشر في صحافته الكثير من شعره ونثره ، عند بداياته الكتابية ، كان بعيداً عن العَلْمانية والمفاهيم الغربية ، لكنه متّقد الحماسة لمعاني الحرية والاستقلال ومناوىء بلا هوادة للإنكليز المحتلين . وعقب عودة طه من فرنسا مزوّداً بالثقافة الجديدة ، انتسب الى « حزب الأحرار الدستوريين» . وكانوا في الواقع امتداداً متطوراً لحزب الأمة المنقرض ، وشكّل الأحرار حِضْناً حامياً ومتفهّماً لعقل طه المتمرد ، الشاك . ولا غَرْوَ ، فهم نخبة ساطعة من المثقفين ، مناصرة للقيم الفكرية ولحرية الرأي ، وكان يرأس تحرير صحيفتهم « السياسة » محمد حسين هيكل .

ولا أدلّ أن حزب الأحرار الدستوريين وقف بحزم إلى جانب طه حسين ، خلال معركة كتابه « في الشعر الجاهلي » ، حتى أن رئيس الوزارة عبدالخالق ثروت ، هدّد بالاستقالة . في حين أن حزب الوفد الذي كان يتزعمه سعد زغلول سفّه الكتاب وصاحبه تسفيهاً مهيناً ، لكن طه حسين كان يزداد التصاقاً بقضايا الجماهير المصرية من خلال دعوته التربوية

الجهيرة إلى تعليم الشعب . فالعلم حق لـه ، شأن الماء والهواء . ولقد بلور طه حسين الطليعية هذه في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » (١٩٣٨) الصادر في جزئين . وعندما اضطهد الطاغية الرجعي إسماعيل صدقي طه ، وأخرجه من عمادة كلية الآداب عام ١٩٣٢ ، كانت الحشود الطلابية الغاضبة على هذا التصرف التعسفي التي ذهبت الى بيت طه وحملته على الأكتاف هاتفة بحياته ، تتكون من الشباب الوفدي . وفي هذه المرحلة التي اكتوت فيها مصر بالاستبداد والجهل اقترب طه حسين بسرعة من مواقع حزب الوفد ، وغدا كاتباً وفدياً لامعاً . وبقي في موقعه هذا طوال عقدين من الزمن ، امتدا من ١٩٣٣ الى ١٩٥٢ ، عندما قامت ثورة يوليو وأطاحت بالأحزاب وبالحياة الحزبية . إن وفديّة طه حتّمتها ظروف تطوره الفكري ، وقد تلازمت مع تطور سياسي موازٍ له . فمن يدعو إلى العدالة الاجتماعية ويبصرها ، سواء في الماضي ، كما تتجلى في الإسلام عَبْرَ العبيد وصراعهم مع السّادة ، أو في الحاضر ، كما تتجلى عبر نماذجه التحريضية من خلال كتابه المصادَر « المعذّبون في الأرض » (١٩٤٩) ، إن كاتباً كهذا لم يكن من الميسور أن يظل أسير الأحزاب المحافظة اجتماعياً والمتحررة فكرياً . وفي هذا الجمع الغريب بين المحافظة والتحرر يكمن تناقض بُنيوي ، هو من المظاهر الخاصة ببلدان العالم الثالث وبأحوالها التطوريّة غير المنسجمة .

طه قاصّاً وروائياً

لو أن الحياة منحت طه حسين عينين يديرهما ، مستطلعاً أحوال البشر ، متأملاً شجونهم ومفارقاتهم ، لربما كان عندها يستغرقه العمل القَصَصي ، ينصرف اليه في كثير من جهده الأدبي . فطه ذو نَفَس قَصَصي ، في غالبية ما كتب . نلحظه بشكل بيّن في الجزء الأول والثاني من « الأيام » (١٩٢٩ ، ١٩٣٩) ، وكذلك في « أديب » (١٩٣٥) ، ويسطع النَّفَس القَصَصي في كتابه الجميل « على هامش السيرة » . وحتى في مقالاته النقدية ، فلكم كان يستغويه هذا الهوى القَصَصي ، فيستسلم له على هذا النحو أو ذاك . ولك أن تقلّب صفحات بعض كُتُبه ، شأن « جنّة الحيوان » (١٩٥٠) ، « بين بين » (١٩٥٢) ، « أحاديث » (١٩٥٧) ، « من لغو الصيف » (١٩٥٩) ، « من لغو الصيف الى جدّ الشتاء » (١٩٦١) ، وغيرها من مؤلفاته النقدية الطابَع ، لتعثر عندها على الميل القَصَصي فاشياً سارياً في المطالع ، وعَبْرَ المعالجة وفي الخواتيم . ولا يتيسّر للكاتب أن يجيد هذا النوع الأدبي الا اذا خاض غمار الحياة ، وخبر شؤونها ، وامتلأت عيناه بمشاهدها . وهذا لم يكن متوافراً لطه ، بالنظر الى وضعه الخاص . ولكن الهوى غلّاب ، لهذا لم يفت طه أن يعالج الرواية والقِصّة في أعمال مستقلة . ولقد ظهر لـه « دعاء الكروان » (١٩٣٤) ، « القصر المسحور » (١٩٣٧) وذلك بالاشتراك مع توفيق الحكيم ، « أحلام شهرزاد » (١٩٤٣) ، « شجرة البؤس » (١٩٤٤) ، « المعذّبون في الأرض » (١٩٤٩) ، « الحب الضائع » (١٩٥١) ، وصدر له بعد وفاته « ما وراء النهر » (١٩٧٥) .

كل كبير في عالم الآداب والفنون يفرض سطوته على العقول ، ويمارس نوعاً من الضغط أو الرهبة أو « الكاريزما » على الجمهور العريض ، بحيث يغدو انتقاده على نحو سليم أمراً مستعصياً بعض الشيء ، أو غير وارد ، لأن الثناء على دوره الريادي يطغى على ما عداه . بيد أننا نطمح الى دراسة علمية صادقة ، لذا فإن تناولنا لعميد الأدب العربي مفعم بالحب والاكبار ، إذ لا سبيل الى أن تنقّب في نتاج أديب من غير أن تكون معجباً به ومحبّاً له . لكن هذا التناول النقدي لا يصرفه التقدير الوجداني عن النظر الموضوعي ، وإلا فما معنى الدراسة العلمية ؟ ومن نافل القول أن نذكر أن أمرنا مع طه ليس طبعاً أمر الذين يتسلقون أكتاف المشاهير طلباً للشهرة ، فهذا ليس حالنا من أيّ الجهات أتيته ، ثم لسنا في طور الشباب المفتون المستخف . والطريف أنه سبق لطه أن عرف أمراً كهذا الذي نتبرأ منه ، وذلك في شبابه الغض ، عندما هاجم المنفلوطي على نحو مغرض

سف . وكان طه من الصفاء والصدق بحيث اعترف بعدها بزمن ، أن دافعه الى ذلك الهجوم على صاحب « النظرات » و « العبرات » ، إنما كان نشدان الشهرة ، من طريق مقارعة أديب ذائع الصيت لعهده . وسبق لنا أن عرضنا لطه حسين شاعراً في المجلد الذي نشرناه تحت عنوان « طه حسين ، رجل وفكر وعصر » (دار الآداب ، بيروت ١٩٨٥) ، فأوضحنا خلال أحد فصوله أن طه لم يكن شاعراً يؤبه له ، وأنه لم يكن من الشاعرية في شيء يستحق أن نتوقف عنده . كذلك فنحن نقف اليوم من طه ، قاصاً وروائياً ، موقفاً أميل الى السلبية ، وخصوصاً اذا أخذنا في الاعتبار ما يسوقه فريق من النقاد الذي يكتب عنه ، وهو مستظل بعظمته وشهرته الطنانة ، فيكيل لطه المدائح ، ويعقد المقارنات بين آثار طه القصصية والآثار العالمية . وفي هذا كله اصطناع وغلوّ ، وخروج عن جادة الفكر ، وولوج الى فن قديم جنى كثيراً على التراث الشعري العربي وهو فن المدح .

الحبكة القصصية

وليس الأوان ، ههنا ، للعرض والتفصيل في طه قاصاً ، وإنما هي ملامح نسطرها وصُوى نمهدها كبوارق أفكار . وعلى هذا نذكر أن طه لم تكن تتوافر عنده حبكة قَصَصية جذابة ، فقد طغت السذاجة على مضمون قصصه ، لأن المادة القَصَصية لا يحصّلها الكاتب من قراءاته ، فهي ابنة الخيال المبدع أحياناً ، ولكن الخيال نفسه ينطلق بالأصل من معرفة وطيدة عيانية بالمجتمع . ثم لماذا ننسى أن الأمر قائم على موهبة فطرية بالأساس ، وتنميها التجارب والثقافة وعوامل النضج ؟ أن يكون كاتب ما شاعراً وليس روائياً ، أو أن يكون ناقدا وليس مترجماً ، هذه خيارات تمليها في الغالب الاستعدادات الطبيعية الكامنة في النفوس . وطه بالتأكيد ذو موهبة قَصَصية ، لكنها موهبة مجهضة ، اعترضها عاملان وحالا دون أن تأخذ مداها الإبداعي . كتب طه محاولاته القَصَصية في زمن لم تكن بعدُ القِصّة ـ سواء القصيرة أو ذات النَّسَق الروائي ـ قد توطدت في أدبنا العربي الحديث ، ولم تكن قد أدركت بعدُ مرحلة الروائع . لقد عاصر طه من القِصّة مرحلة الإطلال على فن جديد مستحدث ، يجرّبه الكتّاب عندنا متأثرين بالآداب الأجنبية . ولهذا فأعمال طه في هذا الميدان هي من النوع التجريبي ، وله من الفضل « التاريخي » ما لسواه ممن خاضوا التجربة في طورها الجنيني . أما العامل الثاني المعطّل فهو أسلوب طه حسين نفسه . وقد يبدو هذا التفسير غريباً ، للوهلة الأولى ، إذ أخصّ ما اشتهر به طه أسلوبه المتميز الجميل . لكن هذا الأسلوب الخاص بصاحبه الذي كان بلا ريب فتحاً في الصياغة الجديدة للعربية ، عَبْرَ جملة رشيقة ، محبّبة ، قد نفضت عنها الأثقال البيانية ، هذا الأسلوب الذي توسّل به طه في طرح أفكاره النقدية والاجتماعية ، لم يكن الأسلوب الملائم للقِصّة ، على النقيض من ذلك كان هذا الأسلوب عند طه عقبة دون السرد القَصَصي الطبيعي . ولكم شعرنا في أعمال طه القَصَصية أن اللغة عنده تطغى على المضمون ، وتنتصب أحياناً جداراً سميكاً يحول بين القارىء والمتعة القَصَصية المأمولة . ولعل « الحب الضائع » نموذج ساطع على فحوى الرأي الذي عرضنا له ، إذ لكأن طه يصيبنا بشيء من الدُّوار ، من فرط دَوَرانه بالجملة ، ولعبه بمفاصلها ، وتقليبه لها متوسّلاً بالمترادفات . ولا بد للقارىء العربي أن يجد مفارقة إضافية ، وهي أن هذا الأسلوب شبه الجاحظي ـ وكان طه من أشدّهم حماسة لعمرو بن بحر ـ لا يأتلف البتّة مع رواية تجري أحداثها في فرنسا ، وأبطالها من هناك أيضاً . ثم إن طه يقحم نفسه على النص القَصَصي ، فيكسر السياق ويضيع عملية الإيهام الفني ، وذلك ليعلّق ، أو ينقد ، أو يبدي رأياً ، أو ليناقش في فكرة فنية . أو أنه يتبادل والقرّاء الجدل يطرحه عليهم حول المسار الذي اختاره لقِصّته ، لأنهم في رأيه شركاء في العمل الأدبي . وقد يعرض الوصف على القرّاء في بعض الحالات من غير تفصيل ، إذ ليس من الذوق ـ كما يعتقد ـ ولا من الرعاية أن يستأثر به دونهم ! □

صحّة البشر وتحديات الغد

بقلم : الدكتور رمسيس عبدالعليم جمعة *

بتطور المجتمعات ، وتقدم وسائل الحياة وأساليبها ، سيطر الإنسان على بعض الأمراض بالعلاجات الناجحة التي تمكن من اكتشافها ، لكن في الوقت نفسه ، وثمرة لهذا التطور ظهرت أمراض جديدة ، مما خلق تحديات أمام البشرية ، عليها أن تسعى لمواجهتها .

* خبير التخطيط بوزارة الصحة العامة ـ دولة الكويت .

أصبح لعلم « المستقبليات » مكان مستقل على خريطة العلوم الإنسانية ، وهو أحد الروافد التي يعتمد عليها السياسيون والمخططون لتحديد نظرتهم المستقبلية في القضايا والمشاكل العامة ، وتعبئة الطاقات لمواجهتها ، وصولا إلى الغايات والأهداف المرجوة في الأمد القريب والبعيد . ويبدو أن مستقبل البشرية في مجال الصحة سوف يكون مليئا بالتحديات والمخاطر ، منها ما هو امتداد لما تواجهه البشرية اليوم ، ومنها ما هو مستجد نتيجة لما تفرزه الحياة من تغيرات وأحداث ذات آثار وانعكاسات مستقبلية على الصحة .

فما هي طبيعة تلك التحديات ؟ وما ثقل وطئها على صحة الفرد والمجتمع ؟ وهل يجدي التعامل معها بنفس الطرق والأساليب المعاصرة ، أم لابد من التصدي لها بفكر ونهج جديد يلائم طبيعتها ، ويغالب عنفها وضراوتها ؟

ولا شك أن فقدان الاستقرار الاقتصادي في العالم سوف تمتد آثاره على الأوضاع المعيشية والاجتماعية والثقافية ، ومنها تفاقم مشاكل نقص الغذاء والكساء والمسكن ، والتعليم وفرص العمل ، وهي من المسببات المباشرة للمشاكل الصحية ، خاصة في المجتمعات ذات التزايد السكاني غير المتوازن مع معدلات التنمية .

تغير خريطة الأمراض :

لقد كانت الأمراض السارية (المعدية) تتصدر المشاكل الصحية في الماضي ، لكنها بفضل جهود التمنيع (التحصين) والأساليب المتقدمة في الرقابة الوبائية انحسرت موجاتها ، ونجح العالم عام ١٩٧٧ في استئصال أخطرها وهو الجدري ، وكان ذلك بفضل التقدم في اكتشاف اللقاحات المضادة ، والتوسع في استخدامها ، وما زال أمام العلم والعلماء شوط طويل لتحقيق مزيد من النجاح في مكافحة أمراض مثل : التهاب سنجابية النخاع ، والتهاب الكبد الوبائي ، والانفلونزا ، بطريق التمنيع باللقاحات . ومن سوء حظ البشرية أن ظهر في الأفق لأول مرة عام ١٩٨١ مرض جديد ، هو مرض الايدز (متلازمة العوز المناعي المكتسب) ، وأصبح يمثل مشكلة جديدة من مشكلات الصحة العامة ، وفيروس هذا المرض فريد في طبيعة تكوينه ، وأساليب عدواه ، وظروف انتشاره ، وفريد في شدة ضراوته ، وخبث خصاله ، والمعركة ضده لا تعتمد على سلاح واحد ، بل على أسلحة متعددة ، طبية وسلوكية واجتماعية ، لابد فيها من التعاون والتنسيق للبحوث والتجارب على صعيد العالم أجمع .

كما اجتاحت العالم خاصة في الأوساط الشبابية موجات التحرر والانفلات والهروب من أرض الواقع ، فانتشرت الاضطرابات العقلية والنفسية والعصبية ، نتيجة إدمان الكحوليات والعقاقير المخدرة . وعلى الرغم من وعي الحكومات بجسامة المشكلة وطبيعتها ، فإن معالجتها لن تنجح إلا بالوسائل التي ترفع الضغوط عن الشباب ، المتمثلة في عواقب الحروب ، والعوز ، وتفكك المجتمعات ، وانهيار الأسرة نتيجة للتحضر الجامح ، والركود الاقتصادي .

العوامل البيئية :

بسبب عدم اليقظة والحكمة في الاستخدام الأمثل للعلم والتقنية اندفع الإنسان في ميدان التصنيع والزراعة والطاقة والمواصلات والتسلح دون اهتمام كاف بتوخي آثارها السلبية على صحته . وتسمع كل يوم دقات الخطر منذرة بتفاقم مشكلة تلوث البيئة وآثارها الضارة على الصحة ، فنفايات الصناعة تتزايد عناصرها السامة سنة بعد أخرى ، بعضها كيماوي ، والآخر بيولوجي أو فطري ، وبعضها مشع ، كما تتعدد سموم المبيدات الحشرية لمكافحة الآفات الزراعية والقوارض . ولا سبيل لوقف زحف هذه الأخطار إلا بمزيد من البحث العلمي والتجارب ، وصولا إلى اكتشافات جديدة للسيطرة على مناعة الحشرات ضد المبيدات ، واختيارها من المواد قليلة السمية للإنسان والنبات والحيوان ، مع ترشيد استخدامها . كما يتحتم أن يكون المبدأ الرائد

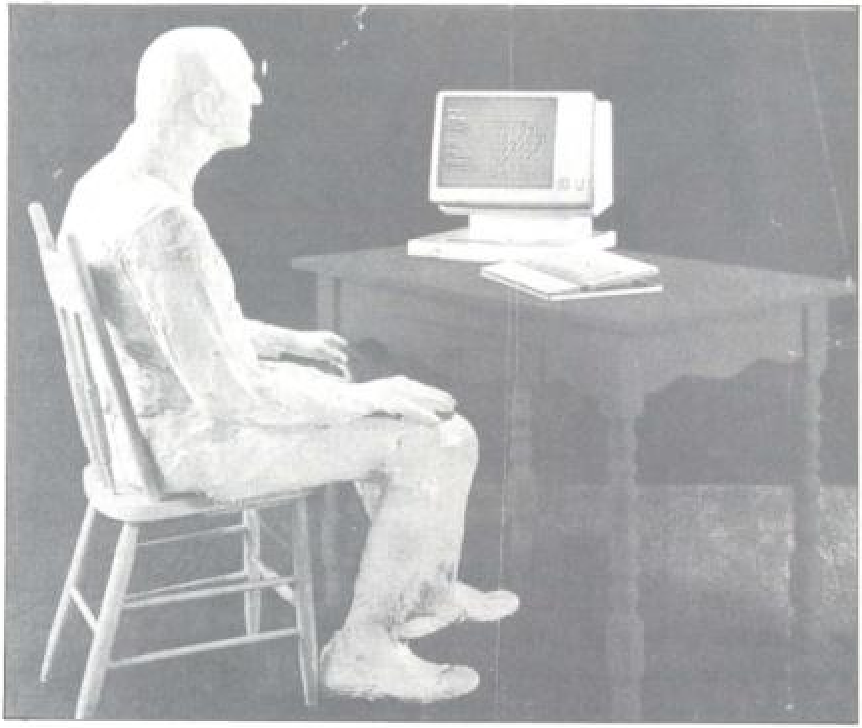

العلم أداة الانسان لمواجهة مشاكله الصحية .

مستقبلا هو العمل المشترك بين القطاعات . وعلى السياسين أن يأخذوا في حسبانهم التأثير على صحة الناس ، الناتج عن تغيرات في قطاعات الزراعة والبيئة والتعليم والصناعة والإسكان ، ومراعاة العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الصحة وصيانة السلم .

وبسبب تسابق العالم في صناعة الأسلحة النووية ، وعلى الرغم من محاولات التخلص من بعضها ، فما زال الشر مستطيرا ، يهدد الصحة العامة بالتسرطن البيئي علاوة على الآثار البيولوجية للتشعيع في فترة الحمل ، والجوانب النفسية والاجتماعية للتهديد النووي . ومواجهة مشكلة السرطان بصفة عامة لن تقربنا من الحل إلا باتقاء حدوث السرطانات الشائعة ، كالرئة والكبد والرحم والفم ، بأسلوب الوقاية ذات الصبغة المجتمعية من خلال أساليب العيش الصحية التي تُغرس في المجتمع ، وبخاصة لدى النشء والأمهات . وذلك يحتاج جهودا مبرمجة للتثقيف الصحي الواعي ، وكشف دور التغذية والبيئة في إيجاد أسباب السرطان واتقائه .

السلوكيات الاجتماعية :

لقد امتدت موجة التحضر ، فشملت المرأة ، وهي نصف المجتمع ، وأصبح لها دورها المؤثر في العمل والإنتاج ، فكان أن واجهت الطفولة تهديدا لحقها في الرضاعة الطبيعية والرعاية الأسرية والنفسية من الأم . وراج الحليب الصناعي بديلا لحليب الأم ، وشاعت موجة استخدام المربيات وخدم المنازل، مما

ساعد على زيادة أمراض سوء التغذية ، والهضم ، وضعف المناعة عند الأطفال ، والأمراض النفسية ، والسلوكية في سنهم المبكرة . وكل هذه السلبيات سوف تتطلب مناهج جديدة للحفاظ على التوازن بين حقوق الطفل وحقوق الأم في مجتمع تضطر فيه المرأة أحيانا للعمل إلى جانب الرجل ، عن طريق تنظيم أوقات العمل والإجازات ، وتشجيع الرضاعة الطبيعية والفطام السليم ، وعد ذلك جزءا من رسالة تنظيم الأسرة ورعاية الأمومة والطفولة .

ولعل من يتمعن في طبيعة كثير من المنتجات الحديثة التي استخدمت فيها آخر مبتكرات العلم والتقنية يلاحظ تأثيرها على وظائف أعضاء الجسم الطبيعية ، حيث صارت الآلة تقوم له بكل شيء ، وحدّت من حركة أعضائه وأجهزته . ولن ندهش إذن لو توقعنا مزيدا من أمراض السمنة والقلب والشرايين والمفاصل والغضاريف ، إلى آخر تلك السلسلة من مخلفات الكسل والركود الوظيفي للجسم . ومن مظاهر التقدم الصحي المعاصر زيادة متوسطات الأعمار بين الناس ، وسوف ترتفع نسب المسنين بين السكان ، وتصبح مشكلة أمراض الشيخوخة ضمن أولويات الرعاية الصحية ، وتفرض أسلوبا جديدا في الرعاية ، بالخروج بها عن أسوار المستشفيات إلى المنازل ودور المسنين .

من ناحية أخرى اتسعت دائرة استخدام الطب التقليدي (الشعبي) ، واتخذ مسميات ومناهج مختلفة حسب تراث البلد ، والتحدي المستقبلي لهذا النوع من التطبيب هو حاجته الدائمة إلى التنقية من الممارسات الضارة ، وتشجيع ما فيه من ممارسات مفيدة ، تتلاءم مع معتقدات الناس دون تناقض مع معطيات العلم الحديث ، وذلك بإخضاعه للبحوث والدراسات الهادفة إلى تقصي سلامة العلاجات التي يستخدمها وفاعليتها ، وطبقا للنظريات والحقائق الثابتة في علوم النبات والبشريات وعلم الأدوية التجريبي والبحوث السريرية . ولا بد أن تكون هناك مؤشرات صحية جيدة التصميم ، لكي يتسنى تقويم النجاح والفشل للأنظمة الطبية المطبقة .

المعادلة الصعبة :

يشير الواقع إلى أن الظاهرة العالمية للارتفاع المتنامي لتكاليف الرعاية الصحية سوف تزداد وطأتها على الدول والأفراد . ومواجهة ذلك تتطلب أمرين أساسيين : الأول هو اتباع نظم الضمان أو التأمين الصحي ، فهو الحل السليم للمعادلة الصعبة لتلبية احتياجات العلاج والوقاية المتزايدة بالإمكانات المحدودة المتناقضة . كما أن التأمين يحقق التكافل والتضامن بين الغني والفقير ، وبين السليم والمريض ، وبين العامل ورب العمل ، وبه تستطيع المجتمعات أن تضمن أكبر قدر من اليسر والكفاءة ، لتوفر على الأقل الرعاية الصحية الأساسية لأفرادها ، وتحقق شعار الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠ ، الذي يعتمد إلى حد كبير على مبدأ المساواة بين البشر في عائد التنمية لجميع البرامج القطاعية .

والأمر الثاني للتغلب على عقبة ارتفاع تكاليف الصحة باتباع الحكمة المعروفة « الوقاية خير من العلاج » ، فالأولوية في الإنفاق الصحي يجدر أن تتجه نحو تعزيز سبل اتقاء المرض بالتثقيف الصحي الجاد المستمر ، حتى تتغير سلوكيات الناس

وعقائدهم إلى ما يحفظ عليهم صحتهم ، وتوفير كل وسائل تحسين الصحة من إصحاح للبيئة ورياضة للجسم وتغذية سليمة وتوعية دينية وأخلاقية ، تبعد الفرد عن اتيان ما يعرض صحته لخطر المرض . ولا بد أن يتسم الغد بالترشيد للإنفاق الصحي بتعزيز وسائل التشخيص المبكر للأمراض ، وتعميم الفحوص الدورية والرعاية المنزلية والتأهيلية ، وبذلك تتناقص الحاجة إلى أسرّة المستشفيات ، وهي التي تبتلع النصيب الأكبر من ميزانيات الخدمة الصحية في جميع البلدان . ولا شك أن سياسات الاصلاح الاقتصادي التي ترفع شعاراتها بين الحين والحين لن تكون مؤثرة إلا بتضييق الفجوة بين الأقوال والأفعال ، وتحقيق العدالة والحماية الصحية للمجموعات السكانية الأكثر حرمانا وتعرضا للخطر .

ويجدر في هذا المقام الإشارة إلى الدور الذي ستلعبه ثورة المعلومات في المجال الطبي ، سواء في التخطيط أو الممارسة أو التعليم أو التدريب أو البحوث باستخدام المعلوماتية « والتلماتية » ، وبخاصة الحواسيب الصغيرة والمصغرة عند الرصد والتقويم للأنشطة .

والأمل ألا يمر زمن طويل حتى تغطي شبكات المعلومات ذات الحواسيب الآلية جميع المؤسسات الطبية والبحثية داخل البلدان وخارجها لتنقل المعلومات الطبية بينها واستطراقها في أقصر زمن وبأقل تكلفة .

السلاح ذو الحدين

وسوف يشهد الغد عديدا من مستحدثات العلم والتقنية الطبية التي يلزمها تحصين أخلاقي كاف لاستخدامها في ممارسة المهنة . ومن أمثلة ذلك جراحات نقل الأعضاء البشرية والتجميل ، وأطفال الأنابيب ، وتحديد النسل ، وجراحات تغيير الجنس والخصائص الوراثية . وجميع هذه الممارسات الطبية ما لم يوضع لها ميثاق وتشريع أخلاقي يلتزم به الأطباء ، ويحفظ لكل إنسان حقوقه وكرامته ، وللأنساب نقاءها وشرعيتها ، فسوف تكون العواقب وخيمة ، والأضرار فادحة .

وبعد ، فإذا أريد للإنسان أن ينعم بالصحة والعافية في غده فعليه من الآن أن يعقد العزم لمواجهة القرن الواحد والعشرين ، بنظرة متطورة ، وفكر ثاقب ، للتغلب على ما فيه من تحديات ، وأن تتحلى الدول والأفراد بفضيلة التعاون والتآخي والسلام من أجل غد أفضل لكل البشر .

قاسم امين

□ لنعمل على أن نفكر جيدا . فهذا هو مبدأ الأخلاق .

(بسكال)

□ اننا نشعر بالخزى عندما نرفل في السعادة إلى جانب بعض مشاهد البؤس .

(لابروبار)

□ لاتكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم إياه .

(قاسم امين)

□ من يؤمن بالسلام ، فمثله الأعلى المحبة .

(هويتمان)

أرقام

بقلم : محمود المراغي

نساء.. ورجال

ماذا يحدث لو اختل التوازن بين عدد الرجال والنساء في العالم ؟ ماذا يحدث لو أن هناك فائضا ضخما من النساء الباحثات عن الرجال لتكوين أسر وحياة عائلية ، أو أن هناك فائضا من الرجال الباحثين عن الجنس الآخر ؟

الأكيد أن قانون العرض والطلب لن يحكم هذه المعادلة الانسانية ، فللوفرة والندرة هنا معانٍ وآثار أخرى .

على أي حال ، فإن العالم وباستثناءات محدودة ، مثلما يحدث في أوقات الحروب ، لم يتعرض لهذا المأزق ، مأزق العرض الزائد من النساء أو الرجال ، فلقد كانت حكمة الله دائما أن تتوازن الأعداد وتتقارب نسبتها في المجتمع . كما يحدث التوازن في عوامل البيئة الأخرى التي تجعل للحياة امكانية للاستمرار .

التوازن إذن هو الأساس ، ومع ذلك فإن هناك بعض الفروق في صالح الرجل ، حيث تسجل الأرقام أن الذكور أكثر بصفة عامة ، على الرغم من أن نسبة النساء في طول العمر أكثر .

بالأرقام ، يسجل آخر تقرير للبنك الدولي عن (التنمية في العالم سنة ١٩٨٨) ملامح الخريطة التي نتحدث عنها .

وقد تعادلت نسب النساء في الدول المتوسطة والمرتفعة في الدخل في الأرقام عن عام ١٩٨٥ ، بينما انخفضت النسبة فأصبحت (٩٥٪) فقط في الدول المنخفضة الدخل ، وارتفعت وزاد عدد النساء فأصبح (١٠٤) من النساء لكل مائة رجل في الدول الصناعية المتقدمة ، و(١١٠) من النساء في الدول الاشتراكية .

هل يرتبط ذلك بالفقر والثراء ، وبالتقدم والتخلف ؟

البنك الدولي يرجح ذلك ، ويقول : إن انخفاض نسبة الاناث في سكان الدول الفقيرة وراءه نوع من التحيز ضد المرأة ، ففي هذه البلدان تحصل البنات الصغيرات على غذاء أقل ، وتحصل المرأة الحامل على رعاية طبية أقل ، وعندما تصل المرأة إلى الشيخوخة تعاني من الأمرين معا : نقص الغذاء ونقص الرعاية الطبية .

ووفقا لاحصاءات عام (١٩٨٠) كانت نسبة النساء اللاتي يفارقن الحياة أثناء عملية الوضع نسبة مرتفعة كثيرا .

في الدول الصناعية وبين كل مائة ألف أم كانت تموت إحدى عشرة أمًا فقط ، بينما يرتفع المؤشر في هذه الدول التي يسميها البنك الدولي منخفضة الدخل ، ففي التاريخ ولنفس السبب كان عدد اللاتي يفارقن الحياة أثناء الوضع يتراوح بين (٣٢٩) و (٦٠٧) من النساء من كل مائة ألف .

البون الشاسع ، والعامل الاقتصادي سواء تعلق بالتغذية أو الرعاية الطبية أو طريقة الولادة والاشراف عليها ، هذا العامل حاسم كما يبدو على الأقل بينما يتعلق بحالات الوضع والتعرض للمخاطر

خلافها .

ولكن هل يمكن الاطمئنان لهذا التفسير بشكل عام ؟ ألايوجد استثناء في هذا المجال ؟

الاجابة غير مؤكدة ، فعلى الرغم من أن تقرير البنك الدولي قد استند للأرقام والملاحظات العامة ، إلا أن الأرقام أيضا تقول إنه في أفقر مناطق العالم ، وهي جنوب الصحراء في أفريقيا يزيد عدد النساء على الرجال حتى بات لكل مائة من الذكور (١٠٢) من الاناث !

أين القاعدة ؟ وأين الاستثناء ؟ الأمر يحتاج الى دراسة أكبر .

وهذا التفاوت الكبير

الأرقام بعد ذلك تلفت النظر ، فبين الدول النامية يوجد ذلك التفاوت الكبير بين الاناث والذكور .

في اليمن هناك (١١٠) من الاناث مقابل كل مائة من الذكور !

في بتسوانا (١١١) أنثى لكل مائة رجل !

وعلى العكس فإن نسبة الرجال في بلدان النفط مرتفعة الدخل (أقطار الخليج وليبيا) تفوق نسبة النساء إذ أن هناك ثمانين امرأة لكل مائة رجل . ويزداد الاختلال وضوحا في بعض البلاد ، مثل الامارات ، حيث توجد (٤٧) امرأة لكل مائة رجل .

والتفسير هنا أمر سهل ، فإن عامل الهجرة يلعب دوره ، أي أن الخلل ليس طبيعيا ، لكنه بفعل فاعل ، وإن كانت له علاقة أيضا بالعنصر الاقتصادي .

في حالات الحرب يموت الرجال في ساحات القتال ، وقد تختل النسبة بين الجنسين نتيجة لذلك .

لكن في حالتنا تلك الهجرة هي السبب حيث يغيب الرجال (على الأرجح) عن الوطن . وحالة اليمن العربية (صنعاء) شاهد على ذلك .

ويحدث العكس في الدول التي تستقبل المهاجرين ، حيث تستقبل في كثير من الحالات الرجال وحدهم ، لأنهم عماد القوة العاملة ، وبالطبع تختلف النسبة ، ويتفاوت الخلل من مجتمع إلى آخر فبينما تهبط نسبة النساء في ليبيا إلى رقم معقول هو (٨٥) امرأة لكل مائة رجل ، فإن النسبة كما ذكرنا تهبط إلى مادون النصف في بلد آخر هو الإمارات ، وربما يكون التفسير أيضا في عمالة عربية أو أوروبية مهاجرة إلى ليبيا ، وعمالة آسيوية مهاجرة إلى الخليج ، معظمها من الرجال على الأرجح .

أوروبا شيء آخر

في الدول المتقدمة يختلف الأمر ، فالنساء دائما أكثر ، وخاصة في الدول الاشتراكية :

ففي الاتحاد السوفيتي يبلغ العدد(١١٢)امرأة لكل مائة رجل .

وفي ألمانيا الاتحادية (١٠٨) من الاناث ، وفي فنلندا (١٠٧) ، وايطاليا (١٠٥) لكل مائة رجل .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية تبلغ نسبة النساء (١٠٥) بالمائة من الرجال ، وهكذا .

والتفسير أيضا ليس صعبا ، فمع الوفرة الاقتصادية والرعاية الطبية تعود المرأة لطبيعتها وتصبح أطول عمرا .

والأرقام أيضا واضحة حيث يزيد متوسط عمر المرأة عن عمر الرجل .

إذن فالتقدم والتخلف يلعبان دورهما والاقتصاد والمجتمع لهما دور في تلك اللعبة ، لعبة النساء والرجال ، ومن يسود العالم عدديا ، لكن أليس من حقنا أن نتساءل حول مجتمعات اللاتوازن ؟ والسؤال مازال مطروحا : ماذا يحدث عندما تزيد نسبة النساء ، ويطول طابور الباحثات عن أسرة ورجل وبيت سعيد ؟ أو يحدث الوضع العكسي حيث يزيد عدد الرجال ؟ الأسئلة والنتائج الاجتماعية كثيرة ، ومع ذلك فالحكمة عند الله أنه وحده يحدد الأجناس ، فيجعل لكل رجل امرأة عند الميلاد ، أو هكذا على وجه التقريب ، ومنذ بداية الخليقة حين بدأت بزوجين اثنين لا أكثر : آدم وحواء ، والبقية تأتي على نفس المنوال . □

عدد ممتاز

اقرأ في عدد يناير ١٩٨٩م

العربي

هدية العدد مفكرة ١٩٨٩

استطلاعات ملونة :

- فيتنام .. شعب التحديات — سليمان مظهر
- عُمان .. عين على التاريخ وأخرى على المستقبل — علي عثمان

- الإسلاميون المعاصرون وحضارة الغرب .... د. فؤاد زكريا
- النفط .. والتنمية .. والبيئة في الكويت — مهندس حامد شعيب
- هل يصبح العالم الثالث مقبرة للنفايات النووية ؟ — د. سمير رضوان
- نجيب محفوظ .. رحلة الحارة .. من المعاناة إلى المسرات — د. سليمان الشطي
- من دفتر الذكريات .. د. زكي نجيب محمود
- قطع غيار حيوانية للإنسان ! .... د. محيي الدين لبنية
- الهوة بين التقدم والتخلف د. عبدالله عبدالدايم
- التخلص من الشيخوخة — د. سامي عزيز

واقرأ أيضاً للكتاب :

د. محمد الرميحي
د. سمحة الخولي
د. محمد عيسى صالحية
سلمى الكزبري
د. خالد رويشدي
أبو المعاطي أبو النجا
د. نجوى قلعجي
يعقوب السبيعي

وجهاً لوجه : د. مصطفى طلبة ود. أسامة الخولي

الموشحات والقدود

حلبيَّة أم حِمصيَّة؟

بقلم : الدكتور عمر موسى باشا *

هناك كثيرون من العلماء والشعراء ظلوا مغمورين وهم ممن كانوا مبدعين في آثارهم الأدبية والشعرية . والغريب أن نجد كثيرا من المحدثين قد استمدوا أفضل ما عندهم من التراث الذي خلفه هؤلاء الاعلام ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء الاشارة اليه بشكل من الأشكال تلميحا او تصريحا . ويبدو أن السرقات الأدبية والفكرية ولاسيما لدى الناشئة من الشعراء والكتاب قد انتشرت انتشارا كبيرا في وطننا العربي فاختلط الصالح بالطالح ، وغام الحق في الباطل ، وهكذا ضاع الحق وسلب الفكر والابداع من اصحابه ليدعيه غيرهم ممن استولوا على حقوق هؤلاء المبدعين ، ذلك لأنهم قصروا عنهم فلم يجدوا امامهم غير الاقتباس والتقليد دون أن يشيروا الى هذه المصادر التراثية التي استقوا منها .

*رئيس قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ جامعة دمشق

حفزني الى الاشارة الى هذا الأمر الخطير مالاحظته في ديوان الشاعر الحمصي أمين الجندي وكان آخر الشعراء الذين اهتممت بهم وترجمته كعلم متميز من أعلام الشعراء في العصر العثماني وقد توفي سنة (١٢٥٧هـ/ ١٨٤١ م) .

وأبرز ما لاحظته أنه كان شاعرا متصوفا كبيرا ، وقد نظم في بعض الاغراض من النبويات والشيب والغزل والخمريات ، وخص الغنائيات بأكثر من نصف الديوان الذي يتجاوز خمسمائة صفحة ، وعقد بابا فيه بعنوان : « القدود اللطيفة والاناشيد الظريفة » وهو الباب الثالث.والملاحظ أن الموشحات قد تطورت عند الشاعر فكان مجددا لها بتطوير جديد يتناول أوزانها وشكلها ومضمونها ، وسماها القدود . ويؤكد هذا كله أن الشاعر الحمصي أمين الجندي كان الرائد الأول في نظم القدود ، فبلغ عددها أكثر من نصف الديوان ، وهي تتميز بأسلوب خاص بالشاعر لم نعرفه لدى أي شاعر آخر مشرقي أو مغربي ، وتطورت هذه القدود الحمصية حين انتقل الشاعر الى دمشق ، فأخذت منها رقة طبيعتها وثراء صوفيتها ، فأصبحت القدود الحمصية هي القدود الشامية ، والطريف أن الشاعر الجندي كان يكرر ذكر الشال السليمي نسبة إلى سلمية وهي بلدة سورية قريبة من حمص وفوجئت حين اطلعت على هذه القدود ، واتضح لي انها هي الاصل والينبوع الذي استمد منه شعراء القدود المعاصرون ، وأخذها منهم المغنون والمطربون الذين لم يؤدوا الامانة كما يجب أن تؤدى ، ولم يشيروا الى هؤلاء المبدعين المبتكرين الذين سبقوهم اليها .

والغريب حقا ان نجد النصوص كاملة مأخوذة بألفاظها واوزانها ورويها ولحنها الغنائي المسجل بجانب كل قدّية من قدود الجندي .

شواهد من ديوان الجندي

ونرى توضيحا لما قدمنا أن نشفع ذلك كله بالشواهد من ديوان الجندي ، وهي نفسها التي نسمعها في كل وقت على لسان هؤلاء المطربين ، ونجهل أنها من ابداع الشاعر الحمصي أمين الجندي الذي انتهكت قدوده وسرقت موشحاته .

ليس منا من يجهل المطرب العراقي ، ناظم الغزالي ومقطوعته المشهورة التي ينشدها كل انسان اشتعل الرأس منه شيبا ، وهي قوله :

عيرتني بالشيب وهو وقار
ليتها عيرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني
فالليالي تزينها الأقمار

هذان البيتان اللذان يترددان من أقصى المشارق الى أقصى المغارب للغزالي لايدري احد أنهما بعض أشعار الجندي الحمصي . وهذا قليل من كثيرولابد لنا من الوقفة مطولا عند القدود الحلبية أو القدود المنسوبة الى حلب ، وهي اسطورة غير صحيحة ، إذْ اتضح لنا أن معظم مالحنه مطربنا الحلبي إنما هو للجندي نفسه نظما ولحنا كما هو وارد في الديوان ، وذلك لأن الطبيعة الحلبية لاتولد قدودا تحاكي القدود الشامية ، وتسميتها من بعض من سطوا على قدود الجندي لايسمح لنا أن ننسبها الى غير مبتكريها ومبدعيها .

إن العاملين الزماني والمكاني غيرمتوافرين لنشوء الموشحات والقدود فيما ينسب اليه الان . ولسنا ضد نشوء موشحات حلبية تنسجم مع طبيعة حلب ، ولكننا لانقبل أن تأخذ الموشحات الحمصية الشامية

آلات موسيقية مصاحبة لأداء الموشحات والقدود .

التي نظمها الشاعر المبدع الجندي وتغنىّ بالشالات السليمية وتنسب لغيره .

وجدير بالذكر أن القدود والأناشيد تؤلف معظم ما في الديوان ، اذ بلغ عددها قريبا من مئتي قُدّية ، ولم نعرف في تاريخنا الأدبي تطوراً شمل الموشحات الأندلسية كهذا التطور .

لقد ازدهرت القدود في بلاد الشام كغرض جديد يتميز من الموشحات المعروفة في العصور السابقة ، وهذا التجديد في أنماط الشعر العربي في العصر العثماني المتأخر يعطينا أبعاداً جديدة جهلها مؤرخو الأدب ، ولسنا في معرض مناقشة هذا الموضوع . . وإنما نريد أن نوضح أهمية الشاعر الجندي شاعرا رائدا في هذا العصر ، وهو مبدع القدود نظما ونهجا ولحنا وغناء ، ذلك لان المتصوفة كانوا يعتمدون عليها في سلوكهم ومواجدهم . وغريب حقا أن نستمع الى هذه القدود منسوبة إلى مغنيها نظما ولحنا دون اشارة الى هذا المبدع الحمصي الذي نظمها ولحنها وأنشدها في حلقات المتصوفة في حمص ودمشق ولابد لنا ، توضيحا لما نقول ، وتوكيدا لما تذهب اليه ، أن نشير الى القدود التالية :

القدّية الاولى

تتألف هذه القدّية من لازمة أحادية وخمسة ادوار مزدوجة ، مطلعها :

يـاصـاح الـصـبـر وهـى مني
وشـقـيـق الـروح نـأى عني

وهي ، كما ذكر في الديوان « عروض (يام الشال) نوى »

القدّية الثانية

تتألف هذه القدّية من لازمة مزدوجة وعشرة أدوار زوجية ومطلعها :

قول الجندي :

هيمتني تيمتني عن سواها أشغلتني

عاتي ماذا عليها بالـلقا لو أتحفتني ؟

وهي كما ذكر في الديوان « عروض (جو جحتي برجحتي) رهاوي » ويتضمن هذا الموشح القدي ذكر الشال ، وهو مذكور في قدود الجندي ، وذلك قوله في القدّية نفسها :

تـدل الشال السليمي فوق أعطاف شجتي

ومنها :

حبذا وادي حماة لي بها أشدّ حتي

يابني جيلان ذكرى جدكم قد اطربتني

واختتم هذه القدية ذاكرا اسمه كعادته في قصائده وقدوده :

ما امين الحب نادى هيمتني تيمتني

والمؤسف ان اسم الشاعر قد ضاع ، أو قد ضيعه من غنوا قدوده ناسين فضله ، زد على ذلك هذه الاشارة الى بيئة القدود ، وهي حمص ، وحماة ، وسلمية

القدّية الثالثة

تتألف هذه القدية من لازمة أحادية وأربعة أدوار ثنائية ، ومطلعها قول الجندي :

ياغزالي كيف عني أبعدوك ؟

شتتوا شملي وهجري عودوك

وهي كما ذكر في الديوان « عروض اصبهان » وفيها يتحدث الشاعر عن ريم الفلا قائلا :

قلت رفقا : ياحبيبي قال : لا

قلت : راع الود ياريم الفلا

القدّية الرابعة

تتألف هذه القدية من لازمة رباعية ودورين رباعيين ومطلعها قول الجندي :

بين قيصوم وربوة

قد ربي هذا الغزال

وقد غني هذا القدّ في مسلسل للفنان صباح فخري ، وهو مذكور في الديوان ، ولحنه « سماعي اقصق » كما هو الامر نفسه في سائر القدود ، ولم يقتصر الأمر على الفنان الحلبي ، وإنما سار على سنته المطربون المحدثون ، فأخذوا من الديوان عشرات القدود ، وغنوها في الحفلات دون الاشارة الى المصدر الذي استقى منه .

لم يقتصر الأمر على الفنانين المطربين وإنما تجاوزهم الى المنشدين الدينيين في الاحتفالات والمناسبات ، نذكر على سبيل المثال المنشد توفيق المنجد فقد استمد من نبوياته قوله في نبويته الرائية .

رب إني قصدت بابك فاشهد

بمقامي وما النبيه بصير

يا عظيما يرجى لكل عظيم

وعلى كل ما يشاء قدير

يا مجيب المضطر مهما دعاه

يا الهي انت اللطيف الخبير

الى آخر القصيدة النبوية

الرائد والاقتباس

مهما يكن من أمر هذا كله ، فلابد من الإشارة الى أن الشاعر الجندي كان رائد القدود ومبدعها في العصر العثماني ولا يضيره أن يقتبسها المحدثون ، وهذا - في الواقع - يدلنا على أهمية هذه الأناشيد الغنائية .

ومن الوفاء أن نحفظ للسابقين حقوقهم وأن نعترف بفضلهم ، لا أن نسطو على آثارهم وأشعارهم وألحانهم .

وهكذا يتضح مما تقدم معنا أنه لا وجود للقدود الحلبية ، وإنما هي قدود حمصية مطبوعة بالطابع الشامي ، ومتشحة بالوشاح الصوفي ، والشال السليمي،فهي ابنته وليدة هذه البيئة على ضفاف العاصي ، وهي التي اعطتها رقتها وجرسها وعذوبتها .

أما تسميتها بالقدود الحلبية فهذا جور كبير ، وظلم نلحقه بالشاعر المبدع الحمصي لانه الرائد الذي أبدع ذلك في بيئة جميلة صوفية ساعدت على ذلك . □

طفولة

شعر :
جمال القصاص*

دعوني أغني لكم أغنياتي
وأكتبُ ما شئتُ مِنْ كلماتي
دعوني أغني
دعوني وحلمي الكبيرْ
فبينَ الضلوعِ غرامٌ أسيرْ
وقلبٌ رقيقٌ كما النسماتِ

* *

دعوني أراقِصُ عُشْبَ الحديقهْ
وأرسمُ في دفترِ الليلِ
شمسَ الحقيقهْ
لتنهضَ كلُّ الشموعِ الغريقهْ

* *

دعوني أكُنْ ما أشاءْ
فما زلتُ أهوى اشتعالَ الضياءْ
وأخفقُ للطيرِ فوقَ الغصونْ
وبينَ كفوفِ الهواءْ
أريدكَ يا حبّنا أنْ تكونْ
دويًا يهزُّ السكونْ
ويملأ بالأغنياتِ فراغاً نما في سوادِ العيونْ
أريدكَ سيفاً وفأساً بكلِّ المواقعْ
وسوطاً مِنَ النّارِ عنّا يدافعْ
أريدكَ أسمى كتابٍ يقولُ الحقيقهْ
رغمَ القيودِ ورغمَ الموانعْ
أريدكَ روضاً وفُلّهْ
أريدكَ طفلاً وطفلهْ
طليقينِ
لا يعرفانِ الأسى والمذلهْ

* شاعر من القطر العربي المصري

يصدر في ١٥ يناير ١٩٨٩

كتاب العربي

الثاني والعشرون

الإسلام والعروبة
في عالم متغيّر

بقلم الدكتور عبد العزيز كامل

كتاب العربي مرآة العقل العربي

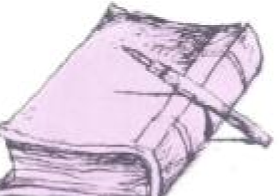

حكايات من دفتر الوطن

ما بعد مصرع مأمور البداري

بقلم : صلاح عيسى

« لقد فضح الحكم في قضية البداري شيئا قليلا من أوزار هذا الزمان ، ولو افتضحت كل أوزاره لعجب الناس في هذه الأمة كيف بقيت في نفوس الناس سورة للعدل ، ونخوة للغضب الشريف » .

« عباس محمود العقاد » الجهاد/ ١٩ ديسمبر ١٩٣٢

كان اسماعيل صدقي رئيسا لوزراء مصر ، يحكم بالقهر والقمع ، وكانت ضحاياه في كل المدن والقرى . امتدت يد الادارة بالتعذيب الجماعي لقرى بأكملها ، وفي قرية صغيرة في أقصى جنوب مصر هب شابان فاض بهما الكيل من تعذيب المأمور فأطلقا عليه رصاصات أودت بحياته .

وأطلق عليهما اسماعيل صدقي رئيس الوزراء كل رجال الإدارة ، لتبدأ فصول قصة من أفدح قصص القهر والثورة في تاريخ مصر الحديث .

بدأ التحقيق هادئا : قبضت النيابة على عدد من شبان « البداري » وعلى رأسهم المقيدون في قائمة المشبوهين .. وبينهم « احمد جعيدي » و « حسونه » ، واستدعى بعض الاعيان ، وانكر الجميع أن لهم علاقة بالحادث ، وحددوا اماكن تواجدهم ساعة وقوعه ، واستشهدوا على ذلك بآخرين أيدوهم على صحة ما قالوه ، واعتصم الجميع بالمكر الريفي التقليدي ، فتأسفوا لوقوع الجريمة ، وذكروا أن « المرحوم » كان ماهرا في

اكتساب العداوات . ولا بد أن أحد « أولاد الحرام » من غير أهل « البداري » هو الذي اطلق الرصاص .. ولم يجد المحقق مبررا قانونيا لاحتجازهم ، فأطلق سراحهم ، وأوشك أن يغلق الملف !

لكن هذه الأنباء لم تكد تصل إلى القاهرة ، حتى ثار وزير الداخلية « اسماعيل صدقي » وأصدر تعليماته الى حكمدار اسيوط ـ أعلى قيادة شرطية في المحافظة ـ بأن يتولى بنفسه العثور على القاتل والاشراف على جمع الأدلة ضده ، وأصدر وزير العدل ـ « علي ماهر باشا » ـ تعليمات لرئيس نيابة اسيوط بالاشراف على التحقيق . وليشعر الجميع بأن دماء المأمور عزيزة على النظام ، بل إنها دماؤه هو نفسه ، فقد عبر « صدقي باشا » بنفسه في تصريح لجريدة « الاهرام » عن اسفه لمقتل « يوسف الشافعي » ، وقال إنه كان مثالاً للكفاءة والحزم ، وأعلن أن الوزارة ستصرف للاسرة معونة عاجلة قدرها الف جنيه وانها أعدت مذكرة لعرضها على مجلس الوزراء لتقرير معاش استثنائي لها ..

أدرك « صدقي » ، وأدرك حكمدار اسيوط ، وأدرك كل من له خبرة بالعلاقة بين الحكومة والفلاحين ، أن أهالي « البداري » يعرفون القاتل ويتهامسون باسمه ، لكنهم لا يرون فيما فعل القاتل جريمة ، بل ينظرون اليها على أنها ارادتهم، لذلك تدافعوا يحمون الذي نفذها ، ويسعون بمكر الفلاحين لكي تشيع التهمة بين كثيرين ، فيضيع دم المأمور هدراً ، وتضيع معه هيبة الحكم . بهذا الفهم غزا حكمدار اسيوط مدينة « البداري » الصغيرة ، ليؤدب الشامتين في الحكومة ، ويعثر على القاتل فوزع قواته الى ثلاثة أقسام ، حاصر الأول مداخل المدينة ليمنع الدخول إليها والخروج منها . وانتشر الثاني ـ وكان من جنود الهجّانة الذين ينتمون الى جنوب السودان ـ في شوارعها وطرقاتها فأعملوا في الناس سياطهم ، وأخلوا شوارع المدينة تنفيذا لقرار بحظر التجول .. اما الفريق الثالث فكان مكلفا بالتحقيق « على الطريقة الصدْقيّة » : الضرب بالسياط ومقابض البنادق ، والإجبار على شرب بول الخيل وأكل التّبن ..

بحكم ما بينها من مشاكل قديمة ، وجه « العمدة همام » شبهات الحكمدار وقادها لتتركز حول « احمد جعيدي » و « حسونه » فحاصرت قوات الهجانة منزليهما ، وألقت القبض عليهما ، وعلى بقية المشبوهين ، وربطتهم بالحبال إلى ذيول الخيول ، وسحبتهم على أرض الشوارع الواقعة بين منازلهم ومبنى المركز ، وهم يضربون بالسياط لإحاطة أهل « البداري » علما بالطريقة التي سيجري بها التحقيق !

ولان « احمد جعيدي » كان يدرك أن أحداً لا يملك دليلا ضده ، فقد أصر على الانكار ، على الرغم من التعذيب البشع الذي تعرض له ، والذي تواصل ليل نهار ، وساندته « حسونه » فأنكر هو الآخر ، آنذاك لجأ الحكمدار الى وسيلة كان يعلم أنها لن تخيب ، وسوف تحمله على الاعتراف فورا : أمر قوات الهجانة فحاصرت بيت « آل جعيدي » ، وألقت القبض على كل من يسكنه ـ الجد الذي كان عمره أيامها قد ناهز المائة عام ـ والاب والام وشقيقة احمد الصغرى . والأعمام والعمّات . وسيق الجميع في موكب علني ، شق شوارع المدينة الصغيرة من بيتهم إلى مركز الشرطة ، ليجدوا « آل عاشور » قد سبقوهم الى هناك في موكب مشابه .. بينما كان المنادي يصاحب الموكب ليعلن في الشوارع ، أن نساء « آل عبدالحق » و « عاشور » سوف تخرجن من مركز الشرطة عاريات ملطخات الوجوه مربوطات بالحبال الى ذيول الخيول كالسبايا !

واستدعى الحكمدار المتهميْن وطالبهما ـ لآخر مرة ـ بأن يعترفا بما ارتكبا ، ولما أصرا على الإنكار ، أمر بعض الجنود فبدأوا في طلاء وجوه النساء باللون الابيض ، وأمر آخرين بنزع ملابسهن وقبل أن تنزع الأيادي ملابس الأمهات والشقيقات ، كان « احمد جعيدي » يصرخ ، معلناً أنه سيتكلم ، بشرط أن تغادر النساء مبنى المركز ، ويسمح لهن بمغادرة المدينة كلها .. ووافق الحكمدار . واعترف « احمد جعيدي » بأنه الذي اطلق النار على المأمور ، وقال إنه لم يقصد قتله ، ولكن أراد فقط تخويفه ليكف عن تعذيب أهالي المدينة وإهانة كرامتهم .. وهدأ الموقف .. وخف توتر الحكمدار ، فخفف من الاجراءات الصارمة التي كان قد طبقها على المدينة .. وما أن اطمأن « جعيدي » الى أن نساء الاسرة قد غادرن « البداري » حتى عدل عن اعترافه ، وقال للمحقق ببساطة :

ـ لقد عذبتموني ، وكنت مستعدا أن اعترف بأنني الذي ارتكبت كل جرائم القتل في مصر كلها لتتوقفوا عن تعذيبي !

في هذه المرة انهال الجميع على « أحمد جعيدي » يركلونه بالأقدام ، ويضربونه بالسياط ويحشون فمه بالتبن ، ويدفعون رأسه في آنية مليئة ببول الخيل، ويضعون العصى

في دبره ، ويجبرونه على أن يصيح : أنا مَرَة . . وهو يواصل انكاره للإعتراف ، و « حسونه » يسانده في انكاره . . وارتفعت صرخات الشابين ، حتى أنها ـ كما قال « الشيخ جعيدي » والد « أحمد » في رسالة أرسلها للصحف فيما بعد ـ كانت تخترق الجدران من هول العذاب فيسمعها الناس على مسافات بعيدة . واشتد التعذيب بعد أن تقدم أحد الأعيان ، باحدى البندقيتين اللتين ارتُكِبَ بها الحادث . وذكر أن خادمة لديه شاهدت جعيدي وهو يخفيها في أحد أكوام القش ليلة الحادث وكان لابد أن تأتي اللحظة التي لا مفر منها . . اعترف الشابان بأنهما القاتلان . . ونقلا من المركز الى سجن اسيوط ، وغادر الحكمدار المدينة ، لكنه ترك جانبا من قواته ليواصل تطبيق الأحكام العرفية ، واكتشف قبل أن يغادر مبنى المركز ، طفلة صغيرة ، تبين أنها أصغر شقيقات « أحمد » ، كانت أمه قد نسيتها في السجن من فرط الهول الذي شاهدته !

وحكمت المحكمة

في ١٠ ابريل ١٩٣٢ ـ أي بعد الحادث بثلاثة اسابيع فقط ـ قرر قاضي الإحالة ، احالة المتهمين الى محكمة جنايات اسيوط لمحاكمتهما بتهمة قتل المأمور عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، والشروع في قتل مهندس الري . . وانضم والد القتيل وهو « الشافعي حنفي افندي » الى الدعوى مطالبا بتعويض مؤقت قدره جنيه واحد . . وفي ٢١ يونيو ١٩٣٢ اصدرت المحكمة حكما باعدام « أحمد جعيدي عبدالحق » ومعاقبة « حسن أحمد أبي عاشور » ، الشهير بـ « حسونه » بالأشغال الشاقة المؤبدة . . وتعويض اسرة المأمور القتيل بجنيه واحد مع المصاريف . . وعشرة جنيهات أتعاب محاماه . . وطعن دفاع المتهمين في الحكم بالنقض في يوم صدوره . . . .

وفسرت محكمة جنايات أسيوط أسباب تغليظها للعقوبة ، ورفضها لمعاملة المتهمين بالرأفة ، بسببين :

■■الأول : إن المأمور القتيل كان « يؤدي واجبه بمطاردة هذين الشقيين اللذين عاثا في الارض فساداً ، فاقدم هذا الأثم على قتله ، مما يدعو المحكمة الى أخذه بالشدة ، ودون رحمة ولا شفقة »

■■الثاني : إن جريمة القتل اقترنت بحالة « سبق الاصرار » ، فهي لم تتم في فَوْرة انفعال ، أو نتيجة غضب مؤقت ، بل سبقها تروّ وتبصر وتفكير مطمئن في

● على ماهر باشا وزير الحقانية

ارتكابها ، واقترن هذا الاصرار المُسْبَق بحالة « ترصُّد » ، إذ كمن القاتلان للمأمور ، أكثر من مرة ، قبل أن يتاح لهما تنفيذ جريمتهما وهاتان الحالتان أي « سبق الاصرار » و « الترصد » من مبررات التشدد وعدم الشفقة ، لما تدلان عليه من نذالة الجاني وإمعانه في استخدام الوسائل التي يضمن بها تنفيذ جريمته ، ولما تثيره من اضطراب في الأنفس التي يأتيها الهلاك من حيث لا تشعر

واستدلت محكمة الجنايات على توفر هاتين الحالتين ، بأن المتهمين كانا يحقدان على المأمور القتيل ، لأنه ـ

طبقا لما ورد في شهادة « محمد بك نصار » احد عمدتي « البداري » أمام المحكمة ـ كان يطلب توءميها في مركز الشرطة ، وفي توءمهما كانت تحصل لهما إهانات « جامدة » من العساكر » ، ليبرهما الرديئة . . فتأملنا من هذه الاهانات ، اذ كان المأمور يأمر بقص شواربهما ، ويجيب لهما « رشمة ليف » ويعملها لهما زيّ لجام الجحش . .

وكان يكلفهما بأن يقولا : أنا مَرَه . وحصل أن دق العصى في دبريهما ، ولما سألته المحكمة عن المظاهر الاخرى التي تجعل المتهمين يمتلئان غلا على المأمور ، فيقتلانه ـ بعد سبق اصرار وترصد ـ قال

ـ هوّا فيه أكثر من دق العصا في « . . . . » وقصّ شنبه . . وقُصّته وإلجامه . . ؟ !!

فساد التعليل

لم يكن أحد قد عرف شيئا عما جرى في « البداري » منذ نُشر خبر مصرع المأمور . . ولم تنشر الصحف كلمة عن ما فعله حكمدار اسيوط بأهلها ، كانت الخلافات المكتومة داخل احزاب المعارضة قد فتت في عضدها ، وفرقت بين صفوفها ، فخمد نشاطها أوكاد ، وفي شهور الصيف سافر الزعماء والقادة إلى أوروبا ليستريحوا من الصراع ، اما ملف قضية مصرع مأمور البداري ، فكان بين يدي « عبدالعزيز فهمي باشا » رئيس محكمة النقض !

وأيامها كانت « محكمة النقض والابرام » هي احدث مؤسسات القضاء المصري ، وأعلى مراتبه . . إذ لم يكن قد مضى على تشكيلها إلاّ أقل من عام ، وهي ليست درجة من درجات التقاضي ، ولا محكمة للفصل في موضوع الخصومة ، لأن مهمتها هي الحكم على عمل القاضي الذي فصل في الخصومة ، أي أن وظيفتها هي « الحكم على الحكم » . وقد أضفى على مكانتها مهابة ، أن أول رئيس لها كان « عبدالعزيز فهمي باشا » ، أحد الثلاثة الذين قابلوا المندوب السامي البريطاني في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، ليطلبوا إذنا بالسفر لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح ، وقطب « الوفد المصري » ، ووكيل حزب الأحرار الدستوريين ثم رئيسه، ووزير الحقانية ورئيس محكمة الاستئناف الذي غضب لكرامة منصبه ، فاستقال منه لمجرد أن أحد النواب قدم سؤالا لوزير العدل عن المرتب الذي يتقاضاه !

في بداية ديسمبر ١٩٣٢ ، كان « صدقي » يستعد للاتصال بالمندوب السامي البريطاني ليدخل معه في محادثات تمهيدية ، تنتهي باسعاد بريطانيا برؤية توقيعه على معاهدة بينها وبين مصر كما قال له « السير جون سيمون » ، وفي اليوم الخامس منه ، اصدرت محكمة النقض ـ برئاسة « عبدالعزيز فهمي باشا » وعضوية « محمد لبيب عطيه بك » ، و « زكي برزي بك » و « محمد فهمي حسين بك » و « أحمد امين بك » ـ حكمها في الطعن بالنقض على الحكم الصادر باعدام « احمد جعيدي » وسجن « حسونه » مدى الحياة . . فاذا بها ترفض الطعن « على مضض » ، وتعبر عن دهشتها لان محكمة جنايات اسيوط قد اعتبرت ان ما كان يفعله المأمور القتيل بالمتهمين ، هو من قبيل أداء الواجب ، وتستند إلى هذا في تشديد العقوبة عليهما . . وهو ما وصفته محكمة النقض بانه « تعليل فاسد يقوم على أساس مرتبك غير صحيح » ، لأن المحكمة « اعتبرت شذوذ المأمور القتيل الاجرامي من قبيل قيام الموظف باداء واجبه مع أن البداهة تقضي بانه شذوذ يُحْفِظ كل انسان ، ولو كان مجرما ، ويدعو الى معذرته والتخفيف من مسئوليته ، اذا هو سلك سبل الانتقام » !

وانطلاقا من هذا الفهم المختلف للموضوع ، هدمت « محكمة النقض » الركن الثاني الذي دفع محكمة اسيوط لتغليظ العقوبة على المتهمينْ ، وهو ركن « سبق الاصرار » « والترصد » ، فلم تقتنع بأنهما ارتكبا الجريمة بإصرار مُسبق ، رغم أن الظواهر توحي بانهما قد خططا لها ، ولم يرتكباها في لحظة استفزاز أو غضب مفاجيء . وقالت « إن المعاملة التي كان المجني عليه يعامل بها المتهمان هي اجرام في اجرام ، ومن وقائعها جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالاشغال الشاقة ، وكلها من أشد المخازي اثارة للنفس واهتياجا لها ، ودفعا بها للانتقام » ، واستنتجت من ذلك انهما كانا في حالة اهتياج دائم ينتفي معه القول بسبق الاصرار .

اما لماذا لم تلغ « محكمة النقض » الحكم وتقبل الطعن الذي رفضته « على مضض » ؟ فلأن المحكمة التي أصدرت الحكم لم تخرج في تقدير العقوبة عن النص القانوني ، وإن كانت قد اخطأت في تبرير أسباب تغليظها لهذه العقوبة ، والقانون صريح في أن المحكمة غير ملزمة ببيان اسباب الرأفة بالمتهم او الغلظة عليه ، « اذ الرأفة شعور نفسي تثيره علل مختلفة لا يستطيع المرء غالبا أن يحددها حتى يصورها بالقلم او اللسان ، ولهذا لم يكلف القانون القاضي ببيانها » . .

لم يكن تخفيف الحكم اذن من سلطة « محكمة

● زكى الابراشي باشا .. عاد صدقي ليجده يدير الوزارة من مكتبه

النقض » .. ولذلك لم تخففه ، واذا كانت من الوجهة القانونية قد احترمت الحكم ، فقد أصرت على أن تنص في حكمها أنها « وجدت من الواجب عليها من جهة العدل وراحة لضمائر اعضائها ، أن تلفت نظر اولى الامر الى وجوب تلافي هذا الخطأ القضائي الذي لا حيلة قانونية لها فيه ، ولو كان الأمر بيدها ، وكانت هي التي تقدر العقوبة ، لما وسعها أن تعاقب المتهمين كلهم بمثل تلك الشدة ، بل لعاملتهم بما توجبه ظروف الدعوى من الرأفة والتخفيف » !!

اختلاف الشركاء يكشف الجريمة

بعد اسبوعين من صدور حكم « محكمة النقض » ، بدأت الانباء تتسرب عن أن هناك خلافاً بين وزير العدل « علي ماهر باشا » ووزير الداخلية ورئيس الوزراء « اسماعيل صدقي باشا » حول الطريقة التي تتعامل بها الحكومة مع الحكم .. وكان من رأي وزير العدل انه لا يستطيع أن يتجاهل حيثيات حكم صادر من محكمة رفيعة المستوى ، ولا أن يصم آذانه عن المطالبة الصريحة التي وجهتها له بالسعي لتخفيف الحكم عن المتهمين ، عن الطريق الوحيد المتاح ، وهو أن يستصدر امرا ملكيا بتخفيف العقوبة .. وقال رئيس الوزراء ، إن محكمة النقض لم تجد على الحكم مأخذاً من الناحية القانونية ، وأن توصيتها بتخفيف العقوبة ليست ملزمة للحكومة ..

وفي يوم ١٨ ديسمبر ١٩٣٢ ، عقد « علي ماهر » اجتماعا بمكتبه في « وزارة الحقانية » ، حضره « عبدالعزيز فهمي باشا » رئيس محكمة النقض وكبير المستشارين القانونيين للحكومة ، والنائب العام ، حيث تداولوا في حيثيات الحكم .. وفي اليوم التالي نشرت جريدة « الجهاد » ـ كبرى صحف « الوفد » ـ وفي صدر صفحتها الأولى النص الكامل لحيثيات حكم « محكمة النقض » ، وقد ابرزت في عناوينه العبارات التي تصم الحكم بانه يتبع اساليب هي اجرام في اجرام ، بينما بدأ كاتب الوفد الجبار ، « عباس محمود العقاد » ، سلسلة مقالات عنيفة ، عن دلالات حكم النقض ، كان أولها بعنوان « فظائع القرون الوسطى : اين نحن ؟ .. واين أعداء الفوضى في الادارة المصرية ؟ » ختمه قائلا : « لقد فضح الحكم في قضية البدارى شيئا قليلا من اوزار هذا الزمان ، ولو افتضحت كل اوزاره لعجب الناس في غير هذه الامة ، كيف بقيت في نفوس المصريين سورة للعدل ونخوة للغضب الشريف » .. وعلى امتداد الاسبوع التالي ، كتب « العقاد » ثمانية من اعنف المقالات التي كتبها في حياته السياسية ، حولت الحكم في قضية البدارى الى قضية قومية ، تتحدث عنها الصحف والمنتديات ، وتصدر بشأنها القرارات والبيانات ، وتعقد من أجلها الاجتماعات والمؤتمرات ، وتجري المفاوضات والمشاورات ، وتتفجر خلال كل ذلك قضايا في الفكر السياسي والفقه الدستوري ، تكشف العلاقة بين الاستبداد الداخلي وبين القهر القومي !

ولا احد يدري على وجه القطع ، السبب الذي من أجله تشدد « علي ماهر » كل هذا التشدد ، وأصر على أن يدفع بالأمور الى طريق الأزمة .. صحيح أنه من رجال القضاء القدماء وانه كان عميداً لكلية الحقوق ، وعضوا في اللجنة التي وضعت الدستور .. إلا أنه ايضا من أبطال الانقلابات الدستورية ، وكانت وزارة « صدقي » هي الانقلاب الثالث الذي يشارك فيه .. ثم إنه كان وزيرا معه عام ١٩٢٥ حين وقع « حادث إخطاب » فلم يحتج ولم يثر أزمة ! .. والاهم من هذا وذاك ، انه كان وكيلا لحزب « الاتحاد » ـ الحزب الذي اسسه القصر ـ وممثلا له في الوزارة الائتلافية التي يرأسها « صدقي » .. فهل كان

«حزب الاتحاد» يخطط لنسف ائتلافه مع «صدقي»؟ وأن يظهر له مدى قدرته على تأزيم الأوضاع أمامه؟ . أم ان الأمر كله هو أن «علي ماهر» ـ وهو من ألغاز التاريخ السياسي المصري ـ شعر بأن السفينة توشك أن تغرق، فآثر أن يفر منها .. ليطرح إسمه كرئيس مقبول للوزارة القومية التي كان يدور جدل حول تأليفها آنذاك على انقاض نظام «صدقي»؟!

ربما يكون دافعه أحد هذه الأسباب .. وقد تكون كلها .. أما المؤكد فهو أن «علي ماهر» اتفق مع رئيس محكمة النقض على أن يرفع التماساً باسمه ـ كوزير للعدل ـ إلى جلالة الملك بطلب ابدال عقوبة الاعدام الى الاشغال الشاقة، ووافق على أن يأمر بإجراء تحقيق عن كل ملابسات القضية، يشمل الذين تولوا تحقيقها، ومن كان لهم صلة بوقائعها من رجال النيابة او الادارة، وأفراد عائلتي المتهمين لتحديد المسئولية الادارية والجنائية على الذين تثبت ضدهم تهمة التعذيب او تهمة الاهمال في تحقيق شكاوي المتهمين.

وعلى الفور بدأ «الأفوكاتو» العمومي «سيد بك مصطفى» التحقيق، فاستمع الى اقوال «حسني زيان» ـ وكيل نيابة البداري ـ حول الشكاوي التي قدمها المتهمان وأهاليهما عن تعذيبهما بواسطة المأمور القتيل، واستمع الى اقوال العمدة «محمد نصار»، والحكمدار وطبيب المركز والكونستابل «احمد خالد الهجرسي»، وعدد كثير من اهالي القرية. وتشكك كثيرون في جدوى التحقيق وهدف الحكومة منه، ولاحظ «عباس العقاد» أن الموظفين الذين يجري التحقيق معهم لم يوقفوا عن العمل، وبذلك اصبح من الصعب «التوصل الى ادلة تدينهم، وهم مسيطرون على مراكزهم، قادرون على ارهاب الشهود وتحوير الحقائق». وابدى دهشته لان «عبداللطيف محمود» ـ رئيس نيابة اسيوط ـ قد سئل امام اللجنة، ومن بين اعضائها شقيقه «محمد محمود بك» ..

ولم يكن «العقاد» مبالغا حين قال «ان وزير الداخلية يريد تحقيقا يبرئه ويبيح له ان يصبح بعد اعلانه بريئا»، فقد جرى التحقيق وسط ضغوط مكثفة بذلها «صدقي» لكي يحتوي الازمة. ولأن اطرافا كثيرة من الادارة المحلية في اسيوط كانت قد تواطأت على ما جرى، فقد اسرعت تخفي الاوراق وتستبدلها وتحشد الشهود. ولم يكن لدى احد ثقة في ان التحقيق سيصل للحقيقة، حتى ان «الشيخ جعيدي عبدالحق» أرسل رسالة لجريدة «الجهاد»، خاطب فيها وزيري الداخلية والحقانية قائلا: هل تريدان تحقيقا جديا؟ .. هل تريدان الوصول الى الحقيقة؟ .. هل تريدان أن تقفا على حوادث مزرية يعاقب عليها القانون؟ .. إذن أصدرا الأمر بوقف عُمدتي «البداري» وحكمدار اسيوط واتركا الحرية للناس ثم اسمعا ما يقوله سكان «البداري» جميعا .. تجدا المسئول الاول»!

وربما لأن النظام هو المتهم وهو المحقق، فان «اسماعيل صدقي» كان واثقا أن الأزمة ستمر، وان المسرحية ستعرض كما أخرجها، لذلك دفع نائبا من انصاره ـ هو «عبدالحليم البيلي» ـ ليتقدم بسؤال لوزير الحقانية حول ما سوف يتخذه من اجراءات على ضوء ما ورد بحكم محكمة النقض في قضية البداري .. ليكون ذلك تمهيداً لوقوف وزير الحقانية على منصة مجلس النواب، فيلقي بيانا يعلن فيه أنّ الادارة بريئة من شبهة التعذيب .. وأن الذي قام به كونستابل صغير دون علم رؤسائه!

فتح ملف التعذيب

وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان .. فقد انهالت شكاوى الناس على مكتب وزير الحقانية من كل انحاء البلاد، تروى وقائع عما تعرضوا له من عسف السلطة وعنف الشرطة وخروج الحكم عن الأساليب النظامية في التعامل مع رعاياه. وارتفع عدد الشكاوي الى ٤٠٠

* الملك احمد فؤاد

شكوى فأحالها الوزير الى النائب العام وطلب التحقيق فيها . وأرسل النائب العام الى وكلائه في جميع انحاء البلاد يسألهم عن عدد الشكاوي المقدمة ضد جهاز الشرطة ، فاذا بها ٢٥٤٣ شكوى في أقل من عام . . واذا بينها ٢٢٢٠ شكوى ضد صف ضبّاط وعساكر وخفراء و ٣٢٣ شكوى من أعمال عنف قام بها مأمورون وضباط بوليس ومعاونو ادارة !

وقلق « اسماعيل صدقي » من فتح ملف التعذيب . . وعارض اجراء اي تحقيق مع رجال الادارة في أية حادثة الا اذا كانت متصلة بموضوع البداري . . وقال إن بدء التحقيق في الشكاوي سيؤدي إلى اتساع هذا الباب بصورة خطيرة . .

وبرزت على السطح ثلاثة حوادث . كانت ذات دلالة خاصة على الطريقة التي تحكم بها إدارة « صدقي » ، بعد أن اطمأن افرادها إلى أنهم قد اصبحوا بعيدين عن رقابة النيابة والقضاء وحتى مجلس النواب ، وأن لديهم تصريحا بأن يقروا النظام دون النظر الى اي اعتبار آخر . .

■■ففي قرية « المطيعة » « وبني حسين » المجاورة لها في محافظة اسيوط . عذّب ضابطا النقطتين بعض المشبوهين تعذيباً وحشياً بأساليب مبتكرة في التعذيب ، ولم يقدما الى المحاكمة إذ حماهما رؤساؤهما استنادا الى قانون حماية الموظفين واكتفت وزارة الداخلية بنقل كل منهما من النقطة التي كان يعمل بها الى مكان آخر !

وكان « العقاد » على حق حين قال إن سلوك مأمور البداري « هو السلوك الذي جرى عليه كثير من الموظفين في عهد « صدقي باشا » من يوم أن تولى وزارة الداخلية (١٩٢٥) الى يوم أن تولى رئاسة الوزارة » لكنه استشعر هو وغيره ، أن هناك محاولة تقوم بها الدوائر الانجليزية في مصر ، للقول بان المصريين عاجزون عن حكم انفسهم ، وان الاستقلال الذي حققه تصريح فبراير ١٩٢٢ ، قد أعاد الحكم المصري الى الاساليب الشرقية التي كانت سائدة في عهد « الخديوي اسماعيل » والتي يفخر المحتلون بأنهم قد اوقفوها فأنقذوا المصريين من الحكم بالسياط ، والقتل بفناجين القهوة المسمومة ، والسُخرة ، وكل مظاهر الحكم غير النظامي . وهي فكرة تعاطفت معها الجاليات الأوروبية التي كانت تقيم في مصر وتتمتع بالامتيازات الأجنبية ، فتحاكم بقوانين بلادها وأمام محاكم مختلطة لتوفير ضمانات المحاكمة أمامها . وقد ألمحت جريدة « الريفورم » ـ وكانت تصدر في مصر باللغة الفرنسية وتعبر عن رأي الجالية الفرنسية في مصر ـ في معرض تعليقها على قضية البداري إلى الامتيازات الاجنبية ، فقالت إن وقائعها تفرض التريث في الإستجابة لطلب مصر بالغاء الامتيازات الأجنبية ، حتى تظل ضمانات المحاكمة العادلة للأجانب قائمة . .

وقد وصف « العقاد » هذا الاستنتاج الفرنسي من وقائع القضية بانه « محزن وممضٍ يفزع الضمائر ويحز في القلوب » ، وأنكر ـ بحسم ـ مسئولية المصريين ، عن مثل هذه الحوادث ، وقال « انهم ضحاياها . . والشاكون منها » ، وفرق « العقاد » بين نوعين من الحكومات المصرية :

■■حكومة ديمقراطية تأتي بها انتخابات حرة ونزيهة ، فتستند الى اغلبيتها الشعبية ، ومثل هذا النوع من الحكومات ، تتهم عادة في صحف الاحتلال ، بأنها حكومات تتسم بفوضى الادارة واضطراب النظام ، وقلة الكفاءة في رعاية القوانين ، مع أنها تقوم بصيانة الحقوق وحراسة الحريات واقرار الأمن ، وهي لا تدفع رجال الادارة لاكراه الناس على القبول بها ، أو حشدهم لتأييدها بالمسيرات والعرائض ، لأنها تحوز رضى الناس فعلا .

■■وحكومة ديكتاتورية جاءت بانقلاب دستوري أو بانتخابات مزورة أو بالاثنين معا ، فهي لا تعبر عن الناس ، ولا تستند الى ثقتهم ، بل تعتمد على ثقة المندوب السامي البريطاني ، وهذا النوع من الحكومات هو الذي يفسد الادارة ، فهو في حاجة لموظفيها للترويج للدعاية السياسية ، واكراه الناس على تعديل آرائهم ، والخروج على عقائدهم ، فلا يتفرغ موظف الادارة للعمل النافع ، ولا يؤدي عمله بما يفرضه عليه القانون وتحتمه عليه النزاهة والانصاف .

وحمل « العقاد » النفوذ الاستعماري مسئولية هذه الادارات الحكومية الفاسدة ، إذ « أن الاستعمار صاحب مصلحة في تسليط الفساد والخلل على الادارة المصرية ، لانه من جهة يسيء الى سمعة مصر ، وسمعة حكوماتها الوطنية ويتخذ من ذلك حجة في البقاء والاشراف على شئون الحكومة الداخلية ولأنه من جهة اخرى يحسب أن هذه المساويء تفرغ صبر المصريين ، فلا يلبثوا أن يطيعوه ويمتثلوا لمطالبه » . . ويفرطوا في حقوق الوطن . . وسخر « العقاد » من الفكرة التي تقول ان الانجليز لن يفاوضوا « صدقي » ونظامه موصوم بأحداث البداري . . فقال انه « لا حادثة البداري ولا ألف حادثة مثلها ، يمكن

أن تمنع الانجليز من اغتنام الفرصة ووضع أيديهم على الفريسة » . . أما حديث الانجليز عن الحضارة وتمدين الادارة المصرية ، فهو مجرد كلام لا معنى له . . « انما تحبون من الوزارة ان تجيب مطالبكم ، وتشبع نهمكم ، ثم لها أن تسيء بعد ذلك ما شاءت الاساءة ، وتختل في أعمالها ما طاب لها الاختلال وهذه هي الحضارة التي شوهتم وجهها في أعيننا » . .

لو كنت مكان جعيدي

انتقلت الأزمة الوزارية المكتومة ، من بين جدران المكاتب الحكومية الى المتنديات ثم الى صفحات الصحف . كان « اسماعيل صدقي » يعترض على فتح وزير الحقانية لملف التعذيب والتحقيق مع رجال الادارة ، ويعلن أنها من مسائل السياسة العامة للحكومة ، وانه ليس من حق الوزير أن يتصرف فيها وحده ، لأنها من سلطة مجلس الوزراء . أما « علي ماهر » فقد تمسك بانه هو المسئول ـ مباشرة ـ عن أعمال وزارته ، حسب نص الدستور ،ومن حقه أن يكون مستقلا في ادارة أعمالها وتوجيهها ، ومن ذلك أن يحقق في كل ما يصل اليه من بلاغات من المواطنين .

ولم يكن صدقي راغبا في أن تحدث قضية « احمد جعيدي عبدالحق » شرخا في جدار نظامه ، ولم يكن يريد أن يمهد الأرض ليخرج الوزير بطلا مستقيلاً او مُقالاً . . ولم يكن سهلا عليه أن يعترف رسميا ـ وعلى لسان بيان يلقيه أحد وزرائه ـ بأنه يشرف على إدارة حكومية فاسدة وظالمة ، ولا تليق بحكومة متمدينة . .

وهكذا ما كاد يقرأ مشروع البيان الذي أعده « علي ماهر » ليتلوه في مجلس النواب رداً على سؤال « النائب عبدالحليم البيلي » حتى أصرّ على تعديله . لم يوافق على اعلان الوزير انه سيتقدم بمشروع قانون لإلغاء قانون حماية الموظفين . ونقل تبعية رجال الشرطة الذين يحققون القضايا في مراحلها الابتدائية من وزارة الداخلية الى النيابة العامة . واعترض على عبارات العطف على المتهمين التي تضمنها مشروع البيان ، واعترض على الاشارة الى تصرفات بعض رجال الادارة ، وعلى امتداح الوزير لحكم محكمة النقض ، وعلى اعلانه انه سيستصدر عفوا ملكيا عن المتهمينْ . وكان من رأي « صدقي » أن تقديم كل الترضيات لشخص اسمه « احمد جعيدي » تراجع كبير يهز هيبة الحكم !

وتوسط عدد من الوزراء ، ووكيل الديوان الملكي « زكي الابراشي » ، بين « علي ماهر » و « اسماعيل صدقي » . وقبل وزير الحقانية أن يعدل بيانه فيستبدل ما ورد به من المقترحات بالغاء قوانين قائمة أو استحداث اخرى ، بعبارة عامة يقول فيها إن الحكومة تفكر في تشريعات لزيادة طمأنينة الناس ، واشترط مقابل هذا التعديل ، أن يكتب خطابا إلى رئيس الوزراء ، يبلغه فيه ما وصل إليه التحقيق في بعض حوادث التعذيب في مديرية اسيوط ، ويطلب منه محاكمة بعض كبار موظفيها الاداريين ، وان يتلقى من رئيس الوزراء ردا بموافقته على ذلك . . ورفض « صدقي » شروط « علي ماهر » . . وقابل « الملك فؤاد » وعرض عليه المشكله ، فلم يبد حماسا للتدخل وإن كان قد وعده بأن يقابل « علي ماهر » وقد قابله بالفعل وحاول إثنائه عن تشدده مع رئيس الوزراء . . فقال له « علي ماهر » :

ـ انني لو كنت مكان « احمد جعيدي » وفعل بي المأمور ما فعله فيه ، لقتلته انا ايضا !

وأخيرا نجحت الوساطة بين الرجلين ، واقتنع « علي ماهر » بتعديل بيانه لتفادي كل ما يعكر الجو في وقت تبدأ فيه المفاوضات بين رئيس الوزراء والمندوب السامي البريطاني . . ولكنه تمسك بألا يلقي البيان في حالة تعديله ، وأصر على إحالة التحقيقات التي تمت مع رجال الادارةفي حوادث التعذيب التي وقعت في « البدارى » ـ غير الحادثة التي فجرت الأزمة ـ والتي وقعت في « المطيعة » و « بني حسين » الى القضاء . . وطلب « صدقي » منه أن يؤجل ذلك بعض الوقت . . فوعد « علي ماهر » بسؤال النائب العام ، لأن الأمر يتعلق به . . كما أصر على تخفيف العقوبة عن « احمد جعيدي » و « حسن عاشور » . .

وخلال اليومين اللذين فصلا بين اجتماع مجلس الوزراء ، واجتماع مجلس النواب ، تحركت الحوادث بسرعة شديدة ؛ : علم « صدقي » أن النيابة العامة شرعت في اتخاذ الاجراءات التي طلب تأجيلها واعلنت قرار الاتهام في قضيتي « المطيعة » و « بني حسين » وسلمته الى المختص باعلان المتهمين به ، وأزعج ذلك كبار رجال الادارة في محافظة اسيوط فأبلغوا رئاستهم في وزارة الداخلية . واعتذر « علي ماهر » بأن النائب العام ، لم يقبل بفكرة تأجيل قرارات إحالة المتهمين في هذه القضايا الى المحاكم . وطلب « صدقي » من النائب العام ايقاف اعلان القرارات ، فاعتذر بانه يأخذ تعليماته من وزير

● سعد زغلول

الحقانية ، فاتصل الوسطاء بـ « علي ماهر » الذي قال انه ما دامت النيابة قد تصرفت في القضية ، فهو لا يستطيع التدخل . . وغضب « صدقي » لأن « علي ماهر » خرج عن الاتفاق وأخل بهيبة الادارة ، وقدم للمحاكمة موظفين يعملون تحت رئاسته في وزارة الداخلية دون استئذانه أو اخطاره على الرغم من علمه باعتراضه ، وازداد غضبه اشتعالا حين عرف أن « علي ماهر » اصدر تعليماته لمعاونيه في الوزارة باعداد مشروعات القوانين التي كان قد اقترحها في مسودة بيانه ، وقبل رفعها منه ، وهو ما يعني - في رأي « صدقي » - اصراره على احراج الوزارة !

عدل الظالمين

وفي اللحظة التي كان « صدقي » اثناءها يدلف الى قاعة مجلس النواب - في الثامنة من مساء يوم ٢ يناير ١٩٣٣ - كانت الأزمة قد بلغت ذروتها . وتركزت أعين الجميع على صف الوزراء الذين دخلوا خلف « صدقي » ليأخذوا مكانهم في قاعة الجلسة ، وحين لم يجدوا من بينهم « علي ماهر باشا » تصاعدت الهمهمات ، وغطت على هتافات نواب « حزب الشعب » بحياة الملك والحكومة ورئيسها .
وعندما تقدم « محمد حلمي عيسى باشا » - وزير المعارف - لالقاء البيان نيابة عن وزير الحقانية . . ثار النواب ، وقالوا إن الأمر غير عادي وذو خطورة ، وان الجلسة تاريخية ، ولذلك اقترحوا تأجيلها الى أن يأتي « علي ماهر » . . وكظم « صدقي » غيظه ، وهوّن من الأمر ، مؤكدا أن التقاليد البرلمانية تجيز أن ينوب وزير عن آخر ، وأن الرد الذي سيلقيه وزير المعارف - نيابة عن زميله وزير الحقانية - هو رد رضيَ به الأخير وأذِنَ بالقائه . . وأضاف : إن المهم هو الاستماع الى الرد أياً كان قائله . . واعترض على اقتراح التأجيل مشيراً الى أن النواب يستعجلون معرفة الحقيقة . .

وتقدم « حلمي عيسى » ليلقي البيان الذي جاء نموذجا لعدل الظالمين الذين يحترفون تزوير المستندات ، واخفاء الحقائق . فقد ثبت من التحقيق أن « احمد جعيدي » وزميله « حسن عاشور » لم يسبق لهما قبل قتل المأمور أن تقدما بأي شكوى للنيابة ، عن قسوة او تعذيب ، إلا مجرد عبارات عابرة في أحد الشكاوى ، وأن « جعيدي » ادعى بعد القبض عليه بتهمة قتل المأمور ، أنه تعرض للتعذيب ، ولكن الطبيب الشرعي لم يجد سوى ثلاث إصابات لا تحتاج الى علاج ، وقد نشأت عن ضرب الجنود له ، بسبب انفعالهم الشديد بعد رؤيتهم جثة رئيسهم مضرجة في دمائها . .
ونفى البيان أن يكون المأمور القتيل قد قام بتعذيب أي من المتهمينْ . وانتهى الى أن كل ما هو منسوب للمأمور هو أنه أمر بقص شعر « جعيدي » المسترسل . . وأن الذي قام بتعذيب « حسونه » - دون علم المأمور - هو الكونستابل « احمد خالد المجرسي » ، وهكذا اتخذ البيان من « المجرسي » كبش فداء للعسف الاداري ، فحكم بان « المسئولية في هذه القضية لم تثبت على احد سواه » ، وقال « ان ذلك كاف لالتماس العفو عن المتهمين بتخفيف العقوبة » ، مع انها قتلا المأمور لا الكونستابل ، وللخروج من هذا المأزق قال البيان إنّ حسن عاشور معذور حين يتشابه عليه الامر ، فيحَمِّل المأمور المسئولية عما ارتكبه الكونستابل . . وان جعيدي معذور حين خاف

ان يرتكب معه « الكونستابل » ما فعله مع « عاشور » ، وعلى ذلك طلب تخفيف العقوبة عنها (!!)

واستكمالا ـ وختاما ـ للمسرحية عقب النائب «عبد الحليم البيلي» مقدم السؤال وهو من نواب «حزب الشعب » ـ فتمنى لو كان وزير الحقانية موجودا ، ليشهد مبلغ حرص النواب على واجبهم ، وتقديرهم لوظيفتهم النيابية ، وانهم يحاسبون السلطة التنفيذية (!!) .. وقال إن الضجة التي حدثت حول ما اسمى « مأساة البداري » لا نصيب لها من الصحة ، وأن المعارضة هي التي استغلتها فأضرت بمصر وسمعتها ، وبرّر مركز المأمور القتيل .. وذكر مبلغ ما يتعرض له رجال الادارة من خطر ، وشكر الوزارة . وانتقل المجلس بعد ذلك الى النظر في اعماله العادية !

إختلاف النهايات

انفض سامر البداري في مجلس النواب ، لكنه لم ينفض في انحاء الوطن . ففي الليلة نفسها عدل « صدقي » وزارته ليخرج منها « علي ماهر » و « عبدالفتاح يحيى » وزير الخارجية الذي كان قد أيد علي ماهر في موقفه «وعند عرض مراسيم التشكيل الجديد على مجلس النواب خطب فقال « ان وزارة اليوم ، ان تكن غير وزارة الأمس ، فان سياسة اليوم هي سياسة الأمس بلا تغيير ولا تبديل : ففي الخارج عمل متواصل لاكمال استقلال بلادنا ، وفي الداخل مثل لحسن الادارة في مختلف الفروع ، واستمرار في العمل على إبادة جراثيم الفوضى ، واقرار النظام والحكم الصالح » ..

واقرت صحيفة « الجهاد » « صدقي باشا » على أن الرواية انتهت كما بدأت دون تغيير . فـ « سيظل قانون حماية الموظفين تبرا على رؤوس المضطهدين ، وقلعة يتحصن بها الظالمون من رجال الادارة ، وسيبقى قانون المشبوهين وسيلة للكيد لكثير من الأبرياء .. وسيستمر المحققون من رجال الادارة والبوليس بعيدا عن رقابة النائب العام ووزير الحقانية .. وسيبقى « صدقي باشا » ما شاءت له المقادير » !

لكن المقادير كانت قد شاءت أن يذهب « صدقي باشا » !

فبعد الأزمة بأسابيع قليلة ـ فبراير ١٩٣٣ ـ وقع « صدقي » الجبار صريع شلل أصاب نصفه الأيمن ، بسبب المجهود العنيف الذي بذله في تثبيت أركان نظامه ـ وخاصة خلال ازمة البداري ـ في مواجهة الأعاصير التي تحيط به من كل جانب ، والتي انتهت بتفجره من الداخل !

وسافر « صدقي » إلى الخارج للعلاج فظل هناك سبعة أشهر ، وما كاد يعود في اغسطس ١٩٣٣ ـ وقد استرد صحته ـ حتى وجد « زكي الابراشي باشا » ناظر الخاصة الملكية يدير الوزارة من مكتبه بالقصر الملكي .. فاستقال في ٢١ سبتمبر ١٩٣٣ .. وانهار النظام الجبار الذي انشأه ليعيش عشر سنوات فمات بعد ثلاث .

وأمضى « احمد جعيدي عبدالحق » ثمانية عشر عاما في « ليمان ابو زعبل » وغادره في عام ١٩٥٠ .. وهي السنة نفسها التي غادر فيها « اسماعيل صدقي » الدنيا ! دنيا !□

- اذا فعلت كل شيء ، فكن كمن لم يفعل شيئا . (الامام علي)
- التعزز على الاغنياء تواضع . (عبد الله بن المبارك)
- السياسة فن يمنع الناس عن التدخل بما يعنيهم . (فاليري)
- كيف يمكنني أن أقود جيشا اذا كنت لا أعرف على وجه الدقة المواقف الحربية التي تتقنها الجيوش الاخرى . (أتاتورك)
- دعوا خبزكم على عتبة كهوفكم للجائعين ، واتركوا بعض الثمار على غصونها لعابري الطرق . (بوذا)
- عساه أن يتذكر .. ولاينسى عندما يرتفع يوما الى عرشه السامي ، ان أسمى الألقاب وأقدسها طرا .. هو لقب : الانسان . (فاسيلي زركوفسكي)

« إسرائيل »

تتجسس في الفضاء

بقلم : سعد شعبان

أطلقت « اسرائيل » منذ أيام قليلة قمرا اصطناعيا للاستطلاع والتجسس ، فدخلت نادي الدول الفضائية المكون من سبع دول هي الاتحاد السوفييتي ، وأمريكا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، واليابان ، والصين ، والهند .

وأضافت إلى التحديات التي يواجهها الوطن العربي تحديا أعمق وأخطر . فكيف نواجه هذا التحدي ؟ ومتى ؟

نشرت مجلة « تايم » الأمريكية في عددها الصادر في ٢٩ أغسطس ١٩٨٨ خبرا مطولا عن الصاروخ الاسرائيلي « شافيت » الذي يعني المذنب ، وقالت : إن مجلس الوزراء « الاسرائيلي » قد شكل لجنة لتقرير موعد إطلاق هذا الصاروخ حاملا أول قمر اصطناعي « اسرائيلي » هو (أوفيك ١) أو (أفق ١) . والحقيقة أن هذا الخبر عن القمر « الاسرائيلي » يمثل مرحلة من مراحل التحدي الحضاري المحتدم بين الأقطار العربية و « اسرائيل » الذي دخل في مراحل تجاوزت التصريحات والتهديدات ، وأخذت فيها خطوات ايجابية ، فمنذ عام ١٩٨٤ ، وبعدما اعلن العرب عن عزمهم على اطلاق قمرهم الصناعي العربي الأول « عربسات ـ ١ » ليكون فاتحة لسلسلة أقمار عربية أخرى . انتابت الحمى السلطات في « اسرائيل » ، وأعلنوا عن عزمهم إطلاق قمر للاتصالات في مرحلة لاحقة لإطلاق القمر العربي الأول .

وعلى الرغم من أن موعد اطلاق القمر العربي قد تأجل أكثر من مرة ، حتى قيض له أن يصبح حقيقة واقعة في فبراير ١٩٨٦ . ثم أطلق القمر العربي الثاني في يونيو من العام نفسه . إلا أن قمر « اسرائيل » للاتصالات ظل قابعا على الأرض . ولم تتسرب أخبار عن حقيقته أو موعد إطلاقه الذي كان محددا له بصفة ابتدائية أن يكون في أواخر عام ١٩٨٦ .

وانقضى عام ١٩٨٧ ، وأغلب عام ١٩٨٨ ثم فاجأت « اسرائيل » العالم بإطلاق قمرها أوفيك ١

الذى يعنى باللغة العبرية (أفق ١) .

وحقيقة الأمر أن أقمار الاستطلاع والإنذار المبكر تعنى بلفظ مهذب أنها أقمار للتجسس .

وغير خاف أن « اسرائيل » كانت ترمق بعين الحذر تطورات الحرب الايرانية العراقية ، وكان عمادها من قبل فى هذا المضمار هو استقبال المعلومات من أقمار الاستطلاع الأمريكية .

ولعل كل ذلك مبعثه أنها تريد ألا تفاجأ بمثل ما فوجئت به فى حرب رمضان - أكتوبر ١٩٧٣ . ولذلك فضلت أن تبكر بإطلاق قمرها للاستطلاع ، لتتبعه بعد ذلك بقمرين للاتصالات . ومن أجل ذلك فقد بادرت فى مطلع عام ١٩٨٧ الى تجربة اطلاق صاروخ متوسط المدى ، يستطيع قطع مسافة ١٦٠٠ كيلومتر . ليكون مطية لحمل الأقمار الصناعية إلى مداراتها .

وبذلك انضمت إلى نادى الدول الفضائية التى تملك صواريخ من صنعها ، تستطيع حمل الأقمار الصناعية إلى الفضاء . وأصبحت الدولة الثامنة فى هذا النادى بعد روسيا وامريكا وفرنسا وانجلترا واليابان والصين والهند .

عيون التجسس ليلا ونهارا

الأرتال المتوالية من أقمار الإنذار المبكر أو الاستطلاع أو الاستشعار عن بعد . تقوم بالتقاط الصور لسطح الأرض فى ظلام الليل الدامس .

وتستخدم في ذلك أنواعا من آلات التصوير . ذات عدسات قوية ، تستطيع أن تهتك كل أسرار ما هو مرئي فوق سطح الأرض .

وتستخدم أيضا تقنية متقدمة لسبر غور بعض ما هو تحت سطح التربة بعمق عدة أمتار بآلات تصوير حساسة للاشعة تحت الحمراء التي تصدر من الأجسام بعد اختزانها أقدارا مختلفة من الحرارة التي تكتسبها من أشعة الشمس أثناء النهار . ونظرا لاختلاف جودة توصيل الأجسام للحرارة ، فإن ما يصدر عنها من الأشعة تحت الحمراء يتناسب مع هذه الجودة .

وبالتالي فإن استقبال هذه الأشعة بآلات التصوير يمكن أن يرسم صورة للمعالم الأرضية التي يلفها الظلام ، تبعا لتفاوت ما يصدر عن المعالم الأرضية من حرارة ، وبالتالي تبعا لما يصدر عنها من الأشعة تحت الحمراء .

فتظهر في الصور البحار أو البحيرات أو الأنهار مختلفة ومتباينة عن الأراضي القاحلة أو الصحراوية ، كما تظهر المناطق العامرة بالمباني التي يشيع فيها استخدام الخرسانة المسلحة والأجسام المعدنية ، بطريقة مختلفة عن المناطق الزراعية المشبعة بكثير من المياه .

ولذلك فانه تحت جنح الظلام ، يمكن أن تظهر معالم المطارات وقواعد الصواريخ ، وأماكن انتشار الدبابات ، ووسط مياه البحار أو المحيطات يمكن أن تظهر البوارج والقطع البحرية ، لأن أغلب أجزائها تصنع من المعادن الجيدة التوصيل للحرارة التي تنبعث منها كميات كبيرة من الأشعة تحت الحمراء ، فتجعلها واضحة في الصور ، على الرغم من ظلام الليل .

وعندما فكرت الدول الكبرى في اخفاء قواعد صواريخها تحت الأرض تطور فن الاستطلاع الفضائي ، وتيسر كشف الآبار المحصنة لهذه القواعد على الرغم من كونها تحت الأرض ، لأنها لا بد من أن تقام بالخرسانة المسلحة .

وحقيقة الأمر أن الأقمار الصناعية أصبحت قادرة على سبر غور بعض ما هو مخبأ تحت الأرض بعمق عدة أمتار ، سواء في ذلك الرواسب المعدنية ، أو الآثار المطمورة ، أو روافد الأنهار القديمة المختفية تحت كثبان الرمال أو الأتربة ، أو المياه الجوفية القريبة من السطح .

ومن ثم فقد أصبح كل ما فوق سطح الأرض ، وكثير مما تحتها مهتوك الأستار ، يصعب اخفاؤه ، ولا يجدي الإخفاء والتمويه الذي كان معروفا في الحرب العالمية الثانية فيه ، لأن فن الاخفاء والتمويه قد عفا عليه الزمن ، وأصبحت له أبعاد جديدة . فلا يعتمد على الرؤية البصرية ، بل على الكشف

بالعدسات الحساسة للأجسام ، وعلى الكشف بما ينعكس على هذه الأجسام من إشعاعات اليكترونية أو نبضات رادارية توجه إليها فتكشف عن طبيعة تكوينها .

لذلك لاعجب أن نجد أن معطيات صور الأقمار الصناعية قد دخلت مجالات تطبيقية ، كان يصعب تصديق جدواها منذ عدة سنوات . فقد أصبحت هذه العدسات قادرة على التمييز بين مساحات النباتات المصابة بآفات زراعية وبين المساحات التي لم تنتشر فيها هذه الآفات . كما أصبحت أيضا قادرة على متابعة أسرار الأسماك في المحيطات ، وأرتال الحيوانات المهاجرة عبر الغابات أو الصحاري .

وأصبحت أيضا قادرة على متابعة زحف الرمال في الصحارى ، وتوضيح ما يمكن أن يحدث من نحت على شواطىء الأنهار ، أو شواطىء البحار . كل هذه التطبيقات الدقيقة قد خلقت تقنية جديدة تلعب أقمار الاستطلاع الدور الرئيسي فيها . ومن حصيلة كل ذلك يمكن أن تتجمع صور مرئية واضحة المعالم ، لتكون في مجملها خرائط دقيقة المعالم ، تغني الواحدة منها عن عشرات الخرائط ، بل عن مئات الخرائط التقليدية .

ويساند هذه التقنية على الأرض ما توصل إليه فن تكبير الصور وتجسيمها . لتوضيح المعالم . فإذا أضفنا إلى ذلك كله إمكان تخزين معالم هذه الصور فى الحواسب الاليكترونية ، يتضح لنا أن فن تفسير الصور أصبح أكثر يسرا من الوسائل التقليدية التى كانت تستخدم منذ سنوات . وبذلك أصبحت المعالم الأرضية . أكثر وضوحا ، وطوع بنان من يطلبها .

وليس خافيا أن عنصر السرعة يلعب دورا أساسيا في عمليات الاستطلاع ومتابعة قراءة الصور ، ساعة بعد أخرى ، لمعرفة مدى التغيير ، وبخاصة فى المواقف العسكرية ، ولذلك فإن التصوير الفضائي يمكن أن يكون أكثر جدوى بملاحظة الفروق التى تحدث فى الصور التى تؤخذ فى

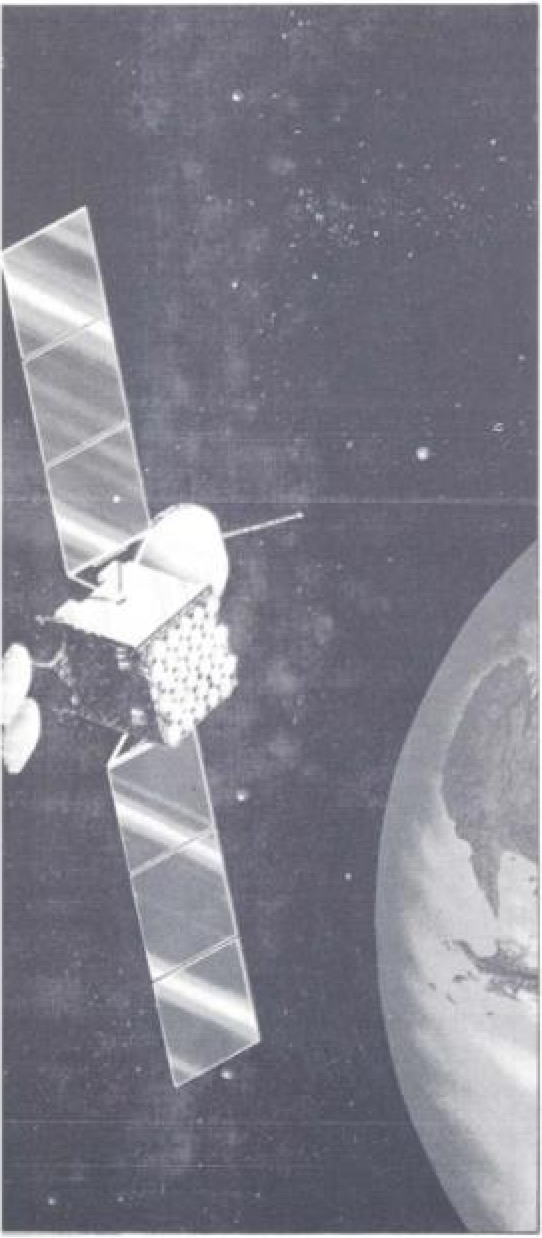

الأقمار الصناعية في السلم والحرب .

تتابع زمني يناسب العمليات العسكرية .

إن صور الأقمار الصناعية ترسل للأرض لاسلكيا ، وقد يقتضي إرسالها ثم تحميضها وتكبيرها وتفسيرها كثيراً من الوقت . لذلك فإنه بالنسبة لبعض المناطق التي قد يصعب فيها استقبال الصور ، فقد لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى طريقة مبتكرة ، وهي إسقاط الأفلام من الأقمار الصناعية بواسطة قذيفة تنطلق بها يتحكم من الأرض ، حتى تدخل الغلاف الجوى للأرض ، فتبدأ في التهاوى لأسفل ، معلقة في مظلة (براشوت) ، وتوجه إحدى الطائرات المقاتلة لالتقاطها ، وهي معلقة في المظلة بواسطة خطاف ، فتوفر بذلك كثيرا من الوقت ، وتستطيع الإسراع بتفسير معطيات هذه الصور الفضائية .

المعونات الامريكية

خلال السنوات الأخيرة تصاعدت أقوال كثيرة عن قدرة « اسرائيل » النووية . سواء من قبيل التهديد أو بث الذعر في نفوس العرب . وأيا كانت الحقيقة فقد وضح أن هذه القدرة لا مراء في وجودها ، وأنها تنمو عاما بعد آخر ، إلا أن الحقيقة المرة هى أن هناك معونات خفية تقدم « لاسرائيل » في هذا المضمار . قد تصل إلى حد غض الطرف عن سرقة المواد النووية ، وكثير من أسرار التقنية النووية ، سواء من بعض الدول الأوروبية أو بعض الشركات الأمريكية ، وتجلى ذلك بوضوح في قضية الجاسوس الأمريكى « بولارد » الذى زود « اسرائيل » مؤخرا بوثائق غاية في السرية ، وذات أهمية نووية خاصة ، وعلى غرار ما تم في نقل التقنية النووية بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، فقد تم نفس الأمر بالنسبة لتقنية الفضاء ، حتى وصل الأمر « باسرائيل » إلى تصنيع الصواريخ الحاملة للأقمار الصناعية وبعض أنواع الصواريخ العسكرية . وتوج هذه الأمور أنها اصبحت مقرا للبحوث الاليكترونية الخاصة بتوجيه الصاروخ المضاد للصواريخ . وهى تقنية معقدة ، فشلت في

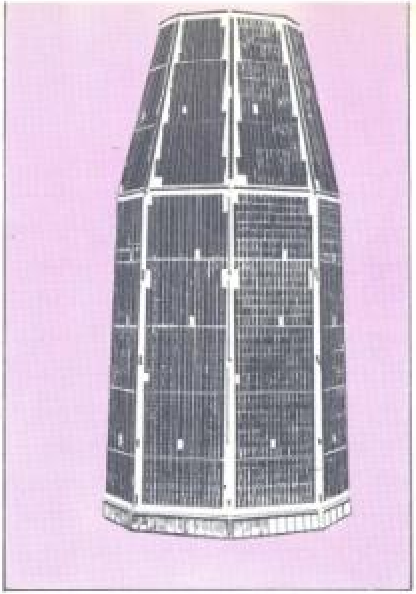

للعلم أم للتجسس أم لكليهما .. أطلق القمر الاصطناعي الاسرائيلي ؟!

الولايات المتحدة نفسها ، بعد أن بدأت بأعوام قليلة في حقبة الستينيات ، وتوقفت لصعوبتها ، وبعد أن مضت الولايات المتحدة في صناعة صاروخ من هذا النوع ، أطلق عليه وقتها اسم « نيك زيوس » توقف مشروعه لتعذر تصنيع مجموعة توجيهه التي تستطيع أن توجه إلى الصاروخ المعادى . ومن عجب أن تحيى هذه الصناعة في « إسرائيل » نفسها . وقد يكون المبرر لهذا أن هناك تقدما في الصناعات الاليكترونية « الاسرائيلية » ، تتبين في صناعة رادارات ذات أنواع متقدمة ، وفي صناعة بعض الأجهزة الاليكترونية الدقيقة التي استخدم بعضها في صناعة بعض أجهزة مكوك الفضاء . ثم تجلى ذلك بوضوح بانضمام « إسرائيل » رسميا منذ عامين إلى البحوث الاليكترونية المتعلقة ببرنامج « حرب النجوم » الأمريكي .

ولاشك أن مبعث ذلك هو الاستفادة الكاملة من البحوث الفضائية المتقدمة والاطلاع على أسرارها .

الحل العربي البديل

لعل السؤال الذى يجول في خواطر كثير من القراء هو : أو ليس هناك حل بديل ، مادامت

أسرارنا ستصبح في متناول عدسات قمر « اسرائيل » ؟ والحقيقة المرة يمكن أن ندخل اليها

من باب أكثر ايجابية من التصريحات التي تشجب مثل هذه الأعمال ، وأكثر جدية من قصائد الشعر التي تلعن « اسرائيل » وأعمالها ، وذلك بأن نقول

بايجاز : إن كل فعل لابد أن يكون له رد فعل . وأن الحديد لايفله إلا الحديد .

ولذلك فإن القول الصريح بأن الخطوة « الاسرائيلية » ، لم تعتمد على شراء التقنية ، بل نقلت التقنية لأراضيها ، حتى تمكنت من تصنيع قمرها وصاروخ دفعه . فهل لنا أن نسأل أنفسنا : هل بدأنا نحن خطوة مماثلة ؟ ولو كان أمامنا عشرات السنوات حتى نصل إلى تقنية التصنيع حتى نفلت من بئر التبعية .

ويجب أن ترتسم أمامنا الحقيقة بأن شريعة الغاب تحكم المجتمع الدولي في المجالات الفضائية التي تفتقر إلى قانون ينظم التقاط المعلومات عن الدول بغير رضاها ، لأن استئثار الدول الكبرى بإطلاق أقمار الاستطلاع قد جعل اغتصاب هذه المعلومات بمثابة الأمر المشروع .

ومازالت المؤتمرات الدولية المتوالية تبحث عن صيغة تحدّ من سرقة أسرار الدول الأخرى بالصور الفضائية .

لكن عجز كثير من الدول الكبرى ، وكل دول العالم الثالث عن التباري في هذا المجال ، جعل أغلب الدول في موقف سلبي ، وجعل الأسرار الفضائية مستباحة للدول التي تطلق الأقمار الصناعية لاستراق السمع ، ولتصوير كل تحرك أو تجهيز عسكري ، وكل بناء عمراني .

ومازالت آلاف الأقمار الصناعية يتوالى إطلاقها الى الفضاء تحت أسماء مختلفة ، وبعضها لا يعلن عن هويته ولا عن الغرض منه ، وبعضها يطلق في خلسة من الزمن ، فيتأكد العلماء أن هذه الأغراض عسكرية خاصة ، تعني الاستطلاع ، أي التجسس □

■ إن تحقيق السلام وترتيبه أشهر كثيرا من كسب الحروب والانتصار فيها .

أرسطو

■ إذا خلت الحياة من الحكمة فلا مناص من أن تستمع الى الهذيان

حكيم

■ ينبغي أن يسمع الانسان كل يوم قليلا من الموسيقا ، ويقرأ قصيدة جيدة ، ويرى صورة جميلة .. ويقول ـ إذا أمكن ـ كلمات قليلة معقولة

جوته

■ من أسرار النجاح أن تأكل ما تحب وان تترك للطعام مهمة شق طريقه في الداخل .

مارك توين

أرسطو

حكايات طبية

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

النشر أو الهلاك:

من الأقوال المعروفة لدى الأطباء العاملين في الجامعات والمراكز الطبية في أميركا مقولة « النشر أو الهلاك » ، ويقصد بها أن الطبيب إما أن يقوم بأبحاث ودراسات علمية ثم ينشرها في المجلات المتخصصة ، أو أن يعد نفسه من الهالكين من الناحية العلمية ، فلا تقدم له في المجال الأكاديمي .

وفي الجامعة التي كنت أتابع اختصاصي فيها ، كانت الادارة ترسل سنويا استمارة إلى كل من رؤساء الأقسام كي يذكروا فيها ما هي الأبحاث التي نشرها أطباء أقسامهم وفي أي مجلة من المجلات قد نشرت ، ولا شك أن هذا كان واحدا من عوامل الضغط على الأطباء كي يكتبوا المقالات ، علما بأن النشر غير مضمون ، إذ يتعلق ـ إضافة لجودة المقالة وحسن كتابتها ـ بحدة التنافس وكثرة المقالات المرسلة .

وعندما اكتشفنا مرة حالة متميزة لمرض نادر ، وجدها أستاذي فرصة سانحة كي نكتب مقالة عنها ، وسارعت لأطمئن القاريء الذي خمن أن عبء ذلك سيقع عليّ وحدي إنه قد أصاب في حدسه .

وعندما جلست مع أستاذي وبقية أطباء القسم كي نحضر عناصر البحث ، ونفتش عن المراجع والمصادر ، انتهينا إلى حوالي أربعين مصدرا ومرجعا ، وكان أولها يعود إلى خمسين عاما تقريبا ، عندما وصف أحد الاطباء الحالة الأولى من هذا المرض .

وبما أن « ارشيف » استاذي ـ الذي لا ريب أنه يحوي كثيرا من تلك المقالات ـ كان على درجة كبيرة من الفوضى وعدم الترتيب ، كان لا بد لي من البحث عنها في مكتبة الجامعة ، ثم تصويرها ، وقراءتها ، وترتيبها ، تمهيدا لكتابة المقالة المنشودة .

وفي مكتبة الجامعة كنا نعامل كما يعامل الطلاب ، فليست لنا تلك الميزات وذلك الاحترام اللذان تعودنا عليهما في مكتبة المستشفى . أخذت قائمة المراجع في يدي ونزلت إلى أقبية المكتبة ، وهي طوابق أربعة تحت مستوى سطح الأرض ، بالغة الاتساع ، سيئة الإضاءة ، وبعض أنحائها مغطى بالغبار ، لم يدخلها انس ولا جان منذ فترة من الزمن . وهناك قضيت عدة أيام ، باحثا منقبا ، حتى استطعت في النهاية العثور على جميع المقالات إلا واحدة أو اثنتين .

وكأنه لم يكفني ما أصابني من التراب والغبار ، وما بذلت من جهد عضلي في حمل المجلات والكتب ، وهي كما هو معلوم ثقيلة وزنا ومضمونا ، فدفعت من جيبي كلفة تصويرها في المكتبة ، على أن استرد ذلك المبلغ فيما بعد من محاسب المستشفى ، خلافا لما جرت عليه العادة من التصوير المجاني في مكتبة المستشفى .

وكان أكثر ما حز في نفسي أن كثيرا من تلك المجلات العلمية والمقالات التي جهدت في البحث عنها ، لو رأيتها في الأحوال العادية ملقاة في الطريق ما كلفت نفسي عناء الانحناء لالتقاطها ، بل إنني لو كنت أتصفح بعض تلك المجلات وعثرت عرضا على مقالة منها ما حاولت مطالعتها .

وأخذت أشتم سراً الحالة النادرة،ومن وصفها ، وأضم إليها استاذي الذي لو كان رتب « أرشيفه » لأراحني من البحث الطويل المضني .

وعندما عدت منتصرا إلى هذا الأستاذ ، نظر إلى تلك المقالات بعدم اكتراث ، و قلة حماس ، ثم عزل بعضها لأنها ليست ذات علاقة مهمة بموضوعنا ، ثم انتقى بكسل بعضها الآخر كأساس للبحث .

وعندما أنهيت كتابة المقالة بعد طول دراسة ومراجعة وتمحيص ، قام الاستاذ بتصحيح بضع كلمات ، ثم تنازل فوضع اسمه على أنه مؤلف أول ثم اسمي كمساعد ، معللا ذلك بأنه لو أرسلنا المقالة باسمي على أني مؤلف أول فلن تجد طريقها للنشر ، بينما سيفتح اسمه الكبير مجال النشر واسعا أمامها .

ومرت الأيام ، وقبلت المقالة ثم نشرت .

بعض قراء تلك المجلة المتخصصة قرءوا المقالة ، منهم من أعجبته ومنهم من لم يهتم بها ، وبعض القراء لم يقرأها أصلا ، ومعظمهم ، بل كلهم ، نسوها الآن .

لكنني لا يمكن أن أنسى تلك الأيام التي قضيتها في أقبية مكتبة الجامعة وحيدا مع الكتب (التي أعد رائحتها في الاحوال العادية أطيب من ريح المسك) .

وأنا أنفض الغبار عن المجلات والكتب وذلك كله كي تنشر موضوعا في مجلة .

ففي الحياة الأكاديمية هنالك التنافس الحاد ، وهنالك تسيطر المقولة المعروفة « النشر أو الهلاك » . □

قصة قصيرة

الغريب

بقلم : حسب الله يحيى

حائر ، لم يسبق له من قبل أن وقع في مثل هذه الحيرة . كل شيء يمكن تداركه ، والوصول إلى وضع حل له ، إلا هذه المسألة ، فمن قبل كان يستأنس برأى صديق أو قريب ، ثم يشاور عقله ويصل إلى نتيجة ، إلا أنه في هذه المرة بدا قلقا ، متوترا ، حائرا ، لا يعرف كيف يتصرف ، وإلى أين يتجه ، وإلى من يقول ، وبمن يسترشد ؟ .

لا يأمن أحدا فى مثل هذه القضية ، ذلك أن السر فيها عميق ، والبوح به قد يؤدي به إلى التهلكة .

سأل نفسه : هل يعقل أن يتحول بيته إلى مكان آمن ؟ وتذكر بيت أبي سفيان ، فمن دخله بات آمنا ، كما تذكر تلك الحمامات التى تحوم فى إحدى ساحات لندن ، والتي تآلفت مع الناس ، والطيور الآمنة فى مكة المكرمة مصحوبة بالسلام والمحبة والاجلال .

لكن من يكون هو حتى يتخذ قرارا مثل هذا ، وفي موقف صعب تقود علانيته إلى موت محتم ؟

تصور نفسه ذلك الشخص الذى دق بابه وسلم أمره بين يديه ، قال له :

إنني أريد أن أعيش في سلام حسب ، لا أريد أن أموت مجانا

ـ لكن بلدك يحارب ، وأنت تختار أمنك وسلامتك فى بلد آخر !

ـ تستطيع أن تقتلني ، وتكون بطلا ، أو أن تسلمني إلى السلطة فيكرموا إخلاصك ، ويكبروا شهامتك . وببساطة تؤكد على أنك مواطن صالح ووطني غيور .

قال في سره : كيف أستطيع أن أصدقه ، فربما يكون جاسوسا ، جاء يستقي المعلومات ثم يهرب بها الى بلاده ؟

سأله : ـ وعائلتك ؟

ـ لا عائلة لي ، كلهم ماتوا في حرب المدن .

ـ هل أنت جندى ؟

ـ كلا ! لكنني مهدد بأن أحمل السلاح وأقاتل في أي لحظة

ـ هل أنت خائف ؟

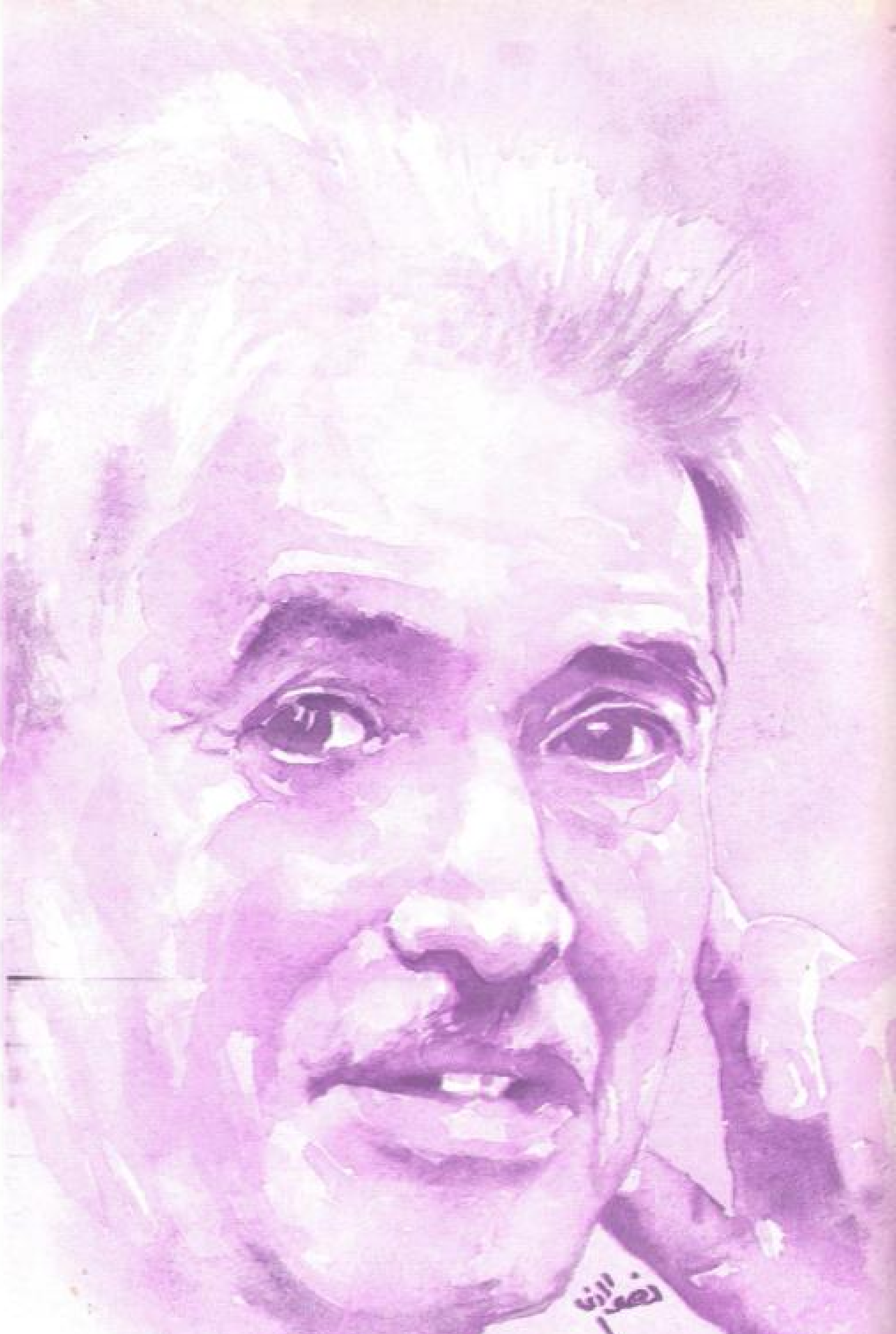

ـ لا أريد أن أموت فقط ، لذلك اجتزت الحدود ، وهربت إلى حيث تجدني هنا ، ولم يكن أمامي من خيار سوى أن أهرب من الموت .

ـ لكنك هنا مهدد بالأسر ، وبأن تكون تحت الرقابة المشددة .

ـ معناه أن أكون في سجن ، أن أحاصر ،شيء واحد إما أن أموت أو أن أكون محاصرا ، سأدع الخيار لك ، بإمكانك أن تدعني أعود إلى حدود بلدي ، وبإمكانك أن تسلمني إلى حكومة بلدك ، موت واحد ، اختر لي أحدهما !

كيف يستطيع أن يصدق هذا القادم المجهول ؟ كيف يكشف الأسرار التي في داخله ؟

كيف يتخلص من المأزق الذي وقع فيه ؟ كيف ينجو من قدره ، ويجعل سلوكه وأمنه في توافق تام ؟

ماذا كان سيفعل به هذا القادم المجهول لو كان قصده ، ودق بابه ودخل وشرح له ظروف حياته وعبوره الحدود وتسلله إلى منزله ؟

وجه إلى الغريب هذا السؤال . قال :

صدقني . أنا مثلك لا أعرف ماذا كنت سأفعل ، إنني أحترم حيرتك وأريد أن أقدم لك مساعدة وأنقذك من حيرتك ، لكنني أحسُّ بالعجز .

صمت الغريب قليلا ، ثم قال :

اتخذ قرارا ، اجعلني أطمئن إلى موتي برصاصة أو موتي بالعبودية . وجد نفسه في أقصى مواقع الحيرة ، فقد كان هو أيضا يخشى أن يموت أو يتهم بالخيانة العظمى ويحكم عليه بالموت .

ـ هل أدعه يموت ، أم أدع رقبتي للموت ؟

طيور مكة ، وحمامات لندن ، وبيت أبي سفيان في ذاكرته يقظة ، حية ، لكن الأمر يختلف ، والظروف متغيرة ، وتبرير موقفه ضعيف أمام صرامة الأسئلة التي ستوجه إليه لو عرفوا أمره .

دعاه إلى الطعام ، فاطمأن الغريب ، وصار يأكل بلهم .

كان يحدق إليه بإمعان ، يعريه بصمت ، خشية أن يكون حاملا أجهزة انصات ، كانت به رغبة في

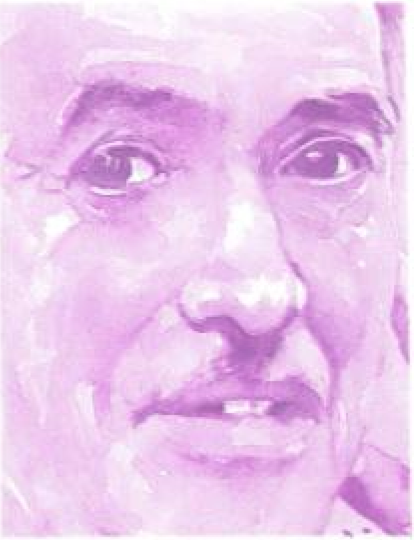

تفتيشه ، لكنه أحس بأنه ليس من حسن الأدب أن يفتش ضيفه .

ماذا يفعل بهذا الغريب إذن ؟ من جاء به إليه ؟ من أقلق راحة باله وجعله في هذا الموقف الحرج ؟ .

قد يكون من أبناء بلده ، وقد جاء يمتحنه ، ذلك أن بيته قريب إلى حدود العدو ، ومن الممكن أن يتسلل إليه العدو على الرغم من صعوبة الأمر ، عندئذ ستكون إدانته واضحة وقاسية .

كان الغريب يملأ عليه الزمان والمكان ، القلب والعقل ، والحواس جميعا يحس بها معطلة ، ولا سبيل إلى الاطمئنان إليها ،وإلى القبول بقراراتها .

فلقد افتقد توازنه ، وبات أسير ضميره وقراره ، والغريب هادىء بين يديه ، وقد ترك الأمر ليفعل به ما يشاء .

سأله في محاولة للخلاص منه :

ـ نحن هنا مهددون بالموت أيضا .

ـ سأكون مطمئنا لومت هنا .

ـ و لماذا ؟

ـ سأحس بداخلي بأنني قد بذلت جهدا للخلاص من الموت الى أن حل قدرى .

هذا الغريب ذكي ، يجيب بطريقة مقنعة .
سأله :
ـ ما هو عملك ؟
ـ كنت معلما في مدرسة مات عدد من تلاميذها ، والبقية في الأسر ، والقلة يحاربون .
ـ ومعلمهم يهرب ! ؟
سكت . طال صمته ، وأحس الرجل بأنه قد أهان الغريب وطعنه .
بعد قليل وقف الغريب ، ومد يديه إلى الرجل قال :
ـ هيا خذني إلى حكومة بلدك ، قل إنك قد أسرتني حين كنت أعبر الحدود .
كان محرجا وهو يسلط نظرة انتباه إلى الغريب .
ـ هيا ! تحول بواسطتي إلى بطل .
انتبه الرجل إلى حدة لغة الغريب ، إلى شجاعته ، وصراحته وقدرته على أن يحارب خوفه .
لم يكن الغريب يحس بالخوف بقدر ما كان يسعى للخلاص من موت مجاني .
هذا ما وصل إلى قناعة الرجل ، وشعر بأنه ضعيف أمام منطق هذا الغريب الذي دق بابه وجلس إلى جانبه يحادثه عن غربته وعزلته ، وعزمه على أن يحارب موته وأن يكون أليفا معه ، عن غير موعد ، وغير معرفة سابقة .
لم يكن محور حديثهما السياسة أو الحرب ، كان همهما الآن قد توحد في كيف ينقذ أحدهما صاحبه من الموت .
الغريب لا يريد أن يتجنى بالخطيئة على الرجل ، فيما كان الآخر لا يريد أن يزج بضيفه في حدود الموت والأسر والعزلة .
اطمأن أحدهما للآخر سريعا ، والاطمئنان قادهما للتفكير في كيفية الخلاص من الموت ، وثقل الاطمئنان كان ينوء به الغريب ، فقد انتابه إحساس بالتجني على الرجل . وخروجه الآن من شأنه أن يجعل الرجل يفقد اطمئنانه وثقته به ، والبقاء في الدار خطر على كليهما .
أسرار كانت تتداخل في أعماقهما ، والليلة مؤرقة ، خائفة وجلة .
تظاهر كل منهما بالنوم .
الغريب أشفق على الرجل ، وفكر بأن يسلم نفسه لحرس الحدود .
بينما كان الرجل يفكر بمكان يحفظ به أمن هذا الغريب الذي ناشده حب السلام ، وخاطب فيه انسانيته .
نهض الغريب بهدوء ، فتح باب الغرفة بهدوء ، بهدوء تام ، فيما كان الرجل يلاحقه بأنظاره ، ويحاول أن يكتشف بنفسه ماذا يريد أن يفعل هذا الغريب به . فقد يقتله ، وقد يكون مرشدا لجماعة أخرى تريد أن تتسلل إلى الحدود .
حمل الرجل سلاحه ، وصوبه إليه ، لكنه لم يعجل بإطلاق الرصاصة الأولى ، ذلك أن الغريب لم يترك لديه ما يثير الشبهات إلا في موقفه الأخير .
لاحقه بصمت ، وقبل أن يكون قريبا منه ، كانت هناك طلقة تدوي في عتمة الليل ، انطلقت من مكان غير مرئي ، فسقط الغريب بصمت .
من بعيد نظر الرجل إلى جثة الغريب ، وانتابه إحساس بالاطمئنان و الحزن معا . □

ايليا أبو ماضي

□ كل ذى رغبة دنت أم تسامت سوف يمضى يوما بلا رغباته !

(ايليا أبو ماضى)

□ هكذا العمر : الأربعون سنة الأولى هى النصوص ، والثلاثون سنة التى تليها هى التعليق .

(شوبنهور)

واحة العربي

في الصميم

● الانجليزي عندما يصفق لإحدى العبارات في مسرحية من المسرحيات التي يشهدها فإنه يصفق لنفسه لشدة إعتزازه بأنه فهم العبارة .

« أرسون ويلز »

○ ○ ○

● إن أغرب الناس هم الذين يجدون صعوبة في ترك التدخين ، لقد تركته أكثر من ألف مرة .

« مارك توين »

○ ○ ○

● إن لي ذاكرة رائعة ، فأنا أنسى كل شيء .

« جول رونار »

ضحكات عربية

طلبا للثواب

● مر رجل بقوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه ، فقال لأحد الضاربين : ما حال هذا الرجل ؟ قال : والله ما أدري حاله ، لكني رأيتهم يضربونه ، فضربته معهم طلبا للثواب من الله عز وجل .

☆ ☆ ☆

النحوي والكنّاس

● وقع نحوي في حفرة ، فجاءه كنّاس ليخرجه ، فصاح به الكنّاس ليعلم أهو حي أم لا . فقال له النحوي : اطلب لي حبلا دقيقا ، وشدني شدا وثيقا ، واجذبني جذبا رفيقا . فقال له الكنّاس : امرأتي طالق إن أخرجتك منها ، ثم تركه وانصرف .

ظرفاء العرب

استعمل الهاتف

● كان حفني محمود وزيرا للمواصلات فسمع صوتا عاليا يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفته ، فاستدعى الساعي وسأله عن السبب فقال : إن السكرتير يتكلم مع الاسكندرية . فقال له حفني محمود : قل له « بدلا من صياحك بهذا الشكل ، استعمل الهاتف » .

قاموس الظرفاء

التملق : كلام لطيف يقوله لك شخص عن نفسك ، تتمنى أن يكون صحيحا .

التاريخ : ما ترغب كل أمة في أن تجعل الأمم الأخرى تعتقده حول ماضيها .

الغزل : صورة صوتية لأفكار المرأة عن نفسها يقوم بإذاعتها الرجل .

ضحكات عالمية

اصمت

● كان الأديب الفرنسي فونتنيل قد بلغ السابعة والتسعين عندما قال أحدهم : لابد أن الموت قد نسيك يا سيد فونتنيل .

فرفع أصبعه إلى شفتيه قائلا : اصمت .

☆ ☆ ☆

بحاجة إلى رأسك

● عندما تجمعت لدى الملك لويس الحادي عشر البراهين على خيانة الفارس سان بول له ، عزم على التضحية به ليأمن جانبه ، إلا أن هذا الفارس في تلك الفترة كان بعيدا عن متناول يده ، فأرسل له رسالة قال فيها : « صديقي العزيز ، تعال بسرعة ، فأنا بأمس الحاجة إلى رأس كرأسك » .

من القلب

غريق

● التقت سفينة في عرض البحر انجليزيا على قطعة خشب عائمة ، وكان من غرقى إحدى السفن ، فناداه القبطان من أعلى السفينة : أأنت غريق ؟

فرفع الانجليزي رأسه وأجاب : نعم ، لماذا ؟

☆ ☆ ☆

البداية

● بعد حفلة العرس التي تزوج بها الفلاح عروسه وضعها في عربته وانطلق بها إلى بيته . وفي الطريق توقف الحصان الذي يجر العربة عن السير ، ورفض أن يتابع سيره إلا بعد عدة محاولات ، وعندما عاود السير قال العريس للحصان : هذه واحدة ، وبعد دقائق توقف الحصان مرة أخرى ، فقال له : وهذه الثانية . وفي المرة الثالثة قال : آه ! وهذه الثالثة ! ثم تناول بندقيته وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا .

فقالت له العروس وهي تبكي : يا لقلبك ما أقساه .

فحدق بها العريس ثم قال : هذه واحدة .

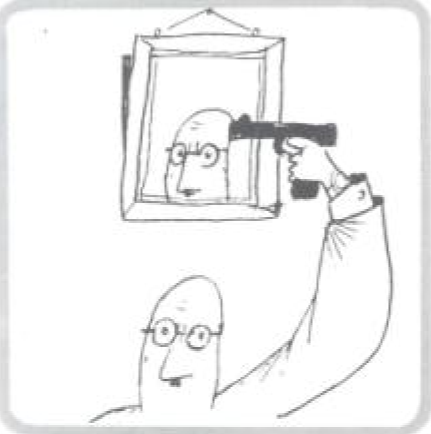

العربي
عيونك على العالم

جورجيا السوفيتية

.. الولاء قديم!

استطلاع : سليمان الشيخ
تصوير : سليمان حيدر

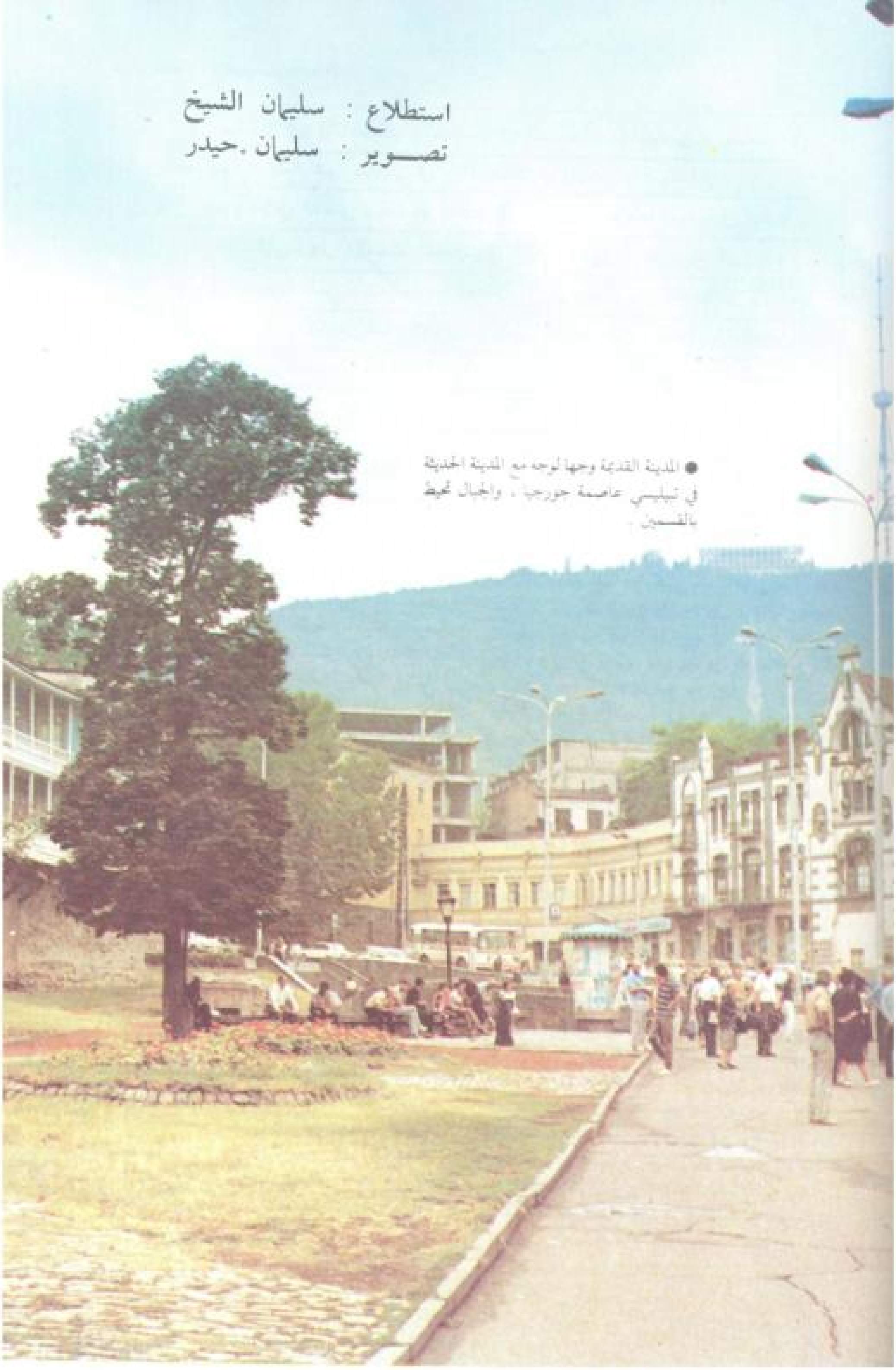

● المدينة القديمة وجهاً لوجه مع المدينة الحديثة في تبليسي عاصمة جورجيا ، والجبال تحيط بالقسمين .

حاضر في المناقشات ، حاضر في الساحات والميادين ، حاضر في السياسة ، كما هو حاضر في الاقتصاد والمعمار والاجتماع .

حاضر في الماضي ، كما هو حاضر في الحاضر ، وربما المستقبل أيضاً .

لقد كان رجل الاتحاد السوفيتي الأول لما يزيد على ربع قرن ، وفي المرحلة الخطيرة التي تلت الحرب العالمية الأولى وتجاوزت الثانية تم ترسيخ اركان الدولة الاشتراكية الأولى ، على الرغم من جميع المواجهات والمؤامرات والحروب الداخلية والخارجية ، وعلى الرغم من الخطايا والأخطاء الكثيرة .. إنه ستالين .

وستالين ابن جورجيا ، هذه البلاد الجبلية القفقاسية التي تقع في جنوب روسيا ، تنصب عليه الآن ومنذ ما بعد منتصف الخمسينيات لعنات كثيرة ، ولم تترك فيه أجهزة الإعلام والأفراد نقيصة إلا وذكرتها ، ومع ذلك فقد شاهدت بأم عيني سيارات كثيرة في تبليسي ، عاصمة جورجيا ، تضع صوره عليها ، بل في موسكو نفسها يمكن أن ترى المشهد نفسه ، وشاهدت تمثالا له منحوتا على واجهة مدرسة الكوادر الحزبية في أهم شوارع العاصمة الجورجية ، وعلى أنصبة الشهداء كانت صورته منحوتة أيضاً ، ومازالت صورته المرسومة بالزيت وهو يرتدي الزي العسكري موضوعة على بوابة محطة القطارات في مدينة غوري التي ولد فيها ، والتي تبعد عن تبليسي مائة كيلومتر ، بل إن أجمل المباني وأفخمها في كثير من مدن الاتحاد السوفيتي قد بنيت في عهده ، وبصماته مازالت موجودة عليها .

عن جورجيا ، المكان والناس والحياة ، يدور استطلاعنا هذا .

على السفوح الغربية من جبال القفقاس - القوقاز أو القبق كما سماها العرب قديماً - تقع جمهورية جورجيا الاتحادية السوفيتية التي سماها العرب قديماً بلاد الكرج أو كرجستان .

يحدها من الشمال والشمال الشرقي جمهوريات ومناطق ذات حكم ذاتي ، تابعة لجمهورية روسيا الاتحادية ، ومن الجنوب الشرقي جمهورية أذربيجان السوفيتية ، ومن الجنوب جمهورية أرمينيا السوفيتية ، والجمهورية التركية ، أما من ناحية الغرب فإن حدودها تقع على البحر الأسود .

مساحتها حوالي ٧٠,٠٠٠ ألف كيلومتر مربع ، ٨٠٪ من هذه المساحة جبال ، وأعلى قمة في هذه الجبال هي قمة جبل شخارا القوقازية ، ويصل ارتفاعها إلى ٥٠٦٨ متراً فوق سطح البحر ، وأكثر من ثلث هذه المساحة مكسو بالغابات . يصل عدد سكانها إلى حوالي خمسة ملايين ونصف مليون نسمة ، نصفهم تقريباً يعيشون في المدن ، ومايزيد على ٥٠٪ من دخلها يأتي بطريق الصناعة والبناء والنقل ، وحوالي ٣٥٪ منه يأتي بطريق الزراعة ، والباقي بطريق التجارة وغيرها من الخدمات .

عاصمتها مدينة تبليسي (تبيلي باللغة الجورجية تعني المياه الدافئة) ، أو تفليس كما سماها العرب إبان أيام فتوحاتهم في القرن السابع الميلادي (تم فتحها زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٩ م) ، يعيش فيها الآن حوالي مليون ونصف مليون من السكان ، وهي مدينة طولية ، تقع في وادٍ تحيطه الجبال والتلال من جهات عديدة ، ويمر بها نهر كورا وهو في طريقه نحو مصبه في بحر قزوين . وجورجيا كغيرها من بلاد القفقاس كانت ضحية موقعها المهم الاستراتيجي لأنه يمثل بوابة لآسيا على أوربا أو العكس .

لذلك فإن الدولة الأقوى في العالم القديم وفي عالم القرون الوسطى كانت تستولى على جورجيا وماعداها من مساحات في القفقاس ، كي تنفذ إلى الجهات الأوربية أو إلى الجهات الأسيوية . هكذا كان وضعها زمن الممالك القديمة من يونان ورومان وبيزنطيين وعرب وفرس ومغول وتتار وأتراك وسلاجقة - أتراك - وغيرهم .

تارة تخضع لهذه القوة أو لتلك ، أو تقوم فيها

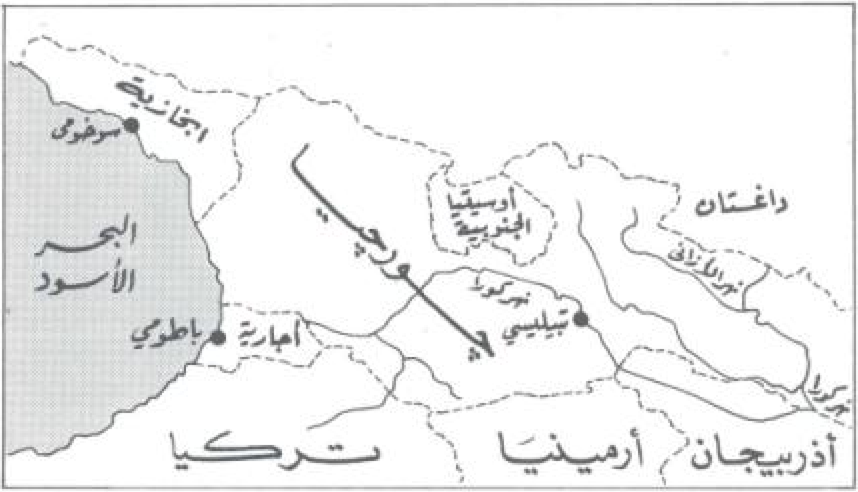

● جورجيا : بمناطقها وجيرانها .

إمارات ودويلات مستقلة عندما تقع الواقعة بين القوى الكبرى ، إلى أن أخذ الروس بالتمدد جنوبا ، محاولين الوصول الى المياه الدافئة ، وكانت جورجيا في تلك الفترة واقعة بين ناري الأتراك والفرس .

وكي تتخلص من هذه النار ، وخاصة أن الجورجيين كانوا مسيحيين أرثوذكس ، في حين أن الفرس والأتراك مسلمون ، لذلك قرر الملك هيراكلي الثاني ملك جورجيا الشرقية الالتحاق بالروس ، فالتقت المصالح ، وعرض الجورجيون إقامة معاهدة تحالف بينهم وبين الروس . وقد عقدت المعاهدة سنة ١٧٨٣ بين جورجيا الشرقية وروسيا ، ثم ألغيت هذه المعاهدة ، وتم الاحتلال الكامل لكل جورجيا من قبل الروس ابتداء من سنة ١٨٠١ ، وحقق الروس حلمهم بالوصول إلى المياه الدافئة - البحر الأسود وبحر قزوين - في تلك المرحلة ومنذ ذلك التاريخ لم تحتلها أي قوة اخرى غير الروس إلا في سنة ١٩١٨ ، عندما قامت فيها حكومة محلية معادية للسوفييت ، بمساعدة الانكليز ، واستمرت حتى سنة ١٩٢١ ، حيث أعيدت السلطة السوفيتية ، وتم الاعلان عن قيام جمهورية جورجيا الاتحادية كجزء من الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٦ .

مدينة شرقية

عندما تنظر من نافذة الطائرة وترى المدينة القديمة في تبليسي ، أو تنظر إليها من مكان مرتفع ، وبخاصة عندما تتمشى في أزقتها المرصوفة ببلاط البازلت أو الصوان الأبيض وتنظر إلى مبانيها وسككها فإنك لن تتردد بالقول : انها مدينة شرقية .

القرميد الأحمر يغطي المباني ، وشرفات واسعة تطل من جانبي البيت ، فيها نقوش وتخريمات وتوريقات وشناشيل شرقية الطابع ، تعتمد على الأشكال الهندسية المعروفة . بعض النوافذ مقببة بالجص الأبيض ، ومدهونة باللون الأزرق أو الأخضر أو الأصفر . أجزاء من سور القلعة التي تحيط بالمدينة تم ترميمها ، وظهرت البيوت القديمة بمحاذاتها . للبيت ساحة داخلية ، وفيه حديقة ، تصعد إلى طوابقه العليا بواسطة سلم خشبي أو حجري ، تتوالى فيه التشكيلات الفنية الهندسية المنحوتة على الخشب أو على الأحجار . قناديل قديمة تحتل زوايا بعض السكك الضيقة . تخريمات ونقوش شرقية على بعض الأبواب .

هذا حمام تركي ، وآخر حمام كبريتي (تشتهر تبليسي بحماماتها الكبيرة البيضاوية الشكل والدائرية) وذاك مسجد ، وتلك كنيسة مازالت

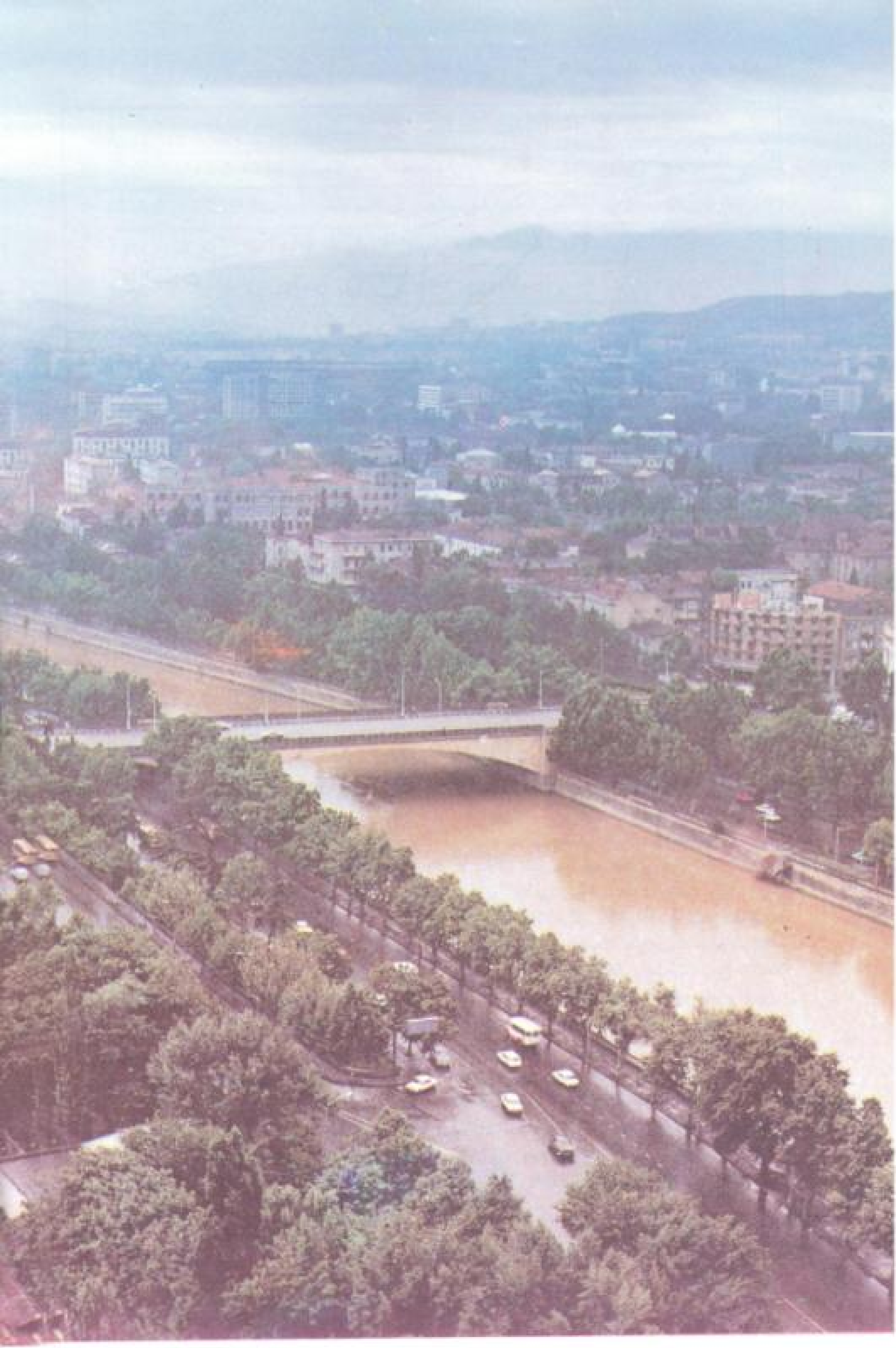

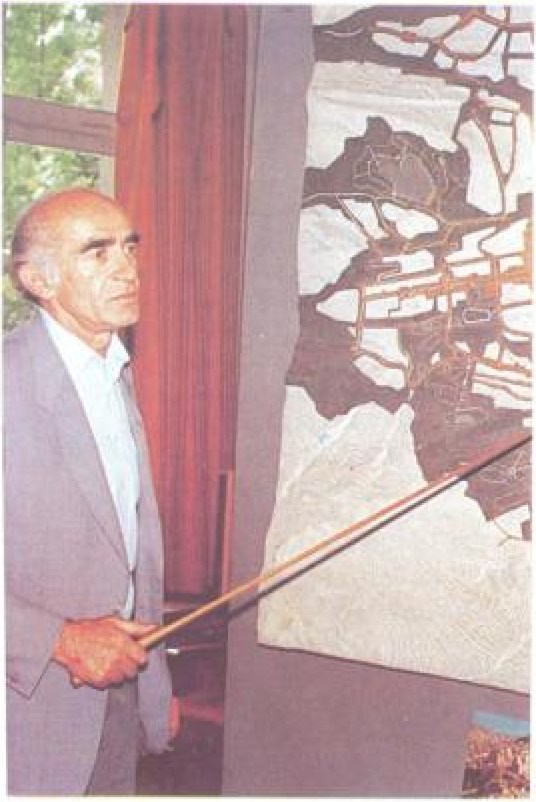

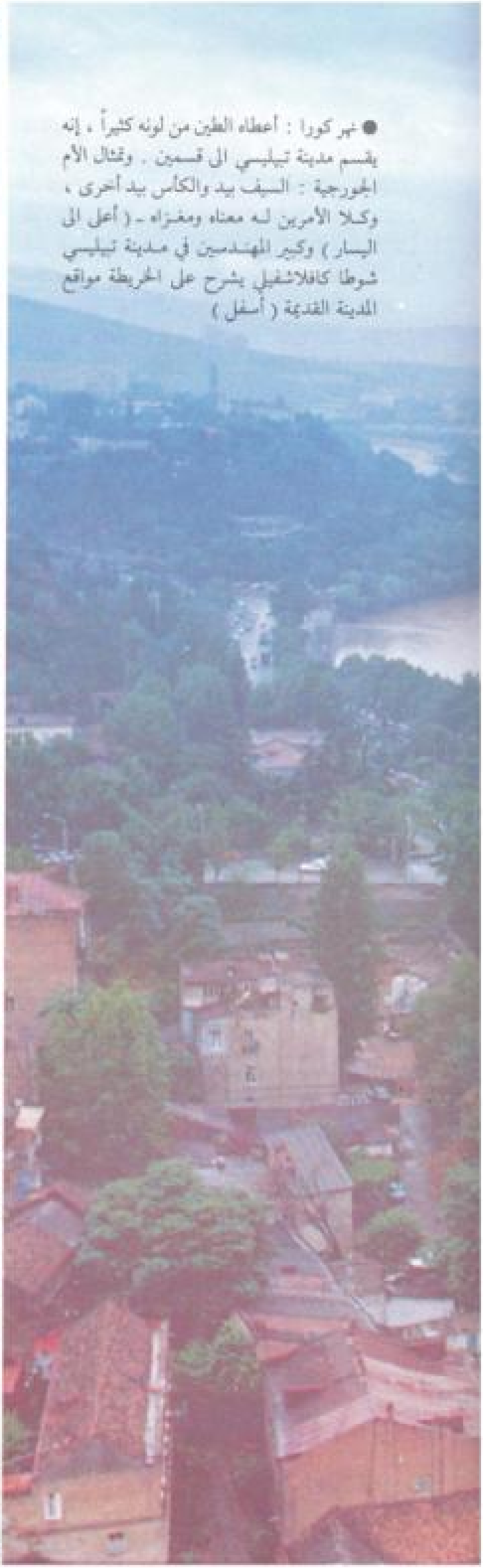

● نهر كورا : أعطاه الطين من لونه كثيراً ، إنه يقسم مدينة تبليسي الى قسمين . وتمثال الأم الجورجية : السيف بيد والكأس بيد أخرى ، وكلا الأمرين له معناه ومغزاه - (أعلى الى اليسار) وكبير المهندسين في مدينة تبليسي شوطا كافلاشفيلي يشرح على الخريطة مواقع المدينة القديمة (أسفل)

تعمل ، وأخرى تحولت إلى متحف ، وذاك مصنع ومعرض للمصنوعات الشعبية ، وآخر مرسم أو مسرح للأطفال أو بيت للدمى ، وغيره مقهى ، أو مطعم ، أو بيت رفض سكانه مغادرته بعد أن ورثوه أبا عن جد ، فتم تجديده مع الاحتفاظ بطابعه القديم ، وذاك فندق أو خان قديم ، وهذه ساحات ملأى بالتماثيل ، منها مجموعات ترقص ، ورجل بملابسه الجورجية التقليدية يحتل زاوية أحد الشوارع . الطرق ضيقة كأي مدينة شرقية حقيقية ، والشرفات متقاربة ، يكاد بعضها أن يلتصق ببعض .

القديم الجميل

سألت كبير مهندسي مدينة تبيليسي ، المهندس شوطا كافلاشفيلي :

* كيف استطعتم انتزاع المدينة القديمة من براثن التدمير ، وحافظتم عليها بهذا الشكل القديم الجميل ؟

- قال : لذلك قصة طويلة ، إن مدينة تبيليسي نمت نموا متسارعا ، فقد كان عدد سكانها سنة ١٩٣٩ حوالي نصف مليون نسمة ، وكان يمكن للمدينة القديمة أن تستوعب هذا العدد ، لكن سكان المدينة تزايدوا كثيرا ، ووصل مجمل أعدادهم سنة ١٩٧٩ إلى حوالى مليون نسمة ، وقفز العدد في هذه الأيام إلى ما يقرب المليون ونصف المليون .

إن المدينة قد شهدت في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية نموا متسارعا في قطاع الصناعة ، وبناء المؤسسات ، فتطلب ذلك نموا في عدد السكان ، وهؤلاء كانوا يحتاجون إلى بيوت ، لذلك حصل التمدد خارج المدينة القديمة .

ثم إن بعض بيوت المدينة القديمة قد أصابه الهرم والقدم ، وأخذ ينهار . ويمكن القول ان بعض المباني والكنائس يعود تاريخ بنائها إلى القرن الخامس الميلادى . ومع أن المدينة قد تم تدميرها حوالي ٤٠ مرة من قبل قوى عديدة بعد ذلك ، إلا أنها كانت تعود للانبعاث من جديد ، وقد سادها الاستقرار في القرن الثامن عشر . ويمكن القول بأن البيوت قد تم تجديدها حسبما كانت عليه قديماً ، ومع ذلك فان بعض السكان أخذ يميل إلى العصرنة ، فأخذ يجدد على هواه ، لذلك فإننا خشينا على المدينة من أن تفقد طابعها الجورجي التقليدي ، فطالبنا بالمحافظة على طابعها القديم بعد الترميم والتصليح . وقد اتخذ قرار من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجورجي ومجلس الوزراء فيها سنة ١٩٧٠ بالحفاظ على الطابع التاريخي للمدينة ، فقامت ورشة كبيرة للترميم والتجميل ابتداء من سنة ١٩٧٥ ، وعاد للمدينة القديمة طابعها المميز .

ومنذ ذلك التاريخ والمدينة تحتفل بيوم صدور القرار (الأحد الأخير من شهر أكتوبر) عيداً قوميا للمدينة ، تقام فيه الاحتفالات والرقص الشعبي ، خصوصا بعد جني محصول العنب ، ويرتدي الناس الملابس القومية المميزة ، وتعرض المسرحيات والتمثيليات المناسبة .

* هل يمكن إيجاد توازن بين الاستجابة لطلبات السكن المتصاعدة وبين المحافظة على الطابع التراثي القومي للبناء الحديث ؟

- إن ذلك من أصعب الأمور التي تواجهنا ، إننا نبني الآن على مساحة تصل إلى حوالى ٦٠٠ ألف متر مربع للسكن سنويا ، وكما تعرف فإن البناء الحديث يتجه رأسيا ، في حين أن البناء القديم كان يتجه أفقيا ، ويحتل مساحة واسعة ، ونحن مطالبون بتلبية المطالب الملحة للسكان ، وهذه المطالب لاتعطينا وقتا كي نتأنى ، ونقدم مساكن فيها مواصفات التقليدي القديم إضافة إلى أن ما هو تقليدي قديم يحتاج إلى إمكانيات مادية أكثر . لذلك فنحن نتجه مرغمين إلى تلبية المطالب الملحة ، على حساب التقليدي المميز .

* من خلال مارأيت من مبان في المدينة القديمة وحتى في شارع روستافيلي الحديث (روستافيلي أشهر شعراء جورجيا) فإنني أرى أن المباني تشبه في كثير من أشكالها ومواصفاتها أي مدينة شرقية ، فهل ما هو موجود من مواصفات يعتبر تراثا قوميا جورجيا خالصا ؟

- أجاب المهندس : إن ما هو موجود من مبان قديمة ، وحتى المبانى الحديثة مثل دار الأوبرا أو دار البلدية ، ما هو إلا نتاج تفاعل جورجيا مع الحضارة الإسلامية (العرب ، والأتراك ، والفرس وغيرهم) ، كما توجد تأثيرات « كلاسيكية » روسية وأوربية (الباروك والروكوكو) ، وتأثيرات عصرية حديثة .

تتمعن بالمدينة بعد أن تألفها فتجدها مليئة بالمنحوتات الملونة ، المتفذة بالسيراميك التي تمثل

نشاطات العمل أو التي تمثل أشخاصا ، فتجد أن مستواها متقدم دقيق ، وأنها تضفي جمالا أخاذاً على محيطها وكذلك هي وكثير من المدن السوفيتية التي زرناها .

تنظر حولك أكثر فتجد أن التلال والجبال المغطاة بأشجار الغابة تحيط بالمدينة ، وأن تمددات البناء فيها قد اتجهت نحو المساحات الفارغة طوليا ، في غرب المدينة . تقف في الساحة الرئيسة للمدينة ، ساحة لينين ، فيستهويك المنظر الذي يقع على يسارك ، إنه تمثال الأم الجورجية التي تقع في نهاية طريق الكومسمول في الناحية الجنوبية الشرقية بالقرب من (نارا قلعة) أي قلعة نارا القديمة التي تم ترميمها .

طول التمثال يزيد على عشرة أمتار ، وقد صنع من الالمنيوم الأبيض . تلبس المرأة الملابس الجورجية التقليدية الفضفاضة ، وتحمل بيدها سيفا هو كما ذكر مرافقنا لمواجهة من يريد شرا بالمدينة ، وفي اليد الأخرى ترفع كأسا من الشراب ، هو لمن أتى المدينة قاصداً الخير والصداقة . ثم يلفت نظرك في الجهة الغربية المقابلة لك برج « التلفزيون » الذي بني على أعلى جبل يشرف على المدينة (متاتسميندا) ، وارتفاعه حوالى ٧٥٠ مترا فوق سطح البحر ، ويقع على يسار الطريق الصاعد إليه متنزه ستالين للثقافة والترويح .

وفي منتصف الطريق الصاعد إليه بالمركبات التي تسير على سكة كهربائية توجد كنيسة سانت ديفيد التي بنيت سنة ١٨٥٥ ، وقد تحولت المساحة التي تحيط بها إلى مقبرة للفنانين والكتاب المبدعين الجورجيين ، وعلى كل قبر وضع نصب كتب عليه اسم المتوفى ودوره . والغريب أننا وجدنا بين تلك الأنصاب واحدا خاصا بوالدة ستالين ، منحوتا من رخام أسود وأبيض (الأسود للحزن والأبيض يمثل الخلود كما تم شرح ذلك لنا) ، وقد كتب على هذا النصب (كاترينا جوكاشفيلى ١٨٥٦ - ١٩٣٧ م) .

وتابعنا الصعود لنصل إلى المحطة العليا للمركبات،فاطللنا على المدينة التي ظهرت تضاريسها وطبيعتها الجميلة ومناطقها المختلفة التي يشقها نهر كورا إلى نصفين . ولولا الضباب والمطر لكنا قد التقطنا منظرا فريدا من نوعه . هكذا حصل معنا أيضا عندما ارتقينا التلة عند تمثال الأم الجورجية .

ومع أننا قمنا بالزيارة في شهر آب (اغسطس) لكن المطر لم يعتقنا ولم يعتق المدينة من انصبابه الغزير ، مع أن درجة الحرارة كانت في اليوم الأول لوصولنا ٣٢ ، ووصل معدل الرطوبة إلى حوالى ١٠٠٪ حتى أن الشجر كان ينتح الماء وينقطه على رؤوس المارة . وقد انخفضت درجة الحرارة بعد نزول المطر إلى ٢٨°م ، مع بقاء الرطوبة مرتفعة .

ماتذكره كتب المناخ

ولتفسير الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية تذكر كتب المناخ عن المناخ السائد في جورجيا ما يلي : -

مناخ جورجيا عموما انتقالي من المناخ شبه المداري إلى المناخ المعتدل ، ويلاحظ فيها المناطق المناخية التالية :

- القسم الغربي ، أي سهل كولخيدا ، ويصل أعلى ارتفاع فيه الى حوالي ٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، وهو ذو مناخ شبه مداري ، رطب دافىء شتاء ، نادرا ماتهبط فيه درجة الحرارة إلى الصفر ، لأنه محمي من الرياح القطبية الباردة بجبال القفقاس العالية . ويبلغ معدل الحرارة اليومي في تموز « يوليو » ٢٤ درجة ، وأمطاره غزيرة تتفاوت مابين ١٢٠٠ - ١٨٠٠ ملم في السنة ، وهذه الظروف تساعد على زراعة النباتات المدارية كالشاي والحمضيات وغيرها ، ومن مدنه المهمة برجومي ، وتسخولتوبو المشهورة بمياهها المعدنية ومصحاتها ، (وقد كان الرئيس المصري الراحل عبد الناصر يقصدها للعلاج) .

- القسم الشرقي ، اي وادى كورا ، ذو مناخ شبه مداري قاري ، نصف جاف ، معدل درجة حرارته في الصيف ٢٥ ، وفي الشتاء صفر ، ومعدل المطر فيه يتراوح بين ٣٠٠ و٨٠٠ ملم سنويا ، وتزرع فيه أشجار الكرمة والحبوب والبنجر ، وهو القسم الذي تقع فيه العاصمة تبليسي ، ويوجد أيضا قسم الجبال الذى يتلقى أكبر نسبة من سقوط الأمطار ، ثم قسم النجد الجنوبي ذو المناخ القاري نصف الجاف .

ومادمنا قد ذكرنا الشرق والغرب الجورجي فإنه يجدر بنا الإشارة إلى أن لفظي (نادزة) و (شفيلي) المتداولين في جورجيا يعنيان (ابن) ، تماما كما هى الواو والفاء في نهاية الأسماء الروسية التي تعنى ابن أيضا (شيبلوف) و(خروشوف) و(انتونوف) الخ . والأولى « نادزة » تطلق في غرب جورجيا في حين أن (شفيلي) مستعملة في الشرق ووسط جورجيا .

● مبنى الحكومة في تبليسي فيه كثير من ملامح العمارة الاسلامية العربية - (اعلى) . (والى أسفل) مبنى العروض الموسيقية في مدينة تبليسي ، إنه مصمم على الطراز الأندلسي - (واقصى اليسار) واجهة قاعة الموسيقا : كل ما يظهر فيها يوحي بطراز العمارة الشرقي .

هيئة التخطيط

في هيئة التخطيط التي تقع في مبنى مجلس الوزراء الجورجي الفخم الضخم القائم على أعمدة طويلة ضخمة مقوسة والذى بني زمن الحقبة الستالينية التقينا بالسيد تالام بيرتزا رئيس القسم الاستشاري بالهيئة ومساعده.

ومثل هذه الهيئة قائمة في جميع الجمهوريات السوفيتية، وهي من الهيئات المساعدة للهيئات والوزارات القائمة، في التخطيط للتطور الاقتصادي والاجتماعي.

ذكر السيد بيرتزا أنه توجد ثلاث مناطق تتبع جورجيا، هي جمهوريتا ابخازيا واجاريا ذاتيتا الحكم (أغلبية السكان في الجمهورية الثانية مسلمون، مساحتها ٣ آلاف كلم٢، وعدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة، وعاصمتها باطومي، وهي من أشهر موانىء البحر الأسود)، ومنطقة اوسيتا الجنوبية. وتصل نسبة الجورجيين في الجمهورية كلها إلى حوالى ٦٩٪ من السكان، في حين أن الأرمن يصلون إلى ١٠٪، ومثلهم الروس، ويليهم الاذربيجانيون، حيث أن نسبتهم تصل إلى حوالي ٧٪، وهناك أقليات أخرى مثل اليونانيين والأكراد والآشوريين وغيرهم. ثم تكلم عن المواد الخام في الجمهورية، وذكر أن أهمها المنجنيز، والفحم الحجري، والحديد، والتنجستين، والتوتياء وغيرها. وتعد ثروة المياه والغابات من أشهر ثرواتها.

وذكرأن أهم الصناعات هي قاطرات السكك الحديدية، وأن إنتاج ٣٠٪ من قاطرات الاتحاد السوفيتي كله يتم في جمهورية جورجيا، كما تصنع فيها الماكينات والحاصدات الزراعية، وتصنع فيها حتى الطائرات، وصناعة الالكترونيات، كما أن ٩٤٪ من انتاج الشاي في الاتحاد السوفيتي من انتاج جورجيا، هذا عدا عن انتاج المشروبات الكحولية بأنواعها المختلفة.

ثم ذكر بأن التعليم الثانوي إجباري في الجمهورية، وأنه توجد جامعتان في الجمهورية، الأولى في تيليسي وقد تأسست سنة ١٩١٨، والثانية في سوخومي، عاصمة ابخازيا، وقد تأسست سنة ١٩٧٨ م. ويوجد ١٩ كلية للتعليم العالي، وكليتان تقنيتان، وكليتان للزراعة، ومدارس عليا للمعلمين، وأكاديمية للفنون، وأكاديمية للعلوم، وغير ذلك.

● السيد تالام بيرتزا

وذكر أنهم في هيئة التخطيط يضعون خططا بعيدة المدى، قد تصل إلى ١٥ سنة، وخططا قصيرة المدى تصل إلى سنة.

وهذه الهيئة تعمل تحت إشراف مجلس الوزراء الجورجي، وهي عضو في لجنة التخطيط السوفيتي المركزية.

أما من حيث طبيعة عمل اللجنة في الماضي وفي الحاضر خاصة بعد رفع شعارات إعادة البناء والعلنية فقد قال السيد بيرتزا: لقد كنا من قبل نخطط لكل شيء، وكان يتم الالتزام بمركزية التخطيط حتى لأصغر المصانع، بل حتى لتغيير نوعية مسمار أو شكله، وكان ذلك يخضع لموافقة لجنة التخطيط المركزية في موسكو.

وقد أدى ذلك إلى كثير من الارباكات وعدم سوية بعض التصرفات، لأن الرقم في الانتاج أصبح أهم من النوع أو جدوى مايتم صناعته، وهكذا كان يتم استعمال خامات أكثر، لإنتاج سلع كثيرة، لكنها رديئة، ولايوجد عليها إقبال.

المزيد من الحريات

عندما سألناه عن حال الانتاج الآن فإنه أجاب :

حسب قانون المؤسسات الانتاجية الجديد يوجد للمؤسسات حرية أوسع في التخطيط ، إذ أصبحت إدارة المصنع هي التي تخطط لإنتاج موادها ، وعقد اتفاقات تصريفها ، مع وجود ضوابط خاصة بالنسبة لانتاج المواد الاستراتيجية ، وتوفير حق الدولة من المواد الأساسية .

وقد بدأت كثير من المؤسسات والمصانع في جمهوريتنا تدير عملها حسب الربح والخسارة .

* سألت : المعروف أن منطقة بلاد القفقاس مجمع للعديد من القوميات والشعوب الصغيرة ، أفلا توجد مشاكل قومية في جورجيا ، تشبه مشكلة كاراباخ بين جمهوريتي أذربيجان وأرمينيا ؟

أجاب السيد بيرتزا : أستطيع القول بثقة أنه لاتوجد مشكلات قومية في جورجيا تشبه مشكلة كاراباخ . إنك ترى أنه توجد جمهوريات ومناطق ذات حكم ذاتي داخل الجمهورية الجورجية ، وهذا سهل لنا مواجهة بعض المشاكل وحلها بالصور المناسبة .

حوادث ابخازيا

* لقد قامت في جمهورية ابخازيا ـ ذات الحكم الذاتي الآن ـ حوادث سنة ١٩٧٨ تشبه الأحداث التي قامت في كاراباخ . فهل كان العامل الديني أو القومي هو الذي حرك الأحداث ؟

ـ فوجيء السيد بيرتزا بالسؤال ، وبالمعلومة التي نطرحها ، فتشاور مع مساعده ، وتوثق من سنة الأحداث ، وأجاب : يصل عدد السكان الابخازيون الأصليون إلى حوالي ٢٠٪ من عدد سكان الجمهورية (مساحة الجمهورية ٨٫٦٠٠ كم مربع ويتجاوز عدد سكانها نصف مليون نسمة ، وتقع في شمال غرب جورجيا ، وعاصمتها سوخومي التي تعد من أهم موانيء البحر الأسود) ، ويوجد بينهم مسلمون ومسيحيون (الأغلبية من المسيحيين ارثوذكس مثل أغلبية سكان جورجيا وروسيا) ، أما بقية السكان فهم جورجيون ، وروس ، وأرمن وغيرهم ، وقد قامت أحداث في الجمهورية عام ١٩٧٨ ، وتمت المطالبة بالحاق ابخازيا بموسكو مباشرة وليس عبر جورجيا ، وجاء هذا الطلب عبر المتظاهرين ، وليس طلبا رسميا من السوفييت المحلي (ممثلي الشعب المحليين) .

وتعود أسباب الأحداث إلى العبث بقوانين الدولة السوفيتية ، وعدم تطبيقها بشكل عادل منصف ، كالنقص في الخدمات وغيرها .

وأقول واثقا إن العامل المحرك لم يكن دينيا أو حتى قوميا . وإثر الأحداث تم اتخاذ قرارات مناسبة لتطوير المنطقة في جميع جوانب الحياة ، وتم إنشاء جامعة ابخازيا في العاصمة سوخومي ، وتم اعتماد اللغة الابخازية لتدريسها في المدارس والجامعة ، وأقيم مركز للبث « التلفزيوني » باللغة الابخازية إضافة إلى الروسية ، وتم تطوير مؤسسات الخدمات ، وقد تم كل ذلك بإشراف هيئة التخطيط مباشرة ، وقد أدى ذلك إلى تقدم الوضع الآن ، وأصبح يضاهي أي وضع متقدم آخر في الاتحاد السوفيتي .

« سوليكو » .. « سوليكو » !

الوقت ، وقت غروب ، حمرة الشفق تتسلل من بين الغيوم التي أخذت تدر مطرا خفيفاً ، ومازال نهر كورا يحمل مياها معكرة ، لونها لون الطين الموزع بين الأصفر والأبيض ، وأوراق أشجار السرو والحور والصنوبر ترتعش وتتمايل مع هبات الرياح . والمدينة القديمة بمبانيها المرممة أمامنا ، وفوقنا تلال تمثل الجانب الآخر من المدينة ، وقد تم ترميم الكثير من المباني المقامة عليها ، فظهرت في أبهى صورها .

المكان كنيسة نيكولاس الجورجية القديمة (بنيت في بداية القرن التاسع عشر الميلادي) ، سقفها المخروطي المغطى بمادة التنك والالمنيوم يلمع بسبب انعكاس ألوان الشفق المغموسة بحبات المطر التي سقطت عليه .

عشرات المقاعد مصفوفة في الداخل ، وعشرات الأشخاص ـ خصوصا من السياح ـ يحتلونها ، لقد تحولت الكنيسة الى قاعة للعروض الفولكلورية ، وفرقة شاوري للرقص الشعبي تحتل الخشبة الصغيرة ، وتطلق العنان لأصوات أعضائها مطعمة بالأنغام ، وموقعة معها ضربات الأرجل العنيفة على الخشبة ، ورجل يقفز، بل يطير راقصا بعنف ، بشكل دائري شامخ سريع يحاكي النغم ، أو ربما يحاكي سمو الجبل وعلوه وشموخه ، وترق الموسيقا ، وتحضر امرأة لها جديلتان مسدلتان

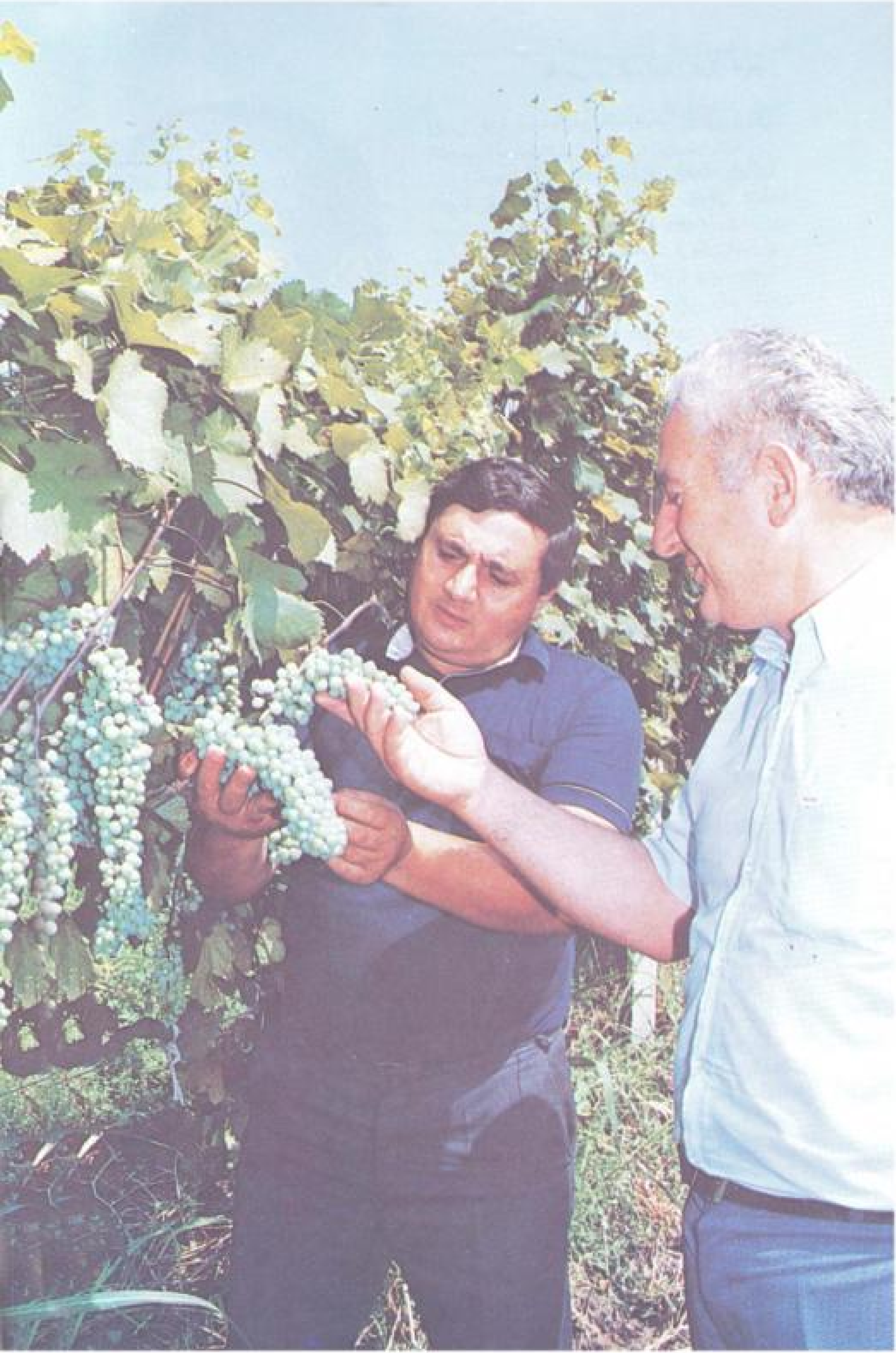

● الى اليمين محصول وفير من العنب ، نتاج الكرمة ، أشهر الزراعات في جورجيا وبوابة تسنوري التي بنيت في القرون الوسطى ، وتم ترميمها حديثا ـ (اعلى) قرية جديدة في سهل الأزان ، إنها خرلوبوجي ـ (وسط) مقاهي الرصيف ، إحدى الأماكن المقصودة في مدينة تبليسي القديمة (أسفل)

ترتاحان على ثوب طويل وأكمام فضفاضة وغطاء رأس محكم له حواف ، وتتحرك برشاقة ، ثم تقف على رؤوس الأصابع ، ويدق الطبل بعنف ، ويقفز راقص آخر يتحدى سابقه ، ثم يأتي جمع من الراقصين ، فتلمع الخناجر والسيوف ، ويبدأ استعراض التنافس بالحركات الأرشق والأعنف والأسرع ، يرتفع صوت الاكورديون والطبل وآلة تشبه الكمان .

ثم يرق الجميع عندما يحضر الناي ، ويأتي صوت رقيق ناعم سلس مغنياً : « سوليكو » « سوليكو » ، ويستمر الاحتفال ، ويهمس مرافقي في أذني قائلاً : سوليكو هو اسم امرأة ، وكانت هذه الأغنية من الأغاني المحببة لستالين !

سألت السيد عمر شيشنادزة مدير الفرقة عن تشابه الملابس التقليدية الجورجية الرجالية والنسائية بالملابس الشركسية فعلق :

ـ لا شك أن طبيعة بلاد القفقاس تركت آثارها على الكثير من مناحي حياتنا ، وهي مشتركة بين شعوب المنطقة ، ويمكن أن يكون الاسم الأشهر بين شعوب القفقاس هو الشركس في هذا المجال ، وملابس الرجل التقليدية يقال لها « الشركسيا » ، وهي تختلف قليلا بين هذا الشعب أو ذاك .

ـ ثم سألته عن الألحان والموسيقا والكلمات والرقصات ، وهل يقدمونها كما استمعوا إليها ونقلوها عن الأجداد ، فعلق : إننا نحاول تقديم التراث كما هو ، مع تعديلات بسيطة في الألحان أو الكلمات أو الحركات .

غذاء أساسي

من المعروف أن السينمائيين الجورجيين متطورون ، وقد حصدوا جوائز مهمة في بعض المهرجانات العالمية ، كما حصل مع المخرج ابولادزة الذي فاز بالجائزة الأولى على فيلمه « التوبة » في مهرجان كان السينمائي صيف هذا العام ، وفازت مخرجة جورجية أيضاً بجائزة في نفس المهرجان .

عندما سألت السيد أباجري كيلي النائب الأول لوزير الثقافة في جمهورية جورجيا عن كيفية تعاملهم مع السينمائيين وما يوفرونه لهم من إمكانات أجاب :

ـ ستندهش لو قلت لك إنه ليست لنا علاقة مباشرة بصناعة « الفيلم » السينمائي ، وما نقوم به هو توفير الجو الصحي للابداع ، إذ يوجد في البلاد عشرات النوادي السينمائية للمهنيين والهواة ، وفيها تعرض الافلام ، وتناقش ، كما أن اتحاد السينمائيين في جورجيا ينظم برامج سنوية لعرض الأفلام الأكثر شهرة في العالم ، سواء للمحترفين أو للهواة ، وليس هذا هو كل ما نفعله بالنسبة للمهتمين بفن السينما ، فإن توفير جو ثقافي مناسب في جميع الفروع هو مساعدة للمبدعين في شتى المجالات ، ومع ذلك فاننا سنقوم باستيعاب النشاطات السينمائية الحرفية ابتداء من العام القادم .

أما ما عنيته بأجواء ثقافية مساعدة فهو وجود ٣٢ مسرحا تابعا للدولة في جورجيا بينها ثلاثة مسارح للاوبرا والاوبريت وخمسة مسارح للاطفال ، والباقي مسارح درامية ، بينها مسرح روسي ، وآخر أرمني ، وثالث ابخازي .

ويوجد خمس فرق سيمفونية ، و ٣٢ فرقة موسيقية صغيرة ، و ١١ فرقة فولكلورية معتمدة .

ويوجد في بلادنا حوالي ٢٠٠ مدرسة للموسيقا بأنواعها ومستوياتها المختلفة ، و ٢٣ كلية فنية (رسم ، نحت ، رقص ، موسيقا . . . إلخ) ، وكليات أخرى لإعداد « الكوادر » الإدارية لنوادي

● السيد اباجري كيلي

الثقافة المنتشرة في المدن والقرى الجورجية ، و ٣ مؤسسات للتعليم العالي هي : أكاديمية فنون ، وكونسرفاتوار ، وكلية للمسرح . وقد شاركت فرقنا وفنانونا في كثير من المهرجانات العالمية ونالت جوائز عدة .

ومما يجب ذكره أن الصحف تصدر في جورجيا بخمس لغات هي : الجورجية ، والروسية ، والأرمنية ، والاذربيجانية والابخازية ، كما أن الإذاعة تتعامل رسميا بهذه اللغات .

* إذن كيف تتعاملون مع التراث ، أعني التراث الفني والموسيقي وغيره ؟

- إننا نعتمد أسلوبين في هذا المجال :

الأول : اتجاه لتقديم التراث كما هو ، وكما هو متداول بين الناس ، وتقدم ذلك كثير من فرق الهواة ، ويخضع لضوابط اللجان العلمية الخبيرة .

الثاني : اتجاه يقوم على تطوير « الفولكلور » وهذا الأمر لا يترك للأفراد حسب أذواقهم ، بل يتم الأمر ضمن معايير ودراسات متأنية ، يقوم بها متخصصون علميون لهم خبرتهم الطويلة في هذا المجال .

ونحن نشجع الموهوبين في شتى مجالات الإبداع الفني ، ونحتفظ بتسجيلات للفولكلور - النقي - لأنه يمثل قاعدة الحركة الفولكلورية .

في أرض الكرمة

يعد الناتج الزراعي الثروة الأساسية الثانية بعد الصناعة في جورجيا ، وأهم الزراعات الجورجية الشاي والحمضيات والحبوب والتبغ والبنجر والخضار والعنب .

- وتشتهر منطقة شرقي جورجيا بزراعة الكرمة . وقد قصدنا المنطقة التي تقع شمال شرق العاصمة تبليسي التي يقع فيها مجمع سيغناغي الزراعي وسهل الآزاني الذي يسقيه نهر الآزاني (أحد فروع نهر كورا) ، وهي منطقة تبعد حوالي مائة كيلومتر عن العاصمة .

ساعدنا الحظ فلم يسقط المطر ذلك اليوم ، فاتجهنا شمال شرق العاصمة ، وهو نفس الطريق الذي يتجه إلى باكو عاصمة اذربيجان (تبعد حوالي ٥٧٠ كيلومترا عن العاصمة الجورجية) ، وإلى يريفان العاصمة الأرمنية (تبعد حوالي ٢٣٠ كيلومترا) .

يحف بالطريق تلال وجبال مكسوة بغابات السرو والشربين والحور والجوز . مررنا قرب المطار ، فرأينا تمثالا لامرأة تحمل الشمس بيديها ، يرتفع إلى حوالي ١٥ مترا ، كأنها تنير الطريق .

مزارع كثيرة وقرى قليلة كانت تحاذي الطريق . أبقار ترعى بجانب الطرق . قطعان الغنم والماعز تراها من بعيد ترعى في الحقول الخضراء . بط يرفرف بأجنحته قرب القرى ، ودجاج وأفراخ تصيح ويتابع بعضها بعضا .

بعض البيوت الصغيرة التي تسمى « داشات » ، وهي بيوت استراحة الأفراد ، تظهر في هذا الجانب أو ذاك خارج المدينة . وهي مملوكة للأفراد لقضاء أيام العطل في أحضان الطبيعة .

حقول مزروعة بالذرة ، تحاذيها حقول أخرى مزروعة بنبات دوار الشمس ، وبعضها مزروع بكروم العنب التي ظهرت عناقيدها خضراء تلمع (تنضج عناقيد العنب في بداية سبتمبر - ايلول - وينتهي موسم الجني في نهاية هذا الشهر) .

طرق القرى التي نمر بها مرصوفة ، وتربة أرض بعض الحقول سوداء ، وتظهر بعض القلاع المرممة على جانبي الطريق في أماكن مرتفعة على التلال والجبال .

نرى مجموعة من الأشجار الجرداء (١٨ شجرة) معلق عليها ثلاثة أجراس ، وتحتها خمسة أنصبة ، على أحدها نحتت صورة ستالين بشاربه الكث ، وكتب تحت النحت : لأجل مجد الوطن والنضال ضد الفاشية سقط الشهداء . وكانت تلوح قلعة على مقربة من المكان .

نقطع حقولا زراعاتها الأساسية أشجار كرمة ، فنعرف أننا أصبحنا نقترب من المكان الذي نقصده .

متوافر لكنه ليس بالضرورة جيدا

سيغناغي مجمع زراعي ، نزرع ٤٥ ألف هكتار من مساحته قمحا وشعيرا وذرة وأعلافا ، ونزرع في ستة آلاف هكتار منه أشجار عنب .

هكذا حدثنا السيد دافيد الله دفشيلي رئيس المجمع ، وأضاف : يعمل في الحقول ٦٥٠٠ عامل وعاملة ، في حوالي ١٥ كولخوزا (مزارع الدولة) ، وخمسة سوفخوزات (مزارع تعاونية) ، نربي فيها السمك النهري والدجاج والنحل والماعز والغنم والخنازير . ويوجد سبعة معامل للمشروبات الروحية ، ومعمل للجبنة والزبدة ، ويوجد ٤

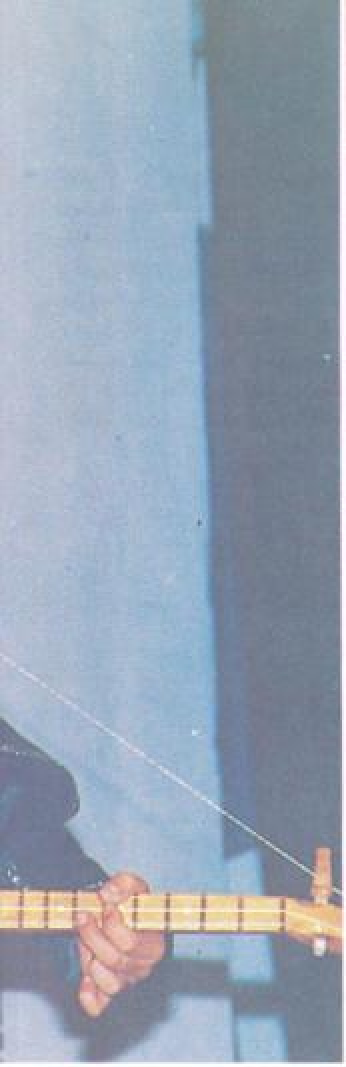

● أدت دورها ، فكرمها الجمهور بباقة ورد لاحظ اللباس الجورجي التقليدي ، إنه شرقي حتما (يمين) أدوات الموسيقا الشعبية التقليدية ، وملابس شعبية قوقازية تقليدية أيضا (اعلى) حركة رقص رشيقة وتوقيعات بالأكف لايجاد الجو المناسب (أسفل)

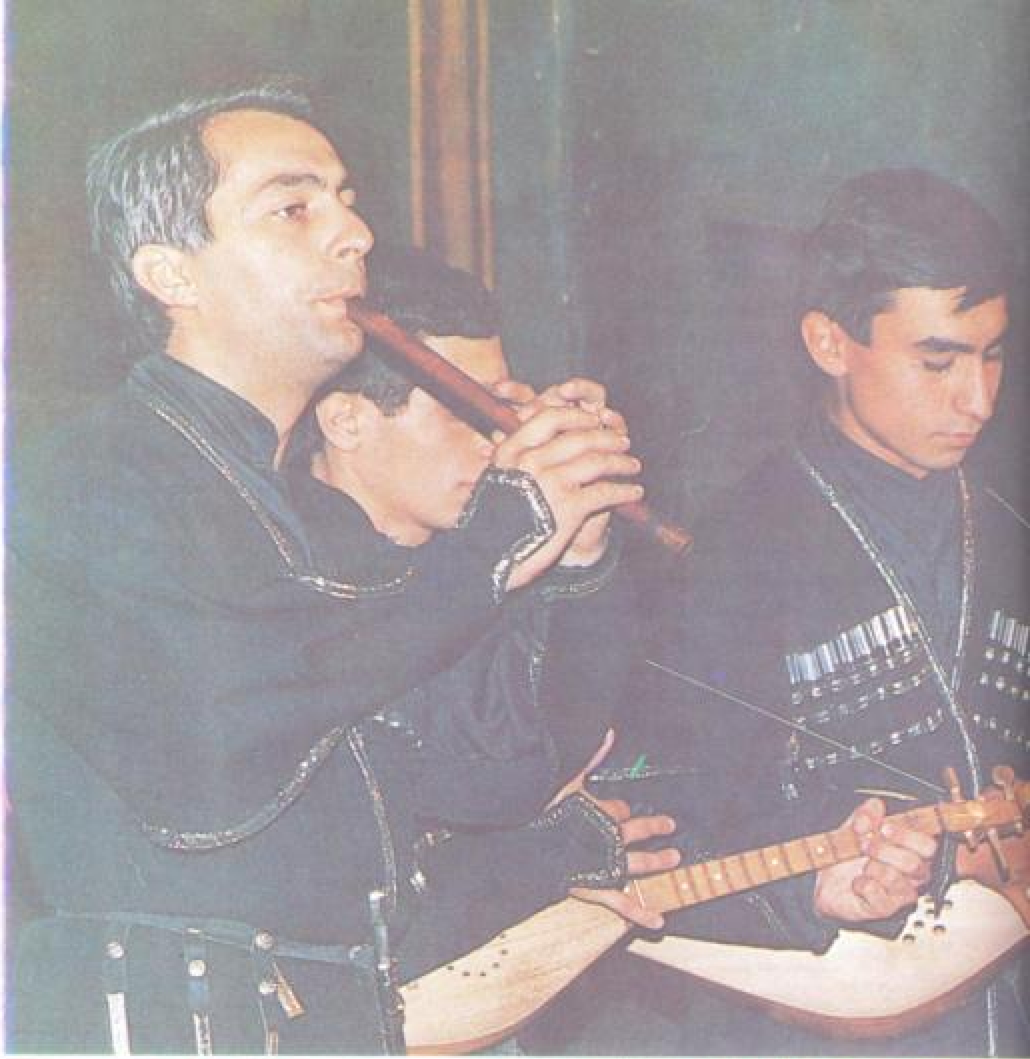

كولخوزات لصناعة الزيت من نبات عباد الشمس . وقد قال كلمة زيت بالعربية (وهي نفس الكلمة الجورجية)، وأضاف : هناك عدة كلمات جورجية هي نفسها بالعربية .

علقت : إن التفاعل بين شعبينا قديم .

* سألت : إن مشكلة السكن مشكلة معروفة منتشرة في جميع أنحاء العالم بما فيها جورجيا . فهل هناك مشكلة من هذا النوع في منطقتكم ؟

ـ علق السيد دافيد : لا يوجد مشكلة سكن في منطقتنا ، إن البيوت في القرى والبلدات المحيطة بنا ملك لأصحابها ، وفي كل قرية مدرسة ثانوية ونادٍ ثقافي ، وعيادة طبية ، وصيدلية ، والكهرباء متوفرة ، والمياه تصل بالأنابيب إلى البيوت ، وكذلك الغاز . عفوا هناك أربع قرى في المنطقة لم يصل لها الغاز بالأنابيب حتى الآن .

ولا توجد أمية في المنطقة ، فقد تم القضاء عليها منذ عشرات السنين . لا أريد التضخيم وقول ادعاءات لا أساس لها ، وإذا ما أردت قول الحقيقة فإنني أقول إن كل شيء متوافر ، لكنه ليس بالضرورة جيدا .

وأضاف : بدأنا العمل حسب برنامج الربح والخسارة في بعض المزارع ، وسيتم تعميم هذا البرنامج اعتبارا من بداية سنة ١٩٨٩ .

* هل هناك مزارع تخسر ؟

ـ طبعا هناك مزارع تخسر .

* وكيف تحلون مشكلتها ؟

ـ يتم بيعها لمزرعة أخرى تربح ، أو يتم توزيع الأراضي والمواشي على المزارعين ضمن اتفاقات مبينة معروفة . وطريقة استئجار المزارع أو العناية بالمواشي سائدة في منطقتنا ، وتتم الاتفاقات لسنوات محدودة وحتى لسنة واحدة .

الغائب الحاضر !

* حدثنا عن أغلبية السكان في المنطقة ؟

ـ ٩٥٪ من السكان جورجيون ، والباقي روس واذربيجانيون وأرمن .

* هل حدثت مشاكل معينة بين الأرمن والاذربيجانيين في المنطقة ؟

ـ لا ، لم تحصل ، والكثير من أفراد القوميات الأخرى ولدوا هنا ، وبعضهم لا يعرف حتى لغته القومية ، لقد أصبحوا جورجيين .

* ما رأيك في مشكلة كاراباخ ؟

ـ ابتسم الرجل ، وعلق : كان الأرمن والاذربيجانيون يسكنون المنطقة منذ زمن قديم ، وكانت تتبع هذا الجانب أحيانا وذاك الجانب في أحيان أخرى . صحيح أن الأرمن أكثرية في المنطقة ، لكن هذا لا يعني بأن يلتحقوا بالجمهورية الأرمنية ، فالجميع سوفييت في النهاية .

وصحيح أن الجانب الاذربيجاني قد عبث بحقوق الأرمن ، ولم يراع خصوصياتهم القومية ، وهو الذي يتحمل مسؤولية الأحداث ، لكن الدستور لا يبيح لممثلي المنطقة ذات الحكم الذاتي اتخاذ قرارات تتعلق بالسيادة والالتحاق .

* هل عندك استعداد لإبداء رأي بما يقال عن ستالين في هذه الأيام ؟

ـ إن ستالين أصبح ابنا للشعوب السوفيتية ، وليس للجورجيين فقط ، وإذا ما أردنا أن نحاكم أي مرحلة فإن علينا استعمال مقاييس ومعايير تلك المرحلة ، لذلك فإنني أجد ظلما للمرحلة ولستالين في طروحات هذه الأيام .

* هل تتكلم هكذا بصفتك جورجيا بدافع عن ابن بلده الجورجي ، أم أنك تتكلم بما تعتقد أنه الحقيقة ؟

* إنني أتكلم بما أعتقد أنه الحقيقة .

ـ هل كل ما تم في الحقبة الستالينية صحيح وجيد ولمصلحة الشعوب السوفيتية ؟

ـ أعتقد أن الظروف كانت صعبة جدا في تلك المرحلة ، والكثير من الأحداث لها مبرراتها .

* لكل حقبة سلبياتها وإيجابياتها .

ـ ربما ، لكن الظروف حتمت الكثير من التصرفات .

خرنوبوجي جديدة !

غادرنا المكان بعد أن رافقنا مساعد السيد دافيد متوجهين إلى حقول العنب في سهل الأزان . أشجار الجوز والكرمة تحف بالطريق ، وغابات تمتد على مد النظر في الجبال . بدأت معالم السهل تتضح أمامنا ، ومررنا ببلدة تسنوري التي يصل عدد سكانها ١٢ ألف نسمة ، فوجدنا أن سورها القديم ما زال قائما ، وقد تم ترميم ٤ كيلومترات ونصف كيلومتر منه ، وقد بني زمن الملكة تامارا ، إحدى الملكات الجورجية القوية في القرون الوسطى التي حكمت أجزاء من شرق جورجيا . وظهرت لنا عربات هوائية معلقة (تلفريك)، فذكر مرافقنا أن طول الخط الذي تقطعه يصل إلى حوالي ٥

كيلومترات ، وذكر أن درجة الحرارة في المنطقة تصل إلى ٣٥ درجة مئوية في الصيف ، في حين أنها تصل إلى ١٠ درجات مئوية في الشتاء ، ويسقط الثلج في بعض الأحيان .

مزارع العنب تحف بالطريق على الجانبين .

مررنا قرب مصنع للنبيذ اسمه خيرساه ، يقع وسط مزرعة العنب الملحقة به ، واطلعنا على طرق جمع المحصول الذي ما زال يتم يدويا ، وتابعنا طريقنا إلى قرية خرنوبوجي ، تلك القرية التي أنشئت سنة ١٩٨٧ ، وبنت الحكومة فيها ٢٠ بيتا ، وهي بصدد بناء المزيد من البيوت لاجتذاب السكان للعمل في الزراعة ، خاصة أن السكان في سهل الآزان قلائل كما ذكر السيد دافيد المشرف على المزارع في المنطقة .

وذكر السيد دافيد أيضا بعد أن أطلعنا على بقايا جرة قديمة بأن المنطقة كانت مسكونة من قبل ، وأنه كان فيها حاضرة اسمها خرنوبوجي ، إلا أنها دمرت من قبل الفرس ، زمن الشاه عباس ، في القرن السابع عشر ، وتم إطلاق اسم القرية القديم على القرية الجديدة في المنطقة .

التقينا بالسيد جمال ختشيافيلي (تنتشر الكثير من الأسماء العربية الإسلامية بين سكان جورجيا) ، أحد مزارعي القرية ، وقد استضافنا في بيته ، وذكر لنا أنه من أوائل الذين سكنوا القرية ، وقد جاء من قرية قريبة ، وهو متخرج من معهد البيطرة ، وقد تحول للعمل في الزراعة ، ويوجد في المزرعة التي بدأ بالعمل بها ١٦ ألف رأس من الماشية ، و ٨٠٠ هكتار تزرع كرمة .

أما البيوت التي وزعت على المزارعين فمساحتها حوالي ١٥٠٠ متر مربع لكل بيت ، وللمزارع ٢٥٠٠ متر مربع في حقول العنب أيضا .

وذكر أنه لم يتم بعد فتح مدرسة في القرية ، وأن الطلبة يدرسون في مدارس القرى المجاورة ، لكن الكهرباء والغاز والمياة يتم تأمينها بسهولة .

شكرنا السيد جمال على استضافته لنا وعلى طعامه الشرقي اللذيذ ، وتوجهنا نحو تبيليسي بعد أن أخذ قرص الشمس يميل نحو الغروب .

ايبيريا الجورجية

نزل المطر بغزارة في اليوم التالي ، وهو اليوم الذي وطدنا العزم فيه على مغادرة مدينة تبيليسي بالقطار إلى مدينة سوتشي الساحلية التابعة لمنطقة كراسنودار التابعة لجمهورية روسيا الاتحادية .

ذكر السائق السنيتي الذي أقلنا إلى محطة القطار أن مدة سقوط المطر ستطول ، وأن انفراجات الصحو التي ستحدث قليلة ، (كان اليوم هو اليوم الثالث من أغسطس ـ آب) . ومع ذلك فإن نعمة المطر جاءت مبكرة .

بعد أن أنهينا زيارتنا لمدينة سوتشي الواقعة على البحر الأسود توجهنا بالقطار أيضا إلى مدينة منيرال نوفودا (المياه المعدنية) الواقعة في قلب جبال القفقاس ، التابعة لمنطقة ستافربول . وفي القطار التقينا بالدكتور زوراب بابسكيري ، الأستاذ المساعد لمادة التاريخ في جامعة ابخازيا في مدينة سوخومي . وتشعب الحديث بيننا وبين الدكتور زوراب ، وتناول التاريخ والجغرافيا والحاضر والمستقبل .

ثم سألت الدكتور : هل يوجد عندك تفسير للقرابة الموجودة بين لغة الباسك في اسبانيا الواقعة في شبه جزيرة ايبيريا وبين لغتكم الجورجية ـ حسب نظرية بعض العلماء ـ أو اسم بلادكم القديم ايبيريا (قامت حضارة قبل الميلاد في جورجيا عرفت باسم الحضارة الايبيرية)، وهل جاء اسم الفندق الذي نزلنا به في تبيليسي « ايفيريا » اعتباطاً؟

أجاب الدكتور زوراب (ومعناه الحجر الأحمر بالجورجية) لاشك أن هناك نظرية عند بعض العلماء تفيد القرابة بين جورجيا وشبه جزيرة ايبيريا ، خاصة شعب الباسك ، وكما هو معروف فإن شعب الباسك يعيش في شبه عزلة بين جباله المرتفعة ، كالشعب الجورجي تماما ، واللغويون أو على الأصح بعض اللغويين ، يفيدون أن هناك تشابها في الجذر اللغوي بيننا ، ومع ذلك فإن كل ذلك لم يتم التثبت منه تماما ، ولم يتم الخروج منه بنظرية متكاملة حتى الآن ، إنما العمل جار من قبل بعض العلماء للتوصل إلى ما يثبت نظرية النسب والعلاقة .

استمر القطار يهدر بصوته الرتيب ، واستمرت المياه تهدر في الأنهار من حولنا ، ولا ندري إلى أي مصب تسير . وخطرت لي الفكرة فقلت : كان دأب الشعوب من قبل الغزو والتنقل والبحث عن الأمان والكلأ والمياه ، وربما بفعل عوامل الغزو وطول المسير ، وربما بفعل التهجير ، وصل هذا الشعب إلى هذه الأرض ، أو أن الآخر انتقل إلى تلك الأرض ، فاختلط وتناسل واستقر ! . □

إلى غابة للجنون الجميل

شعر : عزت الطيري

دَعيه ،
يُمارِسْ أحلامَهُ ،
دفعةً واحده
وامنحي قَلْبَهُ الغضْ
حقّ اللجوءِ ،
الى مُدنِ المُستَحيل
وَحقَّ الدُّخول
الى غَابةٍ للجنونِ الجميلْ
دَعيه يُعانِقُ غَيْماتِه
دعيه يُدَحْرِجُ نَجْماتِه
ثم يُلْقِي السلامْ
على بَذْرِهِ المُسْتَطيلْ !
لِيَخْتصرَ الوقتَ
في لحظةٍ واحده !
فامنحي دمهُ
فتنةَ الروح ،
كي يُطْلِقَ النارَ ،
في الجذوةِ الخامده
هيئي مقعدا للفتى ......
هيئي المائده

أعدي لَهُ
مَطراً
وَغيماً
وَبَرْقاً
وَجلْجَلَة صَاعِقه
ثُمَّ كُوني :
سَلاماً
وَبرداً
وَأغنيةً دافِقه

* * - ٢ - * *

هو الآنَ ....
يخفي وَساوِسَهُ
هو الآنَ ....
يَنفي هواجِسَهُ
ثُمَّ يفْتَحُ نَافِذَةً
لطيور البـروقْ
....
....

تضيقُ به الحافلات
تضيقُ به الأغنيات
يضيقُ به
صبرُ هذا الصديق

. . . .

. . . .

هو الآنَ يكتم
أوجاعَ أوجاعه
ثم ينثرُ تفاحَ أضلاعه
في الطريق

. . . .

إذا ما رأى وردةً . . . . . .
قال ظل الحبيبه
إذا ما رأى نجمةً . . . . . .
قال ثغر الحبيبه
إذا ما رأى عشبةً
قال بيتُ الحبيبه
إذا ما رأى . . . .
قال . . . . . قال . . . !!

. . . .

. . . .

هو الآن يكتبُ
أغنية البرتقال !!

* * * *

لهُ الآنَ
أنْ يستريحَ قليلاً . . . . . .
إذا تعبتْ ساقه المثقله
لهُ الآنَ
أنْ يستريبَ قليلاً . . . . . .
إذا لفحتْ وجهه الأسئله
لهُ الآن
أنْ يستفيق قليلاً

ليدخلَ
في النار

والزلزله

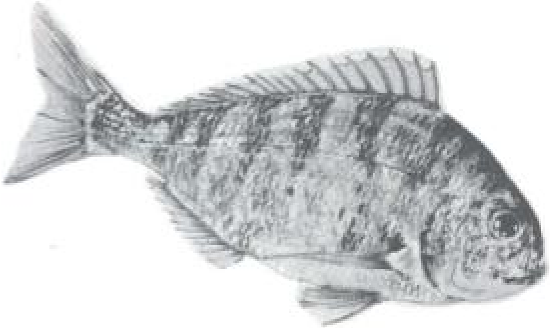

مشروع استزراع الأسماك في الكويت خطوة نحو الاكتفاء الذاتي

استطلاع : ريم الكيلاني/تصوير : طالب الحسيني

الزيادة المتعاظمة في عدد السكان ، وقلة مصادر الغذاء ، تفرضان التفكير المسبق في مشاريع مستقبلية تتفادى النقص ، فضلا عن أنها تسعى للاكتفاء الذاتي .

ما مدى الشوط الذى قطعته الكويت في مجال من مجالات توفير الغذاء وهو . . استزراع الاسماك ؟

تشكل الزيادة الكبيرة في عدد السكان في دول العالم الثالث عبئا ليس سهلا على علماء الاقتصاد والتغذية ، خاصة أن مصادر الغذاء المحدودة في هذه البقعة من العالم باتت تهدد بمشكلة غذائية لا سبيل للحد منها إلا بتوافر المزيد من الموارد الغذائية .

ولما كان يتوافر للكويت ـ كما يتوافر لغيرها من الدول الساحلية ـ مصدر غذائي مجز من الانتاج الحيواني البحرى فقد استطاعت أن تحقق قدراً ضئيلا من الاكتفاء الذاتي يسهم في تحقيق توازن اقتصادى بين الصادر والوارد ، في هذا النوع من الانتاج على أقل تقدير .

وقد بدأت تتضح معالم هذه السياسة شيئا فشيئا منذ عام ١٩٧٢ ، حين بدأت دائرة الزراعة البحرية والثروة السمكية التابعة لمعهد الكويت للأبحاث العلمية بالقيام بأول مشروع لزراعة الربيان وتربيته .

وقد حقق هذا المشروع نجاحا كبيرا في المجالين الفني والعلمي، وإن لم يبلغ النجاح الكبير في المجال الاقتصادى بسبب التكاليف الباهظة التى كانت ترصد

له من مرحلة البيض إلى أن يصل إلى مرحلة الحجم التجاري الملائم للبيع ، وقد رأت الدائرة ضرورة تحويل اهتماماتها من الربيان إلى أنواع الأسماك المطلوبة في السوق المحلي .

الخليج العربي ثروة

يعد الخليج العربي إحدى المحطات المائية المهمة في اقتصاديات أقطار المنطقة العربية ، وقد بينت الدراسات التي قامت بها دائرة الزراعة البحرية والثروة السمكية التي أجريت على مياه الخليج العربي أن المخزون السمكي في مياهه بلغ حوالي مليوني طن ، مما يجعله في المرتبة الثانية بعد المياه العربية في المحيط الاطلسي التي قدر مخزونها بحوالي أربعة ملايين طن ونصف طن ، إلا أن هذه الثروة لم تستغل بالصورة المثلى التي تتلاءم مع الحاجة المتزايدة إلى البروتين السمكي نتيجة للزيادة في أعداد السكان ، ويعزى ذلك إلى الوسائل القديمة المستخدمة في الصيد ، وعدم استغلال الصيد الجانبي من مصائد الربيان كغذاء أو استغلاله صناعيا إلا على نطاق ضيق جدا ، إلى جانب عدم الاستفادة من بعض أنواع الأسماك السطحية الصغيرة والكبيرة مثل السردين وأسماك القرش .

وقد كانت هذه الأسباب كافية لجعل الحاجة إلى البروتين الحيواني لدى هذه الأقطار تتجه نحو الاستيراد الخارجي لسد ما تعانيه من نقص في هذا المصدر الحيوي . أما فيما يتعلق بالدراسات العلمية والمخبرية التي أجريت على مختلف أنواع الثروة السمكية في مياه الخليج العربي وخليج عُمان ، فقد ثبت أن المخزون السمكي في هذه المياه يمثل إحدى دعائم الدخل القومي لأقطار المنطقة ، بالإضافة إلى تلبية احتياجات السكان من البروتين الحيواني ، وهذا يوجب قيام تعاون مشترك بين هذه الأقطار لحماية مصادر الثروة السمكية من طرق الصيد القديمة التي قد تؤثر على تكاثرها ومن ثم على وفرتها .

وبناء على مجموعة الدراسات هذه قامت دائرة استزراع الثروة السمكية بتطبيق أهدافها عن طريق برنامج إدارة المصائد-والأحياء البحرية وبرنامج الزراعة البحرية .

حفاظا على الربيان

كان لابد من زيارة فعلية للدائرة ، للتعرف على كل ما يتعلق باستزراع الأسماك ، وتربية إناثها والعناية بالبيض ، وإيجاد المناخ الملائم والغذاء المناسب لتنمو وتكبر بالشكل الطبيعي .

كان الدكتور محمد سيف مدير دائرة الزراعة البحرية والثروة السمكية في استقبالنا ، وقد صحبنا في جولة داخل الدائرة ، حيث أحواض الأسماك الاسمنتية الضخمة ، ومضخات المياه المتعددة الأشكال والأحجام والاستعمالات . وقد تحدث الدكتور سيف عن نشاط الدائرة قائلا : اقتصر نشاط الدائرة في البداية على تربية الربيان في أحواض اسمنتية كبيرة ، متبعين بذلك الاسلوب الياباني في استزراع الربيان ، ويعتمد هذا الاسلوب على احضار أمهات الربيان في موسم التكاثر لإجراء عملية التبييض داخل الأحواض ، وتربية اليرقات حتى تبلغ من العمر شهراً ثم نطلقها في البحر بهدف زيادة المخزون ، وقد عملنا على تطوير تقنيات يعتمد عليها لإنتاج أعداد كبيرة من اليرقات ، كما تم اطلاق مايزيد عن ١٢١ مليون ربيانة في مرحلة مابعد اليرقة في الفترة من عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٩ وذلك في محاولة جادة لاثراء المخزون الطبيعي من هذه الثروة .

لكننا قررنا بعد اجتماع كبير حضره متخصصون في مجال زراعة الربيان في العالم ،بحثنا فيه الجدوى

● (أعلى) عامل في دائرة الزراعة البحرية يقوم باستخراج البيض من أفواه سمك البلطي . إلى (اليسار) أحواض تربية يرقات الأسماك ، حيث يتابع العاملون تطور نموها حتى تستكمل دورة حياتها كاملة و(أسفل) في مختبر دائرة الزراعة البحرية يقوم المخبريون بإجراء التحاليل المخبرية للتأكد من سلامة الأسماك في جميع مراحل تطورها .

العملية من هذه الزراعة ، وقد أوصت اللجنة بضرورة ايقاف برنامج اطلاق اليرقات ، باعتباره مشروعاً مكلفاً ، وعادت أبحاث برنامج إدارة المصائد والأحياء البحرية لتركز مرة أخرى في الفترة من عام ١٩٧٨ ـ ١٩٨١ على انشاء أساليب حديثة للزراعة الموسعة والمكثفة للأسماك والربيان باستخدام عدة طرق ، منها الأحواض ذات القاع المزدوج ، والأحواض الرملية الطبيعية التي تعتمد على حركة المد والجزر في منطقة الخيران . وأخيرا على القنوات المائية السريعة ، ويمكن تحقيق نجاح في انتاج الربيان باستخدام الأحواض الرملية الساحلية .

ويضيف الدكتور سيف : « قمنا بتطبيق حظر على الربيان في الفترة من فبراير إلى نهاية يونيو من كل عام ، وذلك لحماية أمهات الربيان اثناء فترة وضع البيض التي تتم عادة في أوائل الربيع ، وحماية صغار الربيان الذي يدخل إلى مناطق الصيد ، وبخاصة في أوائل الصيف لكي ينمو ويصبح أكبر حجما ، وقد أدت هذه الدراسات الى اتباع أسلوب جديد في إدارة مصائد الربيان ، بحيث ربط تطبيق موسم حظر صيد الربيان بمعدلات التفاوت السنوية في معدلات دخول صغار الربيان إلى المصائد » .

برنامج الزراعة البحرية

وقد شاهدنا أحواض أمهات أسماك السبيطي والبلطي والهامور التي تجلب من البحر في موسم التزاوج ، وتربى في بيئة مشابهة للبيئة البحرية ، وهذه الأحواض إما اسمنتية أو من الألياف الزجاجية المسلحة ، وينقسم العمل في هذا البرنامج إلى ثلاثة مشاريع ، أولها مشروع زراعة السبيطي ، وقد نجحت عملية التبييض الأولى لهذا النوع في الأحواض عام ١٩٧٩ ، ومنذ ذلك الوقت يتم المحافظة على الأسماك البالغة للتبييض ، ويجمع البيض باستخدام أنواع من الأحواض الاسمنتية وأحواض من الألياف الزجاجية المسلحة ، وأصبح بالامكان اختيار المخزون بعد أن استكملت هذه الاسماك دورة حياتها من البيضة إلى البلوغ في هذه الأحواض . وفي المرتبة الثانية مشروع زراعة الهامور الذي بدأ عام ١٩٧٥ والذي يعد انجازا ضخما حيث أنها المرة الأولى في العالم التي يتم فيها تبييض هذا النوع من الأسماك ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الأبحاث لتربية الهامور . وقد استكمل هذا النوع من الأسماك دورة حياته من البيضة إلى البلوغ داخل الأحواض ، وتستخدم اليوم كذلك الاسماك البالغة في انتاج البيض ، ثم ينقل البيض ـ بواسطة شباك خاصة تتولى حفظه ـ من أحواض الأمهات إلى أحواض مختلفة الحجم ، تتراوح درجة حرارتها بين ٢٣ ـ ٢٥م° ، ويفقس البيض في هذه الأحواض خلال ٢٤ ساعة ، وتتغذى اليرقات في الأيام الثلاثة الاولى على كيس المح الموجود في داخلها ، وتبدأ في اليوم الثالث بفتح فمها لتتغذى على الكائنات الدقيقة التي يتم انتاجها في أحواض خاصة ، ثم تنقل بعد ذلك صغار الأسماك كل يوم إلى حوض جديد حسب عمرها ، كما تقوم وحدة انتاج الغذاء بتوفير الكائنات الحية الدقيقة ذات الحجم المناسب والقيمة الغذائية لتغذية الاسماك والربيان في مراحل نموها المختلفة .

البلطي في المياه المالحة

الى جانب الاهتمام بتربية أفضل أنواع الأسماك المحلية من السبيطي والهامور نجحت الإدارة في استزراع أسماك البلطي واقلمتها للعيش في المياه المالحة .

وقد بدأت الأبحاث الأولية على هذا النوع عام ١٩٧٧ بهدف دراسة الجدوى الاقتصادية من زراعة البلطي في مياه البحر ، وقد تم اختيار ثلاثة أنواع من البلطي لإجراء التجارب عليها ، ودراسة الجدوى الاقتصادية والفنية للزراعة المكثفة للبلطي في المياه

● الدكتور محمد سيف

ذات الملوحة القليلة عن طريق اعادة دورة المياه ودمج مزرعة أسماك البلطي مع المزارع العادية للحد من استخدام المياه ، ومن خلال هذه الأبحاث توصل العاملون في هذا المشروع إلى الحجم واللون المفضلين للمستهلك .

وقد انتقلنا من احواض يرقات السيطي والهامور ، وتابعنا مع العاملين في حقل استزراع الاسماك كيفية استخلاص بيض البلطي الذي تختزنه اسماك البلطي في فمها ، وبعد الحصول على البيض ينقل الى أحواض التربية بواسطة شباك خاصة وقد لاحظنا أن بيض البلطي أكبر حجما ، وأن عدده أقل بكثير من عدد بيض الهامور ، فبينما يعطي الهامور حوالي ٤٠٠٠٠٠ بيضة يطرح البلطي في حدود ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ بيضة ، ولبيض البلطي فرصة أكبر للعيش بسبب حجمه الكبير .

ومن رأس السالمية انتقلنا بواسطة قارب بحري صغير إلى مزرعة الأسماك الواقعة على بعد كيلومترين من دائرة الزراعة البحرية الواقعة في شمال شرق الكويت ، حيث ثبتت شباك عائمة سهلة التحريك لتربية صغار أسماك الهامور والسيطي والبلطي .

لايزيد حجم الأسماك الموجودة في هذه الشباك عن حجم الاصبع ، ويقدم لها الطعام المناسب من الطحالب والدولابيات ، وتستمر عمليات المراقبة وتنظيف الشباك ، وقياس درجة حرارة المياه طوال ٢٤ ساعة ويتم تغيير الشباك حسب حجم السمكة ، فكلما كبر حجم الأسماك كلما كبرت فتحات الشباك حجما ، ويجري بعد نهاية كل شهر وزن السمك وقياس طوله لمعرفة حجمه وكيفية سير نموه . وعن سبب اختيار هذه المنطقة لتكون منطقة تجارب ، قال السيد / وان أحد الباحثين في الدائرة : « لقد قمنا باجراء دراسات مكثفة على كثير من المناطق ، وكانت هذه المنطقة من أنسب الأماكن ، وذلك بسبب عمقها المتوسط ، وقلة التيارات المائية فيها » .

يبلغ طول هذه المزرعة ٥٠ مترا وعرضها ١٥ مترا وهي مقسمة على عدة أحواض كل حوض منها خاص بنوع معين من السمك .

نظرة مستقبلية

ثم عدنا للدكتور محمد سيف فحدثنا عن كمية الانتاج ومدى كفايته للمنطقة فقال : « إن الطاقة الانتاجية للمياه الكويتية محدودة وعلى الرغم من أن السمك يعد غذاء رئيسيا لأهل الكويت ، إلا أنه مع تزايد عدد السكان لم يعد البحر قادرا على تغطية أكثر من ٢٥٪ من حاجة السوق ، فأصبحنا نلجأ الى استيراد الكميات المطلوبة من السوق الخارجي ، وقد كان لابد من الاتجاه الى الاستزراع المائي لتوفير حاجة السوق والمستهلكين من السمك .

وقد وصلت تجاربنا الى مرحلة متقدمة جدا ، وأنشئت شركة بوبيان للأسماك لتقوم بعمليات تطبيق تقنيات زراعة الاسماك المطورة في المعهد ، لتطبيقها في المستقبل للانتاج التجارى . ويضيف الدكتور سيف : « إن تحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي وتسهيل انسيابية المنتجات السمكية بين أقطار المنطقة سوف يلبى الحاجة المتزايدة لأقطار المنطقة من البروتين السمكى ، مما يعمل على تدني مستوى الاستيراد الخارجي من هذه المنتجات ، وكذلك تخفيض الضغط على الأنواع الأخرى من مصادر البروتين الحيواني ، واستغلال الطاقة الانتاجية لمخزون الأسماك المختلفة في مياه المنطقة ، وما يصاحب ذلك من تطوير لوسائل الصيد وطرقه والاهتمام بالثروة الربيانية ، وذلك بزيادة مستوى الانتاج والتصدير ، مما يعود بالنفع العام على الجميع ، كما يمثل الاستزراع السمكي أحد المصادر المتوقعة لتلبية الحاجة المستقبلية لأقطار المنطقة ، خاصة من بعض الأنواع التى تطلب محليا ، أو ادخال بعض الأنواع ذات المردود الاقتصادى التى يفضلها سكان المنطقة ، وهذا يتطلب ضرورة إجراء عمليات مسح مشتركة لمصادر الثروة السمكية في مياه الخليج بصورة عامة من حيث العلاقة بين المجموعات السمكية المهمة وحركتها ومناطق توالدها ، ثم الحاجة إلى وجود إدارة مشتركة للثروة السمكية في المنطقة بشكل عام ، ويتطلب ذلك التنسيق بين مختلف أقطار المنطقة لاستغلال المخزون السمكي بالصورة المثلى بإدارة موحدة لتقليل الحاجة إلى الاستيراد الخارجي . كذلك لابد من استغلال الكميات التى تهدر في الصيد الجانبي في مصائد الربيان ، وذلك إما بالتجفيف على هيئة مسحوق سمك أو في صناعة الأسمدة أو على هيئة علائق حيوانية ، وهذا يتطلب تعاونا بين هذه الاقطار لتسويق الانتاج الصناعي داخليا أو تصديره إلى الدول الأخرى عربية أو أجنبية .

وتبقى الآمال معلقة ، فهل نصل يوما وبعد هذه الجهود المكثفة لتحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال وفرة الأسماك الطازجة ؟ □

● في مزرعة الأسماك الواقعة قرب رأس السالمية التى تعد محطة تجارب لمشروع استزراع الثروة السمكية ، يقوم العاملون يوميا بتنظيف الشباك ، وقياس درجة حرارة المياه ، وتغيير الشباك .

وجهاً لوجه

د. رمزي زكي — علي عثمان

- الإنسان أثمن رأسمال، والتنمية نتاج عمله، وثمارها يجب أن تعود إليه
- التنمية المستقلة لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كانت معادية للإمبريالية والصهيونية
- تكوين الصندوق العربي المشترك لمجابهة طوارئ الديون الخارجية محك للتضامن العربي
- اقتراح سمو أمير دولة الكويت بإسقاط الديون العالمية هو اقتراح جريء
- سبب استمرار الأزمة الاقتصادية الراهنة هو تعاظم الدرجة الاحتكارية في النظام الرأسمالي

في نهاية العام الماضي ، أصيبت الدوائر الاقتصادية العالمية بالذعر ، عندما حملت برقيات وكالات الأنباء اخبار انهيار بورصة نيويورك . واخذ الجميع ـ مسئولون وخبراء وأفراد ـ في أركان العالم الأربعة يتابعون أولا بأول التفاصيل والنتائج ، لأن العلاقات الاقتصادية العالمية اصبحت على درجة كبيرة من التعقيد والتشابك ، بحيث لا يمكن لأي دولة ان تنجو من تأثيرات الاختلال الاقتصادي في مكان ما ، وخاصة الاختلالات التي تصيب النظام الرأسمالي الذي ما تزال له ـ رغم كل محاولات الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث في الاستقلال عنه ـ قدرة التأثير العميق في العلاقات الاقتصادية الدولية .

وحول الأزمة الاقتصادية العالمية التي تحط بمناخها وتأثيراتها على البشرية كلها دار الحوار مع الدكتور رمزي زكي المستشار بمعهد التخطيط بالقاهرة والمعهد العربي للتخطيط بالكويت . وهو واحد من الاقتصاديين العرب البارزين ، والمشهود له بالجدية والابتكار والتنوع في دراساته الاقتصادية . وهو من المهتمين بدراسة الوجوه المختلفة للأزمة الاقتصادية وانعكاساتها على العالم الثالث . وله دراسات رائدة نذكر منها ؛ أزمة الديون الخارجية ، مشكلة التضخم في مصر ، مأزق النظام الرأسمالي ، المشكلة السكانية ، التاريخ النقدي للتخلف ، الديون والتنمية .

وأدار الحوار معه الزميل علي عثمان .

● يسود العالم في العقدين الأخيرين مناخ مشبع بالقلق الناجم عن إحساس كثيف بالأزمة الاقتصادية ، المخيمة على دول العالم كله ، بحكم الارتباط الوثيق ـ بآلياته المختلفة ـ بين اقتصاديات الدول الرأسمالية واقتصاديات دول العالم . وتوحي كثير من دراسات هذه الأزمة بالتشاؤم ـ لاعتبارات عديدة ـ من أهمها أن الازمة في جوهرها أزمة هيكلية في صميم الاقتصاد الرأسمالي الذي ما تزال له السيطرة على العلاقات الاقتصادية الدولية . فما رأيك . . ؟

ـ بادىء ذي بدء ، يجب أن نقرر أن الاقتصاد الرأسمالي العالمي يشهد منذ بداية السبعينيات مرحلة تاريخية جديدة ، تشكل منعطفا حادا في مسيرته حيث يلحظ المرء ان السمات والمتغيرات التي سادت هذا النظام في السبعينيات وحتى الآن ، تختلف كلية عما كان عليه النظام في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ ـ ١٩٧٠) . ولتفسير وفهم هذه الأزمة التي ليست من طبيعة دورية متكررة ، فإنني سأستخدم نظرية « الافراط في التراكم » التي تقول باختصار شديد انه في ضوء تنامي الرأسمالية الاحتكارية يوجد دائما ميل أو نزعة قوية لدى الاحتكارات لتحقيق أعلى فائض ـ ربح ـ ممكن لكل استثمار جديد ، وعلى المدى البعيد لا بد ان يتجه معدل الربح أو « الفائض » نحو التناقص .

وهذا أمر تجمع عليه جميع المدارس الاقتصادية الشهيرة بدءا من المدرسة الكلاسيكية ، مرورا

بالماركسية ، وانتهاء بالكينزية . ولأن جوهر الأزمة الحالية يتمحور أساسا حول نزوع هذا الربح أو الفائض نحو التناقص ، ـ كما تؤكد الاحصائيات الدولية الرسمية ـ لذا لا بد ان يجر هذا التناقص معه مظاهر الأزمة المعروفة : انخفاض معدل النمو الاقتصادي ، وتدهور معدلات نمو الدخل والناتج والتوظف ، وتزايد البطالة ، وتعطل الطاقات الانتاجية . وكل ذلك يشير الى تواجد ازمة مستمرة في تراكم رأس المال .

والسبب الجوهري الذي جعل هذه الأزمة مستمرة ، وذات طبيعة هيكلية ، هو تعاظم الدرجة الاحتكارية في النظام الرأسمالي ، وخاصة بعد تنامي درجة التدويل للنشاط الاقتصادي الذي تقوده الشركات الاحتكارية دولية النشاط التي تتحكم الآن في مجمل حركة النشاط الرأسمالي العالمي . ونعني بتعاظم الدرجة الاحتكارية زيادة تركز وتمركز رأس المال ، وهو ميل متأصل في طبيعة النظام الرأسمالي . على ان هذا الميل بدأ يظهر جليا منذ الحرب العالمية الأولى ، واستمر في قوته إلى أن بلغ عنفوانه في الأونة الراهنة ، وقد أثبتت كثير من الدراسات التي تمت في عالم ما بعد الحرب ، أنه كلما زادت درجة الاحتكارية في النظام ، كلما تعاظم ميل النظام للتعرض للركود الذي سيشكل مسارا طبيعيا لهذا النظام على المدى البعيد . ولقد كانت أزمة الكساد الكبير (٢٩ ـ ١٩٣٣) هي بداية هذا المسار ، وما حدث بعد ذلك منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل السبعينيات ، كان بمثابة الموجة التوسعية التي تلت هذا الركود الطويل للثلاثينيات ، وبلغت مداها في أواخر الستينيات . ويمكن القول اننا الآن إزاء موجة ركودية طويلة المدى .

الأزمة في النظام الاشتراكي

● اذا كان وصول النظام الرأسمالي الى الدرجة الاحتكارية التي أدخلته في عمق الأزمة الحالية ، فإننا نلاحظ أن النماذج الاشتراكية المختلفة ـ التي كانت تعد البديل للرأسمالية ـ تعاني من مشاكل حادة تجعلها ـ هي ايضا ـ تدخل في نفق الأزمة التي أوجبت على قياداتها البحث عن أساليب بديلة في إدارة اقتصادياتها ـ سماها البعض إجراءات إصلاحية ، ورآها آخرون تراجعات عن النظرية الاشتراكية ـ على الرغم من انها لا تأخذ بسياسة السوق في التوزيع ولا بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج وهما عاملان أساسيان في تطور النظام الرأسمالي الى الدرجة الاحتكارية .

ـ لا أعتقد ان ما يحدث الآن في العالم الاشتراكي هو أزمة بالمعنى الذي نفهمه لكلمة « أزمة » ، فالنظام الاشتراكي كما قلت انت ، لا يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ولا على آليات السوق البحتة التي تؤدي للأزمات . ان ما حدث من نمو كبير في العالم الاشتراكي في الفترة ما بين ١٩٤٥ وحتى بداية السبعينيات ، كان يقوم أساسا على فكرة أو مبدأ التوسع الأفقي لوسائل الانتاج ، أي على زيادة الاستثمار والتوسع في استخدام قوى الانتاج ، من أرض ، وموارد طبيعية ، وقوى عاملة . وهذه السياسة بلغت ذروة نتائجها من حيث زيادة معدلات النمو والناتج في منتصف السبعينيات .

وأصبحت المشكلة التي تواجه العالم الاشتراكي ، هي في كيفية رفع كفاءة وسائل الانتاج ، أي زيادة معدلات الانتاجية . لكن ينبغي الاشارة هنا الى أن العالم الاشتراكي ليس عالما معزولا بذاته ، فهناك علاقات اقتصادية دولية تربطه بالاقتصاد الرأسمالي الدولي وعلى الرغم من أن هذه العلاقات محدودة ، لكنها في نمو مستمر . لهذا فإن المشكلات التي بدأت تظهر في الاقتصاد العالمي مثل انهيار نظام النقد الدولي وفوضى أسعار الصرف ، ونمو نزعة الحماية ، وظهور مشكلة الدين العالمي ، وتقلبات أسعار المواد الأولية والسلع الصناعية ، كل ذلك انعكس على دول العالم الاشتراكي بدرجات مختلفة . لكن حجم هذه التأثيرات عليه لا تصل الى حجم تأثيراتها على

دول العالم الثالث ، لأن الاقتصاديات الاشتراكية اقتصاديات صناعية متقدمة ، وتتعامل مع الاقتصاديات الرأسمالية الصناعية من موقع الندية ، كما أن قدرتها على إدارة أزماتها ومشكلاتها تفوق كثيرا قدرة دول العالم الثالث على ذلك .

ودعني أشير هنا الى أن فكرة الأزمة الدورية أو الهيكلية التي تتعرض لها الاقتصاديات الرأسمالية لا تعرفها الدول الاشتراكية . وانما هناك مشكلات مرحلية تظهر بين مرحلة وأخرى كنتاج لمشكلات التطور نفسه .

جوهر البيروسترويكا

● ولكن بعض دارسي التجربة السوفيتية ـ خاصة المدارس الغربية ـ يرون أن المشكلة الرئيسية التي دفعت « غورباتشوف » لاتباع سياسته الاصلاحية ، هي عجز الاقتصاد السوفيتي ـ وهو النموذج لمعظم الاقتصاديات الاشتراكية ـ بهياكله الانتاجية ، وكوادره ، ونمطه في التوزيع ، عن استيعاب الأساليب والوسائل التقنية المتقدمة التي أفرزها التطور العلمي في العقود الأخيرة ، والتي دفعت بالانتاج في النظام الرأسمالي الى مستويات مكنته من إشباع احتياجات السكان الى حد التخمة أحيانا ـ وبغض النظر عن استغلاله لموارد العالم الثالث واسواقه ـ مما زاد من اتساع الفجوة بين النظامين في الوقت الذي يفرض التقدم المذهل في وسائل الاتصال ضرورة المقارنة فيما بين مستوى المعيشة في كل من النظامين ، ونتيجة المقارنة قد لا تكون في صالح النظام الاشتراكي .

ـ دعني أولا أكمل التعليق على مداخلتك السابقة . فيما يتعلق بالتطورات الجارية الآن في الاتحاد السوفيتي وفي الدول الاشتراكية الاخرى ، فهي لا تعني بأي حال من الأحوال بأنها تراجع عن الاشتراكية أو اقتراب من الرأسمالية . وجوهر الأمر يتمثل ـ فيما أعتقد ـ بأن لكل مرحلة تاريخية من التطور مشكلاتها الخاصة التي ينبغي مواجهتها بحسم وفاعلية لكي تستمر عجلة التطور . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن ثمة مشكلات تعوق الاقتصاد الاشتراكي في وضعه الراهن ، مثل مشكلات البيروقراطية ، وبطء نمو الانتاجية ، وضعف الحوافز ، وتكلس مصالح بعض الفئات حول استمرار جمود الأوضاع . وكل ذلك يتطلب مواجهة حاسمة حتى تنطلق قوى الانتاج في نموها ، وهذا في تصوري هو جوهر « البيروسترويكا » .

اما عن اختلاف مستويات المعيشة في كلا المعسكرين ، فلا شك أن رموز الاستهلاك الترفي (السيارة الخاصة ، الفيديو ، والسلع الكمالية عموما) موجودة في الدول الاشتراكية لكن بحجم اقل بكثير من الدول الرأسمالية الصناعية ، مما قد يوحي للبعض أن مستوى المعيشة في الدول الرأسمالية الصناعية أعلى منه في الدول الاشتراكية .

وهنا تنبغي الاشارة ، الى أننا عندما نحكم على مستوى المعيشة كمقولة اقتصادية واجتماعية ، يجب ألا نعتمد على متوسطات الاستهلاك الترفي فقط ، وانما ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار المكونات الأخرى الأكثر أهمية للدلالة على مستوى المعيشة ، مثل مستوى الخدمات العامة (التعليم ، الصحة ، المواصلات ، الثقافة وغيرها) ، وضمان التوظف ، فضلا عن نفقات المعيشة الضرورية ـ أي أسعار ضرورات الحياة كالغذاء والسكن وغيرها ـ في ضوء ذلك لا اعتقد أن مؤشر نوعية الحياة في الدول الاشتراكية أقل منه في الدول الرأسمالية . وفي اعتقادي أن نقص الاستهلاك الترفي في الدول الاشتراكية يعود الى سببين ، أولها هو فارق العمر الزمني ما بين التجربة الرأسمالية والتجربة الاشتراكية ، والثاني هو كلفة الانتاج الحربي الذي هو خصم على ممكنات النمو وزيادة مستوى المعيشة في

الدول الاشتراكية ، في حين أن صناعة السلاح في الدول الرأسمالية ، صناعة رأسمالية تسعى دائما للربح . ولعل هذا يفسر لنا ميل الدول الاشتراكية الآن لتخفيف سباق التسلح ، والسعي لحل مشكلات العالم بأساليب سلمية .

تكوين ناد للمدينين ضرورة

● في تعدادك للمشكلات التي تؤثر في مسار الاقتصاد العالمي بالسلب أشرت الى أزمة الديون العالمية . ولقد ضمنت أعمالك الرائدة في هذا المضمار عددا من المقترحات لحل هذه الأزمة ، مثل دعوتك للدول المدينة بتكوين ناد للمدينين يواجهون به تكتل الدائنين المتمثل في نادي باريس ، وهيمنة صندوق النقد الدولي . وكذلك دعوتك لانشاء صندوق طوارىء عربي لمجابهة الديون الخارجية ، وهذه المقترحات ايجابية في اطارها النظري ، ولكني اراها صعبة التنفيذ لظروف الدول المدينة ، وضغوط الدول الدائنة .

ـ إن الأزمة الاقتصادية العالمية انعكست بلا شك ، على دول العالم الثالث بشكل سيء جدا ، وأهم هذه الانعكاسات ، نمو العجز الخارجي نموا كبيرا ومتواصلا ، بسبب انخفاض وتقلب حصيلة الصادرات من المواد الأولية وزيادة أسعار الواردات ، وعدم استقرار أسعار الصرف الاجنبي ، وهي أمور انعكست كلها فيما عرف بأزمة الدين الخارجي لهذه الدول .

وقد سارت الدول المتخلفة على طريق الاستدانة المفرطة خلال السبعينيات نظرا لسهولة الاقتراض وانخفاض سعر الفائدة الحقيقي ، وقد ساعدتها هذه الاستدانة على ان تواجه مشكلة هذا العجز دون الحاجة الى وضع سياسات فاعلة لمواجهة خطر العجز الخارجي الزاحف . وتوهمت أنه طالما أن نظام الائتمان الدولي يمدها باستمرار بالكميات المطلوبة من الديون ، فانه بامكانها أن تستمر في التنمية ، حتى وصلت الاستدانة الى أزمتها الحالية . وهنا نؤكد على ان جانبا كبيرا من هذه الديون ذهب لتمويل استهلاك ترفي غير ضروري ولتمويل شراء المعدات العسكرية .

وكثير من هذه البلدان ومنها الأقطار العربية ، تواجه هذا المأزق وهي في حالة عجز عن التغلب على تناقضاته ، وأهم هذه التناقضات هي وجود تعارض شديد بين الاستمرار في الوفاء بعبء الدين ، وبين امكانيات رفع مستوى المعيشة ، والمحافظة عليه مع مواصلة عملية التنمية .

ولقد عكفتُ منذ عشر سنوات على دراسة أزمة الديون من منظور غير تقليدي يفسرها في ضوء عواملها الذاتية والموضوعية ، ولقد توصلت حسب رؤيتي إلى كثير من الرؤى والحلول آنذاك التي تطرح الآن على الساحة ومنها إلغاء الديون الخارجية .

● أتلك التي ضمنتها دراستك الضخمة أزمة الديون الخارجية رؤية من العالم الثالث التي صدرت عام ١٩٧٨ ؟

ـ نعم . . ودعني أقول لك ، انني لم أعد اعتقد بفعالية اسلوب الأماني والمطالب التي تتوجه بها البلاد المدينة على خجل واستحياء للدائنين ، مثل تخفيف شروط نادي باريس ، وقواعد اعادة الجدولة ، وتخفيض أسعار الفائدة ، وتجميد دفع الدين لمدة معينة . . الخ . . . فهذه مرحلة انتهت ، وقد جربتها البلاد المدينة ، وثبت فشلها لأن الدائنين رفضوا ذلك على الرغم من أن المسئولية مشتركة بين الطرفين في حل هذه الأزمة .

وما أعتقده هاما في إطار الظروف الراهنة هو ضرورة أن تسرع البلاد المدينة بتكوين « كارتل » دولي (ناد للمَدينين) يواجه قوة نادي باريس (نادي الدائنين) وتكون مهمة هذا النادي هي تكوين جبهة متحدة تتفق على قواعد واجراءات لحل أزمة المدينين وتدافع عن مصالحهم . وعندئذ يمكن للأماني التي ما فتئنا نسمعها من حين لآخر ان تتحقق لو واجه

المدينون دائنيهم كتلة واحدة . وبعد تكوين هذا النادي - وندري انها مهمة صعبة ومعقدة - يمكن المطالبة بعقد مؤتمر دولي تحت مظلة الامم المتحدة ، تناقش فيه أزمة المديونية برمتها ، وسبل تسهيل حلها .

صندوق عربي للطوارىء

● وماذا عن الصندوق العربي المشترك لمجابهة طوارىء الديون الخارجية ؟

- الفكرة الأساسية في اقتراحنا تتمثل في تكوين صندوق متخصص تكون مهمته الاسراع في الوقوف مع أي بلد عربي تتعرض مدفوعاته الخارجية لأزمة سيولة حادة تعرضه لأخطار عملية إعادة جدولة الديون . ويمكن لهذا الصندوق ان ينشأ في حضن صندوق النقد العربي،أو إحدى المؤسسات المالية العربية الأخرى . ورأسمال الصندوق يمكن تكوينه من عدة مصادر منها :

- أن تقوم الأقطار العربية بإيداع جزء أو نسبة من احتياطاتها النقدية كي يستثمرها الصندوق المقترح .

- تخصيص جزء من موارد صندوق النقد العربي لكي تستخدم في أغراض هذا الصندوق .

- مساهمات من الأقطار العربية النفطية ، ومساهمات من الصناديق العربية للتنمية ، وأية قروض او منح تقدمها الأقطار العربية .

وعند تشغيل الصندوق ، يمكن أن تستثمر هذه الموارد المجمعة ويستخدم ريعها في تقديم قروض الطوارىء للبلاد المذكورة ، وينبغي أن تكون قروضا ميسرة ، ويرتبط تسديدها بتجاوز البلد المدين لأزمته واستعادة قدرته على السداد وتكوين هذا الصندوق أعتبره محكا للتضامن العربي ، خاصة أن صندوق النقد الدولي قام بتكوين مثل هذا الصندوق لمواجهة طوارىء المدينين المعسرين .

اقتــــراح جريء

● اقترح سمو أمير دولة الكويت في خطابه أمام الدورة الثالثة والأربعين للأمم المتحدة إسقاط فوائد الديون عن دول العالم الثالث ، وإلغاء جزء من أصولها ، وبخاصة عن الدول الفقيرة ، ودعا لعقد مؤتمر دولي للدائنين لمناقشة هذا الاقتراح .

ما هي إمكانات استجابة الدول الدائنة لهذا الاقتراح ، وتأثيراته على الأوضاع الاقتصادية العالمية في رأيك .. ؟

- دعني أولاً أشير إلى أن مجموعة الدول النامية المدينة قد دفعت في العام الماضي (١٩٨٧) حوالي ١٢٠ بليوناً لخدمة أعباء ديونها ، منها ٥٥ بليون دولار فوائد على هذه الديون ، وهذا مبلغ مرعب نظراً للظروف الصعبة لهذه الدول . وطبقا لبيانات البنك الدولي من المتوقع أن يصل حجم ما تدفعه هذه البلاد من فوائد على ديونها الخارجية حوالي ٢٤٠ بليون دولار في السنوات الست القادمة (١٩٨٨ - ١٩٩٤) . وهذا النمو في أرقام الفوائد يعود إلى ارتفاع أسعار الفائدة الحقيقية من ناحية ، وإلى ارتفاع حجم الديون (١٢٥٠ بليون دولار) من ناحية أخرى . ونظراً لأنه ليس من المتوقع أن يطرأ تحسن حقيقي على الأوضاع الاقتصادية لهذه البلاد في غضون تلك السنوات ، فإن هناك شبه مستحيل أن تتمكن من الوفاء بهذه الفوائد (ناهيك من الأقساط) . ولهذا فإن الإصرار على دفع خدمات الديون لن يعني إلا المزيد من البطالة والغلاء وتدهور مستوى المعيشة ، وإيقاف النمو ، وهي أمور لا يمكن أن تتحملها شعوب هذه البلدان .

ولا شك أن إسقاط الفوائد عن الديون تخفيف كبير لوطأة الأزمة . ولو تخيلنا أن الدائنين سوف يقبلون هذا الاقتراح - وأنا أشك في ذلك - فإن الترجمة العملية لهذا الإسقاط سوف تتمثل في دعم قدرة البلاد المدينة على مواجهة مشكلاتها الراهنة .

لكن السؤال المهم هو : من سيمول تكلفة إلغاء هذه الفوائد ، وخاصة أن جزءاً لا بأس به منها

مستحق لبنوك ومؤسسات خاصة ؟ وبادىء ذي بدء ، أسارع بالقول أن إلغاء هذه الفوائد أمر ممكن ، ولن يكون فيه إرهاق للدائنين .

وعلى أي حال يمكن تدبير تكلفة إسقاط فوائد الديون من المصادر التالية :

١ ـ إحداث خفض في نفقات التسليح بالبلاد الدائنة .

٢ ـ قيام الحكومات في البلاد الدائنة بتعويض الجهات الخاصة الدائنة بمبالغ الفوائد التي ستسقط عن المدينين ، وعدّ ذلك منحة للبلاد المدينة لا تسترد

٣ ـ تعديل التشريعات المصرفية التي تنظم قواعد التعامل مع البنوك والضرائب المفروضة عليها ، بتشجيعها على تخصيص أرصدة كافية لتغطية الخسائر التي تنجم عن القروض الخارجية ، وتطوير قواعد المحاسبة والرقابة على نحو يكفل للبنوك إمكانية تكوين احتياطيات سرية ، غير خاضعة للضرائب ، تسمح لها بمواجهة احتمالات التوقف عن الدفع وإسقاط بعض الديون .

ومهما يكن من أمر ، فإن إلغاء فوائد الديون ، وإلغاء جزء من أصولها يمكن عدّه تخفيفاً للمشكلة ، وليس حلاً جذرياً لها ، ذلك أن مشكلة الديون العالمية جزء من أزمة أكبر ، وهي أزمة الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

وليس من المتصور أن يوجد حل جذري لهذه المشكلة إلا إذا تغيرت بيئة الاقتصاد العالمي ، وتعدلت فيه العلاقات الجائرة بين الشمال والجنوب . وهي علاقات لن تتغير إلا عبر تعديلات جذرية في النمط الراهن لتقسيم العمل الدولي ، وخلق أنموذج تنموي مستقل لبلاد العالم الثالث على النحو الذي يحطم قيود التبعية التي تربط البلاد المدينة بالبلاد الدائنة .

حلم التنمية المستقلة

● اذا كانت المديونية المفرطة قد أودت ـ مع أسباب اخرى ـ بمعظم مشاريع التنمية المستقلة لدول العالم الثالث الى التعثر ، ومن ثم الاحتواء في النظام الرأسمالي بآلياته المختلفة ، فمعنى ذلك أن حلم التنمية المستقلة ـ المعتمدة على الذات ـ قد أصبح أقرب للوهم منه لامكانية التحقق في الواقع وأن معاناة شعوب هذه الدول ستتفاقم .

ـ ان الخروج من مأزق المديونية ، وفك الحصار عن قوى التنمية ، وتحقيق طموحات إنسان العالم الثالث ، في مستوى معيشي لائق إنسانيا ، سوف يتطلب ـ على العكس مما تقول ـ انتهاج ما يسمى باستراتيجية الاعتماد على الذات ، التي تعني ـ في رأيي ـ نفي التبعية . ومن ثم القضاء على علاقات الاستغلال والتبادل اللامتكافىء التي ترسف في أغلالها البلاد المتخلفة في علاقاتها بالنظام الرأسمالي العالمي . والتنمية المستقلة المعتمدة على الذات ليست تنمية اقتصادية فحسب ، بل هي ـ في الحقيقة ـ تعني صياغة مشروع حضاري شامل ، يهدف الى استغلال كل الموارد المتاحة والممكنة ، ووضعها في خدمة بناء هيكل اقتصادي متقدم تتحقق فيه شروط التراكم الذاتي ، وتتوزع فيه ثمار العمل الاقتصادي بعدالة فيما بين الطبقات والفئات الاجتماعية التي قامت بإنضاج هذه الثمار. والتنمية المستقلة المعتمدة على الذات التي هي شيء مختلف عن عمليات التكييف الشائعة الآن ، وهي تتطلب توافر مجموعة من الشروط الموضوعية كي نضمن استمرارها وهي :

ـ السيطرة على الموارد والثروات الطبيعية في البلاد ، بما يعني توافر القرار الوطني في حق استخدام وتوزيع تلك الموارد والثروات ، بما يتفق ومتطلبات النمو الاقتصادي والاحتياجات الاجتماعية .

ـ ضرورة توافر النمط الانتاجي القائد والمؤهل لتحقيق هذه الاستراتيجية وهذا النمط في رأينا هو الدولة الوطنية .

ـ التعبئة القصوى للفائض الاقتصادي ومركزته عن طريق إحداث التغييرات الجذرية المطلوبة لتعبئة

المدخرات الضائعة ، وضمان وضعها لتمويل خطة التنمية .

ـ التصنيع من أجل إشباع الحاجات الأساسية للسكان .

ـ تحقيق الثورة الزراعية التي تهدف الى فائض اقتصادي زراعي يسمح بتمويل التراكم ، وتوفير فائض للتصدير ، ونقل فائض القوى العاملة من الزراعة الى القطاعات الاخرى .

ـ اختيار التقنية الملائمة .

ـ المشاركة الشعبية ـ وأعني الديمقراطية .

على أن التنمية بهذا المعنى قد تكون أمرا يفوق امكانيات كل دولة نامية منفردة ، خاصة اذا كانت هذه الدولة صغيرة الحجم في سكانها ومساحتها ، وفي قدرتها على مواجهة التحديات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية العالمية .

ومن هنا تبرز أهمية البعد الجماعي في الاعتماد على الذات ونقصد بها وجود اشكال جديدة من التعاون والترابط بين مجموعة دول العالم الثالث ، وبخاصة دول الجوار الجغرافي التي يربطها تاريخ وتراث ومصلحة مشتركة كأقطار الوطن العربي .

كما انه لا يمكن للتنمية المستقلة بهذا المعنى أن تتحقق الا اذا كانت معادية للامبريالية والصهيونية .

الانسان أثمن رأسمال

* ولكن لنفترض أن دول العالم الثالث نجحت في تحقيق الشروط التي أوردتها لتحقيق التنمية المستقلة ، على الرغم من كم المشاكل والصعوبات الهائلة التي ستواجهها ، ألا ترى ان الزيادة السكانية المتنامية بنسبة عالية ـ بالاضافة الى عوامل أخرى ـ ستأتي على أي ثمار للتنمية مما سيجعل هذه الدول تقف دائما عند نقطة البداية ان لم تتخلف عنها .. ؟

ـ انني أتفق معك في أن المشاكل والصعوبات التي تواجه دول العالم الثالث كثيرة وخطيرة ، وتحتاج الى عمل جماعي وكثيف لمواجهتها .

وانني ممن يعتقدون أن المشكلة السكانية ليست سببا للتخلف ولكنها نتيجة له . ومنظورنا للمشكلة السكانية يختلف عن المنظور المالتوسي (نسبة الى روبرت مالتوس) الذي يهبط بها ، إلى كونها مشكلة تناقض بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية المتاحة . وانما هي تناقض قائم بين السكان وبين النظام الاجتماعي السائد ، عندما يعجز هذا النظام عن توفير متطلبات الحياة للسكان كالغذاء ، والكساء والمأوى والتعليم ، والعمل والدخل .... الخ

والمشكلة السكانية ، بهذا المعنى ، لا تتحكم فيها قوانين بيولوجية طبيعية مجردة لا علاقة لها بالنظام الاجتماعي الذي يعيش في كنفه الناس ، لأن لكل نظام اجتماعي قوانينه السكانية الخاصة التي تتناسب مع هدف النظام السائد ، وتتفق مع آليات تسييره . والمشكلة السكانية بهذا المعنى ذات طابع نسبي وتاريخي ، وهي تتفاوت من نظام اجتماعي إلى نظام آخر ، ومن مرحلة لاخرى داخل النظام نفسه .

ورأيي أن تجاوز المشكلة السكانية يرتبط بتحقيق التنمية المستقلة لانها هي الكفيلة بالغاء التناقض بين حجم السكان وسرعة التطور الاقتصادي والاجتماعي .

ومحور العدالة الاجتماعية الذي تنطوي عليه التنمية المستقلة من أهم المحاور الفاعلة في حل المشكلة السكانية ، لأن نظاما به قدر كبير من العدالة الاجتماعية مع قدر صغير من الموارد يستطيع أن يتحمل عدداً اكبر من السكان عن تلك الأعداد التي يتحملها نظام آخر به موارد أكبر ولكن لا تتوافر فيه العدالة الاجتماعية ، والمشكلة إذاً ليست تعبيرا عن سباق غير متكافيء ، نمو السكان من ناحية ونمو الموارد المحدودة من ناحية اخرى كما يرى المالتوسيون ، بل هي سباق بين النمو السكاني المرتفع (لأسباب معروفة) وبين جمود وتخلف التشكيلات الاجتماعية المهيمنة بالبلاد المتخلفة وما بها من ظلم اجتماعي .

ولا يجوز ان ننسى ـ ولو للحظة واحدة ـ ان الانسان هو أثمن رأسمال ، وانه ما من ثروة تضاهي الانسان ، وأن التنمية في النهاية نتاج عمل الانسان وثمارها يجب أن تعود اليه . □

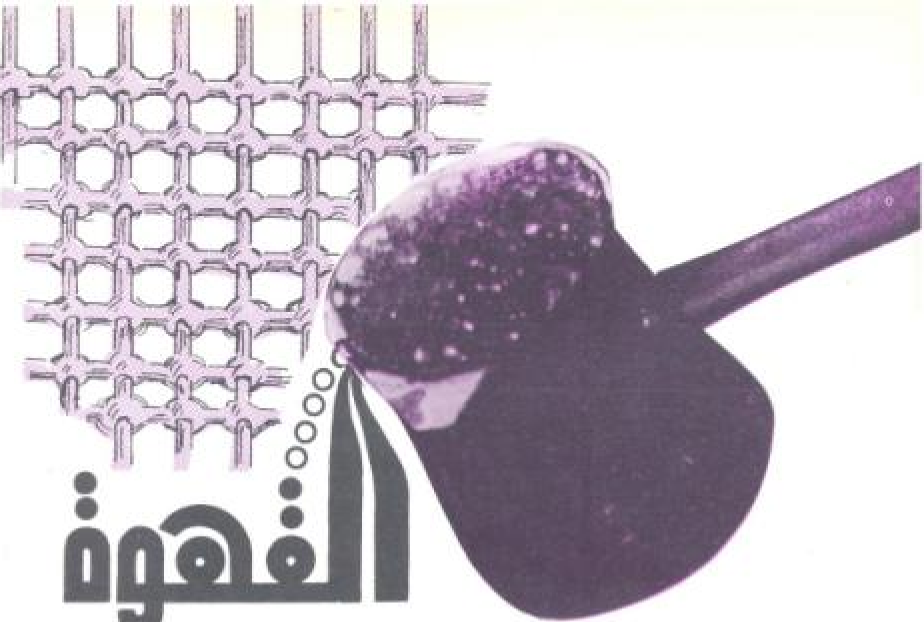

القهوة التي نشربها في قفص الاتهام

إعداد / دكتور سامي عزيز

للقهوة في المجتمع العربي مكانة مهمة ،ولها في بعض الأحيان قداسة وطقوس اجتماعية لأنها من أقدم المشروبات التي عرفها العرب ، و للمنبهات التي تحتويها ، يقبل عليها من يقوم بأعمال مهمة تحتاج إلى التركيز ، و لأنه تنعقد حولها مجالس مختلفة الغايات والمناسبات .

فالكثيرون يقبلون عليها ، ولكن القليلين هم الذين تعرفوا على مضارها .

أثناء انعقاد الجمعية الأمريكية لأطباء القلب بواشنطن - في شهر فبراير سنة ٨٦ - قدم الدكتور « توماس بيرسون » دراسة قيمة على أكثر من ١٠٠٠ أمريكي من عشاق شرب القهوة ، واستمر في متابعتهم أكثر من خمس سنوات . تقول نتائج الدراسة إن شرب خمسة فناجين قهوة يوميا أو أكثر يزيد من معدلات الإصابة بأمراض الشرايين التاجية ثلاث مرات .

والواقع أن دراسة « بيرسون » ليست أول علامات الحرب على القهوة . فالمشكلة قائمة منذ أكثر

من عشرين عاما تقريبا ، والعديد من الدراسات أشارت إلى أن القهوة وخاصة أحد مكوناتها (الكافيين) مسئول عن العديد من الأمراض ، وعلى رأسها : أمراض الشرايين التاجية ، والعيوب الخلقية في المواليد ، وأورام الثدي الحميدة ، وبعض أنواع السرطانات . وعلى الرغم من أن مادة الكافيين موجودة أيضا في الشاي ، والشيكولاتة ، والبيبسي كولا ، وغيرها ، إلا أن القهوة تمتلك نصيب الأسد ، ولهذا السبب كانت الحرب على القهوة وحدها .

وعلى الرغم من التناقض الحادث بين الأبحاث والدراسات المختلفة التي أجريت على القهوة ، فإن اتفاقاً عاماً على أن القهوة - ولو بمعدلات قليلة - ليست مأمونة ، وأنه من المستحسن عدم شربها أثناء الحمل ، ومع الشعور بآلام ماقبل الطمث ، وفي مرضى قرحة المعدة ، ومع اضطراب نظم القلب ، وفي حالات الصداع ، وارتفاع ضغط الدم ، وحتى أثناء الرضاعة .

القهوة كيميائيا :

من أهم المواد التي تحتويها القهوة مادة « الكافيين » . وهذه المادة تنتمي إلى مجموعة « المثيل زانزين » المعروفة بتأثيرها المنبه على الجهاز العصبي . والمعروف أن مجموعة « الزانزين » تشتمل على : الكافيين ، والثيوفيللين ، والثيوبرومين .

هذه المواد لها تقريبا نفس التأثير الفارماكولوجي لكن بدرجات متفاوتة . الفرق بين الشاي والقهوة والبيبسي والشيكولاتة من الناحية الكيميائية ، هو أن المواد الفعالة في الشاي هي : الكافيين والثيوفيللين (٤٠ ملليجرام كافيين في الكوب الواحد) . والقهوة تحتوي على الكافيين (١٠٠ ملليجرام كافيين في الفنجان الواحد) ، ومركبات البيبسي كولا تحتوي على الكافيين ، أما الشيكولاتة فتحتوي على الثيوبرومين ، وهذه المادة ضعيفة التأثير ولا قيمة لها .

مادة الثيوفيللين من المواد الهامة من الناحية الفارماكولوجية (علم تحضير العقاقير) ، ومنها يتم تحضير عقار الامينوفيللين الذي يستخدم في علاج أزمات الربو .

والملاحظ أنك عندما تشرب القهوة ، أو الشاي ، أو البيبسي كولا ، فإن جسمك يقوم بامتصاص كل كمية الكافيين الموجودة بها تقريبا . ويرتفع مستوى الكافيين بالدم بعد ١٥ - ٤٥ دقيقة من شربك لها . أما تخلص الجسم من الكافيين فيعرف بفترة نصف العمر . وتعرف مدة نصف العمر بأنها الوقت الذي يلزم كي يتخلص الجسم من نصف كمية الدواء التي استهلكها .

وفي حالة الكافيين تقدر فترة نصف العمر بنحو خمس ساعات في البالغين . أما الأطفال ، والحوامل ، فغالبا ماتكون فترة نصف العمر أطول من خمس ساعات . وتمتد في الأطفال المولودين حديثا إلى ساعات طويلة - أكثر من المعقول - ومن هنا تأتي خطورة شرب القهوة أثناء الحمل والرضاعة ، وبين السيدات اللاتي يتناولن حبوب منع الحمل .

تأثير القهوة على الجسم

تشير الأبحاث التي أجريت مؤخرا في الولايات المتحدة الأمريكية ، إلى أن كمية الكافيين التي تم عزلها من حليب الأم المرضعة ، كانت أعلى بكثير من مستوى الكافيين بالدم ، مما يؤكد مدى خطورة شرب القهوة أثناء الرضاعة ، ومدى الضرر الذي قد تسببه الأم لطفلها من وراء شربها للقهوة في هذه الفترة الحرجة . ويؤكد العلماء أن الاضطرابات العصبية ، والصراخ ، وعدم النوم ، والتوتر الشديد الذي قد يصيب الأطفال حديثي الولادة غالبا مايرجع إلى كثرة تناول الأم للقهوة .

ولكن ماهي التغيرات التي تحدث في الجسم إثر تناول فنجانين من القهوة ؟ تقول الدراسات إن عدداً

من التغيرات الفسيولوجية تحدث في الجسم في حالة ما إذا كان الشخص لم يتعود على تناول القهوة من قبل . أما الشخص الذى اعتاد تناولها يوميا ، فإن هذه التغيرات تبدو غير ملحوظة أو معدومة ، نظرا لتعود الجسم عليها . وأهمها :

ارتفاع بسيط في ضغط الدم بعد ساعة من تناول القهوة ، زيادة ضربات القلب ، زيادة حركات التنفس ، زيادة كمية البول ، زيادة مستوى الادرينالين بالدم . وانقباض الأوعية الدموية بالمخ ، اتساع الأوعية الدموية الطرفية ، القلق ، وربما عدم الرغبة في النوم عند المسنين . وزيادة القدرة على التركيز ، والشعور بالبهجة ، والحيوية ، والنشاط ، زيادة افراز المعدة ـ الشعور بالحموضة .

وتشير الدراسات التى تجرى حاليا إلى أن القهوة تزيد من العمليات الإيضية (إفراز العرق) ، وحرق الطاقة بصورة أسرع ، ولكن لا يوجد لدينا للآن دليل قوى على أن القهوة تساعد على خفض الوزن .

القهوة وقرحة المعدة :

من النصائح الهامة التى يقدمها الطبيب لمريض القرحة الابتعاد تماما عن التدخين ، فالتدخين يعيق التآم القرحة ، ويؤخر تحسن المريض واستجابته للعلاج . اما القهوة فقد ثبت لنا مؤخرا أنها لاتقل اهمية عن التدخين في هذا الشأن . فماذا تفعل القهوة بمريض القرحة ؟ .

تزيد من افراز العصير المعدى وانزيمات الهضم ، وتعمل على تهيج الغشاء المخاطى للمعدة ، وتحد من قدرة الجهاز الدفاعى للمعدة ، وربما تزيد من تقلصات عضلات المعدة .

وفى وقت من الأوقات نصح الاطباء مرضى القرحة بتناول القهوة المنزوعة الكافيين ، ولكن الثابت لنا الآن أنها هى أيضا تعيق التآم القرحة ، وتزيد من السائل المعدى ، وأنزيمات المعدة ولايوجد تفسير واضح لهذه الظاهرة للآن .

من الأشياء المعروفة أن القهوة لها تأثير منبه على جهازنا العصبى ، لأنها تزيد من نشاط الشخص

المتعب المكدود ، وتجعله أكثر قدرة على التركيز ، والاستيعاب ، وأقل قابلية للنوم ، فكاتب الآلة الطابعة مثلا يصبح اكثر سرعة فى عمله مع أقل عدد من الاخطاء . فكيف تؤثر القهوة على جهازنا العصبى ؟

هذا السؤال ، كان من ضمن الموضوعات التى قامت بدراستها كلية الطب بجون هوبكنز بالولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٨١ . والمعروف منذ أكثر من عشر سنوات أن مادة الكافيين تعيق عمل « الادينوزين » . وهذه المادة لها الكثير من الخصائص ، وأهمها التأثير المثبط على الجهاز العصبى . « فالادينوزين » عندما يتحد مع مستقبلات الخلايا العصبية تبدأ هذه الخلايا فى الخمود ، وقلة النشاط .

وقد تبين للدارسين فى كلية الطب بجون هوبكنز ، أن مادة « الكافيين » تشابه فى تركيبها الكيميائي مادة « الادينوزين » . لذلك عندما تدخل تيار الدم ، وتصل إلى المستقبلات العصبية ، فإنها تتحد مع المستقبلات وتطرد « الأدينوزين » بعيدا عنها ، وبالتالى تستمر الخلايا العصبية فى نشاطها الأول .

تبين أيضا أن مستقبلات « الادينوزين » هذه توجد على أنواع ، وأنها ليست كلها بنفس

الخصائص ، وأن « الكافين » وحده له القدرة على الارتباط بمختلف هذه المستقبلات ، وطرد « الادينوزين » بعيدا عنها . من هنا يمكن تفسير كيفية تأثير « الكافين » على اجهزة الجسم المختلفة ، ولماذا تختلف فعالية الكافين والثيوفيللين والثيوبرمين .

إن « الكافين » وحده يؤثر على مستقبلات « الادينوزين » (adenosine) المختلفة ، وبالتالى على أجهزة الجسم المختلفة .

وبأن القدرة على الاتحاد بمستقبلات « الادينوزين » تختلف من مادة لأخرى من هذه المواد الثلاث .

ويعكف العلماء حاليا على دراسة مادة جديدة تشابه « الكافين » كيميائيا ، ولكن بفعالية أكثر ، ولها القدرة على الاتحاد بمستقبلات «الأدينوزين» العصبية دون غيرها ، وبالتالى لايكون عملها فى الجسم موزعا على أجهزة الجسم المختلفة ، بل مركزا على الجهاز العصبى . وبذلك نكون قد توصلنا إلى عقار جديد يحسن بعض الوظائف الحيوية للجهاز العصبى مع أقل عدد ممكن من الأعراض الجانبية . وهذا العقار - بدون شك - يصلح لعلاج عته الشيخوخة واضطراب التفكير الذى يحدث عند متقدمى السن .

القهوة والصداع :

لقد اختار عالم الأمراض العصبية « ريتشارد ورثمان » ظاهرة حدوث الصداع عند التوقف عن شرب القهوة عنوانا لبحث مطول ، قدمه مؤخرا فى المؤتمر الدولى للأمراض العصبية . يقول ورثمان : « إن تناول القهوة بطريقة مستمرة يؤدى إلى ظهور مستقبلات جديدة « للادينوزين » بالأوعية الدموية حتى يرتبط بها « الادينوزين » المطرود من المستقبلات العصبية ، وعند التوقف عن شرب القهوة بطريقة

مفاجئة ، فإن « الادينوزين » يترك هذه المستقبلات الموجودة بالأوعية الدموية مفضلا عليها مستقبلات الخلايا العصبية . وتكون النتيجة حدوث اتساع مفاجىء فى الأوعية الدموية بالدماغ مما يسبب الشعور بالصداع .

ويؤكد البروفيسور « نينان ميشو » رئيس وحدة هوستون للصداع ، أن المرضى الذين يعانون من الصداع بصورة مزمنة ، يزيد شعورهم بالصداع بدرجة شديدة عندما يتوقفون عن تناول القهوة التى اعتادوا تناولها يوميا . ويضيف : « نفس المشكلة تحدث لمن اعتاد تناول الأدوية المحتوية على مادة الكافين ، فهو فى البداية يحاول علاج الصداع باستخدامها ، وعندما يتوقف عن تناولها ينقص مستوى الكافين فى الدم عن المعدل الذى اعتاد عليه ، مما يؤدى إلى الشعور بالصداع بدرجة أشد ، فيعود مرة أخرى للأدوية المحتوية على الكافين ، وهكذا يبدأ المريض فى الاعتماد عليها بصفة دائمة » .

والعلاج فى هذه الحالة هو التوقف تماما عن تناول هذه الحبوب ، ويكون التوقف بالتدريج وليس بصورة مفاجئة .

بعض الابحاث تؤكد أن للقهوة علاقة فى نشأة سرطان الكلية ، والمثانة البولية ، والبنكرياس . ففى سنة ١٩٨٠ نشرت مجلة « نيو انجلاند مديكال » الطبية بحثا مطولا عن سرطان البنكرياس وعلاقته بشرب القهوة ، والواقع أن هذا البحث الذي أشرف عليه « برين ماك ماهون » من جامعة هارفارد أحدث دويا عظيما فى الأوساط العلمية . كما تعرض لهجوم شديد من بعض الباحثين المهتمين بسرطان البنكرياس فى مراكز اخرى خارج وداخل الولايات المتحدة الامريكية . وفى نهاية المطاف أصدرت الجمعية الامريكية للسرطان فى تقريرها السنوى هذه العبارات : « لايوجد للآن دليل واضح ، يؤكد علاقة القهوة أو الكافيين بالسرطان ، إن الأمر لايرتفع عن مستوى الشك ، ولاتوجد أى مؤشرات للاتهام فى هذا الشأن » .

والعجيب أن بعض الأبحاث التى ظهرت بعد سنة ١٩٨١، تنظر إلى القهوة بصورة مختلفة تماما عن هذه التى تناولها « برين ماك ماهون ».

إذ أن هذه الأبحاث تتساءل هل القهوة تصلح لعلاج السرطان ؟

المعروف أن بعض عقاقير علاج السرطان تقوم بوظيفتها، إما بتكسير كرموسومات الخلايا السرطانية، أو تتداخل مع عمليات انقسام الخلايا السرطانية المتزايد. وقد أثبتت التجارب مؤخرا أن إضافة مادة الكافيين إلى هذه العقاقير تزيد من فعاليتها فى قتل الخلايا السرطانية.

وحتى لاتثور تساؤلات حول التناقض بين إتهام القهوة بإحداث السرطان وبين قول بعض الأبحاث أنها تساعد العقاقير المضادة للسرطان فى تأدية عملها، فإننا نورد بعض الحقائق العلمية :

١ ـ الخلايا السرطانية تنقسم بمعدلات أسرع بكثير من خلايا الجسم السليم.

٢ ـ العقاقير المضادة للسرطان تحدث تكسيرا لجينات الخلايا السرطانية مما يؤدي إلى بطء انقسامها.

٣ ـ بطء انقسام الخلايا السرطانية يصحبه قلة تأثير العقاقير المضادة للسرطان وعدم فعاليتها.

٤ ـ عندما تتمكن الخلايا السرطانية من اصلاح الجينات التى أصابها الخلل فانها تعود مرة أخرى إلى الانقسام بنفس المعدلات الأولى وكأن شيئا لم يحدث لها.

ويقول « هوارد فينجرد » عالم السرطانات بمراكز أبحاث مستشفى «ماسوشيتس» يبدو أن الكافيين يخدع هذه الخلايا، إذ أن جزيء الكافيين يشبه إلى حد كبير جزيء مادة البيورين التى تدخل فى تكوين مادة DNA المكونة لجينات الخلايا، وبالتالى يقوم الكافيين بدور البيورين دون أن تميزه الخلايا السرطانية فتنخدع فيه، وتستمر فى الإنقسام مما يتيح الفرصة للعقاقير المضادة للسرطان لأن تستمر فى عملها وفتكها بالخلايا السرطانية بدون توقف ».

وعلى الرغم من اعتماد التفسير السابق على الأدلة العلمية إلا أن التفسير الكامل لدور مادة الكافيين فى مساعدة العقاقير المضادة للسرطان لايزال موضع البحث والدراسة.

الجنين والقهوة :

فى يناير الماضى نشرت مجلة الطب الأمريكية للنساء والتوليد تقريرا خطيرا عن أثر القهوة على الحوامل. يقول التقرير « إن تناول المرأة الحامل ٢٠٠ ملليجرام من مادة الكافيين يوميا (أى مايعادل فنجانين من القهوة يوميا) يزيد من احتمالات حدوث الاجهاض ١,٧ مرة بالمقارنة إلى السيدات اللاتى لايشربن القهوة. والذى يهمنا هنا أن هذه الدراسة استبعدت العديد من الأسباب الاخرى التى ترتبط بالاجهاض مثل : سن الحامل، والتدخين، وادمان شرب الخمر، وغيرها من الأسباب، مما يؤكد على ارتباط شرب القهوة بارتفاع معدلات الاجهاض فى المرأة الحامل.

والواقع أن التفسير العلمى لهذه الظاهرة غير معروف للآن، إلا أن أبسط تفسير يمكن أن نقوله هنا، إن مادة الكافيين يمكنها عبور المشيمة لتصل إلى أنسجة الجنين. ولما كانت اجهزة الجنين لايمكنها تكسير مادة الكافيين أو التخلص منها مما يؤدىّ إلى تراكمها فى أنسجته لساعات طويلة. ويمكن نتيجة لذلك حدوث انقباض شديد فى الأوعية الدموية بالمشيمة، ونقص كمية الاوكسجين التى تصل الجنين، وما يصاحب ذلك من مضاعفات. أهمها : النقص الشديد فى وزن الجنين، والتشوهات الخلقية، وموت الجنين أو الاجهاض. هذه المضاعفات ثبت حدوثها فى أجنة حيوانات التجارب، ولكن ماذا يحدث لأجنة بنى البشر ؟ لا أحد يعلم للآن !!□

العربي - العدد ٣٦١ - ديسمبر ١٩٨٨

جمال العربية

صفحة لغة

بقلم : الدكتور حسن عباس

أبوابٌ في النَّحوِ لا نفعَ فيهَا

هناك أبواب في اللغة والنحو أخذت تفقد أهميتها ، وتبتعد عن حيز الاستعمال ، حتى هجرها الناس أو كادوا ، فلم تعد ترد في كتابة ولا في خطاب ، بل ارتفعت أصوات بين الأساتذة الجامعيين وبين أعضاء مجامع اللغة العربية تطالب بإزالتها من كتب النحو ، والتخفف من عبء تدريسها ، وحشو عقول الطلبة بها . ومن تلك الأبواب مثلا باب الترخيم .

يقصد بالترخيم حذف آخر الكلمة عندما تكون منادى ، ولكن ذلك - على ثقله وبعده عن الذوق اللغوي السليم - يخضع لقواعد وشروط تفيض كتب النحو في شرحها بما يملأ صفحات . يقول ابن هشام في « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » : يجوز ترخيم المنادى - أي حذف آخره تخفيفا - وذلك بشرط كونه معرفة ، غير مستغاث ، ولا مندوب ، ولاذي إضافة ، ولا ذي اسناد ! وليست هذه الشروط إلا أول الغيث . فلا يرخم المنادى في الأمثلة التالية للسبب الذي يلي كل مثال : « يا إنسانا خذ بيدي » لأن المنادى وهو « إنسانا » نكرة . و « واجعفراه » لأن المنادى مستغاث . « ويا أمير المؤمنين » لأن المنادى مضاف . و « ياتأبط شرا » لأن المنادى ذو اسناد .

ويجوز ترخيم المنادى ان كان منتهيا بتاء التأنيث ، فتقول في هبة إن كان اسم علم : يا هب ، وتقول في فاطمة : يا فاطم . وتزداد الشروط تعقيدا إذا كان الاسم المنادى مجردا من التاء ، حينئذ ينبغي أن يكون علما ، زائدا على ثلاثة مثل « سعاد » و « جعفر » ، فإذا أردت ترخيم واحد من هذين الاسمين قلت : « يا سعا » ، و « يا جعف » بالفتح . وما يزال الامر عند هذا الحد مقبولا ، وإن كان من النادر أن تجد من ينادي سعاد بـ « ياسعا » ، وجعفر بـ « ياجعف » وهو جاد وليس هازلا . ولكن الموقف يجاوز حد القبول إن كان المحذوف للترخيم حرفين . ويشترط لإتمام ذلك أن يكون الذي قبل الآخر من أحرف اللين ، ثم أن يكون زائدا وساكنا ، ومكملا أربعة أحرف فصاعدا ، على أن تكون قبله حركة من جنسه لفظاً أو تقديرا مثل : مروان ، وسلمان وأسماء ومنصور . تقول : « يا مَرْوَ إنَّ مَطِيَّتي محبوسةٌ » . وتعني بها يا مروان ! وتقول : يا أَسْمَ صبراً عَلَى ما كان مِنْ حَدَثٍ . وتعني بها يا أسماء ، فيكون الترخيم قد تم في المثال الأول بحذف حرفي الألف والنون ، ويكون في الثاني قد تم بحذف الألف والهمزة .

وكلا الشاهدين من شواهد سيبويه . ومثلهما أيضا قول الشاعر « يَانُعْمَ هل تحلف لا تدينها » ،وقد أراد « يا نعمان » ، فحذف النون والألف التي قبلها . وجريا على ما تقدم يمكننا أن نرخم عثمان ومنصورا ، فنقول « ياعُثْمَ ، ويامَنْصُ » !

ولا يجوز ترخيم أعلام رباعية أخرى مثل

« شمأل » فان زائده وهو الهمزة غير حرف لين . ومثل : « مختار ومنقاد » إذا كانا اسمي علم لأصالة الألف في كل منها ، ومثل « سعيد وثمود وعماد » لأن السابق على حرف اللين اثنان ، و « فرعون وغُرْنَيْق » إذا كانا علمين لِعدم مجانسة الحركة .

ويجوز الترخيم بحذف كلمة كاملة إذا كان الاسم مركبا من كلمتين ، مثل : « معديكرب » ، فتقول في ترخيمه : « يامعدي » . وعلى الرغم من تحفظنا على عدد من الأسماء التي استشهد بها النحاة - كقولهم هَبَيَّخ وقَنَوَّر - لغرابتها وندرة من يسمون بأمثالها ، ولانظن إلا أنها وضعت للاستشهاد بها على قاعدة نحوية ملتوية بعد أن أعوزهم الاستشهاد بأسماء صحيحة سليمة يصدق بوجودها العقل ويرضى بسماعها الذوق السليم . تقول : على الرغم من ذلك فإن هناك احتمالا - ضئيلا - بأن ترخم مثل تلك الأسماء ، ولكن ما الذي يدعو إلى ترخيم« اثنا عشر » مثلا ؟ تقول في ترخيمها : « يا اثن » لأن عشر في موضع النون ، فنزلت هي والألف منزلة الزيادة في « اثنان » علما . أليس هذا تمحكا؟

ومن القواعد اللاحقة أيضا في هذا الباب القول بالإبقاء على ما بقي كما هو دون تغيير إن كنت عقدت النية على المحذوف فتقول : « ياجَعْفَ » بالفتح ، وفي حارث تقول : « ياحارِ » بالكسر ، وفي منصور تقول : « يامَنْصُ » بالضم ، وفي هرقل « ياهِرَقْ » بالسكون . وفي ثمود وعلاوة وكروان تقول : ياثَمُو ، وياعلاوَ ، وياكَرَوَ » على التوالي .

وإذا لم تكن قد نويت الحذف فتجعل ما تبقى من الاسم آخرا في أصل الوضع ، فتقول : يا جَعْفُ ، ويا حارُ ويا هِرَقْ » بالضم .

أما علا فتقول فيها « علاء » بإبدال الواو همزة لتطرفها بعد الف زائدة كما في كساء . وتقول « يا كَرَا » (واصلها كروان قبل الترخيم) بإبدال الواو في « كَرَوَ » ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها .

وقيل انه يجوز ترخيم غير المنادى بثلاثة شروط ، احدها : ان يكون ذلك في الضرورة ، الثاني : ان يصلح الاسم للنداء ، فلا يجوز الترخيم في مثل كلمة « الغلام » ، والثالث : ان يكون إما زائدا على الثلاثة ، أو بتاء التأنيث كقول القائل :

لَنِعْمَ الفتى تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ
طريف بن مال ليلةَ الجوعِ والخصرِ

والشاهد في هذا البيت قوله « بن مالِ » ، حيث رخم الاسم غير المنادى ، وأصله « ابن مالك » . أليس كل ما ذكرنا - وهو مختصر - جعجعة ولا طحن ؟ ألم يفرط النحاة فيما لم يكن ينبغي لهم أن يفرطوا فيه ؟

قيل : إن الترخيم في الشعر لا يجاوزه إلا قليلا ، ونقول : إنه في الشعر القديم القديم ، وقد هجره الشعراء والكتاب والمتكلمون ، فهل يعقل أن يظل حيا بيننا تتداوله كتب النحو في حين أنه قد باد واندثر وعفا عليه الزمن ؟ وفي هذا الصدد يشكو الدكتور ابراهيم السامرائي من إسراف النحاة فيما لا جدوى منه فيقول :

هذه الأحوال في ترخيم المنادى تجعل من الموضوع شيئا كبيرا ، والذي نعرفه أن العربية خلت من « مجي ، أي مجيد ، ومنص ، أي منصور ، وثمي أي ثمود » ، وقد رأينا أن ما جاء مرخما ورد في الشعر ، وهذا يقوي الرأي أن للشعر لغة خاصة بسبب فن الوزن والقيود الشعرية الأخرى .

● الأسد الميت يرفسه حتى الحمار . (مثل هنغاري)

● دعنا نميز بين آلات المدنيَّة والآلات التي تقضي على المدنية . (أوسكار وايلد)

جمال العربية

- صفحة شعر
- هكذا غنى الآباء

وقفاتٌ جريئةٌ أمامَ الموتِ

هي جريئة لأنها أتت على غير المألوف في مثل ذلك الموقف ، فإن الإحساس بدنو الأجل وبوشْكِ فراق الحياة فراقا ليس بعده عودة يسلم المرء إلى اليأس كله - إلا من رحمه الله - والقنوط الذي لا رجاء بعده . وكثيرا ما ينهار رجال ويتهالكون أسى وحزنا أو خوفا ورعبا . وقديما تساءل المفكرون : لماذا نخاف الموت ؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل عدد غير قليل من مفكري العالم وأدبائه . قال سوفوكليس الشاعر المسرحي اليوناني : « ليس الموت أسوأ شرور الحياة ، فشر منه أن نتمناه ولا نلقاه » . وفي هذه الإجابة يتضح أن سوفوكليس لا يخشى الموت خشيته من الحياة التي تبلغ حدا من السوء يطلب معه المرء الموت فلا يلقاه ، أي أن هناك ما هو أسوأ من الموت !

ويقول الفيلسوف ارسطو : لا فرق بين الحياة والموت ، فإذا بادره أحد بالسؤال : ولماذا تحيا ؟ قال : لأنه لا فرق بين الموت والحياة . وهو موقف عقلي ليس به شبهة عاطفة .

ويقول العقاد : أما ما نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها ، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ولا نتغلب عليه .

ولكن هل يصعب على المرء عادة التخلي عن الحياة إذا طال به العمر لطول ألفها وصحبتها ؟ بهذا توحي إجابة الفيلسوف الفرنسي « رينوفيه » وهو يعلل الخوف من الموت « إن الإنسان عندما يكون شيخا وقد اعتاد الحياة يصعب عليه كثيرا أن يموت ، وان الشبان كما يرى أكثر خضوعا للموت من الشيوخ » .

وفي كتب الأدب ودواوين الشعراء مواقف متباينة من الموت ، ولكننا رصدنا أربعة مواقف تميزت بالجرأة لأسباب تختلف باختلاف أصحابها ، واختلاف مواقعهم ودوافعهم . وأول من يذكر في هذا المجال قطريّ بن الفجاءة .

فقد كان فارسا شجاعا ، وكان خطيبا وشاعرا . وقد اشتهر قطري بن الفجاءة بهذه المقطوعة التي يحث فيها نفسه على الصبر في مجال الموت ، وكان يصدر فيها عن إيمان عميق :

أقولُ لها وقد طارتْ شعاعا ... من الأبطالِ وَيْحكِ ، لا تراعي
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ ... على الأجلِ الذي لكِ لمْ تطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً ... فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ !
وَمَنْ لا يَغْتَبِطْ يَسْأمْ وَيَهْرَمْ ... وتسلمه المنون إلى انقطاع

ومنهم من واتته الشجاعة بعد يأس واستسلام كتميم بن جميل ، قال أحمد بن أبي دؤاد القاضي : ما

رأينا رجلا عاين الموت فما هاله ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه أوتي به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامة ودخل عليه ، فلما مثل بين يديه دعا بالنطع[1] والسيف فأحضرا ، فجعل تميم ينظر إليها ولا يقول شيئا ، وجعل المعتصم يصعّد النظر فيه ويصوّبه ، وكان جسيما وسيما ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول : يا أمير المؤمنين إن الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة ، وتعيي الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وكبر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إليّ[2] ، أولاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم قال :

أرى الموتَ بينَ السَّيفِ والنِّطعِ كامناً
يلاحظني منْ حيثُما أتلفَّتُ
وأكبرُ ظنّي أنك اليومَ قاتلي
وأي امرىءٍ مما قضى الله يُفلِتُ؟
ومَنْ ذا الذي يُدْلي بعذرٍ وحجةٍ
وسيفُ المنايا بينَ عينيْهِ مُصْلَتُ؟
يعزُّ على الأوسِ بنِ تغْلِبَ موقفٌ
يُسلُّ عليَّ السَّيفُ فيه وأسْكتُ
وما جَزَعي منْ أنْ أموتَ وإنني
لأعلمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مُوَقَّتُ
ولكنْ خَلْفي صِبْيَةٌ قد تركْتُهُمْ
وأكبادهم من حسرةٍ تتفتَّتُ

فتبسم المعتصم وقال : كاد ـ والله يا تميم ـ أن يسبق السيف العذل ، اذهب فقد غفرت لك الصَّبْوَة (جهلة الفتوة) ووهبتك للصبية . ثم أمر بفك قيوده ، وخلع عليه ، وعقد له بشاطىء الفرات .

ومنهم من تذكر الحبيب وهو يرى الموت رؤية العين ، فهيجته الذكرى ، وألهته عما هو فيه ، وكان موقفه الذي اتخذه سببا في الفرج بعد الشدة . قال ياقوت : روي أنه لما عزم السلطان محمود على قتل الطغرائي الشاعر ، أمر به أن يشد إلى شجرة ، وأن يقف تجاهه جماعة بالسهام ، وأن يقف إنسان خلف شجرة يسجل ما يصدر عن الطغرائي في لحظاته الأخيرة ، وقال لأصحاب السهام لا ترموه حتى أشير إليكم فوقفوا والسهام مفوقة لرميه ، فأنشد الطغرائي في تلك الحال :

ولقد أقولُ لمنْ يسددُ سَهْمَهُ
نحوي وأطراف المنايا شُرَّعُ
والموت في لحظات أحور طرفه
دوني وقلبي دونه يتقطَّعُ
بالله فتش عن فؤادي هل يرى
فيه لغير هوى الأحبة مَوْضعُ ؟
أهْونْ به لو لم يكنْ في طيِّه
عهدُ الحبيب وسرُّهُ المُسْتودَعُ

وعندما سمع السلطان ما قاله الطغرائي رق له وأمر بإطلاقه . وفي العصر الحديث ألهبت الحماسة الوطنية مشاعر الشعراء ، فاستعذب بعضهم طعم الاستشهاد كما هو الحال مع الشاعر الفلسطيني عبدالرحيم محمود الذي كان قد نذر نفسه للثورة وقتال العدو المغتصب ، واستشهد في معركة الشجرة في يوليو (تموز) من عام ١٩٤٨ ، وترك مجموعة شعرية تدل على البسالة والشجاعة والروح الوطنية المتوقدة . ولا يذكر عبدالرحيم محمود إلا وتذكر مقطوعته التي يقول فيها :

سأحْملُ روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الرَّدى
فإمَّا حياةٌ تسرُّ الصديقَ
وإمَّا ممَاتٌ يغيظُ العِدَا
ونفسُ الشريفِ لها غايتانِ
ورودُ المنايا ، ونيلُ المُنى
لعمركَ إني أرى مصرعي
ولكنْ أغذُّ إليه الخُطا
أرى مقتلي دونَ حقّي السليبِ
ودونَ بلادي هو المُبْتغى

وهي أبيات تفيض رجولة وشجاعة وشهامة يهون الموت إزاءها ويعذب الاستشهاد . □

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى (يُوصِيكُم اللَّهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإن كَانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإن لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإن كَانَ لَهُ إخوةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إن لَمْ يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إن لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . .) « النساء ١١ و ١٢ » .

اتفق المفسّرون على أن هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التي تحكم نظام المواريث في سورة النساء قد نزلت عقب موقعة أحد بفترة قصيرة ، غير أنهم اختلفوا اختلافا يسيرا بصدد مناسبة النزول .

قال الواحدي : « إن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأة يقال لها أم كُجّة وثلاث بنات له منها : فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصيّاه ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئا . وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير ، وان كان ذكرا ، وإنما يورثون الرجال الكبار . وكانوا يقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهر الخيل وحاز الغنيمة . فجاءت ام كُجّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ بنات وأنا امرأته . وليس عندي ما أنفق عليهن . وقد ترك أبوهن مالا حسنا ، وهو عند ابني عمه لم يعطياني ولا بناته من المال شيئا ، وهن في حجري ، ولا يطعماني ولا يسقياني ولا يرفعان لهن رأسا . فدعاهما رسول الله فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرسا ، ولا يُنكى عدّواً . فقال النبي (ص) : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن . فانصرفوا . فأنزل الله تعالى هذه الآيات » .

أما الواقدي فيذكر في كتابه « المغازي » أنه لما قتل سعد بن الربيع في وقعة أحد ، جاء أخوه فأخذ تركته وفق ما جرى عليه العرف الجاهلي وكان لسعد ابنتان وامرأته حامل ، فلم يتلن مما ترك سعد شيئا . فصنعت امرأة سعد ـ وهي امرأة حازمة جَلْدة ـ خبزا ولحما ودعت النبي عليه الصلاة والسلام وعشرين من أصحابه إلى الطعام عندها ، وفرشت للقوم خوصا

بين النخيل يجلسون عليه . وجعل النبي يتحدث عن سعد ويترحم عليه ، والنسوة يبكين ، وعينا الرسول تدمعان لبكائهن . فلما أكلوا اللحم والخبز أتتهم المرأة برطب في طبق فقال النبي لأصحابه « كلوا » فأكلوا حتى شبعوا ، واستمر القوم في الحديث حتى جاء العصر فأتت النسوة ببقية الطعام يُتشبعُ به فلما فرغوا قامت امرأة سعد فقالت :

« يا رسول الله ، إن سعدا قتل بأحد ، فجاء أخوه فأخذ ما ترك ، وترك ابنتين ولا مال لهما ، وإنما ينكح النساء يا رسول الله على المال » فقال النبي :

« اللهم أحسن الخلافة على تركته . لم ينزل عليّ في ذلك شيء ، عودي إليّ إذا رجعتُ » .

فلما رجع إلى بيته ، جلس على بابه ، وجلس أصحابه معه فأخذه بُرحَاه حتى ظنوا أنه أنزل عليه ، فلما سُرى عنه قال : ـ

عليّ بامرأة سعد !

وجاءت المرأة ، فقال لها النبي : أين عم ولدك ؟

قالت : في منزله

فبعث رجلا يعدو إليه ، وقال للمرأة : اجلسي فجلست . وأتى أخو سعد فقال له النبي : ادفع إلى بنات أخيك ثلثي ما ترك اخوك ، وادفع إلى زوجة أخيك الثُّمن ، وشأنك وسائر ما بيدك » .

فكبرت المرأة تكبيرة سمعها أهل المسجد .

لقد أبقى القرآن الكريم على بعض مظاهر العرف الجاهلي الخاص بالزواج والمواريث ، غير أنه في نفس الوقت أدخل على هذا العرف من التغييرات ما كان من شأنه أن يحسّن من وضع المرأة . فالمعروف أن نظام المواريث في الجاهلية كان خاضعا لمقتضيات التنظيم القبلي للعرب . وإذ كانت القبائل في أغلب الأحوال متناحرة متعادية ، فقد كانت تختار ساداتها من أقدر أفرادها على الانفاق من اجل حشد أكبر عدد ممكن من المقاتلين للدفاع عن مصالح القبيلة . وكانت هذه القدرة على الإنفاق تتطلب نظام مواريث يمالىء الذكور دون الإناث ، فاستبعدت النساء منه ، بل واستبعد الصغار على حد قول الواحدي ، وإن كانوا ذكورا . وقد كان في مثل هذا النظام اجحاف بالغ بالأرامل وبنات المتوفى ، فجاءت الآيات المذكورة من سورة النساء تخفف من وطأة هذا الاجحاف ، وتعطي للإناث حقوقا في تركة الزوج والأب . وإن كانت قد نصّت على أن حظ الذكر من التركة مثل حظ الأنثيين ، مراعية بذلك ما كان الرجل يتحمله دون الأنثى من أعباء مالية .

□ اللهم ارزقني فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

(عمر بن الخطاب)

□ فاعل الخير خير منه ، وفاعل الشر شر منه .

(علي بن أبي طالب)

□ لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير .

(المأمون)

منتدى العربي

قضية

المرأة في قواعد النحو والصرف

بقلم : محمد حسن الصوري*

صار مستقراً لدى الكثيرين أن أشكال العلاقات الاجتماعية المتمثلة في القيم والمفاهيم والعادات تقف وراء ابداع المجتمعات لآدابها ، ولغتها ، وقوانين أخلاقها وكل نتاجها الثقافي .

هذه قضية يفجرها شيخ من باحثي اللغة ، وكيف تحكمت هذه الأشكال الاجتماعية في المجتمع العربي القديم في قواعد اللغة العربية .

ليس من الميسور لنا أن ننعم بأسرار اللغة العربية ببساطة إذ لابد لنا من بذل جهود كبيرة حتى نستطيع أن نصل الى هدف حيوي منها ، فهناك مثلا (البلاغة والفصاحة والبديع) التي تبعث من أساليب لغة القرآن الكريم ، ومن الأدب العربي الأصيل فألّف فيها العلماء كتباً متعددة وبذلوا في سبيلها ما لا يحصى من الأتعاب الفكرية ، وهناك أسرارٌ أخرى قد تظهر لنا بعد التعمق في علوم النحو والصرف واللغة والأدب .

وأنا بعد أن بذلتُ دراساتٍ متواصلة طوال ربع قرن في تتبع لسان العرب وجدتُ في أساليبهم التي وُضِعَ النحو والصرف على أساسها أنّهمْ أهانوا المرأة

* كاتب و باحث لغوي من القطر العراقي .

فيها ورفعوا شأن الرجل ، ويبدو أن العرب ماكانت تضع للمرأة مركزاً عالياً كمركز الرجل ، وما كانت تجعل لها تقديراً اجتماعيا كما للرجل حتى جاء الإسلام فأعطى للمرأة حقوقاً كما للرجل . وحقوق المرأة في الاسلام لها جوانب عديدة مقدسة في القرآن الكريم وفي كتب الفقهاء ، ومن موضوعنا « المرأة في النحو والصرف » نعرف شيئاً جديداً عن مقام المرأة عند العرب وهو موضوع لم يسبق له نظير في أي كتاب أُلِّفَ في مواضيع الأبحاث اللغوية فهو إذن بحث جديد وفريد . والموضوع الذي أقدمه الآن هو جزء من عشرات المواضيع التي اشتمل عليها مؤلف « المرأة في قواعد النحو والصرف » وهو معد للطبع . وسبق أن نشرتُ منه في صحف عربية مختلفة بعض المواضيع ، وأذعت قسما منها ونَقَلَتْ بعض الصحف العربية ما أذعته . وهذا البحث قد يجد القارىء فيه نموذجا لما أشرتُ إليه من مقام المرأة عند العرب .

مما يلاحظ في جميع الاستعمالات اللفظية العربية التي وُضِعَ النحو والصرف على أساسها أنها تضع المؤنث العاقل وغير العاقل دون المذكر العاقل وغير العاقل ، وأن المذكر عندهم مقدم على المؤنث في كثير من أساليبهم فمن ذلك نجدهم في المثنيات التي اصطلحوا عليها قد اختاروا لفظ المذكر دون المؤنث فجعلوا لفظ المثنى مذكراً ، وقد علل النحويون هذه الظاهرة بتعاليل واهية منها قولهم : « المثنى على التغليب » ، وذكروا لهذا شواهد مختلفة ، وكلها أدخلوها في قاعدة التغليب ، وهذه القاعدة لم تكن إلا من صنع أفكار النحاة ولكن الحقيقة في المثنيات التي اشتملت على مذكر ومؤنث واختيار لفظ المذكر فيها دون المؤنث انما هو لشرف المذكر عندهم ، وتقدمه على المؤنث . وليس للتغليب شأن في تقدم المذكر على المؤنث ، ولماذا كان التغليب في جانب المذكر ، ولم يكن في جانب المؤنث أي لماذا لم يختاروا في تغليبهم تلك الظاهرة أن يكون المؤنث متغلباً على المذكر ؟ .

المثنيات الاصطلاحية

من تلك المثنيات :

تثنية (الشمس والقمر) فقد قالوا « قمران » ولم يقولوا « شمسان » والقمر هو جزء من الشمس ، والقوة والنور والحرارة وغيرها كلها من الشمس والقمر صخور وأحجار لا ماء ولا هواء ولا جو فالاختيار انما هو بسبب تأنيث الشمس ، وقالوا عن الشمس والقمر « الأزهران » والأزهر لفظ مذكر ، وقالوا عنهما الدائبان « والدائب » مذكر ، وقالوا في تثنية (دجلة والفرات) « فراتان » ولم يقولوا دجلتان وذلك لمراعاة التذكير والاهتمام به دون التأنيث ، وقالوا للزوج والزوجة « زوجان » ولم يقولوا « زوجتان » لطرد المؤنث واختيار المذكر . وقالوا : « الاسمران » للماء والحنطة فاختاروا للتثنية اسما مذكرا وهو (اسمر) ، وقالوا : « العراقان » للكوفة والبصرة . وقالوا : « البلدان » للكوفة والبصرة أيضا ، وقالوا : « الأبوان » للأب والأم ولم يقولوا : (أمان) والام صاحبة الحمل والتربية ، والخدمات المختلفة وتركوها لمجرد التأنيث ، وقالوا « الطرفان » للأب والام ، وقالوا : « الظئران » للأب والأم ايضا . يقال « امرأة ظئر » وهي التي تعطف على الولد ، ويقال : « رجل ظئر » أي : يتخذ وَلَدَ غيره لنفسه ، وقالوا : « الحرمان » لمكة والمدينة ففضلوا أن يكون المثنى بلفظ مذكر غيرهما ، وقالوا :

« المتحابان » للمحب والمحبة ولم يقولوا : المتحابتان ، وقالوا : « متعاشقان » ، ولم يقولوا متعاشقتان وقالوا : « عشيقان » للعشيق والعشيقة ، وقالوا : « حبيبان » ولم يقولوا : حبيبتان ، وقالوا : « المصران » للكوفة والبصرة فاختاروا لفظا مذكرا للمثنى ، وتركوا الاسمين المؤنثين . وقالوا في مسجد مكة ومسجد المدينة « المسجدان » فاختاروا الاسم المذكر « مسجد » وتركوا المضاف اليه « مكة والمدينة » ولا لمحوا اليها ، وقالوا : الأذانان للأذان والاقامة ، وقالوا : « الأمرّان » لمرارة الفقر ومرارة الهموم وكلمة « مرارة » المؤنثة تركوها واختاروا للمثنى « أمرّ » وهو مذكر ، وقالوا : « دواليك » في تثنية مدآولة ومداولة ويريدون مداولة بعد مداولة ، وقالوا : « الاحمقان » تثنية حنظلة بن عامر وربيعة وكلا الاسمين مؤنثان تأنيثا لفظيا وكان هذا في

الجاهلية وقالوا : « الأسودان » للحية والعقرب ، وقالوا : « الحجران » للذهب والفضة ، وقالوا : « النقدان »للذهب والفضة ايضاً وقالوا : « العصران » للغداة والعشي ، وقالوا عن الغداة والعشي ايضا « الابردان » وقالوا : « الصرعان » للغداة والعشي أيضا وقالوا عن الموصل والجزيرة : « الموصلان » وقالوا : « الحُسْنَيَان » للظفر والشهادة فاختاروا في جميع ذلك المذكر وتركوا المؤنث .

هذا نموذج من ألفاظ المثنى التي اختير فيها المذكر واهمل المؤنث ولا معنى « للتغليب » الذى علل النحاة به هذه المثنيات ، وما ذكرناه من اختيار المذكر لمكانته المقدمة على المؤنث هو واقع الأسلوب الكلامي عندهم في تقديرهم المذكر واحتقارهم المؤنث .

ومما يلاحظ في تقديم المذكر على المؤنث أن علامة جمع المذكر العاقل المرفوع الواو والنون في مثل محمد نقول « محمدون » مرفوعا وصفة جمع المذكر العاقل الواو والنون أيضا مثل : « فاضل وفاضلون » وهذه العلامة « الواو والنون » لايجمع بها الا المذكر العاقل أو صفته فلا يقال لكلمة (ديك) مثلا ديكون او (اسد) أسدون أو أي مذكر آخر بينما نجد أن علامة جمع المؤنث السالم العاقل هي « الالف والتاء » ففي مثل : « هند » تجمع على هندات و « فاضلة » فاضلات ولكن هذه العلامة التي تخص جمع المؤنث يمكن أن يجمع فيها غير المؤنث العاقل مثل : « دجاجة » فانها تجمع على دجاجات (وشاهق شاهقات) (وورقة ورقات) و (حمارة حمارات) وهكذا فنرى هنا أن علامة المذكر العاقل لاتكون إلا للمذكر العاقل وعلامة المؤنث العاقل تكون للعاقل وغير العاقل من مختلف الأنواع والأجناس . أليس هذا ابتذالاً في تقدير المؤنث العاقل ؟ .

وفي « نون النسوة وياء المخاطبة » نجد « نون النسوة » علامة للجمع المؤنث في الأفعال مثل : (البناتُ يَدْرُسْنَ)و (النساء سافَرْنَ) (ويا ايتها الجاهلات تَعَلَّمْنَ) وهذه النون التي أطلق عليها « نون النسوة » ليست مختصة بالنسوة اي : بالمؤنثات العاقلات بل تأتي لغير العقلاء من الحيوان وغير الحيوان مثل : (الحمامات طرن) وكما جاء في قول المتنبي :

لَيالِيَّ بَعدَ الظاعِنينَ شُكُولُ
طِوَالٌ ولَيْلُ العاشِقِينَ طَوِيلُ
يُبِنَّ لِيَ الْبَدْرَ الذي لا أُرِيدُهُ
وَيُخْفينَ بَدراً ما إلَيْهِ سَبيلُ

فالنون التي يسمونها نون النسوة أو نون الاناث في فعلي « يُبِنّ » و « يُخْفِينَ » تعود على غير العاقل وهي « الليالي » فكان الأجدر بهذه النون أن تُسمّى « ضمير المؤنث » لا ضمير النسوة اما ياء المخاطبة التي يخاطب بها المؤنث العاقل مثل : اعلمي واكتبي وافهمي فانها تكون أيضاً لخطاب غير العاقل كقوله تعالى « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا » فالمؤنث العاقل لا ينفرد وحده بعلامته بل يشترك فيها غير العاقل المؤنث .

ومما هو معروف بين النحويين أن التنوين ويسمونه « الصرف » يختص بالذكر أي مذكر كان عاقلاً أو غير عاقل ، وفيه دلالة على قوة الكلمة ومتانتها فنقول مثلا في كلمة (محمد) (محمدٌ و محمداً و محمدٍ) وفي كلمة كتاب « كتابٌ وكتاباً وكتابٍ » ولكن هذا التنوين الذي يدل على القوة والاعراب الكامل في الكلمة قد أُبعِد عن المؤنث العاقل وحُرِمَ منه فالعرب كانت لا تنون الاسم المؤنث العاقل مثل : « فاطمة » و « افتخار » و « اسماء » فالعلم العاقل المؤنث عندهم ضعيف هزيل لا يستحق ما يستحقه المذكر من علامة القوة والمتانة أما تعليل النحويين بأنه داخل في باب الممنوع من الصرف فهو خلاف الواقع ، ومما يضاف الى حرمان المؤنث العاقل من التنوين أن العرب جعلوا إعراب المؤنث العاقل غير كامل ، فنطقوا به مضموما ومفتوحا فحسب ، ولم ينطقوا به مكسورا فيقولون مثلا : حضرتْ عواطِفُ بالضم دون تنوين وشاهدت عواطفَ بالفتح دون تنوين وسلمت على عواطفَ بالفتح دون تنوين . وهنا يمكن أن نقول : لمّا كانت المرأة في مركز ثانوى فقد جردوا أسماء الأعلام المؤنثة من العقلاء عن

التنوين ونَقَصُوْا فيها حركات الاعراب فجعلوها حركتين ، واختاروا الفتح دون الكسر لتخفيف وطأة الاسم الثقيل على الرجل ذلك لأن المرأة ثقيلة في نظرهم والكسر ثقيل وثقيل واحد خير من ثقيلين ثم انهم فضلوا المؤنث الحيوان مثل : « دجاجة » على المؤنث الانسان فنونوه وقالوا « دجاجةٌ » بالتنوين ولكن إذا سميت امرأة باسم « دجاجة » فانها تُمْنَعُ من الصرف لأنها أصبحت اسم علم لمؤنث عاقل فالتحقت بانطباق الحكم عليها .

فلو قيل : لماذا لا يكون التنوين الذى تمتع به المذكر العاقل قد اشتركت معه الحيوانات والجمادات وغيرها والمرأة امتازت وحدها بهذا الحكم دون غيرها فهلا يكون ذلك الامتياز فخرا للمرأة ؟ ويقال في الجواب : إنَّ حرمان المرأة من التنوين الذى هو دليل القوة والانطلاق لا فخر لها فيه ، وتبقى كما هي محتقرة عند الرجل اما اشتراك غير العاقل من الحيوانات والجمادات بالتنوين فهذا ليس فخرا للمرأة ، ولا نقصاً بالرجل فالعرب لكرههم المؤنث العاقل فضلوا عليه المذكر العاقل وغير العاقل فأعطوه التنوين ، وحرموه من المؤنث العاقل . ونقل صاحب أقرب الموارد قال عن أبي زيد قال : « سمعت الكلابيين يقولون « رجل شجاع » ولاتوصف به المرأة وقالوا للنجم « كوكب » وليس هناك كوكبة وقالوا في مفرد نجوم « نجم » لا نجمة ولاتوجد « نجمة » بمعنى كوكب . وقال الشرتوني في (أقرب الموارد) : يقول العرب « ثوب جديد » وجبّة جديد ولا يجوز جديدة ولو كان (فعيل) كما يقولون يستوي فيه المذكر والمؤنث لما قال « ولا يجوز جديدة » ، وهناك أمثلة كثيرة في الكتاب منها ما تقدم ذكره والله سبحانه وتعالى وَلِيُّ الصواب . □

لكي تدوم
سعادتكم الزوجية

هذه نصائح حكيمة يقدمها فيلسوف قديم للمتزوجين حديثا للتمتع بالسعادة والوئام وهناء الحياة العائلية : ـ

● لاتغضبا معا في وقت واحد .
● لاتتكلما بحق بعضكما لاعلى انفراد ولافي المجتمع .
● لاترفعا صوتيكما عاليا مالم يكن الحريق ـ لاسمح الله ـ قد شب في البيت .
● ليتعود أحدكما أن يخضع لإرادة الآخر في أغلب الاحيان ، وليكن انكار الذات هدف كل منكما اليومي ومحاولته عمليا .
● لاتجعلا خطأ سابقا ارتكبه أحدكما موضوعا للتعيير والتعنيف .
● اهملا العالم كافة ولايهمل أحدكما الآخر .
● لاتدعا يوما يمر بدون أن يسمع أحدكما للآخر عبارات الود والمحبة للتذكر .
● لايقدم أحدكما عبارة انتقاد على حساب الآخر .
● لاتدعا ساعات الملتقى بينكما تمر دون مودة أو ترحيب حار .
● لاتدعا الشمس تغرب على أي غيظ أو حزن أو غضب حدث بينكما .

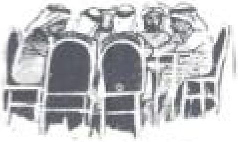

منتدى العربي

تعقيب

الثقافة العربية وقداسة التراث
بين الجابري والتيزيني

إنني أتفق مع الدكتور الجابري في أطروحاته، بل بالأحرى أتفق معه، ولكن في ماذا؟ أولا في أسلوب البحث الذي تميز بالتناول الجذري والالتماس الجاد، وهو يبحث في التراث العربي، للعوامل التي أسهمت في تكوين العقل العربي منذ أن تكوّن. وإني لأكاد أقول: إن تلك الموضوعية التي غلبت على بحثه حين قرر البحث في موضوع خطير - التراث - قد تمايز بها الجابري أيضا بين المفكرين العرب، بهذا الشكل العميق. ولقد سبق الجابري غيره من الباحثين بهذا الطرح الشامل العميق، وبذلك فهو لا شك قد وضع نموذجا جديدا، ونال شرف الريادة وكسر دوائر الإبهام بعد أن كان ينظر إلى موضوع التراث بقدسية تفتقد في واقع الأمر الكثير من المبررات، فهي لا تستمد «شرعيتها» من أية ناحية، كما نعتقد.

إن الدكتور الجابري كان أكثر جرأة من غيره حين تعامل مع التراث من موقع مختلف، فقد استطاع أن يخرج على إطار البحث التقليدي الشائع، كما تمكن من أن يتحرر من تلك القيود التي تفرض نفسها في هذا المجال عادة، ليكشف عما سماه - بحق - «نظامين معرفيين مختلفين يقرآن نفس العقيدة».

وما قول الدكتور الجابري «بلا تاريخية الثقافة العربية» و«بوحدانية زمنها» إلا من منطلق واقع الثقافة العربية التي لا يجانب الدكتور الجابري الحقيقة حين يعبّر عن الحضور الكثيف الحي للتراث في حياة الإنسان العربي اليوم.

إن حالة الجمود واللاحركة في الثقافة العربية لابد من البحث عن أسبابها، وقبل ذلك لابد من الإقرار بوجود هذه الحالة كخطوة أولى ضمن مشروع نهضوي متكامل. ولا ينبغي أن تقف أمامنا، ونحن نقوم بعملية مراجعة ونقد للذات حواجز مصطنعة، أو نستسلم لعقد نفسية تشكلت عبر هجوم مرير تعرضت له الشخصية العربية من قبل أعدائها، بدءا بالشعوبية، وانتهاء بما يعرف اليوم بالاستشراق، ذي الأقنعة المتعددة. إنه يجب علينا أن ننطلق بثقة عالية بالنفس، وأن نمتلك صدقا مع الذات كضمانات لعملية بحث موضوعي شامل فيما يتعلق بالتراث، على ألا نغفل لحظة واحدة عن مخاطر فرط الموضوعية الذي يقود إلى التشكيك في كل شيء.

ومن هذا الجانب نستطيع أن نتفهم ما يصبو إليه الدكتور محمد عابد الجابري في دراسته، ونفهمه أكثر حين نقرأ معه: «مشروعنا هادف إذن، فنحن لا نمارس النقد من أجل النقد، بل من أجل التحرر مما هو ميت أو متخشب في كياننا العقلي وإرثنا الثقافي، والهدف: فسح المجال للحياة، كي تستأنف فينا دورتها، وتعيد فينا زرعها» □

ابراهيم بن صالح

سعد نديم

رائد السينما التسجيلية

تأليف : كمال رمزي

بقلم : على أبو شادى*

نادرة تلك الكتب التي تتناول السينما المصرية بالدراسة والبحث والنقد والتحليل والتقييم ، وفقيرة بشكل يثير الأسى ، المكتبة السينمائية باللغة العربية ، المترجم منها والمؤلف . ومع أن هناك ، على مستوى الوطن العربي حاليا ، مئات ممن يكتبون عن السينما فإن حصاد ذلك كله لا يزيد عن مائة كتاب كثيراً .

هناك أسباب عديدة لعزوف النقاد عن الترجمة أو التأليف ، أهمها عدم اهتمام دور النشر الحكومية والأهلية بنشر كتاب جاد عن السينما ، فنا أو صناعة أو تجارة ، وقد يعود ذلك إلى عزوف القراء أيضاً عن قراءة مثل هذه الكتب الجادة ، واهتمامهم بما هو مثير وهزيل في عالم السينما ، وهو الحياة الخاصة والحكايات الرديئة عن النجوم ، وهو نوع من الصحافة الفنية الرديئة كرسته ضمن منظومة القيم التي كرستها هوليوود في تاريخ السينما العالمية .

وإذا كانت السينما الروائية ، بما لها من سطوة واهتمام لدى القارىء والناقد ، تعاني من الاهمال ، وقد يكون بعضها يستأهل ذلك فما بالنا بنوع آخر من السينما ، ولد وهو يحمل قدره ، على الرغم من أنه الأقدم وقد يكون الأهم ، وكان قدره أن يعيش منذ ولادته مظلوماً منسياً ، مقهوراً ، يعاني من التجاهل هو وصانعوه ، ذلك هو الفيلم التسجيلي ، على الرغم من أهمية هذا النوع من السينما في العالم كله .

فالفيلم التسجيلي له لغته وجمالياته ، ومدارسه

* ناقد سينمائي ، رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة و مجلة سينما ، من القطر العربي المصري .

الفنية ، ومناهجه ودراساته ، بل وجمهوره أيضا ، ذلك أن مفهوم السينما التسجيلية قد يتسع ليشمل كل ما هو « صور متحركة » باستثناء الأفلام الروائية وأفلام التحريك .

وفي مصر على الرغم من أن الفيلم التسجيلي بمعناه الواسع أقدم من نظيره الروائي ، وعلى الرغم من المحاولات المستميتة لرواده لوضعه على خريطة الفن في مصر ، إلا أنه مازال ضيفاً ثقيلاً على السينمائيين والجمهور معاً ، فما بالك بالحديث عن صناعه ورواد حركته على مدى العقود الستة الماضية .

لذلك فان المرء يشعر بالسعادة لصدور دراسة جادة عن رائد من رواد السينما التسجيلية المصرية ، عاش لها ، وبها ، وهو الفنان الراحل سعد نديم .

اختار المؤلف صيف عام ١٩٤٤ بداية للحديث عن سعد نديم ، وهى الفترة التي تسلم فيها سعد نديم عمله في استوديو مصر ، مساعدا في قسم المونتاج ، مع صلاح أبو سيف .

كان سعد نديم في الرابعة والعشرين من عمره حين بدأ رحلته مع الفن السينمائى ، وسنوات عمله السينمائى ستة وثلاثون عاماً ، قدم فيها تسعة وسبعين فيلماً تسجيلياً ، وعشرات المقالات النقدية ، ومارس دوره الريادى ، حيث كان أول رئيس لقسم الأفلام القصيرة فى استوديو مصر عام ١٩٤٦ الذى عمل به هو والمصور اليونانى كوستا ـ تيودوريدس .

وقد لخص المؤلف حياة سعد نديم فى خمس محطات رئيسة ، وهى « صيف ١٩٤٤ » ، ثم « لندن ١٩٥٠ » ، و« بورسعيد ١٩٥٦ » ، و« الماء ١٩٥٧ » ، ثم « الانطلاق ١٩٦٠ » ، باعتبار أن كل محطة من هذه المحطات تمثل ركيزة ونقطة انطلاق إلى آفاق أرحب فى قطار حياة سعد نديم ، وكانت لندن ـ المحطة الثانية ـ التي وصلها عام ١٩٥٠ لدراسة فن السينما التسجيلية هي حلم حياة شاب في الثلاثين ، فمكث فيها أربع سنوات يدرس ويشاهد ويلتقى ويناقش ويتعرف على الفن فى أرقى صوره ويقترب من أساتذة السينما التسجيلية وصناعها ، وروادها الكبار .

فليشهد العالم

عاد سعد نديم إلى مصر عام ١٩٥٤ فوجد أن الصورة التي قامت فى يوليو ١٩٥٢ أثناء اغترابه تطمح الى تغيير الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى .

والتحق بمراقبة السينما بوزارة الارشاد ، وقدم أول أفلامه بها « كشوف أثرية » (١٩٥٤) . وشارك أيضاً بالعمل فى وحدة الانتاج السينمائى فى القوات المسلحة ، وهى وحدة أخرى أنشأتها الثورة ، ثم أنشأت أيضاً إدارة السينما بمصلحة الاستعلامات التي قدم سعد نديم من خلالها عشرة أفلام ، من أهمها فيلم « فليشهد العالم » (١٩٥٦) الذى يصفه المؤلف بأنه : « أحد الكلاسيكيات فى تاريخ السينما التسجيلية المصرية » ، وأنه أيضاً من الأعمال التى رفعت من شأن السينما التسجيلية .

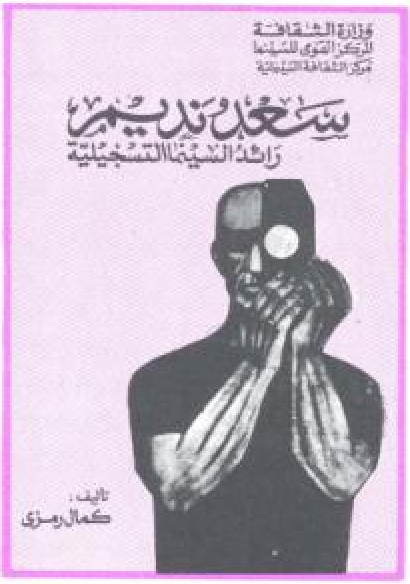

وجعلت الجميع يدركون أهميتها كخط دفاع فكرى ، وطنى ، بالغ القوة ، بل كقوة هجومية أيضاً(ص ٢٠) .

ويعتبر المؤلف « فليشهد العالم » المحطة الثالثة المهمة فى حياة سعد نديم ، ويفرد لها عنواناً خاصاً ببورسعيد ١٩٥٦ .

وإذا كان صيف ١٩٤٤ قد شهد تعين سعد نديم فى استوديو مصر ، ووطأت قدمه مطار لندن عام ١٩٥٠ ، فإن بورسعيد لم تر سعد نديم ، وانما رأت حسن التلمساني ، ذلك المصور العبقري الذي رحل عن عالمنا فى عام ١٩٨٧ ، وصاحب الفضل الأول فى فيلم « فليشهد العالم » ، حيث انطلق الى بورسعيد وسط الحصار والدمار ، ومن بين براثن قوات الاحتلال استطاع حسن التلمسانى أن يعود الى القاهرة محملاً بكنز فنى وسياسى ، وهو قوام مادة « فليشهد العالم » ، وحين عاد الى القاهرة هو ومساعداه متسللين عبر بحيرة المنزلة منهكين ملتهبة عيونهم ذهبوا رأساً الى بيت سعد نديم الذى استقبلهم بالأحضان (ص ٢٢) ، وأخذ منهم المادة الوثائقية الماثلة واتجه الى الاستديو فمكث داخل معامله يومين كاملين (فى أمان كامل) بلا نوم أو راحة ، وخرج ومعه « فليشهد العالم » صالحا للعرض .

إن تحليل الفيلم ، كما أورده المؤلف ، يؤكد فى كل لقطة ، وكل مشهد دور الفنان المرحوم حسن التلمسانى في اخراج هذا الفيلم ، وما الاخراج إذن ، إذا لم يكن ما فعله حسن التلمسانى ، هو الاخراج ؟ !! .

إن هذا الفيلم الكبير يؤكد قدرة سعد نديم كأستاذ فى فن المونتاج كما يقول كمال رمزى (ص ٢٢) ، لذا فان نسبة الفيلم إلى سعد نديم وحده تحتاج الى المراجعة أو على الأقل ، تحتاج إلى المناقشة ، كى يحسم أمر مثل هذه النوعية من الأفلام التسجيلية ، وهل يعتبر الجالس الى الموفيولا ، أو بجوار الموفيتير هو المخرج على الرغم من غيابه عند التصوير ، وحيث لم يوجه مصوراً ، أو يختار كادراً واحداً ؟ !

ان هذا الفيلم الكبير قد استطاع ، كما أورد المؤلف ، أن يجعل الصحف البريطانية تكتب حين عرض بالتجمعات السياسية والاعلامية فى بريطانيا ـ « عبد الناصر فتح جبهة أخرى بهذا الفيلم » ـ « امنعوا رائحة العار عن بريطانيا » (ص ٢٣) .

سعد نديم ناقدا

وفى المحطة الرابعة (المساء ١٩٥٧) يشير المؤلف إلى أن سعد نديم قرر ممارسة الكتابة في النقد السينمائى ، بعد فصله من مصلحة الاستعلامات ، لأسباب بيروقراطية ، وكانت صفحات جريدة المساء القاهرية ، خلال ثلاثة أعوام (٥٧ و٥٨ و١٩٥٩) ساحة خصبة كتب فيها سعد نديم عشرات المقالات التي يرى المؤلف أنها « من أكثر المقالات النقدية عمقاً واكتمالاً » .

وهذا الفصل ـ سعد نديم والنقد ـ من أجمل وأعمق فصول الكتاب ، حيث تابع المؤلف ، كتابات سعد نديم ، بالدراسة والتحليل ، بعمق ، ووعى شديدين ، ورصد خريطة الثقافة السينمائية في هذه الفترة ،وموقع جريدة المساء وسعد نديم من حركة الثقافة بعامة .

إن سعد نديم ناقد يتألق فى هذا الفصل من خلال كتابات كمال رمزى ـ ناقداً ، وإن هذا التقييم الذى يستحقه نديم ، سبقتنا وسبقت المؤلف إليه صحف تلك الفترة ، وكذلك الدولة حين اعترفت بدوره فى تطوير النقد السينمائى ، فمنحته جائزة النقد عام ١٩٦٠ ، وكان بحق أميراً للنقاد .

وهذا الفصل يعد لؤلؤة الكتاب ، حيث غاص المؤلف في لجة التاريخ الفني ، واستخرج من حياة نديم فصلاً مجهولاً ، وجانباً ثريا كان من الممكن ، لواستمر فى مزاولته ، لأعطى الثقافة السينمائية مذاقاً وعمقاً مختلفين ، وهذا الجانب هو اكتشاف خاص وكامل ينسب لكمال رمزي ولقدرته على استخلاص

المنهج والمعايير التي حكمت كتابات نديم ، والتي وصفها بقوله : تتمتع كتابات سعد نديم بالقدرة على تفكيك العمل الفني ، ثم تركيبه مرة أخرى ، أي أن العملية النقدية عنده تقوم في المرحلة الأولى على التفسير والتحليل ، فهو يشرح آراء الفيلم ويحددها ، غالباً ، من خلال لغة الفيلم السينمائية ، ثم تأتي مرحلة التقييم لرؤية الفيلم - مضمونه وبناؤه ، الفني - مبيناً ايجابياته ، وصحة أفكاره أو ضلالها ، وسلامة لغته أو ركاكتها ، ثم تأتي أخيراً ، مرحلة التوجيه التي قد يرفض فيها الفيلم ، وقلما يفعل ، أو يعيد بناءه ، من داخله ، مع تصويب المعوج من آرائه ، وترميم أية شروخات في بنائه الفني (ص ٢٨) ..

وينبه الباحث إلى أن سعد نديم هو أول من استخدم تعبير « الفيلم التسجيلي » بدلاً من الفيلم القصير ، وان كان الناقد السينمائي سمير فريد ينسب هذا التعبير للمرحوم فريد المزاوي في كتابه « مبادىء الفنون والعلوم السينمائية » عام ١٩٥٩ ، وكذلك كان سعد نديم أول من استخدم تعبير « الفيلم الاستعماري » ، وقد قصد به أنه الفيلم الذي قد يبهر المتفرج بإتقان الصناعة واستعمال المخترعات ، لكنه يقدم صورة زائفة مضللة لروعة الحياة الأمريكية ، ويجعلها تحتل عقل الجماهير والبلدان التي تشق طريقها إلى المستقبل .

ويتضح من هذا الفصل ، ومما كتبه المؤلف عن سعد نديم ناقداً ، أن تأثر نديم الواضح بمؤلفات آرنست لندجرن عن « فن الفيلم » وكتابات جون هوارد لوسون عن « الفيلم في معركة الأفكار » الذي ترجمه شقيقه أسعد نديم الى اللغة العربية ، واخلاصه لأفكار « جماعة الثقافة والفراغ » التي كونها في الأربعينيات مع صلاح أبوسيف ومحمد عودة وأسعد حليم ، وشارك في ندواتها لويس عوض وفتحي الرملي وكامل التلمساني ، وغيرهم من مثقفي اليسار المصري في هذه الفترة .

والغريب ، أنه على الرغم من استيعاب نديم لكل هذا التراث النقدي والفني والثقافي والسياسي والاجتماعي ، ووعيه بظروف أمته وشعبه ، وإدراكه لعوامل التغيير ، وقد تجلى كل هذا في كتاباته النقدية ، فإن صدى هذه الأفكار جاء باهتا في أعماله السينمائية .

في موقع المسئولية

وفي الجزء الأخير من الكتاب « الانطلاق ١٩٦٠ » يجمل الكاتب العشرين عاما الأخيرة في حياة نديم ، حيث كان فيها مخرجا ومسئولا اداريا عن النشاط التسجيلي ، وأحد رواد السينما التسجيلية في « التليفزيون » بعد افتتاحه عام ١٩٦٠ .

ومن خلال « التليفزيون » حقق سعد نديم مجموعتيه المهمتين في تاريخ السينما التسجيلية التوثيقية ، مجموعة « متحف الحضارة » ، ومجموعة « فن بلادنا » ، والمجموعتان تهدفان إلى تعريف المتفرج بجوانب عديدة من تاريخه وثقافته ، وحضارته وموروثه الشعبي بشكل عام ، وينتمي معظمها الى نوع أفلام المعرفة ، وهي أيضا كما يرى الباحث « كانت تنتهي بالاشادة بدور الدولة - الثورة - في رعاية هذه الفنون ، ويعيب عليها أيضا أنها لم يسمع فيها صوت أصحاب الأيدي العاملة إلا كجزء من الخلفية عادة ، بلا صوت . بلا متاعب أو آمال » (ص٢٣) ، وهي ملاحظة تكمل الصورة السابقة لأفلام الأربعينيات ، على الرغم من تغير المناخ والظروف ، بل إن صوت الحركة العمالية قد علا قليلا ، وأصبح مسموعا ، ووصل في لحظة تاريخية إلى حد التصادم مع رجال الثورة في كفر الدوار .

وكما تعلق الفنان صلاح التهامي بالسد العالي ، وقدم لنا وثائق نادرة عن ملحمة البناء الكبرى في تاريخ الشعب المصري ، بعد بناء الأهرامات ، تعلق سعد نديم بالنوبة ، الناس ، والأرض ، والعادات والتقاليد ، والمعابد ، وظل منذ عام ١٩٦١ - بدءاً بمجموعة أفلام بعنوان « رحلة الى النوبة » - وحتى وفاته يتابع معابد فيلة ، إلى أن تم

إنقاذها ، بل إنه ترك فيلما عن « فيلة » لم يكمله ، ووفقاً لمعلوماتي ، لم يكتمل الفيلم حتى الآن ، على الرغم من مرور أكثر من ثماني سنوات .

ويقف المؤلف في حب شديد ، عند فيلم « حكاية من النوبة » الذي قدمه سعد نديم عام ١٩٦٣ ، ويعده « في إنتاج سعد نديم » وربما في انتاج السينما التسجيلية عموماً ، يتلألأ ، ويشع ضياؤه الأصيل ، كجوهرة من المستبعد أن تفقد سحرها مع مر الأيام (ص ٣٣) .

والفيلم يقوم على مجموعة من اللوحات التي رسمتها كتيبة من أفضل الفنانين المصريين ، ذهبت إلى النوبة لتسجل كل جوانب حياتهم قبل أن ينتقلوا إلى مساكنهم الجديدة في كوم امبو ، وقد استطاع الفيلم كما يقول المؤلف « بفضل السيناريو الذي شارك فيه صلاح عز الدين مع سعد نديم ، وبفضل تصوير حسن التلمساني ، استطاع أن يصهر هذه الأساليب (يقصد أساليب الفنانين المختلفة المتباينة) في روح واحدة ، متوهجة تنتمي في خصوبتها إلى صناع الفيلم أكثر من انتمائها الى أي من الفنانين التشكيليين » (ص ٣٣) ، وقد حصل نديم بهذا الفيلم على جائزتي السيناريو والاخراج من وزارة الثقافة عام ١٩٦٤ ، وشهادة تقدير من مهرجان ليبزج بعد ذلك .

لقد كان عالم الفن التشكيلي ، عالماً أثيراً لدى سعد نديم فيلم « الأجنحة الملونة » في نهاية الأربعينيات (١٩٤٩) ، وقدم فيه عدداً مهما من الأفلام التي تتناول أعمال الفنانين التشكيليين المصريين وحياتهم ، مثل راغب عياد (١٩٦٥) وأنور عبد المولى (١٩٧٠) والفن المصرى المعاصر (١٩٦٩) وبعض أجزاء أكتوبر* والثقافة (١٩٧٥) والمصرية في خمسين عاماً (١٩٧٥) .

ويحقق سعد نديم ، في ظل أجواء الهزيمة العسكرية عام ١٩٦٧ ، ثلاثة أفلام مهمة في مجال الفيلم السياسي ، هي « العار لأمريكا » بالاشتراك مع أحمد راشد (١٩٦٧) ، ثم « لسنا وحدنا » (١٩٦٧) ، وثالثها « عدوان على الوطن العربي » (١٩٦٨) وهو أهمها ، حيث يعتمد على مادة واقعية ، حية قام بتصويرها المبدع حسن التلمساني ، في مصر ، وسوريا ، والأردن ، وبصحبة سعد نديم ، هذه المرة . ويؤكد نديم في هذا الفيلم أن الوطن العربي لن يركع أبداً إذ لم يستسلم.ويقدم كما يرى المؤلف ، فعلا : عشرات الوجوه الشابة ، المصرية والفلسطينية ، والأردنية والسورية ، وقد شوهها النابالم بما يؤكد التآخي العربي ، ويؤمن بأن الهزيمة ليست قدراً ، لكنها مجرد عدوان شرس ، سيأتي الوقت حتماً ، مهما طال لتصفيته والقضاء عليه ومواصلة البناء (ص ٣٨) .

ثمة ملاحظات :

ركز الأستاذ كمال رمزى على الجوانب التاريخية والفكرية وتتابع مراحل العمل عند سعد نديم ، ولم يقدم دراسة كاملة عن الجوانب الفنية الأخرى في أعماله ، وأسلوبه في الاخراج ، وطريقته في المونتاج ، والصورة السينمائية في أفلامه ، والبناء الفيلمي ، وتطوره الفنى من فيلمه الأول « الخيول العربية » (١٩٤٧) ، وحتى آخر أفلامه « من فيلة إلى إيجيليكا »(١٩٧٩) .

كذلك فإن البحث لم يحدد موقع سعد نديم على خريطة السينما التسجيلية في مصر ، فهو وإن كان وحده تقريباً ، في نهاية الاربعينيات ، إلا أن العقود الثلاثة التالية ، شهدت تطوراً كبيراً في مجال صناعة الفيلم التسجيلي ، وظهرت أسماء عديدة ، أثرت الحركة التسجيلية المصرية ، منها صلاح التهامى ، وعبد القادر التلمساني ، وأحمد راشد ، وهاشم النحاس ، وعطيات الأبنودى ، ثم جيل كامل من السينمائيين التسجيليين في عقد السبعينيات ، وظهرت أيضاً إدارات ووحدات سينمائية ، وهياكل تنظيمية ، بأماكن متعددة ، تقدم أنواعاً مختلفة من الفيلم التسجيلي .

كذلك ، لم يرد في البحث أيضاً أية إشارة إلى دور سعد نديم الاداري في الهياكل المختلفة الادارية

والفنية والتنظيمية التي وصل فيها سعد نديم إلى أعلى درجاتها الوظيفية وأعلى درجات المسئولية .

ففي ، مدة تسعة أعوام متصلة (١٩٧١ - ١٩٨٠) كان هو المسئول الأول عن السينما التسجيلية في مصر بكونه رئيسا للمركز القومي للأفلام التسجيلية ، وبعد أن خلف الفنان حسن فؤاد الذى تولى مسئولية المركز عند انشائه ، ولأن السينما التسجيلية في السبعينات خرج معظمها من عباءة سعد نديم - المركز - فكان لابد من تقييم دوره في توجيه حركة السينما التسجيلية في السبعينيات ، وهي ذروة نجاحها ، أو ما يمكن أن نسميه العقد الذهبي ، أو السبعينيات الذهبية للفيلم التسجيلي في مصر .

إن معظم الأعمال المهمة التى تحقق ، مفهوم الفيلم التسجيلى ، كما وعاه وفهمه سعد نديم ، ظهرت فى السبعينات ، وعليها توقيعه مشرفاً أو منتجاً فنياً ، أو بصفته مديراً للمركز القومى ، ولقد أعطى نديم الفرصة كاملة تقريباً لهذا الجيل الجديد ، لأنه يعبر عن نفسه ، وعن وطنه ، هموماً وأشواقاً وحلماً وأملاً ، وواقعاً ومستقبلاً ، فالسينما التسجيلية هى فى جوهرها دعوة دائمة للتغيير إلى الأفضل والأكمل ، ومن هنا كان لابد للسؤال أن يطرح:لماذا لم يحقق سعد نديم بنفسه ما استطاع أن يحققه من خلال الآخرين ؟ !! .

إن عزل سعد نديم واقتلاعه ، وبحثه كظاهرة خاصة بمعزل عن الواقع العام والواقع السينمائى ، أفقد البحث فاعليته الجدلية الناتجة عن الاحتكار والتأثير والتأثر ، فهو في النهاية حصاد جهد من سبقوه ، محمد بيومي ، ومحمد كريم ، ونيازي مصطفى ، وغيرهم ، وجهود زملائه الذين أكملوا الرحلة أثناء غيابه فى لندن مدة أربع سنوات ، مثل صلاح التهامى ومحمد نبيه وأميل بحرى وكل مجموعة العاملين بوحدة انتاج شركة شل ، وهو أيضاً نتاج الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي صاحبت ثورة ٢٣ يوليو وتوجيهاتها الاعلامية والثقافية ، وهو المؤثر بعلمه وخبرته في الدفعات التالية للمعهد العالي للسينما بعد منتصف الستينيات .

كذلك جاء البحث خالياً من جانب مهم ، هو جانب المعلومات التي تعد ضرورية في كتاب عن أحد المخرجين الكبار ، فلم ترد به قائمة كاملة محققة موثقة بأفلام سعد نديم ، وفاته أيضاً أن يذكر تاريخ وفاته (١١ مارس ١٩٨٠) ، ولم يعتن دائماً بذكر تاريخ انتاج الأفلام التي تعرض لها ، إلا فيما ندر . وبالمناسبة فإن الأفلام التى تعرض لها البحث لا تتعدى ربع إنتاج سعد نديم الذى بلغ تسعة وسبعين فيلماً خلال اثنين وثلاثين عاماً (١٩٤٧ - ١٩٧٩) ، ولم يورد البحث قائمة الجوائز التى حصل عليها فى المهرجانات المحلية أو الدولية ، أو مشاركاته فى تلك المهرجانات ، وكل هذه معلومات وثائقية أعتقد أنها ضرورية .

☐ كل امرىء سيارة عامة يركب فيها جميع أسلافه .

(اولفروندل هومز)

☐ يعتبر الرجل غنيا بنسبة الأشياء التى يستطيع الاستغناء عنها .

(ثورو)

☐ العمل سهل والتفكير صعب .

(جوته)

جوته

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

مضخة جديدة للقلب

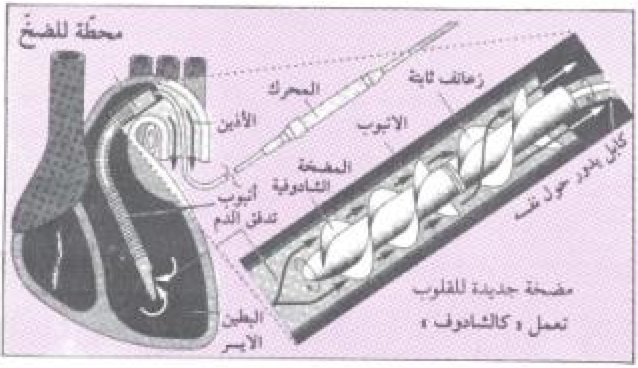

شهدت بلدة رينو في الولايات المتحدة مؤتمرا طبيا جامعا في منتصف شهر مايو الماضي (١٩٨٨) . وكان بين المتحدثين هوارد فرازيير ، مدير برنامج الزراعة (الجراحية) في معهد القلوب ، في هيوستون ، بتكساس ، وقد تركز حديثه على اختراع جديد ، استأثر باهتمام الجميع ، أطباء وجراحين . ولم يكن هذا الاختراع سوى مضخة صغيرة ، ابتكرها وطورها ريتشارد وامبلر ، الطبيب الشاب في كاليفورنيا ، وذلك من أجل مساعدة القلوب المزروعة أو المرهقة أو التالفة التي قد تكون عرضة للموت اثر العمليات الجراحية ، وعقب النوبات القلبية لتسترد حيويتها بفعل هذه المضخة الصغيرة .

ومن طريف ما يذكر أن هذه المضخة الصغيرة المبتكرة تعمل « كالشادوف » المستعمل للري في مصر منذ ايام أرخميدس ، ووفقا لجهازه الشهير المعروف باسم (ARCHMIDES SCREW) ، ذلك ان المخترع الأمريكي استوحى فكرة مضخته من عمل « الشادوف » أثناء وجوده في مصر قبل نحو عشر سنوات ـ على أن أهم ما يذكر عن المضخة الجديدة أن وكالة الغذاء والدواء في واشنطن قد أقرت استعمالها لأغراض التجربة على بني الانسان ، في شهر مارس الماضي (١٩٨٨) .

وتجدر الاشارة الى الاعتقاد السائد بين الأطباء بأن القلب المزروع المرهق ، أو التالف بسبب نوبة قلبية أو عملية جراحية ، قادر على شفاء نفسه تلقائيا ، اذا

أتيحت له الراحة الكافية . من هنا كانت فكرة المضخة التي لاتهدف الى أكثر من توفير تلك الراحة المطلوبة ، وكانت المضخات الخمس أو الست التي قد تم تطويرها على مدى عشرين سنة ماضية . وقد كانت تلك المضخات القديمة ـ مع الأسف ـ مخيبة للآمال ، فهي كبيرة الحجم جدا ، ويستوجب زرعها اجراء عملية فتح للقلب ، وهي عملية خطيرة كما لايخفى . ولهذا كان الاهتمام البالغ الذي حظيت به المضخة الجديدة الصغيرة في المؤتمر الطبي السالف الذكر .

وتتميز المضخة الجديدة واسمها « هيموبمب »(Hemopump) بصغرها ، $\frac{١}{٢}$ بوصة × $\frac{١}{٤}$ بوصة ، وبأنها تزرع في الجسم بسهولة ، وبدون جراحة تذكر ، وهي مصنوعة من فولاذ لايصدأ ، ومعدة للاستعمال المؤقت ، فاذا أدت مهمتها في غضون ٢٠ دقيقة أو نحو ذلك انتزعت من الجسم بمثل تلك السهولة التي زرعت فيها ، وألقيت في سلة النفايات . هي إذن معدة للاستعمال مرة واحدة.

يقوم الجراح بادخال المضخة عبر الشرايين ، ويزرعها في البطين الأيسر ، وهو مركز الضخ الرئيسي في القلب ، ثم يدير المحرك الذي يبقى خارج الجسم ، فتمضي المضخة في ضخ الدم الى خارج البطين ـ الى الأذين بالتحديد ـ وهذا الأذين هو الوعاء الرئيسي لنقل الدم من القلب الى سائر أنحاء الجسم . وهكذا تنوب المضخة عن القلب المعتل في أداء مهمته فتتيح له الراحة الضرورية ، ولو لمدة عشرين دقيقة فقط ، وتتيح له بالتالي فرصة الشفاء التلقائي .

والجدير بالذكر ان للمضخة الجديدة شفرات تعمل « كدفاش » السفينة ، تدور بسرعة كبيرة جدا تبلغ (٢٥٠٠٠) دورة في الدقيقة ، أي مايعادل أربعة أضعاف سرعة محرك سيارات السباق . ويعقب ، عمل « الدفاش » هذا عمل « الشادوف » السالف الذكر (انظر الرسم) ، فلا تلبث المضخة أن تؤدي مهمتها ، ثم تنزع من الجسم ، ولايلبث القلب أن يستجم ويسترد عافيته ، ويعود الى الخفقان بنشاط وانتظام في غضون بضعة أيام .

بقي أن نشير الى الفارق الأساسي بين عمل المضخة الجديدة وعمل المضخة القديمة ، فالمضخات القديمة تقوم على أساس محاكاة نبض القلب ، لاعلى محاكاة « الشادوف » كالمضخة الجديدة .

■■■

عقار جديد يكبح فيروس الايدز

مازال مرض الايدز ماضيا في استفحاله واستشرائه ، ومازال الطب ماضيا في البحث عن العلاج الناجع واللقاح الواقي من هذا المرض ، الذي يرى فيه كثير من العلماء تهديدا لمصير البشرية ، اكبر بكثير من التهديد الذي تنطوي عليه الأسلحة النووية . على أن الطب لم يحرز كثيرا في المعركة التي يخوضها للقضاء على هذا المرض ، فقد مضت عدة سنوات على هذه المعركة دون ان يعثر الأطباء الا على عقار واحد ضد مرض الايدز ، هو (ازت AZT) ، وهو الوحيد الذي رخصت استعماله وكالة الغذاء والدواء حتى الآن . لذلك كان النجاح في تطوير عقار آخر ، صمم خصيصا لمحاربة فيروس الايدز ، باعثا على الاهتمام.

أول مايقال عن العقار الجديد (واسمه CD4) هو أنه لايحطم فيروس

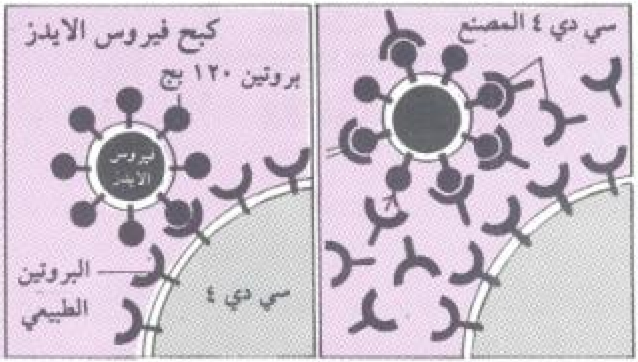

المرض ، لكنه يمنعه عن اقتحام الخلايا السليمة ويحول بينه وبين الفتك بها ، فهو يختلف اذن من حيث الفاعلية عن عقار « الأزت » الذي لايحطم فيروس الايدز ، بل يعرقل أو يكبح نمو هذا الفيروس داخل الخلية .

وتجدر الاشارة هنا الى أن خلايا (ليمفوسيت ت ٤ T.4 Lymphocites) هي عماد جهاز المناعة ، لكنها في الوقت نفسه هي الهدف الذي يندفع اليه فيروس الايدز ، وذلك من أجل الاتحاد بهذه الخلايا ، وتحطيمها ، واتلاف جهاز المناعة نفسه تبعا لذلك . ويتم هذا الاتحاد بفعل التجاذب القائم بين جزيء موجود على سطح الفيروس (يعرف باسم 9P120) ، وبين بروتين طبيعي موجود على سطح خلايا جهاز المناعة (يعرف باسم (CD4) الطبيعي).

وهكذا تتضح مهمة العقار الجديد ، فهو نسخة طبق الأصل عن البروتين الطبيعي السالف الذكر ، وخاصة أنه يحمل اسمه نفسه (CD4) ، ويقوم بدور الطعم في أعمال صيد السمك ، فيندفع فيروس الايدز الى البروتين المصنع (عقار CD4) ، فيتحد به بدلا من الاتحاد ببروتين الخلايا الطبيعي ، ويؤدي هذا الاتحاد بين الفيروس والعقار الى تحييد الفيروس أو جعله غير قادر على مهاجمة خلايا جهاز المناعة (الليمفوسيت ت ٤) .

ولقد كان هذا العقار الجديد الذي تصنعه احدى الشركات الامريكية موضع بحث ونقاش في مؤتمر الايدز الدولي الرابع الذي عقد في استوكهولم في شهر حزيران ١٩٨٨ ، وكان بين المتحدثين وليم هاسلتاين ، أحد كبار الباحثين في هذا المجال ، وقد ذكر هذا العالم أن احتمال تكوين أجسام مضادة تهاجم جهاز المناعة (خلايا T4) تبعا لاستعمال العقار الجديد (CD4) احتمال ضعيف ، لايتجاوز ١٠٪ ، علما بأن التجارب التي أجريت على الحيوان قد أثبتت خلو العقار من الآثار الجانبية .

وخلاصة القول ان العقار الجديد ، وان لم يكن الدواء الناجع الشافي من مرض الايدز ، فانه ـ على الاقل ـ سلاح فاعل ضده ، ولعل الجمع بينه وبين العقار الآخر (ازت) هو خير علاج متوافر لمرضى الايدز في الوقت الحاضر .

لا حاجة للتحطيب بعد اليوم!

يحتل التحطيب كما هو معروف ، مكانا بارزا بين مشاكل البيئة جميعها ، فتقطيع الأشجار لاستعمال خشبها وقودا ، للطبخ والتدفئة ، هو الذي يقضي على غابات العالم وأحراجه الاستوائية ، وغير الاستوائية ، فيؤدي إلى التصحر من جهة ، وإلى تلف الاوزون من جهة أخرى ، وهو الذي يتسبب بتعرية التربة ، بحيث تفقد القدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار ، فتندفع هذه المياه في سيول هادرة ، وتعيث في الأرض دمارا، وهذا هو بالضبط ما أدى إلى كارثة بنجلادش الأخيرة (صيف ٨٨) .

لقد استفحل التحطيب في التبت ونيبال وشمال الهند والمناطق المجاورة على مدى السنوات الماضية ، وقد أشرنا إلى ذلك في هذا الباب في حينه ، وتعالت التحذيرات التي أطلقتها هيئات البيئة في كل مكان ، لكن أهل الريف لم يسمعوا تلك التحذيرات ، ولو سمعوها لما استجابوا لها ، ذلك أن التحطيب هو السلاح الوحيد المتاح للفلاحين في أواسط آسيا وفي الأمزون وغيرهما ، لمواجهة البرد القارس ، وهو وسيلتهم الوحيدة لطبخ طعامهم ، ولأنهم لم يجدوا البديل فلا لوم عليهم إذا ضربوا عرض الحائط بشتى النصائح البيئية والارشادات ، ولا عجب إن مضوا في التحطيب كما فعل آباؤهم وأجدادهم .

لقد أثبتت الاحصاءات أن العائلة الواحدة ذات الخمسة أفراد تحتاج إلى نحو (١٠٠) كيلوجرام من الحطب في الأسبوع ، لاستعماله وقودا للطبخ والتدفئة ، ومعنى هذا أن العالم مهدد بفقدان كل ما فيه من غابات وأحراج في مستقبل غير بعيد ، ما لم تحل مشكلة التحطيب حلا جذريا .

من هنا كان السخان الجديد موضع اهتمام كثيرين ، فهو محاولة متواضعة للاسهام في حل مشكلة التحطيب .

أهم ما يذكر عن السخان الجديد الذي اخترعه فلاح اسمه إيان هودجن ، والذي استكملوا تطويره وبدءوا إنتاجه على نطاق تجاري سنة ١٩٨٦ ، هو أن وقوده ليس خشبا ، بل نفايات ، وثمة ٦٧ نوعا من النفايات تصلح لهذا السخان ، نذكر منها الحشيش ونفايات الورق ، والقش ، وزبل الحيوان ، وبقايا التبغ ، وقشور الفستق ، ونشارة الخشب ، والقطن ، لكن أهم ما في الأمر أن الحطب لا يصلح وقودا لهذا السخان .

ويذكر عن السخان الجديد أيضا تعدد الأغراض التي يمكن استعماله من أجلها ، فهو سخان (موقد) للمطبخ ، يخبز به الخبز ويقلى به الطعام أو يسلق أو يطهى بشتى الطرق المألوفة ، وهو مدفأة للمنزل ، وسخان للحمام .

هذا هو الطّباخ ـ المدفئة ـ السّخان ـ المجفف في آن معاً .

مدن في اليابان تحت المدن!

اكتمل العمل في نفق سايكان في اليابان سنة ١٩٨٣، وذلك بعد (١٩) عاما من الأعمال الانشائية المتواصلة، وهو نفق يمتد على مسافة ٥٣,٣ كيلومترا، ويصل بين جزيرة هونشو وجزيرة هوكايدو. فهو نفق بحري إذن أقاموه في الأعماق، أعماق قاع البحر، أي في باطن اليابسة التي تغمرها مياه البحر. ولا عجب إذن إن عدّ نفق سايكان بدعة هندسية، تدل على مدى تفوق اليابان في الأعمال الانشائية، فضلا عن تفوقها في الأعمال الصناعية والتجارية.

ولقد أقام نفق سايكان دليلا آخر يهم كثيرين وبخاصة أهل اليابان، فقد أثبت أن المنشآت المقامة تحت سطح الأرض تكون في مأمن من خطر الزلازل إلى حد بعيد، ذلك أن زلزالا بقوة ٧,٧ بمقياس رختر قد ضرب منطقة النفق، لكن منشآته ـ محطات وسكك حديد وقطارات وأجهزة وبيوت ـ لم تتأثر بذلك الزلزال، لا من قريب ولا من بعيد، لهذا بدأ أهل اليابان يفكرون: لماذا لا نقيم مدنا تحت سطح الأرض، فتأمن شر الزلازل التي دمرت، ومازالت تدمر مدن اليابان وقراها، وتخرب بيوتها ومبانيها وتشرد الكثيرين من أهلها؟!

وفطن أهل اليابان إلى أن مدن باطن الأرض لا تحل مشكلة الزلازل فحسب، لكنها تحل مشكلة أكبر منها وأخطر، مشكلة ضيق المساحة، تلك المشكلة الحيوية التي دفعت اليابان في الماضي القريب ـ كما دفعت ألمانيا النازية ـ إلى الحرب والاعتداء على الدول المجاورة واحتلال أراضيها، بقصد التوسع.

فعمد اليابانيون إلى استغلال الجو والبحر، وراحوا يقيمون ناطحات السحاب في الجو، وينشئون الجزر الصناعية في عرض البحر، حتى إذا فرغوا من نفق سايكان، ومضوا في التفكير في إقامة مدن تحت سطح الأرض، اتضح لهم أن هذه المدن تحل لهم حلا جذريا مشكلتهم الحيوية الكبرى، فالمساحة التي يتيحها باطن الأرض للبناء والتعمير، لا تقل عن المساحة التي يتيحها سطحها.

وانطلقت الشركات العملاقة في إجراء الدراسات الوافية، ووضع المشاريع الفخمة لإعمار باطن الأرض، وإنشاء المدن المتكاملة تحت سطحها.

ونذكر من هذه المشاريع مشروع شركة شميزو الذي يتألف من وحدات سكن ومحطات مترو وأسواق مركزية ومكاتب وحمامات ووسائل للرياضة ومراكز للعلاج والعناية الصحية، على أن تصل بين هذه وتلك خطوط مترو. ولم تغفل الشركة عن ضوء الشمس، بل اتخذت الاجراءات الكفيلة بنقل الضوء عبر أنابيب طويلة ووفق تقنية خاصة. تبلغ تكاليف هذه المدينة (٨٠٠٠٠) مليون دولار.

ونذكر ايضا مشروع شركة كاجيما (Kajima) الذي يتميز بأنه معّد للانشاء تحت المباني القائمة ـ بالتحديد تحت سوق السمك في طوكيو ـ وستبلغ تكاليفه (٦١٥,٠٠٠) مليون دولار.

وهكذا تطرق الحديث في اليابان الى بلدة باطن الأرض الأنموذجية، وقد قدّروا مساحتها المناسبة بحوالي ٥٠٠ ميل مربع، وسكانها بنحو نصف مليون نسمة. وقد ثبت لهم أن عمق ١٦٧ قدما هو العمق الانموذجي للبلدة الانموذجية، فهو الذي يضمن أقصى حماية ممكنة من شر الزلازل.

الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة:

متطوعون لكي تصبح حياتنا ممكنة!

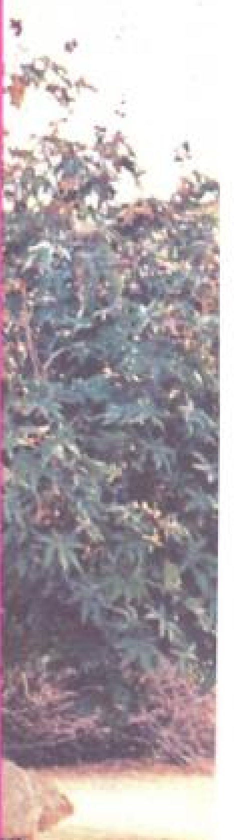

استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : فهد الكوح

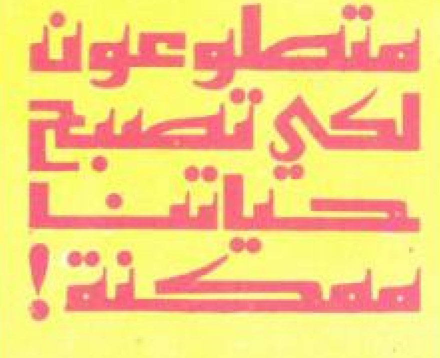

● مقر الاتحاد الدولي بتونس

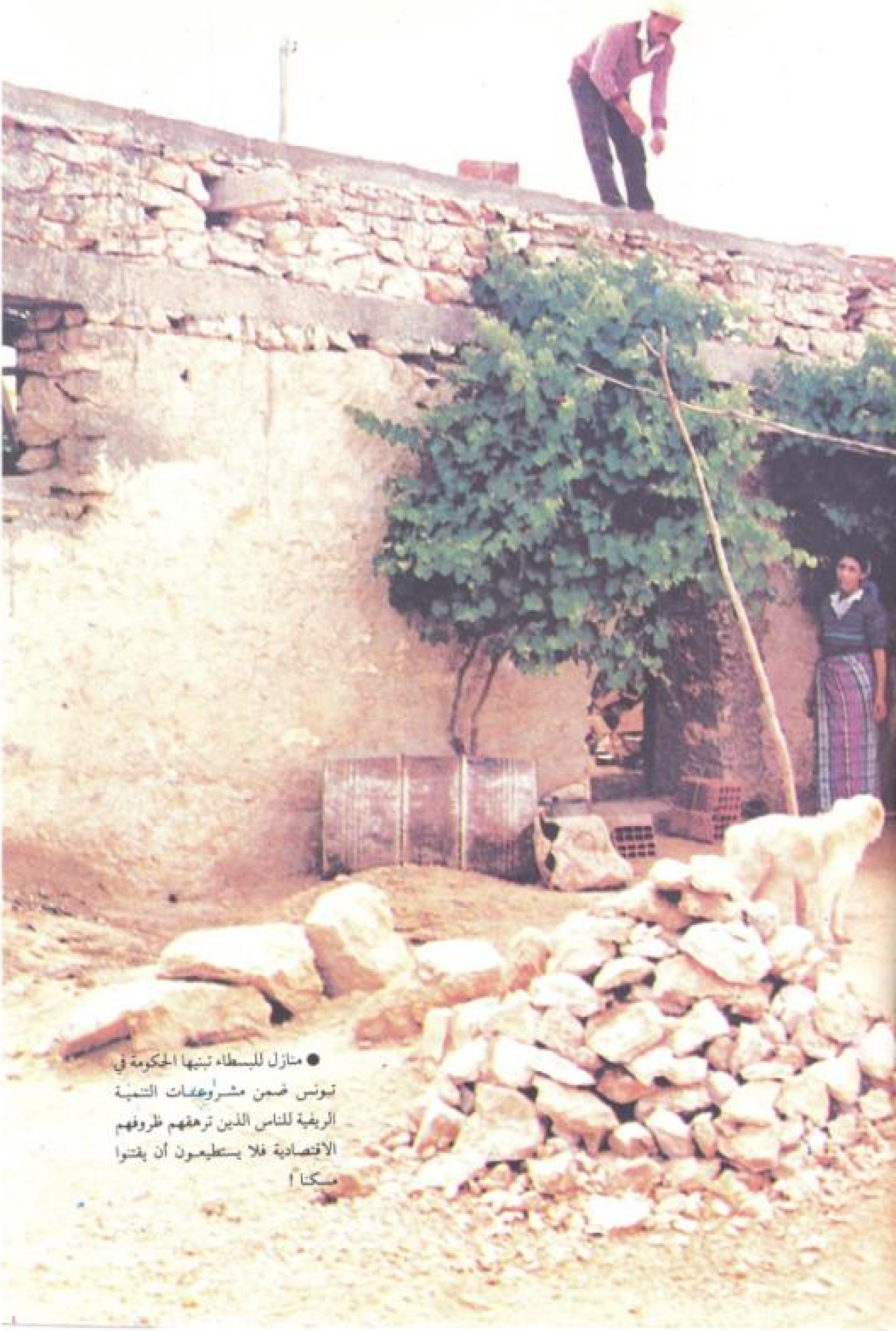

● منازل للبسطاء تبنيها الحكومة في تونس ضمن مشروعات التنمية الريفية للناس الذين ترهقهم ظروفهم الاقتصادية فلا يستطيعون أن يقتنوا مسكنا !

إن تعبير « تنظيم الأسرة » ليس شديد الجاذبية ، فقد صار يلح علينا من خلال كثير من وسائل الإعلام والملصقات . والخوض فيه يمكن تشبيهه بمن يسير في حقل ألغام . فما أكثر الذين يقولون إن هذه الفكرة فكرة يروج لها أعداؤنا ، ومازال بعض يقول إنها حرام ، ولأن العقل قبل النقل ، وأن وطننا العربي يزيد عدد سكانه بمعدل يفوق زيادة إنتاجه للغذاء ، ولاننا في عام واحد استوردنا غذاء فقط قيمته ٤٥ مليار دولار ، ولأننا ببساطة مهددون بأن لانجد ما نأكله لو استمرت معدلات الانجاب والانتاج على ماهي عليه ، لهذا كانت رحلة « العربي » الى تونس وسوريا لترصد تجربتين عربيتين ، تحاولان ان توقفا خطر الانفجار السكاني ، قبل أن يفوت الأوان ! .

في الوقت الذي تقرأ فيه الأسطر السابقة - عزيزي القارىء - يأتي إلى الدنيا مولود جديد ، وقبل أن تصل إلى نهاية هذه الصفحة سيحل على هذه الأرض ثلاثة مواليد جدد على الأقل ، وفي وطننا العربي يتوقع الخبراء أن يقفز عدد السكان من قرابة ١٨٠ مليون نسمة الآن إلى مايربو على مئتين وسبعين مليوناً في عام ٢٠٠٠ ، أي بعد أحد عشر عاماً فقط .

ولأن الأعوام الماضية شهدت نشاطاً إعلامياً مكثفاً ، يدعو إلى ضبط النسل ، وارتفعت شعارات كثيرة مختلفة على امتداد وطننا العربي تحبذ وتدعو وتنبه ، لذلك كان الإغراء شديداً لكي نحاول أن نعرف ونجد اجابات عن تساؤلات كثيرة حول هذا الاتجاه ، وحول هذه الدعوة ، وكان الاختيار بين قطرين عربيين كلاهما له خصوصيته وتمايزه وظروفه الخاصة المختلفة . إلى تونس الخضراء كانت وجهتنا ، ومحطتنا الأولى .

صورة من قريب

تتميز تونس وسط الأقطار العربية بتجربتها المميزة في مجال الرعاية الاجتماعية والأمومة وحفظ حقوق المرأة ، وهي تجربة تثير أكثر من وجهة نظر حولها ، إلا أن المهم أنها ساهمت في ايجاد مناخ اجتماعي عام ، غير معاد لأفكار التنمية والتطوير ، وتغيير العادات والمفاهيم .

في مقر الجمعية التونسية لتنظيم الأسرة التي تأسست منذ عشرين عاماً (في ابريل ١٩٦٨) ، كان لقاؤنا بالمنصف سلامة ، رئيس اقليم الوطن العربي في الإتحاد الدولي لتنظيم الأسرة ، وأحد مؤسسي الجمعية التونسية للتنظيم العائلي ، يقول د . منصف سلامة :

« كانت بداية اشتغالي بالحياة العامة من خلال عملي السياسي أثناء الدراسة الثانوية والجامعية ، وكان ذلك أثناء الاحتلال الفرنسي لتونس ، وبعد الاستقلال كانت قناعتي ان العمل العام من الممكن أن يؤتي بثمار متميزة من خلال الأنشطة الإجتماعية ، واعترافا بالفضل كان هناك تيار داخل أوساط المشتغلين بالعمل الإجتماعي ، لم أكن أنا رائده ، ولكنه تيار كان يتساءل عن الكيفية التي نرفع بها مستوى دخل المواطن التونسي ومعيشته ؟ خاصة أننا بلد صغير المساحة ، محدود الإمكانيات ، وبدأنا في هذا الوقت - أوائل الستينيات - حملة اجتماعية تنادي بضرورة الموازنة بين الموارد وعدد الأطفال ، وهذه الموازنة كما تصورناها موازنة للأسرة وللدولة ، أي يجب أن تعرف الأسرة والدولة حجم مواردهما المتوقعة ، وعدد سكانها الأفضل ، لكي يستمتعا بهذه الموارد . وبدأنا نشاطا تطوعيا ، لأننا اكتشفنا أن كثيرا من الأسر لديها الرغبة ، لكنهم لايعرفون الوسيلة . ومن خلال هذه البدايات ولدت الجمعية التونسية للتنظيم العائلي » .

● د . الهادي مهني
مدير عام الديوان القومي للسكان بتونس

الحياة تدفع الى الموت

توقعات الاقتصاديين تقول إنه بحلول مطلع القرن الجديد ، أي بعد أحد عشر عاماً فقط ، سوف يتسع حزام الفقر والجوع في افريقيا وآسيا ، ويمتد ليشمل بلداناً كثيرة وسيقترب عدد السكان الواقعين في نطاق هذا الحزام من مليارى نسمة ، وسيصبح الصراع داخل هذه المنطقة الأكثر فقرا في العالم أشد ضراوة ومرارة ، ولن يكون صراعا على رغيف الخبز ، بل سيصبح صراعا على الطين والعشب ، وهو صراع حتى الموت .

وعلى الرغم من أن هذه التوقعات كانت في بداية الثمانينيات ، إلا أن نهاية العقد حملت مؤشرات زادت من المخاوف ، فقد شهدت مناطق كثيرة من العالم الثالث موجات جفاف ، وأصبح الجفاف يهدد بلدانا كان المفترض أنها خارج حزام الفقر والجوع وفي الوقت نفسه لم يتحسن مستوى انتاج الغذاء ، ومازال معدل النمو سواء في الناتج القومي أو في انتاج الغذاء أقل من معدلات زيادة السكان ، ومع الوقت بدأ يتضح حجم الهوة بين عدد السكان وقدرة العالم النامي على انتاج مايكفي من طعام .

مشكلة قديمة دائمة

إدراك خطر الإنفجار السكاني ليس وليد اليوم ، لكنه مشكلة أدركها المجتمع الدولي منذ سنوات عديدة ، منذ أن أطلق القسيس الانجليزي ت . روبرت . مالتس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) مقولته الذائعة الصيت « أن عدد السكان في العالم يزيد بمعدل أكثر من معدل الزيادة في المواد الغذائية » ، ثم ظهرت بعد ذلك نظرية « كانان » التي تقول : « إن الزيادة والنقصان » كلاهما يمثل خطرا وأن الحل يكمن في أن هناك حجما أمثل للسكان ، يتحدد وفق العلاقة بين العدد من جهة وموارد الثورة من جهة أخرى .

منذ ذلك الوقت والعالم يولي قضية السكان اهتماما شديداً ، وكانت الحروب والأوبئة وسيلة غير ارادية لتخفيض عدد سكان العالم بين حين وآخر ، ومع التقدم العلمي وارتفاع المستوى الصحي وازدياد الوعي قلت نسب الوفيات ، وتباعدت أزمنة الاوبئة ، ومع جهود العالم الحثيثة لضبط النفس ومنع الحروب الكبرى ، فإن الحروب الاقليمية الصغيرة لم تكن كفيلة بحل مشكلة الزيادة المستمرة في عدد السكان بمعدلات عالية . وفي أواخر الاربعينيات بدأت تظهر في العالم الجمعيات الاجتماعية التي تهدف الى زيادة وعي الناس بخطورة الاستمرار في الانجاب دون مراعاة للظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وأقامت هذه الجمعيات نوعا من الاتصال فيما بينها لتبادل الخبرات ، وبدأت تُعقد الاجتماعات لمناقشة كيفية العمل وكيف تكثف نشاطها ، وتتغلب على الصعوبات التي تواجهها وفي مؤتمرها الثالث الذي عقد في مدينة بومبي بالهند عام ١٩٥٢ أعلن عن تأسيس الاتحاد الدولي للوالدية الذي تغير اسمه بعد ذلك الى الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة .

● (الصورة العليا) تعليم الحياكة ضمن أنشطة الجمعية السورية بالتعاون مع الاتحاد النسائي و (الصورة السفلى) وحدة أبحاث علاج العقم .. في مركز تنظيم الأسرة بتونس وحدة حي أريانا . (وإلى اليسار) مندوبات التوعية في زيارة منزلية لأسرة تونسية

متطوعون لانقاذ العالم

ويعد الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة أكبر منظمة تطوعية دولية ، في مجال تنظيم الأسرة، فقد تأسس ومازال يعمل بالجهود التطوعية ، وقد كان تأسيسه من قبل القادة المتطوعين للجمعيات الوطنية لتنظيم الأسرة ، ويضم الاتحاد حاليا ١٠٤ جمعيات وطنية موزعة على خريطة العالم .

وميزانية الاتحاد من منح ومساعدات تقدمها ثلاثون حكومة من حكومات الدول المتقدمة والنامية ، ليست الولايات المتحدة منها ، فقد توقفت عن سداد الجزء الخاص بها في تمويل الاتحاد عام ١٩٨٥ وتبلغ ميزانية الاتحاد حوالي ٦٠ مليون دولار ، وللاتحاد عدد من المكاتب الاقليمية ، لكل إقليم جغرافي مكتب يتابع نشاط الجمعيات الوطنية فيه ، وينسق العمل مع بقية الجمعيات ، ويتخذ اقليم الشرق الاوسط وشمال افريقيا من تونس مقرا له منذ عام ١٩٧٣ .

لأن الحياة أصبحت صعبة

لان تونس ـ كما قلنا ـ ذات تجربة متميزة في مجال العمل الاجتماعي ، فانها سبقت غيرها من أقطار الوطن العربي في إقامة المؤسسات التي تتولى الإشراف على تنفيذ السياسات الاجتماعية التي تتبناها، ويعد الديوان القومي للأسرة والعمران البشري بمثابة جهاز تخطيط ومتابعة عالي المستوى ، يتابع ويشارك في كل الأنشطة الموجودة بالدولة من أجل ضمان تنفيذ سياسات العمران والسكان .

يقول د . الهادي مهنى مدير عام الديوان : تبلور الديوان القومي للأسرة والعمران في مارس ١٩٧٣ كتطوير للادارة التي وجدت قبل ذلك منذ عام ١٩٦٤ لتطبيق سياسات التنظيم العائلي بعدما كانت تونس قد تنبهت الى خطورة الوضع الديمغرافي منذ عام ١٩٦٢ . والديوان بجانب القيام بالدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية يقوم بعرض الاجراءات المطلوب اتباعها في مجال السكان ، على الجهات التشريعية والتنفيذية وفي الوقت نفسه يقوم الديوان بإعداد برامج عمل للنهوض بالأسرة ، ومتابعة عمل الجمعيات والهيئات التي تمارس نشاطا يتعلق بالوضع الديغرافي ، والاسهام في وضع خطط الدولة التقوية والتعليمية والاعلامية ، لكي تكتمل جوانب الصورة التي ينبغي نقلها الى المواطن خاصة فيما يتعلق بالسياسة السكانية . ويستطرد الدكتور الهادى مهنى قائلا : يقدم ابحاثه ودراساته للمسؤولين عن وضع الخطط التنموية ، ويشارك في النشاط الاعلامي ، وله وجهة نظر فيما يبث اذاعيا وتلفازيا . ويشارك في وضع المنهج الدراسي للمدارس وتصنيف الكتب بحيث يصبح الأداء في المجتمع كله واحدا متوافقاً مع استراتيجية الدولة .

ولكي اوضح الامر دعني أقول إن الحياة أصبحت اليوم صعبة بالنسبة للمواطن التونسي ، ومهما كانت خطط التنمية موفقة في نتائجها فإن معدل الزيادة ٢,٥٪ سنويا سيبتلع كل عائد التنمية ، ووفق الاحصاءات المتاحة لدينا، وبافتراض أفضل النتائج المثالية لخطط التنمية ، فإن معدل الزيادة السكانية لو استمر على ماهو عليه فإنه بعد عشرين عاما سيكون هناك مليون تونسي عاطلين عن العمل ، ولو استمر معدل الزيادة السكانية كما هو عليه فإنه يتوجب على الحكومة بعد ٢٨ سنة فقط أن تضاعف كل مافي تونس من إمكانيات وموارد للحفاظ على مستوى المعيشة على وضعه الحالي ، وهو فرض وجهد مستحيل ، ولذلك ولإدراكنا المبكر لهذه الأزمة ، وصعوبة الحياة كان خيارنا في تونس أنه لابديل لتنظيم الأسرة .

تنظيم ورعاية وليس تحديدا

ويوضح الاتحاد الدولى لتنظيم الأسرة مفهومه لتنظيم الأسرة الذي تلتزم به كل الجمعيات الوطنية العاملة في هذا الميدان ان التنظيم لايعني التحديد ، لكنه تنظيم بمعنى أنه عامل مساعد لعمليات التنمية ، فبينما تتبنى الجمعيات الوطنية لتنظيم الأسرة سياسة الحد من زيادة السكان في بلد كمصر أو سوريا ، فإنها تحث على زيادة عدد السكان في قطر كالعراق ، ومن هنا فإن الاتحاد يتبنى سياسة الحجم الأمثل من السكان .

● د . منصف سلامة
مدير المكتب الاقليمي لاتحاد تنظيم الأسرة

وكما يقول د . التيجاني شاش المدير التنفيذي بإقليم الوطن العربي في الاتحاد الدولي فإن : الاتحاد يهدف الى تجميل الحياة ، وجعلها ممكنة يسيرة ولذلك فإن نشاطات الاتحاد لا تقتصر على خدمات ضبط المواليد ، لكنها تقدم الرعاية الصحية اللازمة للحفاظ على الصحة العامة ، فتقدم عيادات الجمعيات الوطنية لتنظيم الأسرة خدمات الكشف المبكر لأمراض مثل (سرطان عنق الرحم ، وسرطان الثدي) لدى النساء ، وتقدم خدمات علاج العقم للجنسين ، ويخطط الاتحاد لانشاء وحدات في بعض الأقطار لإنشاء مراكز طفل الأنابيب ، وهذه الأنشطة لايمكن تصنيفها الا في اطار فهم الإتحاد لقضية تنظيم السكان ، وهو مفهوم يعتمد ـ كما أوضحت ـ على أهمية العنصر البشري في عملية التنمية ، ولذلك فإن برامج الاتحاد من خلال الجمعيات والعيادات تحث النساء على المباعدة بين الولادات ، وتحث النساء على اتباع نظام الرضاعة الطبيعية ، لضمان صحة أفضل للمولود ، وصحة أفضل للأم ، وتوفير قدر من الرعاية الكاملة الصحية والنفسية للأطفال .

لأن النساء قوة إنتاج داخل المجتمع ، فإن تنظيم الولادة ، والمباعدة بين الولادات يحفظ للنساء طاقاتهن من الاستنزاف مبكرا ، ويحفظ للمجتمع جزءا من قوته العاملة .

العقل قبل النقل

مازالت ـ للأسف ـ داخل الثقافة اليومية العربية اتجاهات ترى أن تنظيم الأسرة فكرة استعمارية ، يروجها أعداء وطننا العربي ، وللأسف فإن هذا التيار يتصور ان « الصهاينة » يروجون هذه الفكرة ليتمكنوا من القضاء على العرب والمسلمين ، ومنطق هذا التيار لايصمد أمام التطور العلمي ولغة العصر ، وإن كان هذا المنطق صحيحا وقت ان كانت حسابات القوة تتم وفق العدد البشري ، ووقت ان كانت الجيوش تلتقي محارب لمحارب ، لكن في عصر التقنية ، عندما أصبحت الطائرة والقذيفة والاليكترون والدبابة تدار بأزرار دون حاجة ملحة لوفرة عنصر بشري ، فإن مقياس القوة ومعيارها اختلف ، ولم يعد مايراه أصحاب هذا التيار يخضع لمنطق .

التيار الثاني داخل الثقافة اليومية العربية اتجاه يرى أن تنظيم الأسرة حرام ، وان التدخل في تحديد عدد الاطفال وفقا لموارد الأسرة وقدرتها على حسن رعاية أبنائها وتربيتهم أمر غير مقبول دينيا .

ولان القضية شائكة ، تفتح باب القيل والقال ، فإن الإحالة على مايقوله من يشهد لهم بالعلم والتقى وحسن السيرة ، ينهي جدالا من الممكن ألا ينتهي ، ويقدم منطقا أكثر قربا للعقل والفهم .

يقول الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي في ورقة علمية له عن الاسلام وتنظيم الأسرة قدمها في مؤتمر تنظيم الأسرة الذي عقد بالرباط عام ١٩٧٢ : « إن

● الكشف الصحي العام خطوة أولية
لاختيار الوسيلة المناسبة لتنظيم الأسرة

الحكم الشرعي الإسلامي في موضوع تنظيم الأسرة من ناحية قلة الذرية أو كثرتها ينهض على الاستنباط والاجتهاد أكثر مما ينهض على إيراد النصوص ، وهي خاضعة للاجتهاد الذي ينبغي أن يكون مراعيا لظروف المسلمين ، فالشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل الى الجور ومن الرحمة الى ضدها ومن المصلحة الى المفسدة ومن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة في شيء ، وان أدخلت فيها بالتأويل » .

ويقول الدكتور الشرباصي في مبحثه : « وعلى الرغم من أن المجتمع الاسلامي لم يعرف مشكلات زيادة عدد السكان ، الا أن حث الرسول عليه الصلاة والسلام على اتمام الرضاعة الطبيعية وعدم الحمل أثناء الرضاعة أمر فيه قدر من المحافظة على صحة المرأة وصحة الأبناء ، فقد روى ابو داود عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله قال : «لا تقتلوا أولادكم سرا ، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره » ، والغيل هو ان يعاشر الرجل زوجته معاشرة جنسية وهي ترضع ولدا لها بحيث تحمل وهي مازالت ترضعه » .

أما الاستاذ الدكتور سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية فيقول صراحة في حديث مسجل منشور له في احدى الدوريات العربية : مسألة تنظيم النسل مسألة يقرها الدين ، بل ويدعو اليها اذا كانت هناك ضرورة تدعو الى ذلك ، وقد تكون هذه الضرورة صحية او اجتماعية أو اقتصادية ، وهذا موقف لايتعارض اطلاقا مع الايمان بالقضاء والقدر ، ولا مع التسليم بأن الله وحده هو الرازق ، وانما هو مباشرة للأسباب السليمة للحياة الفاضلة ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتعسف البعض في تفسيره ليوافق هواهم « تناكحوا ، تناسلوا ، تكاثروا ، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » حديث يدعو الى العفاف ، وحض الشباب على الزواج وحسن رعاية الأبناء وتنشئتهم ، والا فأي مباهاة يتباهى بها الرسول بأمة وأفرادها يأخذون حاجاتهم الضرورية من غيرهم ؟! وأي مباهاة لأمة تستورد

● كل المترددات يخضعن لاستفسار الباحثة الاجتماعية .. للاستفادة من بيانات الدخل وعدد الأولاد ، ومستوى المعيشة عند اجراء عمليات المتابعة

رغيف الخبز ؟! وأي مباهاة بأمة ضعيفة وهو نفسه عليه أفضل الصلاة والسلام القائل : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ؟!

نجاحات مشرقة

بعيدا عن العاصمة حيث تتركز الخدمات تابعنا أنشطة الجمعية التونسية للتنظيم العائلي ، وفي طريقنا الى مدينة سوسة توقفنا في معتمدية « سيدي بو علي » فحدثنا معتمد المعتمدية محسن بلخيريه فقال : « معتمدية سيدي بو علي تبلغ مساحتها ٢٥ الف هكتار ويسكنها ١٢ ألف نسمة ، والمعتمدية مقسمة الى سبع مناطق كل منطقة بها مدرسة ابتدائية ، وفي وسط المعتمدية معهد ثانوي ، والنشاط الاقتصادي الرئيسي يعتمد على النشاط الزراعي لاسيا الأشجار المثمرة » .

حدثنا معتمد المعتمدية عن نشاط الجمعية التونسية لتنظيم الأسرة الذي يتوافق مع أنشطة التنمية داخل تونس كلها فقال مستطردا : « نظرا لان المستوى الثقافي لغالبية السكان دون المتوسط ، فإن النشاط التثقيفي أمر بالغ الاهمية ، فقد قمنا بتجربة للتوعية والعناية بالطفل ، وهي متابعة تبدأ منذ الحمل حتى دخول الطفل المدرسة الابتدائية ، وكانت نتيجة هذه التجربة انخفاض نسبة وفيات الأطفال بمعدل واضح ، ولأن عمل الجمعية مرتبط بأجهزة وزارة الصحة والديوان العائلي لتنظيم الأسرة وخطط التنمية ، فإن الجمعية تمارس نشاطها من خلال متطوعين يتم تنسيق عملهم مع هذه الجهات الحكومية ، فإن المتطوعات بعد أن يتلقين التوجيهات والإعداد المناسب من خلال الجمعية يقمن بتوظيف جهدهن وفق النشاط المطلوب » .

وفي مقر جمعية تنظيم الأسرة بسوسة قال لنا الدكتور المنصف بن ابراهيم ، طبيب المركز الطبي التابع للجمعية : لان سوسة مدينة ساحلية ومنطقة اصطياف فإن المدينة بها أحياء شعبية ، سكانها من محدودي الدخل والعمال وصغار الموظفين ، وفي وسط هذه الأحياء اخترنا موقع العيادة ، وهي عيادة تقدم وسائل منع الحمل ، وتشرح كيفية استخدامها ، وهي خدمة مجانية لكن ليس هذا هو النشاط الوحيد ، فالجمعية تقوم بعمل متابعة دقيقة

كاملة للنساء قبل الحمل وأثنائه وبعد الحمل ، وهي متابعة تستند الى التوعية والتثقيف ، وفي الوقت نفسه تتبنى الجمعية اسلوب الحملات فقامت بالمشاركة في اسبوع التلقيح كنوع من حث النساء على العناية بصحتهن العامة ، كما تشارك الجمعية في بعض مشروعات التنمية المندمجة ، مثل (تربية الدواجن أو تعليم الحياكة . . الخ) كما تشارك الجمعية من خلال الاتحاد النسائي ، ومنظمة الفتيات وتجمعات الشباب في بث الوعي واثارة الاهتمام بتقنية زيادة عدد السكان ، وقد كان من نتائج ذلك انخفاض عدد معدل المواليد خلال العشر سنوات الماضية في محافظة سوسة ، وكان من جراء اتباع سياسات التباعد بين الولادات والرضاعة الطبيعية ، والعناية بالنسوة ، أن وفر هذا فرصة أفضل للأبناء فبلغت نسبة التعليم بالنسبة للأطفال في محافظة سوسة ١٠٠٪ للأطفال الواقعين في سن التعليم .

ويضيف الدكتور المنصف بن ابراهيم الذي يترك عيادته الخاصة صباحا ليتفرغ للعمل كمتطوع في الجمعية : الواقع أن صعوبة الحياة قد دفعت كثيرا من الناس للإقدام على اتباع سياسات تنظيم الأسرة لذلك فاننا نجد ان ٥٢٪ من النساء المتزوجات وفي سن الانجاب يستعملن طريقة من طرق التنظيم .

وهذا بالتأكيد ناتج عن اهتمام بالمشكلة السكانية على مستوى تونس كلها ، فعلى امتداد تونس توجد ١٢٠٠ نقطة توعية وتقديم خدمات ، موزع عليها ١٢٠ مثقفة يتولين إعداد الكوادر وتربيتهن وتوجيههن ليتحركن وسط النساء ، ويتولين مهمة التوعية والتثقيف .

رحلة الألف ميل

من تونس الى دمشق من البلد المقر للاتحاد ، والجمعية الأقدم الى جمعية اخرى من جمعيات تنظيم الأسرة في الوطن العربي ، الى سوريا التي كانت المحطة الثانية ، سوريا شأنها شأن كل الوطن العربي تشهد ازديادا في معدل السكان بشكل كبير ، وتكفي للمقارنة أن يعرف أن سكان سوريا في عام ١٩٤٥ كانوا ٣ ملايين نسمة فقط ، وفي عام ١٩٦٩ اصبح عدد السكان ستة ملايين نسمة ، وفي عام ١٩٨٩ سيصبح عددهم ١٢ مليون نسمة . وقد تأسست جمعية تنظيم الأسرة السورية عام ١٩٧٤ وهي كبقية الجمعيات تعتمد أساسا على النشاط التطوعي .

وتطور الخدمات التي تقدمها جمعية تنظيم الأسرة يتضح من خلال زيادة عدد المترددات.فبعد أن بدأت الجمعية نشاطها كان عدد الزائرات الجدد لها ٩٧٣ زائرة عام ١٩٧٦ ، وقفز ذلك العدد الى ٢٠ الف زائرة في عام ١٩٨٦ ، وزيادة العدد في الساعيات بأنفسهن الى مقار الجمعية للاستفادة من خدماتها لايعود فقط الى تعدد نقاط تقديم الخدمات ، لكن يعود ايضا للقبول الطوعي والاحساس بأهمية تنظيم الأسرة.فمما لاشك فيه ان الظروف الاقتصادية للأسر العربية قد باتت تدفع أفرادها الى الايمان بتنظيم الأسرة والاكتفاء بعدد مناسب من الأبناء لضمان حياة أفضل لهم .

عن نشاط الجمعية حدثنا د . أسعد اسطواني نائب رئيس الجمعية فقال : تركز الجمعية السورية جزءا كبيرا من نشاطها في التوعية والمحاضرات لجماهير النساء وفي التجمعات والقرى والمصانع ، ومؤخرا امتد نشاطنا الى الجامعات وقد بدأنا بجامعة دمشق ، ثم جامعة اللاذقية ، وأخيرا جامعة حلب . كما تتم التوعية من خلال التعاون مع المنظمات الحزبية والطلابية وأوساط الشباب .

وتنتشر عيادات الخدمة الطبية التي تقدمها الجمعية من خلال عشر عيادات موزعة على بعض مدن القطر ، فيوجد ثلاث منها في حلب ، واثنتان في اللاذقية ودمشق ، وواحدة في كل من الحسكة ودير الزور وطرطوس ، وتقيم الجمعية كل فترة اسبوعا لتنظيم الأسرة ، تنتقي له مدينة من مدن القطر ، وتحدث تظاهرة لإثارة الاهتمام بهذه القضية ، والعيادات تقدم خدماتها مجانية للمتزوجين فقط ، ويلزم أن تقدم كل مراجعة بطاقة العائلة للاستفادة من الخدمات التي تقدمها العيادة .

واستئناسا بالدعم الذي تحصل عليه الجمعية السورية لتنظيم الأسرة من الدولة المتمثل في موافقة

● أحمد عبدالناظر
المندوب الجهوي لتنظيم الأسرة

الحكومة على نشاط الجمعية داخل التجمعات العمالية ، واحتساب ساعات حضور دورات التوعية ساعات عمل مدفوعة الأجر ، فإن الجمعية تخطط لبدء مشروع جديد ، يمثل نقلة نوعية بالنسبة لها ، وهو مشروع تنمية الأسرة الريفية ، وكانت الجمعية قد بدأت مشروعا مشابها في بعض القرى خلال الأعوام الماضية ، ولكن عند تقييم آثار المشروع وجمع آراء الأهالي المستفيدين منه كانت الملاحظة أن مدة المشروع غير كافية ، وتتلخص فكرة المشروع في تقديم نشاط اعلامي وتربوي وتثقيفي ومحو أمية وخدمات طبية في قرية محددة فترة محددة ، والجديد أن الجمعية ستمارس هذا النشاط في عشر قرى متقاربة مدة عام كامل ، ثم تنتقل بعد ذلك الى عشر قرى اخرى ، بحيث تتمكن الجمعية في نهاية الخطة الخمسية لها أن تغطي معظم قرى القطر السوري .

للبسطاء نعمل

وعيادات الجمعية السورية تنتقي الأحياء الأكثر شعبية ، لانها أكثر اكتظاظا بالسكان ، وأكثر حاجة للخدمات الطبية المجانية وعلى الرغم من ان الدولة تهيء رعاية طبية شاملة من خلال مراكز رعاية الطفولة والامومة في عموم القطر ، فإن التردد على عيادات تنظيم الأسرة يشهد إقبالا ملحوظا ، فالجمعية تقدم الاستشارة والتوعية والمتابعة حتى مابعد الولادة كما تقوم الجمعية من خلال الاتحاد النسائي بمد خدماتها للمترددين على الاتحاد القاطنين بالمنطقة نفسها ، والاستفادة من أنشطة الاتحاد المختلفة لزيادة الوعي بأهمية المشكلة وضرورة السيطرة عليها .

استعرناها من أبنائنا

أوطاننا استعرناها من آبائنا ، ونحرص على ان نسلمها لأبنائنا عزيزة حرة فلماذا لا نحرص على أن نسلمها لهم غير مكبلة بالقيود ، وغير مكبلة بعدد من السكان ، يلتهم كل ماتنتج ، ويحتاج المزيد ؟ ولماذا نضيق حياتنا ونحن يمكننا أن نجعلها أيسر ، حتى تصبح أحلامنا فيها ممكنة ؟ فإن مانريده لأبنائنا متاحا . ولماذا لا ندرك أن طفلا جديدا هو خصم من فرص يمكن أن تتاح لطفل موجود فعلا ، وأن معيار القوة ليس بعدد الأفراد ولكن بمجتمع صحي ، قادر على ان يشبع نفسه ، ويحقق رفاهية ، ويمتلك أسباب المتعة ؟ لهذه التساؤلات يعمل فريق من المتطوعين منتشرين على خريطة العالم ، وعلى خريطة وطننا العربي يحلمون بالنيابة عنا ، ويعملون بالنيابة عنا . نحن جميعا غارقون في مشكلات كثيرة ، غير مدركين حجم هذا الخطر ، وحجم هذه الفجوة التي تتسع بين السكان والغذاء في وطننا العربي . □

الآثار الإسلامية في شمال إسبانيا

بقلم : الدكتورة
ماريا ميلاجروس *

تشكيل عقدة باثني عشر طرفا ، موجودة في قصر اشبيلية وفي قرطبة .

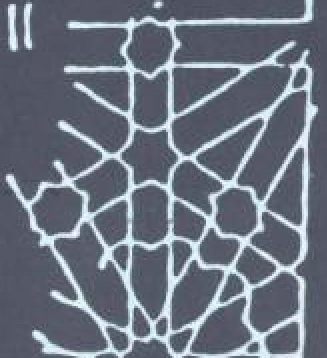

في عام ١١١٩ وقعت مدينة تطيلة تحت يدي الملك الفونس الأول ، ملك أراغون ، بعد سقوط مدينة سرقسطة بعام واحد ، وقد انتهز الملك النصراني فرصة الخلافات الواقعة بين ملك طائفة سرقسطة والغزاة المرابطين ليستولي على تلك الأراضي الغنية . فما النتائج التي ترتبت على ذلك ؟

* معهد الألسن - قسم اللغة العربية - مدريد - أسبانيا

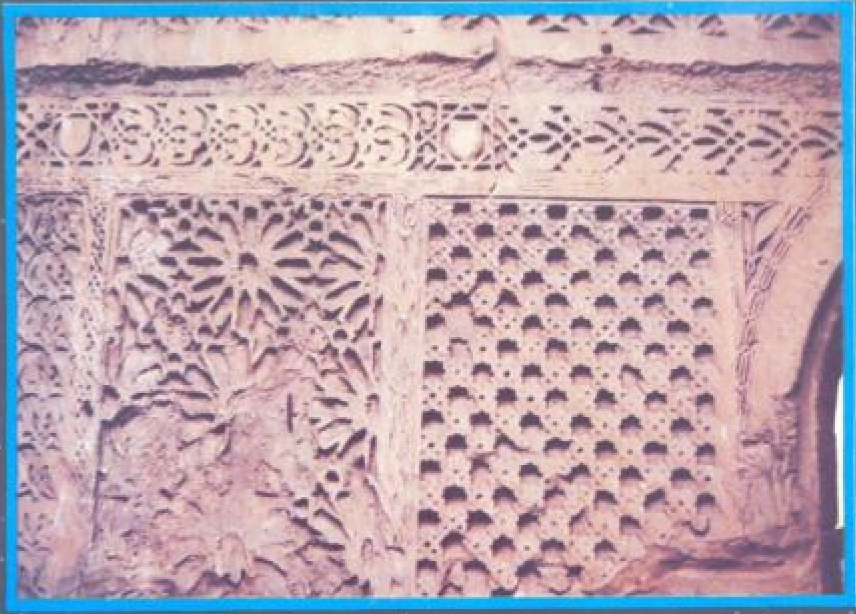

تشكيل عقدة بثمانية أطراف مع عقدة بأربعة للاتصال . شبكة مكررة مركبة .

تشكيل عقدة باثني عشر طرفا مع ثماني نجوم حولها . مصدرها اشبيلية وغرناطة .

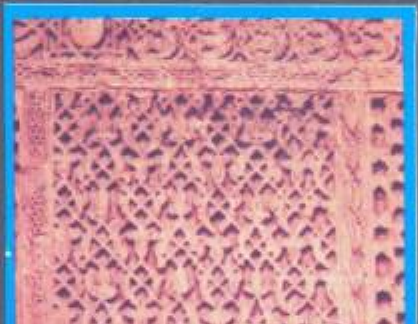

تشكيل زخارف نباتية على شبكة مربعة وزخارف نباتية مدورة على شكل ورق مسلسل

من المعروف أن هاتين المدينتين اللتين تبعدان عن بعضهما ٥٠ كم فقطكانتا مهمتين جدا بالنسبة للأندلس الشمالية . أسست تطيلة في القرن الثامن الميلادي بعد الفتح الاسلامي مباشرة ، وكانت فترتها في أعظم أيام دولة بني قاسي في القرن التاسع . أما سرقسطة ، وتأسيسها روماني ، فكانت مدة ازدهارها أثناء القرن الحادي عشر ، في فترة ملوك الطوائف وهي مدة انتهت لسوء الحظ بغزوة المرابطين .

وقد بقي قليل من الآثار الاسلامية المنسوبة إلى هذه الفترة في مدينة تطيلة ، لكنها لا تحصى في سرقسطة وفيها قصر الجعفرية ، تلك الجوهرة المعمارية .

هجرة جماعية

فرض الموقف الجديد بعض التغيرات على الجالية الكبيرة من المسلمين الذين كانوا يسكنون على تلك الأراضي ، فبعضهم ـ وربما الصفوة منهم ـ هاجر إلى الجنوب ، بحثا عن الحماية في اشبيلية أو في أي مدينة أخرى من المدن الجنوبية . رحلت معهم أسرة

تشكيل عقدة بستة عشر طرفا وثمانية أطراف موجودة في قصر الحمراء في غرناطة وفي « المدجّن » الطليطلي

شاعرنا العظيم : أبي جعفر أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة ، الملقب بالأعمى التطيلي الذي كان مازال طفلا صغيرا في تلك الأيام بلا شك . وفيما بعد أوحى لهذا الشاعر ألم الانفصال عن مسقط رأسه بتلك القصيدة التي مطلعها :

يا نازح الدار سل خيالك
ينبيك أن صرت كالخيال

وبكل تأكيد ـ كما يقول محقق « توشيع التوشيح » ، وهو البير مطلق ـ لو لم يسجل الصفدي موشحة الأعمى التطيلي هذه ، لضاعت منا إلى أبد الآبدين .

مكث معظم السكان المسلمين في مكانهم عند وادي الابرو ، ملتجئين إلى الامتيازات التي منحها لهم الملك الفونس الأول . ولو لم يكونوا هم الذين يزرعون بساتين وادي الابرو الخصبة فمن كان سيحل محلهم ؟

على أي حال ، أراد الملك تشجيع استمرار الفلاحين الذين كانوا يدفعون الضرائب نفسها كما كان في الفترة السابقة بالضبط وهي العشر . وكذلك كانوا يحتفظون بمساجدهم وقضاتهم وقوانينهم الخاصة .

أما السكان الذين كانو يمارسون حرفا ، وخاصة في الفن المعماري ، فقد كانوا يلبون طلبات سادتهم الجدد ، لكنهم احتفظوا على مر السنين والقرون بالوفاء للفنون والأساليب الفنية الموروثة عن اسلافهم . وهكذا ظهر الفن « المدجن » الاسباني ، وهو أسلوب فني ، احتفظ بمعظم العناصر العربية ، وتطور في الأراضي النصرانية .

قصر نفارّه

في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر بني قصر ملوك نفارّة في مدينة أليتي على بعد ٥٠ كم من تطيلة ، بطلب من الملك النفاري كارلوس الثالث « النبيل » . وفي هذا العمل اشترك بنشاط الفنّانون المسلمون الذين كانوا يعيشون في تطيلة وسرقسطة أو الذين جاءوا من بلنسية .

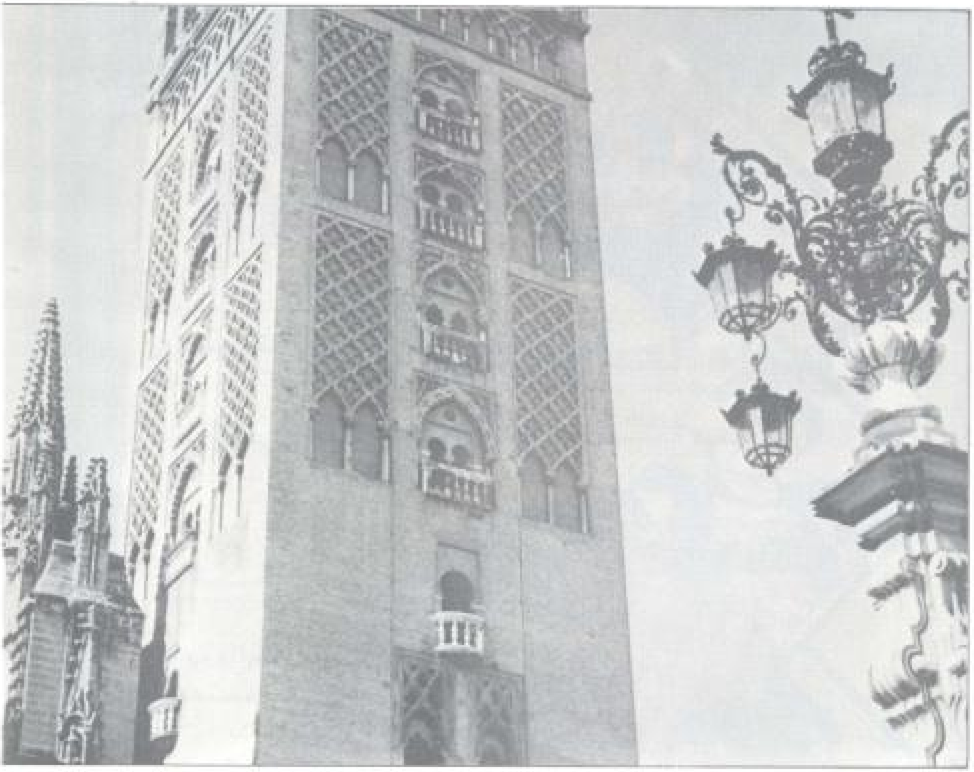

زخرفة بتشكيلات عربية تقليدية

وقد صنع هؤلاء الفنانون جميع بطائن السقوف التي كانت تغطي حجر القصر . كما تذكر لنا المخطوطات ، وكان رئيس العمال في ذلك الحين سلامة السرقسطي ، ثم لوبي بربكانو الذي كان له معمله في تطيلة ثم نقله فيما بعد إلى ألبقي . ومن جهة أخرى ، عينّت الملكة ليونور العامل يوسف لتغطية سقف حجرتها . البلنسيون : وقد جاء محمد ، وأمير وعصمت الباني أيضا ليصنعوا آلافا من القيشاني للمصلى الملكي .

وفي عام ١٤١٣م انتقل المسلمان لوبي شيديت وابراهيم أبوتاي من تطيلة الى ألبقي ، لبناء فرن لصناعة القيشاني للقصر . وفي عام ١٤٠٥ عينّت الملكة ليونور المسلم التطيلي عز ليصنع حصائر أسل للبلاط وقد كلف التطيلي لوبي المرابط باحضار شجر الاترج من سرقسطة لحديقة الملك . وقد أدخل أيضا بعض المزروعات الجديدة مثل الزعفران .

كما بني جبًا وقنوات من الرصاص لتوزيع المياه موجودة حتى الآن ، وكذلك ساقية لرفع المياه من النهر إلى الجب ثم صنع العامل عوض الله بعض القنوات من الفخّار لري حديقة الملك في عام ١٤١٠ .

في بداية القرن التاسع عشر ، في أيام الغزو الفرنسي ، احترق هذا القصر ، فضاع كل ذلك الغنى الفنيّ التراثي ، وبقي جزء منه ، وهو بعض اللوحات المزخرفة التي تزيّن جدران حجرة صغيرة - « كغرفة السفراء » - في الطابق الأول من القصر .□

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

ديسمبر

١٩٨٨

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- يوم البحار (موضوع محلق)
- همام (قصة بالرسوم)
- الطائف .. "مدن لها تاريخ"
- إنهم يقاتلون بالحجارة "مسلسل تاريخي"
- عملاق الغابة "من أساطير الشعوب"

ألف ليلة وليلة (حكاية الأربعين زلعة)

إضافة للأبواب الثابتة

- إسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٣٣

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

المرأة الطوارقية

العراقة والأصالة

المرأة الطوارقية

العراقة والأصالة

بقلم : الدكتورة بثينة شعبان

قبيلة الطوارق التي تتركز غالبيتها في جنوب الجزائر ، لها شهرة تاريخية في نشر الاسلام بأفريقيا ، وفي حفاظها على عاداتها ، وقيمها ، وأنماط حياتها والمرأة في هذه القبيلة تتمتع بمكانة متميزة تحسدها عليها الكثيرات من نساء المجتمعات الأخرى الأكثر تقدما . فكيف حصلت عليها ، وعلى أي قيم تستند في ممارسة حقوقها داخل القبيلة ؟

كنت أعيش في الجزائر حين رأيت فلمين وثائقيين عن قبيلة الطوارق ، واسترعى انتباهي احتفاظ هذه القبيلة بعادات اجتماعية ، وتقاليد قانونية تعتبر أكثر تقدما ومنطقية من العادات التي تسود المجتمع الأكثر حداثة في شمال وشرق الجزائر ، ومما لفت انتباهي ، أن المرأة في هذه القبيلة تتمتع بمكانة مرموقة ، حيث تعتبر الأنوثة والأمومة ميزة انسانية رائعة تحسد عليها الأنثى ، والجدير بالذكر أن قبيلة الطوارق تنتشر في الجزائر والنيجر ومالي . ولكن العدد الأكبر من هذه القبيلة يتركز في جنوب الصحراء الجزائرية ، بمنطقة تمنراغست ، كما أن سلاطين وحكام هذه القبيلة اتخذوا دائما من جبال « الهقار » - جنوب الجزائر - مقرا لهم ، إضافة إلى هذا فإن الشرائح الاجتماعية العليا من هذه القبيلة المتمثلة بقبائل كل غلا ودك غالي اللتين تتمتعان بمركز مرموق بين الطوارق ، وتعتبران من أشرف وأغنى قبائلهم ، تتموضع في الجزائر ، ولهذا فان الحديث عن الطوارق في الجزائر يعطي الوجه الأصفى والنظرة الأشمل عن هذه القبيلة ككل .

منذ رأيت الفلمين الوثائقيين المذكورين آنفا عن الطوارق ، وأنا أخطط لزيارة المنطقة ، ولكن ولاية « تمنراغست » بعيدة حيث تقع في أقصى جنوب الجزائر ، ويفصل بينها وبين « قسنطينة » حيث كنت أعيش آلاف الأميال . واستمرت الرغبة قائمة والعجز عن تنفيذها مستمراً ، إلى أن قدر لي أن أزور المنطقة في مطلع عام ١٩٨٧ بدعوة من اتحاد الكتاب

الجزائريين وأعيش مع الطوارق لمدة اسبوعين أتعرف على نظام حياتهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

امرأة في قبيلة مختلفة

حين حطت الطائرة بنا في مطار «تمنراغست» كانت الشمس ـ ملكة الصحراء ـ تلقي نظرة الوداع الأخيرة على جبال « الهقار » الصخرية ، التي يتماوج عليها اللونان الأزرق والزهر في تناسق بديع . كما ظهر جبل كبير بين الجبال الصغيرة والغيوم تاركا العالم كله خلف هذا العالم الصحراوي السحري ، الذي بدا لي في ذلك الوقت من النهار نقيا صافيا قادرا على تنقية الروح البشرية وكشف جوهر الحياة لها .

في صباح نفس اليوم كنت قد غادرت مطار قسنطينة وتركت النساء هناك يلبسن الشادر الأسود ، ويغطين وجوهن بقطع بيضاء تاركات فقط أعينهن تنجو من تلك القطعة الثلاثية البيضاء ، وفي عصر اليوم ذاته وجدت نفسي أقف في مطار « تمنراغست » ـ مازلت في الجزائر طبعا ـ لأجد الرجال بدلاً من النساء ملثمين ، لم تك تلك لوحة من الجنوب الساحر ، ولا رسمة من العالم القديم ، ولكنه رجل بلحمه ودمه يقترب مني ، وقد غطى شعره ووجهه بشاش أبيض كبير تاركا عينيه فقط دون غطاء . وكانت تمشي الى جانبه امرأة تركت وجهها الأسمر الجميل يتنفس عطر الصحراء ، وهواء سمائها العليل . كانت هذه المفاجأة الأولى ، فاتحة مفاجآت شتى حملتها لي صحراء « تمنراغست » في تلك الزيارة القصيرة ، والغنية لجبال « الهقار » الوطن التاريخي لقبائل الطوارق .

ولشدة شوقي أن أبدأ الحديث مع هؤلاء النساء الطوارقيات اللواتي أثرن فضولي ، وجدت نفسي أختار السؤال الذي أكره سماعه موجهاً لأية امرأة كانت ، سواء كانت النساء مهندسات ، أو طبيبات ، أو مدرسات ، فإنهن يصنفن حسب حالتهن العائلية ـ متزوجات أو غير متزوجات ، أمهات أو عاقرات ، وهناك وجدت نفسي أتبنى هذا الموقف الشوفيني ، ربما لشعوري بأنه السؤال المتوقع ، وأسأل « تينا » ذات الستة والعشرين ربيعا ، هل أنت متزوجة ؟

لا ، ليس الآن ، أجابت « تينا » في لهجة لا مبالية ، ولكني تزوجت أربع مرات . شعرت بالدهشة الكبيرة من لهجتها العادية ، وإبتسامتها الساخرة التي رافقت جوابها ، وأخذني انفعال داخلي حين فكرت بعناء الزواج والطلاق من أربعة أشخاص ، وما يترتب على ذلك من آلام وحنقة مشاعر . وكأنها سبرت أعماقي وقدرت ما يجول بخاطري ، فاستأنفت قائلة ، معظم النساء الطوارقيات يتزوجن أربع أو خمس مرات ، نحن لا نرى شيئا غريبا في ذلك . وبعدئذ باشرت برواية قصتها التي تعد أنموذجا لحياة المرأة الطوارقية .

« تركت أمي المنزل وأنا في سن الرابعة لأنها أحبت رجلاً غير والدي ، تركتني مع أختين صغيرتين ، تحت رعاية أبي . ومع أن أمي استمرت تزورنا بانتظام ، إلا أنني افتقدتها كثيرا . أصبح أبي تعسا جدا لأنه افتقدها ايضا ، وكان يحبها ولكنه لم يمنعها

الرجال ملثمون
بدلا عن النساء

من فعل ما تريد . لقد قالت له بكل بساطة : إني أحب رجلا آخر ، فهل تقبل أن أعيش معك وقلبي مع غيرك ؟ كان عليه أن يجيب بلا . في نفس الوقت كان على والدي أن يتركنا لفترات طويلة أثناء سفره مع قوافل الصحراء للمتاجرة مع النيجر ومالي ، حيث كانوا يستبدلون الشيح والملح بالبشنة (نوع من القمح) والثياب . ولهذا كان قلقا علينا وقرر أن يزوجنا ويريح نفسه من مسؤوليتنا . وهكذا حين أصبحت في سن الرابعة عشرة بدأ يقنعني بالزواج من شاب يحبه ، لم أرد ذلك ومع أن والدي لم يجبرني ، إلا أنه استمر في محاولة اقناعي حتى استطاع أن يحصل على « نعم مكرهة » مني . وعلى كل حال فقد قضيت ليلة واحدة مع هذا الزوج ، وبطبيعة الحال لم أغادر بيت أبي . فنحن النساء في قبيلة الطوارق ، نقضي العام الأول من زواجنا في بيوت امهاتنا (وقالت امهاتنا وليس آبائنا) ، ليكون لدينا الوقت الكافي لصنع الخيام والجلد والصوف ، ولنعدّ انفسنا بشكل كامل من اجل الحياة الزوجية . كل النساء الطوارقيات تقريبا يلدن مولودهن الاول في بيت امهاتهن ، ونسبة كبيرة منهن لا تغادر بيت الأم لأنها غالبا تحصل على طلاق قبل انقضاء العام الأول . والسبب الرئيسي لذلك ، هو أن الأب والأم يتدخلان في الزواج الأول ، ولكن ليس لهما حق التدخل في الزواج الثاني أو الثالث . يبرر الأهلون هذا ، بأن الفتاة العازبة لا تمتلك الخبرة والحنكة في اختيار الزوج ، وليس لديها التجربة ، ولكن بعد زواجها الاول بإمكانها اختيار زوجها بنفسها . ولهذا فان معظم النساء الطوارقيات ، يعتبرن الزواج الأول ضروريا للتخلص من سلطة العائلة . ومن ثم اختيار الزوج الذي يشتهين في زواجهن الثاني .

إن اجراءات الزواج والطلاق سهلة جدا ، قالت احداهن « نحن لا نسجل زيجاتنا في مكاتب حكومية كل ماعليك فعله هو أخذ أربعة شهود وزيارة الطالب (شيخ القبيلة المحلي) وان تعلني في حضوره زواجك لفلان أو طلاقك من فلان » .

عندما تدخل الفتاة عالم الكبار

في اليوم التالي سافرت مع زوجين أنيقين جميلين جمالا بدويا أصيلا ، إلى قرية طوارقية تضم ـ كما قيل لي ـ أعرق وأشرف قبائل الطوارق ، « كل غلا ودك غالي » توقفت السيارة بنا في القرية التي ضمت حوالي ٢٠ بيتا من القش ، ٢٠ من الطين ، وبضعة بيوت من الاسمنت المسلح . وحالما نزلت ومرافقيّ من السيارة ، تدفق كل رجال ونساء وأطفال القرية إلى البقعة التي وقفنا بها . اتخذت المبادرة امرأة عجوز ودعتنا إلى بيتها ، والجميع سار وراءنا ، متفقين على اختيار بيت هذه المرأة العجوز لاستضافتنا . لم نكن وحدنا المدعوين ، اذ تبعتنا القرية بأكملها . كان البيت مصنوعا من الاسمنت ، ولكن الغرف مفروشة بالرمل ، تناولت مضيفتنا السجاد الأحمر الملفوف في ركن الغرفة ، فرشته على الأرض ودعتنا للجلوس . ولكني لاحظت أن معظم الحضور أزاحوا السجادة جانبا وجلسوا على الرمل يمسدون أقدامهم بالرمل الحار الناعم . انقسم الرجال والنساء إلى دوائر ثلاث ، حددها تقارب السن ، احد مرافقنا من « تمنراغست » والذي بدا صديقا جيدا للعائلة ، احضر عدة الشاي ، أشعل الغاز الصغير في زاوية من زوايا الغرفة وبدأ يعد الشاي لنا . بعد حوالي عشر دقائق من وصولنا ، أحضر رجل متوسط العمر إناء نحاسيا بديعا ومعه ابريق نحاسي جميل ، ودعانا لغسل أيدينا فوق هذا الاناء المصنوع خصيصا لهذا الغرض . وبعد حوالي ساعة ، أدخلت امرأة متوسطة السن صينية من التمر وسطلا من لبن العيران ، ودعت الجميع لأكل التمر وشرب اللبن .

كانت مضيفتنا امرأة كبيرة السن ، رشيقة الجسم ، منتصبة القوام ، يفصح مرحها وابتسامتها عن ثقة بالنفس . كانت من قبيلة مثقفة ومحترمة « كل غلا » ـ وتكلمت العربية بفصاحة . وحين بدأت بمخاطبتها ـ سيدتي العجوز ـ وطلبت منها أن تروي

لي قصة حياتها ، قالت : دعينا نتفق أولا أنني لست عجوزا ـ كانت في السبعين ـ لأني أشعر الآن بقوة شبابي ، وآمل أن أعيش سنين كثيرة ، بينما قالت ذلك أمسكت كلتا يدي بين يديها بود وحنان ، وأضافت : وهذا يدعك في مصاف الأطفال فلا تحزني واستمتعي بهذه الحياة قدر امكانك . لقد شعرت بالحسد والغيرة من حماسها وحيويتها . ثم استأنفت : أيتها الفتاة الشابة ، إن أول يوم أتذكره بحب وحنان في حياتي هو يوم بلوغي . كان ذلك دون شك أسعد أيام حياتي . جرت العادة بين قبائل الطوارق على الاحتفال ببلوغ الفتيات . وهكذا حين اخبرت امي ببلوغي ، ارسلت رسائل سريعة إلى زعيمات القبيلة تزف لهن الخبر السعيد وتحدد موعدا لإقامة حفلة « التندى » (التندى عبارة عن حفلة كبيرة حيث تظهر النساء الطوارقيات في أجمل لباسهن وحليهن يغنين ويعزفن الموسيقا ، ويشكلن دائرة تجلس في وسطها فتاتان تدقان على الطبل وتغنيان . وكل النساء الأخريات يُصفقن ويُرددن وراءهما ، بينما يعتلي الرجال جمالهم وهم في أجمل ملابسهم ، ويرقصون رقصة الجمل) . في ذلك اليوم السعيد لبست أجمل ملابسي ، وفضتي ، وكنت نجمة حفلة تندى كبيرة ، حيث أهداني الرجال الثياب والجلد والفضة ، لا أزال أتذكركم شعرت بالسعادة لكوني ولدت امرأة . واستمتعت بالحب والاهتمام الذي أولاه المجتمع لي لكوني وصلت سن البلوغ . انظري إلى تلك الفتاة على سبيل المثال ، لم تصل سن البلوغ لأنها لا تلبس الحلي والزينة ، إن نساء الطوارق يتزيّنّ ويلبسن الحلي فقط بعد وصولهن سن البلوغ .

إن وصول المرأة سن البلوغ في قبيلة الطوارق يعتبر مناسبة سعيدة لها . علقت ـ بتساؤل مشوب ببعض الاستغراب ـ ، ولكنها مناسبة أسعد للرجال ، أجابت المرأة العجوز الذكية ، لأن امرأة أخرى اضيفت إلى قائمة النساء المؤهلات للزواج . وبعد الحفلة شعرت انني دخلت عالم الكبار الساحر .

كان من الجميل أن أشعر أن قلبي يكبر ، وأنه بامكاني احتضان قلب آخر وشخص آخر . وقبل مضي وقت طويل بدأت علاقة حب مع زوجي ، الذي ترينه هناك (اشارت إلى رجل في السبعين تبدو على تقاسيمه الراحة والاطمئنان) واستمرت علاقتنا هذه سبع سنوات ختمناها بالزواج والعيش السعيد معا منذ ذلك اليوم . ليس من النادر أن تجدي مثل هذه العلاقة في قبائل الطوارق ، بل إن مثل هذه العلاقة هي القاعدة ، وليست الاستثناء . معظم الشبان يعيشون علاقات غرامية تستمر سنوات قبل أن تتوج بالزواج .

كل القلوب الشابة تقع في المصيدة

وجدت نفسي أسألها : وهل يعلم الآباء عادة بمثل هذه العلاقة ؟

ـ بالطبع خاصة الأم التي تخبرها ابنتها بآخر التطورات دائما . والحب شيء لايمكن اخفاؤه ، القبيلة كلها تعلم بمثل هذه العلاقة ، التي تعتبر عادية وطبيعية تماما ، كما يعتبر الزواج عاديا وطبيعيا . كل

القلوب الشابة تقع في المصيدة ، فإما أن يكون الحب أبديا ودائما ، وإما أن يكون عابرا .

وسألتها : وهل ينطبق هذا على علاقتك الشخصية التي عشتها مع زوجك ؟

بالتأكيد ، لقد كنت سعيدة جدا خلال علاقتي بزوجي قبل الزواج منه والتي استمرت سبع سنوات وإلى الآن ، وأنا في عمر السبعين ، ما زلت أعشقه بنفس الحرارة التي شعرت بها خلال تلك الفترة الغالية من حياتنا .

في هذه اللحظة أدخلت احدى النسوة ثلاثة صحون كبيرة من السودا المشوية (الكبدة) كان عليّ أن آكل واحدة على الأقل . وإلا أكون تجاوزت حدود الأدب والتصرف الاجتماعي اللائق ، تناولت واحدة ، كانت كل القطع مشكوكة بعيدان صغيرة مقتطعة من سعف النخل ، وكل قطعة سودا ملفوفة بطبقة رقيقة من الدهن ، حفظت (السودا) من الجفاف . وبهذا بدت السودا رطبة ومشوية جيدا ولذيذة . وحين تذوقتها وجدتها أطيب سودا تذوقتها في حياتي وأكلت منها كلما قدمت لي خلال زياراتي لقبائل الطوارق المختلفة .

بينما جلس معظم الناس يأكلون رأيت امرأة عجوزا تجلس في احدى زوايا الغرفة وتعزف الموسيقا على « الامزاد » ـ آلة موسيقية طوارقية تشبه العود ـ ، تعزف عليها النساء الطوارقيات فقط . وسط هذا الجو المرح والحميم ، استمرت مضيفتي تخبرني عن تعطشها للحب والحياة وانها كامرأة طوارقية لا تشكو من أي شيء في حياتها ولا يمكن لها أن تتخيل رغبتها في أن تكون في اي مكان آخر ، أو أن تنتمي لأية قبيلة أخرى . لاتريد أن تكون أي شيء سوى امرأة طوارقية .

بعد السودا ، أحضرت النسوة ثلاث صوان كبيرة من العيش (يشبه البرغل لكنه أنعم وأطيب وأخف) ، وثلاث صوان أعمق من اللحمة والخضر ، كوجبة أساسية . استدار الجميع حول مراكز الطعام الثلاثة ، وغرس كل ملعقته أمامه ، كما أخذ كل قطعة لحم وقطعة خضر . وحالما أنهى كلٌّ غذاءه اسرع « أحد » إلى الغاز الصغير وبدأ بإعداد الشاي . وبينما كانت النسوة تعدّ الغداء كانت مضيفتي تتحدث الي ولم تذهب وتلق نظرة على ما يطبخن ، أو يعددن في بيتها ، وكان البيت للجميع ، إذ لم يكن هناك ضيف ومضيف . لم أسمعها تدعو أحداً للبقاء وتناول طعام الغداء ، ولكن أحدا لم يغادر وكأن تناول الغداء في هذا البيت هو الشيء الطبيعي للجميع . ولكن ما أذهلني هو قلة طعام الجميع ، إذ لم يأكل أي منهم اكثر من بضع لقيمات ، حينئذ فقط اكتشفت كيف استطاع رجال الطوارق المحافظة على أجسامهم الرشيقة النحيفة ، إذ أن السمنة غير معروفة اطلاقا بين رجال الطوارق ، فكلهم نحاف الجسم رشيقو القد منتصبو القوام . من الممكن أن نجد امرأة طوارقية ممتلئة ، ولكن من الصعب جدا رؤية رجل طوارقي يميل الى البدانة . حين سألت مضيفتي عن نظامهم الغذائي ، قالت : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع » وبالنسبة لرشاقة الرجال ، فان الطوارق يعتقدون أن البدانة سيئة جدا للرجال ، حيث يمكن لجسم المرأة التعامل مع الشحوم ولكن الشحوم تؤذي الرجل ، وتؤثر سلبيا على صحته ، ولهذا فان جميع رجالنا يحافظون على رشاقة أجسامهم .

من يجرؤ على ضرب المرأة ؟

في قرية « اوتول » ـ قرية طوارقية اخرى ـ خرجت النساء لاستقبالنا مرتديات أفضل ثيابهن وفضتهن ، والماكياج التقليدي ، ذو اللون الأزرق ، حيث تستخدم النساء الطوارقيات اللون الأزرق لصباغة شفاههن ، وخدودهن ، وفوق أعينهن .

وهذا الصباغ مصنوع من النباتات الطبيعية ، وحين استرعى انتباهي امرأة خارقة الجمال ، حاولت التودد إليها وسؤالها بضعة أسئلة عامة . حين بدأت تحدثني بدت لي أكثر روعة وجمالا من ذي قبل،وبعد تناول

الرجال يرقصون رقصة الجمل
في حفل بلوغ فتاة

اللبن والتمر انسحبت واياها إلى زاوية واستمعت إلى قصة حياتها .

بدأت باطلاق زفرة من الأعماق : كانت حياتي قاسية حقا ، ومع أني لا أبدو كبيرة في السن ، أشعر وكأني عشت مائة سنة ، لقد مات والدي وأنا في السنة الاولى من عمري تاركا أمي ، وأختي الكبرى ، وأنا . وحين بلغنا ، وتبين أننا فتاتان جميلتان ، بدا على أمي القلق وبدأت محاولاتها لزجنا في زيجات مبكرة والتخلص من مسؤوليتنا . وهكذا زوجتني لرجل يكبرني بثلاثين عاما وأنا في الرابعة عشرة من عمري . لم تكن لدي أية فكرة ، ماذا كان يعتري حياتي . كل ما عرفته هو أنني كرهت الرجل جدا . عشت معه سنتين بائستين ، ما زلت أحلم بكوابيس تلك الفترة . أتساءل أحيانا ، لماذا بقيت معه كل تلك الفترة والطلاق في قبيلتنا على ما هو عليه من السهولة . كنت صغيرة جداً وببساطة لم أعلم ماذا كنت أفعل ، فجأة غادرت المنزل مع طفل عمره أربعون يوما ولم أنظر في ذلك الاتجاه ثانية .

ـ لماذا كرهتيه لهذه الدرجة ، هل كان عنيفا معك ؟

قط ، مطلقا ، ولكني لم أتحمل رؤية وجهه مرتين في اليوم الواحد ، كان أنانيا سكيرا غير مبال اطلاقا بحاجاتي وحياتي ، وكانت الحياة معه مجرد جحيم .

ـ هل كان يضربك ؟

ـ يضربني ، وصرخت صرخة استنكار ، يا الهي طبعا لا ، وكيف يضربني ؟ وقاطعتها امرأة عجوز كانت تجلس قربها تسترق السمع الى محادثتنا : لا يوجد أي رجل طوارقي يضرب زوجته ، لقد سمعت مرة برجل طوارقي اجتاحته موجة غضب حارة وضرب زوجته كفا على خدها ، فشكته إلى الطالب ـ شيخ القبيلة المحلي ـ الذي جعله يدفع لها عنزة كتعويض ويوقع تعهداً بأنه إذا وضع يدا عليها ثانية سيكون الطلاق النتيجة الفورية لتصرفه . لا تتحمل المرأة الطوارقية الإهانة أو الضرب اطلاقا ، هذا شيء غير معروف في قبائلنا . وقد سمعنا بذلك

فقط حين بدأنا الاحتكاك بالحضر وأهل المدن ، ولو حدث وضرب أي رجل طوارقي زوجته لأى سبب كان فإن القبيلة بأكملها ستحتقره إلى درجة يضطر معها للهجرة وايجاد موطن آخر لا يعرفه .

حقوق للمرأة الطوارقية

واستأنفت المرأة العجوز : « كانت أمي تحدثني بأنها إذا اعدت الغذاء لوالدي كان لها الحق أن تطالبه بتعويض . أما إذا طالبها هو بإعداد غذائه فلها الحق أن تشكيه للطالب . ومرة فعلت ذلك فأحضر الطالب والدي ونبهه بأنها زوجته وليست خادمته . وليس من واجبها اعداد الطعام له . والآن على كل حال يتقاسم الرجال والنساء الطبخ والعمل في الحقل والاهتمام بالإبل ، فالرجل يعجن ويخبز الكسرى ، ويعد الشاى دائما ، بينما تعد المرأة الحليب واللبن والخضر . وعلّقت المرأة الشابة الجميلة « بأن جداتنا وأمهاتنا استمتعن بموقع أفضل من الموقع الذي نتمتع نحن به اليوم نتيجة احتكاكنا بالحضر الذين يتركون أثرا سيئا على رجالنا » .

استأذنت من فاطمة والمرأة العجوز واستدرت إلى امرأة أخرى اسألها ما إذا كان تعدد الزوجات معروفا عند الطوارق .

مع أن تعدد الزوجات مسموح به في القرآن الكريم ، ومع أننا مسلمون نؤمن بالقرآن كتاب الله فاني لا أعتقد بوجود امرأة طوارقية تقبل الزواج من رجل متزوج ولا توجد امرأة طوارقية تقبل العيش مع زوجها إذا علمت أنه يعشق غيرها . وفي الحقيقة فان

تفضل المرأة الطوارقية أن تجوع لتوفر مبلغا من النقود تشترى به الملابس المزخرفة والحلي

القبائل المحترمة مثل قبيلتي « كل غلا » ، « ودك غالي » لا تعرفان تعدد الزوجات مطلقا . وربما وجدت بشكل نادر في القبائل الأقل مركزا وسمعة ولكني شخصيا لم أر في حياتي رجلا طوارقيا متزوجا من امرأتين ، حتى الرجال الذين تصاب نساؤهم بأمراض مزمنة أو الذين لا يرزقون اطفالا من نسائهم ، فلهم الخيار أن يطلقوا نساءهم أو يستمروا في حياتهم معهن ولكن من غير المعقول الاحتفاظ بالمرأة الأولى ، والزواج بثانية في نفس الوقت . وبالفعل فقد رأيت رجالا طاعنين في السن لم يرزقوا اولادا من زوجاتهم ولم يطلبوا الطلاق أو الزواج من امرأة أخرى .

ـ وهل تعتبر إجراءات الطلاق سهلة ؟

ـ جدا ، اذا لم تحبي الرجل فكل ما عليك هو أن تلبسي نعالك وتغادري . وبعدئذ بامكانك أخذ الشهود معك واخبار الطالب بقرارك . وهنا رجعت الينا فاطمة لتروي لي قصة طلاقها . حين طلقت زوجي ، اقامت لي والدتي حفلة تندى تعادل حفلة زفافي . اذ أن العادة بين الطوارق تقضي بالاحتفال بطلاق المرأة تماما كما يحتفل بزفافها . أرسلت والدتي الأخبار لجميع النساء المسؤولات في القبائل المجاورة تخبرهن بطلاقي من زوجي ، وتعين موعدا للاحتفال بهذا الطلاق . وفي اليوم المحدد لبست أجمل ملابسي وأزهى فضتي ، وكنت نجمة حفلة تندى كبيرة تضاهي أي حفل زفاف ، وقدمت لي الهدايا والفضة ـ والعادة بين الطوارق تقضي بألا تأخذ المرأة المطلقة أيا من هذه الهدايا معها إلى بيتها ، بل يجب أن توزعها على الفقراء . معظم الهدايا تقدم من الرجال الذين يرغبون بالزواج من هذه المرأة المطلقة . وفي حفلة طلاقي احضر لي الرجال أثمن الهدايا ، فقد أحضروا لي جملين ، أعطيت أحدهما للحرفيين الذين لا يملكون الارض أو الجمال ، وأعطيت الثاني إلى عائلة محتاجة . في هذه الحفلة يتودد الرجال من المطلقة ثم يتقدمون لخطبتها فيما بعد . كل ما هنالك أن التعاليم الدينية تقضي بأن تنتظر المرأة المطلقة مائة يوم قبل الزواج ثانية . وذلك كي يتم تحديد أب الطفل في حال كون المرأة حاملا .

بعد تلك الحفلة تقدم لخطبتي اربعة رجال وطلبوا مني أن اختار احدهم ، واخترت الرجل الذي كنت آلفه اكثر من غيره في ذلك الوقت ، وأنا سعيدة باختياري ذاك . انه زوجي الحالي ، وقد احتفلنا منذ فترة قصيرة بعيد زواجنا الخامس عشر . لقد قضيت وقتا سعيدا معه وأسفي الوحيد أنني لم أنجب له أطفالا مع أنني أنجبت طفلا لزوجي السابق ، ولكنه لا يذكر الأولاد ابدا ، ويحاول أن لا يتحدث بالموضوع اطلاقا .

رفيقات درب

كنا نتابع معا برامج التلفزيون الجزائري حين سألت احداهن عن رغبتها في استبدال حياتها بحياة امرأة عصرية فقالت « اني سعيدة جدا كامرأة طوارقية ولكن حين أرى النساء مدرسات وطبيبات ومهندسات ، أتمنى لو أن حياتي منحتني نفس الفرصة لأختبر طاقاتي وقدراتي . إني آسفة لأني لم أذهب إلى المدرسة حيث لم يكن هناك مدارس على الاطلاق في ولاية « تمنراغست » قبل استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ . علمتنا امهاتنا أن نكتب (التيفينار) ـ اللغة المكتوبة للطوارق ـ ، وأن نتكلم الطوارقية ، ولكن هذه ليست اللغة القومية ، وليست لغة الثقافة ، إذ لا توجد كتب مكتوبة بلغة « التيفينار » فقط نراها مكتوبة على الحجارة ومعظم ما كتب عبارة عن رسائل حب بين العشاق المتباعدين ، ولهذا فإن تعلم « التفينار » لن يوصلنا إلى أي موقع هام .

وهكذا فاني أتمنى أن تحتفظ المرأة الطوارقية بتراثها وعاداتها وتقاليدها وتذهب إلى المدرسة والجامعة وتصبح صاحبة مهنة .

سألتها كيف تقارنين موقعك كامرأة مع موقع المرأة الاوربية ؟

قالت : في العشرين سنة الاخيرة أصبحت منطقتنا « تمنراغست » منطقة سياحية حيث يأتي

نساء طوارقيات بأزيائهن
صارخة الالوان

سياح من فرنسا والمانيا لقضاء عطلهم السنوية هنا ، كما أن أخي متزوج من امرأة فرنسية ، وأنا شخصيا قضيت ثلاثة أشهر في باريس أتعالج من أجل قضية الانجاب . لقد صعقت فعلا حين اكتشفت الذعر الذي تعيشه النساء الاوروبيات من « الاغتصاب » وحين عرفت كم من النساء فعلا يعتدى عليهن وكم من هؤلاء يحاولن الانتحار . كل ذلك كان مخيفا جدا بالنسبة لي ، لأنه في جوهره تعبير عن نظرة دونية للمرأة أو اعتبارها جسدا ضعيفا لا حول له ولا قوة . لا تشعر النساء في قبيلتي بأنهن جسد فقط ، ولكنهن يملكن احترام الرجال كرفيقات درب وشريكات حياة . إن الاغتصاب غير معروف أو مسموح به قطعا في قبيلتنا . إنه معيب ومخيف ولا أعلم كيف يتحمل أي مجتمع في العالم مثل هذه الخزي ، خاصة المجتمعات التي تدعي أنها متقدمة ومتحضرة .

وكذلك اكتشفت خلال اقامتي في باريس بأن هناك أمكنة ومجتمعات للنساء اللواتي يضربن من قبل رجالهن ، كيف يمكن لي أن أصدق أنه في باريس « العاصمة الاوربية » يضرب الرجل زوجته ، رغم التقدم الكبير الذي أحرزته المرأة في مجالات اخرى . كم تتحمل النساء هناك ، وما أبسط ما أنجزته بالنسبة لانتزاع حقوقهن الأساسية . أعتقد أن أهم حق للمرأة هو أن تشعر أنها انسانة حرة ، مساوية للرجل في كل ميدان من ميادين الحياة دون أن تكون أنوثتها لعنة أو ميزة .

جدتنا العظيمة

إن المرأة الطوارقية تتميز عن الرجل بكثير من الحقوق ، ولكن هذا التميز ليس نتيجة النظرة للمرأة كجنس بل نتيجة تراث راسخ ، واحترام عميق لدور المرأة الأم في المجتمع . إن الأمومة شيء مقدس في مجتمعنا ، وقد بدأت قبيلة الطوارق من جدتنا العظيمة « تين هينان » التي يعتقد انها المؤسسة الاولى لقبائل الطوارق ، يعتقد الطوارق أن الامهات يجسدن التاريخ ، الثقافة والقيم والاخلاق . لدينا مثل يقول « اذا أردت أن تعرف حضارة قوم حاول أن تتعرف على موقع المرأة هناك » . وهكذا فموقعنا في هذه القبيلة ينبع من كوننا نتمتع بالحقوق الكاملة والمساواة وليس من كوننا « إناثاً » فقط . وفي قبائلنا أيضا نعطي الأهمية الاولى لأصل الأم وليس لأصل الاب . فالرجل الذي تنتمي أمه إلى قبيلة محترمة على سبيل المثال ، يمكن له احراز موقع هام في حكم جبال « الهقار » حتى وان كان والده غير معروف الأصل ، ولكن الرجل الذي لا يعرف أصل أمه لا يمكن له أن يتقلد زمام السلطة في هذه القبيلة حتى وإن كان والده ينتمي إلى أشرف العوائل الطوارقية . ولهذا فاني - كامرأة طوارقية - لا أطمح إلى استبدال موقعي مع أية امرأة اخرى ، ولكني أتمنى أن أرى الفتيات الطوارقيات الشابات يلتحقن بالمدارس ويصبحن مثقفات ومهنيات دون أن يتخلين عما ورثنه من حقوق ومزايا وعادات تضعهن على قدم المساواة مع الرجال أو في مواقع متقدمة على الرجال احيانا .

والحق يقال فقد وجدت في المجتمع الطوارقي أنموذجا متميزا لتحرر النساء الذي وان استمد منطقه ودوافعه بشكل مباشر من الاسلام ، من القرآن والسنة ، فانه لم يبهر هذه المفاهيم الاسلامية الحقة بنظرة ذكورية تضع المرأة في موقع دوني . وجدت مجتمعا مسلما لا تعتبر المرأة فيه أقل من الرجال على الاطلاق ، وحيث يعتبر الانجاب انجازا تحسد عليه المرأة بدلا من اعتباره عائقا في طريق تطورها وابداعها ، وحيث تعتبر الأمومة مجدا بدلاً من اعتبارها سببا للعجز والاهانة . إن الحب الانساني الحقيقي والقيم الاخلاقية العالية التي يتحلى بها بدو الطوارق الذين يعيشون في خيام وبيوت من الطين دفعتني أن اكون أكثر كرها للتميز العنصري العرقي والجنسي مما كنت عليه من قبل . إن الطوارق بسطاء وبدائيون في معظم أوجه حياتهم ، ولكنهم فيما يخص شأن المرأة وشؤونا أخرى كثيرة ، يتمتعون بموقف حضاري راق يمكن للعالم الذي يدعي الحضارة أن يتعلم منه أشياء جد مفيدة . □

هو.. هي

مساواة

نصحته كثيرا ، ولفت نظره أكثر إلى أهمية مراعاة الظهور بمظهر لائق أمامي وأمام الأولاد في البيت ، وخاصة أثناء أيام العطل والاجازات والأعياد . انه يتصرف في البيت وكأنني أصبحت « شيئا » من الأشياء فيه .

عندما لمست الاصرار والتعنت في تصرفاته انفجرت بوجهه قائلة : مثلما للآخرين حق المظهر فيك ، فإن لنا نفس الحق ، إنك بذلك تحيل حياتنا إلى رتابة قاتلة ، وإلى صورة متكررة غير متغيرة ، وإلى قدوة غير مناسبة .

لا تنس أن اولادك وبناتك قد أخذوا يكبرون ، وعليك أن تكون دائما قدوتهم ومثلهم الأعلى .

كان يجيب ببرود أعصاب : وهل مظهري في البيت هو أساس هذه القدوة ؟ إنني أعطيهم مثل جوهر القدوة وليس مظهره .

وكنت أجيبه حانقة : هل هي لعبة جديدة تشبه ما يسمى في الأدب « الشكل والمضمون » ؟ إن لنا حقوقا عليك يارجل ، فلا « تفلسف » الأمور كثيراً .

وكان يجيب : وهل قصرت في شيء ؟ إنني منذ أن تزوجتك وأنا أقوم بواجباتي على أكمل وجه ، وإن قصرت في شيء فإن ذلك لأمر خارج عن إرادتي .

كان يغيظني جوابه وبروده أيضاً ، فأضطر الى « بق البحصة » ، وأتحدث بصراحة فأقول : هل ترى من العدل والإنصاف أن تكون في أبهى مظهرك في الخارج ، بين الآخرين والأخريات ، وأن تكون غير ذلك في بيتك يا رجل ؟ إن زواجنا الذي مضى عليه ما يزيد على العشر سنوات لا يعطيك حقاً في أن تهملنا وتهمل مظهرك وهندامك .

إلا أنه كان يصيح : حتى أنت لا ترحمينني ؟ إنني أمارس في بيتي بعض ما أفتقر إليه خارجه ، إنك لا تدركين أهمية أن يتصرف الانسان على سجيته دون افتعال أو إجبار .

كنت أقطع عليه كلامه واسطوانته المتكررة ، فأقول : وهل حرمناك من كل ذلك يارجل ؟ نحن نطالب بالمساواة فقط ، مساواة مظهرك لدينا بما يكون عليه في الخارج ، والا فإن الشكوك ستثور في نفسي ، وسيلعب الفأر في « عبي » كما يقولون !

هي..

واحـة صغـيرة

يركب رأسها الاصرار في كثير من الأحيان بأن عدم حلاقتي ذقني أو تغيير ملابسي ، والبقاء بالملابس البيتية والارتخاء والتمدد أثناء أيام العطلة الأسبوعية ، هي أمور القصد منها إهانتها ، وعدم الاهتمام بها !

كانت تقول : إنك تقصد عدم الظهور بمظهر لائق ، أو على الأصح عدم الاهتمام بمظهرك كما يجب ، كما أراك تفعل وتتزيا عندما تكون مهيئا نفسك للذهاب إلى العمل !

بل كانت تخرج عن طورها وتصيح : ألا أستحق منك مظهراً لائقاً ، وثياباً جديدة أثناء عطلتك ؟ وهل الذين تقابلهم في الخارج أفضل مني وأهم ؟

كنت أهدىء غضبها ، وأشرح بهدوء : لا يذهب بك الظن بعيداً يا ابنة الحلال ، إنني أحتاج إلى واحة التقاط أنفاس من حمأة العمل الاسبوعي ، إنني أعيد لنفسي سجيتها وحريتها وتصرفها العفوي غير المجبر أثناء ساعات العطل الاسبوعية وأيامها ، إن الوظيفة والعالم الخارجي يفرضان علينا مظهراً معيناً ، ويمارسان علينا الاجبار المادى ، والمعنوى . تصورى ياابنة الحلال موظفاً غير لائق الهندام في وظيفته ، أو أن ذقنه غير مهذب أو مشذب .

فترد عليّ : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تبيح لنفسك هذه الأمور في البيت عندي أنا ؟ ألا أستحق أنا ما تستحقه الوظيفة وموظفو الوظيفة وموظفاتها ؟

وكنت أرد كابتا غضبي وحنقي : لماذا الغمز واللمز ياابنة الحلال ؟ إن ما تغمزين به غير وارد أبداً في تفكيري ، فالبيت واحة الأمان ، ومساحة الحرية الصغيرة ، وأنت الحارس ، أنت الشريكة التي أطلعك على خفاياي ، أنت بيت أسراري ، لذلك فإنني لا أحتاج في هذا البيت إلى قناع أو مساحيق .

كانت تقتنع - أحيانا - بما أقول وأبرر ، وفي أحيان أخرى كانت تعيد الاسطوانة مرة أخرى ، فأستعين بصبري وجلدي - أو ببقاياهما - مرة أخرى لأدافع عن المساحة الصغيرة التي أجد أن من حقي التصرف فيها على سجيتي وانطلاقي ، وأن أظهر فيها بأي مظهر أو أي شكل عليه أكون . □

.. هو

طبيب الأسرة

قضايا منزلية

البيض

في ميزان التغذية

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

الجدل الوظائفي العقيم حول أولوية الوجود هل هو للدجاجة أم للبيضة ، لا يشغل بال العلماء ، ولا يستحوذ على أي جزء من تفكيرهم الجاد ، لكنهم جميعا يميلون إلى القناعة بأن موطن الدجاج الأول هو الهند . ولعل أولى رحلات الدجاج من موطنه كانت إلى الصين ، جارة الهند ، حيث وجد المنقبون هناك آثارا مكتوبة تشير إلى معرفة أهل الصين بالدجاج منذ ٣٥٠٠ عام .

يعتقد هؤلاء العلماء المهتمون بشؤون الحيوان وشؤون التغذية أن الحاجة الماسة إلى الطعام ، هي التى دفعت إنسان الغابة الأول إلى أن يسطو على أعشاش الطيور ليسرق بيضها ، وخاصة بيض الدجاج . ومن هنا عُرف أكل البيض نيئا في بادىء الأمر ، ثم مطهيا فيما بعد ، عقب اكتشافه إيقاد النار .

وبيض الدجاج هو الأكثر شيوعا بين الناس ، لكننا نسمع عن أقوام تحب بيض البط والاوز ، أو عن أقوام يشتهون بيض النعام أو التماسيح .

كما نسمع بشهرة بيض السمك المعروف باسم « الكافيار » . وهكذا اختلف الناس كما اختلفت أمزجتهم في تناوله ، فبعضهم يحبه طازجا ، وبعضهم يحبه مخللا ، بل إن آخرين يستهويهم البيض الفاسد أو الذى كاد يفقس . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

بيضة الدجاجة يتراوح وزنها بين ٥٥ إلى ٦٠ غراما ، تتكون من قطاعين هما : بياض البيضة الخارجي ، المعروف باسم الاح ، وصفار البيضة ، ويعرف باسم المح .

لكن أهم ما في البيضة ماتحتوى عليه من الزلال (أو البروتين) والدهون والأملاح ووفرة فيتامين (أ) ، وهذه جميعها مفيدة ، قابلة للهضم ، وتلبي حاجة الجسم النامي .

وهذا يعني أن البيض غذاء من أغذية البناء اللازم للصغار أكثر منه للكبار ، بل إنه قد يكون ضارا لكبار السن ومرضى ضغط الدم المرتفع وتصلب

الشرايين ، لوفرة مايحويه صفار البيض من الكوليسترول وثلاثيات الجلسرين المتوافرة في دهن البيض .

إن محتوى البيضة يتراكم ويتجمع على مدى شهر داخل جسم الدجاجة فيما تتكون قشرتها في اليوم السابق لإطلاقها .

من المؤكد أن القيمة الغذائية ترتبط ارتباطا وثيقا بعمر البيض ، لهذا يحرص الناس على شراء البيض الطازج واستهلاكه ، نظرا لارتفاع قيمته الغذائية ، ولطعمه المحبب ونكهته المرغوبة .

والفرق بين هذا وذاك هو أن البيضة الطازجة تتميز بوجود فراغ هوائي لايزيد عن ثلاثة أرباع البوصة المكعبة أو ربما أقل من ذلك ، كما أن الصفار فيها جامد لاتشوبه بقع ولا دم ، كما أن البياض رائق لاعكر فيه ولا لون .

وقشرة البيضة الطازجة خشنة ، لو نظرت خلالها في ضوء الشمس أو أي شعاع قوي فستجدها رائعة لاتشوبها بقعة ما ولا ظلال .

أمراض قد ينقلها البيض :

لايمكن لصورة العملة أن تكتمل إلا إذا نظر الانسان إلى وجهيها ، وإذا كنا قد عرضنا لتاريخ البيض ، وتحدثنا عن عراقته ، وتناولنا قيمته الغذائية وفوائده ، وأغفلنا احتمالات الضرر وخطر المرض الذي قد ينقله البيض أو يسببه فإن الصورة تكون منقوصة متحيزة غير صادقة ، لهذا كان من أمانة الحديث وصدق القول أن نعرض للجانب القاتم من قضية البيض وهو جانب المرض .

تلك الأمراض التي ينقلها البيض أو يتسبب فيها ليست كثيرة ، لكنها تستحق منا النظر والتبصر والاحتراس ، حتى لايقع أحدنا في براثنها يوما أو يتردى في مزالقها ، وهذه القضية نوجزها على النحو التالي :

١ ـ الحساسية من البيض :

بعض الناس لديهم استعداد فطري للحساسية من أحد مكونات البيض ، وبخاصة زلاله ، وهذا أمر تكشفه الصدفة والملاحظة ، ولا علاج له سوى البعد عن تناول البيض ، والحذر من كل طعام يكون البيض ضمن تركيباته .

٢ ـ فرط الكولسترول :

يعد البيض في تقدير أهل التغذية من أغنى مصادر الطعام بالكولسترول والدهنيات الثلاثية ، وبخاصة صفاره ، حيث يتركز في الدهن الحيواني المصدر بما يقدر بحوالى ٣٠٠ ميليجرام من الكوليسترول في البيضة الواحدة ، وهذا أمر لابد أن يحذره مرضى تصلب الشرايين ، والمصابون بضغط الدم المرتفع ، أو من يعانون من أمراض القلب ونوباته ، هذا إلى جانب المصابين بحَصَى المرارة والكلى .

٣ ـ التسمم الغذائي :

هناك نوعان من التسمم الغذائي ، أحدهما تسببه ميكروبات يسمونها السالمونيلا ، وقد وجدوها بنسبة توازي ثمانية بالمئة في البيض ، تتسرب إليه من الدجاج المريض ، فإذا ماالتهم الانسان البيضة نيئة أو شبه نيئة فإن عصيات هذه الميكروبات تتكاثر في الأمعاء ، وتسبب له تسمما يتميز بالاسهال والقيء والمغص والارتفاع درجة الحرارة ، ويداهمه ذلك عقب يوم أو بعض يوم بعد تناوله البيض ، لكنه والحمد لله مرض ليس قاتلا ، إذ يشفى المريض منه بعد فترة ويعود إلى حاله .

أما التسمم الغذائي الآخر فهو بسبب مكورات على شكل عنقود العنب ، لهذا سموا هذه الميكروبات باسم المكورات العنقودية ، وهذه تأتي من تلوث قشرة البيضة ، فإذا ماكسرها الطاهي دون غسل فقد يقع منها بعض ما يلوث الطعام . والبيض مزرعة طيبة لتكاثر هذه الميكروبات التي تفرز سمومها ، وتؤدي إلى أعراض التسمم التي يعاني منها المصاب عقب ساعات معدودات من التهامه الطعام .

مساحة ود ..

أُلْفَة !

● أتكتب الشعر ؟

فوجيء صاحبي بالسؤال ، فما كان منه إلا أن أظهر دهشته ، وغمغم ببضع كلمات ، ثم تنحنح ، وعلق :

- لماذا الشعر ؟ إنني مجرد موظف في هذا المكان .

سألت : وهل الوظيفة تقتل مناخ إبداع الشعر ؟

عادت الدهشة إلى محياه ، وأظهر عدم فهم ، لِكُنْهِ السؤال ، وعلق :

- لماذا تصر على الشعر ؟ إن الشعر يكتبه الشعراء .

علقت : قصدت القول ، إن المكان جميل ، ويوحي بكتابة الشعر ، بل إنه يحرض على ذلك .

انفرجت أساريره ، وعلق : هذا ما قصدته إذاً ؟ إنك تتكلم عن جمال المكان ، آه ، ربما كان جميلا !

سألت مندهشا بدوري : ألا تجده جميلا ؟ البحر أمامك برقته ونعومته وغضبه وفورانه ، ألا ترى طيور النورس وهي تتشاقى في المكان بأجنحتها البيضاء التي تلتمع تحت أشعة الشمس ؟ ألا تراقب صراع العاصفة مع السفن ؟ ألا ترى الأشرعة البيضاء والريح تلاعبها ؟ ألا ترى جمال التناقض حولك ؟

بقي مندهشا ، يتلفت إلى حيث أشير .

ثم أضفت : ألا تجد أنك في موقع يطل على البحر من جهة ، لكنه في حضن أشجار الغابة والجبل والأزهار والعشب الندي ؟ ألا تسمع شدو الماء وهو يتدفق في سواقيه ، وثغاء الأغنام وهي ترتع في هذا المدى الأخضر ؟ ألا تتداخل في سمعك الأصوات والأنغام ؟ ألا تسمع يا رجل ناي الراعي في ابتهالاته وهمساته وآهاته الموجعة ؟!

تابع صاحبي إشاراتي وأوصافي بعينيه ، وسيماء الدهشة لم تفارقه قطُّ ، كأنه كان يكتشف المكان على ضوء الملاحظات التي كنت أوالي ذكرها .

كسر دهشته وصمته وعلق : إنني أركز على التفصيلات الدقيقة في عملي ، ولا أهتم أو ألتفت كثيرا إلى ما يحيط بالمكان . ربما اعتدته فأصبح لا يثيرني . لقد أصبح كل ما ذكرته جزءا من « ديكور » يحيط بي في أوقات طويلة ، هي أوقات عملي التي زادت على عشر سنوات مستمرة في هذا المكان .

علقت : هو ذاك ، لقد اعتدت المكان ، بل أدمنته ، فأصبح لا يثيرك ، ولا يدخل إلى حواسك الجديد أو المثير .

علق صاحبي الآخر : هل تقصد التعميم في كلامك ؟ إن الحياة تحتاج دائما إلى التعامل معها بإحساس مرهف ، يملك استشعاراً للتعامل البكر الأول .

قلت : هذا ما قصدته منذ بداية حديثي !□

سليمان الشيخ

الكلمات المتقاطعة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١										
٢							■	■		
٣					■	■				
٤				■						■
٥				■						
٦						■	■			
٧		■								
٨			■		■			■		
٩	■			■					■	
١٠							■			

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة. والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم.

كلمات أفقية

١ ـ رسام ونحات ايطالي من مشاهير فناني عصر النهضة.

٢ ـ الاسم الثاني لمسرحي أمريكي صاحب المسرحية «عربة اسمها اللذة»، حرفان من طير.

٣ ـ معدن تصنع منه التماثيل، مركز الدوران.

٤ ـ أدب ناقصة، رسام فرنسي انطباعي من تلاميذ الفنان بيسارو.

٥ ـ المرّة من لوى، رسام فرنسي تأثيري وصاحب لوحة «المتحممات».

٦ ـ حواري خائن سلّم السيد المسيح لاعدائه، تجدها في رحال.

٧ ـ من كبار نوابغ الفنانين الهولنديين.

٨ ـ تألم، صعوبة في النطق، طن طنيناً عالياً.

٩ ـ شرع، غير ناضج.

١٠ ـ أشهر نحاتي اليونان القدماء وصاحب تماثيل افريز البارثينون.

كلمات رأسية

١ ـ من روائع اللوحات الزيتية وتعرف أيضا بالجيوكندا.

٢ ـ حق الأفراد في التعبير عن ذواتهم في الفن وغيره، خانته الذاكرة.

٣ ـ تجدها في أول الأبجدية وآخرها، جمعها أهوار، مكافىء.

٤ ـ يهدى للفائز في الرياضة والفن، من أمن على ماله وعرضه بدفع الجزية.

٥ ـ حرف نفي وجزم، يضرب فيه المثل في الكذب والخداع.

٦ ـ أصدر صوتا حاداً، حرفان متشابهان، إله فرعوني.

٧ ـ سحاب محمل بالماء، ظرف يسأل به عن المكان.

٨ ـ جَرّبَن، بحر.

٩ ـ فنان ايطالي متعدد المواهب وصاحب «العشاء الأخير».

١٠ ـ غَرَض، متعلق بمادة ملتهبة تنضحها بعض الأشجار كالصنوبر مثلاً.

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ا	ل	ك	س	ا	ء	ي	■	ج	س
٢	ز	■	ه	ي	ل	ي	و	م	■	ل
٣	ل	ة	■	ب	م	■	ق	ن	د	س
٤	ي	■	ك	و	ا	م	ن	■	ه	ب
٥	■	ت	ب	ي	ي	ت	■	ا	م	ي
٦	خ	م	■	ه	ا	ن	ي	ب	ا	ل
٧	ا	ت	ل	■	■	ا	م	ا	ن	■
٨	■	ا	ل	ا	ن	و	ا	ر	■	ب
٩	ض	ل	■	ا	ل	ب	ر	ك	ا	ن
١٠	م	■	ر	ا	ج	■	ي	■	م	ي

● حل مسابقة العدد الماضي نوفمبر ١٩٨٨

الوردة العميقة

شعر/ محمد علي شمس الدين *

خيطان من مطرٍ على شجر الكلام
خيطان من رؤيا . . . لأكمل قصتي
وأعيد ترتيب العذاب كما يرام
فأنا ارتجالي خالص في الليل : هذا صاحبي أعمى
وتلك حمامتي سوداء من كدر الظلام
والورد أعمق ما يكون ، رأيته
في القاع مبتدأ . . . .
. . . . . . ووجهك في الركام
وصرخت أدركني ، ولم أسمع
وظل الصوت مرتحلا كطفل ضائع في الليل . . . .
. . . . . . حتى استوحش الراوي
وأسدل دون قصته الختام .
خيطان من حمى على جسد الكلام
هذا
ولست بناشر بأسي على أحد

غابت منازلهم وأوغل صمتها حتى الأبد
لكأنَّ أربعة من الطير انتهت في صمتها العالي
وأقفلت الزمان
لكأنَّ أربعة من الطير انطوت مثل الدخان
عبثا أهز جذوع أحزاني
وأنتظر المدد
عبثا أهز البحر . . . . . .
. . . . . . هذا البحر أبعد من يدي
وعلى الزبد
عينان مغلقتان . . . .
لا تلمسهما . . . . . .
ودع الأبد
يجري
ويعرف هذه الأسماك مثلك يا ولد
واخرسْ عذابك للأبد .

* شاعر من القطر اللبناني

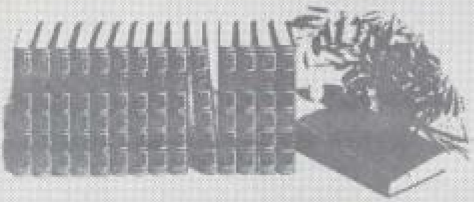

مكتبة العربي

كتاب الشهر

الذكاء الاصطناعي.. الواقع والمنشود

تأليف : الان بوند / مراجعة : الدكتور علي صبري فرغلي

ما زال عمل الحاسب الآلي يؤخذ على أنه صدى جامد للنشاط الانساني ، لكن الاجيال الجديدة من هذا الجهاز الخطير اكتسبت أخطر ميزات العقل البشري وهو الذكاء ، عن هذا النوع من الذكاء يتحدث الكتاب .

* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب ـ جامعة الكويت .

كتاب الشهر

يتميز كتاب « الذكاء الاصطناعي : الواقع والمنشود » بأنه لا يفترض في القاريء خلفية علمية في الرياضيات ، أو برمجة الحاسب الآلي ، وهو يخاطب القاريء المثقف الراغب في بذل الجهد اللازم لفهم مثل هذا الموضوع . والكتاب يعرض لمختلف القضايا الأساسية لعلم الذكاء الاصطناعي بدرجة كافية من العمق ، بحيث يجد المتخصص فيه متعة ذهنية ، وفي نفس الوقت يبتعد المؤلف عن التفصيلات الدقيقة الخاصة ببناء أنظمة الذكاء الاصطناعي التي لا تهم سوى الممارسين لهذا العلم . لهذا وعلى الرغم من كثرة ما نشر بالانجليزية عن الذكاء الاصطناعي فقد ترجم هذا الكتاب على الفور الى الانجليزية ليسد حاجة القراء لمثل هذه الحقائق . نشرت الطبعة الأصلية لهذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٨٤ ، أما الطبعة الانجليزية فقد ظهرت عام ١٩٨٥ وأصدرتها دار **Prentice-Hall** بالمملكة المتحدة .

يحتوى الكتاب على عشرين فصلا مقسمة الى خمسة أقسام :

يتناول المؤلف في القسم الأول من الكتاب علم الذكاء الاصطناعي باعتباره يهدف الى فهم الذكاء الانساني عن طريق وضع برمجات للحاسب الآلي لها القدرة على محاكاة السلوك الانساني المتسم بالذكاء . ويؤكد المؤلف صعوبة تعريف الذكاء الانساني بشكل عام إلا أنه يحدد عددا من المعايير التي يمكن الحكم بوجوده من خلالها ، ومن بينها القدرة على التعميم والتجريد ، والتعرف على أوجه الشبه في المواقف المختلفة ، والتعامل مع المواقف المستجدة ، واكتشاف وتصحيح الأخطاء لتحسين الأداء . . . إلخ .

وتعتمد برمجيات الذكاء الاصطناعي على نظم التعبير الرمزي للواقع ، وتستخدم لغات برمجة غير تقليدية مثل لغات ليسب وبرولوج . ويستخدم عالم الذكاء الاصطناعي هذه اللغات لخلق نموذج للعالم داخل الحاسب ، ويتعامل مع هذا النموذج كما نتعامل نحن مع الواقع من حولنا ، ويقارن بين سلوك النموذج وسلوك الواقع ليعدل ويطور من نموذجه ، وكلما تطابق السلوكان دل ذلك على صحة المحاكاة . ولما كانت برمجيات الذكاء الاصطناعي تهدف الى محاكاة قدرة الانسان على الاستقراء والاستدلال فقد أصبحت المعالجة المنطقية عنصرا أساسيا في هذه البرمجيات .

وتعنى برمجيات الذكاء الاصطناعي بالمسائل التي ليس لها حل خوارزمي معروف ، ونعني بذلك عدم وجود سلسلة من الخطوات المتتابعة التي يؤدي اتباعها الى ضمان الوصول الى حل للمسألة . وطالما أنه لا يوجد حل معروف للمسألة فلابد اذاً من اللجوء الى الاجتهاد . ولذلك لا تعد البرمجيات التي تحل المعادلات التربيعية ضمن برمجيات الذكاء الاصطناعي ، لأن لها حلا خوارزميا معروفا .

وتعد برمجيات الشطرنج مجالا خصبا للذكاء الاصطناعي لأنه لا توجد طريقة معروفة لتحديد أفضل حركة ممكنة في مرحلة معينة من دور الشطرنج وذلك لسببين : أولهما أن عدد الاحتمالات كبير جدا لدرجة يستحيل معها اجراء بحث كامل عليها ، والسبب الآخر أننا لا نعرف سوى القليل عن المنطق الذي يبني عليه اللاعبون المهرة تحركات قطعهم ؛ إما لأنهم ليسوا مدركين له بشكل واع أو لأنهم لا يريدون أن يفصحوا عنه . وقد حقق علماء الذكاء الاصطناعي تقدما كبيرا في تطوير برمجيات الشطرنج في السنوات الأخيرة وتستطيع الآن البرمجات الممتازة أن تهزم جميع اللاعبين باستثناء

مئات قليلة منهم .

معالجة اللغات الطبيعية هو عنوان الفصل الثاني من الكتاب ، ويقول المؤلف إن هذه المعالجة تشكل أساسا هاما لتطور الذكاء الاصطناعي . فمن أهداف الذكاء الاصطناعي جعل الحوار بين الحاسب والانسان ممكنا باللغات الانسانية . ولا شك أن السلوك اللغوي للانسان يتطلب قدرا من الذكاء . وبما أن من أهداف الذكاء الاصطناعي محاكاة القدرات الانسانية العقلية . . . فلابد له أن يحاكي عملية التفاهم باللغات الطبيعية التي تتمثل في مقدرة الانسان على التعبير عن آماله وآلامه وعواطفه وفكره ، وعن ماضيه وحاضره ومستقبله ، وغير ذلك باستخدام عدد محدود من الرموز اللغوية (الأصوات في حالة الكلام المنطوق والحروف في حالة اللغة المكتوبة) ، كما تتمثل في قدرته على فهم ما يقال حوله بلغته . أما الحاسب فلا يعرف سوى لغات البرمجة التي تختلف كيفيا عن اللغات الانسانية المرتبطة بحضارات وقيم وتراث الانسان . ويضطر الانسان الى تعلم لغات البرمجة هذه حتى يستخدم الحاسب .

ويستعرض المؤلف في هذا القسم تطور برمجيات معالجة اللغات الطبيعية منذ الخمسينيات وحتى الوقت الحاضر . ويتناول المحاولات الأولى لتصميم برامج الترجمة الآلية التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على سرعة الحاسب الفائقة ، في البحث عن الكلمات في القاموس الالكتروني ثنائي اللغة ، وترجمة النص كلمة بكلمة دون « فهم » معاني الجمل والفقرات مما أدى الى فشل هذه البرامج وتوقف البحث في هذا المجال ، ثم عاد الاهتمام بها في نهاية السبعينيات بعد نجاح برامج الاعراب **Parsing** وبرامج تفاعل الانسان مع الآلة .

وتعنى برمجيات الذكاء الاصطناعي بتمثيل المعرفة البدهية فنحن نستخدم كثيرا من البدهيات في تفكيرنا واستنتاجاتنا ، حيث نعرف مثلا أنه يستحيل على الشخص أن يوجد في مكانين في وقت واحد ، وأن الحيوان ذو أربع أرجل ، ونعرف الفرق بين معاني كلمة « في » المختلفة في الجمل أ ، ب ، ج :

أ ـ قتل زيد عمرا في حالة غضب .

ب ـ قابل زيد عمرا في نادي الجامعة .

ج ـ سرق زيد عمرا في ثوان معدودة .

يتناول المؤلف في القسم الخامس من الكتاب الأنظمة الخبيرة **Expert Systems** وهي برمجيات تسعى لتمثيل المعرفة والخبرة التي تجعل الانسان خبيرا في مجال ما ، ويوضح المؤلف أنه قد ثبت فشل المحاولات الأولى التي كانت تسعى لبناء برمجيات عامة تصلح لمحاكاة عمل الخبراء من كافة التخصصات ، إذ كان التصور أن عمليات المنطقة واحدة في جميع الأحوال ، والأنظمة الخبيرة التي تبنى حاليا هي أنظمة متخصصة ، فكل منها يهدف لمحاكاة خبرة معينة ، فمن أشهرها مثلا **MYCIN** الذي يمكن استخدامه لتشخيص بعض الأمراض السارية وخاصة أمراض الدم كما يقوم باقتراح العلاج اللازم للمريض ، أو طلب المزيد من نتائج التحليلات التي تمكنه من التوصل الى التشخيص السليم .

وتتكون برمجيات الأنظمة الخبيرة عادة من جزأين رئيسين هما قاعدة المعرفة وبتضمن المعرفة التي يمكن استخلاصها من الخبير الانساني ، ومفسر المعرفة ويضم القوانين وعمليات المنطقة التي تتوصل الى اصدار الأحكام بالاعتماد على قاعدة المعرفة والعلاقة جدلية بين الاثنين .

ومن أهم مشاكل بناء الأنظمة الخبيرة كيفية تمثيل أنواع المعرفة المختلفة ـ وهي في الحقيقة مشكلة علم الذكاء الاصطناعي . ولهذا أفرد لها المؤلف القسم الثالث من كتابه ـ فالتعبير عن الحقائق الثابتة يختلف عن التعبير عن الاحتمالات المختلفة ، وهناك المعرفة التي يصعب تعريفها مثل الخبرة المكتسبة . فالخبير يكتسب صفته من علمه الواسع في مجاله ودرايته التامة بكافة المصادر المعرفية التي يمكن أن يلجأ اليها لحل قضية ما ، كما يكتسب صفته من خلال خبرته الطويلة وحكمته وقدرته على وزن الاحتمالات المختلفة للموقف واكتشاف أرجحها ، كما يستطيع

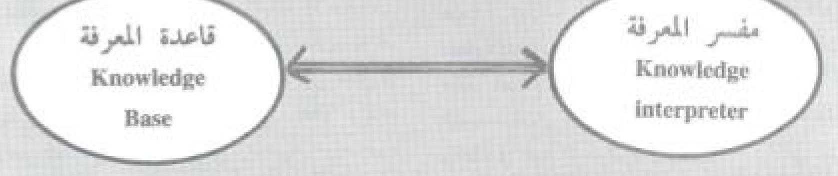

المكونات الأساسية للأنظمة الخبيرة

مناقشة أقرانه من الخبراء وتبرير أحكامه وبيان طريقة توصله لحل مشكلة ما . ومن بين المشاكل في بناء أنظمة الخبراء كيفية تمثيل هذه الأنواع المختلفة من المعرفة بحيث يمكن للحاسب استخدامها كما يستخدمها الانسان . ويتجه علماء الذكاء الاصطناعي الآن الى فصل قاعدة المعرفة عن قوانين الاستقراء والمنطقة ، وبهذا يمكن تعديل وتطوير قاعدة المعرفة كلما أردنا دون المساس بالجزء الخاص بالمنطقة ، ويوضح الشكل المرفق العلاقة بين قاعدة المعرفة ومفسر المعرفة .

نظرة مستقبلية

يتحدث المؤلف في القسم الخامس عن برمجيات التعلم بمساعدة الحاسب Computer Assisted Instruction (CAI) وعلاقته بالذكاء الاصطناعي . وينتقد المؤلف برمجيات التعلم السائدة هذه الأيام والتي تبدأ عادة بشرح احدى النقاط التعليمية إلى الدارس ثم يوجه الحاسب عددا من الأسئلة التي عادة ما تتطلب إجابة قصيرة - ربما مجرد كلمة نعم أو لا - وتقوم البرمجية بمقارنة إجابة الدارس بالاجابة الصحيحة التي عادة ما تكون مخزنة سلفا في البرمجية ، فاذا تطابق الاثنان يهنيء الحاسب الدارس على اجابته الصحيحة ، ويوجه اليه السؤال الذي يليه ، أما اذا كانت اجابة الدارس غير مطابقة للاجابة الصحيحة المخزنة في ذاكرة الحاسب ، فيعطى الطالب شرحا آخر للنقطة التعليمية يليها سؤال آخر يكون عادة أقل صعوبة من السؤال الأول حتى يتمكن الطالب من التوصل إلى الاجابة الصحيحة . . . وهكذا .

ويرى المؤلف أن مثل هذه البرمجيات لا تستطيع حل المسائل التي تعطيها للدارس بنفسها لأنها لا تقوم بأي معالجة منطقية وانما ينحصر عملها في مقارنة matching اجابة الدارس مع اجابة مخزنة سلفا . وأنه في كثير من الأحيان لا يمكن تخزين كل الاجابات الصحيحة لسؤال ما .

ويختتم المؤلف كتابه بفصل يلخص فيه الانجازات الممكن توقعها من الذكاء الاصطناعي في المستقبل القريب ، وكذلك مجالات البحث للفترة القادمة . وهو يرى امكانية التقدم في السنوات القليلة القادمة في مجالين هامين من مجالات الذكاء

الاصطناعي هما معالجة اللغات الطبيعية ، وبناء الأنظمة الخبيرة . فقد تحقق تقدم ملحوظ خلال السنوات الأخيرة في معالجة اللغات الطبيعية وخاصة بعد ظهور برامج متقدمة للاعراب النحوي باستخدام تقنيات متقدمة مثل Chart Parsing Techniques, ATN ويرى المؤلف أن برمجيات معالجة اللغات الطبيعية ستحقق تقدما ملحوظا حيث بدأ الباحثون يتجهون الى معالجة مشكلة الدلالة وتحليل السياق ولا شك أن احراز تقدم في هذين المجالين سيكون له أثر كبير في تطور برامج معالجة اللغات الطبيعية كبرمجيات الترجمة الآلية ، وبرمجيات تفاعل الانسان والآلة ، ومعالجة المعلومات وغيرها . ويقول بوني ان هذا التقدم سيكون مقصورا على البرمجيات التي تعالج النصوص المكتوبة ، أما معالجة الكلام المسموع فيحتاج الى مزيد من البحث لعدم استطاعة الآلة حتى الآن أن تقوم بمعالجة الكلام المتصل ، ولا شك أن التقدم في معالجة النصوص المكتوبة سيكون له أثر في المستقبل في علوم معالجة الكلام المسموع المتصل . كما حققت برمجيات الأنظمة الخبيرة بعض النجاح في السنوات الأخيرة وخاصة بعد أن تخلى علماء الذكاء الاصطناعي عن فكرة بناء الأنظمة الخبيرة المتعددة الأغراض general purpose expert systems . ويعتقد بوني أن الفترة القادمة ستشهد مزيدا من التقدم في بناء برمجيات الأنظمة الخبيرة التي ستتعدى الحالات التي حققت فيها بعض النجاح وهي برمجيات التشخيص diagnosis . ويرتبط هذا بالتقدم الذي يحرزه علماء الذكاء الاصطناعي ، وعلماء تقنية المعلومات في تمثيل المعرفة الانسانية . □

شجاعة نادرة

● قيل ان أم عمارة واسمها : نسية بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية كانت من أوائل المسلمات ، وشهدت موقعة أحد مع زوجها يزيد بن عاصم وابنيها حبيب وعبد الله ، ولما انهزم المسلمون في هذه الموقعة انحازت الى رسول الله ﷺ تدافع عنه بالسيف وترمي بالقوس .

وحدث أن أقبل ابن قميئة ـ وكان من فريق الكفار ـ وهو يصيح « دلوني على محمد . . فلا نجوت إن نجا » فاعترض له مصعب بن عمير وأم عمارة ، وكان عليه درعان فاتقى بها ضرباتها .

تحكي أم عمارة عن موقعة أحد قائلة : « انكشف الناس عن رسول الله ، فما بقي معه إلا نفر قليل وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذب عن رسول الله ، والناس يمرون منهزمين ، ورآني رسول الله بدون ترس ، فرأى رجلا منهزما معه ترس ، فقال لصاحب الترس : ألق ترسك الى من يقاتل ، فألقى ترسه وأخذته ، فجعلت أتترس عن رسول الله ، وانما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، فيقبل رجل على فرس فيضربني ، فتترست له ، فلم يصنع سيفه شيئا ، فولى ، فضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره ، فجعل النبي يصيح على ولدي قائلا : « يا ابن أم عمارة ، أمك أمك » فعاونني عليه حتى أوردته الهلاك » .

وحدث رسول الله عنها بعد ذلك فقال : « لمقام نسية خير من مقام فلان وفلان ، ما التفت يمينا أو شمالا الا وأنا أراها تقاتل دوني » ، وكان يراها تقاتل يوم أحد أشد قتال ، وانها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر رجلا .

من المكتبة العربية

الأنيق في "المناجنيق"

تأليف : ابن ارنبغا الزردكاش

عرض وتعليق : جمال الغيطاني

المنجنيق آلة حربية قديمة تعادل المدفعية في أيامنا هذه ، لم تكن أداة للتدمير حسب ، بل كانت اختراعا آليا متطورا في العصور الاسلامية الاولى ، فاستحق تأليف الكتاب الذي نقدمه لك بعد تحقيقه واعادة طباعته .

من هو ؟

هل اسمه « ابن ارنبغا الزردكاش ؟ » ، أو استبغا الزردكاش ؟ من هو مؤلف هذا المخطوط النادر الذي وصل إلى عصرنا ، واستقر الآن في مكتبة أحمد الثالث باستانبول ؟

الدكتور إحسان الهندي محقق المخطوط الذي نشر في حلب منذ ثلاثة أعوام لم يقطع وإنما رجع ، فالمصادر المعاصرة مثل « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغري بردي ، و « الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع » للسخاوي ، « السلوك » للمقريزي ، لاتمدنا بمعلومات وافية عن المؤلف الذي طمس اسمه من عنوان المخطوط ، وبقي لنا اسم والده « ارنبغا الزردكاش » . و« ارنبغا » اسم يطالعنا كثيرا في المصادر المملوكية ، « بغا » تعني الفحل ، اما الزردكاش فهو اسم مركب أعجمي الأصل ، ومعناه صانع الزرد .

وصلنا مؤلف ابن أرنبغا العلمي الذي يبرز لنا الفن الحربي العربي ،وأصوله الهندسية ، وما كتبه أرنبغا في بداية القرن التاسع الهجري محصلة موروث علمي خاص بالعرب . كان المنجنيق بمثابة المدفع في الجيوش القديمة ، يقذف بالحجارة الثقيلة ، وبرميل النفط ، وسلال العقارب والثعابين . المخطوط قصير ، لكنه مزود بلوحات تفصيلية ، هندسية عديدة .

العروس

يدلل الدكتور إحسان الهندي على الأصل العربي للمنجنيق ، ويؤكد أن العرب قد عرفوا هذا السلاح منذ العصر الجاهلي ، فهناك أكثر من مصدر تاريخي

يؤكد أن جزية الأبرش ، مؤسس دولة التنوخيين (١٣٨ ـ ٢٦٨) كان أول من استخدم المنجنيق من العرب قبل الاسلام ، كما تؤكد دراسة حديثة للدكتور صلاح العبيدي أن عرب العراق عرفوا هذا السلاح منذ القدم .

كما ورد في تاريخ الطبري أن عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمة ، لم يشهدا مع الرسول وقعة حنين ، لأنهما كانا يتعلمان صناعة الدبابات والمجانيق في بلدة « جرش » . وهذا يدل على أن العرب الغساسنة الذين كانوا يقطنون في هذه المدينة وماجاورها منذ عهود ما قبل الاسلام ، قد عرفوا هذا السلاح ، وبرعوا في استخدامه ، كما ذكر صاحب « البداية والنهاية » ، أن المسلمين استخدموا المنجنيق لأول مرة في حصار الطائف ، أما الخليفة عمر بن الخطاب فقد عني أفضل عناية باستخدام المنجنيق ، حتى أصبح لدى جيش المسلمين الذي فتح بلاد فارس عشرين منها ، استخدمها في فتح مدينة بهرسير (المدائن) . وطبقا لرواية الواقدي نجد أن جيش ابن الوليد استخدم السلاح نفسه ، وفي العصر الأموي اهتم الخلفاء بتطويره ، وعندما حاصر الحجاج الثقفي عبدالله بن الزبير بمكة ، قام بنصب منجنيق ضخم على جبل قبيس ، وينسب إليه أيضا أنه أمر بصناعة منجنيق ضخم ، يحتاج إلى خمسمائة رجل لتحريكه ، وكان يسمى « العروس » ، ويقال إنه سلمه إلى محمد بن القاسم الثقفي لما وجهه لفتح السند ، واستخدمه أيضا في فتح مدينة الديبل (كراتشي حاليا) ، وغيرها من مدن السند ، سنة ٨٩ هـ ، ويقال إن كبير الرماة الموكل بالرمي على « العروس » ، كان اسمه « جؤبة » ، وأنه لمهارته كان يرمي على صارية علم بقطعة الحجر فيمزقها في الرمية الثالثة على الأكثر .

مع بداية القرن الثاني الهجري أصبح المنجنيق شائعا ، خاصة في حصار المدن ، ويروى ابن الأثير أن مروان بن محمد حاصر سعيد بن هشام وأنصاره في مدينة حمص مدة عشرة أشهر ، ليلا ونهارا ، ونصب عليهم نيفا وثمانين منجنيقا ، وقد نقل أمويو الأندلس معهم هذا السلاح إلى هناك . في هذه الفترة شاع استخدام المنجنيق عند العرب ، وبدأ يظهر في الشعر .

يلقي الزلازل أقوام دلفت لهم
بالمنجنيق وصكا بالملاطيس

والملاطيس هي الحجارة التي يرميها المنجنيق .

في جيوش العباسيين أصبح سلاحا رئيسيا ، وأصبح له صنف خاص ، هو « المهندسين » ، يرأسه قائد يلقب بالمنجنيقي ، وخلال الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ (٨١٣م) استخدم المنجنيق بكثرة .

وفي العصر المملوكي ، جرى اهتمام عام بالصناعة الحربية ، وبالمنجنيق خاصة ، وكان هذا يتم في خزائن السلاح المسماة « الزردخاناه » . يصفها المؤرخ ابن تغري بردي بقوله :

« وكانت تحوي اشياء كثيرة محملة على العجل ، تجرها الأبقار ، وعليها آلات الحصار ، ومن مكاحل النفط الكبار ، ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ، ونحو ذلك . . » .

ويصف لنا أبو الفداء في « المختصر في تاريخ البشر » المنجنيق الذي استخدمه المسلمون في حصار الصليبيين في عكا ـ ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) ـ يقول :

« أمر السلطان الملك الأشرف بجر المناجنيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها ، فاجتمع على عكا من المناجنيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها » .

أما المؤرخ ابن تغري بردي فيصف حصار قلعة صلخد ٨١٢ هـ قائلا :

« ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق ، ونصبها حول القلعة ، وكان فيها ما يرمي بحجر زنته ستون رطلا شاميا ، وتمادى الحصار ليلا ونهارا ، حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتي جمل ، فلما تكامل نصبه ، لم يبق الا أن يرمي بحجره ، وزنة حجره

تسعون رطلا بالدمشقي » . (يساوي ٢٥٠٠ جرام) .

وقبل الانتقال مع مقدمة المحقق إلى أنواع المجانيق ، نعود إلى مخطوط ابن ارنبغا الزردكاش .

منكلي بغا

من تقاليد المؤلفات القديمة ، أن يهدي المؤلف كتابه الى صاحب له ، أو إلى سلطان ، أو أمير ، له به وثيق الصلة ، أو تلقى منه منة ، ونجد هذا في معظم المؤلفات العربية .

وغريب اننا لانعرف على وجه الدقة اسم صاحبنا ، أو نحيط بحياته ، ولكننا نعرف شخصية من أهدى إليه كتابه ، لننظر الى النص :

« أتابك العساكر الاسلامية ، مؤيد الملة المحمدية ، هو المقر الأشرفي ، السيفي ، شمس العلا منكلي بغا الشمسي ، لازالت الأقدار قاضية بهلاك أعدائه ، متكفلة باسعاد أحبائه ، وأوداائه ، ممن أخذ من كل فن بأوفر نصيب ، وأضحى كل بعيد المتناول وهو منه قريب ، وجمع بين فضيلتي الحُكْمِ والحِكَمِ ، والسيف والقلم ، ورأيت أعظم مساعيه ، وأكثر دواعيه ، إلى إمعان النظر فيما يحفظ نظام الممالك ، وتنجلي به الخطوب الحوالك ، من أنواع جيد الحروب ، ورمي أعداء الدين بمتسمات الخطوب ، والتوصل إلى أخذ معاقلهم ، والحصون ، وزلزلة أركانهم ، وهتك سرهم المصون » .

والأمير منكلي بغا الذي أهدى إليه المؤلف كتابه ، هو أتابك العساكر الاسلامية ، منكلي بغا ، الصالحي ، الظاهر برقوق ، ويعرف بالعجمي ، صيره الناصر ابن أستاذه ، وأرسله رسولا إلى تيمور ـ لنك سنة خمس وثمانمائة (هجرية) ، ثم رجع وتولى الحسبة في زمن السلطان المؤيد . شيخ ، تزوج من الأميرة خوند فاطمة ابنة الملك أشرف شعبان ، ثم أصبح أتابك قائدا للجيوش عام ٨٣٠ هجرية ، ومات عام ٨٣٦ هجرية ، وهذا يعني أن ابن أرنبغا الزردكاش قد وضع مؤلفه قبل عام ٨٣٠ هجرية .

بعد أن يفرغ المؤلف من الاهداء ، يذكر مضمون الكتاب ، فيقول إنه وضعه في أنواع المجانيق ، والزيارات (نوع من مجانيق السهام) ، والسلالم التي تستخدم في حصار القلاع ، والزحافات التي يجلس فيها المحاربون بينما يقوم رفاقهم بدحرجتها باتجاه أسوار القلعة المحاصرة ، والجسور التي تمد لعبور الموانع المائية ، ورمي المكاحل (المدافع) ، والقوارير المعبأة بالنفط .

وماشاكل ذلك من مخترعات التدابير ، وجعلته كتابا ، ورتبته فصولا وأبوابا ، وخدمت به الحضرة العالية ، لازالت سعودها متوالية ، ولست في ذلك الا كما قيل :

كالبَحْرِ تمطرُه السحابُ وَمالَهُ
فَضْلٌ عليه لأنّه مِنْ مائِه

ثم انتقل ابن ارنبغا إلى وصف المنجنيق ، وأسلوب الرمي به :

« إذا أردت أن ترمي بعيدا فانك تضع الحجر في المنجنيق ، وترمي به إلى مطلوبك ، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن في الثانية أصبع المنجنيق بالزيت ، (دهن أصبع المنجنيق بالزيت يجعل انزلاقه أسهل ، ويزيد مدى الرمي) ، فإن رميت به ، وبلغت ما تطلب ، وأردت أبعد من ذلك فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع ، وبين الأصبع الحديدقطعة من المشاق (ما يبقى من الكتان بعد المشق) وترمي به ، فان بلغت مقصودك فحسن ، وأن أردت أبعد منه فإنك تدخل في أصبع المنجنيق كعكة من حبل ، وترمي به ، فإنك تبلغ مقصودك ، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى ، فإنك تبلغ الذي تطلبه إن شاء الله تعالى ، وان أردت أبعد منه تضع كعكة أخرى ، تفعل ذلك ثلاث مرات ، فإنك تبلغ الذي تطلبه . »

ويمضي ابن ارنبغا في تفصيل طرق الرمي إلى مسافات أبعد ، والعالمون بالفن العسكري

الحديث ، سيجدون أن القواعد التي وصفها تماثل في خطوطها العريضة نفس قواعد إطلاق الصواريخ الحديثة ، مع مراعاة التعقيد وفارق العلم ، والعصر ، وينطبق هذا على ما قاله ايضا بخصوص الرمي عن قرب :

« وإن أردت القرب ، فإنك تضع الحجر وترمي به إلى حيث تريد ، فإن أردت أقرب من ذلك فإنك تدهن ثلث أصبع المنجنيق وترمي به ، وان أردت أقرب منه فإنك تدهن ثلثي الأصبع وترمي ، فإنك تبلغ المقصود ، وإن أردت أقرب من ذلك فادهن جميع الأصبع وترمي ، فانك تبلغ ما تريد .

وإن أردت أقرب منه فإنك تشيل رأس المزريب (ينصح المؤلف هنا برفع المنجنيق إلى أعلى ، مما يزيد في انحناء زاوية الرمي ، وهذا مما ينقص المدى حسب مبدأ الرمي بالأسلحة المنحنية مثل الهاون حاليا) إلى فوق ذراع واحد ، فإن أردت أقرب منه فإنك تشيله ذراعاً آخر وترمي فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك توسع المزريب وترمي به ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك تنزع جسر الدولاب وترمي به فانك تبلغ المقصود . وان أردت أقرب منه فإنك تغير الساعد بأغلظ منه ، وإن أردت أقرب منه فإنك تزيد الحجر رطلا واحدا وترمي به ، فانك تبلغ المقصود إن شاء الله تعالى . . . »

ويمضي ابن ارنبغا في شرح وسائل تقريب الرمي ، والضرب على مسافات قليلة ، ولا يفوته التأكيد بعد شرح كل خطوة أن تنفيذ ما قاله يبلغ صاحبه المقصود بإذن الله تعالى .

وفي نهاية شرحه يقول :

« وهذا الذي ذكرناه تمام العمل بالمنجنيق الذي يسمى ، « قرا بعزى » . . . »

« وقرا بعزى » ، نوع خاص من المجانيق ، خاص برمي الحجارة ، ويعمل طبقا لمبدأ الثقل المعاكس ، وهو النوع الذي ركز عليه ابن ارنبغا في بحثه ، سواء فيما يتعلق بالنص ، أو الرسوم التفصيلية ، ولا يفوته أن يشرح تركيبه في نهاية القسم الأول من المخطوط :

« ولابد من ذكر وضع هذا المنجنيق ، فنقول كيفية وضعه (تركيبه) ، حتى يصير الرامي به مستأنسا ، فنذكر ما يحتاج إليه من الأخشاب ، وهي ثمانية وعشرون قطعة من الخشب ، وفيها ما يزيد وما ينقص ، فاذا أردت وضعه فتنظر إلى ما قد وصفته من الأخشاب في هذا الكتاب ، فتعمل أمثالها وأعدادها والصندوق المرسوم فيه ، فلا تخرج عن عمله ، وأنظر أيضا إلى طول النشاب وما هو عليه ، فأعمل هيأته وسفله وأعلاه وبخوش (ثقوب) الخنزيرات (الجزء من الدولاب الذي يدخل فيه عمود السهم) ، وغير ذلك من الأعمال ، ثم جمع المنجنيق وما يحتاج إليه . . . »

وهنا نعود إلى دراسة الدكتور سامي الدهان لنقف منها على أنواع المجانيق :

من الحجر إلى الثعابين

المجانيق بشكل عام عبارة عن عدد من القوائم الخشبية ، يتصل أعلاها بعارضة ، يركب عليها عمود خشبي طويل ، يقال له « السهم » ، يكون

قصيرا من جهة ، وطويلا من جهة أخرى ، ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقلا معاكسا ، يسمى « الصندوق »

إذا كانت كتلة واحدة و « القواعد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل من جهته الطويلة « الكفة » التي تحمل المقذوف ، سواء كان هذا الأخير حجرا أو برميل نفط ، ويتصل « السهم » من جهته الطويلة بحبل من الشعر ، يسمى « زيار » ، يمكن شده بواسطة « دولاب » ، كان يطلق عليه احيانا اسم القوس ، لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناء كلما دار الدولاب في حالة الشد .

كانت المجانيق أنواعا ، فمنها مجانيق قذف الحجارة ، وهي أشد الآلات الحربية القديمة تأثيرا ، لاسيما في الحصار ، ويتم الرمي بوضع قطعة الحجر في الكفة التي يحملها السهم ، وكلما زاد اتساع الكفة كلما امكن رمي قطع أكبر من الحجارة .

أما مجانيق قذف السهام ، وتسمى ايضا قسي الزيار ، فكانت عبارة عن أقواس كبيرة ، ترمي سهاما هائلة الحجم ، يتراوح طولها بين ٦٠ و ١٨٠ سم ، وتزن من اثنين إلى ثلاثة كيلو غرامات ، ويصف ابن خلدون في تاريخه قوسا ضخما من قسي الزيار صنع عام ١٣٩٨م ، ويقول انه كان يلزمه أحد عشر بغلا لنقله . كانت هناك أيضا مجانيق قذف النفط وكرات اللهب ، والقنابل ، وكانت انواعا ومنها القنابل المضيئة ، وكانوا يصنعونها على شكل كرات من الكبريت الأسود ، والصمغ والزرنيخ ، وكانوا إذا رموا هذه الكرات بعد إشعال النار فيها تبقى مشتعلة ، سواء أثناء اطلاقها أو بعد سقوطها ، ولا ينفع الماء في إطفائها .

أما القنابل الخانقة فكانوا يصنعونها من الكبريت والزرنيخ والأفيون والبنج الأزرق ، وكانوا يدخنونها على مهب الريح حتى يفسد الهواء الذي يستنشقه جنود العدو . وابن ارنبغا يخصص قسما لوصف تركيب هذه القنابل ، ويسمى كلا منها قدرة ، ويورد رسما تفصيليا لكل منها .

يصف خمساً واربعين طريقة لصناعة هذه القنابل أو القدور بلغة عصره ، منها على سبيل المثال « قدر مخاسفة مضرس » ، وهذا نوع من القنابل التي تنفجر ذاتيا . يقول في طريقة العمل :

« يأخذ قدرا مدورا فخارا ، يحط فيه فتاتيش (فتاش أي سهم ناري) ، وصفاريخ (صواريخ) ، في سفل كل فتاش ضرس وهو حد (اي حارق) ، وفي سفل كل فتاش ثلاث كواكب (أجهزة إشعال) ، وتملأ الصواريخ والفتاتيش ، وتملأ معهم دواحد (كرات صغيرة من المعدن) ، وتختم رأس القدرة ، وتنزل في رأس القدرة أكريخ عراقي (الاكريخ هو جهاز لاشعال القدرة) . »

طبعا يبدو بوضوح صعوبة النص ، والمصطلحات المستخدمة ، من هنا يبرز أيضا مدى جهد المحقق في تفسير معمياته ، وفيما يلي النص الخاص بتركيب قنابل الغازات :

« تأخذ ستين قنا ، وستين عنزروت (نبات يستخرج منه صمغ) ، وستين شامي (نبات غير معروف) وستين وشق (صمغ يعطي حرارة للمكان الذي يلصق عليه يسميه عوام الشام ويشه) ، وستين حصالبان ، وستين علك صنوبر ، وستين حلتيت (أنواع من الصمغ) ، وتحله ويطعم بالنفط ، وبالبياض (مستحضر سريع الاشتعال) وتخدم على الرخامة ، ويتعلق بأربعين سندروس مخرمش ، وتأخذ حافر الفرس ، وتبرده ويعمله ، وتأخذ من برادته مابة وخمسين ، وأفيون خمسة وعشرين ، ومن الزرنيخ خمسين ، ومن البنج الأزرق خمسين ، وتعلف الكل في اللزاقات ، على الرخامات ، وتبيض القدر ، وتنزل الكل في القدرة . . »

أما قنبلة الجير فيصفها كما يلي :

« يأخذ قدرة مدورة ، ويحط فيه كلس مطفى ، ويسد رأس القدرة ، ويكسره في النقب ، وأما في الشواقي (فوهات المراقبة في القلاع) يطلع غبار الكلس إلى مناخيرهم ، وإلى أعينهم ، مايقشعوا (لايميزون) القتال ، فتنزل وتمسكهم قبض اليد (بدون مقاومة) » .

وأغرب ما يصفه قنبلة الحيات والثعابين :

« تأخذ القدر الفخار ، أكبر ما يكون ، وتحط فيها حيات (أفاعي) وأحاس (نوع من الزواحف) ونواشيد (نوع من الأفاعي ذات الصلال) ، وتسقطها في الثقوب في المركب ، فأي من لسعته قتله ، والله أعلم . . . »

كانوا يرمون قنابل الأفاعي والعقارب هذه على مراكب العدو ، أو القلاع المحاصرة ، والأماكن المحدودة المساحة ، فاذا قذفت وتهشمت خرجت الأفاعي ، والعقارب ، فتؤذي جنود العدو ، أو تثير فيهم الذعر ، وكان هذا الرمي ، لايتم إلا على أهداف محاصرة ، أو سفن العدو في عرض البحر ، فأي من لسعته قتله والله أعلم .

سقاية السيوف

القسم الأخير من المخطوط مخصص لسقاية السيوف ، اي نقعها في سائل معين بعد تسخينها على النار ، حتى تكون أشد حدة وأكثر قدرة على القطع ، ويذكر ابن ارنبغا مواد عديدة لسقي السيوف منها دماء الفراخ ، وقشر الرمان اليابس ، وأكسيد الحديد ، وعرق الفرس والحمار ، وقرن الإبل المطحون .

أما صمغ الصنوبر ، والمصطكي واللبان ، وبزر الكتان ، وبرادة الحديد ، فمواد تمنع صدأ السيوف .

أما السقاية الشريفة ، عالية المستوى ، فمن المواد المستخدمة فيها ، الجير ، وملح البول (أي ما يتبقى منه بعد تبخره) ، ومواد كيماوية أخرى ، وتبل فيها السيوف ، وتترك مدة ثلاثة أيام ، بعد ذلك :

« اضرب به عمود الحديد ، زنته عشرة أرطال فانه يقطعه إن شاء الله تعالى » .

لكي يكتسي السيف لونا أحمر ، يوضع في مواد مستخرجة من كبريتات الحديد ،وتوضع هذه المواد في جراب من الجلد ، يدخل فيه السيف ، ويوضع تحت التين ، بعد مدة يخرج أحمر قاطعا .

ولكي يصبح لونه أصفر تؤخذ مواد من خشب الورس الذي ينبت في اليمن أو الحبشة ، والعصفر ، ويوضع السيف تحت ثقل بعد دهانه .

« ثم يخرج فإنه يكون ما أردت إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . . »

(والله اعلم) هكذا يختم ابن أرنبغا الزردكاش مخطوطه أو مؤلفه النادر .

وضع ابن أرنبغا حوالي مائة رسم توضيحي ، لأدوات المجانيق ، وطرق استخدامها وأنواعها ، وأساليب الحصار ، وتركيب القنابل ، وسقاية السيوف ، قام الدكتور سامي الدهان بشرحها ، وتوضيح غوامضها . وهكذا يلقي هذا المؤلف النادر الضوء على جوانب مهمة من أصول الفن الحربي العربي .

النص صعب ، إلا أن التحقيق العلمي الممتاز الذي قام به المحقق ، إضافة إلى شروحه وتوضيحاته ، جعلته ميسرا ، متاحا ، مقروءا بسهولة . ومن أهم ما تضمنه الفهارس ، خاصة ذلك الجزء الخاص بأهم المؤلفات الحربية والعسكرية في التراث العربي ، معظمها مازال مخطوطا ، متناثرا في مكتبات العالم المختلفة .

يبقى لنا بعد تقديم هذا المخطوط في فن الحرب عند العرب ، أن نردد مع مؤلفه في ختام عرضنا ما ردده هو في مفتتح مؤلفه :

« وضع العبد الفقير المعترف بذنبه ، الراجي عفو ربه ، ابن أرنبغا الزردكاش » □

□ أخلاقك تتكون مما تؤمن به وتقف مدافعا عنه ، وشهرتك تأتي مما تسقط وأنت تدافع عنه .

(روبرت كيلين)

مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : قمر المذبحة يمامة الوطن
اسم المؤلف : محمد الظاهر
الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر
عدد الصفحات : ١٥١ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعر للشاعر محمد الظاهر ، يحاول فيه أن يقدم شكلا ومناخا جديدين للقصيدة ، تجربته في كتابة القصيدة على شكل سيناريو سينمائي ، مستخدما طرق كتابة السيناريو ، وصناعة السينما ، في القطع والنقل ، واللقطات المكبرة ، واللقطات البعيدة ، والقريبة . واستغراق الشاعر في الشكل لم يؤثر على مضمون قصائده ، ولم يكن استغراقا في الشكل من قبيل التجديد ، بل من قبيل التوظيف ، لكي يوصل الشاعر رسالته الشعرية بجمال وعذوبة وقوة .

■ ■

اسم الكتاب : المرأة اليهودية . الماضي ، الحاضر ، والمستقبل
المؤلف : ناتالي رين . تعريب : د . سهام منصور
الناشر : مكتبة مدبولي ـ القاهرة
عدد الصفحات : ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

يعرض الكتاب لتاريخ الحركة النسائية اليهودية ، ويمهد لهذا العرض بجزء كامل ، يبدأ فيه بمناقشة المسألة اليهودية ، والهجرة إلى فلسطين ، وبداية الصراعات داخل الكيان الصهيوني ، والتقسيمات التي قامت داخله ، ثم يوضح الكتاب كيف بزغت النزعة العسكرية الصهيونية ، وقد كان رد فعلها تجاهل كل الحقوق الإنسانية بما فيها حق المساواة الذي كانت تنادي به المرأة ، وكان استمرار الأداء العسكري للمجتمع الصهيوني سببا في أن يعطي المجتمع دورا أكبر للرجال ، فيظل المجتمع مجتمعا رجاليا حتى حرب ١٩٧٣ . وقد بدأت المرأة تطرح تساؤلا عن جدوى مجتمع رجالي ينكسر في ست ساعات ، وبدأت منذ ذلك الوقت تتبلور حركة نسائية ، تتبنى حقوق المرأة ، وتدافع عنها داخل مجتمع امتدت عنصريته حتى طالت أفراده .

■ ■

اسم الكتاب : أزمات الحقيقة والحرية في التربية العربية المعاصرة
المؤلف : د . محمد جواد رضا
الناشر : ذات السلاسل ـ الكويت
عدد الصفحات : ٢٦٠ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

يطرح الكاتب رؤيته للأزمة التربوية المعاصرة في الوطن العربي ، ويرى أن هذه الأزمة مستمرة على امتداد سبعين عاما ماضية ، ونتائجها البالغة الوضوح في نتائج العملية التربوية ، ويذهب الكاتب إلى أن هناك فهما غير دقيق داخل المجتمع العربي للوظيفة الاجتماعية للتربية ، واستمرار هذه الأزمة هو دليل على فقدان الرؤية الصحيحة للعملية التربوية ، وهو الأمر الذي يهدد المجتمع العربي .

ويجمل الكاتب في الكتاب سبع أزمات يرى أنها تمثل إشكالية حقيقية ، وهي أزمة القهر ، وغياب الإبداع ، وأزمة تربية المبدعين ، وأزمة القصور المعرفي في فهم الطفل ، والأزمة الرابعة هي معضلة القصور اللغوي في المجتمع العربي ، وأزمة تجديد الوعي بطبيعة اللغة ، وأزمة الطفولة العربية ، وأخيرا أزمة التخطيط التربوي العربي .

■■

اسم الكتاب : الاستيطان الصهيوني والمقاومة الفلسطينية

المؤلف : د . طلال ناجي

الناشر : الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار

عدد الصفحات : ٣٧٧ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٧

يتناول المؤلف في كتابه استراتيجية الاستيطان الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، موضحا الأهداف التي ترمي إليها الصهيونية من إقامة هذه المستوطنات ، كما يعرض سبل المقاومة الفلسطينية وبرامجها في مواجهة عمليات الاستيطان هذه ، موضحا كتابه برسوم وخرائط توضح تسلسل الموقفين وتطور إقامة المستوطنات .

■■

اسم الكتاب : الأبناء ـ مسرحية

المؤلف : د . أحمد سخسوخ

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب

عدد الصفحات : ١٥٧ قطع صغير

سنة النشر : ١٩٨٨

عمل مسرحي للمؤلف ، يتكون من مجموعة مشاهد درامية ، في ثلاثة أجزاء ، تدور حول آثار الظروف الاقتصادية والاجتماعية على التركيبة الاجتماعية والإنسانية في المجتمع العربي المصري . وقد عالج المؤلف فكرته من خلال بناء درامي جديد على المسرح المصري ، وهو البناء الدرامي المفتوح الذي بدأه جورج بوشنر في ثلاثينيات القرن الماضي بألمانيا .

■■

اسم الكتاب : التطور العمراني في دول الخليج العربي

المؤلف : د . ابراهيم ماجد الشاهين

الناشر : سلسلة دراسات في التخطيط والعمارة ـ الكويت

عدد الصفحات : ١٣١ قطع متوسط

سنة النشر : ١٩٨٧

تمكنت دول الخليج العربي من القفز قفزات هائلة في مجال التطور العمراني ، وذلك خلال السنوات القليلة الماضية . وفي هذا الكتاب يقوم الكاتب ـ بحكم تخصصه ـ برصد للتطور العمراني في دول الخليج العربي ، وإلقاء الضوء على مفاهيم النهضة العمرانية ومعايير تطورها ، ويطرح بعد ذلك تصورا للتخطيط العمراني نابعا من تاريخ العمران في المدينة العربية الإسلامية . □

العربي
أول يناير ١٩٨٩
عدد ممتاز
هدية العدد : مفكرة ١٩٨٩

مسابقة العربي الثقافية

العـدد ٣٦١

ديسمبر ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦١ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يناير ١٩٨٩

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـدد ٣٦١

١

* من المعروف أن الملاكم الشهير محمد علي كلاي يعاني مرضا معروفا من أعراضه ارتعاش اليدين والذراعين ، وجمود حركة الوجه . وصعوبة البلع والنطق ترى ما اسم هذا المرض ؟
* التهاب السحايا
* الشلل النصفي
* باركنسون

٢

* من هما الفتاتان اللتان تظهران في الصورة ؟ وأي نهر هذا الذي تراه وراءهما ؟

٣

* يظهر في الصورة رجل صيني ومعه ابنته الوحيدة ، ترى لم هي وحيدة ؟

٤

* صورة المسجد الجامع في سيول ، عاصمة كوريا . ترى متى دُشّن هذا المسجد ؟ وما عدد المسلمين في كوريا الجنوبية ؟

٥

* تبين الصورة كيف يصهر الحديد في أحد مصانع الحديد والصلب . أين يوجد هذا المصنع ؟ وكم يبلغ إنتاجه وعدد عماله ؟

٦

* استاد رياضي ضخم كما لا يخفى . ترى أي استاد هذا ؟ وما عدد المتفرجين الذين يستطيعون الجلوس على مدرجاته ؟

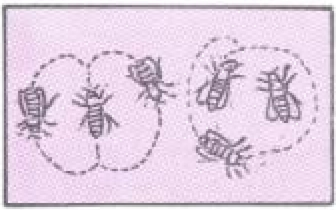

٧

* رسمان متشابهان ، ورقصتان من رقصات النحل مختلفتان ، إذ ترمز إحداهما إلى وجود غذاء قريب ، وترمز الأخرى إلى وجود غذاء بعيد . فأيهما هذه ؟ وأيهما تلك ؟

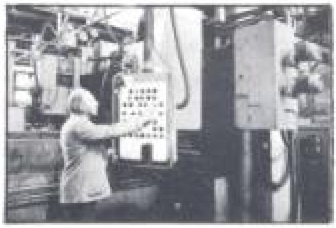

٨

* إنها صورة مصنع دون شك . ترى ماذا يصنع في هذا المصنع ؟ وأين يوجد ؟

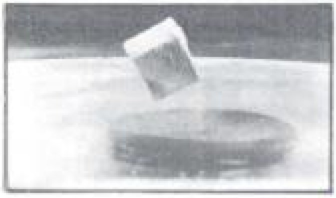

٩

* صورة غريبة حقا . ترى ما الذي تمثله ؟ وكيف أمكن هذا الجسم الذي يظهر في الصورة أن يرتفع إلى أعلى ؟

١٠

* صورة من هذه ؟ ومتى عاش هذا الرجل ؟ وما هو مجال اختصاصه ونبوغه ؟

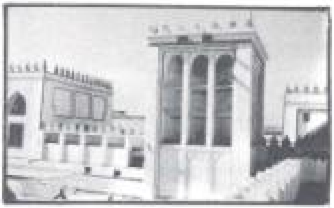

١١

* من القائل ؟ وما المقصود ؟

وَنَفْحَةِ بادهنجٍ أسكرتْنا

وَجَدْتُ بِرُوحِها بَرْدَ النعيم

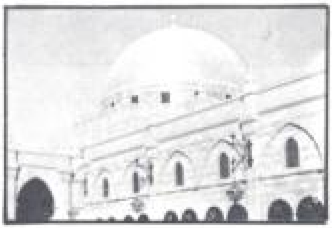

١٢

* هل هو مسجد أم جامعة ؟ وأين يوجد هذا المبنى الذي يظهر في الصورة ؟

حلّ مسابقة العدد ٣٥٨ سبتمبر ١٩٨٨

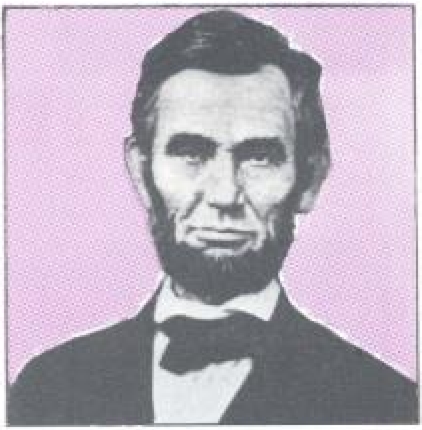
ابراهام لنكولن

١ للمتنبي ، ملغزا في الحمّى .

٢ تنسب العبارة الى ابراهام لنكولن ، وقد وردت في خطاب له ألقاه في ٨ سبتمبر سنة ١٨٥٨ .

٣ المسافة التي مشاها ميل واحد ، والمسافة التي قطعها راكباً ٧ أميال . ولأن طول القطار ميل واحد فإن المسافة التي يقطعها هذا القطار ٧ أميال ، أي ٨ - ١ = ٧

٤ في نيوزيلندة ، فالماوري هم سكان نيوزيلندة الاصليون ، لكنهم لا يشكلون سوى ٨ ٪ من مجموع سكان نيوزيلندة في الوقت الحاضر .

٥ سور الصين العظيم .

٦ ترمز إلى الدويلات الأصلية التي تكونت منها الولايات المتحدة ، والتي كانت خاضعة للاستعمار البريطاني ، وعددها ١٣ دويلة أو مستعمرة .

٧ يحتاجان إلى ساعة وأربعين دقيقة لحرث الحقل كله .

٨ اسم البلدة الأخرى التي طمرها ودمرها بركان فيزوف سنة ٧٩ ق . م . هركولانيوم .

٩ ابن المعتز ملغزا في شمعة .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٨ سبتمبر ١٩٨٨

الجائزة الأولى : عبدالمنعم العجيمي/ الصفاة - دولة الكويت .

الجائزة الثانية : أكرم طه عبدالسلام/ المنوفية - الباجور - جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثالثة : يمن فائز مغربي/ طرابلس - الجمهورية اللبنانية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - ملك الحاج حامد/ كندا - مونتريال .

٢ - سعيد الجليدي/ قابس - الجمهورية التونسية .

٣ - نجيب عبدالأحد ديزه/ بغداد - الجمهورية العراقية .

٤ - عرب خليل القصيري/ جامعة اليرموك - اربد - المملكة الأردنية الهاشمية .

٥ - مشاعر عبدالوهاب البدري/ البرادي - جمهورية السودان الديمقراطية .

٦ - علي سعيد المنتصر/ ممبسا - كينيا .

٧ - برحو خالد/ القنيطرة - المملكة المغربية .

٨ - سيدات بن أحمد/ نواكشوط - موريتانيا .

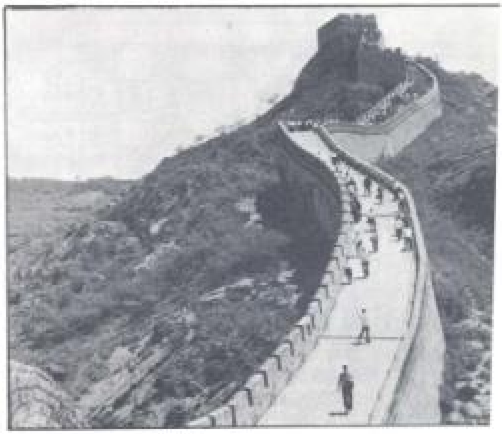

سور الصين العظيم

١٠ الكاتبة إلا ويلر ولكوكس وهي قائلة عبارة : « اضحك يضحك العالم معك » ، وقد وردت هذه العبارة في قصيدة لها نشرتها أول مرة في صحيفة (نيويورك صن) بتاريخ ١٨٨٢/٢/٢٥ ، وعنوان القصيدة « العزلة » .

١١ مقامات الحريري ، المقامة الكرجية .

١٢ صاحب الصورة والرجل الذي ينظر إلى الصورة واحد ، فصاحب الصورة هو ابن والد المتكلم ، كما يخبرنا الرجل صراحة ، وهو ابنه الوحيد ، وقد حرم الإخوة والاخوات ، فمن يكون ابن أبيه الوحيد سواه !

معركة بلا سلاح

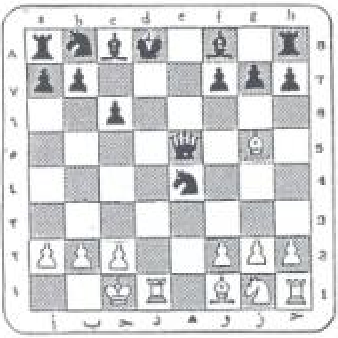

من أمضى أسلحة الشطرنج وأشدها فتكاً ما يعرف بالكش بالكشف والكشة المزدوجة ، إذ ليس هناك ما يصمد أمام بطشها وقوتها التدميرية الفتاكة . فالكشة المضاعفة إذا جاز لنا التشبيه هي القنبلة الهيدروجينية التي لا تبقي ولا تذر ، ولا تخلف وراءها سوى الموت والدمار ، ويتضح مدى خطورة هذه الكشة من اللوحة التالية التي يموت فيها ملك الأسود في نقلتين على الرغم مما يتمتع به من تفوق مادي وما يحيط به من أسباب القوة والمنعة (١) ر - ز ٦ + بالكشف م × ز ٦ (٢) و - ز ٥ (مات) .

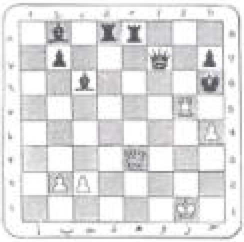

ويرجع الفوز في غالبية الأدوار القصيرة التي تنتهي بكش مات مبكر إما إلى الكشة المزدوجة ، أو الكش بالكشف ، ومن الأمثلة الجميلة على ذلك الدور التالي من مباراة فيينا (١٩٠٨) بين اللاعبين الكبيرين ريتي بالأبيض والدكتور تارتاكوفر بالأسود :

١) هـ ٤	جـ ٦
٢) د ٤	د ٥
٣) ح - جـ ٣	د × هـ ٤
٤) ح × هـ ٤	ح - و ٦
٥) و - د ٣	هـ ٥
٦) د × هـ ٥	و - أ ٥ +
٧) ف - د ٢	و × هـ ٥
٨) ت ت ! (مضحياً بالحصان)	ح × هـ ٤
٩) و - د ٨ + ! ! (مضحياً بالوزير)	م × د ٨

١٠) ف - ز ٥ (كشة مزدوجة) ويموت بالنقلة التالية مهما لعب (انظر الشكل في أعلى الصفحة)

والكش بالكشف كثيراً ما يؤدي الى كسب مادي بطرق متعددة ، ففي اللوحة التالية يضطر الأسود للاستسلام بعد نقلتين بسبب الكش بالكشف :

١) ز × و ٥	ر × هـ ٥
٢) ر × هـ ٥	يستسلم

لأنه لو أخذ البيدق و ٤ بالحصان لفاز الأبيض بالفرق عن طريق الكش بالكشف .

والقدرة التدميرية لهذا السلاح الفتاك من الشدة ، بحيث يمكن التضحية حتى بالوزير للحصول على سلسلة من الكشات بالكشف كما هو الحال في نهاية الدور التالي بين اللاعب الكبير توري واللاعب الألماني عمانويل لاسكر (أسود) بطل العالم ما بين (١٨٩٤ ـ ١٩٢١) والذي جرى الدور في موسكو (١٩٢٥) .

٢٥) ف - و ٦	و × حـ ٥
٢٦) ر × ز ٧ +	م - حـ ٨
٢٧) ر × و ٧ + بالكشف	م - ز ٨
٢٨) ر - ز ٧ +	م - حـ ٨
٢٩) ر × ب ٧ + بالكشف	م - ز ٨
٣٠) ر - ز ٧ +	م - حـ ٨
٣١) ر - ز ٥ + بالكشف	م - حـ ٧
٣٢) ر × حـ ٥	م - ز ٦
٣٣) ر - حـ ٣	م × و ٦
٣٤) ر × حـ ٦	ويفوز بالدور

مسألة العدد (٣٦١)
ديسمبر ١٩٨٨

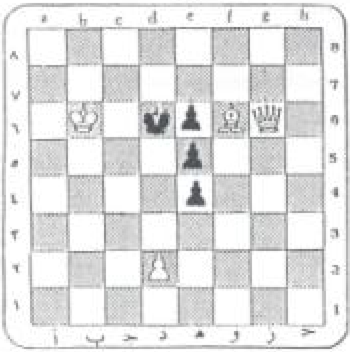

مات ٢

مهداة من القاريء محمد عقيل (سوريا)

حل مسألة العدد ٣٥٩
اكتوبر ١٩٨٨

١) ر - ز ١ +	م - و ٨
٢) ح - د ٧ +	ر × د ٧
٣) ر - هـ ٨ +	م × هـ ٨
٤) ر - ز ٨ + (مات)	

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٨ ـ سبتمبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . فراس جعفر كريم ـ بغداد / العراق
٢ . أحمد الصالح بن أحميد ـ نواكشوط ـ موريتانيا
٣ . أبوبكر محمد زعيبة ـ مصراتة / ليبيا
٤ . ندى عبدالعزيز السبالي ـ الرياض / السعودية
٥ . محمد أحمد عزام ـ القاهرة/ ج . م . ع

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . روز فرح سالم ـ الشعيبة / الكويت
٢ . محمد رابح ـ دويسبرغ / ألمانيا الغربية
٣ . جمال عبدالرحمن حسين ـ عمان / الأردن
٤ . نعمة هاشم وادي ـ الوكرة / قطر
٥ . عفيف ماني ـ سوسة / تونس

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

آمال السلام ووحدة العرب

● وردت الى المجلة رسائل عديدة تشيد بحديث الشهر الذي كتبه رئيس التحرير في العدد (٣٥٨) سبتمبر ١٩٨٨ وموضوعه « بعد أهوال الحرب تنعش آمال السلام » ويذكر مرسلوها أنه قد أثار الغيرة فيهم على الدين الاسلامي الحنيف ووحدة العرب والمسلمين في هذه الأيام الحرجة من تاريخنا .

وقد ركزوا على النقطة الجوهرية التي أثارها حديث الشهر حول موضوع الخلافات العربية ، وأن الخاسر فيها هو المواطن العربي ، وأن هذا شيء مهم يجب أن يعرفه كل انسان يحاول أن يوجد مثل هذه الخلافات ، وأن المستفيد الأول من هذه الخلافات هم أعداء العرب والدين .

ختم معظم هذه الرسائل بعبارة : « نحن سعداء جدا بهذا التوجه الموضوعي الذي أثاره الدكتور رئيس التحرير ، فإلى الأمام دائما في تطوير المجلة وجعلها تتصدى لقضايا العرب المصيرية » .

القراء : ياسر محمد سيد أحمد - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - مصر .
عبدالله محمد عبدالله المنديل - الرياض - السعودية .
محمد محمد المطاع - عضو مجلس الشورى - صنعاء - اليمن الشمالي .
خالد ابراهيم محمد هبة - القاهرة - مصر .
أحمد سعد موسى الصياد - القليوبية - جمهورية مصر العربية

■■■

سريلانكا تطلب العربي

● اطلعت على بعض الأعداد من « العربي » التي أحضرها معه صديق من السعودية ، فوجدت فيها فوائد عديدة ومواد ثقافية ممتازة ذات مستوى عال . أنا أدرس العلوم العليا في كلية الدراسات العربية في سريلانكا . ومن اطلاعي على بعض أعداد مجلتكم بدأت أعرف أخبار المسلمين في جميع أنحاء العالم فهي - حقا - نافعة ، وتقدم خدمة جليلة لإشاعة الاسلام ، لكن حينما بحثت عنها في الأسواق لم أجدها . فلماذا لا تعملون على إيصال نسخ من أعدادها إلينا مع جزيل الشكر ؟

القارىء / أمير حسين - سريلانكا

- نود الافادة بأن بلادكم مدرجة ضمن خطة المجلة عند توسيع مناطق التوزيع ونأمل أن يكون ذلك في المستقبل القريب .

العربي

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

التمارين البدنية

● قرأت في عدد سبتمبر ١٩٨٨ (رقم ٣٥٨) مقالا ممتعا مفيدا بعنوان « أثر الحركة على صحة الإنسان » للدكتور عصام سامي الخالدي ، وأود أن أسأل عن الأمراض التي تستطيع معالجتها بالتمارين البدنية إن كان ثمة أمراض من هذا القبيل ، فقد أشار الدكتور عصام إلى مثل هذه الأمراض في أواخر مقاله ، كذلك أرجو افادتي عن هيرودوتس الكاتب اليوناني المعروف (٤٨٤ ـ ٤٢٥) ، فقد ذكر الكاتب في مطلع مقاله أن هيرودوتس هذا كان طبيبا ، فضلا عن كونه مؤرخا ، وأن له كتابا في الطب بعنوان « قانون الطب » ، وأنه قد ذكر في هذا الكتاب أنه استخدم التمرين البدني بنجاح في العلاج ، فأنا لا أعرف أن هيرودوتس المؤرخ كان طبيبا في الوقت نفسه ، ولا أذكر أن بين الأطباء اليونان من كان يسمى باسم المؤرخ هيرودوتس .

سالم الطيب ـ طرابلس ـ ليبيا

العربي

ـ نحيل سؤالك الى الدكتور عصام سامي الخالدي ، ونرجو أن يصلنا رده الوافي عن سؤالك في مستقبل قريب .

■■■

الجزائر تطلب العربي

● إنني مهتم بالعربي وبرأيي أنها من أفضل المجلات العربية ، وكثيرا ما نقرأ فيها معلومات مهمة عن الكويت وغيرها من أقطار الوطن العربي وكذلك عن أقطار العالم الأخرى ، كما نقرأ آخر المعلومات العلمية والقصص الهادفة ، لكن منذ فترة لم تصلنا العربي في القسنطينة بالجزائر . نرجو أن يكون المانع خيرا ، فالمجلة لها قراؤها هنا ، وغيابها يجعلنا في مأزق . فهل ذلك بسبب توقفها أم أن هناك أسبابا أخرى ؟

مصباح حمودي

ساقية سيدي يوسف ـ قسنطينة ـ الجزائر

العربي

ـ نشكرك على اهتمامك الفائق بالمجلة ، ومتابعتك لموادها ، أما بخصوص عدم وصول المجلة للقطر الشقيق الجزائر فإن من أهم أهدافنا الأساسية إيصالها إلى كل قارىء في كل بقعة من البقاع ، لكن تواجهنا في بعض الأحيان معوقات خارجة عن إرادتنا ، كمشكلة وصول المجلة الى القراء في الجزائر التي ليس لنا أي تقصير فيها ، بل إنها راجعة للموزع المسئول في الجزائر ، وهي جار حلها هذه الأيام ، وعليه فإننا نأمل أن تكون « العربي » بين أيديكم في أقرب فرصة .

حوار القراء

أندلسيات العربي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● اطلعت على كتاب العربي (أندلسيات) للكاتب محمد عبدالله عنان الصادر في تموز يوليو ١٩٨٨ وهو رقم ٢٠ في سلسلة كتاب العربي التي تعد مفخرة ثقافية تضاف الى رصيد المجلة والقائمين عليها ، فهذه مائدة العربي ـ زادها الله عافية ، وأغناها ـ تقدم لنا زادا تنار به العقول ، وتطمئن إليه النفوس في تناغم إيقاعي أرق من نسمة باردة في صيفنا القائظ .

الأستاذ / طاهر جاسم التميمي

بغداد / الجمهورية العراقية

■■■

العربي في الدانمرك

● مركز الدراسات الاسلامية بالدانمرك يتطلع دائما لوصول مجلة العربي ومطبوعاتها ، ولكن منذ شهر فبراير نجد صعوبة في الحصول عليها . ولقد تابعنا حادثة الطائرة الكويتية المخطوفة بالصلاة والدعاء لفك كربة المسلمين ، ونحمد الله أن حفظ شعبكم الحبيب وبلدكم العزيز مع المسلمين جميعا .

مدير المركز / حسين زين

مركز الدراسات الاسلامية ـ الدانمرك

■■■

ردود قصيرة

* القارىء : محمد علي جنيد من مدينة حماة بالجمهورية العربية السورية بعث إلينا يقترح تخصيص باب لبعض العلماء العرب في مجالات متعددة ، ونحن نقول : إننا نرحب باقتراحه ، ونشكره عليه ونقول له : إننا لم نتردد في نشر نتاج العلماء العرب ومساهماتهم في المواضيع المختلفة .

* القارىء محمد محمود حسن من الاسماعيلية بجمهورية مصر العربية يشيد بالدور الثقافي الذي تقوم به « العربي » ، ويقترح تخصيص باب تعليمي عن « الكمبيوتر » ، ونقول له : اننا في المجلة اذا ما وجدنا أن هناك حاجة الى ايجاد باب خاص بعلوم « الكمبيوتر » فلن نتردد في ذلك ، أما في الوقت الحاضر فإننا ننشر مقالات متنوعة ثقافية في مجال دراسات « الكمبيوتر » ، نرجو أن تكون قد اطلعت عليها .

* القارىء المهندس الزراعي كامل السيد تويج بعث برسالة يعبر فيها عن إعجابه الشديد بالمجلة ، وبالمعلومات التي وردت في الاستطلاع عن نبات الجنسيغ الذي نشر في عدد سبتمبر ١٩٨٨ ، كما أرسل بعض المعلومات عن هذه النبتة وقصة اكتشافها فنشكره على ذلك .

العربي

فهرس سنة

١٩٨٨

من العدد ٣٥٠ إلى العدد ٣٦١

السنة الحادية والثلاثون

حديث الشهر **بقلم : رئيس التحرير / الدكتور محمد الرميحي**

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
سنوات إعادة النظر	١	٨٨	٣٥٠	٨
الذخائر والتحف	٢	٨٨	٣٥١	٨
عقد التنمية الثقافية أفكار وتساؤلات !	٣	٨٨	٣٥٢	٨
انغلاق العقل الامريكي !	٤	٨٨	٣٥٣	٨
وعلى أرض فلسطين السلام	٥	٨٨	٣٥٤	٨
حين تختفي الأوهام ! البيرويسترويكا أو إعادة بناء إحدى القوتين العظميين	٦	٨٨	٣٥٥	٨
لعبة الخبراء	٧	٨٨	٣٥٦	٨
للبيت رب يحميه	٨	٨٨	٣٥٧	٨
بعد أهوال الحرب تنتعش آمال السلام	٩	٨٨	٣٥٨	٨
مستقبل المشاهدة وثورة الترفيه	١٠	٨٨	٣٥٩	٨
تعلم كيف تفاوض !	١١	٨٨	٣٦٠	٨
عن الحب والحرام يسألون . . !	١٢	٨٨	٣٦١	٨

دين

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
المسلمون .. وعبور الفجوة	د . احمد كمال ابو المجد	١	٨٨	٣٥٠	١٨
البيان في أسباب نزول القرآن	حسين احمد امين	١	٨٨	٣٥٠	٢٨
للمناقشة: التمذهب والتعصب والتخلف !	فهمي هويدى	١	٨٨	٣٥٠	٩٠
للمناقشة: فض الاشتباك الفكري بين المسلمين	فهمي هويدى	٢	٨٨	٣٥١	٨٤
البيان في أسباب نزول القرآن	حسين احمد أمين	٢	٨٨	٣٥١	١٥٤
العلمانية والدين بين الشمال والجنوب نماذج من التطبيقات	د . عبدالعزيز كامل	٣	٨٨	٣٥٢	١٨
للمناقشة : «لافتة» حزب الله !	فهمي هويدى	٣	٨٨	٣٥٢	٤٢
البيان في أسباب نزول القرآن	حسين احمد امين	٣	٨٨	٣٥٢	٦٢
أبناؤنا في رمضان	د . عبدالعزيز كامل	٤	٨٨	٣٥٣	٢٥
للمناقشة : التعددية السياسية وشبح الفتنة	فهمي هويدى	٤	٨٨	٣٥٣	٤٩
الاسلام والتوازن الاجتماعي	د. عبدالرحمن زكي ابراهيم	٥	٨٨	٣٥٤	٢٤
للمناقشة/التعددية والمعارضة في الاسلام	فهمي هويدى	٥	٨٨	٣٥٤	٣٠
مجلة اسمها «الاسلام»	د . عبدالعزيز كامل	٦	٨٨	٣٥٥	٣١
للمناقشة/من يملك حقوق نشر القرآن الكريم ؟	فهمي هويدى	٦	٨٨	٣٥٥	٤٨
منهج التجديد في الفكر الاسلامي	د . محمد فاروق النبهان	٧	٨٨	٣٥٦	١٩
حقيقة موقف الاسلام من الشعر	د . مصطفى رجب	٨	٨٨	٣٥٧	٢٣
الاسلام واشكالية الفكر الحضاري	د . محمد ابراهيم الفيومي	٨	٨٨	٣٥٧	٤٩
مع اطلالة العام الهجري : الاسلام والاستقامة الفكرية	د . عبدالعزيز كامل	٩	٨٨	٣٥٨	١٩
البيان في اسباب نزول القرآن	حسين احمد امين	١٠	٨٨	٣٥٩	٣٦
من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين	د . راشد المبارك	١٠	٨٨	٣٥٩	١١٤
الاسلام بين الاخاء والدماء	د . عبدالعزيز كامل	١١	٨٨	٣٦٠	١٨
الثقافة الاسلامية وتحديات العصر	د . رضوان السيد	١٢	٨٨	٣٦١	١٨
البيان في اسباب نزول القرآن	حسين احمد امين	١٢	٨٨	٣٦١	١١٤

سياسة واقتصاد

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
مستقبل الاقتصاد العالمي : هل يعود الكساد الكبير مرة اخرى ؟	د . رمزى زكي	١	٨٨	٣٥٠	٢٣
التنمية وقانون الجهد الاقل	د . مطانيوس حبيب	٢	٨٨	٣٥١	٢٦
الايدز وافريقيا العنصرية	د . علي الدين هلال	٤	٨٨	٣٥٣	٣٢

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الايديولوجيا الناعمة ، موجة جديدة في الغرب !	د . عبدالله عبدالدائم	٥	٨٨	٣٥٤	١٨
الاقليات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم	د . عبدالوهاب المسيري	٥	٨٨	٣٥٤	٤٥
اسرائيل كتهديد نووي	امين هويدي	٥	٨٨	٣٥٤	٥٠
فرنسا وجذور الحركة الصهيونية غير اليهودية	رياض معسعس	٥	٨٨	٣٥٤	٥٧
الخدمة الاسرائيلية السرية !	أمين هويدي	١٠	٨٨	٣٥٩	١٨
يا عرب! الزراعة .. الزراعة	د . سمير رضوان	١١	٨٨	٣٦٠	٢٣

عروبة

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الإنفتاح العربي على الحضارات الاخرى	د . محمد عماره	٢	٨٨	٣٥١	٣١
أربعون عاما من النضال لاستعادة الأرض		٥	٨٨	٣٥٤	٣٥
من الاقتلاع الى الصراع من أجل البقاء	د . شفيق الغبرا	٥	٨٨	٣٥٤	٣٦
الجيل الفلسطيني الجديد تحت الاحتلال	توفيق ابو بكر	٥	٨٨	٣٥٤	٤٢
النخبة العربية والاغتراب	د . هاني الراهب	٦	٨٨	٣٥٥	٢٦
اشكالية الوحدة الإقليمية في الفكر العربي الوحدوي	د . محمد جابر الانصاري	٧	٨٨	٣٥٦	٢٤
نموذج عربي في نظرية «الوحدة الطبيعية»	د . محمد جابر الانصاري	٨	٨٨	٣٥٧	١٨

استطلاعات الكويت المصورة

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
عصر جديد للغة العربية .. القرآن الكريم على شاشة «كمبيوتر»	محمود عبدالوهاب	١	٨٨	٣٥٠	١٢٠
الواجهة البحرية اطلالة جديدة على مياه الخليج العربي	ريم الكيلاني	٢	٨٨	٣٥١	١٦٤
جمعية الجنوب والخليج العربي،شمعة وضاءة في طريق الخير	ريم الكيلاني	٤	٨٨	٣٥٣	١٤٢
صرح للتدريب شعاره خدمة التنمية ورعاية الشباب في الكويت	ريم الكيلاني تصوير : سليمان حيدر	٨	٨٨	٣٥٧	١٥٢
مشروع استزراع الاسماك في الكويت خطوة نحو الاكتفاء الذاتي	ريم الكيلاني تصوير : طالب الحسيني	١٢	٨٨	٣٦٠	٩٠

الاستطلاعات العربية والخارجية

الموضوع	الكاتب	الجزء	السنة	العدد	الصفحة
مالطة لسان عربي وقلب اوروبي !	صلاح حزين تصوير : سليمان حيدر	١	٨٨	٣٥٠	٣٦
أم سعيد مدينة الصناعات الواعدة في قطر	صادق يلي تصوير : فهد الكوح	١	٨٨	٣٥٠	١٠٠
التجربة الكورية وهم أم .. معجزة ؟	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٢	٨٨	٣٥١	٣٦
معهد العالم العربي في باريس قصر للثقافة العربية على ضفاف السين	صلاح حزين	٢	٨٨	٣٥١	١٠٠
مغامر يكتشف قارة في الشرق الأقصى السوفيتي !	سليمان الشيخ تصوير : طالب الحسيني	٣	٨٨	٣٥٢	٦٨
الإمارات العربية المتحدة عودة الى المعمار الاسلامي	صادق يلي تصوير : فهد الكوح	٣	٨٨	٣٥٢	١٣٢
سيول .. عروس الاولمبياد	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٤	٨٨	٣٥٣	٦٨
ماربيا .. لؤلؤة الشاطيء الاندلسي	سلمى الحفار الكزبري	٤	٨٨	٣٥٣	١٣٢
تايوان الجميلة لم تعد عذراء	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٥	٨٨	٣٥٤	٦٨
اليونسكو «عطاء الثقافة والعلم والتربية»	صلاح حزين	٥	٨٨	٣٥٤	١٣٢
«كريت» من هنا دخل الانكليز ومن هنا خرجوا !	سليمان الشيخ تصوير : فهد الكوح	٦	٨٨	٣٥٥	٦٨
كينيا الوجه الآخر لافريقيا	محمود عبدالوهاب تصوير : طالب الحسيني	٦	٨٨	٣٥٥	١٣٢
بكين المدينة المحرمة تنفتح على العالم	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٧	٨٨	٣٥٦	٦٨
جيبوتي : حيرة اللسان والمكان !	سليمان الشيخ تصوير : فهد الكوح	٧	٨٨	٣٥٦	١٣٢
الحرمان الشريفان يسعان جميع المسلمين	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٨	٨٨	٣٥٧	٦٨
ناخودكا السوفيتية .. الصدفة التي أنقذت امريكا !	سليمان الشيخ تصوير : طالب الحسيني	٨	٨٨	٣٥٧	١٣٢
السويد بلاد الشمس الباردة	د . حسن عباس تصوير : طالب الحسيني	٩	٨٨	٣٥٨	٦٨
حيوانات نادرة في الخليج العربي !	انور الياسين تصوير : طالب الحسيني	٩	٨٨	٣٥٨	١٣٢

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
«الجينسنغ» الوهم والحقيقة	سليمان الشيخ	٩	٨٨	٣٥٨	١٥٠
من شيان الى مشوان مولود واحد يكفي !	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	١٠	٨٨	٣٥٩	٦٨
زنجبار أندلس افريقيا !	محمود عبدالوهاب تصوير : طالب الحسيني	١٠	٨٨	٣٥٩	١٣٢
ردفان .. العودة إلى «الجهاد» الأكبر	سليمان الشيخ تصوير : فهد الكوح	١١	٨٨	٣٦٠	٦٨
تايلند .. «أرض الاحرار» تبيع كل شيء .. حتى الانسان	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	١١	٨٨	٣٦٠	١٣٢
جورجيا السوفيتية .. الولاء قديم	سليمان الشيخ تصوير : سليمان حيدر	١٢	٨٨	٣٦١	٦٨
الاتحاد الدولي لتنظيم الاسرة: متطوعون لكي تصبح حياتنا ممكنة!	محمود عبدالوهاب تصوير : فهد الكوح	١٢	٨٨	٣٦١	١٣٢

أدب ولغة

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
قراءة نقدية في كتاب: قليل من الحب وكثير من العنف	ابو المعاطي ابو النجا	١	٨٨	٣٥٠	٧٢
طرائف في السرقات الشعرية	د . وديعة طه نجم	١	٨٨	٣٥٠	٨٠
خصومة أدبية فريدة !	عبدالرزاق البصير	١	٨٨	٣٥٠	٩٥
قراءة نقدية لكتاب: بيروت .. بيروت	أبو المعاطي أبو النجا	٢	٨٨	٣٥١	١٣٧
غموض الشعر الجديد	سالم عباس خدادة	٢	٨٨	٣٥١	١٤٩
قراءة نقدية لكتاب «البئر الأولى» فصول من سيرة ذاتية	ابو المعاطي ابو النجا	٣	٨٨	٣٥٢	٣٦
الأطفال والأدب الشعبي	د . محمود ذهني	٣	٨٨	٣٥٢	١٧٦
رمضان في الأدب العربي	محمود الشرقاوى	٤	٨٨	٣٥٣	٣٦
قراءة نقدية لكتاب : رسالة في الطريق الى ثقافتنا	د . سعد مصلوح	٤	٨٨	٣٥٣	٤٢
نزعات الانتحار عند المبدعين	د . محمد جابر الانصاري	٤	٨٨	٣٥٣	٥٣
قراءة نقدية لكتاب : السيد من حقل السبانخ	ابو المعاطي ابو النجا	٥	٨٨	٣٥٤	١٠٤
أربعة خيوط في نسيج انتحار شاعر	د . محمد جابر الانصاري	٦	٨٨	٣٥٥	٣١

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
يكاد المريب يقول خذوني !	شريف الراس	٦	٨٨	٣٥٥	٣٦
قراءة نقدية لكتاب : مساء البلورات	ابو المعاطي ابو النجا	٦	٨٨	٣٥٥	٤٢
حقيقة القصيدة اللامية	عبدالرزاق البصير	٦	٨٨	٣٥٥	٦٢
قراءة نقدية لكتاب : الموت يضحك	ابو المعاطي ابو النجا	٧	٨٨	٣٥٦	٤٦
قراءة نقدية لكتاب : «ليلة القدر»	ابو المعاطي ابو النجا	٨	٨٨	٣٥٧	٤٢
حوار في باريس .. داء كل زمان !	د . عبدالسلام العجيلي	٨	٨٨	٣٥٧	٦٠
قراءة نقدية لكتاب «الحنان الصيفي»	د . حامد ابو احمد	٩	٨٨	٣٥٨	١٠٤
من طرائف النقد والنقاد	عبدالرزاق البصير	٩	٨٨	٣٥٨	١١١
قراءة نقدية لكتاب «وسمية تخرج من البحر»	سمر روحي الفيصل	١٠	٨٨	٣٥٩	٣٩
حكايات .. في الأدب والفن والتاريخ	د . عبدالحميد يونس	١١	٨٨	٣٦٠	٤٦
قراءة نقدية لكتاب : «المرتجى والمؤجل»	صلاح حزين	١١	٨٨	٣٦٠	١٠٤
البحث عن الزمن المفقود	د . زينب عبدالعزيز	١١	٨٨	٣٦٠	١٥٨
طه حسين في ميزان النقد العلمي	د . أحمد علبي	١٢	٨٨	٣٦١	٢٦
الموشحات والقدود.. حلية أم حصية؟	د . عمر موسى باشا	١٢	٨٨	٣٦١	٣٩
قراءة نقدية لكتاب : سعد نديم رائد السينما التسجيلية	علي أبو شادي	١٢	٨٨	٣٦١	١٢١

جمال العربية : صفحة لغة

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
التنازع في العمل باب في النحو ينبغي حذفه	محمد خليفة التونسي	١	٨٨	٣٥٠	٢١٠
أسئلة وأجوبة	محمد خليفة التونسي	٢	٨٨	٣٥١	٢١٠
«الحاسوب» و «الحيسوب»	محمد خليفة التونسي	٣	٨٨	٣٥٢	١٨٠
في افعال المطاوعة	يوسف العياشي	٤	٨٨	٣٥٣	١٨٠
الفاظ معربة	د . حسن عباس	٥	٨٨	٣٥٤	١٧٦
تعابير يقرها المجمعيون	د . حسن عباس	٦	٨٨	٣٥٥	١٧٦
أسئلة وأجوبة	د . حسن عباس	٧	٨٨	٣٥٦	١٧٦
جابر والرتيلاء	د . حسن عباس	٨	٨٨	٣٥٧	١٧٦
ليس !	د . حسن عباس	٩	٨٨	٣٥٨	١٧٦
جذب .. لاشجب	د . حسن عباس	١٠	٨٨	٣٥٩	١٧٦
دعس ، ودهس	د . حسن عباس	١١	٨٨	٣٦٠	١٧٦
ابواب في النحو لا نفع فيها	د . حسن عباس	١٢	٨٨	٣٦١	١١٠

جمال العربية ـ صفحة شعر

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
حيل التمني لمخائيل نعيمة	١	٨٨	٣٥٠	٢١٢
في الصداقة لأبي تمام	٢	٨٨	٣٥١	٢١٢
الابناء بين البر والعقوق لأمية بن أبي الصلت	٣	٨٨	٣٥٢	١٨٢
تأملات في الناس والحياة للامام الشافعي	٤	٨٨	٣٥٣	١٨٢
العنقاء للشاعر ايليا ابي ماضي	٥	٨٨	٣٥٤	١٧٨
تغير حسن الجعفري للشاعر أبي عبادة البحتري	٦	٨٨	٣٥٥	١٧٨
تباريح جريح لجميل بثينة	٧	٨٨	٣٥٦	١٧٨
ومن الشعر ما أنصف للشاعر عبدالشارق الجهني	٨	٨٨	٣٥٧	١٧٨
الجهال معادن للشاعر عمرو بن معد يكرب	٩	٨٨	٣٥٨	١٧٨
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل للطغرائي	١٠	٨٨	٣٥٩	١٧٨
مرحى غيلان للشاعر بدر شاكر السياب	١١	٨٨	٣٦٠	١٧٨
وقفات جريئة أمام الموت	١٢	٨٨	٣٦١	١١٢

شعر وشعراء

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
مدينة عربية	د . عبده بدوي	١	٨٨	٣٥٠	١٧
الطواسين	خالد سعود الزيد	١	٨٨	٣٥٠	٦٤
تجليات المصادفة	شوقي بغدادي	١	٨٨	٣٥٠	٢٠٨
خريفية	محمد ابراهيم أبو سنة	٢	٨٨	٣٥١	٢٤
رؤيا	علي منصور	٢	٨٨	٣٥١	٩٩
النقيض	راشد عيسى	٢	٨٨	٣٥١	١٢٨
رسالة الى أبي	فاروق شوشة	٣	٨٨	٣٥٢	٢٤
ترابي .. انت من جسدي	د . عيسى درويش	٣	٨٨	٣٥٢	١٠٢
ليتك .. لكن	يعقوب السبيعي	٣	٨٨	٣٥٢	١٦٠
أغنية وقصيدة	ابراهيم نصر الله	٤	٨٨	٣٥٣	٣٠
النزف في طاحونة المدينة	عبدالنبي التلاوى	٤	٨٨	٣٥٣	٩٦
شيء يخص الروح	شوقي بغدادي	٤	٨٨	٣٥٣	١٧٨
البشارة	د . خليفة الوقيان	٥	٨٨	٣٥٤	٢٨
عندليب الدم والاقحوان	د . محمود الشلبي	٦	٨٨	٣٥٥	٦٦
فلسطيني في الشتات	د . حسين الدباغ	٦	٨٨	٣٥٥	١٦٠
للجرح شكل الوتر	خالد زغريت	٧	٨٨	٣٥٦	١٨

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
عراقة الفيروز	محي الدين فارس	٧	٨٨	٣٥٦	٢٨
الشعر سيد الفنون !	احمد الجندي	٧	٨٨	٣٥٦	٤٢
لذة العفو	محمد مصطفى البسيوني	٧	٨٨	٣٥٦	٦٤
وضاح	جمال عبدالجبار علوش	٧	٨٨	٣٥٦	١١٤
سنونوة للضياء الأخير	علي الجندي	٨	٨٨	٣٥٧	٢٨
كوخ الهوى	د . عيسى درويش	٨	٨٨	٣٥٧	٩٦
اللغة والبلبل	د . عبده بدوي	٨	٨٨	٣٥٧	١١٢
على حجر في الجحيم	محمد ابراهيم ابوسته	٩	٨٨	٣٥٨	٢٨
الحجارة الموسومة	محمد الفايز	٩	٨٨	٣٥٨	٨٨
أخاف عليك	محمود مفلح	٩	٨٨	٣٥٨	١٢٦
الوقت والطائر الفلسطيني	محمد محمد الشباطي	١٠	٨٨	٣٥٩	٢٤
القصيدة	أحمد بلحاج اية وارهام	١٠	٨٨	٣٥٩	٩٦
حنين	د . عبدالحميد محمود	١١	٨٨	٣٦٠	٣٠
قصيدتان	زهور دكسن	١١	٨٨	٣٦٠	١٨١
قصيدتان	يوسف عبدالعزيز	١٢	٨٨	٣٦١	٢٤
طفولة	جمال القصاص	١٢	٨٨	٣٦١	٤٣
إلى غاية للجنون الجميل	عزت الطيري	١٢	٨٨	٣٦١	٨٨
الوردة العميقة	محمدعلي شمس الدين	١٢	٨٨	٣٦١	١٦٨

قصص

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
ربيع بارد (مترجمة)	د . محمد برادة	١	٨٨	٣٥٠	١١٥
في الظل والظلام	ابراهيم قنديل	١	٨٨	٣٥٠	١٨٢
الموسيقي الجوال (مترجمة)	يوسف حلاق	٢	٨٨	٣٥١	١١٦
اللغز	برهان الخطيب	٢	٨٨	٣٥١	١٥٦
تقارير عن حالة مرضية	د . هاني الراهب	٣	٨٨	٣٥٢	٦٤
كل ما يأتلق (مترجمة)	د . احمد زياد محبك	٣	٨٨	٣٥٢	١٥٦
الذاكرة المثقوبة	عبدالحميد بن هدوقة	٤	٨٨	٣٥٣	٦٢
الجواد والموت (مترجمة)	محمد الظاهر	٤	٨٨	٣٥٣	١١٣
يد رجل مثله	محمود الريماوي	٥	٨٨	٣٥٤	١١١
الجبار (مترجمة)	حسن يوسف	٥	٨٨	٣٥٤	١٥٨
سيرافيم (مترجمة)	سهيل ايوب	٦	٨٨	٣٥٥	١٢٢
أرقام فضية وأخرى حمراء	ابراهيم زعرور	٦	٨٨	٣٥٥	١٨١

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الحواء	دلال حاتم	٧	٨٨	٣٥٦	٦٠
هواجس ليلية لبائع محتك (مترجمة)	سمير مينا	٧	٨٨	٣٥٦	١٨١
الضحية (مترجمة)	الشريف خاطر	٨	٨٨	٣٥٧	٥٣
الصرخة	قصي الشيخ عسكر	٨	٨٨	٣٥٧	١١٣
في يوم بارد	ملك حاج عبيد	٩	٨٨	٣٥٨	٥٨
طريق الخيول (مترجمة)	يوسف حلاق	٩	٨٨	٣٥٨	١٢٢
الاحتفال القديم (مترجمة)	د . محمد برادة	١٠	٨٨	٣٥٩	١٤٨
سر اللغز (مترجمة)	ابراهيم احمد الشنطي	١١	٨٨	٣٦٠	٨٨
أجنحة الروح	محمد سيارة	١١	٨٨	٣٦٠	١٢١
الغريب	حسب الله يحيى	١٢	٨٨	٣٦١	٦٢

طب وعلوم

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الكمبيوتر والحاجة الماسة الى نحو عربي جديد	د . نبيل علي	١	٨٨	٣٥٠	٣٠
البيريليوم معدن العصر	د . محمد ابو بكر	١	٨٨	٣٥٠	٥٨
اضطرابات الجهاز العصبي اللاارادي	د . انيس فهمي	١	٨٨	٣٥٠	١٣٨
انهم يزرعون خلايا المخ	د . محمد نبهان سويلم	٢	٨٨	٣٥١	٥٩
البيوتكنولوجيا ومشاكل العصر	د . سمير رضوان	٢	٨٨	٣٥١	٧٨
تكييف الأجواء عند العرب ، مكيف الهواء «بادهنج» ابتكره العرب قبل العالم بسنين	احسان جعفر	٢	٨٨	٣٥١	٩٦
اللغة الراقصة	د . حسين العروسي	٢	٨٨	٣٥١	١٢٠
الانفلونزا مرض الشتاء العنيد	د . صباح السامرائي	٢	٨٨	٣٥١	١٢٩
الوطواط : الرؤية سماعا	نبيل الجهمي	٢	٨٨	٣٥١	١٨٠
الفحص الطبي الدوري	د . قاسم طه الساره	٢	٨٨	٣٥١	١٩٨
غدة البروستاتا تلتهب !	د . محمد عبدالله المشاري	٢	٨٨	٣٥١	٢٠٢
كيف مات صخر ؟	د . غسان حتاحت	٢	٨٨	٣٥١	٢٠٨
نحو بناء آلة ذكية	د . علم الهدى حماد	٣	٨٨	٣٥٢	٤٧
العناكب كائنات مبدعة !	د . وسمية الحوطي	٣	٨٨	٣٥٢	٨٨
الاسهال بين هجوم الجراثيم ودفاع الجهاز الهضمي	د . صباح السامرائي	٣	٨٨	٣٥٢	١٠٩
لقاح الايدز طموحات وعقبات	سمير صلاح الدين شعبان	٣	٨٨	٣٥٢	١٤٧

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الموصلات الكهربائية الفائقة تخرج من الصقيع	د . سعود عياش	٤	٨٨	٣٥٣	٥٨
انذار للمدخنين قبل فوات الأوان	د . صباح السامرائي	٤	٨٨	٣٥٣	٩٠
الطلاء الايوني قفزة واسعة في تقنية الطلاء	د . نادر عبدالغفور احمد	٤	٨٨	٣٥٣	١٥٦
علمان عربيان في سماء الطب	د . علي مبارك	٥	٨٨	٣٥٤	٦٤
ثلاثة مشاريع اوربية لغزو الفضاء	سعد شعبان	٥	٨٨	٣٥٤	٩٠
معارك الاستنزاف بين البيئة والانسان	د . سمير رضوان	٥	٨٨	٣٥٤	١١٤
كهربائية الجسم والأمراض النفسية	د . امل علي المخزومي	٥	٨٨	٣٥٤	١٤٦
كوكب الأرض على الارض !	د . محمد نبهان سويلم	٦	٨٨	٣٥٥	٥٣
الجديد في علاج الأرق	د . امل علي المخزومي	٦	٨٨	٣٥٥	٩٠
الصداع النصفي أو الشقيقة	د . انيس فهمي	٦	٨٨	٣٥٥	١٠٠
الاستشعار عن بعد : العلم والتطبيقات	د . مأمون ملكاني	٦	٨٨	٣٥٥	١٠٤
تكنولوجيا للعالم الثالث !	د . سمير رضوان	٧	٨٨	٣٥٦	٥٢
هل نقول للعجز الجسماني وداعا ؟	د . سامي محمود علي	٧	٨٨	٣٥٦	٩٠
نموذج تعاون طبي دولي خلاق	د . عباس الحميدى	٧	٨٨	٣٥٦	١٢٢
النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي	د . شكرى ابراهيم سعد	٧	٨٨	٣٥٦	١٥٢
قصة قرحتين : المعدة والاثناعشر	د . صباح السامرائي	٨	٨٨	٣٥٧	٣٦
حكايات طبية	د . غسان حتاحت	٨	٨٨	٣٥٧	٦٣
دون المناقير ماذا كانت ستفعل الطيور ؟	عبدالرحمن الحريتاني	٨	٨٨	٣٥٧	٨٨
الاتصال اللغوى عن طريق الجلد	د . احمد مختار عمر	٨	٨٨	٣٥٧	١٠٦
«الكمبيوتر» في جيله الخامس	علي زين العابدين	٨	٨٨	٣٥٧	١٢١
حرب الظواهر الخارقة	محمد حسن بيرقدار	٩	٨٨	٣٥٨	٣٠
اثر الحركة على صحة الانسان	د . عصام سامي الخالدي	٩	٨٨	٣٥٨	٣٦
الرحلات في عالم الحشرات	د . كارم غنيم	٩	٨٨	٣٥٨	٥١
هل أصاب المناخ جنون العصر ؟	مجدى نصيف	٩	٨٨	٣٥٨	١٥٨
لحوم صناعية من الأوراق النباتية	فوزي عبدالقادر الفيشاوي	١٠	٨٨	٣٥٩	٣٢
الصدفة والعلم !	د . محمد عبدالرحمن	١٠	٨٨	٣٥٩	٥٦
أمراض نسائية غامضة/آلام الحوض عند المرأة	د . علي مبارك	١٠	٨٨	٣٥٩	١٠٣
خطأ الحساب وتدمير العالم	بسام اسخيطة	١٠	٨٨	٣٥٩	١٥٢
الكوكايين شمبانيا المخدرات	د . جمال الدين موسى	١١	٨٨	٣٦٠	٤٠
أبوجعل .. خنفساء عبدت !	د . وسمية الحوطي	١١	٨٨	٣٦٠	٩٢
صحة البشر وتحديات الغد	د . رمسيس عبدالعليم جمعة	١٢	٨٨	٣٦١	٣١
« اسرائيل » تتجسس في الفضاء	سعد شعبان	١٢	٨٨	٣٦١	٥٥
حكايات طبية	د . غسان حتاحت	١٢	٨٨	٣٦١	٦٠
القهوة التي نشربها في قفص الاتهام	د . سامي عزيز	١٢	٨٨	٣٦١	١٠٥

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
مخابز منزلية حديثة ـ وجبات صينية للغذاء والدواء في وقت واحد ـ مرض الايدز هل من أمل جديد ؟ .	١	٨٨	٣٥٠	١٥٩
طريقة جديدة لتشخيص الجلطات وتصلب الشرايين ـ مستودعات خردة في الفضاء ـ حذار من السمن البلدي ـ استنشاق الأنسولين	٢	٨٨	٣٥١	١٥٩
أمل جديد للذين يعانون من السكر وأمراض الشيخوخة ـ الماء سر الحياة وسر الشفاء من الامراض ـ على أبواب طاقة جديدة من المضادات الحيوية ـ حذار من نوعية الاكل لا من كميته .	٣	٨٨	٣٥٢	١٢٧
السيارات الشمسية باتت وشيكة ـ جهاز جديد للقضاء على سرطان المخ دون جراحة ـ بالونات فولاذية للشرايين ـ علم جديد يتجاوز علم الالكترونيات .	٤	٨٨	٣٥٣	١٢٩
هل في الامكان رجوع الشيخ الى صباه ـ جهاز جديد لعمليات القلب ـ لماذا تطرف العيون ؟ .	٥	٨٨	٣٥٤	١٢٧
الأسبرين : هل هو أنفع العقاقير جميعا ؟ ـ الانترفرون والحوامل ـ هل نتوقع اكتشاف شريعة حوراني ثانية ـ لقاح ضد التهاب السحايا .	٦	٨٨	٣٥٥	١٢٧
ميزان جديد لقياس الحرارة ـ كاميرات جديدة للتصوير بلا افلام ـ عقار جديد يذيب الجلطات ـ حذار اذا كبرت (الشامة) او تغير لونها ـ المنزل الالكتروني .	٧	٨٨	٣٥٦	١٢٧
فيروس سرطان الثدي يكتشفه عالم عربي ـ مجهر انتقائي جديد ـ مجرة درب اللبانة موضع دراسة جديدة ضخمة .	٨	٨٨	٣٥٧	١٢٧
الزنك وجسم الانسان ـ لقاح فعال ضد داء الكلب ـ جهاز جديد لقياس حساسية الجلد ـ طبيب عربي يجري عملية جراحية رائدة ـ كعكة من خشب .	٩	٨٨	٣٥٨	١٢٧
لم لا تكثر من اكل القرنبيط ؟ ـ الهندسة الوراثية والامراض العصبية المستعصية ـ واسطة جديدة لمنع الحمل ـ عقار الاكيوتين بين التشجيع والتحذير .	١٠	٨٨	٣٥٩	١٢٨
بيض دجاج خال من الكولسترول ـ حذار تدفئة الرضع ـ طائرة الهليوكوبتر متخلفة نسبيا ـ براءات بحيوانات جديدة مخلقة .	١١	٨٨	٣٦٠	١٢٧
مضخة جديدة للقلب ـ عقار جديد يكبح فيروس الايدز .	١٢	٨٨	٣٦١	١٢٧

سلامة البشرية في سلامة البيئة

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
جهاز بسيط يقي من التسمم والحرائق ـ يسددون الديون وينقذون الغابات الاستوائية المهددة .	١	٨٨	٣٥٠	١٦٢

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
أول اتفاقية بيئة شاملة ـ بادرة طيبة لكنها لا تعفي من المسؤولية .	٢	٨٨	٣٥١	١٦٢
الشمس هل المسؤولة ـ المعلبات كانت نعمة فأصبحت نقمة .	٣	٨٨	٣٥٢	١٣٠
الادمان على الكحول في الولايات المتحدة ـ الجراد وشبكة الانذار المبكر ـ كيف يحمون البيئة في الاتحاد السوفيتي ؟ ـ التعاون من اجل حماية البيئة .	٤	٨٨	٣٥٣	١٣٠
الموز المثالي .	٥	٨٨	٣٥٤	١٣٠
الهنود الحمر ورعاة البقر ـ الادمان على الخمور في امريكا .. هل بدأ يتقلص ؟ .	٦	٨٨	٣٥٥	١٣٠
طماطم جديدة لكل الفصول ـ ثورة زراعية على الابواب .	٧	٨٨	٣٥٦	١٣٠
احذروا اجهزة الرطوبة ـ ٩٠٪ من الحيتان تموت ! ـ التلوث والتناسل ـ بكتريا مخلقة جديدة في مكامن النفط ـ واخيرا ري المزروعات « بالكمبيوتر » ـ الطاقة الشمسية .. الى متى ؟ .	٨	٨٨	٣٥٧	١٢٩
تعقيم الحليب بتعقيم .. ابقاره ـ كانت نقمة فأصبحت نعمة ـ للوقاية من السرطان ـ اكياس للقمامة جديدة .	٩	٨٨	٣٥٨	١٣٠
اشجار عملاقة يستنبتونها في الانابيب ـ وعي بيئي شعبي ورسمي .	١٠	٨٨	٣٥٩	١٣٠
صيد السمك بالسنارة يهدد الثروة السمكية ـ النحل القاتل ثانية ـ عودة الى التخوف من الانفجار السكاني .	١١	٨٨	٣٦٠	١٣٠
لا حاجة للتحطيب بعد اليوم ! ـ مدن في اليابان تحت المدن .	١٢	٨٨	٣٦١	١٣٠

طبيب الأسرة بقلم : د . حسن فريد أبو غزالة

الموضوع	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
صيدلية المنزل أم خزانة إسعاف ؟	١	٨٨	٣٥٠	٢٠٤
قضية الصداع	٢	٨٨	٣٥١	٢٠٤
أطفالنا يحبون الشيكولاتة	٣	٨٨	٣٥٢	١٧٢
الطفل الأعسر	٤	٨٨	٣٥٣	١٧٤
أخطر ما ننساه من الطعام « الألياف »	٥	٨٨	٣٥٤	١٧٢
رياضة المشي	٦	٨٨	٣٥٥	١٧٢
حمى مالطا أو البروسيلا	٧	٨٨	٣٥٦	١٧٢
التسمم الغذائي . اجتهادات متباينة	٨	٨٨	٣٥٧	١٧٢
في البيت مصاب فاقد الوعي « الإغماء »	٩	٨٨	٣٥٨	١٧٢
طهي الطعام في حساب الربح والخسارة	١٠	٨٨	٣٥٩	١٧٢
في البيت حامل مريضة بالسكر	١١	٨٨	٣٦٠	١٧٢
البيض في ميزان التغذية	١٢	٨٨	٣٦١	١٦٤

تاريخ وتراث

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الحروب الصليبية ضد المغرب العربي	عبدالكريم غلاب	١	٨٨	٣٥٠	١٣٢
العلاقة بين البيئة والإنسان في كتب التراث	د . محمد علي الفرا	١	٨٨	٣٥٠	١٧٧
ماذا وراء صرعة هاري كريشنا ؟	رجاء أبو غزالة	١	٨٨	٣٥٠	١٨٦
حقيقة معركة بواتييه	د . سليمان قطاية	٢	٨٨	٣٥١	١٣٤
الألعاب الاولمبية لها تاريخ	عادل شريف	٣	٨٨	٣٥٢	١٢٢
لك الله يادمشق .. بقايا صور رمضانية	د . شاكر مصطفى	٤	٨٨	٣٥٣	١٨
الموت ظلما واغترابا : أزهري في روسيا	يوسف القعيد	٦	٨٨	٣٥٥	١١٠
الكريتلية : البيت والمتحف والتاريخ والأثر	عبدالغني محمد عبدالله	٦	٨٨	٣٥٥	١٥٢
بين ابن ماجد وفاسكو دي غاما	حسن صالح شهاب	٧	٨٨	٣٥٦	٣٥
الإتجاه جنوبا نحو الابداع الأفريقي	خالد عباس	٨	٨٨	٣٥٧	١٠٢
صاحب الخبر العين الباصرة والأذن السامعة	د . محمد عيسى صالحية	٩	٨٨	٣٥٨	٦٢
عندما يحلم الجياع	د . محمد المنسي قنديل	١٠	٨٨	٣٥٩	٤٩
ايزادورا الفراشة الحزينة الراقصة	منير نصيف	١٠	٨٨	٣٥٩	١٢٢
أفق المعرفة الجغرافية عند العرب في العصور الوسطى	د . محمد علي الفرا	١١	٨٨	٣٦٠	٥١
مصرع مأمور البداري (الحلقة الاولى)	صلاح عيسى	١١	٨٨	٣٦٠	٥٦
أسواق القاهرةالقديمة	د . قاسم عبده قاسم	١١	٨٨	٣٦٠	١٥٢
مصرع مأمور البداري (الحلقة الثانية)	صلاح عيسى	١٢	٨٨	٣٦١	٤٥
الأثار الإسلامية في شمال أسبانيا	د . ماريا ميلا جروس	١٢	٨٨	٣٦١	١٤٤

تاريخ أشخاص

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
تشيكوف والمسرح : أربعون عاما من الفشل والنجاح	عزالدين وهدان	١	٨٨	٣٥٠	١٤٢
عبدالرحمن الشرقاوي فارس الكلمة	فاروق خورشيد	٢	٨٨	٣٥١	٨٩
ماريو فارجس أيوسا وأدب الواقع والتجريب في أمريكا اللاتينية	د . حامد أبو أحمد	٣	٨٨	٣٥٢	١١٧
قاسم أمين أديبا	د . عزت قرني	٤	٨٨	٣٥٣	١٢١
غومة المحمودي مناضل من ليبيا	د . زهدي سمور	٧	٨٨	٣٥٦	١٥٨
ميخائيل نعيمة آخر رواد أدب المهجر	د . نادرة جميل السراج	٩	٨٨	٣٥٨	٤٦
جبران بين أبناء جيله	د . علي شلش	١١	٨٨	٣٦٠	٣٤

وجها لوجه

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
د . يس عبدالغفار	نجاح عمر	١	٨٨	٣٥٠	٦٥
فتحي رضوان	أمينة النقاش	٢	٨٨	٣٥١	٦٥
د . محمود السعدي	د . محمود طرشونة	٣	٨٨	٣٥٢	٩٧
د . حسين نصار	د . أحمد مرسي	٤	٨٨	٣٥٣	٩٧
الجنرال دافيد دراغونسكي	سليمان الشيخ	٥	٨٨	٣٥٤	٩٧
انجي أفلاطون	نجاح عمر	٦	٨٨	٣٥٥	٩٣
علي قرزات	حسن محمد يوسف	٧	٨٨	٣٥٦	٩٦
د . سعد الدين ابراهيم	د . محمد حافظ دياب	٨	٨٨	٣٥٧	٩٧
د . هشام جعيط	ماجد السامرائي	٩	٨٨	٣٥٨	٩٧
توفيق يوسف عواد	جهاد فاضل	١٠	٨٨	٣٥٩	٩٧
د . علي الوردي	د . جليل العطية	١١	٨٨	٣٦٠	٩٧
د . رمزي زكي	علي عثمان	١٢	٨٨	٣٦١	٩٧

تربية وعلم نفس

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
رحلة استكشافية .. التنويم المغناطيسي في الطب النفسي	د . محمد المخزنجي	١	٨٨	٣٥٠	٨٤
التربية هل هي الدواء لكل أدواء المجتمع ؟	د . سعيد اسماعيل علي	٣	٨٨	٣٥٢	٥٦
صحتك النفسية والألوان	د . دري حسن عزت	٤	٨٨	٣٥٣	١٤٨
الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس	د . عبدالوهاب حومد	٧	٨٨	٣٥٦	٣٠
الفكاهة طب نفسي	د . عبدالحميد يونس	٨	٨٨	٣٥٧	٣٠
مواقف انسانية : وشر البلية ما يضحك !	د . عبدالوهاب حومد	٩	٨٨	٣٥٨	٢٤
التعليم عن بعد .. لتعميم التربية في سنة ٢٠٠٠	د . مصطفى المصمودي	١٠	٨٨	٣٥٩	٤٣
الوسواس القهري له علاج	د . دري حسن عزت	١٠	٨٨	٣٥٩	٦٢
عصور إنسانية عرفت القلق	د . عبدالستار ابراهيم	١١	٨٨	٣٦٠	١١٠

فلسفة

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
المراهقة الثقافية !	د . فؤاد زكريا	٢	٨٨	٣٥١	١٩
لماذا نكتب ؟	د . حامد طاهر	١٠	٨٨	٣٥٩	٢٦

اجتمـــــاع

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الجوانب الاجتماعية للمعرفة العلمية	د. ادريس سالم الحسن	١	٨٨	٣٥٠	١٥٤
الصراع «الديمغرافي» بين الشمال والجنوب	د. عبدالإله أبو عياش	٢	٨٨	٣٥١	٧١
ظاهرة الفردية في المجتمع الأمريكي	د. محمود الدوادي	٢	٨٨	٣٥١	٧٥
تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي. نظرة على الأبعاد الاجتماعية والحضارية	د. عبده عبود	٣	٨٨	٣٥٢	٢٦
المؤشرات الاجتماعية من ضرورات العصر	د. محمد الجوهري	٣	٨٨	٣٥٢	٣١
دور المرأة العربية في التنشئة الوطنية	د. أسعد عبدالرحمن	٣	٨٨	٣٥٢	١٠٣

منتدى العربي

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
قضية: من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب الشرقي	د. طيب تيزيني	١	٨٨	٣٥٠	١٤٧
تعقيب: على مقال هل كان الرجل المريض مريضا؟	قسطنطين خمار	١	٨٨	٣٥٠	١٥٢
قضية: اشكالية التراث والمعاصرة والتقدم	د. هشام بوقمرة	٢	٨٨	٣٥١	١٤٤
تعقيب: على مقال هل كان الرجل المريض مريضا؟	هراج ساهاكيان	٢	٨٨	٣٥١	١٤٦
قضية: عصر السرقات الأدبية	مصطفى سليمان	٣	٨٨	٣٥٢	١١٣
تعقيب: على مقال الطيران حول العالم دون توقف	سليمان أحمد الميماوي	٣	٨٨	٣٥٢	١١٥
قضية: الأفكار الميتة والأفكار القاتلة	د. علي القريشي	٤	٨٨	٣٥٣	١١٦
تعقيب: على مقال أرقام الحساب عربية أم هندية؟	السيد يوسف عبدالحميد	٤	٨٨	٣٥٣	١٢٠
قضية: نحن لا نزرع الشك!	فوزي عبدالقادر الفيشاوي	٥	٨٨	٣٥٤	١٢٢
قضية: في مفهوم الشعر.. رؤية الشعراء الجاهليين	د. عبدالمجيد زراقط	٦	٨٨	٣٥٥	١١٦
تعقيب: براءات الاختراع وتنمية الابتكارات	د. محمود يوسف سعادة	٦	٨٨	٣٥٥	١٢٠
قضية: حرب النجوم بين وليم جيمس وكلاوزفيتز	إيهاب محمد مهدلي	٧	٨٨	٣٥٦	١١٦
تعقيب: الانفتاح العربي على الحضارات	محمد فؤاد علي	٧	٨٨	٣٥٦	١٢٠
قضية: زحف العرب على المدينة خصائصه ومستقبله	د. مصطفى عمر التير	٨	٨٨	٣٥٧	١١٦
تعقيب: قياس الغائب على الشاهد	عمر نجاري	٨	٨٨	٣٥٧	١١٨

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
قضية : اطلاق العنان للقطاع الخاص والمبادرات الفردية	د . عبدالرحمن زكي ابراهيم	٩	٨٨	٣٥٨	١١٦
تعقيب : التربية هي الدواء لكل أدواء المجتمع	د . أنور طاهر رضا	٩	٨٨	٣٥٨	١١٩
قضية : فكر السادة وثقافة التابعين	د . مصطفى النشار	١٠	٨٨	٣٥٩	١٠٩
تعقيب : كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم	حيدر عمر	١٠	٨٨	٣٥٩	١١٢
قضية : مأزق الإبداع الأدبي أو « الروح الأسيرة »	غالب هلسا	١١	٨٨	٣٦٠	١١٦
قضية : المرأة في قواعد النحو والصرف	محمد حسن الصوري	١٢	٨٨	٣٦١	١١٦
تعقيب : الثقافة العربية وقدامة التراث ! بين الجابري والتيزيني	ابراهيم بن صالح	١٢	٨٨	٣٦١	١٢٠

أرقام بقلم : محمود المراغي

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
رسائل القرن الواحد والعشرين	١	٨٨	٣٥٠	٧٨
الحكومة العربية	٢	٨٨	٣٥١	١٣٢
للرجال .. تقريبا	٣	٨٨	٣٥٢	٥٤
المهاجرون	٥	٨٨	٣٥٤	١٢٠
الزبون رقم (١)	٦	٨٨	٣٥٥	٤٠
سكرتيرتك .. « كمبيوتر »!	٧	٨٨	٣٥٦	٤٠
من يدفع أكثر ؟	٨	٨٨	٣٥٧	٤٠
الانسان وعالمه المتراجع	٩	٨٨	٣٥٨	٣٤
الفقر في عيون الاغنياء	١١	٨٨	٣٦٠	٣٢
نساء .. ورجال	١٢	٨٨	٣٦١	٣٦

كتاب الشهر

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الكساد الكبير عام ١٩٩٠م	د . عبدالإله أبوعياش	١	٨٨	٣٥٠	٢١٥
آلة المعرفة ، الذكاء الإصطناعي ومستقبل الإنسان	بهاء الدين محمود	٢	٨٨	٣٥١	٢١٥
عقول الأطفال	د . عادل عبدالكريم	٣	٨٨	٣٥٢	١٨٥
« الإرهاب » من الكفاح الشعبي الى الإثارة الإعلامية	جمال وردة	٤	٨٨	٣٥٣	١٨٥

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
نظرات في الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية	د . ابراهيم أبو ربيع	٥	٨٨	٣٥٤	١٨٣
مشاعر محجبة	خالد عباس	٦	٨٨	٣٥٥	١٨٥
مناهج البحث والإصلاح والتخطيط	ياسر الفهد	٧	٨٨	٣٥٦	١٨٥
رؤية سوفيتية في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية	د . نوفل نيوف	٨	٨٨	٣٥٧	١٨٣
الانتفاضة الفلسطينية في عيون يوغسلافية	د . جمال الدين سيد محمد	٩	٨٨	٣٥٨	١٨٣
لا تسأل عن السعر !	د . ياسر سليمان	١٠	٨٨	٣٥٩	١٨١
الطاقة اليوم وغداً ، الحياة مع المجهول	بهاء الدين محمود عبد الحميد	١١	٨٨	٣٦٠	١٨٣
الذكاء الاصطناعي الواقع والمنشود	د . علي صبري فرغلي	١٢	٨٨	٣٦١	١٦٩

من المكتبة العربية

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي	جمال وردة	١	٨٨	٣٥٠	٢٢٠
فكر الأزمة دراسة في أزمة علم الاقتصاد الرأسمالي والفكر التنموي الغربي	رافع البرغوثي	٢	٨٨	٣٥١	٢٢١
الهمداني لسان اليمن دراسات في ذكراه الألفية	د . حسين عبدالله العمري	٣	٨٨	٣٥٢	١٨٩
صورة الأرض أو المسالك والممالك للرحالة ابن حوقل	د . هشام سختيني	٤	٨٨	٣٥٣	١٩١
السريالية في مصر	جميل حتمل	٥	٨٨	٣٥٤	١٩٠
لوحات تسر الخاطر	عادل ثابت	٦	٨٨	٣٥٥	١٩٠
اللسانيات وأسسها المعرفية	أحمد محمد قدور	٧	٨٨	٣٥٦	١٩٠
القدس والمدن الفلسطينية تحت الحكم العسكري « الاسرائيلي »	محمود بيومي	٨	٨٨	٣٥٧	١٩٠
صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني «الراوية»	د . سهير جاد	٩	٨٨	٣٥٨	١٨٨
السخرية السياسية العربية	شريف الراس	١٠	٨٨	٣٥٩	١٨٨
بنية العقل العربي	رافع عبدالرحمن	١١	٨٨	٣٦٠	١٨٩
الأنيق في « المناجنيق »	جمال الغيطاني	١٢	٨٨	٣٦١	١٧٤

الفنون واللوحات الفنية

زيارة لمتحف بيكاسو في باريس	أحمد داود	١	٨٨	٣٥٠	١٦٤
المطروقات النحاسية عند الفنان محمد رزق	محمود بقشيش	٢	٨٨	٣٥١	١٧٥
العربي كما تراه هوليود	د . جاك شاهين	٤	٨٨	٣٥٣	١٠٤

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
المدرسة الانطباعية في الفن مرآة عصر أم حوار مع المستقبل ؟	رباب العابد العظم	٥	٨٨	٣٥٤	١٥٢
الايقاع : طاقة السحر وجسر العبور !	خالد القشطيني	٧	٨٨	٣٥٦	٦٥
الفيلم الأمريكي واللاسامية الجديدة ضد العرب	د . جاك شاهين	٧	٨٨	٣٥٦	١٠٧
أهي نهضة جديدة للخط العربي ؟	محمد سعيد الصكار	٩	٨٨	٣٥٨	٤٢
سيدة القصر : الجمال وصفقة الشيطان	جمال قطب	٩	٨٨	٣٥٨	٩٠
حديث حزين مع رسام أعمى	د . أحمد النعمان	١٠	٨٨	٣٥٩	٩٠

البيت العربي (الأسرة والمجتمع)

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
التعبير عن الغضب بين الزوجين	راجي عنايت	١	٨٨	٣٥٠	١٩٤
الحياة في الخريف		١	٨٨	٣٥٠	١٩٩
البيت الكويتي القديم تعبير عن البيئة وظروف المجتمع	د . غانم سلطان	٢	٨٨	٣٥١	١٩٠
عُقد في حياتنا	ترجمة محمد صوف	٣	٨٨	٣٥٢	١٦٢
أبناؤنا .. والرجولة المبكرة	ريم الكيلاني	٣	٨٨	٣٥٢	١٦٧
حتى لا تكون الرياضة وبالا	د . عماد شمسي باشا	٤	٨٨	٣٥٣	١٦٢
لغة أطفالنا .. هل نعرف حروفها ؟	د . سامي عزيز	٤	٨٨	٣٥٣	١٦٧
نشاط الطفل التمثيلي	محمد بسام ملص	٥	٨٨	٣٥٤	١٦٢
كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم ؟	د . عبدالكريم أبو شويرب	٥	٨٨	٣٥٤	١٦٦
أطفالنا وعالمهم الجنسي المثير !	ريم الكيلاني	٦	٨٨	٣٥٥	١٦٢
المرأة والقوة المستمدة من العمل	د . علياء شكري	٦	٨٨	٣٥٥	١٦٦
نزعة السرقة عند الأطفال	طارق عبدالظاهر محمد	٧	٨٨	٣٥٦	١٦٢
المرأة والقوة المستمدة من الرجل	د . علياء شكري	٧	٨٨	٣٥٦	١٦٦
خرجن من الشام وارتفع صوتهن في القاهرة	شفيق العمروسي	٨	٨٨	٣٥٧	١٦٢
عناد الطفل هل هو دليل ذكاء ؟	د . نبيه الغبره	٨	٨٨	٣٥٧	١٦٧
الفلسفة والطفل والوطن العربي	زياد القباني	٩	٨٨	٣٥٨	١٦٢
آلة تسقط الذكور	د . نجوى قلعجي	٩	٨٨	٣٥٨	١٦٦
الرضاعة واليوجا	د . أمل علي المخزومي	١٠	٨٨	٣٥٩	١٦٢
الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة	يعقوب الشاروني	١٠	٨٨	٣٥٩	١٦٦
الطفح الجلدي الحاد لدى الأطفال	د . صباح السامرائي	١١	٨٨	٣٦٠	١٦٢
أصوات مميزة يحدثها جسم الانسان	د . عامر خالد	١١	٨٨	٣٦٠	١٦٦
المرأة الطوارقية ، العراقة والأصالة	د . بثينة شعبان	١٢	٨٨	٣٦١	١٥٠

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

ديسمبر ١٩٨٨م

أوروبا
والتخلف في أفريقيا

تأليف
الدكتور والتر رودني

ترجمة الدكتور أحمد القصير

مراجعة د. إبراهيم عثمان

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٢

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدرها جامعة الكويت

مجلة فصلية أكاديمية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير
د. فهد ثاقب الثاقب

منبر بارز للأكاديميين العرب
توزع أكثر من (١٠٠٠٠) نسخة
للوزع في الكويت والخارج مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات إلى : رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص. ب ٥٤٨٦ صفاة 13055
الكويت - هاتف : ٢٥٤٩٤٢١-٢٥٤٩٣٨٧-تلكس : ٢٢٦١٦ - KUNIVER

المجلة العربية للعلوم الانسانية

فصلية : محكمة
تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

د. عبد الله أحمد المهنا

المقر : كلية الآداب - مبنى قسم اللغة الإنجليزية
الشويخ - هاتف ٨١٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

المراسلات توجه إلى رئيس التحرير على

ص. ب ٢٦٥٨٥ الصفاة
رمز بريدي 13126 الكويت

- تلبي رغبة الأكاديميين والمثقفين من خلال نشرها للبحوث الأصيلة في شتى فروع العلوم الإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، إضافة الى الأبواب الأخرى، المناقشات، مراجعات الكتب، التقارير.
- تحرص على حضور دائم في شتى المراكز الأكاديمية والجامعات في العالم العربي والخارج، من خلال المشاركة الفعالة للأساتذة المختصين في تلك المراكز والجامعات.
- صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١
- تصل الى أيدي ما يزيد على عشرة آلاف قارئ.

ترفق قيمة الاشتراك مع قسيمة الاشتراك الموجودة داخل العدد.

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣١ أول ديسمبر ١٩٨٨

١- الجمعية الأدبية

تأليف : هنري أفوري

٢- جواهر المعبد

تأليف : جيمس اني هنشو
تقديم : يوريس سيلانيكس
ترجمة : د. نايف خرما
مراجعة : د. طارق عبدالله

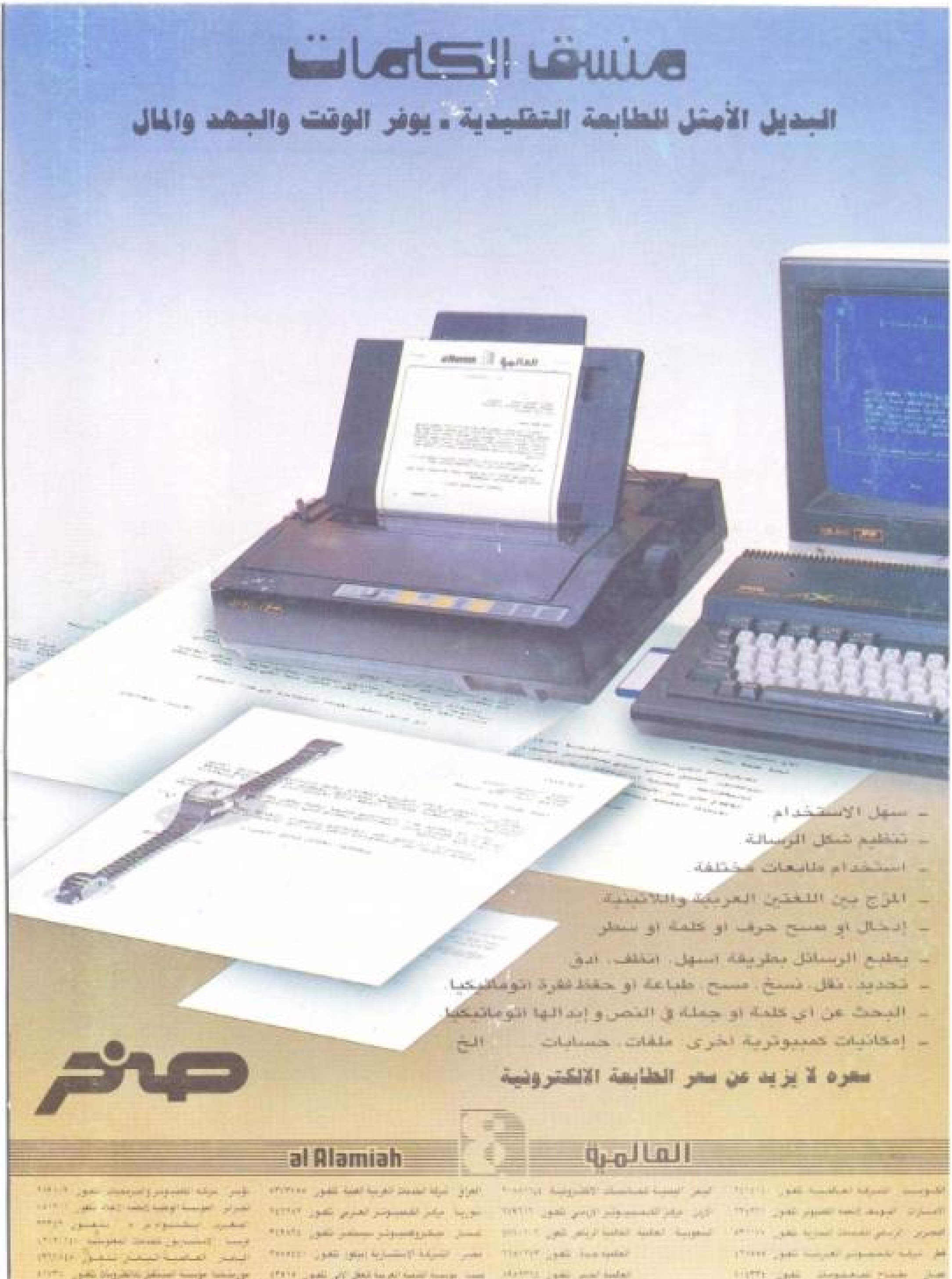
منسق الكلمات
البديل الأمثل للطابعة التقليدية . يوفر الوقت والجهد والمال
- سهل الاستخدام.
- تنظيم شكل الرسالة.
- استخدام طابعات مختلفة.
- المزج بين اللغتين العربية واللاتينية
- إدخال او مسح حرف او كلمة او سطر
- يطبع الرسائل بطريقة اسهل، انظف، ادق
- تحديد، نقل، نسخ، مسح، طباعة او حفظ فقرة اوتوماتيكيا.
- البحث عن اي كلمة او جملة في النص و إبدالها اوتوماتيكيا
- إمكانيات كمبيوترية اخرى، ملفات، حسابات الخ
سعره لا يزيد عن سعر الطابعة الالكترونية
صخر
al Alamiah
العالمية